(﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾)

المفـردات :

(السَّبِيلُ) : الطريق .

(الْخَوَالِفِ) : المتخلفين . ويطلق أيضا على النساء والصبيان . وهو جمع خالفة .

(وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) : ختم عليها حتى غفلوا عن وخامة العاقبة .

التفسـير

لما رفع الله تعالى الإثم والعقوبة فى الآيتين السابقتين ، عمن تخلفوا بأعذار ونصحوا لله ورسوله ، بين – سبحانه – من يستحق المؤاخذة بقوله :

٩٣ – (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِين يَسْتَأْذِنونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ . . . .) الآية .

أى إنما سبيل المحاسبة والمؤاخذة على الذين يستأذنونك فى التخلف عن الجهاد وهم واجدون القدرة على الجهاد بأموالهم وأنفسهم ولا عذر لهم فى التخلف. ثم أنكر عليهم رضاهم بهذا التخلف بقوله :

(رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) : أى رضوا بالدناءة والضعة حين رضوا الانتظام فى جملة الخوالف من النساء والصبيان ومن لايقوى على الجهاد إيثاراً للسلامة والراحة والدعة.

(وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُون) : أى وأغلق الله قلوبهم عن الحق بسبب نفاقهم فهم لهذا لايعلمون ما فى الجهاد من منافع الدنيا والدين وما فى التخلف عنه من وخامة العاقبة وسوء الحساب .

وقد عرفنا من الآية الكريمة ، أن الأعمال تابعة لحالة القلوب ودرجات الإيمان ، فإن كان الإيمان واهنا ، والقلب مريضا ، كانت الأعمال منحرفة عن سواء السبيل ، وإن كان الإيمان والقلب فى عافية وسلامة ، كانت الأعمال فى طريق الاستقامة ، وكل إناء ينضح بما فيه .

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾)

التفسير

٩٤ - (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ...) الآية .

أى يعتذر إليكم هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الجهاد ، بالأعذار الباطلة إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك .

(قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ) : .

قل لهم أيها الرسول : لا تعتذروا فليس لكم عذر صحيح حتى نستمع إليه ونتقبله منكم لن نصدّق معاذيركم الكاذبة ، لأن الله قد أعلمنا بالوحى بعض أخباركم المنافية للصدق مما باشرتموه من الشرّ والفساد ، وأضمرتموه فى أنفسكم من الأكاذيب ؛ فلن نخدع بعد ذلك بأعذاركم .

(وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) :

هذه الجملة يحتمل أن تكون حثا لهم على التوبة ، والمعنى على هذا : وسيعلم الله ما سيقع منكم فى المستقبل من توبة أو إصرار ، ويسجله لكم عند وقوعه ويجزيكم عليه ، والمقصود أن حالهم سينكشف فى المستقبل ، وسيعاملون بمقتضاه : إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًا فشرٌ .

ويحتمل أنهم وعدوا بأن ينصروا المؤمنين فى المستقبل، وأن الله ينذرهم بالعقوبة إن هم نكثوا وعدهم ، أى وسيعلم الله ما يحدث منكم من الوفاء أو الغدر ، ويجازيكم بمقتضاه .

(ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

أى ثم ترجعون إلى الله العالم بكل خفى وظاهر فيخبركم يوم القيامة بما كنتم تعملونه فى الدنيا ، ويجازيكم عليه .

(سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(انقَلَبْتُمْ) : رجعتم .

(لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ) : لتصفحوا عنهم .

(فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ) : فاتركوهم .

(رِجْسٌ) : أى نجس وقذر ، والرجس الخبيث من كل شيء .

(وَمَأْوَاهُمْ) : ومقرهم الذى يأوون إليه .

(الْفَاسِقِينَ) : الخارجين عن الطاعة .

التفسير

٩٥ - (سَيَحْلِفُون بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ) :

أى أن هؤلاء المنافقين لا يكتفون بالاعتذار عن تخلفهم ، بل يؤكدونه بالقسم تمويها عليكم ، وتأكيدا لصدقهم المزعوم فى اعتذارهم .

والمعنى : سيحلفون بالله لكم أيها المؤمنون إذا رجعتم إليهم من الغزو بأنهم لم يتخلفوا عنكم إلا لعذر ، وغرضهم من ذلك أن تعرضوا عنهم وتصفحوا عن تخلفهم .

(فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ....) الآية .

أى فاتركوهم أيها المؤمنون ، واجتنبوا مجالستهم والاطمئنان إليهم ، ودعوهم وما اختاروه لأنفسهم من النفاق وعدم الإخلاص فى الإيمان ، لأنهم نجس وقذر ، فبواطنهم خبيثة وأعمالهم قبيحة ، ومرجعهم ومقرهم جهنم جزاءً بما استمروا على اكتسابه من النفاق والعصيان .

٩٦ - (يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) :

أفادت هذه الآية أنهم لا يقصدون بحلفهم الإعراض عن لومهم والصفح عنهم فحسب بل يحلفون لكم لترضوا عنهم وتطمئنوا إليهم بعد الصفح عنهم . ولكن الله ينهاكم عن الرضا عنهم ، فإن ترضوا عنهم فقد خالفتم ربكم لأن الله تعالى لا يرضى عن القوم الفاسقين فكيف ترضون عنهم .

(ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾)

المفردات :

(الْأَعْرَابُ) : سكان البادية . والعرب : أهل الحضر والبادية فهو أعم .

التفسير

٩٧ - (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا) :

لما تحدثت الآيات السابقة عن المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد ، عقبها الله سبحانه بهذه الآية وما تلاها ، لتضمنها الحديث عن نفاق الأعراب وكفرهم ، وزيادته عما عليه المنافقون بالمدينة .

والمعنى : أن أهل البادية من الأعراب ، أشد كفرًا ونفاقًا من كفار العرب ومنافقيهم المقيمين بالحواضر ، لجفائهم وقسوة قلوبهم ، وهذا هو الشأن الغالب فيهم ، إذ ليس كلهم بهذا الوصف ؛ كما يتبين ذلك مما يأتى :

(وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ) :

أى أن هؤلاء الأعراب هم أحق وأولى بأن يجهلوا حدود ما أنزله الله على رسوله من الفرائض والأحكام ، لجفاء طباعهم وقسوة قلوبهم ونفرتهم من كل ما يخالف ما ألفوه من عقائد وعادات .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

والله تعالى عظيم العلم والحكمة ، فلا يخفى عليه منحرف عن طاعته ، ولا يفلت من عقابه من يستهين بشريعته .

(وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾)

المفـردات :

(يَتَّخِذُ) : يعد ويعتبر

(مَغْرَمًا) : غرما وخسارة .

(وَيَتَرَبَّصُ) : وينتظر .

(الدَّوَائِرَ) : جمع دائرة والمراد بها هنا تقلب الزمان من حسن إلى سيء ومعناها فى الأصل ما يحيط بالشيء .

(السَّوْءِ) : ما يُسيء ويؤذى .

(قُرُبَاتٍ) : جمع قربة وهى ما يتقرب به العبد إلى ربه تعالى .

(صَلَوَاتِ الرَّسُولِ) : دعواته صلَّى الله عليه وسلَّم .

التفسير

٩٨ - (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ) :

بعد أن بين الله سبحانه أن الأعراب فى جملتهم أشد كفرًا ونفاقًا ذكر فى هاتين الآيتين أنهما فريقان ، فريق يُضْمِرُ الشر للمسلمين ، وفريق آخر مخلص فى إيمانه .

والمعنى : وبعض الأعراب يعتقد أن المال الذى ينفقه فى سبيل الله غرم لا غنم ، ولهذا لا ينفقه إلا خوفًا من المسلمين أو مُرَاءَاةً لهم ولم يرد به وجه الله تعالى ، وفاته أن الصدقات طهارة ونماءٌ للمال ، وكما يعتبر ما ينفقه مغرمًا ينتظر بكم تقلب الزمان وتغيُّرَه ، فتتبدل حالكم من قوة إلى ضعف ومن نصر إلى هزيمة .

(عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) :

هذا وعيد من الله تعالى لهؤلاء الأعراب بأن تدور عليهم الدائرة وينزل بهم من البلاء ما تمنوه للرسول وأصحابه ، وأنهم لايرون فيهم إلا ما يسوءهم من نصر ورفعة شأن .

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

أى والله تعالى عظيم السمع واسع العلم فلا تخفى عليه خافية مما أضمروه من النفاق وإرادة السوء بالمؤمنين وهو محاسبهم ومجازيهم أشد الجزاء .

٩٩ - (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ) :

هذا هو الفريق الثانى وهو الذى يصدِّق بوجود الله تعالى وبصفاته وباليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب ، ويعتبر أن كل ما ينفقه فى سبيل الله هو وسيلة إلى رضا الله

والتقرب منه ، كما أنه سبب فى دعاء الرسول واستغفاره لهم حيث كان صلى الله عليه وسلم يدعو للمُصَّدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ، عند أخذه الزكاة الواجبة والصدقات المندوبة ليوزعها على مستحقيها ، ولذلك كان من السنة الدعاء للمتصدق بالخير والبركة ، لكن ليس له أن يدعو بلفظ الصلاة كما فعله عليه الصلاة والسلام مع بعض المتصدقين ، فقد ورد أنه قال : اللهم صلى على آل أبى أوفى فإن ذلك كان مختصًّا به ، يتفضل به على من يشاء ، ثم أخبر الله عن قبولها منهم بقوله :

(أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ) :

أى ألا إن إنفاقهم الصادر عن الإخلاص لله قربة عظيمة لهم عند الله تعالى .

وقد وعدهم الله عليها بإدخالهم الجنة فى قوله :

(سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ) :

أى يشملهم ويغمرهم برحمته وفضله جزاء إخلاصهم .

(إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

إنه تعالى عظيم المغفرة واسع الرحمة لايخلف وعده ، فيثيب هؤلاء على إخلاصهم فى عملهم لله تعالى .

(وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾)

التفسير

لما ذكر الله تعالى فضائل بعض الأعراب الذين يتخذون ما ينفقونه قربات عند الله وصلوات الرسول وما أعد لهم من الثواب ، أتبعه ذكر فضائل خيار المسلمين فقال تعالى :

١٠٠ - (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) :

فالسابقون الأولون من المهاجرين هم الذين بادروا بالإسلام فى فجر الدعوة ، ثم هاجروا فرارًا بدينهم ، أما السابقون الأولون من الأنصار فهم أهل بيعة العقبة الأولى والثانية والذين سارعوا إلى الإسلام عند قدوم مصعب بن عمير ، وكان الرسول قد أرسله بعد البيعة الثانية لينشر الدعوة الإسلامية بين أهل المدينة .وقيل السابقون من المهاجرين والأنصار هم الذين صلُّوا إلى القبلتين أو من حضر بيعة الرضوان .

(وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ) :

أى والذين جاءُوا بعدهم متصفين بالإخلاص وبكل خصلة حسنة ، أو المراد والذين اتبعوهم بالإيمان والطاعة من فريقى المهاجرين والأنصار وغيرهم إلى يوم القيامة .

وقرئ الأنصار بالرفع فعلى هذا فالسابقون الأولون من المهاجرين فقط ، والتابعون عند علماءِ الحديث هم الذين جاءُوا بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ثم أخبر الله عن الجميع بقوله :

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) : بقبول طاعتهم ، وارتضاءِ أعمالهم .

(وَرَضُوا عَنْهُ) : بما أنعم الله به عليهم من النصر والتمكين فى الأرض فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة .

(وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) :

أى وهيأ لهم فى الآخرة جنات تجرى من تحت قصورها أو من تحت أشجارها الأنهار ، مع الإقامة الدائمة فيها ، كما قال تعالى : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » .

(ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

أى ذلك الجزاءُ الذى بلغ الغاية فى العظم هو الفوز الذى لا فوز يعدله أو يدانيه ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو سعيد الخدرى : « لاتسُبُّوا أصحابِى فَلَوْ أَنَّ أَحَدكم أَنْفق مِثْلَ أُحُدٍ ذهَبًا مَا بَلغ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نصِيفَهُ » أخرجه الشيخان وغيرهما .

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾)

المفـردات :

(حَوْلَكُمْ) : أى حول المدينة بلدكم .

(مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ) : أى مرنوا عليه واعتادوه .

(لَا تَعْلَمُهُمْ) : لا تعرف حقيقة أمرهم لعراقتهم فى النفاق .

(سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ) : قبل الآخرة بالفضيحة وعذاب القبر .

(ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ) : ثم يردون فى الآخرة إلى عذاب بالنار عظيم .

التفسـير

١٠١ - (وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ) :

هذا شروع فى ذكر أحوال المنافقين النازلين حول المدينة والمقيمين بها .

والمعنى : ومن الأعراب النازلين حول المدينة أناس منافقون ومن أهل المدينة نفسها منافقون كذلك .

(مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ) :

أى مرن هؤلاء وأولئك على النفاق وبلغوا فيه مبلغًا جعلهم مَهَرَةً فيه ، حتى لان لهم أمره وسلس لهم قياده ولا تكاد تستعمل كلمة مَرَدوا إلا فى الشر .

(لَا تَعْلَمُهُمْ) :

أى لاتعرفهم أنت أيها الرسول بعنوان نفاقهم لأنهم بلغوا من المهارة فيه ، والبعد عن مواقع التهم مبلغا يُخفى حالتهم عنك ، مع كمال فطنتك وصدق فراستك .

(نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) :

أى أن الله تعالى هو الذى يعلم حالهم لأنه لايخفى عليه من سرائرهم شىء مهما بالغوا فى إخفاء أمرهم .

(سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ) :

هذا وعيد بأنه تعالى سيعذبهم مرتين قبل يوم القيامة ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : « أن النبى صلى الله عليه وسلم قام خطيبًا يوم الجمعة فقال اخرج يا فلان فإنك منافق ، اخرج يافلان فإنك منافق فأخرج ناسًا وفضحهم » فهذا هو العذاب الأول ، والثانى إما القتل وإما عذاب القبر – وقيل غير ذلك .

(ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ) :

ثم يرجعون فى الآخرة إلى عذاب غليظ هو عذاب النار فى الآخرة ، وبهذا يعلم أنه تعالى يعذبهم ثلاث مرات مرتين قبل يوم القيامة كما تقدم ومرة يوم القيامة كما يفيده ختام الآية .

(وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾)

التفسير

١٠٢ –(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ) :

هذا بيان لحال طائفة أخرى من المسلمين ضعيفة الهمة فى أمور الدين .

والمعنى : ومن أهل المدينة قوم آخرون اعترفوا بتخلفهم عن الغزو إيثارًا للدعة مع إيمانهم وتصديقهم بما جاء به الرسول، ولم يخفوا ما صدر منهم وندموا عليه ، ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة كغيرهم من المنافقين : وهم رهط من المتخلفين، منهم أبو لبابة وجماعة معه (١) أوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد عندما بلغهم ما نزل فى المتخلفين من القرآن فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين كعادته الكريمة ، ورآهم على تلك الحالة فسأل عن شأنهم فقيل له إنهم أقسموا ألا يحلوا أنفسهم حتى تحلهم أنت فلما أنزل الله هذه الآية أطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعفا عنهم .

(خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا) :

المراد بالعمل الصالح ماسبق أن عملوه من الطاعات ،ومنها خروجهم إلى المغازى السابقة وما لحق ذلك من الاعتراف بذنب التخلف وندمهم على ذلك ، والمراد بالعمل السيئ ما صدر منهم من المعاصى ، ومنها التخلف عن تبوك دون عذر .

(عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) :

أى يرجى أن يقبل الله توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم ، وتقوية لهذا الرجاء قال تعالى :

(إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى أنه تعالى واسع الغفران والرحمة ، فلهذا يرجى رجاء قويًّا أن يتقبل بفضله توبتهم النابعة من إخلاصهم ، وصدق طويتهم .

---

(١) قال ابن عباس نزلت فى عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك ، فأوثق سبعة منهم أنفسهم فى سوارى المسجد ، وقال بنحوه قتادة وقال : وفيهم نزل « خذ من أموالهم صدقة » ذكره المهدوى

(خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾)

التفسير

سبب النزول : أنه لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم سراح المعتذرين قالوا يا رسول الله : هذه أموالنا التى خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا ، فقال ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا ، فنزلت وأخذ منها الثلث وترك لهم الثلثين .

١٠٣ ـ (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) :

هذه ليست الزكاة المفروضة وإنما هى كفارة لذنوبهم كما ينطق به قوله تعالى :

(تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا) : والمعنى أن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ هذا القدر ليكون تطهيرًا لهم مما لحق بهم من آثام التخلف ، وتزكية تنمى بها حسناتهم إلى مراتب المخلصين .

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ) :

المراد من الصلاة هنا الاستغفار لهم والدعاء بقبول توبتهم .

والمعنى : واستغفر لهم أيها الرسول ، واطلب الرحمة لهم فإن صلاتك ودعاءك إقرار لنفوسهم المضطربة وطمأنينة لقلوبهم الحائرة ، وإيذان بأن الله سيقبل توبتهم .

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

أى والله تعالى عظيم السمع ، محيط العلم فسمع اعتراف هؤلاء بذنوبهم ، وعلم صدقهم فى توبتهم ، فتاب عليهم وعفا عنهم .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

المفـردات :

(أَلَمْ يَعْلَمُوا) : استفهام يرادُ به التقرير أى قد علموا .

(يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) : يقبلها ويثيب عليها .

(وَسَتُرَدُّونَ) : وسترجعون .

(الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) : الخفى والظاهر .

التفسـير

١٠٤ - (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) :

أى ألم يعلم هؤلاء التائبون ، أن الله تعالى هو وحده الذى يقبل التوبة الصحيحة الخالصة من عباده المخلصين رحمة بهم ورأفة وكرمًا ، وأنه يقبل صدقاتهم التى يؤدونها ابتغاء مرضاته ، يطهرهم بها من آثامهم ، ويزيد من حسناتهم ، وأنه تعالى هو عظيم التوبة على عباده كثير الرحمة بهم ، فذلك شأنه الدائم وسنته المستمرة .

١٠٥ - (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُون وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

جاءت هذه الآية لزيادة ترغيبهم فى العمل الصالح ، وتخويفهم من اقتراف السيئات ، ومع هذا فهى عامة لجميع المكلفين ، فلا يختص حكمها بالمتخلفين عن تبوك .

والمعنى : وقل يا محمد تبليغًا لهؤلاء ولجميع المكلفين ، اعملوا وراقبوا الله تعالى فيما تعملون ، فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون فى دنياكم ، مهما حاولتم إخفاءها فاجتهدوا فى أن تكون أعمالكم فى حدود البرّ والطاعة ، بعيدة عن الإثم والمعصية ، ليحمدها الله ورسوله والمؤمنون ، وستردون فى أخراكم إلى عالم كل غائب خفى ، وظاهر جلى ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى دنياكم ، فيجزيكم عليه ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِى صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لها بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ ، لخَرَجَ عَمَلُه لِلنَّاسِ كَائِنًا مَا كَانَ » أخرجه أحمد وأبو يعلى وغيرهما عن أبى سعيد .

(وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾)

التفسير

١٠٦ - (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ ...) الآية .

نزلت هذه الآية كما قال ابن عباس فى كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فإنهم لم يسرعوا إلى التوبة والاعتذار عن تخلفهم فى غزوة تبوك ، كما اعتذر أبو لُبابة وأصحابه بعد أن ندموا على تخلفهم ،وحزنوا حزنًا شديدًا جعلهم يشدون أنفسهم على سوارى المسجد ، وقد وقف النبى صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة ، ونهى الناس عن أن يسلموا عليهم ويكلموهم ، حتى يكون أمرهم عبرة لغيرهم فلا يحاول أحد أن يتخلف عن الجهاد وهو قادر عليه ، وكان هؤلاء الثلاثة من أصحاب بدر فهجرهم الناس وكانوا مختلفين فى شأنهم ، فمن قائل هلكوا ، ومن قائل عسى الله أن يغفر لهم ، فصاروا عندهم مرجئين لأمر الله تعالى ، وقد صح رأى هؤلاء فيهم ، وبه نزل القرآن الكريم .

والمعنى : ومن المتخلفين عن غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، قوم آخرون غير المعترفين المذكورين ، لم يحاولوا أن يختلقوا أعذارًا ، وأن يكذبوا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فهؤلاء مرجئون ومؤخرون لأمر الله فى شأنهم ، إما أن يعذبهم لتخلفهم عن غزوة تبوك بدون عذر وقد دعوا إليها ، وكانت آخر مغازيه صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يقبل توبتهم بعد أن تتمحص نفوسهم وتخلص قلوبهم من الإخلاد إلى الدعة ، وإيثار ذلك على الجهاد ، والله واسع العلم ، فيعلم أحوالهم ويعاملهم بمقتضاها ، حكيم فيما فعل بهم من الإرجاء وما بعده ، حتى يعودوا إلى مثل ذلك ، وليكون أمرهم عبرة لغيرهم .

(وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾)

المفردات :

(ضِرَارًا) : مضارة للإسلام وأهله .

(وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ) : أى فصلاً بينهم ، بصرف بعضهم عن مسجد قباء الذى يجمعهم ويوحد كلمتهم .

(وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) : وانتظارًا للراهب الفاسق الذى حارب الله ورسوله ليصلى فيه .

(الْحُسْنَى) : أى الخصلة الحسناء .

التفسير

١٠٧ - (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ) الآية .

نزلت هذه الآية فى جماعة من المتخلفين عن تبوك ، بنوا مسجدًا غير مسجد قباء ، بقصد المضارة وتفريق المؤمنين .

وتفصيل ذلك أن بنى عمرو بن عوف ، لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فيصلى بهم فى مسجدهم فلما فعل النبى صلى الله عليه وسلم ماطلبوه منه ، حسدهم إخوتهم بنو غنم بن عوف ، وقالوا نبنى مسجدًا ونرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ، ويصلى فيه أبو عامر الراهب أيضًا إذا قدم من الشام ، وهو الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق . وكان قد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : لا أجد قومًا يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلم يزل يفعل ذلك إلى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هاربًا إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر وآت بجنود ، ومُخْرِجٌ محمدًا وأصحابه من المدينة ، فبنوا مسجدًا إلى جنب مسجد قباء ، وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : بنينا مسجدًا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ، ونحن نحب أن تصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إنى على جناح سفر وحال شغل ، وإذا قدمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه فلما قَفَل صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ، سألوه إتيان المسجد فنزلت هذه الآية عليه ، فدعا بمالك بن الخشم ومَعْن بن عدى وعامر بن السكن ووحشيا قاتل حمزة وقال لهم : « انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا المسجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدِمُوهُ واحْرِقُوهُ ، ففعلوا » :

وأمر أن يتخذ مكانه موضعًا لإلقاء القمامة ، حتى لا تقوم له قائمة ، وهلك أبو عامر الفاسق بقُنَّسْرين .

والمعنى : ومن المتخلفين عن غزوة تبوك ، المنافقون الذين بنوا بجوار مسجد قباء ، مسجدًا لمضارة الإسلام والمسلمين ، وللتفريق بين المؤمنين الذين كانوا يصلون فى مسجد قباء متجمعين تلبية لنداء ربهم ، يريدون ببنائه أن يجتذبوا بعضهم إلى مسجدهم ، وإلى صفوف نفاقهم ، كما بنوه أيضًا لغرض خفى خطير ، وهو انتظار وترقب الراهب الفاسق الذى حارب الله ورسوله من قبل ، لكى يصلى فيه ويظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

وليحلفن بنو غنم الذين بنوا مسجد الضرار ، ما أردنا ببنائه إلا الخصلة الحسنى وهى الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين ، والله يشهد إنهم لكاذبون فى يمينهم ، فقد بنوه للمضارة وغيرها من الأغراض الفاسدة التى بينتها الآية الكريمة .

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾)

المفـردات :

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا) : لا تؤد فيه الصلاة وغيرها من الطاعات فى أى وقت دائمًا .

(لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ) : يعنى مسجد قباء .

(يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا) : أى يرغبون فى التطهر الحسى والمعنوى .

التفسـير

١٠٨ ـ (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ) :

لا تقم أيها الرسول للصلاة وغيرها من الطاعات فى مسجد الضرار فى أى وقت من الأوقات فقد بنى للإضرار بالإسلام وأهله ، والله لمسجد قباء الذى أسَّسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقامه على تقوى الله ورضوانه من أول أيام تأسيسه أحق وأولى أن تقوم فيه للصلاة و أداء الطاعات أنت وسائر المؤمنين .

وقيل المراد بالمسجد الذى أسس على التقوى هو المسجد النبوى بالمدينة فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عن المَسْجِدِ الَّذِى أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ، فأَخَذَ حَصْباءَ ، فضرَبَ بِها الأَرْض وَقالَ : مَسْجِدُكُمْ هَذا مَسْجِدُ المَدِينَةِ » .

(فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّون أَن يَتطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ) :

أى فى هذا المسجد الذى بنى على تقوى الله رجال صادقون فى إيمانهم وتقواهم ، يحبون أن تتطهر نفوسهم وأبدانهم من الذنوب والأوزار طلبا لمرضاة الله ، والله يحب الحريصين على الطهارة ويرضى عنهم ويحسن ثوابهم .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

المفـردات :

(شَفَا جُرُفٍ) : الشفا : الحرف والحافة والطرف - (والجُرُف) بضمتين ما جرفه السيل أى استأصله وحفر ما تحته ، فبقى واهيًا .

(هَارٍ) : مشرف على السقوط وأصله (هائر) [١]

(فَانْهَارَ بِهِ) : فسقط به .

التفسـير

١٠٩ - (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ...) الآية .

ضرب الله فى الآية مثلا للذين بنوا مسجدهم على تقوى الله ورضوانه ، بمن بنى بنيانه على أساس ثابت متين ، وضرب مثلا آخر للذين بنوا مسجدهم للإضرار بالإسلام ، بمن أقام بنيانه على أساس واه مهلك بين والغرض من المثلين أنهما لا يستويان فالأول معمر والثانى مدمر .

والمعنى : أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة ، وهى تقوى الله تعالى ، وطلب رضوانه خير عند الله تعالى ، أم من أسس بنيانه على قاعدة منهارة ، وهى الباطل والنفاق ، فكان ذلك سببا فى سقوطه فى النار : وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : «صَيَّرَهُمْ نِفَاقُهِمْ إِلَى النَّارِ لِأَنَّهُمْ بَنَوا المَسْجِدَ ، قَاصِدِينَ بِهِ الكُفْرَ وَالنِّفَاقَ وَإِضْرَارَ المُؤْمِنِينَ » لهذا كان أردأ البناء وأحقره ، وأمّا الأوَّلُونَ فكَانَ بِنَاؤُهُمْ أشرف البناء وأرضى لِلّهِ تَعَالَى .

(١) اسم فاعل من هار يهور إذا أشرف على السقوط ، فقلبت لامه على عينه ، وأجرى فى الإعراب مجرى غاز ورام

(وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

أى لا يوفقهم لفعل الخير والطاعة ، لأنهم لا يريدون ولا يميلون إليه ، فالتوفيق للإيمان لا يكون إلا لمن علم الله فيهم إقبالا وإصرارا على السير فى طريقه والتزامه « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » .

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(رِيبَةً) : شكا ونفاقا . (إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) : أى لا يزال المسجد الذى بنوه شاهدا على تمكن الريبة فى قلوبهم من جهة الإسلام ، حتى كأنَّهُ نفس الريبة والشك .

التفسير

١١٠ - (لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ) :

أى لا يزال المسجد الذى بنوه شاهدا على تمكن الريبة فى قلوبهم من جهة الإسلام حتى كأنه نفس الريبة والشك .

أما أنه ريبة حال بنائه : فلكونه بنى لتفريق كلمة المؤمنين وتشتيت وحدتهم وَلِيُثَبِّتُوا ما فى قلوبهم من كفر وضلال ، وليدبروا فيه المكائد للمسلمين ، وأما أنه ريبة حال هدمه ، فلأنه ثَبَّتَ ما كان فى قلوبهم من الشر فتضاعفت آثاره ، وظهرت مفاسده غيظا وحنقا على المسلمين .

(إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) :

أى إلا أن تتمزق قلوبهم قطعا وأجزاء فحينئذ يذهب الشك والريبة ، والمراد أنهم لا يزالون كذلك ما داموا أحياء ، فإذا ماتوا انتهت تلك الريبة .

(وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أى والله تعالى شامل العلم بجميع أحوال العباد ، عظيم الحكمة ، يضع الأشياء فى مواضعها فى كل ما حكم به ودبر ، ومن جملتها أمره تعالى الوارد فى حقهم .

وفى الآية تحذير للمسلمين من خداع المنافقين ، وتنبيه على اليقظة من الوقوع فى حبائلهم .

(* إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾)

المفردات :

(اشْتَرَى): استبدل . (وَمَنْ أَوْفَى) : لا أحد أعظم وفاء .

(فَاسْتَبْشِرُوا) : أى فافرحوا غاية الفرح .

١١١ - (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) :

هذا ترغيب من الله للمؤمنين فى الجهاد ببيان فضيلته وثوابه بعد بيان حال المتخلفين عنه .

وسبب النزول كما قال محمد بن كعب القرظى : « أنه لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ... ؟ قال النبى صَلى الله عَليه وَسَلم : الجنة . قالوا ربح البيع لا نُقيل ولا نَستَقيل » فنزلت .

قال أهل المعانى :ـ لا يجوز أن يشترى الله شيئا هو له فى الحقيقة ، لأن المشترى إنما يشترى ما لا يملك ، والأشياء كلها ملك لله تعالى . ولهذا قال الحسن : أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا إياها ، لكن جرى ذلك مجرى التلطف فى الدعوة إلى الطاعة ، والجهاد وذلك لأن المؤمن إذا قاتل فى سبيل الله حتى يقتل ، أو أنفق ماله فى سبيل الله عوضه الجنة فى الآخرة جزاء لما فعل فى الدنيا ، فجعل ذلك استبدالا واشتراء ـ فهذا معنى أنه تعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ... الخ .

(يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) :

أى يقاتلون أعداء الإسلام ، فى سبيل دين الله ورفع كلمته ، فيقتلون بعضهم تارة ، ويكفون أذاهم عن المسلمين وَيُقتَلُون منهم تارة أخرى ، راضين ببذل النفس فى سبيل الله ربهم .

(وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ) :

يعنى أن وعد الله للمجاهدين بأن لهم الجنَّةَ ، هو وعد حق ثابت فى التوراة والإنجيل وفيه دليل على أن الجهاد موجود فى جميع الشرائع ، ومكتوب على جميع الملل السماوية

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ) :

أى لا أحد أعظم وفاء بالعهد من الله تعالى . لأن خلف الوعد لا يقدم عليه الكرام من الناس ، فكيف بالله الغنى الذى لا تفنى خزائنه ، وهو أكرم من كل كريم . وهو المتصف بالكمال المطلق ، « وَمَن أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا » والمتأمل لا يرى ترغيبا فى الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية الكريمة .

(فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

أى فليفرح غاية الفرح ، من قام بمقتضى هذا العقد ، ووفى بهذا العهد ـ فليفرح بالفوز العظيم و النعيم المقيم .

(ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾)

التفسير

١١٢ ـ (التَّائِبُونَ) : إلى آخر الأوصاف الآتية ، مدح للمؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة :

والمراد من توبتهم تركهم للشرك ، وبعدهم عن النفاق والمعاصى ، ويجوز أن يراد بالآية ، كل من تاب ، فيكون المعنى على هذا كل من تاب واتصف بهذه الصفات يكون من أهل الجنة أيضا : واعلم أنَّ التوبة المقبولة إنما تحصل بأمور أربعة :

أولها : الإقلاع عن الذنب .

ثانيها : الندم على فعل المعاصى فيما مضى .

ثالثها : العزم على تركها فى المستقبل .

رابعها : أن يكون الحامل عليها رضا الله تعالى .

فإن كانت من ذنب يتعلق بحقوق الآدميين ، زيد عليها شرط خامس ، وهو ردّ الحقوق إلى ذويها أو استعفاؤهم ، فإن كان الغرض منها تحصيل مدح الناس ودفع مذمتهم ، أو تحصيل أى غرض دنيوى ، فلا تكون توبة مقبولة .

(الْعَابِدُونَ) : أى الذين يأتون بالعبادة على وجهها الصحيح مخلصين لله تعالى مواظبين على أدائها فى أوقاتها .

(الْحَامِدُونَ) :أى الذين يحمدون الله تعالى فى السراء والضراء وفى كل حال .

(السَّائِحُونَ) : قال ابن مسعود هم الصائمون ، لأن الصائم مستمر فى طاعة الله والسائح مستمر فى سياحته قال النبي صلى الله عليه وسلم : « السائحون هم الصائمون » [١] .

وقيل : هم المهاجرون ، وقيل : هم طلبة العلم ، وقيل : هم السائحون فى الأرض المتنقلون فيها فإن للسياحة أثرا عظيما فى تهذيب النفوس ، لأنه قد يتعرض السائح للبؤس وللضراء ، فلابد له من الصبر ، وقد يلقى فى سياحته العلماء والصالحين فيستفيد علما وحسن سلوك ، ويرى عجائب وآثار قدرة الله تعالى، فيصل من طريق ذلك إلى بذل الجهد فى طاعة الله تعالى ،

(الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ) : يعنى المصلين ، وعبر بالركوع والسجود عن الصلاة لأن بهما تتميز الصلاة عن غيرها ، ولأنهما من أهم أركانها .

(الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ) :

أى الذين يأمرون الناس بكل خير من إيمان وطاعة ينهون الناس عن الشرك والمعاصى .

والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، بهما صلاح الأمة واستقامتها ، فإن ضاعا التبس الحلو بالمر ، وضاعت أخلاق الأمة ، وفسدت معايير الاستقامة فيها .

(وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ) :

بالعمل بأحكام الشَّريعة والوقوف عند أوامر الله ، والبعد عن نواهيه ويَحْمِلُ الناس على طاعة الله تعالى وأدائها على الوجه الأكمل .

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى وأخبرهم يا محمد بما يسرهم مما وعد الله به من دخول الجنة فإنه تعالى واف لهم بما وعد . « وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ » .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة ورمز له بالصحة

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾)

المفردات :

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا) : أى ما صح وما استقام للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين .

(أَن يَسْتَغْفِرُوا) : أن يطلبوا الغفران .

(أُولِي قُرْبَىٰ) : أصحاب قرابة .

(مَوْعِدَةٍ) : وَعْدٍ.

(تَبَرَّأَ مِنْهُ) : بَعُدَ عنهُ وتنزه عن مصاحبته .

(أَوَّاهٌ) : أصل التأوه قول الرجل آه ، أى أتوجع وأواه للمبالغة والمراد : كثير التأوه من خوف الله .

(حَلِيمٌ) : صبور على الأذى ، صفوح عن الجناية ، يقابلها بالإحسان والعطف .

(مَا يَتَّقُونَ) : ما يجب اتقاؤه والبعد عنه .(وَلِيٍّ) : والٍ يلى أموركم ويدبر شئونكم .

(وَلَا نَصِيرٍ) : ينصركم على أعدائكم ويمنعكم من أذاهم .

التفسير

١١٣ ـ ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ :

هذه الآية نزلت فى شأن أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر له ، فنهاه الله عن ذلك ، فقد روى الزهرى قال حدثنى سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال : أى عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة : أترغب عن ملة عبد المطلب ... فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم : أنا على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك ، فأنزل الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ولَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ :

وأنزل الله فى أبى طالب : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ »

هذا لفظ البخارى فى تفسير الآية .

والمعنى :

ما صح وما استقام فى حكم الله تعالى للنبى والذين آمنوا أن يطلبوا للمشركين المغفرة ، ولو كانوا أصحاب قرابة بعد ما ظهر لهم أنهم أصحاب النار ، بإصرارهم على الكفر وموتهم عليه ، أو بعلم الرسول بالوحى أنهم سيموتون على الكفر .

١١٤ ـ ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ :

جاءت هذه الآية لدفع ما يتوهم من التعارض بين الآية السابقة عليها وبين ما جاء فى سورة الشعراء من استغفار إبراهيم لأبيه حيث قال : « وَاغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ».

والموعدة التى جاءت فى الآية ، صدرت من آزر لإبراهيم عليه السلام ، قال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل ، أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد فلما مات علم أنه عدو الله ، فترك الدعاء له .

والمعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون فى استغفار إبراهيم لأبيه ، فإن ذلك كان عن موعدة من آزر لابنه إبراهيم بالإيمان ، فلما تبين له أنه مستمر على كفره ترك الدعاء له ، فلهذا يجب عليكم أن تعملوا بما صدر لكم من النهى عن الاستغفار للمصرين على الشرك ولو كانوا أولى قربى .

وقيل الواعد إبراهيم عليه السلام ، فقد وعد أباه أن يستغفر له ، فلما مات مشركا تبرأ منه ، ودل على هذا قوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى » قال القاضى أبو بكر بن العربى : تعلق النبى صلى الله عليه وسلم فى الاستغفار لأبى طالب بقوله تعالى : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى » فأخبره الله تعالى أن استغفار إبراهيم كان وعدا قبل أن يتبين الكفر منه ، فلما تبين له الكفر منه تبرأ منه ، فكيف تستغفر أنت لعمك وقد شاهدت موته على الكفر .

والمراد : باستغفاره له طلبه من الله أن يوفقه للإيمان ويهديه إليه .

(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ) :

أى فلما ظهر لإبراهيم بالوحى أن أباه مصر على الكفر غير مؤمن أبداً ، بَعُدَ عنه وتجنبه ونزه نفسه عن مصاحبته ، وترك الاستغفار له .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) :

أى إن إبراهيم عليه السلام كثير التأوه من خوف الله تعالى متضرع إليه ، كثير الدعاء والتوبة ، رحيم بعباد الله ، عظيم الحلم ، كثير الصفح ، والمراد وصفه برقة القلب ، وسعة الصدر وعظيم الرأفة والرحمة ، وأنه يقابل الإساءة بالإحسان واللطف .

---

(١) الآية (٨٦) من الشعراء .

١١٥ - ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ :

والمعنى : ما صح وما استقام فى حكم الله تعالى وحكمته أن يقضى ويحكم على قوم بالضلال بعد أن هداهم للإسلام ، ووفقهم للإيمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى يبين لهم ما يجب اتقاؤه والبعد عنه من محظورات الدين ، فلا ينزجروا عما نهوا عنه ، وأما قبل ذلك فلا يحكم عليهم بالضلال ولا يؤاخذون بفعله - وكأن هذه الآية تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك ، وفيه دليل على أن الغافل الذى لم يبلغه الدليلُ السَّمْعِيُّ غير مكلف بما لا يستقل به العقل[1] .

١١٦ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ :

المعنى : أنه تعالى وحده هو مالك السموات والأرض وما فيهما ، خلقا وتدبيرا يحكم فيهما بما يشاء ، يحيي من يشاء على الإيمان ويميته عليه ، ويحيي من يشاء على الكفر ويميته عليه ، تبعا لحكمته وتطبيقا لسنته تعالى فى الهداية والضلال والإضلال .

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ :

والمعنى : وليس لكم أيها المكلفون من غير الله وال يلى أموركم ويدبر شئونكم ، ولا نصير ينصركم على عدوكم ويعينكم عليه ، فهو وحده نعم المولى ونعم النصير .

(١) انظر الآلوسى فى تفسير هذه الآية .

(لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾)

التفسير

١١٧ — (لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) :

معنى توبته تعالى على النبى صلى الله عليه وسلم عدم مؤاخذته بإذنه للمنافقين بالتخلف فى غزوة تبوك وهى كقوله تعالى : « عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ »[١]. فإذنه لهم من باب ترك الأولى لا من باب فعل الذنب . لأنه لم يكن هناك أَمْرٌ خَالَفَهُ صلى الله عليه وسلم . وأما معنى توبته على المهاجرين والأنصار فلأجل ماوقع فى قلوبهم من الميل إلى القعود عن غزوة تبوك ، لأنها كانت فى وقت شديد ، ثم أعانهم الله على التغلب على ما حدثتهم به نفوسهم من القعود ؛ فسافروا مع الرسول صلى الله عليه وسلم واتبعوه فى ساعة العسرة كما قال تعالى :

(الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) :

أى الذين خرجوا معه لقتال الأعداء فى غزوة تبوك ، وكانت فى وقت شديد الحرارة وضيق فى الرواحل ، وبعد فى المسافة مع كثرة العدو . ممايدعو إلى إيثار التخلف فاستعانوا بالله واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع تفسير الآية (٤٣) من سورة التوبة .

(مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ) :

أى من بعد ما قرب أن تميل قلوب بعضهم من أجل الشدة والمشقة إلى التخلف والدعة والراحة ، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم .

وزيغُ القلب وانحرافُه إن كان فى أصل الدين كان كفرا ، وإن كان فى شريعته كان بحسب الحكم الذى مال عنه ، فإن زاغ عن مجمع عليه كفر ، وإن زاغ عن راجح عصى .

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ) : أى أنه تعالى علم إخلاص نيتهم ، وصدق توبتهم فتقبلها منهم .

(إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :فلهذا منَّ عليهم بالتوبة وقبلها منهم وثبتهم عليها .

(وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾)

المفـردات :

(خُلِّفُوا) : أُخِّرَ أَمرُ قبولِ توبتهم .

(بِمَا رَحُبَتْ) : أَى مع رحابتها وسعتها ، والرحب سعة المكان .

(لَا مَلْجأَ مِنَ اللهِ) : لا مفر ولا منجى من سخطه وعقابه .

التفسـير

١١٨ ـ(وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)الآية .

قصة هؤلاء الثلاثة يرويها ابن هشام فيقول : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة عائدا من تبوك ، وكان قد تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف أولئك الثلاثة

من المسلمين المخلصين من غير شك ولا نفاق ، وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ، لا تكلمن أحدا من هؤلاء الثلاثة – لأنهم لم يقدموا عذرا عن تخلفهم – وأتاه من تخلف من المنافقين ، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، فصفح عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاملة لهم بظاهرهم ، واعتزل المسلمون أولئك النفر الثلاثة ، ثم نزلت هذه الآية معلنة قبول توبتهم وعفو الله عنهم .

والمعنى : وتاب الله أيضا على هؤلاء الثلاثة الذين أخر قبول توبتهم ، إلى أن ضاقت عليهم الأرض مع سعتها ورحابتها ، من شدة الأمر عليهم ، والحيرة التى حلت بهم ، كأنهم لا يجدون فى الأرض مكانا يستقرون فيه ويطمئنون إليه ، لشدة حزنهم وقلقهم ، وكذلك ضاقت عليهم أنفسهم ، بسبب إعراض الناس عنهم ، وتأخر قبول توبتهم ، واعتقدوا أن لاعاصم ولا منجى من سخط الله وعقابه ، إلا الرجوع إليه ، وطلب الغفران منه .

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) :

أى ثم أنزل الله قبول التوبة منهم ، ليصيروا فى جملة التوابين ، وليستمروا ويثبتوا على توبتهم ، إن الله تعالى كثير التوبة والعفو عن عباده إن تابوا ولم يصروا على ما فعلوا ، عظيم الرحمة بقبول توبتهم وإن كثرت ذنوبهم مع استحقاقهم لأنواع العقوبات .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾)

التفسير

لما تاب الله على هؤلاء الثلاثة ، لصدقهم فى القول وإخلاصهم فى التوبة ، وبعدهم عن النفاق ، أمر الله المؤمنين أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين ، ويبتعدوا عن النفاق والمنافقين وفى جملة من أمروا هؤلاء الثلاثة .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله ، اتقوا الله بامتثال ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، ولا تتخلفوا عن رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم من الجهاد والبذل فى سبيل الله ، وكونوا مع جماعة الصادقين المخلصين فى جهادهم إذا جاهدوا ، وفى عهودهم إذا عاهدوا ، وفى أقوالهم ووعودهم إذا حدَّثوا ووعدوا ، وفى توبتهم إذا أذنبوا أو قصَّروا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصِّدق فإن الصدقَ يهدى إلى البرِّ وإن البرَّ يهدى إلَى الجَنةِ ، وما يزالُ الرجل يَصدُق ويتحرَّى الصِّدق حتى يكتبَ عِند الله صِدِّيقًا ، وإيَّاكم والكذب فإنَّ الكذب يهدى إلى الفجور ، وإنَّ الفُجورَ يهدى إلى النَّار ، وما يَزالُ الرَّجل يكْذبُ ويتحرَّى الكَذِب ، حتى يُكتَب عند الله كذَّابًا » أخرجه مسلم .

والحكم المأخوذ من الآية الكريمة يتناول المؤمنين فى جميع الأجيال .

(مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾)

المفردات :

(وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ) : أى لا يؤثروا أنفسهم على نفسه .

(وَلَا نَصَبٌ) : ولا تعب .

(وَلَا مَخْمَصَةٌ) : ولا مجاعة .

(وَادِيًا) : الوادى هو الأرض التى تكون بين جبلين .

التفسير

١٢٠ - (مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ . . .) الآية .

أى ما صح وما استقام لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب المؤمنين أن يتأخروا عن تلبية دعوة رسول الله إذا دعاهم إلى الجهاد فى سبيل الله ولا أن يؤثروا أنفسهم على نفسه ، بأن يطلبوا السلامة بالتخلف عن الجهاد معه فعليهم أن يصحبوه على البأساء ، والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط ، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه الشريفة ، مع العلم بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه ، وذلك يقتضيهم أن يبذلوا أنفسهم دون نفسه ، وأن يدافعوا عنه بأنفة وحمية ، لا أن يتخلفوا عنه بغير عذر كما فعل بعضهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِن وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِين »[1] .

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...) الآية .

ذلك الذى تقدم من وجوب مصاحبة الرسول فى الجهاد وإيثاره على أنفسهم بسبب أنهم لا يصيبهم شىء من العطش والتعب والمجاعة فى طريق الجهاد من أجل دين الله ، ولا يمشون فى مكان يغيظون فيه الكفار ، بأن يحلوا فى أرضهم ، ويتصرفوا فيها تصرفا يضيق صدورهم ، ولا يصيبوا من عدو إصابة بقتله أو أسره أو هزيمته أو الغنيمة منه ، إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح يستحقون به أكرم الثواب

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) :

أى أنه تعالى يجزل ثواب المحسنين الذين يمتثلون أمر الله ورسوله ولا يضيع لهم أجرا.

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان - باب حب رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو متفق عليه .

واعلم أن خروج المؤمنين للجهاد إذا دعاهم الإمام فرض كفاية ، مالم يتعين لأسباب تقتضى ذلك ، أما خروجهم إليه إذا دعاهم الرسول فهو فرض عين(١) .

والذين تخلفوا فى بدر لم يدر بخلدهم أنهم سيقاتلون جيشًا قدم لإنقاذ العير ، ولذلك تخلفوا مترخصين بأنهم لم يدعوا للجهاد فى سبيل الله ، وبالجملة فإن التخلف عن دعوة الرسول للجهاد كالنكث للبيعة فلذلك اشتد الرسول مع هؤلاء الثلاثة ، حتى لاتتكرر من المؤمنين .

١٢١ - (وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى ولا ينفقون فى سبيل الله نفقة قليلة أو كثيرة من مال أو زاد أو غير ذلك ، ولايجتازون واديًا إلى عدوهم إلا كتب الله لهم ذلك ، وجعل فى حسناتهم ، ليجزيهم الله على كل عمل كسبوه وإن قل جزاء أفضل عمل عملوه ، فيعطى على القليل جزاء الكثير ، كرمًا منه وفضلا .

(* وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾) .

(١) ويرى ابن زيد أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : (و ماكان المؤمنون لينفروا كافة) . وأن حكم وجوب الخروج للجهاد بدعوة الإمام المفهوم من قوله تعالى : (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) الآية - إنما كان وقت قلة المسلمين ، فلما كثروا نسخت وأباح الله التخلف لمن شاء ويرى فريق آخر أنها محكمة ، وأنها لأول هذه الأمة وآخرها ، ولكن التفصيل الذى ذكرناه أرجح والله تعالى أعلم .

المفردات :

(لِيَنفِرُوا كَافَّةً) : ليخرجوا للجهاد ونحوه جميعًا .

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ) : فهلا خرج من كل جماعة كثيرة منهم ، جماعة قليلة .

(وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ) : وليحذروهم من المخاوف والعواقب السيئة لعصيان الله وعدم التَّدبُّر فى الأُمور .

التفسير

١٢٢ - (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً . . .) الآية .

كما أَوجب الله الخروج للجهاد ووعد بالثواب الجزيل عليه فى الآيات السابقة عقبها بهذه الآية ليحض المؤمنين فيها على التفقه فى الدين فإِنه أَساس الجهاد، لأَن به الدفاع عن الدين بالحجة وهو الأَساس الأَول للبعثة المحمدية ، وباجتماع شعبتى الجهاد للمؤمنين جهاد السيف وجهاد العلم ، يتم لهم النصر والعزة بين العالمين .

والمعنى : وما صح ولا استقام أَن يخرج المؤمنون جميعًا للجهاد ونحوه من المقاصد الشريفة كطلب العلم ، ويتركوا عيالهم دون عائل أَو راع ، فإِن ذلك مضيعة لأُسرهم ، فَهَلاَّ خرج من كل بلد أَو قبيلة أَو جماعة كثيرة ، طائفة قليلة ليتعلموا الدين ويتفهموه ويعرفوا براهين عقائده ، وأُصول أَحكامه وفروعها ، وليخوفوا قومهم من عصيان الله عند رجوعهم إِليهم ، ويرشدوهم إِلى مناهج الهدى ومسالك العزة لكى يحذروا ما يضرهم فى دنياهم وأخراهم ويقبلوا على ما ينفعهم ويعلى قدرهم ، ويستتبع العزة والكرامة لهم .

وبعض المفسرين اتجه بمعنى الآية وجهة أُخرى حيث جعل حكمها فيما إِذا لم يخرج النبى صلى الله عليه وسلم للجهاد وبعث بالمجاهدين فى بعض المغازى والمعنى على هذا وما كان المؤمنون ليخرجوا جميعًا للقتال ، والنبى صلى الله عليه وسلم مقيم لم يخرج فيتركوه وحده ، فلولا خرج من كل فرقة منهم طائفة فى السرية التى لاتحتاج إِليهم جميعًا ، ليتفقه الباقون منهم مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الدين حتى إِذا عاد

الذين خرجوا فى السرية ، أعلمهم المقيمون ما تعلموا من أحكام الشرع ، وما تجدد نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم من آيات القرآن وعلى أى وجه فقد أفادت الآية إيجاب التفقه فى الكتاب والسنة على سبيل الكفاية ، وقد جاء فى إيجابه عن أنس بن مالك أنه قال :

« سَمعت رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسَلم يقول : طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ » .

وحكم المسلمة حكم المسلم وجاء فى فضله من حديث أبى الدرداء قال : « سَمعتُ رسول الله صَلى الله عَليه وسَلم يقول : مَن سَلكَ طَرِيقًا يَلتَمسُ فيه عِلمًا ، سَلكَ الله به طَرِيقًا إلى الْجَنةِ . وَإن الملائِكَةَ لتَضَعُ أَجْنحتَهارضًا لطَالب الْعِلمِ وإنَّ العَالِمِ ليَستغفرُ لَهُ منْ فى السَّمواتِ وَمنْ فى الأَرْض والْحيتَانِ فى جَوْفِ الماء ، وإنَّ فَضلَ العَالم عَلى العَابد كَفضْل القَمر ليلةَ البَدْرِ عَلى سَائر الكَواكب وإنَّ العُلمَاء وَرثةُ الأَنْبيَاء ، وإنَّ الأَنْبياء لَمْ يُورِّثُوا دِيناراً وَلا دِرهمًا ، وإنما وَرَّثُوا العِلم ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخذَ بحَظ وافِر » أخرجه الترمذى ، وجاء فى صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفقِّهْهُ فِى الدِّين » وحسبك فى فضله قوله تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾)

التفسير

بعد ما أوجب الله على المؤمنين أن يتسلحوا بالفقه ويزودوا أنفسهم بالعلم إلى جانب اقتدارهم على الجهاد ليتسنى لهم نشر الإسلام بالأمرين جميعًا ، أمرهم فى هذه الآية أن يتدرجوا فى قتال الكفار وأن يبدأوا أولا بقتال الأقرب من العدو ثم الذين يلونهم ولهذا بدأ الرسول بقتال اليهود الذين حول المدينة لنقضهم عهده ، وصد هجمات المشركين من

العرب حينًا ، وبدأهم بالقتال حينًا آخر ، لوقاية الإسلام من تربصهم به والتآمر عليه فلما فرغ منهم أوكاد قصد الروم بالشام ، ليحيط الإسلام فى معقله بحزام أمن واستقرار ولتكون كلمة الله هى العليا .

والمعنى : يأيها الذين آمنوا قاتلوا الأقرب لكم من الكفار فالأقرب ، بعد أن تدعوهم إلى الإسلام فلا يستجيبوا ، وأغلظوا فى قتالهم واشتدوا فيه حتى يحسوا بذلك فيسلموا لكم ويضعفوا أمامكم ، واعلموا أن الله مع المتقين بالنصر والمعونة .

(وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾)

التفسير

١٢٤ – (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا . . .) الآية .

بعد أن بين الله ما يجب على المؤمنين فى قتالهم لأعدائهم ، ذكر أحوال المنافقين المنكرة توبيخًا لهم وتحذيرًا من شرورهم

والمعنى : وإذا أنزلنا عليك يا محمد أية سورة من سور القرآن فمن المنافقين من يقول لإخوانه تثبيتًا لهم على النفاق ، أيكم زادته هذه السورة إيمانًا ، ومنحته يقينًا ، يريدون بذلك أنها لم تؤثر فيهم ولم تنتزع الشك والكفر من نفوسهم .

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) :

هذا وما بعده جواب من جهته تعالى يبين به حال أهل اليقين ، وحال أولئك المنافقين .

والمعنى : فأما الذين آمنوا بقلوبهم ، وصدقوا بالله ورسوله مخلصين ، فقد زادتهم السورة يقينًا بتدبُّرهم فيها ، ووقوفهم على ما فيها من الحقائق ، وانضمام إيمانهم بما جاء فيها إلى إيمانهم السابق ، وهم يسرون بنزولها وبما فيها من المنافع الدينية والدنيوية .

١٢٥ - (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) :

وأما الذين فى قلوبهم مرض من كفر وسوء عقيدة ، فزادتهم السورة التى أنزلناها كفرًا بها مضمومًا إلى كفرهم بغيرها ، وعقائد باطلة وأخلاقًا ذميمة ، وماتوا وهم على هذه الحال المنكرة من الكفر والمفاسد .

١٢٦ - (أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) :

المراد من فتنتهم كشف نفاقهم وفضيحتهم على رءوس الأشهاد ، وكان ذلك مرة أو مرتين فى كل عام كالذى حدث فى غزوة أُحد ، حين رجعوا من الطريق وكالذى حدث فى غزة الخندق حين قالوا : « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا » .

وغير ذلك مما حدث منهم من المخالفات الخطيرة التى كشفها الله ، وفضح فيها نفاقهم وكشف أستارهم مرة بعد أُخرى .

والمعنى : أيغفلون ولا يعلمون أنهم يمتحنون فى كل عام مرة أو مرتين ، وذلك بكشف نفاقهم فى الأحداث الجسام ، ثم لايتوبون عن هذا النفاق الذى كان سببًا فى فضيحتهم ، ولا هم يستغفرون الله مما حدث منهم ، تحقيقًا لتوبتهم وندمًا على ما كان منهم ، وعدولا عن تلك الأساليب الذميمة التى توهن من شأن المجاهدين عند لقاء المشركين .

١٢٧ - (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا) :

بعد أن بين الله مقالتهم السيئة وهم بعيدون من مكان نزول الوحى ، وهى قولهم لإخوانهم المنافقين : « أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا » .

جاء بهذه الآية لبيان حالهم السيئة ، عندما يكونون فى مكان نزوله .

والمعنى : وإذا نزلت سورة من القرآن وهم حاضرون ، نظر بعضهم إلى بعض متغامزين بالعيون سخرية بها أو غيظًا مما جاء فيها كشفًا لمخازيهم ، يقول بعضهم لبعض إشارة أو همسًا :

هل يراكم أحد من المسلمين إذا خرجتم من المجلس متسللين ، ثم انصرفوا جميعًا من مجلس الوحى متفرقين مَلَلاً من سماع القرآن أو هربًا من افتضاح أمرهم .

(صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ) :

أى صرف الله قلوبهم عن الإيمان وفرائضه بسبب انصرافهم عن القرآن والتدبُّر فيه وجازاهم بعقوبة من جنس عملهم .

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ
حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

المفردات :

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) : شاق عليه ما تكرهون من مشاق الحياة ، والعنت: المشقة

(حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) : لا يفرِّط فيما يصلحكم .

(رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) : الرأفة شدة الرحمة ، ولا تكون مع الكراهية ،أما الرحمة فقد تكون مع الكراهية .

التفسير

١٢٨ ـ (لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِن أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ . . .) الآية .

أى لقد جاءكم يا معشر العرب رسول منكم عربى مثلكم ومن أكرم بيت فيكم ، وقد نشأ بينكم فعرفتموه منشأً وخُلُقًا ، وهذا الرسول يشق عليه كثيرًا ما يشق عليكم ، حريص عليكم ، فلا يفرط فى أمر فيه خيركم ومنفعتكم ، وبالمؤمنين منكم ومن غيركم عظيم الرأفة والشفقة ، وافر الرحمة .

قال الحسن بن الفضل: « لَمْ يَجْمع ِ اللهُ لأَحدٍ منَ الأنبياء بينَ اثنينِ من أسمائه إلَّا لِلنَّبى صلَّى الله عليه وسلَّم فَقَدْ سمَّاه رؤُوفًا رَّحِيمًا » .

وقد جاء فى طيب أصله من رواية الإمام مسلم بسنده عن واثلة بن الأسقع قال :

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِن وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ واصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِن كنانَة ، واصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِى هاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِى مِنْ بَنِى هَاشِمٍ »

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب فى قوله تعالى :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . .) الآية .

للناس عامَّة ، لأن بعثته صلَّى الله عليه وسلَّم عامَّة لجميع الناس فى جميع العصور ، لقوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

والمعنى : لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم أى من جنسكم فهو بشر مثلكم إذ لو كان من الملائكة ، لضعفت قُوَّة البشر عن سماع كلامه والأخذ عنه ، ولا تعارض فى هذا الرأى مع الرأى السابق ، فإن رسالته للعرب لاتنافى رسالته للناس أجمعين .

١٢٩ – (فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) :

أى فإن أعرضوا عن الإيمان بك يا محمد فقل لهم : يكفينى الله ويعيننى عليكم ،لا معبود بحق سواه ، عليه وحده توكلت واعتمدت ، فلا أرجو سواه ، ولا أخاف إلا منه ، ولا أستعين إلا به ، وهو رب العرش العظيم .

والمراد من العرش إما الفلك الأعظم الذى تنزل منه الأحكام والمقادير ، أو السلطان والملك العظيم – والله تعالى أعلم .

* * *

سورة يونس

مكية كلها على المشهور وآياتها تسع ومائة

ووجه المناسبة بينها وبين سورة التوبة التى قبلها أن التوبة جاء فى آخرها الثناءُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمزيد شفقته على المؤمنين، حيث وصف بأنه يشق عليه ما يلحقهم من المكروه ويحرص عليهم وهو بهم رؤوف رحيم، وجاء فى أول يونس توبيخ الناس على تعجبهم من أن يوحى الله إليه وهو رجل منهم ـ بأن ينذر الكافرين ويبشر المؤمنين ـ وجاء فى الأولى بيان ما يفعله المنافقون عند نزول سورة من القرآن. «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا . . . . » الآية

وجاء فى الثانية بيان ما يقوله الكفار فى القرآن ، فقد جاء فيها قوله تعالى حكاية عنهم .

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » الآية (٣٨) . وقوله : « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ . . . » الآية (١٥) .

وجاء فى الأولى ذم المنافقين بعدم التوبة وعدم التذكر والاتعاظ إذا أصابهم البلاءُ فى قوله سبحانه : « أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ » الآية (١٢٦) . وجاء فى هذه ذم لمن يصيبه البلاءُ فيرعوى عن إثمه ثم يعود ثانية إليه وذلك فى قوله تعالى : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . » الآية (١٢) .

وقوله : « فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ . . . » الآيتين (٢٢ ، ٢٣) .

وفى الأولى براءة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المشركين ، فى قوله تعالى : « بَرَاءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ » . وفى هذه أمره بالإعراض عنهم فى

قوله سبحانه : « وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ » الآية (٤١) .

وقد اشتركت السورتان فى إقامة معالم التوحيد وتجلية آياته إلى غير ذلك من المناسبات .

مقدمة السورة

افتتحت هذه السورة الكريمة بوصف القرآن الكريم ، بأنه الكتاب الحكيم ، وبيان أنه لا عجب فى أن ينزل الله الوحى على رجل من البشر لينذرهم بالعقوبة إن ظلوا كافرين ، ويبشرهم بالمثوبة إن استجابوا مؤمنين ، ثم تلا ذلك بيان أنه تعالى :أبدع السموات والأرض فى ستة أيام ، وأنه لاشفيع إلا بإذنه وأن المرجع إليه بعد الموت فكما بدأ الخلق يعيده ، ثم ذكر الله بعد ذلك بعض آياته الكونية وما اشتملت عليه من المنافع لخلقه ، ثم حذر من الاطمئنان إلى الحياة الدنيا والغفلة عن آياته ، وأنذرهم بقوله : « أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . وبشر المؤمنين بجنات النعيم بقوله : « تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعْوَاهُمْ فِيها سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

ثم بين أنه تعالى أهلك القرون السابقة لكفرهم وجعل المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم خلفاء فى الأرض من بعدهم لينظر كيف يعملون . .

ثم ذكر تبجح المشركين بطلبهم أن يأتيهم الرسول بقرآن غير هذا أو يبدله ، فأمر رسوله بأن يقول لهم : إن ذلك ليس من شأنه فإنه يتبع ما يوحى إليه ، وأنه لبث فيهم عمرا وهو معروف بينهم بالصدق والأمانة فكيف لايعقلون أن مثله لايفترى على الله .

ثم نعى عليهم عبادة غير الله وزعمهم أن الأصنام شفعاء لهم عنده، فى حين أن الله لايسمح لها بالشفاعة فهو أعلم بحالها ، فلماذا ينبئون كذبًا بما هو أعلم بحقيقته من عدم صلاحيتها للشفاعة ولا لضرهم ونفعهم بأى وجه من الوجوه .

ثم ذكر فضله عليهم بتسييرهم فى البر والبحر وأنهم حين تحيط بهم أسباب الهلاك فى البحر يدعونه لينقذهم ، فإذا أنقذهم عادوا إلى بغيهم فى الأرض مع أن بغيهم على أنفسهم .

ثم ضرب مثلا للحياة الدنيا يفيد أنها سريعة الزوال فقد مثلها بالأرض المخضرة ، التى أصاب زرعها اليبس والجفاف فجأة ، فكانت حصيدًا كأن لم تغن بالأمس ، وذكر أنه تعالى يدعوهم إلى دار السلام ، ويهدى عباده إلى صراط مستقيم فمن آمن فله الحسنى وزيادة ، والذين كسبوا السيئات ليس لهم من الله من عاصم ، ثم بين أنه هو الذى يرزق عباده من السماء والأرض ، ويمنح السمع والبصر ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويدبر الأمر كله أما شركاؤهم فليس لهم من ذلك ولا من غيره شىء .

ثم بين أنه ليس مستقيمًا ولا معقولًا أن يفترى محمد القرآن ، وتحداهم أن يأتوا بسورة مثله ويستعينوا على ذلك بمن شاءوا من دون الله ، ونعى عليهم أنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وهددهم بمصير من تقدمهم من المكذبين .

ثم بين أنهم ينقسمون فى شأن القرآن إيمانًا وكفرا ، وأمر نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يقول لمكذبيه : (لِى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) .

ثم بين أن مرجعهم إلى الله وأنه شهيد على ما يفعلون ، وأنه سيقضى بين الأمم بالقسط وهم لايظلمون ، وأن مصير الكافرين الظالمين لأنفسهم عذاب الخلد جزاء بما يكسبون من الكفر والمعاصى ، وبين أنه لا مجال لقبول فدية من عذاب الله فى الآخرة ، ثم قال فى حق القرآن الكريم .

« يٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم موْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » . ثم بين أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وأنهم هم . « الَّذِينَ آمنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرةِ لَاتَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ » .

ثم أمر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم –أن يتلو على قومه لتذكيرهم نبأ نوح وقومه ، كذبوا بآيات الله ولم ينفعهم تذكيره لهم ، فنجاه الله ومن معه فى الفلك من المؤمنين وأغرق جميع المكذبين .

ثم ذكر طائفة من أنباء المرسلين ، وما أصاب أقوامهم من إهلاك بسبب تكذيبهم لهم ثم قال فى أعقاب قصصهم : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » ثم بين أن كل قرية لو أنها آمنت قبل أن ينزل بها العذاب ، لنفعها إيمانها ، ولكشف الله عنها عذاب الخزى كما فعل بقوم يونس ، فإنهم لما آمنوا قبيل مجىء العذاب كشف الله عنهم عذاب الخزى ، ومتعهم إلى حين فكانوا مثلا حسنا فى حسن الرأى ونضج التفكير .

ثم أمر الله نبيه أن يقول : « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَدْعُون مِن دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

ثم أمره فى آخر السورة أن يخبر الناس بأن الحق جاءهم من ربهم . « فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِه ومَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » وحضه فى ختامها على الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾)

المفـردات :

(الٓر): قال السلف فيها وفى أمثالها : الله أعلم بمراده : ويأتى تفصيل الحديث عنها فى الشرح .

(الْكِتَابُ الْحَكِيمُ) : القرآن المشتمل على الحكمة وهى إصابة الحق .

(قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ): مكانة سابقة محققة فى حسن الجزاء عند ربهم فى الجنة والقدم والقدمة بضم فسكون :السابقة فى الآمر .

(لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) : أى لساحر بين السحر واضحه : كذا قال الكافرون وهم كاذبون .

التفسـير

١ - (الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) :

(الٓر) تقدم الكلام مبسوطا على فواتح السور المماثلة لهذه فى البقرة وآل عمران والأعراف ونجمله هنا فنقول : إن السلف يعدونها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ولذا فهم يفوضون فى مثل ذلك قائلين : الله أعلم بمراده ، وكثير من العلماء جنح إلى التأويل ، فمنهم من قال إنها أسماء للسور التى تصدرتها ، ومنهم من قال : هى فواصل بين

السور التى قبلها والسور التى تليها ،ومنهم من قال غير ذلك : وخير ما قالوه : إنها أسماء حروف عربية جعلت فى صدر السور لتنبيه الأسماع والقلوب إلى ما فيها من أعظم أساليب البلاغة والفصاحة وما اشتملت عليه من التشريعات الحكيمة وأخبار الغيب ونواميس الأخلاق الكريمة ، وغير ذلك من الروائع الناطقة بإعجاز القرآن للبشر وصدوره عن الله تبارك وتعالى كما أن فيها الرمز إلى التحدى ، بالإشارة إلى أن القرآن مؤلف من جنس ماينظم العرب منه كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، وجب التسليم بأنه من عند الله وأن محمدا لا يستطيع أن يأتى به فهو فوق مستوى البشرية جميعا كما هو فوق مقدرة الإنس والجن مجتمعين « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) :

هذه الآيات الرفيعة الشأن ، التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة هى آيات القرآن العظيم الذى أحكمت آياته ،واشتمل على ضروب الحكمة وشتى فنونها فهو خاتمة الكتب السماوية والمهيمن عليها .

٢ - (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ....) الآية .

كان للمشركين فى شأن الرسالة مواقف ، فتارة ينكرون أن يكون الرسول بشرا ، كقولهم « أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا » ويرون أنه تعالى لو أراد أن يرسل رسولا فإنه يختاره من الملائكة ، وذلك ما حكاه الله عنهم بقوله « وَلَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً » روى عن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية : أن الكفار قالوا لما بعث محمد : إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا .

وتارة يزعمون أن الله لو أرسل رسولا من البشر ، فإنه يرسله من عظماء قومه فى المال والجاه ، كما حكى الله عنهم ذلك بقوله : « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »(١) ومن أقبح ما جهلوا به فى هذا الشأن قولهم العجب أن الله تعالى لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبى طالب ، وتلك النظرة الجاهلة ناشئة من فرط

(١) آية ٣١ من سورة الزخرف .

قصورهم فى التفكير،وجهلهم بحقيقة الوحى والنبوة ، وقد كان أكثر رسل الله خفاف الحال فى شئون الدنيا ، ثقال الموازين فى الشرف وطيب المحتد ، وكان صلى الله عليه وسلم واسطة عقدهم فى جلائل الأخلاق وشرف المنبع ، فقد كان من أعز أرومة فى الجزيرة العربية والآية تنكر عليهم عجبهم من أن يكون الرسول بشرا .

والمعنى : لا يصح لهؤلاء الناس أن يتعجبوا من أننا أوحينا إلى رجل منهم ، أن ينذر الناس ويخوفهم عقاب الله إن عصوه وكفروا به ، ويبشر الذين آمنوا برسالته ، وعملوا الصالحات بأن لهم سابقة محققة فى الفضل وحسن الجزاء عند ربهم ، فالنبوة للبشر لا للملائكة ، كما تشهد به الكتب السماوية والتفاوت بين الناس ليس بالمال ، ولا بالزعامة بل بالعقل والكمال والاستقامة ، ورب رجل فى أعلى عليين بعقله وفضله ، وآخر فى أسفل سافلين بجهله وحمقه ، فما لهؤلاء المشركين ينكرون نُبُوةَ البشر ويطلبون رسلا من الملائكة ، مع أنهم يستسيغون ألوهية الحجر ، « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

وسميت سابقة الفضل قَدَمًا ، لأن السبق غالبا يكون بالقدم ، فهى التى يسعى بها المؤمن إلى الصالحات ، فى أكثر الحالات ، كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد غالبا .

وأضيفت القدم إلى الصدق للإيذان بأنهم ينالونها بصدق القول والعمل والنية

(قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) :

أى قال الكافرون إن محمدا لساحر ظاهر السحر ، والآية تشير إلى أن الرسول لم تقصر معجزاته على القرآن الذى هو أقوى معجزاته ، بل أظهر لهم خوارق ومعجزات أخرى غير القرآن الكريم ، فوصفوه لهذا كله بأنه ساحر مبين، وقد كذبوا فيما زعموه ، فما هى إلا آيات الحق المبين :

وكيف يترك الله ساحرا متقولاً على الله ولا ينتقم منه ، وصدق الله إذ يقول « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟
يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

المفـردات :

(فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ) :أى فى ستة أوقات لا يعلم مداها إلا الله تعالى أمَّا اليوم المعروف فإنه لم يحدث إلا بعد خلق السموات والأرض .

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) : ثم استولى عليه ،ومنه قول الشاعر استوى بشر على العراق . من غير سيف ودم مهراق .

أى ثم استولى على العرش ليدبر شئونه وشئون الكون كُله ، ولم يغلبه عليه أحد ، فهو وحده الخالق المدبر ، وسيأتى فى المعنى الحديثُ عن العرش .

(بِالْقِسْطِ) : بالعدل . (شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ) : شراب من ماء شديد الحرارة .

التفسـير

٣ - (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ) :

جاءت هذه الآية لإظهار بطلان تعجبهم من أن الله أرسل إليهم رجلا منهم لينذرهم ويبشرهم ، ولبيان خطيئتهم فى وصفه بأنه ساحر مبين .

والمعنى : إن ربكم ومالك أموركم هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أوقات بعيدة المدى لا يعلمها إلا الله ، اقتضاها تطوير خلقها من دخان إلى نجوم وكواكب وأرضين يابسات ، ثم استوى على العرش وملك سلطان الكون وهيمن عليه ، فكيف تعجبون من أنه أوحى إلى رجل منكم هو فى أعلى درجات الكمال الإنسانى ليبلغكم شريعته ، ويحذركم نقمته إن عصيتموه ، ويبشركم بحسن العاقبة إن أطعتموه ، وكيف تصفونه وهو الصادق المصدوق بأنه ساحر مبين ، مع أنه لم يمارس السحر طول حياته وقد عرفتموه فيما بينكم بالصادق الأمين ، فهل يعقل عاقل أن يؤيد الله رب هذا الملك والكون وخالق هذه الأرض والسموات وصاحب هذا العرش والسلطان ، كيف يعقل أن يؤيد بشراً بالمعجزات وهو غير صادق فى دعوى الرسالة وكيف تصفون من أيده الله بأنه ساحر مبين .

واعلم أيها الأخ المسلم ، أنه لاينبغى أن تورط نفسك فى فهم المراد من اليوم ، فأيام الله من شأنه وحده ، ولا علم لنا بها ، فتارة يكون يومه تعالى كألف سنة مما تعدون ، وأخرى يكون كخمسين ألف سنة ، وثالثة يكون أقل أو أكثر من ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، واليوم فى هذه الأيام الستة يمثل طوراً من أطوار التكوين ، وربما جاوز ملايين السنين فدع تقديره لمن هو أعلم به جل وعلا .

أما اليوم الذى يطلق تارة على النهار الواحد أو على مجموع ليل ونهار فإنه لم ينشأ إلا بعد تكوين الشمس والقمر والأرض ودورانها حولها وهو خاص بأرضنا هذه ، ولكل كوكب نهاره وليله اللائقان بحجمه وبما خلق من أجله .

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) :

ويطلق العرش فى اللغة حقيقة على سرير الملك ومجازاً على العز والسلطان ، ويطلق الاستواء على الاعتدال وعلى الإقبال وعلى الاستيلاء .

والمعنى اللائق باستوائه سبحانه على العرش هو استيلاؤه على سلطان الكون وتمكنه منه ومن تدبيره دون شريك ، أما تفسيره بمعنى الاعتدال والجلوس على سرير الملك ، فهو أمر يجب تنزيه المولى عنه ، لأنه ليس جسما ولا مادة وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

والسلف لايؤولون ويأخذون بظاهر النص ، ولكنهم ينزهون المولى عن أن يكون استواؤه على العرش ،كالذى يحدث من الملوك ، بل هو أمر يليق ينزهه تعالى عن مشابهة الحوادث ويجل عن تصور العقول .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) :

شروع فى بيان شئونه المترتبة على ملكه وسلطانه سبحانه وتعالى ، وتدبير الأمر معناه لغة النظر فى أدبار الأمور وعواقبها ، لتجىء محمودة العاقبة .

والمعنى : يقدر الله أمور الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به مشيئته ، ومن ذلك أمر الرسالات والرسل كما قال تعالى : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »(١) .

(مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) :

فى هذا النص الكريم تقرير لعظمته عز وجل واستقلاله فى التدبير ، ورد على من زعم منهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله .

والمعنى : مامن شفيع يشفع لأحد فى وقت من الأوقات ، إلا من بعد إذن الله المبنى على الحكم الباهرة ، وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار ، والمشفوع له ممن تليق به الشفاعة من عصاة المؤمنين .

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

ذلكم الموصوف بتلك الأوصاف الجليلة هو الله ربكم المنعم المتفضل عليكم الذى يدعوكم رسوله محمد إلى عبادته ، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ، أتغفلون عن مصلحتكم فلا تتعظون بتلك المواعظ وغيرها مما ينزل به القرآن الكريم .

٤ - (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا) :

إلى الله تعالى وحده رجوعكم جميعاً بالبعث والحشر لا إلى غيره ، وعد الله ذلك وعدا حقا لا خلف فيه ، فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه ، لتنالوا ثوابه وتنجوا من عقابه .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : (٥٤)

ثم بين قدرته على البعث والحكمة فيه فقال :

(إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ . . . .) :

إنه يبدأ الخلق لا على مثال سبق ، ثم يعيده فى النشأة الأُخرى على ما كان عليه ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات بعدله تعالى على حسب أعمالهم كما وكيفا ، ويزيدهم من فضله .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) :

والذين كفروا بالله ورسله ، ولم يهتموا بالآيات والنذر ولم يؤمنوا بيوم الحساب ، لهم شراب من ماءٍ شديد الحرارة يغلى فى البطون كغلى الحميم ، ولهم فوق ذلك عذاب شديد الإيلام بسبب إصرارهم على كفرهم واستمرارهم عليه .

(هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً) : أى جعلها ذات ضياء ، ويصح أن يكون هذا التعبير على المبالغة ، بجعلها نفس الضياء ، ومثل ذلك يقال فى جعل القمر نورًا .

(وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ) : أى وقدر كلا من الشمس والقمر ذا منازل ، ينزل فيها وينتقل إليها بنظام دقيق فى مداره الفلكى .

(مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) : أى ما خلقه إلَّا مقرونا بالحكمة والمصلحة .

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : أى فى تعاقبهما وكون كل واحد منهما خِلفة للآخر ، أو فى تخالفهما ظلمة وضياء وطولا وقصرًا وغير ذلك .

التفسير

٥ - (هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) :

بعد أن نبه الله عباده إلى أنه سيعيدهم فى النشأة الآخرة كما بدأهم فى النشأة الأولى ، ليجزيهم بما عملوا بالحق والعدل نبههم إلى آيات قدرته وآثار رحمته ، ومظاهر نعمته بجعل الشمس ضياءً والقمر نورًا ليشكروه ولا يكفروه ، ويرجوه ويحذروه .

والمعنى : هو الذى جعل الشمس مصدر ضياء ذاتى ساطع تنبعث منه الحرارة ، فتنشأ الكائنات الحية من نبات وحيوان ، وتعيش وتنشط بما تبثه فيها من أسباب الحياة والخفة والنشاط ، وتسعى فى سبيل رزقها مستضيئة بأشعتها .

وجعل القمر ذا نور هادئ يهتدى به السارون فى البر ، والماخرون فى البحر بعد أن غابت الشمس بضيائها تحت الأفق ، وأرخى الليل سدوله على وجه الأرض .

(وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) :

وقدر الله كل واحد من الشمس والقمر ذا منازل فى مداره الفلكى ينتقل إليها ، لتعلموا بانتقال كل منهما إليها عدد السنين التى تمر بكم وتضبطوا بها مصالحكم ومواقيتكم فى مواثيقكم ومختلف شئونكم ، ولتعلموا حساب الأوقات من الشهور والأيام ، التى نيطت بها مصالحكم الدنيوية والأخروية ونسبة الضياء إلى الشمس والنور إلى القمر ، لأن ما كان بالذات يطلق عليه ضياء ، وما كان بالعرض يطلق عليه نور ، ولما كانت أشعة الشمس ذاتية أطلق عليها ضياء ، ولما كانت أشعة القمر منعكسة عليه من أشعة الشمس ، أطلق عليه نور وقيل النور أعم من الضوء ، فالنور يشمل القوى والضعيف بخلاف الضوء فإنه خاص بالقوى فلذا يقال نور الشمس وضوؤها أما القمر فيضاف إليه النور دون الضوء ، وقيل غير ذلك ، وبانتقال الشمس فى هذه البروج ذات المنازل توجد الفصول الأربعة فى العام الشمسى وبانتقال القمر فى هذه البروج ذات المنازل تكون أوائل الشهور وأواخرها والله تعالى أعلم .

(مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ) :

ما خلق الله ذلك الذى تقدم من الشمس والقمر وأحوالهما إلا مقرونا بالحق ، مراعى فيه الحكمة والمصلحة ، فلم يخلقه عبثا ولا باطلا .

(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

يفصل الله تعالى هذه الآيات الكونية وغيرها مما اشتمل عليه القرآن الكريم ، يفصلها لقوم من ذوى العلم والعقل ليتدبروها ويؤمنوا بمبدعها ، ويمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه . « وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ »

٦ – (إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ) :

بعد أن بين آياته ونعمه فى الشمس والقمر ، عقَّبها بالإشارة إلى آياته فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض .

والمعنى : إن فى تعاقب الليل والنهار ، وكون كل منهما خلفا للآخر ، وفى اختلافهما بالظلام والضياء ، ليكون الليل بظلامه قرارًا والنهار بنوره نشورًا ، وفى تمايزهما بالزيادة والنقصان بالتداول بينهما – إن فى ذلك كله – وفيما خلق الله فى السموات والأرض من بدائع رائعة ، ومنافع كثيرة ، ونعم شاملة لآيات شاهدات بوجود الصانع ووحدته ، وكمال علمه وقدرته ووافر فضله ورحمته لقوم يتقون المعاطب تنبههم إلى طريق السلامة .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾)

المفردات :

(لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) : لايتوقعون الرجوع إلى الله تعالى .

(مَأْوَاهُمْ) : مسكنهم ومقرهم .

التفسير

٧ - (إِنَّ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) :

هذه الآية والتى تليها تبين مصير من كفر بالبعث وغفل عن آيات الله تعالى .

والمعنى : إن الذين لايتوقعون لقاء الله يوم الحساب ، ورضوا بالحياة الدنيا معتقدين أنها لاحياة بعدها ، فعملوا لها وغفلوا عن غرورها وخداعها ، وسكنوا فيها سكون من لا يبرحها آمنين من المزعجات ، والذين هم غافلون عن آيات الله فى كونه وعلى ألسنة رسله فلم يتزودوا ليوم الوعيد .

٨ - (أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

أولئك الذين تقدمت صفاتهم السيئة ، مرجعهم النار بما واظبوا على كسبه من الكفر والمعاصى .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم
بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾
دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ
دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾)

المفـردات :

(تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ) : تجرى من تحت قصورهم فى الجنة .

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا) : أى دُعَاؤهم فيها

التفسـير

٩ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِم تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ) :

بعد أن بين الله فى الآيتين السابقتين أن الكافرين بلقاء الله الغافلين عن آياته مأْواهم النار ، بسبب ما كانوا يكسبونه من الكفر والمعاصى ، جاء بهذه الآية والتى تليها لبيان أن مصير المؤمنين الجنة ، بسبب إيمانهم الممزوج بالعمل الصالح ، وَبِضِدِّها تتميز الأَشياءُ

والمعنى: إن الذين آمنوا بلقائنا وبكل ما يجب الإيمان به ،وعملوا ما ينبغى لهذا الإيمان من الأَعمال الصالحات ، يهديهم ربهم بسبب ذلك إلى مأْواهم الذى أَعده لهم فى الجنة ، حسب درجات أَعمالهم ، فينزلون فيه مكرمين ، تجرى من تحت قصورهم الأَنهار فى جنات النعيم الخالص من كل شائبة تنغص حياتهم .

١٠ - (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ) :

الدعوى هنا بمعنى الدعاء ، أى : دعاء المؤمنين الصالحين فى الجنة قولهم سبحانك اللهم .

وقد جرى عرف الشرع على إطلاق الدعاء على التهليل والتحميد والتمجيد والتسبيح ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أَكْثر دعائى ودُعَاء الأَنبيَاء قَبْلى بِعَرفات : لَا إِلَه إِلَّا الله وَحْدهُ لا شَريكَ لهُ ، لَه المُلْك ولَه الحَمْد ، وهُوَ علَى كلِّ شَىْءٍ قَدير » وفى تعليل ذلك يقول ابن الأَثير :

إنما سمي التهليل والتحميد والتمجيد دعاء ، لأنه بمنزلته فى استيجاب ثواب الله تعالى وجزائه .

وفى الحديث : « إذا شَغَل عَبْدى ثَنَاؤُه علىَّ عن مسْأَلتى ، أَعطَيتُه أَفضَل ما أُعطى السَّائِلينَ » .

(وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) :

وما يُحيُّونَ به فى الجنة لفظ السلام الدال على الأَمن والطمأْنينة والسلامة من كل مكروه .

وهذا السلام يقوله الله تعالى لهم ، كما قال تعالى : « سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ » ويقوله بعضهم لبعض ، ويقوله الملائكة لهم توكيدًا لمعانى الأَمن والسلامة والطمأْنينة دائمًا .

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

أَى وآخر دعائهم وذكرهم لربهم أَنهم يقولون الحمْد لله رب العالمين ، ويُرَى من الترتيب الذكرى فى الآية الكريمة أنه حكاية للترتيب الوقوعى فى الجنة ، وذلك أَن أَهلها من المؤْمنين حين يشرعون فى الدعاء يسبحون الله تعالى وينزهونه فيقابلون بالسلام ، وهو دعاء بالسلامة من كل مكروه تقوله الملائكة لهم ، ويقوله الله تعالى لا دعاء بل طَمْأَنَةً وتحية لهم منه جل وعلا ، ثم يختمون دعاءهم بالحمد لله رب العالمين ، وهكذا يستمر شأنهم بكرة وعشيًّا كما يشيرُ إليه حديث فى وصف أَهل الجنة « يُسَبِّحُونَ الله بُكْرَةً وَعشِيًّا » أَى يسبحونه تعالى من آن لآخر .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ
إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا
أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ
مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ
أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

المفـردات :

(لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) : لا نتهى الأجل الذى قدره الله لعذابهم وأميتوا جميعا وما أمهلوا لحظة واحدة .

(لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) : لا يتوقعون الرجوع إلينا لإنكارهم البعث .

(فِى طُغْيَانِهِمْ) : الطغيان؛ مجاوزة الحد فى الظلم والمراد هنا إنكارهم البعث وتكذيب الرسل وارتكاب ما يترتب على ذلك من المفاسد والموبقات .

(يَعْمَهُونَ) : يترددون ويتحيرون .

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ) :وإذا أصابه أى ضرر .

(دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) : تضرع إلينا وهو مضطجع على جنبه أو دعانا قاعدا أو قائما ، طالبا إزالته عنه .

(مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ) :

أى مضى واستمر على ماكان عليه قبل البلاء من التكذيب ، كأنه لم يلجأ إلينا لإزالة ما أصابه .

(زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : حسن للمتجاوزين الحد فى ارتكاب القبائح ماعملوه منها .

التفسير

١١ - (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ) :

بعد أن ذكر القرآن الكريم طائفة من جرائم الذين ينكرون البعث والجزاء ، جاءت هذه الآية تحكى معصية أخرى من أشنع معاصيهم المترتبة على ذلك ، وهى استعجالهم لنزول العذاب الذى توعدهم القرآن به ، مبالغة منهم فى الاستهزاء بمجيئه والتكذيب بوقوعه .

والمعنى :ولو يعجل الله تعالى لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث ،ولا يتوقعون الرجوع إلى الله الواحد القهار ، لو يعجل لهم -سبحانه - العذاب الذى كانوا يستعجلون به، مثل إسراعه بتحقيق الخير لهم عند استعجالهم به وطلبهم إياه .

(لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ) :

أى لأنهى الله إليهم مدتهم التى قدرها الله لعذابهم ،واستؤصلوا بإهلاكهم جميعا عن آخرهم ، وما أمهلوا لحظة واحدة جزاء جرأتهم ، كما قال تعالى : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ . . . » [1] ولكنه سبحانه يمهلهم ولا يعجل لهم الشر الذى طلبوه ولا ينهى إليهم أجلهم ، وإنما يتركهم إمهالا لهم واستدراجا ، كما قال تعالى :

(فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) : أى فنترك الذين لا يتوقعون لقاءنا يوم البعث ولا يصدقون بيوم القيامة ، غارقين فى ظلمهم الذى تجاوزوا فيه

(١) سورة فاطر الآية : ٤٥

الحدود ، وهو إنكارهم البعث وتهاويهم فى التكذيب وارتكابهم كل قبيح من الأقوال والأفعال ــ ندعهم فى هذا الحال السيئ يترددون ويتحيرون ، ولا نترفق بهم بسبب تماديهم فى البغى .

١٢ ــ (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْقَاعِدًا أَوْ قَائِمًا) .

فى الآية السابقة إشارة إلى أن الكفار كانوا يستعجلون نزول العذاب الذى توعدهم الله به استهانة بشأنه ، وفى هذه الآية الكريمة بين سبحانه أنه لو نزل بالإنسان أدنى مكروه ،فإنه يدعو الله فى كل حال راجيا إنقاذه منه وإزالته عنه لعجزه عن احتماله وحيث كان أمرهم كذلك فكيف يستعجلون عذابه .

والمعنى : وإذا أصاب الإنسان أى ضرر من مرض أو فقر أو غير ذلك من الشدائد دعا الله طالبا كشفه عنه وتخليصه منه ــ دعاه ــ فى حال اضطجاعه على جنبه أو فى حال قعوده ، أو فى حال قيامه .

والمراد أنه يتضرع إلى الله ليكشف ضره على أى حال يكون ، وإنما خصت هذه الثلاثة بالذكر لأنها أغلب أحوال الإنسان ، ثم بين القرآن أن هذا الذى تضرع إلى الله لرفع ما نزل به من البلاء رجع بعد تخليصه منه إلى الكفر والضلال ، فقال تعالى :

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ) :

أى فلما استجبنا له وأزلنا عنه الضُّرَّ الذى نزل به ، مضى واستمر على طريقته التى كان عليها من التكذيب والعناد قبل أن يمسه الضر ، وَنَسِىَ ماكان فيه من الجهد والبلاء كأن لم يدعنا إلى كشفِ ضُرٍّ مسه ،وإزالةِ مكروه نزل به .

(كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى مثل هذه الحال العجيبة التى تنكروا فيها لله تعالى ورجعوا إلى الضلال الذى كانوا فيه ، زين الشيطان للمسرفين فى الكفر والمعاصى ، ما كانوا يعملونه من الانغمـــاس

فى الشهوات، والانهماك فى الفجور والعصيان، والإعراض عن التوحيد والطاعات، وسموا مسرفين لأن الله أنعم عليهم بنعمة الفِكْر والعَقْل وسائر قوى الإدراك، ليستعملوها فى تحصيل الخير وعمل الصالحات وتعلم العلوم النافعة، فاستحبُّوا العمى على الهدى واستعملوها فى الظلم والتكذيب والفساد، وذلك هو الإسراف، ويستفاد من الآية الكريمة ذم الذين يتركون دعاء الله فى الرخاء ويتضرعون إليه عند نزول البلاء، والجدير بالمؤمنين أن يلجأُوا إلى الله فى السراء أيضا، فإن ذلك أرجى للإجابة فى الضراء ففى حديث البخارى: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِى الرَّخَاءِ يعْرِفْكَ فِى الشِّدَّةِ».

وفى حديث الترمذى عن أبى هريرة: «مَنْ سَرَّهُ أن يَسْتَجِيبَ الله - تَعَالَى - لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكُرُوب فَلْيُكْثِرْ الدُّعَاء فِى الرَّخَاء».

والآثار فى ذلك كثيرة، والمراد من الإنسان: الجنس المتحقق فى الكافر الذى يلجأُ إلى الله فى الشدة وينساه بعد إنقاذه منها.

ثم أخبر القرآن الكريم المخاطبين بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم - بإهلاك المكذبين من الأُمم السابقة ليكون إنذارا لمن جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقال تعالى:

١٣ - (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ):

أى ولقد أهلكنا الأُمَمَ الماضية من قبل زمانكم يا أهل مكة مثل قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم حين ظلموا بتماديهم فى الغى والضلال وتكذيبهم لرسلهم، وقد جاءوهم بالآيات الواضحة والحجج الظاهرة الدالة على صدقهم، كذبوهم فى هذه الحالة التى لا ينبغى فيها التكذيب والكفران، لأنها تدعو إلى التصديق وتقتضى الإيمان.

ثم بين القرآن أن هؤلاء لايستقيم منهم إيمان، ولا يصح منهم إذعان لفساد فطرتهم بإصرارهم على رد رسالات الله فى قوله :

(وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) :

أى وما صح لهؤلاء المُصِرِّين على الكفر والفساد أن يؤمنوا لبعدهم عن الإيمان، إذ أفسدوا فطرتهم بسوء اختيارهم الضلالة على الهدى، مع وضوح الحجة وسطوع البرهان .

(كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) :

أى مثل ذلك الجزاء الأليم الذى حلّ بالمكذبين من الأُمم الماضية، نجزى كل طائفة أجرمت وطغت وبغت وكفرت بأنعم الله .

وفى الآية تهديد لكفَّار مكة بأن يصيبهم ما أصاب المكذبين قبلهم، فقد اشتركوا مع المهلكين السابقين فيما يقتضى الإهلاك وهو كفرهم برسل الله .

(ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾) .

المفردات :

(خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ) : خلفاء فى الأرض بعد إهلاك المكذبين السابقين .

التفسير

١٤ - (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) :

بعد أن أوضحت الآية السابقة سبب إهلاك الأمم السابقة وهو أنهم أتتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا ، جاءت هذه الآية توضح لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم أنهم خلف للأُمم السابقة ، وفى محل الاختبار فقال تعالى :

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) :

أى : ثم جعلناكم أيها المخاطبون بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم خلفاء فى الأرض تصلحون ولا تفسدون ، من بعد أن أهلكنا المكذبين قبلكم ، الذين تسمعون أخبارهم وتشاهدون آثارهم .

(لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) : أى استخلفناكم من بعدهم . لنعلم واقعًا منكم وموجود أى عمل تعملون خيرًا كان أو شرًا ، مع ثبوت علمنا أزلا بما سيكون منكم ، ليكون الجزاء على ما يقع منكم فعلا .

والمراد : أنه تعالى يعاملكم معاملة من يختبر إنسانًا ، ليظهر من أمركم ، ما علم أزلا أنه سيحدث منكم باختياركم لتقوم به الحجة عليكم ، فيجازيكم على ما صدر منكم .

وأسلوب الآية يشعر باستمالة المخاطبين نحو الإيمان ، إذ الأصل أن يكون الاستخلاف بعد اختيار ، فإذا شعر المخاطب أنه اختير لما استخلف فيه ، لَانَ قلبهُ وانجذبت نفسه نحو القيام بعمل الصالحات .

(وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا) : لا يتوقعون مجيء البعث ، والمراد أنهم ينكرونه .

(وَلَا أَدْرَاكُمْ) : ولا أعلمكم الله بالقرآن عن طريق الوحى به إلىَّ .

(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِن قَبْلِهِ) : أى فقد أقمت بينكم زمنًا طويلا من قبل نزول القرآن علىَّ .

(لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) :أى لاينجون مما يحذرون ولا يفوزون بما يطلبون .

التفسير

١٥ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا . . .) الآية .

فى الآية السابقة خطاب من الله تعالى لأهل مكة يخبرهم فيه باستخلافهم فى الأرض ، بعد إهلاك المكذبين من الأمم الماضية ، تليينًا لقلوبهم ، واستمالة لهم إلى الإيمان ، ثم جاءت هذه الآية تعدد بعضًا من جرائمهم الدالة على أنهم لم يستجيبوا لدعوة الإيمان ، ولم يقوموا بما يقضى به استخلافهم ،فقد بينت إصرارهم على الكفر بآيات القرآن البينات ، والتكذيب بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، كدأب من أهلكوا قبلهم بتكذيبهم .

والمعنى :وإذا تتلى منك أيها الرسول على هؤلاء المكذبين المعاندين آياتنا العظيمة الصادقة ،التى أنزلناها عليك واضحة فى دلالتها على التوحيد وإبطال الشرك ، مرغِّبة فى الإيمان منفِّرة من العصيان .

(قَالَ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ) :

أى وإذا تلوت عليهم أيها الرسول آياتنا العظيمة الصادقة قال الذين لايتوقعون البعث ولا يؤمنون بيوم القيامة ردًّا لها وكفرًا بها ، أحضر يا محمد قرآنًا غير هذا القرآن الذى تتلو منه علينا .

أى جيء بكتاب آخر نقرؤه لا تكون فيه آيات تخبر عن وقوع البعث ويكون خاليًا مما نكره، من ذم آلهتنا ووعيد من يعبدها بالعقاب الشديد، وهم بهذا الطلب يريدون تغيير القرآن كله، بما فيه مما ينكرونه أما قولهم: (أَوْ بَدِّلْهُ) فهم يريدون به تبديل الآيات التى تسفه عقولهم وعقول آبائهم وتثبت البعث والعقاب على الشرك بآيات خالية عن ذلك مع استبقاء سواها .

ولا شك فى أنهم قصدوا من هذا الطلب الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بناء على طمعهم فى تحقيق إجابته لهم، ليتوسلوا بذلك إلى الاستهزاء به والسخرية منه، وإلزامه بما جاء به مما يوافق هواهم ورأيهم فى آلهتهم، كما اقترحوه عليه، وحينئذ لا يبقى له ولا لنبوته شأن فيهم .

وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، أن يرد عليهم بقوله :

(قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي) :

أى قل أيها الرسول لهؤلاء المتعنتين، ما يصح وما ينبغى لى أبدًا أن أضع آية مكان آية أخرى من جهتى وبرأيى دون أمر من الله سبحانه وتعالى .

والمراد بهذا الجواب رد الاقتراحين معًا لأن تبديل آية مكان آية، أخف من الإتيان بقرآن غير هذا القرآن الذى نزل، وإذا امتنع السهل واستحال امتنع الصعب واستحال بالطريق الأولى، ومما أمر به صلى الله عليه وسلم، بيانا بشأنه وحاله فى تلقى الشريعة وإبلاغها للناس قوله تعالى :

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ) : أى ما أتبع أيها الناس فيما أفعل وأترك إلا ما ينزل به الوحى من عند الله دون أن أغير منه شيئًا، وكذلك أمر الله أن يقول تعليلا لاتباعه الوحى وامتناعه من التبديل :

(إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

أى إنى أخاف إن عصيت مولاى الذى أرسلنى، بترك السير فى طريق الوحى المستقيم، أخاف عذاب يوم عظيم تكثر فيه الأهوال وتشتد الكربات وهو يوم القيامة .

١٦ – (قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ .....) الآية .

بعد أن بين القرآن الكريم فى الآية السابقة أن لا سبيل إلى ما اقترحوه تعنتًا، جاءت هذه الآية الكريمة تثبت أن القرآن حق، وأنه من عند الله العزيز الحكيم .

والمعنى :قل أيها النبي لهؤلاء المنكرين عنادًا واستكبارًا : لو شاء الله تعالى أن لا يجعلنى رسولا إليكم ما تلوته عليكم ولاأدراكم به عن طريقى ، فإن ذلك مما لاسبيل لى إليه .

(فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أى فقد أقمت بينكم زمنًا طويلا مقداره أربعون سنة ، عرفتم فيها جميع أحوالى وأحطتم خيرًا بكل أقوالى وأفعالى من قبل أن ينزل القرآن على ، فقد كنت لا أتكلم بينكم بما يشبه القرآن فى نظمه المعجز ، ومعناه الموضح لأحكام الشريعة من عبادات ومعاملات وأخلاق ، وأخبار الأمم الماضية مع رسلهم ، وغير ذلك مما جاء به القرآن ، كما كنت معروفًا بينكم بالصدق والأمانة ،أتغفلون عن ملاحظة ذلك فلا تدركون وجوب كونه من عند الله العزيز الحكيم ، ولا تعقلون امتناع صدوره عن مثلى ، وكيف يعقل أن أعرف بينكم فى هذا العمر الطويل ، بأننى لا أكذب على الناس ، ثم أكذب على الله المنتقم الجبار ، إن استحالة صدوره عنى أمر لا يخفى على من كان له أدنى فكر وأقل تدبر .

١٧ – (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) :

بعد أن أفادت الآية السابقة أن القرآن الكريم نزل بأمر الله تعالى ومشيئته على رسوله صلى الله عليه وسلم جاءت هذه الآيةتبين للناس أن من اختلق كلامًا من عند نفسه ونسبه إلى الله تعالى يكون أظلم الظالمين .

والمعنى : إذا كنت التزمت الصدق والأمانة مع الناس لأن الكذب ظلم ، فلهذا يستحيل أن أفترى الكذب على الله فلا أحد أعظم ظلما من الذين يختلقون على الله مالم ينزله عليهم ، أو يكذبون بآيات الله سبحانه وتعالى .

والمراد بيان براءته صلى الله عليه وسلم مما جوزه المشركون فى حقه من الافتراء على الله والتنبيه على أنهم هم أظلم من كل الظالمين ، إذ كذبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم وكفروا بجميع ما جاء به من عند ربه .

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) :

أى إن الشأن الثابت عنه تعالى فى علمه القديم ـ أنه لايفوز أى مجرم بمطلوب يطلبه ولا يسلم من مكروه يخافه فلا ينجوا الذين افتروا على الله وكذبوا آياته بالأولى لأن جرمهم أشد وأشنع .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ) : أى أتخبرون الله بشفعاء لايعلمهم فى السموات ولا فى الأرض ، والمراد نفى وجودهم إذ لو وجدوا لعلمهم الله سبحانه .

(أُمَّةً وَاحِدَةً) : جماعة متفقة على الحق فى أصل الفطرة .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ) : أى ولولا قضاءُ الله بتأخير الفصل بين المحق والمبطل إلى يوم القيامة .

التفسير

١٨ ـ (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ . . .) الآية .

بعد أن ذكرت الآيات السابقة طائفة من جرائم الكفار أهل مكة ، جاءت هذه الآية الكريمة تحكى عنهم جناية أخرى لعلها السبب فى تلك الجنايات السابقة .

أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال :

كان النضر بن الحارث يقول إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى فنزلت هذه الآية .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ) :

أى ويعبد هؤلاء المشركون من أهل مكة غير الله أصنامًا جعلوها له سبحانه شركاء فى العبادة فى حين أنها لا تستطيع أن تلحق بهم ضررًا ولا أن تجلب لهم نفعًا ، وشأن المعبود أن يكون قادرًا على الضر والنفع .

(وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ) :

أى ويقول هؤلاء المشركون تبريرًا لعبادتهم لها : هؤلاء الأوثان شُفَعَاؤُنَا فى الحياة الدنيا نتوسل بها إلى الله لإصلاح معاشنا وكل ما يهمنا من شئون هذه الحياة ، وشفعاؤنا فى الآخرة إن كان هناك بعث أو نشور كما زعمتم ، يشفعون لنا فى تخفيف العقاب عنا .

وبهذا التأويل ظهر أنه لاتنافى بين ما فهم من هذه الآية وبين الآيات الدالة على إنكارهم البعث كقوله تعالى : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ » وأمثاله .

وحال هؤلاء المشركين إن دل على شىء فإنما يدل على فرط جهالتهم وفظاعة حماقتهم ، إذ تركوا اللجوء إلى الخالق النافع الضار ، وتوسلوا بما يقطع الحس والنظر بأنه لا يضر ولا ينفع .

ثم أمر الله تعالى ، رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم تبكيتًا وتقريعًا :

(قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ) :

أى قل أيها الرسول لهؤلاء الحمقى إنكارًا عليهم وتوبيخًا لهم ، وسخرية منهم ، أتخبرون الله تعالى بشىء لا وجود له أصلا فى السموات ولا فى الأرض ، وهو أن الأصنام شفعاؤكم

عند الله تعالى إذ لو وجد ذلك فيهما وثبت ، لعلمه الواحد الصمد علام الغيوب فى جميع الكائنات ، فما لايعلمه فهو معدوم وليس له وجود ، فالمراد من نفى علمه تعالى به نفى وجوده فما لايعلمه فهو معدوم وليس له وجود .

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أى تنزيهًا لله تعالى عن إشراكهم الذى بنوا عليه هذا القول الزائف ، وعن الشركاء الذين يشركونهم فى العبادة معه تعالى .

١٩ – (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

بعد أن أشار القرآن الكريم إلى أن التوحيد هو الدين الحق وأن الشرك والانحراف ظلم عظيم ، وجهالات ابتدعها أهل الغى والضلال ، جاءت هذه الآية تؤكد هذا المعنى وتقرره ، إذْ أفادت أن التوحيد ملة قديمة اجتمعت عليها الأُمم قاطبة فطرة وتشريعًا .

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا) :

أى وما كان الناس كافة من لدن آدم عليه السلام إلا متفقين على الحق والتوحيد ، وظلوا كذلك حتى أغوى الشيطان فريقًا منهم فكفر ، وثبت الآخرون على التوحيد الذى فطروا عليه فخالف كل من الفريقين الآخر .

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) :

أى : ولولا أن قضى الله فى سابق علمه بتأْخير الفصل بين المؤمنين وغيرهم إلى الأَجل الذى حدده فى سابق علمه وهو يومُ القيامة .

(لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

أى : لحكم بينهم عاجلًا فى الدنيا بإهلاك المبطلين .

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير

٢٠ - (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) :

تحكى هذه الآية الكريمة جناية أخرى من جنايات أهل مكة ، حين بينت أنهم علقوا إيمانهم على نزول آية سوى ما أنزله الله تعالى من المعجزات وفى مقدمتها القرآن الكريم .

والمعنى : ويقول الكافرون من أهل مكة - تعنتًا وعنادًا - هلا أنزل الله على محمد آية من الآيات التى اقترحناها لنؤمن به رسولا من عند الله .

فأنت تراهم لفرط عتوهم وشدة تماديهم فى المكابرة والضلال ، لم يعدُّوا ما جاء به من الآيات البينات والمعجزات الباهرات كافيًا لقبولهم الهدى والدخول فى دين الله وقد أمر - صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم فى قوله :

(فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ) : أى فانتظروا نزوله إنى معكم من المنتظرين ، لكننى منتظر مايفعله الله بكم ، لاجترائكم جحود آياته .

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

المفردات :

(أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً) : أنعمنا عليهم بالرحمة والمراد بها الصحة والسعة .

(مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ) : أى من بعد ضراء أصابتهم حتى أحسوا بشدتها عليهم .

(إِذَا لَهُم مكْرٌ فِى آيَاتِنَا) : المراد بالمكر هنا الطعن فى آيات الله وعدم الاهتداء بها والاحتيال فى ردها ، والمكر فى الأصل تدبير الكيد فى خفاء .

(قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا) : المراد بيان أن الله أعجل عقوبة وأشد أخذًا .

التفسير

٢١ - (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ....) الآية .

روى أن الله جل شأنه سلط على أهل مكة القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان ، فلما دعا لهم واستجاب الله دعاءه ورحمهم بإنزال المطر ، أخذوا يطعنون فى آيات الله تعالى ويكيدون لرسوله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية .

والمعنى : وإذا أنعمنا على هؤلاء الكفار وأمثالهم بنعمة الصحة والسعة ، وأفضنا عليهم أنواع الخير ورحمناهم بكشف ما نزل بهم من المصائب الأليمة والمكاره الشديدة التى خالطتهم وأحاطت بهم حتى أحسوا بشدة وطأتها عليهم وسوء أثرها فيهم ، إذا رحمناهم بكشفها سارعوا سرًّا وفى خفاء إلى تدبير ضروب الكيد لآياتنا التى أنزلناها على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم واحتالوا فى دفعها وبالغوا فى تكذيبها .

(قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا) :

أى قل أيها الرسول لهؤلاء الماكرين تهديدًا لهم ووعيدًا :

الله جلت قدرته أعجل عقوبة وأشد أخذًا فلن يصل من كيدهم شىءٌ إلى رسول الله ، ولا إلى الحق الذى جاء به من عند الله ، وتسمية عقاب الله مكرًا لذكره مع مكرهم فى سياق واحد[1] ، ثم أكد القرآن الكريم تهديدهم حين قال تعالى :

(١) وهذا نوع من البلاغة يسمى مشاكلة .

(إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) :

أى : إن ملائكتنا الذين أمرناهم بحفظ أعمالكم وإحصائها عليكم ، مستمرون على كتابة ما دأبتم على تدبيره من الكيد فى خفاء ، ولم يخف عنهم ما بالغتم فى إخفائه ، وكيف يخفى على منزل الآيات علام الغيوب : وفى إخبار الله بإحصاء الحفظة لكيدهم بهذا الأسلوب المؤكد تحقيق لعقابهم على وجه بليغ .

(هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(ٱلْفُلْكِ) : السفن .

(بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) : بريح لينة الهبوب تسير بهم إلى المقصد .

(رِيحٌ عَاصِفٌ) : شديدة الهبوب ، وعصفت الريح : اشتدت ، وهو من باب جلس يجلس .

(ٱلْمَوْجُ) : ما علا وارتفع من الماء بسبب اضطراب مياه البحر من أثر اشتداد الريح .

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) : أى حوصروا بالشدة .

(إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ) : أى يسارعون إلى الإفساد فى أنحاء الأرض متجاوزين حدود ما أمر الله به ، والبغى التعدى والطغيان .

التفسير

٢٢ - (هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ . . .) الآية .

فى هذه الآية والتى بعدها حكاية جناية أخرى من جناياتهم مترتبة على ما مر من اختلاف أحوالهم تبعًا لاختلاف ما ينزل بهم من السراء والضراء .

سبب النزول :

عن سعد بن أبى وقاص قال : « لمَّا كان يوم الفتح فرَّ عكرمة بن أبى جهل فركب البحر فأصابهم عاصف فقال أصحاب السفينة لركابها : أخلصوا فإن آلهتكم لاتغنى عنكم شيئًا فقال عكرمة : لئن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص ما ينجينى فى البر غيره ، اللهم إنَّ لك عهدًا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه ، أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده ، فلأجدنه عفوًّا كريمًا قال : فجاء فأسلم » أخرجه أبو داود والنسائى وغيرهما .

والمعنى : هو الله الذى يُيَسِّر لكم أيها الناس سبل السير فى البر مشاة وركبانًا - وفى البحر - على ظهور السفن .

ثم حكى القرآن الكريم ما كان من أحوالهم بعد ركوبهم السفن وسيرها بهم فى البحر فى قوله تعالى :

(حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا) :

أى حتى إذا ركبتم السفن أيها الناس وجرت تلك السفن بمن فيها جريًا هادئًا مريحًا ، بسبب هبوب ريح لينة تتجه بسفنهم إلى الجهة التى يقصدونها ، وفرح الراكبون بتلك الريح الطيبة الهادئة التى تسير بسفنهم فى أمان واطمئنان إلى ما يريدون .

(جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) :

أى حتى إذا كان راكبو تلك السفن على هذه الحال من الهدوء والاستقرار ، هبت على تلك السفن ريح شديدة سريعة السير أهاجت مياه البحر ، فارتفعت الأمواج واضطربت ، وأحاطت بالسفن وبمن فيها من كل جانب ، وتقاذفتها من موجة إلى أخرى ، وظن راكبوها أن مسالك النجاة قد سدت أمامهم ، وأن الهلاك قد أحاط بهم من كل جانب ، وأنهم لا محالة هالكون فى هذه الشدة .

(دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) :

أى فى هذا الوقت الذى أوشكوا فيه على الهلاك ، رجعوا إلى أصل فطرتهم ، فدعوا الله وحده مخلصين له الدين ، غير مشركين معه سبحانه شيئا من الآلهة التى عبدوها من دون الله ، دعوا الله قائلين فى دعائهم :

(لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) : أى والله لئن أنقذتنا من هذه الكارثة المحيطة بنا ، لنكونن حتما بعد نجاتنا مما نزل بنا من أهوال من جملة الشاكرين دائما لنعمك الوفيرة وأفضالك العميمة ، فنشكر تفضلك علينا بالخلاص من أهوال البحر استجابة لدعائنا .

٢٣ – (فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) :

أى فلما استجاب الله تعالى لهم وأنقذهم مما نزل بهم من الأهوال والكربات ، بعد تضرعهم إليه ، سارعوا إلى الإفساد فى أقطار الأرض بغير حق ، ممعنين فى ذلك ومستمرين هذا الظلم الظاهر القبيح .

ثم خاطب القرآن الكريم هؤلاء الطغاة الباغين بما فيه تهديد لهم ووعيد بليغ على ظلمهم فقال تعالى :

(يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) :

أى يا أيها الناس الطغاة المعتدون إنما ضرر هذا الظلم الشديد الذى ترتكبونه فى الأرض ، يعود فى نهاية الأمر عليكم أنتم ، ولا يعود شىء منه على الذين تجاوزتم الحدود فى ظلمهم –

فإنَّ ما أصابهم من آثار ظلمكم لهم فى الدنيا، لا قيمة له ما داموا من أهل النعيم الدائم فى الآخرة، والآخرة خير وأبقى - وأما أنتم يا أيها الطغاة فإنما تتمتعون بثمرة بغيكم على الآمنين تمتُّعًا قاصرًا على الحياة الدنيا، ومتاع الدنيا قليل لا يعتد به، فهو سريع الزوال جالب للنكال مستتبع لعقاب العزيز القهار.

ثم زاد القرآن الكريم فى تهديدهم، وأكد وعيدهم حين قال:

(ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ):

أى ثم إلينا وحدنا رجوعكم أيها الباغون يوم القيامة لنذيقكم عقاب ما قدمتم فى حياتكم الآثمة، فنخبركم بما كنتم مستمرين عليه فى الدنيا من البغى والإفساد فى الأرض - نخبركم بذلك - زيادة فى إيلامكم والتنكيل بكم.

(إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾)

المفردات:

(مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا): صفة الحياة الدنيا من حيث سرعة انقضائها وزوال مُتَعِها.

(فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ): أى فاختلط بسببه نبات الأرض، بأن كثر فتشابك بعضه ببعض.

(وَازَّيَّنَتْ): أى وتزينت بأنواع النباتات وأشكالها وألوانها المختلفة.

(وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) : ظنوا أنهم متمكنون من تحصيل ثمرات الأرض .

(أَتَاهَا أَمْرُنَا) : أى نزلت بها الآفات التى اجتاحت النبات والثمار .

(فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ) : أى فجعلنا نبات الأرض هالكا كأنه لم يوجد فى الأرض قبل هلاكه .

التفسير

٢٤ – (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . . . .) الآية .

بعد أن بين القرآن الكريم فى الآية السابقة أن التمتع بالبغى على الناس قاصِرٌ على الحياة الدنيا ، جاءت هذه الآية تقرر هذا المعنى ، ببيان قصر أمدها وسرعة زوال نعيمها ، فلا ينبغى قصر الهمة عليها وحدها .

والمعنى : إنما مثل الحياة الدنيا وصفتها العجيبة فى سرعة انقضاء زمنها وزوال متعها وزينتها وجاهها ، بعد إقبالها على الناس واغترارهم بها وركونهم إليها – مثل هذه الحالة – كمثل الحالة الناشئة من نزول المطر من السماء على الأرض ، وإنبات الله به أنواع النبات مما يطعم الناس والأنعام ، واستمرار نموه بالماء حتى كثر وتشابك بعضه ببعض ، وتزينت الأرض بأنواع النباتات المتعددة وأشكالها المتفاوتة وألوانها المختلفة وطعومها المتنوعة ، وصارت كالعروس التى ازدانت بألوان الثياب وأنواع الزينة الفائقة ، وظن أصحاب تلك الأرض أنهم متمكنون من تحصيل ثمراتها ، جامعون لخيراتها فى هذه الحالة .

(أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا) :

أى أتاها الهلاك الذى قضاه الله وأمر به فى وقت الغفلة وفى وقت اليقظة ، فهما سواء فى أن أصحاب تلك الأرض التى دنا جنى قطافها لايستطيعون دفع أمر الله عنها وحين أصابتها الآفات صيّر الله نباتها مستأصلا هالكا كأنه لم يكن موجودا فى الأرض قبل نزول الجوائح .

والخلاصة :

أن القرآن صور للناس حال الدنيا فى سرعة انقضاء زمانها وزوال نعيمها ، بعد إقبالها على الناس واغترارهم بها واطمئنانهم إليها -صورها- بصورة ما على الأرض من أنواع النباتات التى زالت بهجتها ونضارتها فجأة وصارت حطاما ولم يبق لها على الأرض من أثر ، بعد أن ترعرعت ونمت وقويت سيقانها وتزينت الأرض بألوانها المختلفة، وأوشك الناس أن يجنوا قطافها وظنوا أنها قد سلمت لهم من المهالك .

(وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾)

التفسير

٢٥- (وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ) :

بعد أن حذر القرآن الكريم من الاغترار بالحياة الدنيا أو العمل لها وحدها رغَّب فى العمل للفوز بدار السلام وهى الجنة .

والمعنى : والله - تعالى - القادر على كل شىء الغنى عن العالمين يدعو الناس إلى دار السلام - وهى الجنة - بدعوتهم إلى الإسلام والعمل بشريعة القرآن .

وسميت الجنة دار السلام لسلامة أهلها من كل آفة ومكروه ، أو لأن الله تعالى يسلم عليهم فيها ، أو لأن الملائكة على أبوابها يقولون للداخلين فيها : « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » . أو لأن أهل الجنة يسلم بعضهم على بعض فيها كما قال تعالى : « تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ » .

(وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : أى ويرشد الله من أراد هدايتهم وهم الذين وفقهم إلى اختيار الهدى على الضلالة - يرشد هؤلاء- إلى طريق معتدل لاعوج فيه وهو الإسلام والعمل بشرائعه .

(* لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(الْحُسْنَى) : أى المثوبة الحسنى فى الجنة ، وهى تتفاوت حسب تفاوت درجات الإحسان .

(يَرْهَقُ) : يغشى ويغطى .

(قَتَرٌ) : أى غَبَرَةٌ فيها سواد كالقترة ، ومن معانيهما فى اللغة الدخان الكثيف من شواء أو فحم أو حطب أو غيره .

التفسير

٢٦ - (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) :

فى الآية السابقة دعا الله إلى دار السلام ، فمن الناس من أحسن استجابة الدعوة والعمل بها ، ومنهم من انصرف عنها ، وقد جاءت هذه الآية لتبين جزاء من أحسن الاستجابة ، وأول درجات الإحسان بعد الإيمان فعل الواجبات وترك المنهيات ، وأكمل درجاته : « أن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِن لَّمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » كما جاء فى حديث رواه مسلم . وقد وعد الله تعالى فى الآية بمكافأة المحسنين وزيادتهم فوق ما يستحقون ، وفى بيان ذلك روى الشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّة يَا أَهْلَ الْجَنَّة فيقولُون : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْر فى يَدَيْكَ فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ بِى ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبَّنَا وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَالَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقك فَيَقُولُ : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلكَ ؟ فَيَقُولُونَ : وَأَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلَ مِنْ ذَلكَ ؟ فَيَقُول : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانى فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا » .

وللمفسرين والمتكلِّمين فى الزيادة المذكورة فى الآية آراءٌ : فعن الحسن رضى الله عنه أنها مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فأكثر إلى سبعمائة ضعف أو تزيد : وعن مجاهد رضوان الله عليه . هى مغفرة الله تعالى ورضوانه ، ويرى جمهرة أهل السنة . أنها النظر إلى وجه الله سبحانه بعد حصولهم على ثوابه فى الجنة ، كما قال تعالى : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[1] . أى يوم القيامة ، فقد أثبتت هذه الآية لأهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهى حسن الوجوه ، والثانى النظر إلى وجهه الكريم ، وإلى الأول يشير قوله تعالى هنا :

(وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

أى أن أولئك المحسنين مكرمون أيضًا بأن تتألق وجوههم بنضرة النعيم ، فلا يلحقها قتر وهو الغُبْرة فى سواد ، ولا تلحقها ذلة وهى الخجل والانكسار ، والقتر حالة حسية والذلة حالة نفسية ، وقد أخبر الله بعد ذلك بأنهم أصحاب الجنة ، وذلك يشعر بأنها كالملك لهم (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : لا يخرجون منها أبدًا ، كما قال تعالى : « وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »[2] .

والآية فى أسلوبها تقصر الحسنى بجميع أنواعها على المحسنين وحدهم ثم تفيد أن الله يفيض عليهم زيادة عن الحسنى أنواعًا من الإنعام لا تعد ولا تحصى ، وأعلاها النظر إلى وجهه الكريم ، كما جاء فى الآية السابقة ، وأن يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا ، كما جاء فى حديث الشيخين الذى تقدم ذكره ، وقد أعد الله لخيار المحسنين منازل فى عليين ، وهى أعلى مكان فى الجنة ، وفيهم يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ عِلِّيِّينَ لَيُشْرِفُ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُضِيءُ الْجَنَّةَ بوَجْهِهِ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ » أخرجه أبو داود .

---

(١) سورة القيامة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ (٢) سورة الحجر ، من الآية : ٤٨

(وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾)

المفـردات :

(كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ) : عملوا المعاصى من كفر وغيره .

(مِنْ عَاصِمٍ) : من حافظ ومانع .

(أُغْشِيَتْ) : غطيت .

التفسير

٢٧ - (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّالَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ) :

بينت الآية السابقة جزاء المحسنين ، وجاءت هذه الآية لتُبين عقاب المُسيئين ، وقد أَفادت أنهم يجازون بالعدل المطلق ، فلا تضاعف سيئاتهم كما ضوعفت حسنات المحسنين بل يجزون بقدرها وهم لا يظلمون ، ونظرًا لترقُّبهم وقوع سوءِ الجزاءِ تعلوهم وتحيط بهم ذلة وهوان من شدّة الخزى وعقاب الله لهم ، فهم بين أَلم حسىّ وأَلم نفسى وليس لهم من دون الله منقذ أَو مدافع يحميهم من عذابه الأَليم ، ثم بين الله تعالى أَثر حيرتهم ويأْسهم على وجوههم فقال :

(كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا) :

فإنَّ زيادة آلامهم وشعورهم بالمذلة قد جعل وُجُوهَهم كأَنها مغطاة بقطع متراكمة من الليل المظلم لفرط سوادها وشدّة ظلمتها « وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ »[1] .

(١) سورة النور ، من الآية : ٤٠

(أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : أى أولئك الموصوفون بالصفات الذميمة السابقة أصحاب النار المستحقون لها فهى مقصورة عليهم لسوء فعلهم جزاءً وفاقًا :

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(فَزَيَّلْنَا) : فرقنا وفصلنا .

التفسير

٢٨ - (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ) :

تعرض الآية الكريمة وما تلاها مشهدًا من أهوال البعث والنشور « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »[1] إذ ينساق الخلائق إلى موقف الحشر من مشركين وما عبدوه من دون الله ومن غيرهم لا يتخلف منهم أحدٌ ، وفى حشر المشركين وما يعبدون يقول الله تعالى : « وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ »[2] فإذا تقدموا سمعوا زجرًا عنيفًا حين يقال لهم بأمر الله :

(مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ) : أى الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم للسؤال والجزاء قال تعالى : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ »[3]

---

(١) المطففين ، الآية : ٦

(٢) الفرقان ، من الآية : ١٧

(٣) الصافات ، الآية : ٢٤

(فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) :

أى ففرقنا بين المشركين والشركاء ، أى قطعنا الصلة التى كانت بين العبدة ومعبوداتها فى الدنيا ، فقد تبين الحال وخابت فيهم الآمال ، ولم يعد لهم أمل فى شَفَاعَتِهِمْ فيئسُوا منهم ، وابتعدوا عن اللجوء إليهم ، وقيل إن التفريق بينهم فى الموقف حسىٌّ ، والأول هو اللائق بالمقام ، وحينئذ تبرأ الشركاء من عابديهم ، قائلين لهم : ما كنتم تخصوننا بالعبادة فى الحقيقة ، بل كنتم تعبدون شهواتكمْ وشياطينكم التى دعتكم إلى الإشراك ، وهؤلاء الشركاء المتبرئون إما أصحاب عقل وإدراك كالملائكة والبشر ، وإما غيرهم كالأصنام والكواكب ، أما تبرّؤ الأولين من عابديهم فلا يحتاج إلى تأويل ، وأما تَبرُّؤ نحو الأصنام ، فيكون بلسان الحال أو المقال ، بأن ينطقها الله الذى أنطق كل شىء « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ »(1) .

٢٩ - (فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ) :

بَعْدَمَا تبرأ الشركاء من عبادة عابديهم ، استشهدوا بالله على براءتهم منها ، قائلين : فيكفينا الله شهيدًا بيننا وبينكم على براءتنا من إشراككُمْ ، فإننا لم نجبركم عليه ، ولا أشرنا عليكم به وإن شأننا معكم أننا كنا عن عبادتكم لنا غافلين : والمراد من الغفلة هنا عدم رضاهم عنها .

(هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾)

المفـردات :

(تَبْلُو) : تعرف يقينًا ما قدمت .

---

(1) البقرة ، الآية : ١٦٦

التفسير

٣٠ - (هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ) :

أى : فى هذا المكان ، وهو موقف الحساب ، تعرف يقينًا كل نفس مؤمنة أو كافرة ، سعيدة أو شقية ، ما عملت فى الدنيا من خير أو شر ، فتراهما فى كتاب « . . . لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[١] .

وفى قراءة أخرى (تَتْلُو) أى تقرأ صحيفة أعمالها قراءة تعطيها صورة واضحة صادقة لكل ما عملته فى الدنيا « اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا »[٢] .

(وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

أى ورجعوا إلى الله فى الآخرة وعرفوا أنه تعالى هو المالك الحق وحده دون ما اتخذوه من الأنداد والشركاء ، وهكذا غاب وذهب عنهم ما كانوا يدعون زورًا وبهتانًا من الشفعاء والشركاء ، وظهر ضلاله وبطلانه ، فلم يجدوا أحدًا ينقذهم ولا ينصرهم من دون الله « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ »[٣] .

(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) : يصرف شأن الكائنات بنظام دقيق وحكمة بالغة .

---

(١) الكهف الآية : ٤٩
(٢) الإسراء الآية : ١٤
(٣) الانفطار الآية : ١٩

التفسير

٣١ - (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) : بعد أن صورت الآيات السابقة مشهدًا رهيبًا من مشاهد القيامة يهيئ النفوس للتوبة والإنابة إلى الله ، جاءت هذه الآية وما بعدها تناقش المشركين فى قضيه الألوهية أهم القضايا الدينية ، وتضعهم أمام البراهين العقلية الواضحة ،وتحذرهم وتنذرهم بعد ذلك من الخروج عن دائرة الحق ،واعلم أن المشركين يؤمنون فى قرارة نفوسهم بخالق واحد يصرف الأمور وهو الله تعالى ، ولكنهم يتخذون إليه الشفعاء ليقربوهم إليه زلفى ،وقد أمر الله رسوله أن يسألهم سؤال إفحام وإلزام ،ليعدلوا عما هم فيه من الإشراك فى العبادة ، فقال له :

(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) :وهو سؤال يتناول أمورًا حسية تتعلق بكيانكم وحياتكم اليومية وهو الرزق المتجدد من السماء بإنزال المطر ، ومن الأرض بإنبات النباتات وخلق الحيوان وتربيته ، والإمداد بأنواع المعادن المختلفة والمياه الجوفية ، وما تستخرجونه من البحر من أسماك وخيرات ، وما يدرج على الأرض أو يحلق فى السماء من أنواع الطيور وغير ذلك من سائر الأرزاق ، فلا شك أن هذا الرزق بأنواعه هو من عند الله تكريمًا لكم وحفظًا لحياتكم - كما سيجئ بيانه فى آخر الآية :

(أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ) : هذا هو السؤال الثانى الذى أمرالله رسوله أن يوجهه إلى المشركين ، أى أخبرونى من يملك أداة السمع وما أعد فيها من أسباب إدراك المسموعات؟ ومن يملك أداة البصر ، وما هيئت به لإدراك المبصرات ؟

وقد جاء لفظ السمع مفردًا ولفظ الأبصار جمعًا لأن السمع يتناول نوعًا واحدًا هو الأصوات ، أما الأبصار فتتناول الأحجام والأبعاد والألوان والأشكال ، والسمعُ والأبصارُ يدركان الغالبية العظمى من المحسات .

(وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) : هذا هو السؤال الثالث ، أى ومن ذا الذى يملك الحياة والموت فى العالم كله فيخرج الأحياء والأموات بعضها من بعض فيما تعرفون من المخلوقات التى تحدث أو تموت ، وذلك كالإنسان خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون وهو ميت ثم سواه ونفخ فيه من روحه فدبت فيه الحياة ، فهذا

مثل لإخراج الله الحى من الميت وهو الصلصال بعد الحمأ المسنون ، أما الميت يخرجه الله من الحى ، فكالجنين يخرجه الله من أمه ميتًا ، وكالحيوان يميته الله بعد أن كان حيًّا ، وقيل فى معناه : يخرج المؤمن من الكافر . والكافر من المؤمن . وقيل غير ذلك .

(وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) : أى ومن يقوم بتدبير أمور العالم كله بعد إيجاده ، فسيكون جوابهم أن فاعل ذلك كله هو الله رب العالمين وحده بلا تردد فى الجواب ولا تأخير ، إذ لا مجال للمكابرة لوضوحه غاية الوضوح ، ولأنهم معترفون به ، ثم يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم تبكيتًا وتوبيخًا بقوله : (فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

أى أتقرون بأن الله هو الرزاق ، وهو الذى يهب السمع والأبصار ويملكهما ، والذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، والذى يدبر أمر الكائنات بحكمته ـ أتقرون بذلك ـ فلا تقون أنفسكم من عذابه بترك عبادة الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، ولا تقدر على شىء من هذه الأمور .

أليس الأجدر بمن يقرون بذلك كله أن يؤمنوا بالله وحده ، ويتقوه ويعبدوه مخلصين له الدين .

(فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ) : أى فكيف تتحولون عن الحق .

(فَسَقُوا) : خرجوا عن طاعة الله ، وأصل الفسق الانسلاخ عن الجلد ، ومنه فسقت الرطبة عن قشرها ، أى انسلخت منه ، والفاجر فاسق لانسلاخه عن طاعة الله .

التفسير

٣٢ - (فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ) : أى فذلكم القادر على الحق المتصرف فيه باعترافكم هو الله المربى لكم على موائد كرمه ، الذى تتوالى عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، الحقُّ الجدير بأن يعبد وحده دون شريك .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) :

فى هذا تقرير بأن المعبود الحق واحد لا يتعدد وضده الباطل . ولا وسيط بينهما . فلا يجتمع الإيمان والشرك فى قلب واحد . وهذا استفهام للنفى والتوبيخ .

والمعنى إذا كان الله هو الرب الحق وانصرفتم عن إفراده بالعبادة فليس بعد ترك الحق إلا الضلال ، وهو إشراك الأصنام مع الله فى العبادة ، وهو أمر لا يختاره عاقل .

(فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ) . يعنى إذا عرفتم هذه الأمور الواضحة فكيف تنصرفون عن عبادة الله ، وكيف تتحولون عن الحق إلى الضلال بعد العلم بأنه هو الرازق المحيى المميت المدبر للأمر كله .

٣٣ - (كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) : أى وكما ثبت أن الحق ليس بعده إلا الضلال أو كما ثبت أنهم انصرفوا عن الحق بعد معرفته وجب وثبت حكمه تعالى على الذين تمردوا على طاعته أنهم لن يكونوا مؤمنين ما داموا مصرين على ما هم عليه ، والمقصود من الآية أن الله يتخلى عنهم فلا يعينهم على الإيمان ، فمن بَعُدَ عن الله بَعُدَ الله عنه ، « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[1] والمراد من كلمة (الله) حكمه وقضاؤه كما تقدم فى بيان المعنى .

---

(١) آل عمران ، من الآية : ١١٧

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفـردات :

(أَنَّى) : كيف .

(تُؤْفَكُونَ) : أى تصرفون عن الحق إلى الباطل .

التفسير

٣٤ - (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) : بعد أن احتج الله على المشركين بما سبق بيانه ، جاءت هذه الآية تحكى احتجاجًا آخر على ثبوت التوحيد وبطلان الإشراك ، بإظهار كون الشركاء لايتصفون بصفات الإلٓه الحق .

والمعنى : قل لهم أيها الرسول سائلاً إياهم على سبيل الإنكار والتوبيخ والإلزام ، هل يوجد من بين هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله فى العبادة من له القدرة على بدء الخلق ثم إعادته بعد الفناء ؟ ولما كان هذا السؤال مما لا يجيبون عليه لإنكارهم البعث والمعاد : أمر الله رسوله أن يبين لهم من يستطيع ذلك وهو الله تبارك وتعالى فقال :

(قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) : لأنه هو القادر وحده على البدء باعترافهم ، ومن قدر على البدء ، فهو قادر على الإعادة ، كما قال تعالى : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[1] وفى قوله تعالى (ثُمَّ يُعِيدُهُ) تهديد بالعقاب لهم يستدعي التفكير فى التوبة من الشرك .

(فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) : أى إذا ثبت أن الله هو القادر على البدء والإعادة فكيف تعدلون به غيره فتنقلبون من الحق إلى الباطل ، وتتركون التوحيد إلى الشرك إن فعلكم هذا لعجيب لا يصح أن يكون .

---

(١) الأعراف ، من الآية : ٢٩

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفـردات :

(يَهِدِّى) : يهتدى . .

(يُهْدَى) : أى إلا أن يهديه الله تعالى .

التفسير

٣٥ـ (قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ) : هذا احتجاج آخر على حَقِّيَة التوحيد وبطلان الشرك ، جىء به إلزامًا بعد إلزام ، والمعنى قل لهم أيها الرسول هل من هؤلاء الشركاء من يستطيع أن يرشد عابديه إلى الحق ببيانه أو بإلهامه وتوفيقه ؟ وهو أقل صفات الألوهية ، فإذا قالوا : لا . ولا بد لهم من ذلك : فقل الله وحده يهدى ويرشد إلى الحق بالأدلة والبراهين ، وبالإلهام والتوفيق ، وبإرسال الرسل وإنزال الكتب قال تعالى : « مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا »[(١)] .

(أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّايَهِدِّى إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) : أى إذا كان الله هو الحق وهو الذى يهدى إلى الحق وحده فهل الذى يهدى إلى الحق أولى بالاتباع ، أم الآلهة الذين عبدتموهم من دونه وهم لايهتدون إلى مقصد من المقاصد إلا أن يهديهم الله إليه ، ولا شك أن جواب هذا السؤال يتعين عند العقلاء أن يكون : من يهدى إلى

(١) الكهف من الآية : ١٧

الحق - وهو الله - أحق بالاتباع والعبادة من هؤلاء الشركاء العاجزين عن الاهتداء إلى المقاصد إلا بهدايته لو أراد جل وعلا، وكما أنه لا وجه للموازنة بين القادر والعاجز، ولا بين القوى والضعيف، فكذلك لا وجه للمقارنة بين الهادى وبين من يحتاج إلى الهداية، ولذا عقبه بما يفيد التعجب من حالهم، وذلك فى قوله تعالى: (فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ): أى فما الذى حملكم على اتخاذكم هؤلاء شركاء لله سبحانه وتعالى وكيف تحكمون هذا الحكم الجائر وأنتم تعرفون بطلانه؟

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾)

التفسير

٣٦ - (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا): بعد الأسئلة السابقة والأجوبة عليها التى دلت على حقية التوحيد وبطلان الشرك: جاءت هذه الآية توضح سبب خطئهم فى اعتقادهم وهو اعتماد أكثرهم على الظن فى أحكامهم.

والمعنى: وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين فى معتقداتهم وأحكامهم إلا أوهامًا يتوارثونها عن آبائهم وأجدادهم، دون أن يكون لهم عليها من دليل يدعو إلى الاطمئنان واليقين، والمراد بأكثرهم جميع المشركين، فكلهم عقائدهم ظنية، ناشئة عن أوهام وخيالات، وقيل الضمير فى أكثرهم للناس جميعًا، وما يتبع أكثر الناس إلا الظن [1]، ثم بين القرآن الكريم أن الظن لا يقوم مقام اليقين الناشئ عن البراهين القطعية فى شئون العقائد فقال:

(إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا): أى إن الظن لا تثبت به الحقائق، ولا يقوم مقام العلم اليقينى فى الاعتقاد الصحيح المطابق للواقع ولا يغنى عنه شيئًا، فكيف سميتم معبوداتكم آلهة زورًا وبهتانًا وعبدتموهم من دون الله بغير برهان، وصدق الله إذ يقول فى شأنها: «إِنْ هِيَ إِلَّا

(١) وعلى هذا فالتعبير بأكثر على حقيقته.

أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ »[١] . والمراد هنا من الحق ماثبت بطريق وحى سماوى ، أو دليل عقلى مبنى على الآيات الكونية ، وقد استدل العلماء بهذه الآية وبما ورد فى قوله تعالى : « إن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا »[٢] على أن العلم اليقينى واجب على كل مسلم فى أصول العقائد .

(إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) :أى إنه تعالى واسع العلم فيعلم أفعالهم ، من اتباعهم الظن وتكذيبهم الحق .

وفى الآية إنذار مؤكد لأولئك الجاحدين بأنهم سينالون ما يستحقون من عقاب أليم « وَاللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ »[٣] .

(وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾)

المفـردات :

(مَاكَانَ) : ماصح ولا استقام .

(يُفْتَرَى) : يختلق .

(وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ) : أى ولكن أنزله تصديقًا للكتب السماوية التى سبقته فى أصول العقائد والأحكام قبل تحريفها .

(وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ) : تبيين ماكتب وأثبت فى الكتب السماوية .

---

(١) النجم من الآية : ٢٧

(٢) سورة النجم من الآية : ٢٨

(٣) سورة البروج من الآية : ٢٠

التفسير

٣٧ - (وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ) : بعد أن تناولت الآيات السابقة بالأدلة القاطعة إثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى، وقدرته وحكمته وتدبيره ، جاءت هذه الآية وما بعدها تبين استحالة أن يكون القرآن مفترى من عند محمد - صلى الله عليه وسلم - نفيًا لما زعم المشركون .

والمعنى : ليس يصح فى شأن القرآن وهو على ماهو من العلو أسلوبًا ونهجًا وغاية ، أن يكون مفترى من عند محمد وأعانه عليه قوم آخرون كما افتراه عليه المشركون ، فإن هذا غير ممكن فهو « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »(١) فانظر إليه فى أسلوبه ومعانيه واتساق آياته ، وفيما جمع من تشريعات وعقائد وأخلاق وآداب ، وحكم وأمثال وكشوف غيبية وحقائق علمية ، جاءت فى أقصى درجات الفصاحة والبلاغة والدقة ، وفى أنماط سامية وآفاق عالية ، فإنك تقطع بأنه لايقدر على الإتيان بمثله أحد من الإنس والجن « وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »(٢) وتتأكد أنه من عند الله وحده « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »(٣) .

(وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) : أى ولكن أنزله الله مصدقًا وموافقًا لما تقدم من الكتب السماوية ، فى أصول العقائد والأحكام قبل أن يعتريها التحريف، مصححًا للعقائد التى عبثت بها أهواء القسيسين والأحبار والرهبان حيث ردها القرآن إلى التوحيد الخالص .

(وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) : أى وأنزله أيضًا تفصيلا لما أجملته الكتب السماوية السابقة من عقائد وتشريع ومواعظ ومن شئون الاجتماع وسنن الله فى خلقه وزادها تكميلا ، فلا محل لأى شك فى أنه كلام الله رب العالمين ، الذى تعهد النوع الإنسانى بالتربية والتعليم والهداية .

---

(١) سورة هود من الآية : ١

(٢) سورة الإسراء من الآية : ٨٨

(٣) سورة النساء من الآية : ٨٢

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

التفسير

٣٨ - ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ :

بعد أن بين الله فى الآية السابقة أن القرآن يستحيل أن يفترى على الله ، وَبَيَّنَ أيضا أنه أنزل من عند الله مصدقا ومفصلا للكتب السابقة ، جاء بهذه الآية حكاية لزعم المعاندين الجاهلين أن محمدًا افتراه ، وتعجيبا من قولهم وردا لفريتهم والمعنى : بل أيقولون افتراه محمد عليه الصلاة والسلام واختلقه من قبل نفسه ، قل لهم أيها الرسول الكريم موبخا لهم ومبرهنًا على بطلان مقالتهم : هاتوا سورة مثل أيِّة سورة من سوره حتى يصح زعمكم أن محمدًا افتراه على الله ، فأنتم أرباب فصاحة وبلاغة ، وأنتم تعرفون أنه أُمى كما قال تعالى: « وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ »[1] .

ولم يكن هذا أول ادعاءٍ لهم بالافتراء ، فقد تكرر منهم إذ تحدثوا به أول الأمر فتحداهم القرآن أن يأتوا بمثل القرآن كله فلم يستطيعوا ، وبعد فترة شعروا بقوته تتزايد فعاودوا دعوى الافتراء معاندين ، فعاود القرآن التحدى لا فى مثله بل فى عشر سور منه فلم يتمكنوا ، وتزايد عليهم العجز وظهروا مفحمين لا يجدون جوابًا ، ولكنهم عاودوا بعد فترة زعمهم القديم ، فعاد القرآن لتحديهم هذه المرة أن يأتوا بسورة مثله وهو ماجاء فى هذه السورة حتى يلجئهم إلى صمت العاجزين ، وهكذا أثبت القرآن عليهم وعلى أمثالهم العجز العام عن محاكاته ، فمن عسى أن يزعم مثل هذا الزعم اليوم ، فعليه أن يجيب على هذا التحدى وإلا فليطبق فمه ، وليمضغ أكاذيبه ، ومن عجب أن ترى من أعداء الإسلام اليوم من يزعم أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو صاحب القرآن وقائله : رغم هذا التحدى

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٤٨

الدائم : وهكذا كان الإلحاد الجديد صورة منسوخة من الأول القديم وماله عليه من دليل، وقد بقى القرآن العظيم شامخًا شموخ الجبال الرواسي وتحطمت على صخوره كل مفترياتهم.

(وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) : فى هذه الجملة من الآية الكريمة توسع القرآن فى دائرة التحدى وطلب منهم أن يستعينوا بمن يستطيعون الاستعانة به بشرًا أو آلهة ، وأمهلهم ماشاءوا ولا يزال فى تحديه للبشر ، ولكنهم - آخرهم كأولهم - أمام إعجاز بما هو متنوع متفرع ، فمنه الإعجاز اللغوى ومنه العلمى والتشريعى والغيبى ، وكل منها لم يعارض ، ولو كان ممكنًا لأتوا بمثله ولكن ظهر عجزهم وبطل ماقالوه ولزمهم الإفحام .

وكلمة (إن) فى قوله (إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) : تفيد التشكيك فى صدقهم ، ليشعروا بهوانهم وبقصورهم عن شرف الصادقين ، وقوله (مِن دُونِ اللهِ) يشير إلى أنه لايقدر عليه سوى الله تعالى .

وصدق الله إذ يقول : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[1]

(بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾)

التفسير

٣٩ - (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) :

لما ظهر عجزهم عن الإتيان بسورة مثله وتبين أن ما قالوه باطل لا وجه له من الصواب بين فى هذه الآية ما حملهم على تكذيب القرآن المشتمل على الحق الذى لا غاية وراءه .

---

(١) سورة فصلت الآية : ٤٢

والمعنى : أن هؤلاء الكفار لم يحكموا على القرآن بأنه مفترى من دون الله بمقتضى برهان يؤدى إلى ما ذهبوا إليه ، بل كذبوا بكتاب عظيم من غير إحاطة بعلم ما فيه ولا تدبر لمعانيه ، ولا وقوف على ما جاء به من الأدلة الشاهدة بصدقه ، من تشريع حكيم ، وآداب وحكم عالية ، وغير ذلك من أسرار إعجازه ، ولم يأتهم بَعْدُ تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يتبين لهم أنه صادق وليس بكاذب ، أو المعنى : ولم يبلغ أذهانهم ما فيه من المعانى الدالة على علوِّ شأنه . والمقصود : أن القرآن آية كبرى على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم سارعوا بالتكذيب قبل أن يتدبروا نظمه ويتفحصوا معناه والتعبير بلفظ (لَمَّا) المفيدة لوقوع تأويله مستقبلا ، للإيذان بأنهم لو تريثوا ولم يسارعوا بالتكذيب ، لأدركوا تأويله ، وعرفوا فضائله ومعانيه السامية ، ولتحققوا من صدقه .

(كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) :

أى مثل هذا التكذيب الناشىء عن عدم التدبر كذب الذين من قبلهم رسلهم ، فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوه ، وكان هذا سببًا فى أن حل بهم جزاءُ ما كانوا به يستهزئون ، فكانوا سلفًا ومثلا للآخرين ، يعتبر به كل عاقل ، فانظر يا محمد أنت وأمتك والناس جميعًا مآل الظلم والظالمين ، وصدق الله إذ يقول : « فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[١] .

---

(١) العنكبوت من الآية : ٤٠

﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

التفسير

٤٠ - (وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ) :

أى ومن أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - من سيؤمن بالقرآن وما جاء به ويتخلى عن عناده بعد الإحاطة بعلمه وظهور حقيقته ، ومنهم من يصر على الكفر والعناد فلا يصدق به فى نفسه كما لا يصدق به ظاهرًا ، لفرط عناده وغباوته واختلال تمييزه ، ويجوز أن يكون المعنى : ومن هؤلاء المشركين من قومك من يصدق به فى نفسه ، ولكنه يكفر به عنادًا ، ومنهم من لايصدق به فى نفسه لفرط جهله فيكفر به اعتقادًا .

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ) : أى وربك يا محمد أعلم بأولئك المفسدين فى الأرض بعقائدهم الزائفة وأعمالهم الفاسدة ، وسوف يجازيهم بما يستحقون : وهذه الجملة وعيد للمصرين على الكفر مع وضوح البرهان .

٤١ - (وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ . .) الآية .

أى وإن كذبك هؤلاء الكفار - مع علمهم بأنك الصادق الأمين - فقل لهم يامحمد : لى جزاء عملى ، ولكم جزاء عملكم ، فلا أحد منا يتحمل مسئولية عمل الآخر ، ثم أمر الله نبيه أن يؤكد هذا المعنى بأن يقول لهم :

(أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ) : فلا تتحملون مسئوليته (وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) : فلست مسئولا عنه ، ولعل هذه السياسة تترك أثرًا حسنًا فى نفوسهم ، يتصاعد شيئًا فشيئًا حتى يستدنى

القلوب ، ويأخذ بالألباب ويرد العقول الشاردة كما قال الله تعالى : « اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ »[1] .

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(الصُّمَّ) : فاقدي حاسة السمع .

(لَا يُبْصِرُونَ) : أي لا يدركون ببصيرتهم .

التفسير

٤٢ - (وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ) :

لمَّا ذكر القرآن الكريم في الآية السابقة ما أمر الله به رسوله من أن يقول للمكذبين : « لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ » مُعْلنا براءته منهم ، بين له هنا مثل الذين فقدوا الاستعداد للإيمان فقال تعالى :

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) : أي ومنهم ناس يستمعون إليك عند قراءتك للقرآن وتعليمك الشرائع للناس ، ولكنهم لا يستمعون حقًّا ، إذًا لا يتدبرون القول ، ولا يعقلون ما يراد منه ، ولا يفقهون ما يرمي إليه ، وكان شأنهم في سماعه كما قال تعالى : « مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ »[2] . فلهذا أنزلهم الله منزلة الصم بقوله :

---

(١) الشورى من الآية : ١٥ (٢) الأنبياء الآية : ٢ ، ٣

(أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَايَعْقِلُونَ) : أى أنهم لم يستمعوه استماع تفهم وإقبال ، حيث أغلقوا نوافذ العقل والعلم ، فلهذا اعتبرهم الله صماً لا يسمعون ، وأنزل على رسوله هذه الجملة معذرا له فى عدم استفادتهم من تبليغه .

والمعنى : أفأنت تسمع من فقدوا حاسة السمع ، ولو كانوا مع صممهم لايعقلون ، كهؤلاء الذين أعرضوا عن الإيمان بما دعوتهم إليه ، يعنى أن هؤلاء المشركين جمعوا إلى صممهم عدم العقل « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »(١) . « إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغ »(٢) .

٤٣ - (وَمِنْهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ) : أى يتأمل فى شأنك ويعاين دلائل نبوتك ويشاهد عبادتك وسيرتك فى حياتك العملية الكريمة ، ومع هذا لايزال مقيمًا على عناده مصرًّا على كفره وتكذيبه .

(أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَايُبْصِرُونَ) : المراد بكونهم لايبصرون ، أنهم لابصيرة فى قلوبهم ، ولا تفكير لديهم ، والمعنى : أفأنت تستطيع أن تهدى من فقد البصر فكيف إذا انضم إلى فقد البصر فقدان البصيرة ، والمقصود من الآيتين : أن هداية الدين كهداية الحِسِّ لا تكون إلا للمستعد لها ، ولهذا كان لا بد فى هداية الدين من هداية العقل ، وهدايةُ العقل لا تحصل إلا بتوجيه النفس وصحة القصد التماسا لهداية الله ، وليس عليك إلا البلاغ كما قال تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ »(٣) وفى هذا مواساة كريمة من الله لرسوله عليه الصلاة والسلام .

٤٤ - (إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : لما بين فيما سبق امتناع اهتدائهم لأنهم عطلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم ، بين فى هذه الآية أنه تعالى لم يظلمهم حيث وهب الناس الأسماع والأبصار والعقول وسائر الحواس ، ليصرفوها فيما خلقت من أجله ، وشَدَّ أزرَ الحواس بالعقل ، وأزر العقل بالهدى عن طريق إرسال الرسل والكتب ، وسخر لهم مافى السموات ومافى الأرض « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »(٤)

---

(١) سورة فاطر من الآية : ٨
(٢) الشورى من الآية : ٤٨
(٣) البقرة من الآية : ٢٧٢
(٤) النساء من الآية : ١٦٥

فلا عذر لأحد بعد ذلك ، ولكن من الناس من عطل مشاعره وقواه ، وصرفها عن استعمالها فيما يهديه ، فظلم نفسه ومجتمعه والإنسانية كلها ، فاستحق من الله الجزاء العادل .

والمعنى : إن الله لايظلم الناس شيئًا من الظلم حين يعاقبهم يوم القيامة على معاصيهم فقد منحهم سائر القوى التى تمكنهم من فعل الخير وتمنعهم عن الشر ، فصرفوها فى غير ما خلقت له ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم حيث استمروا على السيئات الموجبة للتعذيب فكان عقاب الله لهم جزاءً وفاقًا ، فهو عدل من الله تعالى لا ظلم فيه .

وفى الآية إشارة إلى أن عاقبة ظلمهم مقصورة عليهم ، وأن للعبد كسبًا وليس مسلوب الاختيار كما زعمت الجبرية ، وفى ذلك يقول الله تعالى « كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ »[1] .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾)

التفسير

٤٥ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ) :

هذه الآية للتذكير بمقدار ظلم الظالمين المشركين لأنفسهم وخسارتهم فى الآخرة بسبب تكذيبهم بها ، وكفرهم بالحساب والجزاء فيها .

والمعنى : وَحَذِّرْهم أيها الرسول يوم يحشرهم الله ويجمعهم بعد بعثهم من القبور فى موقف الحساب والجزاء ، وحينئذ يدركون قصر مدة مكثهم فى الدنيا كأنها مقدار ساعة قضوها وحين يخرجون من قبورهم يتعارفون بينهم ، فلا ينسى أحد منهم من كان يعرفه من قبل ، ثم تنقطع المعرفة عندما يشاهدون أهوال القيامة « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[2] .

---

(١) الطور من الآية : ٢١

(٢) سورة عبس الآيات : ٣٤ - ٣٧

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ) : فى هذه الجملة حكم من الله تعالى بخسران المكذبين وتعجيب من حالهم حيث لم يستعدوا ليوم الدين بالإيمان وعمل الصالحات المزكِّية للنفوس ، وآثروا عليها الدنيا القصيرة الأمد ، المليئة بالأكدار ، والتى يرونها يوم الحشر كأنها ساعة من نهار ، وقد بين الله تعالى ضلالهم فيما ذهبوا إليه فقال :

(وَمَاكَانُوا مُهْتَدِينَ) : أى وماكانوا مهتدين إلى الصواب فيما ذهبوا إليه واختاروه لأنفسهم ، من إيثارهم الفانى على الباقى ، وهو الأعمال الصالحة التى هى ثمرات الإيمان الصحيح ، والعاقل من يستعمل عقله ويأخذ حذره ، ويختار الأصلح والأنفع والأبقى ، والمقصود من لقاء الله : حسابه وجزاؤه فى الآخرة قال تعالى : « ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[1] .

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾)

التفسير

٤٦ - (وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) : أى أن هؤلاء المشركين لن يفلتوا من عقابنا عاجلا أو آجلا ، فإمَّا أن ننزله بهم فى الدنيا ونريك بعض ماتوعدناهم به من قبل وفاتك ، وإما أن نتوفاك فإلينا رجوعهم للحساب والعقاب على ماكسبوا من جرائم ، فتراه ماثلا أمام عينيك .

(ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَايَفْعَلُونَ) : هذه الجملة فيها تأكيد للوعيد السابق ، والمراد منها أن أعمالهم محصاة عليهم وأنها معلومة بدقائقها لله تعالى ، فهو شهيد على مايفعلون

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٠٨

فى دنياهم من الشرك والمعاصى ، وأنه لن يفلت أحد من عقابه . والتعبير بـ (ثُمَّ) للإيذان بسمو شهادة الله عليهم ، وعلوّ مرتبة علمه بهم ، فإنه لاتفوته صغيرة ولاكبيرة ، وفى ذلك مافيه من تأكيد الوعيد .

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾)

التفسير

٤٧ - (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ) : أى ولكل أمة من البشر رسول يبعثه الله إليهم ليهديهم إلى التوحيد ، ويدعوهم إلى دين الحق بشريعة خاصة بهم ، فيها صلاح معاشهم ومعادهم ، وذلك لأنه سبحانه يعلم قصور العقل البشرى عن إدراك مافيه صلاح أمورهم الدنيوية والأخروية ، مع وجود الصوارف النفسية والشهوانية التى جبل عليها الإنسان ، وكثيراً ما تغريهم بالضلال ، فلذلك اقتضت حكمته تعالى أن لايعذب عباده ، قبل أن يبعث إليهم رسولا ليبصرهم بعواقب الأمور ، كما قال تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »[1] وقال : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »[2] .

(فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ) : أى فإذا جاء كل أمة رسولهم مؤيَّدًا من الله بالمعجزات المثبتة لرسالته ، وانقسموا بشأنه بين مصدق ومكذب قضى الله تعالى بينهم بالحق وهم لا يظلمون بفوت ثواب أو زيادة عقاب .

---

(١) سورة الإسراء من الآية : ١٥

(٢) سورة النساء من الآية : ١٦٥

٤٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

أى ويقول المشركون من أمتك وغيرهم استبعادًا لوقوع ما توعدهم به الرسل . واستهزاءً بهذا الوعيد ، متى يتحقق ما أنذرتمونا به إن كنتم صادقين فى هذا الوعيد .

(قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾)

التفسير

٤٩ - (قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ...) الآية .

لما استبعد الكفار وقوع ما توعدهم به القرآن من العذاب ، وكانوا يستعجلونه استهزاءً وتكذيبًا . أمر الله رسوله أن يقول : (لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا) أدفعه عنها ، أو نفعًا أجلبه إليها . لكن ما شاء الله من ذلك وقع ، فكيف أملك إخباركم بالموعد الذى حدده الله لعقوبتكم . أو استعجال وقوعه .

(لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) : أى لكل أمة وقت مضروب لهلاكهم ، إذا جاء هذا الوقت فلا يتأخرون ساعة عنه . ولا يتقدمون . فلا يصح لهم أن يستعجلوه مستهزئين مستنكرين . ولا يمكن أن يجىء قبل أوانه . قال تعالى : « وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » (١) .

---

(١) سورة العنكبوت من الآية : ٥٣

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ
مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم
بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ
تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢ ﴾

المفردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أى أخبرونى . (بَيَاتًا) : أى ليلا ، وقت نومكم وغفلتكم .

(مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) : أى شيء يستعجل المجرمون من العذاب .

(أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ) : أى أبعْد مايقع العذاب حقيقة تؤمنون به ، ودخول همزة الاستفهام على (ثُمَّ) : لإنكار تأخيرهم الإيمان إلى وقت وقوع العذاب وتوبيخهم عليه .

التفسير

٥٠ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا) : أمر الله -تعالى- رسوله أن يبكّت المشركين على كفرهم واستعجالهم العذاب بأن يقول لهم ما معناه : أخبرونى ما حالكم وما شأنكم إن أتاكم عذاب الله فى ليلكم وأنتم نائمون ، أو فى نهاركم وأنتم غافلون عنه باشتغالكم فى معا شكم .

والمراد : أخبرونى عن حالكم إذا باغتكم العذاب فى أى حال .

(مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ) : يعنى أى شيء من أنواع العذاب يستعجله المشركون ؟ وليس شيءٌ منه يقتضى الاستعجال ، فمن له عقل سليم لا يليق به أن يستعجله ، فإنه موجب للفرار منه ، لا لاستعجاله .

٥١ - (أَثُمَّ إِذَا مَا وقعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِه تَسْتَعْجِلُونَ) :

أى أتستعجلون العذاب متهكمين ساخرين ، ثم إذا دهمكم آمنتم به حين: « لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا »[1] فالله تعالى ينكر عليهم تأخير إيمانهم إلى الوقت الذى لا يكون فيه إلا الحسرة والندامة قال تعالى :

« فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ »[2] .

٥٢ - (ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) :

أى ثم قيل لهم فى الآخرة إهانة وإذلالاً وتبكيتا ، ذوقوا عذاب الخلد فى النار ، هل تجزون هذا الجزاء إلا بسبب ما كسبتمونه فى دنياكم من الكفر بالحق ، وغشيان المعاصى على اختلاف أنواعها ، والإصرار عليها .

والمراد من قوله : (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ) :إثبات عدل الله تعالى ونفى الظلم عنه ، ببيان أن إصرارهم على الباطل هو الذى انتهى بهم إلى هذا المصير .

(۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(وَيَسْتَنبِئُونَكَ) : أى ويطلبون منك النبأ وهو الخبر .

(إِى وَرَبِّى) : نعم وحق ربى .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٥٨

(٢) سورة غافر ، الآية : ٨٥

(وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) : أى وما أنتم بمفلتين من عذاب الله .

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ) : قال أبو عبيدة : معناه وأظهروا الندامة ، وقال غيره : وأخفوا الندامة ــ فهو من الأضداد .

(بِالْقِسْطِ) : القسط بكسر القاف بمعنى العدل أما بفتحها فبمعنى الظلم وليس له موضع هنا .

التفسير

٥٣ ــ (وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ) : لا يزال الكلام متصلا فى نقاش الكافرين ، والنبأُ : الخبر الهامّ والاستنباء: طلب النبإ .

والمعنى : ويطلبون منك أيها الرسول أن تخبرهم عن العذاب أحق وصدق هو . وأنهم ملاقوه لا يفوتهم . وهم بسؤالهم هذا لا يريدون الجواب بل يقولونه مستهزئين ، معتقدين أنه وعد باطل . ثم أمر الله رسوله أن يجيبهم فقال :

(قُل إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) : أى قل لهم أيها الرسول ــ غير مكترث باستهزائهم ــ نعم وحق ربى إن العذاب الذى أوعدتموه وأنذرتم به لحق ثابت لا شك فى وقوعه ، فهو مقدور لله وما أنتم بمفلتين منه .

٥٤ ــ (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ) : أى ولو أن لكل نفس ارتكبت الظلم بعصيان ربها ، لو أن لها جميع ما فى الأرض لقدمته فدية من هذا العذاب إن كان الافتداء يجديها .

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ) : أى وأخفوا الندامة على ما فعلوا من الظلم ، ولم يظهروها لا تصبُّرا ولا تجلدا ، بل لأنهم بهتوا عند رؤيتهم فظاعة الحال وشدة الأهوال التى لم تخطر لهم على بال ، فلم يقدروا على النطق بشىء ، أو أنهم كتموها فى أنفسهم لأنهم رأوا أن لا نفع فى إظهارها وقتئذ ، وقيل : معناه وأظهروا الندامة تألما وتضجرا .

(وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :أى وحكم بينهم بالعدل التام الذى لا ظلم فيه بوجه من الوجوه « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » [١]

(١) سورة النحل ، من الآية : ٣٣

(أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾)

التفسير

٥٥ - (أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . .) الآية .

افتتح الله تعالى هذه الآية بكلمة (أَلَا) لينبِّه الغافلين إلى ما جاء فيها من دلائل ربوبيته ، والمعنى : ألا إن لله وحده ما فى السموات والأرض من أجزائهما وما استقر فيهما من الكائنات ، له كل ذلك خلقا وملكا وتصرفا ، فلا يشاركه فيه شريك ، وليس لغيره فيه سلطان ، ثم نبه الله عقب ذلك على أن ما وعد به حق فقال :

(أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ) : أى كل ما وعد به الله على لسان رسله حق وواقع لا شك فيه ، وفى جملة ذلك البعث والحساب ، فهو القادر الذى لا يخلف الميعاد .

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : أى ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، لا عن طريق النظر والاستدلال ، ولا عن طريق الكتب السماوية ، فإن معظمهم كفار بذلك عند نزول القرآن .

(هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾)

التفسير

٥٦ - (هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

أى هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة ، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة للحساب والجزاء ، ومَن شأنه ذلك يجب أن يحذر عقابه العقلاء ، وأن يسارعوا إلى الإيمان بما أنزله على رسوله لهداية عباده .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾)

التفسير

٥٧ ـ (يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) : جاءت هذه الآية خطاباً لمشركى مكة ، لا ستمالتهم نحو الحق ، بعد تحذيرهم من عاقبة ما هم عليه من الضلال بما تقدم من الآيات التى تنعى عليهم سوء عاقبتهم ، ومع أن الخطاب فيها لأهل مكة ، ولكن الحكم فيها عام لكل من على شاكلتهم من الناس كما يدل عليه لفظ : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ) حيث عبر به بدلا من يا أهل مكة ، والمراد من الموعظة التى جاءت من ربهم القرآن الكريم ، وقد وصف فى الآية بأربعة أوصاف ، وهى أنه موعظة وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين .

والمعنى : يا أيها الناس الذين أعرضتم عن الإسلام ، قد جاءكم من مالككم ومربيكم الرءوف بكم ، جاءكم منه كتاب يدعوكم إلى الإسلام ، اجتمعت فيه أربع صفات أولها : أنه موعظة وتذكير منه لكم ، فقد عرفكم بالخصال الكريمة ، وحثكم عليها ، وبيَّن لكم حسن عاقبتها ، وكشف لكم عن الخصال الذميمة ونهاكم عنها ، وبيَّن لكم سوء عاقبتها .

وثانيتها : أنه شفاءٌ لما فى الصدور فقد بيَّن الحق وأقام عليه الدلائل والبراهين المطمئنة للنفوس الحائرة ، وبيَّن الباطل وأقام البراهين على بطلانه ووجوب تركه ، ولم يترك مجالا لأمراض الصدور عند العقلاء المنصفين ، فهو لهذا كله شاف لما فى الصدور من الأمراض كالجهل والشك والشرك والنفاق وغيرها من العقائد الفاسدة ، فكأنه نفس الشفاء .

وثالثها : أنه هدى ، فهو هادٍ إلى طريق الحق واليقين ، بالإرشاد إلى أدلته ، فكأنه نفس الهدى .

رابعها : أنه رحمة للمؤمنين ، فقد نجوا به من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وانتقلوا به من استحقاق العذاب أيام كفرهم ، إلى استحقاق النعيم المقيم بسبب إيمانهم.

٥٨ - (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) :

هذه الآية مرتبطة بكل ما جاء فى الآية التى قبلها .

والمعنى : قل يامحمد : أيها الناس قد جاءكُم القرآن واعظًا لكم وشافيًا لصدوركم وهادياً لقلوبكم ، ورحمة للمؤمنين منكم ، وهذا كله بفضل الله - تعالى - وبرحمته ، فبذلك وحده فليفرح الناس جميعًا ، فإنه خير وأبقى مما يجمعون من متاع الدينا ، فهو زاد الآخرة الذى ليس له فناء ، أمَّا الدنيا ومتاعها فإلى زوال وإلى هباء .

هذا : وقد قرئ : (فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ) بأُسلوب الخطاب وبهذه القراءة وافقت الآية أُسلوب الخطاب الذى جرى فى الآية قبلها[(١)] .

---

(١) يلاحظ أن قراءة حفص التى نقرأ بها (فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) جاءت بأسلوب الغيبة على طريق الالتفات من الخطاب فى الآية السابقة إلى الغيبة هنا ، وهو لون من ألوان البلاغة فى التعبير ، أما قراءة (فلتفرحوا هو خير مما تجمعون) بأسلوب الخطاب فقد جاءت على نسق الخطاب فى الآية التى قبلها ، فلا التفات فيها .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات :

(رِزْقٍ) :الرزق فى اللغة : ما ينتفع به ، ومعلوم أنه ليس كله نازلا من السماء ، وإنما الذى أنزل من السماء هو التشريع الذى أحله أو أسبابه التى حدث بها كالمطر والهواء وأشعة الشمس ، وعلى هذا فالمرادُ من إنزال الرزق من السماء هو إنزال تشريعه أو أسبابه ، وفسر بعض العلماء إنزال الرزق بمعنى خلقه ، وعليه فلا إشكال .

التفسير

٥٩ - ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ... ﴾الآية .

لما بين الله تعالى فضله على الناس ورحمته بهم بإنزال القرآن الهادى لهم ، شرع يناقشهم فيما حرموه من رزق الله الذى أحله لهم ، ويوبخهم على هذا التحريم المخالف لما شرعه لعباده ، فقال جل ثناؤه :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ... ﴾ الآية .

والمعنى : قل أيها الرسول للمشركين الذين يحرمون بعضما أحل الله للناس من الرزق أخبرونى : ما خلق الله لكم من رزق ، أنزل حله فى شريعة إبراهيم وإسماعيل ، فجعلتم بعض هذا الرزق حرامًا ، وحرمتم منه أنفسكم ، وبعضه حلالا وتناولتموه ، فقد قلتم :

« هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ »[1] وحرمتم البحيرة والسائبة والوصيله والحامى وقلتم : «مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا » إلى غير ذلك مما حرمتموه وأحللتموه ، مع أنه كله حلال .

(قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) : قل لهؤلاء الذين يحرمون رزق الله الحلال ، هل الله أذن لكم فى هذا التحريم ، أم لم يأذن لكم ، بل تفترونه عليه ، ثم توعدهم على هذا الافتراء فقال :

٦٠ - (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... » الآية .

الافتراءُ هو الكذب ، وجمعهما معا فى قوله تعالى : (يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) لإظهار مزيد قبح ما افتعلوه .

والمعنى : وأى شىء ظن أولئك المفترون فيما سيقع يوم القيامة أيحسبون أنهم لا يُسألون عن افترائهم ، أولا يجازون عليه ، أم أنهم يجازون جزاءً يسيرا ، ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون كلا إنهم سيلقون أشد العذاب ، لأن معصيتهم أشد المعاصى ، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا .

(إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) :

إن الله لذو فضل عظيم على الناس جميعا ، حيث أنعم عليهم بالعقل المميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ، ورحمهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل ، ليبين لهم بذلك الأحكام التى لا تصل إليها عقولهم ، وأرشدهم إلى ما يهمهم من أمر المعاش والمعاد ، وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ولكن أكثرهم لا يشكرون تلك النعم ، فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم إلى ما خلقت له ولا يتبعون دليل العقل فيما يستقل به ، ولا يتبعون دليل الشرع فيما لا يدرك إلا به ، مع أنه قد بين لهم ماسيلقونه يوم القيامة إن أعرضوا عن الحق ، ولكنهم لا يلتفتون إليه .

---

(١) راجع تفسير الآيتين ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة الأنعام والآية ١٠٣ من سورة المائدة .

(وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(فِى شَأْنٍ) : فى أمر تقصده . (كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا) : كنا رقباء مطلعين عليكم .

(تُفِيضُونَ فِيهِ) : تخوضون وتندفعون فيه ، وأصل الإفاضة الاندفاع بكثرة أو بقوة .

(وَمَا يَعْزُبُ) : ولا يغيب . (مِثْقَالِ ذَرَّةٍ) : المثقال ؛ الوزن ، والذرة : النملة والهباء[1] .

(كِتَابٍ مُبِينٍ) : المراد به اللوح المحفوظ أو هو كناية عن علمه تعالى ، ومعنى مبين بين واضح .

التفسير

٦١ - (وَمَا تَكُونُ فى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا . . .) الآية .

جاءت هذه الآية إثر بيان دعوة المشركين إلى الإيمان بالقرآن ، والفرح بما جاء فيه من آيات الحق ، ليبين أن الله يعلم حال الرسول مع قومه فى تبليغهم أمر ربه ، وحال قومه معه فى شأن ما دعاهم إليه وأنه سيجازى كلا حسب حاله .

والمعنى : وما تكون يامحمد فى شأن من شئون الإسلام ، وما تتلو من شأنك هذا من قرآن ، ولا تعملون من عمل يا أيها الناس الذين بلغتكم دعوته ، واستمعتم منه قرآن ربه ، إلا كنا عليكم رقباء وحافظين ، حين تخوضون فى شأن هذا القرآن وتندفعون فى حقه بالباطل ، وما يغيب عن علم ربك من شىء فى وزن الهباء الدقيق ، سواء أكان

---

(١) يطلق الهباء على الغبار وعلى ما يشبه الدخان وعلى دقاق التراب ساطعة ومنثورة على وجه الأرض قاموس ، وفسرت الذرة فى المعجم الوسيط بأصغر جزء فى عنصر ما .

ذلك الشئ الدقيق فى الأرض أو فى السماء ، ولا أصغر من ذلك الهباء ولا أكبر منه إلا فى علمه تعالى لا يغيب عنه منه شىء فكيف تخفى عليه تعالى أعمالكم ، وكيف يغيب عنه كفركم .

(أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(أَوْلِيَاءَ اللهِ) : أولياء : جمع ولى ، ومن معانيه لغة القريب ، وقد أطلق الأولياء فى عرف القرآن على المؤمنين الصادقين ، لقربهم الروحى من الله تعالى .

(الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ) : البشرى : مصدر أريد به المبشر به ، وبشرى الحياة الدنيا خيراتها العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك ، وبشرى الحياة الآخرة ما أعد لهم فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

التفسير

٦٢ - (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) :

قَبْلَ هذه الآية توعد الله المفترين عليه بما أشار إليه من عقوبتهم يوم القيامة بقوله : (وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) : وعقَّب ذلك ببيان أنه تعالى مطلع على جهد نبيه فى أمته ، وعالم بما أفاض فيه المشركون نحو دعوته ، مشيرًا بذلك إلى أنهم سيجزون عليه وعلى كفرهم سوء الجزاء ، وجاءت هذه الآية وما بعدها ، لتطمئن المؤمنين على أنفسهم وتبشرهم بالخير العميم فى الدنيا والآخرة ، وقد صدرت الآية بحرف التنبيه وهو (ألاَ) لاسترعاء انتباههم إلى ما بعده من البشائر الإلٰهية العظيمة ، كما أكد مضمونها بحرف (إنَّ) وبالجملة الإسمية .

والمعنى : أن أحباء الله المقرَّبين إليه بالإيمان والعمل الصالح لا خوف عليهم فى الدنيا من قضاء أعدائهم عليهم ، فقد مكن لهم فى الأرض ، وآتاهم فيها العزة كما قال سبحانه : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ »[1]. ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة كما بشَّر به النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا مجال للخوف عليهم فى دنياهم ، ولئن أصاب منهم أعداؤهم فى بعض المواقع ، فإن الدائرة بإذن الله ستكون لهم عليهم ، فهم فى ظل رعاية الله وحمايته ، ما داموا على طاعته والإعداد لنصرة دينه « وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »[2]. وبالجملة فإنه لايعتريهم فى دنياهم ما يوجب الخوف عليهم ما داموا على ولاية الله والتقرب إليه بالتقوى والاستقامة ، والحذر من الأعداء ، والتأهب لدفع عدوانهم بما استطاعوا من قوة ، وكما أنهم لا خوف عليهم فى دنياهم فلا خوف عليهم فى أخراهم ، فهم فى الدنيا دائمو الخشية من الله ، يؤدون ما كلفهم به من الطاعات ، وينتهون عما نهى عنه من المنهيات ، ويستصغرون ما أدوه نحوه من حقوق العبودية ، ويجتهدون فى تجريد أعمالهم من الرياء ، ويرجون منه الفضل بالقبول ، ومن كان هذا شأنهم فإنهم لا خوف عليهم أيضًا فى أخراهم . وكما أنهم لا خوف عليهم فى الدارين فإنهم لايحزنون فيهما على فوت رغيبة من رغائبهم ، فإنه تعالى منحهم نعمة الطاعة والرضا فى دنياهم ، فإن أقبلت عليهم النعمة والصحة والأمن والرخاء حمدوا وشكروا ، وإن فاتهم ذلك أو بعضه رضوا وصبروا ، ومن عليهم فى أخراهم بجنة عرضها السموات والأرض ينعمون فيها بنعيم مقيم يفوق أعمالهم ، ولا ترقى إلى مثله آمالهم ، فهو فوق ما كانوا يؤملون ويتصورون ثم عقب الله هذا الوعد الكريم لأوليائه ببيان صفتهم التى تحقق ولايتهم فقال :

٦٣ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) :

أى أن أولياءه تعالى هم الذين آمنوا بكل ما جاء من عنده ، وواظبوا على تقواه - فلا يفعلون إلا ما رضى عنه الله ورسوله ، ولا يتركون طاعة من طاعاته ، فأمرهم دائر بين واجب ومسنون ، أما المباحات فهم يمارسونها بقدر ما يعينهم على طاعة الله وكثيرًا ما أغفلوها

(١) سورة المنافقون ، من الآية : ٨

(٢) سورة الحج ، من الآية : ٤٠

وإن أحل لهم فعلها، وإن فعلوها فلا ينقص فعلها من ولايتهم « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »ومن هذا النص الكريم، نعلم أن الولاية ليست بالادعاء ولا بالتزيي بزى الزاهدين مظهرًا ، ولا بالعقل المسلوب ، واللعاب السائل ولا بالإسراف فى الزهد، ولكنها بالإيمان الصادق، والطبع الصافى والاختيار الكامل حتى يتقى ربه باختيار وكسب وإرادة، أما أولئك الذى يدعون أنهم مستغرقون فى الذات العلية ، وأن التكاليف سقطت عنهم، لأنهم جذبوا إلى حضرة الله فسقطت عنهم التكاليف، فلذلك لايشعرون بما يصنعون من حلال ومن حرام، فهم شياطين يتخذون من هذا الزعم وسيلة لغشيان المحرمات وفعل المنكرات، وكذلك ليس من أولياء الله مسلوبو العقول ولا من يلبسون المرقعات ، ويحملون العصى الطويلة ، ويلبسون المسابح لإيهام السذج والمغفلين أنهم من أهل القرب والوصول، فهؤلاء شياطين سفاحون هاربون من السجون أو دجالون يسلبون الأموال، فاحذروهم أيها المومنون فأولياءُ الله عقلاء، أطهار الظاهر والباطن، عرفوا بالصدق فى طاعة الله، والإقبال عليها فى غفلة الغافلين ويقظة المتيقظين، فى غير تصنع ولا نفاق سواء أظهرت على أيديهم الكرامات أم لم تظهر، فأصحاب رسول الله أولياء الله، مع أنهم لم تظهر على أيديهم من الكرامات إلا القليل .

وبالجملة فأولياءُ الله تعالى هم الذين تولى الله هدايتهم فأقبلوا على عبادته والدعوة إليه، وهم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم، فعن سعيد بن جبير أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سئل مَنْ أولياء الله ؟ فقال : « هُمُ الَّذِينَ يُذْكَرُ اللهُ بِرُؤْيَتِهِمْ » أى بمظهرهم الصالح، ومخبرهم النقى وإخباتهم إلى الله، وسكينتهم وتواضعهم .

٦٤ – (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ . . .) الآية .

لما وعد الله تعالى أولياءه بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ووصفهم بقوله : (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) جاءت هذه الآية لتبشرهم بما يسرهم فى الدارين .

والمعنى : أن هؤلاء الأولياء الموصوفين بالإيمان والتقوى، لهم البشرى فى الحياة الدنيا والآخرة، والمراد بالبشرى فى الدنيا ما وعدوا به من الخيرات العاجلة التى ينالونها فى دنياهم، كالنصر والفتح والنعم التى تدفقت عليهم من الفتوحات والغنائم، والاشتغال

بالتجارة والزراعة ، وغير ذلك من النعم الدنيوية التى أغدقها الله عليهم بإيمانهم وتقواهم وجهادهم فى سبيل الله ،وسعيهم فى جلب أرزاقهم ومن البشرى فيها أن يكونوا مرهوبين من أعدائهم ، ومحبوبين من أوليائهم ، ومنها الرؤيا الصالحة فى النوم يراها المؤمن أو ترى له ، والبشرى عند الموت ، حيث تأتيهم الملائكة بالرحمة ، كما قال تعالى : « تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ[1] ». وكما أن لهم البشرى فى الحياة الدنيا فلهم البشرى فى الآخرة بأن تتلقاهم الملائكة مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة . وبياض وجوههم ، وإعطائهم صحائفهم بأيمانهم ومايقرؤونه فيها مما أعده الله لهم من نعيم الجنة ، وانتهاء تلك البشارات وأضرابها إلى غاية الغايات وهى الجنة وما فيها من نعيم مقيم .

(لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) : أى لا تبديل لأقواله التى من جملتها بشاراته للمؤمنين المتقين : ذلك الذى بشروا به فى الدارين هو الفوز العظيم الذى لاغاية وراءه .

(وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(الْعِزَّةَ) : الغلبة والقهر .

(إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) : ما يتبعون إلا التوهم .

---

(١) سورة فصلت ، من الآية : ٣٠

(يَخْرُصُونَ) : يكذبون . وهو فى الأصل بمعنى يقدرون بالاجتهاد الجزافى وكثيرًا ما يحدث فيه الخطأ ، فلذا يطلق على الكذب مجازًا وهو المراد هنا .

التفسير

٦٥ - (وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) :

الخطاب هنا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتسليته عما يعتريه فى بعض الأوقات من حزن ، بسبب ما يجده من قومه من التكذيب والمعارضة والتآمر عليه ، بعد أن طمأنه الله على أوليائه المؤمنين بأنهم لا خوف عليهم من المكاره ، ولا هم يحزنون على فوت بعض الرغائب .

والمعنى : ولا تحزن أيها الرسول بسبب ما قالوه فيك من التكذيب والتآمر على إبطال أمرك ، ووصفك بالسحر والشعر وغير ذلك مما لا خير فيه .

(إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

هذا تعليل لنهيه عن الحزن ، أى لا تحزن لما قالوه فى شأنك ، فإن الغلبة والقهر فى الأرض والسماء لله ، إذ لا يملك أحد من أمرهما شيئًا لا هم ولا غيرهم ، فهو يقهرهم ويعصمك منهم ، ويهزمهم وينصرك عليهم ، لأنه تعالى هو السميع لكل مسموع ، العليم بكل معلوم ، فلا يخفى عليه شىء من مؤامراتهم ، فهو بإحباطها كفيل ، وقد تحقق ما أشارت إليه الآية الكريمة ، من إحباط مؤامراتهم ، ونصر الرسول عليهم ، وذلك من المبشرات التى عجلها الله لرسوله وللمؤمنين معه فى الدنيا ، والحمد لله رب العالمين .

٦٦ - (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ) :

فى هذه الآية تأكيد لما مر من البشارات ، ومن أن العزة لله جميعًا ، والمراد ممن فى السموات والأرض ، العقلاء وهم الملائكة والإنس والجن وتخصيصهم بالذكر للإيذان بأن غيرهم أولى بملكية الله تعالى .

والمعنى : أن الله تعالى يملك من فى السموات والأرض من الملائكة والجن والإنس مع شرفهم وعلو مكانتهم ، فهم جميعًا مملوكون له ومقهورون بسلطانه ، وعبيد لمشيئته ، وكذلك

جميع كائناته ، فهى أيضًا تحت قهره وسلطانه ، فإنه إذا كان العقلاء مملوكين له ، وخاضعين لإرادته فما سواهم مما خلق لأجلهم ، مملوك له ، وناشئ عن قدرته ومشيئته ، وتابع لتدبيره وإرادته ، ولم يصرح هنا بدخول غير العقلاء فى دائرة ملكية الله ، لأنه مفهوم بالأولى وغير محتاج إلى التصريح به ، فضلا عن أنه مصرح به فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : « لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ . . »[1] . ويجوز أن تكون (مَنْ) فى قوله تعالى : (مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ) عامة للعقلاء وغيرهم ، كما فى قوله تعالى : « وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ »[2] .

وبعد أن بين ملكيته تعالى لأهل السموات والأرض ، عقب ذلك ببيان خطإ الكافرين فى عبادة غيره فقال :

(وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ) : أى وما يتبع الذين يعبدون غير الله شركاء له على الحقيقة ، فإنها مملوكة له تعالى ولا شركة لها معه فى شىء ، فلا تستحق أن يشركوها به فى العبادة .

(إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) : أى ما يتبع هؤلاء المشركون فى عبادة غير الله تعالى إلا توهمهم الباطل أنه شريك له ، دون أن يكون لهم على شركته له برهان عقلى أو نقلى ، وما هم فى جعلهم شركاء له إلا يكذبون .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(لِتَسْكُنُوا فِيهِ) : لتطمئنوا وتستقروا فيه بعد حركتكم بالنهار .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٨٤ (٢) سورة النور ، من الآية : ٤٥

(مُبْصِرًا) : مضيئًا لتتحركوا فيه وتهتدوا فى ضوئه إلى حوائجكم . ونقل القرطبى عن قطرب أنه قال : أظلم الليل أى صار ذا ظلمة ، وأضاء النهار وأبصر ، أى صار ذا ضياء وبصر - يقصد صاحب ضياء وبصر من الناس فيه .

التفسير

٦٧ - (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) :

بعد ما بينت الآية السابقة عقيدة المشركين فى إشراكهم بالله ما لايملك شيئًا من السموات والأرض التى يختص بملكها الله ، وأوضحت أنهم ليس لهم على ألوهيتها دليل بل يتبعون الوهم ويكذبون ، جاءت هذه الآية لتؤكد خطأهم فى الإشراك بالله وتقرر ما تقدم من اختصاص الله بملكيته للسموات والأرض ومن فيهما ، وأهليته لإفراده بالعبادة .

والمعنى : هو الذى أبدع لكم الليل وجعله مظلمًا لتسكنوا فيه وتستريحوا من متاعبكم نهارًا ، وأبدع لكم النهار وجعله مضيئًا لتتحركوا فيه لمصالحكم .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) :

إن فى هذا التدبير الحكيم فى شأن الليل والنهار ، لآيات عظيمة على وحدانية الله تعالى واستحقاقه وحده للعبادة ،فوق ما مر من آياته جل وعلا ، وهذه الآيات مسوقة لمن يسمعونها سماع تعقل وتدبر فينتفعون بها ولا يتشبثون بأوهام الشرك الواهنة ، أما أولئك الذين يعرضون عن سماعها أو يسمعونها ولا يتدبرون فيها فلا سبيل لهم إلى الانتفاع بها ، والانتقال من الضلال إلى الهدى .

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات :

(إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا) : ليس عندكم من حجة عليه .

التفسير

٦٨ - (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ) :

الظاهر أن الضمير فى :(قَالُوا) يعود على المشركين الذين سبق الحديث عنهم من أول السورة إلى هنا ، ويؤيده أن السورة مكية والنقاش فى السورة المكية مع المشركين ، أما مع أهل الكتاب فإنه بدأ فى المدينة حيث يوجد اليهود ، ومن المفسرين من جعله شاملا لكل من اعتقد البنوة لله ، فيدخل فيهم المشركون واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن على شاكلتهم والولد يشمل الذكر والأنثى ، ويطلق على الواحد والجمع ، وقد زعم المشركون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله « سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا »[1] . وفى زعمهم هذا يقول الله منكرًا عليهم:« وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »[2]. وزعم اليهود أن عزيرًا ابن الله ، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله ، ولغير هؤلاء مزاعم تشبههم ، فنزلت الآية لإبطال مزاعمهم .

---

(١) الإسراء آية : ٤٣ .

(٢) الزخرف آية : ١٩ .

والمعنى : قال الكافرون : اتخذ الله ولدا وجعله له ابنًا ، سبحانه وتنزيهًا له عن ذلك الزعم الباطل ، هو الغنى على الإطلاق ، فأى حاجة له إلى التبنى؟ ثم شرع يفند زعمهم بقوله :

(لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) : أى له تعالى كل ما فى السموات والأرض خلقًا وملكًا وتصرفًا ، وفى جملة ذلك من زعموه له ولدًا ، ومن كان كذلك فلا حاجة له إلى ولد ، ثم بين أنهم لاحجة لهم فيما زعموا ووبخهم عليه فقال :

(إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ) : أى ما عندكم من حجة بهذا الزعم ، والعاقل لا يعتقد إلا ما قامت عليه الحجة ، أيليق بكم أن تقولوا على الله الذى له ملك السموات والأرض مالا تعلمون صدقه ، ولا تقوم به حجة ، ثم أمر الله رسوله أن يهددهم على هذا الافتراء فقال :

٦٩ - (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) :

قل أيها الرسول للذين زعموا أن الله اتخذ ولدا ، مبينًا لهم سوء عاقبتهم ، ووخامة منقلبهم : إن الذين يختلقون على الله الكذب بمثل مزاعمكم المستحيلة لايفلحون ، فلاهم ينجون من مكروه ولاهم يفوزون بمطلوب ، فالنار مثواهم ، والجنة حرام عليهم ، وإلى هذا المصير يشير قوله تعالى :

٧٠ - (مَتَاعٌ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) :

أى لهؤلاء المفترين على الله تمتع قليل فى الدنيا ، فإنهم إليه راجعون مهما طال مكثهم فيها ثم يذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم الذى أصروا عليه فى دنياهم .

(۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ
عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ
أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ
وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ
وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾)

المفـردات :

(نَبَأَ نُوحٍ) : النبأُ ؛ الخبرُ الذى له شأن وخطر .

(كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِى) : شق وعظم عليكم قيامى ووجودى بينكم .

(فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ) : إجماع الأمر ؛ العزم عليه ،تقول أجمعت الأمر وأجمعت عليه أى عزمته وأردته بهمة ومضاء عزيمة ، والصيغة الأُولى أفصح من الثانية وقال أبو الهيثم : أجمع أمره جعله مجموعًا بعد ماكان متفرقًا .

(غُمَّةً) : أى مستورا ، من غمه إذا ستره .

(اقضُوا إِلَىَّ) : أى أدوا إلىّ الأمر الذى تريدونه بى . (وَلَا تُنظِرُونِ) : ولا تمهلونى .

(تَوَلَّيْتُمْ) : أعرضتم عن تذكيرى . (مِنَ الْمُسْلِمِينَ) : من المنقادين لحكم الله لا أخالف أمره . (الْفُلْك) : السفينة .

التفسير

٧١ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ) :

أى واتل أيها الرسول على المشركين من قومك ومن على شاكلتهم من سائر الكفار ، اتل عليهم خبر نوح مع قومه الذين هم على شاكلة قومك فى الكفر والعناد . فإنه خبر ذو شأن وخطر عظيم فلعلهم بتلاوته عليهم ، يتدبرون مافيه من زوال ما تمتع به قوم نوح من النعم ، وحلول عذاب الغرق بهم الموصول بعذاب الآخرة، لينزجروا عما هم فيه من الكفر ؛ فإنه خبر صادق موافق لما ذكرته الكتب السماوية عنه، شاهد بصحة نبوتك . فإنهم يعلمون أنه لا سبيل لك إلى علمه إلا بطريق الوحى . والمراد من نبإ نوح مع قومه ، بعض أخباره معهم لا كلها ، فالموجود منها هنا موجز يسير لقصد العبرة .

(إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ . . .) الآية .

أى اذكر لقومك نبأ نوح حين قال لقومه مهددًا ومتوعدًا لهم بعد ماعاناه منهم من الإعراض والإصرار على التكذيب ، وبذل الجهد الطويل المديد فى الوعظ والتذكير ، اذكر لهم حين قال نوح لقومه بعد ذلك كله : ياقومى إن كان قد عظم وشق عليكم . قيامى ومكثى بين ظهرانيكم وتذكيرى لكم بآيات الله الذى كان سببا فى كراهتكم لوجودى بينكم فعلى الله وحده توكلت ، وعلى حمايته وحفظه لى من شركم اعتمدت . فاعزموا أمركم فى شأنى ، ووحدوا كيدكم لى ، واجعلوا معكم شركاءَ فيما تريدون بى . واحتشدوا فيه على أى وجه يمكنكم ، ثم لايكن أمركم الذى تدبرونه لى مستورًا مقصورًا عليكم ، بل اكشفوه وجاهروا به ولا تخشونى ، فإن السر إنما يصان ، لمنع الخلاص من المكروه بالهرب ونحوه وذلك لا مجال لى فيه ، فأنا واحد وأنتم أمة ، فكيف أستطيع الخلاص من كيدكم كما تتوهمون ، ثم أوصلوا إلى كيدكم واتجهوا به نحوى ولاتمهلونى . فلن يصل إلى من أذاكم قليل ولا كثير فقد اعتصمت بالله وتوكلت عليه ، «فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »[1] .

ولا ترى أبلغ من ذلك فى الثقة بنصر الله ، والسخرية من أعدائه الغافلين عن عظمة الله وحمايته لأنبيائه وأوليائه .

---

(١) سورة يوسف ، من الآية : ٦٤

٧٢ـ (فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ ...) الآية :

لايزال كلام نوح مع قومه متصلا .

والمعنى :فإن أعرضتم عن نصيحتى وتذكيرى لكم ، بعد ما بينته من أننى لاأخاف من أذاكم ولا أذى آلهتكم المزعومة ، وأننى فى حرز حصين من حماية ربى ، فلا سبيل لكم إلى إهلاكى فإن أعرضتم بعد ذلك كله فما سألتكم على وعظى وتذكيرى لكم من أجر قل أو كثر ، حتى يؤدى ذلك إلى توليكم ، أو حتى يضرنى توليكم بالحرمان ، فما سألتكم على التبليغ من أجر فما أجرى إلا على الله ، فلا وجه لإعراضكم عن الحق ، وقد أمرت من الله بأن أكون من المسلمين أى المستسلمين الخاضعين لحكمه لا أخالف أمره ولا أرجو غيره ، ولا أدعو إلى عبادة سواه ، فدعوا إعراضكم وأسلموا لله وحده كما أسلمت . ولكن قومه لم يستجيبوا له ، وأصروا كعادتهم على التكذيب فعاقبهم الله وذلك ماحكاه الله بقوله : .

٧٣ـ (فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا . . .) الآية :

أى فأصروا على التكذيب بعد ما ألزمهم الحجة ، وأوضح لهم الطريق المأمون ، وقضى معهم دهرًا طويلا فى النصح والإرشاد . فنجاه الله تعالى من الغرق بالطوفان الذى عوقب به قومه. ونجى من كان معه فى السفينة التى صنعها بأمر الله وإرشاده ، وهم الذين آمنوا بربهم واستجابوا له وكانوا عددًا قليلا وجعل الله هؤلاء المؤمنين من قوم نوح خلائف لقومهم المكذبين . وأغرق الذين كذبوا بآياته تعالى . جزاءً لهم على كفرهم وعنادهم ، ثم أمر الله بالتأمل فى عاقبتهم الوخيمة فقال :

(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ) :

والخطاب هنا لكل ذى عقل سديد . والمعنى : فانظر أيها العاقل وتأمل لتعرف منه أن بطش الله بالكافرين شديد لا قبل لأحد به ، وفيه تحذير لمن كذب رسول الله ، وتسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾)

التفسير

٧٤ - (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قومِهِمْ فجاءُوهُمْ بالْبَيِّناتِ) :

ثم أرسل الله من بعد نوح رسلا كراما كثيرين إلى أقوامهم ، لكل قوم رسولهم الخاص بهم ، فجاءوهم بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقهم فى التبليغ عنه سبحانه ، فما حدث لقوم من أقوامهم أن يؤمنوا فى آخر دعوته بما كذبوا به من قبل فى أول دعوته ، فلم ينفعهم دوام « تذكيرهم » ولاتواتر البينات الظاهرة والمعجزات الباهرة عليهم .

ويجوز أن يكون معنى (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ) : فما كانت كل أمة منهم لتؤمن برسولها بسبب تعودهم تكذيب الحق قبل بعثة رسولهم الخاص بهم إليهم ، فقد كانوا فى فترات الرسل يسمعون من بقايا الأمم قبلهم أن مرسلين أرسلوا بالتوحيد قبلهم ، فلما عصوا أهلكوا ، فكانوا يكذبون ذلك ، ثم كانت حالتهم بعد مجىء الرسل إليهم ، كحالتهم قبل ذلك كأن لم يبعث إليهم أحد .

(كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ المُعْتَدِينَ) : والطبع فى اللغة معناه الختم ، وقد استعمل فى الآية مجازًا عن التخلى والخذلان حتى صارت قلوبهم كأنها مغلقة ومختومة ومطبوع عليها .

والمعنى : مِثْلَ ذلك الخذلان والتخلى عن معونة هؤلاء الكافرين فيستمرون على كفرهم يتخلى الله ويخذل جميع المعتدين المتجاوزين لحدود الله ، فيبقون فيما هم فيه من عدوان ، وذلك لانهماكهم فى البغى والضلال ، وإعراضهم عن الهدى والرشاد ، ولو أنهم تدبروا آياته ، وفتحوا قلوبهم للنظر السديد ، لأعانهم الله وبصرهم فكانوا من المهتدين .

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ
ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ
أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا
ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾)

المفـردات :

(وَمَلَئِهِ) : الملأُ أشراف القوم .

(لِتَلْفِتَنَا) : لتصرفنا ، واللفت والفتل بمعنى واحد .

التفسـير

٧٥- (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا . .) الآية .

أى ثم بعثنا موسى وهارون من بعد أُولئك الرسل الذين تقدموهما إلى فرعون وأشراف قومه بآياتنا وعلاماتنا الدالة على أنهما مرسلان منا ،والمراد بتلك الآيات ما مر فى سورة الأعراف ، من انقلاب العَصا حيَّة وابتلاعها سحر الساحرين ، وخروج يده من جيبه بيضاء من غير سوء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ،إلى آخر الآيات التسع التى مر بيانها فى سورة الأَعراف .

وتخصيص ملإ فرعون بالذكر مع أن موسى وهارون أُرسلا إلى باقى أمة فرعون ، لأن الحديث كان معهم أولا ، رغبة فى إيمان منْ خلفهم بإيمانهم ، ولم يكتف باندراج قصة موسى وهارون منْ قوم فرعون فيما أجمل من أخبار الرسل بعد نوح ،لاختصاصها من بين سائر

القصص بأحداث هائلة مع ملك جبار ومستبد ، ولأنها كانت معروفة إجمالًا للعرب ، لأن اليهود كانوا يعيشون بينهم ، ثم بين الله ما حدث من قوم فرعون بعد ما دعاهم موسى وهرون إلى الحق المؤيد بالمعجزات ، فقال سبحانه :

(فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) :

أى فتعالوا عليهما وامتنعوا عن قبول دعوتهما ، وكانوا معتادين الإجرام فلذا اجترءوا على رفض دعوة الله والكفر بها ، ثم فصل الله كفرهم بها نوعًا من التفصيل فقال :

٧٦ - (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى فحين جاءهم الحق من عندنا على لسان موسى وهرون - عليهما السلام - مؤيدًا بالمعجزات الباهرات ، بادروا إلى ردها فورًا من غير تدبر ، وقالوا إن هذا الذى زعمتماه معجزات مؤيدة لرسالتكما ، ما هو إلا سحر واضح لايحتاج إلى جهد فى إثبات كونه سحرًا ، ثم أخبر الله برد موسى عليهم فقال :

٧٧ - (قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ) :

أى قال موسى منكرًا عليهم بعدما اتهموه بأن معجزاته من قبيل السحر الواضح : أتقولون للحق عند مجيئه إليكم من غير تثبت ولا تفكير (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ) ولم يذكر فى رده عليهم جملة (إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ) اكتفاء بعلمها من كلامهم السابق ، ثم وبخهم على هذا الادعاء ودلل على فساده فقال :

(أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ) :

أى أسحر هذا الذى جئتكم به ، وكيف يكون سحرًا وأتحداكم به وأنا أعلم أنه لايفلح الساحرون فلا يفوزون بمطلوب ، ولا ينجون من مكروه ولا يثبتون أمام تحدى الساحرين المتمرسين المتفوقين ، كالذين ينتشرون فى أطراف مصر وأرجائها ، وكيف يفلح الساحرون وهم يفترون على الله ، والله لاينصر من يفترى عليه .

ثم حكى الله مقالتهم الواهية لما عجزوا عن رد حجته عليهم فقال :

٧٨ - (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِى الْأَرْضِ) :

أى قال قوم فرعون لموسى : هروبًا مما أفحمهم به ، أجئتنا بدعوى الرسالة عن الله ، لتصرفنا

عما وجدنا عليه آباءنا من عبادة فرعون وسائر المعبودات التى ورثناها عنهم ، لكى نعبد إلٰهك الذى طلبت أن نعبده وحده ، ولكى تكون لك ولأخيك الكبرياء والعظمة فى الأرض ، بتولى الملك والرياسة علينا ، فما أضعف حجتهم ، وما أقصر نظرهم ، فلا ينبغى لعاقل أن يحتج بما كان عليه الآباء - فما أكثر ما يكونون عليه من ضلال - ولا أن يُتَّهم من يدعو إلى الله وحده بأنه يدعو إلى الرياسة والملك فى الناس .

(وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ) : أى وقال فرعون وقومه لموسى وهرون ولسنا لكما بمصدقين فيما جئتما به من الدعوة إلى توحيد الله وترك ما كان عليه آباؤنا .

ولم يخصوا موسى بالخطاب مع أنه هو الذى خاطبهم بشريعته ودعاهم إليها ، مبالغة فى إقناطه من إيمانهم ، ولما كان لفتهم عما وجدوا عليه آباءهم من خصائص صاحب الشريعة أسندوه إلى موسى عليه السلام فى قولهم : (أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا) . أما هرون فوزيره فيها، وتأكيدًا لإصرارهم على الكفر والعناد كان التعبير بالجملة الإسمية والإتيان بالباء وتقديم (لَكُمَا) على (مُؤْمِنِينَ) فى قوله (وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ) .

وقد رفض هولاء دعوة موسى لسببين :

١ - أنه جاء ليصرفهم عما كان عليه آباؤهم وهم لايحبون التحول عنه ومفارقته .

٢ - أنهم زعموا أنه أراد بدعوته أن يكون له ولأخيه الكبرياء فى الأرض وهم يحرصون على الانفراد به واستعباد الناس وظلمهم ، ويرد السبب الأول بأنه حقا دعاهم إلى نبذ ماكان عليه آباؤهم ولكن ليخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الايمان والعرفان ،وهذا خير مما عليه آباؤهم ، ولا يحتاج رد الثانى إلى فكر ونظر لأن الرسالة لم تكن طريقًا إلى التسلط والكبرياء،فقد تحمل موسى وهرون فى سبيلها متاعب شديدة ، ورحلات شاقة وبذلا فى تبليغها للناس جهودًا مضنية ، من أجل الله وإسعادًا للبشر فى الدنيا والآخرة ، دون أن يكون لهما مأرب دنيوى .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ
ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟
قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ
وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(السِّحْرُ) : يطلق على ما لطف ودق ، ويطلق على ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها ، مثل ما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده ، ويكون السحر أيضًا بمباشرة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد من التأثير على الشخص المقصود ، بحيث يغير مزاجه ويؤثر فى حواسه ووجدانه ، كأن يجد الحلو مرًّا ، وينقبض صدره وتضعف قواه ، ويكثر اضطرابه .

(سَيُبْطِلُهُ) : سيمحقه ولا يبقى له أثرًا . (لَا يُصْلِحُ) : لايثبِّت ولا يؤيِّد .

(وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ) : ويثبت الله الحق ويقويه ويؤيده . (بِكَلِمَاتِهِ) : بأوامره ووحيه .

التفسير

٧٩ - (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ) :

بعد أن بين القرآن الكريم أن فرعون وقومه لجأوا إلى التمسك بتقليد آبائهم - حينما لم يجدوا حجة يردون بها دعوة موسى - بعد ذلك جاءت هذه الآية تبين أن فرعون اتبع أسلوباً آخر فى رد رسالة موسى ، وهو إيهام قومه أن ما جاء به موسى من قبيل السحر حتى لا يتأثروا بدعوته الواضحة ، فيبقى له النفوذ والكبرياء والتسلط .

والمعنى : وقال فرعون آمرا قومه : اجْمَعُوا لِى من جميع أنحاء مملكتى كل ساحر واسع العلم بفنون السحر ،عظيم الخبرة به قوى التأثير بارع الحيلة كى يعارض بهم معجزة موسى عليه السلام .

٨٠ - (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَاأَنتُم مُّلْقُونَ) :

أى فحشروا لفرعون كل ماهر فى صناعة السحر ، فلما جاءُوا إليه واجتمعوا لديه قال لهم موسى ألقوا ما استقر رأيكم على إلقائه من أنواع السحر ، وقدموا ما عزمتم على فعله وأظهروا كل ماف طاقتكم من سحر ليظهر بطلانه على رءُوس الأشهاد .

ولم يطلب إليهم موسى عليه السلام . أن يبدأوا بإظهار سحرهم عقب مجيئهم إلى فرعون وإنما كان بعد أن خيروه بين أن يبدأ هو أو يكونوا هم البادئين ،كما حكاه القرآن فى سورة الأعراف « إِمَّا أَن تُلْقِىَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ »(١) .

ولوثوقهم بتغلبهم عليه خيروه ، كما كان طلب موسى منهم أن يبدأوا ليعطيهم الفرصة كاملة لإظهار ماف طاقتهم من السحر فى هدوء تام واطمئنان كامل ، وحتى يجد الحق بعد الباطل نفوسًا تتقبله وعقولا تتدبره .

٨١ - (فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَايُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)

أى فلما ألقوا مالديهم من العصى والحبال وأظهروا كل ماف طاقتهم من فنون السحر استرهبوا الناس وجاءوا بسحر عظيم . ولثقة موسى - عليه السلام - بصدق رسالته ،وإيمانه بنصر الله له ،وتثبيت الله لقلبه ، وتكذيبًا لما رموه من السحر قال لهم : الذى جئتم به وبذلتم فى إظهاره أقصى جهدكم هو السحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ،وتأكيدا لثقته بتحقيق ماتقدم قال فيما حكاه القرآن عنه (إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ) : أى إن الله سيمحق هذا السحر فلا يبقى له من أثر بما يظهره على يدى من المعجزات ، فإن الباطل لايدوم مهما كثر وانتشر .

---

(١) الأعراف من الآية : ١١٥

ثم أكد القرآن الكريم ذهاب هذا السحر وزواله بقوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) : أى إن الله لايجعل عمل جميع المفسدين صالحاً للبقاء ثابتًا ، بل يزيله ويذهب به ، فلا يبق لباطل هؤلاء السحرة المفسدين أثرًا .

٨٢ـ (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) :

أى ويثبت الله الحق الذى يبعث به رسله رحمة للعالمين ، ويؤيده ويقويه بأوامره وتأييده ، ولو كره المجرمون الكافرون إحقاقه واستقراره ، فنى إحقاقه قطع أطماعهم وتقويض سلطانهم والقضاء على باطلهم ، واستقرار الأمن وعمارة الأرض وذهاب الفساد . ومن سنن الله فى خلقه أن البقاء لمبادىء الخير والحق « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »[١] .

(فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾)

المفـردات :

(ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ) : جماعة من قومه ، شبابًا أو كهولا ، فقد آمن به السحرة وهم كهول غالبًا كما آمن به غيرهم .

(أَن يَفْتِنَهُمْ) : أن يعذبهم . (لَعَالٍ فِى الْأَرْضِ) : لغالب فيها .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨١

التفسير

٨٣- (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إلا ذُرِّيةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ[1] أَنْ يَفْتِنَهُمْ) :

بعد أن بين القرآن الكريم على لسان موسى أن ماجاء به سحرة فرعون هو السحر الذى لاحقيقة له ، وأن الله سيبطله ، ويحق الحق بكلماته ، جاءت هذه الآية تخبر بأنه مع ثبوت الحق بغلبة المعجزة وزهوق الباطل باندحار السحر ، لم يؤمن بموسى عليه السلام- إلا عدد قليل من قومه :

والمعنى : فما آمن لموسى وصدق برسالته بعد إحقاق الله الحق بقضاء عصا موسى على سحر الساحرين ، إلا عدد قليل من قوم فرعون شرح الله صدورهم للإيمان ، بعد ظهور الحق على الباطل ، وكان إيمان هؤلاء مصحوباً بخوف شديد وحذر بالغ من فرعون ورؤساء قومه أن يعذبهم على أيدى هؤلاء الرؤساء ويوقع بهم صنوف الأذى بمعونتهم .

وإنما جاء فى القرآن (أَن يَفْتِنَهُمْ) دون أن يفتنوهم حتى يشمل فرعون وملأهم ، لإفادة أن الخوف من الملإ كان بسبب أن كل ظالم فى دولة فرعون كان يستمد ظلمه من طغيان فرعون وجبروته ، ثم أكد القرآن الكريم خوف المؤمنين من بطش فرعون بقوله تعالى :

(وإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى الأَرْضِ) : أى وإن فرعون لغالب على الناس قاهر لهم فى أرض مصر بالسلطان والملك عليهم وادعاء أنه لا إله لهم سواه كماحكاه الله عنه بقوله : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى »[2]. ثم زاد فى تقرير هذا المعنى حين قال :

(وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ) : أى وإن فرعون لمن جملة الذين دأبوا على تجاوز الحد فى الظلم والفساد فقد أسرف فى القتل وسفك الدماء ، كما بالغ فى الكبر والاستعلاء .

٨٤- (وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ) :

أى وقال موسى لأولئك الذين أظهروا إيمانهم ، ياقوم إن كنتم صدقتم بالله ، فعليه وحده توكلوا إن كنتم مستسلمين له خاضعين لشرعه .

٨٥- (فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

بعد أن بينت الآية السابقة أن موسى عليه السلام دعا من آمن به من قومه إلى التوكل على الله والاعتماد عليه فى نصرتهم وإصلاح شئونهم كدليل على صدق إيمانهم جاءت هذه الآية الكريمة لبيان أنهم أسرعوا إلى تلبية ندائه .

---

(١) جمع الضمير فى (ملئهم) مع أنه عائد على فرعون ، لأنه جاء على طريقتهم فى تعظيمه . (٢) سورة القصص من الآية : ٣٨

والمعنى وقال الذين آمنوا بموسى مستجيبين له فى صدق إيمان ، وإخلاص يقين ، ومن غير إبطاء ولا تردد - على الله وحده اعتمدنا فى نصره لنا ودفع الأذى عنا ، وإنقاذنا من ظلم الظالمين ، وإعانتنا فى كل ما يهمنا من شئون الدنيا وأمور الآخرة : وفى مبادرتهم إلى إجابة هذا النداء ، دليل واضح على رسوخ إيمانهم وقوة إسلامهم ، ومصداقٌ لإخلاصهم فى التوكل على الله ، وقد فزعوا إليه سبحانه بالدعاء قائلين : (رَبَّنَا لَاتَجْعَلنا فِتنةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمين) : أى ربنا لاتجعلنا موضع فتنة لهؤلاء القوم الظالمين فلا تسلطهم علينا تعذيباً ووعيدا ومضايقة فيفتنونا عن ديننا .

٨٦ - (وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) :

أى وأنقذنا برحمتك وعطفك من هؤلاء القوم الكافرين بك - إن هم أرادونا بسوء - فنحن لا قدرة لنا على دفعهم لضعفنا وقوتهم ، ومن أظلَّتهم حمايتك ، فلا سلطان لجبار عليهم .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَٰلِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(تَبَوءا لقَومكُمَا بِمصْرَ بُيُوتاً) : أى اجعلا لقومكما منازل يقيمون فيها - يقال : تبوأ المكان وتبوأ به نزل فيه وأقام به . (واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً) : أى اجعلوها أماكن الصلاة متجهين فيها إلى القبلة. (اطْمِسْ عَلَى أمْوَالِهِمْ) : الطمس فى اللغة المحق والمحو ، أى أهلكها واجعلها غير صالحة للانتفاع بها . (واشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ) : أى اختم عليها واجعلها قاسية لا تنشرح للإيمان لاختيارهم الكفر وإصرارهم عليه .

التفسير

٨٧ - (وأوْحَيْنَا إلى مُوسَى وأخِيهِ أنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وأقِيمُوا الصَّلاَةَ) .. الآية : أى وأمر الله تعالى موسى وأخاه هرون - عليهما السلام - بوحى أوحاه الله إليهما أن يجعلا لقومهما بمصر بيوتا خاصة بهم ينزلون بها ويسكنون فيها ، وأمرهما وقومهما أن يجعلوا بيوتهم هذه أماكن للصلاة ، وأن يقيموا الصلاة فيها إلى جهة القبلة ، بعيدا عن أعين فرعون وقومه حتى يأمنوا على أنفسهم من البطش والإيذاء وعلى دينهم من الفتنة - وكان فرعون قد خرب معابد بنى إسرائيل ومنعهم من الصلاة .

ولِمَا للصلاة من الأثر البالغ فى تهذيب النفس وصفاء القلب ، أمرهم الله جميعا بها فقال : (وأقِيمُوا الصَّلاَةَ) : أى وأدوا الصلاة تامة الأركان والشروط فى خشوع وإخلاص لله تعالى لتنشرح صدوركم وتمتلئ نورا وإيمانا ، وتثبت أقدامكم على طريق الحق والهدى إذ الصلاة عماد كل الديانات التى شرعها الله .

(وَبَشِّرِ المؤمِنِينَ) : أى وبشر المؤمنين ياموسى بالنصر والتأييد فى الدنيا إجابة لدعائهم ، وفى الآخرة بجنات النعيم جزاء ما قدموا من صالح الأعمال .

ومن محاسن النظم الكريم فى هذه الآية أن الله أمر موسى وهرون وحدهما باتخاذ البيوت لقومهما لأن ذلك من شأن الرؤساء والقادة .

وأمرهم جميعاً بإقامة الصلاة وجعل بيوتهم معابد لوجوب الصلاة على جميع المكلفين وأمر موسى وحده بالبشارة لأنها من وظائف صاحب الرسالة المقدم فى قومه ، لتكون أوقع فى نفوس المؤمنين وأعظم فى إدخال السرور عليهم .

٨٨ـ (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إنك آتَيْتَ فرعَونَ وَمَلأَهُ زِينَةً وأَمْوالاً فى الحَياةِ الدُّنْيَا) الآية.

بعد أن اطمأن موسى ـ عليه السلام ـ إلى استقرار قومه فى البيوت التى اتخذها هو وأخوه لسكناهم جاءت هذه الآية تبين ـ أنه اتجه إلى الله بالدعاء على فرعون وملئه وبعد أن يئس من إيمانهم.

والمعنى : وقال موسى ـ عليه السلام ـ مناجيا رب العالمين سبحانه وتعالى ياربنا إنك أعطيت فرعون والرؤساء من قومه زينة من لباس حسن جميل وحلى وجواهر، وأثاث فاخر وقصور عالية، وغير ذلك مما يتزين به، ومنحتهم أنواعاً كثيرة من الأموال فكانت عاقبة هذه النعم أنهم بالغو فى الكفر بك، وجعلوها وسيلة قهر وبطش وطغيان، وضلوا بها وأضلوا عن سواء السبيل واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وأغلقوا قلوبهم دون قبول الخير، فاستوجبوا دعائى عليهم (ربَّنا اطْمِسْ على أَمْوَالِهِمْ واشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلا يؤمنوا حتى يَرَوُا الْعذَابَ الأليم) : أى ياربنا أهلك هذه الأموال التى استعبدوا الناس بها، وأكثروا فى الأرض الفساد بسببها، أهلكها ليزول سلطانهم ويذلوا، واربط على قلوبهم بحيث تكون قاسية جامدة لا تنشرح للإيمان، فإنها ليست له أهلا، لنبذهم شريعتك وتكذيبهم رسالتك بسوء اختيارهم، اربط على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم حيث لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا، ليكون انتقامك منهم شديداً وعبرة لغيرهم، وهو ما كان من فرعون فيما حكاه القرآن الكريم بقوله : « حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ به بَنُو إِسْرَائيلَ وأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ »[(١)].

وقدم موسى ـ عليه السلام ـ بين يدى دعائه على فرعون وقومه ذكر طغيانهم ليكون أرجى لاستجابة الله له، وتشهيرا بهؤلاء الذين لم يقدروا نعم الله حق قدرها.

وكرر النداء (ربنا) مبالغة فى الضراعة إليه تعالى، حتى يستجيب له لمبالغتهم فى العناد والطغيان، والتنكر لأَنْعُم الله ومقابلتهم الإحسان بالكفران.

٨٩ـ (قَالَ قَدْ أُجِيبتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ) : أى قال الله تعالى ـ خطابا لموسى وهرون عليهما السلام ـ قد أجبتُ دعاءكما، وحققت رجاءكما

(١) سورة يونس الآية رقم (٩٠).

فى شأن فرعون وملئه فأهلكتهم وأموالهم لأنهم استمروا على عنادهم ، فلم يؤمنوا إلا عند اليأس من الحياة حين أدركهم الغرق ، فلم يقبل الله إيمانهم .

وقد ذكر الله تعالى أنه أجاب دعاء موسى وأخيه ، مع أن موسى هو الذى دعا على الطغاة لأن هرون كان يقول عند دعاء موسى : آمين كما دلت عليه الآثار. ومعناه: استجب ياربنا فكلاهما طلَبَ الإجابة - طلبها موسى بلفظ الدعاء وطلبها هرون بمضمونه فلا تعارض بين إشراكهما فى الإجابة وانفراد موسى بالدعاء .

وبعد أن طمأنهما الله - تعالى -على إجابة دعائهما أمرهما بالثبات على طريق الحق المستقيم ضمانا لنصرهما فقال - تعالى- : (فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) :أى فاستمرا على طريق الحق طريق الطاعة والعبادة والدعوة إلى التوحيد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الحجة على أعداء الله، ولا تسيرا فى طريق الجهلاء الذين لا يعلمون باستعجال العذاب قبل أوانه ، فإنَّ ما طلبتماه سيتحقق فى وقته المقدر له وفقا لقضاء الله المحكم وحكمته البالغة .

(۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾)

المفردات :

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ) : أى وجعلناهم يجاوزونه ويعبرونه من الغرب إلى الشرق حتى وصلوا إلى شاطئه الشرقى .

(فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ) : أى تبعهم حتى اقترب منهم ، تقول : تبعته حتى أتبعته ، إذا كان قد سبقك فلحقته ،((بَغْياً وَعَدْوًا) :أى ظلما ، وتجاوزا للحد فيه .

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ) : أى حتى إذا لحقه الغرق .

التفسير

٩ - (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ) الآية .

بعد أن أخبر الله - تعالى - موسى وهرون - عليهما السلام - باستجابة دعائهما على فرعون وقومه ، أمرهما أن يخرجا ببنى إسرائيل من مصر ، فخرجوا على حين غفلة من فرعون وقومه فلما علم فرعون بخروجهم ، خرج بجنوده فى طلبهم بغيا وعدوا ، فلما أدركهم قالوا يا موسى كيف الخلاص ؟ والبحر أمامنا والعدو وراءنا ، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، فسلك موسى ببنى إسرائيل طريقا فى البحر يبسا ووصل فرعون وجنوده إلى الساحل وكان طريق بنى إسرائيل فى البحر لايزال باقيا ، فسار فيه فرعون بجنوده فلما اكتملوا جميعا فيه وهمَّ أولهم بالخروج ، انطبق البحر عليهم وأغرقوا أجمعين .

(حَتَّى إذا أَدْرَكَهُ الْغرَقُ) : أى حتى إذا لحقه الغرق واقترب منه الموت ، صحا من غروره ، وندم على فجوره وأعلن إيمانه فيما حكاه القرآن عنه بقوله : (قالَ آمَنْتُ أَنهُ لَا إِلٰهَ إلا الذِى آمَنتْ بِه بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنا من الْمُسْلِمِين) : أى قال فرعون آمنت بأنه لا إله يعبد وحده إلا الإله الذى آمنت به بنو إسرائيل وصدقت بوحدانيته ، وأكد قوله السابق بقوله : (وَأَنا مِنَ الْمُسْلِمِين) : أى وأنا واحد من جملة الذين أسلموا نفوسهم

لله تعالى ـ وحده ـ وبهذا الاعتراف أبطل ما كان يقوله استعلاء وتجبرا : « أَنا رَبُّكُمُ الأَعْلَى » . وقوله : « مَا عَلِمْتُ لكُم مِّن إلَهٍ غيْرِى » .

فأنت تراه فى اعترافاته هذه قد بالغ فى إعلان إيمانه حيث كرره بثلاث عبارات :

١ ـ « آمنت » .

٢ ـ « أنهُ لا إلَهَ إلا الذِى آمَنتْ بِهِ بَنُو إسْرَائِيلَ » .

٣ ـ « وَأَنا من الْمُسْلِمِين » .

وقد حدث منه كل ذلك طمعا فى النجاة مما نزل به ، وليت شيئا من ذلك كان منه حين ينفعه الإيمان ـ وذلك قبل اليأس من الحياة ، لأن تأخير الإيمان إلى وقت العقاب لاينجى صاحبه ، وقد دلت على ذلك الآية التالية :

٩١ ـ (الآنَ وَقدْ عَصَيْتَ قبْلُ وَكُنتَ من الْمُفْسدِين) : أى أتؤمن الآن حين لاينفع نفسا إيمانها ، وقد أمضيت عمرك فى المعصية ، وكنت من الملازمين للإفساد فى الأرض ، أفلا قدمت إيمانك ، وأجبت داعى ربك ، وأنت فى فسحة من الأجل حين كان ينفعك إيمانك؟ ولكنك ندمت وآمنت بعد فوات الأوان ، فلم ينفعك الإيمان ، كما قال تعالى : « فلمْ يَكُ يَنْفعُهُمْ إيمَانُهم لمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنةَ اللهِ الَّتى قدْ خلَتْ فى عبَادِهِ وَخسِرَ هُنا لِك الْكافِرُون »[1] . روى الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه ـ رضى الله عنهم ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ مالمْ يُغَرْغِرْ » والغرغرة حشرجة الموت وقال تعالى ـ : « وَليْسَت التوْبَةُ لِلذِّين يَعْمَلون السيِّئاتِ حَتى إذا حَضرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إنِّى تُبْتُ الآنَ وَلَا الذِين يَمُوتون وَهُمْ كُفَّارٌ أُولـئك أَعْتدْنا لهمْ عَذابا أَلِيمًا »[2] .

٩٢ ـ (فالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتكُونَ لِمَنْ خلْفَكَ آيَةً) :

بعد أن أنكرت الآية السابقة على فرعون تأخير الإيمان بلا عذر إلى أن حضره الهلاك ، جاءت هذه الآية لبيان خيبة أمله وقطع رجائه وللسخرية منه .

---

(١) سورة غافر ، الآية : ٨٥

(٢) سورة النساء ، الآية : ١٨

والمعنى : فى هذا اليوم الذى نجى الله فيه موسى وهرون وبنى إسرائيل من الغرق ، يخرجك الله من البحر ، ويلقى ببدنك على شاطئه خاليا من الروح ، لتكون قصتك آية وعلامة لمن وراءك من أهل عصرك ومن يأتى بعدهم ممن يبلغهم خبرك ، وتصل إلى أسماعهم عاقبتك ، فيعرفون من هذه الآية أن الكفر بالله وخيم العاقبة ، وأنه لايصح للبشر أن يشاركوه فى الألوهية أو يستأثروا بها ، قيل إن فرعون الذى أرسل إليه موسى هو منفتاح أو رمسيس الثانى ، وكلاهما جثة موجودة إلى اليوم فى المتحف المصرى والله أعلم ، ومع ما فى قصة فرعون من العبر فلم يلتفت إلى الإفادة منها كثير من الناس ، كما قال تعالى : (وَإِنَّ كَثِيراً مِّن النَاسِ عَن آيَاتِنَا لغَافِلُونَ) :

أى وإنَّ كثيرًا من أهل مكة ومن غيرهم لغافلون ، عن التفكير فى آيات الله التى أقامها أو أنزلها للفصل بين الحق والباطل لغافلون أشد الغفلة ، ساهون عن تدبر معانيها ، والانتفاع بدلالاتها ، ولو فعلوا لما ضلوا عن سواء السبيل .

(وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ) : أنزلنا هم مكانًا صالحًا آمنًا وأسكناهم فيه .

التفسير

بعد أن ذكر القرآن الكريم إنعام الله على بنى إسرائيل بإنجائهم وإهلاك عدوهم جاءت هذه الآية لبيان أحوالهم وما أفاض الله عليهم من نعمه الوفيرة وأنهم لم يقوموا بشكرها .

٩٣ – (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) . . الآية .

يؤكد الله – تعالى – أنه أنزل بنى إسرائيل بعد أن أنجاهم من طغيان فرعون وجنوده ،

وخلصهم من مطاردتهم- أنزلهم -مكانًا صالحًا مرضيا ،وأرضًا يجدون فيها الأمن والطمأنينة ، ومع تهيئة المكان الآمن رزقهم أرزاقًا طيبة ، فأنزل عليهم المن والسلوى وأتم عليهم نعمته .

(فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ) : أى ظل هؤلاء يرفلون فى نعم الله عليهم فما اختلفوا فى أمر دينهم وما عصوا رسولهم موسى- عليه السلام - إلى أن قرأوا التوراة وعرفوا أحكامها فاختلفوا فى فهمها ،وانقسموا فرقًا فى تأويلها ،كل فرقة تدعى أنها هى التى على الحق دون سواها ، ويجوز أن يكون المراد ببنى إسرائيل الذين اختلفوا ، هم اليهود الذين كانوا فى زمن محمد - صلى الله عليه وسلم - وذلك أنهم كانوا قبل مبعثه عالمين بقرب مبعثه مجمعين على نبوته ، مما عرفوه عنه فى كتبهم من البشارة به وبيان أحواله وصفاته ، فلما بعث اختلفوا فمنهم من آمن به ومنهم من كفر بغيا وحسدًا ، كما قال -تعالى- : « وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ »[1] .

ثم حذرت الآية المكذبين وطمأنت المصدقين ببيان أن مصير الكل إلى الله يحاسب كلا على ما قدمت يداه وذلك فى قوله تعالى :

(إِنَّ رَبَّكَ يَفصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) : أى إن ربك أيها الرسول سيحاسب كلا بما كسبت يداه ، ويحكم بالعدل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون ، فيثيب المحقين ويعاقب أهل الباطل الظالمين .

(فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾)

---

(١) سورة البينة ، الآية : ٤

المفردات :

(منَ الْمُمْتَرِين) : من الشاكّين .

التفسير

٩٤ - (فَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْك فاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرءُونَ الْكِتابَ . .) الآية .

بعد أن تحدثت هذه السورة عن قصص بعض المرسلين مع أممهم ، وآخرها قصة موسى مع فرعون وقومه ، جاءت هذه الآية تطالب من يشك فى صدق هذه القصص التى ساقها الله للعبرة ، وللدلالة على صدق محمد فى نبوته ، تطالبه بأن يسأل الذين يقرءون الكتاب من علماء اليهود والنصارى ، ليتأكد من وجودها فى كتبهم ، وليحمله ذلك على الإيمان بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فالخطاب فى قوله تعالى : (فَإِنْ كُنتَ فى شَكٍّ مِّمَّا أنزلْنا إِلَيْك) إلخ موجه إلى من يتعرض للشك من الأمة التى أرسل إليها النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وليس موجهًا للنبى - عليه الصلاة والسلام - لما سنبينه فيما يلى :

اعلم أن القرآن كما أنزل إلى الرسول وحيًا وتبليغًا أنزل إلى أمته أفرادًا وجماعات عملًا وتكليفًا ، فمن الأول قوله تعالى فى سورة النحل : « وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(١) . وقوله فى سورة النساء : « إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ . . »(٢) . ومن الثانى قوله تعالى خطابًا للأمة : « لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ »(٣) . وقوله تعالى : « وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ »(٤) .

والمعنى : فإن كنت أيها المكلف من أمة الدعوة المحمدية ، فى شك من صدق ما أنزلناه من هذه القصص على رسولنا إليك لتعرف به صحة نبوته ورسالته - صلى الله عليه وسلم - ، فاسأل علماء اليهود والنصارى الذين يقرءون كتبهم ويعرفون أن هذه القصص قد وردت بها منقولة من جيل إلى جيل قبل وجودك ، حتى تعلم من وجودها قديماً فى كتبهم أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - صادق فى نبوته ، وَثِقَةٌ فى رسالته ، فإنه أمى لا يقرأ ولا يكتب

---

(١) سورة النحل ، من الآية : ٤٤

(٢) النساء ، من الآية : ١٠٥

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠

(٤) سورة النور ، من الآية : ٣٤

ولم يجالس من قرأها وعلم بها ، فقد نشأ بين قريش الوثنية ، فهذا برهان واضح على أن الله تعالى هوالذى أعلمه بها وأوحاها إليه ، وأنه صادق فيما أبلغكم عن الله ، وأن الإيمان بنبوته فيه النجاة ، وأن الكفر بها يستتبع الهلاك .

أفهام خاطئة فى معنى الآية

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب فيها للرسول - صلى الله عليه وسلم - لغرض تهييجه وإثارته ، ليزداد ثباتًا على دينه ، من غير احتمال وقوع شك منه ، وهذا الرأى لايصح قبوله بحال من الأحوال ، فإن فرض الشك فيه لأى غرض من الأغراض وبأى تأويل مما قالوه ، مخالف للنقل مرفوض من جهة العقل ، وخطأ فاحش استغله أعداءُ الإسلام ، وقالوا إن محمدًا لم يكن متيقنًا أنه رسول من الله - تعالى - وساقوا هذه الآية وتفسير المفسرين لها على هذا النحو تأييدًا لفريتهم ، فكيف يصح عقلا أن يفرض الشك فى الرسول لغرض إثارته وزيادة تثبيته - كما أولوا به موضوع فرض الشك فيه - فهل كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - بحاجة إلى مزيد تثبيته وإثارته ، لكى يزداد استمساكه بتبليغ دعوة ربه ، كلا وألف مرة كلا ، فقد سجل القرآن الكريم ما يناقض ذلك ، قال تعالى : « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى . مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى . وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى . ما زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١) » .

وكيف يحتاج الرسول إلى التثبيت وهو الذى كان يقول : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الدين ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . وكيف يحتاج إلى التثبيت وإلى سؤال أهل الكتاب ليزداد طمأنينة ، وهو الذى تحمل من إيذاء قومه ثلاثة عشر عامًا ، مالا تحتمله الشمُّ الرواسى ، وشاركه فى ذلك من آمن معه من المؤمنين حتى مات بعضهم من شدة العذاب ، ألم يقاطعهم المشركون لايؤاكلونهم ولا يزاوجونهم ولا يبيعونهم الطعام ، حتى اضطروهم إلى الإقامة فى شعب أبى طالب ثلاث سنين ، ووصل بهم الجوع هناك إلى أن يأكلوا أوراق الشجر وهم صابرون ، وكيف يستطيع أن يحمل عبء هذه الدعوة

(١) سورة النجم ، الآيات : ١٠ - ١٨ .

الضخمة من هو بحاجة إلى التثبيت، وكيف يعمل لها بهمة وصدق عزيمة لاتعرف الكلل، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجًا، وذاع فى عهده وانتشر حتى غطى الجزيرة العربية كلها، فوالله لولا أنه ثابت الجنان عظيم الاطمئنان، واثق من دين الرحمن، لما استطاع أن يفلت من حصار أهل الشرك له بمكة، بل كان يسلم لهم القياد، ويجيبهم إلى ما يبتغون فأسمعهم حين يخاطبهم خطاب الواثق من نفسه بأنه يبلغ عن الله - تعالى - : « قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ »[(١)] . . ولقد علم الناس من سيرته الوثيقة، أنهم عرضوا عليه الرياسة والمال بعد أن يئسوا من استجابته بالإيذاء فأبى وقرأ عليهم سورة فصلت، وقد جاء فيها: « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُود[(٢)] ». فهل يكون هذا حال من هو محتاج إلى التثبيت . . ؟

ولقد أحسن البيضاوى إذ حكى فى آخر كلامه، رأيًا لبعض المفسرين أن الخطاب فى قوله تعالى: (فَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ) إلخ لكل من يسمع، وقال فى معناه على هذا الرأى : أى إن كنت أيها السامع فى شك مما أنزلنا على نبينا إليك (فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقرءُون الْكِتَابَ) .

ولو أن الإمام البيضاوى وغيره اقتصر على هذا الرأى، ولم يذكر معه سواه - لا قبْله ولا بَعْده - لكان قد أسدى خيرًا للحق الذى يجانب غيره من تلك الآراء الفاسدة، المخالفة لنص القرآن ولواقع النبى - صلى الله عليه وسلم - من الهمة ومضاء العزيمة، ومن ثباته على دينه رغم المغريات من الملك والمال، بعد أن لم يصرفه عن دينه الإيذاء والاستهزاء .

(لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) : لقد جاءك أيها المكلف الحق من ربك فلا تكونن من أصحاب الشكوك والأوهام، بل كن من ذوى الإيمان الثابت بهذا الحق المبين .

٩٥ - (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) : هذه الآية خير شاهد لما قلناه من أن الخطاب ليس موجهًا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ،

---

(١) سورة يونس، الآية ١٠٤

(٢) الآية : ١٣

بل إلى كل مكلف من أمة الدعوة المحمدية ، فإن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - لايتصور منه أن يكون مكذبًا لآيات الله وهو يدعو الناس إلى الإيمان بربه .

والمعنى : وكما نهيناك أيها المكلف عن الشك فيما أنزلناه إليك على لسان محمد ، ننهاك عن التكذيب بآيات الله ، فلا تكونن من جملة المكذبين بدين الإسلام ، فتكون بذلك التكذيب فى عداد الخاسرين فى الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾

التفسير

فى هاتين الآيتين بيان شدة إصرار أهل الكفر على الجحود والعصيان ولو جاءتهم كل آية طلبوها أو لم يطلبوها ، وأن اقتراحهم ماهو إلا تعلة لرفضهم الإسلام ، لعدم تحقيقها وبيان ذلك فيما يلى :

٩٦ - (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ) : أى إن الذين حقت ووجبت عليهم كلمة ربك أى حكمه وقضاؤه بأنهم لايؤمنون ، بل يموتون على الكفر ويخلدون فى النار ، بسبب ما علمه منهم من الإصرار على تكذيب رسوله تكبرًا وعنادًا ، وتقليدًا للآباء والأجداد ، فآثروا الضلالة على الهدى ، مع وضوح الحق ، ودوام التذكير .

٩٧ - (وَلَوْ جَاءَتهمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) : أى إن هؤلاء الذين حكم الله بعدم إيمانهم وخلودهم فى النار بسبب اختيارهم العمى على الهدى لايستجيبون لدعوة الحق ولو جاءتهم كل آية كونية طلبوها أو لم يطلبوها ، وكل آية نقلية من شأنها أن تجذب

القلوب إلى قبول الهدى والرشاد، كما قال تعالى: « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [١] ».

(حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ): أى هؤلاء يستمرون على كفرهم وعنادهم فلا يصدقون بالآيات الواضحة والبراهين القاطعة ولا يؤمنون إلى أن يأتيهم العذاب الأليم على كفرهم، فيؤمنوا حين لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا - كشأن فرعون وأمثاله ممن آمنوا عندما شاهدوا العذاب الذى أنذروه محيطا بهم من حيث لايعلمون، وقد فات الأوان الذى ينفع فيه الإيمان.

(فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾)

المفردات:

(فَلَوْلَا): لولا كلمة تفيد الحث على الفعل بمعنى هلَّا. (قَرْيَةٌ): اسم للمبانى المتصلة التى يسكنها جمع من الناس، وقد جاء فى القرآن الكريم أن القرية والمدينة بمعنى واحد قال - تعالى -: « حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ». ثم قال: « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ». وقيل القرية بلدة أصغر من المدينة - والمراد من القرية فى الآية أهلها.

التفسير

٩٨ - (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا) ..الآية.

بعد أن بينت السورة قبل هذه الآية امتناع الإيمان ممن حكم الله عليهم بالخسران لاختيارهم طريق العصيان، مع تمكنهم من إنقاذ أنفسهم بالإيمان قبل فوات الأوان، جاءت

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧

هذه الآية الكريمة ترتيبًا على ما تقدم لتقرير هذا المعنى : إذ بينت أن الله تعالى قد أهلك الذين أخروا إيمانهم من الأمم السابقة ، حتى إذا عاينوا الهلاك قالوا آمنا .

والمعنى : فهلا كان أهل كل قرية بعث الله إليهم رسولا ، بادروا إلى الإيمان بما جاءهم به قبل أن يحيط العذاب بهم فيقبله منهم وينجيهم من الهلاك : لكن لم يبادروا بالإيمان قبله فهلكوا .

(إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ) : أى لكن قوم يونس – عليه السلام – لما آمنوا عندما رأوا أمارات العذاب ، وتابوا إلى الله – تعالى – قبل حلوله بهم ، أزال الله عنهم عذاب الذل والهوان فى الحياة الدنيا وكشفه عنهم بعد أن كاد يقع بهم ، ومتعهم بما فى الدنيا من زينة ونعيم ومتاع إلى انقضاء آجالهم ، لمسارعتهم إلى التصديق بما جاء به رسولهم عند رؤيتهم أمارات العذاب .

روى عن عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير وعبد الله بن عباس أن يونس – عليه السلام – أرسل إلى أهل نينوى من أرض الموصل – وكانوا أهل كفر وشرك – فكذبوه وأصروا على ذلك ، فأوحى الله إليه أن أنذرهم أن العذاب يصبحهم بعد ثلاث ليال ، فأخبرهم بذلك ، فلما قرب موعد الإنذار غامت السماء غيمًا أسود هائلا ، ذا دخان شديد ، فهبط حتى غشى مدينتهم ، فاستولى عليهم الخوف والفزع ، فطلبوا يونس فلم يجدوه ، فأيقنوا صدقه فلبسوا المسوح ، وخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب ، فَحَنَّ بعضها إلى بعض – فَحَنَّت الأولاد إلى الأمهات والأمهات إلى الأولاد وعلت الأصوات والضجيج ، وأخلصوا النية وأعلنوا إيمانهم ، وتضرعوا إلى الله فاستجاب دعاءهم فرحمهم ، وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم ، وليس هذا الذى نقلناه عن عبد الله بن مسعود وغيره حديثًا مرفوعًا بل هو أثر مروى عنهم فى تفسير الآية والله تعالى أعلم .

(وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾)

التفسير

٩٩ـ (وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً).. الآية .

كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لفرط شفقته على أمته حريصا أشد الحرص على إيمان الناس جميعاً ، وللوصول إلى تلك الغاية حمل نفسه أعباء ثقيلة ، ومتاعب جسيمة ، فخفف الله عنه ، ببيان أنه ليس مكلفاً بإكراه الناس على الإيمان ، وحملهم جميعاً عليه ، فليس عليه إلا البلاغ وقد فعل ، وحسبه التبليغ الذى لا يرهقه ، فإن الهداية من الله .

والمعنى : ولو شاء ربك أيها الرسول إيمان من فى الأرض جميعاً من الجن والإنس لآمنوا كلهم لا يشذ منهم أحد ، لكن مشيئته ـ تعالى ـ الموافقة لحكمته البالغة اقتضت أن يكون الناس فريقين : فريقاً شاء الله إيمانه فيؤمن لا محالة وهم الذين اختاروا الهدى فيوفقهم الله ـ تعالى ـ إليه ، وفريقاً شاء الله كفره لسوء نيته فيكفر لا محالة .

(أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) : أى أفأنت مطلوب منك أن تكره الناس على دينك حتى يصيروا مؤمنين به ؟ كلا . فأشفق على نفسك فما عليك إلا البلاغ ، «فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »[(١)] ولا تُحمِّل نفسك المصاعب والمشاق ، بالمبالغة فى دعوة المعاندين المستكبرين «فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ على آثَارِهِمْ إن لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ أَسَفاً »[(٢)].

---

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٨

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٦

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾)

المفـردات :

(بِإِذْنِ اللهِ) : بإرادة الله. (الرِّجْسَ): يطلق على القذر حسيًّا كان أو معنويًّا ، ومن المعنوى الذنب والكفر ، وَكُلٌّ يصح أن يراد هنا ، وقد يطلق على العذاب والشك وغير ذلك .

التفسـير

١٠٠ - (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ) : أخبرنا الله تعالى فى الآية السابقة أنه لو شاء لهدى الناس جميعا ، وأن رسوله صلى الله عليه وسلم لا يملك إكراه الناس على الإيمان ولم يكلف به ، ثم أخبرنا فى هذه الآية أن إيمان أى نفس متوقف على إرادة الله ، فلا تستطيع نفس أن تهتدى إلا إذا أراد الله هدايتها ، فإن الهدي هدى الله وحده ، قال تعالى : « قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ »[1]. ومن سنن الله فى خليقته أن يهدى من هو أهل للإيمان به من أصحاب الفطر السليمة « الَّذِين يَسْتَمِعون الْقَوْلَ فيَتبِعون أَحْسَنَه »[2]. ومن الذين أحسنوا استعمال حواسهم وعقولهم فى سبيل الوصول إلى الحق ، أما الذين ألغوا حواسهم وأهملوا عقولهم ، واتبعوا أهواءهم واستقبلوا الرسالات السماوية بالعناد واللجاج ، وآثروا الضلال على الهدى ، فهم غير أهل للهداية والإيمان ، فلا يأذن به ولا يعينهم عليه بسبب سوء اختيارهم ، قال تعالى : «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ٧٣

(٢) سورة الزمر ، من الآية : ١٨

بها أولَئِكَ كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ[١] ». وقال سبحانه وتعالى : « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ للعَبِيد[٢] » وهذا الصنف هو الذى يشير إليه قوله تعالى فى آخر الآية :

(وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعقِلُونَ) : فالرجس هنا بمعنى الكفر ليقابل الإيمان فى صدر الآية .

والمعنى : أنه تعالى يجعل الكفر قضاءً منه على الذين عطلوا عقولهم فلم ينتفعوا بآياته ، ولم يهتدوا برسله ، كما أذن بالإيمان وحكم به وأعان عليه الذين يعقلون ويهتدون بهداه ، ويؤمنون برسله .

(قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(انظُرُوا) : تفكروا واعتبروا . (النُّذُر) : جمع نذير وهو الذى ينبه الناس إلى الخطر .

التفسير

١٠١ - (قُل انظرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ) :

بينت الآية السابقة أن الهدى بإذن الله لمن هو أهل له ، ممن يستعملون عقولهم فى فهم آياته ، وأن الرجس - أى الكفر - قضى الله به على من لا يعقلون ولا يتدبرون فيها ، وجاءت هذه الآية آمرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يحث الناس على التفكر فى آياته حتى يتيسر لهم الإيمان بالحق تبارك وتعالى .

والمعنى : قل لهم يامحمد تأملوا وتفكروا فى عجائب صنع الله فى السموات وما تضمه من مجرات ونجوم وكواكب ، وانظروا ما فى الأرض وما يتعاقب فيها من ليل ونهار

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٩ (٢) سورة فصلت ، من الآية : ٤٦

وفصول متوالية ، وما يطرأ عليها من زوابع عاتية وهواء عليل ، وما تضمه من جبال وبحار ، ومحيطات وقارات ، ومن صحارى جدباء ، وحدائق غناء ، ومروج خضراء ، وما يجرى على سطحها من جداول وأنهار ، وما يستقر فى جوفها من مناجم وكنوز ، وما يعتريها من زلازل وبراكين ، وما تراه فوقها من إنسان وحيوان ونبات ، انظروا فى هذا كله وغيره من عجائب خلق الله ، فإنه يهديكم إلى معرفة الله ، ويدعوكم إلى إفراده بالعبادة والتقديس .

(وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ) :

« ما » : إما أن تكون نافية أو استفهامية ، فعلى النفى يكون المعنى : أن آيات الله الكونية وآياته المنزلة على الرسل بالتبشير والإنذار ، لا تغنى هؤلاء الكفار ولا تنفعهم فى الاهتداء إلى الإيمان ، ما داموا مصرين على الكفر والضلال ، وعلى أن (ما) استفهامية يكون المعنى : كيف يمكن أن تنفع الآيات والنذر هؤلاء المعنين فى الضلال المصرين على عدم الإيمان ؟

(فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾)

المفردات :

(يَنْتَظِرُونَ) : يترقبون ويتوقعون . (خَلَوْا) : مضوا .

التفسير

١٠٢ – (فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ) :

فى هذه الآية الكريمة إنذار بعقاب الله لمن ينصرفون عن الله ويحجبون أبصارهم وبصائرهم عن الهداية ، وتذكير لهم بما أصاب الأمم السابقة التى أصرت على الكفر ، وما حل بها من عذاب شديد ، قال تعالى : « فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ، وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم

مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .[١] والمراد من الاستفهام فى قوله : (فَهَلْ يَنتَظِرُونَ) النفى ، أى لا ينتظر هؤلاء الكفار أثرا لكفرهم إلا أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة من عذاب ونكال ، والمراد أن العقاب الشديد سيحل بهم لا محالة ، فهم فى حكم المنتظرين لهذا العقاب (قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ) : قل لهم يامحمد فانتظروا وترقبوا آثار إصراركم على الكفر ، فإنى مترقب معكم ما سيصيبكم من عذاب إن ظللتم مصرين على الكفر والإنكار .

١٠٣ ـ (ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا) :

بعد أن أفادت الآية السابقة أن الهلاك يحل بالكفار المعاندين ، جاءت هذه الآية تفيد أن الله سبحانه سينجى رسله والذين آمنوا معهم مما أصاب كفار قومهم من عذاب وتنكيل ، لأن عدالة الله تقتضى ألا يعذب قوما بذنوب آخرين ، قال تعالى فى قوم هود : « وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ »[٢] . وقال سبحانه فى قوم صالح : « فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ »[٣] .

(كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ) : أى كما أنجى الله الأنبياء والمؤمنين مما أصاب أقوامهم ، كذلك اقتضت عدالته وصدق وعده ، أن ينجى المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم مما يتعرض له الكفار المصرون على الكفر والضلال ، قال تعالى : « ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ »[٤] .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٠

(٢) سورة هود ، الآية : ٥٨

(٣) سورة هود ، الآية : ٦٦ ، ٦٧

(٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٩

(قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّـٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ
وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾)

المفردات :

(يَتَوَفَّاكُمْ) : يستوفى آجالكم ، بقبض أرواحكم . (وَجْهَكَ) : المراد من الوجه : الذات أو القلب أو القصد . (حَنِيفًا) : منصرفا عن الباطل مقبلا على الحق .

التفسير

بعد أن بينت الآيات السابقة ، ما ينتظر الكافرين من الهلاك ، وما يتوقعه المؤمنون من الفوز والنجاة ـ أمر الله رسوله فى هذه الآيات أن يعلن الكافرين أنه لن يعبد ما يعبدون ، وأن الله أمره بالإخلاص فى عبادته وحده ، وفيما يلى بيانها :

١٠٤ ـ (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِّنْ دِينِى فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) : أى قل يا محمد للمشركين بالله الشاكين فى نبوتك يـأيها الناس ، إن كنتم فى ريب وشك من دينى ، حتى أدى بكم الشك فيه إلى تكذيبى فيما جئتكم به ، فاعلموا أننى مؤمن إيمانا راسخا بما أنزله الله تعالى علىّ ، ثابت كل الثبات على عقيدتى ، فلا تتوقعوا منى أن أجنح إلى مشاركتكم فى عقيدتكم ، وعبادة آلهتكم التى عبدتموها من دون الله بغير حق.

(وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِى يَتَوَفَّـٰكُمْ) :

أى ولكننى أعبد الله ـ تعالى ـ الذى يستوفى آجالكم ، بقبض أرواحكم فهو الجدير بالعبادة والتقديس ، فاعرضوا عقيدتى هذه على عقولكم ، وانظروا فيها بعين الإنصاف ، لتعلموا

صحتها وفساد ما أنتم عليه من عبادة آلهة لا شأن لها فى إحياء ولا إماتة - وإنما خص التوفى بالذكر لتهديدهم .

(وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى وأمرنى الله تعالى أن أكون من المتمسكين بالإيمان به ، وعدم المبالاة بآلهتكم ، فإنهم « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ. وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورا »[1] .

١٠٥ - (وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

المراد من إقامة وجهه -صلى الله عليه وسلم- للدين ، استقامته فى الاتجاه إليه ، وقد أكد ذلك بقوله : (حَنِيفًا) : أى مائلا عن الأديان كلها إليه ، أى وكما أمرنى الله تعالى بالإيمان به - أمرنى سبحانه بالإخلاص فى الاتجاه إلى دينه بقلبى وجوارحى ، وأقوالى وأفعالى ، بحيث لا يصرفنى عنه صارف ، وأمرنى أيضا أن لا أشرك فى عبادته أحدا حتى لا أكون كهؤلاء الذين قال الله فيهم : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ »[2] وقد عرفت من هذا العرض أن الآية السابقة دعت إلى الإيمان ، وأن هذه الآية دعت إلى الإخلاص فى الإيمان ، والحرص على صفائه ونقائه وثباته ، والحذر من أن يتطرق إليه أى شك أو لبس والخطاب وإن كان موجها إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فالمؤمنون داخلون فى حكمه ، فهم مطالبون بالإخلاص فى دينهم ، وقد جاء ذلك صراحة فى قوله -عز وجل- : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُهْتَدُونَ[3] » :

أى الذين صدقوا بإخلاص ، ولم يخلطوا إيمانهم بشرك يظلمون به أنفسهم ،ويعتدون به على الحق ،أولئك لهم الأمن من المكاره ، وهم مهتدون إلى الحق وإلى عظيم الثواب ،وقال -

---

(١) الفرقان من الآية : ٣

(٢) يوسف من الآية : ١٠٦

(٣) الأنعام الآية : ٨٢

صلى الله عليه وسلم – محذرا من الشرك : « أيها الناس اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من دبيب النمل »، أخرجه الإمام أحمد والطبرانى .

١٠٦ – (وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَالَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ) :

جاءت هذه الآية ، لزيادة تأكيد ما جاء فى الآيات السابقة ، فقد نهى الله فيها رسوله – عليه الصلاة والسلام – عن الاتجاه فى دعائه وعبادته ، إلا إلية وحده لأنه سبحانه هو الذى يملك جلب المنافع ودفع المضار ، أما الآلهة المزعومة ، فلا تملك أن تنفع ذاتها أو أن تدفع الضر عنها ، فكيف تملك لغيرها نفعًا أو ضرًّا ؟ !

(فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ) :

الخطاب – هنا وفيما سبق – موجه للمسلمين عامة فى جميع العصور ، وإن بدا فى لفظه إلى شخص النبي – صلى الله عليه وسلم – والمعنى : إن دعوت من دون الله مالا ينفعك ولايضرك فإنك تكون – حينئذ – من الظالمين لأنفسهم بالشرك . واستعمال أداة الشرط (إن) تفيد استبعاد أن يدعو الرسول والمؤمنون غير الله – تعالى – بعد إيمانهم به سبحانه وتعالى .

والآية تنهى نهيًا حاسمًا ، عن الاتجاه بالدعاء إلى غير الله ، كائنًا ماكان كما جاء فى الحديث الشريف الذى ذكرت فيه وصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – لابن عمه عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – : « وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء ، لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك . وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف ». أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

المفردات :

(يمْسَسْكَ) : يصبك .

التفسير

نهت الآية السابقة ، عن الاتجاه بالدعاء إلى مالا ينفع ولا يضر . وقررت أن هذا إشراك بالله – تعالى – وجاءت هذه الآية لتؤكد أن النفع والضر ، من الله وحده . وفيما يلي بيانها :

١٠٧ – (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) :

أى : وإن يصبك الله بما يضرك ، من قحط أو فقر أو مرض . أو خوف أو إيذاء أو غيرها ، فإن أحدًا لن يستطيع أن يزيل عنك ما أصابك إلا الله وحده « وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ »[١] .

والناس يتعرضون للضر ، ابتلاء من الله – تعالى – واختبارًا منه لعباده . ليظهر مدى إيمانهم وصبرهم ، قال تعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ »[٢] . وقد يتعرض الناس للضر ، عقابًا لهم على ما اجترحوا من آثام لكى يعودوا إلى الله بالتوبة والاستغفار ، قال تعالى : « فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ »[٣] وقال جل شأنه : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ »[٤] . وقد يكون هذا التعرض تكفيراً للذنوب . أو رفعة للمنزلة .

---

(١) الشورى الآية : ٢٨
(٢) البقرة : ١٥٥
(٣) الأنعام من الآية : ٤٢
(٤) الشورى : ٣٠

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ من نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ ، وَلا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ ، ولا أَذى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَة يُشَاكها إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاه » .[1] وقد جرت سنة الله تعالى، أن لايديم الضر على عباده ، بل يكشفه عنهم ، كما يشير إليه قوله تعالى : « سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا »[2] .

(وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ) :

والمعنى : أنه – تعالى – إن يرد عبده بخير من فضله ،فلن يستطيع أحد منع هذا الخير عنه ، فإن إرادته – جل وعلا – نافذة ، وفضله سبحانه لايستطيع أن يرده أحد من خلقه .

وكما يكون الضرُّ ابتلاء من الله لعباده لإظهار مدى إيمانهم وصبرهم ، يكون الخير كذلك لإظهار مدى شكرهم لله وإقبالهم عليه – تعالى – قال سبحانه : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ » .[3] وقد يكون الخير تكريمًا من الله لعباده الصالحين ، وتعجيلا بنصيب من الثواب فى الدنيا قال تعالى : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ » .[4] وكما قال سبحانه : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا »[5] .

(وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) : أى والله – سبحانه وتعالى – عظيم المغفرة واسع الرحمة . يفسح لعباده مجال التوبة والاستغفار قبل أن ينزل بهم العقاب ، فإنه – سبحانه – : « أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ » .[6] ومن فضل الله ورحمته أنه يتجاوز عن كثير من السيئات ، كما قال عز وجل : « وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » .[7] ولا يؤاخذهم عاجلا بما كسبوا ، كما قال سبحانه : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ »[8] .

وكما قال تعالى : « وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ »[9] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب المرض عن أبى سعيد الخدرى (باب ما جاء فى كفارة المرض) .

(٢) سورة الطلاق الآية : ٧

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٣٥

(٤) سورة النحل من الآية : ٣٠

(٥) سورة الطلاق من الآية : ٤

(٦) ختام المدثر .

(٧) سورة الشورى من الآية : ٣٠

(٨) سورة فاطر من الآية الأخيرة .

(٩) سورة الكهف : آية ٥٨

(قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾)

المفردات :

(بِوَكِيلٍ) : الوكيل ؛ من يُوكل إليه الأمر .

التفسير

١٠٨ - (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ . .) الآية .

أثبتت الآيات السابقة ، أن الذى يملك الهداية ، والنفع والضرّ والموت والحياة هو الله وحده ، فهو الجدير بالعبادة والتقديس ، وجاءت هذه الآية لتبين أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أدى رسالته للناس على وجهها الحق ، وأنه ليس مسئولا عنهم إن أعرضوا عنها .

والمعنى : قل يا محمد لأُمتك : يا أيها الناس قد جاءكم من ربكم الدين الحق ، الثابت بالمعجزات والبراهين العقلية والنقلية ، وقد أصبح الحق واضحًا لاشك فيه ، فلا عذر لأحد فى التكذيب به ، أو العمل بما يخالفه .

(فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ) : أى فمن اهتدى إلى هذا الدين الحق بالإيمان والمتابعة فإنما يهتدى لمنفعة نفسه دون سواها .

(وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) : ومن ضل عن هديه وانصرف عنه ، فما وبال ضلاله إلا على نفسه دون غيرها ،فلا منفعة لله ولا لرسوله من اهتدائكم ،ولا ضرر على الله ولا على رسوله من ضلالكم ، أخرج مسلم فى صحيحه . عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ : « يَا عِبَادِى إِنَّكُم لَن تَبْلُغُوا ضرِّى فَتَضرُّونِى . وَلَن تَبْلُغوا نَفْعِى فَتَنفَعُونِى يا عبادى لوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وآخِرَكُم ، وإِنْسَكُم وجِنَّكُم ،كَانُوا عَلَى أَتقى قلب رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم ،

مَا زَاد ذَلك فِى مُلكِى شَيئًا . . يا عبادى لو أن أوَّلكم وآخِرَكم وإنْسكُم وجنَّكُم كَانُوا عَلَى أفْجَرِ قلبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُم ، مَا نَقَص ذَلِك مِنْ مُلكِى شيئًا ».[1] فالله - سبحانه - غنى عن الناس ، والناس جميعًا مفتقرون إلى رحمته ، قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ »[2] .

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) :

وقل لهم أيها الرسول : إن الذى كُلِّفتُ به هو أداء رسالة الله إليكم . وقد أديتها كاملة ولم يوكل إلىّ إرغامكم على اتباعها ، لأننى لست عليكم بمسيطر . كما قال تعالى :

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ »[3] .

١٠٩ - (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) :

بعد أن أمر الله رسوله بتبليغ قومه أنه جاءهم بالحق من ربهم ، وأن عاقبة الاهتداء إليه والضلال عنه لا تلحق سواهم ، وأنه ليس مكلفًا بقهرهم على الاهتداء ، أمره فى هذه الآية بالثبات على اتباع وحيه ، والصبر حتى يأتى النصر .

والمعنى : دم على ما أنت عليه من اتباع وحى الله -تعالى- ولا تدخل اليأس على نفسك بسبب إصرارهم على كفرهم ، واصبر على ما تتعرض له من إيذاء المشركين وعنتهم وإمعانهم فى الضلال ، حتى يقضى الله تعالى فيهم قضاءه ، وينفذ فيهم مشيئته وحكمه ، فإنه أعدل الحاكمين .

وقد نفذ الرسول ما أمره الله به من ملازمة الاتباع ، ومداومة الصبر ، وصبر معه المؤمنون وتحملوا أذى المشركين ، حتى صدق الله وعده وأعز جنده ، وهزم المشركين وحده ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) رواه أبو ذر الغفارى - رضى الله عنه - والحديث طويل وهذا جزء منه .

(٢) سورة فاطر الآية : ١٥

(٣) الغاشية الآيتين : ٢١ ، ٢٢

« بسم الله الرحمن الرحيم »

سورة هود

هذه السورة مكية :

روى الترمذى والطبرانى - وغيرهما - أن أبا بكر - رضى الله عنه - قال للرسول - صلى الله عليه وسلم - : «ما شيّبكَ ؟ قال : شَيَّبَتْنى هُودٌ وأَخَواتها ».وفى رواية أُخرى:«شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات . وعم يتساءلون » والمراد : ما فيها من ذكر ما أصاب الطغاة من عذاب شديد، فى الدنيا وما ينتظرهم من أهوال يوم القيامة التى تجعل الولدان شيبا .

وأهم مقاصد السورة ما يلى :

١ - الحديث عن القرآن الكريم وأحكامه من لدن حكيم خبير ، ودعوة الناس للعمل بما فيه من عقائد وأحكام شرعية ، ليمتعهم متاعًا حسنًا ويؤتى كل ذى فضل فضله ، وبيان أن المرجع إليه - سبحانه - وأنه على كل شيء قدير .

٢ - الحديث عن علم الله تعالى وإحاطته - عز وجل - بمكنون الضمائر ، وتكفله برزق كل دابة ومعرفته جميع أحوالها وحركاتها وسكناتها .

٣ - الإشارة إلى آيات الله الكونية ، فى خلق السموات والأرض والعرش العظيم ، وأنه اختبرنا بالتكاليف ليبلو عباده أيهم أحسن عملا .

٤ - الحديث عن إعجاز القرآن الكريم ، وعجز البشر عن محاكاته ، وأن هذا كافٍ فى الدلالة على أنه من عند الله ، وأن الله أيّد به رسوله ، وأن ما يدعونه من افترائه على الله زعم باطل .

٥ - بيان موقف الناس من الإسلام ، وذكر ثواب المطيعين وعقاب المسيئين - وأن مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، وأنهما لايستويان مثلاً .

٦ - الحديث عن قصة نوح - عليه السلام - وقومه ، والطوفان ، ونجاة المؤمنين وهلاك المكذبين الكافرين ليعتبر كفار قريش ويرجعوا عن كفرهم وتكذيبهم .

٧ - بيان قصة هود - عليه السلام - مع قومه عاد ، ونجاة المؤمنين منهم وهلاك العاصين المتمردين ، ليكون فى نبئهم عبرة لأُولى الألباب .

٨ - قصة صالح - عليه السلام - مع قومه « ثمود » ونجاة المؤمنين منهم وهلاك المكذبين بالصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، جزاء كفرهم وتكذيبهم لرسول الله إليهم .

٩ - قصة إبراهيم - عليه السلام - وتبشير الملائكة له بإسحق ومن ورائه يعقوب - عليهما السلام - .

١٠ - قصة الملائكة وزيارتهم لوطا عليه السلام . وإهلاك الله لقومه بإبادة قراهم ، وإمطارهم بحجارة من سجيل ، جزاء شذوذهم الشهوانى ، وكفرهم بآيات ربهم .

١١ - قصة شعيب - عليه السلام - وتمرد قومه عليه وإهلاكهم بالصيحة . فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، كما حدث لقوم صالح - عليه السلام - ونجى الله شعيبا ومن آمن معه .

١٢ - قصة موسى وفرعون ، وبيان أن قوم فرعون اتبعوا أمره . فأهلكهم الله وأتبعهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة بسبب كفرهم .

١٣ - الإشارة إلى سنة الله فى عقاب الكفار فى الدنيا ، ونجاة المؤمنين بقوله : « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » . وبيان أن فى ذلك آية لمن خاف عذاب الآخرة .

١٤ - بيان حال الكافرين الأشقياء فى الآخرة من الخلود فى النار وزفيرهم وشهيقهم فيها ، وبيان حال المؤمنين السعداء فيها ، من الخلود فى الجنة والنعيم المقيم فيها .

١٥ - بيان أنه - تعالى - قص على رسوله صلى الله عليه وسلم قَصَصَ إخوانه الأنبياء مع أممهم ، لِيُثَبِّتَ بها فؤادَه ، وموعظة وذكرى للمؤمنين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾)

المفردات :

(أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) : نظمت آياته نظمًا محكمًا لا خلل فيها ولا تناقض ولا اضطراب .

(فُصِّلَتْ) : ذكرت فيها الأمور التى يحتاج إليها العباد فى عقائدهم وسلوكهم ومعادهم ومعاشهم مفصلة مبينة .

(مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ) : من عند إله مبدع للأمور على خير وجه .

(خَبِيرٍ) : عليم بما كان وما يكون ، ظاهرًا أو خفيًّا .

(نَذِيرٌ) : محذر لعباد الله من سوء عاقبة الكفر والعصيان .

(بَشِيرٌ) : مخبر بما يسر الصالحين من ثواب الله .

التفسير

١ - (الر) : تحدثنا فى أول سورة البقرة عما بُدِىء به بعض السور من مثل هذه الفواتح ، وذكرنا آراء المفسرين فيها ، وأرجح الآراء فى تأويلها هو أنها ترمز إلى التحدى بأن يأتوا بمثل هذا القرآن المؤلف من كلمات وجمل ذات حروف مما ينظمون منها كلامهم ، إن كانوا صادقين فى زعمهم أن الرسول تَقَوَّلَهُ على الله ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه مع ما يمتازون به من الفصاحة والبلاغة وحسن البيان ، فمحمد مثلهم وشأنه شأنهم فهذا دليل على أن القرآن من عند الله وأنه : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » [(١)] وتكرارها فى القرآن على هذا الرأى تكرار للتحدى ، وقيل : إن المقصود بها هو تنبيه السامعين إلى ما يأتى بعدها .

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) :

هذا كتاب كريم ، أنزل الله آياته البينات فى غاية الإحكام ، فهى فصيحة الكلمات ، بليغة العبارات متناسقة الموضوعات ، رائعة المعانى غزيرة الفوائد ، لا يمكن أن يتطرق إليها أى اضطراب أو اختلال كما قال تعالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » [(٢)] .

---

(١) فصلت الآية : ٤٢

(٢) النساء من الآية : ٨٢

وكما هى متقنة فى أصولها ، فهى متقنة فى تفصيلاتها الفرعية فى قوة ، ودقة ، ووضوح لأنها مُنزَّلَة من الحكيم الذى يضع الأُمور فى مواضعها ، الخبير بما كان وما هو كائن. والعطف بحرف (ثُمَّ) لإفادة علو مرتبة التفصيل ، لوفائه بحاجات البشر .

٢ - (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) :

جاءت هذه الآية مبينة المقصود من إنزال القران محكما ومفصَّلا - وهو الدعوة إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى والتوجه اليه - عز وجل - وحده بالعبادة ، دون شريك ، وهذا هو جوهر الرسالات السماوية .

والمعنى : هذا كتاب أُحكمت آياتُه وفصلت من عند الحكيم الخبير ، لكيلا تعبدوا غير الله - تعالى - فإننى لكم منه منذر فلاتعصوه خوفامن عقابه ، ومبشر فأَقبلوا على طاعته طمعا فى ثوابه .

(وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(تَوَلَّوْا) : أصلها تتولوا أى تعرضوا . (مَرْجِعُكُمْ) : مصيركم .

التفسير

٣ - (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) :

هذه الآية مكملة للآية السابقة فى المعنى .

والمعنى : هذا كتاب أُحكمت وفصِّلت آياته من عند الله - وحده - لكى تعبدوه دون سواه وتستغفروه وتتوبوا إليه من ذنوبكم ومعاصيكم ، على أن تكون توبة نصوحا ، وهى المنبعثة

عن الندم ، مع العزم على تجنب المعاصى والآثام والإكثار من الطاعات ، فإنها تمحو السيئات ، كما قال تعالى : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »(١) .

وقد بيَّنت الآية أن من ثمرات الاستغفار والتوبة ، أن الله يمنُّ على صاحبهما بالثواب العاجل فى الدنيا ، فيغمره بفضله وإحسانه فيها ، حتى يوافيه أجله المحتوم المقدر عند الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى : « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ، وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا »(٢) .

وأدنى المتاع الحسن فى الدنيا ، الأمن والدعة وراحة النفس والرضا بما قسم الله - تعالى - والصبر على المحن .

(ويُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ) . أى ويمنح فى الآخرة كل صاحب فضل فى دينه جزاء فضله ، بعد أن متَّعه فى دنياه ، متاعاً حسنا .

(وَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) :

وإن تنصرفوا عمَّا دعوتكم إليه من طاعة الله والتوبة من المعاصى فإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول ، رهيب الجزاء : « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ »(٣) .

٤ - (إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ) :

أى إلى الله - وحده - مصيركم ومآلكم ، بعد هذه الحياة . فعليكم أن تتزودوا لهذا المصير بما يجزل الله لكم به الثواب ويقيكم العذاب - قال تعالى : « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ »(٤)

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ):

ختم الله الآية بهذه الجملة ، ليعلم العباد أن من كان قادرا على كل شئ فهو - عز وجل - قادر على بعثهم ، ومجازاتهم بما يستحقون من ثواب وعقاب ، وأن عليهم أن يتقوه

---

(١) هود من الآية : ١١٤

(٢) نوح الآيات : ١٠ - ١٢

(٣) الحج الآية : ٢

(٤) البقرة من الآية : ١٩٧

ويحذروا عقابه ، ويدعوه مستغفرين تائبين طامعين فى فضله وإحسانه ، كما قال تعالى :

« وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ »[1] .

(أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥)

المفـردات :

(يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ) : يطوون قلوبهم على ما فيها من نوايا .

(لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ) : ليستروا أنفسهم عنه سبحانه .

(يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ) : يوارون أنفسهم بثيابهم .

التفسير

٥ ـ (أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ) :

تحدثت الآيات السابقة عن وجوب الإيمان بالله واستغفاره ، والتوبة إليه من الذنوب ليمتعهم فى الدنيا متاعا حسنا ، ويؤتى فى الآخرة كل ذي فضل ثواب فضله حين يرجعون إليه ، وجاءت هذه الآية تبيّن إصرار المشركين على الكفر ، وتنذرهم بأن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأنه سيجزيهم بما كانوا يعملون .

ورأى بعض المفسرين : أن هذه الآية نزلت فى المنافقين ، لأنهم كانوا يخفون الكفر ويظهرون الإيمان ، ولكن هذا الرأى لا يناسب ما تقدم عليها وما تأخر عنها ، من وعظ المشركين وإنذارهم مَغَبَّة ما هم عليه ، فى حين أن السورة مكية ، فلا ينبغى أن يُقْحم أمر

(١) الأعراف من الآية : ٥٦

المنافقين بين ما هو مرتبط بمسلك المشركين بمكة ، قال العلامة البيضاوى بعد حكايته القول بأنها نزلت فى المنافقين وفيه نظر ؛ إذ الآية مكية ، والنفاق حدث فى المدينة اهـ . ويؤيد ذلك ما روى عن ابن عباس فى سبب نزولها ، فقد روى عنه أنها نزلت فى الأخنس بن شريق وكان رجلا حلو المنطق حسن السياق للحديث ، يظهر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - المحبة ، ويضمر فى قلبه ضدها .

والمعنى : ألا إن الكافرين الذين لم يتأثروا بآيات القرآن ، يطوون صدورهم على الكفر وعداوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا ينتفعون بتلك الزواجر التى تقدمت فى صدر السورة ، يريدون أن يخفوا أمرهم عن الله ، أو يعتقدون أن أمرهم يخفى عليه ، ثم رد الله عليهم وخطأ مسلكهم فقال :

(أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) :

ليس المراد من استغشائهم ثيابهم المعنى الحقيقى ، بل المراد : مبالغتهم فى إخفاء أمرهم فهو من التعبيرات الكنائية ، ويدل لذلك قوله تعالى فى ختام الآية : (يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ) والمعنى : ألا إنهم حين يبالغون فى سترحالهم وإخفاء كفرهم وعداوتهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ويستخفون تحت ظواهرهم من المودة والملاطفة ، يعلم الله ما يخفونه من الكفر بالله والعداوة لرسوله ، وجميع ما تنطوى عليه جوانحهم ، ويعلم ما يعلنونه من جميع ظواهرهم ، وصدق الله إذ يقول فى سورة سبأ : « لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩ / ١٩٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٦٩٣-١٩٧٩-٢٥٠٠٤

(﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(دابَّةٍ):هى اسم لكل حيوان يدب على الأرض زحفا أو على قوائم ، مأخوذة من الدبيب وهو الانتقال البطىء،والمقصود منها هنا جنس الحيوان من ماشية وسباع وهوام وحشرات وغيرها ويدخل فيها الإنسان ، فإنه يدب على الأرض ، ومنه قول الشاعر :

إنما الشيخ من يدب دبيبا .

(مُسْتَقَرَّهَا):موضع استقرارها وإقامتها .(وَمُسْتَوْدَعَهَا) : ومكان استيداعها ووجودها إلى حين تنقل بعده إلى غيره . (كِتَابٍ مُّبِينٍ) : هو كناية عن علم الله تعالى،أو هو اللوح المحفوظ.

التفسير

٦ - (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ...) الآية .

بين الله فى الآية السابقة أن الكافرين مهما حاولوا الاستخفاء من الله تعالى بما يظنون أنه يخفيهم عنه ، ومهما تستروا فى كفرهم وعداوتهم للرسول فإنهم لا يخفون على الله العليم بما يسرون وما يعلنون ، وجاءت هذه الآية لتقرر ما سبق ، ببيان شمول رزقه تعالى وعلمه لكل دابة فى الأرض .

والمعنى : وما من حيوان فى أى جزء من أجزاء الأرض ، ذكرا كان أو أنثى يمشى على رجلين أو يمشى على أربع ، أو يمشى على غير هذه الصور ، إلا تكفل الله برزقه اللائق به ، وأوجبه على نفسه تفضلا وإحسانا .

وكما تكفل برزقه أينما كان يعلم مستقره وموطنه الذى ولد ونشأ فيه ، ومستودعه الذى يرحل إليه لطلب الرزق وغيره ، كما يعلم مساكنه فى أدوار حياته ويعلم ما يودع فيه بعد مماته ، كل ذلك فى كتاب بين واضح .

والكتاب المبين هنا: إما كناية عن علم الله تعالى ، وإما حقيقة مراد منها اللوح المحفوظ .

وتذييل الآية بهذه الجملة ، للإيذان بأنه تعالى لا يبتدئ العلم بأحوال الدواب ابتداء ، بل علمه بها أزلى قديم ، وواضح لديه أمرها قبل خلقها ورزقها وإيوائها فى مستقرها ومستودعها ، وأنه دبر أمرها أزلا على النحو الفائق العجيب الذى أراده لها ، وأبرزها عليه وفق تدبيره الأزلى القديم فتبارك الله أحسن الخالقين .

(وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾)

المفردات :

(سِتَّةِ أَيَّامٍ) :المراد بالأيام:أيام الله لا أيامنا نحن ولا يعلمها إلا الله ، وسيأتى الحديث عنها .

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) : وكان عرشه فوق الماء ، ولا يقتضى هذا أن يكون العرش فوقه مباشرة ، وسيأتى تفصيل الحديث عن هذه الجملة فى تفسيرها .

التفسير

٧ - (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ) :

بعد أن بين الله سبحانه فى الآية السابقة تكفله بأرزاق دواب الأرض ، وعلمه بجميع أحوالها ، بين فى هذه الآية خلقه للسموات والأرض ، وأيام خلقه لها ، ليعلم الناس عظمته تعالى ، فلا يشركوا به فى العبادة ما ليس له دخل فى خلق ولا رزق ، بل يتنافسوا فى إحسان العمل والتقرب به إليه سبحانه ، ونعى عليهم فيها إنكارهم للبعث بعد الموت للحساب والجزاء ووصفهم للقرآن الذى أخبرهم بذلك بأنه سحر مبين .

واعلم أن أصل السموات والأرض الدخان ، قال تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ »(١) . وقال جل وعلا فى سورة الأنبياء : « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا »(٢) .

ويقول أهل العلم الحديث : إن أصل العالم غاز الهيدروجين ، وهم بذلك يهتدون إلى ما سبقهم به القرآن العظيم بأكثر من ألف عام ، وتحويلُ هذا الدخان إلى سموات وأرضين ، استغرق ستة أيام كما نصت عليه الآية الكريمة ، ولا يصح حمل الأيام هنا على أيامنا فى أرضنا ، فإنها نشأت بعد خلق السموات والأرض ، وأيامنا على قدر حجم أرضنا ، والأيام فى الكواكب الأخرى على قدر حجمها صغرا أو كبرا .

أما الأيام التى استغرقها خلق السموات والأرض ، فهى بقدر عظمة هذا الكون وما يقتضيه من زمان طويل جدا ، حتى يتم تحويل الغاز أو الدخان إلى سموات وأرضين ، كما تقتضيه سنة التطوير التى شاءها الله تعالى ، مع أنه قادر على أن يقول لها كونى فتكون فورا .

ولقد ضرب الله مثلا لأيامه بقوله سبحانه : « وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ »(٣) . وبقوله : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ »(٤) . وذلك يقتضى أن أيام الله ليس لها حد معين وأنها تكون فى طولها وامتدادها حسب الأمر الذى تتصل به ، وفى موضوع تكوين السموات والأرض قد تكون الأيام أطول من هذين المثلين وربما وصل اليوم فيها إلى ملايين السنين ، وليس من الحكمة تحديد مدى أيام الله تعالى فذلك شأنه تعالى ، ولا سبيل لنا إلى علمه ، وعلى هذا يكون معنى الجملة من الآية ما يلى :

وهو الذى خلق السموات والأرض مادة وصورة ، وهيأ لها كل ما خلقت لأجله من العناصر والوظائف والمواضع فى هذا الفضاء الرهيب ، ووصل بينها بالقوى التى تربط بعضها ببعض من غير عمد ترونها ، وكان ذلك كله فى سته أيام من أيامه تعالى ، حتى تمت على أجمل صورة وأكمل إبداع ، وأقوى بناء ، فلا ترى فيها من عيب ولا فطور وشقوق . وصدق الله إذ يقول : « الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ

---

(١) سورة فصلت ، من الآية : ١١ (٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٠
(٣) سورة الحج ، من الآية : ٤٧ (٤) سورة المعارج ، من الآية : ٣

فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُو حَسِيرٌ »[١] .

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) : دلت هذه الجملة على أن عرشه تعالى كان على الماء قبل خلق السموات والأرض ، فكأنه قيل : وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام فى حال كون عرشه تعالى على الماءِ ، ويدل صراحة لهذا المعنى ، ما جاء فى كتاب بدء الخلق بصحيح البخارى من حديث عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض » .

فهذا الحديث يدل على أنه تعالى أزلى لا أول له ، وأنه لم يكن يشاركه شيءٌ غيره فى الوجود وأنه سبحانه كان عرشه على الماء وأنه كتب كل شيء قبل خلق السموات والأرض ، وأنه خلق السموات والأرض بعد ذلك ، ومن هذا كله يعلم أن الماءَ مخلوق قبل خلق السموات والأرض ، فهو أصل خلقهما ومادته وأصل كل شيء حى ويدل لذلك صراحة قوله تعالى : « أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ »[٢] . قال الشيخ رشيد رضا فى شرح قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) : نفهم منه أن الذى كان دون هذا العرش من مادة هذا الخلق قبل تكوين السموات والأرض أو فى أثنائه هو هذا الماءُ الذى أخبرنا عز وجل أنه جعله أصلا لخلق جميع الأحياء ، إذ قال : « أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » . والرؤية هنا علمية .

والمعنى : ألم يعلموا ما ينبغى أن يعلموه من أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة لا فتق فيها ولا انفصال ــ وهى ما يسمى فى عرف علماءِ الفلك بالسديم ، وبلغة القرآن بالدخان ــ ففتقناهما بفصل بعضهما من بعض ، فكان منها ما هو سماء ، ومنها ما هو أرض ، وجعلنا من الماء فى المقابلة لحياة الأحياء كلّ شيء حىّ . ا هـ

(١) سورة الملك ، من الآيتين : ٣ ، ٤

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٠

واختلف فى المراد من عرش الله الذى كان على الماء ، فمن العلماء من يفهمه على أنه جسم كونى عظيم . خلقه الله أول ما خلق . وجعله مصدر أوامره فى الكون الذى شاء إنشاءه بعده . والله يعلم مادته وصورته ، ومعنى كون عرشه تعالى على الماء على هذا أنه فوقه ، وهذا لا يلزم منه أنه فوقه مباشرة بحيث يكون مرتكزا عليه . فأنت تقول : السحاب على الأرض أو فوق الأرض ، مع أنه ليس مباشرا بالعلو والفوقية لها . بل بينهما فراغ .

قال الشيخ رشيد رضا بعد ما نقلناه عنه سابقا فى شرح الآية : فيفهم من هذا وذاك أن الذى كان تحت العرش فينزل إليه منه أمر التدبير والتكوين هو الماء الذى هو الأصل لجميع الأحياء ، ثم قال : والعبارة ليست نصا فى أن ذات العرش المخلوق كان على متن الماء ، كالسفن التى نراها راسية فيه الآن كما قيل – اهـ من ص ١٦ ج ١٢ طبعة الشعب .

ومن العلماء من ذهب إلى أن العرش كناية عن الملك والسلطان وَرَمْزٌ له ، ومعنى قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) – على هذا الرأى – وكان سلطانه على الماء ليخلق منه ما يريد خلقه من السموات والأرض ، وقد تقدم الكلام فى سورة الأعراف – الآية ٤٥ – على قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » فارجع إليه لتعرف تفصيلا أكثر لما قاله العلماءُ فى معنى العرش والله تعالى أعلم .

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) : أى وهو الذى خلق السموات والأرض ، وكان سلطانه على الماء فى خلق ما يريد ، وسخر لكم ما فى السموات والأرض ليمتحنكم ، فيظهر أيكم أحسن عملا من سواه ، فيجازيكم على عملكم لا ما علمه أزلا بكم . فإن العمل حجة على صاحبه ، ويفهم من ذلك أن الله تعالى خلق الكون ليعبده العقلاءُ من خلقه فيه ، فإنه سبحانه ماخلقهم إلاليعبدوه كما قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ »[1] . وإنما جعل الله ذلك غاية لخلقه السموات والأرض ، لأنه تعالى زود عباده بالعقل والاستعداد للنظر فى الآيات الكونية التى بثها سبحانه فى أرجاء السموات والأرض ، وجعلها مصدرا

(١) سورة الذاريات ، من الآيتين : ٥٦ ، ٥٨

لخيراتهم ومنافعهم ، وجعل ذلك كله شاهدا لأنه هو الخالق المدبر الحكيم ، الرءوف الرحيم . المستحق لشكرهم إياه بالإخلاص فى عبادته وحده ، وإنما اقتصر فى البلاء على أيهم أحسن عملا ، مع أن منهم من هو حَسَنُ العمل ومنهم من هو سيئه ، ليحثهم بذلك على التنافس فى إحسان العمل ، وليرشدهم إلى أن الغاية العظمى من خلق ذلك هو أن يكونوا فى عملهم على أحسن وجه وأكمله، بقدر استطاعتهم واجتهادهم وفى حدود طاقتهم .

(وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى ولئن قلت أيها النبي تبليغا للناس إنكم جميعا مبعوثون من بعد الموت للحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب وأقمت الأدلة عليه .

(لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) : أى لانفرد الكافرون بإنكار البعث ، وليقولُن تكذيبا لك : ما البعث الذى تخيفنا منه ، أو القرآن المشتمل على الإنذار به ، إلا كالسحر يخدع ويغر ولا ثبات له ولا دوام ، يعنون بذلك أن لا بعث ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب .

(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾)

المفـردات :

(أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ) : مدة قليلة . (مَا يَحْبِسُهُ) : ما يمنعه .

(مَصْرُوفًا عَنْهُمْ) : مدفوعا ومتحولا عنهم . (حَاقَ بِهِم) : أى نزل وأحاط بهم .

التفسير

٨ - (وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَايَحْبِسُهُ) : بعد مابينت الآية السابقة ما يقوله المشركون إنكارا للبعث ، بينت هذه الآية ، ما يقولونه إنكارا للعذاب الذى أنذرهم إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : ولئن أخرنا عن هؤلاء المكذبين العذاب الموعود الذى أنذرهم النبي صلى الله عليه وسلم بوقوعه إن استمروا فى كفرهم وعنادهم ، لئن أخرناه إلى مدة من الزمن معدودة مقدرة فى علمنا ، كما هو شأننا فى تحديد الآجال « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » لئن أخرناه هكذا ليقولن منكرين مستهزئين : أى شئ يمنع وقوع هذا العذاب بنا ؟ يقصدون بذلك التكذيب بوقوعه . فيرد الله عليهم بقوله تعالى :

(أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

والمعنى : أنَّ الله تعالى يؤكد بهذه الجملة وقوع العذاب بهم حينما يأتى الوقت المقدر لوقوعه ، ويومئذ لا يصرفه عنهم صارف ولا يحبسه عنهم حابس وقد أحاط بهم العذاب الذى كانوا به يستعجلون استهزاءً وتكذيبًا .

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾)

المفـردات :

(أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً) : أعطيناه نعمة ذاق لذتها . (نَزَعْنَاهَا) : سلبناها وأخذناها . (لَيَئُوسٌ) : لشديد اليأس من عود ما سلب منه .

(كَفُورٌ) : مبالغ فى جحد النعمة وعدم شكرها . (نَعْمَاءَ) : نعمة من صحة وغنى وغيرهما ، ولم يرد فى القرآن لفظ النعماء إلا فى هذه الآية . (ضَرَّاء) : من فقر ومرض وغير ذلك . (مَسَّتْهُ) : أصابته ولحقته . (فَرِحٌ) : كثير الفرح بطرا . (فَخُورٌ) : مبالغ فى الفخر بها والتعالى على عباد الله .

التفسير

٩ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ) :

جاءت هذه الآية والآيتان بعدها لبيان حال الإنسان وطبيعته عند الابتلاء بالسراء والضراء ، وأنه لايصبر على المحن ولا يشكر النعم إلا الصالحون .

والمعنى: ولئن أعطينا الإنسان منا نعمة من النعم وأذقناه حلاوتها ولذتها ، كالصحة والمال والولد البار ، ثمَّ أخذناها منه فإنه يجمع بين شيئين : المبالغة فى اليأس من عودة مثل ما سلب منه ، والمبالغة فى جحد النعمة وعدم شكر ما بقى منها ،ونعم الله لاتحصى ، وإنمايفعل ذلك لحرمانه من فضيلتى الصبر والشكر ، فهو لذلك لايرجو ثوابًا ، ولا يخطر بباله أن الله سيردها إليه أو مثلها أو خيرًا منها إن هو صبر أو شكر ، مع أنه لايقنط من رحمة الله إلا الضالون .

١٠ - (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) :

أى وإذا أنعمنا على الإنسان بما تطيب به حياته ويشعر بلذته - أنعمنا عليه بذلك - بعد ضر كان يقاسيه ويعانيه ، ليقولن مطمئنًا إلى بقاء هذه النعمة . قد مضى البأس وانقضى الضُّرُّ ولن يعود .

(إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ): أى إنه نسى ما كان فيه من ضَرَّاءَ ، واطمأن إلى بقاء النعمة الطارئة ، وفرح بها فرح بطر وغرور وتفاخر بها على عباد الله ، وغاب عن ذهنه شكر الله عليها ، وأن الله قد يحرمه منها بعدم قيامه بشكره من أجلها .

١١ - (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) : لما بين الله تعالى حال جنس الإنسان الذى ييْئس من رحمة الله إن أصابته محنة ، والذى يكفر بالنعمة بعد الضر فلا يشكر

الله عليها ، ويظن بقاءها ويتفاخر بها على عباد الله ، جاءت هذه الآية لتبين صنفًا من الناس ليسوا على شاكلة هؤلاء وأولئك ، وهم الذين يصبرون عند نزول المحن والشدائد استسلامًا لقضاء الله ويضبطون أنفسهم عند امتحانها بالغنى فلا يفرحون ولا يغترون . شكرًا لنعم الله عند السراء ، وامتثالاً لأمر الله تعالى وتقربًا إليه فى حال النعماء .

والمعنى : لكن الذين صبروا على الابتلاء ، وعملوا الصالحات فى الضراء والسراء .

(أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) : أى أولئك الموصوفون بهذه الصفات الحميدة المخالفة لصفات من قبلهم ، لهم مغفرة من الله تعالى يستر بها ذنوبهم ، وأجر كبير فى الآخرة لصبرهم فى الشدة وشكرهم فى الرخاء ، ولأنهم ردُّوا ما ينالهم من خير إلى فضل الله ، وما يقع عليهم من ضر إلى قدر الله تعالى الموافق للحكمة والصواب .

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ) : لعلك راغب فى عدم إسماعهم بعض ما يوحى إليك من دلائل نبوتك كراهة معارضتهم لك ، وترويضًا لنفوسهم .

(لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ) : أى هلا أعطى الله محمدًا مالًا ينفقه . (وَكِيلٌ) : حفيظ مطلع يحفظ أحوالك وأحوالهم . (افْتَرَاهُ) : اختلقه . (يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ) : يجيبوكم . (مُّسْلِمُونَ) : منقادون لله .

التفسير

١٢ - (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ .....) :

هذه الآية واللتان بعدها لتسلية الرسول والتخفيف عن نفسه الشريفة بسبب مايجده من عناد المشركين واقتراحهم الآيات ، مع كفاية ما جاءهم به منها فى الإيمان .

كما أنها مسوقة لبيان أنه صلى الله عليه وسلم ليس مسئولا عن كفرهم ، فما هو إلا منذر ، والله وكيل ورقيب عليهم .

والمعنى : فلعلك يا محمد تارك إسماعهم بعض ما يوحى إليك من الآيات الدالة على حقيقة نبوتك ، المنادية بكونها من عند الله تعالى لمن له أذن واعية وقلب رشيد ، ولعلك يضيق صدرك بتلاوته عليهم وتبليغه إياهم أثناء المحاجة والدعوة إلى الإيمان ، بسبب معارضتهم الشديدة لك ، وإصرارهم على رفض ماجئتهم به من التوحيد والوعد والوعيد وبسبب قولهم هلا أعطى مالًا كثيرًا كما يعطى الملوك والعظماء ، ليكون ذلك أمارة على أن ربه يشد أزره ولا يدعه فقيرًا بين الناس ، وهلا جاء معه ملك يؤيده ويشهد له بالنبوة . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولا تترك تبليغهم شيئًا مما أوحى إليك ، ولا يضق صدرك بما يقولون ، فإنه لا ينبغى لمثلك أن يتأثر بمثل هذا القول الدال على ضعف تفكيرهم وشدة وطأة الحق الذى جئت به عليهم ، فهم يحاولون التنفيس عن أنفسهم وتخفيف وطأته عليهم .

(إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) : ما أنت يا محمد إلا منذر لكل مكذب ولست عليهم بمسيطر فدع أمرهم لله فإنه هو الموكل بأمور خلقه والعالم بها ، يحصى عليهم أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزاء ، فتوكل عليه وفوض أمرك إليه .

١٣ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) : أى بل أيقولون إن محمدًا اختلق القرآن من عند نفسه ونسبه إلى الله تعالى . قل لهم أيها الرسول إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا بعشر سور مفتريات مثل القرآن فى بلاغته وحسن تنسيقه ، فإنكم أهل الفصاحة وفرسان البلاغة الحريصون على إبطال دعوتى .

(وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) : أى واستعينوا على ذلك بما تشاءون ، وادعوا من استطعتم دعوته فى المعارضة ، أو فادعوهم ليشهدوا لكم إن كنتم صادقين فى دعواكم : أنى اختلقته وأنه ليس من عند الله تعالى .

١٤ - (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) :

إن كان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كان المعنى : فإن لم يستجب هؤلاء المشركون إلى ما دعوتموهم إليه من معارضة القرآن وحدهم أو مع من يشد أزرهم فاثبتوا على العلم الذى أنتم عليه ، وازدادوا يقينًا وثباتًا بأنه منزل من عند الله تعالى ، وأنه لا إله إلا الله ،لأنه العالم بما لايعلمه غيره والقادر على مالم يقدر عليه سواه ،ومن ذلك اختصاصه بالقدرة على إنزال هذا القرآن الذى أعجز البشر .

وإن كان الخطاب للمشركين كان المعنى : فإن لم يستجب لكم من تدعونهم للشهادة على أن محمدًا اختلقه ولم يوافقوكم على دعواكم ، فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله المحيط بحاجات البشر فى التشريع والسلوك، وأنه لا سبيل إلى أن يؤلف مثله بشر ، واعلموا أيضًا أنه لا شريك له تعالى حتى يأتى بمثل هذا القرآن. (فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) :أى أسلموا أيها الكفار وأخلصوا لله وحده حيث ثبت عجزكم وعجز من استعنتم بهم عن معارضة القرآن .

هذا إذا كان الخطاب هنا وفيما قبله للكفار ، فإن كان للمسلمين على ما تقدم بيانه فالغرض منه حثهم على الثبات أمام حرب المشركين لهم ، أى فهل أنتم ثابتون على إسلامكم أمام أعدائكم بعد أن وضح الحق ، واختفى الباطل ، يريد بذلك الأسلوب إلهاب عزائمهم .

(مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(وَزِينَتَهَا) :الزينة ما يتزين به من اللباس والأثاث والأولاد والأسباب .

(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ) : نوصل إليهم جزاء أعمالهم وافيًا كاملًا .

(لايُبْخَسُونَ) : لاينقصون شيئًا من أجورهم . (وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا) : أى بطل وضاع ثواب عملهم فى الآخرة .

(وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى لا قيمة له حيث لم يعمل لوجه الله .

التفسير

١٥ - (مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . . .) :

بعد ما ثبت أن القرآن من عند الله تعالى بعجزهم عن الإتيان بمثله ، جاءت هذه الآية والتى بعدها لتبين أن من ينصرف عن العمل به إلى الاهتمام بالدنيا وحدها وترك العمل للآخرة ، عاقبتُه الخسران المبين .

والمعنى : من كان كل همه ومقصده من وجوده الدنيوى التمتع بلذات الدنيا وما يتزين به فيها فيعمل للتمتع بملذاته فيها ، دون أن يهتم بلقاء الله تعالى والعمل للآخرة بالبر والإحسان وتزكية النفس بالإيمان والتقوى .

(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ) : أى نعطهم جزاء أعمالهم وافيًا فى الدنيا ، من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد وغير ذلك ، وهم فيها لاينقصون شيئًا من أجورهم الدنيوية « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » . ثم بين الله تعالى عاقبة أمر هؤلاء فى الآخرة فقال:

١٦ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى أولئك الذين لايريدون إلا زينة الحياة الدنيا وبهجتها وإشباع غرائزهم فيها ولم تمتد أبصارهم وأعمالهم وآمالهم إلى ما وراء هذه الحياة - أولئك - ليس لهم فى الآخرة مثوى إلا النار ؛ لأنهم استوفَوْا فى الدنيا ما تقتضيه صور أعمالهم ، وبقيت لهم أوزار عقائدهم ونياتهم السيئة ، وبطل ثواب ما صنعوه فى الدنيا ، لأنه لم يعمل لوجه الله تعالى ، فلا نفع ولا خير لهم فيه قال تعالى : « مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا »(١) .

---

(١) سورة الإسراء الآيتين : ١٨ ، ١٩

(أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾)

المفردات :

(بَيِّنَةٍ) :حجة واضحة وبرهان ظاهر. (وَيَتْلُوهُ) : أى يتبعه . (شَاهِدٌ مِّنْهُ) : أى من الله تعالى يشهد بصحته . (إِمَامًا وَرَحْمَةً) :كتابًا يؤتم به فى الدين ورحمة على المنزل عليهم. (الْأَحْزَاب) :أهل مكة ومن تحزب معهم. (مِرْيَةٍ مِّنْهُ) :شك من الوعيد بالنار أو من القرآن .

التفسير

١٧ـ (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً) : هذا بيان لحال المسلمين الذين يريدون بأعمالهم وجه الله تعالى إثر بيان حال من يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا وحدها .

والمعنى : أيكون حال من كان على بينة وبرهان عقلى بما يؤمن به ويدعو الناس إليه ويتبعُ هذا النورَ الفطرى والبرهان العقلى شاهِدٌ من الله تعالى يشهد على صحة ما اهتدى إليه العقل وهو القرآن الذى ثبت صدقه وأنه من عند الله ، ويؤيده شاهد آخر من قبله . وهو التوراة كتاب موسى الذى جعله الله إمامًا يؤتم به فى الدين ، ورحمة لمن عمل به من بنى إسرائيل قبل نسخه بالقرآن فقد بشر بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن .

أفمن كان على هذا الحال ؟ يكون كمن يريد الحياة الدنيا وحدها محرومًا من الحياة الدينية الموصلة إلى السعادة فى الدار الآخرة ؟! لا يستويان .

(أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) :أى أولئك الذين استناروا بالحجج العقلية والنقلية يؤمنون بالقرآن ويعملون به .

(وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) : أى ومن لم يؤمن به من أهل مكة ومن تحزب معهم على محمد صلى الله عليه وسلم ممن يسير على غير هدى، أو من أهل الكتاب، فموعدهم ومآلهم النار يعذبون فيها ويردُونها لا محالة بمقتضى وعيده تعالى لهم،ولأمثالهم، لقيام الحجة عليهم وعدم ما يثير الشكوك والجحود .

(فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ) :أى فلا تكن أيها العاقل المكلف فى شك من أن موعد أهل الكفر النار أو من أن القرآن من عند الله تعالى.

(إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) :أى إن الوعيد بالنار . أو إنَّ القرآن هو الحق من الله الذى لاشك فيه ، فإنه : «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[(١)] ولكن أكثر الناس لايؤمنون ، لأنهم لايمعنون النظر فيه ولا فى الأدلة التى تهدى إليه .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾)

المفـردات :

(وَمَنْ أَظْلَمُ): لا أحد أشد ظلما . (يُعْرَضُونَ) : أى يعرضون ذاتا وعملا .

(الْأَشْهَادُ) :جمع شاهد أو شهيد[(٢)] وهو من يشهد عليهم .(لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) :إبعاده لهم من رحمته . (يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ) : أى يمنعون غيرهم عن دين الله ، أو يُعْرِضُون هم عن دينه .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) : أى يريدونها معوجة .

---

(١) سورة فصلت الآية (٤٢)

(٢) ومن الوزن الأول صاحب وأصحاب ، ومن الوزن الثانى شريف وأشراف .

التفسير

١٨ - ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ :

بعد أن بينت الآيات السابقة إصرار المشركين على الكفر بآيات الله . جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان طائفة أخرى من جرائمهم وجزائهم عليها .

والمعنى : لا أحد أشد ظلما ممن كذب على الله تعالى فنسب إليه ما لا يليق به كالشريك والولد . أو وصفه بما لايجوز وصفه به . أو أخبر عنه بما لم يقله . فهؤلاء أعظم الناس ظلما وأشدهم جرما .

﴿ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ : أى أولئك الكاذبون يعرضون على ربهم ليحاسبهم على أعمالهم .

﴿ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ : المراد من الأشهاد إما من شهدوا كفرهم ومعاصيهم التى اجترحوها فى الدنيا . وهم الملائكة والنبيون وصالحو المؤمنين أو أهل الموقف .

والمعنى : ويقول هؤلاء الأشهاد مشيرين إليهم عند عرضهم على ربهم ، هؤلاء هم الذين افتروا على الله كذبا . فنسبوا إليه ما لا يليق به .

﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ :

يحتمل أن تكون هذه موجهة من الله تعالى إليهم . أو من هؤلاء الأشهاد .

والمعنى : ألا بعداً وطرداً من رحمة الله لهؤلاء الظالمين لأنفسهم المعتدين على الحق .

١٩ - ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ :

الصد عن سبيل الله : يستعمل بمعنيين (أحدهما) : منع الناس عن دين الله (والثانى) : الامتناع عنه . وكلا هما يحصل من الكافرين . فكما يكفرون فى أنفسهم . يحملون غيرهم على الكفر .

والمعنى : هم الذين يمنعون الناس ويصرفونهم عن دين الله الذى هو السبيل إلى معرفته ومرضاته كما صرفوا أنفسهم عنها . ويريدون أن تكون هذه السبيل معوجة حسب أهوائهم .

(وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) :

أى : وهم مع صدهم عن سبيل الله ينكرون البعث وما بعده ، من حساب وثواب وعقاب ويجحدونه ، وتكرار الضمير (هُمْ) : لتأكيد كفرهم بالآخرة ، والإيذان بعمق جذوره .

(أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(مُعْجِزِينَ فى الأَرْضِ) : مفلتين من عقاب الله . (أَوْلِياءَ) : نصراء .

(خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) : أضاعوها بكفرهم . (وَضَلَّ عَنْهُم) : وغاب عنهم .

(مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : يدعون من ألوهية الأصنام وشفاعتها . (لَاجَرَمَ) : لابد .

التفسير

٢٠ ـ (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ) :

أى : هؤلاء الذين يصدون الناس عن سبيل الله ويطلبون لها اعوجاجا وعدم استقامة ـ هؤلاء ـ لم يكونوا ناجين من عذاب الله فى الدنيا إذا ما أراد الانتقام منهم فى أى جزء من أجزاء الأرض ، فهم فى قبضته وملكه فلا يقدرون على الامتناع منه .

(وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ) :

أى وليس لهؤلاء المشركين من أنصار يتولون أمرهم ويمنعونهم من عذاب الله تعالى إذا ما أراده بهم .

(يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ) :

أى يزاد لهم العذاب مثلا أو مثلين أو أكثر بسبب صدهم الناس عن دين الله وإنكارهم البعث بعد الموت لأنهم ضلوا فى أنفسهم وأضلوا غيرهم .

(مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) :

أى فقدوا القدرة على السمع المفيد والبصر النافع فإنهم أغلقوا نوافذ المعرفة عندهم فأصموا آذانهم عن سماع الحق بتدبر واعتبار ، فلهذا لم ينتفعوا بما يسمعون ، وهم مع ذلك ما كانوا يبصرون إبصار تأمل وعبرة فيما ينفعهم ويعود عليهم بالخير فى الدنيا والآخرة ويؤهلهم لرضا الله تعالى كما قال سبحانه : «فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ»[1] .

٢١ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

أى أولئك الذين أغلقوا آذانهم عن سماع الحق ، وحجبوا أبصارهم عن النظر فى آياته باعتبار وتأمل - أولئك - هم الذين جنوا على أنفسهم فأوقعوها فى الخسران بافترائهم الكذب على الله تعالى ، واشترائهم الضلالة بالهدى فضيعوا على أنفسهم حظوظها من رحمة الله تعالى ، وقد غاب عنهم فى الآخرة الآلهة الذين كانوا يزعمون أنهم شفعاء لهم ومنقذوهم من العذاب ، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً .

٢٢ - (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) :

أى لابد أنهم فى الآخرة هم أشد الناس خسرانا ، لأنهم أضاعوا منازلهم فى الجنة واستبدلوا بها النار .

(١) سورة المدثر ، الآيات : ٤٩ - ٥١

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾)

المفـردات :

(أَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِم) : خضعوا إلى الله ، واطمأنوا إلى عبادته وحسن جزائه .

التفسير

٢٣ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ) :

لما ذكر الله تعالى سوء أحوال الكفار في الدنيا وخسرانهم فى الآخرة أتبعه بيان حسن حال المؤمنين فيهما .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله ورسله وبكل ما يجب الإيمان به . وعملوا الصالحات من الواجبات والمسنونات . وخشعوا لله واطمأنت قلوبهم بذكره . فجمعوا بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب لتكون أعمالهم مقبولة عند الله تعالى .

(أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : أى هؤلاء هم أهل الجنة وأصحابها دون من عداهم . هم فيها خالدون لايبرحونها اختيارا ، ولايخرجهم منها أحد اضطرارًا . كما قال تعالى : « وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ »(١) .

(۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾)

المفـردات :

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ) : صفة الفريقين ، فريق الكفار وفريق المؤمنين .

(الْأَعْمَىٰ) :فاقد البصر . (الْأَصَمِّ) :فاقد السمع . (الْبَصِيرِ) :حاد البصر . (السَّمِيعِ) :قوى السمع .

(١) سورة الحجر ، من الآية (٤٨)

التفسير

٢٤ - (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ....) الآية .

تحدثت الآيات السابقة عن الكفار وإغراقهم فى الضلال ومصيرهم الرهيب، كما تحدثت عن المؤمنين وخشوعهم لله وثوابهم الجزيل، وجاءت هذه الآية لتوضيح الفرق الشاسع بين الفريقين .

والمعنى : مثل الكفار فى عدم الانتفاع بأبصارهم وأسماعهم ، كمثل الأعمى الذى لايبصر والأصم الذى لايسمع أى كمثل الذى جمع بين العمى والصمم [١] فهو يتخبط فى الضلال كما قال تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَايَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » [٢] .

ومثل المؤمنين فى معرفة الله والتصديق بوحدانيته وكمالاته ، مثل الرجل الحاد البصر القوى السمع فكما أنه لايغيب عنه شىء مما يرى ويسمع ، فكذلك المؤمن لايغيب عن بصيرته وصفاء قلبه ، شىءٌ مما يليق بكمالات الله تعالى فهو ينتفع بمدركاته العقلية ويميز بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، فيتبع الخير ويبتعد عن الشر بعكس الأول .
(هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً) : الاستفهام هنا بمعنى النفى . أى لايستويان حالا وصفة .

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

أى أتغفلون عن عدم استوائهما وما بينهما من الفرق فلا تعتبرون بالفرق بين هؤلاء - وهؤلاء ، كما قال تعالى : « لَايَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » [٣] . فما بالكم لاتدركون الفرق الشاسع بين الفريقين .

---

(١) قوله تعالى (كالأعمى والأصم) صفتان لموصوف واحد وكذلك (البصير والسميع) فهما من عطف الصفة على الصفة ، ومنه قول الشاعر : إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم .

(٢) الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

(٣) سورة الحشر ، الآية : ٢٠

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(نَذِيرٌ) : محذر من وقوع خطر . (مُبِينٌ) : موضح . (أَلِيمٍ) : شديد الإيلام .

التفسير

تحدثت الآيات السابقة عن فريق الكفار ومصيرهم الأليم ، وفريق المؤمنين وثوابهم العظيم وفى الآيات التالية إلى آخر السورة يقص الله سبحانه وتعالى علينا أمثلة تاريخية واقعية لهذين الفريقين فى عصر كل رسول من الرسل بالترتيب الزمنى التاريخى ، وابتدأ بقصة نوح عليه السلام فقال :

٢٥ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

استهلت الآية بتأكيد القصة بقوله : (وَلَقَدْ) لأن تاريخ نوح عليه السلام موغل فى القدم وفى التأكيد تنبيه على صدق القصة مع جذب انتباه السامعين إليها .

والمعنى : ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه قائلا لهم : إننى لكم محذر من غضب الله وعقابه إن بقيتم على كفركم ، موضح لكم مافيه خلاصكم ورضا ربكم .

٢٦ - (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) : أى أرسلنا نوحا إلى قومه ليقول لهم : لاتعبدوا إلَهًا غير الله فإنه وحده الجدير بالعبادة والتقديس .

واستمال قلوبهم إليه بتأكيد إشفاقه عليهم وحرصه على إنقاذهم ، مما يتعرضون له من عقاب يوم رهيب شديد الإيلام ، إذا أصروا على الشرك والضلال فقال :

(إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ) : واليوم الأليم هو يوم القيامة الذى يجعل الولدان شيبا . أو يوم الهلاك والاستئصال فى الدنيا أو هما معًا ، وقد حل بهم عذاب يوم الطوفان « وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ » .

(فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾)

المفـردات :

(ٱلْمَلَأُ) : الزعماءُ والقادة . (الْأَرَاذِلُ) : جمع أرذل وهو الخسيس الدنىءُ .

(نَظُنُّكُمْ) : نعتقد ونوقن ، مثل قوله تعالى : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ » .

(بَادِىَ الرَّأْىِ) : ما يبدو من الرأى للوهلة الأُولى دون إمعان للنظر .

التفسـير

٢٧ - (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا) :

أى فتحدث زعماءُ قوم نوح الذين كذبوا رسالته قائلين له : ما أنت إلا بشر مشابه لنا فى البشرية لا ميزة لك علينا ، فكيف نستجيب لك ونتبعك ؟ وقد فاتهم أن البشر لايقدرون على الأخذ من الملائكة ولايستطيعون لقاءهم ، وأنهم لو جعلوا فى صورة البشر لالتبس الأمر على من أرسلوا إليهم ، كما فاتهم أن البشرية ليست على مستوى واحد ، فهى تعلو حتى تفوق الملائكة ، وتهبط حتى تصل إلى درك الشياطين .

ثم عللوا تكذيبهم بسبب ثان فقالوا :

(وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ) : أى ولا نعلم أحدًا اتبعك من الزعماء والأشراف ، بل اتبعك الضعفاء والفقراءُ وقد اتبعوك دون روية أو تفكير ، لأنهم لايحسنون التدبر فى الأُمور .

(وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ) : أى وما نعلم لك ولمن اتبعك مَزِيَّةً ولا فضلا فى أى شأْن حتى نترك مكانتنا فى الرياسة والزعامة وننقاد لكم .

ثم ختموا اعتراضهم على رسالته بقولهم له :

(بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) : أى بل نعتقد أنكم مفترون فيما زعمتموه لأنفسكم من فضل : والظن هنا بمعنى الاعتقاد كما جاء فى قوله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » (١) .

(قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى عن رأيكم . (بَيِّنَةٍ) : حجة قوية واضحة . (رَحْمَةً) : نعمة ، والمراد بها هنا نعمة النبوة والرسالة . (أَنُلْزِمُكُمُوهَا) : أنكرهكم على اتباعها .

(فَعُمِّيَتْ) : أخفيت عليكم فلم تدركوها .

التفسير

٢٨ - (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) :

فى هذه الآية وما يليها يرد نوح عليه السلام على الأسباب التى استند إليها قومه فى تبرير كفرهم - ويرد فى رفق وأناة - ويجادلهم بالتى هى أحسن ، رجاء أن يفيئوا إلى الصواب .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٤٩

والمعنى : ياقوم إننى لا أزعم أننى أمتاز عليكم فإننى بشر مثلكم، ولكن أخبرونى عن رأيكم فيما أعرضه عليكم : إن الله سبحانه قد هدانى إليه فآمنت به إيمانا راسخا ثابتا معتمدا على الحجة والبينة الظاهرة ، وتفضل على بنعمة خصنى بها من عنده وهى الرسالة ، وأمرنى بإبلاغها إليكم تفضلا منه عليكم . وقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة فخفى أمرها عليكم حين بادرتم إلى تكذيبها دون تدبر أو تأمل. فأخبرونى ماذا أفعل لكم أنا ومن معى من المؤمنين بعد ذلك ؟ أنرغمكم على العمل بشريعة الله التى رحمكم بها وأنتم لها كارهون .

وعاد نوح فذكرهم بأنهم قومه قائلا :

٢٩ - (وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ) : أى ياقوم إننى لا أريد منكم مالا على أداء هذه الرسالة ، فما أجرى إلا على الله وحده فما بالكم ترفضون مادعوتكم إليه من الحق، وهذا الذى قاله نوح لقومه من الأسس الهامة التى تقوم عليها دعوات المرسلين، وينبغى أن تكون قدوة لجميع الدعاة والمصلحين. فإن الدعوة للإصلاح إذا تجردت عن المطامع الذاتية ، تكون أدعى للاستجابة إليها ، واستمالة القلوب نحوها وفى ذلك يقول الله تعالى : « اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ »(١) .

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ) : هذا جواب عما طلبوه منه من طرد الفقراء بقولهم : « وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْيِ » . كأنهم يوحون إليه بطردهم والتبرؤ منهم .

والمعنى : لست بطارد المؤمنين لفقرهم كما أردتم ، فإنهم سيلقون الله فينصفهم منى إذا ظلمتهم وأبعدتهم عنى إرضاء لكم ، ولن أغضب الله بازدرائى لهم كما تحبون وليس الأمر فى شرع الله دائما على الصور والأجسام والثياب ، بل مرده إلى طمأنينة القلوب ونظافة الصدور .

وفى هذا المعنى يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ »(٢) .

(١) سورة يس : الآية ٢١ (٢) حديث شريف رواه مسلم وأحمد .

(وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) : أى لا تعرفون أقدار هؤلاء المؤمنين حين حكمتم بأنهم أراذل ، ولن أكون مثلكم فى الخطأ وسوء التقدير .

ويجوز أن يكون المعنى : أراكم قوما بكم جهالة وحمق ، دفعكم إلى التعالى على هؤلاء المؤمنين والسخرية بهم ، والازدراء والامتهان لهم .

٣٠ - (وَيَاقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ إن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

ويقول لهم مرة أخرى : وياقوم من يمنعنى من انتقام الله إن طردت هؤلاء الفقراء الذين جعلتموهم أراذلكم ، وهم على ماهم عليه من الإيمان والاستقامة ، أتستمرون على ماأنتم عليه من الجهل والحمق ، فلا تتذكرون ولا تتدبرون أن قيمة الناس عند الله ليست فى مظاهرهم وثرائهم ، بل فى صفاء نفوسهم وطواعيتهم للحق ، واستقامتهم على جادَّة الصدق ، فكيف أطردهم وهم على المنهج المستقيم ؟

(وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(خَزَائِن) : جمع خزانة بكسر الخاء وهى موضع المال أو المتاع ، والمقصود بخزائن الله ما عنده من خير جزيل .

(الغَيْبَ) : المراد من الغيب ما غاب وخفى عن الإنسان من العوالم المجهولة ، أو أحداث المستقبل . (تَزْدَرِىٓ) تحتقر .

التفسير

٣١ - (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ) :

بعد أن جادلهم فى ادعاءاتهم وفنّد مزاعمهم ، أعلن لهم أنه حين يبلغهم رسالة ربه لايدعى أنه يملك ما عند الله من خير ورزق وفير ، حتى يستدلوا بعدمه عنده على كذبه بقولهم له ولِمَنْ آمن معه : « وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » . فإن النبوة لاتنال بالأسباب الدنيوية ، ودعواها بمعزل عن ادعاءِ المال والجاه ، ولا تفتقر إليهما .

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) :

أى لا أقول لكم حين أنذركم بقولى : « إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ » . « إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ » : لا أقول لكم إنى أعلم الغيب ، حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد .

(وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ) : أى لا أزعم أنى ملك حين دعوتكم إلى دين الله ، حتى تردُّوا دعوتى بقولكم : « مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا » .على حين أن البشرية لا تمنع من النبوة ، بل هى من مقتضياتها .

(وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا) :

أى ولا أقول فى شأن المؤمنين الفقراء الذين تحتقرهم أعينكم ، لا أقول فى حقهم ما قلتموه أنتم من أنه تعالى لن يؤتيهم خيرا لرثاثة حالهم ، فإن الله لا ينظر إلى الصور والثياب ، ولكن ينظر إلى القلوب ، فعسى الله أن يمنحهم الخير فى الدنيا والآخرة .

(اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ) :

أى أن الله تعالى أعلم بما انطوت عليه نفوسهم ، فكيف أحكم عليهم بأنهم لن ينالوا من الله خيرا ، إنى لو قلت هذا لكنت من الظالمين لهم بنقص مرتبتهم وغمط حقوقهم ، أو لكنت من الظالمين لأنفسهم بالحكم فى شىء غيبى لا سبيل لى إلى معرفته فإن أسرار القلوب بين يدى علام الغيوب .

(قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(جَادَلْتَنَا) : الجدال ؛ مقارعة الحجة بالحجة طلبا لتغليب رأى على رأى آخر . ويطلق على شدَّة المخاصمة والقدرة على النقاش .

(بِمُعْجِزِينَ) : بسابقين ، والمراد أنهم لا يفلتون من عذاب الله .

(أن يُغْوِيَكُمْ) : أى يتركهم فى غيِّكم ويتخلَّى عن هدايتكم . أو يُوقعكم فى الغيِّ وهو العذاب ، ومنه قوله تعالى : « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » . أى هلاكا وعذابا .

التفسير

أفحم نوح قومه ولم يجدوا مجالا للردِّ عليه ، فتحدوه بأن ينفِّذ ما وعدهم به من العذاب وذلك ما حكاه الله بقوله :

٣٢ - (قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

المعنى : قالوا يانوح قد بالغت فى مناقشتنا ولسنا مقتنعين برسالتك ، ولا بما قدمته عليها من الأدلة والبراهين ، ونحن مصرّون على تكذيبك فيما تدعيه من ثواب المؤمنين وعقاب الكفار ، فأتنا بما أوعدتنا من العذاب الأليم إن كنت صادقا فيما تقول .

٣٣ - (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ) :

قال نوح مجيبا لهم بما يتفق مع بشريته التى أعلنها لهم من قبل . وبما يتفق مع رسالته عن الله ؛ قال لهم : ما يأتيكم بالعذاب الموعود إلا الله تعالى إن شاء إنزاله بكم . وليس أمره بيدى حتى تطلبوه منى ، ولن تستطيعوا الإفلات منه حين يريد نزوله بكم .

٣٤ - (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ) :

أى ولا ينفعكم ما أبذله لكم من نصح أردت بذله لكم ، إن كان الله يريد أن يبقيكم فى غيِّكم الذى أصررتم عليه . ثم بيَّن أن مردهم إلى ربهم صاحب الأمر فيهم فقال : (هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) : أى أنه تعالى هو مالك أمرهم وحده . وإليه مرجعهم بعد الموت للحساب والجزاء فأمر هدايتهم وجزائهم إليه وحده وليس لى من ذلك شىء .

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(افْتَرَاهُ) : اخترعه من نفسه ولم ينزله الله عليه .

(إِجْرَامِي) : ارتكابى إثما كبيرًا .

التفسير

٣٥ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) :

لمّا عجز قوم نوح عن محاجته زعموا أن كلامه كله كذب وادعاء . فأمره الله أن يبرئ نفسه مما يقولون . ويحمّلهم عاقبة افترائهم عليه .

والمعنى : بل أيقول قوم نوح بعد عجزهم عن الردّ عليه - إنه اختلق هذا الدِّين الذى يزعم أنه من عند الله .

(قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ) :

أى قل لهم يانوح إن كنت قد اختلقت ماأبلغتكم إيَّاه من رسالة الله ، فعلىَّ إثم إجرامى بالافتراء على الله ، وما يترتب عليه من عقاب يستحقه كل من افترى عليه الكذب ، فكيف أفترى على الله الكذب وأنا المسئول عنه دون غيرى ، وبما أننى صادق فأنا برىء من إجرامكم وكفركم .

وهذا شبيه بقوله - تعالى - للرسول صلى الله عليه وسلم : « وإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ »[1] . وهنا يتجلى الإنصاف الكامل .

(وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(فَلَا تَبْتَئِسْ) : لا تحزن ولا تتألم .

(الْفُلْكَ) : السفينة الواحدة والجمع .

(بِأَعْيُنِنَا) : تحت رعايتنا وتوجيهنا .

التفسير

نصح نوح -عليه السلام - قومه بكل الوسائل ودعاهم إلى الإيمان بمختلف الأساليب العقلية فى رفق ولين ، ولكنهم أصرُّوا على عنادهم وركبوا رءوسهم ، ورموه بالكذب

---

(١) سورة يونس الآية : ٤١

على الله كما تقدم بيانه ، وفيما يلى من الآيات باقى قصة نوح مع قومه وبيان نهايتهم الأليمة .

٣٦ - (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ) :

أى : وأوحى الله إلى نوح أنه لن يستجيب لدعوتك أحد من قومك سوى الذين آمنوا بك من قبلُ ، فلا مجال لبذل النصيحة والدعوة إلى الهداية مع قوم مصرِّين على الكفر تلك الدهور الطويلة .

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) :

أى فلا تحزن عليهم ولا يَضِقْ صدرك بكفرهم ومكرهم ، وانغماسهم فى الآثام والذنوب .

٣٧ - (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) :

أى وقم بعمل السفينة طبقًا لوحينا الذى بينا لك فيه كيفية صنعها ، وذلك تحت رعايتنا ، وبتوجيه وسند منَّا لتؤدى الغرضِ المقصود منها .

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ) :

ظاهر الآية أن نوحا عليه السلام شفع فى قومه أو كان بصدد أن يشفع فيهم فنهى عن ذلك ، وسيأتى فى سورة نوح أنه - صلى الله عليه وسلم - طلب من ربِّه أن يُهلكهم بقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »[1] . وتوفيقا بين هذه الآية وبين ماجاء هنا نقول : إنه سبحانه يعلم شفقة نوح بقومه وطول إقامته معهم ، وأنه قد يدعو ربه أن يتأنى معهم وأن لا يغرقهم أو كان قد دعاه فعلا ، فلهذا نبهه هنا إلى أن لايطلب منه ذلك مستقبلا ، فقضاء الله فيهم لا رجعة فيه بشفاعته ، فلا يطلب منه مالا سبيل إلى إجابته .

أما ما سيأتى فى سورة نوح من قوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » . فقد صدر منه بعد يأسه تماما من إيمان قومه .

والمعنى : ولا تخاطبنى فى تأجيل تعذيب هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ونبيهم ، إنهم مغرقون ولابُدَّ ، فلا مجال للرحمة بهم ولا مفرَّ من إهلاكهم .

(١) سورة نوح ، الآية : ٢٦

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(مَلأٌ) : جماعة من الأشراف . (سَخِرُوا مِنْهُ) : اتخذوه هدفا للاستهزاء ومجالا للضحك . (يُخْزِيهِ) : يذلُّه ويفضحه .

التفسير

٣٨ - (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ) :

نفذ نوح أمر ربه ، وظل يباشر صناعة السفينة وكلما رآه جماعة من أشراف قومه أثناء صنعتها واجهوه بالاستهزاء والسخرية منه . فقد عهدوه داعيا إلى توحيد الله وعبادته ، فإذا هو قد انصرف عن الدعوة واشتغل بقطع الأشجار وتهيئة الألواح وضم بعضها إلى بعض ولم يدركوا السر فى هذا التغيير .

(قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) : لمَّا رأى نوح قومه يسخرون من اشتغاله ببناء السفينة ، هدَّدهم بقوله إن تسخروا منا اليوم ، فإننا عن قريب نجيب على سخريتكم بالفرح بهلاككم ، وتخليص الأرض من شروركم وجهلكم فى حق ربكم وحقِّ أنفسكم .

٣٩ - (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) :

أى إنكم تسخرون منا اليوم وسوف تعلمون غدًا من هو أهل للسخرية والاستهزاء حينما يفجؤكم عقاب من الله يخزيكم فى الدنيا ، وحينما يحل بكم عذاب خالد يوم القيامة وبئس المصير .

(حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(فَارَ) : فاض وارتفع بقوة واشتد اضطرابه . (التَّنُّورُ) : الفرنُ .

(سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) : حق عليه قضاءُ الله .

التفسير

٤٠ ـ (حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ) : ظل نوح عليه السلام يصنع السفينة ويسمع سخرية الساخرين واستهزاء المستهزئين من قومه ، حتى إذا أتم صنعها وحل قضاءُ الله وتدفقت ينابيع الماء من مكان غير مألوف وهو جوف الفرن ، وهطل المطر من السماء مدرارًا ، كما قال تعالى: «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ»[1] .

حتى إذا حدث هذا كله : (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) : أى قلنا لنوح عليه السلام احمل فى سفينتك من كل صنف من الحيوان زوجين اثنين ذكرًا وأنثى حتى لا تنقرض الأنواع ، أما الأنواع التى أمره الله بحملها معه فلم نعلم أنه ورد فى تحديدها نص صريح يوثق به .

(وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) : أى واحمل معك فى السفينة أهلك جميعًا إلا من حقَّ عليه قضاءُ الله بالهلاك مع الكفار لأنه منهم ، ومن سبق عليه القول من أهله هم : ابنه وزوجته كما ورد فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم .

(وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) : أى واحمل معك الذين استجابوا لدعوتك وآمنوا برسالتك وهم عدد قليل .

(١) سورة القمر ، الآيتين : ١١ ، ١٢

(* وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾)

المفـردات :

(ارْكَبُوا فِيهَا) : أى اركبوا مستقرين فيها . (مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا) : أى جريها فى الماء ، وإرساؤها أى إثباتها فى مرساها ، ويجوز أن يكون المراد منهما مكان أو زمان جريها وإرسائها .

التفسـير

٤١ - (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجرِيهَا وَمُرْسَاهَا) :

بعد أن بيَّنت الآية السابقة أن الله -تعالى- أمر نوحا عليه السَّلام أن يحمل فى السفينة زوجين اثنين من كل الحيوانات المنتفَع بها ، وأن يحمل فيها أهلَه إلا من سبق عليه قول الله بالغرق بالطوفان ، جاءت هذه الآية لِتبيِّن أنه نفَّذ ما أمره به ، وأوصى أهله أن يذكروا اسمه - تعالى - عند ركوبهم فيها على النحو الذى سنشرحه ، والركوب كما قال العلامة أبو السعود : هو العلو على شىء له حركة ، إمَّا إرادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما ، فإذا استعمل فى الأول لم يذكر معه لفظ (فى) كما فى قوله تعالى : « وَالْخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا »[١] .

وإذا استعمل فى الثانى لوحظت الظرفية فذكر معه لفظ (فى) كما هنا ، وكما فى قوله تعالى : « حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى السَّفِينَةِ خَرَقَهَا »[٢] وقوله : « فَإِذَا رَكِبُوا فِى الفُلْكِ » . هذه خلاصة ما أسهب به فى هذا الموضوع ، وقال البيضاوى :(وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا) : أى صِيرُوا فيها وجعل ذلك ركوبا ؛ لأنها فى الماء كالمركوب فى الأرض : ا هـ .

والمعنى : وقال نوح - عليه السلام - لأهله والمؤمنين الذين أمره الله بحملهم معه : اركبوا فى السفينة قائلين بسم الله جريها فوق الماء المتلاطم الأمواج ، وبين

(١) سورة النحل ، من الآية : ٨ (٢) سورة الكهف ، من الآية : ٧١

الزوابع والعواصف وتحت سُحُبٍ مفتَّحة الأبواب بماء منهمر ، وبسم الله إرساؤُها وإيقافها عن الجرى عند مرْساها الذى شاء الله أن يوقفها ويثبتها عنده .

ويجوز أن يكون نوح بعد أن أمرهم بركوبها ، أخبرهم بأن جريها وإرساءها بإذن الله وحمايته حتَّى لا يخافوا من ركوبها فى هذا الفزع الأكبر ، فكأنه قال لهم : اركبوا فى السفينة بإذن الله جريها وإيقافها لا بإذنى فلا تخافوا من الغرق ؛ ويرشح هذا المعنى ختم الآية بقوله سبحانه :

(إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) :أى إن ربى لعظيم الغفران لذنوب المؤمنين، واسعُ الرحمة والرأفة بهم ، ومن كان كذلك فهو الكفيل بنجاتهم من كل خطر يُحيط بهم .

(وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(فِى مَعْزِلٍ) : أى فى مكان عزل نفسه فيه عن أهله .

(يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ) : يمنعنى ويحمينى منه .

التفسير

٤٢ - (وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَالْجِبَالِ) :

هذا الكلام مرتبط بمقدر مفهوم من الآية السابقة ،أى فركبوا فى السفينة (بِسْمِ اللهِ الخ ؛ وهى تجرى بهم بعد ركوبهم ، فى موج مرتفع كالجبال ، لشدة العواصف والرياح التى يتأثر بها الموج ويشتد ارتفاعه .

(وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ...) الآية .

فى هذه الآية عدة أسئلة :

(أحدها) : كيف ينادى نوح ابنه ليركب معه فى السفينة مع أنه نهى عن ذلك بقوله سبحانه : « وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ » ، ومن سبق عليه قول الله هم الذين قضى بإغراقهم لكفرهم ؟ وقد أجيب عن ذلك : بأنه لم يقطع الأمل فى إيمانه إذ لم يكن لديه علم بأنه مصرٌّ على الكفر وأنه من المغرقين ، إلا بعد أن أخبره الله بأنه ليس من أهله المؤمنين وبأنه من المغرقين ، ويدل لذلك قوله : « ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ » . فكأنه يقول له اركب معنا نحن المؤمنين وكن مؤمنا فى جملتنا ، ولا تكن باقيا على الكفر مع الكافرين حتى لا تغرق بسبب كفرك وعزلتك معهم ، وقيل : إنه كان ينافق أباه فيظهر له الإيمان ويبطن الكفر فلذلك دعاه ليركب مع المؤمنين ظانًّا أنه مؤمن ، والرأى الأول أظهر .

(وثانى هذه الأسئلة) :

ما المراد بكونه (وَكَانَ فى مَعْزِلٍ) ؟ والجواب : أنه كان فى مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن المؤمنين وقتما كانوا على الشاطئ يستعدون لركوب السفينة ، ولكنه كان بحيث يسمع النداء ، فلذلك ناداه أبوه بترك العزلة مع الكافرين ، والانضمام إليهم فى الإيمان وركوب السفينة معهم .

(والسؤال الثالث) :

ظاهر النص الكريم ، أن نوحا نادى ابنه وكانت السفينة تجرى بهم فى موج كالجبال والمعقول أنه يناديه قبل أن تبحر بهم ؟ والجواب : أن هذا حكاية لما حدث منه لولده قبل إبحار السفينة ، وليس فى النص ما يقتضى تأخره إلى مابعد جريانها فكأنه قيل : وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، وكان نوح قد نادى ولده ليترك مَعْزِلَهُ ، ويؤمن ويركب معهم ، لينجو من الغرق فى طوفان أمواجه كالجبال ، فأبى وقال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء الخ .

والمعنى الإجمالى للآية : فركبوا فى السفينة بإذن الله جريها وإرساؤها ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، وكان نوح قبل إبحارها قد نادى ابنه وكان فى مَعزل عنه وعمّن

آمن معه ، قائلا له بحكم الشفقة الدينية والأبوية : يابنى اركب معنا نحن المؤمنين ودع ما أنت عليه من الكفر ، لتنجو من الغرق ، ولا تكن منعزلا عنا مع الكافرين ، فإنهم سيغرقون ويهلكون .

٤٣ - (قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَاعَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) :

توهم هذا الولد المفتون أنه يستطيع أن ينجو من الغرق باللجوء إلى جبل مرتفع ، كما يحدث فى بعض المُلمَّات من اللجوء إلى أسباب النجاة العادية ، فلهذا رفض دعوة أبيه وقال له : سألجأ إلى جبل مرتفع يحمينى من الماء ويمنعنى تسلُّقه من الغرق بالطوفان ، فردَّ عليه أبوه قائلًا :

(لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ) : أى ليس هذا الذى نزل بالناس ماءً عاديا يُتَّقى فيضانه بارتقاء الجبال ، بل هو عذاب الله وعقابه للكافرين فلا يُنْجِى منه إلا الله الذى رحم عباده المؤمنين بإركابهم سفينة النجاة فدع عنك هذه الغفلة ، وآمن بربك واركب مع المؤمنين سفينة النجاة ، لتنجو معهم ، ولكنه لم يستمع إلى نصيحة أبيه .

(وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) .

أى قام الموج حائلا بين نوح وابنه فاجتذبه إليه ، وانقطعت صلة التفاوض بينهما ، وكان هذا الولد من جملة الذين أغرقهم الله بالطوفان من الكفار أمثاله .

(وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى) : وياسماءُ أمسكى عن المطر ، والسماءُ هنا : السحاب .

(وَغِيضَ المَاءُ) : أى نقص . (وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِىِّ) : واستقرت السفينة على جبلٍ يُسمَّى بهذا الاسم ، واختلف فى موقعه على ما سنبينه فى الشرح .

(بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : أى هلاكا لهم ، يقال : بَعُدَ بُعْدًا وبَعْدًا ، إذا بَعُدَ بحيث لا يرجى رجوعه ، ثم استُعير للهلاك .

التفسير

٤٤ ـ (وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِى مَآءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى) .

بعد ما بيَّنت الآية السابقة شدة الطوفان وإغراقه لأهل الأرض ، وأنه لم يعصم منه إلا من رحمه الله وهم أهل السفينة التى صنعها لهم نوح ، جاءت هذه الآية لتبيِّن انتهاء الطوفان بأمر الله ، بعدما أهلك الله به الظالمين .

والمعنى : أنه ـ تعالى ـ بعد إهلاكه الظالمين بالطوفان ، أمر الأرض أن تكف عن الفوران وأن تبتلع ما على ظهرها من الماء الذى جاء به الطوفان ، دون ما فيها من مياه البحار والمحيطات ، وأمر السماء أن تكفَّ عن المطر ، وتقلع عن إرساله مدرارًا ، وظاهر الآية : أن الأرض والسماء نوديا حقيقة ، وأنه ـ تعالى ـ خلق لهما إدراكا جعلهما أهلا لتقبُّل التكليف ، ولا يبعد ذلك على قدرة الله تعالى ، ويشهد له قوله تعالى : « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ والطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ »[1] .

ومن المفسِّرين من جعل ذلك تمثيلا لكمال قدرة الله عليهما ، وتمام انقيادهما لما يشاؤه فيهما ، قال الإمام البيضاوى : نوديا بما ينادى به أولو العلم ، وأمرا بما يؤمرون به تمثيلا لكمال قدرته ، وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما ، بالآمر المطاع الذى يأمر المنقاد لحكمه ، المبادر إلى امتثال أمره ، مهابة من عظمته ، وخشية من أليم عقابه ، انتهى .

(وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ) :

ونقص الماء حتَّى غاب فى الأرض بعد ما صدر أمر الله للسماء بالإقلاع والأرض بالابتلاع وتنفيذهما مشيئته فيهما ، وأنجز الأمر الذى جاء الطوفان من أجله ، وهو هلاك أولئك

(١) سورة الأنبياء ، من الآية : ٧٩

الظالمين من قوم نوح ، وتطهير الأرض منهم ، لينشأ جيل جديد من البشر على توحيد الله وطاعته ، واستقرت السفينة بعد أن جف ظاهر الأرض ، على جبل اسمه الجودى .

وقد اختلف الناس فى بيان موقعه ؛ فمنهم من قال : إنه بالموصل ، ومنهم من قال : بالشام ومنهم من قال بآمل - بمدّ الهمز وضمّ الميم - ومنذ عدة سنين نشر بالصحف، أنهم وجدوا ألواحا طويلة على جبل أرارت تشبه ألواح سفينة كبرى ، وقيل : إنها بقايا سفينة نوح ، والله - تعالى - أعلم بالحقيقة .

(وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

إذا قلت : بعدا لفلان ، فأنت تدعو عليه ، فهو خاص بدعاء السوء ، وكثيرا ما يستعار للدعاء بالهلاك كما هنا .

والمعنى : وقيل من جهة الله تعالى : هلاكا لقوم نوح لكونهم ظالمين أشد الظلم. ويقول العلامة البيضاوى ، فى وصف بلاغة الآية وفصاحتها ما يلى :

«والآية فى غاية الفصاحة لفخامة لفظها ، وحسن نظمها ، والدلالة على كنه الحال ، مع الإيجاز الخالى عن الإخلال ، وفى إيراد الإخبار على البناء للمفعول دلالة على تعظيم الفاعل وأنه متعين فى نفسه ، مستغنٍ عن ذكره ، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره ، للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار» . انتهى .

وقال الألوسى : هذه الآية بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها ، وجمعت من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان ، إلى آخر ما قال .

هل شمل الطوفان جميع الأرض

إذا قرأنا قصة الطوفان فى سور القرآن التى تحدثت عنه ، نجد فيها أن الله تعالى جعله عقوبة لقوم نوح لغلوهم فى الكفر ، وإصرارهم عليه أحقابا ودهورا ، وقوم نوح كانوا فى إقليم من أقاليم الأرض يعلمه الله ، ولم يكونوا منتشرين فى أرجائها كلها ، فهل يبعثنا هذا على القول بأن الطوفان لم يعم الأرض جميعا ، بل كان قاصرًا على المنطقة التى كان يوجد فيها قوم نوح لعقابهم ، وهل يشهد لصحة هذا الاستنتاج أن الله تعالى قال هنا فى آخر القصة : (وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) .كما يشهد له أن نوحا كان قريبا

من جدّه آدم - عليهما السلام - فالبشرية فى عهده كانت محصورة فى حيّز ضيق من الأرض أم أن الطوفان مع كونه عقوبة لقوم نوح ، فإنه كان عاما لجميع أنحاء الأرض لحكم يختص بعلمها الحكيم الخبير ، ولم نجد لهذا السؤال جوابا حاسما يحمل على اعتقاد عمومه أو خصوصه يقينا ، والذى يجب اعتقاده هو عموم الطوفان للكافرين لقوله تعالى: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» .وقوله : «لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ».

أما عمومه لجميع بقاع الأرض ، فليس لدينا ما ينفيه على البت والقطع ، لاحتمال النصوص لهذا العموم ، ولأنه قد وجدت بعض الأصداف والأسماك المتحجرة فى أعالى الجبال ، لأن هذه الأشياء لا تتكون إلا فى البحر ، فلا بد أن تكون هذه مخلفات طوفان عمَّ الأرض ، وارتفع إلى أعالى الجبال . .

سؤال

قد يقول قائل :ما ذنب الصغار الذين لم يبلغوا حد التكليف حتى يهلكهم الله بالطوفان ؟ والجواب : أنه مجرد سبب لموتهم ، وليس موتهم به عقوبة لهم ، وأى محذور فى إماتة من لا ذنب له ؟ وفى كل وقت يميت الله من هؤلاء الصغار بأسباب وبغيرها عددا لا يحصى ، فالخلق عباده ، والملك له - وحده - يفعل فيه ما يشاء حسب حكمته العالية ، فهو الحكيم الخبير .

(وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي) : أى بعض أهلى الذين وعدتنى بنجاتهم .

(لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ) : أى لا يستحق الانتساب إليهم ،لانقطاع الولاية بين المؤمن والكافر . (إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) : أى إنه صاحب عمل فاسد ، فلا ينسب إلى أهلك الذين سبق الوعد بإنجائهم . (إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ) : إنى أحذرك أن تكون من جملة الجاهلين بسؤالك نجاة ولدك الكافر .

التفسير

٤٥ - (وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى .....) الآية .

تقدم فى الآيات السابقة بيان أن نوحا دعا ولده هذا إلى أن يركب معه السفينة ، ولا يتخلف مع الكافرين حتى لا يهلك بهلاكهم ، وأنه أجابه بأنه سيأوى إلى جبل يعصمه من الماء ، وأن أباه أفهمه أنه لا عاصم من الغرق ، إلا الله الذى رحم المؤمنين ركاب السفينة ، وأن الموج حال بينهما فانقطع الحديث ، وكان هذا الولد من المغرقين. وظاهر هذه الآية أن نوحا أراد بقوله : (إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى) الخ أن يطلب من الله تعالى نجاته من الغرق بالطوفان ، فكيف يطلب ذلك بعد غرق ولده ، لأنه من الكافرين المغرقين .

ويجاب عن ذلك ، بأن نوحا لم يكن رآه يغرق ، وأنه ربما ظن أنه نجا باللجوء إلى جبل ، أو أنَّ كفره لم يكن مُؤكدًا لديه ، ولذا قال : (رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى). ولم يكن يظن أنه ممن سبق عليه القول بالغرق فى قوله - سبحانه - : « إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ ». وأجيب بغير ذلك وحسبنا ما ذكرناه .

والمعنى : ودعا نوح ربه قائلا : يارب إن ابنى من أهلى ، وقد وعدت أن تنجيهم فما حاله ؟ أو فما له لم ينج ؟ ويجوز أن يكون هذا النداء قبل غرقه - كما قال البيضاوى[1] .

(وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ) :

أى وإن كل وعد يصدر عنك يارب هو الحق فلا يتطرق إليه الخُلْف ، وقد وعدت أن تنجى أهلى ، وأنت أعدل الحاكمين ، فلعلك ياربى نجيته ، و قضيت بنجاته .

---

(١) وتفصيلا لما أجمله البيضاوى نقول : الواو فى قوله تعالى: (ونادى نوح ربه) الخ لمجرد العطف لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا ، وإنما أخر إلى تمام قصة السفينة ونجاتها بركابها المؤمنين ، تقديما للأهم على المهم كما تقدم فى قصة البقرة أمر ذبحها واختلافهم فى صفاتها ، على ذكر السبب فيه وهو اختلافهم فيمن قتل القتيل ، فراجعها هناك لتعرف سر تقديم العجز على الصدر .

٤٦ - (قَالَ يَانُوحُ إِنَّه لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ) :

قال الله لنوح فى إجابته على سؤاله : يانوح إن ابنك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم من الطوفان ، لأن عمله لاصلاح فيه ، فهو الفساد بعينه ، فخرج بذلك عن كونه من أهلك ، لانقطاع الولاية بين المؤمن والكافر ، ولأن أساس نجاة أهلك الإيمان دون النسب .

(فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) :

أى إذا كنت قد علمت شأن ولدك الذى ظننت أنه أهل للنجاة ، وتبيَّن لك أنه أهل للهلاك لكفره ، فلا تسألنى فيه ولا فى غيره بعد ذلك مطلبا لاتعلم يقينا أنه صواب وموافق للحكمة .

(إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) :

إنِّى أحذرك وأنهاك عن أن تكون من جملة الجاهلين ، بسبب سؤالك إيانا ما لا تعلم يقينا أنه صواب وموافق للحكمة لدينا .

(قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(أَعُوذُ بِكَ) : ألتجىءُ إليك وأحتمى بك . (بِسَلَامٍ) : بسلامة وأمن .

(وبَرَكَاتٍ) : ونعم ثابتة .

التفسير

٤٧ - (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ) :

تحكى هذه الآية توبة نوح عمّا سأله فى شأن ولده ، ولجوءه إلى الله أن يعصمه من أن يعود إلى مثل ما طلبه بشأنه .

والمعنى : قال نوح بعد ما وعظه الله وذكّره : يارب إنى ألتجئ إليك لتعصمنى من أن أطلب منك مستقبلا مطلبا لا أعلم يقينا أن حصوله مقتضى الحكمة أو أنه صواب. وهذه الاستعاذة التى صدرت من نوح عليه السلام ، هى توبته مما حدث منه ، وهى أبلغ فى التوبة من أن يقول :أتوبُ إليك أن أسألك ،لما فيها من الدلالة على أن ذلك أمر لا قدرة للعبد عليه إلا بالاستعانة بالله واللجوء إلى حمايته وعصمته .

(وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ) :

وإن لم تغفر لى يارب ما طلبته فى شأن ولدى حين قلتُ : « رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ » فقد سألتك بذلك نجاته ، وظننتُ أنه داخل فى وعدك الحق ولم أكن عالما بحقيقة أمره ، وأنسانى ذلك شكر إنعامك بالنجاة علينا ، وإهلاك أعدائنا إن لم تغفر لىّ ذلك ، وترحمنى بقبول توبتى ، أكن من الذين خسروا أعمالهم وأضاعوها لأننى غفلت عن أنّ ترك ولدى لركوبه معنا فى السفينة التى أمرنى الله بإعدادها لنجاة المؤمنين شاهد على أنه لا يأتمر بأمر ربه ، وأنه ليس معه بقلبه ، وأنه لا يستحق أن يكون داخلا فى الوعد بنجاة أهلى ، حتى أستنجز ربى ما وعدنى. واعلم أن ما فعله نوح فى شأن ولده ناشئ عن اجتهاد منه ، وبدافع الشفقة التى أودعها الله قلب كل والد ، وهذا لا يعتبر مثله موضع لوم وتحذير من الله ، ولا توبة من العبد ، لكنه بالنسبة للأنبياء ليس كذلك ، فما يعتبر مخالفة يسيرة فى حقنا يعتبر ذنبا فى حقهم .

٤٨ - (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ....) الآية .

أى قالت الملائكة بأمر الله ، أو قال الله تعالى : يانوح اهبط من السفينة بسلامة وأمن منّا إلى الأرض التى ابتلعت ماءها وأصبحت صالحة للنزول بها ، وهذه السلامة مصحوبة ببركات وخيرات دنيوية وأخروية ، عائدة عليك فى نفسك ونسلك ، وعائدة

أيضا على أمم سوف تنشأ ممن معك، وتتشعب منهم وعلى سنتهم من الإيمان إلى يوم القيامة، وهذه البشارة إعلام بقبول توبة نوح ونجاته من الخسران بفيضان الخيرات عليه فى كل ما يأتى ويذر، وعلى أمم مؤمنة تنشأ ممن ركبوا السفينة معه من المؤمنين.

(وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ):

وأمم من ذريتهم ليسوا على سنتهم من الإيمان والعمل الصالح، سنمتعهم فى الدنيا فيستنفدون فيها طيباتهم، ثم يصيبهم فى الآخرة أو فيهما معا عذاب شديد الإيلام فأنت ترى أن السلام الذى هبط به نوح ومن آمن معه، دخل فيه كل مؤمن ومؤمنة من ذرياتهم إلى يوم القيامة، وأن المتاع العاجل والعذاب الآجل دخل فيه كل كافر وكافرة من ذرياتهم إلى يوم القيامة. وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راض، ثم أخرج منهم نسلا، منهم مَن رَّحم ومنهم من عذب.

(تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩))

التفسير

٤٩ - (تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ .....) الآية.

بعد أن بيَّن الله قصة نوح وقومه مفصَّلة بدقائقها، جاءت هذه الآية تشير إلى أنَّ إخبار القرآن عن هذا الغيب البعيد يعتبر من آيات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

والمعنى: تلك القصة العجيبة التى فصل فيها ما حدث بين نوح وقومه، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك بالطوفان، هى من أنباء الغيب نوحيها إليك لتكون برهانا على نبوتك، وذلك لأنك:

(مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا):

فإذا كان قومُك يجهلونها وقد عشتَ بينهم ولم تخالط غيرهم، فإن الذى أخبرك بها مطابقة لواقعها هو اللهُ الذى أرسلك، وجعلها وأمثالها آياتٍ تشهد برسالتك، وإن

أعرض قومك ولم يصدقوك . (فَاصْبِرْ) :كما صبر نوح على معارضة قومه وإيذائهم له ولمن آمن معه . (إِنَّ الْعَاقِبَةَ) : بالظفر فى الدنيا والفوز فى الآخرة . (لِلْمُتَّقِينَ) : الذين يصبرون ولا يجزعون ولا يفترون ، مهما عارضهم الكافرون ، فقلوبهم واثقة من نصر الله ، وجوارحهم مشغولة بطاعة الله .

(وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(مُفْتَرُونَ) : كاذبون . (فَطَرَنِى) :خلقنى ابتداءً من غير مثال سبق ، والفطرة : الخلقة ابتداءً - كما قاله القرطبى . (يُرْسِلِ السَّمَاءَ) : يرسل السحاب ، فكل ما علاك سماء .

(مِدْرَارًا) : كثيرة الدُّرُورِ والسيلان .

التفسير

٥٠ - (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) :

بعد أن ذَكَّرَ الله قريشا بما أصاب قوم نوح لمّا أصروا على كفرهم ، زادهم تذكيرا ببيان ما أصاب غيرهم من الأُمم التى كفرت بالرسل ، وقدم قصة عاد على ما بعدها لأنها أقربها إلى قوم نوح ، وعاد هذه هى عاد الأولى ، سميت باسم جدها الأول وهم قوم يسكنون الأحقاف بين الشحر وعُمَان وحضرموت ، وكانوا قوما جبارين عظام

الأجسام ؛ قال تعالى فى شأنهم : « ... واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْطَةً ...[1] » :

وهم من ذرية سام بن نوح ، وكانوا أهل أوثان وطغيان ، فأرسل الله إليهم رسولا من بينهم فطره على التوحيد ، وأنشأه نشأة الرسل الأطهار وهو هود عليه السلام ، ليدعوهم إلى التوحيد ، وترك ما هم عليه من الشرك والجبروت .

وقد عبرت الآية عن هود عليه السلام بأنه أخو عاد ، للإيذان بأنه منهم نسبًا ، وأنه نشأ بينهم ، فهم يعرفونه من منشئه إلى أن دعاهم إلى الحق ، ويعرفون من حسن سلوكه أنه لا يخدعهم ولا يدعوهم إلا إلى ما تدعو إليه الأخوة من الخير والحق ، فإن الرائد لا يكذب أهله .

والمعنى : وأرسلنا إلى عاد رسولا من بينهم هو هود ، ليأمنوا جانبه ويطمئنوا إليه لأنه نشأ فيهم ، وعرفوا صدقه وطيب نشأته .

(قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ) :

تحكى هذه الآية ما جرى بين هود وقومه على وجه الإجمال ، فالمعقول والمنقول فى سياسة الرسل لأممهم أنهم لا يجابهونهم فى أول لقائهم معهم بوصفهم بالافتراء ، ففى سورة الأعراف يقول الله تعالى : « وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ »[2] فقد نصحهم بوقاية أنفسهم من عقاب الله ؛ بعبادته وحده ، ولم يصفهم بالافتراء ، فلذا يحمل وصفهم به هنا على أنه حدث بعد أن طال جدالهم ومعارضتهم له .

والمعنى : قال هود لقومه بعد ما نصحهم وذكرهم مدة طويلة ، وأصروا على شركهم قال لهم : اعبدوا الله ، ودعوا ما أنتم عليه من الإشراك به ، فليس لكم من إله سواه ، ما أنتم إلا كاذبون عليه فى اتخاذ الأوثان شركاء وجعلها مستحقة للعبادة معه ، وزعمكم أنها لكم شفعاء .

---

(١) الأعراف ، من الآية : ٦٩

(٢) الأعراف ، من الآية : ٦٥

٥١ - (يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى) :

خاطب هود قومه بأن دعوته خالية عن المطامع الدنيوية، لبيان إخلاصه فى النصيحة ودفع الريبة عن دعوته ، وكذلك فعل كل رسول مع قومه إبعادا للتهمة عنه ، وطلبا لنجاح دعوته ، فإن الدعوات المشوبة بالمطامع لا نجاح لها .

والمعنى : ياقومى وأهلى ؛ أنا لا أطلب منكم أجرًا ، ولا أبتغى بدعوتى جزاء دنيويا من مال أو جاه ، فما أجرى فى إرشادكم وهدايتكم على أحد إلا على الله تعالى ، فلا وجه لمخالفتكم وإمعانكم فى الإعراض عما جئتكم به من الله ، مع وضوح الآيات والتجرد عن المطامع الدنيوية ، ثم دعاهم إلى استعمال عقولهم ، وعاب عليهم إغفالها فقال :

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) : أى أتغفلون فلا تستعملون عقولكم ، لتعرفوا الحق من الباطل والصواب من الخطأ .

٥٢ - (وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) :

وياقوم اطلبوا المغفرة من ربكم لما قدمتموه من الشرك والمعاصى بالإيمان والطاعة ، ثم توسلوا إليه بعد الإيمان بالتوبة والندم على ما فاتكم من طاعة الله ، وبالعزم على عدم العودة إلى طريق الشيطان الرجيم .

(يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ) :

أى إن تستغفروا الله وتتوبوا إليه من شرككم وجبروتكم ، يرسل السحاب عليكم كثير الدَّرغزير المطر ، ويعطكم قوة مضافة إلى قوتكم ، بتوفير الأسباب المؤدية إلى ذلك من الزرع والضرع والصناعة ، والحصون والبروج وغير ذلك ، وإنما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوَّة لأنهم كانوا أصحاب زرع وضرع ومصانع وحصون وقصور ، وكانوا ذوى جبروت وقوة ، كما قال تعالى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ »[1] .

فرُغِّبوا فى الإيمان بتوفير ما يحبون لهم ، وسوف يعلمهم الإيمان وشريعة الرحمن كيف ينتفعون وينفعون بتلك النعم ، وكيف يوجهون قوتهم وجبروتهم فلا تكون إلا

(١) الشعراء ، الآيات : ١٢٨ - ١٣٠

فى الخير وإرهاب أهل الشر ، ثم نصحهم بعدم الإعراض عما دعاهم إليه فقال :

(وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) : أى ولا تنصرفوا معرضين عن دعوة الحق ، مصرين على إجرامكم وكفركم .

(قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(بِبَيِّنَةٍ) : بحجة . (عَن قَوْلِكَ) : أى من أجل قولك ، (بِمُؤْمِنِينَ) : بمصدقين .

(لَا تُنظِرُونِ) : لا تمهلون .

التفسير

٥٣ ـ (قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ) :

قال شعب عاد لنبيهم هود ، وهم مصرون على رفض دعوته : ياهود أنت ماجئتنا بحجة تدل على صدق نبوتك ، يقولون ذلك ليجعلوا منه سبيلا إلى عدم الاستجابة إلى ما دعاهم إليه ، والحق أنهم كاذبون ، فقد جاءهم من المعجزات فوق ما يكفى لطمأنينة من ألقى السمع ، وأجال البصر ، وفكر بعقل حر ، فما من نبي إلا أيده الله من الآيات بما يكفى لإيمان أهل الحق . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مَا مِنْ نَبِىٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أُعْطِىَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَىَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

والمقصود من كون الذى أوتيه الرسول وحيا ، أنه اختص بالقرآن إلى جانب معجزاته الأخرى التى يشاركه فى مثلها الأنبياء ، فالقرآن هو أعظم معجزاته التى تحدى

بها البشر ، واعلم أن كل نبي أوتى معجزة لم يؤتها غيره ، وهى التى تحدى بها قومه وهذا لا ينافى حصول خوارق أخرى على يديه . وبعد أن نفوا مجيء هود عليه السلام ببينة قالوا :

(وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) :

أى وما نحن بتاركى عبادة آلهتنا صادرين فى تركها عن قولك وما نحن لك بمصدقين نبوتك حتى نرفض آلهتنا بسبب قولك لنا : دعوها واتركوها .

٥٤، ٥٥ ـ (إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ...) الآية .

أى ما نقول فى شأن ما أنت عليه وجئتنا به إلا أنك أصابك بعض آلهتنا بشر ساءك فأفقدك عقلك ، وجعلك تهذى وتتكلم بالخرافات عن آلهتنا ، وتدعو إلى إله واحد وتخوفنا بعقابه فى الآخرة ، إلى غير ذلك مما تقول، ولقد سلك هؤلاء فى عنادهم سبيل التدرج والتسلسل، فنفوا مجيئه ببينة ثم نفوا تركهم لآلهتهم لمجرد قوله لهم (اتركوها) دون أن يقنعهم بحجه تقتضى تركهم لها، ثم نفوا تصديقهم له ، لأنه لا حجة لديه تثبت نبوته ، ثم بعد هذا الهذيان كله قالوا فيه ما قالوه من السباب « قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » .

ولقد حكى الله تعالى رده عليهم بعد هذا كله بقوله :

(قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ) :

أى أشهد الله على براءتى مما تجعلونه من غير الله شريكا له سبحانه ، واشهدوا أنتم على براءتى من ذلك ، فليس لكم على ما تزعمون برهان ، وما أنزل به سلطان .

(فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ) :

أى فدبروا لى المكايد والمحن أنتم وشركاؤكم جميعاً ، بعد ما نلتُ منها وَجَرَّدْتُها من وصف الألوهية ومقتضياتها ، وعاقبونى على امتهانى لها ، ولا تمهلونى ولا تتراخوا فى عقوبتى إن صح ما زعمتوه من ألوهيتها .

وخطاب النبي هود عليه السلام لقومه بهذا الأُسلوب الذى بلغ الغاية فى التحدى والتحقير لهم ولآلهتهم ، والإساءة لكبريائهم وجبروتهم وحميتهم وعصبيتهم ، مع ما عرف عنهم من سفك الدماء ، والعُنجهية والكبرياء ، وعجزهم عن تحقيق شيء مما تحداهم به مع كونه وحيدًا لا يؤيده سوى قليل من المؤمنين لاحول لهم ولا قوة ،هذا كله فيه برهان واضح على ثقته صلى الله عليه وسلم بتأْييد ربه وعنايته به ونصره له ، وعصمته من المكاره ، كما أنه برهان على أنه مرسل من الله ، حيث أعجزهم عن الإضرار به والقضاء على دينه ، فكأن المولى يقول لعاد صدق هود فيما يبلغه عنى ، وقد عقَّب هذا التحدى الدال على ثقته بربه ، ببيان مصدر ثقته فقال :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾

التفسير

٥٦ - ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ :

أى إنكم لن تضرونى بكيدكم لى مهما اجتمعتم عليه ، فإنى توكلت على الله مالكى ومالككم وخالقى وخالقكم ، واعتمدت عليه فى دفع ضركم عنى ، وتآمركم على .
«فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» .[1] ثم أكد ثقته بربه وعدم قدرتهم عليه بقوله:
﴿ مَامِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ :

أى ما من دابة من حيوانات الأَرض وأناسيها إلا الله مالك لها قادر عليها ، يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه ، إن ربى على سبيل من الحق والعدل مستقيم ، فلا يضيع من اعتصم به ولا يفوته ظالم لنفسه أو لعباده .

(١) يوسف ، من الآية : ٦٤

والدابة كل ما يدب على وجه الأرض ، أى يتحرك عليها فيدخل فيها الإنسان والحيوان والناصية مقدم الرأس وتطلق على الشعر النابت عليها ، والأخذ بالناصية كناية عن القدرة والتسلط ، وفى البحر لأبى حيان أن هذا التعبير صار عرفا فى القدرة على الحيوان ، والتعبير بقوله : (إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) تمثيل لعدله واستقامة تدبيره لخلقه ، وجزائه لهم بالثواب والعقاب ، وأنه كاف لمن اعتصم به ، وفى الكشف أن فى قوله تعالى : (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ) إلى آخر الآية ، ما يبهرك تأمله من حسن التعليل ، وأن من توكل على الله لا يبالى بهول ما ناله ، ثم التدرج إلى تعكيس التخويف بقوله : (رَبِّي وَرَبِّكُم) . فكيف يصاب من لزم سُدَّةَ العبودية وينجو من تولى عن ربه - إلى آخر ما نقله الآلوسى عنه ، فارجع إليه إن شئت .

(فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾)

المفـردات :

(وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ) : يجعلهم خلفاء لكم فى دياركم . (حَفِيظٌ) : عليم .

التفسـير

٥٧ - (فَإِن تَوَلَّوْا[1] فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ) :

أى فإن تتولوا وتعرضوا عما دعوتكم إليه ، فلا عذر لكم ، فقد أبلغتكم رسالة ربى إليكم ، وبذلت لكم النصح ، وقدمت الحجج والبراهين ، وأديت حق ربى ، فلا تفريط منّى ، ولا حجة لكم .

(١) أصله فإن تتولوا ، فحذف حرف المضارعة وهو التاء الأولى تخفيفا لثقل تكرار التاء .

(وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ) :

كلام مستأنف مراد به وعيدهم وإنذارهم ، بأنه تعالى سوف يهلكهم إن استمروا على كفرهم ، ويستخلف مكانهم قوما آخرين فى ديارهم وأموالهم .

(وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا) :

ولا تضرون ربى شيئا من الضرر ، لا بإعراضكم وتوليكم عن دينه ، ولا بإهلاككم بذنوبكم ، فإن هلاككم لا ينقص ملكه ، ولا يخل بأمره .

(إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ) :

إن إلهى وخالقى على كل شىء رقيب ، وبكل شىء عليم ، فلا يغيب عنه شىء من أعمالكم ولا ما انطوت عليه صدوركم ، وسوف يجازيكم على خطاياكم فى دنياكم وأخراكم .

(وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(أَمْرُنَا) : عذابنا الذى أمرنا به ، أو المراد به الإذن بالعذاب والأمر به .

(مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) : من عذاب شديد لا يحتمل . (جَبَّارٍ عَنِيدٍ) : الجبار ؛ العاتى المتسلط ، والعنيد هو الذى يرد الحق ويرفضهُ وهو عارف به .

(وَأُتْبِعُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ) :

جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين ، واللعنة ؛ الطرد من الرحمة . (كَفَرُوا رَبَّهُمْ) : جحدوه وأنكروا وحدانيته . (بُعْدًا) : هلاكا .

التفسير

٥٨ – (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا) :

أى : ولما نزل عذابنا بقوم هود الكافرين ، وكان بحيث يمكن أن يصيب المؤمنين نجينا هوداً ومن آمن معه برحمة منا ، حيث حفظناهم من العذاب الذى يمر بهم ولا يؤذيهم ، ويفتك بغيرهم ويكون رحمة لهم .

(وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) : هذه الجملة معطوفة على مثيلتها السابقة لبيان ما نجاهم الله منه .

أى وكانت تنجيتنا لهود والمؤمنين من عذاب شديد الغلظة عظيم الفتك بالكافرين ، حيث « .. أُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ » [١] . وكان مع هذا رحمة بالمؤمنين ، لا يضرهم ولا يصيبهم بمكروه .

٥٩ – (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) : المعروف من ظواهر النصوص أن عادا الأولى لم يرسل إليها سوى هود ، لكن هذه الآية تقول إنهم عصوا رسله ، ويؤول ذلك بجعل عصيانهم لهود عصيانا لجميع رسل الله السابقين واللاحقين ، لأن ما جاء به من التوحيد وأصول الشريعة لديه ، جاء به جميع المرسلين فعصيان أحدهم يعتبر عصيانا لجميع الرسل .

والمعنى : وتلك الأمة (عادٌ) – التى مضى الحديث عنها – جحدوا بآيات ربهم الكونية الشاهدة بنبوة هود ، وبالشريعة التى تعبدهم الله بها ، وعصوا جميع رسل الله الذين أرسلهم لهداية البشر ، فقد كذبوا رسولهم مباشرة ، وكذبوا جميع الرسل ضمنا بتكذيبهم له ، واتبعوا أمر كل متمرد طاغ معاند للحق من رؤسائهم وكبرائهم ، فقلبوا بذلك موازين الأمور ، حيث عصوا من دعاهم إلى ما ينجيهم ، وأطاعوا من دعاهم إلى ما يُرْدِيهِمْ .

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٦ – ٨

٦٠ - (وَأُتبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ القِيَامَةِ) :

أى : وأُلزموا فى هذه الدنيا لعنة ، فلازمتهم ملازمة التابع للمتبوع ، حتى أوردتهم موارد الهلاك الغليظ ، وأُلزموها يوم القيامة ، حتى خلدتهم فى النار .

(أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعدًا لِّعَادٍ قَومِ هُودٍ) :

كُفْرُ عَادٍ بربهم أمر مفهوم من قصتهم التى مر بيانها ، وإنما أُعيد ذكره هنا بهذا الأُسلوب المنبه للسامع ، للإيذان بأن كفرهم هو سبب هلاكهم ولعنتهم حتى يخشى مصيرهم من كان على شاكلتهم .

والمعنى : ألا إن عادا كذبوا بوحدانية ربهم وجحدوا أنعمه ، ألا هلاكا لعاد قوم هود هؤلاء ، بسبب إصرارهم على كفرهم وعتوهم وعنادهم ، ويلاحظ فى الآية الكريمة تكرار حرف التنبيه (ألا) وإعادة لفظ (عَادٍ) للمبالغة فى تفظيع حالتهم ، والحث على الاعتبار بقصتهم .

والتعبير بقوله :(عَادٍ قَومِ هُودٍ) للإيذان بأنهم عاد الأُولى تمييزاً لهم عن عاد إرم - وتسمى عاداً الثانية وهم بقية من عاد الأُولى ، وإرم مدينتهم وقصبتهم ، وكانوا أهل ترف ومال ولكنهم لما كفروا وبغوا فى الأَرض صب عليهم الله العذاب ، قال تعالى فى شأنهم فى سورة الفجر : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ » . إلى قوله : « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » .

(﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ) :ابتدأ خلقكم من الأرض وأوجدكم منها بخلق أبيكم آدم من ترابها .(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) : جعلكم تعمرونها ، إذ مكنكم من العمل فيها واستثمارها والبناء عليها (مَرْجُوًّا) : موضع رجائنا وأملنا إذ كان فاضلا خيراً .(مُرِيبٍ) : مُوقع فى الريبة وقلق النفس وعدم الاطمئنان .

التفسير

٦١ - (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)... الآية .

وأرسلنا إلى قبيلة ثمود واحداً منهم وأخا لهم فى النسب يُسمَّى صَالِحًا - أرسلناه مُبلِّغاً رسالة ربه فناداهم فى رفق ولين - (قال ياقوم) : يا أهلى ويا عشيرتى ؛تليينا لقلوبهم وجذبا لنفوسهم ، كى يقبلوا فى يسر وسهولة على امتثال ما أمرهم به فى قوله :

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) . أى آمنوا بالله وحده ، وأفردوه بالعبادة ، ليس لكم أى إِلَٰه يستحق أن يعبد سواه .

ثم علَّل صالح دعوته إلى توحيد الله بإنعامه - تعالى - عليهم بأعظم النعم فيما حكاه القرآن بقوله : (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) : أى هو الله -سبحانه-لا غيره أوجدكم من الأرض ابتداء باعتبار خلقه آدم أبا البشر منها ،ويجوز أن

يكون المراد - أنشأكم من الأرض - باعتبار أن النطف التى خلقت منها ذرية آدم تتكون من الأغذية التى نحصل عليها من زروع الأرض وثمارها-أوجدكم من الأرض-فأنتم مدينون له بحياتكم ووجودكم .

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) : أى وأقدركم على عمارتها ،ومكنكم من العمل فيها ومن استثمارها وبناء ما تسكنون فيه على ظهرها ، بما وهبكم من عقل وقوة ،وبما سخر لكم فيها من وسائل تنفذون بها ما ألهمكم معرفة كيفيته .

ولمَّا كان إحسانه-تعالى-عليهم بتلك النعم يستدعى الاستغفار والتوبة ، رتب عليه الأمر بهما إذ قال : (فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) : أى فاطلبوا ممن غمركم بإحسانه العميم أن يستر بإيمانكم وأعمالكم الصالحة ما اقترفتموه من الشرك والخطايا ، ثم ارجعوا إليه بتخليص أنفسكم من الذنوب نادمين على ما فرط منها ، عازمين على عدم العودة إلى معصيته ، مقبلين على طاعته راجين رحمته .

ثم رغَّبهم فى الاستغفار والتوبة بقوله : (إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ) : أى إن ربى الذى أدعوكم إلى عبادته قريب بعفوه ممن يحسنون إلى أنفسهم بالاستغفار والتوبة منَ الشرك والخطايا ، مجيب دعاء من رجع إليه وأناب . قال تعالى : « إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ » . وكانت ثمود تقيم بالحجر بين الحجاز والشام .

٦٢ - (قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيهِ مُرِيبٍ) :

قال قوم صالح يردُّون على دعوته إيَّاهم إلى التوحيد : ياصالح قد كنت بيننا رجلا فاضلا خيرًا نؤملك لمهمات أمورنا ،كنت كذلك بيننا قبل هذا الذى أمرتنا به ودعوتنا إليه من التوحيد وترك عبادة الأوثان ، ثم خاب رجاؤنا فيك وانقطع أملنا وساء ظننا بعد أن سمعنا منك ما قلته لنا ، ثم خاطبوه باستفهام ينكرون به عليه مادعاهم إليه إذ قالوا : (أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَايَعْبُدُ آبَاؤُنَا) : أى أتطلب منا أن نترك عبادة الأوثان التى أقام على عبادتها آباؤنا طول حياتهم ، إن هذا لشئٌ نرفضه ولا نقبله ،

(وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) : أى أتنهانا عن فعل ماورثناه عن آبائنا وإننا لفى شك بالغ من صحة كل ما جئتنا به ، مريب موقع فى قلق شديد دائم لنفوسنا ، ومثير لا ضطراب مستمر فى قلوبنا .

(قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبروني عما سأسألكم عنه . (بَيِّنَةٍ) : حجة واضحة وبرهان ظاهر . (وَآتَانِي مِنهُ رَحْمَةً) : نبوة ورسالة فهي من رحمة الله . (فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ) : فمن ينجيني ويمنعني من عذابه . (تَخْسِيرٍ) : تضييع وإنقاص بإبطال عملى وتعريضى لغضب الله . (آيَةً) : معجزة . (فَذَرُوهَا) : فدعوها واتركوها . (فَعَقَرُوهَا) : فنحروها . يقال : عقرت البعير إذا نحرته . (تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ) : أقيموا فى بلدكم وانتفعوا بأرزاقكم وبكل ما يسركم . (وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) : وعيد صادق .

التفسير

٦٣ - (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً) ... الآية .

بعد أن بينت الآية السابقة أن قوم صالح أنكروا دعوته وارتابوا فى صدقها ، ورغبوا فى استدراجه

إلى موافقتهم ، جاءت هذه الآية تحكى ردَّه عليهم وتبيِّن أنهم لا يستطيعون ولا يستطيع أحد سواهم إنقاذه من عذاب الله إن أطاعهم فيما يرون .

والمعنى : قال صالح - عليه السلام - فى ردِّه عليهم - ياقوم - أخبرونى إن كنت على طريقة واضحة وبصيرة نافذة من لدن ربى ، وأعطانى من عنده نبوة ورسالة - رحمة لى ولكم - أجيبونى عمَّا أسألكم عنه بقولى :

(فَمَن يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إن عَصَيْتُهُ) :

أى فمن يمنعنى من عذاب الله وينجينى من عقابه إن أطعتكم وعصيته -سبحانه- فلم أُبلغكم رسالته ، ولم أُحذركم من الشرك وعبادة الأصنام؟ لا أحد مطلقا يستطيع منعى من عقابه-تعالى-إن فعلت ذلك .

ثم رتب على عصيانه إن وقع ، بعد إنعام الله عليه بالنبوة ، إحباط عمَله ، كما حكاه الله بقوله :(فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ) : أى فما أستفيد منكم إن جاريتكم فيما تشتهون سوى أن تجعلونى بهذا الاتباع خاسرا ، بإبطال عملى وتعريضى لغضب الله وعقابه ، ولا شك أن صالحا - عليه السلام- كان جازما بأنه على بيِّنة من ربه ، ولكنه عبر بإن التى للشك فى قوله :(إنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ) :مجاراة لقومه فيما يزعمون ، ورعاية لحسن المحاورة لا ستنزالهم عن المكابرة .

هذا ويمكن أن يقال إن استعمال (إن) فى الشك غالب ، ولكنها قد تستعمل عند اليقين كما هنا ، انظر إلى لفظ (ما) فإنه يستعمل فى غير العاقل غالبا . ولكنه قد يستعمل فى العليم الخبير كما فى قوله تعالى : « وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا » .

٦٤ - (وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً) :

أى وقال صالح يخبر قومه بمجىء معجزة عظيمة :ياقوم هذه ناقة عظيمة الشأن .شرفها الله بنسبتها إليه ، وأوجدها على خلاف ما عرفتم وألفتم فى خلق جنسها ، ومن خصائصها المميزة أنها تشرب الماء وحدها فى يوم ، والقوم جميعا وما معهم من حيوانات يشربونه فى آخر. قال تعالى : «هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ».[1] أوجدها كذلك لكم خاصَّة لتكون معجزة عظيمة تستدلون بها على قدرته-تعالى- وعلى صدق فيما أبلغكم به عن ربى

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١٥٥

(فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ) : أى فاتركوها تأكل وترعى وتشرب فى أرض الله دون أن تكلفوا بتحصيل شي من مؤونتها .

(وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) : أى ولا تصيبوها بأدنى سوء ولا بأقل أذى ، فيأخذكم ويستأصلكم لأجل ذلك عذاب عاجل .

٦٥ - (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) : أى فنحروها مخالفين ماأمروا به ، فقال لهم بوحى من الله : استمتعوا فى بلدكم بكل مايسركم فى اطمئنان وَدَعةٍ مدّة ثلاثة أيام ، والمراد أنهم بعد هذه الأيام الثلاثة يهلكون ، ولذلك قال عقبها : (ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) : أى ذلك العقاب الهائل الذى أنذرتكم وقوعه بعد عقر الناقة بثلاثة أيام وعيد صادق يقع حتما ولا يتخلف لأنه من عند الله .

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا) : فلما نزل عذابنا .(وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) : ومن ذل وفضيحة هذا اليوم . (الصَّيْحَةُ) : صوت قوى مفزع زلزل الأرض بهم .

(جَاثِمِينَ) : باركين على الركب هامدين موتى لا يتحركون .

(كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) : كأنهم لم يقيموا فى ديارهم ولم يحيوا فيها .

التفسير

٦٦ - (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) :

أى فلمَّا نزل عذابنا بثمود، بعد مضى المدّة التى أنذروا بنزول العذاب بعدها، نجَّينا صالحا والذين آمنوا معه من الهلاك معهم، بسبب رحمة عظيمة من لدنا وسعتهم وحفظتهم، لإيمان صالح ونبوته وإيمان المصدقين برسالته العاملين بشريعته.

(وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ) :

أى ونجيناهم من ذل وفضيحة يوم العذاب المهين الذى نزل بكفار ثمود.

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) :

خطاب لمحمد - صلى الله عليه وسلم - تخلل الحديث عن قصة صالح تقوية لعزمه، أى إن ربك الذى يرعاك يامحمد، هو وحده القادر على كل شئ الغالب فى كل وقت فلا يعجزه شئ أراده، فلذا أخذ قوم صالح أخذ عزيز مقتدر، وفيه إنذار شديد للمشركين إن أصروا على الكفر والجحود «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»[1].

٦٧ - (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) :أى وأخذ الذين ظلموا بتكذيب رسالة صالح - أخذهم - العذاب بصيحة قوية مفزعة زلزلت بهم الأرض فصعقوا وانتهت حياتهم فى مساكنهم باركين على ركبهم خامدين لا يتحركون.

٦٨ - (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) :

أى فأصبحوا وقد انتهى أمرهم من ديارهم فلم يبق لهم فيها من أثر يذكرون به - إلا الصورة المفزعة لهلاكهم - كأنهم لم يقيموا أصلا فى تلك الديار - فليعتبر بحال هؤلاء كل من يجترىء على تكذيب رسل الله والكفر بهم، فما وقع لثمود كان بسبب كفرهم كما قال تعالى: (أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ) : ألا إنَّ ثمود قوم صالح - عليه السلام - قد أنكروا ربهم فاستحقُّوا ماوقع عليهم وأن يقال فيهم هلاكا وطردا من رحمة الله وإحسانه لثمود.

(١) سورة هود، الآية : ١٠٢

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ
فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ
إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ
إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(بِالْبُشْرَى) : بالخبر السار . (حَنِيذٍ) : سمين أو مشوى بالدس فى النار كما قال ابن عباس ، وفسَّره مجاهد بالمطبوخ ، وهو أعم . والعجل ولد البقر . (نَكِرَهُمْ) : جهلَهُمْ ووجدهم على غير ما يعْهد . (أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً) : استشعر من جهتهم شيئا يخافه ، أو أخفى وأضمر خوفا منهم .

التفسير

٦٩ - (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ) الآية .

فى هذه الآية وما بعدها ذكر طرف من قصة إبراهيم . كالتمهيد للحديث عن قصة لوط - عليهما السلام - .

والمعنى : ولقد جاءت رسلنا من الملائكة إلى إبراهيم يبشِّرونه بما يسرُّه ، قائلين له فى أول لقائهم له : « سَلَامًا » أى نسلم عليك سلاما .

وهزَّت إبراهيم سجية الجود والكرم فأسرع بتقديم الطعام ، وذلك قوله تعالى : (فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) : أى فلم يتأخر إبراهيم - عليه السلام - فى مجيئه بعجل سمين مشوى إلى أضيافه ليأكلوا منه ، بل جاء به على عجل كاملا - وإن كان يكفيهم بعضه - مبالغة فى إكرامهم ..

واختلف فى هذا العجل : هل كان مهيَّئا قبل مجيئهم ، أو أنه هُيِّئَ على عَجَلٍ بعد مجيئهم ، واختار الأَول أبو حيان ، واختار الآلوسى الثانى لأَنه أَبلغ فى الإكرام .

٧٠ - (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ) :

أَى فلما رأَى إبراهيم - عليه السلام - أَيدى الملائكة لا تمتد إلى لحم العجل الذى قدمه لقِراهم ولا تتناول منه شيئا ليأْكلوه ، استنكر ذلك منهم وشعر بالخوف من جهتهم فإنَّ الغريب إذا قدم له الطعام لإكرامه ، يبادر إليه ولا يمتنع عنه إلا إذا كان يريد برب البيت سوءًا .

قالوا حين رأَوا أَمارات الخوف منهم بادية عليه : لا تخف ضررًا من جهتنا ، إننا أُرسلنا من الله إلى قوم لوط لإهلاكهم جزاءَ إتيانهم فاحشةً ما سبقهم إلى فعلها أحد من العالمين .

(وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(فَضَحِكَتْ) : سرورا بما رأت وسمعت من زوال الخوف عن زوجها وكلام الملائكة له ومجيئهم لإهلاك المجرمين. (فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَـٰقَ) : أى فأَتبعنا سرورها سرورا أتم

وأعظم على ألسنة ملائكتنا. (يَاوَيْلَتَا) : ياعجبًا. وأصل الويل الهلاك وهو غير مراد هنا. والنساء يستعملنها كثيرا إذا حدث ما يتعجبن منه. (بَعْلِي) : زوجى، والبعل فى الأصل الذى يقوم على تدبير الأمور، فأُطلق على الزوج لأنه يقوم على شئون المرأة.

(أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ) : أتعجبين من قدرة الله وحكمته. (وَبَرَكَاتُهُ) : وخيراته التامَّة المتكاثرة. (حَمِيدٌ) : محمود لذاته وأفعاله. (مَجِيدٌ) : واسع الإحسان كثير الإنعام.

التفسير

٧١ - (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ) :

أى حدث ما حدث من المحاورة بين الملائكة وإبراهيم، وزوجته قائمة وحاضرة ترى وتسمع ماجرى بينهم، فضحكت فرحا وسرورا بزوال الخوف عن زوجها، واستبشاراً بقرب هلاك القوم المفسدين، وقد فهمت ذلك من قولهم لإبراهيم: (إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ)،

(فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ) : أى فأتبعنا سرورها بما سبق سرورا عظيما وذلك بإلقاء البشرى إليها على ألسنة الملائكة بأنها ستلد «إسحق» وترى من بعد إسحق «يعقوب» ولدا له وحفيدا لها.

وقد وجهت البشارة إليها؛ لبيان أن الولد المبشر به يكون منها ومن إبراهيم، فإن البشارة لو وجهت لإبراهيم، لأدركها الشك بأنه يأتى بإسحق من غيرها لعقمها. وكانت حريصةً على أن يكون لها ولد، وقد تمنته بعد أن ولد إسماعيل لهاجر.

٧٢ - (قَالَتْ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخاً) الآية.

أى قالت سارة امرأة إبراهيم حين بشرت بالولد ياعجبا، أيولد لى وأنا عجوز عقيم قد تقدمت بى السنُّ وذهبت قوتى وضعف بدنى وغاب الطمث عنى، وهذا الذى تشاهدونه زوجى القائم على رعايتى قد صار شيخا كبير السن لم تجرِ العادةُ أنَّ مثلنا ينجب الأولاد.

(إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ) : أى إن هذا الذى بشرتم به من حصول الولد من شيخين مثلنا يثير فى النفس التعجب ، فقد جرت سنة الله فى عباده أن يكون إنجاب الأولاد فى زمن الصحة والقوة ووجود الطمث غالبا - والطمث الحيض - ولم يكن تعجب زوجة إبراهيم استبعادًا لحدوث ذلك بالنسبة لقدرة الله- تعالى - وإنما كان استعظامًا لحصول تلك النعمة فى غير أوانها المألوف .

٧٣ - (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ) :

أى قالت الملائكة منكرين عليها تعجبها ودهشتها من حصول ذلك ، وكان عليها أن تتريث حتى تتحقق البشارة ، فإنه لا عجيب على قدرة الله سبحانه وتعالى ، وكأنهم قالوا لها : لا تعجبى مما قدره الله وأراده على خلاف ما جرت به سننه الغالبة فى خلقه ، فإن خوارق العادات بالنسبة لآل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد من النعم والكرامات ليس ببدع ولا غريب كما يؤذن به قوله تعالى :

(رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) :

أى رحمة الله التى وسعتكم بكل خيراتها ، وبركاته التامة المتكاثرة تفيض عليكم ياأهل بيت النبوة ، ومن تلك الرحمات وهذه البركات هبة الأولاد فى غير أوانهم المعتاد .

(إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ) :

أى إنه سبحانه يستحق الحمد لذاته ، يصدر عنه ما يستوجب حمده من عباده ، كثير الخير والإحسان ، رفيع الشأن ، متصف بأعظم صفات المجد .

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا
فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ
أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ
غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾)

المفـردات :

(الرَّوْعُ) : الخوف والفزع ، (لَحَلِيمٌ) : لمتصف بكثرة الحلم لا يعجل بالانتقام من المسيء . (أَوَّاهٌ) : كثير التأوُّه والتوجع رحمة بالناس . (مُّنِيبٌ) : كثير الرجوع إلى الله بالدعاء والاستغفار والعبادة . (غَيْرُ مَرْدُودٍ) : غير مدفوع .

التفسـير

٧٤ - (فَلَمَّا ذَهَبَ عن إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ....) الآية .

بعد أن حكى القرآن الكريم بعضا من أحوال إبراهيم - عليه السَّلام - وزوجته جاءت هذه الآية والآيتان بعدها تذكر بعضا آخر من أحواله وشئونه ومجادلته عن قوم لوط .

والمعنى : فلما زال عن إبراهيم مالحقه من الخوف والفزع حينما امتنع ضيوفه من تناول طعامه ، واطمأنت نفسه بعد أن عرف أنهم ملائكة الله (وَجَآءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ) : أى وحل محل الخوف شعور بالسرور حينما بشَّروه بعد سن اليأس بغلام عليم . فلمَّا حدث ذلك أخذ إبراهيم - عليه السَّلام - يجادل رسل الله فى شأن قوم لوط وإهلاكهم وقد حكى القرآن الكريم قصة مجادلة إبراهيم للملائكة بشأنهم فى قوله - تعالى - :

« وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قال إِنَّ فِيهَا لوطًا .... » [1] الآية ، وقد اعتبر قول إبراهيم « إِنَّ فِيهَا لُوطًا » جدالا عنهم

(١) سورة العنكبوت الآيتين ، ٣١ ، ٣٢

لأن المراد منه : كيف تهلكون أهل هذه القرية وفيهم من هو مؤمن بالله لا يستحق العذاب ، وعلى رأسهم نبي الله لوط –عليه السلام–ولذا أجابته الملائكة بقولهم : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إلا امْرَأَتَهُ ». وكأن إبراهيم– عليه السلام – فهم أن وجود المؤمنين مع الظالمين فى قرية واحدة يُبيح له الجدال عن أهل القرية جميعا ؛ حرصا على سلامة المؤمنين . يضاف إلى ذلك ما فطر عليه من الحلم والرحمة كما بينه القرآن فى قوله – تعالى – : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) : أى كان جدال إبراهيم لما تقدم . ولأنه عظيم الحلم يملك نفسه فلا يعاجل بالانتقام من المسىء ، كثير التأوه رقيق القلب عظيم الإشفاق يتأثر كثيرا ويتوجّع لما يصيب غيره من مكاره وخطوب ، متصف بالإنابة إلى الله والرجوع إليه يعمل ما يحبه ويرضاه ،

ولعل جداله عن قوم لوط مع علمه بكفرهم رجاء أن يؤمنوا بالله – تعالى – بالإضافة إلى ما سبق بيانه من خوفه على لوط ومن آمن معه .

٧٦– (يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ) :

أى قالت الملائكة – بأمر من الله – ياإبراهيم ابتعد عن هذا الذى ترجوه لهؤلاء وتجادل فيه ، ولا تلتمس بجدالك رحمة لهولاء القوم ، ولا تخفيفا عنهم ، إنه قد قرب وقت هلاكهم الذى قضاه – سبحانه – وقدره فى أزله القديم ، وإن هؤلاء الظلمة من قوم لوط واقع بهم لا محالة عذاب غير مدفوع عنهم بجدال أو دعاء ، ولا تستطيع قوة فى الأرض صدّه أو ردّه عنهم .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ
هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ
لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ
رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾

المفردات :

(سِيءَ بِهِمْ) : أصيب بالغم والحزن بسبب مجيئهم وساءه ذلك ، (وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا) : عجزت طاقته وضعف جهده عن احتمال ما يترتب على مجيئهم من شرور قومه ، والمراد أنه لم يجد لهذا المكروه مخرجا . يقال ضاق بالأمر ذرعا إذا لم يطقه ولم يقدر عليه.

(عَصِيبٌ) : شديد الإيذاء . والعصْب : الشد بالعصابة .

(يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) : يسرعون إليه ؛ كأنما يدفع بعضهم بعضا مسارعة إلى الفاحشة .

(وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي) : أي ولا تفضحوني ولا تلحقوا بي الذل والهوان في شأن ضيوفي النازلين عندي .

التفسير

٧٧ - (وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ...) الآية .

بعد أن حكى القرآنُ الكريم بعضا من أحوال إبراهيم وزوجته كالتمهيد لقصة لوط جاءت هذه الآية والآيات بعدها تحكي بشيء من التفصيل ماجرى بين لوط وقومه ، من التوسل إليهم ليعدلوا عن الفاحشة إلى آخر ما ستذكره الآيات .

والمعنى : ولما جاءت رسل الله من الملائكة لوطا من عند إبراهيم حزن بسبب مجيئهم حزنا شديدا ، لأنهم جاءوه فى صور شباب من البشر حسان الوجوه ، وخشى أن يقصدهم قومه لارتكاب الفاحشة التى اشتهروا بها فيعجز عن مدافعتهم ، وضاقت طاقته وضعف جهده عن احتمال نزولهم عنده ، لعدم قدرته على تخليصهم من شر توقع حدوثه لهم من قومه.

(وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ) : أى وقال لوط - عليه السلام - تعبيرا عن شدة مالحقه من الهلع والفزع : هذا اليوم الذى نزل فيه هؤلاء الضيوف يوم شديد الشر لا أستطيع احتمال ما يحدث فيه لضيوفى .

٧٨ - (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ . . .) الآية .

أى ولمَّا علم القوم بوجود هؤلاء الضيوف الحسان عند لوط ، جاءوا إليه يسرعون الخُطا فى لهفةٍ طلباً للفاحشة ، وتلهفهم على فعل الفاحشة لم يكن غريبا ، فقد اعتادوا فعل المنكرات من قبل ذلك كما قال تعالى :

(وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) : أى ومن قبل مجئ الملائكة إلى لوط كان قومه مستمرين على ارتكاب الآثام ، دائمين على فعل الموبقات ، فلا عجب إذا طلبوا الفاحشة مع ضيفه علنا جهارا بغير مبالاة .

(قَالَ يَاقَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) : أى وحين أسرع قوم لوط إلى طلب الفاحشة مع ضيوفه ناداهم قائلا : (يَاقَوْمِ) ليستميلهم ويرقق قلوبهم ، واستمرّ فى محاولة تليين قلوبهم وجذب عواطفهم عسى أن يثوبوا إلى الرشاد ، فعرض عليهم عرضا كريما بقوله :

(هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) : أى فتزوجوا بهن ، هن أنظف وأشرف لكم ، وليس فيما دأبتم عليه من إتيان الرجال شهوة من دون النساء شئ من الطهر ، فالنظافة والطهارة فى التزوج بالنساء ، والدنس والخبث فى إتيان الذُّكران من العالمين . قال الآلوسى : وكانوا يطلبون التزوج ببناته من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم ، لا لعدم مشروعية زواج المؤمنات من الكفار فإنه كان جائزا ، وقد زوج النبى صلى الله عليه وسلم ابنته زينب لأبى العاص بن الربيع وكان مشركا قبل أن ينزل تحريم ذلك إلى آخر ما قال ، وقد ذكرنا هنا تلخيصه .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي) :أي فاحفظوا أنفسكم من عذاب الله بترك ذلك الدنس ،ولا تلحقوا بي الخزي والذل والعار بسبب إهانة ضيفي ، فإن إهانتهم إهانة لي .

(أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ) :أي ألا يوجد من بينكم رجل سديد الرأي رشيد العقل يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر ويقنعكم بترك الفاحشة أو يمنعكم من ارتكابها وإذا كان لا يوجد بينكم هذا الرجل الرشيد فذلك منكر تستحقون عليه شديد اللوم وبالغ التقريع .

(قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ) : المراد به هنا؛ مالنا فيهن من حاجة ولا شهوة فعندنا نساؤنا.

(آوِي) :ألجأ . (رُكْنٍ شَدِيدٍ) : جانب قوي أتقوى به وأستند إليه وأعتمد عليه ، وكل ما يتقوى به من ملك وجند وقوم يسمى ركنا .

التفسير

٧٩ - (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) :

أي قال قوم لوط معرضين عن قبول ما عرضه عليهم ونصحهم من التزوج ببناته : لقد عرفت يالوط غرضنا وقصدنا ، ليس لنا في بناتك أي حاجة نعتبرها هدفا لنا وغاية لمجيئنا ، وإنك يا لوط بدون شك وبلاريب لتعرف قصدنا من المجيء وغايتنا من الإسراع ، وتدرك يقينا رغبتنا فيمن عندك .

ولما يئس لوط - عليه السّلام - من إقناع قومه بترك ما هم عليه من الفساد . تمنى أن تكون له قوة تردهم عن ضيوفه ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

٨٠ - (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) .

أى قال لوط - عليه السّلام - لو أن لى طاقة وقدرة تنهض بردعكم ، أو أن لى جانبا قويا أستند إليه وأستنصر به عليكم لردعْتُكُم عن غَيِّكم ، وحفظت كرامتى وصنتُ ضيفى من الاعتداء عليهم وإيذائهم .

وقال لوط ذلك لأنه لم يكن فى منعة من قومه ، وقد أُرسل إلى أهل «سدوم» وهى قرية عند حمص .

وقد استغرب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم مقالة لوط ، فقد جاء فيما رواه البخارى عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلَّم قال : « رَحِمَ اللهُ أَخِي لُوطًا كَانَ يَأْوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » . يقصد صلى الله عليه وسلم أنه كان يلجأُ إلى الله تعالى فإنه لا ركن أشدّ منه ، ولكنّه لهول المفاجأة وشدة الكرب قال ما قال وهو يعلم أنه لا ركن أشد من الله تعالى .

(قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾)

المفردات :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) : فَسِرْ بهم ليلا . (بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ) : فى جزء منه .

(مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ) : أى موعد عقابهم الصبح .

التفسير

٨١ - ﴿قَالُوا يَا لُوطُ ...﴾ الآية .

أى لمَّا رأت الملائكة مااستولى على «لوط» من الكرب قالوا له مطمئنين :

﴿ يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ :أى إنَّا رسل من عند ربِّك جئنا لإهلاك قومك وتطهير الأرض من دنسهم. ﴿ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ :أى لن يصل إليك هؤلاء الآثمون بضرر فى نفسك ولا فى ضيفك. ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ : أى فاخرج بأهلك فى جزء من الليل . ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ : أى ولا تنظر أنت ولا تترك أحدا من أهلك ينظر إلى الوراء أثناء سيركم ، لئلا يرى هول ما نزل بقومهم . فيحصل لهم كرب قد لا يطيقه ، لكن امرأتك لا تخرج بها مع أهلك واتركها مع قومك ، فإنها خانتك بممالأتهم عليك ، ونفاقها فى الإيمان بالله ، وإفشائها أسرارك إلى قومها ، فدعها معهم ليصيبها ما يصيبهم من عقاب أليم ، ثم علل الأمر بالإسراء بأهله والنهى عن الالتفات بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ : أى فأسرع السير بأهلك تحت جنح الظلام كى تبتعد عن مواقع العذاب الذى تحدد الصبح وقتا لنزوله . ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ : أى إن موعد هلاكهم الصبح وهو وقت قريب جدًّا ،وكان الصبح ميقاتا لهلاكهم لأنه وقت الدعة والراحة والهدوء ،فيكون نزول العذاب بهم فيه أشدَّ.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

المفردات :

﴿ أَمْرُنَا ﴾ : أى عذابنا أو الأمر به ، وهو على الأول واحد الأمور ، وعلى الثانى واحد الأوامر .

﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ : أى قلبناها فصار أعلاها إلى أسفل وأسفلها إلى أعلى .

﴿ سِجِّيلٍ ﴾ :طين قد تحجر ، ﴿ مَنضُودٍ ﴾ :متتابع بعضه إثر بعض .

﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ : معلمة بعلامات تميزها عن غيرها .

التفسير

٨٢ ـ (فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ) :

أى فلمَّا جاء الوقت الذى أمَرْنَا بوقوع العذاب فيه ـ وهو الصُّبح ـ أو جاء العذاب الذى قدرنا نزوله بهم فى الصباح ، جعلنا ما كان عاليا من مبانى القرى والمدن سافلا . وأنزلنا على أهل تلك القرى مطرا من حجارة من طين تحجر ـ هذه الحجارة أنزلناها على هذه القرى متتابعة بعضها إثر بعض كتتابع المطر النازل من السماء .

٨٣ ـ (مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ...) الآية .

أى هذه الحجارة التى أمطروا بها من السماء كانت مُعلَّمة وممَيَّزة عند ربِّك بما يدل على أنها ليست من حجارة الأرض . وأنه ـ سبحانه ـ أعدَّها لعذاب هؤلاء .

(وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) : أى وليست تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر ببعيدة عن غيرهم من كل ظالم يأْثَم إثمهم ويظلم ظلمهم . فلا تكون بعيدة عن الكفار من قومك يامحمد فليسيروا إلى تلك القرى وليعتبروا بما وقع فيها لعلهم يؤمنون .

﴿ * وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم
بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟
ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا
تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

المفـردات :

(وَإِلَىٰ مَدْيَنَ) : أى وإلى أهل مدين . (بِخَيْرٍ) : بسعة فى الرزق والثروة .

(عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) : المقصود من إحاطة اليوم بهم إحاطة عذابه بحيث لا ينجو منه أحد .

(أَوْفُوا) : أتموا وأكملوا . (وَلَا تَبْخَسُوا) : ولا تنقصوا .

(وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : ولا تمعنوا فى الإفساد فى الأرض قاصدين إضرار الخلق .

(بَقِيَّتُ ٱللَّهِ) : ما ادخر عنده من ثواب الصالحات .

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) : وما أنا عليكم بمراقب لأعمالكم فذلك لله وحده أمَّا أنا فناصح ومنذر .

التفسـير

٨٤ - (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ....) الآية .

وأرسلنا إلى أهل مدين واحدًا منهم نسبًا هو شعيب - عليه السَّلام - وكانوا أهل كفر جشعين يبخسون المكيال والميزان ، ولا يوفون الحقوق ولا يحفظون الأمانات .

(قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِّن إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) :

ناداهم متحبباً إليهم بقوله : (يَاقَوْمِ) : أى يا عشيرتى أنا منكم وأنتم منى والرائد لا يكذب أهله .

(اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) :

بعد أن جذبهم إليه بهذا النداء بدأهم بالدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة لأنه هو الإلٓه وحده ، فلا يستحق العبادة سواه ، ولقد جرت سنة الأنبياء فى دعوة أقوامهم أن يبدأوا بالدعوة إلى التوحيد لأنه أصل الإيمان ، وبه صلاح الأمر كله ، وهو الأساس الأول ، ثم يتبعون ذلك الدعوة إلى ترك ماهم عليه من النقائص والعيوب الظاهرة ، لذا عقب شعيب - عليه السلام - دعوتهم إلى التوحيد بالنهى عن نقص المكيال والميزان لأنه أعظم عيب تفشى فى قومه فقال :

(وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ) :

أى ولا تنقصوهما إذا بعتم للناس إذ لا يليق بكم أن تخونوا فى معاملاتكم بعضكم مع بعض وأن تستحلوا ما تأخذونه من الناس عن طريق النقص فى المكيال والميزان ، فالحق أحق أن يتبع .

(إِنِّى أَرَاكُم بِخَيْرٍ) :

إنى أراكم فى سعة من الرزق والمال والولد فيجب أن تقابل هذه النعم بإعطاء الحقوق لا بالإصرار على الشرّ والفساد وسلب حقوق العباد ؛ فيسلبكم الله نِعَمه .

(وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ) :

أى وإنى أشفق عليكم وأخشى أن يحل بكم عذابُ يوم يهلككم جميعا فى الدنيا ويحيط بكم فى الآخرة « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » (١) .

٨٥ - (وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ) :

كرر النداء بقوله : (يَاقَوْمِ) حين أمرهم ثانيًا بإتمام الكيل والوزن بالعدل من غير زيادة ولا نقصان حرصا منه على مصلحتهم ونفعهم . فهم قومه وعشيرته .

ثم عقب أمرهم بإيفاء الكيل والميزان بقوله :

(١) سورة الحِجْر ، الآية : ٤٣

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) :

يريد بذلك إمَّا نهيهم عن أن ينقصوا الناس حقوقهم فى جميع أمورهم بصفة عامة ، حسية كانت أو معنوية ، وإما تأكيد أمره لهم بالإيفاء بالمكيال والميزان بالقسط خاصة بالنهى عن نقصهم الناس حقهم فى الإيفاء بهما .

والمعنى على الأول : ولا تنقصوا الناس أمورهم فى أموالهم وأعراضهم وعقارهم ومنقولهم ، وزرعهم وضرعهم ، وبيعهم وشرائهم ، وغير ذلك مما عزَّ وهان .

والمعنى على الثانى : ولا تنقصوا الناس حقوقهم فى بيعهم وشرائهم ، بعدم إتمامكم المكيال والميزان لهم .

ثم عقب نهيهم عن بخس الناس أشياءهم بقوله :

(وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) :

والعُثُوُّ فى الأرض : الإفساد فيها ، وقد يحدث لغرض الإصلاح كحرب البغاة والمرتدين وقُطَّاع الطريق ، وكقتل صاحب موسى للغلام وخرقه للسفينة ، وهذا وإن كان ظاهرهُ الإفساد فهو جائز للضرورة وقد يكون لغرض الإفساد والإضرار بالخلق وهذا هو المذموم والمنهى عنه .

والعثو المذموم يعم جميع أنواع الإفساد والعدوان كقطع الطريق وتهديد الأمن وقطع الشجر وقتل الحيوان وغير ذلك ، وقد كانوا يصدون الناس عن اتباع شعيب - عليه السلام - والإيمان به وينشرون الفساد فى الأرض قال تعالى : « وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا »[1] .

وقيل : معناه ولا تعثوا فى الأرض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم .

ثم زهَّدهم فى تلك الأفعال القبيحة وأرشدهم إلى ما هو خير وصلاح فقال :

٨٦ - (بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى ما أبقاه الله لكم من خيرى الدنيا والآخرة بعد إيفاء الكيل والوزن والتنزه عن المحرمات خير لكم وأنفع من الكسب الحرام وإن كثر ، إن كنتم مصدقين بما شرعه الله لكم

(١) سورة الأعراف من الآية : ٨٦

على لسان شُعيب-عليه السَّلام - لأن الإيمان يستتبع خير الجزاء، فضلا عن أنه يطهر النفس من دناءة الطمع وسائر الخبائث ويحلِّيها بالقناعة وسائر الفضائل ، ثم أثار فيهم الوازع النفسى بقوله :

(وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) : ولست عليكم بالحفيظ الذى يملك منعكم من الوقوع فى المحرمات ، أو معناه : لست أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها وإنما أنا ناصح لكم ومبلِّغ « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ »[1] . وقد بذلت الجهد وأعذرت إذْ أنذرت .

(قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(الْحَلِيمُ) : المتأنى الضابط لنفسه الذى لا يتعجل فى الأمور مع القدرة والقوة .

(الرَّشِيدُ) : المتصف بحسن التدبير ودقة التقدير .

التفسير

٨٧ - (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) :

أى قال قوم شُعيب - ساخرين مستهزئين - ردًّا على دعوته إياهم إلى التوحيد والعدل فى المعاملات أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا من الأوثان التى توارثنا عبادتها عن آبائنا ، إننا ننكر عليك ذلك ولن نترك عبادتها ، وإنما خصُّوا الصَّلاة بالإنكار دون سائر أحكام النبوة التى دعاهم إليها لأنه كان كثير الصلاة معروفاً بذلك ، ولأنهم يغمزونه فى صلاته بأنها وسوسة خاطر ، وليست وحيًا من السماء ، وينكرون بهذا التهكم كل ما دعاهم إليه من عبادة الله وحده وسائر الفضائل .

(أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ) :

هذا جواب منهم عن أمره-عليه السَّلام-لهم بإيفاء الكيل والوزن مبنى أيضًا على السخرية بما يأمرهم به .

(١) سورة المائدة من الآية : ٩٩

والمعنى : أصلاتك يا شعيب تأمرك أن نترك عبادة أوثاننا أو أن ندع التصرف في أموالنا حسبما نريد من الزيادة والنقصان ، والأخذ والعطاء على النحو الذى تعودناه مع الناس ، أتريدنا أن نسير في تجارتنا وشئون أموالنا على هواك الذى زعمت أنه شرع الله ، وهذا الجواب منهم شأن المتكبرين عن اتباع الحق فى كل أمة فإنهم لا يجدون جوابا سوى التمسك بما ورثوه عن الآباء والأجداد فهو الذى يعميهم عن الحق فلا يبصرونه ، « إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ »[1] ، ثم قالوا مبالغين فى السخرية والاستهزاء :

(إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) :

أى إنك لأنت الذى توصف بيننا بالتأنى والتريث فى معالجة الأمور ، فأين هذه الأوصاف مما تدعوننا إليه ، يريدون بذلك تجريده من صفتى الحلم والرشد ، بدعوى أن مادعاهم إليه لا يصدر عن حليم رشيد .

(قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى . (بَيِّنَةٍ) : حجة واضحة .

(وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) : ومنحنى من لدنه النبوة والحكمة وغمرنى بنعمه الكثيرة .

(أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) : أن أخالفكم إلى فعل مانهيتكم عنه .

(وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) : وإلى الله أرجع .

---

(١) سورة الصافات الآيتان : ٦٩ ، ٧٠

التفسير

٨٨ - (قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) :

فى هذه الآية ردّ شُعيب - عليه السّلام - عليهم فى رفقٍ ولينٍ بقوله : ياعشيرتى وأهلى أخبرونى : إن كنت على حجة واضحة وبيِّنة ظاهرة من لدن ربى وقدرزقنى منه رزقًا حسنًا هو النبوة والحكمة ، وهما مناط الحياة الأبدية لى ولكم ، وكذلك المال الوفير ، أفتجعلوننى فى زمرة السفهاء والغواة ، حينما دعوتكم إلى توحيد الله وإيفاء الكيل والميزان.

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ) :

وما أقصد بدعوتى هذه أن أورطكم فيما دعوتكم إليه لكى أخالفكم إلى فعل مانهيتكم عنه بعد أن تستجيبوا لدعوتى فأنا أسبق منكم إلى ما دعوتكم إليه .

(إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ) :ما أريد بوعظى وتذكيرى لكم إلا إصلاح حالكم فى دنياكم وأخراكم بقدر جهدى واستطاعتى.

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ) :وما توفيقى فى التمسك بالحق وحملكم عليه إلا بفضل الله ومعونته .

(عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) : عليه وحده اعتمدت فى تبليغ الرسالة وأداء الأمانة .

وإليه -تعالى- وحده أرجع فى كل ما يهمّنى من أمور وشئون- فلا حول لى ولا قوة إلا بالله فيما أفعل وأقول ، وإنما الحول والطول لله وحده فهو الذى يرشدنى ويسدّد خطاى . وهو الذى يجازينى على أعمالى فلا أخاف أحدًا سواه .

(وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُمْ ...) الخ : أى لاتكسبنكم مشاقتى ومعاداتى عقوبة مثل عقوبة الأمم السابقة . (رَحِيمٌ) : واسع الرحمة . (وَدُودٌ) : كثير الودّ والمحبة والعطف .

التفسير

٨٩ - ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ :

أى وقال شُعيب لقومه على طريقته فى التلطُّف فى خطابهم، حرصا منه على هدايتهم: يا قوم لايكسبنكم شقاق ومعاداتى أن يصيبكم بسبب ذلك مثل ما أصاب الأُمم التى كذبت رسلها من قبل كقوم نوح، فقد أهلكهم الله بالطوفان، وما أصاب عاداً حين كذبوا هوداً، فقد أهلكهم الله بريح صرصرٍ عاتية، وما أصاب ثمود حينما كذبوا صالحا فأهلكهم الله بالصيحة والرجفة لإصرارهم على الكفر والفساد.

﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ :

وإن لم تعتبروا بهؤلاء المذكورين فما قوم لوط ببعيدين منكم، فقد عوقبوا بقلب ديارهم، وأمطر الله عليهم حجارةً من سجيل، وقد رأيتم ديارهم وما أصابها، فاعتبروا بحالهم واحذروا أن يحل بكم من العذاب ما حل بهم وهذه سنة الله فيمن كذب رسله ولن تجدوا لسنة الله تبديلا.

ولما أنذرهم سوء عاقبة صنعهم أرشدهم إلى طريق النجاة طمعا فى استجابتهم فقال:

٩٠ - ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾:

أى واتعظوا بما وقع لهؤلاء واطلبوا مغفرة ربكم لما وقعتم فيه من الشرك والمعاصى، ثم ارجعوا إليه بالإيمان والطاعة ولاتيئسوا من عفو الله ورحمته، لأن ربى وربكم واسع الرحمة كثير الودِّ والمحبة والعطف فيرضى عمَّن يتوب ويرجع إليه، فسارعوا إلى ما يستوجب رحمته ومحبته.

(قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ) : ما نفهم مرادك ، والفقه : الفهم الدقيق المؤثر فى النفس.

(رَهْطُكَ) : الرهط الجماعة من الرجال خاصة من ثلاثة إلى تسعة ، ورهط الرجل قومه وقبيلته .

(بِعَزِيزٍ) : بصاحب قوة ومنعة .

(وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا) : تركتموه وراء ظهوركم . والمراد أعرضتم عنه ونسيتموه .

(مُحِيطٌ) : أحاط علمه بكل شىء وأحصاه فلا يخفى عليه شىء من أعمالهم .

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) : اعملوا على غاية تمكنكم واستطاعتكم .

(وَارْتَقِبُوا) : وانتظروا عاقبة ما أقول .

التفسير

٩١ - (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ) :

دعا شُعيب قومه متلطفا فى دعوتهم إلى الإيمان والاستغفار والتوبة فأجابوه فى جفاء واستعلاء قائلين : يا شعيب ما نفهم كثيراً من قولك ، ولا نعلم حقيقة ما تقصد إليه

من دعوتنا إلى ترك عبادة الأوثان ومنعنا من التصرف فى أموالنا ، وتهديدك إيانا بعذاب يحيط بنا ويبيدنا ، أجابوه بذلك مع وضوح حجته وقوة برهانه وظهور مراده ، واشتمال كلامه على فنون الحكم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، ولما عجزوا عن محاجته هددوه باستعمال القوة حين قالوا :

(وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا) :

أى وإنا لنشاهد ضعفك بيننا ، ونعلم أن لا قدرة لك على شىء ، ولا تستطيع أن تمتنع عنا إن أردنا أن نفتك بك .

(وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) :

ولولا احترامنا لعشيرتك وأهلك الذين ثبتوا على ديننا ، ولم يؤثروك علينا ، ولولا رهطك هؤلاء لقتلناك رجما بالحجارة .

(وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ) :

أى ولست عندنا قويًّا منيعا تستطيع أن تدفع ما نريده بك أو تحول بيننا وبين قتلك وإهلاكك .

وما يمنعنا عنك إلا أننا نُقَدِّر رهطك وعشيرتك ونحترمهم ونعزهم ، ونسى هؤلاء الغافلون قوته وعزته برب العالمين ، فلهذا وبخهم شُعيب على غفلتهم هذه - كما حكاه الله عنه بقوله :

٩٢ - (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ) :

قال لهم شُعيب ردًّا على هذا التهديد والاستهزاء : أعشيرتى وأهلى يا قوم أعزُّ وأكرم عليكم من الله ذى العزة والقدرة ، وقد دعوتكم بأمره إلى ما يصلح شئونكم فى الدنيا والآخرة فأعرضتم عنه .

(وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا) :

أى ونبذتم أمره وتركتموه وانصرفتم عنه كالشىء المهمل وراء الظهر فلا يلتفت إليه لعدم الاعتداد به .

(إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) :

أى إن ربى لا يخفى عليه شىء من أموركم فعلمه محيط بجميع أعمالكم وأقوالكم ،

وسيجازيكم عليها يوم القيامة حيث لاتغنى قوتكم عنكم شيئا ، وهذا تهديد بليغ ووعيد شديد بالعذاب الأليم إن أصرُّوا على الكفر والعناد .

٩٣ - (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) :

وقال لهم مهدداً أيضا : يا قوم اعملوا ما شئتم بقدر استطاعتكم وتمكنكم ، وابذلوا جهدكم فى مضارتى ، فإن ذلك لا يصدنى عن الدعوة إلى الله .

ثم أكد ذلك بقوله : (إِنِّى عَامِلٌ) : أى إنى سأعمل بقدر استطاعتى وجهدى فى الطريق الذى أمرنى الله بالسير فيه دون أن أخشى تهديدكم ووعيدكم .

(سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ) :

أى سوف تعلمون علم اليقين من سيحيق به العذاب المذل المهين جزاء ضلاله ومن هو كاذب منا - أنا أم أنتم - وفيه تعريض بكذبهم فى ادعائهم القدرة على رجمه - عليه السلام - وفى نسبته إلى الضعف والهوان وأنهم لولا رهطه لرجموه .

(وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ) :

وانتظروا ما أتوعدكم به من العقاب على كفركم وعصيانكم إنى معكم منتظر عاقبة أمركم ،مراقب لها ، وفى هذا أبلغ تهديد وأعظم وعيد لهم ، وفيه إظهار ثقة شعيب بنصر ربه وتأييده له .

(وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾)

المفردات :

(جَاثِمِينَ) : باركين على الركب من الجثوم ، وهو للناس بمنزلة البروك للإبل.

(يَغْنَوْا فِيهَا) : كأن لم يقيموا فيها ، يقال غنى بالمكان يغنى أى أقام به وعاش فى نعمة

ورغد ، (بُعْدًا) : هلاكًا ، يقال : بَعِد بكسر العين يَبْعَد بفتحها من باب طرب يطرب : بمعنى هلك ، وأما بَعُد بالضم فمعناه ضد قرب .

التفسير

٩٤ - (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ...) الآية .

بعد أن هددهم شعيب وأوعدهم جاءت هذه الآية تحقيقا لوعيده لهم .

والمعنى : ولما جاء أمرنا بعذابهم نجينا رسولنا شعيبا والذين آمنوا به وصدقوه واتبعوه بسبب رحمة منا عظيمة شاملة إذ وفقناهم للإيمان الصادق والطاعة الخالصة ففازوا بالنجاة من الهلاك .

(وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) :

أى وأخذت الصيحةُ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى من قوم شعيب .

(فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) :

أى فأصبحوا من شدتها ميّتين خامدين فى أماكنهم ، وهذه الصيحة هى التى عبر عنها فى سورتى الأعراف والعنكبوت (بالرجفة) أى الزلزلة ولعل الصيحة من روادف الرجفة ، فإن الزلزلة تحدث تموجا فى الهواء ، يترتب عليه صفير وصياح ، فلذا سميت بالصيحة ، وقيل صاح بهم جبريل فهلكوا .

٩٥ - (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) :

أى كأنهم لم يقيموا فى هذه الديار ، ولم ينعموا بها ولم يتقلبوا فى خيراتها وبركاتها ، فقد ذهب ما كانوا يعتزون به ، ولم يبق لهم إلا ما قدموه لأنفسهم مما استحقوا به العذاب والإبعاد من رحمة الله .

(أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ) :

أى ألا هلاكا لهم كما هلك سابقوهم وهم ثمود قوم صالح ، وإنما شبه هلاكهم بهلاك ثمود لأن عذاب كليهما كان بالصيحة ، قال ابن عباس : ما أهلك الله أمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب ، غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهم الصيحة من فوقهم اهـ .

ويستفاد من قصة أهل مدين قوم شعيب ما يلى :

- أن نقص الكيل والوزن من الكبائر وتخشى منه العقوبة العاجلة وأنه من أكل أموال الناس بالباطل .

- وأن الصلاة مشروعة للأنبياء السابقين لقولهم لشعيب : « أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ » الآية .

- وأن من كمال الداعى المبادرة إلى فعل الخير قبل أن يدعو غيره إليه .

- وأن وظيفة الرسل الإصلاح بقدر الاستطاعة .

- وأن العبد يجب عليه أن يتكل على ربه بعد الأخذ بالأسباب ويسأله التوفيق وأن يرجع إليه فى كل أموره على الدوام .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(آيَاتِنَا) : هى الآيات التسع التى أعطاها الله لموسى عليه السلام معجزة دالة على صدقه .

(وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ) : حجة بالغة لها سلطان بيِّن على العقول السليمة .

(مَلَإِيهِ) : أى رؤساء قومه وزعمائهم ، وسموا ملأً لأنهم يملئون العيون بوجاهتهم .

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ) : يتقدمهم ويقودهم إلى النار . (فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) : أى تسبب فى دخولهم النار .

(وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) : أى وبئس المكان الذى يردونه - النار .

(وَبِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) : بئست اللعنة المعطاة لهم فى الدارين عطاؤهم .

التفسير

٩٦ - ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ :

بعد أن بينت الآيات السابقة سوء عاقبة المكذبين من قوم شعيب جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان ماآل إليه أمر المكذبين لموسى من فرعون وملئه تأكيدا للغرض من سوق هذه القصص وهو العظة والاعتبار .

والمعنى : ولقد أرسلنا موسى بالآيات التسع وهى العصا واليد يخرجها من جيبه بيضاء من غير سوء ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الأنفس والثمرات وأيدناه بالحجج البينة التى أقامها على فرعون وقومه أثناء دعوته إياهم إلى الإيمان حين قال له فرعون : « فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَى » . وقوله : « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى » .ونحو ذلك حيث بين لهم الحقائق الإلهية والشريعة التى بعث بها بياناً لا سبيل إلى رده كقوله له : « رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .وقوله عن القرون الأولى : « عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى » .(١) إلى غير ذلك مما حاجّ به موسى فرعون وقومه .

٩٧ - ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ :

أى أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون ورؤساء قومه فانقادوا لأمر فرعون لهم بالكفر بما جاء به موسى من عند الله ، وأعرضوا عن الآيات الواضحه والأدلة الباهرة .

﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ :

أى وما أمرهم به فرعون بصائب وسديد حتى يتبعوه ويتركوا الحق المبين « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ(٢) » . وقدبين الله مصير فرعون وقومه فى الآخرة فقال :

---

(١) سورة طه الآيات : ٤٩ — ٥٢

(٢) سورة الزخرف من الآية : ٥٤

٩٨ - (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) :

أى إن فرعون كما كان قدوة للكفار من قومه جميعاً فى الضلال فى دار الدنيا ،كذلك يتقدمهم إلى النار يوم القيامة وهم يتبعونه .

وأصل الورد لغة : الماء الذى يرده الناس ليرتووا منه ويطفئوا به ظمأهم ، وقد دلت الآية على فساد رأى فرعون وسوء حاله حيث قادهم إلى النار وبئس الورد الذى يردونه لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار على ضد ذلك ، ولو أنه قادهم إلى الحق لنجّى نفسه وقومه ، ولكن صدق الله إذ يقول : « وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » .

وإنما عبر بالماضى فى قوله : « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » بدل التعبير بالمضارع « يُورِدُهُم » المفيد لحصول ذلك فى المستقبل للإيذان بتحقق هذا الوعيد . وحمل بعضهم الآية على ظاهرها وهو أنهم وردوا النار فعلا منذ موتهم استناداً إلى قوله تعالى : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »[1] .

٩٩ - (وَأُتْبِعُوا فِى هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) :

أى واستحق آل فرعون بسبب كفرهم أن يلعنهم الناس فى الدنيا والآخرة ، وأن يطردهم الله من رحمته يوم القيامة - فاللعنة حالّة بهم فى الدارين .

(بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ) :

أى بئس الجزاء الذى حل بهم من الهلاك فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة . وسُمِّى هذا الجزاء الأليم رفدا من باب السخرية بهم - إذ الرفد فى اللغة بمعنى العطاء .

---

(١) سورة غافر آية : ٤٦

(ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(قَائِمٌ) : أى باق بعد أن هلك مكانه.

(حَصِيدٌ) : بمعنى محصود، والمحصود الذى اندثرت معالمه .

(تَتْبِيبٍ) : إهلاك وتخسير .

التفسير

١٠٠ - (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيد) :

أى ذلك الذى مرَّ ذكره بعض أخبار أهل القرى التى أرسلنا إليها رسلنا فكذبوهم فأهلكناهم - ذلك المذكور - نقصه عليك ونبيِّنه عبرة وعظة للكافرين ، وتثبيتًا لك ولأمتك المؤمنين ، من هذه القرى ما هو باق وقد خلا من أهله ومنها ما انطمست معالمه كالزرع المحصود الذى لم تبق منه باقية .

١٠١ - (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ) :

أى وما أهلكنا هؤلاء بغير ذنب ارتكبوه لأن هذا ينافى عدلنا الذى قامت به السموات والأرض ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بشركهم بالله وإفسادهم فى الأرض وصدهم عن ديننا الذى شرعناه على ألسنة رسلنا فاستحقوا الهلاك الذى حل بهم .

(فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ) :

أى فما نفعتهم معبوداتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ولا دفعت عنهم أى شىء من عذاب الله الذى أنذرهم به الرسل .

(وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) :

أى وما زادتهم معبوداتهم على ما هم عليه من سوء الحال إلا هلاكًا وخسرانا ، حيث لم يشفعوا لهم كما زعموا ، بل وضعوا فى النار مثلهم .

(وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾)

المفردات :

(أَخْذُ رَبِّكَ) : أى إهلاك ربك إياهم . (أَلِيمٌ) : شديد الإيلام .

التفسير

١٠٢ - (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ) :

أى ومثل ذلك الأخذ بالعذاب الذى مر بيانه - يهلك الله أهل القرى فى حال ظلمها ، تطهيرًا للأرض من أهل الظلم .

(إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) :

أى إن إهلاك الله للظالمين وجيع شديد الإيلام لا مفر منه ولا مناص؛ وفى هذا تحذير لكل من ظلم غيره فحرمه حقه ، وصده عن سبيل الله ، وظلم نفسه بما اقترفه من آثام ، فعليه أن يبادر بالتوبة قبل فوات الأوان .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ
مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ
مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ
وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾)

المفـردات :

(لَآيَةً) : لعبرة وعظة . (مَّشْهُودٌ) : كثير شاهدوه من الملائكة والرسل ومن كل بر وفاجر .

(لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ) : لانقضاء مدة قليلة قضاها الله حسب حكمته .

التفسـير

١٠٣ - (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ) :

أى إن فيما قصه القرآن من إهلاك الأمم السابقة بسبب كفرهم بالله تعالى ، وإصرارهم على تكذيب رسله - إن فى ذلك لعظة بالغة وعبرة عظيمة للذين يخافون عقاب الآخرة ، فيحملهم هذا الخوف على سلامة النظر ، وحسن الاعتبار ، وسرعة الاستجابة إلى دعوة الحق ، وقيل المراد بهؤلاء الخائفين : المؤمنون ، فهم المنتفعون بالعظات والعبر ، والباحثون عن سبل السلامة من غضب الله وعقابه ليسلكوها .

(ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ) :

أى ذلك اليوم الذى يقع فيه عذاب هؤلاء الكفار المعاندين - هو يوم مجموع له الناس جميعًا ليجزى الله كل امرىء بما قدمت يداه ، وهو يوم مشهود بما يقع فيه من أهوال حيث يحضره أهل السموات والأرضين ، من ملائكة وإنس وجن .

١٠٤ - (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ) :

أى وما نؤخر هذا اليوم الذى يجمع له الناس إلا لنهاية زمان محسوب بدقة تامة منا ، فلا يتقدم عن هذه الغاية ، ولا يتأخر عنها ، وقد استأثر الله تعالى بعلمه ، وأخفاه عن عباده ، لحكم كثيرة يعلمها قال تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا . إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا . كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »[١] .

وإنما عبر الله عن الأجل المحسوب بالأجل المعدود ، ليشير بذلك إلى قلته ، فإنه لا يعد فى العادة إلا القليل ، ولا شك أن ما بقى من عمر الدنيا بالنسبة لما مضى منها قليل ، ولذا كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين .

وقد بين الله شدة هذا اليوم وهوله بقوله :

١٠٥ - (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ) :

أى حين يأتى هذا اليوم الذى أجل عقابهم إلى مجيئه ، لا تتكلم أى نفس إلا بإذن الله تعالى ، فلا سلطان فيه لأحد من الملوك والرؤساء ، فقد فنى سلطانهم وزال كبرياؤهم وملكهم ، وانفرد الله وحده بالملك والعزة والسلطان ، كما قال تعالى فى سورة غافر : « لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » . وفى سورة الحج : « الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ » . وفى سورة الفرقان : « الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ » .

ويتجلى سلطان الله تعالى وجلاله يومئذ على نحو ما بينه الله بقوله فى سورة النبأ : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا » . وبمقتضى هذه الآية وعدالة الله تعالى ، يأذن الله للكفار والمذنبين فى الدفاع عن أنفسهم كما قال تعالى فى سورة النحل : « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا » . فإذا قامت حجة الله عليهم بعد جدالهم عن أنفسهم ، خرست ألسنتهم ، ولم يؤذن لهم بالاعتذار حينئذ ، فقد ظهرت حجة الله عليهم واتضح

---

(١) آخر سورة النازعات .

أنه لاعذر لهم ، كما قال تعالى فى سورة المرسلات : « هَذَا يَوْمُ لَايَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

(فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) :

أى فينقسم الناس فى هذا اليوم إلى قسمين : قسم شقى بكفره ومعصيته ، وقسم سعيد بإيمانه وطاعته ، ثم بين الله مصير الأشقياء بقوله :

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾)

المفردات :

(شَقُوا) : كانوا أشقياء فى الدنيا بكفرهم ومعاصيهم . (زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) : الزفير ؛ إخراج النَّفَس من الصدر بمشقة ، والشهيق : إدخاله فيه بمشقة كذلك ، والمراد بهما تلاحق أنفاسهم فى النار من شدة العذاب .

التفسير

١٠٦ - (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) :

أى فأما الذين قُضى عليهم بالشقاء بسبب كفرهم ومعاصيهم فى الدنيا وإطفائهم نور الفطرة التى فطرهم الله عليها ، فهؤلاء مستقرون فى النار تتلاحق أنفاسهم فيها زفيرًا وشهيقًا من حرج صدورهم وشدة كروبهم ، ويأسهم من النجاة منها وهم فيها دائما كما قال تعالى فى سورة النساء : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » [(١)] .
ولهذا عقب الله تلك الآية بقوله سبحانه :

(١) من الآية : ٥٦

١٠٧ - (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ...) الآية .

المراد من السموات والأرض سماوات اليوم الذى يجمع له الناس وأرضه ، فإن دوامها باق لانهاية له ، أما سماوات الدنيا وأرضها فهى زائلة ، كما قال تعالى : «يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ »[١] فلا معنى للتوقيت بدوامها لعدم وجودها يوم عقابهم وهو يوم القيامة ومن المفسرين من فسرها بسماوات الدنيا وأرضها ، وقال إنه ليس الغرض من النص الكريم ربط خلودهم بدوام سموات الدنيا وأرضها التى تزول والتى لاتكون موجودة يوم القيامة بل المراد التأبيد ونفى الانقطاع ، مخاطبة لهم بالأسلوب الذى اعتادوه فى هذا الصدد ، كقول أحدهم لا أفعل كذا ما لاح كوكب ، فإنه لا يقصد أنه لا يفعله ليلا مدة ظهور الكواكب ولكن يفعله نهاراً ، بل يقصد أنه لا يفعله أبداً ، ثم قال : أما إحالة التأبيد على دوام سماوات الآخرة وأرضها ، فهى إحالة لهم على شىء لايعرفونه بل ينكرونه ، لأنهم لايعترفون بالآخرة ، كما حكاه الله عنهم بقوله : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[٢]

والظاهر من الآية هو الوجه الأول ، فإنهم كما ينكرون الآخرة ودوام سماواتها وأرضها ينكرون وعدها ووعيدها ، ولكن هذا الإنكار لايمنع أن يتوعدهم الله بعذاب الآخرة ، ويصف لهم أهوالها لعلهم يرجعون

(إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) :

ظاهر هذا الاستثناء أنه تعالى يشاء خروج الأشقياء من النار ، وأن خلودهم فيها ينقطع عند هذه المشيئة ، وقد حمل هذا التوهم بعض المفسرين على أن يقول : إن المراد بالذين شقوا ، الذين ارتكبوا ما يشقيهم ولا يسعدهم سواء أكانوا كفارا أم مؤمنين عصاة ، ويحمل الاستثناء عند صاحب هذا الرأى على عصاة المؤمنين ، وكأنه قيل : فأما الذين شقوا بكفرهم أو معاصيهم ، فى النار خالدين فيها أبدا إلا من شاء ربك عدم خلودهم من عصاة المؤمنين .[٣]

(إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) :

فلا يمنعه أحد من العفو عنهم لإيمانهم بعد ما عذبوا على ذنوبهم .

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٨ (٢) سورة المؤمنين ، الآية : ٣٧

(٣) والاستثناء على هذا من الضمير المستكن فى خالدين ، ولفظ (ما) بمعنى من ، كما فى قوله تعالى «والسماء وما بناها» أى ومن بناها .

ورأى بعض آخر من المفسرين أن المراد بالذين شقوا هم الكفار ، وأن المراد بقوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إلا الوقت الذى شاء الله فيه أن ينقلوا من عذاب النار إلى عذاب آخر كالزمهرير وغيره ، فأمرهم دائر بين التعذيب بالنار والتعذيب بغيرها ولا أمل لهم فى انقطاع العذاب عنهم بأى وجه ، أو إلا الوقت الذى يتوقفون فيه فى الموقف للحساب ، وقيل الاستثناء ليس من خلودهم فى النار ، بل من قوله تعالى : « لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » .

والمعنى على هذا : فأما الكافرون الذين شقوا بكفرهم ففى النار لهم فيها زفير وشهيق حال خلودهم الأبدى فيها ، لا ينقطع زفيرهم وشهيقهم إلا مدة يشاؤها الله ، يكون تعبيرهم فيها عن كربهم بغير الزفير والشهيق .

ونقل القرطبى فى الوجه الرابع فى تفسيره لها عن ابن مسعود أنه قال : « خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ولا يخرجون منها « إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ » وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدد خلقهم ليتجدد تعذيبهم . ولعله استمد هذا الرأى من قوله تعالى : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ »[1] .

تلك خلاصة الآراء المشهورة فى تفسيرها ، وفيها آراء ومباحث أخرى . فليرجع إليها فى المطولات من شاء المزيد .

(۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾)

المفردات :

(سُعِدُوا) : بضم السين قراءة الأعمش وحفص والكسائى ، قال الثعلبى : أى رزقوا السعادة ، يقال سُعِد وأُسْعِدَ بمعنى واحد ، وقرأ الباقون بفتح السين على أسلوب شقوا .

(عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) : أى غير مقطوع عنهم .

(١) سورة النساء ، من الآية : ٥٦

التفسير

١٠٨ - (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) :

تتحدث هذه الآية الكريمة عن الفريق الثانى من أهل الموقف فى يوم مجموع له الناس ومشهود ، وهو فريق السعداء بعد أن تحدثت الآيتان السابقتان عن فريق الأشقياء والكلام فى معنى ما دامت السموات والأرض هنا ، كالكلام فى مثله فى الفريق الأول .

أما قوله (إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ) فإنه يوهم أن خلود السعداء فى الجنة ينقطع ولا يدوم حينما يشاءُ الله قطعه ، وهذا يتنافى مع التصريح بعدم قطعه فى قوله سبحانه :(عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) : كما يتنافى مع آيات كثيرة ناطقة بأَبدية النعيم فى الجنة لهم ، وقد أُجيب عن ذلك بعدة أجوبة ، منها أن اليوم المشهود يبدأُ من البعث ، وأن السعداء لا يدخلون الجنة حين بعثهم ، فإنهم كغيرهم يحشرون للموقف ، ويحاسبون ، ثم ينعم الله عليهم بدخول الجنة بعد أن يقضى لهم بذلك عدالة منه وفضلا ورحمة ، فالوقت الذى قضوه فى اليوم المشهود قبل دخولهم الجنة ، هو المستثنى بقوله (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) ولا يضر هذا المعنى أن الاستثناء وقع من أول اليوم لا من آخره ، كما تقول جلست فى البُستان يوما إلا ثلاث ساعات من أوله ، فإنه تعبير صادق وسليم من الناحية اللغوية .

ومنها أن الاستثناء بالنسبة إلى الوقت الذى ينقلون فيه من نعيم الجنة إلى ما هو أعلى منه ، من الفوز برضوان الله الذى هو أكبرَ من الجنة ، كما قال تعالى : « وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ »[1] .ولهم أيضا ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه ، قال الزمخشرى : والدليل على هذا قوله تعالى : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ »[2] .

---

(١) التوبه : من الآية (٧٢) .

(٢) أنظره فى الكشاف تعليقا للزمخشرى على قوله تعالى فى حق الكفار : « مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك» فقدتعرض فى كلامه فيها إلى ما يماثلها فى حق المؤمنين هنا .

ومما قيل فى تأويلها : إن الاستثناء بالنسبة إلى عصاة المؤمنين ، فإنهم يغيبون عن الجنة فى الوقت الذى يعاقبون فيه على معاصيهم ، ثم يؤمر بدخولهم الجنة ، فلذا قيل فى حقهم (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) : أى إلا من شاء ربك من عصاة المؤمنين ، فإن دخولهم فيها ينقطع عند أول دخول الصالحين إياها حتى يعاقبوا على معاصيهم ، فإنهم سيدخلونها ويلحقون من دخلها قبلهم من الصالحين ، وقد وصفوا بالسعادة باعتبار ماآل إليه أمرهم وفيما يلى بيان معنى الآية على ما نرى .

وأما الذين أُنعِمَ عليهم بالسعادة من الله بأن وفقوا للإيمان والعمل الصالح لصفاء فطرتهم فهؤلاء فى الجنة يستقرون ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ، لا يبرحونها أبدًا ، إلا الوقت الذى يشاء الله فيه أن ينعموا بثواب أعظم ، حيث يتجلى عليهم برضوانه ، الذى هو أكبر من الجنة ، وأعظم منها شأنا .

وهناك أيضا ينظرون إليه جل وعلا كما قال فى سورة القيامة : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » .[1] وحيث ينعم الله عليهم بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يعلم كنهه سواه ، يعطيهم الله هذه النعم دائما ، عطاء غير مجذوذ عنهم ولاهم عنه ينصرفون .

(فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾)

المفردات :

(فِى مِرْيَةٍ) : فى شك . (نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ) : جزاءهم كاملا .

(١) سورة القيامة ؛ الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

التفسير

١٠٩ - (فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ) :

بعد أن بين الله تعالى عقاب الأشقياء وثواب السعداء أنذر أهل مكة بأن عبادتهم قائمة على الضلال وأنهم سيلقون مصير الأشقياء الضالين إذا أصروا على شركهم .

والمعنى لايتطرق إليك - أيها الرسول - شك فى ضلال هؤلاء المشركين وإن ادعوا أنهم يتقربون إلى الله بعبادة هذه الأصنام حيث قالوا : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى »(١)

وهو ادعاء باطل لايقوم على عقل رشيد أو رأى سديد ، لأن الأصنام لاتملك التقريب والإبعاد من الله تعالى ، فهى لاتملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا فكيف تملكهما لغيرها .

(مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ) :

أى أنهم لايؤدون عبادتهم تطبيقًا لكتاب منزل ، . أو إطاعة لنبى مرسل ، أو تأثرًا بعقل مفكر ، وإنما يؤدونها تقليدًا أعمى لآبائهم وأجدادهم الضالين دون رَوِيَّة أو تفكير « إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ »(٢) .

(وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ) :

أى وإننا لمجازوهم على عقيدتهم الباطلة وأعمالهم الفاسدة جزاء كاملا غير منقوص ، كما جازينا الأمم السابقة بسبب كفرهم وعتوهم « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ». والجملة هنا مؤكدة بأكثر من مؤكد للإنذار والترهيب .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٣

(٢) سورة الصافات الآيتان ٦٩ ، ٧٠

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾
وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾)

المفـردات :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) :لولا وعد سبق منه سبحانه بتأْجيل العذاب حتى حين يعلمه . (شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) : شك مزعج محير مقلق .

التفسير

١١٠ ـ (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ . . .) الآية .

بعد أن ختم الله الآية السابقة بوعيد مشركى قريش بأَنهم سينالهم نصيبهم من العقاب وافيًا ، جاءَت هذه الآية مسلية للنبى صلى الله عليه وسلم بأَن خلاف قومه عليه لم ينفرد به ، بل هذا هو الشأْن فى جميع أُمم المرسلين ، وضرب له مثلا بقوم موسى حيث اختلفوا عليه ، وأَكد له أَن عقابه سينزل بمن كفر به من قومه ،كما نزل بمن كفروا برسله من قبله ، وسيكون نزوله فى الوقت الذى عينه سبحانه لهذا العقاب ، فلا استعجالهم يقدمه ولا إِنكارهم يؤخره ،كما قال تعالى : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ ».[1] وقال سبحانه : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »[2]

والمعنى : ولقد أَنزلنا التوراة على موسى عليه السلام فبلغها إِلى قومه ولكنهم اختلفوا فيها ، فآمن بها بعضهم ، وكفر بها آخرون ، حتى آل أَمرهم إِلى عبادة العجل ، فلا تبال

(١) سورة الحج ، من الآية : ٤٧

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٥٣

يا محمد باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن ، وقولهم : « لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » وزعمهم أنك افتريته ، فالكفر كله ملة واحدة .

وإذا كان الله تعالى لم يعجل عقوبتهم فى الدنيا بالاستئصال ، فلن يفلتوا من العقاب فى الآخرة بأشد العذاب ، حيث سبقت كلمته بتأجيل عقابهم إليها لحكم يعلمها ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) :

أى ولولا قضاء سبق من ربك يا محمد بتأجيل عقوبة قومك المختلفين عليك إلى يوم القيامة لقضى بينهم بتعجيل عقوبتهم على كفرهم ، وإنجاء المؤمنين منه ليتميز المحقون من المبطلين .

وقيل إن الكلام فى قوم موسى ، والمعنى : لقضى بينهم بعقابهم عاجلا على اختلافهم فى أمر التوراة . ويبعد هذا الرأى أن الآية مسوقة لتسلية الرسول على اختلاف قومه عليه ، بما حدث لموسى من اختلاف بنى إسرائيل عليه ، ولبيان أن عقوبة قريش على كفرهم به مؤجلة فى علم الله ليوم الوعيد ، ولولا ذلك لعجل بها لهم .

(وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ) :

أى وإن قومك يا محمد لفى شك من القرآن موقع فى حيرة لهم ، ولو أنصفوا لبادروا إلى الإيمان به ، فإن مبعث ريبهم هو استمساكهم بدين الآباء وتعصبهم له ، وعدم إصغائهم إلى الناصح الأمين [1] .

ويصح أن يكون المعنى : وإنهم لفى شك من تعذيبهم على كفرهم مقلق لنفوسهم وقد أخطئوا فى هذا الشك ، كما يشير إليه قوله تعالى :

١١١ - (وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا [2] لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ) :

---

(١) فالضمير فى لفظ (منه) عائد على القرآن وإن لم يذكر فى الكلام ، قال أبو السعود فى بيان ذلك (فإن ذكر إيتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه ، لاسيما بصدد التسلية ينادى بذلك نداء غير خفى) : أهـ أى ينادى بعوده إلى القرآن وإن لم يذكر .

(٢) يرى أبو عبيدة أن لفظ (لما) فى قوله تعالى : « لما ليوفينهم ربك أعمالهم » بمعنى جميعا ، وأصله بالتنوين - وقد قرئ به ، ثم بنى على فعلى ، وهو مأخوذ من لممته بمعنى جمعته ، وقد اخترنا هذا الرأى لأنه أقرب الآراء وأيسرها وأبعدها عن التكلف برغم ما وجه إليه .

أى وإن كلا من المختلفين فيه مؤمنين وكافرين ، جميعًا والله ليوفينهم ربك يا محمد جزاء أعمالهم إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر .

(إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

إنه تعالى بما يعمله المحسنون والمسيئون عليم أدق العلم وأوسعه ،فما تخفى عليه منهم خافية ومن كان كذلك ، فإنه سبحانه سيوفيهم جزاء أعمالهم .

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾)

المفــردات :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) : نفذ ما أمرناك به دون ميل عنه بزيادة أو نقص .

(وَلَا تَطْغَوْا) : أى لاتتجاوزوا الحد الذى أمرتم به وذلك بالإفراط أو التفريط

(وَلَا تَرْكَنُوا) : ولا تميلوا .

التفسير

١١٢ ـ (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا) :

أى إذا علمت يا محمد أن كلاًّ من المؤمنين والكافرين سيوفيهم ربك جزاء أعمالهم فدم على ما أنت عليه من الاستقامة على شرع الله الذى شرعه لك عقيدة وعملا ، وليستقم عليه من تاب عن الشرك والكفر ليكون معك ويشاركك فى الإيمان ، ولا تتجاوزوا الحد بإفراط ممل أو تفريط مخل .

(إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

فيجازيكم على عملكم وفق ما علمه من أدائكم له ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن قصر فعليها .

وقد دلّت الآية على وجوب اتباع المنصوص عليه، من غير انحراف عنه بمجرد الرأى، فإنه طغيان وضلال.

وأما العمل بمقتضى الاجتهاد المترتب على علل المنصوص، فذلك من باب الاستقامة أيضًا، لقوله تعالى: « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ[1] ».فإنه أمر بالقياس، ومثال ذلك قياس عصير القصب إذا أسكر فى الحرمة، على الخمر المنصوص على حرمتها - لعلة الإسكار - المشتركة بينهما.

والغرض من توجيه الأمر بالاستقامة على أمر الله إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى مقدمة من آمن وتاب - إلى الله وأصبح فى معيته، الغرض من ذلك أن يعلم الناس أن عبادة الله وأوامره واجبة الاتباع حتى بالنسبة للأنبياء، وأنهم فى مقدمة المكلفين بذلك، لأنهم قدوة لأقوامهم، فلا يباح لهم الخروج على أمره وعدم الاستقامة عليه بإفراط، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، ولا بتفريط فإنهم مكلفون بكمال العمل، لأنه حق له تعالى، وليكونوا أسوة لغيرهم، ولأنه تعالى طيب فلا يقبل إلا طيبًا - كما جاء فى الحديث الشريف.

ولقد كانت شدة الالتزام بكمال الامتثال من النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه السورة وغيرها، داعية إلى مشيبه صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم: « شيبتنى هود والواقعة وأخواتهما ». أخرجه الترمذى.

ومن هذا وأمثاله يعلم أنه لا طبقية فى الإسلام، فالكل عباد الله، وأنه لافرق بين حاكم ومحكوم، ولا بين نبى وغيره فى التزام شريعة الله ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول للزهراء رضى الله عنها: « اعْمَلِي فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا ». وكان يقول أيضًا: « وَاللهِ لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ».

وقد أوجب الله تعالى على عباده ما يسهِّل عليهم الاستقامة عليه من فعل الواجبات وترك المحرمات ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: « إن الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشادّ الدِّينَ أَحَدٌ إلا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا، واسْتَعِينُوا بالْغُدْوةِ والرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ ». أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب الحج - ومن تتبع التكاليف الشرعية وجدها سهلة ميسرة على

(١) سورة الحشر، من الآية: ٢

القوى والضعيف والغنى والفقير ، مع ما فيها من الترخيص لأصحاب الأعذار بالرخص الكثيرة ، كإسقاط الحجِ عن فاقد الاستطاعة ، والصوم عن الحائض والنفساء والشيخ الفانى ، وغير ذلكِ كثير .

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض الصحابة نذر أن يصوم ولا يفطر ويقوم الليل عابدًا ولا ينام ، ولا يتزوج النساء ، خطب فى الصحابة ناهيًا عن ذلك وقال : « إنِّى لأَخْشَاكُمْ لِلهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّى أَصُومُ وأُفْطِرْ وأُصَلِّى وأَرقُدُ وَأَتزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى » أخرجه الشيخان .

وكانت عبادته صلى الله عليه وسلم وسطًا لا إفراط فيها ولا تفريط ، مراعاة للطاقة البشرية لأُمته ، أخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال : « كُنْتُ أُصَلِّى مَعَ النَّبِىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، فَكَانَتْ صَلاتُه قَصْدًا وَخُطْبَتُه قَصْدًا » .

فعلى المسلمين أن يستقيموا على أمر الله ، فإن الدين يسر لا عسر ، وليعلموا أن الله مطلع على أعمالهم وعباداتهم ومجازيهم عليها حسب أدائهم لها ، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

١١٣ - (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) :

بعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين بالاستقامة على أمر الله دون إفراط أو تفريط جاءت هذه الآية ناهية عن الميل إلى الظالمين والتعاون معهم .

والمراد بالظالمين الكافرون ، أو كل ظالم ولو كان مسلمًا ، والمراد بالركون إليهم محبتهم والاعتماد عليهم ، والأخذ بمشورتهم ، وقد نهى الله فى الآية عن ذلك الركون وتوعد عليه بمساس النار ، فإذا كان هذا مآل من يميل إليهم ، فما ظنك بمن يشاركهم فى عاداتهم ، ويديم معاشرتهم ، ويتزيّ بزيهم تقليدًا لهم ، ويعاونهم على ظلمهم ، لا شك أن عذابه يكون أشد وأعظم ، ولهذا تعتبر الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم والوعيد عليه .

ومما جاء فى السنة نهيًا عن محبتهم ومعاونتهم قوله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ أَحبّ قومًا حَشَرَهُ اللهُ فى زُمْرتهم » أخرجه الطبرانى ، وقوله : « مَنْ أعان ظالمًا لِيَدْحَضَ بِبَاطِله حقًّا فقدْ بَرِئَتْ منه ذِمَّةُ اللهِ وذِمّةُ رَسُولِه » أخرجه الحاكم ، وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ دَعَا لِظَالِم بالبَقَاءِ فقدْ أَحبّ أَنْ يُعْصَى اللهُ فى أَرْضه » .

فعلى كل مسلم أن يكون ولاؤه لله ولدينه ووطنه وإخوانه المسلمين ، قال تعالى : «يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .[١] وقال سبحانه : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا »[٢] . وبالجملة فإن من أحب الظالمين أو أعانهم على ظلمهم عوقب بالنار بقدر حاله معهم ، وكذلك من استعانوا بهم على قتال إخوانهم المسلمين أو ظلمهم ، أو بعثوا بطائفة منهم للقتال فى صف من يريدون استعبادهم أو ظلمهم .

قال تعالى : « لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ »[٣] .

وحكى الزمخشرى فى الكشاف أن الموفق الخليفة العباسى صلى خلف إمامه فقرأ الإمام بهذه الآية فخر الموفق مغشيًّا عليه فلما أفاق قال هذا فيمن ركن إلى الظالم فكيف بالظالم؟ .

(وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) :

أى إذا ركنتم إلى الظالمين بأى وجه من الوجوه التى مر بيانها مستكم النار معهم ولن يستطيع أحد إنقاذكم أو إنقاذهم من عذاب الله كما قال تعالى: «لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ »[٤] .

ولا شك أن المسلمين يدركون من هذا التحذير ، أن عليهم أن يعتمدوا على الله وأن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وأن يحذروا موالاة الظالمين ، وأن يدركوا خبثهم وسوء طويتهم بالنسبة إليهم ، فقد علموا ما قاسيناه من لؤم المستعمرين ، وصداقتهم الزائفة ، فقد استنزفوا دماءنا وأموالنا ، وأساءوا إلى ديننا وأخلاقنا ، وعلى المسلمين أيضًا أن يحولوا بين الظالم وظلمه ، روى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن أبى بكر – رضى

---

(١) سورة التوبة الآية : ٢٣

(٢) سورة النساء الآية : ١٤٤

(٣) سورة آل عمران من الآية : ٢٨

(٤) سورة الأنعام من الآية : ٥١

الله عنه ـ أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرءُون هذه الآية « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَايَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ »[1] ألا وإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأْخذوا على يديه ، أوشك الله أن يعمهم بعقابه ، ألا وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه » .

(وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾) .

المفـردات :

(طَرَفَىِ النَّهَارِ) : أوله وآخره ، هما الغداة والعشى . (وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ) : وساعات منه قريبة من النهار . (وَزُلَفًا) : جمع زلفة ـ من أزلفه إذا قربه .

التفسير

١١٤ ـ (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ) :

بعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين بالاستقامة ، وأن يتركوا الركون إلى الظالمين ، أمرهم بما يعينهم على ذلك من اللجوء إلى الله بأَداءِ الصلاة بضع مرات أثناءَ الليل والنهار .

وقد وجه الأَمر فى هذه الآية إلى النبى صلى الله عليه وسلم ـ مع أن المراد به أُمته معه ـ لأَنه إمام المؤمنين ورسولهم ، فتكليفه تكليف لهم ، إلا ما نص على تخصيصه به كالتزوج بأَكثر من أربع مجتمعات .

(١) سورة المائدة من الآية : ١٠٥

والمعنى : وأدِّ الصلاة بأركانها وشروطها فى طرفى النهار - الغداة والعشى - فأما صلاة الغداة فهى الصبح ، وأما صلاة العشى ، فهى الظهر والعصر ، وأقم الصلاة أيضا فى ساعات من أول الليل ، بأن تؤدى صلاتى المغرب والعشاء وبهذا التأويل تضمنت الآية الكريمة الصلوات الخمس التى كلف الله بها عباده المؤمنين يوميا .

قال القرطبى : لم يختلف أحد من أهل التأويل فى أن الصلاة فى هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان وإليها يفزع فى النوائب - وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . اه .

(إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) :

هذا التعقيب تعليل للأمر السابق بأداء الصلاة ، يشير إلى أن الحسنات وعلى رأسها الصلاه تكفر السيئات وتذهب الآثام . فإذا حدث من المؤمن انحراف عن الاستقامة ، أو ميل إلى الطغيان ، أو جنوح إلى الظالمين ، وذكر المؤمن ربه وتاب وأناب ، وفزع إلى الصلاة ، غفر الله له ما ارتكبه من آثام فإن الصلاة كما تنهى عن الفحشاء والمنكر تطهر النفوس من الأدران والأوشاب .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يغْتَسِلُ فيه كل يَوْم خمسًا ، مَا تَقُولُ : يُبْقِى ذَلِكَ مِنْ درنه ؟ قَالُوا لَا يُبْقِى مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا ، قَالَ فَذَلِكَ مَثلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهَا الخَطَايَا » .

أخرجه البخارى فى كتاب مواقيت الصلوات عن أبى هريرة .

وجاء فى سبب نزول هذه الآية عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امراة قُبلةً حرامًا . فأتى النبى صلى الله عليه وسلم . فسأله عن كفارتها فنزلت فقال الرجل أَلِىَ هذه يارسول الله ؟ قال لك ولمن عمل بها من أمتى » أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح .

وفى معنى الآية يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتَّقِ اللهَ حَيْثُما كُنْتَ وأتبع السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُق حَسَن » رواه أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى.

وقد يمن الله على عبده إذا أحسن التوبة وأكثر الحسنات فيبدل سيئاته حسنات كما قال سبحانه : « إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات »[١]

١١٥ ـ (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) :

إن التزام الاستقامة والقصد ، واجتناب الظالمين ، وإقامة الصلاة فى أوقاتها تامة الأركان والشروط ، كل هذا يستدعى الصبر فلذا أمر الله به فى هذه الآية كما أمر به فى غيرها كقوله تعالى « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا »[٢]

وقد أوصى الله سبحانه بالاستعانه بالصبر والصلاة على أداء الطاعات واجتناب الموبقات حيث قال تعالى : « وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ »[٣]

فمن أطاع الله واتقاه وفاه الله أجره كاملا لأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا « إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »[٤]

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾)

المفردات :

(لَوْلَا) : هلا . (الْقُرُونِ) : جمع قرن ، وقدَّره بعضهم بثمانين سنة ، وبعضهم بسبعين سنة والجمهور على أنه مائة سنة ، والمراد من القرون هنا أهلها من الأمم السابقة .

(١) سورة الفرقان من الآية : ٧٠

(٢) سورة طه من الآية : ١٣٤

(٣) سورة البقرة الآية : ١٤٥

(٤) سورة الأعراف من الآية : ٥٦

(أُولُوا بَقِيَّةٍ) : أصحاب رويَّة وتفكير ، وأطلق عليهم ذلك لأنهم لا يعجلون بإبداء الرأى ، بل يبقونه حتى يمحصوه ، ويدركوا صوابه فيجهروا به

(مَا أُتْرِفُوا فِيهِ) : ما تنعموا به .

التفسير

١١٦ - (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ) :

هذه الآية تشير إلى الأمم المهلكة التى ورد ذكرها فى هذه السورة ، لو كان فيهم كثير من العقلاء يقاومون الفساد ويضربون على أيدى الطغاة المستبدين ويحتكمون إلى العقل المؤيد للرسالات السماوية ، لو كان فيهم كثير من هؤلاء العقلاء الذين يكفونهم عن الفساد والإفساد لما حقت عليهم كلمة العذاب . فإن من سنن الله الكونية أن يأخذ الأمم بعذابه الشديد إذا عمَّ فيهم الفساد وانتشر بينهم الضلال ، وأصبح المعروف بينهم نادرًا ، والمنكر شائعا « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »[1]

والمعنى : فهلا وجد من هؤلاء الأقوام المهلكة الذين تقدم ذكرهم فى هذه السورة هلَّا وجد منهم جماعة كثيرة أصحاب بقية من العقل والرويَّة ينهونهم عن الفساد والإفساد فى الأرض ، لينجوا من الهلاك . لكن قليلا ممن أنجينا منهم نهوا عن ذلك فسلموا ونجوا منه .

(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ) :

أى إن القلة القليلة من العقلاء لم تستطع القضاء على الفساد . وأما الكثرة الكاثرة الظالمة لنفسها فقد انغمست فى الترف والنعيم وأمعنت فى الفساد والضلال . استجابة لما جبلت عليه من حب الجريمة والإجرام فاستحقت الهلاك والدمار .

(١) سورة النحل من الآية : ٣٣

١١٧ - (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) :

وما صح ولا استقام عقلا أن يهلك الله أهل هذه القرى بظلم وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ويؤمنون بخالقهم ، فإن إهلاكهم وهم مصلحون ينافى صفة الحكمة التى يتصف بها العليم الحكيم ، وينافى السبيل الذى اختاره سبحانه لمعاملة عباده ، وهو الذى جاء فى قوله تعالى: « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[1] وقوله سبحانه: « إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ[2] ».

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾)

المفردات :

(أُمَّةً وَاحِدَةً) : جماعة متحدة فى الدين لا خلاف فيه بينها .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) : ووجب حكمه وقضاؤه الأزلى - (الْجِنَّةِ) : الجن .

التفسير

١١٨ - (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) :

ولو أراد الله ربك سبحانه وتعالى أن يكون الناس جماعة واحدة فى دينها وتقواها واتزان عقولها ، بحيث لا يقع من أحد منهم كفر ولا إفساد ، لو أراد ربك ذلك لوقع ، ولكنه لم

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٩٦

(٢) سورة يونس الآية : ٤٤

يرده ، بل خلقهم وأودع فيهم العقل ، وأعطاهم الاختيار ، ووضح لهم الطريق ، وأقام الحجة بإرسال الرسل حتى تكون عقيدتهم وعملهم بكسبهم واختيارهم ، ولكنهم اختلفوا بسوء رأيهم فى هذا كله ، وأضاعوا فطرتهم المستقيمة المفطورة على الحق إلا من عصم الله منهم فثبتهم عليه

(وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) :

ولا يزال الناس مختلفين ، بعضهم على الحق ، وبعضهم على الباطل ، بعضهم يستعمل عقله ، ويسترشد بما رسمه له الرسل فيهتدى ، وبعضهم لا ينتفع بذلك ، بل يتبع هواه فيضل ويغوى .

١١٩ - (إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) :

أى لا يزال الناس مختلفين ، بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل ، إلا من رحمهم الله ربك فهداهم ولطف بهم فإنهم يتفقون على الدين الحق ، ولا يختلفون فيه ؛ لأنهم يقبلون عليه سبحانه بقلوبهم وعقولهم فيحسن استقبالهم ويعينهم بفضله ورحمته .

(وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) : اللام فى قوله (وَلِذَٰلِكَ) للعاقبة والإشارة راجعة إلى اختلاف الناس

والمعنى : وخلقهم على الفطرة السليمة ، لتكون عاقبتهم أن يختلفوا ، وما كان ينبغى لهم أن ينتهوا إلى ذلك ، وقد منحهم الله العقل والتمييز ، وأرسل إليهم الرسل ليهدوهم سواء السبيل ، ويشهد لهذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفطرةِ فَأَبَوَاهُ يهودَانِهِ أَوْ يُنَصرَانِهِ ، أَوْ يمجسَانِهِ » وقوله تعالى : « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ »[١] .

ومن العلماء من جعل الإشارة فى قوله : « وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ » إلى الرحمة فى قوله : « إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ » .

---

(١) سورة النساء من الآية : ٧٩

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : معنى (وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) : وللمذكور من رحمة الله تعالى خلقهم ، يريد ابن عباس ومن معه ، أنه تعالى خلقهم على استعداد فطرى لرحمة الله ، لكنهم أفسدوا فطرة الله بسوء اختيارهم ، وحرموها من رحمته جلَّ وعلا .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ) : ووجب قضاءُ ربك العادل .

(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) : وجب قضاؤه أن من الخلق من يستحق الجنة لأنه زكى نفسه فأفلح وفاز ، ومنهم من يستحق النار لأنه دنس نفسه بالمعاصى فخاب وخسر ، وأن النار لابد من أنها ستملأُ من الأشقياء من الثقلين الجن والإنس ، الذين لايهتدون بما أنزله الله من كتب ، ولا يؤمنون بمن أرسل من الرسل ، وذلك لعلمه سبحانه وتعالى بكثرة من يختار الباطل على الحق ، ويؤثر الضلال على الهدى بمحض اختياره ، وحرمان أنفسهم من تقبل رحمة الله ومعونته .

(وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾)

المفـردات :

(نَقُصُّ) : من قص يقص ، والقص تتبع أثر الشىء للإحاطة والعلم ، ثم أطلق على الإخبار لما فيه من تتبع الأحداث رواية .

(أنباء) : جمع نبأ وهو الخبر الهام .

(نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) : المراد من تثبيته زيادة ثباته فى أداء الرسالة ، واحتمال أذى الكفار .

(اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ) : اعملوا على غاية تمكنكم ، وأقصى استطاعتكم ، أو اعملوا على حالكم ومنزلتكم التى أنتم عليها من الكفر والمعاصى ، والأمر للتهديد .

التفسير

١٢٠ - (وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) :

بعد أن قصّ الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة قصص أشهر الرسل وعاقبتهم مع أممهم من نجاة المؤمنين ، وإهلاك المكذبين ، ذكر فى الآية فائدة ذكر هذه القصص .

والمعنى : وكل نبأ من أنباء هؤلاء الرسل مع أممهم نقص عليك يا محمد ونخبرك بما نثبت به فؤادك ، حيث تدرك منه أنك لست وحدك الرسول الذى كفر به قومه ، فكل الرسل كانوا كذلك فصبروا حتى ظفروا بإعلاء كلمة الله ، وهزيمة الشرك ودك معالمه ، وإهلاك أهله ، فإذا علمت أن الرسل من قبلك قاسوا ما تقاسي، هان عليك ما تقاسيه ، فإن البلوى إذا عمت هانت ، وإذا هانت عليك قوى قلبك واشتدت عزيمتك على المضى فى سبيل ربك ، وقوى احتمالك للإيذاء والصبر على أداء الرسالة .

وفى مثل هذا المعنى يقول الله تعالى « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ »(١)

(وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) :

ولقد جاءك فى هذا القصص من أنباء الرسل وأقوامهم بيان جامع للحق وللموعظة وتذكير المؤمنين ، حيث يتعظون مما حل بالأمم السابقة من هلاك ودمار فيبتعدون عن أسبابه وموجباته .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٣٤

وإنما عبر بقوله : (وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) مع أنه فى الحقيقة أُنزل لوعظ الناس جميعًا ، لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بما فى هذه القصص من الوعظ والتذكير .

١٢١ ـ (وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ) :

وقل أيها الرسول للمشركين الذين أعرضوا عن دعوتك فلم يؤمنوا بما جئتهم به ، قل لهم مهددًا وَمُوَعِّدًا : اعملوا بقدر استطاعتكم وتمكنكم ، وبكل ما أُوتيتم من قوة على مقاومة الدعوة والصد عنها ، إنا عاملون فى تبليغ الحق ، دائبون عليه لايثنينا عن عزيمتنا كفركم ولا يردنا عن دعوتنا طغيانكم ، أو عاملون بما أنزله ربنا ، لايصرفنا عنه صارف ، ولا يمنعنا منه كَفَّارٌ أثيم .

١٢٢ ـ (وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) :

وترقبوا ما تتمنون لنا من هلاك إنا مترقبون أن يحل بكم مثل ما حل بالأُمم السابقة التى كذبت رسل ربها وصدت عن سبيله .

١٢٣ ـ (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

أى ولله وحده علم ما غاب فى السموات والأرض ، فلا يخفى عليه شىء من سركم وجهركم .

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ) :

وإليه وحده مرجع الأمر كله فى الدنيا والآخرة ، لا إلى أحد غيره ، فيرجع إليه لا محالة أمرك يا محمد وأمرهم ، فيجازى كلا بما اعمل

(فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) :

وإذا كان مرجع الكل إلى الله وحده لا إلى غيره فدم على ما أنت عليه من عبادته وحده مخلصًا له العبادة ، وتوكل عليه فى جميع أُمورك ، فإنه يكفيك كل ما أهمك ويكفلك فى جميع أحوالك . .

واعلم أن الأخذ بالأسباب المشروعة لاينافى التوكل على الله، ولذا أوجبه الله بقوله : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ »[1] . وقوله : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ »[2] .وأمر به الرسول بقوله لصاحب الناقة : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » : أى اعقل ناقتك أولا ، ثم قل توكلتُ على الله .

(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

وما ربك بغافل عما تعمله أنت من تبليغ رسالة ، ربك وما يعملونه هم من كفر وإعراض ، بل هو عالم به ، محيط بتفاصيله ، فيرفع شأنك يامحمد ويعلى قدرك فى الدنيا والآخرة ويعاقبهم فيهما بما يستحقون من تعذيب وحرمان .

---

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٦٠ (٢) سورة الملك ، من الآية : ١٥

سوره يوسف عليه السلام

وهى مكية ، وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط ، وذكرت بعد هود لما يجمع بينهما من تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بقصص الأنبياء السابقين وما لاقوا من أذى الأباعد كقصص سورة هود وأذى الأقارب كقصة يوسف عليه السلام .

وتمتاز سورة يوسف بأنها تناولت قصته كاملة من أولها إلى نهايتها ، حيث شرحت أمره مع أبيه ومع إخوته فى صغره وشبابه وكهولته فى فقره وفى غناه ،وبينت كيف تآمر عليه إخوته ، حتى ألقوه فى غيابة الجب ، وكيف التقطه بعض المسافرين وباعوه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ، وأنه تربى فى بيت عزيز مصر ، ونشأ فيه نشأة عبد مملوك ، وأن جماله فى شبابه أغرى به زوجته فراودته عن نفسه فاستعصم ، فكادت له عنده ، ودفع به كيدها إلى السجن وعاش فيه بضع سنين ، وكان معه فتيان ، وفى ليلة رأيا فى المنام رؤيا ، وسألاه عن تعبيرها ، فقال فى تعبيرها : « أَمَّا أحدكما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ، وأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » ، وتحقق تأويله لرؤياهما فقتل أحد السجينين وصلب ، وعفى عن السجين الثانى ، وأصبح ساقيا لملك مصر ، ولما رأى الملك رؤيا أزعجته وفشل الكهنة فى تأويلها ، علم من ساقيه مكانة يوسف فى تعبير الرؤيا ، فاستدعاه فعبرها تعبيراً عرف منه الملك منزلته من العلم ، وبرأته زوجة العزيز مما نسبته إليه ظلما وجعله الملك على خزائن الأرض

ثم بينت القحط الذى أصاب الناس وبينت كيف كان هذا سببا فى حضور إخوته ليتزودوا من الطعام الذى خزنه يوسف ليكون قوتا للناس فى سبع سنين عجاف ، وكيف خزنه حتى سلم من الآفات هذه المدة ، وكيف عاد إليه أبواه وإخوته ، ثم رفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، إلى غير ذلك من غرائب هذه القصة التى تعتبر عبرا وعظات ينبغى أن ينتفع بها كل ذى عقل رشيد .

وقد بدئت السورة بثلاث آيات فى بيان أحسن القصص ، ثم جيء عقبها بقصة يوسف كاملة ، وختمت بإحدى عشرة آية توضح أهداف القصة والحكم المستفادة منها ، ودلالتها الواضحة على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومما يلاحظ فى هذه السورة الكريمة أنها تصور الفضائل فى أسمى صورها مثل : صبر يعقوب على فراق يوسف ثم فراق أخيه ، وصبر يوسف على ما قاساه من تعرض للهلاك بعد الأمان فى حضن أبويه ، وما عاناه من عبودية بعد الحرية ، وما تعرض له من ظلم فى غيابة السجن دون ذنب جناه .

ومن الفضائل الكبرى فى القصة : العفة فى أسمى صورها فى يوسف عليه السلام ، مع وفرة عوامل الإغراء والإغواء فى شرخ الشباب ، ومن الفضائل الكبرى التى أبرزتها أيضا الثقة بالله وآثارها فإن يعقوب لم يفقد ثقته به ، ولم يقنط من رحمته ، ويوسف لم ييئس - وهو فى قرارة السجن - من الفرج ، وظل ثابت الإيمان يدعو إلى الله ويعتصم بتقواه ، حتى بدل الله حالهما إلى أحسن حال

كما أبرزت القصة فضيلة العفو والصفح الجميل الصادر من يوسف لإخوته والاستغفار من يعقوب لأبنائه ، ومقابلة الإساءة بالإحسان .

وكما صورت القصة الفضائل فى أسمى صورها صورت أيضا الرذائل فى أبشع مظاهرها حيث صورت حقد إخوة يوسف عليه ، وارتكابهم ماآذى أباهم أشد الإيذاء ، وما عرض أخاهم للهلاك ، كما صورت استهتار زوجة العزيز وإصرارها كل الإصرار على الخيانة الزوجية وإنها لم تكترث بسوء القالة فى حقها ، ولما لم يستجب يوسف لرغبتها ، أغرت به زوجها العزيز وحرضته على إلقائه فى السجن ظلما وعدوانا

وقد بينت سورة يوسف كما بينت سورة هود أن العاقبة للمتقين ، كما بينت أن مع العسر يسراً وأن لكل شدة نهاية ، وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾)

التفسير

١ ـ (الٓر) : أسماءُ حروف بدأ الله عز وجل بها بعض سور[1] كتابه الكريم إشارة إلى أنه مكون من كلمات ذات حروف عربية كتلك التى يتألف منها كلام معارضيه ـ تحديا لهم أن يأتوا بمثله إن كانوا صادقين فى دعواهم أن الرسول تقوله ، فإذا عجزوا فمحمد مثلهم لايقدر على مثله ، فيجب الإيمان حينئذ بأنه من عند الله أنزله تأييداً لرسوله .

وقيل هى سرٌّ بين الله عز وجل وبين رسوله أوحى الله به إليه عليه الصلاة والسلام ولا يلزم علم جميع الأنام بما يوحيه الله عز وجل لأنبيائه ، فهم قد علموا من الأسرار القدسية مالاتستطيع وعيه العقول البشرية العادية ، روى عن أبى بكر : لكل كتاب سر ، وسر القرآن أوائل السور . وقدتحدثنا عن هذه الفواتح فى أول سورة البقرة وآل عمران وغيرهما مما تقدم .

---

(١) السور المبدوءة بالحروف المفردة تسع وعشرون سوة وهى :

(١) البقرة (٢) آل عمران (٣) الأعراف (٤) يونس (٥) هود (٦) يوسف (٧) الرعد (٨) إبراهيم (٩) الحجر (١٠) مريم (١١) طه (١٢) الشعراء (١٣) النمل (١٤) القصص (١٥) العنكبوت (١٦) الروم (١٧) لقمان (١٨) السجدة (١٩) يس (٢٠) ص (٢١) غافر (٢٢) فصلت (٢٣) الشورى (٢٤) الزخرف (٢٥) الدخان (٢٦) الجاثية (٢٧) الأحقاف (٢٨) ق (٢٩) القلم .

(تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ) : الإشارة إلى آيات هذه السورة ، والمراد بالكتاب القرآن عامة والمبين من أبان اللازم بمعنى بان وظهر ؛ أى الظاهر أمره فى كونه حقا من عند الله ، أو الواضح فى معانيه وأغراضه .

أو هو من أبان غيره أى أظهره ، فهو يظهر حقائق الدين ومصالح الدنيا لمن تلاه وتدبر ما فيه . قال تعالى : « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ». ولا مانع من أن يكون المعنى عاما يشمل كل ذلك فيكون ظاهراً فى نفسه مظهراً لغيره من الحقائق .

والمعنى : تلك الآيات الواردة فى هذه السورة آيات من الكتاب الواضح فى كونه من عند الله ، الظاهر فى معانيه وأغراضه ، الموضح لحقائق الدين الحق ، ومصالح الدنيا والآخرة .

ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتى من بعد منزلته ورفعة بيانه وحسن إبانته عقب ذلك بما يدل على الشرف الإضافى فقال :

٢ - (إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) : أى إنا أنزلنا هذا الكتاب على محمد قرآنا عربيا لتستطيعوا قراءته وتعقله وفهمه أيها العرب ، وتكونوا دعاة لشرائعه فى الأمة العربية وغيرها .

٣ - (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) :

آيات القرآن الكريم معجزة فى جميع صورها ، سواءٌ أوردت فى صيغة خطابية أم جدلية أم قصصية ، والقصص التربوى بصفة عامة يعطينا صوراً واضحة للفضائل والرذائل ، حتى تترك آثارها العميقة فى أغوار النفوس البشرية فتقبل على الفضائل لحسن عاقبتها ، وتدبر عن الرذائل لقبح مصيرها .

وقد ساق الله القصص القرآنية ، لنستفيد من روايتها مكارم الأخلاق ونتعظ بعظاتها وعبرها ، حتى نكون بمأمن من عثرات الحياة ومنجاة من أخطار الدنيا والآخرة ، وسورة يوسف مليئة بالعظات والعبر ، فلهذا تعتبر بحق أحسن القصص كما وصفها الله تعالى .

ومعنى هذه الآية ما يلى : نحن نروى لك يا محمد أحسن القصص الواقعى النافع فى شتى نواحى الحياة ، وإن كنت من قبل إيحائه إليك ، لمن الغافلين عن هذه القصة ، فلم تخطر لك ببال ، ولم يسبق لك بها علم .

قال القرطبي فى بيان كون سورة يوسف أحسن القصص : مسألة اختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص ، فقيل لأنه ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة ، وبيانه قوله فى آخرها : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » . وقيل سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على أذاهم ، وعفوه ـ بعد التقائهم ـ عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه فى العفو عنهم حتى قال : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » . وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين ، والملائكة والشياطين ، والجن والإنس ، والأنعام والطير ، وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن . وفيها ذكر التوحيد والفقة والسير وتعبير الرؤيا ، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وَجُمَل الفوائد التى تصلح للدين والدنيا .

ثم ذكر عن بعض أهل المعانى أنه قال : إنما كانت أحسن القصص ، لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ، انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز ـ قيل ـ وللملك أيضا ، فقد أسلم وآمن بيوسف ، وكذا مستعبر الرؤيا الساقى ، والشاهد فيا يقال ، فما كان أمر الجميع إلا إلى خير . ا هـ .

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾)

المفردات :

(يَاأَبَتِ) : بمعنى ياأبى ، والتاء عوض عن ياء المتكلم .

(يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) : يختارك ويصطفيك (تَأْوِيلِ الأَحادِيث) : تفسير الأحلام وبيان ما تؤول إليه .

(أَبَوَيْكَ) : المراد بهما الجدان إبراهيم وإسحق بن إبراهيم عليهما السلام ، وأطلق عليهما أبوان لأن الجد أب لغة وعرفا وشرعا حيث يرث ميراثه عند فقده .

التفسير

٤ - (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ) :

هذه الآية الكريمة بداية للحديث عن قصه يوسف التى وصفها الله بأنها أحسن القصص ووعد بأنه سيقصها على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : واذكر يامحمد لمن يعارضون فى نبوتك اذكر لهم قصة يوسف التى لاتعلمها أنت ولا قومك ، ليعلموا أنها من وحى الله وأنت صادق فى دعوى رسالتك ، اذكر

لهم حين قال يوسف لأبيه يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام : يأبى إنى رأيت فى منامى أحد عشر كوكبا من الكواكب السماوية ، والشمس والقمر ، رأيتها جميعا تركت مواقعها وسجدت لى . وكان إخوة يوسف عليه السلام أحد عشر فجاءت هذه الرؤيا مؤذنة بأنهم سيسجدون ليوسف مع والديه المشار إليهما بالشمس والقمر فالشمس رمز إلى أبيه ، والقمر رمز إلى أمه أو بالعكس ، وقد تحققت هذه الرؤيا تماما ، كما بينه قوله تعالى فى آخر السورة : « وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاىَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ... » (١) .

والرؤيا الصادقة فى النوم قد تكون من الله لأنبيائه فتكون وحيا ، وقد تكون إلهاما للصالحين ، قال صلى الله عليه وسلم : « الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ مِن الرجلِ الصَّالحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » أخرجه البخارى. وقال أيضا : « لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبوةِ إلاَّ المُبَشِّرَاتُ قَالُوا وَمَا المُبَشِّرَاتُ يارسولَ اللهِ ؟ قال : الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالحُ أَوْ تُرَى لَهُ » أخرجه البخارى . وليس بلازم أن تكون الرؤيا الصادقة خاصة بأهل الدين الحق ، فقد يراها غيرهم ويغلب على الظن ، أنها حينئذ لا تكون صريحة بل مؤولة ، كتلك التى رآها ملك مصر الوثنى ، وهى رؤيته سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، وقد أولها يوسف عليه السلام بسبع سنوات خصبة تأتى بعدها مثلها جدباء .

وأحيانا يستدل بها على أمراض معينة ، ولهذا كان أطباء اليونان يعتمدون عليها فى تشخيص المرض عند المريض ، وكان بعض قواد الرومان يعتمدون على رؤاهم فى وضع خططهم الحربية ، لأن لديهم تجارب صحيحة فى تأويلها : انظر مادة الرؤيا فى دائرة المعارف للأستاذ محمد فريد وجدى وأحيانا تكون الرؤيا أخلاطا متباينة وهى المعبر عنها بأضغاث الأحلام وتلك هى التى لا يعرف المعبرون تأويلها لخروجها عن القواعد التى ألفوها فى تعبير الرؤى ــ والله تعالى أعلم .

(١) سورة يوسف من الآية : ١٠٠

وقد استفيد من هذه الآية وما بعدها ما يأتى :

أولا : أن إخوة يوسف كانوا يعرفون تأويل الرؤى ، ولذا حذره أبوه من أن يقص رؤياه عليهم حتى لا يكيدوا له بسبب ما يفهمونه من المعانى التى تشير إليها ، وهى السمو والرفعة ، وأن تكون أسرته مرءوسة له وهو رئيسهم ، إلى غير ذلك من ألوان العز المنتظرة له .

ثانيا : أن تعبير الرؤيا أمر يقره الشرع ولا ينهى عنه وأنه حقيقة علمية يمكن الانتفاع بها . فقد أشار والده إلى مآل رؤياه وتعبيرها ، إشارة غير خفية ، إذ أفهمه أن إخوته إذا سمعوها أوَّلوها برفعة له مستقبلا وأنهم لذلك سوف يكيدون له ، كما دلت الآية الثانية على أنه تعالى سيعلم يوسف من تأويل الأحاديث أى تعبيرها ، وأن ذلك من تمام النعمة عليه .

وقد جاء فى فضل الرؤيا الصادقة قوله صلى الله عليه وسلم : « لَمْ يَبْقَ بَعْدِى مِنَ المُبَشِّرَاتِ إلاَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ الصَّادِقَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ » .

وقال : « الرُّؤْيَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » . والحديثان صحيحان وليس بلازم أن تكون الرؤيا الصادقة جزءا من النبوة دائما ، فقد وقعت من بعض الكفار وممن لا يرضى دينه ، كرؤيا ملك مصر الوثنى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، ورؤيا السجينين الوثنيين فى السجن ، وسيأتى فى هذه السورة بيان تلك الرؤى وتأويلها ، ورؤيا بختنصر التى فسرها دانيال فى ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى فى ظهور النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن كان وقوعها من هؤلاء وأمثالهم على سبيل الندرة والقلة[1] .

كما أنه ليس بلازم أن يكون الإخبار بالغيب ناشئا عن نبوة ، فقد يخبر الكاهن بخبر غيبى فيصدق ، بممارسة بعض أنواع الرياضات الروحية . أو استخدام الشياطين الذين يسترقون السمع من الملأ الأعلى ، ويفلتون من الشهب الراصدة التى يقذفون منها من كل جانب .

---

(١) انظر القرطبى فى المسألة الرابعة من تعليقه على قوله تعالى : «قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك . . . » الآية .

ثالثا : أفاد قوله تعالى : « قَالَ يَابُنَيَّ لَاتَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ » أنها لا تقص على غير شقيق ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها ، قيل لمالك : أيعبر الرؤيا كلُّ أحد ؟ فقال أبالنُّبوَّة يلعب ؟

وقال أيضا : لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها ، فإن رأى خيرا أخبر به ، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت ، قيل فهل يعبرها على الخير وهى على المكروه ، لقول من قال : إنها على ما تأولت عليه فقال : لا. ثم قال : الرؤيا جزءٌ من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة .

رابعا : أفادت أيضا أن للمسلم أن يحذر المسلم ممن يخافه عليه ولو مسلما أو ابنا ولا يكون بذلك داخلا فى إثم الغيبة ، لأن يعقوب قد حذر ابنه يوسف من أولاده الآخرين من أن يقص رؤياه عليهم حتى لا يكيدوا له ، كما أنه يستفاد ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا ، وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « اسْتَعِينُوا عَلَى إنجاحِ حَوَائِجِكُم بالكِتْمانِ فإنَّ كُلَّ ذِى نِعْمةٍ مَحْسُودٌ » .

٥ ـ (قَالَ يَابُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) :

لما سمع يعقوب من يوسف رؤياه ، أدرك أنها إلهام من الله وبشرى بأن يوسف ينتظره مستقبل سعيد يجعله رئيسا كبيرا ، وأن أسرته جميعا ستكون فى جملة من يعظمه كما أدرك أن إخوته إن علموا برؤياه هذه يكيدون له ويدبرون المكايد حسدا له ، كما حدث من قابيل مع أخيه هابيل ، حيث قتله من أجل امرأة ، وأحدث بذلك أول جريمة بشرية على الأرض ، ولهذا أوصى ابنه يوسف قائلا : يابنى لا تخبر إخوتك برؤياك التى تشير إلى رفعتك عليهم ، فيحرضهم الشيطان عليك ، فيكيدوا لك كيدا شديدا ، إن الشيطان للإنسان عدو بين العداوة ، واضح الكراهية ، حريص على إشعال النار بين أفراده ، أقارب كانوا أو أباعد ، تنفيذًا لوعيده لآدم :

« لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا »

٦ - (وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ....) :

المراد بالتشبيه فى قوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ) بيان المماثلة بين الصورة المرئية فى عالم المثال - وهى التى حدثت فى المنام - وبين الذى سيقع فى عالم الشهادة والواقع .

والمعنى : ومثل هذا الاجتباء والاصطفاء العظيم الذى شاهدته فى عالم المثال والنوم ، حيث بدا لك يايوسف أنه تعالى سخرلك تلك النيرات العلوية فخضعت لك ، مثل هذا الاجتباء وعلى سنته يسخر لك الله وجوه الناس ونواصيهم - ومنهم أهلك - مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ، ويصطفيك ربك لجنابه على أشراف الخلائق وسراة الناس قاطبة . فيجعلك رسولاً وملكا على عرش مصر دون سواك ، ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة والواقع ، حسبما عاينته مناما من غير قصور .

(وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) :

المراد من تأويل الأحاديث تعبير الرؤى ، فإن الرؤى أحاديث الملك إن كانت صادقة واضحة ، أو أحاديث النفس أو الشيطان إن كانت غير ذلك .

وكما بشر يعقوب ابنه يوسف عليهما السلام - بأنه تعالى سيصطفيه للرسالة والملك ، بشره أيضا بأنه سبحانه سيعلمه من تأويل الأحلام ، مشيرا بذلك إلى السبيل الذى سيسلكه حتى يصل إلى العز الدنيوى المدخر له ، فإنه وصل إليه عن طريق تعبير الرؤيا لصاحبى السجن ، ثم رؤيا الملك ، وهذا العز الذى سيؤول أمر رؤياه إليه ، هو بعض ما عبر عنه بإتمام النعمة فى قوله تعالى :

(وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ) :

فإنه شامل لعز النبوة والملك ، والمراد من آل يعقوب بنوه ، وحفدته ، وإتمام النعمة بهذه الرؤيا على آل يعقوب لأنها مؤذنة بأنهم سيكونون كواكب يهتدى بأنوارهم ، حيث خرج من ذريتهم الأنبياء كما أنهم سوف ينالون من عز يوسف وجاهه وماله حيث سجدوا له وخضعوا لسلطانه ، وكل ذلك سيحدث ويتم به الله نعمته عليك يايوسف وعلى آل يعقوب .

(كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ) :

إسحق جد يوسف الأول وإبراهيم جده الثانى ، وإطلاق لفظ الأب عليهما لغة وعرفا وشرعا لأن الجد أب ، وإتمام النعمة على إبراهيم باتخاذه خليلا وإنجائه من النار ومن ذبح ولده ، وإتمامها على إسحق بنبوته ونبوة ولده يعقوب ، وجعل الأنبياء فى ذرية ولده يعقوب. واعلم أنه لا يجب فى التشبيه أن يطابق المشبه المشبه به من كل وجه فيكفى فيه وجود بعض الصفات مشتركة بينهما .

(إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

هذه الجملة مستأنفة لتحقيق مضمون الجمل المذكورة ، أى يفعل ما ذكر لأنه محيط العلم بكل شىء فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من النعم ، حكيم فيما يقدره ويشاؤه ، فيكون دائمًا موافقا للصواب مجانبًا للخطأ .

(* لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(عُصْبَةٌ) : أى جماعة ، وتطلق لغة على الجماعة من الرجال عشرة فصاعدًا ، أطلق عليهم ذلك ، لأن الأمور تعصب بهم[1] أى تشتد بهم وتقوى .

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : خطأ بين واضح ، وأصل الضلال البعد عن الطريق الموصل إلى الغاية .

(١) أنظر البيضاوى .

التفسير

٧ - (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ) :

بينت الآيات السابقة أن يوسف عليه السلام أخبر أباه برؤياه وأن والده أولها برفعة شأنه فى مستقبل حياته ، فلهذا أوصاه أن لايقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدًا ، لأن الشيطان للإنسان عدو مبين ، وجاءت هذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة لتحدثنا عن كيد إخوته له ، لما رأوه من حب أبيه له أكثر من حبه لهم ، ولتذكر لنا ما آل إليه أمر يوسف من علو الشأن وسمو المنزلة تحقيقًا لرؤياه ، وما تخلل ذلك من أحداث عظام ، وآيات تلك السورة مترابطة ترابطًا مسلسلا وثيقًا ، انفردت به عما سواها من سائر السور ، لأنها تضمنت قصة واحدة متتابعة الحلقات .

والمقصود من إخوة يوسف إما جميعهم ، ويدخل فيهم شقيقه بنيامين الذى احتجزه يوسف فى مقابل صواع الملك - كما سيأتى الحديث عن قصته وإما إخوته لأبيه الذين كادوا له فلم يفلحوا ، ورفعه الله مكانًا عليا ، وعلى أى الوجهين ففيهم جميعًا آيات للسائلين .

والمقصود من السائلين إما كل من سأل عن قصتهم وعرفها ، وإما المشركون واليهود خاصة ، فقد سألوا الرسول عنها امتحانًا له ، وإما الطالبون للآيات والعبر ليتعظوا بها ، لصفاء نفوسهم ، دون غيرهم .

وإليك المعانى وفقًا لهذه الاحتمالات كما يلى :

المعنى الأول : لقد كان فى قصة يوسف وإخوته جميعًا علامات عظيمة الشأن على قدرة الله تعالى الباهرة لكل من سأل عن قصتهم وعرفها ، فإنها تدل على أنه تعالى لايصلح عمل المفسدين ، وأنه وحده هو الذى ينجي من أحاطت به أسباب التهلكة ، ويرفع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويحقق الأمل بعد اليأس .

المعنى الثانى : لقد كان فى قصة يوسف وإخوته علامات واضحة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لمن سأله عنها من المشركين واليهود ، حيث أخبرهم بها على ما هى عليه من غير

سماع من أحد ولاقراءة فى كتب ، وهذا قاطع بأن الذى نبأه بها هو العليم الحكيم ، تأييدًا لرسالته ودليلا على صحتها .

المعنى الثالث : لقد كان فى أحداث قصة يوسف وإخوته علامات واضحات لطالبى العبرة الذين يتعظون بآيات الله تعالى ، فتخبت لها قلوبهم ، وتنصرف بها إلى مرضاة الله نفوسهم ، فهى تحرك القلوب الراكدة وتنبه النفوس النائمة ، إلى أن الملك لله ، لايجرى فيه حدث إلا بمشيئته ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، ولا يستطيع أحد أن يضع من رفعه الله ، إلى غير ذلك من العظات .

٨ـ(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

اذكر أيها السائل عن قصتهم حين قال بعضهم لبعض : والله ليوسف وأخوه الشقيق (بنيامين) أحب إلى أبينا منا مع أننا جماعة قوية يشتد بنا ساعده ، فما باله يحبهما أكثر من حبه لنا ، ويؤثر القلة على الكثرة ؟ إن أبانا فى ترجيحهما فى المحبة علينا لفى بعد عن طريق العدل بين واضح ، وخطأ فى الرأى جلى بعد به عن الصواب ، وفاتهم أن الفضل فى الرجال ليس بالكثرة بل بسمو الروح ، وصفاء النفس وغلبة الخير ، وكل ذلك كان فى يوسف وشقيقه بنيامين وقد اجتمع إلى ذلك ما دلت عليه رؤيا يوسف عليه السلام من الجاه العظيم والعز الرفيع الذى ينتظره عند الله والناس ، فكان ذلك كله باعثا على أن يؤثرهما يعقوب عليه السلام بمزيد من الحب ، أكثر من بقية إخوتهما ، فحقدوا عليهما وتآمروا على يوسف ليخلوا لهم وجه أبيهم حيث إنهم يرونه السبب الأول فى عدم اهتمامه بهم دون بنيامين ، فلذا أفردوا يوسف بالتآمر على قتله ، وذلك ما حكاه الله عنهم بقوله :

٩ ـ (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) :

أى وقال بعضهم لبعض أيضًا : اقتلوا يوسف بأى وجه من وجوه القتل أو ألقوه فى أرض مجهولة بعيدة عن بلادنا بحيث لايستطيع الرجوع ، فإن التغريب كالقتل فى حصول المقصود مع السلامة من إثمه ، فإن فعلتم واحدًا منهما .

(يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ) : ويفرغ لكم فلا ينازعكم فيه أحد .

وخلو وجهه لهم كناية عن إقباله عليهم بوجهه وإيثارهم بحبه حيث لا ينازعهم فى ذلك أحد .

(وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) :
المراد من صلاحهم صلاح أمرهم مع أبيهم ، وانتظام شئون دنياهم .

والمعنى : اقتلوا يوسف أو ابعدوه عن أرضنا بحيث لا يستطيع الرجوع إليها ، يفرغ لكم وجه أبيكم ، وتكونوا من بعد التخلص منه قومًا صالحين مع أبيكم ، بأن يكون أكثر حبًّا لكم وإقبالًا عليكم ، وأن تنتظم معه شئون دنياكم فيكثر من بركم وإغداق الخير عليكم ، بعد يأسه من عودة يوسف ، وخفاء أمره عليه .

وفسر الكلبى صلاحهم بتوبتهم إلى الله تعالى مما فعلوه بيوسف ، ويبعده أن المتآمر على قتل أخيه لايعقل أنه يفكر حين تآمره فى مرضاة الله كما أنه لايظن أن مثل هؤلاء يفكرون فى صلاح أمرهم بالتوبة إلى الله ، وهم يعلمون أن شرائع الله تعالى أجمعت على الحكم الذى جاء فى سورة النساء ، بقوله تعالى : « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا »[1] فهو من الأحكام التى لاتختلف فيها الشرائع ، وقد نشأوا فى بيت النبوة فلا يخفى هذا الحكم عليهم ، فالصواب أن الصلاح الذى أرادوه هو صلاح دنياهم ، وهو الذى دعاهم إلى التفكير فى التخلص من يوسف ، فهم طلاب دنيا وليسوا أهل تقوى .

(قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(غَيَابَةِ الْجُبِّ) : الجب البئر قبل أن يبنى محيطها ، وأطلقه بعض اللغويين على البئر مطلقًا ، وغيابة الجب : قاعه ، وفسره الهروى بكهف أو طَاقٍ فيه فوق الماء ، وأُطلق عليه غيابة لأنه يغيّب مافيه عن العيون . (السَّيَّارَةِ) : الجماعة التى تسير .

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٣

التفسير

١٠ - (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ) :

لايزال مجلس التآمر منعقدًا ، ولكنه لم يخل من وجود داع من دواعى الخير فى قلوب بعض الإخوة ، إذ أراد صرفهم عن الجريمة البشعة إلى ما يحقق غرضهم من الإبعاد ، ولكنه يبقى على حياة أخ صغير لاحول له ولا قوة ولابد أن الجب الذى اقترح إلقاء أخيه فيه كان معروفًا لهم وكان ضحل الماء حيث يبقى على حياة أخيه يوسف حتى يلتقطه بعض السيارة ، فلذا قال لهم : ألقوه فى غيابة الجب ولم يقل ألقوه فى غيابة جب[1] .

ويلاحظ أن ما قاله الهروى من أن غيابة الجب كهف فيه لايناسب هنا ، فإن إلقاءه من أعلى الجب يوصله إلى قاعه لا إلى كهف فيه فوق الماء كما قال ، وخاض بعض المفسرين فى تعيين صاحب هذا الاقتراح ، فالسّدى يقول هو (يهوذا) وقتادة وابن إسحاق يقولان هو رابيل ، ومجاهد يقول هو شمعون ، إلى غير ذلك ولم نجد سندًا لواحد من هؤلاء المفسرين ، فلذا لانستطيع تعيينه ، وإنما لم يذكر واحد منهم باسمه فى الآية سترًا على المسىء ، وكل واحد منهم لم يخل من الإساءة ، ولكن مراتبها تتفاوت .

والمعنى : قال قائل منهم عز عليه قتل أخيه بلا ذنب جناه ، لاتقتلوا يوسف قتلا مباشرًا - ولا تطرحوه فى أرض يتعرض فيها للموت ، ولكن ألقوه فى قاع البئر المعروفة لنا بقلة مائها ، فإن فعلتم ذلك يلتقطه حيًّا بعض الجماعات السيارة فى الصحراء حين يدلون بدلائهم فيها ليستقوا منها ، فيتعلق بها فيبعدوه عن بلادنا إلى حيث يجد رزقه ويبقى حيًّا .

(إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) :

أى إن كنتم مصرين على إبعاده عن أبيه ليخلو لكم وجهه ، فاعملوا بمشورتى ، ليتحقق لكم مرادكم ، ويبقى أخونا حيًّا فلا نأثم بقتله .

---

(١) نقل القرطبى عن وهب بن منبه أن هذا الجب كان على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب - عليه السلام - والله أعلم .

﴿ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

(يرْتَع) : أصل الرتع أن تأكل وتشرب ما تشاء فى خصب وسعة ، وذكر الراغب أنه حقيقة فى أكل البهائم . ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير ا هـ .

والمراد به هنا نشاطه فى الأكل المستتبع لحسن نموه ، ولذا قرنوه باللعب ، فإنه يساعد على ذلك .

(لَيَحْزُنُنِى) : بفتح الياء وقرئ بضمها . وكلاهما بمعنى يجعلنى حزيناً .

التفسير

١١ - (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) :

بعد أن وافق إخوة يوسف على ما عرضه عليهم أحدهم بإلقاء يوسف فى غيابة الجب - بعد أن وافقوه على ذلك أخذوا فى أسباب تنفيذه ، ومهدوا لذلك بطلبهم من أبيهم أن يوافق على خروجه معهم ، إذ قالوا له استدرارًا لعطفه ، واستجلابًا لقبوله . وبثًّا الثقة فى قلبه : يا أبانا أى شىء يجعلك لا تأمنا على أخينا يوسف . وأنت أب لنا جميعًا ونحن إخوة شركاء فى الانتساب إليك بالبنوة . وإنا جميعًا له لمخلصون نريد له الخير ونشفق عليه ، يريدون بذلك استنزاله عن رأيه فى حفظه منهم وتخوفه عليه

من كيدهم لما بدا له من حسدهم ليوسف.وتعبيرهم بقولهم لأبيهم :(يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ) الآية تؤذن بأنهم طلبوا قبل ذلك من أبيهم أن يخرج يوسف معهم ، فلم يوافق على ما طلبوه ، فقالوا هذه العبارة متعجبين من رفضه لطلبهم ، مع أنه أبوهم جميعًا وهم جميعًا أبناؤه ، وأنهم يريدون الخير ليوسف ويشفقون عليه ، ويؤكدون ذلك بما تضمنته جملة :(وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) من المؤكدات المختلفة[1] ، ولم يتركوا أباهم يفكر فيما عرضوه عليه وأشفقوا من أن لايجيبهم إلى ما طلبوه فلاحقوه بما يسد عليه باب الرفض،وذلك قولهم له فيما حكاه الله عنهم .

١٢ - (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) :

يريدون بذلك المقال أن يسدوا عليه باب التفكير فى رفض طلبهم ، حيث حددوا له فيه اليوم التالى لذهابه معهم ، وطلبوا ذلك منه طلب الواثق من الإجابة ، وعَيَّنوا له الغرض الذى طلبوه من أجله ، وهو أن يرتع ويلعب معهم ، وكلاهما يحبه الأب لأطفاله ، ويحبه الأطفال لأنفسهم وأكَّدوا أنهم جميعًا له حافظون .

والمعنى أرسل معنا يوسف فى رحلة رياضية ، يأكل ما يشتهى فيها ، حيث يطيب الطعام فى الرحلة ، ويلعب ما يشاءُ من ألوان اللعب النافع لبدنه وروحه ، كالاستباق والاصطياد وألعاب الفروسية ، (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وما نظن أنك تخيب رجاءنا أو تشك فينا بعد الذى شرحناه لك .

فلما انتهوا من التماسهم أجابهم أبوهم بما حكاه الله بقوله سبحانه :

١٣ - (قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) :

طوى يعقوب فى نفسه ما يشعر به من كيدهم ليوسف، وقال معتذرًا مشفقًا عليه : إنى ليحزننى ويؤلمنى أن تذهبوا به ويكون بعيدًا عنى لشدة شفقتى عليه ، وقلة صبرى عنه ، وأخافُ أن يأكله الذئبُ ، وأنتم عنه غافلون .

---

(١) وهى «إن» و«اللام» فى قوله : « لناصحون » وتقديم لفظ «له» على «ناصحون» وكون الجملة اسمية .

ولم يصرح لهم بما يراه من سبب غفلتهم حتى لايتهمهم صراحة بالتقصير فى شأنه ، وقلة مبالاتهم به ، بل تركهم يحملونه على نحو اشتغالهم عنه بما خرجوا من أجله ، وهو الرتع واللعب ، فأجابوه بما يفيد أنهم لن يغفلوا عنه ، ولن يشغلهم عن حفظه ما سيكونون فيه من الرتع واللعب ، لكى يطمئن عليه ويرسله معهم ، وقد حكى الله ذلك بقوله :

١٤ - (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ) .

أى قالوا لأبيهم ليطمئنوه على يوسف إن خرج معهم: والله لئن أكله الذئب وهو معنا فى هذه الرحلة ونحن جماعة محيطون به يشد بعضنا بعضا ، لئن أكله الذئب ونحن كذلك إنا حينئذ لخاسرون سمعتنا وكرامتنا بين قومنا ، ونحن لانقبل على أنفسنا هذا الهوان .

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(أَجْمَعُوا) : أى عزموا - يقال : أجمع الأمر وعليه أى عزم فيه .

التفسير

١٥ - (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ...) الآية .

تقدَّم بيان أن إخوة يوسف من أبيه تشاوروا فيما بينهم فى الطريقة التى يتخلصون بها من يوسف عليه السلام ، لأنه يستحوذ على معظم حب أبيه يعقوب ، وهم يريدونه لهم وحدهم ، وأنهم لذلك طرحوا اقتراحين لاختيار أحدهما ، (أولهما) أن يقتلوه قتلا مباشرا ، (وثانيهما) أن يلقوه فى مكان بعيد يصعب عليه فيه العودة إلى أبيه .

وذكرنا أن أحدهم نهاهم عن قتله ، واقترح عليهم أن يلقوه فى غيابة الجب ، وأنهم وافقوا على اقتراحه هذا وأخذوا فى تنفيذه ، فبدأوا يعتبون على أبيهم أنه لا يأمنهم على يوسف مع أنهم له ناصحون ، وطلبوا منه أن يرسله معهم إلى مراعيهم التى بها مواشيهم ،

حيث يرتع ويلعب – أى يتسع فى الطعام فيأكل ما يشاء ، ويلهو معهم ، وتعهدوا بأنهم له حافظون ، ولما أظهر لهم خوفه من إهمالهم له ، حتى يأكله الذئب وهم عنه غافلون أكدوا له أنهم سيحرسونه فهم عصبة وجماعة قوية ، فلن يستطيع أن يأكله منهم ، وأنه لو أكله منهم وهم كذلك خسروا سمعتهم وكرامتهم بين الناس ، لأنهم لم يستطيعوا أن يحفظوا أخاهم وهم عصبة ، فوافقهم على ذهابه معهم ، بعد كل هذه التوكيدات منهم .

وقد بينت هذه الآية ، أنهم نكثوا عهدهم مع أبيهم وفيما يلى معناها :

فلما ذهب إخوة يوسف به من عند أبيهم بعد ما زعموا له أنهم ليوسف ناصحون حافظون ، وقد أجمعوا فى قرارة نفوسهم أن يلقوه فى الجب الذى يجعله غائبا عن أعين طالبيه – فلما ذهبوا به وهم على هذا الإجماع . نفذوا ما أجمعوا أمرهم عليه ، وألقوه فى غيابة الجب ، وخانوا أباهم ونكثوا معه عهدهم . وأوحى الله إلى يوسف عليه السلام ، وهو فى محنته هذه ، تبشيرا له بما يؤول أمره إليه ، وإيناسا له وإزالة لوحشته ، لتتخلصن مما أنت فيه يا يوسف من سوء الحال وضيق المجال ، ولتخبرن إخوتك بما فعلوه بك ، وهم لا يشعرون – وأنت تخبرهم – بأنك أنت يوسف الذى ألقوه فى غيابة الجب ، لأنك تحدثهم وأنت فى حال رفيعة المقدار جليلة الهيبة ، حيث تكون على أريكة الملك وهم فى ذلة الحاجة إليك ، وذلك ما سيحكيه الله مجملا بقوله فى هذه السورة : « قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ »

والمؤرخون يتحدثون عما فعله إخوته معه قبل إلقائه فى الجب من شتم ولطم وضرب حتى أوشكوا أن يقتلوه ، وأن قلوبهم لم ترق لاستغاثته بكل واحد منهم وبكائه من شدة قسوتهم ، بل نزعوا قميصه ، ليلطخوه بالدم بعد عودتهم إلى أبيهم بدونه ، وجعل يطلبه منهم ليتوارى به فلم يكترثوا بطلبه ، ثم دلوه فى البئر حتى بلغ نصفها فتركوه ليقع فى البئر ،

وأنهم كانوا يقولون له شامتين ، ادع الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر التى سجدت لك لتؤنسك فى قاع هذا البئر ، إلى غير ذلك من التفاصيل البشعة .

وبما أن هذه التفاصيل لم نجد لها سندا ، فلهذا لا نستطيع الجزم بها وإن كنا لا نستبعدها ، فإن من أرادوا قتله ، لا يبعد عليهم أن يصنعوا ما هو دونه .

(وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(عِشَاءً): أول الظلام ، وقيل من المغرب إلى ثلث الليل ويسمى العتمة .

(مَتَاعِنَا) : ما نتمتع به من الثياب والطعام ونحوهما .

(بِمُؤْمِنٍ لَّنَا): بمصدق لنا فيما نقوله .

(سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا): أى سهلته لكم حتى ارتكبتموه .

التفسير

١٦ ، ١٧ ـ (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ . قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ) :

وبعد ما اقترفوا جريمتهم بإلقاء يوسف فى غيابة البئر ، جاءوا أباهم ليلا يتصنعون البكاء ، وشرحوا له سبب بكائهم قائلين :

يا أبانا ذهبنا فى مرتعنا الذى كنا نرتع فيه ، ذهبنا نتسابق فى العدو والرمى ، وتركنا يوسف عند متاعنا وخصائصنا التى نتمتع بها من الثياب والأزواد وغيرهما حيث المكان أمين فى ظننا – فأكله الذئب فور تركنا يوسف ، وقبل أن يمضى زمن يعتاد فيه التعهد والتفقد ، فنحن لم نقصر بعدم وضعه فى مكان أمين . ولم نغفل عن مراقبته ، بل تركناه فى مأمننا ، ومجتمع أمتعتنا التى نحرص عليها ، وعلى مرأى منا ، وما فارقناه إلا زمنًا يسيرًا ، وبيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان .

ولما كانوا يعرفون أن إفكهم هذا لايصدقه أبوهم قالوا عقب ذلك :

(وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) :

أى وما أنت بمصدق لنا فيما قلناه ولو كنا عندك صادقين[١] لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا ، غير واثق بقولنا ، وقد ذكر المفسرون والمؤرخون كلامًا كثيرًا فى هذا اللقاء الذى حدث بينهم وبين أبيهم ، ومن ذلك أنه لما سمع بكاءهم قال : مابكم ؟ أجرى فى الغنم شىء ؟ قالوا : لا ، قال : فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نستبق فأكله الذئب ، فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟ فلما جاءوه به ألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذئبًا أحلم من هذا ، أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه ، وقيل إنهم لما قالوا له أكله الذئب خر مغشيًا عليه ، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ، وروى أن يهوذا لما رأى ذلك قال : ويل لنا من ديان يوم الدين ضيعنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السَّحَر ، إلى آخر ماقيل مما لم نجد له سندًا ، فلهذا لانستطيع القطع به .

---

(١) قال العلامة أبو السعود فى تعليقه على حرف (لو) فى قولهم « ولو كنا صادقين » قال : وكلمة (لو) فى أمثال هذه المواقع لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم إثباتا ونفيا فى جميع الأحوال ، بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ، ليكون سواها أولى بالحكم وقد تقدم الكلام على مثله فى قوله تعالى فى سورة البقرة : « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » اهـ

ويستفاد من الآية أن بكاء المرء لايدل على صدق مقاله ، فما أكثر البكاء المصنوع ، ويستفاد منها أيضًا أن الاستباق مشروع .

قال ابن العربى : المسابقة شرعة فى الشريعة ، وخصلة بديعة ، وعون على الحرب ، وقد فعلها النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه وبخيله ، وسابق عائشة على قدميه فسبقها ، فلما كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ، فقال لها : « هذه بتلك » .

وقد أجمع المسلمون على أن السبق لايجوز على وجه الرهان إلا فى الخف والحافر والنصل ، قال الشافعى : ما عدا هذه الثلاثة فالسبق فيها قمار ا هـ .

والأصل فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لَا سَبْقَ إِلَّا فى نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ » .

وقد زاد أبو البخْتَرِى القاضى كلمة « أو جناح » فى روايته لهذا الحديث ، يريد بزيادتها إرضاء الرشيد حيث كان يتسابق بالحمام فكشف الرشيد وضعه ، وأقصاه من مجلسه وامتنع العلماء من كتابة حديثه ، ووصموه بالوضع وتعمد الكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

١٨ – (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ..) :

أى وجاءوا بعد إخبارهم أباهم بأكل الذئب ليوسف ، جاءوا بقميصه ملوَّثًا بدم مزور مكذوب فى شأنه ، حيث زعموا أنه دم يوسف أثناء افتراس الذئب له ، يريدون أن يجعلوه برهانًا على صدقهم فيما زعموه من أكل الذئب له ، ولكنه لم يقتنع بأَنَّ هذا الذى فوق القميص دم ولده يوسف وقال :

(... بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) :

أى ليس الأمر كما زعمتم من أكل الذئب له ، بل سهلت لكم أنفسكم الكارهة له أمرًا منكرًا فظيعًا نحوه لايعلمه إلا الله فصبر منى جميل ، لاتشوبه منى شكوى لغيره جل وعلا .

ولما كان الصبر الجميل الذى ألزم نفسه به، لايقوى عليه وهو رازح تحت خطبه الجسيم، فلهذا استعان عليه بربه قائلا :

(وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) :

أى والله هو المطلوب منه العون لى على احتمال ما تقولونه فى شأن يوسف كذبًا .

واعلم أن الوصف فى اللغة ذكر الشىء بنعته، وهو قد يكون صدقًا، وقد يكون كذبًا، والمراد به هنا الثانى، كما فى قوله تعالى : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ »[1] .

قال الآلوسى : بل قيل إن الصيغة غلبت فى ذلك ونحن نقول : إن من هذا الاستعمال قوله تعالى : «وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ »[2] .

روى ابن عباس وغيره أن يعقوب عليه السلام لما تأمل القميص فلم يجد فيه خرقًا ولا أثرًا استدل بذلك على كذبهم وقال لهم : متى كان الذئب حكيمًا، يأكل يوسف ولايخرق القميص ؟

وروى عنه أيضًا أنه قال : كان الدم دم سخلة[3]، وأن يعقوب لما نظر إلى القميص قال : كذبتم، لو كان الذئب أكله لخرق القميص .

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾)

المفـردات :

(سَيَّارَةٌ) : جماعة تسير. (وَارِدَهُمْ) : الوارد؛ هو الذى يرد الماء ليستقى منه، والضمير فى : (وَارِدَهُمْ) يعود على السيارة بحسب المعنى، أى وارد القوم الذين يسيرون، ولو رجع إلى السيارة بحسب اللفظ لقيل : واردها، وكلاهما جائز لغة .

(١) الصافات الآية : ١٨٠ (٢) النحل من الآية : ٦٢

(٣) السخلة : ولد الشاة .

(فَأَدْلَى دَلْوَهُ) : أى أرسلها إلى الجبّ ليملأها ، وأما دلاها فمعناهُ جذبها ليخرجها . ذكره القاموس ، وحكاه القرطبي عن الأصمعى وغيره .

(وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) :وأخفوه متاعًا للتجارة ، وسمى مال التجارة بضاعة ،لأنه بضعة من المال العام – أى قطعة منه .

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) :أى باعوه بثمن مبخوس – أى منقوص من بخسه إذا نقصه .

(دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) : أى دراهم قليلة ، ومن هذا المعنى قوله تعالى فى شأن قلة أيام الصيام « أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » . (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) : أى من الذين لايرغبون فيما بأيديهم .

التفسير

١٩ – (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ) :

أى وبعد إلقاء يوسف فى البئر وعودة إخوته إلى أبيهم جاءت جماعة من المسافرين إلى مصر ، ونزلوا قريبًا من هذه البئر التى أُلقى فيها يوسف . فأرسلوا الذى يرد الماء لهم عادة ، ليستقى لهم من هذه البئر . فأرسل دلوه وأنزلها فى البئر ليملأها ماء ، وأمسك بحبلها ليجذبها به ، فتعلق يوسف بالحبل ، فثقلت الدلو على الوارد . فأعانه على جذبها مساعدوه من الرفقة الذين جاءوا معه ليستقوا لقومهم .

(قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) :

قال هذا الوارد الذى يستقى للجماعة السيارة مستبشرا فرحا ، يابشرى هذا غلام كأنه نادى البشرى ، وقال لها أقبلى فهذا أوانك : حيث فاز بنعمة خرجت له فجأة من حيث لا يحتسب .

وظاهر الآية أنه قال : (يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) قبل أن يخرج يوسف من البئر وبعد إدلاء الدلو ، ولعلها لما ثقلت عليه حين انتزاعه إياها ، خاطبه يوسف مستنجدا به لينقذه بإخراجه من غيابة الجب ، ويشبه أن يكون هذا هو المتبادر ، وإن كان يجوز أن يكون هذا القول بعد إخراجه إياه واطلاعه على حسنه والله تعالى أعلم .

(وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) :

قلنا إن واردهم الذى ذهب ليستقى لهم كان معه بعض الرفقاء ليعينوه فى استخراج الماء وحمله إلى جماعتهم التى نزلت عن قرب من الجب ، ويدل لذلك قوله تعالى :

(وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) :بضمير الجماعة ، كما تدل له طبيعة المهمة التى أرسل الوارد من أجلها ، فإنها تقتضى أن يقوم بها عدد منهم .

وبعد هذه المقدمة نقول : إن يوسف كان رائع الجمال ، وقد جاء فى حسنه قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث المعراج بصحيح مسلم ، « فإِذَا أَنا بِيُوسُفَ إِذَا هُو قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسْنِ » ، فلما رآه وارد الماء ومرافقوه فى هذا الجمال عديم المثال (أَسَرُّوهُ بِضَاعَةً) : أى أخفوه متاعا للتجارة ، أى ــ أخفوه ــ عن باقى جماعتهم التى أرسلتهم لاستقاء الماء والمراد أنهم أخفوا أمره عنهم ، فلم يقولوا لهم إنهم أخرجوه من الجب حتى لايشاركوهم فى ثمنه إذا باعوه لتجار الرقيق بمصر ، بل قالوا لهم مايجعل الأمر فيه لهم ، كقولهم : إن أصحاب الماء أعطونا إياه لنبيعه لهم بمصر ونرد لهم الثمن ، ونقل القرطبي عن ابن عباس أنه قال : أسره إخوة يوسف بضاعة لما استخرج من الجب وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئسما صنعتم ، هذا عبد لنا أبقَ ، وقالوا ليوسف بالعبرانية : إما أن تقر لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء وإما أن نأخذك فنقتلك فقال : أنا أُقِرُّلكم بالعبودية ، فباعوه منهم وقيل غير ذلك ــ والله أعلم .

(وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) :

هذه الجملة وعيد لإخوة يوسف على ماصنعوه بشأنه من تآمرهم على قتله ، ثم إبداله بإلقائه فى الجب ، وتعريضه للعبودية .

٢٠ ــ (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) :

كلمة (شرى) تستعمل تارة بمعنى اشترى وأخرى بمعنى باع ، فهى تستعمل فى الضدين

وهى هنا بمعنى باع ، أى وباعوه بثمن قليل ناقص عن القيمة التى تؤدى لأمثاله من الرقيق ، وكان البائعون فيه من الزاهدين الذين لا يرغبون فى بقائه معهم ، وسبب ذلك أنهم التقطوه ، والملتقط للشىء متهاون فيه لكونه لقطة ، ولخوفه أن يظهر له مستحق فينتزعه منه ، فلهذا باعوه بالوكس لأول مساوم ليتخلصوا منه .

قال العلامة أبو السعود : ويجوز أن يكون معنى « شروه » الخ اشتروه من إخوته ـ على ماحكى ـ وهم غير راغبين فى شرائه خشية ذهاب مالهم لما طنّ [1] فى آذانهم من الإباق ، أى لما سمعوه من إخوته من أنه عبدهم هرب منهم ، فهم لهذا تساهلوا فى ثمنه ، ليتعجلوا التخلص منه قبل أن يهرب منهم ، كما هرب من بائعيه الذين زعموا أنه عبدهم وأنهم مالكوه .

(وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَكْرِمِى مَثْوَاهُ) : أكرمى موضع ثِوَائِهِ أى إقامته ـ من ثوى بالمكان ـ أى أقام به ـ

(مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ) : أى جعلنا له فيها مكانًا ثابتًا .

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ) : أى غالب على الأمر الذى يشاؤه ، فلا يستعصى عليه مراده ، أو معناه غالب على أمر يوسف ، فهو الذى يتولاه ويدبره ولا يكله إلى غيره .

(١) طن بالطاء أى تردد فى آذانهم .

التفسير

٢١ - (وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ من مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ) :

وبعد أن باعه الذين أخرجوه من البئر بثمن زهيد ، قال الذى اشتراه منهم من أهل مصر لامرأته : اجعلى محل ثوائه - أى محل إقامته - كريمًا حسنًا مرضيًا ، يريد من هذه العبارة تكليفها بإكرام يوسف على أبلغ وجه ، لأن إكرام محل إقامته بالعناية بشئونه ، يستلزم إكرامه هو ، فإن من قام بالعناية بمحل الضيف نظافة وفرشا ، فإنما يفعل ذلك لأجل الضيف ، فما ظنك بالعناية به هو شخصيًّا - فإنها تكون آكد وأعظم .

وهذا الذى اشتراه من أهل مصر هو عزيز مصر لقوله تعالى : « وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ . . . . » .

قال الضحاك : العزيز : هو ملك مصر ، وقال ابن عباس : هو وزيره قطفير .

(عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) :

وقد أوصى العزيز الذى اشترى يوسف امرأته بالعناية به والاهتمام بشأنه كله . وقال لها عسى أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا إذا تدرَّب وعرف مجارى الأمور ، أو نتخذه لنا ولدًا ، فيكون شأنه منَّا شأن ولد الصلب ، وإنما قال العزيز ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة .

أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه وجماعة عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ : العَزِيزُ حِينَ تَفَرَّسَ فى يُوسُفَ ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ :(أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)وَبِنْتُ شُعَيْبٍ حِينَ قالتْ لِأَبِيهَا فِى مُوسَى ،(يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ) وأبو بَكْرٍ حِينَ اسْتَخْلَفَ عُمَرَ » .

قال ابن العربى تعليقًا على هذا الخبر : عجبًا للمفسرين فى اتفاقهم على جلب هذا الخبر ، وليس كذلك فيما نقلوه ، لأن الصِّدِّيق إنَّما ولَّى عمر بالتجربة فى الأعمال ، والمواظبة على الصحبة وطولها والاطلاع على ما شاهده منه من العلم والمنة ، وليس ذلك من طريق الفراسة ، وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة ـ على ما يأتى بيانه فى (القصص) وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة ، لأنه لم تكن معه علامة ظاهرة . . ا هـ[١] .

وإنما قال العزيز : (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) لأنه كان حصورًا لا يولد له كما قال ابن العباس ، وابن إسحاق .

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) :

أى وكما أنقذناه من إخوته ومن الجب ، وجعلنا له مكانًا عظيمًا فى قلب العزيز الذى اشتراه ، حتى أمر امرأته دون سواها من خاصته بإكرام مثواه ، جعلنا له مكانة رفيعة فى أرض مصر ، حيث عرف فيها بأخلاقه الرفيعة ـ إلى جانب ما أضفاه العزيز عليه من البنوّة ، وما أعطاه الله إياه من الوجاهة ـ جعلنا له هذه المكانة فى الأرض ليترتب عليها ما جرى بينه وبين امرأة العزيز قبل أن يسجن ولنعلمه بعض تأويل الأحلام ، فتظهر براءته مما نسبته امرأة العزيز إليه ، وليؤدى ذلك إلى المرتبة العليا ، والرياسة العظمى كما سيأتى بيانه فى رؤيا السجينين ورؤيا ملك مصر ، وكما يشير إليه قوله تعالى :

(وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) :

أى والله غالب على أى أمر يريده ، لا يحول أحد دون تحقيقه ، فإنه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون ، ويدخل فى أمره تعالى شئون يوسف عليه السلام .

والضمير على هذا التأويل راجع فى كلمة (أمره) إلى الله تعالى ، وقيل : إنه عائد إلى يوسف ، أى والله غالب على أمر يوسف يدبره ويحوطه ولا يكله إلى غيره ، حتى لا يصل إليه كيد كائد .

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) : أى الأمر كله لله تعالى . فيزعمون أن لهم من الأمر شيئا « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ »

---

(١) أنظر الآلوسى فى خبر ابن مسعود ص ١٨٥ جـ ١٢ طبعة منير ، والقرطبى ص ١٦٠ جـ ٩ طبعة دار الكتب فى تعليق ابن العربى .

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(بَلَغَ أَشُدَّهُ)[١] : استكمل قوته الجسدية والعقلية .

(آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) : أعطيناه حكمة وفقها فى الدين .

التفسير

٢٢ - (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ) :

علم من الآيات السابقة أن يوسف عليه السلام ، كان فى بيت عزيز مصر ، يعامل معاملة كريمة ، بوصية من العزيز ، وأنه عومل هذه المعاملة رغبة فى أن ينفعهم حينما يكتمل نموّه ، أو أن يكون لهم ولدًا ، لما كان يبدو عليه من مخايل الرشد والنجابة وأنه تعالى مكَّن ليوسف فى أرض مصر بسبب مافطر عليه من هبات الله التى حببته إلى أهلها وما أسبغه عليه العزيز من العناية فى التربية ، وقد جاءت هذه الآية لتبين لنا طرفًا آخر من قصته ، وذلك حين جاوز مرحلة الصبا إلى مرحلة الشباب وبلوغ الأشد ، واختلف فى المراد بالحكم والعلم فى الآية ، فمن قال : إنه أوتى النبوة صبيًا ، وفسّر الآية بقوله : ولما بلغ أشده زدناه فهما وعلما ، فوق النبوة ،وقد حمله على ذلك قوله تعالى فى شأن يوسف قبل استخراجه من غيابة الجب : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ » .

---

(١) يرى سيبويه أن أشد جمع ، واحده شدة ، ويرى الكسائى أن مفرده شد ، وقال أبو عبيد لاواحد له من لفظه .

فالإيحاء هنا على رأيه هو إنزال الملك إليه بالوحي . ومن قال إن الإيحاء حينئذ كان إلهاما أو نحوه ، فسر الحكم بالنبوة ، والعلم بعلم الدين ، وإلى هذا ذهب ابن عباس حيث قال : الحكم النبوة ، والعلم الشريعة .

ومنهم من فسر الحكم بالحكمة ، وهى حبس النفس عن هواها ، وصونها عمًّا لا ينبغى ، وفسر العلم بالعلم النظرى ، ومنهم من فسر الحكمة والعلم بالحكم بين الناس وعلم مصالحهم وشئونهم ، فإن الناس كانوا إذا تحاكموا إلى العزيز ، أمره أن يحكم بينهم ، لما رأى من عقله وإصابته فى الرأى . ويقتضينا هذا الخلاف ، أن نفسر الآية الكريمة تفسيرًا يتفق مع ماسبقها وما يليها ، حيث يناسب المقام والمناخ الذى سيقت له ، ولا يمنع من قبول أى رأى من هذه الآراء فنقول :

ولما بلغ يوسف منتهى قواه الجسدية والعقلية ، وأصبح أهلا لتحمل أعباء الحياة والحكم بين الناس فى قضاياهم المختلفة ، وتوجيههم إلى الخير والبر والهدى ، آتيناه حكمة فى القول ، وإصابة فى الحكم وعلمًا غزيرًا ، وبَصَرًا بالأمور . ومثل ذلك الجزاء الجميل ، نجزى كل من يحسن فى عمله .

(وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(وَرَاوَدَتْهُ) : المراودة : الرفق فى الطلب ، يقال فى الرجل راودها عن نفسها ، وفى المرأة ، راودته عن نفسه .

(وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ): أحكمت إغلاقها . (هَيْتَ لَكَ): هيت اسم فعل أمر بمعنى: أقبل وبادر ، واللام فى (لَكَ) للبيان - أى لك أقول هذا - كما فى هلم لك ، وقرىء: (هِئْتُ لَكَ) بكسر الهاء وبالهمز وضم التاء بمعنى تهيأت لك ، فهو فعل ماض وفاعله .

(مَعَاذَ اللهِ) : أستجير بالله وأعوذ به معاذا مما تدعيننى إليه .

(إِنَّهُ رَبِّى) : إنه سيدى الذى ربانى .

(أَحْسَنَ مَثْوَاىَ) : أحسن إكرامى فى مثواى ومقامى عنده فلا أخونه

(هَمَّتْ بِهِ) : عزمت وأصرت على مخالطته .

(وَهَمَّ بِهَا) : شرع يدفعها عن نفسه .

(لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) : أى حجته التى منعته من الانتقام منها .

التفسير

٢٣ - (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) :

تحدثت الآيات السابقة عن شراء عزيز مصر ليوسف ، وأنه أمر زوجته دون سواها أن تكرمه وتعنى به لعله ينفعهم أو يتخذونه ولدًا ، وأنه بذلك وبما كان عليه من العقل والوجاهة وحسن المعاشرة مع الناس مكن الله له فى الأرض ، وأنه لمّا بلغ أشده آتاه الله الحكمة والعلم ، فاكتمل شبابه بالقوة والحكمة والعلم إلى جانب ما هو عليه من الجمال حتى بلغ شطر الحسن كما قال صلى الله عليه وسلم .

وكانت امرأة العزيز ترى هذا كله أمامها ، وتشعر فى نفسها أنه جدير بالإعجاب والحب ، فأُعجبت به وأحبته وراودته عن نفسه كما جاء فى هذه الآية الكريمة ، أى طلبت منه مخالطتها : وأصل المراودة الطلب برفق ولين . ومن هذه المادة يطلق الرائد على طالب الكلإ والماء ، وصيغة المفاعلة تقتضى حدوث الفعل من الجانبين كقاتل وضارب وصارع وغالب ، ولكنها قد تستعمل من جانب واحد كما فى مطالبة الدائن ومماطلة المدين ومداواة الطبيب وغير ذلك ، والمراودة هنا كذلك ، فإنها من زوجة العزيز ليوسف ، أما هو فقد استعصم - كما سيأتى بيانه - وكما يشير إليه قوله تعالى : (عَن نَّفْسِهِ) فإنه يشير إلى أنها تخادعه وتريد أن تجذب منه مطلبها ، قال الزمخشرى : أى فعلت ما يفعله

المخادع لصاحبه عن الشيء الذى لايريد أن يخرجه من يده : يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ـ الخ ا هـ .

والمعنى : واحتالت امرأة العزيزالتى هو فى بيتها حيث موضع التكريم والعناية ، احتالت عليه وطالبته برفق وخديعة ، أن يمكّنها من نفسه فيخالطها مخالطة الرجل للمرأة ، وغلّقت الأبواب التى توصل إليهما وأحكمت إغلاقها ، وقالت هيت لك[١] ـ أى أسرع[٢] والطلب موجه لك ـ فكأنها تقول إرادتى كائنة لك .

وقد وقعت هذه المراودة من نفس يوسف موقع الإباء والرفض حيث قال لها : (. . . مَعَاذَ اللهِ) :

أى أعوذ بالله تعالى معاذا مما تريدين منى فهو أمر منكر هائل يستعاذ بالله للخلاص منه ومن سوء عاقبته ، وعلل رفضه لمطلبها بما عسى أن يصرفها عنه ، ويدعوها إلى مراجعة نفسها والإقلاع عن خيانتها لزوجها ، بما سمعته منه من أنه لا يصح أن يخونه وقد أحسن إليه وذلك قوله لها .

(إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ) : أى إن الأمر والشأن الخطير الذى يمنعنى من إجابتك هو سيدى الذى ربانى وأحسن تعهدى ، حيث أمرك بإكرامى فكيف أسىء إليه بخيانته فى حرمه .

واختار أبو حيان أن الضمير لله تعالى ، والمعنى على هذا إن الله تعالى خالقى أحسن مثواى بعطف قلب من أمرك بإكرامى : فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ثم أيد يوسف امتناعه عن تلبية مطلبها وعلله بعلة أخرى فقال :

(إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) : أى إن الشأن فى سنة الله فى خلقه وعدالته هو أنه لا يفوز الظالمون فى دنياهم وأخراهم ، أما دنياهم فيعاقبون فيها بالعلل والأسقام ، والذل بعد العز ، والفقر بعد الغنى ، وغير ذلك من الآفات وأما أخراهم فالجحيم والزمهرير ، ومن فاتته عقوبة الدنيا ، أدركته عقوبة الآخرة « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ »[٣] .

---

(١) اللام فى كلمة (لك) لتبيين من له الخطاب كما فى (سقيا لك) .

(٢) وقيل إنه اسم فعل ماضى معناه تهيأت لك ، وبهذا التأويل وافقت قراءة مروية عن ابن عباس (هئت لك) بكسر الهاء وبالهمزة الساكنة وضم التاء .

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٤٢

٢٤ ـ (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) :

حكت الآية السابقة موقف يوسف الحاسم أمام مراودة امرأة العزيز له وطلبها مخالطته ، وتهيئتها كل الأسباب لاجتذاب ميله ، وأولها تهيئة نفسها له ذاتا وثيابا وتغليقا للأبواب وآخرها دعوة رقيقة له بقولها تهيأت لك ولم أتهيأ لغيرك ، ولابد أن هذه الدعوة التى حكاها القرآن هى إجمال كريم لدعوة مختلفة الأساليب تجيدها المرأة الوالهة ، ويعف القرآن الكريم عن التصريح بها ، وكان رد يوسف الحاسم عليها هو قوله لها :

(مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لاَيُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) :

ولقد ظن يوسف أن هذا الذى قاله لها سيجعلها ترجع عن موقفها الشائن نحو زوجها ونفسها ونحو ربيب نعمتهم ذى الأخلاق الفاضلة التى لاتسمح له بالخيانة لرب نعمته ، ولكنها لم ترعو عن غيها وانتهت إلى موقف آخر يتسم بالعزم والإصرار على تنفيذ جريمتها وهو ما حكته هذه الآية من قوله تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) : ولكنه عليه السلام أصر على موقفه السلبى منها ، وعزم على وضع حد لتشبثها . فمانعها وهمَّ بإيذائها ، وفيما يلى معنى الآية على هذا التأويل الذى تطمئن له نفوسنا .

المعنى : ولقد همت امرأة العزيز بيوسف عليه السلام تجذبه إلى نفسها ، وتوسعه لوما على موقفه منها مع أنها هى التى طلبته وراودته ، وأذلت له نفسها ، وهو فى نظرها عبد لها وهى سيدته ، ولكنه همَّ بها يدفعها عن نفسه وكاد يضربها لمزيد إصرارها على مخالطته ، لولا أن رأى فى ضميره برهان ربه يصرفه عن ضربها ، لأنها آوته وأكرمته ، ولأنه لو ضربها لادعت أنه راودها ، ولما امتنعت من إجابته ضربها ، لولا ذلك لضربها وانتقم منها لهذه الجريمة التى دبرتها له وهو منها برىء ومعصوم .

(كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) :

أى فعلنا مثل ذلك التثبيت بالبرهان مع يوسف ـ عليه السلام ـ لنصرف عنه السوء . وهو ضرب من أكرمته وآوته ، ولنصرف عنه الفحشاء التى دعته إليها ـ وهى المخالطة ـ إنه من عبادنا الذين أخلصناهم لنا وهم آباؤه الذين أخلصهم ونقَّاهم

من شوائب النقص ، فقد قال الله تعالى فيهم « وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ »(١)

وفسرها بعض العلماء بقوله : ولقد همت به المرأة ضربا ـ لأنه أذلها وحطّم كبرياءها ، وهم بها دفاعا عن نفسه . ولكن ماقلناه أولى ، فإن حبها الشديد له وجذبها له من قميصه يمنع من أنها تفكر فى ضربه ، ولهذا نرجح ما قلناه قبل ذلك ، وقيل الهم منها عزم وإصرار على المعصية ، ومنه مجرد خطور بالبال بمقتضى الطبيعة البشرية مع الاعتصام بالتقوى . وسمى باسم الأول مشاكلة . ويدل لذلك أن الله تعالى مدحه بأنه من عباده المخلصين . ولا يكون ذلك إلا مع سلامة الإرادة وقوة الوازع المتمثل فى برهان ربه . وهذا ليس قادحا فى العصمة . فإنه تعالى هو العاصم وقد عصمه ببرهانه ، وهو الحجة التى أقامها الله فى نفسه على التحريم حين المراودة منها له ولجاجتها عليه وقوة البرهان وسلطانه على إرادة الأنبياء ينتهيان دائما إلى العصمة من دواعى البشرية المحرمة ، ولاشك أن الامتناع مع الخطور بالبال يدل على قوة الوازع وقوة الإرادة أكثر من الامتناع مع عدم وجوده ـ ومع جودة هذا الرأى فما قلناه أولا هو أفضل الآراء . وهو ما وفقنا الله له . والله تعالى أعلم .

وقد ضربنا صفحا عما سطره بعض المفسرين من القصص الهابطة التى ذكرت فى تفسير الآية . وينبو قلمنا عن تسطيرها .

---

(١) سورة ص ، الآيات : ٤٥ – ٤٧

(وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا
لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ
أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(وَاسْتَبَقَا الْبَابَ) أى تسابقا إليه ، كل يريد أن يصل إليه قبل الآخر : هى لتمنعه من الخروج وهو ليهرب منها .

(وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ) : أى قطعت قميصه من خلفه ، والقد : القطع . وأكثر ما يستعمل فى القطع الطولى . أما القط فيستعمل فى القطع العرضى . . . قاله القرطبى وغيره .

(وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) : ووجدا زوجها – عزيز مصر – عند الباب الذى تسابقا إليه ، وهو الباب الأخير الذى يؤدى إلى خارج ما غلقت أبوابه .

التفسير

٢٥ – (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ...) :

حكت الآيتان السابقتان الحب الشديد الذى أخرج امرأة العزيز عن الوقار ، وأذلها حتى هبطت إلى أن تراود يوسف ربيب نعمتها عن نفسه ، وتحكم إغلاق جميع الأبواب حتى تستحكم خلوتها به ، ولا ينغص عليها فى مخالطتها له منغص ، ودعته برفق إلى قضاء لبانتها من مخالطته إيلها ، وأنه أبى عليها هذه الجريمة التى تختان بها زوجها ، وتحمله على أن يشاركها فى هذه الخيانة مع أنه أحسن إيواءه وتربيته ، كما حكت أنه عليه السلام ،

استعاذ بالله ولجأ إليه لكى ينقذه من هذا الإثم والظلم المبين ، وأنها قابلت هذا الامتناع الحازم من يوسف بمزيد من الهمة والإصرار وتحريضه على مخالطتها بمختلف الوسائل ، من جذب ولوم وأسى وغير ذلك ، وأنه لم يجد بدًّا من أن يهم بضربها لتكف عن غيها ، ثم تراجع عما همَّ به من إيذائها حين رأى فى قرارة نفسه وبإلهام من ربه ، رأى حجة الله وبرهانه على أن إيذاءها وهو يمنعها عن نفسه ، سوف تتخذه دليلا على أنه هو الذى طلب مضاجعتها ، فلما أبت عليه ضربها وآذاها ، فلهذا كف عنها .

وجاءت هذه الآية لتبين أن كليهما قد أسرع إلى الباب ، فأما يوسف فقد أسرع إليه ليتخلص من شَرَك هذه المرأة الوالهة وشرها ، وأما هى فقد أسرعت لتمنعه من الهرب وتحمله على الاستسلام إليها ، ولما سبقها هو إلى الباب جذبت قميصه من خلفه جذبة قوية ترتب عليها قطع القميص من خلفه ، حيث كانت تجذبه منه وعندما وصل الأمر بينهما إلى هذه الحال وجدا سيد المرأة ـ أى زوجها ـ عند الباب . الذى أراد يوسف الخروج منه ـ وكان قد فتح ـ حتى أصبحا وجها لوجه أمام العزيز لدى الباب ، ولم تصرح الآية بمن فتحه ، فهل فتحه العزيز لما وصل إليه خبر هذه الاحتياطات التى اتخذتها امرأته لمراودة يوسف ، أو فتحه حين وصلت إليه أصوات المشادة التى حصلت بينهما ، أو أن يوسف هو الذى سبق إليه وفتحه ، وصادف مجىء العزيز حينئذ ، وهذا هو الظاهر ، لأن المرأة كانت قد غلقت الأبواب من الداخل فلا تفتح إلا من الداخل ، والمراد من الباب هنا الباب الأخير الموصل إلى الخارج ، وهو الذى رأيا سيد المرأة عنده ، أما الأبواب الأخرى التى غلقتها فلابد من أن يوسف كان قد فتحها مسرعا قبل أن يصل إلى هذا الباب الأخير الذى أدركته عنده وشقت قميصه وهى تجذبه إليها حتى لا يفلت منها بعد أن وصل إليه ، ولما وجدت نفسها أمام زوجها فى هذه الحالة النكراء ، برّأت نفسها ومكرت بيوسف بأخبث أسلوب ، وذلك ما حكاه الله تعالى بقوله :

(... قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى قالت امرأة العزيز لزوجها حين رآهما على هذه الحالة : ما جزاءُ هذا الذى دخل على مخدعى وأراد سوءا بزوجك التى هى أهلك وعرضك الذى يهمك أمره ، ما جزاؤه سوى

أن يسجن ليمنع شره عن النساء ، أو عذاب شديد الإيلام ، حتى لا يعاود مثل هذه الإرادة الرعناء .

بهذه الحيلة أرادت أن تبعد التهمة عن نفسها وأن تهدد يوسف بمقدرتها على سجنه وتعذيبه طمعا فى أن يستجيب لها اضطرارا بعد أن فقدت الأمل فى أن يستجيب لها اختياراً لكن يوسف لم يأبه لتهديدها ـ كما سيتضح بعد من قوله : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » بعد قولها : « وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ » وسيأتى بيان ذلك .

٢٦ ـ (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ...) :

أى قال يوسف للعزيز دفاعا عن نفسه بعد أن اتهمته زوجته بأنه أراد اغتصابها : قال يوسف لم يحدث منى شىء مما تقوله ولكن الذى حدث أنها هى التى راودتنى على أن أنزل لها عن نفسى ولم أوافقها على ما طلبته منى . وبهذا حصل التعارض بين اتهامها ودفاعه ، واحتاج الفصل فى القضية إلى شاهد ، وذلك هو ما قصه الله تعالى بقوله :

(... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) :

اختلف المفسرون فى هذا الشاهد ، فقيل : إنه طفل فى المهد شهد بما فصله الله بعد ، وكان من أهل امرأة العزيز ـ قال السهيلى ـ وهو الصحيح ـ للحديث الوارد فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله : « لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ » وذكر منهم شاهد يوسف .

وقال القشيرى أبو نصر : قيل كان صبياً فى المهد فى الدار وهو ابن خالتها .

وقيل : هو رجل حكيم ذو عقل كان العزيز يستشيره فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، وكان مع زوجها ، فقال : قد سمعت الاستباق والجلبة وراء الباب وشق القميص ، فلا يُدرَى أيكما قُدَّامُ صاحبه ، فإن كان شقُّ القميص من قُدَّامِه فأنتِ صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق ، فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف .

ونسب هذا القول إلى الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد والسدى .

قال السدى : كان ابن عمها ، وروى عن ابن عباس وهو الصحيح فى الباب والله أعلم ا هـ . ذكره القرطبي .

وقال أبو جعفر النحاس : والأشبه بالمعنى ـ والله أعلم ـ أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره فجاء بهذه الدلالة ، ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف ـ صلى الله عليه وسلم ـ تغنى عن أن يأتى بدليل من العادة ، لأن كلام الطفل آية معجزة فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة .

ونحن نرى أن الذى قاله أبو جعفر النحاس هو الأجدر بالقبول فكلام الشاهد كلام رجل حكيم ذى بصر بالأمور ، وليس فى النص الكريم ما يدل على أنه طفل ، بل يوجد فى صحيح السنة ما يفيد حصر المتكلمين فى المهد فى ثلاثة ، وليس فيهم شاهد يوسف ، فقد جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه . أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَم يَتكَلَّمْ فِي المَهْدِ إلا ثَلاثَةٌ : عيسَى بنُ مَرْيمَ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَصَبِيٌّ كَانَ يَرْضَعُ مِنْ أُمّهِ ، فَمَرَّ رَاكِبٌ كَانَ حَسَنَ الهَيْئَةِ ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا ، فَتَرَكَ الصَّبِيُّ الثَّدْىَ وَقَالَ : اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِى مِثْلَهُ » .

وقد اعتبر الطيبى هذا الحديث يرد الحديث السابق المروى عن أحمد ، انظر الآلوسى ج ١٢ والقرطبي ج ٩ والله أعلم .

ويلاحظ أن هذا الكلام من القريب لا يعتبر شهادة ، لأنه لم ير شيئا مما حدث ، ولكنه لما كان يرشد إلى دليل الحكم ، أطلق عليه شهادة مجازا ، لأنه يشبهها فى التوصيل إلى الحكم الصحيح .

والمعنى : وأرشد مرشد حكيم من أهل امرأة العزيز إلى دليل الحكم ، بعد ما علم باتهامها ليوسف ، وبما قاله يوسف دفاعا عن نفسه ، وقد اشتبه الأمر واحتاج إلى مرجع فقال : إن كان قميص يوسف شق من قدامه ، فقد صدقت فى دعواها أنه أراد بها سوءا فهو قرينة على أنه بادرها بالاعتداء ، فنازعته وأخذت بتلابيبه من قدامه ، وجعلا يتصارعان وهى ممسكة

بتلابيبه فشق القميص فى يدها من قدامه وهو يخلصه منها ، وهو حينئذ من الكاذبين فى دعواه أنها راودته عن نفسه فا متنع .

٢٧ - (وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

أى وإن كان قميصه شق من خلفه فقد كذبت فى دعواها أنه هو الذى أراد بها سوءا ، وهو من الصادقين فى قوله : أنها هى التى راودته عن نفسه ، وأنه أسرع إلى الباب ليهرب منها ، ووجه دلالة شقه من الخلف على صدقه ، أنه يؤذن بأنها تبعته وجذبت ثوبه من الخلف لتمنعه من الهروب مما دعته إليه .

قال القرطبى فى المسألة الثالثة : فى هذا الموضوع ما يفيد أن الحكم بالأمارات عند فقد الشهود يؤخذ به فى اللقطة وكثير من المواضع ، حتى قال مالك فى اللصوص : إذا وجدت أمتعة معهم فادّعاها قوم وليست لهم بينة فإن الحاكم ينتظر بعض الوقت ، فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم .

وقال محمد فى متاع البيت إذا اختلف فيه الرجل والمرأة : إن ما كان للرجال فهو للرجل ، وما كان للنساء فهو للمرأة وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل .

وكان شريح وإياس بن معاوية يعملان العلامات فى الحكومات أى فى القضايا التى لا شهود فيها ، وأصل ذلك هذه الآية : ا هـ

(فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(مِن كَيْدِكُنَّ) : من احتيالكن ومكركن أيتها النساء .

(مِنَ الْخَاطِئِينَ) : من المذنبين المتعمدين : من خطىء المرءُ إذا تعمد الذنب ، ومضارعه يخطَأُ بوزن يأْثَم بفتح الثاء ومصدره الخطءُ بكسر الخاء بوزن الإثم .

التفسير

٢٨ - (فَلَمَا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) :

أى فلما رأى سيدها - أى زوجها - قميص يوسف شق من خلفه . قال لامرأته : إن اتهام يوسف بأنه أراد بك سوءًا ناشىءٌ من كيدكن أيتها النسوة للرجال ، فأنت التى راودتِه فلم يفعل ، وفرَّ منك فاجتذبتهِ إليكِ وأنتِ كاذبة فى نسبة إرادة السوءِ إليه .

وقد أصاب العزيز فى الحكم بأن كيد النساء عظيم ، لأنه أشد تأثيرًا فى النفس ولأنه قد يورث من العار أشد مما يورثه كيد الرجال ، ولتفرغهن لهذا الفن أكثر منهم ، ولهذا كن أعظم وسائل الشيطان فى عصيان الله - تعالى - قال حكيم : « ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من جهة النساء » .

ولهذا قال بعض العلماء : أنا أخاف من النساء مالا أخاف من الشيطان ، فإنه - تعالى - يقول فى حق الشيطان : « إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا » وقال فى حق النساء : « إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » .

٢٩ - (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) :

بعد ما ظهرت براءة يوسف، وكيد المرأة ، قال العزيز : يا يوسف أعرض عن هذا الإثم ولا تلتفت إليه ، ولا تتحدث عنه ، حتى لا تفتضح امرأتى بين الناس ، واستغفرى أنتِ أيتها المرأة من ذنبك الذى صدر عنك فى حقى وحق يوسف إنك كنت من صنف الخاطئين الآثمين المتعمدين اقتراف الذنب ، ولم يحدث منك عفواً .

ويلاحظ أنه أمر امرأته بالاستغفار لذنبها ، والاستغفار طلب الغفران ، والتجاوز عن الذنب ، وهذا يحتمل أنه يريد أن تطلب منه الصفح والمغفرة لما بدا منها ، أو أن تطلب الغفران من الله - تعالى - إن كانوا يعتقدون أن لهم إلٰهًا أكبر من آلهتهم التى يعبدونها ، وأنهم يتقربون بعبادتهم إيَّاها إليه كشأن عبدة الأوثان فى كل مكان ، ولعله يشير إلى ذلك قول يوسف : « يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » .

(۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ۖ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾)

المفـردات :

(نِسْوَةٌ) : جماعة من النساءِ لا واحد له من لفظه .

(امْرَأَةُ الْعَزِيزِ) : زوجته .

(تُرَاوِدُ فَتَاهَا) : تطالب فتاها بمضاجعتها وتخادعه عن نفسه .

(شَغَفَهَا حُبًّا) : شق حبه شغاف قلبها ، والشغاف حجاب القلب ـ والمراد أن حبه تمكن من قلبها .

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : بُعْد عن طريق الصواب والعفة بيِّن واضح .

(مُتَّكَئًا) : ما يتكأُ عليه من النمارق والوسائد .

(أَكْبَرْنَهُ) : أعظمنه وتهيبنه .

(حَاشَ لِلَّهِ) : تنزيهًا له عن صفات العجز والنقص ، والمراد التعجب من حسن يوسف .

التفسير

٣٠ ـ (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) :

كان لمراودة امرأة العزيز ليوسف ـ عليه السَّلام ـ دوى هائل بين القصور ، فتناولتها الألسنةُ حتى قال نسوة من عقائل أشراف المدينة ـ عجبًا من هذه المرأة وانتقاصًا لها ـ كيف تنزل امرأة عزيز مصر ـ وهى فى مكانها الرفيع ـ إلى هذا الحد الوضيع ، فتراود فتاها عن نفسه وتطالب غلامها بمخالطتها ، قد تمكن حبه من قلبها فملأه ولم يدع فيه مجالًا لسواه ، حتى كاد ينفطر من شدة الحب .

(إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

أى إنا لنعلمها فى بُعْدٍ واضح عن الصواب والعِفَّة والكرامة ، حيث سمحت لنفسها بالهبوط إلى هذا الدرك الأسفل ، بمراودتها لمملوك لها ، وأمرها نافذ فيه وكيف تجاوز حبها له أقصى الحدود ، حيث مزقت ثيابه حينما حاول الإفلات منها ، وكيف تفعل معه ذلك ولها زوج عظيم ، هو عزيز مصر ، إنها لخائنة ذليلة النفس .

٣١ ـ (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا) :

أى فحينما بلغ هذه المرأة ما قالته نسوة المدينة فى شأن عشقها ليوسف أرسلت إليهن تدعوهن إلى ضيافتها ، وهيأت لهن من النمارق والوسائد ما يتكئن عليه فى أثناء الطعام والشراب والحديث ، وأعطت كل واحدة منهن سكينًا لتقطع به ما يحتاج إلى القطع من

الطعام كاللحم والفاكهة ، وغرضها من ذلك ماسيقع من قطعهن لأيديهن من شدة انبهارهن من جماله ـ كما سيأتى بيانه ، وسمى اغتيابهن لها مكرًا لكونه خفية منها كمكر الماكر ـ وإن كان ظاهرًا لغيرها ، وكان المترفون فى الزمان الخالى يجلسون للطعام على الوسائد والنمارق ، فإذا انتهوا منه أتموا وقتهم فى الحديث وهم على وسائدهم جالسون ، ولا تزال هذه الطريقة متبعة فى ولائم العرب ملوكًا ورعايا ، وكذا فى بلاد كثيرة .

وفسر بعضهم « المتكأ » بالطعام ، أخذًا من قولهم اتكأنا عند فلان ـ أى طعمنا عنده ـ قال جميل :

فظللنـــا بنعمـــة واتكأنا وشربنـا الحلال من قُلَلِه

وقال مجاهد : (متكأ) : أى طعامًا يُحزُّ حزًّا ، كأن المعنى : يعتمد عليه بالسكين عند القطع لأن القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين .

(وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ....) الآية .

كان الطعام بين أيدى هؤلاء النسوة المدعوات ، وكن مشغولات به أكلاً وتقطيعًا بالسكين ، ولم يكن يوسف حاضرًا ، فدعته قائلة : اخرج عليهن ، تريد بذلك أن يفاجئهن بجماله وهن ممسكات بالسكاكين ، ولم يكن يدرى ماذا تخبئه له هذه المرأة الماكرة ، فخرج عليهن فحينما رأينه فى جماله الفتّان ، وحسنه الرائق الفائق ، عظّمنه وتهيّبن حسنه الرائع ، وجرحن أيديهن بما معهن من السكاكين ، لفرط دهشتهن ، وخروج الأمر عن منهاج الإرادة والاختيار ، حتى لم يشعرن بما فعلن ، (وَقُلْنَ) : تنزيهًا لله ـ تعالى ـ عن العجز عن خلق هذا الجمال المثالى ، (حَاشَ لِلَّهِ) وغرضهن من ذلك التعجب من قدرته ـ سبحانه ـ على خلقه ، وقلن أيضًا : (مَا هَذَا) الذى نراه (بَشَرًا) ، فما مثله فى الناس أحد ، (إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) ، يردن بهذه العبارة وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال ، وهكذا جرت العادة فى تشبيه كل متناهٍ فى الحسن بالملَك ، كما جرت فى تشبيه كل متناهٍ فى القبح بالشيطان .

(قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(لُمْتُنَّنِي فِيهِ): عَيَّرتُنَّنِي فى الافتتان به . (رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ) : أى طلبت مخالطته وخادعتُه عن نفسه ليحقق لى ما أرجوه من ذاته . (فاسْتَعْصَمَ) : أى امتنع طالبا للعصمة مما دعوتُه إليه ، وبالغ فى ذلك كما تدل عليه السين والتاء كما فى استمسك واستجمع الرأى .

(مِنَ الصَّاغِرِينَ) : من الأذلاء . (أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) : أستجب إلى هواهن .

(مِنَ الْجَاهِلِينَ) : أى من أهل الجهالة ، والمراد منها هنا السفاهة وفقدان الحكمة والرشد.

(فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) : منع أثره عنه فلم يحقق لهن ما أردنه منه بما حصنه به من قوة الثبات على العفَّة .

التفسير

بعد أن تحقق لامرأة العزيز ما أرادت من اطِّلاع النسوة على جمال « يوسُف » عليه السلام وتأثرهن به أكثر من تأثرها به ، حتى وصل أمر الدهشة بهن إلى أن فقدن الإرادة والاختيار ، فجرحن أيديهن تجريحا من غير وعى ، وكأنهن كن يقطعن الطعام الذى بين أيديهن ، بعد أن تحقق هذا كله ، وجهت امرأة العزيز الخطاب إلى أولئك النسوة ، مبينة لهن أنها لم تكن مختارة فيما طلبته منه من المخالطة ، لشدة سلطان

جماله عليها ، وصرحت لهن بما كانت تنكره أمام زوجها عزيز مصر ، فقالت إنها هى التى راودته عن نفسه فامتنع ، وذلك ما قصه الله - تعالى - بقوله :

٣٢ - (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) :
وكلمة (فَذَلِكُنَّ): فيها إشارة (بذا) إلى يوسف ، وخطاب بحرف (كن) إلى النسوة .

والمعنى : قالت امرأة العزيز للنسوة اللاتى دعتهن لطعامها بعد أن فتنهن جمال يوسف : فذلك الذى فتنتن به وقطعتن أيديكن من أجله وقلتن إنه يشبه فى الحسن والجمال الملك الكريم ، هو يوسف الذى وجهتن إلىَّ الملام بسببه وقلتن عنى : « امْرَأَةُ العزيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » : وقد ملأ حبُّه قلبها ، ونحن نراها من أجل ذلك فى ضلال واضح ، فلم يعد لكنَّ بعد ذلك الذى حدث منكن بسبب جماله مايدعوكن للامى ، وإنى أؤكد لكن بصراحة أننى أنا التى طلبته لمضاجعتى فامتنع وبذل أقصى الجهد فى الإباء والتحفظ الشديد - وبعد أن بسطت العذر لهن عما كان منها ، هددته بأسلوب الملوك وأهل القهر فى جملة من التأكيدات قائلة :

(وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ) :

أى ولئن أصرَّ يُوسُف على إبائه ولم يفعل ما آمره به من المضاجعة ، ليوضعن فى السجن ، وليكونن فيه من الأذلاء .

ومما سبق تعلم أن يوسف - عليه السَّلام - لم يتجه بشهوته البشرية نحوها ، فقد ظل سنين عديدة تحت رعايتها وإكرامها وبين يديها ، ولم يتجه إليها بنظرة خبيثة ولا بعبارة نابية ، وذلك لكمال نفسه وطيب خلقه ، وإعداد الله إياه للنبوة التى تنتظره وقد تأكدت هذه العصمة الربانية وتجلت بأجلى مظاهرها ، حين دعته إلى مخالطتها وبذلت له من أساليب الإغراء ما بذلت ، لترفع بذلك عن نفسه الخشية منها وتهيب مقامها وتدفعه إلى الرغبة فيها والاجتراء عليها بعد أن أذلت له أنوثتها ، وأنه مع هذا الإغراء والتمكين التام ، امتنع وأبى قائلا : « مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ » فاستعاذ بالله ولجأ إليه ليعصمه منها ، ويحميه من شباكها ، وأكد هذا الامتناع بأنه لا يخون

سيده الذى اشتراه ورباه وأحسن مثواه ليثير بذلك وازع الأمانة فى نفسها نحو زوجها ، فلعله يستيقظ من سُباته فيكُفها عنه ، ولكنها أصرَّت ، فذهب إلى الأبواب ليفتحها ويهرب منها ، فهمت به تمنعه وتجذبه إليها ، وهمَّ بها يدفعها عن نفسه ويحاول أن يضربها لولا أن رأى فى نفسه حُجَّة ربِّه والهامه إياه أنه لو ضربها لاستخدمت هذا الضرب حجة لها على أنه هو الذى راودها عن نفسها ، ولما امتنعت ضربها ، فكف عن ضربها ، وتمت عصمة الله له ، وعند الباب الخارجى بوغتا معا بالعزيز فتتهمه المرأة بأنه أراد بها سوءًا ، ويكذبها قميصه الذى قُدَّ من دُبُرٍ ، ويقتنع العزيز ببراءته ويوصيه بأن يعرض عن هذا الأمر فلا يذيعه فى الناس ، ولكن نساء القصور يجدن دائما من يتطوع بإذاعة أخبارهن ، وهكذا كان الأمر بالنسبة لامرأة العزيز مع يوسف فلما تسرب أمرها مع يوسف إلى نساء الأمراء وعبن عليها ما فعلته مع غلامها الذى ترفع عليها وقاومها ، أرادت أن تقطع ألسنتهن عن غيبتها والتشهير بها ، بإيقاعهن فى شرك هواه والافتتان به مثلها ، فأعدت لهن مأدبة يُستعمل فى طعامها السكاكين ، وبينما هن يأكلن والسكاكين فى أيديهن يقطعن بها الطعام ، أخرجت يوسف عليهن ففوجئن بجماله الفتان فجرحن أيديهن بالسكاكين من شدة الذهول الذى أصابهن من جماله وقلن إعجابا به : « مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ » .

وكأنهن بهذه العبارة يقلن لها أنت معذورة فيما فعلت معه لروعة جماله وقوة تأثيره على النساء .

فلما ظفرت منهن بهذا الإقرار الذى يحمل معه الاعتراف بأنها معذورة فيما صنعت ، أجترأت على المصارحة بما لم تصرح به من قبل ، فقالت :

(فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) :

وبذلك التصريح كذبت نفسها فيما قالته لزوجها من أنه أراد بها سوءًا ، واعترفت بأنها هى التى راودته وأنه هو الذى امتنع أشد الامتناع وجاهد فى سبيل التخلص منها

وزادت على ذلك أنها مصرة على تحقيق رغبتها فيه من المخالطة لا يصرفها عنها لوم العوازل ، ولا إعراض الحبيب فقالت مهددة له :

(وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ) :

ليعلم يوسف أنها ليست فى أمرها معه على خفية ولا خيفة من أحد ، فتضيق عليه الحيل ، ولكي ينصحه أولئك النسوة بموافقتها ، وإزاء هذا كله ماذا صنع يوسف عليه السلام ـ هذا ما يجيب عنه قوله تعالى :

٣٣ـ (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ) :

أى قال يوسف بعد هذا التهديد والوعيد : يارب دخول السجن آثر عندى وأسهل وأهون من المخالطة التى يدعوننى إليها ، وإلا تصرف عنى كيدهن بتثبيتى على ما أنا عليه من العصمة والعفة ، وردعهن عنى ، أُجبهن إلى ما طلبنه منى بمقتضى الطبيعة البشرية ، وأكن بذلك من أهل الجهالة والسفه ، الذين لايعملون بما يعلمون ، فإن من لم يعنه الله على العفة والحصانة ، مع هذا الإغراء والقهر قد يخونه طبعه البشرى وجبلته ، وتتحكم فيه قوته الشهوية ، واعلم أن السجن فى ذاته ليس محبوبا ، كما أن إجابتها إلى ما طلبته كذلك ، فهى والسجن شرّان غير محبوبين له ، ولكن أهونهما وأقربهما إلى نفسه هو السجن ، ليتخلص به من الفاحشة الكبرى فلذا عبر فى جانبه بقوله :

(أَحَبُّ إِلَيَّ) : بمعنى أسهل علىَّ ـ على سبيل المجاز ـ وقد يقال إن أهون الشرين يحب أحيانا ، لأنه هو الوسيلة الوحيدة لتخليصه من شرٍّ أكبر وعلى أى حال فأفعل التفضيل على غير بابه .

ومما ينبغى التنبيه إليه أنه لم يرد فى النص الكريم أن النسوة المدعوات للمأدبة ، دعونه إلى الاستجابة لامرأة العزيز ، ولا إلى الفاحشة معهن ، فلهذا يحمل قوله تعالى : (مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) على أنهن لما تأثرن بجماله إلى درجة أنهن قطعن أيديهن دعونه إلى مطاوعتها ، بل ربما طلبن منه مثلما طلبت منه ، وقيل : إن ضميرجمع النسوة فى قوله : (مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)

إلخ راجع إلى امرأة العزيز إما للتعظيم لشأنها ، وإمّا للتعريض بدل التصريح ويرجح الرأى الأول قوله تعالى حكاية عن الملك : « قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ » (١)

٣٤ – (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

أى فتفضل عليه ربه الذى يتولى تربيته وحمايته فاستجاب له دعاءه الذى تضمنه قوله : « وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ » ولهذا ثبته وأيأسهن من موافقته لهن فصرف بذلك كيدهن عنه ، إنه – تعالى – عظيم السمع والعلم فلا يخفى عليه حاله ولا حال غيره ، وهكذا يستجيب الله سبحانه لأهل الصدق فى دعائه والاستعاذة به من كل مكروه .

(ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(بَدَا لَهُمْ) : ظهر للعزيز وأهل مشورته .

(الْآيَاتِ) : العلامات الدالة على براءته .

(أَعْصِرُ خَمْرًا) : أى أعصر عنبًا ، سمى باسم ما يؤول إليه لكونه المقصود .

(نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ) : أخبرنا بمآل ما رأيناه فى المنام .

التفسير

٣٥ – (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ) :

أى ثم ظهر للعزيز وأهل مشورته من بعد ما رأوا العلامات الشاهدة ببراءة يوسف وانحراف امرأته والعلامات الدالة على أنها مصرة على مخالطته غير مكترثة بالفضيحة .

(١) من الآية ، ٥١

بدا لهم من بعد ذلك أن يسجنوا يوسف -عليه السلام- حتى زمن تنقطع فيه الإشاعة ويبدو للناس من سجنه أنه هو الذى أرادها بسوء فلهذا عوقب، وليكون وجوده فى السجن حائلا بينها وبينه حتى لاتعود إلى مراودته .

تنبيه : لو أكره رجل على الزنى بالسجن فعليه الامتناع ولو سجن ، فإن فعل فهو آثم بالإجماع : انظر القرطبى فى تفسير الآية .

٣٦ - ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ :

يطلق الفتى على الشاب ، من الفتاء وهو الشباب ، ويطلق أيضًا على العبد صغيرًا كان أو كبيرًا كما قاله الماوردى .

وكان الفتيان اللذان دخلا السجن بصحبة يوسف عبدين للعزيز ، أحدهما ساقيه ، والآخر صاحب طعامه وقيل :خبازه ، وروى بشأنهما روايات لا سند لها فلذا ضربنا صفحًا عنها والمعنى : ودخل السجن مع يوسف فتيان من عبيد الملك ورأى كل منهما فى نومه حلمًا أحس بحاجته إلى تأويله لتستريح نفسه ، فإن السجين كثير الخوف من المستقبل محتاج إلى الطمأنينة وقد اعتاد البشر من قديم على الاستعانة بالأحلام للكشف بها عن المجهول ، وإذا لم يستطع الحالم تأويل حلمه لجأ إلى من يحسنه ويشتهر بذلك ، وكان يوسف -عليه السلام- يخبر السجناء ببعض الغيوب - كما سيأتى بيانه - فلهذا أخبراه بحلميهما ، قال أحدهما : إنى أرى فى منامى أننى أعصر عنبًا ليتحول إلى خمر بعد حين ، وقال الآخر : إنى أرى فى منامى أننى أحمل فوق رأسى خبزًا تنقره الطير وتأكل منه ، ثم قالا له بعد أن عرضا عليه حلميهما.

﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ :

أى أخبر كُلاًّ منّا بتأويل حلمه الذى عرضه عليك مفصلا : إنا نراك من الذين يحسنون تفسير الأحلام ، حيث إنك تعودت أن تفسر للسجناء أحلامهم قبل أن نرى حلمنا .

وتأويل الإحسان بذلك هو الأقرب إلى المقام ، حيث عرضا حلميهما عليه ، لأنهما جربا خبرته مع غيرهم فى تأويلها إلى درجة الإحسان .

ومن المفسرين من حمله على إحسان العلم ، وبه قال الفراء، ومنهم من حمله على الإحسان فى المعاملة وذلك لأنه كان يعود المرضى ويداويهم ، ويساعد المحتاجين ويواسى السجناء ويسرى عنهم ويصبرهم .

وقيل: معناه من المحسنين إلينا إن فسرته لنا وأرحت قلوبنا .

واختلف فى رؤياهما فقيل إنها مصطنعة وليست حقيقية ، فعن ابن مسعود : قال أحد الفتيين لصاحبه : تعال حتى نجرب هذا الفتى العبرانى ، فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئًا ، قاله ابن مسعود .

وقيل: إنها صحيحة وهو الظاهر ، قال ابن عباس ومجاهد : كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها ، ولذلك صدق تأويلها .

(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾)

التفسير

٣٧ - (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا) :

لما طلب السجينان من يوسف عليه السلام أن يعبر لهما حلميهما وقالا له : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أخبرهما بما يحقق صحة ما اعتقداه فيه من أنه ممن يحسنون تأويل الأحلام

تحدثاً بنعمة الله عليه ، وذلك أنه قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا أخبرتكما قبل حضوره إليكما بنوعه وأوصافه ، فقد كان من عادته - صلى الله عليه وسلم - أنه قبل حضور الطعام إليهما ، يقول لهما : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت ، فيجدانه كذلك بعد حضوره ، وأطلق التأويل على ذلك تشبيهاً له بتأويل الرؤيا ، فإنهما يشتركان فى الإخبار بالغيب .

ولما آنس منهما الثقة به وحسن الظن فيه ، حيث قالا له : « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أراد أن يفهمهما مصدر هذا الإحسان ، ومنشأ هذا العلم الذى تجلى به واستحق به صفة الإحسان ، فقال مخاطباً إياهما مشيراً إلى ما عنده من العلم .

(ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) :

أى ذلكما الذى عرفته من تأويل الرؤيا والإخبار بالمغيبات ، بعض ما علمنيه ربى بالوحى أو الإلهام من العلم ، فلست أخبركما به تكهناً فما أنا بكاهن ، وقد علمنى ربى إياها لأنى تركت ملة قوم مشركين لايؤمنون بالله على الوجه الذى يليق بجلاله ، بل يشركون معه غيره ، وهم بالآخرة هم كافرون ، فلا يؤمنون بالبعث ولا بالنشور ولا بالثواب ولا بالعقاب ، والمراد من تركه للتهم أنه لم يدخلها أصلا ، ولهذا قال فى الآية التالية : « مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ » .

٣٨ - (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ) :

أى تركت ملة الوثنيين من قومى ، حيث نشأت متبعاً ملة آبائى الذين أرسلهم الله لهداية الخلق إلى ملة التوحيد ، وهم إبراهيم ومن بعده ولده إسحق ، ثم حفيده يعقوب والد يوسف عليهم السلام .

(مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ) :

أى ماصح ولا استقام لنا معاشر الأنبياء ، أن نشرك بالله أى شىء من الكائنات العاقلة وغيرها ، فكلها مخلوقة لله وآيات شاهدات بوجود الله ووحدانيته ، فلا يصح أن نعبدها مع الله .

(ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) :

أى ذلك المنهج الذى سلكناه فى عقيدتنا ناشئ من فضل الله علينا ، حيث أيدنا بالنبوة وجعلنا أهلا لتبليغ رسالته إلى الناس ، وقيادتهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ومن فضله على الناس أيضا ، حيث وفقنا لإرشادهم إلى توحيده ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله بتوحيده وإجابة المرسلين إلى العمل بما جاءهم به ، مع أنه تعالى أقام الأدلة والآيات فى الأنفس والآفاق على استحقاقه وحده للعبادة .

(يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(يَاصَاحِبِى السِّجْنِ) :المراد بهما الفتيان اللذان دخلا معه السجن ، ورأيا فى منامهما الحلمين وعرضاهما عليه ليعبرهما لهما .

(أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ) : متعددون لا ارتباط ولا اتفاق بينهم .

(القَهَّارُ) : الغالب الذى لا يدانى فى قهره ولا يعارض فى مراده ، ولا يستعصى عليه جبار ولا يفوته مطلوب . (مِنْ سُلْطَانٍ) : من حجة .

(أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا) : أسماء اتخذتموها دون أن يكون لها مسميات على الحقيقة .

التفسير

٣٩ - (يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) :

بين الله تعالى فيما سبق من الآيات أن يوسف لما دخل السجن صحبه فتيان وأنهما رأيا حلمين ، وطلبا من يوسف عليه السلام أن يعبرهما ، وأن يوسف قبل أن يعبرهما ذكر للسجينين المذكورين أنه اعتاد معهما أن يخبرهما بالغيب قبل حدوثه ، فكان لا يأتيهما طعام إلا أخبرهما بنوعه وحاله ووصفه قبل مجيئه ، حتى إذا جاءهما كان على وفق ما حدثهما به ، ثم بين لهما أن مصدر العلم بذلك هو الله ربه ، فهو الذى علمه إياه ، ولم يكن من باب الكهانة والتنجيم ، وأنه ترك ملة قومه المشركين ، فلم يشاركهم فى شركهم وكفرهم بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وأنه لايصح له ولا لأحد أن يشرك بالله شيئا ، وأن معرفة البشر بوحدانيته تعالى من فضل الله عليهم .

وجاءت هذه الآية لإقامة الدليل لصاحبي السجن على فساد الشرك ، وبيان أن الحكم فى أمر العباد ليس إلا لله تعالى ، وأنه جل وعلا أمر أن لا يعبد أحد سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، لإفسادهم فطرتهم وسوء اختيارهم ، وأنت ترى من عرض هذه المعانى لتلك الآيات ، أن يوسف عليه السلام - لم يتعجل إجابة صاحبي السجن بتفسير حلميهما كما طلبا ، بل بدأ يمارس معهما ما أعده الله له من النصح والإرشاد لعباده ، والهداية إلى توحيده وعبادته ، كما هو شأن آبائه المرسلين عليهم السلام . وكان يرجو بذلك أن يهديهما الله تعالى إلى الحق ، فمن اهتدى منهما كان من أهل النجاة والسعادة ، ومن نجا منهما كان داعيا لمن حوله من بطانة العزيز إلى توحيد الله تعالى ، وكأنه يقول لهما : عندى العلم بتأويل رؤياكما فأنتما تعلمان أنه لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما بتأويله قبل أن يحضر إليكما ، ولكن تعالوا فاسمعوا أولا ما يطهر عقيدتكما من الشرك ، ويهديكما إلى معرفة الواحد الديان قبل أن أعبر لكما رؤياكما ، ثم قص عليهما مصدر علمه بالتأويل ، وتحدث عن ملة إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وأنه لا يصح الإشراك بالله ، لأنه لو تعددت الآلهة وتفرقت لفسدت السموات والأرض ، وهذا المعنى الأخير هو الذى أشار إليه قوله تعالى حكاية عنه :

(يَاصَاحِبَىِ[1] السِّجْنِ ءأَرْبَابٌ مُتفرِّقونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ) :

والمراد بصاحبي السجن الفتيان اللذان دخلا السجن معاقبين معه : وناداهما بعنوان الصحبة له فى السجن لأن السجن مدار الأشجان ، ودار الأحزان ، التى تصفو فيها مودة نزلائه فلهذا ناداهما بعنوان الصحبة له ، ليقبلا عليه ويقبلا منه ما ينصحهما به .

والمعنى : يارفيقى اللذين رافقانى وصحبانى فى السجن أخبرانى : أأرباب شتى متفرقون لا ارتباط بينهم ولا اتفاق ، خير لهذا الكون ، أم الله المنفرد بالألوهية والخلق والإيجاد . الغالب لكل ما فى السموات والأرض ، فلا يتعاصى عليه مقدور فيهما ، ولا يمتنع عليه أن يخلق غيرهما ، فكيف يعبد المشركون سواه ، مع أنه مخلوق لله ، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا

وبعد أن نبه يوسف صاحبي السجن إلى فساد تعدد الأرباب ، بين لهما سقوط منزلتها وفقدان أهليتها للربوبية فقال لهما كما يحكيه الله تعالى :

٤٠ - (مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ) :

الخطاب فى قوله (مَا تَعْبُدُونَ) لصاحبي السجن وقومهما ، ولذا قال بعد ذلك (سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآباؤُكُم) بخطاب الجماعة أو المراد بالجمع مافوق الواحد ، ثم عطف عليهم آباءهم .

والمعنى : ما تعبدون ياقوم عزيز مصر إلا أسماء ليس لها مسميات فى الحقيقة فكل ما عبدتموه وأطلقتم اسم الألوهية عليه لا يستحق الألوهية ، وتكون عبادتكم لتلك التى زعمتموها آلهة ، عبادة أسماء ليس لها مسميات فى الواقع .

(مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) :

أى ما أنزل الله بألوهيتها من حجة تصحح ألوهيتها وتسوغ عبادتها .

(إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ) : ماالحكم فى الألوهية وغيرها إلا لله سبحانه ، والله لم يحكم بها لأحد سواه ، لأنه لا إله غيره ، ولا يستحق الألوهية سواه فكل ما عداه عبده ومحتاج إليه ، فلهذا (أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) : وعقب هذا بقوله (ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ) .

---

(١) أصله يا صاحبين لى فى السجن فأضيف الصاحبان إلى السجن الذى هو ظرف لهما وموضع لصحبتهما ، ومن هذا الاستعمال قول العرب : يا سارق الليلة أهل الدار : أى ياسارقا فى هذه الليلة أهل الدار .

هكذا يحكي الله تعالى ما دار بين يوسف وصاحبيه فى السجن وخلاصته : أنه أعلمهما أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة لا تصلح للألوهية ، وأنها أسماء بلا مسميات وألوهيتها دعوى بغير دليل ، وأن المستحق للألوهية هو الله وحده ، ولهذا لم يحكم بها لسواه ، بل أمر أن لا يعبدوا غيره ، وأخبر أن ذلك هو الدين المستقيم الذى أجمعت على استقامته وصحته الأدلة النقلية والعقلية ، ثم قال :

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) :

أي ولكن أكثرهم يجهلون أن ذلك هو الدين المستقيم دون سواه ، لأنهم لم يستعملوا عقولهم فى الاستدلال على الحق سبحانه بآياته .

وبعد أن بين يوسف عليه السلام لصاحبي السجن أن عبادة الله تعالى هى الحق ، وأنها خير لهما من عبادة الأرباب المتفرقين الذين ليس لهم من صفة الألوهية أدنى نصيب ، وأن الحكم لله وحده فى الكون كله ، فلا ألوهية لأحد سواه ، وأنه تعالى أمر أن لا يعبدوا إلا إياه ، وأن هذا هو الدين القيم - بعد أن بين لصاحبي السجن كل ذلك - شرع يعبر لهما ما رأياه فى النوم ويفسره لهما فقال :

(يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾)

المفـردات :

(فَيَسْقِى رَبَّهُ) : أى فيسقى سيده . (تَسْتَفْتِيَانِ) : تطلبان الفتيا .

(عِندَ رَبِّكَ) : عند سيدك . (بِضْعَ سِنِينَ) : البضع ، العدد من الثلاث إلى التسع ، واشتهر أن يوسف مكث فى السجن سبع سنين .

التفسير

٤١ - (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ) :

كرر يوسف النداء هنا لصاحبي السجن بعد أن أطال الحديث معهما فى دعوتهما إلى الحق ، تنبيهًا على أنه سيدخل بهما موضوعًا آخر مغايرًا له ، وهو تعبير حلميهما الذى طلباه ، يقول يوسف : يا صاحبي فى السجن ، إليكما تعبير رؤيا كليكما ، أما أحدكما - وهو الذى رأى فى منامه أنه يعصر خمرًا - فإنه يعود إلى خدمة سيده الملك بعد أن يعفو عنه ويخرج من السجن ، وسيقوم على شرابه فيسقيه خمرًا ، وأما الآخر - وهو الذى رأى فى منامه أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل منه الطير - فإنه يصلب فتأكل الطير من رأسه ، ثم أغلق الباب دون التساؤل أو التضرر مما أفتاهما به فقال :

(قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) :

أى أتِمَّ الأمر الذى كنتما تستفتيان فيه وأحكم ، ولم يعد فيه مجال للافتراض أو العدول عنه ، فهو إخبار موافق لما علمه ربه إياه وأرشده إليه ، وليس فيه حدس ولا تخمين ، والمراد بالأمر الذى فيه يستفتيان : ما رأياه من الرؤيين ، وليس المراد مآلهما الذى هو نجاة أحدهما وهلاك الآخر - كما قال العلامة أبو السعود - فكأنه قال - عبرت لكما رؤييكما وأنا واثق من صدق تعبيرهما .

٤٢ - (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) :

أى وقال يوسف للسجين الذى ظن نجاته من صاحبي السجن - وهو الذى رأى فى منامه أنه يعصر لسيده الملك خمرًا - وأفتاه بأنه سيعود إلى خدمته ، قال يوسف لهذا السجين : اذكرنى عند سيدك الملك حين تعود إلى خدمته ، وحدثه عن تعبيرى لرؤياك ورؤيا صاحبك حتى تحقق أمرهما على ما أخبرتكما ، وأخبره أننى مظلوم حبست بلا ذنب ، لعله يخرجنى من السجن ، ويمحو هذا الظلم عنى .

وكان يوسف يرجو أن يسارع بإخبار الملك حين يعود إلى خدمته ، وفاء بعهده معه ، وإدراكًا منه لما يقاسيه السجين فى السجن من العذاب النفسى ، والحرمان من الحرية ، فقد شاركه فى ذلك . ولكن الشيطان الذى يكره الوفاء بالعهد أنساه تذكير سيده الملك بأمر يوسف ، حيث شغل قلبه بما استجد له من نعمة الحرية والعودة إلى العمل فى قصر الملك ، وشواغل الخدمة المتتابعة لسيده . فمكث يوسف فى السجن بعد خروج صاحبه السجين بضع سنين - والبضع من الثلاث إلى التسع كما تقدم - ويقال إنه مكث فى السجن سبع سنين .

وأعاد بعض المفسرين الضمير فى قوله تعالى :(فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) إلى يوسف عليه السلام . أى فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه سبحانه . فلجأ إلى صاحبه السجين وقال له : اذكرنى عند ربك - أى سيدك الملك - فعاقبه الله بأن أبقاه فى السجن بضع سنين ، جزاء له على تركه الاعتماد على الله تعالى . والميل فى طلب النجاة إلى عبد من عبيده . وكان عليه أن يشكو إلى الله ويستغيث به .

وأصحاب هذا القول اعتمدوا على أحاديث واهنة لا يصح الأخذ بها . ومايظن أحد من المنصفين وأهل التحقيق أن يوسف ترك الشكوى إلى الله . وهو الذى استعاذ بالله من خيانة العزيز الذى أحسن مثواه . وعف عن الحرام والإثم الذى كانت تدفعه إليه زوجته الخاطئة بشتى المغريات . وهو الذى دعا السجينين إلى توحيد الإله سبحانه وترك الأرباب المتفرقين ، الذين هم أسماء بلا مسميات . والحق ما قلناه أولا من أن الذى أنساه الشيطان ذكر ربه هو ساقى الملك . والدليل الحاسم على ذلك هو قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ » : أى وقال الذى نجا منهما وتذكر يوسف بعد مدة طويلة : الخ ، كما أنه لا مجال لأن يتسلط الشيطان على نبى فينسيه ذكر ربه وهو يقول سبحانه : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ »[1] على أن الأخذ بالأسباب مشروع قال تعالى : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ »[2] .

(١) الإسراء ، من الآية: ٦٥ (٢) الملك ، من الآية: ١٥

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾)

المفـردات :

(عِجَافٌ) : جمع عجفاء على غير قياس[1] والعجفاء الهزيلة . (الْمَلَأُ) :الأشراف والمراد بهم هنا الكهان والحكماء . (أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ) : فسروها لى وبينوا عاقبتها .

(أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) : أخلاط أحلام لاتؤول ، والأضغاث جمع ضغث ، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ، وقد استعير للرؤيا الغامضة لفظ الأضغاث ، لأنها أخلاط من أحاديث العقل الباطن وخيالاته ومخاوفه وآلامه وآماله .

التفسير

٤٣ ـ (وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّى أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) :

بعد أن عبر يوسف الرؤيين وتحقق تأويله لهما ، حيث قتل الخباز وصلب ، وأخرج الساقى من السجن وأعيد إلى خدمة الملك ، بقى يوسف فى السجن ، ونسى الساقى أمره ، فساق الله سببًا يخرج به يوسف من السجن عزيزًا كريمًا ، وذلك أن ملك مصر رأى فى منامه رؤيا أزعجته ، فجمع كبار الكهنة والحكماء فى مملكته وقال لهم مستحضرًا للصورة التى شاهدها فى منامه : إنى أرى سبع بقرات سمان ، يأكلهن سبع بقرات فى غاية الهزال ، وأرى سبع سنبلات خضر قد امتلأت بالحب ولم تجف بعد ،

(١) القياس أن تجمع على عجف كحمراء وحمر .

وسبع سنبلات أُخر قد يبست وجف حبها ونضج ، وبعد أن قص هذه الرؤيا على حكمائه ومستشاريه من الكهنة ناداهم قائلا :

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ) :

أى يأيها الرؤساء من الكهنة والحكماء فسروا لى رؤياى ، وبينوا لى حكمها ومآلها ، إن كنتم لجنس الرؤيا تعرفون تفسيرها ، حتى تستطيعوا أن تنتقلوا من الصور الرمزية المشاهدة فى المنام ، إلى صور وأمثلة لها فى حقائق الحياة ، وعَبْرُ الرؤيا مأخوذ من العبور وهو المجاوزة ، تقول عبرت النهر أى قطعته وجاوزته ، وكذلك يفعل مفسر الرؤيا ، فإنه يعبر بها من الخيال إلى الحقيقة ، أما تأويلها فمعناه بيان مآلها فى ظاهر الحياة ، وعبر الرؤيا وتعبيرها بمعنى واحد ، غير أن الأول لغة القرآن ، فهو أولى من الثانى ، وبعد أن سألهم إفتاءه فى رؤياه إن كانوا يستطيعون عبر الأحلام أظهروا عجزهم ، وذلك ما يحكيه الله تعالى بقوله :

٤٤ - (قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ) :

أى قال الملأ من الكهان والحكماء : هذه الرؤيا أخلاط أحلام كأضغاث النبات المختلطة ، فلا تأويل لها عندنا ، يريدون بذلك أن يخرجوا رؤيا الملك من جنس الرؤى الصادقة التى يمكن تأويلها لأهل العلم ، وأن يجعلوها من جنس الأحلام الكاذبة ، التى لا يستطاع تأويلها ، ولهذا قالوا : (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ) ويجوز أن يكون هذا القول منهم اعترافًا بقصور علمهم عن تأويل الأحلام مطلقًا لأنهم ليسوا بنحارير[1] - كما قال أبو السعود - وإطلاق الأحلام على الكاذب منها والرؤى على الصادق منها عرف غالب ، وإن كان كلاهما عامًا فى الصادق والكاذب ، ولهذا قالوا أخلاط أحلام ، يريدون أنها ليست من الأحلام الواضحة التى يمكن تأويلها ويصدق مدلولها وقد سوى صاحب القاموس بينهما بقوله : الحلم بالضم وبضمتين الرؤيا .

---

(١) أى ليسوا علماء متعمقين فى تأويل الأحلام مع أن لها تأويلا .

(وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) : قرئ بضم همزة (أُمَّةٍ) وتشديد ميمها مفتوحة[1] . أى وتذكر بعد جماعة كثيرة من الزمن ، قال الأخفش : هو فى اللفظ واحد . وفى المعنى جمع : أ هـ ، وكل جماعة كثيرة فهى أمة . (ٱلصِّدِّيقُ) : الكثير الصدق .

التفسير

٤٥ ـ (وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) :

أى وبعد أن عرض الملك رؤياه على رهبانه وحكمائه ، وعجزوا عن تأويلها قائلين «وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ» قال الذى نجا من صاحبى يوسف فى السجن ، والتحق بخدمة الملك ساقيًا له ، وقد تذكر يوسف وقدرته العظيمة على تأويل الرؤيا ، وأنه أوصاه أن يذكره عند سيده لعله يخرجه من السجن لأنه مظلوم «وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا» للملك وأهل مجلسه : أنا أخبركم بتأويل حلم الملك بعد أن أعرفه من عليم بتأويل الأحلام فأرسلونى إليه لأسأله .

٤٦ ـ (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ) :

أى فأرسلوه إليه . فناداه نداء يشتمل على الثقة بصدقه العظيم فى أمره كله ، وبخاصة فى تأويل الرؤيا حسبما جربه منه وشاهد أحواله ، إذ قال له فى براعة استهلال : يا يوسف

(١) وقرئ (بعد أمة) بكسر الهمزة وتشديد الميم ، ومن معانيها . النعمة ورغادة العيش ، وقرئ (بعد أمة) بهمزة مفتوحة . وميم مفتوحة مخففة وهاء مهملة . أى بعد نسيان . ومنه قول الشاعر :

أمهت وكنت لا أنسى حديثا كذاك الدهر يودى بالعقول

أيها البليغ الصدق : أفتنا فى رؤيا سبع بقرات سمان . يأكلهن سبع بقرات شديدة الهزال وأفتنا فى سبع سنبلات خضر مليئة بالحب وسبع سنبلات أخر يابسات ناضجات الحب ، وبين لنا مآلها وحكمها فى عالم الشهادة .

وإنما قال ليوسف (أفتنا) بضمير الجمع مع أنه وحده هو المستفتى ، للإشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له شأن فى أمور الناس . وأنه فى حكايتها سفير لغيره ، ولهذا ختم استفتاءه بقوله :

(لَعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) :

أى لكى أرجع إلى من بيدهم الأمر ليعلموا تأويلها ويعملوا بمقتضاه ، وليعلموا فضلك ومكانك العلمى العظيم مع ما أنت فيه من الحال ، فينتبهوا إليك ويخلصوك مما أنت فيه .

ولم يقل : لأرجع إلى الناس ليعلموا ، بل عبر بأسلوب الرجاء (لَعَلِّىٓ أَرْجِعُ) الخ جريًا على نهج الأدب مع يوسف ، واحترازًا عن المجازفة بأسلوب اليقين ، لأنه لم يكن على يقين من رجوعه ، فربما اخترمته المنية قبل أن يعود إلى مجلس الملك ، كما أنه لم يكن على يقين من بقائهم حتى يعلمهم ، فإن العالم بذلك كله هو الله – تعالى – وحده .

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾)

المفـردات :

(دَأَبًا) : مصدر دأب فى العمل – أى جدَّ فيه . (سَبْعٌ شِدَادٌ) : سبع سنين صعاب على الناس . (مِّمَّا تُحْصِنُونَ) : مما تدخرون من البذور . (يُغَاثُ ٱلنَّاسُ) : من الغيث أى يمطرون فى

وقت الحاجة ، يقال غِيثَتْ البلاد إذا مطرت فى وقت الحاجة ، ولذا يسمى المطر فى هذه الحالة غيثا ويصح أن يكون من الغوث ، يقال أغاثنا الله أى أمدنا برفع المكاره حين داهمتنا .

التفسير

٤٧ - (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ) :

لما انتهى رسول الملك من إخبار يوسف برؤيا الملك التى أزعجته ، أول يوسف البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبات ذات زروع وثمار كثيرة ، وأول البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بسنين مجدبة تؤكل فيها حبوب جافة مخزونة فى سنابل جافة ، ووصف الطريقة التى يجتازون بها أزمة المجاعة فى سبع سنين متتابعة ، فقال لسائله بعد إحساسه وإدراكه أن السائل هو الملك : تزرعون الأرض سبع سنين دائبين جادين غير متوانين ولا كسلين ، حتى تجود الأرض بأقصى خيراتها وأغزر ثمارها وحبها ، فتلك السنوات السبع ذات الزروع والثمار الغزير هى تأويل البقرات السبع السمان والسنابل الخضر اليانعات ، فما حصدتموه فى كل سنة فاتركوه واختزنوه فى سنابله ولا تجردوه لكى ينجو من أكل السوس ، إلا قليلا من حبها تعدونه للأكل كل عام فليس عليكم بأس من تجريده من سنابله .

فأنت تراه قد استدل على زراعة القمح سبع سنين دأبا بالسنبلات السبع الخضر فهى إشارة إلى السنوات السبع الخصيبة ، واستدل على تخزين القمح فى سنابله سبع سنين بالسنبلات السبع اليابسات ، واستدل على أن السنوات السبع الأخيرة ستكون جدباء وأنه يجب الاحتياط لها بتخزين الطعام ، استدل على ذلك بالبقرات السبع العجاف التى أكلت البقرات السبع السمان كما سيأتى بيانه ، ويبدو أن تخزين القمح فى سنابله لمدة طويلة تصل إلى سبع سنين لم يكن معروفا لدى قدماء المصريين ، فقد كانوا يزرعون لكل عام ولا يحرمون من فيضان النيل سبع سنين متتابعة فلذا أرشدهم يوسف إلى هذه الطريقة المثلى فى التخزين لمدة طويلة ، ولا عجب فى أن يخبرهم بما

يوسف - عليه السلام - مع أنه لم يألف مثل ذلك ، فقد علمه ربه علومًا كثيرة ، وحسبك دليلا على ذلك قوله لصاحبي السجن : « ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ » .

وقد قال القرطبي تعليقًا على هذه الآية ما يلي :

هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يفوت شيئًا منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة ، ولا خلاف فى أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ، ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ومراعاة ذلك فضل من الله - عز وجل - ورحمة رحم بها عباده من غير وجوب عليه الخ .

ثم شرع يوسف يبين بقية التأويل فقال :

٤٨ - (ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ) :

أى ثم يأتى من بعد السنين الخضراء التى تجدون وتتعبون فى الزرع فيها فتأكلون منه وتدخرون من حبه - يأتى من بعد ذلك - سبع سنين صعاب على الناس يأكلن ما قدمتم لهن من الحب المتروك فى سنابله إلا قليلا مما تدخرونه منها لبذور الزراعة ، وإسناد الأكل اليهن مع أن الآكلين هم الناس ، على سبيل المجاز كما فى قولهم : نهاره صائم ، وفى هذه الآية تأويل أكل البقرات السبع العجاف التى هى رمز للسنوات السبع الجدباء للبقرات السبع السمان التى هى رمز للسنوات السبع الخصبة .

٤٩ - (ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) :

أى ثم يأتى من بعد ماذكر من السنين الخصيبة والجدباء عام فيه يمطر الناس بالغيث الذى كانوا محرومين من تتابعه وغزارته سبع سنين ، وفيه يعصرون ما يقبل العصر من الثمار والحب وغيرهما ، كالعنب والزيتون والسمسم والقصب . وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع .

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

المفردات :

(مَا بَالُ النِّسْوَةِ) : ماحالهن .

(ما خَطْبُكُنَّ) : ما شأنكن ، والخطب الأمر الذى يستحق أن يخاطب المرءَ فيه صاحبه .

(قُلْنَ حَاشَ لِلهِ) :تنزيها لله وتعجبًا من نزاهة يوسف .

(حَصْحَصَ الْحَقُّ) : وضح بعد خفاء ، وأصله بمعنى تبينت حصة الحق من حصة الباطل.

(لَايَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ) : أى لا ينفذه ولا يوصله إلى غايته .

التفسير

٥٠ ـ (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَابَالُ النِّسْوةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) :

بعد أن سمع رسول الملك من يوسف تأويل الرؤيا عاد وأخبره بما سمعه من يوسف ، ويبدو أنه حدثه بعلمه وفضله وخلقه وأنه قد حبس ظلمًا سنين كثيرة ، فعرف فضله على خاصته وكهّانه وأدرك أن حقه فى الحرية والكرامة ينبغى أن يرد إليه .

وقال : ائتونى بيوسف ، فلما جاءه الرسول يدعوه إلى لقاء الملك لم يشأ أن يجيبه إلى طلبه قبل أن تظهر براءته ، بل قال له : ارجع إلى سيدك فاسأله ماحال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ودعونه إلى الفحشاء ، يريد بذلك أن يحقق الملك فى شأنهن معه ليعلم نزاهته مما نسبته إليه من مراودته إياهن .

وإنما لم يتعرض يوسف لامرأة العزيز مع أنها أصل البلاء ، محافظة على حقها ، وتفاديا لمكرها ، وأما النسوة فقد كان يطمع فى شهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ، لذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الأيدى . ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن أطع مولاتك ، واكتفى بالإيماء إلى ذلك بقوله :

(إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) : مجاملة لهن . واحترازا من خصومتهن له دفاعا عن أنفسهن ، إذا سمعن أنه ينسبهن إلى الفساد .

٥١ - (قَالَ مَاخَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ) :

قال الملك لما جاء الرسول بطلب يوسف أن يحقق مع النسوة : ماشأنكن حين راودتن يوسف وخادعتنه عن نفسه بترغيبه فى إطاعة مولاته هل وجدتن فيه من سوء وريبة .

(قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ) .

أى قلن مجيبات للملك : « حَاشَ لِلَّهِ » أى تنزيها لله . يردن بذلك تبرئة يوسف والاعتراف بنظافته وعفته . ولذا عقبن هذه العبارة بما أردنه منها وهو قولهن :

(مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ) : مبالغة منهن فى نزاهة يوسف عن جنس السوء . فضلا عن الفحشاء .

(قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ) : مقرة بالحق فى مجلس التحقيق .

(الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ) : أى الآن فى هذا المجلس تبين الحق ووضح بعد خفاء ، أنا راودته عن نفسه

(وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) : فى تنزيه نفسه عن مراودته لى عن نفسى ، وهكذا يحق الله - تعالى - الحق على رؤوس الأشهاد ، إظهارا لكرامة الصادقين من عباده ، وبذلك تحقق ليوسف ما أراده من ظهور براءته ونزاهته قبل خروجه من السجن فى هذا المجلس الحافل ،

حتى يطمئن الناس إلى طهره يقينا ، ولا سيما العزيز الذى رباه ، ولذلك قال يوسف عقيب ذلك .

٥٢ ـ (ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ) :

أى ذلك الذى تقدم من البقاء فى السجن حتى يسأل الملك النسوة ، وتظهر براءتى مما نسبته امرأة العزيز إلىَّ ، ليعلم العزيز قبل خروجى من السجن علمًا صادرًا عن اعتراف زوجته ـ ليعلم ـ أنى لم أخنه بالغيب وراء الأبواب المغلقة والستور المرخاة ، كما زعمت امرأته ، وليعلم أيضًا أن الله تعالى لا يُنَفِّذ كيد الخائنين ، ولا يوصله إلى السداد بل يبطله كما فعل بزوجته ولو كنت خائنًا له فيها لفضحنى ولم يهد كيدى كما فعل بها .

ويعلم مما تقدم من التأويل أن هذه الآية حكاية لما قاله يوسف ـ عليه السلام ـ تبريرًا لإصراره على إظهار براءته قبل خروجه من السجن ، حتى لا يحمل خروجه قبل ذلك على أنه من باب العفو عنه مكافأة له على تأويل رؤياه ، ولعله قال مضمون هذه الآية : (ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ) الخ بعد أن عاد إليه رسول الملك وأخبره بما جرى فى مجلس التحقيق من ظهور براءته ، وعلى هذا التأويل يكون قوله تعالى : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى » .

حكاية لكلام يوسف بعد ما ظهرت براءته بإقرار النسوة أمام الملك وجلسائه .

وقيل إن الآيتين حكاية لكلام امرأة العزيز ، ومعنى هذه الآية على أنها حكاية لكلامها : ذلك الذى قلته عن يوسف وهو غائب عن هذا المجلس وحبيس فى السجن من أننى راودته عن نفسه ، ليعلم أنى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال غيبته عن هذا التحقيق ، بل قلت الحق الذى أنكرته عبر هذه السنين ، وليعلم أن الله لا يهدى كيد الخائنين .

وسيأتى بيان قوله تعالى « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » على الوجهين المذكورين .

واعلم أن يوسف ـ عليه السلام ـ بلغ من النزاهة وكرم النفس مبلغًا عظيمًا وحسبك أنه لم يتعجل الخروج قبل أن تظهر براءته علنية على هذا النحو المشرف ، مع أنه

لبث فى السجن سنين كثيرة قال ابن عطية تعليقًا على ذلك :كان هذا الفعل من يوسف أناة وصبرًا ، وطلبًا لبراءة الساحة ، وذلك أنه خشى أن يخرج وينال من الملك مرتبة فيقول الناس : هذا هو الذى راود امرأة مولاه ، وقد صفح عنه الملك ، ويراه الناس أبدًا بتلك المنزلة ، فأراد أن يبين براءته ، ويحقق منزلته من العفة والخير ، ويخرج بعد شرف البراءة ليحظى من الملك بالمرتبة السنية على طهر وكرامة ، فلهذا قال للرسول : ارجع إلى ربك لينظر فى أمرى : هل سجنت بحق أو بظلم : ا هـ ملخصًا ولقد أعظم النبى – صلى الله عليه وسلم – مكانته من الصبر والنزاهة وعزة النفس والكرامة فقال :

« إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ[1] يُوسُفُ بنُ يَعْقُوبَ بنِ إِسْحٰقَ ابنِ ابْراهيمِ قال – وَلَوْ لَبِثْتُ فِى السِّجْنِ مَا لَبِثَ ثُمَّ جاءَنى الرَّسولُ أَجَبْتُ – ثم قرأ : « فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ».

الحديث : أخرجه الترمذى فى صحيحه – والحديث مروى فى الصحاح بعبارات متقاربة .

والنبىّ – صلى الله عليه وسلم – مع كونه يشير فى الحديث إلى مكانة يوسف من الصبر والنزاهة ، لكنه يومئ إلى أنه بالغ فى ذلك ، وأنه كان الأحوط أن يخرج حتى لا يعدل الملك عن إخراجه لأنه لم يجب طلبه بالحضور إليه ، ولأن هذه المرأة إن كانت زوجته أو زوجة وزيره فإن سؤال النسوة عنها سينتهى إلى فضيحتها ، فربما عدل عن سؤالهن لذلك ، وآثر إبقاءه فى السجن ، لا شتراطه للخروج شرطًا يؤدى تحقيقه إلى هذه الفضيحة ، فيظل مسجونًا ظلمًا .

وقال ابن عطية : فإن قيل : كيف مدح النبى – صلى الله عليه وسلم – يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج ، ثم يذهب بنفسه عن حالة مدح بها غيره ، فالوجه فى ذلك أن النبى – صلى الله عليه وسلم – إنما أخذ لنفسه وجهًا آخر له جهة من الجودة

---

(١) تكررت (ابن الكريم) ثلاث مرات .

يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج ، ثم حاولت بيان عذرى وبراءتى بعد ذلك . لأن هذه القصص والنوازل معرضة لأن يقتدى بها الناس إلى يوم القيامة . فأراد الرسول - صلى الله عليه وسلم - حمل الناس على الأحزم من الأمور حتى لاتضيع فرصة الخروج من السجن فى مثل ذلك ، وتنصرف نفس مخرجه عنه . وإذا كان يوسف قد أمن ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لايأمن ذلك فالحالة التى ذهب النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه إليها حالة حزم . وما فعله يوسف عليه السلام صبر وجلد : انتهى ملخصًا .

﴿ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

التفسير

٥٣ - (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

قلنا فى آخر الجزء السابق يحتمل أن تكون هذه الآية والتى قبلها من قول يوسف عليه السلام أو من قولِ امرأة العزيز ، وقد شرحنا الآية السابقة على الوجهين . وفيما يلى شرح هذه الآية عليهما :

إذا كانت هذه الآية من قول يوسف يكون معناها : وما أبرئُ نفسى عن السوء والخطيئة بغير معونة من الله سبحانه ولا أُسْنِد إليها هذه الفضيلة باعتبار طبعها من غير توفيق من الله تعالى ، فإن النفس البشرية فى حد ذاتها لداعية إلى السوء ، مائلة إلى الشهوات ، إلا ما رحم ربّى من النفوس بعصمتها من الوقوع فى المهالك ، وفى جملتها نفسى ، إن ربى لعظيم الغفران لما يحدث من النفوس بموجب طبعها ، عظيم الرحمة لها بعصمتها من الخطيئة التى تسوقها إليها بشريتها ، وإنما يقول ذلك يوسف - عليه السلام - هضمًا لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء ، وإبعادًا لها عن الإعجاب بما وصلت إليه من كمال النزاهة .

وإذا كانت هذه الآية من كلام امرأة العزيز يكون معناها : وما أبرئُ نفسى مع ذلك من الخيانة ، حيث قلت فى حق يوسف ما قلت ، وفعلت به ما فعلت ، إنَّ كل نفس لأمارة بالسوء إلا نفسًا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف عليه السلام ، إن ربى غفور لمن استغفر لذنبه ، رحيم له بقبول استغفاره .

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾).

المفـردات :

(أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى) : أجعله خالصًا لى أى خاصًّا بى .

(مَكِينٌ أَمِينٌ) : ذو مكانة رفيعة مؤتمن على كل شىء .

(حَفِيظٌ عَلِيمٌ) : قوى الحفظ كثير العلم .

التفسير

٥٤ - (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى) :

ولما ثبت للملك براءة يوسف مما نسبته امرأة العزيز إليه ، وتحقق أنه أمين لايخونه بالغيب ، وأدرك صبره وجلده وإيثاره السجن على ما تدعوه إليه امرأة العزيز وصواحباتها وعرف مبالغته فى حماية نفسه من قالة السوء ، بطلبه التحقيق مع أولئك النسوة قبل خروجه من السجن ليتلقاه الملك نظيفًا محكومًا ببراءته ، بدلا من أن يقابله قبل ذلك متهمًا عفا عنه الملك لأنه أوّل رؤياه لا لأنه برىء - ولمَّا ثبت للملك كل ذلك - قال الملك لرجاله : أحضروا إلىّ يوسف أتخذه خالصًا لنفسى فى تدبير أمور مملكتى وليكون صاحب مكانة خاصة عندى .

وإذا نظرت إلى أسلوب الملك فى طلب إحضار يوسف إليه فإنك تراه أولًا بعد أن علم بتأويله رؤياه قال : (ائْتُونِى بِهِ) ولم يزد على ذلك ، فلما ظهر إباؤه ووضحت أمانته وعفته فى قصة امرأة العزيز ، عظمت منزلته عنده ، فطلبه ليكون ذا مكانة ممتازة لديه

خاصة به، بحيث لا يكون لأحد سلطان عليه سواه، وذلك بقوله :

(ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى) . وهكذا يرفع الله درجات أهل العلم والأمانة والعفة .

(فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) :

أى فأتوا بيوسف فلما كلم يوسفُ الملكَ بما يناسب لقاء الملوك الذين يَرُدون الحق لأهله وينصفون المظلوم ، قال له الملك إنك يا يوسف عندنا ابتداء من هذا اليوم ذو مكانة رفيعة ومنزلة ممتازة ،وإنك أمين على كل شيء لدينا ، بعد ما عرفناه فيك من العلم والشرف والأمانة .

وبعد أن اختار الملك يوسف مستشارًا له فيما هو مقبل عليه من أمره كله ، وأعلمه بأنه عنده ذو مكانة ممتازة ابتداء من هذا اليوم الذى يحدثه فيه ، وأنه أمين عنده أمانة مطلقة ليست لها حدود ، وبعد أن علم يوسف ما تحتاج إليه أرض مصر وأهلها فى السنين السبع الخصيبة والسنين السبع العجاف من حسن التدبير والحزم والحفظ والعلم والأمانة وأن ذلك كله قد منَّ الله عليه به – بعد أن حدث كل ذلك – عرض يوسف على الملك أن يعهد إليه بإدارة البلاد وذلك ما حكاه الله بقوله :

٥٥ – (قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ) :

أى اجعلنى واليا على مصادر خيرات أرض مصر ، زراعة وحصادا ، وإيرادا وصرفا ، وبيعا وخزنا ، وتدبيرا ، فإنى حفيظ لها من التبذير والتقتير والإفراط والتفريط ، عليم بوجوه التصرف فيها والحفظ لها ، وقد كان يوسف فى كل ذلك أقدر من غيره .

وفى الآية دليل على جواز طلب الولاية ، إذا كان طالبها قادرًا على نفع العباد وإقامة العدل بينهم وإجراء أحكام الشريعة فيهم ، والبعد عن التلوث بمظالم الحكام ومآثمهم .

وأما ما ورد فى الصحيح من النهى عن طلب الولاية فمحمول على ما إذا كان طالبها لا يقدر على القيام بتبعاتها ، والنجاة من مآثمها .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم عن أبى بريدة قال : قال أبو موسى : أقبلتُ إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومعى رجلان من الأشعريين أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى ، فكلاهما سأل العملَ والنبىُّ صلى الله عليه وسلم يَسْتَاكُ فقال : « ما تقول يا أبا موسى –

أو يا عبد الله بن قيس ؟ قال : قلت والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل - قال- وكأنى أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلَصَتْ[١] فقال : لَنْ أوْ لا نَسْتَعْمِلُ على عملنا مَنْ أراده » وذكر الحديث . ومن ذلك أيضًا ما رواه مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتَهَا عن مسألة وُكِلْتَ إليها ، وإن أعطيتَهَا عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها » . وقد استفيد من الآية أيضًا إباحة طلب الرجل القادر الفاضل أن يعمل للرجل الكافر ، بشرط أن لايكون عمله لديه وفق شهواته وفجوره ، وإلا فلايجوز .

ويستفاد منها أيضًا أنه لو علم إنسان أنه لا يقوم سواه بمصالح الناس فى عدل وكفاية سواءٌ كان ذلك فى ولاية أو قضاءٍ أو نحوهما ، وجب عليه أن يطلب ذلك ، ويخبر بصفاته التى تجعله صالحا للقيام بها ، من العلم والحفظ والكفاية كما قال يوسف :

(اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ) :

فقد سألها بالحفظ والعلم لا بالنسب وغيره ، فإن كان هناك من يقوم بها ويصلح لها سواه ، وعلم بذلك فالأولى أن لايطلب لقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة : « لاتسأل الإمارة » الحديث .

(وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾)

(١) أى انقبضت .

المفـردات :

(مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ) : جعلنا له فى أرض مصر مكانة رفيعة أقدرناه بها على ما يريد .

(يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) : ينزل من بلادها ومن أمورها وقلوب أهلها حيث يشاء

(نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا) : نجود بنعمتنا .

التفسير

٥٦ - (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) :

ومثل ذلك التمكين فى قلب الملك ، مكَّنَّا ليوسف فى أرض مصر ، حيث ثبتنا فيها مكانته العظيمة ، وأقدرناه فيها على ما يريد فى جميع نواحيها ، فقد شملها سلطانه ، فكأنها منزلهُ يتصرف فيها كما يتصرف الرجل فى منزله ومكانه ، وكان ذلك بعدل وحكمة . روى أن الملك لما فوض أمر مصر إلى يوسف تلطف بالناس ، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا ، وأقام فيهم العدل فأحبه الناس ، وكانت له بذلك مكانة رفيعة بينهم .

(نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) :

نصل بنعمتنا مَنْ نشاء ولا نفوت على المحسنين شيئًا من أجرهم ، بل نوفيه بكماله لهم ، وكذلك فعلنا مع يوسف حين أحسن ، فقد كافأناه بسلطانه العظيم على مصر وأهلها مع كامل المحبة والرضا .

٥٧ - (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) :

أى وإن أجر المحسنين فى الآخرة لأعظم من أجرهم فى الدنيا ، وقد عبر عنهم بالذين كانوا يتقون ، للإيذان بأن الإحسان الذى يستحق صاحبه الثواب الأخروى ، هو الذى كان أساسه الإيمان والتقوى .

٥٨ - (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) :

كان للقحط الذى حل بمصر فى السنين العجاف ، أثره على أرض كنعان بالشام فبعث يعقوب عليه السلام أولاده لشراء قمح وطعام من مصر ، بعد أن ذاع أمر يوسف فى الآفاق ، حيث عرفوا أنه اختزن الأقوات للمجاعة وأنه يوزعها بعدل ورحمة ، وكان - كما قيل يعطى الطعام بمقدار معين لكل فرد - كما كان يشرف على التوزيع بنفسه ضمانًا للعدالة والدقة . وجاء إخوة يوسف امتثالًا لأمر أبيهم ، فدخلوا عليه ليطلبوا منه الطعام ، فعرفهم يوسف ، ولكنهم لم يعرفوه ، لأنهم ألقوه فى الجبِّ ثمَّ باعوهُ صبيًّا [(١)] ، ولم يتوهَّموا أنَّهُ بعد العبوديَّةِ يصير إلى هذا السُّلطانِ ، بالإضافةِ إلى أنه فارقهم منذ مدَّةٍ طويلة ، قيل : إنَّها كانت أربعين سنةً ، وقد تزيًّا بِزِىِّ أهل مصر ، وعليه مظاهر السُّلطان .

(وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ) : أعدَّ لهم حاجتهم من الطعام الذى حضروا لجلبه من مصر فى السنين العجاف ، والجهاز فى اللغة ما يحتاج إليه المسافر والعروس والميت وتجهيزه إحضاره . وقد أجمع القراءُ على فتح الجيم فى الآية الكريمة ، ويجوز فيها الكسر لغة وإن كان الفتح أشهر .

(١) على ماجاء بإحدى الروايات ، انظر ماكتبناه شرحاً لقوله تعالى : (وشروه بثمن بخس) الخ . . .

(خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) : أى خير المضيفين – مأخوذ من النُّزُلِ وهو الطعام الذى يقدم للضيوف الّذين ينزلون . أو خَيْرُ مَن يُنْزِلُونَ الناس فى منازلهم مأخوذ من المنزل بِجَهَازِهِمْ وهو الدار . (سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ) : سنطلبه من أبيه ليرسله معنا .

التفسير

٥٩ – (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ) :

بينت الآية السابقة أن إخوة يوسف جاءوه للحصول على الطعام زمن المجاعة ، وأن يوسف عرفهم ولكنهم لم يعرفوه ، لأنهم لم يخطر ببالهم أن من ألقوه فى الجب يؤول أمره إلى حكم مصر والسلطان على أهلها وأرزاقها .

وجاءت هذه الآية لتبين أول الخطوات التى إتخذها يوسف لإحضار أسرته إليه ، وهى طلبه من إخوته هؤلاء أن يحضروا أخًا لهم من أبيهم .

ويظهر أنه جرى من الحديث بينه وبينهم ما جعلهم يصرحون بأن لهم أخًا من أبيهم لم يحضروه معهم ، حتى يكون مجرى الحديث هو الذى حمل يوسف ظاهرًا على أن يطلبه بالذات ، حتى لايثير انتباههم إلى السبب الحقيقى فى طلبه .

والمعنى : ولمَّا جَهَّز يوسف إخوته بالطعام الذى طلبوه من الحَبِّ الذى استبقاه فى سنابله لزمن المجاعة ، قال لهم ائتونى بأخ لكم من أبيكم ليتبين صدقكم فى طلب حمل زائد على أحمالكم من أجله .

(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) :

أى ألا تنظرون أننى أعطى الكيل وافيًا تامًّا لكم ولكل الناس بالعدل ، وأنا أفضلُ المضيفين ، ومن أجل ذلك لا أحب أن يكذب عَلَىَّ أحد بأخذ مالا يستحقه ، حتى لايحرم رب أسرة آخر من حقه فى الطعام ، ولهذا طلبت أن أرى أخاكم بنيامين الذى طلبتم له الطعام لكى أتحقق من صدقكم .

٦٠ ـ (فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ) :

أى فإن لم تأتونى بأخ لكم من أبيكم ، فلا طعام أكيله لكم مستقبلا ، ولا تقربون منى بنزولكم عندى فى ضيافتى ، يريد بذلك تهديدهم بالحرمان من الطعام وحسن الضيافة بعد هذه المرَّة ، كلما احتاجوا إليه فى السنين العجاف ما لم يأتوه بأخيهم من أبيهم .

٦١ ـ (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) :

أثَّر فيهم تهديد يوسف لهم بالحرمان من الطعام مستقبلا فقالوا له : سنحاول مع أبيه يعقوب ونحتال فى أخذه منه ونجتهد فى ذلك ـ يشيرون بذلك إلى عِزَّةِ المطلب وصعوبة مناله .

ومع صعوبته وَعَدُوا يوسف بتحقيقه بقولهم له : « وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » . مرضاةً له وتفويتًا لما اعتقدوا أنه تسرب إلى ذهنه من أنهم كاذبون ، فإن قيل إن طلب يوسف لبنيامين ، سوف يدخل الحزن على أبيه فما حكمة ذلك ؟ وقد أُجيب عن ذلك بعدة أجوبة ، منها : أن ذلك كان بأمر من الله ابتلاءً ليعقوب ، ليعظم ثوابه ولكى تتضاعف مسرته برجوع ولديه ، إلى آخر ما قيل فى ذلك .

(وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(فِتْيَانِهِ) : غلمانه الكيالين ؛ جمع فتى .

(بِضَاعَتَهُمْ) : ما جاءُوا به من المتاع ليشتروا به الطعام .

(فِي رِحَالِهِمْ) : فى أوعيتهم ، قال ابن الأنبارى : يقال للوعاء رحل وللبيت رحل .(انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ) : رجعوا إليهم .

التفسير

٦٢ - (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) :

كان إخوة يوسف يريدون شراء القمح مُبَادَلَةً ببضائع أُخرى جاءُوا بها معهم من الشام[1] ، وكان يوسف يريد أن يعطيهم القمح دون مقابل تفضلا عليهم، وخوفًا من أن لايكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أُخرى ليشتروا به طعامًا آخر غير الذى أخذوه فى هذه المرة ، ولكى يكون ذلك التفضل وسيلة لتحقيق مطلبه من حضور بنيامين معهم عند حضورهم للامتيار[2] مرة أُخرى ولهذا قال يوسف لغلمانه وعماله الموكول إليهم بَيْعُ القمح وكيلُه وقَبْضُ الثمن - قال لهم - : اجعلوا بضاعتهم التى جاءُوا بها ليجعلوها ثمنًا للطعام - اجعلوها - فى أوعيتهم سِرًّا ولا تشعروهم أننى نزلت لهم عنها ، وأننى تفضلت عليهم بالقمح دون ثمن ، لعلهم يعرفون هذه المكرمة ويقدرونها قدرها حين يرجعون إلى أهلهم ويفاجؤون بها فى متاعهم ،لعلهم يعودون إلىَّ بأخيهم الذى طلبته ، فإن التفضل عليهم بإعطاءالبدلين ولا سيما عند ندرة البضاعة من أقوى الدواعى إلى الرجوع .

---

(١) روى عن ابن عباس أنها كانت نعالا وأدما - أى جلداً - وقيل إنها كانت دراهم ودنانير .

(٢) الامتيار : طلب الطعام وجلبه .

٦٣ - (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) :

أى فلما عادوا إلى أبيهم من مصر بمتاعهم ، قالوا قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع : يا أبانا مَنَعَ مِنَّا العزيزُ أن نكتال الطعام من عنده بعد هذه المرة حتى نأتيه بأخ لنا من أبينا ، ولما حكوا لأبيهم القصة التى اقتضت أن يطلب منهم العزيز هذا الطلب قالوا لأبيهم : فأرسل معنا أخانا بنيامين إلى مصر نكتل بسببه الطعام كما قال العزيز . وإنا له لحافظون من أن يصيبه مكروه .

٦٤ - (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ) :

أى لم يحدث منكم ما يقتضى الاطمئنان على وعودكم . فقد وعدتمونى من قبل بالمحافظة على أخيه يوسف وجئتمونى بدونه وزعمتم أن الذئب أكله : فهل آمنكم على بنيامين إلا بالصورة التى أمنتكم بها على أخيه . دون أن يتغير حالكم ، ويدعونى إلى الاطمئنان لوعودكم .

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) :

أى فالله خير منكم ومن سواكم حافظًا ، وهو أرحم الراحمين ، فلذا أَكِل أمر حفظه إلى فضله ورحمته سبحانه ، ولا أعتمد فى ذلك عليكم فقد جربتكم فما وجدت فيكم وفاءً بوعد ، ولا حفظًا لعهد .

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ) : المقصود بمتاعهم ؛ الأوعية التى فيها طعامهم وبضاعتهم وهى المعبر عنها سابقًا برحالهم فى قول يوسف: « اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ » .

(مَا نَبْغِي) : أىُّ شىء نبغيه ونطلبه أكثر من كرم العزيز برده الثمن إلينا وتوفيته الكيل لنا ؟ .

(نَمِيرُ أَهْلَنَا) : أى نجلب لهم الميرَةَ وهى الطعام ، من المَيْر وهو جلب الطعام[1] .

(كَيْلَ بَعِيرٍ) : أى طعامًا مكيلا مقداره حمل بعير لأخينا بنيامين.

(كَيْلٌ يَسِيرٌ) : مكيل سهل على عزيز مصر لايمنعنا إياه لكرمه .

(مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ) : أى عهدًا منكم مع الله تعالى يدعونى إلى الثقة بوفائكم له .

(إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ) : أى إلا أن تُغْلَبُوا عليه .

(وَكِيلٌ) : موكول إليه تنفيذ هذا الميثاق .

---

(١) انظر مختار الصحاح .

التفسير

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ) :

بيّنت الآيتان السابقتان أن إخوة يوسف لما رجعوا من مصر بالطعام إلى أبيهم، أخبروه بأن العزيز طلب منهم أخاً لهم من أبيهم جاء ذكره فى حديثهم معه ، وأنه منع منهم الطعام فى المستقبل إن لم يأتوه به ، وأن أباهم ذكر لهم أنهم لم يحدث منهم ما يوجب الثقة بهم وائتمانهم على شقيق يوسف بعد أن فجعوه فى يوسف ، وذكر لهم أن الله هو الحافظ الرحيم، يكنى بهذه العبارة عن مخاوفه منهم على بنيامين ، وأنه يستعين بالله عليهم وجاءت هذه الآية ومابعدها لتبين أنهم أقنعوه بكرم عزيز مصر حيث أعطاهم الطعام ، ورد إليهم الثمن ، وأنهم سيزدادون به كيل بعير وأن أباهم وافقهم على إرساله معهم ، بعد أن أعطوه موثقا من الله برده إليه.

والمعنى : ولما فتحوا أوعية طعامهم وجدوا بضاعتهم التى دفعوها ثمنا للطعام بمصر قد ردت إليهم ،حيث وضعت دون علمهم فى رحالهم ففوجئوا بها فى أوعية طعامهم ، فماذا قالوا لأبيهم ؟

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا) :

قال إخوة يوسف لأبيهم لكى يوافق على إرسال بنيامين معهم أى شىء نطلبه ليكون شاهدا على أن سفر بنيامين معنا سيكون سببا فى خير يأتينا فى هذه المجاعة ، أى شىء نطلبه وراء هذا ـ أكرمنا وَوَفَّى لنا الكيل ، ورد علينا الثمن الذى هو بضاعتنا ، فكيف لا نستجيب لطلبه ونجيئه بأخ لنا من أبينا ؟

(وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) :

أى هذه بضاعتنا التى كنا نريد دفعها ثمنا للطعام ردَّها إلينا العزيز نستعين بها ونَمِير أهلنا أى نجلب الطعام إليهم مرة أخرى ونحفظ أخانا فى هذه المرة حتى لا يصيبه مكروه ، لأنَّا لَنْ نشغل عنه باللهو واللعب ، ونزداد بحضور بنيامين معنا وسق بعير يكال لنا من أجله ، زائدا على أوساق أبَاعِرنَا وأحمالها ذلك الكيل الزائد الذى نطلبه من أجل بنيامين كيل يسير على عزيز مصر وسهل عليه ، فلا يخيبنا فى طلبه فأى شىء نبتغى وراء هذه الأغراض المشتملة على إطعام أهلنا

مرة أخرى وسلامة أخينا ، وسعة الرزق علينا ، فلماذا لا تبعث به معنا حتى نحقق هذه المطالب .

٦٦ - (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ) :

قال يعقوب لأولاده وقد ألانه كلامهم ، وهيأه لقبول مطلبهم لن أرسل بنيامين معكم كما طلبتم حتى تعطونى عهدا مع الله على رده وموثقا من جهته على ذلك . ليكون شهيدا عليكم ومنتقما منكم إن لم تكونوا أوفياء.

(لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ) :

مرتبط بالقسم المفهوم مما قبله كأنه قال لهم : لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله لتأتننى ببنيامين حين ترجعون من رحلتكم ثانيا إلى مصر ، إلا أن تغلبوا بما لا قبل لكم به فيحول دون وفائكم بقسمكم .

وصورة الميثاق الذى طلبه أبوهم منهم أن يقولوا مثلا : والله لنأتينك ببنيامين ونحن عائدون من مصر بالطعام إلا أن نغلب على أمرنا بما لا قبل لنا به.

(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) :

أى فلما أعطى الأسباط أباهم يعقوب - عليه السلام - يمينهم وعهدهم مع الله ، قال يعقوب مؤكدا التوثيق : (اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ) : أنا وأنتم من طلبى القسم وصدور العهد منكم ، (وَكِيلٌ) : مطلع رقيب ، فإن وفيتم أجرتم وإن خنتم انتقم الله منكم .

(وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾)

التفسير

٦٧ - (وَقَالَ يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ) الآية .

كان بنو يعقوب فيهم جمال وكانوا أحد عشر متجانسين تجانس الكواكب، وقد تجملوا فى هذه المرة أكثر من المرة الأولى بعد أن أدركوا كرامتهم على العزيز من إعطائهم الطعام فى المرة السابقة دون مقابل ورده بضاعتهم عليهم، ولهذا كله خَافَ عليهم أبوهم العين إن دخلوا مصر من باب واحد وهم على هذا النمط الفريد. وبخاصة فى زمن المجاعة حيث الناس فى شدة، وكانت المدن فى الزمان السابق يحيط بها أسوار لحمايتها من الأعداء؛ وفى هذه الأسوار أبواب للدخول والخروج منها، فلهذا أوصاهم أبوهم أن لا يدخلوا مصر من باب واحد بل من أبواب متفرقة.

قال العلامة أبوالسعود: وإصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما يُنْكر، وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله: «إنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ». وقوله «: إنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلِ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ» وقد كان صلى الله عليه وسلم يُعَوِّذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ» وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «كان أبوكما يُعَوِّذُ بهَا إسماعيل وإسحاق عليهم السلام». رواه البخارى فى صحيحه، وقد شهدت بذلك التجارب. اهـ.

والمعنى؛ وقال يعقوب لبنيه بعد أن حلفوا له: لا تدخلوا مصر من باب واحد ولكن ادخلوها من أبواب متفرقة بحيث لا يبدو لكم اجتماع حتى تسلموا من حسد الحاسدين ولست أغنى عنكم بحذرى هذا من قضاء الله من شىء وإنما هو نوع من التدبير، وأما ترتيب المنفعة عليه فهو إلى الله العزيز القدير، كما أنه استعان بالله وهرب منه إليه، وقال يعقوب أيضًا ماالحكم فى أمر الخلائق جميعا إلا لله وحده، عليه دون سواه توكلت واعتمدت، وعليه فليتوكل المتوكلون، فإنه مفزع كل خائف، ومجيب كل سائل، ومعاذ كل مستعيذ.

وفى الآية الكريمة هداية يعقوب لأولاده، وإرشادهم إلى التوكل على الله فيما هم بصدده غير معتمدين كل الاعتماد على ماوصاهم به من التدبير.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو
عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا
دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا
تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

المفـردات :

(مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ) : من الأبواب المتفرقة التى أمرهم بالدخول منها .

(لِمَا عَلَّمْنَاهُ): لتعليمنا إياه بالوحى .

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : فلا تأسف ولا تحزن بسبب ماصنعوا.

التفسير

٦٨ - (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ . .) الآية .

أى خرج إخوة يوسف من الشام متجهين إلى مصر حتى وصلوا إلى مداخلها ، ولما دخلوها من أبواب متفرقة حيث أمرهم أبوهم .

(مَا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا) :

أى ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يدفع عنهم من أمر الله شيئاً مما قضاه عليهم مخالفاً لما أمله أبوهم بتدبيره ، ولكن قضى حاجة فى نفس يعقوب بدخول أبنائه من أبواب متفرقة حسب إرادته ، لعلَّه يدفع عنهم إصابة العين ، وذلك من باب ربطه المسببات بأسبابها العادية كما جرَّبه الناس ، ولكن إصابة العين لم تقع لهم لكونها غير مقدرة عليهم ، ولو كانت مقدرة لم يدفعها دخولهم من أبواب متفرقة.

(وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ) :

وإن يعقوب لصاحب علم جليل لأجل تعليمنا إياه بالوحى ، حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر ، وأن التدبير له حظ من التأثير بتغيير قضاء الله ، ولهذا قال لهم : «وَمَاأُغْنِى عَنْكُم مِّنَ اللهِ مِنْ شَىْءٍ »أى وماأدفع عنكم بهذا التدبير من شىء قضاه الله ، وإنما يحذر الناس ويدبرون لعل تدبيرهم يرتبط بقضاء الله وقدره. فاتخاذ الأسباب مشروع لهذا

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

أى ولكن أكثر الناس لايعلمون أسرار القدر ، ويزعمون أن الحذر يغنى من القدر

٦٩ - (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) :

أى ولما دخلوا على يوسف ومعهم بنيامين أكرمهم لأنهم وفوا بوعدهم معه ، وآوى إليه أخاه الشقيق بنيامين حيث ضمه إليه سكنا وطعاماً ، بطريقة لا تدخل ريبة فى نفوسهم ، ولما خلا به .

(قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى قال يوسف لبنيامين مؤنسا له وكاشفا له عن سره الخطير ، إنى يابنيامين أنا يوسف أخوك ، وسرد عليه قصته ثم قال فلا تحزن بسبب ما كانوا يعملونه بنا فيما مضى ، فقد أحسن الله إلينا وجمعنا بخير ، ولا تعلمنهم بما أعلمتك به ، حتى تمضى الأمور إلى غايتها.

(فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾)

المفـردات :

(جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ) : الجهازة فى اللغة ؛ ما يحتاج إليه المسافر والعروس والميت ، وتجهيزهم بجهازهم تنجيز مايحتاجون إليه من الطعام وإعداده فى أوعيتهم .

(السِّقَايَة) : المشربة التى يُشْرَبُ بِها ، وهى والصواع شئ واحد ، قال الشاعر :
نشرب الخمر بالصُّواع جهاراً .
(رَحْلِ أَخِيهِ) : المراد به وعاء الطعام الخاص بأخيه بنيامين . (أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ) : نادى منادٍ .
(أَيَّتُهَا الْعِيرُ) : العير هى الأبل التى عليها الأحمال ، والمراد بندائها نداء أصحابها ،
وقال أبو عبيد هى الإبل الْمَرْحُولَةُ المركوبة . (زعيم) : كفيل وضمين .

التفسير

٧٠ - (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ) :

تقدم بيان أن يوسف عليه السلام عقد العزم على استقدام آل يعقوب إلى مصر بعد أن وفد إخوته عليه أول مرة ليحصلوا على الطعام لذويهم، وكانوا قد حدثوه عن أخ لهم من أبيهم هو بنيامين ، ولعلهم طلبوا له طعاما ، فطلب منهم أن يحضروه معهم فى المرة المقبلة ليأخذ طعامه بنفسه ، ولهذا قالوا لأبيهم حين طلبوه منه بعد عودتهم من مصر : «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ونَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ».أى نزداد كيل بعير من أجل بنيامين فلما حضروا به فى المرة الثانية وأراد يوسف أن يستبقيه ، لم يجد سببا لاستبقائه عنده إلا أن يأمر بدس إنائه الذى يشرب به فى رحل بنيامين ، وكان إناء ثمينًا يمكن الاتهام بسرقته لارتفاع قيمته ، فلهذا جعل ذلك الإناء المعبر عنه بالسِّقاية فى الآية - جعله فى رحل أخيه بنيامين أى وعاء طعامه ،وسيأتى الكلام عن الحكمة فى اختياره هذا السبب لاستبقائه لديه .

(ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) :

أى ثم بعد أن جعل السقاية فى رحل بنيامين وركب إخوة يوسف دوابهم ، نادى منادٍ فيهم ياأصحاب العير إنكم لسارقون ، ولم يعين لهم ماسرقوه فى ندائه ، ليسترعى كامل انتباههم ، ويَظْهَرُ - والله أعلم - أن هذا الذى حدث كان بموافقة من بنيامين ليبقى عند أخيه يوسف حتى يأتى والداه وأسرته.

فإن قيل كيف رضى بنيامين بذلك مع مافيه من زيادة الحزن على أبيه ، وكيف ينسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم برآء منها .

والجواب عن الأول : أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بفقد يوسف فلا يؤثر فيه كثيرا فَقْدُ بنيامين ، ولهذا لمَّا لَمْ يَعُدْ بنيامين لم يذكرْ يعقوبُ سوى يوسف ، إذ قال : « يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ » .

والجواب عن الثانى : أنهم قد سرقوا يوسف من أبيه وألقوه فى الجب ، ولذا قيل لهم إنكم لسارقون ولم يعين لهم ماسرقوه .

٧١ - (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ) :

أى قال إخوة يوسف وقد أقبلوا على من ينادونهم ويتهمونهم بالسرقة ماذا ضاع منكم حتى اتهمتمونا بسرقته ؟ .

٧٢ - (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ) :

أى قال هؤلاء المنادون نفقد سقاية الملك الثمينة التى يشرب بها ، ويطلق عليهاصواعَ .

(وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) :

أى وقال من آذنهم وأعلمهم بأنهم سارقون - تلطفا معهم ومنعا لإحراجهم بتفتيش جهازهم ، وإثبات السرقة عليهم - قال لهم - : سيكون لمن جاء بصواع الملك من تلقاء نفسه قبل التفتيش حمل بعير من الطعام مكافأة له على إظهاره ، فربما وجد فى رحالهم اتفاقا من غير قصد ، فلذا يكافأ من جاء به وعثر عليه ، وأكد المنادى تحقيق هذا الوعد بقوله وأنا بتحقيقه زعيم أى ضمين وكفيل.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا
سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا
جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا
مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ
كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

التفسير

٧٣ - (قَالُوا تَا للهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) :

تالله بمعنى والله ، وتختص التاء بالدخول على لفظ الجلالة على الأرجح ، ويُقْسَمُ بهذا القسم عند التعجب .

والمعنى : وحق الله لقد عرفتم من استقامتنا فى المعاملة ، وما نحن عليه من التدين والتَّصَوُّن ، أننا ما جئنا لكى نفسد فى الأرض بسرقة أو غيرها ، بل جئنا للحصول على الطعام ، وماكنا من قبل سارقين ، فما حدثت منا سرقة فى حياتنا ولا وصفنا بها فكيف يستقيم وصفكم لنا بسرقة صواع الملك ؟

٧٤ - (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ) :

قال عمال الملك لإخوة يوسف فما جزاءُ سرقة صواع الملك فى شريعتكم ، إن كنتم كاذبين فى دعواكم أن الصواع ليس فى أوعيتكم .

٧٥ ـ (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ) :

أى قال إخوة يوسف جزاءُ الصواع المفقود فى شريعتنا أخذ من وجد فى رحله، واسترقاقه فكذا يعاقب السارق عندنا وهذا جزؤه ، ثم أكدوا هذا الحكم مرة أخرى بقولهم :

(كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) :

أى مثل هذا الجزاء نجزى الظالمين بالسرقة فى شريعتنا ، يقولون ذلك ثقة ببراءتهم منها ، وهم غافلون عما دُبِّر لهم .

٧٦ ـ (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ) :

فبدأ يوسف بتفتيش أوعية إخوته العشرة الذين هم من أبيه ، قبل تفتيش وعاء أخيه الشقيق بنيامين ، لِنَفْيِ التهمة فى أول الأمر عن نفسه إن بدأ به ، فإنهم حينئذ يقولون إنه جعلنا نطلبه من أبيه ليفتعل هذه التهمة لأمر يريده لم ينكشف لنا بعد ، فلهذا أبقاه بعدهم ، ولينسيهم فرحهم ببراءتهم أولا ، ماحدث لأخيهم من أبيهم أخيرا ، بل وليدفعهم ذلك إلى قالة السوء فيه وفى يوسف وهو قولهم : « إن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ » وسيأتى الكلام فى بيانه .

(كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) :

أى مثل ذلك الكيد المحكم حيث أرشدنا الإخوة إلى الإفتاء باسترقاق من وجد فى رحله ، مثل ذلك الكيد كدنا لأجل يوسف أى دبرنا له المقدمات لكى يحصل بها على غرضه ، وتلك المقدمات هى دس الصواع فى رحالهم وما تلاه حتى آل الأمر إلى تحقيق ما أراده من بقاء بنيامين معه .

(مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) :

هذا تعليل لما قبله ، أى كدنا ليوسف بهذه الطريقة ، لأنه ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه فيما يدين به الملك فى أمر السارق أى فى حكمه وقضائه الذى يَدِينُ به هو وشعبه ، فإنه لم يكن جزاءُ السارق فيه الاسترقاق ، بل عقوبة أخرى كالضرب والتغريم ، فلهذا جعله يحتكم إلى شريعتهم حتى يستبقيه لديه .

(إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ) :

أى ما كان يوسف ليأخذ أخاه فى دين الملك فى حال من الأحوال إلا فى حالة مشيئة الله هذا الكيد والتدبير ، فإن دين الملك حينئذ يقره مادام السارق يدين به ويعتقده ، لأنه يحقق له من الجزاء أكثر مما عنده فى قوانينه ، ولهذا وافقهم على فتواهم وأبقاه عنده .

(نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ) :

أى نرفع درجات عالية من العلم والحكمة فى التصرف من نشاء من عبادنا كما رفعنا يوسف ، وماكان ليصل إلى ماوصل إليه لولا تدبير الله وتهيئته أسبابه ، فإنه فوق كل صاحب علم من الخلق عليم لا غاية لعلمه وهو الله تعالى ، ولولا إرشاده وتعليمه لما وصل ذو علم إلى علمه .

(۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(شَرٌّ مَّكَانًا) : أسوأ مكانة ومنزلة .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) : والله عالم أبلغ العلم بحقيقة ما تزعمون من صدور السرقة عن أخيه .

التفسير

٧٧ ـ (قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ) :

تقدم الحديث عن وضع صواع الملك الثمين فى رحل بنيامين سرًّا ، وأن رجال يوسف اتهموا إخوته بسرقة الصواع قائلين لهم : « أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » . فلما نفوا

عن أنفسهم هذه التهمة سألوهم عن حكم سارقه فى شريعتهم إن ظهر كذبهم .

« قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ». فبحث يوسف فى أوعيتهم قبل وعاء شقيقه بنيامين ، ثم استخرجه من وعائه . وبهذه الحيلة استطاع إبقاء أخيه معه وهم لا يشعرون أن هذه القصة مصنوعة لتحقيق هذا الغرض ، وجاءت هذه الآية وما بعدها لبيان الأحداث التى تلت ذلك،والمعنى : قال إخوة يوسف غير الأشقاء إن يسرق بنيامين فقد سرق أخ شقيق له من قبله ، يقولون ذلك تبرئة لأنفسهم من وصمة السرقة ، مُدَّعين أن خلق السرقة فى بنيامين قد سبقه إليه أخ شقيق أكبر منه - يعنون يوسف عليه السلام - وأنهم برآء من هذا الخلق لأن الأم مختلفة وماَدَرَوْا أن يوسف الذى اتهموه زُورًا يسمع كلامهم ويعرف أنهم كاذبون .

واختلف فيما نسبوه إلى يوسف، ومن أظهر ما قيل فيه ما أخرجه ابن مَرْدَوَيْه عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الآية : «سرق يوسف عليه السلام صنما لجده أبى أمه من ذهب وفضة ، فكسره وألقاه على الطريق ،فعيره إخوته بذلك» ويرى الحسن أنهم كذبوا على يوسف فيما نسبوه إليه ،ولعله لا تنافى بين هذا وما روى عن ابن عباس إن صح فإن من أخذ الصنم لكى يحطمه لايعتبر سارقا شرعا ،فيكون وصفهم له بالسرقة كذبا، لأنه مخالف للشرائع ، ويكونون بذلك كاذبين على يوسف .

(فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا) :

أى فأخفى يوسف فى نفسه هذه الفرية التى افتروها عليه ، ولم يظهرها لهم أنها فرية ، كتمانا لأمره حتى يفاجئوا فى نهاية القصة بما آل إليه أمره فى الملك فيندموا على مافرط منهم فى حقه. ولكن قال فى نفسه عنهم : أنتم أسوأ منى منزلة فى السرقة ،وأقوى فى الاتِّصافِ بهذا الوصف ،حيث سرقتمونى من أبى وألقيتمونى فى الجب، ولولا رحمة ربى لكنت من الهالكين ، أما أنا فلم أسرق ولكننى حطمت الصنم وألقيته على الطريق .

المفـردات :

(اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ) : يئسوا منه أشد اليأس. (خَلَصُوا نَجِيًّا) : انفردوا عن يوسف وغيره متناجين أي متسارّين ، والنَّجِيُّ من تتحدث معه سِرًّا واحدًا أو أكثر ، والنجوى السر .

(الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا) : هى مصر والمراد بها أهلها. (وَالْعِيرَ): وأصحاب العير الذين كانوا معنا .

التفسير

٨٠ ـ (فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) :

أى فلما يئسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما طلبوه منه من ترك بنيامين وأخذ أحدهم مكانه ، حيث قال لهم على سبيل الحسم: «مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ» فإن ذلك يدل على غاية الكراهة لما طلبوه حتى تعوَّذ بالله من حصوله ـ فلما يئسوا منه أشد اليأس لذلك انفردوا عنه وعن أعين الناس متحدثين سِرًّا فى طريقة الخلاص من هذه المشكلة ، وكيف يبلغونها لأبيهم؟ وماذا يكون وقعها عليه؟ وهو لم ينس يوسف بعد ، ولم تبرد نار فراقه فى فؤاده .

(قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ) :

قال كبيرهم فى السن أوفى المنزلة حين رآهم مجمعين على أن يعودوا جميعًا دون بنيامين ، ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهدا وثيقًا من الله ، حيث حلفتم به سبحانه لنرجعن ببنيامين إليه ، فكيف تعودون إليه وليس معكم ، أو لم تعلموا مِنْ قَبْلُ ـ أى من قبل بنيامين ـ تفريطكمْ وتقصيرَكُم فى شأن يوسف وأنكم لم تحفظوا فى حقه عهدكم مع أبيكم ، إذْ قلتم له مرة : «وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ» . وأخرى : «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» . فكيف نعود إليه بعد كل هذا ؟

إنا نراك من المحسنين إلينا ، فأَتْمِمْ إحسانك علينا ، أو نراك ممَّن عادتهم الإحسان ، فلا تغير عادتك معنا ، فنحن أحق الناس بذلك ، نظرا لحال أبيه والتزامنا أن نرده إليه !

وهم حين عرضوا عليه أن يسْتَرِقَّ أحدهم مكانه لايرون أن ذلك مشروع عندهم ، فإنَّه لا يؤاخذ بالذنب سوى صاحبه ، ولكنهم يقولون ذلك مبالغة فى استنزاله عن أخذ بنيامين.

٧٩ - (قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ) :

قال يوسف : نعوذ بالله ونبرأ إليه من أن نأْخذ إلا من وجدنا صواعنا عنده بموجب فتواكم طبقا لشرعكم ، فلا نحب الإخلال بها ، إنا إذا أخذنا غيره ولو يَرضاه لظالمون فى مذهبكم وشريعتكم ونحن لا نحب ذلك.

والتعبير بضمير المعظم نفسه (إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ) بدلا من ضمير المفرد - إنِّى إذًا لَظَالِم - جرى على سنن الملوك.

(فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾)

المفـردات :

(اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ) : يئسوا منه أشد اليأس .(خَلَصُوا نَجِيًّا) : انفردوا عن يوسف وغيره متناجين أي متسارّين ، والنَّجِيُّ من تتحدث معه سِرًّا واحدًا أو أكثر ، والنجوى السر .

(الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) : هى مصر والمراد بها أهلها .(وَالْعِيرَ):وأصحاب العير الذين كانوا معنا .

التفسير

٨٠ ـ (فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) :

أى فلما يئسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ماطلبوه منه من ترك بنيامين وأخذ أحدهم مكانه ، حيث قال لهم على سبيل الحسم :«مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ »فإن ذلك يدل على غاية الكراهة لما طلبوه حتى تعوَّذ بالله من حصوله ـ فلما يئسوا منه أشد اليأس لذلك انفردوا عنه وعن أعين الناس متحدثين سِرًّا فى طريقة الخلاص من هذه المشكلة ، وكيف يبلغونها لأبيهم ؟ وماذا يكون وقعها عليه ؟ وهو لم ينس يوسف بعد ، ولم تبرد نار فراقه فى فؤاده .

(قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَافَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ) :

قال كبيرهم فى السن أوفى المنزلة حين رآهم مجمعين على أن يعودوا جميعًا دون بنيامين ، ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهدا وثيقًا من الله ، حيث حلفتم به سبحانه لترجعن ببنيامين إليه ، فكيف تعودون إليه وليس معكم ، أو لم تعلموا مِنْ قَبْلُ ـ أى من قبل بنيامين ـ تفريطكمْ وتقصيرَكُم فى شأن يوسف وأنكم لم تحفظوا فى حقه عهدكم مع أبيكم ، إذْ قلتم له مرة : «وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ». وأخرى : «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ». فكيف نعود إليه بعد كل هذا ؟

(فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي) :

فبعدكل هذا لن أفارق أرض مصر حتى يأذن لى أبى بالعودة إليه ، أو يحكم الله لى بالخروج منها على وجه لا يؤدى إلى نقض الميثاق ، أوبخلاص أخى بسبب من الأسباب (وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) : لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل.

ثم وصل الكبير كلامه بقوله :

• ٨١ـ (ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا) :

أى عودوا إلى والدكم يعقوب فحدثوه بماوقع ، قولوا له ياأبانا إن ابنك بنيامين سرق صواع الملك ووضعه فى رحله ، فأخذه وزير العزيز طبقا لشريعتنا وكان قد استفتانا قبل أن نعلم الأمور ويبين لنا الحال ، وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه من وجود الصواع فى رحله ، وما كنا لما غاب من أمره عالمين ، فلذا أعطيناك المواثيق فاعذرنا ، فإن الذنب ليس ذنبنا .

ثمَّ أشار عليهم بما ظن أنه يحمل أباهم على التصديق فقال :

٨٢ ـ (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) :

أى وأرسِلْ إلى أهل مصر المتصلين بالملك حيث كُنَّا معهم فيها واسألهم عن ذلك ، واسأل القافلة التى كُنَّا فيها ، فإن القصة شائعة فيهم ومعروفة لديهم ، ثم ختم الكبير كلامه لإخوته بجملة يؤكدون لأبيهم بها أنهم صادقون فقال : (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) : فلا نخاف سؤالهم ـ قيل إن أصحاب العير كانوا من الكنعانيين ، وكانوا جيران يعقوب عليه السلام .

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾)

المفـردات :

(سَوَّلَتْ) : زينت وسهلت. (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) :هو الذى لا يكون معه ضجر ولا شكوى لأحد . (يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) :الألف فى « أسفى » بدلا من ياء المتكلم للتخفيف والأصل ياأسفِى بكسر الفاء ، والأسف أشد الحزن على مافات. (فَهُوَ كَظِيمٌ) : فهو مملوء القلب غيظا ،لكنه لا يظهر ،وقيل مملوء القلب حزنا ممسك له لا يبديه من كَظَمَ السِّقَاء إذا شدَّه بَعْدملئه ، فَهُوَ فَعِيل بمعنى مفعول. (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ) :أصابتهما غشاوة بيضاء .

التفسير

٨٣ـ (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) :

طوى القرآن من القصة ماليس بحاجة إلى التصريح ،وبيان ذلك أن هذا القول من يعقوب رَدٌّ به على أولاده بعد عودتهم إلى أرض الشام وإخباره بالقصة على نحو ما أوصاهم به كبيرهم .

والمعنى : عاد إخوة يوسف من مصر برحالهم ، وأخبروا أباهم بالقصة على نحو ما وصَّاهم به كبيرهم ـ قال يعقوب متهما لهم : ليس الأمر كما زعمتم ،بل زينت لكم أنفسكم أمرا فى شأنه لتتخلصوا منه ففعلتم مازينته لكم أنفسكم ،فصبر جميل على مافعلتم أحق بى .

واعلم أنهم لم يخبروا أباهم فى شأن بنيامين إلا بما ظهر لهم ، وأنهم لم تسول لهم نفوسهم فى شأنه أمرًا ـ كما قال أبوهم يعقوب عليه السلام ـ فكيف قال لهم ماقال؟ !

أجاب ابن المنيِّر عن هذا السؤال بقوله :إنهم كانوا عند أبيهم متهمين لما أسلفوه فى حق يوسف، وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها وهى أخذ الملك له فى السرقة ،ولم يكن ذلك فى دين ملك مصر ،ولا فى دين غيره ،وإنما كان ذلك فى شرع يعقوب الذى يدين به أولاده ، فظن أنهم هم الذين أفتوه بذلك عمدا بعد ظهور السرقة التى ذكروها ، ليتخلف بنيامين دونهم. ا هـ . هذا تلخيص ماحكاه الآلوسى عن ابن المنير فى جواب هذا السؤال .

(عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) :

لم يفقد يعقوب الأمل فى رحمة الله ، ولم يقطع الرجاء فى عودة يوسف وبنيامين إليه فلذا قال عقب اتهامه لأولاده فى شأن بنيامين : عسى الله أن يأتينى بأولادى جميعا يوسف وبنيامين ،وابنى الكبير الذى تخلف فى مصر حتى آذن له بالعودة أو يحكم الله له . وأكد رجاءه فى الله بقوله : (إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) : إنه هو الواسع العلم الذى يبتلى بحكمة ويرفع البلاء بحكمة وهو أرحم الراحمين ، هذا وقد قيل إن مبعث الرجاء عنده تلك الرؤيا التى رآها يوسف فى صغره « إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ». فكان ينتظر تحقيقها ، وبحسن ظنه بالله تعالى ، وبخاصة بعد أن اشتد به الكرب ، وقد جرت سنته تعالى أن يجعل بعد الشدة المستحكمة فرجاً ، وبعد العسر يُسْرًا .

٨٤ ــ (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) :

وأعرض عن أولاده كراهة لما سمعه منهم، وقال: ياأشد الحزن والأسف على يوسف تعالَ إلىَّ ، فقد تجدد مايدعونى إلى استدعائك ،قالوا :وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث الجديد هو مصيبة بنيامين وابنيه الكبير الذى تخلف لأجله ،لأن مصيبة يوسف كانت أساس حزنه ،وحبه كان آخذًا بمجامع قلبه ،ولأنه كان واثقا بحياة ولديه بمصر ، طامعا فى عودتهما إليه ، أما يوسف فلم تكن عنده بارقة أمل إلا فى رحمة الله تعالى .

(وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) :

وابيضت عينا يعقوب بسبب الحزن وما كان يسببه له من دوام البكاء ، فهو مملوء من الحزن على أولاده الغائبين ، ومملوء من الغيظ من أولاده الحاضرين ، وكان عماه هذا موقتا إن صح القول به ، وكان بعد أن بلَّغ دعوة ربه ، فلا يقال : إنه من الأمراض المانعة من التكليف بالرسالة . ومن العلماء من قال : إن أمره لم يصل إلى حد العمى . فقد كان يرى إلى حدٍّ ما .

فَإِنْ قِيلَ كيف يكون نبيًّا ويبلغ به الحزن إلى هذا الحد؟ قلنا أُجيب عن ذلك بعدةِ أجْوبة ، خيْرُهَا : أَنَّ الحزن ليس محظورًا ، وإنما المحظور الولولة وشق الثياب والكلام بما لا ينبغي . فقد روى الشيخان من حديثِ أنس أنه صلى الله عليه وسلم بكى على ولده إبراهيم وقال : « إنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَخْشَعُ وَلَا نَقُولُ إلاَّ مَا يُرْضِي رَبَّنَا ، وَإِنَّا لِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ » .

وقد بين الله شدة حزن يعقوب بقوله : (فَهُوَ كَظِيمٌ) : أي مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه .

ومِمَّا شَدَّد عليه الحزن حتى امتلأ ، ما روى عن ابن عباس أنه كان يعلم أن يوسف حَيٌّ ولا يدرى أين هو ؟ انظر القرطبي والآلوسي .

(قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾)

المفـردات :

(تَاللهِ) : أي والله فالتاء حرف يستعمل في القسم بالله خاصة .

(تَفْتَأُ) : أي مازلت .

قال الكسائي : فَتَأْتُ وَفَتِئْتُ أي مازلتُ ، وقال الفراء : إن الكلام هنا بتقدير

(لا) أى: (لاَ تَفْتَأُ) . وكثيرًا ماتضمر (لا) فى جواب القسم كما فى قول امرىء القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدًا ولو قطَّعوا رأسِى لديكِ وأوصالى

أى بحق الله لاأبرح ،وهو رأى الخليل وسيبويه ،وعلَّلُوا جواز ذلك بأنه لايلتبس بالإثبات إذ لو كان على الإثبات لوجب اقترانه باللام والنون كقولك : تَا لله لأفعلنَّ كذا .

(حَرَضًا) : الحرض لُغَةً فساد الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم كما قال أبو عبيد وغيره.

(بَثِّى) : البث المصيبة التى لا قدرة لأحد على كتمانها فيبثها وينشرها .

التفسير

٨٥ ـ (قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالكِينَ) :

أى قال أولاد يعقوب لما سمعوه يردد الأسف على يوسف بعد فجيعته فى بنيامين دون أن يذكر فى أسفه بنيامين ـ قالوا له :والله ياأبانا لا تبرح تتذكر يوسف بعد مضى هذه السنين الكثيرة على فقده ، وتبدى أشد الحزن وأغزر البكاء عليه ،حتى تشرف على الهلاك أو تكون من الهالكين حقيقة فخفف على نفسك ولا تتلفها بالهم والأسى !

٨٦ ـ (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ) :

قال يعقوب مجيبًا أولاده عقب لومهم إياه على حزنه الذى طال أمده بعد فقده يوسف: ـ قال يعقوب لهم ـ ما أشكو مصيبتى التى لا أستطيع إخفاءها ، ولا أشكو حزنى لأحد إلا إلى الله فهو القادر على كشف الضر ، وأتبع يعقوب كلامه هذا بما يفيد أمله فى رحمة الله فقال :

(وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ) :

وأعلم من شأن الله ورحمته مالا تعلمون ، فقد كان يحس بوجدانه النبوى الصادق وبما قام لديه من الأمارات أن يوسف حى لم يمت وأنه وصل أو سيصل إلى منزلة عظيمة بين الناس ، وأن شمل الأسرة سوف يجتمع بزعامة يوسف .

وأول الشواهد على ذلك: رؤيا يوسف التى رآها فى صباه؛ لقد رأى أحد عشر كوكبًا، ورأى الشمس والقمر، رأى هؤلاء جميعًا له ساجدين، فلما سمع يعقوب من يوسف هذه الرؤيا الصادقة أدرك أنها ستتحقق، وأوصاه أن يكتمها عن إخوته حتى لا يكيدوا له.

وثانى هذه الشواهد: هذا القميص الذى جاءوا به ملوثًا بالدم، زاعمين أن الذئب أكله وأن الذى تلوث به القميص دمه، وكان القميص بغير تمزق، فأدرك أن قصة الذئب مخترعة مصنوعة إذ لو أكله لمزّق قميصه. ولذا كذبهم فقال: « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ».

وثالث هذه الأمارات: ماأخبره به أولاده من سيرة عزيز مصر نحوهم وعطفه عليهم، وضيافته لهم، فأحس أنهم يتحدثون عن أمله المنشود ولذلك قال لهم:

(يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(فَتَحَسَّسُوا) : التحسس، طلب معرفة الشىء بالحواس.

(وَلَا تَيْئَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ) : ولا تقنطوا من رحمته التى يحيى بها العباد.

التفسير

٨٧ - (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ...) الآية.

أى يا بنىَّ ارجعوا إلى مصرحيث ينتظركم أخوكم الكبير فتعرَّفوا جميعًا من أخبار يوسف وأخيه، وابحثوا عنهما بكل قواكم جادّين دائبين، ولاتقنطوا من رحمة الله التى وسعت كل شىء، إنه لايقنط من رحمة الله سبحانه إلا القوم الكافرون، لجهلهم به وبصفاته، وأما العالمون به فلا يقنطون بحال.

واستدل بالآية جمع من العلماء على أن اليأس من رحمة الله كفر !

والجمهور على أن اليأس من رحمته تعالى من الكبائر ، اللهم إلا إذا اقترن بمايدل على نسبته سبحانه إلى العجز عن تنفيس الكرب أو مغفرة الذنب ،وأيًّا ما كان الأمر فاليأس من رحمة الله من صفات الكفار ، ومن أسباب الكفر والعياذ بالله تعالى .

ووصية يعقوب عليه السلام لبنيه فى الآية الكريمة درس من دروس النبوّة فى شحذ الهمم وتربية العزائم .

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠))

المفردات :

(وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ) : المراد من البضاعة هنا :الثمن والمزجاة المدفوعة التى يردها من يراها لرداءتها من أزجيته إذا دفعته ، والريح تزجى السحاب :تسوقه وتدفعه . وقال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة اهـ . ومن معانيها القليلة كما ذكره صاحب القاموس ، ولعل هذا المعنى هو المراد هنا .

التفسير

٨٨ - ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ . . . ﴾الآية .

أى فلما دخلوا على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر امتثالًا لأمر أبيهم! وإنما لم يذكر هذا المطوىّ إيذانًا بمسارعتهم إلى الامتثال ، وإشعارًا بأن هذا أمر محقق لايفتقر إلى الذكر والبيان . وهذه هى المرة الثالثة من ذهابهم إلى مصر .

﴿ قَالُوا يَٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ : خاطبوه بذلك تعظيمًا على حد خطابهم السابق ، والمراد - كما قال الفخر الرازى وغيره - يأيها الملك القادر المنيع .

﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ : أى الهزال من شدة الجوع - والمراد بالأهل ما يشمل الزوجة وغيرها .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ : قليلة القيمة . لا تصلح أن تكون ثمنًا للطعام الذى نريده ، قيل كانت بضاعتهم من متاع الأعراب . صوفًا وسمنًا . ونحوهما . وإنما قالوا ذلك ليكون باعثًا على الشفقة والرأفة وتحريك عاطفة الرحمة . وتمهيدًا لقولهم :

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ : أى أتممه لنا كعادتك .

﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ : برد أخينا إلينا وهو الأنسب بحالهم نظرًا إلى أمر أبيهم . وإنَّما سمَّوه تصدقًا - قصدًا إلى استعطافه!

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ : بما هم أهله . بل بما هو - تبارك وتعالى- أهله : بإخلاف ما ينفقونه . وإثابتهم بما هو خير منه فى الآخرة والأولى .

٨٩ - ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ . .. ﴾ :

أى قال يوسف عليه السلام مُجيبًا لإخوته وقد هزَّه استعطافهم ، وأخذته الشفقة عليهم : هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون بقبحه فلذا أقدمتم عليه . أو جاهلون عاقبته ! ! - قال ذلك نُصحًا لهم وتحريضًا على التوبة وشفقةً عليهم لما رأى عجزهم ،

ومسكنتهم ، لا معاتبةً لهم وتثريبًا[١] . . . إيثارًا لحق الله تعالى على حق نفسه فى ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب ويتشفى فيه المغيظ المحنق. فلله تعالى هذا الخلق النبوى الكريم .

٩٠ـ (قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي .. .) الآية .

هذا استفهام تقريرى ولذا أكدوه بإن واللام . قالوه استغرابًا وتعجبًا وفرحًا بنجاح تحسسهم الذى وصاهم أبوهم به . (قَالَ أَنَا يُوسُفُ) : جوابًا عن مسألتهم وقد زاد عليه قوله :

(وَهَذَا أَخِي) : ـ أى أخى من أبوىَّ ـ مبالغة فى تعريفهم بنفسه ، وتفخيمًا لشأن أخيه ؛ وتحدثًا بنعمة الله عليهما قال :

(قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا) : بالخلاص مما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة ،والعزة بعد الذلة والأنس بعد الوحشة ، ثم علل ذلك بقوله : (إِنَّهُ مَن يَتَّقِ) : الله فى جميع أحواله . (وَيَصْبِرْ) : على أداء طاعاته وتجنب معاصيه .

(فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) : أى فإن الله لا يضيع أجرهم ، وعبر عنهم بالمحسنين ، ليشير بذلك إلى أن أهل التقوى والصبر هم أهل الإحسان ،وهم الأحقاءُ بجزاء الله العظيم وإحسانه ورحمته فى الدنيا والآخرة . قال تعالى : « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ »[٢] . وقال تعالى : « إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »[٣] .

(١) التثريب : اللوم .
(٢) سورة الرحمن ، الآية : ٦٠
(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٥٦

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(تَاللهِ) : أى والله . وتقدم قريبًا أن التاء حرف للقسم بالله خاصة .

(آثَرَكَ) : اختارك وفضَّلك .

(لَخَاطِئِينَ) : لمذنبين متعمدين .

(لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ) : لا لوم عليكم ولا تأْنيب ؛ يقال ثَرَبه يَثْربه وثَرَّبه إذا بكَّته بفعله وعدَّد عليه ذنوبه .

التفسير

٩١ ـ (قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ) :

أى قال إخوة يوسف تصديقًا له عليه السلام واعترافًا بخطيئتهم : والله لقد اختارك الله وقدَّمك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة التى أنعم الله بها عليك . وإن الشأْن والأَمر الذى لاريب فيه أننا كنا مذنبين متعمدين . إذْ فعلنا ما فعلنا ، وفرقنا بينك وبين أخيك ! !

ولقد أكدوا قولهم هذا بعدّة تأْكيدات إشعارًا بالتوبة والندم على ما كان منهم ، وانتظارًا للصفح عنهم . . وهو ما حكاه الله بقوله :

٩٢ ـ (قَالَ لَاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) :

أى لا لوم عليكم ولا تأْنيب فى هذا اليوم الذى هو مظنة للمؤاخذة والمعاتبة فما ظنكم

بالأيام التى بعده ؟ ! عفا عنهم عليه السلام عفوًا لا مؤاخذة معه وهذا هو الصفح الجميل ؛ ثم دعا لهم بمغفرة الله تعالى فقال :

(يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) : لأن كل رحمة من غيره سبحانه وإن عظمت فهى مستمدة من رحمته .

وفى ختام دعائه بقوله : (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) إشارة إلى وثوقه بإجابة دعائه لأنه عفا عنهم ، فالله تبارك وتعالى أولى منه بالعفو عنهم والرحمة لهم ! والذى أشرنا إليه من الوقف على « اليوم » وأن الجملة بعده دعائية مستأنفة هو اختيار الطبرىّ وابن إسحق وغيرهم . قال الآلوسى : وهو الذى يميل إليه الذوق .

ويجوز الوقف على قوله : (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ) : والاستئناف بقوله : (الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ) : والمعنى فى هذا اليوم العظيم يغفر الله لكم ويرحمكم وهو أرحم الراحمين . وقد استشهد الرسول صلى الله عليه وسلم فى عفوه عن قريش بما حدث من يوسف مع إخوته . إذ قال فى خطبته يوم الفتح الأعظم : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ ! قالوا خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : « لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، اذهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ » .

٩٣ ـ (اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُم أَجْمَعِينَ) :

عَلِمَ يوسف عليه السلام بطريق الوحى أو بسؤال إخوته أن أباه فقد بصره أو كاد ـ فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذى كان يلبسه حينئذ فيلقوه على وجه أبيه فتتم البشارة بعود بصره كما كان أو أحسن مما كان ، وفى قوله : (وَجْهِ أَبِى) دون أبيكم لطيفة يوسفية لا تخفى على ذى فطنة إنها تشير فيما تشير إلى أن الحنان الأبوى الذى فقدوه فى غيبة يوسف سيعود إليهم جميعًا بسببه فى لَمِّ الشمل واكتمال الأهل كما أشرنا إلى ذلك آنفًا فى تفسير قوله تعالى حكايةً عن أبيهم عليه السلام : « وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ » .

وقوله : (يَأْتِ بَصِيرًا) : جواب الأمر أى يَصِرْ بصيرًا .

(وَأْتونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) : المراد بأهلهم نساؤهم وذَرَارِيهم والعاملون معهم من خدمهم ، دعاهم للإقامة فى جواره آمنين .

ولم يذكر الإتيان بأَبيه لا لكونه داخلا فى الأَهل؛ فإنه يجل عن التبعية بل ليتفادى أمر الإخوة أن يأْتوا بأَبيهم لأَن فيه نوع إجبار على مَنْ يؤتى به فهو عليه السلام موكول إلى اختياره ومحبته وشوقه ، ولا شك أن هذا من أدب النُّبُوَّةِ والبُنُوَّةِ معًا !

(وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾)

المفردات :

(فَصَلَتِ الْعِيرُ) : خرجت القافلة؛ يقال فصل من البلد يفصِل فصولا إذا انفصل منه وجاوز حيطانه . (تُفَنِّدُونِ) : تنسبوننى إلى الفَنَد وهو الخرفُ وفساد العقل من الْهَرَم والشيخوخة ، وفى معناه ما قاله ابن عباس : لولا أن تُسَفِّهون . (ضَلاَلِكَ) : ذهابك عن الصواب وبعدك عنه.

التفسير

٩٤ - (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أن تُفَنِّدُونِ) :

ولما خرجت قافلة بنى يعقوب من عريش مصر أو حدودها قاصدة مكان يعقوب عليه السلام ، وكان قريبًا من بيت المقدس ، (قَالَ أَبُوهُمْ) : لمن كان بِحَضْرَتِهِ من ذوى قرابته ، (إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) : أى إنِّى لأَشُمُّ ريح يوسف .

أوجد الله سبحانه ما عَبِقَ بالقميص[1] من ريح يوسف فى نفحة طيبة هبت على يعقوب فَعَرَف ريحه وبينهما مسافاتٌ بعيدة .

(لَوْلَا أن تُفَنِّدُونِ) : أى لولا تفنيدكم إيَّاىَ بنسبتى إلى الخرف من الشيخوخة لصدقتمونى فى أننى أجد ريح يوسف حقيقة غير متوهم ولا مخطىء .

قال مالك رضى الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طَرْفُه - انظر القرطبى ، وستأتى بقية الحديث عن ذلك فى التفسير .

٩٥ - (قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) : أى قال الحاضرون عنده وقتئذ والله إنك لا تزال تعيش فى خطئك القديم بالإفراط فى محبة يوسف والإكثار من ذكره وتوقع لقائه ، وكانوا يظنون أن يوسف قد مات .

(فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾)

التفسير

٩٦ - (فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا) :

أى فلما جاء البشير الذى حمل قميص يوسف من بنى يعقوب ، ألقى القميص على وجهه امتثالاً لأمر يوسف ، فعاد يعقوب بصيرًا تام البصر كما كان أو خيرًا مما كان ، لمجرد إلقاء القميص على وجهه ، قيل : إن هذا البشير هو الذى حمل القميص الملطخ بالدم الكذب

---

(١) عَبِقَ بالقميص : أى لصق به .

بعد إلقاء يوسف فى البئر ، فقد روى عن ابن عباس أنه قال لإخوته : قد علمتم أنى ذهبت إلى أبى بقميص التَّرحة فدعونى أذهب إليه بقميص الفرحة ، أراد أن يمحو السيئة بالحسنة.

فتركوه يتقدمهم استعجالا بنعمة البشارة ، وهم على أثره ، وحكى السُّدِّىُّ أنه يهوذا ، وأنه قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب ، وأنا الذى أحمله إليه الآن لأسره وليعود إليه بصره – والله أعلم .

والظاهر أن يوسف عليه السلام علم بالوحى أن إلقاء القميص على وجه أبيه يرد إليه بصره بإذن الله تعالى .

وقيل : إن يوسف لما علم أن أباه عرا بصره ماعراه من كثرة البكاء عليه بعث إليه قميصه ليجد ريحه ، فيزول بكاؤه ويفرح قلبه فرحًا شديدا فعند ذلك يزول الضعف ويقوى البصر ، بل يقوى الروح والبدن كلاهما ، ولاعجب ، فللسرور والفرح بإذن الله آثار حسية ومعنوية لا تنكر .

(قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ) : هذا خطاب لبنيه القادمين وفى مقدمتهم البشير ، يذكرهم – وقد عاد بنعمة الله بصيرا – بما قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن ، وهو أنه يعلم من أمر يوسف وحياته مالا يعلمون ، وكان هذا العلم إلهاما من الله عز وجل وطمأنَةً منه على أن يوسف لايزال حيا ، أما بكاؤه عليه فهو بكاء شفقة وحرمان من رؤيته يأسا من حياته ، ولهذا قال لبنيه : « اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ . . . » الآية .

(قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾
قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾)

التفسير

٩٧ - (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) :

طلبوا منه عليه السلام أن يستغفر لهم ، ونادَوه بعنوان الأُبُوَّة تحريكا للعطف والشفقة ، وعلَّلُوا ذلك بقولهم :

(إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) : مذنبين متعمدين ، يرجون بذلك الاعتراف أن يصفح عنهم وَيستَغْفِرَ لَهُمْ فإن من اعترف لأبيه بذنبه نادما ، كان أدنى إلى عفوه واستغفاره الله له .

قال القرطبي : وإنما سألوه المغفرة لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن مالم يسقط المأثم عنهم إلا بإحلاله . وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما فى نفسه ، أو ماله أو غير ذلك ظالما له ؛ فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها ، ثم قال : وفى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له مظلمة لأخيه من عِرْضِه أو شىء فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليوم ، قبل ألا يكون دينار ولادرهم ، إن كان له عمل صالح أُخِذَ منه بقدر مظلمته [١] وإن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه فَحُمِلَ عليه » . - انظر القرطبى . والمراد بتحلُّلِه منه اليوم أن يستبرئ منه ذمته فى الدنيا .

٩٨ - (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى) :

اعترفوا لأبيهم بذنوبهم كما اعترفوا لأخيهم بها ولكن أخاهم بادر بالاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه ؛ وأما أبوهم فوعدهم باستغفار ربه لهم فى المستقبل ، وختم وعده بهذه الجملة المؤكدة بعدَّة تأكيدات فقال :

---

(١) مظلمة (بكسر اللام) وحكى فتحها .

(إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) : وبذلك تم الجوابان الحكيمان ؛ جواب الصديق وجواب أبيه ـ عليهما السلام ـ على اعترافات إخوة يوسف بالذنب ، وقد عرف من جواب الصديق أنه عفا عنهم فورًا وعرف من جواب أبيه أنه وعد بالاستغفار لهم ، ولم يعجل بالعفو عنهم ، وعن السر فى ذلك الاختلاف أجاب السيد محمد رشيد رضا فى تفسيره الخاص بسورة يوسف بما خلاصته : أنَّ حال يوسف مع إخوته هى حال الحاكم القادر ، بل الملك القاهر مع المسىء إليه الضعيف لديه ، الذى كبرت إساءته فاستحيا من طلب غفرانها ، فتبرع أخوهم بغفرانها تأمينا لهم من خوف الانتقام وكان قادرًا عليه ، وتعجيلا لهم بسرور الحياة التى جعل الله أزمتها فى يديه ، فكان المثل الأعلى فى حسن الأُسوة ، وما ينبغى أن يكون عليه الإخوة ، وأما حال أبيهم معهم فإنها حال المربى المرشد للمذنب الذى لايخشى منه انتقاما ، وليس من حسن التربية أن يُرِيَهُم أن ذنبهم هيِّنٌ لديه ، فليس بينهم وبين غفرانه لهم إلا كلمة يقولونها بألسنتهم ، على أن ذنبهم كان موجها إليه وإلى يوسف وأخيه ، فمن العدل أن يكون استغفاره لهم ، بعد علمه بحالهم مع أخويهم ولم يكن على علم بعفو يوسف عنهم .

ثم إن ذنوبهم من الذنوب العِظام التى طال عليها الأمد ، والتى لاتغفر ـ بحسب شرع الله وسنته ـ إلاَّ بتوبة نصوح تجدد حياتهم . اهـ ماقاله السيد رشيد ملخصا هذا ، وقد رُوِىَ عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أن يعقوب عليه السلام أَخَّر الاستغفار لهم إلى السَّحَرَ لأن الدعاء فيه مستجاب ، وروى عنه أيضا أنه أخَّرَه إلى ليلة الجمعة ، وفى رواية عن طاووس سحر ليلة الجمعة ، وجاء ذلك فى حديث طويل رواه الترمذى وحسَّنَه عن ابن عباس برفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) : ضمهما إليه .

التفسير

٩٩ - (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ . .) الآية .

هُنا كلام مطوى دل عليه السياق ومعناه ؛ أَنَّ إخوة يوسف بَلَّغُوا أباهم وسائر أهلهم أن يأْتوا إليه جميعا ليقيموا معه استجابة لطلبه ، وأخبروهم بمكانة يوسف ومنزلته فى مصر ، وأنه الحاكم المفوض فيها من قبل الملك . لذلك ارتحلوا من بلاد كنعان قاصدين إلى مصر حتى بلغوا مقرّ الملك .

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ) : استقبلهم استقبالا كريما بدأه بأن :

(آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) : أباه وأُمه ، وكانت على قيد الحياة كما هو ظاهر القرآن الكريم - وقيل إنها ماتت وهذه أُختها . وكان أبوه قد تزوجها بعد وفاة أُمه . والخالة بمنزلة الأُم ، كما أن العم بمنزلة الأب ، ولكننا نرجح الظاهر من النص ، لأنه لم يثبت لدينا مايخالفه ، والمراد من إيوائهما إليه أنه جمعهما معه فى قصره الخاص به ، تكرمةً لهما ومبالغةً فى البرِّ بهما ، وقال لهما ولسائر أهله :

(ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) : أَمناً عامًّا شاملا ، على أنفسكم ومواشيكم من الجوع والخوف وسائر المكاره . ولعل سنى القحط لم تكن انتهت بعدُ . ولاغرابة فى هذه السماحة والكرم من يوسف عليه السلام ، فهو كريم من سلالة رسل كرام (١) .

---

(١) روى البخارى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم . قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

ومعنى قوله عليه السلام : «ادْخُلُوا مِصْرَ» وهم قد دخلوها ـ معناه : أقيموا فيها كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وكأن الأمر بدخولها عبارة عن الإذن باستيطانها .

وقيل إن يوسف عليه السلام لما علم باقترابهم خرج يتلقاهم فى موكب عظيم ، وضرب مضربا على مقربة من حدود مصر للنزول فيه ، وفى هذا المنزل آوى إليه أبويه . وقال لهما ولبقية الركب : «ادْخُلُوا مِصْرَ إن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ». وتعليق دخولهم آمنين ، بالمشيئة الإلهية للتيمن والتبرك ، وللتبرؤ من حوله عليه السلام ومشيئته وقوته ، إلى حول الله تبارك وتعالى ومشيئته وقوته وفضله العظيم .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

المفـردات :

(الْعَرْشِ) : سرير الملك . (الْبَدْوِ) : البادية . وأصل البدو المبسوط من الأرض ، سُمِّى بذلك لأن مافيه يبدو للناظر لعدم مايواريه .

(نَزَغَ) : أفسد وأغرى . وأصله من نزغ الرائض الدابةَ ؛ إذا همزها وحملها على الجرى .

التفسير

استقبل يوسف أبويه وأهله بعد غيبة طويلة حدثت فيها تلك الأحداث التى مر بيانها فى السورة الكريمة .

١٠٠ - (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ) : وخَصَّ أبويه بمزيد من التّجلة والإكرام ، فأجلسهما على سريره الذى يجلس عليه لتدبير الملك إذ هو الملك صاحب السلطان فى الحقيقة .

(وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) : أى وخرّ أبوا يوسف وإخوته له خاضعين . وصورة الخضوع لم يأتنا بها نص شرعى . فتحمل على ماكان معروفا يومئذ فى تعظيم الملوك والله تعالى أعلم .

أما القول بأن سجودهم هذا كان لله ، وإليه سبحانه يعود الضمير فى قوله : (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) فينافيه ماجاء فى أول السورة : « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » .

قال القرطبى : وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحيّة لا عبادة . وعلى أثر سجودهم هذا ذكّر يوسف أباه برؤياه فى صباه .

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ) : أى أن هذا السجود منكما ومن إخوتى هو المآل الذى آلت إليه رؤياى التى رأيتها فى صغرى إذ « رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » .

(قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) : أى أمرًا واقعًا لاريب فيه وقد رأيتموه الآن رأى العين . فإخوتى مثال الكواكب الأحد عشر وأنت وأمى مثال الشمس والقمر .

ثم أثنى على ربه شاكرًا لأنعمه فقال :

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي) : ربى إحسانًا عظيمًا .

(إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ) : معززًا مكرمًا . إلى عرش الملك والسيادة .

(وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) : حيث كنتم تعيشون فى شظف البادية وخشونة العيش ، واضطراب الأمن – إلى الحضر – حيث تعيشون فى رغد واستقرار آمنين .

قال الزمخشرى : كانوا أهل عَمَدٍ[1] وأصحاب مواش يتنقلون فى الحياة والمناجع : ا ه

وفى الآية إشارة إلى تفضيل الحضارة على البداوة ولم يذكر عليه السلام خروجه من الجب لئلا يُخجل إخوته بعد أن قال لهم : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُم » . ثم أتم حديثه لأبيه قائلًا :

(مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى) : أى وقد أحسن بى ربى وأنعم على بهذه النعم من بعد ما أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، حيث أتلف عاطفة الأُخوة وقطع مودة القربى ، فأنت ترى من حديث يوسف عليه السلام أنه جعل الإغراء بالشر والقطيعة مشتركًا بين الشيطان وبين إخوته فتقع تبعته عليه وعليهم ، ليخفف بذلك شعورهم بالندم على ما اقترفوه فى حقه ، وهذا من كمال أدبه وتواضعه وكرمه .

ثم أشار إلى لطف الله وتدبيره له حتى بلَّغه هذه المنزلة فقال :

(إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَّا يَشَاءُ) : أى لطيف التدبير لما يشاؤه ، حتى يجىء على وجه الحكمة والصواب ، فإذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه وقدَّره ويسره ، وإن كان فى غاية البعد عما يخطر بالبال .

وهل كان يخطر بالبال أن الإلقاء فى الجب يفضى إلى السجن وأن السجن يفضى إلى العزة والملك ؟ !

(إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ) : بمصالح عباده . (الْحَكِيمُ) : فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره .

---

(١) أى أصحاب خيام تنصب وتقام على عمد .

(* رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١))

المفردات :

(تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) : تفسير ما غمض منها ، والمراد هنا تفسير الأحلام .

(فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقهما على غير مثال سابق .

(وَلِيِّى) : ناصرى ومعينى .

التفسير

غمر الله سبحانه وتعالى يوسف بنعمه الجزيلة حيث نَجَّاه من تآمر إخوته عليه ، وعصمه من السوء والفحشاء ، ورد من كيد امرأة العزيز وصواحبها . وبرأه مما اتَّهَمَتْهُ به ، وأخرجه من السجن عزيزًا كريمًا ، وبوأه من الملك ، وجمع بينه وبين والديه ، وأصلح بينه وبين إخوته ، فاتجه إلى ربه بالحمد والثناء ضارعًا إليه أن يتمّ نعمته عليه فى الآخرة كما أتمها عليه فى الدنيا قائلًا :

١٠١ - (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) :

يا إلٰهى يا من ربيتنى وكفلتنى ، وأنعمت علىَّ فوهبتنى نصيبًا وافرًا من الحكم والسلطان وعلمتنى مالم أكن أعلم من تفسير بعض الأمور الغيبية وشرح الأحلام الغامضة .

(فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) :

أى يا خالق السموات والأرض على غير مثال سبق ، فكانت على هذا النحو العجيب ، ورفعت كل كوكب فى السماء فى فلكه المرسوم ومداره المعلوم « وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » . إنك متولى أمرى فى الحياة الدنيا وفى دار البقاء ، أضرع إليك خاشعًا - داعيًا إياك :

(تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ) :

أى أسألك أن تتوفانى مؤمنًا بك مخلصًا لك وألحقنى يارب بالصالحين من عبادك .

وفى طلب يوسف من الله سبحانه أن يلحقه بالصالحين إشارة إلى أن مرتبة الصلاح رفيعة القدر وأن طلبها لايقتصر على المؤمن العادى بل تهفو إليها نفوس الأنبياء .

(ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾)

المفـردات :

(أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ) : أحكموا تدبيرهم .

(يَمْكُرُونَ) : يتآمرون وَيَحْتالُون .

التفســير

ماكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أخبار يوسف ولاغيره من الأنبياء السابقين إلا بوحى من الله تعالى ، ولهذا عقب ماسبق من قصة يوسف بقوله جل من قائل :

١٠٢ ـ (ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) :

أى هذا القصص تناول أحداثًا تاريخية تفصلك عنها آلافُ السنين ، فهو من أخبار الغيب ، أوحيناها إليك ليعلم قومك ويعلم أهل الكتاب أنك صادق فيما ترويه عن الله وكلهم يعلمون أنك أمى لاتقرأ الكتاب مطلقا كما قال تعالى : « وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ[1] » .

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) :

أى وما كنت ياأمحمد حاضرا مع إخوة يوسف حينا أجمعوا أمرهم ، وأحكموا تدبيرهم على الكيد له عليه السلام فى خبث واحتيال ، حيث تآمروا على إلقائه فى الجب ، وادعاء أن

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٨

الذئب أكله ، وإحضار قميصه لأبيه ملوثا بدم كذب ، فروايتك لتلك الأحداث شاهدة بأنك تلقيتها من العليم الخبير الذى أنزل عليك القرآن مشتملا عليها وعلى غيرها من أحداث القصة بتفصيل دقيق محكم .

وكما أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن عند إخوة يوسف وهم يمكرون به ، فإنه لم يشاهد سائر أحداث القصة التى جاءت بها السورة ، ولم يكن عند ذويها وقت حدوثها . وإنما اكتفى النص بما كان من إخوة يوسف لأنه مفتاح الأحداث كلها ، فهو رمز إليها ، ألا ترى أنه قد جاء عقب قوله سبحانه : (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) . أى ذلك الذى تقدم فى السورة من أحداثها .

ومع أن المفسرين قد أجمعوا على إرجاع الضمير فى (لَدَيْهِمْ) إلى إخوة يوسف لمكرهم به فإنه يمكن إرجاعه إلى جميع من مكر به ، سواء كانوا إخوته أو امرأة العزيز وصاحباتها أو غيرهم .

(وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾)

التفسير

١٠٣ - (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) :

كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إيمان قومه ، وكان يرجو هدايتهم بعد سماعهم قصة يوسف الموافقة لما فى التوراة ، فلما لم يؤمنوا نزلت هذه الآية يواسى بها الله رسوله وَيُسَرِّى عنه مايقاسيه من أحزان لانصراف معظم أهل مكة عن دعوة الحق التى جاءهم بها ، وإمعانهم فى المكابرة والضلال مع ظهور آياتها وبراهينها ، فَيُقَرِّرُ له سبحانه أن هذه الظاهرة هى طبيعة معظم الناس لا أهل مكة وحدهم ، فكأنه تعالى يقول لرسوله : وما أكثر أهل الأرض بمؤمن ولو حرصت على إيمانهم ، وبالغت فى إقامة الحجج والبراهين لهم ، فإن عقولهم تتحكم فيها أهواؤهم وتقليدهم لآبائهم .

فليس غريبا أن ترى معظم قومك « يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَاتَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ »[(١)] . « فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »[(٢)] : « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ »[(٣)].

١٠٤ - (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) :

إنك تدعوهم إلى مافيه فلاحهم فى الدنيا والآخرة وتهديهم إلى الرشاد ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور ولا تطالبهم بأجر يقدمونه إليك نظير هدايتهم وإرشادهم ، فإنما أجرك على الله وحده وما الكتاب الذى أنزله الله عليك إلا تذكرة لأصحاب العقول الراجحة والبصائر المميزة من أهل الأرض جميعا لعلهم يعتبرون ويتعظون ، وليس خاصا بأهل مكة « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ »[(٤)] .

(وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾)

المفردات :

(وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ) : وكم من علامة دالة على وجود الصانع ووحدته وقدرته وسائر صفاته .

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦

(٢) سورة فاطر ، من الآية : ٨

(٣) سورة النمل ، الآية : ٨١

(٤) سورة ص ، الآية : ٨٨

(مُعْرِضُونَ) : منصرفون . (غَاشِيَةٌ) : كارثة كبرى تغمرهم .

(السَّاعَةُ) : القيامة . (بَغْتَةً) : فجأة دون توقع أو انتظار .

التفسير

١٠٥ - (وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) :

جاءت هذه الآية الكريمة لتبين أن قريشا لم تكتف بالإعراض عن القرآن الكريم ، بل يعرضون أيضا عن آيات الله الكونية الكثيرة التى بثها فى آفاق السموات وأرجاء الأرض والتى تدل على وحدانية الله وسائر كمالاته ، وتستلزم إفراده تعالى بالعبادة ، وكلما مروا عليها أغمضوا عيونهم وكفوا بصائرهم ، فلاهم آمنوا بالآيات القرآنية ولا تدبروا الآيات الكونية ، وإنما آثروا العمى على الهدى وفضلوا الضلال على الرشاد فى عناد ولجاج .

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ »[(١)] .

١٠٦ - (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ) :

وما يؤمن أكثر هؤلاء بالله تعالى وأنه هو الخالق ، إلاَّ وكان إيمانهم به مشوبا بالشرك ، فإذا سألتهم من خلق السموات والأرض قالوا خلقهن الله وهم مع ذلك يشركون به فى العبادة .

وفى الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك » .

١٠٧ - (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ) : أى أن هؤلاء المعرضين عن آيات الله المنزلة وآياته الكونية ، يعرضون أنفسهم لغضب الله وعذابه الشديد فى الدنيا والآخرة

(١) سورة البقرة ، آية ١٧٥ .

فهل أمنوا أن ينتقم الله منهم فى الدنيا فيصيبهم بكارثة تغشاهم وتبيدهم .مثل الزلازل والبراكين والشهب والصواعق والأعاصير والعواصف .

(أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

وهل أمنوا أن تنتهى حياتهم فجأةً بأن تباغتهم الساعة بأهوالها وشدائدها دون شعور بمقدمها وقبل أن يتوبوا وينيبوا إلى الله ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى :

« بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ »(١) .

(قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾)

المفردات :

(سَبِيلِى) : طريقى وطريقتى .

(عَلَىٰ بَصِيرَةٍ) : على يقين ناشىء من وحى الله وآياته وحججه .

التفسير

١٠٨ - (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى) :

قل يا محمد لهؤلاء المعاندين المكابرين هذه هى طريقتى ومنهجى أدعو إلى عبادة الله وحده على يقين ثابت ، ناشىء عن وحى الله تعالى ، وقائم على الحجة البينة والبرهان الواضح أدعو إلى الله كذلك أنا ومن اتبعنى من المؤمنين .

وقد استفيد من الآية الكريمة أن القادرين على الدعوة إلى الله تعالى من علماء المسلمين ينبغى أن يتحملوا نصيبهم فيها ، ويقوموا بها خير قيام ، كما قام بها أسلافهم من قبل.

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٠

(وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى وقل لهم يامحمد أنزه الله وأجله عن أن يكون له شريك أو نظير أَوْ وَلَدٌ أو صاحبة ولست أنا ولا أصحابى من المشركين لا شركًا خفيًّا ولا شركًا ظاهرًا ، بل نعبد الله . « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ[1] » .

وهذا هو المنهج القويم ، والصراط المستقيم .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾)

التفسير

١٠٩ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى) :

لَسْتَ - يا محمد- بدعًا من الرسل فجميع من أرسلناهم قبلك بشر لا ملائكة أوحينا إليهم شرائعنا وأمرناهم بإبلاغها إلى أقوامهم وهم ليسوا غرباء عنهم بل هم منهم يتحدثون بألسنتهم كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »[2] .

فكل قوم يعرفون رسولهم وما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة حتى لا تكون لهم حجة على تكذيبه والإعراض عنه ، وكان الرسل من أهل القرى دون أهل البوادى ، لأن أهل القرى فيهم عقل وحلم ، وأهل البوادى على العكس منهم .

(١) سورة غافر ، من الآية : ١٤ (٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٤

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) :

أَقَعَدَ قومك فلم يتنقلوا فى أرجاء الأرض ليروا كيف كان مصير الأمم السابقة بعد ما كذبوا رسلهم وأصروا على تكذيبهم ، كلا . فإنهم ساروا فى الأرض وعرفوا أنه تعالى أصابهم بالهلاك والتدمير والاستئصال ، وهم يمرون عليهم فى أسفارهم كما قال تعالى :

« ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »(١) فلماذا لا يتعظون بما شاهدوا .

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أى ولثواب الدار الآخرة للمتقين خير وأبقى من لذات الدنيا الفانية ، وشتان بين دار الفتنة والابتلاء والزوال ، ودار الخلد والبقاء والنعيم المقيم ، كما قال سبحانه : « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ »(٢)

فهلا استعملتم عقولكم فاعتبرتم بأحداث الحياة وعلمتم أن العاقبة للمتقين .

(حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ) : أغرقوا فى اليأس والقنوط .

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا) : أى رجع عندهم أن نفوسهم حدثتهم بالنصر وكانت كاذبة فى حديثها . (بَأْسُنَا) : عذابنا .

(١) الصافات ، الآية ١٣٦-١٣٧
(٢) آل عمران ، الآية ١٥

التفسير

١١٠ - (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) :

هذه الآية مرتبطة بجمل مقدرة دل عليها السياق ، والتقدير : لاتَغْترَّ قريش بما هى فيه من السلام وعدم العقاب على كفرهم حتى الآن ، فإن من قبلهم من الكفار قد أُمهلوا ، حتى إذا أيس الأنبياءُ المرسلون إليهم من إيمانهم لتماديهم فى الطغيان والتكذيب من غير وازع وتوهموا أن نفوسهم كذبت عليهم حين توقعت النصر على من كفر بهم وعقابهم فى الدنيا ـ حتى إذا حدث كل ذلك ـ جاءهم نصر الله فجاءة فأنزل الله بهم العذاب وَنَجَّى الله منه من يشاءُ إنجاءه وهم المرسلون ومن آمنوا بهم ، ولا يمنع أحد عذاب الله عن القوم الذين أجرموا بكفرهم إذا قدره عليهم ، فاعتبروا يا أهل مكة بسنن الله فيمن كان قبلكم ، واحذروا أن يحل بكم ما حل بهم ، فإن الله ينصر رسله ولو بعد حين .

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾)

المفردات :

(عِبْرَةٌ) : عظة . (لِأُولِي الْأَلْبَاب) : لأصحاب العقول .

(يُفْتَرَى) : يخترع ويلفق . (بَيْنَ يَدَيْهِ) : ما تقدم عليه .

التفسير

١١١ - (لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى الْأَلْبَابِ) :

انتهت قصة يوسف عليه السلام بهذه الآية الكريمة ، التى أبرزت الهدف منها ومن أمثالها ، وهو العظة والاعتبار والإيقان بأن العاقبة للمتقين ، وأن الهلاك والدمار للمجرمين وهى نهاية يدركها أصحاب العقول الراجحة والبصائر المستنيرة الملهمة .

(مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى) :

ما صح ولا استقام عقلا أن يكون هذا القرآن الكريم حديثًا يفتريه بشر على الله فيما جاء به من قصص الأمم الخالية التى بعث الله رسله إليها ، ولا فيما جاء به من تشريعات وعقائد وأخلاق فيها صلاح أمور الدنيا والآخرة ، ولا فيما اشتمل عليه من أعلى درجات البلاغة والفصاحة فإن ذلك كله فوق طاقة الإنس والجن . « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »(١) .

فكيف يستقيم قول المشركين فيما يحكيه الله عنهم بقوله : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »(٢) .

(وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

أى ولكن أنزل الله القرآن على رسوله الصادق الأمين مصدقًا للكتب السماوية التى بين يديه أى التى سبقته ، ومؤيدًا لها فيما كلفت به البشر من عقائد وطاعة للخالق جل وعلا ، وما أمرتهم به من تنزيه له عن الشريك والصاحبة والولد ، وعن كل مالا يليق به من النعوت

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٨

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٥

والصفات المنافية للربوبية ، كما أنزله تفصيلا لكل شيء يحتاج إليه فى شئون الدين والدنيا والآخرة ، حيث ضمنه القواعد الكلية لها ، وأحال بيانها على نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله :

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[١] . وأنزله هدى للناس من الضلال والحيرة ، وإرشاداً لهم إلى سبيل السعادة ، وأنزله رحمة لقوم يؤمنون به ، ويسلكون سبيله ويهتدون بهديه .

---

(١) سورة النحل ، من الآية : ٤٤

سورة الرعد

أرجح الآراء أنها كلها مدنية وهى ثلاث وأربعون آية وسميت السورة بسورة الرعد إشارة إلى قوله تعالى فيها : « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ »[1] .

مقاصد السورة :

١ ـ استهلت السورة بالإشارة إلى آيات القرآن الكريم المنزلة بالحق على سيد الخلق للهداية والإرشاد .

٢ ـ ثم أشارت إلى ما بثه الله فى السموات والأرض من آياته الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته وعظمته ، من سماء مرفوعة وعرش عظيم وأجرام فلكية مسخرة ، وأرض تجرى فيها الأنهار وتزدان بالحدائق الغناء والمروج الفيحاء .

٣ ـ ثم تناولت أحوال البشر وتنكر كثير منهم لآيات الله المنزلة وآياته الكونية ، مع أن الله مطلع على نياتهم وأقوالهم وأفعالهم ، وسيجزى كلا منهم بما يستحقه من جزاء .

٤ ـ ثم دعت البشر إلى أن يَفيئوا إلى الصواب ، وأن يبادروا بإصلاح ما فى نفوسهم من فساد وتغيير ما فيها من انحرافات ، حتى يعينهم الله ويهديهم فإنه سبحانه « لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ » .

٥ ـ ثم عادت السورة لتذكر البشر بآيات الله الكونية ـ وأنها كما تكون نِعَمًا تكون نِقَمًا ـ مثل الرعد والصواعق ، وكلها منقادة لإرادة الله خاضعة لمشيئته ، وبينت أن الذين يدعون من دونه ـ لا يستجيبون لهم بشىء ، ولا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا ، وأنه لايستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور .

٦ ـ ثم وعدت الذين يستجيبون لدعوة ربهم بالمثوبة الحسنى ، وتوعدت من لايستجيبون لها بأن لهم سوء الحساب والخلود فى جهنم وبئس المهاد .

---

(١) من الآية : ١٣

٧- ثم تحدثت عن أنه تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ، وأن الحياة الدنيا بجانب الآخرة ونعيمها ماهى إلا متاع قليل .

٨- ثم ذكرت عناد المشركين بطلبهم من الرسول آية من ربه - وبينت أن هذا ضلال منهم وانحراف عن الآية الكبرى وهى القرآن ، وأنه تعالى يضل من يشاء من المنحرفين فلا يعينه ، ويهدى إليه من أناب ويعينه ، وأن القرآن هو ذكر الله وأنه تطمئن به القلوب .

٩- ثم تحدثت عن عظمة القرآن وأن الكفار لم يقدروه قدره حيث اقترحوا غيره ، مع أنه جدير بأن تسير به الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى .

١٠- ثم نبهت الذين آمنوا إلى أنه تعالى لو شاء لهدى الناس جميعا ، وتوعدت الكافرين بقارعة تصيبهم أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله .

١١- ثم تحدثت عن الجنة التى وعدها الله المتقين ، ووصفتها بالصفات الجليلة ، وبينت أن الذين آتاهم الله الكتاب من المخلصين يفرحون بالقرآن الذى أنزله الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن من أحزابهم من ينكر بعضه وهو مايخالف ضلالاتهم ، أو يغاير ماكان مشروعا لهم - مع أن لكل أمة رسولها وكتابها « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » . ونهته عن اتباع أهوائهم كالصلاة إلى بيت المقدس بعد تحويل القبلة ، وبينت أن الرسل السابقين جعل الله لهم أزواجا وذرية كما جعل لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا وجه لاعتراض أهل الكتاب عليك يامحمد .

١٢- ثم توعدت الكافرين ، وذكرت أن على الرسول البلاغ وعلى الله الحساب ، وأنه تعالى يحكم ولا معقب لحكمه . « وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ » . إلى غير ذلك من المقاصد الشريفة .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾)

المفردات :

(الْكِتَاب) : الْقُرْآن . (الْحَقُّ) : الثَّابت .

التفسير

١ - (الٓمٓر) : تقدم الكلام على أمثالها فى أوائل سور : البقرة وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، وأرجح الآراء فيها أنها تشير إلى أن القرآن الكريم مركب من كلمات ذات حروف كهذه الحروف التى ينظم منها العرب كلامهم ، فإن كانوا صادقين فى زعمهم أن محمدا تقوله وافتراه فليأتوا بمثله فهم أئمة الفصاحة والبلاغة فإذا عجزوا فمحمد مثلهم لايستطيع أن يأتى بمثله وإذا كان كذلك وجب الإيمان بأنه تنزيل من حكيم حميد .

هذا إلى جانب مافى بدء الكلام بها من الغرابة الداعية إلى الانتباه واستماع مايليها من فنون الهدى والرشاد ، لعلهم يهتدون ويكفون عن الإعراض عن سماع القرآن العظيم .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) :

هذه آيات الكتاب العظيم الغنى عن الوصف من بين سائر الكتب ، الجدير باختصاصه باسم الكتاب .

(وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ) :

أى وهذا الكتاب الذى أنزله الله إليك يا محمد هو الحق الثابت المطابق للواقع فلا مجال للشك والارتياب من قومك فى صدوره إليك من ربك أيها النبى .

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى ولكن أكثر الناس الذين دعوتهم إلى الإيمان بهذا الكتاب الحق لا يؤمنون بأنه أنزل إليك من ربك ، لإخلالهم بواجب النظر والتأمل فيه ، وانقيادهم لأهوائهم وشهواتهم ، وإيثارهم الضلال على الهدى ، والظلمات على النور فاصبر على أذاهم « . . . وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ »[1] .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾)

المفردات :

(الْعَمَدُ) : بفتح العين والميم وضمهما هى الأساطين التى تحمل السقف جمع عمود .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) : أى يقضى فيه ويقدره بحكمته .

(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ) : يأتى بها مفصلة مبينة للاستدلال بها على كمال قدرة الله وحكمته .

(تُوقِنُونَ) : تصدقون تصديقًا جازمًا لاشك فيه .

التفسير

بعد أن ذكر الله أن آيات القرآن أنزلها على رسوله بالحق عقب ذلك بذكر آياته الكونية العظيمة التى تدل على وحدانيته وعظمته وقدرته وهيمنته على كل شىء فقال تعالى :

٢ ـ (اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) :

(١) سورة النحل من الآية : ١٢٧

إن الإنسان لينظر إلى السماء ومافيها من نجوم وكواكب فيأخذه الإعجاب بسموها وعظمتها وجمالها واتساعها وإبداعها ، والقرآن يذكرنا بأن الله وحده هو الذى رفع هذه السموات فى آفاقها السامية الفسيحة بغير ارتكاز على عمد مرئية ، ولكن الله سبحانه وتعالى يمسكها فى أفلاكها ، ويدفعها فى مداراتها ، طبقًا لسنن كونية ثابتة أبدعتها قدرتهسبحانه .

فقال جل شأنه : « إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ »[(١)] وقال تعالى : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ »[(٢)]

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) :

المراد من الاستواء هنا الاستيلاء والسيطرة ؛ ومنه قول الشاعر :

استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

والعرش هنا كناية عن الملك والسلطان ، والمعنى أنه تعالى هيمن وسيطر على ملك السموات بعد أن رفعها بغير عمد ، فلم يدع فيها لأحد غيره سيطرة عليها ولا تدبيرًا لشىء فيها ، فكما كان له الأمر فيها حين تقديرها خلقًا وإبداعًا فله الأمر والسلطان فيها بعد ذلك حفظًا وتدبيرًا ، لا يشاركه فى ذلك كله شريك «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »[(٣)]

ومن العلماء من فسر العرش بأنه شىء عظيم لا يعلم كنهه غير الله ، مع تنزيهه جل وعلا من الجلوس عليه ، فإنه تعالى يستحيل عليه المكان ، وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك ، فإذا عرفت أنه تعالى لا أول لوجوده ، وأنه سبحانه كان ولاشىء معه ، وأنه أوجد العرش واستحدثه بعد أن لم يكن ، عرفت أنه ليس بحاجة إلى عرش يجلس عليه كما يفعل الملوك ، فالعرش على تسليم أنه جرم عظيم ، خلقه الله لمصلحة ملكوته ، وقد استند أصحاب هذا الرأى إلى أحاديث منها ما ذكره البيهقى وأخرجه الآجرى وأبو حاتم البستى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِىّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ فِى أَرض فَلاة ،

(١) سورة فاطر ، الآية : ٤١

(٢) سورة الحج ، الآية : ٦٥

(٣) سورة الأعراف ، من الآية : ٥٤

وَفَضْل الْعَرْش عَلَى الكُرسِىّ كَفَضْل الفَلاة عَلَى الْحَلْقَة » . وتركوا علم ذلك وإدراكه إلى الله علام الغيوب .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) :

أى أن الله سبحانه خلق الشمس وهى نجم كبير وخلق القمر وهو كوكب صغير وسخرهما لينتفع البشر بنورهما وحرارة الشمس ذات المنافع الغزيرة ، فانظر إلى رحمة الله ، حيث جعل الشمس إذا غابت بالحجاب وغابت معها أنوارها ، أتبعها القمر حتى لا يحرم عباده من نور السماء ليلا ونهارًا ، وجعل كلا منهما يجرى فى فلكه المرسوم ومداره المعلوم إلى أمَد مقدر وزمن محدود يعلمه سبحانه .

وقال ابن عباس : الأَجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهيان إليها ولا يتجاوزانها .

يريد بذلك أن الشمس تقطع مدارها متنقلة فى أبراجها فى سنة شمسية . والقمر يقطع مداره متنقلا فى منازله فى شهر قمرى ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »[1] . وذهب معظم المفسرين إلى أن الأَجل المسمى هو يوم القيامة يوم أن تكون السموات مطويات بيمينه سبحانه .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) :

والمعنى أن الله سبحانه يقدر الأُمور بمقتضى حكمته ويجريها طبقًا لسنته الكونية فى أرضه وسمائه فهو سبحانه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وغير ذلك من شئونه تعالى فى سمواته وأرضه ، تلك الشئون التى تحير العقول والأَلباب ولا تدخل تحت حصر ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « يَسْأَلُهُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ »[2] . وكما أنه تعالى يدبر الأَمر فإنه يفصل الآيات ويبينها فى كتبه المنزلة على رسله ويوجهنا إلى التأَمل فيها ، والاعتبار بدلالتها ، فإنها تَدُلُّكَ على عظيم قدرته ، وجليل حكمته ، ووافر رحمته ونعمته ، وأن الذى بدأ الخلق قادر على

---

(١) سورة يس ، من الآية : ٤٠

(٢) سورة الرحمن من الآية ٢٩ .

إعادته ، وأن مصير نا جميعًا إلى الله فنحن جميعًا منه وإليه ، فإذا انتفعنا بما فضله الله لنا من الآيات ،وعرفنا أننا سنلتى الله طال الزمن أم قصر ، فإننا نستعد لهذااللقاء بالإيمان الثابت والعمل الصالح والاستقامة على طريق الحق ، لننال ثوابه وننجو من عقابه .

(وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾)

المفـردات :

(مَدَّ الْأَرْضَ) : بسطها . (الرَّواسِي) : الجبال . (يُغْشِي) : يغطى .

التفسير

٣ ـ (وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا) :

تابعت هذه الآية سرد آيات الله الكونية ، فذكرت أنه تعالى بسط الأرض أمام البصر ، وسوى معظم سطحها ، ليسهل الانتقال عليه من مكان إلى مكان ، كما قال سبحانه :

« وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا »(١) .

وليسهل على عباده زرعها والانتفاع بخيراتها ، ولا يتنافى ذلك مع كروية الأرض التى أشارت إليها الآية الكريمة : « يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ »(٢) .

وسنعرض لها بالشرح فى موضعها إن شاء اللهُ ، وكما سوى الله سطح الأرض جعل منها جبالا راسخة لتثبيتها فلا تموج ولا تضطرب ، حتى لا يهلك من على سطحها من الكائنات أثناء

---

(١) سورة نوح الآية ١٩

(٢) سورة الزمر من الآية ٥

اضطرابها وزلزالها ، قال تعالى : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا »[١] . ومن أيات الله الكونية التى أشارت الآية إليها تكوين الأنهار من الأمطار التى تهطل على سفوح الجبال ، فتشق طريقها فوق سطح الأرض ممتدة مئات أو آلاف الأميال ، ليرتوى منها عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات .

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) :

أى وجعل الله فى الأرض من كل أنواع الثمرات فردين متزاوجين ، أحدهما ذكرُ والآخر أنثى ، والذكر قد يكون منفصلا عن الأنثى كالنخل ، وقد يكونان فى شجرة واحدة كشجرة الذرة ، وهنا يتجلى الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، فما كان العرب يعلمون أن فى كل نبات أعضاءً للتذكير وأخرى للتأنيث ، يتم بينهما التلاقح فتثمر أطيب الثمرات ، ما كانوا يعلمون ذلك إلا فى نبات واحد هو النخل ، ولكن القرآن أنبأنا منذ أربعة عشر قرنًا بما اهتدى إليه العلم الحديث فى العصر الحاضر « سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ »[٢] .

(يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ) :

أى يجعل الليل يغطى ضوء النهار ويكسوه بظلامه ليستريح الناس من متاعبهم فى النهار ويدركوا رحمة ربِّهم بهم وقدرته على هذا الكون العجيب ، واكتفى بتغشية الليل النهار مع تحقق عكسه لأنه معلوم ، وتتابع الليل والنهار نعمة منَّ الله بها على خلقه ليتسنى لهم الكسب فى ضوء النهار والراحة تحت أسدال الظلام .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) : إن فى هذه الآيات الكونية العديدة فى السموات والأرض لعلامات وبراهين دالة على وحدانية الله وقدرته وعظمته ، يدركها من استعملوا عقولهم وتركوا تقليد أهل الجهالة فى جهالتهم ، فمن شاء الهداية فأمامه آيات الله المنزلة وآياته الكونية ، وكلتاهما تدعو إلى الإيمان العميق «فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ »[٣] .

(١) سورة النبأ الآيتان ٦ ، ٧
(٢) سورة يس ، الآية ٣٦
(٣) سورة الجاثية ، من الآية ٦

(وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾)

المفـردات :

(صِنْوَانٌ) : جمع صنو ، وهو المثل ، ومنه الحديث الشريف : «عم الرجل صنوأبيه » . والصِّنْوُ أيضًا نخلتان أو أكثر تتشعب من أصل واحد ، وكما تُطلق كلمة الصنو على ماذكر ، يطلق عليه أيضًا : (صنوان) : روى عن البراء : الصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المتفرق ، وقال النحاس : يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان ا هـ . راجع القرطبى .

التفسير

٤ - (وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ) الآية .

واصلت الآية الحديث عن آيات الله الكونية .

والمعنى : أنه يوجد فى الأرض قطع متجاورة متماثلة فى تربتها وانتفاعها بأشعة الشمس وفيها بساتين كثيرة مزروعة فى قطع الأرض المتجاورة ، وتشتمل على أشجار الكروم التى تثمر أنواع العنب والزبيب ، وتشمل أيضًا على الزرع الذى يثمر أنواع الحبوب والبقول ، وفيها النخل الذى يثمر البلح والرطب والتمر .

وبعض النخيل مفرد وبعضه متعدد على أصل واحد ، وهو الذى عبر عنه فى الآية بكلمة (صنوان) ، ونلاحظ فى الآية أنها لم تستوعب حاصلات البساتين ، بل ذكرت نموذجًا لما يتسلق ويقوم على عرائش ، وهو الأعناب ، وآخر للشجر الذى يقوم على ساق ، وهو النخيل الذى له جذوع صلبة وطويلة ، أما الزرع فإنه شامل لكل أنواع الحبوب والبقول .

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ) :

هذه الجملة مستأنفة للتعجيب من قدرة الله تعالى فيما يبدعه فى عالم البساتين ، حيث بينت أن هذا النبات والشجر على اختلاف أنواع كل منهما يسقى بماء واحد فى أرض متجاورة ومتشابهة فى التربة والجو ، ولكن الثمرات متنوعة فى الطعم والشكل واللون والرائحة ، وربما كان ذلك فى الشجرة الواحدة ولا شك أن هذا ناشىء من أن وراء الطبيعة ربا حكيماً ، هو الذى ينوع النواميس والطبائع ويبدع غير المألوف ، ويخالف المألوف ليعرفه عباده بما يبدعه لهم من هذه المؤتلفات والمختلفات ، ولو كانت الطبيعة هى الفاعلة لما وقع هذا الاختلاف ، بل لما وجد من ذلك شىء فإن الطبيعة لا عقل لها ولا إرادة ، ولهذا عقب الله تلك الجملة بقوله :

(إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

إن فى هذا التنوع والتعدد - مع وحدة الأصل والبيئة - لعلامات وشواهد يدركها أصحاب العقول الراجحة فيعلمون أن من ورائها قدرة الخلاق العظيم الذى أحسن كل شىء خلقه ، فيؤمنون وينقادون إليه ويعبدونه على الوجه اللائق بما له من عظمة وجلال .

(۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾)

المفــردات :

(وَإِن تَعْجَبْ) : العجب والتعجب كلاهما يستعمل على وجهين :

أحدهما فيما يستحسن ويحمد . والثانى فيما يكره وينكر .

(الْأَغْلَالُ) : جمع غُل بضم الغين . وهو طوق من حديد أو غيره يوضع فى العنق أو فى اليد فتشد به إلى العنق .

التفسير

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً . . . ﴾ الآية .

بينت الآيات السابقة دلائل قدرة الله فى السموات والأرض وأنها آيات لأصحاب العقول السليمة . والأفهام المستقيمة على عظمة قدرة الله وحكمته ، وأن من هذا شأنه فهو قادر على كل مقدور ، وجاءت هذه الآية للتعجب من إنكارهم للبعث مع مايشاهدون من المظاهر الكونية ، ولإنذارهم بالعذاب الدائم الذى لاغاية له جزاء تكذيبهم . والخطاب فى الآية للرسول أو لكل من يصلحُ للخطاب من العقلاء .

والمعنى : وإن تعجب من تكذيب المشركين بأمر المعاد مع ماشهدوه من دلائل قدرة الله فعجب لايوجد أشد منه قولهم فى إنكارهم للبعث

﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ :

هذا القول مشتمل على استفهامين من المشركين ، يقصدون بهما أقصى درجات الإنكار ، للعودة إلى الحياة مرة أخرى ، حيث يخلقون خلقًا جديدًا بعد أن تحللت أجسامهم ، ونخرت عظامهم ، وأصبحوا ترابًا تذروه الرياح ، ولو فكر هؤلاء المنكرون بعقولهم لعلموا أن من قدر على إنشاء تلك الكائنات وإبداعها من تراب ، فإنه قادر على إعادتها ، بل الإعادة فى نظر القياس أهون . وإن كان كل شىء أمام قدرة الله سواءٌ . فهو الذى يقول للشىء كن فيكون .

وقد عقب الله هذه الجملة التى نعت عليهم تكذيبهم بقوله :

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ : أى هؤلاء المكذبون للبعث هم الذين كفروا بربهم ولم يؤمنوا به. إذ لو آمنوا به وبأنه خالق السموات والأرض – كما يجيبون إذا سئلوا – لعلموا أنه قادر على بعث الأجساد بعد استحالتها إلى تراب تفرقت ذراته . فهم ليسوا أشد خلقًا من السماء التى بناها ورفع سمكها وسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها .

ولما كان هذا الكفر مع وضوح الأدلة أمرًا منكرًا فظيعًا يستحقون عليه أشد العقاب أنذرهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَأُولَـٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ ﴾ : أى أن جزاءهم يوم الحساب أن يسحبوا إلى النار بأطواق فى أعناقهم تحقيرًا لهم وتسفيهًا .

وقال بعض المفسرين هو تمثيل لحالهم الشنيعة فى الضلال وتقليد الآباء بحال المقيدين بالأغلال فى أعناقهم ، فهم مثلهم فى الحرمان من نعمة الحرية وكَبْتِ الإرادة ، وضيق آفاقها ، والحرمان من الخير ، وسوء العاقبة .

ثم ختمت الآية بقوله تبارك وتعالى :

(وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : أى وأولئك المكذبون بالبعث الكافرون بربهم المكبلون بالأغلال فى أعناقهم – أولئك الموصوفون بهذه الصفات – هم أصحاب النار الملازمون لها – الماكثون فيها؛ فلا ينفكون عنها ولا يخرجون منها أبدًا .

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(السَّيِّئَةِ) : العقوبة . (الْحَسَنَةِ) : العافية والسلامة .

(الْمَثُلَاتُ) : جمع مثله – بفتح الميم وضم الثاء . وهى العقوبة ؛ سميت بذلك لأنها تماثل الذنب ، والمراد بالمثلات فى الآية الكريمة عقوبات أمثالهم المكذبين قبلهم .

التفسير

٦ – (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ . . .) الآية .

كان الرسول صلوات الله عليه ينذر المشركين بالعذاب فى الدنيا والآخرة لإصرارهم على الكفر ، فكانوا يستعجلونه فى وقوعه استهزاءً به وطعنًا فى خبره فنزلت .

والمعنى : ويطلب منك المشركون يامحمد أن تعجل لهم بالعقوبة التى أنذرتهم بها . لإصرارهم على الكفر وتكذيب ماجئتهم به من عند الله، وكان عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويعدلوا عن شركهم . ويطلبوا من الله سبحانه وتعالى السلامة والعافية . وماكان ينبغى لهم أن يؤثروا العقوبة على السلامة ،وهم يعلمون مما يشاهدونه حولهم من آثار ما أنزله الله من العقوبات بالكافرين قبلهم . كما حدث لعاد قوم هود ، ولثمود قوم صالح ، ولقوم لوط ولغيرهم وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

(وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ) :

أى أنهم قد مضت من قبلهم عقوبات الأمم السابقة التى استأصلتهم . فما لهؤلاءِ لم يعتبروا بتلك الأمم ؟ فيكفوا عن الكفر والتكذيب حتى لايحل بهم ما حل بمن قبلهم من المكذبين .

ثم عقب الله سبحانه وتعالى هذه الجملة من الآية الكريمة بما يفتح باب الأمل للتائبين المستغفرين – ويحذّر من شدة العقوبة للعصاة المصرّين فيقول :

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) :

أى أنه تعالى . صاحب مغفرة عظيمة وستر شامل لمن ظلموا أنفسهم بالذنوب والمعاصى . فلا يعجل لهم بالعقوبة ، بل يمهلهم ويؤخرهم لعلهم يتوبون ويستغفرون فيغفر لهم .

وكما أنه سبحانه صاحب مغفرة للناس وإن كانوا ظالمين . إن تابوا وأنابوا ؛ فإنه شديد العقاب لمن أصر على كفره وعصيانه كما قال تعالى فى سورة الحجر: « نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ».وفى سورة الأنعام :« فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » . إلى غير ذلك من الآيات التى تجمع بين الرجاءِ والخوف .

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾)

المفـردات :

(الَّذِينَ كَفَرُوا) : المراد بهم هنا كفارُ أهل مكة .

(لَوْلَا أُنزِلَ) : لولا بمعنى هلَّا ، فكلتاهما للحض والحث على فعل الشيء .

(آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) : الآية ؛ العلامة ، والمراد بها هنا ما طلبوه من الخوارق مثل تفجير الينابيع والأنهار والرقى فى السماء .

التفسير

٧ ــ (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ) :

بعد أن حكى الله عن أهل مكة كفرهم بالبعث ، واستعجالهم بالعذاب الذى توعدهم الله به على لسان رسوله ، جاءت هذه الآية لبيان لون من ألوان كفرهم وعنادهم .

والمعنى : ويقول الذين كفروا بالقرآن من أهل مكة زاعمين أنه لا يكفى للدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : هلَّا أُنزل عليه آية من ربه ، على منهاج الآيات الكونية التى أيد الله بها رسله السابقين ، كعصا موسى التى أبطلت سحر الساحرين ، وناقة صالح ، وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى ، ولما كان هذا المطلب لا يخرج إلا من فم كافر لما فيه من التجنى على الحق ، فلذا حكى الله مقالتهم موصوفين بالكفر بقوله : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا) بدلا من أن يعبر عنهم بأُسلوب الإضمار : (وَيَقُولُونَ) والغرض من ذلك ذمهم بالكفر بهذا الكتاب المبين الذى تخر له صم الجبال ، ولو تفتحت على الحق قلوبهم ، وبرأت من الحقد نفوسهم ، لوجدوا السبيل إلى الهدى ميسرة بآياته ، فهى أجدى على الحق من تحويل الصفا إلى جبل من ذهب ، وتحويل صحرائهم إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار

كما طلبوا ، فإن العقل البشرى قد شب عن الطوق ، والذى كان آية للأمم السابقة ، لا يصلح آية لأمة محمد التى فتح القرآن لها أبواب العلم ، وكشف لها آفاق المعرفة فلم يعد يفيدها ناقة تخرج من الصخر ، ولا يد تخرج من الجيب بيضاء من غير سوء ، ولا إبراء الأكمه والأبرص وإحياء ميت أو ميتين ، فكل ذلك لا يساوى إحياء القلوب باليقين ، وتنوير العقول بأشعة المعرفة ، ووضع المنارات على الطريق ليهتدى بها الناس إلى الحق سبحانه وتبرئته من الشريك والنظير ، وتنزيهه عن الصاحبة وعن الولد ، وليهتدوا بها إلى أسرار الملك والملكوت ، فيعملوا للدنيا فى حدود ما هو حلال لهم ، ولا عليهم من بأس أن يتوسعوا فى نعمه وزينته والطيبات من الرزق ما داموا يؤدون حق الله وحق المجتمع فيما رزقهم ربهم ، ويعملوا للآخرة ، حيث لاينفعهم مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

وفى ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَىَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . أخرجه البخارى ومسلم والنسائى .

ومن مميزات معجزة القرآن أنها باقية ما بقى الزمان ، بخلاف معجزات الأنبياء السابقين ، فقد أصبحت خبرًا بعد عين ، وعرضة لإنكار المنكرين ، وتكذيب المكذبين .

(إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) :

أى ليس من شأنك يا محمد أن تقترح علينا الآيات ، أو تبلغنا اقتراح قومك لها ، فما أرسلناك إلا لإنذار الكفار سوء عاقبة ما هم عليه من الكفر ، وقد أيدناك بما يكفى الاستدلال به على نبوتك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهو القرآن العظيم ، فما أنت إلا منذر لهم ولكل قوم كافرين ، بما جاء فيه من القوارع والنوائب التى تحل بهم إن أصروا على كفرهم ، وهاد مرشد إلى طريق السلامة فى الدنيا والآخرة بما جاء فيه من الآيات ، فإن سلكوه كانت غايتهم السلامة والسعادة الأبدية ، وإن أعرضوا عنه كانت غايتهم الندامة والشقاوة الأبدية ، فلا تكترث باقتراحهم الآيات عنادًا ، فلكل أمة رسولها مؤيدًا بالآيات اللائقة بها .

ثم عقب الله هذه الآية بما يدل على كمال قدرته وشمول علمه وقضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح ، تنبيهًا على أن تخصيص كل قوم بنبي ، وكل نبي بجنس معين من الآيات إنما هو للحِكَم الداعية إليها ، وذلك بقوله سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ ﴾

التفسير

٨ - (اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) :

لمَّا تقدم إنكارهم البعث . وكان من أقوى شبههم ما شهدوه من تفرق الأجزاء وزوال صفاتها . نبه سبحانه بهذه الآية على إحاطة علمه جل شأنه . فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء دحضًا لشبهتهم . وإزاحة لها .

والمعنى : الله يحيط علمه بما تحمله الحوامل من مبدإ الحمل إلى زمن الولادة فلا يخفى عليه شيءٌ مما يتعلق بذات الجنين أو صفاته من كونه ذكرًا أو أنثى ، أو صبيحًا أو قبيحًا أو صالحًا أو طالحًا أو شقيًّا أو سعيدًا .

(وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) : أى يعلم ما تنقصه الأرحام فى ذات المولود أو مدته نتيجة لما يغيض له فى أطواره من أسباب تجعله ينزل سقطًا أو لأقل من مدة الحمل الغالبة أو لأكثر منها أو لما أُلف وعهد فيها .

(وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ) :

أى وكل شيءٍ فى علم الله وتقديره من الأعيان والأعراض له فى كل مرتبة من مراتب التكوين قدر معين فى ذاته وفى زمنه ، وحاله لا يتخطاه ولا يجاوزه بأى حال من الأحوال .

وذلك عام فى الأجنة والآجال والأرزاق وغيرها. وفى الحديث الصحيح: «أن إحدى بنات النبى صلى الله عليه وسلم بعثت إليه أن ابنًا لها فى الموت وأنها تحب أن تحضره. فبعث إليها: « إنَّ لِلَّه ما أخذ وله ما أعطى وكل شىء عنده بأجل مسمى فمروها فلتصبر ولتحتسب». والحديث لمسلم ورواه البخارى فى كتاب الجنائز بمخالفة يسيرة. والمقصود بإحدى بنات النبى صلى الله عليه وسلم زينب امرأة أبى العاص بن الربيع .

٩ - (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . . .) الآية .

أى يعلم سبحانه وتعالى الغائب عن الخلق والظاهر لهم. فينفرد بكل باطن خفى - لايشاركه فى علمه به أحد، وأما مايقوله أهل الطب من استدلالهم فى طلبهم على ما خفى بأمارات وعلامات فذلك ظنى لايقينى (١) . والتعبير عن الغائب والحاضر بالمصدر مبالغة فى كون الغائب كأنه نفس الغيب لشدة خفائه . وكون الحاضر لقوة وضوحه كأنه نفس الشهادة والوضوح . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن الغيب السِّر والشهادة العلانية .

(الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) : الذى تعالى قدره وعظم شأنه، واستعلى على سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله .

١٠ - (سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) :

بعد ما بين الله تعالى أنه عالم بجميع أحوال الإنسان فى مراتب فطرته ومحيط بعالمى الغيب والشهادة ، جاءت هذه الآية لبيان أنه لا فرق فى علمه بين السِّرِّ والعلن ، والجلى والخفى ، فيستوى فى علمه من أسر القول منهم وأخفاه عن غيره ، ومن جهر به وأذاعه خيرًا كان أو شرًّا ، فيعلم سر الأول كعلمه بجهر الثانى من غير تفاوت بينهما فى كيفية علمه بهما ودرجته ، كما يستوى فى علمه من يبالغ فى الاستتار والتخفى فى ظلمة الليل ، ومن هو ساربٌ وبارز بالنهار .

(١) أما الآلات التى اخترعت لكشف ما فى جوف الأرض من معادن وبترول فإن العلم بوساطتها لايعتبر علما بالغيب، فقد أصبح الغيب فى حكم الظاهر بوساطة هذه الآلات ولذا يستوى فى العلم بوساطتها كل من عرف طريقة استعمالها .

وقال الأخفش وقطرب: المستخفى بالليل: الظاهر ومنه خَفَيْتُ الشَّىءَ وأخفيته أى أظهرته والسارب المختفى بالنهار يدخل سربًا يختفى فيه - انتهى بتصرف. وتلك عادة لبعض العابثين يختفون نهارًا، ويظهرون ليلا، ليأخذوا الناس على غرة وهؤلاء وأمثالهم كغيرهم يحيط بهم علمه مهما تذرعوا به من إحكام التخفى بمختلف الوسائل والأساليب.

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١١) ﴾

التفسير

١١ - ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾:

أى لله ملائكة يعتقبون على حفظ عبده من جميع جهاته يأتى بعضهم إثر بعض بدون إبطاء. كأن كلا منهم يطأ عقب الآخر لشدة قربه منه. يتناوبون عليه بالليل والنهار لوقايته من كل ضرر يمسه. أو سوء يلحق به وذلك الحفظ من أمر الله، أى بسبب أمر الله لهم به. فإذا جاء قدر الله تخلوا عنه[١]. ويجوز أن يكون المعنى: يحفظونه إذا أذنب من بأس الله بالاستمهال والاستغفار له. كما يتعاقب عليه ملائكة آخرون لإحصاء كل عمل له خيرًا كان أو شرًّا. فهو بين أربعة من الملائكة حافظين وكاتبين بالليل ومثلهم بالنهار، يجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر. وفى الصحيح: « يَتَعَاقَبُونَ فِيكم مَلائِكَةٌ باللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بالنَّهارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِى صَلاةِ الصُّبْحِ وَصَلاةِ العَصْرِ، فَيَصْعَدُ إلَيْه الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُم

(١) قال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى على فقال: احترس فإن ناسا من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مالم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبين قدر الله، وإن الأجل حصن حصينة » أخرجه الإمام مسلم.

وَهُو أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِى ؟ فَيَقُولُونَ آتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ».

أخرجه البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة . باب فضل صلاة العصر .

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى إحاطة علمه بالعباد وأن لهم معقبات يحفظونه من أمره ، نبَّه على أن النجاة فى لزوم الطاعة والوبال فى اختيار المعصية فقال - جل شأنه - :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) :

أى جرت السنَّةُ الإلٰهيةُ بأنه تعالى لايبدل ما بقومٍ من نعمةٍ وعافيةٍ وأمنٍ ودعةٍ حتى يتركوا ما تعودوه واتصفوا به من عمل صالحٍ وخلق قويم متجهين إلى أضداها ، لأنهم بذلك قد أهملوا الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وحينئذ يستحقون الحرمان من النعمة وقد يضم إليه إنزال العذاب بهم إن عظمت ذنوبهم وقد يصاب به الصالحون الذين يعيشون بينهم ، وذلك على سبيل الابتلاء لا على سبيل العقاب . كما قال الرسول - صلَّى الله عليه وسلم - ردًّا على من سأله . « أنَهْلِكُ وفينا الصالحون ؟ قال : نعم . إذا كَثُرَ الخبثُ[1] » .

وقد يشتركون فى استحقاق العقوبة ، لتراخيهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال - صلَّى الله عليه وسلَّم - : « إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب[2] » . ويصح أن يكون المعنى : إن الله لايغير ما بقوم من العقاب والبلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعاصى ، ليكون أهلا لعفوه ورحمته .

(وإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا) :

أى وإذا شاء الله بقوم بلاءً من مرض أو فقر أو هزيمة أو عذاب أو غير ذلك مما يسوءُ ويؤلم .

(فَلَا مَرَدَّ لَهُ) :

أى فلا دافع لبلائه على اختلاف أنواعه ، وقيل إذا أراد الله بقوم سوءًا أعمى أبصارهم وبصائرهم فاختاروا ما فيه هلاكهم ، وعملوه بأنفسهم فيستحيل لذلك رده عنهم .

---

(١) الخبث : الفسق والفجور .

(٢) معنى ذلك أن المصائب قد تنزل بشؤم ذنوب الآخرين .

(وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ) :

أى ليس لهم ملجأ غيره يقيهم من أخذ الله لهم ويتولى أمورهم فيمنعهم ويدفع عنهم السوء الذى ينزله بهم ، بسبب تغيير ما بأنفسهم ، وفى هذا دلالة قاطعة على أن تخلف مراد الله محال ، وإيذان بأنهم بسبب إنكارهم البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية ، قد استحقوا العذاب الشديد ، والعقاب الأليم الذى لا يستطيع أحد دفعه عنهم ، إذا أراده الله بهم .

(هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(يُجَادِلُونَ) : مفاعلة من الجدل بالتحريك وهو المناقشة والمخاصمة .

(المِحَالِ) : بكسر الميم ؛ الكيد والمكر ، والمماحلة المكايدة ، ويستعمل فى الحيلة والقوة والجدال ، يقال : ماحل عن رأيه جادل ، والمِحَالُ من الله معناه التدبير بالحق كما قاله النحاس .

التفسير

١٢ - (هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا) :

فى هذه الآية الكريمة بيان لبعض الظواهر الكونية التى تنطق بكمال قدرته تعالى ، وتبرز للحس عظيم صُنْعِهِ ، فقد جاء فيها أنه تعالى يرينا البرق لإخافتنا من آثاره التى قد

تتمثل فى صواعق حارقة ، وبرق قوى يكاد عند إنبعاثه يذهب بالأبصار ، ومطر غزير يشق على المسافر ويؤذيه ،وقد ينفر منه المقيم ولا يبتغيه ، كما يرينا البرق أيضا لإطماع عباده فى غيث نافع يغيث الزرع ويُدِرُّ الضرع ، وينشر الخصب والرخاء ، قال الحسن : خوفا من صواعق البرق وطمعا فى غيثه المزيل للقحط ، وقال قتادة : خوفا للمسافر يخاف مشقته وأذاه ، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع فى رزق الله .

(وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) :

أى السحب الممتلئة بالمطر . لذلك يعم نفعها ويعظم أثرها ، والثقال جمع ثقيلة لكثرة ما تحمل من ماء المطر .

١٣ - (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ . . . .) :

أى أن الرعد خاضع لله خضوعا تاما شأنه شأن جميع الكائنات فالتسبيح منه مجاز عن الخضوع ،ويجوز أن يكون تسبيحه تسبيحا مقاليا ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول:« سبحان من يسبح الرعد بحمده »[(١)] . وإسناد يسبح إلى مضاف محذوف كما يقول بعض المفسرين والتقدير ويسبح ملك الرعد ، مخالف لظاهر النص الذى ينطق بأن الرعد هو الذى يسبح تسبيحا مجازيا أوحقيقيا[(٢)] كما تقدم .

وللملائكة كذلك تسبيح وتنزيه إذ هم ملأ سماوى لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ينبئ بذلك قوله تعالى :

(وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ) : أى وتسبح الملائكة من هيبته تعالى وإجلاله .

(وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ) :

أى أن الله سبحانه وتعالى ينزل الصواعق[(٣)] فيصيب من يشاء هلاكه من عباده فيهلكه ، وقد تكون مظهرًا من مظاهر قدرته وجبروته وهى فى كلتا الحالتين آية من آيات الله تعالى .

---

(١) أخرجه : ابن جرير عن أبى هريرة

(٢) وليس هذا مستحيلا على الله ، فإن عباده اخترعوا الحاسبات الألكترونية وغيرها وهو الذى أقدرهم على ذلك ، وهو الذى سخر الجبال مع داود يسبحن بالعشى والإشراق ، وجعل الطير تؤوب وتسبح معه .

(٣) مرّ بيان الصواعق فى تفسير الآية ١٩ من البقرة ، فارجع إليه .

ولما نعى الله على المشركين عنادهم فى اقتراح الآيات وإنكارهم كون الذى جاء به الرسول من جنس الآيات ، ولم يعتبروا بما شاهدوا من ظواهر هى آيات على قدرة الله ، عقب ذلك ببيان طبيعتهم تسلية لرسوله فقال سبحانه :

(وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ) :

أى لاتحزن لما ترى منهم فى شأنك . فهم مع أمارات القدرة العظيمة ،ودلائل التوحيد الباهرة . يجادلون فى الله بادعاء الشركاء وإثبات الأولاد له تعالى ، وإنكار البعث ، ويلحون فى استعجال العذاب ، ومع سلطانه القاهر يمعنون فى العناد والمكابرة .

(وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) :

أى أنه سبحانه شديد القوة على أعدائه يأخذهم أخذ عزيز مقتدر فيصيبُ مِنْهُم من يشاء وفق إرادته . وقال الحسن شديد الإهلاك بالمحل وهو القحط .

(لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ) : كمن مدهما مبسوطتين . (لِيَبْلُغَ فَاهُ) : ليصل إلى فمه .

التفسير

١٤ - (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَايَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَىْءٍ) الآية .

أى أن دعوة الحق تختص به تعالى ، أمَّا دعوة غيره كالأصنام والكواكب ، فليست دعوة حق ، بل هى دعوة باطل ، ولهذا فإنه تعالى : يجيب دعاء من دعاه ، فهو أهل

للإجابة كما هو أهل للدعاء . أما الذين يدعونهم من دونه من الشركاء ، فإنهم لايجيبون دعاء من دعاهم بشيء فهم ليسوا أهلاً للإجابة ، كما أنهم ليسوا أهلا للدعاء .

وكيف يستجيبُون لهم وهم صمّ بكم عُميٌ فلايسمعون ولاينطقون ولايبصرون ، وكل من يتوقع من هذه الأَصنام الاستجابة وتحقيق أى أمل يرجوه ماهو إلا (كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) : فكما أن من بسط كفيه إلى الماء يدعوه أن يرتفع إلى فمِهِ فلا يستجيب له فكذلك من بسط كفيه إلى الأَصنام يدعوها لتحقيق أمل له لاتستجيب دعاءه .

(وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) : أى لايصل الماءُ إلى فمه أبدا إن دعاه وبسط كفيه إليه ، لأَنه جماد لايشعر بظَمئه ، ولا بِبَسْطِ الكفين إليه وهو يدعوه أَن يصل إلى فمه ، ولا يستطيع بنفسه سلوك السبيل إليه ، فكذلك الآلهة لأَنها لاتملك لنفسها نفعا ولا ضرًّا ، فإنها عاجزة فكيف تملك الاستجابة للذين يدعونها ، ولذلك كان دعاؤهم لها كما يقول جل شأْنه :

(وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إلاَّ فِى ضَلَالٍ) :

أى أن دعاءهم إلى ضياع وخسار لأَنها غير أهل للدعاء ولا للإجابة ، فكيف يعبدها المشركون ، وهى غير أهل للدعاء فضلا عن العبادة ، وقد ضرب الله الماءَ مثلا رائعا ليأْس الكافرين من استجابة الأَصنام إليهم ، ويذكر القرطبي فى معناه ثلاثة أوجه :

الأَول : أن الذى يدعو إلَٰها غير الله كالظمآن الذى يدعو الماءَ إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيديه فلا يأْتيه أبداً لأَن الماءَ لا يستجيب وما الماءُ ببالغ إليه ، قاله مجاهد .

الثانى : أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى الماءِ وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه لكذب ظنه وفساد توهمه ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد فى كفيه شىءٌ منه اهـ .

والوجه الذى ذكرناه أوضح من هذا كله والله تعالى أعلم .

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(يَسْجُدُ) : يخضع وينقاد . (طَوْعًا) : اختياراً .

(وَكَرْهًا) : بفتح الكاف ؛ إكراهًا . وبضمها ؛ مشقة .

(الغُدُوّ) : جمع غداة لمقابلته بالآصال ، وقيل مصدر غدا ، يقال غَدَا غدوًا بمعنى دخل فى الغدوة . والغدوة والغداة من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس . (وَالْآصَالِ) : جمع أصيل ، والأَصيل مابين العصر وغروب الشمس.

التفسير

١٥ـ(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ...) الآية .

أى أن جميع من فيهما من الإنس والجن والملائكة وغيرهم خاضعون لعظمته منقادون لإرادته شاءوا أو أبوا ، يستوى فى ذلك مؤمنهم وكافرهم ، ومن له عقل وإرادة وما لا

عقل له ولا إرادة. والتعبير بِمَنْ وهى للعقلاء لتغليبهم على غيرهم ، وجميع هؤلاء يسجدون لله (طَوْعاً وَكَرْهاً) : فانقياد المؤمن يقع منه اختياراً طائعا لأنه خاضع لله بظاهره وباطنه وانقياد الكافر يقع منه اضطرارا ، فإنه خاضع لله فى تربيته ورزقه ، وصحته ومرضه وغير ذلك . فمشيئته تعالى ماضية فيه . (وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) : أى تنقاد لله كذلك ظلال من له ظل منهم فهى تحت سلطانه ومشيئته فى الامتداد والتقلص والرجوع والزوال . خاضعة له منقادة لإرادته بالغدو والآصال . لأن ظلال الأشياء تظهر فى هذين الوقتين وتتضح حركتها زيادة ونقصا وميلا من ناحية إلى أخرى بتصريف الله . إذ الحركة والسكون بيده تعالى ، والمتحرك والساكن فى قبضته .

١٦ - (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ . . .) الآية .

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلوات الله عليه أن يبين للمشركين طريق الهداية بمحاورتهم سائلًا ومجيبًا ، ليلفت أنظارهم إلى البحث والتأمل فقال له : (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ) : أى قل يا محمد لأولئك الكفار الذين اتخذوا الشركاء لله والأولياء من دونه : مَن ربُّ هذه الأجرام العظيمة التى ترونها فيبهركم ما فيها من دقة وكمال وجمال ؟ ثم أمره أن يذكر لهم الجواب فقال : (قُلِ اللَّهُ) : للإيذان بأنه جواب متعين إذْ لا جواب سواه ، ولهذا فالسائل والمجيب فى تقريره سواءٌ . وَفِى ذلك إشعار لهم بمخالفتهم لما علموه مما لا يصح إخفاؤه بدليل قوله تعالى : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ - لَيَقُولُنَّ اللهُ » . ثم أمره أن يبين لهم خطأهم الفاضح فيما سلكوه بجانبه تعالى فقال :

(قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لَايَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) :

أى قل لهم تبكيتًا وتقريعًا أبعد أن علمتم أنه رب السموات والأرض الذى ينقاد لسلطانه وتقديره كل من فيهما ، أبعد أن علمتم هذا عميت قلوبكم فاتخذتم من دونه تعالى

أولياء عاجزين لا يملكون لأنفسهم نفعًا يأتون به أو ضررًا يدفعونه ، فهم عن جلب النفع ودفع الضر عن غيرهم أضعف وأعجز .

ثم ضرب لهم مثلا يصور آراءهم الفاسدة بصورة المُحَس فقال جل شأنه :

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى والْبَصِيرُ) : أى قل لهم مُقَرِّعًا هل يستوى الأعمى وهو مثل المشرك الجاهل بالعبادة وبمستحقها ، والبصير وهو مثل الموحد العالم بذلك ، والمراد لا يستوى المؤمن والكافر .

(أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) : ويراد من الظلمات الكفر والضلال ومن النور الإيمان والتوحيد أى هما لا يستويان .

١ ثم إنه تعالى أكد ما أشارت إليه الآية فيما سبق من تخطئة المشركين فقال :

(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) : أى بل أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل خلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يميزون بين خلق الله وخلق آلهتهم ، فاستحقوا بذلك العبادة عندهم كما استحقها سبحانه ليكون ذلك منشأ خطئهم . ولكن الأمر ليس كذلك لأنهم جعلوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على نفع أنفسهم أو دفع الضر عنها ، فكيف يقدرون على ما يقدر عليه الخالق من الإيجاد والإبداع ؟

وإجمال المعنى أن الله تعالى نعى عليهم اتخاذهم الشركاء ، ووصفها بأنها عاجزة ذليلة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا ، وأنها ليس لها شىء من الخلق ، وعقب ذلك بأمر نبيه أن يخبرهم أنه تعالى هو الخالق وحده ، فقال :

(قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) : أى قل يا محمد ؛ الله خالق كل شىء ؛ فلهذا لزم أن تعبدوه وحده لأنه لا خالق غيره .

(وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) : وهو سبحانه المختص بالأُلوهية المنفرد بالربوبية ، القهار لكل متكبر ، الغالب لما سواه ، فكيف يتوهم أن يكون المغلوب شريكًا له ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

(أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(أَوْدِيَةٌ) : جمع واد ؛ وهو كل مُنْفَرَجٍ بين جبال أو آكام . ويكون مَنْفَذًا للسيل.

(الزَّبَدُ) : ما يعلو وجه الماء كالرغوة ، (رَابِيًا) : مرتفعًا فوق الماء .

(الْحِلْيَة) : ما يتخذ للزينة من الذهب والفضة وغيرهما .

(مَتَاعٍ) : الْمتاع كل ما ينتفع به من الطعام والثياب وأثاث البيت . ويراد بالمتاع هنا أثاث البيت المتخذ من نحو الحديد والنحاس والرصاص .

(جُفَاءً) : مرميًّا به ؛ يقال : جفأ الماءُ بالزبد إذا قذفه ورمى به ، وجَفَأَتِ القِدْرُ : رمت بزبدها عند الغليان . (اسْتَجَابُوا) : أجابُوا بصدق .

(الْحُسْنَى) : مُؤنث الأحسن ، والمراد بها المثوبة الحسنى وهى الجنة وما فيها من نعيم مقيم .

التفسير

١٧ - (أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ...) الآية .

ضرب الله جل ثناؤه بهذه الآية الكريمة مثلا للحق فى عموم فائدته وعظيم بركته ، بالماء الصافى الذى أنزله الله من السماء فسالت به أودية بين الجبال والآكام بالقدر الذى عينه الله تعالى واقتضته حكمته لنَفْع الناس ؛ يَسيل مندفعاً فى مجاريه حتى يصل إلى غايته ، وجعل الباطل فى اضمحلاله وزواله كالزبد وهو الرغوة التى تعلو سطح الماء ثم تكون نهايته أَنْ يضمحل ويذهب ، ويشير جل شأْنه إلى مثل ثانٍ للحق والباطل بقوله :

(وَمِمَّا يُوقِدُون عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ) : فى هذا المثل جعل الله الحق كالمعادن التى يوقد عليها فى النَّار لصهرها وإذابتها لتصفيتها وتَنْقِيتها من كل الشوائب تيسيرًا للانتفاع بها فى اتخاذ الحلى من الذهب والفضة ونحوهما ، وفى أَثناء صهر هذه المعادن يعلو فوقها زبد كزبد الماء فى كونه رابيا فوقه ولا ينتفع به ، وقد جعله الله مثلا للباطل فى الفلزات المذابة ، كما جعله مثلا له فى الماء ، فالزبد فى كليهما يشير إلى الباطل .

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) : أى مثل ذلك يضرب الله للناس مثل الحق ومثل الباطل ، ثم بَيَّن الله ذهاب الباطل وثبات الحق فقال :

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ) :

أى أن الباطل الشبيه بالزبد مهما علا وظهر فإن مآله إلى اضمحلال وفناء حيث يرمى به وينبذ كما يذهب الزبد جفاء .

والجُفاءُ ما أجفأه الوادى أى رمى به وما أجفأته القدر إذا غلت أى رمت به وصبته وأما ماينفع الناس من الماء الخالص الصافى ، وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص وسائر المعادن فيمكث فى الأرض ، فالماءُ يبقى بعضه فوق سطحها لينتفع به ويذهب بعضه الآخر إلى جوف الأرض ، لينتفع به فى العيون والآبار ، وأما المعادن فيصاغ من بعضها أنواع الحلى ويؤخذ من بعضها الأوانى وأصناف الآلات والأدوات ، فهذا هو المقصود من مكثها فى الأرض .

(كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) :

أى كهذين المثلين فى الوضوح والجلاء يضرب الله الأمثال للناس دائما ليبصرهم بالخير والشر ، إظهارا لكمال العناية بالتوجيه والإرشاد . ولما بين الله شأن كل من الحق والباطل شرع يبين حال أهل كل منهما فقال سبحانه :

١٨ - (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ....) الآية .

أى للذين استجابوا لله فأطاعوه ، وأطاعوا رسوله ، إذا دعاهم إلى الحق بطرق الدعوة المتنوعة ومن بينها ضرب الأمثال الذى يوصل المعانى إلى القلوب فى يسر وسهولة ، لما له من تأثير بليغ فى النفوس لتصويره المعقول بصورة المحسوس ، لهؤلاء المهتدين المثوبة الحسنى وهى الجنة كما قال قتادة وغيره . وعن مجاهد أنها الحياة الحسنى التى لايشوبها كدر أصلا ، أو هى النصر فى الدنيا والنعيم المقيم غداً .

(والَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّافِى الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ) :

أى أن الذين عاندوا وأعرضوا عن الحق مع وضوحه وجلائه لو أنهم يملكون مافى الأرض جميعا من أصناف الأموال المتنوعة ، ويملكون مثل ذلك معه ، لقدموه افتداء لأنفسهم ، ليتخلصوا مما هم فيه من عذاب ونكال ، وفيه من تهويل ماينزل بهم مالايحيط به بيان .

(أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ) : فلا تقبل منهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة ، ويحاسب كل منهم على ذنبه كله لايترك منه شىءُ .

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) : أى أن مقامهم ومسكنهم جهنم يتخذون منها فراشا لهم وإنه لبئس الفراش الذى أعدوه لأنفسهم . يسيل عليه ماينساب من جلودهم مما يصْلَونه من نارها وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا أشد العذاب وأقساه .

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾

التفسير

١٩ - ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى . . .﴾ الآية .

قبل هذه الآية ضرب الله مثلا للحق بماءٍ أنزله من السماء ، فسالت به أودية بقدرها وانتفع به الناس ، وضرب مثلا للباطل بالزَّبَد الذى يعلو فوق الماء ولا يلبث أن يضْمَحِلَّ ويزول ، وبيَّن أن الذين استجابوا لربهم لهم الحسنى والذين لم يستجيبوا لربهم لهم سوءُ الحساب ومأْواهم جهنم وبئس المهاد .

وجاءت هذه الآية لتقرير استحقاق المستجيب لربه أحسن الجزاء ، واستحقاق المعرض عنه سوءَ الحساب وشر العقاب .

والمعنى : أيستوى فى الجزاءِ مؤْمن وكافر ؟ - كلا - فمن هو بصير يعلم بنور قلبه وإرشاد عقله وهداية ربه أن القرآن الذى أنزله إليك ربك يامحمد هو الحق الذى لايشوبه باطل ، مَنْ كان هذا شأْنه - لايتساوى عقلا مع من هو أعمى القلب لايتبين الرشد من الغى ، والهدى من الضلال ، فلهذا أحسن الله جزاءَ من استجاب له وآمن بكتابه ، وأساءَ حساب وجزاء من أعرض عن دعائه ، وكذَّب برسوله وكتابه .

ثُمَّ ختم الله الآية بقوله :

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ : ليبين أن أصحاب العقول النظيفة ، والأَفكارالمستنيرة ، هم الذين يتذكَّرون ويتَّعظون بما يسمعونه من آيات الله البينات ، دون سواهم من أصحاب العقول المغطاة بحجب الباطل ، وغياهب التقليد .

روى أن هذه الآية نزلت فى حمزة بن عبد المطلب – رضى الله عنه – وأبى جهل لعنه الله ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(بِعَهْدِ اللهِ) : بما عاهدوه عليه من الإيمان به ، والعمل بما أمرهم به فى كتبه التي أنزلها إليهم .

(وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ) : المراد بالميثاق ما أخذوه على أنفسهم من العهود نحو ربهم ونحو عباده وقال القفال : هو ما ركب فى عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات والشرائع ، ونقض الميثاق : عدم العمل به .

(ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ) : الابتغاء معناه الطلب ، والمراد بالوجه : الذات .

(وَيَدْرَءُونَ) : أى يدفعون .

(عُقْبَى الدَّارِ) : عاقبة دار الدنيا التى أعدت للصالحين – وهى الجنة .

التفسير

٢٠ – (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ) :

بعد أن بيّنت الآية السابقة أن الذين يتذكرون ويتعظون بالمواعظ هم أصحاب العقول الصافية من عوامل الهوى ، جاءت هذه الآية والآيتان بعدها لبيان أوصافهم .

والمعنى : وما يتذكر إلا أولو العقول الصافية الذين يوفون بما عاهدوا الله عليه من الاعتراف بربوبيته بقولهم : «بلى» جوابا لسؤاله البشر «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» : وذلك حين أخرج من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم .

ويحتمل أن يكون المراد من عهده تعالى ما خَلَقَه فيهم من القوى العقلية والجسدية التى توجب عليهم عبادة الله ، ويتمكنون بها من أداء ما كلفهم به ، فإن ذلك بمنزلة العهد بينهم وبين ربهم ، ومن العلماء من فسر عهد الله بتكاليفه التى عهد إليهم بها فى كتبه التى أنزلها إليهم .

ثم ختم الآية بقوله : (وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ) : وهو تعميم بعد تخصيص إن أريد من العهد الاعتراف بالربوبية ، أى ولا ينقضون ماوثقوه على أنفسهم من إيمانهم بربهم ومواثيقهم مع خلقه سبحانه مؤمنين أو كافرين ، فإن أريد من كُلٍّ من العهد والميثاق العموم كانت هذه الجملة مؤكدة للأولى .

٢١ - (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ) :

هذه هى الصفة الثانية لأولى الألباب الذين مدحهم الله بأنهم هم الذين يتذكرون .

والمعنى : ومايتذكر بالمواعظ إلا أولو الألباب الأوفياء والذين يصلون ما أمر الله بوصله من الطاعات كبِرِّ الأرحام ، والعطف على الأيتام ، وأداء الحقوق للناس ، والإيمان بجميع الأنبياء دون تفريق بينهم ، والإحسان إلى جميع الحيوانات ، فكل ذلك وأمثاله من الطاعات يعتبر وصلا لما أمر الله به أن يوصل .

(وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ) :أى ويخافون إلٰههم ومالكهم وخالقهم ومربِّيهم ؛ يخافونه خوف إجلال وإعظام ، ويخافون أيضا سوء حسابه تعالى لهم فيبعثهم هذا الخوف على أن يصلوا ما أمر الله بوصله ، ويبتعدوا عما يغضبه عليهم ، وسوء الحساب يكون بالمناقشة والاستيفاء وعدم التجاوز ، ومن نوقش الحساب عذب - نعوذ بالله من ذلك - فلا طوق لأحد بعذابه .

٢٢ - (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً) :

هذه هى الصفة الثالثة لأُولى الأَلباب .

والمعنى : وما يتذكر إِلَّا أُولو الأَلباب الذين صبروا على التكاليف ، وقهروا النفس الأَمارة بالسوءِ حتى أَخضعوها لطاعة ربها ، وكان صبرهم هذا طلبا لرضا ذات ربهم ، من غير نظر منهم إلى جانب الخلق رياءً وسمعة ، ولا إِلى جانب النفس زينة وعجباً ، وأَقاموا الصلاة المفروضة فأَدَّوْها مستوفية الأَركان والشروط ، وأَنفقوا بعض مارزقناهم بحيث لايقل عما فرضه الله عليهم فى الزكاة ، وكان إِنفاقهم له سرًّا ، حينما يكون السر أَولى فى الإِنفاق من الجهر ، وجهرًا حينما يكون الجهر أَرجح من السر . والإِنفاق سرًّا أَولى فيما إِذا كان المنفِق لايتَّهم بترك الزكاة ، أَوكان الآخذ مستور الحال خشية أَن يخدش حياؤُه بأَخذه الزكاة جهرًا ، وكما فى صدقة التطوع - إِلى غير ذلك من المقتضيات . والإِنفاق جهرا أَولى إِذا كان لحمل المياسير على الاقتداءِ به ، أَو خوفا من أَن يتَّهم بالشحّ ، أَو لغير ذلك من الأَغراض الشريفة .

(وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ) :

أَى ويقابلون السيئة بالحسنة ليمنعوا تكرارها ، فإِنك إِذا أَحسنت إِلى من أَساءَ إِليك ، يستحى أَن يكرر مساءته بعد أَن قابلتها بإِحسانك ، مالم يكن المسىءُ لئيماً لايثْنِيه الإِحسانُ عن المساءَة فإِن مقابلة شره بمثله تكون أَولى ، فإِن من لم يتذأَب أَكلته الذئاب ، وفسَّرها بعضُهم بأَنهم يتبعون السيئةَ الحسنة فتمحوها كما جاءَ فى السُّنَّة .

(أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) :

أَى أُولئك الموصوفون بهذه الصفات الجليلة ، لهم عاقبة دارِ الدنيا التى ينبغى أَن تكون عاقبة لها بالنسبة للمكلفين فيها ، وهى الجنة .

(جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) : العدن فى اللغة : الإقامة ، ومنه عدن بالمكان أى أقام به ، وفى عرف الشرع اسم لجنة من جنان الآخرة . والمراد هنا المعنى الأول . أى جنات إقامة ، فهم يقيمون فيها لايبرحونها .

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : أمان لكم من المحن والآفات .

التفسير

٢٣ - (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) : لما بيَّن الله تعالى فى الآية السابقة أن الصابرين ابتغاء وجه ربهم المتصفين بما جاء فيها من الصفات الجليلة ، لهم عاقبة حسنة بعد دار الدنيا ، جاءت هذه الآية لبيان أن هذه العاقبة هى الجنة ، وبيان من يدخلها معهم وما يقال لهم فيها .

والمعنى : والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واتصفوا بتلك الصفات الجليلة ، لهم عاقبة الدار الدنيوية ، وهذه العاقبة هى جنات إقامة واستقرار يدخلونها ، ويدخلها معهم الصالحون من آبائهم وأزواجهم وأولادهم وإن لم يبلغوا فى الصلاح مبلغهم ، إكراما لهم وتعظيما لشأنهم ، وزيادة فى أنسهم ، وهذا الفضل يشهد به ماجاء فى قوله تعالى فى سورة الطور : «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» وقد فهم من هذه الآية وتلك ، أن دخول الجنة أولا بالصلاح ، وأساس الصلاح الإيمان ويكمله العمل الصالح ، وأما إلحاقهم بأقاربهم فى منازلهم العالية فيكون بالانتساب إليهم أصولا أو فروعا أو أزواجا . ولايحدث هذا الإلحاق إلا بعد استيفاء هؤلاء جزاء أعمالهم ، كما يصرح به قوله تعالى : «وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم

مِّن شَىْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ » . ولا يقتصر أمرهم على ذلك بل تبشرهم الملائكة بالأمن والسلام ، وذلك ماجاء فى قوله سبحانه : «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ » أى تلك المنازل فى منازلهم الكريمة بالجنة ، يدخل عليهم الملائكة من كل باب من أبوابها قائلين لهم :

٢٤ـ (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ) : أى أن الملائكة يبشرونهم بدوام السلامة من المخاوف بسبب صبرهم على التكاليف واحتمالهم آلام الحياة ومتاعبها ، وكأنهم يقولون لهم لئن تعبتم فى دنياكم فلقد استرحتم ونعمتم وسعدتم فى أخراكم ، ولم يعد للخوف والمشقة سبيل إليكم .

(فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) :

يحتمل أن تكون هذه الجملة مما يقوله الملائكة للصابرين ، ويحتمل أنها ثناء من الله على الجنة التى جعلت عاقبة لدنياهم ومدح منه لها ، أى فنعم عاقبة الدار التى كنتم فيها حين التكليف ، هذه الجنة التى آل أمركم إليها حين الجزاء ، وكيف لا تكون كذلك وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦))

المفردات :

(يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ) : المراد بعهد الله ما أوجبه عليهم من طاعته ، وبنقضه عصيانه .

(مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ) : من بعد توثيقه وتوكيده . (اللَّعْنَةُ) : الطرد من رحمة الله .

(سُوءُ الدَّارِ) : أى سوءُ عاقبة الدار الدنيا ، أو هو من إضافة الصفة للموصوف ، أى الدار السيئة ، وهى جهنم فهى دارهم ومأْواهم – وبئست الدار والمأْوى . (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسعه . (ويَقْدِرُ) : يضيق . (مَتَاعٌ) : شىءٌ قليل يتمتع به ، كزاد الراكب .

التفسير

٢٥ – (وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ . .) الآية .

بعد أن بينت الآيات السابقة حال أهل الوفاء بعهد الله وحسن مآلهم ، جاءت هذه الآية لتبين سوء حال من يتصفون بنقائض صفاتهم ، وسوء مآلهم يوم الجزاء ، وقد تحدثنا فى الآيات السابقة عن الوفاء بعهد الله بشىءٍ من التفصيل ، وتحدثنا هنا فى المفردات عن معنى هذا العهد إجمالا . ونَزيد عليه ماذكره الإمام الرازى فنقول : فسر الرازى عهد الله بما أَلزمه عباده عن طريق الأَدلة العقلية ، لأَن ذلك أَوْكَدُ من كل عهد ومن كُلِّ أَيْمان ، إذ الأَيمانُ إنما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل الدالة على أنها توجب الوفاء بمقتضاها ، ثم قال والمراد من نقضها أن لاينظر المرءُ فيها فلا يمكنه حينئذ العمل بموجبها أو بأَن ينظر ويعلم صحتها ثم يعاند فلا يعمل بعلمه ، أو بأَن ينظر فى الشبه فلا يعتقد الحق ، والمراد بقوله سبحانه : (مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ) من بعد أَن أَوثق الله تلك الأَدلة وأحكمها بدلائل أُخرى عقلية أو سمعية ، لأَنه « شىء أَقوى مما دَلَّ على وجوبه فى أنه ينفع فعله ويضر تركه » : اهـ باختصار ، ونقل الآلوسى عن بعض العلماء تفسيره للعهد بما أَوصى الله به عباده من التكاليف ، وتفسيره للميثاق بالإقرار والقبول – أى من بعد إقراره وقبوله .

ومعنى الآية إجمالا : والذين لايعملون بما كلفهم الله به عن طريق الأَدلة العقلية والنقلية ، من بعد ما أَكد الله تلك التكاليف بمختلف الأَدلة ، ويقطعون ما أَمر الله بوصله من الإيمان بجميع الأَنبياء الذين بعثهم الله بالحق هُدَاةً إلى البشر ، فتراهم يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض آخر ، كما يفعله أهل الكتاب حيث يكفر اليهود بعيسى ومحمد

عليهما السلام ، ويكفر النصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويقطعون أيضا ما أمر الله بوصله من حقوق الأرحام ومحبة المؤمنين وموالاتهم وغير ذلك مما تقدم بيانه فى صفات أهل الوفاء من الصبر والصلاة والإنفاق فى وجوه البر ، ودرء السيئة بالحسنة ويضيفون إلى قطعهم ما أمر الله به أن يوصل أنهم يفسدون فى الأرض بالظلم وإثارة الفتن ، فهؤلاء الموصوفون بتلك الصفات السيئة لهم بسبب ذلك الطرد من رحمة الله ،ولهم الدار السيئة التى جعلها الله مقرًا لهم ، وهى جهنم وبئست دارًا ومقرًا .

٢٦ـ (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ . . .) الآية .

نزلت هذه الآية فى أهل مكة كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ نقول : وكأنها نزلت لتنعى عليهم فرحهم بالحياة الدنيا مع أنها إلى زوال ،وليبين أن سعة الرزق على الكافر ليست لإكرامه ،وتضييقه على المؤمن ليس لإهانته ؛ فكلا الأمرين صادر من الله تعالى لحكم إلهية يعلمها سبحانه ، فقد يوسع على الكافر إملاءً واستدراجا ، فلا وجه لفرحه ، وقد يضيق على المؤمن زيادة فى أجره ، والآية دستور عام ؛ وإن نزلت بسبب خاص .

والمعنى :الله سبحانه وتعالى هو وحده الذى يوسع الرزق على من يشاء من عباده ، ويضيق الرزق على من يشاء ، دون أن يجعل الأول برهانا على الرضا ، ولا أن يجعل الثانى أمارة على المقت والغضب ، فكلاهما يخضع لمشيئته ،وحقٌّ لربوبيته لعباده ،وهو أعلم بحكمته ، فلا يسأل عما يفعل ولايفترى عليه بالأسباب والعلل ، وقد فرح أهلُ مكة وَمَنْ على شاكلتهم بما أُوتوا من نعيم الحياة الدنيا وسعة الرزق فيها فركنوا إليها ، ولم يعملوا لما بعدها ،وما نعيم الحياة الدنيا فى جانب نعيم الآخرة إلا شيء قليل يتمتع به وليس له بقاء ،كعجالة الراكب وزاد الراعى ، ولهذا لايهتم بنعيمها أصحاب المقامات العالية إذا غاب عنهم . أخرج الترمذى وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : « نَامَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أثر فى جَنْبِه ، فقُلنَا يارسولَ الله : لو اتَّخَذْنَا لك وِطاءً ، فقال : مَالِى وللدُّنيا ، مَا أَنَا فى الدُّنياَ إلاَّ كَراكِبٍ اسْتَظَل تَحْتَ شَجَرَةٍ ثم راحَ وَتركَهَا » .

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾)

المفـردات :

(مَنْ أَنَابَ): من رجع إلى الحق. (تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ):تستقر وتستريح وتستأنس. (طُوبَى لَهُمْ):قال الزجاج: طوبى فُعْلَى من الطيب ،وهى الحالة المستطابةُ لهم .وقال ابن عباس: فرحٌ لهم وقُرَّةُ عين . وقال قتاده : حسنى لهم ، إلى غير ذلك من المعانى التى ترجع إلى ما ذكره الزجاج ، وقيل : هى اسم للجنة ، أو لشجرة فيها. (وَحُسْنُ مَآبٍ) : وحسن مرجع .

التفسير

٢٧ ـ (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ . .) الآية .

لايزال الحديث مُتَّصلا فى شأن أهل مكة ، وذكرهم بعنوان الكفر لذمهم وتقبيح حالهم ، وبيان أنه السبب فى مقالتهم الآتية ، والمراد بهم عبد الله بن أبى أُمَيَّة وأصحابه حين طالبوا النبى صلى الله عليه وسلم بالآيات الكونية .

والمعنى : ويقول الذين كفروا من أهل مكة : هلا أُنزل على محمد آية من ربه كالتى اقترحوها عليه من سقوط السماء كِسَفًا عليهم ،وتحويل الصحراء إلى بساتين كأرض الشام ، وإحياء جدهم قصى ، وغير ذلك مما يتنافى مع الحكمة ولايناسب عصر رسالة القرآن .

وهؤلاء المقترحون لم يشعروا بأن القرآن الذى يتلى عليهم هو آية الآيات ، وأبقى المعجزات فما من آية جاء بها رسول قبله إلا أصبحت خبرا ، ولم تترك أثرا ، وهى لذلك مجال

لإنكار المنكرين ،وزعم أنها ضرب من الحكايات والأساطير ،يقولها أرباب الديانات ولا أساس لها من الصحة ، ولو صحت لكانت سحرا ، أما القرآنُ فهو باق مابقى الزمان ،وإعجازه عام للإنْسِ والجان ، وهو الذى أيد معجزات الأنبياء ، وحماها من إنكار المكذبين .

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) :

قل لهم أيها الرسول : إن الله تعالى يتخلى عن هداية من يشاءُ من أهل الإصرار على الكفر ، فلا يوفقهم إلى معرفة مافى القرآن من آيات وإعجاز ،ولا إلى الإيمان بهِ وبمَا أظهر الله على يدى رسوله من سائر الآيات ، ويهدى إليه سبحانه من رجع عن العناد والمكابرة ، وألقى السمع وهو شهيد ، ثم بين حال من أناب إليه فقال :

٢٨ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) : المقصود من الذين آمنوا الذين اتَّجهُوا إلى الإيمان لحسن استعدادهم عندما سمعوا آيات الله ، لرقة قلوبهم وصفاء نفوسهم ، وانعدام مكابرتهم ، فهؤلاء هم الذين يهديهم الله إليه.

والمعنى : ويهدى الله إليه من أناب ورجع إليه بعد الكفر حين سمعوا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ، وهم الذين استعدت للإيمان نفوسهم ،واطمأنت قلوبهم بذكر الله وآياته ، ألابذكر الله وقرآنه تطمئن القلوب الصافية ،وتسكن النفوس الحائرة ، واستعمال الإيمان فى الآية بمعنى الاستعداد له والتأهب للوصول إليه يماثل استعمال المتقين فى قوله تعالى : «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ».بمعنى هدى للصائرين إلى التقوى لحسن استعدادهم.

٢٩ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) :

جاءت هذه الآية لتبشر الذين اهتدوا إلى الله فآمنوا وعملوا الصالحات ، .

والمعنى : الذين آمنوا بربهم ونبيهم وعملوا الأعمال الصالحة بعد أن هداهم الله إليه لحسن استعدادهم وصفاء قلوبهم ، هؤلاء لهم فرح وكرامة ، وحسن مرجع فى الدار الآخرة ، فإن مرجعهم إلى جنة الله ورضوانه .

(كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾)

التفسير

٣٠ - (كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ . . .) الآية .[١]

أى كما أرسلنا المرسلين قبلك يامحمد أرسلناك فى أمة قد مضت من قبلها أممٌ أولئك المرسلين - أرسلناك فى هذه الأُمة - لكى تقرأ عليها القرآن الذى أوحيناه إليك - وحالهم أنهم يكفرون بالرحمن لعلهم بعد سماع القرآن يثوبون إلى رشدهم ، فيؤمنون بوحدانيته تعالى ، ويدركون مبلغ نعمته ورحمته ، ومن أعظم مظاهرها إرسالك يامحمد بالهدى ودين الحق إليهم ، قل لهم أيها الرسول : الرحمن الذى كفرتم به وعبدتم سواه هو ربى وحده دون غيره ، فإنه لايستحق الألوهية أو العبادة إلا هو ، عليه اعتمدت فى الأمر كله ، وإليه مرجعى ومرجعكم ، فكيف تكفرون به وهو محاسبكم ومجازيكم ،والتعبير بقوله تعالى : « كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ » ، إيذان بأنه صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل وليسوا بدعا من الأمم - هذا : وقد جاء فى سبب نزول الآية أقوال . فمقاتل وابن جريج يقولان : نزلت فى صلح الحديبية حين أرادوا كتابة وثيقة ، فقال صلى الله عليه وسلم لعلىٍّ : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل بن عمرو والمشركون : مانعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب اكتب باسمك اللهم - وهكذا كان أهل

---

(١) الإشارة فى (كذلك) راجعة إلى إرسال الرسل قبله وإن لم يجر لهم ذكر ، لدلالة قوله : (قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم) قاله الحسن ، و قيل الإشارة راجعة إلى إرسال محمد مؤيدا بمعجزة القرآن ، فكأنه قيل : مثل هذا الإرسال العظيم المؤيد بالقرآن أرسلناك يامحمد فى أمة...الخ .

الجاهلية يكتبون - فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلى : «اكتب هذا ماصالح عليه محمد رسول الله» فقال مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك ، ولكن اكتب . هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله ، فقال أصحاب النبي : دعنا نقاتلهم ، فقال : «لا ولكن اكتب مايريدون» فنزلت . وابن عباس يقول : نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبى : «اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ»[1] .

وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فى الحجر قائلا : «ياألله يارحمن» فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين ،فنزلت هذه الآية ونزل أيضا قوله تعالى : «قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّامًا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» .

(وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾)

المفـردات :

(سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ) : أزيلت من أماكنها . (يَيْئَس) : بمعنى يعلم ، كما حكاه القشيرى عن ابن عباس ،وذكره بهذا المعنى الجوهرى فى الصحاح ويرى هذا الرأى مجاهد والحسن وأبو عبيدة ، وأنشد فى ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْرى .

أقول لهم بالشعب إذ يَيْسَرُونَنِى . . أَلم تيئسوا أَنِّى ابنُ فَارِسِ زَهْدَم

وييسروننى من الميسر- ويُرْوَى يـأْسروننى من الأَسر[2] - انظر القرطبى . وقال رباح بن عدى

(١) سورة الإسراء ، من الآية ١١٠ . (٢) وكان الشاعر قد أسر ؛ فضربوا عليه بالميسر يتقاسمون فداءه .

ألم ييئس الأقوام أنى أنا ابنه : وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا .

وهو بهذا المعنى فى لغة النخع - كما حكاه الفَرَّاءُ عن الكلبى - انظر القرطبى - وقيل فى لغة هوازن كما قاله القاسم بن معْن ، وسيأتى لذلك مزيد بيان فى التفسير . (قارِعةٌ) : مصيبة تصيبهم - من قَرعه إذا أصابه ، والأصل فى القرع - الضرب ، فكأنها إذ تصيبهم تدق قلوبهم وتضربها .

التفسير

٣١ - (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) :

حكت الآية (٢٧) من هذه السورة اقتراحهم آيات كونية على الرسول ، إذ قالوا : «لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ» ، ثم نَعَتَتْ تلك الآية المذكورة وما بعدها عليهم ضلالهم ، وبينت أن ذكر الله - وهو القرآن - تطمئن به القلوب ، فهو خير لهم مما اقترحوه من الآيات ، ووعدت المؤمنين الصالحين بالجنة ، وبينت لهم أن الرسول إنما أُرسل بمعجزة القرآن ليتلو عليهم الذى أوحاه الله إليهم ، فهو المعجزة الباقية مابقى الزمان دون سائر المعجزات ، فإنها تصبح خبرا بعد عين ، وحكاية ترْوَى بعد الرسول الذى جاء بها ، فتكون فى الأجيال التالية عرضة للتصديق والتكذيب ، وما كذلك القرآن .

وجاءت هذه الآية لتبين عظمة القرآن ورجحانه على مايقترحونه من الآيات . يروى أن نفرا من مشركى قريش فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبى أُمية المخزوميان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاهم فقال له عبد الله : إنْ سَرَّك أن نَتَّبِعك فَسَيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عنا حتى تتسع أرضنا الضيقة ، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا حتى نغرس ونزرع ، فلست كما زعمت - بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه ، وسخِّر لنا الريح فنركبها إلى الشام نقضى عليها مِيرتَنَا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا ، فقد سخرت لسليمان الريح كما زعمت ، فلست بأهون على ربك من سليمان بن داود ، وأحْى لنا قَصَب[1] جدك أو مَنْ شئت من موتانا نسأله ، أحقٌّ

(١) القصب : العظم المستطيل الأجوف .

ماتقول أم باطل ، فإن عيسى كان يحيي الموتى ، ولست بأهون على الله منه ، فأنزل الله هذه الآية والآيات التى قبلها للرد عليهم .

والمعنى : ولو أن أىَّ قرآنٍ تسير به الجبال وتزول عن أماكنها حين يقرأ عليها ، أوتقطع وتُشَقَّقُ به الأرض أنهاراً وعيونا تروى بمائها الأرض بعد إزالة جبالها ، أو تكلم به الموتى لتصبح أحياء ، لكان الذى يحدث عنده كل هذا هو القرآن الذى أنزله الله علىّ لأُبلغكم إياه ، لانطوائه على بيان عجائب قدرة الله وعظيم جلاله ، ولأنه كلام الحق سبحانه ، الذى يقول للشىء « كن فيكون » ولكن القرآن لم ينزل ليحقق لكم بذاته هذه المطالب الكونية من الينابيع وتسخير الرياح وغيرهما ، بل نزل ليرشدكم إلى وسائل تحقيقها ، ويعلمكم بذل الجهد العقلى والعملى لكى تحصلوا عليها ، فإن العالم الأكبر ينطوى فى الإنسان بعقله وذكائه وقدرته وقواه التى أودعها الله فيه .

وليعلم العاقل أن الهدف الأول للقرآن هو معرفة الله وأداءُ واجباته ، والعمل للدنيا والآخرة ، فقد مضى الزمن الذى كان يرتزق فيه الكسالى من دعاء أنبيائهم ، حيث كانوا يحصلون به على المن والسلوى ونحوهما ، ويحصلون على الماء بالمعجزات ، وجاء الزمن الذى يبرز فيه المولى سبحانه خيرات الأرض والماء والهواء والطاقة بجهد الإنسان وعرقه ، واستخدام الطاقات التى أودعها الله فيه ، وهذا ما عنى القرآن بتوجيه البشر إليه ، كما فى قوله تعالى : « فَامْشُوا فى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِّزْقِهِ » . وقوله : « وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَاتُوعَدُونَ » . وقوله : « والخَيْلَ والْبِغَالَ والحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَاتَعْلَمُونَ » وقوله : « قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ » . وقوله : « فاعْتَبِرُوا يا أُولى الْأَبْصَارِ » .

وغير ذلك من الآيات التى تحض على النظر والاستنباط ، والانتفاع بخيرات الله ونعمه بالجد والاجتهاد والكدح .

ومن أجل هذا المنهج السديد الذى رسمه القرآن لأُمة القرآن ، امتلك المسلمون مفاتيح العلم ، وتمكنوا من ولوج أبوابه إلى معاقد العز والرفعة والمجد فى كل ناحية من نواحى الكرامة ، والأُمم من حولهم يغطون فى سبات عميق ، وينتظرون موائد تنزل لهم من السماء ، أو يفسدون فى الأرض بغير الحق .

ذلك هو شأن القرآن الذى لم يحرك قلوب قريش ليؤمنوا به ، ويكتفوا بمعجزته ، مع أنه تعالى يقول فى شأنه : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » .

واعلم أن لكل نبى معجزة أيده الله بها تناسب أمته ومدة بقائها على شريعته ، واختار الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم معجزة القرآن ليكون دستورا لها وآية إلى أن تقوم الساعة ، فإن الله تعالى جعلها الأمة الخاتمة للرسالات ، فكانت معجزةُ نبيِّها صلى الله عليه وسلم ، باقيةً ببقائها ، وهاديًا يهديها ما بقى الزمان . ولقد أُوتى النبى صلى الله عليه وسلم غير القرآن معجزات كثيرة ، ولكنها لم تكن للتحدى ، بل لتكريمه صلى الله عليه وسلم ، ورحمة بالمؤمنين فى مواقف الشدة ، ومعظمها ظهر فى المدينة كإنزال الغيث ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام القليل .

وقليل منها ظهر بمكة كانشقاق القمر ، ووصْفِه لبيت المقدس وأحوال عير قريش صباح ليلة الإسراء والمعراج ولكن الله لم يأْذن له بالتحدى بشىءٍ من ذلك ، ولم يجعل تلك الخوارق آية رسالته الحاسمة ، بل جعل آيتها دستورها الباقى بقاء الزمان ، وهو القرآن ، قال صلى الله عليه وسلم : « مَامِنَ الأَنبِيَاءِ نَبِىٌّ إِلَّا أُعْطِىَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُه آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ . وإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَىَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُم تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ » أخرجه البخارى فى صحيحه .

(بَلْ لِلهِ الأَمْرُ جَمِيعًا) : أى لو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كُلِّم به الموتى لكان هذا القرآن ، لكنَّ هذا لم يحدث بل حدث سواه ، لأن الأمر لله وحده يفعل ما يريد وفقا لمشيئته وحكمته ، التى اقتضت أن تكون آية النبوة فى الإسلام هى دستوره ، وهو القرآن لاغيره من الخوارق ، ولهذا لم يأْذن الله للرسول بأَن يتحدى بما ظهر على يده من الخوارق سواه .

(أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا) :

لم ينزل القرآن بلغة قريش وحدها . بل اشتمل عليها وعلى غيرها حتى يعلم العرب أن القرآن بلغتهم جميعًا . وهذا ماعناه النبى صلى الله عليه وسلم بنزول القرآن على سبعة أحرف

وكلمة « ييئس » هنا بمعنى يعلم فى لغة النخع - كما حكاه الفراء[١] - وفى لغة هوازن - كما حكاه مجاهد والحسن والقاسم بن معين.[٢]

والمعنى على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أنه لو يشاءُ الله هداية الناس جميعا لفعل . ولكنه جعل سبيل الهداية إلى الحق اختيار العبد وفعله ، بعد أن يسر الله له أسبابها وأزاح موانعها .

ومن العلماء من حملها على معناها المعروف وفسر الآية عليه كما يلى : أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان المشركين لأنه لو يشاء الله لهداهم جميعا ، وهم لم يهتدوا بل أصروا على الكفر ، فكان حقٌّ المؤمنين أن ييئسوا من إيمانهم ، ويدركوا أنه تعالى لم يشأْ هدايتهم .

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ) :

أى ولايزال الكافرون من أهل مكة تنزل بهم بسبب مافعلوه من الكفر بالله وإيذاء المؤمنين وإخراجهم من ديارهم - تنزل بهم بسبب ذلك - داهية تقرعهم وتقلقهم من آن لآخر ، كالذى كان يحدث لهم حينا بعد حين من القتل والأَسْر وأخذ غنائمهم فى غزوات المسلمين وسراياهم ، أو تحل تلك الداهية فى مكان قريب من دارهم (مكة) فيتطاير إليهم شررها ويصابون بلهبها[٣] ، حتى يأْتى وعد الله بفتح مكة وسقوط معقل الشرك ، فيتم للمؤمنين النصر ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجا ، إن الله لايخلف وعده فى الأَمر كله .

ويصح أن يراد من الذين كفروا ، كل من كفر بالإسلام ، فتكون الآية وعيدا لمن يؤذى المسلمين بانتقام الله فى الدنيا من آن لآخر ، حتى يأْتى وعد الله بموتهم أو بالقيامة فيجزيهم شر الجزاء ، وإلى هذا الرأْى مال الحسن وابن السائب .

---

(١) عن الكلبى ، وحكاه الآلوسى عن ابن الكلبى .

(٢) انظر القرطبى والآلوسى .

(٣) ومن ذلك ما كان من صلح الحديبية ، حيث عاد عليهم بالضرر وعلى المسلمين بالخير .

(وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ
بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا
لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾
لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾)

المفـردات :

(فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : أى أمهلتهم وتركتهم ملاوة [1] من الزمان دون عقاب .

(قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ) : رقيب ومهيمن عليها .

التفسير

٣٢ - (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) :

فى هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من الاستهزاء والتكذيب واقتراح الآيات .

والمعنى : ولقد استهزأ الكفار السابقون ، برسل كثيرين بعثناهم من قبلك إليهم لهدايتهم ، وأيدناهم بالمعجزات الشاهدة بصدقهم ، فلم يؤمنوا بهم بل كذبوهم وأهانوهم فلست وحدك

(١) الملاوة : الفترة من الزمان وهى مثلثة الميم .

فى استهزاء الكافرين بك فإن ذلك أمر مطرد يلقاه رسلنا من أقوامهم ، فأمهلت أولئك المستهزئين لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ثم أخذتهم بعقابى حين لم ينفعهم الإمهال ، وكان عقابى لهم هائلا ، حيث لم يبق من الكافرين ديارٌ .

والمقصود من الاستفهام فى قوله تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ عِقَاب » التَّعَجيب من شدة العقاب وفظاعته .

٣٣ ـ (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ) :

هذا الاستفهام مترتب على ما سبق بيانه ، من أن الأمر كله لله وأنه يهدى من يشاء ويخذل من يشاء من أهل الضلال ، وأنه يملى للكافرين ثم يأخذهم بذنوبهم إلى غير ذلك مما تقدم .

والمعنى : أفمن كان شأنه ما تقدم من هيمنته على كل نفس يعلم سرها ونجواها ، ويجزيها بما كسبت من خير أو شر . أفمن كان كذلك يشبه الأصنام التى ليس لها عليهم من سبيل وقد جعلوها له شركاء مع ضعفها وعدم فائدتها ، ثم أمر الله رسوله أن يبكتهم فقال :

(قُلْ سَمُّوهُمْ) : أى قل لهم أيها الرسول تأنيبًا وتقريعًا : اذكروا لى أسماءهم وأوصافهم التى جعلتهم فى نظركم يستحقون العبادة مع الله ، ولن يجدوا لهم من الأوصاف ما يستحقون به شيئًا من التكريم فضلا عن العبادة .

(أَمْ تُنَبِّئُونَه بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ) :

أى بل أتخبرون الله بشركاء زاعمين استحقاقها للعبادة وهو لا يعلمها فى أرضه ، مع أنه سبحانه لا تغيب عن علمه ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، بل أتخبرونه عن ألوهيتها بظاهر من القول من غير أن يكون لها حقيقة ولا دليل ، كتسمية القبيح وَسِيمًا والزنجى كافورا .

(بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ) : بل زين الشيطان لهؤلاء المشركين باطلهم وصدهم عن سبيل الحق .

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) : ومن يتخل الله عن معونته بسبب إصراره على الكفر فليس له من هاد يوصله إلى الحق ، وينجيه من عاقبة ضلاله .

٣٤ـ (لَهُمْ عَذَابٌ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ) :

أى لأُولئك المشركين عذاب فى الحياة الدنيا بالقتل والأَسر والمصائب والمحن ، ولعذاب الآخرة أكثر من عذاب الدنيا مشقة لشدته ودوامه ، وما لهم من عذاب الله من حافظ يعصمهم ويقيهم ، نسأَل الله السلامة وحسن العاقبة .

(* مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾)

المفـردات :

(مَثَلُ الجَنَّةِ) : المثل هنا بمعنى الصفة العجيبة ، وأصله بمعنى الشبيه والنظير .

(أُكُلُهَا دَائِمٌ) : أى ثمرها باق لا يغيب ولا ينقطع .

(عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا) : أى مآلهم وعاقبتهم .

التفسير

٣٥ـ (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . .) الآية .

لما ذكر الله سبحانه فى الآية السابقة عقاب الكفار فى الدنيا والآخرة ، عقبها بهذه الآية لبيان ثواب المتقين فى الآخرة ، والمقارنة بين عاقبتهم وعاقبة الكافرين .

والمعنى : صفة الجنة التى وعدها الله عباده المتقين وحالتها العجيبة الشأن أنها تجرى من تحت أشجارها وقصورها الأَنهار بين جوانبها وحيث شاء أهلها ، كما قال تعالى : « يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا » .

فهم يصرفونها حيث شاءوا وكيف أرادوا ، وتلك الأنهار كما قال سبحانه فى سورة محمد : « فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غيرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى » .

ومن صفتها : (أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا) : أى ثمرها باق لا ينقطع فى أى وقت من الأوقات وظلالها باقية لا تنحسر ، مع اعتدال مناخها ، وطيب هوائها . كما قال سبحانه : « لَايَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ، وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً »[1]

(تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ) : أى هذه الجنة العظيمة الشأن عاقبة الذين اتقوا ربهم فتجنبوا الكفر والمعاصى ، وعاقبة الكافرين به وبنبيه النار ، وشتان بين العاقبتين ، فما بال الكافرين لا يعقلون .

(وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(الْكِتَابِ) : المراد به هنا التوراة والإنجيل .

(الْأَحْزَابِ) : الجماعات القوية والأقوام المتشابهون فى ميولهم وعقائدهم .

(مَئَابِ) : مرجع ومصير .

(١) الآيتين ١٣ ، ١٤ من سورة الإنسان .

التفسير

٣٦ـ (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ...) الآية .

يرى الإمام ابن عباس رضى الله عنه أن المقصود من الذين آتيناهم الكتاب هم مؤمنو أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، كعبد الله بن سلام وكعب ،ومؤمنى نجران والحبشة فهؤلاء كانوا يفرحون بالقرآن حين يسمعونه إيمانًا منهم بأنه كتاب الله الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر - وقيل : إن المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم المسلمون وقد كانوا يفرحون بنور القرآن الكريم وتوالى نزول آياته .

(وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ) : المراد بالأحزاب على رأى ابن عباس : كفرة اليهود والنصارى الذين تحزبوا على رسول الله صلَى الله عليه وسلم بالعداوة والبغضاء ، ككعب ابن الأشرف والسيد والعاقب أسقفى نجران وأتباعهما ، أما على الرأى الثانى القائل بأن الذى يفرح هم المسلمون فالمراد بالأحزاب كفار اليهود والنصارى ، والمراد من (بعضه) الذى ينكره أهل الكتاب هو الشرائعُ التى جاءت مخالفة للتوراة والإنجيل تبعًا لتغير الزمان والأجيال ، أو هو مالا يوافق ماغيروه وبدلوه فى كتبهم ، وأما ما يوافق مافى كتبهم فإنهم لاينكرونه وإن لم يفرحوا به .

(قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ) : أى قُل يا محمد صادعًا بالحق غير مكترث بإنكارهم بعض القرآن ، قل لهم : ما أمرنى الله فى القرآن الذى تنكرونه أو تنكرون بعضه إلا بأن أعبد الله وحده ولا أشرك به شيئًا فى عبادته ، وقد أمرنى أن أدعوكم إلى ذلك بقوله سبحانه : « قُلْ يـأَهْلَ الكِتَابِ تَعالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَانُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

(إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ) : أى إلى عبادة الله وحده أدعو الناس جميعًا ، وإليه وحده مرجعى ومرجعهم للجزاء ، فلذلك لا أقرُّ ما أنتم عليه من اتخاذ اليهود عزيرًا ابنًا لله واتخاذ النصارى

المسيح ابنًا له كذلك لاستحالة ذلك على الله تعالى، وإذا كنت أدعوكم إلى وحدانيته، ولابرهان لكم على مزاعمكم، فلماذا لا تستجيبون لما دعوتكم إليه، وكل الآيات تدل عليه وترشد إليه.

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) : أى أنزلنا القرآن حاكماً للناس فى قضاياهم بلسان العرب

(وَلَا وَاقٍ) : أى ولا حافظ . من وقاه يقيه وقاية ؛ أى حفظه .

التفسير

٣٧ - (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ...) . الآية .

أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتاب بلغاتهم وألسنتهم، أرسلناك وأنزلنا عليك القرآن عربيًّا بلسانك ولسان قومك، ليسهل عليهم تفهم معناه واستظهاره والرجوع إليه فى الأحكام، وإنما سمى القرآن حكمًا لما فيه من الأحكام والشرائع التى يحتاج إليها المكلفون، وتقتضيها الحكمة ليصلوا بها إلى السعادة فى الدنيا والآخرة، وكان عربيا لأن الأُمة التى بعث منها الرسول لغتها العربية ، فجاء القرآن بلغتهم ليفهموه ويبلغوه لغيرهم .

(وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ) : أى ولئن اتبعت يا محمد أهواءَ الكافرين التى يدعونك إليها مخالفةً لما أُنزل إليك من الحق كاستقبال بيت المقدس بعد تحويل القبلة ، وكعبادة غير الله ابتغاءَ مرضاتهم .

(مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) : أى بعد ثبوت العلم عن طريق الوحى والحجج الساطعة والبراهين القاطعة .

(مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنَ وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ) : أى ليس لك من دون الله ولى ولا ناصر ينصرك فينقذك منه ، ويقيك من عذابه إن أراد عذابك . والخطاب هنا للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد الأُمة ، وفى هذا وعيد لأهل العلم إن هم حادوا عن الطريق واتبعوا سبل أهل الضلالة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾)

المفـردات :

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) ؛ الأجل : الوقت والمدة ، والكتاب ؛ الحكم المعين الذى يكتب على العباد حسب ما تقتضيه الحكمة .

التفسير

٣٨ - (ولَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ...) الآية .

فى هذه الآية جواب عن شبهات أوردها أعداءُ النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، من ذلك قولهم : مانرى لهذا الرجل همة إلا النساء ، ولو كان رسولا من عند الله حقًّا لما اشتغل عن رسالته بالنساء ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » . وفى هذا تذكير بما كان عليه سليمان وداود عليهما السلام حيث كانت لهما أزواج كثيرات وذرية كثيرة ، ولم يقدح ذلك فى نبوتهما ، على أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اقتصرت حياته الأُولى على زوجة واحدة إلى سن الثالثة والخمسين فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حدثت ظروف ودواع اقتضت الإصهار إلى القبائل لمصلحة الإسلام ، فكان من الخير أن تتعدد زوجاته ، بذلك تظهر الحكمة فى هذا التعدد فلا مجال لإثارة الشبه حول هذا التعدد فى أواخر حياته ، لأنه لايعقل أن يكون ذلك لدواعى الشهوة فى سن الشيخوخة .

والمعنى : ولقد أرسلنا رسلا كثيرين من قبلك أيها الرسول شأنهم كشأنك ، حيث جعلنا لهم أزواجًا كثيرات وذرية كثيرة ، فلست فى ذلك بدعًا من الرسل .

وحين قالوا : لو كان رسولا لجاء بالآيات التى طلبناها منه . رد الله عليهم بقوله سبحانه :

(وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ) : أى ليس فى وسع رسول من الرسل أن يأتى بمعجزة وفق ما يقترحه قومه إلا متى شاء الله ، فهو وحده يحكم مايشاء ويفعل مايريد . ثم بين الله سبحانه الحكمة فى تغيير الشرائع بقوله جل شأنه :

(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) : أى لكل وقت من الزمان شرع كتبه الله يناسب حال أهله . وينتهى بانتهاء الحاجة إلى هذا الشرع ، فإن الشرائع كلها لإصلاح أحوال العباد فى المبدأ والمعاد ، ويترتب على ذلك أن الشريعة تختلف على حسب اختلاف أحوال الناس التى تتغير بتغير الأوقات وتتابع الأزمان والأجيال . ومثل ذلك كمثل اختلاف العلاج باختلاف أحوال المرضى وبحسب الأوقات .

(يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾)

المفـردات :

(يَمْحُو) : المحو الإزالة ، والمراد به هنا نسخ الشرائع والأحكام وتغييرها .

(أُمُّ الكِتَابِ) : أصل الكتاب ، والمراد به علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ .

التفسير

٣٩ـ (يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ . . .) الآية .

أى يمحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ، ويبقى ما يشاء منها ثابتًا كما هو فلا ينسخه ولا يبدله ، أو يأتى بشرع جديد مكان شرع سابق ينسخه به ، فإن الحكمة تقتضى أن ينسخ الله ما يشاء أن ينسخه من الأحكام والشرائع بحسب الوقت ويثبت بدله أو يبقيه على حاله من غير نسخ ، لأن الشرائع كلها لإصلاح أحوال العباد فى المبدأ والمعاد .

واعلم أنه سبحانه وتعالى جعل الشرائع كلها متفقة فى الأصول ، فكلما أتى نبى جاء بشريعة متفقة مع الشرائع السابقة فى تلك الأصول التى لا سبيل إلى تغييرها ، ومن ذلك ما تضمنه قوله تبارك وتعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . » الآيات من سورة الأنعام. فهذه الأصول وأمثالها لاتتغير ولا تتبدل بتغير الرسالات والكتب السماوية ، أما الفروع فإنها عرضة للتغيير والتبديل ، كطريقة الصيام وزمنه ، ومقادير الزكاة والأصناف التى تزكى ، وكتحليل بعض المحرمات ، وفى ذلك يقول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . . . ». وغير ذلك مما يتغير بتغير الأجيال وأحوالهم . هذا ، ويمكن أن تكون الآية الكريمة عامة فى كل ما يمحوه الله ويثبته من شئون الكون ، فالأمر كله لله يفعل ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بحكمته .

(وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) : أى وعند الله تعالى أصل الكتاب وقد فصل فيه كل ما يجريه سبحانه فى الشرائع من المحو والإثبات ، وفى الكون من التغييروالتبديل ، فكل ذلك لايثبته الله ابتداء ، وإنما هو قضاء عنده قديم يبرزه فى وقته وحينه الذى حدده سبحانه وتعالى طبقًا لحكمته ، وقد عرفت فى المفردات أن المراد بأم الكتاب علم الله تعالى أو اللوح المحفوظ .

(وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾)

المفـردات :

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ) : ما هنا لتأكيد معنى الشرط ، أى وإن أريناك ، والتعبير بالمضارع لحكاية الحال الماضية أو لإفادة تجدد الوعيد .

(مِنْ أَطْرَافِهَا) : الأطراف ؛ الجوانب .

(لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) : أى لا راد له . والمعقب هو الذى يكر على الشىء فيبطله . ويقال لصاحب الحق الذى يطالب به معقب ، لأنه يتتبع غريمه بالاقتضاء والطلب .

التفسير

٤٠ - (وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) : أى إن أريناك يا محمد مصارع أعدائك المصرين على الكفر وما وعدناهم من إنزال العذاب بهم ، فذلك انتقام عاجل لك من أعدائك ، وإن توفيناك قبل حلول وعيدنا بهم ، فلا تجزع لذلك ، فما عليك إلا تبليغ الدعوة وتبليغ الوعيد على الكفر بها ، وعلينا وحدنا حسابهم وجزاؤهم على كفرهم ومعاصيهم ، فى الوقت الذى تقتضيه الحكمة فإننا نعلم من المصالح الخفية مالا تعلم ، فدع الأمر لنا وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، وفى التعبير بقوله : « نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ » إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم سيرى بعض الموعود ، ولهذا بشره الله عقب هذه الآية بظهور تباشير النصر بقوله :

٤١ - (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) : أى أينكر المشركون تنفيذ وعيدنا ونصرنا لرسولنا ، ولم يروا أننا ننقص أرض الكفر من جوانبها ونواحيها ، بفتحها على المسلمين شيئًا فشيئًا وإلحاقها بأرض الإسلام ، وقتل بعض من يقف فى سبيل الدعوة أو أسرهم أو إجلاء البعض الآخر ، أليس هذا بعض الذى نعدهم ؟

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) : أى والله يحكم فى خلقه بما يشاء لا يتعقب حكمه أحد بنقض ولا تغيير ، وقد جرت سنته أن الأرض يستعمرها عباده الصالحون ، بإقامة موازين العدل فيها والسير على نهج الحق - وقد حكم للإسلام وأهله بالغلبة والإقبال ما داموا فى طاعة الله ، يجاهدون فى سبيله ، واثقين من صدق وعده بالنصر لمن ينصرونه ، وكما حكم للإسلام وأهله بالإقبال والنصر لأنهم أهل الحق ، حكم على الكفر وأهله بالإدبار و الانتكاس ، لما سلكوه من الظلم والفساد فى الأرض .

(وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) : أى سيحاسبهم ويجازيهم بعد قليل فى الآخرة بألوان العذاب ، وكل آت قريب ، وذلك بعد تحقيق الوعيد عليهم فى دنياهم بالقتل والأسر والإجلاء .

(وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(مَكَرَ) : المكر ؛ هو تدبير المكروه فى خفية .

(فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) : أى أنه تعالى يعلم المكر كله ، فلا تخفى منه خافية عليه سبحانه.

(عُقْبَى الدَّارِ) : أى عاقبة دار الدنيا .

(عِلْمُ الكِتَابِ) : أى علم القرآن وما هو عليه من البيان المعجز، والحكمة التى لاتضارع ، أو علم التوراة والإنجيل وما فيهما من البشارات برسول الله والإسلام .

التفسير

٤٢ـ (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى مكر الذين كفروا من قبل مشركى مكة برسلهم ، وكادوا لهم . وكفروا بهم ، كما فعل نمروذ وقومه بإبراهيم، وفرعون وقومه بموسى ،واليهود بعيسى ثم دارت الدائرة على الظالمين المفسدين .

(فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) : أى فالله تعالى محيط بمكرهم كله ، فلا يغيب عن علمه شىء منه ، وهو قادر على إحباطه والانتقام من مدبريه ، وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتأمين له من مكرهم ، وقد صارحه الله بذلك حيث قال له : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[1] .

(١) المائدة ؛ ٦٧

(يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ) : من خير أو شر ، فيثبت أولياءه ، ويحميهم من شرور أعدائهم ، ويعاقب الماكرين بهم بما يستحقونه من عقاب ، وفى هذا تهديد ووعيد للكافرين الماكرين أكده بقوله .

(وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ) : أى وسيعلم الكفار إذا قدموا على ربهم يوم القيامة لمن العاقبة المحمودة ، لهذه الدار الدنيا ، أهى لهم ؟ أم للنبى صلى الله عليه وسلم ، ومن تبعه من المؤمنين ، ولاشك أنهم سيعلمون يومئذ أن العاقبة الحميدة للمتقين ، كما قال تعالى : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »(١) .

٤٣ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا) : أى ويقول المشركون من العرب ، الجاحدون لنبوتك : يا محمد لَسْتَ برسول من عند الله ، وإنما أنت متقول على الله تعالى ، يقولون له ذلك بعد أن تحداهم أن يأتوا بسورة من مثل القرآن فعجزوا ، ليعالجوا بهذا الإنكار قصورهم وضعف حجتهم ، فهم حينما ينكرون لا مستند لهم فى إنكارهم ، بل قامت الأدلة الواضحة على أنه مرسل من عند ربه ، فما أكثر المعجزات التى أيده الله بها .

(قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ) : أى حسبى الله شاهدا لى بتأييد رسالتى وصدق وأننى قد بلَّغت ، وشاهدا عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان .

(وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) : ممّن أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل فإنهم، كانوا يجدون البشارات عنه فى كتبهم ، وحاصل الجواب بذلك : لستم بأهل للحكم فى شأنى ، فاسألوا أهله من أهل الكتاب فإنهم بجواركم ، كما قال تعالى : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ »(٢) .

والله أعلم

(١) سورة القصص ٦٣
(٢) سورة الأنبياء ٧٧

سورة إبراهيم

آياتها اثنتان وخمسون ، وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وجابر ، وهو الذى عليه الجمهور ، وقال ابن عباس وقتادة مكية إلا آيتين منها فهما مدنيتان ، وهما قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) »

فقد نزلتا في قتلى بدر من المشركين ، أخرجه البخارى عن ابن عباس وأبو الشيخ عن قتادة .

المقاصد التى تناولتها السورة

اشتملت سورة إبراهيم على المقاصد التالية :

١ - الحديث عن القرآن الكريم وعن الرسول صلى الله عليه وسلم وأثرهما فى إخراج الناس من الظلمات إلى النور بفضل الله وهداه ، وإنذار الذين ينصرفون عن الهدى بالهلاك إذا أصروا على الكفر والضلال .

٢ - تقرير أن الله سبحانه أرسل الرسل بلغات أقوامهم حتى يستطيعوا فهمها وأداء شعائرها ولتقوم عليهم حُجة الله .

٣ - ذكر نبذة من قصة موسى عليه السلام مع قومه ، وتذكيره إياهم بنعم الله ومايجب عليهم له سبحانه من عبادة وشكر .

٤ - ذكر نبذة من أخبار الرسل مع أقوامهم ، وما قابلوا به رسالاتهم من جحود وإنكار وانتقام الله من هؤلاء المعاندين المكابرين .

٥ - تقرير ضلال الكفار وحبوط ما قدموه من أعمال طيبة ، لأنها لا تقوم على الإيمان .

٦ - ذكر مشهد من مشاهد يوم القيامة حيث يتبرأ أتباع الكفار من رؤسائهم وحيث يتبرأ الشيطان ممن أغواهم ودفعهم إلى الفساد . على حين يَمُنُّ الله على عباده الأتقياء بأحسن الجزاء .

٧ - ذكر الآثار الطَّيبة للكلمة الطيبة ، وأن الله يبارك فيها وفيمَنْ دعا إليها ومن استجاب لها ، وذكر الآثار السيئة للكلمة الخبيثة وأن الله يمحقُها ويمحق من دعا إليها ومن استجاب لها من المنحرفين .

٨ - الدعوة إلى التعجب ممن يقابلون نعم الله بالجحود و الكفران ، ويضلون أقوامهم فيقودونهم إلى النار .

٩ - دعوة المؤمنين إلى التمسك بإيمانهم وأداء شعائر دينهم ، وإلى شكر نعم الله العديدة عليهم ، وأنها لا يمكن إحصاؤها سواء فى أرجاء الأرض أم آفاق السموات .

١٠ - تذكير قريش بنعم الله عليهم ، واستجابته لدعاء إبراهيم عليه السلام من أجلهم وأن عليهم أن يعْبُدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

١١ - إنذار المشركين بما أعَدَّه الله لهم من عذاب أليم يوم القيامة ، وتأكيد هذا الإنذار وأنه واقع بهم لا محالة « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » .

١٢ - تقرير ما ورد فى السورة الكريمة من تبشير للمؤمنين وإنذار لِلْكَافرين ، وأنَّ فى هذا بلاغًا للجميع ليسرعوا بالعودة إلى توحيد الله وعبادته ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وإيقاظ العقول لتتجه إلى الإيمان قبل فوات الأوان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى
ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾)

المفـردات :

(الٓر) : هذه وأمثالها من فواتح بعض السور ، قيل إنها أسماء لها ، وقيل أسرار محجوبة ، وقيل إنها رمز للتحدى ، وقيل إشارة لابتداء كلام وانتهاء كلام ، وقيل غير ذلك .

وقد سبق تفصيل الكلام فيها أول سورة البقرة ، فارجع إليه إن شئت .

(الظُّلُمَاتِ) : الضلالات ، فإنها ظلمات معنوية .

(إِلَى النُّورِ) : إلى الهدى ، فإنه نور معنوى يهدى إلى الحق .

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) : بتيسيره وتوفيقه.

(إِلَى صِرَاطِ) : أى إلى طريق .

(الْحَمِيدِ) : أى المحمود ، والمراد أنه تعالى مستحق للحمد لذاته وإن لم يحمده الناس .

(وَوَيْلٌ) : الويل : الشر والهلاك .

(يَسْتَحِبُّونَ) : يختارون .

(وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) : يمنعون غيرهم عن دينه الذى يوصل إلى مرضاته وثوابه .

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) : أى ويطلبونها. والضمير عائد على السبيل فإنها مؤنثة ، أى ويطلبون لسبيل الله العوج .

التفسير

١ - (الٓر) :

أجملنا الكلام على (الٓر) فى المفردات ، وأحلنا القارىء على ماكتبناه مفصلا عن الفواتح الهجائية فى أول سورة البقرة فارجع إليه إن شئت .

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ) : أى هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن العظيم .

(لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) : أى بعثناك بهذا القرآن وأنزلناه إليك لِتُخرِجَ الناس عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم من ظلمات الكفر والجهل والحياة الضالة إلى نور الإيمان والعلم والحياة البارة الرشيدة ـ لما اشتمل عليه من الآيات الباهرات التى تحث على التفكر والتدبر ، والنظر فى حقائق الكون الدالة على وحدانية الله وتفرده بالخلق ـ والإبداع . . . ولما حواه من المنهج السديد الذى تسعد به البشرية كلما سلكته ، وتشقى كلما ابتعدت عنه .

(بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) : أى بتوفيقه إياهم ولطفه بهم ، فهو الهادى لمن أراد له الهداية على يدى نبى هذه الأُمة صلى الله عليه وسلم فى حياته ، وبما تركه لأُمته من كتاب الله تعالى وسنته بعد انتقاله إلى ربه .

(إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) : أى إلى الطريق الذى ارتضاه الله لخلقه وشرعه لهم ، طريق العزيز الذى لا يغالب ولا يمانع ، فهو القاهر لكل ما سواه المستحق للحمد ، ويلاحظ أن « صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » بيان للنور فى قوله: « لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » . فهو النور الذى أخرجهم من الظلمات إليه فى العقائد والأخلاق والتشريعات الرشيدة .

٢ - (اللهِ[1] الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) : أى هذا الكتاب أنزلناه لتخرج الناس إلى صراط العزيز الحميد ، الله الذى له ما فى الكون ملكًا وإبداعًا وتصرفًا ، فهو سبحانه يتصرف فيه وحده حسب ما تقتضيه حكمته الأزلية.

وقرأ نافع وابن عامر : (اللهُ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّموات . . .) برفع لفظ الجلالة ، على الاستئناف .

(وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عذَابٍ شَدِيدٍ) : هذا وعيد لمن كفر بالقرآن وخالف من أنزله ، وكفر بمن أُنزل عليه ، أى وهلاك يوم القيامة ناشىء من عذاب شديد لمن كذبك ولم يستجب دعوتك بإخلاص التوحيد للفرد الصمد، القوى المنتقم الجبار . . وقد وصف الله الكافرين بصفات ثلاث - الأُولى فى قوله :

٣ - (الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) : أى ويل للكافرين الذين يختارون الحياة الدنيا وما فيها من شهوات مهلكات ، ويؤثرونها على الآخرة ، وما فيها من نعيم مقيم.

- والصفة الثانية فى قوله سبحانه :

(وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ) : أى ويصرفون الناس عن الإيمان بالله واتباع ما جاء به رسوله محمد بن عبد الله ، وذلك لما ران على قلوبهم من الكفر والعصيان ، والبعد عمَّا يقرب من الرحيم الرحمن .

- والصفة الثالثة فى قوله تعالى :

(وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) : أى يطلبون لها الميل والزيغ لتتفق مع أهوائهم وشهواتهم التى هى ، أبعد ما تكون عن صراط الله المستقيم ، وبعد أن وصفهم بهذه الصفات ، قضى بضلالهم فقال :

(أُولَٰئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ) : أى أُولئك الموصوفون بإيثارهم الدنيا وزهرتها ، وصدهم عن الدين ، وابتغائهم له الزيغ والعوج ، أُولئك فى ضلال بعيد عن الحق لا يرجى لهم والحالة هذه هداية ولا رشاد .

---

(١) بجر لفظ الجلالة بدلا من العزيز الحميد أو عطف بيان له ، وبه قرأ السبعة عدا نافع وابن عامر فقد قرآ برفع لفظ الجلالة ... كما سيأتى فى الشرح .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾)

المفردات :

(بِلِسَانِ قَوْمِهِ) : أى بلغة قومه .

(بِآيَاتِنَا) : هى الآيات التسع التى أجراها الله على يد موسى عليه السلام وهى : الطوفان – والجراد – والقمل – والضفادع – والدم – والعصا – ويده – والسنون – ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .

(مِنَ الظُّلُمَاتِ) : من الكفر والجهالات المشبهات للظلمات .

(إِلَى النُّورِ) : إلى الإيمان بالله وتوحيده فهو النور الهادى إلى سواء السبيل .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ) : أى بوقائعه التى وقعت على الأمم السابقة ، يقال فلان عالم بأيام العرب أى بحروبها وملاحمها .

(صَبَّارٍ شَكُورٍ) : كثيرَ الصبر ، كثير الشكر .

التفسير

٤ – (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . .) الآية .

أى وما أرسلنا قبلك من رسول إلا بلسان القوم الذين أرسله الله إليهم ، ليبين لهم شريعة ربهم فى سهولة ويسر ، وليقطع أعذارهم وتقوم به حجة الله عليهم ، ومحمد

صلوات الله وسلامه عليه وإن بعث إلى الناس جميعًا وألسنتهم مختلفة فإرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيرهم ليحملوا معه عبء الدعوة ، ويبينوا الدين لمن كانوا على غير لسانهم ، ويترجموه حتى يصير مفهومًا لهم كما فهموه، وعلى هذا فكل من تُرجِمَ له ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ترجمة دقيقة يفهمها لزمته الحجة . قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أرسل كل نبي إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كل أحمر وأسود من خلقه » .

وقال : « والذى نَفْسِى بِيَدِهِ لَايَسْمعُ بى أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّة يَهُودِىٌّ وَلَا نَصْرَانِىٌّ ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنْ بالَّذى أُرْسِلْتُ به إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحاب النَّار » . أخرجه مسلم .

وحيث كانت رسالة الإسلام عامة لأهل الأرض ، فيجب على المسلمين أن يكون فيهم من يعرفون اللغات المختلفة ، ليحسنوا تبليغ الدعوة المحمدية التى تركها النبى أمانة فى أعناقهم جميعاً ، وعلى من أسلم من غير العرب أن يتعلم اللغة العربية ليحسن فهم الإسلام من منابعه والعمل بشرائعه .

(فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَّشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَّشَاءُ) : أى فبعد إرسال الله كل رسول بلسان قومه ، لتقوم به حجة الله ، يضل من ران على قلبه الغَواية والضلالة بما اجترح من آثام ، ويهدى من اتبع سبيل الرشاد ، وجانب أسلوب العناد ، فانشرح صدره للإسلام ، واستقام على المنهج السديد بتوفيق الله رب العالمين .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ) : فلا يغالب فى مشيئته . (الْحَكِيمُ) : العظيم الحكمة فيما أوجبه على الناس من شريعته .

٥ ـ (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...) الآية .

هذا شروع فى تفصيل ما أجمل فى قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ » .

أى ولقد أرسلنا موسى بلسان قومه بنى إسرئيل ، وأيدناه بالآيات المعجزة الدَّالة على

صدقه وأمرناه بأن يدعو قومه إلى الإيمان بالله وحده ليخرجوا من ظلمات ما كانوا عليه من الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان .

(وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ) : أى وذكرهم بوقائع الله فى الأمم قبلهم ، قوم نوح وعاد وثمود أو بأيام الله التى أنعم فيه على بنى إسرائيل بمختلف النعم ، من إخراجهم من أسر فرعون وقهره ، وفلقه البحر لهم ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، ويجوز أن يراد منها المحن الشديدة والنعم الجميلة ، فكلتاهما من أيام الله وآياته البينات .

(إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) : أى إن فى المذكور من أيام الله لدلائل على وحدانية الله وقدرته وفضله ورحمته، لكل صبار فى المحنة والبلية شكور فى المنحة والعطية ، قال قتاده : « نعم العبد ، إذا ابتلى صبر وإذا أعطى شكر » .

وقال ابن كثير : جاء فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّ أَمْرَ الْمؤمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ لَا يَقْضِى اللهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾)

المفردات :

(يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ) : أى يبغون لكم سوء العذاب من قولهم : سمت كذا أى ابتغيته وطلبته .

(وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) : أى ويبقونهن أحياءً فلا يقتلونهن .

(بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ) : أى ابتلاءٌ بمعنى اختبار .

(تَأَذَّنَ) : أى آذن بمعنى أعلم كتوعدهُ بمعنى أوعده ، غير أنه أبلغ منه .

التفسير

٦ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ) ... الآية .

يقول الله تعالى مخبرًا عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم وما أفاض عليهم من النعم ، إذْ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يكلفونهم به من التكاليف الشاقة مع القهر والإذلال والتعذيب السيء ، وكيف كانوا يذبحون أبناءهم الذكور ويستبقون إناثهم مستضعفات ذليلات ، وهذا من أسوأ ألوان البلايا والرزايا ، ولهذا قال سبحانه :

(وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ) : أى وفيما ذكر ابتلاءٌ واختبار عظيم من ربكم ، لما فيه من التعذيب والمحن التى كان يصنعها بهم فرعون وقومه ، ثم لما فيه من نعمة الإنجاءِ من كل ذلك العسف والتنكيل .

فالابتلاءُ كما يكون بالضرر يكون بِالمنفعة كما قال تعالى: « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » . فبالخير يبلو عباده أيشكرون أم يكفرون ؟ وبالشر يبلوهم أيصبرون أم يجزعون؟ وهو فى كلتا الحالتين يُثِيبُ المحسن ويعاقب المسيءَ .

٧- (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ): أى واذكروا يابنى إسرائيل حين آذنكم ربكم وأعلمكم بوعده ووعيده إعلاماً مؤكّدًا حيث قال :

(لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) : أى لئن شكرتم إنعامى لأزيدنكم من فضلى ونعمتى والتوفيق لطاعتى .

والآية نص على أن الشكر سبب المزيد من النعمة ، فإنَّ من شكر الله على رزقه وسع عليه فى الرزق ، ومن شكره على ما أقدره عليه من طاعته زَادَ ثوابَهُ فى طاعته ، ومن شكره

على ما أنعم به عليه من صحة زاده الله صحة وهكذا ... وقد أُثِر عن جعفر الصادق أنه قال: « إذَا سَمِعَتِ النعمةُ نِعْمَةَ الشُّكْر فتأهب للمزيد ». وسئل بعض الصلحاء عن الشكر فقال: « ألَّا تتقوَّى بنِعمِهِ على معَاصِيهِ » .

فَحَقيقة الشكر على هذا الرأى اعتراف المنعم عليه بالنعمة للمنعم، وألا يصرفها فى غير طاعته ، و أنشد الهادى وهو يأْكل :

أَنَالَكَ رِزْقَهُ لِتَقُومَ فيه بطاعته وتشكر بَعْضَ حقِّه
فلم تشكر لنعمته ولكن قويتَ على معاصيه بِرِزْقِه

فَغُصَّ باللقمة وخنقته العبرة .

(وَلَئِن كَفَرْتُمْ إنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ) : أى ولئن كفرتم نعمة الله بإِنكار نسبتها إليه أو التقصير فى شكره عليها بالطاعة قولًا وعملا ، فترقبوا أليم العذاب ، إن عذابه لشديد ، وذلك بسلب النعم فى الدنيا ، وإنزال النقم فى الدنيا والآخرة ، وفى الحديث : « إنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنب يُصِيبه » .

(وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾)

المفردات :

(حَمِيدٌ) : مستوجب للحمد لذاته وإن لم يحمده أحد.

(بالْبَيِّنَاتِ) : أى بالآيات الواضحات .

(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فى أَفْوَاهِهِمْ) : أى ردوها لكى يعضوها فى أفواههم غيظاً .

(مُرِيبٍ) : الريبة هنا بمعنى اضطراب النفس وعدم اطمئنانها .

التفسير

٨ - (وَقَالَ مُوسَى إن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِى الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ) :

أى وقال موسى لقومه : إن تُنكرُوا نعمة الله التى أَضفاها عليكم ولاتشكروها ؛ إن تفعَلوا ذلك يابنى إسرائيل ومعكم من فى الأَرض جميعاً ، فما أَلحقتم الضرر إلا بأَنفسكم إذحرمتموها من مزيد النعم وعرضتموها لشديد العذاب ، فى الوقت الذى أَنتم إلى الله أَحوج ، وهو غنى عن شكركم وشكر غيركم ، فإنه لا تنفعه طاعتكم ،كما لا تضره معصيتكم ؛ وأَنتم إن لم تحمدوه بأَلسنتكم ، فإن جوارحكم تلهج بحمده وأَنتم لا تشعرون ، فإنه تعالى يقول : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ . وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[١] .

وفى صحيح مسلم عن أَبى ذرعن رسول الله صلىالله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يَاعبادى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِّنْكُمْ مَازَاد ذَلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئاً ، يَاعبادى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفجر قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُمْ مَانَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئاً ، يَاعِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسانٍ مسْأَلَتَهُ مَانَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئاً إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيطُ إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ » .

فسبحانه وتعالى هو الغنى الحميد.

٩ - (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ . . .) الآية .

---

(١) الإسراء(٤٤)

أى ألم يأتكم يا أهل مكة خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل ممن لايحصى عددهم ولا يعرف نسبهم إلا الله عز وجل .

(جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) :

أى جاءوهم بالحجج الواضحات والدلائل الباهرات ، وقد بين كل رسول لقومه طريق الهداية والأمن ودعاهم إليه ،ولكنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .
(فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ) : أى جعل أولئك القوم أيديهم فى أفواههم ليعضوها غيظا مما جاء به الرسل ،مقرونا بتسفيه أحلامهم ، وشتم أصنامهم ،أو ردوها إلى أفواههم مشيرين بها إلى ألسنتهم وما يصدرعنها من المقالة ، لينبهوا الرسل إلى تلقيها منهم وليقنطوهم . من التصديق والإيمان من جهتهم ، وذلك ماحكاه الله سبحانه وتعالى عنهم فى قولهم : «وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ . . .» الآية .

وقيل معناه : أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لمَّا دعوهم إلى الله عز وجل ، قال أبو عبيدة والأخفش :هوضرب مثل أى لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قَدْ رَدَّ يده فى فيه .

(وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) :

أى أننا لا نصدقكم فيما جئتم به ، وإنا لَفِى شك قوىٍّ موقع فى الريب وعدم الطمأنينة بسبب ما جئتم به من التعاليم والشرائع وماتدعوننا إليه من إيمان وتوحيد .

(* قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ج
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ج
قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ج وَمَا كَانَ
لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ج وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ج
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ج وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾)

المفردات :

(أَفِي اللهِ شَكٌّ) : الاستفهام للإنكار بمعنى النفي وفيه معنى التعجب .

(فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقهما على غير مثال سبق .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : ببرهان بين له سلطان واضح على النفوس .

التفسير

١٠ ـ (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .) الآية .

حكى الله فى الآية السابقة قول الكافرين لرسلهم : « وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ » . وجاءت هذه الآية تحكى رد المرسلين واستنكارهم لما زعموه والتعجب منه .

والمعنى : قالت الرسل لأممهم مستنكرين شكهم فى ربهم : أفى وجود الله شك وارتياب حتى تقولوا لنا : «وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ» .فى حين أنه فاطر السموات والأرض ومبدعهما ، أليس لكل صنعة صانع فلا بد للسموات والأرض من منشئ صانع له القدرة الكاملة ، والإرادة النافذة والعلم المحيط .

وقد جاء هذا الاستنكار والاحتجاج فى محاجة الأنبياء جميعا ، فكل رسول من الرسل جعل نصب عينيه توجيه أمته إلى التفكر والتدبر فى السموات والأرض ، والتبصر فى أسرارهما ، ليتعرفوا بذلك وجود الخالق سبحانه وتعالى ووحدانيته ،واتصافه بكل كمال وتنزهه عن كل نقص .

ويجوز أن يكون المعنى : أفى ألوهية الله وتفرده بوجوب العبادة شك . . ؟ وهو الخالق لجميع الأرض والسموات المدبر لأمورها ،فلا يستحق العبادة أحد سواه .

وربما كان هذا المعنى أولى ، فإن أغلب الأمم كانت تقر بوجود الخالق المدبر ولكنها ،كانت تعبد معه غيره من الوسائط التى زعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى ، ثم قالت لهم رسلهم : (يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) : أى يدعوكم الله إلى الإيمان به وبوحدانيته وسائر صفاته وكمالاته ،على ألسنة رسله وشواهد آياته الكونية وكتبه المنزلة ، ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وضياء التوحيد، لِيَغْفِرَ لَكُمْ بعض الذنوب ، ويمحو عنكم بعض ما اقترفتموه من الآثام ، وهى التى تتعلق بحقوق الله وحده . وفى ذلك يقول تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ » .

أما حقوق العباد فإن الله سبحانه وتعالى لا يعفو عنها إلا برضا أصحابها وعفوهم عنها ، ولهذا عبر فى الآية بِمِنْ فى قوله : «يَغْفِرْ لَكُم مِّنْ ذُنُوبِكُمْ» .فإنها أفادت التبعيض وهذا البعض الذى يغفر هو ما يتعلق بحق الله تعالى ،فإن حق الله تعالى مبنى على المسامحة بمقتضى هذا الوعد الكريم . أما حقوق العباد فإنها مبنية على المطالبة والمؤاخذة ، وكما يدعوكم الله إلى الإيمان ليغفر لكم من ذنوبكم ،يدعوكم أيضا إلى الإيمان لفائدة أخرى ، وهى أن لا يستأصلكم بالعذاب كما استأصل الكافرين قبلكم ،بل يبقيكم تتمتعون فى دنياكم حتى الأجل الذى

سَمَّاهُ وقدره لكل فرد من البشر ، وهذا هوالمعنى الذىعناه ابن عباس رضىالله عنهما بقوله : يمتعكم باللذات والطيبات إلى الموت ،ويؤيد هذا قوله تعالى : « أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم ثم تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ »(١) ويحكى الله سبحانه وتعالى رد الأمم الكافرة على دعوة رسلهم إياهم إلى الإيمان فيقول :

(قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا) : أى قالوا عُتُوًّا وعنادا ومكابرة : ما أنتم إلا بشر مثلنافى الصورة والهيئة ،فلا فضل لكم علينا يؤهلكم للرسالة التى تد عونها ،وتريدون بها أن تمنعونا عن آلهتنا التى كان يعبدها آباؤنا فإن كنتم رسلا من عند الله كما ادعيتم :

(فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) : أى فأتونا ببرهان ذى سلطان بَيِّن واضح ،يدل دلالة قاطعة على استحقاقكم لمرتبة الرسالة وصحة ماتدعوننا إليه ،حتى نترك عبادة آلهتنا التى وجدنا عليها آباءنا .

لقد جاءهم الرسل بالآيات والمعجزاتالتى تخر لها صم الجبال ،ولكن القوم زعموا أن ماجاءتهم به الرسل من معجزات ليسمن جنس السلطان المبين الذى يقترحونه ،وهكذا كانوا يجادلون فى الحق بعدما تبين لهم .ثم يحكى الله سبحانه وتعالى جواب الرسل لأقوامهم فيقول :

١١ - (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ...)الآية. أى قالت الرسل لأممهم : مانحن إلا بشر مثلكم كما قلتم ، ولكن الله ينعم على من يشاءُ من عباده ، فيصطفيهم لرسالته ، ويختصهم بها بمحض فضله وامتنانه ، لابحسب ولانسبٍ ولا باجتهاد منهم فى العبادة !

---

(١) من الآية ٣ سورة هود .

والبشرية غير مانعة لمشيئته جل وعلا أن يتفضل بهذا الاختصاص على من يشاء من عباده من أهل الفضل والكمال، «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ[1]». ولم يرسل الله إلى البشر ملكاً، لأنه لاطاقة للناس بالتلقى عن الملائكة كما قال تعالى: «وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ».

ثم قالت الرسل جوابا لقول أممهم: «فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ»:

(وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ): أى وما صح لنا وما استقام أن نأتيكم ببرهان كما طلبتم غيرما أجراه الله على أيدينا من المعجزات إلا بإذن الله وتيسيره، فإن لم يأذن فلا سبيل إليه، ولا قدرة لنا عليه، مع ماخصنا الله به من النبوة وشرّفنا به من الرسالة.

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ): أى قال كل رسول لأمته بعد ما تقدم: وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون وليفوضوا جميع أمورهم إليه، وليصبروا على معاندة الكافرين ومعاداتهم، ثم أيدوا وجوب توكلهم على الله بقولهم:

١٢ - (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا . . .) الآية.

وأى عذر لنا فى ترك التوكل على الله وحده والاعتماد عليه فى رفع أذاكم وسلوك سبيله، وقد أرشدنا إلى سبيله المستقيم، ومنهاجه الذى شرعه له وأوجب عليه سلوكه.

(وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا): بالعناد والتكذيب واقتراح الآيات، وما إلى ذلك من السفه واللجاج؛ حتى يأتينا نصر الله.

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ): أى وعلى الله فليعتمد المؤمنون المتوكلون دائما فإنه هو الذى ينصرهم، وبيده وحده هزيمة أعدائهم. «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[2]».

---

(١) الأنعام: من الآية ١٢٤

(٢) سورة الطلاق: من الآية ٣

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾

المفـردات :

(لَتَعُودُنَّ) :لَتَصِيرُنَّ.(مَقَامِى) : أى الموقف المَمْلُوك لله ، الذى يقف به العباد بين يَدَيه للحساب ، أو قيامه على عبده ومراقبته إياه.(وَعِيدِ) : وعدى بعذاب الكفار والعصاة يوم القيامة .

التفسير

١٣ – (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فى مِلَّتِنَا ...) الآية.

استمر الكفار فى جدالهم للرسل بالباطل ، وضاقت صدورهم بالحق بعد ماتبين ، وكبر عليهم أن يرجعوا إليه ، فسلكوا مسلك العنف والقوة وقالوا تهديدًا للرسل ووعيدا لهم :

(لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا) :

لم يكتفوا بعصيانهم للرسل ومعاندتهم للحق بعد ما رأوا الآيات البينات حتى اجترءوا على مقالتهم الشنعاء التى يعجز عنها الوصف ، وأقسموا : ليكونَنَّ أحد الأمرين لامحالة : إما أن نخرجكم من أرضنا ، وإما أن تعودوا إلى ديننا وتتحولوا إلى مِلتنا .

(فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) :

أى فأوحَى إلى الرسل ربهم ومالك أمرهم تثبيتا للمؤمنين ووعيدا للكافرين قائلاً :

(لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) : أى لنقتلنَّ الذين ظلموا أنفسهم بشركهم ،وظلموا الرسل والمؤمنين بتكذيبهم وإيذائهم – لنهلكنهم – ان استمروا على كفرهم وعنادهم ، ثم أكمل الله وعيده للكافرين ووعده للمؤمنين بصيغة التوكيد فقال سبحانه :

١٤ – (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ....[١]) الآية .

أى ولنسكننكم أيها المؤمنون أرض هؤلاء الكافرين بعد إهلاكهم ،عقوبة لهم فى الدنيا على قولهم لرسلهم : « لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا ».وتلك سنة الله فى رسله وعباده المؤمنين ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « وأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بارَكْنَا فِيهَا ». وإلى قوله جل سلطانه : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنهاَ وإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلا ، سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً[٢] » .

(ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ) : أفادت هذه الجملة أنه تعالى جرت سنته معرسله ومن آمن بهم أن ينصرهم على من كفربهم ، ويسكنهم الأرض من بعد إهلاكهم .

والمعنى : ذلك الذى مرَّ بيانه من إهلاك الظالمين ،وإسكان المؤمنين أرضهم وديارهم أمرثابت لكل من خاف موقفى الذى يقف به العباد بين يدىَّ للحساب يوم القيامة، أو خاف قيامى عليه بحفظ أعماله ومراقبتى إياه ، فإنى قائم على كل نفس بماكسبت ، وذلك أيضا لمن خاف وعيدى بالعذاب للكفرة والعصاة .

---

(١) الأعراف : من الآية ١٣٧

(٢) الإسراء : الآيتين ٧٦ – ٧٧

(وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾)

المفـردات :

(وَاسْتَفْتَحُوا) : وطلبوا الفتح ، والمراد به هنا النصر .(وَخَابَ) : وخسر وهلك .

(كُلُّ جَبَّارٍ): الجبار في اللغة ؛ من يقهر الناس على ما يريده ، والمراد به هنا المتكبر عن عبادة الله تعالى وطاعته المتعالى على رسله . (عَنِيدٍ) : شديد العناد والمكابرة .

(مِنْ وَرَائِهِ) : من خلفه ـ أو من أمامه . وأصل معنى وراء : ماتوارى عنك قدامك أو خلفك .

(مَاءٍ صَدِيدٍ) : هومايسيل من أجساد أهل النار . وأصل الصديد : الماءُ الرقيق الذى يخرج من الجرح .

(يَتَجَرَّعُهُ) : أى يتكلف بلعه مرة بعد أخرى من الجَرْع وهو البلع .

(وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ) : ولايقارب أن يبتلعه بسهولة .

التفسير

يخبر الله تبارك وتعالى عما انتهى إليه أمر الرسل مع مكذبيهم ، بعد أن صبروا عليهم وصابروهم حتى يئسوا كل اليأس من إيمانهم فيقول جل من قائل :

١٥ - (واسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ):

أى لجأ الرسل إلى ربهم وسألوه الفتح والنصر على عدوهم ، فاستجاب الله لرسله ونصرهم فظفروا وأفلحوا ، وخسر أعداؤهم وهلكوا ، جزاء تكبرهم وعنادهم .

والتعبير بقوله تعالى : «كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» بدلا من التعبير بقوله : وخابوا لِذَمِّهِمْ وتسجيل التجبر والعناد عليهم ،وواضح على هذا المعنى أن الضمير فى قوله تعالى : «وَاسْتَفْتَحُوا» للرسل وحدهم كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة .

وقيل إن الضمير للمكذبين وحدهم ، وكأنهم لما قوى تكذيبهم وأذاهم للرسل ولم يُعاجَلُوا بالعقوبة ، ظنوا أنهم على الحق ، وأن ما جاءت به الرسل باطل ، فاستفتحوا على الرسل واستنصروا عليهم ، أو استفتحوا على أنفسهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء ، كقول قوم نوح : « يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »[1] وقول قوم شعيب : «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»[2]. وقول المشركين من قريش : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[3].

وقيل : إن الضمير للرسل عليهم السلام ولمكذبيهم ، أى أنهم جميعا سألوا الله تعالى أن ينصر المحق ويهلك المبطل ، وقد نصر الله رسله والمؤمنين «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[4] .

١٦ - (مِن وَّرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ) :

بينت الآية السابقة مالقى مكذبو الرسل ومعاندوهم من الهزيمة والهلاك فى هذه الدار ، وتبين هذه الآية وما بعدها مايلقاه كل منهم من أنواع العذاب وألوانه فى دار القرار .

والمعنى : مِنْ خَلْفِ كُلِّ جبارٍ معاندللرسل جهنمُ تستقبله عقب انتهاء حياته فى الدنيا .

---

(١) هود : ٣٢ (٢) الشعراء : ١٨٧
(٣) الأنفال : ٣٢ (٤) الأنعام : الآية ٤٥

وقال ابن كثير: «وراء» هنا بمعنى أمام ، كقوله تعالى : «وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً»[١]. وكان ابن عباس يفسرها بذلك ؛ وسواء فُسرت وراء بهذا أو بذاك فالمقصود أنهم يلقون عقابهم في جهنم يوم القيامة فهى ، أمامهم يستقبلونها وهى خلفهم بعد انقضاء حياتهم ، والمعنى : من ورائه جهنم يلقاها ويسقى فيها من ماءٍ يشبه الصديد الذى مر بيانه فى المفردات ، ويجوز أن يكون من الصَدِّ بمعنى الإعراض ، أن يسقى من ماء كريه يعرض عنه ، ويصف الله سبحانه وتعالى هذا الماء الذى لايستساغ فيقول جل شأنه :

١٧ – (يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ . . .) الآية .

أى يتكلف الجبار العنيد جرعه وبلعه مرة بعد أخرى فلا يقرب من استساغته ، ولا يسهل عليه بلعه لحرارته ومرارته . وقيل إن المعنى : لايقارب أن يدخله فى جوفه قبل أن يشربه فيُسقاه على الرغم منه قهراً وقسراً ، أخرج أحمد والترمذى والنسائى والحاكم – وصححه – وغيرهم عن أبى أُمامةَ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الآيه : (يُقَرَّب إليه فيتكرّهه فإذا أُدنى منه شَوى وجهه ووقعت فروة رأسه ،فإذا شربه قطَّع أمعاءه حتى يخرج من دُبُرِه) يقول الله تعالى : «وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُم»[٢]. وتستمر الآية فى وصف عذاب الجبار العنيد وذلك فى قوله تعالى :

(وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) : أى ويأْتيه أسباب الموت من الشَّدَائِدِ وأنواع العذاب من كل موضع ،والمراد أنه يحيط به من جميع الجهات ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ،وقيل من كل مكان فى جسده حتى أطراف شعره وإبهام رجله «وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ» فيستريح بالموت. بل إنه لايخفف عنه العذاب فى وقتٍ مَّا ، كى ينفس عن نفسه بعض الكرب كما قال تعالى : «لاَيُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ولاَيُخَفَّفُ عَنْهُم مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ»[٣] . وكما قال عز وجل : «كُلَّمَا نَضُجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ»[٤] . فهم مخلدون فى جهنم يستقبلون فى كل وقت عذابا أشد وأشق مما كان

(١) الكهف من الآية ٧٩

(٢) سورة محمد من الآية : ١٥ ،وقال تعالى فى سورة الكهف : «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه» من الآية : ٣١

(٣) سورة فاطر من الآية : ٣٦

(٤) سورة النساء من الآية : ٣٦

قبله . ولهذا ختمت الآية بقوله سبحانه وتعالى :

(وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ) : والضمير فى (ورائه) يعود إلى كل جبار أو إلى العذاب المفهوم من الكلام السابق.والمعنى : وأمام كل جبار أو : وأمام كل عذاب ذاقه الجبار - عذابٌ آخر شديد الغلظة ، وأهوال العذاب وأنواعه وأشكاله لايحصيها إلا الله تعالى : «جَزَاءً وِفَاقًا ».(١) « وَمَارَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » .(٢) واعلم أن عذاب الكفر يتفاوت فى الشدة وأن النار دَرَكات كما أن الجنة درجات ،وأنه لايستوى كافر عنيد متمرد يسعى فى الأرض فسادا ، وكافر مغلوب على أمره ،وفى تفاوت عذاب الكفار يقول اللهَ تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُم نَصِيرًا ».(٣) ويقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما إن « أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَرَجُلٌ وُضِعَ فى أخمص قدميه جمْرةٌ يغلى منها دِماغه » .(٤)

(مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا) . المثل فى أصل اللغة : بمعنى الشبيه والنظير ، كالمثل والمثيل . ويطلق على الحال والصفة التى لها شأن وفيها غرابة ،كمافى هذه الآية وأمثالها مماتقدم مرارا

(١) سورة النبأ : الآية : ٢٦

(٢) سورة فصلت من الآية : ٤٦

(٣) سورة النساء من الآية : ١٤٥

(٤) الأخمص من باطن القدم ماتجافى عن الأرض وهو بوزن (أحمد) والدماغ بوزن كتاب هو مخ الرأس .

ويأتى كثيرا . (فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ) : العصف : اشتداد الريح ،وُصف به زمان هبوبها تقوية لشدتها وتوكيدا ، كما وصف النهار بالصيام والليل بالقيام فى قولهم : نهاره صائم وليله قائم؛ لكثيرِ الصيامِ والقيامِ .

التفسير

١٨ - (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ...) الآية .

بعد أن بين الله تبارك وتعالى فى الآيات السابقة ، ما يلقاه الكفار من العذاب الشديد يوم القيامة - بيّن فى هذه الآية أن أعمال الخير التى عملوها فى الدنيا ، تصير كلها فى الآخرة ضائعةً باطلة ، لاينتفعون بشىء منها ، وكذلك ماقدموه من القرابين لآلهتهم زاعمين أنها تقربهم إلى الله تعالى .

والمعنى : أن أعمال الكافرين التى يتقربون بها إلى آلهتهم ، أو يفعلونها رغبةً فى البر - صِفتُها فى حبوطها وذهابها دونأن ينتفع بها أصحابها يوم القيامة ، وهم فى أشد الحاجة إلى ثوابها -صِفَتُها- كصفة رماد بعثرته الريح الشديدة وفرّقته فلم تدعْ له أثرا ، لأنها مَبْنيةٌعلى أساس باطل وهو الكفر ، وما بنى على باطل فهو مردود ، وفى ذلك يقول الله تعالى : «وَقَدِمْنَا إِلَى مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً »[1] .

ثم أكد سبحانه حبوط هذه الأعمال وذهابَها ، وعجزَ الكفرة عن الانتفاع بها فقال :

(لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ) : أى لايقدر أولئك الكافرون على نيل ثواب لما عملوه ينفعهم يومئذ ، فقد أضاعه كفرهم ، كما أضاعت الريح الشديدة التراب وبعثرته ولم تُبْقِ منه شيئا .

(ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ) :

أى ذلك الكفر الذى جعل أعمالهم الصالحة ضائعة لاينتفعون بها ، هو الضلال البعيد عن الطريق الموصل إلى الخير ، وإلى الغاية الحميدة .

(١) سورة الفرقان : الآية ٢٣

ومما ورد فى السنة دليلا على أن عمل الكافر لا ينفعه يوم القيامة ولو كان صالحا، ما رواه مسلم فى صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: يارسول الله: ابنُ جُدْعَان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: « لا ينفعه، إنه لم يقل يوما: رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين ».

وكان عبد الله بن جدعانَ من وجوه بنى تيْم ورؤساء قريش، وكان قريبا لأُم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وله تاريخ حافل بالجود والمكارم، فأَهَمَّها شَأْنُه، فسألت عنه من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه، فأجابها بأَن شيئا من هذه الصالحات التى عملها لاتنفعه يوم القيامة، لأَنه لم يصدق بالبعث فمات كافرا، والإيمانُ هو الشرط الأَساسى فى قبول الصالحات وحُسْنِ جزائها فى الآخرة بقوله تعالى فى شأْن الكافرين: « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ». أما المؤمنون الصالحون، فإنهم يُثابون أحسن الثواب ولا يظلمون، قال تعالى: « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا »[1] وقال سبحانه: « فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُو مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ »[2].

وإنما حُرم الكفار يوم القيامة ثواب ما عملوه فى الدنيا من الصَّالحاتِ والمكارم؛ لأَنهم بنوها على غير أَساس سليم من معرفة الحق تبارك وتعالى، والإيمان به والإخلاص لوجهه، فجعلها الله هباءً منثورا، وحسبهم من عدل الله الذى لا يظلم أحدا مثقال ذرة، أن يكافئهم على هذه الصالحات فى الدنيا، من سعة فى الرزق، ورغد فى العيش، وما إليهما من الطيبات المعجلة لهم فى هذه الحياة. وقد بيَّن ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة: يُعطى بها فى الدنيا، ويُجزَى بها فى الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها

(١) سورة طه: الآية ١١٢
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٤

لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها. وفى هذا الحديث الصحيح الصريح فصل الخطاب .

ويرى بعض العلماء أنه يجوز أن يخفف الله تعالى عذاب بعض الكفار فى الآخرة بما له من حسنات دنيوية ، أخذا من قوله عزّ سلطانه : « النَّار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [1] » . فهذه الآية يفيد ظاهرها أن عذاب الكفار فيه شديد وفيه أشد ، وذلك يقتضى أن بعضهم أخف عذابا من بعض، ويرجع هذا إلى استفادتهم من أعمال الخير التى عملوها . ويؤيد ذلك قوله تعالى : «ونَضَعُ الموَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وإنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » . [2] وقوله تعالى : «فَمن يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَّرَهُ ، وَمَن يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَّرَهُ » [3] . كما استدلوا بما رواه البخارى ومسلم عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما أَغْنَيْتَ عن عمك [4] ، فإنه كان يَحُوطك ويَغْضَبُ لك؟ قال : (هو فى ضَحضاح من نار ، ولولا أَنَا لكان فى الدرْك الأَسفل من النار) [5] . وكما أن الجنة درجات ، فالنار دَرَكات .

وبالجملة فقد وقع الإجماع على خلود الكفار فى النار ، على اختلاف دركاتهم ، كما قال عز وجل : « وَمَاهُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » [6] .

---

(١) سورة غافر : الآية ٤٦.

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٤٧

(٣) سورة الزلزلة : الآيتين ٧ ، ٨ وفى تفسيرهما – وفى الآلوسى – مزيد بيان لمن شاء.

(٤) يريد به أبا طالب .

(٥) يحوطك : يصونك من المشركين بالدفاع عنك : والضحضاح : مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين استعير هنا للنار القليلة جدا بالنسبة إلى غيره من أصحاب النار ، والدرك بسكون الراء وفتحها قراءتان سبعيتان : والدرك فى اللغة أقصى قاع الشىء ، والمراد به هنا مقر جهنم والعياذ بالله تعالى.

(٦) سورة البقرة : من الآية : ١٦٧ .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَلَمْ تَرَ) : أى ألم تعلم . والاستفهام للتقرير ، أى لقد علمت أيها المخاطب فاشهد بما تعلم . (بِالْحَقِّ) : أى بالأمر الثابت وهو الحكمة المنزهة عن العبث .

(يُذْهِبْكُمْ) : يُفْنكُم حتى لايبقى لكم أثر . (وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ) : أى وليس ذلك بممتنع ، فلا يصعب تحقيقه على الله تعالى .

(وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعًا) : أى ظهروا لله جميعا . والمراد أنهم خرجوا من قبورهم لحساب الله تعالى وحكمه .

(مُغْنُونَ عنَّا) : أى دافعون عنا ، يقال أغنى عنه : إذا دفع عنه الضرّ ؛ وأغناه : إذا وَصَّل له النفع .

(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا) : أى مستو علينا الجزعُ والصبرُ ، والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده .

(مَحِيصٍ) : مَعْدِلٌ ومهرب ، يقال : حاص عنه يحيص : إذا عدل عنه وحاد ، إلى جهة الفِرار .

التفسير

١٩ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ . . .) الآية .

بعدأن قص الله تبارك وتعالى مالقى رسله فى سبيل الدعوة إليه من العناد والإيذاء ، والتكذيب والاستهزاء - توعد المكذبين لهم بأنه قادر على أن يهلكهم ويستبدل بهم خيرا منهم فقال : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ بِالحَقِّ » .

الظاهر أن الخطاب فى الآية الكريمة لكل أحد من الكفرة ، لقوله: « يُذْهِبْكُمْ » . وهذا أنسب بالوعيد والتهديد . والاستفهام هنا للتقرير ، ولذا يستعمل فى الأمر الواضح الذى يكفى فيه مجرد تنبيه المخاطب ، ليعترف ويشهد به .

والمعنى : ألم تعلم أن الله جلت قدرته خلق السموات والأرض بالحكمة المنزهة عن العبث ، وبالوجه الصحيح الذى يَحق أن يُخلَق عليه ، ليُستدل بخلقهما - بهذا النظام الدقيق والنمط البديع - ، على قدرته ووحدانيته وسائر كمالاته .

(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) :

أى إن يرد الله سبحانه وتعالى إهلاككُم أيها المكذبون ، يُفْنِكُم حتى لايبقى منكم أحد ، ويأْت بخلق جديد يكون أطوع لله منكم ، وأسبق إلى الحق ، وأسرع إلى الهدى أرشد سبحانه بخلق السموات والأرض - وَهما أكبر من خلق الناس - إلى طريق الاستدلال . على وحدانيته وقدرته على إهلاكهم وخلق سواهم ، فإن من قدر على خلق هاتيك الأجرام العظيمة التى لايحيط بعظمتها إلَّا مبدعها ، فهو على تبديلهم بخلق آخر أقدر ، ولهذا قال :

٢٠ - (وَمَاذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ) :

أى وما إذهابكم والإتيان بخلق جديد مكانكم ، بممتنع على الله تعالى ولامتعسر ، فإنه قادر بذاته على جميع الممكنات ، لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، ومَن هذا شأْنه فهو حقيق بأَن يُعْبَدَ وحده ، ويُرجى ثوابه ، ويُخاف عقابه . والضمير فى قوله تعالى :

٢١ - (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً) :

إما لمكذبى الرسل ، لأن الكلام لهم كما تقدم بيانه ، وبهذا قال كثير من المفسرين وفى مقدمتهم الإمام الطبرى ، وإما للمصدقين والمكذبين جميعا ، فإن الحشر يوم القيامة للعباد جميعا ، مؤمنهم وكافرهم ، وبهذ قال أكثر المفسرين ، ومنهم ابن كثير إذ قال فى الآية : (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً) : أى برزت الخلائق كلها ؛ برُّها وفاجرها لله الواحد القهار ، أى اجتمعوا له فى بَراز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شَئ يستر أحدًا .... ومعنى بروزهم لله : ظهورهم من قبورهم لحساب الله تعالى وجزائه .

ولما كان هذا البروز أمرًا متحققاً كائناً لامحالة ، عبر عنه بصيغة الماضَى ، كأنه وقع فعلا ودخل فى دائرة الوجود ، وإن كان لا يزال مستقبِلا واقعاً بعدالموت ؛ أو لأنه لامضى ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه ؛ ومن هذا قوله تعالى : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ [(١)] » . وقوله : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تستَعْجِلُوهُ [(٢)] » .

(فَقَالَ الضُّعَفَاءُ) : جمع ضعيف . والمراد بهم ضعاف الرأى ، وهم الأتباع ، قالوا !
(لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا) : أى لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم :

(إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً) : فى تكذيب الرسل عليهم السلام ، والإعراض عن نصائحهم ، وكلما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ، والاستفهام فى قولهم :

(فَهَلْ أَنْتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَىْءٍ) : للتوبيخ والتقريع ، أى فهل أنتم اليوم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله ، كما كنتم تعدوننَا وتمنوننا فى الدنيا ؟ !

---

(١) سورة الأعراف : من الآية ٤٤

(٢) أول سورة النحل .

(قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ) :

أى قال المستكبرون جواباً عن تقريع الضعفاء وتوبيخهم واعتذاراً عما فعلوا بهم : لوهدانا الله إلى الإيمان ووفقنا له لهديناكم ، ولكن لم يوفقنا ، فضَلَلنا وأضللناكم ، أى اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، أو لو هدانا الله إلى طريق النجاة من العذاب لهديناكم ودفعنا عنكم ، ولكن سُدَّ دُوننا طريق الخلاص ، وحقت كلمة العذاب على الكافرين . .

والمقصود من قول المستكبرين للمستضعفين : (سَوَاءٌ عَلَيْنا أجزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا) : مُبالغتهم فى النهى عن التوبيخ ، بإعلامهم أنهم شركاءُ لهم فيما ابتُلُوا به وتسلية لهم ؛ أى سيان علينا الجزعُ مما نحن فيه من العذاب والصبرُ عليه .

والهمزة فى قوله « أجزعنا » للتسوية بين جزعهم وصبرهم ، كما فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ »[١].

(مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ) : أى ليس لنا على الحالين مَهْرَبٌ ولا خلاص من عذاب الله . وهذه الجملة لتقرير ما قالوه وتأكيده ، أى أنهم لا مناص لهم البته مما هم فيه .

ويجوز أن يكون هذا من قول المستكبرين والمستضعفين جميعاً ، يسلِّى بعضهم بعضاً ، ويتأسى بعضهم ببعض . ولكن الأمر كما قال تعالى : « وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ »[٢]. والظاهر أن هذه المراجعة تكون فى النار بعد دخولهم فيها ، كما قال تعالى : « وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ »[٣] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٦

(٢) سورة الزخرف : الآية ٣٩

(٣) سورة غافر : الآيتين ٤٧ ، ٤٨ .

قال الآلوسى : واستظهر أبو حيان أنها فى موضع العرض وقت البروز بين يدى الله تعالى . ا هـ . وأيا ما كان الأمر فالمواقف فى يوم القيامة متعددة ، ومن الجائز أن تتعدد المراجعة والخصومة تبعاً لتعددها.

(وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾)

التفسير

٢٢ ـ (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ..) الآية : لما ذكر الله تعالى المحاورة التى تكون بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنس والجن ، أردفها بالمحاورة التى تكون بين الشيطان وأتباعه ، وهى التى تضمنتها هذه الآية الكريمة وما بعدها .

والمعنى : وقال الشيطان لأتباعه بعد أن قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنة وأسكن الكافرين النار ـ قال الشيطان لأتباعه ـ ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم (إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ) : على ألسنة رسله أن يبعثكم ويحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم إن خيرا فخير وإن شرًّا فشر ، ووعد الله حق ، وخبره صدق ، وقد أنجز الله ما وعد .

(وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ) :

أى ووعدتكم ألَّا بعث ولا جزاء، ولو صح أنكم تبعثون فلأصنامكم شفاعة عند ربكم وقد أخلفتكم فيما وعدتكم، فحق عليكم وعيد ربكم، وقد كان عليكم ألا تنخدعوا بما زخرفته لكم من القول ، وأن تعصونى فيما أمرتكم به .

(وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى) :أى وما كان لى عليكم من جبروت وسلطان يقهركم على اتباعى ، فلا قوة لى ولا حجة معى ، حتى تستجيبوا إلى مادعوتكم إليه ، لكنكم أسرعتم إلى إجابتى تلبية لشهواتكم وإشباع نزواتكم .

(فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ) : أى فلا تلومونى اليوم على ما انتهى أمركم إليه من عذاب النار ، ولوموا أنفسكم ، فإن لكم النصيب الأوفى من اختيار السبيل الموصل إليه .

ثم بين لهم الشيطان حقيقة أمره وأمرهم وهوانهم على الله تبارك وتعالى وذلك ما حكاه الله تعالى عنه بقوله :

(مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ) :أى لست اليوم بمغيثكم مما أنتم فيه من عذاب الضلال ووباله ، ولستم بمغيثىَّ مما أنا فيه من عذاب الإضلال ونكاله . ثم زادهم غما على غمهم بإعلان تبرئه من إشراكهم إيَّاه ، فقال فى استنكار وإصرار :

(إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ) : أى إنى برئت من إشراككم إياى، مع الله فى الدنيا ، حيث أطعتمونى فى الشركما يطاع الله فى الخير كأنى معبود معه ، ونظير هذا قوله تعالى : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ »[1] . ويجوز أن يكون هذا النص حكاية لما كان من إبليس فى الدنيا فى حق الله تعالى ، يقوله على سبيل الندم وأن مثله لا يستطيع أن يغيثهم مع ذنبه .

والمعنى حينئذ : إنى حين أبيت السجود لأبيكم آدم كفرت بالله الذى جعلتمونى له شريكاً ، فكيف أستطيع أن أطلب من الله أن يغيثكم مما أنتم فيه وذنبى عظيم بالنسبة إليه سبحانه ، ثم ختم الشيطان كلامه بقوله فيما حكاه الله عنه : (إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

---

(١) سورة فاطر ، من الآية : ١٤

وبهذا سجل الشيطان اعترافه على نفسه وعلى أتباعه بأنهم ظالمون فيما أحدثوه من الضلال والإضلال وأنهم مستحقون بسبب ذلك العذابَ الأليمَ .

ويجوز أن يكون هذا القول حكاية لرد الله سبحانه وتعالى على الشيطان وأتباعه جميعاً إقناطاً لهم من رحمة الله – تابعين كانوا أو متبوعين – أى إن الظالمين لهم منّا عذاب أليم فلا ينفعهم فى ذلك اليوم الندم ، ولا إلقاء بعضهم التبعة على بعض .

وقد دلت الآية على فساد التقليد فى الاعتقاد ، لأن أتباع الشيطان لما صدقوه بمجرد دعواه لم يعذرهم الله سبحانه بل عاقبهم كما عاقبه ، فعلى كل قادر على النظر والاستدلال أن ينهج فى عقيدته منهج الاحتجاج بالآيات والإستدلال بالبراهين القطعية .

ولما ذكر سبحانه وتعالى جزاء الأشقياء بما صاروا إليه من الخزى والعذاب الأليم ، أتبع ذلك جزاء السعداء بما أعد لهم من النعيم المقيم فقال جل ثناؤه :

٢٣ – (وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ....) الآية . أى أدخل الملائكة الذين آمنوا وعملوا الصالحات – أدخلوهم – جنات أُعدَّت لهم ، تجرى من تحت أشجارها وقصورها الأنهار . (خَالِدِينَ فِيهَا) : أى ماكثين فيها أبدًا لايخرجون منها ولا يُخْرِجهم منها أحد ، فنعيمهم دائم وسعادتهم لا نهاية لها ، وكل ذلك (بِإِذْنِ رَبِّهِمْ) : وأمره وفضله لابعملهم فحسب ، ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لَنْ يُدْخِل أحدًا عملُهُ الجنَّةَ ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة » . الحديث أخرجه الصحاح واللفظ للبخارى . (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ) : أى يحيي بعضهم بعضاً بالسلام ، والسلام هو تحية الله وملائكته اختارها الله لعباده المؤمنين فى الدنيا وفى الجنة دار السّلام .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾)

المفـردات :

(أَلَمْ تَرَ) : الخطاب هنا لكل ذى عقل يحسن فهم الخطاب ، والاستفهام هنا للتقرير بالعلم ، والمعنى : ألم تعلم .

(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً) : المثل الصفة العجيبة ، وضرب المثل تبيينه ووضعه فى المكان اللائق به .

(كَلِمَةً طَيِّبَةً) : المراد بها هنا كلمة التوحيد .

(تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ) : تعطى ثمرها فى كل وقت .

التفسير

٢٤ـ (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ...) الآية .

لما بين الله تعالى أحوال السعداء وأحوال الأشقياء فيما تقدم ، ضرب لكل من الفريقين مثلا يتميز به عن صاحبه ، فقال عز مِنْ قائل يخاطب كل من يصلح للخطاب من أصحاب العقول الراجحة :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ) :

أى ألم تعلم أيها العاقل الفطن كيف بين الله للناس مثلا يعرفون به منزلة كلمة التوحيد فى الإسلام ، حيث شبهها بشجرة طيبة أصلها ضارب بعروقه فى الأرض ، وفرعها ـ أى أعلاها ـ متجه إلى السماء ، تعطى ثمرها فى كل و قت وقَّته الله لإثمارها بإذن خالقها ومربيها .

فالمراد بالكلمة الطيبة هى شهادة ألا إله إلا الله التى هى الأساس الأول للإسلام وهذا ما أخرجه البيهقى وغيره عن ابن عباس .

وعن الأصم أنها القرآن الكريم ، فإنه أصل يتفرع عليه كل خير فى الدنيا والآخرة ، وقد شبهها الله تبارك وتعالى بالشجرة الطيبة ، والمراد بها عند جمهور المفسرين النخلة ، وبه أخذ ابن عباس وابن مسعود ، ويؤيده ما رواه الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فَأُتِىَ بجُمَّار فأكل منه وقال : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مَثَلُ المسلم ، فحدثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى ،

قال عبد الله : ووقع فى نفسى أنها النخلة فأردت أن أقول هى النخلة ، فإذا أنا أصغر القوم - وكنت عاشر عشرة أنا أَحْدَثُهُمْ ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم واستحييت : ثم قالوا : حدثنا ما هى يا رسول الله؟ قال : هى النخلة ، قال عبد الله : فحدثت أبى بما وقع فى نفسى فقال : لأن تكون قُلْتَهَا أحبُّ إلَّى من كذا كذا . وعند ابن حبان فى صحيحه : أحسبه قال : من حُمْر النَّعم . والإبل الحمراء كانت أحب أموال العرب إليهم وأنْفَسها .

وقيل : هى كل شجرة مثمرة طيبة الثمار والمنظر والرائحة . وقيل غير ذلك . وأرجح هذه الأقوال أولها وهو كونها النخلة ، ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة أن أصل تلك الكلمة وهو الإيمان ثابت فى قلب المؤمن كثبوت جذور النخلة فى الأرض ، وأن ما يتفرع منها ويبنى عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يرفع إلى السماء ، ويصعد إلى الله تعالى ، كما قال جل شأنه : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » [1] . وأن ما يترتب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه دائم دوام ثمرها ، والانتفاع بها فى كل وقت ، فإن ثمر النخيل يؤكل أبدا : ليلا ونهارا صيفا وشتاء ، فيؤكل منها الجمار والبلح ، والبسر والرطب والتمر ، وكل نتاجها خير وبركة من بعد أن تغرس إلى أن تجف وتيبس ، بل بعد أن تقطع قطعا تُسْتَعْمل فى مصالح الناس ومرافقهم ، ولن ترى شيئا منها مهملا أبدا ، وكم من الناس يقيمون فى بيوت تعتمد على جذوع النخل وجريده ، ويعيشون على التمر كما

(١) سورة فاطر : من الآية ١٠

تعيش إبلهم على النوى ، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها : « إن كنا آل محمد لنمكث شهرين مانُوقد ناراً ، إنْ هما إلا الأَسْودانِ : التمر والماءُ » .

وكذلك المؤمن القوى والمسلم الحق ، كله خير وبركة أينما حل وارتحل : لنفسه وعشيرته وأُمته ، فى حياته وبعد مماته ، ومن هنا فسرت الكلمة الطيبة بالمؤمن كما قال بعض السلف، فما أروع هذا التشبيه المقتبس من مشكاة النور الإلهى .

وفى ختام الآية الكريمة يقول الله تعالى : (وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ): تنبيها على شأْن الأَمثال وعظيم فائدتها ، فى تجلية الحقائق وتنويرها ، عونا على التبصير والتذكير ، ودوام النظر والتدبر فى كتاب الله الحكيم .

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾)

المفـردات :

(اجْتُثَّتْ) : قطعت واستؤصلت. (مِن قَرَارٍ) : من ثبات فى الأَرض .

(بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ) : بكلمة التوحيد .

التفسير

٢٦ - (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ . . .) الآية .

الكلمة الخبيثة هى كلمة الكفر وما يدعو إليها ويتصل بها ، ضد الكلمة الطيبة ، ولا يجتمعان فى قلب واحد أبدًا ، والشجرة الخبيثة هى الحنظلة ،فقد روى أبو يعلى فى مسنده

عن أنس رضى الله عنه قال : (أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقِنَاع [طبق] عليه رطب فقال : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإِذْنِ رَبِّهَا » قال : هى النخلة « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا من قَرَارٍ » : قال هى الحنظلة) .

وقيل : هى كل شجرة لايطيب لها ثمر ؛ ضد الشجرة الطيبة وهى التى يطيب ثمرها .

قال الآلوسى تبعا لأبى السعود : ولعل تغيير الأسلوب - يعنى فى قوله : « وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ » بدلا من قوله : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا . . . » - للإيذان بأن ذلك غير مقصود بالضرب والبيان : وإنما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد . ا هـ .

(اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ) :

أى اقتلعت من أصلها واستؤصلت جثتها ؛إذ حقيقة الاجتثاث أخذ الجُثَّة كلها ؛وهى شخص الشىء كما قال الراغب .

وهذا فى مقابلة قوله : « أصلها ثابت » وقال : « من فوق الأرض » لأن عروقها قريبة من الفوق فكأنها فوقه .

(مَالَهَا مِن قَرَارٍ) :

أى ليس لهذه الشجرة الخبيثة من ثبات فى الأرض ولا استقرار ؛إذ ليس لها أصل ثابت ولا فرع صاعد ، وكذلك الكافر لا خير فيه: لا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح ؛إذ ليس لهما عنده أساس يبنيان عليه ، فهذا وَجْهُ تشبيه الكافر بالشجرة الخبيثة .

٢٧ - (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ ...) الآية .

أى أنه تعالى يثبِّت الذين صدقوا برسالة الأنبياء والمرسلين - يثبتهم على دينهم ويقينهم بسبب اعترافهم الثابت بتوحيد الله وطمأنينتهم به ، فلم تهزه الشكوك ولم يزلزله الإيذاء أو التشكيك ؛ فيَظلُّون على ما هم عليه من اليقين الثابت فى الحياة الدنيا ، لاتزحزحهم عنه الشدائد والفتن ، وإن كانت كموج البحر أو كقطع الليل المظلم !!

وإليك أيها القارئ مثلين اثنين مما صنعه الكفرة الفجرة ، فى مؤمنى الأمم السابقة وفى المستضعفين من المؤمنين فى هذه الأمة المحمدية ، فثبتهم الله ولم يضعف لهم إيمان .

(ا) أخرج البخارى بسنده فى أعلام النبوّة أنه صلى الله عليه وسلم قال : « قَدْ كَانَ من قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فى الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَين ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَادُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، مَا يَصْرِفُهُ ذَٰلِكَ عن دِينِه » .

(ب) بلغ من تعنُّت قريش ووقوفهم فى سبيل الدعوة المحمدية أن أذاهم لم يكن مقصورًا على خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم ، بل تعداه إلى المستضعفين والأرقاء الذين لم يكن لهم من يحتمون به أو يعتزون بعصبيته ، فقد عذب أهل مكة الكثير منهم ليفتنوهم عن دينهم ،ويردوهم من بعد إيمانهم كفارًا فلم يفلحوا . ومن هؤلاء بلال بن رباح الحبشى ، وعمار بن ياسر وأبوه وأمه ، أوقع بهم المشركون من العذاب مالا طاقة لأحد به ! وقصصُ تعذيب هؤلاء وغيرهم مشهورة فى السيرة النبوية وفى التاريخ ... وكلها نماذج من الطراز الأول فى قوة الإيمان ، والثبات على الحق الذى ثبَّتهم الله عليه فى هذه الحياة الدنيا .

(وَفِى الْآخِرَةِ) :يثبتهم الله بعد الموت ، فلا يتلعثمون إذا سئلوا فى قبورهم ، أو بين يدى ربهم حينما يُسألون عن معتقدهم ، ولا تدهشهم أهوال القيامة ، والقبر هو أول منزل من منازل الآخرة ، فمن نجا منه فما بعده أيسر منه ،ومن لم ينج منه فما بعده أشد منه ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى عن عثمان رضى الله عنه ؛ كما صح عنه صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان وغيرهما عن البراء بن عازب رضى الله عنهما أنه قال : (الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِى الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَن لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ) فذلك قوله تعالى : « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ » الآية . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فى قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عنه أصحابه ، وإِنَّهُ لَيَسْمَع قَرْعَ نِعَالِهِم إذا انصرفوا ــ أتاه مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِه فَيَقُولَانَ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُول فى هَٰذَا الرَّجل (محمد صلى الله عليه وسلم) فأَمَّا المؤمنَ فَيَقُول : أَشْهد أَنَّه عَبْدُ الله وَرَسُولُه .

فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعا ،ويفتح له من قبره إليه ، وأما الكافر أو المنافق فيقول : لا أدرى كنت أقول كما يقول الناس . فيقال : لا دريت ولا تليت[1] . ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة فيسمعها من يليه إلا الثقلين[2] » . أخرجه الشيخان وغيرهما .

(ويضل الله الظالمين) : أى يتخلى الله سبحانه عن الكافرين الظالمين لأنفسهم فيخذلهم ولا يعينهم ، لإصرارهم على الكفر والضلال ، حيث بدلوا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فلم يهتدوا إلى القول الثابت الذى ثبت الله به المؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ويجوز أن يكون المعنى أنه تعالى يصرفهم عن الحجة يوم القيامة ،فلا يستطيعون الدفاع عن كفرهم ومعاصيهم . والمقصود أنه لا حجة لهم على ما اقترفوه من الكفر والمعاصى .

(ويفعل الله ما يشاء) : أى يفعل الله جلت حكمته ما يريد من تثبيت أهل الإيمان ومثوبتهم ، وخذلان أهل الكفر وعقابهم ، فله الحجة البالغة . وفى إظهار الاسم الجليل فى الموضعين من الفخامة وتربية المهابة مالا يخفى .

(۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾)

---

(١) الأصل : ولا تلوت ، وقلبت الواو ياء للازدواج والمناسبة لماقبلها .

(٢) الإنس والجن ، والحكمة فى عدم سماعهما الامتحان والابتلاء ، إذ لوسمعا لكان الإيمان منهما ضروريا .

المفـردات :

(كفروا نعمة الله) كفر النعمة : جحدها . (دَارَ الْبَوارِ) : دار الهلاك ، ويطلق البوار أيضًا على الكساد .

(وَبِئْسَ الْقَرَارُ) : وبئس المستقر . (أَنْدَادًا) : جمع ند وهو المثل والنظير .

(مَصِيرَكُمْ) : مرجعكم . (لَابَيْعٌ فِيهِ) : لا فدية فيه .

(وَلَا خِلَالٌ) : الخلال معناه المخالَّة وهى المُوَادَّة . أو جمع خليل وهو الصديق ، أو جمع خُلَّة . بضم الخاء وتشديد اللام مفتوحة : وهى الصداقة .

التفسير

٢٨ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا) :

بين الله فى ختام الآيات السابقة حال المؤمنين ، وحال الظالمين وأنه سبحانه يثبت المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، ويضل الظالمين بأن يتخلى عنهم لإصرارهم على الكفر . ويفعل بكلا الفريقين ما يشاءُ من تثبيت المؤمنين،والتخلِّى عن هداية الظالمين، وَمِنْ ثَوَابِ الأولين ، وعقاب الآخرين.وجاءت هذه الآية وما بعدها بيانًا للأسباب التى أدت إلى ضلال الظالمين واستحقاقهم سوءَ العاقبة . وقبح المصير .

والخطاب فى قوله : « أَلَمْ تَرَ » موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إلى كل من يصلح للخطاب مقصود به التعجيب مما صنع الكفار من اقتراف الأباطيل الكثيرة ، التى كان من جملتها جحد نعم الله الظاهرة والباطنة . والمراد بهم مشركو قريش فالآية نزلت فيهم ، المعنى : ألم تنظر إلى الذين بدلوا شكر نعمة الله عليهم . فجعلوا مكانه كفرًا عظيمًا فبدلا من أن يشكروه بتوحيده فى العبادة أشركوا معه غيره . أو بدلوا شكر النعمة كفرًا لها بإهمالها . وعدم رعاية شأنها فسُلِبوها وحُرِموا منها ،وذلك ما حدث لأهل مكة . أسكنهم الله حرمه الآمن الذى يجبى إليه ثمرات كل شىءٍ وجعلهم قُوَّامَ بيته . وشرفهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا بذلك ، وأذوا النبى وأصحابه فأصابهم القحط سبع سنين وعوقبوا بالقتل والأسر يوم بدر .

(وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) : أى أنزلوا أهلهم واللائذين بهم دار الهلاك ، بما قادوهم إليه من شرك وضلال ، وعن ابن عباس أنهم قادة قريش ، وعن عمر وعلى أنهم أشد قريش فجورًا ، وهم بنو المغيرة وبنو أمية .

والتعبير عن الهلاك بالبوار مع أن أصله كما قال الراغب : فرط الكساد لأنه يفضى إلى الفساد المؤدى إلى الهلاك .

ولم تتعرض الآية للنص على حلولهم أنفسهم دار البوار . لأن إحلال قومهم فيها فرع لحلولهم إذ هم رأس الشرك ودعاة الضلال ، كما قال تعالى فى شأن فرعون : « يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » .

ثم بين الله دار البوار بعد إبهامها فقال جل شأنه : (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا) : أى أن دار الهلاك هى جهنم التى يدخلونها ويخلدون فيها . ولا ريب أن فى البيان بعد الإبهام من التهويل والتخويف مالا يخفى حيث تذهب النفس فى رسم صورتها المفزعة كل مذهب .

(وَبِئْسَ الْقَرَارُ) : أى بئس المقر جهنم الذى جعلوه مكانًا لقومهم تبعًا لهم ، فليس له ما يضارعه فى أهواله ولا فيما يذم به لسوء حاله ، أو بئس القرار قرارهم فيها ، وفى التعبير بالقرار إشعار بأن حلولهم فيها وصُلِيَّهم إيَّاها على سبيل الدوام والاستمرار .

٣٠ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ . . . .) الآية .

هذه الآية تعجيب مما اقترفوه كالتى قبلها . حيث جعلوا لله الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء أمثالًا فى التسمية أو فى العبادة . وهى الأصنام والأوثان . جعلوها آلهة فى اعتقادهم وحكمهم .

(لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) :أى لإضلال قومهم الذين يدينون بالولاء لهم - لإضلالهم - عن سبيل الله وهو التوحيد ، بما زينوه لهم من شرك وافتراء (قُلْ) : يا محمد لهؤلاء المشركين تهديدًا لهم ووعيدًا : (تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) :

أى تمتعوا بما أنتم عليه من الشهوات التى تماديتم فيها ، ومن جملتها تبديل نعمة الله كفرًا . وإضلال الأتباع ، وسمى عملهم هذا تمتعًا تشبيهًا له بالمشتهيات المعروفة ، لتلذذهم به كتلذذهم

بها . ثم بين سبحانه جزاءهم الذى لا مفر منه ، ولا محيص عنه فقال تعالى :

(فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) : أى إن دمتم على ما أنتم عليه . من الاستجابة لداعى الشهوة ، ودافع الانحراف . فإن مآلكم إلى نار جهنم فيها مستقركم ومأواكم ، أو هو تعليل لأمرهم بالتمتع ، وفيه من التهديد الشديد ، والوعيد القوى مالا يوصف.

والمعنى تمتعوا بما شئتم فلا أمل لكم فى النجاة لأن مردكم، ومرجعكم إلى النار لا لشئ سواها .

٣١ - (قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ . . . .) الآية .

لما هدد الله الكفار وعجّب من قبح ما فعلوا حيث بدلوا نعمة الله كفرًا ، وأضلوا أتباعهم وأشركوا به تعالى ، واقترفوا كل منكر . أنزل هذه الآية تكليفًا لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يأمر عباده المؤمنين بأداء العبادة البدنية تامة كاملة ، والإقبال على العبادة المالية بنفوس راضية .

والمعنى : قل يا محمد لعبادى الذين استجابوا دعوة ربهم فآمنوا ، قل لهم : أقيموا الصلاة وأدوها حق أدائها بأركانها وشروطها فى أوقاتها ، وقل لهم أيضًا أدوا الزكاة وأنفقوا مما رزقكم الله على المحتاجين والمعوزين ، فإن المال مال الله فهو معطيه ومسبب أسبابه ، وهو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، وقد أبحنا لهم أن ينفقوا سرًّا كما يشاءون ، وعلنًا كما يحبون ، بغير مَنٍّ ولا رياء .

والمراد حث المؤمنين على أداء عبادته البدنية والمالية شكرًا ، لنعمه التى تفضل بها عليهم.

واعلم أن الأفضل فى إنفاق التطوع الإخفاء ، وفى إنفاق الواجب الإعلان ، وعلى العباد أن يسارعوا إلى امتثال ما أمروا به من إقامة الصلاة والإنفاق.

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ) : فإنه إذا جاء ذلك اليوم لايتسنى لمقصر فى دنياه ، أن يتلافى تقصيره هذا ، أو يفتدى نفسه بما يكسبه من بيع أو شراء أو بشفاعة خليل ، فإنه لا بيع فى هذا اليوم ولا شراء ، ولا تنفع فيه شفاعة الأصدقاء والأخلاء إذا لقى العبد ربه كافرًا ، حيث « لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[1] . وإنما ينفعه إيمانه وعمله الصالح ، ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى « وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى »[2] .

---

(١) الشعراء - ٨٨ (٢) سورة الليل من ١٩ - ٢١

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) : كل ماعلا الإنسان فأظله فهو سماءٌ. والمرادبه هنا السحاب .

(رِزْقًا) : مرزوقا مما يطعم أو يشرب أويلبس أو ينتفع به .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ) : أى يَسَّر الْفُلْكَ لإرادتكم . (والْفُلْكَ):بسكون اللام ؛ السفينةُ . يستعل فى الواحد فيذكر ، وفى الجمع فيؤنث .

(دَائِبَيْنِ): فى حركة دائمة لايفتران . يقال دأب فى عمله دأبا ويحرك جدَّ فيه .

(لَاتُحْصُوهَا): لاتقدرون على حصرها وعَدِّها. والإحصاء فى الأصل : العد بالحصي ، ثم أُطلق على العَدِّ مطلقا .

(ظَلُومٌ) : ظالم شديد الظلم يقال :ظلم، يظلم ،ظلما ،من باب ضرب فهو ظالم وظلوم . والظلم : وضع الشيء فى غير محله .

(كَفَّارٌ) : جاحد النعمة . يقال كفر النعمة وكفر بالنعمة جحدها .

التفسير

٣٢- (اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً . ...) الآية .

لما ذكر الله أحوال الكافرين المعاندين الذين جحدوا نعمهُ ، بالكفر بوحدانيته ، والإشراك فى عبادته ، وتكذيب رسوله ، وأتبع ذلك أمر المؤمنين بطاعته البدنية والمالية ، شكرا له على نعمه ، لما ذكر ذلك - جاء بهذه الآية وما بعدها ليوجه عباده إلى أدلة القدرة الماثلة فى الآفاق. ويذكرهم بالنعم العظيمة التى يتقلبون فى أعطافها . حثًّا للمؤمنين على المزيد من شكرها ، وتقريعًا للكافرين الجاحدين لها ، وقد بدئت هذه الآية بلفظ الجلالة وأخبر عنه بالاسم الموصول بسبع جمل ، تبرز أدلة باهرة على قدرة الله تعالى ووحدانيته . فهو وحده الذى خلق السموات ، وأبدع صنعها على غير مثال سبق ، وأوجد فيها الأجرام العلوية من نجوم وكواكب ، وخلق كذلك الأرض ومافيها من أنواع المخلوقات .

(وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ من الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ) : المراد من السماء هنا السحاب ، أى أنزل من السحاب نوعا خاصا من الماء وهو المطر ، فأخرج به أزواجا أى أنواعًا من نبات شتى ، أخرج به زروعًا وثمارًا مختلفة الألوان والأحجام والطعوم والمنافع . وجعلها رزقًا لكم تعيشون به . مطعومًا كان أو ملبوسا أو غير ذلك .

(وَسَخَّر لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) : أى ذلَّلَ لكم السفن لتجرى فى البحر بمشيئته ، وذلك بأن أقدركم على صنع السفن ويسر لكم استعمالها . فجرت على وجه الماء فى البحر مذللة خاضعة لإرادتكم بأمره : أى بمشيئته التى ارتبط بها كل شىء فى الوجود ، فتسيير الآلات ليس بمعزل من توفيق الله ومدده .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ) : أى ذللها لكم حيث تشربون منها وتسقون زروعكم وجناتكم ودوابكم . وتشقون منها جداول تسيرونها وفق إرادتكم .

٣٣- (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ) : أى أنه تعالى يذللهما ليلا ونهارًا لايفتران عن حركتهما وإصلاحهما لما ارتبط بهما صلاحه من الموجودات وفق تقدير الله. وهما لايلتقيان إلى قيام الساعة . « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ » .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) : فهما يتتابعان فيكم ويتعاقبان ،لتتخذوا من النهار معاشًا فتبتغوا فيه من فضله ، ومن الليل سكنًا تستعيدون به قوتكم ونشاطكم، وبهما يتم عقد ثماركم وإنضاجها واختلاف الفصول بما يكون فيه صلاح أمركم واستقامة شأنكم، وما به تتنوع أصناف زروعكم وتتعدد أجناس ثماركم ، إلى غير ذلك من النعم الجليلة كالاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر .

٣٤- (وَآتَاكُمْ مِّن كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ) : أى تفضل عليكم فأعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئًا اقتضته مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة ، كما فى قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ » .

أو أعطاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه - فحذف الثانى لدلالة الأول عليه ، ونظيره : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » أى والبرد .

ويجوز أن يكون المعنى أنه تعالى أمدكم بما تحتاجون إليه فى جميع شئونكم، من كل ما هو جدير بسؤالكم ، سواء أسألتموه أم لم تسألوه . وفى هذه الحياة أشياء كثيرة لازال يجهلها الإنسان وهى مُعَدَّةٌ له ، ومتى حان وقت إبرازها كشف الله له عنها ، بما أمده به من عمق فى العلم وقوة فى العقل و توفُّر على البحث ، أو عن طريق الصدفة ، وقرىء بتنوين كل : والمعنى على هذه القراءة وأعطاكم من كل شىء ما سألتموه - على أن (ما) نافيه - أى من كل شىء حال كونكم غير سائليه .

(وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَاتُحْصُوهَا) : أى أن نعم الله عليكم كثيرة متعددة ، فإن حاولتم إحصاءها ولو إجمالًا فإنكم لن تطيقوه ، لأنها لا يلم بها الحصر ولا يحيط بها العد فهلا استعنتم بها على الطاعة . وشكر النعمة وعدم الإشراك به فى العبادة .

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) : المراد من الإنسان الجنس ومن الكفر كفر النعمة بالتقصير فى شكرها .

والمعنى : أن الإنسان لا يقدر نعم الله عليه وهى لاتحصى ، فتراه عظيم الظلم لنفسه ، شديد الكفران لنعم ربه ، فهو دائم الانتفاع بها ، والتقصير فى أداء شكرها ، ووضعها فى غير موضعها ، ولو أنصف نفسه وعرف حق ربه لاستدام شكره ، والوفاء بحقه جل وعلا .

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي
وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ
فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ
إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ
تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾)

المفـردات :

(الْبَلَد) : مكة المكرمة . (اجْنُبْنِى) : أبعدنى . يقال :جَنَبْتُ الرجلَ الشَّرَّ من باب نصر . أبعدته عنه ، وجنَّبْتُه بالتشديد مبالغة .(بِوَادٍ) :الوادى كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذًا للسَّيل . والمراد به هنا ما يحيط بالبيت الحرام .(تَهْوِى إِلَيْهِمْ): تسرع إليهم شوقًا وحبًّا . يقال : هوى إليه يَهْوِى هُوِيًّا بضم الهاء إذا أسرع فى السَّير - (مَا نُخْفِى) : ما نضمر ونستر. يقال : أخفيت الشىء سترتُه . وخَفِى الشىءُ اسْتَتَر أو ظهر ضدٌّ. (ومَا نُعْلِنُ) : وما نظهر. يقال عَلَنَ الأَمْرُ من باب قعد ظهر، وأعلنته ؛ أظهرته .

التفسير

٣٥- (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً) :

هذه الآية ومابعدها يذكر الله فيها نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بماوقع من مخالفة قريش لوصايا أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، تأكيدًا لما سبق من تعجيبه صلوات الله وسلامه عليه من أحوالهم ،وتماديهم فى الطغيان والضلال -والمعنى : واذكر أيها النبى وقت قول

إبراهيم لربه ، بعد أن أسكن إسماعيل وأمه وادى مكة « ربِّ اجْعلْ هذا الْبَلَدَ آمِنًا » : أى يا إلٰهى الذى أعبده اجعل مكة ـ شرفها الله ـ بلدًا ذا أمن ، حتى يـأْمن أهله على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ) : أى أبعدنى وذريتى عن عبادة الأصنام ، والمراد ثبتنا على ما نحن عليه من البعد عن عبادتها ، وإنما سأل إبراهيم هذا لنفسه مع أن الأنبياء جميعاً معصومون من الشرك ، للإيذان بأن العصمة بفضل الله ومعونته وتوفيقه ، كما أن فيه هضماً لنفسه واعترافاً بحاجته إلى فضل ربه فى كل أمر ، والمراد من بنيه من اتبعه فى شريعته من ذريته بدليل قوله تعالى : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّى » فكأنه لا يعتبر من ذريته من لم يتبعه ، وعلى هذا تكون دعوته مستجابة تماماً حسب نيته ، ويؤكد هذا المعنى ما جاء فى سورة البقرة من قوله تعالى : « قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ »[(١)] .

٣٦ ـ (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ) :

لما كانت الأصنام سبباً للإضلال أسند إليها الإضلال مجازًا ، لأنهن جماد فلا يعقل منهن ذلك على الحقيقة .

وجملة : « إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ » : تعليل لدعاء إبراهيم السابق ، وهو قوله : « واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ » . وصدر هذا التعليل بقوله (ربِّ) ، إظهارا للاعتناء به ، ورغبة فى استجابته ـ والمعنى : وأبعدنى وذريتى عن أن نعبد الأصنام يارب لأنهن تسببن فى إضلال كثير من الناس ، بنصبها شركاء لله فى العبادة ومشاهدة الأبناء للآباء فى تقديسهم لها ، فكان ذلك مُغْرياً لهم بعبادتها ، ثم إن إبراهيم عليه السلام أدرك بفطرته أن بنيه سوف ينقسمون بعده إلى موحدين ومشركين ، فلذلك أظهر لربه أنه لا يستحق الانتساب إليه إلا من اتبعه فى دينه دون من عصاه ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

(فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى فمن تبعنى منهم فى التوحيد والإسلام الذى هو دين الله ، فإنه متصل بى نسباً وديناً ، ومن عصانى بإعراضه عن التوحيد الذى أدعو إليه ، وإصراره على المعاصى .

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٢٤ .

(فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) : أى فإنك أهل للغفران الشامل والرحمة الواسعة ، ومن كان كذلك فإنه يغفر لأمثالهم ويرحمهم ، فإن قيل : إن من ذريته من عصاه بالإشراك بالله ، فكيف يدعو له بالمغفرة والرحمة ، فالجواب أنه دعا هذا الدعاء الشامل قبل أن يعرف أن الله لا يغفر أن يشرك به ، أو أنه قيده فى نفسه بالتوبة من الشرك ، فكأنه قال : فإنك غفور رحيم لمن تاب منهم قبل موته ، وقال مقاتل وابن حَبَّان المعنى : « ومن عصانى » فيما دون الشرك فإنك غفور رحيم .

٣٧ـ (رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) :

المقصود من ذريته فى الآية ابنه البكر إسماعيل الذى ولد له فى شيخوخته من أَمَتِهِ هاجر التى وهبها ملك مصر لزوجته سارة ، فوهبتها له .

وكانت سارة عقيماً زمنا طويلا ، فلما ولدت هاجر التى كانت جاريتها ، حدث فى نفسها ما يحدث للنساء من الغيرة ، فناشدته أن يخرجهما من عندها ، فذهب بهما إلى أرض مكة ، ووضعهما هناك ، حيث لا يوجد زرع ولا ماء ، ولا أحد يقيم بتلك الأرض الموحشة ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفل إبراهيم عليه السلام راجعاً ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : ياإبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى لا أنيس فيه ولا شىء ، ولما لم يجبها قالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال: نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت .

وانطلق إبراهيم عليه السلام ،حتى إذا كان عند الثنية - حيث لا يريانه استقبل البيت بوجهه ، وكان إذ ذاك مرتَفَعاً من الأرض كالرابية ، ثم دعا رافعاً يديه فقال : « رب إنى أسكنت من ذريتى » إلى قوله « لعلهم يشكرون[1] » . وقد آثر عليه السلام فى نداء ربه صيغة الجماعة بقوله . « رَبَّنا » لتقدم ذكره وذكر بنيه ، والتعرض لوصف ربوبيته لهم أدخل فى القبول وإجابة المطلوب .

والمعنى : ربنا إنى أسكنت بعض ذريتى بواد لا ماء به ولازرع ،عند المكان الذى أعددته لبيتك المحرم ،مع أن هذا المكان غير صالح للسكنى لفقد الماء والزرع ،وقد أقدمت على ذلك استجابة لأمرك ، وتقرباً إليك ،وثقة بأنك سترعى ذريتى بعد أن لجأت إلى جوارك الكريم.

(١) القصة رواها البخارى مطولة فارجع إليه إن شئت .

وإضافة البيت إلى الله تعالى لأنه لا يملكه غيره ، ولا يُصَلَّى نحوه إلى سواه ، ووصف البيت بالمحرم للإيذان بعزة الملجإ ، وعصمته عن المكاره ، حيث حرم التعرض له والتهاون به .

(رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ) : فى هذه الجملة تعليل لإسكان بعض ذريته فى هذه البقعة الجرداء المجاورة للبيت الحرام .

والمعنى : ياربنا ما أسكنت بعض ذريتى بهذا الوادى البلقع الخالى من كل مرتزق إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ، ويعمروه بالذكر والعبادة ، والتعبير بصيغة الجمع فى قوله : « لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ » : ، مع أنه لا يوجد من ذريته سوى إسماعيل يؤذن بأن الله تعالى أعلمَه أن ولده إسماعيل ، سيعيش وتكون له ذرية كثيرة ، وسيكون رسولا إليهم ليقيموا الصلاة على شريعته .

(فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ) :

أى فاجعل قلوبا من قلوب الناس تسرع إليهم شوقاً وودًّا ليساكنوهم ويعيشوا معهم ، وأول آثار هذه الدعوة أنه تعالى أنبع ماء زمزم ، ومرت رفقة من جرهم تريد الشام ، فرأوا الطير تحوم على الجبل ، فقالوا إن هذا الطائر لعائف على الماء ، فأشرفوا ، فإذا هم بهاجَرَ ، فقالوا إن شئت كنا معك وآنسناك .

(وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) : فاستجاب الله دعاءه ، ورزق ذريته وكل من انحاز إليهم بما أنبت لهم من أشجار الفاكهة المختلفة بقرى قريبة كالطائف ، أو مايجلب إليهم من الأمصار والأقطار الشاسعة من مختلف الفواكه والثمار ، حتى أصبحت لديهم كثيرة موفورة ، يجتمع منها عندهم الأنواع المتعددة فى اليوم الواحد ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

« أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا »[1] .

وهذا من فضل الله وكرمه ، ليكون عونا على عبادته والرغبة فى البقاء فى حراسة حرمه ، وليجعل من موطنهم القفر ومنزلهم الموحش . مطمح الأنظار ومحط الرحال . وهى لذلك تستوجب منهم أداء مراسم العبودية تامة كاملة شكرا له تعالى وثناء عليه .

٣٨ — (رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ . . .) الآية .

كرر إبراهيم نداء ربه للمبالغة فى الضراعة .

---

(١) سورة القصص ، من الآية : ٥٧

والمعنى : ياربنا إنك تعلم كل أحوالنا ، لايخفى عليك شئ منها . فتعلم مانخفيه ونستره ومانعلنه ونظهره ،فكل ذلك عندك فى العلم سواءٌ .

وقال ابن عباس ومقاتل فى تفسير هذه الجملة : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسماعيل وأمه ، حيث أسكنتهما بواد غير ذى زرع .

ولكن حمل الآية على عموم أحوالهم أولى ، ويدخل فيه مايتعلق بإسماعيل وأمه ،وقدم نخفى على نعلن فى الذكر ،لأن مرتبة الإسرار متقدمة على مرتبة الإعلان ،فما من شىء أظهر إلا كان قبل ذلك فى طى الكتمان ، وبعد أن اعترف إبراهيم لربه بأنه سبحانه يعلم ما يخفيه وما يعلنه هو وذريته ، أقرّ لربه بعلمه بكل مافى الكون حيث قال :

(وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَىْءٍ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ) : أى أنه تعالى لا يخفى عليه فى سماواته وأرضه شىء من الذرات والأجزاء والأوصاف والأعراض ، وما يصلح ذلك ومايفسده ، وما يبقيه ومايفنيه : « وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » .

ويقصد إبراهيم عليه السلام بقوله : « وما يخفى على الله من شىء » إلخ أداء حق ربه عليه ، وتعليم ذريته مايجب عليهم إدراكه من شئون ربهم ، ليخافوه فى سرهم وعلنهم .

ويجوز أن تكون هذه الجملة من قوله تعالى ، إجابة منه لإبراهيم حين قال : « رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ » . تصديقا له وتأييدًا لشهادته ، وتوسيعا لدائرة علمه جل وعلا تعليما لعباده .

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾)

المفـردات :

(وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ) : رزقنى مع تقدمى فى السن .

(إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) : أى إنك مجيب دعاء من دعاك .

التفسير

٣٩ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ . . .) الآية .

أى الثناء منى على الله شكرًا له حيث منحنى مع كبر سنى ويأسى من الولد - منحنى - إسماعيل وإسحاق . وقال ابن عباس : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة .

(إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) : المقصود من سماع الدعاء قبوله وإجابته ، أى إن ربى ومالك أمرى لمستجيب دعاء من دعاه ، وقد استجاب دعائى فيما سألته من الولد .

٤٠ - (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي . .) : أى وفقنى إلى دوام المحافظة عليها والخشوع فيها ، وإقامة حدودها واجعل من ذريتى من يقيمها ، وقد خص الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهة الله تعالى أن بعضا منهم لايكون مقيما للصلاة ، بأن يكون كافرا أومؤمنا لايؤدى الصلاة ، ويجوز أن يكون قد علم من استقرائه عادة الله فى الأمم السابقة ، أن يكون فى ذريته من لايقيمها ، وهذا كقوله تعالى : « رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ »

(رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ) : أى دعائى بتحقيق ماطلبته من الأدعية السابقة .

٤١ - (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ....) : بما أن إبراهيم لايرتكب ذنبا كشأن جميع الأنبياء فيكون معنى هذه الجملة ، ربنا تجاوز عما فرط منى من ترك الأولى فى أعمالى الدينية وغيرها مما لايسلم منه البشر . واغفر لوالدى . وكان ذلك الاستغفار منه لهما قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله ، وقال القشيرى : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة ، لأن الله ذكر عذره فى استغفاره لأبيه دون أمه فقال تعالى : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »[1] . وروى عن الحسن أيضا أن أمه كانت مؤمنة ، وختم إبرهيم عليه السلام دعاءه بقوله :

(١) سورة التوبة (١١٤)

(وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) : أى واغفر للمؤمنين جميعا من ذريتى وغيرهم حينما يقومون للحساب والجزاء يوم القيامة ، وتلك دعوة وشفاعة منه للمؤمنين المذنبين نرجو أن يتقبلها الله منه .

(وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾)

المفـردات :

(تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) : تكون فيه أبصار أهل الموقف مفتوحة لاتَطْرِف . يقال شخص البصر إذا ارتفع ، ويتعدى بنفسه ، فيقال شخص الرجل بصره . إذا فتح عينيه لايطرف . (مُهْطِعِينَ) : مسرعين ، من أهطع فى عَدْوه إذا أسرع .

(مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ) : رافعيها من إدامة النظر لا يلتفتون إلى شىء ، يقال أقنع رأسه رفعه.

(لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) : الطرف ؛ العين ولايجمع لأنه فى الأصل مصدر . والمراد لاترجع إليهم أجفانهم التى تحتها العيون بل تظل مفتوحة .

(وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) : أى وقلوبهم خالية لايشغلها سوى الخوف .

التفسـير

٤٢ - (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ . . . .) الآية .

الخطاب فى هذه الآية للنبى صلى الله عليه وسلم . والمراد منه تثبيته على ما كان عليه من علمه أنه تعالى ليس غافلا عما يعمله المشركون الظالمون ، كما أن فيه تسلية للرسول عما يفعلونه ، بما يشعر به من الوعيد لهم والوعد له .

والمعنى : ولاتحسبنَّ أيها الرسول أنه تعالى فى إمهالهم وتأخير عذابهم غافل عما يعمل الظالمون ، فإنه سبحانه لاتخفى عليه منهم خافية .

أو لاتحسبن الله يترك عقابهم لِلطْفِهِ وكرمه . بل هو معاقبهم على القليل والكثير . وعن ابن عُيَيْنَةَ أن هذا تسلية للمظلوم وتهديد للظالم ، وروى نحو هذا عن ميمون بن مهران . والمراد بالظالمين على هذا جنس الظالمين وأهل مكة داخلون فى الحكم دخولا أوليا .

(إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) : هذا النص الكريم استئناف وقع تعليلا للنهى السابق وهو : «ولاَتَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُون».وإيقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر عقابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال ، ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب موقوفون عليه رغما عنهم ، وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال فلا يبقى منهم فى الوجود عين ولا أثر ، وهذا التأخير ليوم هائل لاتغمض فيه أبصار أهل الموقف لهول مايرونه فى ذلك اليوم من شدائد ، بل تبقى مفتوحة لاتتحرك أجفانها ولاحَدَقاتها ، قال ابن عباس : تشخص أبصار الخلائق يومئذ لشدة الحيرة ، أى تبقى مفتوحة لاتطرف .

٤٣ - (مُهطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ .....) : هؤلاء الظالمون يقبلون على الداعى يوم القيامة مسرعين إليه تتعلق به أبصارهم لاتتحول عنه ولايطرفون هيبة وخوفا .

(مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ) : أى رافعيها مع إدامة النظر إلى مابين أيديهم .

(لاَيَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ) : أى لايرجع إليهم نظرهم لينظروا إلى أنفسهم فضلا عن النظر إلى شىء آخر . بل يبقون مبهوتين حائرين .

(وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) : أى قلوبهم خاوية خالية ليس فيها فهم ولاعقل ، لفرط الحيرة والدهشة ، كقولك فى البيت الذى ليس فيه شىءٌ إنما هو هواءٌ. وهذا المعنى قاله ابن عباس وغيره ويجوز أن يكون المراد أن عقولهم خرجت رعبا وهلعا كأنها هواءٌ .

(وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟
رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ
تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ
فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ
مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَأَنْذِرِ) : وخوف .(يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) : يوم القيامة .

(أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) : أعدنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أجل قريب .

(مَالَكُم مِّنْ زَوَالٍ) : أى مالكم من بعث ونشور .

التفسير

٤٤ - (وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ . .) : هذا خطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وأمره بإنذار الناس ، والمراد بهم الكفار المعبر عنهم بالظالمين فى قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » . وقال الجبائى وأبو مسلم :المراد بالناس مايشمل أولئك الظالمين وغيرهم من المكلفين.والإنذار كما يكون للكفار يكون لغيرهم كما فى قوله سبحانه : « إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ».وإتيان العذاب يعم الفريقين من حيث كونهما فى الموقف وإن كان لحوقه بالكفار خاصة - أنذرهم - :

(يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) . أى خوفهم ذلك اليوم المعهود وهو يوم القيامة الذى وصف بما يذهب الألباب ، لما يقع فيه من أهوال تجعل الولدان شيبا .

(فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) : أى يصدر عنهم هذا القول فى ذلك اليوم ، والعدول عن لفظ – فيقولون – إلى ما فى النظم الكريم . لتسجيل الظلم عليهم ، وأنه سبب ماينالهم من شدة ونكال ، وفى قولهم (رَبَّنَا أَخِّرْنَا) إلخ إشارة إلى ندمهم وعجزهم عن الاحتمال . قال الضحاك ومجاهد : إنهم طلبوا الإمهال والرد إلى الدنيا للرجوع إلى حال التكليف ، وقد طلبوه إلى أمد من الزمن قريب حين ظهر لهم الحق . ليعملوا فيه مايرضيه جل شأنه ، وسجلوا ذلك على أنفسهم فقالوا : (نُجِبْ دَعْوَتَكَ) : إلى الإسلام بتوحيدك ، واتباع تعاليم دينك ، وذلك ما صرَّحُوا به فى قولهم : (وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ) : فيما جاءوا به مبشرين ومنذرين ، أى نتدارك ما فرطنا فيه بإعراضنا عن إجابة الدعوة واتباع الرسل ، وجئ بلفظ الرسل لأن الحديث عن يوم القيامة الذى يجمع الرسل وأممهم .

ولما كانت طبيعة الظالمين الكذب والافتراء ، وأن يقولوا ما لا يفعلون أجابهم الله تعالى : (أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَالَكُم مِّنْ زَوَالٍ) : أى فيقال لهم رداً على قولهم توبيخا لهم وتبكيتا ، وبعثا على اليأس والحسرة : أو لم تكونوا فى الدنيا تحلفون بألسنتكم أنكم لاتزولون ولاتتحولون من قبوركم إلى دار أخرى ، وأنه لامعاد ولاجزاء – كما أخبر عنهم الله سبحانه وتعالى بقوله : « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ . بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا » .

٤٥ – (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . . .) : أى وأقمتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم من الكافرين المهلكين قبلكم ، وكنتم فيها سائرين سيرتهم فى الظلم بالكفر واقتراف المعاصى ، وليس لكم فيهم معتبر ولافيما أوقعناه بهم مزدجر .

(وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ) : أى ظهر لكم بمشاهدة الآثار الباقية من ديارهم التى أبيدت وأصبحت أثرا بعدعين ، وبتواتر أخبارهم – ظهر لكم – ماصنعناه بهم من تدمير وإهلاك بسبب ما اقترفوا من ظلم وإفساد . (وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ) : أى بينا لكم فى التنزيل على ألسنة

الأنبياء أحوالهم جميعها : ما فعلوه ومافُعل بهم من الأُمور التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة : لتكون لكم فيها عظة وعبرة . بقياس أعمالكم على أعمالهم، ومآلكم على مآلهم . فترتدعوا عما أنتم فيه من الشرك والضلال طلبا للنجاة ، أوبينا لكم أنكم مثلهُم فى الكفر واستحقاق العذاب ، وتكون الأمثال على هذا جمع مِثْل بمعنى الشبيه والنظير .

٤٦ـ (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ . . .) : أى فعلنا بهم مافعلنا والحال أنهم مكروا مكرهم البالغ الذى استنفدوا فيه طاقتهم ، وبذلوا فى تدبيره كل مجهود لهم ، سعيا فى إبطال الحق وتقرير الباطل ، وقد جاوزوا بمكرهم كل حد . وفى هـذا إشارة إلى تمام استحقاقهم مافعل بهم .

(وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ) : أى وعنده عِلْمُ مكرهم الذى يهلكهم به . أو عنده جزاءُ مكرهم الذى فعلوه ، وتسمية عقابهم مكرا لكونه فى مقابلة مكرهم وجودا وذكرا ويسمى هذا مشاكلة فى اصطلاح علماء البلاغة ، أو لكونه فى صورة المكر لوقوعه من حيث لايشعرون .

(وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) : أى وإن كان مكرهم فى غاية القوة ومنتهى الشدة ، بحيث يكون معدا لإزالة الجبال عن مقارها ، وهى التى جعلها الله للأرض أوتادا تحفظ توازنها وتضمن سلامتها . والمراد أن الله مجازيهم على مكرهم ومبطل أثره . وإن كانت تزول منه الجبال . وذلك إشارة إلى مؤاخذتهم على أى حال ، وعدم التفاوت بين كون مكرهم ضعيفا أو قويا .

وعن الحسن وجماعة أن « إن » نافية . واللام لتأكيدها كما فى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ » . والمعنى على هذا : وَمَكَرُوا مَكْرَهُمْ وعند الله جزاء مكرهم والحال أنه ماكان له أثر وخطر عند الله حتى يزول منه ما هو كالجبال فى الرسوخ من آيات الله وشرائعه ومعجزاته على أيدى الرسل السابقين عليهم السلام [1] .

---

(١) قالوا ويؤيد هذا المعنى قراءة ابن مسعود « وما كان مكرهم لتزول منه الجبال » . حيث جاءت فيها (ما) النافية مكان (إن) .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ
وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ
ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا
هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾

المفردات :

(بَرَزُوا) : خرجوا من قبورهم . (مُقَرَّنِينَ) : المقَرَّنون؛ المجموعون بعضهم مع بعض فى قَرَن ، وهو الحبل الذى يربط به . (الأَصْفَادِ) : القيود والأغلال وهو جمع صفْد أو صَفَدٌ قيد يوضع فى الرِّجل . والغُلُّ : قيد تضم به اليد إلى العنق وقد يقصر على العنق [1] ، (سَرَابِيلُهُمْ) : جمع سربال ، وهو القميص . (قَطِرَانٍ) : القطران ؛ سائل أسود تطلى به الإبل الجربى . (تَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ) : تعلوها وتحيط بها .

التفسير

٤٧ ـ (فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ . . .) : إن كان الخطاب للرسول فمعناه دُم على ماأنت عليه من الثقة بصدق وعد الله ، وإن كان لكل مكلف فهو للتحذير والإرشاد ، أى فلاتظن أنه سبحانه مخلف وعده لرسله بتعذيب الظالمين فى مثل قوله :

«وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً . . . » إلى آخر الآيات .

واقتران النهى هنا بالفاء يشير إلى ترتبه على ماسبق ، وكأنه قيل خطابا للرسول :

(١) ومنه قوله تعالى : « إذ الأغلال فى أعناقهم » .

وإذا كان الله قد أمرك أن تنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ويكون من أمر الظالمين فيه ماتقدم بيانه ، فدم على ما أنت عليه من كمال الثقة بالله . واليقين بإنجاز وعده الذى وعده رسله.

(إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) : أى أنه جل شأنه غالب لايغالَبُ ، قادر يفعل مايريد ، فينتقم لأوليائه من أعدائه . والجملة تذييل وتعليل للنهى السابق وهو قوله سبحانه : « فَلاَ تَحْسَبَنَّ » . والتعرض لوصف العزة والانتقام يؤكد عدم إخلاف وعده رسله بتعذيب الظالمين جزاء ما اقترفوا من إفك وطغيان ، وفى جملتهم قريش .

٤٨ – (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .....) : أى أن الله ينتقم من الظالمين بتعذيبهم يوم تبدل الأرض غير الأرض .

واعلم أن التبديل قد يكون فى الذات وقد يكون فى الصفات ، والآية ليست نصا فى أحد الوجهين ، والله أعلم كيف يتم هذا التبديل .

(وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) : أى وخرج الخلائق من قبورهم ، أو الظالمون المدلول عليهم بما سبق ، أو المراد ظهورهم بأعمالهم التى عملوها سرا وزعموا أنها لاتظهر ، وعبر عن البروز بصيغة الماضى لتحقق الوقوع . لأنه لامناص لهم من لقاء الله الواحد الغالب على أمره ، الفعال لما يريد ، لمحاسبتهم على أعمالهم ، ومجازاتهم عليها ، وفى وصفه سبحانه بالوحدانية والقهر إشعار بأنهم عنده على خطر عظيم ، وإيذان بتحقق العذاب الموعود.

٤٩ – (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ ...) : أى تبصر الكافرين يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات. (مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) : أى مجموعًا بعضهم مع بعض فى قَرَن ، وهو الوثاق الذى يربط به ويضم كل امرئ لمشاركه.

٥٠ – (سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ....) : أى قمصهم من قطران ، وهو سائل حار أسود اللون منتن الرائحة ، يساعد على سرعة اشتعال النار ، تطلى به الإبل الجربى فيحرق الجرب كما تطلى به جلود أهل النار حتى يكون عليهم كالسرابيل ، ليذوقوا أشد العذاب وأقساه ، بنار سريعة الاشتعال . شديدة الإيلام تجعل أجسامهم سوداء داكنة ، تفوح منها الروائح التى تزكم الأنوف ، وتقبض النفوس .

(وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ) : أى تعلوها وتحيط بها كما تحيط بأجسادهم المسربلة بالقطران . وتخصيص الوجوه بالذكر مع أن غشيان النار حكم عام لسائر الأعضاء ،

لتنبيههم إلى أن أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها تحيط بها النار ، لكونها مجمع المشاعر والحواس التى خلقت لإدراك الحق ، وقد أجرموا بالإعراض عنه ، ولم يستعملوها فى تدبره والوصول إليه . ولعل تركها من الطلاء بالقطران ليتعارفوا عند انحسار اللهب أحيانا ، ويتضاعف عذابهم بالخزى على رءوس الأشهاد .

٥١ - (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ...) : أى يفعل الله بهم ماذكر. ليجزى كل نفس مجرمة . جزاء موافقا لما اقترفت من كفر وعصيان ، ويجوز أن يراد من النفس ما يعم المطيعة والعاصية فيكون المعنى : وبرزوا لله الواحد القهار ، ليجزى كل نفس مطيعة أو عاصية ماكسبت من خير أو شر .

(إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) : فهو سبحانه لايشغله شأن عن شأن ، ولايحتاج إلى تأمل وتدبر فى إصدار حكمه . بل يتمه فى أعجل وأسرع زمن .

٥٢ - (هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ . . . . .) : هذا إشارة إلى ماذكر من قوله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا » إلى قوله : « إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » . أى ذلك كفاية فى العظة والاعتبار والتذكير ، فما ظنك بما انطوت عليه السورة وما اشتمل عليه القرآن المجيد من فنون العظات و القوارع ,وهذا البلاغ إمّا للكفار خاصة على اعتبار اختصاص الإنذار بهم فى قوله تعالى : « وَأَنذِرِ النَّاسَ » . وإما للناس عامة على اعتبار شمول الإنذار لجميع الناس. (وَلِيُنذَرُوا بِهِ) : معطوف على مقدر أى هذا كفاية للناس لينصحوا ولينذروا به ويجوز أن يكون البلاغ بمعنى الإبلاغ ، كما فى قوله تعالى : « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » . والمعنى : هذا إبلاغ للناس ليفهموه ولينذروا به. (وَلِيَعْلَمُوا) : بالتفكر والتأمل فيما فيه من البراهين الساطعة ، والدلائل الواضحة التى أنبأت عن إهلاك الأمم السابقة ، وإسكان آخرين مساكنهم إلى غير ذلك مماحكته الآيات التى تقدمت . هذا كله ليعلموا :

(أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) : تنزه عن الشريك والمثيل ، وتقديم الإنذار لأنه الداعى إلى التأمل المؤدى إلى الغاية منه ، وهو العلم بوحدانية الله جلّ وعلا .

(وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) : أى هذا بلاغ للناس لما تقدم وليتذكروا شئون الله مع عباده ومايعملون فى حياتهم فيرتدعوا عما يهلكهم ، وذلك باجتناب ماتصف به الكفار ، والتذرع بما يقربهم إلى الله ، من التمسك بالعقائد الحقة والأعمال الطيبة ، وفى تخصيص التذكر بأولى الألباب إعلاء لشأنهم ، وحض الناس على أن يكونوا منهم لينتفعوا مثلهم بمواعظه - والله تعالى أعلم .

سورة الحجر

مكية وآياتها تسع وتسعون

أما أنها مكية فقد أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير رضى الله عنهم ، كما روى عن قتادة ومجاهد ، واستثنى الحسن قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ٨٧ ». وقوله سبحانه : «كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ . الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ٩٠-٩١ » . ذكره صاحب مجمع البيان .

وأما أنها تسع وتسعون آية فبالإجماع كما نقله الدّانى والطبرسى .

وتناسب سورة إبراهيم التى قبلها فى أنها مثلها فى كونها مكية مفتتحة بأسماء بعض حروف المعجم ،وقد جاء فى كلتيهما النهى عن الكفر والوعيد بالعقاب عليه ،والحث على الإيمان والوعد بالثواب عليه ، وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه ، إلى غير ذلك من المناسبات التى جمعت بينهما .

مقاصدها

وقد اشتملت هذه السورة على مقاصد عظيمة ، أهمها ما يلى :

١ ـ أنها ابتدأت بالإشادة بآيات القرآن المبين ، وبينت أن من كفروا سوف يتمنون أن لو كانوا مسلمين ، وأمرت النبى أن يتركهم يتمتعون ويلهيهم الأمل فسوف يعلمون العاقبة السيئة لانصرافهم عن الحق ، وذلك فى وقت معلوم لله ، لا يتأخرون عنه ولايتقدمون.

٢ ـ أنهم لما سفهوا على الرسول بوصفهم إياه بالجنون، لأنه لم يأتهم بالملائكة تؤيده وتبلغهم عن الله نَبَّهَتْهُمْ هذه السورة إلى أن الملائكة لاتنزل إلا بحكمة ،وليس منها أن تكون رسولا عن الله إليهم ، فإنهم يهلكون بمشاهدتهم لها على صورها الحقيقية ولا يُنْظَرُون ، أو يهلكون عقابا على كفرهم بعد مجىء الآية التى اقترحوها ، كما جرت عادته تعالى فى الأمم قبلهم ، وأرشدتهم إلى أنه تعالى هو الذى نزّل على محمد معجزة الذكر وهو القرآن ، وأنه حافظ له من كل ما يقدح فيه ليظل معجزة الإسلام ما بقى الزمان .

٣- تسلية الرسول عن استهزاء قومه ، بأن ذلك عادة أهل الباطل مع المرسلين وذلك فى قوله سبحانه :

« وما يأْتِيهم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ -١١ » .

٤- التنبيه إلى الآيات الكونية الدالة على وحدانيته تعالى وعظيم قدرته ، مثل بروج السماء ، والشهب التى تتساقط منها ، والأرض وإرسائها بالجبال ، وتيسير أسباب المعايش فيها ، وإرسال الرياح لواقح ، وإنزال الماء لسقيانا ، وما نحن له بخازنين ، بل هو عطاء من رب العالمين ، وأنه تعالى هو المحيي والمميت وأنه سوف يحشر الناس أجمعين للحساب والجزاء .

٥- التنبيه إلى أن مبدأ خلق الإنسان كان من صلصال من حمإ مسنون ، والجان كان من نار السموم ، وأنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم بعد تمام خلقه ، فسجدوا إلا إبليس فطرده الله من الجنة ، لتكبره وعصيانه ، وأنه انتقم لنفسه ظلمًا من آدم ، بإغرائه بالأكل من الشجرة ، فأهبطه الله وزوجه إلى الأرض التى خلقه منها ليكون فيها خليفة ، وأن إبليس توعد بنى آدم بإغوائهم أجمعين إلا عباد الله المخلصين ، فإنه ليس له عليهم سلطان ، وأن جهنم موعد العصاة أجمعين ، وأن المتقين فى جنات وعيون إخوانًا على سرر متقابلين .

٦- ذكر قصة إبراهيم وأضيافه من الملائكة ، وقد جاء فيها أنهم بشروه - فى شيخوخته - بغلام عليم ، فعجب من بشارتهم وقد تخطى سن الأمل إلى شيخوخة اليأس ، فطمأنوه قائلين : «بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ . قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ٥٥-٥٦ » : وأخبروه أن الله أرسلهم إلى قوم لوط لعقابهم على كفرهم وجريمتهم التى اشتهروا بها فى العالمين .

٧- ذكر قصة لوط وقومه ، وقد جاء فيها أمر الملائكة إياه بالإسراء بأهله فى جزء متأخر من الليل ، ونهيهم لهم عن الالتفات إلى ما وراءهم ، وأن عليهم أن يمضوا حيث يؤمرون وأعلموه أن قومه الآثمين هالكون جميعًا فى الصباح ، وقد حدث هذا ؛ فإنه تعالى جعل فى الصباح عالى بلادهم سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، جزاء كفرهم وجرائمهم

٨-إجمال قصة أصحاب الأيكة والانتقام منهم ، وتفصيل قصة أصحاب الحجر المكذبين وذكر سوء نهايتهم .

٩-بيان أنه تعالى لم يخلق السماء والأرض وما بينهما عبثًا ، وأن الساعة آتية ، وأن على النبي صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن قومه ويُسرِّى عن نفسه ، حتى يؤمر فى شأنهم بما يمكّنهُ منهم .

١٠-بيان أنه تعالى آتى نبيه صلى الله عليه وسلم سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ، وأنه بما اشتمل عليه من الهدى يغنيه عن التطلع إلى الدنيا ، فإن الآخرة خير له من الأولى .

١١-نهيه صلى الله عليه وسلم عن الحزن على المشركين إن لم يؤمنوا ، وأمره بلين الجانب والتواضع لمن معه من المؤمنين ، وأمره أن ينذر المشركين ويخوفهم مما آل إليه أمر المقتسمين الذين اقتسموا طرق مكة ومسالكها ليصدوا السابلة عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، وينفروهم منه ، فقد أماتهم الله شر ميتة ، وسيأتى بيان آراء المفسرين فى هؤلاء المقتسمين .

١٢-أمره صلى الله عليه وسلم بأن يصدع بأمر ربه ويبلغ دينه ، ولا يكترث بإعراض المشركين ، وأن يجنح للصلاة حين يضيق صدره بما يقولونه عنه وعن دعوة الحق ، وأن يظل على ما هو عليه من عبادة ربه حتى يأتيه اليقين .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ)[1] : أى قرآن مظهر شريعة الله والحق من الباطل ، أو بَيِّن واضح لايخفى الحق فيه ولاتلتبس معانيه .

(رُّبَمَا)[2] : رب حرف يستعمل للتقليل تارة وللتكثير أخرى ، سواءٌ اتصلت به ما أولم تتصل ، وسواءٌ أكان مخففاً أم مشددًا ، ويختص بالدخول على الأسماء إن كان مجرَّدا من لفظ ما فإن اتصلت به سوغت دخوله على الأفعال كما هنا ، (لَوْ) : حرف يفيد التمنى .
(وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ) : أى يشغلهم عن طاعة الله .

التفسير

١ - (الٓر) : تقدم الكلام على مثله فى أول سورة البقرة وآل عمران ويوسف والرعد وإبراهيم وغيره ، فارجع إليه إن شئت .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ) :

أى تلك السورة العظيمة بعض آيات من هذا الكتاب الجامع لكمالات الكتب السماوية ، الجدير بأن يختص من بين باقى الكتب باسم الكتاب ، وتلك السورة أيضاً بعض آيات

(١) مبين اسمُ فاعل، من أبان وهى تستعمل متعدية للمفعول إذا كانت بمعنى أوضح وأظهر ، ولازمة - أى لا تنصب المفعول - إذا كانت بمعنى اتضح وظهر : وقد بينا ذلك فى المفردات .

(٢) وفى رُبَّ لغات أوصلها بعضهم إلى سبع عشرة انظر الألوسى فى الآية ، فقد فصل الكلام على تلك اللغات وإعرابها.

قرآن عظيم الشأن ، مبين شريعة الله التى ختم بها الشرائع السماوية ، ومُظهرها للناس فى أبهى صورها وأوضحها ، وكما يُبينُ شريعة الله فهو واضح فى عباراته ومعانيه ، لايلتبس على قارئ يعرف العربية ، ولا تخفى عليه عجائبه ومزاياه .

وبعد أن أشار الله إلى عظمة آيات الله البينات التى منها هذه السورة ، تشويقاً وتوجيهاً إلى حسن تلقيها ، شرع يبين ما اشتملت عليه فقال سبحانه :

٢ - (رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) :

أفادت هذه الآية الكريمة ، أن الكفار سوف يحصل منهم بكثرة ، أن يتمنوا فى الآخرة لو كانوا مسلمين فى دنياهم لكى ينجوا من استمرار العذاب الذى يقاسونه فى الآخرة ؛ كما نجا عصاة المؤمنين بعد أن عذبوا فيها على قدر معاصيهم ، أخرج ابن المبارك وابن أبى شيبة والبيهقى وغيرهم عن ابن عباس وأنس رضى الله عنهم « أنهما تذاكرا هذه الآية فقالا : هذا حَيْثُ يجمع الله تعالى بين أهل الخطايا من المسلمين والمشركين فى النار ، فيقول المشركون : مَا أَغْنَى عَنْكُمْ مَاكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ، فيغضب الله تعالى لهم ، فيخرجهم بفضل رحمته » وأخرج الطبرانى وابن مردويه بسندصحيح عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ نَاساً مِنْ أُمَّتِى يُعَذَّبُونَ بِذُنُوبِهِمْ ، فَيَكُونُون فِى النَّار مَاشَاءَ اللهُ تَعالى أَنْ يَكُونُوا ثم يُعَيِّرُهمْ أهل الشرك فيقولون : مانَرَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنْ تَصْدِيقكُمْ نَفَعَكُمْ ، فَلَا يَبْقَى مُوَحِّدٌ إِلاَّ أَخْرَجَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ النَّار ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الآيَةِ » وذكر ابن الأنبارى أن هذه الودادة من الكفار عند كل حالة يعذب فيها الكفار ، ويَسْلَمُ فيها المسلمون ، ومن العلماء من قال إن هذه الودادة منهم فى الدنيا ، فالضحاك يقول : إن ذلك يحدث منهم عند الموت وانكشاف وخامة الكفر لهم حينئذ ، وابن مسعود يقول : إن الآية فى كفار قريش وَدُّوا ذلك يوم بدر حين رأوا الغلبة للمسلمين . وحرف (ربما) لم يوجد فى القرآن إلا فى هذه الآية ، وباؤه مفتوحة مخففة فى قراءة نافع وعاصم ، ومشددةٌ فى قراءة باقى القراء .

٣- ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ :

بيَّن الله فى الآية السابقة ، أن الكفار حين يقاسون أشد العذاب يوم القيامة يتمنون أن لو كانوا مسلمين فى الدنيا ليتخلصوا من عذابهم الذى كتب عليهم الخلود فيه بسبب كفرهم ، وجاءت هذه الآية تأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يتركهم فيما هم فيه من متاع الحياة الدنيا الفانية ، وإعراضهم عن العمل للآخرة ، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وعدم مبالاتهم بما دعوتهم إليه من الحق المبين .

والمعنى : اتركهم أيها الرسول فى غيهم ، ولا تبال بإصرارهم على الكفر ، فلا سبيل إلى انتفاعهم بنصحك بعد ما بذلت فيه خالص جهدك ، اتركهم يأكلوا مايشاءون بدون وعى كما تأكل البهائم ، ويتمتعوا بدنياهم بغير حدود كما شاء لهم هواهم ، ويشغلهم عن الآخرة أَمَلُهم فى طول الأعمار ، ونيْلِهم الأوطار ، واستقامة الأحوال ، فى الدنيا ويوم المآل ، فسوف يعلمون وخامة عاقبتهم فى أولاهم وأخراهم وأشد مرض تصاب به القلوب طول الأمل ، ومتى تمكن من القلب فَسد مزاجُه ، وعزَّ دَواؤُه ، وصعب علاجه ، ويئس من برئه حكماؤُه . وانتهى أمر صاحبه إلى الشقاء ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة من الشقاء . جمودُ العين ، وقساوةُ القلبِ ، وطول الأَمل ، والحرصُ على الدنيا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « نجا أول هذه الأُمة باليقين والزهد ، ويهلك آخرها بالبخل والأَمل » . وقال الحسن : ما أَطال عبدٌ الأَمل إلا أساء العمل .

(وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾)

المفـردات :

(مِن قَرْيَةٍ) : أى من أهل قرية . (كِتَابٌ مَّعْلُومٌ) : أجل مكتوب معلوم لله . (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا) : ما تموت أمة قبل الأجل المقدور لها . (وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) : وما يتأخرون عنه . (الذِّكْرُ) : القرآن . (لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ) : أى هلاّ تأتينا بهم ليشهدوا بصدقك يا محمد . (إِذَن) : أى حينئذ .

التفسير

٤ - (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ) :

بعد ما أنذر الله قريشا فى الآية السابقة بسوء العقاب بقوله : « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » . عقبها بهذه الآية ومابعدها لبيان أن هلاك الأمم الكافرة بمشيئة الله وحده وفق أجل معلوم له لاتتجاوزه ، فلا يقدمه استعجال ، ولايؤخره استغاثة ودعاءٌ .

والمعنى : وما جرت عادتنا أن نهلك قرية عصى أهلها وتمردوا على رسلنا ، إلا ولهذه القرية المهلكة أجل مكتوب فى اللوح المحفوظ ، معلوم لنا وللملائكة الذين ينفذون فيها

أمرنا فلا يقدمه استعجال كما فعل قومك حين أنذرتهم ، ولايؤخره استغاثة وتوبة بعد ظهور مقدماته ، ولهذا عقب الله تلك الآية بقوله سبحانه :

٥ - (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) :

أى ما تتقدم أمة من الأمم التى كتب عليها الهلاك - ما تتقدم - على الوقت الذى كتبه الله لهلاكها ، وجعله أجلا وغاية لوجودها ، وما تتأخر عنه لأى سبب من الأسباب ،بل تهلك فى الوقت الذى كتبه الله تماما « وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » .

٦ - (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) :

هذا شروع فى بيان كفر أهل مكة بمن أنزل عليه الكتاب بعد ما أشير إليه فى صدر السورة من كفرهم بالكتاب نفسه ووعيدهم على ذلك .

والمعنى : وقال مشركو مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية - لا على سبيل الاعتراف - قالوا له : يأيها الذى نزل عليه الذكر من السماء كما تزعم، إنك لمجنون بسبب هذه الدعوى ، فإنها أكبر من قدره فى تقديرهم الخاطىء ، حيث إنهم زعموا أن النبوة تتبع الرياسة الدنيوية ، إذ قالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ». والقريتان هما مكة والطائف ، والرجل المقصود فى مكة هو الوليد بن المغيرة المخزومى . والمقصود فى الطائف حَبيبُ بن عَمْرو بن عُمَير الثقفى كما روى عن ابن عباس. وقيل:عتبة ابن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل فى الطائف - كما روى عن مجاهد ، وقيل غير ذلك -

والذكر فى اللغة له عدة معان منها: الشرف ، وقد أطلق هنا على القرآن كما أطلق عليه فى نحو قوله تعالى فى سورة الزخرف : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ».وقوله سبحانه فى سورة الحجر : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » لعلو شرفه ، وقد عبر المشركون عنه بلفظ الذكر مجاراة للنص القرآنى على سبيل الاستخفاف .

٧ - (لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

لوما ولولا وهلَّا: حروف ثلاثة يستعمل كل منها للحثِّ على الفعل والحضّ عليه .

ومعنى الآية : هَلَّا تأتينا يا محمد بالملائكة يشهدون بصحة نبوتك ، ويساعدونك فى الإنذار كما حكاه الله عنهم بقوله : « لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا » . أو يعاقبوننا على تكذيبك إن كنت من الصادقين فى دعواك النبوة ، فإن ذلك يكون تأييداً لك من ربك ،ويجوز أن يكون المعنى : إن كنت من جملة الرسل الصادقين الذين عذبت أممهم المكذبة لهم ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٨ - (مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ) :

أى ماننزل الملائكة إلا مرتبطا بالوجه الذى اقتضته الحكمة ، وليس فيها مااقترحوه فإن الملائكة إن نزلوا للشهادة بصدقه صلى الله عليه وسلم ، أو لمساعدته فى التبليغ ، فإما أن يكونوا على صورتهم الحقيقية أو على صورة بشر ، فإن كانوا على صورتهم فلا يستطيع البشر لقاءهم بل يهلكون ، لأن أعصابهم لا تتحمل القوة الملكية الهائلة التى أودعها الله فيهم ، وفى ذلك يقول الله فى سورة الأنعام « . . . . وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) » وإن كانوا على صورة بشر التبس أمرهم عليهم وظنوهم بشرا حقيقيين ، وهذا ما عناه الله بقوله فى السورة المذكورة : «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)».

أما إن نزل الملائكة لاستئصالهم على كفرهم كما طلبوه على وجه الاستعجال بقولهم : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ». وقولهم : «اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [١] . »وقولهم : « رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ [٢] » - أما إن نزل الملائكة لذلك - فليس من الحكمة أيضاً ، فقد وعد سبحانه أن لا يعذبهم والرسول فيهم بقوله : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » [٣] . وكانت ثمرة هذا الكرم الإلهى أن دخلوا فى دين الله أفواجا قبل أن يلقى النبى صلى الله عليه وسلم ربه ،وبعد أن بيّن الله فى صدر الآية أنه لاينزل الملائكة إلا بالحكمة وليس منها ما طلبوه ، ختم الآية ببيان الضرر الذى يحل بهم إن حقق لهم مطلبهم بإنزال الملائكة على أى وجه ، فقال :

(١) سورة الأنفال الآية ٣٢ (٢) سورة ص الآية ١٦ (٣) سورة الأنفال الآية ٣٣

(وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ) :

أى وما كان المشركون ممهلين حين يُنزِل الله الملائكة استجابة لطلبهم ، بل يهلكون لأى سبب مما تقدم بيانه ، أو لأنه تعالى جرت عادته فى الأمم السابقة أنه إذا أتاهم بالآيات التى يقترحونها ولم يؤمنوا استأصلهم بالعذاب ، وقد علم الله من أهل مكة أنه لو أنزل ملائكة لم يؤمنوا بسبب نزولهم ، وحينئذ فليس من الحكمة إنزال الملائكة ليكفروا بهم فيهلكوا ، فى حين أنه كتب لهم الإيمان حيث دخلوا فى دين الله أفواجا بعد فتح مكة .

ثم رد الله إنكارهم للقرآن العظيم فقال :

٩ - (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) :

أى إنا نحن - رب السموات والأرض - نزلنا القرآن الذى أنكروا أنه وحى من عندى ، نزلناه عليك ، وإنا نحن بِعظَمِ شأننا لحافظون هذا القرآن من التغيير والتبديل والضياع ، ليبقى آية ديننا ودستور شريعتنا مابقى الزمان ، فلن يعتريه تحريف ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان .

ولقد أورث الله قلب كل مؤمن غيرة عليه ، فلا نرى أحداً يتسامح فى لحنة لاحنٍ فيه ، ولو كان شيخا عظيما ، بل يسارع إلى رَدِّه إلى الصواب ، ولا يخاف فى الله لومة لائم ، ولم يتعهد الله بحفظ كتاب سواه ، أما كتبه السابقة فقد استحفظها الربَّانيِّين والأحبار ، على سبيل الامتحان والاختبار ، فأساءوا الحفظ والرعاية ، وغيَّروا فيها وبدَّلوا ، وما لم يبدلوه منها أساءوا تأويله ، وتعمَّدوا تحويله ، وقد زال أصل التوراة ولم يعد له وجود ، وضاع أصل الإنجيل وانتهى أمره ، ولهذا لاتجد نسخ التوراة أو الإنجيل متماثلة ، فترى بعضها أطول من بعض ، مع الاختلاف فى العبارات والمعانى .

أما القرآن الكريم فإنه نسخة واحدة فى جميع الأمصار والأعصار ، فى عهد رسول الله ، وحين جمعه أبو بكر فى نسخة واحدة ، ثم نسخه عثمانُ فى أربع نسخ وزعها على الأمصار ، لم يتغير فيه حرف ولا كلمة ، لأنه تعالى تولى حفظه بنفسه منذ أنزله على رسوله بقوله : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » . ولم يستحفظ عليه أحداً سواه ، فطبع كل مسلم على الغيرة عليه والمبالغة فى صيانته بدافع وجدانى ، تنفيذا لوعد الله الكريم ، ليظل دستور

رسالة الإسلام الخاتمة للرسالات ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « ولن يزال أمر هذه الأُمة مستقيما حتى تقوم الساعة » .

ولا شك أن حفظه من التغيير والتبديل إلى يومنا هذا آية على أنه من عند الله جلَّ وعلا .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾)

المفـردات :

(شِيَعِ) : جمع شيعة وهى الفرقة والجماعة على طريقة ومذهب ، مأُخوذ من شاع المتعدى تقول : شاعهُ بمعنى تبعه ، وتطلق الشيعة على الأعوان والأنصار . (نَسْلُكُهُ) : ندخله ، ومنه سلكت الخيط فى الإبرة . (الْمُجْرِمِينَ) : المذنبين ، يقال أجرم فلان وجرم أى أذنب كاجترم ، فهو مجرم ، وجريم أى مذنب ، والجريمة الذنب ، وجرم عليهم وإليهم جريمة جنى عليهم جناية – انظر القاموس . (خَلَتْ) : مضت . (سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) : طريقتهم .

التفسير

١٠ – (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الْأَوَّلِينَ) :

بعد أن بينت الآيات السابقة موقف أهل مكة من دعوة الإسلام وداعيها ، جاءت هذه الآيات لتسليته صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له بما حصل للرسل قبله من تكذيب أقوامهم لرسلهم .

والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك يامحمد رسلا فى أمم الأولين ، الذين يشايع بعضهم بعضا فى كفره ، ثم بيّن الله سبحانه كيف تعاملت هذه الأمم مع هؤلاء الرسل فقال :

١١ - (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

أى وما يأتى كل أمة من رسول خاص بها إلا كانوا به يسخرون كما فعلت قريش معك يامحمد ، فلا تبتئس أيها الرسول بما فعله جهّال قومك معك ، فإن هذه عادة متأصلة فى الجاهلين مع سائر المرسلين .

١٢ - (كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) :

أى كما أدخل الله كتب المرسلينَ فى قلوب أممهم غير مقبولة لديهم ، ندخل الذكر - أى القرآن - فى قلوب المجرمين الآثمين من قومك فيكون فيها غير مقبول ومسخوراً منه ، لفساد عقولهم وظلمة قلوبهم ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولو شاء لهداهم أجمعين .

١٣ - (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ) :

أى كذلك نسلك الذكر فى قلوب المجرمين من قومك حال كونهم لايؤمنون به ، وقد مضت سنة الله فى الأولين من أمم الأنبياء قبلك على هذا النمط ، فقد كانت كتب الله تدخل قلوبهم مصحوبة بالاستهزاء وعدم الإيمان .

ويصح أن تكون جملة : « وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ » مستأنفة لغرض الوعيد والتهديد أى وقد مضت طريقة الله فى المكذبين الأولين من الإهلاك والاستئصال بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسلهم ، وأهل مكة إن استمروا على تكذيبهم ، فسوف يحل بهم مثل ما حل بمن سبقهم جريا على سنة الله فى المكذبين .

وأعاد بعضهم الضمير فى نسلكه على الاستهزاء وما نشأ عنه من الضلال والكفر ، ومعنى الآيتين على هذا ما يلى :

أى كما سلكنا الضلال والكفر والاستهزاء فى قلوب الكافرين برسلهم قبلك ، نسلكه فى قلوب المجرمين من أمتك يامحمد . لايؤمنون بسبب ذلك ، وقد مضت سنة الأولين فى الكفر والاستهزاء وهى مماثلة لهم ، وأنت بها عليم فلا تحزن ، أومضت سنتهم فى الإهلاك فليحذر قومك مثل مصيرهم .

ثم بين الله تعالى أن اقتراح قريش نزول الملائكة ليس بغرض الاهتداء بل هو للعناد والمكابرة فقال :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾)

المفـردات :

(يَعْرُجُونَ) : يصعدون ، والمعارج المصاعد . (سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا) : أى حُيِّرت ، من السُّكْر ضد الصحو ـ كما قال عمرو بن العلاء ـ أرادوا أنها فسدت ، واعتراها خلل كما يعترى عقل السكران فيختل إدراكه ، وهذا المعنى قريب من تفسيرها بِخُدِعتْ وقيل: تسكير الأبصار إغلاقها أو تغطيتها .

التفسير

١٤ ـ (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ) :

أى ولو فتحنا على كفار مكة باباً من السماء ، ومكناهم من الصعود فيه ، فصاروا يعرجون ويصعدون فيه بآلة أو بغيرها ، وهم يرون مافى السماء من الملائكة والعجائب فى وضوح واستبانة .

١٥- (لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ) :

أى لو فتحنا عليهم باباً من السماء على النحو الذى تقدم بيانه ، لقالوا لفرط عنادهم ومكابرتهم : إنما خُدِعَتْ أبصارنا فلم نشاهد شيئاً على الحقيقة ، بل نحن قوم مسحورون سحرنا محمد حتى تخيلنا هذه المرائى ، كما يتخيل المسحور شيئاً لاحقيقة له ولا تراه العيون على حقيقته .

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(بُرُوجاً) : جمع برج وهى فى الأصل بمعنى القصور أو الحصون ، ثم أطلقت على منازل الكواكب والنجوم لأنها تشبهها فى كونها منازل لها ، كما أن القصور منازل لساكنيها . (شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) : أى مطرود من الرحمة ، أو مَرْمِىٌّ بالرجام وهى الحجارة ، فإنهم يُقْذَفُونَ بشظايا النجوم . (اسْتَرَقَ السَّمْعَ) : أى اختلس بعض ما يسمع من كلام الملائكة . (فَأَتْبَعَهُ [1]) : أى تبعه . (شِهَابٌ) : شعلة ساطعة تمرق فى الجو بسرعة خاطفة . (مُبِينٌ) : أى واضح من أبان اللازم بمعنى اتضح أو مبين غيره وموضحه ، من أبان الشىء أوضحه .

التفسير

١٦ - (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) :

بعد أن بين الله حال الكافرين بالإسلام والنبوة ومآلهم ، شرع يقيم لهم الأدلة على

---

(١) يرى الأخفش أن أتبعه بمعنى تبعه ، فليست الهمزة للتعدية ، ومثله ردفته وأردفته ، وقيل غير ذلك - انظر الآلوسى .

وحدانية الله وقدرته وكماله ، لعلهم يتركون الشرك الذى حملهم على تكذيب النبوة المؤسسة على التوحيد .

والمعنى : ولقد خلقنا فى جهة السماء منازل تتنقل فيها الكواكب والنجوم على نظام فائق لايختلف ولايضطرب ، وجعلناه بحيث تترتب عليه مصالح البشر فى معاشهم ، وزينا السماء لمن ينظر إليها ويتأمل فى زينتها وجمالها وإحكامها وتماسكها فى الفضاء بقدرة مبدعها ، ووظائفها التى أنشأها الله من أجلها ، لينتقل الناظر من رؤيتها إلى التفكير فى عظمة مبدعها ووجوب اتصافه بالوحدانية ، وتنزهه عن الشريك والنظير .

١٧ - (وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ) :

أى وحفظنا السماء من كل شيطان مطرود من رحمة الله ، فلا سبيل له ولا لذريته إليها بعد أن أهبطه الله عقاباً على امتناعه عن السجود لآدم بعدما أمره الله به ، وقد استثنى الله بعضهم بقوله :

١٨ - (إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ) :

أى أنه تعالى حفظ السماء من الشياطين إلا من اتجه نحوها واختلس بعض الكلام المسموع الذى يجرى بين أهل الملإ الأعلى من الملائكة ، فإنه لا يمكنُ من الاستمرار فى استماعه واستراقه ، بل يتبعه شهاب بيِّنٌ واضح فيقتله أو يخبله ، وفى ذلك يقول الله فى سورة الصافات : « إلاَّ منْ خَطِفَ الْخطْفَة فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ »[1] والشهاب من الشهبة ، وهى بياض مختلط بسواد وليست بالبياض الصافى ، والشهب أجزاء حجرية انفصلت عن الكواكب وجعلت تدور فى الفضاء ، فإذا وصلت إلى جاذبية الأرض جذبتها إليها بسرعة خارقة فتشتعل وتتوهج باحتكاكها الشديد بالغلاف الجوى المشتمل على الأوكسجين الذى يساعد على الاحتراق ، وهو من الظواهر الكونية القديمة ، وقد كان الكهان ينتفعون بما ينقله الشياطين إليهم من أخبار الأرض التى تجرى فى الملإ الأعلى ، فيكتسبون قداسة فى نظر أتباعهم إذا حدثوهم عن الغيوب المنتظرة التى عرفوها من الشياطين المسترقين للسمع ، فوقعت كما أخبروهم بها فلما بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، اشتدت حراسة السماء

(١) سورة الصافات ، الآية ١٠

بالملائكة والشهب ، لإبطال عهد الكهان بمنع الغيوب عن أن تصل إليهم ، وإقامة صرح الحق الذى بعث به خاتم المرسلين ،وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الجن حكاية عن بعض مؤمنيهم : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُباً (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَدًا (٩) » قيل للزُّهرى : أكان يُرْمى فى الجاهلية ؟ قال نعم ، قيل : أفرأيت قوله تعالى : « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » . قال الزُّهرى : غُلِّظ وشُدِّدَ أمرها حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم .

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا) : أى بسطناها ووسعناها . (وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) : أى وخلقنا فيها جبالا ثوابت ؛ فرواسى جمع راسٍ بمعنى ثابت وفعله رسا بمعنى ثبت ، ومثله أرسى إذا كان لازمًا ، وقد يتعدى ، تقول : أرست السفينة أى ثبتت ووقفت ، وأرسيتها أى أو قفتها وثبتُّها . (مَوْزُونٍ) : مقدر بحكمة . (مَعَايِشَ) : أى أسباباً تعيشون بها .

(وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) :قيل المراد بهم الأولاد ، وقيل الدواب والأنعام،والأوْلى التعميم ليشمل الأولاد والحيوانات التى ينتفع بها . (خَزَائِنُهُ) : أى أسباب تحصيله والاستيلاء عليه (بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) : بمقدار يعلمه الله وتقتضيه حكمته .

التفسير

١٩ - (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ) :

لايزال الكلام متصلا فى آيات الله ونعمه ، فقد بين الله فى هذه الجملة أنه تعالى مد الأرض ، أى بسطها ووسعها بحيث تكون صالحة لكى يعيش عليها الإنسان والحيوان ، ولإنبات ما يعيشون به . وظاهر النص يفيد أن الأرض خلقت أولا غير ممدودة ، ثم طرأ عليها المد ، حسبما تقتضيه الحكمة فى التدرج التكوينى ، ويشهد لذلك قوله تعالى فى سورة (النازعات) : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا » . ولم يقتصر إنعامه على مجرد مدها ، بل جعلها كالفراش الممهود ، كما قال سبحانه : « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ[1] » . وكما أنه تعالى خلق الأرض وبسطها ومهدها ، خلق فيها جبالا شوامخ ثوابت ، لكى تحفظها من الاضطراب بأهلها ، حتى يستريح أهلها عليها ، ولا يتعرضوا للهزات المدمرة الكثيرة ، وكان ذلك منه حكمة فى التكوين ، ورحمة بالعباد وآية على عظمته وجلاله ووحدانيته وكبريائه ، وبسط الأرض لاينافى أنها كروية الشكل ، فإنها لعظمتها ترى كالسطح المستوى فى حين أنها كرة تدور حول نفسها تحت شمسها التى ترتبط بها ، والتعبير عن خلق جبالها عليها بإلقائها فيها ، لإبراز كمال سهولته على الله ، كأنها شىء يسير موجود يلقى بسهولة فى الموضع الذى أريد له ، فسبحان من يقول للشىء كن فيكون .

(وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ) :

أى أنه تعالى أنبت فى الأرض التى بسطها وفرشها لنا - أنبت فيها - من كل نبات مقدر عنده بحكمة ، ومعلوم له أنه لمصلحة عباده قوتا أو دواء ، أو وقاية من داء ، ومعلوم له أنه لمصلحة ما سخره لهم من الحيوانات المختلفة .

واستعمال الوزن بمعنى التقدير والعلم معروف فى لغة العرب ، قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرَّة عِنْدِى لكُلِّ مخاصِمٍ ميزانُه

---

(١) سورة (الذاريات) : الآية ٤٨

أى عندى لكل خصم تقدير له وعلم به ، وهو معنى مجازى للوزن الذى هو فى الأصل تقدير الشىء بالميزان الحسى المعروف ، فاستعمل هنا فى لازم معناه ، وهو مطلق التقدير والعلم .

وفسر الحسن وابن زيد الإنبات بالإنشاء ، والوزن بمعناه الحقيقى مع إعادة الضمير على الجبال والمعنى على هذا الرأى : وأنشأنا فى الجبال الرواسى من كل شىء يوزن حقيقة ، كالذهب والفضة والنحاس والرصاص إلخ ، والمعنى الأول أظهر .

٢٠ - (وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ) :

بين الله سبحانه فى الآية السابقة أنه أنبت لنا فى الأرض أقواتنا وما نتقى به العلل والأمراض من مختلف النباتات ، وبين فى هذه الآية أنه يسر لنا فيها أسباب المعايش المختلفة ، ولم يجعلها قاصرة على الزراعة ، كما أنعم علينا بالأولاد والأنعام وتكفل بأرزاقهم والمعنى : وجعلنا لكم فى الأرض التى بسطناها أسبابًا للمعيشة كالصناعة والهندسة والزراعة والطب وغير ذلك من الحرف المختلفة ،وجعلنا لكم أيضا أولادًا تقرّ بهم أعينكم ،وأنعامًا تحملون عليها أثقالكم ، وتستكملون بها أرزاقكم ، ولم نكلفكم شيئًا من أرزاق هؤلاء وأولئكم ، بل تكفلنا بأرزاقهم كما تكفلنا بأرزاقكم ، ثم بين أن كل شىء خاضع لتصرفه وحكمته فقال سبحانه :

٢١ - (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ) :

ليس المقصودُ من الخزائن حقيقتها فإنه تعالى لاتختزن مقدوراته فى خزائن ، كما يختزن الملوك نفائس الأموال فيها ، بل الآية فيها أسلوب بلاغى رفيع . ففيها استعارة مكنية تخييلية ، أو استعارة تمثيلية .

والمعنى : وما من شىء من المقدورات التى ينتفع بها الخلائق إلا وهو مقدورٌ لنا خفىٌّ عن أبصار عبادنا ، لا تصل إليه عقولهم وعلومهم قبل أن نبرزه لهم ، ونمُنّ به عليهم ، فهو يشبه النفائس الخبيئة فى خزائن الملوك ، فلا تعلمها رعاياهم ، ولا قدرة لهم على

شيء منها ، حتى يبرروا بعضها لهم ، وينعموا بشيء منها عليهم ثم يختم الله الآية بما يفيد أن الإنعام مضبوط بضوابط الحكمة ، وذلك بقوله تعالى :

﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ : أى وما ننزل الأمر بالشيء الذى ننعم به على عبادنا إلا مضبوطًا بقدر معلوم يتفق مع الحكمة فى نوعه وزمنه وقدره وأهله استحقاقًا أو ابتلاء أو إملاء ، ويجوز أن يكون تنزيل الشيء المنعم به مجازًا عن إبرازه وإيجاده ، والله أعلم - وعبر عنه بالتنزيل لأنه ناشيء عن أسباب سماوية ، فكأنه منزل من أعلى إلى أدنى .

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

﴿ الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ : أى حوامل بالماء ، جمع لاقح بمعنى حامل ، فهو من قولهم : ناقة لاقح ونوق لواقح إذا حملت الأجنة فى بطونها ، أو مُلَقِّحات للشجر كما قال أبو عبيدة وسيأتى بسط الكلام على ذلك فى تفسير هذه الآية . ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ : من السحاب . ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ : أى فجعلناه لكم مَسْقى تسقون به مزارعكم ، قال الأزهرى : العرب تقول لما كان من بطون الأنعام أو من السماء أو من نهر جار أسقيته ، أى جعلت له منه مسْقًى ، فإذا كان للشَّفَةِ قالوا سقى ولم يقولوا أسقى ، وقال أبو على : يقال : سقيته حتى

رَوِىَ وأسقيته نهرًا ، أى جعلته شِرْبًا له أى مَوْردًا لشُرْبه . (وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) : أى وليس لكم شأن فى إيجاده وحفظه لينزل عليكم وقت الحاجة ، أو وليس لكم شأن فى حفظه فى مجاريه وآباره ليكون تحت طلبكم ، فكل ذلك من صنع الله الرحمن الرحيم : (الْوَارِثُونَ) : الباقون بعد فناء الخلق . (الْمُسْتَقْدِمِينَ) : من تقدمكم من الأمم فمات قبلكم (الْمُسْتأْخِرِينَ) : من هو حىٌّ لم يمت بعد . (هُوَ يَحْشُرُهُمْ) : يجمعهم يوم القيامة لفصل القضاء .

التفسير

٢٢ـ (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) :

بين الله تعالى فى الآية السابقة أن كل شىء من أرزاق الخلق ومنافعهم تحت سيطرته تعالى ووفق مشيئته ، وأنه فى يسره عليه واختفائه عن خلقه ، كأنما هو مخزون فى خزائن ، بحيث يسهل إخراجه وإبرازه ومفاجأة عباده به فى أى وقت يشاؤه ، ليدخل به الفرح عليهم ، وأنه حين يبرزه يكون إبرازه بقدر معلوم يتفق مع الحكمة ومصالح العباد ـ وجاء بهذه الآية والتى تليها ، ليبين بعض الأسباب التى أبدعها سبحانه لتوصيل الرزق والخير لعباده بيسر وسهولة .

وَقَبْل الكلام على معنى الآية نقول : إنه تعالى يسلط حرارة الشمس على المحيطات والبحار المالحة والأنهار العذبة والمستنقعات وكل رطوبة فوق سطح الأرض ، فتخرج حرارة الشمس من تلك المياه بخارًا عذبًا لا أثر للملوحة فيه ، ويسلط الله الرياح على هذا البخار لترفعه إلى حيث يكون سحابًا فيبسطه الله فى الفضاء كيف يشاء ، ويرزق به من عباده ما يشاء ، وبعْد هذا التمهيد نقول فى معنى الآية ما يلى :

المعنى : وأرسلنا الرياح حوامل ببخار الماء وذرات التراب وأسباب الخير والنفع حتى إذا وصلت إلى مستوى معين تحول ما حملته من البخار إلى سحاب كثيف فتصبح الرياح ثقيلة الحمل ،

كما قال تعالى فى سورة الأعراف : « حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ »[١] أى حملت سحابًا ثقالا .

وقيل « لَوَاقِحَ » بمعنى مُلقِّحات للشجر ، حكى المهدوى عن أبى عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح جمع مُلْقِحة أو مُلْقِح بحذف الزوائد .

فإن كان يقصد أنها تلقح إناث الأشجار بطلع ذكورها ، فذلك واقع بالفعل ، ولكن حمل الآية على هذا المعنى يبعده قوله تعالى عقبه : «فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماء ماءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ » فإن ذلك يؤذن بأنها حوامل بالماء ، أو ملقحات للشجر بالماء الذى ينزله الله من السماء ، ولذا عبر بالفاء التى تفيد أن إنزال الماء من السحاب مترتب على كون الرياح لواقح بالماء والله تعالى أعلم .

(فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ) :

أى فأنزلنا من السحاب الكثيف الذى أقلته الرياح ـ أنزلنا ـ منه مطرًا ، فأعددناه وهيأناه لسقياكم وزروعكم ومواشيكم ، حيث حفظناه فى بحيرات وأجريناه فى أنهار وجداول واختزنا بعضه فى جوف الأرض ، لكى تنتفعوا به وقت الحاجة بحفر الآبار وتفجير العيون .

(وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ) :

أى أن هذا المطر الذى ننزله من السحاب لم تختزنوه أنتم ، ولا علم لكم به من قبل أن يأتيكم ، أو لستم له بحافظين فوق سطح الأرض أو فى جوفها ، لتنتفعوا وقت حاجتكم بل الله تعالى هو الذى سخر لكم أسبابه ، وحفظه لكم فى مجاريه وخزائنه ، وهو قادر على إمساكه منكم ، والذهاب به إذا أتاكم ، كما قال تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ » .

وبعد أن بين أنه تعالى مصدر أرزاقهم ، عقبه ببيان أنه هو الذى يحييهم ويميتهم ويرثهم فقال :

(١) سورة الأعراف : من الآية ٥٧

٢٣ - (وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) :

أى وإنا لنحن الذين ننشئكم من العدم ، ونجعلكم أحياء ترزقون ، ونحن الذين نميتكم وننزع الروح من أجسادكم ، ونحن الوارثون لكم ولأموالكم ولكل شيء فى هذا الوجود وكل ما أعطيناه للخلق فهو عارية مستردة ، والملك لله الواحد القهار .

٢٤ - (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ) :

أى ولقد علمنا من سبقوكم من بنى جنسكم ، فإنا نحن الذين أحييناهم وأمتناهم ، وعلمنا أيضاً المتأخرين ممن هم أحياء أو سيوجدون بعدكم ، فإن الخالق الرازق الوارث لايغيب عن علمه شيء ، وكيف يغيب أحد من خلقه عن علمه وهو الذى سيحشرهم ليجازيهم كما ينطق به قوله سُبحانه :

٢٥ - (وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) :

أى وإن ربك أيها الرسول هو وحده الذى يحشرهم ويجمعهم للحساب والجزاء على حسب أعمالهم ، لأنه تعالى حكيم يضع الشيء فى موضعه ، فلا يسوى محسناً بمسيء ، واسع العلم فلا يغيب عنه عمل عامل - وبعد أن بين الله تعالى أن مصير العباد إليه وجزاءهم عليه ، شرع يبين قصة آدم مع إبليس ، ليعرف البشر عداوته لهم فيحذروه ، فقال سبحانه :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾
وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(صَلْصَالٍ) : هو الطين اليابس الذى إذا نقر يكون له صوت ، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار ، وبهذا قال معظم المفسرين ، وقال مجاهد : الصلصال هو الطين المنتن واختاره الكسائى وهو مأخوذ من قول العرب : صَلَّ اللَّحْمُ وأَصَلَّ إذا أَنْتَنَ .

(مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ): أى من طين أسود مُنْتِن ، وفسره بعضهم بمُصَوَّر ، ومنه سُنَّةُ الوجْهِ أى صُورته ، قال حمزةُ يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

أغر كأن البدر سُنَّةُ وجهه جلا الغيْمَ عنه ضوْؤُهُ فتبَدَّدَا

وفسره بعضهم بمصبوب ، من سنَّ الماء صبّه . (وَالْجَانَّ): قيل هو أبو الجن - وروى عن ابن عباس ، وقيل هو اسم لجنس الجن - كما قاله ابن بحر ، وقيل هو إبليس وروى عن الحسن وقتادة - (نَارِ السَّمُومِ) : المراد بها النار التى لادخان لها - كما جاء فى إحدى الروايتين عن ابن عباس .

التفسير

٢٦ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) :

المراد من الإنسان هنا أصله وهو آدم عليه السلام ، أو الجنس كله تبعاً لأصله والمعنى ولقد أوجد الله آدم عليه السلام من طين جاف مُتحوِّلٍ من طين أسود منتن وقد كان أساسه الأول تراباً[1] ، فلما خلط بالماء صار طيناً[2] ، فلما اسود وأنتن صار حمأً مسنوناً ، فصور الله منه تمثال إنسان أجوف ، فيبس حتى إذا نقر صلصل أى ظهر لنقره صوت بسبب جفافه ، ثم غيره الله طورا بعد طور حتى نفخ فيه الروح بعد أن تمت صلاحيته لنفخها فيه فتبارك الله أحسن الخالقين .

٢٧ - (وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ) :

قد علمت فى بيان معانى المفردات اللغوية ، أن بعض العلماء فسر الجان بأنه جنس الجن ، وعلى هذا الرأى تكون هذه الآية الكريمة مسوقة لبيان أن الله تعالى خلق الجن كما خلق الإنس وأنهم خلقوا قبل آدم ، وأنهم خلقوا من نار ، بخلاف آدم فقد خلق من طين

---

(١) وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الروم : «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون» .

(٢) وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة المؤمنون : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» .

كما علمت أن بعضهم فسر الجان بإبليس ، ليناسب ماسيأتى فى قصة آدم من أنه امتنع عن السجود له لأنه خلق من نار ، وخلق آدم من حمإٍ مسنون ، وكل من الرأيين أهل للاعتبار والقبول . «السَّمُوم» : الريح الشديدة الحرارة سميت بذلك لأنها تنفذ فى المسام ، وقيل هى نار لا دخان لها - رواه الضحاك عن ابن عباس ، وعليه فإضافة النار إلى السموم من إضافة العام إلى الخاص .

والمعنى : وجنس الجن أو إبليس خلقه الله مِن قبل آدم ، وكان خلقه من نار شديدة الحرارة لاشىء فيها من الدخان .

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾)

المفـردات :

(مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) : تقدم بيانها .

(سَوَّيْتُهُ) : جعلته سويًّا معتدلا .

(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى) : ونشرت فيه من الروح المنسوب إلَىَّ نسبةَ تشريف وَمِلْكٍ وإيجاد ، فأرواح العباد منسوبة إلى الله نسبة ملك وإيجاد ، وليست جزءًا من روحه تعالى ، فهو منزه عن التجزئة والتبعيض .

(فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) : فَخِرُّوا لآدم خاضعين .

التفسير

٢٨ - (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) :

أجمل الله قصة خلق الإنسان فى قوله سابقًا : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ » . وقصة خلق الشيطان فى قوله : « وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ » . تمهيدًا للحديث المفصل الذى تحكى فيه هذه الآية وما بعدها من الآيات ماجرى بين الله وبين ملائكته فى شأن خلق آدم وأمرهم بالسجود له ،وخضوعهم لأمره سبحانه ، وعصيان إبليس تكبرًا وغرورًا ، ووسوسته لآدم حتى أخرجه من الجنة ، ووعيده بإغواء ذريته إلا عباد الله المخلصين إلى آخر ما سيأتى بيانه فى الآيات الواردة فى هذا الشأن ، والغرض من سوق هذه القصة تحذير عباد الله من وسوسة الشيطان الذى أغوى أباهم آدم ،وهو لإغوائهم وإضلالهم بالمرصاد ، حتى يحذروه ولا يغتروا بوسوسته ، فالخطاب فى الآية وإن كان للنبى صلى الله عليه وسلم ، فالمقصود منه بيان القصة لأمته عن طريقه ، لأنه إمامهم - صلى الله عليه وسلم -

والمعنى : واذكر أيها الرسول لأمتك وقت أن قال ربك للملائكة -إنى خالق فى الأرض إنسانًا من صلصال من حمإ مسنون ليكون فيها خليفة عنى فى عمارتها وتنفيذ شريعتى فيها ، أو خليفة عمن سبقه فى سكناها بعد ما هلكوا ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى فى سورة البقرة :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً [(١)] » ، وسمى الإنسان بشرًا لظهور بشرته ، وهى ظاهر الجلد ،حيث لايوجد عليها صوف ولا وبر ونحوهما بخلاف سائر الحيوانات .

وبعد أن ذكرنا فى تفسير الآية السابقة : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ » أن المراد من الصلصال الطين الجاف الذى يصلصل ويصوت إذا نُقر ،

(١) سورة البقرة من الآية ٣٠

وأن المراد من الحمإ المسنون الطين الأسود المنتن ، بعد أن ذكرنا هذا نقول :

من العلماء من فسر الصلصال بالطين المنتن وهو رأى مجاهد واختاره الكسائى ، وهو مأخوذ من قولهم صلَّ اللحم أى أنتن ، ومنهم من فسَّر المسنون بالمُصوَّر ، ومنه سُنَّة الوجه أى صورته ، ومنهم منْ فسَّره بمصبوب – كما تقدم بيانه ، وعلى هذه الآراء اللغوية ، يكون تفسير الآية ما يلى :

واذكر أيها الرسول حين قال ربك للملائكة إنى خالق إنسانًا من طين منتن مصبوب على صورة بشر . فسبحان مَنْ ينقل الشىء بقدرته من النقيض إلى النقيض .

٢٩ – (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) :

التسوية جعل الشىء سويًّا معتدلا ، وتسوية بشر من صلصال من حمإ مسنون جعل الصلصال المذكور فى صورة بشر سوى صالح لنفخ الروح فيه ، بأن ينقله الله من طور إلى طور إلى أن يصبح لحمًا وعظمًا وأعصابًا وشرايين وأوْردةً تسرى فيها روح الحياة – والنفخ فى الشىء هو دفع الريح فيه بالفم أو غيره ، ونفخ الروح فى تمثال آدم المتطور ليس من هذا القبيل ، بل هو تمثيلٌ لِنشرِ الروح فى جميع أجزائه ، فلم يكن فى بث الروح فيه نفخ ولا نافخ على الحقيقة ، وقد اختلف العلماءُ فى تعريف الروح ، فمنهم من قال إنه جسم شفاف يحل بالجسد ويسرى فيه سريان الماء فى العود الأخضر ، ومنهم من قال إنه عرض يحل بالقلب أو الدماغ حلول العِلْمِ فى العالِمِ ، ومنهم من قال إنه جوهر مجرد ليس داخل البدن ولا خارجه ، ولا متصلا به ولا منفصلا عنه . والأسلم عدم الخوض فى تعريفه ، فقد قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وما أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قليلًا»[1] ، وخيرُ ما يقال فيه إنه سر من أسرار الله تحيا به الأبدان حينما يتصل بها ، وتموت حينما ينفصل عنها .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٨٥

والروح مخلوق من مخلوقات الله تعالى ، وقد أضافه الله إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا ، كقوله فى الأرض والسماء أرضى وسمائى مثلا ، وفى البيت الحرام بيتى أو بيت الله. وفى ناقة صالح ناقة الله ، وفى الشهر الحرام شهر الله .

وهذه الآية ترد على النصارى الذين استدلوا من القرآن على أن المسيح ابن الله ، بنحو قوله تعالى : « وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرانَ الَّتى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنا »(١) فقد زعموا أن هذا النص وأمثاله يدل على أن المسيح جزء من روح الله وبعض منه ، فيكون بهذه البعضية ابن الله ، لأن الولد بعض أبيه ووجه الرد عليهم بهذه الآية أنه لو كان فهم الآية على نحو ما زعموا لاقتضى ذلك الفهم السقيم أن يكون آدم ابنًا لله ، لأنه قد وَرَدَ فيه مثل ما ورد فى عيسى وذلك قوله هنا : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ».وأنتم لاتقولون بذلك فلا وجه للتفرقة بينهما فى دلالة النص ، فإذا لم يدل النص فى آدم على بنوته لله، بل على أنه مخلوق شريف من مخلوقات الله ، فكذلك النص الوارد فى عيسى ، فرُوحُه مضافة إلى الله إضافة المخلوق للخالق تشريفًا وتكريماً ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ »(٢)

ومعنى الآية إجمالا : فإذا جعلت هذا البشر من الصلصال سويا معتدلًا متطورًا بحيث يصلح للحياة نفخت من الروح المنسوبة إلىَّ خلقًا وشرفًا ـ إذا فعلت ذلك بهذا البشر ـ فخروا له ساجدين ، تحية وتكريماً .

وقيل أمروا بالسجود لله عبادة وتعظيمًا عند تسويته آدم ونفخ الروح فيه ، والمعنى الأول أنسب .

٣٠ ـ (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) :

أى فسجد الملائكة لآدم بعد تمام خلقه ونفخ الروح فيه ، تحقيقًا لما شرطه الله وأوجبه

---

(١) سورة التحريم الآية :١٢

(٢) سورة آل عمران الآية : ٥٩

عليهم قبل خلقه ، من السجود له بعد تمام خلقه ، ولم يتخلف عن السجود إلا إبليس كما حكاه الله بقوله :

٣١ـ (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) :

أى فسجد الملائكة جميعًا إلا إبليس ، فإنه امتنع من أن يكون معهم فى سجودهم ، وقد اعتبره الله آثماً بامتناعه عن السجود معهم ، وعاقبه بإخراجه من الجنة ولعْنِه كما سيأتى بيانه .

فإن قيل : إن الأمر بالسجود موجه إلى الملائكة ، وإبليس ليس منهم بل هو من الجن ، لقوله تعالى فى سورة الكهف : « إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ». ولأنه لو كان من الملائكة لسجد ، لأنهم كما قال الله فيهم : « لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(١) » وإذا لم يكن من الملائكة فكيف اعتبر آثماً مع أن الأمر بالسجود لايتناوله ، لأنه خاص بالملائكة ؟

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة نختار منها اثنين .

أحدهما : أنه وإن لم يكن من الملائكة نوعا فهو منهم إقامة ، حيث كان يقيم بينهم ، فيسرى عليه ما يسرى عليهم من التكاليف ، كالرجل يعيش فى غير قبيلته ، فتسرى عليه أحكام القبيلة التى يعيش فيها .

ثانيهما : أنه كان مأمورًا بأمر خاص به ، ولم يصرح به فى التكليف ابتداء ، اكتفاء بالإشارة إليه فى التوبيخ صراحة على عصيانه ، وذلك بقوله تعالى فى سورة الأعراف : « قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ(٢) » .

---

(١) سورة التحريم من الآية : ٦

(٢) سورة الأعراف من الآية : ١٢

(قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾)

المفـردات :

(مَالَكَ أَنْ لا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) : أىُّ سبب لك فى عدم سجودك مع الملائكة . (حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) : طين أسود منتن . (رَجِيمٌ) : مطرود من كل خير ، وأصل الرجم الضربُ بالرِّجام وهى الحجارة ، ثم كُنى به عن الطرد . (اللَّعْنَةَ) : أى الإبعاد على سبيل السخط .

التفسير

٣٢ـ (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) :

أى قال الله لإبليس توبيخًا له بعد امتناعه عن السجود لآدم : أى سبب لك فى أن لا تكون مع الملائكة الساجدين له استجابة لأمرى ، وتعظيما لقدرتى .

٣٣ـ (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) :

أى قال إبليس لربه بعد أن وبخه على تركه السجود لآدم : لايستقيم منى وقد خلقتنى من نار ، أن أسجد لبشر خلقته من طين جاف أصله من طين أسود منتن ،ويعنى بذلك أن مادته التى خلق منها وهى النار ، أشرف من المادة التى خلق منها آدم وهى الطين الأسود المنتن ، فهو بذلك أعظم منه أصلا ـ كما زعم ـ ، فكيف يسجد مَن أصله أعظم ، لمن أصله دونه ، وقد أخطأ اللعين فى هذا القياس ، فإنه لافضل للنار على التراب ، فالتراب أساس لكل حى ، والنار تهلك كل حى ، كما أن الفضل ليس باعتبار المادة وحدها ،فلا بد من أن

يضاف إليها الصورة والفاعل والغاية ، والتحلى بالفضائل والتّخلى عن الرذائل ، وآدم قمّةٌ فى هذا كله ، فقد خلقه الله فى أحسن تقويم ، وخلقه من غير واسطة وبلا وسائل ، كما يشير إليه قوله تعالى : « مَا مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ » . كما أن الغاية من خلق آدم وذريته الخلافة عن الله فى الأرض وأنه كان فى أعلى مكارم الأخلاق ، فأين مِنْ هذا كله خلقُه من نار .

٣٤ - (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) :

أى قال الله لإبليس ، بعد أن أعلن استعلاءه وتكبره على آدم - قال الله لإبليس - اخرج من زمرة الملائكة أو من منزلة الكرامة التى كنت فيها أو الجنة - اخرج منها - فإنك مرجوم ومطرود من كل خير وكرامة .

وقيل : المراد من كونه رجيما أنه وجميع الشياطين سوف يُرْجمُون بالشهب ، فيكون فى هذا المعنى إشارة لطيفة إلى أن اللّعين لما افتخر بالنار توعده الله بالتعذيب بها فى الدنيا : كعابد النار يهواها وتحرقه .

٣٥ - (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) :

أى وإن عليك الإبعاد من رحمة الله إلى يوم الجزاء ، فلا يوفقك فى الدنيا للتوبة من شقوتك ولا يمدك فيها بقبس من هداية ، ولا يعفو عنك فى الآخرة ، بل يجعل مقرك النار وبئس القرار .

وقيل إن المراد باللعنة هنا لعنة الخلائق له ، بأن يكون موضع سخطهم وطلبهم من الله إلى يوم الجزاء أن لا يرحمه ، والمقصود منه يوم النفخة الأُولى التى يموت عندها الخلائق ، فإنه من يوم الدين ، لأنه مقدمة له ، والتفسير الأول أوْلى .

(قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(فأنظِرْنِى) : فأخِّرْنِى ، الإنظار التأخير . (إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) : المراد من اليوم الحين مطلقًا ، أى إلى حين الزمن المعلوم لله دون سواه .

التفسير

٣٦ - (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) :

بعد أن سمع إبليس حكم الله عليه بالطرد من رحمته ودار كرامته ، وبشديد عقوبته ، سأل ربه سبحانه أن يؤخر موته إلى يوم يبعث فيه آدم وذريته للجزاء ، وقد أراد الخبيث بذلك أمرين : أحدهما : أن يتسع له المدى لإغوائهم ، حتى يشتركوا معه فى سوء مصيره ، وليأخذ ثأره كاملا منهم ، فإنهم سبب شقائه ، فإن عدم سجوده لأبيهم كان السبب الأول فى نكبته ، ولو كان عنده إنصاف لأدرك أن غروره وكبرياءه هما محورُ شقائه . والغرض الثانى : من طلبه الإمهال إلى يوم البعث أن ينجو من الموت - إذ لا موت بعد البعث ، وإلى هذا الغرض ذهب ابن عباس والسدى وقد حكى القرآن ما أجاب به الله على سؤال إبليس بقوله :

٣٧ ، ٣٨ - (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) :

أى فإنك من المؤخرين إلى حين الزمن المعلوم لله وحده ، وتنتهى عنده حياة الخلائق وهو وقت النفخة الأولى كما قال سبحانه : «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ من فِى السَّمَوَاتِ

وَمن فِي الأَرْضِ إِلَّا من شَاءَ اللهُ »[١] ، فتموت حينئذ كما يموتون ، مصداقا لقوله تعالى : « كُلُّ منْ عَلَيْهَا فَانٍ »[٢] ولن أؤخرك إلى يوم البعث كما طلبت لِتفِرَّ من الموت كما أردت.

وهنا سؤلان ؛ أحدهما :كيف كلَّمهُ الله ؟ وثانيهما :كيف أجابه الله إلى ما سأل مع أن فيه شقاء خلقه ؟

والجواب عن الأول : أنه تعالى كلَّمهُ على لسان ملك يبلغه ، أو كلمه وهو يسمع تغليظا عليه ، وتشديداً فى الوعيد . وليس على وجه التكريم والتقريب .

والجواب عن الثانى : أنه تعالى منحهم ما من شأنه حمايتهم من شره ، وهو نور العقل ، ودوافع الخير ، وآيات الهدى ، ودعاة المثل العليا من النبيين والمرسلين والصديقين ، فهذه العوامل تمثل فى الروح أسباب المناعة الخُلُقية ، كما تمثل الكُرَاتُ البيضاء فى الدم أسباب المناعة من الأمراض الجسدية ، وصدق الله تعالى إذ يقول فى سورة العنكبوت : « الٓمٓ.أَحَسِبَ النَّاسُ أن يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » .

ولقد أدرك الشيطان قيمة الحماية التى منحها الله عباده ، فاعترف بها إثر وعيده وذلك ما يحكيه الله بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات :

(بِمَا أَغْوَيْتَنِي) : بسبب إغوائك إياى ، والمراد من إغواء الله إياه قضاؤه عليه بالغواية بسبب تكبره وعدم خضوعه لأمره تعالى . (الْمُخْلَصِينَ) : الذين أخلصتهم لطاعتك .

---

(١) سورة الزمر من الآية ٦٨
(٢) سورة الرحمن الآية ٢٦

التفسير

٣٩ - (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) :

بعد أن سمع إبليس الحكم من الله بإنظاره وإمهاله ؛ قال يارب بسبب حكمك علىّ بالغواية من أجل آدم ، لأُحسِّننَّ لذريته فى الأرض المعاصى وأسباب الضلال حتى يضلوا ويكونوا أجمعين شركائى فيه ، فلا أبقى فيه وحدى ، وكما قدرتُ على إغواء أبيهم فى الجنة حتى عصى ، فإننى سأقدرُ على إغواء بنيه فى الأرض حتى يعصوا ، ولما أدرك اللعين أنه تعالى قد يمنح عباده الصالحين الحماية منه ، احتاط فاستثناهم من وعيده وذلك مايحكيه الله بقوله :

٤٠ - (إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) :

أى لأُضلَّنَّ ذرية آدم أجمعين ، إلا عبادك الذين أخلصتهم لطاعتك ، وحصنت نفوسهم من الخضوع لعوامل الشر والضلال ، والتأثر بمغريات المعاصى ، فهؤلاء لا سبيل لى إليهم ولا سلطان لى عليهم .

(قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(صِرَاطٌ عَلَيَّ) : طريق ألتزم به . (سُلْطَانٌ) : تسلط واستيلاء
(الْغَاوِين) : الضالين عن الهدى . (جُزْءٌ مَقْسُومٌ) : فريق مفروزٌ فى علمنا مميز .

التفسير

٤١ـ ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ :

لما استثنى إبليس المخلصين من التأثر بإغوائه ، لما أدركه فيهم من الحصانة الدينية والطهارة النفسية التى وهبها الله لهم ، قال الله مؤكدا حمايته وحفظه لهم : هذا الذى قلته أنت مِنْ أنَّ المخلصين لاسبيل لك عليهم ، طريق ومنهج مستقيم (علىَّ) أن ألتزم به نحوهم ، فلا أسلطك عليهم ، بل أحميهم من وسوستك وإضلالك إياهم ـ وقد ألزم الله تعالى نفسه بذلك تفضلا منه على عباده المخلصين ، حماية لهم من إغوائه ـ وقال مجاهد والكسائى فى تفسير الآية : هذا على الوعيد والتهديد؛ كقولك لمن تُهدِّدُهُ : طريقك علىَّ ، ومصيرك إلىَّ ، وكقوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ». فكأن معنى الكلام : هذا طريق مرجعه إلىَّ فأُجازى كلاًّ بعمله ـ يعنى طريق العبودية ـ .

٤٢ـ ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ :

فى هذه الآية تأكيد ثان لحماية الله للمخلصين من سلطان الشيطان عليهم ، كما أن فيها الإخبار بخذلانه للمُصِرِّين على الغواية .

والمعنى : إن عبادى الذين خلقتُهم لكى يعبدونى ليس لك يا إبليس تسلط عليهم ينتهى بهم إلى الضلال المخرج من رحمة الله ، إلا من اتبعك من الضالين بسوء اختياره ، فإنه يخضع لسلطانك ، ويتأثر بإضلالك ، ويشترك معك فى سوء مصيرك .

فإن قيل إن آدم وحواء من عباد الله المخلصين « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ » وإن بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم « اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا » وبذلك يكون له سلطان حتى على المخلصين. فالجواب : أن المقصود ـ والله أعلم ـ أنه ليس له سلطان على إيمانهم وقلوبهم بحيث يلقيهم فى ذنب يمنعهم عفو الله ويضيقه عليهم ، فإيمانهم متين وقلوبهم طاهرة ، فإن هم أذنبوا تابوا ـ والتوبة تمحو الحَوبة ـ ثم توعد الله المصرِّين على الغواية فقال :

٤٣ - (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ) :

أى وإن النار لموعد إبليس والغاوين أجمعين ، لا يتخلف عنها منهم أحد ، ثم بين الله أنها طبقات ، لكل طبقة فئة منهم فقال :

٤٤ - (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ) :

فالمراد من أبواب النار طبقاتها ودركاتها ، فكما أن الجنة درجات فالنار دركات ، وقد جعل الله لكل طبقة من السبع فريقا معلوما ، وقسما معينا ، فيدخل كل فريق فى الطبقة التى تناسب معاصيه وعقائده ، وقيل الأبواب على معناها المعروف ، وإنما تعددت لكثرة من يدخل النار والله تعالى أعلم .

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(وَعُيُونٍ) : المراد بها أنهار الجنة ، وقيل غيرها . (بِسَلَامٍ) : بسلامة من الآفات . (مِن غِلٍّ) : من حقد وعداوة . (نَصَبٌ) : تعب وإعياء .

التفسير

٤٥ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) :

بعد أن أنذر الله من اتبع الشيطان من الغاوين بسوء المصير بقوله : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ » . جاءت هذه الآية وما بعدها لتبشير

من اتقى ربه وعصى إبليس بحسن المصير ، وبضدها تتميز الأشياء ـ والمراد بالمتقين الذين يدخلون الجنة من اتقوا الكفر والفواحش ، ولهم ذنوب يكفرها نحو الصلاة[(١)] ، وقال الآلوسى : نقل الإمام عن جمهور الصحابة والتابعين- وذكر أنه رأى ابن عباس ـ أن المراد بهم من اتقوا الشرك والكفر ـ ثم قال ـ وهذا هو الصحيح ، ثم أقام الدليل على ذلك حتى قال : فثبت أن الحكم المذكور يتناول جميع القائلين : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كانو ا من أهل المعصية . . . الخ .

ونحن نقول : ينبغى أن يقيد دخولهم الجنة إن كانوا من أهل المعاصى، بأنهم تابوا عنها وقبل الله توبتهم ،أو كانوا ممن غلبت حسناتهم على سيئاتهم ، فإن لم يكونوا من هؤلاء أو أولئك فإنهم يدخلونها بعد عقابهم فى النار على سيئاتهم ، تطبيقا لأدلة الوعيد على المعاصى الواردة فى كتاب الله وسنة رسوله إلا أن يعفو الله فإن الأمر كله لله .

ومنْ يمت ولم يتب من ذنبه فأمره مفوض لربه

والمراد بالعيون الموجودة بالجنة أنهارها المذكورة فى قوله تعالى: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ . فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ[(٢)] . . . » الآية ، ويحتمل أن تكون عيونا ومنابع أخرى لا يعلمها إلا الله .

والمعنى : إن الذين يتقون الكفر والفواحش يعيشون فى الآخرة فى جنات عظيمة الشأن دانية الثمار ، ومن حولهم عيون وينابيع تجرى مياهها بين الجنات ، فتضفى عليها الجمال والحسن ، ليكمل بها متاعهم .

٤٦ ـ (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ) :

أى يقال لهؤلاء المتقين عند دخولهم الجنة :ادخلوها سالمين فيها من الآفات فى أجسادكم آمنين من أن يطرأ عليكم ما يخيفكم ـ ويجوز أن يراد من دخولهم بسلام أنهم يدخلون مسلَّماً عليهم مرحَّبًا بهم ، ويراد من أمنهم ما يعم الأمن من الآفات الجسدية والروحية .

---

(١) كما نقله الزمخشرى فى(كشافه)عن ابن عباس .

(٢) سورة محمد من الآية ١٥

٤٧ ـ (وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) :

أى وأخرجنا ما فى صدورهم من حقد وعداوة كانت بينهم فى الدنيا ، فدخلوا الجنة إخوانا متحابين ، على أسرة متقابلين ، ينظر بعضهم إلى وجوه بعض فى صفاء ومودة ولا يتدابرون ، أخرج ابن جرير وغيره عن أبى أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على مافى صدورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا تدانوا وتقابلوا على السرر نزع الله مافى صدورهم فى الدنيا من غل : ويحتمل أن يكون نزع الغل من صدورهم كناية عن نزع أسبابه ، وأنهم يعيشون فى الجنة متحابين لأنهم مغمورون بنعم الله وأسباب الصفاء والمودة ، فلا يجدون فيها ما يوجب البغضاء كما كانوا يجدون فى الدنيا .

٤٨ ـ (لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ) :

أى لا يصيبهم فى الجنات أى تعب ، فإنّ أرزاقهم ميسّرة من غير كدٍّ ولا سعى « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً »(1) . ويقوم بخدمتهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، قال تعالى فى سورة الإنسان : « وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ه قَوَارِيرَ مِنْ فَضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ه وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ، وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا »(2) . الآيات ـ وكما أنهم لا يمسهم فى الجنة تعب ، فهم ليسوا منها بمخرجين بل هم خالدون فيها أبدًا ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وليجتهد المجتهدون ـ والله تعالى أعلم .

---

(١) سورة الإنسان الآية : ١٤

(٢) سورة الإنسان الآيات : ١٥ ـ ١٩

(* نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(نَبِّئْ) : أى خبِّر وبلغ ، من النبإ ، وهو الخبر مطلقاً وقيل هو الخبر الخطير ذو الشأن ، وهو الأنسب هنا ؛ قال الراغب : النبأ : خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن . . ثم قال : ونبَّأته أبلغ من أنبأته .(ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) : الضيف من مال إليك نازلا بك ، والأفصح ألا يُثنَّى ولا يجمع ، ويأتى بيان المراد بضيف إبراهيم فى التفسير (وَجِلُونَ) : أى خائفون ؛ وفعله وجل يوجلْ كفزِع يفزع . وفى الراغب ؛ الوجل : استشعار الخوف .

التفسير

٤٩ـ (نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

بعد أن ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة ماتوعَّد به الغاوين من عذابه ، وما وعد به المتقين من ثوابه ، أكد سبحانه فى هذه الآية وعده ووعيده : بما اتصف به من عظيم مغفرته وواسع رحمته وشديد عقابه ، تقريرًا لما ذكر ، وتمكيناً له فى النفوس : فأمر رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ أمته جميعًا ـ المتقين منهم وغير المتقين ـ أن الله تبارك وتعالى هو العظيم الغفران ، الواسع الرحمة .

كما أمره أن يبلّغهم أن عذاب الله هو العذاب الأليم ، أى البالغ الغاية فى الشدة والإيلام لايشبهه عَذَاب غيره ولا يدانيه ، فقال جلّ وعلا :

٥٠ــ (وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) :

وفى معنى الآيتين قوله سبحانه : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ »[1] . وفى هذا المعنى يقول النبى صلى‌الله‌عليه‌وسلم – فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه : « إنَّ الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ؛ فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة : فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة ، لم ييئس من الجنة ؛ ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب ، لم يأمن من النار »[2] . وقد نبهت الآيتان على مقامى الرجاء والخوف ، ولابد للعبد من الجمع بينهما ؛ وينبغى أن يكونا سواء مادام العبد صحيحا معافى ؛ فإن المبالغة فى الرجاء تفضى به إلى تسويف الصالحات أو إهمالها ؛ والمبالغة فى الخوف تفضى به إلى القنوط واليأس ! وخير الأمور أوساطها .

وقيل يُغلّب الخوف على الرجاء فى حال صحته ، فأما إذا مرض فليغلّب الرجاء على الخوف حتى إذا دنتْ أمارات الموت فليكن رجاؤه فى ربه وإحسان الظن به محضاً خالصاً ، ولا سيما حال احتضاره ؛ فإنه حينئذ قادم على رب كريم ذى فضل عظيم سبقت رحمتُه غضبَه وعذابه ، وقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لايموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » وروى مسلم عن جابر أيضًا قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « يُبعث كل عبد على مامات عليه » . وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى »[3] .

(١) سورة الرعد من الآية : ٦

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق ، فى باب الرجاء والخوف ، ومسلم فى كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه » .

(٣) رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء فى قول الله تعالى : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده » ومسلم فى كتاب التوبة ، باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه .

ولعل فى تقديمه سبحانه الوعد على الوعيد - مع زيادة فى تأكيد الوعد - تنبيهاً على هذا الفضل .

ولما أجمل الله سبحانه وعده ووعيده فى الآيتين السابقتين ، فصّل بعض ما أجمل فى الآيات التالية فذكر طائفة من أنباء رحمته وعذابه مما وقع فى هذه الدار ، عبرة وتذكرة لما يكون فى الدار الآخرة ، ساقها سبحانه ممثلة فى قصة خليله إبراهيم وبشارته ، ونبيه لوط ونجاته ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر ، وما حل بهم جميعاً من عذاب لا تزال آثاره باقيةً مرئية . وبدأ بقصة أبى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فقال آمرًا نبيه صلى الله عليه وسلم :

٥١ - (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) : أى أخبر أمتك أيها النبى عن ضيف إبراهيم خليله ؛ ليعتبروا بما جرى له ولابن أخيه لوط عليهما السلام من البشرى فى تضاعيف الخوف - على ما يأتى بيانه - والمراد بضيف إبراهيم : رسل من الملائكة أرسلهم الله تعالى فى صور بشر إلى قوم لوط ليهلكوهم ، ومروا فى طريقهم بإبراهيم ليبشروه بغلام عليم ، وبهلاك القوم المجرمين - وهم - على ماروى عن ابن عباس رضى الله عنهما - جبريل وملكان معه ، وقيل أكثر من ملكين ، على خلاف بين المفسرين ، مع اتفاقهم على أن جبريل عليه السلام أولهم . وكانوا فى صور شبان حسان الوجوه .

وقد تقدمت قصتهم فى سورة هود فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » الآيات [1] . وتأتى فى سورة الذاريات فى قوله تعالى : « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ [2] » . الآيات .

---

(١) ٦٩ - ٨٣

(٢) من ٢٤ - ٣٧ .

والقصة فى هاتين السورتين أكثر تفصيلا مما وقع فى هذه السورة . والقرآن الكريم يكمل بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، ويتعين رَجْع بعضه إلى بعض فى القصة الواحدة . قال جل ثناؤه :

٥٢ - (إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ) :

أى اذكر أيها الرسول حين دخل هؤلاء الأضياف على إبراهيم وحيّوه فقالوا سلاماً ، أى قالو هذا اللفظ تحية له . أى نسلّم عليك سلاماً فقال ردًّا لتحيتهم عليكم سلام ، إلا أن الرد لم يذكر فى هذه السورة اكتفاء بذكره فى سورتى هود والذاريات ، كما لم يذكر مجيئه بالعجل السمين الحنيذ ، أى المشوى ، اكتفاء بذكره فى السورتين كذلك .

وكان عليه السلام كريماً غاية الكرم ، وكان يقال له - فيما يؤثر - أبو الضّيفان ، ولا عجب فقد جاد بنفسه لربه الأكرم .... والجود بالنفس أقصى غاية الجود .

قال إبراهيم عليه السلام لضيوفه لما امتنعوا عن الأكل ، وقد قدم إليهم العجل : (إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ) : أى خائفون فزعون، لما جرت به العادة عندهم أنه إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير ! لهذا نكِرهم قبل أن يُعلموه أنهم رسل الله ، وأوجس منهم خيفة ثم صرح بخيفته فقال : « إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ » . وفى سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَاتَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَاتَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ »[1]

٥٣ - (قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) :

طمأنت الملائكة إبراهيم عليه السلام : إذ قالوا له لاتوجل أى لا تخف ولا تفزع ، ولكى يزيلوا خوفه بشروه بغلام عليم ليعلم سر مجيئهم إليه ، والمراد من كونه غلاماً عليماً أنه يكبر ويكون عظيم القدر كثير العلم ، وهو إسحق عليه السلام من امرأته - واشتهر أن اسمها سارَة - وقد بشروها أيضاً بيعقوب من ورائه كما جاء فى قوله تعالى : « فَبَشَّرْنَاهَا

---

(١) الآية ٧٠

بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ »[١] وفى هذه البشارة إشارة إلى بقاء الخليل وأهله فى سلامة وعافية زماناً طويلا .

وأما الغلام الحليم فى قوله تعالى : « فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ » فالمراد به ابنه البكر إسماعيل من جاريته هاجر وهو الذبيح . وتأتى قصة ذبحه فى سورة الصافات[٢] .

(قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ) : أى أدركنى وأصابنى كبر السنّ . (بِالْحَقِّ) : أى بالأمر الثابت المحقق .

(الْقَانِطِينَ) : أى اليائسين ، من القنوط وهو اليأس ، والمراد اليأس من الولد .

(الضَّالُّونَ) : أى المخطئون طريق الصواب والحق .

التفسير

٥٤ـ (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) :

أى قال إبراهيم عليه السلام للملائكة متعجبا من تبشيرهم إياه بالولد مع كبر سنه وشيخوخته ـ وقد جرت العادة بعدم الولادة فيها ـ كيف تبشروننى بالغلام وأنا على هذه الشيخوخة ؟ ! ثم أكد عجبه فقال بصيغة الاستفهام التعجبى :

---

(١) هود : من الآية ٧١

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٠١ ـ ١٠٧

(فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) : أى فبأى أعجوبة تبشروننى ؟ ! إن البشارة بما لم تجربه العادة ! أمر يدعو إلى العجب .

٥٥ - (قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ) :

أى قالت الملائكة مجيبين إبراهيم عليه السلام : بشرناك بالأمر المحقق الثابت الذى لاريب فيه ولا لبس ، فلا تكن من اليائسين من خرق العادة لك؛ فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشرا من غير أبوين : فكيف لا يخلقه من شيخ فان وعجوز عاقر ؟ وكان تعجبه عليه السلام مما بشربه لمخالفته للعادة لا لأن الله تعالى لايقدر على مثله فإنه يعلم من قدرة الله تعالى ما هو أعظم من ذلك، ولهذا قالت الملائكة له : « فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ » : ولم يقولوا له : فلا تكن من الممترين أو الشاكين . ولهذا أيضاً :

٥٦ - (قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) :

والاستفهام هنا إنكارى معناه النفى ، أى لاييئس من رحمة ربه إلا الخاطئون المنصرفون عن طريق الحق والصواب والمعرفة ، فلا يعرفون سعة رحمته تعالى ولا كمال علمه وقدرته .

ومراده عليه السلام نفى القنوط عن نفسه ، وبراءته منه على أبلغ وجه وأكمله ، أى ليس بى قنوط من رحمة ربى جل وعلا ، وإنما الذى قلته ، لبيان منافاة حالى وكبر سنى لإنجاب الذرية عادة ، وفى تعرضه عليه السلام لوصف الربوبية والرحمة مالايخفى من الجزالة .

ثم لم تكن هذه المحادثة بين الملائكة وإبراهيم خاصة ؛ فقد اشتركت فيها امرأته أيضاً إذ قالت للملائكة ما حكى الله عنها فى سورة هود : « يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ »(١) . ولم تُذكر محادثتهم مع امرأته هنا اكتفاء بذكرها فى سورة هود ، كما لم تذكر مع إبراهيم هناك اكتفاء بذكرها هنا . والكتاب العزيز- كما أسلفنا - يكمِّل بعضه بعضا ، ويفسِّر بعضه بعضا ، ويصدِّق بعضه بعضا ، دون تناقض أو اختلاف . وصدق الله إذ يقول : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيراً »(٢) .

---

(١) الآيتان : ٧٢ ، ٧٣

(٢) النساء : من الآية ٨٢

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ
إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ
بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(فَمَا خَطْبُكُمْ) : أى فما شأنكم وأمركم الخطير؟ قال الراغب : والخطب ، الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب .

(قَدَّرْنَا) : قضينا أو حكمنا ، من التقدير بمعنى الحكم . (الْغَابِرِينَ) : الباقين ، يقال : غبر يغبُر غبورا : أى بقى . (يَمْتَرُونَ) : يَشُكُّون ، من المرية بمعنى الشك ، يقال : امترى فى الأمر وتمارى فيه ، أى شك .

التفسير

٥٧ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ) :

لما طمأنت الملائكة إبراهيم بأنهم رسل الله وبشروه بالغلام العليم ، ذهب عنه الروع واستأنس بهم ، لكنه عليه السلام تفرس فيهم أنهم أرسلوا لأمر آخر خطير غير البشارة ، إذ كان حديثهم موجزا يشعر بأن فى هذا الإيجاز كلاما مطويا ، ثم إنهم ذوو عدد والبشارة يكفى فيها واحد ، ولهذا خاطبهم بعنوان الرسالة وصدر خطابه بالفاء بعد أن كان خطابه

السابق مجرداً من ذلك، كأنه قال : يبدولى أن لكم شأنا آخر خطيراً فما هو ؟ وقد كانت إجابتهم مصدقةً لفراسته :

٥٨ - (قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ) :

يعنون قوم لوط عليه السلام ، فقد أفحشوا غاية الفحش بإتيانهم الرجال شهوة من دون النساء مع شركهم ، ولهذا وصفوا بالإجرام لأنه دأبهم ، وجيء بهم بطريق التنكير ذمًّا لهم واستهانةً بهم .

أى قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام جوابا عن سؤاله : إنا أرسلنا الله تبارك وتعالى إلى قوم مجرمين .

وتتمة الجواب فى سورة الذاريات : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ . مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ »[١] .

إلا أنه أوجز هنا اكتفاء بما ذكر هناك ، كما تقدم مثل هذا وكما يأتى مراراً ، وهذا من دلائل حكمة الكتاب العزيز ، حيث لا يطنب فى مقام الإيجاز .

أى قال المرسلون لإبراهيم عليه السلام ، إن الله تعالى أرسلهم لإهلاك المجرمين من قوم لوط بعذاب الاستئصال ، وتنجية غير المجرمين منهم فهم مستثنون من القوم المهلكين . ولذلك قالوا :

٥٩ - (إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ) : والمراد من آل لوط من آمن به من قومه ولو كانوا من غير قرابته أو أصهاره ، وقد استثنوهم من أجل إيمانهم . ولما كانت امرأته كافرة ضالة ، استثنوها من آل لوط فقالوا :

٦٠ - (إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) :

أى حكمنا وقضينا قضاء لا مرد له : بأنها من الباقين فى العذاب مع الكفرة المهلكين ، من أجل كفرهم وجرمهم وكفرها معهم . وإنما أسند الملائكة التقدير والقضاء إلى أنفسهم

(١) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ .

مع أن الله تعالى هو الذى قدّر وقضى لأنهم هم المباشرون لإنفاذ ما أمر الله بإنفاذه ، كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا وفعلنا وإن كان الآمر هو الملك .

وقوله سبحانه :

٦١ ـ (فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ) :

شروع فى بيان إهلاك المجرمين ، وتنجية آل لوط ، مع تفصيل لما أُجمل فى الاستثناء السابق ؛ وذلك أن الملائكة لما بشروا إبراهيم بالغلام ، وعرفوه بما أُرسلوا به ، ساروا إلى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط وهم فى صور شبان حسان الوجوه :

٦٢ ـ (قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ) :

أى لا أعرفكم، فمنْ أنتم ؟ ولأى أمر جئتم؟ وإنما قال ذلك لأنهم ليسوا من أهل الحضر ، ولا تبدو عليهم آثار السفر . ويحكى الله سبحانه إجابتهم للوط لكى يطمئنوه ، ويعرفوه بما جاءوا من أجله ؛ فيقول جل شأنه :

٦٣ ـ (قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ) :

أى ما جئناك بما يسوؤك ، بل جئناك بما فيه سرورك ونصرك على أعداء الله وأعدائك ، وهو إيقاع العذاب الذى كنت تتوعدهم بنزوله ، فيمترون أى يشكون فيه ويكذبونك . وهذا كما حكى الله عنهم فى شىء من التفصيل الذى تقدم فى سورة هود : « قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ »[1] ...ثم أكدوا بشارتهم بجملة من المؤكدات فقالوا :

٦٤ ـ (وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) :

أى وجئناك بالأمر المحقق المتيقن الذى لامجال للامتراء والشك فيه وهو عذابهم ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به ، أو فى كل كلام نقوله ؛ لأنه من عند الله عز وجل فيكون كالدليل على صدقهم فيما أخبروا به .

(١) من الآية : ٨١ .

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ
مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ
ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ
ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾
قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

المفردات :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) : أى سر واذهب بأهلك ليلا ، من أسرى ، وقرئ « فاسر » بهمزة الوصل من سرى ، وهما بمعنى واحد . وقيل : أسرى فى السير أول الليل ، وسرى فى السير آخره. (بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ) : أى جزء منه ، أومن آخره . (أَدْبَارَهُمْ) : آثارهم .

(وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ) : أى أوحيناه إليه . وأصل القضاء الحكم . ولكنه ضمن معنى الإيحاء فتعدى تعديته بإلى . (دَابِرَ هَؤُلَاءِ): آخرهم . (مُصْبِحِينَ) : داخلين فى الصباح . وتأتى صيغة « أفعل » للدخول فى الشىء نحو أشرق ، وأنجد ، وأتهم[1] .

(وَلَا تُخْزُونِ) : ولا تهينونى ، من الخزى ، وهو الذل والهوان ، أو لا تخجلونى ، من الخزاية ، وهى الحياء والخجل .

التفسير

٦٥ - (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ...) الآية .

لما بشرت الملائكة لوطا عليه السلام بما أرسلهم الله به ، من إهلاك المجرمين ، وإنجائه وإنجاء أهله إلا امرأته - أمروه بما أمرالله به وهو أن يسرى بأهله فى جزء من الليل أو فى آخره .

(١) أى دخل فى الشروق والنجد وهو المكان المرتفع ، والتهامة وهى المكان المنخفض . .

والفاء لترتيب الأمر بالإسراء على الإخبار برسالتهم . وهذا شروع فى ترتيب مبادىء النجاة كى تتم على ماقضى الله ودبّر .

والمعنى : اذهب بأهلك فى جزء من الليل أو فى آخره ، وكن فى أثرهم ، لتطلع على أحوالهم ، وتبعث الطمأنينة فيهم .

(وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ) :

أى ولا يلتفت منك ولا منهم أحد ، لئلا يرى ماوراءه من هول العذاب فلايطيقه .

وقيل نُهوا عن الالتفات ، ليوطّنوا أنفسهم على المهاجرة أو المراد به النهى عن الابطاء فى السير فإن الملتفت قلما يخلو من أدنى وقفة .

ولم يذكر استثناء المرأة من الإسراء بأهله وعدم الالتفات ، اكتفاء بما ذكر فى آيات أخر .

(وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ) :

أى واذهبوا إلى المكان الذى أمركم الله بالذهاب إليه ، وهو الشام – على ماروى عن ابن عباس والسُّدّى – وقيل الأُرْدُنّ ؛ وقيل مصر . وقيل موضع نجاة غير معيّن . والعلم عند الله تعالى . وأيًّا كان الأمر فالجملة تأكيد للنهى عن الالتفات مع الإسراع بالسير قُدُماً امتثالا لأمره تعالى . وربما كان معهم من يوجههم إلى المكان الذى أمروا أن يذهبوا إليه . أو عرفه الله إياه والطريق الموصل إليه ، والله تعالى أعلم .

٦٦ – (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ) :

أى وأوحينا إلى لوط قضاء ذلك الأمر الذى حكمنا به على قومه حكماً لامردّ له ، وهو عذاب الاستئصال الذى فسره سبحانه بقوله :

« أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » وفى إبهام الأمر أولا وتفسيره ثانياً بما ذكر أكبر دلالة على فظاعته وشدة شناعته . والمعنى أنهم يُسْتأْصلون عن آخرهم وهم داخلون فى وقت الصباح فلا يبقى منهم أحد . وقوله تعالى :

٦٧ - (وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ) :

شروع فى بيان ماصدر من القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف. والمراد بالمدينة مدينة قوم لوط - وتسمى سدوم - وبأهلها أولئك القوم المجرمون .

والمعنى : وجاء أهل المدينةمنزل لوط عليه السلام مستبشرين فرحين ، وذلك أن الرسل لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم فى المدينة ،وقيل إن امرأته أخبرتهم بذلك فجاءوا إلىداره طمعا فى أولئك الأضياف الغرباء الحسان ،فلماخشى منهم على أضيافه ولم يكن يعلم أنهم رسل الله :

٦٨ - (قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ) :

أى إن هؤلاء أضيافى فحق علىّ أن أبذل الوسع فى إكرامهم ، وحق عليكم أن تعينونى فى رعايتهم وحمايتهم ، فإن لم تفعلوا فلا أقل من أن تتركوهم ولا تتعرضوا لهم بسوء حتى لايفهموا أنه ليس لى عندكم قدر ولا حرمة وتلك فضيحة لى ، ومعرة علىّ ، أو فلا تفضحونى بفضيحة ضيفى ، فإن من أسىء إلى ضيفه فقد أسىء إليه !

ثم أكد طلب الكف عن الإساءة إليهم إذا لم يكونوا أهلا للإحسان فقال ماحكاه الله سبحانه عنه بقوله :

٦٩ - (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ) :

أى واتقوا الله فى تعرضكم لما يسوءنى ، فلا ترتكبوا فاحشتكم فى ضيفى فتوقعونى فى الذل والخزى أمام الأضياف ، فإن ذلك أجلب للعار والفضيحة علىّ !

غير أن الخبث والانحراف عن الفضيلة كان متأصلا فيهم ، وكلمة العذاب حقت عليهم ومن أجل ذلك :

٧٠ - (قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ) :

أى ألم نتقدم إليك بعدم ضيافة الشبان وحمايتهم ولم ننهك عن العالمين ، فلماذا خالفتنا وآويت هؤلاء الشبان ، وجعلتنا نحضر إليك ونطلبهم منك ، يعنون أننا قد نهيناك فعلا عن ذلك . فكأنهم- أخزاهم الله - قالوا ما ذكرته من العار والفضيحة إنما جاء من

قبلك لا من قبلنا ، إذ لولا تعرضك لما نتصدى له لما اعتراك مايسوءك ؛ وكانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء ، فكان عليه السلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا ينهونه جاهدين أن يضيف أحدًا أو يُجيره .

ولما رآهم عليه السلام مصرين على مُنكرهم لا يقلعون عنه ، وأن نصحه ذهب هباء :

٧١ - (قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) :

يعنى ببناته نساء قومه ، فإن نبي كل أمة بمنزلة أبيهم ؛ أو يعنى بناته حقيقة ، أى فتزوجوهن وقد كانوا يطلبونهن فلا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم ، لا لعدم مشروعية الزواج بين المسلمات والكفار ؛ فإنه كان جائزًا كما هو مبين فى المطولات .

وقوله : (إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) : أى إن كنتم راغبين فى قضاء الشهوة فاقضوها بالطريق المشروع الذى أحله الله وهو الزواج ؛ فإنه أطهر لكم وأكرم ، دون الطريق الخبيث المحرم ، أو إن كنتم فاعلين ما أشرت به عليكم من التزوج ، فهؤلاء بناتى فتزوجوا منهن .

وكان مجىء هؤلاء المجرمين إلى منزل لوط عليه السلام وما دار بينه وبينهم ، من نصحه لهم ومجادلتهم له - كان مجيئهم هذا قبل أن تُعلمه الملائكة بأنهم رسل ربه ، ويأمروه بأن يَسرِىَ بأهله ، على ما تقدم بيانه فى سورة هود فى قوله تعالى : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً »[1] إلى قوله عز سلطانه : « قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » .

وإنما أُخِّر ذكر مجيئهم هنا وما تبعه من المجادلة ، وقُدم عليه ذكر ماكان بينه وبين الرسل من المقاولة - على خلاف الترتيب الواقعى - للمسارعة إلى ذكر بشارة لوط عليه السلام بإهلاك قومه وتنجية آله عقب ذكر بشارة إبراهيم عليه السلام بهما . ولم يراع فى النظم الكريم الترتيب الواقعى ، ثقةً بمراعاته فى مواقع أخر . والواو للعطف ، ولكنها لاتقتضى الترتيب ، ولاسيما إذا دل الدليل على خلافه .

---

(١) سورة هود من الآية ٧٧ - إلى الآية ٨١

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾
وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن
كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا
لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾)

المفردات :

(لَعَمْرُكَ) : أى لحياتك ، وهى صيغة قسم معناها أقسم بحياتك . والعَمر بالفتح هو العُمر بالضم ، ولكنه بالفتح اختص بالقسم للخفة وكثرة دورانه على الألسنة .

(سَكْرَتِهِمْ) :أى غفلتهم الشديدة التى أشبهت السُّكر فجعلتهم كالسكارى... أوضلالتهم كذلك .

(يَعْمَهُونَ) : يترددون ويتحيرون ، من العَمَه ، وهو فى البصيرة كالعمى فى البصر نعوذ بالله تعالى منه !

(الصَّيْحَةُ) : الصوت الشديد المزعج . والمراد به العذاب الذى أهلكهم الله به . كما نقله ابن المنذر عن ابن جريج ، وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة !

(مُشْرِقِينَ) : داخلين فى وقت شروق الشمس . (سِجِّيلٍ) : طين متحجر .

(لِلْمُتَوَسِّمِينَ) : للمتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشىء بِسِمَتِهِ وعلامته .

(أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ) : أصحاب الغَيْضَة وهى جماعة الشجر الكثيف الملتف . والمراد بها البقعة الكثيرة الأشجار المثمرة .

(لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ): لفى طريق بيّن واضح يؤتمّ به .

التفسير

٧٢ - (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) :

قيل : هذا قسم من الله تبارك وتعالى بحياة نبيه لوط عليه السلام : إن قومه لفى غفلة غامرة ، وضلالة منكرة ، جعلتهم كالسكارى يتحيرون ويترددون ، فكيف يستمعون للنصح ، أو يستجيبون لداعى الهدى وهم فى غوايتهم يتخبطون ؟ ! والمقصود من القسم تأكيد جهالتهم بعاقبة إعراضهم وغفلتهم ، وقيل هو قسم من الملائكة بأمر الله تعالى على تقدير القول ، أى قالت الملائكة للوط عليه السلام : « لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُون » غافلون عما يصبّحهم من عذاب قريب لا ريب فيه ، كما قال تعالى : « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ »[1] . وقال قوم إنه قسم بحياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبه قال ابن جرير وابن كثير وجمهور من المفسرين ، وعلى رأسهم ابن عباس ، حيث قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره[2] . وعلى هذا تكون الضمائر فى قوله : « إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ » عائدة على قريش ، غير أن القسم بحياة لوط عليه السلام أنسب بسياق القصة ولا ضرورة تدعو إلى أن يكون القسم هنا بحياة محمد صلى الله عليه وسلم . فالله جل شأنه يقسم بما شاء على ما شاء ، لحكم وأسرار ، والحكمة هنا تكريم لوط وبيان حسن منزلته عند ربه وإن لم يستجب له قومه ، فقد بذل فى هدايتهم غاية الجهد ، ولكنا نهينا أن نحلف بغير الله تعالى أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته ، كما قدمنا فى تفسير قوله سبحانه :

---

(١) سورة هود من الآية ٨١

(٢) فى كتاب : التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم تأييد لهذا القول ورد لما سواه .

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ »[1] الآية . قال صاحب الفتح : قال العلماء : السر فى النهى عن الحلف بغير الله ، أن الحلف بالشىء يقتضى تعظيمه ، والعظمة فى الحقيقة إنما هى لله وحده . . .

ولما أفادت الآيات السابقة أن قوم لوط بلغوا من الإجرام حدًّا لاينفع معه نصح ولا إنذار ذكر سبحانه عاقبة إجرامهم فقال :

٧٣ـ (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ) : الفاء فى قوله تعالى : « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ » للإشارة إلى أن عذابهم بالصيحة جاء عقب إخبار لوط بأن قومه فى سكرتهم يعمهون .

والمعنى : فبعد ما أُخْبِرَ لوط بغفلة قومه عما أعده الله لهم من العقاب على فاحشتهم ، أخذتهم صاعقة العذاب الهون وهم مشرقون ـ أى داخلون فى وقت شروق الشمس ، ويجمع بين قوله تعالى : « وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ » وبين قوله هنا « مُشْرِقِينَ » بأن ابتداء عذابهم كان عند الصبح ، وانتهاءه كان عند الإشراق .

ثم بين سبحانه صفة العذاب المدمر الذى أحيطوا به فقال :

٧٤ـ (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ) :

أى فجعلنا عالىَ مدينتهم ، أو عالى قراهم سافلها ، بأن دمرناها عليهم وقلبناها فوقهم ، وأرسلنا عليهم طينًا متحجرًا كالمطر المتتابع : أنزلناه قبل القلب أو فى أثنائه ليصيب الشذاذ المتفرقين ، فلا ينجو منهم جميعًا أحد . وفى سورة الذاريات : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ »[2] . ولاريب أنها حجارة صنعت من طين لايعلم كنهه إلا علام الغيوب والطين إذا تحجر سُمّى سِجّيلا !

---

(١) سورة المائدة من الآية : ٨٩

(٢) الآية : ٣٣

ثم دعا سبحانه إلى النظر والاعتبار بما أصاب هؤلاء المجرمين فقال :

٧٥ـ (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) :

أى إن فى ذَلكَ العذاب الذى أحاط بقوم لوط فدمّرهم لعلامات بينةً على أخذ الله للمجرمين . يعرفها أهل الفطانة الذين يدركون الأُمور بسِماتِها وعلاماتها . فيستدلون بها على حقائق الأشياء ، ويعتبرون بما يحدث فى الكون من عظات وعبر !

وفى الآية تنويه بالفِراسة والمتفرسين . وفى تفسير ابن كثير عن أبى سعيد مرفوعًا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » رواه الترمذى وابن جرير . وأصدق الناس فِراسةً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان . قال ابن القيم : وكان الصدِّيق رضى الله عنه أعظم الأُمة فِراسةً ، وبعده عمر ابن الخطاب رضى الله عنه[1]

ثم بين سبحانه بيانا مؤكدًا أن مدينة قوم لوط لاتزال توحى بالعبرة والعظة فقال :

٧٦ـ (وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ) :

أى وإن هذه المدينة ، أو القرى ـ يعنى آثارها ـ لفى طريق باق ثابت يسلكه الناس يومئذ فيرونها رأى العين ليعتبر بها أولو الأبصار والبصائر ، وفى سورة الصافات : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[2] » . والخطاب لأهل مكة .

ثم حث المؤمنين على النظر مؤكدًا فقال :

٧٧ـ (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

أى إن فيما ذُكر من قصة قوم لوط وما حل بهم لعلامةً عظيمة للمؤمنين بالله ورسوله فإنهم الذين يعرفون أن ما حاق بهم من العذاب وَجَعْلِ ديارهم خاويةً بلاقع ، إنما حل بهم لسوء صنيعهم ، وأما غيرهم فهم غارقون فى غوايتهم فلا يفكرون فى الآيات ولا يعرفون سبيل

(١) انظر كتابه : « مدارج السالكين ، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » .
(٢) الآيتان : ١٣٧ ، ١٣٨

الهدى . وإفراد لفظ (الآية) هنا وجمعها فيا سبق لأن المشار إليه هنا مجمل وهو كونها بسبيل مقيم ، والمشار إليه قبل ذلك مُفَصَّل حيث ذكرت قصة إهلاكهم وتدمير قراهم بسبب فاحشتهم ، ثم ساق سبحانه نبأ أصحاب الأيكة مجملا فقال :

٧٨ـ (وَإِن[1] كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ) :

أى وإن الشأن والخبر كان أصحاب الأيكة لظالمين لأنفسهم ، وأصحابُ الأيكة قومٌ أرسل إليهم شعيب ،والأيكة الشجرة الملتفة المتكاثفة ، وكانت عامة شجرهم المقل الذى عبر عنه بالأيكة . فنسبوا إليها . وكانت قريبة من مدين قرية شعيب . ولما ظلموا أنفسهم بالشرك ومختلف المظالم أرسل الله إليهم شعيباً كما أرسله إلى قومه أهل مدين . ولذا قال سبحانه فى كل من السور الثلاث ، الأعراف ، وهود ، والعنكبوت. «وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا[2] » الآيات . وقال فى سورة الشعراء : « كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ». إلى قوله عز من قائل : « فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ »[3] . وجملة القول أن شعيباً عليه السلام ، أرسل إلى أمتين عذبتا بعذابين . كما قال ابن جرير وغيره وهو ظاهر الكتاب العزيز .

ويبدو أنهم فاقوا أهل مدين فى الشرك والطغيان والاستهزاء والبهتان . ولذا كان عذابهم بيوم الظلة أشد من عذاب أهل مدين بالصيحة والرجفة وهى الزلزلة كما يعرب عنه قوله سبحانه : « فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ[4] » حيث أكد سبحانه أنه كان عذاب يوم عظيم . روى غير واحد عن قتادة قال : ذُكر لنا أنه جل شأنه سلط عليهم

---

(١) أى وإنه « كان أصحاب الأيكة لظالمين » فان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن والأصل وإنه . أى وإن الحال والشأن كان أصحاب الأيكة الخ ، ولذا وقعت اللام الفارقة فى الجملة التى بعدها لكونها فى محل رفع خبر إن هذه ، وسميت هذه اللام (اللام الفارقة) لأنها فرقت بين إن المؤكدة التى تنصب الاسم وترفع الخبر بعد أن خففت نونها بالسكون وبين إن النافية المشبهة لها فى سكون النون .

(٢) الأعراف أول الآية : ٨٥ - وهود أول الآية : ٨٤ - والعنكبوت أول الآية : ٣٦

(٣) الشعراء الآيات من ١٧٦ - ١٨٩

(٤) الشعراء الآية (١٨٩)

الحر سبعة أيام لايظلهم منه ظل ولايمنعهم منه شئ. ثم بعث سبحانه عليهم سحابة فجعلوا يلتمسون الرَّوْح[1] منها فبعث عليهم منها نارًا فأكلتهم فهو عذاب يوم الظلة. وقوله سبحانه:

٧٩ ـ (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ) :

مرتب على ظلمهم الذى تجاوز كل ظلم ، وإبهام نوع الانتقام هنا ثم تفسيره فى سورة الشعراء بعذاب يوم الظلة دليل على شدة هوله وعظمه. وقد قلنا مرارًا إن الكتاب العزيز يفسر بعضه بعضًا ، وضمير التثنية فى قوله تعالى: « وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مبِينٍ » قيل إنه يعود إلى الأيكة ومدين . لأنه لما كان رسولهما واحدًا هو شعيب عليه السلام كان ذكر أحدهما منبهًا على الآخر . والظاهر أنه يعود إلى مسكنى قوم لوط وأصحاب الأيكة ـ قال الآلوسى : وإلى ذلك ذهب الجمهور. أ. هـ. ويؤيده أنهما تقدما فى الذكر . وقد أضمير سابقًا إلى قرية قوم لوط بضمير المفرد فى قوله : « وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ » . وأضمر لها وللأيكة هنا بضمير المثنى حيث قال تعالى: « وإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ » . ولعل هذا لتكرير العبرة والعظة بما يصيب القوم المجرمين. والإمام المبين هو الطريق البين الواضح الذى يأتم به ويهتدى الغادى والرائح .

(١) الروح : يعنى الراحة .

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

المفردات :

(الْحِجْرِ) : واد بين المدينة المنورة والشام. (أَصْحَابُ الْحِجْرِ) : هم ثمود قوم صالح عليه السلام ،ويسمّون عادًا الثانية . وأصل الحجر كل ما أُحيط بالحجارة ومنه حجرُ الكعبة .

(الصَّيْحَةُ) : الصوت الشديد المزعج . والمراد منها الرجفة التى أهلكوا بها كما سيأتى بيانه .

(فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم) : فما دفع عنهم وما منعهم .

التفسير

٨٠ - (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) :

هذا شروع فى قصة أصحاب الحجر ، قوم صالح عليه السلام ، وهى من القصص التى لاتزال آثارها ناطقة بالعبرة والعظة لمن يمر بها . والحجر هو الوادى الذى كانوا يسكنونه . ولايزال معروفا بين المدينة النبوية والشام ، وقد كان يمر به ركب الحجاز إلى الشام ، ذاهبين وعائدين . وقصتهم هنا مجملة وفى مواطن أخرى ذكرت مفصلة . وإليك موجزا فى بيان قصتهم التى أجملتها هذه الآيات :

أرسل الله إليهم نبيهم صالحا فكذبوه فكانوا بتكذيبه مكذبين للرسل أجمعين ؛ لاتفاق كلمتهم على التوحيد والأصول التى لاتختلف باختلاف الأمم والأعصار . ولذلك حكى الله سبحانه تكذيبهم بقوله : « وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ » .

٨١ـ (وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) :

أى وأعلمناهم بحججنا البالغة الدالة على صدق صالح عليه السلام فيما دعاهم إليه من عبادة الله وحده ، والإيمان برسالته . وكانت الناقة إحدى آيات الله البينات : فى شربها ودرِّها على خلاف غيرها من النياق ، ولذلك أضافها صالح إلى الله تعالى حين قال لقومه : « يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »[1] . فكانوا عن هذه الآيات كلها معرضين ، بل مكذبين معاندين .

٨٢ـ (وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ) :

أى ومكنَّاهم فى الأرض وجعلناهم أولى قوة ومَنَعَة ، وحضارة ومهارة ، وحذْق بفنون البناء والعمارة ، حتى كانوا يتخذون من جبالها بيوتًا حصينة ، حيث كانوا يقطعون حجارتها وينحتونها تسوية لها ، ثم يبنون بها قصورهم ليعيشوا فيها آمنين عليها من الهدم ، وعلى أنفسهم من العدوان والسوء ، لقوة بنائها وبديع إحكامها ، أو آمنين من العذاب لحسبانهم أن الحصون التى بنوها تحميهم منه ـ وكانوا يتخذون من سهولها قصورًا عظيمة فى جنات وعيون . . . وقد ذكَّرهم بذلك نبيهم صالح عليه السلام فيما حكى الله عنه فى سورة الأعراف إذ قال : « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ »[2] وفى سورة الشعراء إذ قال « أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ »[3] . لكنهم طغوا وبغوا وجحدوا آيات الله ورسالاته : « وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ »[4] » .

٨٣ـ (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ) :

وفى سورة هود : « وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ[5] » .

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ٧٣
(٢) الآية ٧٤ .
(٣) الآيات من ١٤٦ – ١٤٩
(٤) الأعراف من الآية : ٧٧ .
(٥) الآية : ٧٨ .

وفى سورة الأعراف : « فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ »[١] .

والرجفة هى الزلزلة ، والصيحة من توابعها ، فإن الزلزلة تحدث تموجًا فى الهواء شديدًا يفضى إليها . وكانت صيحة هلاكهم فى صباح اليوم الرابع بعد تمتعهم ثلاثة أيام كما أوعدهم الله على لسان نبيهم صالح عليه السلام فى سورة هود : « فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ[٢] »

والفاء فى قوله تعالى :

٨٤ـ (فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) :

لترتيب عدم الإغناء والنفع ، على ما أصابهم حين نزل بهم قضاء الله الذى لا مرد له .

والمعنى : فما دفع عنهم وما منعهم من عذابه تعالى ما كانوا يكسبونه من نحت البيوت الوثيقة وجمع الأموال الوفيرة ، مع كثرة العدَد والعُدد ، بل خروا فى ديارهم هلكى خامدين كأن لم يكونوا بالأمس .

هذا ، وقد روى الشيخان وغيرُهما عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم . وروينا عنه أيضًا أن النبى صلى الله عليه وسلم لما نزل الحجْر أرض ثمود فى غزوة تبوك ، أمرهم ألا يشربوا من مائها ولايستقُوا منها ، فقالوا : قد عَجَنَّا منها واستقينا ! فأمرهم أن يطرحوا العجين ويهريقُوا ذلك الماء . وفى رواية : فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يُهريقوا ما استقوا من بئرها وأن يَعلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها الناقة . قال العلماء : وقد علم النبى صلى الله عليه وسلم موضع هذه البئر من طريق الوحى .

---

(١) من الآية : ٦٥ .

(٢) من الآية : ٦٥ .

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ
وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ
ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(بِالْحَقِّ) : أى بالأمر الثابت الذى يحق لنا أن نخلق السموات والأرض عليه طبقا لمقتضى الحكمة والمصلحة .

(السَّاعَةَ) : أى القيامة ، وسميت بالساعة ، لأنها تفجؤهم فى ساعة لا يعلمونها .

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) : أى فأعرض عنهم الإعراض الجميل ، أو فاعف عنهم العفو الجميل الذى لا لوم فيه ولا تثريب . (الْمَثَانِى) : جمع مثْنَى من ثنى الشىء يثْنيه إذا أعاده ، أو جمع مُثنية من الثناء ، بحذف الزوائد ، لما فيها من الثناء على الله تعالى .

(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) : لاتطمح بنظرك طموح واغب . وسيأتى بيان ذلك .

(أَزْوَاجًا) : أى أصنافا ، جمع زوج أى صنف .

(واخْفِضْ جَنَاحَكَ) : ألِن جانبك وتواضع ، والجناحان من الإنسان جانباه .

التفسير

٨٥ـ (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ . . . .) الآية . . .

لما قص الله تبارك وتعالى من أنباء المكذبين لرسلهم ما فيه عبرة وتذكرة ـ نبه بذكر هذه الآية الكريمة على حكمته البالغة فى إهلاكهم ؛ حيث بين أنه ما خلق السموات والأرض

وما بينهما ذلك الخلق البديع المحكم ، إلا بالحق وهو أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئا ، فلما جحدوا آياته ، وأشركوا به ، وكذبوا رسله ، وعثوا فى الأرض فسادا ـ قضت عدالته وحكمته بأن يهلكهم ويهلك أمثالهم ، دفعاً لفسادهم ، وتطهيراً للأرض من شرورهم ، وإرشاداً لمن بقى إلى الصلاح والإصلاح . حذراً من أن يصيبهم مثل ما أصابهم .

هذا جزاؤهم فى الدنيا ، وقد أشارت إليه الجملة الأولى من الآية الحكيمة ، وأما جزاؤهم فى الآخرة فموعدهم فيه الساعة ، وإليه تشير الجملة الثانية من الآية ، وهى قوله :

(وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ) : لا ريب فيها ، فينتقم الله لرسله ، جزاء ما كُذِّبوا وأُوذوا .

هذا ، وفى تلك القصص وما ختمت به تسلية كريمة للنبى صلى الله عليه وسلم ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه ، إذا سمع من ربه أن الأمم السابقة كانوا يعاملون أنبياءهم هذه المعاملة القاسية ، هان عليه تحمل سفاهة قومه وأذاهم ، وسهل عليه أن يعفوَ عنهم عفواً كريما لا لوم فيه ولا تثريب ، وهذا هو الصفح الجميل الذى أمره الله به إذ قال :

(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) : كما روى عن على وابن عباس رضى الله عنهم فى تفسير الصفح الجميل ، وفى أمره صلى الله عليه وسلم بالصفح الجميل إشارة كريمة إلى تركهم لله تعالى ، وأن يتذرع بالصبر الجميل ، حتى يأتى وعد الله وما قضاه فى شأنهم فى الدنيا والآخرة ، وأن يصفح عنهم فلا يحمل نفسه مالا تطيق من الضيق بكفرهم ، ولا تذهب نفسه عليهم حسرات .

ثم قرر سبحانه هذا المعنى وزاده توكيداً فقال :

٨٦ ـ (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) :

أى إن الله الذى رباك بنعمه ، وتولاك بفضله وكرمه هو الخلاق لك ولهم ، العليم بأحوالك وأحوالهم ، وبما جرى بينك وبينهم ، فخليق بك أن تكل الأمور إليه ، فهو الحكم العدل الذى يجازيك على حسناتك ويجازيهم على سيئاتهم ، وقد علمت أن الصفح الجميل

أولى بك إلى أن يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين . ثم امتن سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم بالمنة العظمى ، وهى إنزال القرآن عليه فقال :

٨٧ - (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) :

أى ولقد أنعمنا عليك إذ أنزلنا إليك فاتحة الكتاب ، وهى سبع آيات تُثَنَّى وتكرر فى الصلوات الخمس وغيرها ويُثْنَى بها على الله عز وجل ؛ وهى القرآن العظيم .

وتخصيص الفاتحة بالذكر واعتبارها القرآن الكريم ؛ لمزيد فضلها ورفيع مكانتها ، ولا شتمالها على مقاصد القرآن كله .

وقد روى البخارى[1] عن أبى سعيد بن المعلَّى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له وهما فى المسجد : لأُعَلِّمنَّك سورة هى أعظم السور فى القرآن . . . الحمد لله رب العالمين ، هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته .

وروى البخارى أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أم القرآن هى السبع المثانى والقرآن العظيم » .

فكل من هذين الحديثين الصحيحين نص صريح فى أن فاتحة الكتاب هى السبع المثانى وأنها القرآن العظيم . والقرآن كما يطلق على الكتاب العزيز كله يطلق على بعضه .

وذكر المفسرون جملة أقوال أخرى فى المراد بالسبع المثانى ، أصحها وأقواها ما رُوى عن جمع من الصحابة والتابعين ، وفى مقدمتهم ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير رضى الله عنهم ، إذ قالوا ، إنها السبع الطُّول[2] أطول سور القرآن الكريم كله : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والسابعة الأنفال وبراءة ، فهما عندهم سورة واحدة ولذا لم يفصل بينهما بالبسملة .

---

(١) فى أول كتاب التفسير : باب ما جاء فى فاتحة الكتاب . . . ثم فى باب قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » من تفسير سورة الحجر .

(٢) جمع طولى مؤنث أطول .

وذكر ابن كثير أن النص الصحيح على أن فاتحة الكتاب هى السبع المثانى، لايمنع من وصف السبع الطُّول بما اتصفت به الفاتحة . بل لايمنع من وصف القرآن كله، بأنه مثانٍ ، وقد قال تعالى : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ » (١) .

ولما كان متاع الدنيا وإن عظم، شيئا ضئيلا حقيرا بالقياس إلى ما أنعم الله به على نبيه من نعمة القرآن الكريم - نهاه أن يطمح ببصره طموح راغب فى هذا المتاع فقال :

٨٨ - (لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ . . .) الآية .

أى لاترغب فى متاع الدنيا وزخرفها مما متعنا به أصنافا من الكفرة المشركين وأهل الكتاب ، واستعن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (٢) .

وكان صلى الله عليه وسلم يود أن يؤمن كل من بعثه الله إليهم ، ويشق عليه - لمزيد شفقته - بقاء الكفرة على كفرهم فقال الله له رحمة به :

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) كقوله : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » (٣) أى لاتحزن ولاتتحسر إذا لم يؤمنوا فما عليك إلا البلاغ وقد بلغت ، فلا تبال بهم بعد ذلك .

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) : أى تواضع لمن اتبعك من المؤمنين وارفق بهم واصبر نفسك معهم . فإنهم أولى بك من أولئك الجاحدين ، وإنك بالمؤمنين رءوف رحيم .

---

(١) سورة الزمر من الآية : ٢٣

(٢) سورة طه الآية : ١٣١

(٣) سورة فاطر من الآية : ٨

(وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(النَّذِيرُ الْمُبِينُ) : المنذر الموضح لما ينذر الناس به ويهديهم إليه .

(عِضِينَ) : أى أعضاء وأجزاء متفرقة كل فرقة عِضة ، يقال عضّى الشّىء تعضية إذا فرقه وجزّأه .

(فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) : أى فاجهر بما تؤمر به وأظهره ، يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا أو افرُق بين الحق والباطل ؛ من الصدع بمعنى الشق .

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) : أى تولينا إهلاك المستهزئين يقال : كَفَيْتَ فلانًا المؤنة إذا توليتها ولم تحوجه إليها

التفسير

٨٩ـ (وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ) :

امْتَنَّ الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى الآيتين السابقتين بأنه آتاه سبعا من المثانى والقرآن العظيم وأوصاه بوصايا ثلاث :

« أولاها » : أن لاتطمح نفسه إلى مثل مَا أُوتيه أصناف من الكفار من المال والجاه فإن القرآن أعظم من هذا كله ، فهو عز الدنيا والآخرة « والوصية الثانية » أن لايحزن عليهم بسبب انصرافهم عن الهدى الذى جاءهم به « والوصية الثالثة » أن يتواضع للمؤمنين ويخفض جناحه لهم ليشتد حبهم له ، واستمساكهم بدعوته والتفافهم حوله ، فهم خير له من هؤلاء المترفين المستكبرين ، وقد مرّ الكلام على هاتين الآيتين وجاءت هذه الآية مشتملة على وصية رابعة ، وهى أن يقول لجميع الناس إنه هو النذير الموضح لما أنزله الله عليه من أجلهم ، من السبع المثانى والقرآن العظيم ، وفى جملة ما يوضحه لهم ما أنذرهم فيه من العقاب على مخالفتهم أوامر ربهم ، حيث يبين دواعيه وبراهينه ، وإنما اقتصر على الإنذار مع أن الله أرسله بالحق بشيرًا ونذيرًا ، لأن المؤمنين كانوا يومئذ قلة والكافرين كثرة ، ولأن المقام مقام تحذير وتخويف ، وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ، إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العُريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدْلَجُوا وانطلقوا عَلَى مَهَلِهِمْ فنجوا ، وكذّبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثلُ من أطاعنى واتّبع ما جئت به ، ومثلُ من عصانى وكذّب ماجئت به من الحق » .

٩٠ - ٩٣ - (كما أنزلنا على الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)) .

البيان

اختلف العلماء فى تفسير المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين على سبعة أقوال نختار منها قولين : (أحدهما) ما قاله مقاتل والفراء ، من أنهم ستة عشر رجلا ، أرسلهم الوليد ابن المغيرة أيام موسم الحج فاقتسموا طرق مكة ومداخلها وفجاجها ، يقولون لمن سلكوها : لاتغتروا بهذا الخارج فينا يدّعى النبوة فإنه مجنون ، وربما قالوا : ساحر ، وربما قالوا شاعر ، وربما قالوا كاهن ، وسُمّوا مقتسمين لأنهم اقتسموا مداخل مكة فأماتهم الله شر ميتة ، وكانوا نصّبوا المغيرة بن شعبة حكماً على باب المسجد الحرام ، فإذا سألوه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وافق على فرية هؤلاء المقتسمين ، وصدقهم فيما يفترونه — هكذا حكى القرطبى رأى مقاتل والفراء .

(والقول الثانى) لِقَتَادَة وخلاصته أنهم قوم من كفار مكة ، اقتسموا كتاب الله فزعموا بعضه شعرًا ، وبعضه سحرًا ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين فهؤلاء هم المقتسمون جعلوا القرآن عضين ، أى جعلوه أجزاء مختلفة وفرقًا متباينة ، لكل جزء منه اسم من الأسماء التى مرّ بيانها .

وإنما اخترنا هذين القولين لأن السورة مكية ، وما جاء فيهما حدث من مشركى مكة .

أما ما قيل من أن المقتسمين هم أهل الكتاب ، اقتسموا القرآن فيما بينهم ، فآمنوا ببعضه وهو ما وافق التوراة والإنجيل . وكفروا ببعضه وهو ما خالفهما ، أو اقتسموه استهزاء . فقال بعضهم لبعض : هذه السورة لى وهذه السورة لك ، أو اقتسموا كتبهم ففرقوها وبدّدوها — أما هذه الأقوال الثلاثة فغير مقبولة لأن السورة مكية . ولم يحدث من النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة احتكاك بأهل الكتاب . ولا تبليغ القرآن لهم حتى يقولوا فيه ذلك ، كما أنه لم يسبق لأهل الكتاب فى السورة كلها ذكر مطلقًا حتى يتوهم رد المقتسمين إليهم وتفسيرهم بهم .

وأما ما قيل من أن المراد بهم قوم صالح تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين كما قال سبحانه فى سورة النمل حكاية عنهم : « قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ

لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ - ٤٩ - » - أما هذا القول- فهو بعيد أيضًا لأنهم وإن ذكروا فى هذه السورة بعنوان أصحاب الحجر فى الآية رقم ٨٠ لكنهم لم يجعلوا القرآن عضين فإنهم لا علم لهم به لتقدمهم على نزوله فضلا عن أن المقام لايسمح بإرادتهم . وكيف تتصل هذه الآية وما بعدها بقصتهم وبينهما تسع آيات ، وفى أفصح الكلام ، إن هذا لجد بعيد .

ماترتبط به هذه الآيات ومعناها

قد مرَّ بك أيها القارئ الكريم أننا اخترنا الرأيين الأولين فى تفسير معنى المقتسمين لاتفاقهما على أنهم من أهل مكة . وهذا يناسب كون السورة مكية وترتبط تلك الآيات الأربع بقوله تعالى قبلها مباشرة : « وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » والمعنى على هذا :

وقل أيها الرسول للناس : إنى أنا المنذر لمن خالف ربه وكفر به وعصاه ، المبين لهم ما أنذروه كالإنذار الذى نُنْزِلُهُ بشأن المقتسمين من أهل مكة الذين جعلوا القرآن أجزاء وفرقوه أوصافًا . فتارة يسمونه سحرًا وأخرى يزعمونه شعرًا وحينا يدَّعون أنه كهانة. وأخرى يفترون أنه أساطير الأولين. وهذا الإنذار الذى ننزله بشأنهم ونبينه لهم هو قولنا لك تسلية . ولهم وعيدًا وتهديدًا : فوحق ربك الذى أحاطك بحمايته ورباك بنعمته وشرفك برسالته لنسألنهم أجمعين عما كانوا فى دنياهم يعملون من كفر وتكذيب وإعراض وافتراء « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ »[1] فيحاسبهم أدق حساب ويعاقبهم أشد عقاب. فليس الأمر كما يزعمون إذ يقولون : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ »[2] . وعبر بالماضى بقوله : « كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » مع أنه تعالى لم ينزل فى الماضى بشأنهم قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وإنما أنزله وقتما أمر النبى بقوله له : « وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ » الآيات . - وعبر بالماضى فى قوله : « أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ » - لأن المحقق إنزاله فى المستقبل فى حكم الذى نزل فعلا . ولأن نزوله سابق فى علم الله وقضائه .

(١) سورة إبراهيم الآية (٤٢) (٢) سورة الأنعام الآية (٢٩)

ويجوز أن يراد مما أنزله الله على المقتسمين ما سبق نزوله من الإنذار للمعرضين عن القرآن المتقولين عليه كقوله تعالى فى حق الوليد بن المغيرة : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا » وقوله : « سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا » وقوله : « سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَاتُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ »(١) . وذلك عقاب له على قوله فى القرآن : « إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » . وكقوله فى سورة فصلت : « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ »(٢) . وعلى هذا يكون قوله سبحانه : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . وعيدًا آخر غير ماسبق نزوله بشأنهم .

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » عائدا على الناس جميعًا ، وليس خاصًّا بهؤلاء المقتسمين ، أى وحق ربك يا محمد لنسألن الناس جميعًا ـ مؤمنهم وكافرهم عما كانوا يعملون فى دنياهم « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »(٣) .

وليس سؤاله سبحانه سؤال استفهام واستعلام وإنما هو سؤال تقريع وتوبيخ أو تقرير ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لا يسألهم الله تعالى : هل عملتم كذا وكذا لأنه أعلم بذلك منهم وإنما يقول : لم عملتم كذا وكذا؟ وروى الترمذىّ بإسناد حسن صحيح عن أبى برزة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لَاتَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ : عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ بِهِ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنفَقَهُ ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ » ؟

ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى فى سورة الرحمن : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ »(٤) .

وكذا فى سورة المرسلات : « هَذَا يَوْمُ لَايَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »(٥)

---

(١) سورة المدثر الآية من ١١ ـــ ٣٠ (٢) فصلت الآية ١٣
(٣) سورة النجم من الآية ٣١ (٤) الآية ٣٩
(٥) الآيتين ٣٥ ، ٣٦

لأن يوم القيامة طويل وفيه مواقف فيسألون فى بعض المواقف ولا يسألون فى بعضها .

وفى التعرض لوصف الربوبية مضافًا إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، من تسليته واللطف به ، مالا يحتاج إلى بيان .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله تعالى سرًّا حتى نزلت هذه الآية :

٩٤ - (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) :

أى اجهر بما يأمرك الله به ، وأعلِنْ رسالته التى أرسلك الله بها إلى الناس كافَّةً ، ولا تبال بالمشركين وأذاهم فالله حافظك وناصرك وعاصمك ، كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[1] .

ولما كان المستهزئون بالدعوة هم أكبر المعوِّقين لها والصادِّين عن سبيل الله - وعده الله سبحانه أن يهلكهم ويكفيه شرهم فقال :

٩٥ - (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) :

الذين يستهزئون بك وبالقرآن !

والمستهزئون نفر من رؤساء كفار قريش ، اختُلف فى عدَّتهم وفى أسمائهم ، والمشهور أنهم خمسة ، وكانوا يبالغون فى إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاستهزاء به وبالقرآن ، وهم : الوليد بن المغيرة المخزومى وهو رأسهم ، والعاصى بن وائل السَّهمى ، والأسود بن الطَّيب ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن قيس ، وقيل غير ذلك .

غير أن المعلوم فى شأنهم أنهم كانوا طائفة ذات قوة وشوكة ، لأن أمثالهم هم الذين يجترئون على مثل هذه السفاهة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى علو منصبه وعظيم قدره فى عشيرته . وقد وصف الله المستهزئين ، وأكد وعده لرسوله بأنه سيكفيه شرهم فقال سبحانه :

---

(١) سورة المائدة ، من الآية ٦٧

٩ - (الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) :

أى أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بك يامحمد بل اجترءوا على عظيمة العظائم وكبيرة الكبائر : ألا وهى الإشراك بالله عز وجل ، ولهذا كله « فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » ما يحل بهم فى الدنيا من الإهلاك والإبادة ، وفى الآخرة من العذاب العظيم .

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(يَضِيقُ صَدْرُكَ) : أى ينقبض ويُحرج .

(مِنَ السَّاجِدِينَ) : أى من المصلين ، وإطلاق الساجدين عليهم ؛ لأن السجود فى الصلاة أظهر ما فيها من أمارات الخضوع والاستسلام والذلة لله تعالى .

(الْيَقِينُ) : المراد به هنا الموت ؛ وعبر عنه باليقين لتحققه .

التفسير

بعد أن جهر النبى صلى الله عليه وسلم بالدعوة امتثالًا لأمر ربه ، اشتد إيذاء قريش له ولمن آمن به ، حتى ضاق صدره وعظم همه ، بما كانوا يقولون من كلمات الشرك والسخرية فأنزل الله عليه :

٩٧ - (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) الآيات .

أى وإنا لنعلم ما يصيبك من انقباض صدرك ، وعظم همك وألمك ، بسبب ما يقول المشركون فيك وفى القرآن من كلمات الشرك والاستهزاء :

٩٨ - (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ) :

أى فافزع إلى ربك فيما يصيبك من ضيق الصدر وانقباضه ، ونزّهه عما يقول المشركون،

حامدًا له سبحانه على أن هداك إلى الحق وشرح صدرك به . وكن من المصلين الخاشعين ، يكشفْ همك وغمك ، ويذهب الضيق الذى تجده فى صدرك .

ولأن السجود فى الصلاة أظهر ما فيها من الخضوع ، وأفضل أجزائها من الخشوع — عبر الله به عنها ،وأمره به بصيغة تدل على الدوام والاهتمام بالصلاة وبالسجود معًا . وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة[1] .وقد روى عن مسلم فى صحيحه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » .

وفى ختام السورة الكريمة بقوله تباركت أسماؤه :

٩٩ — (واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) :

أمر إلهى كريم للنبى صلى الله عليه وسلم بدوام العبادة لربه والدعوة إليه حتى يأتيه اليقين ، أى الأمر الموقن به وهو الموت .

أى دم على ما أنت عليه من الصلاة والعبادة لربك ما دمت حيا .

والآية دليل على وجوب العبادة — وعمادها الصلاة — على كل مكلف ما دام عقله ثابتًا . ولو كان مريضًا كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره عن عمران بن حُصينٍ رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صلِّ قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جنبك » .

والآية الكريمة دليل كذلك على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ! وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم ، وكانوا مع هذا أكثر الناس عبادةً ومواظبةً على فعل الخيرات ، إلى الممات . وإنما المراد باليقين هنا الموت كما قدمناه . ولله الحمد والمنّة ، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فإنه جواد كريم .

(١) هذا حديث مشهور ذكره ابن جرير وغيره ، وقال ابن الأثير فى النهاية : كان إذا حزبه أمر صلى . أى إذا نزل به مهم أو أصابه غم . اهـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النحل

المقدمة

السورة مكية إلَّا الآيات الثلاث الأخيرة على أرجح الآراء ، وهى تتناول النعم العديدة المتوالية من الله سبحانه على خلقه ، ولهذا سميت أيضًا سورة « النِّعم » .

وإن كثيرًا من البشر يقابلون هذه النعم بالجحود والكفران كما قال تعالى : « يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ » النحل (٨٣) وأهم مشتملاتها :

١ ـ أنها أشارت إلى أن عذاب الله واقع ماله من دافع ، على من يستحقونه من الطغاة العُتاة ، وإن أمهلهم الله حتى حين فليس معنى ذلك إفلاتُهم من عقابه الأليم إذا هُمْ أصروا على الكفر والعصيان ، فإن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته .

ومن لطفه سبحانه بعباده أنه ينذرهم قبل معالجتهم بالعذاب عن طريق تنزيل الملائكة بالوحى السماوى على من يصطفيهم من رسله ليبلغوه إلى أقوامهم : «لِئَلَّا يكُون لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »[١] .

٢ ـ أنها بينت أن الله سبحانه خلق السموات والأرض من العدم بالحق والحكمة ، وخلق الإنسان من نطفة من ماء مهين ثم سوّاه إنسانًا سويًا ، فإذا هو مجادل مكابر مُقْبِلٌ على الخطإ بعيدٌ عن الصواب ، ومع هذا فالله سبحانه يغمره بإحسانه وكرمه ، فقد خلق له الأنعام وسخَّرها له ينتفع بأصوافها وأوبارها وأشعارها ويأكل لحومها وما تدره من الألبان ، وهيَّأ له استخدام الدواب يمتطيها ويحمل عليها أثقاله إلى مكان بعيد ، ومع أن الله منَّ عليه بذلك هداه إلى السبيل السوىِّ المستقيم ليعبد الله حق عبادته ، فبعث إليه رسله ، وبين له آياته .

(١) سورة النساء ـ الآية : ١١٥

٣ ـ وأن من رحمة الله بخلقه أنه أسقط لهم المطر يستغلونه فى الشُّرْب وإعداد الطعام وسقى المواشى وزراعة الأرض لتخرج أنواع الثمار والفواكه والبقول وغيرها ، ومن نعم الله أيضًا على عباده أنه مهَّد لهم العيش على سطح الأرض ، ونظم دورانها حول محورها بصورة تستتبع تعاقب الليل والنهار وهيأ لهم الانتفاع بضوء الشمس ونور القمر ، والاهتداء فى ظلمات الليل بالنجوم أثناء الحِلِّ والترحال ، كما سخر لهم الانتفاع بالبحار والمحيطات وما تضمه من خيرات ، وما تهيئه لهم من سهولة الانتقال بالسُّفن بين شتى البلاد والأقطار ، وتظهر آثار حكمته سبحانه فى أنه ثبت الأرض فى دورانها بالجبال الشامخة حتى لا تميد بما تحمله من العوالم العديدة .

٤ ـ وأن الله سبحانه هو الذى خلق الخلق بحكمته وقدرته وغمرهم بإحسانه وفضله فهو وحده الجدير بالعبادة فكيف يشركون به أحدًا من خلقه ، مع أن نعم الله عليهم لاتُحْصى ولا تعد ، وهو يعلم مايسرون ومايعلنون ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب كما جازى الأمم السابقة لهم فى الدنيا والآخرة ، فى حين أن ما يعبدونهم من دونه لايستحقون شيئًا من العبادة لفقدانهم أهليتها ، فهم لايملكون لأنفسهم ولا لسواهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا .

٥ ـ وأن الموت نهاية كل إنسان والناس إزاءه فريقان : فريقٌ تتوفاه ملائكة العذاب ومصيره إلى جهنم وبئس المصير ، وفريق مؤمن تتوفاه ملائكة الرحمة فتبشره بالثواب الجزيل فى الدنيا والآخرة ؛ ولقد بعث الله الرسل وأنزل معهم الكتب فاستجاب لهم فريق وكفر بهم فريق ، وسينال كلٌّ جزاءه بقدر عمله ، والذين هاجروا فى سبيل الله سيشملهم الله برحمته ورضوانه فى الدنيا « وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

٦ ـ وبينت السورة أنه تعالى لم يرسل قبل محمد ملائكة حتى يحتجوا بهذا ، وإنما أرسل رجالًا أوحى إليهم برسالاته ، فهل أمن الكفار أن يخسف الله بهم الأرض جزاء كفرهم وعنادهم أو يصيبهم بعذاب مباغت وهم آمنون ؟ أفلا ينظرون إلى الكائنات المنقادة لمشيئته الخاضعة لإرادته سواءٌ فى الأرض أم فى السماء ، فهو إله واحد لاشريك له ، تظهر آثار قدرته وحكمته وإحسانه على خلقه ، وإن كان بعضهم يقابل الإحسان بالإساءة والجحود ، ويزعم

أن الملائكة بناتُ الله ، ويضيق بإنجاب البنات ، يتوارى من القوم من سوء مابشر به ، أيبقيهن مع احتمال الذل والهوان أم يدفنهن أحياء فى التراب ـ ولو يؤاخذ الله الناس بذنوبهم لأزال كل ما يدب على سطح الأرض من الكائنات الحيةولكنه يؤخرهم إلى أجل محدود لا يتجاوزونه بأى حال .

٧ ـ وبينت السورة أنه تعالى أرسل الرسل إلى الأمم السابقة فكذبوهم فأصابهم ما يستحقونه من العذاب ، وأنه تعالى أنزل على رسوله الكتاب إرشادًا وتوضيحًا وهدى ورحمة ، وكما أنزل الله الهداية الروحية لإحياء النفوس أنزل سبحانه الماء لإحياء الأرض بعد موتها ، وسخر سبحانه الأنعام لتمنحهم من بطونها اللبن السائغ العذب ، وأنبت لهم من الأرض ثمرات النخيل والأعناب يتخذون من ثمراتها شرابا حلوا وأكلًا شهيًا ، وسخر النحل وهداها لتتخذ من الجبال ومن الشجر والعرائش بيوتا لها ولتتناول من الثمار غذاء تحيله إلى عسل شهىٍّ فيه غذاء وشفاء .

٨ ـ وبينت أن الله خلقنا ثم قدر علينا الموت ، وقد يمهل بعضنا حتى يبلغ أرذل العُمُر فلا يعلم شيئًا ؛ والله اختبرنا بتفضيل بعضنا على بعض فى الرزق ، وخلق لنا أزواجًا من جنسنا حتى نأنس بِهِنّ ونَسْكُن إليهن ، ومنحنا منهُنّ أبناء وحفدة ورزقنا من طيبات الحياة فكيف نقابل إحسانه بالكفر ، ونؤمن بالباطل والضلال ونعبد مِنْ دونه من لا يملك أن يرزقنا ولا يستطيع الرزق إن أراد .

٩ ـ وأنه لايستوى العجزة والقادرون ولا الأغبياء والأذكياء ؛ وللجميع نهاية يوم القيامة الذى يباغت به الجميع مباغتة تقع كطرفة العين ؛ ومن آيات الله التى ينبغى مراعاتها وشكرها أنه سبحانه أخرجنا من بطون أمهاتنا . ونحن لانعلم شيئًا ، ثم منحنا نعمة السمع والبصر والعقل المفكر لكى نعبده ونشكره حق شكره ، وأتاح لنا رؤية الطير المحلّقة فى أجواز الهواء ضد الجاذبية الأرضية ، ومايحفظها فى تحليقها إلا الله الحكيم القدير العليم .

١٠ ـ ومن نعم الله العديدة علينا أنه هدانا لاتخاذ البيوت المستقرة ، كما هدانا لأن نتخذ البيوت المتنقلة من الخيام المصنوعة من جلود الأنعام . وهيأ لنا أن نتخذ من أصوافها

وأوبارها وأشعارها أثاثاً لبيوتنا وملابس تقينا من لفح الحر ولذع البرد ، وهدانا إلى اتخاذ الدروع التى تحمينا فى ساحة القتال ، ولكن كثيرين منّا يعرفون هذه النعم وهم لها جاحدون .

١١ – وأن الله سبحانه أمر عباده بمراعاة العدل والإحسان وصلة الأرحام ، ونهاهم عن ارتكاب الآثام ، كما أمرهم سبحانه بالوفاء بالعهود المُبْرمة والأيمان المؤكدة ، وألّا ينقضوا ماأبرموه وألّا يتخذوا أيمانهم وسيلة للخداع والتمويه وألّا يستبدلوا ماعاهدوا عليه الله بعرض زائل ولا ثمن قليل ، فإنّ ما عند الله خيرٌ وأبقى وسيجزى الله عبادهُ المتقين أجزل الثواب .

١٢ – وأن على المؤمنين حين يتلون كتاب الله أن يستعينوا به من وسوسة الشيطان حتى لايُفْسِد عليهم تلاوتهم أو يصرفهم عن تدبر آيات الله البينات ؛ فإنه لا سلطان للشيطان على المؤمنين المتوكلين على الله ، وإنما سلطانه على الموالين له المنصرفين عن عبادة الله .

١٣ – وأنه إذا أنزل الله آية بدلا من آية كذّب المشركون رسولهم ، وكان عليهم أن يعلموا أن الرسول لايفترى على الله الكذب ، وأنه تلقى وحى الله عن طريق الروح الأمين تثبيتًا لقلوب المؤمنين وهدى وبشرى للمسلمين ؛ وأن المشركين يزعمون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم تعلم القرآن عن طريق غلام أعجمى بمكة ، وفاتهم أن هذا الغلام أعجمى لا يكاد يبين وأن القرآن الكريم عربى مبين ، وافتراءُ الكذب على الله من شيمة الكذابين الكافرين .

١٤ – وأن من كفر بالله بعد الإيمان فجزاؤه العذاب الأليم ، إلا من أُكْرِه إكراهًا شديدًا على النطق بالكفر وقلبُه ممتلئ بالإيمان .

١٥ – وأن النعم تزول بجحودها ،وقد ضرب لذلك مثلا بقرية سعدت بأنعم الله فعاشتْ آمنة مطمئنة فلما كفرت أذاقها الله لباس الجوع والحاجة والهوان بسبب كفرها وإنكارها لأنعم الله .

١٦ – ثم وجه الله عباده إلى أن يطْعموا الحلال وأن يبتعدوا عن الحرام ، ونهاهم عن أن يبتدعوا من التحريم والتحليل مالم يأْذن به الله ، ونبههم إلى أن من وقع فى الآثام وبادر بالتوبة فإن الله من بعد ذلك لغفور رحيم .

١٧ – ثم أمر الله رسوله أن يلتزم فى دعوته بالرفق والأناة والموعظة الحسنة وأن يجادل الكفّار بالحسنى ، وإذا آذاه المشركون فإنّ له أن يقابل إيذاءهم بمثله ولَه أن يصبر فإن الصبرَ خير عاقبةً وأجدى مآلًا فإن الله مع الصابرين المحسنين .

سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾)

التفسير

١ ـ (أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) : نزل قضاء الله وحكمه بنصر المؤمنين وهزيمة الكفار إذا أصروا على الكفر والعصيان ، والمقصود أنه سيأتى قضاء الله فى المستقبل ، والتعبير عن المستقبل بالماضى لأنَّ وقوعه حتمى مؤكد فى الوقت الذى حدّده الله لوقوعه فكأنه وقع فعلا ، وشبيه هذا قوله تعالى : « وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ »[1] . فإن المناداة لاتقع إلايوم القيامة ، والمراد بأمر الله هنا ـ كما قال ابن جريج ـ ماوعد الله رسوله من النصر على الأعداء . والانتقام منهم بالقتل والسبى والاستيلاء على الديار ا هـ . ومن ذلك قوله تعالى : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ »[2] .

وإذا كان قضاء الله نافذا لا محالة فى الوقت الذى قدره الله سبحانه فلا داعى لأن تستعجلوا وقوعه أيها المشركون ، وقد كانوا يتحدَّون الرسول صلى الله عليه وسلم ويستعجلون وقوع العذاب الذى أنذرهم به .

---

(١) الأعراف ـ ٤٤

(٢) الروم ـ ٤٧

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) : تنزيها لله سبحانه وتساميا عن أن يكون له شريك أو نظير يماثله فى أمره كله : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[1] » .

(يُنَزِّلُ الْمَلَٰٓئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاتَّقُونِ ٢)

المفردات :

(بِالرُّوحِ) : المقصود بالروح هنا القرآن الكريم ومنه قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا[2] » . أو القرآن والسنة معا لأنهما وحىٌ سماوى وإن افترقا بأن لفظ القرآن ومعناه أُنزلا من عند الله ، أما السنة فمعنا ها هو الذى أُنزل من عنده تعالى ، وأما لفظها فهو من تعبير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . (مِنْ أَمْرِهِ) : أى أن هذا الروح – أى القرآن – ناشىء من أمره وصادر عنه ، ويصح أن تكون (من) سببية أى بسبب أمره .
(أَنذِرُوا) : خوِّفوا وحذّروا .

التفسير

٢ – (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) :

أى أنه سبحانه اقتضت حكمته قبل أن يعاقب خلقه أن يُرْشِدهمُ إلى الصواب ويخوفهم العقاب فينزل ملائكته بالوحى السماوى حال كون هذا الوحى ناشئا ومبتدئا من أمره وحده – ينزله – على من يصطفيهم من خلقه ومهمتهم ما بينه الله فى قوله : « أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ » أى خوِّفوا الناس من مخالفة أمرى . وبينوا لهم أنه لا إله إلا الله وأن عليهم أن يعبدوه وحده وأن يحذروا غضبه وعقابه الشديد الذى يحلُّ بهم إذا ظلُّوا كافرين عاصين

(١) سورة الأعراف الآية (٥٤)
(٢) سورة الشورى الآية (٥٢)

(خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾)

المفردات :

(النُّطْفَةُ) : ماء الرجل ففيه الحيوانات المنوية ، وماء المرأة ففيه البويضة التى تلقح بحيوان من حيوانات منى الرجل ، فيحصل الحمل وفقا لمشيئة الله تعالى .

(خَصِيمٌ) : شديد المخاصمة والمجادلة . (مُبِينٌ) : واضح ظاهر .

التفسير

٣ - (خَلَقَ السَّمَوٰاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) : بعد أن قرّر الله أنه لا إله إلا هو ساق الدليل على وحدانيته ،بأنه ابتدع السموات والأرض على غير مثال سبق ، ونسّق بينهما أتمّ تنسيق ، ودفع كلا منهما فى فلكه المرسوم ، خلق هذا كله مقرونا بالحق ، مُتَّسِماً بالحكمة السامية فى الخلق والتدبير كما قال سبحانه : « وَمَا خَلَقْنَا السَّموٰاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَا هُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ »[1] .

(تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) : تنزه الله وتقدس وتسامى عن أن يكون له شريك فى ملكه أو نظير فى خلقه وتدبيره ،فإن هؤلاء الشركاء عاجزون عن تدبير أنفسهم وجلب النفع لهم ، أودفع الضر عنهم ، فكيف يكونون شركاء لله الواحد القهار ، ثم تحدث عن خلق الإنسان خاصمته لربه فقال جل ثناؤه :

٤ - (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) .

وكما خلق الله السموات والأرض بالحق خلق الإنسان فى أبدع تكوين من ماء مهين حيث زوده بالسمع والبصر وأيده بالعقل المفكر . ولم يكتف بذلك ، بل أرسل إليه الرسل ،

(١) سورة الدخان الآية : ٣٨ ، ٣٩

وأنزل عليه الكتب ، وكان مقتضى هذا أن يقرّ بوحدانية الله وقدرته ، وأن يبادر بعبادته ولكنه اتخذ هذه المواهب التي أيده الله بها ليجادل في وحدانية الله ويخاصم الدعاة إليه إذ يقول : « مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ »[1] مع أنه سبحانه قوىٌّ قهّارٌ منتقم ممن عصاه ، وصدق الله إذ يقول : « وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ »[2] .

ويصح أن يكون المعنى ؛ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم بعد أن كان ماءً حقيرًا لاقيمة له ولا وزن ـ وهذا المعنى أنسب بمقام الامتنان بإعطاء القدرة على الاستدلال على الله تعالى .

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞)

المفردات :

(الْأَنْعَامَ) : الإبل والبقر والضأن والمعز. (تُرِيحُونَ) : تعيدونها من المراعى إلى البيوت من الرواح وهى العودة إلى البيوت آخر النهار .

(تَسْرَحُونَ) : تطلقون سراحها من الحظائر صباحاً إلى المراعى الصالحة .

(بِشِقِّ الْأَنفُسِ) : مايشقّ عليها ويرهقها ويحملها مايثقلها من الأعباء .

(١) سورة يس من الآية:٧٨ (٢) سورة الرعد ، الآية:١٣

التفسير

٥ ـ (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) : أى وكما خلق الله الإنسان خلق له الأنعام وهى الإبل والبقر والمعز والضأن ، وجعل له فيها دفئًا ، حيث يتخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها ملابس وأغطية تمنحه الدفء فى الشتاء كما تمنحه الدفء الداخلى بالطعام حيث تمنحه طاقات حرارية حينما يأكل لحومها ودهونها وألبانها ، فإن لكل طعام نوعا حراريًّا خاصًّا به يمنحه الله لآكليه ، وللإنسان فيها منافع كثيرة كالحرث والرى وغير ذلك من النعم التى تستنبط منها .

٦ ـ (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) : وكما تمنحكم تلك المنافع العظيمة فهى تدخل البهجة والسرور على نفوسكم بجمالها حين تعيدونها من مراعيها مليئة البطون ، حافلة الضروع وحين تخرجونها من حظائرها إلى المراعى متدافقة متموجة تنساب إليها فى مرح وخفة وحيوية ونشاط متناسقة الأعضاء متسقة التكوين .

٧ ـ (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ) : أى ومن نعم الله سبحانه فى منافع الأنعام ولاسيما الإبل . أنها تحملكم وتحمل أمتعتكم الثقيلة من بلد إلى بلد لاتستطيعون الوصول إليه إلا بمشقة وعناء .

(إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :هذا تعليل لما سبق ذكره من نعم الله على عباده ، مؤكد بعدة توكيدات ،وفى إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين إظهار لمزيد عنايته سبحانه بخلقه، وعظيم رأفته وواسع رحمته بهم ، والرأفة فرع من الرحمة تختص بدفع المكروه وتخفيف ما يشق على عباده ، وأما الرحمة فتشمل هذا وغيره من أنواع التفضل والإنعام .

٨ ـ (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً) : ومن نعم الله عليكم أنه خلق لكم الخيل والبغال والحمير وسخرها لكم لتركبوها وتنتفعوا بها فى السلم والحرب ، كما جعلها زينة لكم وجمالا تلفت الأنظار وتبهج النفوس .

(وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ) : وكما خلق لكم الأنعام والدواب يهديكم إلى اختراع وسائل أخرى للتنقل والحمل لم تكن موجودة فى عصر نزول القرآن وما تلاه إلى زمن قريب، مثل

السيارات والقطارات والطائرات والسفن الضخمة التى تسير بالبخار وغيره إلى غير ذلك من الوسائل التى لم تعرف حتى الآن ، وفى هذا الإعجاز القرآنى مالا يخفى على الباحثين الدارسين ، ولا تزال الكشوف متوالية إلى ماشاء الله مما لم يكن يخطر على بال .

(وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(قَصْدُ السَّبِيلِ) : مستقيم الطريق . (جَائِرٌ) : منحرف .

التفسير

٩ - (وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ) :أى وكما أنعم الله علينا بالنعم الحسية الوفيرة تفضل بهدايتنا إلى الطريق المستقيم الموصل إليه سبحانه بما أنزله من الكتب، ومن بعثهم من الرسل ، ولو وكلنا إلى أنفسنا لضللنا هذا الطريق الذى دعا إليه جميع الرسل : وهو الذى وصانا به سبحانه فى القرآن ،وباقى الطرق معوج ينحرف عن الحق،وقد نهينا عن سلوكه كما قال تعالى : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(١)

(وَلَوْشَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) : أى ولو أراد سبحانه وتعالى هداية البشر جميعاً بطريق الجبر لهداهم ولكن حكمته السامية اقتضت أن يختبرنا ، ويتركهم لعقولهم واختيارهم ، بعد أن أرشدهم إلى آياته ودعاهم إلى الحق على ألسنة رسله « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ »(٢)

---

(١) الأنعام - ١٥٣

(٢) الأنفال - ٤٢

(هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(السَّمَاء) : كل ما ارتفع وعلا ، والمقصود هنا السحاب .

(فيه تُسِيمُونَ) : تبعثون أنعامكم إلى المراعى لتسوم فى الشجر أى تأكل منه .

التفسير

١٠ - (هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) :

استأنفت الآيات تعداد نعم الله على خلقه فإنه سبحانه يسلط أشعة الشمس على البحار والأنهار فيخرج منها بخار يتحول إلى سحاب ، ويسلط عليه الرياح ، فتحمله إلى حيث يشاء الله فينزل منه ماء عذباً يشرب منه الإنسان والحيوان وينبت به العشب والأشجار كما قال سبحانه :

١١ - (يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ والنَّخِيلَ والأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) :

أى ينبت لكم بالماء الذى أنزله من السماء أصنافاً مختلفة من النبات بدأتها الآية الكريمة بالزرع لأنه أصل الغذاء وعمود المعاش وبه قوت أكثر العالم ، ثم أتبعته بذكر الزيتون لأنه غذاء ، ودواء وقدمت النخيل على الأعناب لأن فيها غذاء متكاملا وفوائد أخرى . ولأنها ينتفع بها زمناً طويلا . والمراد بالأعناب ثمار العنب . ومجيئها بلفظ الجمع لتعدد أنواعها ومنافعها ، ثم ختمت الآية الكريمة ماذكرته من أصناف النبات والشجر بقوله تعالى : « وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ »

للإيذان بأن ماذكر من قبل إنما هو بعض النعم ؛ وأن خيرات الله وثمرات الشجر تفوت الحصر .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) :إن فيما سبق بيانه من نعم الله العديدة لآية واضحة . على عظيم قدرته وتفرده بالوحدانية لقوم يتفكرون فى آيات الله فيشكرونه على سوابغ نعمه .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(ذَرَأَ) : خلق . (يَذَّكَّرُون) : أصلها يتذكرون . أدغمت التاء فى الذال بعد قلبها ذالا أى:يتعظون .

التفسير

١٢ ـ (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) :ومن نعم الله الكثيرة كذلك على الإنسان أنه خلق الأرض وهيأها لتدور حول محورها دورانًا نشأ عنه تعاقب الليل والنهار مما أتاح للإنسان السكون والهدوء والراحة فى أثناء الليل ،ويسّر له العمل والكد والكفاح فى أثناء النهار ؛ ومن نعمه سبحانه أن سخر الشمس لتمدنا نهارًا بالضوء والحرارة ، وسخّر القمر ليمدنا بالنور الهادئ المريح ليلا ، وجعلهما مراصد للتوقيت الزمنى ، ولنظم بهما مواقيت العبادات وعدد السنين والحساب .

(وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) : أى وكما سخر الله الليل والنهار والشمس والقمر، سَخَّرَ النجوم فهى مسخرات بمشيئته وتمكينه إياها من أداء ما خلقت لأجله، والنجوم جمع نجم، وقد أطلقه الفلكيون على كل كوكب تشع منه حرارة ذاتية وضوء ذاتى وحوله مجموعة من الكواكب ترتبط به جاذبيةً واستنارةً وحرارةً كشأن الشمس بين كواكبها المرتبطة بها فكل نجم بين مجموعته هو شمس فيها، وجميع النجوم وكواكبها منقادة لإرادة الله تعالى، دائرة فى أفلاكها المرسومة وفقًا لحكمته وطبقًا لإرادته .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) : إن فى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، لآيات ودلالات بالغة على قدرة الله وحكمته وإبداعه ووحدانيته، لمن استعملوا عقولهم فاهتدوا بها إلى فاطر الأرض والسموات وآمنوا به وأفردوه بالعبادة والتقديس .

١٣ - (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) : أى وما خلق لكم فى الأرض مُتَعَدِّدَةً أصنافه مسخر بأمره أيضًا، من حيوان ونبات وجماد، فكل ذلك متنوع الأشكال مختلف الألوان والأصناف متعدد المنافع مسخر لنا لننتفع به كلما أردنا إن فى هذا كله لآية عظيمة على قدرة الله وحكمته ورحمته لكل من تذكر وتدبر فاتعظ بما رآه بصرُه وأدركته حواسُّه وفقهه عقله .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(سَخَّرَ الْبَحْرَ) : ذلَّلَهُ ويسَّر الانتفاع به

(مَوَاخِرَ) : جمع ماخر من مخر الماء شقه . (تَمِيدَ) : تضطرب

التفسير

١٤ - (وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) : وهو الذى سخر لكم البحار بقدرته وحكمته ، لكى تستطيعوا اصطياد كائناتها البحرية من الأسماك لتأكلوها طرية أى قبل أن يسرع إليها الفساد وسخرها أيضا لكى تتزينوا بحليتها ، وذلك باستخراج بعض الحلى منها ، مثل اللؤلؤ والمرجان والأصداف لاستعمالها فى الزينة .

(وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ) . أى وترى السفن تشق سطح الماء تستخدمونها فى صيد الأسماك واستخراج الحلى من البحر. (وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ) : أى ولتطلبوا بها منافع أخرى من فضل الله غير ما تقدم ،كالتجارة ونقل الحاصلات والبضائع من مرفإ إلى مرفإ ومن قطر إلى قطر ، وغير ذلك كالارتحال بها لطلب العلم حيث يوجد العلم والعلماء .

(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ): أى وأمدكم الله بهذه النعم كلها لكى تشكروه على إحسانه وفضله وتقدروه حق قدره .

١٥ - (وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ) : أى ومن نعم الله الكثيرة عليكم أنه جعل فى الأرض جبالًا شامخات ثابتات تحفظ اتزانها فى دورانها حتى لاتضطرب فى حركتها .

(وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) : أى وجعل فى الأرض أنهارًا عذبة تجرى مياهها من منابعها إلى مصابها ، لتهيىء الرىَّ للإنسان والحيوان والنبات؛ وجعل سبحانه فى الأرض طُرُقًا كثيرة تنتقلون فيها من مكان إلى مكان للتجارة وجلب الرزق وتبادل المنافع ، لكى تهتدوا إلى غاياتكم إذا سلكتموها .

١٦ - (وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) : أى وجعل فى الأرض علامات لتوضيح الطرق من جبال وأنهار وغير ذلك ، كما جعل النجوم فى الليل علامات واضحة لتحديد الجهات فى البحر والبر والجو ، فقادة السفن والطائرات ورواد الفضاء يهتدون بالنجم القطبى أو سواه لتحديد مساراتهم واتجاهاتهم للوصول إلى أهدافهم .

(أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾)

التفسير

١٧ - (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ . . .) الآية .

أى إذا كان الله سبحانه هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهن مما يُعلم ومالا يُعلم وهو الخلاق العظيم فكيف يعبد معه مالا قدرة له على النفع والضر لنفسه أو لغيره وهو مخلوق لله، وليس له فى الخلق أدنى نصيب ، أهما بعد هذا التباين متساويان فمن يخلق كل شىء كالذى لايخلق أقل شىء .

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) : أى أتعرضون عن الحق الذى أيدته الآيات فلا تتعظون بما تسمعون من العظات وبما ترون من الآيات، وقدوهب الله لكم عقولًا لاتميزون بها الخير من الشر والنفع من الضر فكيف غفلتم عن هذه الحقائق .

١٨ - (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) : أى وإن تحاولوا أن تعدوا نعم الله التى أنعم بها عليكم فلن تستطيعوا أن تضبطوا عددها ولا تصل إليه قدرتكم فضلا عن القيام بحق شكرها ، فكمله من نعم خافية ونعم ظاهرة ترونها فى أنفسكم ،وفيما سخره الله لكم من نبات وحيوان وجماد وأمطار وبحار وأنهار وعيون وآبار وغير ذلك من نعم الله التى سخرها لمنفعة عباده وصدق الله حيث يقول : « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ » .

وقد ختم الله هذه الآية بنعمة كبرى تفوق كل نعمة حيث قال جل ثناؤه :

(إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) : فبشرهم بنعمة الغفران والرحمة ليبذلوا ما فى وسعهم لشكر نعمه ويحرصوا على طاعته قدر طاقتهم ، ولا ييئسوا من رحمته إذا ما قصروا فى طاعته ما داموا مؤمنين بربهم مصدقين برسالة نبيهم تائبين من ذنوبهم .

ثم عقب الله هذه الآية بما يفيد التحذير من الغلو فى العصيان طمعًا فى غفران الله ، وبما يطمئن أهل التقوى على طاعتهم سِرًّها وجهرها فقال سبحانه :

١٩ ـ (وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) : أى والله سبحانه يعلم حق العلم ما تخفيه السرائر وما تبديه الجوارح ، فيثيب المحسن ويعاقب المسىء ويغفر للمستغفر ، وصدق الله حيث يقول : « وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »[1] .

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ) : المراد بهم الأصنام وغيرها من المعبودات من دون الله .

التفسير

٢٠ ـ (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ . . .) الآية .

أى وكل الذين يعبدهم المشركون من دون الله من إنسان وأصنام وغيرها عاجزة عن أن تخلق أى شىء وإن كان حقيرًا ، فإنها مخلوقة وليست بخالقة عاجزة وليست بقادرة ، فكيف يعبدونها من دون الخلاق العظيم .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٤

٢١ - (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) : أى أن هذه المعبودات أموات فكيف عبدوها ، فهى إما صخورٌ صماءُ جامدة ليست فيها حياة وإما أحياء ، لكنهم فى حكم الأموات ، وهم لهذا لايشعرون متى يبعثون، والله سبحانه سيبعث هذه المعبودات الباطلة وعابديها ويخرجهم يوم القيامة للمحاجة فتتبرأ المعبودات من عابديها ثم يقذف بها وبعابديها فى النار كما قال سبحانه : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ »[1] . أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم شهداء على أقوامهم الذين عبدوهم بغير حق كما فعل أصحاب عيسى من بعده عليه السلام ، حيث عبدوه واتخذوه إلهًا .

(إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(لَا جَرَمَ) : لا بد ولا محالة - أو حقًا .

التفسير

٢٢ - (إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) : هذه الجملة تعتبر كالنتيجة للأدلة السابقة ، فكأنه قال : قد ثبت بما تقدم بطلان ألوهية غيره تعالى ، وتحققت الألوهية لله وحده ، فإلهكم إله واحد لاشريك له ، ولكن المشركين لاتقنعهم البراهين ، فهم على باطلهم مقيمون فلهذا قال سبحانه : (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ) : فالذين لايصدقون بالحياة الآخرة وما فيها من عقاب خالد على الشرك ، قلوبهم منكرة وحدانية الله تعالى التى

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٩٨

قامت عليها البراهين ، لعدم خوفهم من العقاب على شركهم ، وهم لهذا مستكبرون عن قبول الحق والاستماع إلى رسوله الأمين ، والنظر فيما يقدمه لهم من الآيات والبراهين ، ولهذا كان لابد من وعيد الله لهم بقوله :

٢٣ - (لَاجَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) :

أى لا محالة أن الله تعالى يعلم ما يخفونه فى أنفسهم من الشرك وسوء الطوية وجميع معاصيهم وأسرارهم ، كما يعلم ما يعلنونه من ذلك فلا تخفى عليه منهم خافية ، فلابد من عقابهم على شركهم ومعاصيهم ، فإن الله تعالى لايحب المستكبرين عن الحق ، المتعالين عن أدلته وبراهينه ولايدخلهم جنته ، أخرج مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « لَا يَدْخُلِ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيلهم التى سطروها ؛ جمع أسطورة

(أَوْزَارَهُمْ) : أثقالهم والمراد منها ؛ آثامهم .

التفسير

٢٤ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : كان الوافدون على مكة للحج أو غيره يسألون كفار مكة عن هذا النبى الذى ظهر بينهم ، ورأيهم فيه وفيما أنزل

عليه ، فكان هولاء المشركون يسيئون فى إجابتهم لينفروهم منه ، ويبعدوهم عن الاستماع إليه ، وذلك ما حكاه الله فى هذه الآية .

والمعنى : وإذا سئل هؤلاء المشركون المتكبرون عما أنزله الله من الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم زعموا أنه حكايات ملفقة سطرها القدماء ، وزعم محمد أنها أنزلت عليه من الله تعالى ، وكما حكى الله هذه الفرية عن المشركين هنا ، حكاها عنهم فى قوله فى سورة الفرقان : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » .

٢٥ - (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) :

أى أن هولاء المستكبرين قالوا لمن يسألهم عما أنزل من الحق على محمد : هذا أساطير الأولين وأباطيلهم ، لتكون عاقبتهم أن يحملوا آثامهم كلها ، ومنها هذا الذى اقترفوه فى التنفير عن الحق ، ويحملوا أيضا بعض آثام من أضلوهم وأبعدوهم عن الإسلام بما افتروه على القرآن الكريم ، وهو إثم الإضلال ، فهما شريكان فى الإثم ، هذا يضله ، وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر .

والمراد من قوله تعالى : (يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ) : أنهم يضلونهم غير عالمين بأن مايدعونهم إليه هو طريق الضلال ، وفائدة التقييد بقوله : (بِغَيْرِ عِلْمٍ) الإشعار بأن مكرهم لايروج عند ذى لب وإنما يتبعهم الأغبياء والجهلة ، والتنبيه على أن جهلهم ذلك لايكون عذرا إذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المُحِقِّ الجدير بالاتباع وبين المبطل ، أخرج مسلم وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِن أَجْرِهِ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا - . . . » إلخ .

(أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) : أى ألا بئس ما يحملونه من آثامهم وآثام من اتبعوهم فى الكفر والضلال .

(قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : أى كادُوا لِرُسُلِهِمْ يُرِيدُون الإيقاع بهم .

(فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ) : أى فأتى أَمْرُ الله بنيانهم من أُسُسِه .

(فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ) : أى سقط عليهم سقف بنيانهم .

(يُخْزِيهِمْ) : يُذِلهم بعذاب الخزى . (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) : هم الأنبياء والمؤمنون .

التفسير

٢٦ - (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ) :

بعد أن حكى الله تعالى عن قريش قولهم عن القرآن « أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » وبين أنهم سوف يحملون يوم القيامة ذنوبهم وذنوب من يضلونهم، جاءت هذه الآية وما بعدها لتبين أنهم قد سبقهم مَنْ قبلَهم بالكفر بالله وتكذيب رسلهم ، وكانت عاقبتهم فى الدنيا الهلاك وفى الآخرة الخزى والعذاب ، وأن عليهم أن يحذروا مثل مصيرهم .

والمعنى : قد تآمر الذين من قبل قريش على رسلهم، فدبروا لهم المكايد ليهلكوهم أو ليقضوا على الحق الإلهى الذى جاءوا به أممهم ، فأحبط الله كيدهم، وسقط عليهم بنيان المؤامرة التى دبروها ، دون أن ينال الرسل منها كريهة .

شبهت حال الماكرين برسلهم فى تدبير مكايدهم التى أرادوا بها الإيقاع برسل الله وفى إبطال الله تعالى تلك الحيل والمكايد ، وجعلها أسبابًا لهلاكهم، بحال قوم بنوا بنيانًا ، وعمدوه بالأساطين ، فأُتِىَ ذلك البنيانُ من قبل أساطينه، بأن تداعت فسقط عليهم السقف من فوقهم فهلكوا .

(وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) :

أى أتاهم الهلاك والدمار من جهة بنيانهم الذى أقاموه ضد الرسل، وقد كانوا يظنون أنه محكم بحيث لا يأتيهم من جهته ما يؤذيهم ، فخيب الله ظنهم وجعله سبب هلاكهم فى دنياهم .

وكذلك أنتم يا أهل مكة ، أحكمتم أمركم ضد القرآن العظيم ، وقلتم فيه ما قلتم ومن جملته أنه أساطير الأولين ، فسيأتيكم العذاب فى الدنيا من حيث لا تحتسبون كما فعل الله بمن قبلكم ، إن ظللتم على كفركم .

٢٧ - (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ) :

أى ثم يوم قيام الناس من قبورهم لحساب ربهم يذل الله المشركين بعذاب الخزى على رءوس الأشهاد ، ويقول لهم تفضيحا وتوبيخا : أين شركائى فى الألوهية الذين كنتم تخاصمون الأنبياء والمؤمنين فى شأنهم ، فاستحضروهم ليشفعوا لكم أو لينقذوكم إن كنتم صادقين فى مزاعمكم نحوهم ، وهيهات أن يجدوهم شافعين أو منقذين بل لائمين مكذبين .

(قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْىَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ) :

أى قال الذين أوتوا العلم من أهل الموقف وهم الأنبياء والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد ويقيمون لهم أدلته - قالوا لهم - شماتة بهم وتحقيقا لما توعدوهم به : إن الفضيحة والذل والهوان اليوم على الكافرين بالله ورسله وآياته .

(ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(أَلْقَوُا السَّلَمَ) : أظهروا المسالمة والانقياد والإذعان .

(مَثْوَى) : مستقر ومكان إقامة .

التفسير

٢٨ - (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ) :

تسوق هذه الآية مشهدا من مشاهد النهاية لحياة الظالمين المصرين على الكفر ، وهو أن ملائكة العذاب حين تقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم بالكفر والعصيان ، يستسلمون زاعمين أنهم لم يرتكبوا إثما فى حياتهم وأنهم ما كانوا يعملون السوء ، فترد عليهم الملائكة قائلة :

(بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) : أى نعم قد عملتم السوء،إن الله سبحانه واسع العلم ، محيط بكل ماكنتم تعملونه قبل وفاتكم ،فكيف تكذبون على من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، ومن « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ »[1] .

(١) سورة غافر الآية : ١٩

٢٩ - (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) : أى فادخلوا جهنم من أبوابها السبعة التى أعدت للكفار والعصاة ، لتبقوا فيها خالدين لاتبرحونها أبداً .

(فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) : أى فما أسوأ المقرّ الذى أعده الله للمتكبرين فى جهنم. والمراد من المتكبرين هنا من ترفعوا عن عباده الله والاستجابة للرسل ، وآثروا الكفر على الإيمان والعصيان على الانقياد والشرك على التوحيد .

(۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢))

المفردات :

(جَنَّاتُ عَدْنٍ) : بساتين إقامة من عدن بالمكان أقام به . (طَيِّبِينَ) : صالحين .
(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : وأمان لكم .

التفسير

٣٠ - (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا خَيْرًا . . .) .

بينت الآيات السابقة حال الأشقياء الذين أشركوا بالله وكذبوا رسله . وقالوا عن القرآن لما سئلوا عنه : «أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» فكان جزاؤهم جهنم خالدين فيها ، ثم تلتها هذه الآيات لبيان حال السعداء الذين أحسنوا القول لسائليهم والعمل لربهم . فأجزل لهم ربهم

خيرى الدنيا والآخرة . وهؤلاء يقول فيهم سبحانه : (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) : أى وقال القادمون على مكة للسؤال عما أنزله الله على النبى الذى سمعوا بمبعثه - قالوا - للمتقين من المؤمنين : (ماذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟) : أى ما الذى أنزله ربكم على رسوله : (قَالُوا خَيْرًا) : أى قالوا لهم : أنزل خيرًا كثيرًا وهو القرآن ففيه الخير كله ، فهو رحمة وهدى وبركة لمن اتبعه وآمن به ، وهم فى جوابهم هذا يخالفون الكفار . حيث أنكروا إنزاله بما أجابوا به بقولهم : « أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ » .

روى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام موسم الحج من يأتيهم بخبر النبى عليه السلام . فقد نقل عن السُّدى قال : اجتمعت قريش فقالوا : إن محمدًا صلى الله عليه وسلم رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله . فانظروا أُناسًا من أشرافكم . فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة . فمن جاء يريده ردوه عنه . فكان إذا أقبل الرجل وافدًا لقومه ينظر ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم - فينزل بهم . فيكفونه عنه ، ويأمرونه بالانصراف . قائلين له : إن لم تلقه كان خيرًا لك . لأنه رجل لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، أما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقوه ، فإذا كان الوافد ممن أراد الله لهم الرشاد . وقالوا له مثل ما قالوا لغيره أجابهم بقوله : أنا شرُّ وافد إن رجعت إلى قومى دون أن أستطلع أمر محمد وأراه . فيلقى أصحاب محمد رضى الله عنهم فيسألهم فيخبرونه بحقيقة الحال : اهـ .

وعلى هذا فالسائلون هم الوافدون . والمجيبون هم المؤمنون : ويجوز أن يكون السائلون والمسئولون من المؤمنين ، حيث يسأل بعضهم بعضًا . ليقوى إيمانه . وليشعر بلذة الجواب الذى يعلمه . ويرغب فى سماعه . وقد يكون السائل من الكفرة المعاندين وغرضه التلاعب والتهكم .

ثم أخبر سبحانه عما أعدَّه الله لعباده المتقين من حسن الجزاء فى الدنيا والآخرة فقال تعالى :

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) : أى للذين أحسنوا القول والعمل فى الدنيا حسنة جزاء إحسانهم ينالونها فى الدنيا ،والمراد بها النصْر والفتْح والمدحُ والثناءُ وغير ذلك من المكرمات .

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ) : أى مثوبتها خير وأعظم مما أوتوه فى الدنيا من مثوبة لأنها إلى بقاء . وكل ما فى الدنيا إلى فناء ، ولأن نعيمها لايعدله نعيم آخر . ولهذا ختم الآية بمدحها بقوله :

(وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) : أى دار الآخرة . واعلم أن قوله سبحانه : « للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة .. » الآية – إما أنه مستأنف للثناء على من أجابوا السائلين بأنه تعالى أنزل خيرًا ، حيث وصفهم بأنهم أحسنوا فى هذه الدنيا إحسانًا مطلقًا ، وعدَّ جوابهم عما سئلوا عنه من جملة إحسانهم ، ووعدهم عليه الجزاء الأوفى . وإمَّا أن يكون هذا القول الكريم تفسيرا منهم لقولهم : « خيرًا » أى قالوا أنزل خيرًا . ذلك الخير الذى قالوه هو للذين أحسنوا إلخ . قالوه ترغيبًا للسائل وإخبارًا عما وعد الله به عباده فيما أنزله على رسله .

٣١ – (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا . . .) : أى إن الدار التى وعد بها المتقون هى جنات إقامة واستقرار لايخرجون منها باختيارهم ولا يخرجهم منها أحد . وهذه الجنات تجرى من تحت أشجارها وبين قصورها الأنهار . إتمامًا لبهائها وجمالها وكمال الابتهاج بها .

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ) : أى لأهل الجنة دون سواهم من أنواع المشتهيات التى تميل إليها نفوسهم وترغب فيها طباعُهم فتتمناها .

(كَذَٰلِكَ يَجْزِى اللهُ الْمُتَّقِينَ) : أى مثل ذلك الجزاء العظيم يجزى الله كل من اتقاه وابتعد عن الشرك وتجنب المعاصى والآثام . فلا يختص به أحد دون آخر . وفى هذا الوعد الكريم إشارة إلى تحسير الكفار . وتحزينهم على ما كان منهم . حينما سئلوا عما أنزل ربهم إذ « قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِين » حيث حرموا هذا الثواب الجزيل الذى حصل عليه المتقون بحُسن إيمانهم وصادق جوابهم للسائلين .

٣٢ – (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِين . . .) : هذا بيان لحال المتقين عند الاحتضار أى هم الذين تتوفاهم الملائكة طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصى ، ومن كل سوء ، ووصفوا بذلك للإيذان بأن التقوى لاتتحقق إلا بالطهارة عما ذكر إلى وقت الوفاة ، حثًّا لهم على التمسك والاستمرار ، ولغيرهم على التحصيل والعمل ، وقيل : هو كلام مستأنف

معناه : الذين تتوفاهم الملائكة فرحين طيبي النفوس بما يسمعونه من بشارتهم لهم بالجنة .
تلك البشارة التي يحكيها قوله سبحانه :

(يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ) : أى يقول الملائكة لهم مطمئنين : سلام عليكم وأمان لكم أو تحية لكم من الله .

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ) : أى أبشروا بدخول الجنة التي أعدها الله لكم ووعدكم نعيمها بعد البعث ، فالمراد بالدخول هنا هو دخول أهل الجنة فيها حقيقة يوم القيامة ، والأمر به قبل وقته بشارة بتحقق وقوعه فى وقته بعد البعث .

(بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) : أى ادخلوا الجنة بسبب ماوفقكم الله له من ثباتكم على التقوى وتمسككم بالطاعة والاستقامة على عمل الصالحات . ولا تعارض بين هذه الآية وحديث «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدُكُم بِعَمَلِه »لأن المراد فى الحديث أن العمل لايساوى دخول الجنة ، ولا يصلح بذاته أن يكون مقابلا للجنة ،فإن الله تعالى هو الذى أقدرنا على العمل الصالح ، فإن كافأنا عليه فذلك محض فضل من الله تعالى ، وأما الآية فقد أفادت أنه تعالى تفضل فجعل العمل سبباً شرعيًّا لدخول الجنة ، ولو لا ذلك لما استحق أحد بعمله هذا الثواب العظيم .

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(أَمْرُ رَبِّكَ) :المراد به يوم القيامة أوالعذاب الدنيوى . (وَحَاقَ بِهِمْ) : وأحاط بهم ، وخصَّ لاستعمال لفظ حاق بالإحاطة فى الشر ، بعد أن كان فى أصل معناه للإحاطة مطلقاً .
(يَسْتَهْزِءُون) : يسخرون .

التفسير

٣٣ - (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ....) :

أى ما ينتظر هؤلاء الكفار بعنادهم إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم بالشرك وعمل الشر ، أو ما ينتظرون إلا أن تنزل الملائكة عليهم للشهادة بصدق نبوتك .

(أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ) : المراد بأمره تعالى العذاب الدنيوى المستأصل لهم جميعاً كالزلزلة . والخسف ، والريح الصرصر ونحوها ، وفى التعبير برب مضافاً إلى ضميره صلى الله عليه وسلم . إظهار لكمال العناية به والرعاية له .

(كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : أى مثل ما فعل هؤلاء من الشرك والتكذيب فعل الذين سبقوهم مع أنبيائهم . فعاقبهم الله على فعلهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، كما يشير إليه قوله سبحانه :

(وما ظَلَمَهُمُ اللهُ) : فيما أنزل بهم من العذاب . لأنه سبحانه أعذر إليهم ، و أقام عليهم حججه . بإرسال رسله ، وإنزال كتبه .

(وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يظْلِمُونَ) : حيث عرضوها للعذاب بمخالفة الرسل ، والتكذيب بما جاءوا به ، أى أن الله لم يظلمهم بتعذيبهم . ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم لمباشرتهم السيئات الموجبة لعقوبتهم . وذلك ظلم بين منهم لأنفسهم .

٣٤ - (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَاعَمِلُوا) : معطوف على قوله سبحانه : « فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم » أى كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ماعملوا .

والمعنى أن الله جل شأنه أنزل بالأمم السابقة أجزية أعمالهم السيئة التى اقترفوها وتمسكوا بها ، وتسمية الأجزية سيئات للمشاكلة كما فى قوله : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا »[1] . أو لأنها مسببة عن أعمالهم السيئة ، فسميت باسم سببها إيذاناً بفظاعته ، وإشارة إلى بالغ قبحه ، ويجوز أن يكون المعنى : فأصابهم جزاء سيئات ماعملوا .

(وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) : أى وأحاط بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به ويسخرون منه كلما توعدتهم به رسلهم إن استمروا على كفرهم ، وعبر بالحيق الذى خصه الاستعمال اللغوى بإحاطة الشر ، للإيذان بأن العذاب لم يقتصر على مجرد إصابتهم ، بل شملهم وعمهم ، أو المعنى وأحاط بهم جزاء استهزائهم برسولهم أو به وبغيره .

---

(١) سورة الشورى من الآية - ٤٠ - .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

(مِن دونِهِ) : من غيره . (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ) : أى فما عليهم . (الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : أى التبليغ الواضح أو الذى يبين الحق من الباطل .

التفسير

٣٥ - (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَاعَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شىءٍ نحْنُ وَلَا آباؤُنا) : شروع فى بيان فن آخر من كفر أهل مكة ، وهو اقتناعهم بما هم فيه من شرك وضلال واحتجاجهم لصحته بأنه تعالى شاءه لهم ودفعهم إليه . ، يريدون من قولهم هذا تبرير عدم الاستجابة لما دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم إليه من الإيمان بما جاءهم به ،والتعبير عنهم بالذين أشركوا ، لتقريعهم على الشرك وبيان أنه سبب الداء ، وقمة البلاء .

والمعنى : وقال مشركو مكة للرسول محتجين لما هم عليه من الشرك : لو شاء الله عدم عبادتنا لشىء غيره لما وقع منا انحراف ومخالفة لمشيئته ، ولأخلصْنا العبادة له وحده . فلم نشرك نحن ولا آباؤنا الذين نهتدى بهم ، ونتمسك بالاقتداء بآثارهم فى كل أمورنا .

(وَلَاحَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِن شَىْءٍ) : من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مِمَّا ابتدعوا تحريمه[1] واخترعوه من تلقاء أنفسهم وغرضهم من قولهم ذلك . تكذيب الرسول والطعن فى الرسالة رأساً بما حاصله أن ماشاء الله تعالى يجب ومالم يشأ يمتنع ، فلو أنه سبحانه شاء أن نوحده ولانشرك به شيئاً ، ونحل ما أحله ، ولا نحرم شيئاً

---

(١) تقدم بيان هذه المحرمات التى حرموها على أنفسهم فى الآيتين ١٣٨ - ١٣٩ من سورة الأنعام .

مما حرمنا كما تقول الرسل وينقلونه من جهته تعالى ، لكان الأمر وفق مشيئته من التوحيد ونفى الإشراك وتحليل ما أحله وعدم تحريم شىء مما حرمنا ، وحيث لم يتحقق هذا . ثبت أنه جل شأنه لم يشأ شيئاً مما ذكر . بل شاء مانحن عليه ، وتحقق أن ماتقوله الرسل هو من تلقاء أنفسهم . فرد عليهم سبحانه بقوله :

(كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) : أى مثل هذا التكذيب والاستهزاء الشنيع بالرسل وادعاء أن شركهم رضيه الله وشاءه لهم – مثل ذلك كله اقترفه الذين سبقوهم من الأمم السابقة . فأشركوا بالله ، وحرموا ما أحله ، وجادلوا رسلهم بالباطل ، ليدحضوا به الحق ، وأعرضوا عما يدعونهم إليه استخفافاً بهم فأهلكوا .

وقد أنكر الله عليهم مجابهتهم للرسل ، وتماديهم فى عنادهم ، وبين أن المرسلين ليسوا مسئولين عن كفرهم بعد أن بلغوهم شريعة ربهم بوضوح وإخلاص فقال سبحانه :

(فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : أى ليس من شأنهم إلا تبليغ الرسالة تبليغاً واضحاً . لإظهار طريق الحق وإبانة أحكام الوحى : بما ينبىء أن مشيئته جل شأنه . إنما تتعلق بهداية من صرف قدرته واختياره إلى تحقيق الحق ، وفعل الطاعة لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا »[1] .

وهى تتعلق كذلك بإشراك الذين اتجهوا إلى اقتراف الشرك والعصيان ، وفق علمه تعالى بطبيعتهم ومباشرتهم الاختيارية لما عملوا . فالله سبحانه إنما شاء شركهم لأنه علم أزلا أنهم لايؤمنون باختيارهم وسوء تصرفهم ، وأما إلجاؤهم إلى الإيمان . فليس ذلك من وظيفة الرسل التى بعثوا بها إلى أممهم ، ولا من الحكمة التى يدور عليها التكليف . لأن شأنهم تبليغ الأوامر والنواهى لا تحقيق مضمونها وإجراء موجبها على الناس قسرًا وإلجاء ، وإنما المسئولية على الكفار أنفسهم ، ولاتنفعهم معاذيرهم الواهنة ، ومنها قولهم إنما أشركوا بمشيئة ربهم ، فإنه تعالى يقول : « وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ » .

---

(١) سورة العنكبوت من الآية رقم (٦٩) .

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(الطَّاغُوتَ) : كل ما عبد من دون الله ويستعمل فى الواحد والجمع .

التفسير

٣٦ ـ (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) :

فى الآية تأكيد للرد السابق على المشركين الذين أنكروا أنهم على باطل ، بدعوى أن ماهم عليه من الشرك وقع وفق مشيئة الله تبارك وتعالى ، حسب ماجاء فى النص الكريم حكاية عنهم : « لَوْشاءَ اللهُ مَاعبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شىءٍ » .

والمعنى : ولقد بعثنا فى كل أمة من الأمم السابقة رسولا خاصًّا بهم يبلغهم معالم الهدى ، ويرشدهم إلى قواعد النظر ، ويمدهم بأدلة يدركها السمع والبصر . قائلا لهم : اعبدوا الله وحده ، واتركوا عبادة سواه كالشيطان والأوثان والكهان وكل داع إلى الضلال ، ولما بلّغوا مابعثهم الله به من الأمر بعبادته وحده . واجتناب ماعداه . تفرقت أممهم .

(فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللهُ) : أى أرشده إلى الحق الذى هو دينه ، وجنبه الطاغوت بعد أن اتجه العبد إلى ربه ، يبتغى منه التوفيق والهداية إلى انتهاج هذا الطريق القويم .

(وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) : أى لزمته بالقضاء عليه بالكفر إلى موته . لعناده وإصراره على مااختاره لنفسه من التمسك بالضلال مع وضوح الأدلة الداعية إلى الحق الأبلج . ولم يكن وقوع ذلك عن طريق من طرق القسر والإلجاء كما زعموا .

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) : أى فسيروا فى أكناف الأرض وأنحائها . أيها المشركون المكذبون الذين قلتم : « لَوْشَاءَ اللَّهُ مَاعَبَدْنَا مِن دونِهِ مِن شَيْءٍ » . فانظروا معتبرين بما حدث للمكذبين قبلكم من عاد وثمود ومن سلك طريقهم ، فإنكم ستشاهدون فى ديارهم آثار الهلاك المبيد ، والعذاب المستأصل ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حلّ بهم ، وترتيب الأمر بالسير على مجرد الإخبار بثبوت الضلال عليهم ، من غير إخبار بحلول العذاب بهم ، لأن فى أمرهم بالرؤية والمشاهدة لآثار العذاب لمن قبلهم من المكذبين ما يغنى عن ذكر حلوله بهم .

(إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ) : تجتهد فى طلب هداهم .

التفسير

٣٧ - (إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ) : هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم لإخباره بأن من سبقت له الضلالة بسوء اختياره ، وإفساده استعداده . لا يهديه الله مهما بذلت من جهد فى تقويمه ، وقدمت من نصح لإرشاده بعد أن أضله وفق علمه بسوء اختياره . والمعنى : إن تحرص أيها الرسول على هدى قومك فاعلم أنه تعالى لايخلق الهداية جبرًا وقسرًا فيمن وجبت له الضلالة بسوء اختياره .

(وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ) : يدفعون عنهم العذاب يوم القيامة ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ودع أمرهم لربك ، فهو أعلم بحالهم وما ينبغى لهم .

(وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(الجَهْدَ) : الوسع والطاقة وهو بفتح الجيم وضمها : من جهد نفسه فى الأمر . بذل أقصى جهدها وطاقتها فيه ، وبابه نفع . وجهد الأيمان ؛ المبالغة فيها أو فى تقويتها .

التفسير

٣٨ - (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللهُ مَن يَمُوتُ) : شروع فى بيان فن آخر من أباطيل أهل مكة والتعجيب من صفتهم ، فقد ذكر الله تعالى أنهم أقسموا بالله . وبالغوا فى تأكيد أيمانهم وتغليظها . بأنه سبحانه لايبعث مَن يموت ، وهذا منهم اضطراب وسوء إدراك فإنهم معترفون بأنه تعالى خالق السموات والأرض وما فيهن ، فكيف ينكرون أن يبعث من فى القبور تحقيقاً للعدالة بين عباده ، بأن يجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، ولهذا رد عليهم سبحانه ردًّا بليغاً بقوله تعالى :

(بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا) : أى بلى يبعثهم ، وقد وعد الله بذلك وعدًا ثابتاً ، لابد من إنجازه ، لأنه أخذ على نفسه العهد بوقوعه ، ولن يخلف الله وعده .

(وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) : أى ولكن أكثر الناس يجهلون أنهم مبعوثون لجهلهم بشئون الله من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه وما لا يجوز ، ولعدم وقوفهم على سر التكوين ، وعلى أن البعث حق لتحقيق العدل حين الجزاء ، فلجهلهم بكل هذا وإعراضهم عن الإدراك والانتفاع بالتوجيه والنصح أنكروه وبالغوا فى إنكاره وكذبوا الرسل فى إخبارهم به . ويجوز أن يكون قوله : « لَا يَعْلَمُونَ » للإيذان بأن ماعند أكثرهم بمعزل عن العلم المعتد به ، وإنما هو توهم صرف ، وجهل محض ، وعلى هذا يكون لفظ « يعلمون » منزلا منزلة الفعل اللازم لم يراع فيه تعلقه بمفعول أصلا .

٣٨ـ (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ....) : أى يبعث الله الأموات مؤمنهم وكافرهم يوم القيامة ، ليبين لهم بذلك حقيقة الحال ، بما يحصل لهم من مشاهدة حقائق الأمور كما هى ، ومعاينتها بصورها الحقيقية . فيصل بذلك علم المؤمنين إلى عين اليقين ، ويتضح للمكذبين الجاحدين الحق الشامل لجميع ما خالفوه وأعرضوا عنه . مما جاء به الرسل الذين بُعثوا إليهم ويدخل فيه البعث دخولا أوّليًّا .

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا) : بالبعث وأقسموا على إنكاره وكفروا بالله سبحانه بالإشراك وتكذيب وعده الحق .

(أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ) : فى كل أقوالهم عن الله ورسله من أكاذيب ، ومن جملة ذلك قولهم : « لا يبعث الله من يموت » . وجعلت غاية البعث هنا ماذكر من بيان ما اختلفوا فيه وعلمهم أنهم كانوا كاذبين فى إنكاره ، لأن النص الكريم فى معرض الرد على المنكرين له ، وإلا فالمقصود الأصلى من البعث باعتبار ذاته إنما هو الجزاء ، وقد تكرر ذكره فى مواضع أخر ....

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾

التفسير

٤٠ - (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إذا أَرَدْنَٰهُ . . .) الآية .

استئناف لبيان أن بعث العباد يوم القيامة ، ليس بعسير على الله تعالى حتى يستبعده الكفار وذلك لسهولة التكوين عليه بدءًا ، والإعادة عليه غاية :

والمعنى : ماقولنا لشيء إذا تعلقت بإيجاده إرادتنا إلا (أن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُون) : أى أن نقول تبليغاً له : «كُن» فإذا قلنا له ذلك فهو يكون . وهو تمثيل لسهولة تأتى المقدورات لله تعالى حسبما تتعلق بها مشيئته ، وتصوير لسرعة إيجادها والمقصود أنه تعالى عند تعلق مشيئته بإيجاد شيء أوجده بقدرته فى أسرع مايكون ، فلايمتنع عليه إيجاده عند إرادته له . كما لا يمتنع المأمور الممتثل عند أمر الآمر المطاع ، وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون . فإنه تعالى ليس بحاجة إلى ذلك ، كما أن المعدوم الذى يريد الله إيجاده لايعقل خطابه ، لأن الخطاب يكون للموجود دون المعدوم وإذا كان كل مقدور لله تعالى يتحقق بهذه السهولة والسرعة . فكيف يمتنع عليه البعث كما يدعى المنكرون الضالون مع أنه بعض مقدوراته سبحانه .

(وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(الهِجْرةُ) : بكسر الهاء وضمها : الخروج من أرض إلى أخرى ، والهجرة إذا أطلقت انصرفت إلى هجرة المسلمين إلى المدينة قبل الفتح مالم تدل قرينة على خلافه كماسيأتى فى بيان سبب النزول (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ) : لننزلنهم ، يقال بوّأه منزلا وفيه أنزله . كأباءه .

التفسير

٤١ - (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ . . . .) : هذه الآية قيل إنها نزلت فى المهاجرين إلى الحبشة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين اشتد بهم أذى المشركين بمكة حتى اضطروهم إلى الخروج إلى الحبشة فرارا بدينهم ، وقد نقل عن ابن عباس أنها نزلت فى صهيب وبلال وعمار وخباب وأبى جندل وغيرهم . أخذهم المشركون بعد هجرة النبى إلى المدينة فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام ، فأما صهيب فقال أنا رجل كبير . إن كنت معكم لم أنفعكم ، وإن كنت عليكم لم أضركم . فافتدى منهم بماله . وهاجر فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال: ربح البيع ياصهيب ، وهذا يفيد أنها نزلت بالمدينة ، والصحيح فى سبب النزول هو الأول لأن السورة مكية عدا ثلاث آيات فى آخرها ، ومعنى الآية على هذا : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هاجروا إلى الحبشة من وطنهم مكة وتركوا أموالهم ، وأهليهم وكل عزيز عليهم فى سبيل الله ، لنصرة دينه والحفاظ عليه ابتغاء وجهه والتماس رضاه ، وكانت هجرتهم بعد أن حل بهم من الظلم أقساه ، ومن التعذيب والتنكيل مايتجاوز الاحتمال . هؤلاء المهاجرون المظلومون .

(لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) : أى لنبوئنهم مباءة حسنة . والمراد بها المدينة أو لننزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة بما استولوا عليه من فتوح صارت لهم فيها ولايات .

(وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ) : أى ولأجر دار الآخرة أكبر مما وعدوه من أجر الدنيا ، وكان عمر رضى الله عنه إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاءه قال له : خذ بارك الله تعالى لك فيه . هذا بعض ما وعدك الله تعالى فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ، ثم تلا الآية .

والضمير فى قوله تعالى : (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) : إن كان لكفار مكة فالمعنى ، لو علموا ما ادخره الله لهؤلاء المهاجرين من خيرى الدنيا والآخرة لبادروا إلى الإيمان ولو افقوهم فى الدين ، وإن كان للمهاجرين فالمعنى ؛ لو علموا ذلك لزادوا فى الاجتهاد والصبر على الابتلاء .

٤٢ - (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) : أى أصحاب هذى البشرى هم الذين صبروا على ايذاء المشركين لهم ، وفراق أهليهم وأموالهم ووطنهم وبيوتهم ، وعلى ربهم يتوكلون ويعتمدون ولهذا حقق لهم من فضله ما بشرهم به

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(بِالْبَيِّنَاتِ) : بالحجج والبراهين الواضحات ، والمراد بها : المعجزات . (والزُّبُر) : جمع زبور وهو الكتاب ، تقول العرب . زبرتُ الكتاب ، أى كتبْتُه . والمراد بالزبُر ، الكتبُ السابقةُ .

٤٣ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ...) : نزل النص الكريم للرد على مشركى مكة - حيث أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . وقالوا : الله أعظمُ من أن يكون رسوله بشرا . فهلاّ بعث إلينا ملكا فقال سبحانه إبطالا لقولهم :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ) : أى جرت السنة الإلهية حسبما اقتضته الحكمة بألا يبعث الله للدعوة إلى دينه ، إلا رجالاً يوحى إليهم بوساطة الملك الذى يحمل إليهم أوامر الله ونواهيه لتبليغها إلى أممهم ، وتلك الأمم حسب طبيعتها الآدمية لاتستطيع معاينة الملك على صورته الأصلية ، فإنهم يهلكون إن جاءهم بها ، فلابد من أن يكون بصورة رجل لكى يحتملوا لقاءه ، ولكنه فى هذه الحالة يلتبس عليهم الأمر فيظنونه بشراً كما قال تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً[1] » . ولما كان المقصود من خطاب الله لرسوله هو تنبيه الكفار إلى مضمونه . صرف الخطاب إليهم حيث قال سبحانه :

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) : أى فاسألوا أهل الكتاب الذين أسلموا كما قال سفيان ، أو المراد أهل الكتاب مؤمنهم وكافرهم . لأن من لم يؤمن منهم معترف بأن الرسل كانوا بشراً . أو المراد علماء وأحبار الأمم السابقة الذين يجيدون ذكرها وحفظها .

(إِن كُنتُمْ لاَتَعْلَمُونَ) : أن جميع الأنبياء كانوا رجالا فاسألوهم ليعلموكم ذلك .

٤٤ ـ (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) :

البينات : الحجج ، والزبر : الكتب ؛ جمع زبور وهو الكتاب أى أرسلنا الأنبياء بالحجج الواضحة ، والبراهين الساطعة المؤيدة لهم ، الدالة على صدقهم ، وأرسلناهم بالكتب المنزلة عليهم بيانا للشرائع والتكاليف .

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) :أى القرآن وهو مأخوذ من التذكير أى الوعظ والإيقاظ من الغفلة .

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) : من ربهم فى هذا الكتاب من العقائد والأحكام والأخلاق بقولك وفعلك . لعلمك بمعنى ما أنزل إليك ، وحرصك عليه. واتباعك له . فتفصل لهم ما أجمل ، وتبين ما أشكل بياناً شافياً ، وبنحو هذا المعنى قال مجاهد ، فقد نقل عنه أن المراد بهذا التبيين شرح ما أشكل ، وتفسير ما أجمل إذ هما المحتاجان للتبيين ، وأما النص فى معناه والظاهر فلا يحتاجان إليه : اهـ نقلا عن الألوسى

وبالجملة فالمعنى أنزلنا إليك القرآن لتبين للناس ما خفى عليهم من أسراره وعلومه التى لا تكاد تحصى .

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٩

(وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) : أى رغبة فى أن يتأملوا فينتبهوا للحقائق . ليكون ذلك داعيًا لهم إلى الاحتراز عما أصاب السابقين من العذاب ، ودافعا إلى الاهتداء ليفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة .

(أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ) : أى عملوا السيئات بمكر وخبث .

(أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ) : أى يشق بهم الأرض فيهلكوا فى جوفها ، يقال: خسف المكانُ أى ذهب فى الأرض ، وخسفه الله أى شقه وخسفه بفلان أى شق المكان وغيب الشخص بداخله ، ومنه قوله تعالى : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » . وبالجملة فهو لازم ومتعد (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ) : أى يهلكهم فى حركتهم إقبالا وإدبارًا ، مقيمين أومسافرين . (عَلَى تَخَوُّفٍ) : على مخافة وحذر من الهلاك ، أو على تنقص فى أنفسهم وموارد رزقهم إلى أن يهلكوا جميعًا . (وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) : أى وما هم بممتنعين علينا بقوتهم - أو بالهرب فرارًا من بأسنا .

التفسير

٤٥ - (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ . . . .) :هذا وعيد للمشركين من أهل مكة الذين احتالوا بالسيئات فى إبطال الإسلام ، فمكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث دبروا فى خفاء كل أسباب الإيذاء له ولأصحابه الذين آمنوا معه واتبعوه، وهو وعيد عام لكل ماكر ، والاستفهام للإنكار ، ومعناه : يجب ألا يأمن هؤلاء الماكرون العقوبات السيئة التى تحل بهم

كما حلت بالمكذبين قبلهم . وكيف يحق لهم أن يأمنوا إنزال أشد العقوبات بهم مع قدرته جل شأنه على :

(أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ) : أى يهلكهم بالخسف وهو تغييبهم فى الأرض بتغويرها بهم - قال ابن عباس : كما خسف بقارون - بشير بذلك إلى قوله سبحانه « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ »(١) .

(أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) : أى يأتيهم عذاب الله وهم فى غفلتهم ولهوهم ، أو من مأمنهم حيث يبتغون الأمن والسلام ، أو من الجهة التى يرجون منها الخير والبركة . كما فعل بقوم لوط وغيرهم من الأمم المهلكة .

ولقد حدث لهم ذلك يوم بدر ، فقد أهلكوا مع كثرتهم عددًا وعتادًا وهم يأملون النصر والغنيمة .

٤٦ - (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ) : أى ينزل بهم العذاب فى تنقلهم للتجارة بعيدين عن مساكنهم . قاله قتادة ، وقال الزجاج : المراد ما يعم سائر حركاتهم فى أمورهم ليلا ونهارًا .

(فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) : أى فلا يستطيعون الإفلات والفرار من عذابه تعالى لأنه لايعجزه شىء يريده ، فهو القوى العزيز .

٤٧ - (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ) : أى يأخذهم على مخافة وحذرمن العذاب والهلاك . بأن يأخذ طائفة . ويدع أخرى ، فتخاف أن ينزل بها من العذاب مثل مانزل بصاحبتها . أو أن تحدث حالات يخاف فيها عادة كالأعاصير والزلازل والصواعق فيتخوفوا منها فيأخذهم العذاب فى حال تخوفهم . أو يأخذهم على تنقص فى أنفسهم وفى صحتهم وأموالهم وأولادهم وموارد رزقهم إلى أن يهلكوا جميعًا . فهم فى كل لحظة بسبب ما حل بهم فى خوف من العذاب لأنهم يترقبون وقوعه .

ويلاحظ أن التنقص من معانى التخوف لغة كما سبق بيانه فى المفردات . ولما كان المتقلبون فى البلاد ليلا ونهارًا للتجارة وغيرها . بعيدًا عن المسكن والملجأ . مظنة الفرار من العقاب عند ظهور أول بوادره وكذلك المتخوفون من حلول العقاب بهم ، فلهذا عبر سبحانه

---

(١) سورة القصص الآية ٨١

عن إصابة العذاب لهم بالأخذ الدال على القهر والشدة نظرًا لحالهما ، وسدًّا لِمَنافِذِ النجاة على كليهما ، وعبَّر عن إصابة العذاب لهم حال الغفلة بالإتيان لأنه ليس مظنة الفرار وسلوك أى مسلك للنجاة عادة . فلذلك اختلف التعبير فى الإنذار بالعذاب . وليس المراد حصر الإهلاك فى هذه الأحوال الثلاثة . وإنما المراد بيان قدرة الله على إهلاكهم بأى وجه كان .

ثم ختمت الآية بما يفيد اقتضاء رحمة الله الواسعة ،ورأفته الشاملة ألا يعاجلهم بالعقوبة فى الدنيا ليتسنى لهم التفكر فى شأنهم والتدبر فى أمرهم . حيث قال سبحانه :

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ : حيث أمهلكم مع استحقاقكم للعقوبة لما اقترفتم من بغى وعدوان .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۩ ﴾

المفردات :

﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ﴾ : تفيُّؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار . من فاء يفىءُ . إذا رجع .

﴿ دَاخِرُونَ ﴾ : أذلاء منقادون ، من الدُّخُور وهو الصغار والذل ، وفعله . كمنع وخرج .

التفسير

٤٨ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ .... ﴾ : استفهام إنكارى قصد به تقريع الذين مكروا السيئات ، والمعنى أعمىَ الذين مكروا السيئات ولم ينظروا إلى ما خلق الله من كل جسم قائم له ظل مما تدركه الأبصار ، ليعلموا عظمة الله وكبرياءه ، وأنه سبحانه دانت

له الأشياء والمخلوقات جميعا جمادها ونباتها وحيواناتها . وأناسيها . كما دانت له ظلالها . فكل ذى ظل منها . (يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ) : أى ينتقل ويرجع من جانب إلى آخر بارتفاع الشمس وانحدارها . أو باختلاف مشارقها ومغاربها . فإن لها مشارق ومغارب حسب مداراتها اليومية التى تتحرك فيها كل يوم من أيام السنة وفق تقدير العزيز العليم

(عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ) : المراد بهما جانبا الشىء ، استعارة عن يمين الإنسان وشماله ، والمعنى أن ظلال الأشياء متفيئة عن جانبى كل واحد منها . ترجع من جانب إلى جانب . فتكون أول النهار على حال ، وآخره على حال أخرى وذلك أنها تميل إلى جهة المغرب من وقت الشروق إلى الزوال . وتميل بعده إلى وقت الغروب راجعة إلى جهة الشرق .

(سُجَّدًا لِلَّهِ) : أى حال كون هذه الظلال منقادة لإرادته تعالى فى الامتداد والتقلص . والرجوع من حال إلى حال خاضعة لأحكام تدبيره . غير ممتنعة عليه سبحانه فيما سخرها له ، وذلك هو المراد بسجودها .

(وَهُمْ دَاخِرُونَ) : أى أن أصحاب هذه الظلال التى انقادت ظلالها لما قدر لها من التفيؤ . أذلاء منقادون لحكمه تعالى . يستوى فى ذلك الأجرام الثابتة ، كالجبال والأشجار والأحجار ونحوها ، والأجسام المتحركة من كل ما يدب على الأرض إنسانًا وغيره ، وعبر بضمير العقلاء وصفتهم مع شمول الحكم لسواهم ، تغليبًا للعقلاء على غيرهم .

٤٩ – (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ ....) : شروع فى بيان سجود المخلوقات المتحركة بالارادة بعد بيان سجود الظلال وأصحابها بصفة عامة تأكيدًا لبيان قدرة الله جل شأنه ، وأنه سبحانه يخضع لسلطانه وحده كل شىء ، وينقاد له جميع ما فى السموات من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والكواكب والرياح والسحاب ، وما فى الأرض من كل شىء يدب ويتحرك عليها ، وقوله من دابة بيان لما فى الأرض ، وقيل بيان لما فى السموات وما فى الأرض جميعا بناء على أن الدبيب هو الحركة الجسمانية فى أرض أو فى سماء ، وربما كان ذلك إشارة إلى وجود أجسام عاقلة على بعض الكواكب ، وقد عزى هذا الرأى إلى ابن عباس وغيره .

(وَالْمَلَائِكَةُ) : أى وملائكة الأرض والسماء يسجدون لله تعالى ، وإنما أفردوا بالذكر لاختصاصهم بشرف المنزلة ، وسجود المكلفين المؤمنين لله يعم سجود الطاعة والعبادة ، وسجود الخضوع لمراد الله تعالى ، أما سجود غيرهم فهو سجود الخضوع والانقياد لما يريده الله بهم من الأمور الاختيارية والقهرية ، فهم فى كل ذلك ساجدون أى خاضعون لسلطان الله .

(وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) : أى أن الملائكة مع علو شأنهم لايستكبرون عن عبادته والسجود له . وهم مخلوقات نورانية عاقلة مطيعة لله تعالى .

٥٠ ـ (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ . . . .) : أى يرهبون مالك أمرهم ، ويخافونه خوف هيبة وإجلال . وهو فوقهم بالقهر والحكمة والعلم . كما فى قوله تعالى : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »[١] .

أو المعنى ؛ يخافون عذاب ربهم على حذف مضاف لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء .

وجملة : « يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ » بيان وتقرير لنفى الاستكبار لأن من خاف الله لايستكبر عن عبادته .

(وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) : أى يؤدون كل ما يوجهون إليه فى سلوكهم . فشأنهم المثابرة على العبادة وتنفيذ مايكلفون به من التدبيرات فى كون الله تعالى ، وإنما قال سبحانه : « وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » حيث لم يذكر من يُصْدِرُ لهم الأمر ، لأنه لايخفى على أحد ، فهو الله تعالى .

(١) سورة الأنعام الآية ١٨

(﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾)

المفـردات :

(فَارْهَبُونِ) : أى فخافون واخشوا عقابى إن خالفتم أمرى .

(وَلَهُ الدِّينُ) : وله الطاعة والانقياد أو الجزاءُ ، مِن دِنْتُهُ أىجازيْتُهُ .

(وَاصِبًا) : واجبًا لازمًا، وفسّره الربيعُ بن أنس بقوله : « واصِبًا » خالصًا .

التفسير

٥١ ـ (وَقَالَ اللهُ لَاتَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) :

حذر الله فى الآيات السابقة أهل مكة من عاقبة كفرهم بما أنزله على رسوله ، من أن يصيبهم مثل ما أصاب المكذبين بالرسل قبلهم ، من الخسف أو إتيان العذاب من حيث لا يشعرون ، أو أن يأْخذهم فى تقلبهم ونشاطهم بغير مقدمات ، أو يأْخذهم على تخوف من الهلاك بأَن يرهبهم قبله بمقدمات مخيفة ، وأتبع ذلك توبيخهم على أنهم لم يتفكروا فيما خلقه من الأَشياء التى تنتقل ظلالها عن اليمين وعن الشمائل ، من الجبال والأَشجار وغيرها ، منقادة لله تعالى فى أمرها كله ، وبيَّن أنه ـ سبحانه ـ يسجد له ما فى السموات والأَرض من دابة ، وكذلك الملائكة مع رفعة شأْنهم ، فإنهم يطيعون ربهم فلا يعصونه ، بل يفعلون مايؤمرون .

وجاءت هذه الآية لتأْمر أهل مكة وغيرهم بتوحيده بالعبادة والخوف من التقصير فيما كلفهم به ، فإن منْ هذا شأْنه لا يعبد سواه ، ولا يخاف غيره . وقد كان مشركو قريش وغيرهم يعترفون بأُلوهية الله ، ولكنهم كانوا يتخذون معه شركاء لتُقرِّبهُمْ إليه ، وهم مع ذلك يعتقدون أن الله يملكها ، فهذه قبيلة نزار مثلًا كانت تقول فى تلبيتها فى الحج : «لبيك اللهم

لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكٌ هُو لك . تملكه وما ملك» فهم يوحدونه بالتلبية، ويدخلون معه آلهتهم ، ويجعلون ملكها بيده ، وفى مثل ذلك يقول الله تعالى:

«وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُون » . وكانت لهم أصنام مشتركة ، وأخرى لطائفة دون أخرى، أو لبيت دون آخر، ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم فتح مكة، وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا فجعل يطعنها بِسِيَةِ[1] قوسه فى عيونها ووجوهها وهو يقول: « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »ثم أمر بها فكُبَّتْ على وجوهها. ثم أُخرجت من المسجد ودُمِّرت .

ومعنى الآية :

وقال الله الذى عرفتم سلطانه فى هذا الكون : لاتتخذوا يا عبادى لكم إلٰهين اثنين فضلًا عما فوقهما إنما الإلٰه إلٰه واحد لا شريك له، إذ « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ».

ثم التفت النص الكريم من الغَيْبةِ إلى التكلم. لِتربِيةِ المهابة والرهبة فقال :

(فَإِيَّايَ فَارْهَبُون) : أى إن كنتم ترهبون شيئًا وتخافون منه . فإياى ارهبوا وخافوا دون سواى ، فليس غيرى أحقَّ بالرهبة ، فارهبونى فإننى أنا الواحد الذى يسجد له ما فى السموات والأرض ويخضع لسلطانه .

ثم بين الله سبب وجوب توحيده بالعبادة والرهبة بقوله :

٥٢ - (وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا) :

أى ولله وحده كل ما فى السموات والأرض، من أجزائهما وما استقرَّ فيهما، له كل ذلك خلقًا وملكًا وتصرفًا ، وله الطاعة والانقياد واجبًا ثابتًا لايستحقه سواه ، لِما تقرَّر من أنه الإلٰه الواحد الحقيقُ بأن يُرهب .

وعلى تفسير الدين بالجزاء يكون المعنى : وله الجزاءُ دائمًا، فلا ينقطع ثوابه عمَّن آمن وعمل صالحًا ، ولا عقابه عمن كفر وصدَّ عن سبيله .

---

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها .

ثم استنكر الله أن لا يتقى المشركون مَن هذه آيات عظمته فقال سبحانه :

(أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ) :

أى أبعد ما تقدم بيانه من أن كل مافى السموات والأرض يسجد ويخضع لله ، وأن الطاعة واجبة له ، والجزاء حق من حقوقه ، أبعد ما ذكر تخُصُّون غير الله بالتقوى ؟ مع أنه -تعالى- هو المستحق لها دون سواه ، ثم أنكر عليهم شركهم مع توالى نعمه عليهم فقال سبحانه :

(وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(تجْأَرُون) : تتضرعون ليكشف عنكم الضر . والجُؤار : رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .[1]

(فَتَمَتَّعُوا) : أمر تهديد لهم وليس أمر إباحة . ●

التفسير

٥٣ - (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تجأَرُونَ) :

المعنى : وما يصاحبكم من نعمة فى أنفسكم وأموالكم وأولادكم فهى صادرة من الله تعالى ، مدبرها وخالقها ورازقها ، ثم إذا أصابكم الضرر إصابة يسيرة فإليه وحده تتضرعون مستغيثين

---

(١) قال الأعشى :

يُراوحُ من صلواتِ المليـ ـكِ طورًا سُجُودًا وطورًا جُؤارًا

ابتغاء كشفه عنكم ، فكيف تشركون معه شركاءكم فى العبادة ، وليس لها فى نفعكم ودفع الضر عنكم من سبيل ؟ ثم نعى الله عليهم عودتهم إلى الشرك بعد أن كشف الضرّ عنهم فقال سبحانه :

٥٤ - (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُم إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) :

أى ثم إذا كشف الله الضر عنكم بعد تضرعكم واستغاثتكم ، إذا جماعة منكم يشركون بربهم أصنامهم فى العبادة ، مع أنها لا دخل لها فى نفعهم ودفع الضر عنهم .

والخطاب فى قوله : « وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ » وقوله : « إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ » الآيتين ، إن كان للمشركين كما هو الظاهر فلفظ « مِن » فى قوله : « إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُمْ » لبيان أنَّ الفريق الكافر هو كلهم ، فكأنه قيل : إذا فريقٌ كافرٌ هُمْ أنتم ، وأجاز بعض المفسرين أن يكون مِنْهُمْ منِ اعتبر وازدجر ، فتكون « مِنْ » على هذا الرأى للتبعيض ، كما فى قوله تعالى : « فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

أما إن جُعل الخطاب فى الآيتين للناس كافة . فالكافرون بنعمه وفضله بعضهم لا كلهم فتكون « مِنْ » فى قوله : « إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » للتبعيض لا للبيان ، ثم بين الله عاقبة إشراكهم فقال :

٥٥ - (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

أى أن فريقًا منهم يشركون بالله فى العبادة مع توالى نِعَمِهِ عليهم ودفع نِقَمِهِ عنهم ، لتكون عاقبةُ شركهم وأثرُه أن يكفروا بما آتاهم من النعم ، وَيُنكِرُوا كونها منه دون غيره ، ثم أنذرهم الله وهدَّدَهُم بسوءِ المصير فقال :

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

أى فاستمتعوا بما أنتم فيه من نعم كفرتم بها ولم تشكروها ، فسوف تعلمون عاجلًا أو آجلًا عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب جزاء شرككم وكفرانكم .

ثم عقب هذا الوعيد بتعداد جناياتهم المستوجبة له فقال سبحانه :

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ
لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ
وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ
أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(لِمَا لَا يَعْلَمُونَ) : لآلهتهم التى لا يعلمون حقيقتها وخِسَّة قدرها .

(تَاللهِ) : قسم ؛ أى والله .

(تَفْتَرُونَ) : أى تختلقونه من الأكاذيب .

(مُسْوَدًّا) : المراد من اسوداده ؛ كآبته واغتمامه على سبيل الكناية .

(كَظِيمٌ) : ممتلىءٌ غيظًا .

(أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ) : أيبقيه على هوان وذل .

(أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَاب) : أم يخفيه ويدفنه فيه . (مَثَلُ السَّوْء) : صفة القبح .

التفسير

٥٦ - (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) :

أى أن المشركين حين يكشف الله الضرَّ عنهم بعد تضرعهم إليه واستغاثتهم به ، يعودون فجأةً إلى الشرك ، ويجعلون لأصنامهم التى لا يعلمون حقيقتها وقدرها الخسيس

-يجعلون لها- نصيبًا مما أعطاهم الله من الزروع والأنعام وسائر الأرزاق ،تقربًا إليها ، وما لها عليهم من فضل ، ولا لها عليهم من سبيل ، ولا هي مدركة ما يُتَقَرَّبُ به إليها ، ثم ختم الله الآية بوعيدهم فقال :

(تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ) :

أي وحقّ الله المنزه عن الشريك والمثيل ليسألنكم الله سؤال توبيخ وحساب يوم القيامة ، عن الذي كنتم تختلقونه في الدنيا من شركة أوثانكم لله ، واستحقاقها للعبادة معه ، ثم يجزيكم على افترائكم .

٥٧ - (وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ) :

كانت خزاعة وكنانة يزعمان أن الملائكة بنات الله ، وقد انطوى هذا الزعم على فريتين : إحداهما :أن الملائكة إناث ، وثانيتهما : أنهم بنات الله ، فأما الزعم الأول فقد ردَّه الله بقوله : «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »[1]. وأما الزعم الثاني فقد ردَّه الله بهذه الآية .

والمعنى : ويجعل المشركون البنات لله حيث يزعمون أن الملائكة بنات الله - سبحانه وتنزيهاً له عن هذا الزعم الفاسد - والحال أنهم يجعلون لأنفسهم ما يحبون من البنين ، فهم بذلك يختارون لأنفسهم في التبنّي ، أفضل مما يختارون لربهم ، تعالى الله عن التبني بجانبيه علوًّا كبيرًا .

ثم يُوبِّخُهم الله على هذه النسبة أكثر مما مضى وأصرح فيقول :

٥٨ - (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا) : أي وإذا أُخْبِر أحد هؤلاء بولادة أنثى له ، صار وجهه قاتم اللون كأنما علاه السواد غيظاً من شدَّة الغمِّ والحياء من الناس كأنما ارتكب ما يخجله . (وَهُوَ كَظِيمٌ) : أي وهو ممتلىءٌ غيظًا وغضبًا ، ثم يبلغ به الخجل من البشارة بالأنثى إلى ما حكى الله بقوله :

(١) سورة الزخرف ، الآية : ١٩

٥٩ - (يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ) :

أى يستخفى من قومه حتى لايروه بسبب ما بُشِّرَ به من السوء حينما أخبروه بولادة أنثى له وجعل يحدث نفسه فى شأنه (أَيُمْسِكُهُ) فلا يقتله . ويظل يمسكه (عَلَى هُونٍ) : على ذلٌ وهوانٍ. (أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ) :بأن يحفُر له فيه حُفْرةً فيدفنه فيها حيًّا . ويهيل التراب عليه كما كانوا يقولون : وأد البنات من المكرمات . وإذا كان هذا حالهم فى كراهة نسبة البنات إلى أنفسهم فكيف ينسبونها إلى الله . إذ يحكمون بأن الملائكة بناته . ولهذا قبّح الله حكمهم هذا فقال :

(أَلَا سَاءَ مَايَحْكُمُونَ) : أى ألا قبُح حكمهم حيث يجعلون ما هذا شأنه من الحقارة والهوان لديهم - يجعلونه وينسبونه - لله المنزه عن الصاحبة والولد ذكراً كان أو أنثى فى حين أنهم يتحاشون الإناث . ويختارون لأنفسهم البنين .

فمدار الخطإ نسبتهم البنات لله وهم يأبون ذلك لأنفسهم فى حين أنه منزه عن الولد مطلقًا ذكرًا كان أو أنثى ، ولذا قال - سبحانه - عقب ما تقدم :

٦٠ - (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة والحساب فيها على ما افتروه - لهم - صفة القبح ، من الحاجة إلى الولد ليقوم مقامهم ويرثهم عند موتهم ، وحب البنين دون البنات للاستظهار بهم والانتفاع بكدهم ، ووأد البنات خوفًا من العار وحذرًا من الفقر ، ولله - تعالى - المثل الأعلى والصفة العظيمة الشأن من الاستغناء المطلق عن الولد ذكرًا كان أو أنثى . فهو الغَنِىُّ المطلق الْغِنَى فى أمره كلِّه ، المنزه عن الحاجة إلى الصاحبة والولد ذكرًا كان أو أنثى ، المستوجب لكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، وهو العزيز الغالب القادر على مؤاخذتهم ، الحكيم فى كل شئونه ، فلهذا لم يعاجلهم بالانتقام منهم ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ولهذا قال الله تعالى عقب ذلك :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

المفـردات :

(مِن دَابَّةٍ) : الدابة ما يدب على الأرض ، وقيل المراد بها هنا : الكافر ، وسنفصل الكلام فى ذلك فى التفسير . (وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) : ولكن يُؤَخِّرُ موتهم إلى وقت سماه الله لذلك فلا يموتون قبله ، ويجوز أن يكون المراد . ولكن يؤخر عذابهم إلى أجل مسمى ، وهو إما موتهم حيث يعذبون فى قبورهم أو يوم القيامة ، فهو الأجل الذى سماه الله فى لسان الشرع لجزاء الناس كما فى قوله تعالى :

« وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

(لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) : أى لا يتأخرون عن الأجل المسمى أقل زمن ، ولا يتقدمون ، والتعبير عنه بالساعة ، لأنها فى لغة العرب مَثَلٌ فى القلَّة . وليس المراد بها الساعة المعروفة عندنا فى عصرنا والمقدرة بستين دقيقة . لأن ذلك اصطلاح مستحدث .

التفسير

٦١ - (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ) :

بيَّن الله تعالى فيما تقدم ماكان عليه المشركون من الضلال مثل زعمهم أن الملائكة بنات الله ، مع أنهم يكرهون البنات ويستاءون من البشارة بِهِنَّ ويدُسُّونهن أحياء فى التراب ، وأتبع ذلك تنزيهه تعالى عن ذلك وعن نسبة الولد إليه سواء أكان ذكرا أم أنثى ، وبين سوء حكمهم

هذا ، وأن له تعالى الصفة العلية الشأن التي هي مثل في العلوّ والرفعة ، وأن ما وصفوه به لا يليق به جل وعلا ، فهو غير محتاج إلى الولد مطلقًا ، لا ليَرِثهُ ولا ليُعِينه فهو الحي الذى لا يموت العزيز الحكيم ، فليس بحاجة إلى ولد يعتز به ، أو يدبر معه ملكوته ، وأن أولئك المُتجنِّين على ربِّهم لهم صفة القبح وهي الحاجة إلى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم فهم أهل الفناء ، أما الله تعالى فله صفة الحسن وهي كمال الاستغناء .

وجاءت هذه الآية لتبين رحمة الله بالناس حيث لا يعاجلهم بالعقوبة الشاملة بسبب تماديهم فى ظلمهم بل يؤَخرهم إلى أجلٍ مُسمى لعلهم يثوبون إلى رشدهم . قبل أن يحين أجلهم .

والآية تحتمل معنيين . أحدهما : ولو يؤاخذ الله الكفار بكفرهم ومعاصيهم التى تحدثت الآيات السابقة عن بعضها ، ما ترك على هذه الأرض من دابةٍ كافرة . حيث يهلكهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم . ولكنه لم يفعل رحمة بهم لعلهم يرجعون إلى رشدهم . ويكفون عن كفرهم ومعاصيهم .

وإطلاق الدابة على الإنسان لغوى . مأخوذ من دبَّ على الأرض أى مشى عليها فى هينةٍ وتمهُّلٍ . فالإنسان نفسٌ دابةٌ على الأرض . قال الشاعر العربى :

زعمتنى شيخًا ولستُ بشيْخ إنمــا الشَّــيْخُ من يدُبُّ دبِيبًا

والمعنى الثانى : يتجه بالإهلاك إلى عموم مايدب على الأرض ، أى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبه أهل الذنوب منهم ماترك على الأرض من إنسان طالح أو صالح ولا ترك عليها غيره من دواب الأرض . بسبب شؤْم أهل الذنوب . قال ابن مسعود فى تفسيرها : ولو أخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العذاب الجُعْلَان[1] فى جحرها . ولأمسك الأمطار من السماء ، والنَّبات من الأرض فماتت الدواب ولكن الله يأْخذ بالعفو والفضل : كما قال : « وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ » .

(١) جمع جعل بوزن صرد ؛ دابة سوداء من دواب الأرض .

ولعل مما يساعد على إرادة العموم ما جاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إذا أراد الله بقوم عذابًا أصاب العذاب من كان فيهم ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى نِيَّاتِهِمْ » وقوله تعالى: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً » .

وبعد أن بيَّن الله شؤم المعصية وما تجره على أهل الأَرض من الآثار عقب ذلك ببيان رحمته بعباده فقال :

(وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) :

أى ولكن يؤخر إهلاكهم إلى أجل عيّنهُ لذلك لعلهم يطيعون ربهم وينجون من عذابه ، فإنه تعالى خلقهم ليعبدوه وهداهم بالآيات والرسل إلى طريق معرفته وطاعته ، فلا عذر لهم فى عصيانه .

ثم بين أن أجلهم آتٍ لا ريب فيه ولا تغيير له بتقديم أو تأْخير ، لعلهم يسارعون فى التوبة فقال : (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُون سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُون) : أى فإذا جاء الوقت المحدد لموتهم لايتأخرون عنه أقل وقتٍ ولا يتقدمون .

فإن قيل : إن وقت إهلاكهم إذا جاء لايتصور تقدمهم عنه ، فلماذا قيل : «وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » فالجواب أن ذكره للمبالغة فى بيان عدم تأخره بنظمه فى سلك ما يمتنع تنبيهاً على أنه مثله فى الامتناع ، كما فى قوله تعالى : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ » فإن من مات كافرًا معلوم بالضرورة أنه لاتقبل توبتُه بعد موته ، وليس بحاجة إلى التصريح به ، ولكنه ذكر مع من لاتقبل توبته عند الغرغرة ومشارفة الموت للإيذان بأَنهما سواء فى عدم قبول التوبة ،لأنها حدثت منه بعد يأْسه من الحياة ، فكان مِثْل من مات كافرًا فى أنه لاتوبة له.

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ) : أي ينسبون إليه البنات التي يكرهونها لأنفسهم - (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ) : أي تحكي الكذب بادعائها أن لهم العاقبة الحسنى في الآخرة . (لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ) : لا بُدَّ ولا محالة[1] . (مُفْرَطُونَ) : متروكون منسيون في النار . كما قاله ابن الأعرابي وأبو عبيدة وغيرهما .[2] وقال الحسن وقتادة : مُعجَّلون إلى النار مقدمون إليها ، وأصله من أفرطته أي قدمته في طلب الماء ، والفرط الذي يتقدم إلى الماء . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ » أي متقدمكم إليه .

(تَاللَّهِ) :أي وحقِّ الله . (وَلِيُّهُمُ) : أي متولى إغوائهم أو ناصرهم .

---

(١) نقل القرطبي في جـ ٩ ص ٢٠ دار الكتب في تفسير قوله تعالى في سورة هود: « لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون » الآية ٢٢ أن (لا جرم) عند الخليل وسيبويه كلمة واحدة بمعنى (حق) وأنها في موضع الرفع على أنها خبر مقدم وأن وما دخلت عليه في تأويل المصدر مبتدأ مؤخر ، وأن الفراء قال بذلك كما حكاه النحاس ، وحكى المهدى عن الخليل أيضا أن معناها لا بد ولا محالة ، وحكاه الثعلبي عن الفراء أيضا وقد اخترنا هذا المعنى في تفسيرها هنا ، وفي معناها آراء أخرى وحسب القارئ ما ذكرنا ومن شاء المزيد فليرجع إلى جـ ٩ ص ٢٠ من القرطبي في تفسير مثلها في سورة هود - كما تقدم - .

(٢) من أفرطت فلانا خلفي إذا خلفته ونسيته .

التفسير

٦٢ - (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى) :

أنكر الله عليهم فى الآيات السابقة زعمهم أن الملائكة بنات الله ، وبيَّن أنه منزه عن الولد مطلقًا وأنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من السيئات لعاقبهم بعقوبات تعُمُّهُمْ وغيرهم بشؤم ظلمهم ، ولكنه - تعالى - عظيم الحلم شامل الرحمة ، فيؤخرهم إلى وقتٍ سمَّاه لموتهم لايتقدمون عنه ولا يتأخرون ، لعلهم يعودون إلى الرشد ، ويدركهم الهدى .

وجاءت هذه الآية لتوبيخهم مرة أُخرى على ما زعموه فى حقه -تعالى- وما ادعوه لأنفسهم من العاقبة الحسنى ، ولإنذارهم بسوء المصير على مزاعمهم وعقائدهم .

والمعنى : وينسبون لله البنات التى يكرهونها لأنفسهم ، ومع هذه الجريمة الشنعاء فى حق الله تقول ألسنتهم الكذب وتصفه وتصوره حين تزعم أن لهم العاقبة الحسنى - ثم عقب الله زعمهم هذا بالوعيد عليه فقال :

(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ) : أى لا بد ولا محالة من أن لهم النار مكان ما زعموه لأنفسهم من أن لهم العاقبة الحسنى . ولا بد أنهم منسيون فيها متروكون فى سعيرها لايخرجون منها ولا يبرحونها .

ثم عقب الله هذه الآية بتسلية النبى صلى الله عليه وسلم على مايلاقيه من قومه من ألوان الكفر والضلال . بأن مايحدث له منهم حدث مثلُه للرسل قبله من أممهم، وذلك بقوله تعالى :

٦٣ - (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى والله لقد بعثنا رسلنا إلى أُمم من قبلك أيها الرسول ، فحدث منهم لرسلهم مثل ماحدث من قومك لك ، حيث زين لهم الشيطان ما هم عليه من أعمالهم القبيحة من الكفر والمعاصى ،

فظلّوا مصرّين عليها ، فهو متولى إغوائهم اليوم أى فى العصر الذى كانوا يعيشون فيه ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد الإيلام ، ولا يجدون فيها من ينقذهم أو يخفف عنهم ، ويجوز أن يكون المقصود باليوم يوم القيامة ، والولاية بمعنى النصرة على سبيل التهكم .

والمعنى : فالشيطان الذى أغواهم وزيّن لهم أعمالهم ناصرهم يوم القيامة ، ومن كان الشيطان ناصره يومئذ فهو خالد فى العذاب مثله ، لأنه مذنب ومعاقب وفاقد لأسباب النصرة ، ولهذا ختم الله الآية بقوله : (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وأعاد بعض المفسرين الضمير إلى مشركى قريش ؛ والمعنى : ولقد أرسلنا رسلنا إلى أمم من قبلك فزين الشيطان لهم أعمالهم فصدهم عن السبيل فهو ولى مشركى قريش اليوم كما كان ولى مَنْ قبلهم فى أيامهم ، فإنهم مثلهم فى ضلالهم ولهم فى الآخرة عذاب أليم كما كان لمن قبلهم ، ثم بيّن أثر القرآن فى تبيين الحق من الباطل فقال :

٦٤ـ (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

أى وما أنزلنا عليك القرآن أيها الرسول لسبب من الأسباب إلا لتبين للناس ما اختلفوا فيه من التوحيد واليوم العظيم الذى هم فيه مختلفون . كما تبين لهم النافع والضار من الأخلاق ، والحلال والحرام من الأعمال ، وأنزلناه أيضا للهدى والرحمة لقوم يؤمنون ، فإنهم المنتفعون بعلومه . المهتدون بهداه ، ويصح أن يراد منهم المستعدون للإيمان المهيّئون له بما آتاهم الله من حسن النظر فى آياته ، فكأنه قال : وهدى ورحمة لقوم شأنهم أنهم يصدقون الحقّ ويؤمنون به ، بما جُبِلُوا عليه من البحث عن الحق والاهتداء إليه بآياته ، والبعد عن الجدال بالباطل ، ثم شرع الله فى ذكر طائفة من آياته العظيمة الشأن فقال :

(وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) : أى من السحاب ، وكل ما علاك يطلق عليه سماءٌ .

(بَعْدَ مَوْتِهَا) : بعد يبسها . (الأنعام) :الإبل خاصة ، وقيل : إذا كان معها بقر وغنم فهى أنعام أيضًا ، وقال أحمد بن يحيى : هى كل ما أحله الله من الحيوان[(١)] لقوله تعالى فى سورة المائدة : « أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ » .

(نُسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ) : أى مما فى بطون جنس الأنعام[(٢)] من اللبن ، والمراد من البطون هنا الضروع . (فَرْثٍ): هو ما فى الكرش من بقايا العلف بعد هضمه .

(١) انظر القرطبى جـ ٧ ص ١١١ طبعة دار الكتب – فى تفسير قوله تعالى « ومن الأنعام حمولة وفرشا » من الآية ١٤٢ من سورة الأنعام .

(٢) قيل : إنها جمع نعم ، وأفرد ضميرها ، لأن «أل» الجنسية تبطل الجمعية ، أما من يجعلها من المفردات التى جاءت على هذا الوزن كأكياش وأخلاق أو اسم جمع فيكون إفراد الضمير إما لكونه مفردا أو لمراعاة لفظ اسم الجمع : انظر أبا السعود وغيره هذا : والأكياش من الثياب ما أعيد غزله مثل الخز والصوف ، أو هو الردئ ، والأخلاق من الثياب ماعمه البلى : يقال ثوب أخلاق أى عمه البلى . وثوب أكياش أى أعيد غزله أو ردىء .

(سَائِغًا) : هنيئًا لا يُغصُّ به شاربُه .

(سَكَرًا) : ما يُسْكِرُ وهو الخمر ، قال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر – وسيأتى لذلك بيان أوسع وتأويل أفضل – إن شاء الله تعالى – .

التفسير

٦٤ – (وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) :

تضمنت هذه الآيةُ الكريمةُ شواهد عظيمة الدلالة على أنه –تعالى– هو الجدير بالألوهية والعبادة له دون سواه ، فقد أرشدت أصحاب الفكر الرشيد إلى أن هذه السماء التى نشاهدها خالية من الماء ، صافية الأديم يسوق الله برحمته السحاب تحتها ويزجيه بعد أن كوَّنه من أبخرة المياه ، وجعله ركامًا ، ثم يبسطه فى جو السماء كيف يشاء ، ويصيب به من يشاء من عباده ، فيحيى به الأرض بعد موتها ، ويبسط فيها الزرع النضير ، وينبت فيها الأشجار ذات الأزهار والثمار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأسماع والأبصار .

ومعنى الآية إجمالًا : والله أنزل من السماء ماءً بقدر معلوم ، على الأرض اليابسة التى تشبه الموتى فى عدم جدواها ، وتوقف الانتفاع بها ، فلما أنزل الله الماءَ عليها دبَّت فيها الحياة ، حيث اخضرَّت وَرَبَتْ وأنبتت من كل صنف بهيج ، إن فى ذلك لعلامة واضحة الدلالة على ألوهيته ووحدانيته ، يبيِّنها لقوم يسمعون التذكير به سماع تدبرٍ وتفكرٍ ، ثم أتبعها آية أخرى باعثة على توحيده فقال :

٦٥ – (وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ) :

أى وإن لكم أيها العقلاءُ الذين تحسنون الاستماع وتفكرون فى الشواهد والآيات التى تُذكَّرُون بها – إن لكم – فى الإبل والبقر والغنم والمعز لعظة عظيمة الشأن حيث تشاهدون أننا نسقيكم مما فى أجوافها لبنًا أبيض خالصا مما يُؤثِّر فى بياضه أو ريحه أو طيب طعمه سائغًا

للشاربين ، مع أننا أخرجناه من بين فرث وهو مافى الكرش من روث كريه الرائحة ، ودم أحمر لا يستسيغه الطبع الإنسانى .

فأنت ترى أن الأنعام تتناول أعلافها جافةً ورطبة ، فتمضغها وتزدردها ، فيحولها القادر الحكيم بما تفرزه كبودها وأجهزتها الهاضمة من العصارات - يحولها - إلى دم أحمر يدفعه القلب بنظام رتيب إلى أجسادها لتغذيتها ، وروث تدفعه كروشها إلى أمعائها الغلاظ ، لتتخلص منه آنًا بعد آن .

وهذا الدم القانى يتجه بتدبير الله وحكمته إلى ضروع الإناث منها ، تلك الضروع التى هيَّأها الله بقدرته وأعدَّها لتحويله إلى لَبن خالص من كل شائبة من تلك الشوائب التى مرَّت بها عملية الهضم والتحويل ، فلا ترى فى بياضه حمرة الدم ، ولا فى طعمه أثرًا لطعوم الأعلاف والدماء والفرَث ، ولا تحسُّ برائحةٍ كريهة من هذه الروائح التى احتبست فى أجوافها ، بل تجده لبنًا أبيض ناصعا خالصًا سائغًا للشاربين فتبارك الله أحسن الخالقين .

٦٦ - (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) :

قال القرطبى : السكر مايُسْكِرُ فى مشهور اللغة ، ونقل عن بعض السلف أن هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر ، وأن المراد بالسَّكَرِ الخمر ، وبالرزق الحَسَنِ مايُؤْكل ويُشرب حلالا من هاتين الشجرتين ، وذلك لأن السورة مكية ، ولم تحرم الخمر فيها وإنما حرمت فى المدينة ، ولست أدرى كيف دُسَّ هذا الرأى على أولئك الأعلام من السلف ، وكيف أُقحم فى كتب التفسير ليقرأه القارئون تفسيرًا لآية من كتاب الله منقولا عنهم ، فإما أن يسلموا به تقديرًا لجلال من نسب إليهم وإما أن يقولوا ما لا يحل فى كتاب الله ، حيث يقولون إن هذه الآية نزلت يمتن فيها الله على عباده بما أنعم به عليهم فى النخيل والأعناب من السكر والرزق الحسن ، فكيف عدل عن استحسان الخمر والامتنان بها فى مكة إلى استرذالها وتحريمها فى المدينة وهى هى بعينها لم يزد عليها ولم ينقص منها شىء ، فإما أن تكون فى

ذاتها قبيحة ضارة فتكون حرامًا دائمًا وإما أن تكون حسنة نافعة فتكون حلالا دائمًا، فلا يتغير حكمها بتغير المكان .

والصواب : ما قاله الطبرى فى معنى الآية وهو أن السَّكر ما يُطْعَمُ من طعام النخيل والأعناب ويحل شربه من ثمارها ، وهو الرزق الحسن ، فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ » فالبثُّ والحزن بمعنى واحد ، وبهذا قال أبو عبيدة ، حيث قال : السَّكر الطُّعم . يقال : هذا سَكَرٌ لك : أى طُعْمٌ .

وقال آخر – كما نقله القرطبي – السكر العصير الحلو الحلال ، وسمى سكرًا لأنه قد يصير مسكرًا[١] إذا بقى ، فإذا بلغ الإسكار حُرِّم – قلت وقد جمع صاحب القاموس بعض ما تستعمل فيه كلمة السَّكر من هذه المعانى وغيرها فقال . والسَّكَرُ – محركة – الخمر ونبيذ يتخذ من التمر ونحوه ، وكل ما يسكر وما حرم من ثمرةٍ ، والخل والطعام والامتلاء والغضب والغيظ : ا هـ بتصرف .

وبما أن الآية للامتنان فالأنسب بمعنى السَّكر فيها ما يحل من طعام النخل والعنب وشرابهما وإليك فيما يلى المعنى الإجمالى للآية الكريمة :

ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه عصيرًا حُلوا حلالا، ورزقًا حسنًا منحكم الله إياه منهما ، من رطب وتَمْر وعنب وزبيب ، وغير ذلك من الأطعمة والأشربة ، كالبسر والدبس[٢] ، والخل وأصناف الحلوى .. التى تصنع منهما إن فى ذلك لعلامة باهرة على قدرة الله ووحدانيته وكرمه وفضله ، وهذه الآية والعلامة على ما ذكر موجهة لقوم يستعملون عقولهم فيدركون أنه لا إلـه سواه ، ولا يستحق العبادة غيره .

---

(١) هكذا قيل ، ولكننا نقول : لماذا لا تكون تسميته سكراً أخذاً من السكر (بتشديد السين المضمومة وتشديد الكاف المفتوحة) فإن أخذه منه يناسب كونه بمعنى العصير الحلو الحلال ، أما تعليل التسمية بأنه قد يصير مسكراً ، فإنه لا يناسب المقام .

(٢) الدبس (بكسر الدال المشددة) : عسل التمر – من القاموس .

(وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾)

المفردات :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) : ألهمها وعلمها .

(وَمِمَّا يَعْرِشُون) : أى وما يهيئه الناس من العرائش والسقف والبيوت والخلايا .

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ) : فادخلى طرق ربك لطلب الرزق .

(ذُلُلاً) : جمع ذلول أى مسخرة منقادة .

التفسير

٦٧ ـ (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

النحل : من الحشرات النافعة للبشرية ، بما تفرزه من العسل الذى جعل الله فيه شفاء للناس وسميت بهذا الاسم ، لأن الله سبحانه نحلها هذا العسل ، كما قال الزجاج والجوهرى : أى منحها إياه وقد أخبر الله فى هذه الآية والتى تليها عن المنهج الذى تسلكه حتى تخرج لنا العسل من بطونها ليتغذى به الناس ويستشفوا من كثير من الأمراض ، وبين ـ سبحانه وتعالى ـ أن سلوكها هذا المنهج بوحى منه جل وعلا .

وللوحى فى اللغة معان مختلفة ، والمراد منه هنا الإلهام ، وهو ما يخلقه الله فى القلب ابتداء من غير سببٍ ظاهرٍ .

ولا يقتصر هذا الوحى على النحل ، بل تفضَّل الله به على كل حيوانٍ فقد ألهمه الله ـ تعالى ـ ما فيه منافعه فيسعى إليه ، وما فيه مضاره فيجتنبه ، وما فيه معاشه فيدبره ، حتى لتراه يختزن قوته فى الشتاء إذا كان لايستطيع الظهور فيه والتعرض لبرده ، فلهذا يملأ مخازنه بالطعام

ويعقمه بما يجعله صالحًا ولا يتعرض للفساد ، ولم يقتصر هذا الإلهام على الحيوان بل تعداه إلى النبات والجماد ، فإن البذور والنوى ، يلهمها الله أن تتجه بجذورها إلى أسافل جوف الأرض لتستمسك بها وتتغذى منها ، وتتجه ببراعمها وسيقانها وأوراقها وفروعها إلى أعلى دون أن يطرأ على منهجها هذا أى اختلاف .

وألهم الأرض أن تغذّى جذور النبات ، وتيسر لها سبيل التعمق داخلها ولو كانت الأرض صخرية ، فكم من غابات وأشجار وأعشاب تنبت فى الأرض الجبلية . هذا إلى جانب مايتم داخلها من التحولات الخطيرة التى تنشأ عنها المعادن والغازات والعناصر المختلفة وكل ذلك يتم بإلهام الله وتدبيره . ولقد أحسن إبراهيم الحربى فى قوله : لله عز وجل فى الموات قدرة لم يُدْر ماهى ، لم يأتها بها رسول من عند الله ، ولكن الله تعالى عرفها ذلك[1] .

ولاغرابة فى ذلك ، فقد جاء القرآن الكريم بذلك صراحة عن الأرض فى سورة الزلزلة فقد قال تعالى : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الْإِنسَانُ مَالَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » : أى ألهمها وأعطاها من الأسباب ما نشأت عنه تلك المسببات

ولم يحرمنا القرآنُ العظيمُ ولا السنةُ المطهرةُ من الإشارة إلى تلك العجائب التى لم يستطع الإنسان أن يكشف الكثير من أخبارها وأسرارها ؛ فالله تعالى يقول إنه أمر الجبال والطير أن تُؤَوِّب فى التسبيح وترجِّعه مع داود . وذلك فى قوله فى سورة سبإ : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ »[2] . وفى سورة ص « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ . وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ »[3] .

والرسول يقول فى جبل أحد : (أُحُدٌ يُحِبُّنا وَنُحِبُّهُ) فوصف الجبل الأصم بأنه يحب الرسول . ورجف أُحُدٌ والنبى فوقه وأبو بكر وعمر وعثمان فخاطبه النبى قائلًا: « اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا فَوْقَكَ نَبِىٌّ وَصِدِّيقٌ وشهيدان » . أخرجه البخارى وغيره .

ومن عجائب إلهام الله للحيوان ما وقع يوم وصول النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، حيث تجاذب الصحابة ناقته القصواء وهو عليها ، ليكون الرسول ضيفًا كريمًا على من يفوز بها

(١) نقله القرطبى عنه فى تفسير هذه الآية .   (٢) من الآية : ١٠   (٣) الآيتان : ١٨ ، ١٩

منهم، فقال لهم: «خلُّوا سَبِيلها فإنها مأمُورةٌ» فتركوها وأرخى النبي زمامها دون أن يوجهها، فجعلت تنظر يمينا وشمالا أثناء سيرها حتى بَرَكَتْ بفناء بنى عدى بن النجار أمام مِرْبد سهل وَسُهَيْل ولدى رافع بن عمرو، ثم ثارت الناقة والرسول عليها حتى بركت أمام باب أبى أيوب الأنصارى، ثم ثارت وبَرَكَتُ فى مبركها الأول وأَرْزَمَت (أى صَوَّتَتْ دون أن تفتح فمها) ونزل النبى صلى الله عليه وسلم عنها وقال: «هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شاءَ اللهُ»، واحتمل أبو أيوب رحله وأدخله بيته، وقال أبو أيوب المرءُ مع رحله، فنزل النبي عنده، وأخذ سعد ابن زرارة ناقته عنده.

وقصة (الهدهد) العجيبة مع سليمان، وكذا قصة (النملة) فى توعيتها للنمل من أن يحْطِمهُ سليمان وجنوده، وتعليم الله سليمان منطق الطير كل ذلك واضح فى أن لها إدراكات ونطقا وعبارات لا يعلمها إلا من علمه الله، فلا غرابة فى أن يُعبر الله عن إلهامه للنحل فى معاشها بالوحى، لأن لها إدراكات تعى بها هذا الإلهام، فتبارك الله أحسن الخالقين.

المعنى الاجمالى للآية

وألهم ربُّك النحلَ، قائلا فى إلهامه إياها: اتخذى بيوتا لك تأْوين إليها فى الجبال داخل كهوفها ومغاراتها وكُواها، وفى الشجر داخل أجوافها وبين أغصانها وفيما يعرشه ويُهيئهُ لك بنو آدم من العرايش والخلايا ونحوها.

وعرش، معناها هنا: هيَّأ، قال القرطبي: وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها. ومنه العريش الذى صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم: اهـ ويقول ابن العربى فى هندسة النحل لبيوتها: ومن عجيب ماخلق الله فى (النحل) أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدسة، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينها فرج إلا الشكل المسدس، فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه قطعة واحدة: اهـ من القرطبي

٦٩ - (ثُمَّ[١] كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ):

أى وكلى أيتها النحلُ بعضا من كل الثمرات، وهو رحيق الأزهار التى هى أساس

---

(١) لفظ (ثم) هنا بمعنى واو العطف وليست للترتيب والتراخى، إذ لا ترتيب بين الأكل من الثمرات وبين اتخاذها البيوت ولا تراخى لأكلها عنه، فإنهما قد يكونان متصاحبين، بل ربما سبق الأكل من الثمرات بناء البيوت، فإن البطون الجائعة تضعف قواها عن البناء.

لثمرات أو من الثمرات نفسها، ويقولون إنها قد تأكل من الأزهار المُرَّة ، ويعود كل ذلك عسلا حلوا شهيا ، وفى ذلك يقول المعرى :

والنحل يجنى المُرَّ مِنْ زَهْرِ الرُّبى فيعود شَهْدًا فى طريق رُضَابِهِ (١)

والأمر فى قوله تعالى للنحل : «ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثَّمراتِ» ليس على حقيقته ، بل المقصود منه أنه - تعالى - يسَّر لها ما تشتهيه من الثمرات لتأكل منه ، فتجد نفسها مجبولة على أن تتناول منها ما تريد كأنها مأمورة بذلك ، لتحيى وتؤدى وظيفتها فى الحياة ، من إفراز العسل لغذاء الناس وشفائهم ، ثم بيَّن الله أن سبلها إلى ذلك مذللة فقال سبحانه :

(فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً) : أى فاذهبى طائرة فى طرق ربك التى توصلك إلى الحدائق والبساتين فهى مفتوحة لك فى جنبات السماء شرقًا وغربًا ، شمالا وجنوبا ، مسخرة لك ، لايمنعك عنها مانع فأنت نافعة للزراعة ، وجالبة للأرزاق ، وكما ذلَّلها الله لك فى الغداة وأنت ذاهبة إلى أرزاقك ، ذللها لك فى الأصيل وأنت عائدة إلى بيوتك لا تضلين سبلها ، فسبحان الله « الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .

وقيل فى معنى الآية : فاسلكى ما أكلت من الأزهار والرحيق فى مسالكه التى يتحول فيها بقدرة الله عسلا .

ثم اتجه الكلام من مخاطبة النحل إلى الكلام مع الناس فى عجائب صنع الله على سبيل الاستئناف ، وذلك فى قوله تعالى :

(يخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) :

يقُصُّ الله علينا فى هذه الآية أن النحل بعد أن تتناول غذاءها من كل الثمرات ، يخرج من أجوافها عسل ألوانه مختلفة تبعًا للون ما تناولته من الأزهار والثمرات ، فقد يكون أبيض ، وقد يميل لونه إلى الصفرة أو الحمرة أو نحوهما ، كما قد يتأثر برائحتها طيبة أو كريهة ، وقد يكون للجو (٢) أوْ لِسِنِّ النحل أثر فى ألوان العسل ، كما يقوله القدامى والله تعالى أعلم ، وقد عبر عنه بشراب لأنه مما يشرب .

---

(١) الرضاب - بضم الراء مشددة - يطلق على الريق فى الفم ، والشهد - بضم الشين المشددة وفتحها - هو العسل .
(٢) فان الجو الحار يجعل لون العسل يميل إلى الصفرة والكدمة، وقوامه ، إلى الكثافة .

والجمهور على أن العسل يخرج من أفواه النحل ، ومن ذلك قول الحسن : لُبَابُ البُرِّ بلعاب النحل بخالص السمن ما عابه مسلم : ا هـ ونحن نقول : إنما قال الله سبحانه : (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا) : لأنها هى التى تحيل الثمرات التى تأكلها النحل إلى عسل ، ثم تدفعه وتخرجه من هذه البطون عن طريق أفواهها ، وقال الآلوسى : وفى الكشف أن فى قوله تعالى : (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) إشارة إلى أن لمعدة النحل فى ذلك تأثيراً ، وهو المختار عند المحققين من الحكماء : ا هـ يريد بذلك أن يردَّ على من يزعم أن المراد من بطونها أفواهها ، وأن الأفواه هى التى تصنع العسل دون دخل للمعدات فى تحويل الغذاء إلى عسل .

وقد بين الله تعالى أن هذا العسل فيه شفاء للناس ، إما مجرداً وإما مخلوطا بغيره من المعاجين المختلفة ، كما كان قدامى الأطباء يعالجون ، وقد اعترف الطب الحديث بفوائده فى كثير من الأمراض والقروح وليس بلازم أن يكون فيه شفاء لكل الأمراض أو لكل الناس فقد يشفى به مرض فى إنسان ولكنه لا يشفى به فى إنسان آخر ، وقد يشفى به مرض ، ويزيد العلة فى مرض آخر ، ولهذا لم يعمم الله تعالى فى لفظ الشفاء ، إذ لم يقل : فيه الشفاء للناس ، بل قال : (فِيهِ شِفَاءٌ) بتنكير شفاء للتبعيض ، ليكون المعنى : فيه بعض الشفاء للناس لا كل الشفاء دائمًا [1] .

وقد ذكر قدامى الأطباء أنه ينقى الجروح ويُدمِّلها ويأكل اللحم الزائد ، ويشفى من دموع العين وحكتها وجربها كحلا وبخاصة مع ماء البصل ، وإن أذيب فى الماء سكن المغص وقطع العطش ، إلى غير ذلك مما كتبته كتب الطب القديم فارجع إليها إن شئت فقد كَتَبَتْ عنه كثيرا من الفوائد والأضرار ، وهذه الآية دليل على جواز التداوى خلافا لمن كره ذلك ، بل هو مطلوب لقوله تعالى: « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » . وفى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله » وأخرج أبوداود والترمذى عن أسامة بن شريك قال : قالت الأعراب ألا نتداوى يارسول الله قال : « نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء إلا واحداً » قالوا يارسول الله وما هو ؟ قال الهرم » لفظ الترمذى وقال : حديث حسن صحيح إلى غير ذلك من الأحاديث .

---

(١) و «أل» فى الناس للجنس لا للاستغراق ، فيصدق الخبر بحصول الشفاء فى بعضهم .

ثم ختم الله الآية بقوله : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) :فإن أهل الفكر حين يرون هندستها البارعة فى بناء بيوتها ،وتحول طعامها من الثمرات ولوكان مرًّا إلى عسل شهى مختلف الألوان ، نافع للأبدان ، يستدلون بذلك على أن لها ربًّا حكيما ألهمها وأعطاها من العجب ما يحير الأفكار ، وما لا يستطيعه الإنسان ، ولا يترددون فى أن يقولوا : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(أَرْذَلِ الْعُمُرِ) :أى أخسه وأحقره . (فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) :أى متساوون .

(وَحَفَدَةً) : جمع حفيد وهو ولد الولد كما قال الأزهرى : ويطلق على الخَتَن وهو الصهر كأبى الزوجة وأخيها وسائر أقاربها ، رواه زرٌّ عن عبد الله ، وقال ابن عرفَة : الحفدة عند العرب الأعوانُ ،فكل من عمل عملا أطاع فيه وسارع فهو حافد – قال – ومنه قولهم : « إليك نسعى ونحفد » وقال الخليل بن أحمد : الحفدة عند العرب الخدم .

(الطَّيِّبَاتِ) : النِّعم التى طابت وطاب أكلها وطعمها ، أو ما أحله الله من الأرزاق .

التفسير

٧٠ - ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ :

يحكى الله فى هذه الآية بعض عجائب قدرته وسلطانه فى الإنسان ، بعد أن بيَّن عجائب إبداعه وحكمته فى إنزال الماء من السماء ، وإحيائه الأرض بعد موتها ، وعظيم العبرة فى الأنعام حيث أخرج لنا من بين فرثها ودمها لبنا خالصا سائغا للشاربين ، وبليغ حكمته ونعمته فى (النحل) حيث ألهمها تدبير رزقها ومساكنها العجيبة وأخرج لنا من بطونها شرابا مختلف الألوان كثير المنافع للأبدان ، والحكمة فى بيان هذه الآيات توجيه العقول إلى الإيمان بمبدعها ، وأنه قادر على إحياء من فى القبور .

والمعنى : والله - تعالى - خلقكم فأحسن خلقكم ، ورباكم فأحسن تربيتكم ، ولم يجعل حياتكم فى دنياكم إلى بقاء بل أعدها إلى فناء ، ففى أول نشأتكم على وجه الأرض تنمون ثم تَشِبون ، ثم يتوقف نموكم عندما يكتمل شبابكم ، ولكنه يحفظ عليكم فتوَّتكم وقوتكم إلى أن تصلوا إلى سن الكهولة[1] فتضعف قُوَاكُم آنا بعد آن ، ويتدرج ضعفكم حينا بعد حين ، حتى إذا أطلت الشيخوخةُ بأعبائها ، حل على أجسادكم الانحطاط الكبير ، وعلى عقولكم الوهن الخطير ، فتصبحون فى أرذل العمر ، وأخسِّ مراتب الحياة ، فلا تعلمون من بعد علم شيئا ، إذ تنسون ما كنتم تذكرون ولا تحفظون ما تتعلمون ، وفى أثناء هذه الحياة منكم من يتوفاه الله فى طفولته ، ومنكم من يميته فى شبابه ، وبعضكم يأخذه فى كهولة ، وآخر يرحلُ إليه فى شيخوخته ، ولا يرتبط ذلك كله إلا بإرادة العليم الخبير ، فلا يستطيع حكيم أن يتحكم فى أجله « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »[2] .

(١) الكهل : من أصابه الشيب ، وعرفه بعض اللغويين بأنه من جاوز الثلاثين إلى الخمسين والهرم بوزن الكرم أقصى الكبر ، ومن يوصف به فهو هرم ، وفعله هرم كفرح ، والشيخوخة تبدأ من الحادية والخمسين ، وتنتهى آخر العمر ، والهرم داخل فيها ، راجع تلك المواد فى القاموس وغيره .

(٢) بعض الآية الأخيرة من سورة لقمان .

وليس لمراتب العمر سن معينة ، فقد تأتى الكهولة أو الشيخوخة فى سن الشباب ، فكم من شباب شابوا وانحطت قواهم وضعفت ذاكراتهم ، ومفتاح هذا كله وعلمه عند الله رب العالمين ، ولهذا ختم الله الآية بقوله جلَّ ثناؤه .

(إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) : أى إنه تعالى واسع العلم بمقادير أعماركم ، عظيم القدرة على إحيائكم وإماتتكم ، وهو صاحب المشيئة المطلقة فإن شاء أمات الشاب النشيط وأبقى الشيخ الفانى ، وإن شاء أجرى الأمور على ضوابط مطردة ، فالحكم لله العلى الكبير .

واعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من عدة أمور منها الهرم حيث يحل أرذل العمر ، ففى صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ فيقول : « اللهم إنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ ، وَأَعوذُ بِكَ مِنَ الهرمِ ، وأعوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ » .

٧١ ـ (وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) :

بيَّن الله تعالى فى الآية السابقة دلائله ونعمه فى خلقنا وتفاوتنا فى آجالنا وعلومنا ، وجاءت هذه الآية لبيان فضله فى رزقنا ، وأننا لا نرضى أن نسوى بيننا وبين ممالِيكِنا فيه ، فكيف يرضى المشركون أن يسووا بينه ـ سبحانه ـ وبين خلقه فى الألوهية ، فيشركوهم معه فيها ، ويعبدوهم أكثر مما يعبدونه .

والمعنى : والله جعلكم متفاوتين فى الرزق والنعمة ، إذ جعل بعضكم غنيا والآخر فقيراً ، وبعضكم سيداً والآخر مملوكا ، وبعضكم مخدوما والآخر خادما ، وقد جرت عادتكم أن لا يُعْطِى من فضَّلهُ الله فى النعمة مملوكه أو خادمه ما يجعله مساويا له فيها ، بل يعطيه شيئا يسيراً ، فإذا كانوا لا يحبون أن يجعلوا مماليكهم أو خدمهم مثلهم فى الرزق ، مع أنهم مساوون لهم فى البشرية والمخلوقية لله والاستحقاق فى رزقه ، فكيف يرضون أن يجعلوا شريكا مع الله مَلَكًا أو بشراً أو كوكبا أو صنما ، ويسووه به ـ تعالى ـ فى الألوهية والمعبودية ، فى حين أنها مخلوقة له وليس لها من أمر نفسها أو غيرها شىء ، فإن الأمر كله لله ـ تعالى ـ وختم الله الآية بتوبيخهم على إنكارهم لنعمه بهذا الإشراك فقال :

(أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) : أيشركون بالله – تعالى – فيجحدون بهذا الإشراك ما أعطاهم من نعمة حيث اقتضت عبادتهم لآلهتهم أن هذه النعم منهم ، أو أنهم شركاء فيها ، مع أنها من فضل الله دون سواه ، ثم بين فضله عليهم فى الأزواج والأولاد والأتباع ورزق الطيبات ، وعدم قيامهم بموجب إنعامه فقال :

٧٢ – (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) :

والله تعالى جعل لكم يا بنى آدم زوجات من جنسكم لتأنسوا بهن ، ويكون أولادكم أمثالكم ، فتتناسلوا وتنجبوا نوعا واحداً بلا تباين ولا اختلاف ، وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم ، والأول أظهر .

(وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) :

الحفدة : جمع حافد ، وهو من يسرع فى الخدمة والطاعة ، وقد اختلف العلماء فى بيان المراد منه هنا ، وقد مرَّ فى المفردات بيان بعض ما قالوه فى ذلك وأظهره أنهم أولاد الأولاد ، قال القرطبى : ما قاله الأزهرى من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهرُ القرآن بل نصُّه ، ألا ترى أنه قال : « وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً » ، فجعل الحفدة والبنين منهن » ا هـ. وهو الذى استظهره ابن العربى .

والطيبات : لذائذ النعم ، أو حلالها .

والمعنى : والله جعل لكم من جنسكم زوجات لتستريح نفوسكم إلى معاشرتهن ، وتسكن قلوبكم عند لقائهن ، وتزول همومكم بأحاديثهن ، ولم يجعلهنَّ من جنس آخر تنفر منه الطباع ، ويختلف بسببه الجنس البشرى ، ورزقكم لذائذ النعم وما أحله منها ، وكان عليكم أن تشكروه ولا تكفروه ، وتوحدوه ولا تعبدوا معه غيره ، ولكنكم أخللتم بمقتضى نعمته ، ولهذا نعى على الكافرين ذلك فقال :

(أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) :

أفبالباطل من ألوهية شركائهم وحرمة البحائر والسوائب ونحوها يصدقون ، وبنعمة الله التى لا حصر لها يكفرون ، حيث يضيفونها لآلهتهم ، وينسون الله الذى أنعم بها عليهم .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

المفردات :

(وَلَا يَسْتَطِيعُونَ) : ولا يقدرون على أى شىء .

(فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ) :أى فلا تجعلوا لله الأشباه والنظائر ، باتخاذكم له شركاء .

التفسير

٧٣ـ (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَايَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا ...) الآية .

أى ويعبد المشركون سوى الله مالا يملك أن يرزقهم شيئا من السماء كالضوء والمطر ومن الأرض كالنبات والثمر ، ولا يستطيع أولئك الشركاء أىَّ قدْرٍ من الاستطاعة فى النفع فضلا عن الضر .

٧٤ـ (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

أى فلا تجعلوا لله تعالى الأشباه والنظائر بعبادتكم سواه معه ، ولا ينفعكم ما تزعمون من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، فلا يقربكم إليه سوى توحيده وعبادته وتنزيهه عن الشريك والنظير ، إن الله تعالى يعليم الحق فيأمركم به ، ويعلم الباطل فينهاكم عنه ، وأنتم تجهلون ولا تعلمون ، فاجتنبوا نهيه وأطيعوا أمره .

(* ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً) : أورد حجة على سبيل التشبيه والتمثيل .

(هَلْ يَسْتَوُونَ) : المراد أنهم لا يستوون . (أَبْكَمُ) : لايقدر على الكلام ولايسمع.

(كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ) : عالة وعبء ثقيل على سيده الذى يتولى أمره.

(يُوَجِّهْهُ) : يبعثه فى مهم من الأمر . (يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) : يدعو إلى الخير والبر .

(السَّاعةِ) : المراد بها يوم القيامة .

(كَلَمْحِ الْبَصَرِ) :رجع الطرف من أعلى إلى أسفل أو هو النظر بسرعة ، يقال لمحه لمحا إذا نظره بسرعة .

التفسير

٧٥ - (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لَايقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهوَ يُنفِقُ مِنْهُ سرًا وَجَهْرًا) :

بعد أن نهى الله سبحانه عن الإشراك به، وقرع المشركين ووبخهم على اتخاذ الأنداد له تعالى ضرب مثلين يوضح بهما عدم التساوى بينه وبين أحد أو شىء من خلقه ليدرك العاقل أنه إذا انتفت المماثلة فيهما وجب التوحيد وامتنع الشرك بالبداهة .

والمعنى : صور الله حالكم فى إشراككم أوثانكم العاجزة ؛ بالله القدير الكريم الكثير الخير والبر، صور لكم ذلك ومثله بحال من يُسوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف شـديد الحاجة إلى غيره وبين حرٍّ رزقه الله رزقـا واسعا فهو ينفق منه على غيره ويتفضل به على سواه فى السر والعلانية حسب مقتضيات الإنفاق ، ويتصرف فيه بحكمة فكيف يستوى هذا الحر الكامل التصرف مع هذا العبد الشديد العجز عن التَّصرُّف ، فضلا عن أنه لا يملك أمر نفسه ، ولهذا سأل الله العقلاء بأسلوب الاستفهام الإنكارى فقال : (هَلْ يَسْتَوُونَ) : أى هل يعقل أن هذا العبد الضعيف العاجز عن التصرف يتساوى مع الحر المتصرف على أحسن الوجوه وإذا كانا لايستويان بداهة ، فكيف يسوى هؤلاء المشركون أوثانهم العاجزة بالله الخالق الرازق المدبر المحسن فى السر والعلن ، ثم ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله : (الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :لبيان أن وضوح هذه الحجة يقتضى الثناء الكامل والحمد التام لله وحده لأنه المستحق له دون سواه ، ولكن أكثر هؤلاء الكفار لا يعلمون أن هذا هو الحق وذلك لجهالتهم وغفلتهم ، ولمَّا كان فريق آخر منهم يعلم ذلك ويعرفه ولكنه لايعمل بموجبه عنادا واستكبارا فلهذا قيل : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُون) ولم يقل :بل هم لايعلمون .

وقيل : المراد أنهم جميعا لايعلمون فعبَّر بأكثرهم عن جميعهم .

٧٦ـ (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

وهذا مثل آخر مؤكد للمثل الأول فى الدلالة على مادل عليه بأوضح وجه وأظهر بيان . أى وذكر الله مثلا آخر يوضح فساد مساواتهم آلهتهم بالله ، وهو يتجلى فى رجلين أحدهما : أخرس أصم لايُفهِم ولايَفْهم وهو مع ذلك لايقدر على شىء لنفسه أو لغيره من جلب نفع أو دفع ضر لجهله وسوء تقديره ، وهو لذلك عبء على غيره حيثما يرسله مولاه فى أمر فإنه لاينال

نجحا ولايصيب خيرا ، أما ثانيهما : فرجل عاقل له رأى ، سليم الحواس ينفع نفسه وغيره يأمر الناس بالإنصاف والعدل ، وهو على منهج قويم وسيرة صالحة هل يستويان ؟ وإذا كانا لايستويان ولايتشابهان فكيف يسوى المشركون الصنم الأصم الأبكم العاجز عن كل شيء بالله القادر الذى يفيض على عباده الكثير من آثار رحمته ونعمته ، ويأمرهم بالعدل فى توحيده وطاعته وفى أمرهم كله ، وهو فيما يدعوهم إليه على طريق مستقيم موصل إلى خيرى الدنيا والآخرة .

٧٧ - (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

بعدأن بين الله تعالى عن طريق ضرب المثل استحالة أن يستحق العبادة غير الواحد الأحد جاء بهذه الآية لتدل على كمال علمه وعظيم قدرته وبعيد حكمته .

والمعنى : ولله وحده ماغاب فى السموات والأرض وخفى فيهما على خلقه ، لهُ ذلك خلقا وملكا وعلما وتصرفا ، ولاسبيل لغيره فى شيء من ذلك .

(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) : أى وما الشأن فى سرعة مجىء الساعة التى يقوم فيها الناس لرب العالمين إلا كرجع الطرف بإطباق الجفن ، فإنه تعالى لايعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء . ونحوه قوله : « وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أى أن قيام الساعة وبعث الخلق للحساب والجزاء فى السرعة كطرف العين ، وقوله : (أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) : ليس للشك بل لتخيير الْمُمَثِّلِ فى التمثيل به أو بالذى قبله ، وكلاهما كناية عن بالغ السرعة وقيل : إن المعنى بل هو أقرب عند الله فى الحقيقة . وإنما خص الساعة بالذكر من بين علوم الغيب التى لا تحصى لكثرة المماراة والمجادلة فيها وتكذيب الأمم رسلها فى إخبارهم بها ، ولذا ختم - سبحانه - الكلام عنها بما يثبت قدرته وأنه تعالى - لايمتنع عليه شىءٌ أراده فقال :

(إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : فلا يعجزه أمر الساعة ، وبعث الأجساد بعد موتها ، كما لايعجزه شىءٌ سواه .

(وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ
لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ
يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ
بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ۚ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا
يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ
أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ۚ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ
ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ
لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾)

المفـردات :

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : لكى تشكروا . (مُسَخَّرَاتٍ) : مُيَسَّرات مُهيآت للطيران .

(سَكَنًا) : موضعا تسْكُنُون فِيهِ أو تسكنون وتطمئنون إليه .

(الْأَنْعَامِ) : هى الإبل والبقر والغنم والمعز .

(تَسْتَخِفُّونَهَا) : تجدونها خفيفة سهلة المأْخذ . (ظَعْنِكُمْ) : سفركم وارتحالكم .

(أَثَاثًا) : الأَثاث متاع البيت كالبساط والفراش والغطاء والكساء .

(مَتَاعًا) : مايتمتع وينتفع به . (إِلَىٰ حِينٍ) : إلى وقت انقضاء حاجتكم وتمتعكم به .

(مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً) : ما يستظل ويتقى به حر الشمس وضوءها من سقف وشجر وغمام وغير ذلك .

(أَكْنَانًا) : جمع كِنٍّ وهو ما يستتر به ويسكن فيه كالكهوف .

(سَرَابِيلَ) : هى الثياب مطلقا ، جمع سربال أو سربالة .

(تَقِيكُمُ الْحَرَّ) : تحفظكم منه ، كما تحفظكم من البرد أيضا ، ففيه اكتفاءٌ بأحد الضدين عن الآخر .

(وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ) : هى لباس الحرب كدروع الحديد وأغطية الرأس منه .

التفسير

٧٨ـ (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) :

بعد أن ضرب الله المثل للناس على فساد الشرك ، واتخاذ الأوثان شركاء لله فى العبادة ، شرع فى ذكر عدد من دلائل قدرته وبديع حكمته وجليل نعمته على عباده التى يستحق بموجبها أن يُعْبد دون سواه ، وأن يشكر ولا يكفر به ، ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يخرجكم من بطون أمهاتكم وليست لديكم القدرة على تحصيل العلم ، فقد كانت ملكاتكم فى طفولتكم عاجزة عن أداء وظيفتها فمنَّ الله عليكم بنمو أجسادكم وحواسكم وملكاتكم ، لكى تُحصِّلوا بها العلم والمعرفة ، فبالسمع تسمعون ، وتُدركون المسموعات ، وبالبصر تدركون المرئيّات ، وبالعقول والأفئدة تميِّزُون بين الخير والشر والنافع والضار ، وتحصّلون العلم ، وقد فعلنا ذلك لكم وأنعمنا به عليكم .

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى لكى تشكروا الله وتعرفوا له فضله فلا تعدلوا به أحداً سواه .

٧٩ـ (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَايُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ) :

هذه آية أخرى حثنا الله فيها على النظر فى عجائب صنعه .

والمعنى : ألم ينظر المشركون إلى الطير مسخرات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة والأسباب المساعدة عليه ، فإن من تأمل الطيورالسابحة فى الجو ، لا شىء يجذبها إلى أعلى ، ولا سبب يحفظها من السقوط فى أسفل ، أدرك أن الله هو الذى سخرها للطيران وسخر لها الجو وأمسكها فيه ، ولم يمسكها سواه ، وذلك بما أمدها به من أسباب تحفظها وتمسكها أن تسقط إلى الأرض ، وتجعلها تجوب الفضاء وتعلو وتهبط وتسرع وتبطىء ، وتميل يمينا وتنحرف شمالا ، إنه الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : إن فى ذلك الذى ذكر من تسخير الطير فى الجو وإمساكها من السقوط لدلالات على قدرة الله ووحدانيته ، يسوقها لقوم لهم علم وعقل وإيمان فما بال المشركين يعرضون عن هذه الآيات الجليلة المستوجبة لطرح الشركاء ، والتوحيد الخالص لرب العالمين .

وخص المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بالنظر والتدبر ، وإن كانت الحجة قائمة على كل عاقل .

٨٠ــ (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا) :

وتلك آية أخرى ساقها الله ، مبينا بعض نعمه المستوجبة لشكره والإيمان به .

والمعنى : أنه هداكم إلى اتخاذ البيوت لكى تستريحوا وتسكنوا فيها بين أهليكم وأولادكم ولم يترككم تأوون إلى الغابات أو تعيشون فى الكهوف وقت إقامتكم الدائمة ، أما فى الترحل والانتقال فقد ألهمكم ما يعينكم على تلك الحياة وهو ما ذكره تعالى بقوله :

(وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا) : أى أرشدكم إلى صنع الخيام وضرب القباب فى أسفاركم ، وهداكم إلى اتخاذها من جلود الأنعام حيث :

(تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ) : تجدونها خفيفة الحمل قليلة الكلفة ، فيسهل عليكم نقضها وحملها ونقلها إذا ارتحلتم ، فإذا ما أقمتم سهل عليكم ضربها للإقامة ، فيها ما أقمتم .

(وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) : أى وهداكم كذلك إلى أن تتخذوا من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاث المنازل من البسط والفرش والكساء والغطاء والخيام، وماقد تحتاجون إليه فى إقامتكم وأسفاركم تتنعمون به أنتم، أو تتجرون به فتتسع أرزاقكم وتنمو بذلك أموالكم وتزداد ثرواتكم وتتمتعون به على أى وجه مما ذكر إلى حين انقضاء آجالكم وانتهاء أعماركم أو حاجاتكم.

٨١ ـ (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا . .) الآية .

أى أنه تعالى جعل للضاربين فى الأرض مما خلق من الأشجار والجبال والتلال ونحوها ظلالا يستظلون بها من الحر، كما جعل لهم من الجبال ما يسكنونه فيه أو يأوون إليه عند الحاجة، من المغارات والكهوف.

(وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ) : ومن نعمه سبحانه أن ألهمكم اتخاذ ملابس للسلم تقيكم الحر مثل الجلابيب والأردية والقمص والقلانس ونحوها مما يستر أجسادكم ويقيكم حر الشمس وبرد الشتاء. وقد استغنى بذكر الوقاية من الحر عن ذكر الوقاية من البرد لأن العرب تستغنى فى لغتها كثيرًا بذكر أحد المتقابلين عن الآخر اكتفاء بأحدهما، لأنه يشعر بالمحذوف ويدل عليه، وكما أرشدكم إلى صنع لباس السلم، ألهمكم أن تصنعوا من الحديد مايدفع عنكم الضربات ويرد الطعنات فى بأس الحرب وشدتها.

(كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) : أى هكذا تتوالى نعم الله عليكم فى حياتكم حتى تتكامل وتتم، لعلكم أنتم وكل من يصلح للخطاب والتذكير تتأملون وتتدبرون فتدركوا نعم الله عليكم، وتعرفوا لواهبها قدْرَهُ فتنقادوا له، ولا تتخذوا معه الأنداد ولا تعبدوا ربًّا سواه، فأنت ترى من سرد هذه النعم أنه تعالى شمل بنعمته أهل الحضر وأهل المدر، فالكل بنعمته ينعمون، وبفضله يتمتعون.

(فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ
أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾
وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا
هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ
ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ
وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(تَوَلَّوْا) : أعرضوا وأبوا . (الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : التبليغ البيّنُ الواضح .

(يُنكِرُونَهَا) : يجحدونها ولا يعرفون فضل المنعم بها . (أُمَّةٍ) :جماعة من الناس .

(شَهِيدًا) : أى نبيا يشهد بكفرهم أو بإيمانهم .

(لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : أى لا يسمح لهم بالاعتذار إذ لا عذر لهم .

(ولَاهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) : ولا يطلب منهم العُتْبى أى إرضاء الله يوم القيامة ؛ والعُتْبى تطلق على الرضا – انظر القاموس .

(يُنْظَرُونَ) : يمهلون ويؤجل عذابهم . (نَدْعُوا) نعبُد .

(يَفْتَرُونَ) : يختلقون ويكذبون .

(وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ) : أى وأظهروا الاستسلام إلى الله يوم القيامة .

التفسير

٨٢ - (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

أى فإن أعرض المشركون يا محمد بعد بيان الآيات الكونية والتنزيلية ولم يؤمنوا بما جئت به من الحق ، فلا تحزن عليهم ولا تأسف على ما يصنعون فلست مسئولًا عن كفرهم .

(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : أى فما عليك إلا أن تبلغهم ما أرسلت به إليهم تبيينًا يوضح معالم الدين ويبين الصراط المستقيم وقد فعلت على أتم وجه وأكمله ، وهم مسئولون ومحاسبون على عدم استجابتهم ، أمَّا خلق الإيمان فى قلوبهم فلست بقادر عليه . قال تعالى : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ »[1] .

٨٣ - (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) :

أى يعرف المشركون أن هذه النعم المذكورة وغيرها من عند الله فإذا سألتهم من الذى خلقها ؟ قالوا : خلقها الله ، وكان مقتضى هذه المعرفة أن لا يشركوا بالمنعم بها ، وأن لا يعبدوا سواه ، ولكنهم ينكرون نسبتها إلى الله بأفعالهم ، وذلك بعبادة غير واهبها ، وشكر غير مُسْدِيها من صنم أو غيره وعطف بثم التى تفيد التراخى والبعد ، للدلالة على أن إنكارهم أمْرٌ ينبغى أن يكون مستبعدًا ، وذلك بعد أن عرفوا نعم الله وسعدوا بها ؛ إذ أن من الواجب على من عرف النعمة وعاش فيها أن يعترف بها لمنعمها لا أن يجحدها وينكرها .

(وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) : أى وأكثر أهل مكة هم الكافرون بها ، حيث عبدوا غير الله وأعرضوا عن الحق ،أما القليل منهم فقد آمن بالمنعم بها واستجاب لدعوة نبيهم إلى توحيده .

ويجوز أن يراد من نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كانوا يعرفونها بعقولهم ثم ينكرونها بألسنتهم عنادًا ، وأكثرهم الجاحدون به ، أمَّا القليلون منهم فقد هداهم الله ، فآمنوا به صلى الله عليه وسلم ، وثبتوا على إيمانهم مع ما قاسوه من التعذيب والإيذاء .

٨٤ - (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) :

لما بين سبحانه حال الكافرين وأنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ، جاء بهذه الآية وعيدًا للمنكرين .

---

(١) سورة الرعد ، من الآية : ٤٠

والمعنى : واذكر لهم أيها النبي يوم القيامة ، ونبئهم بما يقع فيه من الأهوال حيث يبعث من كل أمة شهيدًا من المرسلين ، يشهد لمن آمن بالإيمان وعلى من كفر بالكفر ، حسبما علمه عن أمته فى حياته .

(ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : أى لا يؤذن لهم فى الاعتذار إذ لا عذر لهم ولا حجة لديهم يدافعون بها عن أنفسهم .

(وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)[1] : أى ولا يطلب منهم أحد فى هذا اليوم العتبى – أى أن يرضوا ربهم بتوبة أو عمل صالح – فقد فات أوان ذلك حيث كانوا فى دنيا التكليف ، وقد أعطوا الفرصة فيها فلم يفعلوا ، فلا سبيل لهم بعدها إلى ذلك ، فإن الآخرة دار جزاء . « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »[2] .

٨٥ – (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) :

وتلك صورة أخرى لما يكون عليه الكافرون من أهل النار، أى وإذا رأى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر – إذا رأوا العذاب على كفرهم ومعاصيهم وعاينوه وشاهدوه ، (فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) : إذ لا مجال للتخفيف بتوبة أو اعتذار ، « لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »[3] .

٨٦ – (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ ...) الآية .

وهذه صورة من الصور التى تكون بين الكافرين وبين من أشركوهم مع الله فى العبادة ، أو عبدوهم من دون الله ، فإذا رأوهم نادوا ربهم أذلاء صاغرين .

(هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ) : أضلونا وحملونا على عبادتهم . كأنما يقولون : هم الذين يستحقون العذاب دوننا . وكل شىء يومئذ ينطق بإذن الله فلهذا تكذبهم معبوداتهم من كل نوع كما حكى الله بقوله :

---

(١) أصل الاستعتاب طلب إزالة العتب والغضب ويكنى به عن سلب الرضا وبهذا فسر قوله تعالى : « ولا هم يستعتبون » بمعنى ولا هم يطلب منهم أن يرضوا ربهم .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٤٦

(٣) سورة التحريم ، الآية : ٧

(فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) : أى إنكم كذبتم فيما زعمتم أننا شركاء لله ، كما كذبتم فى دعائكم أننا أضللناكم ورضينا بكفركم، أو فيما تقولتم فى دنياكم من استحقاقنا للعبادة ، وما أضللناكم ولكنكم أضللتم أنفسكم وعطلتم عقولكم ، وما كان لنا عليكم من سلطان.

٨٧ـ (وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

وهذه خاتمة أحوال الكافرين يوم الدين : إنها خزيهم واستسلامهم.

والمعنى أن المشركين استسلموا صاغرين بعد أن قامت عليهم الحجة وخاب أملهم فى آلهتهم وضل سعيهم ، وحقت عليهم الكلمة وباءُوا بغضب من الله .

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : وغاب عنهم كل ما افتروه من شرك آلهتهم لله ، وشفاعتها لهم عند ربهم ، غاب عنهم كل هذا ولقوا ربهم بفضيحة كفرهم وخزى معاصيهم .

(ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(صَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ) : منعوا الناس عن الإيمان بدين الله .

(شَهِيدًا) : شهيد كل أمة نبيها ، فهو شاهدها .

(هَؤُلَاءِ) : المشار إليهم الأمم أو الأنبياء ، أو الكفار من أمة سيدنا محمد .

(الْكِتَابَ) : القرآن . (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) : توضيحًا لأحكام كل شىء .

التفسير

٨٨ - (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ . . .) الآية .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى استسلام الكافرين واعترافهم بكفرهم بين يدى أحكم الحاكمين أوضح جزاءهم فى تلك الآية الشريفة .

والمعنى : أن الذين كفروا بالله فلم يعترفوا بوحدانيته ، وصرفوا الناس عن دينه الذى هو سبيله الأقوم ،

(زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ) : ضاعفنا عذابهم ضعفين ، عذابًا بكفرهم وغيهم وضلالهم ، وعذابًا بصدهم الناس عن الإيمان وحملهم إياهم على الكفر والفسوق والعصيان فاستحقوا أن يزادوا عذابًا .

(بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) : بسبب استمرارهم على الإفساد وإصرارهم على الضلال ، وفى الآية دليل على تفاوت العذاب فى دركاته كما يتفاوت النعيم فى درجاته .

٨٩ - (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ) :

واذكر أيها الرسول للناس يوم القيامة حيث نبعث فى كل أمةٍ شَهيدًا عليهم من أنفسهم ،أى من بينهم وجنسهم وبلغتهم قطعًا لمعذرتهم .

وشهيد كل أمة نبيها ، يشهد لها أو عليها بما كان منها من الاستجابة له ، أو الإعراض عنه والصدّ عن سبيله كما تقدم بيانه .

(وجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ) : وأحضرناك يامحمد يومئذ شهيدًا على أمتك هؤلاء ، تشهد عليهم كما يشهد كل نبى على أمته ، ويجوز أن يكون المراد من (هَؤُلَاءِ) : الأنبياء ، فهم يشهدون على أممهم ، وأنت يا محمد تشهد لهم بأنهم بلغوا ما أمروا بتبليغه كما أخبرك به العليم الخبير فى كتابه العزيز ، أو جئنا بك يا محمد شهيدًا على الأمم بما لاقوا به رسلهم من إيمان وتصديق أو إنكار وتكذيب على ما أعلمك ربك .

وقد ورد فى تفسير تلك الآية عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: إنه قرأ سُورة النساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : حسْبُنا .

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) : أى وآتيناك القرآن مبينًا لأحكام كل شيء من شئون معاش الناس ومعادهم ، والبيان الذى جاء به القرآن للأحكام إما بإيراد نص فيها ، أو بالإحالة على السنة كقوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » [١] . أو بالإحالة على الإجماع حيث أوجب الأخذ به وتوعد على مخالفته فى قوله تعالى : « وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَاتَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » [٢] . أو بالإحالة على القياس وذلك فى قوله تعالى : « فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصار » [٣] فالاعتبار التبصُّر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس فهذه أربعة طرق لا يخرج عنها شيء من أحكام الشريعة الإسلامية ، وكلها مذكورة فى القرآن ، فكان بحق تبيانًا لكل شيء .

(وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) : أى وكان منشأ الهداية والرشد ، كما أنه رحمة للمسلمين وبشرى لهم بحسن المصير وطيب المنقلب إلى ربهم ، لأنهم أسلموا وجوههم إلى الله ، وأحسنوا أقوالهم وأعمالهم ونياتهم لربهم . « وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » [٤] .

(۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) : يأمر بالإنصاف وعدم الظلم . (وَالْإِحْسَانِ) : هو إتقان العمل وإكماله .

(ذِى الْقُرْبَى) : المراد به صاحب القرابة مطلقًا .

(وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ) : الفحشاء ماعظم قبحه قولًا أو فعلًا ، ويكثر إطلاقه على الزنى .

(١) سورة الحشر ، من الآية : ٧ (٢) سورة النساء ، الآية : ١١٥
(٣) سورة الحشر ، من الآية : ٢ (٤) سورة لقمان من ، الآية : ٢٢

(وَالْمُنكَرِ) : كل ما أنكره الشرع من الذنوب والمعاصى .

(وَالْبَغْيِ) : وهو التطاول على الناس ظلمًا وعدوانًا .

التفسير

٩٠ـ (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ . . .) الآية .

هذه الآية كما يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولو لم يكن فيه غيرها لكفت فى كونه تبيانًا لكل شىء وهدى » . أخرجه البخارى فى الأدب والحاكم وصححه ابن جرير واللفظ له .

وقد قرأها الرسول صلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة . فقال له : يا ابن أخى أعد على فأعادها عليه . فقال له الوليد والله إن له لحلاوة . وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى ، وما هو بقول بشر ، ولما سمعها أكثم بن صيفى من وفد قومه إلى الرسول قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن مذامها . فكونوا فى هذا الأمر رءوسًا ولا تكونوا فيه أذنابًا ،ذلك لأنها جمعت إجمالًا بين ما يجب عمله من الفضائل وما يتعين تركه من الرذائل ، والعدل الذى يأمر به سبحانه خُلقٌ جامع لكل الفضائل من القول والعمل . يغرس فى الإنسان حب الاستقامة والمساواة ، والرغبة فى طاعة الله ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وإنصاف الناس من نفسه ، وإنصاف بعضهم من بعض وهذا الخلق يجعله إذا ما تصرَّف فى أمر من الأمور أو تخلَّق بخلق يتوسَّط فيه بين الإفراط والتفريط ، وقال سفيان بن عيينة العدل استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملا وكما يأمر سبحانه بالعدل ويدعو إليه . فإنه يأمر بالإحسان ، وهو إحسان العمل وإتقان العبادة أى الإتيان بها على الوجه المطلوب الذى يليق بها من حيث الإخلاص لله ، وكمال العبودية له ، ويشير إلى ذلك ما رواه البخارى من قوله صلى الله عليه وسلم : « الْإِحْسَانُ أَن تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » هذا بحسب الكيفية ، وأمّا بحسب الكمية فبكثرة التطوع بالنوافل الجابرة لما قد يقع فى الواجبات من شائبة التهاون والنقص

أو بالاستزادة من كل ما يحقق للطاعة مراتب الكمال ، ويجوز أن يراد به الإحسان إلى الناس والتفضل عليهم ، وأسمى درجاته على هذا المعنى ، الإحسان إلى المسيء مع التمكن منه والقدرة عليه ، وقد أمر بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومن الحكم المنسوبة إلى عيسى عليه السلام قوله : « إِنَّمَا الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ . لَيْسَ الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ » أخرجه ابن أبي حاتم عن الشعبي .

ثم يأمر سبحانه بصلة الأقارب حفاظًا على روابط الدم والنسب فيقول : (وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ) : أي أنه يأمر بصلة ذوى الأرحام . على أى درجة كانت قرابتهم ، وذلك بإعطائهم مايحتاجون إليه ، لافرق بين الأقربين منهم والأبعدين ، ويشير إلى ذلك ماجاء فى النص الكريم من طلب إعطاء ذى القرابة مطلقًا ، ولو طلبها للأقرباء أو للأقارب أو للأقربين لم يفد التعميم ، لأن هذه الصيغ تقيد الإحسان لأكثرهم قرابة ، فلذا جيء بهذا النص الكريم ليعم ذوى القرابة مطلقًا ، والتصريح بإيتاء ذى القربى مع أنه داخل فى الإحسان الذى يأمر به الله سبحانه ، للاهتمام بشأن صلة القرابة وإعطائها حق قدرها ، وبعد أن ذكر سبحانه ثلاثة من المأمورات . أتبعها بذكر ثلاثة من المنهيات فقال تعالى :

(وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ) : أى ينهاكم عن الفحشاء قولًا وعملًا ، والفحشاء : كل ما عظم قبحه من الذنوب ويكثر إطلاقها على الزنى ، وكما ينهاكم عن الفحشاء ينهاكم عن جميع ما أنكره الشرع من المعاصى والآثام ، وينهاكم أيضًا عن البغى على الناس ظلمًا وعدوانًا بانتهاك حرماتهم ، واغتصاب حقوقهم .

(يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) : جملة مستأنفة لبيان الحكمة فى تشريعات هذه الآية الكريمة التى تعتبر دستورًا لمكارم الأخلاق .

والمعنى : أنه تعالى ينبهكم بما جاء فى هذه الآية الكريمة ، لكى تتعظوا فتسلكوا سبيلها وتعملوا بما جاء بها .

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

المفردات :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ) : العهد ما ألزم الإنسان به نفسه أو ألزمه به غيره بموافقته ، وعهد الله يعم كل تكليف من الله ، ويدخل فيه البيعة على الإسلام .

(وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ) : المراد من نقضها عدم الوفاء بها .

(كَفِيلًا) : شاهدًا أو رقيبًا . (نَقَضَتْ غَزْلَهَا) : حلَّته بعد فتله وإحكامه .

(أَنكَاثًا) : جمع نِكْث على وزن حِمْلٍ وهو الصوف بعد حله .

(دَخَلًا بَيْنَكُمْ) : أى خديعة ومفسدة . (أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ) : أكثر منها مالا وأعز نفرًا .

التفسير

٩١ - (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) :

لما ذكر سبحانه فى الآية السابقة الأمور التى يترتب عليها إصلاح الفرد واستقرار الجماعة على سبيل الإجمال . أتبع ذلك تفصيل بعض ما أجمل ليوضح لعباده معالم الطريق إلى الأمن

والسلامة فقال تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ) أى التزموا الوفاء بكل عهد وبيعة لله تعالى ، ويدخل فيها البيعة على الإسلام ، والنصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله سبحانه : (إِذا عَاهَدْتُمْ) بعد قوله : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ) لتأكيد وجوب التزامهم بالوفاء ، وذلك بتذكيرهم بأن هذا العهد قطعوه على أنفسهم برغبة منهم واختيار .

(وَلَاتنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) : أى لاتحنثوا فى الأيمان التى تحلفون بها عند البيعة وغيرها ، ولا سيما الأيمان التى أكدتموها بتكرارها وتنويعها .

(وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) : أى رقيبًا يتكفل بوفائكم ، حينما تعاقدتم ، فلا سبيل لكم إلى نقض العهد والحنث فى الأيمان لأن الكفيل مراع لحال المكفول مهيمن عليه ، فلا يستطيع الإفلات من قبضته ، فكيف إذا كان هذا الكفيل ، هو الله الذى بيده مقاليد السموات والأرض يعاقب الغادرين ، ويثيب الأوفياء .

(إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) : من نقض المواثيق والعهود أو الوفاء بها ، وفى هذه الجملة تعليل للنهى عن نقض الأيمان ، مشعر بالوعد على الوفاء والوعيد على الغدر

٩٢ - (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا) :

أى ولا تكونوا فى نقضكم لما تعقدون من عهود كالمرأة الحمقاء التى كانت تغزل غزلها قويًّا متماسكًا ثم تنقضه من بعد ما أحكمته ، تنقضه أنكاثًا أى طاقات ، وذلك بفك أجزائه بعضها من بعض ونفشه لتعاود غزله وتلك حماقة لا تعدلها حماقة ، ويراد من هذا التشبيه تقبيح حال النقض للعهد ، بتمثيل الناقض له بحال هذه المرأة المعتوهة فى أخس أحوالها ، تنفيرًا منه وتقبيحًا له . حيث جعل فى عداد حمقى النساء ، والكلام من باب ضرب المثل ، ولم يقصد به امرأة معينة ، كما قاله مجاهد وقتادة .

(تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ) : الدخل فى اللغة ما دخل فى الشىء وليس منه ، والمراد به هنا الغش والخديعة والمعنى : لا تكونوا فى نقضكم للعهود مشابهين للمرأة التى سبق بيان شأنها ، حال كونكم متخذين أيمانكم التى حنثتم فيها خديعة ومفسدة حيث جعلتموها وسيلة للغدر وعدم الوفاء وكان من حقها عليكم أن تكون سبيلا إلى أن تلتزموا بما عاهدتم الله عليه ، والجملة مستأنفة على سبيل الاستفهام الإنكارى تقديرًا . أى أتتخذون أيمانكم دخلا بينكم بمعنى لا ينبغى أن يقع ذلك منكم .

(أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ) :أى لا تنقضوا العهود طمعًا فى التحالف مع جماعة هى أكثر مالا وأعز نفرًا ، بدل جماعة أخرى أقل منها وأهون ، كما كانت تفعل قريش ، فكانوا ينقضون العهود مع حلفائهم ، ويحالفون أعداءهم إذا ما رأوا فيهم قوة ومنعة ، قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون منْ هُو أكثر منهم وأعز نفرًا فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك فنهوا عن ذلك ا هـ - وعلى هذا تكون الآية تحذيرًا للمؤمنين أن يغترُّوا بكثرة قريش وسعة أموالهم ، فينقضوا بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيًّا كان السبب فالآية قاعدة عامة تحض على الوفاء بالعهود .

والمعنى الإجمالى للآية : ولا تتخذوا أيمانكم للخديعة والمكر ، بأن تحلفوا للناس على ما عاهدتموهم عليه ليطمئنوا إليكم ، ثم تغدروا بهم رغبة فى إرضاء أمة أقوى من الأمة التى عاهدتموها ، لتكون قوة لكم ومنعة بدلا منهم .

وإذا كان الله سبحانه قد نهى عن الغدر والحالة هذه . فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة الذاتية بطريق الأولى .

(إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ) : أى إنَّما يختبركم بكثرة أمة عن أمة ، لينظر أتتمسكون بعهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ أم تخدعكم كثرة قريش وقوة شكيمتهم وقلة المؤمنين وضعفهم حسبما يدل عليه ظاهر الحال . أو يختبركم أيها المؤمنون جميعا بهذا التشريع فى عهودكم ومواثيقكم ليظهر ما تضمرونه من غدر أو وفاء .

(وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) : فى الدنيا ، فيجازى كل عامل على عمله خيرًا كان أو شرًّا . وستجد كل نفس ما عملته محضرًا ، لا تخفى منه خافية ، وفى ذلك إشارة واضحة إلى الإنذار والتحذير .

٩٣ - (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) : أى ولوشاء الله إلجاءكُمْ على الإيمان لجمعكم عليه وجعلكم أمة واحدة .

(وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ) : أى ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك حيث أضل فريقًا وهدى آخر ، فأما الفريق الأول . فهو من استحب العمى على الهدى ، وأما الفريق الثانى فهو من آثر الحق على الباطل ، فقد اقتضت عدالته أن يجعل لعباده اختيارًا ، فمن اختار شهوات الدنيا على طاعة ربه . تركه وما يريد تبعاً لاختياره وإصراره ، ومن

اختار رضا الله بالعمل الصالح سهّل له ما أراد تحصيله بدافع مما عنده من رغبة واختيار ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

(وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) : أى وتأكدوا بلا شك أنكم ستسألون جميعاً يوم القيامة سؤال محاسبة عن عملكم فى الدنيا ، لينال كل عامل جزاء عمله ثوابًا أو عقابًا .

(وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(الدَّخَلَ) : الغدر والمكر والخديعة ونحوها .

(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) : زَلَلُ القدمِ حسب اللغة زلقُها فى طين ونحوه ، ويُكنى به عن الوقوع فى البلاء والمحنة بعد العافية والنعمة كما هنا (السُّوءَ) : المكروه .

(بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ) : بسبب إعراضكم عن أحكام دينه ، فهى سبيله إلى الوفاء بالعهود والأيمان وسائر الفضائل . (ثَمَنًا قَلِيلًا) : عرضًا قليلا ، (يَنْفَدُ) : يذهب ويفنى .

التفسير

٩٤ ـ (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ) الآية .

تحذير صريح من الله لعباده من اتخاذ الأيمان دخلا أى خديعة ، بعد تحذيرهم فيما سبق تلميحًا واستنكارا فى قوله سبحانه : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ » . . الآية قصدًا إلى المبالغة فى قبح الغدر المنهى عنه ، وللتمهيد لقوله سبحانه :

(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) :

والمعنى : احذروا هذه الأيمان الكاذبة لئلا تحيد قدم عن سبيل الإسلام بعد رسوخها فيه ، وإفراد القدم وتنكيرها للإشعار بأن زلل أى قدم ذنب عظيم وإثم كبير ، فكيف بالأقدام الكثيرة . وهو مثل يضرب لكل من كان على الطريق المستقيم فجانبه .

(وَتَذُوقُوا السُّوءَ) : أى ما يسوءكم من العذاب الدنيوى ومختلف المكاره .

(بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) : بسبب إعراضكم عن دين الله وعدم الاهتمام بتعاليمه ، أو بما تسببتم فيه من صد غيركم عن هذا الدين ، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهد ثم غدر أو حلف فحنث أو نقض عهد رسول الله وارتد . لم يبق له وثوق بدين الله ، وكان داعيا له إلى شدة الإعراض عن الإسلام .

(وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) : أى ولكم فى الآخرة عذاب لايعلم مداه ولايحيط بقدره إلا الله جل شأنه . لقاء ما اقترفتم من كبائر وسيئات .

٩٥ - (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ . .) :

قيل المراد من عهد الله ؛ بيعة رسوله صلى الله عليه وسلم على الإيمان أو هو الآيات الداعية إلى إيجاب المحافظة على العهود والأيمان .

والمعنى : لاتستبدلوا به ولا تعتاضوا عنه . (ثَمَنًا قَلِيلاً) : أى لا تأخذوا بمقابل عهده سبحانه عرض الدنيا وزينتها . فإن هذا العرض مهما كثر فى موازينكم فإنه يكون ضئيلا بالنسبة إلى عطاء الله . أو هو عرض يسير فى واقعه وحقيقته فلا يحل لأحد أن يتناوله ؛ ويتخلى عن عهد الله الذى يجب الوفاء به . ويستحق الوفىُّ به عند الله أجرًا عظيمًا أما عرض الحياة الدنيا فهو قليل وزائل كما قال تعالى : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى » . ويشار بالثمن القليل إلى ما كانت تعد به قريش ضعفاء المسلمين للارتداد عن الإسلام ، وقال ابن عطية : هذا نهىٌ عن الرشا وأخذ الأموال على ترك مايجب على الآخذ فعله . أو فعل ما يجب عليه تركه ، وعلى ذلك فالمراد بعهد الله ما يعم ما سبق وغيره .

(إِنَّمَا عِندَ اللهِ) : أى إن الذى عند الله من نصر وتوفيق وثواب أخروى دائم .

(هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ). من هذا الثمن القليل الذى يعدونكم به لإغرائكم بنقض العهود ، أو الذى يصل إليكم عن أى طريق ، فى مُقابل ترك عهد الله والتخلى عنه .

(إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) : أى إن كنتم من أهل العلم والإدراك والفهم . فتدبروا التفاوت البين بين خيرى الدنيا والآخرة. وبين ما يمقته سبحانه وما يرضى عنه .

٩٦ - (مَاعِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ..) :

أى مالديكم من خيرات الدنيا وطيباتها يذهب وينتهى مهما طال به الأَمد ، وامْتدَّ به الزمن . وكثر منه العدد .

(وَما عِنْدَ اللهَ باقٍ) : فهو يعطيكم من فيض رحمته . وخزائن نعمه التى لانفاد لها ولا فناء لنعيمها فى الدنيا والآخرة . أما حصول ذلك فى الآخرة فظاهر . وأما فى الدنيا فلأن نعيمها موصول بنعيم الآخرة ومستتبع له ، ولهذا الارتباط كان النعيمان من الباقيات الصالحات ، ومن هنا كان التعبير فى الآية بلفظ (باقٍ) أولى من التعبير بلفظ يبقى لإفادة الدوام والاستمرار .

(وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُون) : أكَّد سبحانه النص على منح الصابرين أجرهم الخاص بهم بجملة القسم (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم) المعبر فيها بنون العظمة ، لحفزهم على قوة الاحتمال والثبات على إيذاء المشركين لهم - والصبر على مشاق التكاليف التى تنتظم احتمال الأذى فى سبيل الوفاء بالعهود والبر بالأيمان .

والمعنى : ولَنجزينَّ الذين صبروا على مشاق التكاليف الشرعية ومنها الوفاءُ بالعهد ، - لنجزينهم - بحسب أحسن أعمالهم . فيكون عطاؤنا لهم جزاء الأَدنى من هذه الأعمال كعطائنا لهم جزاء الأَعلى منها من الأَجر الجزيل ، تفضلا منًّا وكرمًا ، وتلك عِدَةٌ كريمة بغفران ماقد يعترى صبرهم على مشاق التكاليف من تقصير أو قصور ، فإن أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون يقتضى هذا التجاوز والغفران .

(مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾)

المفردات :

(حَيَاةً طَيِّبَةً) : يراد بها حياة هنيئة مرضية .

(قرأْتَ) : أردت القراءة . (الرَّجِيم) : المطرود من رحمة الله .

(سُلْطانٌ) : تسلط وقهر . (يَتَوَلَّوْنَهُ) : يتخذونه وليًّا يتبعون أمره .

التفسير

٩٧ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ) :

شروع فى ترغيب المؤمنين جميعاً وحثهم على كل عمل صالح . تدعو إليه شرائع الإسلام وتعاليمه . إثر ترغيب جماعة منهم فى الثبات على العهد والاستمساك بما هم عليه من عمل صالح خالص مهما قدم لهم من المغريات على نكثه .

والمعنى : من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى من المكلفين وهو مصدق تمام التصديق بما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . فإن أعمال الكفرة لا اعتداد بها . ولا وزن لها مهما كان فيها من البر . وأوثرت الجملة الإسمية فى قوله (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) لدلالتها على الدوام والاستمرار .

(فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) : أى فلنُعطينَّهُ فى الدنيا ما تطيب به حياته من كل ما يتطلبه عيشه : من سعة فى المال . وبركة فى الصحة والعيال . أو بما وهبناه من قناعة ورضا بما قسم له ، وتوقُّعٍ للأجر العظيم فى آخرته . وقيل : هى حياة الآخرة التى تكون فى الجنة . لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر . وصحة بلا سقم . وسعادة بلا شقاوة . أخرج ابن جرير .

وابن المنذر وغيرهما عن الحسن قال : ماتطيب الحياة لِأحدٍ إلا فى الجنة ، وقيل هى حياة البرزخ ففيها يشعر الميت بأنه من أهل السعادة أو من أهل الشقاء ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله تعالى من عذاب القبر .

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى ولنجزينهم فى الآخرة جزاء موافقا لأحسن أعمالهم حسبما نفعل بالصابرين الذين ذكر جزاؤهم فى الآية التى سبقت .

وقد ذكر الجزاء هناك خاصا بالصابرين ، وهنا عاما لبيان شموله لكل من يعمل عملا صالحا خالصا لوجه الله. وذلك لا يدع أى مجال لشائبة التكرار بين الآيتين حيث اختلف الغرض المقصود من كل منهما .

٩٨ - (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) :

بعد أن ذكر سبحانه أن أساس الجزاء الموفور هو صلاح العمل واستقامته . جاءت هذه الآية لبيان مايصان به العمل الصالح ويخلص من شوائب النقص أو الفساد .

والمعنى : فإذا أردت قراءة القرآن فاسأل الله سبحانه أن يعيذك ويحفظك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله ، والأمر بالاستعاذة منه للندب عند جمهور العلماء ، وروى عن الثورى وعطاء أنه للوجوب . نظراً لظاهر النظم الكريم ، وهو مخالف للمنقول عن جمهور العلماء ، والخطاب عام لكل مسلم يقرأ القرآن الكريم ، وهذا هو الذى يقتضيه السياق . وقيل إنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتوجيه الخطاب إليه، على هذا الرأى . للتنبيه على أنها لغيره صلى الله عليه وسلم آكد ، فإنه صلى الله عليه وسلم مُحصَّن من الشيطان ، ومع هذا فقد أمر بالاستعاذة منه ، فماظنك بغيره ، وصيغة الاستعاذة المأثورة هى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . لتضافر الروايات على أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ كذلك . وروى عن ابن مسعود أنه قرأ على النبى صلى الله عليه وسلم : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « يا ابن أم عبْدٍ : قُلْ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. هكذا أقرأنيه جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ » روى ذلك الثعالبى والواحدى .

٩٩ - (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) :

أى أنه ليس للشيطان تسلط وتأثير على المؤمنين المتوكلين على الله ربهم ، حيث إن دعوته لهم إلى الشرك والمعاصى غير مستجابة ، ووسوسته لاتؤثر فيهم ، لاعتصامهم بالإيمان المتين ،

وإخلاصهم العبادة لله رب العالمين ، وتوكلهم عليه وحده فى كل مايعملون وما يتركون ، واستعانتهم به على تحمل مشاق التكاليف ونزغات الشيطان ، أو أنه كما قال الثورى : ليس له عليهم سلطان يوقعهم فى ذنب لايتوبون منه .

١٠٠ - (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ) :

أى ما سلطانه وتأثيره وهيمنته وولايته : إلا على أتباعه الذين يطيعونه ويستجيبون لإغرائه ووسوسته إلى درجة الشرك ، وهم بمعزل فى غوايتهم هذه عن القهر والإكراه ، فلو أصروا على عصيانه لنجوا من كيده ، حيث يقول جل شأنه حكاية عن إبليس : «وَمَا كَانَ لِى عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى» وفى ذلك يقول الله تعالى لإبليس : «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ»[1] .

(وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾)

المفردات :

(بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ) : جعلناها بدلا منها لإحلال حكم محل آخر .

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٢

(مفترٍ) : مختلق وكاذب . (رُوحُ الْقُدُسِ) : جبريل عليه السلام ، والقدس الطهر .
(يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ) : يميلون إليه من الإلحاد وهو الميل عن القصد . ومنه اللَّحْدُ لميل الشق فيه إلى الجنب . (أَعْجَمِيٌّ) : أى أنه فى نطقه عجمة تتنافى مع الفصاحة القرآنية .

التفسير

١٠١ - (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ) :

أى وإذا أنزلنا من القرآن الكريم آية تفيد حكما جديدا ، وجعلناها مكان آية فى شريعة سابقة تخالفها فى الحكم أو جعلنا معجزة بدل معجزة كانت لنبى سابق .

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) : على أنبيائه من أحكام أو معجزات ويعلم وجه مناسبته لزمانه ، فلكل وقت من الأحكام والآيات ماينا سبه ، فما يكون مصلحة فى زمن . قد يكون مفسدةً فى زمن غيره ، وما يكون معجزة لنبي مع قوم بعث إليهم قد لايتناسب مع آخرين ليحصل به التحدى والإفحام .

وجملة (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) ذكرت اعتراضا بين الشرط والجواب لتوبيخ المشركين والتنبيه على فَسادِ رَأيهم ، لأنهم لو أنصفوا أنفسهم لتركوا أمر ذلك إلى علم الحكيم الخبير.

وحكى سبحانه جرمهم الذى اقترفوه عندما وقع التبديل ، فقال تعالى :

(قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ) : أى قال الكافرون مخاطبين الصادق الأمين : ما أنت إلا مُتقولٌ على الله مختلق نسبة الأحكام إليه لأنك تنسخ أحكاما جاءت فى الرسالات السابقة ، مع أنها من عند الله ، ولم يقولوا ذلك عن دراية (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : شيئًا أصلا فهم جهلاء أغبياء أو لا يعلمون أن فى التبديل حِكماً بالغة .

وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم ، لأن بعضهم كان يعلم يقينا صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما يصفه بالافتراء مكابرة وعنادا .

١٠٢ - (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) :

قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين يصفونك بافتراء القرآن ، قل لهم ليس هذا القرآن مفترى بل نزله روح القدس جبريل عليك بالحق من ربك الذى يحيطك بآثار ربوبيته ، نزله عليك ليُثبت الذين آمنوا على الإيمان ويبعدهم عن ضلال العقيدة ، لما فيه من الحجج والبراهين المطمئنة للقلوب ، وليثبتهم على التصديق بأن النسخ فيه لمصلحة

البشر . وليهديهم إلى سبيل الرشاد، ويبشرهم بحسن الجزاء وكريم اللقاء، وفيه دليل على أن أضداد الصفات المذكورة للمفترين من الكفار ، فلهم خزى الدنيا وعذاب النار .

وإطلاق روح القدس على جبريل عليه السلام ، لأنه ينزل بالقدس أى الطهر من الله ، والمراد به الوحى الذى يطهر النفوس من الجهل والإثم ، وقيل لطهره من الأدناس البشرية ، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته ، فكأنه قيل : نزله الروح المقدس . . أى المطهر - كما يقال : حاتم الجود . . أى حاتم ذو الجود .

١٠٣ - (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) :

رد من الله سبحانه لفرية خبيثة أثارها كفار مكة حول محمد صلى الله عليه وسلم . حيث قالوا : إنه لايعلمه هذا القرآن إلا بشر نعرفه ، يريدون به غلاماً أعجميا كان يقرأ التوراة والإنجيل ورأى فيهما أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وحسن إسلامه بعد أن تحقق من صفات النبوة فيه . ولقد كذبهم الله تعالى فى زعمهم هذا بقوله جل شأنه :

(لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ) :أى كلام الرجل الذى ينسبون إليه تعليم الرسول، ويُميلون إليه فريتهم ماهو إلا كلام أعجمى لا يفهمه عربىّ .

(وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) : أى وهذا القرآن الذى تدعون أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعلّمه من أعجمى ، إنما هو كلامٌ عربى بلغ القمة فى البيان والفصاحة والبلاغة ، حتى عجزت العرب عن محاكاته ، وهم على ماهم عليه بلاغة وفصاحة وقوة بيان ، وعذوبة لفظ، وسلامة قول : بل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لاستبان عجزهم ، وظهر قصورهم ، ولو كان بعضهم لبعض نصيرًا ومعينًا ، فكيف تجعلونه من تعليم بشر أعجمى ، وهو لا يمكن أن يصدر إلا عن واهب القوى والقدر جل وعلا .

١٠٤ - (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) :

المراد بالآيات هنا القرآن الكريمُ ، كما دلت عليه الآيات السابقة .

والمعنى : إن الذين لايؤمنون بآيات القرآن ولايصدقون بأنها آيات الله وينسبونها تارة إلى الكذب والافتراء ، وأخرى إلى أنها مُعلَّمة من بشر (لَايَهْدِيهِمُ اللهُ) :أى لايوفقهم إلى طريق النجاة ، لعلمه سبحانه أنهم ليسوا أهلا لذلك، لسوء حالهم التابع لسوء اختيارهم.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ): فى الآخرة لكفرهم بآيات الله ، وإعراضهم عن هداه .

١٠٥ -(إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ) :

ردٌّ لقولهم إنما يعلمه بشر ، ببيانٌ أن الذين ينسبون الافتراء والكذب إلى رسول الله ماهم إلا الذين اعتادوا الكفر بآيات الله وحججه الدالة على وحدانيته ،فلا غرابة فى تكذيبهم رسول الله المؤيد بآياته الواضحة فى القرآن العظيم الذى أعجز... الجن والإنس، وظهر لهم عجزهم عن الإتيان بسورة مثله ، وثبت بذلك أنه منزل من عند الله ، فهم بإنكارهم هذه الحقيقة يفترون على الله الكذب ، حيث زعموا أن ماهو كلام الله مفترى عليه ، ولا يجرؤ على افتراء الكذب وقلب الحقائق إلا الكافرون الذين اعتادوا على تكذيب آيات الله وبراهينه أمثالهم. ويصح أن يكون المعنى : ما يفترى الكذب وينسبه إلى الله إلا الذين لايصدقون بالبراهين والآيات الدالة عليه سبحانه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس منهم ، فهو أكمل الناس علما بربه ، وإيمانا بآياته الدالة عليه ، وقد عرفتموه بينكم ودعوتموه بالصادق الأمين ، فكيف يفترى الكذب على الله ، كما نسبتموه إليه زورا وبهتانا .

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) : أى أولئك الموصوفون بعدم الإيمان بآيات الله ،هم المتناهون فى الكذب ، إذ لا كذب أشنع من تكذيب آيات الله والطعن فيها ، مع وضوح أنها آياته وبراهينه سبحانه وتعالى .

(مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ
بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا
عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾
ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟
إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(أُكْرِهَ) : أُجْبِر على التلفظ بكلمة الكفر .

(اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) : آثروها على الآخرة فعملوا لها .

(طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) : ختم عليها ،والمقصود أنه حال بينها وبين الحق لإصرارها على الكفر.

(مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) : من طابت به نفسه .

(لاَ جَرَمَ) : لا محالة ، (فُتِنُوا) : امتُحِنُوا وابتُلوا .

التفسير

١٠٦ - (مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ) :

هذا ابتداءُ كلام . لبيان حال من كفر بآيات الله بعد إيمانه إثر بيان شأن من جحدها ولم يؤمن بها أصلا .

والمعنى : من جحد وجود الله أو أنكر دينه الحق من بعد إيمانه ، وسلوكه سبيل المؤمنين فإن الله يغضب عليه ويعذبه عذابا عظيما [١] . ثم استثنى الله من هذا العقاب من أكره على الكفر بقوله : (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) : أى إلا من أرغم على الكفر بشىء يخشى منه على نفسه أو على عضو من أعضائه . فكفر . وحاله فى اطمئنان قلبه ، وسلامة عقيدته لم تتغير ، فلم يخالط يقينه أى شك أو تردد فلا يضره هذا الكفر. بل هو فى كنف الله ورعايته . (وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) : أى لم يكن مكرها على الكفر . بل آثره واطمأنت إليه نفسه ، وتفتح له قلبه . وانشرح به صدره (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ) : أى فينزل عليهم ويحل بهم غضب عظيم من الله . لايدركون كنهه . وقد أشعر إظهار اسمه الجليل فى معرض الوعيد بشدة العذاب لهؤلاء الكافرين المتعمدين للكفر .

وفى سبب نزول هذه الآية روى العوفىّ عن ابن عباس : أنها نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فوافقهم على ذلك مكرها ، وجاء معتذرا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله هذه الآية . هكذا قال الشعبى وأبو مالك وقتادة ، وفى رواية ابن جرير . فشكا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «كيف تجد قلبك» قال مطمئنا بالإيمان . قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إن عادوا فعُدْ» .

١٠٧ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) :

الإشارة راجعة إلى وعيد من كفر بعد الإيمان . أى ذلك الوعيد السابق . بإنزال الغضب والعذاب العظيم عليهم منه تعالى بسبب إيثارهم الدنيا وزينتها . وتعلقهم بمطامعها ومفاتنها وإعراضهم عن الآخرة . إيثارا للعاجل الفانى . على النعيم الباقى .

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) : أى وذلك الوعيد أيضا بسبب أن الله تعالى لايهدى القوم الكافرين إلى الإيمان ، على سبيل القهر والإلجاء . لأنه ثبت فى علمه المحيط اختيارهم الكفر على الإيمان وإصرارهم عليه . فلهذا لم يعصمهم من الزيغ . ولا مما يؤدى إليه من إنزال الغضب عليهم . والعذاب العظيم بهم . فمن بعُد عن الله بعُد الله عنه وأدناه من عقابه . ومن تقرب إلى الله قرب الله منه وأدناه من رحمته .

---

(١) هذا الجواب الذى قدرناه هنا مستفاد من قوله تعالى فيما سيأتى : (ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) ، فحذف من الأول لدلالة الثانى عليه .

١٠٨ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ..):

أى أولئك الموصوفون بما ذكرته الآيات السابقة من ألوان الكفر، وقبائح الأعمال، ختم الله على قلوبهم فصارت مغلقة لاتقبل الحق. وعلى أسماعهم فلم يعودوا يسمعون سماع فهم وتدبر كأنهم صُمّ، وختم على أبصارهم فلا تحسن رؤية ما يحيط بهم من عجائب الكون التى تتحدث بقدرة الخالق، ووحدانية المبدع جل شأنه. (وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ): أى وأولئك هم الغارقون فى الغفلة البالغون غايتها ومنتهاها دون سواهم. إذ لاغفلة أقوى فى آثارها من الغفلة عن تدبر العواقب الوخيمة، والتفكير فى المصالح العظيمة.

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما. أنه قال: غافلون عما يراد بهم فى الآخرة.

١٠٩ - (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ):

أى لامحالة أنهم هم الخاسرون فى أخراهم، حيث ضيّعوا أعمارهم فيما لايفيد، وصرفوها فى اقتراف المعاصى والآثام التى تفضى بهم إلى غضب الله عليهم، والخلود فى العذاب الأليم، وكان عليهم أن يتجهوا إلى ماخلقوا له من توحيد الله وعبادته، وإلى كل عمل نافع لهم فى الدنيا والآخرة.

١١٠ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا):

أى ثم إن ربك يامحمد نصير لمن هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام. من بعد ما فتنهم الكافرون وآذوهم بالعذاب لحملهم على الارتداد، ثم جاهدوا أنفسهم وصبروا على أذى معذبيهم، فلم يشكوا ولم يكفروا، بل ظلوا على سلامة عقيدتهم التى يخفونها ويضمرون التمسك بها.

والآية نزلت فى عمار وخباب ونحوهما ممن أوذوا فى سبيل الله.

وقرأ ابن عامر: «مِن بَعْدِ مَا فَتَنُوا» بالبناء للفاعل أى من بعد ما فتنوا غيرهم: أى من بعد ما عذب المشركون المؤمنين كالحضرمي أكره مولاه جبرًا على الارتداد ثم أسلما وهاجرا.

وأصل الفتن إدخال الذهب فى النار لتمييز الجيد من الردىء. ثم أطلق على البلاء وتعذيب الإنسان مجازًا. (إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ): إن ربك يا محمد من بعد ما فعلوه من الهجرة والجهاد فى سبيل الله والصبر على المشاق لعظيم المغفرة. يغفر لهم ما أكرهوا عليه من كلمة كفر قالوها ليتقوا بها العذاب. ويغفر لهم غيرها من السيئات- إن ربك من بعد

ذلك - لواسع المغفرة والرحمة فيتفضل بإثابتهم على ما صنعوا من هجرة وجهاد وصبر ، من بعد فتنتهم وإيقاع العذاب بهم ، وفى إضافة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم . إشارة إلى إظهار كمال اللطف به ، والعناية بشأنه ، مع الإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة ببركته عليه الصلاة والسلام لكونهم أتباعًا له صلوات الله عليه وسلامه .

(* يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١))

المفردات :

(تُجَادِلُ عَن نَّفْسِها) : أى تدافع عن ذاتها بالاعتذار .

التفسير

١١١ - (يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِها ...) الآية .

لما ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة طرفًا مجملا من طغيان المشركين ، وقسوتهم فى تعذيب الضعفاء من المؤمنين - عقب ذلك بذكر الحساب على الأعمال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »[(١)] ودفاع كل إنسان عن نفسه ، وأن كل مكلف ينال جزاء ما عمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

والمعنى : اذكر أيها المكلف من الناس - اذكر اليوم الذى تجىء فيه كل نفس تدافع عن ذاتها وتعتذر بشتى المعاذير جاهدة فى خلاصها ، لايشغلها إلا شأنها من شدة الكرب الذى يحيط بها ، حتى تفر من أقرب الأقربين إليها ، كما قال الله جل شأنه : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[(٢)] .

ومن هول الكرب فى ذلك اليوم ، يقسم المشركون كاذبين ، يقولون : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »[(٣)] ويتبرأ المتبوعون والتابعون بعضهم من بعض ، كما قال جل سلطانه : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ

(١) سورة المطففين : الآية : ٦

(٢) سورة عبس : الآيات : ٣٤ - ٣٧

(٣) سورة الأنعام ، من الآية : ٢٣

اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَاهُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » (١) .

(وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّاعَمِلَتْ) :

أى ويعطى الله تعالى فى ذلك اليوم العظيم كل نفس جزاء الذى عملته . وافيًا غير منقوص « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (٢) .

وضمير الجمع فى قوله عز من قائل :(وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ) : عائد على كل نفس . أى وكل النفوس التى يجزيها الله يوم القيامة لايظلمون بزيادة فى العقاب ، ولا ينقص فى الثواب ، ولا تعاقب نفس ما بغير ذنب ، ذلك لأن الذى يتولى الجزاء يومئذ ، هو الحكم العدل اللطيف الخبير ، الذى يقول وقوله الحق : « إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » (٣) .

وبالجملة فقد ختمت الآية بقوله سبحانه : (وَهُمْ لَايُظْلَمُون) لتأكيد عدالة الله مع المقصرين فى عبادته وغيرهم ، فكلٌّ يأخذ جزاءه عادلا ، ويضاعفُ أجر حسناته حسب كيفية أدائها ، ويجازى على سيئاته بمثلها .

(وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾)

المفردات :

(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا) : المثل فى هذه الآية ونظائرها ، الحال أو القصة التى لها شأنٌ وفيها غرابة . وضرب المثل ذكره للاعتبار به .

(١) سورة البقرة ، الآيتان : ١٦٦ – ١٦٧ (٢) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

(٣) سورة النساء ، الآية : ٤٠

(قَرْيَةً) : المراد أهل قرية . (رَغَدًا) : واسعاً سهلا .

التفسير

١١٢ - (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِن كُلِّ مَكَانٍ ...) :

أشار الفخر الرازى فى ربط هذه الآية بما قبلها بقوله : اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بالوعيد الشديد فى الآخرة هددهم أيضًا ببعض آفات الدنيا ، وهى إصابتهم بالجوع والخوف كما ذكره فى هذه الآية : اهـ

ولما كان هذا المثل ينطبق على أهل مكة ، ذهب كثير من المفسرين إلى أن القرية فى الآية الكريمة هى مكة ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال ابن كثير : هذا مثلٌ أُريد به أهل مكة فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، وكان يجبى إليها من ثمرات كل شئ فكفرت بأنعم الله وأعظمها بعثة محمد إليهم ؛ فعوقبت بالجوع والخوف : ا هـ . بتصرف. ويشارك أهل مكة فى انطباق المثل عليهم كل من حذا حذوهم وسار سيرتهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكفى بالقرآن حجة بالغة . وعظة ناطقة .

والمعنى : وجعل الله تعالى مثلا قرية كانت ذات أمن وسلامة من كل مَخُوف ، لا يهيج أهْلَها أحدٌ بإغارة أو اعتداء عليها ، وكانت (مُطْمَئِنَّةً) : ساكنة قارَّة ، لا يزعج أهلها مزعج ، ولا يرتحل عنها أحد بسبب جوع أو خوف . يسوق الله إليها أقواتها واسعة سهلة من كل بلد ، وتحمل إليها من كل مكان برًّا وبحرًا[(١)] .

(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) :

أى جحد أهل هذه القرية نِعم الله عليهم فقابلوها بالكفر بدل الشكر ، وبالمعصية بدل الطاعة فعاقبهم الله بعقاب من الجوع والخوف تمكن منهم ، وأحاط بهم إحاطة اللباس بلابسه ، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والمعاصى.

والتعبير عن سيئاتهم بقوله سبحانه :(بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ). للإيذان بأن كفران النعم صار صناعة لهم وخلقًا راسخًا فيهم .

(١) والتعبير عن هذه الصيغة بالفعل المضارع (يأتيها رزقها) لإفادة أن أرزاقها متجددة وأما كونها آمنة مطمئنة ، فهو ثابت مستمر ، فلذا عبر عنه بالاسم المفيد للدوام والاستمرار .

ومن تتمة المثل قوله تعالى :

١١٣ ـ (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) :

فقد جيء به لبيان أن ما صنعه أهل تلك القرية من الكفر بأنعمه سبحانه ، لم يكن امتهاناً للعقل وتحقيراً له فقط ، بل كان كذلك معارضة لرسولهم ، أى ولقد جاء أهل تلك القرية رسول من أنفسهم ، هم أدرى الناس بأصله ونسبه وخُلُقه ، يخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وينذرهم سوء عا قبتهم إن لم يقلعوا عن الكفر والمعصية ، ففاجأوه بالتكذيب من غير تروٍّ ولا تدبر ، ثم استمروا فى كفرهم وعنادهم إلى أن حلَّ بهم عذاب الله بالجوع والخوف وهم متلبسون بالظلم واغلون فيه .

وترتيب أخذ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى ، وهى أنه لايعذب من كفر به حتى يبعث إليهم رسولا يحذرهم عاقبة كفرهم ، ويرشدهم إلى آيات ربهم وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »(١) .

ولقد تم المثل بعذاب القرية الظالمة ، وظهر جَلِيًّا أن حال أهل مكة أشبه بحال تلك القرية ، فى السوء واستحقاق العذاب ، فقد كانوا فى حرم آمن ، ويُتَخَطَّف الناس من حولهم ولا يمر ببالهم طيف من الخوف والفزع ، وكانت تجبى إليهم فيه ثمرات كل شيء رزقًا من لدنه سبحانه ، استجابة لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام ، إذ قال : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ »(٢) .

ولقد جاءهم رسول من أنفسهم هو أعظم الناس خُلُقًا وأكرمهم معدنًا ونبلا ، نشأ بينهم زكيًّا نقيًّا حتى سموه الأمين ، قبل أن يرسله ربه رحمة للعالمين .

دعاهم رسول الله إلى الله ، وأنذرهم ، وحذرهم : ولكنهم آذوْهُ وكذبوه ، واستمروا فى تكذيبهم عنادًا وكبرًا ، حتى أخرجوه وأصحابه من ديارهم و أموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

هنالك انتقم الله منهم واستجاب دعاء نبيه فيهم إذ قال : « اللّهم أعنّى عليهم بسبع كسبع يوسف » : فأصابتهم سنة أكلوا فيها العظام والميتة ، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع والجهد(٣) .

---

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ١٥ (٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٦

(٣) اقتباس من حديث البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، فى تفسير سورة الدخان .

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

المفردات :

(وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) : أى وما ذكر اسم غير الله تعالى عليه ، وسُمِّى الذكر على الذبيحة إهلالًا لأنهم كانوا يرفعون به أصواتهم .

(غَيْرَ بَاغٍ) : أى غير ظالم لغيره .

(وَلَا عَادٍ) : ولا متجاوز ما يسد رمقه ويدفع جوعه .

التفسير

١١٤ – (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا . . .) الآية .

الظاهر أن الخطاب فى هذه الآية لمن ضرب لهم المثل من كفار مكة وأمثالهم كما قدمنا ، لأنه هو الذى يقتضيه النظم الكريم ، فهو مفرَّع على التمثيل السابق ، وصادٌّ لهم عما يؤدى إلى مثل عاقبته .

والمعنى : وإذ تبين لكم حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله ، وما حل بهم – بسبب ذلك من العذاب فانتهُوا عما أنتم عليه من الكفر والتكذيب ، والتحليل والتحريم بأهوائكم ، وكلوا مما رزقكم الله فى أرضه من الأنعام والحرث حال كونه حلالًا لا حرمة فيه ولا إثم ، طيبًا لا تعافه النفوس الكريمة .

(وَاشْكُرُوا نِعْمَة اللهِ) : بطاعته وطاعة رسوله .

والفاء فى المعنى داخلة على الأمر بالشكر ، وإنما أُدخلت على الأمر بالأكل ، لأن الأكل وسيلة إلى الشكر فكأنه قيل : فاشكروا نعمة الله عقب أكلها ، واعرفوا لها حقها ، ولاتقابلوها بالمعصية والكفران .

(إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) :

أى إن كنتم تعبدون الله كما تزعمون ، فأطيعوه فيما أمركم به، واجتنبوا ما نهاكم عنه ، ولا تحرموا ما أحل الله لكم ، ولا تفتروا على الله الكذب بتحريم البحائر والسوائب ونحوها .

وقيل إن الخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين ، وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وعليه اقتصر ابن كثير .

ومعنى الآية على أن الخطاب فيها للمؤمنين خاصة :

وإذ تبين لكم أيها المؤمنون حال من ضُرب لهم المثل من الكفار وما انتهوا إليه . فاسلكوا أنتم سبيل الشكر ، وكلوا مما رزقكم الله وجعله لكم حلالًا طيبًا ، ولا تحرموه على أنفسكم ، واشكروا نعم الله عليكم بطاعته وطاعة رسوله ، إن كنتم تخصون الله ربكم بالعبادة ، كما هو مقتضى إيمانكم به وحده .

ويجوز أن يكون الخطاب فى الآية الكريمة للناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم . فيشمل القولين السابقين ، وهو مناسب لقوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ »(١) .

ولعل هذا هو مراد شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى إذ قال : يقول تعالى ذكره : (فكلوا أيها الناس مما رزقكم الله من بهائم الأنعام التى أحلها لكم - كلوه - حلالًا طيبًا مُذكًّى بريئًا من الإثم ، واشكروا الله على نعمه التى أنعم بها عليكم ، من ذلك ومنْ غيره من النعم ، إن كنتم تعبدون الله وحده فأطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه) اهـ بتصرف يسير .

ولما أمرهم الله تبارك وتعالى أن يأكلوا مما أحل لهم من رزقه، ناسب أن يبين لهم ما حرم عليهم ليعلموا أن ما عداه حلال طيب ، وأن التحليل والتحريم بأمره سبحانه لا بأهوائهم فقال :

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦٨

١١٥ - (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ...) الآية .

أى ما حرم الله عليكم من المطعومات إلا هذه الأصناف الأربعة ، التى حرمها لمصلحتكم دينًا ودنيا :

أولها : (الْمَيْتَةَ) على أىِّ نحوٍ كان موتها ، وهى كل ما لم يُذكَّ ذكاة شرعية .

ويستثنى من الميتة السمك والجراد فقد أحلت ميتتهما ، لما أخرجه ابن ماجه والحاكم وغيرهما من حديث ابنْ عمر رضى الله عنهما مرفوعًا : (أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطُّحال) .

وثانيها : (الدَّم) والمراد به الدم المسفوح ، كما جاء صريحًا فى قوله تعالى : « قُل لَّا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا(١) » .

وإنما حرم الدم المسفوح : لأنه يحتوى على جراثيم الأمراض ، ويسرع إليه الفساد ، بخلاف المعقود وهو الكبد والطّحال ، ولذا يحل أكله إذا كان من حيوان مذكَّى .

وثالثها : (لَحْمُ الْخِنْزِيرِ) فإنه قذر ، وأشهى الغذاء إليه القاذورات والنجاسات ، وهو ضار فى جميع الأقاليم ولا سيما الحارة منها . وأكل لحمه من أسباب الدّودة الشريطية الفتاكة : ومثل لحمه شحمُه وغضاريفه فإن جميع أجزائه قذر نجس ولو ذبح .

ورابع هذه المحرمات : (مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) أى ما ذكر اسم غير الله تعالى عليه .

حرمت الثلاثة الأولى لخبث ذاتها ، وحرم ما ذكر اسم غير الله تعالى عليه لخبثه معنًى ، فقد ذكر عليه عند ذبحه اسم غير خالقه المنعم به .

والمراد بغير الله تعالى : ما يشمل الأصنام وغيرها من المعبودات .

وذهب جماعة من التابعين وأهل العلم ، إلى أن المراد بما أهل لغير الله به : ما ذبح للأصنام ، لا ما ذكر عليه اسم المسيح أو عُزَير ، لقوله تعالى فى سورة المائدة - وهى من آخر السور نزولًا - : « وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ » . فالمراد بطعام الذين أوتوا الكتاب : ذبائحهم ، كما روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أمَّا مطلق الطعام كالخبز والفاكهة فإنه يحل من أىِّ كافر كان بالإجماع . قال الآلوسى فى تفسيرها :

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٤٥ . والدم المسفوح هو المصبوب السائل من الحيوان .

واختلف العلماء فى حل ذبيحة اليهودى والنصرانى إذا ذكر عليها اسم عزير والمسيح ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : لا تحل ، وهو قول ربيعة ؛ وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تحل ، وهو قول الشعبي وعطاء ، قالا : فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو أعلم بما يقولون ؛ وقال الحسن : إذا ذبح اليهودى والنصرانى فذكر اسم غير الله تعالى وأنت تسمع فلا تأكل ، فإذا غاب عنك فكل ، فقد أحل الله تعالى لك . اهـ .

وإلى هذا الرأى نذهب ، فلا نرى أكل ما علمنا أن اسم غير الله ذكر عليه عند ذبحه ، ولو كان الذابح كتابيًّا ، وهذه المحرمات الأربع المحصورة فى هذه الآية هى نفسها المحصورة فى آية البقرة وفى آية الأنعام . وأما ما زاد على هذه الأربع فى قوله تعالى: « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ . . . » الآية[1] فإنه مندرج فيها فالمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع — داخلة فى الميتة ، وما ذبح على النصب داخل فيما أهل لغير الله به .

وبهذا تبين أنه تعالى حصر المحرمات — فى الأصناف الأربعة — فى هذه السور الأربع : فى العهد النبوى الكريم مكيِّة ومدنية ؛ فإن سورتى الأنعام والنحل مكيتان ، وسورتى البقرة والمائدة مدنيتان ، والمائدة من آخر ما نزل . وفى إعادة البيان قطع للأعذار ، وإزالة للشُّبه .

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى فمن دعته الضرورة الملحة إلى تناول شىء من هذه المحرمات ، غير ظالم لمضطر آخر ، ولا متجاوز قدر الضرورة وسد الرمق[2] . فإن الله واسع الغفران ، شامل الرحمة ، فلهذا يرفع عنه الإثم لاضطراره ويرحمه ولا يعاقبه — وقد صرحت آية البقرة برفع الإثم فى مثل هذه الحالة ، وذلك فى قوله تعالى : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ، وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »[3] .

هذا ، واستُدل بالآية الكريمة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، على اعتبار أن الآية خطاب لجميع المكلفين : مسلمين وكافرين .

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٣
(٢) أجاز مالك للمضطر إلى أكل الميتة أن يشبع منها ولا يقتصر على مايسد به رمقه .
(٣) سورة البقرة من الآية : ١٧٣

(وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾)

المفردات :

(لَا يُفْلِحُونَ) : أى لا يفوزون بمحبوب ، ولا ينجون من مكروه .

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ) : أى انتفاع قليل لا يدوم .

التفسير

١١٦ - (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ . . .) الآية .

لما حصر الله تبارك وتعالى المحرمات فى الأصناف الأربعة التى ذكرت فى الآيات السابقة جاء بهذه الآية لتأكيد ذلك الحصر بالنهى عن التحريم والتحليل بالأهواء .

والمعنى : ولا تقولوا فى شأن الذى تصفه ألسنتكم من البهائم - لا تقولوا الكذب فى شأن حل أكلها وحرمته ، كقولكم - فيما حكاه الله عنكم - : « مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ »(١) : وغير ذلك من أقاويلكم الباطلة التى لا دليل لكم عليها فى وحى الله وشرعه . ولكنها ناشئة عن الهوى والكذب على الله عز وجل .

أو المعنى : ولا تقولوا فى شأن البهائم هذا حلال وهذا حرام عند الله ، لكى تصف ألسنتكم الكذب بذلك القول ، فإنه دعوى من غير حجة ولا بينة ، فإذا حكته ألسنتكم فقد صورت الكذب بصورته وأوضحته على حقيقته .

وقوله تعالى : (لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) : معناه أن قولكم : هذا حلال وهذا حرام ، بدون حق ، عاقبته أنكم تفترون على الله الكذب ، وتقولون عليه ما لم يقل ، وتلك كبيرة الكبائر .

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٣٩

وخلاصة المعنى : لا تقولوا فى شأن الذبائح والأطعمة برأيكم تحلون وتحرمون دون علم أو وحي ، فإن قولكم هذا هو الكذب ؛ إذ لا سند له ولا دليل عليه .

ثم توعد المفترين على الله الكذب عامة فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) : أى لا يفوزون بخير فى الدنيا ولا فى الآخرة ، اللهم إلا بانتفاع قليل زائل فى هذه الدنيا الفانية ، كما قال تعالى :

١١٧ - (مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى متاعهم فى هذه الدنيا بنعيمها وزخرفها متاع ضئيل زائل لا يعتد به ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد الإيلام ، كما قال سبحانه : « قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . متاعٌ فِى الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُون »(١) .

ويدخل فى هذا الوعيد الشديد كل من أحل ما حرم الله ، أو حرم ما أحل الله ، بمجرد رأيه وهواه . ومن هنا كره كثير من السلف - ومنهم مالك - أن يقول المفتى : هذا حلال وهذا حرام فى المسائل الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله تعالى عليه ، أو رسوله صلى الله عليه وسلم . ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا وكذا ، أو نحو ذلك ، فهو أبعد من أن يكون فيه توهم الافتراء على الله عز وجل .

قال ابن كثير : ويدخل فى هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعى . ا هـ .

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ » رواه الشيخان ، وفى رواية لمسلم : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ » أى فإثْمُهُ عليه . وعمله مردود عليه .

ثم يبين الله تعالى ما حرمه على اليهود دون غيرهم فقال سبحانه :

---

(١) سورة يونس : الآيتان : ٦٩ ، ٧٠

(وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾)

المفردات :

(هَادُوا) : أى اعتنقوا اليهودية ودانوا بها .

التفسير

١١٨ - (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قبلُ . . .) الآية .

والمعنى : وعلى أمة اليهود خاصة دون سائر الأمم . حرمنا ما قصصناه عليك أيها الرسول ، من قبل نزول هذه الآية ؛ وذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهَا أَوِ الْحَوَايَا أَو مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وإِنَّا لَصَادِقُون »[1] . وقوله تعالى فى سورة النساء : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا »[2] .

دلت الآيتان فى سورتى الأنعام والنساء كما نبهت إليها هذه الآية من سورة النحل ، على أن هذا التحريم إنما كان بسبب ظلمهم وعصيانهم . وكانوا يقولون : لسنا أول من حُرِّمت عليهم هذه الطيبات . وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومنْ بعْدهما حتى انتهى الأمر إلينا . فكذَّبهم الله تعالى .

وقد نفى سبحانه ظلمه إياهم ؛ لأنه هو الحكمْ العدل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، وصدق الله إذ يقول :

(ومَا ظَلَمْنَاهُمْ) : بتلك التحريم الذى كانوا هم السبب فيه .

(ولَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : حيث جنوا عليها بالكفر والمعاصى ، فعوقبوا دون سواهم بالحرمان من الطيبات بسبب ظلمهم لأنفسهم .

وفى الآية تنبيه على أن التحريم كما يكون دفعًا للمضرة ، يكون للعقوبة .

---

(١) الآية : ١٤٦ (٢) الآية : ١٦٠

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾)

المفردات :

(السُّوء) : لفظ جامع لكل قبيح ؛ من كفر ومعصية وإيذاء ويشمل الافتراء على الله عز وجل .

(بِجَهَالَةٍ) : أى بِسُوء معرفة بالله تعالى وشديد عقابه ؛ أو بطيش وغفلة وسفه .

التفسير

١١٩ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ...) .

لما هدد الله تعالى المشركين بالعقوبة على قبائحهم من ضروب الكفر والمعصية ، بين فى هذه الآية أن قبائحهم - وإن عظمت وطال أمدها - لاتحول دون قبول التوبة منهم والفوز بمغفرته ورحمته سبحانه إذا رجعوا إليه وأنابوا وأصلحوا .

والمعنى : ثم إن ربك يامحمد للذين عملوا القبائح بجهالة وسوء معرفة بالله تعالى وشديد عقابه ؛ أو غير متدبرين فى العواقب ، لغلبة الشهوة والغفلة عليهم ؛ ثم أقلعوا عن سوء ما عملوه تائبين نادمين ، وأصلحوا أعمالهم واستقاموا على التوبة .

(إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى إن ربك يامحمد من بعد التوبة عن عمل السوء مع الإقبال على الصلاح - إن ربك من بعد ذلك لعظيم المغفرة للتائبين المصلحين ، وواسع الرحمة بهم ، يثيبهم على الطاعة فعلا وتركًا ، فضلا منه وإحسانًا .

وتكرير قوله : « إِنَّ رَبَّكَ » لزيادة تأكيد الوعد ، وإظهار كمال العناية بإنجازه ، وللترغيب فى التوبة النصوح الصادقة ، فهى التى يتقبلها الله عن عباده ، وفى إضافة لفظ

(رب) إلى ضميره صلى الله عليه وسلم إشارة كريمة إلى كمال اللطف به صلى الله عليه وسلم ، ثم بالتائبين الصادقين . حيث تشير إلى أنه تعالى أكرمهم بسببه ، لأنهم من أتباعه .

(إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾)

المفردات :

(كَانَ أُمَّةً) : الأمة ؛ الجماعة الكثيرة ، والمراد أنه كان بمنزلة أُمَّة فى الإيمان بالله وعبادته حيث كان رائد التوحيد فى أمة مشركة ولم تلن له قناة .

(قَانِتًا لِلهِ) : أى مطيعًا خاضعًا لله سبحانه وتعالى ، من القنوت وهو الطاعة مع الخضوع ،

(حَنِيفًا) : أى مائلا عن الباطل إلى الحق ، من الحَنَفِ وهو الميل .

(اجْتَبَاهُ) : أى اختاره واصطفاه .

التفسير

١٢٠ - (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

لما أبطل الله تعالى فى هذه السورة مذاهب المشركين : من ادعائهم الأنداد والشركاء له سبحانه وتعالى ، وطعنهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وافترائهم الكذب على الله فى

التحليل والتحريم ، مع قولهم نحن على ملة أبينا إبراهيم ، جاءت هذه الآية للثناء على إبراهيم ووصفه بصفات تدل دلالة قاطعة على أنه عليه السلام ، برىء من الشرك والمشركين و أنهم أعق الأبناء لأكرم الآباء .

والمعنى : إن إبراهيم كان أمة أى بمنزلة جماعة عظيمة فى الإيمان بالله وحده والإخلاص له فى العبادة . قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان عنده من الخير ماكان عند أمة . ا هـ : وذلك لاستجماعه من الخيرات والفضائل مالا يكاد يوجد إلا متفرقًا فى أمة عظيمة .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

فهو إمام الموحدين . وقدوة أهل اليقين ، نصب أدلة التوحيد ورفع أعلامه ، وخفض رايات الشرك وحطَّمْ أصنامه ، وبذل نفسه وأسلم وجهه لله رب العالمين . وقال مجاهد : سمِّى عليه السلام أمة ، لانفراده بالإيمان فى وقته مدةً ما . وفى صحيح البخارى ومسلم أنه قال لامرأته : ياسارَّة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك...

(قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَم يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى مطيعًا لله سبحانه ، مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق غير زائل عنه . (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فى أمر من أمور دينهم ، صرح بذلك مع ظهوره للرد على كفار قريش فى قولهم : نحن على ملة أبينا إبراهيم ؛ وزعمهم أنه عليه السلام كان على ما هم عليه .

١٢١ ـ (شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ..) :

أى كان إبراهيم عليه السلام شاكرًا لنعم ربه كلها عليه ، لم يخلَّ بشكر نعمة منها قولا أو عملا . وفى هذا تعريض بالمشركين ، وإيذان بأنهم فى شركهم بالله وإسنادهم النعم لشركائهم ليسوا على منهاج أبيهم إبراهيم عليه السلام .

(اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى اختاره ربه واصطفاه ، وهداه إلى الطريق الموصل إليه سبحانه وهو الإسلام : دين الله الذى أرسل به جميع رسله قال تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ »[1] . وقال سبحانه : « شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَاوَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »[2]

وإجتباء الله للعبد : تخصيصه إياه بفيض إلٰهى يحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى ولا اجتهاد ، ويكون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام خاصة ، وقيل يكون لهم ولمن على سنتهم من الصديقين .

وهداية الله لإبراهيم عليه السلام ، كان لها أثران عظيمان : أحدهما فى نفسه ، والثانى فى قومه ، حيث دعاهم إلى دين الله وأرشدهم إلى آيات ربه .

١٢٢ ـ (وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً . .) الآية .

أى أعطيناه فى الدنيا نعمة حسنة إذ جعلناه قدوة لجميع أهل الأديان السماوية ، وأورثناه ثناءهم عليه وحب الانتساب إليه ، تحقيقًا لدعائه عليه السلام إذ قال : « وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ »[3] . وللعلماء أقوال فى تفسير الحسنة التى أعطاها الله خليله إبراهيم فى الدنيا فعن الحسن ـ أنها النبوة وقيل هى الأولاد الأبرار على الكبر ، والمال الكثير ينفقه فى وجوه الخير والبر ؛ والعمر الطويل فى السعة والطاعة ؛ وقد من الله عليه بكل ذلك فى الدنيا .

والانتقال إلى ضمير المتكلم فى قوله سبحانه : (وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً) . لإظهار الاعتناء بشأنه ، وتفخيم مكانه عليه السلام .

(وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) :

أى داخل فى عداد إخوانه المرسلين ، الكاملين فى الصلاح ، ذوى الدرجات العلا ، تحقيقًا لدعوته إذ قال : « رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ »[4] .

---

(١) آل عمران ، من الآية : ١٩
(٢) الشورى ، من الآية : ١٣
(٣) الشعراء ، الآية : ٨٤
(٤) الشعراء ، الآية : ٨٣

ولما أثنى الله على خليله هذا الثناء العظيم ، قال لخاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم :

١٢٣ - (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

وملة إبراهيم عليه السلام ، هى الإسلام المعبر عنه آنفًا بالصراط المستقيم ، والمقصود بها : العقائد وأصول شريعته ، فمحمد صلى الله عليه وسلم مأمور باتباعها دون فروعها فإنها خاصة بأمة إبراهيم عليه السلام ، وكل رسالة تشترك مع غيرها فى العقائد والأصول العامة ، وتختص بفروع من الشريعة تناسب عصرها واستعدادها . وذلك هو المقصود بقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » (١) .

وقوله تعالى : (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) تكرير لما سبق من قوله : « وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » لزيادة التوكيد والتقرير . ولتنزيه عليه السلام عما كانوا عليه من عقائد الشرك والضلال المبين .

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾)

المفردات :

(جُعِلَ السَّبْتُ) : المراد ؛ فرض تعظيم يوم السبت وتقديسه .

التفسير

١٢٤ - (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ . . .) الآية .

كان اليهود يزعمون أن تعظيم يوم السبت والتخلى للعبادة فيه من شعائر ملة إبراهيم عليه السلام ، وأنه كان من المحافظين عليه - فكذبهم الله تعالى ، وبين أنه لم يشرع ذلك

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٤٨

التعظيم إلا لبنى إسرائيل فى رسالة موسى ، بعد إبراهيم عليهما السلام بمدة طويلة كما — سيأتى بيانه .

والمعنى : ما فرض الله تعالى تقديس يوم السبت بالتخلى للعبادة فيه ، إلا على الذين اختلفوا فى تقديسه على نبيهم ، حيث أمرهم بتعظيم الجمعة فاختاروا السبت ، وهم اليهود ، أخرج الشافعى فى الأم ، والشيخان فى الصحيحين — واللفظ للبخارى — عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا (١) ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع : اليهود غداً والنصارى بعد غد » .

وقيل إن موسى عليه السلام لما جاءهم بتعظيم الجمعة اختلفوا فيما بينهم ، فأبى أكثرهم إلا السبت ، وقالوا إنه اليوم الذى فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض ، ورضيت شرذمة منهم بالجمعة ، فأذن الله تعالى لهم بالسبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه ؛ وهكذا شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

وقد أطاع فريق منهم فكانوا لا يصيدون يوم السبت ، وعصى أكثرهم فكانوا يصيدون فيه ، فأبغضهم الله ولعنهم ، وجعلهم فى خِسة القردة ، قال تعالى : « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » (٢) . وقال سبحانه : « فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » (٣)

---

(١) فى إحدى روايات الشيخين زيادة (وأوتيناه من بعدهم) والحديث رواه النسائى أيضا .

(٢) البقرة ، الآية : ٦٥ .

(٣) الأعراف ، الآية : ١٦٦ وقد قدمنا فى بيان المراد من قوله تعالى « كونوا قردة خاسئين » أنه إما على الحقيقة وأن الله تعالى حولهم قردة وإما أنه مجاز عن مسخ قلوبهم وصرفها عن الخير . راجع الوسيط فى تفسير الآية ٦٥ من سورة البقرة ، ط ثانية .

ثم جاء عيسى عليه السلام بتعظيم الجمعة كذلك ، فاختلف عليه النصارى ، وأبوا إلا الأحد ، وكأنهم إنما اختاروه لأنه مبدأ الخلق عندهم .

ثم جاء بتعظيم يوم الجمعة خاتم النبيين – صلوات الله وسلامه عليهم – لخير أمة أخرجت للناس ، فهداهم الله له . ففازوا بفضيلته ، وحماهم الله تبارك وتعالى من الاختلاف فيه ، ولله سبحانه الحمد والمنّة .

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح للخطاب ؛ أى وإن ربك سيقضى يوم الجزاء الحق بين المختلفين على نبيهم ، أو المختلفين فيما بينهم ، فيجازى كُلًّا بما يستحقه من الثواب والعقاب .

(ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾)

المفردات :

(سَبِيلِ رَبِّكَ) : أى طريق ربك الموصل إلى مرضاته ، وهو الإسلام .

(بِالْحِكْمَةِ) : أى بالمقالة الحكيمة وهى الحجة الموصلة لليقين .

(الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) : أى النصيحة الجميلة المشتملة على الترغيب فى الحق والترهيب من الباطل .

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) : أى وراجعهم بالطريقة التى هى أحسن فى إظهار الحق .

التفسير

١٢٥ - (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ...) :

بعد أن أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم حنيفًا - بين له فى هذه الآية طريق الدعوة إليها .

والمعنى : ادع أيها الرسول جميع المكلفين الذين بعثت إليهم . ادعهم إلى الإسلام بالحجج المزيلة للشبهة ، الموصلة إلى اليقين ، وبالنصائح الجميلة المرغبة فى الحق والخير ، المنفرة من الباطل والشر ، ومن جادلك منهم فجادلهم بأحسن طرق المراجعة والمجادلة ، أى باللين والرفق ، كما راجع إبراهيم أباه وقومه ، وكما حاجّ الطاغية الذى آتاه الله الملك [١] .

وإنما لم يقل : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن لأن الجدال ليس طريقًا أصيلًا فى الدعوة إلى الله عز وجل ، وإنما يكون عند المراجعة والمحاورة بقصد إظهار الحق والرجوع إليه والطمأنينة به ، لا لقصد إفحام الخصم وغلبته ، كما يتبع ذلك بين أهل الجدل والخصومة .

ذلك بأن منهج القرآن الحكيم فى دعوته وهدايته ، قائم على الحجج القاطعة ، والنصائح الرشيدة الهادية ، فى كل مادعا إليه ، وماجاء به .. من وحدانيته تعالى وقدرته ، وبعثه الناس ليوم لاريب فيه « يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّاعَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » [٢] .

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة رقم ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٢) سورة النحل الآية ١١١ .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) :

هذا إعلام من الله تبارك وتعالى ، بأن ليس على الرسول إلا البلاغ بالطريقة التى بيَّنها له ، فأما ماوراء ذلك من حصول الهدى والضلال ، والجزاء عليهما ، فإلى الله تعالى وحده ، فإنه هو العليم بمن يبقى على الضلال ، وهو العليم بمن يهتدى إلى ربه ، فيجازى كلا بما يستحقه ، طبقاً لما اختاره لنفسه .

وتقديم الضالين فى قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ) لأن الكلام فيهم . وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث ، لأن الضلال تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها ، وذلك أمر عارض ، بخلاف الاهتداء فإنه ثبات على الفطرة ، فلذا جىء به على صيغة الاسم المنبىء عن الثبات ، ولا يخفى مافى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم ، من اللطف والعناية .

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾)

التفسير

١٢٦ - (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ..) الآية .

سبب النزول :

عن أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه قال : لما كان يوم أُحد أُصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة رضى الله عنه ، فمثلوا بهم . فقالت

الأنصار : لئِنْ أصبنا منهم يوما مثل هذا لنرْبِيَنَّ عليهم فى التمثيل ، فلما كان يوم الفتح نزل : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُمْ بِهِ) الآية . فقال رجل .. لاقريش بعد اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كفوا عن القوم إلا أربعة .. أخرجه الترمذى .

وفى رواية عن أُبَيّ أيضا .. « ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . نصبر ولا نعاقب » والآية – بناءً على هذا السبب نزلت .. فى فتح مكة ، وتسمى مدنية على الأرجح وهو أن كل مانزل بعد الهجرة فهو مدنى وإن نزل بمكة وقال القرطبى : وتبعه الألوسى : أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية لما شق على المسلمين مارأوا من تمثيل المشركين بقتلاهم ، فى غزوة أحد فتوعدوهم بأزيد مما فعلوا ، إذا ظفروا بهم!! وقال النحاس : إنها مكية ، والمعنى متصل بما قبلها من المكى اتصالاً حسنا ، ثم قال القرطبى : ولكن ما قاله الجمهور من أنها مدنية أثبت ، وساق حديثا رواه الدارقطنى عن ابن عباس مؤيدا لما ذهب إليه الجمهور من مدنيتها .

وسواء أكانت هذه الآية الكريمة مكية أم مدنية ، وسواء أصح نزولها فى شأن التمثيل بحمزة أم لم يصح ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . .

ووجه اتصال هذه الآية بقوله تعالى قبلها : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ » الآية . أن الدعوة إلى الله سبحانه لاتكاد تخلو من مخاصمة الأعداء . . ومقابلتهم لها بالعداوة والإيذاء ، لأنها تتضمن رفض عقائدهم الباطلة الموروثة ، ونبذ عاداتهم السيئة الموروثة ، ولما كان هذا شديدا عليهم وباعثًا لهم على الخصومة الشديدة ، فلهذا أمر الله تعالى نبيه وأصحابه أن يقابلوا إساءتهم بمثلها إن أرادوا عقابهم عليها – والمعنى : وإن أردتم أيها المؤمنون عقاب من يصدكم عن دين الله ، ويعتدى عليكم وأنتم تدعونه إلى سبيل الله ، فعاقبوه بمثل ما فعل بكم ، وما ناله منكم ، ولاتجاوزوا هذا المثل بحال ، كما قال سبحانه : «وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَاتَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »[1] وليس مافعله العدو أولاً

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩٠

عقابا ولكن العقاب هو الثانى، لأنه هو الذى يرد به المسلمون عدوان العدو ، عقابًا له ودفاعا عن دينهم وأنفسهم، وإنما سمى اعتداء العدو عقابا من باب مماثلة الكلام ومشاكلته . .[1] كما سمى جزاء الاعتداء اعتداء فى قوله تعالى: «فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ»[2] وكما سمى جزاء السيئة سيئة فى قوله سبحانه : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا[3] » .

ولم يقتصر العدل الإلهى على طلب المماثلة فى العقوبة ، وعدم التجاوز فيها . بل حث على العفو والصبر ؛ فقال سبحانه :

(وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ) :

أى ولئن صبرتم أيها الداعون إلى الله تعالى . لصبركم هذا هو خير لكم فى دنياكم وآخرتكم من الانتصار بالمعاقبة، فإن الصبر والعفو وكظم الغيظ من أمهات الفضائل التى يسمو بها العبد ، ويرفعه الله بها درجات ، ويرد بها عدوه الألد وليًّا حميما وصديقا مصافيا . . وإنما يحمل العفو عند القدرة ، وحيث تدعو إليه المصلحة فى عزة الإسلام وسماحته ، ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر أمرا صريحا بعد ما ندب إليه من قبل تعريضا فقال جل ثناؤه :

١٢٧ - (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ . . .) الآية .

لأنه عليه الصلاة والسلام أولى الناس بعزائم الأمور ، لمزيد علمه بشئون ربه ، ووثوقه به أى اصبر أيها الرسول على ما أصابك من قومك ، من إعراضهم عن دعوتك ، وإيذائهم لك . . وما صبرك إلا بمعونته تعالى وتأييده وتوفيقه وتثبيته .

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) : أى ولا تحزن على الكافرين وكفرهم بك وعدم متابعتهم لك ، كما قال تعالى : « فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ »[4] .

---

(١) المشاكلة التعبير عن الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته وهى فن من فنون البديع .

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٩٤

(٣) سورة الشورى ، من الآية : ٤٠

(٤) سورة المائدة ، من الآية : ٦٨

(وَلَاتَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) : أى ولا تكن فى حرج وضيق صدر من مكر الكفار بك ، فإن الله كافيك وحافظك منهم ، ومظفرك بهم ، وفى هذا تأكيد لتسليته صلى الله عليه وسلم ، ولأمر الله له بالصبر ، ثم ختم الله سبحانه هذه السورة الكريمة بتلك البشارة العظيمة ؛ بمعيته للمتقين المحسنين - والنبى إمامهم ، فقال عز من قائل :

١٢٨ - (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) :

والمعنى أن الله جلت آلاؤه ، مع الذين جمعوا بين فضيلتى التقوى والإحسان ، واستمروا عليهما . . والمقصود من معيَّته تعالى هنا أنه سبحانه يعينهم ويحفظهم من مكر الأعداء بهم ، وينصرهم عليهم ، فهى معية رعاية وحفظ . كالتى يشير إليها قوله تعالى لموسى وهارون وقد أرسلهما إلى فرعون : «لَاتَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ »[١] .والتى يشير إليها قول النبى صلى الله عليه وسلم للصديق وهما فى الغار ، كما حكى الله : «لَاتَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »[٢] . ولاريب أن هذه المعية الخاصة أعلى وأجل من المعية العامة التى فى مثل قوله تعالى : «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »[٣] .فإنها معية العلم والرقابة والمحاسبة ،وتلك معية العناية والرعاية والمحبة . وشتان مابينهما - ذلك وقد اشتملت خواتيم هذه السورة على تعليم حسن الأدب فى الدعوة وترك التعدى ، والأمر بالصبر على المكروه . وعظيم البشارة للمتقين المحسنين . وقد روى ابن جرير . . وغيره أن هرم بن حبان[٤] . قيل له عند الاحتضار أوصِ . فقال : إنما الوصية من المال ولا مال لى : وأوصيكم بخواتيم سورة النحل .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٤٦

(٢) سورة التوبة ، من الآية : ٤٠

(٣) سورة الحديد ، من الآية : ٤

(٤) قائد فاتح من كبار الزهاد التابعين ولى بعض الحروب فى أيام عمر وعثمان رضى الله عنهما ومات فى إحدى غزواته .

سورة الإسراء

هذه السورة مكية بتمامها عند الجمهور ، واستثنى بعضهم أربع آيات فإنها مدنية وهى قوله تعالى : « وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ». وقوله : « وإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ » ، وقوله : « وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ». وقوله : « وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ » وقيل غير ذلك ، وسيأتى تحقيقها فى مواضعها ، وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقرؤها وسورة الزمر كل ليلة ، كما أخرجه الإمام أحمد والترمذى وحسنه والنّسائى وغيرهم عن عائشة رضى الله عنها ، وكما تسمى سورة الإسراء تسمى سورة بنى إسرائيل ، لكثرة ما ذكر فيها من الحديث عنهم .

صلتها بما قبلها

قال الجلال السيوطى : لما قال الله سبحانه فى آخر النحل : « إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ » ذكر فى هذه شريعة أهل السبت التى شرعها لهم سبحانه فى التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن التَّوراة كُلها فى خَمْسَ عشرةَ آية من سُورة بنى إسرائيل ، وذكر تعالى فيها عصيانهم وإفسادهم وتخريب مسجدهم ، واستفزازهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وإرادتهم إخراجه من المدينة ، وسؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختمها جل شأْنه بآيات موسى التسع ، وخطابه مع فرعون وأخبر سبحانه أن فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض فَأُهْلِك . . . الخ .

مقاصد السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على مقاصد كثيرة نذكر منها ما يلى :

١ - إسراء الله بالنبى صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليطلعه على بعض آياته العظيمة .

٢ - وإيتاء بنى إسرائيل التوراة ليعبدوا الله وحده ويهتدوا بهداه ، ولكنهم ضلوا وأفسدوا فى الأرض مرتين إفسادا شنيعاً ، فبعث الله من عباده الأقوياء أهل الشدة والغلبة

من عاقبوهم أشد العقاب ، فقد جاسوا خلال ديارهم وقتلوا كثيراً من رجالهم وأسروا نساءهم وذراريهم ، وحطموا هيكلهم ، وقد أنذرهم الله إن عادوا إلى الإفساد فى الأرض أن يعود إلى عقابهم .

٣ - وبيان أن القرآن يهدى إلى الشريعة الأقوم ويبشر المؤمنين الصالحين وينذر الكافرين الطالحين .

٤ - وأنه تعالى جعل الليل والنهار آيتين ، وجعل من أثرهما أن نبتغى من فضله ، ونعلم عدد السنين والحساب وألزم كل مكلف بعمله ، وسجله فى كتاب ليقرأه ، يوم القيامة ويعرف منه مصيره .

٥ - وأنه تعالى لا يهلك قرية إلا بعد أن يرسل إليها رسوله ويدعو مترفيها إلى الحق ويأمرهم بترك الفساد ، ويستمروا على ماهم فيه فيحق عليهم قضاؤه ، - فيدمرها عليهم وعلى أتباعهم .

٦ - وأن من أراد العاجلة أعطاه الله ما قدره له منها ، وليس له فى جنة الآخرة من نصيب ، بل يعاقب على كفره بالنار يصلاها مذموما مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وعمل لها وهو مؤمن ، شكر الله سعيه ومتعه بالجنة دار السلام .

٧ - ووصيته تعالى لعباده أن لايشركوا به شيئاً ، وأن يحسنوا إلى والديهم وبخاصة فى حالة الشيخوخة ، ونهيه الآباء عن قتل الأولاد خشية الفقر فإنه يرزقهم وإياهم ، ونهيه الناس عن الزنى وقتل النفس بغير حق ، وإعطاء ولى القتيل سلطان المطالبة بقتل غريمه ، فلا يتعداه إلى سواه ، ونهيه الأولياء والأوصياء أن يقربوا مال اليتيم بغير حق ، وأمره الناس بالوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والميزان المستقيم ، ونهيه عن أن يقول الإنسان مالايعلم وأن يمشى فى الأرض مرحاً وكبرا ، فإنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا ، فلا وجه لكبريائه على الناس مهما أوتى من النعم ، فإنها إلى زوال .

٨ - كما أنكرت على من يزعم أن الملائكة بنات الله ، ووصفت هذا الزعم بأنه عظيم الخطورة على قائله .

٩ – وبينت أنه لو كان معه آلهة كما يقولون لطلبوا سبيلا إلى صاحب العرش لينازعوه فى ملكه كما يفعل الشركاء ، وبذلك تفسد السموات والأرض ، ولكنها لم تفسد فانتفى بذلك وجود شركاء له تعالى ، وثبت أنه هو الذى تسبح له السموات والأرض دون سواه .

١٠ – كما بينت أن النبى صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن على من يجحدون الآخرة لم يفقهوه ، وولوا على أدبارهم نفورا لكفرهم وإعراضهم ، ووصفوه بأنه رجل مسحور ، وأنكروا أن تبعث العظام والرفات ، مع أنهم لو تحولوا وصاروا حجارة أو حديدا أو غير ذلك ، فإنه تعالى يعيدهم كما فطرهم أول مرة .

١١ – وتضمنت أنه تعالى فضل بعض النبيين على بعض ، ومن أمارات هذا التفضيل أن يكون لهم كتب خاصة بهم ، كداود عليه السلام ، حيث آتاه الله زبورا .

١٢ – وبينت أن شركاء المشركين لايملكون كشف الضر عنهم إذا دعوهم ، وأن المعبودات العاقلة التى يعبدونها لا تقرهم على عبادتهم لها ، لأنها تتبارى فى طلب الوسائل أيها أقرب فى الوصول إلى رضا الله تعالى ، ويرجون رحمته ويخشون عذابه ، كما هو الشأن فى الملائكة التى يعبدونها ومن على نهجهم من البشر .

١٣ – وتضمنت أنه تعالى لم يحقق لهم ما طلبوه من الآيات الكونية حتى لايهلكهم بالكفر بها ، كما أهلك أمثالهم ممن كذبوا رسله قبلهم .

١٤ – وأنه تعالى أمر ملائكته بالسجود لآدم ، وأن إبليس تكبر على أن يسجد له وقد خلق من طين ، وأن إبليس توعد ذريته بإغوائهم إلا قليلا منهم ، وهم المؤمنون الصالحون الذين قال الله فيهم : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً » .

١٥ – وأنه تعالى كرم بنى آدم ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير من خلقه ، ولذا كلفهم بعبادته ، وأنه سيدعو كل أمة بإمامها يوم القيامة ، وإمام كل أمة كتابها ، فيقال يأهل القرآن يأهل التوراة ماذا فعلتم بكتابكم ؟ أو إمامهم نبيهم ، ويعطى كل واحد منهم كتابه فيعرف منه مصيره .

١٦ - كما اشتملت على تكليف النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه بأن يقيموا الصلاة لدلوك الشمس أى زوالها عن وسط السماء إلى سواد الليل، ووقت قراءة الفجر، يشير بذلك إلى إجمال مواقيت الصلوات الخمس، وتكليفه صلى الله عليه وسلم خاصة بقيام الليل والتهجد على سبيل الوجوب، رجاء أن يبعثه الله المقام المحمود يوم القيامة، وهو مقام الشفاعة العظمى.

١٧ - وبينت أن الروح من أمر الله، وأن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلا لا يؤهلهم لمعرفة حقيقتها، وأن القرآن معجز للإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

١٨ - وأنه لم يمنع الناس أن يؤمنوا حين جاءهم الهدى على لسان أنبيائهم إلا زعمهم أن الله لا يبعث من البشر رسولا، وأن الله رد عليهم بأنه لو كان إرسال الملائكة للبشر يجعل الملائكة يمشون على الأرض مطمئنين ولا يطيرون، بل يبقون بينهم كشأن البشر لنزلَ عليهم من السماء ملكاً رسولا، ولكن الملائكة خلقت لتطير فى ملك الله، ولو حولوا إلى مثل البشر لاشتبه أمرهم عليهم، فزعموا أنهم بشرٌ وليسوا ملائكة ولو بقوا على خلقتهم لصعق البشر من لقائهم.

١٩ - وتضمنت إيتاء موسى تسع آيات بينات، وزعم فرعون أنه مسحور، وكفره بما جاء به من البينات، وإغراقه وجنوده جزاء كفرهم وعنادهم.

٢٠ - وختمت السورة بأمره صلى الله عليه وسلم وأمر أمته تبعاً له، بالحمد لله الذى لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك فى الملك ولا ولى من الذل، وأن يكبره تكبيرا.

بسم الله الرحمن الرحيم

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١))

المفردات :

(سُبْحَانَ) : هو علم للتسبيح عند الزمخشرى ، والتسبيح التنزيه ، ولا يجوز استعماله شرعاً إلا فى الله تعالى [١].

(أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ) : الإسراء سير الليل كالسُّرى ، تقول : أسريتُ وسريتُ إذا سرتَ ليلا ، وأسريتُ به سرتُ به ليلاً ، والمراد بالعبد هنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) : هو مسجد مكة المشتمل على الكعبة .

(الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) : مسجد بيت المقدس ، ووصف بالأقصى لأنه أقصى أى أبعد مسجد يعظم بالزيارة بالنسبة لأهل المسجد الحرام .

(بَارَكْنَا حَوْلَهُ) : البركة : الخير والنماء والسعادة ، ومباركة الله حول المسجد الأقصى حسية بجعل الأرض حوله دائمة الثمار والخيرات ، ومعنوية بدفن الأنبياء والصالحين فيها .

البيـــان

١ - كانت رحلة الإسراء العظيمة فى أُخريات العهد المكى بعد أن قاسى النبى صلى الله عليه وسلم من قريش ومن حولهم من العنت والإيذاء ، والإعراض والكبرياء ما يهدم الأجساد ، ويحطم القوى ، فلهذا أكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم برحلة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس ، وبرحلة المعراج من بيت المقدس إلى ما وراء سدرة المنتهى ، لينفس عنه

---

(١) قال صاحب الكشف انتصارا للزمخشرى : لا تمنع علميته من إضافته كما فى حاتم طى ، وعنترة عبس - انظر الآلوسى .

ما أصابه ، ويسبغ عليه أسمى نعمه ورحمته ، ويكشف له عن بعض آياته ، ترفيها له ومكافأة على مانا له من أذى قومه ، وشحذًا لهمته فى المرحلة المقبلة للدعوة ، فقد كان الإسراء والمعراج به صلى الله عليه وسلم بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة ، حيث اشتد إيذاء قريش له بعد وفاتهما .

وحكى أبو حيان فى البحر أنه أسرى به صلى الله عليه وسلم فى سبع عشرة من ربيع الأول ، وعمره إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهر ، وثمانية وعشرون يوما ، وهذا التاريخ يقتضى أن الإسراء كان قبل الهجرة بعام واحد ، وأنه كان فى أواخر السنة الثانية عشرة من النبوة تقريبا .

المعنى الإجمالى للآية

تنزيها شاملا لله الكبير المتعال الذى نقل عبده المختص به ، ونبيه الحقّ به ، نقله وأسرى به ليلا بكيفية عجيبة من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، الذى أحاطه بالبركة والخير الكثير ، من رياض وغياض وثمار وأنهار ، وزروع وأشجار ، ومن نفحات الأنبياء والصالحين ، وبركات رسل الله الراحلين ، وقد نقله وأسرى به لكى يطلعه على بعض آياته العظيمة ، إعظاما لمقام عبده ورسوله ، وتنفيساً عنه بعد ما أجهده قومه ، إنه تعالى هو السميع لأقوال عبده ورسوله فى تبليغ دعوة ربه ، العليم بأفعاله الخالصة عن شوائب الهوى ، المقرونة بالصدق والهمة ، الجديرة بالقرب والزلفى ، فتعالى الله الذى له هذه القدرة وهذا العلم ، تعالى عن جميع النقائص ، فلا يكون اصطفاؤه لعبده الخصيص به إلا حكمة وصواباً .

المعنى التفصيلى

كيف كان الاسراء :

جاء حديث قصة الإسراء فى جميع كتب السنة ، وذكر النَّقَّاشُ ممن رواه عشرين صحابياً فهو لهذا من الأحاديث المتواترة ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان والترمذى والنسائى من حديث أنس بن مالك بن صعصعة قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَا أَنَا فِى الحِجْرِ – وفِى رِوَايَةٍ فِى الحَطِيمِ – بَيْنَ النَّائِمِ واليَقْظَانِ ، إذْ أَتَانِى آتٍ فَشَقَّ مَا بَيْنَ هذهِ

إلى هذه ، فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي فغَسَلَهُ ، ثُمَّ أُعِيدَ ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ أَبْيَضَ ، يُقَالُ لَهُ الْبُرَاقُ ، يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ ، قَالَ فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ - قَالَ - فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي تَرْبِطُ بِهَا الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَأَخذتُ اللَّبَنَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ : قَالَ : ثُم عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّماءِ » إلى آخر قصة المعراج ، وسنَعْرِض لها إن شاء الله تعالى فى تفسير سورة النجم عند قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِند سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ». وجاء فى رواية البخارى فى طريقة غسل قلبه الشريف قوله صلى الله عليه وسلم : « فاسْتَخْرَجَ قَلْبِي ، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ من ذَهَبٍ مَمْلُوءٍ إيماناً فَغَسَلَ قَلْبِي ثُمَّ حَشَا ، ثُمَّ أُعِيدَ » . وكان الإسراءُ والمعراج والعودة فى بعض ليلة واحدة ، واختلف العلماءُ هل كانا بالجسد والروح ، أو بالروح فقط ، أو كانا مناما ، والجمهور على أنهما كانا بالجسد والروح يقظة ، ويشهد لذلك التعبير عنه صلى الله عليه وسلم بقوله : (بِعَبْدِهِ) والعبد يشمل الجسد والروح معاً ، كما يشهد له إعداد البراق له وركوبه إياه ، ووصفه بأنه كان يضع حافره عند منتهى بصره ، ومن أقوى الأدلة على ذلك ما حدث له صلى الله عليه وسلم من شق صدره وغسله بالإيمان وحشوه ، فإنَّ هذا كناية عن أنه تعالى كلف الملك بإعداده جسديا وروحياً لتلك الرحلة الخطيرة ، وشحنه بالقوى الإلهية التى تجعله فى منعة من الأخطار الكونية أثناء هذه الرحلة ، وتجعله أيضاً مستعدًّا لاستقبال الأنوار الإلهية ، ومن العلماء من قال : إن ذلك كان مناماً ، وبه قال الحسن ، وروى ذلك عن عائشة ومعاوية ، ورد ذلك بأن عائشة - رضى الله عنها - كانت حينذاك صغيرة ولم تكن معه صلى الله عليه وسلم ، وأن معاوية كان كافرًا فلا يصح ما أسند إليهما . أما الاستناد إلى قوله تعالى :

« وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ » فهو دليل عليهم وليس دليلا لهم ، فإن الرؤيا هنا بمعنى الرؤية البصرية كما فى قول الراعى يصف صائدًا :

وكبر للرؤيـــا وهشّ فؤاده ... وبشر قلبًا كان جمًّا بلابله

ولو كانت رؤيا منامية لما كانت فتنة للناس حين علموا بها ، لأن النائم قد يرى نفسه فى السماء وأنه يطير بين المشارق والمغارب ولا يكذبه أحد ، ومثله يحدث عادة لكثير من الناس مناما .

وسيأتى بيان فتنة قريش حين أخبرهم النبى صلى الله عليه وسلم بحديث الإسراء ، عند شرح قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآن ... »(١)

والعبودية لله عند العارفين من أهل الحق أشرف الأوصاف ، ولقد كان المحبون للبشر يفخرون بها ، ومن ذلك قول قائل فى محبوبته :

لَا تَدْعِنِى إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِيَا

فكيف بالعبودية لمالك الملك والملكوت ، على أنّ فى وصفه صلى الله عليه وسلم بالعبودية وقد وصل إلى ما هو عليه من الرفعة العلية ، سدًّا لِبَاب الغُلُوّ فيه ، كما وقع للنصارى مع نبيهم عيسى عليه السلام .

قال القشيرى : لما رفعه الله إلى حضرته السنية ، ورقاهُ فوق الكواكب العلوية ، ألزمه اسم العبودية تواضعاً للأمة .

والمسجد الحرام وقت الإسراء كان مليئاً بالأصنام التى كان العرب يعبدونها قبل إيمانهم ، وتسميته بالمسجد الحرام مع هذا ، لأن المسجد فى اللغة مكان السجود وهو الخضوع ، وكانوا فى عبادتهم لأصنامهم خاضعين لها أشد الخضوع ، وكان حرماً آمناً يحرم فيه القتل والأخذ بالثأر عندهم .

والمسجد الأقصى بيت المقدس ، فكان مسجد النبيين ومصلاهم (٢) ، بناه يعقوب بعد بناء إبراهيم الكعبة بأربعين سنة ، ولهذا قال تعالى : « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ » .ثم شرع فى تجديده داود ، وأتمه سليمان ابنه عليهما السلام ،

(١) سورة الإسراء : الآية ٦٠

(٢) فلذا أطلق عليه لفظ المسجد ، ويصح أن يكون إطلاق المسجد على كليهما باعتبار ما آل إليه أمرهما فى الإسلام .

وهو أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال لأن ثواب الصلاة فيها يضاعف ، قال صلى الله عليه وسلم : « لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِد ، مَسْجِدِى هذَا والمَسْجِدِ الحَرَامِ والمَسْجِد الأَقْصَى » والصلاة فى المسجد الحرام أعظمها أجرًا ، ثم المسجد النبوى ثم المسجد الأقصي ، والغاية من الإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أن يطلع الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم على بعض آيات قدرته تعالى فى رحلة الإسراء والمعراج ، وما وقع فيها من الأعاجيب ، وكان ذلك من قبيل الإعداد للمرحلة التالية للهجرة ، ولاشك أن فى شق صدر النبى صلى الله عليه وسلم وشحنه بالإيمان والعلوم والتقوى الإلهية ، أثرًا عظيماً فى تحمله لتلك الرحلة الكونية العظيمة ، التى رأى فيها بعض ملكوت السموات والأرض ، وفى تقوية روحه ومضاعفة همته وعزيمته، لكى يستقبل المرحلة التالية للهجرة وهو جمٌّ النشاط عظيم الاحتمال .

(وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) : أبناء يعقوب عليه السلام ، فقد كان يدعى إسرائيل .

(وَكِيلاً) : ربا تكلون إليه أموركم ، (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) : ذرية من آمنوا بنوح وحملناهم معه فى السفينة ، لننجيهم من الغرق بالطوفان .

التفسير

٢ ، ٣ ـ (وآتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَآئِيلَ أَن لَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلاً ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) :

لما بين الله تعالى فى الآية السابقة أنه بارك حول المسجد الأقصى ،جاء بهاتين الآيتين ليبينَ بعض البركات الروحية هناك ،حيث آتى موسى الكتاب لهداية بنى إسرائيل الذين أسكنهم الله الشام حول المسجد الأقصى ، بعد هجرتهم من مصر وخروجهم من التيه ، ثم إن هاتين الآيتين وما بعدهما تعتبر تمهيدًا للحديث عن هداية القرآن للتى هى أقوم ، ليعرف بنو إسرائيل أنهم لم ينصفوا أنفسهم حين أعرضوا عن الطريق الأقوم ، والشريعة المثلى ، بعدم إيمانهم بالقرآن ومن أنزل عليه القرآن ، فى حين أنه مَنَّ الله تعالى عليه بهذه المنزلة العلية ، حيث أسرى به فى بعض ليلة ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى ماوراء سدرة المنتهى ، حيث أوحى الله تعالى إلى عبده ما أوحى « مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى » .

معنى الآيتين

وأعطينا موسى الكتاب فى ألواح مشتملة على التوراة ، وجعلنا هذا الكتاب هادياً لبنى إسرائيل إلى الحق ، بعد أن دانوا فى مصر بعبادة العجل الذى كان يعبده الفراعنة ، وقد أعطينا موسى هذا الكتاب لكيلا تتخذوا سواى ربًّا تكلُون إليه أموركم ياذرية من حملناهم فى السفينة مع نوح ، وأنجيناهم من الغرق ، إن نوحاً كان عبدًا شكورًا لنا ، فلم يتخذ ربًّا سوانا ، وكذا من حملناهم فى السفينة معه . فلهذا حفظناهم من الطوفان وأغرقنا سواهم ، فكونوا يابنى إسرائيل على سنة من أنجيناهم من الغرق من أهل التوحيد ، لتكونوا بمنجاة من عقوبة أهل الشرك .

وفى التعبير عن بنى إسرائيل ،بذرية من حملنا مع نوح ، تذكير بفائدة التوحيد وأثره فى الدنيا ، وتحذير من الشرك وعقوبته ، كما أن فيه إشارة إلى أن غيره تعالى من الوكلاء والأرباب المزعومة ، لا تستطيع أن تأتى بمثل هذه الآية الكبرى التى تتمثل فى الطوفان العالى لإغراق من لم يعبدها ، وفى السفينة لإنجاء من عبدها ، فهى أحقر من أن تهلك أو تنجى ذبابة ، فسبحان الكبير المتعال الذى ينجى المؤمنين ويهلك الكافرين ، بما لا يتصوره البشر ولا تطيق مثله جميع القوى والقدر .

وأجاز بعض العلماء عود الضمير فى قوله تعالى : « إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا » إلى موسى عليه السلام ، تعليلا لإيتائه الكتاب ، فكأنه قيل وآتينا موسى الكتاب هداية لقومه ، لأنه

كان عبدًا شكورًا ، وما اخترناه أظهر وأولى ، لما فيه من رجوع الضمير إلى أقرب مذكور ، وهو نوح عليه السلام .

(وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾)

المفردات :

(وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) : أى أوحينا إليهم[1] على سبيل الجزم والقطع .

(فِى الْكِتَابِ) : أى فى التوراة ،(فِى الْأَرْضِ) : أى فى جنس الأرض ، أو هى الشام وفيها بيت المقدس .(وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) : العلو ، الارتفاع ، والمراد به هنا الاستكبار والتغلب على الناس بالظلم . (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ) : سلطنا عليكم .(عِبَادًا لَّنَا) : أى ناسا مملوكين لنا كى يؤدبوكم ، ولا يقتضى وصفهم بالعبودية أن يكونوا مؤمنين فالكافر والمؤمن عباد مملوكون لله ، تجرى عليهم أحكامه .

(أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ) : أصحاب قوة وبطش شديد فى الحروب. (فَجَاسُوا[2] خِلَالَ الدِّيَار) : أى ترددوا بينها لطلبكم وعقابكم . (وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا) : أى وكان ما ذكر من إرسال العباد ليعاقبوكم ، وعدًا نافذًا لا مفر من وقوعه ، والوعد يستعمل فى الخير والشر ، ويفرق بينهما بحسب المقام ، وقد يفرق بينهما لفظاً ، فيقال فى الخير وَعَدَ ، وفى الشر أوعدَ ومنه قول الشاعر :

وإنى وإن أوعدته أو وَعَدتُه ... لمُخْلفُ إيعادى ومنجزُ موعدى

وقد يقال فى الخير وَعْدٌ وفى الشر وَعيدٌ .

---

(١) تفسير القضاء بالإيحاء لتعديه بحرف (إلى) وفى إحدى الروايتين عن ابن عباس أن المعنى (وقضينا عليهم) فتكون إلى بمعنى على .

(٢) الجوس طلب الشىء باستقصاء .

التفسير

٤ - (وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) الآية .

بين الله تعالى فى الآية السابقة أنه أعطى موسى التوراة ليستهدى بها بنو إسرائيل ، جاءت هذه الآية لتبين أنهم انحرفوا عنها وأفسدوا فى الأرض مرتين ، مخالفين ما أمرهم الله به فى التوراة من الصلاح والاستقامة

والمعنى : وأوحينا إلى بنى إسرائيل فى كتابهم التوراة ، أوقضينا عليهم بسبب انحرافهم عن هداه ، لتفسدن فى الأرض التى تعيشون عليها فى الشام ، أو فى جنس الأرض - لتفسدن فيها - مرتين ، ولتستكبرن استكبارًا كبيرًا على الله تعالى ، فلا تلتزمون بهداه ، وعلى الناس فتغلبونهم وتظلمونهم وتسيئون إليهم ، وتحديد هاتين المرتين اللتين أفسدوا فيهما متعذر لأنهم قد أفسدوا مرات كثيرة منذ نزلت التوراة حتى الآن ، ومما جاء فى إفسادهم ، أنهم لما مات ملكهم تنافسوا على الملك وقتل بعضهم بعضا ،ولم يسمعوا النصح من نبيهم زكريا ، بل عَدَوْا عليه وقتلوه ، وقد رواه ابن إسحاق ،وفى الكشاف أن أولاهما قتل زكريا وحبس أرميا ، وثانيتهما قتل يحيى وإرادة قتل عيسى عليهم السلام ومنها أنهم فى سنة (٧١) إحدى وسبعين بعد الميلاد حاولوا أن يثيروا المتاعب للرومانيين فبطش بهم القائد الرومانى (صيطس - أوتيتوس) وقتل منهم خلقاً كثيرين ، وخرب هيكلهم المقدس الذى كانوا يفاخرون به الأمم ، ويباهون بضخامته وما فيه من آنية الذهب والفضة ، فتفرق كثير منهم فى الأرض ، وذهب بعضهم إلى الحجاز ، فتكون منهم يهود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع حول المدينة ، ويهود خيبر وغيرهم كما فربعضهم إلى الشام ومصر وغيرهما.

ومن هاجر منهم إلى الحجاز اختاروها لأنهم قرءوا فى التوراة خبر نبىٍّ يبعث من بين إخوتهم ، وهم بنو إسماعيل ، وأن دينه سيذيع وينتشر من يثرب - أى المدينة - فلذا أقاموا حولها ليؤازروه ، حتى يعيد إليهم مجدهم وكانوا إذا تحاربوا مع الأوس والخزرج قبل البعثة وانتصروا عليهم ، قالوا لكليهما : سيبعث نبىٌّ من بنى إسماعيل وسنؤمن به ونقتلكم

معه قتل عاد وإرم ، وكانوا أحيانا يخرجون التوراة ويضعون أصابعهم على اسمه صلى الله عليه وسلم ، ويستفتحون به على أعدائهم ، فكانوا يقولون اللهم إنا نسألك بحق نبيك الذى وعدتنا أن تبعثه آخر الزمان ،أن تنصرنا اليوم على عدونا فينصرون ،فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، قال تعالى : « وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ »[1]. وفى سنة ١٣٥ ميلادية ثاروا مرة أخرى على الرومان ، فاحتلوا المنطقة اليهودية فى القدس ودمروها وقتلوا أهلها ، وهدموا هيكلها من جديد ، وحرثوا أرضه ، وبنوا مكان المنطقة اليهودية مدينة أخرى حرموها على اليهود[2]. إلى غير ذلك من حوادث الإفساد .

وترتيبها زمناً أو أثرا لتعرف المرتان المقصودتان من الآية الكريمة فيه صعوبة إن لم يكن متعذرًا ، ولهذا قال الجبائى : إن الله تعالى ذكر إفسادهم فى الأرض مرتين ، ولم يبين ذلك فلا يقطع بشىء مما ذكر .

٥ ـ (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا) :

أى فإذا جاء موعد عقابكم على أولى مرتىْ إفسادكم فى الأرض ، سلطنا عليكم عبادًا لنا أصحاب قوة شديدة وبطش فى الحروب ، فترددوا بين دياركم وتخللوها طلباً لكم ، وكان العقاب الموعود على تلك الإفسادة وعدًا نافذًا لا خلف فيه ، قال القرطبى فى هؤلاء العباد : هم أهل بابل ، وكان عليهم بختنصر[3] فى المرة الأولى حين كذبوا أرمياء وجرحوه وحبسوه ، قاله ابن عباس وغيره ، وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم ، فهو وقومه أولو بأس شديد : انتهى كلام القرطبى .

وقال الآلوسى : الجمهور على أن فى هذه البعثة خرب هؤلاء العباد بيت المقدس ووقع القتل الذريع والجلاء والأسر فى بنى إسرائيل ، وحرقت التوراة : اهـ

ولاتغفل عما قلناه من أن تعيين المرة الأولى وعقابها اجتهادى لا قطعى .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٨٩

(٢) وكان ذلك بقيادة الحاكم الرومانى هارديان .

(٣) وهو المعروف عند المؤرخين باسم نبو خذ نصر .

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾)

المفردات :

(رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ) : جعلناكم تغلبونهم بعد أن غلبوكم ، وأصل الكرة الرجعة ، وإطلاقها على الغلبة هنا لما فيه من الرجوع إليهم بعد هزيمتهم منهم .

(أَكْثَرَ نفِيرًا) : النفير والنافر من ينفر مع الرجل من عشيرته لمؤازرته والمراد من قوله « أَكْثَرَ نفِيرا » أكثر عددا مما كنتم أو من أعدائكم[1] . (وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) : أى وإن أسأتم فعليها ، فاللام هنا بمعنى على . (وَعْدُ الآخِرَةِ) : وعد المرة الآخرة من مرتَي الإفساد .

(لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ) : ليظهروا المساءة عليها بسبب ما نالكم من أذاهم .

(وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ) : المراد بالمسجد هنا بيت المقدس . (وَلِيُتَبِّرُوا مَاعَلَوْا تَتْبِيرًا) : وليهلكوا ما غلبوه واستولوا عليه إهلاكا شديدا . (وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا) : وإن عدتم للإفساد عدنا للعقوبة .

(وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً) : وجعلناها لهم سجنا يحصرهم ويحبسهم[2] ويمنعهم من الإفلات .

---

(١) قيل النفير مصدر ، وفعله نفر بمعنى خرج ، أى أكثر خروجا للغزو ، قال الشاعر :

فأكرم بقحطان من والد وبالحميريين أكرم نفيرا

(٢) من الحصر وهو الحبس وهو إما اسم جامد لا يلزم تأنيثه مع المؤنث ، وإما وصف بمعنى فاعل ، على أنه صيغة نسب سماعية ، أى ذات حصر ومنسوبة إليه ، كما فى لابن وتامر أى منسوب إلى اللبن والتمر .

التفسير

٦ - (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا) :

أى ثم رددنا لكم الدولة والغلبة ورجعناها لكم على من غلبوكم وتسلطوا عليكم وذلك بعد أن صلحت أحوالكم واستقامت أموركم ، واتحدت كلمتكم ، وعملتم بنصائح أنبيائكم ، وأمددناكم بأموال كثيرة بعد مانهبت أموالكم ، وأمددناكم ببنين بعد ماسبيت أولادكم ، وجعلناكم أكثر رجالا ينفرون معكم للقتال ، بعد ماقل رجالكم الذائدون عنكم ، فاستطعتم بما أمددناكم به من هذه النعم ، أن تستردوا حريتكم وتعود إليكم دولتكم ، وينتهى استعباد أعدائكم لكم .

ويفسر أبو حيان فى البحر إعادة الكرة عليهم بقوله : إنَّ ملكا غزا أهل بابل ، وكان بختنصر قد قتل من بنى إسرائيل أربعين ألفا ، ممن يقرءون التوراة ، وأبقى عنده بقية فى بابل فلما غزاهم ذلك الملك وغلب عليهم تزوج امرأة من بنى إسرائيل فطلبت منه أن يرد بنى إسرائيل إلى ديارهم ففعل ، وبعد مدة قامت فيهم الأنبياء ورجعوا إلى أحسن مما كانوا ، انتهى .

ولعل أبا حيان يشير بما يقول إلى غزو الفرس لأهل بابل ، فنى سنة ٥٣٩ قبل الميلاد غزا الفرس فلسطين واحتلوها بعد أن احتلوا بابل ، وألحقوها بدولتهم قرنين من الزمان ، وفى عهدهم عادت قبيلة يهوذا من بقايا الأسر البابلى إلى القدس ، وأعادت بناء الهيكل من جديد .

وقيل رد الكرة : بأن سلط الله تعالى داود على جالوت فقتله ، وعادت الدولة إليهم بملك طالوت عليهم ، وتلاه داود عليه السلام ، ثم سليمان ثم انقسموا وتحاربوا ، فسلط الله عليهم عباده للمرة الثانية ، وستأتى بقية الحديث عن ذلك بمشيئة الله تعالى .

٧ - (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) :

بعد أن بين الله تعالى أنه رد لهم الكرة على أعدائهم ونصرهم ، جاءت هذه الآية ، لتبين أن ماناالهم من العقاب أولا والنصر ثانيا إنما يجرى على قاعدة الجزاء العادل فإن هم أحسنوا أثيبوا ، وإن هم أساءوا عوقبوا .

والمعنى : إن أحسنتم يا بنى إسرائيل بعودتكم إلى طاعة ربكم ، كانت منفعة هذا الإحسان لكم ، حيث يثيبكم عليه فى الدنيا النصر والثراء وكثرة الأولاد ، وإن أسأتم بالبغى والطغيان والاستعلاء ، كانت مضرة هذه الإساءة عائدة عليكم ، وقد عرفتم هذا الدستور الإلهى ، فيما تناوب عليكم من الضراء أولا بسبب إفسادكم الفظيع أول مرة ، والسراء ثانياً حينما تبتم إلى الله ، وعرفتم طريق الصلاح والاستقامة .

(فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوٓءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا) :

فإذا جاء عقاب المرة الآخرة من الإفساد والاستعلاء الكبير على الناس ، بعثنا عليكم يا بنى إسرائيل عباداً لنا أقوياء أشداء لكى يعاقبوكم على المرة الثانية من الإفساد ، وليظهروا بهذا العقاب العنيف آثار المساءة الشديدة على وجوهكم من الحزن والخوف والرعب ، والصفرة والحيرة - فإن الأعراض النفسية تتجلى آثارها واضحة على الوجوه - وبعثناهم أيضاً ليدخلوا المسجد الأقصى - بيت المقدس - بالسيف والقهر والغلبة والإذلال كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ويهلكوا ما علوه وغلبوه واستولوا عليه تتبيرا وإهلاكا شديداً لا يوصف

واختلف فى المبعوث لعقاب بنى إسرائيل فى هذه المرة ، فقيل هو الإسكندر وجنوده ، وقيل هو ملك من ملوك الطوائف اسمه « بيردوس »[1] ، وهؤلاء الملوك ظهروا بعد أن استولى الإسكندر على الفرس وقتل « دارا » ملكهم ، فقامت من بعده دولة ملوك الطوائف ، وعددهم يربو على سبعين ملكا ، ومدة ملكهم خمسمائة واثنتا عشرة سنة وكانت هذه العقوبة على قتلهم نبيهم يحيى عليه السلام ، وكان بين عقوبة بختنصر لهم وهذه العقوبة نحو سبعمائة وخمسة وثلاثين عاما ، وبينها وبين قتل الإسكندر لدارا نحو ثلاثمائة سنة ، وقيل غير ذلك ، انظر الآلوسى .

وقال بعض العلماء الأجلاء : إن معرفة الأقوام المبعوثين بأعيانهم وتاريخ بعثهم وتعيين سبب العقوبة مما لا يتعلق به كبير فائدة ، إذ المقصود أنه لما كثرت معاصى بنى إسرائيل ، سلط الله عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى : ا هـ

وهذا أسلم والله تعالى أعلم .

---

(١) وقد رجح هذا الرأى صاحب الكشاف .

٨ - (عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً) :

أى لعل الله تعالى يرحمكم بعد العقاب بالبعث الثانى ، إن تبتم عن المعاصى ، ولازمتم طاعته ، فيكف عنكم عقابه وانتقامه ، ويبدلكم من بعد خوفكم أمنا ، وإن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى عقابكم فى الدنيا ، على نحو ما حدث فى عقاب المرتين السابقتين أو أشد أو أدنى حسب درجة آثامكم ، وجعلنا جهنم لجميع الكافرين منكم ومن غيركم سجنا حاصرا لهم ومحيطا بهم ، فلا مهرب لهم منه ، فاحذروا العودة إلى آثامكم ، لكى تنجوا من عقوبة الله فى الدنيا والآخرة ، ولقد عاد هؤلاء إلى الإفساد مرة بعد أخرى ، فسلط الله عليهم من دمرهم وشتتهم فى بقاع الأرض ، وتراهم دائما يتجمعون فى مكان واحد ، تتجمع فيه بيوتهم ، ويغلقون مسالكه حتى لا يعرف أحد أسرارهم ، وليأمنوا الاعتداء عليهم ممن يتآمرون ضدهم وقد تآمروا على النبى صلى الله عليه وسلم وقصدوا قتله ، فسلطه الله على بنى قريظة ، فقتل رجالهم ، وأجلى بنى النضير وقاتل أهل خيبر ، وضرب الجزية على من بقى منهم حول المدينة .

(إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾)

المفردات :

(يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ) : يرشد للطريقة التى هى أعدل [1] .

---

(١) قيل إن التفضيل هنا غير مراد ، فالمقصود أنه يهدى إلى الطريق المستقيمة دون سواها إذ لا مشاركة بين طريق القرآن وسواها فى الاستقامة ، وإلى ذلك ذهب أبو حيان والرازى وخلاصته أن أفعل التفضيل هنا على غير بابه، وفى ذلك يقول تعالى (وذلك دين القيمة) .

(أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) : أعددنا لهم عذاباً شديد الإيلام .

(وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ) : أى يطلبه لنفسه ، وكُتِبَتْ (يَدْعُ) فى المصحف بدون واو مراعاة للنطق ، وأصلها يدعو بالواو بعد العين .

(دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ) : أى يدعو لنفسه بالشر مثل دعائه لها بالخير فلا يفرق بينهما لجهله .

التفسير

٩ - (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً) :

بين الله فيما تقدم أنه تعالى أعطى موسى كتاب التوراة وجعله هدى لبنى إسرائيل ، وأنهم لم يعملوا به ، بل أفسدوا فى الأرض ، وجاءت هذه الآية والتى بعدها لبيان أن هذا القرآن أعطاه محمدا صلى الله عليه وسلم لكى يهدى الناس جميعا إلى ملة الإسلام ، فإنها أقوم الملل ، وأن على جميع الخلق أن يؤمنوا به ومنهم أهل الكتاب .

والمعنى : إن هذا القرآن الذى أنزلناه عليك يا محمد يهدى إلى الملة التى هى أقوم الملل وأعدلها وهى ملة الإسلام إلى الله ، والتوحيد الخالص من كل شوائب الشرك ، والتنزيه لله تعالى عن شوائب المماثلة للبشر ، وعن سمات النقص التى لم تتورع عنها الملل والنحل المختلفة وكما يهدى إلى الملة التى هى أقوم يبشر المؤمنين بأحكامه وعقيدته ، الذين يعملون الأعمال الصالحة التى دعاهم إليها - يبشرهم - بأن لهم فى مقابل إيمانهم وصالح أعمالهم أجراً كبيراً فى ذاته وفى أوصافه الكريمة ، ينالونه فى جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين .

١٠ - (وأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) :

معطوف على ما بُشّرَ به الذين آمنوا داخل فى حيز البشارة لهم ، فكأنه قيل : يبشر المؤمنين الصالحين بأجر كبير لهم ، ويبشرهم أيضاً بأن أعداءهم الذين لا يؤمنون بالآخرة الإيمان الصحيح ، أعددنا لهم فيها عذابا مؤلما ، فإن الانتقام من العدو سرور يستحق أن يبشر به عدوه ، وبخاصة إذا كانت العداوة من أجل الحق تبارك وتعالى [1] .

(١) ومن أجل ذلك يسخر المؤمنون من الكافرين فى الآخرة، قال تعالى : «فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون» الآيات ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ من سورة المطففين .

ويصح أن يراد من البشارة مطلق الإخبار الشامل للإخبار بما يَسُرُّ وبما ليس كذلك على سبيل المجاز ، ومن استعمال التبشير فى العذاب قوله تعالى فى سورة النساء: « بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » (١٣٨) وفى سورة التوبة : « فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » (٣٤)

١١ - (وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً) :

بينت الآيتان السابقتان منزلة القرآن الكريم من الهداية للطريقة التى هى أقوم ، وبشارته للمؤمنين بحسن المثوبة ، وإنذاره للكافرين بشديد العقوبة ، وجاءت هذه الآية لتبين أن الإنسان لم يراع مصلحة نفسه حيث يطلب الشر ويتعجله بدل الخير ، والمراد بالإنسان الجنس ، وقد أسند إليه حال بعض أفراده وهو الكافر والعاصى ، أو حاله بصفة عامة فى بعض أحيانه .

والمعنى على الأول مع ربطه بما سبق : أن هذا القرآن يهدى إلى الملة والشريعة التى هى أقوم ولكن الإنسان الكافر والعاصى يدعو لنفسه بالشر - أى يطلبه لها - بكفره وعصيانه - يدعو لنفسه بهذا الشر مثل دعائه بالخير وطلبه لها ، من غير تفرقة بين مايؤدى به إلى العقوبة وما ينتهى به إلى المثوبة جهلا منه وسوء تمييز ، وكان الإنسان بطبعه مبالغا فى العجلة حيث سارع إلى مايؤدى به إلى الضرر بغير تريث ولا مبالاة ، وتجاهل ماينتهى به إلى الخير والمنفعة عاجلها أو آجلها ، ولو تريث وفكر لاختار الإيمان والطاعة لحسن عاقبتها ، ولنبذ الكفر والمعصية لسوء منقلبها ، وقد منحه الله العقل ليقوم به غرائزه فلا عذر له فى إهداره وعدم الانتفاع بتقويمه .

والمعنى على الثانى : إن هذا القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير ، وهو فى بعض أحيانه يترك الدعاء بالخير ويدعو الله لنفسه وماله وأهله وولده بالشر لمرض أصابه أو غضب حل به ، أو ضجر من بليّة ومحنة ، وكان الإنسان بحسب غريزته وجبلته شديد العجلة ، لايميل إلى التأنى حتى تزول المحنة أو العارض الذى استتبع دعاءه ، ولو تأنى وتذرع بالصبر الذى يدعو إليه العقل والشرع ، لآثر الدعاء بالخير بدل الدعاء بالشر .

وقد جاء النهى عن ذلك صريحا ، فقد أخرج أبو داود والبزار عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تدْعُوا عَلَى أَنْفسِكمْ لَا تدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكمْ لَا تدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكم ، لئِلَّا توَافِقوا مِن اللهِ تعالى سَاعَةً فِيها إِجَابَةٌ فيسْتجِيب لكمْ » .

(وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾)

المفردات :

(آيَتَيْنِ) :علامتين ودلالتين على وجود الله وسائر كمالاته .

(فَمَحَوْنَآ آيَةَ اللَّيْلِ) : أى أزلنا ظلمته بضوء النهار . (مُبْصِرَةً) : أى مبصرا أهلها فى ضوئها ، وإنما أسند الإبصار لفظًا إلى آية النهار على سبيل المجاز ، لأنها سبب الإبصار .

(لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ) : لتطلبوا رزقا من خالقكم ومربيكم .

التفسير

١٢ – (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَار آيَتَيْنِ) :

بين الله قبل هذه الآية أن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين ، وينذر الكافرين ، وجاء بهذه الآية ليهدينا بها إلى الطريق العقلى الهادى إلى معرفة الله ، وهو النظر فى آياته الكونية .

والمعنى : وجعلنا الليل والنهار فى تعاقبهما واختلافهما طولا وقصرا ، حسب اختلاف مطالعهما ومغاربهما ، وفى تباينهما ظلمة وضياء حسب ظهور الشمس ومغيبها – جعلنا الليل والنهار فى ذلك كله علامتين تهديان العقل إلى أن لهما صانعا حكيما ، ومدبرا عليما ، وقادرا عظيما ، ثم فصّل حال الليل والنهار وفائدتهما فقال سبحانه : (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ)[1] : أى فجعلنا الليل الذى هو آية وبرهان على خالقه ، جعلناه ممحوّ الضوء مطموسه مظلما لا يستبين فيه شىء كما قال سبحانه : «وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا» ويجوز أن يكون المعنى : فأزلنا

(١) إضافة آية إلى الليل بيانية ، يعنى آية هى الليل ، وكذا يقال فى آية النهار .

ظلمة آية الليل بالضوء الباهر والنور الساطع المنبعث من الشمس المشرقة .

(وَجعَلْنَا آيةَ النَّهارِ مُبْصِرةً . . . .) الآية .

أى وجعلنا النهار الذى هو آية على بارئه ومدبره – جعلناه مضيئا ، بحيث تتبين به المسالك والدروب وأسباب الأرزاق ، لكى تبتغوا وتطلبوا فى ضوئه رزقا من فضل ربكم لايتيسر لكم فى ظلام الليل ، ولتعلموا بتفاوت الليل والنهار وتعاقبهما وسائر أحوالهما ، عدد السنين التى مرت بكم ، وحساب الشهور والأيام والليالى ، وغير ذلك مما ترتبط به مصالحكم ومعايشكم وعباداتكم .

(وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) :

أى وكل شىء يرتبط بمعايشكم ومنافعكم الدنيوية والأخروية ، بيَّنه الله سبحانه فى القرآن تبيينا تاما لاالتباس فيه ولاخفاء ، كما جاء فى قوله لرسوله : «وَنزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَىْءٍ » وبهذا ظهر كون القرآن هاديا للتى هى أقوم ظهوراً بينا .

واعلم أن القرآن اشتمل على قواعد كلية للعقائد والشرائع ، وأما التفاصيل الجزئية فقد أحالها الله تعالى على نبيه لتبيينها ، وذلك فى قوله سبحانه : « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[1] .

فالصلاة فى القرآن أوجبها الله بنحو قوله : «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتاً » ولم يتعرض لكيفية أدائها وبيان أوقاتها ، وقد تكفل الرسول صلى الله عليه وسلم ببيان ذلك بوحى من الله تعالى : «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى »[2] .

(١) سورة النحل : الآية ٤٤

(٢) سورة النجم : الآيات ٣ – ٥

(وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾)

المفردات :

(طَآئِرَهُ) : أى عمله من خير أو شر ، وقيل المراد رزقه وأجله وعمله وجميع ماقدره الله له. (فِى عُنُقِهِ) : تمثيل لشدة لزوم عمله له . (يَلْقَاهُ مَنشُوراً) : أى يجده مبسوطا غير مطوى .

(حَسِيباً) : أى حاسبا عملك لك أو عليك

(وَلَاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) : الوزر فى اللغة الحمل مطلقا ، والمراد به هنا الذنب ، أى ولا تتحمل نفس حاملة للوزر ذنب نفس أخرى .

التفسير

١٣ - (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِى عُنُقِهِ) :

فسر بعض العلماء الطائر هنا بالعمل - خيراً كان أو شرًّا - وفسره آخرون بجميع ماجرى به القدر وأحاط به العلم من الرزق والأجل والعمل والشقاوة والسعادة وسائر أحوال الإنسان ، وإطلاق لفظ (الطائر)على هذا أو ذاك على سبيل المجاز ،فكأنما يطير إلى العبد من عُش الغيب الذى علمه الله أزلا فى شأن عبده . وتفسير الطائر بالعمل هو الذى نختاره فى تفسير الآية ، لأنه المناسب لقوله تعالى فى آخرها : «وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً » .

أى ونخرج للإنسان يوم قيام الناس من قبورهم وبعثهم لحساب ربهم - نخرج له كتابا يحوى تفاصيل أعماله خيرها وشرها ، يلقاه منشورا مبسوطا أمامه ليقرأه بنفسه ، ويتعرف على حسناته وسيئاته ، أخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال : يَا ابْنَ آدَمَ بُسِطَتْ لَكَ صَحِيفَةٌ وَوُكِّلَ بِكَ مَلَكانِ كريمَانِ ، أحدُهُمَا عن يَمينك ، والآخر عن شمالك حتى إِذَا مِتَّ طُوِيتْ صَحِيفَتُكَ فَجُعِلَتْ فِي عُنقِكَ فِي قَبْرِكَ ، حَتَّى تَجِيءَ يَومَ الْقِيَامَةِ فَتُخْرَجُ لَكَ » : ا هـ والمقصود من جعلها فى عنقه ارتباطها بصاحبها معنويا لاحسيًّا ، لأن الإنسان يَفْنَى فى قبره ، ولهذا قال الحسن فى آخر عبارته ، (حَتَّى تَجِيءَ يَومَ الْقِيَامَةِ فتخْرج لك) وبعد أن عرفنا أن أعمالنا تسجل علينا بهذه الآية الكريمة ، وبنحو قوله تعالى : «مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وأنها تنشر يوم القيامة ، فلهذا ينبغى للعاقل أن لا يملى على الملكين الكاتبين لصحيفته إلا الأعمال الصالحة التى يفرح ويسعد بنشرها وقراءتها يوم القيامة ، ويدعو غيره إلى قراءتها فرحًا بها وبحسن عاقبتها كما حكاه الله تعالى عن السعيد الذى أوتى صحيفته بيمينه بقوله : « هَآؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ. فَهوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ »[1] . وهَذَا القول يصدر منه بعد أن يقرأ كتابه ، تنفيذا لأمر الله تعالى إياه بقوله لكل مكلف سعيداً كان أو شقيًّا :

١٤ - (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) : فإذا قرأه وعرف منه حسن عاقبته قال ذلك .

والمعنى : يقال لكل إنسان بعد أن يجد كتابه منشورا مسجلا فيه عمله : اقرأ كتابك كفى بنفسك حاسبا عليك سيئاتك ، وحاسبا لك حسناتك ، فكل ذلك واضح مسطور فى الكتاب ، كما قال تعالى : «وَوُضِعَ الْكِتابُ فترَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَاب لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً »[2] . وكما ترى المجرمين مشفقين مما فيه ترى الصالحين مستبشرين فرحين بما فيه كما تقدم بيانه .

---

(١) سورة الحاقة : الآيات ١٩ - ٢٣

(٢) سورة الكهف : الآية ٤٩

والآية ظاهرة فى أن كل مكلف يستطيع قراءة كتابه وإن لم يكن فى دنياه قارئا ، ولهذا كلف الله كل إنسان بقراءة كتابه ، قال قتادة : يقرأ فى ذلك اليوم من لم يكن قارئا فى الدنيا ، ومن العلماء من فسر كتاب الإنسان بنفسه ، فإن مايصدر عنه من خير أو شر يطبع فى نفسه وينقش فى روحه ، وهى فى دنياها مشغولة بواردات الحواس المتجددة مشغولة عن هذه الآثار المنقوشة فيها والثابتة على صفحتها ، فإذا انقطعت علاقتها بتلك الحواس قامت قيامة الإنسان ، وأدرك كل ماصدر عنه من خير وشر منقوشا وثابتا فى نفسه وروحه ، بعد أن انكشف عنها الغطاء بالموت الجسدى ، وكما يظهر ذلك من نفسه عقب موته ، يظهر له منها فى ساحة القيامة يوم النشور ، فيقال له حينئذ : اقرأ كتاب نفسك واذكر أعمالك ، كفى بنفسك مُحاسِبة لك بما ثبت فيها من عملك ، ومعلوم أن العبد إذا مات قامت قيامته الصغرى وأحسّ من نفسه بمصيره الذى ينتظره ، فإذا بعث قامت قيامته الكبرى وكان الحساب والجزاء .

ويقرِّب هذا المعنى للذهن أن الإنسان بدواعى المعانى يتذكر فى دنياه أمورا مضى عليها عشرات السنين ، وذلك ناشىء من انطباع صور الحوادث فى نفسه .

١٥- (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) :

بين الله فيما سبق أن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين المهتدين بالأجر الكبير ، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم ، وأنه لاينبغى للإنسان أن يطلب لنفسه الشر طلبه للخير ، فإن عمله ملازم له إلى يوم القيامة ، وجاءت هذه الآية لتبين أن المهتدى بهدى القرآن هو الذى ينتفع باهتدائه ، وأن من ضل عنه فهو الذى يُضَر بضلاله ، أما المولى سبحانه فإنه لاينتفع بطاعة عباده ، ولايضر بمعصيتهم ، وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فليس عليه إلا البلاغ .

والمعنى : أن من تأثر بمواعظ القرآن ، وتفتحت بصيرته لمعارفه ، واهتدى بهداه فلا تعود منفعة ذلك إلا عليه وحده ، وأن من انحرف عن سبيله ، وضل عن طريقه فلا يعود وبال ضلاله إلا عليه وحده دون سواه ، وتعالى الله أن تنفعه طاعة المهتدى ، أو

تضره معصية المنحرف ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين ، وقد بلغ الرسالة وأدي الأمانة ـ جزاه الله عن دينه خير الجزاء .

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) :

هذه الجملة مؤكدة لمضمون الجملة السابقة ، أى ولا تحمل نفس مثقلة بوزرها وحاملة لذنبها ـ لا تحمل ذنب نفس أخرى ، فكل امرىء بما كسب رهين ، فلو أمر شخص آخرَ بمعصية ، ووعده بأن يحمل عنه عقوبته ، فوعده كاذب وكلاهما مسئول ، فالآمر بالمعصية مسئول عن أمره بها ومعاقَب عليها ، ومنفِّذ المعصية مسئول عن تنفيذها ومعاقب عليها ، روى عن ابن عباس أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة لما قال : اكفروا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وعلىَّ حمل أوزاركم : اهـ وفى ذلك يقول الله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ »[1] . فإن قيل إنه صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ الْمَيِّتَ يُعذبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ » فإن فيه أخذ الإنسان بجرْم غيره وقد أُجيب عنه بأن الحديث محمول على ما إذا أوصى بذلك قبل أن يموت ، أو أنه يتألم لمعصية أهله ببكائهم عليه وشقِّهم الجيوب من أجله ، وعدم رضاهم بقضاء ربه ، فهو لهذا يعذب نفسيا ، وأما قوله تعالى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ » فكل من المضل والضال حمل ذنب نفسه لا ذنب غيره ، فالمضل حمل ذنب إضلاله لغيره ، وغيره تحمل وزر ضلاله بسببه ، فالجهة منفكة ، وكل ما جاء على هذا النمط يُؤَوَّل هذا التأويل .

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) :

بعد أن بين الله تعالى أن عاقبة الهدى والضلال لاتعود إلا على صاحبيهما ، جاءت هذه الجملة لتبين عظيم رحمة الله وعدالته وفضله .

والمعنى : وما صح ولا استقام فى حكمتنا وسنتنا أن نعذب أحدًا بنوع ما من العذاب دنيوياً كان أو أخروياً ـ على فعل شيء أو ترك آخر ، حتى نبعث رسولا يهدى إلى

(١) العنكبوت : آية ١٢

الحق ، وينهى عن الباطل ، ويقيم الحجج ويبين الشرائع ، حتى تتم أسباب التكليف وتقوم به حجة الله على خلقه .

واستدل الأشاعرة وفقهاء الشافعية بالآية على أن أهل الفترة ناجون وقد أطلقوا القول فى ذلك .

وبما أنه قد صح تعذيب جماعة من أهل الفترة ، فقد أجيب عنهم بأن أحاديثهم آحاد لا تعارض القطع بعدم التعذيب قبل البعثة - كما دلت عليه الآية - وبأنه يجوز أن يكون تعذيب من صح تعذيبه منهم لأمر مختص به يقتضى ذلك ، علمه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، نظير ما قيل فى الحكم بكفر الغلام الذى قتله الخضر عليه السلام مع صباه .

وقيل إن تعذيب هؤلاء المذكورين فى الأحاديث مقصور على من غيّر وبدّل من أهل الفترة بما لا يعذر به ، كعبادة الأوثان وتغيير الشرائع ، كما فعل عمرو بن لحى الذى استحدث عبادة الأوثان ولا يخفى أن هذه الإجابات عن هؤلاء لاتتفق مع إطلاقهم القول بأنه لا وجوب إلا بالشرع ولا تكليف قبل البعثة ، قال الآلوسى[1] : ولو ثبت أن من جاءت الأحاديث بتعذيبهم فى الفترة بين الرسل كانوا من أتباع رسول سابق بقى شرعه حينذاك كعيسى عليه السلام لم يبق إشكال - انتهى بتصرف يسير .

ويقول المعتزلة : إن الإيمان بالله واجب بالعقل قبل البعثة وبعدها ، ويحتجون بأن معرفة الله لايمكن الوصول إليها إلا بالعقل حتى بعد البعثة ، ولهذا يقول الله تعالى : « قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » ، ويقول : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ » . فالله تعالى يأمرنا بأن نعرفه بالنظر فى آياته الكونية ، ولا يمكن إثبات رسالة الرسول إلا بعد معرفة الله الذى أرسله ، فوجب أن تكون معرفة الله أولا بالعقل ، وثبت أن من كفر به قبل البعثة يستحق العذاب ، ويقولون أيضاً إن الأحكام تعرف بالعقل لأنه يدرك حسن الأفعال وقبحها قبل ورود الشرع[2] . وقد أثبت الإمام الرازى

(١) الآلوسى جـ ١٥ ، ص ٣٨ منير .

(٢) فإذا لم يرد فى الشرع كنا مكلفين ومحاسبين على الأخطاء ، والله تعالى أرسل الرسل لتأييد العقل ومساعدته فى أحكامه كذا قالوا .

الوجوب العقلى ، وفسر قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » بوجهين (أحدهما) : حمل الرسول على العقل (والثانى) : تخصيص العموم بأن يقال : المراد وما كنا معذبين فى الأعمال التى لاسبيل إلى معرفتها بغير الشرع إلا بعد مجىء الشرع ، ثم قال والذى نرتضيه ونذهب إليه أنّ مجرد العقل سبب فى أن يجب علينا فعل ما ينتفع به ، وترك ما يتضرر به ، ويمتنع أن يحكم العقل على الله تعالى بوجوب فعل أو ترك فعل ، اهـ[1] .

وحمل الآية أبو منصور الماتُريدى وتابعوه على نفى تعذيب أهل الفترة بالاستئصال فى الدنيا ، وذهبوا إلى تعذيبهم فى الآخرة بترك الإيمان والتوحيد ، وأهل الفترة كل من كان بين رسولين ، ولم يكن الأول مرسلا إليهم ، ولم يدركوا الثانى ، واعتمد القول بتعذيب أهل الفترة الإمام النووى فى شرح مسلم ، فقال : إن من مات فى الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فى النار ، وليس فى هذا مؤاخذة قبل بلوغ الدعوة ، فإن هؤلاء كانت بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الرسل عليهم السلام .

قال الآلوسى تعليقاً على رأى النووى : والظاهر أن النووى يكتفى فى وجوب الإيمان على كل أحد ، ببلوغه دعوة من قبله من الرسل وإن لم يكن مرسلا إليه .

وقال الحليمى[2] فى منهاجه : إن العاقل المميز إذا سمع أية دعوة كانت إلى الله تعالى ، فترك الاستدلال بعقله على صحتها وهو من أهل الاستدلال والنظر كان بذلك معرضاً عن الدعوة فيكون كافرًا – ويبعد أن يوجد شخص لم يبلغه خبر أحد من الرسل على كثرتهم وتطاول أزمان دعوتهم ، ووفور عدد الذين آمنوا بهم واتبعوهم ، والذين كفروا بهم وخالفوهم فإن الخبر يبلغ على لسان المخالف كما يبلغ على لسان الموافق ، ولو أمكن أنه لم يسمع قط بدين ولا دعوة نبى ، ولا عرف أن فى العالم من يثبت إلهاً – ولا نرى أنّ ذلك يكون فأمره على الاختلاف فى أن الإيمان هل يجب بمجرد العقل ، أو لابد من انضمام النقل ؟ اهـ .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧

(٢) المصدر السابق آخر ص ٣٧ وأول ص ٣٨

وعلق عليه الآلوسى بقوله : وهذا صريح فى ثبوت تكليف كل أحد بالإيمان بعد وجود دعوة أحد من الرسل عليهم السلام وإن لم يكن رسولا إليه ، وبالغ بعضهم فى اعتماد ذلك حتى قال : فمن بلغته دعوة أحدٍ من الرسل بوجه من الوجوه ، فقصر فى البحث عنها فهو كافر من أهل النار ، فلا تغتر بقول كثير من الناس بنجاة أهل الفترة مع إخباره صلى الله عليه وسلم بأن آباءهم الذين مضوا فى الجاهلية فى النار .

ثم قال الآلوسى[1] : والذى يميل إليه القلب أن العقل حجة قبل ورود الشرع فى معرفة الصانع تعالى ووحدته وتنزهه عن الولد للأدلة السابقة ، أما إرسال الرسل وإنزال الكتب فمن رحمته تعالى ، أو أنَّ ذلك لبيان مالا ينال بالعقول من أنواع العبادات والمعاملات والحدود ، فلا يرد أنه لو كان العقل حجة ما أرسل الله تعالى رسولا اكتفاء بالعقل ، وقيل فى جواب هذا الإشكال : لما كان أمر البعث والجزاء مما يَشُقُّ على العقل وحده إلا بعظيم تأمل فيه حرج يعذر الإنسان بمثله ولا إيمان بدونه فلهذا بعث الله الرسل عليهم السلام لبيان ما به تتمة الدين ، لا لنفس معرفة الخالق فإنها تنال ببداهة العقول ، فالبعْرةُ تدل على البعير ، والأثر على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على اللطيف الخبير : ا هـ . بتصرف .

رأى الامام الغزالى

ثم حكى الآلوسى رأى الإمام الغزالى فى ذلك إذ قال[2] : الناس بعد بعثته صلى الله عليه وسلم أصناف ، صنف لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلا ، فأولئك مقطوع لهم بالجنة ، وصنف بلغتهم دعوته وظهور المعجزة على يده وما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق والصفات الكريمة ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا فأولئك مقطوع لهم بالنار ، وصنف بلغتهم دعوته عليه السلام وسمعوا به بطريقة مشوهة لا تظهره على ما كان عليه من الكمال فى أمره كله ، فهؤلاء أرجو لهم الجنة إن لم يؤمنوا به : ا هـ بتصرف .

وقد علق الآلوسى على هذا الرأى بقوله : ولعل القطع للأولين بالجنة ، ورجاءها للآخرين إذا كان هؤلاء وأولئك مؤمنين بالله تعالى ، أما إذا كانوا غير مؤمنين به فهم على الخلاف فى أمرهم : ا هـ بتصرف يسير .

(١) انظره فى جـ ١٥ ص ٣٩ طبع منير. (٢) المصدر السابق فى آخر ص ٣٩ – ١٢

الرأى الذى نرتضيه

تبين من هذا البحث أن أحاديث صحيحة وردت بتعذيب بعض المشركين فى الفترة بين رسولين ، وبما أنه تعالى قال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » فإننا نرى أن ما ذهب إليه الماتريدية أسلم ، لما فيه من الجمع بين الكتاب والسنة ، فبالسنة يحكم على أهل الفترة بالكفر واستحقاق عذاب النار ، لإشراكهم بالله تعالى ،وهم غير معذورين فى هذا الشرك ، فقد كان البدوى منهم يعرف أن البعرة تدل على البعير ، وآثار السير على المسير ، وأن هذه الأرض ذات الفجاج ، وهذه السماء ذات الأبراج ، براهين على وجود الخالق الكبير العليم ، وأن الشركاء التى عبدوها معه ، ليس لها شىء من الخلق والرزق ، فهم لهذا لا يعذرون وإن لم يبعث فيهم رسول ، لأن معرفة الله لا تتم إلا بالعقل قبل إرسال الرسل ، وبعدهم -كما تقدم بيانه- ويحمل نَفْىُ العذاب فى قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » على نَفْىِ عذاب الاستئصال فى الدنيا ما لم يبعث إليهم رسول فيكفروا ويصرُّوا ، فبهذا يستحقون الاستئصال ، ومعلوم أن الماتريدية من أهل السنة كالأشاعرة - والله تعالى أعلم .

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

(أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) : أمرنا الرؤساء والمنعَّمين فيها بالطاعة ، وقيل جعلناهم أمراء [١]

(فَفَسَقُوا فِيهَا) : أى فخرجوا عن الطاعة وتمردوا فيها .

(١) قال القرطبى فى تعليله : لأن العرب تقول : أمير غير مأمور أى غير مؤمر وبالمعنى الأول قال ابن عباس وعليه الأكثرون .

(فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ) : أى فوجب عليها القول ، أى فوجب عليها الوعيد بالعذاب .

(فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) : التدمير : الإهلاك مع طمس الأثر وهدم البناء .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا) : كم خبرية للتكثير أى وكثيرا أهلكنا .

(مِنَ الْقُرُونِ) : جمع قرن وهو من الزمان مائة سنة ، والمراد من القرون أهلها .

التفسير

١٦ – (وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) :

بينت الآية السابقة أن عاقبة الهدى لا تعود إلا على المهتدى ، وعاقبة الضلال لا تتعدى صاحب الضلال ، فلا تحمل نفس وزر نفس أخرى كما لا تثاب نفس فاسقة بطاعة نفس أخرى وأنه تعالى لا يعذب أمةً حتى يبعث إليها رسولا ينصحها ويرشدها فتستمر على ضلالها . وجاءت هذه الآية لتؤكد سابقتها ، ببيان أن الله تعالى جرت سنته أن لا يهلك قرية بعد بعث الرسول إليها ، حتى يأمر رؤساءها بطاعته ليستقيم أمر العامة فيها ، فإذا لم تستجب دمرها تدميرا .

والمعنى : إذا شئنا إهلاك قرية أعرضت عن رسولها ، فإننا لا نكتفى بما علمناه أزلا من انطماس بصيرة أهلها وجحودهم ، ولا بمقابلة رسولهم بالتكذيب والكفر ، بل نخص المترفين فيها بتكرار أمرهم بطاعة ربهم ، لأنهم أئمة الضلال وسبب فساد العامة ، ولكى تسقط حجتهم يوم حساب ربهم ، فاستمر فسقهم فيها ومن ورائهم عامتهم ، فحق عليها وعيد ربهم بعذاب الاستئصال الدنيوى ، فدمرها الله تدميرا هائلا ، حيث أهلك أولئك الفاسقين المتمردين واستأصلهم بما شاءه الله من أسباب الاستئصال ، فصارت قريتهم بعدهم خراباً ، وانطمست معالمها .

رأى الزمخشرى

يرى الزمخشرى أن الآية فيها استعارة تمثيلية ، وخلاصة المعنى عليها : وإذا أردنا أن نهلك قرية كفر أهلها وعصوا وأصروا على ذلك ، أمددناهم بالنعم وأترفناهم فى الحياة ،

استدراجاً لهم ، فكان هذا الاستدراج بالنعمة كأنه أمر لهم بالفسق ، ففسقوا فيها فحق الوعيد بتعذيبهم فدمرناها تدميرا .

والمعنى الأول ، أوضح وأظهر ، وأساسه ما نقل عن ابن عباس ترجمان القرآن من أن المراد بأمر مترفيها أمرهم بالطاعة ، ولذا قال تعالى فى مقابله : « فَفَسَقُوا فِيهَا » أى قابلوا الأمر بالطاعة بالفسق .

١٧ ـ (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرا) : والقرن زمان طويل ، وأشهر الأقوال فيه أنه مائة سنة ، وقد جاء فى حديث أنه صلى الله عليه وسلم (دعا لرجل فقال : « عِشْ قَرْناً » فعاش مائة سنة) ويجمع القرن على قرون والمراد منها أهلها لاقترانهم فى زمان واحد .

والمعنى : وكثيرا ما أهلكنا من الأمم المقترنة ، كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ممن جاءوا بعد قوم نوح واستأصلناهم كما استأصلنا قوم نوح ، وقد قصصنا عليك يامحمد أخبار بعضهم ، ولم نقصص أخبارغيرهم وكان إهلاكهم لكفرهم وتكذيبهم لرسلهم ، وكفى بربك بذنوب عباده الخفية والظاهرة خبيرًا بصيرًا ،أى عالمابدقائقها محيطاً بتفاصيلها فيعاقبهم عليها ، فلا تبتئس يا محمد بما صنع قومك معك ، فسوف نعاقبهم كما عاقبنا من قبلهم إن أصروا على كفرهم ، وإنما قال من بعد نوح ولم يقل من بعد آدم ، لأن نوحاً أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم الله بعذاب الطوفان ، ولظهورحال قومه لم يذكروا ضمن الأمم المهلكة ، على أن ذكره رمز إليهم وإلى ماحدث لهم وقدم «خبيرًا» على « بصيرًا » لتقدم متعلقه من الاعتقاد والنيّات تقدماً وجودياً ورُتبياً ، فإنها مبادئ الأعمال الظاهرة قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّمَا الْأَعْمَالُ بالنيات » الحديث .

(مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(العَاجِلَةَ) : أى الدار العاجلة ، والمراد بها الدنيا. (يَصْلَاهَا) : يدخلها ويقاسى حرها. (مَدْحُورًا) : مطرودا مبعدا من رحمة الله. (كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا) : كان عملهم للآخرة مقبولا من الله مجزياً منه بحسن الثواب ، وأصل معنى السعى : المشى السريع ـ وهو دون العَدْو ـ ويستعمل فى الجدّ فى الأمر خيرًا كان أو شرًّا ، وأكثر ما يستعمل فى الأفعال المحمودة ـ كما قال الراغب ـ (مَحْظُورًا) : ممنوعاً .

التفسير

١٨ ـ (مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ) :

بين الله قبل هذه الآية أنه تعالى لايهلك أمة عاصية إلا بعد أن يبعث إليها رسولا يأمر مترفيها أن يتركوا ماهم عليه من الكفر والمعاصى حتى تستقيم عامتهم ، وأنهم إذا أصروا على فسقهم دمرهم واستأصلهم ، وأنه قد أجرى هذه السنة فى كثير من القرى والأمم من بعد نوح ، وجاءت هذه الآية وما بعدها لتبين سنة أخرى لله تعالى فى جزاء الناس على أعمالهم ، فمن قصدبعمله دنياه وحدها ، أعطاه منها ما تعلقت به مشيئته ، ولكنه معاقب فى الآخرة ، ومن قصد بعمله أخراه وكان مؤمنا أثيب أحسن الثواب فى أخراه .

والمعنى : من كان يقصد بعمله منافع هذه الدار العاجلة ، من الاستمتاع بما فيها من المتع واللذائذ والذكر الحسن بين الناس دون أن تخطُر الآخرة بباله ، أو يبتغى بعمله وجه ربه - كما هو شأن الكافر والمنافق - فإن الله تعالى يعجل له فى هذه الدار ما شاء تعجيله له من نعيمها ومنافعها ، لا كل مايريده العامل للدنيا .

وليس بضرورى أن يجيبه فيها إلى شىء من مآربه ، فإنه لايعطى إلا من أراد إعطاءه فإن أعطاه فعلى سبيل الاستدراج والكيد بسبب إصراره على الكفر ، وليس على سبيل الجدارة والاستحقاق - كما قال تعالى : « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ». وقد بين الله عاقبة هذا الصنف من الناس بقوله :

(ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً) :

أى ثم جعلنا له جزاء على إهداره أخراه وإيثاره دنياه ، جعلنا له جهنم يدخلها ويقاسى حرها ، ولا يقتصر أمره على ذلك ، بل يضاف إليه الذم والإهانة والطرد من رحمة الله تعالى ، فلهذا قال : « يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً » فما أسوأه من مصير ، وفى مثل ذلك يقول الله تعالى فى سورة الشورى : « وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ » .

١٩ - (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً) :

أى ومن قصد بعمله الدار الآخرة وحسن الجزاء فيها ، وجدّ فى عملها اللائق بها وهو مصدق بربه ونبيه تصديقاً واثقاً لاتشوبه شائبة موهنة ، فأولئك المصدقون المريدون الآخرة العاملون من أجلها كان سعيهم المتواصل مقبولا عند الله مثابا عليه أضعافاً مضاعفة ، كما قال تعالى فى سورة الشورى :[1] « مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ » .

٢٠ - (كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) :

أى كلا ممن يسعى للعاجلة ومن يسعى للآخرة نمده ونزيده مرة بعد أخرى ، بحيث يكون اللاحق مددا للسابق - نمدُّ هؤلاء وهؤلاء - من عطاء ربك ونعمته ، فصاحب العاجلة يمده الله حسب مشيئته تعالى بالنعم الدنيوية التى سعى إليها وآثرها على الآخرة ، ولم يعطها حقها من

(١) أول الآية (١٠) منها .

الشكران والطاعة والإيمان ، وصاحب الآخرة يمده ربه بما يعينه على طاعته وشكره ، ويستتبع حسن مثوبته ، وما كان عطاء ربك أيها المكلف ممنوعاً عمن يريده ، بل هو فائض على مايشاؤه الله بموجب حكمته ، ولا يمنع بره عن عباده كفر ولا عصيان ، وسيجزى كلٌّ فى أخراه على ما قدمت يداه .

(ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(فَتَقْعُدَ) : القعود هنا بمعنى الإقامة أو المكث ، سواءٌ أكان فى مكثه قاعدا أم قائما وقيل القعود بمعنى الصَّيرورة ، من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة ، أى حتى صارت كأنها حربة ، وقيل غير ذلك . (مَّخْذُولاً) : أى عديم النصير .

التفسير

٢١ – (انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً) :

الخطاب فى هذه الآية لكل مكلف ،فالله تعالى يدعوه فيها إلى التأمل فى فضله وتمييزه بعض الناس على بعض فى الرزق والنعمة فى الحياة الدنيا – دون نظر إلى عمل ، ويبين أن التفاوت فى الآخرة بين عباده سيكون أعظم ، تبعاً لتفاوتهم فى الدنيا فى العمل .

والمعنى : انظر أيها المكلف وفكر فى تفضيل الله بعض الناس على بعض فى الرزق فى هذه الحياة الدنيا من غير نظر إلى إيمانهم وكفرهم ، فقد يكون الكافر أوسع نعمة وأعظم

جاها من المؤمن فى الدنيا ، وقد يكون العكس ، لأن العطاء فى الدنيا لا ينظر فيه إلى العمل غالباً ، بل هو كرم غير مشروط ، وتذكير وامتحان يستتبع الجزاء .

وهذا التفاوت الذى تراه فى الدنيا لا قيمة له بجانب التفاوت الذى سوف يكون فى الآخرة ، فإن التفاوت فيها سيكون أعظم ، ودرجات التفضيل ستكون أكبر ، تبعاً لتفاوتهم إيماناً وكفرا ، وطاعة وعصياناً ، فبعضهم فى أعلى عليين وبعضهم فى أسفل سافلين ، وغيرهم من سائر الخلق متفاوتون فى الدرجات أو الدركات ، وقد جاء فى تفاضل أهل الجنة فى الدرجات عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ أهلَ الجنة لَيَتَرَاءَوْن أهل الغرف من فوقهم ، كما يتراءون الكوكب الدرى العابر من الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا يارسول الله : تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم؟ قال : بلى . والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلينَ » أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم .

وقد صح أنه تعالى أعد لعباده الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وروى ابن عبد البر فى (الاستيعاب) عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضى‌الله‌عنه وفيهم سهيل بن عمرو القرشى ، وكان أحد الأشراف فى الجاهلية ، وأبوسفيان بن حرب وأولئك المشايخ من قريش ، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر — وكان يحبهم — فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ، ونحن جلوس لا يلتفت إلينا ، فقال سهيل — وكان أعقلهم — : أيها القوم . . إنى والله قد أرى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتُم ، أمَا والله لَمَا سبقوكم به من الفضل أشدُّ عليكم فوتا من بابكم هذا الذى تنافسون عليه ... انتهى بتصرف يسير . . وفى الكشاف أنه قال : إنما أُتينَا من قِبَلِ أنفسنا ، إنهم دعوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر . . فكيف التفاوت فى الآخرة ؟ ولئن حسدتموهم علىَّ باب عمر ، لَمَا أعد الله لهم فى الجنة أكبر .

٢٢ - (لَاتَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً) :

أى لاتجعل أيها المكلف مع الله إلٰها آخر تشركه معه فى الألوهية - وتتجه إليه معه بالطاعة والعبودية ،فيترتب على هذا الإشراك أنك تمكث فى جهنم جامعا على نفسك الخذلان من الله حيث يدخلك جهنم ، ومن الآلهة الشركاء حيث لاقدرة لها على أن تخلصك من عقاب ربك . ويترتب عليه أيضاً الذم من الله والملائكة والمؤمنين من عباده لأنك اتخذت إلٰهاً فقيرًا مثل فقرك ، عاجزا مثل عجزك ، لايملك لنفسه نفعاً ولاضررًا ، كما لاتملك لنفسك ، ونسبت إليه ما لايصلح ، وجعلته شريكاً لمن لا شريك له ، وهو الذى خلقك ورباك ، وبرزقه كفاك ، نعوذ بالله من الشرك خفيه وظاهره ، ونسأله العافية وحسن الختام .

* (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(وَقَضَىٰ) : وأمر أمرا قاطعاً .. (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا) : أى إن وصلا أو أحدهما إلى الشيخوخة والكبر فى كنفك وكفالتك . (أُفٍّ) : اسم صوت يدل على الضجر . (وَلَا تَنْهَرْهُمَا) : أى ولا تنهما عمالا يعجبك بغلظة . (قَوْلاً كَرِيماً) : أى قولًا ليناً جميلا يقتضيه حسن الأدب . (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ) : أى ألِنْ جانبك شفقة عليهما

وتواضعاً وتذللا لهما ، كالطائر يخفض جناحه شفقة على أولاده .

(الأَوَّابِينَ) : الرّجاعين التائبين .

التفسير

٢٣ - (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ) :

بعد أن نهى الله كل مكلف عن أن يجعل مع الله إلٰها آخر ، لأنه لا رب سواه أتبع ذلك بيان أن الله قضى أمرا قاطعاً ألا يعبدوا إلا الله ، وأن يُحسنُوا إلى والديهم . .

والمعنى : أمر ربك يا محمد أن يوحده عباده بالطاعة ولا يشركوا به أحداً فهو ربهم وخالقهم ومدبر أمرهم ، وصاحب الآلاء والنعم التى ينعمون بها ، يدركون بعضها ويخفى على كثير منهم معظمها ، ويعييهم ويعجزهم عدها وحصرها ، ونواصيهم بيده . « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ » فمِن خطل الرأى - إذن - وسوء التقدير أن يشركوا معه إلٰها آخر ، لايضر ولا ينفع ، ولا يملك من أمر نفسه موتاً ولا حياةً ولا نشورًا .

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) : وكما حكم وألزم الأولاد أن يحسنوا إلى والديهم بالقول الطيب والرعاية التامة والقيام بشأنهما ، فهما أحق الناس بحسن الصحبة ،ورضا الله فى رضاهما وسخطه فى سخطهما .

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) : أى إذا تقدمت بهما أو بأحدهما السِّن وانتهيا إلى ضعف بعد قوة ، ومرض بعد صحة ولم يستطيعا القيام على أمرهما ، وتدبير شأنهما لما أصابهما فى الكبر من وهن الجسم وإلحاح العلّة وضعف التفكير ، وتلك الحال مظِنَّة أن يصدر منهما ما يغضب أو يثقل على النفوس ، أو يعوق عن سعى فى الدنيا أو يكثر النفقة ويرهق الأسرة ويشق عليها - إن حدث ذلك - فلا تقل لوالديك الكبيرين أو لأحدهما ما يدل على ضجرك ، أو يسىء إليهما ، من قول بعيد عن حسن الأدب ، أو فعل لا يليق من الولد لأبيه ، فقد غذاه مولودًا ، وعاله يافعًا ، وسهر ليله لسقم أصابه ، أو مرض ألمّ به ، أيكون جزاء هذا الأب الحانى غلظة القول وجفاء الخلق ؟ أو يكون جزاء الأم الرؤوم أن تقابل بما يكسر قلبها ، ويثير ألمها وينال من كرامتها ، وهى التى كان بطنها له وعاء ، وثديها

سقاءً ، وحِجْرها مهادًا ووطاءً ، تؤثره على نفسها ، وتَفْدِيه بروحها ، هذا فضلًا عن أن الجنة تحت أقدامها ، فَبرُّها خير وبركة ، وغنى وسعادة ، وبالجملة فبر الوالدين ينبغى أن يكون فى أجمل وأبهى حلله فإنه بعض الوفاء لِفضلهما « هَلْ جَزَآءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسانُ » وإن من سوء الطالع أن يعق الولد أبويه ، فيقابل الحسنة بالسيئة ، والنعم والفضل بالجحود والكفران ، والعناية بالترك والإهمال ، إن فى هذا لَبَوَارًا وخسرانًا فى الدنيا ، وغضبًا من الله وحرمانًا من رضوانه فى الآخرة .

٢٤ ـ (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا) :

أى إن حق الوالدين لايقف عند إخفاء الضجر والبعد عن الانتهار والزجر ، ولا عند الإحسان بالقول الطيب واللفظ اللَّين كما جاءت به الآية السابقة ، بل إن وراء ذلك ما جاءت به هذه الآية من أن تبسط لهما من نفسك ، وتخفض جناح الذل منك كما يخفض ويبسط الطائر جناحه على فراخه رعاية وشفقة وحنانًا ، بحيث لا يشوب هذا الخفض تكلف ولا تصنع ولا رياءٌ ؛ ولا تخالطه رائحة استعلاءٍ أو يشم منه أثر كبر أو مَنٍّ ، بل يكون ذلك عن رحمة لمن أسدى إليك معروفًا وقدم إليك برًّا ورعاية ، وقد أتاح الله لك فرصة فاغتنمها بأداء بعض ما عليك لهما ، والوفاء بما لديك من دَيْنهما ، فهما مفتقِران إلى من يأخذ بأيديهما ويعطف عليهما ويقوم على برهما فى كبرهما ، وأنت أولى الناس بهما ، ثم لايقف بك الأمر عند هذا بل توجه إلى الله بقلب ضارع تَقِيٍّ أن يرحمهما برحمته الواسعة فى الدنيا والآخرة ، فتكون بذلك نعم الولد الذى يدعو لوالديه فيصلهما بره حتى بعد وفاتهما ولا ينقطع عملهما وأنت تدعو لهما ، وهذا الدعاءُ جزاءُ تربيتهما لك ، ورحمتهما بك ، فقل : رب ارحمهما كما ربَّيانى صغيرًا ، فتكون نعم المجازى والمكافىءُ . . وفى أمر الله الولد أن يدعو لوالديه بالرحمة مع قيامه ببرِّهما والإحسان إليهما ، ما يشير إلى أن الولد مهما بذل وأعطى وأحسن إلى والديه فلا يستطيع أن يوفيهما حقهما ، وأنه لا يفى بذلك الحق سوى الله تعالى ، فلذلك يدعوه سبحانه ليجبر عنه النقص فى برهما . . هذا وإنَّ برَّ الوالدين لا يتوقف على كونهما مسلمين أو طائِعيْن . . بل يشملهما ولو كانا فاسقين أو كافرين ولكنه لا يطيعهما فى كفر أو فسق ، قال تعالى : « وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » وله أن يدعو لأبويه الفاسقين بالغفران والرحمة بعد موتهما ، طمعًا فى فضل الله ، ولكن ليس له أن يدعو لهما بذلك إن كانا كافرين ، لقوله تعالى : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .

وعليه أن ينصح والديه الفاسقين أو الكافرين فى رفق ولين ، فإن وفقه الله تعالى فمن فضله عليه وعليهما ، وإلا فقد أعذر لربه كما أعذر له إبراهيم عليه السلام فى نصح أبيه آزر : « يَآأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا » الآيات من سورة مريم .

هذا وإنَّ بر الوالدين لا ينقطع بموتهما ، بل جعله الله موصولًا بعد وفاتهما إكرامًا لحقهما وتوكيدًا لمكانتهما .

فعن أبى أُسَيْدٍ وهو مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه قال : « بينَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْد رَسُول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم . إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلمَة فقال : يَا رَسُول الله هَلْ بقِيَ مِنْ بر أَبَوَيَّ شيءٌ أَبرُّهُمَا بِهِ بعْد مَوْتِهِمَا ؟ فقال : نعم الصلاة عليهما ، والاسْتِغْفَارُ لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما »[1] .

٢٥ – (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا) :

أى إن الله الذى خلقكم ورباكم بنعمه وفضله أعظم علمًا بما انطوت عليه صدوركم وما انعقدت عليه قلوبكم : « أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » فإن كنتم من الذين مَنَّ الله عليهم بالتقوى وجعلهم فى زمرة الصالحين ورجعتم إليه تائبين ،فإنه سبحانه يتفضل عليكم بالتجاوز عما وقع منكم ، من تقصير بَدَرَ منكم بمقتضى الجبلة البشرية التى هى مظنة الجهالة ، فإنه كان ولا يزال غفورًا للتوابين ، وفى هذه الآية وعد صريح وبشارة واضحة للمُطيع البار ، وإنذار ضمنى للعاصى المعاند ، فالله سبحانه يحاسب كلاً على عمله ونيته « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوَى » .

---

(١) رواه أبو داود .

(وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) : وأعط صاحب القرابة حقه من البر والصدقة .

(وابْنَ السَّبِيلِ) : المسافر فى غير معصية الذى لا مال معه .

(وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) : التبذير إتلاف المال فى المعاصى أو الترف .

(إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) : أى أصحابهم المطيعين لهم . (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ) : أى وإن أعرضت عن إعطاء أصحاب القرابة والمسكين وابن السبيل لعدم وجود ما تعطيهم إياه من البر. (فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) : فقل لهم قولًا سهلًا ، بوعدهم بالعطاء عند اليسر أو الاعتذار لهم. (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ) : أى ولا تبخل بخلًا شديدًا ، كأنَّ يدك مغلولة إلى عنقك. (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) : بالتبذير المنهى عنه. (مَحْسُورًا) : مغمومًا نادمًا على إسرافك. (يَبْسُطُ الرِّزْقَ) : يوسعه .

(وَيَقْدِرُ) : يضيق الرزق حسب مشيئته تعالى وحكمته .

التفسير

٢٦ - (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) :

بعد أن أمر الله المسلم بأداء حقوق الوالدين أمر - سبحانه - برعاية الأقرباء وذوى الأرحام بالنفقة الواجبة والعطاء والصلة ، فإن ذلك يديم الود ويبقى على التراحم ، كما أمره أن يشمل بره وفضله إخوته فى الإسلام والإنسانية ، فيحنو على مسكينهم يخفف عنه شدة الحياة ولأواءها ، بمنحه مما أفاء الله عليه ما يقيم به أوده ويسد خلته ، ويبقى على إنسانيته غير ذليلة ولا مهينة ، كما يمتد عطاؤه إلى ذلك الإنسان الذى انقطعت به سبيل الحياة ، ونأى عن أهله وماله ، وأصبح غير معروف لأحد بنسب أو قرابة سوى أنه ابن للطريق الذى يسير فيه ، يعطى هذا المُنْبَتّ ما يبلغه أهله ووطنه رحمة به وتوطيدًا للأخوة ، وبذلًا للمعروف واستجابة لداعى المروءة ، بهذا قد حدد الله لنا مجال البر وإطار الخير ،فلا خروج عنه إلا إلى مباح فى اعتدال ، إذ لو جنح صاحب المال عما أمر الله وأحل ، فإنه يكون مبذرًا ، ويصير من إخوان الشياطين ، كما قال الله تعالى :

٢٧ - (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) :

يعنى أن المبذرين الذين يصرفون أموالهم فى المعاصى ، والترف الواسع ، يشبهون الشياطين ويماثلونهم ويتأسون بهم فى كفران النعمة لصرفها فيما حرم الله ، أو يتلقونها فى ترفهم وينسون المبرات ، فإذا ساروا على طريقتهم هذه ولم يرجعوا إلى ما شرعه الله ، حشروا فى النار مع قرنائهم وأمثالهم من الشياطين الذين يسيرون وفق إغوائهم ، ويسلكون سبيلهم ، والجزاء من جنس العمل .

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا) : أى أن الشيطان دأب على كفران النعم ، حيث إنه يصرف القدرة التى منحها الله له إلى المعاصى والإفساد فى الأرض وإضلال الناس ، وكان حقها أن تصرف فيما خلقت له ، فى عبادة ربه وطاعة مولاه « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » فاحذروا أن تتشبهوا بالشياطين فى الجحود والكفران ، حتى لا تكون عاقبتكم البوار والخسران كعاقبتهم .

٢٨ - (وَإِمَّا[1] تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا) :

أى وإن أعرضت وملت عن هؤلاء الأقارب والمساكين وأبناء السبيل فلم تحقق لهم

(١) إما مركبة من إن الشرطية وحرف ما . والغرض من وصل (ما) بإن الشرطية هو تقرير الشرط وتقويته .

مايطلبون أو لم تمنحهم ما يؤملون ، وذلك لعسر أصابك ، أو فقر نزل بك ، وأنت تتطلع وترجو من ربك أن ييسّر لك ويفرج كربك ، واثقًا بفضله طامعا فى رحمته - إن أعرضت عن هؤلاء لذلك - فاعتذر لهم بالقول الطيب والكلام اللين والدعاء ، مع الوعد الجميل ببرهم ، عندما يزول عذرك ، لتسر نفوسهم وتفتح باب الرجاء أمامهم ، وهذا تأديب وتوجيه يبقى المودة ويديم الألفة بين المؤمنين ولله در هذا الشاعر حيث يقول :

إلاَّ تَكُنْ ورِق[1] أجود بها ... للسائلين فإنى لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقى ... إما نوالى وإما حسن مردودى

٢٩ - (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) :

أمرنا الله فيما تقدم بالإنفاق فى البر ، وجاءت هذه الآية ليعلمنا الله أدب إنفاق المال ، فنهانا - سبحانه - عن البخل والشح وعن الانطلاق فى البذل .

والمعنى : ولا تجعل يدك - كالمغلولة الممنوعة بالغُلّ عن الانبساط فى الإنفاق ، بل تَعَوَّدْ بسط اليد والسخاء والجود حتى لا يلومك ويعتب عليك أهلك ، ويذمك من يعرفك من أصحابك وعشيرتك ، ويَمَلَّكَ أهلك وولدك ويتمنوا هَلَاكَكَ ، ولا تسرف فى الإنفاق وتتجاوز الحد ، فتكون كمن بسط يده ونشرها فضاع ما كان فيها من مال ، بل تدبر أمر مستقبلك أنت ومن تعول حتى لا تضيعهم فترجع ملوما من الله تعالى ومن الناس ومن نفسك إذا احتجت كما تصير بهذا الإسراف كليلا منقطعا ، كالذى بلغ الغاية فى التعب والإعياء ، فلم يستطع مواصلة سيره ، فعليك أن تكون وسطا بين الإفراط والتفريط ، متصفا بصفات عباد الرحمن الذين قال الله فيهم : « الَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا » ويلاحظ أن الإسراف قد يؤدى إلى الإثم إن أضاع العيال ، قال صلى الله عليه وسلم : « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ » .

٣٠ - (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) :

أى إنَّ بسط الرزق وتوسعته وقبضه ليس لك ولا هو من شأنك أيها المربوب الضعيف الذى لا تعلم أمر نفسك وما يصلحها ، ولا تقدر على تدبير شأنك من غير معونة ربك ، فهو الذى

(٢) الورق . . . بكسر الراء - الدراهم المضروبة .

يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه ، وأنت مأمور منه سبحانه أن تكون معتدلًا فى الإنفاق فى حالتى الفقر والغنى ، وأن تسعى فى سبيل رزقك ، والله يعينك فى سعيك إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ، يعطى عباده حَيْثُمَا جرت به مشيئته وحكمته فمن حكمته تعالى ـ أن يغاير بين الناس فى الفقر والغنى ، ليستقيم أمر الحياة وينتظم شأنها ، فطائفة تيسر لعمل، وثانية تسخر فى آخر ، وهكذا ييسر الله كلا لما خلق له فتسير الحياة ويستقيم أمر الخلق ، ولوجعل الله الناس على حال واحدة لاختل النظام وفسد وانتهى أمر الخلق إلى فوضى ، وتعطلت جوانب كثيرة من حياة الناس ، وصدق الله حيث يقول : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ »(١) .

(وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ) :خوف فقروفاقة . (خِطْئاً كَبِيراً) : ذنبا عظيما وخطيئة كبيرة ، والخِطْءُ بكسر الخاء تعمد الذنب ، قال الأزهرى : خطِئ يخطأ خِطْئًا ـ بوزن علم يعلم علما ـ

(١) سورة الزخرف : من الآية (٣٢)

إذا تعمد الخطأ ، مثل أَثِمَ يأْثَمُ إِثْما ، وأخطأ إذا لم يتعمد ، إخطاء وخَطَأ .

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ) : ولا تدخلوا فى شىء من مقدمات الزنى ، فضلا عن مباشرته .

(فَاحِشَةً) : فعلة سيئة ظاهرة القبح . (لِوَلِيِّه) : لوارثه الذى له المطالبة بدمه فإن لم يكن له ولى فالسلطان وليه ، (سُلْطَانًا) : تسلطا واستعلاء على القاتل ومؤاخذته بالقصاص أو الدية .

(فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ) : بأن لا يقتل غير القاتل ولا يمثل بالمقتص منه . (يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) : يصل إلى حد الرجال ، ويبلغ وقت اشتداد قوته فى البدن والعقل وتدبير المال وصلاح الحال .

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ) : اجعلوه وافيا كاملا مضبوطا بلا خديعة .

(بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : بالميزان العادل .

(وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) : وأحسن مآلا وعاقبة فى الدنيا والآخرة .

التفسير

٣١ - (وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) :

بعد أن بين الله - سبحانه - فى الآية السابقة أن أمر الرزق بيده توسيعا وتضييقا نهى عباده فى هذه الآية عن قتل الأولاد مشفقين من فقر ينالهم .

والمعنى : ولا تقتلوا أولادكم خوفا من فقر ينالكم بسبب قيامكم بالإنفاق عليهم ، لأن قتلهم كان فى شرع الله منذ القدم إثما عظيما ، لا يقع إلا ممن لا يؤمن بربه ولا يتوكل عليه ، فنفسه خواء وقلبه فارغ ليس به أثر إيمان ولا بقية يقين ، إن هذا العمل الشائن الفاجر ذنب كبير ناشىء عن تزيين الشركاء من الجن أو سدنة الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله ليوقعوا الآباء فى مهاوى الضلال والفساد والهلكة قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ »[(١)] . فلو تركتم - أيها المشركون - عبادة غير الله وآمنتم بربكم حق الإيمان لعلمتم أنه - سبحانه - قد تكفل بأرزاق خلقه جميعا : « وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا »[(٢)] .

(١) سورة الأنعام : من الآية رقم ١٣٧ .

(٢) سورة هود ، : من الآية ٦ .

وليس عليكم إلا أن تتخذوا للرزق أسبابه التى يسرها الخالق - سبحانه ،واعلموا أن أولادكم الذين تتوهمون أنهم مُنْتَقِصون من أرزاقكم إنما يرزقهم الله معكم لا تبعًا لكم ، فمن الهمة القاصرة والعزيمة الخـائرة أن يستبد بكم هـذا الوهم ، فتقدموا على فعلتكم الشنعاء هذه .

وفى هذه الآية قدم ضمير الأولاد فى منح الرزق على ضمير المخاطبين إذ قال : « نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » ليبين للآباء أن رزق الأولاد محل عناية واهتمام من الله تعالى فليس هناك داع - إذًا - للإشفاق والخوف من وقوع الفقر ،وقدم ضمير الآباء فىسورة الأنعام فى قوله تعالى : « نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ » للمبادرة بطمأنة الآباء على أرزاقهم وأنها واصلة إليهم لامحالة فلا موجب لقتلهم أولادهم - وفى التعبير بلفظ كان فى قوله تعالى : « إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا » إيذان بأن هذا الفعل الأثيم كانت تأباه كل الفطر السليمة وترفضه الطبائع الكريمة وجميع شرائع الله تبارك وتعالى التى أنزلها على أنبيائه من قبل ، فهى شريعة موروثة ، فكيف ساغ لهم الإقدام على قتلهم .

٣٢- (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا) :

وبعد أن نهى - سبحانه - فيما سبق عن قتل الآباء أولادهم ، وبين أن قتلهم هو جرم فاحش وذنب كبير ، حذر فى هذه الآية من الدنو من الزنى ، وبين أنه كان فى عرف الناس وشريعة الله فعلة ظاهرة الفحش ، وساء طريقا فى الحياة ، والتحذير من القرب من الزنى تحذير من مباشرة دواعيه وأسبابه ، ولهذا أمر كلا من المؤمنين والمؤمنات بغض البصر فالنظرة الآثمة سهم من سهام إبليس وهى بداية كل شر ،كما نهى ومنع خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية ، لأن الشيطان يجيد السفارة فيها ، فيوسوس لكل منهما ، ويزين الشر ويأمر بالفحشاء ، وفى الأثر : « ماخلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » كما نهى سبحانه أن تبدى المرأة زينتها لرجل لايحل له ذلك منها ، فإن فعل ذلك يحرك الرغبة الآثمة بينهما ويدعو إلى الفجور .

ومما يؤدى إلى الفاحشة أن تلين المرأة وتخضع فى كلامها ، فيطمع فيها من فى قلبه مرض الفحش وداءُ الرغبة الآثمة فى الفساد ،هذا هو تحذير الله عباده من أن يقربوا الزنى فما بالهم إذا قارفوه وفعلوه ووقعوا فيه ، إنه سبب فى اختلاط الأنساب وهتك الأعراض وتفكك المجتمع ، وشيوع الرذائل ، وذهاب الإنسانية الفاضلة والنزول بها إلى درك الحيوانية ، فضلا عن أن من يمارس ذلك يذهب بهاؤه وتهون منزلته ،ويفضح فى أهله ، فالزنى عمل بالغ الفحش ، سيء المغبة ، وخيم العاقبة ، وساء طريقا ، فهو يورد صاحبه موارد الهلاك ، وينزل به إلى منازل السفلة ، الذين ينأى عن صحبتهم كل طاهر كريم عفيف .

٣٣ـ (وَلَاتَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . . الخ) الآية .

أى ولا تعتدوا بالقتل على النفس الإنسانية التى حرم الله قتلها وجعلها مصونة لايجوز الاعتداءُ عليها ، مالم ترتكب جرما يقتضى قتلها ، كما إذا ارتد مسلم أو قتل مؤمنا عمداً أو ثبت زناه بعد إحصان ، فقد روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لايحل دم امرىءٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

فإذا اعتدى إنسان على آخر بالقتل دون ذنب أو جريرة تُحِل ذلك القتل ،فقد جعل الله لقريب ذلك المقتول ووليه حق المطالبة بدمه ،فإن شاء هذا الولى القصاص فهو حقه وإن شاء أخـــذ الدية فذلك له أيضا ، وإن شاء عفا ، والسلطان ولى من لا ولى له ، وبما أن الله ـ جل جلاله ـ قد أعطى الولى الوارث للقتيل هذا الحق فالواجب عليه ـ عند استيفاء القصاص ـ ألا يسرف فلا يقتل غير القاتل ولايندفع إلى الأخذ بالثأر على غير بينة .

أو إثبات ، وليس جعل الحقوق المذكورة لولى الدم مقتضيا أن يباشرها بنفسه ،بل عليه أن يرفع الأمر إلى القضاء ليصدر حكمه فيها بما تقتضيه القواعد الشرعية ،فإن قضى بالقصاص أمر من يباشره حتى لايندفع الناس إلى القتل جزافا وَلِأَوْهَى الأسباب ، وإنما حرم الله ذلك الإسراف لأن الله قد نصر ذلك الولى وأيده ، حين شرع القصاص وأعطاه حق المطالبة به فما وراء ذلك فهو عدوان وجور .

٣٤ــ (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ):

وكما نهاكم الله تعالى عن أن يقتل أحدكم غيره إلا بحق فقد نهاكم أيضا عما يشبه القتل وهو أكل مال اليتيم بغير حق ، فلا تقربوا ماله بسوء فتجمعوا عليه بين فقد الوالد وحنان المربي ، وبين ضياع المال الذى يقوم عليه أمره ويصلح به شأنه ، إن هذا الاعتداء لؤم وخسة وقسوة على إنسان ليس لديه قدرة على الدفاع عن نفسه ، إن الرحمة والمروءة تقتضيكم أن تقربوا ماله بما يحفظ أصله ، وينمى فرعه ، بهذا تكونون قد قمتم على أمر هذا المال بأحسن الطرق ، وأفضل الوسائل التى تعود على صاحبها بالنفع والخير ، وداوموا على إصلاح ذلك المال حتى يبلغ اليتيم أشده ، بوصوله إلى سن الرشد ، ونمو عوده وقوة جسمه ، وزيادة خبرته ومعرفته ، ونمو تجربته وقدرته على التصرف الحسن والسلوك القويم ، فإذا بلغ راشدا فعليكم أن تدفعوا إليه ماله غير منقوص ، ولا تمسوا ماله بسوء بعد ذلك .

(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً) : وكونوا أوفياء بكل ما عاهدتم الله على القيام به ، من تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ، وفى جملة ذلك رعاية اليتامى وما عاهدتم الناس عليه مما يصح فيه العهد شرعا ، فلا تخيبوا رجاءهم ، ولا تقطعوا آمالهم التى عقدوها عليكم فى إصلاح أمرهم ، إن العهد سيسألكم عنه ربكم يوم القيامة ، فأوفوا به ولا تضيعوه .

وأظهر العهد إذ قال : «إِنَّ الْعَهْدَ» ولم يقل إنه ــ لكمال العناية بشأنه والحث على الوفاء به ، وإنما عبر بقوله : «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً» مع أن السؤال لصاحب العهد على سبيل المجاز ، والمراد أنه مسئول عنه يوم القيامة . فيقال لصاحبه : لِمَ نَكَثْتَ عهدك وضيعته ولم توف به ؟ فيجمع الله عليه التبكيت مع العقوبة على عدم الوفاء به .

٣٥ــ (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ) :

واجعلوا الكيل وافيا عادلا ، لانقص فيه إذا كلتم لغيركم ، واكتفى بالأمر بإيفاء الكيل عند البيع عن الأمر بتعديله عند الشراء من الناس ، لأنه يُؤْذِنُ بحرص الشارع على وصول الحق إلى صاحبه ، فكما لا يبخسه حقه عندما يبيع له ، كذلك لا يظلمه عندما يشترى منه ، وقد جاء النهى صريحا عن التطفيف فى الجانبين فى قوله تعالى : «وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ» .

(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : أى وَزِنُوا بالميزان السوى الذى لا خداع فيه ، ولا غش ولا تدليس، إذا وزنتم فإنه لايحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس منه .

(ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) : أى ذلك المذكور من إيفاء الكيل عند البيع ، والوزن بالميزان السوى المستقيم ، خير لصاحبه ولمن يعامله ، وأحسن مآلا ومرجعا عند الله تبارك وتعالى ، أما الكسب الحرام فهو كالوقود الفاسد لايُسيِّر الآلة . . بل يتلفها ويفسدها وربما يؤدى إلى احتراقها وقد تهلك صاحبها ، ولكن الكسب الحلال الطيب يبارك الله فيه ، فينمو ويزيد ويكون خيرا وبركة على صاحبه وأهله وولده ، إذ يبعث على الطاعة ويقوى على الخير ، ويقرب من الله ويدنى من الناس ، ويكون لصاحبه لسان صدق بينهم .

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾)

المفردات :

(وَلَا تَقْفُ) : . . ولا تتبع ، مأخوذ من قولهم قفوت فلانا إذا تتبعت أثره .

(مَرَحًا) : اختيالا . . . واستكبارا ، وفخرا ، والمرح شدة الفرح .

(الحِكْمَةِ) : الأمور المحكمة والأدب الجامع لكل خير .

(مَدْحُوراً) : مطرودا ومبعدا مقصيا فى النار .

التفسير

٣٦ - ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ :

أى لا تتبع مالا تعلمه ، فلا تقل بغير علم ولا تتهم بغير بينة ، ولا تقل سمعت وأنت لم تسمع ، ولا تشهد بالزور ، ولا تتبع الظن والحدس فى حق الناس ، فإنك بذلك تكون قد قلت مالا تعلم ، واتبعت ما ليس لك به علم وأخطأت بذلك فى حق الله وحق عباده وحق نفسك.

وهناك أمور يعمل فيها بالظن ، كالحكم على شخص معين بالإيمان تبعاً للظاهر ، وكالإفتاء بالأحكام الشرعية عن الأدلة الظنية ، وكالعلاج بالعقاقير التى يظن فيها الشفاء .

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ : أى أن كل واحد من أعضاء السمع والبصر والقلب كان صاحبه مسئولا عنه ، فلا يحل له استعمالها فى غير ما أحل الله تعالى ، فلا تتسمع إلى غيرك محاولا كشف عوراته ، ولا تلق بأذنك إلى مالا يحل من فحش القول ، أو إلى ما يلهيك عن عبادة ربك ،وكن من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أما البصر فاغضضه عما لا يحل لك ولاتمده إلى ما متع الله به غيرك تحسده عليه ، بل عليك أن تنظر بذلك البصر ما يقربك من ربك ، وما يوصلك إلى رزقك ، أما قلبك فاحفظه من شيطان موسوس أو حسد قاتل مدمر أو عُجْب أو نفاق أو رياء ، فإن هذه الصفات وما يشبهها من الموبقات المهلكات ، واطرد حظ الشيطان من نفسك حتى لا يكون له عليك سلطان ، فيصبح قلبك سليما ، وتلقى ربك راضيا مرضيا فتدخل رحمته وتفوز برضوانه .

٣٧ - ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ :

أى لا تسر فى الأرض مختالا مسرفا فى فرحك ومرحك ، بل تواضع لله الذى خلقك ورزقك ، وهو قاهر لك قادر عليك ، فإن غلبك البطر والغرور لجاهك ، فاعلم أن الجاه نعمة من الله يمنحها ويسلبها ، وإن طغيت على غيرك لعافية وصحة بدن فتذكر أنها وديعة الله عندك يستردها متى شاء ، وإن دعتك نفسك الأمارة بالسوء إلى التكبر على عباده بمالك فاعلم أن الله يغار عليهم فهو ربهم وخالقهم ، وإن زهوت بالبنين فتذكر أنك ستقدم على ربك بعملك فحسب « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

(إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) : إنك مهما تخايلت بخطواتك واشتددت فى إيقاع أقدامك على الأرض ، فإنك لن تخرقها بخطوك ، ومهما تطاولت بهامتك كبرا وفخراً ورفعت رأسك تيها وعُجْبا ، فلن تساوى الجبال الشواهق بطولك أو تطاولك . فدع عنك الخيلاء والتعالى على الناس ، فأنت مخلوق ضعيف .

٣٨ - (كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) :

أى كل ذلك المذكور فى الأوامر والنواهى السابقة من الخصال كان السيء منه مكروها فى حكم الله وشرعه ، فدع ما نهاك عنه واستمسك بما أمرك به حتى لا تكون مبغضا من الله ، وبعيداً عن رضوانه ورحمته .

٣٩ - (ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) :

أى ذلك المذكور من الآداب . والأحكام التى جاءت فى الآيات المتقدمة ، هو ما أنزله إليك وحيا ، وجعله من الأمور المحكمة التى لا يتطرق إليها النسخ ، فهى موجودة فى جميع شرائع الله ، لأنها جامعة لكل أدب وخير ففيها محاسن الأخلاق ومحامد الشيم فلا تنسخ ولا تتغير باختلاف الشرائع .

(وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا) : أى واحذر أيها المكلف أن تتخذ مع الله إلهاً غيره « إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » فإن فعلت ذلك فقد حق عليك أن ترمى وتطرح فى نار جهنم فى مهانة وذلة ، وأنت ملوم من نفسك على ما اقترفت وملوم من الملائكة خزنة جهنم حين تعنفك فتقول لك ولأمثالك : « أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا » فتجيبون بذلة ومهانة وتقولون :

« بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ »[1] .

---

(١) سورة الزمر : من الآية ٧١

(أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا
إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ
لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ
كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ
وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن
لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ) : أفضلكم ربكم فآثركم بصفوة الأولاد .

(عَظِيماً) : أى كبيرا ، والمراد به هنا الأمر البالغ النُّكْرِ والقبح .

(صَرَّفْنَا) : بَيَّنَّا المعانى بوجوه وصور مختلفة .

(نُفُوراً) : إعراضا . . . ، (لَّابْتَغَوْا) : لطلبوا مجتهدين فى الطلب .

التفسير

٤٠ - (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) :

بعد أن بين سبحانه - فساد طريقة من يجعل لله شريكا ونظيراً ، نبه فى هذه الآية على شدة جهل من أثبت لله الولد . . وخصه سبحانه بالإناث . .

والمعنى : أفضلكم ربكم على جنابه ـ سبحانه ـ فخصكم بأفضل الأولاد ، واختار لذاته أدناهم وأقلهم شأنا ، فإن دعواكم أن الله قد اختار الملائكة بنات له ـ سبحانه ـ تستلزم أنه اختار لكم البنين أفضل النوعين وأحبهما إليكم ،ورضى لنفسه البنات وهن أدناهما فى نظركم مع أنه هو الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لا حد له فكيف تنسبون إليه ما تسوءالبشارة به وجوهكم ، ويملأ الغيظ بسببه قلوبكم ، أتجعلون لله ما تكرهون دون حياء . فتلك قسمتكم جائرة ظالمة ، تدل على جهلكم بالله وسوء تقدير لعظمته ، إنكم بافترائكم على الله تعالى . . وقولكم إن الملائكة بنات الله تقولون قولا منكراً . . كبيراً فى الإثم تحاسبون عليه وتعذبون به أشد العذاب يوم القيامة ، فإنه تعالى واحد أحد « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يكن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ » .

٤١ ـ (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا . . وَمَا يَزِيدُهُم إِلَّا نُفُوراً) :

أى ولقد كررنا وأكدنا العبر والعظات والأحكام فى هذا القرآن المجيد بأساليب متنوعة ، ليتعظوا ويعتبروا فيهتدوا إلى الحق ، ويرجعوا إلى بارئهم رجاء فى ثوابه وخوفا من عقابه ، ولكنّ هؤلاء المجرمين الضالين المكذبين لا يريدون هداية ولا إرشاداً ، بل إنهم مع تكرار التذكير وتأكيد التوجيه إلى الخير ، لا يزدادون إلا تباعداً عن الحق وإصراراً على الباطل ، وإعراضا عن التدبر والاعتبار .

٤٢ ـ (قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّا بْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً) :

قل يأيها الرسول لهؤلاء المشركين المفترين العابدين للأصنام ،وغيرها من دون الله ـ قل لهم : لو صح ما تزعمونه وتفترونه ـ وهو وجود آلهة مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ لطلب هؤلاء الآلهة بكل جهدهم واجتهادهم أن يسلكوا طريقا إلى الله ذى السلطان والقهر ليشاركوه الأمر ، أو ينازعوه السلطة ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، لأن ماتزعمونه من آلهة هى فى الحق عاجزة لا تقدر على خير ولا شر ولا تملك من أمر نفسها شيئاً ، فضلا عن أن تملك أمر غيرها .

٤٣ ـ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً) :

تنزه سبحانه ، وتعالى علواً شاملا عما يقوله هؤلاء من نسبة الشريك والولد لله تعالى.. فالله جل جلاله هو الواحد الأحد لا شريك له ولا ولد .

٤٤ ـ (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) :

بعد أن بين الله لهؤلاء المشركين فساد زعمهم بنسبة الشريك والولد لله ، ونزه نفسه تنزيها كاملا عن ذلك ، جاء بهذه الآية ليبين لهم : أن الخلائق جميعها علويّها وسفليها ، عظيمها وحقيرها ، مايدركه الإنسان وما هو فوق إدراكه ، كل ذلك خاضع له معترف بقهره وسلطانه ونعمه وآلائه .

والمعنى : أن السموات السبع بأجرامها وكواكبها وأفلاكها وسكانها وجميع قواها وعناصرها. . . .وكذلك الأرض بما اشتملت عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد وغيرها ، كل أولئك يسبح وينزه حامدا الله تعالى بلسان الحال والدلالة كما تدل الصنعة على الصانع .

ولا نرى مانعا من أن يكون لهذه الكائنات تسبيح قولى غير مسموع منا وغير معروف الحقيقة والكيفية لنا ، كما يشير إليه قوله تعالى : « يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ »[1] . أى رجعى التسبيح مع داود ، وقوله سبحانه : « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ »[2] . أى سخرناها لتسبح مع داود فى وقتى العشى والإشراق ، ولولم يكن تسبيحا قوليا لَمَا قيد بهذين الوقتين كما يؤكد ذلك ظاهر قوله تعالى هنا : « وإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ».[3] لأن لغة الجمادات والحيوانات لايفقهها من البشر سوى من أوتى خاصية فهمها كداود وسليمان عليهما السلام ، وفيهما يقول الله تعالى؛ حكاية عنهما : « وَعُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ » . ولكنكم أيها الناس لا تفقهون تسبيحهم ولا تدركونه .

ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين الذين تقدم الحديث عنهم ، تقريعًا لهم ، والمعنى على هذا : وما من شىء إلا ينزه الله تعالى عن الشريك والولد ، ولكنكم أيها المشركون لاتعقلون

(١) سورة سبأ : من الآية ١٠ . (٢) سورة ص الآية ١٨ . (٣) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

تنزيههم هذا ، لأنكم لاتنظرون فى الكائنات نظر المتفكرين فى خلق الله ومع غفلتكم هذه وعنادكم فإن الله سبحانه أمهلكم فلم يعجل لكم العقوبة ، وذلك لحلمه عليكم ، لعلكم تثوبون إلى رشدكم وترجعون إلى ربكم ، فإذا تبتم وأنبتم كان غفران الله لكم وعفوه عنكم . . فإنه كان ولايزال كثير الحلم واسع المغفرة ، قابل التوب .

(وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن
يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ
وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ
بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ
إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ
ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا
عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾)

المفـردات :

(حِجَابًا مَّسْتُورًا) :أى غير حسِّى فهو لهذا مستور لايرونه. (أَكِنَّةً) :جمع كنان والكنان هو الغطاء الذى يُكَنُّ فيه الشىءُ أى يحفظ ويستر. (أن يفْقَهُوهُ) :أن يفهموه فهم تدبر وتأثر واستجابة . (وَقْراً) : صَمَماً مانعا من سماعه ، والوقر الثقل فى الأُذن .

(وَلَّوْا عَلَىٓ أَدْبَارِهِمْ) : انصرفوا على أعقابهم هاربين معرضين . (نُفُوراً) :جمع نافر وهو منصوب على الحال ـ أى نافرين ، والنافر المتباعد المتجافى ، أو مصدر نفر منصوب على المفعولية المطلقة لولَّوا ، لأنه بمعناه .

(وَإِذْ هُمْ نَجْوَى) : أى أصحاب نجوى يتناجون فيما بينهم بالافتراء والإثم ، والنجوى هى حديث السر بين من يَخْلُون بأنفسهم ليتناجوا فى خفية وإسرار. (رُفَاتاً) : والرفات الأجزاء المفتتة من كل شىء ينكسر ، وقيل الرفات والفتات ما تكسر وتفرق من التبن ونحوه ، والمراد هنا - والله أعلم - ما تصير إليه أجسادهم من التفرق بعد الموت .

التفسير

٤٥ - (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا) :

أى فإذا قرأت يا محمد القرآن تدبرا وعبادة لله ، وإرشادا وتعليما لقومك ، جعلنا بينك وبين المشركين الكافرين بالآخرة حجابا ساترا ، يمنعهم أن يدركوا ما أنت عليه من النبوة والرسالة وجلال القدر وعظيم المكانة ، حتى اجترءوا عليك ونسبوا إليك نقائص وعيوبا أنت منها برىء ، ومن ذلك قولهم : « إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا » .

٤٦ - (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا) :

هذه الآية مفسرة للحجاب المستور الذى جاء فى الآية السابقة ، وكأنه قيل :

وذلك الحجاب المستور هو أنا جعلنا على قلوب هؤلاء المشركين أكنة وأغطية تمنعهم من فقه القرآن ، والوقوف على كنهه ، كما أصبنا آذانهم بالصمم والثقل العظيم ليحول بينهم وبين سماعهم لكتاب الله سماعا لائقاً به ، فإنهم كانوا يسمعونه سماع استهزاء وسخرية لا سماع تأمل وتدبر ، وهذا المنع كان جزاء لهم على إعراضهم ، فلم ينعموا بنعمة الاهتداء إلى القرآن ، لإصرارهم على الجحود والإنكار .

(وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) : أى وإذا سمعك هؤلاء المشركون تقرأ من القرآن الكريم ما ينطق بتوحيد الله وتسبيحه ، أدبروا وفروا هروبا وانزعاجا من سماعه ، لأنه ينفرهم من أصنامهم ، وينهاهم عن عبادتها مع الله تعالى .

٤٧ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا) :

هذه الآية الكريمة فيها تسلية لرسول الله ، ووعيد لهؤلاء المستهزئين ، فقد أخبر الله رسوله بأنه - سبحانه - يعلم بحالهم الذى يستمعون به القرآن وقت استماعهم إليه حين يتلوه ، من الاستخفاف وإثارة اللغو والتصفيق والصفير ، وكما يعلم ذلك يعلم - سبحانه - أمرهم حين يتناجون فيما بينهم ويتهامسون عنه فى خلواتهم ، ويفترون عليه الكذب .

ويقول هؤلاء المشركون الضالون عن صراط الحق يقولون للناس إنكم حين تتبعون محمدا لا تتبعون إلا رجلًا قد أصابه السحر فاختلط عليه الأمر ، ويعقب الله هذه التهم بقوله :

٤٨ - (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) :

انظر يا محمد - عليك الصلاة والسلام - متعجبًا من حمقهم وسفاهتهم ، كيف تطاولوا عليك فزعموا أنك ساحر ، كما زعموا من قبل أنك كاهن وشاعر ومجنون ، فضربوا لك الأمثال فضلوا وبعدوا عن الحق وتحيروا فى أمرهم معك ، فهم لا يهتدون إلى الحق ولا إلى طريق ينال منك أو يصرف الناس عنك .

٤٩ - (وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) :

وقال هؤلاء المشركون - منكرين البعث مستبعدين له - : أئذا متنا وصرنا عظامًا وحطامًا مفتتًا ، نبعث من قبورنا ، ونخلق خلقًا جديدًا كما يقول لنا محمد ، وهذا القول منهم هو غاية الإنكار لأدلة الإمكان والوقوع ، أما الإمكان فلأن الله الذى خلق الناس ابتداء باعترافهم قادر على إعادتهم وبعثهم من قبورهم للحساب لأن الإعادة أيسر من الابتداء عادة ، وأما الوقوع فلأنه تعالى عادل فلا يعقل أن يترك المحسن دون إثابة ، والمسىء دون عقاب ، فلا بد من البعث لينال كل جزاء ما قدمت يداه .

*(قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(فَطَرَكُمْ) : خلقكم على غير مثال سابق .

(فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ) : يحركونها تعجبًا وسخرية .

(فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) : تلبون دعوته حامدين إياه على بعثكم بعد الموت ، وعلى ما يتصف به من عظمة وقدرة وحكمة ظهرت آثارها فى البعث بعد الموت .

التفسير

٥٠ ، ٥١ - (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ) :

الآية الكريمة إجابة عن سؤال الكفار السابق : «أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» .

والأمر بالقول موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلِّ داع بدعوته .

والمعنى : قل أيها الرسول لهؤلاء الجاحدين ، وليقل كل داع إلى الحق لأمثالهم : لماذا تستبعدون وتنكرون بعثكم بعد أن صرتم عظاما ورفاتا ، كونوا ما شئتم بعد الموت ولو حجارة أو حديدا أو خلقا مما يعظم فى نفوسكم ويعلو عن أن تحله الحياة فإنكم عائدون إلى الحياة .

(فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنا) : فسيقولون فى دهشة واستنكار من الذى يستطيع أن يعيد إلينا الحياة بعد هذا التحول العجيب ، من الحياة الدافقة المتحركة إلى الموت ثم إلى العظام والرفات ، فضلا عن التحول إلى الحجارة أو الحديد أو أشباههما ، وقد أمر الله تعالى أن يجابوا عن هذا التساؤل الذى لا مبرر له بقوله :

(قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) : أى قل لهم أيها الرسول : الله الذى خلقكم أول مرة من عناصر التربة الأرضية الجامدة الميتة على غير مثال سابق ، هوالذى يعيد إليكم الحياة وإن تحولت أجسامكم من عظام ورفات إلى حجارة أو حديد أو نحوهما ، والمعروف لنا أن الإعادة عند البشر أسهل ، ولكنها تحت قدرة الله لا توصف بالسهولة أو الصعوبة ، فكل الممكنات عنده سواء ، لأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم .

« إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون »[1] .

(فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا) :

أى فحينما يستمعون هذا الجواب سيحركون رءوسهم منكرين ساخرين قائلين فى دهشة وإنكار : متى يتم هذا البعث ؟ فقل لهم : سيكون هذا البعث قريبا ، لأن كل آت وإن طال الزمان قريب .

٥٢ - (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ) :

أى يتم بعثكم يوم يدعوكم إليه فتهبون من قبوركم ملبين دعوته ، كما قال تعالى : « ثُمَّ إِذَادَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ »[2] . والمقصود بالدعوة النفخة الثانية ، المعبر عنها بالصيحة فى قوله سبحانه : « يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ »[3] .

وعند بعثكم تلهجون بحمده تعالى مدركين عظمته وقدرته ، وأنه أهل للحمد والثناء ويزول عنكم هذا الإنكار والعناد ، بعد أن شاهدتم الحقيقة التى كنتم سمعتموها من رسولكم فى دنياكم .

---

(١) سورة يس : الآية ٨٢ (٢) سورة الروم : الآية ٢٥

(٣) سورة ق : الآية ٤١ ، ٤٢

(وَتَظُنُّونَ إن لَّبِثْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً) : أى تعتقدون عند البعث أنكم لم تلبثوا فى الدنيا أوفى الحياة البرزخية إلا زمنا يسيرا ، كما قال سبحانه : « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوآ إلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »[1].

(وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾)

المفـردات :

(يَنزَغُ) : يفسد ويغوى بالعداوة والبغضاء ويثير الضغائن والأحقاد .

التفسير

٥٣ - (وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) :

بعد أن بين الله جحود الكفار للبعث ومعاداة الحق أمر رسوله فى هذه الآية أن يقول للمؤمنين : عليكم أن تلهجوا بالقول الحسن وأن تتمسكوا به وأن تطبقوه فى حياتكم . . والمعنى : قل يا محمد لعبادى الذين آمنوا بى وشرفوا بالنسبة إلى ، قل لهم يقولوا الكلمة التى هى أحسن الكلام ، وأن يدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يقابلوا الإساءة بالإحسان فإن هذه سنة عباد الرحمن ، كما قال سبحانه فى سورة الفرقان : « وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً »[2].

وقيل : المقصود بالعباد جميع الناس فإنهم جميعا عبيد الله والنصيحة عامة لهم .

والمعنى على هذا : قل أيها الرسول لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم يأمرون بما أمر الله به وينهون عما نهى الله عنه .

(١) سورة النازعات : الآية ٤٦

(٢) سورة الفرقان : الآية ٦٣

(إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ) : إن الشيطان يفسد بين الناس ، ويثير بينهم العداوة والبغضاء ويبث فيهم الأحقاد والضغائن ، فيمزق شملهم ويفرق كلمتهم ، ويهدم وحدتهم ، أو يغريهم بالكفر والإلحاد وارتكاب الشرور والآثام ، فلهذا ينبغي أن يعالجوا بالكلمة التي هي أحسن .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) : أي إن الشيطان كان عدوا للإنسان واضح العداوة منذ أغوى أباهم آدم وأخرجه من الجنة ، فعليهم أن يتغلبوا على إغوائه بالتزام الكلمة الطيبة والقول الحسن ، ليردوه عن متابعة وسوسته وإغوائه ، فإنه يزين القبيح للإنسان ويجلوه أمامه في صورة حسنة ، فيدفعه إليه دفعاً ، ويقبح له الحسن فينفره منه تنفيرا .

(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(وَكِيلاً) : كفيلا .

(زَبُورًا) : الزبور هو الكتاب المنزل على نبي الله داود عليه السلام ، وهو كتاب ليس فيه تشريع ، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد .

التفسير

٥٤ - (رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ) :

بعد أن بين الله أحوال الكافرين ، ودعا المؤمنين إلى التزام القول الحسن وحذرهم من إغواء الشيطان ، خاطب المكلفين جميعا بأنه مطلع على أعمالهم وأقوالهم ونياتهم ، فإن يشأ

شملهم برحمته لأنه يعلم أنهم أهل لرحمته ، وإن يشأ عذبهم لأنه يعلم أنهم قصروا فى جانبه ، ومشيئته مرتبطة بحكمته « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[1].

(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً) : أى وما أرسلناك أيها الرسول كفيلا لهم ومسئولا عن طاعتهم أو معصيتهم ، فكل امرىء منهم بما كسب رهين .

« فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه »[2]

٥٥ ـ (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

أى أنه سبحانه يحيط علمه بكل من فى السموات والأرض « لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ » . فلهذا اختار من يعلم أنهم صفوة البشر أنبياء ، وفضل بعضهم على بعض ، كما قال سبحانه : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » . وكان تفضيلهم بالفضائل النفسانية والعلمية ، لا بكثرة الأموال والأتباع وغير ذلك من أمور الدنيا ، وأقربهم إليه خاتم الأنبياء والمرسلين الذى أرسله ربه رحمة للعالمين .

قال صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبي يومئذ ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر » رواه أحمد والترمذى وابن ماجه .

(وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) : خص الله سبحانه داود بالذكر مع دخوله فى الأنبياء قبله ، ليبين أنه عليه السلام ممن فضلهم الله على بعض الأنبياء وذلك بإنزال الزبور عليه ، وقد اشتمل على تسابيح الله وإشارات إلى جلاله وعظمته وقدرته وكان يرتله بصوت عذب شجى ، تردده معه الطيور والجبال كما قال تعالى فى سورة ص : « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ »[3].

---

(١) الكهف : من الآية ٤٩

(٢) الزلزلة : الآية ٧ ، ٨

(٣) ص : الآية ١٨ ، ١٩

وهذه الجملة « وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » تشير إلى أن الكتب المنزّلة على الأنبياء ، هى شهادة من الله بفضلهم ، وبمقدار مسئولياتهم فيها تتفاوت درجاتهم .

(قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(زَعَمْتُمْ) : ادعيتم كذبا .

(كَشْفَ الضُّرِّ) : إزالته .

(تَحْوِيلاً) : صرفًا وإبعادًا .

(الْوَسِيلَةَ) : الصلة أو السبب .

(مَحْذُورًا) : أى مخشيا مرهوبا .

التفسير

٥٦ - (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ) :

بينت الآيات السابقة أن علمه تعالى محيط بخلقه ، وأنه يرحم من يشاء ويعذب من يشاء طبقا لعلمه وعدله وحكمته ، وجاءت هذه الآية لتبين للمشركين عجز آلهتهم ، والمعنى : تضرعوا أيها المشركون إلى الآلهة الذين عبد تموهم من دون الله ، وانظروا هل تسمع إلى ضراعتكم ، أو تجيب دعاءكم أو تدفع عنكم الضر أو تجلب إليكم النفع .

(فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً) : أى أن هذه الآلهة المزعومة لا تستطيع ولا تملك أنْ تزيل عنكم ما يعتريكم من الضر، ولا تملك أن تحوله عنكم إلى غيركم، بل إنهم عاجزون لا محالة، لأنهم كما قال تعالى فى سورة الفرقان : « وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلا نُشُورًا »[1]. فكيف تعبدونهم من دون الله ؟

٥٧ ـ (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) :

كان بعض العرب يعبدون الملائكة، وبعضهم يعبدون الحق تبارك وتعالى؛ كما كان بعض اليهود والنصارى يتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم، فنزلت هذه الآية فى شأن من يعبدون غير الله .

والمعنى : أن هؤلاء الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله هم خلق من خلق الله، وعبيد من عباده، خاضعون لمشيئته، منقادون لأمره يرجون رحمته ويخشون عذابه، يسبحون بحمده ويلهجون بذكره، ويتنافسون فى التقرب إليه بكل وسائل الزلفى .

(وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) :

أى هم مع ما تقدم من عبادتهم لله وتقربهم إليه يرجون رحمته ويخافون عذابه، لأن عذابه شديد أليم . فهم لا يعتمدون على طاعتهم، بل يخشون عقابه حذرا من تقصيرهم .

ويجوز أن يكون المعنى : أولئك المشركون الذين يعبدون الأوثان يبتغون بعبادتها الوسيلة إلى الله، ويرجون بذلك رحمة الله ويخشون عذابه، فأيهم أقرب إلى الله؟ لا شك أنّ أولئك العابدين أقرب إلى الله تعالى من أوثانهم، فهو سبحانه أقرب إلى عباده من حبل الوريد، فلا يصح أن يتقرب هؤلاء المشركون إلى الله بعبادة من هم أبعد منهم عن الله وأحط قدرا وأضعف قوة وشأنا، إن عذاب ربك يا محمد كان أمرا محذورا ومخوفا، فلماذا لا يحذره هؤلاء العابدون لأوثانهم، وقد أشركوا به من هو مَثَلٌ فى الضعف والهوان .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٣

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

المفـردات :

(قَرْيَةٍ) : القرية اسم للموضع يجتمع فيه الناس ويتخذون منه سكنا لهم ، وتطلق أيضاً على سكانه . (الكِتَاب) : اللوح المحفوظ . (مَسْطُورًا) : مكتوبا مسجلا ، (الآياتِ) : المعجزات التى طلبها المشركون. (مُبصِرَةً) : داعية إلى إبصار الحق بدلالتها عليه وإرشادها الناس إليه .

التفسير

٥٨ - (وإن مِّن قَرْيَةٍ إلاَّ نَحْنُ مُهلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامةِ أومُعذِّبُوهَا عذابًا شَدِيدًا) : حذر الله المشركين فى آخر الآية السابقة من عذابه بقوله : « إنَّ عَذابَ ربِّكَ كَانَ مَحْذُوراً » ، وجاءت هذه الآية لتأكيد هذا التحذير.

والمعنى: إن من سنة الله تعالى مع الظالمين أنه ما من أهل قرية يقابلون أنعم الله بالجحود والكفران ويكذبون الرسل وينكرون المعجزات إلا أهلكهم الله سبحانه وفقاً لوعيده ،كما أهلك عادا وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع ،وفيهم يقول الله تعالى فى سورة (ق) : « كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ » .

وربما يصيب الله أهل هذه القرية بعذاب شديد دون الإهلاك ليرجعوا إلى الله تائبين نادمين ، لأنه سبحانه يعلم أنهم سيفيئون إلى الإيمان قبل نهاية حياتهم ، مثل أهل مكة ،

أو لأنه تعالى يعلم أن من ذريتهم من يعبد الله ،أو لغير ذلك من الحكم ، وقيل إن المراد أن الله سبحانه سيهلك جميع القرى قبل قيام الساعة ويشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة المزمل : «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً » ، وقد ورد فى صحيح مسلم من حديث طويل عن الرجال ، رواه بسنده عن النواس بن سمعان عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى ريحاً طيبة فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرارُ الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة » .

(كَانَ ذَٰلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا) : كان الإهلاك أو التعذيب قضاء محتوماً وقدراً نافذا سجله الله عنده فى اللوح المحفوظ لتنفيذه فى الأجل المحدود .

٥٩ ـ (وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) :

روى النسائى وأحمد والحاكم وغيرهم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : قال أهل مكة للنبى صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك ، قال : وتفعلون ؟ قالوا نعم ، قال : فدعا فأتاه جبريل ، فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا فمن كفر بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحدا من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة ، قال : بل باب التوبة والرحمة فأنزل الله سبحانه هذه الآية .

والمعنى : أن الله لم ينزل المعجزات التى طلبها المشركون لأنه سبحانه يعلم أن قريشا سوف تجحد هذه المعجزات كما جحدها السابقون .وحينئذ تستحق الهلاك تطبيقاً لسنته فى شأن المكذبين بعد تحقيق ماطلبوه ،والله تعالى يعلم أنها ستستجيب لدعوة الإسلام بعد حين ، فلم ينزل هذه المعجزات المطلوبة واكتفى بإعجاز القرآن الكريم ، كما قال سبحانه : « وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عليهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (١) .

---

(١) سورة العنكبوت : الآيتان ٥٠ — ٥١

وقد وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ألا يعذب قومه مادام فيهم قال تعالى : «وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ »[(١)] .

(وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا) :

أى أن الذى اقتضى عدم إرسال الآيات المقترحة أن قريشاً ستكذب بها ،كما كذب بها الأولون فتتعرض للهلاك مثلهم ، كما تعرضت ثمود لهذه التجربة حيث اقترحوا على نبيهم أن يأتيهم بناقة ترعى الكلأ وتشرب الماء كله يوما ،ثم تترك لثمود الكلأ والشراب يوماً آخر وتدر عليهم من ألبانها ما يكفيهم ، فعقروا هذه الناقة ، جاحدين منكرين «فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[(٢)] .

ومعنى مبصرة : مدركة وعارفة نصيبها فى الكلإ والماء ، فلا تتعداهما إلى نصيب ثمود فيهما ، أو موضحة للناس الدلائل الباهرة على صدق نبى الله صالح عليه السلام[(٣)] .

(وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً) :ومانزل المعجزات المقترحة إلا إنذارا وإرهاباً للأمم الضالة ،لتعود إلى الإيمان . فإذا أصرت على الكفر والعصيان استحقت الهلاك والنكال والدمار .

(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(أَحَاطَ بِالنَّاسِ) : شملهم بعلمه أو أحاطت بهم قدرته .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٣

(٢) سورة فصلت : من الآية ١٧

(٣) من أبصر المتعدى بمعنى أنها جعلت ثمود يبصرون الآية والمعجزة فى شئونها المختلفة ، فلم يبق لهم عذر فى التكذيب .

(الرُّؤْيَا) : ما يراه النائم فى منامه ، وقد تطلق على مايراه الإنسانفى يقظته ، كما قال الشاعر الراعى يصف صائدا :

وكبَّر للرؤْيا وهشَّ فؤاده   وبشَّر قلباً كان جمًّا بلَابِلُه

وقال بعضهم : هى حقيقة رؤيا المنام ، ورؤيا اليقظة ليلا ، والمشهور الأول .

(الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ) : شجرة الزقوم التى وصفها الله سبحانه بأنها « شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ »[1]

(الْمَلْعُونَةَ) : الملعونَ آكِلُهاَ ، أو البعيدة عن مواطن الرحمة لأنها فى أصل الجحيم

(طُغْيَاناً) : مجاوزة للحد فى العنف .

التفسير

٦٠ - (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) :

بعد أن تناولت الآيات السابقة أقوال المكذبين والمعاندين ، أدخل الله السكينة والطمأنينة على نفس رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية .

والمعنى : واذكر يامحمد وعدنا إياك أن الله سبحانه أحاط علمه وشملت قدرته الناس جميعاً ومنهم المشركون ، فلا يمكنهم من إيذائك أو إيقاع الضرر بك ، كما قال سبحانه : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ »[2]. وقال : « واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[3] .وهو سبحانه سيجزى كلا منهم بما يستحقه من جزاء . .

(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ) :أى أن ما أطلعناك عليه عيانا من آياتنا الكبرى ليلة الإسراء ، لم نجعله إلا اختبارا لإيمان المؤمنين وامتحانا للمشركين ، ولما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم قومه بحديث الإسراء سخر منه المشركون ، وارتد عن الإسلام

(١) سورة الصافات : الآية ٦٤ ، ٦٥

(٢) سورة الحجر : الآية ٩٥ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٦٧

قِلّةٌ من ضعفاء الإيمان ، وثبت على تصديقه والإيمان به الصادقون المخلصون ، وفى مقدمتهم أبو بكر رضى الله عنه ، ومن يومها أطلق عليه لقب الصديق . راجع تفسير السورة .

(وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ) : أى وما جعلنا شجرة الزقوم المذمومة فى القرآن بأنها طعام الأثيم ، وما جعلناها إلا اختبارا للناس ، مؤمنهم وكافرهم ، فقد وصف الله سبحانه وتعالى هذه الشجرة بأنها « تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ »[1] . ويجوز أن يكون المراد من لعن الشجرة فى القرآن لعن آكلها أو أنها بعيدة ، من اللعن بمعنى البعد لأنها بعيدة من مواطن الرحمة لأنها « تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ » .

ولما نزلت هذه الآيات ، قال أبو جهل : إن محمدا يتوعدكم بنار وقودها الناس والحجارة ، ثم يقول : إنها ينبت فيها الشجر ، وما يُعْرَفُ الزقوم إلا التمر بالزبد ، ثم أمر جاريته فأحضرت تمرا وزبدا وقال لأصحابه ساخرا : تزَقّموا ، والمعنى : وما جعلنا ما أريناك ببصرك من الآيات الكبرى فى السماء والأرض إلا فتنة وامتحانا للناس مؤمنهم وكافرهم ، وما جعلنا شجرة الزقوم إلا فتنة لهم أيضا ، فثبت الصادقون ، وارتد بعض الضعفاء من المؤمنين ، وأنكر المشركون ، لأن عقولهم القاصرة المحدودة لا تتصور أن تكون شجرة فى قاع جهنم جهلا منهم بقدرة الله التى لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء .

(وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيرًا) : أى وننذرهم بالآيات المنزلة ونذكرهم بما أصاب الأمم السابقة من هلاك ودمار ، فما يزيدهم الإنذار إلا إمعانا فى الضلال وغلوا فى العناد والكبرياء ، وإيغالا فى الجبروت والطغيان ، والفعل المضارع (نخوفهم) يدل على أنه تعالى يتعهدهم من آن لآخر بالإنذار والتخويف . ولكنهم مع ذلك لا يزدادون إلا طغيانا كبيرا .

---

(١) سورة الصافات : الآيات ٦٤ – ٦٨

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات :

(أَرَءَيْتَكَ) : أخبرنى .

(لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ) :لأستولين عليهم بالإغواء . يقال ، احتنك فلان فلانا ، إذا استولى عليه وتولى قيادته كما يحتنك الإنسان الدابة بأن يضع حول فمها حبلا يقودها به وهو الرسن.

التفسير

٦١ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَآئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ) :

واذكر يا محمد للمشركين الذين استجابوا لإغواء إبليس فى الضلال والكفر ، قصة عداوته للبشرية . اذكر لهم حين قلنا للملائكة آمرين : اسجدوا لآدم الذى أبدعته قدرتنا من طين - اسجدوا - تحية له وتعظيما لقدرتنا ، فاستجابت الملائكة فسجدت سجود طاعة لربها وتعظيم لآدم الذى خلقه دون وسيط ، ولكن إبليس أعلن التمرد والعصيان فى تكبر واستعلاء .

(قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) :

أى قال : كيف أسجد وأنا مخلوق من النار لمخلوق خلقته من الطين المهين ... وهو بهذا يعلن عصيانه لأوامر الخلاق العظيم ويجحد حكمته التى اقتضت خلق الإنسان وجعلته خليفته فى أرضه ، وحامل أمانته بين خلقه ، وتعليمه الأسماء

كلها ، غفل إبليس عن هذا كله وأعلن تمرده وعصيانه وخروجه على طاعة خالقه ، وبهذا استحق الطرد من رحمة الله[١] .

٦٢ - ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ : أى قال إبليس لربه : أخبرنى عن هذا المخلوق الذى فضلته علىَّ مع أنه غير جدير بهذا التفضيل والتكريم .

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِى إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ : أى والله لئن مددت فى عمرى إلى يوم القيامة لأستولين على ذريته ، لأقودهم إلى الدمار والخراب وإلى الفساد والعصيان كما يقود الراكب دابته ، إلا طائفة قليلة منهم لا أقدر عليهم لأنك عصمتهم يارب من الضلال والإضلال ، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ »[٢] . ويقول سبحانه حاكيا على لسان إبليس : « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ »[٣] .

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

المفردات :

﴿اذْهَبْ﴾ : امض فى طريق غوايتك وإغوائك مطروداً من رحمتى .

---

(١) راجع القصة بتمامها فى تفسير الربع الثانى من سورة البقرة ، والربع الأول من سورة الأعراف .

(٢) سورة الحجر : الآية ٤٢ .

(٣) سورة ص : الآية ٨٢ ، ٨٣ .

(مَوْفُورًا) : كاملا غير منقوص . (اسْتَفْزِزْ) : استحف واحفز وخادع .

(بِصَوْتِكَ) :بدعوتك إلى المعصية . (أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ) :صِحْ عليهم صياحا شديداً واستحثهم على الشَّر وادفعهم إليه دفعا .

(بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) : أى براكبي خيلك ، وجنودك الماشين على أرجلهم والمراد من يساعدك من أعوانك على اختلاف طاقاتهم وقدراتهم .

(غُرُورًا) : غشًا وخداعًا .

التفسير

٦٣ - (قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا) :

لما توعد الشيطان أبناء آدم بالإغراء والإغواء لصرفهم عن عبادة الله سبحانه زجره الله سبحانه بهذه الآية - والمعنى : امض أيها الشيطان فى طريق غوايتك وإغوائك ،مطرودا من رحمتى أنت ومن اتبعك من البشر، فمصيرك وإياهم جهنم تجزون فيها جزاء موفورا تامًّا وبئس المصير .

٦٤- (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ) :وادْفعْ إلى الشر من استطعت دفعه منهم بصياحك عليهم. (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ) : أى وادفعهم دفعا إلى ارتكاب الشر والموبقات مستعينا عليهم بجنودك من شياطين الإنس والجن من فرسان مسرعين ومشاة مبطئين ، أى بمختلف أساليب الإغواء ، وذكر الخيل والراجلين من باب التمثيل . (وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) : واشترك معهم فى مباشرة كسب الأموال الحرام بالباطل ، واشترك معهم فى دفعهم إلى تنشئة أولادهم على الكفر والعصيان والضلال .

(وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا) :أى واخدعهم بالمواعيد الكاذبة مزيِّنًا لهم الشَّر مقبحا لهم الخير ، وألق الشك فى قلوبهم بحقيقة البعث والنشور ، وما ينتظرهم من عذاب أليم ،وما مواعيد الشيطان إلا أباطيل زائفة وأوهام خادعة لأَنَّ طبيعته قائمة على التغرير والخداع والنفاق فليفعل ما يشاء ، فليس له على أحد سلطان إلا الغاوين .

٦٥ - (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً) :

بينت الآيات السابقة أن الشيطان توعد ذرية آدم بأنه سَيَحْتَنِكهم ويغويهم إلا قليلا وأن الله هدده وأنذره بالفشل فى وسوسته مهما ضللهم بوعوده الزائفة ، وجاءت هذه الآية لتبين أنه تعالى يحفظ عباده الصالحين من نزغات الشيطان وينجيهم من إغوائه وأباطيله كما قال سبحانه فيه : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّما سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكون »[1] . وحسبك أيها النبى أنت والمؤمنون الصالحون حسبكُم حماية ربك لك ولهم وكفالته إياكم ، وتخليصكم من مكايد الشيطان وجنوده ، فتوكلوا عليه واعتصموا به - وقيل إن الخطاب فى قوله تعالى : «وكفى بربك وكيلا »- موجه إلى الشيطان ،كما فى الجملة السابقة أى وكفى بربك أيها الشيطان وكيلا للمؤمنين من عباده ، فليعوذوا بى من شرك فإنى أعيذهم منه .

(رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(يُزْجِى) :يبعث ويرسل . (الْفُلْكَ) :السفن. (ضَلَّ مَن تَدْعُونَ) : انصرف عنكم أو غاب عن نصرتكم ومعونتكم من تعبدون . (كَفُورًا) : جاحدا للنعمة .

(١) سورة النحل الآيتان : ٩٩ ، ١٠٠

التفسير

٦٦ - (رَبُّكُم الَّذِى يُزْجِى لكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ..) الآية .
بعد أن تحدثت الآية السابقة عن فضل الله على عباده المخلصين بإنقاذهم من غواية الشيطان إذا لجأُوا إليه واعتصموا به ، واستمسكوا بكتابه ، بعد ذلك تحدثت هذه الآية عن فضل الله على خلقه وموقفهم من هذا الفضل .

والمعنى: إن إلهكم صاحب النعمة الجزيلة عليكم هو الذى هيأ لكم صناعة السفن وتسخيرها فى حملكم من بلد إلى بلد ، وفى نقل حاصلات الشرق إلى الغرب وحاصلات الغرب إلى الشرق ، بأقل نفقة وبأيسر كلفة عبر المحيطات والبحار ، كما يسر لكم بها الانتفاع بخيرات البحار من لؤلؤ ومرجان وأصداف ولحوم وزيوت الأسماك ، كما سخرها ليمكنكم من منافع أخرى تبتغونها من فضله ، مثل استخراج البترول من قاع البحار .

(إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) : سخر الله لكم سبحانه هذا كله لأنه كان ولا يزال واسع الرحمة بكم ، ييسر لكم سبل الرزق من حيث تحتسبون أولا تحتسبون .

٦٧ - (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) :

وإذا تعرضتم لأخطار البحار ، من نحو زوابع وأعاصير وعواصف وأنواء وأسماك مفترسة متوحشة ، وتطلعتم إلى من يمد يده الرحيمة لإنقاذكم من الهلاك والدمار ، ذهب عن أذهانكم من تدعونه لتفريج كربتكم سوى الله القوى القدير اللطيف بعباده ، الرحيم بخلقه ، فإنكم تدعونه وحده ليكشف الضر عنكم وينجيكم مما أصابكم .

(فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا) : فلما أنقذكم الله بفضله ورحمته ، وأوصلكم إلى الشاطىء سالمين قابلتم نعمته عليكم بالجحود ، وأعرضتم عنه منصرفين إلى آلهتكم . ومن المشاهد أن الإنسان بطبيعته وفطرته يلجأ إلى خالقه فى شدته ، فإذا جاءه الرخاء أعرض عن ربه إلا من عصم الله كما قال سبحانه : « فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ »(١) .

(١) سورة يونس : الآية ١٢

(أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾)

المفردات :

(يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ) : يغيبكم فى جوفه وقد ظننتم الأمن فيه .

(حَاصِبًا) : ريحا ترميكم بالحصباء فتهلكوا .

(وكِيلاً) : حافظاً يرعاكم . (قَاصِفًا) : عاصفًا محطما مدمرا .

(تَبِيعًا) : ناصرا ومعينا .

التفسير

٦٨ ـ (أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً) :

إذا نجاكم الله من أهوال البحر وعدتم إلى البر قابلتم فضله بالجحود ، فهل أمنتم أن ينا لكم عذابه وأنتم فى البر ، بأن تتعرضوا لزلزال مدمر يقلب بكم الأرض ظهرا لبطن فيدفنكم فيها وأنتم أحياء، كما خسف بقارون وبداره الأرض ، أو أن يرسل عليكم ريحا تحمل الحصباء ، كما فعل بقوم لوط .

(ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً) . ثم لا تجدوا حينئذ من تكلون إليه أمر الدفاع عنكم ، بأن يصرفه عنكم أو يحفظكم من ضرره ، فإنه لا رادَّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه.

٦٩ ـ (أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ) :

بل أأمنتم أن يعيدكم إلى ركوب البحر مرة ثانية فيرسل عليكم ريحا عاصفا محطما مدمرا يطويكم فى جوف الأمواج فتغرقون بسبب كفركم ، وبالجملة ينبغى أن يعلم كل امرىء أنه فى قبضة إله قوى جبار فعال لما يريد ، فعليه أن يطيعه ويخشاه ، سواءٌ أكان فى بحر أم فى بر ، ولا ينبغى له أن يأمن مكر الله تعالى : « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ، أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَن مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ »[1] .

(ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) : ثم لا تجدوا لكم حينئذ نصيرا أو منقذا يتابعكم ليدفع عنكم الأخطار ، أو متابعا لنا مطالبا الثأر لكم منا .

(۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾)

التفسير

٧٠ ـ (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ آدَمَ) :

يخبر الله سبحانه بهذه الآية عن تكريمه بنى آدم ، وتفضيله إياهم حيث خلقهم جميعا ، برهم وفاجرهم، على أحسن الصور التى تتمثل فى اعتدال القامة وتناسق الخلق وجماله ونعمة العقل والإدراك ، وفى طعامهم وشرابهم ؛ وَكُلُّ شأن من شئون حياتهم يتميزون به عن غيرهم من جميع مخلوقاته، وإنما لتكريمه سبحانه إياهم وهبهم قدرة تمكنهم

(١) سورة الأعراف : ٩٧ – ٩٩ .

من التسلط على مافى الأرض ،من كنوز ومياه ومعادن وبترول ،وغير ذلك مما جعلهم يقيمون الصناعات ، ويستنبتون الزروع ويغرسون الأشجار ، ويملكون سبل التقدم والعمران كما مكنهم من الانتفاع بما فى السماء ، من هوائها وسحابها . وسائر كواكبها وأجرامها التى أمدتهم وتمدهم بطاقات كثيرة لا غنى لكائن حى عنها ، فضلا عن الإهتداء بها فى ظلمات البر والبحر ، وقصارى القول أن الله تعالى سخر كل شىء لتكريم الإنسان. وكان هذا التسخير بقدرته تعالى ، وليس بقدرة البشر .

(وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) : أى أنعمنا عليهم فحملناهم فى البر على الدواب من الإبل والخيل والبغال وعلى غيرها من وسائل الانتقال . كما حملناهم فى البحر على السفن المختلفة الأشكال والأحجام المختلفة الأغراض .

(وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) : التى تجمع فنون المطاعم والمشارب اللذيذة التى منحناهم إياها، مما لايتسنى لهم أن يحصلوا عليها بصنعهم ، وإن صنعوها فبتيسير الله وإقداره ، وإجرائها فى مواد مخلوقة له سبحانه ، أما غيرهم من الحيوانات فأرزاقها مما تعافه أنفسهم .

(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) : أى أن الله جل شأنه فضلهم تفضيلا عظيما على كثير ممن خلقهم سبحانه بأمور كثيرة ،إذ شرفهم بالعقل الذى هو عمدة التكليف وبه يعرف الله ، وتفهم تعاليمه ، ويحصل بهديه التمييز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ، وذلك مما يوجب عليهم شكر المنعم المتفضل ، ويتحقق شكره بتوحيده وإخلاص العبادة له سبحانه ، ورفض الشرك الذى لايقبله من له أدنى تمييز. فكيف بمن فضل على ماسوى الملإ الأعلى ، من كل مايدب على وجه الأرض أو يحلق فى أرجاء السماء ، وكما فضلهم بالعقل فضلهم بأمور خلقية ذاتية ، مثل النطق والصورة الحسنة، والقامة المديدة المعتدلة ، إلى غيرذلك مما امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان.

واعلم أن الرسل من البشر أفضل من الملائكة مطلقا ، ثم الرسل من الملائكة مفضلون على من سواهم من البشر والملائكة . ثم عموم الملائكة على عموم البشر . وهذا رأى الجمهرة من العلماء .

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(نَدْعُو) : ننادى . (بِإِمَامِهِمْ) : بنبيهم أو بكتاب أعمالهم . (فَتِيلاً) : الفتيل هو الخيط الدقيق الممتد فى شق النواة طولا . والمراد به المقدار البالغ الغاية فى القلة من العمل .

(أَعْمَىٰ) : يراد به أعمى البصيرة .

التفسير

٧١ - (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) :

هذا شروع فى بيان تفاوت أحوال الناس فى الآخرة حسب تفاوت أحوالهم وأعمالهم فى الدنيا .

والمعنى : اذكر لقومك أيها النبى يوم ننادى كل جماعة من بنى آدم بمن ائتموا به واتبعوه من نبى وكتاب تشريع ، أو كتاب الأعمال التى قدموها ، فيقال لهم يا أتباع محمد أو موسى أو عيسى عليهم السلام ، أو يا أتباع القرآن أو التوراة أو الإنجيل أو يا أصحاب كتاب الخير . أو يا أصحاب كتاب الشر .

والراجح أن يكون المراد هنا بالإمام كتاب الأعمال على ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : « يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ » أى بكتاب أعمالهم ، وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك ، لقوله تعالى : « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ »[1] . ويجوز أن

(١) سورة يس : الآية ١٢ .

يكون المراد بإمامهم دينهم الذى دانوا به فى الدنيا صحيحا أو فاسداً، فينادى يا أصحاب دين كذا ليسلّموا كتبهم .

(فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) : أى فمن أعطى كتاب أعماله من أولئك المدعوين فأخذه بيمينه كان ذلك تبشيرا وتشريفا له .

(فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ) :أى فهولاء المختصون بتلك الكرامة يقرأ كل منهم كتابه ، وحين يسر بقراءته ينادى إخوانه مبتهجا تعالوا فاقرءوا كتابى ، لتروا ما أكرمنى الله به من الثواب العظيم ، كما قال تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ »(١) .

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) : أى ولا ينقصون من ثواب أعمالهم المكتوبة فى صحائفهم أى شىء ولو بلغ الغاية فى القلة . فكان قدر فتيل وهو الخيط الرفيع فى شق النواة ويضرب به المثل فى الصغر وفيما لاقدر ولا اعتداد به لدى المخلوقين .

٧٢ـ (وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ) الآية .

أى ومن كان فى الحياة الدنيا أعمى البصيرة عن حجج الله وبيناته ،وعن كل ما أولاه الخالق جل شأنه من نعم ظاهرة وباطنة . فهو فى الآخرة أعمى لا يهتدى إلى ما ينجيه . ولا يجد ما يجديه ، لأن عماه فى الدنيا بإعراضه عن توحيد الله أوجب هذا التخبط فى الآخرة والحرمان فيها .

وعن ابن عباس :ومن كان فى هذه النعم والآيات التى رأى أعمى ، فهو فى الآخرة التى لم يعاين أعمى وأضل سبيلا . وقيل ومن كان فى هذه الدنيا أعمى القلب حشر يوم القيامة أعمى العين كما قال تعالى : « وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ » .

(وَأَضَلُّ سَبِيلًا) :عما كان عليه فى الدنيا ،حيث استحالت عليه جميع أسباب النجاة لفقده كل طريق يوصل إليها ، إذ لا توبة فى تلك الدار ولا إمهال . ولا عودة لتدارك ما فات .

---

(١) سورة الحاقة : الآية ١٩ ، ٢٠

وهذا الفريق الذى عميت بصيرته فى الدنيا وكان أعمى فى الآخرة ، هو الفريق الذى أوتى كتابه بشماله ، بدلالة ذكره مقابلا للفريق الذى أوتى كتابه بيمينه ، ولم يذكر بعنوان أوتى كتابه بشماله صريحا كما ذكر الفريق الأول بعنوان إيتاء كتابه بيمينه ، اكتفاء بذكر السبب الموجب لذلك وهو كونه أعمى البصيرة فى الدنيا ، وأعمى وأضل سبيلا فى الآخرة .

(وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(وَإِن كَادُوا) : وإن قاربوا . (لَيَفْتِنُونَكَ) : ليصرفونك . (لِتَفْتَرِيَ) : لتختلق .

(خَلِيلًا) : صفيا وصاحبا من الخُلة ، بضم الخاء وهى الصحبة .

(تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ) : تميل إليهم .

التفسير

٧٣ - (وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ....) الآية .

قال ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية ؛ إن وفد ثقيف أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فسألوه شططا وقالوا متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ مايهدى لها فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ، وحرم وادينا كما حرمت مكة حتى يعرف العرب فضلنا عليهم ، فهمّ رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعطيهم ذلك فنزلت . وقيل سبب نزولها هو قول أكابر قريش

للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد عنا هؤلاء السقاط والموالى ، حتى نجلس معك ونسمع منك ، وما زالوا به حتى كاد يقاربهم فيما يقولون فعصمه الله وأنزل الآية .

والمعنى : وإنه كاد هؤلاء المشركون بما اقترحوه عليك أن يوقعوك فى الفتنة بأن تستجيب إلى ما طلبوه منك من أمور تقربك منهم .

(لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ) : أى يأملون بذلك أن تختلق علينا غير الذى أنزلناه إليك ، وأمرناك باتباعه فتخالفه إلى تنفيذ ما اقترحته عليك ثقيف من تحريم واديهم كتحريم مكة أو طلبته قريش من إقصاء الفقراء عنهم ، فكادت نفسك تميل قليلا إلى موافقتهم رجاء إيمانهم رحمة بهم .

(وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا) : أى لو استمعت إليهم لقربوك منهم ، صفيا وصاحبا وكنت وليًّا لهم .

٧٤ - (وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) :

أى ولولا تثبيتنا إياك وعصمتنا لك لقاربت أن تميل إليهم ميلا قليلا لشدة احتيالهم عليك ، وخداعهم لك ومكرهم بك ، ولكنك أدركتك عنايتنا ، فحالت بينك وبين القرب من أدنى مراتب الركون ، وهذا صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم ما هم بإجابتهم مع قوة الداعى إليها ، قال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شىء من أحكام الله تعالى وشرائعه .

٧٥ - (إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ) :

أى لو قاربت الركون إليهم لجمعنا عليك عذابا مضاعفًا فى الدنيا والآخرة ، حيث يكون هذا العذاب ضعف ما يعذب به غيرك فى الدارين إذا فعل مثل هذا الفعل ، لأنه كلما كانت الدرجة أعلى والمنزلة أسمى كانت المؤاخذة على الخطيئة أشد وأقوى .

(ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) : يمنع عنك العذاب ويحول بينك وبينه إذ لا سلطان فوق سلطاننا حتى تجد فيه ملجأً أو معينًا .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

المفردات :

(وَإِن كَادُوا) : أى وإن قاربوا. (لِيَسْتَفِزُّونَكَ) : ليزعجونك ، يقال استفزنى فلان أزعجنى . (خِلَافَكَ) : بعدك .

التفسير

٧٦ - (وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا) :

قال مجاهد وقتادة : نزلت هذه الآيات فى همِّ أهل مكة بإخراجه صلى الله عليه وسلم من أم القرى ولو أخرجوه منها لما أُمهلوا ولكن الله أمره بالخروج فخرج .

والمعنى : قارب أهل مكة أن يزعجوك بعداوتهم وشدة إيذائهم. ليخرجوك من الأرض الطيبة أرض مكة قبل أن يأْذن الله لك بالهجرة .

(وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً) :

أى ولو حققوا ماهمُّوا به ، بإكراهك على الخروج لم يبقوا بعد إكراهك عليه إلا زمنا قليلا يستأْصلون ويهلكون جميعا بعده .

والواقع أنه صلى الله عليه وسلم لم يخرج من مكة بإكراه قريش له ، وإن كانوا قد هموا به بل كان خروجه بأمر ربه حين أذن له فى الهجرة ، حفاظا على الدعوة وتمكينا لها من المضى فى طريقها لأَداء مهمتها السامية فى جو من الأمن والاستقرار . وليسلم منهم ومن أعقابهم من يشرف بالإسلام ، لذلك لم يقع لهم الاستئصال ، وعن مجاهد قال : أرادت قريش ذلك ولكنها لم تفعل لأنه سبحانه أراد استبقاءها وعدم استئصالها ليسلم منها ومن أعقابها من يسلم ، فأذن لرسوله بالهجرة ، فخرج بإذنه لا بإخراج قريش وقهرهم .

وأسند الإخراج إليهم فى قوله تعالى : « وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ »[1] . وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ » .وفى قول ورقة – ليتنى كنت جذعا إذ يخرجك قومك ، – أسند الإخراج إليهم – لِهَمِّهِمْ به ومزاولة مقدماته باستفزازهم له ولأصحابه .

٧٧– (سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا) :

أي سننا سنة فى أمم المرسلين قبلك ، وهى أن تعذب كل أمة كفرت برسولها وآذته وجعلته يخرج من بين أظهرها ، وذلك بإهلاكها بحيث لا تلبث بعده إلا قليلا حتَّى يَحِيقَ بها الدمار والنكال ، ولولا أنه صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة لجاء قومه والذين كفروا به بعذاب من عند الله لا قبل لهم به فى الدنيا . ولهذا قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِم »[2] . وإسناد السنة إلى الرسل مع أنها لله جل شأنه لأنها سنت لأجلهم .

(وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) : أى لا خلف فى وعدها ولاتغيير فى وقتها ونوعها .

(أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾)

(١) سورة محمد الآية ١٣

(٢) سورة الأنفال الآية ٣٣

المفردات :

(لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) : لميلها عن وسط السماء. يقال « دلكت الشمس »أى مالت وانتقلت من وسط السماء إلى ما يليه غَرْبًا . (غَسَقِ الَّيلِ) : شدة ظلمته، يقال غسق الليل غسقا ويحرك وغسقانا وأغسق اشتدت ظلمته ، ويطلق الغسق على ظلمة أول الليل . (وقُرْءان الْفَجْرِ) : قراءته والمراد بها صلاته . (فَتَهَجَّدْ) : الهجود النوم ، والتهجد التيقظ منه للصلاة .

(نَافِلَةً) : زائدة على الفريضة. (مُدْخل صِدْقٍ) : إدخال صدق ، فهو مصدر ميمى من الرباعى ، وكذلك (مُخْرج صِدْقٍ) : أى إخراج صدق . (سُلْطَاناً) : حجة لها سلطة على العقل بقوتها .

التفسير

٧٨ ـ (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) :

لما ذكر سبحانه فى الآيات السابقة محاولة المشركين صرفه صلى الله عليه وسلم عن الدعوة وإزعاجه بالفتن والأذى ، أتبعها هذه الآيات بأمره فيها بإقامة الصلاة لما فيها من التثبيت والصبر والقوة الروحية على مجابهة فتن المشركين .

والمعنى : أقم الصلاة أيها الرسول وسائر المؤمنين عند ميل الشمس عن وسط السماء إلى أن تشتد ظلمة الليل بعد غروبها ، وهذا الوقت يشتمل على أربع صلوات هى الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

والأمر بإقامتها بين دلوك الشمس وغسق الليل يراد به إقامة كل صلاة منها فى وقتها الذى عين لها بينهما ، ببيان جبريل عليه السلام. كما أن كيفية كل صلاة منها بينها النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه ، بتعليم جبريل عليه السلام ، وإنما فرضت فى الأوقات المعينة لها لأن شأن الإنسان فيها أن يكون متيقظاً وقد أفرد الله تعالى صلاة الفجر بأمر خاص تضمنه قوله تعالى : « وَقُرْآنَ الْفَجر » اهتماماً بها لأنها تكون بعد نوم يفصلها عن الصلوات الأربع ، وعبر عن صلاة الفجر بالقرآن لأنها يطلب فيها تطويل القراءة أكثر من غيرها ، ولهذا تشهدها الملائكة كما سيأتى ،وبذلك تكون الآية الكريمة قد أشارت إلى الصلوات الخمس .

وقيل المراد بالصلاة فى قوله تعالى : « أَقِمِ الصَّلاَةَ » صلاة المغرب ، ويكون معنى دلوك الشمس غروبها وغسق الليل ظلمته ، باختفاء الشفق فيكون آخر وقت صلاتها أداء .

(إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار حينما يتعاقبون ، والمراد بهم الكتبة ، وقد روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : «وقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » حديث صحيح ، وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يَتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر » وقيل تشهده كثرة من المصلين عادة أو من حقه ذلك ، أو تشهده وتحضر فيه شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة ، واليقظة بالنوم وهو أخو الموت ، وإظهار لفظ القرآن فى مقام الإضمار لمزيد الاهتمام به .

٧٩ - (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ[1] . . .) الآية .

التهجد التيقظ بعد النوم ، والمقصود بالتهجد هنا الصلاة ليلا بعد النوم ، والضمير فى قوله : « فتهجد به » يعود على القرآن ، أى فتهجد بالقرآن وصل مُتَلَبِّسًا بقراءته بعد الفاتحة ، وذلك بعد قيامك من النوم ليلا ، ويستدل بذلك على تطويل القراءة فى التهجد ويجوز عود الضمير على الليل . والباء بمعنى فى . أى : وبعض الليل فتهجد فيه .

(نَافِلَةً لَّكَ) : فريضة زائدة على المفروض على الأُمة . خاصة بك فالخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقيل كانت فى الابتداء واجبة عليه وعلى الأُمة ثم نسخ الوجوب وصار الأَمر فيها للندب ، فهو إذا تطوع بما ليس بواجب عليه ، كان ذلك زيادة له فى الدرجات . أما غيره من الأُمة فتطوعه لجبر نقص ولتدارك خلل يقع فى الفرض أو لتكفير ذنب يلم به أو لزيادة ثواب . قال معناه مجاهد وغيره .

(عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) : أى وبعض الليل فتهجد فيه لتكون على رجاء أن يبلغك ربك إلى كمالك الذى أنت أهل له فى الدار الآخرة . فيقيمك فى مقام محمود عند نفسك وعند الناس أجمعين . وذلك هو مقام الشفاعة العظمى فى فصل

(١) الهجود : النوم ، والتهجد إزالة الهجود بالتيقظ من النوم .

القضاء ، حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : « مقاماً يحمدك فيه الأولون والآخرون ، وتشرف فيه على جميع الخلائق ، تَسْأَل فتعطى ، وتشفع فتشفع ، ليس أحد إلا تحت لوائك » . وقيل المقام المحمود هو إعطاؤه عليه السلام مرتبة من العلم لم تعط لغيره من الخلق أصلا ، وعلى الجملة فالمقام المحمود ينتظم كل مقام يتضمن كرامة له صلى الله عليه وسلم ويشير إلى ذلك التنكيرُ فى قوله : « مقاماً » حيث يفيد التعميم والتفخيم .

٨٠ - (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ)[1] :

لما وعد الله رسوله المقام المحمود ، أمره أن يتجه إليه بدعائه لينجزله وعده أى قل منادياً ربك : أدخلنى فيما أمرت به من الطاعات إدخالا مرضياً ، وأخرجنى عما نهيت عنه إخراجا نظيفاً من المعاصى ، وهيىء لى كل أسباب العزم والقوة لجهاد أعداء دينك ، حتى أنتصر عليهم بسلطانك وتأييدك ، حتى أكون أهلا لما وعدتنى من المقام المحمود ، وقيل علَّمه جل شأنُه أن يدعوه بأن يخرجه من دار المشركين دار الإيذاء والغدر ، وأن يُدخله موطناً للطمأنينة والأمن ، فدعا ربه كما أمره فأخرجه من مكة وأدخله المدينة ، وروى هذا المعنى الترمذى عن ابن عباس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم بمكة ثم أُمر بالهجرة فنزلت. وقال الضحاك : هو خروجه من مكة مهاجراً ، ودخوله مكة يوم الفتح آمناً - وتقديم الإدخال فى الآية على الإخراج مع أن إخراجه من مكة أسبق من إدخاله فيها بعد ذلك ، لأن إدخاله فيها هو الهدف المقصود ، وقيل المعنى : أدخلنى فى الأمر الذى أكرمتنى به من النبوة مدخل صدق وأخرجنى منه مخرج صدق إذا أمتنى ، قاله مجاهد .

(وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا) :

أى حجة ثابتة وبرهانا بينا يكون به النصر على من يخالفنى ، وكون السلطان مرادًا به ما ذكر ، موافق لرأى الشعبى وعكرمة . وذهب الحسن إلى أن المراد به إظهار دينه على الدين كله ، بالتسلط على الكافرين بالسيف ، وعلى المنافقين بإقامة الحد ، وبعصمته من كل أذى يوجه إليه وإلى دين الله ، وقد استجاب الله لدعاء رسوله ، فأظهر دينه على الأديان كلها وعصمه من أذى الناس وكيدهم ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى

(١) مدخل صدق ، أى إدخال صدق ، ومخرج صدق أى إخراج صدق فهو مصدر ميمى فى كليهما .

وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ »[1]. وقوله: « واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ »[2]. وقد أشعر وصف « سلطانا » بقوله « نصيراً » وهى من صيغ المبالغة - أشعر بأنه صلى الله عليه وسلم يدعو بنصر حاسم.

٨١ - (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) :

أى وقل جاء الحق الذى لامرية فيه ولا قبل لهم برده، وهو الإسلام المؤيد بمعجزة القرآن الكريم، الداعى إلى الإيمان الصادق والعلم النافع، وذهب الباطل واضمحل فهلك الكفر والشرك، وما زينه الشيطان من شرور وآثام.

(إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) : وعد من الله جل شأنه بنصر الحق على الباطل أى أن الباطل شأنه عند الله أن يكون مضمحلا ولا بقاء له مهما طال به الأمد، وامتد به الزمن، وتعدد المستمسكون به، وفى بيان ذلك يقول سبحانه: « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ »[3]. ويروى البخارى والترمذى عن ابن مسعود قال: دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نصبا - فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يطعنها بمخصرة فى يده، وربما قال: بعود، ويقول: « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً » جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد، هذا لفظ رواية الترمذى، قال القشيرى: فما بقى منها صنم إلا خر لوجهه، ثم أمر بها فكسرت.

(وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(خَسَاراً) : الخسار : الهلاك والضلال.

(١) سورة التوبة : الآية ٣٣
(٢) سورة المائدة : الآية ٦٧
(٣) سورة الأنبياء : من الآية ١٨

التفسير

٨٢ - ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ . . ﴾ :

أى شفاء لما فى الصدور من شك ونفاق ، وزيغ وشرك ، وذلك بتخليصها من مرض الجهل ، وداء العناد ، وشهوة الإعراض حتى تستبين الأمور الدالة على الله تعالى ، فالقرآن فى تقويم النفوس ، وتنقية القلوب كالدواء الشافى للمرضى ، وهو جميعه كذلك . ويرى بعض العلماء أنه يستشفى به من الأمراض الظاهرة ، استنادا إلى حديث صحيح فى ذلك ، قال القرطبى : روى الأئمة واللفظ للدارقطنى عن أبى سعيد الخدرى قال : (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية ثلاثين راكبا ، قال فنزلنا على قوم من العرب ، فسألناهم أن يضيفونا فأبوا - قال : فلدغ سيد الحى ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يرقى من العقرب ؟ إن الملك يموت . قال : قلت أنا - نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا ، فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه « الحمد لله رب العالمين » سبع مرات فبرأ ، فبعث إلينا بالنُّزُل[1] ، وبعث إلينا بالشاء[2]) إلى آخر الحديث .

(وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) : هو رحمة لهم ، ففيه بواعث الإيمان والحكمة ، والرغبة فى كل فضيلة ومكرمة ، فتعمهم بالعمل به الرحمة التى تشمل تفريج الكروب . وتكفير الذنوب ومضاعفة الأجور .

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) : أى ضلالا وهلاكا لتكذيبهم المتتابع ، وكفرهم المتكرر بكل آية يوحى بها ، وإسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن ، باعتبار كونه سببها حيث تمادوا فى كفرهم به وتكذيبهم له كلما أنزل ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة فصلت : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى »[3] .

(١) النزل : بوزن القفل ؛ الطعام الذى يهيأ للضيف الذى ينزل بك .

(٢) الشاء : هى الغنم التى جعلوها لهم عطاء وأجرا على رقيا الملك الملدوغ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٤٤ .

(وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾)

المفردات :

نأى الشيء بعد ، ونأيته ونأيت عنه: بعدت .

(وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ) :تكبر وتباعد.(يَـُٔوسًا) :شديداليأس. (عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ) :على طريقته ومذهبه.

التفسير

٨٣- (وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ) :

يخبر الله بهذه الآية عن نقص الإنسان من حيث طبيعته فى حالتى الرخاء والشدة ، فإذا أنعم عليه بمال و صحة ،وفتح ونصر ، ونال كل مآربه أو بعضها ، أعرض عن طاعة خالقه ، وبعد عن عبادته ، وإذا مسه شر ، أو نزلت به كارثة ، بالغ فى اليأس من رحمة الله - وتمادى فى الجزع ، فالآية نزلت تذكر منهجاً عامًّا سلكه جنس الإنسان عند ممارسته لشئون الحياة ، وقيل نزلت فى الوليد بن المغيرة .

والمعنى : وإذا أنعم الله على الإنسان بالصحة وبسط له كل أسباب النعمة والقوة لم يذكر فضل الله عليه كأنه مستغن عنه ، وبدل أن يقوم بشكره ، ويذل لسلطانه ، تكبر وتباعد ، وطوى عن الطاعة عنقه وأعطاها عرض وجهه وبعد بجانبه وولاها ظهره ، وتلك الآية تبرز مبالغته فى الإعراض والبعد عن ربه غروراً واستكباراً ، مصورة بصورة الأمور المحسوسة تقبيحاله وتقريعاً على ما اقترف من إثم عظيم .

(وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا) : أى إذا نزل به شر من مرض أو فقر أو كارثة من الكوارث التى تلم به ، كان شديد اليأس والقنوط من فرج الله الذى وعده عباده المؤمنين ، وذلك لأنه لم يقبل عليه فى الرخاء ، حتى يرجوه فى الشدة ، ولو أنه صبر لظفر ، فقد جاء فى حديث ابن عباس : « وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وأن مع العسر يسراً » .

٨٤- (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) :

تهديد للمشركين ووعيد لهم ، وطمأنة للمؤمنين وحفز لهم ، أى أن كل واحد منكم سواءٌ أكان مؤمنا أم كافرا ، مقبلا أم معرضاً ، راجياً أم قانطا. يعمل على طريقته ومذهبه وأخلاقه التي ألفها فى الهدى والضلال . وسيُجْزَى كلٌّ عمله لا تخفى منه خافية .

(فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا) : أى فربكم الذى خلقكم أعلم بمن هو أبين منهاجا ، وأرشد طريقاً وهو المؤمن المهتدى فيثيبه ويجزل عطاءه ، كما هو أعلم بمن يمشى مكباًّ على وجهه شديد العناد فى سلوكه ، فلا يمنحه توفيقه ، ولا يزيده إلا خساراً ونكالاً .

(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾)

المفردات : -

(الرُّوح) : يطلق على ما به حياة الأنفس يُذَكَّر ويؤنَّث ، ويطلق أيضا على القرآن وعلى الوحى وجبريل ، كما يطلق على غير ذلك ، وسيأتى بيان المراد منه فى الآية .

(مِنْ أَمْرِ رَبِّى) : من شأنه الذى اختَصَّ به سبحانه وتعالى .

التفسير

٨٥- (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ) :

نزلت هذه الآية الكريمة حينما سألت قريش الرسول عن الروح بإيعاز من اليهود فقد أخرج أحمد والنسائى والترمذى وابن حبان وجماعة عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود اعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل ، فقالوا سلوه عن الروح فنزلت. وقيل بعثت النضر ابن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود المدينة فقالوا : سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح ، فإن أجاب عنها أو سكت ، فليس بنبى ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي . فجاءُوا وسألوه فبين لهم صلى الله عليه وسلم القصّتين وأبهم أمر الروح ، وهو مبهم فى التوراة ، لأنه مما استأثر الله بعلمه ولم يطلع

عليه ملكاً ولا نبياً مرسلا فكان ذلك سبباً لنزولها ، وكان السؤال عن حقيقة الروح ومسلكه فى بدن الإنسان ، وامتزاجه بالجسم واتصال الحياة به وهذا شىء لايعلمه إلا الله ، وذلك ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن فهم حقيقة نفسه ومصدر حياته مع علمه بوجودها . وفى هذا دلالة ناطقة على أنه وقد عجز عن إدراك حقيقة نفسه فهو عن إدراك كنه خالقه أعجز ، لأنه اللطيف الذى لايعلم ذاته سواه .

وقيل فى معنى الروح أقوال منها : أنها صورة كالبدن تسرى فيه سريان الماء فى العود الأخضر ، وقيل غير ذلك ، والصحيح أنها شىء لايعلمه إلا الله لقوله تعالى آمرا نبيه بإجابتهم : (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) :

وكان المقام للإضمار فيقال قل هو من أمر ربى ، ولكن الإظهار لكمال العناية بالمسئول عنه . أى قل إن الروح من الأسرار الخفية التى تعجز عن إدراكها عقول البشر وتكل عن معرفتها أفهامهم ، فهى من الأمور التى استأثر الله بعلمها ، والإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم فى (ربى) للتشريف والتعظيم .

(وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) : اختلف فيمن خوطب بهذا ، فقيل : السائلون فقط ، وقيل : اليهود بجملتهم ، وقيل : العالم كله وهو الصحيح . فقد أخرج ابن اسحق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال نزلت هذه الآية بمكة فلما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا يامحمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول : « وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » أفعنيتنا أم قومك ؟ قال كُلاً عَنَيْتُ – قالوا فإنك تتلو أنا أُوتينا التوراة وفيها بيان كل شىء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل ، وقد آتاكم ما إن عملتم به استقمتم ، وأنزل الله : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[1] .

ولاشك أن القِلة والكثرة من الأُمور الإضافية ، فالشىءُ يكون قليلا بالنسبة إلى مافوقه وكثيرا بالنسبة إلى ماتحته ، فما فى التوراة قليل بالنسبة إلى ما فى علم الله حيث إن علمه

(١) سورة لقمان : الآية ٢٧

سبحانه يتعلق بكل شىء فى ملكوته من الخلق والتكوين والحياة والموت والسموات والأرض ، والثواب والعقاب .

(وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(لَنَذْهَبَنَّ بالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ) : أى لَنُزيلنَّه ، يقال ذهب به أزاله كأذهبه .

التفسير

٨٦ - (وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) :

أى ولو أردنا أن نذهب بالقرآن الذى أوحيناه إليك وثبتناك عليه حينما حاولوا فتنتك لو أردنا ذلك لذهبنا ، ثم لا تجدلك بالقرآن وكيلا يلتزم باسترداده منا ، كما يلزم الوكيل باسترداد ما ذهب منه ووُكِّل فيه ، ولكن الله تفضل بإبقائه فى صدرك وصدور المؤمنين ومصاحفهم رحمة بعباده ، وفى ذلك يقول الله :

٨٧ - (إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) :

أى ولَكِن رحمة من ربك تركه غير مذهوب به ، فيكون ذلك امتنانًا بإبقائه بعد الامتنان بإنزاله ، وترغيبا فى المحافظة على أداء حقوقه ، لأنه أجل النعم وأعظمها (إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) : إذ اصطفاك على سائر الخلق واختصك بالمقام المحمود . وجعلك خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأنزل عليك كتابًا لا يأْتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتكفل ببقائه وحفظه ، وينصرك على أعدائك بما أمدك به من رعاية وتوفيق .

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(ظَهِيرًا) :معينا ونصيرا . (صَرَّفْنَا) :رددنا وكررنا .

(فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) : أى ما قبل أكثرهم إلا الجحود والإعراض .

التفسير

٨٨ - (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) :

نزلت هذه الآية حين قال الكفار :ولو نشاء لقلنا مثل هذا . أى قل للذين لا يعرفون قدر القرآن العظيم . وشأنه الجليل فزعموا أنه من كلام البشر وأن فى مقدورهم الإتيان بكلام مماثل له ،قل لهم لو اتفقت كلمة الإنس منهم والجن ،وتضافرت هممهم وأقبلوا بكل عقولهم وأفكارهم على تحقيق رغبتهم فى الإتيان بمثله فى سمو الأسلوب ، ودقة التنسيق ، وكمال المعنى وقوة التشريع ، والإخبار بالغيبيات وغير ذلك ، لو اجتمعت على ذلك لعجزوا عن الإتيان بمثله ، لا بِعِيٍّ فيهم فهم أهل لسن وبلاغة ،وإنما الإعجاز فيه فى لفظه ومعناه وتشريعه وتأثيره النفسى جعله فوق مستوى الجن والإنس .

(وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) :

أى لا يأتون بمثله على أى حال مفروضة ، بمعنى أنهم سيبوءون بالإخفاق على الانفراد ، أو على الاجتماع متعاونين ، وفى ذلك حسم وقطع لأطماعهم الضالة التى أملت عليهم وزينت لهم الإتيان بمثله ، وتأكيد لعجزهم عنه على أى حال من الأحوال .

٨٩ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ) :

أى كررنا ورددنا للناس فى هذا التنزيل من كل معنى بديع غاية الحسن يستجلب النفوس ويستميلها كما تستميلها الأمثال السائرة ، أو ذكرنا فى القرآن طرقا متنوعة توجب زيادة وضوح فى البيان ندعمها بالحجج الواضحة والبراهين القاطعة التى تبعث فى النفوس الثقة والاطمئنان ، أو وجهنا للناس القول فيه من كل مَثَلٍ رائع فى الحكمة الإلهية والترغيب والترهيب والأوامر والنواهى وقصص الأولين والجنة والنار وشئون القيامة وغير ذلك من العبر .

(فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) : والمراد بأكثر الناس من كان فى عهده صلى الله عليه وسلم من المشركين وأهل الكتاب . واستظهر فى البحر أنهم أهل مكة بدليل أن الضمائر الآتية لهم ، أى ما رضى أكثرهم إلا الكفر والجحود للحق ، وأنهم بالغوا فى عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الإباء .

وأوثر إظهار لفظ الناس مع أن المقام للإضمار لزيادة التأكيد والتوضيح .

(وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(تَفْجُرَ) : تشق وتفتح . (يَنْبُوعاً) : الينبوع العين الكثيرة الماء . (فَتُفَجِّرَ) : بالتشديد للتكثير . (كِسَفًا) : أى قطعا جمع كسفة كقطعة . (قَبِيلًا) :مقابلة ومعاينة ، أو كفيلا بما تدعيه شاهدا بصحته . (منْ زُخْرُفٍ) : الزخرف الذهب والزينة .

(تَرْقَى فى السَّمَآءِ) : تصعد فى معارجها .

التفسير

٩٠ ـ (وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً) :

بعد أن تبينت حجج القرآن لقريش وظهر عجزهم عن محاكاته ، وهم أهل اللغة والفصاحة ، اجتمع رؤساؤهم وذوو الشرف فيهم ، ودعوا النبى صلى الله عليه وسلم إلى الاجتماع بهم . فقالوا له : إن كنت تريد مالا جمعنا لك حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد الشرف فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا وإن كان الذى يأتيك رَئِيًّا (أى تابعا من الجن) بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نُعْذَر فيك ، فلم يجبهم إلى ما طلبوه ،وانصرف إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع فيه من إيمانهم ، ولما رأى من مباعدتهم إياه ، وكان ذلك سببا فى نزول الآيات التى تحكى تعنتهم بما اقترحوه من الأمور الستة التى طلبوها منه ، متعللين بما لا يمكن وقوعه عادة وما يستبعد عقلا .

وما قصدوا بما اقترحوا إلا العناد واللجاج ،وإلا فقد كانت تكفيهم معجزة القرآن التى تخر لها صُمّ الجبال .

والمعنى : أنهم قالوا لن نصدق بما جئت به حتى تشق لك بأرض مكة عينا لا ينقطع ماؤها الكثير عن الجريان والاندفاع .

٩١ ـ (أَو تكُونَ لَكَ جنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ) :

أى بستان تستُر أشجارُه العالية وأغصانه المتشابكة ما تحتها من فضاء ، وإنما خصوا لنخيل والعنب لأنهما النوعان المعروفان بأرض مكة .

(فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً) : فتجرى الأنهار وسط تلك الجنة جريانا قويًّا دائما للانتفاع بها فى رى تلك الجنة وغيرها .

٩٢ - (أَو تُسْقِطَ السمآءَ كَمَا زعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا) .

أو تسقط السماء علينا قطعا متناثرة كما أوعدتنا فى قولك « إن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّماء »[1] فعجّل لنا ذلك وأسقطها .

(أَوْ تَأْتِىَ بِاللهِ والمَلَآئِكَةِ قَبِيلا) :أو أن تأتى بالله مقابلا وبالملائكة كذلك بحيث نعاينهم ونراهم ، وعلى أن القبيل بمعنى الكفيل يكون المعنى :أو تأتى بالله كفيلا وبالملائكة كفلاء بما تدعيه ، يشهدون بصحة ما قلته ويضمنونك فيما يترتب عليه .

٩٣ - (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ) :

من ذهب لأننا لانتقاد لك ولا نؤمن بك مع فقرك الذى نراه .

(أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَآءِ) :أى تصعد فى معارجها . (وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُ) :أى لن يقع إيمان منا بك من أجل رقيك فى السماء فحسب ، أو لن نصدق أنك رقيتها حتى تصحب معك كتابا منزلا من الله بلغتنا وفيه تصديقك منه سبحانه ،ويكون موجها إلى كل رجل منا ،كما حكاه الله بقوله :« بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً »[2] .

وبلغ من عنادهم الحاقد وتعنتهم البالغ أن طلبوا منه شهوداً من الملائكة على صحة ما ينزل عليهم من السماء ،فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال عبد الله بن أبى أمية لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلّما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها وتأتى معك بصك منشور معه أربعة ملائكة يشهدون أنك كما تقول .

(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولًا) :أى قل لهم يامحمد متعجبا من فرط حماقتهم ، وتنزيها لله عز وجل ، سبحان ربى أن يتقدم أحد بين يدى جلاله فى أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بما لا يليق من مثل هذه الاقتراحات التى تضمنت أعظم الجرأة على الله رب

(١) سورة سبأ : الآية ٩

(٢) سورة المدثر : الآية ٥٢

العالمين ،فلا يحق لأحد أن يطلبها لأنه الفعال لما يشاء ، فإن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم إليه ، أو قل لهم : تنزيها لله ربى أن أطلب منه تحقيق ماطلبتموه فما أنا أيها القوم إلا رسول أتبع ما يوحى إلى ، وأبلغكم رسالات ربى ، ولم تكن الرسل من قبلى يأتون أممهم بما يريدونه من الآيات ،وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالةِ على صحةِ نبوّتهم ، فسبيلى سبيلهم .

(وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(النَّاس) : أى الذين حكيت أباطيلهم . (مُطْمَئِنِّينَ) : مقيمين فيها كالبشر .

(خبيراً) : يقال خبرت الشيء أخبره من باب نصر ، خُبراً بضم الخاء وسكون الباء . علمته فأنابه خبير ، والمراد منه وصفه تعالى بأنه محيط ببواطن الأُمور ودقائقها .

(بصيراً) :أى عليما : يقال بصُرت بالشيء بضم الصاد والكسر لغة بصراً بفتحتين علمت ، فأنا بصير به ، والمراد به أنه تعالى عليم بالأمور علم إحاطة وشمول .

التفسـير

٩٤ ـ (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً) :

أى مامنع أكثر الناس الذين حكيت أباطيلهم فى الآيات السابقة ، أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك وقت مجىء الوحى إلا قولهم على سبيل الإنكار : أيحق أن يكون رسول الله من جنس البشر ؟ وقصدهم نفى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بشر ، والرسالة فى اعتقادهم إنما تكون للملَك لا للبشر . وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم بقوله :

٩٥ - (قُل لَّوْ كَانَ فِى الْأَرْضِ مَلَآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا) :

أى قل لهم أيها النبى منبها إلى رحمة الله بعباده ، وفضله عليهم : لو وجد فى الأرض ملائكة يسكنونها ويمشون فيها كما تمشى البشر ولا يعرجون فى السماء ليعلموا ما يجب عليهم علمه ، لبعث إليهم ملكا منهم وعلى شاكلتهم ، ليتفقهوا عنه ويعلموا منه مالا تستقل قدرتهم بعلمه ، حيث يتسنى لهم مخاطبته ومكالمته ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، وبه آنس ، أما سكان الأرض من البشر ، فهم بمعزل عن إمكان التلقى من الملائكة ، فبعْث الملَك إليهم مناف للحكمة المقتضية لوجوب التجانس بين الرسول ومن يرسل إليهم ، أما إرسال الملَك بوحى إلى الرسل من البشر كمحمد وعيسى وموسى عليهم السلام . فلأن الله أعطاهم من القوى الروحية العليا ما يجعلهم أهلا لتلقى الوحى عن الملك حيث جعل لهم جهتين ؛ جهة ملكية بها من الملك يستفيضون ، وجهة بشرية : بها على البشر يفيضون ، وجعل كل البشر كذلك مخل بالحكمة .

وكان الملَك يظهر للرسول على وجه يسهل معه التلقى عنه ، كما ظهر جبريل عليه السلام للرسول فى صورة دحية الكلبى ، وقد صح أن أعرابيا جاء وعليه أثر السفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وغيرهما ، فأجابه عليه الصلاة والسلام بما أجابه به ثم انصرف ولم يعرفه أحد من الصحابة رضى الله

عنهم . فقال صلى الله عليه وسلم هذا جبريل جاء يعلمكم أمر دينكم ، والحديث فى البخارى والنسائى وغيرهما .

٩٦ـ (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ) :

يروى أن كفار قريش حين سمعوا قوله سبحانه : « هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا » قالوا : فمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزل قوله تعالى : (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ . . .) الآية .

والمعنى قل كفى بالله شهيدا على أنى رسول أديت واجب الرسالة إليكم على أكمل وجه ، وعلى أنكم بالغتم فى التكذيب والعناد، فهو شاهد لى وعليكم ، عالم بما كان منى ومنكم .

(إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) : هذا تعليل لكفاية شهادة الله مع الإيذان بطمأنة الرسول ، وتهديد الكفار ، أى أنه سبحانه محيط بأحوال وأعمال عباده جميعا : الرسل والمرسل إليهم ، عليم بظواهرهم وبواطنهم لا تخفى عليه منهم خافية ، يهدى من أقبل عليه ، ويتخلى عمن تولى عنه ، ولهذا قال سبحانه :

(وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(عُمْياً) : جمع أعمى وهو الذى لا يبصر.

(بُكْماً) : جمع أبكم وهو الذى لا ينطق.

(وَصُمًّا) : جمع أصم وهو الذى لا يسمع.

(كُلَّمَا خَبَتْ) : كلما سكن لهيبها وصار عليها غشاءٌ وطبقة من رماد .

(وَرُفَاتاً) : هو فى الأصل كما قال الراغب ما تفرق من التبن ويطلق على الحطام ، والمراد هنا بَالِينَ متناثرين .

التفسير

٩٧ـ (ومَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ومن يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ) :

هذا كلام مبتدأ يفصل به سبحانه ما أشار إليه قوله « إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً » أى ومن يوفقه الله للهداية بحسن استعداده وقبوله للحق ، فهو المهتدى إلى الحق ، وإلى كل ما يؤدى إلى الثواب وحسن الجزاء ،أو المهتدى إلى كل مطلوب يستقيم به دينه ، ويتحقق به هداه، ومن يضلِلْه : أى يتخلى عنه فلا يوفقه للهداية لسوء اختياره ، وقبح استعداده ، وفساد طبعه ، كهؤلاء المعاندين ،فلن تجد لهم أنصارا من دون الله يهدونهم إلى طريق النجاة من عذاب استحقوه بإمعانهم فى الضلال والعناد ،أو يهدونهم إلى الحق والسعادة فى الدارين . وأوثر لفظ الإفراد فى قوله (فَهُوَ الْمُهْتَدِ) ولفظ الجمع فى قوله (فَلَن تَجِدَلَهُمْ) رعاية للفظ (مَنْ) فى الأول ولمعناها فى الثانى . تلويحا بوحدة طريق الحق وقلة أتباعه، وتعدد سبل الضلال ، وكثرة الضالين .

(ونَحْشُرُهُمْ يَوْم الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمًّا) : أى أنهم بعد الحساب يوم الحشر يساقون إلى جهنم على وجوههم ،مدفوعين إليها دفعا سريعا لايلوون على شىء أخذا من قول العرب ، قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا أو أنهم يسحبون إليها على وجوههم كما يفعل فى الدنيا مع من يبالغ فى امتهانه وتعذيبه أو أنهم يمشون على وجوههم ليدخلوها ، ويشهد لذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال : يارسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟قال: « الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم »وحين يحشرون يكونون عميا لا يبصرون شيئا تقر به أعينهم ، وبكمًا لاينطقون

ما يقبل منهم، وصُمًّا لا يسمعون ما تطمئن به أسماعهم. قال ابن عباس والحسن: عُمْى عما يسرهم بُكْمٌ عن التكلم بحجة، صمٌّ عما ينفعهم. وعلى هذا فحواسهم باقية على ما هى عليه ويكون ذلك على المجاز، وقيل إنهم يحشرون عميا بكما صما على سبيل الحقيقة تحقيرا لهم وامتهانا، ثم تعاد إليهم تلك الحواس عندما يحشرون إلى النار ليبصروا لظاها ولهيبها القوى وأهوالها البالغة. كما قال تعالى: «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً»[1]. وليتكلموا بما يزيدهم ألما وحسرة قال تعالى: «وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً»[2]. وليسمعوا ما يذيب نفوسهم فزعا وهلعا وقلوبهم خوفا ورهبة قال تعالى: «إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً»[3]. وقيل يحصل لهم العمى والبكم والصمم بعد دخول النار لشدة سوادها، وقسوة أهوالها.

(مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا): أى أن جهنم مستقرهم ومقامهم، يصلون العذاب فيها الدائم، وحتى يبقى شديدا أليما فإنه كلما خبت زادها الله سعيراً وناراً تلظّى.

٩٨ ـ (ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً):

أى ذلك العذاب الشديد جزاء كفرهم فى الدنيا بآياتنا القرآنية والكونية الدّالة على البعث، دلالة بيّنة لا لبس فيها ولا إبهام، أو الدالة على صحة ما أرسلناك به مطلقا، فيشمل ما ذكر من الدلالة على البعث الذى أنكروه أشد الإنكار، واستبعدوا وقوعه حيث قالوا: أبعد أن أصبحنا ترابا أو أجزاء متفتتة تفرقت وتناثرت، أبعد ذلك نبعث خلقا جديدا أى بعثا جديدًا، تتلاقى فيه منا الأجزاء وتستقيم القامات. أو المعنى أنبعث مخلوقين على سبيل الإيجاد والتكوين مرة أخرى؟ وقد رد الله على إنكارهم الإعادة بعد الفناء بما يلْقى من الآيات، فقال تعالى:

(١) سورة الكهف الآية ٥٣.
(٢) سورة الفرقان الآية ٥٣.
(٣) سورة الفرقان. الآية ١٢.

(* أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ قَتُورًا (١٠٠))

المفردات :

(أَوَلَمْ يَرَوْا) : الرؤية هنا علمية ، والهمزة لنفى عدم علمهم وتحقيق أنهم يعلمون ، والواو عاطفة على فعل مقدر ، والتقدير : أغفلوا ولم يعلموا ؟ وحاصل معنى الجملة أنهم قد علموا . . .

(خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى) : المراد ، خزائن رزق ربى ونعمه التى يفيضها على الموجودات كافَّة .

(قَتُورًا) : أى مُبالغًا فى التقتير والبخل ، يقال : قتر يقتِرُ وأقتر وقتَّر : إذا ضيَّق النفقة وقللها .

التفسير

٩٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ...) الآية .

دأب المشركون على إنكار البعث مع وضوح أدلته التى لايُمارِى فيها إلا عنيد مكابر ، ينكر الشمس وهى ساطعة ؛ فنبههم الله تبارك وتعالى فى هذه الآية ، على قدرته العظيمة التى غفلوا عنها ولم يتفكروا فى آثارها !

والمعنى ؛ قد علموا أن من قدر على خلق السموات والأرض من عدم ، وعلى غير مثال سبق فهو قادر على أن يبعثهم ويعيد خلقهم ، كما بدأهم أول مرة ، بل الإعادة أهون عليه كما قال جل وعلا : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(١) .

(وَجَعَلَ لَهُم أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ) :

أى وجعل سبحانه لبعثهم وإعادتهم ، ميقاتًا محدودًا عنده لايعلمه إلا هو ، وهو ميقات محتَّم مَجِيئُه ، لاينبغى لأحد الشكُّ فيه ، فضلا عن إنكاره ، وهو يوم القيامة ، لكن المشركين الذين ظلموا أنفسهم ، وكفروا بآيات ربهم ، وجحدوا قدرته وحكمته — لكن هؤلاء المشركين الظالمين ، أصروا على إنكار البعث مع قيام الحجة عليهم ، جحودًا وعنادًا ، كما قال سبحانه :

(فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا) :

أى : فلم يرض هؤلاء الكفرة الظالمون ، إلا مُضيًّا فى كفرهم وجحودهم ، بعد أن دمغتهم الحجة فأزهقت باطلهم .

ولما بينت هذه الآية أن المشركين أفرطوا فى العناد والكفر ، جاءت الآية التى تليها ، لتبين أن هؤلاء المشركين ، أفرطوا فى الشح والبخل كذلك ، فقال عز من قائل :

١٠٠ — (قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ..)الآية .

أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين : لو أنكم تملكون التصرف فى خزائن رزق الله لأمسكتم عن الإنفاقِ منها ولَبَخِلْتُمْ بها فلم تُعطوا أحدًا شيئًا مخافة نفادها ، مع أنها لا تنفَد ولاتفرغ أبدًا ، ولكن الإمساك والبخل مركوزان فى طباع الإنسان إلا من وفقه الله وعصمه ؛ قال تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً . إِلَّا الْمُصَلِّينَ »(٢) .

(١) سورة الروم ، الآية : ٢٧

(٢) سورة المعارج ، الآيات : ١٩ — ٢٢

ولما كان البخل والشح فى طبيعة الإنسان وجِبِلَّتِهِ ، قال سبحانه :

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) : أى شديد البخل والحرص .

وقد بلغت هذه الآية الكريمة من وصف الإنسان بالشح الغاية القصوى حيث أفادت أنه لو استولى على خزائن رحمة ربه التى لاتحدّ ولا تنفَد ، وانفرد بملكها دون مزاحم له — لأمسكها لشدة حرصه وبخله على عباد الله .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ
مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾
فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾
وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ
وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾)

المفردات :

(آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) : أى أدلةً واضحات ، والمراد بها : المعجزات التسع الآتية .

(مَسْحُورًا) : أى مختل العقل من أثر ما سُحِرْتَ .

(بَصَآئِر) : جمع بصيرة ، وهى الحجة التى تُبَصِّر بالحق وتهدى إليه .

(مَثْبُورًا) : مُهْلَكًا ، من ثبَر الله الكافر إذا أهلكه ؛ أو مصروفًا عن الخير ، مطبوعًا على الشر ؛ من قولهم : ماثبرَكَ عن هذا ؟ أى ماصرفك عنه ومنعك ؟ .

(فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ) : أى فأراد أن يزعجهم ليخرجهم من الأرض .

(لَفِيفًا) : أى جميعا . وأصل اللفيف : الجماعة من قبائل شتّى .

التفسير

١٠١ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ...) الآية .

لما حكى الله تبارك وتعالى فى الآيات السابقة ما حكى ، من تعنت المشركين وعنادهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم - سلّاه سبحانه فى هذه الآية وما بعدها ، بما جرى لكليمه موسى عليه السلام مع فرعون ، وما صنع سبحانه بفرعون وقومه .

والمعنى : ولقد أيّدْنا موسى بتسع آيات من المعجزات الساطعة ، والحجج القاطعة ، على نبوته وصدقه فيما أخبر به عن ربه ، أرسلناه بهذه الآيات التسع إلى فرعون وقومه وهى - فى أرجح الأقوال وأولاها بالقبول - :

(١) عصاه التى كان يلقيها فإذا هى حَيَّةٌ تسعى .

(٢) ويده التى يدخلها فى جيبه ، ليخرجها بيضاء من غير سوء . والجَيْبُ : هو الفتحة التى فى أعلى الثوب ، تحت الذقن .

(٣) والسنون ، والمراد بها : سنوات القحط والجدب ، بسبب انقطاع الأمطار وانخفاض ماء النيل ، يقال مسَّتْهُمْ سَنَةٌ ، وأَسْنَتُوا : إذا قحطوا وأجدبوا .

(٤) ونقص الثمرات ، بسبب كثرة العاهات والآفات .

(٥) والطوفان ، بسبب المطر الغزير الذى غشّى منازلهم ومزارعهم .

(٦) والجراد الذى قضى على الزروع والثمار .

(٧) والقُمَّل ، وهو نوع من القُرادِ ، كان يخالط طعامهم وملابسهم وأجسامهم وقيل هو القمل المعروف .

(٨) والضفادع التى ملأت بيوتهم وطعامهم .

(٩) والدم الذى حل محل الماء ؛ أو هو الرُّعاف الذى أصابهم .

وقد تقدمت هذه الآيات كلها فى سورة الأعراف مفصلة [١] فارجع إلى تفسيرها هناك .

قال الحافظ ابن كثير وغيره من أئمة التفسير : هذه الآيات التسع هى المرادة هُنَا ، وهى التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، فكانت حجة عليهم ، فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا كما قال تعالى : « فَلَمَّا جَآءَتْهُم آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » [٢] .

وهى غير الآيات التى أُرسل بها - عليه السلام - إلى بنى إسرائيل ؛ من تظليلهم بالغمام ، وإنزال المنّ والسلوى عليهم ؛ إلى غير ذلك مما أُرسل به بعد مفارقتهم بلاد مصر ، مما لم يشاهده فرعون وقومه .

والخطاب فى قوله تعالى : (فَاسْأَلْ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ) : لمن يريد أن يتحقق من صدق ما جاء به القرآن عن الآيات التى أيد الله بها موسى حين أرسله إلى فرعون وقومه ، أى فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم بها ، فهم يعرفون مطابقتها لما جاء عنها فى القرآن فإنه مصدق لما بين يديه من التوراة .

وقيل فى معنى الآية : سلهم يامحمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات ، سؤال تقرير ليعرف اليهود صحةَ ما يقوله محمد اهـ . والظاهر الأول .

ويجوز أن يكون خطابًا لموسى عليه السلام على تقدير القول ، أى : آتينا موسى هذه الآيات التسع فقلنا له : اسأل بنى إسرآئيل ، أى اطلبهم ياموسى من فرعون ، كقوله : « فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ » [٣] .

وهناك أوجه أخرى ذكرها الآلوسى فى تفسيره . ثم هنا كلام مطوىّ يشعر السياق به ، ويدل المقام عليه . أى فذهب موسى إلى فرعون وبلغه رسالة ربه ، مؤيدا بالمعجزات الدالة على صدقه .

---

(١) فى الآيات ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٠ ، ١٣٣

(٢) سورة النمل ، الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٣) سورة الأعراف ، من الآية : ١٠٥

(فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ): فى سخرية وكبرياء (إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا): أى سُحِرْت فاختل عقلك، ولذا اختل كلامك وادعيت ما ادعيت، وهذا كقوله: «إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون»[1].

وقيل: (مَسْحُورًا) هنا معناه: ساحرًا .. ويؤيده قوله: «إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۞ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ»[2].

١٠٢ - (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَآئِرَ..) الآية.

هذا رد كليم الله على عدوّه وعدوّ الله، بعد أن بلغ الجهد هو وأخوه فى دعوته، واستنفدوا كل قول ليِّن فى سبيل تذكيره، خوفًا من أن يفرط عليهم أو يطغى، وصبرا عليهما السلام صبر أولى العزم من الرسل، فلم يزدد عدوّ الله إلا جحودًا وعنادًا، مع أن هذه المعجزات لا يقدر عليها إلا رب السموات والأرض، رب موسى وهارون.

هنالك قال موسى عليه السلام لفرعون - وقد يئس من إيمانه: لقد علمت يا فرعون أن هذه المعجزات من عند الله تعالى، أوجدها حججا ساطعةً على صدق فيما دعوتك إليه من الإيمان بمالك الملك ربى وربك . . .

(وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا): المراد من الظن هنا العلم، وقد عبر به موسى عنه تلطفًا مع فرعون، أى وإنى لأعلم أنك يا فرعون هالك، أو مصروف عن الخير إلى الشر بسوء فعلك وطغيانك.

وقرىء: (لَقَدْ عَلِمْتُ) بضم التاء . . فعلى هذه القراءة يكون موسى قد ردّ بها عن نفسه دعوى أنه ساحرٌ أو مسحورٌ كما زعم فرعون عدو الله، أى قال موسى لفرعون لقد علمت أنا حقَّ العلم أن الذى أنزل هذه الآيات هو خالق السموات والأرض ومدبرهما، وأنى لست بساحر ولا مسحور كما زعمت،: وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآيات التسع: الأصول العامة التى أنزلها الله فى الكتب الإلٰهية للعقائد والشرائع السماوية كلها، وجعلها مشتركة بين

(١) سورة الشعراء، من الآية: ٢٧

(٢) سورة الشعراء، من الآيتين: ٣٤، ٣٥

جميع الرسالات والنبوات ، وإليها يشير قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ » . ويؤيد هذا مارواه جمهرة من أئمة الحديث ، عن صفوان بن عسال رضى الله عنه أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبى نسأله ، فأتياه صلى الله عليه وسلم ، فسألاه عن قول الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » . فقال عليه الصلاة والسلام : لا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولاتسرقوا ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تفرُّوا من الزحف - وعليكم يا يهود خاصة ألا تعتدوا فى السبت - فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبى ، قال : فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا : إن داود دعا الله أن لا يزال فى ذريته نبى ، وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود[١] .

١٠٣ - (فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا) :

أى استبد بعدو الله مكره ، فأراد أن يزعج موسى وقومه ليخرجهم من أرض مصر التى هم بها ، أو من الأرض جميعًا ، ليستأصلهم فلا يُبقى منهم أحدًا ، فعكسنا عليه مكره ، فأغرقناه ومن معه ، فلم نبق منهم أحدًا . ونجيناه ببدنه ليكون لمن خلفه آية[٢] . وبهذا أخرجناه من أرضه أفظع إخراج « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »[٣] .

١٠٤ - (وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ . . .) الآية .

وقلنا من بعد إغراق فرعون - على لسان موسى - لبنى إسرائيل ، الذين أراد فرعون استفزازهم - قلنا لهم : اسكنوا الأرض التى أراد فرعون أن يخرجكم منها .

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) : فإذا جاء وعد الدار الآخرة بعد قيام الساعة :

(جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا) :

جئنا بكم أنتم وهم مختلطين ، لنحكم بينكم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

---

(١) انظر تفسير : الطبرى ، والقرطبى ، والآلوسى .

(٢) اقتباس من الآية : ٩٢ من سورة يونس .

(٣) سورة فاطر ، من الآية : ٤٣

قال الحافظ ابن كثير : وفى هذا بشارة محمد صلى الله عليه وسلم بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى : « وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا »[١] . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوةً – على أشهر القولين ، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلمًا وكرما ؛ كما أورث الله القوم الذين كانوا يُستضعفون من بنى إسرائيل فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال : « كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ »[٢] .

(وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾)

المفردات :

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ) : الحق ؛ الأمر الثابت الذى لا يتبدل ولا يزول ، ضد الباطل .

(فَرَقْنَاهُ) : أنزلناه مفرَّقا منجما ، أو أنزلناه مبينا موضحا .

(عَلَى مُكْثٍ) : أى على تُؤدة وتأنٍّ . (يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ) : يقعون على أذقانهم .

(إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) : أى إن الشأن فى وعد ربنا أنه كائن لا محالة .

(١) سورة الاسراء ، من الآية : ٧٦

(٢) سورة الشعراء ، والآية : ٥٩

التفسير

١٠٥ - (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ . . .) الآية .

قال الآلوسى : هذا عود إلى شرح حال القرآن الكريم ، فهو مرتبط بقوله تعالى : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ » . وهكذا العرب ، تأخذ فى شىء وتستطرد منه إلى آخر ، ثم إلى آخر . . ثم تعود إلى ما ذكرته أولا ، والحديث شجون .

والمعنى : وبالحق أنزلنا هذا القرآن المجيد من اللوح المحفوظ ؛ وبالحق نزل على عبدنا ورسولنا محمد ؛ فهو مؤيد بالحق محفوظ بحفظنا له وحراستنا إياه ، حال إنزاله على رسولنا محمد ، وما بعدها إلى أن تقوم الساعة ، لاتعتريه زيادة عليه ولا نقص منه ؛ وصدق منزله إذ يقول : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[١] . ويقول : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[٢] .

وقيل : المراد بالحق ؛ الحكمة الإلٰهية المقتضية لإنزاله ونزوله . والمعنيان متلازمان . وأيًّا كان المعنى المراد ، فلا ريب أن هذا الكتاب الحكيم مشتمل على دلائل التوحيد ، وصفات الجلال والإكرام ؛ وعلى تعظيم الملائكة ، وإقرار النبوات ، وإثبات المعاد ؛ وعلى أصول الإسلام والشرائع الثابتة التى لا تتبدل ولا تُنسخ بحال من الأحوال ، ولا فى زمن من الأزمان .

فلهذا استحق أن يصفه البارى سبحانه ، بأنه أنزله بالحق محروسًا بعنايته حتى وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ »[٣] .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٤٢

(٣) سورة الشعراء ، الآيتان : ٢١٠ ، ٢١١

ولما بين سبحانه حال القرآن الكريم فى إنزاله ونزوله ، بيّن حال من أُنْزِلَ القرآن عليه فقال مخاطبًا إياه صلى الله عليه وسلم :

(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) :

أى : وما أرسلناك – يا محمد – إلى الناس كافة إلا مبشِّرًا للمطيعين منهم بالثواب ، ومنذرًا للعاصين منهم بالعقاب ، فما عليك إلا البلاغ بالتبشير والإنذار ، وليس عليك إكراه أحد منهم فى الدين ، فقد تبين الرشد من الغىّ .

١٠٦ – (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ . . .) الآية .

أى وأنزلنا عليك – يا محمد – قرآنًا عظيمًا أوحيناه إليك وأيدناك به – أنزلناه منجمًا مفرقًا ، على حسب الأحداث والمناسبات ؛ لتبلِّغه الناسَ على تؤدة وتأنٍّ ، ليكون أيسر للحفظ ، وأعون على الفهم ، وأبين لوجوه الإعجاز به ؛ فى هدايته وبشارته ونذارته ، ولذا أكد هذا المعنى فقال :

(وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) : أى نزلناه بحسب الحوادث والمصالح ، حيث لم ينزل جملة واحدة ، للحِكَم التى مر بيانها . وقد نزل القرآن الكريم مفرقا حسب الحوادث المقتضية لنزوله فى مدة الرسالة المحمدية ، وهى ثلاثة وعشرون عامًا تقريبًا .

وهذا التنزيل المفرق خاص بالقرآن الكريم ، دون سائر الكتب السابقة ، لأنه أنزل على خاتم النبيِّين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فكان لهذا آخر كتاب أنزل من عند الله ليبقى حتى تقوم الساعة ، وقد تكفَّل الله بحفظه ، وجعل من أسباب حفظه نزوله مفرَّقًا حسب الوقائع ، حتى يكون أيسر لحفظه ؛ وأعون على فهمه ، وأدعى إلى الحرص على نصوصه ، أما غيره من الكتب السماوية فقد نزل كل منها جملة واحدة ، ولم يتكفل الله تعالى بحفظها كما تكفل بحفظ الكتاب العزيز ، لأنها كانت موقوتة بأزمنتها ، ومن هنا وقع فيها التغيير والتبديل بعد أن وضح الحق ، وأسفر الصبح لذى عينين .

ولما أصر أهل مكة على الكفر بالقرآن الكريم ، قال الله تبارك وتعالى تسلية لنبيّه صلى الله عليه وسلم ، ووعيدًا للكافرين وتهديدًا لهم :

١٠٧ - (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا . . .) الآية .

أى قل أيها الرسول لهؤلاء الكافرين بهذا القرآن العظيم : سِيَّانِ إيمانكم بهذا القرآن وعدم إيمانكم به ، فإن إيمانكم به لا يزيدة كمالًا ، وعدم إيمانكم به لا يورثه نقصًا ، فهو حق فى نفسه ، أنزله الله تعالى ونوه بذكره فى سالف الأزمان ، فى كتبه المنزلة على رسله - ولذا قال :

(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) :

المقصود بالذين أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قبلِ القرآن الكريم ، مؤمنو أهل الكتاب من علمائهم ، كعبد الله بن سلام وأضرابه .

والمعنى : إن العلماء الذين قرءوا الكتب السماوية من قبل نزول القرآن وخروج النبي صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة ، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل ، ورأوْا فيها نعتك ونعت ما أُنزل إليك ، هولاء العلماءُ إذا يُتْلَى القرآن عليهم يقعون على وجوههم ساجدين لله تعالى ، تعظيمًا لأمره ، وشكرًا لله سبحانه على إنجاز ما وعد به فى تلك الكتبِ منْ بعثتك ، ومن الحق الذى جئت به .

والتعبير عن سجودهم على وجوههم بخُرورِهِمْ للأذقان ، للإيذان بكمال تذلُّلهم وخضوعهم وشكرهم لله على إنزال هذا الكتاب العظيم .

وقيل المراد المبالغة فى التحامل على الجبهة والأنف حتى كأنهم يلصقون الأذقان بالأرض . قال الآلوسى : وهو وجه حسن جدًّا .

١٠٨ - (وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) :

أى : ويقولون وهم يتضرعون إلى الله تعالى فى سجودهم ودعائهم : (سُبحَان رَبِّنا) أى تنزه ربنا تنزيها عن خلف وعده ، وعن كل مالا يليق به مما يفتريه الكفرة ، إن الشأن فى وعد ربنا أنه كائن لامحالة .

ولا يخفى ما فى عنوان الربوبية ، وإضافتهم أنفُسَهم إليه - مكرراً - من اعتزازهم بالعبودية لله تعالى .

وفى الآية دليل على استحباب التسبيح فى السجود كما دلت السنة على ذلك ، ففى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى سجوده وركوعه : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى » .

١٠٩ - (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) :

ويقعون على وجوههم ساجدين لله وهم يبكون ، ويزيدهم القرآن تواضعا لله وخضوعا ، كما يزيدهم علما ويقينا بالله تعالى .

وإنما كرر الخرور للأذقان لاختلاف السبب ؛ فإن الأول لتعظيم أمر الله تعالى وشكره على إنجاز وعده ؛ والثانى لشدة تأثرهم باستماع القرآن ومواعظه . ودلت الآية على مدح البكاء عند تلاوة القرآن وسماعه . من خشية الله تعالى ، ولو كان التالى للقرآن مصليًّا . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يَلِجُ النارَ رجلٌ بكَى من خشية الله ، حتى يعود اللبن فى الضَّرع ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وعن عبد الله ابن الشِّخِّير رضى الله عنه قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء [1] » .

(قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾)

---

(١) قال النووى فى رياض الصالحين : حديث صحيح ، رواه أبو داود ، والترمذى فى الشمائل ، بإسناد صحيح ، والأزيز : صوت البكاء ، والمرجل - كمنبر - : القدر .

المفردات :

(ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ) : أى سَمُّوا الإلٰه باسم الله أو باسم الرحمن ، فهو مسمًّى بهما معًا ، أو نادُوه بـأى الاسمين شئتم ، فالدعاء يطلق على التسمية وعلى النداء .

(وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ) : المراد ولا تجهر بالقراءة فى صلاتك .

(وَلَا تُخَافِتْ بِهَا) : أى ولا تُسِرَّ بها . والمخافتة ضد المجاهرة ، يقال : خفت الرجل بصوته : إذا لم يرفعه ، وخافت بقراءته : إذا لم يرفع صوته بها . وقيل الصلاة هنا : الدعاء .

(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا) : أى واقصد أو اسلك بين الجهر بقراءتك والإسرار بها طريقا وسَطًا .

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ) : أى وليس له سبحانه ناصر يحميه من الذل ؛ لأنه عزيز بنفسه .

(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) : أي وعظمه تعظيما يليق به .

التفسير

١١٠ - (قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ . . .) الآية .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم ، فدعا الله تعالى فقال فى دعائه : يا ألله يارحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابىء : ينهانا أن ندعو إلٰهين وهو يدعو إلٰهين : فنزلت » .

وقيل : إن اليهود قالت : ما لنا لا نسمع فى القرآن اسماً هو فى التوراة كثيرٌ ؟ يعنون الرحمن : فنزلت .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين أو اليهود : إن هذين الاسمين الكريمين : الله والرحمن ، اسمان لمسمًّى واحد هو الإله المعبود بالحق جل جلاله ، فسمُّوه أو نادوه أو اذكروه بكل منهما أو بأيِّهما .

وليس الدعاء مقصورا على هذين الاسمين، فقد قال تعالى: « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا »[(١)]. وقال صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه: « إن لله تسعةً وتسعين اسماً – مائةً إلا واحدا – من أحصاها دخل الجنة، إنه وِتْر يحب الوتر ».

ولم تذكر الأسماء التسعة والتسعون فى رواية الشيخين، ولكنها ذكرت فى رواية الترمذى وابن حِبّان والحاكم وغيرهم. وهذا نصُّها فى جامع الترمذى[(٢)] عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائةً غير واحدة[(٣)] من أحصاها دخل الجنة: هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المُقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المُحْصِى المبدئ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المُقْسِط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور ».

وليس المقصود من الحديث حصر أسمائه الحسنى – تبارك وتعالى – فى هذه التسعة والتسعين، بدليل حديث ابن مسعود الذى أخرجه أحمد وصححه ابن حِبان: « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك... » الحديث[(٤)]. وإنما المقصود بشارة من حفظ هذه الأسماء، ودعا الله بها بأنه من أهل الجنة، والحكمة فى الاقتصار على هذه العدّة: أنها

---

(١) سورة الأعراف، من الآية: ١٨٠

(٢) اختلفت الروايات اختلافا كثيرا فى سرد الأسماء، ورواية الترمذى هذه هى أقرب الروايات إلى الصحة، وعليها عول غالبا من شرح الأسماء الحسنى كما قال الحافظ فى كتاب الدعوات من فتح البارى.

(٣) أى غير تسمية واحدة.

(٤) تمامه: أن تجعل القرآن ربيع قلبى، ونور بصرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى.

الأسماء الجوامع ، الدالة على ماعداها ، مما لا يحصيه إلا الله ـ تباركت أسماؤه وجلت آلاؤه ؛ وأنها جمعت من معانى الجلال والكمال مالم يجمعه غيرها .

والحكمة فى تخصيص هذين الاسمين بالذكر ، أن لفظ الجلالة عَلم على الذات الأقدس ، واسم الرحمن أنسب بالدعاء . فقد كتب على نفسه الرحمة .

هذا ، وقد اتفق الثقات من العلماء على أن أسماء الله تعالى توقيفيّةٌ ، فلا تجوز تسميته إلا بما سمى به نفسه : مما جاء فى كتابه عز وجل ، وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً) :

روى الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختَف بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :(وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ) أى بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسُبوا القرآن (وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا) :عن أصحابك فلا تسمعهم حتى يأخذوا عنك .

(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا) : يقول بين الجهر والمخافتة . ا ﻫ .

والمراد بالصلاة القراءة التى هى أحد أركانها . والظاهر أن المراد بالقراءة ما يعم البسملة وغيرها . ويروى أن أبابكر رضى الله عنه كان إذا صلى بالليل خفض صوته جدا ويقول : أناجى ربى وقد علم حاجتى ؛ وكان عمر رضى الله عنه إذا صلى من الليل رفع صوته جدا ويقول : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان . فلما أنزل الله هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ارفع من صوتك شيئًا ؛ وقال لعمر اخفض من صوتك شيئاً فالقراءة بين المخافتة والجهر هى الوسط ؛ وخير الأمور أوسطها ، ومن الأحكام العامة لدى الخاصة والعامة : الجهرُ فى ركعتَى الفجر والجمعة والعيدين ، وفى الركعتين الأُوليين من المغرب والعشاء . ولا ريب أن الجهر فى هذه الصلوات من الشعائر المتواترة فى الشريعة الإسلامية .

وقيل : الصلاة هنا بمعنى الدعاء : لما أخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : «إنما نزلت هذه الآية : (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا) فى الدعاء». ومعروفٌ أن الصلاة فى أصل اللغة هى الدعاء .

ولما أثبت سبحانه الأسماء الحسنى لذاته الكريمة نزه ذاته عن النقائص ، فقال :

١١١ - (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . .) الآية .

وهى رد لمزاعم اليهود والنصارى وبنى مُليح من كفار العرب ؛ إذ قالوا عزير ابن الله! والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله ؛ سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرا .

ونفيُ اتخاذ الولد ظاهر فى نفى التَّبَنِّى ، ويعلم منه نفى ولد الصلب عنه سبحانه من باب أولى . وقد نفى ذلك صريحا فى قوله سبحانه : « لَمْ يَلِدْ »[١] وقوله عز وجل « أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ »؟[٢]

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ) : فكيف يتخذ المشركون معه آلهة يعبدونها ، مع اعتقادهم أنه هو الذى خلق هذا الملك العظيم وحده ، ودبره بحكمته ، دون سواه ، كما حكى الله عنهم ،يقول سبحانه : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »[٣] .

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ) :أى ليس له سبحانه ناصر يحميه من الذل ؛ لأنه سبحانه عزيز بنفسه ؛ فليس بحاجة إلى أن يوالى أحدا أو يخالفه ، من أجل مَذلَّةٍ به، ليدفعها عنه .

وفى حمده تعالى على هذا التنزيه إيذان بأن المستحق للحمد العظيم ، مَن هذه صفاته دون غيره ، ولذا عطف على الأمر بحمده الأمر بتكبيره فقال :

(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) :أى وعظمه تعظيما بليغا مؤكدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه .

والتكبير ، أبلغ كلمة للعرب فى معنى التعظيم والإجلال .

---

(١) سورة الإخلاص ، من الآية : ٣

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١٠١

(٣) سورة الزمر ، من الآية : ٣٨

وفى الآية تنبيه على أن العبد – وإن بالغ فى التنزيه والتمجيد ، واجتهد فى الطاعة والتحميد – ينبغى أن يعترف بالقصور فى حقه ، والتقصير فى حمده وشكره ، سبحانه لا نحصى ثناء عليه ، هو كما أثنى على نفسه .

هذا وَرَوى عَمْرُو بنُ شعيب عن أبيه عن جده قال : «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطَّلب ، علمه هذه الآية : (وقل الحمد لله) إلى آخرها » وسماها عليه الصلاة والسلام آية العز – كما أخرج أحمد والطبرانى عن مُعاذ بن جبل رضى الله عنه .

سورة الكهف

تمهيد :

سورة الكهف - ويقال لها سورة أصحاب الكهف - مكية . وهى الثامنة عشرة فى ترتيب المصحف وآياتها عشر ومائة . وقد افتتح الله تعالى كتابه بالحمد فى سورة الفاتحة ثم افتتح بالحمد كذلك أربع سور مكيات ، اشتملت كل سورة منهن على أصول الإسلام الثلاثة : التوحيد ، والرسالة ، والبعث ، وهى أهم مقاصد القرآن المجيد .

الأولى : الأنعام ، وهى آخر سورة فى الربع الأول من هذا الكتاب العزيز ، والثانية سورة الكهف وهى مشتركة بين آخر الربع الثانى ، وأول الربع الثالث ، والثالثة والرابعة سبأ وفاطر ، وهما آخر الربع الثالث . ومما يذكر فى مناسبتها لسورة الإسراء : افتتاح تلك بالتسبيح ، وافتتاح هذه بالتحميد . والتسبيح والتحميد أخوان مُتَلَازمان فى ميزان الأعمال ، وفى كثير من الأحوال . ومن هذا التآخى سبحان الله والحمد لله ؛ ومنه قوله تعالى : «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ»[1] . ومن المناسبات التشابه بين اختتام تلك وافتتاح هذه ؛ فإن فى كل منهما حمدًا ، وهناك مناسبات أخرى يدركها القارئ .

ابتدأ الله تبارك وتعالى هذه السورة الكريمة بالثناء على ذاته المقدسة ؛ لإنزاله كتابه العزيز على عبده ورسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كتابا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، يهدى به إلى صراط مستقيم ، نذيرا للكافرين وبشيرا للمؤمنين ، ولما حمَّل الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه من الحزن على إعراض قومه - مالا يُطيق - قال له ربه : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » (٦) يعاتبه على إجهاد نفسه فوق طاقتها رحمةً به ، فما عليه إلا البلاغ ، وقد بلغ « فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » (٢٩) . ثم قصَّ الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم قصصا من إنباء الغيب ، فى كل قصة منها عبرة وتذكرة ، وتقريرٌ لمقصد من مقاصد القرآن الكريم فى الدعوة إلى الهدى والحق :

(١) سورة النصر ، من الآية : ٣

(١)وأولى هذه القصص : قصة أصحاب الكهف الذين سميت باسمهم ، واختصت بذكرهم فلم تذكر فى سورة سواها . وفيها يتجلى الإيمان وآثاره إذا خالطت بشاشته القلوب ، ولم تخش إلا علام الغيوب . وإذًا فلا ترضى بغير الله بديلا ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة أصحاب الكهف برهانا عمليا حقا على أن البعث حق فى يوم لا ريب فيه « وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا » (٢١).

(٢)وثانية القصص :قصة الرجلين صاحبي الجنتين : أحدهما غنى كافر يعتز بماله وبنيه ، ويتكبر على أخيه ؛ ويكفر بربه الذى خلقه من تراب ثم سواه رجلا ، ويظن أن جنته لن تبيد أبدا . وصاحبه فقير صابر ، راض بقضاء الله يرى أن رضا الله كنز لايفنى ، وعز لا يبلى ، فكانت العاقبة له ، والندم والخسران لصاحبه ، الذى اغتر واستكبر « هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » (٤٤) .

(٣)والثالثة : قصة أبى البشر آدم عليه السلام مع عدو الله وعدو آدم ؛ وفيها التحذير منه ومن ذريته وأنصاره وشيعته . ومنها أن إبليس كان من الجن ، ولكنه انضم إلى الملائكة فصار كأنه منهم فى عبادته لله وطاعته له ؛ فلما أمره الله تعالى بالسجود لآدم مع ملائكته ، غلب عليه غروره وكبرياؤه ، فأبى واستكبر ، فحذّر الله عباده منه ومن فتنته ، وبيّن أنه عدو لأبيهم من قبل ، فمن المحال أن يكون صديقًا لأحد من ولده « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » (٥٠). ولا يخفى أن التنبيه على أن إبليس كان من الجن ، خاص بهذه السورة ، لم يذكر فى غيرها من السور التى ذكرت قصة سجوده لآدم عليه السلام ؛ وسيأتى تحقيق المراد من قوله تعالى : « كَانَ مِنَ الْجِنِّ » .

(٤)والرابعة : قصة موسى كليم الله مع العبد الصالح ،وهى مما اختصت به هذه السورة أيضًا ، فلم تذكر فى سورة سواها . وفيها : أن عالِمَ الغيب والشهادة سبحانه ، يُظهر مَنْ شاء من الصالحين من عباده – على لَمَحات من غيبه المكنون ، ويأذن لهم أن يبوحوا بها فى حدود إلٰهية لا يتجاوزونها ، ولحكم ربّانية قد أحاط بها ؛ لئلا يَدَّعِىَ مُدَّعٍ أن الله أعلمهُ شيئًا من غيبه ، إلا إذا جاء بسلطان بيِّن من لدن عالم الغيب والشهادة ، وحسبنا برهانًا على

ذلك أن العبد الصالح لم يعرفْ موسى عليه السلام إلا بعد أن عرَّفه موسى بنفسه حين التقيا بمجمع البحرين وقال له العبد الصالح : أنت موسى نبي بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، كما فى حديث الصحيحين – ولو كان يعلم من الغيب غير اللمحات التى أطلعه الله عليها لعرف موسى قبل أن يسأله مستفهمًا .

وفى قصة موسى والعبد الصالح : فضل الرحلة فى طلب العلم ، واحتمال مشاق الأسفار فى طلبه ؛ وفيها تواضع المتعلم للمعلم ، ولو كان المتعلم أفضل من معلمه ؛ وفيها صبر العالم ورفقه بمن يعلِّمه ، وتنبيهه إذا غَفَل ، وتحذيره أن يعود إلى مثل ما غفل عنه ؛ وفيها أن علم الله تعالى لا نهاية له ، وأن العالم إذا سئل : من أعلم الناس ؟ لا يقول : أنا ، بل يرد العلم إلى الله تعالى ، ولو كان نبيًّا ورسولًا من أولى العزم . . . وسيأتى بيان مأخذ ذلك فى هذه القصة .

(٥) والقصة الخامسة : قصة ذى القرنين ، وقد مكن الله له فى الأرض وآتاه من كل شىء سببًا فساح فى الأرض ، واستعان بهذه الأسباب على بسط سلطانه بالعدل والإحسان ، حتى بلغ مغرب الشمس ثم مشرقها – فى رأى العين – ودعا إلى الله فى كل رحلة يرحلها . وكان غياثا للمظلومين وعونا لهم ، وكان مثلًا صالحا فى كل أقواله وأعماله وهدايته إلى الخير ، حتى فتح الله به مغاليق الأمور ، وأصلح كثيرا من الفساد فى الأرض . ثم كان من آيات الله على يديه أن أقام سد يأجوج ومأجوج بين جبلين مرتفعين ارتفاعا عظيما ، وهنالك وجد « قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا » (٩٣) استغاثوا به من فساد يأجوج ومأجوج وإغاراتهم التى لا تنقطع : فبنى لهم هذا السد الحصين المنيع ، دون أن يأخذ منهم أجرًا ، قائلا : « مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » (٩٥). وهذا مثال من المُثُل العليا فى التعاون على البر والتقوى ، ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولما أتم الله على يدى ذى القرنين بناء هذا السد الحصين المنيع ، الذى عجزت يأجوجُ ومأجوجُ أن يعلوه ، لعظم ارتفاعه وملاسته ، أو ينقبوه ؛ لعظم تخانته وصلابته – لمَّا أتم الله ذلك على يديه – حمد الله وشكره قائلًا : « هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا » (٩٨) .

وقد اشتملت هذه السورة أيضًا على مقاصد أخرى لاتنفرد بها ، بل يشاركها فيها غيرها من السور . ومن هذه المقاصد : التحذير من فتنة الحياة الدنيا وزينتها « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا »(٥٤) «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » (٤٦) .

ثم ختمت السورة الكريمة بالحث على إعداد العدة للقاء الله تبارك وتعالى بالعمل الصالح ـ ونعم اللقاءُ لقاؤه ـ « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » (١١٠) .

بسم الله الرحمن الرحيم

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣))

المفردات :

(وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا) : العوج ـ بكسر العين وفتحها ـ : الميل والانحراف عن القصد حسيا كان أو معنويا . وقيل يختص مكسور العين بالمعانى ، ومفتوحها بالأعيان : فتقول : فى رأيه أَوْ قولِه عِوج ، وفى عصاه عَوَج . والمراد نفى العيب والخلل عن القرآن الكريم لفظا ومعنى .

(قَيِّمًا): أى مستقيما ، أو كفيلا ، أو مُهَيْمِنا .

(لِيُنْذِرَ) : الإنذار ؛ التحذير مع التخويف . ضد التبشير .

(بَأْسًا) : أى عذابا . وأصل البأس : الشدة فى الحرب .

(أَجْرًا حَسَنًا) : أى جزاء كريما ، والمراد الجنة ونعيمها الدائم .

التفسير

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ . . .) الآية .

أى الثناء الجميل مستحق لله الذى أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم كتابه المعروف بالكمال من بين الكتب السماوية ، وَلَوْ لَمْ يُضَفْ إلى مُنزله جل وعلا .

وفى حمده تعالى ذاتَه المقدسةَ على إنزال هذا الكتاب العزيز - تنويه بشأن ذلك الكتاب وعلوّ مكانه . وفى التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد ، مضافا إلى ضمير الجلالة - تشريف له صلى الله عليه وسلم أىُّ تشريف ، وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً لله الذى أرسله ، لا كما زعمت النصارى فى شأن عيسى عليه السلام .

(وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) :

أى ولم يجعل الله سبحانه فى كتابه شيئًا من العوج : بنوع اختلال فى نظمه ، أو تناقض أو اضطراب فى معناه ، أو انحراف عن دعوته إلى الهدى والحق ؛ بل جعله تعالى قَيِّمًا أى معتدلا مستقيما كما قال :

٢ - (قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ . . .) الآية .

وفائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة - وربما كان فى أحدهما غنًى عن الآخر - فائدة الجمع بينهما التأكيدُ ؛ فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ، ولكنه لا يخلو من أدنى عوج عند الفحص والبحث . أو جعله تبارك وتعالى مهيْمِنا على سائر الكتب السماوية ، مبيّنا للحق فيها قبل تحريفها ، أو جعله - جلت آلاؤه - كفيلا بمصالح العباد الدينية والدنيوية وببيانها لهم ، كشأن القيم على الأمور الكفيل بها ؛ لاشتماله على ماينتظم به المعاش والمعاد بالقسطاس المستقيم ، لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشق على العباد ، ولا تفريط فيه حتى يحتاج إلى كتاب آخر يكمله ؛ فكان ذلك وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال .

وصدق منزله إذ يقول : « مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ »[١]. ولا عَجَب إذن أن يكون هذا الكتاب المبينُ خاتمَ الكتب ، كما أن من أنزله الله عليه هو خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؛ ولاشك أن سلامته من العوج برهان على أنه من عند الله ، وشاهد على نبوة من أُنزل عليه ، وصدق الله إذ يقول : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[٢]. أنزل الله تعالى كتابه لينذر الكافرين به ويحذرهم عذاباً شديداً صادراً من عنده ، عاجلا أو آجلا جزاء كفرهم بكتابه وتكذيبهم له .

(وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا) :

أى ويبشر المؤمنين بهذا القرآن ، الذين صدقوا إيمانهم وأيدوه بالأعمال الصالحة المبينة فى تضاعيفه ، يبشرهم – بأن لهم أجرًا حسنا ، والمراد به الجنة وما فيها من النعيم المقيم والثواب العظيم ، ويؤيد كونَ المراد بالأجر الحسن الجنةَ . قوله عز من قائل :

٣– (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا) :

أى مقيمينَ فى أجرهم وهو الجنة خالدين فيها أبدًا ، لا يتحولون عنها ولا يزولون منها ؛ إذ لاانتهاء لمكثهم وخلودهم ، فضلا من الله ونعمةً « وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »[٣] .

وتقديم الإنذار على التبشير ؛ للعناية بزجر الكفار عما هم عليه من كفر وضلال مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية ، وذلك نوع من بديع الكلام ، بعد صدق المعنى وجزالته . ومصاحبة الأعمال الصالحة للإيمان الحق شرط لنيل الأجر الحسن؛ فإن الإيمان من غير العمل الصالح الذى شرعه الله تعالى ورضيه ، كالشجر الذى لا ظل له ولا ثمر كما أن العملَ الصالح الذى لا يُبنى على الإيمان الحق ، وفق ما جاء به الكتاب المبين ، وبُعث به خاتم النبيين – لا وزن له عند الله تعالى .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ٣٨

(٢) سورة النساء ، من الآية : ٨٢

(٣) سوره الجمعة ، من الآية : ٤

(وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾)

المفردات :

(كَبُرَتْ كَلِمَةً) : أى عظمت مقالةً فى الشناعة والقبح مقالتهم هذه : والكلمة واحدة الكلم ، وكثيرا ما يراد بها الجملة من الكلام أو الجمل منه ، كما فى قولهم : ألقى فلان كلمة وربما كانت خطابا طويلا .

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ) : أى فلعلك قاتلها أو مهلكها . وحرف الترجى (لعل) هنا ، يراد به النهى عن الحزن على عدم إيمان قومه رحمة به .

(أَسَفًا) : أى حزنا شديدًا وغمًّا .

التفسير

٤ - (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) :

أى : ويحذر الله سبحانه من بين الكافرين الذين استحقوا عذابه الشديد السابق - هؤلاء الفرق الثلاث ، الذين نسبوا لله ولدا ، وهم :

(١) كفار العرب المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله !

(٢) واليهود الذين زعموا أن عزيرا ابن الله !

(٣) والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله !

وإنما خص الله تبارك وتعالى هؤلاء الفرق بهذا الإنذار مع دخولهم فى عموم الإنذار السابق ؛ لشدة إمعانهم فى الكفر ، وقبح اجترائهم على الله عز وجل . والمنذر والمبشر

فى الآيات الثلاث هو الله تبارك وتعالى ؛ أو الكتاب الكريم ، أو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد نزّه الله تبارك وتعالى ساحته ، وحمى حماه ، عن مفتريات هذه الفرق الضّالة المضلّة ، فقال عز من قائل ، مكذبا لهم تكذيبا قاطعاً :

٥ - ﴿ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ . . . ﴾ الآية .

أى ليس لهؤلاء الكفرَة الفجرَة ، باتخاذه سبحانه وتعالى ولداً ، شىءٌ من علم ألبتّة ؛ وليس لآبائِهم وأسلافهم الذين قلدوهم أثارةٌ من علم كذلك ، بهذا الاتخاذ المزعوم !

أو ليس لهم علم بما قالوه : أصواب هو أم خطأ ، بل إنما قالوه رميا عن جهالة من غير فكر ولا روية ، كما فى قوله تعالى : « وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ »[1] .

أو ليس لهم علم ،بفظاعة ما قالوا وقبح موقعه من الشناعة ، كما فى قوله سبحانه : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا »[2] . وهذا هو الأنسب بقوله جل من قائل :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ : أى عظمت مقالتهم هذه مقالة فى الكفر والافتراء ؛ لما فيها من نسبته تبارك وتعالى إلى مالا يليق بجلال كبريائه .

وقوله جل من قائل :

﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ : صفة لكلمة ، تفيد استعظام اجترائهم على التفوه بها ؛ فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان ، وتحدث به النفس ، لا يمكن أن يُتفوّه به ، بل إنه يُطرح ويصرف عنه الفكر ، فكيف بهذا المنكر الذى لامستند له إلا مجرد افتراء الكذب ؟ ! ولهذا قال وقوله الحق :

﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ :

أى ما يقولون إلا قولا هو الكذب بعينه ، فلا يدخل تحت إمكان الصدق بتّة .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٠٠

(٢) سورة مريم ، الآيات : ٨٨ - ٩٢

٦ - (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) :

سبب النزول :

قال الآلوسى : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أبا جهل بْنَ هشام والنضربن الحارث وأمية بن خلف . . . فى نفر من قريش - اجتمعوا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد كَبُرَ عليه ما يرى من خلاف قومه إياه ، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة ، فأحزنه ذلك حزنا شديداً ! فأنزل الله تبارك وتعالى : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ) الآية .

وقال ابن جرير الطبرى رحمه الله فى تفسير هذه الآية :

وهذه معاتبة من الله عزَّ ذكره على وَجْـده صلى الله عليه وسلم بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم إليه من الإيمان بالله والبراءة من الآلهة والأنداد ، وكان بهم رحيما . ا هـ

شُبهت حاله صلى الله عليه وسلم ، فى شدة حزنه على إعراض قومه وتوليهم عن الإيمان بالقرآن - شبهت حاله هذه - بحال من يُتوقع منه إهلاك نفسه على عدم تحقق أمر أهمه ، فقيل له رحمة به وإشفاقا عليه : لاتهلك نفسك حسرة عليهم ، بل هون عليك ، وبلِّغ رسالة ربك ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

ومثل هذه الآية فى تسلية الله له رحمة به ، قولُه سبحانه : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »(١) .

وأمثال هذه التسلية مَبْثُوثَةٌ فى القرآن الكريم ، من رب به رحيم .

والمعنى الإجمالى للآية : فلعلك أيها الرسول مهلك نفسك أسفا ، عقب انصرافهم عنك ، إن لم يومنوا بهذا القرآن الذى هو حديث الله وكلماته ، ووحيه إلى عباده - ليهتدوا به .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٣

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨)

المفردات :

(زِينَةً لَهَا) : أى بهجة لها وجمالًا .

(لِنَبْلُوَهُمْ) : أى لنعاملهم معاملة المختبر بتكليفهم بشرائعنا .

(لَجَاعِلُونَ) : لمُصَيِّرون .

(صَعِيدًا جُرُزًا) : ترابا ، لا نبات فيه ، يقال : جُرِزت الأرض : إذا ذهب نباتها . بقحط أو جراد .

التفسير

٧ ـ (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا . . .) الآية .

لما تضمنت الآية السابقة نهى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، عن إجهاد نفسه فوق طاقتها ـ رحمة به ـ جاءت هذه الآية والتى تليها تسلية له صلوات الله وسلامه عليه وتسكينا لأسفه الشديد وحزنه ، لما جاء فيها من أنهم مجزيُّون على أعمالهم .

والمعنى : إنا أنشأنا جميع ما على الأرض : حيوانا كان أو نباتا أو معدنا ـ أنشأناه زينة لها ولأهلها ، ينتفعون به ويتمتعون إلى حين .

(لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) :

أى لنعاملهم معاملة المختبر ، ثم نجزىَ كلاًّ منهم على حسب عمله وإخلاصه لله فيه ، فكل العباد نبتليهم بالتكاليف ونحاسبهم عليها . فمن خالف ربه وعصاه عوقب على عصيانه ومخالفته ، ومن أحسن أثيب على إحسانه « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »[1] .

---

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٨

وحسْنُ العمل فى هذه الدنيا صرفُها إلى ما ينبغى ، واتخاذُها وسيلة إلى معرفة خالقها ، والتمتعُ بالحلال الطيب منها ، وشكر الله – جلَّت آلاؤه – على نعمه فيها ، مع الحذر كلَّ الحذر من فتنتها والاغترار بها . واتخاذها وسيلة إلى الشهوات والمفاسد ، شأن أرباب الهوى ، ولا ريب أن مراتب الحسن والقبح متفاوتة .

ويجمع كل ما قدمناه – بل يزيد عليه – ما حكاه الله تعالى فى قصة قارون إذ قال له قومه وقد خرج عليهم فى زينته : « لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ »[1] .

٨ – (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا) :

أى وإننا لمصيرون – حتمًا – ما على الأرض من المخلوقات قاطبة – عند تناهى عمر الدنيا – ترابًا لا نبات فيه ولا بهجة ، من بعد ما كان يتعجب من بهجته النُّظار ، وترنو إليه الأبصار ، وفى هذه الآية الكريمة تكميل لسبب نهيه صلى الله عليه وسلم عن إجهاد نفسه الرحيمة فوق طاقتها ؛ كأن الله تعالى يقول له : لا تحزن أيها الرسول بما عانيت من تكذيب قومك لما أنزلنا عليك ؛ فإنا قد جعلنا ما على الأرض من فنون الأشياء زينة لها ، اختبارًا لأهلها ، وسينتهى العُمران فيها إلى خراب ، والحياة فيها إلى موت ، ثم نجزى كل نفس بما أسلفت ، وسننتقم لك منهم .

(١) سورة القصص ، الآيتان : ٧٦ ، ٧٧

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ
ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ
ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا
عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ
أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾)

المفردات :

(أَمْ) : معناها هنا : بل ، التى للانتقال من حديث إلى حديث ، مع همزة الاستفهام المتضمنة معنى النهى .

(حَسِبْتَ) : أى ظننت ؛ أو علمت ، من الحِسبان بمعنى الظن أو العلم ، وقد استعمل فى كلٍّ من المعنيين .

(الْكَهْفِ) : النقب المتسع فى الجبل ، فإن لم يكن متسعًا فهو الغار .

(وَالرَّقِيمِ) : هو اللوح الذى رقمت فيه أسماءُ أصحاب الكهف ، أو قصتهم ؛ قيل كان من حجارة ، وقيل كان من رصاص .

(الْفِتْيَةُ) : جمع فَتِىً بوزن صَبِىّ ؛ وهو الشاب الحَدَث القوىّ . من الفَتَاء ، وهو الشباب وزنًا ومَعْنًى ، أو من الفُتوّة ، وفيها معنى الشهامة والنجدة .

(وَهَيِّئْ) : أى يسِّر وسهِّل .

(رَشَدًا) : أى إصابة لطريق السداد والرشاد واهتداءً إليه . وهو خلاف الغَىّ .

(فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ آذَانِهِمْ) : المفعول ملاحظ ، تقديره حجابًا ، أى ألقيناه على آذانهم . والمراد أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات .

التفسير

٩ - ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ :

لما بين الله تعالى فى الآيات السابقة أنه جعل ما على الأرض زينة لها، ليختبر عباده فى هذه الدنيا الفانية ، التى ستنتهى إلى تراب لا نبات فيه ؛ ثم يجزىَ كُلاً منهم على حسب عمله وإخلاصه - قصّ عليهم قصة أهل الكهف والرقيم[1] برهانًا عمليًّا واضحًا ، ينطق بأن يوم البعث والجزاء آتٍ لا ريب فيه ؛ وقد أجمل الله قصتهم فى الآيات الثلاث التى حكيناها من قبل ، والخطاب لكل من يصلح للخطاب من البشر المكلفين .

والمعنى : لا تظن - أيها المكلف - أن قصة أصحاب الكهف والرقيم - وإن كانت من خوارق العادات - لا تظن أنها عجيبة دون غيرها من آياتنا ، أو لا تظن أنها أعجب آياتنا وأعظمها ! فإن من آياتنا ما هو أعجب منها وأعظم ؛ كخلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والكواكب ، وإخراج الحى من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، وجعل ما على الأرض زينة لها ؛ لحكمة الابتلاء فى الدنيا والجزاء فى الآخرة ؛ كل هذه الآيات العظيمة وما إليها من آياتنا الدالة على قدرتنا - أعجب وأعظم من قصة أصحاب الكهف والرقيم .

١٠ - ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً . . . ﴾ الآية .

أى اذكر حين التجأ هؤلاء الفتية المؤمنون بالله إلى الكهف ، فرارًا بإيمانهم من الشرك وأهله ، فقالوا ضارعين إلى ربهم مستغيثين به : يا ربنا هب لنا من عندك رحمة عظيمة ، من خزائن رحمتك الواسعة ، فيها الأمن والطمأنينة والمغفرة والسكينة .

(١) أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم عند الجمهور . وقيل إن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف وهم ثلاثة ممن كانوا قبلنا أصابهم مطر : فأووا إلى غار ، فانطبقت عليهم صخرة منه وهم فيه ، فأنجاهم الله بعد أن توسلوا إليه بأخلص أعمالهم . . انظر تفسير الآلوسى

(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) :

أى ويسّر لنا من أمرنا هذا الذى نحن عليه من مهاجرة الكفار ، ـ يسِّر لنا ـ هداية إليك وتثبيتًا على الإيمان بك والإخلاص لك ، حتى نكون من عبادك المهتدين الراشدين . وقال ابن كثير : أى وقدِّر لنا من أمرنا هذا رشدًا ، أى اجعل عاقبتنا رشدًا ، وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدًا ؛ وفى المسند من حديث بُسْر بن أرطاةَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو : اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة . أ

١١ ـ (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا) :

أى فاستجبنا دعاءهم عقب ندائهم ، وأنمناهم فى الكهف آمنين مطمئنين ، نومةً ثقيلة طويلة تشبه الموت ، بلغت سنين كثيرة تُعَدُّ عَدًّا .

وسيأتى التصريح بعدد هذه السنين فى قوله تعالى : « وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ . . . » الآية مع حكمة التأخير ، والتفصيل بعد الإجمال .

وتخصيص الضرب على الآذان بالذكر ، مع مشاركة سائر الحواس والمشاعر لها فى الحجب عن الشعور والإدراك عند النوم ـ لأن الآذان هى الوسيلة إلى التيقظ غالبا ، ولا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق .

ولما كانت نومة أهل الكهف فى عمقها وطولها كأنها الموت ، عبر عن إيقاظهم منها بالبعث فقال سبحانه :

١٢ ـ (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا) :

أى ثم أيقظناهم من تلك النومة الشبيهة بالموت ؛ لنظهر ما علمناه بشأن لبثهم ، بإيضاح الأحداث التى مرت بهم ، حتى يتبين للناس أىُّ الفريقين أدق إحصاء لمدة لبثهم : ألبثوا يومًا أو بعض يوم ، أم لبثوا أحقابًا ودهورًا ؟ !

واعلم أن الله تبارك وتعالى يعلم أزلًا علمًا تفصيليًّا بكل ما يقع فى الكون ، طبقًا للأجل المسمى عنده ، ووفقًا لما قدره سبحانه وعلمه ؛ فإذا حدث ما قدّره ، علِمَه واقعًا ، بعد علمه أزلًا بأنه سيقع .

والمراد بالحزبين بعض الفتية : وهم المترددون القائلون : « لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » – والحزب الآخر أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم ، وكان عندهم تاريخ غيبتهم ، قال ابن عطية : إن هذا قول جمهور المفسرين :اهوسيأتى الحديث مستفيضًا عما قيل فى بيان مكان الكهف ، وزمان رقودهم ، وزمان بعثهم .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦))

المفردات :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ) : النبأ ؛ الخبر الخطير ذو الشأن .

(بِالْحَقِّ) : أى بالصدق الذى لا يحوم حوله شك .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ) : المراد قوّينا قلوبهم وثبتناها على الحق والصبر على الإيمان وآثاره .

(لَقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا) : أى لقد قلنا إذًا قولًا ذا شطط ، أى ذا بُعْدٍ عن الحق والصواب .

والشطط : مجاوزة الحد فى كل شىء .

(لَوْلَا) : حرف تحضيض فيه معنى اللوم على عدم الفعل .

(بِسُلطَانٍ بَيِّنٍ) : أى ببرهان ظاهر قوى .

(فَمنْ أَظْلَمُ) : استفهام إنكارى فيه معنى النفى .

(يَنشُرْ لَكُمْ) : يبسط لكم ويوسع عليكم .

(مِرْفَقًا) : المرفق – كمِنبَر ومَجلس – : ما يُرتَفَق وينتفع به .

التفسير

١٣- (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ . . .) الآية .

هذا شروع فى تفصيل ما أُجمل آنفا فى قوله تعالى : « إِذْ أَوَى الْفِتيَةُ إِلَى الْكَهْفِ . . » .

أى نحن نخبرك الخبر اليقين الصادق عن هؤلاء الفتية وهو ما يلى :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِم وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) :

أى إنهم جماعة من الشباب النقى الفطرة الصادق العزيمة ، هُدوا بفطرتهم إلى ربهم فاطر السموات والأرض ، فأَيقنوا أن الذى أبدعهما على غير مثال سبق ، هو الحقيق بأَن يعبد بحق ، وأَن يكون وحده ربًّا لهذا الكون وإلَهًا ، هكذا اهتَدوا إلى الله بآياته ، وهكذا آمنوا بربهم على هدى وبصيرة ، فزادهم ربهم بالعمل الصالح والعقل الرشيد يقينا إلى يقينهم ، وإيمانا مع إيمانهم ، ثم أعلن ثناءه عليهم ، فقال فى محكم كتابه :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) : ونحو هذه الآية قوله تعالى : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » [1] . والشباب – كما قال الحافظ ابن كثير – : أقبل للحق ، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا فى دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم شبابا .

ولعل فى قول الحق تبارك وتعالى : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ » إشارة إلى أن فى عهده صلى الله عليه وسلم من كان يقص نبأهم لكن بغير الحق ، وفى هذا دليل على

(١) سورة محمد ، الآية : ١٧

أن قصة أهل الكهف كانت من علوم العرب وإن لم يكونوا عالميها على وجهها . وقد ذكر المفسرون والمؤرخون كثيرا من أخبارهم ، نقلا عن محمد بن إسحق وغيره من أصحاب السير (١)، وحسبنا ما قص علينا العليم الحكيم من نبئهم « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ »(٢).
ثم بين سبحانه لطفه بهم ، وجميل صنعه لهم ، حينما عزموا على التوجه إليه بعبادته وحده فقال :

١٤ - (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا . . .) الآية .

أى قوّينا قلوبهم وثبتنـــاهم على الحق حين قاموا فى قومهم فقالوا كلمة الحق ، لا يخافون إلا الله ، ولا يرجون أحدا سواه : قالوا ربنا وخالقنا هو رب السموات والأرض وخالقها وحده ، فهو الحقيق بألا نعبد إلا إياه ، وألا نتخذ إلها ولا ربا سواه ، هذا اعتقادنا الذى نحيا ونموت عليه ، لن نتحول عنه أبدا ، وقولهم :

(لَقَدْ قُلْنَآ إِذاً شَطَطًا) : تأكيد لقولهم الحق الذى قالوه ؛ واعتقادهم الحق الذى اعتقدوه .

أى والله لو قلنا غير هذا القول ، وعبدنا مع ربنا الذى خلقنا إلها غيره - لكان قولنا هذا حينئذ بعيدا عن الحق والصواب غاية البعد ، وكنا بعبادة غير ربنا وخالقنا مُفرطين غاية الإفراط فى الضلال والظلم !

وفى هذا القول الذى قاله الفتية دلالة على أنهم دُعُوا إلى عبادة الأصنام وحُمِلوا عليها وأنذروا على تركها ، وكان ذلك بين يدى الملك الجبار العابد للأوثان . وسيأتى بيان أمره معهم .

أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم أنهم خرجوا من المدينة فاجتمعوا وراءها على غير ميعاد فقال رجل منهم هو أشجعهم : إنى لأجد فى نفسى شيئًا ما أظن أحدًا يجده ، قالوا ماتجد ؟ قال أجد فى نفسى أن ربى رب السموات والأرض ، فقالوا جميعًا نحن كذلك ، فقاموا جميعًا فقالوا : « ربنا رب السموات والأرض » .

---

(١) انظر تفسير ابن جرير ، والآلوسى .
(٢) سورة فاطر ، من الآية : ١٤

وقال الحافظ ابن كثير فى تفسير قوله : (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ . . .) الآية .

وصبَّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم لهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ؛ فإنه قد ذكر غيرُ واحد من المفسرين من السلف والخلف : أنهم كانوا من أبناء سادة الروم ، وأنهم خرجوا يوما فى بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع فى السنة يجتمعون فيه ، وكان لهم ملك جبار عنيد يأمر الناس بعبادة الأصنام والذبح لها ، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم - عرفوا أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها ، لا ينبغى إلا لله الذى خلق السموات والأرض ، فجعل كل منهم يتخلص من قومه وينتحى ناحية ،حتى جمعهم الذى جمع قلوبهم على الإيمان به ؛ كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

ثم توافقوا كلهم على عبادة الله وحده .. فلما انتهى أمرهم إلى ملكهم استحضرهم بين يديه ، فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوا بالحق ودَعَوه إلى الله عز وجل ، وقد أجمل الله ذلك بقوله : (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ . . .) الآية .

ويقال إنهم لما دَعوا الملك إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم ، ثُمَّ أجَّلَ النظر فى أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم . قال الحافظ ابن كثير : وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم فى تلك النَّظِرَة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة ! انتهى ما قاله ابن كثير ملخصاً .

ثم قال بعض الفتية لبعض ، إنكارا على أهل بلدهم ، وتمهيدا لاعتزالهم :

١٥- (هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ..) الآية .
أى أشرك أهل بلدنا هؤلاء بعبادة غير الله ، من الأصنام التى اتخذوها آلهة فعبدوها معه هلاَّ يأتون على عبادتهم لهذه الأصنام ببرهان ظاهر وحجة واضحة ! !

وهذا تبكيت صارخ ؛ لأن الإتيان بالبرهان على عبادة الأصنام محال . وفى هذا دليل على أن مجرد التقليد فى العقائد مردود . ومما لا شك فيه أنك لو سألت أحدا من عوامّ المؤمنين عن دليل وجود الله الذى يعبده ؛ فإنه لا يتردد فى أن يشير إلى سمواته وأرضه ، ويشير إلى نفسه ، فهو يعلم أنها أمارات شاهدات على الحى القيوم .

ثم بينوا أن قومهم أظلم الظالمين فقالوا :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) :

أى لا أحد أشد ظلما ممن اختلق على ربه كذبا بنسبة الشريك إليه ؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

١٦ - (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّىءْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا) :

كان قوم الفتية يعبدون مع الله آلهة شتى ، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله تعالى ؛ فقال بعضهم لبعض : وإذ فارقتم القوم بقلوبكم وبدينكم ، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم ، فالجئوا إلى الكهف لعبادة ربكم مخلصين له الدين ، يبسط عليكم رحمة من عنده يستركم بها فى الدارين ، ويسهل لكم من أمركم ما تنتفعون به فى حياتكم ، قالوا ذلك ثقةً بفضل الله تعالى ، وقوةً فى رجائه ، لتوكلهم عليه سبحانه «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»[1] . ثم أتبعوا مقالتهم الحكيمة ، تنفيذ عزيمتهم الصادقة ، فأووا إلى كهفهم ، فى حراسة ربهم وكفالته ، لم يرهم أحد من قومهم ، وقد جدوا فى طلبهم!

قال الحافظ ابن كثير : وعمّى الله خبرهم ، كما فعل بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضى الله عنه ، حين لجآ إلى غار ثور ، وجاء المشركون من قريش فى الطلب فلم يهتدوا إليه ، مع أنهم يمرون عليه ! وعنـــدها قال النبى صلى الله عليه وسلم

(١) سورة الطلاق ، من الآية : ٣

لما رأى جزع الصديق فى قوله يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا ، فقال : يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما ؟ ! وقد قال تعالى : « إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ العُلْيَا واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[1]. قال ابن كثير : فقصة هذا الغار (أى غار ثور) أشرف وأجل ، وأعظم وأعجب ، من قصة أصحاب الكهف ! !

ذلك ، وقد دلت الآية الكريمة على مشروعية الهجرة . ولا شك أنه إذا اشتدت الفتن فى دار الكفرة ، ولم يستطع من بها من المسلمين أن يأمنوا على أنفسهم ودينهم – فعليهم أن يهاجروا حيث يأمنون على دينهم وأنفسهم . وقد هاجر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، بأمره فرارا بدينهم من الفتن ! ثم هاجر صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه ! واحتملوا فى هجرتهم أهوالاً ثقالاً ، كان عاقبتَها نصرُ الله والفتح .

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

(١) سورة التوبة ، الآية : ٤٠

المفردات :

(تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ) : تتنحى وتميل عنه. (تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ) : تتركهم ناحيته ، من قرض بمعنى ترك. (فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ) : فى مُتَّسع من الكهف. (أَيْقَاظًا) : جمع يَقِظ بمعنى منتبه غير نائم. (وَهُمْ رُقُودٌ) : راقدون ـ أى نائمون. (بِالْوَصِيدِ) : بالفِناء أمام الكهف، ويطلق الوصيد أيضًا على العَتَبَة ، فلعله كان يجلس بباب الكهف ومدخله عند موضع العتبة لحراستهم. (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ) : لو رأيتهم وشاهدتهم .

(لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ) : لأعرضت بوجهك عنهم .

التفسير

١٧ ـ (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ) :

أفادت الآية التى قبلها أن بعضهم أشار عليهم بعد اعتزالهم قومهم المشركين ، أن يأْوُوا إلى الكهف رجاء أن يبسط الله لهم من رحمته بعد فرارهم بدينهم ، وأن يسهل لهم من أمرهم ما يرتفقون به ، وقد جاءت هذه الآية لتُبيِّن حالهم بعد أن أَوَوْا إلى الكهف استجابة لمشورة أحدهم ، وقد حدث بعد لجوئهم إلى الكهف أنهم ناموا ، ولم يدر بخلدهم ماذا يكون من أمرهم بعد نومهم من عجائب الأُمور ، فضرب الله على آذانهم حِجابًا كثيفًا يمنع سماعهم لما يجرى حولهم ، بأن جعل نومهم عميقًا يشبه رقود الموتى ولم يصرح بذلك هنا اكتفاء بإجمال حالهم من قبل فى قوله تعالى : « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا »[1]. والخطاب فى قوله تعالى : « وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ » إمَّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما لكل أحد ، إيذانًا بغاية ظهوره والمعنى : .

وترى أيها الباحث عن حالهم فى كهفهم ـ ترى ـ الشمس إذا طلعت تتزاور وتتنحى[2] عن كهفهم جهة يمين الداخل إليه ، وتراها عند غروبها تعدل عنه ولا تدخله جهة الشمال ،

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الكهف .

(٢) من قولهم تزاور عنه . أى عدل وانحرف ـ انظر القاموس .

مع أنهم فى متسع من الكهف ، بحيث يمكن معه أن يصلهم شعاع الشمس ، ولكن الله تعالى حواهم من حرِّها فأبعد شعاعها عنهم حتى لا تؤذيهم بحرارتها طول النهار وكرامةً لهم ، فى حين أنه سبحانه جعل الهواء يدخل إليهم ، لتبقى حياتهم إلى حين بعثهم من رقادهم .

(ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) : أى ذلك الذى حدث من تحول أشعة الشمس عنهم ، وعدم وصول ضوئها الحارِّ إليهم طَوَالَ النهار - كل يوم مدة رقودهم - مع اتساع مدخل الكهف وصلاحيته لتوصيل أشعة الشمس إليهم - ذلك كله - من آيات الله العظيمة الدالة على كمال قدرته وحكمته فى تدبيره ، حيث أبطل حكم العادة ، ليعلم الناس أن الحكم لله لا للأسباب العادية ، كما أنها من آيات الله على كرامة أهل الكهف ومنزلتهم لديه ، وأنه تعالى يحمى أولياءه ، ويكرم أصفياءه .

(مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا) :

أى أن مَنْ يرشده الله سبحانه إرشادا يوصلُه إلى الحق ، فهو الواصل إليه لا محالة ، لأن نفسه مستسلمة إلى إرشاد الله ، ومستجيبة لآياته ودلائله ، ومن كان كذلك فله الجزاء الكريم فى الدنيا والآخرة ، أما من يصرفه الله ويبعده عن الهدى لأنه اتَّجه بسوء اختياره إلى الضلال وأوغل فيه ، فلن تجد له معينا يرشده ويهديه إلى الحق ، ويأخذ بيده إلى سواء السبيل .

وقد أفادت هذه الجملة من الآية الثناء على أهل الكهف والشهادة لهم بإصابة الهدى والرشاد ، وأن ذلك كان بتوفيق الله وهدايته لهم ، لسلامة فطرتهم ، وصفاء قلوبهم وعقولهم وانصرافهم عن تقليد آبائهم ، إلى اتباع آيات الهدى والرشاد ، وأما غيرهم من عبدة الأوثان ، فقد اتبعوا هَوَاهم ، وأعرضوا عن هُداهم ، فتخلى الله عنهم ، لأن سنة الله أن من يقبل على الله يهده الله ، ومن ينصرف عن هداه ، فهو متورط فى الضلال ، وليس له سبيل إلى الهدى ، ولا معين له على الوصول إليه ، بعد أن تخلى الله عن إنقاذه ، لإصراره على الضلالة .

١٨ - (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) : وتظنهم أيها الناظر إليهم أيقاظا وهم نيام - تظنهم كذلك - لانفتاح عيونهم ، وقال ابن عطية : تحسبهم أيقاظا لشدة الحفظ الذى كان من الله عليهم وقلة تغيرهم ، لأن الغالب على النيام استرخاءُ الأعضاءِ وَهَيْئَاتٌ معينة ، فإن لم توجد حَسِبَهُم الرائى أيقاظًا وإن كانت عيونهم مقفلة ، والرأى الأول هو الظاهر .

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) :ونقلبهم - وهم رُقُودٌ - جهة أيمانهم وجهة شمائلهم حِفْظًا لأجسادهم من البلى والضرر ، على نحو ما جرت به العادة فى النائمين ، أو لكى يدرك من يراهم وقد طال نومهم أنهم أحياءٌ ، فلا يسد الكهف عليهم ويدفنهم فيه ، أو لغير ذلك من حكم يعلمها خالقهم ،

(وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) : أى أن كلب أصحاب الكهف مادٌّ ذراعيه وهو جالس على مُؤَخِّرته[١] بفِناءِ الكهف أو بمدخله كأنما هو يحرسهم وهم نيام .

واختلف العلماءُ فى أمره - هل نام كما ناموا ، أم أنه لم يستغرق فى نومه كما استغرقوا ، ومثل هذا الخلاف لا يمكن حسمه إلا بدليل ولا دليل ، وقد أُضيف الكلب إليهم فقيل كلبهم ، واختلف العلماءُ فى صاحبه ، فمنهم من قال إنه كلب مَرُّوا به فتبعهم ، وأصر على أن يكون معهم ، ومنهم من قال إنه كلب راع مرُّوا به فتبع دينهم وذهب معهم وبصحبته كلبه ، ومنهم من قال إنه كلب صيد لأحدهم وهذا الخلاف ليس له أساس ، فالكلب كلبهم كما جاءَ به النص الكريم ، والله أعلم كيف وصل إليهم .

(لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) : أى لو عاينتهم وشاهدتهم لأعرضت بوجهك عنهم ، ولملئت منهم خوفًا بسبب ما ألقى الله عليهم من الهيبة والجلال وقيل : إن سبب الرعب فيمن يراهم ما كانوا عليه من طول الشعور والأظفار وصفرة الوجوه وتغير الثياب ، وهذا القول غير مقبول ، فإنهم لو كانوا كذلك لأنكروا أحوالهم بعد أن تيقظوا ، ولم يقولوا لبثنا يومًا أو بعض يوم ، وَلَمَّا بعثوا أحدهم إلى المدينة ليشترى لهم منها طعامًا ، وأوصوه بأن يتلطف ولا يشعر أحدًا بهم ، لأن منظرهم يوحى إليهم بأنهم من

---

(١) وتسمى هذه الجلسة الإقعاء .

أهل القرون الماضية ، فلا مجال لأن يقولوا لصاحبهم فى شأن الطعام ما قالوا ، ولأنه لما ذهب إلى المدينة لم ينكر حال نفسه وإنما أنكر معالم المدينة وأهلها ، فالحق أن الله تعالى لم يغير حالهم بعد مئات السنين ، ليكون ذلك آية بينة لمن يراهم بعد يقظتهم كما سنشرحه إن شاء الله تعالى .

أين الكهف ومن أىِّ البلاد أصحابُه

يقول بعض المفسرين إنه فى بلاد الروم ، وإن أصحابه منها ، ويضيفون إلى ذلك أنهم باقون على الحالة التى توجب فِرَارَ مَنْ يطَّلع عليهم ورُعْبَهُ منهم ، ويستدلون لذلك بما أخرجه ابن أبى شيبة وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس قال : « غزوْنَا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم ، فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف الذين ذكرَهم اللهُ تعالى فى القرآن ، فقال معاوية : لَوْ كُشِف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس : ليس ذلك لك ، قد منع الله تعالى ذلك مَنْ هُوَ خيرٌ منك فقال : « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » فقال معاوية : لا أنتهى حتى أَعْلَمَ عِلْمَهُمْ ، فبعث رجالًا وقال اذهبوا فادخلوا الكهف وانظروا ، فذهبوا فلما دخلوه بعث الله تعالى عليهم ريحًا — فأخرجتهم » وأصحابُ هذا الرأى يقولون إن الخطاب فى قوله تعالى : « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِم » للرسول خاصة .

وقد روى عن ابن عباس عكس ما تقدم ، فقد أخرج عبد الرازق وابن أبى حاتم عن عكرمة أن ابن عباس غزا مع حبيب بن مسلمة ، فمروا بالكهف فإذا فيه عظام ، فقال رجل : هذه عظام أهل الكهف ، فقال ابن عباس : لقد ذهبت عظامهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة ، فهذا الأثر ينفى ما دَلَّ عليه الخبر السابق ، من بقاء أجسادهم سليمة .

ونحن نرى أن الخطاب فى قوله تعالى : « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ » لكل من يصلح أن يُخَاطَبَ ، وأن المراد من الآية الكريمة حكاية حالهم وقت رقودهم وقبل بعثهم ، وأما أمرهم بعد موتهم واتخاذ مسجد عليهم ، فهو من الغيبيات التى لم يكشف النقاب عنها على وجه تطمئن إليه القلوب .

ومن المفسرين من نقل أنهم بالشام ، قال أبو حيان : إن فى الشام كَهْفَ موتى ، ويزعم مُجَاوروه أنهم أصحاب الكهف ، وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ، ومعهم كلب رمة : ا هـ

ولعل أبا حيان يشير بكونهم فى الشام إلى أنهم فى الأردن ، فإن الأُردن من الشام ، فقد كان إقليم الشام يعم سوريا والأُردن وفلسطين ولبنان ، وقد صرح بوجودهم فى الأُردن الهروى ، إذ قال : إن البلقاء بلد به الكهف والرقيم ، عند مدينة يقال لها عَمَّان ، بها آثار قديمة ، ووافقه ياقوت ، وقال القدسى : الرقيم قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية ، فيها مغارة لها بابان صغير وكبير وقد روى عن ابن عباس أن الرقيم واد بين غَضْبان وأَيْلَة دون فلسطين ، وفيه أصحاب الكهف : ا هـ

وغَضْبَانُ بالضاد المعجمة واد بالشام ، وهذه الرواية تخالف ما روى عنه سابقًا من أنهم وكهفهم فى بلاد الروم ، ولعلها أقرب منها إلى الصواب . وقد دفعت هذه الرواية وغيرها مصلحة الآثار بالمملكة الأُردنية إلى التنقيب فى هذه المنطقة حتى كشفوا كهفًا وآثارًا ، وظنوا أن هذا هو الكهف الذى جاء ذكره فى سورة الكهف ، بل لقد أكد الأُستاذ رفيق الدجانى المساعد الفنى لمدير الآثار العربية بالأُردن أنه هو بعينه ، والله أعلم بصحة هذا أو مخالفته للحقيقة ، فقد علمت ما تقدم نقله من وجودهم ببلاد الروم ، ونقل الآلوسى أن بالأَندلس فى جهة غرناطة كهفَ موتى ومعهم كلب رمة ، وأكثرهم قد ذهب لحمه ، وبعضهم متماسك ، وهم بقرب قرية تسمي لوشة ، ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف . قال ابن عطية : دخلت عليهم فرأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة ، وعليهم مسجد ، وقريب منهم بناء رومى يسمى الرقيم ، كأنه قَصْر مخلق قد بقى بعض جدرانه ، وهم فى فلاة من الأَرض خربة ، وبأَعلى حصن غرناطة مما يلى القبلة آثار مدينة قديمة يقال لها مدينة دقيوس وجدنا فى آثارها غرائب : ا هـ .

فمن تضارب الروايات فى مكان كهفهم ، فإننا لا نستطيع الجزم به ، كما لا نستطيع الجزم بالأُمة التى نشأُوا منها ، وكل ما نستطيع القطع به هو قصتهم وواقعيتها ، وأنهم من آيات الله تعالى ، فلندع العلم بما وراء ذلك إلى علام الغيوب .

(وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ
كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ
بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ
فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ
وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ
يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(بَعَثْنَاهُمْ) : أيقظناهم . (لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ) : ليسأل بعضهم بعضًا .

(كَمْ لَبِثْتُمْ) : كم زمنا أقمتم نائمين . (بِوَرِقِكُمْ) : الورِق بكسر الراء الفضة المضروبة كالدراهم ، وقيل يطلق على الفِضَّة وإن لم تكن مضروبة . (أَزْكَى طَعَامًا) : أطيب طعاما أو أطهره. (وَلْيَتَلَطَّفْ) : وليستعمل اللطف فى المعاملة حتى لا تقع خصومة تكشف أمرهم .

(إن يظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) : إنْ يطلعوا عليكم ويعرفوكم .

(يَرْجُمُوكُمْ) : يقتلوكم رجما بالحجارة ، أو يقذفوكم بألفاظ السباب .

التفسير

١٩ ــ (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُم لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) :

بينت الآيتان السابقتان حالهم فى الكهف الذى أَوَوْا إليه ، بعد أن فارقوا أهلهم المشركين ، وأن الله تولى حفظ أجسادهم فيه حتى لا يفنيهم تعاقب السنين عليهم ، فجعل الشمس لا تصنيبهم طوال نهارهم مع أنهم فى فجوة من الكهف بحيث تتمكن الشمس من إصابتهم ، وجعل يقلب أجسادهم ذات اليمين وذات الشمال ، وجعل أجسادهم تعيش

مئات السنين بلا طعام ولا شراب ، وجعل منظرهم يبعث الرعب والفرار منهم ، ليكون ذلك أدعى إلى سلامتهم ، وأدفع للشر عنهم ، وأبعد للوحوش المفترسة عن إيذائهم ، وكل ذلك من آيات الله . وجاءت هذه الآية الكريمة لشرح حالهم بعد يقظتهم من هذا الرقاد الطويل الذى لم يغير شيئًا من ثيابهم ولا من شعورهم وأجسادهم ، فقد بينت أنهم استيقظوا فتساءلوا كم من الزمن لبثتم ؟ ، فأجاب المسئول منهم سائِلَهُ بأنهم لبثوا نائمين يوما أو بعض يوم ، ولو طالت لحاهم أو أظافرهم أو بليت ثيابهم أو ضرب بياض الشيب شعرهم لما كان جواب المسئول لبثنا يوما أو بعض يوم ، ولما بعثوا بعضهم ليشترى لهم طعامًا بدراهمهم التى مضى على ضَرْبها مئات السنين ، وقد حدثت هذه الآية على هذا النحو العجيب ، لِيُعْرفَ أمرهم ، ويتبين للناس من حالهم أن الله يبعث من فى القبور ، كما سنعرض له فى موضعه إن شاء الله تعالى .

والمعنى : أنمناهم على هذا النحو العجيب الدال على قدرتنا ، ثم أيقظناهم من نومهم على هيئة لا تغير فيها لشىء من أحوالهم ، لكى يسأل بعضهم بعضًا : كم من الوقت لبثنا نائمين بعد أن أوينا إلى هذا الكهف مرهقين من رحلة الهرب من أهلينا المشركين . قال بعضهم جوابا للسائل : لبثنا يوم أو بعض يوم ، فاستراحت بذلك أجسادنا المكدودة .

والمشهور أن نومهم كان غدوة وانتباههم كان آخر النهار ، وحرف (أو) فى قول المجيب على السائل (أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) يحتمل أن يكون للشك فى مدة لبثهم أهى يوم أو بعض يوم ، لأنهم فى جوف الغار ولوثةُ النوم لم تفارقهم بعد ، وقال أبو حيان إنها للتفصيل على معنى : قال بعضهم : لبثنا يوما ، وقال آخرون : لبثنا بعض يوم ، وقول كليْهما مبنى على غلبة الظن .

(قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُم هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) : قال بعض آخر التبس عليه الأمر : ربكم أعلم بالوقت الذى مكثتم فيه نائمين ، فلا سبيل إلى التحقق من أنه

يوم أو بعض يوم ، فدعوا الحديث عنه ، فابعثوا أحدكم بدراهمكم هذه التى أحملها ، ليذهب بها إلى المدينة التى خرجنا منها مهاجرين إلى الله ، فلينظر أى البائعين بالمدينة أطيب طعاما ، وأبعده عن الإثم ، فقد كان أهلها يذبحون للطواغيت ، فليأتكم برزق من أطيب الطعام ، وليتلطف فى معاملته مع بائع الطعام حتى لا تقع خصومة بينه وبينه وينكشف بها أمركم ، ولا يفعلن مايؤدى إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم ، لننجو من العواقب الوخيمة التى تترتب على معرفتهم بمخبئكم عن طريقه . وفى إقرارهم فى النص الشريف على حملهم للدراهم معهم دليل أن التأهب لأسباب المعاش لمن خرج من منزله ، بحمل النفقة ونحوها لا ينافى التوكل على الله ، فإن الحياة بنيت على اتخاذ الأسباب ثم يأتى التوكل على الله بعد ذلك ليساعد من استعان به على نجاح أسبابه ، قال تعالى فى سورة الملك : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ». وقال صلى الله عليه وسلم لمن أناخ ناقته ولم يعقلها ، قائلا إنى متوكل على الله — قال له الرسول — « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّل » .

٢٠ — ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾ :

إن قومكم الذين هجرتموهم وتركتم دينهم إن يطلعوا عليكم ويظفروا بكم يرجموكم بالحجارة فيقتلوكم لمخالفتكم إياهم فيما هم عليه من الدين ، واعتزالكم إياهم وما يعبدون ، وشق عصا الطاعة ومخالفة الجماعة فى أقدس أمورها يوجب القتل عندها إلا أن تعودوا إلى ملتهم وتستجيبوا إلى فتنتهم مكرهين ، ولن تفلحوا أبدا إن دخلتموها ولو مكرهين ، فإنهم سيستدرجونكم مع الشيطان إلى استحسانها والاستمرار عليها ، وسيحيطونكم بمختلف الفتن والمغريات حتى يطفئوا نور الإيمان فى قلوبكم .

ثم إن هؤلاء الفتية بعثوا أحدهم بدراهمهم ليأتيهم برزق طيب من المدينة بعد أن سمع من إخوانه نصيحتهم ، واشتهر أن اسمه يمليخا ، ولما ذهب إلى المدينة حدث ما أشار إليه بقوله :

(وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ) :أصل العثور السقوط لجهة الوجه ، كما قال الراغب ، ثم تجوز به عن الحصول أو الاطلاع على أمر مصادفةً ، وأعثرنا عليهم معناها فى الآية أطلعنا عليهم أهل مدينتهم . (لَارَيْبَ فِيهَا) : لايصح أن يرتاب فيها أحد . (السَّاعَةَ) : القيامة ، وسميت بذلك لأنها تفجأُ الناس فى ساعة يجهلونها ، ويختص الله بعلمها .

(يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) : يتخاصمون فى شأْن بعثهم ، فمِنْهم مُقِر بدلالته على البعث الأُخروى ، ومنهم نافٍ له ، أو يتخاصمون فى نومهم ثانيا بعد يقظتهم أهو موت أم هورقود كما كانوا .

التفسير

٢١ ـ (وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَارَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) :

تحكى هذه الآية ما آل إليه أمرهم بعد يقظتهم من رقدة لم يعرف لها التاريخ مثيلا ، حيث مكثوا نياما « ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا » ثم كان من قصتهم ماسنذكره إجمالا ثم نفصله ، والمعنى :

وكما أَنَمْنَاهُمْ هذه النومة الطويلة العجيبة ، وأيقظناهم بعدها بحالة عادية ظنوا معها أنهم لبثوا نائمين يومًا أو بعض يوم ـ كما فعلنا ذلك ـ أطلعنا الناس عليهم بعد تلك الأَجيال العديدة التى ظلوا فيها نائمين ، ليعلموا بما عرفوه من أحوالهم العجيبة ، أن وعد الله تعالى

بأن يبعث الناس بعد الموت للحساب والجزاء حقٌّ ، وأن الساعة التى يقوم فيها الناس لرب العالمين لاينبغى أن يرتابوا فيها .

(إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً) :

فى هذا الكلام تتمة الحديث عن قصتهم بعد الإعثار عليهم ، والمعنى الإجمالى للآية ما يلى :

وكذلك أعثرنا الناس على أصحاب الكهف بعد بعثهم وقيامهم من رقودهم ، حيث كشفت الدراهم التى كانت مع مبعوثهم أنها ضُربت منذ مئات السنين فى عهد ملك وثنى جبار كان أصحاب الكهف قد هربوا منه ومن قومهم الوثنيين فى عهده ، وظهر للفتى المبعوث أنهم فى عهد ملك آخر ،وجيل يختلف كل الاختلاف عن الجيل الذى عاشوا فيه ، وكان ذلك كله ليعلم الناس أن وعد الله بالحياة الآخرة حق ، وأن الساعة التى يقوم الناس فيها لرب العالمين آتية لاريب فيها ، فلما عاد الفتى إلى أصحابه فى الكهف ، وفى صحبته بعض من وقفوا على أمره من زعماء هذا العصر وأهله — لما عاد الفتى إلى أصحابه — توفاهم الله تعالى ، اذْكُر لأُمتك أيها الرسول ، حين يتنازع قومهم فى بعثهم ، أيشبه بعث الآخرة أو يخالفه ، أو يتنازعون فى أنهم ماتوا أو ناموا كما حدث أول مرة ، ثم فرغوا من التنازع فى ذلك ، واهتموا بإجلال قدرهم وتعظيم أمرهم ، بعد أن تبين لهم موتهم ، فقال بعضهم لبعض : ابنوا على باب كهفهم بنيانا ، لئلا يتطرق الناس إليهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن على بابهم مسجدا تكريما لهم ، وَحَثًّا للناس على عبادة ربهم ، وبهذا البيان أجملنا تفسير هذه الآية التى طَوَتْ تحت عباراتها القصيرة أحداثا عظيمة نفصل بعضها فيما يلى :

تفصيل بعض احداث القصة

بعد أن ضَرب الله على آذان الفتية فى الكهف فلم يسمعوا ولم يدروا بما حولهم أكثر من ثلاثة قرون ، — بعد ذلك — لم يبق أحد من أُمتهم التى اعتزلوها ، فحِينَمَا بعثوا من رقودهم الطويل ، كان يوجد غيرهم يحكمهم ملك مؤمن ، فاختلف أهل مملكته فى أمر البعث ، أيكون أو لايكون؟ ، وإذا حدث البعث أيكون للأرواح وحدها أم يكون لها وللأجساد ،؟ فشق ذلك على الملك ، فلبس المُسُوح وجلس على الرماد ، ودعا الله أن يبعث لأُمته آية

تبين لهم الحق فيما هم فيه مختلفون ، فبعث أصحاب الكهف من رقودهم الطويل ، فبعثوا أحدهم ليشترى لهم طعامًا ، فدخل السوق فجعل ينكر الوجوه التى يراها ، وقد اختلفت عليه معالم المدينة كثيرًا ، ورأى مظاهر الإيمان بادية على أهل المدينة ، ثم أقبل متلطفا على رجل ليشترى منه طعامًا ، فلما نظر الدراهم أنكرها ، لأنها مضروبة من عهد بعيد ، حيث كان يوجد ملك وثنيٌّ - قيل إنه يدعى دقيانوس - فاتهمه بكنز عثر عليه ، وطلب منه أن يدله عليه حتى لا يرفع أمره إلى الملك ، فقال الفتى هى من ضربه ، أليس ملككم فلانا ؟ فقال الرجل : لا . بل هو فلان - وكان اسمه كما قيل (بندوسيس) فاجتمع الناس وذهبوا به إلى الملك - وهو خائف - فسأله عن شأنه ، فقص عليه القصة ، وكان الملك قد سمع أن فِتْيَةً خرجوا ولم يعودوا على عهد دقيانوس ، فدعا مشيخة أهل بلده ، وكان عند رجل منهم أسماؤهم وأنسابهم ، فلما سألهم الملك عن هؤلاء الفتية ، تقدم هذا الرجل ، وذكر له ما عنده من أمرهم ، فقال الفتى صدق ، ثم قال الملك : أيها الناس . هذه آية بعثها الله لكم ، لتؤمنوا بالبعث وأنه على نحو ما رأيتم ، ثم خرج هو وطائفة من أهل المدينة ومعهم الفتى ، فلما رأى الملك الفتية إعتنقهم وفرح بهم ، ورآهم جلوسا مشرقة وجوههم ، لم تَبْلَ ثِيابُهم ، فأخبروه بما لقوا من دقيانوس ، فبينما هم بين يديه إذ قالوا له : نستودعك الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله ، ودعوا له بخير ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم فتوفاهم الله تعالى ثم كان من أمرهم ما قص الله تعالى .

تلك إحدى الروايات التى تحدثت عن قصتهم ، اكتفينا بها فى فهم ما أجمله القرآن من أمرهم ، انظر الآلوسى فى بيان هذه القصة .

حكم اتخاذ المساجد فوق القبور

استدل بعض الفقهاء بالآية على جواز اتخاذ المساجد فوق قبور الصلحاء والصلاة فيها ، وهو استدلال باطل ، فإننا لو سلمنا أن هؤلاء بنوا عليهم مسجدًا للصلاة وفق شرعهم ، فإن شرع من قبلنا إنما يكون شرعا لنا إذا لم يرد فى شرعنا ما يَرُدُّه ، وقد جاء فى شرعنا ما يحرمه ويرده ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

« لَعَنَ اللهُ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ » أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن ابن عباس ، وقال صلى الله عليه وسلم :

« لَعَنَ اللهُ تَعَالَى الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى . اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد » أخرجه الشيخان والنسائى عن عائشة ، ومُسْلِمٌ عن أبى هريرة ، إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الناهية عن اتخاذ المساجد فوق القبور .

ويرى بعض علماء الحنابلة هدم المساجد التى تبنى على القبور ، والقباب التى تبنى عليها ، على أن الآية ليست نصا فى أنهم بنوها وفق شرعهم ، فليس فيها سوى حكاية قول طائفة من الناس وعزمهم على فعل ذلك ، وليست خارجة مخرج المدح والحض على التأسى بهم ، فحيث لم يثبت أن فيهم معصوما لا يدل فعلهم فضلا عن عزمهم على مشروعية ما كانوا بصدده ، ولك أن تقول أيضًا : إن اتخاذهم المسجد عليهم ، يراد منه اتخاذهم إياه عند قبرهم فى كهفهم ، وقريبًا منه ، وقد جاء التصريح بالعندية فى رواية السدى للقصة ، ومثل هذا الاتخاذ ليس محظورًا ، ويمكن أن يقال إن (على) فى قولهم « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا » يمكن أن تكون بمعنى لام التعليل ، أى لنتخذن لأجلهم مسجداً ، كما تقول لشخص أحسن فى صُنْعِه : لأعطينك عليه جائزة ، أى لأعطينك لأجله هذه الجائزة ، ومن كل ذلك نفهم أنه لايوجد فى الآية ما يستدل به على جواز بناء المساجد فوق الأضرحة .

(سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۚ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(رَجْمًا بِالْغَيْبِ) : رميا بالخبر الغائب الخفى عنهم . (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ) : فلا تجادل فيهم ، والمماراة المحاجة والجدال ، قال الراغب : هى المحاجة فيما فيه مرية - أى تَرَدُّد - مأخوذ من مَرَيْتُ الناقة إذا مسحت ضرعها للحَلْب . (إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) : إلَّا محاجة وجِدَالًا بمـا هو ظاهر ، وذلك بالاقتصار على ما نزل به الوحى من غير تجهيل لمن يحاورك فيهم ، فقد يكون مصيبا والقرآن لم يستوعب قصتهم ، بل جاء ببعضها .

(وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا) : ولا تستفت فى شأن أهل الكهف أحدًا من الخائضين ولا ترجع إليهم فى قصتهم ، ففيما أخبرناك به كفاية وغُنْيَةٌ عن سؤالهم ، فضلا عن أن ما يعرفون عنهم مشوبٌ بالخطأِ .

(لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) : أى لأقرب وأظهر من نبأِ أصحاب الكهف من براهين نبوتك .

التفسير

٢٢ - (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) :

أجمل الله فيما تقدم قصة أهل الكهف ، وآخرها العثور عليهم وموتهم عقب التعرف عليهم ، واعتزام من غلب على الأمر فى أُمَّتِهِمْ فى ذلك الوقت أن يبنى عليهم مسجدًا ، وجاءت هذه الآية ، لتبين أن بعض معاصرى النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب سيخوضون فى قصتهم ، وأنه تعالى نهاه عن أن يخوض معهم فى أمرهم ، وأن لايزيد على ما أنزله الله إليه فى شأنهم ، وأن لايستفتيهم فى بيان أمرهم أكثر مما نزل به الوحى ، فليس بحاجة إلى ذلك ، وليسوا هم على مستوى الفتوى فى أمر لا يعلمه إلا الله وقليل من عباده .

والمعنى : سيقول الخائضون فى شأنهم من أهل الكتاب : أَهْلُ الكهف ثلاثةُ أشخاص من الرجال رابعهم كلبهم ، ويقول آخرون منهم : هم خمسة سادسهم كلبهم ، سيقول هؤلاء وأولئك ما قالوه فى عددهم ، رميًا بالخبر الغائب من غير سند لما قالوه ، ويقول جماعة

ثالثة منهم : أهْلُ الكهف سبعة وثامنهم كلبهم ، يقولون ذلك عن ثقة وطمأنينة نفس [1] ، ولذلك لم يتبع الله عبارتهم بما أتبع به عبارة من سبقهم ، من أنهم يرجمون بالغيب ، بل أشار إلى علمهم بقوله تعالى :

(قُلْ رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) : فهم من القليل الذين يعلمون عدتهم . قال ابن عباس : « حين وقعت الواو انقطعت العدة » أى لم يبق بعدها عدة لأحد يلتفت إليها ، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبت . وقد نص عطاء على أن هذا القليل من أهل الكتاب ، وقيل من البشر ، فقد صح عن ابن عباس أنه قال : « أنا من أولئك القليل » .

وقيل إن المختلفين فى عددهم هم نصارى نجران ، تناظروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الملكانية : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقال اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقال النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وهذا القول فى حكاية المختلفين مَرْوِىٌّ عن ابن عباس رضى الله عنهما أما أسماؤهم ، فقد خاض بعضهم فى ذكرها ، وعزوها إلى ابن عباس تارة ، وإلى الإمام علىٍّ تارة أخرى وكل منهما يخالف الآخر .

ونحن نرى أن لا دليل على ما ذكر فى الروايتين من أسمائهم ، فإنها لم تصل إلى ابن عباس أو علىٍّ أو غيرهما عن طريق معصوم ، ولعل هذه الأسماء كانت تذكر على ألسنة أهل الكتاب ، فتسربت إلى المجتمع الإسلامى عنهم ، فالكف عن التقيد بها أولى .

(فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا) :

الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولكل من يريد أن يتحدث فى أمرهم من أهل العلم مع سواه ممن يخوض فى شأنهم .

والمعنى : إذا كنت قد عرفت أن من يخوض فى عددهم ، منهم المخطىء ومنهم المصيب ، فلا تجادلهم فى شأن هؤلاء الفِتْية إلا جدالًا ظاهرًا لا عمق فيه ، بأن تقتصر فى أمرهم على ما نزل به الروح الأمين ، من غير تجهيل للجاهل منهم ولا تفضيح لحاله ، فإن ذلك يخل بمكارم

---

(١) ولهذا أكدوا عبارتهم بالواو فى قولهم كما حكى الله عنهم « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » قال العلماء : هذه الواو تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الجملة الواقعة حالا عن المعرفة فى نحو قولك : جاءنى رجل ومعه آخر ، و مررت بزيد وفى يده سيف ، ومن الأول قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف – انظر الآلوسى فى هذه الجملة .

الأخلاق التى جاء الإسلام ليتمها ، ولا تستفت فيما لم يتعرض الوحى لبيانه من أحوال أهل الكهف - لاتستفت - أحدا من الخائضين فى شأنهم من أهل الكتاب ، فلست بحاجة بعد ما أوحى إليك إلى المزيد من التعريف بأحوالهم ، فإن فيه العبرة للمعتبر ، وليس مَنْ يُسْتَفْتَى فى شأنهم من أهل الكتاب أهلا للفتوى لجهالتهم أو ضحالة ما عندهم من أمرهم .

٢٣ ، ٢٤ - (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ... الخ) :

لا يزال الكلام متصلًا بشأن أهل الكهف ، فإن هذه الآية نزلت حين سألت قريش النبى صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين ، فقال صلى الله عليه وسلم غدًا أُخبركم ، فأبطأ عليه الوحى ثم نزل الوحى بعد الموعد ، وقد نبَّه الله فيه نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية أن لايقول فى أى شأن من الشئون سواء كان فى أمر الشريعة أوسواها - أن لا يقول - إنى فاعل ذلك غدًا إلا مرتبطًا بقوله إن شاء الله فإن أمكنه أن يفعله غدًا فعله ، وإلا فقد وقع التخلف وفقًا لمشيئة الله الذى لا يقع فى ملكه إلا ما شاءه سبحانه ، ونحن مكلفون بهذا التوجيه الإلٰهى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه أسوتنا وإمامنا .

والمعنى : ولا تقولن لأجل شىء تعزم على فعله : إنى فاعل ذلك غدًا أو فيما يستقبل من الزمان إلا مُقْتَرِنًا بمشيئة الله ، وذلك بقولك إن شاء الله ، لتخرج من العهدة بالتخلف عن الفعل فى الموعد المضروب ، لعدم تحقق مشيئة الله به فيه ، فإن حصل نسيان للمشيئة وقت الوعد بالفعل فليذكرها الإنسان عندما يتذكر ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

(وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا) :

أي واذكر مشيئة ربك إذا تذكرت أنك نسيتها ، تداركًا لما فاتك من ذكرها ، سواء قصر الفصل أم طال ، وهذا ما جنح إليه ابن عباس ، فقد أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ويقرأ الآية ، والمراد من الاستثناء التعليق بالمشيئة ، وهذا هو مذهب أهل البيت ونقل فى رواية أنه رأى للإمام أحمد .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جبير فى رجل حلف ونسى الاستثناء - أى التعليق على المشيئة - فأفتى بأن له الاستثناء إلى شهر ، ومذهب عطاء أن له الاستثناء بعد اليمين إلى مقدار حلب ناقة ، أما طاووس فإنه يرى ذلك ما دام فى المجلس وجمهور الفقهاء يشترطون

لصحة الاستثناء فى اليمين بالتعليق على مشيئة الله أن يكون متصلا بالمحلوف عليه ، قالوا : ولو صح جواز الفصل وعدم تأثيره فى الأحكام ، لما تقرر طلاق ولا عِتاقٌ ولا صح إقرار ، ولم يعلم صدق ولا كذب . وكان أبو حنيفة لا يوافق على رأى ابن عباس ، ويرى أن التعليق بالمشيئة يجب اتصاله بما ارتبط به ، فعلم بذلك أبو جعفر المنصور ، فبعث إلى أبى حنيفة ليلومه على مخالفته لرأى ابن عباس ، فقال أبو حنيفة : هذا يرجع إليك أنت ، إنك تأخذ البيعة على الناس بالأيمان ، أفترضَى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا قائلين : إن شاء الله ، فيخرجوا عليك ؟ فاستحسن كلامه .

والحق فى هذه المسألة أن الآية ظاهرة فى أمر تفويض العبد فى أموره التى عزم عليها إلى مشيئة الله ، فإن نسيها ثم ذكرها فليقلها مهما كان الفاصل من الزمان ، أما الأحكام فى نحو الطلاق والعتاق والبيع والشراء ونحوها ، فالآية لا صلة لها بها ، ومن ثمَّ فما قاله ابن عباس راجع إلى التفويض لا إلى الأحكام ، وعلى هذا فإن التعليق بالمشيئة فى الأحكام إنما يَرْفَعُها إذا اتصل بها ، فإن انفصل عنها فلا يرفعها ، فمثلا ، لو قال لزوجته : أنت طالق ، وعقبه بقوله : إن شاء الله لم تطلق ، فإن تأخر التعليق بالمشيئة على الطلاق وانفصل عنه ، وقع الطلاق – ولا نظن ابن عباس يخفى عليه شىء من ذلك – والله أعلم .

ومعنى هذه الجملة بعد أن اتضح المقام ، واذكر ربك بالتعليق على مشيئته إنْ تَذكَّرتَها بعد أن نسيتها فيما عَزَمْتَ عليه من المقاصد ، وقل أرجو أن يوفقنى الله لشىء أقرب رشدًا وَخَيْرًا من هذا الذى نسيت التعليق على مشيئة الله تعالى بشأنه .

وعلى ارتباط هذا الجزء من الآية بسبب النزول يكون المعنى : وقل أيها الرسول عسى أن يوفقنى ربى لشىء أقرب من نبإ أصحاب الكهف إرشادًا للناس ودلالة على نبوتى .

وإلى هذا المعنى ذهب الزجاج ، وقد حقق الله لرسوله هذا فقد آتاه الله من الآيات ما هو أعظم من ذلك وأبين ، كقصص الأنبياء فى الأعصار والدهور البعيدة ، والحوادث التى سوف تنزل فى المستقبل إلى يوم الساعة ، إلى غير ذلك مما يبدو نبأُ أهل الكهف بالنسبة إليه أمرًا هينًا ضئيلًا – مع عظمة وَرفْعَةِ شأْنه .

(وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾
قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ
بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ
أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : له سبحانه ما غاب فيهما خلقا وملكاوتصرفا وعلما .
(أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) : ما أعظم سمعه وبصره . (مَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِّيٍ) : ليس لهم من غيره تعالى من يتولى أمورهم . (لَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِهِ) : لاقدرة لأحد على تبديل كلماته سبحانه.
(مُلْتَحَدًا) : ملجأ تلجأ إليه عند الملمات .

التفسير

٢٥ - (وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) :

هذه الآية مبينة لما أجمل من مدة لبثهم فى قوله تعالى : « فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا » وأخر هذا البيان عنها ليتخلل بينهما إجمال قصتهم ، حتى تنتهى إلى أنهم تنازعوا واختلفوا فى مدة لبثهم ، واختلفوا فى عددهم ، فيأتى هذا البيان بعد الشوق إليه ، ليعظم عجب الناس من قدرة الله ، ويشتد إيمانهم بقدرته على البعث ، والمعنى :

ولبث أصحاب الكهف مَضْرُوباً على آذانهم فيه ثلاثمائة سنة وتسع سنين ازدادوا بها فوقها ، ولم يقل ثلاثمائة وتسع سنين مع أنه أخصر (من ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) لكى يشير بالثلاثمائة إلى مدة لبثهم بالسنين الشمسية التى عليها أهل الكتاب ، وبزيادة

التسع عليها إلى ما عليه العرب من الحساب القمرى الذى يفرق تسع سنين زائدة عليها تقريبا ، لأن السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوما تقريبا ، والقمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما تقريبا ، وهذا الرأى منسوب إلى الإمام على .

وقيل : يجوز أن أهل الكتاب اختلفوا فى مدة لبثهم كما اختلفوا فى عدتهم ، فجاء قوله « ولبثوا فى كهفهم » الخ رافعا للخلاف مبيناً للحق ، ويكون « وازدادوا تِسعاً » تقريرا للعدد ، ودفعا للاحتمال ، فكأنه قيل : وازدادوا تسعا فوق الثلثمائة ، نظير الاستثناء فى قوله تعالى : « فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِين عاماً » وقيل إنهم انتبهوا قليلا بعد الثلاثمائة ، ثم رُدُّوا إلى النوم فبقوا نائمين تسع سنين زائدة على الثلاثمائة والرأى الأول فى تفسير الآية أحرى بالقبول .

٢٦ - (قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ...) الآية. أى قل يا محمد للناس : الله أعلم بما لبثوا ، فلذا حكى لكم أنهم لبثوا ثلاثمائة وازدادوا عليها تسع سنين ، وفقاً لما علمه الله من أمرهم .

(لَهُ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ[1]) : أى لله تعالى علم جميع ما غاب فى السموات والأرض وخفى من أحوالها وأحوال منْ فيهما ، فضلا عن علمه بما ظهر فيهما ، ما أعظم بصره بالأشياء وسمعه لها وعلمه بها ، فهو إذ ينبئك بمدة لبثهم ، فما ينبئك إلا بالحق « وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

(مَا لَهُم مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحدًا) : الضمير فى « لهم » يرجع إلى أهل الكهف .

والمعنى : قل للناس أيضاً ليس لأهل الكهف من غيره من ولى تولى أمر إنامتهم تلك المدة ، وحفظهم فيها حتى يجعلهم أمارة على البعث ، ولا يشرك فى قضائه بشأنهم أحدا .

ويصح أن يرجع الضمير لأهل السموات والأرض المدلول عليهم بذكرهما أى ما لأهل السموات والأرض من غير الله ولى يتولى أمورهم ، وفى جملتهم أهل الكهف .

٢٧ - (وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا) :

---

(١) هذه الجملة من ضمن ما أمر الرسول أن يقوله للناس بشأن أهل الكهف فهى متممة لما أمر به من قوله لهم : « الله أعلم بما لبثوا » .

(واتْلُ) :يجوز أن يكون أمرا من التلاوة بمعنى القراءة ، أو من التُّلُوّ بمعنى الاتباع ، والمعنى على الأول : وَدَاوِمْ أيها الرسول على تلاوة ما أُوحى إليك من القرآن بشأن أصحاب الكهف وغيرهم - أوْدُم على قراءته - لأصحابك وغيرهم ، ليهتدى به الراشدون ، فقد اشتمل على بيان الغيب الذى لا سبيل لك إلى معرفته ، وتضمن من الآيات والمعجزات مالا سبيل للبشر إلى الإتيان بمثله ، واتضح من أُسلوبه الإلهى نداء الحق الذى تستجيب له القلوب والأرواح ، لا يستطيع أحد أن يبدل كلمات الله تعالى التى أنزلها عليك وتولى حفظها بنفسه ، ولم يستحفظها سواه ، ولن تجد من دونه ملجأً تلوذ به عند الملمات ، فاعتمد عليه فى تبليغ رسالة ربك ومعونته إياك بالنصر والتأييد .

(وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ) : الغداة أول النهار والعشى آخره ، وقد تطلق العشى على الوقت من غروب الشمس إلى العَتمة ، والعتمة وقت صلاة العشاء ، وتمتد لغة إلى ثلث الليل كما قال الخليل ، والمراد من عبادتهم ربهم بالغداة والعشى أنهم يعبدونه دائماً .

(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) : أى يقصدون بعبادتهم ذات الله مخلصين دون رياء .

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) : أى لا تجاوزهم عيناك إلى غيرهم ولا تقتحمهم ، يقال : عدا الأمر وعدا عنه ، إذا جاوزه وتركه . (فُرُطاً) : ضَيَاعاً .

(سُرَادِقُهَا) : السرادق معروف كالفسطاط وهو مايحيط بالشيء ، وهو هنا مستعمل فى لهب جهنم على سبيل المجاز بالاستعارة المصرحة .

(كَالْمُهْلِ) : المهل ماء غليظ كدردى الزيت - أى عكره - .

(مُرْتَفَقًا) : متكأً ، والارتفاق فى الأصل الاتكاء على مرفق اليد ، يقال بات فلان مرتفقا ، أى متكئاً على مرفق يده .

التفسير

٢٨ - (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) :

فى الآية السابقة أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلن قرآن ربه ويتلوه على الناس مؤمنهم وكافرهم ، وجاءت هذه الآية آمرة له أن يهتم بفقراء المؤمنين ويحرص عليهم ، ويدع حرصه على إيمان وجهاء الكافرين ، ولا يسمع ما اقترحوه فى حق هؤلاء الفقراء ، فإنهم غير جادين فيما زعموه من الرغبة فى الإيمان . وسبب نزول هذه الآية : أن زعماء كفار قريش كأمية بن خلف وغيره من صناديدهم : قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أبعدت هؤلاء الفقراء عن نفسك لجالسناك ، فإن ريح جبابهم تؤذينا فنزلت هذه الآية ، وكانوا يقصدون إبعاد أهل الصفة من الفقراء المنقطعين للعبادة ، والتلقى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كعمار وصهيب وابن مسعود وبلال ، والآية على هذا مكية ، وهو الذى رجحه أبو حيان ، ويؤيده ما أخرجه ابن مردويه من طريق جبير عن الضحاك عن ابن عباس ، كما تؤيده الآيات التى بعده وهو المناسب للسورة فهى مكية . وهذا يخالف ما أخرجه ابن مردويه وأبونعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن سلمان قال : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، فقالوا : (يارسول الله : لوجلست فى صدر المجلس ، وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم -يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ، جالسناك - أوحدثناك - وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى : «وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ» إلى قوله سبحانه : «أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا» يتهددهم بالنار) وعلى هذا تكون تلك الآيات مدنية فى وسط السورة المكية ، والظاهر الأول لما قدمناه

والمعنى : واصبر نفسك وثَبِّتْها مع أُولئك الفقراء المخلصين الذين يعبدون ربهم فى كل وقت تَتَيَسَّرُ لهم العبادة فيه ، يريدون بتلك العبادة ذاته ورضاه ، دون رياء للناس ورغبة فى ثنائهم .

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) :

أى ولا تجاوزهم عيناك يامحمد ولا تقتحمهم ، فتبعدهم عن مجلسك استهانة بهم - كما اقترح عليك رؤساء قريش ليجالسوك ويستمعوا إليك - لاتفعل ذلك - تريد بتركهم وإغفالهم زينة الحياة الدنيا ، بأن يكون جلساؤك من الأشراف ، ولا تطع فى تنحيتهم عن مجلسك ، مَنْ جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا ومعرفتنا ، بسبب انصرافه عن الحق وبعده عن الهدى ، واتباعه لهواه ، وكان أمره ضياعاً وهلاكاً ، حيث ترك الإيمان ، وتعلل بأسباب واهية ، فمثل هذا لاوزن له عندنا ، والوزن كل الوزن لأهل الحق الثابتين عليه وإن كانوا فقراء ، فدع هؤلاء ، ولاتذهب نفسك عليهم حسرات ؛ « إِنَّكَ لَاتَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ » .

٢٩ - (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) :

وقل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا واتبعوا هواهم وكان أمرهم ضياعاً - قل لهم - هذا القرآن الذى أدعوكم إلى الإيمان به هو الحق من ربكم لا ريب فيه ، ولست عليكم بجبار ، فمن أراد الإيمان به عن اعتقاد راسخ ، دون اشتراط إبعاد الفقراء فليؤمن ،وله ثوابه ،ومن أراد الكفر به عن هوى وحقد وعنادٍ فليكفر وعليه عقابه .

(إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) :

هذه الجملة تعليل للأمر السابق ، أى قل لهم أيها الرسول : ما أمرناك به من دعوتهم إلى الايمان بما أنت عليه من الحق وتخييرهم بين الإيمان والكفر به على سبيل الوعيد ، لأنا هيأنا لهؤلاء الظالمين المعاندين المستكبرين إن استمروا على كفرهم - هيأنا وأعددنا لهم - ناراً هائلة أحاط بهم لهبها الذى يشبه السرادق فى إحاطته بهم .

(وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا) : وإن يستغيثوا من شدة العطش ولهيب الأجواف يغاثوا بماء كعكر الزيت ، شديد الحرارة بحيث إذا قرب من أفواههم يشوى وجوههم وينضجها ، فما ظنك بأجوافهم ؟ بئس الشراب هذا الماء الذى يشبه المهل ، وساءت النار منزلا ومقرًا . أخرج الإمام أحمد والترمذى وابن حبان والحاكم وصححه وآخرون عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى - كالمهل - (كعَكَرِ الزيت ، فإذا قربَ إليه سقطت فروة وجهه فيه) .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾)

المفردات :

(جَنَّاتُ عَدنٍ) : جنات إقامة واستقرار ، من عَدَنَ بالمكان أقام به واستقر فيه .

(أساوِرَ) : جمع أسورة ، جمع سوار بكسر السين وضمها ، وهو مافى الذراع من الحلى .

(من سُنْدُسٍ) : السندس رقيق الديباج وهو مُعَرَّب بلاخلاف ، قيل أصله بالهندية سندون وغيرته الروم إلى سندوس ، ثم عرب بحذف الواو ، وقيل أصله فارسى .

(وإستبرق) : هو غليظ الديباج كما قال قتادة وعكرمة ، أو هو ديباج منسوج بذهب كما قال ابن بحر .

(الأَرَآئِكِ) : السُّرُرُ فى الحجال ، فإن لم توجد فى الحجال فهى سُرُرٌ وليست أرائك ، أخرجه البيهقى عن ابن عباس .

التفسير

٣٠ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَملاً) :

بين الله فى الآية السابقة سوء مصير الكافرين ، وبين فى هذه الآية والتى تليها حسن مصير المؤمنين ، وبضدها تتميز الأشياء .

والمعنى : إن الذين صدقوا بما أنزل الله عليك من الحق ، وعملوا بعد إيمانهم الأعمال الصالحات التى دعوتهم إليها حسبما أوحى إليك ربك ، إنا لانضيع أجر من أحسن منهم عملا من تلك الأعمال بل نحسن جزاءه عليه ، فكيف بالذى ترَقَّى فى عمل الصالحات ، وشغل نفسه بالطاعات والخيرات ، إن أجره لا شك عظيم ، كما يصوره قوله سبحانه :

٣١ - (أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ) :

فهذه الجملة مستأنفة لبيان عظمة أجور المؤمنين الصالحين .

والمعنى : أولئك المؤمنون المواظبون على عمل الصالحات ، لهم ثواباً على إيمانهم وصلاحهم جناتُ إقامةٍ واستقرار ، لا يبرحونها بأنفسهم ولا يخرجهم منها غيرهم ، فهم فيها خالدون تجري من تحت غرفهم وقصورهم الأنهار وهم فيها آمنون ناعمون ، يحلون فيها بأذرعتهم من أساور من ذهب لتزداد رفاهتهم ومتاعهم ونعيمهم ، ولبس الأساور فى الآخرة للرجال لاعيب فيه ، لأنه بين قوم يعتادونه ، بخلافه فى الدنيا فإنه بين قوم لا يعتادونه ، فلهذا يعيبونه ، فالشئ يكون مستحسناً فى حال ، ومستهجناً فى حال آخر .

(وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) :

ويلبس أهل الجنة ثياباً خضرًا من رقيق الديباج وغليظه ، فوق تحليتهم بأساور من ذهب ، زيادة فى بهائهم ومتعتهم ، فإن الخضرة تمنح البهاء وتسر النفس أكثر من غيرها من الألوان ، ولهذا قال القائل : ثلاثة يذهبن الحزن . الماء والخضرة والوجه الحسن .

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً) :

أى أنهم يتمتعون هذا المتاع فى الجنة ، فى حال كونهم متكئين فيها على السُّرُر داخل الحجَال[1] نِعْمَ الثواب ذلك الذى وعدوا به ، من الجنة ونعيمها المقيم ، وحسنت الجنة دار إقامة ، بما اشتملت عليه من فنون الجمال ، وألوان النعيم .

(۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ
أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا
الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا
نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا
أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ
قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً
وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ) : أى أحطناهما بنخل . يقال حَفَّ القومُ بفلان يحُفُّون حفًّا طافوا به والحِفاف الجانب. (بِنَخْلٍ) : النَّخْل يؤنث ويُذَكَّر اسم جمع ، واحدته نخلة وجمعه نخيل .

(أُكُلَهَا) : الأُكْل بسكون الكاف وبضمها التَّمْرُ والرزق والحظ من الدنيا .

(وكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) : الثَّمرُ محركة حمْل الشجرة ، وأنواع المال ، الواحدة ثَمرةٌ بفتحاتٍ وثُمرةٌ كَسَمُرةٍ ، والجمع ثِمار كرجالٍ ، وجمع الجمع ثُمُرٌ بضمتين .

---

(١) الحجال جمع حجلة . وهى بيت يزين بالثياب والستور للعروس – مختار الصحاح .

(وَهُو يُحاوِرُه) : يُراجعه ، يقال تحاوروا أى تراجعوا الكلام بينهم .

(وَأَعَزُّ نَفَرًا) : النفر محركة جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل إلى سبعة .

(أَنْ تَبِيدَ) : أن تهلك وتفنى . (خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) : المنقلب العاقبة والمصير .

التفسير

٣٢ - (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ . . .) الآية .

المعنى : واضرب أيها النبي مثلا للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى مع مكابدتهم ألم الحرمان والفقر ، وللكافرين الذين استنكفوا عن مجالسة الفقراء من المؤمنين . وجحدوا فضل مُعطِيهم مع تقلبهم فى نعيمه ، لتبين بهذا المثل للفريقين ولكل من يتعزز بالدنيا ويغترّ بها - لتبيّن - حالًا فيها عبرة للمعتبرين ، وتبصرة للمستبصرين .

قال الكلبى : نزلت هذه الآية فى أخوين مخزوميين من أهل مكة أحدهما مؤمن وهو مسلمة عبد الله بن عبد الأسود . والآخر كافر هو الأسود بن عبد الأسود . وعن ابن عباس أنهما ابنا ملك من بنى إسرائيل ، أنفق أحدهما ماله فى سبيل الله تعالى وكفر الآخر واشتغل بزينة الدنيا وتنمية ماله . ونظرا لهذا الخلاف نرى عدم التقيد برواية منهما ، فكما يحتمل أن القصة واقعية يعلم الله صاحبيها ، يحتمل أيضاً أن تكون مثلا ضربه الله لهذه الأمة لتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة ، وجعله زجرا وإنذارا - ذكره الماوردى .

٣٢- (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمَا زَرْعاً) :

أى جعل الله لأحد الرجلين - وهو الكافر - بستانين من كروم طابت أصولها ، وتنوعت ثمارها مذاقاً ولونًا ، وكلام الراغب يشير إلى أن العنب مشترك بين الثَّمَر والكرم وهو شجرها وفق إطلاق اللغة ، وقد أفادت الآية الكريمة أن النخل محيط بالجنتين من جميع جهاتهما لتصون الأعناب وتحفظها ، وأن الزرع وسطها ، لتكونا جامعتين للفواكه والأقوات على هذه الصورة الرائعة والوضع الأنيق .

٣٣ - (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) :

المعنى أن كل واحدة من الجنتين أعطت ثمرها تامًّا كاملاً طيباً ، ولم تنقص منه شيئاً ، فليست كسائر البساتين ، فإنها غالباً يكثر ثمرها فى عام ويقل فى آخر بسبب مايحدث لها

فيه من تقلبات جوية ، وآفات أرضية أو سماوية ، وربما لا تثمر أصلًا فى بعض الأعوام نتيجة لما ينزل بها من نوازل ، تعوقها عن التفتح وإخراج الزهر المفضى إلى الثمر ،

(وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) : وأجرينا بين الجنَّتين نهرًا غزيرَ الماء ، تيسيرًا لسقيهما ، وزيادة فى جمالهما وطيب هوائهما ، وتقديم إيتاء الأُكل فى قوله تعالى : « كِلتا الجَنَّتَينِ آتَتْ أُكُلَهَا » على تفجير النهر فى قوله تعالى : « وَفَجَّرنا خِلَالَهُمَا نهرًا » من باب تقديم الغاية على الوسيلة ، والمنفعة على سببها لأنها هى المقصودة من إنشاء البساتين ، وتفجير الأنهار .

٣٤ - (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) :

المعنى : وكان لصاحب الجنتين ثمر من أحمال أشجار أخرى ، وكذا من أنواع المال المثمر من ذهب وفضَّة وحيوان وغير ذلك كما فسره ابن عباس وقتادة وغيرهما ، وعلى هذا فالثمر لفظ عام ، يطلق على ثمار الأشجار ، وعلى جميع أنواع المال المثمر ،

وهذا الكافر بدل أن يشكر نعم الله عليه . دفعه غروره وتعلقه بمباهج الحياة الدنيا إلى أن يقول لصاحبه المؤْمن :

(أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) : قال له ذلك وهو يراجعه الكلام فى إنكاره البعث وفى تَعْييره له بالفقر ، وفخره عليه بالقوة والمنعة ، أى أنا أوفر منك مالًا تعدَّدت مصادره ، وتنوعت موارده ، وأعزُّ حشما وأعوانا .

قال قتادة « تلك والله أُمنيَّة الفاجر - كثرة المال وعزَّة النَّفَر » .

٣٥ - (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا) :

أى أنه تابع اعتزازه وغروره ، وتمادى فى إعراضه وكفره ، ودخل جنته وهو ضار لنفسه حيث عرضها للهلاك ، وعرض النعمة للزوال. لوضعه الشىء فى غير موضعه . فكان اللائق به أن يعرف للنعمة حقها من شكر المنعم بها ، والتواضع لمجريها جل شأْنه . لا ماوقع منه من إنكارٍ وكفر ، حكاه الله عنه بقوله سبحانه :

(قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبدًا) : وهذا استئناف أُجيب به عن سؤَال مقدر نشأَ من ذكر دخول جنته وهو ظالم لنفسه ، كأَنه قيل : فماذا قال حينئذ ، فقيل : « قال ما أَظُنُّ

أن تبيد هذِهِ أبدا » : أى ما أعتقد أن تهلك هذه الجنة مدى الحياة ، فالمراد بالأبديّة طول المكث . . لا معناها المتبادر ، وإنما قال ذلك لطول أمله فى الحياة ، وغفلته عن نعْمة الله .

والعدول عن التّثْنية إلى الإفراد فى قوله سبحانه : « وَدَخَلَ جَنَّتَهُ » لاتصال إحداهما بالأُخرى كأنهما جنة واحدة . أولأن الدخول لايمكن أن يكون فى الجنتين معا فى وقت واحد وإنما يكون فى واحدة فواحدة .

٣٦ـ (ومَآ أَظُنُّ السَّاعةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيرًا مِّنْهَا مُنقَلَباً) :

أى أنه تمادى فى كفره بإنكاره البعث اعتقادًا منه ، وردا على صاحبه لما وعظه وخوّفه قيام الساعة ، حيث قال : « وَمَآ أَظُنُ السَّاعَةَ قَآئِمَةً » أى لاأحسبها كائنة وقائمة فيما سيأْتى .

(وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَباً) : أى أنه إن رد إلى ربه مبعوثاً - على سبيل الفرض والتقدير - كما زعم صاحبه ليجدنَّ فى الآخرة خيرًا من جنته فى الدنيا مرجعاً ومصيرًا تمنياً على الله وادعاء لكرامته عليه ، ومكانته عنده ، واعتقادًا بأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه . يقول هذا ولم يدر بخلده أنه إمهال واستدراج . حتى إذا أخذه لم يفلته [1] .

(قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾)

(١) اقتباس من حديث الشيخين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

المفردات :

(ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) : أى ثم جعلك سويًا معتدلًا .

(لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى) : أصله لكن أنا هو الله ربى ، فحذفت همزة أنا ، وأُدغمت نون (لكن) فى نون (أنا) بعد حذف همزتها – قاله الكسائى والفراء وغيرهما .

(وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ) : أى ينزل الله عليها عذابًا مقدرًا محسوبًا – ينزله – من السماء ، كالثلج والبرد ونحوهما . (صَعِيدًا زَلَقًا) : أى أرضًا لانبات فيها ولا تثبت عليها قدم ، لما فيها من الوحل أو من الرمال التى تزل فيها الأقدام (مَآؤُها غوْرًا) : أى غائرا فيها وذاهبا فى طبقاتها البعيدة . (فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) : أى لا تقدر أن ترد الماء الغائر بأية حيلة من الحيل .

التفسير

٣٧ – (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ . . .) الآية .

استئناف كما سبق فى قوله سبحانه : « قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ . . » كأن سائلًا سأل عما راجعه به صاحبه المؤمن واعظًا له ، وزاجرًا إياه عما هو فيه من الكفر بالله عُجْبًا وغرورًا فأُجيب السائل بالآية .

والمعنى : أن صاحبه المؤمن – حال محاورته له توجه إليه منكرًا عليه ماوقع فيه من جحود وكفر ، فقال له : (أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ) : أى كيف تكفر بالذى خلقك من تراب فى ضمن خلق أصلك آدم عليه السلام ، لما أن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلق أصله ، فيكون ذلك الكافر مخلوقًا من تراب لأنه مادة أصله الذى تناسل منه ، وقيل « خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ » لأنه أصل مادتك التى نشأت منها إذ أنها ناشئة عن أغذية نبتت من التراب (ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ) : وهى مادة خلقك القريبة بعد خلق أصلك . وقد بدأ سبحانه خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .

(ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) : أى جعلك رجلًا فى أحسن تقويم حيث أنشأك . معتدل القامة سوِىَّ الخَلْق . منذ طفولتك حتى أصبحت رجلًا ، تلى أمورك وتصرف شئونك .

٣٨ – (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا) :

المعنى : أنا لا أقول بمقالتك الدالة على الكفر من إنكار البعث وغيره . لكن أنا أقول هو الله ربى . فأنا مؤمن مُوحِّد ، أعترف له سبحانه بالربوبية والوحدانية .

وبقوله هذا أثبت لصاحبه الشرك تعريضًا . للإيذان بأن كفره كان بطريق الشرك . لأنه لمَّا أنكر البعث فقد عجَّز البارى ومن عجَّزه فقد سوَّاه بخلقه فى العجز وهو شِرك . أو المراد من الشرك مطلق الكفر ، وقد أُطلق الشرك عليه كثيرا وجعلوا منه قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ » فأُريد من الشرك الكفر الشامل لما عليه اليهود والنصارى وما عليه غيرهم ، ويقوِّى هذا الإطلاق قوله تعالى فيما سبق حكاية عن الصاحب الكافر : « وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى » فهو مُقِرٌّ بعدم الشرك والله سبحانه هو ربه لا سواه . ومع ذلك أُطْلق عليه الشرك هنا تعريضا نظرا لأنه يراد منه مطلق الكفر .

٣٩ ـ (وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . . .) الآية .

فى هذه الآية حث وتحضيض من المؤمن للكافر على ما تضمَّنته من النصيحة ، وتوبيخ له على تركها . أى هلا قلت حين دخلت جنتك ونظرت إلى كمال تنسيقها ومختلف ثمارها . « مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » فحمدت الله على ما أنعم به عليك ، حيث أعطاك من المال والولد والرجال ما لم يعط غيرك ، اعترافا منك بقوته ، وإقرارا بعجزك ، وإيمانا بأنه لو شاء لسلبك هذا العطاء الذى جعلته موضع فخرك واعتزازك ، لأن ما شاء الله كان وما لم يشأْ لم يكن . كما قال بعض السلف : من أعجبه شىءٌ من ماله وولده فليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله . . وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله) .

(إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا) :

٤٠ ـ (فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ) :

أى إن ترنى أمامك أقل منك مالًا وأولادًا وأعوانًا ، فأملى فى فضل الله يجعلنى أتوقع أن يبدل ما بى وبك من الفقر والغنى فيرزقنى لإيمانى جنة خيرا من جنتك التى كانت سببًا فى طغيانك وكفرك بربك .

(وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَآءِ) : ويبعث على جنَّتك من السماء قَدَرا محسوبا يكون سببا فى هلاكها .

(فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا) : أى أرضًا بلقاء لا نبات فيها ملساء لا تثبت عليها قدم حيث تزلق وتزول عن مكانها . بمعنى أنها تصبح مسلوبة المنافع حتى منفعة المشى عليها . فتكون بذلك أضرّ أرض بعد أن كانت أنفع أرض .

٤١ - (أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) : أو يُصبح ماؤُها غائرًا أوذاهبًا فيها بحيث لا يمكنه استخراجه من جوفها ، ولا تقدر على تفجيره بمختلف الوسائل والحيل ، والتعبير بغَوْرًا . . بدل غائرًا . . للمبالغة فى ذهاب مائها . . كرجل عدْل بدل عادل ، للمبالغة فى عدله - وإلى هنا انتهت مناظرة المؤمن لصاحبه الكافر وإنذاره . ويحكى الله عاقبة كفره وغروره فيقول سبحانه :

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) : أهلك ماله كله . مأْخوذ من الإحاطة والاستدارة حول الشىء من جميع جهاته ، تمكنًا منه وغلبة عليه ، ثم استعمل فى كل إهلاك . (يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ) : يضرب باطن إحدى يديه على ظاهر الأُخرى . ثم يعكس الأَمر مرارًا ندمًا على ما حدث ويجوز فى معناها غير ذلك . وسنعرض له فى الشرح . (خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) : ساقطة على أعمدتها التى هوت قبلها . (وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ) : أى جماعة وليس للفئة واحد من لفظها .

(وَما كَانَ مُنتَصِرًا) : أى ممتنعًا عما ينزله الله به . (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ) : الولاية بفتح الواو وكسرها : النصرة والغلبة .

التفسير

٤٢ - (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا . . .) الآية .

الآية عطف على مقدر. أى وقع بهذا الكافر ما خوَّفَهُ منه صاحبه المؤمن «وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ » بإهلاك جنتهوما فيها من نخيل وأعناب وزروع . والظاهر أن ذلك كان ليلًا لقوله سبحانه :

« فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا(١) » أى فأصبح يضرب باطن إحدى يديه على ظاهر الأخرى ، ثم يعكس صنيعه ويكرره مرارًا ندمًا وحسرة على ما أنفق فى عمارتها من مال وما بذل فى تنسيقها من جهد ، وما علق على بقائها الدائم من أمل حيث كان يقول : « مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا » ويفسر أبو حيان تقليبه كفّيه بأنه يبدى باطن كلتيهما ، ثم يعكس ليبْدو ظاهرهما ، ويكرر ذلك من شدة الندم .

فَعَلَ ذلك حين رآها (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا) : أى حين رأى أشجارالكروم ساقطة على أعمدتها التى تصنع لحملها حفاظًا عليها وذلك لسقوط تلك الأعمدة لما أصاب الجنة من عذاب السماء الذى جعلها صعيدًا زلقا .

وذِكْرُ هلاك الكروم مُغْنٍ عن ذكر هلاك النخيل والزروع لأنها حيث هلكت وهى على عروش تسندها وتقويها . فهلاك غيرها بالطريق الأولى .

(وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا) : أى يا ليتنى عرفت نعم الله علىّ وعرفت أنها كانت بقدرته فلم أشرك به ، وكأنه تذكر موعظة أخيه له . لمَّا أبصر ما نزل بجنته ، وعلم أن هلاكهما من قبل الشرك وبسببه ، لذلك تمنى لو لم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه . وقيل هذا القول منه توبةٌ عن الشرك . وندمٌ على ما وقع منه . فيكون استحداثا للإيمان . لأن ندمه على الشرك فيما مضى . يشعر بأنه آمن فى الحال . فكأنه قال آمنت الآن وليت ذلك كان أولًا .

٤٣ - (وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ . . .) الآية .

المعنى : ولم يكن لهذا الكافر ولد ولا عشيرة ممن افتخر بهم واستعز ، يقدرون على

(١) هذا إذا لم تكن أصبح بمعنى صار ، فإن كانت كذلك فلا تشير الآية إلى زمن الهلاك حينئذ .

نصرته بدفع الإهلاك عن جنته أو ردِّ ما هلك ، أو الإتيان بمثله من دون الله . لأنه سبحانه هو الفعال لذلك كله . فهو القادر وحده وبيده مقاليد السموات والأرض .

(وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا) :أى وما كان ممتنعا عن انتقام الله بما زعم لنفسه من قوة وجاه .

٤٤ ـ (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ . . .)[1] الآية .

هذه الجملة تأكيد وتقرير للآية السابقة والمعنى فى هذا الموطن وتلك الحال التى حلَّت بجنته . لن يجد مُنْقِذا له يدفع عنه ما نزل به . لأن النصرة والغلبة لله الحق. فلا يقدر عليها أحد غيره .

واستظهر أبو حيان كون هنالك إشارة إلى الدار الآخرة . ويكون الكلام تمّ عند قوله : « مُنتَصِرًا » أى تقع الموالاة لله الحق يوم القيامة من كل أحد ـ مؤمن أو كافر ـ حين يقع العذاب لقوله سبحانه : « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ »[2] . (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) : أى الله خير جزاء فى الدنيا والآخرة لمن آمن به واتبع سبيله ، وخير عاقبة لأوليائه ، بمعنى أن الأعمال التى تكون له سبحانه . ثوابها خير ، وعاقبتها حميدة .

وليس ثَمَّ غير الله يُرجى منه نفع حتى يكون رجاءُ الله خيرًا ، من رجائه ولكنه ورد حسبما يقع فى ظن الجهال لا بحسب الواقع تقريعا لهم وتوبيخا ، وقد يقال إن التفضيل هنا على غير بابه ، فلا ثواب ولا خير يومئذ إلا لله ظاهرًا وباطنًا .

(وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾)

(١) قرأ الأعمش وحمزة والكسائى الولاية. بكسر الواو والباقون بفتحها وهما بمعنى واحد بمعنى النصرة والغلبة وقيل الولاية بالفتح من الموالاة كقوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا)من الآية ٢٥٦ البقرة،وبالكسر بمعنى السلطان والقوة، وقال أبو عبيدة إنها بفتح الواو للخالق وبكسرها للمخلوق .

(٢) سورة غافر : آية ٨٤ .

المفردات :

(فَأَصْبَحَ هَشِيمًا) :يابسا متفتتا من الهشْم وهو كسر الشيء اليابس .

(تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ) : تفرقه وتنسِفه. يقال ذَرَتْه الريح تذْروه ذرْوًا : إذا طارت به وفرَّقته ، ومثله أذرته تُذْرِيه إذراء .

التفسير

٤٥ ـ (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا . . .) الآية : أى اذكر للناس ، ولا سيما هؤلاء المتكبرون الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين ـ اذكر لهم ـ مثل الحياة الدنيا ، ببيان ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها . وعدم استقرارها . وسرعة زوالها حتى لايطمئنوا إليها ولا يعكفُوا على التعلق بها ، ولا يعرضوا عن الآخرة دار الجزاء والبقاء .

أَوْ بيِّنْ لهم صفتها العجيبة التى تشبه المثل فى غرابتها ، هذه الحياة :

(كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) : أى أنها تشبه حال النبات الذى أنبته الله بماءٍ كثير أنزله من السماء ، فاختلط بهذا الماء نَباتُ الأَرض بعد أن روى منه وامتلأت به عروقه ، فنما وكثر أو اختلط بسبب المــاء نباتُ الأَرض . فالتف بعضه ببعض بعد أن كثر واستوى على سوقه . هذا النبات الجميل الناضر لم يلبث حتى أسرع إليه الفناءُ بدون إبطاء .

ويشير إلى ذلك الإتيان بالفاء فى قوله سبحانه :

(فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ) : أى فأصبح متكسرا متفتتا من اليُبْسِ ، تفرقه الرياح وتنسفه وتذهب به وتجىءُ ، فالمشبه فى الآية : الحياة الدنيا فى جمالها وزينتها ثم فنائها ، والمشبه به : الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات يكون أخضر مهتزا ثم يصير هشيما تطيره الرياح حتى كأنه لم يكن .

(وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا) :أى أنه سبحانه على كل شىء من الأشياء ـ ومن جملتها الإيجاد والإفناءُ ـ كامل القدرة يفعل ما يشاءُ جل شأنه .

(ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾)

التفسير

٤٦ - (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا . . .) الآية .

فى هذه الآية بيان لما كانوا يفتخرون به من زينة الحياة الدنيا متمثلة فى المال والبنين لأنَّ فى المال جمالا ونفعا يصلون به إلى مآربهم وكل ما تقتضيه حياتهم ، وفى الأولاد قوةً ودفعا يبلغون بهما إلى ما ينشدونه من عزة ومنعة . كما وقع فى محاورة الصاحب الكافر لصاحبه المؤمن حيث قال له على سبيل التعالى والفخر : « أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا » .

والمعنى : إن ما تفتخرون به من المال والبنين شىءٌ يتزين به فى الحياة الدنيا وقد عرفتم شأنها فى سرعة زوالها . وقرب اضمحلالها ، فكيف زينتها التى هى صفة من صفاتها ،إنها تزول وتفنى قبل زوالها - فلا تجعلوها كل همكم ، وتعرضوا عن الآخرة دار الكرامة والجزاء بل اعملوا لخيرى الدنيا والآخرة مصداقا لقوله تعالى : « وابتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولَاتنسَ نَصِيبَكَ مِن الدُّنْيَا [1] » .

والآية ردٌّ على عيينة بن حصن وأمثاله ،الذين افتخروا بالغنى والشرف على الفقراء والمستضعفين من المؤمنين . إذ بينت لهم أن ما كان من زينة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى ، وإنما يبقى ما كان زاداً فى القبر ، وعدة فى الآخرة ، حيث قال سبحانه :

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً) :

قال ابن عباس وابن جبير وأبو ميسرة : الباقيات الصالحات هى الصلوات الخمس وقال ابن عباس فى رواية أخرى : هى كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة : ا هـ

(١) سورة القصص ، من الآية ٧٧

فيدخل فيه كل عمل جادٍّ لخدمة الإسلام والذود عنه بالنفس والمال والمقال، وكل عمل ينصر حقا أو يدفع باطلا. أو يعاون محتاجا أو ينشر علما - وقال الجمهور هى الكلمات المأثور فضلها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. خرجه مالك فى موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول فى الباقيات الصالحات: إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأخرج الإمام أحمد والحاكم وصححه، وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(استكثروا من الباقيات الصالحات. قيل وما هى يارسول الله قال: التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله).

وهناك أقوال أخرى فى معنى الباقيات الصالحات، وحسبنا ما ذكرناه.

ويدخل فى عموم معنى الباقيات الصالحات. أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى دخولا أوليًّا، فإن لهم من كل نوع من أنواع الخيرات الحظ الأوفر، وتلك الأعمال باقية دائمة لبقاء عوائدها عند فناء ما تطمح إليه النفس من حُظوظ الدنيا، وحسبها أنها عند ربك وفى كنفه. وتتحقق خيريتها فى ثواب جزيل يعود على صاحبها، وأمل عظيم ينال به فى الآخرة ما كان يؤمله فى الدنيا، كما يشير إلى ذلك قوله جل شأنه: «خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا»، أما زينة الدنيا من المال والبنين فليس لها ذلك إذ هى مضمحلة زائلة حيث نسبت إلى الحياة الدنيا وهى بما فيها ومن فيها إلى فناء، فمن اهتم بزينتها وقصَّر فى عمل الآخرة. باء بالخيبة والخسران.

وتقديم المال فى الآية على البنين لأن الزينة به أظهر، وهو ميسور لكل أحد، فى أى وقت وحين غالباً.

(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾)

المفردات :

(نُسَيِّرُ الْجِبَالَ) : ننقلها ونزيلها من أماكنها على وجه الأرض. (وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) : ظاهرة ليس عليها ما يسترها من جبل وشجر ونبات وبناء (وَحَشَرْنَاهُمْ) : جمعناهم من كل صوب. (فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) : فلم نترك منهم أحداً دون حشر .

(وَوُضِعَ الكتبُ) : «أل» فى الكتاب لجنس الكتب، والمقصود كتب صحائف الأعمال .

(مُشْفِقِين) : خائفين مما فى كتبهم. (يَوَيْلَتَنَا) : الويلة الهلاك وحلول الشر والحسرة .

(إِلَّآ أَحْصَاهَا) : أى عدها وأحاط بها .

التفسير

٤٧ - (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ . . .) الآية .

يخبر الله سبحانه بهذه الآية وما بعدها عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظام ، تحذيراً للمشركين وترهيبا .

والمعنى : واذكر لهم أيها النبى يوم ننقل الجبال . ونزيلها من أماكنها . ونسيِّرها على هيئاتها كما نسيِّر السحاب يشير إلى ذلك قوله تعالى : «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ

تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ »(١) . ثم تتشقق وتتفتت فتكون كحبات الرمل المتناثرة كما قال سبحانه : « وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا »(٢) . ثم تصير غبارا منتشرا تسوقه الرياح حيث أراد الله كما قال تعالى : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا »(٣) وفى نهاية أمرها . تصبح كسراب يُرى من بعيد حتى إذا جئته لم تجد شيئا ، وذلك لتفرق أجزائها تفرقا تاما كما قال سبحانه : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا »(٤).بعد هذا الصنيع من القوى القادر ، يظهر سطح الأرض مستويا ، لا عوج فيه ولا أمتا أى لا انخفاض به ولا ارتفاع . ويشير إلى ذلك قوله جل شأنه :

(وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) : الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أولكل من تتأتى منه الرؤية ، أى وترى الأرض من جميع جهاتها بادية ظاهرة ، ليس عليها ما يسترها أو يحجب جزءا منها من أودية وكثبان ، وجبال وأشجار وأبنية وبحار ، وزروع وأعشاب ، حيث اجتثت جبالها وهدمت أبنيتها ، واقتلعت أشجارها ، وغاضت بحارها ، وانمحت زروعها وأعشابها وغدت قاعا صفصفا(٥) . أى أرضا مستوية جرداء .

وقيل بارزة أى برز ما فيها من الكنوز والأموات ، كما قال تعالى : « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ »(٦).واستغنى بذكر زوال الجبال فى الآية عن ذكر زوال غيرها.لأنه يُعلم من ذكر زوالها ، زوال غيرها بطريق الأولى : إذ هى أعظمها وأثبتها وأضخمها .

(وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) : أى وجمعناهم إلى الموقف من كل حدب وصوب بعد قيامهم من قبورهم ، فلم نترك منهم أحدا ، هانَ شأنه أو عَظُم كما قال سبحانه : «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ »(٧).وأثر التعبير بالماضى فى قوله : «وَحَشَرْنَاهُمْ »للدلالة على تحقق وقوع الحشر التابع للبعث الذى أنكروه حيث قالوا : « وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » تكذيبا لهم وتقريعا ؟ .

(١) سورة النمل من الآية — ٨٨ (٢) سورة المزمل الآية — ١٤ (٣) سورة الواقعة الآيتان — ٥ ، ٦
(٤) سورة النبأ الآية — ٢٠ (٥) القاع : المستوى من الأرض ، وزاد ابن حارس الذى لا ينبت .
(٦) سورة الانشقاق الآية ٤ (٧) سورة الواقعة الآيتان ٤٩ ، ٥٠

٤٨ - (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا . .) الآية .

أى أنهم يُحَضرُون يوم الموقف العظيم لا يتخلف منهم أحد فيقفون مجتمعين غير متفرقين ، ليقضى الله بينهم بالحق وفى قوله : « صَفًّا » ما يشير إلى اجتماعهم صفوفا ، وفى الحديث الصحيح : « يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفاً » . وقال مقاتل يعرضون صفا بعد صف لا أنهم صف واحد .

(لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) : تقريع للمشركين المنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد ، وذلك بأن يقال لهم لقد جئتمونا على هيئة تشبه الهيئة التى كنتم عليها عند خلقكم أول مرة ، حفاة عراة غُرْلا أى غير مختونين ، وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلا . قلت يارسول الله الرجال والنساء ، ينظر بعضهم إلى بعض قال : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . وفى رواية أخرى « الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » .

أويقال لهم : لقد جئتم وليس معكم شىء مما كنتم تفتخرون به من الأموال والأنصار لقوله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ »(١) . أى بعثناكم بعد الموت فرادى كهيئتكم عند خلقكم وإحيائكم أول مرة بلا مال ولا ولد ولا سلطان .

(بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا) : انتقال لمواجهة منكرى البعث بالتوبيخ والتقريع أى ادعيتم فى الدنيا أن لن تبعثوا ، ولن نجعل لكم موعدا نُنْجِزُ فيه ماوعدنا من البعث وتوابعه ، وقد خاب ظنكم ، وكذب زعمكم ، وتحقق عيانا ما أنكرتموه ، فقد أحييناكم بعد موتكم وجئتمونا للحساب .

٤٩ - (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ..) الآية .

الآية معطوفة على قوله : « وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا » داخلة تحت الأمور الهائلة العظيمة من أهوال يوم القيامة التى أريد تذكيرهم بها .

---

(١) سورة الأنعام من الآية - ٩٤

والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى يضع الكتاب . ويُقصَد به صحائف الأعمال وكتبها ، وذلك بجَعلها فى أيدى أصحابها يأْخذ كل منهم كتابه بيمينه أو بشماله ، وحينئذ تُبْصِر العصاة جميعاً خائفين مما فى الكتاب من الجرائم التى اقترفوها . والذنوب التى باءوا بإثمها ، ويدخل فيهم منكروالبعث دخولا أوليًّا .

(وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَايُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا) :

أى أنهم عند وقوفهم على كلما فيه وعلمهم بما فى تضاعيفه . ترتفع منهم أصوات الحسرة والحيرة . ويتمنون الموت والهلاك حتى لا يروا العذاب الأليم ، وقد دعاهم إلى ما صنعوا ، ماوجدوه فى الكتاب الذى وضع فى يد كل منهم مما يدعو إلى العجب والفزع الذى أشار إليه قولهم : « مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ » إلخ حيث إنه ليس له نظير ولا مثيل من الكتب الأُخرى . فهو على حال لم يَتْرك معها صغيرة ولا كبيرة إلا عدها وأحاط بها . قال سعيد بن جبير : إن الصَّغيرة اللَّمم كالمسيس والقُبَل ، والكبيرة كالمواقعة والزنى .

قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء وما اشتكى أحد ظلما ، فإياكم ومحقرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه ، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول : ياويلتاه ضجوا إلى الله تعالى من الصغائر قَبْلَ الكبائر .

(وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً) : أى ماعملوه فى الدنيا وجدوه مسطورا فى كتاب كل منهم أو وجدوه حاضرا بين أيديهم حالا غير مؤجل ، أو وجدوا جزاء أعمالهم .

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) :

أى لا يأْخذ أحدا بجرم أحد ، ولا يأْخذه بما لم يعمله ، وقد وعد سبحانه بإثابة المطيع والزيادة فى ثواب ماعمله مما أَمَرَهُ بِهِ ، وارتضاه منه ، كما وعد بتعذيب العاصى بمقدار جرمه من غير زيادة على ماعمل ، وأنه قد يغفر له ماعدا الكفر كما قال تعالى : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ »(١) . سبحانه جل وعلا يفعل مايشاءُ ويختار .

---

(١) سورة النساء من الآية ١١٦

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(اسْجُدُوا لِآدَمَ) : للسجود معنيان ؛ معنى لغوى وهو : التواضع والخضوع تحية وتعظيما بانحناء وغيره لا بوضع الجبهة على الأرض. ومعنى شرعى :بوضع الجبهة على الأرض للعبادة ولا يكون هذا إلا لله تعالى .

(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) :أى فخرج عن أمره . لأن معنى الفسق الخروج ،من قولهم فسق الرُّطَب فسوقًا إذا خرج عن قِشْرِه . وفعله فسق كنصر وضرب وكرُم فسقا وفسوقا . وقيل صار فاسقاً بسبب عصيانه أمر ربه فعن للسببية .

التفسير

٥٠ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ...) الآية .

أى . واذكر أيها الرسول وقت قولنا لهم « اسْجُدُوا لِآدَمَ » سجود تشريف وتكريم وفق المعنى اللغوى للسجود ؛ وهو يحصل بانحناء ونحوه دون وضع الجبهة على الأرض ، وهذه تحية أبطلها الإسلام . وأحل السلام والمصافحة محلها .

أما وفق المعنى الشرعى فلا لأنه لا يتحقق إلا بوضع الجبهة على الأرض قصدا إلى العبادة وهو مأمور به لله وحده .(فَسَجَدُوا إِلَّآ إِبْلِيسَ) : أى سجد الملائكة جميعًا امتثالا وطاعة ما عدا إبليس ، فإنه لم يكن من الساجدين إباءً منه واستكبارا ، وقد حمله على هذا التمرد أنه (كَانَ مِنَ الْجِنِّ) :فهو أجنبى عنهم حيث خلق من مارج من نار . وخلقوا من نور . فقد ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنهاعن رسول الله صلىاللهعليهوسلم أنه قال :

« خُلِقَت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار » وهذا ظاهر فى أنه ليس منهم بل كان معهم ومعتبرا فى عدادهم لوجوده بينهم ، ولذا قال الحسن فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبى حاتم : « قاتل الله أقوامًا زعموا أن إبليس من الملائكة والله يقول : « كَانَ مِنَ الْجِنِّ » وأخرج عنه ابن جرير وابن الأنبارى فى كتاب الأضواء وأبو الشيخ فى كتاب العظمة أنه ماكان إبليس من الملائكة طرفة عين ، وإنه لأَصْل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل الإنس .

ولكون إبليس عليه اللعنة من الجن ، وليس من الملائكة استكبر فاستحب العمى على الهدى ، وتنكَّب الطريق .

(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) : أى فخرج عن طاعته سبحانه ــ قاله الفراء ، وأصله مِنْ فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، وقيل معناه صار فاسقا كافرا بسبب أمر ربه . بمعنى أتاه الفسق لما أمر فَعَصَى : فعن للسببية ، وقيل ففسق عن رَدِّ أمر ربه بخروجه عن الطاعة ، فنى الكلام مضاف مقدر والفسق يقع على القليل والكثير من الذنوب ، ولكن تُعُورف فيما كان كثيرا ، وهو أعم من الكفر .

وذُكِرتْ قصة إبليس هنا لتشديد النكير عليه والتنفير منه ، تبعيدا عن المعاصى ، وعن امتثال ما يوسوس به ، وذلك لا يعد تكرارا مع ذكرها قبلُ ، حيث إن لها فائدة غير الفائدة التى كانت لذكرها قبلا وهى أنه سبحانه لما ذكر يوم القيامة والحشر ، وذكر خوف المجرمين ورهبتهم مما سُجِّل فى كتبهم من كل صغيرة أو كبيرة ، ناسب الإتيان بها تذكيرا لهم بأن إبليس اللعين هو الذى حملهم على المعاصى ، واقتراف الآثام ، واتخاذ الشركاء والأنداد ، فهم فى ذلك تابعون لتسويله وإغرائه كما ينبىءُ عنه قوله تعالى :

(أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) : بهذا الاستفهام وبَّخ الله المشركين وأنكر عليهم بعد علمهم بقبائح الشيطان وأباطيله أن يستجيبوا له فيتخذوه وذريته أولياء وأعوانا لهم من دونه . مع أنهم لايجهلون حالهم من العداوة والبغضاء لهم ، والمراد من « ذريته » أعوانه وأشياعه ممَّن سلك طريقه فى الإضلال والإفساد مِنْ شياطين الجن والإنس ،وقال ابن عطية فى قوله : « وذريته » ظاهر اللفظ يقتضى الموسوسين من

الشياطين الذين يأتون بالمنكر ، ويحملون على الباطل ، ونقل الآلوسى فى تفسيره ، أن بعضهم قال : لا ولد له والمراد من الذرية الأتباع من الشياطين وعُبِّر عنهم بذلك مجازًا تشبيهًا بالأولاد . ا هـ .

وأعدل الأقوال وأسلمها فى المسألة قول القشيرى أبو نصر كما نقله القرطبي : إن الله أخبر أن لإبليس أتباعًا وذرية ، وأنهم يوسوسون إلى بنى آدم وهم أعداؤهم. ولا يثبت عندنا كيفيةٌ فى كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس . فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح : ا هـ .وهو يتمثل ويتصور ، ويظهر ويختفى ، ويَرى من حَيْثُ لايُرى . ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال « : إن الشيطان ليتمثل فى صورة الرجل فيأتى فيُحَدِّثهم بحديث الكذب . فيتفرقون يقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أعرف ما اسمه يُحَدِّث » . وفى التنزيل يقول الله تعالى : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَاتَرَوْنَهُم »[1] .

(بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) : أى بئس البدل عن الله تعالى للظالمين : إبليس وذريته ، أو بئس عبادة الشيطان ، بدلا عن عبادة الله .

والالتفات من الخطاب فى قوله تعالى : « أَفَتَتَّخِذُونَهُ » إلى الغيبة فى قوله تعالى : « بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ » مع وضع الظاهر موضع ضمير المخاطبين ، ليشير اللفظ الظاهر إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح يؤذن بأنهم أهل لشدة السخط ، وبالغ الازدراء .

(* مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١))

المفردات :

(مَا أَشْهَدتُّهُمْ) : ما أريتهم . (عَضُدًا) : العضد مابين المرفق والكتف من الذراع ، والمقصود هنا . المعين أو النصير .

(١) الأعراف : من الآية ٢٧

التفسير

٥١ - (مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَاخَلْقَ أَنفُسِهِمْ) :

بعد أن أبرزت الآية السابقة موضع العجب من اتخاذ هؤلاء الظالمين إبليس وذريته أولياء لهم من دون الله أوضحتْ هذه الآية الكريمة عدم صلاحية إبليس وجنوده لأن يكونوا شركاء لله وأعواناً له ، كما بينت ضلال تابعيهم وغباءهم ، حين اتخذوهم أولياء لهم . والمعنى :

أن الله سبحانه هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهما وحده ولم يهيئ لإبليس وذريته مشاهدة هذا الخلق ولا المشاركة فيه. حيث خلقت السموات والأرض قبل خلق إبليس وذريته فكيف جعلهم أتباعهم الظالمون أولياء لهم من دون الله ، وهم عاجزون عن الخلق والتدبير ولا يعلمون شيئا عن كيفية خلقهم وتدبير أمورهم فإنهم : « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا »[1] .

(وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) : ولا ينبغى لى - وأنا القوى العزيز - أن أحتاج إلى مُعين أو نصير يساعدنى فى الخلق والتدبير من هؤلاء الضالين المضلين .

(وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(مَّوْبِقًا) : أى مهلكًا يشتركون فيه وهو النار ، والموبق اسم مكان من وَبَقَ - كوثب - بمعنى هلك . (فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا) : الظن هنا بمعنى التَّوقع والعلم ، أى توقعوا وأيقنوا أنهم مخالطوها واقعون فيها ، ومثل ذلك قوله تعالى: « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »[2] . أى يوقنون أنهم ملاقوه . (مَصْرِفًا) : مجالا للانصراف أو الهرب والفرار .

(١) سورة الفرقان : الآية ٣ (٢) سورة البقرة : الآية ٤٦

التفسير

٥٢ - (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) : واذكر لهم يامحمد يوم الجزاء الذى ينتظرهم طال الزمن أو قصر ، يوم يقول لهم العلىُّ الأعلى مؤنبًا لهم على اتخاذهم إبليس وذريته أولياء لهم من دونه - اذكر يوم يقول لهم - ادعوا شركاءكم الذين عبدتموهم من دونى لينقذوكم من العذاب المحيط بكم ؛ وفى هول الموقف ينادى الظالمون شركاءهم فلا يلبون نداءهم ولا يستجيبون لاستغاثتهم ، لأنهم فى مهلكهم مشتركون ، وفى جهنم خالدون ، فكيف يستجيبون ؟ ولهذا قال سبحانه :

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا) : أى وجعلنا بين الداعين من المشركين والمدعوين من الشياطين ، موبقًا ومهلكًا مشتركا وهو النار التى يصلونها جميعًا

٥٣ - (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا) : وشاهد المجرمون النار فأيقنوا أنهم واقعون فيها لامحالة . قال صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة ». رواه أحمد وابن جرير.

(وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) : ولم يجدوا مجالا للهرب من هذا المصير الأليم قال تعالى : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ »(١) .

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾)

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٥٤

المفردات :

(صَرَّفْنَا) : نوَّعنا ووضحنا . (من كُلِّ مَثَلٍ) : المثلُ الحكمة أو الموعظة .

(جَدَلًا) : مُمَاراةً ومخاصمة . (سُنَّةُ الأَوَّلِينَ) : أى طريقة الله فى المشركين السابقين ، والمراد بها العذاب الذى حل بالأمم السابقة حينما أصروا على الكفر والعناد .

(قُبُلًا) : بضمتين جمع قبيل أى أنواعًا ، وأجاز أبو عبيدة أن يكون معناه مقابلة وعيانًا كقراءته قِبَلًا بكسر ففتح ، فإن معناه كذلك عند ابن عباس .

التفسير

٥٤ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ . . .) الآية .

ولقد بينا ووضحنا فى القرآن الكريم من التوجيهات الرشيدة والمواعظ الحكيمة ، بطرق عديدة وأساليب متنوعة ، من القصص والعبر والحكم التى يَثْبُتُ بها الحق فى الأذهان ، ولاتدعُ مجالا للشك والإنكار . وتملك على القارئ مشاعره ، لأنها فى الغرابة والحسن واستمالة النفس كالأمثال ليتلقوها بالقبول ، فلم يمتثلوا .

(وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) : وكان الإنسان منذ نشأته حسب فطرته ، أكثرشىء جدالا فى الدفاع عن رأيه بالباطل متلمسًا المعاذيرالتى يبرربها تصرفاته[1] ، إلا من عصم الله . أخرج الإمام أحمد والشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه طرق بيت على وفاطمة ليلا فقال : ألا تصليان ؟ فقال على : يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله تعالى ، إن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلَىَّ ثم سمعته يضرب فخذه ويقول : « وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا » .

٥٥ - (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ...) الآية .

ساقت الآية الكريمة مثلا من أمثلة الإمعان فى الضلال واللجاج والجدال بالباطل ، مع وضوح الحق وأسباب الهداية .

(١) يذكر علماء النفس أن كل مخطئ يتلمس تبريرخطئه بما يسمونه «نظرية التبرير » وقد ساق القرآن الكريم أمثلة عديدة لما برر به المشركون عقائدهم وأعمالهم .

والمعنى : وما حمل الناس على ترك الإيمان بعد قيام أدلته ووضوح حجته ، إلا إصرارهم على العناد واللجاج ، وتحديهم للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل بهم العقاب الذى توعدهم الله به ، كما أنزله بالأمم السابقة التى أصرت على الكفر والعناد ، وقد حكى الله طلبهم العذاب بقوله : « وَإِذ قَالُوا اللَّهُمَّ إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »(١) .

(أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً) : أو يحل بهم العذاب الأليم عِيانا جزاء إمعانهم فى الكفر والضلال فى صور شتى من النكال والوبال ،ويجوز أن يكون المعنىأن الله حال بينهم وبين الإيمان ، لأنهم غير أهل له بما جبلوا عليه من عناد ولجاج ، فقد انصرفوا عن دواعى الهدى والرشاد كما قال سبحانه : «ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ »(٢)

(وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) : ليزيلوه ويبطلوه .

(أَكِنَّةً) : أغطية ــ جمع كنان .

(وَقْرًا) : ثقلا فى السمع ، يقال : وَقِرَت أُذُنه وَقْراً ، كفَهِم فهما إذا أصابهاثقل فى السمع أو صمم ووَقَرَها الله وقرا من باب وَعَدَهُ وعْدا .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣٢.
(٢) سورة التوبة ،من الآية : ١٢٦

التفسير

٥٦ - (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) :

ومابعث الرسل إلى الناس إلا لتبشيرهم بالمثوبة الحسنى إن آمنوا بالله وأطاعوه فيما شرعه لهم على ألسنتهم ، وإنذارهم بالعقاب الخالد إن كفروا به وعصوا رسله .

« لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »(١) . فلم يبعثهم الله ليقترح أقوامهم الآيات عليهم بعد ظهور المعجزات التى أيدهم الله بها .

(وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) :ولكن الكافرين يستقبلون دعوات الرسل بالإنكار والعناد والمكابرة والمجادلة بالباطل ، للقضاء على الحق بعد وضوحه ، دون استناد إلى دليل أو برهان ،كما قال سبحانه : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ »(٢). ومن أمثلة هذا الجدل الباطل قول مشركى قريش فى القرآن الكريم :

« لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ، إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ »(٣) . وقولهم فى الرسول صلى الله عليه وسلم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »(٤) . يعنون أن الرسول ليس من عظماء القريتين ، فلا يصح أن يكون رسولا أنزل عليه القرآن .

(وَاتَّخَذُوا آيَاتِى وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا) :أى قابلوا آيات الله البينات بالسخرية والاستهزاء فقد سخروا بحديث القرآن الكريم عن شجرة الزقوم (راجع شرح الآية ٦٠ من سورة الإسراء) كما سخروا بالقرآن ، فزعموا أنه سحر وشعر وأساطير الأولين ، كما سخروا بوعيده بالبعث والنشور فقالوا : « أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا »(٥) .

٥٧ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) :

ولا أحد أشد ظلما لنفسه وللحق مِمَّن أعرض عن آيات الله البينات وانصرف عن أدلتها الواضحات إلى الباطل ، فأمعن فى ارتكاب الذنوب والآثام ناسيا ماجناه على نفسه وعلى الناس من بغى وعدوان .

(إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا) :إن الحق واضح ، وأصحاب العقول السليمة يدركون الرشد من الغى ويميزون الحق من الضلال ، والله سبحانه حال بين

---

(١) سورة النساء ،الآية : ١٦٥ (٢) سورة الحج ،الآية: ٨ (٣) سورة الأنفال ،الآية: ٣١
(٤) سورة الزخرف الآية ٣١ (٥) سورة الإسراء ،الآية: ٤٩

هؤلاء المشركين وبين الإدراك السليم ، فجعل على عقولهم أغشية كراهة أن يفهموه فهماً يؤدِّى بهم إلى السلوك السَّوِىِّ ، لأنهم طبعوا على الخبث والضلال ، وجعل الله فى آذانهم صَمَماً عن الاستماع إلى الحقائق وإدراكها وذلك لانصرافهم عن الحق ، وتواصيهم بعدم سماعه ، حيث قالوا : « لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ[1] » ولهذا باعد الله بينهم وبين الإصغاء والاستفادة منه جزاء انصرافهم ، ولو علم فيهم خيرًا لهداهم وأسمعهم سماع قبول قال تعالى : « وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ[2] »

والمقصود من جعل الله الأكِنة على القلوب ، والوَقْر فى الآذان أن لا يأخذ بقواهم العلمية نحو الحق لإعراضهم عنه .

(وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا) : وإن تدعهم إلى طريق الهدى فلن يستجيبوا لك ، لأنهم الآن ليسوا أهلا للهداية ، ولأن الهداية ليست بيدك ، وإنما هى بيد الله « لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ » وذلك حينما يحين أوان الهداية ، وقد هداهم الله إلى الحق فى فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة .

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(الْغَفُورُ) : واسع المغفرة والصفح . (مَوْئِلًا) : ملجأً يلجئون إليه . (مَهْلِكِهِمْ) : هلاكهم .

التفسير

٥٨ – (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) : وربك – أيها الرسول – واسع المغفرة صاحب الرحمة ، حيث كتبها على نفسه فضلا وكرما ، فلا يعذب أحدا من عباده المحسنين الطائعين .

(١) سورة فصلت من الآية ٢٦ (٢) سورة الأنفال الآية ٢٣

« مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً »[١] . أما هؤلاء المشركون فهم الذين ظلموا أنفسهم بالإصرار على الكفر والعناد فاستحقوا سوء الجزاء ، ولكنه تعالى يتأنى بهم ، ولايتعجل معهم - كما قال :

(لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ) :أى أنه لسعة رحمته لو يؤاخذهم بظلمهم لعجّل عقابهم ، ولكنه أمهلهم لعلهم يرجعون إلى الصواب ، ويفيئون إلى الرشاد .

(بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً) : وهذا الإمهال موقوت بأجل معدود « وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ »[٢] .فإذا حان الأجل وهم مُصِرُّون على كفرهم وعنادهم أخذهم الله بعقابه الأليم حيث لايجدون ملجأً للنجاة والخلاص. « فَلَيْسَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ » .

٥٩ - (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً) :

المراد بالقرى هنا أهلها ، والمعنى : وأهل تلك القرى المهلكة المعروفة ، من قرى عاد وثمود وقوم لوط عصوا ربهم ، وكذبوا رسله فأمهلهم لعلهم يؤمنون ، فلمّا أصروا على الكُفر وأمعنوا فى الضّلال أخذهم الله بعذاب الهلاك والاستئصال فى الموعد الذى حدده لهم « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ »[٣] .

روى الشيخان والترمذى وابن ماجه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الله تعالى ليملى للظالم حتى إذَآ أخذه لم يُفْلِتْه » .

قصة موسى والعبد الصالح

قصَّ اللهُ سبحانه علينا فى الآيات التّالية قِصّة موسى والعبد الصالح وقد رأينا أن نقدم لها مايعين على إدراك أهدافها السامية :

(١) سورة النساء ١٤٧

(٢) سورة هود ١٠٤

(٣) سورة هود : الآية ١٠٢

(١) جمهور المفسرين على أن العبد الصالح هو الخضر ، وقيل اليَسَع وقيل إلْياس ، قال الآلوسى : والحق الذى تشهد له الأخبار الصحيحة هو الأول .

ولقب بالخضر ، استنادا إلى مارواه الترمذى بسند صحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : «إنما سُمّىَ الخضِر لأنه جلس على فروة بيضاء فاهْتزَّتْ تحته خضْراء» ومثل ذلك رواه البخارى بسنده .

(٢) قد يعجب بعض الناس من أن يحْتاج موسى وهو كليم الله ورسوله إلى مَنْ يتعلَّم منه العِلم ، وليس هذا موضع عجب فإنَّ الله « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِيمِ »[1] لحكم يعلمها .

روى الشيخان والترمذى عن سعيد بن جبير قال : « قلت لابن عباس إن نوفلا لبكالى يزعم أن موسى صاحب الخضرِ ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل فقال : كذب عدوُّ الله ، حدَّثنى أُبَىُّ بن كعب أنه سمع النبىَّ صلى الله عليه وسلم يقول : «إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسُئِل : أىُّ الناس أعلم ؟ قال : أنا . فعَتب الله عليه إذْ لم يَرُدَّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه إنَّ لى عبْداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : ياربِّ فكيف لى به ؟ قال تأْخذ معك حوتا فى مِكْتَل فحيثما فقدْت الحوت فهُو ثَمَّ ، فأَخذ حوتا فى مِكْتل ثم انطلق ومعه فتاه يوشع بن نون . . . . » وذكر الحديث ، والمكتل وعاءٌ مصنوع من الخوص يحفظ فيه المتاع .

(٣) كثير من العلماء يقولون إن الخضر – عليه السلام – حَىٌّ ، وقد أجمع الصوفية على حياته إلى الآن كما نقله النووى عنهم ، وقد استدلوا بأخبار غير مقطوع بها ، ومنها ما أخرجه الدارقطنى فى الأفراد بسنده عن ابن عباس أنه قال : « الخضر ابن آدم من صلبه ، ونُسِىءَ له فى أجله حتى يُكذِّبُ الدجال » ومثلهلا يقال من قِبل الرأى .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٥

وذهب جمع من العلماء إلى أنه ليس بحى اليوم ، سئل البخارى عنه وعن إلياس عليهما السلام – هل هما حيان – فقال : كيف يكون هذا وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : «لايبقى على رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد» وفى صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما من نفس منفوسة يأتى عليها مائة سنة وهى يومئذ حية » كما استدلوا بأدلة نقلية وعقلية أخرى ، فارجع إليها فى الموسوعات ، والإمساك عن الخوض فى الخلاف بين الرأيين أولى ، مع الجزم بقصته مع موسى عليه السلام – كما جاءت فى هذه السورة .

(٤) اختلف فى الخضر ، فقيل هو نبى وليس برسول ، وهو قول الجمهور [1] ، وقيل هو رسول ، وقيل هو ولى ، قال القشيرى : ويستدل القائلون بنبوته بقوله تعالى فى شأنه : «آتيناه رحمة من عندنا» والرحمة تطلق على الوحى والنبوة فى عدة مواضع من القرآن ، ولأن الله حكى عنه قوله لموسى : «وما فعلته عن أمرى» أى أن ما حدث منه كان بوحى من الله ، ولأن النبى لايتعلم إلا من نبى ولايصح أن يكون المتعلم فوق المعلم .. إلخ .

(٥) وفى القصة توجيهات رشيدة :

(أ) أن لله حكما عالية فيما يقضيه من أمور ، وهذه الحكم قد ندركها وقد تغيب عن عقولنا ، ولكننا ينبغى أن نؤمن بها كل الإيمان .

(ب) أن الهجرة فى طلب العلم مطلوبة ، روى مسلم بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم : «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا فى الجنة» .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ
أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا
فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ
ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ
أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ
إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾
قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾
فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ
مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ
مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾
وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(فَتَاهُ) : الفتى هو الشاب ، وأضيف إلى موسى لأنه كان يخدمه ويتعلم منه .

(مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ) : موضع التقائهما ولعل المقصود بهما التقاء خليج العقبة بخليج السويس أو التقاء أحد فروع النيل القديمة بالبحر الأبيض (حُقُبًا) : الحقب الدهر ، ومقداره ثمانون سنة ، كما قيل (حُوتَهُمَا) : الحوت : العظيم من السمك .

(سَرَبًا) : السرب فى اللغة النفق ، وسيأتى تفسير المراد منه فى الآية .

(غَدَاءَنَا) : طعامنا فى الغدوة أى الصباح وما يسمى الآن بالفطور .

(نَصَبًا) : تعبًا ومشقة وجهدًا .

(عَجَبًا) : غريبًا عن العادة مخالفا لها يدعو إلى عجب الناس منه .

(فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا) : فرجعا يقصان أثر سيرهما السابق .

(آتَيْنَاهُ رَحْمَةً) : أى نعمة كبرى فيها رحمة منا وسيأتى فى الشرح بيانها .

التفسير

٦٠ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) :

أبرزت الآيات السابقة لَجَاج الكفار وعنادهم وإصرارهم على الباطل ومُحَاولتَهمْ طَمْسَ الحقائق الواضحة التى ساقها الله لهدايتهم ، وفى هذه الآية والآيات التالية يضرب القرآن مَثَلاً ساميًا لنبى من أنبيائه ، أوحى الله إليه وكلمه تكليمًا ورزقه علمًا ومعرفة ، ومع هذا سعى جاهدًا ليتعلم ما لم يعلم ، وتحمَّل فى سبيل المعرفة ما تَحَمَّل من مشاق ، وهو موسى عليه السلام .

والمعنى : واذكر لهم يا محمد قصة موسى عليه السلام إذْ صَحِب فتاه طالبًا لقاء العبد الصالح (الخضر) عليه السلام ليتعلم منه بعض ما لم يكن يعلم . وفتاه هو يوشع بن نون تابعه وتلميذه وخليفته من بعده كما ورد فى صحيح البخارى ومعهما مِكْتَل[1] فيه حوت أَعَدَّاه للطعام وأخبر موسى فتاه أنه لايزال مُجِدًّا فى السير حتى يصل إلى مكان العبد الصالح فى مجمع البحرين ، ولعل المراد بمجمع البحرين التقاءُ خليج العقبة بخليج السويس أو أحد فروع النيل السبعة القديمة بالبحر الأبيض فى دلتا النيل ، وعلى أى حال فتحديد المكان لا يتعلق به كبير غرض .

وانطلق موسى مع فتاه وقد عقد العزم أن يواصل السير وإن طال الزمن حتى يبلغه .

٦١ - (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) :

أى فلما وصلا إلى موضعٍ يَجْمَعُ بين البحرين نسيا حوتهما فاضطرب فى المكتل وقفز إلى الماء يشق طريقه فيه كأنما صنع الحوت لنفسه فى الماء نفقًا ، فقد صح من حديث الشيخين وغيرهما . « أن الله أمسك عن الحوت جِرْيَةَ الماء ، فصار عليه مثل الطاق » قال الآلوسى : والمراد به : البناءُ المقوَّس كالقنطرة .

(١) وعاء مصنوع من الخوص يشبه الحقيبه يحمل التمر والطعام وغيرها فيه .

٦٢ ـ (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) :

فلما جاوزا المكان وأمعنا فى السير حتى الصّباح شَعَر موسى عليه السلام بالجوع والتعب فقال لغلامه آتنا طعام الغدوة (وهى الصباح) ليَشْبَعا من جوع ، ويستردّا عافيتهما وينعما بالراحة بعد التّعب .

٦٣ ـ (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) :

قال له الغلام : إنى نسيت الحوت عند الصخْرة وإن الحوت قفز إلى الماء .

(وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَبًا) : واتخذ فى الماء طريقًا عجيبًا كالنفق ، ونسبة الإنساء إلى الشيطان لأنه ربما شغله بوساوس عن الأهل والوطن ، جعلته يذهل عن هذه الحالة العجيبة بتقدير العزيز العليم ، وإلا فتلك الحالة لا تنسى .

٦٤ ـ (قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ) : قال إن فقدان الحوت إنما يكون عند التقاء البحرين وهو المكان الذى نريده حيث نلقى العبد الصالح .

(فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا) : ذكر البخارى فى باب التفسير : « رَجعا يقصان » . أىْ يَتَتَبَّعَان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة .

٦٥ ـ (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) :

أى فوجدا عند الصخرة التى نسى يوشع ما حدث من الحوت لديها ـ وجدا ـ عبدا صالحا من عباد الله آتاه رحمة كثيرة من عنده ، وعلّمه علما لايكتنه كنهه من لدنه سبحانه وتعالى .

. واختلف فى الرحمة التى آتاه الله إياها ، فقيل هى الوحى والنبوة ، وقيل الرزق الحلال ، وقيل العزلة عن الناس وعدم الاحتياج إليهم ، وأما العلم اللّدنىّ فهو علم الغيوب والأسرار الخفية ، كما سيأتى بعضه فى قصته .

٦٦ ـ (قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) :

تحكى هذه الآية أن موسى حين وجد العبد الصالح سأله الصحبة والتباعة بشرط أن يُعلمه مما علَّمه الله علما ذا رشد .

٦٧ - (قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا) : قال الخضر : إنك لو أردت الصبر لما استطعت ، لأن ما يجريه الله على يدىَّ من الأمور يَجْعَلك تسارع إلى الاعتراض عليه ، لخفاء حكمته عليك ، روى الإمام البخاري والترمذى فى حديث طويل بسند كل منهما يحكى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم قصة لقائهما مع العبد الصالح ، وقد جاء فيه أنهما ، (انتهيا إلى الصخرة) ، فإذا رجل مُسَجَّى - أى مغطى - بثوب ، فسلم عليه ، فقال الخضر : وأنَّى بأرضك السلام ؟ قال أنا موسى ، قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم ، أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا ، قال يا موسى إنك لن تستطيع معى صبرا ، يا موسى : إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علَّمك الله لا أعلمه ...) الحديث .

٦٨ - (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا) : أى وكيف تصبر على مصاحبتى وأنت ترى من الأمور المخالفة لشريعتك ، ما لم تحط بأسراره علمًا ، يقول الخضر ذلك لأنه كان يفعل أمورا خفية المراد منكرة الظواهر ، مما يجعل موسى عليه السلام لا يتمالك إلا أن ينكر وقوعها عند مشاهدتها .

(قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(صَابِرًا) : ضابطًا لنفسى حين أرى ما يقتضى الإنكار .

(فَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا) : فلا أخالف ما تأمرنى به .

(حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) : حتى أفسر لك دون سؤال منك .

التفسير

٦٩ - (قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)

وعد موسى عليه السلام الخضر بأنه سيجده صابرًا على ما يراه مما أخفى عليه سببه ، وقرن ذلك بمشيئة الله ، لأن أفعال العباد مرتبطة بمشيئته تعالى ، كما وعده أن يلتزم طاعته فلا يخالفه فى أمر من الأمور ، وهذا ما ينبغى للمتعلم مع معلمه .

٧٠ - (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)

بعد أن وعد موسى صاحبه الخضر بأنه سيصبر على ما يراه من الأمور المخفية الأسباب ، التى يجريها أمامه وأنه لا يعصى له أمرًا - لما حدث ذلك من موسى - أذن له الخضر بصحبته وأرشده إلى ما يقتضى دوامها بقوله : فإن اتبعتنى وصحبتنى فى رحلتى هذه فلا تسألنى عن شىء رأيته بعينك وأنكرته بقلبك ، واصبر حتى أحدث لك فى شأنه ذكرًا وبيانًا يفسر ما عمى عليك من سببه .

(فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣))

المفردات :

(لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) : أى لقد أحدثت منكرًا فظيعًا .

(وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) : لا تحملنى من اتباعى لك ما لا أطيق مما يشق علىّ حمله .

التفسير

٧١ - (فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا) :

جاء فى حديث البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنهما « انطلقا يمشيان على الساحل فَمَرَّتْ بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نوْل »(١) إلى أن قال : « فَلَمْ يُفْجَأْ مُوسَى إلَّا وَقَدْ قَلَعَ لَوحًا بِالْقَدُوم ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : مَا صَنَعْتَ ؟ قَوْم حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ ، عَمَدت إلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إمْرًا » ويحكى الله اعتراض موسى عليه ، بأُسلوب موجز مستنكرًا ما فعل ، إذ يقول :

(قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) :

وهنا نرى موسى عليه السلام ينسى ما عاهد عليه الخضر ويوجه إليه لومًا شديدًا ويقرر أن فعله هذا قد يفضى إلى إغراق السفينة بمن فيها ،وأنه قابل إحسان أصحابها بالإساءة .ويحكم عليه حكمًا قاسيًا -حسب ما بدا له- بأنه ارتكب ذنبًا عظيمًا قبل أن يستمع إلى سبب هذا الفعل.

٧٢ - (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) :

ذكَّره الخضر بالعهد الذى ارتبط به معه فقال له : لقد قُلت لك ما توقعتُ حدوثَهُ منك وهو أنك لن تستطيع الصبر على صُحبتى حينما ترى ما أفعله ،مما يخالف ظاهر شريعتك .

٧٣ - (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) :

اعتذر موسى عليه السلام للخضر بأنه نسى ما تعهد له به. والنسيان مَظِنَّة العفو ،وطلب إليه ألَّا يحمِّله فوق طاقته ، فإنه نبى والنبى لا يسكت عن أمر يراه خطيئة ؛ روى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كانت الأُولى من موسى نسيانا » وورد فى هذا الحديث : « وجاء عصفور فوقع على حَرْفِ السفينة فنقر من البحر نقْرَة(٢) فقال له الخضر : « ما عِلْمِى وعلْمُك فى علم الله إلا مثلُ ما نقصَ هذا العصفور من هذا البحر » وقبل الخضِرُ عُذْر موسى وسارا فى طريقهما .

(١) أى بغير أجر .

(٢) هذا دليل على أن البحر كان ماؤه عذبا .

(فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا
زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل
لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ
بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾)

المفردات :

(غُلَامًا) : الغلام الصبى الذى لم يبلغ . (زَكِيَّةً) : طاهرة ، وفى قراءة « زَاكِيَة » . أى نامية أو طاهرة . (نُكْرًا) : منكرًا لا يقره العقل .

التفسير

٧٤ - (فَانْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ) :

روى البخارى بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « . . . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذْ أبصر الخَضِرَ غُلَامًا يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله . . » .

(قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) : لم يُطِقْ مُوسَى صبرًا على ما رأى من قتله الغلام فقال فى استفهام إنكارى :أقتلت نفسًا طاهرة بريئة دون أن ترتكب تلك النفس جريمة تستحق عليها القتل؟ثم أصدر عليه حكمًا حاسمًا بأنه ارتكب أمرًا خطيرًا منكرًا .

٧٥ - (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا) :

نبّهه الخَضِر عليه السلام إلى خروجه عمّا عاهده عليه للمرة الثانية ، وأكد ذلك بزيادة الجار والمجرور (لك) أى إن هذا هو ما قلته لك لا لغيرك ، ولكنك لم تلتزم بما تعهدت لى به فى قولك : « سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا » .

روى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « وهذه أشد من الأولى . . » .

٧٦ـ (قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا) :

أدرك [illegible] فقال للخضر عليه السلام [illegible] إذا اعترضت عليك في أمر آخر فإن لك أن تفارقني ولا لوم عليك في ذلك ، بل لك العذر كل العذر في ألا تصاحبني ، وقبل الخضر عليه السلام اعتذاره ومضيا في طريقهما .

(فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾) .

المفردات :

(جدارًا) الجدار : الحائط . [illegible]

(يريد أن ينقض) [illegible]

(أنبئك) : أخبرك .

(تَأْوِيلُ) : تفسير .

التفسير

٧٧ـ (فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا) :

أي : فساروا في طريقهما حتى حلا بإحدى القرى ـ يذكر بعض المفسرين أنها إنطاكية ، وطلب من أهلها إعطاءهما طعامًا يأكلانه ، فرفض أهلها إطعامهما شحًّا وبخلًا

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ) : فرأيا فى القرية جدارًا يكاد يقع فهدمه الخضر ثم أعاد بناءه ، فعجب موسى عليه السلام من تصرف الخضر ، وما بذله من جهد فى هدم الجدار ثم إقامته ، لقوم بخلاء يضنون عليهم بالطعام [(١)] .

روى البخارى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا . . . » ؟ .

(قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) :

أى لو أردت لطلبت من هؤلاء القوم أجرًا جزاء عملك .

ونلاحظ هنا أن موسى عليه السلام لم يعترض على الخضر ولم يصدر عليه حكما بالخطإ كما فعل فى المرتين السابقتين ، فقد استفاد من الدرسين الماضيين واكتفى هنا بقوله : لو أردت أن تنال أجرًا على عملك لنلته ، وعلق الأمر هنا على مشيئة الخضر وإرادته ، وهنا أدرك الخضر عليه السلام أن موسى قد استفاد مما مر بهما من أحداث ، وأثمرت التجربة ثمرتها المرجوة ، فأنهى الخضر لقاءه مع موسى عليهما السلام مبيناً له حكمة ماصنع مما لم يستطع موسى الصبر عليه .

٧٨ – (قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) :

أى قال الخضر لموسى عليهما السلام ، بعد أن اعترض عليه لهدمه الجدار ثم بنائه لقوم بُخلاء : حان لى فراقك وفقا لتعهدك ، ولكننى قبل الفراق سأُنبئك بتفسير ماقمت به من أعمال استدعت اعتراضك عليها ، لتدرك بواعث وأهداف هذه التصرفات ولكنك تعجلت فى الحكم عليها دون أن تدرك أسبابها وتقف على بواعثها .

جاء فى حديث البخارى عن هذه القصة بعد قول الخضر لموسى عليه السلام : « هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ... » الآية . أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « وَدِدْنَا أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما » .

---

(١) والتعبير عن قرب سقوط الجدار بأنه يريد أن ينقض صورة بلاغية ، من باب الاستعارة المكنية التخييلية .

تنبيه وشكر للقراء الكرام

تم تفسير نصف القرآن عند الآية الثامنة والسبعين من سورة الكهف ، ويبدأ تفسير النصف الثانى بمشيئة الله من قوله تعالى حكاية عن الخضر : « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ . . . » الآية ٧٩ .

وقد جاء هذا التفسير – بتوفيق الله تعالى – بعيدًا عن التعقيد خالياً من الإسرائيليات والفنيّات الصعبة ، والأحاديث الموضوعة ، مع تحرى الدقة فى التعبير عن المعنى الأساسى للنصوص الكريمة بقدر الإمكان ، ولانبرىء نفوسنا من الخطإ أو التقصير – فالكمال لله وحده .

وحسبنا أننا بذلنا الوسع ، ومهّدنا السبيل إلى فهم كتاب الله تعالى على الوجه الأمثل .

وتتألف لجنة التنسيق حالياً من السادة الآتية أسماؤهم – حسب ترتيب الحروف الهجائية – أصحاب الفضيلة :

(١) الشيخ السيد مصطفى شريف . (٢) الشيخ طه الساكت .
(٣) الشيخ عبد المهيمن الفقى . (٤) السيد الأستاذ على عبد العظيم .
(٥) صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير .

ويقوم الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير بمراجعة أعمال اللجنة بعد الفراغ من تنسيق كل حزب وتحقيقها ، تحرياً للدقة والصواب، وإبراء لذمة اللجنة، وهو يباشر هذا العمل الدقيق منذ تفسير فاتحة الكتاب حتى الآن ، ولهذا ترى التفسير متقارب الأسلوب بقدر الطاقة .

ولقد أسعدنا قراؤنا الكرام فى العالم الإسلامى ؛ بإقبالهم المنقطع النظير على اقتنائه – فما إن يظهر منه حزب فى المكتبات، حتى تنفد عشرات الألوف من نسخه ، ولهذا نتقدم إليهم بالشكر الجزيل على هذا الإقبال ، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يمنحنا مزيدًا من التوفيق فى تفسير النصف الثانى من كتابه ، وأن يجزى القراء عنا خير الجزاء ، وأن يوفقنا جميعاً لطاعته ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

رئيس اللجنة

مصطفى محمد الحديدى الطير

(أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ
أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾
وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا
وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ
رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ
وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ
أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا
فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(المساكين) : جمع مسكين ، وهو الضعيف العاجز ، أى كانت لضعفاء لايقدرون على مدافعة الظَّلَمَةِ ، ويشمل المسكين بهذا المعنى من كان ضعفه راجعا إلى نفسه أو إلى بدنه . وهو مخالف للمراد منه فى باب الزكاة . وسيأتى بعض التفصيل لذلك فى التفسير .

(وَرَآءَهُم مَّلِكٌ) : وراء هنا بمعنى أمام . فهو من المواراة والتغطية ، وهى كما تكون فيما خلفك تكون أيضا فيما أمامك . ولا خلاف عند أهل اللغة فى استعماله فى المعنيين

(فَخَشِينَا) : الخشية الخوف الشديد . (يُرْهِقَهُمَا) يُغْشى والديه ويُغطِّيهمَا .

(طُغْيَاناً وَكُفْراً) : مجاوزة لحدود الله وكفراً به . (زَكَاةً) :طهارة من الذنوب وفساد الأخلاق.

(رُحْمًا) : رحمة .

قال : رؤبة بن العجاج :

يامُنزل الرُّحم على إدريسَا ومنزل اللعن على إبليسَا

(كَنزٌ لَّهُمَا) : مال مدفون لهما . (أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا) : أن يصلا إلى كمال قوتهما العقلية والجسدية ، وفى الصحاح : الأَشُدُّ القوة . وبلوغ الأشدّ يكون مابين ثمانى عشرة سنة إلى ثلاثين . وهو مفرد جاء على بناء الجمع ، مثل : (آنُك) ولانظير لهما ، وقيل هو جمع لا واحد له من لفظه . وقيل غير ذلك .

(تَسطع) : مضارع اسطاع بمعنى استطاع ، وهو أصله فخفف بحذف التاء .

التفسير

٧٩ - (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا) :

أفادت الآيات السابقة أن سيدنا موسى عليه السلام قد نَفِد صبره من رؤْية تلك الأَحداث التى حدثت من الخضر عليه السلام ولم يجد لها مبررا ظاهرا يقتضيها ، وأن الخضر اضْطُرَّ لإيذانه بمفارقته لنفاد صبره . وعدم تحمله مايراه حتى تنتهى رحلتهما إلى غاية أبعد مما وصلت إليه . لكى يخبره فى نهايتها عن كثير من أسرار الغد التى يخفيها الله تعالى عن عباده ، ويختص بإعلامها بعض أصفيائه .

وجاءت هذه الآية ومابعدها لبيان ما انطوى وراء الأَحداث التى أجراها الخضر عليه السلام ، والمراد من المساكين هنا الذين لايقدرون على دفع الظلم عن أنفسهم ، لضعفهم فى النفس أو فى البدن وإن كانوا أغنياء ، قيل كانت لعشرة ، خمسة منهم زَمْنَى ، وخمسة يعملون فى البحر .

وهذا المعنى للمساكين غير ماقاله الفقهاء بشأْنهم فى الصدقات والكفارات ، فإن منهم من فسر المسكين بأَنه هو الذى لا يقدر على مايقع موقعا من كفايته وكفاية من تلزمه نفقتهم ، كمن لايكسب أصلا أو يكسب دون النصف من كفايته . والفقير عند هؤلاء أحسن حالا من المسكين فهو الذى يقدر على مايقع موقعا من كفايته وكفاية من تلزمه نفقتهم . كمن يكسب سبعة ولا يكفيه أقل من عشرة . ومنهم من فسره بالعكس . فالمسكين عنده أَحْسَنُ حالا من الفقير ، وسواءٌ أكان الفقير بمعنى الضعيف أم بمعنى المحتاج . فهو مأْخوذ من السكون ، فكلاهما ساكنٌ ذِلَّةً أو ضعفا ، أو فقرا .

والمعنى : أما السفينة التى خَرَقْتُهَا قبل أن تصل إلى الميناء ، فقد كانت لضعفاء من الناس يعملون فى البحر أى يكسبون رزقهم بها عن طريقه ، ولايقدرون على مدافعة الظَّلَمَةِ عن أنفسهم لضعفهم ، فأردت بخرقها أن أُحدث فيها عيبا يمنع الظالم من مصادرتها وأَخْذِهَا ، لوجود هذا العيب فيها ، ولم أُرِدْ أَنْ أُغرق أهلها كما توقعت ياموسى[1]. وقد حكى الله عن الخضر – عليه السلام – السبب فى خرقه إياها بقوله :

(وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصباً) :

والوراءُ : اسم لما يتوارى عن العين ، سواءٌ كان خلفك أو أمامك ، فهو من أسماء الأضداد والمراد به هنا المعنى الثانى ، وبه قرأ ابن عباس : «وَكَانَ أَمَامَهُم مَّلِكٌ » .

والمعنى : وكان أمامهم أعوانُ ملكٍ ظالم يأْخذون له كل سفينة صالحة من أصحابها غصبا وقهرا ، وذلك إمَّا على سبيل المصادرة والاستيلاء التام ، وإما على سبيل التسخير والاستغلال دون أجر ، ثم يردونها لذويها ، واستعمال الوراء بمعنى الأَمام شائع فى اللغة ، ومنه قول الشاعر العربى : أليس ورائِى أن أدب على العصا . . فيأْمن أعدائى ويَسْأَمَنِى أهلى

ولم تتعرض الآية الكريمة لما حدث للسفينة بعد نجاتها من الملك الظالم بسبب خرقها ، أَعَادَ الخرقُ إلى الالتئام بقدرة الله تعالى كرامة للخضر؟ أم أنه رَتَقَ هذا الخرق بنفسه؟أم أن فى أصحابها من أصلحها؟أم أصلحها سواهم بأجر من الخضر لأنه هو الذى خرقها ؟ كل ذلك تركت الآية الحديث عنه لفطنة القارئ ، فإنه يعتقد أن ذلك المصلح لايمكن أن يترك ما أفسده دون إصلاح بأى طريق ، ولكنها أبرزت الحكمة فى خرقه إياها ، ليعلم موسى أن خرقها ليس لغرض الإغراق أو الإفساد ، بل لما أبداه من إنْجَائِهَا من الظَّلَمَةِ .

---

(١) وأسند الإرادة إلى نفسه بقوله : « فأردت أن أعيبها » لأن عيبه لها إفساد فى الظاهر ، فكان من الأدب أن لاينسبه إلى الله ، فلهذا لم يقل فأراد ربك ومثله ماسيأتى فى قتل الغلام « فأردنا أن يبدلهما » أى فأردت بقتلى إياه أن يبدلهما الخ ، وكلاهما فى الحقيقة بأمر الله وإرادته لقوله تعالى : « ومافعلته عن أمرى » .

٨٠ـ (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) :

أى وأما الغلام الذى قَتَلْتُهُ أنا واعْتَرَضْتَ ياموسى على قتله دون ذنب ظاهر لك فهو غلام شرير بطبيعته ، وكان أبواه مُؤْمِنَيْنِ صَالِحَيْنِ ،فتوقعتُ أن يغمرهما بمجاوزته الحدود الإلهية، وكفره بالله تعالى ، فلهذا قتلته .

وفسر بعض العلماء إرهاقه لهما بالطغيان والكفر ، بأن يحملهما حبه - لو بقى حيا - على متابعته ، وهذا التفسير مأثور عن ابن جبير .

ولكنّ الخوف من وقوع ذلك فى المستقبل لايبرر قتله للغلام ، فقد لايقع ، فلهذا فسر بعض شراح البخارى الخشية هنا بالعلم، أى فعلمنا من الله تعالى أنه لو بلغ لدعا أبويه إلى الكفر فيجيبانه ، ويدخلان معه فى دينه لفرط حبهما له ، أو علمنا أنه لو بلغ لأرهقهما طغيانا عليهما وكفرا بنعمتهما ، بسبب عقوقه وسوء صنيعه ، فيلحقهما من ذلك شر وبلاء .

ومن العلماء مَنْ قال : إن الغلام كان شابا بالغا وكان شريرا كافرا ، ولا يمنع بلوغه من إطلاق لفظ الغلام عليه ، فإنه يستعمل لغة فيمن ظهر شَارِبُهُ ، وفى الكهل ، وفى الشخص من حين يولد إلى أن يصير شابا - كما جاء فى القاموس - ويستدل أصحاب هذا الرأى بما جاء فى بعض الآثار من أنه كان يفسد ويقطع الطريق ، ويقسم لأبويه أنه مافعل ، فيقسمان بقسمه ويحميانه ممن يطلبه ، ولعل هذا الرأى يؤيده ظاهر الآية التالية :

٨١ - (فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا) :

أى فأردنا بقتله أن يرزقهما الله بدله خيرا منه ، طُهْرًا فى الدين والأخلاق ، وأقرب رحمة منه بهما ، أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنهما أبدلا جَارِيَةً وَلَدَتْ نَبِيًّا ، وقال الثعلبى : إنها أدركت يونس عليه السلام - فتزوجها نبى من الأنبياء ، فولدت نبيا هدى الله على يديه أمة من الأمم . والله أعلم .

٨٢ - (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) :

أى وأما الجدار الذى أقمتُه بدون أجر ، وكان وشيك الانقضاض ، فكان لغلامين مات أبوهما فأصبحا بعده يتيمين فى القرية التى طلبنا الطعام من أهلها ، فبخلوا به علينا ، وكان

تحت هذا الجدار كَنز لهما ، استحقاه عمن قبلهما ، كأَبيهما أَو جَدٍّ لهما أَو غير ذلك ، وكان أَبوهما صالحًا ، فرأيت من المروءة أَن أُقِيمَ الجدار على الكنز حذرًا من انهيار المائل وظهور المكنوز تحته ، فيستولى عليه من لا يستحقه من الناس ، ولم يمنعنى من البر باليتيمين بخل أَهل هذه القرية علينا ، فإِن للإِحسان باليتامى أَجرًا عظيمًا .

وكان هذا الكنز من ذهب وفضة ، كما أَخرجه البخارى فى تاريخه ، والترمذى والحاكم وصححه من حديث أَبى الدرداء، ولم تتعرض الآية الكريمة لبيان من هو الذى أَخفى الكنز تحت الجدار ، فإِن كان أَباهما أَوْ جَدَّهُمَا فهو حق لهما فى شرعنا وشرع من قبلنا بلا خلاف ، وإِن لم يعرف كَانِزُهُ فيحمل استحقاقهم له على أَنه كان حلالًا فى شرعهم ، واحتجَّ لهذا بما أَخرجه الطبرانى عن أَبى الدرداء . فى هذه الآية قال : « أُحِلَّتْ لهمُ الْكُنُوزُ وَحُرِّمَتْ عليْهِمُ الْغنَائِمُ . وَأُحِلَّتْ لَنَا الْغَنَائِمُ وَحُرِّمَتْ عَلَيْنَا الْكُنُوزُ » .

وقيل : إِنَّ الكنز لم يكن ذهبا ولا فضة بل كان صُحُفَ عِلْمٍ ، فقد أَخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس أَنه قال : ما كان ذهبا ولا فضة ، ولكن كان صحف علم . وروى ذلك عن ابن جبير أَيضا ، وقيل : إِنه لوح من ذهب ، فقد أَخرج ابن مردويه من حديث على - كرم الله وجهه - مرفوعا والبزار عن أَبى ذر كذلك ، والخرائطى عن ابن عباس موقوفا ، أَنه كان لوحًا من ذهب مكتوبا فيه « عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأَهلها كيف يطمئن إِليها ، لا إِله إِلَّا الله محمد رسول الله » والله أَعلم بصحة ذلك .

ثم بين الخضر عليه السلام أَنه كان يتلقى الأَمر فيما يفعله من الله تعالى فقال :

﴿ فَأَرَادَ[1] رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ :

---

(١) إسناد الإرادة هنا إلى الله لأنه إنعام محض ، فناسب إسناده إليه تعالى بخلاف ما مر فى السفينة والغلام فقد كان إفسادا فى الظاهر ، فلهذا أسنده الخضر إلى نفسه كما مر بيانه بالهامش ، وإن كان الكل بأمر الله .

أى فأراد مولاك ومربيك ياموسى أن يبلغ اليتيمان كمال قوتهما فى الرأى والبدن ، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ، فأمرنى بإقامته ، ولولا أننى أقمته لانقض وبرز الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظه والانتفاع به ، وليس الذى فعلته من الأمور التى شاهدتَها يا موسى ناشئًا عن اجتهادى ورأيى ، بل بوحى من ربك وربى ، ذلك الذى شرحته لك من أسرار تلك الأحداث هو مآل وعاقبة الأمور التى لم تستطع الصبر عليها ، حتى أبينها لك فى حينها .

(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾)

المفردات :

(وَيَسْأَلُونَكَ) : السائلون قريش بتلقين اليهود ، أو اليهود أنفسهم .

(عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ) : صفة ملك صالح عَمَّ ملكهُ معظم أنحاء الأرض ، وسيأتى بيان السبب فى وصفه بذى القرنين .

(مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ) : التمكين فيها بمعنى الإقدار عليها ، يقال : مَكَّنَهُ أى جعله قادرًا ، ومكن له أى جعل له قدرة . (سَبَبًا) : أى وسيلة وطريقة .

(فَأَتْبَعَ) : أى فاتَّبع فهما بمعنى واحد هنا . (فى عَيْنٍ حَمِئَةٍ) : أى فى عين ذات حمأة ، وهى الطين الأسود - وذلك فى رأى العين - وسيأتى شرح ذلك باستفاضة .

التفسير

٨٣ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا) :

ذكر الله قبل هذه القصة ما حدث بين موسى والخضر ، وعقبها بذكر قصة ذى القرنين ليكونا آية على نبوته صلى الله عليه وسلم ، فإن القصتين لا يعلمهما سوى أهل الكتاب ، فى حين أنه صلى الله عليه وسلم لاسبيل له إلى علمهما إلّا بقراءة كتبهم ، أو بتعلمها منهم ، ولا سبيل له إلى قراءتها ، لأنه أمى ، « وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » . كما أنه لاسبيل له إلى تعلمها منهم ، لأنهم لا يوجدون بمكة ، ولم يكن له اتصال بهم ، ولهذا كانوا يَسْأَلُونَه عن تلك الغيبيات ، إما بتحريض قريش على سؤاله ، وإما بسؤالهم إياه بأنفسهم ، وأكثر الآثار تدل على أن السؤال حصل منهم قبل نزول هذه الآيات ، والتعبير بالمضارع (وَيَسْأَلُونَكَ) استحضار للصورة الماضية لغرابة سؤالهم إياه على سبيل الامتحان ، مع ما يشاهدونه عليه من الصدق والأمانة ، وما أيده الله به من الآيات البينات .

وذو القرنين ملك صالح مكن الله له فى المشارق والمغارب ، كما سيتضح من تفاصيل قصته إن شاء الله .

وقد اختلف فى شخصه ، فقيل هو الإسكندر المقدونى - وهو رأى معظم المفسرين ، قال النيسابورى : أَصَحُّ الأقوال فيه أنه هو الإسكندر بن فيلقوس الرومى الذى ملك الدنيا بأسرها ، إذ لو كان غيره لا نتشر خبره ولم يخف مكانه .

وقال الفخر الرازى : لما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين ملك الدنيا أو ما يقرب منها وثبت فى التاريخ أن من هذا شأنه لم يكن سوى الإسكندر ، وجب القطع بأن ذا القرنين

هو الإسكندر ، ثم قال وفيه إشكال ، فإنه كان تلميذاً لأرسطاليس الفيلسوف ،وكان على مذهبه ، فتعظيم الله له يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق ، وهذا مما لا سبيل إليه ، وأجاب الرازى عن هذا الاعتراض بما خلاصته أنه ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا ، فلعله أخذ منه ما حسن ، وترك منه مالم يحسن .

ويقول الآلوسى فى تأييد هذا الفهم : إن الحكماء تشاوروا فى أن يسجدوا له إجلالا وتعظيماً ، فقال لهم : لا يجوز السجود لغير الله - كما نقله الشهر ستانى - ويلاحظ أن الإسكندر كان موجوداً قبل مبعث عيسى - عليه السلام- بثلثمائة سنة كما نقله الآلوسى عن بعض المؤرخين .

وهناك من قال : إنه رجل يمانى ملك الأرض كلها . فقد ذكر أبو الريحان المنجم فى كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) : أن ذا القرنين هو أبو كرب ابن عمير بن امرىء القيس ابن أفريقش[١] وهو الذى افتخر به تُبّع اليمانى فى قوله :

قد كان ذو القرنين جدى مسلماً[٢] ملكاً علا فى الأرض غير مقيد
بلغ المغارب والمشارق يبتغى أسباب ملك من حكيم مرشد
فرأى مآب[٣] الشمس عند غروبها فى عين ذى خُلُب[٤] وثأطة[٥] حَرْمَدِ

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن الملقبين بكلمة (ذى) كانوا من اليمن ، كذى المنار وذى نواس وذى يزن ، واختار هذا القول (كاتب حلبى) وذكر أنه كان فى عصر إبراهيم عليه السلام ، وأنه اجتمع معه بمكة وتعانقا .

وهناك من يرى أن ذا القرنين هو غورش الفارسى ، ويسميه اليهود (كورش) ويسميه اليونانيون (سائرس) وإطلاق ذى القرنين عليه عند أصحاب هذا الرأى ناشئ من رؤيا رآها النبى دانيال فى منامه ، خلاصتها أن كبشاً كان واقفاً على شاطىء

(١) أفريقش جد أبى كرب ، استولى على المغرب ، وسميت أفريقيا باسمه ، ذكره الشيخ الطنطاوى جوهرى فى تفسيره .

(٢) يريد من كونه مسلما أنه مؤمن بربه مستسلم له . (٣) مآب الشمس رجوعها .

(٤) أى عين ماء ذى طين أسود . (٥) الثأطة : الحمأة وهى الطين الأسود وكذا الحرمد.

النهر له قرنان ، وهو ينطح بهما شرقاً وغرباً وجنوباً ، ولا قِبَلَ لحيوان بالوقوف أمامه ، وذكر سفر دانيال المذكور أن المَلَكَ ظهر له وشرح رؤياه قائلا : إن الكبش ذا القرنين يمثل اتحاد مملكتي (ميديا - وفارى)[1] وأن يحكمها ملك قوى لاتقدر دولة على مواجهته ، وقد ظهر بعد هذه النبوءة بسنوات الملك (غورش) ملك الفرس المذكور ، فوحد (ميديا وفارى) وأنشأ منهما سلطنةً عظيمة ، وهاجم بابل واستولى عليها ، وجاء عنه فى سفر (أشعياء) ما خلاصته أن الله أخذ بيده اليمنى ليتم مرضاته وليجعل الأُمم فى حوزته ، وينزع القوة من سواعد الملوك ، ويفتح له الأَبواب تلو الأَبواب ، ويمنحه الخزائن المدفونة[2] . وتسميته ذا القرنين على أنه الإسكندر المقدونى أو أبو كرب اليمنى ، لأَنه بلغ ناصيتى مشرق الشمس ومغربها ، مأْخوذ من قَرْنِ الشمس بمعنى ناحيتها وقيل : كانت له ضفيرتان من شعر فنسب إليهما - ذكره الثعلبى وغيره - والضفائر قرون الرأس عند العرب ، والوجه الأَول فى علة التسمية أولى بالقبول ، فإن وَصْفَ ذى القرنين ذكر على أنه علامة مميزة لهذا الفاتح العظيم ، وكونه ذا ضفيرتين من الشعر لا يصلح أن يكون علامة مميزة ، لأَن إرسال الشعر وتضفيره من العادات القديمة للرجال والنساء جميعاً .

وبعد أن حكينا أظهر الأَقوال فى شخصيته نقول : إن شخصيته ليست من العقائد ، وإنما ذكرت قصته للوعظ والإرشاد فليكن هو الإسكندر المقدونى أو رجلا حميريًّا من اليمن ، أو ملكاً فارسياً فالقرآن لم يأْتنا ليعلمنا تاريخ اليونان أو تاريخ الحميريين أو الفارسيين فإن القرآن أعظم من ذلك كله ، ولكنهم لما سأَلوه صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، أجابهم بما يجمع بين إجمال المطلوب لهم ، والدلالة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم والعبرة ، حيث أخبرهم بما لا يعلمه سوى أهل الكتاب ، وبين أن الملك الصالح العالم يؤيده الله تعالى ويُمَكِّنُ له فى أرضه .

---

(١) انظر الإصحاح الثامن من سفر دانيال .

(٢) أشعيا إصحاح - ٤٥ - وقد جاء فى هذا الإصحاح أنه يعيد أسارى وسبايابنى إسرائيل إلى فلسطين ، وكان غورش (كورش) معرفا عند اليهود بذى القرنين ، تبعا لرؤيا النبى دانيال المذكورة ، ولأنه كان له فى عصره تمثال من الحجر بقدر القامة ، وعلى رأسه قرنان مصداقا لهذه الرؤيا ، وكانوا يعرفون هذا عن كتبهم وأجدادهم ، وقد عثر على هذا التمثال فى إيران فى القرن التاسع عشر ، فلعل اليهود حين سألوا الرسول عن ذى القرنين ، كانوا يقصدون (كورش) المذكور ، لأنه هو الذى جاء ذكره بهذا العنوان فى كتبهم .

والمعنى الإجمالى : ويسألك السائلون من قريش بتحريض اليهود ، أو اليهود أنفسهم يسألونك عن صاحب القرنين الذى جاب الأرض كلها ، قل أيها الرسول مجيبا لهم : سأقرأ عليكم من قصته نبأ مذكورًا ، أقرؤه على سبيل التلاوة من وحى الله تعالى الذى أوحاه إلىّ جلا وعلا .

٨٤ ، ٨٥ - ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ :

أجمل الله قصته فى الآية الكريمة الأولى ، تمهيدًا لتفصيلها فى الآيات المقبلة ، ومعنى الآية : إنما جعلنا له مُكنَةً وقدرة على التصرف فى الأرض ، وأعطيناه من أجل كل شىء أراده فيها سبَباً ووسيلة توصله إليها ، فلا يعوقه عن مراده عائق ،ومن هذه الأسباب سعة العلم وحسن التدبير ، والحكمة فى التصرف ، وتدريب الجنود ، واختيار القواد ، والعتاد الحربى ، فأراد التوجه إلى ناحية مغرب الشمس ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ : أتبع واتّبع بمعنى واحد أى اتبع طريقاً وأسلوباً من شأنه إنجاح غزوه للأقطار الغربية .

وقد أشارت الآية الكريمة « فَأَتْبَعَ سَبَبًا » إلى أن معالى الأمور لا تنال إلا باستعمال الأسباب الموصلة إليها ، وأن المجد لا يناله القاعدون الخاملون .

٨٦ - ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[1] :

أى اتبع الطريق والسبب الموصل إلى مقصده ، حتى إذا بلغ فى فتوحاته منتهى الأرض من جهة مغرب الشمس ، ووقف عند حافة المحيط ، وجد الشمس - كما أدركها ببصره - تغرب فى عين ذات حمأة ، والحمأة الطين الأسود .

وقرىء « فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ » وبها قرأ معاوية وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ولا منافاة بين القراءتين ، فإنه لما بلغ حافة اليابسة ، وقف ينظر إلى الشمس عند غروبها ، فرآها فى نظره كأنما تغرب فى عين متقدة نارية ، بسبب قرص الشمس الشديد الحمرة ، الذى يبدو كأنه وقدة من النار جعلت مكان اختفائها فى نظره ، كأنما هو عين حامية - وكما يتصورها الناظر تغرب فى عين حامية ،يتصورها تغرب فى عين ذات طين أسود ، فإنها لما غابت تحت الماء ، أصبح مكان اختفائها فيه مظلماً باهتاً بعد أن كان متقداً .

---

(١) صفة مأخوذة من حمئت البئر إذا كثرت حمأتها - أى طينها الأسود .

ولما كان كلا الأمرين ضرباً من الخيال ، ناشئاً عن خداع النظر ، فلهذا قال تعالى :

« وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ » أو « فِى عَيْنٍ حَامِيَةٍ » على القراءتين ، أى هذا الذى رآه أمر ناشئ فى وجدانه وخياله ، وليس من الحقائق الواقعة ، فما أجمل تعبير القرآن بقوله « وجدها » وما أحراه بالإجلال والاعتبار .

وكما يراها الناظر عند غروبها تغرب فى عين ماء حمئة أو حامية إذا كان على شاطئ المحيط فإنه يراها تشرق خارجة من اليابسة ، وتغرب داخلة فيها إذا كان واقفاً على متسع فسيح من أرضها ، والحقيقة أن الشمس لا تغرب فى الماء ولا فى اليابسة عند الغروب ، ولا تشرق منهما عند الشروق فالشمس أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة ، ولا تختفى عن مدارها ، والأرض تدور تحت أشعتها فتعمُّ الشمسُ نصفهَا بضوئها ، لأنها على شكل كرة ، فيكون النهار فى القسم الذى استضاء بنورها والليل فى القسم الآخر .

وكلما دارت الأرض اختفت أشعة الشمس عن بعضها ، فحل فيه الليل محل النهار ، وظهرت أشعتها فى بعض آخرَ تَكَشَّفَ للشمس ، فَحَلَّ فيه النهارُ مَحَل الليل .

والذى يحجب ضوء الشمس عن بعض الأرض هو البروز الكروى للأرض ، فهو الذى يمنع أشعة الشمس عما انخفض منها بسبب حركتها الدائرية ، ولو كانت مبسوطة وغير دائرة لما غابت الشمس عنها ، ولكان وقتها نهارًا دائماً ، وأما ماورد فى القرآن من أن الأرض مبسوطة فمحمول على ما هو فى رأى العين ، كما فى قوله تعالى فى سورة نوح :
« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا » .

(وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً) :

أى ووجد ذوالقرنين فى طرف الأرض من ناحية المغرب ، وجد قوما عند العين التى تخيلها وتخيل أن الشمس تغرب فيها ، وكان هؤلاء القوم مشركين ، كما هو شأن الناس عند غياب المرسلين عنهم ، قال الله له على سبيل التخيير : ياذَا الْقَرْنَيْنِ ، إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ هؤلاء القوم بالقتل إن أبوا الإيمان وأصروا على الشرك ، وإما أن تتخذ فيهم أمرًا ذا حسن ، بالمصابرة والمطاولة لعلهم يؤمنون ويَرْشُدُون ، وكان تخيير الله لذى القرنين على النحو السابق إما على لسان نبى كان موجودًا فى هذا الزمان ، وإما على سبيل الإلهام .

٨٧ـ (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا) :

أى قال هذا الرجل الحكيم بعد أن خيره الله فى شأن الكفار من أهل المغرب على النحو الذى بيناه فى شرح الآية السابقة ـ قال ـ : هؤلاء الناس سوف يكونون بعد دعوتهم إلى الحق قسمين : ظالمين ببقائهم على الكفر وإصرارهم عليه ، ومؤمنين تائبين من كفرهم ، فأما من ظلم نفسه ببقائه على الكفر والعصيان ، فسوف نعذبه بالقتل ، ثم يعيده الله بالبعث فيرده إلى حسابه وجزائه فيعذبه على كفره وعصيانه عذابا منكرا فظيعا .

ثم بين مآل المؤمنين التائبين كما حكاه الله عنه بقوله :

٨٨ـ (وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَآءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) :

أى وأما من آمن بالله وعمل صالحا موافقا لما شرعه الله على لسان نبى ذلك العصر ، فله المثوبة الحسنى فى الدارين ، جزاء له على إيمانه وصالح عمله ، وسنقول له مما نأمر به موافقا لشرع الله ـ سنقول له ـ قولا ذا يسر وسهولة فى مختلف التكاليف ، فإن الله لا يكلف نفسًا إلّا وسعها .

٨٩ـ (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) :

ثم اتَّبَعَ طريقًا مُوَصِّلا إلى المشرق ، ليرجع فيه بعد غزوه المغرب .

٩٠ـ (حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا) :

حتى إذا بلغ ذو القرنين الإقليم الذى تطلع الشمس عليه أولا فى ناحية المشرق على حافة المحيط ، وجدها تطلع على قوم بدائيين فطريين لم يرتقوا صناعيًّا ، حتى يصنعوا لأنفسهم ثيابًا تسترهم وتحميهم من أشعة الشمس ، أو مساكن تُؤوِيهم من حرارتها ، وقد يكون ذلك فى المنطقة التى يمكث فيها النهار أيامًا متتالية فى فصل ، ثم يمكث الليل أيامًا متتاليةً كذلك فى فصل آخر ، وأنه وصل إليها وقتما كان الزمن نهارًا دون ليل ، والشمس طالعة فوقهم دائمًا ، وليس لهم وقتئذ ليل يسترهم منها ، وأن ذلك هو معنى قوله سبحانه : « لَمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا » وقد أجمل الله كمال استعداد ذى القرنين لهذه الرحلة ، وَعَظَّم أمره وفَخَّمه بقوله :

٩١ - (كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) :

أى كان الأمر فى الواقع مثل هذا الذى حكيناه عن ذى القرنين فى اليسر والسهولة ، وقد أحطنا علمًا بما عنده من الوسائل التى حقق بها ما يريد من بلوغ أطراف الأرض مغربًا ومشرقًا .

٩٢ - (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) :

ثم اقتفى طريقًا ثالثًا يصل منه إلى حيث يوجد يأجوج ومأجوج وجيرانهم الذين يتعرضون لفسادهم .

(حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ
أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا
سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ
ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا
ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ
وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ * وَتَرَكْنَا
بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ
جَمْعًا ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(بَيْنَ السَّدَّيْنِ) : بين الجبلين ، والسد الجبل والحاجز ، والمراد هنا الأول كما تقدم . (من دُونِهِمَا) : أى قريبًا منهما ، والأصل فى استعمال لفظ. (دُونَ) أن يكون بمعنى تحت وبمعنى فوق ، وبمعنى أمام وبمعنى خلف ، أى أنه يستعمل فى الشىء ومقابله ، كما يستعمل بمعنى غير ، انظر القاموس . (لَا يَكَادُونَ) : لا يقربون. (يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) : اسمان لقبيلتين وقد منع صرفهما. (أى تنوينهما) للعلَمية والعجمة . (مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ) : ما هنا بمعنى الذى و (مَكَّنِّى) أصله مكننى بنونين ، فأُدغمت الأُولى فى الثانية أى ما جعلنى الله فيه مَكينًا وعليه قادرًا خيرٌ من خَرْجِكُم ، (رَدْمًا) : أى حاجزًا حصينًا وسدًّا منيعًا بعضه فوق بعض من قولهم سحاب مُرَدَّم. أى متكاثف بعضه فوق بعض . (زُبَرَ الْحَدِيدِ) : قطع الحديد ، جمع زبرة وهى القطعة . (الصَّدَفَيْنِ) : جانبى الجبلين ، ومفرده الصدف وهو الجبل ، ونقل فى الكشف أنه لا يقال للمنفرد صدف حتى يصادفه الآخر ، فهو من الأَسماء المتضايفة ، كالزوج وأمثاله. (قِطْرًا) : القطر هو النحاس المذاب وهو قول الأَكثرين ، وقيل الرصاص أو الحديد المذاب . (أن يَظْهَرُوهُ) : أن يعلوه ويرتقوا فوقه . (نَقْبًا) : النقب الثقب والخرق .

(دَكَّآءَ) : أى أرضًا مستوية. (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ) : أى جعلناهم يضطربون ويختلطون .

(وَنُفِخَ فِى الصُّورِ) : الصور آلَةٌ تشبه القرن ينفخ فيها ،وتسمى البوق أيضًا ، وسيأْتى فى التفسير بيان آراء العلماء فى ذلك بمشيئة الله .

التفسير

٩٣ - (حَتَّىٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) :

لما أتم ذو القرنين رحلته إلى المشرق ، وأخضع أهله لحكمه ، اتخذ طريقا ثالثا ليخضع لسلطانه قوما آخرين لم يدينوا له بعد ، حتى إذا وصل فى سيره إلى منطقة تقع بين جبلين معينين ، وجد قريباً منهما قوما لايقربون من أن يفهموا مايقال لهم منه أو من أتباعه لقلة فطنتهم ، فإنهم لو كانوا أذكياء لفهموا بعض ما يقال لهم بالقرائن .

ولعلهم كانوا يتفاهمون معهم بالإشارة ليعلموا ما يراد منهم أو ما يجابون به على أسئلتهم وسنتحدث عن مكان السدّين وعن يأجوج ومأجوج حديثا مستفيضا بعد الفراغ من شرح الآيات الكريمة التى أجملت الحديث عنهما .

٩٤ - (قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) :

أى قال القوم الذين هم دون السّدين ، يشكون حالهم لذى القرنين ، لما عَلموه من قوة سلطانه وعظيم همته ، بما سمعوه من أخبار رحلته - قالوا لذى القرنين - يا صاحب القرنين الذى دان له المشرق والمغرب ، إن قبيلتى يأجوج ومأجوج المقيمتين خلف السّدين ، مفسدون فى الأرض التى نحن فيها ، كما أنهم مفسدون فى غيرها ، ونحن لا نقدر على دفعهم عن بلادنا ، فهل نجعل لك عطاء ومالا على أن تجعل بيننا وبين هؤلاء المفسدين حاجزا بين هذين الجبلين يمنعهم من العودة إلى أرضنا والْعَيْثِ فيها فسادا ، وقرأ حمزة والكسائى وغيرهما «فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرَاجًا » بألف بعد الراء وكلاهما بمعنى واحد كالنول والنوال ، وقال ابن الأعرابى : الخرج على الرؤوس والخراج على الأرض ، ولهذا يقال : أدِّ خَرْجَ رَأْسِكَ وَأدِّ خَرَاجَ أَرْضِكَ ، وقيل : الْخَرْجُ ما تبرعت به والخراج مالزمك .

٩٥ - (قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ رَدْماً) :

قال ذو القرنين ردا على ما عرضوه من العطاء فى مقابل إقامته السد بينهم وبين يأجوج - قال لهم - ما مكنى فيه ربى وجعلنى فيه مكينا من الملك والمال والعلم وسائر الأسباب خير مِمَّا تريدون بذله لى ، فلا حاجة بى إلى أموالكم ، فأعينونى على بناء السد الذى تريدونه بما أقوى به على تحقيقه . من العمال وآلات البناء والوقود وقطع الحديد والنحاس ، وغير ذلك مما يحتاج إليه فى إقامته حتى يساوى الجبلين ،ويكون شديد القوة بحيث لا يقدرون على صعوده ولا على اختراقه ، فإن فعلتم أجعل بينكم وبينهم ردمًا أى حاجزا حصينا وحجابا متينا .

واعلم أن الردم فى اللغة أقوى من مطلق السد ، مأخوذ من قولهم سحاب مُرَدَّمٌ ، أى متكاثف بعضه فوق بعض ، أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال عن الردم : (هو كأشدّ الحجاب) وعلى هذا يكون قد وعدهم بتحقيق مرادهم فوق ما يتخيلون وهذا هو ما يليق بملك عظيم مثله ، ثم فصل لهم بعض مطلوبه من القوة التى يعينونه بها فقال :

٩٦ - (آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا) :

أى أعطونى قطع الحديد ، فأتوه بها ، فجعل يضع بعضها على بعض بطريقة تقتضى التماسك والارتفاع بالبناء ، حتى إذا ساوى ذو القرنين ما بين جانبى الجبلين بما بناه من السد قال لعماله : انفخوا بالكيران فى الوقود الموضوع بين قطع الحديد بعد إشعال النار فيه ، ليصبح الحديد مثل النار ، فيلتصق بعضه ببعض ، ففعل العمال ما أمرهم به .

(حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) :

هذه العبارة مترتبة على كلام مقدر مفهوم من المقام ، فكأنه قيل : ففعل العمال ماأمرهم به ذو القرنين من النفخ فى الوقود المشتعل بين قطع الحديد ،حتى إذا جعل السد يشبه النار فى شكله وفى حرارته قال لعماله الذين يقومون بإذابة القطر وهوالنحاس أوالرصاص أو الحديد- قال لهم - أحضروا القطر الذى صهرتموه وأذبتموه لأفرغه على السد ، فأحضروه له فأفرغه عليه فسدّت به الثغرات التى كانت بين قطع الحديد بعد أن تم احتراق الوقود الذى بينهما ، والتصق بعضها ببعض أشد التصاق .

٩٧ - (فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) :

أى فجاء يأجوج ومأجوج وقصدوا أن يعلوه أو ينقبوه ،فما استطاعوا أن يعلوا ظهره ويرتقوا فوقه لشدة ارتفاعه وملاسته ، وما استطاعوا له خرقا لصلابته وغلظه ،قيل : كان ارتفاعه مائتى متر ، وكان غلظه خمسين ذراعا ، والله أعلم بصحة ذلك .

وفى هذه الآية تساؤلات نذكرها ونجيب عليها فيما يلى ، ونسأل الله التوفيق :

س ١ : لماذا قال ذو القرنين لأهل ما بين السدّين : « فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ » مع أنه امتنع عن أخذ المال منهم ، وقال : « مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ » ؟ .

والجواب : أن امتناعه عن أخذ المال لا يمنع من طلب عمال البناء والأدوات وقطع الحديد ليتقوى بذلك على تحقيق مرادهم على أن يدفع الأجر للعمال وثمن الحديد من ماله ،على أن السد لما كان لمصلحتهم ، فإن تبرعهم بالقوى العاملة ، لا يعتبر عطاء أو أجرًا على بنائه كما أن زبر الحديد قد تكون من منجم قريب من السد ، فإحضارهم إياها ، لا ينافى رفضه أجراً منهم . .

س ٢ : كيف يطلب من عماله أن ينفخوا على السور بعد أن بناه بقطع الحديد ، مع أن هذا النفخ لايصهر الحديد دون أن يكون بين قطعه وقود مشتعل . ؟ . .

والجواب : أن هذا النوع هو من الاختصار القرآنى المتروك فهمه لفطنة القارئ ، وهو من الصور البلاغية للقرآن الكريم ، ولا شك أنه أمرهم بوضع الوقود وإشعاله قبل أمرهم بالنفخ فيه ، وأن الأمر بالنفخ قرينةٌ على ذلك .

س ٣ : لماذا أسند ذو القرنين العمل فى السد لنفسه بقوله : « أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » كما حكى الله عنه أنه ساوى بين الصدفين وجعله نارا ، مع أن كل ذلك تم بمباشرة مهندسيه وعماله . . ؟

والجواب : أنه لما كان ذلك يتم بأمره وإرشاده أسنده إلى نفسه على سبيل المجاز .

س ٤ : كيف يستطيع العمال أن ينفخوا فى السور قريباً منه دون أن يحترقوا بناره ، وكيف يفرغون عليه النحاس المذاب مع حرارته الشديدة وناره المتقدة ، وارتفاعه العظيم وثخانته البالغة خمسين ذراعا على ما قيل ؟

والجواب :أنه لابد أن يكون ذو القرنين قد وصل إلى حل لهذه المشكلات ، بحيث يمكنه تحقيق بنائه على النحو الذى تحدث به القرآن العظيم عنه ، دون إضرار بأحد العاملين فيه ، وكما أن العلم فى عصرنا حل مشكلات كثيرة ، فالعلم والحضارة والحكمة عند هؤلاء القدماء بلغت الذروة ، فلابد أنهم استعملوا آلات وطرقا علمية لم يصل بعد أحد إلى معرفتها ولاتكاد العقول تصدقها ، مالم تعرف ما كان عليه هؤلاء العظماء ، من العلم والحكمة والإبداع ، وما معجزة بناء الأهرام عنا ببعيدة عن العيون والأبصار ، وكم لله فى خلقه من آيات وعظات .

٩٨ - (قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا) :

بعد أن فرغ ذو القرنين من بناء السد وإحكامه بحيث يمنع يأجوج ومأجوج من الخروج من ورائه ليفسدوا فى الأرض ، قال مشيرا إلى السد : هذا أثر رحمة عظيمة من ربى بعباده ، حيث أقدرنى على بنائه وإحكامه وحمى به الناس من غزوات أولئك المفسدين المخربين ، وما أنا إلا منفذ لمشيئة ربى ورحمته بعباده ، ولو لا ذلك لما استطعت بناءه ، فإذا جاء موعد ربى بخروج يأجوج ومأجوج من محبسهم جعل هذا السد أرضا دكاء أى مستوية ، وكان وعد ربى بخروجهم حقا ثابتا لا خلف فيه ، وكذا كل مواعيده جل وعلا ، وقد يقول قائل : من أين علم ذو القرنين أن هذا السّد سَيُدَكُّ وينهار ، وأن الله وعد بذلك ، وأنهم بعد دكه سيخرجون مع أنه ليس بنبى ؟

والجواب : أنه ربما علم ذلك من نبى كان فى وقته ، أو يكون ذلك عن اجتهاد ، أو قراءة فى كتاب نبى سبقه ، وفى ذلك يقول الآلوسى : وفى كتاب حزقيال عليه السلام الإخبار بمجيئهم فى آخر الزمان ، من آخر الجربياء فى أمم كثيرة لا يحصيهم إلّا الله تعالى ، وإفسادهم فى الأرض ، وقصدهم بيت المقدس ، وهلاكهم عن آخرهم فى بريّته بأنواع من العذاب ، قال الآلوسى : وحزقيال عليه السلام قبل الإسكندر ، فإذا كان هو ذا القرنين ، فيمكن أن يكون وقف عليه ، فأفاده علمًا بما ذكر . والله تعالى أعلم : انتهى كلام الآلوسى .

وبعد أن انتهى الحديث عن فتوحات ذى القرنين وإصلاحاته آن الأوان لذكر نبذة عن يأجوج ومأجوج ، وعن مكانهم ومكان السد ، وهل هو باق حتى الآن ، أم أن الله دكه دكًّا ، وخرجت يأجوج ومأجوج من ورائه ليفسدوا فى الأرض ، وإليك البيان فيما يلى :

ياجوج وماجوج

هما قبيلتان من البشر ، وقد أحيطت قصتهم ببعض الخرافات ، لا نرى موضعًا لذكرها فى تفسيرنا هذا ، ويقول الناسبون : إنهم من ذرية يافث بن نوح عليه السلام ولعل منشأ قولهم هذا ما جاء فى صدر الإصحاح العاشر من سفر التكوين من أن نوحًا عليه السلام ولد له ثلاثة أولاد ، سام وحام ويافث ، وأنه ولد ليافث جوقر ومأجوج ومادای . . . الخ .

وفى هذا المعنى ورد حديث مرفوع جاء فيه (ولد لنوح سام وحام ويافث ،فولد لسام العرب وفارس والروم وولد لحام القبط والبربر والسودان ، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة) وضعفه علماء الحديث ، والله أعلم ، وهما اسمان أعجميان ، أوعربيان مأخوذان من أجّ الظليم إذا أسرع ، أو من أجيج النار ، وهو ضوءها وشررها ، وهذا المأخذ يشير إلى شرهم وفسادهم ، وأنهم مثل النار ولا جيرة لهم ، كما أن المأخذ الأول يشير إلى سرعتهم فى شن الغارات على جيرانهم ، والعودة بغنائمهم إلى حيث يعيشون وراء الجبلين اللذين أقيم السد بينهما ، وهذان الجبلان كما يقول بعض الباحثين : (بين سمرقند والهند) وعلى هذا يكون المراد من يأجوج ومأجوج المغول والتتار .

وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غرباً إلى ما يلى بلاد التركستان ، وحددت فى هضبات آسيا الوسطى شمال الصين ، ما بين الدرجة السابعة والعشرين والدرجة الخمسين من خطوط العرض الشمالية ، وبذلك تبلغ بلادهم فى العرض ثلاثًا وعشرين درجة .(١)

وهذه الأمم عرفت فى التاريخ بإغارتها على الأمم المجاورة من آن لآخر ، كما عرف عنهم تجاوز إفسادهم إلى أطراف الأرض ، فقد انحدروا من مرتفعات آسيا الوسطى إلى أوروبا وخربوها كما خربوا آسيا الغربية التى بعث فيها الأنبياء ، وكانوا يحذرون منهم أقوامهم ، وسنتحدث عن جرائمهم فى عهد الإسلام بمشيئة الله .

اسم السد ومكانه

واسم السدّ الذى بناه ذو القرنين بين الجبلين المذكورين (سد باب الحديد) وراء جيحون فى عمالة بلخ ، بقرب مدينة ترمذ .

وقد دك هذا السد كما وعد الله تعالى ، وإليه يشير قوله تعالى : « فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا » .

---

(١) راجع ج ٩ من تفسير الجواهر ص ١٩٩ وقد نقله مؤلفه الشيخ طنطاوى جوهرى عن فاكهة الخلفاء ،وابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق ، ورسائل إخوان الصفا .

وقد اجتاز هذا السد تيمورلنك بجيشه ، ومر به (شاه روح) وكان فى خدمته الألمانى (سيلدبرجر) الذى جاء ذكر السد فى كتابه ، وذلك فى أوائل القرن الخامس عشر ، كما جاء ذكر هذا السد فى رحلة الأسبانى (كلافيجو) سنة ١٤٠٣ م ، وكان رسولا من ملك قشتالة[1] .

آراء اخرى فى مواطنهم

ويرى بعض المؤرخين أنهم يسكنون قريبا من خط عرض (٩٠) تسعين من جهة الشمال ، وأنه هو المراد بآخر الجربياء فى كتاب النبى حزقيال ، وأن جبليهم هما جبلا (أرمينية وأذربيجان) وأن سَدَّ ذى القرنين هو سد (باب الأبواب) المشهور ، وهذا يستلزم أن يكون يأجوج ومأجوج من الخزر والترك ، وأن الذى بنى السد هو ملك الفرس غورش الذى تقدم ذكره ، لأنه هو الذى بنى سد (باب الأبواب) — وهذا يخالف ما عليه أكثر المورخين من أن الذى بنى سد يأجوج ومأجوج هو الإسكندر المقدونى ، وقد بناه فى آسيا الوسطى شمال الصين ، واسمه « باب الحديد » .

أما سد (باب الأبواب) فقد بناه ملك الفرس بناحية أرمينية ، لأغراض تتعلق بأمن وسلامة أهل هذه المنطقة ممن كانوا يغيرون عليها من الهنغوليين ، فهم الذين حملوا شعب الخزر على الهجرة إلى شرق أوروبا ، بسبب كثرة غاراتهم عليهم ، وهناك اندمجوا فيهم ، والهنغوليون غير يأجوج ومأجوج ، الذين كانوا يسكنون بآسيا الوسطى شمال الصين وعلى أى حال فالسدّ الذى تحدث عنه القرآن وبناه ذوالقرنين حقيقة واقعة سواء كان (سد باب الحديد) شمال الصين أم كان (سد باب الأبواب) بناحية أرمينية ، وكلاهما مصدق لما جاء به القرآن الكريم ، سواء بناه الإسكندر شمال الصين ، أم بناه الملك الفارسى بناحية أرمينية ، وإطلاق صفة ذى القرنين على هذا أو ذاك ، تقدم بيانه فى تفسير قوله تعالى :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا »

---

(١) راجع ج ٩ ص ١٩٨ من تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى .

جرائمهم فى عهد الاسلام

قلنا إن سد يأجوج ومأجوج تخرب مصداقا لوعده تعالى : « فإذا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ » الآية ، وقد خرجوا من محبسهم فى غزوات تخريبية ، ومنها ما حدث فى أوائل القرن السابع الهجرى بقيادة ملكهم (جنكيزخان) حيث أغاروا على بلاد المسلمين فأطاحوا بمملكة (قطب الدين السلجوقى) ملك التركستان والفرس ، وأخضعوا بلاد الهند ، وهلك الطاغية (جنكيزخان) بعد رجوعه من الهند ، وأغار ابن أخيه (هولاكو) بجنوده على مقر الخلافة ببغداد فى عهد الخليفة (المستعصم بالله) وذبحوا الخليفة ، وعلقوا جثته بذيل حصان وأباحوا المدينة تسعة أيام سالت فيها الدماء أنهارا ، وطرحوا كتب العلم فى نهر دجلة ، ثم أذن الله بالنصر عليهم فى عهد الملك (سيف الدين قطز) بعد أن وصلوا فى غزواتهم المدمرة إلى الشام ، حيث جرد لهم جيشا عظيما من مصر والشام ، وحاربهم فى معركة فاصلة بعين جالوت ، وهزمهم شر هزيمة ، وأجلاهم ولم تقم لهم بعدها قائمة .

وفى شأنهم هذا روى البخارى بسنده عن زينب بنت جحش رضى الله عنها (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً فزعاً يقول : لا إله إلا الله . ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بإصْبَعَيْهِ الإبهام والتى تليها قالت زينب بنت جحش : أنهلك وفينا الصالحون ؟ فقال نعم إذا كثر الخبث) .

وتعبيره صلى الله عليه وسلم عن الفتحة بالسد وتصويره إياها بتحليقه بإصْبَعَيْه الإبهام والتى تليها ، كناية عن بداية صغيرة لشرهم ، ثم اتسع هذا الشر فى أوائل القرن السابع الهجرى كما ذكرنا - والله تعالى أعلم . .

التفسير

٩٩ - (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً) :

بعد أن حكى القرآن الكريم عن ذى القرنين أن هذا السد رحمة من ربه ، ذكر فى هذه الآية ما فعله الله تعالى بيأجوج ومأجوج بعد إقامة السد ؛ وظاهر النظم الكريم أن الضمير فى قوله تعالى : « بعضهم » عائد إلى يأجوج ومأجوج ، وعليه اقتصر الفخر الرازى ، واختاره صاحب البحر . والتَّرْكُ هنا بمعنى الجَعْل ، وهو من الأضداد .

والمعنى على هذا : وبعد تمام السد جعلنا يأجوج ومأجوج يموج بعضهم فى بعض ، أى يضطربون اضطراب موج البحر لما منعوا من الخروج والفساد فى الأرض بسبب السد ، ولا يزالون مائجين مضطربين ، حتى ينجز الله وعده الحق ، فيندك السد ويسوى بالأرض ، وحينئذ يخرجون مزدحمين فى البلاد ويهلكون الحرث والنسل .

وقيل : إن الضمير عائد إلى الخلائق من الإنس والجن . وعلى هذا الرأى يكون معنى الآية ما يلى :

وجعلنا بعض الخلائق يضطربون اضطراب أمواج البحر ، يختلط إنسهم بجنهم من شدة الفزع والهول عند قيام الساعة ، روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما – قال الآلوسى : ولعل ذلك لعظائم تقع قبل النفخة الأولى .

(وَنُفِخَ فِى الصُّورِ) : الصور هو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر الله تعالى ، كما ثبت فى السنة وهو بوق عظيم جدا ، جاء فى الآثار من وصفه ما يدهش العقول ، ولكنا نؤمن به ، ونكل حقيقته إلى من أحاط بكل شىء علماً ، وقد صح عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَيْفَ أَنْعَمُ وَقَدْ الْتَقَمَ صَاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبِينَهُ وأَصْغَى سَمْعَهُ يَنْتَظِرُ أَنْ يُؤْمَرَ فَيَنْفُخ »[1] ، وهو ينفخ فيه نفختين : الأولى نفخة الصعق والأخرى نفخة البعث والقيام من القبور ، وهما المذكورتان فى قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ »[2] .

والمراد هنا النفخة الأخرى بدليل ما بعدها ، والضمير فى قوله تعالى : « فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً » للخلائق كلها ومنهم يأجوج ومأجوج – أى عقب النفخة الأخرى فى الصور ، والقيام من القبور ، نجمع الخلائق كلها جمعاً عظيماً هائلا : أولهم وآخرهم ، إنسهم وجنهم ، مؤمنهم وكافرهم بعدما تفرقت أوصالهم ، وتمزقت أجسادهم – نجمعهم فى صعيد

---

(١) وذهب أبو عبيدة إلى أن الصور جمع صورة ، وأيده بقراءة الحسن (الصور) بفتح الواو ، وعلى هذا يكون النفخ فى الصور كناية عن إحياء الخلائق ، لجمعهم وحسابهم وجزائهم .

(٢) الزمر – الآية : ٦٨

واحد للحساب والجزاء ، كما قال الله تعالى : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ »[١] ، وقال سبحانه : « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا »[٢] .

(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾)

المفردات :

(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ) : أظهرناها . (أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ) : أعينهم عليها غشاء يمنعها من البصر (عَن ذِكْرِي) : عن الآيات التى تذكرهم بى .

التفسير

١٠٠ - (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا) :

هذا إخبار منه تبارك وتعالى ، عما يفعله بالكفار يوم يجمع الخلائق للحساب والجزاء .

والمعنى : وأبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين إظهارًا جلياً حيث يرونها ، ويسمعون لها تغيُّظًا وزفيرًا ، ويبصرون ما أعد لهم فيها من العذاب والنكال قبل دخولهم ، ليكون ذلك أبلغ فى تعجيل الهم والحزن لهم ، وليعلموا أنهم مواقعوها لايجدون عنها مصرفاً .

١٠١ - (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي . . .) الآية .

وهذا بيان منه سبحانه لبعض أوصاف الكافرين الذين استحقوا بسببها هذا العذاب والنكال ، أى هؤلاء الكافرون بى كانت أعينهم - وهم فى الدنيا - فى غشاوة محيطة بها ، فتغافلوا وتعاموا عن النظر فى آياتى المُنْبَثَّةِ فى الأنفس والآفاق ، المؤدية إلى توحيدى وتمجيدى وذكرى وطاعتى ، ويجوز أن يراد ذكره تعالى الذى أنزله على رسله ودعا إليه عباده .. وقوله

---

(١) الواقعة ، الآيتين : ٤٩ ، ٥٠ (٢) الكهف ، من الآية : ٤٧

تعالى : « وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً » . نفى لسمعهم آياته على أتم وجه وأبلغه ، والمراد أنهم مع تغافلهم وتعاميهم عن التدبر فى آياته تعالى ، كفاقدى السمع أصالة ، فهو تصوير لإعراضهم عن سماع ما يرشدهم إلى ما ينفعهم . بعد تعاميهم عن آياته المؤدية إلى ذكره وما ينبغى لجلال وجهه - والتعبير عن إعراضهم عن الذكر بأنهم كانوا لا يستطيعون سمعاً ، يؤذن بأن ذلك كان دأبهم الذى اعتادوه واستمروا عليه وقد أفادت الآية أنهم سدوا على أنفسهم منافذ العلم من السمع والبصر .

(أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾)

المفردات :

(أَفَحَسِبَ) : الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ ، والحسبان بمعنى الظن . والفاء عاطفة على مقدر مناسب سيأتى فى التفسير . (أَوْلِيَآءَ) : أى معبودين أو أنصارًا .

(أَعْتَدْنَا) : أى أعددنا وهيأنا . (نُزُلاً) : أى شيئاً يقدم لهم ، كالذى يقدم للنزيل أو الضيف . وقيل النزل : موضع النزول ، ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمثوى .

(ضَلَّ سَعْيُهُمْ) : أى ضاع عملهم وبطل عند الله عز وجل .

التفسير

١٠٢ - (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ....) الآية .

لما بين الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة ضلال الكافرين وتغافلهم عن التدبر فى آياته الهادية إلى ذكره وطاعته - أنكر عليهم فى هذه الآية اتخاذهم بعض عباده آلهة يعبدونهم من دونه ، أو أنصارًا ينصرونهم ويخلصونهم من عذابه .

والمعنى : أجهل هؤلاء الذين كفروا بى فظنوا أن اتخاذهم بعض عبادى آلهة أو أنصارًا ينجيهم من عذابى ! كلا ، إنهم بظنهم هذا لفى ضلال مبين ، ولو كان أولياؤهم من الملائكة أو العباد المقربين ، ثم أكد سبحانه هذا الإنكار على الكافرين به فقال :

(إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً) : أى إنا هيأنا لهؤلاء جهنم جزاء على عبادتهم لغيرنا واتخاذهم أولياء . وفى هذا ما فيه من التهكم بهم والتخطئة فى حسبانهم ذلك ، مع الإيماء إلى أن لهم من وراء جهنم ألواناً أخرى من العذاب[1] ، وليست جهنم إلا مقدمة له . وأما إذا كان النُّزل بمعنى المنزل أو المثوى ، فالمراد بيان انعكاس مقصودهم من النجاة إلى الهلاك .

١٠٣ - (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً) :

قيل إن المراد بهؤلاء الأخسرين : أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، ولكن ظاهر الآية الكريمة أنها عامة فى كل من عبد الله على غير شريعته التى شرعها لعباده ، يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول ، ولكنه مخطىء وعمله مردود عليه .

أى قل أيها الرسول للمشركين خاصة وللكافرين عامة : هل أخبركم بأشد الناس خسرانا لأعمالهم وحرماناً من ثوابها ؟ ! ثم فسرهم بقوله :

١٠٤ - (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) :

أى أن الأخسرين أعمالا من سائر الملل والنحل هم الذين أتعبوا أنفسهم فى أعمال يبغون بها ثواباً وفضلا ، فنالوا بها هلاكاً وخسرا ، كالذى اشترى سلعة يرجو بها ربحاً عظيماً ، فخاب

---

(١) فإن لفظ « النزل » يعبر به عما يقدم للضيف أول ماينزل من غير كلفة ، ويكون عادة مقدمة لما يقدم له بعد بعناية ، وقد عبر به هنا عما يقدم للكافرين أول نزولهم للعقاب وهو جهنم ، فما ظنك بما يكون بعدها ؟

رجاؤه وخسر بها خسراناً مبيناً . وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كفرُوٓا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٓ إِذا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً »[1] وقوله تعالى : « وَقَدِمْنَآ إِلَى مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا »[2].ثم بين سبحانه ما ترتب على كفر أولئك الأخسرين أعمالا من الجزاء السيء على ما صنعوا فقال :

١٠٥ ـ (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ . .) الآية .

أى أولئك الضالون الخاسرون ، وهم يحسبون أنهم يحسنون ، هم الذين جحدوا آيات ربهم ودلائله الداعية إلى توحيده وتمجيده ، وضموا إلى جحودهم آيات ربهم إنكارهم البعث فى اليوم الآخر وما يتبعه من الجزاء على الأعمال ، فمن ثَمّ حبطت أعمالهم وبطلت وإذًا : (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً) : بل نزدرى بهم ونحتقرهم ، ولا نجعل لهم مقدارًا ، لأنه لامقدار لأحد إلا بالعمل الصالح ، وأولئك مجردون من صالح الأعمال ، وقد روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّهُ لَيَأْتِى الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيامَةِ لَا يَزِن عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَة ، وَقَالَ : اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ : « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً » أو المعنى لا نضع لأجل وزن أعمالهم ميزاناً لأنها قد حبطت وصارت هباءً منثورًا . وقوله تعالى :

١٠٦ ـ (ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوٓا آيَاتِى وَرُسُلِى هُزُوًا) :

بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم ، إثْرَ بيان أعمالهم الْمُحْبَطَةِ بذلك الكفر ، أى ذلك جزاؤُهم الذى جزيناهم به بسبب كفرهم بى ، واتخاذهم رسلى وآياتى التى أَيَّدْتُهُمْ بها ـ هزوًا وسخرية ! فلم يكتفوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل ، بل ارتكبوا عظيمة أُخرى مثلها ، وهى الاستهزاء بالمعجزات الباهرة التى أيدت بها رسلى عليهم السلام وبالصحف المنزلة عليهم .

---

(١) سورة النور ، من الآية : ٣٩ (٢) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

المفردات :

(الْفِرْدَوْسِ) : أعلى درجات الجنة وأوسطها وأفضلها . وأصله فى اللغة : البستان الجامع لكل مافى البساتين . (حِوَلًا) : أى تحولا وانتقالا .

التفسير

١٠٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) :

بعد أن ذكر الله سبحانه ما أعده من العذاب للذين كفروا بآيات ربهم واستهزءوا برسله - ذكر جزاء الذين آمنوا به وبلقائه وعملوا الصالحات ، قال الآلوسى تبعاً لأبى السعود : هذا بيان - بطريق الوعد - لمآل الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرة ، إثر بيان مآل الكفرة بطريق الوعيد ، أى : إن الذين آمنوا بآيات ربهم ولقائه سبحانه ، وعملوا الأعمال الصالحات ، كانت لهم فيما سبق من حُكْمِهِ تعالى ووعده جنات الفردوس أعلى الجنات منزلة وأرفعها درجة ، أخرج البخارى ومسلم وابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا سَأَلْتُمُ الله تعالى فاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ : فإِنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَفوْقهُ عَرْشُ الرَّحْمَن ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) . وفى التعبير بقوله : « كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا » . إيماءٌ إلى أن أثر الرحمة ، يصل إليهم بمقتضى الرأفة الأزلية ، بخلاف مامر من جَعْل جهنم للكافرين نُزُلًا ، فإنه بموجب ماحدث من سوء اختيارهم . انظر تفسير أبى السعود . .

١٠٨ ـ (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا) :

أى مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبدًا . قال ابن كثير : وفى قوله : « لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها ، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم فى المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يَمَلُّهُ فأخبرأنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدى . لا يختارون عن مقامهم ذلك تحولا ولا ظعناً ولا رحلة ولا بدلا . أ هـ .

(قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(مِدَادًا) : المداد فى الأصل : اسم لكل ما يُمَدُّ به الشىء ، واختص فى العرف بما تُمَد به الدواة من الحبر . (يَرْجُو) : يأمل أو يخاف .

(لِكَلِمَاتِ رَبِّى) : أى لكلماته الإبداعية والتشريعية والخبرية ، فى اللوح المحفوظ وفى القرآن الكريم ، وفى شئون الكون حاضره ومستقبله ودنياه وأخراه .

التفسير

١٠٩ ـ (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى) ... الآية .

سبب النزول :

روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن حُيَىَّ بن أخطب قال : فى كتابكم : « وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا » ثم تقرءُون : « وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » ومراده الاعتراض بوقوع التناقض فى القرآن الكريم ، بناءً على أن الحكمة هى العلم فكيف يكون العلم فى القرآن شيئاً قليلا فى آية ، وخيرًا كثيرًا فى آية أُخرى ، وقد غفل هؤلاء اليهود ، عن أن الشيء الواحد قد يكون قليلا فى حالة ، وكثيرًا فى حالة أُخرى فالآية جواب عن اعتراضهم بالإشارة إلى أن القلة والكثرة من الأُمور الإضافية ، فيجوز أن يكون الشيءُ كثيرا فى نفسه ، وهو قليل بالنسبة إلى شيء آخر ، ولا شك أن التوراة ليست كل كلام الله تعالى ، بل هى بعض قليل منه ، ويكفى فى كتابتها مداد قليل ، أما كلامه تعالى الشامل للتوراة وغيرها من شئون الكون فكثير لا يكفى فى كتابته مداد البحر .

ومعنى الآية : قل لهم أيها الرسول : لو كان ماءُ البحر مدادًا للقلم الذى تكتب به كلمات ربى فى التشريع والتكوين وغيرهما ، لنَفِدَ هذا المداد وفَنِىَ قبل أن تنفد كلمات ربى وتفنى ، ولو جئنا بمثل هذا الماء العظيم مددًا وعونًا ، لأن جميع ما فى الوجود على التعاقب والاجتماع - مُتَنَاهٍ ، وعلم الله وكلماته لاتتناهى ، والمتناهى لايفى ألبتة بغير المتناهى .

والمراد أن كلمات الله تعالى لايعتريها فناءٌ ولا نقص ، وعلمه لا غاية له ولا نهاية ، فما علم العباد جميعًا بجانب علمه تبارك وتعالى إلَّا كقطرة من ماءِ البحور كلها . وفى معنى الآية الكريمة قولُه تعالى : « وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »(١) .ثم ختم سبحانه السورة الكريمة بنحو ما بدأها به من البشارة والنذارة فقال :

١١٠ - (قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ . .) الآية .

أى قل أيها الرسول للمشركين وللناس جميعًا : إنما أنا بشر مثلكم من بنى آدم ، لا أدعى الإحاطة بكلماته جل وعلا ، ولا أعلم إلَّا ما علمنى ربى ، وقد أُوحى إلى أنما إلهكم الذى يجب أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا هو إله واحد لا شريك له .

(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) : أى فمن كان يأمل تكريم ربه إياه بالثواب وحسن الجزاء عند لقائه ، فليعمل عملًا صالحًا موافقًا

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ٢٧ .

لشريعة الله ، ولا يُرِدْ بعبادة ربه إلَّا وجه ربه وحده لا شريك له ، وهذان هما الركنان اللذان لا بد منهما لكل عمل متقبل ، أن يكون خالصًا لله سبحانه ، وأن يكون صوابًا وفق شريعة رسوله صلى الله عليه وسلم أو المعنى : فمن كان يخاف سوء لقاء ربه فليعمل عملًا صالحًا خالصًا لوجه ربه ولا يخلط به غيره .

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله تعالى : (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاء عَنِ الشِّرْك . مَنْ عَملَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه مَعى غَيْرِى . تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[١]. وروى الشيخان عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَمَّعَ ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائِى يُرَائِى اللهُ بِهِ »[٢] .

وروى مسلم عن أبى هريرة أيضًا[٣] قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ ، رجل استُشهد فَأُتِىَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استُشْهِدْتُ ، قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء ، فقد قِيلَ ، ثم أَمَرَ بِهِ فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن ، فأُتِى به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلَّمت وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء . فقد قيل ، ثم أَمَرَ بِهِ فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِى فى النار ، ورجل وَسَّعَ الله عليهُ وأعطاه من أصناف المال كلِّه ، فأُتِىَ به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لله ، قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : هُوَ جَوادٌ فقد قيل ، ثم أَمَرَ بِهِ فسُحِبَ على وجهه ثم أُلقِى فى النار » .

والله المستعان على الإخلاص فى النيات والأقوال والأعمال ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) هذا كناية عن إحباط ثوابه وحرمانه من أجره ، لما اقترفه من ترك الإخلاص فيه والحديث يعم الشرك الجلى وكذا الشرك الخفى المعبر عنه بالرياء .

(٢) أى من سمع الناس بعمله ، أو راءاهم به ليحمدوه ويثنوا عليه ، أظهر الله سريرته لهم وملأ أسماعهم من سوء الحديث عنه فى الدنيا والآخرة ، فلم يظفر بما أظهره إلا بإبداء ما انطوى عليه من خبث السريرة .

(٣) فى كتاب الإمارة : باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

تمهيد :

هذه السورة التاسعَةَ عَشْرَةَ فى ترتيب المصحف .

ووجه مناسبتها لسورة الكهف اشتمالها على نحو ما اشتملت عليه من الأعاجيب . كقصة ولادة يحيي ،وقصة ولادة عيسى عليهما السلام . ولذلك ذكرت بعدها، وهى مكية إلَّا آية السجدة (٥٨) . وآية الورود على النار (٧١) . وعدد آياتها ثمان وتسعون وقد حوت طائفة كريمة من قصص الرسل وأنباء الغيب .

افتتحها الله تعالى بقصة زكريا عليه السلام إذ دعا ربه أن يَهَبَ له وليًّا يرثه فى الدعوة إليه والحفاظ على شريعته . فاستجاب له ربه وبشره بغلام سماه يحيي ولم يجعل له من قبل سميًّا وآتاه الحكم صبيا . ولما تعجب زكريا من خلق الولد من أم عاقر وأب بلغ من الكبر عتيًّا ـ أوحى إليه ربه أن هذا الخلْقَ « هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » ثم ذكر تعالى قصة مريم عليها السلام . . . وهى أعجَب من قصة زكريا ! ! وفيها أن جبريل عليه السلام تمثل لها بشرًا سويًّا . ففزعت واستعاذت بالرحمن منه . فطمأنها بأنه رسول ربها ليهب لها غلامًا زكيًّا . فلما تعجبت من أن يكون لها غلام ولم يمسسها بشر ولم تَكُ بَغِيًّا ـ « قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا » .

وكذلك كان عيسى عليه السلام آية من آيات ربه الكبرى : فى حمله وولادته . وقوله فى المهد : « إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا . وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ .. » ثم قال تعالى : « ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ » .

ثم ذكر تعالى قصة إبراهيم عليه السلام وهو يدعو أباه إلى الصراط السوىّ ، بأرق ما تكون الدعوة من الرفق والحنان ، فيقول : « يَآ أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . يَآ أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا . يَآ أَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا » . فيقابل أبوه هذا الرفق والحنان ، بأشق ما يكون من العنف والقسوة والجحود والعصيان ، فيقول : « أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَآ إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا » . وهنالك لم يجد إبراهيم عليه السلام بُدًّا من أن يعتزل أباه وقومه وما يعبدون من دون الله . قال تعالى : « فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا » .

ثم ذكر تعالى كليمه موسى عليه السلام ومناجاته إياه فى الطور ، وهبة الله له أخاه هٰرُونَ نبيًّا . ثم أثنى سبحانه على إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد ، وَأَمْرِهِ أَهْلَهُ بالصلاة والزكاة « وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » . وعلى إدريس عليه السلام بأنه : « رَفَعَهُ مَكَانًا عَلِيًّا » . ثم أثنى تبارك وتعالى على المصطفَيْنَ الأخيار من عباده فقال : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَآئِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا » .

وذم الذين خَلَفُوهم مِنْ بعدهم ، فلم يهتدوا بهديهم ، بل أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ جزاءهم « إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا » . ومما ذكره الله تعالى فى هذه السورة الكريمة ، أنه يحشر الكافرين يوم القيامة مع قرنائهم من الشياطين . وأن جميع الخلق يَرِدُون جهنم : « وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » وبعد ذلك يستنكر سبحانه أشد الاستنكار ، ما زعمه الزاعمون من اتخاذه ولدًا ، إذ يقول : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا . لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا » ثم يَعِد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنه سيجعل بينهم محبة وَوُدًّا ثم يختم سبحانه السورة الكريمة ببيان

تيسيره القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم وقومه ، بإنزاله بلسانه ولسانهم ، حيث أنزله « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ » . ليسهل عليه تبليغهم كتاب ربهم . ويبشر به المتقين بحسن المثوبة . وينذر به المجادلين المعاندين بشديد العقوبة . إذ يقول : « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا » .

وأخيرا يضرب الله المثل بأمثالهم الذين أهلكهم فى القرون الماضية فلم يُبْقِ منهم أحدا . فيقول ــ وقوله الحق ــ : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » ذلك . ومما يلاحظ فى هذه السورة الكريمة أنه كثر فيها ذكر الرحمة والرحمٰن ، لما تجلى فيها من رحمة الله على عباده وهم فى أشد الحاجة إليها ! !

بسم الله الرحمن الرحيم

(كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾)

المفردات :

(نَادَى رَبَّهُ) : أى دعا ربه عز وجل . (وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى) : ضعف عظمى ورق لكبر سنى . (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) : وتغلغل الشيب فى رأسى وَفَشَا فيه . (الْمَوَالِىَ) : الْمَوْلَى : هو القريب الذى يلى أمر الرجل من عصبته ، كالأخ والعم وابن العم . (عَاقِرًا) : عقيمًا لا تلد . (وَلِيًّا) : ابنًا من صلبى يلى الأمر بعدى . (رَضِيًّا) : مرضيًّا عندك قولًا وفعلًا .

التفسير

١ - (كٓهيعٓصٓ) :

افتتح الله تبارك وتعالى تسعًا وعشرين سورة بأسماء بعض الحروف الهجائية ، وسورة مريم واحدة منها . وقد قال كثير من المفسرين : إن معانى هذه الحروف من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه ، وهو أعلم بمراده منها . وقال بعضهم : هى أسماءٌ للسور التى افتتحت بها ، وقال بعضهم : هى رمز للتحدى ، بالإشارة إلى أن القرآن الكريم ، مكون من جنس ما يَنْظِمُ العرب منه كلامهم ، فإذا عجزوا جميعًا عن الإتيان بسورة من مثله - وهم أئمة

الفصاحة والبلاغة – وجب التسليم بأنه من عند الله عز وجل ، وبأن محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يأتى بسورة منه[1] .

٢ – (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا) :

أى هذا الذى نقصه عليك – أيها الرسول – هو ذكر رحمة ربك لعبده ورسوله زكريا ، وهذا إجمال يأتى تفصيله قريبًا . وزكريا عليه السلام نبى ورسول من أنبياء بنى إسرائيل ، من ولد سليمان بن داود عليهما السلام . روى الحافظ ابن كثير وغيره أنه كان نجارًا يأكل من عمل يده فى النجارة ، وهكذا كان الأنبياء يأكلون من عملهم . وقوله تعالى :

٣ – (إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا) : مرتبط بقوله سبحانه : « ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ » .

أى أن رحمة ربك أحاطت بعبده زكريا ، حين دعا ربه دعاء مستورًا عن الناس ، ولم يسمعه أحد منهم وإنما أخفى دعاءه عليه السلام ، وأسر به وهو يتضرع إلى ربه ، لأن الإسرار بالدعاء أدل على الإخلاص ، وأبعد عن الرياء ، وأقرب إلى الخلاص من لائمة الناس على طلب الولد وقت الكبر والشيخوخة .

قال ابن كثير عن بعض السلف : قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه ، فجعل يهتف بربه ، يقول خفية : يارب ، يارب ، يارب ، فقال الله له : لبيك لبيك .

٤ – (قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى . .) الآية .

هذا تفصيل وتفسير لكيفية ندائه ربه عليه السلام .

أى : إنى ضعف عظمى ورق لكبر سنى . والمراد : ضعفتُ وخارت قواى . وإنما أسند الضعف إلى العظم ، لأن العظام عماد البدن ودِعَامُ الجسد ، فإذا أصابها الضعف والرخاوة تداعى ماوراءها وتساقطت قوته !

(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) : أى فشا الشيب وتغلغل فى رأسى ، وسرى فيه كما تسرى النار فى الحطب . (وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا) : أى ولم أكن بدعائى إياك خائبًا فى

(١) راجع ما كتبناه عن هذه الفواتح : أول سورة البقرة ، وسورة الأعراف ، وسورة يونس .

فى وقت من أوقات هذا العمر الطويل ، بل كلما دعوتُكَ استجبتَ لى ، توسل عليه السلام إلى ربه فى استجابة دعائه بما سلف من الاستجابة له عند كل دعوة دعاها – إثر تمهيد ما يستدعى الرحمة به من كبر سنه وضعف قوته ، فإنه تعالى بعد ما عود عبده الإجابة دهراً طويلا لايكاد يخيبه أبدًا ، ولا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره ، وفى هذا التوسل من الإشارة إلى عظم كرم الله عز وجل ما فيه . . ويذكر المفسرون هنا ما يروى أن حاتماً الطائى – أو معن ابن زائدة – أتاه سائل فسأله وقال : أنا الذى أحسنتَ إليه وقت كذا ، فقال : مَرْحَباً بمن توسل بنا إلينا ، وقضى حاجته . . وأين كَرَمُ الكرماءِ أجمعين ، من كَرَم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم . .

٥ – (وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِن وَرَآئِى وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا . .) الآية .

هذا عطف على قوله : « إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى . . » مندرج فيما يستدعى رحمة ربه واستجابة دعائه ، أى وإنى خشيت أقاربى الذين يلون الأمر من بعد موتى ، ألا يحسنوا الخلافة ، فيسيئوا إلى الناس ، ولا يقوموا مقامى فى الدعوة إليك والحفاظ على شريعتك وإنما خافهم لأنهم كانوا من شرار بنى إسرائيل ، وكانت امرأته عاقرًا لا تحمل ولا تلد ، من شبابها إلى شيبها ، وهذا مما يزيد أقاربه تلهفا على خلافته وإن لم يحسنوها .

قدم عليه السلام فى ندائه لربه وضراعته إليه ، ضعف قوته وكبر سنه وشيخوخته ، وخوفه من مواليه مع عقم امرأته – قدم هذا بين يدى سؤاله ربه هبة طيبة من ذريته[1] وذلك قوله : (فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا) :

أى أعطنى من فيض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة ، ابنا من صلبى يلى الأمر من بعدى يقوم مقامى ويحسن خلافتى ، وإنى وإن كنت متقدماً فى السن ، وكانت امرأتى عاقرًا – ولا تزال – فإنك قادر على تحقيق مطلبى من غير الأسباب العادية ، وأنك إذا أردت ، قلت للشيء : كن ، فيكون . ثم وصف عليه السلام وليه الذى استوهبه من ربه فقال :

---

(١) اقتباس من قوله تعالى فى سورة آل عمران : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » الآية ٣٨ .

٦ - (يرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ . .) الآية .

أى يكون وارثاً لِى فى العلم والنبوة ، ليسوس بنى إسرائيل بمقتضى الشريعة والعدل ، فقد تعدى حدود الله كثير منهم ، وطغوا وبغوا وضلوا عن سواء السبيل ، وقوله : « وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » توكيد لهذا الميراث النبوى الذى طلبه لوليه ، فإن زكريا من ذرية يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، عليهم صلوات الله وسلامه ، وكانت النبوة فى بيت يعقوب وآله – وآل الرجل هم خاصته الذين يئول إليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين فمراد زكريا عليه السلام بهذا التوكيد أن يكون ابنه نبيًّا كما كانت آباؤه أنبياء ،ولم يرد عليه السلام وراثته فى المال ، لأن الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا آلهم ديناراً ولا درهماً ، فقد كانوا أزهد الناس فى الدنيا ، وإنما وَرَّثُوا العلم والنبوة . على أن زكريا عليه السلام كان نجاراً يأْكل من كسب يده – كما قدمنا عن الحافظ ابن كثير وغيره . قال الحافظ ابن كثير : وقد ثبت فى الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ » وفى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح : « نَحْنُ مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ »[1]. وعلى هذا فتعين حمل قوله : « يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » على ميراث النبوة . انتهى ما قال الحافظ ابن كثير ملخصاً .

(وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) :

أى واجعله يارب مرضياً عندك وعند خلقك ، تحبه وتحببه إلى خلقك فى دينه وخلقه .

---

(١) فى مشكاة المصابيح للتبريزى – فى أحاديث هجرته ووفاته صلى الله عليه وسلم : عن أبى بكر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » متفق عليه .

(يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن
قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا
وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ
هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل
لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾
فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟
بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾)

المفـردات :

(سَمِيًّا) : أى شريكاً فى اسمه أو شبيهاً له .

(أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ) : كيف يكون لى غلام ؟ أو من أين ؟ .

(عَاقِرًا) : عقيماً لا تلد .

(عِتِيًّا) : العتى – بكسر العين وضمها وفتحها – غاية الكبر والشيخوخة ، يقال : عتا الشيخ أى كبر وولّى . (أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ) : كيف يكون لى غلام أو من أين ؟

(سَوِيًّا) : سوى الخلق ، سليم الجوارح ما به شائبة نَقص تعيبه .

(الْمِحْرَابِ) : المسجد أو المصلى .

(فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ) : الإيحاءُ هنا بمعنى الإشارة وهى محتملة لأن تكون بيده أو برأسه أو بالكتابة أو نحو ذلك .

(سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) : نزهوا ربكم دائما ، أو صلُّوا له طرفَى النهار .

التفسير

٧ - (يَا زَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ . . .) الآية .

هنا كلام مطوى يشير إليه السياق على عادة القرآن الكريم .

والمعنى : استجاب الله تعالى دعاء عبده زكريا وقال له على لسان الملائكة : « يَا زَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ . . . » كما قال تعالى فى سورة آل عمران : « فَنَادَتْهُ الْمَلَآئِكَةُ وهُو قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ . . . »(١) . وقوله تعالى :

(لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا) : أى لم نجعل له شريكا فى هذا الاسم ، فلم يُسمَّ أحد قبله يحيى ، وفى هذا مزيد تشريف وتفخيم له عليه السلام . وعن مجاهد أن « سميا » معناهُ شبيها ، أخذه من قوله تعالى : « فَاعْبُدْهُ واصْطَبِرْ لِعِبادتِهِ هل تَعْلَمُ لَهُ سمِيًّا »(٢) . أى شبيها أى لم نجعل له شبيها ، حيث إنه لم يعص ولم يهُمَّ بمعصية ، فقد أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «مامِنْ أَحدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ إِلاَّ وَقَدْ أَخْطَأَ أَوْ هَمَّ بِخَطِيئَةٍ إِلاَّ يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، لَمَ يَهُمَّ بِخَطِيئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا» . قال الآلوسى : والأخبار فى ذلك متضافرة . اهـ .

ويؤيد ذلك قوله تعالى فى شأنه : « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ »(٣) .

٨ - (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) :

أى قال زكريا عليه السلام : يارب كيف يكون لى غلام وكانت امرأتى - ولا تزال - عاقرا لاتحمل ولا تلد ، وقد بلغت سن اليأس من الولد ؟ « وهذا تعجب بحسب العادة » ، لا استبعاد منه لقدرة الله - وحاشاه - فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن سنه كانت إذ ذاك مائة وعشرين سنة ، وكانت سن امرأته ثمانياً وتسعين ، ولا يولد لمثلهما عادة ، ولكن لله تعالى خرق العادة ، وما المعجزات التى أيد الله بها رسله إلا خرق لها . . .

(١) من الآية : ٣٩

(٢) سورة مريم ، من الآية : ٦٥

(٣) سورة آل عمران ، من الآية : ٣٩

٩ - (قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ . . . .) الآية .

أى قال الله تعالى على لسان الملك مجيبا زكريا عما تعجب منه : الأمر كما بُشِّرْتَ به ، وإيجاد الولد منك ومن زوجك هذه لامِنْ غيرها سهل يسير على .

ثم ذكر له ماهو أعجب منه فقال : « وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً » :

أى وقد خلقتك من قبل خلق يحيي الذى بشرتك به ، ولم تكن شيئاً مذكورا ، حيث خلقتك من تراب فى ضمن خلق أبيك آدم ، أو وأنت نطفة لم تكن شيئاً مذكورا بجانب ما أنت عليه الآن ، فمن قدر على خلقك مما يشبه العدم ، فهو قادر على تحقيق ما بشرك به .

١٠ - (قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً . . .) الآية .

أى قال زكريا عليه السلام : يارب اجعل لى علامة ودليلا على حمل امرأتى ، أو على وجود ما وعدتنى به ، لتستقر نفسى ويطمئن قلبى ، كما قال إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي »[1].

(قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) :

أى قال الله تعالى : علامتك على تحقيق ما وعدتك أن يحبس لسانك عن كلام الناس وأنت سوى الخلق سليم الجوارح ، ليس بك شائبة خرس ولا بكم . . فكان عليه السلام يقرأ ويسبح ، ولا يستطيع أن يكلم الناس إلا إشارة ورمزا . والمراد ثلاث ليال بأيامها ، وفقاً لآية آل عمران : « قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ »[2] .

١١ - (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) :

روى أن قومه كانوا من وراء المسجد ينتظرون أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم متغيرا لونه ، فأنكروه وقالوا : مالك ؟ فأشار إليهم بيده إشارة خفيفة سريعة : أن نَزِّهُوا ربكم دائماً أو صَلُّوا له طرفى النهار .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٦٠

(٢) الآية : ٤١

(يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾
وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ
يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾)

المفردات :

(الْكِتَابَ) : المراد به التوراة . (الْحُكْمَ) : الحكمة ، أو الفهم والفقه فى الدين . . وقيل النبوة . (وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا) : أى رحمة عظيمة فى قلب يحيى من عندنا وشفقة منه على الناس ومحبة لهم صادرة منا .

(وَزَكَاةً) : أى طهارة بريئة من الذنوب والآثام . أو بركة عظيمة .

(وَكَانَ تَقِيًّا) : وكان فى أعلى درجات التقوى لله عز وجل .

(وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا) : ولم يكن متكبرا متعالياً على الناس .

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ) : السلام هنا : الأمان من الله تعالى فى الأيام الثلاثة ، أو التحية منه سبحانه.

التفسير

١٢- (يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ . . .) الآية .

هنا كلام مطوى حذف مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم . أى : ولد الغلام المبشَّر به . وبلغ سنًّا يؤمر مثله فيها ، فقلنا له على لسان المَلَك : يا يحيى خذ التوراة بجد وعزم فاستظهرها واعمل بما فيها . (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) : أى وأعطيناه الحكمة والفقه فى الدين والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه ، وهو صغير حَدَثٌ . قال الآلوسى : أخرج أبو نعيم وغيره عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى ذلك : أعطى

الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين ، وفى رواية أخرى عن ابن عباس أيضاً عن النبى صلى الله عليه وسلم : قال الغلمانُ ليحيى بن زكريا عليهما السلام : اذهب بنا نلعب ، فقال أَلِلَّعِبِ خلقنا ؟ اذهبوا نصلى ، فهو قوله تعالى : « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » . قال الآلوسى : والظاهر أن الحكم على هذا بمعنى الحكمة ، وقيل هى : بمعنى العقل . . وقيل النبوة ،وعليه كثير ، قالوا أوتيها وهو ابن سبع سنين . . . . ولم ينبأْ أكثر الأَنبياء عليهم السلام قبل الأَربعين . انتهى كلام الآلوسى مختصرا .

١٣ - (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا) :

أى وآتيناه رحمة عظيمة فى قلبه ، وشفقة على الناس ومحبة لهم ، وآتيناه كذلك بركة عظيمة من عندنا ، فجعلناه مباركا نفَّاعاً ، معلما للخير وداعيا إليه ، وكان عظيم التقوى لله عز وجل ، وتقدم أنه ما هم بمعصية ، فضلا عن اكتسابها .

١٤ - (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا) :

أى وكان يحيى عليه السلام كثير البر والإحسان بوالديه ، إذ هما أقرب الناس إليه ، وحقهما فى الطاعة يلى حق الله عز وجل ، ولم يكن متكبرا على عباد الله متعالياً عليهم بل كان لين الجانب متواضعاً كريما مطيعاً لربه قدوة فى المكارم ، وهذه الصفات التى وصف الله بها يحيى عليه السلام ، هى صفات المؤمنين الكاملين ، الذين بلَّغهم الله تبارك وتعالى أعلى درجات الصلاح والتقوى . فسبحانه وتعالى أعطى وأثنى .

وبعد أن أثنى الله على يحيى بهذه الصفات الكريمة ، أتبعها السلامَ عليه فقال عز من قائل :

١٥ - (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا) :

أى : وأمانٌ منا على يحيى يوم ولدَ - من أن يناله الشيطان بما ينال به بنى آدم ؛ ويوم يموت - من وحشة فراق الدنيا وهول القبر ؛ ويوم يبعث حيا - من أهوال يوم القيامة .

وفى قوله تعالى : « وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » إشارة إلى أن البعث جسمانى وروحانى معا . لا روحانى فقط كما يزعم بعض الفلاسفة . أو للتنبيه على أنه عليه السلام من الشهداء(١) .

وقيل إن المراد بالسلام هنا التحية المتعارفة . قال ابن عطية : إن هذا هو الأظهر ، والتشريف بها لكونها من الله تعالى فى المواطن التى يكون فيها العبد فى غاية الضعف والحاجة والفقر إلى الله عز وجل .

ذلك . ومما يعد من اللطائف النبوية ما رواه الطبرى وابن كثير عن الحسن قال : إن يحيى وعيسى عليهما السلام الْتقَيَا – وهما ابنا الخالة – فقال يحيى لعيسى : استغفر لى أنت خير منى . فقال له عيسى : بل أنت خير منى . سلمت على نفسى وسلم الله عليك . . .

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾)

المفردات :

(انتبَذَتْ) : اعتزلت وانفردت . (رُوحَنَا) : جبريل عليه السلام ، سماه تعالى روحاً ، لأن الدين يحيا بالوحى الذى ينزل به . (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) : فتصور لها إنساناً مُسْتَوِىَ الخلق كامل البنية . (أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ) : أتحصن بالرحمن منك وألتجىء إليه .

(١) فقد اشتهر أنه هو وأبوه زكريا عليهما السلام ممن قتلهم اليهود . قاتلهم الله . وقد ذكر قتلهم للأنبياء فى كثير من آى الذكر الحكيم ... بل زعموا أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم « وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم » سورة النساء الآية ١٥٧

(زَكِيًّا) : طاهرا من الذنوب والآثام ، من الزكاة بمعنى الطهارة ، أوناميا على الخير والبركة ، من الزكاة بمعنى النمو .

التفسير

١٦ ـ (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا) :

لما ذكر الله تبارك وتعالى قصة زكريا عليه السلام . وأنه تعالى وهب له فى حال كبره وعقم زوجته غلاماً زكيا مباركا ـ عطف على قصته قصة مريم وولدها عيسى عليهما السلام ، لِمَا بين القصتين من مناسبة عظيمة ومشابهة قوية ـ وقد قرن تعالى بين القصتين فى هذه السورة ، وفى سورة آل عمران وفى سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والمخاطب هو سيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم . والمراد بالكتاب القرآن الكريم ، كما هو الظاهر . وقال العلامة أبو السعود : المراد بالكتاب السورة الكريمة ، لا القرآن كُلُّه ، إذ هى التى صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الأنبياء المذكورين فيها . ا هـ .

والمآل واحد . فإن ذكرها فى هذه السورة يعتبر ذكْراً لها فى القرآن .

والمعنى : واذكر ـ أيها الرسول ـ فى القرآن قصة مريم حين اعتزلت أهلها وانفردت عنهم ، وأتت مكانا شرقىَّ بيت المقدس[1] ، لكى تتفرغ فيه لعبادة ربها ، وكانت مستترة من أهلها ومن الناس بساتر يحجبها ، أو اتخذت مكانا شرقى دارها بعيدا عن أهلها لئلا يشغلها أحد منهم عن عبادة ربها وذلك قوله تعالى :

١٧ ـ (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً) الآية .

أى فاتخذت بينها وبينهم ساترا يحجبها عنهم ، روى أنه كان موضعها فى المسجد ، فبينما هى فى خلوتها أتاها جبريل عليه السلام فى صورة إنسان تام الخِلْقَة . كامل البِنية جميل الصورة ، وذلك قوله تعالى :

(فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) : وإنما جاءها عليه السلام فى صورة إنسان كامل . لتستأنس بكلامه . وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلمات ربها . إذ لو بدا لها

---

(١) أو أنه كان من المسجد الأقصى بناحيته الشرقية .

على حقيقته الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته ، ومن عادة الملَك إذا تصور بصورة إنسان أن يكون جميل الصورة ، كما كان جبريل عليه السلام يأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة دحية رضى الله عنه ، وكان من أجمل الناس . وقد يكون من الحكمة فى مجيئه على الصورة الجميلة ابتلاؤها وسبر عفتها ، ولقد ظهر منها من الورع والعفاف مالا غاية وراءه . . . .

١٨ - (قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا) :

أى لما تبدى لها جبريل عليه السلام فى صورة إنسان ، وهى فى مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب - لَمَّا حدث ذلك - خافته ، وظنت أنه يريد بها سوءا ، فاستعاذت بالله - وهو أرحم الراحمين - أن يحفظها برحمته منه . ولعل هذا هو السر فى استعاذتها باسمه الرحمن دون غيره من أسماء الله الحسنى . وقولها « إن كُنتَ تَقِيًّا » أى إن كنت تتقى الله تعالى وتخشى الاستعاذة به ، فلا تمسَّنى بسوء - فإنى عائذة به ولاجئة إليه .

١٩ - (قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) :

أى قال جبريل عليه السلام مجيبا إياها ، ومزيلا خوفها : إنما أنا رسول ربك الذى استعذتِ به منى ، فقد بعثنى إليك لأكون سببا فى هبته لك غلاما طاهراً مباركا بالنفخ فى جيب درعك[1] .

ومن اللطائف ما ذكره الآلوسى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنها لما قالت : « إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا » تبسم جبريل عليه السلام وقال : « إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا » .

---

(١) جيب الدرع : طوق القميص .

(قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١))

المفردات :

(وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) : المراد ، ولم أتزوج .

(وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) : أى ولم أكن زانية تبغى الرجل أو يبغيها الرجال للفاحشة .

(وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) : أى وكان حمل مريم أمراً سبق به القضاء أزلا فلابد منه .

التفسير

٢٠ - (قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) :

أى قالت مريم لجبريل - عليهما السلام - وهى دهشة متعجبة : كيف يكون لى غلام ولست متزوجة ولا زانية ، ولا يكون الغلام إلا من إحداهما ؟ ..

٢١ - (قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ . .) الآية .

أى قال جبريل لمريم مجيبا إياها ومزيلا دهشتها وتعجبها : الأمر كما قال ربك : إن خلق هذا الغلام منك بلا نكاح ولا سفاح سهل يسير على . وقوله تعالى :

(وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ) : معطوف على مقدر مناسب مفهوم من السياق ، والاختصار من الصور البلاغية فى القرآن ، وتقدير الكلام : لنبين للناس كمال قدرتنا ، ولنجعل خلق هذا الغلام من غير أب علامة عظيمة على قدرة بارئهم وخالقهم ، الذى نوّع فى خلقهم ، فخلق أباهم آدم من غير ذكر وأنثى ، وخلق أمهم حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى ، خلقه من أنثى بلا ذكر ، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم

سلطانه ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ، وقوله سبحانه .

(وَرَحْمَةً مِّنَّا) : أى ولنجعل هذا الغلام رحمة منا عظيمة ، لمن يؤمنون به ويهتدون بهديه ، ويسترشدون بإرشاده ، وفى ضمنه .. إيمانهم برسول من بعده اسمه أحمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله جل شأنه : (وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا) :

أى وكان خلق هذا الغلام بلا أب أمراً قضيناه وقدرناه أزلا ، فهو مقضى كائن لامحالة ، كقوله جل سلطانه : « وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُوراً »[1] .

(فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) : أى فاعتزلت به مكانا بعيداً عن أهلها .

(فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ) : فألجأها ألم الولادة وشدة أوجاعها . (إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ) : الجذع هو الساق ليس عليها سعف ولا أغصان . (وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا) :النِّسْىُ ؛ الشىءُ التافه الذى شأنه أن ينسى لحقارته كالحبل والخِرَقِ البالية ، والْمَنْسِىُّ المتروك المهمل لتفاهته ، وهو تأكيد لما قبله .

---

(١) سورة الأحزاب ، من الآية : ٣٨

(السَّرِىُّ) : الجدول الذى يسرى فيه الماء ، أو السيد العظيم الخصال .

(رُطَبًا جَنِيًّا) : أى صالحا للاجتناء والقطع بعد أن صار طريا ، وقال أبو عمرو بن العلاء « رُطَبًا جَنِيًّا » لم يجف ولم ييبس ولم يبعد عن يدى مجتنيه .

التفسير

٢٢ - (فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) :

أى فاطمأنت مريم عليها السلام إلى قول جبريل ، فدنا منها فنفخ فيها ، فحملت بالغلام الذى بشرها به عقب النفخ فيها ، فلما قرب وضعها قصدت مكانا بعيداً عن أهلها ، فراراً من تعييرهم لها، وقد روى أنه قرية على بضعة أميال من بيت المقدس يقال لها بيت لحم . حكى ذلك ابن وهب .

٢٣ - (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ . . .) الآية .

أى فألجأها الطلق وشدة الولادة وأوجاعها ، بسبب تحرك الجنين نحو الخروج - ألجأها ذلك - إلى جذع النخلة وهو ساقها ، لتستند إليه وتتعلق به ليكون عونا لها على قوة الاحتمال ، ولتستتر به عن أعين الناس ، وكان جذعا لنخلة يابسة على أكمة فى الصحراء لا سعف له ولا غصن عليه . فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها عليها السلام لما اشتد عليها الطلق نظرت إلى أكمة ، فصعدت مسرعة فإذا عليها جذع نخلة نخرة ليس عليها سعف . اهـ ولو كانت ذات سعف أخضر وفيها حياة لقال : فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى النَّخْلَةِ .

ولعل الله أرشدها إليه ليريها آية من آياته ، كإثماره بدون سعف ومن غير لقاح وفى وقت لم يعهد فيه وجود ذلك الثمر ، تسكينا لروعها ، وتطمينا لنفسها بمثل هذه الخوارق ، ولكنها عندما أحست أنها ستتهم فى الإتيان بهذا المولود بعد أن كانت عندهم عابدة ناسكة ، وأنها سوف تصبح فيما يظنون عاصية فاجرة ، تمنت الموت كما حكى الله عنها ذلك بقوله :

(قَالَتْ يَالَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا) : ياليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه والحزن بولادتى المولود بغير بَعْلٍ ، فهى مدفوعة إلى هذا القول مما شعرت به من ألم النفس استحياء من الناس ، وخوفا من لائمتهم وحذرا من وقوعهم فى المعصية بما يتكلمون فى عفتها ، فقد توقعت فتنة شديدة بين أهلها وذويها ، وقذفا عنيفا يمس شرف أصلها ، وطهارة أبيها وأمها ،

فأثار ذلك أحزانها وجعلها بعد تمنى الموت تتمنى أن تُنسى فلا تذكر أبدا حيث قالت :

(وَكُنتُ نِسْيًا مَّنسِيًّا) : أى وكنت شيئا تافها ، يطرح فلا يتألم لفقده لتفاهته وعدم الاهتمام به ، والمنسى الذى لا يخطر ببال أحد من الناس ، فذكره بعد . « نِسْيًا » لتأكيد إهمال هذا الشىء ، وكأنها تريد كما قال أبو زيد : لم أكن شيئا قط ، أو كما قال قتادة : شيئا لا يعرف ولا يذكر ولا يدرى من أنا . .

٢٤ ـ (فَنَادَٰهَا مِن تَحْتِهَا . .) الآية .

المنادِى إما جبريل ، وإما عيسى عليهما السّلام ، فعلى الأول يكون المعنى : فناداها جبريل من مكان أسفل منها فى بقعة تنخفض عن البقعة التى كانت عيها ، حين فاجأها المخاض ، وقد ذهب إلى أن النداء كان من جبريل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

وأما على أن المنادِى عيسى فقد أنطقه الله حين الولادة ، وروى ذلك عن مجاهد ووهب وابن جبير ونقله الطبرسى عن الحسن .

وقرىء (مَنْ تَحْتِهَا) بفتح الميم وكسرها . وعلى كلتا القراءتين يحتمل أن يكون المنادِى جبريل أو عيسى عليهما السلام كما تقدم .

(أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) : هذا تفسير للنداء السابق ، أى أن المنادِى هتف بها عن قرب منها ، ينهاها عن الحزن خوفاً من مقالة الناس بشأن ولادتها من غير زوج قائلا فى ندائه : لا تحزنى قد جعل ربك تحتك غلاماً شريفاً سيكون له شأن عظيم .

ثم أتبع سبحانه الحديث عن شرف وليدها حديثاً آخر عن طعامها فى نِفَاسِها تذكيرًا بآلائه ، ورضاه عنها ، وتخفيفاً لكربها . . .

٢٥ ـ (وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ . .) الآية .

أمرها بهز جذع النخلة لترى آية أخرى من آيات الله فى إحياء مواتِ الجذع ، أى حرِّكيه تحريكاً متوالياً بطريق الجذب إلى جهتك .

(تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) : تكفل الله بإطعامها بمالا يتعبها ولا يشقيها ، بل بما هو فى متناول يدها ، حيث أمرها بهز جذع النخلة إلى جهتها هزًا متعاقباً ، تُسَاقط أى تُسْقِطْ

عليها النخلة تمرًا نضِيجا قد طَرِىَ وأصبح صالحاً للاجتناء؛ والرُّطب - كما قيل - من أطيب الأَطعمة للنُّفَساء . فقد ثبت طبياً أنه يحتوى على المواد الغذائية الرئيسية بصورة مركزة سهلة الهضم ، محققة الفائدة ، ولو علم الله طعاماً يفضله لأطعمه مريم عليها السلام ، وعلى الرطب وغيره من أنواع التمر يعتمد كثير من القبائل العربية وغيرها إلى أيامنا هذه ، وتجد فى تلك الأَنواع كل ما تحتاجه مقومات الحياة .

٢٦ - (فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا . .) الآية .

امتَنَّ سبحانه على مريم عليها السلام بما تضمنته الآيتان السابقتان من إخراج الرطب لها فى غير وقته خرقاً للعادة ، لتسليتها عن حزنها ، ولتنزيه ساحتها عما تختلج به صدور المتقيدين بالأَحكام العادية ، وقد جاءت هذه الآية تفريعاً على ما ذكر ، لتأْمرها بالأَكل من الرطب والشرب مِن الماء حولها ، وبأَن تطيب نفساً إيذاناً بحسن العاقبة .

والمعنى : فكلى من الرطب الجنى ، واشربى من الماء النقى - وقيل من عصير الرطب - وطيبى نفسا بعيسى وأذهبى عنك ما أحزنك ، بشأْن مولده دون أب . وما يترتب عليه من سوءِ القالة ، فسوف نبرئك مما يشينك ، ونجعل لولدك شأْنًا عظيماً .

هذا : ومما قيل فى معنى « وَقَرِّى عَيْناً » اجعلى عينك تسكن للراحة والنوم ، قال أبو عمرو : أقر الله عينها أى أنامها وأذهب سهرها . وقال الشيبانى « وَقَرِّى عَيْنًا » أى نامى . وكل ذلك متقارب المعانى . وقدم الأَمر بالأَكل فى الآية ، ليجاور ما يشاكله وهو الرطب . والأَمر يحتمل الوجوب والندب . وذلك حسب حالها التى هى عليها ، وقيل هو للإباحة .

(فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا) : كائنا من كان يريد أن يستنطقك ويتحدث معك ، فيسأَلك عن وليدك (فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً) : أى قولى هذه الجملة وعبرى عن معناها بلغتك تعبيرًا لفظياً ، وبه قال الجمهور ، وقال جماعة : القول هنا بالإشارة لا بالكلام ، وكان صومهم إمساكاً عن الطعام والكلام كما تأْمرهم به شريعتهم . قال

ابن زيد والسدى : كانت سنّة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام مطلقاً، وقيل الصوم هنا بمعنى الصمت ، ولذا قالت عقبه : « فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا » فكان صيامهم الصمت ، وقد نذرته ، وليس هذا فى شرعنا وإن كان قربة فى شرع من قبلنا ، فإن نذره أحد لا يلزمه الوفاء به لما فيه من المشقة ،وقد دخل أبو بكر رضى الله عنه على امرأة نذرت ألا تتكلم ، فقال لها : إن الإسلام هدم هذا فتكلمى ، وكذلك فعل ابن مسعود[١]. وقد تمسكت مريم بصمتها الذى نذرته حيث حكى الله عنها قولها :

(فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا) : أى إنى أمتنع اليوم امتناعاً قاطعاً عن تكليم أحد من البشر فرارًا من مجادلة السفهاء الذين ينكرون وجود ولد بدون أب ، ويلحُّون فى الجدل وإثارة الشكوك حولى ، وهى بهذه الطريقة المثلى تقطع ألسنة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بالثرثرة والاختلاق والإعراض عن سماع الحجة ، وقالت : « فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا » لأن صيامها لايمنعها من مناجاة ربها أو التحدث مع الملائكة إن حدثوها ، وقيل إن قوله : « فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا . . . » الآية من كلام عيسى : لما قال لها لاتحزنى ، قالت له : كيف لا أحزن وأنت معى ، لا ذات زوج ولا مملوكة ، أى شىء عذرى عند الناس ؟ قال لها : أنا أكفيك الكلام ، «فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ » الآية . قال ذلك عبد الرحمن بن زيد ووهب[٢] .

---

(١) فقد كان يأمر من نذر الامتناع عن الكلام أن يتكلم، عملا بحديث أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : « بينما النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم ، فسأل عنه فقالوا أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولايقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » .

(٢) تفسير الطبرى .

(فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا) : الفرى الأمر المختلق المصنوع . وقال الأخفش : فريًّا : أى عجيباً .

(امْرَأَ سَوْءٍ) : السوء بالفتح والضم ، اسم لكل ما ينزل بالإنسان من كل شيء يسوءه ، وقيل المضموم : الضرر والمفتوح الفساد (بَغِيًّا) : فاجرة . يقال بَغَتِ المرأة تبغى بِغاءً بالكسر فَجَرت فهيَ بَغِيّ. (فى الْمَهْدِ) : المهد هنا هو الموضع يهيأ للصبى ويُوَطَّأُ فى رضاعه كالمِهاد. (بَرًّا بِوَالِدَتِى) : مطيعاً غير عَاقٍّ . (جَبَّارًا) : أى عاتيا يمتلئ قلبه بالشدة . (شَقِيًّا) : بعيدًا عن الخير .

التفسير

٢٧ - (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ . .) الآية .

لما اطمأنت مريم لما رأت من الآيات ، وعلمت أن الله سيدفع عنها ، سلمت أمرها لله ، واستسلمت لقضائه ، واستمسكت باصطحاب ولدها ، فأتت به قومها تحمله من المكان

القصى الذى انتبذت به ، فلما رأوها ومعها الصبى ، حزنوا حزناً شديدًا ، وأعظموا أمرها ، واستنكروه بقوة ، وعلت أصواتهم محزونين .

(قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا) : أى شيئاً مختلقاً مُفْتَرًى ، وفى البحر أن الفَرِىَّ يستعمل فى العظيم من الأمر شرًا أو خيرًا ، قولا أو فعلا ، ويراد به هنا كونه أمرًا خطيرًا ، جديرًا بكل إنكار . . .

٢٨ - (يَآ أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ . .) الآية .

الآية استئناف قصد به تجديد تعييرهم لها ، وسخريتهم منها ، وتأكيد توبيخهم إياها لِمَا ضيعته من أمجاد أهلها ، وليس المراد هارون أخا موسى بن عمران عليهما السلام لما بينهما من سنين طويلة ، وإنما هو رجل صالح فى بنى إسرائيل وكان هذا الاسم يشيع فيهم لأنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين فيهم ، فكأنهم قالوا لها : يا أخت هذا الرجل فى الصلاح والتقوى فى أول أمرك ، كيف انتهيت إلى فعل هذه الخطيئة ؟ ! وقيل : هو رجل فاسد شبهت به شتمًا لها ، وقيل المراد به هارون أخو موسى عليهما السلام ، أخرج ذلك ابن أبى حاتم عن السدى وعلى بن أبى طلحة ، ووصفت بأخوتها له ، لأنها كانت من نسله ، كما يقال يا أخا العرب لمن كان منهم ، والتوجيه الأول أصح ، ففى مسلم عن المغيرة بن شعبة قال : لما قَدِمْتُ نجران سألونى فقالوا : « إنكم تقرءون يَاأُخْتَ هَارُونَ » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، فلما قَدِمْتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال : « إنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصلحائهم » .

ومعنى هاتين الآيتين ، كيف تأتين هذا الأمر العظيم ، وقد عُرِفتِ بالصلاح والتقوى كما عُرِفَ بها هارون ، وأبوك لم يكن امرأ سوء يتصف بِشَرٍّ أو فساد ، وما كانت أُمك منحرفة فاجرة ، بل أنت فى ماضيك البعيد والقريب من بيئة لا ينبغى أن تُنْبتَ إلا الطيبين الطيبات ، وفى ذلك إشارة إلى أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش من ارتكابه ممن سواهم وتنبيه على أن الفروع غالباً ما تكون زاكية إذا زكت الأُصول ، وتكون خبيثة إذا لم تكن أصولها كذلك .

٢٩ - (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ . .) الآية .

أى فأشارت إلى عيسى عليه السلام أن كلموه وسلوه عما تريدون ، تنفيذًا لما أمرت به ، وحينما فهموا إشارتها .

(قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) : أى قالوا منكرين ما فهموه منها حين أشارت إلى عيسى ، متعجبين لهذا الأمر ، حيث إنه لم يعهد فيما سلف أن صبيا يكلمه عاقل ، وهو فى فراشه الممهد له وفى سن رضاعه ، فكيف نكلم هذا ؟ قال السدى لما أشارت إليه غضبوا وقالوا : لَسُخْرِيَتُها بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبى أشد علينا من زناها . .

٣٠ - (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ...) الآية .

هذا كلام مستأنف ، كأنه قيل : فماذا كان بعد إشارتها إليه أن يكلمهم بعد أن وقع منهم ما وقع من إنكار وتعجب ، فكان الجواب : قال عيسى إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ، فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى ، وبربوبية الله لعيسى ثم ذكر فضل الله عليه حيث يقول : « آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا » أى حكم أزلا بإيتائى الإنجيل ، وإن لم يكن منزلا إذ ذاك ، وحكم كذلك بإيتائى النبوة بمعنى أَعَدَّنِى لها ، وجعلنى ذا قدرة على تحمل أعبائها .

وفى كل ما قاله تنبيه على براءة أمه ، لدلالته على اصطفائه ، والله سبحانه أجل من أن يصطفى المطعون فى نسبه وذلك من المسلمات عندهم ، ففيه من إجلال أمه بالتلميح ما ليس فى التصريح .

٣١ - (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ . .) الآية .

أى وجعلنى ذا بركات ومنافع فى الدين ، فأى مكان وُجدت فيه فأنا مبارك ممتثل أمر ربى . وعن سفيان : جعلنى مُعَلِّم الخير ، آمرًا بالمعروف ، وناهيًا عن المنكر . (وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) : وأمرنى بأدائهما مدة بقائى حيًّا فى هذه الدنيا أمرًا مؤكدًا ، فلا أتوانى عنهما منذ يبدأ تكليفى بهما ، حتى ينتهى أجلى ، وقد اقتصر على الصلاة والزكاة من بين ما سوف يشرعه الله فى دينه لأهميتهما ، ويجوز أن يراد بالزكاة تطهير النفس من الرذائل وقد أوصانى بذلك . . .

٣٢ - (وَبَرًّا بِوَالِدَتِى . . .) الآية .

أى وجعلنى بارًّا بها امتثالًا لأمره بهذا البر ، فهى السبب فى وجودى فى هذه الدنيا بعد مشيئة الله تبارك وتعالى .

قال ابن عباس : لما قال : وبرًّا بوالدتى ولم يقل وبرًّا بوالدى ، علم أن هذا الصغير شىءٌ من جهة الله تعالى . ا هـ

وفى ذلك تأكيد لطهارة أمه ، وقرىء وبِرًّا بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة كأنه نفس البر .

(وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا) : أى ولم يجعلنى فى علمه الأزلى مستكبرا عن عبادته وطاعته وبر والدتى ، فأكون بذلك شقيًّا عاصيًا لربى عاقًّا لوالدتى ، وقال بعض السلف لاتجد أحدًا عاقًّا لوالديه إلَّا وجدته جبارًا شقيًّا .

٣٣ - (وَالسَّلَامُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ . .) الآية .

أى وحصنى الله بالسلامة والأمن فى الدنيا حين ولدت ، وفى القبر حين أموت ، وفى الآخرة يوم أبعث حيًّا ، فقد سَلِمَ عليه السلام فى أحواله كلها ، من غضب الله تعالى وعقابه ، وفى قوله عليه السلام تعريض بما يصيب مُتَّهِمِى مريم وأعدائها من اليهود ، من فزع واضطراب وما ينزل بهم من سوء العذاب . ونظيره « وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى »[1] . يعنى أن العذاب على من كذب وتولى ، حيث كان المقام مقام معارضة وعناد فهو منته إلى نحو هذا من التعريض .

---

(١) سورة طه ، من الآية : رقم ٤٧

(ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(يَمْتَرُونَ) : يختلفون ويتخاصمون .

(سُبْحَانَهُ) : تنزيهاً له جل وعلا عن النقائص .

(إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا) : أراده وحكم به .

التفسير

٣٤ ـ (ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . . .) الآية .

ذلك الذى قصصنا عليك من أمره هو عيسى بن مريم ، فليس أمره كما اعتقده اليهود أو النصارى. نقول ذلك (قَوْلَ الحَقِّ) : أى القول الثابت الذى لا ريب فيه . وقرىء بالرفع على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف أى هو قول الحق ، يعنى ذلك أن الكلام السابق هو قول الحق فى عيسى (الذِى فيهِ يَمْتَرُونَ) : أى يختلفون ويتنازعون فى شأنه ، فيقول اليهود إنه ساحر ويتهمون أمه بما هى بريئة منه ، ويقول النصارى إنه إلٰه أو ثالث ثلاثة . وقد كذبهم الله بما سبق من الآيات وبقوله :

٣٥ ـ (مَا كَانَ لِلهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ . . .) الآية .

لما ذكر الله سبحانه أنه خلق عيسى عبدًا نبيا ، نزه ذاته المقدسة عن اتخاذ الولد بتكذيب فرية المفترين ودحض بهتانهم فقال تعالى : « ماكَانَ لِلهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ » .

أى ما ينبغى وما يستقيم فى منطق عاقل أن يصف الله باتخاذ أى ولد لأنه سبحانه ليس من صفته اتخاذ الولد حيث إنه منزه عن الاحتياج إليه ولا إلى أحد من مخلوقاته ، « إن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا » .

(إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) : أى إذا أراد إيجاد أمر من الأمور تعلقت به إرادته أوجده بلا توقف بقوله كن فيكون ، فمن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد ، وهو من أمارات الاحتياج والنقص ، ومع دلالة الآية على تنزيهه تعالى صراحة ، فهى تشير ضمنا إلى تكذيب النصارى وتبكيتهم على قبح عقيدتهم . «ومِنْ» فى قوله «مِن ولَد» لإفادة التأكيد وقوله : « كُن فَيَكُونُ » على ما ذهب إليه كثير من أهل السنة ، تمثيل إيجاد ما تتعلق به الإرادة بلا توقف – تمثيله – بالطاعة الفورية من المأمور لآمره ، وليس المراد أنه إذا أراد إحداث شىء أتى بالكاف والنون ، ففى الكلام استعارة تمثيلية ، ويرى آخرون أن الأمر فى « كُنْ » محمول على حقيقته وأنه سبحانه أجرى سنته فى تكوين الأشياء أن يكوّنها بكلمة « كُنْ » أزلا ومن ذلك عيسى عليه السلام خلق بكلمة كن فكان . . .

٣٦ – (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ . .) الآية .

الظاهر أن هذا من تمام كلام عيسى عليه السلام وهو فى مهده ، يخبر به قومه بأن هذا الدين القيم هو دين الله الذى هو ربه وربهم – ويأمرهم بعبادته تعالى وبألا يشركوا به شيئاً . لأنه وحده المستحق للعبادة ، والسبيل إليه لا اعوجاج فيه ولا التواء كما يقول تعالى : (هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) : أى هذا الذى حدثتكم به عن الله من التوحيد طريق قويم ، من سلكه رشد وسعد ومن أعرض عنه ضل وشقى .

وروى أن عيسى بعد تبرئته لأمه مما تقدم ، عاد إلى حالة الأطفال فلم يتكلم إلا فى الوقت المناسب للكلام ولم يصل ولم يصم وهو ابن يوم أو شهر ، ولو دام نطقه وتسبيحه ووعظه وصلاته من وقت الولادة لكان هذا مما يُروَى ولا يكتم ، وإنما اقتصر حديثه على وقت اتهام أمه لتبرئتها ودفع الحد عنها [1] .

---

(١) انظر القرطبى ج١١ ص١٠٣ طبع دار الكتب المسألة الثالثة بعد قوله : (ولم يجعلنى جباراً شقيا) .

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ) : الأحزاب جمع ،مفرده الحزب وهو الطائفة وجماعة الناس ، والمراد بالأحزاب هنا من اختلفوا فى شأن عيسى عليه السلام من طوائف أهل الكتاب .

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا) : الويل الهلاك ، أو هو تفجيع من هول ما ينزل أو هو كلمة عذاب .

(فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : فى ضلال ظاهر لا يخفى على أحد .

(إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ) : أى تم الفصل بين أهل الجنة وأهل النار .

التفسير

٣٧ـ (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ . . .) الآية .

هذه الآية مرتبة على ما قبلها تنبيها على سوء صنيع أهل الكتاب حيث جعلوا ما يوجب الاتفاق فى شأن عيسى عليه السلام ، بعد أن تكلم فى المهد مبيّنا أنه عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ـ جعلوا ذلك منشأً للاختلاف فيه فطعن اليهود فى نسبه ، وغلت فيه النصارى ، فقالت طائفة منهم هو ابن الله ، وقالت أخرى هو ثالث

ثلاثة ، وقالت طائفة ثالثة هو الله ، وفى تهديد هؤلاء جميعا ووعيدهم يقول تعالى :

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) : أى فالهول المفزع والعذاب الأليم لهؤلاء الكافرين بعيسى عليه السلام يوم يقع الحساب والجزاء العظيم ، حين يتضح لهم أنه عبد الله ورسوله ، وأمه طاهرة نظيفة العرض ، وأن الله تعالى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، وأن مصيرهم السعير وبئس المصير ، وإنما أخر عقوبتهم إلى يوم الحساب ، لأنه لا يعجِّل بعقوبة من عصاه ، لعله يثوب إلى رشده ، ويتوب إلى ربه ، ويرجع عن غيّه « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ »(١) .

٣٨ - (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا . . .) الآية .

أى حين يأتوننا يوم القيامة للحساب والجزاء ، تكون أبصارهم حادة وأسماعهم قويّة فلا يكون أحد أسمع منهم ولا أبصر ، بعد أن كانوا فى دنياهم عُمياً وصُمّا ، فحالهم جدير بأن يتعجب منه ، وقيل هو تهديد وتخويف مما سيسمعون وينظرون يوم الموقف العظيم ، مما تنخلع له قلوبهم وتسود برؤيته وجوههم جزاء ما اقترفوا من صدّ وإعراض .

(لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : أى لكن الذين ظلموا أنفسهم فى الدنيا فى ضلال واضح بين ، حيث أغفلوا الاسماع والنظر ، فاعتقدوا كون عيسى إلها معبودا مع أنه بشر مثلهم حملته أمه كما حملتهم أمهاتهم ، وأكل وشرب واحتاج ، ولكنهم فى الآخرة يزول ضلالهم حين يسمعون الحق ويبصرون آياته ، فيعترفون بأنهم ظلموا أنفسهم ظلما بينا باعتقادهم الفاسد فى بنوة عيسى لله أو ألوهيته ، وهيهات أن ينفعهم ذلك الاعتراف بعد فوات الأوان . . .

٣٩ - (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى وأنذر الظالمين أيها النبيّ وخوّفهم من يوم القيامة الذى يتحسّرون فيه على ما فرطوا فى دنياهم ، وذلك حين يقضى الله فى أمرهم بسوء المصير وخالد العذاب - أنذرهم فى دنياهم

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٢

وخوفهم من ذلك وهم غارقون فى غفلة عن سوء مصيرهم فى هذا اليوم وحالهم أنهم لايؤمنون. فلعلهم بهذا الإنذار يفيقون من غفلتهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويؤمنون بربهم وبمحمد نبيهم ، فينجون من عذاب يوم الحسرة ، إن عذابه لأليم مقيم .

قال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا دَخل أهلُ الجنة الجنة وأهلُ النارِ النار ، يجاءُ بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ قال : فيشرئبون ويقولون نعم . هذا الموت . قال : فيقال يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ قال فيشرئبون ويقولون نعم هذا الموت . قال : فيؤمر به فيذبح . قال : ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة » وأشار بيده ، وقد أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث الأعمش به . ولفظهما قريب من ذلك .

ومجيء الموت فى هذه الصورة الحسية التى أبرزت فناءه بعد أن كان يميت الناس ، تبشيرٌ لأهل الجنة ببقائهم الدائم فى نعيمهم ، وتحزينٌ لأهل النار وتيئيسٌ لهم من مفارقة ماهم فيه من شقاء .

وقال أبو حيان : الضمير لجميع الناس — والمعنى : خوِّفهم قاطبة يوم يتحسرون ، فالظالمون يتحسَّرون على ما فرطوا فى جنب الله ، والمحسنون يتحسَّرون على قلَّة إحسانهم وتوهم تقصيرهم فى طاعتهم . .

٤٠ — (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا . . .) الآية .

يخبر الله تعالى أنه المالك المتصرف ، وأن الخلائق كلها تهلك وتفنى ، ولا يبقى غيره سبحانه ، فيكون ميراث الأرض ومن عليها له وحده وهو خير الوارثين .

(وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) : أى يردون إلينا يوم القيامة للجزاء والحساب لا إلى غيرنا استقلالاً عنَّا أو اشتراكاً معنا . .

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى
عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ
فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ
عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ
أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى
مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى
حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى
عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا
نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ
عَلِيًّا ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(الْكِتَابِ) : القرآن . (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً) : ملازماً للصدق .

(صِرَاطاً سَوِيًّا) : أى طريقا معتدلا لاعوج فيه ، والمراد اللين القيم الخالى عن الشرك .

(كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) : أى عاصيا . إذ العصى والعاصى بمعنى واحد . يقال عصاه فهو عاصى وعصى .

(فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) : أى نصيرا وقريناً تصاحبه فى النار .

(وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا)[1] : أى دهرًا طويلا .

(إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) : بمعنى أحاطنى بكثير من رعايته وإكرامه ، يقال حفى به كرضى ، حَفاوةً بفتح الحاء . وحِفاية بكسرها فهو حاف وحفى بالغ فى إكرامه وأظهر السرور والفرح . . . .

التفسير

٤١ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ . .) الآية .

العطف فى الآية الكريمة على « اذكر » فى قوله تعالى : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ » أو على « أنذرهم » فى قوله سبحانه : « وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ » أى اتل أيها النبى على قومك نبأ إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم ، وبلغهم قصته . فقد عرفوا أنهم من ولده وينتمون إليه ، ويدعون أنهم على ملته ، فعساهم يقلعون عما هم فيه من القبائح التى من أشنعها عبادة الأصنام .

(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا) : أى جامعاً بين ملازمة الصدق فى كل شئونه ما يأتى منها وما يدع ، وبين النبوة ، فهما وصفان متأصلان فيه وفق إعداد الله له ، وقال الكشاف : الصدِّيق من أمثلة المبالغة . والمراد أنه غلب كل من عداه فى فرط صدقه ، وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله وكل ما وصل إليه عن الله تعالى ، فكان نبياً فى نفسه بخلقه وسيرته ، لأن ملاك أمر النبوة الصدق وقد صدق فى قوله وعمله ، وصدّق الأنبياء والمرسلين قبله . كما يقول تعالى « بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ »[2] . ومن صدقه الله بآياته ومعجزاته حرى أن يكون كذلك . انتهى باختصار .

---

(١) من الملاوة - مثلثة الميم - وهى مدة العيش ..

(٢) سورة الصافات ، الآية : ٣٧

وجملة « إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا » استئناف مسوقٌ لبيان الحكمة فى ذكر قصة إبراهيم عليه السلام فى الكتاب والتنويه بشأْنه ، فكأَنه قيل : واذكر فى القرآن إبراهيم لأَنه كان صدّيقاً نبياً ، فهو جدير بأَن يذكر فيه تنويها بشأْنه . .

٤٢ - (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ . .) الآية .

سلك إبراهيم عليه السلام فى دعوة أَبيه إلى ترك عبادة الأَصنام أَقوم منهاج للنصح والإرشاد ،حيث التزم معه الأَدب الحسن ، والتواضع الجم ، والحجة الواضحة ، لئلا يركب متن المكابرة والعناد ، فيعرض عن الاستماع إليه بادىء ذى بدء ، ويَنْكُبَ عن كل طريق قويم يدعوه إلى سلوكه . فقد تقدم إليه فناداه بقوله : « يَا أَبتِ » ليحرّك فيه بهذا النداء الحانى عاطفة الأُبوة ، فيستمع إلى استفهامه وهو ينكر عليه عبادة مالا يستحق أَن يعبده ، حيث قال : « لِمَ تَعْبُدُ مَالا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ » أى لم تعبد مالا يسمع ثناءك عليه عند عبادتك إياه ، وما تلتمسه منه من جلب نفع أَو دفع ضرّ ، ولا يبصر خضوعك له وخشوعك فى حضرته وما تقدمه إليه من صلات وقرابين ، أَو لا يسمع ولا يبصر شيئاً من المسموعات والمبصرات ، فيدخل فى ذلك ما ذكر سابقا دخولا أوليا .

(وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا) : أَى لا يقدر على أَن يجلب لك نفعا أَو يدفع عنك ضرا ، فهو بهذا التساؤل يطلب من أَبيه الجواب عن علة عبادة هذا الذى يستخف به كل عاقل من عالم أَو جاهل ويأْبى الركون إليه ، فضلا عن عبادته التى هى الغايةُ البالغة من الإكبار والتعظيم ، وهى لا تحق إلا لمن له الاستغناءُ التام ، والإنعام العامّ والخلْق والتكوين ، والإحياءُ والإماتة ، وفى هـذا تنبيه على أَن العاقل يجب أَن يفعل كل ما يفعل لغرض صحيح وإدراك قويم ، فكيف يتخذ غير الله معبودًا وإن علا شأْنه ، إذ أَنه مثله فى الحاجة والانقياد . فما ظنك بجماد مصنوع ليس له أَوصاف الأَحياء ، وليس فيه غناءٌ ، إنه إفك وضلال بعيد . .

وبعد أَن بين له فى رفق وحكمة ضلاله الكبير بعبادة الأَصنام ، دعاه إلى الحق المبين والعلم الإلهى الذى آتاه الله إياه ، ملتزما معه أُسلوب الاستمالة والاستعطاف فقال :

٤٣ - (يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى . .) الآية .

لم يصف أباه بالجهل المفرط ، وإن كان قد بلغ فيه الغاية ، ولا وصف نفسه بالعلم الفائق الذى منحه الله إياه فهو نبىٌّ مرسل ، بل جعل نفسه معه فى صورة رفيق يصاحبه ويخلص له ، حتى يستميله إلى ما يدعوه إليه ، فيسير إلى جانبه فى طريق الهدى والرشاد ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

(فَاتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا) : أى فاتبعنى إلى ما أدعوك إليه ، أرشدك إلى دين قويم يوصلك إلى أسنى المطالب ويبعدك عن الضلال المؤدى إلى أفدح المعاطب . .

والظاهر أن هذه المحاورة كانت بعد أن نُبِّىءَ ، بدليل قوله : « جَآءَنِى من الْعلم مَا لَمْ يَأْتِكَ » أى جاءنى العلم بما يجب فى حقه تعالى وما يمتنع وما يجوز ، على أتمّ وجهٍ وأكمله . وقيل العلم بأمور الآخرة وثوابها وعقابها ، وقيل بما يعم ذلك . وهو الأنسب . . . . وقد واصل إبراهيم نصحه لأبيه فقال :

٤٤ - (يَـٰٓأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ . .) الآية .

وهنا ثبطه عما كان عليه ، بتصوير صنيعه بصورة يستنكرها كل عاقل . وذلك .

ما حكاه الله سبحانه بقوله : « لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ » أى لا تطع الشيطان فى عبادتك هذه الأصنام التى عكفت عليها ، فإنه هو الداعى إلى ذلك يغريك به ، ويدفعك إليه ، ومن أطاعه فى معصية الله فقد عبده .

(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا) : تعليل للنهى عن عبادة الشيطان وتأكيد له ببيان أنه لا يَعْرف للرحمن حقا ، فلهذا كان له عصيًا ، أى كثير العصيان حين لم يمتثل أمر ربه بالسجود لآدم ، ثم حرضه على معصية ربه بالأكل من الشجرة التى حرمها الله عليه ، حتى تسبب فى إخراجه من الجنة ، وكل من هو عاصٍ حقيق بأن ينتقم الله منه .

والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته ، لأنه أكثر قبحا ، أو لأنه مترتب على معاداته لآدم عليه السلام وذريته ، فتذكير أبيه بذلك داع إلى الاحتراز عن طاعته وموالاته ، والتعبير بلفظ الرحمن مشير إلى الإنعام والرحمة منه تعالى والشناعة البالغة من الشيطان لعصيانه للرحمن سبحانه ، إذ أن رحمته تستوجب طاعته جل وعلا . . .

٤٥ - (يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ . .) الآية.

لا يزال الحديث متصلا بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه ، فإنه فى هذه الآية يحذره عاقبة عبادته للشيطان من العذاب الفظيع ، وهو فى تحذيره إياه يبرز له ما يشير إلى مزيد من المجاملة له والاعتناء به . حيث بين أنه مدفوع لذلك النصح بدافع الخوف عليه مما يُبْتلى به ،مع مراعاة الأدب معه حيث لم يصرح له بأن العذاب لا صق به ، والعقاب واقع عليه بل قال : إنى أخشى أن يمسك عذاب من الرحمن .

(فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وليـاً) :أى قرينا له ومصاحبا إياه فى العذاب الأليم ،واللعن الدائم . ومواجهتُهُ بولاية الشيطان التى يترتب عليها مَسُّ العذاب الشديد مع أن المقام معه مقام إظهار الشفقة عليه . لأن القسوة أحيانا تكون من الرحمة والشفقة كما قال الشاعر :

فَقَسَا لِيزْدَجِرُوا وَمَنْ يكُ حازماً فَلْيَقْسُ أحيْاناً عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

٤٦ - (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَـٰٓإِبْرَاهِيمُ . .) الآية .

تمادى أبو ابراهيم فى عناده وإصراره على كفره فقال : « أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى يَـٰٓإِبْرَاهِيمُ » حيث توجه إلى إبراهيم عليه السلام باستفهام يستنكر به رغبته عن آلهته وانصرافه عنها . مع ضرب من التعجب . كأن الرغبة عنها فى تقديره مما لا ينبغى أن يصدر عن العاقل ، فكيف بمن يعمل مع ذلك جاهدا على ترغيب غيره عنها ! ثم قال له محذرا ومتوعدا :

(لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ) : أى لئن لم تترك ما أنت عليه من النهى عن عبادتها ، والدعوة إلى ما دعوتنى إليه من التوحيد . لأرجمنّك بالحجارة ، على ما روى عن الحسن . وقيل باللسان والمراد لأشتمنّك وروى ذلك عن ابن عباس . . .

(وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا) : أى وابتعد عنى بهجر جوارى دهراً طويلا ، حتى لا يقع بك ما حذرتك منه . وقال على بن طلحة وغيره عن ابن عباس : « وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا » – قال : سالما سويا قبل أن تصيبك منى عقوبة ، واختاره ابن جرير الطبرى : انظر ابن كثير . .

٤٧ - (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى . . .) الآية .

لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بما يسىء إليه ردعا له ، بل أجابه بما عوّده إياه من احتمال له ، وتلطف به ، ومقابلة للسّيئة بالحسنة ، فقال له : « سَلَامٌ عَلَيْكَ » أى أمان واطمئنان

فلا أجيبك بمكروه ، ولا أشافهك بما يؤذيك . فهو سلام توديع ومفارقة أو تقريب وملاطفة ، ولذا وعد أباه فى الآية بالاستغفار . ومن قال إن سلامه على أبيه كان تحية مفارق ، فهذا على رأى من يجوز تحية الكافر بدءًا أو إجابةً . قيل لابن عيينة هل يجوز السلام على الكافر ؟ قال نعم ، قال الله تعالى : « لَايَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ[1] » الآية . « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى » بمعنى أنى سأطلب منه متضرعا إليه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ، ويهديك إلى الصراط المستقيم فيكون استغفاره له مرادا منه طلب الهداية له ، والاستغفار للكافر بهذا المعنى جائز قبل موته على الكفر أو تحقق أنه لن يؤمن وكان هذا الاستغفار لأبيه على هذا النحو ناشئا عن موعدة وعدها آزر إبراهيم عليه السلام بأن يؤمن بما جاءه به فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدوّ لله تبرّأ منه كما قال تعالى : « فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ »[2] .وقد استغفر له مدة طويلة قبل انقطاع رجائه فى إيمانه ،كما تشير إلى ذلك هذه الآية وغيرها من الآيات التى تشتمل على قصته كقوله تعالى : « رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ »[3] .

(إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا) : أى بليغا فى البر بى والإكرام لى ، فلهذا أرجو أن يجيبنى إذا دعوته . .

٤٨ ــ (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ . . .) الآية .

أى وأجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله حفاظا على دينى ، حيث لم ينفعكم ما قدمته لكم من نصح وإرشاد (وَأَدْعُو رَبِّى) : وأتجه إليه وحده بعبادتى ، كما يفهم من اجتناب غيره من المعبودات ، والمراد من الدعاء العبادة . وجوز أن يراد به الدعاءُ مطلقا ، فتدخل فيه العبادة لما فيها من الدعاء ، ولا يبعد أن يريد بدعائه ربه أن يطلب منه الولد ، كما فى قوله تعالى : « رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ » .

(عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا) : خائبا ضائع السعى عديم الأثر ، وفيه تعريض بشقائهم فى عبادة آلهتهم ولفظ عسى يستعمل للترجّى ، ولكنها هنا تفيد القطع بعدم

---

(١) سورة الممتحنة ، من الآية : ٨ (٢) سورة التوبة ، من الآية : ١١٤

(٣) سورة ابراهيم ، الآية : ٤١

شقائه بدعائه ربه ، لأنَّ من يدعو الله لا يكون شقيا ، ولأن إبراهيم عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون شقيا بدعاء ربه ، ويحمل التعبير بها على التواضع وحسن الأدب ، والتنبيه على أن الإثابة والإجابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب ، وأن العبرة بالخاتمة ، وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير . أفاد هذا روح المعانى...

٤٩ - (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ . . .) الآية .

أى فلما ترك ديار أبيه وقومه مهاجرًا إلى الشام ، أبْدَ لَهُ الله من هو خير منهم ، كما قال سبحانه : (وهَبْنَا لَهُ إسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) : عن ابن عباس وغيره : آنسنا وحشته بولد ا هـ .

ونص هنا على أن الموهوب له بعد الهجرة هو إسحاق وابنه يعقوب ، لأنهما هما اللذان ولدا بالشام التى اعتزلهم إليها ، وكانا من ذرية «سارة» وهذا لا يمنع من أنه وهب له قبل ذلك إسماعيل ، فهو ابنه البكر من جاريته «هاجر» . ويدل لذلك قوله تعالى : « أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ »[1] . كما يدل له التبشير بإسحٰق عقب قصة الذبيح مكافأة له على شروعه فى ذبحه بعد أن أُمِرَ به فى منامه ، قال تعالى فى سورة الصافات : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ »[2] .

ولعل ترتب هبة إسحٰق ويعقوب فحسب على اعتزاله لقومه لإبراز كمال النعمة التى أعطاها الله إياه ، لما خصهما به من أولاد وحفدة أولِى شأن خطير وذوى عدد وفير ، وهما شجرتا الأنبياء الكثيرين ، من عرف منهم ومن لم يعرف (وكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا) : أى وكل واحد من إسحٰق ويعقوب وهبه الله النبوة فى حياة إبراهيم عليه السلام ، فأقر الله عينه بنبوة ابنه وحفيده قبل وفاته ، بعد أن حقق له بشارة ملائكته بميلاد إسحٰق ومن وراء إسحٰق يعقوب فى حياته مع كبر سنه وعقم زوجته .

(وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا) : والمقصود بالرحمة التى وهب لهم كل خير دينىّ ودنيوىّ أوتوه . وقال الحسن : الرحمة النبوة . وذكرت بعد جعلهم أنبياء للإيذان بأن النبوة

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٣٣

(٢) سورة الصافات ، الآية : ١١٢

من الرحمة التي يختص بها من يشاء. وقال الكلبي : الرحمة المال والولد، والرأى الأول أشمل وأعم .

(وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) : أي أثنينا عليهم ثناء حسنًا ، وجعلنا جميع الأمم والملل تطريهم مهما تباعدت الأعصار ، وتعاقبت الأزمنة . وإضافة لسان إلى صدق ووصفه بقوله : « عليًّا » للدلالة على أنهم حقيقون بالثناء عليهم ، وأن محامدهم لا تخفى على أحد ، صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(الْكِتَابِ) : المراد به هنا القرآن كما تقدم .

(مُخْلَصًا) : مختارًا ، أي أخلصه الله واختاره .

(رَسُولًا نَّبِيًّا) : رفيع القدر من النَّبْوَة بمعنى العلو والرفعة أو من النبإ وهو الخبر .

(وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا) : مناجيًا من المناجاة وهي المسارَّة بالكلام .

التفسير

٥١ - (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا . . .) الآية .

لما أمر الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يذكر لقومه قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن تعظيمًا لشأنه وبيانًا لجهاده في توحيد ربه ، عطف عليها أمره إياه بذكر نبإ الكليم عليه السلام بيانًا لقدره وثناء عليه .

والمعنى : واذكر أيها الرسول في القرآن موسى تعظيمًا لشأنه فإنه كان مُخْلَصًا من كل ما يشينه ، وقرىء بكسر اللام بمعنى أنه أخلص لله عبادته - حتى كانت منزهة عن الشرك والرياء .

(وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا): مرسلًا إلى الخلق لتبليغ رسالة ربه وأحكام دينه ، كما كان رفيع القدر عظيم المنزلة عند ربه ، حيث اصطفاه على الناس برسالاته وبكلامه ، وجعله نبيًّا لقومه ، يخبرهم برسالته وما اشتملت عليه من التوحيد والشرائع .

وقد جمع له بين الوصفين : الرسالة والنبوة ، وهو تشريف له عظيم .

٥٢ - (وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا . . .) :

أى كان النداءُ مقبلًا من جانب الطور الأيمن لموسى عليه السلام ، والطور الذى حصل النداءُ من جانبه ، جبل فى سيناءَ التابعة للقطر المصرى ، ويجوز أن يكون الأيمن من اليمن والبركة ، فيكون وصفًا لجانب ، أى من جانبه الميمون المبارك ، وكان موسى عائدًا من مدين إلى مصر ومعه زوجته بنت شعيب ، ومن تلك الجهة التى على يمينه أو الميمونة ظهر له كلام الله تعالى الذى ناداه به ، وقربه بسببه تقريب تكريم وتشريف ، حيث اختاره لمناجاته ومسارَّته . مثَّل حاله عليه السلام ، بحال من قرَّبه الملك لمناجاته ، ورفع الوسائط بينه وبينه ثقة به وإعلاءً لقدره ، فالتقريب معنوى لا حسِّى ، تعالى الله عن الحلول بمكان وعن الجسدية والقرب المكانى « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[(١)] .

٥٣ - (وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا . . .) :

المعنى : من أجل رأفتنا بموسى عليه السلام ، ورعايتنا لشأنه ، وهبنا له مساعدة أخيه هارون ومؤازرته ، استجابة لدعوته التى طلبها بقوله : « وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى هَارُونَ أَخِى »[(٢)] . ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد شفاعة فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبيًّا . ذكره ابن كثير .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ١١

(٢) سورة طه ، الآيتان : ٢٩ ، ٣٠

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾)

التفسير

٥٤ - (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ . . .) الآية .

الذى ذهب إليه الجمهور ، أنه إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وهو الحق ، وفصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه ، بذكر موسى عليهم السلام ، لإبراز كمال العناية بأمره ثناء عليه بأشرف الخلال التى أشار إليها قوله سبحانه : (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) .

وهذه الجملة تعليل لإيجاب الأمر بذكره فى الكتاب ، ووصف عليه السلام بأنه كان صادق الوعد لكمال شهرته به ببلوغه درجة من الوفاء لم تعهد من غيره ، ولا أدلّ على ذلك من أنه وَعَدَ بالصبر على الذبح بقوله : « سَتَجِدُنِى إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ »[1] . فوفّى وصدق ،وقيل لم يَعِدْ ربه موعدًا إلّا أنجزه وإنما خصه الله بالوعد الصادق ، وإن كان ذلك موجودًا فى غيره من الأنبياء تشريفًا له وإشارة إلى أنه بلغ فيه الغاية العظمى .

(وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا) : أى كان رسولًا إلى قبيلة جرهم على شريعة أبيه إبراهيم عليهما السلام ، فإن أولاد إبراهيم جميعًا كانوا على شريعته . وكان « نَبِيًّا » يخبرهم بتلك الشريعة مع تبشير الطائعين وإنذار المفرطين ، والجمع لإسماعيل بين وصفى الرسالة والنبوة إشارة إلى عظيم مكانته عند الله ، وقد دلت الآية على أنه لا يشترط فى الرسول أن يكون صاحب رسالة خاصة وشريعة مستقلة ، فقد بعث إسماعيل بشريعة أبيه إبراهيم إلى جرهم ، ولعل ذلك بسبب معاصرته لأبيه إبراهيم ، وأن إبراهيم لم يكن رسولًا مباشرا لجُرْهم والله أعلم .

---

(١) سورة الصافات ، الآية : ١٠٢

٥٥ ـ (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ . . .) الآية .

هذا أيضًا من الثناءِ الجميل على إسماعيل عليه الصلاة والسلام لأنه كان يأمر عشيرته وذوى قرباه بإقامة الصلاة وإيتاءِ الزكاة والمثابرة وبذل الجهد اشتغالًا منه بالأهم ، وهو أن يبدأ بتكميلهم بعد تكميل نفسه ، ويشير إلى هذا قوله سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : « وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ »[1] وقوله : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا »[2] ولا شك أن الأنبياءَ وأهليهم قدوة لأممهم ، فلهذا كان معنيًا بتكميل نفسه وأسرته ، والمراد بالصلاة والزكاة معناهما المعروف،فالصلاة إشارة إلى العبادة اليومية والزكاة إشارة إلى العبادة المالية . وقيل : المراد بالزكاة مطلق الصدقة ،وقيل تزكية النفس وتطهيرها .

(وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) : لاتصافه بأكمل النعوت وأشرفها ، حيث استقامت أقواله وأفعاله ، فكان عند ربه موضع الرضا والتكريم .

(وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾)

المفردات :

(وَاجْتَبَيْنَا) : واصطفينا. (خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) : خر الشيءُ سقط وهو من باب ضرب والمراد بخرورهم سجدا :وضع جباههم على الأرض.وسجّدا ، جمع ساجد ، وبُكيًّا ، جمع باكٍ .

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٢١٤ (٢) سورة التحريم ، الآية : ٦

التفسير

٥٦ - (وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ . . .) الآية .

إدريس عليه السلام اسمه أعجمى وليس مشتقا من الدرس لأن الاشتقاق من غير العربى لم يقل به أحد ، وهو أول من نظر فى النجوم والحساب وجعل الله ذلك من معجزاته كما فى البحر ، كما قيل إنه أول من خط بالقلم ، وخاط الثياب ، ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة ، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ، فكان أول مرسل من بنى آدم .

ولكن هذه التفاصيل لم ترد فى السنة النبوية ، والله أعلم بصحتها ، وحسبنا فى أمره قوله تعالى : (إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياً) : أى ملازما للصدق فى كل أمر من أموره متصفاً بالنبوة تتويجا لصدقه الكامل .

٥٧ - (ورَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) : هوالنبوة والزلفى عند الله تعالى لأنه كان صوَّاما قوَّاما ، يعبد الله ويكثر عبادته ، وقيل المكان العلى الجنة كما روى عن الحسن ، ولا شىء أعلى من الجنة . وقد صح فى حديث المعراج أنه صلى الله عليه وسلم رآه فى السماء الرابعة وأنه رحب به ودعا له بخير ، وعلى هذا يكون المراد من المكان العلى السماء الرابعة ، وقيل الذكر الجميل فى الدنيا وعلو المرتبة .

٥٨ - (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ . .) الآية .

إشارة إلى الأنبياء المذكورين فى السورة الكريمة ، والإتيان بإشارة البعيد (أولئك) للتنبيه إلى علو مراتبهم . وبعد منازلهم فى الفضل والشرف بما أنعم عليهم سبحانه من عظيم النعم الدينية والدنيوية .

(وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَآئِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) : أى وممن هديناهم إلى الحق ، وشرّفناهم بالنبوة والكرامة .

قال السدى وابن جرير رحمه الله : فالذى عنى به من ذرية آدم إدريس ، والذى عنى به ممن حملنا مع نوح إبراهيم ، والذى عنى به من ذرية إبراهيم ، إسحق ويعقوب وإسماعيل والذى من ذرية إسرائيل[1] ، موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم .

قال ابن جرير ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح فى السفينة وهو إدريس ، فإنه كما قيل كان جَدَّ نوح عليه السلام ، وقال القرطبى هذا خطأ .

(إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) : أى إذا سمعوا كلام الله المشتمل على حججه وبراهينه أسرعوا ساجدين لربهم خضوعاً وخشوعاً واستكانة - تلهج ألسنتهم بشكره وحمده على ما وهبهم من نعم سابغة . وآلاء عظيمة ، تذرف أعينهم دموع المهابة منه . فلا ترى أحدا منهم إلا باكيا شعورا منه بالعجز عن تقدير حقه عليه كما ينبغى له ، مهما قدم من عمل وبذل من جهد ، تلك صفوة مختارة تعلقت نفوسهم بجلاله وامتلأت قلوبهم بهيبته والإذعان له . « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » . . .

(۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(خَلْفٌ) : الخلْف ، بسكون اللام : الولد الطالح الشرير ، والْخَلَف ؛ بفتح اللام وسكونها الولد الصالح أو من يأتى بعد مطلقًا ، أو البدل . (غَيًّا) : الغى ؛ الضلال والهلاك أو السوء .

---

(١) إسرائيل:هو يعقوب .

٥٩ - (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ . . .) الآية .

أى فجاء من بعد هؤلاء الأنبياء وهم المثل العليا فى التقوى والصلاح والمحافظة على أداء الصلاة فى أوقاتها تامة الأركان حافلة بالخشوع والخضوع - جاء من بعدهم طائفة مفطورة على الشر مستمسكة به بعيدة عن التقوى والصلاح ، متهاونة فى أداء الصلاة فى أوقاتها أو تاركة لها أو لبعض أركانها ، أو مغيّرة لصورتها المشروعة ، واتبعوا فى دينهم وسلوكهم شهواتهم . (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) : فسوف يجدون فى الآخرة ، ضلالًا عن طريق الجنة ، وعذابًا سيئًا فى جهنم « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » ثم فتح باب الأمل للتائبين فقال سبحانه :

٦٠ - (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) .

أى أن الذين خلفوا الأنبياء بما يناقض عقائدهم وأعمالهم سيلقون جزاء انحرافهم غيًّا أى ضلالًا وسوء عاقبة ، لكن من رجع إلى الله وتاب عن غوايته وأناب إلى ربه وآمن به إيمانًا صادقًا وعمل عملًا صالحًا فأولئك التائبون المؤمنون الصالحون يدخلهم الله الجنة ولا يعاقبهم بما أسرفوا على أنفسهم فإن الإيمان الصادق يَجُبُّ ما قبله من السيئات ، والتوبة تمحو الحوْبة ، ورحمة ربى وسعت كل شىء ، قال تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ »[1] .

(١) سورة الزمر ، الآيتين : ٥٣ ، ٥٤

(جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾)

المفردات :

(جَنَّاتِ عَدْنٍ) : جنات إقامة وثبات واستقرار .

(بِالْغَيْبِ) : الغيب ما غاب عن المشاعر .

(مأْتِيًّا) : يأتيه من وعد به لا محالة ، وقيل : (مأْتِيًّا) مفعول بمعنى فاعل أى آتيا .

(لَغْوًا) : اللغو العبث أو الضلال أو ما لا فائدة فيه من القول والعمل .

(بُكْرَةً وَعَشِيًّا) : البكرة أول النهار إلى طلوع الشمس ، والعشى من الزوال إلى غروب الشمس ، والمراد : أن رزقهم دائم ، لأنه لابكرة ولاعشى فى الجنة .

التفسير

٦١ - (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) :

انتقلت الآيات إلى وصف الجنة التى وعد الله بها التائبين ، وقدجاء فى وصفها هنا أنها جنات عدن ، أى جنات إقامة واستقرار وثبات ، والله لا يخلف وعده ، فإن وعده آت لامحالة ، « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا »[1] .

---

(١) النساء ، الآية : ٨٧

٦٢ - (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) :

ومن صفات هذه الجنات أنها خالية من العبث والفحش والضلال وما لا فائدة فيه فلا يسمعون فيها ما يعكر عليهم صفاءهم وإنما يسمعون فيها التحية وأحاديث السلام ، ويتمتعون فيها بالرزق الطيب المتاح لهم دائما ، جزاء لما قدموا من توبة وإيمان وأعمال صالحات فى دنياهم .

٦٣ - (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا) :

هذا شروع فى تعظيم الجنة وبيان من يستحقونها ، والمعنى أن هذه الجنة أعدها الله لمن كان تقيًّا يخشى الله ويبادر بالتوبة إذا أذنب ويستمسك بالإيمان والعمل الصالح ، والتعبير عن استحقاق الجنة بميراثها للإيذان بكمال استحقاقها ، بما يشبه الميراث فى القوة والثبوت .

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(نَتَنَزَّلُ) : نهبط . (مَا بَيْنَ أَيْدِينَا) : ما نستقبله من الشئون المختلفة .

(وَمَا خَلْفَنَا) : ما تركناه خلفنا منها . (نَسِيًّا) : كثير النسيان . (سَمِيًّا) : شبيهًا ومثيلًا .

التفسير

٦٤ - (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) :

هذا القول إما أن يكون من الأتقياء الذين ورثوا الجنة ، فيكون المعنى أنهم ما يتنزلون إلى وراثة الجنة إلّا بفضل الله الذى له ما بين أيديهم من شئون الآخرة ، وما تركوه وراءهم من أمور الدنيا وما بين ذلك من شئون البرزخ ، فهو المهيمن عليهم فى الدنيا والآخرة ، وإما أن يكون من كلام جبريل عليه السلام بأمر ربه ، يحكيه عنه القرآن الكريم ، فقد أخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وجماعة عن ابن عباس فى سببه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه الصلاة والسلام : (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت : « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ »). والمعنى على هذا - وما ننزل إليك أو إلى شأن من شئون الملكوت برغبتنا ، وإنما ننزل بأمر ربك تنفيذًا لمشيئته ، فإن زمام جميع الأمور بيد الله وحده فهو المالك لما بين أيدينا من أمر المستقبل وهو المسيطر على ما خلفنا من شئون الماضى وما هو كائن بين الماضى والمستقبل من الحاضر ، وهو الذى يصرفنا بما يشاءُ كيف شاءَ بما تقتضيه حكمته الإلٰهية ، وهو سبحانه منزَّه عن السهو والنسيان فلن يغفل عنك فإنه ربك المنعم المتفضل الذى منَّ عليك برسالته .

٦٥ - (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) :

أى أنه سبحانه رب الكائنات جميعها من سموات وأرضين وما بينهما من القوى والعوالم الكونية ، فهو سبحانه الخالق المدبر فكيف ينساك أو ينسى سواك « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » [١] .

(فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) : وبما أنه هو الخالق المدبر المسيطر على الزمان والمكان ، فتوجه أنت وأمتك إليه وحده بالعبادة واصبر على ما تقتضيه العبادة من جهود وتكاليف كما قال سبحانه : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » [٢] .

(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) : أى أنك يا محمد لا تعلم له سبحانه مشاركًا فى اسم الربوبية للسموات والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه لا شريك له فى ذلك مطلقًا ، ومن كان كذلك وجب إفراده بالعبادة والصبر عليها .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٥٤ (٢) سورة طه ، الآية : ١٣٢

(وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(جِثِيًّا) : جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه .

(شِيعَةٍ) : جماعة متقاربة مشتركة فى الميول .

(عِتِيًّا) : طغيانًا وعصيانًا .

(صِلِيًّا) : احتراقًا .

التفسير

٦٦ - (وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) :

القائل هنا أُبَىُّ بن خلف وقيل الوليد بن المغيرة ، وسواءٌ صح هذا أو ذاك سببًا لنزول الآية ، فهى عامة فى كل منكر للبعث والنشور ، أو شاك فى أن يعود حيًّا بعد أن تبلى عظامه فيقول هذا منكرًا أو متعجبًا - فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٦٧ - (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) :

كرر ذكر الإنسان فى التذكير بالبعث ، لأنه يتميز بالعقل وكان عليه أن يتذكر أن الله سبحانه خلقه من العدم وأنه برز إلى الحياة بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا ، كما قال سبحانه

لعبده ورسوله زكريا : «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا »[١] . فالذى خلق الإنسان ولم يكن شيئا يذكر قادر على إعادته بعد الموت وقد أصبح شيئا « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ »[٢].

والمعروف لدى الإنسان أن الإعادة أهون من البدء كما قال سبحانه : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ »[٣] .

واعلم أن البدء والإعادة سواء عند الله فى اليسر والسهولة ، فإنه سبحانه يقول للشىء كن فيكون ، ولكن الله يخاطب عباده بما اعتادوا من أن الإعادة أهون عليهم من البدء ، فكيف يستبعدون البعث على الله ، وهو إعادة بعد بداية .

٦٨ ـ (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) :

أقسم الله سبحانه بربوبيته مؤكدًا بعثهم بعد الموت وحشرهم إلى موقف الحساب وكل منهم مقرون بشيطانه الذى صرفه عن عبادة الله ، وجذبه إلى اتباع أهوائه وشهواته فينال كل منهما جزاءه العادل .

(ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا) : ثم لنحضرنهم بعد الحشر والحساب إلى جهنم ليشهدوا مصيرهم المحتوم وليرى المؤمنون عاقبة الكفار وجزاءهم الرهيب وهم باركون على ركبهم ، كما قال تعالى : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »[٤].

٦٩ ـ (ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا) :

ثم لنخرجن للعذاب أشدهم عتوًّا وطغيانًا وتمرداً على الرحمن الرحيم ، المنعم على الجميع بالخير والفضل العظيم ، ويستمر نزع أعتاهم فأعتاهم ، إلى أن يحاط بهم ، فإذا اجتمعوا

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٩

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٩

(٣) سورة الروم ، الآية : ٢٧

(٤) سورة الجاثية ، الآية : ٢٨

طرحناهم فى النار على الترتيب ، فنقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم ، قال ابن مسعود فى تفسير الآية : يحبس الأول على الآخر ، حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعًا ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرمًا : ا هـ

وذلك قوله تعالى :

٧٠ـ (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا) :

ثم لنحن نعلم أكمل العلم ، ونعرف أوسع المعرفة من هو أشد استحقاقًا للاحتراق بنار جهنم منهم ، ولقد سجلنا عليهم جميع أعمالهم فى كتاب : « لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَاهَا »[1] لتكون حجة عليهم .

(وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(وَارِدُهَا) : داخلها أو مار عليها .

(حَتْمًا مَّقْضِيًّا) : قضاءً نافذًا مبرمًا .

(جِثِيًّا) : جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه .

(مَقَامًا) : المراد بالمقام الإقامة أو موضعها

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٤٩

(وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) : الندى موضع اجتماع القوم ومكان حديثهم ، فإن تفرقوا فليس بندى قاله الجوهرى : وهم يريدون بكونهم أحسن نديًّا ، أنهم فى الآخرة فى أحسن مكان حيث يجتمعون فى الآخرة فى نَدِيِّهِمْ على فرض البعث والنشور .

التفسـير

٧١ - (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا) .

روى الحاكم وأحمد وابن ماجه بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم : (الورود الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم بردا وسلاما حتى أن للنار ضجيجاً من برْدِهِمْ) « ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا » . وفى هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فيما رواه الشيخان : (لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحِلَّةَ القَسَم) والمراد تقليل زمان المس ، والمقصود من القسم ما يفيده قوله سبحانه : « وإن مِّنكُمْ إلاَّ وَارِدُهَا... » الآية . فهو فى حكم القسم فى التأْكيد ، وقد أفادت الآية أن كل إنسان يرد على النار فينجو المؤمن منها ، ويبقى الكفار فيعرف المؤمن منة الله عليه بنجاته من هذا المصير الرهيب .

٧٢ - (ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) :

ثم نكتب النجاة للمتقين وندع الظالمين جاثمين فى نار جهنم .

ويذهب بعض المفسرين إلى أن الجميع يمرون على الصراط فيجوزه المؤمنون ويتساقط الظالمون فى جهنم ، معتمدين على ما رواه مسلم فى صحيحه : ثم يضرب الجسر على جهنم وهو دحضٌ[1] مَزَلَّةٌ[2] ، فيه خطاطيفُ وكلاليبُ وحسكٌ... فيمر المؤمنون كطرْف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأَجاويد الخيل والرِّكاب فناج مُسلَّم ، ومخْدُوشٌ مُرْسلٌ ، ومكدوس فى نار جهنم[3] .

---

(١) الدحض: الزلق .

(٢) والمزلة: موضع الزل وهو السقوط .

(٣) أى ملقى فى جهنم مجتمع فيها مع من سبقه .

ويذهب بعض آخر من المفسرين إلى أن المؤمن يرد على النار فى الدنيا ، بأن تصيبه الحمى لأنها من فيح جهنم ، كما ورد فى الحديث الشريف، روى أحمد والحاكم وابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم زار مريضاً بالحمّى فقال له : « أَبْشِرْ فإنَّ الله تعالى يقول : هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن فى الدنيا لتكون حظه من النار يوم القيامة » وروى البزار عنه صلى الله عليه وسلم : « الحُمَّى حَظُّ أُمَّتِى مِنْ جَهَنَّم » .

٧٣- (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَىُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) :

أى أن من أسباب بقاء الظالمين فى جَهَنَّم جثيا ، أنهم اغترُّوا بالدنيا وفضلوا أنفسهم على المؤمنين بما نالوه من حظوظها ، وانصرفوا عن سماع آيات الله الواضحة البينة القوية المعجزة قائلين : ما بالُنا إنْ كنا على باطِل - أكثرُ أموالا وأعزُّ نفرًا « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ[1] . قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ . وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى . . . »[2] .

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾)

(١) وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين ، وإيهامهم أن من كثر ماله فهو المحق فى دينه .

(٢) سورة سبأ ، الآيات : ٣٥ - ٣٧

المفـردات :

(مِن قَرْنٍ) : القرن ؛ مائة سنة وقد يطلق على أهله .

(أثاثًا) : الأثاث؛ المتاع الذى تؤثث به المساكن للانتفاع أو الزينة .

(وَرِئْيًا) : الرئى : المنظر الحسن والمظهر الجميل .

(فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ) : فليمهله وليطل عمره ، وليزد فى رزقه ، استدراجًا له من الله سبحانه إلى حين .

(مَرَدًّا) : عاقبة .

التفسير

٧٤ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا) :

أى وكثير من أهل القرون السابقة أهلكناهم ، وكانوا أحسن أثاثًا ومنظرًا من أهل مكة ، فليست بسطة الرزق وعلو المنزلة ووفرة القوة فى الدنيا بالدليل على رضا الله والفوز بمحبته ، فقد تكون هذه النعم استدراجًا من الله لهؤلاء المكذبين الضالين قال تعالى : « وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ »[1] . فكونهم أحسن متاعًا ومنزلة وأجمل مظهرًا ، ليس بدليل على أنهم أفضل من المسلمين مكانًا عند الله فَرُبَّ جماعة ضعيفة القوة قليلة الرزق أقرب إلى الله وأفضل عنده منزلة من سواها من الجماعات الفتية القوية ، روى مسلم وأحمد عن النبى صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » .

٧٥ - (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا) :

---

(١) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٨٢ ، ١٨٣

أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المدعين أنهم على الحق بما هم عليه من قوة ومال ، وأنكم على الباطل بما أنتم عليه من ضعف وفقر ، من كان منكم فى الضلالة ، فأمهله الله فيما هو فيه حتى يلقى ربه ، فسيعلمون حين يرون العذاب أو الساعة من هو شر مكانًا عند الله وأضعف جندًا مِنْ سواه ، أهم هؤلاء المؤمنون الضعفاء الفقراء أم أولئك المشركون الأقوياء الأغنياء ؟ .

٧٦ – (وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى . . .) الآية .

لما أخبر الله سبحانه أنه سيمد للظالمين فى ضلالهم استدراجًا لهم حتى يبغتهم بالعذاب أو بقيام الساعة ، أخبر فى مقابل هذا أنه يزيد المهتدين فى هدايتهم ويوفقهم ويعينهم على أداء الأعمال الصالحة الباقية ، فهى أفضل من بسطة الرزق وسعة الجاه والقوة والبأس الذى استدرج الله به الضالين ، ليزدادوا إثمًا حتى إذا أخذهم لم يفلتهم . «حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ »(١)

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا) : وإذا كان المال والجاه والقوة فتنة لهؤلاء الضَّالِّين ، فَإِنَّ الأعمال الطيبة أفضل عند الله منزلة وأكرم مكانًا وأعظم أجرًا ، وأبقى أثرًا ، فهى الباقيات الصالحات ، وقد فسَّرها ابن عباس بالصلوات الخمس ، وقيل الباقيات الصالحات : الإكثار من ذكر الله والثناء عليه بما ألهمنا إيَّاه ، روى أحمد فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم : (... أَلَا إِنَّ سُبْحَانَ اللهِ والْحَمْدُ للهِ ولَا إِلٰه إِلَّا اللهُ واللهُ أَكْبر هُنَّ الْباقِياتُ الصَّالِحات) وبالجملة فالإكثار من الأعمال الصالحات وترطيب اللسان بذكر الله أفضل عند الله وأدعى إلى قربِهِ وأكرم لديه ممـــا ينغمس فيه الضَّالون من ترف ونعيم وأحسن عاقبة عنده .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٤٤

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ﴾

المفردات :

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ) : أشاهد أمور الآخرة الغائبة عنه .

(عَهْدًا) : ميثاقًا .

التفسير

٧٧ - (أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا) :

ذكر الشيخان أن هذه الآية وما بعدها نزلت فى العاص بن وائل ، روى مسلم فى صحيحه بسنده عن خباب بن الأَرَتِّ الصحابى الجليل قال : كان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه ، فقال لى لن أقضيك حتى تكفر بمحمد ، قال : فقلت : لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث ، قال : وإنى لمبعوث بعد الموت ؟ فإذا مت ثم بُعثتُ جئتَنى ولى ثَمَّ مالٌ ولى ولد فأُعطيك . فأنزل الله : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا » . إلى قوله : « وَيَأْتِينَا فَرْدًا » .

فالعاص يتهكم بعقيدة البعث والنشور ويرجئ سداد دينه إلى هذا الموعد .

والاستفهام فى الآية للتعجيب والإنكار على العاص الذى يؤكد أنه سيكون صاحب مال وولد فى الآخرة وفى الدنيا .

٧٨ـ ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ :

أى هل انكشف الغيب أمامه فاطلع على حالته فى الآخرة ، أم أخذ على الله موثقًا أن يغمره بفضله فى الآخرة كما غمره فى الدنيا .

٧٩ـ ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ :

هذا رد على العاص بأسلوب الردع والتكذيب له فإنه لم يطلع على الغيب ولم يتخذ على الله عهدًا ، والمعنى أننا سنسجل عليه هذا الضلال فى سيئاته لنحاسبه عليه حسابًا عسيرًا أو نزيده عذابًا فوق عذاب .

٨٠ـ ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ :

أى أنه سيموت ويغادر الدنيا ونرث أمواله وأولاده ، ولن ينال فى الآخرة إلَّا العذاب الأليم فإنه سيبعث يوم القيامة فردًا مجردًا من الأموال والأولاد « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »[1] .

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

المفردات :

﴿ضِدًّا﴾ : أعداء متعاونين عليهم فى خصومتهم وتكذيبهم .

التفسير

٨١ ـ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ :

اصطنع هؤلاء الكفار لهم آلِهة غير الله ظانين أن هذه الأصنام ستكون مصدر عزة وقوة لهم ، وقد رد الله عليهم بقوله :

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : ٨٨ ، ٨٩

٨٢ - (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) :

كلا : كلمة زجر وردع لهم عما توهموه من كونها عزا لهم ، وقد أتبعه ببيان أن هذه المعبودات مصدر عداء وتكذيب لهم فيما ادعوه من ألوهيتهم ، وسبب عذاب ونقمة عليهم ، كما قال تعالى : « وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ »[1] .

ويجوز أن يكون الضمير المرفوع فى قوله تعالى : « وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » عائدا على المشركين ، أى أن المشركين بعد البعث سيدركون أنهم كانوا على ضلال فيكفرون بعبادة آلهتهم حيث لايجديهم ذلك نفعاً .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) : تدفعهم دفعا . (وَفْدًا) : جماعة .

(وِرْدًا) : قوما عطاشًا واردين على جهنم ، كالبهائم تساق إلى موارد الماء .

التفسير

٨٣ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) :

ألم تعلم يامحمد أنا سخرنا الشياطين على الكفار تدفعهم إلى الكفر دفعا شديدا ابتلاء منا لهم ، فلم يقاوموا هؤلاء الشياطين بل استجابوا لإغرائهم وتحريضهم وانساقوا معهم

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية : ٦

فى الضلال انسياقا، وشبيه بهذا قوله تعالى: «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»[1]

٨٤ - ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾:

أى فلا تتعجل عليهم وقوع العذاب جزاء عتوهم وجبروتهم فإننا نعدّ لهم أعمالهم ونحسبها عليهم قبل موتهم لنعذبهم بها يوم القيامة قال تعالى: «وَمَا نُؤَخِّرُهُمْ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ»[2].

٨٥ - ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾:

أى أنه تعالى سيجازى الكافرين على كفرهم حينما يحشر الأتقياء إلى أرحم الراحمين لينعموا بثواب تقواهم، قال ابن عباس وفدا يعنى ركبانا منعمين غير مجهدين.

٨٦ - ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾:

وفى هذا اليوم الرهيب نسوق الكفار إلى جهنم حيث يذوقون ألوان العذاب والنكال جزاء كفرهم وطغيانهم فيردون عطاشا مسوقين لا إلى الماء ليشربوا منه ويطفئوا عطشهم، بل إلى جهنم لتكون مثوى لهم.

٨٧ - ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾:

لايستحقون الشفاعة فلا يشفع لهم أحد، ولهذا سوف يقولون ماحكاه الله عنهم بقوله: «فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ»[3]. لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا، فإنه يستحق الشفاعة، فيؤذن له بشفاعة الشافعين، وفسر ابن عباس العهد بقوله: العهد شهادة ألا إله إلا الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وعدم رجاء أحد إلا الله تعالى. وفسره ابن كثير بقوله: شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٦

(٢) سورة هود، الآية: ١٠٤

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٠٠، ١٠١

(وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾
تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ
هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ
أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى
ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ
ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾)

المفردات :

(إِدًّا) : الإد ؛ المنكر العظم .

(يَتَفَطَّرْنَ) : يتصدَّعن .

(وَلَداً) : الولد كل ما يولد ، ذكرًا كان أو أُنثى ، واحدا أو اثنين أو جماعة .

(أَحْصَاهُمْ) : علم عددهم .

التفسير

٨٨ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً) :

زعموا أن الله اتخذ ولدا ، فقال المشركون إن الملائكة بنات الله ، وزعم اليهود أن عزيرًا ابن الله ، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٨٩ - (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) : أى لقد جئتم بقولكم هذا شيئاً منكرا باطلا عظيم الفرية على الله - سبحانه - .

٩٠ - (تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) :

أى توشك السموات - على تماسكها - أن تتصدع من افترائه على الله ، وأن تنشق الأرض ، وأن تتحطم الجبال وتسقط أجزاؤها ، فإن الله تعالى مقدس عن نسبة الولد إليه ، وكيف يكون لله ولد ، وهو بغير حاجة إليه ليعينه أو ليرثه كما هو شأن البشر ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ، فهو حى لا يموت ، قادر لا يعجزه شىء .

٩١ - (أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا) :

أى تكاد السموات والأرض أن يحدث لها ما ذكر بسبب ادعائهم ولدًا للرحمن ، فإنها فرية على الله لا تتقبلها بل تكذبها بما فيها من الإبداع ، فإنه شاهد بوحدانيته وتمام قدرته وعدم حاجته إلى اتخاذ ولد يعينه « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » .

٩٢ - (وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا) :

ولا يليق بكمال الله وعظمته أن يكون له ولد ، فإن الوالد يتخذ الولد ليكون عونا له فى شيخوخته وضعفه أو ليكون امتداداً لحياته حين تنتهى حياته والله سبحانه غنى عن هذا كله « مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ »(١)

٩٣ - (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا) :

أى ليس فى السموات والأرض إلا عبيدًا لله سبحانه ، وسيأتون بوصف العبودية يوم القيامة مهما كان شأنهم ، وسيحاسبهم على ما قدموه من خير وشر ، فكيف يزعم الزاعمون أن له ولدا « تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا » .

٩٤ - (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) :

لقد حصرهم وأحاط بهم علما ، وعدهم عدًا ، وأحصى عليهم أعمالهم وأفكارهم وأنفاسهم ، فلا حاجة به إلى ولد يعينه .

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٣٥

٩٥ - (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) :

وكل منهم سيموت ويبلى ثم يبعثه الله ويحشره إليه منفردا وحيدا ، دون معين أو نصير سواءٌ منهم من كان عابدا أو معبودا ، أو من زعموه لله ولدا .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(وُدًّا) : محبة .

(لُدًّا) : اللد ؛ جمع الألد وهو الخصم الشديد الخصومة الْمُلِحُّ فى عداوته المجادل بالباطل أو الظالم أو الفاجر

(رِكْزًا) : الركز ؛ الصوت الخفى .

التفسير

٩٦ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا) :

بعد أن ذكر الله سبحانه أحوال الطغاة العتاة ومصيرهم الأليم ذكر فى مقابلهم هنا المؤمنين وما أعده لهم من الحب وآثاره فى الدنيا والآخرة . والمعنى أن المؤمنين الذين يحملهم إيمانهم على أداء الأعمال الصالحة سيجعل لهم الرحمن الرحيم مودة فى قلوب الناس وعند الملائكة ،

ومن أجلّ نعم الله على عبده أن يمنحه حبه وحب عباده فى السموات والأرض . روى الشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا أحبَّ اللهُ عَبداً نادَى جِبْرِيلَ إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيل ، فينادى جبريل فى أَهْلِ السَّمَاءِ إنَّ اللهَ يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهلُ السماء ثم يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فى الأرض » . ويجوز أن يكون المقصود من حب الله المؤمن الذى يعمل الصالحات أن يكافئه على هذا بما يستحقه من الثواب .

٩٧ - (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا) :

والمعنى : يا محمد إنا أنزلنا عليك كتابنا بلغتك العربية وجعلناه ميسّرا للسامعين والقارئين لتبشر به المتقين بما ينالون من ثواب جزيل على إيمانهم ، ولتنذر به قوما يعادونك أشد العداء ، ويجادلونك بالباطل - لتنذرهم بعقاب أليم على هذه الخصومة والمجادلة فى الحق بالباطل . « وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ » .

٩٨ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ) :

أى وأهلكنا كثيرا من أهل القرون الماضية قبل أهل مكة ، لما كذبوا رسلهم .

(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) :

أى فهل تدرك بإحساسك منهم أحداً أو تسمع لهم صوتا ، فبعد أن كانت هذه الأمم تملأ الأرض ، وتتعالى على أنبيائهم وتعاديهم وتجادلهم بالباطل ، أصبحت قراهم خامدة خاوية على عروشها ، بعد أن دمرها الله على أهلها ، عقابا لهم على كفرهم ومخاصمتهم لأنبيائهم ، فليحذر أهل مكة هذا المصير وليعتبروا به وصدق الله إذ يقول : «فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ »[١] .

---

(١) سورة الحج ، الآية : ٤٥

سـورة طـه

تمهيد :

هذه السورة هي العشرون فى ترتيب المصحف ، وسميت سورة طه باسم فاتحتها ، وتسمى أيضاً سورة الكليم ، لأن معظم آياتها فى قصة الكليم موسى عليه السلام ، وهى مكية ، إلا الآيتين (١٣٠ ، ١٣١) من قوله تعالى : « فَاصْبِرْ عَلَى مَايَقُولُونَ » إلى قوله سبحانه : « وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » فإنهما مدنيتان ، وعدة آياتها خمس وثلاثون ومائة .

ومن وجوه مناسبتها لسابقتها . . أنهما مكيتان ، ومبدوءتان بأسماء الحروف المتقطعة ، وأن أول هذه متصل بآخر تلك فى المعنى ، فقد ذكر فى تلك إنزال القرآن الكريم بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، تبشيرًا للمتقين وإنذارًا للمعاندين ، وفى هذه أكد ذلك المعنى . ومما تضمنته هذه السورة ما يلى :

١ - بيان أن إنزال القرآن الكريم على النبى صلى الله عليه وسلم ، ما هو إلا للتذكرة والعظة وسعادة البشر فى الدنيا والآخرة .

٢ - تكليم الله لموسى عليه السلام بالوادى المقدس طوًى ، واختياره لرسالته التى أساسها « إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » وبهذه الرسالة أرسل الله رسله جميعاً إلى أممهم .

٣ - أمر الله تعالى لموسى عليه السلام أن يلقى عصاه « فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى » وأن يخرج يده من جيبه ، فتخرج بيضاء من غير سوء ، آية أخرى ليرى موسى بعض آيات الله الكبرى .

٤ - أمره لكليمه بعد ذلك أن يذهب إلى فرعون رسولا مؤيدًا بهاتين الآيتين . . .

٥ - سؤال موسى ربه عز وجل أن يشرح له صدره ، وييسِّر له أمره ويحل عقدة لسانه ، ليفقهوا قوله ، وأن يجعل له أخاه هارون وزيرًا يشاركه فى الرسالة ويعينه على أعبائها ، فقال الله مجيباً إياه فى كل ماسأل : « قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ، وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى » يذكره تعالى بنصره له منذ ولادته ، حيث نجاه من القتل والغرق ، وربَّاه مكرّماً مع أمه فى بيت عدوه ! وقد كان يقتل من يولد فى بنى إسرائيل من الذكور . . ثم كيف نجّاه من قوم فرعون الذين ائتمروا به ليقتلوه ، لما قتل أحدهم خطأ ، ثم ذهب إلى مدين ، وصاهر الشيخ الكبير ، ولبث فيها

أكثر من عشر سنين ، ثم سار بأهله إلى مصر محفوفاً بعناية الله وحفظه ، حتى أمره الله وهو فى سيناء أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون ليبلّغاه معاً رسالة الله تعالى ، فلما بلّغ موسى أخاه ما أمرهما الله به من تبليغ فرعون دعوته سبحانه « قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَى . قَالَ لَاتَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَى » . .

٦ ـ وفى هذه السورة بيان مادار بين موسى وفرعون من المقاولة ، ثم ما دار بين موسى والسحرة ، وخيفته عليه السلام حين ألقوْا حبالهم وعصيّهم فخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فثبته الله تعالى وأوحى إليه أن يلقى عصاه ، فألقاها فإذا هى حية عظيمة مخيفة تبتلع كل ماألقاه السحرة ، وهنا لك آمن السحرة جميعاً برب هرون وموسى ، ولم يبالوا بوعيد الطاغية وتهديده إذ قالوا له : « فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحياةَ الدُّنْيَا » .

٧ ـ وفيها انفلاق البحر ونجاة موسى وبنى إسرائيل ، وغرق فرعون لمّا تبعهم .

٨ ـ وفيها فتنة السامرى ، وإضلاله بنى إسرائيل ، باتخاذه عجلاً جسدًا له خوار ، حين كان موسى عليه السلام يناجى ربه فى الطور ، ولما رجع أفزعه ما رأى من إضلال السامرىّ لقومه ، حتى عبدوا العجل الذى صنعه ، فأخذ برأس أخيه يجرّه إليه ، فاعتذر أخوه عليه السلام بمخالفة بنى إسرائيل تحذيره إياهم ، ونصحه لهم ، واستمرارهم فى ضلالهم ، حتى رجع موسى عليه السلام ، وهنا أغلظ موسى قوله للسّامرىّ ، وتوعّده بأن يعيش فى الدنيا طريدًا ، وفى الآخرة معذباً ، ثم حرّق العجل ونسفه فى اليمّ نسفاً ، ليريهم ضلالتهم فى عبادته ، وجهلهم بالمعبود الحق وما ينبغى له من عظائم الصفات . قائلاً لهم :
« إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا » .

٩ ـ وفى السورة التذكير بالذكر الحكيم الذى آتاه الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم .. وفيه الخير كل الخير لمن أقبل عليه وعمل به ، وأما من أعرض عنه « فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْرًا » .

١٠ ـ وعقّبه بالتذكير بأهوال يوم القيامة : « يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً . يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا . نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا . وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا .. » الآيات .

١١ -وفى السورة يصف سبحانه القرآن الكريم بأنه أنزله قرآناً عربياً ، وصرَّف فيه من الوعيد ، وينهى النبى صلى الله عليه وسلم عن العجلة بقراءته من قبل أن يقضى إليه وحيه ، وهو يتلقاه من أمين الوحى جبريل عليه السلام .

١٢ -ثم يذكر سبحانه قصة آدم عليه السلام بتفصيل غير قليل ، من أمر الملائكة بالسجود له ، وامتناع إبليس وإبائه وتحذيره هو وزوجته من أن يُخْدَعَا به ، إذقَال سبحانه فى خطابه : « يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ » . ولكن الشيطان وسوس لهما وخَدعهما حتى نسيا العهد والنهى عن الأكل من الشجرة ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما . وانتهى أمرهما بإخراجهما من الجنة ، بعد أن منَّ الله عليهما بالعفو والتوبة .

١٣ -وفى السورة التذكير بأن من اتبع هدى الله فلا يضلُّ ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكره فإن له معيشة ضنكاً ويحشره الله يوم القيامة أعمى .

١٤ -وفيها التذكير كذلك بإهلاكه القرون الماضية ، ومشيهم فى مساكنهم ، وما فى ذلك من عبر وعظات لأُولى البصائر والنهى .

١٥ -وفيها يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ما يقوله المشركون من تكذيب واستهزاء ، فسيلقون جزاءهم ، ولولا كلمة سبقت منه تعالى بتأْخير العذاب إلى أجل مسمى لعجله لهم .

١٦ -وفى خواتيم السورة يأْمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، بتسبيحه وتنزيهه ، وبأَن يأْمر أهله بالصلاة .. وأن يصطبر عليها ، لأنها أساس الخير كله . . « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

(طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَٰوَٰتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾)

المفردات :

(طه) : اسمان لحرفى الطاء والهاء . . ، هما فاتحة السورة ، ويأتى الكلام عليهما فى التفسير ، (لِتَشْقَىٰ) : لتتعب تعباً شديداً فوق طاقتك . (تَذْكِرَةً) : تذكيراً وعظة . . ، (الْعُلَى) : جمع العليا ، تأنيث الأعلى ، مقابل الدنيا تأنيث الأدنى . (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) : العرش فى اللغة : سرير الملك ويُكْنى به عن السلطان والعز ، (اسْتَوَىٰ) استولى . . ويأتى فى التفسير معنى استوائه تعالى على العرش . . (وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ) الثَّرى . . التراب النَّدِىُّ – يقال ثَرِيَتِ الأرض – كَنَدِيَتْ وزنا ومعنى – فهى ثَرِيَّةٌ . كَنَدِيَّة ؛ إذا نَدِيَتْ ولانت بعد الجدوبة واليُبْس – والذى تحت الثرى طباق الأرض المختلفة إلى نهايتها .

التفسير

١ – (طه) :

افتتح الله تبارك وتعالى تسعاً وعشرين سورة ببعض أسماء الحروف الهجائية ، وسورة طه . . واحدة منها . . وقد قال كثير من أئمة التفسير إنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ؛ فلا يعلم المراد منها إلا هو ، وقال بعضهم إنها اسم للسورة ، وقيل إنها لتنبيه السامعين ،

إلى ما يأتى بعدها من الآيات والعِبَر ، وقيل غير ذلك ، وأرجح الآراء فى تأويلها أنها ترمز إلى التحدى ، بأن يأتوا بمثل هذا القرآن المكون من كلمات وجمل ، ذوات حروف مما ينظمون منه كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه مع ما يمتازون به من الفصاحة والبلاغة ، . . فمحمدٌ مثلهم . . وذلك دليل على أن القرآن من عند الله تعالى ، وليس لمحمد صلى الله عليه وسلم فيه إلا مجرد تبليغه عن ربه . لا يزيد فيه حرفا . ولا ينقص منه حرفًا . ولا يزال إعجازه قائمًا . والتحدى به باقيًا . ولا يزال حفظه بحفظ منزِّله خالدًا أبدًا ، كما تكفل به جل وعلا – إذ يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[١] .

٢ – (مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ) :

سبب النزول :

* كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من المشركين تعبًا مرهقًا . ويأسف أسفًا شديدًا بسبب إعراضهم عن القرآن الكريم ، وعدم إيمانهم به . فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية تسلية له . . وتخفيفًا عليه . . والمعنى – ما أنزلنا عليك القرآن أيها الرسول – ليكون سبباً فى شقائك وعنائك ، وفرط أسفك على كفر هؤلاء المشركين . كقوله عز وجل : « فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهِمْ إن لَّمْ يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً »[٢] . والشقاءُ شائعٌ فى معنى التعب والعناء ، ومنه قولهم ، سيد القوم أشقاهم ، وقولهم : أَشْقَى مِنْ رائِضِ مُهْرٍ .

وهذا الوجه فى سبب نزول الآية هو المختار ، لمناسبته للسياق ، وقوله تعالى :

٣ – (إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ) .

أى ما أنزلنا القرآن عليك إلا تذكيرًا لمن شأنه أن يخشى الله ويخافه ، لأن الذين يخشون ربهم هم المنتفعون بالقرآن ومواعظه ، وأما غيرهم فكالعدم ، ولا ريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلَّغ وذكَّر وحذَّر وأنذر ، فليس مسئولًا بعد ذلك عن كفرهم ، فقد قال تعالى : « فَذَكِّرْ إنما أنتَ مُذَكِّرٌ ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ »[٣] . وقال عز من قائل : « وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ »[٤] .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٦

(٣) سورة الغاشية ، الآيتان : ٢١ ، ٢٢

(٤) سورة الكهف ، من الآية : ٢٩

ولما ذكر الله تعالى أنه أنزل القرآن تذكرةً لمن يخشى . . أكد ذلك المعنى وقرره بقوله :

٤ ـ (تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلَى) :

ووجه التوكيد أنه سبحانه نسب التنزيل إلى ذاته المقدسة مرتين ، مرة بضمير المتكلم فى قوله : « ما أَنزَلْنَا عَلَيكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » . ومرة بضمير الغيبة فى قوله : « تَنزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ . . » وإنما نسب التنزيل إلى ذاته المقدسة مرتين ، تعظيماً لشأن المنزِّل ـ جل جلاله ـ وتفخيماً لشأن القرآن الذى أنزله ، وقطعاً لريبة المرتابين فى كونه منزلًا من عند الله .

والاقتصار هنا على خلق السموات والأرض ، لأنه سيُصَرِّح بخلق مافيهما وما بينهما وما تحت الثرى فى الآية السادسة . وتقديم خلق الأرض هنا ، لأن الأرض أقرب إلى الحسِّ ، والإنعام بها على الناس أظهر ، ووصف السموات بالعلَى ـ جمع للعليا ـ لتوكيد الفخامة ، مع مافيه من رعاية الفواصل . ثم وصف عظمته تعالى وعظمة ملكه فقال سبحانه :

٥ ـ (الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) :

وعرش الرحمن جل جلاله أعظم مخلوقاته ، ولا يحيط بوصف عظمته إلا ربه ، ومن العرش تَتَنزَّل أوامر الله فى شئون الكون كله ، دون أن يكون الله فيه ، لا ستحالة ذلك عقلا .

واستواؤه تعالى على العرش من قبيل المتشابهات التى يجب الإيمان بها وتفويض علم المراد منها إلى الله جل وعلا ، وترك تأويلها مع تنزيهه تعالى عن مشابهة الحوادث وهذا مذهب جمهور أهل السنة ، وفى ذلك يقول الإمام مالك : الاستواءُ معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود كفر ، والسؤال عنه بدعة .

ومن العلماء من فسر الاستواء على العرش بأنه كناية عن انتهاء تدبير الكون إلى الله سبحانه وتعالى ، بعد إتمام خلقه إياه ، دون أن يشركه فى هذا التدبير شريك ، كما لم يشركه من قبل فى إبداعه شريك .

وإنما أضيف لله تعالى الاستواءُ على العرش وحده مع أنه سبحانه مستوٍ على الكون كله ، لأن العرش أعظم مخلوقاته ، فإذا استوى عليه وهو أعظمها فقد استوى على كل ماسواه ،

وأما تفسير الاستواء على العرش بالاستقرار فيه كما تقول المشبِّهة ، فهو باطل وكفر « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[1] . ثم بين سبحانه سعة سلطانه وشمول قدرته لجميع الكائنات فقال :

٦ - (لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ) :

أى له وحده عز وجل دون غيره ، جميع ما فى السَّموات وَمَا فِى الأرضِ ، سواء كان ذلك جزءًا منهما أو حالاً فيهما ، وله ما بينهما من كل كائن فى الجوّ كالسحاب والهواء ومالا يعلمه سواه جل وعلا ، وله ماوراء التراب من طباق الأرض ومعادنها ومياهها الجوفية ، إلى غير ذلك مما لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى ، له كل ذلك خَلْقًا ومِلكاً وتَصرُّفًا ، وذكر ماتحت الثرى مع دخوله تحت قوله (ومافى الأرض) لزيادة التقرير .

٧ - (وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) :

والخطاب فى هذه الآية للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد أُمته ، أو لكل مخاطب ، والمراد بالقول عمومه ، فيشمل الذكر والدعاء وغيرهما ، وقيل المراد به ذكر الله تعالى ودعاؤُه خاصة ؛

وجواب الشرط مقدر ، أى وإن تجهر بالقول فاعلم أن الله غنى عن جهرك ؛ فإنه يعلم السر وأخفى ؛

وفيه إرشاد العباد إلى أن الجهر بالنسبة إلى الله تعالى لاداعى إليه ؛ لأنه يعلم السر وأخفى ؛ ما لم يكن للعبد فيه غرض شرعى كما سيأتى .

والسرُّ ما تُحَدِّث به غيرك فى خفاء ، والأخفى منه ماتُحدِّث به نفسك ولا تَتَفوَّه به أصلاً . والمعنى : وإن ترفع صوتك أيها الإنسان بذكر الله تعالى أو بدعائه أو بغيرهما فإنه تعالى يعلمه ، لأنه يعلم السر الذى تسرُّه ، ويعلم ما هو أخفى منه مما تضمره وما توسوس به نفسك . وعلى أن المراد بالقول ذكر الله تعالى ودعاؤُه خاصة ، فالمعنى : وإن تجهر بذكر الله تعالى ، وبدعائه كقوله جل ذكره « واذْكُرربَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ »[2] . وإنما ينهى عن الجهر بذكره تعالى ، مالم تدع إليه حاجة ، كالتعليم والإرشاد وتثبيت الذكر فى النفس ، ومنع الوسوسة فيجوز فى حدود الرفق والاعتدال، قال الآلوسى : فقد صح ما يزيد على عشرين حديثاً فى أنه صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما كان يجهر بالذكر ،

---

(١) سورة الشورى ، من الآية : ١١

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٥

وصح عن أبي الزبير أنه سمع عبد الله بن الزبير يقول : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من صلاته يقول بصوته الأعلى : لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لاحول ولا قوة إلا بالله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) وهو محمول على اقتضاء حاجة التعليم ونحوه رفعَ الصوت ، ومن الأغراض الشرعية رفع الصوت فى تكبيرات العيد ، فرحا به وابتهاجا وتمجيدًا لله ، واعتذارًا بصدق الله لوعده ونصر عبده ، وهزمه لأعدائه المشركين ، انظر الآلوسى(١) .

٨ـ (اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ) :

هذه الآية الكريمة مستأنفة لبيان أنه سبحانه وإن كانت ذاته المقدسة واحدة ، فأسماؤه وصفاته متعددة ، فقد كان المشركون يقولون : مابال محمد يدعونا إلى إله واحد وهويدعو إلٰهين ، الله والرحمن ، فقال الله تعالى : « قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ »(٢) وقال تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا »(٣) وقد جاء الاسم بمعنى الصفة ومنه قوله تعالى : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ »(٤) أى صفوهم .

والمعنى : ذلك الذى سبقت نعوته العظيمة ، وصفاته الجليلة ، هو الله الذى لا إله إلا هو له الصفات العليا فى الحسن والكمال ، وإن كانت ذاته جل وعلا واحدة .

---

(١) فقد توسع فى الكلام على هذه الآية .
(٢) الإسراء ، من الآية : ١١٠
(٣) الأعراف ، من الآية : ١٨٠
(٤) الرعد ، من الآية : ٣٣

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟
إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾
فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ
بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾
إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾
فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) : الاستفهام للتقرير ، ويأتى بيانه فى التفسير ، وحديث موسى : خَبَرُهُ وقصَّتُه ، ويطلق الحديث على كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى اليقظة أو المنام . (آنَسْتُ نَارًا) : أى أبصرت نارًا إبصارًا بينًا لا شبهة فيه .

(بِقَبَسٍ) : أى بشعلة مقتبسة على رأس عُودٍ أو نحوه .

(إِنَّكَ بِالْوَادِ المقدَّسِ طُوًى) : المقدس : المطهر ، أو المبارك ، طُوًى : اسم الوادى وهو الجانب الغربىُّ من الطور .

التفسير

٩ ، ١٠ - (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ . إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا . .) الآية . . .

هذا استئناف مسوق لتقرير أمر التوحيد ، الذى انتهى إليه مساق الحديث ، والخطاب فيه للرسول صلى الله عليه وسلم ، للإيذان بأن حديث موسى وقصته جديرة بأن تنتقل مع الأجيال ، ولبُّ هذه القصَّة أمر التوحيد ، حيث قال الله لموسى : « إِنَّنِىٓ أَنَا اللهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا ».

وبه ختم عليه السلام مقالهَ إذ قال : « إِنَّمَا إِلٰهكمَ الله الذِى لا إِلهَ إِلا هوَ » .

والاستفهام هنا للتقرير ، وفيه معنى التنبيه والتشويق ، كما تقول لصاحبك : هل بلغك الخبر الفـــلانىّ ؟ فيتنبه ويشتاق لسماع الخبر ، فإذا سمعه تقرر فى نفسه ، لأنه أتاه على شوق .

ويقرب من هذا المعنى ما قيل : إن حرف الاستفهام هنا بمعنى قد ، أى قد جاءك خبر موسى وقصته ، حين رأى نارا فى ابتداء الوحى إليه ، وتكليم ربه إياه ، وذلك بعد ما قضى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم ، وسار بأهله قاصدًا مصر بعدما طالت غيبته عنها ، فضلَّ الطريق المسلوك فى ليلة شاتيةٍ باردة مظلمة ، وجعل يقدح بزنْدٍ معه ؛ ليورى نارًا فلم يُخرِجْ شررا .

فبينما هو كذلك ، إذ ظهرت له نارٌ من جانب الجبل عن يمينه ، فاستبشر وبَشَّر أهله بما رأى ، وذلك قوله تعالى :

(فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا إِنِّىٓ آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى) :

أمر أهله أن يقيموا مكانهم ، راجيًا أن يجيئهم بشعلة يقتبسها من النار التى رآها ليوقدوا منها ويستدفئوا ، أو أن يجد حول النار هاديًا يرشده إلى الطريق ، وقد تاه عنه فى ظلام الليل ، والخطاب بصيغة الجمع للزوجة والولد[1] . أو الخطاب للزوجة وحدها ، والجمع للتفخيم ، كما فى قول الشاعر يخاطب امرأة واحدة .

وإن شئتُ حرمت النساء سواكمو[2] .

وكانت النار فى شجرة عنَّابٍ خضراء يانعة ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنه .

١١ ـ (فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى) :

أى فلما بلغ مكان النار التى أبصرها ناداه ربه قائلًا : يا موسى .

---

(١) الاثنان جمع لغوى ، حيث جمع أحدهما بالآخر وضم إليه ، وقد نقل عنه صلى الله عليه وسلم : الاثنان فما فوقهما جمع .

(٢) أشبعت ضمة الميم فتولدت عنها واو لضرورة الشعر .

١٢ - (إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) :

أى إنِّى أنا الله ربك الذى أُكلمك ، أى من غير واسطة الروح الأمين جبريل عليه السلام كما قلنا فى تفسير قوله تعالى : « وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا »[١] .

وتكرير ضمير المتكلم لتأْكيد الدلالة وتحقيق المراد وإماطة الشبهة ، وفى سورة النمل : « يَا مُوسَىٰٓ إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »[٢] .

وفى سورة القصص : « فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِىَ مِن شَاطِىءِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »[٣] .

ولا تعارض بين الآيات الكريمة ، فقد ناداه ربه بها كلها ، إلَّا أنه سبحانه حكى فى كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداءُ الكريم ، أى أنه سبحانه خاطب موسى بما يفيد هذه المعانى والصفات التى اشتملت عليها هذه النصوص المتفرقة ، فلما تكررت القصة فى سور متعددة أعطى كل سورة جانبًا منها ، لمنع التكرار فى العبارة والله أعلم .

وأمر سبحانه كليمه بخلع نعليه ليباشر بقدميه الأَرض المقدسة ، فتصيبه بركة تكليم الله إياه فى الوادى المقدس ، ولأَن الحفاء أوصل فى التواضع وحسن الأَدب ، ولذلك كان السلف الصالح يطوفون حفاةً .

وقوله تعالى : (إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) : بيان لحكمة الخلع المأْمور به مع الإشارة إلى شرف البقعة وقدسها ، وقد نفذ الكليم أمر ربه فخلعهما .

١٣ - (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ) :

أى وأنا الله الذى اصطفيتك من الناس ، أو من قومك للنبوة والرسالة ، فاستمع لما أُوحيه إليك ، وتقبله وتأَهب للعمل بما يقتضيه ، وفى معنى الآية قوله تعالى : « إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى »[٤] . ثم بين الله ما أوحاه إليه فى هذه المكالمة القدسية فقال سبحانه :

---

(١) سورة النساء ، من الآية : ١٦٤

(٢) سورة النمل ، الآية : ٩

(٣) سورة القصص ، الآية : ٣٠

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٤

١٤ - (إِنَّنِى أَنَا اللهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا . . .) الآية .

أى إننى أنا الإله الواحد المعبود بالحق لا شريك لى ، والفاء فى قوله تعالى : (فَاعْبُدْنِى) لترتيب المأمور به على ما قبلها ، فإن اختصاص الأُلوهية به سبحانه من موجبات تخصيص العبادة به عز وجلّ ، والمراد بالعبادة غاية التذلُّل والانقياد له فى كل ما يكلف به وخصت الصلاة بالذكر ، وأفردت بالأمر فى قوله تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى) مع اندراجها فى الأمر بالعبادة ، لمزيد فضلها على سائر العبادات ، بما نيطت به من ذكر المعبود وشُغْل القلب واللسان بذكره ، وقد سمَّاها الله إيمانًا فى قوله سبحانه : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ »(١). واختلف العلماء فى كفر تاركها كسلًا ، وأما تاركها جحدًا فلا خلاف فى كفره .

وقوله تعالى : (لِذِكْرِى) : أى لتذكرنى ، فإن ذكرى كما ينبغى لا يتحقق إلَّا فى ضمن العبادة والصلاة ، أو لتذكرنى فيها ؛ لاشتمالها على الأذكار ، أو لِذِكْرِى خاصة ، فلا تَشُبْهُ بذكر غيرى ، أو المراد بالذكر هنا ، التذكُّر ، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد . عن أنس عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلِّها إذا ذكرها » فإن الله تعالى قال : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى) . وفى الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- : « مَنْ نَامَ عَنْ صلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَكَفَّارَتُهَا أَنْ يُصَلِّيَهَا إِذَا ذَكَرَهَا لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَٰلِكَ » .

ثم بين السبب فى وجوب العبادة وإقامة الصلاة فقال :

١٥ - (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا . . .) الآية .

أى إن الساعة قادمة لا محالة ، لتحاسب كل نفس بما عملت : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »(٢).

(أَكَادُ أُخْفِيهَا) : أُريد إخفاءها بعدم تحديد وقتها ، ولولا ما فى الإخبار بمجيئها من اللطف وقطع الأعذار ، لما أخبرت بإتيانها ، ومع أنه تعالى أخفى وقتها فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أماراتها ، تذكيرًا للناس بها ليحذروها .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٤٣

(٢) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

١٦ - (فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ) :

أى فلا يصرفنك يا موسى عن ذكر الساعة ومراقبتها والاستعداد لها بالعمل الصالح لا يصرفنَّك عن ذلك الكافرون الذين لا يصدقون بها ، ويتبعون هواهم بتكذيبها ، فتهلك معهم إن اتَّبعت هواهم ، وهذا النهى وإن كان ظاهرًا لموسى فالمراد به أُمته كما قال كثير من المفسرين ، فإنه صلى الله عليه وسلم لا يصرفه عن الساعة والعمل لها صارف بموجب عصمته .

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ) : الاستفهام للتقرير ، ويأْتى توضيحه فى التفسير .

(أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا) : أعتمد عليها .

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى) : وأضرب بها ورق الشجر ليسقط على غنمى فتأْكله .. والهشُّ كالهزّ بمعنى التحريك .

(مَآرِبُ) : منافع ومصالح جمع مأْربة مثلثة الراء .

(سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ) : هيئتها الأُولى التى كانت عليها .

التفسير

١٧ - (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ . .) :

الاستفهام هنا للتقرير ، كما تقدم آنفًا فى قوله تعالى : « وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ » والحكمة فيه تنبيهه وتوقيفه على أنها عصًا عادية ، حتى إذا قلبها الله تعالى حية تسعى ، علم أنها معجزة عظيمة أعدها الله لموسى ، فازداد يقينًا وطمأْنينة وثباتًا وأنسًا .

١٨ ـ (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا . . .) الآية .

أجاب موسى ربه فقال : هى عصاى . وبهذا تم الجواب ولكنه عليه السلام أحب المزيد من مكالمة ربه ، استئناسًا به ، وفرحًا بمناجاته ، فاغتنم الفرصة لذلك فى مقام البسط ، وذكر من منافعها أنه يعتمد عليها عند الإعياء أو الوقوف على رأس القطيع .

(وَأَهُشُّ بِهَا) : أى أضرب بها ورق الشجر فيسقط على غنمى فتأكله ، ثم إنه عليه السلام أجمل بقية منافع عصاه فقال :

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى) : أى حاجات ومصالح أخر ، وذلك مثل ما قيل : إنه عليه السلام كان إذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس ، والكنانة والمخلاة والثوب ونحوها ، وإذا كان فى البريّة ركزها وألقى عليها الكساء واستظل به ، وإذا قصر الرشاء عن الاستقاء وصله بها ، وإذا تعرضت غنمه للسباع قاتل بها ، هذا بعض ما قيل فى تلك المآرب ، والله أعلم بها .

قال ابن كثير : وقد تكلف بعضهم ليذكر شيئًا من تلك المآرب التى أبهمت ، فقيل : كانت تضىء له بالليل وتحرس له الغنم إذا نام ، ويغرسها فتصير شجرة تظله ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، والظاهر أنها لم تكن كذلك ، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه السلام صيرورتها ثعبانًا ، فما كان يفر منها ، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية ، وكذا قول بعضهم : إنها كانت لآدم عليه الصلاة والسلام ، وقول الآخر : إنها هى الدابة التى تخرج قبل يوم القيامة ! !

١٩ ـ (قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى . .) :

أمره تعالى بإلقاء العصا على الأرض ليريه من شأنها ما لم يخطر له على بال ، وليكون إلقاؤها قبل لقاء السحرة تمهيدًا لما يظهره الله تعالى على يد موسى وأخيه من المعجزات ، مع الطمأنينة ورباطة الجأش .

٢٠ ـ (فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى . .) :

فلما ألقاها موسى فوجىء بأنها حية عظيمة تمشى مسرعة على بطنها ، والحية اسم علم

يطلق على الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، وقد انقلبت حين ألقاها موسى عليه السلام ثعبانا عظيمًا ، كما يفصح عنه قوله تعالى : « فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ »[1] .

وجاء تشبيهها بالجان من حيث الجلادة وسرعة الحركة فى قوله تعالى فى سورة النمل : « فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » .

ولا منافاة بينهما ، فإن الجان ضرب قوى من الحيات .

٢١ - (قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . .) الآية .

لما انقلبت العصا ، بقدرة الله تعالى ثعبانًا يمشى مسرعًا مضطربًا ، خاف عليه السلام ونفر وملكه ما يملك البشر عند مشاهدة الأهوال والمخاوف ، فثبته ربه وقال له : « خُذْهَا وَلَا تَخَفْ » ثم زاده طمأنينة فقال له : (سَنُعِيدُهَا) : أى نرجعها إلى حالها الأولى ، التى كانت عليها .

وفى الآية عِدَة كريمة بإظهار معجزة أخرى على يده عليــه السلام هى إعادة العصا إلى هيئتها الأولى ، وإيذان بأنها مسخرة له ، لئلا تعتريه شائبة زلزلة عند مجابهة السحرة .

(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾)

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٣٢

المفردات :

(إِلَى جَنَاحِكَ) : أى إلى جنبك ، وأصل الجناح للطائر ، ثم أطلق على اليد والعضد والجنب ، وهو المراد هنا . (مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ) : أى من غير قبح ولا عيب ، وهو هنا كناية عن البرص .

(إِنَّهُ طَغَى) : أى تجاوز الحد فى عتوه وجبروته . (اشْرَحْ لِي صَدْرِي) : وسِّع لى صدرى .

(وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي) : أى سهل لى ما أمرتنى به ، (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي) : أى فك حبسة من لسانى .

(وَزِيرًا) : معاونًا من الوزَر بمعنى الحمل الثقيل ، أو ملجأً أعتصم برأيه من الوَزَرِ ، وأصله الجبل يتحصن به ، ثم استعمل بمعنى الملجأ مطلقا .

(أَزْرِي) : أى قوَّتى ، يقال آزره . . أى قواه وأعانه ، أو ظهرى .

التفسير

٢٢ - (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ آيَةً أُخْرَى) :

بعد أن ذكر الله العصا آية موسى الأُولى وبرهانه على نبوته ، قفَّى عليها بذكر الآية الثانية وهى خروج يده بيضاء من غير سوء من تحت إبطه .

والمعنى : وأدخلْ يدك فى طوق قميصك ، واجعلها إلى جنبك تحت إبطك ، ثم أخرجها تخرج بيضاء من غير قبح ولا عيب ، نجعلها لك آية أخرى على نبوتك ، وكان موسى عليه السلام أسمر اللون ، فإذا وضع يده تحت إبطه خرجت بيضاء مخالفة للونه الأسمر ، وكانت فى بياضها تشعُّ نورًا مضيئًا كما روى عن ابن عباس .

٢٣ - (لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى) :

أى افعل ما أمرناك به من إلقاء العصا ، وضم اليد إلى الجناح ، لنجعلك مبصرا بعض آياتنا العظمى التى لا عهد لك ولا لغيرك بمثلها ، والتى هى شاهدة على عظيم سُلْطَانِنَا ، وكامل قدرتنا ، وأنك مرسل منا .

٢٤ - (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) :

انتقل النسق القرآنى بهذه الآية الكريمة من المقدمات السابقة ، إلى المقصود منها .

والمعنى : اذهب إلى ملك مصر وادعه إلى الاستقامة على طريق الحق والعدل ، فإنه جاوز الحد فى التجبر والطغيان ، حيث ادّعى الألوهية ، وبغى على الرعية .

وحينما كلف الله موسى بهذا الأمر الخطير ، تضرع إلى الله عزَّ وجلَّ مستعينًا به كما حكاه الله بقوله :

٢٥ ، ٢٦ - (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي) :

قال موسى متضرعا إلى الله : رب وسع لى صدرى ، فلا يضيق بكبرياء فرعون وجبروته ، ومشقة دعوته ودعوة قومه الذين يعبدونه ، واجعله فى سعته مقبلًا على هذا الأمر الجلل ، مستريحًا لأدائه ، وسهل لى أمرى الذى كلفتنى به بقوة العزيمة ، والصبر والاحتمال ، وتوفيقى إلى أحسن الأداء ، ومعرفة شئون الحق وأحوال الخلق ، لأصل بدعوتك إلى قلوبهم .

٢٧ - (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) :

واجعل لسانى حين تبليغ الرسالة إلى فرعون طليقًا غير معقَّد ولا حبيس ، حتى ينطلق فى تبليغه ما تأمرنى به ، وتكون عباراتى واضحة لكى يفهموا قولى ، ويتأثروا بحسن أدائى .

وهذه العقدة التى فى لسانه لم نجد فى السنة النبوية بيانًا أو سببًا لها ، وقد تكلم فيها المفسرون ، فنقل ابن كثير عن ابن عباس أنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هرون ، ليتكلم عنه بكثير مما لا يفصح عنه لسانه ، ولم يرد فى هذا الخبر بيان سبب هذه العقدة .

وذكر الآلوسى : أنه كان فى لسانه رُتَّةٌ[1] من جمرة أدخلها فمه وهو صغير ، وذكر كذلك قصة طويلة مشهورة على ألسنة الناس ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم بصحة ما ذكروه ، ويبدو لنا من سكوت السنة النبوية عن بيان هذه العقدة وأسبابها ، أنها عقدة يخشى أن تحدث له عند لقائه فرعون لتبليغه أنه ليس بإله ، وأن لا إله إلا الله رب السموات والأرض ، فى

(١) الرتة : العجمة فى اللسان .

حين أنه قتل منهم قتيلًا ، وأنهم كانوا يأتمرون به ليقتلوه ، فلهذا سأل ربه أن يشرح له صدره وييسر له أمره ، ويطلق لسانه فلا يتلعثم ولا ينعقد عن تبليغ أمر ربه ، وأن يشد أزره بأخيه هٰرون ليصدقه ويعاونه . ولا يقتضى وصفه له بأنه أفصح منه لسانًا ، أن يكون لدى موسى رتة ولثغة فى لسانه كما قيل ، فربما كان مقصوده من ذلك أنه لا ترجد لدى هٰرون أسباب يخشى أن تحبس لسانه ، كالأسباب التى لديه ، على أنه لو فرضت زيادة هٰرون عليه فى الفصاحة ، فإن ذلك لا يقتضى وجود عيب فى لسانه ، فهو فصيح وأخوه هٰرون أفصح منه ، والله تعالى أعلم .

٢٩ ، ٣٠ - (وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى . هَٰرُونَ أَخِى) :

أى واجعل لى موازرًا ومعينًا من أهلى أقرب الناس إلىَّ ، وهو هٰرون أخى ، ليحمل معى أعباء الرسالة ، من الوِزْر بكسر الواو وسكون الزاى ، بمعنى الحمل ، ويجوز أن يكون المعنى : واجعل لى هٰرون أخى ملجأً ألجأُ إليه وأعتصم به عند الشدائد ، والمكاره ، من الوَزَر بفتح الواو والزاى ، بمعنى الملجأ .

٣١ ، ٣٢ - (اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى) :

يطلق الأزر فى اللغة على القوة وعلى الظهْر ، فعلى الأول يكون المعنى : أحكم يارب بأخى هٰرون قوتى ، وأشركه يا مولاى فى تبليغ رسالتى ، وعلى الثانى يكون المعنى : اشدد به ظهرى وأشركه فيما ذكر من أمرى .

والمقصود من هذا الدعاء ، أن يجعلهما الله تعالى متعاونين فى تبليغ الرسالة إلى فرعون وقومه ، وإلى بنى إسرائيل ، أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى قوله تعالى : (وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى) : -نُبِّئَ هٰرون ساعتئذٍ-حين نُبِّئَ موسى عليه السلام .

أى أنه نُبِّئَ هٰرونُ بدعوة أخيه موسى فى وقت مكالمة الله الذى امتد حتى بشره ربه بإجابة دعائه كله كما سيأتى ، فلهذا قال ابن عباس - نُبِّئَ هٰرون حين نُبِّئَ موسى ، أى أنه نبئ فى وقت المكالمة الذى كان موسى فيه قد نبئ ، ثم ختم موسى عليه السلام دعاءه بما حكاه الله بقوله :

٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ - ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾ :

أى اجعل هٰرون أخى وزيرا لى ، ونبيا ورسولا معى ، لكى ننزهك كثيرا يارب عما لايليق بك من الصفات ، كالشريك والنَّظير ، والوالد والولد ، ونرد مايزعمه فرعون من ألوهيته ، وغير ذلك مما تتنزَّه عنه ساحة أُلوهيَّتك ، ياإله العالمين ولكى نذكرك ونثنى عليك بما أنت أهله ذكراً وثناءً كثيرا ،إنك كنت ياربنا ولاتزال بصيرا بنا ، فى سائر أحوالنا ، عليما خبيراً بنياتنا وأُمورنا منذ خلقتنا ، ومن ذلك إيماننا بك وحدك وعبادتك دون سواك بين قوم مشركين ، فلعلَّ ذلك يجعلنا أهلاً لاستجابة دعائى ياإلهى .

قال مجاهد : لايكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما وقاعدا ، ومضطجعاً .

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً
أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ
فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ
وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ
فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾
وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾

المفردات :

﴿سُؤْلَكَ﴾ : أى سؤالك ؛ والمقصود منه مطلوبه الذى سأل ربَّه .

(مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) : أنعمنا عليك فى وقت آخر بنعم غير هذه النعمة وسيأتى بعض تفصيلها : (أَوْحَيْنَآ إِلَىٓ أُمِّكَ) : ألهمناها كما فى قوله تعالى : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » ، (ولِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى) : ولتربَّى تربية حسنة بعنايتى وعلمى ، تقول : صنعت الفرس وأصنعته : أحسنت رعايته والقيام بشئونه .

(يَكْفُلُهُ) : يرعاه ويعنى بتربيته . (فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ) : فأنقذناك من الكرب بسبب قتلك القبطى من شيعة فرعون . (مَدْيَنَ) : بلدة شعيب صهر موسى .

(ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى) : جئت على موعد مقدَّرٍ لإرسالك إلى فرعون .

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى) : اخترتك لرسالتى ، من الاصطناع بمعنى الاستخلاص ، أو خلقتك لها ، من الصنعة .

التفسير

٣٦ - (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى) :

أى قال الله لموسى بعد أن دعاه ، قد حققنا لك ماسألت ، وأجبناك لما التمست ، فسنشرح لك صدرك ، ونيسّر لك أمرك ، ونطلق لك لسانك ، فلاتتهيب المواقف فيحتبس عن قول الحق ، وسنؤزرك بنبوة أخيك هرون ورسالته ، فأقبل على ماكلفناك به فى حفظنا ورعايتنا وكفالتنا ، ثم زاده الله اطمئنانا على رعايته له فى مهمته فقال :

٣٧ - (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) :

أى وبالله لقد أنعمنا عليك من غير دعاء منك ، أنعمنا عليك مرة أخرى فى وقت سابق لم تكن فيه نبيًّا ولارسولا ، فكيف لاننعم عليك بما طلبته منا وقد اتخذناك نبيًّا ورسولاً ، ولقد بدأ الله هذا الامتنان بالقسم اعتناء به ، وبالمقصود منه ، ثم عقَّب الله هذا الامتنان المجمل بتفصيله فقال :

٣٨ - (إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٓ أُمِّكَ مَايُوحَى . .) :

الإيحاء هنا . . . بمعنى الإلهام . كما فى قوله تعالى : «وأوحى ربك إلى النحل » أى ألهمها - أما الإيحاء عن طريق الملك . . فخاص بالأنبياء . . ولانبوة للنساء . فضلا عن

النحل – وهل كان هذا الإلهام فى اليقظة أم كان فى المنام ؟ والذى يظهر لنا أنه فى اليقظة ، لأن الذى يكون فى النوم يعبر عنه فى عرف القرآن بالرؤيا ، كما فى قوله تعالى – : «إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » وقد كان هذا الإلهام قويا مقنعاً ، فلهذا لم تَتَرَدَّد فى تنفيذه ،ولهذا شبهه الله بما يوحى للأنبياء ، فى قوة الاقتناع به ، والطمأنينة له .

والمعنى على هذا – ولقد ألهمنا أمك فى شأنك تدبيراً اقتنعت به تماماً ،لأنه كان مؤكداً فى نفسها تأكيد مايوحى إلى الأنبياء ، فإن الأرواح قد تصل من الصفاء والشفافية إلى مايجعلها تتحقق من صدق إلهامها كأنها تشاهده على الحقيقة ،ومن ذلك أن سارية كان قائدا فى إحدى المعارك النائية ، فأحسّ عمر بن الخطاب بأنه فى مأزق حرج ، فناداه وهو على منبره بالمدينة – ياسارية الجبل ، فسمعه سارية فلجأ برُمَاته إلى الجبل ،فانتصر على عدوه ، ولما رجع من المعركة حدث الناس بذلك وفى مثل هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ مِنْ أُمَّتِى مُحَدَّثِينَ » .

٣٩ – (أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ . .) الآية .

هذه الآية مفسّرة لما أوحاه الله إلى أمّ موسى ، وكان قد ولد فى السنة التى كان فرعون يقتل فيها مواليد بنى إسرائيل من الذكور ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة البقرة مخاطبا بنى إسرائيل : «يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ[1] . . »

وقيل فى سبب ذلك : إن فرعون خاف أن يذهب ملكه على يد مولود من بنى إسرائيل ، يولد فى هذا العام كما رآه فى منامه ، فأمر بقتل كل ذكر يولد منهم فيه – « وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُوراً » ولهذا لم يُقْدِر فرعونَ تدبيرُه فى دفع ماقدره الله عليه ، إذ لايُغْنِى حَذَرٌ مِنْ قَدرٍ .

والمعنى : إذ أوحينا إلى أمك ياموسى أن ضعيه فى صندوق محكم الصنع بحيث لايدخله ماءٌ ، فاطرحيه فى البحر – وهو النِّيل – يلقيه البحر بساحل فرعون .

ولما كان إلقاءُ البحر للتابوت بالساحل أمرا واجب الوقوع ، لتعلق إرادة الله به ، جُعل البحر فى النص الكريم كأنه مأمور بذلك[2] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٩

(٢) على سبيل الاستعارة بالكناية .

(يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ) : المراد بهذا العدو فرعون ، وقد نفذت أم موسى ما ألهمت به فاتخذت تابوتا محكما . ووضعت فيه موسى وألقته فى النيل ، وكان يذهب منه فرع إلى بستان فرعون – كما قيل – فرأى آل فرعون التابوت فالتقطوه وفتحوه فوجدوا فيه صبيا أصْبَحَ الوجه ، فأحبه عدوُّ الله حبًّا شديداً بحيث لايتمالك أن يصبر عنه ، وذلك قوله تعالى :

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي) :

والمعنى :

أى وأنزلت عليك محبة منى ، إذ أحببتك وجعلت من يرونك يحبُّونك ، فأحبك فرعون وأنزلك منه منزلة الولد ، وأحبك أهله وحاشيته ، وفعلْتُ ذلك لكى تربَّى وتنشأ لديه ، وفى منزله فى رعايتى وحفظى ، تلحظك عين عنايتى ، قال ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : «وأَلْقَيْتُ عليْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي» أحبه الله وحببه إلى خلقه ، وقال فى تفسير قوله سبحانه «وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي» : يريد أن تدبير أمرك بعينى ، أى بعلمى ومشيئتى ، حيث جُعِلْتَ فى التابوت ، وحيث أُلقى التابوت فى البحر ، وحيث التقطتك جوارى امرأة فرعون ، فذهبن بالتابوت إليها مغلقاً ، فلما فتحته رأت صبياً لم يُر مثله قطُّ ، وألقى عليها محبته ، فدخلت به على فرعون ، وقالت له : «قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» انتهى باختصار وتصرف[1] .

وقال ابن عطية : جُعِلَتْ عليه مَسْحَةُ جمال لايكاد يصبر عنه من رآه ، وقال النحاس فى تفسير «ولتصنع على عينى» ولكى يفعل بك الصنيعة – أى الإحسان – بحيث تربَّى بالحُنُوِّ والشفقة ، وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشىء بعينه ، إذا اعتنى به – يريد أن فى الكلام استعارة بالكناية – فليس لله عين كعيوننا ، فهو منزه عن مشابهة الحوادث ، ولكنها عين العناية والرعاية الصمدانية .

٤٠ – (إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ . .) الآية .

لما قذفت أم موسى وليدها فى اليمِّ ، صار فؤادها فارغا من الصبر لفراقه ، فقالت لأُخته : قُصِّيه وتعرفى خبره ، وكانت امرأة فرعون قد طلبت له المراضع ، فكلما عرض على مرضع

---

(١) انظره مطولا فى القرطبى .

أبى أن يرتضع منها ، حيث حرم الله عليه المراضع ، وكانت أخته تمشى بجوار النيل ترقب مصيره ، فبصرت به عن بعد وهم لايشعرون بأنها ترقبه ، فلما علمت مصيره ورأتهم يطلبون له المراضع ، استأذنت من أجله فأذنوا لها ، فأخذته ووضعته فى حجرها ، وناولته ثديها فمصه وفرح به ، كما روى عن ابن عباس ، فعرضوا عليها أن تقيم عندهم ، فقالت إنه ليس لى لبن ، ولكن هل أدلكم على من يكفله وهم له ناصحون ، قالوا ومن هى ؟ قالت : أمى ، فقالوا : ألها لبن ؟ قالت : نعم . من أخى هرون – وكان قد ولد قبل موسى – ولم يكن قد بدأ القتل فى مواليد بنى إسرائيل الذكور فوافقوا على إرضاعها إياه ، فعادت فأخبرتها ، فلما جاءته تقبل ثديها وارتضع منها ، تلك خلاصة ماروى عن ابن عباس فى قصة عودته إلى أمه .

والمعنى : واذكر ياموسى حين كانت أختك تمشى على الساحل لتعرف مصيرك ، فعرفت أنك انتهيت إلى دار فرعون ، وأنهم بحاجة إلى مرضع ، فقالت لهم : هل أدلكم على مرضع تتكفل برضاعه ؟ فوافقوا .

(فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَاتَحْزَنَ) :

أى فرددناك إليها لترضعك ، وأنت مكرم فى بيت فرعون لكى تستقر عينها ، فلاتكون زائغة أو متحركة تنظر هنا وهناك ، باحثة عن مصيرك ، أو مشفقة من شدة الحيرة على فَقْدك .

ويجوز أن تكون قرة عينها كناية عن فرحها ، يقولون : قَرَّت العين إذا بَرَدَتْ عند السرور ، وللسرور دمعة باردة ، وللحزن دمعة ساخنة [1]

(وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا) :

لايزال الكلام مفصلا فى بيان نعم الله على موسى قبل أن يشرفه بالنبوة والرسالة ، والنفس التى قتلها موسى نفس قبطىٍّ كان يقتتل مع رجل من بنى إسرائيل ، فاستعانه الإسرائيلى

---

(١) وعلى هذا يكون تقديم عبارة الفرح على معنى الحزن من باب تقديم التحلية على التخلية كما يقول علماء البلاغة وإن كان العكس هو الغالب .

الذى هو من شيعته على القبطى الذى هو عدوه ، وكان القبطى باغياً على الإسرائيلىّ متشبثاً به ، فلما لم يرضخ لوساطة موسى بينهما ، وكزهُ بيده ، أى ضربه أو دفعه ، فقضى عليه ، ولم يكن موسى يقصد قتله ، بل تأْديبه ، ولعله كان به مرض قلبى لم يحتمل معه تلك الوكزة ، فماتمنها أوعندها ، وقد جاء فى الصحيحين أن قتله كانخطأً ولميكنعمداً .

والمعنى : وقتلت رجلا من أقباط مصر على سبيل الخطإ ، حيث كان باغيا على رجل من بنى إسرائيل ، فضربته فمات ، فأصابك الغم والحزن بسبب قتله ، لما يترتب عليه من غضب فرعون عليك ،أو اقتصاصه منك ، وخشية أن نغضب نحن عليك من أجل قتله ، فنجّيناك من هذا الغمبغفران ماحدث منك بعد ماقلت : « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى » ونجيناك من نقمة فرعون بالهجرة إلى مدين ، وابتليناك بالشدائد ابتلاءً شديداً وأنت فى طريقك إلى مدين ، فرارا من نقمة عدوك لتعتاد الشدائد والصبر عليها تمهيداً لتحمل أعباءِ الرسالةِ .

٤٠ ، ٤١ - (ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَامُوسَىٰ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى) : أى ثم جئت من مدين على الموعد الذى قدَّرت إرسالك فيه ، واخترتك لوحى رسالتى .

(ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(وَلَاتَنِيَا فِى ذِكْرِى) : ولاتفْتُرا فى تبليغ رسالتى ، تقول وَنَيْتُ فى الأمر أَنى فيه ونًى ونْيًا ، أَى تباطأْت وفترت فيه ، ويطلق الونْى أيضا على الضعف ، والكلال ، والإعياء .

(إِنَّهُ طَغَىٰ) : إنه تجاوز الحد فى الظلم والجبروت والغرور .

(يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) : يتعظ أو يخاف . (يَفْرُطَ عَلَيْنَا) : يعجل ويقابلنا بالقول الغليظ علينا يقال : فرط منى أمرٌ ، أى بدر ، ومنه الفارط فى الماء ، الذى يتقدم القوم إلى الماء ، (أَسْمَعُ وأَرَىٰ) : لا تخفى علىَّ خافية من أمركما .

التفسير

٤٢ - (اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِى وَلَا تَنِيَا فى ذِكْرِى) :

هذه الآية مستأنفة ، لبيان المقصود من اصطناع الله لموسى ، والمراد بالآيات هنا العصا واليد ، لأنهما الآيتان اللتان ذهب بهما موسى وهٰرون أولًا إلى فرعون ، بدليل أن موسى لما كلمه الله فى طور سيناء ، أمره سبحانه أن يلقى عصاه فألقاها ، فصارت حية ، وأن ينزع يده من جيبه فنزعها فصارت بيضاء - لمَّا حدث ذلك - قال الله لموسى : « فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ [١] » والتعبير عن هاتين الآيتين بصيغة الجمع فى قوله سبحانه : « اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِى » إما لأن المراد من الجمع ما فوق الواحد ، وإما لأن كل آية منهما تشتمل على آيات . فانقلاب العصا حيوانا آية ، وكونها ثعبانًا عظيمًا لا يقادر قدره آية أخرى ، وكونه مسخَّرًا لموسى بحيث لا يضرّه آية ثالثة ، وعودته بعد ذلك عصا آية رابعة ، وكذلك اليد ، فإن تحولها من السُّمرة إلى البياض آية ، وكون بياضها مُؤَقَّتًا آية ثانية ، وعودتها إلى حالتها الأُولى برغبته آية ثالثة .

وأما القول بأن المراد بها الآيات التسع فلا يناسب المقام .

ومعنى الآية : اذهب أنت يا موسى وليذهب معك أخوك هٰرون بآياتى ومعجزاتى الدالة على أنكما مرسلان منى ، ولا تتباطئا أو تفترا فى تبليغ رسالتى والدعاء إلى عبادتى ، وقيل : معناه تذكُّرانى ولا تنسيانى واستمدَّا العون والتأييد منى ، فإنه لا يتم أمركما بغير تأييدى ، وعقب الله هذا الأمر المجمل ببيان من يذهبان إليه والمقصود من إرساله وطريقة أدائهما الرسالة فقال سبحانه :

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٣٢

٤٣ ، ٤٤ - (اذْهَبَآ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) :

لم يكن هٰرون مع موسى وقت مكالمة ربه ، فقد كان موسى عائدًا من (مَدْيَنَ) بعد هجرته إليها عشر سنين عقب قتله القبطى ، وكان هٰرون مقيمًا بمصر ، حيث لم يحدث منه ما يقتضى تركه لها ، كما حدث لموسى ، والأمر موجّه إليهما مع أن هٰرون غير موجود فى ساحة الخطاب ، على سبيل تغليب الحاضر على الغائب ، ولأن هٰرون سوف يصدق أخاه حين يبلغه أمر ربه بإشراكه معه فى الرسالة إلى فرعون ، فلهذا جُعل فى حكم الحاضر المخاطب .

وروى أن هٰرون أوحى إليه بمصر ، أن يتلقى أخاه ، وقيل : بل ألهم ذلك ، وقيل : سمع بإقباله فتلقاه ، وعلى أى حال فقد التقى موسى بأخيه هٰرون ، وعرف أن الله أرسله وأشركه مع موسى فى تبليغ رسالة ربه .

والمعنى : اذهب يا موسى أنت وهٰرون أخوك مصحوبَيْن بآياتى ، إلى فرعون ملك مصر ، فإنه جاوز الحدَّ فى ظلم الخلق ، وفى الغرور حيث ادعى الألوهية ، فادعواه إلى الإيمان بى وترك الطغيان على عبادى ، واستعملا أسلوب اللِّين فى دعوتكما إياه إلى الهدى وترك الطغيان لعله بهذا الأسلوب اللين البعيد عن الخشونة يتذكر عظمة الله وآياته ، ويمعن فى التأمل فيها ، أو يخاف سوء المصير الذى ينتهى إليه أهل الطغيان ، فيؤمن بربه ، وينتهى عن غروره وطغيانه .

ولفظ : (لَعَلَّ) يستعمل للرجاء وللتعليل ، فإن أُريد منها الرجاءُ هنا ، فالرجاءُ يكون من موسى وهٰرون .

والمعنى على هذا : فقولا لفرعون قولًا لَيِّنًا ترجوان بهذا اللين أن يتعظ أو يخاف سوء المصير فيؤمن ، ولا يصح أن يكون الرجاءُ من الله ، لأنه تعالى يعلم قديماً من غرور فرعون إصراره على الكفر والطغيان ، وأنه بعيد عن التذكرة والخشية ، ولكنه أرسلهما إليه ليقيما الحجة عليه ، وإن أريد من لعل التعليل . فالمعنى : لكى يتعظ أو يخاف .

وقد استنبط من الآية أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ينبغى أن يكون بأُسلوب لين لا خشونة فيه ، لكى يتأثر باللين من تدعوه إلى الخير ، فإن الخشونة فى الدعوة تأْتى بعكس المقصود ، قال تعالى لرسوله : « وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » .

وإذا كان اللين مطلوبًا من صاحب الرسالة المؤيَّد من الله تعالى ، فإنه يكون مطلوبًا من غيره بطريق الأَولى .

٤٥ - (قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَى) :

هذا استئناف مبين لما أجابا به ربهما بعد أن كلفهما بدعوة فرعون باللين إلى ترك ما هو عليه ، وهذا القول كان وقت مناجاة موسى لربه ، فهو من موسى وحده ، وإسناده إليهما حينئذ على سبيل التغليب ، لأن هرون سوف يخاف من طغيان فرعون إذا بلغه من أمر الرسالة ما لا يحبُّه ، فكأَنه مشارك موسى فى هذا المقال ، فأُسند إليه مع أخيه ، ويجوز أن يكون هذا القول قد حدث منهما معا بعد أن التقى موسى بهرون فى مصر وأخبره بما كلفا به من قبل الله تعالى .

والمعنى : قال موسى وهرون : ربنا ومالك أمرنا إننا نخاف إن بلغنا رسالتك إلى فرعون أن يبادرنا بقول غليظ ، ويجابهنا قبل أن نقيم له الحجة ونظهر له المعجزة ، أو أن يطغى ، ويجاوز الحد فيعاقبنا أو يقتلنا .

٤٦ - (قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَى) :

أى قال الله مطمئنًا لهما ، بعد أن أظهرا له خوفهما من فرعون - لا تخافًا منه ولا من قومه إننى معكما بالحفظ والنصرة والحماية ، أسمع وأرى ما يدور حولكما ، فلن أُمكنه منكما ، ثم حضهما على التوجه برسالته سبحانه إلى فرعون فقال :

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَآئيلَ) : المقصود بإرسالهم إطلاقهم من الأسر كما سنشرحه إن شاء الله تعالى . (والسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى) : أى والأمان من عقاب الله لمن اتبع الهدى الذى أرسلنا به .

التفسير

٤٧ - (فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ) :

نرى فى هذا النص الكريم أن الله تعالى كلف موسى وهٰرون أن يطلبا من فرعون فى أول لقاء بينهما أن يرسل بنى إسرائيل معهما ، ولم يكلفهما بمطالبته بالإيمان بربه سبحانه ، فى حين أن سورة النازعات تدل على أنهما كلفا بأن يهدياه أولاً إلى معرفة ربه . فقد جاء فيها قوله تعالى : « اذهبْ إِلَى فِرْعوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هل لَّكَ إِلَىٓ أن تَزَكَّى وأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » وجمعاً بين النصين نقول : إن الله كلفهما بالأمرين جميعًا . وإنهما تدرجا معه ، فطلبا منه إرسال بنى إسرائيل وإطلاقهم من الأسر ، ورفع التعذيب والقتل عنهم ، قبل أن يطلبا منه تبديل اعتقاده ، فإن الأول أسهل عليه من الثانى .

والمراد من إرسال بنى إسرائيل معهما تخليص الأُسارى منهم ، وإخراجهم من تحت جبروته ، وليس المقصود التصريح لهم بالتوجه معهما إلى الشام ، ويدل على ذلك قوله تعالى عقب هذه الجملة : « ولَا تُعذِّبْهُمْ » أى لا تعذبهم بإبقائهم فى السجون والتسخير ، فقد كان هو وقومه يستخدمونهم فى الأعمال الشاقة كالحفر والبناء ونقل الأحجار ، ومن عصاهم عذبوه وسجنوه .

والمعنى : فاذهب يا موسى أنت وأخوك هرون إلى فرعون ، فقولا له : إننا مرسلون من الخالق الذى أنشأك ورباك ، فأطلق سراح بنى إسرائيل من السجن ومن السُّخرة ، ولا تعذبهم بأى نوع من أنواع التعذيب الذى تمارسه أنت والقبط فى إذلالهم .

(قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى) :

أى وقد جئناك بحجة من ربك ، على أننا مرسلون من قبله ، ولسنا مفترين على الله ، بدعوى إرساله إيانا إليك ، والسلامة من العذاب فى الدارين لمن اتبع الهدى الذى أرسلنا الله به ، وليس السلام هنا بمعنى التحية ، لأنه ليس فى ابتداء كلامهم كما هى العادة فى التحية ، بل هو بمعنى الأمان لترغيبه فى حسن العاقبة .

ولو جاء هذا السلام أول الكلام لتحيته منهما ، لما كان مناسبًا لما أوصاهما الله به ، من أن يقولا له قولًا لينًا لعله يتذكر أو يخشى ، فإن مفاجأته بأنه لا تحية له ، لأنها لأهل الهدى وهو ليس منهم ، تعتبر مفاجأة خشنة منفرة يقولانها بين يديه غير عابئين بمنصبه فى قومه ، وتمنعه من أن يتذكر أو يخشى ، وتخالف اللين المطلوب منهما فى محادثته ، ولأنه يعتبرهما من رعيته ، وقد نشأ فى نعمته وتحت سلطانه ، وقال أبو حيان : الظاهر أن قوله تعالى : « والسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتبع الْهُدى » فصل للكلام . والسلام فيه بمعنى التحية ، وجاء ذلك على ما هو العادة من التسليم عند الفراغ من القول ؛ إلا أنهما عليهما السلام رغبا بذلك عن فرعون ، وخصَّا به متبعى الهدى ، ترغيبًا له بالانتظام فى سلكهم : ا هـ .

والصواب ما قلناه أولا ، من أن السلام هنا بمعنى الأمان ، وقد جاء فى وسط كلامهما مع فرعون وليس فى آخره ، فقد قالا له عقب ذلك : « إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى » فكأنما قالا له : والأمان على من اتبع الهدى الذى جئناك به ، لأن العذاب على من كفر به وتولى عنه .

فإن قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم بدأ خطابه لعظيم الروم بتحيته على هذا النحو حيث قال له - كما جاء فى الصحيحين : « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى » فلماذا لم يؤمر موسى وهرون بمثل ذلك ؟ فالجواب : أن النبى صلى الله عليه وسلم

إنما يفعل ذلك مع هرقل فى منزلة من العزة والمنعة ، لم يكن فيها موسى وهرون كماتقدم بيانه ، فلذا أوصاهما الله تعالى بملاينته على النحو الذى جاء فى النص الكريم .

٤٨ - (إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ) .

أى وقولا لفرعون أيضاً : إنا قد أوحى الله إلينا أن العذاب فى الدنيا والآخرة على من كذبنا ، وأعرض عما جئنا به من وحى ربنا .

(قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(خَلْقَهُ) : ما خلقه عليه من المادة والصورة والوظائف المختلفة . (ثُمَّ هَدَى) : ثم أرشد ما خلقه لما يصلحه . (فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى) : أى فما شأن أهل القرون السابقة وماحالهم . (عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ)[1] : المراد بالكتاب هنا علم الله تعالى ، وقيل اللوح المحفوظ ، وقيل صحف الأعمال . (لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى) : أى لا يغيب سبحانه عن شىء يحدث فيفوته علمه ، ولا ينسى شيئًا علمه جل وعلا ، والجملة مستأنفة لتأكيد علم الله بأحوال القرون الماضية ، أو لتعليل علمه بها .

التفسير

٤٩ - (قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَى) :

جاء فى الآيات السابقة أنه تعالى أمر موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون وإخباره أنهما رسولان من ربه ، وأن يطلبا منه رفع العذاب عن بنى إسرائيل ، ويخبراه أن السلام على من اتبع الهدى ، والعذاب على من كذب وتولى .

(١) (عند ربى) خبر أول لقوله (علمها) و (فى كتاب) خبر ثان له . وقيل هما خبر واحد مثل : الرمان حلو حامض ، وقيل (فى كتاب) هو الخبر ، و (عند ربى) حال من الضمير المستكن فى الجار والمجرور .

وقد جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان ماحدث من فرعون بعد لقائهما إياه وتبليغه ما أمرا بتبليغه إليه . ولم تتحدث الآيات عن أنهما توجها إليه وأبلغاه ، اكتفاء ببيان موقفه من رسالتهما ، فإن ذلك يؤذن بأنهما توجها إليه وأبلغاه فبدأ يناقشهما فيما جاءاه به .

وأول ما بدأ به مناقشته أن قال : « فَمَن رَّبُّكُمَا يَامُوسَى » فأضاف الربوبية إليهما ولم يضفها إلى نفسه مع أنهما أفهماه أنهما رسولان من ربه الذى هو ربهما ، لأنه لا يريد الاعتراف بربوبية غيره ، ولعل فرعون اختص موسى بهذا السؤال مع أن هارون كان معه ، لأن موسى هو الذى قام بتبليغه ، وإلى جانبه هارون يؤيده ، ويحتمل أن يكون للتعريض بأنه ربه ، كما قال : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا » فكأنه يقول له : فمن ربكما يا مَنْ كنتُ لك مُربِّيا ، وجئتَ تنزع الربوبية منى .

وعلى أى حال فالمعنى إذًا : إذا كنتما رسولىْ ربكما الذى أرسلكما فأخبرانى من ربكما الذى تدعونى إلى الإيمان به يا موسى .

٥٠ - (قَالَ رَبُّنَا الَّذِيٓ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) :

أى قال موسى جواباً لفرعون : ربنا يُعْرَفُ بصفاته ، ولا يدرك بذاته ، فهو الذى أعطى كل شيء ما خلقه عليه من المادة والصورة والوظيفة ، وأعطاه ما يحقق به ما خلق له ، وهداه إلى تحقيقه ، فقد أعطى العين الصورة التى تطابق الإبصار ، وأمدها بالقوة التى تبصر بها وأعطى الأذن الشكل الذى يوافق الاسماع ، وأمدها بالقوة التى تستمع بها ، وكذلك الأنف واليد والرجل وغيرها ، أعطاها الله خلقها اللائق بها والمناسب لوظيفتها ، وأمدها بالقوة التى تحقق ما خلقت لأجله ، وهداها لتحقيقها ، ومثل ذلك يقال فى الحيوان والنبات ، بل وفى الجماد أيضاً ، فالعلم من آن لآخر يكشف لنا عن عجائب الكون وإنك لترى فى الذرّة وتكوينها وخصائصها ما يحيِّر العقول ، فكيف بغيرها من ملكوت الله . ! !

٥١ - (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى) :

لما وضح الحق فى جانب موسى ، خاف فرعون أن يتأثر الناس بما قاله موسى ، فيكفوا عن القول بألوهيته ، والاندماج فى عبوديته ، فلهذا وجه إليه سؤالا يريد أن يحرجه به ،

ويظهر ضعفه أمام سامعيه ، فقال له : إن كنت رسولًا يا موسى فأَخبرْنى : ما حال أهل القرون الماضية ، وماذا جرى عليهم من الحوادث مفصلة ؟ ولما كان موسى عليه السلام خالى الذهن عنها حين سؤاله ، أجابه بما حكاه الله بقوله :

٥٢ - (قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى) :

أى قال موسى : - ردًّا على فرعون - ، علْم أحوال القرون الماضية يختص به ربِّى الذى أرسلنى وما أنا إلا عبد له تعالى ، فلا علم لى إلا بما أخبرنى من شئون الرسالة ، وقد بلغ من علم الله أنه تعالى لا يضل ولا يغيب عنه شىء فى الوجود ، فلا يفوته علم شىءٍ منه ابتداءً ، ولا ينسى معلوماً دخل دائرة علمه ، فقد أحصى وأحاط بكل شىءٍ علماً أزلا وأبدًا .

والمراد بالكتاب على هذا الوجه ، علم الله تعالى ، تمثيلا لثبوت معلوماته سبحانه ، وتقرّرها وتمكنه منها ، بما استحفظه العالِم وقيده فى كتابه ، تقريباً للأَذهان ، لأَن علم الله بها أقوى وأثبت مما حوته كتب الكاتبين ، ولكون المراد ما ذكر ، عقبه بقوله : « لاَ يَضِلُّ رَبِّى ولاَ يَنسَى » وقيل : المراد به اللوح المحفوظ ، والصواب ماقلناه لأَنه هو المناسب للمقام - والله أعلم .

وقيل : إنما سأَله عن إحصاء أعمال القرون الأُولى وجزائها ، فأَخبره بأَنها محفوظة عند الله فى كتاب ، وسيجازيهم عليها فى الآخرة ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، ولعل المراد بالكتاب على هذا الوجه ، هو السجل الذى يكتب فيه الملك أعمال المكلف ، ويحصيها عليه ، كما جاء فى قوله تعالى : « مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »(١) . وقوله : « وَكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُورًا »(٢) .

---

(١) سورة ق ، الآية : ١٨

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٣

(ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟
وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(مَهْدًا) : أى مبسوطة مذَلَّلة . وهو فى الأَصل مصدر مَهَد الأَرض أَو الفراش أى بسطه ويسّره . وفعله من باب فتح يفتح ثم أَطلق المهد على كل ما يبسط ويمهد ، وغلب على فراش الصبى . (سُبُلًا) : جمع سبيل وهو الطريق . (أَزْواجًا) : أى أَصنافاً ونظائر متشابهة وأَطلق عليها ذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض ، أو لأَن بعضها ذكر والآخر أُنثى (نَبَاتٍ شَتَّى) : أى متفرق ؛ جمع شتيت ، من شتَّ الأمر أى تفرق ، وأَلفه للتأْنيث . (وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ) : أى سرحوها وأَطعموها من المرعى وهو مكان الكلإِ والعشب . والأَنعام الماشية التى ترعى ، وهى تذكر وتؤنث ، وأَكثر ما تطلق على الإِبل ، ومفردها نَعَم بفتحتين وهو مذكر دائماً ، كما قال الفراءُ يقولون هذا نَعم ـ انظر المختار . (أُولِى النُّهى) : أَصحاب العقول السديدة ، وقيل لهم ذلك لأَنهم يُنتهى إِلى رأْيهم ، أَوْ ينْهَوْنَ أَنفسهم ، ومفرده نُهْيَةٌ . بضم فسكون .

التفسير

٥٣ ـ (الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ..) الآية .

هذا الكلام إِما أَن يكون بقية ما أَبلغه موسى لفرعون عن الله تعالى[1] ، وإِما أَن يكون كلام موسى قد تم ، عند قوله : « لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى » وابتدأَ الكلام منه سبحانه لتعداد نعمه على عباده .

(١) وعلى هذا يكون لفظ (الذى) وصفا لربى . أو خبراً لمبتدأ محذوف ، أما على الوجه الآتى فيكون خبراً لمبتدأ محذوف فحسب .

وعلى الأول يكون المعنى : لا يضل ربى عن أحوال القرون الماضية ولاينساها ، ربى الذى الذى جعل لكم الأرض مُمهدة كمهد الصبى ، مبسوطة بحيث تستطيعون التقلُّب فيها ، والاستقرار عليها ، والانتفاع بها ، وفتح لكم فيما بين وِهادِها وجبالها ووديانها سبلا وطرقا ، تسلكونها من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، لتستكملوا منافعكم ، وتحققوا مآربكم ، مما يكون متيسرًا لدى غيركم ، ومفقودًا أو قليلا عندكم .

وعلى الثانى يكون المعنى : هو الله الذى أنعم عليكم بنعمه العظيمة ، حيث جعل لكم الأرض مبسوطة كمهد الصبى ، وفتح لكم فيما بينها طرقًا . . الخ .

(وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ) :

إما أن يراد من السماء السحاب ، وإما أن يراد مافوقها ، فعلى الأول يكون قد عبّر بالسماء عن السحاب ، لأن كل ما علاك سماءٌ ، ونزول الماء من السحاب أمر واضح لا ريب فيه ، وعلى الثانى يكون إنزاله من السماءِ بمعنى إنزاله بسببها ، فإن السحاب يتكون من بخار الماء الناشىء عن حرارة الشمس المسلطة على المحيطات والبحيرات ، والأرض المرويّة ، وفيما يلى معنى الآية على الوجهين معاً :

المعنى : وهو الذى أنزل من السحاب أو بسبب الشمس التى هى فى السماء ، أنزل ماءً بقدر معلوم ، بحيث لا يضر مصلحة البشر ، فيغرقهم ، فأخرجنا به أشباهاً ونظائر من النبات ، متفرقة فى خصائصها ، حيث ترونها مختلفة الطعم والشكل واللون والرائحة ، مختلفة النفع للإنسان فى بناء جسده وعلاجه من أمراضه ، وللحيوان كذلك ، وهى مع اختلافها متزاوجة ، ومتشابهة فى عموم النفع والجمال والنضرة والبهجة ، كما أنها متزاوجة حيث توجد بين أصنافها الذكورة والأُنوثة « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »(1) .

قالوا : ومن نعمته تعالى ، أن أرزاق العباد تقوم على الأنعام ، وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتهم ، ولا يستسيغون أكله ، وبعد أن بين نعمه على خلقه بإنبات أصناف النبات ، أباحها لهم ولأنعامهم بقوله :

---

(1) سورة المؤمنون ، من الآية : ١٤

٥٤ - (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى النُّهَى) :

أى كلوا ما يصلح منها لأكلكم ، وأطعموا أنعامكم فى المسارح والمراعى مالا يصلح منها لكم ، إن فيما ذكر من النعم لبراهين عظيمة ، لأصحاب العقول السديدة ، التى ينهون بها النفس عن الغواية ، ويبعدونها عن القبائح ، منها يستدلون على وجود الخالق العظيم ، والمدبر الحكيم ، والبرّ الرحيم .

* (مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) : أى ومن الأرض نخرجكم مرة ثانية حين البعث والحساب ، والتّارة كل فعلة متجددة . (أَبَى) : امتنع عن الإيمان وكرهه ، يقال أباه إباءً وإباءة بكسر همزتها الأولى كرهه . (مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ) : أى وعدًا أو زمانًا موعودًا نلتزم به . (مَكَانًا سُوًى) : بضم السين وكسرها أى مكانًا منتصفًا تستوى مسافته بيننا وبينك ، أو مستويًا ليس به ارتفاع أو انخفاض . (يَوْمُ الزِّينَةِ) : هو يوم عيد لهم يجتمعون فيه مع البهجة والزينة . (وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) : الضحى يؤنث ويذكر ، ووقته حين ارتفاع الشمس بدون إبعاد فى الارتفاع .

(فَجَمَعَ كَيْدَهُ) : أى مكره وحيل سِحْرِه . (وَيْلَكُمْ) : دعاءٌ عليهم بالويل وهو الهلاك . (فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ) : أى فيستأصلكم به ، يقال : أسحته وسحته بفتح الحاء . بمعنى أهلكه . (وقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى) : أى خسر وهلك من اختلق الكذب .

التفسير

٥٥ - (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) :

المعنى : من الأَرض بدأْنا خلقكم - فإن خلق أَبيكم آدم عليه السلام من ترابها وخلقه أَصل لخلق كل فرد من أَفراد البشر ، حيث إن لكل منهم حظًّا من خلقه عليه السلام ، انطوت عليه فطرته ، وقيل المعنى : خلقنا أَبدانكم من الأَرض ، فإن النطف التى هى أَصلكم تولدت عن الأَغذية التى نبتت ونمت فى تراب الأَرض الممتزج بالماء . وبهذا يظهر فى وضوح أنه سبحانه خلقنا من الأَرض ، (وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ) : أى وفى الأَرض نرجعكم إذا متم وتفرقت أَجزاؤكم وبليت أَجسادكم ، وإيثار التعبير بقوله : « وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ » على « وإليها نعيدكم .. » للإشارة إلى الاستقرار الطويل بعد العودة إليها .

(وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) : أى ونخرجكم من الأَرض ونحييكم مرة أُخرى للبعث والحساب والجزاء ، وكون هذا الإخراج حصل مرة أُخرى ، باعتبار أَن خلق أَبينا آدم من الأَرض إخراج لنا منها أولا ، وإن لم يكن إخراج البدء وإخراج الإعادة متساويين من كل وجه ، وهذه الآية كقوله تعالى : « قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ »(١) .

٥٦ - (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى) :

حكاية لما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون عليه لعنة الله ، وقد صدرت الآية بالقسم إظهارًا لكمال العناية بما تضمنته من الآيات الدالة على نبوة موسى عليه السلام ، وأَنها عرضت على فرعون فعاينها كلها وأَبصر إعجازها .

والمراد بالآيات التى شاهدها فرعون ، جميع المعجزات ما يتصل منها بالتوحيد ، وما يتصل منها بنبوة الكليم ، قصدًا إلى إلزامه الحجة ، حتى يستجيب إلى دعوة الحق ، ويتخلى عن

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٥

الكفر والعناد ، ولكنه عكس الآية ، وجعل أسباب الهدى والطاعة ، دوافع إلى الزيغ والتمادى فى الضلال وهذا مايحكيه الله تعالى بقوله : (فَكَذَّبَ وَأَبَى) أى فكذب بالآيات ، أوكذب موسى عليه السلام من غير تردد أوتأخر ،وكره الإيمان وأعرض عنه جحودا واستكبارًا .

٥٧ - (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى) :

الآية بيان لكيفية تكذيب فرعون وإبائه ، أى قال : نحن ننكر عليك مجيئك إلينا ، لإنجاء بنى إسرائيل من بيننا ، بل لإخراجنا من أرض مصر بما أظهرته من السحر ، حتى تكون خالصة لك ولقومك ، فكيف تخرجنا منها بسحرك ! وهى أرضنا وأرض أجدادنا ، وإنما قال ذلك ، لحمل قومه على بغضه ومقته ، وإثارتهم للانتقام منه ، حيث أوضح لهم أن مراده ليس إنجاء بنى إسرائيل وتخليصهم ، بل إخراج المصريين من أرضهم ،والاستيلاء على أموالهم ، واسترقاق ذراريهم ، حتى يبتعدوا عنه ، ويبالغوا فى عداوته ومدافعته .

وتسمية المعجزة سحرًا ، لأنه لم يدرك حقيقتها بعد ، ولهذا توعد موسى بأنه سيأتيه بسحر مثلها على أيدى سحرته فقال :

٥٨ - (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ . .) الآية .

أى مادام الذى جئت به سحرًا فلنعارضك بسحر مثل الذى أتيتنا به ، ليتبين للناس أنه من صنعك ، وليس هو من عند ربك ، ثم قال لموسى عليه السلام :

(فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلآ أَنتَ) : أى فاجعل لاجتماعنا بك وعدًا أو زماناً موعودًا ، لا يقع إخلافه منا ولا منك ، وإنما نلتزم جميعاً الوفاء به ، واجعل موعدنا معك (مكاناً سُوًى) :أى اجعله فى مكان نَصَفٍ وعَدلٍ ، تستوى مسافته بيننا وبينك ، وبهذا قال كثير من أهل التفسير.وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى زيد أنه قال : «مكاناً سوى» أى مكاناً مستوياً من الأرض ، بحيث يرى فيه بعضنا بعضاً ، ويرى كل المشاهدين ما يصدر منك ومن السحرة ، وفيه إظهار الجلادة وقوة الوثوق بالغلبة ما فيه .

واختار الآلوسى ذلك فى تفسيره ، وقال إنه حسن جداً ، وقد فوض فرعون إلى موسى عليه السلام أمر الوعد الذى طلبه منه ، مع إعلانه الوفاء به ، ليثبت لنفسه أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة ، وإعداد وسائل المغالبة طال الأمر أو قصر ، قاصداً إلى إرهاب موسى عليه السلام منه ومن سحرته ، ولكنه عليه السلام فَوت عليه ماقصد إليه ، فأسرع إلى الاستجابة إلى طلبه بما حكاه الله عنه بقوله سبحانه :

٥٩ ـ (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) :

أى وقت وعدكم يوم الزينة ، وهو يوم عيد لهم يجتمعون فيه ويمرحون ، ويفاخرون ويزدانون فيه بأنواع الزينة ، أو هو يوم سوق لهم يزيِّنونه ويتزَينون له ، وقيل غير ذلك . وأياما كان المقصود به ، فهو يوم معروف عندهم بأنه يوم اجتماع لهم وزينة ، وبسبب ذلك اختاره موسى عليه السلام للاجتماع الذى طلبه فرعون ، حتى يشهد العدد الكثير بطلان معارضة السحر لخوارق الآيات النبوية ، ليكون انتصار الحق ، وخذلان الباطل فى يوم مشهود ، ويشيع أمره بين القاصى والدانى .

ولم يكتف موسى عليه السلام بتحديد ذلك ، بل جعل إبراز المعجزة فى وقت يكثر فيه اجتماع الناس فى ذلك اليوم حيث قال :

(وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى):أى موعدكم يوم الزينة وقت الزينة وقت أن يجتمع الناس فيه وهو وقت الضحى ، حين يبدأ ارتفاع الشمس فى الأُفق ليكون الوقت مُتَّسعاً لأن يأتوا بكل ما عندهم من سحر وإفك ، قطعاً لعذرهم وإظهاراً لعجزهم ، وإبرازاً لخسرانهم ، وبعد أن استمع فرعون إلى قول موسى عليه السلام ، وقع منه ما حكاه الله جل شأنه بقوله سبحانه :

٦٠ ـ (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى) :

أى فانصرف عن المجلس بدون إبطاء ، فأخذ فى جمع السحرة من أرجاء مملكته ، للاستعانة بما لديهم من حيل ومكر قائلاً : « ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ »[١] فجمع السحرة ، وأخذ يرغبهم ويعدهم بالغلبة ، وعظيم المكافأة ، وذلك ما يحكيه الله بقوله :

« قَالُوٓا أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِين . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ »[٢] .

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٧٩ (٢) الشعراء ، الآيتان : ٤١ ، ٤٢

٦١ - (قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . . .) الآية .

لم تذكر هذه الآية إتيان موسى عليه السلام الموعد للإيذان بأنه محقق لا شك فيه ، أى أنه أتى ، وعند لقائهم تحدث إليهم بما حكاه الله عنه بقوله سبحانه : « قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » : أى قال لهم موسى : عذابًا لكم وقبحا لصنيعكم الذى تخيلون به للناس أشياءَ لا حقائق لها ، لا تختلقوا الكذب على الله بزعمكم أن ما أتيتكم به من المعجزة سحر يمكنكم أن تَنْقَضُّوا عليه بسحركم .

(فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى) : أى فيستأصلكم الله بعذاب شديد بسبب افترائكم الكذب عليه ، وقد استحق الخيبة والحرمان من رحمة الله وثوابه من اختلق عليه الكذب ، ونسب إليه مالا يصح نسبته إليه ، كدعواكم فضل السحر على المعجزة المؤيدة لرسوله ، فلا تكونوا أيها السحرة من المفترين .

(فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(فَتَنَازَعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ) : أى تخاصموا بينهم فى أمر معارضته وكيفيتها .

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى) . النجوى ، : المسارَّة فى الحديث ، وإسرار النجوى : المبالغة فى إخفائها .

(بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى) : بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب .

(فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ) : أى ائتوا بكل حيلة لكم ومكر .

(مَنِ اسْتَعْلَى) : من طلب العلا وسعى سعيه .

التفسير

٦٢ - (فَتَنَازَعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ) :

لما سمعوا كلامه عليه السلام حين أنذرهم وحذرهم عاقبة أمرهم ، فكَّرُوا فيما طرق أسماعهم فتناولوا أمرهم الذى طلب منهم أن يفعلوه ، وهو مغالبة موسى والانتصار عليه . وتشاوروا بينهم فى رسم الطريقة الناجحة فى معارضته والانتصار عليه ، وأسرُّوا الحديث الذى دار بينهم مبالغة فى إخفائه عن موسى وهرون عليهما السلام . وكانت نتيجة نجواهم - على ما قاله جماعة منهم الجبَّائى وأبو مسلم - ما حكاه قوله تعالى :

٦٣ - (قَالُوٓا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ . . .) الآية .

أى صدر عنهم بعد المناقشة والمناظرة قولهم الذى اتفقوا عليه وأكدُوه . وهو اتهام موسى وهٰرون عليهما السلام بالسحر . وأنهما خبيران بصناعته . يريدان أن تكون لهما الغلبة عليكم ، وأن يستتبعا الناس لهما . ويقاتلاكم فَيَنْتَصرا عليكم ويخرجاكم من أرضكم مصر بسحرهما الذى أظهراه .

(وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ) : أى يبطلا مذهبكم الذى هو أمثل المذاهب وأفضلها وهو ما كان عليه فرعون ، وإنما يفعلان ذلك رغبة منهما فى إظهار مذهبهما وإعلاء دينهما ، وقيل : ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى ، وهم أشرافكم وذوو الرأى فيكم ، ولقد جاء هذا الرأى من السحرة فى حق موسى وهٰرون ، متابعةً منهم لفرعون وموافقةً على ما قاله للملإ حوله ، وذلك ما حكاه فى سورة الشعراء : « قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٢٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٢٥) »[١] .

٦٤ - (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا . . .) الآية .

كأن بعضهم قال لبعض : ما دام أمر موسى وهٰرون كما ذكر من كونهما ساحرين ، يبتغيان الاستيلاء على أرض مصر ، وإخراجكم منها ، فأجمعوا كل كيْد لكم ، وكونوا صفًّا واحدًا ورأيًا مجتمعًا ، بحيث ترمون به عن قوس واحدة ، فإن ذلك أدعى إلى هيبتكم ، وإبراز كثرتكم ، ولذلك أثره فى أن تكون لكم الغلبة عليهما .

---

(١) ولقد جابه موسى بذلك فى قوله : « أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى » من الآية ٥٧ من السورة .

ونقل خلاف كثير فى تعيين عدد السحرة ، ولكن مما لا شك فيه أنه كان عددًا كثيرًا ، ليواجه به فرعون ذلك الموقف الرهيب الذى أحسَّ برهبته حين قال : « ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ » .

(وقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى) : هو الذى ختمت به الآية ، محكيًّا عن السحرة ، يؤكدون به فوزهم بالمطلوب لهم ، من المكافأة التى وعدهم بها فرعون ، إن كانوا من الغالبين .

أى . . وقد فاز بالنصر والجائزة من استعلى ، أى من علا وغلب موسى وعصاه بسحره ، وقيل : إن السين والتاء هنا للطلب ، أى وقد أفلح من استحق الموعود به من طلب العلا فبذل جهده ، وسعى سعيه بتقديم كل ما يستنصر به من تخييل وخداع ، وحيلة وخفّة يد حتى تتم لهم الغلبة يوم اللقاء .

(قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾
قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا
تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ
سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ
ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً) : الإيجاس : الإخفاء والإضمار والخوف ، أى أضمر فى نفسه الخوف مما فوجئ به . (تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا) : لَقِفَه – من باب عَلِمَ – يلقفه لقفًا بالقاف الساكنة ، ولقفا بالتحريك تناوله بسرعة ، والمراد أنها ابتلعت ما ألقوه بسرعة .

(فأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا) : أى خرُّوا خاضعين لله تعالى ، وسُجدا جمع ساجد .

التفسير

٦٥ – ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ :

لما أتم السحرة استعدادهم ، أقبلوا على موسى عليه السلام بجمعهم الحاشد قائلين : إما أن تلقى ما عندك قبلنا ، وإما أن نكون أول من يُلْقى ما عنده ، وكان تخييرهم له عليه السلام ، إظهارًا لقوتهم وكمال ثقتهم بالانتصار عليه تقدم أو تأخر .

٦٦ – ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ :

حينما سمع موسى عليه السلام ماخيروه به ، أجابهم باختياره أن يلقوا أولًا ، ليظهر لهم عدم اكتراثه بسحرهم ، وليبرزوا أقصى ما معهم من وسائل التمويه ، والخداع ، ويستفرغوا جهودهم فى معارضته ، لثقته بأن الله سيُظهره عليهم . فألقوا ما أعدُّوه لمنافسته ومغالبته من الحبال والعصى .

﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ : أى فألقى كل ساحر ما معه ، ففاجأ موسى عليه السلام فى هذا الوقت . . أن حبالهم وعصيهم بسبب سحرهم تتحرك وتسير ، قال الكلبى : خيل لموسى أن الأرض حياتٌ ، وأنها تسعى على بطنها .

وما وقع من موسى عليه السلام ليس أمرًا غريبًا أن يصدر من بشر رأى قومًا اشتهروا بالسحر ، وأجادوا طرقه وأحكموا وسائل التَّمويه ، وصرْف الأعين عن رؤية الواقع .

٦٧ – ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ :

المعنى : فأضمر موسى عليه السلام فى نفسه شيئًا من الخوف من مفاجأة ما رأى بمقتضى الطبيعة البشرية عند رؤية الأمر المخيف ، إذ هى مجبولة على النَّفْرَة من الحيَّات ، وضررها الذى اشتهرت به ، وقيل خاف أن يفتتن الناس بالسحرة ، ويغترُّوا بهم قبل أن يُلقى العصا ، ويستمروا فى اغترارهم إلى ما بعد إلقائها وفتكها بسحرهم ، تعصُّبًا منهم لبنى قومهم .

٦٨ – ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ :

أى قلنا له : لا تستمر على خوفك الذى أضمرته فى نفسك ، لأنك أنت الغالب لهم ، المنتصر عليهم عند لقائك بهم – وغلبتك محققة لا شك فيها ، كما يؤذن بذلك النظم الكريم المشتمل على جملة من التأكيدات لا تخفى على فطنة القارئ .

٦٩ - (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا . . .) الآيَة .

المعنى : وألق يا موسى عصاك ، وعبَّر عنها هنا بقوله سبحانه : (مَا فِى يَمِينِكَ) ، إما تصغيراً لها ، فكأنه قيل له : لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم ، وألق العود الصغير الجرم الذى فى يمينك ، وإما تهويلًا لأمرها وتفخيمًا لشأنها ، وإشعارًا بأنها ليست من جنس العصى المعهودة ، لما لها من آثار عظيمة ، وأفعال غريبة ، فكأنه قيل له : لا تحفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة ، فإن ما فى يمينك أعظم منها ، وهذه على كثرتها أضعف منها ، فألقها يا موسى : (تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ) : أى إن تلقها تلقف الذى صنعوه من حبالهم وعصيهم التى تسعى ، لأن الله يحولها إلى تنين عظيم ، أى حية هائلة ، تبتلع ما ألقوه بسرعة فائقة ، والتعبير عما ألقوه بقوله : (إِنَّمَا صَنَعُوا) للإشارة إلى أن ما شوهد من سعيها ، إنما هو من تمويههم وصنعهم الذى هو كيد ساحر قصد به فتنة الناس وإضلالهم ، والتمكين لفرعون وحكمه ، وليست له حقيقة : (وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى) :أى ولا يقدر ولا ينجو حيث جاء ، وأين أقبل ، وحيث احتال .

٧٠ - (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ) :

حينما عاين السحرة ما حدث بعد إلقاء موسى عصاه ، وشاهدوه مشاهدة إمعان وتأمل ، علموا علم اليقين أن ذلك معجز وليس من قبيل السحر والتمويه ، وإنما هو حق لا شك فيه ، ولا يقدر عليه إلَّا الذى يقول للشيء كن فيكون ، لأنه بمعزل عن السحر الذى استفرغوا جهدهم للإحاطة بفنونه ، وطرقه وكل وجوهه ، وأدركوا أنه فوق قدرة البشر ، حيث تأكد لهم أن الله سبحانه هو الذى غيَّر مادة العصا إلى ثعبان عظيم أباد حبا لهم وعصيهم أصلا وصورة ، ولو كان ما صنعه موسى سحرا لبقيت الحبال حبالا والعصى عصيا بعد أن أبطلت العصا سحرهم فيها ، ولما وَقَرَ هذا فى قلوبهم اتجهوا إلى موسى فوقع كل منهم على وجهه ساجدًا لله إعلانًا لتوبته وإيمانه بالله وبرسالة رسوله موسى عليه السلام ،حيث : «قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ» وكفرنا بفرعون وبما يدعونا إليه ، قال ابن عباس وعبيد بن عمير : « كانوا أول النهار سحرةً ، وفى آخر النهار شهداء بررة » : فقد قتلهم فرعون بعد إيمانهم بموسى كما سيجيء بيانه ، وعن عكرمة : لما خرُّوا سُجَّدًا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة ، وقد اختلف العلماء فى عددِهم.فمنهم من أنهاهم إلى ثمانين ألفا ، كمحمد بن كعب ، ومنهم من قال : إنهم سبعون ألفًا كالقاسم

ابن أَبى بزَّة ، وقال السدِّى : كانوا بضعة وثلاثين أَلفًا .. إلى غير ذلك من الأَقوال - والله أَعلم بعددهم ، فليس أَمامنا ما يدل على صحة هذه الأَقوال المتباينة . والتعبير فى الآية بقوله سبحانه : « فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا » دون فسجدوا إشارة إلى أَنهم رَأَوْا ما أَلجأَهم فلم يتمالكوا حتى وقعوا على وجوههم ساجدين .

(قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾)

المفردات :

(قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ) : أَى وقع إيمانكم من غير أَن أُبيحه لكم ، وأَصل آذن ءأْذن مضارع أَذِنَ . قلبت الهمزة الثانية الساكنة أَلفًا تخفيفًا . (وَالَّذِى فَطَرَنَا) : أَوجدنا.[1]

---

(١) وهو من باب خلق .

(لَن نُّؤْثِرَكَ) :[١] لن نفضلك . (لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا) : مفرد خطايا : خطيئة وهى الذنب المتعمد كالْخِطءِ بكسر الخاء ، أما الخَطَأُ بفتح الخاء فهو مالم يُتعمد ، ويريدون بخطاياهم ، الكفر والمعاصى . (جَنَّاتُ عدْنٍ) : أى جنات إقامة يقال : عدن بالمكان عدْنًا وعُدُونًا من بابىْ ضرب وقعد : أى أقام . (مَن تَزَكَّىٰ) : صلح واهتدى .

التفسير

٧١ - (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ...) الآية .

يخبر الله سبحانه عن فرعون أنه تمادى فى عناده ومكابرته حين رأى ما أذهله من المعجزة الباهرة والآية العظيمة ، ومن إيمان من استنصر بهم من السحرة أمام جموع الناس وحشودهم ، حين رأى ذلك توعد كل من آمن بأقسى وسائل التنكيل والتعذيب ، بسبب إيمانهم الذى أنكره عليهم أشد الأنكار ، وعدَّه جريرة تستوجب كل ما ينزل بهم من عقاب وعلى أى وجه كان ، وقد بيَّن جرمهم وفق فهمه السقيم بقوله : (آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ) : أى أن إيمانكم بموسى عليه السلام وقع افتياتا منكم على سلطانى ، لأنه من غير أن آذن لكم به ، قال ذلك ليُرِى قومه أن إيمانهم غير معتد به حيث كان من غير إذنه ، ثم قال قولًا يعلم هو والسحرة والناس كلهم أنه افتراءٌ وبهتان ، وهو نسبته إيمانهم بموسى بعد أن غلبهم إلى أنهم تعلموا السحر من موسى ، فهو كبيرهم ومعلمهم ، فلهذا تواطئوا معه على كل ما حدث ، وقد حكى الله ذلك بقوله : (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) : أى إنه رئيسكم ومعلمكم السحر . فتواطأْتم على ما فعلتم ، واتفقتم علىَّ وعلى رعيَّتى لتظهروه ، كما فى قوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا ».[٢] وقد أراد فرعون بقوله هذا أن يشيع بين قومه الشك والريبة ، توجيهًا لهم إلى عدم الاكتراث بما أظهره موسى عليه السلام من المعجزة الباهرة ، وبما أعلنه السحرة من الإيمان ، حتى لا يتبعوهم ، فيؤمنوا كإيمانهم ، وإلَّا فقد علم فرعون أن موسى لم يعلمهم السحر ، فقد عَلِمُوه قبل قدومه عليهم بل قبل ولادته ، ثم توعد الذين آمنوا وعيدًا قاسيًا بقوله : (فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ) : أى فأقسم : لأُقطعن أيديكم وأرجلكم مختلفات ،

(١) مضارع آثره : أى فضله .

(٢) سورة الأعراف ، من الآية : ١٢٣

اليد اليمنى والرجل اليسرى ، واختار التقطيع على هذه الكيفية دون التقطيع من وفاق تنكيلًا كما أقسم : لأُصلبنكم أيضًا فى جذوع النخل ، وقد نفذ وعيده فقطع وصلب حتى ماتوا – رحمهم الله – قال ابن عباس : (فكان أوّلَ من فعل ذلك) رواه ابن أبى حاتم . وإيثار كلمة (فِى) فى قوله : (فِى جُذُوعِ النَّخْلِ) للدلالة على بقائهم على الجذوع زمنًا طويلًا كأنها محبس لهم ، وظرف احتواهم .

(وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ) : أى وأقسم إنكم لتعلمن علمًا لا شك فيه مَنْ منا أشد عذابًا للناس وأدوم ، أهو موسى ، أم أنا الذى خذلتمونى بتواطئكم معه؟ وقصده من وعيده هذا إظهار صلفه وكبريائه ، واقتداره على التعذيب الشديد ، واستضعاف موسى والهزء به ، لأن موسى عليه السلام لم ينل أحدا بشىء من التعذيب . وقيل : معناه أى الإلٰهين أشد عذابًا وأدوم ، أنا أم إلٰه موسى .

٧٢ – (قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا . . .) الآية .

المعنى : أنهم أجابوه على وعيده وتهديده قائلين له فى غير اكتراث به وبصنيعه لن نفضلك على ما جاءنا من الله سبحانه وتعالى من المعجزات الظاهرة على يد موسى عليه السلام ، وقيل : لن نفضلك على ما عَلِمْنَاه من الحق واليقين ، ولن نركن إليك بتفضيلك على الله الذى خلقنا وسائر الناس ، ولم نكن شيئًا مذكورًا ، وقيل : إن لفظ (وَالَّذِى فَطَرَنَا) قسم جوابه محذوف دل عليه ما قبله ، وهو قوله : (لن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ) : أى وحق الذى خلقنا لن نؤثرك على الذى جاءنا من الله على يد موسى عليه السلام من الآيات الباهرة . (فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ) : أى فافعل ما شئت واحكم بما أنت حاكم به ، لأنك (إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) : يعنون أنه إنما ينفذ أمره وقت هذه الحياة . ولا يقضى فيها إلا بمتاع أو عقاب ، وما لهم من رغبة فى خيرها وزينتها ، ولا رهبة من عسرها وعقابها ، وهذه الجملة التى ختمت بها الآية وما بعدها تعليل لعدم المبالاة المستفاد من قوله : (فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ) .

٧٣ – (إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ . . .) الآية .

أى صدقنا بالله وحده لا شريك له ، رجاء أن يغفر لنا ربنا ما اقترفناه من الكفر والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى الدار الأُخرى ، أما الدار الفانية فليس لنا مآرب فيها حتى نتأثر بما ينزل بنا من نكال ، كما نضرع إليه أن يغفر لنا السحر الذى أكرهتنا على المعارضة به ،

قال أبو عبيد : إذا أمر السلطان أحدًا بفعل شيء فقد أكرهه على فعله ، وإن لم يتوعده ، لما فى مخالفة أمره من توقع العقوبة . ولا سيما إذا كان السلطان طاغية جبارًا . وإلى هذا الرأى ذهب الحنفية فى أحكامهم الفقهية . انتهى ملخصًا . ولا ينافى هذا قولهم فى آية أخرى : « بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ » فإنهم قالوه مرضاة لفرعون الذى أجبرهم ، وقد أفردوا الإكراه على السحر بطلب المغفرة إظهارًا لشدة نفرتهم منه وقوة رغبتهم فى مغفرة الله (وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) : أى والله خير لنا إن أطعناه . وأبقى عذابًا منك إن عصيناه ، أو والله خير فى ذاته وصفاته ، لأنه الخالق الرازق وله الأمر كله ، وأبقى جزاءً ، ثوابًا كان أو عذابًا .

٧٤ ـ (إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ) :

قيل : هذه الآية والآيتان بعدها من قول السحرة لما آمنوا . وقيل : بل هى من كلام الله لبيان قاعدتين عامتين فى الإسلام ، وهما عقاب المجرمين . وثواب الصالحين .

والمعنى أن من يلقى الله يوم القيامة على الكفر والمعاصى ، فهو مستحق لأن يكون له جهنم دار إقامة دائمة لايموت فيها لينهى عذابه ، ولا يحيي حياة ناعمة وذلك كقوله : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ »(١) .

٧٥ ـ (وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ) :

أى ومن يوافه مؤمنًا به تعالى ، وبما أيد به رسله من المعجزات العظيمة التى من جملتها ما شاهدناه ، وقد عمل الطاعات اتباعًا لما أمر به سبحانه ونهى عنه . فأولئك ينزلهم ربهم أعلى الدرجات وأعظمها التى تقصر دونها الصفات .

٧٦ ـ (جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ) :

الآية بيان للدرجات التى استحقها أولئك المؤمنون ، أى أن لهم الجنات دار إقامة وهى على أكمل صورة وأجمل إعداد ، حيث تجرى من تحت غرفها وأشجارها الأنهار التى تملأ النفوس متعة وبهجة ، ماكثين فيها أبد الآبدين وذلك جزاء من تطهر من الكفر والمعاصى وعبد الله وحده ، لا شريك له .

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٣٦

وعلى ما قيل : من أن الآيات الثلاث التى بُدِئَتْ بآية : « إِنَّهُ من يأْتِ ربَّهُ مُجْرِماً » إلى آخر هذه الآية ، من قول السحرة . . يحتمل أنهم سمعوا ما قالوه من موسى أو من بنى إسرائيل الذين كانوا بمصر أو ممن آمن من آل فرعون ، وكان فيهم المؤمن الذى يكتم إيمانه ويحتمل أن يكون ذلك إلهاماً أنطقهم الله به لما آمنوا .

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾)

المفردات :

(أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى) : أى سِرْ بهم ليلا : تقول سريت الليل وسريت به إذا قطعته بالسير ، وأسرَى لغة حجازية . (يَبَسًا) : اليَبَس بالتحريك المكان الذى كان فيه ماءٌ فذهب ماؤُه وفعله يَبِس من باب علِمَ وفى لغةيَبِس يَيْبِسُ بكسر الباء فيهما . .

(دَرَكاً) الدَّرَكُ : اللحاقُ أى لا تخاف أن يلحقكَ فرعونُ وجنوده .

(فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بجُنُوده) : أى سار خلفهم حتى اقترب منهم ؛ يقال أتْبعهُ وتَبعهُ بمعنى واحد .

(فَغَشِيَهُمْ) : أى أصابهم . (مِنَ الْيَمِّ) : من البحر .

التفسير

٧٧ - (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى . . .) الآية .

كان فرعون قد وعد موسى عليه السلام أن يرسل بنى إسرائيل معه ، ويطلقهم من أسره وقهره بعد أن ظهر موسى بآياته عليه ،ولكنه كان يماطل فى الوفاء فينزل به الله وبقومه آيات العذاب ، وكان كلما نزلت به آية ، وعد عند انكشافها أن يفى بوعده ، حتى إذا انكشف العذاب خاس بعهده ، فلما كملت الآيات البينات التى تتابعت عليه لنحو عشرين سنة ، بعد ما غُلِبت السحرة[1] أوحى الله إلى موسى أن يرحل عن مصر ببنى إسرائيل لإنقاذهم من

(١) أخرجه الإمام أحمد فى الزهد وغيره عن نوف الشامى كما ذكره الآلوسى أثناء شرحه لقوله تعالى « آيات مفصلات » فى سورة الأعراف .

ظلم فرعون وطغيانه . وأن يكون رحيله عنها ليلا حيث يقول سبحانه : « وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى » وقد أتت الجملة مصدرة بالقسم إبرازًا لكمال العناية بمضمونها .

والمعنى : والله لقد أوحينا إليه آمرين إياه أن يسير ببنى إسرائيل فى الليل حفاظاً عليهم حتى لا يتعرضوا لمنع فرعون . ويقعوا فى قبضته . فيذيقهم أشد العذاب . ولما خرج بنو إسرائيل بصحبة موسى وتم لهم ذلك أصبحوا وليس لهم بمصر داع ولا مجيب . فغضب فرعون أشد الغضب ودفعته شهوة الانتقام إلى الإسراع فى جمع جنده وقواده قائلا لهم : « إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ »(١) ولما أعد للأمر عدته ، سار بمن معه يتبع موسى وقومه . وقد بكَّروا « فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ » : أى عند مطلع الشمس ، ولما تراءى الجمعان نظر بعضهم إلى بعض . فقال أصحاب موسى عليه السلام « إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ »(٢) . تثبيتاً للأقدام . وتطميناً للقلوب . وكان البحر أمامهم والعدو خلفهم . عند ذلك أمر موسى عليه السلام أن يفعل ما أشار إليه قوله تعالى :(فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِى الْبَحْرِ يَبَسًا)(٣) : أى فاضرب لهم البحر بعصاك لتتخذ لهم من المكان الذى ضربته فيه طريقاً يبساً لاماء فيه ولاطين . فهو مصدر وصف به مبالغة : بمعنى أنه يابس جاف يتسنى السير فيه بيسر وسهولة . (لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ) : أى تفعل هذا وأنت فى حال لا تخاف أن يلحقكم فرعون وقومه من ورائكم ؛ لأنك ومن معك فى رعايتى ولا تخشى أن يغرقكم البحر من حولكم . إذ لا يحدث شىءٌ فى الكون إلا بإرادتى .

٧٨ - (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ . .) الآية .

الفاءُ فى قوله « فَأَتْبَعَهُمْ » تشير إلى مضمر طوى ذكره . ثقة بغاية ظهوره . وتنويهاً بكمال مسارعة موسى إلى الامتثال .

والمعنى : ففعل موسى عليه السلام ما أمرناه به من السير ليلا . فضرب لهم طريقاً فى البحر بعصاه ، وسلكه بمن معه . فأتبعهم فرعون بجنوده بحرًا كما أتبعهم بهم برًا ، أى

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ (٢) سورة الشعراء ، من الآيتين : ٦١ ، ٦٢

(٣) وقرىء يبسا بإسكان الباء ، وهو إما مخفف من المحرك أو صفة مشبهة كصعب أو جمع يابس كصحب جمع صاحب ، ووصف به الطريق الواحد للمبالغة بجعل الطريق لفرط يبسه كأشياء يابسة أو يراد به الجنس ، وكان متعدداً لتعدد الأسباط .

تبعهم وسار فى أثرهم ؛ حتى إذا استكملوا دخولا ، خرج موسى بمن معه إلى الشاطىء الشرقى من البحر سالمين . ولم يخرج أحد من فرعون وجنوده ، حيث حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ويراد بالبحر : بحر القلزم وهو المعروف الآن بالبحر الأحمر (فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) : أى فعلاهم وغمرهم ماغمرهم ، من الأمر الهائل المروع الذى يعجز البيان عن وصفه ، حيث انطبق عليهم الماء فأغرقهم فهلكوا جميعاً ، ونجى الله فرعون وأبقاه ببدنه خالياً من الروح فى اليوم الذى نجى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق . ليراه بنو إسرائيل بعيونهم ، فيطمئنوا ويؤمنوا بهلاكه . وكانوا من ذلك فى شك مريب ، ولتكون قصته آية وعلامة لمن وراءه من أهل عصره ومن يأتى بعده . تبين لهم العاقبة المحتومة لكل جبار عنيد . وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً »[1] .

٧٩ - (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى) :

أى وأضلهم عن الرشد ، وما هداهم إلى الخير بل سلك بهم مسلكاً أوصلهم إلى الهلاك فى الدنيا والآخرة . حيث أغرقوا فأدخلوا ناراً خالدين فيها ، والجملة تأكيد لإضلاله إياهم .

(يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) : الْمَنُّ مادة حلوة لزجة تشبه العسل ، وكانت تنزل عليهم من الفجر

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٢

إلى طلوع الشمس كما قيل . والسلوى : السُّمَانى أو طائر يشبهه . (وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ) : الطغيان مجاوزة الحَدِّ ، ويراد منه فى الرزق تجاوز المأمور به فى أكله .

(فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى) : أى يجب ويلزم . (وَمَنْ يَحْلِلْ عليْهِ غَضَبِى) : أى ينزل به ، وفى المصباح حلَّ العذاب يحُل بضم الحاء فى المضارع وكسرها ، أى نزل . انتهى بتصرف .

التفسير

٨٠ - (يَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ . .) الآية .

حكاية لِمَا خاطب الله سبحانه به بنى إسرائيل بعد إغراق عدوهم ، لِتذكيرهم ببعض نعمه العظيمة ، وَمِنَنِهِ الكبيرة التى توالت عليهم ، حيث يقول جل شأنه : « قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَـدُوِّكُمْ » أى قـد خلصناكم من أسره وتعذيبه فيسرنا لـكم الهجرة إلى سـيناء برا وبحرا وحفظـناكم من الغرق . وأغرقنـا فرعـون وقـومه جمـيعاً وأنتم تنظرون كما يقـول تعالى : « وَأَغْرَقْنَآ آلَ فِرْعَـوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ » [1] . ثم بعد نزولـكم سـيناء قربناكم « وواعَدْنَـٰكُمْ جَانبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ » : أى وعـدناكم أن تأتوا جانب الطور الأيمن على لسان نبيكم موسى عليه السلام للمناجاة ، حيث أمرناه أن يأمركم بالخروج معه ، ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام ، وقيل : إن الوعد كان لموسى ، وخوطبوا به لأنه كان لأجلهم (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) [2] : أى وقد أنعمنا عليكم نعمة عظيمة أخرى ، فأطعمناكم طعاماً طيباً مباركاً يسرناه لكم ، وجعلناه فى متناول يدكم حيث كان ينزل عليكم المن والسلوى ، فيأخذ كل منكم حاجته منهما بدون عناء رعاية لكم فى التيه ، ورحمة بكم ، وإحساناً إليكم ، ثم أمرهم أمر إنعام بها وإباحة لتناولها فقال سبحانه :

٨١ - (كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ . . .) الآية .

المراد من الطيبات لذيذ الرزق الذى تستطيبه النفوس وتستحسنه الطباع السليمة ، وقيل : طيبات الرزق ما أحله الله منه نوعاً وكسبا ، ولقد عقب الله هذه المنة بنهيهم عن

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٥٠

(٢) تقدم بيان المن والسلوى فى المفردات .

الطغيان بقوله « وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ » : أى ولا تطغوا بسبب الرزق بأن تحملكم السعة والعافية على العصيان لأن الطغيان تجاوزُ الحد إلى ما لا يجوز (فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى) :أى فيجب ويقع عليكم مقتى . (وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى) : أى ومن ينزل عليه غضبى بسبب ارتكابه ما نهيته عنه ، فقد هلك . وقيل : فقد سقط وتردى فى الهاوية وهى قعر جهنم .

٨٢ - (وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) :

وإنى لكثير المغفرة لمن تاب من شركه ومعاصيه وآمن بى وعمل صالحاً ، ثم استمر مهتدياً . وقيل : المراد بقوله « ثُمَّ اهْتَدَى » ثم طهر قلبه من الأخلاق الذميمة ، كالعُجْبِ والحسد والكِبْرِ وغيرهما ، بعد ما آمن وعمل صالحاً ، وقال ابن عطية : الذى يَقْوَى ويظهر فى تفسير «ثُمَّ اهْتَدَى» أن يكون المعنى ثم حفظ معتقداته من أن تخالف الحق فى شىء من الأشياء ، فإن الاهتداء على هذا الوجه غير الإيمان وغير العمل ، ا هـ .

والتوبة التى أشارت الآية إلى تكفيرها الذنوب والخطايا ، هى التوبة النصوح ؛ التى يقلع بها التائب عما كان فيه ، ويعزم على ألا يعود إليه أبدًا ، ويندم على ما فعل ؛ فإن كانت المعصية فى حق آدمى يزاد على ذلك أن يبرأ منها ؛ برد الحق إلى صاحبه إن كان مالاً ونحوه وبتمكينه من نفسه أو طلب عفوه إن كان حداً .

* (وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾)

المفردات :

(مَآ أَعْجَلَكَ) : ما حملك على العجلة والسرعة

(هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى) : هم قادمون بعدى يسيرون على أثرى . .

التفسير

ذهب موسى لمناجاة ربه مع من اختارهم من قومه لصحبته فى هذه المناجاة[(١)] ، وغلبه الشوق إلى مناجاة ربه فأسرع إلى مكان المناجاة وخلف قومه وراءه فسأله الله تعالى - وهو العليم - عن سبب العجلة منكرًا عليه تركه للنقباء السبعين الذين اختارهم من قومه لصحبته قائلا :

٨٣ - (وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ) :

أىّ شىء حملك على العجلة ؟ وكان الجواب المتوقع أن يذكر سبب العجلة وهو شدة الشوق إلى الله . ولكن موسى فهم أنه تعالى ينكر عليه تركه لقومه خلفه فقال :

٨٤ - (قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى) : أى هم قادمون خلفى يتبعون أثرى وسيلحقون بى سريعاً .

(وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ) : وأسرعت إلى مناجاتك طلباً لرضاك يارب وتلبية لأمرك ، ذكر القاسمى : « أنه سبحانه إنما أراد بسؤاله عن سبب العجلة - وهو أعلم - أن يعلم موسى أدب السفر ؛ وهو أنه ينبغى تأخر رئيس القوم عنهم فى السفر ليكون نظره محيطاً بطائفته ونافذاً فيهم ومهيمنا عليهم . وهذا المعنى لا يحصل فى تقدمه عليهم . ألا ترى أن الله عزوجل علم هذا الأدب لوطا فقال : « وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ »[(٢)] على أن موسى غفل عن هذا الأمر مبادرة منه إلى رضا الله عز وجل . ومسارعة إلى الميعاد مع الرحمن وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير . ولا أسرّ من مواعدة الله تعالى له صلى الله عليه وسلم » . .

(قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾)

المفردات :

(فَتَنَّا) : اختبرنا وابتلينا . (السَّامِرِىُّ) : نسبة إلى سامراء ، وينسب بعض الباحثين السامرى إلى طائفة معروفة من اليهود باسم السامريين . وهم الآن طائفة صغيرة من اليهود تقيم فى نابلس وتخالف سائر اليهود فى عاداتها وتقاليدها[(٣)] .

---

(١) راجع تفسير الآية ١٤٢ من سورة الأعراف من التفسير الوسيط .

(٢) الحجر ، من الآية ٦٥

(٣) راجعه فى قصص الأنبياء للشيخ النجار .

٨٥ـ (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ) : الآية .

أى قال الله تعالى لموسى : فإنا قد أوقعنا قومك فى الابتلاء والاختبار ليظهر فى واقع الأمر مدى صدقهم فى الإيمان وضعفهم فيه (وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) : أى حماهم على الضلال وفتنهم حتى عبدوا العجل ، وسيأتى بيان ذلك تفصيلا . . .

(فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(أَسِفًا) : شديد الحزن . (طَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ) : أى طال عليكم عهد خروجى لإحضار الألواح بما تحمله من أوامر ونواه . (بِمَلْكِنَا) : باختيارنا وإرادتنا ـ يعنون أنهم مكرهون مضطرون . (أَوْزَارًا) : أثقالًا أو ذنوبًا . (عِجْلًا جَسَدًا) : صورة عجل مجسم فى هيئة تمثال . (لَهُ خُوَارٌ) : الخُوار صوت البقرة .

التفسير

٨٦ـ (فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفا . . .) الآية .

فعاد موسى إلى قومه وهو فى أشد الغضب والحزن لكفرهم بعد الإيمان وضلالهم بعد الهداية (قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا) : أى قال موسى موبخا لهم : يا قوم

ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا بأن يعطيكم التوراة فيها هدى ونور ، فكيف تعودون إلى الشرك بعد أن أنقذكم الله منه ؟ (أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ) : أى أفطال عليكم زمان مفارقة موسى لكم ؟ أو عهد إنجائكم من فرعون مصر وإغراقه لمن ظلمكم (أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى) : أى أنكم بفعلكم هذا كأنكم أردتم أن يحل عليكم غضب ربكم ، حيث أخلفتم وعدكم إياى بالثبات على الإيمان بالله وتنفيذ ما أُمرتم به .

٨٧ - (قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا . . .) الآية .

قالوا : ما فعلنا ذلك باختيارنا (وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ) : ولكننا كنا نحمل أعباءً وأحمالًا من ذهب المصريين فظنناها موضعًا للمؤاخذة لأنها ليست ملكًا لنا وإنما استعرناها من المصريين فى عيدنا لنردها إليهم بعد حين : (فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِىُّ) : فألقينا بها فى النار تخلصًا منها كما فعل السامرى وكما أمرنا .

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ) : وكان السامرى ماهرًا فى الصياغة فصنع تمثالًا ذهبيًا للعجل أبيس معبود المصريين قبل هجرة بنى إسرائيل من مصر ، وجعله بحيث إذا حُرِّكَ صدر منه صوت كخوار الثيران أو جعل فيه ثقوبًا إذا هبت فيها الريح أصدر هذه الأصوات ، والماهرون فى صناعة الدمى الآن يجعلونها تصدر بعض الأصوات أو تحرك بعض الأعضاء .

وأجاز بعضهم أن يكون السامرى قذف الحلى فى النار بدعوى أنها محرمة عليهم لسرقتهم إياها من المصريين ، واشترى لهم عجلا جسدا حيا ، وسرق الذهب لنفسه .

(فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ) : أى قال السامرى ومن افتتن به وتابعه : يا قوم هاهو ذا إلٰهكم وإله موسى قد نسيه هنا وذهب يطلبه فى الطور ويناجيه هناك ، أو نسى موسى ألوهيته وضل الطريق إلى ربه فخرج يبحث عنه ، فى حين أن هذا العجل هو ربه ، وهكذا أضلهم السامرى وفتنهم حتى عبدوا العجل .

٨٩ - (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) :

الاستفهام هنا للتوبيخ ، أى أعموا فلم يروا أن هذا العجل لا يتحدث إليهم ولا يرد على أسئلتهم وأنه لا يملك أن يضرهم أو ينفعهم ، فكيف يكون إلٰهًا مستحقًا للعبادة والتقديس ؟ !

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ
ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ
حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾

المفردات :

(فُتِنتُمْ) : ابتليتم واختبرتم . (لَن نَّبْرَحَ) : سنبقى .

(عَاكِفِينَ) : مقيمين على عبادته .

التفسير

٩٠ - (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا أَمْرِى) :

زعم اليهود - كما ورد فى سفر الخروج (الإصحاح) ٣٢ - أن هٰرون عليه السلام هو الذى صنع العجل الذهبى لبنى إسرائيل ودعاهم إلى عبادته . وذلك دأبهم فى تلويث الأنبياء بل وقتلهم بغير حق إذا لم يوافقوا هواهم - مع أنه نبى مرسل معصوم من الأخطاء ، وبخاصة الشرك بالله أو الرضا عنه - وقد برَّأه الله فى هذه الآية مما ألصقوه به .

والمعنى : ولقد قال هارون لبنى إسرائيل حين رآهم مقبلين على عبادة العجل - بتزيين السامرى - قال لهم قبل أن يستغرقوا فى عبادته : إن هذا العجل فتنة واختبار من الله لكم ، أتعبدونه وهو لا يملك من أمركم شيئًا ، أم ترفضونه وتعبدون الله ، فإنه إلٰهكم الحق الجدير بالعبادة ، لأنه المتصف بالرحمة البالغة حيث أنجاكم من عدوكم ، فاتبعونى فى عبادته وتوحيده وأطيعوا أمرى بالكف عن عبادة العجل .

٩١ - (قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ) :

أصروا على باطلهم ولجوا فى عنادهم وقالوا : سنظل عاكفين على عبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى ويخبرنا بالحقيقة .

﴿ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾

المفردات :

(مَا مَنَعَكَ) : قال عيسى بن موسى معناه : ما حملك على عدم اتباعى ، فإن المنع عن الشيء مستلزم للحمل على سواه ، وقيل : المنع على ظاهره ، وحرف (لا) صلة للتأكيد وليس للنفى ، كما فى قوله : « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » : فهى بمعنى ليعلم ، وكما فى قوله تعالى فى حق إبليس فى سورة الأعراف : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » : فهو بمعنى ما منعك أن تسجد ، ليتفق مع قوله فى سورة (ص) : « مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ » .

التفسير

٩٢ ، ٩٣ ـ (قَالَ يَا هَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا أَن لَّا تَتَّبِعَنِى أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى) :

كان موسى عليه السلام قد اشتد به الغضب ، فجذب أخاه هٰرون من لحيته وشعر رأسه وقال له : يا هٰرون ما حملك حين رأيت بنى إسرائيل ضلوا عن الهدى فعبدوا العجل ، ما حملك على عدم اتباعى إلى جبل الطور لتتلقى تعليماتى ، أو ما حملك على عدم اتباعى فى تشديد النكير عليهم ، لتحول بينهم وبين ما فعلوه (أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى) بقولى لك : « اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ »[1] ، فكيف تركتهم حتى وصلوا إلى ماوصلوا إليه ؟

(١) الأعراف ، الآية : ١٤٢

٩٤ - (قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي) :

قال له هارون : يا أخي وابن أمي التي طبعتنا على الحنان والشفقة لا تجذبني بعنف من شعر رأسي وشعر لحيتي .

(إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي) :

إني خفت أن أقسو على بني إسرائيل فينقسموا إلى فريقين : فريق معي . وفريق يتمسك بعبادة العجل ، فتقع بينهم حرب . وأكون أنا سببًا في تمزيق وحدتهم وتشتيت أمرهم وتفريق كلمتهم ، فكنت أحاول أن أردهم إلى الصواب بالنصح والإرشاد .

(قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾)

المفردات :

(مَا خَطْبُكَ) : أي ما حالك وما شأنك ، والخطب الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب .

(بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) : أدركت وعلمت ما لم يعلموه وأيقنته .

(الرَّسُولِ) : قيل المقصود به جبريل عليه السلام ، وقيل موسى .

(فَنَبَذْتُهَا) : طرحتها .

(سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي) : زينت وحسنت .

التفسير

٩٥ - (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ) :

في هذه الآية يتجه موسى عليه السلام إلى السامري ، ليحاسبه ويوبخه على صرفه قومه إلى عبادة العجل بعد أن فرغ من عتاب أخيه هرون على تركهم يعبدونه ، واعتذر هرون عليه السلام بأنه نصحهم فلم ينتصحوا وأنه خشي أن يقول له موسى : فرقت بين بني إسرائيل ،

ولم ترقب قولى فى المحافظة على وحدتهم ، والحكمة فى التصرف معهم ، وكان للسامرى نفوذ فى بنى إسرائيل ، وكان قوى التأثير عليهم . قال قتادة : كان السامرى عظيماً فى بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ، ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى ، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم ، « قَالُوا يَا مُوسَى اجعَل لَّنَآ إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ »[١] . فاغتنمها السامرى وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل[٢] .

٩٦ ـ (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى) :

قال الفخر الرازى : عامة المفسرين على أن المراد بالرسول : جبريل ، والمراد بأثره : التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته . والأكثرون منهم على أنه رآه يوم فلق البحر ، وعن على أن ذلك كان حين نزل ليذهب بموسى إلى الطور ، ثم اختلفوا فى كيفية رؤيته جبريل دون سائر الناس ، وحكى الرازى عن هؤلاء المختلفين حكايات لا أصل لها ، وذكر القرطبى وغيره : أن السامرى لما زينت له نفسه أن يأخذ قبضة من التراب الذى تحت حافر فرس جبريل ، جعل يلقى منه على الجماد ، فيتحول إلى حيوان له روح ولحم ودم ، فلما سألوا موسى أن يعيدهم إلى عبادة العجل زجرهم ، فصنع لهم السامرى فى غيبته عجلا من الحلى ، وألقى من هذا التراب عليه ، فتحول إلى جسد من لحم ودم له خوار كسائر العجول ، ويقول القرطبى فى موضع آخر نقلا عن مجاهد : خواره وصوته كان بالريح لأنه أحدث فيه خروقاً ، فإذا دخلت الريح فى جوفه خار ولم تكن فيه حياة .

وبهذا نقول فإن تحويل الجماد إلى حيوان حقيقى لا يكون معجزة إلا لنبى ، كما حدث لموسى ، حين حول الله عصاه الخشبية إلى حية تسعى ، ولا يصح أن يجرى الله مثل ذلك على يد من يعارض النبوة ويثير الشبه حولها ، ولو أنهم قالوا إنه كان ساحرًا وإنه خيل لهم بسحره أنه عجل حقيقى لكان ذلك خيرًا مما قالوه ، وقد أحسن الإمام الرازى فيما نقله عن أبى مسلم الأصفهانى ، إذ قال نقلا عنه ما خلاصته : ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى

---

(١) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف ، وقد رد عليهم موسى قائلا : (إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون) الآيات من سورة الأعراف .

(٢) القرطبى ج ١١ ص ٢٣٩

ذكره المفسرون ، ونرى فى الآية وجهاً آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام ، وبأثره سنته وشريعته ، وبيان الآية على هذا أن موسى لما أقبل على السامرى باللوم والسؤال عما دعاه إلى صنع العجل وإضلال قومه بعبادته ، قال بصرت بما لم يبصروا به أى عرفت مالم يعرفوه فى دينك ياموسى ، فقد تبين لى أنه ليس بحق ، فقبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أى أخذت شيئاً من سنتك ودينك فطرحته عن قلبى ، وحملت القوم على ترك دينك بصناعة العجل وتحويلهم إلى عبادته ، فعند ئذ أدرك موسى كفره ، فتوعده بالعقاب فى الدنيا والآخرة ، وإنما وصف موسى بالرسول وهو لا يؤمن به على سبيل التهكم ، كما قالت قريش للنبى صلى الله عليه وسلم : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ » .

وقد عقب الرازى على هذا الرأى بقوله : واعلم أن هذا القول ليس فيه إلا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب إلى التحقيق .

والمعنى على هذا : قال السامرى لموسى ردًا على لومه وتوبيخه : علمت من أمر دينك مالم يعلمه قومك ، فكرهت البقاءَ فيه ، فقبضت قبضة من دينك المأثور عنك ، فطرحتها عنى وحملت قومى على مخالفتك فصنعت لهم عجلا جسدا له خوار بسبب دخول الريح فيه أو بالسحر ، ودعوتهم إلى عبادته ، حيث قلت لهم : هذا إلهكم وإله موسى ، فاستجابوا لى وعبدوه وكذلك سولت لى نفسى .

(قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(لَا مِسَاسَ) : لا يمسنى أحد .

(مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ) : أى وعدا بالعذاب يوم القيامة لا خلف فيه .

(ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا) : دمت على عبادته ملازما ومقيما ، وأصله ظللت ، فخفف بحذف اللام الأولى . (لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ) : أى لَنَذْرُوَنَّه ونُطَيِّرنه فى البحر ، والنسف نقض الشىء أو تعريضه للريح ليبعثره أو ينفضه مما يشوبه ، والمراد منه هنا التَّذْرية والذَّرْو وهو المعنى الثانى للنسف ، والمِنْسف ما ينسف به الطعام .

(وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) : أحاط علمه بكل شىء .

التفسير

٩٧ – (قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَامِسَاسَ ..) الآية .

أى قال موسى للسامرى بعد اعترافه بصناعة العجل وحمله قومه على عبادته – قال له : اذهب عنا منفيا من بيننا ، بحيث لا يمسك أحد ولا تمس أحدا ، حتى تلجئك هذه المقاطعة إلى أن يختل عقلك فتقول : لامساس ، ترديدا لما يقوله الناس بعضهم لبعض فى النهى عن ملامسته . تأكيدا لفصله عن المجتمع الذى أضله ، وتنفيذا لما أوصاهم به موسى عليه السلام من مقاطعته وترك معاملته والاتصال به ، وهذا هو الذى نراه مناسبا فى تفسير الآية .

ومن المفسرين من قال : إن الله عاقبه بمرض جلدى ، وكان يصاب بالحمى إن مسه الناس ، فكان يسترحمهم قائلا : لا مساس ، فابتعد عنه الناس لا يؤاكلونه ولا يعاملونه لذلك . وأنكر الجبائى هذا الرأى ، وقال : إنه خاف وهرب إلى البرية ، وجعل يهيم فيها فلا يجد أحدا من الناس يمسه ، حتى صار لبعده عن الناس كالقائل : لا مساس . اهـ

وبما أننا لانجد دليلا على هروبه إلى البرية ولا على إصابته بمرض جلدى ، فلهذا نرى أن ماذكرناه أولا فى تفسير الآية هو المناسب للنص الكريم .

وتعتبر هذه الآية من الأصول التى يعمل بها مع الذين يحدثون حدثا كبيرًا فى الدين ، وقد فعل النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فى الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، حيث أوجب على المسلمين مقاطعتهم حتى عفا الله عنهم .

(وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدا لَن تُخْلَفَهُ) : وإن لك ياسامرى وعدا بالعقاب فى الآخرة لن يحدث فيه خلف ، فإنه تعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

(وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً) :

قد عرفت مما تقدم أن العجل الذى صنعه السامرى من حليهم فيه ثلاثة آراء (أحدها) : أنه عجل تحول من حلى إلى حيوان ، حينما وضع عليه السامرى ترابا من تحت حافر الفرس التى كان يركبها جبريل - كما قيل - (وثانيها) : أنه عجل من ذهب لم تحل فيه الحياة ، وأن خواره صناعى أو بسبب السحر ، فعلى أنه عجل حيوانى ، يكون حرقه بعد ذبحه ، حتى إذا صار رمادا نسفه فى اليم ، أى ذراه فى الهواء فى اتجاه البحر ، أما على أنه عجل صناعى لم تحل به الحياة ، وأن خواره صناعى أو بطريق السحر ، فيكون حرقه وتصييره رمادا من آيات موسى عليه السلام ، لأن الذهب إذا صهر بالنار يصبح سائلا ولا يمكن نسفه ، (وثالثها) أنه عجل حيوانى اشتراه موسى السامرى بعد أن صهر الذهب وسرقه ، وأمر حرقه بعد ذبحه واضحٌ ، وأن كنا نستبعد أن يحرقه موسى وهو لحم حيوان أحل الله أكله ، وكان يكفى - لوصح أنه حيوان حقيقى - أن يذبحه ليظهر بذبحه عدم صلاحيته للألوهية ، ثم يبيح لهم أكله .

والذى يظهر لنا والله أعلم أنه عجل صناعى [1] وأن خواره صناعى أو عن طريق السحر ، وأن الحياة لم تحل فيه ، فإن ذلك معجزة فلا يجريها الله على يد منافق لا يعترف بوحدانيته تعالى ، بل هى من آيات الرسل كما حدث لعصا موسى عليه السلام ، وأن إحراق موسى له يعتبر آية و معجزة من معجزاته عليه السلام .

والمعنى : وانظر ياسامرى إلى العجل الذى صنعته وجعلته لك إلها ، وأقمت على عبادته ملازما أنت ومن استجاب لك من قومك ، والله لنحرقنه حتى يصير رمادا ، ثم لننسفنه ونذرينه ليلقيه الريح فى البحر حتى تعلم أنت ومن تبعك عجزه عن حماية نفسه من النار ، وفساد رأيكم فى عبادته .

٩٨ - (إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً) :

هذه الآية جاءت لإحقاق الحق بعد إبطال الباطل ، والخطاب فيها لعموم بنى إسرائيل.

---

(١) والآية شبه صريحة فى ذلك ، إذ يقول الله فى الآية (٧٧) حكاية عن عبدوه « قالوا ماأخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار . . » الآية

والمعنى : ما إلهكم يابنى إسرائيل سوى الله الذى لا إله سواه أحاط علمه بكل شىء ، فكيف تشركون به العجل الذى لا يعلم مايراد به ، ولا يستطيع حماية نفسه ، وبهذا تم حديث موسى بشأن العجل الذى عبدوه .

(كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا
ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾
خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ
وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا
عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ
إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾)

المفردات :

(ذِكْرًا) : المراد به القرآن الكريم ، وأطلق الذكر عليه لأنه يذكر الناس بما ينفعهم ، أو لأنه شرف للرسول ولقومه صلى الله عليه وسلم كما فى قوله : «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ» .

(وِزْرًا) : أى ذنبا ثقيلا . (الْمُجْرِمِين) : المشركين . (زُرْقًا) : أى زرق الأبدان أو العيون . (يَتَخَافَتُونَ) : يخفضون أصواتهم من شدة مايجدون .

(إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا) : ما مكثتم فى القبور أو الدنيا إلا عشر ليال .

(أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً) : أعدلهم رأيا .

(إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) : مالبثتم فى القبور أو فى الدنيا إلا يوما .

التفسير

٩٩ـ (كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا) :

أى مثل ذلك القصص الصادق من خبر موسى وقومه نقصُّ عليك يامحمد أمثاله من قصص الأولين تسلية لك مما حل بك من قومك ، وتأييدا لنبوتك ، وتبصيرا للمستبصرين من

أولى الألباب الباحثين عن الحق ، وقد أعطيناك من عندنا قرآنا مذكِّراً بما فى تلك الأنباء والقصص من العبر وهو كتاب شريف جامع لكل الكمالات .

١٠٠ ، ١٠١ - (مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً . خالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً) :

أى من أعرض عن هذا الذكر العظيم الذى أعطيناك أيها الرسول ، ولم يؤمن بما جاء فيه من العقائد والأحكام الدنيوية والأخروية فإنه يحمل يوم القيامة إثما عظيما لاقدرة له على احتماله مقيما فى جزائه جهنم إقامة دائمة ، وبئس للمعرضين عنه - وبئس لهم - يوم القيامة هذا الحمل الذى حملوه بالإعراض عن الذكر الذى بعثك الله به إليهم[١] .

١٠٢ - (يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) :

أى اذكر لهم يامحمد يوم ينفخ إسرافيل فى البوق نفخة البعث من القبور ، حيث يقوم الناس لرب العالمين ، ونسوق المجرمين يومئذ بعد البعث زرق الأجساد أو زرق العيون من أجل مايحملونه من الأوزار ، وخوفهم من محاسبة العليم القهار ، وسئل ابن عباس عن وصفهم هنا بقوله «زُرْقًا» وفى آية أخرى بقوله «عُمْيًا» فكيف يجمع بينهما ؟ فقال : ليوم القيامة حالات ، فحالة يكونون فيها عميا وأخرى يكونون فيها زرق العيون .

وقال الفراء : المراد من «زُرْقًا» عميا لأن العين إذا ذهب نورها ازْرَقَّ ناظرها .

١٠٣ - (يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً) :

أى يخفضون أصواتهم ، ويتهامسون فيما بينهم قائلين ، مالبثتم فى القبور إلا عشر ليال ، أو عشرة أيام[٢] ، ومرادهم من قولهم ذلك استقصار مدة لبثهم فى القبور وسرعة انقضائها ، بعد أن تحقق لديهم البعث الذى أنكروه من قبل ، يقولون ذلك على سبيل التنديم ، كأنهم قالوا : قد بعثتم ومالبثتم فى القبر إلا مدة يسيرة ، وقد كنتم تزعمون أنكم لن تبعثوا منه

(١) وافراد الضمير فى قوله « فإنه يحمل » مراعاة للفظ (من) ، والجمع فى قوله « خالدين » وقوله « وساءلهم » مراعاة لمعناه .

(٢) قيل : إن تقديرها بعشرة أيام أولى من تقديرها بعشر ليال ، ليناسب قول أمثلهم فى الآية التالية (إن لبثتم إلا يوماً) فإن قيل : إن تقديرها بالأيام يقتضى تأنيث العشرة ، على قاعدة تأنيث العدد إذا كان المعدود مذكراً ، والعكس بالعكس ، وأجابوا بأنه إذا حذف المعدود وأبقى عدده فقد لا يؤتى بالتاء ، حكى الكسائى : صمنا من الشهر خمساً ، ومنه ما جاء فى الحديث « ثم أتبعه بست من شوال » فإن المراد ستة أيام وحسن الحذف مراعاة الفواصل .

أبدا ، وعن قتادة أنهم قصدوا بهذه العشر مدة لبثهم فى الدنيا ، استقصارا لها لزوالها وتأسفهم عليها بعد أن عاينوا الشدائد التى لاغاية لها ، وأيقنوا أنهم استحقوها بسبب إضاعتهم دنياهم القصيرة فى قضاء الأوطار واتباع الشهوات : انتهى بتصرف . وفى مجمع البيان عن ابن عباس وقتادة أنهم قصدوا مدة لبثهم بين النفختين ، حيث يمكثون أربعين يوما مرفوعا عنهم العذاب .

١٠٤ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا) :

نحن أعلم بما يقوله هؤلاء المتحسرون على ضياع رقادهم أو إقامتهم فى دنياهم حين يقول أحسنهم طريقة فى القياس بين ماكانوا فيه وما هم مقبلون عليه . مالبثتم إلا يوما واحدا ، يريد بذلك حملهم على الندم أكثر فكأنه يقول لهم : إن تقدير إقامتنا فى القبور أو فى الدنيا بعشرة أيام يعتبر شيئا كثيرا بالنسبة إلى مانحن مقبلون عليه من الشدائد فما لبثنا أكثر من يوم واحد ، ووصف القرآن قائلَ هذا بأنه أَمْثَلُهُمْ طريقة لكون ماقاله أعظم فى التنديم ، وأقوى فى التحسير ، وأدل على شدة ماهم مقبلون عليه ، ولكل مقام مقال يحسن فيه أكثر من غيره .

(وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(يَنسِفُهَا) : يذريها ويطيرها . (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا) : فيتركها سهلا مستويا .

(لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا) : لا تجد فيها انخفاضا ولا شيئاً مرتفعا .

(يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ) : يتبعون إسرافيل الذى دعاهم بالنفخ فى الصور إلى الحساب .

(لَا عِوَجَ لَهُ) : أى لا عوج للداعى على معنى لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه .

التفسير

١٠٥ - (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً) .

هذه الآية مستأنفة لبيان حال الجبال عند قيام الساعة بعد ما سأل السائلون رسول الله عنها ، وهؤلاء السائلون ممن ينكر البعث من قريش . فقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج أنهم قالوا على سبيل الاستهزاء كيف يفعل ربك بالجبال يوم القيامة ، وقيل هم أناس من المؤمنين سألوا عنها على سبيل التعلم وطلب المعرفة .

والمعنى : ويسألك السائلون يامحمد عن حال الجبال يوم القيامة ، أتظل باقية على ما هى عليه . فقل مجيبا لهم ، يجعلها الله كالرمل أو التراب ثم يرسل عليها الريح فتذروها وتبعثرها . ولا تستعصى على من يقول للشىء كن فيكون .

ولا يوجد فى القرآن أمر من الله للرسول مقرون بالفاء . يجيب به السائلين سوى ما هنا .

أما ماعداه فبدون الفاء كقوله تعالى : «يَسْأَلُونكَ عَنِ الْخمْرِ والْمَيْسِر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ » وقوله سبحانه : «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ : »وقوله : «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأَنفَالُ لله والرَّسُولِ » الخ .

والسبب فى هذا أن الفاء للترتيب والتعقيب ، وقد جىء بها هنا للمسارعة إلى إزالة ما فى ذهن السائل المشرك من بقاء الجبال تبعًا لظنه عدم الحشر ، أو للمسارعة إلى تعليم السائل المؤمن حفظا لعقيدته مما يقوله المنكرون ، وهذه خلاصة ما نقله الآلوسى عن الإمام الرازى[1] .

---

(١) ويرى القرطبى أن الفاء هنا فى جواب شرط مقدر ، أى فإن سألوك عن الجبال فقل ، وقد علم الله أنهم سوف يسألونه عنها فأجابهم قبل السؤال ، أما سائر ما فى القرآن من أسئلتهم ، فكان قد وجه إلى الرسول فعلا ، فتميز جوابها بعدم ذكر الفاء .

١٠٦ ، ١٠٧ – (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَآ أَمْتاً) :

أى أنه تعالى بعد أن يزيل الجبال ويبعثرها ، يترك أُصولها أرضاً مستوية ، كأنها مع غيرها صف واحد على سمت مستو متماثل ، بحيث لا ترى فى أُصول تلك الجبال المنسوفة انخفاضاً ولا نتوءًا بارزا والعِوج بكسر العين يستعمل فى غير المستقيم حسيا ومعنويا أما مفتوح العين فقاصر على الحسى غير المستقيم.(١)

١٠٨ – (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ) الآية .

أى يومئذ ينسف ربى الجبال ، يتبع الناس داعى الله عز وجل إلى المحشر ، وهذا الداعى هو إسرافيل ، وظاهر ما جاء فى القرآن أن هذه الدعوة هى النفخة الثانية فى الصور قال تعالى فى سورة الزمر : «وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُون » (٦٨) وهى المعنية بقوله فى سورة يس : « ونُفِخَ فى الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ » (٥١) والله أعلم بحقيقة هذه الدعوة وكيفيتها .

ومن المفسرين من جعلها دعوة كلامية ، حيث قال . إن إسرافيل يضع الصُّور فى فمه ويقول : أيتها العظام البالية ، والجلود المتمزقة ، واللحوم المتفرقة ، هلموا إلى العرض على الرحمن فيقبلون من كل صوب إلى صوته . .

وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال : يحشر الله تعالى الناس يوم القيامة فى ظلمة ، تطوى السماءُ وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى مناد فيتبع الناس صوته يؤمونه ، فذلك قوله تعالى : «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ» .

وقال على بن عيسى : الداعى هو الرسول الذى كان يدعوهم إلى الله عز وجل : انتهى .

وأظهر الأقوال ما قلناه أولا ، من تفويض العلم بحقيقة هذه الدعوة وكيفيتها إلى العليم الخبير سبحانه وتعالى ، ومعنى « لَاعِوجَ » لا يعوَج للداعى مدْعوٌّ ولا عدول له عنه ، وذلك مثل قولهم : لا عصيان له أى لا يعصى ، وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون المعنى : لا شك فيه .

---

(١) واختار المرزوقى أنه لا فرق بينهما – انظر الآلوسى .

(وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا) :

أى وخفتت أصوات الخلائق هيبة للرحمن ، ورهبة من الموقف الرهيب ، فلا تسمع من أحد من أهل الموقف إلا صوتاً خفيفا خافتا يصدر من فمه .

وفى إحدى الروايات عن ابن عباس أن المراد من الهمس هنا خفق الأقدام ، وبمثله قال عكرمة وابن جبير والحسن ، واختاره الزجاج والفراء ، ومنه قول الشاعر : وهنّ يمشين بنا همسا .

والمعنى على هذا : سكتت أصواتهم وانقطعت كلماتهم ، فلا تسمع منهم إلا خفق أقدامهم وهم يمشون إلى المحشر ، والخطاب فى قوله «فلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً» لكل من له سمع يستمع به .

١٠٩ - (يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً) :

أى يومئذ يدعوهم داعى الرحمن إلى المحشر للحساب ، فيستجيبون له خاشعين ، لا تنفع الشفاعة أحدا من أفراد الأمم . إلا من أذن الرحمن بالشفاعة لأجْله من بينهم ، ورضى له قول الشافع وأذن له به .

ويصح أن يكون المعنى : ورضى للمشفوع له ما كان يقوله ، والمراد منه كما قاله ابن عباس : قوله (لا إله إلا الله) وخلاصة المعنى على هذا : لا تنفع الشفاعة أحدا ، إلا من أذن الرحمن فى أن يُشفع له وكان مؤْمنا . والمراد على كل تقدير : أنه لا تنفع الشفاعة أحدا إلا من ذكر ، وأما مَن عداه فلا تنفعه وإن فرض صدورها عن الشفعاء المتصدِّين للشفاعة عن الناس، كما قال تعالى : « فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ » .

١١٠ - (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) :

أى يعلم الرحمن ما يستقبله المحشورون من المقادير التى كتبها لهم أو عليهم وما تركوه خافهم من أعمالهم وأحوالهم الدنيوية ، ولايحيطون علما بالمذكور من مجموع الأمرين ، فإنهم كما قال الجبائى : لا يعلمون جميع ما ذكر ، ولا تفصيل ما علموه منه .

ويجوز أن يكون المعنى ولا يحيطون به تعالى علما ، من حيث صفاته وكمالاته التى لا تتناهى ولا يعرف أحد كنهها ومداها ، فنحن لا نعلم من أمره سبحانه إلا ما جاءت به الرسل وما تتسع له عقولنا .

*(وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ﴿١١٢﴾)

المفردات :

(وعَنَت) : وخضعت وذلت خضوع العانى وهو الأسير . وفرق بعض اللغويين بين الخضوع وبين الذل . فجعل الخضوع بمعنى الخشوع والتذلل لذى طاعة ، وجعل الذل وصفا لمن كان ذليل النفس فى ذاته .

(الْقَيُّوم) : الدائم القيام بتدبير أمر خلقه وحفظهم . (هَضْماً) : نقصا من الحق .

التفسـير

١١١- (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) الآية .

المراد بالوجوه جميع الناس أو المجرمون الذين سبق الحديث عنهم ، وإطلاق الوجوه عليهم مجاز ، ويصح أن يراد بها حقيقتها ، وتخصيصها بالذكر لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ، وأول ما تبدو عليه آثار الخضوع والذل .

والمعنى : وذلت الوجوه وخضعت واستسلمت فى هذا اليوم العصيب الذى تقدم الحديث عن بعض أهواله - استسلمت استسلام الأسرى لجبار السموات والأرض ، الحى الذى لا يموت ،القائم على أمور عباده ، بتدبيرها وحفظها ، والقيام بما يصلحها .

(وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً) : المراد بمن حمل ظلما ، كل كافر ، أو مايَعُمُّهُ وغيره من سائر العصاة ، وخيبة كل عاص بقدر ما حمل من الظلم .

والمعنى : وخضعت النفوس للحى المسيطر على كل شىء وقد خسر كل من كسب ظلما فى دنياه ، حين يعرض يوم القيامة على مولاه فيأمر بعقابه على ما كسبت يداه .

وبعدما حكت هذه الآية خيبة الظالمين الآثمين ، عقبها الله ببيان حسن حال المؤمنين الصالحين ، فقال سبحانه :

١١٢ - (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً) :

أى ومن يعمل شيئًا من الصَّالِحاتِ فى دنياه وهو مؤمن به ويجعل دنياه مزرعة لآخرته ، فإنه يُقْبل يوم القيامة على الملك الحق العادل فى خلقه ، وهو مطمئن النفس ، لا يخاف « ظُلْماً » بأن يحمل أوزارا لم يرتكبها « وَلاَ هَضْماً » بأن ينقص حق من حقوقه ، أو يضيع ثوابٌ لعمل من أعماله مهما قلَّ أو خفى بل يُوفَّى أجره كاملا ، كما قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً وَإن كَانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتينَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبين »[١] .

ولا يقتصر جزاؤُه على الوفاءِ ، بل يضاعف ثوابه على قدر نيته وعمله ، وفقا لمشيئة الله تعالى « واللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ »[٢] .

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾)

المفردات :

(صَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ) : كررنا وفصلنا فيه من الإنذار والتخويف .

(ذِكْرًا) : اعتبارا واتّعاظا .

(فَتعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) : فتنزه الله الملك الكامل التصرف فى ملكه ، الثابت فى ذاته وصفاته .

(يُقْضَىٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُ) : يتم جبريل تبليغ القرآن الموحى به إليك .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧ (٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٦١

التفسير

١١٣ - (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) :

أى مثلما تقدم من التنزيل المشتمل على القصص النافع والوعد بالثواب على العمل الصالح، والوعيد بالعقاب على العمل السيء والكفر ، ومثل هذا الإنزال أنزلنا القرآن كله . بأسلوب عربى واضح ليفهموه ، وليكون آية على نُبُوَّتِك ، يعجزهم عن معارضته ، وكررنا فيه من التخويف والإنذار على الكفر والمعاصى ، لكى يتقوها ، أو يحدث لهم اعتبارا واتعاظا يؤدى بهم إلى التقوى .

وفسر قتادة التقوى هنا بالحذر والورع ، وفسر بعضهم الذكر بالشرف .

١١٤ - (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ) الآية .

أفاد هذا النص الكريم استعظام شئونه تعالى فى ملكه ، وما صرف فى القرآن من الوعد والوعيد والأوامر والنواهى المقتضية لوجوب العمل به ، كما أفاد التعجب من عظمة القرآن ووجوب الإقبال عليه والعمل به ، وتعظيم من أنزله .

والمعنى : تقدس الله وتنزه عن النقائص فهو المتصرف بالأمر والنهى ، الحقيق بأن يعمل بكتابه ، لكى يرجى ثوابه ، ويخشى عقابه ، وهو الدائم الذى لايزول ولا يتغير .

(وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ) : ولا تعجل يامحمد بقراءة القرآن الذى يوحى به إليك، ترديدًا لما تسمعه من قبل أن يُتِمّ جبريل تبليغه إليك ، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا التقى به جبريل وألقى عليه القرآن يتبعه عند تلفظه بكل كلمة خوفا من أن يصعد جبريل عليه السلام ولم يحفظه ، حرصا على حفظ الوحى ، فطمأنه الله على ذلك ، وبشره بجمعه إياه ، ونهاه عن التعجل بقراءته عند نزوله كما قال تعالى فى سورة القيامة : «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» .[1]

ثم أرشده الله سبحانه وتعالى إلى الدعاء بالاستزادة من العلم مطلقا بقوله :

(وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) : وكان صلى الله عليه وسلم يسأل الله دائما الاستزادة من العلم،

(١) الآيات ، من ١٦ - ١٩

أخرج الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ماينفعنى وزدنى علما ، والحمد لله على كل حال» .

وهذا دليل على فضل العلم ، وحثٌّ على التزود منه ماوجد الإنسان إلى ذلك سبيلا .

(وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا
يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾
إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾
فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ
عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا
يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾)

المفردات :

(عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ آدَمَ) : أى وصيناه لايقرب الشجرة . (عَزْمًا) : ثباتا وتصميما .

(فَتَشْقَىٰ) : فتتعب بمتاعب الدنيا . (وَلَاتَعْرَىٰ) : يقال عَرِى يَعْرَى إذا تجرد من اللباس

(وَلَاتَضْحَىٰ) : ولايصيبك حر الشمس ، يقال : ضَحَا ، كَسَلا ضَحْواً ، وَضَحِيَ كَرَضِيَ ضَحْياً ، أصابته الشمس. (فَوَسْوَسَ) : الوسوسة : الخَطْرَةُ الرديئة ، وتطلق على الهمس الخفى ، وعلى حديث النفس . (شَجَرَةِ الْخُلْدِ) : الشجرة التى إذا أكل منها الإنسان خلد ولم يمت

كما زعم الشيطان . (طَفِقَا يَخْصِفَانِ) : شرعا وأخذا يلزقان على عورتيهما ورقة فوق أخرى من ورق الجنة . (فَغَوَىٰ) : فضلَّ عن مطلوبه . (اجْتَبَاهُ) : اصطفاه .

التفسير

١١٥ - (وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا) :

تمهيد :

كرر الله سبحانه وتعالى قصة آدم فى كثير من السور القرآنية بأساليب متعددة ، ليعرف أبناؤه من البشر عداوة الشيطان لهم ولأبيهم من قبلهم ، حتى يحذروا أفانينه فى تزيين الباطل ، وينجوا من سوء المصير الذى يدبره لهم ، وقد حكى الله سبحانه فى هذه السور كيف أغوى الشيطان آدم وأغراه بعصيان ربه ، فانخدع بأفانينه الشريرة فوقع فيما أراده من المعصية ، ليخرج من الجنة كما خرج ، وليتسلط على ذريته كما هدد وتوعد ، ولاشك فى أن هذا التفصيل مثل لبيان ما أجمله الله سبحانه فى قوله فى الآية السابقة « وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا » والمراد من العهد إلى آدم وصيته وأمره ، تقول : عهد الملك إلى فلان إذا أوصاه وأمره .

والمعنى : ولقد وصينا آدم وأمرناه أن لا يقرب الشجرة فغفل عما وصيناه به ولم يشتغل بحفظه ولم نجد له ثبات قدم فى تنفيذه ، حيث خدعه الشيطان بأساليبه ، فنسى تحذير الله له منه بقوله : « إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ » . وفسر ابن زيد وغيره قوله : (وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) بمعنى لم نجدْ له عزما على مخالفة عهد الله ، بل كان عن طريق نسيان تحذير الله له من عداوة الشيطان دون تعمد للإثم والمخالفة .

١١٦ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ) :

هذه الآية شروع فى بيان ماعهد به لآدم ، وكيفية نسيانه وفقدان عزمه ، والمعنى واذكر يامحمد وقت أمرنا للملائكة بالسجود لآدم تشريفا وتكريما وبيانا لفضله ، فامتثل الملائكة جميعا وسجدوا إلا إبليس فإنه تَمنَّع عن السجود له حقدا وحسدا ، لظنه أنه أفضل منه ، حيث خلق من نار وخلق آدم من طين ، والنار فى زعمه أفضل من الطين .

١١٧ - (فَقُلْنَا يَـٰآدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) :

أى فقلنا عقب امتناع إبليس عن السجود لآدم - قلنا له - تحذيرا وإرشادا : إن هذا عدو لك وعدو لزوجك فاحترسا منه ، فلا يكونن سببا لإخراجكما من الجنة فتتعب أنت وزوجك بمتاعب الدنيا التى لا تكاد تحصى ، وتشقى بكثرة التعب والنَّصَب فيها .

١١٨ ، ١١٩ - (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى) :

إنك فى الجنة فى عيش رغيد هنىء فلا تعب ولا مشقة ، فأنت فى دار كرامة لا يصيبك فيها شىء من الجوع أو العرى ، فالغذاء فيها يأتيك بمجرد الرغبة لا عن جوع ، والكساء الفاخر فيها يأتيك كذلك لاعن احتياج ، لا يصيبك فيها الظمأ أو حر الشمس ، لأن شرابها تابع للإرادة لا عن عطش، ولأن ظلها دائم « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا[1] ».

فاجتمعت لك فيها الأسباب التى توفر الراحة للإنسان ، وتجلب له السعادة ، فاحرص عليها، وحافظ على البقاء فيها ، وابتعد عن كل ما يؤدى بك إلى الخروج منها .

١٢٠ - (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَـٰآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى) :

ولكن الشيطان وهو عدوه المتربص به ، الواقف له بالمرصاد ، لم يتركه يعيش فى هذا النعيم حسدا له عليه ، فأخذ يخطر له فى نفسه خطرات من الأمانى الكاذبة ، ويهمس له بها همسا خفيا قائلا : إنى سأدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت ولم تمت ، وملكت ملكا لا يفنى .

١٢١ - (فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) : فتأول آدم نهى الله عن الأكل من الشجرة ، بأنه نهى عن شجرة بعينها ، وهى التى أشير إليها فى قوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ[2] ».ولم يحملها على الجنس ، فأكل من جنسها هو وزوجه ولم يأكل منها نفسها ، فانكشفت لهما عوراتهما - وكانت مستورة عن أعينهما - عقابا لهما على الأكل منها ، فقد كان الأجدر به أن يفهم من النهى عمومه لجنس الشجرة لاخصوصه بها .

---

(١) سورة الإنسان ، من الآية : ١٣

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ٣٥

ومن المفسرين ، من جعل انكشاف عورتيهما مرتبا على الأكل من الشجرة ، لمصلحة أخرى وليس عقاباً[١] .

(وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ) : وشرعا يلصقان على عورتيهما من ورق الجنة لسترها . حياءً وخجلا ..

(وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ) : وخالف آدم بذلك أمر ربه فضلَّ عن مطلوبه وهو الخلود فى الجنة ، أو عن المطلوب منه وهو ترك الأكل من الشجرة ، أوعن الرشد باغتراره بوسوسة عدوه . وقد عرفت أن أكله من الشجرة كان بنوع من التأويل كما تقدم بيانه . وسمى ذلك عصيانا لعلو منصبه عليه السلام الذى يقتضى مزيد الانتباه لكيد عدوه . وعدم تصديقه فى مزاعمه .

ومن العلماء من فسر ظهور سوآتهما ومحاولة سترها بأنهما لما ذاقا الشجرة وقد نهيا عن الأكل منها ظهر لهما أنهما قد زلّا وخلعا ثوب الطاعة . وبدت منهما سوأة المعصية . فاستولى عليهما الخوف والحياء من ربهما . وأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجل عادة من الاستتار والاستخفاء حتى لا يُرى . وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما ليستترا بها .

١٢٢ - (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ) :

ثم ألهم الله آدم التوبة . فتاب إلى ربه فاختاره الله وتاب عليه واصطفاه وقربه إليه..

١٢٣ - (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) الآية .

قال الله لآدم بعد أن أكل من الشجرة : اهبط أنت وزجك من الجنة إلى الأرض ، وقد أمر بذلك تنفيذا لحكمة الله من خلق آدم وحواء ، وهى استخلافه وذريته فى الأرض كما قال تعالى : « إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً » سورة البقرة .

(بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) : هذا إخبار من الله لآدم بعداوة إبليس له ولذريته إلى يوم القيامة . ويجوز أن يكون المعنى : بعض أولادكما لبعض عدو ، وأسندت العداوة إلى آدم وحواء لأنهما منشأُ أولادهما المتعادين .

(١) راجع ما كتبناه بسعة عن ذلك فى تفسير مثله فى سورتى البقرة والأعراف ، وهناك تعرف آراء العلماء فى الجنة التى كانا فيها وغير ذلك من الأمور الهامة .

(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) : وأخبره الله سبحانه وتعالى بأنه سيتعهد ذريته بإرسال الرسل وبيان الطريق المستقيم فى كتب ينزلها عليهم ، هادية لهم ، فمن اتبع الهدى الذى أنزله وسار فى الطريق الذى رسمه ، وعمل بما شرعه ، فلا يضل طريقه فى الدنيا ، ولا يشقى بالعذاب يوم القيامة ، لأنه اختار لنفسه طريق السعادة فسعد فى دنياه وأخراه .

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾)

المفردات :

(عَن ذِكْرِى) : عن الهدى المذكر بعبادتى .

(مَعِيشَةً ضَنكًا) : ضيقة شديدة ، والضنك : الضيق .

(آيَاتُنَا) : الأدلة والبراهين الدالة علينا .

(فَنَسِيتَهَا) : فتركتها وأعرضت عنها .

(أَسْرَفَ) : جاوز الحد فانهمك فى الشهوات واسترسل فيها .

التفسير

١٢٤ - (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا) الآية .

بعد أن بين الله حسن مصير من اتبع هدى الله الذى أنزله على أنبيائه ، جاءت هذه الآية لتبين مصير من أعرض عنه .

والمعنى : ومن انصرف عن الهدى الذى يذكره بعبادتى فإن له معيشة ضيقة فى حياته مهما كان فى سعة من العيش ، فإنه يكون شديد الحرص على الدنيا متهالكا على الازدياد منها ، خائفا من انتقاصها ، وقيل الضنك مجاز عما لاخيرَ فيه ، ووصف معيشة الكافر بذلك لأنها وبال عليه ، وزيادة فى عذابه يوم القيامة ، كما دلت عليه الآيات ، وبهذا المعنى فسره ابن عباس ، فقد أخرج ابن أبى حاتم بسنده عنه أنه قال فى الآية : كل ما أعطيته عبدا من عبادى قلَّ أو كثر لا يتقيني فيه فلا خيرفيه وهو الضنك فى المعيشة : اهـ . وفسره عكرمة بالكسب الحرام .

(وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) : أى ونسوقه يوم القيامة فاقدا البصر على الحقيقة ، حتى يقول : « رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا » وكان كذلك لأنه لم ينتفع بما أعطاه الله من بصر ينظر به فى آيات الله . وقيل : عَمَاهُ كناية عن عدم اهتدائه إلى حجة تنفعه ، أو إلى حيلة يدفع بها العذاب عن نفسه .

١٢٥ - (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا) :

أى قال هذا الذى حشره الله أعمى يوم القيامة - قال - فى حيرة وحسرة : يارب لأى سبب حشرتنى أعمى وقد كنت فى الدنيا بصيرًا أرى كل شىء ، فيأتيه الجواب حينئذ من قبل الله فيما يحكيه بقوله :

١٢٦ - (قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى) :

أى مثل ذلك العمى الذى جئتَ به فى الآخرة كنت أعمى فى الدنيا ، فقد جاءتك آياتنا فعَمِيتَ عنها ، وتركتها كالشىء المنسى الذى لا يخطر بالبال ، فاليوم نجازيك مثل عملك ، فنجعلك أعمى عن الاهتداء إلى حجة تنفعك ، ونتركك فى حيرتك وعماك ترك المنسى ، وندفع بك إلى النار لتَصْلى عذابها وتتلظى بنارها ، ولهذا قال سبحانه عقب هذه الآية :

١٢٧ - (وَكَذَلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) :

أى وبمثل ذلك الجزاء العادل نجازى كل من أسرف على نفسه فى ارتكاب المعاصى وترك الإيمان بربه ، ولم ينظر فى الآيات التى نصبها فى الأنفس والآفاق ، ولم يعمل بشرعه الذى

أرسل به رسله ، حيث نجعله أعمى فى الآخرة ، لايهتدى إلى سبيل النجاة من عذابها ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى من عذاب الدنيا .

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾)

المفردات :

(أفلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) : أفَلَمْ يتبين لهم ما يدلهم على الهدى .

(لِأُولِى النُّهَىٰ) : لأصحاب العقول الراجحة .

(لَكَانَ لِزَامًا) : أى لكان عقابهم لازماً لا يتأخر عنهم .

التفسير

١٢٨ ـ (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ) الآية .

أى أغفل هؤلاء المعرضون من أهل مكة عن ذكر الله ، فلم يتبين لهم خبر من أهلكنا قبلهم من أهل القرون الماضية الذين ضلوا وأعرضوا عن ذكر ربهم ، وهم يمشون فى مساكنهم حين أسفارهم كعاد وثمود الذين يشاهدون آثارهم الدالة على ماكانوا عليه من عظمة وسعة فى العيش فلقد أخذهم الله بذنوبهم ، ولم يُغْنِ عنهم ماكانوا فيه من القوة والمنعة ـ لم يغن عنهم ـ من عذاب الله شيئاً ، وحاق بهم ماكانوا يكسبون ، فلو كان هؤلاء أصحاب عقول سليمة لاعتبروا بهؤلاء السابقين ، كما قال سبحانه : « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى النُّهَىٰ » إن فى إهلاك أهل هذه القرون الماضية على كفرهم ، لعظات بالغات لأصحاب العقول الراجحة ، التى تنهاهم عن الكفر والمعاصى .

١٢٩ - (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) :

ولولا كلمة سبقت من الله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أنه لا يعذب أمته فى الدنيا بعذاب الاستئصال كما عذبت الأمم السابقة ، ولولا موعد سماه الله لعذابهم وهو يوم القيامة - لولا ذلك - لكان عذابهم العاجل المستأصل لهم لازماً محتماً ، لأنهم سلكوا طريق السابقين فى التكذيب والإنكار ، فاستحقوا بذلك العذاب مثلهم ، وفى ذلك يقول الله سبحانه : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »[١] .

(فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾)

المفردات :

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) : نَزِّه الله وعظِّمْهُ حامدًا له .

(آنَاءِ اللَّيْلِ) : ساعاته جمع إِنًى كَإِلَى[٢] .

---

(١) سورة الأنفال : ٣٣ ، ٣٤ فارجع إلى تفسيرهما هناك فى كتابنا (التفسير الوسيط) .

(٢) وأنى كمعصا وإنى كعلم .

(وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) : أى وأجزاءً منه ، جمع طَرَف ، وهو الطائفة من الشىء – ذكره القاموس والصحاح .

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ) : لا تطل نظرهما بطريق الرغبة والميل .

(أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ) : أصنافًا من الكفرة .

(زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) : زينتها وبهجتها .

(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) : لنختبرهم به .

(وَرِزْقُ رَبِّكَ) : ما ادخره الله من الثواب والنعيم فى الآخرة .

التفسير

١٣٠ – (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى) :

بعد ما أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن المكذبين له مستحقون للعذاب الذى حل بمن سبقهم ، وأنه لولا ما سبق من وعد الله له بأنه لايعذب أمته وهو فيهم – بعد هذا كله – أمره الله بالصبر على أذاهم ، وتحمل كل ما يقولونه ، فإن عذاب الآخرة نازل بهم لامحالة .

والمعنى : فاصبر أيها الرسول على مايقوله مشركو مكة الذين أسرفوا فى الكفر بآيات ربك وتكذيبك ، فقد توعدناهم بأجل مسمى ينالون فيه عذاباً أشد وأبقى ، واشتغل بتسبيح ربك وتنزيهه عن النقائص ، واحْمدْه ، على ما أنعم به عليك من مختلف النعم ، وأعلاها النبوة والمعونة فى تبليغ الرسالة مع معارضة هؤلاء المعاندين ، وليكن هذا التسبيح والحمد قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وفى أوقات مختلفة من الليل وأطراف النهار ، رجاء أن يمنحك الله من مزيد التوفيق وعظيم النصر وجزيل الثواب ، ما ترضى به نفسك الصابرة على أذاهم ، الصامدة فى تبليغ الدعوة إليهم ، وفى معنى هذا الوعد الكريم يقول سبحانه فى سورة الضحى : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » وتأول بعض المفسرين الآية بأنها إشارة إلى مواقيت الصلوات الخمس ، وجعل التسبيح فيها مجازًا عن الصلاة ، فكأنه سبحانه يقول : وصل لربك صلاة الصبح قبل طلوع الشمس ، وصلاة العصر قبل غروبها ، وصلاة العشاء فى

بعض آناء الليل وأوقاته ، وصلاتى الظهر والمغرب فى أطراف النهار ، فصلاة الظهر فى آخر طرف النصف الأول وأول الطرف الثانى ، وذلك وقت زوال الشمس عن كبد السماء وصلاة المغرب فى آخر طرف النصف الثانى منه ، ولهذا قال سبحانه (أطراف) بصيغة الجمع ، ويصح أن يراد من الجمع مافوق الواحد ، أى وطرفى النهار ، وقت الزوال ووقت الغروب ..

١٣١ - (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) :

بعد ما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم فى الآية السابقة بالصبر على مايقوله المشركون فى حق آيات ربه ، والاشتغال عن سفههم بتسبيح ربه وحمده ، نهاه فى هذه الآية عن التطلع إلى ما هم عليه من زينة الحياة الدنيا ، فإنها فتنة لهم .

والمقصود من نهيه عن ذلك دوام التنزيه بما هو عليه من عدم التطلع إلى زينة الحياة الدنيا التى يتحلى بها المشركون ، وتبصير المؤمنين بأن ما عليه المشركون من غنى ويسار إلى زوال ، وما هو إلا فتنة لهم ، فلا يتطلعون إليه ، ولا يهتمون به ، وأن رزق الله ومثوبته على الإيمان والإيذاء خير مما هم عليه . .

والمعنى : قد أغنيتك بطاعتى وآياتى ، فاصبر على ما يقولون فى شأنها وشأنك ، ودُمْ على ما أنت عليه من عدم النظر إلى ما متعنا به أمثالا من المشركين متزاوجين - أى متماثلين فى الغنى والجاه ، حيث أعطيناهم زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، لنفتنهم فى هذا المتاع ، فهو إلى زوال ، وما يرزقك الله فى الدنيا من النصر والفتح والغنائم ، وفى الآخرة من الثواب على الصبر وقلة المبالاة بدنياهم ، أبقى مما هم عليه من الثراء والجاه الفانى ، وعلى المؤمنين أن يقتدوا برسولهم فيما هو عليه من الزهد فى دنياهم وعدم التطلع إليها ، فسيرزقهم الله فى دنياهم وأخراهم ما هو أجدى عليهم وأبقى مما يتمتع به المشركون : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ »(١)

(١) سورة النحل ، من الآية : ٣٠

١٣٢ - (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ) :

يرشد الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية إلى أن يأمر أهله بالمداومة على أداء الصلاة والمحافظة عليها فى أوقاتها المحددة لها . ليكون فى ذلك إرشاد لأمته فتعلم أنها مأمورة بذلك بطريق الأولى .

والمعنى : وأمر أهلك أيها الرسول بالصلاة ، واصطبر أنت على أدائها وملازمتها . ونحن حين نكلفك بالصلاة لا نسألك أن ترزق نفسك ، نحن نكفل رزقك فنحققه لك وأنت تقوم بها ، وذلك بتهيئة أسبابه . وإعانتك على تحصيله . فأنت وسعيك ورزقك من صنع ربك ، فلن تعوقك الصلاة المفروضة عن تحصيله فى وقت الفراغ ، والعاقبة المحمودة لأهل التقوى الذين يصلون ، وعلى ربهم يتوكلون وهم يعملون .

وقد ائتمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بما أمر الله رسوله وأهله ، فكانوا يصلون كما يصلى ، ويفزعون إليها فى ضيقهم ، كما يفزع ، أخرج الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان بسند صحيح عن عبد الله بن سلام قال : (كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وتلا : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ . . » الآية .

وأخرج مالك والبيهقى عن أسلم قال : (كان عمر بن الخطاب يصلى من الليل ماشاء الله تعالى أن يصلى حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ، ويقول لهم : الصلاة الصلاة ، ويتلو هذه الآية « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ » .

ويصح أن يراد من أهل الرسول من آمن به من المؤمنين ، كما فى قوله تعالى للوط : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ »[1] .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ٨١

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي
الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا
لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤)
قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ
وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥) ﴾

المفردات :

(لَوْلَا يَأْتِينَا) : لولا حرف يفيد الحث على تحقيق ما بعده مثل هلَّا .

(بِآيَةٍ) : بمعجزة تدل على صحة ما يدعو إليه .

(بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى) : المراد بالصحف الأُولى : الكتب السماوية السابقة ، وفى جملتها التوراة والإنجيل ، والمراد بما فيها ما اشتملت عليه من قصص الأَنبياءِ والأَحكام المشتركة بين الرسالات . والمراد ببينة مافى الصحف الأُولى : القرآن ، فكونه مشتملا على ماجاءَ فيها يجعله آية واضحة على نبوته صلى الله عليه وسلم ، لأَنه أُمىّ لاعلم له بما جاءَ فيها .

(نَذِلَّ) : نُهان . (وَنَخْزَى) : ونفتضح . (مُتَرَبِّصٌ) : منتظر .

(الصِّرَاطِ السَّوِىِّ) : الطريق المستقيم .

التفسير

١٣٣ - (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ . .) الآية .

أَى وقال الكافرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنكارا . لما جاءَهم به من البينات : هلا يأْتينا بمعجزة تدل على صدقه فى دعوى الرسالة ، مثل ما جاءَ به غيره من الرسل لأَقوامهم من المعجزات الحسية التى شاهدوها ، وهم بهذا القول قد بلغوا الغاية فى العناد والمكابرة ، حيث أَنكروا آية الآيات ومعجزة المعجزات ، وهو القرآن الكريم فلهذا رد الله عليهم بقوله :

(أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى) . أى أقالوا ذلك ولم تأتهم بينة مافى الكتب السماوية الأولى ، ممثلة فى القرآن الكريم ، فإن اشتماله على ما جاء فيها من قصص وعبر وعقائد وأحكام يعتبر آية بينة على أنه رسول من عند الله ، فإنه أمى لايقرأ ولا يكتب ، ولا صلة له بأهل الكتاب ، فضلا عما اشتمل عليه من أعلى درجات الفصاحة التى لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثلها ، وقد تحداهم أن يأتوا بسورة منه فعجزوا ، أو لم يقنعهم ذلك فى كونه معجزة حتى يطلبوا معجزة أخرى سواه وقد فات أوان المعجزات المادية ، وجاء أوان المعجزة العلمية الباقية بقاء الزمان ولهذا قال صلى الله عليه وسلم :

« مَامِنَ الأنبياءِ نبيٌّ إلا أُعطى من الآيات ما مثْله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أُوتيتُه وحياً أَوحاه الله إلىَّ فأَرجو أَن أَكونَ أَكثرَهم تابعاً يوم القيامة »[1] وقد كانت للنبى معجزات غير القرآن كانشقاق القمر وغيره ، ولكن التحدى لم يقع إلا به ، ولهذا تكفل الله بحفظه ليبقى آية للرسالة المحمدية الباقية إلى يوم القيامة ، أما المعجزات المادية فلا بقاء لها .

١٣٤ - (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى) :

أى : إنا بعثنا محمدًا إليهم ، وأيدناه ببينة مافى الصحف الأولى وهو القرآن ، ولو أنا أهلكناهم بشركهم ومنكراتهم من قبل محمد أو من قبل إتيان البينة ، لقالوا محتجين : ربنا هلَّا أرسلت إلينا رسولا يدعونا إلى الهدى والرشاد فنتبعه من قبل أن نذل فى الدنيا بالهوان والإهلاك ، ونفتضح بظهور جرائمنا فى الآخرة على رءُوس الأشهاد فى المحشر . وبالعذاب المهين فى نار جهنم .

١٣٥ - (قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى) :

قل أيها الرسول لهؤلاءِ المشركين المتمردين على الحق - قل لهم - : كل منا ومنكم منتظر ما يؤول إليه أمره فى الآخرة ، فانتظروا فستعلمون عن قريب من هم أصحاب الطريق السوى الذى لا عوج فيه ، ومن اهتدى من الضلالة ، هل هم المؤمنون بالقرآن العاملون بآياته ، أم هم الذين كفروا به وصدوا عن سبيله ، وسيتبين لكم ذلك قريباً بنصر من اهتدى إلى طريق رحمة ربه ، على من ضلَّ عنه إلى طريق عذابه ، أو يتبين لكم ذلك عند الموت أو يوم القيامة وكل آت قريب - والله أعلم .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه من كتاب فضائل القرآن .

« سـورة الأنبيـاء »

من السور المكية ، وعدد آياتها اثنتا عشرة ومائة ، وسميت بذلك لاشتمالها على كثير من قصص الأنبياء ، وبيان أحوالهم مع أممهم ، وما لاقوا منهم من عنت وتكذيب ، جاءت فى إطار المنهج المكى العام من الدعوة إلى عقيدة التوحيد ، وذم عقيدة الشرك ، وتوبيخ المشركين على إعراضهم عن الذكر ، وعلى دعواهم تنافى النبوة والبشرية ، والإخبار بأن الله أهلك كثيرًا من الأمم المكذبة لرسلها عقابًا لهم .

وقد اشتملت على آيات الله فى السموات والأرض ، وبيان أنه : « لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » . وأن المشركين ليس لديهم برهان على مشروعية شركهم ولا على صحته ، وأن التوحيد عقيدة جميع المرسلين ، وأن من اتخذوهم أولادًا لله ليسوا كذلك ، بل هم عباد مكرمون ، كما بينت أن السموات والأرض كانتا شيئًا واحدًا ففصل الله بينهما ، وسيأتى بيان ذلك فى موضعه ، كما بينت أنه تعالى حفظ الأرض من الاضطراب بالجبال ، وأنه جعل السماء فوقنا كالسقف ، وحفظها من السقوط ومن العيوب ، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر ، فكيف يعبدون غيره ، وأن الخلائق جميعًا سوف يموتون ، وإلى الله يرجعون ، وعابت على المشركين استهزاءهم بالرسول لِنَهْيِهِ إياهم عن عبادة آلهتهم ، وتوعدتهم على تكذيبهم بيوم القيامة الذى سيأتى الناسَ بغتة ، ثم بيَّنت أنه تعالى سيضع الموازين يوم القيامة ، فيقضى بين الناس بالحق ، ولا يظلمهم مثقال حبة من خردل ، ثم تحدثت عن أنه تعالى آتى موسى وهٰرون التوراة ضياء وذكرًا للمتقين ، وآتى محمدًا ذكرًا مباركًا فكيف ينكرونه ، ثم حكت قصة إبراهيم مع قومه وأنه حطم أصنامهم ، وسفَّه أحلامهم فرجعوا إلى الحق ، ثم لم يلبثوا أن عادوا إلى وثنيتهم ونصرة آلهتهم ، وأنهم حكموا بقتله إحراقا بالنار ، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا ، فهاجر مع لوط إلى الأرض المباركة ، ووهب الله له حال حياته إسحٰق ويعقوب بن إسحٰق عليهم السلام ، ثم عقَّبتْ قصتَه بقصة لوط فنوح فداود وسليمان ، فأيوب فإسماعيل فذى النون فزكريا ويحيى فمريم وعيسى عليهم السلام ، لعلَّ المشركين يعتبرون بما جاء فيها من عظات ، ويرجعون عن شركهم وعنادهم ،

وبعد أن حكت السورة قصص الأنبياء وبينت أنهم جميعًا على ملة واحدة ، وهى ملة التوحيد ، وأنه تعالى ربهم جميعًا ، فلا يحلُّ لهم أن يعبدوا سواه ، ونعت على الأمم تفرقهم فى الدين ، ما بين موحد ومشرك ، وبينت أنهم راجعون إليه للجزاء ثم وصفت أهوال القيامة ، وسوء جزاء الكافرين ، وحسن جزاء المؤمنين ، وبينت أنه تعالى كتب فى الزبور من بعد الذِّكر أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون ، وأنه أرسل محمدًا رحمة للعالمين ، وتوعدتهم على الكفر به ، وانتهت بقوله تعالى حكاية عن رسوله : « قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » .

وفى شأنها أخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال : « بَنُو إِسْرَائِيلَ والكهفُ ومريمُ وطه ، والأنبياء هُنَّ من العتاق الأُوَل ، ومن تلادى » يريد من قديم ما كتب وحفظ من القرآن ، كالمال التِّلاد ـ أى القديم ، يعنى أنها من أوائل ما نزل من القرآن ، حيث نزلت بمكة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم
مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً
قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ
أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ
فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ
أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ
ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ
يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾)

المفردات :

(حِسَابُهُمْ) : أى زمن حسابهم وهو يوم القيامة .

(مُّعْرِضُونَ) : منصرفون عن التفكير فى عاقبتهم .

(ذِكْرٍ) : ما يذكرهم من القرآن بواجبات ربهم .

(مُّحْدَثٍ) : جديد حديث النزول .

(يَلْعَبُونَ) : يسخرون ويستهزئون .

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ) : متغافلة بما يلهيها .

(النَّجْوَىٰ) : المسارة فى الحديث وإخفاؤه .

(أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) : تخاليط فى رؤى المنام .

(افْتَرَاهُ) : اختلقه من عند نفسه .

(من قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) : المراد من القرية المُهْلَكة أهلها .

التفسير

١ – (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ) :

المراد من الناس هنا : المشركون ، فهم الموصوفون بأنهم فى غفلة وإعراض عن يوم الحساب وبأنهم يستمعون الذكر وهم معرضون لاهية قلوبهم ، وبقولهم عن الرسول والقرآن : « هَلْ هَذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ » .

والمعنى : قَرُبَ ودنا للمشركين يوم حسابهم – وهو يوم القيامة – وحالهم أنهم فى غفلة عنه ، معرضون عن القرآن الذى يذكرهم به ، فهم بدنياهم مغرورون ، وبأُخراهم مكذبون ، ولسوف يندمون حين يرون أنهم فى العذاب محضرون .

والتعبير عن وقت حساب الناس فى الآخرة بأنه قريب لهم ، لأن ما بقى من عمر الدنيا بالنسبة إلى ما مضى منها قليل ، ولهذا كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة الرسالات ونُبُوَّتُهُ خاتمة النبوات ، ومن أجل ذلك قال صلى الله عليه وسلم : « بعثت أنا والساعة كهاتين »[١] وأشار إلى أصبعيه الوسطى والإبهام التى تليها ، أى أن بعثته قريبة من الساعة قرب نهاية الإبهام من نهاية الإصبع الوسطى ، وقد ظهر من أمارات قربها أنك : (تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ العَالة رِعَاءَ الشاء يتطاولون فى البنيان) كما جاء فى الحديث النبوى الصحيح ، وأن الأرض تزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، كما قال تعالى : « حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ »[٢] على أن الموت هو القيامة الصغرى ، وهو منهم قريب ، وحينئذ يعرفون حالهم ومآلهم .

٢ – (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ)[٣] :

هذه الآية مبينة لمدى إعراضهم عن يوم الحساب الذى هو قريب منهم ، وعن الحق الذى قامت به الحجة عليهم .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه بسنده عن سهل – كتاب التفسير – باب (أيان مرساها)

(٢) سورة يونس ، من الآية : ٢٤ (٣) جملة «وهم يلعبون» حال من الواو فى قوله : «إلا استمعوه»

والمعنى : ما يأتى هؤلاء المشركين شىء من القرآن مُذكِّرٌ لهم من ربهم، حديث النزول مع جبريل ، إلّا فى حال لهوهم ولعبهم بعباراته ، حيث يقدحون فيه ويعترضون عليه ، وينكرون ما جاء به ، جهلًا منهم بمكانته من الحق ، ومنزلته من الصدق ، ولو أن هؤلاء تذكروا بمواعظ القرآن ، لتحققوا من الآخرة وقربها ، ولطابت نفوسهم بالتوبة والعمل لأخراهم ، ولم يركنوا إلى زخارف دنياهم ، ولكنهم كما قال الحسن : كلما جُدِّد لهم الذكر ، استمروا على الجهل .

٣ - (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ[1] وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) :

أى أن مشركى مكة كلما أُنزل إليهم شىء من القرآن حديث النزول ، يذكرهم بما يجب لله من صفات الكمال ، وبأنهم سوف يحاسبون على أعمالهم ، لا يستمعون إلّا وهم عابثون مستهزئون ، ساهية قلوبهم معرضة عن ذكر الله متشاغلة عن التأمل والتعقل فيما تنتهى إليه دنياهم ، وما هم منتهون إليه من عذاب السعير ، وفى معنى ذلك قوله تعالى : « وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ »[2] . ثم أطلع الله نبيه على مؤامرتهم فقال :

(وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا)[3] : أى وبعد أن غمرتهم الغفلة وأعرضوا مستكبرين لاهين مكذبين بالبعث والحساب ، أخفى هؤلاء الطاغون تناجيهم ومساراتهم حين يثبطون المؤمنين ويَصُدُّون الناس عن الإسلام ، بِتنقيص الرسول وتكذيبه ، وإثارة النفوس عليه ، حتى ينفروا منه ، ويعرضوا عن دعوته ، يقولون لهم :

(هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) : الاستفهام للنفى المشوب بالتعجب ، أى ما هذا إلّا بشرٌ مثلكم ، فهو واحد منكم ، وليس من الملائكة ، فكيف تسمعون له وتطيعونه ، إنه يريد أن يتميز عليكم ويتزعمكم ، فليس بنبى ولا رسول كما يقول لكم ، ومثلهم فى هذا مثلُ قوم نوح ، حين قال بعضهم لبعض : « مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً »[4] .

---

(١) لاهية حال ثانية من الواو فى قوله « استمعوه » مؤكدة للمبهم ، وقلوبهم فاعل لاهية ، لأن الوصف يعمل عمل الفعل .

(٢) سورة الصافات الآيتان : ١٣ ، ١٤ (٣) (الذين ظلموا) بدل من الواو فى قوله (وأسروا) أو أن الواو فى (أسروا) حرف للدلالة على الجمعية ، و (الذين ظلموا) فاعل ، وهذه لغة أزد شنوءة ، قال شاعرهم : يلوموننى فى اشتراء النخيل أهلى وكلهمو ألوم . قال أبو حيان : وهى لغة حسنة وليست شاذة كما قال بعضهم ، وبه قال أبو عبيدة والأخفش وغيرهما ، حيث قالوا : إن الواو فى (أسروا) مثلها فى (قائمون) ومثل التاء فى قامت حرف للدلالة على جمع المذكر فى الأولى وعلى المؤنثة فى الثانية .

(٤) سورة المؤمنون : من الآية : ٢٤

ثم زادت قريش فى غلوها ، فزعمت أن القرآن سحر ، وأن محمدًا يسحر به عقول الناس فقالوا منكرين على المؤمنين اتباعه :

(أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) : والاستفهام فى الآية لاستنكار مجىء الناس لسماعه ، وتسفيه المؤمنين وتوبيخهم على إيمانهم به .

والمعنى : ما لكم تتوجهون إلى السحر وتطيعون صاحبه ؟ وأنتم ترون بأعينكم أنه بشر وتدركون بعقولكم ما يؤثِّر بسحره على الضعفاء من قريش ، فيفرق به بين الوالد وولده ، وبين الرجل وأهله ، وغاب عنهم أن الحق أقوى من السحر ، وأنه هو الذى فرق بين أهل الهدى وأهل الضلال خوفًا من عدْواهم أو من ظلمهم وعدوانهم ، وما محمد بساحر ولا عرف السحر ، وما القرآن إلَّا رحمة للعالمين .

٤ - (قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

قرئ (قَالَ) بصيغة الماضى و (قُلْ) بصيغة الأمر ، وقد أفاد مجموع القراءتين ، أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم أمره ربه أن يقول هذا القول ردًّا على مزاعمهم فى نجواهم ، وأنه امتثل فقاله لهم .

والمعنى : قال محمد لمن تناجوا واستخفَوْا بأحاديثهم طعنًا فى رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، قال محمد لهم : ربى يعلم قول كل قائل فى السموات والأرض ،وهو عظيم السمع محيط العلم ، فكيف لا يعلم سركم ونجواكم ؟ ويعاقبكم على صدكم عن سبيله ، وكفركم بكتابه ورسوله ، وما أنتم فى ملكه وملكوته وفى دائرة علمه وانتقامه إلَّا شىءٌ قليل .

ولم يكتف هؤلاء الظالمون بما زعموه فى حق القرآن من كونه سحرًا ، بل تخبطوا فى وصفه ووصف رسوله ، كما حكاه الله بقوله سبحانه :

٥ -(بَلْ قَالُوٓا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) :

الأضغاث فى الأصل : الحشائش والأعشاب اختلط يابسها برطبها ، أى : أن رسالة محمد فى نظرهم أحلام مختلطة رآها فى نومه ، حملته على أن يتوهم ما توهم ، ويقول ما قال ولا حقيقة فى الواقع لما ادَّعاه ، ولا تأويل له كما لا تُؤوَّل الأحلام المختلطة ، ومن كان كذلك فلا ينبغى أن يُصدَّق أو يتبع ، ثم أضربوا عن هذه الفرية ، حين رأوها هزيلة

أمام عظمة القرآن وبلاغته ، فزعموا أنه افتراه بفصاحته ، ونسبه وحيًا إلى الله ، ثم اشتد تخبطهم فعدلوا إلى وصفه بأنه شاعر يجيد صوغ الشعر ، ويحسن سبكه ويسحر ببلاغته من يسمعه ، حتى يحمله على اتباعه ، متجاهلين أن محمدًا الذى نشأ بين أظهرهم لا يعرف الشعر ولم يزاوله فى حياته : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ »(١) .

وفى الطبرى أن هذه الدعاوى المفتراة ، والمزاعم المختلقة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانت لطوائف من المشركين لكل طائفة فريتها التى كفرت بها . يقول رحمه الله فى تفسير الآية : « ما صدقوا بحكمة القرآن ولا أنه من عند الله ، ولا أقروا بأنه وحى أوحاه الله إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - بل قال بعضهم : هو أهاويل رؤيا رآها فى النوم ، وقال بعضهم : هو فرية واختلاق افتراه على الله ، واختلقه من قِبَل نفسه ، وقال بعضهم : بل محمد شاعر وهذا الذى جاء به شعر » اهـ .

وهذا التنقل فى أباطيلهم ومفترياتهم مع علمهم أنه على الحق ، ناشئ عن استكبارهم وعنادهم ، حتى قالوا : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »(٢) . وصدق الله العظيم إذ يقول : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ »(٣) .

(فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) : أى إن كان محمد صادقًا فيما ادعاه من أن الله بعثه للناس رسولًا ، وأنزل معه كتابًا ، وأن الذى يتلوه وحى يوحى إليه من الله ، ويريدنا على تصديقه فليؤيد قوله بمعجزة كونية تدعم دعواه ، كمن سبقه من المرسلين ، مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على يد عيسى ، وكعصا موسى ، وناقة صالح وغيرها ، فإن فعل ذلك آمنا به وصدقناه ، ودعونا الناس لدعوته ، وأعناه على تبليغ رسالته .

٦ - (مَآ آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) :

لما اقترحوا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يأتى بآية تثبت لهم نبوته كمعجزة صالح وموسى وعيسى وغيرهم من المرسلين نزل قوله تعالى : (مَآ آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) : أى أن أى قرية أهلكناها كانت غير مؤمنة فاقترح أهلها آيات كالتى تريدها

(١) سورة يس ، آية : ٦٩ (٢) الزخرف ، الآية : ٣١
(٣) الأنعام ، من الآية : ٣٣

قريش فلما جاءتهم لم يؤمنوا ، وسنة الله أنه إذا أجاب أمة إلى ما اقترحت من آيات ثم لم تؤمن أخذها أخذ عزيز مقتدر .

(أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) : الاستفهام فيه للإنكار والاستبعاد ، فمعنى : (أَفَهُم يُؤْمِنُونَ) أن قريشًا لايؤمنون إن جئناهم بالآيات التى أرادوها ، وحينئذ يحق عليهم من العذاب والهلاك ماحق على الأولين ، فلهذا لم نجبهم إلى ما طلبوا ، لأنهم سيؤمنون بدونها ، وينتشر بهم الإسلام وفقًا لمشيئتنا .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾)

المفـردات :

(رِجَالًا) : أى بشرًا لا ملائكة . (أَهْلَ الذِّكْر) : المراد بهم هنا : أهل الكتاب .

(جَسَدًا) الجسد : جسمُ الإنسان خاصة كما قاله الخليل ، وعممه صاحب القاموس فى الإنس والجنَ والملك ، وهو المناسب للآية . (صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ) : بنصرهم على أعدائهم . (الْمُسْرِفِينَ) : الكافرين . (ذِكْرُكُمْ) : وعظكم أو شرفكم . (تَعْقِلُونَ) : تتدبرون وتتعظون . (وَكَمْ) : كم خبرية تفيد الكثرة . (قَصَمْنَا) : القصم الكسر مع تفريق الأجزاء أى : أهلكنا . (أَحَسُّوا بَأْسَنَا) : أدركوه بالحاسة أى : عاينوا العذاب الشديد الذى يوشك أن ننزله بهم . (يَرْكُضُونَ) : يفرون هاربين ، وأصل الركض : استحثاث الفرس برجلى الراكب ليسرع فى جريه . (مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ) : ما وسع الله عليكم فيه من مختلف النعم . (دَعْوَاهُمْ) : دعوتهم . (جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا) : أهلكناهم جميعًا فكانوا كالزرع المحصود . (خَامِدِينَ) : ميتين ، والخمود أصلًا للنار ، يقال : خَمَدَتِ النَّارُ أى : هَمَدَت وَطُفِئَتْ ، شبه ذهاب أرواحهم بخمود النار .

التفسير

٧ - (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

هذه الآية رد على ما زعموه من أنه لايصح أن يكون الرسول بشرًا ؛ حسبما يقتضيه قولهم السابق : « هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ » .

المعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد إلى الأمم التى سبقت أمتك ، إلّا رجالًا من البشر مثلك ، نوحى إليهم على لسان الملك مانوحيه من العقائد الحقة والشرائع اللائقة بحالهم وزمنهم وبقصص الأنبياء الذين سبقوهم مع أممهم ، كما نوحى إليك ، فما بالهم ينكرون عليك الرسالة لأنك بشر ، ولست فى ذلك بدعًا من الرسل ، فكلهم من البشر .

والواقع أنهم يجادلون بالباطل ، فهم على علم بأن الرسول لا يكون إلّا بشرًا ، إذ أنهم يقرون برسالة إبراهيم وإسماعيل ، ولهذا يحجون البيت الحرام الذى بنياه ، ويزعمون أنهم على شريعتهما ، ولقد عاملهم الله بجهالتهم ومغالطتهم ، فقال لهم :

(فَسْأَلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) : أى فاسألوا أيها الجاهلون المفترون على رسالة محمد ، اسألوا أهل الكتاب عن الرسل : أبشرًا كانوا أم ملائكة ، إن كنتم لا تعلمون

حال الرسل السابقين ؟ فالمراد بأهل الذكر : أهل الكتاب ، فإنهم مع عداوتهم للرسول لا يستطيعون إنكار بشرية الرسل ، فإن موسى صاحب التوراة من البشر ، وهذا شئ لا يستطيع اليهود المجاورون للمشركين إنكاره ، وقيل : أهل الذكر : هم أهل القرآن ، وردَّ ابن عطية هذا الرأى بأنهم كانوا خصومهم فكيف يسألونهم .

٨ - (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) :

بعد أن بيَّنَ القرآن أن سنة الله فى الرسل أن يكونوا بشرًا ، بيَّن ما فيهم من بقية صفات البشر فقال : (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) : أى وما جعلنا الرسل الذين أرسلناهم إلى الأمم الماضية جسدًا لا يأكلون الطعام كما هو شأن الملائكة الذين تريدون رسولكم منهم ، ولكن جعلناهم بشرًا مثله ، يأكلون الطعام كما يأكل ، وما كانوا باقين أبدًا فى الحياة الدنيا ، بل هم إلينا راجعون كسائر البشر .

ومع كون الآية مقررة لما قبلها فهى رد على قولهم : « مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » ويقول الآلوسى فى تفسيرها : (والظاهر أنهم يعتقدون فى الملائكة الحياة الأبدية كاعتقاد الفلاسفة فيهم ، وحاصل المعنى على هذا جعلناهم أجسادًا متغذية صائرة إلى الموت حسب آجالهم ، ولم نجعلهم ملائكة لايتغذون ولا يموتون حسبما تزعمون) انتهى بتصرف يسير .

٩ - (ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ) :

ثم وفينا بوعدنا لرسلنا السابقين بالنصر على عدوهم ، وحقت كلمتنا لهم ، فأخذنا الأمم الذين عصوهم وعتوا عن أمر ربهم بالعذاب بعد أن أجبناهم إلى الآيات التى طلبوها فكفروا بها ، فأنجينا رسلنا ومن أردْنا نجاته من المؤمنين - أنجيناهم مما أخذنا به أممهم الكافرة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ »[1] . وأهلكنا الذين أسرفوا على أنفسهم بالكفر والتمادى فى الضلال ، هذه أنباء من قبلكم وتلك عاقبتهم فما لكم تعرِّضون أنفسكم لمثل ما نزل بهم بانتهاجكم نهجهم ، وسيركم فى طريقهم .

(١) سورة يونس ، آية : ١٠٣ .

١٠ - (لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ . . .) الآية .

التنوين فى (كِتابًا) للتعظيم ، والمعنى : لقد أنزلنا على رسولنا كتابًا عظيمًا ، فيه تذكير وموعظة لكم ، كما أن فيه عزكم وشرفكم ، إن آمنتم به ، وصدقتم من بلّغه ، كما قال سبحانه : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ »(١) : أى شرف لمن اتبعه ، وعمل بما جاء به .

(أَفَلَا تَعْقِلُونَ) : الاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أى ألا تتفكرون فلا تعقلون ، وفيه معنى الأمر ، أى تفكَّروا لكى تدركوا فيم يكون خيركم ؟ وفيه الإشارة إلى أن من أعرض عما جاء به الرسول فلم يُعْمِلْ عقله فيه ، ولم يتدبر أمره ، موسوم بعدم التعقل وقلة التبصر ، وهو ما لايليق بعاقل ، ومثله فى المعنى قوله تعالى : « بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ »(٢) . وهل يعرض عن داعية الشرف والاتعاظ عاقل ؟

١١ - (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ) :

هذه الآية وما بعدها لتفصيل ما أجمل فى قوله تعالى : « وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ » وبيان لكيفية إهلاكهم .

والمعنى : إن سنتنا التى لا تتغير هى أن نأخذ الجاحدين بالآيات إذا ما لجُّوا فى ضلالهم وكثيرًا من الأمم قصمنا أى : أهلكناها إهلاكًا تامًّا ، ودمرناها تدميرًا كاملًا . فالمراد بالقرية أهلها على حد : « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » وتلك القرى التى أهلكناها كانت ظالمة لنفسها بكفرها ومعاصيها ، ظالمة للرسل والمؤمنين بالتكذيب والاضطهاد ، وملاحقتهم بالكيد والإيذاء ، وأنشأنا بعد إهلاك هذه القرى الظالمة قومًا آخرين ليسوا منهم ، حلوا فى أماكنهم ، وسكنوا قراهم ، والظاهر أن هذه القرى المهلكة لا يراد بها قرى معينة ، وقيل : إن المراد بها قرية باليمن تسمى « حضور » قتل أهلُها نبيَّهم ، فانتقم الله منهم أبلغ انتقام لبلوغهم فى الكفر أبشع ما يكون وهو قتل الأنبياء ، والرأى الأول هو الظاهر ، فإن لفظ : (كَمْ) يدل على كثرة القرى المهلكة فكيف يُرَادُ به قريةٌ واحدة بعينها ؟ .

---

(١) الزخرف ، من الآية : ٤٤ والذكر بمعنى الوعظ أو الشرف والعز .

(٢) المؤمنون ، من الآية : ٧١

١٢ - (فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَاهُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ) :

وهذا بيان لحالهم حين حلول العذاب بهم . أى : فلما أدركوا عذابنا الشديد وشعروا بوقوعه بهم ، وأحسوه بحواسهم (إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ) :وأصل الركض : ضرب الراكب دابته برجله لتسرع ، أى : أنهم ركبوا دوابَّهم وركضوها - ظنًّا منهم أنها تنجيهم من أخذ الله وعذابه[١] ، أو هو على تشبيههم فى فرارهم بالراكض يسرع طلبًا للنجاة ، فجعلوا كأنهم يستنهضون أنفسهم حثًّا لها على السرعة والتماسًا للنجاة من عذاب لا مفر منه أبدًا[٢] .

١٣ - (لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوآ إِلَى مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ) :

أى : قيل لهم هذا ، والقائل إما من الملائكة ، وإما من المؤمنين ، أو أن من يراهم يقول بلسان الحال هذا المقال : لا تسرعوا فى عَدْوِكم ، وعودوا إلى مقر نعمتكم ومواطن ترفكم الذى أبطركم حتى جحدتم وكفرتم ، وأقيموا فى مساكنكم ووطئوا مجالسكم ، كما اعتدتم ، لعل أتباعكم يَمْثُلُون بين أيديكم ، ويسألونكم عما تأمرونهم به لينفذوه ، أو لعلكم تُسْأَلون عن باعث هذا العذاب عليكم ، وسبب نزوله بكم ، أو لعلكم تسألون أن تؤمنوا كما كنتم تسألون قبل نزول البأس بكم ، فتسارعون إلى الإيمان طلبًا للنجاة ، وكل ذلك على سبيل التهكم والسخرية بهم ، وفى الآية آراء أخرى ، وحسب القارئ ما تقدم .

وهذا الفرار منهم أَبْلَغُ فى الجهل وأبعد عن السداد؛ إذ أنهم يقيسون أخذ الله القادر القاهر بأخذ الناس للناس فظنوا الهرب منجيًا ، فهربوا فلاحقهم عذاب الله .

١٤ - (قَالُوا يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) :

أى أن أهل هذه القرى الظالمة لما أحسوا بأسنا وعذابنا ، ركضوا وأسرعوا طلبًا للنجاة وقالوا - نادمين - يندبون نهايتهم : يا هلاكنا إنا كنا ظالمين لرسلنا ولآيات ربنا ولأنفسنا ، فحق علينا قول ربنا ، وهكذا يندم الظالمون بعد فوات الأوان ، ويتحسرون ويعترفون بخطاياهم حين وقوع العقاب ، وسوف ينتهون بعده إلى عذاب دائم : « يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ[٣] » .

---

(١) وهو على هذا فعل متعد لمفعول. (٢) وهو على هذا استعارة مكنية، وقال أبو زيد : ركض تستعمل لازمة بمعنى جرى وعلى هذا لا يكون فى الكلام تجوز .

(٣) سورة غافر ، آية : ٥٢

١٥ - (فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ) :

الدعوى هنا بمعنى الدعاء والنداء ، والمقصود بها قولهم : « يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » : أى أنهم ظلوا يولولون مرددين هذه الدعوة ، قائلين : يا هلاكنا قد جاء أوانك ؛ فقد كنا ظالمين لأنفسنا بما أشركنا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وما زالوا يرددون دعوتهم هذه حتى أتم الله إهلاكهم وإفناءهم وكانوا كالزرع المحصود الذى انقطعت صلته بالحياة ، وأصل الخمود : انطفاء النار بعد اشتعالها ، فشبه موتهم بعقاب الله بعد حياتهم ونشاطهم - شبه - بخمود النار بعد اشتعالها فتصبح لا ضوء لها ولا دخان ولا حرارة بعد أن تحولت إلى رماد .

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾
لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾
بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ
ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ
عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ
ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ
يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(لَاعِبِينَ) : أى عابثين بدون حكمة . (لَهْوًا) : اللهو كل ما يتلهى ويتسلى به .

(نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ) : نرمى به عليه . (فَيَدْمَغُهُ) : فيصيبه ويقهره .
(زَاهِقٌ) : هالك فانٍ . (الْوَيْلُ) : الهلاك والعذاب. (مِمَّاتَصِفُونَ) : بسبب وصفكم لربكم .
(وَلَايَسْتَحْسِرُونَ) : وَلا يَملُّونَ وَلا يتعبون.. (يَفْتُرُونَ) : يَعْيَوْنَ ويضعفون .
(أَمِ اتَّخَذُوا) : بل أتَّخذوا ؟ . (يُنشِرُونَ) : يُحْيُون الموتى .
(لَفَسَدَتَا) : لخربتا واختلَّ نظامهما .

التفسير

١٦ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَابَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) :

عقَّب الله - سبحانه - إخماد الظالمين و إهلاكهم ، واستخلاف قوم آخرين مكانهم بهذه الآية ليشير بها إلى أن أفعاله تعالى لا تَخلو عن الحكمة ، وأن إهلاك الظالمين عين الحكمة ، لكفرهم وظلمهم ، وقد أفادت الآية الكريمة أن ما بين السموات والأرض شىءٌ عظيم يقتضى الإشارة إليه ، وإن لم يصل العلماء بعد إلى تفصيله ، وإن عرفوا بعضه كالأشعة الكونية والجاذبية والهواء .

والمعنى : وماخلقنا السموات والأرض ومافيهما وما بينهما من الكائنات والعناصر والعوالم التى لا يعرفها بحقائقها وأوصافها إلا نحن - ما خلقنا ذلك عابثين لمجرد التلهى بل خلقناها مشحونة بالآيات والعجائب ، ليتعرف علينا عبادنا بآياتنا ، ولمصالح دنيوية وأخروية ، وحكم علوية ظاهرة وخفية ، وسيتجلى ذلك يوم يقوم الناس لرب العالمين .

١٧ - (لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّا تَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ) :

هذه الآية مقررة لما قبلها من انتفاء اللهو واللعب فى خلق السموات والأرض ومابينهما ، كما أنها منزهة له تعالى عما زعمه المشركون من أن الأصنام بنات الله ، ومازعمه النصارى من أن لله زوجة وولدًا هما مريم وعيسى عليه السلام ، ومازعمه اليهود من أن عزيرا ابن الله ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً .

يقول الإمام الواحدى : اللهو : طلب الترويح عن النفس . ثم المرأة تسمى لهوا وكذا الولد ، لأنه يُسْتَرْوَحُ بكل منهما ، ولهذا يقال لامرأة الرجل وولده : رَيْحَانَتَاه .

والمعنى : لوأردنا أن نتخذ لهوا من النساء أو الأولاد ، لاتخذناه من عندنا مما نصطفيه ونختاره (١) ، لا كالذين زعمتموهم ، لأن ولد الوالد وزوجته يكونان عنده لاعند غيره . انتهى بتصرف .

وتفسير اللهو بالولد مَرْوِىٌّ عن ابن عباس والسدى ، وتفسيره بالمرأة مروى عن قتادة ، وفسر الجبائى الآية بقوله : لو أردنا اتخاذ اللهو لاتخذناه من عندنا ، بحيث لا يطلع عليه أحد؛ لأنه نقص فَسَتْرُهُ أولى ، انتهى .

وقد أفادت هذه الجملة أنه تعالى يستحيل عليه اتخاذ زوجة أو ولد بأى صورة فى السماء أو فى الأرض ، لأنه تعالى يستحيل عليه أن يشتغل باللهو ، فكل أفعاله تتسم بالجد والحكمة ، ولذا ختم الآية بقوله سبحانه : «إن كُنَّا فاعِلِين » أى أننا لا نفعل ذلك لكونه مستحيلا فى حقنا .

١٨ – ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ . . . ﴾ الآية .

ليس من شأننا التلهى والعبثُ بل شأننا الحق والجد ، ولهذا نَقذف الباطل بالحق فيدمغه ، ويذهب به ، ويقضى عليه ويدمره .

﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ : هالك زائل ، وفى التعبير بالقذف الذى لايكون إلا فى الأجسام الصلبة – عادة – من حجر ونحوه ، وبالدمغ الذى أصله إصابة الدماغ وهو مقتل ، وبالزهوق الذى هو خروج الروح من الجسد إبراز للمعنوى فى صورة المُحَسِّ المشاهد ، وفى ذلك أبلغ تصوير لغلبة الحق على الباطل حتى يمحقه ويمحوه .

قال الزمخشرى فى كشافه : « بل » للإضراب عن اتخاذ اللهو واللعب ، وتنزيه منه تعالى لذاته كأنه قال : تنزيهًا لنا أن نتخذ اللهو واللعب من عادتنا ، فموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نَغْلِبَ اللهو بالجد ، وندحض الباطل بالحق . اهـ .

---

(١) كما فى قوله تعالى فى سورة الزمر : « لو أراد الله أن يتخذ ولدا لا صطفى مما يخلق مايشاء » وحرف « لو » فى كلتا الآيتين يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط .

(وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) : المخاطبون بذلك ابتداء هم الكفار من أهل مكة ، ولأمثالهم فى كل حين مالهم من الويل الشديد ، و « مِنْ » فى قوله (مما تصفون) تعليلية ، و « ما » مصدرية أى بسبب وصفكم الله تعالى بما لا يليق بجلاله سبحانه ، ويجوز أن تكون « ما » اسما موصولا ، والمعنى : ولكم الويل من الذى تَصفون الله به مما يجب تنزيهُهُ عنه من اتخاذ الصاحبة والولد كما قال سبحانه : « وأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَاوَلَدًا »[(١)] .

١٩ - (وَلَهُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ومَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ) :

بينت الآيات السابقة فساد الأديان التى تزعم أن لله ولدا ، كما توعَّدت أُولئك الزاعمين بإبطال مزاعمهم ، ونَصْرِ الحق على باطلهم حتى يزهق ، وأن الله تعالى سوف يعاقبهم على افترائهم ، وجاءت هذه الآية لبيان كمال استغنائه عن الولد المزعوم وعن طاعتهم ، فإنه سبحانه يملك من فى السموات والأرض ، وكل من عنده خاضعون لربوبيته .

والمعنى : ولله من فى السموات والأرض من سكانهما ، وما فيهما من سائر المخلوقات ، له تعالى كل ذلك خلقًا وملكًا وتصرفًا وتدبيرًا ، وإحياء وإماتة وتعذيبًا وإثابة ، دون شريك له فيه ، ومَنْ عنده فى مكانة الشرف والكرامة من الملائكة ، لايستكبرون عن عبادته وطاعته فى كل ما يأْمرهم به ، ولا يَمَلُّونَ ولايتعبون ، فأَى حاجة لله تعالى فى أن يتخذ ولدًا وهو تام الاستغناء عن الولدية ، وأى ضرر أصابه بعبادتكم لغيره ؟ والتعبير عن الملائكة بأَنهم عنده سبحانه ، على سبيل التمثيل بِجَعْلِ منزلتهم فى الشرف ورفعة الجاه كمنزلة المقربين مكاناً من الملوك ، ونَفْىُ استكبارهم عن العبادة ، مشْعِرٌ بالتعريض بمن كفر من الناس واستكبر على عبادته .

ولما بيَّن الله فى هذه الآية أن الملائكة لايستكبرون عن عبادته الشاملة لكل أنواع الخضوع لأَوامره وتعظيمه وتنزيهه ، عقَّبها بالتنويه بحال من أحوال عبادتهم فقال سبحانه :

٢٠ - (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) :

فقد بيَّن سبحانه فى هذه الآية حالا من أحوال خضوع الملائكة لله ، وأنهم لا تشغلهم عبادته والخضوع له فيما يأْمرهم به من شئون الكون عن دوام تسبيحه .

(١) سورة الجن ، آية : ٣ ومعنى (تعالى جد ربنا . . . الخ) تنزه استغناؤه ومجده عن اتخاذ زوجة أو ولد .

والمعنى : ومَنْ عند الله من الملائكة لايستكبرون عن عبادته والخضوع لأوامره ، فهم يسبحونه ليلا ونهارًا لاينقطعون ، والمقصود من ذكر الليل والنهار الدوام ، سواءٌ كان عندهم ليل ونهار أولم يكن ، ولا يمنعهم هذا التسبيح الدائم من قيامهم بما يكلفهم الله به ، قال تعالى : « لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ». فالتسبيح لهم بمنزلة التنفس لايشغلهم عنه شاغل .

٢١ – (أَمِ اتَّخَذُوٓا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ) :

بهذه الآية بدأ التقريع والتوبيخ لمن اتخذوا آلهة لهم غير الله تعالى ، وحرف (أَمْ) هنا إما بمعنى (هل) الاستفهامية الإنكارية – كما جنح إليه بعض المفسرين – والإنشار بمعنى الإحياء .

والمعنى على هذا : هل اتخذ المشركون آلهة من الأرض هم يُنْشِرُون الموتى ، ويعيدونهم أحياءً ، كلا فإنهم لايقدرون أن يدفعوا الفناء عن أنفسهم ، فكيف يُنْشِرُون غيرهم ويحيونهم ، فلماذا عبدوهم ؟

وإما أن تكون (أَمْ) بمعنى بل والهمزة ، فكأنه قيل : بل أَتَّخَذُوا ، وتكون (بل) للإضراب الانتقالى عن النقاش السابق ، إلى تقريع الكفار وتوبيخهم على اتخاذ آلهة عاجزين .

والمعنى على هذا : بل أَتَّخَذَ المشركون آلهة من هذه الأرض هم يعيدون الموتى إلى الحياة ، كلّا فهم أعجز ما يكونون عن ذلك .

وعلى أى التقديرين فى تفسير حرف (أَمْ) فمآل المعنى واحد كما هو واضح مما قدرنا ووصف آلهتهم التى اتخذوها بكونها من الأرض لتحقيرها ، وتوبيخ عابديها على تركهم رب السموات والأرض الذى هو يحيي ويميت إلى آلهة حقيرة لا قدرة لها على إحياء الموتى .

٢٢ – (لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) :

بعد أن بيّن الله فيما تقدم هوان آلهتهم وعجزها ، ووبخهم على عبادتها معه سبحانه جاءت هذه الآية الكريمة ، لكى تقيم الدليل العقلى على وحدانيته تعالى .

والمعنى : لو كان فى السموات والأرض آلهة غير الله تدبر شئونهما وتصرف أمرهما لفسدتا ؛ وذلك لأن شأن التعدد الاختلاف والتغالب ، وأن يفسد كل من الآلهة عمل الآخر ، وبما أن المشاهد هو صلاح السموات والأرض وبقاؤهما منذ بدء الخليقة على هذا النظام البديع والتدبير المحكم ، فإن ذلك يدل أوضح دلالة على أن خالقهما ومدبرهما هو إله واحد .

والآية الكريمة تشير إلى برهان عقلى يسمى برهان التمانع والتعارض بين إرادات الآلهة المتعددين ، وشاهد صحة هذا البرهان فى الحياة ، أن الأمة لا يصلح أمرها إلا بملك واحد ، فإن تعددت ملوكها فسد الأمر فيها ، والجسد الواحد لا يصلح أمره إلا بقلب واحد ، فإن تعددت القلوب فسد الجسم ، ولهذا قال تعالى : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ » كما أن الأسرة لا يصلح أمرها إلا برئيس واحد ، فإن تعدد الرؤساء فيها فسد ، والمصنع لا يديره إلا رئيس واحد ، فإن تعدد رؤساؤه تعارضوا وفسد الأمر فيه ، وهكذا كل أمر فى الحياة لا يصلح إلا بإرادة واحدة رشيدة فعالة مسيطرة ، ليس لها معارض يفسد عليها تدبيرها ، ولهذا نزه الله تعالى نفسه عما يقوله المشركون عن شركائهم بقوله فى نهاية الآية :

(فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) : أى فيترتب على هذا البرهان الواضح تنزه الله صاحب العرش والسلطان المطلق عن وصف هؤلاء المشركين إياه بأن له شركاء تستحق العبادة معه ، إذ أنهم جميعا فى ظل سلطانه وتحت عرشه وفى قبضة ملكه ، وكرم ربوبيته .

وهذه الجملة مع إفادتها تنزيه الله تعالى عما يدّعيه المشركون ، فقد أفادت التعجب من عبادتهم هذه المعبودات الخسيسة ، وفى عدها شريكة لرب العرش العظيم .

ولعلماء العقيدة براهين أخرى ، وحسب القارئ ما قدمناه .

٢٣ ــ (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) :

استئناف مبين لما يقتضيه تفرده سبحانه بالألوهية وعظمة الربوبية ، وهو أن يكون سائلا لعباده عما يفعلون لامسئولا منهم عما يفعله فيهم ، يقول العلامة الزمخشرى فى

تفسير هذه الآية : « وإذا كانت عادة الملوك ألا يسألهم مَنْ فى مملكتهم عن أفعالهم ، وعما يُوْرِدُون و يُصْدِرُون من تدبير ملكهم تهيبا وإجلالا مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم ، كان مَلِكُ الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بألا يُسْأَل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر فى العقول من أن مايفعله كله معقول ، ومرتبط بدواعى الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبيح » انتهى بتصرف يسير .

أما العباد فإنهم يُسألون بمقتضى عبوديتهم وتكليفهم بطاعته سبحانه ، والعمل بشرائعه التى شرعها لهم على ألسنة رسله ، وبمقتضى ما منحهم من عقول صالحة لتمييز الحق من الباطل ، والخير من الشر والنفع من الضر ، وفى جملة من يسألهم الله من عباده من أشركوهم معه كالمسيح والملائكة ، فكيف تصلح معبوداتهم للعبادة وهم مسئولون للإله الواحد سبحانه وتعالى .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ
مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ
أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ
سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم
بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

المفـردات :

(أَمِ اتَّخَذُوا) : بل أَتَّخَذُوا . (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) : أحضروا دليلكم .

(هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ) : أى ما فى القرآن من التوحيد ونفى الشريك ذكرُ من اتبعنى . (وَذِكْرُ مَن قَبْلِى) : ممن تقدمنى من أهل الأديان السماوية

(وَلَداً) أى : من الملائكة على ما يزعمون .

(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ) : لا يتكلمون إلا بأمره .

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَاخَلْفَهُمْ) : يعلم ما عملوا وما سيعملون .

(لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) : لا يشفعون إلا لمن يأذن الله لهم فيه .

(مُشْفِقُونَ) : خائفون على أنفسهم مراقبون لربهم .

التفسير

٢٤ - (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ...) الآية .

« أم » هى المنقطعة المفيدة معنى « بل والهمزة » جاءت للانتقال من إظهار بطلان ما اتخذوه آلهة فى قوله تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا . . » الآيتين ، إلى تأكيد بطلان ذلك الاتخاذ ، والهمزة التى تضمنتها أم لإنكار الاتخاذ المذكور واستقباحه ، وتكرار هذا مع ما سبق ، لتأكيد استقباح حالهم ، واستنكار كفرهم باتخاذ الشريك لله سبحانه ، ومزيد توبيخهم على ذلك ، فكأنه قال : ما أشد قبح ما فعلتموه من اتخاذ آلهة لا حول لها ولا قوة ، بل هى فى حكم العدم .

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) :

أى قل لهم - يا محمد - ردًّا عليهم وتفنيدًا لمزاعمهم : أحضروا برهانكم ودليل صدقكم على مُدَّعاكم ، عقليا كان أو نقليا .

والمقصود من طلب البرهان على صحة شركهم تعجيزهم وتحديهم والسخرية بمزاعمهم ، إذ لا يوجد برهان عليه عقلا ، كما أشار إليه قوله تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » ولوضوح عجز هؤلاء الشركاء عن حماية أنفسهم مما يضرهم أو أن يجلبوا لأنفسهم ما ينفعهم ، فكلهم تحت سلطانه تعالى .

كما أنه لا يوجد دليل نقلى على جواز شركهم ، وإليه يشير قوله تعالى :

(هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي) : أى هذا التوحيد الذى دعوتكم إليه ، هو ذكر مَن معى من أمتى ، وذكر من قبلى من الرسل وأممهم ، فهو شريعة الله فى جميع الرسالات ، ولم يختص به الأمة المحمدية .

ويصح أن يكون المعنى : هذا القرآن تضمن وَعْظ الله لأمتى ، ووعظه سبحانه لأمم الأنبياء والمرسلين قبلى ، فاقرءُوا الكتب السماوية كلها ، وانظروا هل تجدون فى أحدها ما يخالف الآخر فى عدم مشروعية الشرك ؟ ثم انتقل الأسلوب القرآنى من الخطاب إلى الغيبة بطريق الإضراب الانتقالى ، فى ختم الآية بقوله تعالى : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ » أى : أن هؤلاء المشركين لايجدى تبكيتهم على عقيدة الشرك التى لايوجد لأحد عليها دليل عقلى ولا نقلى ، فدَعْ مطالبتهم بالبرهان ، فإنهم لا يعقلون أن الشرك لا برهان له ، فلهذا لا يفرقون بين الحق والباطل ولا يميزون بينهما ، فتراهم يعرضون عن الحق دون تأمل .

والتعبير بأكثرهم لأن فيهم من اهتدى إلى معرفة الحق ، ثم آمن به مقبلا عليه متفانيًا فى سبيل الدفاع عنه .

٢٥ - (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ) :

بيَّن الله فى الآيات السابقة بطلان عقيدة الشرك عقلا ونقلا ، وجاءت هذه الآية لتؤكد ذلك ولتبين أن عقيدة التوحيد ، كانت عقيدة الرسل التى أوحاها الله إليهم ، قال قتادة : لم يرسل الله نبيا إلا بالتوحيد ، وإن اختلفت الشرائع . انتهى بتصرف يسير .

والمعنى : وما بعثنا قبلك يامحمد رسولا إلى أمته بشريعة من شرائعنا إلا أوحينا إليه فيها أنه لا إله لهم سواى ، فاعبدونى أنتم وجميع أممكم ولا تعبدوا أحداً غيرى .

٢٦ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ) :

تحكى هذه الآية جناية فريق من المشركين لإظهار بطلانها ، بعد بيان تنزهه عن الشريك مطلقا ، وسبب نزول هذه الآية أن حيا من خزاعة قالوا : الملائكة بنات الله ،

ونقل الواحدى : أن هذه العقيدة ليست قاصرة عليهم ، بل قالها معهم قريش وجهينة وبنو سلامة وبنو مليح ، وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : قالت اليهود إن الله تعالى صاهر الجن فكانت بينهم الملائكة ، فنزلت . وأياكان سبب النزول فالآية الكريمة تظهر شناعة هذا القول وقائليه من هؤلاء وغيرهم كالنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، واليهود الذين قالوا : عزير ابن الله ، وجميع من قالوا : الملائكة بنات الله ، وكما تشنع هذه الآية على عقائدهم فيهم ، تبين صفة هؤلاء عند الله وهى العبودية دون النبوة .

والمعنى : وقال فريق من الناس : اتخذ الرحمن له ولدًا يشاركه فى الألوهية ، وليس الأمر كما زعم هؤلاء الزاعمون ، بل هؤلاء الذين زعموهم له أولادا ما هم إلا عباد مقربون عند الله ، مكرمون منه ، لصفاء عبادتهم لربهم ، وإخلاصهم لربهم ،ولفظ الولد يطلق على الواحد وكذا المتعدد كما هنا ، ولهذا جاءت بعده صيغة الجمع فى قوله : « بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ » أى : بل الولد الذين زعموهم لله هم عباد مكرمون عنده .

٢٧ - (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) :

أى أن من زعموهم أولادًا لله لايسبق قولهم قوله تعالى ، ولا يعملون إلا بأمره كما هو شأن العبيد المطيعين لسيدهم المنقادين له ، فهم تابعون لمولاهم فى أقوالهم وأفعالهم دائما ، ثم بيّن السر فى أدبهم هذا بقوله :

٢٨ - (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) :

أى أن هؤلاء الذين زعموهم أولادا ، فى غاية الطاعة له ، لأنه سبحانه يعلم جميع أحوالهم المستقبلة والماضية ، فلهذا يراقبونه تعالى ويخشونه ، ويطيعونه فى أمرهم كله ولا يتقدمون للشفاعة لأحد إلا لمن ارتضى أن يُشْفعَ له من المؤمنين العصاة دون الكافرين لقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ » .

أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى البعث ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى بيان من يرتضى الله الشفاعة لهم : « مَنْ قَالَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ » فهو يرى أن الشفاعة تكون

لعصاة المؤمنين ولو كانوا من أهل الكبائر ، وشفاعتهم تكون بطلب الغفران لهم من ربهم فى الدنيا أو فى الآخرة .

ومعنى قوله تعالى : (وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) : أنهم مع كرامتهم على الله خائفون من وقوع أى تقصير منهم فى طاعته ، مشفقون من تبعاته ، وما ذلك الإشفاق والخوف إلامن شدة خوفهم منه وإجلالهم لمقام الله تعالى

* (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ
كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ
أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾
وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾
وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا) : أى مرتوقتين ومتصلتين ليس بينهما انفصال ،والرتق فى الأصل : الضم والسَّدُّ ، يقال : رتق الفَتْقَ من باب نَصَرَ ، رَتقاً ورُتوقاً إذا سده .

(فَفَتَقْنَاهُمَا) : الفتق ، الشق ، وهو ضد الرَّتْق ، يقال : فَتَق الشىء[1] أى : شَقَّه وفصل بعضه عن بعض .

(فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ) : أى فيها جبال ثوابت :

(أن تَمِيدَ بِهِمْ) : لئلا تضطرب اضطراباً يختل به توازنها .

(وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا) : الفَجُّ : الطريق الواسع ، والجمع فجاج ، مثل : سَهْم وسهام ، وسُبُلٌ : جمع سبيل وهو الطريق ، يذكر ويؤنث .

(وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ) : المراد بها هنا المُظلة للأَرض . قال ابن الأنبارى : تذكر وتؤنث ، وقال الفراءُ : التذكير قليل .

(كُلٌّ فِى فَلَكٍ) : الفَلَكُ محركةً : مدار النجوم والكواكب .

والجمع : أَفلاكٌ وفُلُكٌ بضمتين .

(يَسْبَحُونَ) : أى يسرع كل منهما فى مداره كالسابح فى الماء ، وجمع الضمير مع أنه راجع إلى الشمس والقمر ، لأَن الجمع قد يستعمل فيما فوق الواحد[2] .

التفسير

٢٩ - (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ . . . .) الآية .

أى ومن يقل من الملائكة على نفسه إنى إله أُعْبَدُ من دون الله تعالى (فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) : أى فذلك القائل الذى يُفْرَضُ صدور هذا القول منه ، نجزيه أشد العذاب ، وننزل به أقسى النكال لاتغنى عنه صفاته السَّنيَّة ، ولا أعماله المرضية ، وهذا فرض غير واقع لعصمة الملائكة .

(كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّـٰلِمِينَ) : أى مثل هذا الجزاء الفظيع نجزى الظالمين الواضعين للأُلوهية والعبادة فى غير موضعهما ، أو نجزى الذين يتجاوزون الحد ، فيضعون الأَشياء فى غير مواضعها ، ويتعدون أطوارهم فى شئونهم الدينية .

---

(١) وهو من باب «قعد» .

(٢) واستعمال ضمير جماعة العقلاء تنزيلا لهما منزلتهم لدقة سيرهما وانتظامه كما يفعل العقلاء .

٣٠ - (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً . . . . .) الآية .

تشير الآية إلى تجهيل الكفار بتقصيرهم فى التفكر والتدبر فى الآيات الكونية الدالة على قدرة الله الباهرة ، واستقلاله بالألوهية ، وقهره لجميع المخلوقات ، وأنها جميعاً تحت سلطانه العظيم .

والمعنى : أعميت بصائر الذين كفروا ولم يعلموا من الشواهد والآيات أو من الكتب السماوية أن السموات والأرض كانتا قبل فصلهما كياناً واحدا لا انفصال فيه بينهما ، حيث كانتا دخاناً فى بدء خلق الله لهما فشقه وفصل بينهما .

روى عكرمة والحسن وقتادة وابن جبير عن ابن عباس أنه قال فى تفسير الآية :

إن السموات والأرض كانتا شيئًا واحدًا ملتزقتين ، ففصل الله تعالى بينهما ، ورفع السماء إلى حيث هى ، وأقر الأرض[١] .

ويقول ابن كثير فى تفسيرها : أى كان الجميع متصلا بعضه ببعض فى ابتداء الأمر ، ففتق هذه من هذه ، وجعل السموات سبعاً والأرض سبعاً . انتهى بتصرف يسير واختصار .

وتقول لجنة الخبراء فى تعليقها على هذه الآية بالتفسير المنتخب ، ماخلاصته : إن هذه الآية تقرر معانى علمية ، أيدتها النظريات الحديثة فى تكوين الكواكب والأرض ، وهى أن السموات والأرض كانتا فى الأصل متصلا بعضها ببعض على شكل كتلة متصلة متماسكة ثم انفصلتا ، واستدل على ذلك بأدلة علمية عديدة . اهـ .

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) : تلك آية أخرى من آيات القدرة العظيمة ، أى : وخلقنا من الماء الميت كل ما فيه حياة ، كما أنه محتاج إلى الماء فى استمرار حياته وبقائها ، إذ هو عنصر هام فى إبداع وغذاء وتنمية كل شىء حى - إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً - أى : أن كل ما فى الكون مما يتصف بالنمو لايستغنى عن الماء ، وإلا لحقه الفناء والدمار ، ولذلك كان جديراً أن يَمُنَّ به سبحانه على خلقه ؛ لأنه من أفضل النعم على الخلق وأولاها بالتقدير والاعتبار .

---

(١) نقله الآلوسى فى تفسير الآية .

(أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) : إنكار عليهم لعدم التصديق بما يشاهدون من الآيات التى تتصل بالآفاق والأنفس ، مع دلالتها على تفرده - جل شأنه - بالألوهية .

بمعنى : أيرون ذلك مشاهدة ومتكررا فى كل شىء حى فلا يؤمنون بمبدعه ، وكان عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان به ، وقد شاهدوا آياته « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » .

٣١ - (وَجَعَلْنَا فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ . . .) الآية .

أى : وجعلنا بقدرتنا فى الأرض جبالا ثوابت تحفظ توازنها لئلا تضطرب بهم اضطرابا لايعقبه ثبات ، فلا يكون للناس عليها قرار بسبب ذلك ، أما المَيْدُ بسبب الزلازل ونحوها فإن الآية لاتأبى وقوعه ؛ لأنه مَيْدٌ يعقبه ثبات واستقرار .

(وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) : أى وجعلنا فى الأرض جميعها ، سُهولها وجبالها وهضابها طرقا واسعة ؛ لكى يهتدوا بها إلى مصالحهم ومهماتهم ، وذكرت الآية (سُبُلًا) بعد أن ذكرت قبلها فجاجًا ، بيانًا للفجاج ودفعا للإبهام عنها ؛ لأن الفج قد يكون مَسْلُوكا وقد لايكون ، ولتدلَّ ضمنا على أن الله خلق الفجاج ووسَّعها رعاية للسَّابلة الذين يسلكونها ورحمة بهم .

وقيل : إن المعنى وجعلنا فى الجبال طرقا واسعة ليسلك الناس فيها ويعبروا من قطر إلى قطر ، ومن إقليم إلى إقليم ، فقد يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وتلك البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة واسعة ليسلك الناس فيها من هنا إلى هناك .

ويصح أن يكون المراد من قوله (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) أن يهتدوا بذلك إلى الاستدلال على التوحيد وكمال القدرة والرحمة ، أو ما يعم الاهتداء إلى ذلك والاهتداء إلى البَصَر بفضل الله عليهم ، وبما يسره لهم من تبادل المنافع التى فيها صلاح أمرهم ، وتقويم شأنهم .

٣٢ - (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ) :

هذه آية أخرى من آيات الألوهية الدالة على وجود الصانع ، وكمال قدرته ، أى : وجعلنا السماء المُظلة للأرض كأنها قبة عليها ، جعلناها سقفا محفوظًا بقدرتنا من أن يقع على

الأرض ، مرفوعا عنها بدون عَمَد ظاهرة يرتكز عليها ، ودعائم يستند إليها ، وذلك كقوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا. »[1] . فقد أمسكها الله تعالى بقوانين تقتضى حفظها مرفوعة فى الفضاء بقدرته ، إلى أن يشاء الله انفطارها ، وانتشار كواكبها « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ »[2] .

وقيل : وجعلنا السماء سقفًا محفوظًا بالملائكة أو بالنجوم من أن يسترق الشياطين السمع ، ودليله : « وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ »[3]

وقيل : سقفًا محفوظًا من الفساد والانحلال إلى الوقت المعلوم الذى تطوى فيه السماء كَطَىِّ السِّجلِّ للكتب ، وقد روى ذلك عن قتادة .

(وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ) : أى وهم عن آيات السماء الدالة على الوحدانية وكمال القدرة ذاهلون لايتدبرون فى ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، ونجومها وكواكبها ، ورياحها وسحابها وغيرها ، ولو تأملوها أدنى تأمل لهداهم التأمل إلى الإيمان واليقين ، ولكنهم آثروا الإعراض عنها والبقاء على ماهم عليه من كفر وضلال .

٣٣ - (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ . . .) الآية .

هذا بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون ، جاء على طريق الالتفات من التكلم فيما سبق إلى الغيبة هنا ، لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام الذى يُذَكِّرهم الله فيه بأنه جل شأنه هو الذى خلقهن وحده ، لخيرهم ومنفعتهم ، فخلق الليل ليسكنوا فيه ، حتى يستريحوا من مشاق العمل ومتاعبه ، وخلق النهار لينصرفوا مع إشراقته إلى الدأب والسعى لتحصيل أرزاقهم التى يسَّرها الله لهم ، وجعل الشمس آية النهار ليستضيئوا بها وينعموا بدفئها ، وجعل القمر آية الليل ليهتدوا بنوره المستمَدِّ من ضوء الشمس ، ولهما أثرهما النافع فى حياة النبات ونموه وخُضرته وإيتاء أُكُلِهِ ، وبهما يعلم عدد السنين والحساب .

---

(١) سورة الرعد ، من الآية : رقم ٢ (٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٤٨

(٣) سورة الحجر ، الآية : ١٧

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) : أى كل واحد من الشمس والقمر يدور فى مداره فى الفضاء لايرتكز على شىء ، ولا يهوى فى الفضاء ، كالسابح الماهر ، يشق الماء ، ولا يسقط فى قاعه وكذلك شأن سائر النجوم والكواكب « صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ » .

وأسند دورانهما إلى ضمير جماعة العقلاء ، تنزيلا لهما منزلتهم ، فى انتظامهما فيما سخرهما الله من أجله ، والمراد بالجمع ما فوق الواحد ، واستُحسن ليناسب فواصل الآيات ، والتعبير عن دورانهما بالسباحة لشبهه بها ، من حيث إن دورانهما فى الفضاء دون أن يسقطا ، يشبه سباحة السابح الماهر فى الماء دون أن يسقط فى القاع .

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾)

المفـردات :

(الخُلْدَ) : البقاء الدائم . (وَنَبْلُوكُمْ) : ونعاملكم معاملة المختبر .

(فِتْنَةً) : محنة وابتلاء .

التفسير

٣٤ ـ (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ...) الآية .

نزلت الآية حين قال المشركون : نحن نتربص بمحمد ريب المنون ضيقا بدعوته ، وكانوا يدفعون نبوته وينكرونها ، ويقولون : إنه شاعر ، وسيموت كما مات شاعر بنى فلان .

وكان نزولها تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وبيان أن ما تمنوه له لاحق بهم .

والمعنى : وما كان من سنتنا أن يخلد أحد من قبلك ، لا من الأنبياء ولا من المرسلين ، ولا من سائر البشر . لكون ذلك مخالفا للحكمة التكوينية التى قدر الله فيها أن يكون لكل حىٍّ أجل ينتهى عنده ، ثم يبعث الله الموتى ليحاسبهم على ما كانوا يعملون ، فلا شماتة فى الموت فهو ضريبة القهار على جميع عباده ، ولهذا قال سبحانه :

(أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) : أى أفإن مت أنت بمقتضى حكمتنا فَهُمُ الخالدون حتى يشمتوا بعدك فى موتك ، كلا ، فليسوا بمنجاة من الموت ، فإن الموت واقع بهم لا محالة. وفى معنى ذلك قال الإمام الشافعى رحمه الله :

تمنَّى رجال أن أموت وإن أَمُتْ فتلك سبيل لست فيها بأوحدِ
فَقُلْ للذى يبغى خلاف الذى مضى تزود لأُخرى مِثْلِهَا فكأن قد

٣٥ - (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ...) الآية .

هذه الآية تؤكد المقصود من الآية السابقة « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ » .

والمعنى : كل نفس يحدث لها الموت ، وتذوق مرارة مفارقة الروح للجسد ، وهى تختلف شدة وضعْفاً حسب تفاوت الناس إيمانا وجحودًا ، ولعل فى التعبير بالذوق إشارة إلى ذلك .

(وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) : أى نعاملكم معاملة المختبر لإظهار ما فى نفوسكم من خير أو شر وذلك بما نختبركم به من الشدة والرخاء ، والصحة والمرض وغيرها ، مما تحبون أو تكرهون ، فننظر هل تصبرون عند البلاء ، وتشكرون عند النعماء ، أو تقنطون وتكفرون؟

(وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) : للحساب والجزاء لا إلى غيرنا ، لا استقلالا ولا اشتراكا ، فنجازيكم حسبما يظهر منكم من عمل « وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا »[1] .

---

(١) من الآية رقم ٤٩ من سورة الكهف .

(وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا
ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾
خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا) : أى ما يتخذونك إلا مهزوءًا بك ومسخورًا منك ، يقال : هزأ منه وبه كمَنَع وسَمِعَ ، هُزْءًا وهُزُءًا بإسكانِ الزاى وضمها أى : سَخِر .

(يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ) : يذمها ويعيبها بقرينة المقام . (مِنْ عَجَلٍ) : العَجل والعجلة : طلب الشىء وتحريه قبل أوانهِ وقد يكون ضارا ، وفِعْله من باب عَلِمَ .

(مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) : المراد بالوعد مجىءُ الساعة . (لا يَكُفُّونَ) : لا يمنعون .

(بَغْتَةً) : فجأة . (فَتَبْهَتُهُمْ) : تدهشهم وتحيرهم .

(وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ) : يُؤَخَّرُونَ ، يقال : نظره : أى تأنى عليه ، وأنظره : أخَّره .

التفسير

٣٦ - (وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ...) الآية .

المعنى : وإذا لقيك الذين كفروا من مشركى مكة كأبى جهل والنضر بن الحارث وأضرابهما ما يتخذونك إلا مهزوءًا بك ، مسخورا منك ، مع علمهم بشرف أصلك

وعلو قدرك ، وكرم خُلُقك ، وصدق قولك ، ويقولون مستنكرين محقرين :

(أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ) : بالسوء والعيب . (وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ) : أى يعيبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذِكْر آلهتهم بالسوء من ضعف وعجز ، وحالهم أنهم يكفرون بذكر الرحمن المنعم بجلائل النعم وسوابغ الرحمة على عباده ، فهم لا يعترفون باسمه ولا يذكرونه ، فأى الفريقين أحق بالاستنكار والتحقير ؟ إنهم بما اقترفوه من كفروطغيان وسفه هم الأحقاءُ بذلك ، وبأن يُذْكر صنيعهم بالتسفيه والتقبيح .

٣٧ـ (خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ...) الآية .

فى هذه الآية صورة بلاغية ، حيث جُعل الإنسان الذى خلقه الله من الطين ـ جُعلَ ـ كأنه مخلوق من عَجَل ، وذلك لفرط عجلته وقلة صبره ، ولهذا تراه قد يبادر إلى الكفر دون نظر إلى عواقبه ، ويندفع فى طلب أمور دون النظر فى مآلها ، وقد يكون فيها ضرره وهلاكه، ومن ذلك ما صنعه النضر بن الحرث حين استعجل العذاب بما حكاه الله سبحانه وتعالى عنه بقوله جل شأنه : «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[1].وكان فى ذلك يعبر عن قومه لأنه كان من زعمائهم ، ولهذا أسند القول إليهم وإن كان هو قائله ، والعجلة وإن كانت من طبع الإنسان ، لكن الله جعل لكل غريزة ضوابط من العقل والحكمة ، توجهها نحو الخير ومكارم الأخلاق ، وتهديها سواء السبيل .

(سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) : خطاب للكفار المستعجلين لنزول العذاب والمعنى : سأُريكم آياتى فى عذابى الذى أُنزله بكم فى حينه ، فلا تستعجلونِ بإنزاله قبل الأجل الذى ضربته له ، فإن لكل شىء أجلا مضروبا . وقد حدث ذلك فى غزوة بدر الكبرى ، وماتلاها من الانتصارات الساحقة ، التى أتمها الله بالقضاء على عبادة الأوثان وعابديها بالجزيرة العربية .

وقيل : المعنى سأجعلكم تدركون آياتى التى تدل على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المعجزات الباهرة ، وما له من العاقبة المحمودة ، وسيتحقق وعدى لامحالة ، فاتركوا العجلة ؛ لعل الله يشرح صدوركم فتهتدوا .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٢

٣٨ - (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

المعنى : ويقول الذين كفروا : متى وعد الله؟ قصداً إلى استبطاء مجىء الساعة ، واستعجال إتيانها بطريق الإنكار والاستهزاء ، لا قصداً إلى تعيين وقت المجىء ، بدليل قولهم للنبى والمؤمنين: « إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » فى الإخبار عن مجىء الساعة مع ما فيها من هول وعذاب .

وقيل : المراد بالوعد العذاب الذى طلبوه ، واستعجلوا وقوعه ، والرأى الأول أولى لأنه هو المناسب للآية التالية ، وهى قوله تعالى :

٣٩ - (لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) :

أى : لو يعلم الذين كفروا ما ينتظرهم يوم القيامة من الشدائد بسبب كفرهم ، كما استعجلوه مستهزئين ، فإن نار جهنم تحيط بهم من جميع جهاتهم ، فلا يستطيعون دَفْعَها عن وجوههم ولا عن ظهورهم ، فَضْلًا عن أطرافهم ، وسائر بدنهم ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم ، فإن حالهم فى الآخرة كما قال الله تعالى : « لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ »[1] . وكقوله سبحانه : « لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ »[2] .

وقيل : لو يعلمون ذلك لما أقاموا على الكفر ، ولآمنوا بالله ورسوله ، ثم بيَّن الله تعالى أن وقت الساعة مما لا سبيل إلى علمه فقال :

٤٠ - (بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ . . .) الآية .

أى : لا يعلم أحد وقت مجيئها غير الله تعالى ، بل تَفْجَؤُهُمْ وتبغتهم من غير شعور بوقت مجيئها ، فتحيرهم وتدهشهم ، بما يكون معها من شدائد وأهوال تغلبهم على أمرهم (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا) : فلا يقدرون على رد الساعة عن وقتها الموعود مهما بذلوا من جهد. (وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) : أى ولا هُمْ يُمهلون ولا يُؤخرون طَرْفَةَ عين ، لتوبة أو اعتذار ، بل يُؤْخذون بالنواصى والأقدام .

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ١٦ (٢) سورة الأعراف ، من الآية : ٤١

(وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ) : سخر منهم أقوامهم - يقال : هزأ منه وبه ، كَمَنَعَ وسَمِعَ ، وتَهزَّأ واستهزأ أى : سَخِرَ .

(حَاقَ بِهِم) : أحاط بهم ولزمهم ، وفِعْله حَاقَ يحيق كباع ، حَيْقًا وحُيُوقًا .

التفسير

٤١ - (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) :

نزلت الآية تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتعزية له ببيان أن ما حدث له من سخرية المشركين ، حتى قالوا له : «مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » - ما حدث له من ذلك - قد حدث مثله لإخوانه المرسلين من قبله ، وهى مع ذلك وعْد ضمنى من الله بأنه سيصيب المستهزئين به مثل ما أصاب من سبقوهم من الساخرين برسلهم ، لِمَا بَيْنَ جُرْمَيْهِمَا من تشابه وتقارب .

وتصدير الآية بالقَسَم للإيذان بالاهتمام بتحقيق مضمونها ، أى : وبالله لقد استهزئ فى زمان قبل زمانك برسل ذوى شأن خطير ، وعدد كثير ، فأحاط بهم الذى كانوا به يستهزئون ؛ حيث أهلكوا من أجله ، فإذا كان هذا حال إخوانك الرسل مع أممهم ، فليس بِدْعًا ما تراه من هؤلاء المعاصرين من كفار قريش ومن وَالَاهُمْ من سخرية واستهزاء ، فاصبر كما صبروا ، ولسوف ينصرك الله على قومك يا محمد ، كما نصر المرسلين من قبلك على أقوامهم ، والعاقبة للصابرين .

(قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ الْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(يَكْلَؤُكُمْ) : يرعاكم ويحفظكم ، وفعله كَلأَ ، كَمَنَعَ . (مِنَ الرَّحْمنِ)أى : من سخطه وغضبه . (مُعْرِضُونَ) : لاهون غافلون . (وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ) : يُجارون ويُمنعون ، تقول العرب : أنا لك صاحب من فلان ، بمعنى : مجيرك ومانعك منه ، وأَصْحَبَ فلان فلانًا أجاره ومنعه . (إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْىِ) : أى أُحذِّركم وأُخوفكم بالقرآن . (وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ) : أصابهم قدر ضئيل من العذاب .

(لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا) : يا هلاكنا ودمارنا .

التفسير

٤٢ ـ (قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ . .) الآية .

أمر الله سبحانه رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الآية أن يسأل أولئك المشركين

المستهزئين بما جاءهم به من الحق - أن يسألهم- سؤال تقريع وتنبيه إلى نعمه التى أسبغها وتفضل بها عليهم ، حتى لا يغتروا بما يتقلبون فيه من أمن واستقرار ، وإمهال ومطاولة ، فقال - جل شأنه - :

(قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ) : أى قل أيها النبي لهؤلاء الكافرين : من يحفظكم بالليل إذا نمتم ، وبالنهار إذا تصرفتم - من يحفظكم - من عذاب الله الذى رحمكم بإمهالكم ؟ لا أحد يستطيع أن يحميكم من نقمته بكم .

ويجوز أن يكون المعنى : من هذا الذى يحفظكم ويحرسكم من نوازل الليل والنهار بدل الرحمن ؟ فَمَنْ هم الذين تركنون إليهم ، وتتوهمون حفظهم وحراستهم لكم فيهما ؟ .

وقدم الليل على النهار فى الآية ، لأن كوارثه أشد من كوارث النهار ، والحفظ منها أهم ، وفى لفظ (الرحمن) تنبيه على أنه لايحميهم من عذابه إلَّا رحمته العامة ، ولولاها لكانوا أحقاء بتركهم للكوارث تحصدهم حصدًا ، وكان عليهم أن يعرفوا ذلك ويشكروه لله ويذكروه ، ولكنهم أعرضوا عن آياته ، واستهانوا بآلائه ، وتمسكوا بما هم عليه من الإشراك به ، كما يقول - جل شأنه - :

(بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ) : أى لا يُخْطِرونه ببالهم فهو بعيد عن مجال تفكيرهم ولهذا لا يخافون بأسه ولا يعتبرون ما هم عليه من الأمن والدَّعَةِ حفظًا وكلاءة لهم منه .

وإيراد اسم الرب المضاف إلى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته للإيذان بأنهم بلغوا الغاية القصوى فى الغى والضلال حين أعرضوا عن شكره وذكره سبحانه وتعالى .

فإن قيل : إنما اتخذوا الآلهة وعبدوها لتُقَرِّبهم إليه زلفى ، فهم يعرفون أنه ربهم ، فالجواب : أن من عرف الله لا يصح أن يعبد سواه ، ولا أن يلجأ إلى ذكر غيره ويعرض عن ذكره ،كما فعل هؤلاء ، فكانوا بإشراكهم وإعراضهم عنه جاهلين بجنابه - سبحانه .

٤٣ - (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا . . .) الآية .

انتقال من بيان جهلهم بكلاءة الله وحفظه إياهم ، وإعراضهم عن ذكره - جل شأنه - إعراضًا تامًّا - انتقال من ذلك - إلى توبيخهم لاعتمادهم على آلهتهم وإسنادهم الحفظ إليها .

والمعنى : بل أللمشركين آلهة تحفظهم وتحميهم من عذاب يأتيهم من جهتنا ، فهم مُعوِّلون عليها واثقون بها ، كلاّ فهم كما قال الله :

(لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ) : وهو استئناف مؤكد لما قبله من الإنكار ، وموضح لبطلان اعتقادهم فى أن تستطيع تلك الآلهة أن تدفع عنهم ما ينزل بهم من شدائد وويلات ، حيث إن آلهتهم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ، ولا يجدون من يجيرهم ويدفع عنهم قضاءً من جهتنا ، بل هم فى غاية العجز ، فكيف يتوهم أن ينصروا عابديهم ، ويستجيبوا لمن يدعونهم من دوننا .

وقيل : (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ) : أُريد به الكفرة ، وروى ذلك عن قتادة وابن عباس - رضى الله تعالى عنهما- على معنى لا يستطيع الكفار نصر أنفسهم بآلهتهم ، ولا يصحبهم نصر من جهتنا .

٤٤ -(بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ . . .) الآية .

إضراب انتقالى عما تدل عليه الآية السابقة من بطلان توهم نصر آلهتهم - إلى الإخبار بأنهم إنما وقعوا فى هذا التوهم الباطل بسبب أننا متعناهم وآباءهم بما يشتهون من النعمة وطال عليهم العمر فيها ، حتى ظنوا أنها لا تزول عنهم ، فافتروا وأعرضوا عن التدبر والتفكر فى آيات ربهم ، وبعدوا عن الحق واتبعوا ما سولته لهم أنفسهم .

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) : يذكِّر الله قريشًا فى هذه الآية الكريمة بعاقبة الكفرة من حولهم ، وأنهم لما بطروا نعمة الله عليهم وكفروا بها أهلكهم وأزال دولهم ، وانتقص الأرض من حولهم ، بتخريبها بعد عمرانها ، وكذلك يجزى الله الكافرين .

والمعنى : أَعَمِىَ هؤلاء المشركون بمكة فلم يروا أنا نأتى أرض الكفرة من حولهم ، فننقصها من جوانبها ، بتخريب مدنها ، والقضاء على عمرانها ، وإهلاك أهلها عقابًا لهم على كفرهم بنعم ربهم وآياته ، كما حدث لقرى عاد وثمود وقوم لوط وسبإ وغيرهم .

(أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) : أى أَبَعْدَ خراب مدنهم ، وإهلاك أهلها لكفرهم يعتبرون الغالبين ؟ كلّا ، بل هم المغلوبون ، ومصيركم يا معشر قريش سوف يكون كمصيرهم : « سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا »[١] .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٦٢ .

٤٥ - (قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ . . .) الآية .

بعد أن بينت الآيات السابقة غاية الهول لأولئك الذين يستعجلون إتيان الساعة ، وما يصاحبها من عذاب ، ونَعت عليهم جهلهم وإعراضهم عن ذكر ربهم الذى يحفظهم من نوازل الليل وكوارث النهار - بعد ذلك - جاءت هذه الآية لتعلمهم أن الرسول ليس عليه إلا البلاغ .

والمعنى : ما أنا إلَّا مبلِّغ عن الله ما أنذركم به من مجىء الساعة وعذابها بما أوحاه الله إلىَّ فى هذا القرآن المنزل علىَّ من لدن حكيم عليم ، وليس من شأنى أن آتيكم بما تطلبونه مما ينافى الحكمة التكوينية والتشريعية ، وما على الرسول إلَّا البلاغ .

(وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ) : من تتمة الكلام الذى أمر - عليه الصلاة والسلام - أن يقوله لهم ، توبيخًا وتقريعًا ، أى أنهم لطول إعراضهم عن سبيل الحق ، صاروا كالصم الذين أفقدهم الصَّمَمُ حاسة السمع ، فجعلهم بمعزل عن سماع صوت الداعى إذا أنذرهم وحذرهم ، وتقييد نفى السماع بإنذارهم مع أن الصم لا يسمعون الكلام إنذارًا أو تبشيرًا ، للإشارة إلى شدة الصمم فيهم ؛ لأن الإنذار عادة يكون بأصوات مرتفعة مكررة مقارنة لهيئات دالة عليه ، فإذا لم يسمعوها يكون صَمَمُهُمْ فى درجة لا غاية بعدها .

ويجوز أن يكون قوله سبحانه : « وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ » كلامًا مستأنفًا من جهته تعالى تسلية لنبيه عما يُنْتَظَرُ من إعراضهم ، كأنه قيل له : قل لهم أيها الرسول : إنما أنذركم بالوحى ، واعلم أنهم دائبون على إعراضهم ، فهم بمعزل عن السماع حينما ينذرون ، لطول إعراضهم ، فلا يَكُنْ فى صدرك حرج منه ، فما عليك إلَّا البلاغ .

٤٦ - (وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) :

تبين هذه الآية فداحة العذاب الذى أنذروه فأعرضوا عن الاستماع إلى نذيره .

والمعنى : وبالله لئن أصاب هؤلاء المكذبين أدنى إصابة من عذابه تعالى الذى يَسخَرون منه لَيَدْعَنَّ على أنفسهم بالويل والثبور والهلاك ، وليعترفُنَّ بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدنيا ، فيعترفون حين لا ينفعهم الاعتراف ، ويندمون حين لا يجديهم الندم .

وإذا كان هذا حالهم عندما تمسهم نفحة من عذاب الله ، فكيف يكون حالهم حينما يغشاهم « مِن فَوقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » .

(وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ) : أى نقيم لكل مكلف ميزانًا لوزن أعماله ، ثقلًا وخفة ، وسيأتى بيان المراد من ذلك .

(الْقِسْطَ) : العدل، وهو من المصادر التى يوصف بها الواحد والمثنى والجمع كلفظ (العدل) .

(وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ) : مثقال الشىء ميزانه .

(خَرْدَلٍ) : شجر معروف ، حَبُّه من أصغر الحبوب وأدقها . ويُضرب مثلًا للصغر .

(مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) : أى محاذرون وجلون من أهوالها .

التفسير

٤٧ - (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . . .) الآية .

هذه الآية مُستأنَفة لبيان عدل الله بين عباده عند مجىء الساعة التى أنذرهم بها . وأن أعمالهم معلومة لديه ، فلا تخفى منهم خافية ، ولا تُظلم نفس شيئًا .

ويرى جماعة من السلف أن هذه الموازين حسية وأن الله تعالى يحول أعمال عباده إلى أجسام ، لتكون صالحة للميزان الحسى ، حتى يرى كل عامل عمله ماثلًا أمامه ، إظهارًا للمعدلة وقطعًا للمعذرة : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا »(١) . ويستشهدون على رأيهم هذا ببعض الآثار .

وقال مجاهد وقتادة والضحاك : الميزان تمثيل لعدل الله وليس ثمة ميزان حسى ، إذ أنه سبحانه ليس بحاجة إليه ، فهو يعلم السر وأخفى ، فى حين أن أعمال العباد يجدونها مسطرة فى كتبهم كما حدثت فى دنياهم . وحكمُ الله مقرونًا بها ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ . وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَآ أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ . هَّلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ »(٢) .

وبهذا الرأى أخذ المعتزلة ، وينبغى عدم الجدل فى حقيقة الميزان وترك أمرها إلى الله تعالى.
واللام فى قوله تعالى : (لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) بمعنى فى ، أو للتعليل ـ أى لأجل يوم القيامة . (فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) : أى فلا يقع على أى نفس مؤمنة أو كافرة ظلم فى جزائها الذى تستحقه على أعمالها ، فلا ينقص ثوابها ولا يزاد عقابها : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » ولهذا قال سبحانه :

(وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا) : حبة الخردل تضرب مثلًا فى القلة والحقارة ، أى : وإن كان العمل الذى أتى به المكلف فى غاية الدقة والصغر جئنا به فى صحيفته فيتعرف عليه ويجزى به ، وعاد الضمير بالتأنيث على مثقال ، لاكتسابه التأنيث من الحبة التى أضيف إليها ، وهى مؤنثة .

وقرأ مجاهد وعكرمة : « آتَيْنَا بِهَا » أى : جازينا بها ، من الإيتاء بمعنى المجازاة والمكافأة .

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ٣٠

(٢) سورة الحاقة ، الآيات : من ١٩ – ٢٩

(وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) : أى لا أحد أسرع وأدق حسابًا منا ، فنحن نحصى على كل عامل ما قدمه من خير وشر ، أسَرَّ به أو جهر ، صَغُر أو عَظُم ، ثم نجزيه بالعدل والقسطاس المستقيم ، كما قال سبحانه : « إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا[1] » . قال أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها : إن رجلًا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جلس بين يديه فقال : يا رسول الله إن لى مملوكَيْن يَكْذِبُونَنِي ويخونونني ويعصونني ، وأشتمهم وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك ، وعقابك إياهم ، إن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلًا لك عليهم ، وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كَفافًا لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذى يبقى قِبلَكَ) فجعل الرجل يبكى بين يدى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويهتف ، فقال رسول الله صلى الله عليه سلم : مَا لَهُ ؟ أما يقرأ كتاب الله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ » ؟ فقال الرجل : ما أجد خيرًا لى من مفارقة هؤلاء ، إنى أشهدك أنهم أحرار كلهم . أخرجه الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها .

٤٨ – (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ) :

لما أمر الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يقول لقومه : ما أنذركم إلَّا بالوحى الذى يوحيه إليه ، أردف ذلك ببيان أن تلك سنة الله فى الأنبياء والمرسلين ، فكلهم تأتيهم شرائعهم بوحى من ربهم لتبليغ أممهم بما أوحى إليهم .

والمعنى : ولقد أوحينا إلى موسى وهرون – كما أوحينا إليك يا محمد – كتابًا جامعًا بين كونه فارقًا بين الحق والباطل وكونه ضياء يستضاء به فى ظلمات الجهل ، ودياجير الغواية وغياهب الضلال ، وتذكيرًا للمتقين ووعظًا لهم ، وتخصيص المتقين بذلك الشرف ؛ لأنهم المنتفعون به المستضيئون بأنواره .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٤٠

وفسر ابن زيد الفرقان الذى أوتيه موسى وهٰرون بالنصر على الأعداء كما فى قوله تعالى: «وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ»[١] قال الثعلبى : هذا القول أشبه بظاهر الآية ، فيكون المعنى : ولقد آتينا موسى وهٰرون النصر والتوراة التى هى الضياء والذكر . انتهى بتصرف يسير .

٤٩ - (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) :

الآية تصف المتقين الذين ينتفعون بالتوراة ويستضيئون بنورها ، ويتعظون بذكر آياتها البينات قبل نسخها ، فتذكر أخص صفاتهم وهى أنهم يخشون ربهم ، ويخافون عذابه غائبين عن أعين الناس ، وذلك بما وقر فى سرائرهم لعمق الإيمان ، وقوة اليقين ، وهم خائفون من مجىء الساعة ، وما وراء ذلك من حساب وجزاء ، فلهذا تَعظُم خشيتهم من ربهم فى سرائرهم غائبين عن أعين الناس .

أو المراد يخشون ربهم وهو غير مرئى لهم ، فقد عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربًّا قادرًا على أن يجازى على الأعمال فهم يخشونه -جل شأنه- ، ويخافون عذابه وهو غير مشاهَد لهم ، ووصف المتقين بالإيمان بالغيب ، شهادةٌ بصدق إيمانهم ، ومدحٌ لهم ، كما فى قوله تعالى : «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ»[٢] .وقوله : «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ»[٣] .وقوله : «مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ»[٤]. إلى غير ذلك من الآيات ، وإنما وصف المتقون بالخشية من الساعة بعد أن وُصفوا بعموم خشيتهم من الله ، لتهويل أمرها ، ووصفهم بضد ما اتصف به المستعجلون الذين لجُّوا فى عُتُوِّهم ، وأعرضوا عن ذكر ربهم ، والثناء على المتقين من أهل التوراة قبل أن ينسخها بالإنجيل ثم بالقرآن العظيم ، الذى أوجب الله الإيمان به على اليهود والنصارى وسائر البشر ، ولهذا قال سبحانه :

٥٠ - (وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) :

أي : وهذا القرآن ذكر يتعظ به أولو الألباب ، كثير البركة موفور النفع ، أنزلناه

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٤١
(٢) سورة البقرة ، الآية ٣
(٣) سورة الملك ، الآية : ١٢
(٤) سورة ق ، الآية : ٣٣

تأْييدًا لرسولنا محمد وآيةً على نبوَّته ، أفأَنتم له منكرون وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، أَفَلَيْسَ ذلك آية على أنه منزل من عند الله كالتوراة التى آمن بها غيركم ، لقد ضللتم عن الهدى ، وتجاوزتم الحد يامعشر قريش ، وكنتم بإنكاركم له من الخاسرين .

* (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾
قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ
ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى
فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(رُشْدَهُ) : الرُّشد الاهتداء ؛ إلى وجوه البر والصلاح . (التَّمَاثِيلُ) : جمع تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه ما خلق الله ، والمراد : الأَصنام . (عَاكِفُونَ) : ملازمون ومقيمون على عبادتها . (ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : انحرافٍ وبُعْدٍ واضح عن النهج القويم . (اللَّاعِبِينَ) : اللاهين العابثين . (فَطَرَهُنَّ) : خلقهن وأَوجدهن من عدم على غير مثال سبق . (الشَّاهِدِينَ) : المصدقين له المؤمنين به .

التفسير

٥١ - (وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ . . .) الآية .

ذكر - سبحانه - فيما سبق مِن الآيات رسالة موسى وكتابَهُ ، والقرآن وما حوى من ذكر وبركة ، وجاءت هذه الآية وما بعدها من الآيات ؛ لنعرف منها قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه .

والرشد هو : الاهتداء لوجوه البر والخير والصلاح ، قال الفراءُ : أعطيناه هداه من قبل النبوة والبلوغ أ هـ .

فالله سبحانه يخبر عن خليله إبراهيم أنه آتاه الهداية إلى الحق فى صغره ، وألهمه الحجة على قومه قبل النبوة ، كما قال سبحانه : « وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ »(١)

(وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ) : أى وكنا به وبما يتحلى به من الصفات الجميلة ، والسجايا الحميدة التى تجعله من أهل الاجتباء والاصطفاء ، كنا بذلك كله عالمين .

ومعنى الآية إجمالا : ولقد أعطينا إبراهيم رشده وهديناه إلى وجوه الصلاح والخير فيما يفعل وما يدع ، وكنا بجدارته وأهليته لذلك عالمين ، فقد صنعناه على أعيننا ، وأعددناه ليحمل رسالتنا ، فزودناه بالشمائل الطيبة ، والسجايا الكريمة ؛ ليكون ذلك عونًا له على أدائها ، وعصمة له من أن يناله أحد ، أو يحط من قدره حَسُودٌ أو حاقد .

وهذا هو شأن الله ـ جل جلاله ـ فى اختيار رسله يحيطهم بكريم عنايته ويطهرهم من كل نقص أو عيب .

٥٢ ـ (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) :

هذا هو الرشد الذى أوتيه إبراهيم فى صغره ؛ حيث أنكر على قومه عبادة الأصنام قبل أن تأتيه النبوة ، وكلمة (إِذْ) ظرف لقوله : (آتَيْنَا) فى الآية السابقة .

والمعنى على هذا : ولقد منحنا إبراهيم هداه وأرشدناه إلى الطريق المستقيم وقت أن قال لقومه ـ ساخرًا منهم ومن آلهتهم ـ : ما هذه التماثيل التى أنتم عليها عاكفون ، وعلى عبادتها مقيمون ، وهى لا تستحق شيئًا مما تصنعون ، فليس لها من الصفات ما يقتضى تعظيمها فضلًا على عبادتها ، فكيف عكفتم على عبادتها ؟

ويجوز أن يكون لفظ (إِذْ) مفعولًا به لفعل محذوف تقديره (اذكر) .

والمعنى على هذا : اذكر أيها الرسول لقومك ما كان من أمر إبراهيم مع قومه .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٨٣

والمراد من ذكر هذه القصة: بيان مخالفتهم لجدهم إبراهيم فى عقيدته ، فقد كان عدوًّا للأصنام التى يعبدونها ، كما أن فيها حث النبى على أن يحتذى مع عَبَدَةِ الأصنام من قومه حذو أبيه إبراهيم عليه السلام مع قومه ، فيبين لهم فساد عبادة غير الله ، ويصبر على أذاهم .

٥٣ ـ (قَالُوا وَجَدْنَآ آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) :

أى قال قوم إبراهيم ـ لمَّا لم يجدوا حجة مقنعة ولا برهانًا يعتمدون عليه ـ قالوا ـ : إنا وجدنا آباءنا مقيمين على عبادة هذه الأصنام فاقتفينا أثرهم ، وسرنا على نهجهم ، وفى هذا الرد غاية الامتهان لعقولهم ، ونهاية الاستخفاف بعقيدتهم ؛ لأن الاحتجاج بالتقليد مُسْتَنَدُ العاجز المفحَم ، وكأنهم قالوا : لا دليل لنا على ما نفعل ولا حجة لدينا فى عبادتنا تلك إلَّا تقليد الآباء والنسج على منوالهم .

والتعلل بتقليد الآباء فى عبادة غير الله داء استشرى فى أمم كثيرة ، قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ »(١) .

٥٤ ـ (قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

وهكذا جاء رد إبراهيم ـ عليه السلام ـ مسفهًا لعقولهم وعقول آبائهم من قبلهم ؛ إذ أقسم لهم أنهم وآباءهم فى ضلال وَغَىٍّ واضح ، بعُدوا به عن طريق الحق ، وانحرفوا عن النهج القويم .

٥٥ ـ (قَالُوٓا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ) :

أى أن إبراهيم عليه السلام ، لمَّا سفه أحلامهم ، وضلل آباءهم ، واحتقر آلهتهم ، قالوا له : أهذا الكلام الذى صدر منك تعيب فيه آلهتنا ، وتحط من قدرها ، تقوله هازلًا ولاعبًا أو تقوله جادًّا ومحقًّا فيه ؟ فإنا لم نسمع به قبلك ، فأجابهم بما حكاه الله بقوله :

٥٦ ـ (قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ) :

أى: قال إبراهيم ـ ردًّا على قومه ـ : لقد جئتكم بالحق ، ولست هازلًا أو لاعبًا ، فليست هذه التماثيل أربابا لكم ولا لغيركم ، بل ربكم المستحق لعكوفكم على عبادته ، هو رب السموات

---

(١) سورة الزخرف ، الآية رقم : ٢٣

والأرض الذى خلقهن وما فيهن دون شريك أو معين ، وأنا على ربوبيته من الشاهدين ، مما قام عندى من الأدلة والبراهين ، فلست مثلكم أعبد ما لا تقوم على ربوبيته حجة ولا برهان وأعتذر بتقليد الآباء والأجداد .

ويجوز أن يكون الضمير فى (فَطَرَهُنَّ) راجعًا إلى التماثيل ، فالله - تعالى - هو الذى خلق المادة التى صنعت منها ، وهذا أدخل فى تضليلهم وأثبت فى الاحتجاج عليهم ؛ حيث قد عبدوا مخلوقات لله الذى يعبده ، تجرى عليها أحكامه ، فهى لا تملك شيئًا من أمر نفسها . فضلًا عن غيرها .

ثم توعدهم بأنه سيفعل بتلك الأصنام فعلًا له خطره وشأنه ، ليثبت لهم بالطريقة الفعلية أنها لا تملك من أمر نفسها شيئًا فقال :

(وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا
مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا
فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ
النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا
يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا
يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ
الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ
يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(لَأَكِيدَنَّ) : الكيد ؛ الاحتيال لإلحاق الأذى بغيرك . (تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) : تنصرفوا عنها وتتركوا حراستها . (جُذَاذًا) : قطعًا ، من الجذّ وهو القطع . (يذْكُرُهُمْ) : يتحدث عنهم بما يعيبهم . (كَبِيرًا) : أى كبيرًا فى تعظيمهم له ، أو فى حجمه.

(يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) : يسمى بهذا الاسم. (عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ) :على شهود منهم ،جمع عَيْن بمعنى شاهد. (يَشْهَدُونَ) :يحضرون مساءلته وعقوبتنا له على فعله .

(فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ) : فعادوا إلى أنفسهم يتلاومون. (الظَّالِمُونَ) : الذين ظلموا أنفسهم بعبادة ما لا يعقل .

(نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ) : انقلبوا عليها ، والجملة كناية عن أنهم رجعوا عن رأيهم وذلك بالشروع فى الجدل .

التفسير

٥٧ ـ (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) :

أكد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما اعتزم من الكيد للأصنام بلام القسم ونون التوكيد فى قوله : (لَأَكِيدَنَّ) .

والظاهر أنه ـ عليه السلام ـ لم يواجههم بالوعيد والتهديد المفهوم من الآية ؛ لأن المواجهة لا تتفق مع الكيد والاحتيال للإيقاع بالأصنام وتكسيرها .

روى أن (آزر) خرج هو وقومه فى يوم عيد لهم ، فبدأوا ببيت الأصنام فدخلوه وسجدوا لها ووضعوا بينها طعامًا ، وقالوا : إلى أن نرجع تكون الآلهة قد بَرَّكت عليه فنأكل منه ، فذهبوا وبقى إبراهيم معتذرًا بأنه سقيم ، ثم نظر إليها وكانت سبعين صنمًا مصطفة ، وثَمَّة صنم عظيم ، ونظر إبراهيم إلى ما بين أيديها من الطعام فقال لها ـ مستهزئًا ـ : ألا تأكلون ؟ فلمَّا لم يجيبوه قال : ما لكم لا تنطقون ؟ فراغ عليها ضربًا باليمين وجعل يكسرها بفأس فى يده حتى إذا لم يبق إلَّا الصنم الكبير ، علق الفأس فى عنقه ثم خرج . ا هـ

ويشير إلى ذلك قوله تعالى :

٥٨ - (فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ) :

أى : فعمد إبراهيم إليها تكسيرًا وتقطيعًا حتى صارت قطعا صغيرة . وإنما استثنى كبير الأصنام دون جذ وكسر ؛ لكى يرجعوا إليه ويستخبروه الخبر ، فلا يجدوا عنده جوابًا ، فهو الجماد الذى لا ينطق ، ولعلهم حينئذ يستيقظون من سباتهم ، ويتنبهون من غفلتهم ، ويكون ذلك سببًا فى إقلاعهم عن عبادة الأصنام ، والرجوع إلى دين إبراهيم ، والإيمان بالله رب السموات والأرض دون سواه ، فلما عادوا إلى أصنامهم عجبوا لما أصابها ، ولم يستدلوا بذلك على حقارتها ، بل حدث منهم ما حكاه الله بقوله :

٥٩ - (قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) :

أى : قالوا - سائلين على سبيل التعجب والتأثيم والوعيد - قالوا : مَنْ أحدث هذه الفعلة الشنعاء بآلهتنا ومعبوداتنا فنالها بالتحطيم والتكسير؟ ثم وصفوا المحطِّم لها بقولهم :

(إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ) : مؤكدين ظلمه وتعديه بإِنَّ ولام القسم - يعنون : أنه بما فعل قد ظلم الآلهة بالاعتداء عليها ، وظلم نفسه بتعرضه لسخطها - كما يزعمون ويتوهمون - كما أنه ظلم عشيرته وقومه بإهانتهم فى تكسير آلهتهم .

٦٠ - (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) :

أى : قال الذين سمعوا إبراهيم يعيب الأصنام وعبادتها ، ويدعو إلى إله غيرها : إنا سمعنا فتى يذكر آلهتنا بسوء ، واسم هذا الفتى إبراهيم ؛ فلم يذكر أحد آلهتنا بسوء غيره ، ولم يستهزئ بها وينكر ألوهيتها سواه ، فيغلب على ظننا أن يكون هو الذى فعل بها ما نرى .

وفى تعبيرهم عن إبراهيم بقولهم : (يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) استهزاءٌ به وسخرية منه وإغراءٌ به ، وتشغيب عليه للنيل منه .

وضمير الجماعة فى قولهم : (يَذْكُرُهُمْ) : يشير إلى أنهم كانوا يضفون على هذه الأصنام صفات العقلاء وأنها تضر وتنفع .

٦١ - (قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ) :

أى : أنهم لما شاهدوا كسر الأصنام ، وقيل لهم : إن فاعل هذا يُظَنُّ أنه إبراهيم ؛ لأنه كان يذكرها بسوء ، قالوا : فأتوا به فى مكان ظاهر بحيث تراه كل عين وتشاهده ؛ ليشهدوا

مساءلته والعقوبة التى تحل به ، فيشفى ذلك صدورهم ويذهب غيظ قلوبهم ، وليكون ما ينزل به رادعًا لمن تحدثه نفسه أن ينال من الآلهة ، أو يحاول الميل إلى دين إبراهيم الذى يدعو إليه ، فلما أحضروه بمشهد من قومه سألوه سؤال تقرير حتى يعترف بما فعل ليقدموا على عقابه .

٦٢ - (قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ) :

أى : أأنت الذى حطمت آلهتنا وكسرت معبوداتنا التى هى عندنا بمكان التقديس والتعظيم ؟ وكيف تجرأت على ذلك ولم تخف غضبها عليك ، ولا غضبتنا لها ، وانتقامنا منك ؟

وكان جواب إبراهيم - عليه السلام - غريبًا عجيبًا مخالفا لما كانوا ينتظرون ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

٦٣ - (قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ) :

لم يكن إبراهيم يقصد أن صنمهم الكبير هو الذى حطم الأصنام الصغيرة على الحقيقة ، بل كان يريد بهذا الأسلوب المجازى إلزامهم الحجة وتبكيتهم ، والاستهزاء بهم ، وتنبيههم إلى قِصَر فهمهم ، وسوء تقديرهم ، مع إرشادهم إلى الصراط السوى والسبيل المستقيم ؛ لأن هذا الصنم وإن كان كبيرًا فإنه لا إرادة له ولا حياة فيه ، فلا يستقيم أن ينسب إليه تحطيم غيره من الأصنام وتفتيتها غيرة منها وكراهة لها ، والذى يرشح ويقوى هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك : (فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ) وكأنه قال لهم : لا يعقل أبدًا ولا يستقيم لدى من عندهم مُسكة من عقل أن يكون هذا الصنم قد قام بتحطيم غيره من الأصنام ، فجميعها جماد لا حياة فيها ، وقد صنعت بأيديكم ، ولا يتميز واحد منها على سواه بكبر أو زينة ، فإن صورها وأشكالها قد جاءت حسب أهوائكم ومشيئتكم فكيف تعبدونها ؟ وإذا كانت لا تستطيع حماية نفسها ممن حطمها فكيف تخرون سجدًا لها ، أولى بكم أن تتدبروا أمركم ، وتثوبوا إلى رشدكم ، فتتركوا عبادتها ،وتفردوا الله وحده بالعبادة والطاعة . (فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ) :وهذا غاية السخرية ، ونهاية الإلزام بالحجة الدامغة ؛ فهم لا ينطقون ، ومن لا ينطق فلا يستطيع الإخبار عمن اعتدى عليه ، ومن كان كذلك فليس أهلًا للعبادة ، وإذا عبده الحمقى والسفهاء فجدير به أن يُحَطَّمَ .

٦٤ ـ (فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ) :

أى فتنبهوا واقتنعوا بأن إبراهيم محق فيما قال ، ورجعوا إلى أنفسهم يتلاومون ، فوصف بعضهم بعضًا بالظلم : (فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ) : لأنهم كذبوا إبراهيم وعبدوا أصناما لا تنفع ولا تضر ، ولا تستطيع الدفاع عن نفسها ،ولا الإخبار عمن حطمها ، وهذه اليقظة العقلية تحدث أحيانًا حين تسطع الحجة ويبهر الدليل ، ولكنها لا تلبث طويلًا عند الجهلاء المقيمين على الضلال ، ولذا لم يثبت قوم إبراهيم على هذا الاقتناع ، فعادوا إلى جهالتهم ورُدُّوا إلى سفاهتهم ، ولذلك يقول الله تعالى :

٦٥ ـ (ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ) :

أصل النكس : قلب الشيء ، بحيث يكون أعلاه أسفله ، وأريد به ـ هنا ـ : أنهم عادوا إلى المجادلة بالباطل بعد ما استقاموا بمراجعة إبراهيم لهم ، ولم يستندوا فى انتكاسهم هذا إلى برهان ساطع أو دليل قاطع ؛ ولكنه العناد الذى تركهم فى ريبهم يترددون مع أن الحجة لا تزال قائمة عليهم بقولهم فى الدفاع عن أنفسهم :

(لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ) : وكان مقتضى هذا أن يستمروا على يقظتهم وأن يخضعوا لحُجَّة إبراهيم ومنطقه ، ولكنهم لغلبة الجهل والصلف عليهم تنكروا للحق، وانساقوا وراء الباطل جهلا واستكبارا .

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا
وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا
إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ
وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ
وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(أفٍّ) : لفظ يدل على التوجع والتألم مما يجد . (حَرِّقُوهُ) : أحرقوه بالغ الإحراق .

(انصُرُوٓا آلِهَتَكُمْ) : انتقموا لها . (بَرْدًا وَسَلَامًا) : بَرْد أمنٍ لا برد هلاك .

(كَيْدًا) : إهلاكا ناشئا عن الكيد ، وهو تدبير الشر للعدو .

(الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا) : هى بلاد الشام .

(نَافِلَةً) : هبة خالصة وزيادة على ما سأل إبراهيم :

التفسير

٦٦ ـ (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ) :

بعد أن ظهرت الحجة لإبراهيم عليهم ، قال مبكتا وموبخا لهم : أتعودون إلى الجهالة

فتعبدون مالا يجلب لكم نفعا إن أنتم عبدتموها ، كما أنها لا تضركم شيئا من الضرر إن أنتم تركتموها .

٦٧ـ (أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

قُبحًا لكم ولما تعبدون من دون الله ، أَلَا تتفكرون فيما صرتم إليه فلا تعقلون سوءَ عملكم وقبيح صنعكم ؟ الأجدر والأولى بكم أن تتدبروا وترجعوا إلى الفطرة السليمة التى تهدى إلى الخالق – جل وعلا – فهو الذى فطركم وربَّاكم . وخلق معبوداتكم ، فتعالى الله عن الشريك والمثيل ، وعن قبول عبادتكم لسواه .

٦٨ـ (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ): أى قال بعضهم لبعض : حرقوا إبراهيم وانصروا بذلك آلهتكم ؛ فقد سخر منها ونالها بالتحطيم ولم يرع قدسيتها وتعظيمها عندكم . (إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) : أى إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرا مبينا فهذا سبيله ، و إلَّا تفعلوا كنتم مفرطين فى حقها ، وهذا الذى قالوه هو سبيل المُفْحَم المحجوج الذى بهتته الحجة وعجز عن البرهان ، فقد قالوا ذلك بعد أن استيقنت أنفسهم أن آلهتهم لا تستطيع أن تنصرهم عليه ، بعد أن عجزت عن دفعَ التحطيم عن أجسادها .

٦٩ـ (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٓ إِبْرَاهِيمَ) :

أى قلنا للنار حين ألقوا فيها إبراهيم : كونى بردا وسلاما عليه ، والمقصود من هذا الأمر الكريم أنه سبحانه سلب منها طبيعتها وهى الإحراق ، وجعلها باردة غير ضارة ببرودتها بحيث تكون سلاما عليه ، فلا يصيبه منها أذى فى جسده ولا فى نفسه ، فجمع له الله فى تلك النار بين السلامة الحسية والسلامة النفسية ، فكان مشروح الصدر مطمئن القلب ، سليم البدن .

ذكر أصحاب الأخبار قصة تحريق إبراهيم – عليه السلام – مرة مطولة ، وأخرى موجزة ، ونحن نسوقها باختصار فيما يلى :

لما اجتمع نمروذ وقومه لإحراق إبراهيم بنوا له بنيانا كالحظيرة ، يشير إلى ذلك

قوله تعالى : «قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ» [١] . ثم جمعوا له الكثير من صلاب الحطب ، وأوقدوا نارا عظيمة ثم اتخذوا منجنيقًا ووضعوا فيه إبراهيم مقيدًا مغلولا ، وقذفوه فى النار ، فأتاه جبرائيل - عليه السلام - وقال : يا إبراهيم هل لك حاجة ؟ قال له : أما إليك فلا . قال جبرائيل : فاسأل الله ربك ، قال : حسبى من سؤالى علمه بحالى ، فقال الله تعالى : « يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ » وبهذا رد الله كيدهم إلى نحورهم .

قال أبو حيان فى (البحر) : قد أكثر الناس فى حكاية ما جرى لإبراهيم عليه السلام ، والذى صح هو ما ذكره الله تعالى من أنه عليه السلام أُلقى فى النار فجعلها الله عليه بردًا وسلاما ، وبقول أبى حيان نقول ، والله أعلم .

٧٠ - (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) :

أى : أرادوا بإبراهيم عليه السلام مكرا عظيما فى الإضرار به؛ عقابا له على دعوة التوحيد التى جاء بها ، وظنوا أنهم سينالون مايريدون ، وأخذوا لذلك أسباب إهلاكه ، من إشعال النار وطرحه فيها ، ولكن ضل سعيهم ،وباء عملهم بالفشل الذريع ، فقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما ، وكان ما فعلوه هو البرهان القاطع على أنه - عليه السلام - على الجادة والصراط المستقيم ، وهم على الباطل ، فجعلهم الله بذلك أخسر الخاسرين ، وأتعس الماكرين المبطلين .

٧١ - (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) :

أى : وأتممنا على إبراهيم النعم بأن نجيناه من هؤلاء القوم فرحل من بلادهم بالعراق وقال : « إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي » [٢] . وهاجرت معه زوجته سارة وابن أخيه لوط بعد أن آمن به ، ورحلوا معا إلى الأرض المباركة ، أرض الشام التى باركها الله؛ بأن جعلها مهبط كثير من الأنبياء ، ومهد معظم الرسالات ، كما أكرمها بكثرة خيراتها وزيادة ثمارها وتدفق المياه

(١) سورة الصافات ، الآية : ٩٧

(٢) سورة العنكبوت ، من الآية : ٢٦

فى أرجائها ، وامتلاء أرضها بالأشجار ، ووفرة الأرزاق فيها . ثم هاجر لوط إلى المؤتفكة حيث أرسله الله إلى قومها المشهورين بفعل الخبائث وستأتى قصته معهم قريبا فى هذه السورة .

وفى تعميم البركة للعالمين ما يفيد أن الذى بها من خيرات ليس مقصورًا على أهلها ، ولعل ذلك أكثر وضوحا فى جانب الهداية ؛ لأن نور الرسالات والنبوات انتشر من هذه البقاع إلى العالمين ، ولم يكن حبسا على المقيمين فيها ولا مختصا بهم .

وقد انتشرت فى أرض الشام دعوة إبراهيم – عليه السلام – ، كما أنها عمت أرض الحجاز حيث بنى البيت الحرام ، ودعا الناس من حوله إلى عبادة الله وحج بيته الحرام ، إلى غير ذلك من جهات الأرض التى زارها .

٧٢ – (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ...) الآية .

يعدد الله نعمه على إبراهيم عليه السلام ، فإنه – تعالى – قد نَجَّاه من النار ثم هيَّأ له ولابن أخيه لوط الذهاب إلى الأرض المباركة ، وبعد أن استقر به المقام منَّ الله عليه بنعمة الذرية ليكونوا امتدادًا له فى أداء رسالة الله فى الأرض ، فوهب له من زوجته (سارة) إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب .

والتعبير عن رزقه بإسحق وابنه يعقوب بأنه هبة ونافلة ؛ لأنه رُزِقهما فى أعلى سن اليأس ، والنافلة فى اللغة قد تطلق على : العطية ، وعلى هذا تكون (نَافِلَةً) حالا من إسحاق ويعقوب ، ويجوز أن تكون حالا من يعقوب وحده ، فقد قيل : إن هبة إسحاق كانت إجابة لدعوة إبراهيم : « رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ » [1] وهبة يعقوب كانت زيادة وعطية له من غير سؤال منه لربه سبحانه وتعالى .

(وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ) : أى وكلا من إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب جعلناهم طائعين لنا عاملين بأوامرنا مجتنبين محارمنا .

---

(١) سورة الصافات ، من الآية : ١٠٠

٧٣ ـ (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ....) الآية .

أى : وأعددناهم ليكونوا أنبياء هداة وأئمة يقتدى بهم الناس ويتبعون سبيلهم ؛ فهم الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة ، إذ الدعوة بالعمل مع القول آكد وأقوى وأكثر نفعًا من الدعوة بالقول وحده ، ومع كونهم قدوة لغيرهم فى عقائدهم وسلوكهم ، فهم يهدون بأمرنا أى : يدعون الناس إلى دين الله بإرشاد ووحى منا ، وقد بين الله ما أوحاه إليهم ليعملوا به ويبلغوه فقال :

(وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَاةِ) : أى وشرعنا لهم فعل الطاعات والمبرات التى يسعد بها البشر فى دنياهم وأخراهم ، ومن أعظم هذه الخيرات التى شرعناها لهم : إقام الصلاة ، أى : أداؤها تامة كاملة على خير الوجوه فى أوقاتها ، وإيتاء الزكاة لمستحقيها مما يحبون ومن خير ما يملكون ، لا يدفعهم إلى بذلها رغبة أو رهبة من أحدٍ إنما يقدمونها ابتغاء مرضاة ربهم .

فأنت ترى أن الله خصَّ الصلاة والزكاة بالذكر مع دخولهما فى الخيرات التى أوحاها وشرعها ؛ لأن الصلاة أشرف العبادات البدنية ، والزكاة أفضل القربات المالية ، ومجموع العبادتين تعظيم للخالق ، ورحمة بالمخلوق .

وقد جمع الله لهؤلاء الصفوة من خلقه فضائل الصفات ، وكرائم الشمائل ، فوصفهم بالصلاح لأنه أول مراتب السائرين إلى الله تعالى ، ثم زادهم فضلا فوصفهم بالإمامة والقدوة ، ثم وصفهم بالنبوة والوحى .

وبعد أن بين أصناف نعمه عليهم بَيَّن اشتغالهم بعبوديته فقال :

(وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) : أى : خاشعين لا يستكبرون عن عبادتنا ، ولا يتجهون بها إلى أحد سوانا فقد قابلوا إحسان الله عليهم بإخلاص العبودية له وحده .

(وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى
كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾
وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ
مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ
سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(حُكْمًا) : حكمة ونبوة . (الْقَرْيَةِ) قيل: هى سدوم . (الْخَبَآئِثَ): هى كل منكر من الأعمال ، ومن أفحشها إتيان الذكران . (فَاسِقِينَ) : خارجين عن أمر الله وطاعته . (الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) : الطوفان والغرق .

التفسير

٧٤- (وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ....) الآية .

لما ذكر الله قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه ، وبين أنه أنجاه ولوطا إلى الأرض المباركة ، أتبعها قصة ابن أخيه لوط مع قومه .

ومعنى الآية : وأعطينا لوطا حكمة فى سلوكه مع قومه الذين يمارسون أفحش رذيلة فى العالمين ، فكان يأخذهم إلى الفضيلة بالأسلوب الرشيد والمنطق السديد، كما آتيناه علمًا دينيا وشرعا كريما يتبعه ويأمر به قومه .

(وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَآئِثَ) : وأنعمنا عليه بأن نجيناه وحفظناه من كيد أهل قريته ، وخيانتهم له ، ومن الهلاك معهم عندما قلبها بهم ودمرها عليهم ، جزاء ما ارتكبوا من المنكرات ، وكان أشدها فحشا إتيانهم الذكران ، والاستغناء بهم عن الحلال الطيب من نسائهم .

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ) : إنهم قد طبعوا وجبلوا ونشأوا خارجين عن طاعة ربهم ، مرتكسين فى الرذيلة ، فكان إتيانهم الفواحش متفقا مع خسيس طبائعهم ومرذول جبلتهم .

٧٥ - (وَأَدْخَلْنَاهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) :

أى : وأدخلنا لوطا فى رحمتنا ، وأحطناه بفضلنا وجزيل عطائنا ، فمنحناه النبوة وهى قمة المنح ، فأى رحمة أفضل وأتم وأكمل من اصطفاء الله لعبده واختياره ليكون مُبلغا عنه تعالى وهاديا لقومه ، ويجوز أن يراد من الرحمة الجنة ، أى : أدخلناه فى جنتنا ؛ لأنه من الصالحين .

٧٦ ، ٧٧ - (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) :

المعنى : واذكر - يا محمد - نبأ نوح وقت أن اشتد به الكرب ؛ من أذى قومه تارة بالتكذيب والتسفيه ، وأخرى بالكيد والسخرية ، فالتجأ إلينا مستعينًا بنا ، ودعانا بقوله : « أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ »(١) وطلب منا أن نهلك جميع الكافرين من قومه بقوله : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً »(٢) وذلك بعد أن أعلمناه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، فاستجبنا له وحققنا ما طلب فنجيناه وخلصناه من الحُزْن والضيق العظيم ونصرناه من قومه الذين كذبوا بآياتنا ، حيث حميناه من شرهم ، فإنهم كانوا أهل سوء وقبح وفساد ، وجعلنا عاقبتهم جميعًا الإغراق بالطوفان بعد أن أنجينا نوحا ومن آمن من قومه .

---

(١) سورة القمر ، من الآية رقم : ١٠

(٢) سورة نوح ، من الآية رقم : ٢٦

(وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ
غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ
وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ
وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم
مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً
تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ
عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ
ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(الْحَرْثِ) : الزرع . (نَفَشَتْ) : رعته ليلا بلا راع وأفسدته ، يقال : نفشت بالليل ، وهَمَلَتْ بالنهار . (حُكْماً) : حكمة وفقها[1] (لَبُوسٍ) : اللبوس عند العرب : السلاح كله ، درعا كان أو سيفا أو رمحا أو غيرها ، والمراد به هنا : الدرع .

(لِتُحْصِنَكُمْ) لتحفظكم وتمنعكم . (بَأْسِكُمْ) : البأس ؛ الشدة والحرب .

(يَغُوصُونَ) : ينزلون إلى أعماق البحار .

(عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ) : عملا غير ذلك كبناء القصور ، والصناعات البديعة .

التفسير

٧٨ـ (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ...) الآية.

---

(١) انظر القرطبى .

أى : اذكر - أيها الرسول- لقومك قصة داود وسليمان وشأنهما فى قضية غنم لقوم انتشرت فى زرع لآخرين، فأكلت ما أكلت وأتلفت ما أتلفت ، وخلاصة ما ذكره المفسرون فى هذه القصة : أن رجلين دخلا على داود - عليه السلام - أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، فقال الأول : إن غنم هذا دخلت حرثى ورعته وما أبقت فيه شيئا ، فقال داود - عليه السلام - لصاحب الحرث : اذهب فإن الغنم لك ، فخرجا فمرا على سليمان ، فقال لهما : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه . فقال : لوكنت أنا القاضى لقضيت بأن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له نفعها ، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه ، حتى إذا كان العام القابل ، وكان الحرث على هيئته يوم أكِلَ رُدَّت الغنم إلى صاحبها ، وقبض صاحب الحرث حرثه ، فوافق داود على حكم سليمان ، وقال له : القضاءُ ما قضيت ، وبمعناه قال ابن مسعود ومجاهد وغيرهما .

(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ) : أى وكنا شاهدين عالمين بما حكم به كل واحد منهما لا يغيب عنا منه شئ .

٧٩ - (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) :

أى : فأرشدنا وألهمنا سليمان إلى أصوب الرأيين وأرشد الحكمين ، فقد اجتهد داود - عليه السلام - فى الأمر فرأى أن ما أكلته الغنم وأتلفت يقدر ويقوّم بثمنها جميعًا فحكم بها لصاحب الحرث ، ورأى سليمان - عليه السلام - أن غير هذا أرفق بالفريقين ، وقضى بأن تسلم الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بها لبنا وسمنا وصوفا ونسلا ، ويقوم صاحب الغنم على الحرث حتى يعود إلى ماكان ، ثم يرد إلى كل منهما مايملك من حرث أو غنم كما تقدم بيانه

وهذا الحكم قد بنى على اجتهاد من داود وسليمان عليهما السلام - فالنبى - له أن يجتهد فيما لم يرد فيه نص ، والوحى قد يقره أو يعدله أو لاينزل فى شأنه بشىء فيكون تقريرًا للحكم ، وكلاهما - عليهما السلام - آتاه الله الحكمة والعلم فلم يخرج حكم أحدهما على ماتقتضيه الحكمة حسب اجتهاده ؛ فكلاهما كانت له المعرفة بوجوه الاجتهاد وطرق الأحكام والبصر بالأمور ، وفضل سليمان راجع إلى فضل أبيه ، والوالد تسره زيادة ولده عليه .

(وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ) : أى وجعلنا كُلاًّ من الجبال والطير تسبِّح الله تعالى حين يسبحه داود ، وكان ذلك تسبيح مقال ليكون وجه الامتنان على داود بتسبيحها معه ظاهرا واضحا . وقال بعض المفسرين : إن التسبيح كان بلسان حالها ، فهى لاتنطق ، ولكن بديع صنعتها ، ودقة تركيبها ، وعظيم المهام المتعلقة بها تدل على أنه - تعالى - هو الخالق البديع .

وفى كل شىء لـه آية تـدل على أنه الواحـد

والرأى الأول أوضح وأرجح لما يأتى :

١ - أن حمل التسبيح على أنه كان بلسان الحال لايجعل لداود مزية على غيره ، فكل الأشياء - ومنها الجبال والطير - تسبح بلسان حالها .

٢ - أن تخصيص الجبال والطير دون غيرها بالتسبيح وكونها مسخرة مع داود يقتضى أن يكون التسبيح قوليًّا .

٣ - أن الشأن فى اللفظ أن يحمل على ظاهره مالم تكن - ثَمَّةَ - ضرورة صارفة عن هذا الظاهر ولا ضرورة ههنا .

٤ - أن قوله تعالى : « وَكُنَّا فَاعِلِينَ » يشير إلى ذلك ،أى : وكنا قادرين على أن نفعل العجائب ، أن تسبح الجبال والطير بلسان المقال .

٨٠ - (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ) :

أى : وأرشدناه إلى صنع لباس الحرب ودروعها لتمنعكم وتحميكم من بأس حربكم مع عدوكم وشدته ، وقد اتخذ داود - عليه السلام - من الحديد دروعا واقية بعد أن ألانه الله له ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ . أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ »[1] .
وقدم تسخير الجبال على الطير ؛ لأن تسخير الجبال وتسبيحها أعجب وأدل على قدرة الله وأدخل فى الإعجاز لأنها جماد ، أما الطير فهى حيوان يصيح ويعبر عما فى نفسه بمنطقه الذى علمه الله إياه .

(١) سورة سبأ ، من الآيتين : ١٠ ، ١١

٨١ـ (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا ، وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ) :

وهذا هو الإنعام الأول الذى خص الله به سليمان عليه السلام .

ومعنى النظم الكريم : وسخرنا لسليمان الريح شديدة الهبوب ، فلا يعوقها عائق ولا يقف شىء دون سيرها ، فهى تتخطى كل مايعترضها وتتغلب عليه .

(تَجْرِى بِأَمْرِهِ) :أى تطيعه وتنقاد له ـعليه السلام ـ فإن أرادها سريعة شديدة أسرعت واشتدت ، وإن أرادمنها غير ذلك كانت على حسب ما يريد ويحكم ، تتجه وفق مشيئته به وبرجاله فى ليل أو نهار .

(إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا) : إلى أرض الشام التى باركنا فيها ، حيث جعلناها مكان الخصب العميم ، والخير الكثير ، والماء الوفير ،والشجر النضير ، وهى فوق ذلك مهبط كثير من الرسالات ومهد معظم الأنبياء ، فالبركة تشملها حسًّا ومعنى .

(وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ) أى : وكنا بكل شىء سخرناه فى الكون عالمين بطريقة تسخيره ، وتدبير أسبابه وآثاره ، فلهذا سخرنا لسليمان هذه المخلوقات التى تعجز قدرته عن أن تسيطر عليها ، وكل ذلك إنما يجرى حسبما تقتضيه حكمتنا ويحيط به علمنا .

٨٢ـ (وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ....) الآية .

وهذه هى النعمة الثانية التى اختص الله بها سليمان ـ عليه السلام ـ .

والمعنى : وسخرنا لسليمان بعض الشياطين من الجن ينزلون فى أعماق البحار يستخرجون له من الجواهر والنفائس مايحتاج إليه ملكه .

(وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ) : من بناء المدن والقصور والحصون ويصنعون الصنائع العجيبة كما قال الله تعالى : « يَعْمَلُونَ لَهُ مَايَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ »[1] .

(وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ) : أى وكنا للشياطين حافظين من أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا ما عملوه أو يضروا رعيته ، وكان أمرهم معه كما قال تعالى : « وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ »[2] .

(١) سورة سبأ ، من الآية : ١٣ (٢) سورة سبأ ، من الآية : ١٢

ويقول الفخر الرازى تعليقا على تسبيح الحجارة وإلانة الحديد لداود ، وعلى تسخير الريح والشياطين لسليمان عليهما السلام :

«اعلم أن أجسام هذا العالم إما كثيفة أو لطيفة ، أما الكثيف : فأكثف الأجسام الحجارة والحديد ، وقد جعلهما الله معجزة لداود - عليه السلام - فأنطق الحجر وليّن الحديد ، وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر ؛ لأنه كما قدر على إحياء الحجارة فأى بُعد فى إحياء العظام الرميمة ؟ وإذا قدر على أن يجعل فى أصبع داود - عليه السلام - قوة النار مع كون الأصبع فى نهاية اللطافة ، فأى بُعد فى أن يجعل التراب اليابس جسما حيوانيا؟ وألطف الأشياء فى هذا العالم : الهواءُ والنار ، وقد جعلهما الله معجزة لسليمان - عليه السلام - أما الهواءُ فقوله تعالى : «فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ» وأما النار فلأن الشياطين مخلوقة منها ، وقد سخرهم الله تعالى له فكان يأمرهم بالغوص فى المياه وهم ما كان يضرهم ذلك ، وذلك يدل على قدرته تعالى على إظهار الضد من الضد» ا هـ .

* (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾)

المفـردات :

(مَسَّنِىَ) : أصابنى . (الضُّرُّ) : سوءُ الحال بسبب المرض .

التفسير

٨٣ - (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) :

واذكر فيمن تذكره من الأنبياء والصالحين أيوب - عليه السلام - وما أصابه من البلاء وما قابله به من الصبر والضراعة والدعاء ، واثقا أنَّ كل شِدَّة إلى انتهاء وأن البلاء لم ينج منه أحد حتى الأنبياء ، قال تعالى : « وَ نَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : «أشد الناس بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثل فالأمثل ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صُلْبًا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يَتْرُكَهُ يمشى وما عليه خطيئة » . رواه الشيخان والنسائى وابن ماجه .

ويذكر الرواة : أن أيوب - عليه السلام - كان واسع الثراء ، ذا مالٍ وافر وأولاد ، فأصابه البلاءُ فى ماله ، وفى ولده ، ثم فى صحته ، واشتد به البلاءُ وحلَّ به الإعياءُ ، فشكا إلى ربه متضرعا قائلا : « أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَ أَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

ويقول الرازى فى المسألة الرابعة - تعليقًا على هذه الآية - : إن أيوب عليه السلام ألطف فى السؤال ، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب ، وعقب الرازى ذلك بقوله : فإن قيل : إن الشكوى تقدح فى كونه صابرًا ، فالجواب ما قاله سفيان بن عيينة حيث قال : من شكا إلى الله تعالى فإنه لا يعد منه ذلك جَزَعا ، إذا كان فى شكواه راضيًا بقضاء الله ، إذ ليس من شرط الصبر استحلاءُ البلاءِ ، أَلَمْ تسمع قول يعقوب : « إِنَّمَآ أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى اللهِ » انتهى بتصرف يسير.

وقد ورد فى بلاءِ أيوب وفى مدته روايات واهنة لا يقبل العقل تصديقها ؛ حيث إنها تصف مرضه بأنه نفَّر عنه الناس وأبعدهم منه ، وأنه مكث به عدة سنين ، وأن

---

(١) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٥

زوجته كانت تقوم بالخدمة فى البيوت لتحصل على رزقه ، وكل ذلك باطل من جهة الرواية ، ومن جهة ما يجب للأنبياء ، من الصفات الكريمة التى تجمع الناس حولهم ، ولا تبعدهم عنهم ، ليستطيعوا أداء رسالة مولاهم ؛ وكل ما جاء فى الآية أنه تعالى امتحنه بضر ، فشكا إلى ربه راجيا رحمته تعالى لأنه أرحم الراحمين ، ولابد أن يكون هذا الضر مما يصاب بنحوه الأنبياء ، ولا يبعد عنهم الأوفياء والأولياء ولا يمنعهم من أداء رسالتهم .

ويقول النسابون : إنه ابن أنوص ، وكان من ولد عيصو بن إسحاق ، وأمه من ولد لوط ، وزوجته بنت ميشا بن يوسف ، أو رحمة بنت إفرايم بن يوسف عليه السلام ، والله أعلم بصحة هذا النسب : انظر الرازى والبيضاوى فى النسب المذكور .

٨٤ - (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ) الآية .

فَلَبَّيْنَا دعاءه وأجبناه إلى مطالبه ووهبناه العفو والعافية فأعدنا له صحته وأزلنا ما أصابه من مرض فى جسمه .

(وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) :

وكما أزلنا ما به من الضر ، عوضناه من أولاده الذين ماتوا أولادًا بعددهم ومثلهم معهم ، تفضلا منا وعطفًا عليه جزاء صبره ورضاه بما قضيناه عليه ، ولتكون قصّته عبرة وذكرى لكل من يعبد الله ويرضى بقضائه ويصبر على بلائه ويشكره على نعمائه .

وليعلم الناس أن البلاء ليس عقابًا على ذنب ارتكبه صاحبه ؛ لأن الدنيا ليست دار جزاء ، وليدركوا أن من أسباب الفرج دعاء الله تعالى والابتهال إليه ، وأن العاقبة للمتقين ، « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ » .

٨٥ - (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ) :

ذكر هؤلاء الأنبياء بعد ذكر قصة أيوب ووصفهم بالصبر ، يدل على أن كلا منهم قاسى من شدائد الحياة ما اقتضى منه الصبر ، أما إسماعيل فصبر على الانقياد للذبح ، وصبر على المقام بأرض غير ذى زرع ، وصبر على ما عانى فى بناء البيت ومشاق التكليف .

وأما إدريس فقد قيل : إنه مصرى بعث إلى قومه ، وإنه أول من خاط الثياب ووصفه بأنه من الصابرين يدل على أنه عانى من مشاق التبليغ ومحن الحياة ما اقتضى وصفه بذلك .

وأمَّا ذو الكفل فقد قيل : إنه ابن أيوب . وقيل : بل هو إلياس ، واختلف فى نبوته ، وأكثر العلماء على أنَّه نبى من أنبياء الله ؛ ولذا ذكره الله فى سورة الأنبياء ، ووصفه مع قرينيه بقوله تعالى : « كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ » للدلالة على أن الصبر كان من أبرز صفاتهم ، وأنهم امتحنوا بمشاق تقتضى التنويه بصبرهم عليها وإن كنا لم نعثر على المحنة التى صبر عليها ذو الكفل .

٨٦ـ (وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِى رَحْمَتِنَا . .) الآية .

المراد بالرحمة هنا : النبوة ، أو الجنة ونعيم الآخرة ، أو ما هو أعم من ذلك .

(إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ) : هذه جملة مستأنفة فى موضع التعليل ، وصلاحهم هو الصلاح الكامل ؛ لأنهم الأنبياء المعصومون فاستحقوا بذلك إدخالهم فى رحمة الله ، أو المراد بالرحمة : النبوة ، والمعنى : أنعمنا عليهم بالنبوة التى هى رحمة منا لأنهم من الصالحين لها .

٨٧ـ (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا . . .) الآية .

النون : الحوت ، وذا النون : يونس ـ عليه السلام ـ ونسب إليه ، لأنه التقمه وهو مليم ، كما سيأتى بيانه فى قصته ، والمعنى : واذكر يا محمد لقومك قصة ذى النون حين تولى عنهم مغاضبا لهم ، فقد بعثه الله لأهل نينوى من بلاد الموصل فبلغهم رسالة ربه ، وخوفهم عذابه ، ولكنهم لم يؤمنوا وأصروا على كفرهم فهاجر عنهم مغاضبا لهم ، وهذا معنى قوله تعالى : « إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا » أى : غضبان على قومه ولم يؤمر بذلك ولا أُذِنَ له فيه .

(فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ) : أى فظن أن لن نضيق عليه ولا نؤاخذه فى متاركة قومه وخروجه من بينهم دون إذن منا .

(فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) :

فى النص الكريم أمور ملحوظة دلت عليها قصة يونس فى سورة الصافات ، حيث بينت أنَّهُ «أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ.فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ».

والمعنى : أنه -عليه السلام- لما ترك قومه دون إذن من الله غضباً عليهم لكفرهم وإصرارهم عليه مع طول دعوته إياهم ، التجأ إلى سفينة مشحونة ، فلما لجَّجَت بمن فيها توقفت عن السير فقال قائلهم : إن الريح مواتية ، فلماذا تتوقف ؟ لابد أن يكون بها رجل عاص ، فأجروا القرعة بينهم ، فخرجت على يونس ، وكان بذلك من المغلوبين ، فألقوه فى البحر فالتقمه الحوت وهو مليم. أى : آت بما يلام عليه ، وأصبح بذلك داخل ظلمة كثيفة كأنها ظلمات ، حيث احتواه بطن الحوت داخل ظلمة البحر فنادى فى هذه الظلمات : لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، إذ تركت قومى دون استئذان منك .

٨٨ـ (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ . .) الآية .

« فَاسْتَجَبْنَا لَهُ » دعاءه الذي تضمنه نداؤه أن «لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » فى هذه الجملة طلب يونس - عليه السلام - من ربه بأسلوب التلويح أن يكشف عنه غمه ويزيل عنه كربه ، بعد أن وصفه بكمال الربوبية ، ونزهه عن كل النقائص واعترف على نفسه ، وهو من ألطف أساليب الأدب فى الدعاء إذ يُعَرِّض بطلبه ولايصرح به «وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ » الذى نزل به بسبب إلقائه فى بطن الحوت .

(وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ) : أى وكما نجى الله يونس من غمه ينجى كل مؤمن يعترف بذنبه ويقرّ بتقصيره فيه نادما عليه ، -ينجيه- إن هو استعان بربه وسأله العفو والمغفرة.

(وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟
لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً
وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ
إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(لَاتَذَرْنِى) : لاتتركنى . (فَرْدًا) : وحيداً لاعقب لى. (أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) : جعلناها صالحة للإنجاب . (يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ) : أى يبادرون إليها ويجتهدون فيها .

(رَغَبًا وَرَهَبًا) : طمعًا وخوفًا . (خَاشِعِينَ) : خاضعين مذعنين .

(أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) : صانته . (آيَةً) : علامة .

(تَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُمْ) : أى اختلفوا فى دينهم.

التفسير

٨٩ - (وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ . . . .) الآية .

أى : واذكر يامحمد نبأ زكريَّا حين نادى ربه ، أى دعاه قائلا :

(رَبِّ لَاتَذَرْنِى فَرْدًا) :لاتدعنى وحيدا لا ولدلى كما جاء فى قوله تعالى :

« فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا »[1] .

(١) سورة مريم ، الآيتان : ٥ ، ٦

(وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) : لأنَّ الأُمور كلها تصير إليه حتما .

٩٠ – (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ....) الآية .

أى : أجبناه إلى ما طلب ، من أن يرزقه الولد ، وهو فى سنِّ اليأس ، تفضلا منا ورحمة ، وأصلحنا له زوجه بإزالة موانع الحمل فقد كانت عقيما عاقرًا ، كما جاء فى قوله تعالى حكاية عنه : « قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا » .

(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) : هو بمثابة التعليل لما تقدم من قبول الدعاء وهبة الولد وإصلاح الزوج ، أى : استجبنا له ، ورزقناه يحيى فى أقصى سن اليأس ، وأصلحنا له زوجه العقيم ، لأن أهل هذا البيت كانوا يسارعون فى الخيرات ولايتباطأون عنها إذا ما حانت الفرصة لفعلها . فالضمير فى « إنهم » لزكريا وأهله .

(وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا) : أى ويعبدوننا مخلصين العبادة راغبين طامعين فى ثوابنا ، خائفين مشفقين من عذابنا .

(وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) : خاضعين مذعنين لا يستكبرون عن عبادتنا ودعائنا .

٩١ – (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ....) الآية .

هى مريم – عليها السلام – أثنى الله عليها بالعفة وعدم مساس البشر قبل أن تحمل بعيسى – عليه السلام – ، فإحصانها فرجها : كناية عن أنها لم يمسسها بشر .

وقد أراد الله تعالى أن يجعلها آية للناس بقدرته على خلق بشر فى أرحام النساء بغير أب على خلاف السنة المعهودة ؛ ليعلموا أنه كما قدر على خلق بشر بلا أب ولا أم كما صنع مع آدم – عليه السلام – وبغير أم كما صنع بحواء – عليها السلام – فهو قادر على أن يخلقه دون أب كما صنع بعيسى – عليه السلام – .

ويصور الله خلقه فى جوفها بقوله :

(فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا) : أى نفخنا فى جوفها من الروح الأمين جبريل عليه السلام ، فهو الذى نفَّذ أمر الله تعالى .

ومعلوم من الدين بالضرورة ، أن جبريل يطلق عليه (الروح) ، كما قال تعالى :

« نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ » :

ولذا قال سبحانه: (وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) : أى وجعلنا ولادتها إياه على هذه الحال آية على قدرتنا ومظهرا لربوبيتنا .

٩٢ – (إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً . . .) الآية .

والأمة كما تطلق على الجماعة من الناس تطلق أيضا على الدين والملة،وهو المراد هنا . أى : إن الدين الذى جاء به سائر الأنبياء الذين تقدم ذكر أنبائهم دين واحد،يدعو إلى عبادة الله وحده ، وإن اختلفت شريعة كل نبى فى بعض التفاصيل الفرعية التى تقتضيها طبائع العصور المختلفة ، أما العقائد وأصول الأحكام فواحدة من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة .

(وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) : أى وأنا الرب الذى اخترت الدين ، وأرسلت كل رسول إلى أمته بشريعته جملة وتفصيلا ، على وفق إرادتى ، وطبقا لمشيئتى، وأنا أعلم كيف أبعث الرسل إلى الأمم برسالاتى وأنا المستحق للعبادة دون سواى ، فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى ، وحيث كان دين الله واحداً فى أصوله ، فيجب الإيمان بجميع رسل الله الذين يبلغون عنه دينه .

فلا يحل لأحد أن يؤمن ببعض الأنبياء دون بعض ، ولا ببعض الكتب دون بعض ، ما لم تغيرها الأهواء والشهوات ، وتدخل عليها ما لم يأمر به الله .

٩٣ – (وَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ...) الآية .

كان الخطاب فى قوله تعالى فى الآية السابقة « إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ » كان هذا الخطاب يقتضى أن يقول هنا : وتقطعتم أمركم بينكم ، ولكنه عدل إلى أسلوب الحديث عن قوم فى حكم الغائبين فقال : « وَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ » إنزالاً لهم عن شرف الخطاب ؛ بسبب ما أحدثوه من التفرق فى الدين وجعله قطعا موزعة ، ولكى يحكى أخبارهم لغيرهم ذمًّا لهم ، كأنه قيل : ألا ترون إلى عظم ما ارتكب هؤلاء من الاختلاف فى دين الله الذى أجمعت عليه كافة الأنبياء ، وفى ذلك ذم للاختلاف فى الدين ، وإسقاط للمختلفين فيه عن رتبة الخطاب إعراضا عنهم .

ومما اختلف الناس فيه من دين الله: أمر توحيد الخالق سبحانه .

فقد قال قوم : عزير ابن الله ، وقال آخرون : المسيح ابن الله . وغيرهم : الملائكة بنات الله ، وعبد آخرون الأوثان ، ومنهم من عبدوا الكواكب وغيرها .

وخلاصة ذلك أنهم أغفلوا ما أمروا به ، من وجوب الاعتصام بوحدة الدين ونبذ الفرقة فيه .

(كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) : أى كل الأمم التى فرقت الدين ، واختلفت فيه ، عائدون إلينا بعد الموت للجزاء والحساب «فَمَنْ أَحْسَنَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » .

(فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَـٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾) .

المفردات :

(فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) : أى لا يضيع الله أجر عمله .

(وَحَرَامٌ) : الحرام الممنوع منه بقهر الله أو بشرعه أو بالعقل أو بأمر من يطاع أمره ،

والمراد منه هنا الأول كما فى قوله تعالى: « وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ » : أى منعنا موسى بقدرتنا من أن يرضع من المراضع سوى أمه - انظر المادة فى مفردات الراغب .

(عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) : أى قدرنا إهلاكها ، والمراد من القرية : أهلها .

(لَا يَرْجِعُونَ) : لا يبعثون . (فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) : أى فتح سدهم الذى كف أذاهم عن البشر . (وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ) : وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون . (الْوَعْدُ الْحَقُّ) : الموعود الثابت ، والمراد به : ما يحدث بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء .

(شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) : أى مفتوحة لا تطرف .

(يَاوَيْلَنَا) : الويل العذاب ، والغرض من ندائهم إياه : التحسر .

(كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا) : أى أغفلناه وأهملناه فلم نعمل له .

(حَصَبُ جَهَنَّمَ) : هو الوقود الذى تشتعل به النار . (زَفِيرٌ) : الزفير نَفَس ؛ المغموم يخرجه من أقصى جوفه .

التفسير

٩٤ - (فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ....) الآية .

بعد أن بيَّنَ الله تعالى تفرق الناس فى أمر الدين ؛ فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، جاءت هذه الآية وما بعدها لبيان مصير كل منهم .

والمعنى : فمن يعمل من الصالحات التى بينها الله فى رسالاته إلى رسله ، وهو مؤمن بما يعمله منها ، وبأن التكليف بها صادر عن الله تعالى ، فلا حرمان له من أجر عمله.

وعبَّر هنا عن الحرمان من الثواب بكفران السعى ؛ لبيان كمال نزاهة الله تعالى عنه ، بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه من القبائح وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة منه سبحانه وتعالى ، مع أنها من فضله وكرمه .

(وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) : الضمير فيه عائد على السعى ، أى : إننا نثبت هذا العمل فى صحيفة صاحبه ؛ ليعلم أننا لا نضيع عليه نقيرا ولا قطميرا من طيبات أعماله ، كما قال سبحانه : « فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا » .

٩٥ - (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) :

بيَّنَ الله فى الآيات السابقة أن الناس تقطعوا أمر الدين فيما بينهم واختلفوا فيه ، وأنهم إلى الله راجعون للحساب والجزاء ، وأن المؤمنين الصالحين سيجزون خير الجزاء . وجاءت هذه الآية وما بعدها لتؤكد للكفار رجوعهم إلى الله وسوء حالهم يوم القيامة .

والمعنى : وممنوع على كل قرية قضينا أزلا بإهلاك أهلها لشدة طغيانهم وفسادهم ، حرام عليهم ، وممنوع تخلفهم عن الرجوع إلينا للحساب والجزاء ، فلابد من رجوعهم إلينا مقهورين بقدرتنا ، مسخرين ببعثنا إياهم وإعادة الحياة إلى أجسادهم ؛ ليلقوا عقابهم الأُخروى ، بعد ما ذاقوا عذابهم الدنيوى .

ومن العلماء من اعتبر حرف « لا » صلة ، وليس نافيا ، وأن المعنى : وممتنع على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا بعد إهلاكهم ، أو يرجعوا إلى التوبة .

والمعنى الأول هو المناسب لما تقدم من قوله سبحانه : « كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ » ولما سيأتى عقبه من الجزاء الأُخروى للمنكرين للبعث ، وشخوص أبصارهم وتحسرهم على كفرهم يوم الجزاء .

٩٦ - (حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ) :

(حتى) هذه هى التى يبتدأ بعدها الجمل ، ولا تفارقها معنى الغاية ؛ فهى غاية لمقدر يقتضيه المقام .

والمعنى : تستمر هذه القرى على ما هى عليه من الهلاك إلى وقت فتح أبواب الشر من يأجوج ومأجوج وخروجهم من كل مكان مرتفع من الجبال والهضاب ، يسرعون إلى البغى والعدوان على خلق الله ، والآية واضحة الدلالة على أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات

الساعة ، كما يدل عليه قوله تعالى عقبها : « وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... » الآية . فإن جملة « اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » معطوفة بالواو على جملة « فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » داخلة معها فى حيز الشرط ، وجوابهما هو قوله تعالى : «فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » فكأنه قيل : فإذا فتحت يأجوج ومأجوج ، واقترب بذلك الوعد الحق ، فاجأتهم القيامة بأهوالها ، كما يدل على ذلك أيضاً حديث مسلم وأبى داود وغيرهما ، فقد جاء فيه : « أن الله تعالى يبعث يأجوج ومأجوج وهم كما قال الله تعالى : « مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ » فيرغب عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله – عز وجل – فيرسل عليهم نغفا(١) فى رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة ... » الحديث .

ومن العلماء من قال : إن يأجوج ومأجوج هم التتار ، وأنهم فتحوا السد الذى بناه دونهم ذو القرنين ، وعاثوا فى الأرض فسادًا ، ويعرف هذا السد بسد باب الحديد – وراء جيحون – بين سمرقند والهند ، كما يشتهر أيضًا بسد الصين ، وقد اجتازه تيمورلنك بجيوشه المخرِّبة ومر به « شاه روح » وكان فى خدمته رجل ألمانى يدعى « سيلد برجر » وجاء ذكر هذا السد فى كتابه ، كما تحدث فيه عن مرور « الشاه » به وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس عشر(٢) .

ولعله يشهد لصحة هذا الرأى ما أخرجه مسلم بسنده عن أم حبيبة بنت أبى سفيان أن زينب بنت جحش زوج النبى – صلى الله عليه وسلم – قالت : خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فزعا محمرًّا وجهه يقول : « لا إله إلا الله . ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه – وحلق بأصبعه الإبهام والتى تليها – قالت : يارسول الله : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم – إذا كثر الخبث(٣) » .

فهذا يؤذن بأن بداية فتح السد حدثت فى عهده – صلى الله عليه وسلم – وقد توقع النبى من ذلك شرًّا كثيرًا على العرب ، وقد وقع ذلك فى غزوات التتار على البلاد

---

(١) النغف : دود أبيض يكون فى النوى إذا أنقع ، قاله أبو عبيد .

(٢) راجع ج ٩ ص ١٩٨ من تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى .

(٣) الحديث الثانى من « كتاب الفتن » فى صحيح مسلم .

الإسلامية ، وقتلهم الخليفة فى بغداد ، وإلقائهم كتب العلم فى نهر دجلة ، وقتلهم أعدادًا هائلة من المسلمين ، واستيلائهم على البلاد الإسلامية حتى الشام ، حيث هزمهم جيش مصر فى معركة (مرج دابق) .

سؤال هام وجوابه

إذا كان سد يأجوج ومأجوج قد فتح كما يشير إليه حديث مسلم المذكور ، وكما دلت عليه أحداث التتار بعد تحطيم سد الصين الذى اشتهر بأنه سد يأجوج ومأجوج ، فكيف يكون تخريبه من علامات الساعة القريبة ، فى حين أن الدنيا لاتزال كما هى دون أن تحدث أشراط الساعة الكبرى ، ومنها نزول عيسى عليه السلام ؟ ولايحتمل أن يكون «يأجوج ومأجوج» لا يزالون وراء سدهم فى مكان آخر من الأرض وأنه لم يفتح بعد ؛ فإن الأقمار الصناعية صورت كل أنحاء الأرض ، والطيارات طارت فوق أقطارها وبحارها فلم يبق فى أرض الله مكان خفى عن عدسات التصوير أو عن العيون ، فكيف تكون أمتان بهذا الخطر ، وبالكثرة التى تحدثت الأخبار عنها ولا يعثرلهم على مكان ؟ فضلا عن أن بلاد الله كلها مفتوح بعضها على بعض ، ومتصلة بشتى وسائل الاتصال فأين يوجدون ؟

لهذا نرى أن يأجوج ومأجوج اسمان مأخوذان - كما قالوا - من أجَّ الظليم : إذا أسرع أو من أجيج النار : وهو اتقادُها ، فيمكن إطلاقهما على ذوى الغلبة والقهر من أهل الفسادِّ .

وقد أطلقهما الله فى سورة الكهف على صنف حجزهم ذو القرنين بسده ثم فتحوه ، وأطلقهما هنا على صنف خطير آخر يخرج فى آخر الزمان فى عهد عيسى - عليه السلام - قرب قيام الساعة ، ويكون من علاماتها ، وقد عبر اللهُ عن خروجهم حينئذ بالفتح فى قوله : « حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ » على سبيل الكناية ، للإيذان بأن أبواب شرهم تفتح على مصاريعها بعد أن كانت مغلقة ، كما تقول: فتح العدو شره على الآمنين ، هذا ما نراه فى فهم النص الكريم ، والله تعالى أعلم .

٩٧ - (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ....) الآية.

المراد باقتراب الوعد الحق ؛ القرب الشديد للبعث الذى وعده الله عباده فى كتابه

وعدًا ثابتا لا يتخلف ، ليحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم ، ويكون بعد النَّفْخَةِ الثانية في الصور .

وجملة « اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » معطوفة بالواو على جملة « فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ » وكلتاهما فعل الشرط . أما جوابه فهو قوله : « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » كما تقدم بيانه . أى : فإذا حال الذين كفروا وشأنهم شخوص أبصارهم ، وفتحها على أهوال القيامة بحيث لا تطرف ولا تغمض .

(يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) : أى يقولون من شدة الكرب فى حسرة وندامة : ياهلاكنا قد كنا فى دنيانا فى غفلة عن هذا اليوم ، ومافيه من الأهوال الجسام ، ولم ندر أنه مصيرنا ، ثم أضربوا عن وصف أنفسهم بالغفلة ، فقالوا : « بلْ كُنَّا ظَالِمِينَ » لأنفسنا حيث نبهتنا الآيات والنُّذُر فلم نتنبه للخطر المنتظر ، وبقينا كافرين بالبعث والحساب فحق علينا قول ربنا بالخلود فى العذاب المهين .

المعنى الإجمالى للآيات السابقة

ولكى يتضح معنى هذه الآيات الثلاث مجتمعة نجملها فيما يلى :

٩٥ – وممنوع على أهل أية قرية أهلكناها لكفر أهلها وطغيانهم ، ممنوع عليهم أن يتخلفوا عن الرجوع إلينا للحساب والجزاء . فلابد من رجوعهم إلينا لذلك .

٩٦ – وتستمر هذه القرى المهلكة على ما هى عليه من الهلاك إلى وقت فتح أبواب الشر من (يأجوج ومأجوج)[١] وخروجهم من كل مكان مرتفع يسرعون إلى العدوان فى آخر الزمان

٩٧ – واقترب بخروجهم تحقيق الوعد الحق بالبعث ، إذ يهلك الله الخلائق ثم يبعثهم ويحشرهم إلى ساحة الحساب حيث الأهوال الجسام ، فإذا أبصار الكافرين الذين أنكروا البعث شاخصة لا تطرف هلعا ، يقولون من شدة الكرب : ياعذابنا الشديد الذى

(١) هذا اسم كنائى لأمة شديدة الجبروت تظهر آخر الزمان ، غير التتار الذين احتجزهم ذو القرنين بسده ، واجتاحوا السد فى القرن الخامس عشر كما تقدم بيانه ، وقد دل حديث مسلم على فتحه ، راجع ما كتبناه فى ص ١١٥٧ تحت عنوان : (سؤال هام وجوابه)

ينتظرنا ، قد كنا فى دنيانا فى غفلة عن هذا اليوم بل كنا ظالمين لأنفسنا بالإصرار على الكفر .

٩٨ - (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) :

الخطاب فى الآية لأهل مكة ،ومعلوم أنهم كانوا مقيمين على عبادة الأصنام والأوثان ، فالله سبحانه وتعالى يخبرهم بأن مصيرهم ومعبوداتهم النار ، وهذا الحكم عام فيهم وفى كل من عبد غير الله على شاكلتهم ، كالذين يعبدون الكواكب أو الأشجار أو نحوها .

أما المعبودات العاقلة المؤمنة فلا تدخل فى هذا العموم ؛ لأن (ما) فى قوله : « وَمَا تَعْبُدُونَ » لما لا يعقل .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا هذه الآية قال له ابن الزبعرى : خَصَمْتُكَ وربِّ الكعبة : أليست اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح ، وبنومليح الملائكة ؟ فردَّ عليه بقوله - صلى الله عليه وسلم - : « ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أنَّ مَا لِمَا لاَ يَعْقِلُ ؟ » .

ولو جعل الخطاب عاما لم يدخل هؤلاء كما تقضى به أدلة السمع والعقل ، لبراءتهم من الذنوب والمعاصى التى ارتكبها عابدوهم بتسويل شياطينهم ، وسيأتى النص على براءتهم فى الآية رقم (١٠١) .

والحَصَبُ : ما تُرمَى به النار لتتقد به - من حَصَبه بكذا أى : رماه به .

والمعنى : إنكم يا أهل مكة ومن على شاكلتكم ممن يعبدون غير الله يُرْمَى بكم وبمعبوداتكم فى نار جهنم ، أنتم عليها واردون وفيها داخلون ، فلا تعصمكم منها آلهتكم كما لا تعصم نفسها منها ، فكيف تعبدونها ؟

٩٩ - (لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ) :

أى : لو كان ما تعبدونه - يا أهل مكة - من أوثانكم آلهة ، لما دخلوا النار واحترقوا بها ؛ فإن الإله يحمى نفسه من العذاب ، وكل من العابدين ومعبوداتهم فى نار جهنم خالدين ، لا فكاك لهم فيها ، «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ».

ويلاحظ أن إحراق آلهتهم معهم لا يرجع إلى مسئولية الآلهة عن عبادة البشر لهم ؛ لأنها لا تسمع ولا تعقل ولا تحس ، بل المراد منه تسفيه عقول هؤلاء الذين عبدوها وإهانتهم بإهانة آلهتهم

١٠٠ - (لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ) :

(لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ) الزفير : خروج النفَس من الحيوان .

والمعنى : لأهل مكة وسواهم من المشركين - لهم فى جهنم - أنفاس متتابعة تخرج من صدورهم ، يحاولون بها تنفيس ما بهم من وقود النار وسوء الحال ، وهم فى النار لا يسمع بعضهم زفير بعض ولا صراخهم ؛ لشدة ما يعانونه جسديًّا ونفسيًّا ، نعوذ بالله من شرها .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾
لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾
لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ
ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ
لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا
فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ
عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾)

المفـردات :

(الْحُسْنَىٰ) : الجنة ، أو التوفيق للطاعة . (حَسِيسَهَا) : أى الصوت الذى يحس من توهجها (الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) : الخوف الأعظم بسبب صرف أهل النار إلى النار .

(كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) : كطى الديوان لصحائفه المكتوبة .

(الزَّبُورِ) : المراد به هنا كل كتاب أنزله الله ، مأْخوذ من الزَّبْر وهو الكتابة ، وقد غلب لفظ الزبور على كتاب داود – عليه السلام –

(الذِّكْرِ) : المراد به هنا اللوح المحفوظ .

(لَبَلَاغًا) : لكفايةً تُبْلغُ الإنسان إلى بغيته .

التفسير

١٠١ – (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) :

بعد أن ذكر اللهسوء مصيرمن يتّخذون آلهة من دونالله ، وأنهم وما يعبدونوقود جهنم وأنهم فيها مخلدون ، جاءت هذهالآية وما بعدها لبيان حُسْن جزاء المؤمنين. والحسنى : تأْنيث الأَحسن والمراد بها هنا : الجنة ، أو التّوفيق للطاعة ، فهو الخصلة الحسنى ، ومعنى سبق الحسنى لهم : تقديرها فى الأَزل من الله تعالى ، لما علمه فيهم من إيثارهم طاعته على هوى أنفسهم .

(أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) : أى أُولئك الذين سبقت لهم منا الحسى مبعدون عن جهنم أى لايدخلونها .

وأما قوله تعالى : « وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا »(١)

فقيل : الخطاب للكفار خاصة ، وقيل : إن الورود قد يطلق على القرب ، ولا مانع من أن يحضر المؤمنون من الإنس والجن حول جهنم حيث لايحسون بصوتها ولا يشعرون بحرارتها . ويؤيد هذا قوله تعالى :

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٧١

١٠٢ - (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ) : .

أى : لا يسمعون صوتها الصادر عن اتقادها ، فضلا عن أنهم لاتدركهم حرارتها ، تكريما لهم - « وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ » : أى دائمون فيما أحبته نفوسهم من ألوان النعيم حسية كانت أو معنوية ، فبكل يتنعمون ، وهذه ثلاث صفات لمن سبقت لهم الحسنى ، وهى : البعد عن النار ، وعدم الإحساس بما فيها من الشدائد ، وخلودهم فى الجنة ينعمون بلذتيها الحسية والمعنوية .

١٠٣ - (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) :

وهذه صفة أخرى لهم تضمنت الوعد بنجاتهم من بعض أهوال الآخرة

و (الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) : الخوف الأعظم ، والمراد به : النفخ الثانى فى الصور ، وقيل : الموت ، وقيل : انصراف أهل النار إلى النار .

(وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) : أى يستقبلونهم مبشرين ، قائلين لهم :(هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) : به فى الدنيا ، وتبشرون بمجيئه وبالنعيم فيه ، ويكون هذا الاستقبال عند القيام من القبور ، وهذا يؤيد تفسير « الفزع الأكبر » بالنفخ الثانى فى الصور . وتبشير الملائكة لهم حين تلقاهم يكون بالأمان والسلام وتحقيق الوعد الذى وعدوا به فى الدنيا ، ويعتبر ذلك أسمى نعم الله عليهم ، ومنتهى آمالهم وأمانيهم .

١٠٤ - (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ...) الآية .

المراد من طى السماء : إخفاؤها بالمحو لتحل محلها سماء أخرى ، وفاقًا لقوله تعالى : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » والسجل : الديوان الذى يشتمل على الصحائف المكتوبة ، ويطلق أيضاً على كل صَكٍّ به كتابة مسجلة فيه ، والمراد

بالكتب : ما يكتب فيه من الأمور المختلفة ، وقرئ « كَطَىِّ السِّجلِّ لِلْكِتَابِ » أى : لجنس الكتاب ، والمعنى لا يختلف فى القراءتين ، ومعنى الآية : واذكر لأُمتك أيها الرسول ـ اذكر لهم ـ يوم نخفى السماء كما يخفى السجل ما كتب فيه حين يطوى عليه ، وذلك « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ » حيث يبعث الله الخلائق ويحشرها على أرض جديدة ، وتحت سماء جديدة ليحاسبهم ويجزيهم على أعمالهم .

(كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ) : أى أنه تعالى يُعيد السماء كما بدأها بعد أن أفناها بقدرته سبحانه ؛ فإنه يقول للشيء : (كُنْ فَيَكُونُ) .

وأجاز بعض المفسرين أن يكون المعنى : كما بدأنا أول خلق الناس حفاة عراة نعيدهم كذلك ، واستندوا إلى حديث أخرجه مسلم عن ابن عباس جاء فيه : «قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بموعظة فقال : يا أيها الناس : إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً « كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام . . . » الحديث . كما استندوا إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله عز وجل : « وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

(وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) : أى وعدنا بإعادة الخلائق وبعثهم وعدا علينا إنجازه ، إنا كُنَّا فاعلين ما وعدناهم ، قادرين على تحقيقه .

١٠٥ ـ (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ) :

المراد من الزبور هنا : كل الكتب السماوية ، التى أنزلها الله على أنبيائه ورسله . مأخوذ من زبَرَ الكتابَ[1] ـ أى كتبه ـ والمراد من الذكر : اللوح المحفوظ الذى هو أُم الكتاب ـ كما قاله مجاهد وابن زيد ، والمراد بالأرض التى يرثها عباد الله الصالحون : أرض الجنة ، كما قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو العالية ، ودليل هذا التأويل قول أهل الجنة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ

(١) وهو من باب ضرب ونصر.

الْعَامِلِينَ ».وتأويل الأرض بالجنة هو المناسب لما تقدم من قوله تعالى : « وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَآئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ » بعد قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » الآيات .

والمعنى على هذا : ولقد كتبنا فى جنس الكتب السماوية من بعد الكتابة فى اللوح المحفوظ : أن أرض الجنة يرثها عبادى الصالحون أهل التَّقْوَى ، ولأمة محمد خير نصيب فيها بمشيئة الله تعالى .

ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالأرض : أرض الدنيا ، والوارثون لها : أمة محمد – صلى الله عليه وسلم ، يستولون عليها من الكافرين بالفتوحات ، سلمية كانت أوحربية ، مصداقا لقوله تعالى : « هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ »[1] وهذا الرأى هو إحدى الروايات عن ابن عباس .

وعلى أن المراد بالأرض أرض الدنيا ، والوارثين لها أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – يصح أن يراد من الزبور كتاب داود – عليه السلام – ومن الذكر التوراة فإنه يطلق عليها الذكر ، كما فى قوله تعالى : « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » فتكون البشارة بميراث أمة محمد للدنيا جاءت فى الزبور بعد التوراة .

١٠٦ – (إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ) :

البلاغ يطلق على الكفاية ، وعلى ما يتوصل به إلى الغاية . والمعنى : أن ما تقدم مما احتوته السورة من عقائد وشرائع وآداب فيه الكفاية للوصول إلى الغاية المطلوبة لقوم شأنهم العبادة ، فإذا أخذوا أنفسهم به واحتكموا إلى شرائعه ، والتزموا بآدابه بلغوا ما يرجون من عظيم الثواب ، والنجاة من العقاب . . .

---

(١) سورة الصف ، آية : ٩

(وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ
أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ
ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى
لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ
وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾)

المفردات :

(فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) : المراد من الاستفهام هنا : الأَمر . (تَوَلَّوْا) : أَعرضوا ولم يُسْلِموا .

(آذَنتُكُمْ) : أَعلمتكم . (مَاتُوعَدُونَ) : أَى من غلبة المسلمين للكافرين .

(الْجَهْرَ) : ماتظهرونه وتجهرون به . (مَا تَكْتُمُونَ) : ما تسرون وتخفون .

(إِنْ أَدْرِى) : لست أَدرى . (فِتْنَةٌ) : ابتلاءٌ واختبار .

(احْكُم بِالْحَقِّ) : اقض بالعدل . (مَا تَصِفُونَ) : ما تقولونه من الكفر والتكذيب .

التفسير

١٠٧ - (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) :

« ومَآ أَرْسَلْنَاكَ » : أَى وما بعثناك يا محمد بما بعثناك به من الهدى ودين الحق ؛ إلا رحمة للناس أَجمعين ؛ فإنك توضح لهم به صحيح العقيدة ، وتعلمهم الأَحكام التى بها يحكمون ، وإليها يحتكمون ، وفيها مناط السعادة فى الدارين ، فما أَرسلناك بما يُعْنِتُهم أَو يشق عليهم أَو بما هو فوق طاقتهم ، وهو ما يوضحه قوله تعالى :

« لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ »(١)

وفيه تعريض بما فوت الكافر على نفسه من هذه الرحمة ، حين أعرض ونأى بجانبه ، فخسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

١٠٨ ـ (قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ....) الآية .

بعد أن بين الله سبحانه أنه سيطوى السماء ، ويبعث الخلائق كما بدأهم ، وأن أرض الجنة يرثها الصالحون ، وأنه أرسل نبيه محمدًا رحمة للعالمين عقب ذلك بأمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدعو المشركين إلى التوحيد والإسلام ؛ رحمة بهم لعلهم يسلمون ، فينجوا من سوء المصير .

والمعنى : قل أيها المبعوث رحمة للعالمين ـ لهؤلاء المشركين من قومك ولغيرهم : ما أوحى الله إلىَّ إلاَّ أنه إله واحد ، فما لكم تتخذون معه آلهة تعبدونها من الحجر والشجر والبشر وغيرها ، ولا تصلح العبادة لسواه .

(فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) : أى فأسلموا لله وانقادوا لأمره ، والتمسوا رضاه بطاعته ؛ حتى تفوزوا بالنجاة وتكونوا من المفلحين . ثم عقب ذلك بإنذارهم على الإعراض فقال :

١٠٩ ـ (فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ..) الآية .

أى : فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه ، فقل لهم : « آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ » : أى بلغتكم ما أوحى الله إلىَّ أن أبلغه من توحيده فى العبادة ، مستوين فى الإعلام بذلك ، فلم أخص به جماعة دون آخرين .

ويجوز أن يكون المعنى : أعلمتكم ذلك مستويا معكم(٢) فى العلم بما أعلمتكم به من وحدانية الله لظهور الأدلة عليها ، كما يجوز غير ذلك من المعانى ، وحسب القارئ ما ذكرنا .

---

(١) سورة التوبة ، آية : ١٢٨

(٢) فعلى الأول تكون كلمة « على سواء » حالا من كاف المفعول فى «آذنتكم» وعلى الثانى تكون حالا من التاء والكاف أى من الفاعل والمفعول .

وقد نقل الآلوسى عن الزمخشرى أن فى قوله تعالى لهم : « آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ » الخ استعارة تمثيلية ؛ حيث شبه حال الرسول معهم بحال من بينه وبين أعدائه هدنة ، فأحس بغدرهم فنبذ إليهم العهد ، وشَهَرَ النَّبْذَ وأشاعه ، وآذنهم جميعا بذلك - وعقب عليه الآلوسى بقوله : وهو من الحسن بمكان . ا هـ

(وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ) : إن ، هى النافية ، والمراد بقوله : « مَا تُوعَدُونَ » هو غلبة المسلمين عليهم ، أو هو ما يلقونه من عذاب يوم القيامة ، أى أنالم أعلم ذلك لأن الله استأثر بعلمه ، ولم يطلعنى عليه ، إنما علم ذلك كله عند ربى .

١١٠ - (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ) :

إنه سبحانه يعلم ما تطعنون به علىَّ وعلى شريعتى مجاهرين بذلك ، ويعلم ما تخفون فى صدوركم من الأحقاد على المسلمين ، وإذا كان الله يعلم الجهر وما يخفى ، وهو مُجاز عليهما لا محالة ، كان على العاقل البصير أن يخلص النية لله تعالى ، وأن يصون لسانه وقلبه عن الوقوع فيما يوبقه من القول والنية وسوء الظن .

١١١ - (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ ....) الآية .

الضمير فى « لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ » عائد على مفهوم من المقام ، وهو تأخير مجازاتهم ، والمعنى : لست أدرى ؛ لعل تأخير مجازاتكم مع إصراركم على ما أنتم عليه زيادة لكم فى الفتنة وإبعاد فى الاختبار والإملاء .

(وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ) : وتمتيع من الله لكم بلذات الدنيا إلى وقت مقدر تقتضيه الحكمة الإلهية ، ويعظم فيه قيام الحجة عليكم ، فيكون أشد فى الإيقاع بكم ؛ لأن المعرض مع تتابع الآيات وتوالى النذر يكون أشد عقابًا وأبعد نكالا .

١١٢ - (قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ...) الآية .

ختم الله السورة بحكاية دعاء نبيه - صلى الله عليه وسلم - وتفويضه الأمر إلى ربه وتوقعه الفرج منه .

والمعنى : قال الرسول : يارب اقض بينى وبين قومى بحكمك الحق وذلك بنصرتى عليهم . وقد قرىء : قُلْ بصيغة الأمر ، أى : قل يا محمد داعيًا ربك أن يفصل بينك وبين قومك بالحق والعدل . قال قتادة : كان الأنبياء يقولون : « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » فأمر رسول الله أن يقول ذلك ، فكان إذا لقى العدو يقول – وهو يعلم أنه على الحق ، وعدوه على الباطل – : « رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ » اهـ .

ولا فرق فى المعنى على القراءتين إلا أن قراءة « قال » لحكاية ما قاله – صلى الله عليه وسلم – وقراءة « قل » أمر من الله لنبيه بما يدعو به .

(وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ) :

كانوا يقولون : إنهم على حق فى عبادة أوثانهم ، وإن العاقبة سوف تكون لهم وإن ما توعَّدهم به القرآن من العذاب على شركهم لو كان حقا لنزل بهم ، فلهذا حكى القرآن عن نبيه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال لهم فى مقابل ما قالوه : « وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » .

أى : والله الذى مَلَكنا وربَّانا ، المنعوت بالرحمة الشاملة هو الذى أطلب معونته على تفنيد ما تزعمون من تلك الأوصاف ، بإظهار حقى على باطلكم ونصرى عليكم ، وقد كذَّب الله سبحانه ظنونهم ، وخيب آمالهم وخذلهم ، ونصر الرسول والمؤمنين عليهم وصدق الله العظيم إذ يقول : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ »[1] .

(١) سورة الروم ، الآية : ٤٧

« سورة الحج »

اختلف فى كونها مدنية أو مكية ، والجمهور على أنها مختلطة ، فمنها مكى ومنها مدنى ، قال القرطبى : وهذا هو الأصح لأن الآيات تقتضى ذلك ، ثم نقل عن الغزنوى قوله فى هذه السورة : « وهى من أعاجيب السور ، نزلت ليلاً ونهارًا ، سفرًا وحضرًا ، مكيا ومدنيًّا ، سلميًّا وحربيًّا ، ناسخا ، ومنسوخا ، محكما ومتشابها » .

مقاصدها :

بدأت هذه السورة بأمر الناس بتقوى الله ، والتحذير من أهوال يوم القيامة حيث يحاسبون على أعمالهم ، وأتبعته التحذير من الجدال فى الله بغير علم ، وبيَّنت أطوار خلق الإنسان ودلالتها على البعث ، كما بينت دلالة إخراج النبات من الأرض عليه .

ثم حذرت من عبادة الله على حرف – أى على ضعف وشك – فإنه وخيم العاقبة وأتبعت ذلك بيان حسن مآل المؤمنين الصادقين ، وأنه تعالى سينصر رسوله على من كفر به ، وسيفصل بين المؤمنين وأعدائهم يوم القيامة ، وأنه تعالى يخضع لسلطانه من فى السموات والأرض ، وجميع الكائنات العلوية والسفلية ، وأن كثيرا من الناس يسجد له سجود طاعة عملا بشرائعه ، وكثيرا منهم حق عليهم العذاب بسبب عدم سجودهم وخضوعهم لشرائعه ، ثم بينت مصير المختصمين فى ربهم ، فذكرت أن الكافرين تقطع لهم ثياب من نار ، ويعذبون بمختلف ألوان التعذيب فيها ، وأن المؤمنين يدخلون الجنة ويحلون فيها بالذهب واللؤلؤ ويلبسون ثياب الحرير ، ويهتدون فيها إلى الطيب من القول مثل : « الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَه » ، ويهتدون إلى طريق الله الحميد فى سلوكهم فليس فيها لغو ولا كذب ولا شغب ، فأقوالهم دائما طيبة ، وأعمالهم حسنة ، وعشرتهم مرضية ثم بينت أنه تعالى عرَّف إبراهيم مكان البيت ليبنيه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وأمره أن يدعو الناس إلى حجه مشاة وركبانا ، يأتون من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، وأن يَطَّوَّفوا بالبيت العتيق ، وحذرت من الشرك بالله فى أداء المناسك ، وأوجبت تعظيم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ،

ثم ذكرت أن البُدْنَ المهداة من شعائر الله ، وأنها تذبح قائمة على قوائمها ، وبينت أن الله تعالى لن يصل إليه شيء من لحومها بل تصل إليه التقوى ممن أَهْدَوْها فينبغى لهم أن يشكروه على تسخيرها لهم ، ويكبروه على ما هداهم ، وأن هؤلاء الحجاج الشاكرينَ المكبرين لهم البشرى على إحسانهم ، ثم عقبت ذلك ببيان أنه تعالى تكفل بالدفاع عن المؤمنين ، لأنه لا يحب كل مختال فخور .

وبينت أنه تعالى أذن للمهاجرين الذين أُخْرِجوا من ديارهم بغير حق أن يقاتلوا دفاعًا عن أنفسهم ، وأنه تعالى قد شرع لعباده شرعة الدفاع ، فلولاه : « لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً » .

ثم ذكرت أن الرسول ليس وحده فى تكذيب قومه إياه ، فقد كُذِّب نوح وهودٍ وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى من أقوامهم ، وأنه تعالى أهلكهم ، وأنه – سبحانه – أمهل كثيرا من القرى وهى ظالمة ،ثم أخذها وإليه المصير ليعاقبها فى الآخرة بعد إهلاكها فى الدنيا ، والمقصود مما ذكر تسلية الرسول – صلى الله عليه وسلم – عما أصابه من قومه ، ووعيد قومه بأنهم إن لم يؤمنوا أصابهم ما أصاب الأمم التى قبلهم وأن عليهم أن لا يَغْتَرُّوا بإمهالهم .

ثم بينت أن الشيطان كما يوسوس للمشركين من أمته – صلى الله عليه وسلم – فيلقى فى نفوسهم الشُّبَه والتخيلات أثناء قراءته ليجادلوه بالباطل ، فإنه فعل مثل ذلك مع أمم الأنبياء والمرسلين السابقين وأنه تعالى ينسخ ما يلقى الشيطان من الشبه – أى يبطله – بتوفيق النبى – صلى الله عليه وسلم – لرده ، أو بإنزال ما يرده ثم يأتى الله بآياته محكمة لا تنال منها شبهة من الشياطين وأوليائهم .

ثم بينت أنه لا يزال الذين كفروا فى مرية منه لعماهم عن الحق حتى يأتيهم عذاب يوم عقيم ، والملْكُ يومئذ يتفرد به الله ، فيحكم بينهم ويجزى كل امرىء بما قدمت يداه .

وذكرت أن من أدركه الموت بعد الهجرة – سواءٌ أمات حتف أنفه أو قتل فى سبيل الله – فإن الله يرزقه فى الجنة رزقاً حسنا بسبب هجرته ، وأن من عاقب المعتدى بمثل مابدأه به من

الاعتداء ، ثم تمادى المعتدى فإن الله ينصر من بُغِىَ عليه ، ذلك بأن الله هو الحق ، وما يعبده المشركون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير .

ثم تحدثت عن آيات الله فى إنباته من الأرض نباتاً بهيجاً ، وفى تسخيره ما فى السموات والأرض ، وإمساكه السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وفى الإحياء والإماتة ، وذكرت أنه تعالى جعل لكل أمة منسكا وشريعة ، فلا يصح أن ينازعك أحد يا محمد فيما شرعه الله لأمتك من الشريعة العامة الخاتمة ، فإن جادلوك ففوض الأمر إلينا ، فسوف نحكم بينك وبينهم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون .

وتحدثت عن أن معبودات المشركين لا تصلح للعبادة لأنها ضعيفة وقد بلغ من ضعفها أنها لا تستطيع أن تخلق ذبابا ولو اجتمعت لخلقه — وإن سلبها الذباب شيئاً لا تستطيع استعادته منه « ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » وأن المشركين « مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ » .

وأنه تعالى : « يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً » للأنبياء « وَمِنَ النَّاسِ » رسلا للبشر فلا وجه لاعتراض مشركى مكة على اختيار محمد — صلى الله عليه وسلم — للرسالة ، وطالبت المؤمنين فى ختامها بأن يركعوا ويسجدوا ويعبدوا ربهم ويفعلوا الخير ليفلحوا ، وأن يجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده لأنه اجتباهم ، وأنه سبحانه ما جعل عليهم فى الدين من حرج ملة أبيهم إبراهيم ، وأنه سماهم المسلمين من قبل وفى هذا القرآن ليكون الرسول شهيدا عليهم ويكونوا شهداء على الناس ، ولهذا يجب عليهم أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويعتصموا بالله الذى هو مولاهم « فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾)

المفردات :

(زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ) الزلزلة : التحريك الشديد المتكرر الذى يزيل الأشياء عن مقارِّها[١] والساعة :القيامة ، وسميت بذلك لأنها تفجأ الناس فى ساعة لايعلمها إلا الله تعالى ، والزلزلة التى تحدث عند الساعة من صنع الله تعالى ككل الزلازل ، وإضافتها إلى الساعة من إضافة المصدر إلى فاعله مجازا كما فى نحو إنبات الربيع للبقل ، والمنبت فى الحقيقة هو الله ، أو هى من إضافة الحدث إلى زمن حدوثه ، فإن الساعة زمن حدوث تلك الزلزلة الكبرى ، كما أُضيف المكر إلى الليل والنهار فى قوله تعالى : « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ[٢] » .

(تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ) الذهول : النسيان ، والمرضعة : التى تباشر الإرضاع فعلا ، أما المرْضِع ـ بلا هاء ـ فهى مَنْ شأْنها الإرضاع وإن لم تباشر الإرضاع حال وصفها به .

(١) وأصل الكلمة من ز ل عن الموضع أى زال عنه وتحرك ، وزلزل قدمه أى حركها - قاله القرطبى .

(٢) سورة سبأ ، من الآية : ٣٣

التفسير

١ - (يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ) .

الخطاب فى الآية يعم حكمه المكلفين من وقت نزولها إلى أن تقوم الساعة ، والأصل فى الخطاب أن يكون لمن حضر المشافهة به ، ولكن الخطاب الشرعى يعم حكمه كل من يصل إلى سِنّ التكليف فى عهد الرسول أو بعده إلى أن تقوم الساعة وذلك بطريق التغليب عند بعض الفقهاء ، وبطريق الحقيقة عند غيرهم ، وعموم الحكم فى ذلك أمر معلوم من الدين بالضرورة ، سواءٌ أكان بالتغليب أم بالحقيقة ، والزلزلة : التحريك الشديد المتكرر كما تقدم بيانها فى المفردات ، وقد تستعمل فى تهويل الأمر وتعظيم الخطب على سبيل المجاز ، والمقصود بها فى الآية : إما المعنى الحقيقى المصاحب لقيام الساعة بعد النفخة الثانية وفيه يقول الله سبحانه : « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ، وَقَالَ الْإِنسَانُ مَالَهَا ، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ، يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ . فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[١] » .

ويقول أيضا : « إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ . وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ . عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ[٢] » .

وإما أن يقصد بها المعنى المجازى ، وهو مايحدث يوم القيامة من أهوال جسام تجعل الولدان شيبا ، ويكون الناس بسببها سُكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

والزلزلة على كلا المعنيين تكون يوم القيامة ، وبه أخذ ابن عباس ، فقد روى عنه أن زلزلة الساعة : قيامها ، وممن قال بهذا الرأى الحسن .

وقيل : المراد بها زلزلة تحدث قبل قيام الساعة وقبل طلوع الشمس من مغربها ، فقد وردت آثار كثيرة بحدوث زلزلة عظيمة قبل قيامها ، وتكون من أشراطها ، ويقول أصحاب هذا الرأى : إنها تكون قبل طلوع الشمس من مغربها .

والرأى الأول هو الظاهر من الآية - كما يؤذن به صدرها وختامها - فإنه سبحانه دعاهم فيها إلى التقوى خوفا من العذاب الشديد يوم زلزلة الساعة ، فهذا شاهد على أن

---

(١) سورة الزلزلة . (٢) سورة الانفطار ، الآيات من ١ - ٥

المراد بالزلزلة : مايحدث يوم القيامة بعد النفخة الثانية من تغييرات كونية ، يشير إليها قوله تعالى : «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [(١)]»

والمعنى الإجمالى للآية : يٰأيها المكلفون من الناس ذكوركم وإناثكم ، معاصرين لنزول الوحى أو بعده إلى يوم القيامة : اجعلوا لأنفسكم وقاية وحماية من عذاب ربكم وذلك بطاعته فيما أمركم به أو نهاكم عنه ، فإن زلزلة الساعة وأهوال يوم القيامة ، شئ عظيم الخطر منبئ عن مجئ الوعد الحق، حيث تحاسبون على أعمالكم وتجزون عليها .

«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [(٢)]» فالعاقل من أخذ من يومه لغده ، وعمل لما بعد الموت .

وبعد أن نبَّه الله على خطورة الساعة بتعظيم زلزلتها وتهويلها ، عقب ذلك ببيان بعض آثارها على الناس فقال :

٢ - (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَاهُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ) :

تضمنت هذه الآية ثلاثة آثار لزلزلة الساعة ، وما أحدثته من هول ورعب « أولها » أن الأم التى ترضع وليدها فى حنان وإقبال عليه ،تراها حين تحدث زلزلة الساعة الرهيبة ، تنسى وليدها الذى تضعه فى حجرها ، وتنحنى عليه وقد ألقمته ثديها ، تنساه من الرعب الذى هز كيانها ، وعطل أمومتها وأذهل عقلها وجمد حنانها ، وماكانت لتنساه لولا أن الخطب شديد « وثانيها » :أنك ترى الحوامل من شدة الهول والفزع تتعطل أجهزة الإمساك فى أرحامهن فتنحدرالأجنة دون إرادة منهن ، ولايمر الأسى بقلوبهن على أجنتهن ، فالرعب من الحاضر والخوف من المستقبل يستولى على مشاعرهن «وثالثها »:أنك ترى الناس فقدوا الوعى والرشاد ، حتى تحسبهم سكارى من الفزع والاضطراب والهذيان .

والكلام على طريق التمثيل ، وأنه لو كان هناك مرضعة ورضيع لذهلت عنه حال إرضاعها إياه لشدة الهول ، وكذا مابعده ، لأنه لاحمل ولا رضاعة ولا سكر يوم القيامة أما إذا أريد من الزلزلة ماورد حدوثه منها قبيل قيام الساعة وقبيل طلوع الشمس من مغربها ، فيجوز حمل الكلام على حقيقته .

(١) سورة ، إبراهيم الآية : ٤٨ (٢) سورة الزلزلة ، الآية : ٧ ، ٨

والمعنى الإجمالى للآية : يوم ترون آثار هذه الزلزلة العظمى تنسى كل أم ترضع ولدها أنه فى حجرها ، وأن ثديها فى فمه ، وتغفل عنه غفلة تامة ، لشدة ما أصابها من الرعب والفزع والذهول من أهوالها ، وتتحلل عضلات الإمساك فى أرحام الأمهات فلا تستطيع الحفاظ على أجنتها ، فتنحدر تلك الأَجِنَّةُ دون إرادة من أمهاتها . وترى الناس من قُوَّة الهول والفزع كأنهم سكارى من شدة الذهول والهذيان ، وليسوا سكارى على الحقيقة ، ولكن عذاب الله يومئذ شديد عنيف . نسأل الله الأمان واللطف بعباده .

قال الزمخشرى فى كشافه : روى أن هاتين الآيتين نزلتا فى غزوة بنى المصطلق . فقرأهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فلم يُرَ أكثر باكيا من تلك الليلة ، فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام وقت النزول ولم يطبخوا قدرا ، وكانوا من بين حزين وباك ومفكر .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤)

المفردات :

(يُجَادِلُ) : يخاصم ويحاور ، والجدل : شدة الخصومة والمدافعة (مَرِيدٍ) : متجرد للفساد ، من قولهم : شجرة مرداء لاورق لها ، وغلام أَمْرَدُ لمن لم ينبت شعر لحيته .
(تَوَلَّاهُ) : اتخذه وليًّا ومتبوعا .

التفسير

٣ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ) :

تحدثت الآيتان السابقتان عن زلزلة الساعة وأهوالها ومظاهر الرعب التى تحدث فيها وعن وجوب تقوى الله والعمل ليوم الوعيد ، تفاديا للعذاب الشديد . وجاءت هذه الآية

والتى تليها عقبهما ، لتجهيل من يجادل فى الله وقدرته على بعث الناس وحسابهم ، وتحذير الناس من سوء عاقبة الذين يتبعونه ويقتدون به ،وقد نزلت الآيتان فى النضر بن الحارث فقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك رضى الله عنه (أنه كان جَدِلاً يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، والله لايقدر على إحياء من بَلِىَ وصار ترابًا) .

والعبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، فالنص الكريم فى هذه الآية والتى تليها يتناول كل من يتبع أئمة الضلال ، فيجادل فى شئون الله بغير علم .

والمعنى : ومن الناس من يخاصم ويدافع فى شئون الله تعالى بجهالة ، فلا يرجع فى مزاعمه إلى برهان عقلى أو دليل نقلى ، كهذا الذى ينكر البعث والنشور ويستبعده على الله الذى خلقنا أول مرة ، وخلق الأرض والسموات العلى ، وكالذى ينسب إلى الله البنين والبنات فى حين أنه تعالى «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ» وكالذى ينكر معجزة القرآن دون حجة أو برهان ، وهو فى ذلك وأمثاله يتبع كل شيطان مريد متجرد للفساد عَرِىٍّ عن الخير والحق ، من شياطين الجن أو من شياطين الإنس وقد عقَّب الله هذه الآية ببيان مصير أولئك المتبعين لأئمة الضلال فقال :

٤ ـ (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ) :

أى قضى الله على الشيطان المريد من أئمة الضلال أنه من اتبعه وسلك سبيله ، فشأنه أنه : يضله عن سواء السبيل فى دنياه ، بتحسين البدع والمنكرات ، وتزيين المحرمات وفاسد المعتقدات ويسوقه باتباعه فى ذلك إلى عذاب السعير فى أخراه ، فعلى العاقل أن ينظر فى العواقب ، فلا يجعل نفسه تابعا لذى رأى فاسد ، ومذهب ملحد لينجو من سوء المصير .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾

المفردات :

(فِى رَيْبٍ) : فى شك . (مِن نُّطْفَةٍ) : من مَنِيٍّ ، وهى مأخوذة من نطف الماء إذا صَبَّه ، وكذلك المنى يخرج مصبوبا . (مِنْ عَلَقَةٍ) العلقة : قطعة دم جامدة ، وسميت بذلك لعلوقها بجدار الرحم وستأتى لها عدة معان . (مِن مُّضْغَةٍ) المضغة : قطعة لحم صغيرة قدر مايمضغ . (مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) أى : مُسَوَّاة سليمة من العيوب والنقصان وغير مسواة لوجود بعض النقصان فيها ، فيتبع هذا التفاوتَ فى تكوين المضغة ، تفاوتُ الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم ، وتمامهم ونقصانهم[1] ، وسيأتى بيان ماقيل فى تفسير ذلك .

(إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) : إلى وقت سميناه وعيّناه للولادة . (ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ) : ثم لتصلوا إلى كمال قوتكم جسدا وعقلا وتمييزا ، والأَشُد : واحد جاء على وزن الجمع ، أو جمع لا واحد له من لفظه ، وقيل إنه جمع شدة بكسر الشين ، كنعمة وأنعم .

(أَرْذَلِ الْعُمُرِ) أى : أخسه وأدناه وهو زمن الهرَم والخرَف .

---

(١) راجع الكشاف

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً) أى : ميتة يابسة ، يقال : همدت الأرض إذا يبست لاعشب فيها ، وهمد الثوب : إذا بلى .

(اهْتَزَّتْ) أى : تحرك نباتها ، والإسناد إليها مجازى ، أو تخلخلت وانفصل بعض أجزائها عن بعض لخروج النبات . (وَرَبَتْ) : ازدادت بالماء وجذور النبات .

(وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) : وأنبتت من كل صنف حسن يبعث البهجة والسرور فى نفس من يراه .

التفسير

٥ -(يَأَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ...) الآية .

هذه الآية مستأنفة لإقامة الدليل على إمكان البعث ، وإلزام المجادلين فيه الحجة ، بعد أن حكت الآيتان السابقتان جدالهم فى شئون الله ومنها البعث ، وأنهم فى جدالهم يتبعون كل شيطان مريد ، يضلُّهم ويسوقهم إلى عذاب السعير .

فالمراد من الناس فى الآية : المجادلون فى البعث المنكرون له ، والتعبير عن اعتقادهم فيه بالريب والشك مع أنهم جازمون بعدم إمكانه فضلا عن عدم وقوعه ، للإيذان بأن أقصى مايحتمل صدوره ممن لم يشاهد البعث هو الشك فى أمره ، وهذا يزيله البرهان التالى ، أما : ما هم عليه من الإنكار الجازم المصحوب بالمكابرة والعناد ، فخارج عن دائرة الاحتمال .

وخلقهم من تراب إما فى ضمن خلق أبيهم آدم ، وإما لأنهم مخلوقون من النطف وأصلها التراب ، فإنها ناشئة عن الغذاء الذى تغذى به الوالدان ، والغذاء أصله التراب .

والمراد من النطفة هنا : ماء الرجل والمرأة مجتمعين ، ففى ماء الرجل الحيوانات المنوية ، وفى ماء المرأة البويضة[١] فإن الجنين يتولد من الماءين ، ولذا يشبه الولد أبويه ، فإذا حصل اللقاء بين الرجل والمرأة ، التقى الماءان فى القناة التى بين الرحم والمبيضين ، فيحصل

---

(١) وهى تخرج منها مرة كل حيض شهرى .

فيها تلقيح البويضة بأقوى الحيوانات المنوية[١] إن أراد الله خلق جنين من لقائهما - وبعد التلقيح تتكون الخلية الأولى ، وتنقسم بسرعة إلى خليتين ، ثم إلى أربع ثم إلى ثمان - وهكذا - وفى اليوم الرابع للتلقيح تكون قد وصلت فى انقساماتها إلى مجموعة كثيرة من الخلايا متماسكة ، فتنزلق إلى الرحم ، وبعد سبعة أيام ونصف من التلقيح تقريبا تلتصق بجدار الرحم فى قرار مكين وحولها غشاء يقيها ، ويكون الجنين حينئذ طبقة من الخلايا لاتمييز بينها .

وتظل الخلايا فى نموها وتكاثرها وتطورها ، وفى خلال الأسبوع الثالث يبدأ التمييز لما تخلَّق منها .

فإذا مضى أربعون يوما من التلقيح ، انتهى طور التحولات الأولية للنطفة ، وذلك هو الْمَعْنِىُّ بالفقرة الأولى من قوله -صلى الله عليه وسلم- : (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا ويؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح . . .) الحديث أخرجه البخارى بسنده عن ابن مسعود[٢]

والعلقة فى اللغة : واحدة العلق ، وتُطلق على الدم الغليظ والجامد ، وعلى دودة فى المياه الراكدة تعلق بالجسد فتمتص دمه ، وعلى كل مايعْلِق بغيره أو يُعَلَّق عليه ، ويبدأ طور العلقة بعد أربعين يوما من بدء الحمل ، كما جاء فى الحديث الشريف .

واللائق بحال التطور الذى حدث للنطفة ، أن يكون إطلاق لفظ العلقة على الجنين حينئذ ، لأنه يشبه الدودة العالقة فقد حدث له بعض التصوير الأولى فى مَبْدأ طور العلقة ، وهو عالق بجدار الرحم ، وليس مجرد دم جامد كما يقولون .

فإذا مضى على هذا الطور أربعون يوما اتضح تصويره أكثر من ذى قبل ، ووصل وزنه إلى خمسة وعشرين درهما ، وامتد طوله إلى ثمانية سنتيمترات ، وبهذا ينتهى طور العلقة

---

(١) ليكون نسل الإنسان قويا ، كما تفعل اليعسوب (ملكة النحل) فإنها تختار أقوى الذكور لتلقيحها ، وحجم البويضة أكثر من ضعف حجم الحيوان المنوى ، وكلاهما فى غاية الصغر ، فالحيوان المنوى يساوى ٦/ ١٠٠٠ «ستة على ألف» من المليمتر ، ولايرى إلا بمنظار مكبر - تعاليت يا الله -

(٢) كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة - كما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه .

ويليه طور المضغة الذى يستمر أربعين يوما أخرى كما جاء فى الحديث « ثم يكون مضغة مثل ذلك » .

والمضغة فى اللغة : مايمضغ من لحم وغيره وهى فى أصل الإنسان : قطعة لحم فيها بعض التصوير ، وسميت بذلك لأنها فى مجمل مظهرها تشبه فى أوّل طورها قطعة لحم قدر مايمضغ ، إذْ أنها حينئذ تزن خمسة وعشرين درهما تقريبا ، وطولها ثمانية سنتيمترات كما تقدم ، ويظل الجنين فى طور المضغة ينمو وينتقل فى التصوير إلى ماهو أكمل حتى يتم خلقه فى نهايته ، فيكون وزنه نحو سبعين درهما ، وطوله نحو ثمانية عشر سنتيمترا ، وحينئذ تبدأ حركته فى بطن أمه حيث قد نفخت فيه الروح ، وهذا هو الذى يشير إليه قوله تعالى : « ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »[١] .

ويشير إليه قوله – صلى الله عليه وسلم – بعد دور المضغة : « ثم ينفخ فيه الروح » وبهذه الحركة تطمئن الأُم على حياة جنينها .

والمقصود من نفخ الروح فيه حينئذٍ إعطاؤه دفعة قوية من الحياة تمكنه من الحركة فى بطن أمه بعد أن تم خلقه ، أما أصل الحياة فموجود فى الحيوان المنوى والبويضة قبل التلقيح ، ثم فى الخلية الأُولى التى نشأتْ من تلقيحه لها ، ولولا الحياة فيهما لما تكونت تلك الخلية ، ولولا استمرار الحياة لما تكاثرت وتطورت حتّى أصبحت شيئا آخر مخالفا لأَصلها .

ويستمر الجنين فى النمو وهو محاط بثلاثة أغشية ، وفى نهاية الشهر التاسع يكون قد اكتمل نموه ، وأصبح صالحا لأَن يعيش خارج بطن أمه ، فيولد غالبا إن لم يكتب الله له البقاء فى بطن أمه أكثر من تسعة أشهر[٢] .

والمراد من قوله فى المضغة (مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) : أنها صالحة لكمال التخليق والتصوير ، لخلوها من العيوب ، وغير صالحة لهذا الكمال ، لوجود بعض العيوب فيها ، فينشأُ عن

---

(١) سورة المؤمنون من الآية : ١٤

(٢) إذا ولد الجنين لتسعة أشهر يكون طوله من خمسة وأربعين إلى خمسين سنتيمترا ، ووزنه من ثلاثة إلى ثلاثة ونصف كيلو جرام فتبارك الله أحسن الخالقين .

ذلك التفاوت فى خلق الإنسان فبعضه يكون كامل الخلق سالما من العيوب ، وبعضه الآخر يكون به بعض النقصان والعيب فى صورته وفى طوله وقصره وأعضائه ووظائف تلك الأعضاء[1] وغير ذلك .

وفسَّر بعضهم المخلقة بالمصورة ، وغير المخلقة بغير المصورة ، والمراد تفصيل حال المضغة ، وبيان كونها أولا قطعة لحم لم يظهر فيها شئ من الأعضاء ، ثم ظهرت شيئا فشيئا ، ولكن هذا المعنى يقتضى تقديم غير المخلقة على المخلقة ، مراعاة للتدرج فى الخلقة .

وروى عن مجاهد وغيره : أن المخلقة التى تواردت عليها أطوار التخليق حتى تمت مدة الحمل ، وغير المخلقة التى لم يتم لها ذلك وسقطت ، وأوردوا على هذا الرأى : أن الآية فى خلق الإنسان من نطفة فعلقة ، فمضغة ، فكيف يخلق الإنسان من نطفة ساقطة فى أى طور من أطوارها ، والرأى الأول هو المناسب للمعنى ولتفاوت حال الخلائق كمالاً ونقصانا والمعنى الإجمالى لهذا الجزء من الآية مايلى :

يـأيها الناس المنكرون للبعث المجادلون فيه بغير علم : إن كنتم فى شك فى إمكانه وحصوله ، فلا مجال لإنكاركم ولا لِشَكِّكُم ، فإنا خلقناكم أصلا من تراب فى ضمن خلقنا لأبيكم آدم ، ثم قدَّرنا فى خلقكم منهاجاً آخر حيث خلقناكم من نطفة الوالدين ، وذلك أنه حين تلتقى النطفتان تنشأ عن لقائهما بمشيئتنا الخلية الأولى لتكوين الإنسان ثم تتكاثر تلك الخلية بانقسامها السريع إلى خلايا متماسكة ، ثم تستقرُّ مِنَ الرحم فى قرار مكين بأمرنا ، ثم طورنا هذه النطفة فى الرحم حتى وصلت إلى طور العلقة ، حيث يصبح الجنين فيها كالدودة العالقة بالرحم ، بعد أن أفضنا عليه شيئا من التخليق والتكوين ثم كبَّرنا هذه العلقة حتى جعلناها فى حجم المضغة ، وجعلنا هذه المضغة كاملة التخليق ، بحيث ينشأ عنها إنسان كامل التكوين ، أو ناقصته لينشأ عنها إنسان ناقص فى تكوينه ، بأن يكون دون الأول فى الحسن وجمال التصوير ، أو فى تمام الأعضاء وقيام الأجهزة الجسمية بأداء وظائفها ونحو ذلك ـ خلقناكم على هذا النمط البديع المتفاوت ـ لكى

---

(١) وهذا المعنى مأخوذ من قولهم : خلق السواك والعود أى : سواه وجعله صالحا للاستعمال ، فالمضغة المخلقة على هذا بمعنى المسواة السالمة من العيوب ، وغير المخلقة مافيها بعض العيوب وإلى هذا المعنى ذهب الزمخشرى وغيره .

تبين مالا يمكن حصره من عظمة الخالق وحكمته وكامل تدبيره وعظيم قدرته وغير ذلك من عظائم الأمور التى من جملتها البعث والنشور فإن من تأمّل ماذكر من الخلق التدريجى جزم بأن من قدر على خلق البشر من تراب لم يذق طعم الحياة ، وأنشأه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى ، بتصريفه فى أطوار الخلقة وتحويله من حال إلى حال ، مع مابين تلك الأطوار من المخالفة والتباين فهو قادر على إعادته بعد موته ، بل هو أهون فى القياس .

ثم بين الله حال الجنين بعد تلك الأطوار فقال سبحانه :

(وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَانَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) :

فهذه الجملة مستأنفة لبيان مستقبلهم بعد تلك الأطوار .

والمعنى : ونثبت فى الأرحام بعد تلك الأطوار ما نشاءُ بقاءه فيها إلى أجل نسميناه لوضع كل جنين منكم بعد تمام خلقه وكمال نموه وصلاحيته لأن يعيش خارج بطن أمه ، وغالبُه تسعة أشهر ، ويقول الفقهاءُ : أدناه ستة أشهر ولحظتان للوطء والوضع ، وأقصاه عند الحنفية سنتان ، وعند الشافعية أربع سنين وهذا نادرٌ جداً .

(ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا أَشُدَّكُمْ) : المراد بالطفل هنا : الأطفال ، فإنه يطلق على الواحد والجمع ، أى : ثم نخرجكم بعد مدة الحمل التى أردناها ـ نخرجكم أطفالا بعد أن كنتم أجنة ، ثم نُنَمِّى أجسادكم وقواكم لتبلغوا أشدكم وكمالكم فى الجسم والعقل .

أما الذى لانشاءُ إقراره فى الأرحام ، فإننا نسقطه منها فى أول زمن الحمل أو فى آخره أو فيما بينهما ، تبعا لحكمتنا .

ثم بيَّن الله أحداثا أخرى تحدث بعد الولادة فقال على سبيل الاستئناف :

(وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) أى : ومنكم من يموت قبل بلوغ الأشد أو فى أثنائه ومنكم من يبقى بعد بلوغ الأشد ويرتد إلى أخس العمر وأحقره ، حيث يمعن فى الشيخوخة والهرم ، فتضعف قواه الجسدية والعقلية ، وينتهى أمره إلى أن ينسى ما علمه من قبل ، ولا يقبل علما جديدا بعد ، وذلك زمَنُ

الخرفِ والخيالات التى لا أصل لها ، حيث يعود إلى ضحالة الطفولة وسذاجتها وسوء التصرف فيها .

وقد أوصى الله الأولاد بالإمعان فى الإحسان إلى الوالدين فى هذه المرحلة الخطيرة ، والتجاوز عما عسى أن يحدث فيها منهم ، وألا يقابلوهم بالتأفف والانتهار ، إذ قال : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا »(١)

وقد أجمل الله أطوار حياة الإنسان بصورة أخرى غاية فى الاختصار والبلاغة ، حيث قال فى سورة الروم :

« اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ »(٢) .

وهذه الأطوار التى نشاهدها فى خلق الإنسان ، نشاهد مثلها فى الحيوان والنبات ، وينتهى الكل إلى ممات ، ولا يبقى سوى الديان « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »(٣) .

(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) :

هذا دليل آخر يسوقه الله تعالى حجة على أن البعث حق لا شك فيه ، والخطاب فيه لكل ذى عينين ممن يجادلون فى البعث وغيرهم ، والمعنى : وترى أيها الانسان بعينيك — ترى الأرض — يابسة لا نبات فيها فإذا اشتملت على البذور وأنزلنا عليها الماء ، دبت الحياة إلى البذور ، فأخرجت جذورها لتعلق بجوف الأرض وتتشبث بها — كما علقت النطفة برحم الأم وتشبثت منه بقرار مكين — وأخرجت براعمها وأشطاءها فوق سطح

(١) سورة الإسراء ، الآيتان : ٢٣ ، ٢٤
(٢) الآية : ٥٤
(٣) سورة الرحمن ، الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

الأرض ، وقد اهتزت بذلك وعلت قشرتها ، وأنبتت من كل صنف حسن المنظر لذيذ الطعم طيب الريح ، من مختلف أنواع النبات والطعوم والأشجار المورقة المثمرة ، وشجيرات الزينة ذات المنظر المونق ، والعبير الذى يشرح الصدور .

ولا شك أن البعث يتجلي فى النبات واقعياً من آن لآخر ،فإنه كلما يبس ومات بعثه الله من جديد ، بإفاضة الماء على بذوره فى جوف الأرض ، فتدب الحياة فيها ، فتخرج جذورها لتستقر بها ، وتنبت براعمها وأشطاءها محيطة بسيقانها بقدرة الله الحكيم الخبير ، ونرى فيها من كل زوج بهيج مرة بعد أخرى ، فهل بعث الإنسان بعد موته يختلف عن هذا فى كثير أو قليل ؟ وصدق الله إذ يقول : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ[1] » .

(ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾)

المفردات :

(الْحَقُّ) : الثابت الذى لا شك فى وجوده .

(لَا رَيْبَ فِيهَا) الريب : الشك ، والمراد من نفى الشك فى الساعة : أنها لا ينبغى أن يحدث فيها شىء من الشك لوضوح أدلتها ، وإن شك فيها الجاهلون .

---

(١) سورة يس ، الآيتان : ٧٨ ، ٧٩

التفسير

٦ - (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : هذا كلام مستأنف لبيان السر فى تطورات خلق الإنسان والنبات، والسبب الحقيقى فيها وما تدل عليه من تحقيق البعث .

والمعنى : ذلك الذى تقدم بيانه من خلق الإنسان فى أطوار مختلفة ، ابتداء بخلقه من التراب وانتهاء بجعله فى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، ومن خلق النبات بمثل تلك الأطوار - ذلك كله شاهد بأن الله هو الحق الموجود الذى بيده الأمر كله ، وأنه تعالى مِنْ شأنه إحياء الموتى بدءا وإعادة ، وإلا لما أحيا النطفة والأرض الميتة مرة بعد أخرى وأنه سبحانه قادر تمام القدرة على كل شىء . « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ »[1] .

٧ - (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ) : معطوف على أن الله هو الحق ، داخل معه فى حيز السببية والشهادة أى : ذلك التطور فى خلق الإنسان والنبات حاصل وشاهد بأن الله هو الحق ، وأن مِنْ شأنه إحياء الموتى كما ترون فى تطويره الإنسان والنبات وأنه على كل شىء قدير ، ولهذا قَدَرَ على إبداع هذا الكون ، وأن الساعة التى يُنْهِى فيها الحياة الدنيا ستأتى من غير شك فى مجيئها ، وأن الله سوف يبعث من فى القبور ليحاسبهم فى أخراهم على ما قدموه فى دنياهم ، « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[2] . فلهذا يريكم الآيات لعلكم تتفكرون .

والتعبير بلفظ «آتية» بدلا من لفظ «ستأتى» للدلالة على تحقق إتيانها ولابد ، لاقتضاء الحكمة مجيئها حتى يأخذ المحسن جزاء إحسانه والمسىءُ جزاء إساءته ، وإلا لضاع على كل ذى حق حقه ، ولتساوى المحسن بالمسىء فى مصيره ، وذلك مناف لعدالة الله وحكمته.

---

(١) سورة يس ، الآيتان : ٨١ ، ٨٢

(٢) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

وإنما قال سبحانه : « لَا رَيْبَ فِيهَا » مع أن الملحدين يرتابون فيها للإيذان بأنها فى ظهور دلائلها ووضوح أمرها بحيث لا يصح أن تكون مجالا للارتياب فيها ، ولا تصلح مظنة للشك على الإطلاق .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(يُجَادِلُ) : يخاصم ويناوىء . (فِى اللهِ) : فى ذاته أو صفاته . (بِغَيْرِ عِلْمٍ) : بغير يقين ضرورى (وَلَا هُدًى) : ولا نظر سديد يهديه إلى الحق . (وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) : ولا كتاب سماوى يضىء له سبيل الحق . (ثَانِىَ عِطْفِهِ) العِطْفُ : الجانب ، وثَنْيُهُ لجانبه : كناية عن الإعراض تكبرا . (خِزْىٌ) : ذل وهوان

التفسير

٨ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) .

هذه الآية مستأنفة لبيان حال الذين يكابرون فى الحق بلا دليل ، ويؤمون غيرهم فى الضلال ، أما الآية السابقة « وِمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ » الخ فنى بيان حال من يقلدونهم ويتبعونهم ، ويجوز أن تكون هذه معطوفة على تلك للغرض المذكور[1] وأئمة الضلال فى مكة أشهرهم أبو جهل والنضر بن الحارث

(١) ويرى ابن عطية أن هذه الآية تكرار للآية السابقة لغرض التوبيخ فكأنه قيل : هذه الأمثال فى غاية الوضوح والبيان ، ومن الناس من يجادل فى شئون الله الخ ، والواو للحال على هذا الوجه .

والأخنس بن شريق ، فقد كانوا يجادلون فى شئون الله بغير حق ليصرفوا الناس عن الهدى الذى بعث به محمد -صلى الله عليه وسلم- .

والمعنى : وبعض الناس يجادل فى شئون الله فينكر البعث والنشور ، والحساب والجزاء، ويجعل الملائكة بنات الله ، وينكر اصطفاءه أنبياء من البشر ، وغير ذلك مما أكثروا فيه الجدل ، دون أن يكون لديهم علم يقينى ضرورى بما يقولون ، أو استنباط نظرى يهديهم إلى الحق ، أو كتاب سماوى ينير لهم سبيله ، وكل جدل لا يقوم على شىء من تلك القواعد ، فهو منهار وضلال مبين .

٩ - (ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ) :

أى : ومن الناس من يجادل فى الله بجهالة ، لاويا جانبه ، معرضا عن الحق مستكبرا عليه ، يفعل ذلك لكى يضل الناس عن سبيل الله ، ويصرفهم عن اتباع الحق ، له بسبب ذلك خزىٌ وذلٌ وهوان فى الدنيا حين يصرعه الحق ويرتفع لواؤه ، ويبطل باطله ويزول أثره ، ونذيقه يوم القيامة عذاب النار الشديد الإحراق .

١٠ - (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) :

ذلك الذى تقدم من خزى الذى يضل عن سبيل الله وعذابه ، بسبب ما حدث منه من الكفر والمعاصى ، وأنه تعالى لا يحدث منه ظلم لعبيده .

والتعبير عن نفى مطلق الظلم عنه تعالى بصيغة المبالغة « لَيْسَ بِظَلَّامٍ » لتأكيد نزاهته عنه بتصوير التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) ﴾

المفردات :

(عَلَى حَرْفٍ) : على طَرف من الدين . (فِتْنَةٌ) : شرٌّ وبلاءٌ .

(انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ) : ارتد إلى الكفر (الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) : الخسران البين الواضح من أبان بمعنى :اتضح وظهر (الضَّلالُ الْبَعِيدُ) : الانحراف البعيد عن الحق .

(يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ) : يقول الكافر لصنمه يوم القيامة بصوت مرتفع حين اتضح له أن ضره أقرب إليه من نفعه . (لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) : لبئس الناصر ولبئس المصاحب أنت أيها الإله الذى كنت أعبده .

التفسير

١١ -(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) :

لقد صورت الآيات السابقة صنفين من أهل الضلال ، أولهما ، من يجادل فى الله بغير علم متبعا فى جداله أئمة الكفر من كل شيطان مريد . وثانيهما : من يجادل

فى الله بجهالة ، ولكنه يغطى جهالته بِثَنْيِ عطفه وخيلائه سَتْراً لجهالته وادعاءً للزعامة والإمامة على من دونه من الكافرين ، لكى يتبعوه فى سفهه وجداله بالباطل ، وجاءت هذه الآية لتصور صنفاً ثالثاً منهم ، وهم أولئك المذبذبون فى عقائدهم ، الذين لايستقرون فيها على حال ، بل يتقلبون فيها وفق المنافع والمضار .

أخرج البخارى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : « كان الرجل يقدم المدينة ، فإذا ولدت امرأته غلاما ونُتِجَتْ خيله قال هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء »وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد قال : أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده ، فتشاءم من الإسلام ، فأتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : أَقِلْنِى . فقال : « إن الإسلام لا يُقَال » ، فقال : لم أصب من دينى هذا خيرًا . ذهب بصرى ومالى ومات ولدى ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « يايهودى : الإسلام يَسْبِكُ الرجال كما تسبك النارُ خَبَثَ الحديد والذهب والفضة » فنزلت الآية .

وعن الحسن أنها نزلت فى المنافقين ، ونحن نقول : سواءٌ كان سبب نزولها هذا أو ذاك ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالآية فيمن يتَّجِرُ بالدين ، ولا يؤمن عن يقين .

والمعنى الإجمالى للآية : ومن الناس من يعبد الله على طرف من الدين لا تعمق له فيه ، فإن أصابه خير دنيوى كالرخاء والصحة والولد ، ثبت على هذا الطرف ثبات المستفيد لا ثبات المؤمن المتيقن ، وإن أصابته فتنة ومكروه فى نفسه أو أهله أو ماله ، انقلب على وجهه الذى كان متجها إليه ، فارتد ورجع عن دينه ، ومثله فى ذلك كمثل الجندى الخائر العزيمة ، جبان القلب ، يكون فى طرف الجيش ، فإن أحسَّ بظفر وغنيمة بقى ليحرزها ، وإن أحس بهزيمة لاذ بالفرار ملطخا بالعار .

وقد بين الله عاقبة كفره وارتداده فقال :

﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾فأما خسارته فى دنياه فعدم حصوله منها على ما يريد ، وتعرضه للقتل إن عُرِفَتْ رِدَّتُه ، وأما خسارته فى الآخرة فالعذاب الأليم والسعير الدائم ، وذلك هو الخسران الواضح الذى لايخفى على ذوى الألباب .

١٢ ـ (يَدْعُوا مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَضُرُّهُ وَمَالاَ يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيد):

هذه الآية مستأنفة لبيان حاله فى دنياه بعد ردته عن الإسلام ونكوصه على عقبيه بعد الإقدام .

والمعنى : أن هذا الذى انقلب على وجهه وارتد عن الإسلام ، لفوات المنافع الدنيوية التى كان يرجوها منه ، يعبد من دون الله أو يدعو لحاجته مالا يضره إن كفر به ومالاينفعه إن آمن به وعبده أودعاه ، فهو مخلوق لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، فكيف يملكها لسواه ذلك الانصراف عن الحق إلى الباطل هو الضلال البعيد عن سبيل النجاة .

١٣ ـ (يَدْعُوا لَمَن(١) ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ) :

وهذه الآية مستأنفة أيضاً لبيان مآل دعائه وعبادته غير الله تعالى .

والمعنى : أن من انقلب عن الإسلام وعبد غير الله أو دعاه . يقول يوم القيامة حين يعذب بسبب معبوده الذى ارتد إليه ،وكان يأمل شفاعته أو حمايته يقول نادما بصوت مرتفع : المولى الذى ضرره أقرب تحققا من نفعه والله لبئس المولى الذى يتخذه الإنسان لنفسه ناصرا ، ولبئس العشير الذى يصطفيه عشيرا ، فكيف بما هو ضرر محض لا نفع فيه ؟ .

وقد استفيد من هذه الآيات الثلاث أن الله تعالى لا يقبل النفاق فى الدين ، والتجارة بالعقيدة ، فليس لله من الدين إلا الدين الخالص ، والعقيدة الثابتة ، وأن الصبر على البلاء واجب كل مؤمن ، وميزة كل تقى . ولهذا قال ـصلى الله عليه وسلمـ : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتَلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صُلْباً اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقَّةٌ ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » أخرجه البخارى وغيره .

---

(١) يدعو بمعنى ينادى بصوت مرتفع ، واللام فى قوله (لمن) موطئة للقسم ، و (من) اسم موصول مبتدأ ، و (ضره) مبتدأ ثان مضاف إلى الهاء ، و (أقرب من نفعه) خبر المبتدأ الثانى ، والجملة من المبتدأ الثانى وخبره صلة الموصول وهو لفظ (من) وجملة لبئس المولى ولبئس العشير جواب قسم مقدر أى والله لبئس المولى ولبئس العشير ، وجملة القسم، وجوابه خبر المبتدأ الأول وهو لفظ(من) أى : ينادى المشرك قائلا يوم القيامة للمعبود الذى ضره أكثر من نفعه : والله لبئس المولى ولبئس العشير .

(إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ
يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) : تجرى من تحت قصورها وأشجارها .

(فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ) : فليمدد بحبل . (إِلَى السَّمَآءِ) : إلى سقف بيته ، وكل ما علاك سماء.

(ثُمَّ لْيَقْطَعْ) : ثم ليختنق ، من قطع بمعنى اختنق - كذا فسره ابن عباس ولعلهم أطلقوا القطع عليه لما فيه من قطع النَّفس ، وقيل المعنى : ثم ليقطع الحبل بعد الاختناق ، على أن المراد به فرض القطع وتقديره تهكما .

التفسـير

١٤ - (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) :

بعد أن حكت الآيات السابقة حال أصناف ثلاثة من الكفرة ،وسوء مآلهم ، جاءت هذه الآية للإخبار عن حسن مآل المؤمنين الصادقين ، وجميل ثوابهم فى جنات النعيم .

والمعنى : إن الله يثيب المؤمنين الصادقين الثابتين على دينهم ، الذين يعملون الصالحات وفق شريعتهم ، فيدخلهم فى الآخرة جنات وبساتين تجرى بينها الأنهار ، تحت القصور

والأشجار ، إن الله يفعل ما يريد ، فيثيب المحسن جزاء إحسانه ويعاقب المسىء جزاء إساءته «وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ» .

١٥ ـ (مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ) :

تضمنت الآيات السابقة سُوء حال طوائف من الكفار وسوء عاقبتهم ، وحسن حال المؤمنين بالله ورسوله وجزيل ثوابهم ، ولما كان ما يصيب هؤلاء وأولئك يعتبر نَصْرًا من الله لرسوله ، جاءت هذه الآية لتؤكده وتحققه ، وتتحدى من يقف فى سبيله -صلى الله عليه وسلم- . وتعده بالنصر الحاسم فى الدارين .

والمعنى : أنه تعالى ناصر رسوله -صلى الله عليه وسلم- فى الدنيا بإعلاء كلمته وإظهار دينه ، وفى الآخرة بإعلاء درجته ، وإدخال من صدَّقه جنات تجرى من تحتها الأنهار ، والانتقام ممن كذبه بعذاب الحريق ، لا يصرفه عن ذلك صارف ، ولا يمنعه مانع ، فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه ، ويظن أنه تعالى لا يحققه ، بسبب مدافعته ومكايده ، فليبالغ فى استفراغ الجهد فغاية أمره خيبة مساعيه ، وعقم مقدماته وفساد مؤامراته ، وبقاء ما يغيظه من نصر الله لرسوله ، وقد وضع مقام هذا الجزاء قوله تعالى : « فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ » لغرض التحدى والتهكم ، ومعناه : فليمدد بحبل إلى سقف بيته ثم ليختنق بهذا الحبل الذى وضعه غُلاًّ فى عنقه ، فلينظر وليتأمل هل يشفيه من الغيظ قتله نفسه حسرة على نصر الله لرسوله؟ وتفسير القطع بالاختناق مروى عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وغيرهم ، مأخوذ من قطع إذا اختنق ، لأن الغُلَّ يقطع النفس إذا ضاق على العنق .

وخلاصة معنى الآية : من ظن أن الله لا ينصر نبيه محمدا وكتابه ودينه وأمته المؤمنة ، وكان هذا النصر يغيظه ، فليذهب فليقتل نفسه فإن الله ناصره لا محالة ، قال تعالى : « إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ »[1] .

---

(١) سورة غافر ، الآيتان : ٥١ ، ٥٢

١٦ - (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ) :

أى : وكما أنزلنا الآيات السابقة واضحة الدلالة على خذلان الباطل وأهله ، ونصر الحق وذويه ، أنزلنا القرآن كله آيات واضحات الدلالة على معانيها الصافية الجلية ، ولأن الله تعالى يهدى من يريد هدايته ، ممن أقبل عليه وشرح الحق صدره - أنزل القرآن على هذا النحو البديع ليكون داعيهم إلى الهدى ، وقائدهم إلى سواء السبيل .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(وَالَّذِينَ هَادُوا) : هم اليهود ، ولعل التعبير عنهم بالذين هادوا لرجوعهم إلى الله وتوبتهم من عبادة العجل بعد عودة موسى من مناجاة ربه . (وَالصَّابِئِينَ) : أصحاب دين أقاموه على الروحانيات ، وسنعرض لتفصيل أمرهم فى تفسير الآية ، والصابئون من :صَبَأَ ، وله عدة معان ، منها : خرج من دين إلى دين وهو من باب منَع وكرُمَ ويستعمل بمعنى : صار ، وبمعنى : طلع كما فى قولهم : صَبَأَ النَّجْمُ كأَصْبَأَ .

(وَالْمجُوسَ) : قوم يعبدون الشمس والقمر والنار على ما روى عن قتادة .

(يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ) : يحكم بينهم ، ويجزى كلا على حسب عقيدته وعمله .

(شَهِيدٌ) : أى مراقب وعليم .

(أَلَمْ تَرَ) : ألم تعلم . (يَسْجُدُ) : يخضع ويذل .

التفسير

١٧ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) :

حكى الله فى الآيات السابقة سوء أحوال الكفار- تابعيهم ومتبوعيهم والمذبذبين منهم - وبين سوء مصيرهم ومنقلبهم ، وبين حسن حال المؤمنين الصالحين وجميل مثوبتهم ، وختم ذلك ببيان أنه تعالى مؤيد رسوله بالنصر والغلبة فى الدنيا والآخرة ، وجاءت هذه الآية الكريمة لتؤكد نصره فى الآخرة على جميع الفرق الكافرة .

وقد ذكر الله فى هذه الآية ست فرق يفصل الله بينها يوم القيامة ، أولاها : المؤمنون ، والمقصود بهم فى هذا المقام :من آمن بالله ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم - ، وثانيها : الذين هادوا وهم المعروفون باليهود ، ولما ذهب موسى لميقات ربه ، صنع لهم السامرى عجلا جسدا له خوار ، وقال : هذا إلهكم وإله موسى فعبدوه ، فأخبره الله بما صنع قومه فرجع إليهم غضبان أسفا ، ووبخهم على ما فعلوا ، وطلب إليهم التوبة ، وقد حكى الله ذلك فى عدد من السور ، ومنها قوله تعالى فى سورة البقرة : « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »(١)

فمعنى كونهم هادوا :أنهم رجعوا إلى الله وتابوا عن عبادة العجل فتاب عليهم ، أى :قبل توبتهم ، فلهذا أطلق عليهم القرآن : (الذين هادوا) مراعاة لما كان من أجدادهم ، وأما المعاصرون للنبى -صلى الله عليه وسلم- فهم مكلفون بالإيمان بالنبى -صلى الله عليه وسلم- ومن لم يؤمن به فهو كافر ، كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ »(٢) .

(١) الآية : ٥٤ (٢) سورة البينة ، الآية : ٦

وثالثها : الصابئون ، وقد جاء عنهم فى كتاب – الملل والنحل – للشهرستانى : أنهم كانوا على عهد إبراهيم – عليه السلام – ويقال لمقابليهم : الحنفاء ، وكانوا يقولون : إنا نحتاج فى معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأحكامه – جل شأنه – إلى متوسط روحانى لا جسمانى – ومدار مذهبهم على التعصب للروحانيات ، وكانوا يعظموها غاية التعظيم ويتقربون إليها ، ولما لم يتيسر لهم التقرب إليها والتلقى منها بذواتها ، فزعت جماعة منهم إلى هياكلها ، وهى السبع السيارات وبعض الثوابت ، فصابئة الروم مفزعها السيارات ، وصابئة الهند مفزعها الثوابت ، وربما نزلوا عن الهياكل إلى الأشخاص التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى شيئاً وهى الأصنام .

والفرقة الأولى هم عبدة الكواكب ، والثانية هم عبدة الأصنام . وقد أفحم إبراهيم كلتا الفرقتين وألزمهم الحجة – وذكر الشهرستانى فى موضع آخر من كتابه : أن ظهورهم كان فى أول سنة من ملك طهمورث من ملوك الفرس اهـ[1] وذكر صاحب كتاب «الصابئة» أنه توجد فى سهول الموصل جماعة منهم يؤمنون بأن الخالق واحد أزلى لا أول لوجوده ولا نهاية له ، منزه عن عالم المادة والطبيعة ، وهو الذى أوجدها ، ولكنهم مع هذا يتقربون إليه بعبادة الأفلاك والكواكب ، زاعمين أنها أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى ، وأنها حية خالدة ناطقة ، وأن كل ما يحدث فى العالم يكون على حسب ما تجرى به الكواكب حسب أمر الله لها – كما زعموا – فعظموها ثم جعلوا لها تماثيل وأصناماً ترمز إليها فعبدوها[2]

ونحن نقول : إنهم بجميع فرقهم كفار ، ولا يغنيهم اعترافهم بوجود الله على النحو الذى مرَّ بيانه ، لأنهم كالمشركين الذين أشركوا الأصنام مع الله فى العبادة ، مع اعترافهم بأنه – تعالى – هو الخالق . وقد جاء الإسلام لمحاربة الشرك فى جميع صوره ، قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ » .

---

(١) انظر الآلوسى فى الآية ، فعنه نقلنا ماتقدم عن الصابئة .

(٢) ومن العلماء من أباح ذبائحهم ونكاح نسائهم ومنهم من منع ذلك ، انظر القرطبى فى تفسيره : « الصابئين » فى آية البقرة ج ١ ص ٤٣٤

ورابعها : النصارى وعقائدهم فى المسيح معروفة ، وهم كافرون بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وخامسها : المجوس وهم كما قال الآلوسى -نقلا عن الشهر ستانى- :طوائف كانت قبل اليهود والنصارى ، يؤمنون بالشرائع على خلاف الصابئة ، ولهم شبهة كتاب ، وهم يعظمون النار . وروى عن قتادة : أنهم كانوا يعبدون الشمس والقمر والنيران ، وقال القرطبى : هم عبدة النيران القائلون بأن للعالم أصلين : نوراً وظلمة .

وسادسها : الذين أشركوا ، وهو وصف شامل لكل من عبد غير الله فيدخل فيه عبدة الحيوان والأنهار والأمهات والآباء ونحوهم ، ممن لا يزالون على تلك المناهج فى الهند والتبت وأفريقيا وغيرها ، وكل هذه الفرق كافرة عدا الفرقة الأولى التى آمنت بالله ورسوله .

والمعنى الإجمالى للآية : إن الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه ، واليهود الذين يعاصرون الإسلام ، والصابئين على اختلاف فرقهم التى مرّ بيانها ، والنصارى المعاصرين للإسلام على اختلاف مذاهبهم ، والمجوس ، والذين أشركوا بالله رب العالمين - أشركوا به - غيره من خلقه فى العبادة ، إن هؤلاء جميعاً يقضى الله بينهم يوم القيامة فيظهر المحق منهم وهم المؤمنون ، والمبطل منهم وهم سائر الفرق ، ويجزى كلا على حسب حاله ، فيثيب المؤمنين ويعذب سواهم ، وما ربك بظلام للعبيد ، إن الله مراقب لعباده شهيد على أعمالهم محيط بعقائدهم وما كسبته جوارحهم فهو على كل شىء شهيد وبكل خلقه عليم .

١٨ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ :

هذه الآية جاءت لتأكيد قدرة الله على الفصل بين هذه الفرق التى ذكرت فى الآية السابقة وهى التى اختلفت إيماناً وكفراً ، ببيان خضوع كل شىء فى هذا الكون له تعالى ، ومن كان كذلك فإنه لا يصعب عليه الفصل بين من أطاعه ومن عصاه ، والرؤية فى قوله

(أَلَمْ تَرَ) : رؤية القلب والعقل ، فهى بمنزلة أَلَمْ تعلم ، والمراد بالسجود هنا : الخضوع ، وهو عام فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد فكل ما فى الكون خاضع لتدبير الله وأحكامه ، والمراد بمن فى السموات والأَرض :ما فيهما بطريق القرار فيهما أو الجزئية منهما « فَمَنْ » مستعملة هنا للعاقل وغيره ، كما تستعمل (ما) فى مثل ذلك أحياناً .

وإفراد الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب بالذكر مع دخولها فى عموم من يسجد له تعالى فى السموات والأَرض ؛ لأَن الناس عبدوها مع الله مع أنها مخلوقة له وخاضعة لأَحكامه .

فذكرت هنا لتنبيه الناس إلى خطئهم فى عبادتها ، فالشمس عبدتها حِمْير ، والقمر عبدته كنانة ، ونجم الدبران عبدته تميم ،والشِّعْرَى عبدتها لخم وقريش ، والثريا عبدتها طيءُ ، وعطارد عبدته أسد ،وعبد أكثر العرب الأَصنام المنحوتة من الجبال ،والعُزَّى عبدتها غطفان ، وهى شجرة من السمر المعروف .

ومن الناس من عبد البقر فى الهند وغيرها ،وقد مرت عقيدة الصابئة فى عبادة الكواكب ، فلهذا نبَّه الله إلى خطأ هؤلاء العابدين وكفرهم بمن خلقها وسخَّرَهَا .

وقد انتقل الكلام فى آخر الآية من سجود التسخير إلى سجود الطاعة الاختيارية ، وذلك فى قوله تعالى : (وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ) فهو على تقدير : ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ، وهم صنف المؤمنين من الفرق الست التى مرت فى الآية السابقة (وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) : وهم باقى الفرق الست لأَنهم لا يخصونه بالسجود ــ كما مرَّ بيان حالهم ــ ولا يصح أَن يقصد بسجود كثير من الناس سجود التسخير ، فيعطف على من فى السموات والأَرض ، لأَن سجود التسخير عام فى الناس جميعًا ــ مؤمنهم وكافرهم ــ فلا يصح قصره على المؤمنين دون سواهم ، ومن العلماء من جعل « كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ » مبتدأً و قدَّر خبره (حق له الثواب) بدليل ما بعده ، وهو قوله سبحانه :

(وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ) : أى وكثير منهم وجب عليه العذاب بكفره وإبائه السجود الذى كلفه الله بأَن يكون له خالصاً .

ومن العلماء من جعل « كثير » مبتدأ وقوله « من الناس » خبره على معنى : وكثير من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون المتقون المستحقون للثواب ، أما غيرهم فقد خرجوا عن حقيقة جنسهم بانحرافهم فى عقائدهم .

والمعنى الإجمالى للآية : ألم تعلم أيها المفكر العاقل أن الله تعالى يخضع لتدبيره وحكمته وسلطانه كل ما فى السموات والأرض ، ما استقر فيهما أو كان جزءا منهما ، وأنه تخضع له الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، فهى مخلوقة له وخاضعة لتدبيره وسلطانه ، فكيف يتخذها الناس آلهة معه؟ .

ويسجد لله تعالى سجودَ طاعة واختيار كثير من الناس وهم المؤمنون المتقون ، فحق لهم الثواب .

وكثير من الناس لايخصونه تعالى بالسجود فحق عليهم العذاب ، ومن يُهِنْهُ الله تعالى بتعذيبه على معاصيه وسوء عقيدته ، فليس له من يكرمه بإنقاذه من الإهانة والتعذيب ، فإنه تعالى يفعل ما يشاء ، مما تقتضيه حكمته وعدله ، فلا معقب لحكمه ولا معارض لمشيئته .

* (هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(هَٰذَانِ خَصْمَانِ) : الخَصْم المخاصم مذكرا أو مؤنثا ، مفردا أو مثنى أو جمعا .

(اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ) : وقع الجدل بينهم فى شأن ربهم . (الْحَمِيمُ) : الماءُ الحار .

(وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ) :المقامع جمع مِقْمعة كَمِكْنَسة وهى : الأعمدة من الحديد يضرب بها .

(عَذَابَ الْحَرِيقِ) : أى عذاب الاحتراق ويكون بالغليظ من النار .

التفسـير

١٩ - (هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ . . . . .) الآية .

المراد بهذين الخصمين اللذين اختصموا فى ربهم : فريق المؤمنين ، وفريق الكافرين المنقسم إلى الفرق الخمس التى ذكرت عطفا على المؤمنين فى قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّـٰبِئِينَ وَالنَّصَـٰرَىٰ وَالمجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا »وقد أُريد بهما ذلك تعيينا لطرفى الخصام وتحريراً لمحله ، وإزاحة لما عسى أن يتبادر إلى الذهن من كون الخصام بين كل واحدة من الفرق الست وبين البواقى ، وروى عن مجاهد والحسن وعطاء بن رباح وعاصم بن أبى النجود والكلبى ما يُؤيد ذلك من أنهما فريقا المؤمنين والكافرين ، وهذا يتفق مع ماروى عن ابن عباس من أن الآية رجع إلى الأديان الستة المذكورة فى الآية التى أُشير إليها سابقاً . وبه يتبيّن كون الفصل السابق بين المؤمنين ومجموع مَن عطف عليهم من الفرق الخمس الكافرة .

ومعنى اختصامهم فى ربهم : اختصامهم فى شأنه- عز وجل- فيما يتعلق بذاته وصفاته ، وفيما يليق به ومالا يليق ، فآمن به على ما ينبغى فريق وكفر فريق ، ولما كان كل خصم يجمع طائفة جاء (اختصموا) بصيغة الجمع ،واعتقاد كل من الفريقين حقّية ما هو عليه ، وبطلان ما عليه الفريق الآخر ، وبناءُ كل منهما أقواله وأفعاله على اعتقاده ، يكفى فى تحقيق خصومته للفريق المقابل له ، وإن لم يجر بينهما الجدل والخصام على سبيل المواجهة .

وحمل الآية على العموم المذكور لا ينافى ما قيل من أنها نزلت فى الذين برزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث - رضى الله عنهم - ، وعقبة وشيبة ابنا ربيعة

والوليد بن عتبة ، أو أنها نزلت فى المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ثم فَصَّلت الآية ما أجمل سابقا فى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ببيان ما أُعد لكل فريق من جزاء فَصْلا لهذه الخصومة فقال سبحانه :

(فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ) : أى تُقَطَّع لهم فى الآخرة من النار الهائلة قِطَع تشبه الثياب فى كونها على مقادير جثثهم ، وإحاطتها بهم كما تحيط الثياب بلابسها . وذكر التقطيع بصيغة الماضى (قُطِّعَت) مع أنه سيقع فى المستقبل ، لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعود به كالواقع المحقق .

« وأخرج جماعة عن سعيد بن جبير أن هذه الثياب من نحاس مذاب ، وليس شىءٌ حمِيَ فى النار أشدّ منه . فليست الثياب من نفس النار بل من شىء يشبهها وتكون هذه الثياب كسوة لهم وما أقبحها كسوة !! ولذا قال وهب : « يُكْسى أهل النار ، والعُرْى خير لهم » اهـ من تفسير الآلوسى والله أعلم بصحة ما نقل عن سعيد بن جبير ، فإنه من الغيب الذى لا يعرف إلا بالوحى .

(يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ) : أى يصب على رءوسهم الماء الحار الذى انتهت حرارته إلى غايتها .

٢٠ - (يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ) :

أى : يذاب بالحميم إذا صب على رءوسهم - يذاب به - ما فى بطونهم من الشحم والأمعاء . قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ، وكذلك تذوب به جلودهم بمعنى : تتساقط .

وقيل التقدير : يذاب به ما فى بطونهم وتحرق الجلود ، كقوله تعالى : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » .

٢١ - (وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ) :

أى : وجعل الله لتعذيبهم أعمدة من حديد يضربون بها ويُدفعون . وقيل المقامع : المطارق وهى المرازب أيضا ، وقيل : هى سياط من نار ، وسميت بذلك لأنها تقمع المضروب أى : تُذِلّه .

٢٢ ـ (كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا . . . .) الآية .

أى : كلما أرادوا الخروج من النار لِغَمٍّ عظيم من عذابها رغبة فى الخلاص منه ، وأشرفوا على الخروج ، وذلك حين تجيش بهم النار وتثور ، فترفعهم إلى أعلى نحو أبوابها ـ كلما حدث منهم ذلك ـ ضربوا بالمقاطع فأُعيدوا إلى معظم النار ، لا أنهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعادون إليها .

قال الفضيل بن عياض : والله ما طمعوا فى الخروج ، إن الأرجل لمُقَيَّدَةٌ وإن الأيدى لَمُوثَقَةٌ ، ولكن يرفعهم لهبها ، وتردهم مقامعها ، وقال الحسن : معنى الخروج : أن النار تضربهم بلهبها ، فتلقيهم إلى أعلاها ، فضُربوا بالمقامع فَهَوَوْا فيها سبعين خريفًا .

وكلا الرأيين يدور على أن إرادة الخروج من النار ليست على حقيقتها ، بل هى مجاز عن مشارفتهم الخروج منها ، برفعهم إلى أعلاها .

وقال : بعضهم إن المعنى : كلَّما أراد أحدهم أن يخرج من مكانه المعدّ له فى النار إلى مكان آخر ، فخرج أُعيد فيه بضرب الزبانية إياهم بالمقامع .

(وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) أى : وقيل لهم إذلالاً وإهانة : ذوقوا عذاب الحريق ، وهو عذاب الغليظ من النار العظيم الإحراق ، جمعا لهم بين التعذيب البدنى والنفسى .

(إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾)

المفـردات :

(مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ) : الأساور جمع أَسْوِرة كأَسْلحة ، وواحد أَسْوِرة سُوار - بكسر السين وضمها - كسلاح وغراب ، وهو ما يلبس فى اليد (وَلُؤْلُؤًا) : وهو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف . (إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) : إلى طريق الله المحمود وهو الدين الحق .

التفسير

٢٤ - (إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . .) الآية .

لما أخبر - سبحانه - عن حال الفريق الأَول فريق الكفار وما هم فيه من العذاب والنكال ؛ عقَّبه بذكر حال الفريق المقابل وهو فريق المؤمنين ببيان ماهم فيه من نعيم مقيم .

والمعنى : أَن الله تعالى يكافىءُ المؤمنين على إِيمانهم مكافأَة كريمة ، فيدخلهم جنات تجرى الأَنهار فى أَرجائها وتنساب فى جوانبها ، وتحت أَشجارها ، وبين قصورها . ليصفو جوها ويَرِقّ هواؤُها ، وتطيب الإِقامة فيها ، واستكمالاً لنعيمهم (يُحَلَّوْنَ فِيهَا من أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ) : أَى تلبسهم الملائكة فى الجنة بأَمر ربهم أَساور متخذة ومصنوعة مِنْ ذهب ، ويمنحون لؤلؤًا يحلَّون به ، وقال القشيرى : المراد : ترصيع السوار باللؤْلؤ .

ولا يبعد أَن يكون فى الجنة سوار من لؤْلؤٍ مصْمَت بمعنى أَنه لايخالطه شىءٌ ، ثم يضعون كل ذلك فى أَيديهم[(١)] ، كما فى صحيح مسلم من حديث أَبى هريرة قال : سمعت حبيب الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : «تبلغ الحلية من المسلم حيث يبلغ الوضوءُ» (وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) : أَى : أَن جميع مايلبسونه يكون من حرير سُنْدسِه وإِستبرقه . كما قال تعالى : « عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ »[(٢)] . وذلك فى مقابلة ثياب الكافرين التى قطعت لهم من نار

---

(١) تطلق اليد على المعصم ، كما تطلق على الكف وعلى الذراع كلها .

(٢) سورة الإنسان ، من الآية : ٢١

قال النص الكريم : « وَلِبَاسُهُمْ » ولم يقل : ويلبسون ، كما قال : يُحلَّون . للإشعار بأن اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان إذ لا يمكن عراؤهم عنه ، وإنما يحتاج إلى بيان نَوْعِهِ . بخلاف التحلية ، فإنها ليست من لوازمهم الدائمة ؛ فلذا جعل بيانها بصيغة (الفعل) المضارع ليفيد التجدد من آن لآخر ، وفى تصدير الآية الكريمة عن المؤمنين بالتوكيد (إنَّ الله يُدْخِلُ . . .) إظهار لمزيد العناية بهم وإشارة إلى تحقق ما وعدوا به ، والتحلية بلبس الحرير قيل : هو حكم عام فى أهل الجنة ، وقيل : هو باعتبار الأغلب ، لما أخرج النسائى وابن حبان وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ، وإن دخل الجنة لبسه أهل الجنة ولم يلبسه هو) اهـ .

قال القرطبى فى تفسيره : وذلك لاستعجال ما حرم الله عليه فى الدنيا . ثم قال هذا نص صريح ، وإسناده صحيح .

٢٤ – (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوآ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) :أى وهدى الله – سبحانه – المؤمنين فى الدنيا ، ووفَّقهم إلى الطيب من القول ، وهو كلمة التوحيد واتباع الأوامر ، واجتناب النواهى ، وحكى الماوردى : هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقيل : ما يعم ذلك وسائر الأذكار (وَهُدُوآ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) :أى إلى طريق الله المستحق غاية الحمد لذاته ، وصراطه : هو الإسلام فهو سبيل الله إلى الجنة .

وقيل : إن ذلك يكون فى الآخرة ، بأن يقولوا عند دخول الجنة : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ »(١) . « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ »(٢) . وما يقع فى محاورتهم من طيب القول : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا »(٣) ، كما هدوا فيها إلى طريق الجنة فهى المكان المحمود الذى يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم ، وتفضل به عليهم . كما جاء فى مسلم .

(إنهم يُلْهَمُون التسبيح والتحميد كما يُلْهمون النَّفَس) .

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٧٤

(٢) سورة فاطر ، الآية : ٣٤

(٣) سورة الواقعة ، الآيتان : ٢٥ ، ٢٦

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ) : أى ويمنعون الناس عن طريق الإسلام ؛ لأن الصد : المنع . والسبيل : الطريق . (وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) : يراد به المسجد نفسه ، وقيل : الحرم كله ومنه مكة . (الْعَاكِفُ فِيهِ) : أى المقيم فيه الملازم له ، وفعله من باب : قعد وضرب . (وَالْبَادِ) : الطارىء عليه من سكان البادية وغيرها . (وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) : الإلحاد فى اللغة ؛ الميل عن القصد ، أى : ومن يرد فيه مراداً مائلا عن القصد والاستقامة ، بسبب ظلمه .

التفسير

٢٥ – (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ......) الآية . نزلت هذه الآية – على ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما – فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن معه من المسلمين عام الحديبية عن المسجد الحرام ، فكره – عليه الصلاة والسلام – أن يحاربهم وكان محرما بعمرة ، ثم صالحوه على أن يعود فى العام القابل .

وكان نزول الآية وعيداً لهؤلاء المشركين من قريش ومن والاهم ، حيث بالغوا فى الظلم والطغيان بسبب كفرهم وما صاحبه من الصد عن الاسلام وعن المسجد الحرام ذاته أو عن الحرم كله ومنه مكة ، وقد صُدَّ عنه النبى وأصحابه وكانوا بالحديبية وعُبِّر عن الحرم بالمسجد الحرام لأنه المهم المقصود .

والتعبير فى النص الكريم بقوله : (وَيَصُدُّونَ) مع أنها بمعنى وصَدُّوا لا ستحضار الصورة الماضية تهويلا وتقبيحا لأمر الصد الذى واجهوا به النبى وأصحابه مع علمهم بأنهم حضروا مسالمين قصدا إلى النُّسُك ، ومن حقهم أن يدخلوه . كما قال تعالى :

(الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ) : أى جعلنا دخوله حقا لجميع الناس لقضاء النُّسُك فيه ، يستوى فى ذلك المقيم فيه أو فى حرمه ، مع الحاضر إليه من أهل البادية وغيرهم مِمَّن يفدون عليه . فأهل مكة ليسُوا أحق بتقديسه وتعظيمه من النازحين إليه . (ومَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) : أى من يرد فيه مراداً مّا بإلحاد ، أى : ميل عن الاستقامة إلى الإثم بسبب ظلمه الذى حَمَله على الإقدام عليه عامدا غير متأول .

من يفعل ذلك (نُذِقْهُ مِنْ عذَابٍ أَلِيمٍ) : أى ننزل به فى الآخرة ألوانا من أشد العذاب وأقساه ، لأن الله عظم فيه الذنب – صغيره وكبيره – ، وضاعف عليه العقاب ، مما جعل أُولى النُّهى يبالغون فى المحافظة على حرمته ، ويبتعدون عن كل ما يمس قدسيته . وكانوا يعدون شتم الخادم فيه إلحاداً بظلم ، واليمين اللغو كذلك ، كقولهم : لا والله ، وبلى والله ، مع أنها غير مؤثمة فى غير الحرم ، أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : (كان لعبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – فسطاطان ، أحدهما فى الحل ، والآخر فى الحرم . فإذا أراد أن يصلى صَلَّى فى الذى فى الحرم ، وإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الذى فى الحل ، فقيل له . فقال : نُحدَّث أن من الإلحاد فيه : لا والله ، وبلى والله) ويروى عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص – رضى الله عنهما – إنّ من الإلحاد فى الحرم أن نقول : كلاَّ والله ، وبلى والله . وكان مجاهد يرى (أن المعاصى تُضَاعف بمكة كما تضاعف الحسنات) فتكون المعصية معصيتين : إحداهما : بنفس المخالفة ، والثانية : بإسقاط حرمة البلد الحرام – وقال الخفاجى : الوعيد على الإرادة المقارنة للفعل ، لا على مجرد الإرادة ، وبه قال ابن مسعود وعكرمة . اهـ من تفسير روح المعانى .

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) : أى جعلنا مكانه مباءة ومرجعا يعود إليه إبراهيم للعبادة والعمارة ، ويقال : بوأته الدار ، وبوأت له الدار بمعنى : أمكنته إياها .

(أن لَّاتُشرِكْ بِي شَيْئًا) : أى لا تشرك بى فى العبادة شيئًا ، بل اجعلها لى وحدى .

(وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) :أى واجعل ساحته نقيّة طاهرة من الأصنام والأوثان ؛ ليكون خالصاً للطائفين والمصلين لرب العالمين .

التفسير

٢٦ - (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ . . .) الآية .

أى : واذكر - أيها النبى - وقت جعلنا مكان البيت مباءة لإبراهيم يرجع إليه للعمارة والعبادة ، وأذنّا له ببنائه بمعاونة ولده إسماعيل . وقال الزجاج : المعنى : بيّنّا له مكان البيت ليبنيه ، ويكون مباءة له ولعقبه ، يرجعون إليه ويحجونه .

ويقال : إنه كان مبنيا قبل أن يؤمرا إبراهيم ببنائه ، ولكنه كان قد دَرَسَ وعفى من عوادى الزمن ، فكشف الله لإبراهيم عن أساسه بما أرسله يومئذ من ريح عاتية ، أزالت عنه ما كان يطمس معالمه ، ويخفى حدوده ، ويَنْثُر رسومه .

وتوجيه الأمر للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر الوقت الذى وقعت فيه تلك الحوادث ولم يُوَجَّه إليه ليذكر الحوادث نفسها مع أنها هى المقصودة لِذاتها - للمبالغة فى إيجاب

ذكرها ؛ لأن الوقت مشتمل عليها ، فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها ، كأنها مشاهدة عيانا ، والسياق يشير ظاهره إلى أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم - عليه السلام - وأنه تعالى هداه إليها .

روى عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ »[1] أنه قال : هى القواعد التى كان عليها البَيْت قبل ذلك . ا هـ وبعد هذا بنته قريش فى الجاهلية ، وحضر بناءه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان شاباً ، ثم بناه عبد الله بن الزبير ، ثم الحجاج بن يوسف الثقفى وهو البناء الموجود اليوم - كما قاله الآلوسى .

(أن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا) أى : قائلين له : لا تشرك بى فى العبادة شيئاً بل اجعلها خالصة لى وحدى . والخطاب - لإبراهيم عليه السلام - ونهيه عن الشرك نهى لأبنائه ، وأتباعه وكل من تناسل منهم وإشارة إلى خطيئة كل من أشرك بالله من قُطّان البيت وسكانه .

(وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) أى: وطهره من الشرك والأرجاس والأصنام ، ليكون خالصًا للموحدين الطائفين حوله ، والمصلين فيه أو حوله ، أو متجهين إليه إذا صلوا بعيدا عنه . والتعبير عن الصلاة بالقيام والركوع والسجود ؛ لأنها من أعظم أركانها ، وقد دلت الآية على أن الطواف لا يشرع إلا حول البيت ، وأن الاتجاه فى الصلاة لا يكون إلا إليه ، ما لم يمنع من ذلك مانع ، وقد فصَّلَتْ كتب الفقه ذلك .

(وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ) أى : ناد فيهم وادعهم إلى الحج .

(يَأْتُوكَ رِجَالاً) أى: مشاة. ومفرد (رِجَالاً) : راجل - أى ماش على رجليه - ، والفعل : رَجِلَ ، كفرح .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٧

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) : أى ركبانا على كل بعير مهزول من طول السفر وبعد المشقة ، وفعله من بابى : قَعَد وقَرُب . (مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) : الفج الطريق الواسع بين جبلين . ويراد به هنا : مطلق طريق ، والعميق : هو البعيد . وفعله ككرم وسَمِع أى : من كل طريق بعيد .

التفسير

٢٧ - (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا . . . .) الآية .

لما فرغ إبراهيم - عليه السلام - من بناء البيت أُمِر بأن ينادى فى الناس داعيًا إياهم أن يحجوا هذا ، البيت أى : يقصدوه للنسك ، فلبى أمر ربه ، قيل : إنه صعد أبا قُبيس من جبال مكة ، فقال : يأيها الناس حجوا بيت ربكم ، فأسمعه الله تعالى من فى أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق فى علمه تعالى أن يحج ، قائلا : لبيك . والذى نراه : أن المقصود من الأمر الكريم أن يبلغ إبراهيم - عليه السلام - أن الله تعالى قد شرع لعباده حج بيته ، وأوجبه على القادرين منهم مشاة وركبانا ، وقوله جل شأنه (يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ) : جواب لأمره - عليه السلام - بالأذان ، ووعد منه - سبحانه - بأن يستجيب الناس إلى ندائه وتبليغه ، فيأتوه رجالا أى : مشاة ، جمع راجل بمعنى ماش ، وركبانا على كل بعير مهزول ، أضناه السفر ، وأتعبه بعد الشُّقة ، فلحقه الهزال أو جعله يزيد فيه (يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) : الجملة صفة لضامر محمولة على المعنى ، فكأنه قال : وركبانا على ضوامر يأتين من كل طريق بعيد ، وفى هذا إشارة إلى أن من رغب فى أداء فريضة الحج لا يقف فى طريقه ضعف الراحلة ولا بعد الشُّقة ولا زيادة المشقة ولا ضيق العيش ما دام ذلك فى دائرة احتماله ، وإنما قال يأتوك ، وإن كانوا يأتون الكعبة - لأن المنادِى إبراهيم - عليه السلام - فمن أتى الكعبة حاجا فكأنما أتى إبراهيم لأنه أجاب نداءه .

ولما قال سبحانه : « وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا . . . » الآية . عقَّبه ببيان فوائد الاستجابة . فقال تعالى :

(لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ
ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ
بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾)

المفـردات :

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) : ليحضروا منافع لهم ؛ وفعله : شهد ، كسمع .

(مِن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) :المراد من بهيمة الأنعام ؛ الإبل والبقر والغنم ، والبهيمة فى الأصل : كل ذات أربع قوائم ولو فى الماء ، أو كل حى لا يميز ، والجمع بهائم ، والأنعام مفرده نعم بالتحريك ، وقد تسكن عينه . (الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) البائس : من نزل به الضر وفِعْلهُ : بئس ، كعلم ، والفقير : من قلَّ ماله ، وفِعْلهُ كتَعب . (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ) : ثم ليزيلوا بعد التحلل من الإحرام أوساخهم ، وفعله :تفث ، كفرح ، فهو تفِث إذا ترك الاستحمام فعلاه الوسخ .

(وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) :أى وليؤدوا ما أوجبوه على أنفسهم ، وفعله من بابى : ضرب وقعد

(بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ) : أى القديم ؛ لأَنَّهُ أول بيت وضع للناس فى الأرض .

التفسـير

٢٨ - (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ....) الآية .

والمعنى : أن حجاج بيت الله الحرام يأْتونك يا إبراهيم من مختلف البقاع تلبية لندائك ليحضروا منافع لهم كثيرة العدد والخطر : دينية ودنيوية ، أما الدينية ففيما ينالونه

من مثوبة ومغفرة لأدائهم المناسك على وجهها المشروع ، وتعظيمهم الحرمات وتقديرها حق قدرها. وأما الدنيوية ففيما يصيبونه من ربح فى التجارة ، وبما يحصلون عليه من لحوم الهدايا وما يذبحه الحجاج جزاء مخالفتهم لما وجب عليهم من المناسك ، إلى غير ذلك من التعارف والتآلف ، وإحكام الصِّلاتِ بين الأفراد والجماعات والأمم الإسلامية ، وحل مشكلاتهم السياسية والمالية والاجتماعية (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ) : عند الذبح والنحر للهدايا والضحايا ودماء الحج ، مثل قولهم : باسم الله والله أكبر اللهم هذا منك وإليك . وبذلك أوجب الله ذكر اسمه عند الذبح ليحل أكل المذبوح كما قال تعالى : « فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ »[1] . وكان الكفار يذبحون على أسماء آلهتهم. فبين جل ثناؤه أن الواجب أن يكون الذبح على اسم الله .

(فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ) : هى أيام النحر ، وهى ثلاثة أيام : يوم العيد ويومان بعده . وبذلك قال جماعة من العلماء منهم الثورى ، وسعيد بن جبير ، وقيل أربعة : أيام : يوم العيد وثلاثة بعده . وبذلك قال الحسن وعطاء والشافعى وقيل غير ذلك[2] وينبئ عن أنها أيام النحر قوله تعالى : (عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) : فإنه يشير إلى أن المراد بالذكر هنا : ما يقع من ذكر الله عند الذبح فى تلك الأيام ، وفى التعبير عن الذبائح بأنها من رزق الله ، إيذان بأنها من نعمه تعالى عليهم ، فلا يليق بهم أن يبخلوا بها ، فهى منه وإليه .

(فَكُلُوا مِنْهَا) : الأمر فيها لإباحة الأكل منها لصاحب الهدى والأضحية ولأهله عند قوم ، وللاستحباب والندب عند آخرين ، مواساة للفقراء ومساواة لهم ويتصدق بالأكثر وذهب أكثر العلماء إلى أنها تقسم أثلاثا فيتصدقون بالثلث ويهدى الثلث ويأكل هو وأهله الثلث ، وممن ذهب إلى أن الأكل مباح وليس مندوبا أبو حنيفة وسفيان الثورى ، فقد قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين ، فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١٨

(٢) انظر كتب الفقه .

وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك بناء على أن الأكل كان منهيا عنه شرعًا لقوله -صلى الله عليه وسلم-: « كنت نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحى فكلوا منها وادخروا ». والأمر بعد المنع يفيد الإباحة لا الندب.

(وَأَطْعِمُوا الْبَآئِسَ الْفَقِيرَ): الأمر للوجوب- كما نقله الألوسى عن بعض الشافعية، أى وأطعموا منها البائس الذى نزل به الضر، فأصابته الشدة، وبدت عليه الحاجة، وعن مجاهد وعكرمة: تفسيره بالذى يمد يده إلى الناس يسأل، والفقير بمعنى المحتاج صفة للبائس مؤكدة لمعناه[1].

وتخصيص البائس الفقير بالإطعام لا ينافى جواز إطعام الغنىّ على سبيل الهدية كما تقدم بيانه.

٢٩ - (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ):

أى: ثم ليزيلوا بعد التحلل من الإحرام أوساخهم، وذلك بالاستحمام وتقليم الأظافر، وترجيل الشعر، وقص الشارب، وغير ذلك من أمور تستلزمها النظافة (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ): بتأدية ما أمروا به من مناسك حجهم، والعرب تقول لكل من خرج عما وجب عليه وأدّاه: وفّى نذْرَهُ.

والمعنى. وليوفوا بما ينذرونه من أعمال البر فى حجهم. والوفاء بالنذر واجب مطلقا، وليس مختصا بالحج، مادام النذر فى غير معصية، ولكن الوفاء به فى الحج أحق وآكد.

(وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ): هو طواف الإفاضة، وهو الركن الأهم بعد الوقوف بعرفة. وقيل: هو طواف الوداع. ووصف البيت بالعتيق للإشارة إلى أنه قديم لكونه أول بيت وضع للناس كما قال تعالى: « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا »[2] أو للإشارة إلى أن الله أعتقه من أن يتسلط عليه جبّار إلى انقضاء الزمان، وكم من جبار سار إليه ليهدمه فقصمه الله ورده عنه مخذولا.

---

(١) وقد يستعمل البائس فيمن نزلت به نازلة. وإن لم يكن فقيرا؛ وعلى هذا تكون (الفقير) صفة مقيدة للموصوف ببيان صفة الفقر فيه.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٦

وفى الترمذى عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (إنما سمّى البيت بالعتيق لأنه لم يظهر عليه جبار) ..

(ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(حُرُمَٰتِ اللهِ) : هى كل مالا يحل انتهاكه والتهاون فى تعظيمه .

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ) : الرجس كل شىء يستقذر ويراد به الأوثان كما هنا وهى من حجر أو خشب أو غيرها . (أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ) : أى تسقط به إلى أسفل . وفعله من باب : ضرب ، يقال : هَوَى يهْوِى هَوِيًّا ، وهُوِيًّا . (فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ) : أى بعيد ، فعله . مثل بَعُد وزنًا ومعنى .

التفسير

٣٠ - (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ . . . .) الآية .

أى : ذلك التشريع الذى سبق بيانه يجب اتباعه والالتزام به لكل حاج ، أو امتثلوا ذلك التشريع الذى تقدم بيانه .(١)

(١) كلمة (ذلك) أو (هذا) تذكر للفصل بين كلامين ؛ أو بين جهتى كلام واحد ، وقد جرى المفسرون على أن يقدروها ضمن جملة مقيدة ترتبط بالمقام على نحو مابيناه .

(وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ) : استئناف لتقرير حكم ما قبله ببيان أن الحرمات المقصودة بالتعظيم هنا هى أعمال الحج المشار إليها فى الآيات السابقة وأماكنها كعرفة والكعبة ومنى ونحوها ؛ قاله ابن زيد وغيره . وعن ابن عباس : هى جميع المناهى فى الحج ، وتعظيمها ألّا يحوم حولها ؛ أى : لا يقربها .

وقيل : حرمات الله هى كل ما لا يحل انتهاكه ، ولا يجوز الاستهانة به ، وجميع التكاليف الشرعية تتصف بهذه الصفة فتشمل مناسك الحج وغيرها وعلى هذا يكون المراد من تعظيمها هو العلم بوجوب مراعاتها ، والعمل بمقتضى هذا العلم ، فلا خير فى علم بغير عمل بمقتضاه ، وبهذا التأويل تكون هذه الآية عامة فى الحج و غيره ، وهو الظاهر .

والمعنى الإجمالى للآية : ذلك التشريع يجب تعظيمه ، ومن يعظم تكاليف الله وشرائعه بعلمه بقداستها ، وعمله بمقتضى هذا العلم ، فهذا التعظيم خير له عند ربه ، حيث يثيبه عليه ثواباً عظيماً فى أخراه ولا يحرمه من فضله فى دنياه .

(وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) :أى وأحل لكم ذبح الأنعام ، والأكل منها فى الحج وغيره ، إلا ما تلى عليكم تحريمه من قبل ، والأنعام حلال بأنواعها ، وتشمل الإبل والبقر والغنم إلا ما حرمه الله لعارض ، كالموت ، وذكر اسم الأوثان عند ذبحها ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة المائدة : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ . . . »[1] الآية ، وقد نزلت آية المائدة قبل آية الحج ، وإنما عبر عنها بصيغة الحاضر والمستقبل (إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) بدلا من صيغة الماضى ــ إلا ما تلى عليكم ــ للإيذان بأن تلاوة هذه الآيات تتردد على أسماعكم منذ نزولها إلى الآن وبعد الآن .

ولما حث الله على تعظيم حرماته ، أتبعه الأمر باجتناب الأوثان وقول الزور فقال سبحانه :

(فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ) : أى فابتعدوا عن الرجس الذى هو الأوثان ، وكانت العرب تتخذها من الأحجار أو الأخشاب أو الذهب أو الفضة أو نحوها ، ويعبدونها إشراكا وكفرا ، وطلب اجتناب ذواتها للمبالغة فى البعد عنها لأنها نجس وقذر لا ينبغى القرب منه

(١) من الآية : ٣

فضلا عن عبادتها التى لا يليق وقوعها من إنسان عاقل. (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) : تعميم بعد تخصيص ؛ فإن عبادة الأوثان هى رأس الزور لما فيها من ادعائهم أنها مستحقة للعبادة .

أى : واجتنبوا فى كل ما تنطقون به قول الزور فى عبادة أو غيرها ، حيث كانوا يقولون : « هَؤُلَآءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ »[1] والزور : هو الكذب لأن فيه انحرافا وميلا عن الحق . وقد قرن النهى عن قول الزور بالنهى عن الشرك لما له من أسوأ الأثر فى إثارة العداوات ، وغرس الأحقاد وتفتيت الجماعات بل قد يتمادى الكاذب فيكذب على ربه وخالقه فى غير استحياء ورهبة ، ومن قول الزور : الشهادة بغير الواقع ، فهى زور ينكر حقًّا ويثبت باطلا .

وفى الصحيحين عن أبى بكرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يارسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور . ألا وشهادة الزور . فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت) .

٣١ ـ (حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ ...) الآية .

أى : فاجتنبوا فى إسلامكم مانهيتم عنه من عبادة الأوثان ، وقول الزور فى حال كونكم مائلين عن كل دين زائغ وغير مشركين به ـ سبحانه ـ شيئاً من الأشياء ، فكل ما سواه ـ سبحانه ـ فهو مخلوق له ، فلا يصح أن يعبد معه . (وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ) جملة مبتدأة لإظهار قبح الإشراك وسوء عاقبته .

والمعنى : ومن يشرك بالله فهو بمنزلة من سقط من السماء ، وعرّض نفسه لأبشع صورة من صور الهلاك حيث يتمزق قطعا ، ويتناثر أشلاء (فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ) : وتتناول أجزاءه ، فلا تبقى له أثرا (أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ) : أو تشبه حاله حالَ من عصفت به الريح فى مكان بعيد ، فكان فيه من الهالكين ، وفى كلا التشبيهين تيئيس للكافر من النجاة ؛ حيث لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الهلاك الذى ينزله الله به فى الآخرة ، حيث يصلى فيها « نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى » .

---

(١) سورة يونس ، من الآية : ١٨ .

(ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(شَعَآئِرَ) : الشعائر جمع شعيرة وهى العلامة ، والبدن من شعائر الحج أى : علاماته المميزة . (إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) : إلى وقت ذبحها أو إلى وقت إيجابها وتسميتها هَدْيًا . (ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) : أى مكان وجوب ذبحها أو زمانه إلى جوار البيت العتيق حيث تذبح بمنى أو بأى مكان بالحرم .

التفسير

٣٢ - (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَآئِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) :

أى : الأمر الذى يجب الالتزام به ذلك المذكور من أعمال الحج فى الآيات السابقة ، أو اتبعوا ذلك (وَمَن يُعَظِّمْ شَعَآئِرَ اللهِ) استئناف لتقرير ما قبله ، أى : ومن يعظم أوامره وهى كل شىء لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم .

والمقصود بشعائر الله هنا : الهدايا التى تساق إلى فقراء الحرم فإنها من معالم الحج وشعائره ، كما ينبىء عنه قوله سبحانه : « وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَآئِرِ اللهِ » ولدلالة الآية التالية على ذلك ، وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجلّ القربات وأفضلها ، ويراعى فى اختيارها أن تجمع بين السلامة من العيوب ، والسِّمن كما روى عن ابن عباس : تعظيمها استسمانها واستحسانها (فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ) أى : فإن تعظيمها أثر من آثار تقوى القلوب التى امتلأت بتقوى الله وخشيته . وفى تقييد التقوى بالقلوب - كما قال الآلوسى فى تفسيره : إشارة إلى أن التقوى قسمان : تقوى القلوب ، والمراد بها

التقوى الحقيقية الصادقة التى يتصف بها المؤمن الصادق. أمَّا تقوى الأعضاء، فالمراد بها التقوى الصورية الكاذبة التى يتصف بها المنافق الذى كثيرًا ما تخضع أعضاؤه، وقلبه لاهٍ.

٣٣ـ (لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ) :

أى : لكم فى الهدايا منافع دنيوية فى ألبانها، وأصوافها، وأوبارها، وأشعارها، ونسلها وركوبها إلى وقت إيجابها وبعثها هَدْياً، وحينئذ ليس لكم شىءٌ من منافعها، قاله ابن عباس. وقال عطاء: منافع الهدايا بعد إيجابها وتسميتها هديا أن تُرْكب ويشرب لبنها عند الحاجة إلى أجل مسمى وهو وقت النحر. وقال مجاهد: فإذا سُمِّيَتْ بدنةً أو هدْيًا ذهب ذلك كله.

وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هَديا إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت فى الصحيحين. (عن أنس أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: اركبها. قال إنها بدنة، قال: اركبها ويحك) ويؤْخذ من ذلك: أن للمُهدين أن ينتفعوا بهداياهم ما داموا فى حاجة إلى الانتفاع بها، وذلك بركوبها، وشرب لبنها ـ بعد ريِّ فصيلها ـ إلى وقت ذبحها.

(ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ) :

(مَحِلُّهَا) : أى وجوبها، فهى مصدر ميمى مأْخوذ من حَلَّ الدين إذا وجب أداؤه، والمراد أن وجوب نحرها ينتهى فى الحرم إلى جوار البيت العتيق، إكراما لزواره، وتعظيما لمكانه، وقد ورد فى الحديث: «كل فجاج مكة منحر، وكل فجاج منى منحر» قال القفال: وهذا فى الهدايا التى تبلغ منى، وأما الْهَدْىُ الْمُتَطَوعَ به إذا عطب قبل بلوغ مكة، فمنحره موضعه.

وقيل: الشعائر: المناسك كلها. وتعظيمها: إتمامها. والمعنى لكم فيها منافع من الأجر والثواب فى قضاء المناسك إلى انقضاء أيام الحج، ثم تَحلُّلُ الناس من إحرامهم إلى البيت العتيق أى: منتهٍ عنده بأن يطوفوا طواف الإفاضة يوم النحر.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ) الأُمة : هى الجماعة على مذهب واحد . (جَعَلْنَا مَنسَكاً) المنسك : بفتح السين وكسرها . موضع الذبح أو الذبح وإراقة الدم ، والنسيكة : الذبيحة ، وجمعها نُسُك بضمتين والفعل من باب نصر . (فَلَهُ أَسْلِمُوا) : أى استسلموا وانقادوا . (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) : وهم الذين خضعوا لله وخشعت قلوبهم ، يقال : أخبت الرجل إخباتا فهو مخبت أى : هو خاضع خاشع . (وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) : خافت وخشيت . (وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَآ أَصَابَهُمْ) : هم الذين يحبسون الجزع إذا نزلت بهم نازلة ، وفعله من باب : ضرب .

التفسير

٣٤ - (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ . .) الآية .

أى : ولكل أهل دين من الأديان السماوية السابقة ، أو ولكل جماعة مؤمنة ، جعلنا لهم مكانا للذبح وإراقة الدماء ، تيسيرًا لهم ، وتمكينا لمن يريد التقرب إليه تعالى بإطعام عباده فى مناسكهم ، وفسر مجاهد المنسك : بالذبح على أنه مصدر ميمى ، يريد أنه تعالى شرع لكل أهل دين أن يذبحوا تقربا إلى الله تعالى ، لا لبعضهم دون بعض ، واختاره الزمخشرى .

وقال الفراءُ : المنسك فى كلام العرب : الموضع المعتاد فى خَيْرٍ وَبِرٍّ ، وفسره هنا : بالعيد ، وقال ابن عرفة فى قوله : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً » أى : مذهبا من طاعة الله تعالى ، يقال : نَسَكَ نُسْكَ قومه ، إذا سلك مذهبهم .

(لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) : أى ليذكروا اسم الله وحده دون غيره عند ذبحها تعظيماً له وشكرًا على ما أنعم عليهم من بهائم الأنعام : الإبل ، والبقر ، والغنم . وفى ذلك إشارة إلى أن القرابين لا تكون إلا منها (فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) : أى : فإلهكم أيها المخاطبون إله واحد لأن شريعتكم وشرائع الأنبياء السابقين وإن تنوعت ونسخ بعضها بعضاً ، كلها قائمة على التوحيد والدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له (فَلَهُ أَسْلِمُوا) : أى فإذا كان إلهكم واحدًا منزها عن الشريك ، فاستسلموا له وانقادوا لأمره . وأخلصوا له القول والعمل ، واجعلوهما لوجهه ولا تشوبوهما بشرك (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) : أى وبشر أيها النبى أولئك المخلصين المتواضعين - بشرهم - بالجنة والثواب العظيم ، قال عمرو بن أوس : (المخبتون الذين لا يظلمون ، وَإِذَا ظُلِمُوا لَمْ يَنْتَصِرُوا) أى ، لم ينتقموا : من الانتصار بمعنى الانتقام أي : عفوا عن ظالميهم .

٣٥ - (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَآ أَصَابَهُمْ . . .) الآية .

تُعَدِّد الآية أوصاف المخبتين المبشرين بالجنة فتذكر أن من أجل صفاتهم أنهم إذا ذكر الله اضطربت قلوبهم خشية منه ورهبة ، وذلك لقوة إيمانهم وعمق يقينهم .

(وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَآ أَصَابَهُمْ) : من كوارث الزمن بتحمل المتاعب وحبس الجزع بنفس راضية ، وإيمان بقضاء الله وقدره .

(وَالْمُقِيمِى الصَّلَوٰةِ) : فى أوقاتها وعلى أكمل صورها حسبما شرعها الله .

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) : أى ومن بعض ما آتيناهم من طيب الرزق ينفقون فى أوجه البر والخير التى تعود على دينهم ومجتمعهم بالنفع والصلاح .

(وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟
ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن
يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ
كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ) : البدن جمع بَدَنة بالتحريك وأصل الجمع : (بُدُن) : بضمتين ثم خفف بتسكين وسطه وهى : الإبل وكذا البقر كما قيل : وستأتى مناقشته .

(مِن شَعَآئِرِ اللهِ) : جمع شعيرة ، أى علامة ، فالبدن من علامات دين الله فى الحج

(عَلَيْهَا صَوَافَّ) : أى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن استعداداً لنحرها

(فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) : أى سقطت على الأرض بعد ذبحها . يقال : وجب الحائط يجب وجبة إذا سقط .

(القَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) : القانع الذى لايسأل الناس ويقنع بما عنده ، وفعله من باب فرح يفرح ، ومصدره القناعة ، والمعتر : هو المتعرض للسؤال ، من اعترّه إذا تعرض له ، وتفسيرهما بذلك مروى عن ابن عباس . (كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ) : أى ذللناها ومكناكم منها .

التفسير

٣٦ - (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَآئِرِ اللهِ . . . .) الآية .

هذه الآية امتنان من الله جل ثناؤه على عباده حيث خلق لهم البدن ، وجعل ذبحها من أعلام الدين ومظاهره ، ويسر لهم إهداءها إلى البيت الحرام تقربا إليه سبحانه ، وهى

حين تهدى إلى بيته تكون من أفضل ما يهدى إليه . والمراد منها هنا : الإبل والبقر وَفْق ما قاله جمهور العلماء من أن البدنة تُجزئ عن سبعة والبقرة تُجزئ عن سبعة كما جاء فى حديث مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال : أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن نشترك فى الأضاحى . البدنة عن سبعة . والبقرة عن سبعة لذلك جعلا فى الشريعة جنساً واحداً أريد به نوعان لتساويهما فى الإجزاء عن عَدَد متَّحد فضلا عن تساويهما تقريباً فى البدانة وضخامة الجسم .

وقيل : إن البدن خاص بالإبل بدليل الحديث الصحيح فى يوم الجمعة : (من راح فى الساعة الأُولى فكأنما قرب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ...) الحديث.

فتفريقه - عليه السلام - بين البدنة والبقرة يدل على أن البقرة لا يقال عليها بدنة ، وإن كانت تكفى مثلها عن سبعة وأيضاً قوله تعالى « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » يدل على ذلك فإن الوصف خاص بالإبل أما البقر فتضجع وتذبح كالغنم اهـ بتصرف من تفسير القرطبى .

(لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) : أى لكم فى البدن المهداة إلى الحرم نفع فى الدنيا بركوبها وشرب لبنها والانتفاع بصوفها ووبرها متى كنتم فى حاجة إلى ذلك . ولكم فيها أجر عظيم فى الآخرة لتقربكم بها إلى رضا ربكم . والجملة مستأْنفة مقررة لما قبلها .

(فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ) : أى فابدأوا بالتسمية عند نحرها قائلين : بسم الله ، والله أكبر اللهم هذا منك وإليك . وقد أخرج ذلك جماعة عن ابن عباس .

ويكون النحر لها قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ، وقرىء : صوافن ، جمع صافنة أى قائمات على ثلاث وتُعْقَل إحدى يديها . وعَقْل إحدى يديها سنة . فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه رأى رجلا قد أناخ بدنته وهو ينحرها فقال : ابعثها قياما مقيدة ، سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا) : أى فإذا سقطت على الأرض بعد نحرها قائمة ، وذلك كناية عن سكون حركتها وموتها ، وهذا يؤيد أن البُدْن المهداة تكون من الإبل دون البقر ، لأنه لم تجر العادة بينهم أن تذبح البقرة قائمة . وإنما تذبح مضطجعة ، وقلَّما شوهد بينهم نحر البدنة وهى مضطجعة ، وكون البقرة تكفى

عن سبعة فى الأُضحية ، لايقتضى إطلاق اسم البدنة عليها ، ولا كفايتها عنها فى الهدى (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) : الأمر بالأكل للإباحة مخالفة للمشركين؛ لأنهم كانوا لا يأْكلون من هديهم ويقولون بحرمته ، والأمر الثانى للندب ، أى :فيباح للمُهْدِى أن يأْكل من هديه ولو لم يأْكل منه جاز ، وأوجب بعض الفقهاء أكله منه ، ويندب له أن يُطعِم منه القانع والمعتر ،ولو صرفه جميعه لنفسه جاز ولم يضمن شيئاً . ولكن الأَولى أن يقسم أثلاثا ثلثا لصاحبه ، وثلثا للقانع ، وثلثا للمعتر . وروى ذلك عن ابن مسعود والآية تشير إليه ، وقال بعضهم : لا تحديد فيما يؤكل أو يطعم لإطلاق الآية . وهو الظاهر .

ويراد بالقانع : من رضى بما عنده ولم يتعرض للسؤال ، وفعله قَنِعَ من باب فرحَ يقنَع قناعة .

ويراد بالمعتر :الذى يطيف بك ويُلمّ راغبا فىعطائك ساكتا أو سائلا ،مناعترّه إذا تعرض له للسؤال كما تقدم بيانه فى المفردات ،وتخصيص الإطعام فى الآية بالقانع والمعتر ، لاينفى جواز إطعام الموسرين قياساً على جواز أكل المُهْدين وإن كانوا أغنياء .

وما ذكر من إباحة الأكل ، وندب الإطعام إنما هو فى هدى التطوع أما ذبائح الكفارات فعلى صاحبها التصدق بجميعها ، فما أكله منها أو أهداه لغنى ضمنه ، وفى هذا الموضوع خلافات مذهبية فارجع إليها فى موسوعات التفسير أو كتب الفقه .

(كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ) :أى مثل هذا التسخير البديع المفهوم من قوله تعالى : « صوافَّ » سخرناها لكم فلا تستعصى عليكم مع قوتها وعظم أجرامها حتى أنكم تأْخذونها وتحبسونها صواف ثم تطعنونها فى لبَّاتها ، ولولا تسخير الله لم تخضع ، ولم تكن بأَعجز من بعض الوحوش التى هى أقل منها حجما وأضعف قوة (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى لكى تشكروا آلاء الله المتتابعة عليكم ، بالتقرب إليه بما يجب عليكم من امتثال لأمره وإخلاص فى عبادته .

٣٧ـ (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ . . .) الآية .

قال ابن عباس : « كان أهل الجاهلية يُضرِّجُونَ البيت بدماء البُدْن فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فنزلت الآية » (لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا . .) : أى أنه تعالى ليس له حاجة إلى لحومها ودمائها ، حتى تضرجوا بها بيته ، ولكن يناله التقوى منكم فى كل

أعمالكم ، ومنها إطعام المساكين من لحومها ، وقد حث النبي -صلى الله عليه وسلم - على الإخلاص فى الأعمال والقربات ،كما جاء فى حديث مسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

(كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ) :أى مثل هذا التسخير العجيب سخرها لكم ، وجعلها منقادة خاضعة .فلا تستعصى عليكم مع ضخامتها .

وكرر- سبحانه - الامتنان على عباده بتذليلها لهم وتمكينهم منها تذكيرا لهم بتلك النعمة العظيمة التى تفضل بها عليهم .

(لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ) : أى لتعرفوا عظمته باقتداره على مالا يقدر عليه أحد من هدايتكم إلى طريقة تسخيرها ، وإرشادكم إلى الانتفاع والتقرب بها فتفردوه بالعبادة ؛ شكرا له على هدايتكم لذلك .

وقيل : لتكبروا الله عند الذبح ،وقد أمروا بالتسمية فى قوله تعالى : « فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ » وكان ابن عمر يجمع بينهما إذا نحر هديه فيقول: باسم الله والله أكبر وهذا من فقهه - رضى الله عنه - .

(وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) : أى وبشر - أيها النبي - المحسنين فى أعمالهم ، بالإخلاص فيها ، والقيام بها كما شرعه الله تعالى من غير مَنٍّ ولا أذى ؛ وعن ابن عباس : هم الموحدون .

* (إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ
خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن
يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ
صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ
وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن
مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾)

المفردات :

(خَوَّانٍ كَفُورٍ) : الخَوَّانُ : الكثير الخيانة ، والكَفُور : الشديد الكفر .

(بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) : بسبب كونهم مظلومين . (صَوَامِعُ) : جمع صومعة ، وهى متعبَّد خاص برهبان النصارى . (وَبِيَعٌ) : جمع بِيْعَة بوزن حرفة ، وهى متعبَّد النصارى عامة .

(وَصَلَوَاتٌ) :جمع صلاة وهى كنيسة اليهود ، وأُطلق عليها صلاة لأَنهم يصلون فيها ، وذلك من إطلاق اسم الحالِّ على المحل ، أو المظروف على الظرف .

(وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ) : أى له تعالى مرجعها تدبيرًا وحُكْمًا .

التفسير

٣٨ـ(إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) :

هذه من الآيات التى نزلت بعد الهجرة إلى المدينة ، وقد تقدمتها آيات تتعلق بالحج

وأحكامه ومناسكه ومنافعه ، وكل ذلك يؤدَّى بمكة وَحَرمِهَا ، وأنّى للمهاجرين المضطهدين أن يصلوا إليها حاجِّين أو معتمرين ، تلبية لنداء جَدِّهم إبراهيم الذى حكاه الله من قبل بقوله : « وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » الآيات (٣٧ ـ ٣٩) أنى لهم أن يحجوا ويعتمروا وقريش لهم بالمرصاد ؟ تصدهم عن حماه ، وتحرمهم من أداء فريضة الله ، وتمنع معهم مَن انضَمَّ إليهم وأسلم من أنصار المدينة ، وهم بعدُ لم يؤْذن لهم بحرب ولا قتال .

فلهذا كله أنزل الله تلك الآية لبعث الأمل فى نفوس المؤْمنين وطمأنة قلوبهم ببيان أنه -تعالى- ناصرهم على أعدائهم ، وممكنهم من الوصول إلى بيته . تحقيقاً لقوله من قبل : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [١] » .

والمعنى الإجمالى للآية : إن الله يَدْفَعُ عن الذين آمنوا به وبرسوله غائلة أعدائهم المشركين إن أرادوهم بسوءٍ أو صدوهم عن المسجد الحرام ـ يدفع عنهم شرورهم دفعاً بليغاً ـ لأنه تعالى لا يحب كل خوان لأمانة الله ، كفور بنعمة الله ، وهؤلاء المشركون خانوا الله ورسوله وأولياءه ، وخانوا أماناتهم ، وكفروا بربهم ، وعَصَوْا رسوله وكفروا به وآذوه ومن آمن معه من المؤمنين ، وأخرجوهم من ديارهم وبالغوا فى كفرهم وخيانتهم ، فلهذا استحقوا أن ينتقم الله منهم ، ويدفع أذاهم عن عباده المؤمنين الذين يحبهم ويرضى عنهم .

٣٩ ـ (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) :

وَعَدَ الله فى الآية السابقة بالدفاع عن الْمُؤْمنين ومساندتهم تمهيداً لهذه الآية التى أذن لهم فيها بقتال المعتدين عليهم المخرجين لهم من ديارهم ، وأكد فيها وعده السابق .

---

(١) سورة الحج آية : ٢٥

روى الواحدى وغيره : أن المشركين كانوا يؤذون أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم بمكة ، وكانوا يأتونه ما بين مضروب ومشجوج ، يتظلمون له ، فيقول لهم : اصبروا فإنى لم أومر بالقتال ، حتى هاجر فأُنْزِلت هذه الآية .

وهى أول آية أنزلت فى القتال بعد ما نُهىَ النبى -صلى الله عليه وسلم- عنه فى نَيِّف وسبعين آية ، على ما رواه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس -رضى الله عنهما- .

ومن نص الآية نعلم أنه تعالى إنما أذن لهم بالقتال بسبب أنهم ظلموا من المشركين ، حيث آذوهم وأخرجوهم من ديارهم وذويهم وأموالهم ،فهو قتال يراد به الانتقام ممن آذوهم ، وإثبات أنهم أصبحوا قوة يحسب حسابها عندما يريدون العدوان عليهم ،وكل ذلك تقره الأعراف الدولية ، فمن لم يَتَذَأبْ أكلته الذئاب ، وتعتبر هذه الآية قاعدة عامة لمشروعية القتال الدفاعى ، وإن نزلت بسبب خاص .

ومعنى الآية : أذن الله للمؤمنين الذين يقاتلهم غيرهم ، بأن يعتدوا عليهم أو على دورهم أو وطنهم أو أموالهم أو يؤلبوا عليهم سواهم ، أذن الله لهم فى قتالهم ، بسبب ظلمهم إياهم ، وإن الله على دفع هؤلاء الظالمين عن المؤمنين ونصرهم عليهم لعظيم القدرة ، فليثقوا بوعده وليطمئنوا إلى تأييده ، وليأخذوا بالأسباب .

٤٠ - (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ) :

هذا وصف مؤيد للإذن بقتال المهاجرين للمشركين حقق الله به وقوع الظلم منهم عليهم ، وأن من حقهم أن يدفعوا الظلم عن أنفسهم .

وقد أجْرِىَ هذا الوصف مجْرَى المدح لهم ، على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، وكأنه قيلَ : هم الذين أُخرجُوا من ديارهم بغير ذنب يستحقون به هذا الإخراج إلا أنهم يخالفون من أخرجوهم فى شركهم ، فيقولون : ربنا الله لا نعبد سواه ، فهل يعتبر قول الحق وعقيدة الصدق ذنبا يستحقون التهجير والإخراج من الوطن الغالى بسببه ؟ إنه لظلم مبين ، وعدوان أثيم .

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا) :

فى هذا الجزء من الآية يحث الله المؤمنين على القتال لأعدائهم بعد أن أذن لهم فيه . فقد بين لهم أنه تعالى أجرى العادة فى الأُمم السابقة أنه لا يُدْفَع الشر إلا بمثله والبادئ أظلم ، وذلك لكى ينتظمَ أمر الناس ويسودَ الأمن بينهم ، وتقوم الشرائع وتصان المعابد .

فكأنه قيل : قد أذنَّا للمؤمنين بقتال من ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق ، فليقاتلوهم ليدفعوا شرهم ، ويصونوا مساجدهم ، فلولا القتال وتسليط المؤمنين على المشركين فى كل عصر وزمان ، لهدِّمت معابدهم ، واستبيحت حرماتهم .

والصوامع : جمع صومعة . وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى وعُبَّادِ الصابئة . والمراد بها : هنا مُتَعَبَّدُ الرهبان . والبيعُ : جمع بيْعَةٍ بوزن كِسْرَة . وهى مُصَلَّى النصارى جميعاً ولا تختص برهبانهم كالصومعة . والصلوات : جمع صلاة ،وهى كنيسة اليهود ، وأطلق عليها ذلك على سبيل المجاز المرسل ، علاقته الحالِّيةُ والمحلية ، أو المظروفية والظرفية .

وقيل : صلوات : معرَّبُ « صُلُوثا » بالثاء المثلثة والقصر ، وهى كلمة عبرانية معناها : المصلَّى ، وروى عن أبى رجاء والجُحْدُرِىِّ وأبى العالية ومجاهد أنهم قرأوا بذلك .

والمساجد : جمع مسجد ، وأكثر ما يطلق على مصلى المسلمين ، ويقول ابن عطية : الأسماءُ المذكورة تشترك الأُمم فى مسمياتها إلا البيعة ، فإنها مختصة بالنصارى فى كل لغة ، ومعظم المفسرين على ما مرَّ بيانه ، من أن الصوامع للرهبان ، والبيع للنصارى ، والصلوات لليهود ، والمساجد للمسلمين ، أما قوله تعالى : « يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا » فهو فى موضع الصفة لمساجد ، وقال بعض المفسرين : إنه صفة للمواضع الأربعة المذكورة ، فإن كلا منها يُذْكَر فيه اسم الله فى عصره الذى كانت شريعته فيه قائمة لم تنسخ ، واستظهر هذا الرأى أبو حيان .

(وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ) :

فى هذا الجزء من الآية وعد الله تعالى من يقاتل فى سبيله بالنصر والتأييد ، أما من يقاتل عدوانا وظلما فهو بمعزل عن تأييد الله ، ولئن فاز فى بعض جولاته على أهل الحق فالعاقبة للمتقين الثابتين المترابطين .

ومع أنه ـ تعالى ـ أذن فى هذه الآية للمسلمين بقتال أعدائهم دفاعا عن أنفسهم ألزمهم فى حربهم بآداب وردت فى كتاب الله وعلى لسان رسوله ، ففى كتاب الله يقول سبحانه : « وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » وللعدوان صور ، منها : قتل من لا شأن له فى القتال ، كالنساء والصبيان والرهبان ، والشيوخ المسنين والمرضى ، فالمسلمون ممنوعون من كل ذلك ، جاء فى السنن أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « مرَّ على امرأة مقتولة فى بعض مغازيه قد وقف عليها الناس ، فقال : ما كانت هذه لتقاتل » وقال لبعض أصحابـه : أدركْ خالدًا فقل له : « لا تقتلوا ذرية ولا عسيفاً » والعسيف : الأجير ، ومن وصاياه ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا تقتلوا شيخًا فانيًا ، ولا طفلا صغيرا ولا امرأة » وفى صحيح مسلم : عن بريدة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول : « اغزُوا فى سبيل الله ، وقاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تَغُلُوا ولا تَغْدِروا ولا تُمَثِّلُوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع » أما الحرب عند غيرنا فلا تعرف للرحمة سبيلا .

٤١ ـ (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) :

ما جاء فى هذه الآية إما وصف للمهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق وأُذن لهم فى القتال دفاعًا وردًّا للعدوان . وهو الظاهر[1] ـ وإما لصدر الأمة المحمدية الشاملة للمهاجرين والأنصار وتابعيهم كما روى عن ابن عباس ، وإما للأمـة المحمدية فى مختلف عصورها ـ كما قاله الحسن وأبو العالية ـ وعلى أى حال فالآية مرتبطة بما قبلها .

---

(١) وعلى هذا تكون الآية دليلا على صحة أمر الخلفاء الراشدين ، فالممكنون فى الأرض من المهاجرين هم الخلفاء الراشدون دون غيرهم ، ولو لم يمكن المهاجرون وكانت الخلافة فى غيرهم لزم الخلف فيما يشبه الوعد منه تعالى بأنه يمكنهم فى الأرض ، وقد وقع الشرط وهو : التمكين وثبت الجواب وهو : إقامة الصلاة وما عطف عليها ، وهذا يقتضى أحقية الخلافة فى المهاجرين .

والمعنى : ولينصرن الله من ينصره ، وهم أولئك الذين إن مكناهم فى الأرض وجعلنا لهم سلطانا عليها أقاموا الصلاة فى مواقيتها ، وأعطوا زكاة أموالهم لمستحقيها ، وأمروا بما عرف حسنه فى شرع الله وأعراف الناس ، ونهوا عن المنكر فى دين الله ومنهاج الحق ولله تعالى دون غيره عاقبة الأمور ومآلها ، وفقا لتدبيره وحكمته - جل وعلا - .

(وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾
وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ
فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن
مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ
مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾)

المفردات :

(وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ) : أى أهلها وهم قوم شعيب . (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) : فأمهلتهم . (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) : فكيف كان إنكارى عليهم [1] وعقابى لهم ، والاستفهام بكيف للتعجيب مما عاقبهم به الله . (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) : فكثير من القرى أهلكنا أهلها ، وإيقاع الإهلاك على القرى على سبيل المجاز . (خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا) : أى ساقطة على سقوفها ؛ من خوى النجم : إذا سقط ، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامة بنيانها بعد ما هلكوا ، من خوَت الدار ، تَخوى ، خَواء ، إذا خلت من أهلها ، وخوَى البطنُ من الطعام يخوى ، خَوًى ، وخواء . (وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ) : أى لا يُستَقَى منها لهلاك أهلها .

(وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ) : أى مرفوع البنيان ، أو مبنى بالشِّيد ، وهو الجص .

---

(١) مأخوذ من قولهم : نكرت عليه كذا ، إذا فعلت فعلا يردعه ، فهو بمعنى : الإنكار ، كالنذير ، بمعنى : الإنذار .

التفسير

٤٢ ، ٤٣ - (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ) :

هاتان الآيتان وما بعدهما سيقت لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من إعراض أهل مكة وتكذيبهم إياه ، وحزنه وتألم قلبه لجفائهم وهم يعلمون أنه الصادق الأمين ، والتعبير عن تكذيبهم بصيغة المضارع الصالحة للحال والاستقبال حيث قيل : (وَإِن يُكَذِّبُوكَ) مع أنهم كذبوه من قبل ، للإيذان بأن تكذيبهم سيتجدد ، فليتسل عنه ولا ينزعج ، فمثل ذلك قد حدث للمرسلين قبله من أقوامهم .

والمعنى : وإن يكذبك قومك - يا محمد - فلا تحزن ، فإنك لست بأوحدى فى ذلك فقد كَذَّبت قبلهم قومُ نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط - كذبوا رسلَهم - .

وإلحاق التاء بكذَّب فى قوله : (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) مع أن القوم مذكر ، لأنه اسم جمع يصح تأنيث الفعل المسند إليه وتذكيره ، أو لتأويل القوم بالأمة أو الجماعة .

٤٤ - (وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) :

أى ، وكذب أهل مدين رسولهم شعيبا ، وكذب فرعون وقومه موسى ، فأمهلت كل فريق من هؤلاء المكذبين لعلهم يرعوون ويثوبون إلى رشدهم ، ثم أخذته وأهلكته بعد انتهاء مدة إملائه وإمهاله ، عقابا لهم وإنكاراً عليهم ، فكيف كان إنكارى عليهم ؟ لقد حولت عمارهم خرابًا ، وأهلكتهم عن آخرهم « فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُم وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »(١)

٤٥ - (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ) :

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٠

(كَأَيِّنْ) : اسم يراد به التكثير مثل (كَمْ) الخبرية و (خَاوِيَة) بمعنى : ساقطة أو خالية ، وهذه الآية مفرَّعةٌ على الآية التى قبلها مبينة لما جاء فيها من عقاب الله العنيف للمصرِّين على الكفر ، وآثاره التى ترتبت عليه .

ومعنى الآية : فكثير من القرى دمَّرناها وأهلكناها وأهلها ظالمون ، فهى بسبب ذلك ساقطة حيطانها على سقوفها ، وكم من بئر عامرة مليئة بالماء معطلة لا تجد من يستقى منها لهلاك أهلها ، وكم قصرٍ مرفوع البنيان ، أو مبنىٌّ بالشّيد ، وهو الجص ، أهلكنا أهله فخلا من ساكنيه .

وإذا كانت (خاوية) بمعنى خالية ، يكون معنى الآية : فكثير من القرى أهلكنا أهلها وهم ظالمون ، فهى خالية منهم بعد إهلاكهم مع بقاء عروشها وسلامتها ، وكم من بئر معطلة لا تجد من يستقى منها ، وقصر مشيد لا يجد من يَعْمُره .

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾)

المفردات :

(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ) : وكثير من القرى .

(أَمْلَيْتُ لَهَا) : أمهلت أهلها ولم أعجل عقوبتهم على كفرهم .

٤٦ - (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ) :

حكت الآيات السابقة : أنه تعالى انتقم ممن كذب المرسلين قبل محمد صلى الله عليه وسلم فأهلكهم وخرَّب ديارهم ، وجاءت هذه الآية لحث مشركى قريش على السير فى أرض المهلكين لكى يعتبروا بما حدث لهم ، فيتوبوا من شركهم وكفرهم .

وهؤلاء لا يخلو حالهم من أن يكونوا قد مروا على القرى التى أُهْلِك أهلها حولهم كقرى قوم لوط وأصحاب الأيكة ، ولكنهم لم يعتبروا بما حدث لهم ، فالآية حينئذ تَنْعَى عليهم عدمَ اتعاظهم بالمرور عليها ، و تطالبهم بالاتعاظ بها ، والهمزة على هذا للاستفهام الإنكارى المشوب بتوبيخهم على عدم اعتبارهم بما يرونه من آثار المهلكين قبلهم ، أو أن يكونوا لم يمروا بها ، فالآية تطالبهم بالمرور بها والاعتبار بما حدث لأهلها وعلى هذا فالاستفهام : إما للإنكار والتوبيخ على عدم مرورهم واعتبارهم ، أو لتقريرهم بارتكاب هذه الخطيئة ، وخلاصة معنى الآية على الوجه الأخير كما يلى :

أَقَعَدَتْ قريش فى عقر دارها وقد علموا بالقرى المهلكة حولهم ، فلم يسيروا فى الأرض متجهين نحوها ليتعرفوا ما حدث لها ولأهلها ، فتكون لهم عندما يرون آثارها - تكون لهم - قلوب يعقلون بها أن الكفر بالله وخيم العاقبة ، وأن الرسل صادقون فيما يبلغون أممهم عن الله رب العالمين ، أو تكون لهم عندما يسمعون ممن حولها أخبارها - تكون لهم - آذان يسمعون بها ، فلا يغلقونها عند الاستماع إليها ، فإنه لا يُعْتَدُّ بعمى الأبصار ، فإن من عمى بها قد يدرك الحق بقلبه أو بسمعه ، فكأنه ليس بأعمى ، ولكن العمى فى الحقيقة هو عمى القلوب التى فى الصدور ، فإن عماها يحجب الحق عنها ، فتبقى فى ظلام الكفر وغيبوبة الضلال المبين ، فسيروا - يا أهل مكة - فى الأرض ، لتنظروا ما حدث للمكذبين قبلكم ، وأزيلوا الغِشاوة عن قلوبكم وعن أسماعكم ، واعتبروا بما حدث لمن قبلكم .

وهذه الآية قررت أن القلوب التى فى الصدور مركز للتعقل والإدراك ، وأن بها يعرف الخير من الشر ، وقد تكرر هذا المعنى فى آيات كثيرة من القرآن ، ففى سورة الأعراف :

قال الله عز وجل « لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا » - ١٧٩-

وفى سورة محمد قال تعالى « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » - ٢٤ -

إلى غير ذلك من الآيات .

ومن الأمور المعروفة طبيًّا : أن الأجهزة العقلية كلها فى الدماغ ، ولا تعارض بين ذلك وبين ما جاء فى القرآن ، فإن العقول لا غذاء لها إلا من القلوب ، ولا تعمل إلا بمدد منها ؛ فإذا انقطع عنها هذا المدد شلَّتْ وفسدت ، وتعرض صاحبها للموت ، بل إن القلوب هى مصدر الحياة للأجساد ، فلا غرابة فى أن يُسْندَ إليها ما يسند إلى رعيتها من مختلف الأجهزة الجسمية ، ألا ترى أنهم يقولون : فتح الملك المدينة ، مع أنه لم يفتحها سوى جنوده وقواده ، وإنما صَحَّ إسنادُ الفتح إليه لأنه السبب الأول فيه ، على أن قلوبنا تحس تماما بضياء الحق فتستريح إليه وتنشرح صدورنا به ، ولا شك أن هذا الانشراح والراحة القلبية يدلان على أن فى القلوب هدى وبصيرة ، وأن الأمر ليس قاصراً على مراكز العقول فى الدماغ .

٤٧ - (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) :

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحذِّر قريشا من نزول العذاب بهم ، كما نزل بمن قبلهم ، إن استمروا على كفرهم ، فكانوا لا يحذرون ، وعمدوا إلى التحدى فطالبوه بإنزال العذاب الذى يحذرهم منه - طالبوه استهزاءً وتعجيزاً - فأنزل الله هذه الآية ينكر عليهم استعجالهم فإن الأمر ليس لهم ، والزمن الطويل عندهم قصير عند ربهم ، والآية فى ظاهرها خبر ، ولكنها تتضمن الاستفهام الإنكارى لاستعجالهم ، فكأنه قيل : ويستعجلونك - أيها الرسول - بالعذاب الذى أوعدتُهم به على لسانك . فأنكروه وكفروا به ، فكيف ينكرون مجيئه ؟ ولن يخلف الله وعده ، والأمر فى مجيئه ليس إليهم حتى يسارع به تلبية لرغبتهم ، فلا يستبطئوا نزوله ، فإن الأمر فيه لله تعالى والله لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده ، فهو قادر على الانتقام منهم فى الوقت الذى شاءه لعذابهم ، فلا يفوته ذلك وإن أجَّله وأملى لهم فيه ، ولكون المعنى على ذلك ، عقَّب الله هذه الآية بقوله : « وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ » وسيأْتى شرحها .

ولقد حقق الله وعيده فسلط عليهم القحط والجوع حتى أكلوا الكلاب والعِلْهز[1] . كما أنزل بهم فى غزوة بدر هزيمة نكراء هزت كيانهم ، فقتل فيها سبعون من صناديدهم . وأسر سبعون ، ومن المفسرين من حمل اليوم المذكور على يوم الآخرة . والعذاب على عذابها ولكن المقام لا يساعد على ما ذهبوا إليه ، والله الموفق .

٤٨ – (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) :

هذه الآية الكريمة مؤكدة لما جاء فى الآية التى قبلها من أنه تعالى لا يخلف وعيده لمن أصر على كفره ، وأنه إن أمهلهم ليتوبوا فلن يهملهم إن أصروا ، والمراد بالقرية فيها : أهلها . ونسبة الظلم لها مع أنه لأهلها على سبيل المجاز .

والمعنى : وكثير من أهل القرى أمهلتهم وهم ظالمون لأنفسهم بالشرك والمعاصى ، لعلهم يستجيبون لرسلهم ، ويرجعون عن غيهم ، فغرهم هذا الإمهال ولم يفكروا فى عاقبته ، ثم أخذتهم بالعذاب والنكال بعد طول الإملاء والإمهال ، وإلى حكمى مرجعُهم ومصيرُهم لا إلى غيرى ، فأفعل بهم ما يستحقونه من النكال على جرائمهم ، فلا يفوتنى من أمرهم شىءٌ . لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، أخرج الإمام البخارى فى كتاب التفسير[2] ، بسنده عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ ، ثم قرأ : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » .

---

(١) بعد أن دعا الرسول عليهم بقوله : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » والعلهز : طعام من الوبر والدم كان يؤكل فى المجاعة ، ويطلق أيضا على القراد الضخم : قاموس .

(٢) (« باب : وكذلك أخذ ربك ») والحديث أخرجه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه ، واللفظ هنا للبخارى .

(قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(نَذِيرٌ مُّبِينٌ) : منذر واضح ، من أَبَان بمعنى وضح واستبان ، أو منذر مُوَضحٌ لكم ما أنذرتكم به ، من أبان الأَمْرَ ، أى : أوضحه .

(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) : ورزق حسن فى الجنة لوقوعه بعد المغفرة .

(سَعَوْا فِىٓ آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ) : أى بذلوا جهدهم فى إبطال آياتنا محاولين تعويق المؤمنين فى تأييدها . وتعجيزهم عن إبلاغها مداها ، فالمعاجزة : مسابقة فى التعجيز ، يراد بها أن يغلب أحد المتسابقين الآخر ، فيعجز عن المضى ، وكذلك فعل المشركون فخسروا السباق وهُزمُوا .

التفســير

٤٩ - (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) :

تضمنت الآيات السابقة : أن الله تعالى طلب من أهل مكة أن يسيروا فى الأرض حولهم ، فينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين قبلهم . حيث أهلكوا عَنْ آخرهم . فخربت ديارهم وعطلت آبارهم ، لعلهم يعتبرون بما أصابهم . ويرجعون عن غيهم . ولكنهم استعجلوه بالعذاب . فبين لهم أنه -تعالى- لن يخلف وعده إن أصروا على كفرهم ، وأنهم إن أمهلوا ليتوبوا فلن يهملوا إن أصروا .

وجاءت هذه الآية آمرة للنبي - صلى الله عليه وسلم - أن يواصل إنذارهم ، وأن لا يبالى بتكذيبهم واستعجالهم العذاب .

ومعنى الآية : قل أيها النبي لأهل مكة : يأيها الناس ما أنا إلا منذر لكم واضح الإنذار ، فيما أخبرتكم به من أنباء الأمم التى أهلكها الله بتكذيبها رسلها ، لكى تحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فكيف تستعجلوننى بالعذاب ولن يخلف الله وعده ؟ فالأمر بيده ، إن شاء عَجَّلَ وإن شاء أَجَّلَ .

٥٠ - (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) :

أى : أنذر - يا محمد - هؤلاء الكفرة المستعجلين للعذاب وبالِغْ فى إنذارهم ، فالذين آمنوا بعد كفرهم ، وعملوا الصالحات بعد إيمانهم ، لهم مغفرة لما كان منهم من الكفر والمعاصى ، ولهم رزق حسن فائق فى الجنة ، فإن الإيمان يَجُبُّ ما قبله ، كما قال تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ »[١] .

٥١ - (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) :

والذين سعوا فى آياتنا وبذلوا الجهد فى إبطالها ، فسمَّوْها تارة سحرا ، وتارة شعراً ، وتارة أخرى أساطير الأولين ، مسابقين المؤمنين ، كلٌّ يريد تعجيز الآخر ، فالمؤمنون يريدون إبطال كيد الكافرين ، والوصول بآيات الله إلى قلوب الناس أجمعين ، والمشركون يريدون تعويقهم وتعجيزهم عن تحقيق غايتهم ، فهؤلاء الساعون المعوِّقون المعاجزون هم أصحاب الجحيم ، الملازمون للنار الشديدة التأجج والإحراق « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ »[٢] .

هذا ، وبعض المفسرين حمل (الناس) فى قوله تعالى : « قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » على عموم الناس مؤمنهم وكافرهم ، وفسر الآيات الثلاث على النحو الآتى :

قل يا أيها الناس - مؤمنكم وكافركم - إنى لكم منذر واضح الإنذار ، بأنكم ستأتيكم الساعة ثم تبعثون وتحاسبون ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى دنياهم ، لهم مغفرة ورزق كريم

(١) سورة الأنفال ، صدر الآية : ٣٨

(٢) سورة يوسف ، من الآية : ٢١

فى أخراهم ، والذين كفروا وسعوا فى إبطال آياتنا وتعجيز دعاتنا ، أولئك أصحاب النار الملازمون لها .

هذه خلاصة ما قيل فى هذا المقام ، ولكن فيه خروجا عن السياق ، فى حين أن المؤمنين لا يُنْذَرُونَ ، وإنما ينذر أهل الكفر - فما قلناه أولا هو اللائق بالسياق .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) الرسول : من بعثه الله بشرع جديد أنزله عليه ، وأيده بمعجزة تحقق رسالته . والنبي :صاحب معجزة تؤيد نبوته ، وقد أمره الله أن يدعوَ الناس إلى شريعة من قبله ، ولم ينزل الله عليه كتابا بشرع جديد ، فالرسول :صاحب شرع ، والنبي :حافظ شرع - وسيأتى لذلك مزيد بيان .

(تَمَنَّى) : لها عدة معان ، منها : أراد ، وقرأ ، وكلاهما تصح إرادته هنا فى تفسير الآية كما سيأتى بيانه .

(فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ) : يزيل من النفوس وساوسه التى يوسوس بها .

(ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ) : يحفظها من التأثر بوساوس الشيطان .

(فِتْنَةً) : اختباراً وامتحانا . (فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) : قلق أو شكٌّ ونفاق .

(وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ) المراد بهم : المشركون المجاهرون .

(لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ) : لفى خلاف بعيد عن الحق . (فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ) : فتطمئن .

التفسير

٥٢ ـ (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٓ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

بَيَّن الله فى الآيات السابقة أن أهل مكة كذبوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه تعالى توعدهم بأن يصيبهم من العقاب ما أصاب المكذبين للرسل قبلهم ، ودعاهم إلى أن ينظروا ما أصاب ديارهم حولهم من الخراب والدمار ، فاستعجلوا الرسول بالعذاب الموعود ، بدلا من الاتعاظ والاعتبار بهم ، فبيَّن الله أن أمر تعذيبهم بيده ، وأنه لا يخلف وعده ، وأنهم إن أُمهلوا فلن يُهْمَلوا ، فازدادوا ضراوة فى العدوان على كتاب الله ، فسعوا فى آياته معاجزين معوِّقين المؤمنين عن الوصول بها إلى قلوب الناس ، فزعموا أنها شعر وسحر وأساطير الأولين ، واشتدوا فى إيذاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإيذاء أصحابه تعويقا وتعجيزا لدعوة الحق ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وما بعدها تسلية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ، فقد بيَّن فيها أن كل الأنبياء والمرسلين قبله أصابهم من تعويق دعوتهم ومحاولة تعجيزهم فى رسالتهم مثل ما أصابه ، ثم انتصر حقهم على باطل خصومهم وزالت فتنة هؤلاء الشياطين الذين حاولوا إبطال دعوتهم ، وأحكم الله آياته فى نفوس أهل الحق ، فازدادوا إيمانًا فوق إيمانهم ، وإليك فيما يلى تفصيل ما أجملناه :

يقول الله تعالى فى هذه الآية : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ) وهذا النص يقتضى أن النبى غير الرسول ، وأن الله أرسلهما لهداية البشر ، وأن لكل منهما

منهاجا فى تبليغه رسالته للناس ، وأنهما بسبب ذلك يختلفان فى تعريفهما ، والمشهور أن الرسول : من أُوحى إليه بشرع وأُنزل عليه كتاب يبلغه للناس ، والنبى : من لم ينزل عليه كتاب ، وإنما أُمر بتبليغ شريعة من قبله ، فالرسول صاحب شرع جديد ، والنبى حافظ لشرع قديم ، وكلاهما أيده الله بمعجزة تؤيد أنه مرسل من عند الله ، ومن العلماء من قال : إن النبى يعم الرسول صاحب الشرع الجديد ، والنبى حافظ الشرع القديم ، فكلاهما نبى ، ولذلك خوطب الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - بلفظ النبوة فى القرآن فى نحو قوله تعالى : « يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » وهذا خير ما يقال فى الفرق بينهما .

وقد جاء فى الآية لفظ (التَّمنِّى) وله فى اللغة عدة معان ، منها : القراءة ، ومنها الإرادة والرغبة ، ويدل على استعمال التمنى بمعنى القراءة قول حسان فى عثمان بن عفان بعد قتله :

تَمَنَّى كتابَ الله أَوَّلَ لَيْلِهِ تَمَنِّىَ داودَ الزَّبُورَ على رِسْلٍ [1]

وكلا المعنيين تصح إرادته فى تفسير الآية الكريمة ، فإذا فسرنا التمنى بمعنى القراءة كان معنى صدر الآية كما يلى :

وما أرسلنا قبلك - يا محمد - رسولا ولا نبيًّا إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئًا من الآيات التى أمرناه بتبليغها ، ألقى الشيطان فيما يقرؤه الشُّبه والتخيلات على أوليائه ليجادلوه بالباطل ويردوا ما جاء به ، - تعجيزًا لمسيرة دعوته ، وفى هذا المعنى يقول سبحانه وتعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا [2] » ، ويقول أيضاً : «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ [3] » ؛ وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » - ما بالهُ يُحِلُّ ما يذبحه لنفسه ، ويحرم ما يذبحه الله ؟ فقد كانوا يحلون الميتة زاعمين أنها ذبيحة الله لهم ، وحينما قرأ : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ » قالوا : إن عيسى عُبِدَ من

(١) أى : على مهل .

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١١٢

(٣) سورة الأنعام ، من الآية : ١٢١

دون الله ، والملائكة كذلك ، وهذه مغالطة مكشوفة ، فإن الآية لهم ولأصنامهم ، ولذلك قال سبحانه : « وَمَا تَعْبُدُونَ » ولم يقل : « ومن تعبدون » لأن « ما » لما لا يعقل ، أما « مَنْ » فهى لمن يعقل ، وكيف يدخل عيسى فى المعبودات المعذبة وقد قال الله فيه :

« مَاالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ »(١) وحكى عنه أنه قال لقومه وهو رضيع : .

« إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ . . . »(٢) .

وقال عن الملائكة : « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ »(٣)

فالواقع أنهم يزيفون الأباطيل ويزعمونها حججا لهم وهى أوْهَى من بيت العنكبوت .

وإذا فسرنا التمنى بالرغبة والإرادة ، فيكون معنى الآية ما يلى :

وما أرسلنا قبلك - يا محمد - من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى وأراد هداية قومه إلى الحق ، ألقى الشيطان فيما تمناه الشُّبَهَ فى نفوس قومه ليصدهم عن سبيله ، وقد بيَّن الله مآل سعى الشيطان فى آيات الله بقوله : فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » أى : فيبطل الله ما يلقيه الشيطان من الشُّبَه فى نفوس الناس ، بتوفيق الرسول أو النبى لرده ، أو بإنزال ما يرده ، ثم يظهر الله حكمة آياته لمن أشكل عليهم الأمر بتلبيس الشياطين ، أو يمنعها ويحميها من أباطيل الشياطين(٤) ، بما ينزله من الآيات الماحقة لأباطيلهم كما جاء بقوله سبحانه :

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » وختم الله الآية بقوله : (وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ): أى واسع العلم ، فلا يخفى عليه ما يصدر من الشيطان وأوليائه ، بليغ الحكمة فى رد شبهاتهم ونصر رسله وأنبيائه .

وخلاصة معنى الآية : أن الصراع بين الحق والباطل أمر قديم ، عرفه الأنبياء والمرسلون قبلك يا محمد ، وأن الأمر ينتهى بنصر الحق على الباطل بتدبير الله وحكمته ، فلا تجزع

---

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٧٥ (٢) سورة مريم : من الآيتين ٣٠ ، ٣١ (٣) سورة الأنبياء : من الآية ٢٦ ، من الآية ٢٧ (٤) ومنه قولهم : أحكم أمره ، أى : جعله مستحكما منيعا لايتطرق إليه الفساد .

يا محمد مما يأتى به شياطين قومك من السعى بالباطل فى آيات الله معاجزين بتسويل الشيطان الرجيم ، أولئك أصحاب الجحيم ، وأباطيلهم إلى زوال .

٥٣ - (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) :

هذه الآية مرتبطة بفحوى الآية التى قبلها ، وكأنه قيل : وما أرسلنا قبلك يا محمد من نبى ولا رسول إلا عاداه الشيطان وحاربه فى أمنيته ورسالته لقومه ، فجعل يلقى الشُّبَهَ فيما يقرؤه ويريده لقومه من الهدى فينسخه الله ويرده ، ليجعل الله ما يلقيه الشيطان فتنة وامتحانا للذين أظهروا الإيمان برسولهم أو نبيهم وفى قلوبهم مرض من شك ونفاق ، وللقاسية قلوبهم من الكفار المجاهرين بكفرهم ، فيَحْذَرَهُم الأنبياء وَيَجِدُّوا فى كفاحهم ، وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ، وعداءٍ للحق شديد ، فلا تجزع لما يحدث من قومك يا محمد ، فشأنهم معك كشأن سائر الأمم مع الأنبياء والمرسلين قبلك ، والعاقبة للصابرين المجاهدين .

٥٤ - (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ . وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

(وَلِيَعْلَمَ) معطوفة على قوله : (لِيَجْعَلَ) فى الآية السابقة ، داخلة معها فى حيز التعليل .

والمعنى : أن الشيطان كان يلقى الشُّبَهَ فيما يقرؤه الأنبياء والمرسلون قبلك على أممهم ، وما يريدونه من الهدى لهم ، فينسخها الله ويبطلها ، ليجعل ما يلقيه الشيطان امتحانا للمنافقين والكافرين القاسية قلوبهم ، فيظهر أمرهم لأنبيائهم فيحذروهم ويجاهدوهم ، وليعلم الذين أوتوا العلم فى كل النبوات والرسالات ، بما أوتوا من الهدى ونور القلوب ، وبما أنزله الله من ردِّ شُبَهِ الشياطين ونسخها - أى إبطالها - فيثبتوا على إيمانهم ، ويزدادوا إيمانا فوق إيمانهم ، وإن الله لهادى الذين آمنوا فى كل الرسالات إلى طريق مستقيم من

النظر الصحيح الموصل إلى الحق المبين ، وكذلك أمر المؤمنين من قومك ، فلهم من هداية الله إلى صراطه المستقيم أوفر نصيب ، ومن الثبات على الحق شأن عجيب .

وفى معنى تلك الآيات يقول الله تعالى : « الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ »(١) .

(قصة الغرانيق وهذه الآيات)

يذكر المفسرون أثناء تفسيرهم قوله تعالى : « وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ . . . . » الآيات – يذكرون – قصة تسمى قصة الغرانيق ، وقد أتعبوا أنفسهم فى نقل رواياتها وتأويلها أو تفنيدها ، أثناء تفسيرهم تلك الآيات .

ولكنا رأينا أن نفسرها على النحو الذى مر بيانه ، بمعزل عن تلك القصة المفتراة ، مراعين فى تفسيرها نصوصها ومناسبة ماقبلها ومابعدها ، وربطها بالجو الذى سيقت فيه ، فإن القرآن مترابط المبانى ، ومتناسب المعانى ، وما أكثر الضعف فى أسباب النزول ، وما أقطع الوضع فى بعضها ، ومنه قصة الغرانيق التى قيل : إنها سبب لنزول هذه الآيات .

وقد رأينا أن نذكر خلاصتها بمعزل عن تلك الآيات وشرحها ، وأن نفندها ونبين زيفها وفسادها ، وإليك البيان فيما يلى :

زعموا أنه – صلى الله عليه وسلم – كان يقرأ سورة النجم بمحضر من قريش ، فلما بلغ : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ » ألقى الشيطان عندها كلمات فقال : (وإنهن الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى) وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الجملتان موقع الرضا والاستحسان من المشركين ، وتناقلتها ألسنتهم ، وتباشروا بها وقالوا : إن محمدا راجع إلى دين قومه ، فلما وصل الرسول إلى قوله تعالى فى آخر سورة النجم : « فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا » سجد وسجد كل من حضر من مسلم أو مشرك ، وفشت هذه الدسيسة فى الناس حتى بلغت مهاجرى الحبشة فعادوا ، وأظهرها الشيطان ،

---

(١) صدر سورة العنكبوت .

فحزن النبي – صلى الله عليه وسلم – لذلك ، فأنزل الله تعالى لتسليته : «وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَانَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَايُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . . . . » الآيات .

ويؤولون إلقاء الشيطان فى أمنيته ، بأنه حاكَى صوت النبي – صلى الله عليه وسلم – ونغمته فى أثناء سكوته بين الآيات حين تلاوتها ، فدسَّ جملتى الغرانيق السابقتين ، وقالوا : إن الشيطان كان يظهر للناس فى العهد النبوى فى صورة أحدهم ، وكان يكلمهم ، ومن ذلك أنه نادى بعد هزيمة المسلمين فى غزوة (أُحُد) : ألا إن محمدا قد قتل ، وقال يوم بدر : «لَاغَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ » .

ويفسر آخرون الشيطان بواحد من كفار قريش ، حاكَى صوت النبى ، وحشدها بين قراءته كأنه يقرؤها ، وقال غيرهم : إن الشيطان أجراها على لسان النبي – صلى الله عليه وسلم – أثناء قراءته .

وقد عجبنا كيف أتعب المفسرون أنفسهم فى نقل رواياتها المتناقضة المفتراة وأطالوا فى تأويلها أو تفنيدها ، وهى ظاهرة البطلان .

وأول مانلاحظه على فرية الغرانيق ، أنهم زعموها مدسوسة من الشيطان فى سورة النجم ، فى حين أن تسلية الرسول عما فعله الشيطان فيها جاءت فى سورة الحج ، مع أنه يفصل بينهما ثلاثون سورة ، فلو كان لها ظل من الواقع لكانت التسلية عما فعله الشيطان فى نفس السورة التى دُسَّتْ فيها أكذوبة الغرانيق ، لافى سورة سواها تبعد عنها هذا البعد السحيق ، فى حين أن سورة النجم مكية ، وسورة الحج مدنية على ماقاله الضحاك ، فكيف يعقل أن يسكت القرآن على هذه الفرية تذيع فى مكة وتنتشر حتى تبلغ المهاجرين فى الحبشة ، فيحضروا بسببها كما زعم المفترون ، ولايَرُدَّها إلا بعد الهجرة إلى المدينة ؟ .

وقد أنكر المحققون هذه الفرية ، فقال البيهقى : هذه القصة لم تثبت من جهة النقل وقال القاضى عياض فى الشفاء : يكفيك فى تَوْهِينِ حديث الغرانيق أنه لم يُخَرِّجْهُ أحد من أهل الصِّحة ، ولا رواه ثقة بسند صحيح سليم ، وإنما أُولِعَ به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم .

وفى البحر لأبى حيان : أن هذه القصة سئل عنها الإمام محمد بن إسحاق جامع السيرة النبوية فقال : إنها من وضع الزنادقة ، وصنف فى ذلك كتابا .

أما القول بأن الشيطان أجراها على لسان النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فهو أفحش ما يقوله زنديق ، وأوهن من بيت العنكبوت ، فلا يصح أن يجبره الشيطان عليها ، لأنه ليس له سلطان على عباد الله الصالحين ، فكيف يكون له سلطان على رسوله ، ولا يصح أن يكون أجراها على لسانه سهوا وغفلة ، لأنه لا تجوز على الرسول الغفلة والسهو فى تبليغ الوحى ، ولو جاز عليه مثل ذلك لبطل الاعتماد على قوله ، وكل ذلك مستحيل عقلا ، كما أنه مستحيل شرعاً ، لقوله تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ولقوله : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

وبعد أن عرفت أن قصة الغرانيق مفتراة ، اخترعها الزنادقة لمحاربة الإسلام ، فعليك أن تتمسك بتفسيرنا السابق للآيات الثلاث ، والله تعالى ولى التوفيق .

(وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ) : فى شك من القرآن ، أو من الصراط المستقيم . (بَغْتَةً) : فجأة .
(عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) : عذاب يوم لا مثيل له ، فلا راحة فيه ولا رحمة .
(مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ): المراد به : الجنة .

التفسير

٥٥ - (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ) :

بينت الآيات السابقة أن أهل مكة سَعَوا فى آيات الله معاجزين . وأن الله تعالى سلّى نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، عن عدائهم للقرآن بأنه ليس أوْحَدِيًّا فى عداء الكفار لما جاء به ، فما أرسل الله قبله رسولا ولا نبيًّا ، إلا إذا تمنى إيمان قومه ، سعى شياطينهم فى إفساد أمنيته ، بإلقاء الشُّبه فيما جاءهم به ، وأنه تعالى كان يبطل ما يلقيه أولئك الشياطين من الشبه ، بما ينزله محكما فى رد شبهاتهم ، وأن وقوف الشياطين فى سبيل الحق ابتلاءٌ من الله لأمم الأنبياء ، فبه يظهر المنافقون وصرحاءُ الكافرين على حقيقتهم لأنبيائهم ورسلهم فيحذرونهم ويكافحونهم ، وبه يعرف المؤمنون المطمئنون للحق - بينت الآيات السابقة ذلك - وجاءت هذه الآية لتسجل على شياطين الكافرين من أهل مكة عنادهم فى كفرهم ، وأنهم لا يزالون فى غمرة من الشك بسبب القرآن ، لا يخرجهم منها إلا مجيءُ الساعة فجأة ، أو عذاب يوم لا مَثِيلَ له فى شدته فَيَفِيقون من شكِّهم .

والمعنى : ولا يزال شياطين قريش فى شك من القرآن أو من الرسول ، يجعلهم يقفون فى سبيله ويُحَرِّضون أتباعهم على الكفر به ، حتى تأتيهم ساعة الفناء فجأة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم لا يستعقب خيرا ، أو لا مثيل له فى شدته ، فهو فى ذلك يشبه المرأة العقيم التى لا تلد ولا تترك عقبا خلفها ، أو كالريح العقيم : « مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (١) » ولا تترك خلفها زرعا ولا ضرعا .

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٤٢

والمراد باليوم العقيم: يوم بدر، فقد كان كارثة حلّتْ بصناديد قريش وشياطينهم، فى أول لقاء لهم مع من أخرجوهم من ديارهم، فقد قتل منهم سبعون، وأُسر سبعون، ونَاحَتْ نساءُ قريش على قتلاهم شهرا.

وفسره بعض العلماء بيوم القيامة، حيث يُجْزَى الكافرون بما كانوا يقترفون، وفسره آخرون بيوم موت كل واحد منهم، ولعل أنسب الآراء بالآية التالية هو يوم القيامة، ففيه يتفرد الله بالملك مَظْهرا، كما هو متفرد به حقيقة.

٥٦ـ (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ):

الملك يوم تأتيهم الساعة أو عذابها، لله وحده بلا شريك فيه حقيقة أو صورة، فليس لأحد فيه تصرف فى أمر من الأمور، لاحقيقة ولامجازًا، ولا صورة ولا واقعا، فكل شيء فيه إلى الله، حتى الشفاعة لا تكون لأحد: «إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً[1]» فالله تعالى هو الذى يحكم فيه بين عباده، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى دنياهم، مقرهم فى جنات النعيم.

٥٧ـ (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ):

والذين كفروا فى دنياهم وكذبوا بآيات الله الكونية أو التنزيلية، فأولئك لهم عذاب دائم الإهانة والإذلال «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» ثم خص الله بعض الفريق الأول بمزية، وهم المجاهدون فى سبيل الله فقال:

٥٨ـ (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ):

أى: والذين هجروا أوطانهم فى سبيل الله تعالى، ثم قتلوا أثناء جهادهم، أو ماتوا حتف أنوفهم[2] فى هجرتهم بنحو مرض أو سكتة قلبية، ليرزقنهم الله الذى هجروا أوطانهم

---

(١) سورة طه، من الآية: ١٠٩

(٢) الذى مات حتف أنفه هو الذى مات بغير أن يقتل فى المعركة، كونه على فراشه أو نحوه، والحتف: الموت، ويضيفه العرب للأنف إذا كان بنحو مرض، لاعتقادهم أن روحه تخرج فى مثل هذه الحالة من أنفه، أما الذى يموت جريحا، فيقولون فيه: مات حتف جراحته، لظنهم أن روحه تخرج من جراحته.

فى سبيله – ليرزقنهم – فى الجنة رزقاً فائق الحسن على مايعطيه سواهم من المؤمنين غير المهاجرين فى سبيله ، وإن الله الذى اتجهوا بهجرتهم إليه لهو خير الرازقين ، حيث يعطيهم ما يفوق الخيال ، ولا يخطرلهم على بال ، ويمنحهم بغير حساب ، فهو الذى لا تفنى خزائنه ، ولا تنضب موارد نعمه ، ولا غاية لفضله وكرمه .

وهذه الآية نزلت فى عثمان بن مظعون وأبى سلمة بن عبد الأسد ، ماتا بالمدينة مهاجِرَيْن ، ولم يُقتلا فى سبيل الله ، فقال بعض المؤمنين : من قتل فى سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه ، فنزلت هذه الآية مسوِّية بينهما ، لأن كليهما عاهد الله على الموت فى سبيله بهجرته لنصرة دينه .

وقد استدل بالآية فُضَالَةُ بن عُبَيْد – وكان أميرًا بجزيرة رودس – استدل بها على المساواة بينهما فى الأجر ، فقد أخرج ابن أبى حاتم بسنده ، عن أبى قبيل وربيعة ابن سيف المَعَافِرِىِّ قالا : (كنا بِرُودِسَ ومعنا فضالة بن عبيد الأنصارى صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فمر بجنازتين إحداهما قتيل والأخرى متوفًّى ، فمال الناس على القتيل ، فقال فضالة : مالى أرى الناس مالُوا مع هذا وتركوا هذا؟ فقالوا : هذا قتيل فى سبيل الله تعالى ، فقال : والله ما أُبالى من أى حضرتيهما بُعِثْتُ ، اسمعوا كتاب الله «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حَسَنًا . .» الآية ، وكان هذا القتيل قد أصيب بقذيفة منجنيق كما جاء فى رواية أخرى له .

والذى نراه أن الآية وإن سوت بينهما فى عموم الرزق الحسن والأجر الجزيل ، لكن ذلك لا يمنع من التفاضل بينهما ، ويؤيد هذا التفاضل أنه – صلى الله عليه وسلم – سئل : أى الجهاد أفضل ؟ فقال : « مَنْ أُهْرِيقَ دمه وعُقِرَ جَوَادُهُ » ومنه يعلم أن من كان من المهاجرين ولم يجاهد ، أو كان من المجاهدين ولكنه لم يكن بهذه الصفة فهو دون من اتصف بها ، والله تعالى أعلم ، ثم بيَّن الله الرزق الحسن الذى أعده لهم فقال :

٥٩– (لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ) :

أى : أنه تعالى وعد هؤلاء المهاجرين بصنفيهم وعدًا مؤكدًا لا خلف فيه ، أنه يدخلهم فى الجنة منزلا فخما ومقاماً كريما يدخلونه وهم يرضونه ويسعدون به ، حيث يجدون

فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين على أعلى مستوى ، وإن الله سبحانه لعليم بأحوال من قضى نحبه . وسال دمه فى سبيله . ومن مات معاهدًا ربه على الاستشهاد فى نصر دينه ، ولكنه فى هجرته وجهاده مات حتف أنفه ، دون أن يحقق أمنيته فى الاستشهاد فى سبيل ربه ، وكما أنه تعالى عليم بأحوالهما ، فهو حليم بإمهال من قاتلهما حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ويذيقه فى الآخرة عذاب السعير ، أو يتوب فيتوب الله عليه .

* (ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(بُغِىَ عَلَيْهِ) : اعتدى عليه .

(عَفُوٌّ) : كثير العفو والمسامحة .

(غَفُورٌ) : واسع المغفرة .

(يُولِجُ) : يدخل .

التفسير

٦٠ - (ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ . . . .) الآية .

بين الله تعالى فى الآيتين السابقتين أن من هاجر فى سبيل الله ثم قتل أو مات فإن الله سيحسن جزاءه بإدخاله مدخلا يرضاه فى الجنة ، وأن يرزقه فيها رزقا حسنا ، وجاءت هذه الآية لتقرير هذا الوعد ، ولإباحة ردّ الاعتداء على المعتدى .

والمعنى : الأمر ذلك الذى تقدم بيانه من حسن جزاء المهاجرين الذين قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا ، ثم استأنف الله فبين حق المسلمين فى الأخذ بثأر الذين قتلوا فى سبيل الله فقال ما معناه : ومَن انتَقَم من المعتدين عليه بمثل ما فعلوا به ، ثم بُغِى عليه بالاعتداء مرة ثانية ، لينصرنه الله على من بغى عليه .

وسبب نزول هذه الآية كما قال مقاتل : أن قوما من المشركين لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم ، فقال بعضهم لبعض : إن أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم ، فناشدهم المسلمون أن يكفوا عن قتالهم لحرمة الشهر ، فأبوا وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم ، وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم ، فوقع فى أنفس المسلمين من القتال فى الشهر الحرام ما وقع ، فأنزل الله هذه الآية .

وقد عرفنا منها أن من حق الإنسان أن يقابل المعتدى بمثل عدوانه ؛ فالدفاع عن النفس أمر مقرر فى شريعة الله تعالى ، كما أنه أمر معترف به فى جميع الشرائع الوضعية ، وسمى الدفاع عقابا على سبيل المشاكلة والمزاوجة ، مثل قوله تعالى : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ (١) » .

ومثل قوله تعالى : « وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٢) » وقد أمرنا الله تعالى أن يكون عقابنا للمعتدى مماثلا لعدوانه ، فلا يحل لأحد أن يتجاوز المماثلة فى رد العدوان ، فإذا شتم إنسانٌ آخر فلا يكون رد المشتوم قتل الشاتم ، فإن عاد الخصم إلى العدوان ، فبالغ فى بغيه وعدوانه فإن الله سينصر المظلوم على من بغى عليه لا محالة إذا انتقم منه لنفسه ، وعلّل الله نصرته بقوله :

(إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) : لمن أخذ بحقه ، ولم يأخذ بقوله تعالى : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ » أى : أنه تعالى مع حبه للعفو والغفران واتصافه بهما ، ينصر المظلوم الذى ينتقم من ظالمه ، إن فعل خلاف الأولى ، وهو الانتقام بدل العفو ، لأنه أخذ بحقه وليس معتديا أولا وآخرا ، وإن كان العفو أقرب إلى التقوى .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٩٤ (٢) سورة آل عمران ، الآية : ٥٤

قال تعالى : « وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [١] » .

ومن رحمته تعالى أنه يمهل العاصى والظالم لعله يثوب إلى رشده ويتوب إلى الله ويصلح ما أفسده فإنه سبحانه ـ كما وصف نفسه ـ كثير العفو واسع الغُفْران .

٦١ ـ (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) أى : ذلك النصر الذى وعده الله لمن بُغِى عليه واقع بسبب أن الله يدخل الليل فى النهار ويدخل النهار فى الليل فيزيد أحدهما بنقص الآخر ، طبقا للنظام الذى وضعه الله لدوران الأرض حول الشمس مائلة على محورها بزاوية معينة مما ينشأ عنه تعاقب الفصول ، ومع كونه سبحانه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل فهو عظيم السمع لأنه يسمع كل صوت وإن كان خفيا ، عظيم البصر لأنه يبصر كل مشهد وإن كان نائيا . فإذا وقع ظلم على واحد من عباده فإنه ينصر المظلوم ويردع الظالم ويحق الحق ويبطل الباطل و « لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ [٢] » .

٦٢ ـ (ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ) أى : ذلك الاتصاف بما ذكر من كمال القدرة والعلم ، ثابت لله تعالى بسبب أنه ـ سبحانه ـ هو الإله الحق الذى لاشك فيه ، وهو وحده الجدير بالعبادة والتقديس .

(وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) : وأن ما يعبدون من آلهة أخرى هو الباطل لأنهم « لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ولاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً ، وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلَا نُشُورًا » [٣] .

(وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ) : وأن الله سبحانه هو العلى على جميع الموجودات ، الكبير عن أن يكون له شريك أو مثيل لأنه الخالق المهيمن المدبِّر « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [٤] » .

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ٤٠

(٢) سورة آل عمران ، من الآية : ٥

(٣) سورة الفرقان ، من الآية : ٣

(٤) سورة الأعراف ، من الآية : ٥٤

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾)

المفـردات :

(مُخْضَرَّةً) : مكسوة بالنبات الأخضر .(لَطِيفٌ) : بر بعباده محسن إليهم رفيق بهم يشملهم برحمته وفضله .(خَبِيرٌ) : عليم مطلع على مايحتاجون إليه وما يصلحون له وما يصلح لهم.(الْغَنِيُّ) : المستغنى بقدرته عن غيره فلا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه جميع الخلائق (الْحَمِيدُ) :المستحق للحمد والثناء على فضله العظيم .

التفسير

٦٣ـ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) :

بعد أن بين الله لعباده قدرته على إيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل ،وأنه الحق وما يعبدون من دونه هو الباطل ،جاءت هذه الآية شاهدة على تمام قدرته تعالى وبليغ رحمته بعباده .

والمعنى : ألم تر أيها الإنسان أن الله أنزل من السحاب ماء بقدر وحساب دقيق ، أنزله فوق أديم الأرض فتتحول من أرض يابسة جرداء ، إلى أرض مكسوة بالنبات الأخضر الذى تتوقف حياتك عليه ، فبه ترزق ، وعليه يَعيش الحيوان الذى تنتفع به .

(إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ):إن الله رحيم بعباده عالم بما يحتاجون إليه وبما يقيم حياتهم ويكفل معيشتهم فى أمن وسلام .

٦٤ - (لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) :

أى : لله - سبحانه - ما فى السموات وما فى الأرض ومَنْ فيهما خلقا وملكا وتصرفا ، لايخرج شىء عن سلطانه ولايعجزه شىء من الأشياء « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً »[1] .

(وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ) : وإن الله لهو المستغنى عن مخلوقاته جميعا لايحتاج إلى أحد منهم ، وهم جميعا يحتاجون إليه .

وهو وحده المستحق للحمد والثناء من خلقه ،لأنه هو الذى خلقهم ورزقهم وشملهم بلطفه ورحمته .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ) : يَسَّر لكم الانتفاع بما فى الأرض من حيوان أو نبات أو معادن . (الْفُلْكَ) : السفن . (رَءُوفٌ) : مشفق .

(لَكَفُورٌ) : لجاحد للنعمة منكر لها .

التفسير

٦٥ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ) : من نعمه العديدة حيث يَسَّرلكم الانتفاع بما فيها من حيوان ونبات ومعادن .

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٤٤

(وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) : وسخر لكم السفن بعد أن علَّمكم كيف تصنعونها وكيف تستخدمونها فى حملكم وحمل السلع التجارية من بلد إلى بلد ، ومن إقليم إلى إقليم ، طبقا لسنته فى الأجسام الطافية حيث أجراها بالرياح الجارية ، أو بالمحركات الدائرة التى ألهمكم صنعها .

(وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) : ومن رحمته سبحانه بخلقه أنه خلق الأجرام والكواكب ، ودفع كلا منها فى مداره المرسوم وربطها برباط الجاذبيَّة طبقا لسنته الكونية . .

وهذه الجاذبية من شأنها أن تجعل الأرض تجذب إليها بعض كواكب السماء القريبة منها لتسقط عليها ولكنه -سبحانه- جعل فى مقابل الجاذبية مايسميه علماء الفلك بقوة الطرْدِ المركزية ،وهى مساوية لقوة الجاذبية ،فيقع الجرم الفلكى بين قوتين متعادلتين مما يتيح له البقاء متوازيا فى فلكه المرسوم ، ولكن حينما يأذن الله بنهاية الخلق تضعف إحدى القوتين عن نظيرتها فيصطدم بعض الكواكب ببعضها الآخر ، وذلك مايشير إليه قوله تعالى : «إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ [(١)] » .

(إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) : إن الله تعالى رحيم بعباده ،مشفق عليهم ؛إذ هيَّأ لهم العيش المناسب فوق سطح الأرض وتحت كواكب السماء ، وهم آمنون مطمئنون .

٦٦ - (وَهُوَ الَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) :

أى : أنه -تعالى- هو الذى وهب عباده الحياة ، وهو الذى يسلبهم إياها عند الموت ، ثم يبعثهم بعد للحساب والجزاء ، فمن حقه عليهم أن يعبدوه ولايكفروه ، ولكنهم أشركوا به وكفروه ، ولذا ختم الله الآية بقوله :

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ):أى : شديد الجحود للنعم العديدة التى يراها فى نفسه وفيما يحيط به فى البر والبحر والأرض والسماء ، إلا من عصم الله من عباده الصالحين .

---

(١) سورة الانفطار ، الآيتان : ١ ، ٢

(لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾)

المفردات :

(مَنسَكًا) أى : شريعة .

(فَلَا يُنَازِعُنَّكَ) أى : فلا يخاصمُنَّك ولايجادلنك فى أمر الإسلام وتكليفهم به .

(جَادَلُوكَ) : ناقشوك وخاصموك .

التفسير

٦٧ - (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ) :

لكل قوم جعلنا شريعة يلتزمون بها ويؤدونها فى الوقت الذى أراده الله لها .

وشريعة الإسلام هى شريعة هذه الأمة التى بعث بها محمد . فى مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة ، فهى ناسخة لما قبلها فلا ينازعَنَّك أهلُ الكتاب فى شأنها . فهم مكلفون بها .

(وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ) :

وادع أهل الكتاب وغيرهم إلى عبادة ربك على الشريعة التى جئتهم بها ، فإنك من دين ربك على طريق مستقيم ، ولا عليك إن استجابوا لك أو أعرضوا عنك .

«لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ[1]» .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٧٢

٦٨ - (وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

إذا بلغت رسالتك - أيها النبى - فلا يضيرنك جدال المجادلين ولا نزاع المخاصمين ، فإن جادلوك فقل لهم : الأمر بينى وبينكم مفوض إلى العليم الحكيم ؛ فإنه يعلم سركم وجهركم ، ويعرف ما تبدون وما تكتمون .

وقد توعدهم الله على جدالهم بقوله :

٦٩ - (اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) :

أى : أمركم جميعا إلى الله يقضى بينكم بحكمه وحكمته يوم يقوم الناس لرب العالمين « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [1] » .

وفى هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، والخطاب فيها عام للمؤمنين والكافرين ، وليس محكيا بالقول كالذى قبله .

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾)

---

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

المفردات :

(يَسِيرٌ) : سهل . (سُلْطَانًا) : دليلا له سلطان . (يَسْطُونَ) : يبطشون .

التفسير

٧٠ - (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) :

أَلم تعرف أن الله يعلم جميع مافى السموات والأَرض من أَجزائهما وما استقرَّ فيهما ، وما يُجْهَرُ فيهما أَو يُسَرُّ من القول أَو العمل ؟ وماتكنه القلوب وما تضمره النفوس وكل هذا مسجل عنده فى كتاب قديم كما قال تعالى : « وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ »(١) .

والمراد به :علم الله-تعالى-فهو يحكم بين الناس عن علم ويقين روىٰ مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عَمْرو عن النبى -صلى الله عليه وسلم- : «إن الله قدر مقادِير الْخلائق قَبل خَلْق السَّمٰوَاتِ والأَرض . . . » الحديث .

وقد دَوَّنَ سبحانه هذه الأَحداث فى اللوح المحفوظ طبقا لعلمه ، وأَنزلها بحسب مشيئته فى الوقت الذى قدَّره سبحانه .

وإن هذه المعرفة يسيرة على خالق الكائنات ومالكها والمدبر لها بما يملكه من قوة وسلطان وتدبير وإحكام .

٧١ - (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَالَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ) :

أَى :أَن هؤُلاءِ المشركين يتجهون بالعبادة والتقديس إلى غير الله الذى خلق السماء والأَرض ،وعلم كل شىءٍ فيهما ، يفعلون ذلك دون اعتماد على برهان عقلى أَو كتاب سماوى .

(١) سورة النمل ، الآية : ٧٥

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) : وما لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم من معين يؤيدهم فى هذا الانحراف ويعاونهم فيما لجُّوا فيه من ضلال وكفر ،أو ينقذهم مما ينتظرهم من عقاب .

٧٢ـ (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ) :

وإذا تلا عليهم قارئٌ آياتِ الله البينات الواضحات ضاقوا بها ذَرْعًا وظهر الضيق والضجر على وجوههم ؛لأنهم بطبيعتهم المنحرفة ، وتفكيرهم السقيم ، يؤْثرون الضلال على الهدى (يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) : يهمون أن يبطشوا بمن يقرأُ عليهم آيات الله البينات ضيقا به وغيظا منه .

(قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : قل لهم : أَأعظكم وأُخبركم بما هو أسوأُ من ضيقكم بالدعوة إلى الله وتفكيركم فى البطش بالداعين إليه ، أسوأُ من ذلكم نار جهنم التى أعدها الله وتوعد بها من انصرفوا عن الهدى إلى الضلال وعن الإيمان إلى الكفران ، وساء المرجع والمصير الذى اخترتموه لأَنفسكم بما فطرتم عليه من جهلٍ وعناد .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(ضُرِبَ مَثَلٌ) : بُيِّنَتْ لكم حالٌ مستغربة.

(تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ) : تعبدونهم غير الله .

(اجْتَمَعُوا لَهُ) : احتشدوا وتعاونوا.

(ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ):الطالب؛ الآلهة ، والمطلوب؛ الذباب ، وقيل العكس ، وقيل الطالب العابد والمطلوب المعبود .

التفسير

٧٣ - (يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ) :

يا أيها الناس إن الله - سبحانه - يبصركم بحقائق الأمور عن طريق ضرب الأمثلة الحسية الواقعية فأصْغُوا إليها واستمعوا لها .

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) : إن الذين تعبدونهم من دون الله عاجزون عن خلق الذباب، وهو حشرة ضعيفة مهينة، فكيف تعبدونهم دون من خلق الأرض والسموات ومن فيهن وتكفل برزقهم وتدبير أمورهم ؟ وهذه الآلهة المدعاة لاتستطيع خلق الذباب ولا عضوا واحدا من أعضاء الذباب، ولو تساندوا جميعا وتعاونوا وحشدوا كل طاقاتهم . ووصل أمرها من الضعف إلى ما صوره الله بقوله :

(وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّايَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ): أي ؛ وهذا الذباب إن يأخذ من هذه الأوثان شيئا من نحو الطعام الذى يوضع أمامها قربانا لاتستطيع استرداده منه، وقد ختم الله الآية بما يفيد سوء حال الأصنام وعابديها فقال :

(ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ): أي ؛ ضعف الإله والذباب، أو الذباب والآلِهَة، فكيف استساغت عقولهم أن يعبدوا تلك الأوثان، ويقدسوها، ويسندوا إليها النصر والرزق والمطر والصحة والمرض، وهى بهذا الضعف الذى صوره الله بما يقتضى الرثاء لعابديها ؟ .

(مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾)

المفردات :

(قَدَرُوا اللهَ) : تبينوا عظمته وقدرته وسلطانه .

(قَوِىٌّ) : قاهر لايغلب . (عَزِيزٌ) : منيع لايضام .

(يَصْطَفِى) : يختار . (مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) : ما يستقبلونه .

(وَمَا خَلْفَهُمْ) : وما يستدبرونه .

التفسير

٧٤ - (مَاقَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) :

أى : ماعرفوا عظمة الله وجلاله وقدرته وسلطانه حَقَّ المعرفة ، فانصرفوا عن عبادته وتقديسه إلى عبادة الآلهة الضعيفة المهينة العاجزة .

(إِنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ) : إن الله سبحانه قوى عظيم القوة والسلطان ، وكل ما سواه ضعيف عاجز ، والله سبحانه عزيز لا يُنال وغالب على أمره ، وسواه مهين ضعيف ذليل مغلوب .

٧٥ - (اللهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ) :

أى : أن الله سبحانه يحيط علمه بكل شَىْءٍ ، فلهذا يعلم مَنْ هو أَهلٌ للرسالة من الملائكة ومن البشر ، فينزل شرائعه عن طريق الروح الأمين ، على مَنْ يختاره مِنَ البشر لتبليغ شرائعه إلى الناس . وفى ذلك يقول سبحانه : «اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ[1]» ويقول أيضا : «وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ[2]» يقال : إن الوليد بن المغيرة استكثر الرسالة على محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال : «أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا[3]» فنزل قوله تعالى :

(اللهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ) : ردًّا عليه وتحقيقا للحق (إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) : إن الله سبحانه عظيم السمع يسمع كل صوت وإن كان خفيًّا ، شامل البصر يرى كل مشهد وإن كان دقيقاً أو قَصِيًّا ؛ فهو سبحانه محيط بكل شىء علما .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٢٤ (٢) سورة الدخان ، الآية : ٣٢
(٣) سورة ص ، من الآية : ٨

٧٦ - (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ) :

أى : أنه - تعالى - يعلم ما يستقبلونه من أحداث ويعلم ما يخلفونه من آثار ، قال تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ [1] » .

وإليه وحده المرجع والمآب ؛ فالكل منه وإليه وجميع الكائنات مردها إلى الله ، وهو بها جميعا بصير عليم .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(اجْتَبَاكُمْ) : اختاركم واصطفاكم .

(حَرَجٍ) : ضيق أو شدة .

(مِلَّةَ) : شريعة .

(مَوْلَاكُمْ) : ربكم ومالك أمركم ومدبر شئونكم .

(النَّصِيرُ) : المعين .

---

(١) سورة يس ، الآية : ١٢

التفسير

٧٧ـ(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا) :

بعد أن فرغت الآيات الكريمة من مجادلة المشركين وتسفيه آرائهم ،اتجهت إلى مخاطبة المؤمنين بندائهم بما امتازوا به من تكريم ، وتنبيههم إلى أن العمل الصالح هو ثمرة الإيمان ونتيجته ،وفى مقدمة الأعمال الصالحة الصلاة لأنها علامة الإيمان وعماد الدين وقد عبر عنها بالركوع والسجود لأنهما سمة الخشوع والخضوع اللذين هما قِوام الصلاة ، فالمقصود بالأمر بهما : الأمرُ بإقامة الصلاة بكل ما تشتمل عليه منهما ومن غيرهما ثم أمرهم باستكمال موجبات الإيمان فقال :

(وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) :أى ؛ اعبدوا خالقكم ومالككم ومربيكم باتباع أوامره واجتناب نواهيه والاتجاه إليه وحده بالعبادة والتقديس ، فهو الرب المنعم المتفضل ، وافعلوا ما قدرتم عليه من الخير ، لتنالوا الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة .

وبما أن الإسلام له أعداءٌ يتربصون به ، فلذا أمرهم الله بالجهاد فى سبيله فقال :

(وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ): والجهاد فى الإسلام؛ يشمل مقاومة أعدائه الواقفين فى سبيل نشره المعادين له ، كما قال تعالى : « يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [(١)] »،كما يشمل مقاومة نزغات النفس وشهواتها وأهوائها ، روى البيهقى والخطيب عن جابر : أنَّ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قفل من إحدى الغزوات فقال لأصحابه : « قَدِمتُم خير مقدم ، وقدِمْتُم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » .

وفسر الجهاد : الأكبر بأنه مجاهدة العبد هواه ؛ وأفضل الجهاد : مقاومة الظلم ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) أخرجه ابن ماجه ، والخطيب ، وأحمد والطبرانى ، والبيهقى .

---

(١) سورة التحريم ، الآية : ٩

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ) : هو اصطفاكم لحمل خاتم الأديان ونشر رسالته ، فأرسل إليكم أفضل الأنبياء ، وأنزل إليكم أكرم الكتب السماوية ؛ وأتم عليكم نعمته بالتأييد والنصر .

(ومَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) : ولم يكلفكم مايشق عليكم ويسبب لكم الضيق والحرج ، فإنه سبحانه لايكلف نفسا إلا وسعها ، وهو تبارك وتعالى ييسر الأمور :

«يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَايُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ (١)» .

ومن لطفه وتيسيره :أنه أباح لنا قصر الصلاة والإفطار فى السفر الطويل ،وأباح لنا التيمم عند فقد الماء أو تعذر استعماله ، والقعود فى الصلاة عند تعذر القيام فيها .

(مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) : فالزموا الإسلام الذى هو ملة أبيكم إبراهيم ؛فهو الذى بنى لكم البيت ودعاكم إلى حجه والصلاة إليه ، بتكليف من الله – سبحانه وتعالى – ودعا الله أن يمكنه وذريته من إقامة الصلاة بقوله : «رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى (٢)» .

(هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا) :

هو الله–سبحانه–الذى سماكم بهذا الاسم وارتضى لكم الإسلام دينا من قديم ،وأمركم به فى هذا القرآن الكريم حيث قال فيه : «فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣)»

(لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ) :

ولما كان القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية ، وقد أبلغه الرسول –صلى الله عليه وسلم–عن الله إلى أمته بما يحويه من أوامر ونواه ،وبما فيه من قصص الرسل والأنبياء السابقين فلهذا يشهد الرسول بأنه بلغ رسالة الإسلام إلى أمته ،ويشهد المسلمون منهم على الأمم السابقة بما قصه عليهم القرآن من تبليغ رسلهم شرائع الله إلى أممهم .

(فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) :أى ؛ وإذا كان الله تعالى منحكم هذا الشرف العظيم ، حيث جعلكم شهداء على الناس ،فتقربوا إليه – سبحانه – بأنواع الطاعات ،وأخصها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٨٥ (٢) سورة إبراهيم ، من الآية : ٤٠
(٣) سورة الحج ، من الآية : ٣٤

(وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ) :

والتجئوا إلى الله ، وتحصنوا به لحمايتكم من الأعداء ومن نزغات الأهواء ، فإنه ربكم وخالقكم والمدبر لأموركم ، والمهيمن عليكم الحافظ لكم « وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ »[1] فما أعظم وأكرم الرب المنعم المتفضل الحفيظ . وما أعظم النصير المعين الذى يحفظ من يلوذ به ومن يحتمى بحماه وينصره على مَنْ عاداه .

« فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »[2] .

تصحيح

ورد فى الصفحة (رقم ١١٥٧) من الحزب الثالث والثلاثين ، أن جيش مصر هزم التتار فى معركة (مرج دابق) والصواب انه هزمهم فى معركة (عين جالوت) فنرجو من القارىء أن يصحح نسخته ، ونعتذر له عن هذا السهو وشكرا .

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ١٠١

(٢) سورة يوسف ، من الآية : ٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المؤمنون مكية

وآياتها ثمانى عشرة ومائة

مقاصدها :

بدأت هذه السورة ببشارة المؤمنين بالفلاح والخلود فى الفردوس ، إذا خشعوا فى صلاتهم وحافظوا عليها ، وأعرضوا عن اللغو وأدوا الزكاة ، وحفظوا فروجهم من الفاحشة ، وراعوا الأمانة والعهد .

وعقبت هذه البشرى ببيان منشأ الإنسان ومآله ، وأنه سبحانه خلق من فوقنا سبع سموات طباقا ، وأنه لا يغفل عن خلقه طرفة عين ، ولهذا أنزل من السحاب ماء أجراه فى مجارى فوق سطح الأرض ، وأسكن بعضه فى جوفها ، ليستخرجه الناس وقت الحاجة إليه ، وأنه أنشأ لنا بهذا الماء الزروع والثمار لنأكل ونتعيش منها ، وخلق لنا الأنعام وجعلها عبرة لنا ، فمن بطونها نشرب اللبن ، ومن لحومها نأكل ، وبمنافعها الكثيرة ننتفع ، وعلى الإبل منها نحمل ثقال الأحمال ، كما نحمل على السفن .

وبينت قصص الأنبياء مع أممهم ، وقد جاء فيها أن هذه الأمم لم تشكر نعم ربها بتوحيده وعبادته ، بل أشركت معه غيره من مخلوقاته ، فبعث إليها رسله ليهدوهم سواء السبيل ، فكذبوهم فعاقبهم الله بعذاب الاستئصال ، ونجّى منه عباده المؤمنين .

وذكرت من أنباء المهلكين : قوم نوح أغرقهم الله بالطوفان ، وقوم صالح أهلكهم الله بالصيحة ، وفرعون وجنوده ، كفروا بموسى وهرون فأغرقهم فى اليم .

وعقبت قصة فرعون معهما ببيان أن الله تعالى جعل ابن مريم وأمه آية ، لأنه ولد منها دون أب ، وأنه تعالى آواهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ، وسيأتى بيان ذلك فى الشرح ، وأنه شرع للرسل وأممهم أن يأكلوا من الطيبات ، ويتركوا ما حرمه الله عليهم ، وأن جميع الأمم أمة وديانة واحدة هى توحيد الله ، وأصول الشرائع والأحكام ــ وإن اختلفت فى الفروع ــ

وأنه يجب على الناس جميعا أن يتقوه دون سواه ، ولكن الناس تقطعوا دينهم وابتدعوا فى دين الله ما ليس منه ، وقد توعدهم الله بالعقاب على هذا التفرق فى الدين الحق .

ثم مدحت المؤمنين الذين يخشون ربهم ولا يشركون به ، ويسبقون إلى الخيرات ، وذكرت أنه تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وأن هؤلاء المترفين الكافرين سيؤخذون بالعذاب فيجأرون مستغيثين ولا مغيث لهم ولا ناصر ، لأن آياته تعالى كانت تتلى عليهم فكانوا يستكبرون ولا يؤمنون .

وبينت أنه لو اتبع الحق أهواء الناس لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، وأنه تعالى بعث محمدا بالقرآن إلى قريش ، ومع أنه شرف لهم أعرضوا عنه ، فى حين أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجراً ، إن يريد إلا الإصلاح ، وبينت أنه تعالى عاقبهم عقابا غير شديد فى الدنيا على كفرهم ، ولكنهم لم يستكينوا لربهم وما يتضرعون ، وأنه إذا فتح عليهم بابا ذا عذاب شديد فسيُبلسون ويتحيرون .

وقد ذكرتهم بنعم السمع والبصر والفؤاد ، وأنهم سوف يحشرون إليه بعد الموت ، وبدلاً من الإيمان كفروا بالبعث وقالوا : « إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ » .

ثم ذكرت أن الله أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يُجْرى معهم حوارا : لمن الأرض ومن فيها ؟ مَنْ رب السموات السبع ورب العرش العظم ؟ مَنْ بيده ملكوت السموات والأرض وهو يُجِيرُ ولا يُجَار عليه ؟ وبينت أنهم سيقولون فى كل ذلك : لله ، ولكنهم لا يتذكرون ولا يتعظون ، بل يُصِرُّون على الإشراك ، وذكرت أن الموت إذا جاءهم فسيندمون على تقصيرهم ، فيطلبون الرجوع إلى الحياة الدنيا ليعملوا صالحا ، وأنه لا سبيل إلى إجابة ملتمسهم ، ثم بينت أحوال الناس يوم القيامة ، فمن ثقلت موازينه بالعمل الصالح فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه بسبب العمل السيء والكفر ، فهم « فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ » وبينت أنهم يعترفون ويقولون :

« رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » وأنه تعالى يجيبهم بقوله : « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ . رَبَّنَآ آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوآ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ » ثم خُتِمت السورة ببيان أنه تعالى لم يخلق عباده عبثا ، وأنهم سيرجعون إليه للحساب والجزاء ، وبينت أن مَن يدعو مع الله إلها آخر فحسابه عنيف عند ربه ، وأنه تعالى هو الذى يُطْلَب منه الغفران والرحمة لمن هم أهل لهما « وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

(قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ
مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) : الفلاح : الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المرهوب ، والإفلاح الدخول فى الفلاح ، كالإبشار الدخول فى البشارة . (خَاشِعُونَ) : خاضعون متذللون . (اللَّغْو) : ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال (وَرَآءَ ذَٰلِكَ) : سوى ذلك . (الْعَادُونَ) : المبالغون فى العدوان (رَاعُونَ) : حافظون ، وأصل الرعى : حفظ الحيوان بتغذيته ودفع العدو عنه ، ثم استعمل فى الحفظ مطلقاً . (الْفِرْدَوْسَ) : المراد به هنا ، أعلى درجات الجنان فى الآخرة .

التفسير

١ ، ٢ - (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) :

جاء فى خواتيم سورة الحج قبلها تكليف المؤمنين بالصلاة وعبادة ربهم لكى يفلحوا ويفوزوا بفضله ورحمته ، وذلك فى قوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا

وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » فكان من المناسب أن تبدأ هذه السورة بما يؤكد فلاح المؤمنين المصلحين العابدين ، الخاشعين المتقين ، ولفظ (قدْ) يفيد تحقيق المتوقع وتثبيته ، وكان المؤمنون يتوقعون البشارة بفلاحهم ، لإيمانهم وتوحيد ربهم فأُخبروا بتحقق ما توقعوه وثباته ، إذا قرنوا إيمانهم بالعمل الصالح ، والمؤمنون فى اللغة : المصدقون مطلقًا ، وفى الشرع : المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من وحدانية الله تعالى وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبجزاء المحسنين والمسيئين فيه ، وأن يخلو تصديقهم هذا عن الرياء والنفاق والشك .

والخشوع فى الصلاة : سكون الجوارح والتذلل وحضور القلب ، وجمع الهمة لها والإعراض عما سواها ، وأن لا يجاوز البَصَرُ المُصَلَّى ، فلا يلتفت المصلى يَمْنةً ولا يسرة ، ولا يعبث بلحيته ولا بثيابه ونحو ذلك .

وقال أبو الدرداء يصف الخشوع : هو إخلاص المقال ، وإعظام المقام ، واليقين التام ، وجمع الاهتمام .

والخشوع محله القلب ، وله السلطان على الجوارح ، فإذا خشع القلب خشعت الجوارح لخشوعه ، قال القرطبى : كان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة وقام إليها ، يهاب الرحمن أن يحدَّ بصرَه إلى شىء ، وأن يحدث نفسه بشىء من الدنيا ـ وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأُصول بسنده إلى أبى هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه رأى رجلا يعبث بلحيته فى صلاته فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » كما أخرج بسنده عن أُم رومان والدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : (رآنى أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ أتميَّل فى صلاتى ، فزجرنى زجرة كدت أنصرف عن صلاتى) ثم قال : واختلف الناس فى الخشوع : أهو من فرائض الصلاة أم من فضائلها ، ورجح بعضهم الأول ، وأُضيفت الصلاة إلى المصلين فى قوله تعالى : « الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ » ولم تضف إلى الله الذى يصلون له ؛ لأنهم المنتفعون بثوابها ، فهى عُدَّتهم وذخيرتهم ، وأما المولى ـ سبحانه ـ فهو غنى عنهم وعن عبادتهم .

وَلْيَعْلم المؤمن أن العمل الصالح ثمرة الإيمان الصادق ، فمن لا عمل له فإيمانه واهن ضعيف بل هو ميت لا أثر للحياة فيه ، فهو كالشجرة الجافة ، لا ورق لها ولا ثمر ، ولهذا مثل الله تعالى كلمة الإيمان الصادق بقوله : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ »[(1)].

وقد جاء فى فضل هذه الآيات التى صدرت بها سورة (المؤمنون) وثواب من يعمل بها- جاء فى ذلك حديث أخرجه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب قال : « كان إذا نزل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الوحى ، يُسْمَعُ عند وجهه دوىٌّ كدوى النحل ، فمكثنا ساعة فسرِّىَ عنه ، فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضِنا » ثم قال : « لقد أُنزلَتْ علىَّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » حتى ختم العشر ، وسئلت عائشة — رضى الله عنها — : كيف كان خلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم —؟ فقرأت : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » حتى انتهت إلى : « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ » قالت : هكذا كان خلق رسول الله— صلى الله عليه وسلم — » أخرجه النسائى فى تفسيره[(2)] وقد وعد الله المؤمنين فى هذه الآيات بميراث الفردوس والخلود فيه إذا اتصفوا بصفات سِتٍّ (أولاها) الخشوع فى الصلاة ، وقد سبق الحديث عنه ، وفيما يلى : الحديث عن باقى الصفات :

٣ ، ٤ — (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ) :

تضمنت هاتان الآيتان صفتين أخريين للمؤمنين المفلحين بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة ، الصفة الأُولى منهما : إعراضهم عن اللغو وبعدهم عنه ، وفسره ابن عباس بالباطل ، وقال الآلوسى : وقد يُسَمى كل كلام قبيح : لغوًا ، وعمَّم بعضهم اللغو فجعله يشمل كل ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال ، وشاع فى كل كلام يقوله صاحبه لا عن روية وفكر ، فهو

---

(١) سورة إبراهيم ، الآيتان : ٢٤ ، ٢٥

(٢) انظره والحديث الذى قبله فى تفسير ابن كثير لأول (المؤمنون) .

يجرى مجزى اللَّغاء، وهو صوت العصافير ونحوها من الطير، والصفة الثانية منهما أداؤهم الزكاة، والمراد من الزكاة هنا: زكاة أموالهم، ولا ينافى هذا كون السورة مكية، والزكاة إنما فرضت بالمدينة، لأن التى فرضت بالمدينة هى ذات النُّصُب والمقادير الخاصة، وهذه غير التى فرضها الله بمكة، فقد كانت غير مشروطة بمقدار، ويشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام – وهى مكية –: « وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ »(١) ومن العلماء من فسر الزكاة هنا بزكاة النفس مراعاة لمكية الآية، كقوله: « قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ».

والمعنى: والذين هم لأجل زكاة نفوسهم يفعلون ما يفعلون من الطاعات.

٥، ٦ – (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ):

تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان صفة رابعة للمؤمنين الذين يفوزون بجنة الفردوس، وهى حفظهم لفروجهم من الزنى، والفَرْج يشمل سوءة الرجل والمرأة، فالمراد به عضو التناسل من كل منهما، ولفظ (عَلَى) فى قوله: (إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ) بمعنى: (مِن) كما قاله الفراء وغيره، أى: حافظون لفروجهم إلا من أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، والأزواج جمع زوج، وهو يطلق على كل من الرجل والمرأة المتزوجين، فكلاهما زَاوَجَ الآخر أى ثاناه، بأن جعله مع نفسه اثنين، والمراد مما ملكت أيمانهم السُّرِّيات(٢) وهُنَّ (الإماء) المأخوذات فى غنائم الحرب، دون المختطفات من أهلهن، فلا يحل بيعهن ولا شراؤهن، ولا الاستمتاع بهن عن طريق ملك اليمين، فهن حرائر مغتصبات فلا سبيل إلى تملكهن، ومن اشتراهن وهو يعلم بحالهن فشراؤه غير صحيح، والاستمتاع بهن زنى.

وقد أفادت الآية الكريمة أنه لا لوم ولا إثم على المؤمنين فى غشيان زوجاتهم وإمائهم، ولا على المؤمنات فى مباشرة أزواجهن لهن، أما عبيدهن فلا حَقَّ لهم فى الاستمتاع بهن بالإجماع(٣)، لأنه مملوك لها وليس مالكًا فهى قوَّامة عليه، بخلاف استمتاع السيد بأمته فإنه مالك لها وقوَّام عليها.

---

(١) الآية: ١٤١

(٢) جمع سرية – بضم السين – منسوبة إلى السر بكسرها على غير قياس، كما قالوا فى النسبة إلى الدهر دهرى، وإلى الأرض السهلة: سهلى – بضم الأول فى كليهما – انظر المادة فى القاموس.

(٣) وإن كان ظاهر الآية يخالفه.

روى معمر عن قتادة قال : تسرَّرَت امرأة غلامها[١] ، فذُكِرَ ذلك لعُمَر فسألها : ماحملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحل لى بملك يمينى ، كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين ، فاستشار عمر فى رَجْمِهَا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : تَأَوَّلَتْ كتاب الله على غير تأْويله فلا رجم عليها ، فقال عمر : لاجرم . والله لَا أُحِلُّكِ لحُرٍّ بعده أَبدًا ، عاقبها بذلك ودرأ الحد عنها ، وأمر العبد أن لا يقربها .

وعن أبى بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرتُ عمر بن عبد العزيز ، حين جاءته امرأة بغلام لها وضئ ، فقالت : إنى استسْرَرْتُه فمنعنى بنو عمى من ذلك ، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها ، فانْهَ عنى بنى عمى ، فقال عمر : أتزوجت قبله ؟ قالت : نعم ، فقال : أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة ، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يَخرج به إلى غير بلدها[٢] .

٧ - (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) :

أى : فمن طلب سوى الزوجات والإماء لقضاء شهوته ، فَأُولَٰئِكَ هم المجاوزون الحد فى الإثم والعدوان .

وبهذه الآية حرم إتيان الذكور والبهائم ، كما حرم نكاح المتعة ، وهو نكاح المرأة إلى أجل بمقابل ، وكان مباحًا فى الجاهلية ، فلما نزلت هذه الآية حرمته ، وهذا يقتضى أن تحريمها كان قبل الهجرة لأَنَّ السورة مكية ، لكن ورد تحريمها بعد الهجرة ثلاث مرات ، (إحداها) يوم خيبر[٣] . (وثانيتها) يوم فتح مكة وهو يوم أوطاس لاتصالهما ، وكان قد أَحلها يومئذ ثلاثة أيام ثم حرمها[٤] . (وثالثتها) كانت فى حجة الوداع وكان التحريم فيها أبديًّا أخرجه أبو داود[٥] .

(١) أى جعلته يجامعها ويستمتع بها ، من السر بمعنى : الجماع .
(٢) انظر القرطبى فيها وفى التى قبلها ج ١٢ ص ١٠٧ طبع دار الكتب .
(٣) وقد اتفقت عليه روايتا البخارى ومسلم .
(٤) رواه الإمام مسلم .
(٥) انظره فى شرح النووى لمسلم .

ويرجع تحليلها فى بعض الغزوات ، إلى الترخيص لهم بما ألفوه قبل الإسلام فى سفرهم وحروبهم ، تأليفًا لهم وتدرجًا معهم فى التشريع ، فلما تشبعت نفوسهم بدينهم ، حرمه الله إلى الأبد .

وقد علق الإمام النووى على الحديث الأول من أحاديث المتعة عند مسلم- علّق عليه - بكلام نفيس ، ثم قال : قال القاضى[1] : واتفق العلماء على أن هذه المتعة كانت نكاحًا إلى أجل لا ميراث فيها ، وفراقها يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاق ، ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها من جميع العلماء إلّا الروافض ، وكان ابن عباس - رضى الله عنه - يقول بإباحتها ، وروى عنه : أنه رجع عنه .

قال[2] : وأجمعوا على أنه متى وقع نكاح المتعة الآن ، حكم ببطلانه ، سواءٌ كان قبل الدخول أو بعده إلى آخر ما قال.فارجع إن شئت إلى باب نكاح المتعة فى كتاب أحكام النكاح تعليق الإمام النووى على الإمام مسلم ، وقد أسهب الآلوسى فى الكتابة على هذه الآية ، فمن شاء المزيد فليرجع إليه .

ومما ذكره فيها : أن الأئمة اختلفوا فى استمناء-الرجل بيده ، وأن جمهور الأئمة على تحريمه ، لدخوله تحت عموم قوله تعالى : « فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » وذكر أن الإمام أحمد يجيزه ، لأن المنى فضلة فى البدن فجاز إخراجها عند الحاجة ، كالفصد والحجامة . وعزز بعض العلماء رأى الجمهور بحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ناكح اليد ملعون » ، كما عززه بقوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ » وهذا الاستمناء يقرب صاحبه من الزنى ،فلهذا يكون منهيًّا عنه ومحرمًا .

٨ - (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) :

هذه هى الصفة الخامسة للمؤمنين الموعودين بالفوز وميراث الفردوس ،وهى رعايتهم لأماناتهم وعهدهم ،والمراد بأماناتهم : ماائتُمِنُوا عليه من جهة الله وهى التكاليف الشرعية التى كلف الله عباده بها ، كالصلاة والصوم والزكاة وترك الخمر والميسر ، أو من جهة الناس وهى ودائعهم من الأموال والأسرار .

(١) يعنى القاضى عياضا . (٢) أى : قال القاضى عياض .

والمراد بعهدهم : ما عاهدوا الله عليه بالأيمان والنذور ، وما عاهدوا الناس عليه بالعقود والوعود ، وجمعت الأمانة فى الآية دون العهد ، لكثرة الأمانات من جهة الله ومن جهة الناس ، وقد أثنى الله عليهم ، بأنهم مراعون للأمانات والعهود بأنواعها ، حافظون لها قائمون بحقوقها .

٩ - (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) :

هذه هى الصفة السادسة للمؤمنين المفلحين ، والمراد من الصلوات : الصلوات المفروضة ، كما أخرجه ابن المنذر وغيره عن عكرمة ، والمراد من المحافظة عليها : أداؤها فى أوقاتها بأركانها وشروطها ، والتعبير بقوله : (يُحَافِظُونَ) بدل (محافظون) لما فى الصلاة من التجدد والتكرار الذى توافقه صيغة الفعل المضارع .

وقد ذكرت الصلاة فى أوصاف المؤمنين مرتين ولا تكرار فيها ، فإن ذكرها أولًا للحث على الخشوع فيها لأهميته ، وذكرها أخيرًا للمحافظة عليها فى جميع مطالبها . وكلاهما يدل على فضل الصلاة وعظيم منزلتها عند الله تعالى ، ولهذا فرضها الله فى السماء ليلة الإسراء والمعراج ، وفرض سواها وَحْيًا على محمد - صلى الله عليه وسلم - فى الأرض .

١٠ - (أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) .

أى : أولٰئِكَ الموصوفون بتلك الصفات الجليلة هم الجديرون بأن يسموا وُرَّاثًا دون من عداهم ممن يرثون نفائس الأموال والحلى وغيرها من متاع الدنيا ، فإنه عرض زائل ، وما عند الله خيرٌ وَأَبْقَى ، ثم شرح ميراثهم فقال :

١١ - (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) :

والفردوس فى اللغة - كما قال صاحب القاموس - : هو البستان يَجْمَعُ كل مايكون فى البساتين ، وقد يؤنث .

وهو فى الآخرة أعلى درجات الجنان ، ففى الحديث : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمٰن » أخرجه البخارى ومسلم .

وعبر عن استحقاقهم الفردوس بالميراث لما روى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « ما منكم من أحد إلَّا وله منزلان ، منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فإن مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله : (أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ) » أخرجه ابن ماجه عن أبى هريرة ، وابن جرير عن أبى معاوية بإسناده إليه .

وقيل : الإرث مستعار للاستحقاق ، لأنه أقوى أسباب الملك .

المعنى الاجمالى للآيات السابقة :

١ ـ قد فاز المؤمنون بما أمَّلوه فى مولاهم ، فقد قضى بنيلهم ما يطلبون ، ونجاتهم مما يرهبون ويخافون ، جزاءَ إيمانهم واتصافهم بالصفات الكريمة التالية :

٢ ـ الذين هم فى صلاتهم متذللون خاضعون ، جوارحهم ساكنة ، وقلوبهم حاضرة ، وعقولهم مجتمعة غير مشتتة ، يخلصون المقال ، ويعظمون المقام ، فهم ماثلون أمام مالك الملكوت ، ورب العزة والجبروت .

٣ ـ والذين هم فى سلوكهم مع الناس ، بعيدون عن ساقط الكلام وباطله ، ورديءُ الفعل وعابثه ، فإذا نطقوا فبخير ، وإذا فعلوا فبرويَّة وفكر .

٤ ـ والذين هم لزكاة أموالهم مؤدون ، ومن أجل طهارة نفوسهم يفعلون من الطاعات ما يفعلون .

٥ ، ٦ ـ والذين هم لسوءاتهم ومواضع العفة منهم حافظون إلَّا من زوجاتهم أو جواريهم فإنهم غير ملومين على مباشرتهن ، فهن حلال لهم .

٧ ـ فمن طلب غير الزوجات والسرارى لقضاء شهوته سفاحًا ، فأُولٰئِكَ هُمُ المعتدون ولحدود الله مجاوزون ، ولعقابه فى الدنيا والآخرة مستحقون .

٨ ـ والذين هم لما ائتمنوا عليه من التكاليف الشرعية وودائع الناس وأسرارهم حافظون لها ، مؤدون حقوقها ، قائمون بواجباتها .

٩ ـ والذين هم على صلواتهم يحافظون ، فنى أوقاتها يؤدون ، وبأركانها وشروطها يلتزمون .

١٠ ، ١١ – أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الجديرون بأن يوصفوا بالوارثين ، فإنهم يرثون فى الآخرة جنة الفردوس أعلى الجنان ، ومن فوقها عرش الرحمن هم فيها خالدون ، لا يَخْرُجون ولا يُخْرَجون ، أما الوارثون فى الدنيا للأموال والنفائس ، والرباع والقصور ، فهم وما ورثوه زائلون وعنه مسئولون .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ) السلالة : ما سُلَّ من الشىء واستخرج منه ، أى : مِنْ مُستَخْرج ومستخلص من الطين . (جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً) : صيرناه نطفة ، أى : منيًّا ، وهى مأخوذة من النطف : وهو التقاطر ، وقال الراغب: النطفة : الماءُ الصافى ، ويعبر به عن ماء الرجل. ا هـ .
وكان عليه أن يقول : عن ماء الرجل والمرأة ، لأن الجنين يتخلق من مائهما .
(مَكِينٍ) : متمكن ثابت . (عَلَقَةً) : هى ما يعلق بغيره ، وسيأتى بيان المراد منها فى الشرح . (مُضْغَةً) أى : قطعة لحم بقدر ما يمضغ .

التفسير

١٢ – (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ) :

بين الله فى الآيات السابقة صفات السعداء التى استحقوا بها الجنة ، وجاءت هذه الآية والآيات التالية لها لبيان ما خلقوا منه هم وغيرهم ، وما ينتهون إليه ، حثًّا لهم على استدامة

ما هم فيه من الصفات الكريمة ، وتذكيراً لغيرهم بمبدئهم ومنتهاهم ، ليعملوا لآخرتهم ، ويتقوا سوء المصير .

والمراد من الإنسان فى الآية : الجنس ، فكل أفراد هذا الجنس خلقهم الله من خلاصة مستخرجة من الطين ، كما جاء فى النص الكريم ، وذلك باعتبار أصلهم الأول آدم -عليه السلام - فهم مخلوقون من الطين تبعاً لخلقه منه ، أو باعتبار أن النطفة التى خلقوا منها خلاصة مستلة ومأخوذة من أغذية ناشئة ونابتة من الطين .

١٣ - (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ) :

ثم حولنا الإنسان وصيرناه نطفة ومنيًّا فى قرار مكين بعد استلاله من طين ، ولفظ (ثُمَّ) هنا إما : للترتيب فى الخلق والتراخى فى الزمن ، أو للترتيب والبعد فى المنزلة والرتبة ، فإن تحويله من خلاصة من طين ، إلى منى مشتمل على حيوانات منوية لا حصر لها فى ماء الرجل وعلى بويضة وحيدة فى ماء المرأة ، فيه انتقال من مرتبة أدنى إلى مرتبة أعلى ومنزلة أبعد وأسمى ، وهذا المعنى هو المناسب لما ختمت به الآيات ، وهو قوله تعالى : « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » ومثل ذلك يقال فى الآية التالية .

والمراد من القرار المكين : الرحم ، فهو مقر متمكن فى موضعه ، وحرز حريز للنطفة وما يطرأ عليها من التطورات ، فلا يخاف عليها فيه من حركة الأم وتنقلاتها وعملها حتى تضع حملها بسلام .

١٤ - (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) :

تقدم الكلام مستوفى على مثل ما جاء فى هذه الآية فى صدر سورة الحج ، حيث بيَّنا هناك كيف تتحول النطفة إلى علقة ثم إلى مضغة ، وأطوار تكوين الجنين فى أشهر الحمل وأوزانه ، وأن الحياة موجودة فيه منذ تكوين الخلية الأولى بعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوى ، وأن المقصود من نفخ الروح فيه فى نهاية طور المضغة هو إعطاء الجنين دفعة قوية من الحياة تمكنه من الحركة فى بطن أمه بعد أن تم تصويره المبدئى ، ولهذا لا نرى داعياً

لإعادة الكلام هنا تفصيلًا فيها ، فمن شاء فليرجع إلى ما قلناه فى تفسير قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ . . . »[١] .

والمعنى : ثم صيرنا النطفة البيضاء خلايا عالقة بجدار الرحم أجرينا عليها التحويل من حال إلى حال فصيرناها بهذا التحويل والتصوير مضغة - أى : قطعة لحم صغيرة قدر ما يمضغ ، فيها معالم الانسان الأولية ، فصيرنا بعض هذه المضغة عظامًا متطورة ممتدة فى ثناياها أثناء تخليقها وتصويرها ، فكسونا تلك العظام لحمًا وأحطناها به ، ليتم للجنين تلك الصورة البديعة ، ثم حولناه بعد تمام التكوين والتصوير وأنشأناه مخلوقًا آخر مباينًا لخلقه الأول ، فقد أصبح إنسانًا سويًا جميلًا وسيمًا ، بعد أن كان منيًا ثم علقة ثم مضغة .

(فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) :

أى : فتعالى الله أحسن الخالقين خلقًا ، وتقدس أعظم المقدرين المبدعين تقديرًا وإبداعًا حيث أنشأ هذا الجمال الإنسانى من تراب ثم من نطفة ثم من علقة فمضغة ، وعُدِل عن أسلوب التكلم فى نحو قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا » فأسند الفعل هنا إلى لفظ الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة ، وللإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة ، إنما هو من أحكام الألوهية وآثارها ، وللإيذان بأن حق من سمع ما فصِّل من آثار قدرته تعالى أو تدبَّره أن يقول : « تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » إجلالًا وإعظامًا لشئونه تعالى .

وَالْخَلْق معناه فى اللغة : التقدير ، وهو لهذا يصح أن يطلق على غيره تعالى ، كما فى قوله سبحانه : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ » أى : تقدر من الطين تمثالًا وتصوره كهيئة الطير ، ولهذا عبر هنا بصيغة أفعل التفضيل (أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) .

١٥ ، ١٦ - (ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) :

ثم إنكم يا بنى الإنسان بعد ذلك الخلق العجيب لمنتهون إلى الموت لا محالة ، ثم إنكم يوم القيامة تقومون من قبوركم وتبعثون منها إلى ساحة الحساب على أعمالكم : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » : ومن كان مصيره إلى الحساب والجزاء ولابد ، فعليه أن يَتَّقِيَ سوء الحساب .

---

(١) سورة الحج : الآية الخامسة

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ⑰ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ⑱ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑲ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ⑳ ﴾

المفردات :

(سَبْعَ طَرَآئِقَ) : سبع سماوات طباقًا بعضها فوق بعض ، وهى جمع طريقة ، والعرب تسمى كل شىء فوق شىء طريقة - انظر القرطبى . (مَآءً بِقَدَرٍ) أى : بتقدير لائق يجلب المصالح ويدفع المضار . (جنَّاتٍ) : بساتين . (تَنبُتُ بِالدُّهْنِ) : تنبت ملتبسة بالدهن ومصاحبة له فى تكوينها . (وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ) : وما يصبغ به الخبز للآكلين أى : يغمس فيه .

التفسير

١٧ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) :

بين الله فى الآيات السابقة خلق الإنسان ومصيره الذى ينتهى إليه ، وبين فى هذه الآية وما بعدها خلق ما هو بحاجة إليه فى حياته الأولى ، استكمالًا لنعمته عليه .

وفى تقديم بيان خلق الإنسان على خلق هذه الكونيات العظيمة ، إيذان بعظم خلقه مع صغر حجمه ، ففيه انطوى العالم الأكبر ، كما قال الشاعر :

أَتَزْعُمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ

وفى تلك الآيات دلالة على إمكان بعثهم الموعود به قبلها فى قوله سبحانه : « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ » فإن من قدر على خلق السماوات ، وإخراج الشجر والنبات من التراب ،

فهو على بعثهم قدير ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ »
والطرائق : جمع طريقة ، وتطلق على الطبقة فوق الأخرى ، يقال : طارقت الشىء : جعلت بعضه فوق بعض ، كما تطلق على الطريق المعروف ، وعلى الأسلوب والهيئة .

وأطلقت الطرائق على السموات السبع إما لكون بعضها فوق بعض ، أو لأنها طرق الملائكة فى هبوطهم وعروجهم ، أو لأن لكل سماء طريقة وأسلوبا فى خلقها ونظامها وهيئتها .

ومعنى الآية : ولقد أنشأنا فوقكم يا بنى الإنسان سبع سماوات طباقا ، يسلكها الملائكة فى أعمالهم التى كلفهم الله بها ، ولكل سماء هيئة ونظام يتفق مع ما خلقت لأجله ، وما كنا عن جميع مخلوقاتنا ساهين مهملين ، فكل شىء خلقناه فيها بقدر ، ودبرناه بحكمة ، وهو مشمول برعايتنا وحفظنا ، ومحوط بعلمنا « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »(١) لا تحجب سماء عن علمه سماء أخرى ، ولا أرض أرضا غيرها ، ولا جبل إلا هو يعلم سهوله ووديانه وهضابه وكثبانه ، ولاريف إلا وهو يعلم نباته وأشجاره ، وإنسانه وحيوانه « وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ »(٢) ولا بحر إلا وهو يعلم مياهه وركبانه ، وأسماكه وحيتانه ، فهو « اللهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ »(٣) .

١٨ ـ (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) :
كل ما علاك يطلق عليه فى اللغة : سماء ، والمراد بالسماء هنا إمَّا السحاب ، فمنه ينزل المطر ، وإما السماء المعروفة ، والمقصود من إنزال المطر منها إنزاله بسببها ، فإن المطر أصله أبخرة صاعدة من البحار ، بسبب تسلط حرارة الشمس عليها ، والشمس من السماء .

---

(١) سورة الحديد ، من الآية : ٤
(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٥٩
(٣) سورة البقرة ، من الآية : ٢٥٥

ومعنى الآية : وأنزلنا من السحاب ماء بمقدار مايكفى مخلوقاتنا فى مصالحهم وحاجاتهم ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلا فلا يفى بالإنسان والحيوان والزروع والثمار ، فأسكناه فى الأرض وأقررناه فيها ، حيث أجريناه فى الأنهار ، وجعلنا الأرض تتشرب بعضه ، ليستقر فى جوفها ، ويخزن تحت طبقاتها ، لينتفع به الناس عند الحاجة إليه بحفر الآبار فيها ونبع العيون منها ، وإنا على ذهاب بالماء الذى أنزلناه لقادرون ، بأن نجعل الأرض تبتلعه فيغور فيها إلى أماكن بعيدة لا تقدرون على استنباطه منها ، كما قال سبحانه فى آخر سورة الملك : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ » .

ويصح أن يكون المعنى : وإنا على عدم انتفاعكم بالماء لقادرون ، بأن نحبس المطر عنكم أو نحول عذبه الفرات إلى ملح أجاج ، أو نجفف أنهاركم وآباركم ، ولكنا بلطفنا ورحمتنا نمدكم بالماء العذب من آن لآخر ، ونحفظه لكم لتنتفعوا به عند حاجتكم .

١٩ - (فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) :

فأوجدنا لكم بسبب هذا الماء الذى أسكناه فى الأرض - أوجدنا لكم - بساتين ذات بهجة من نخيل وأعناب ، لكم فى تلك البساتين فواكه كثيرة غير النخيل والأعناب ، تتفكهون بها وتتنعمون بحلاوتها وجمالها ولذيذ مذاقها ، ومن هذه البساتين تأكلون وتتغذون بزروعها وثمارها التى تجمع بين التفكه والتغذى .

ويصح أن يكون المراد من الأكل من تلك الجنات التعيش والارتزاق منها ، ببيع ما زاد على طعامهم وفاكهتهم ، ومنه قولهم : فلان يأكل من حرفته ، أى : يتعيش منها .

وأجاز بعض العلماء عود الضمير فى قوله : « لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » على النخيل والأعناب ، فثمراتها جامعة بين الفاكهة والغذاء .

٢٠ - (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ) :

الطُّور فى اللغة : اسم لكل جبل ، وطور سيناء : هو الجبل الذى كلم الله موسى - عليه السلام - عنده ، وهو واقع فى إقليم سيناء التابع لمصر .

وجمهور العرب والقراء على فتح السين مع مد الهمزة ، وقرىء بكسرها مع المد أيضاً ـ وهو لغة بنى كنانة ، وفيه لغات وقراءات أخرى : كَطُورِ سِينِين ، ونكتفى بما ذكرنا ، والمراد بالشجرة التى تنبت منه الدهن : شجرة الزيتون ، وتخصيصها بالذكر من بين سائر الأشجار التى تنبت هناك لما فيها من المنافع الجليلة ، ولشهرة طور سيناء بإنباتها أكثر من اشتهاره بإنبات سواها عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، وتخصيصها بالوصف بالخروج من الطور مع خروجها من سواه لتعظيمها ، وقيل : لأنه هو المنشأ الأصلى لها بعد الطوفان ، والله أعلم بذلك القول .

والمراد من نباتها بالدهن ، نباتها ملتبسة به ، حيث خلقها الله صالحة لإخراج ثمرها مشتملا على نسبة عالية من الزيت ، والمراد من كونه صبغا للآكلين ، أنه يغمس فيه الخبز ويصبغ به عند تناوله ، كما كانوا يفعلون عندما نزل القرآن عليهم .

ومعنى الآية : وأنشأنا لكم شجرة طيبة مما أنزلناه من السماء من ماء ، وهذه الشجرة تخرج من أرض مباركة قريبة منكم يجلب لكم ثمارها ، هى سفح طور سيناء الذى كلم الله تعالى موسى عنده ، وتلك الشجرة تنبت وفيها خاصيةُ إخراج ثمرٍ يجمع بين نعمتين : (إحداهما) نعمة الدهن ، وهو الزيت الذى تستعملونه فى سراجكم وسائر أموركم التى تحتاج إليه . (وثانيتهما) أنه أُدْمٌ تصبغون به الخبز عندما يتناوله الآكلون منكم .

(وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(الْأَنْعَامِ) : تطلق على الإبل والبقر والغنم ، أو كما قال صاحب المختار : هى المال الراعية ، وأكثر ما يطلق : على الإبل . ا هـ ، وسيأتى فى التفسير مزيد بيان عنها .

(الْفُلْكِ) : الفلك السُّفُن ، وقد يطلق على الواحدة ، وقد يُذَكَّر حينئذ ، كما قال تعالى : « فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ » وقد يؤنث كما في قوله تعالى : « وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » قال صاحب المختار : كأنه يذهب بها إذا كانت واحدة إلى المَرْكب فتذكر ، وإلى السفينة فتؤنث . اهـ وهي تحتمل الإفراد والجمع ، ومن إطلاقها على الجمع قوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم »[1] . ومن إطلاقها على المفرد قوله تعالى : « فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ »[2] .

التفسير

٢١ - (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) :

بين الله في الآيات السابقة نعمه وآياته في خلق الإنسان، وإنزال الماء من السحاب ، وإنبات الحدائق والبساتين وأنواع النبات بما أنزله لهم من الماء ، وخزنه لهم منه في جوف الأرض ، وجاءت هذه الآية لتبين آياته ونعمه في الأنعام .

والأنعام المذكورة هنا ، إما أن يراد بها أصنافها وهي الإبل والبقر والغنم ، وإما أن يراد بها الإبل خاصة لقوله تعالى في الآية التالية : « وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » وإرادة العموم هنا أولى ؛ لأن العبرة والمنافع فيها ليست قاصرة على الإبل .

والمعنى : وإن لكم - أيها الناس - لعظة عظيمة في أصناف الأنعام ، نسقيكم مما في بطون إناثها من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ، ولكم فيها منافع كثيرة في أوبارها وأصوافها وأشعارها وفي عظامها حيث تطحن وتكون ضمن طعام الداجنة ، وفي غِرَائها الذي يلصق به ، ومن لحومها تأكلون ، ومنها تتعيشون وترتزقون ، حيث تتجرون في أنواعها وأجزائها وفضلاتها ، وقد تقدم الكلام وافيا على مثل تلك الآية في سورة النحل[3] ، فارجع إليها إن شئت .

---

(١) سورة يونس ، من الآية : ٢٢

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١١٩

(٣) الآية رقم ٦٦ منها .

٢٢ - (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) :

الضمير فى (عليها) يرجع إلى الأنعام ، ونسبة الحمل فيها إلى جميعها - مع أن التى تحمل هى الإبل - بنسبة ما لبعضها إلى كلها مجازاً[1] وقرن الإبل بالفلك فى الحمل عليها لأنها سفن البر كما أن الفلك سفن البحر ، وفى ذلك مافيه من المبالغة فى تحملها ، وفى هذا المعنى يقول الشاعر ذو الرمة فى وصف ناقته :

* سفينة برٍّ تحت خدِّى زمامُها *

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ) : يريد أن يتعالى عليكم ويفْضُلكُمْ بادعاء الرسالة .

(بِهِ جِنَّةٌ) : به جنون ، أو جنّ يخيلون له فيقول ما يقول . (فَتَرَبَّصُوا) : فانتظروا .

التفسير

٢٣ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ) .

(١) ويصح أن يكون فى الكلام استخدام ، وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر ، كما يقول علماء البلاغة ، وعليه يكون الضمير عائدا إلى الأنعام بمعنى الإبل خاصة ، بعد إرادة العموم منها فيما تقدم .

شروع فى بيان ما جناه الناس على أنفسهم من ترك التبصر والاعتبار والادّكار بنِعَم الله عليهم ، أو بعقاب الله لهم على كفرهم برسله الذين يذكرونهم ويوجهونهم إلى معرفة ربهم بآياته ونعمه .

وقدم الله قصة نوح مع قومه ، لأنه الأب الثانى للبشرية بعد آدم ، ولأنه مكث فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا يدعوهم ، فلما لم يؤمنوا قطع الله دابرهم بالطوفان ، فلهذا كانت قصته جديرة بتقديمها ، وإيرادها عقب قوله تعالى : « وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » للصلة القوية بين نوح والسفن فهو أول من صنعها من البشر .

والمعنى : ولقد بعثنا نوحًا رسولًا منا إلى قومه ، ومعه آيات ومعجزات تؤيد رسالته فقال مستميلًا لهم إلى الحق : يا قومِ اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به أحدًا فإنه ليس لكم إلٰه سواه ، أتشاهدون ذلك فى آياته فلا تتقون عقابه وأنتم به كافرون .

٢٤ - (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَآئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ آبَآئِنَا الْأَوَّلِينَ) :

يطلق لفظ الملإ على السادة لأنهم يملئون العين ، كما يطلق على الجماعة مطلقًا[1] ، والمراد هنا المعنى الأول ، ووصْفُهم بالذين كفروا من قومه ليس لتمييزهم عن فريق آخر منهم بل لذمِّهم بالكفر مع أنهم من قومه ، إذ لم يؤمن أحد من أشرافهم ، حسبما يُفْصِح عنه قولهم له : « مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا » .

والمعنى : فقال سادتهم الكافرون لِعوامِّهم تنفيرًا لهم من اتباعه : ما هذا الذى يدَّعى الرسالة عن الله إلَّا بشر مماثل لكم فى البشرية والأوصاف المختلفة ، يريد بدعواه الرسالة أن يسودكم ويتقدم عليكم ، ولو شاءالله أن يرسل إلينا رسولًا لأرسله وأنزله من الملائكة ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه من عبادة إلٰه واحد - ما سمعنا بهذا - فى آبائنا الذين مضوا قبلنا حتى نصدقه .

---

(١) انظر القاموس .

وهم بهذا الذى قالوه ، يرفضون رسالة البشر ، ويرضون بربوبية الحجر ، فلا عجب أن يمضوا فى التنفير منه قائلين :

٢٥ - (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ) :

أى : ما نوح إلَّا رجلٌ به جنون ، أو يغشاه جن يلبسون الأمر عليه ، ويخيلون له فيقول ما يقول ، فانتظروا به واصبروا لعله يفيق مما أصابه فلا يعود لما يقوله ، وهم بهذا ينقضون ما وصفوه به أولًا من أنه رجل يريد الرياسة والفضل عليهم بدعواه الرسالة فيهم ، وهذا يقتضى اعترافهم ضمنًا بأنه رجل عاقل وسياسى ماهر ، فاتهامهم له بالجنون بعد ذلك يعتبر تخبطًا منهم فى المقال عنه ، وإيغالًا فى التنفير منه بدون وجه حق .

٢٦ - (قَالَ رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ) :

قال نوح لربه بعد أن يئس من إيمانهم ، حينما أخبره بقوله : « إِنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ » قال نوح بعد يأسه : رب انصرنى على قومى وأهلكهم بسبب تكذيبهم لى ، انتقامًا منهم على تماديهم فى الضلال ، وإصرارهم على الكفر بعد تلك الدهور الطوال .

(فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(الْفُلْكَ) : السفينة . (بِأَعْيُنِنَا) :المراد من أعينه تعالى ؛ مزيد حفظه ورعايته فإنه منزه عن مشابهة الحوادث . (وَفَارَ التَّنُّور) : التنور الكانون يخبز فيه ، ويطلق عليه الفُرْنُ أيضًا ، والمراد من فورانه : نبع الماء منه ، ويطلق التنور أيضًا على كل مَفْجَرِ ماء[(١)] .

(فَاسْلُكْ فِيهَا) : فأدخل فيها . (مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) : أى من كل صنف فردين متزاوجين ليكونا بذلك التزاوج اثنين . (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ) : صَعِدت .

(مُنزَلًا مُّبَارَكًا) : مكانًا كثير الخير .

(وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)[(٢)] : وإن كنا لمصيبين قوم نوح ببلاء عظيم .

التفسير

٢٧ - (فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا . . .) الآية .

أى : أجبنا دعاء نوح على قومه ، فأوحينا إليه على لسان جبريل ، قائلين له : اصنع السفينة التى سوف نُنجِّيك مع المؤمنين بركوبها ، اصنعها تحت رعايتنا وحفظنا وإرشادنا لك بالوحى عن طريقة صنعها حتى تسلم من الخطإ ومن عدوان قومك عليك وأنت تصنعها .

(فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ) :

فإذا جاء موعد أمرنا بشأنهم ، وحان وقت عقابهم على كفرهم ، بعد تمام صنع السفينة ، وفار الماء من الفرن ، أمارة لك على مجىء أمرنا وعقابنا لقومك ، فأدخل فى السفينة من كل نوع يتوالد زوجين اثنيين ذكرًا و أنثى ، وأدخل فيها نساءك وأولادك فهم أهلك ، إلّا من سبق عليه قولنا وقضاؤنا أزلًا بإهلاكه منهم ، وهم ابنك وزوجتك الكافران ، ولا تسألنى نجاة أحد من أولئك الكافرين ، ولا تشفع فى هؤلاء الظالمين ، فإنهم مُغرقون بالطوفان جميعًا جزاء كفرهم وظلمهم .

ويصح أن يكون المراد من أهله : المؤمنون من أمته ، واستثناء من سبق عليه القول منهم يُعَبَّرُ عنه فنيًّا بالاستثناء المنقطع ، لأن من سبق عليه القول بالإهلاك ليس من المؤمنين .

---

(١) انظر المادة فى القاموس .

(٢) (إن) هنا مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، واللام بعدها للفرق بينها وبين النافية .

والأول هو الظاهر ، وأما حمله من آمن معه فى السفينة من غير أهله فإنه وإن لم يذكر فى هذه الآية ، فقد صُرِّح به فى سورة هود فى قوله تعالى : « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَآ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ[1] » والقرآن يفسر بعضه بعضًا ، فما ترك ذكره فى آية يعرف أنه مراد فيها من آية أخرى ذكر فيها .

وتأخير الأمر بحمل أهله فى السفينة عن الأمر بحمل الأزواج وإدخالهم السفينة ، لأن إدخال هذه الأزواج يحتاج إلى معاونة أهله قبل أن يصعدوا إلى السفينة ، ولأن موضوع إدخال الأهل يتصل به استثناء من استثنى منهم وغيره ، فتقديم الأمر بإدخالهم على إدخال الأزواج يخل بتجاوب النظم الكريم .

٢٨ - (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

فإذا ركبت السفينة وعلوتها أنت ومن معك من المؤمنين ونجوتم بذلك من ظلم قومكم الظالمين ، ومن عقابهم بالطوفان على ظلمهم وكفرهم - إذا حدث ذلك - فقل : الحمد لله الذى نجانا بفضله من ظلم الظالمين وعاقبته .

وتوجيه الأمر إلى نوح بالحمد على النجاة من الظالمين ، دون إشراك من نجا معه من المؤمنين فى ذلك ، لأنه إمامهم ،فأمره بحمد الله أمر لهم بمثله ، ولأنه هو الذى دعا ربه أن ينصره على قومه بسبب تكذيبهم إياه ، فاستجاب له ربه فأنجاه ومن معه من المؤمنين ، وأغرق مكذبيه بالطوفان ، فلهذا طلب منه ربه أن يحمده على إجابة دعائه فى قومه المكذبين ، وتكريمه والمؤمنين بالنجاة من ظلمهم .

٢٩ - (وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) :

أى : وقل يارب أنزلنى من السفينة مكانا ومنزلًا كثير الخيرات ولمن معى من المؤمنين بعد انتهاء الطوفان ، وخراب الدنيا ، لكى نستطيع العيش فيه نحن وذرياتنا ، وأنت يارب خير من ينزل الضيفان ، ويكرم المحتاجين واللاجئين .

---

(١) سورة هود ، الآية رقم : ٤٠

٣٠ - (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) :

إنَّ فى مافعله الله بنوح وقومه لعلامات واضحات على نجاة المتقين ، وسوءِ مصير الظالمين ، ولو بعد حين ، يهتدى بها أصحاب البصائر المستنيرة ويعتبر بها أُولو العقول الوضيئة ، وإن الحال والشأْن فى قصتهم ، هو أننا كنا مبتلين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شنيع .

(ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾)

المفـردات :

(قَرْنًا آخَرِينَ) : أى ذوى قرن آخرين ، وهم عاد ، وقيل : هم ثمود ، والأَول أَصح .

(الْمَلَأُ) : الأَشراف . (وَأَتْرَفْنَاهُمْ) : أى نعمناهم ووسعْنا عليهم .

التفسير

٣١ - (ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ) :

بعد أَن حكى الله قصة قوم نوح وعاقبتهم لما كفروا بربهم وعصوا رسوله ، جاءَت هذه الآية وما بعدها لحكاية قصة قوم آخرين جاءوا بعدهم ، ففعلوا فعلهم ، فأُهلكوا جميعًا عقابا لهم .

وهؤلاء القوم هم عاد قوم هود ، فإنهم هم الذين خلفوا قوم نوح وجاءوا بعدهم ، كما عرف من الترتيب القرآنى لقصص الأمم وأنبيائهم ، فقد جاءت قصتهم بعد قوم نوح فى سورة الأعراف وهود وغيرهما ، ولهذا قال لهم رسولهم هود : « وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ » واختار هذا الرأى ابن عباس ، وإليه ذهب أكثر المفسرين .

وقيل : هم ثمود قوم صالح ، لأنهم هم الذين جاء ذكرهم فى القرآن بأنهم أهلكوا بالصيحة ، وهؤلاء الذين جاءوا هنا بعد نوح أهلكوا بالصيحة ، كما سيجىء بآخر قصتهم فى قوله تعالى : « فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »[1] .

وقد يكونون أمة أخرى غيرهما ، ولهذا لم يصرح باسمها ولا باسم رسولها .

والمعنى : ثم أنشأنا من بعد إهلاك قوم نوح بالطوفان لكفرهم — أنشأنا — قوما آخرين فى زمان غير زمانهم .

٣٢ — (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ[2] اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) :

فأرسلنا فى أهل هذا القرن رسولا من بينهم ، قائلين لهم على لسانه : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به أحدا فى العبادة ، فإنه ليس لكم من إله سواه حتى تشركوه معه فى العبادة ، أتعبدون معه غيره ، فلا تتقون عقابه ، ولا تخشون عذابه .

٣٣ — (وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا[3] وَكَذَّبُوا بِلِقَآءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) :

وقال أشراف قومه الذين بالغوا فى كفرهم وتكذيبهم بلقاء الآخرة ونعّمناهم ووسّعنا عليهم فى الحياة الدنيا — قالوا لمن دونهم من قومهم مُنَفِّرين من اتباعه — : ما هذا الذى يدعى الرسالة فيكم إلا بشر مماثل لكم ، فهو يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون فليست له ميزة فيكم ، حتى يدعى أنه رسول الله إليكم ، ثم بالغوا فى التنفير من اتباعه فقالوا :

---

(١) واختار هذا الرأى أبو سليمان الدمشقى والطبرى .

(٢) (أن) هنا بمعنى أى ، لوقوعها بعد الإرسال الذى يتضمن معنى القول .

(٣) من قومه بيان للملأ ، والذين كفروا صفة للملأ ، جىء بها ذما لهم ، وتنبيها على غلوهم فى الكفر .

٣٤ـ ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾(١) :

ونقسم لئن أطعتم بشرًا مماثلًا لكم فى بشريتكم ، واتبعتموه فيما يدعوكم إليه ، إنكم حينئذ لخاسرون باتباعه ، ثم استأنفوا مقرِّرين ما زعموه فقالوا مستنكرين مستبعدين :

٣٥ـ ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم(٢) مُّخْرَجُونَ ﴾ :

أيعدكم هذا الذى يدعى الرسالة وهو من البشر ـ أيعدكم ـ أنكم إذا هلكتم ، وتحولت أجسادكم إلى تراب وعظام نخرة ، أنكم مخرجون من قبوركم أحياء كما كنتم فى دنياكم .

﴿ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

المفردات :

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ : هيهات : اسم فعل ماض بمعنى بَعُدَ ، واقع موقعه ، والتكرار للتأكيد ، ولا تقع غالبًا إلَّا مكررة ، وفاعلها ضمير ، أى : بَعُدَ التصديق ، أو الوقوع .

﴿ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ : اللام لبيان ما استبعدوه وهو البعث الذى وعدهم به رسولهم .

﴿ إِنْ هِيَ ﴾ : أى ما هى ، ف ﴿ إِنْ ﴾ هنا للنفى .

﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ : أى يموت بعضنا ، ويولد بعض آخر .

﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ : اختلق على الله كذبًا بادعائه النبوة .

(١) جملة « إنكم إذا لخاسرون » جواب القسم ، استغنى به عن جواب الشرط ، يقول ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

والمتأخر هنا هو الشرط

(٢) تأكيد لأنكم الأولى لطول الفصل بينه وبين خبره ، هو قوله « مخرجون » ..

التفسير

٣٦ - (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ) :

هذه الآية وما بعدها تكملة لحكاية ماتحدث به كبراء الكافرين من القوم الآخرين[1] مع عامتهم ، من إنكارهم البعث ؛ لِصدِّهم عن تصديق رسولهم فيما وعدهم به ، مستبعدين أن تكون لهم حياة بعد أن يموتوا ، وتتحلل أجسادهم ، فيصبح المتقدم منهم موتًا ترابًا اختلط بتراب الأرض ، وامتزج بثراها ، وصار جزءًا من أجزائها ، لا يتميز عنها ، ويصبح المتأخر منهم فى الموت عظامًا نَخِرَةً مجردة من اللحوم والأعصاب ؛ كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ »[2] .

وقوله سبحانه : (لِمَا تُوعَدُونَ) بيان للمستبعد ، كأنه قيل : لأى شىء هذا الاستبعاد الذى يستبعدونه ؟ فقيل : إنه لما يوعدون من وقوع البعث .

والمقصود من الآية أن هؤلاء القوم يستبعدون البعث بعد الموت استبعادًا مؤكدًا لايترددون فيه ، ولهذا أتبعوه بما حكاه الله بقوله :

٣٧ - (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) :

أى : لاحياة لنا إلّا حياتنا الدنيا التى نحياها ، وليس بعدها حياة أخرى بالبعث بعد الموت ، كما يعدنا من يدّعى أنه رسولنا - فنحن فى حياتنا هذه (نَمُوتُ وَنَحْيَا) فيموت بعضنا ، ويولد بعض آخر ، وينقرض قرن فيأتى قرنٌ . . . إلى آخر الزمان ، فالحياة التى عَنَوْها بعد الموت هى حياة جيل جديد بعد موت الذى قبله ، ولذا عقبوه بقولهم : (وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) : أى وما نحن بمبعوثين من قبورنا أحياء بعد الموت ، فكيف نصدقه فى دعواه ؟ ثم أوغلوا فى تكذيبه والتشنيع عليه ، فقالوا :

٣٨ - (إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) :

أى : ماهو إلّا رجلٌ اختلق على الله كذبًا فيما جاءكم به عنه سبحانه ، من الرسالة والإخبار بالمعاد والبعث بعد الموت (وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) : أى لايقع قوله منا موقع القبول والتصديق بما يدّعيه ويعِدُ به .

---

(١) الذين سبق بيان الخلاف فيهم .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ٣٥

(قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ
نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا
لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾)

المفـردات :

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ) : الصيحة : العقوبة الهائلة ، أو الصوت المفزع الذى أهلكهم الله به .

(بِالْحَقِّ) : بالعدل . (فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً) : أى هَلْكَى هامدين يشبهون غثاء السَّيْل : وهو الرميم الذى يحمله من كل يابس بَالٍ مخالطًا لزَبَدِه .

(فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : أى هلاكًا لهم ، وفعله : كقَرُبَ ، وَفَرِحَ .

التفسـير

٣٩ – (قَالَ رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ) :

أى : قال رسول أهل هذا القرن الآخرين – عند يأسه من إيمانهم بعد أن أفرغ الجهد فى تبليغهم رسالة ربه ، وسلك معهم إلى ذلك كل مسلك ، قال متضرعًا إلى الله متوجهًا إليه : يا ربى انصرنى على قومى ، فأنزل سخطك بهم ، وانتقامك منهم بسبب تكذيبهم إياى ، وإصرارهم عليه فى عتو وكبرياء ، فاستجاب الله دعاءه ؛ كما حكاه الله بقوله سبحانه :

٤٠ – (قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ) :

أى : قال الله تعالى لرسولهم : بعد زمان قليل تالله ليصيرن نادمين حين ننزل بهم العذاب الذى يأخذهم ويستأصلهم عن آخرهم .

٤١ – (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

أى : صاح بهم جبريل – عليه السلام – صيحة مقترنة بالعدل الإلٰهى ، تنفيذًا لوعده الصادق الذى وعده الله رسولهم – عليه السلام – مَطْويًّا فى قوله سبحانه : (لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ).

وقد عرفت مما تقدم أن أصحاب القرن الآخرين إمَّا عاد قوم هود ، فهؤلاء أهلكوا بصيحة الريح العقيم ، وإمَّا ثمود قوم صالح فهؤلاء أهلكوا بصيحة جبريل أو الصاعقة وإمَّا قوم آخرون لهؤلاء أُهْلِكُوا بصيحة أخرى يعلمها الله تعالى .

(فجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً) : أى هلكى هامدين لا نفع فيهم ولا غناء ، يشبهون غثاء السيل ، وهو مايحمله مما بَلِيَ واسودَّ من ورق الشجر وغيره مخالطًا زبده . (فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) : لفظ : (بُعْدًا) قد يراد به الدعاء ، أى : فهلاكًا لهم ، بمعنى : أَهْلِكْهم يا ألله إهلاكًا ، وقد يراد به : الإخبار ، بمعنى : فبعُدوا بُعْدًا من رحمة الله القريبة من المحسنين – بعدوا بهلاكهم – من كل خير ، أو من النجاة . واللام فى قوله : (لِلظَّالِمِين) لبيان من قيل له : بُعْدًا ، والتعبير بقوله : (فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) بدلًا من أن يقال : فبعْدًا لهم إيذان بأن إبعادهم علّته وسببه ظلمهم لأنفسهم ؛ بتكذيب رسولهم وعدم الاستجابة لدعوته .

(ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(قُرُونًا آخَرِينَ) : أى أممًا خلفت الأُمم السابقة . (رُسُلَنَا تَتْرَا) : أى متواترين وترا بعد وتر ، والوِتْرُ : الفرد . (وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) : أى أخبارًا يتحدث بها الناس تلهِّيًا وتعجبًا ، وهو جمع أُحدوثة .

التفسير

٤٢ - (ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ) :

أى : أوجدنا بعد هلاك أمة القرن السابق أممًا وخلائق أخرى ، ويراد بها عند أكثر المفسرين : أقوام صالح ولوط وشعيب وغيرهم .

٤٣ - (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) :

أى : ماتسبق أمة من الأمم الكافرة التى أهلكها الله - ماتسبق - الوقت المقدر لهلاكها أزلًا ، وما تتأخر عنه ، فهلاكها مرهون بوقته لايسبقه ولا يتأخر عنه ، وذلك مثل قوله تعالى : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)[1] . وضمير الجمع فى قوله سبحانه : (يَسْتَأْخِرُونَ) عائد على (أمة) باعتبار المعنى ، إذ المراد بها : الأفراد المجتمعون .

٤٤ - (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ . . .) الآية .

أى : ثم أرسلنا رسلنا متتابعين ، يتبع بعضهم بعضًا إلى الأمم التى جاءت بعد هلاك من سبقوهم ، فقد أرسلنا إلى كل أمة رسولًا منهم خاصًّا بهم .

(كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ) :استئناف مبين لما قابلت به كل أمة منهم رسولها من تكذيبهم إياه حين لقائه ، مع أنه واحد منهم ، عرفوه بالصدق ، وصدقه الله بالمعجزة التى أظهرها الله على يديه .

(فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا) : أى جعلنا الأمم فى الهلاك يتبع بعضهم بعضًا ، بمباشرتهم الأسباب الداعية إليه من الكفر والتكذيب ، واقتراف المعاصى .

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ) : بعد أن أهلكوا حيث لم يبق بعدهم إلَّا أخبار وأحاديث ، يتحدث بها الناس ، تَلَهِّيًا بها ، وتعجبًا مما نزل بهم من تدمير وإبادة ، وهذه الجملة إنما تقال فى الشر ، ولا تقال فى الخير ، كما يقال : صار فلان حديثًا ، أى : عبرة ، كما قال تعالى : « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ »[2] .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٣٤ (٢) سورة سبأ ، الآية : ١٩

(فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ) أى : فهلاكًا لهم لإعراضهم عن الإيمان برسلهم ، وظلمهم أنفسهم بكفرهم .

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾)

المفـردات :

(وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : وبرهان واضح له سلطان على القلوب . (قَوْمًا عَالِينَ) : متجبرين متكبرين ، يقال : عَلَا ، يعلو ، عُلُوًّا : تَجَبَّر وتَكَبَّر . (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ) : يطلق على الواحد مثل : « بَشَرًا سَوِيًّا » وعلى الجمع مثل : « فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا » .

(لَنَا عَابِدُونَ) : منقادون خاضعون ، وكل من دان للملك فهو عند العرب عابد له أى : خاضع ذليل . (فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ) أى : المغرقين ، من أهلكته فهو مهلَك .

(الْكِتَابَ) : التوراة .

التفسـير

٤٥ ـ (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ) :

يخبر الله تعالى أنه بعث رسوله موسى وأخاهُ هٰرون ـ عليهما السلام ـ بآياته وهى تسع : اليد ، والعصا ، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، نقل ذلك ابن كثير ، وقال : وهذا القول ظاهر جَلِيٌّ ، حسن قوى . ا هـ

وقيل : هي العصا ، واليد ، والسنون ، والطمس[١] ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّلُ والضفادع ، والدم ، أما فلق البحر الذى عدَّه بعضهم منها ، فلا مساغ لعدِّه ؛ لأنه عليه السلام لم يبعث به إلى فرعون وقومه ، وإنما كان بعثه بالآيات التى كذبوها ، واستكبروا عنها ، وهم لم يستطيعوا تكذيبه ؛ حيث أُهلكوا فيه .

وعن الحسن : المراد من الآيات التكاليف الدينية التى أُمروا بها ، ومن السلطان : كل معجز أَتيَا به . اهـ ويمكن أن يراد بالسلطان: تسلط موسى فى المحاورة ، ووضوح الدلالة على الصانع - جل وعلا - والقوة والإقدام .

٤٦ - (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) :

أى : أرسلناهما إلى فرعون وأشراف قومه لغايتين : إحداهما : دعوتهم إلى الإيمان ، والثانية : إطلاق سراح بنى إسرائيل من الأَسر ، فلم يكن إطلاقهم من الأسر هو المقصود وحده من إرسالهما بدليل ما صُرِّح به فى سورة النازعات ، فى قوله سبحانه : « اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ . فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ . وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ » .

وخُصَّ الملأُ - أى الأَشراف - بالذكر ؛ لأَن إطلاق سراح بنى إسرائيل ، وكف الأَذى عنهم ، مما أُرْسِلا لأَجله ، وذلك منوط بآراء الأَشراف من قوم فرعون ، وبموافقتهم ، فضلا عن أَنهم قدوة لغيرهم يقتدون بهم فى الامتثال والاستجابة لما دعوا إليه .

ويجوز أن يراد بالملإِ : قومه جميعا ؛ فقد ورد استعماله لغة بمعنى : الجماعة مطلقا . (فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) أى : فتمردوا مستكبرين ، وأَعرضوا عما دعوا إليه ، وكان فرعون وشيعته قوما متكبرين قاهرين لغيرهم بالظلم والطغيان ، والمراد : أَن تلك عادتهم ، وما فُطروا عليه .

٤٧ - (فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ) .

الهمزة للإِنكار ، أى : أَن فرعون وقومه أَنكروا على موسى وهٰرون دعوتهما إلى الإيمان لكونهما بشرين ، شأْنهم فى ذلك شأْن الأُمم السابقة التى أَنكرت بعثة الرسل من البشر ،

(١) وهو إذهاب الشيء عن صورته ، وقد صير الله أموالهم ودراهمهم حجارة .

وقد دعاهم إلى هذا الإنكار ، قياس حال الأنبياء - عليهم السلام - على أحوالهم ، بناءً على جهلهم بتفاضل شئون الحقيقة البشرية ، وتباين طبقات أفرادها بحيث يكون بعضهم فى أعلى علِّيين ، وبعضهم فى أسفل سافلين ، ومن العجيب أنهم لم يرضوا بالنبوة للبشر ، وقد رضى أكثرهم بالألوهية للحجر ، فقاتلهم الله ، ما أجهلهم !

(وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ)[1] أى : خاضعون منقادون ، يعملون فى خدمتنا ، ويطيعون أوامرنا كالعبيد ، أرادوا بذلك الحطَّ من قدرهما ، والاستهانة بهما ، وقصور رتبتهما عن الأهلية للرسالة من وجه آخر غير البشرية ، بناءً على زعمهم الفاسد فى قياس الرياسة الدينية على الرياسات الدنيوية المؤسسة على حظوظ الحياة الفانية من المال والجاه ، وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق فى حيازة النعوت العَلِيَّة ، والملكات السنية ، جبِلَّةً ، لا اكتسابا .

٤٨ - (فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ) :

أى : فاستمروا على تكذيبهما ، وأصروا عليه ، فأهلكهم الله بإغراقهم جميعا فى بحر القلزم (البحر الأحمر) أهلكهم جزاء تكذيبهم .

٤٩ - (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) .

يخبر سبحانه إخبارا مؤكدا بأنه آتى موسى - عليه السلام - التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه ، وقد كان ذلك بعد إهلاك فرعون وقومه ، وإنجاء بنى إسرائيل .

والمعنى : ولقد آتينا موسى التوراة ؛ لعل من أرسل إليهم من قوم فرعون وبنى إسرائيل - لعلهم - يهتدون بها إلى الحق المبين ، وخص موسى بالذكر هنا دون هٰرون ؛ لأن التوراة أنزلت على موسى فى الطور ، أما هٰرون فهو وزيره ومُعينه فى دعوته ، أو روعى الاقتصار على موسى لأنه الأصل فى الإنباء ، وذلك لا يمنع من إرادة هٰرون معه ، فقد ذكر فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ »[2] .

---

(١) هذه الجملة حال من فاعل نؤمن فى قولهم (أنؤمن) مؤكدة لإنكارهم الإيمان بهما .

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية رقم : ٤٨

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(ءَايَةً) : دلالة بينة على كمال قدرته تعالى . (وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ) أى : أنزلناهما إلى مكان مرتفع منبسط ، يقال : آويته إلى منزلى : أنزلته فيه ، وأويت إلى منزلى : نزلت فيه ، والربوة - بضم الراء ، والفتح - : لغة بنى تميم ، والجمع : رُبًى .

(ذَاتِ قَرَارٍ) أى : يستقر فيها المقيم . (وَمَعِينٍ) أى : ماء جارٍ ظاهر للعيون ، من عَانَهُ ، إذا أدركه بعينه ، وأصله : مَعْيُون ، فدخله الإعلال ، أو من مَعَنَ الماءُ : إذا جرى . فوزنه . فَعِيلٌ .

التفسير

٥٠ - (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ . . . . .) الآية .

أى : جعلنا عيسى بن مريم وأمه دلالة قاطعة على كمال قدرتنا البالغة ؛ حيث حملت به من غير أن يمسَّها بشر .

والتعبير عن عيسى - عليه السلام - بأنه ابن مريم ، وعنها بأنها أُمه ؛ للإيذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية ، فإن نسبته - عليه السلام - إليها ، مع أن النسب إلى الآباء ، تؤذن بأنه لا أبَ له ، وذلك هو آية القدرة العظيمة فى إيجاد عيسى - عليه السلام - وتقديمه عليها فى الذكر ؛ لأصالته فيما ذكر من كونهما آية .

(وَءَاوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ) أى : وأنزلناهما فى ربوة ، وهى المكان المرتفع المنبسط ، قيل : هى إيلياء من أرض بيت المقدس ، وقيل : هى الرملة من فلسطين ، وقيل : دمشق ، وقيل : مصر .

(ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) : أى يستقر المقيم فيها لطيب هوائها ، ونقاء تربتها ، وقيل : لأنها ذات زروع وثمار ، تُيسِّر الاستقرار لساكنها ، وترغبهم فيه .

ولما كان الماءُ أصل الحياة وسبيل بقائها ، شاءَ الله أن يكرمهما بالإيواءِ إلى ربوة ذات ماءٍ ظاهر جار تراه العيون وتتبينه واضحاً ، حتى يكون جامعا لفنون المنافع : من الشرب منه ، وسقْى ما يُسقى من الحيوان والنبات من غير مشقة ، مع ما فى ذلك من الاستمتاع بمنظره المونق ، والاستقرار فى الربوة التى هو فيها .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) : وهى ما لذَّ وطاب من الطعام ، وما حَلَّ منه ، يقال : طاب الشيءُ ، يَطيب طيبا وطيبة ، فهو طيِّب .

التفسير

٥١ ـ (يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا . . .) الآية .

المراد بندائهم وخطابهم جميعا : الإعلام بأَن كل رسول نودى بذلك فى زمنه ، وَوُصِّىَ به ، ليعلم السامعون أن أمرا أُعلِمَ به جميع الرسل ، وطُلب منهم ، وهو الأَكل من الطيبات ليعلموا أن أمرا كذلك ـ حقيق أَن يتلقوه بالقبول والامتثال .

والمراد بالطيبات ، إمَّا ما تستلذه النفس وتطيب به من مباحات المأْكل ، حسبما ينبىءُ عنه سياق النظم الكريم ، وحينئذ يكون الأَمر للإباحة ، وفيه ما لا يخفى من الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات ، وإما أَن يراد بها ما حلَّ منها ، فيكون الأَمر للوجوب .

وفى الآية إشارة إلى أن الله تعالى سوى بين النبيين وأتباعهم فى تناول الطيبات بمعنييها ، ثم عقب ذلك بقوله : (إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) مبالغة فى وجوب امتثال ماأُمِرُوا به من أكل الحلال الذى دُعىَ إليه الرسل والأنبياء ، وحُذِّرُوا من تركه ، وكذلك جميع أممهم تبعا لهم .

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا) : موافقا لما شرع لكم . وقيل : حكاية لما ذكر لعيسى وأمه عند إيوائهما إلى الربوة ليقتديا بالرسل فى تناول ما رُزقا من كل طيب ، فكأنه قيل : وآويناهما ، وقلنا لهما : هذا - أى : أعلمناهما أن الرسل كلهم خوطبوا بهذا ، فكُلَا مما رزقناكما ، واعملا صالحًا اقتداءً بالرسل ، وعلى هذا فالمراد من الجمع فى قوله : « وَاعْمَلُوا صَالِحًا » ما فوق الواحد .

(إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) : لا تخفى علىَّ خافية مما تعملون من الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة فأجازيكم عليه .

(وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾
فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾
فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(أُمَّةً وَاحِدَةً) :الأمة هنا هى : الدين . (فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا) : أى فقطعوا أمر دينهم بينهم قطعًا ، فاتخذوا أديانًا مختلفة ، زُبُر : جمع زبور ، مثل رُسُل : جمع رسول ، وجمع زُبْرة أيضًا - بضم فسكون - والأول بمعنى كتاب ، من زبر بمعنى كتب ، أما الزُّبْرة فبمعنى القطعة .

(كُلُّ حِزْبٍ) : الحِزْبُ : جند الرجل وأصحابه الذين على رأيه ، والطائفة وجماعة الناس .

(فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ) : الغمرة الانهماك فى الباطل ، والجمع : غَمَرات ، مثل : سجدة وسجَدات .

(حَتَّى حِين) : إلى الوقت المعين لعذابهم .

التفسير

٥٢ - (وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) :

الإشارة فى قوله : (وَإِنَّ هَٰذِهِ) إلى ماتقدم فى السورة من العقائد والأحكام ، ومنها الأكل من الطيبات وعمل الصالحات ، والأمة بمعنى المِلَّة ، أى : وإن هذه العقائد وأصول الأحكام ملتكم أيها الرسل ملة واحدة ، لا تتغير ولا تتبدل ، بتبدل الأزمنة والأعصار ، أما الفروع فإنها تختلف ؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »[1] .

(وَأَنَا رَبُّكُمْ) : بدون شريك لى فى الربوبية . (فَاتَّقُونِ) أى : فخافوا عذابى على مخالفة أمرى ، وإخلالكم بواجب طاعتى ، مع علمكم باختصاص الربوبية بى للرسل وللأمم جميعًا . والفاء فى قوله تعالى : (فَاتَّقُونِ) لترتيب وجوب تقوى الله على ما قبله من الاتحاد فى الدين ، واختصاص الربوبية به تعالى ؛ فإن كِلَا الأمرين موجب لاتقائه حتمًا .

٥٣ - (فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) :

حكاية لما وقع من أمم الرسل ، أى : أنهم قطعوا أمر دينهم فجعلوه زُبُرًا ، أى : قطعًا متعددة ، وفرقوه فرقا مختلفة ، كل جماعة تنتحل نحلة مخالفة للحق ، بعد ما أُمروا بالاجتماع والاتحاد على ملة واحدة تجمع العقائد وأصول الأحكام .

وزُبُرًا - على هذا - جمع زُبْرة ، وهى : القطعة ، ويؤيد هذا قراءة (زُبَرًا) بفتح الباء جمع زُبْرة ، كغُرفة ، وهى القطعة ، فتلخص من هذا أن زُبْرَة تجمع على زبر بضم الباء وفتحها .

ويجوز أن يكون المعنى : أن أتباع الأنبياء فرقوا دينهم بعد أنبيائهم ، فآمنوا ببعض ما أُنزل عليهم ، وكفروا بما سواه ، اتباعا لأهوائهم ، أو أنهم وضعوا كتبًا وألفوها ونسبوا تلك الضلالات إلى الله - كما قاله ابن زيد - وعلى هذا يكون زُبُرًا جمع زبور بمعنى كتاب .

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٤٨

وقيل : إنهم فرقوا بين الكتب المنزلة ، فأخذ كل منهم كتاباً آمن به ، وكفر بما سواه .

(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) : والمعنى كل فريق من هؤلاء المتحزبين الذين قطعوا دينهم فرحون بما عندهم من الدين الذى اختاروه وركنوا إليه ؛ لاعتقادهم أنهم على الحق .

وبعد أن عرض القرآن الكريم على أسماع قريش أن جميع الديانات السماوية مجمعة على عقيدة واحدة هى التوحيد ، وأن الله تعالى هو رب الجميع وأن أصول الشرائع واحدة ــ بعد هذا ــ أمر سبحانه رسوله أن يتجاوز إلى أمدٍ عن غفلتهم وإهمالهم لهذه الحقائق ، فقال تعالى :

٥٤ ــ (فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ) :

والمعنى : فاترك ــ أيها النبى ــ هؤلاء على حالهم من الغفلة والضلال الذى لا ضلال بعده ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ؛ فقد بلّغت الرسالة التى أمرت بتبليغها حق الأداء « وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ »[1] .

والفاء فى قوله سبحانه : (فَذَرْهُمْ) لترتيب الأمر بالترك على ما قبله من كونهم فرحين بما لديهم من الدين الذى اختاروه ، أى : اتركهم (حَتَّىٰ حِينٍ) وهو حين قتلهم فى يوم بدر ، على ما روى عن مقاتل ، أو حين موتهم على الكفر ، وعذابهم فى الآخرة ، فالآية وعيد بعقابهم فى الدارين ، وتسلية للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإرشاد له بترك الاستعجال بعذابهم ، والجزع من تأخيره ، وذلك نظير قوله تعالى : « فَذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ »[2] .

ويجوز أن تكون بشارة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بما تم له من فتح مكة ، وهم فى غفلتهم عن أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

---

(١) سورة العنكبوت ، من الآية : ١٨

(٢) سورة الحجر ، الآية : ٣

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

المفـردات :

(أَيَحْسَبُونَ) : أيظنون ، وفعله من باب فرِحَ عند جميع العرب إلَّا بنى كنانة فإنهم يكسرون عين المضارع مع الماضى أيضًا على غير قياس ، والمصدر : حِسْبَانًا ، بكسر الحاء .

(نُمِدُّهُمْ) : نزيدهم ونعطيهم ، وفعله : أَمَدَّ ، ويكون فى الخير غالبًا .

(بَل لَّايَشْعُرُونَ) : أى بل لا يعلمون ، والفعل من بَابَىْ (قَعَدَ ، وَكَرُمَ) .

التفسـير

٥٥ ـ (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ) :

أى : أيظن هؤلاء العصاة المغرورون أننا إذْ تركناهم يتمتعون وينعمون بما أعطيناهم إياه ، وأمددناهم به من مال وبنين ، أيظنون أننا بهذا الإمداد :

٥٦ ـ (نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ) :

أى : ليس الأمر كما زعموا أنه مسارعة لهم فى الخيرات ، ومعاجلة فى الثواب لإكرامهم وخيرهم ، وإنما هو إملاءٌ واستدراج إلى المعاصى لزيادة دنوبهم بسبب إصرارهم عليها ، كما يقول سبحانه : « إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ »[1] .

والهمزة فى (أَيَحْسَبُونَ) لإنكار ما ظنوه وحسبوه ، واستقباح له ، وقوله تعالى : (بَل لَّا يَشْعُرُونَ) تجهيل لهم وتخطئة ، أى : بل هم لا يعلمون شيئًا أصلًا ، ولا فِطْنَةَ بهم حتى يتأملوا ويعرفوا أن ما حسبوه خيرًا لهم ، إنما هو شر يؤدى بهم حتمًا إلى أسوإ العواقب .

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية : ١٧٨

(إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ
رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾)

المفـردات :

(مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) : أى من هيبته وحذر عقابه خائفون .

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآءَاتَوْا) : أى يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات .

(وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) : خائفة ، وفعله من باب : (فَرِحَ) .

التفسـير

٥٧ ـ (إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ) :

استئناف مسوق لبيان من هم المؤمنون المسارعون فى الخيرات وما وعدوا به من جزيل الثواب ، أتى بذلك عقب ذكر الكفار وتوعدهم بما يُقنطهم من رحمته ، ويبطل حسبانهم الكاذب ، وأملهم الخادع ، ذكرهم سبحانه بأخص صفاتهم وأكملها ، فبيّن أنهم من أجل خوفهم من ربهم خائفون من التقصير فيما كلفهم به ، مع صدق إيمانهم وصالح عملهم ، كما قال الحسن البصرى : (إن المؤمن جمع إحسانًا وإشفاقًا ، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا) .

٥٨ ـ (وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) :

أى : من أجلِّ أوصافهم الإيمانُ بآيات ربهم المنزلة على رسله ، فهم يؤمنون بها جميعًا ، لايفرقون بينها ، وليسوا كأهل الكتاب الذين تقطعوا أمرهم بينهم ، فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه ، وكذلك يؤمنون بآياته الكونية التى نصبها سبحانه للدلالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه .

٥٩ - (وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ) :

أى : لا يشركون بربهم غيره ، شركًا جليًّا ، ولا شركًا خفيًّا ، بل يعبدونه وحده موقنين بأنه لَا إِلٰه إِلَّا هُوَ ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا .

والتعبير بكلمة (بِرَبِّهِمْ) هنا وفيما سبق للدلالة على أن اعترافهم بربوبية الله لهم جعلهم يشفقون ويؤمنون به تعالى ، ويفردونه بالعبادة ، فلا يشركون معه أحدًا ، مع ما فيها من إشارة إلى ما لربوبيته تعالى لعباده من دخل كبير فى وجوب توحيده وعبادته .

٦٠ - (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) :

أى : يعطون العطاء : زكاة أو صدقة ، وهم خائفون ألَّا يقبل منهم ، أو لا يقع على الوجه اللائق ، لتقصير فى الوفاء بحق الإعطاء قد يكون بدر منهم .

وقرئ بالقصر ، بمعنى أنهم يفعلون ما فعلوا من العبادات ، وقلوبهم خائفة من الله جل شأنه ألَّا تكون على وجهها الكامل لشائبة من التهاون قد يُبعدها عن أن تقبل منهم .

وروى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يشير إلى هذا المعنى ، فقد أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه ، وابن المنذر وابن جرير وجماعة : عن عائشة - رضى الله تعالى عنها - قالت : قلت : يارسول الله ، قول الله : (وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَآ أَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) أهو الرجل يسرق ويزنى ويشرب الخمر ، وهو مع ذلك يخاف الله تعالى؟ قال : « لا يا بنت الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلى ، وهو مع ذلك يخاف الله تعالى ألَّا يَتَقَبَّل منه » .

والتعبير بالمضارع فى (يُؤْتُونَ) للدلالة على الاستمرار فى العطاء ، وبالماضى فى : (مَاآتَوْا) للدلالة على تحققه . (أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) أى : وجلت قلوبهم خوفًا من أن تُرَدَّ عليهم أعمالهم لعدم الإحسان فيها لأنهم إلى ربهم عائدون ومبعوثون يوم القيامة ، فتنكشف لهم الحقائق ، وتظهر حاجة العبد إلى عمل تام مقبول ينجيه يوم لا ينفع المرء إلَّا ما قدمت يداه : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »(١) .

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

٦١ - (أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) :

أى : أولئك الموصوفون بما سبق تفصيله من الأوصاف الجليلة يبادرون بنيل الخيرات الدنيوية والأخروية ، الموعودة على الأعمال الصالحة ، كما فى قوله تعالى : « فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ »[1] وهم لأجلها سابقون إلى الطاعات .

عن ابن عباس قال : (وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) سبقت لهم من الله السعادة ؛ فسارعوا فى الخيرات اهـ .

وقيل : يسارعون فى الخيرات ولم يَقُلْ : يُسَارَعُ لهم فى الخيرات ، إشارة إلى أن ثقتهم بوعد الله بنيلهم الخيرات بمحاسن أعمالهم ، جعلتهم يسارعون إليها ، وإيثار كلمة (فى) فى قوله تعالى : (يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ) على كلمة (إلَى) للإيذان بأنهم ملازمون لها ، متقبلون فى فنونها ، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها على سبيل المسارعة .

ويجوز أن يكون المعنى : يسارعون إلى الطاعات ويبادرون إليها ، وهم لأجلها فاعلون السبق إليها ، أو لأجلها سابقون الناس إلى الثواب ، أو إلى الجنات ، أو أنهم يسبقون إلى أول أوقاتها طلبًا لفضل أدائها .

ويجوز أن يكون المعنى : وهم أهل للسبق إليها بما منحهم الله من التوفيق ، كقولك لمن تطلب منه حاجة لاترجى من غيره : أنت لها ، وهو من أبلغ الكلام وأدقِّه .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٨

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾)

المفردات :

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) :الوسع – مثلثة الواو – : الطاقة والقدرة ، أى : لا يحمِّلها الله ما يشق عليها . (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ) : المراد به صحائف أعمالهم ، أو اللوح المحفوظ .

(إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ) : المترف ؛ هو الجبار الذى أطغته النعمة ، وفعله : أُتْرِفَ .

(إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) : يضجون ويرفعون أصواتهم دعاءً واستغاثة ، يقال : جَأَرَ ، يَجْأَرُ ، جَأْرا ، وجُؤارا ، أى : صاح أو تضرع .

التفسير

٦٢ – (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) :

استئناف قصد به التحريض على ما وصف به السابقون الصالحون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ، ببيان سهولته وأنه غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، بمعنى أن الله سبحانه اقتضت حكمته ألَّا يكلف نفسا من النفوس بأمر من الأُمور الشاقة التى تُعْييه وتُجهده ، وإنما يكون التكليف بما يتسنَّى أداؤه لكل مكلف فى سهولة ويسر وفق طاقته ، فإن لم يبلغ المكلفون بعملهم مراتب السابقين فلا حرج عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ، ويستفرغوا وسعهم . (وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ) : تتمة لما قبله ببيان أنهم محاسبون على كل ما يصدر منهم ثوابا أو عقابا ؛ حيث إن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة وقعت

منهم إلّا أحصاها ، والمراد بالكتاب : صحائف أعمالهم التى ترفعها الملائكة ، ويُكلَّفُ أصحابها بقراءتها عند الحساب والجزاء . وقيل : المراد بالكتاب صحائف يقرأونها ، فيها ما ثبت فى اللوح المحفوظ ، وهو يُظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتا ووصفا وجزاء ويبينه للناظر واضحا كما يبينه النطق به. (وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) : ذكرت هذه الجملة لبيان أن عدله سبحانه يكون على أتم وجه وأكمله فى الجزاء ، وذلك إثر بيان رحمته ، ولطفه فى التكليف ، وأن كتب أعمالهم تعرض عليه سبحانه وفق واقعهم .

والمعنى : أنهم يوم القيامة لا يقرأون فى كتبهم إلا ما هو صدق وعدل ، فلا زيادة فيها ولا نقصان ، ولا يُظلم منهم أحد بزيادة عقاب ، أو نقص ثواب .

٦٣ - (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) :
فى هذه الآية انتقال من بيان حال المؤمنين إلى بيان حال الكفار .

والمعنى : بل قلوبهم فى غفلة غامرة أعمتهم عن الذى بُيِّن فى القرآن من أن لديه تعالى كتابا ينطق بأعمالهم السيئة على رءوس الأشهاد ، فيجزون بها ، ويعاقبون عليها ، أو أعمتهم عما عليه المؤمنون الموصوفون بما سبق من الصفات الكريمة .

وقيل : الإشارة إلى القرآن وإلى ما بُيِّن فيه مطلقا ، روى ذلك عن مجاهد .

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ) : أى ولهم أعمال سيئة كثيرة سوى غفلة قلوبهم عن أن عند الله كتابا ينطق بالحق .

(هُمْ لَهَا عَامِلُونَ) : وعليها مقيمون ، وبها مستمسكون ، لا ينفكون عنها بغيا وطغيانا .

٦٤ - (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ) :

أى : لايزالون يعملون أعمالهم الفاسدة إلى حين أخذ مترفيهم بالعذاب ، فيضجون ويرفعون أصواتهم فزعين ، قال ابن عباس وغيره ، : كان ذلك فى يوم بدر ؛ فقد قتل منهم فى ذلك اليوم عدد كثير من صناديد قريش ورؤسائهم الذين أفاء الله عليهم بكثرة المال والبنين .

وقال الضحاك : يراد بالعذاب : الجوع الذى نزل بهم حين دعا عليهم النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : « اللهم اشدد وطأتك على مُضَر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسِنِى يوسف » فابتلاهم الله بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والجيَف، وهلكت الأموال والأولاد .

والحق أنه العذاب الأُخروى ؛ إذ هو الذى يفاجئون عِنده بالجؤار ، فيجابون بالرد والإقناط من النصر والنجدة ، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار حسبما ينبئ عنه قوله تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ »[1] فإن المراد بهذا العذاب ما جرى عليهم يوم بدر .

وأما عذاب الجوع ، فإن أبا سفيان وإن تضرع فيه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكن لم يرد عليه بالإقناط ، حيث روى : « أنه- عليه الصلاة والسلام - قد دعا بكشفه ، فكشف عنهم ذلك » ا هـ .

(إِذَا هُمْ يَجْئَرُونَ) : أى يصرخون ويضجون مستغيثين بربهم من مفاجأة العذاب لهم ، وتخصيص مترفيهم بالأخذ بالعذاب مع عموم عذاب الآخرة لهم ولغيرهم ، للإشارة إلى أن ما كانوا فيه من المنعة بحماية الأتباع والحشم لهم فى الدنيا ، لم ينفعهم يوم القيامة حيث لقوا ما لقوا من الأهوال والشدائد ، فلأن يلقاها سواهم من تابعيهم وحشمهم أحق وأولى .

٦٥ - (لَا تَجْئَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ) :

أى : يقال لهم ذلك لتبكيتهم وإقناطهم من أن يستجاب لصراخهم وضجيجهم من جهته تعالى ، وتخصيص اليوم بالذكر لتهويله ، والإيذان بتفويتهم وقت الجؤار .

(إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ) : تعليل للنهى عن الجؤار ببيان أنه لا ينفع ولا يفيد ، فلا نصر لهم ولا معونة منه تعالى تنجيهم مما حلَّ بهم من هول وعذاب . وقال الحسن : لا تنصرون بقبول التوبة .

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٧٦

(قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾)

المفـردات :

(عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ) : يقال نكص على عقبه نكوصًا ، من باب (قَعَدَ) أى : رجع ، والعقِبُ : مؤخر القدم ، وهى مؤنثة ، وقال ابن فارس : النكوص عن الشىء : الإعراض عنه .

(سَامِرًا) أى : سُمَّارًا ؛ لأن (سَامِرًا) اسم جمع كالحاج ، أو مصدر فيقع على القليل والكثير بلفظ واحد ، والمراد منه هنا : الجماعة من الكفار يسمرون بالليل حول الكعبة ؛ لسَبِّ النبى - صلى الله عليه وسلم - وذم القرآن ، وأصل السمر : سواد الليل ، ثم أُطلق على الحديث فيه ، كما قال الراغب .

(تَهْجُرُونَ) أى : تنطقون بالهجر وهو الفحش ، أوتهذون بما لايفيد كما يهذى المريض يقال : هجر يهجُر هَجْرًا وهُجْرًا - بفتح الهاء وضمها مع سكون الجيم - فهو هاجر.

التفسـير

٦٦ - (قَدْ كَانَتْ آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ) :

أى : قد كانت آيات القرآن تقرأ عليكم فى الدنيا ، فلم تُقبلوا على سماعها للانتفاع بهداها الذى يدعوكم إلى طريق الخير والنجاة ، بل أعرضتم عما دعيتم إليه ، شأنكم شأن من يترك الطريق الواضح أمامه ، ويرجع القهقرى ناكصًا ناحية عقبه ، والنكوص أقبح المشى ؛ لأن الناكص لايرى ما وراءه .

٦٧ - (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ) :

الضمير فى قوله : (مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ) يعود على البيت الحرام الذى كانوا يسمرُون حوله[1] ، أى : مستكبرين على المسلمين فى البيت الحرام ؛ حيث منعتموهم من أداء شعائرهم حوله ، وكنتم مع ذلك تجتمعون للسمر والتآمر ضدهم ، والطعن فى القرآن الكريم ، وذم النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أن الله جعل البيت حرمًا آمنًا لجميع خلقه ، يُذكر فيه اسمه ، ويُعَظَّم كتابه ، ويُوقَّر رسوله ، ولا يؤذى فيه المؤمنون من عباده . وقيل : الضمير عائد على (آيَاتِي) فى قوله تعالى : « قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ » لأنها فى معنى كتابى الذى هو القرآن الكريم ، واستكبارهم به : تكذيبهم بآياته ، بتضمين (مُسْتَكْبِرِينَ) معنى مكذبين ، فعُدِّىَ تعديَتَهُ .

وحاصل المعنى : أنهم كانوا يجتمعون بالليل حول البيت ، ويتحدثون فى غالب سمرهم عن القرآن بتسميته سحرًا أو شعرًا أو أساطير الأولين ، مع اتصافهم بأنهم مع هذا يهجرون ، أى : ينطقون بالفحش من كل قول ، أو يهذون بالسفه البذئ ، والجهل الممقوت فى سب القرآن أو النبي أو الحق مطلقًا .

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) أى : القرآن . (فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) أى : غير عارفين للنبي حقه بعدم تدبرهم القول الذى جاء به ، مِن أنكرته إنكارًا ، ضد : عرفته .

(بِهِ جِنَّةٌ) الجِنة : الجنون ، كما تطلق على الجن ، وسيأتى بيان ذلك .

(١) والباء بمعنى : (فى) .

التفسير

٦٨ - (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) :

أي : أفعلوا ما فعلوا من الإعراض والاستكبار والهجر ، فلم يتدبروا القرآن ليعلموا أنه معجز وأنه دليل على صدق الرسالة ، فيؤمنوا به ؟ والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه .

(أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) : إضراب وانتقال من التوبيخ بما سبق إلى توبيخ آخر ، أي : بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت أسلافهم حتى استبعدوه ، وخاضوا فيه بما خاضوا من الكفر والعناد والإمعان فى الضلال ؟ فالهمزة هنا لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع ؛ بمعنى أن مجيء الرسل بالكتب من جهته تعالى لينذروا بها الناس سنَّةٌ قديمة له سبحانه لا مساغ لجحودها ، ومجيء القرآن وفق هذه السنة ، فلأى سبب ينكرونه ويتركون تدبره ؟ إنه لا سبب لذلك إلا التمادى فى الظلم والعدوان .

وقيل : المعنى : أغفلوا فلم يتدبروا القرآن ليخافوا عند تدبر آياته وقصصه أن ينزل بهم مثل ما نزل بمن قبلهم من المكذبين ؟ أم جاءهم من أسباب الأمن ما لم يأت آباءهم الأولين الذين خافوا الله وآمنوا بكتبه ورسله ، فأطاعوه حق طاعته ، والهمزة على هذا للإنكار أو للتقرير تهكمًا .

٦٩ - (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) :

إضراب انتقالى لتوبيخ الكافرين من قريش بوجه آخر ، أى : بل ألم يعرفوا محمدًا - صلى الله عليه وسلم - متصفًا بالأمانة والصدق ، وحسن الأخلاق ، ورجاحة العقل ، وصحة النسب ، وبكل الكمالات اللائقة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ؟ بل لقد جاءهم من عرفوه بكل ذلك ، فقد كانت كلمتهم قبل مبعثه متفقة على تسميته بالصادق الأمين ، وغير ذلك من كرام السجايا ، ولذلك قال أبو سفيان بن حرب لملك الروم (هرقل) حين سأله وأصحابه عن صفات النبى - صلى الله عليه وسلم - صدقه وأمانته ، - قال أبو سفيان : ماجربنا عليه كذبا ، وكانوا حينئذ كفارًا لم يسلموا ، ومع هذا ما أمكنهم إلّا الصدق ، فاعترفوا بذلك ، وقال جعفر بن أبى طالب - رضى الله عنه - للنجاشى ملك الحبشة : أيها الملك ، إن الله بعث إلينا رسولًا نعرف نسبه وصدقه وأمانته .

فإذا كان محمد كذلك فكيف ينكرون نبوته ، ويجحدون صفاته بعد أن اعترفوا بها ؟ إن ما وقع منهم كان حسدًا وبغيًا ، قال سفيان الثورى : بل قد عرفوه ولكنهم حسدوه .

٧٠ـ (أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) :

انتقال إلى توبيخ آخر ، أى : بل أيحتجون فى ترك الإيمان به بأنه مجنون ؟ وهذا باطل ينكره الواقع الذى يعرفونه حق المعرفة ؛ حيث إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أرجح الناس عقلًا ، وأضوؤهم ذهنًا ، وأصحهم رأيًا ، وأوفرهم رزانة . (بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ) : أى : بل جاءهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحق البيِّن ، وهو القرآن والتوحيد والدين القيم الذى لامحيد عنه ، فلا صحة لما يقولون .

(وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ) : المراد بالحق الذى كرهه أكثرهم ، إما كل حق ، ويدخل فيه دين الإسلام ، وإما دين الإسلام خاصة ؛ فقد كرهه أكثرهم حسدًا وبغيًا ، وكان فيهم من لا يكرهه ، ولكنه يتابع قومه فى الإعراض عنه والكفر به أنفةً واستكبارًا ، وحذرًا من تعيير قومه ، أو من وقوع أذى به أو نحو ذلك من عدم فطنته وقلة تفكره ، لا كراهةً للحق من حيث هو حق .

وإيثار الإظهار فى مقام الإضمار حيث لم يُقَلْ : (وأكثرهم له) لوضوح الإظهار فى ذمهم والتشنيع عليهم ، ولدفع ما قد يتوهم من عود الضمير على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بخاصة .

(وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن
فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾
أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾
وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ) : المراد بالحق؛ الله سبحانه وتعالى، وقد يراد به الحق المطابق للواقع ، أو النبى ، والمراد بأهوائهم : ما يهواه الناس ويشتهونه .

(بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ) : الذكر هنا بمعنى الشرف ، أى : أتيناهم بالكتاب الذى فيه عزهم وشرفهم . (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا) : أى أجرًا عن التبليغ . (عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ) : مائلون منحرفون عن طريق الجنة ، وهو الصراط المستقيم ، وفِعْله من باب (قَعَدَ) يقال : نكب عن الطريق ، نكوبًا ، ونكْبًا : إذا عدل عنه ومال إلى غيره[1] .

التفسير

٧١ - (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ . . .) الآية .

أى : ولو اتبع الحق سبحانه أهواءهم الزائفة ، فوافقها بتشريع ما يشتهون ، لكانت الطامة الكبرى ؛ حيث تفسد السموات والأرض ومن فيهن ، وتخرج عن الصلاح والانتظام بالكلية ؛ لأن رغبات الناس قاصرة ، وشهواتهم تختلف وتتضاد بما ينجم عنه أشد الفساد ، وأقوى التنابذ والخلاف ، ولكن الكون تام الصلاحية ؛ لأنه جاء وفق مراد الحق تبارك وتعالى دون شريك ؛ إذ « لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا »[2] .

---

(١) ويأتى (نكب) أيضا من باب : (فرح) فيقال : نكب ، ينكب ، نكبا .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢

وخُصَّ العقلاءُ بالذكر فى قوله تعالى : (وَمَن فِيهِنَّ) لأن غيرهم تبع لهم فى الصلاح والفساد . (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ) : انتقال من التشنيع عليهم بما سبق إلى التشنيع عليهم لإعراضهم عما جبلت عليه النفس من الإقبال والرغبة فيما فيه خيرها ونفعها ، أى : بل أتيناهم بالقرآن الذى فيه عزهم وشرفهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ »[1] فكان يجب عليهم لهذا أن يسرعوا إليه ، ويقبلوا ما فيه أكمل قبول ، ولكنهم عكسوا الآية (فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ) أى : فَهُمْ بما فعلوا من نكوص وإعراض معرضون عما فيه شرفهم وفخرهم ، وبيان ثوابهم وعقابهم ، مسرعون إلى نقيضه مما لا يطلب منهم الإقبال عليه والاهتمام به .

وفى وضع الظاهر موضع المضمر حيث لم يُقَل : (فَهُمْ عَنْهُ) إشارة إلى مزيد من التشنيع عليهم والتقبيح لهم .

وقيل : المراد بذكرهم : ما تمنوه بقولهم : « لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ »[2] والحق أنه قد جاءهم ذكر خير من ذكر الأولين ، أى : كتاب خير من كتبهم ، فأعرضوا عنه جهلًا وعنادًا .

٧٢ ــ (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) :

انتقال لتوبيخ آخر يوبخ به سبحانه الكافرين على عدم إيمانهم بما جاءهم به الرسول من الحق دون أن يسألهم عليه أجرًا ، والمعنى : بل أتسألهم يا محمد أجرًا على الرسالة ، فبسبب ذلك لا يؤمنون بك ، ولأجله يعرضون عن رسالتك ؟ (فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ) : الجملة تعليل لنفى السؤال الذى استفيد من الإنكار ، أى : لم تسألهم ذلك ، ولا يتأتى منك ؛ فإن ما رزقك الله إياه فى الدنيا ، وما أعده لإثابتك فى الآخرة خير من رزقهم ؛ لدوام رزق الخالق واستمراره وعدم تَحَمُّل المنة فى رزقهم .

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة لضميره ــ عليه الصلاة والسلام ــ إيذان بأعظم التشريف وأكمل التعظيم له ــ صلى الله عليه وسلم ــ والخَرْجُ أقل من الخَرَاجِ ، فهو بمعنى :

(١) سورة الزخرف ، من الآية : ٤٤ (٢) سورة الصافات ، الآيتان : ١٦٨ ، ١٦٩

العطاء القليل ، أما الخراج فهو العطاءُ الكثير ؛ لأن كثرة المبنَى تدل على كثرة المعنى ؛ ولذا عُبِّر بالأَوَّل فى جانب الخلق ، وبالثانى فى جانب الخالق ، وقيل : إنهما سواءٌ فى المعنى .

(وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) : تأْكيد لخيرية عطائه ورزقه ؛ فإن مَنْ كان خير الرازقين يكون رزقه خيرًا وأَوفى من رزق غيره ، بمعنى أنه لا يقدر أحد أن يرزق مثل رزقه ، ولن يستطيع أن يُنعم قدر إنعامه .

٧٣ - (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى : إلى دين الإسلام الذى تشهد الفِطَرُ السليمة باستقامته وتنزهه عن أى شائبة تلحقه ، أو اعوجاج يعيب منهجه ، والصراط : الطريق ، وسمى الدين طريقًا لأَنه يؤدى إلى الجنة ؛ فهو طريق إليها .

٧٤ - (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ) :

هم كفار قريش المحدَّث عنهم فيما سبق ، وقيل : المراد ما يعمهم ويعم غيرهم من الكفار المنكرين للبعث ، وتدخل قريش فى ذلك دخولًا أوليًّا ، وقد وصفوا بعدم الإيمان بالآخرة ، تشنيعًا عليهم بما يفعلونه من إقبال على الدنيا ، واستمساك بها ، زاعمين : أنه لا حياة لهم بعد هذه الحياة ، ولو كانوا يؤمنون بها لخافوا سوءَ المصير فيها بكفرهم بالحق الذى جاءهم على لسان رسوله .

المعنى : وإن الذين لا يُصدقون بالآخرة وأهوالها لمعرضون عن الصراط السوى ، ومنحرفون عنه ، ولو آمنوا بها لفكروا قبل أن يكفروا بما جئتهم به ، ولهداهم التفكير إلى الصراط السَّوى الذى يوصلهم إلى رحمة الله .

* ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾

المفردات :

(مِن ضُرٍّ) : من شدة وسوء حال . (لَلَجُّوا) : لتمادوا . (فِى طُغْيَانِهِمْ) : فى إفراطهم فى الكفر بالحق . (يَعْمَهُونَ) : يتحيرون ويترددون بين أساليب رد الحق ، وهو مضارع (عَمِه) بوزن فرح ومنع ، ومصدره : العَمَهُ والعُمُوه . (فَمَا اسْتَكَانُوا) : فما خضعوا .

(وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) : وما يتذللون إلى الله ويدعونه مخلصين أن يرحمهم .

(مُبْلِسُونَ) : متحيرون يائسون من كل خير .

التفسير

٧٥ـ (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) :

أى : ولو رحمنا أهل مكة ، وأزلنا ما لحقهم من ضر وشدة ، بسبب القحط الذى حل بهم عقابًا لهم ، لتمادوا فى الكفر بالحق يترددون بين أساليب رده ، ولم يرتدعوا عن طغيانهم بعد ما رفع الله الضر عنهم .

وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد دعا عليهم ، فقال : اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ـ كما رواه ابن عباس ،وقد حقق الله دعاءه ، فقد بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ محمد بن مسلمة فى سَرِيَّة إلى بنى بكر بن كلاب ، فجاء بثُمامة بن أثال الحنفى إلى المدينة ، فامتنع عن الإسلام ثلاثة أيام ، ثم أسلم وخرج معتمرًا ، فلما قدم بطن مكة لبَّى ، وهو أول من دخلها ملبيًا من المسلمين ، ومن هنا قال أحد بنى حنيفة

ومنَّا الذى لَبَّى بمكة مُعْلِنًا   برغم أبى سفيان فى الأشهر الحرم

فأخذته قريش فقالوا : لقد اجترأت علينا وصَبَوْتَ يا ثمامة ، قال : أسلمت واتبعت خير دين ، دين محمد - صلى الله عليه وسلم - والله لا يصل إليكم حبة من اليمامة - وكانت ريفًا لأهل مكة - حتى يأذن فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم خرج ثمامة إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا لمكة شيئًا حتى أضرّ بهم الجوع ، وأكلت قريش العِلْهز[١] ، فكتبت قريش إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع ، إنك تأمر بصلة الرحم ، وأنت قد قطعت أرحامنا ، فكتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ثُمامة - رضى الله عنه - : « خَلِّ بين بنى قومى وبين مِيرَتِهم » ففعل .

وفى رواية أن أبا سفيان جاءه - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : ألست تزعم ... إلخ وكان هذا قبل الفتح بقليل[٢] .

وقد نزلت الآية الكريمة لتبين أن كشف الضر عنهم بسعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكتابته إلى ثُمامة لن يؤثر فى قلوبهم المريضة ، بل سيظلون فى طغيانهم يترددون .

٧٦- (وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ) :

هذه الآية تسجل على قريش عنادهم فى كفرهم ، وأن الآيات والنذر لا تنفعهم ، فإذا كانوا لم ينزعوا إلى الإيمان بامتحانهم بآية العذاب والضُّر ، فكيف يؤمنون برحمتهم وكشف الضر عنهم ؟ .

والمعنى : ولقد أخذنا قريشًا بعذاب الجوع والقحط ، فما خضعوا به إلى الحق ، وما يتذللون لربهم ويدعونه بإيمان وصدق لكى يكشف الضر عنهم ، فقلوبهم مع أوثانهم وليست مع خالقهم ، ومن كان أمرهم ذلك ، فلن يخضعوا برحمته تعالى وكشف ضره عنهم ، ولو كانوا يعقلون لعرفوا أن الأمر كما قاله العليم الخبير : « وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ »[٣] .

---

(١) العلهز : طعام يؤكل فى المجاعة من الدم والوبر ، ويطلق أيضا على القراد الضخم .

(٢) انظر الآلوسى .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٣٥

٧٧ـ (حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ) :

لفظ : (حَتَّىٰ) يدل على أن الكلام بعدها غاية لما قبلها ، والمراد بالعذاب الشديد الذى يفتح عليهم بابه : إمَّا ما يكون بفتح مكة ، وإمَّا ما يحدث يوم القيامة .

والمعنى : أنهم مستمرون فى عنادهم وكفرهم لا تفيدهم الآيات والنذر ، حتى إذا فتحنا عليهم بابًا موصلًا إلى عذاب شديد لا طاقة لهم به ، كما حدث لهم يوم فتح مكة ، أو كما سوف يحدث لهم يوم القيامة ، إذا هم فيه مُتَحيِّرون آيسون من كل خير .

أما عذابهم يوم فتح مكة ، فهو عذاب اليأس والقنوط من الانتصار على محمد والقضاء على دينه ، واستسلامهم له أذلة صاغرين ، وأما عذابهم يوم القيامة فيكون لمن مات منهم على كفره قبل الفتح ، أو كتم كفره ونافق بالإيمان بعد الفتح .

وفى المعنى الثانى يقول الله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ »[١] ، ويقول : « لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ »[٢].

(وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(الْأَفْئِدَةَ) : القلوب ، مفردها فؤاد . (ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ) : خلقكم وبثكم فيها[٣] . (تُحْشَرُونَ) : تجمعون . (وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : ولأمر الله وتدبيره يرجع تعاقب

(١) سورة الروم ، الآية : ١٢ (٢) سورة الزخرف ، الآية : ٧٥
(٣) قال صاحب القاموس : ذرأ كجعل : خلق ، وذرأ الشىء : كثره ، ومنه : الذرية ـ مثلثة ـ لنسل الثقلين .

الليل والنهار ، من قولهم : فلان يختلف إلى فلان أى : يتردد عليه ، أو المراد باختلافهما تفاوتهما زيادة ونقصانًا ، وظلامًا وضياءً .

التفسير

٧٨ - ﴿ وَهُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ :

بعد أن بين الله إصرار أهل مكة على الكفر بعد ما تعاقبت عليهم الضراء والسراء ، وأنذرهم بسوء العاقبة حينما يَفتح عليهم بابًا ذا عذاب شديد - بعد أن بين الله ذلك - جاءت هذه الآية وما بعدها ، لتذكرهم بآيات الله ونعمه فيهم ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويتجنبون بالإيمان سوء مصيرهم .

والمعنى : والله هو الذى خلق لكم حينما أنشأكم - خلق لكم - حاسة السمع لتدركوا بها المسموعات من خير أو شر ، ضر أو نفع ، كما تدركون بها مختلف العلوم والمعارف فى أُمور دنياكم وأُخراكم ، وخلق لكم الأبصار ؛ لتسلكوا السبل على هداها ، وتنظروا بها الصديق والعدو والحسن والقبيح ، وتدركوا آيات الجمال والكمال فى كون الله ، وتتعرفوا ما يصلح من الأرزاق وما لا يصلح ، وتميزوا بها شتى الألوان والأحجام وغير ذلك من سائر المدركات عن طريقها ، مما لا يحيط به العادّون ، ولا يستقصيه الحاسبون ، وخلق لكم العقول ؛ لتحكموا بها على ما يصل إليكم عن طريق الأسماع والأبصار وسائر الحواس ، وتوازنوا بها بين المدركات وتسموا بها نفوسكم ناحية الخير ، وتبعدوها عن موارد الهلكة ، وتبسطوا بها سلطانكم على الأرض التى جعلكم الله خلفاء عليها وعلى ما فيها وما فوقها : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

والله تعالى يخرج الناس من بطون أُمهاتهم بحواسهم خالية من الإدراك ، ولكنها صالحة له ، حتى إذا ما تواردت عليها المدركات انتبهت إليها وتدرجت فى النمو شيئا فشيئا حتى تصل كل نفس إلى مستواها من الإدراك الذى شاءه الله لها ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »(١) ، لما كان السمع يسبق الأبصار فى الإدراك ، والأفئدة تتأخر فيه عنهما ، فلذلك جاءت مرتبة هكذا فى آيات القرآن العظيم(٢) .

ولقد ختم الله الآية هنا بقوله : « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » والخطاب هنا للكافرين . والقلة إما بمعنى العدم ، أى : لاتشكرون الله أصلًا ، أو بمعناها الحقيقى ، فهم إن شكروا الله فشكرهم له قليل بالنسبة لشكرهم لآلهتهم ، فهم فى معظم أحوالهم ينسبون إليها النصر والمطر والرزق والشفاء من الأمراض ، ولايذكرون الله إلا قليلا ، والمقصود من الشكر هنا : صرف تلك الحواس لما خلقت له ، وأهم ما خلقت له : العبادة الخالصة لله ، قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

وقيل : إن الخطاب فى الآية من أولها لآخرها موجه إلى الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ، والحكم بقلة شكرهم ، لأن الذين يشكرونه تعالى هم المؤمنون ، وهم فى الناس قليلون ، وما قلناه أولًا أظهر وأوفق بالسياق .

٧٩ - (وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

والله هو الذى خلقكم من نفس واحدة خلق منها زوجها ، وكثركم ونشركم فى الأرض بتناسلهما وذرياتهما لتعمروها وتكونوا فى عمارتها خلفاء عنه تعالى ، ولستم بمخلدين فيها ، بل تموتون حين تحين آجالكم ، وإليه لا إلى غيره تحشرون وتجمعون بعد أن يبعثكم أحياء من قبوركم ، ليحاسبكم ويجزيكم على أعمالكم : « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

٨٠ - (وَهُوَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

والله هو الذى يهب الحياة لكل كائن حى ، بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا ، ويسلبها منه حين يميته ، وتراه فى سلطانه على خلائقه « يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ »

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٧٨

(٢) علق المختصون من الأطباء بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية على آية (النحل) فى كتاب (المنتخب فى تفسير القرآن الكريم) بقولهم : أثبت الطب الحديث أن حاسة السمع تبدأ مبكرة جدا فى حياة الطفل فى الأسابيع القليلة الأولى ، وأما البصر فيبدأ فى الشهر الثالث ، ولا يتم تركيز الأبصار إلا بعد الشهر السادس : أما الإدراك بالفؤاد فلا يكون إلا بعد ذلك : انتهى بتصرف يسير .

وهذا شاهد على أنه تعالى كما بدأ الخلق يعيده ، مصداقًا لقوله تعالى : « كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »(١) .

وكما أنه يختص بالإحياء والإماتة ، فإنه تعالى يرجع إليه وحده التدبير فى اختلاف الليل والنهار .

والمراد باختلافهما : أن يجىء كلاهما خلف الآخر ، أو أن يتفاوتا طولًا وقصرًا ، نورًا وظلامًا ، وفى ضوء النهار تتحرك الكائنات الحية إلى معايشها وأرزاقها ، وفى الظلام تسكن وتستريح من سعيها ومتاعبها : « سُنَّةَ اللهِ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا » وختم الله الآية بقوله : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى : أترون هذه الآيات فلا تعقلون دلالتها على الخالق سبحانه ووجوب عبادته وحده لا شريك له ، وتصديق رسله والاهتداء بهديه ، والعمل ليوم البعث والنشور ؟ : « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى الْأَبْصَارِ »(٢) .

(بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾)

المفردات :

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أباطيلهم التى سطروها للتلهى بها ، جمع : أسطورة ، كأُحدوثة وأحاديث ، وأُعجوبة وأعاجيب ، وقيل : جمع أسطار جمع سَطْر ، فهى جمع جمع ، واختيار الزمخشرى الأول ، لأن جمع المفرد أولى من جمع الجمع وأقيس ، ولأن وزن أفعولة يأتى لما فيه التلهى ، فيكون القرآن - فى نظرهم الفاسد - مكتوبات لا طائل تحتها ، وإلى هذا الرأى ذهب المبرد وجماعة من أهل اللغة .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٤ (٢) سورة آل عمران ، من الآية : ١٣

التفسير

٨١، ٨٢ - (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَاقَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوٓا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة أنه تعالى هو الذى أنشأ للكافرين الحواس والأفئدة ، وهو الذى خلقهم وأنهم إليه راجعون للحساب والجزاء ، وأن الإحياء والإماتة من شأنه جل وعلا ، كما له اختلاف الليل والنهار ، وطلب إليهم عقب هذه الآيات أن يتدبروا ويتعقلوا بقوله : « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » وجاءت هاتان الآيتان ومابعدهما لتفيد أنهم لم يعقلوا ولم يتدبروا بل كفروا بالبعث مع وجود هذه البراهين .

والمعنى : لم يعقل هؤلاء المشركون تلك الآيات على إمكان البعث وقدرة الله عليه ، بل قالوا منكرين له مثل ما قاله الكفرة السابقون لرسلهم . قالوا : أئذا متنا وتحولت أجسادنا إلى تراب وعظام بالية نبعث إلى الحياة مرة أخرى ، ثم أعادوا الاستبعاد والاستنكار مرة أخرى فقالوا : أئنا لمبعوثون بعد هذا الفناء ، ثم أكدوا استبعادهم بما حكاه الله عنهم بقوله :

٨٣ - (لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

لقد وعدنا منك يا محمد بالبعث بعد الموت ، ووعد آباؤنا من رسلهم بمثله قبلك ، وما هذا البعث الموعود إلا أسطورة من أكاذيب الأولين نقلتها إلينا عنهم يا محمد ، ونحن نستبعد حصوله ونستنكره بعد أن يتحول المرتى إلى عظام نخرة ، وقد كانت عقيدتهم فى الحياة تتمثل فى قولهم : إن هى إلا أرحام تدفع وقبور تبلع وما يهلكنا إلا الدهر ، والواقع أنهم فى عقائدهم مضطربون ، فبينما هم يقولون ذلك يحكى الله عنهم إيمانهم بعظيم قدرة الله بقوله : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ »[١]. فإذا كانت عقيدتهم كذلك فى قدرة الله ، فكيف يستبعدون البعث وهو مشاهد لهم كل يوم فى إحياء النبات بعد يبسه ، وفى اليقظه بعد النوم .

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٦١

(قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ
لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ
بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم
بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾)

المفـردات :

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) : أصله تتذكرون فحذفت إحدى التاءين تخفيفا ، والتذكر : الاعتبار . (مَلَكُوتُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) : صيغة الملكوت للمبالغة فى الملك ، فالمراد به الملك العظيم الشامل . (وَهُوَ يُجِيرُ) : وهو يمنع ويحفظ من يشاء ممن يشاء .

(وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ) : ولا يستطيع أحد أن يمنع سواه من بطش الله .

(فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) : فكيف تصرفون عن الهدى .

التفسـير

٨٤ ـ (قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

قل ـ أيها الرسول ـ لهؤلاء المنكرين للبعث : من هو خالق الأرض ومالكها والمتصرف فيها وفيمن عليها ؟ إن كان لديكم شىء من العلم والعقل ، فأجيبونى عن هذا السؤال .

وأسلوب الآية ينم عن فرط الاستهانة بعقول هؤلاء المشركين ، حيث شكك الله فى وجودها لديهم ، بسبب أنهم لم يحسنوا استخدامها ، فجعلها فى حكم المشكوك فى وجودها بقوله « إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » .

٨٥ـ (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) :

أى : أنهم مع فرط جهالتهم ، وفقدان القدرة على القياس لديهم ، فإنهم سيجيبونك أيها الرسول بأن الأرض ومن فيها لله ، لأنهم لا يجحدون ذلك ، قل لهم حين يجيبونك بذلك : أتقولون هذا ، فلا تعتبرون بأن من فطرها وفطر من عليها ابتداء فهو قادر على إعادتها ثانيا ؟ فإن الإعادة أسهل من الابتداء فى قياس العقول .

٨٦ ، ٨٧ـ (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) :

قل ـ أيها الرسول ـ لهؤلاء الجاهلين : من هو مالك السموات السبع بجزئياتها وبمن عليها من كائنات لا يعلمها غيره ، ومن هو مالك العرش العظيم ؟ سيقولون فى إجابتهم : هى لله ، قل لهم : أتقولون ذلك فلا تتقون الله وأنتم تشركون وتنكرون البعث والنشور ، وهما أهون عليه من خلق السموات السبع وخلق العرش العظيم[1] ؟

٨٨ـ (قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

اليد هنا كناية عن القدرة والمعنى : قل لهم أيضا مبالغا فى التقرير والإنكار : من بقدرته ملك كل شىء وتدبيره ، وهو يمنع من يلوذ به ويحميه من المكاره ، ولا يستطيع أحد أن يجير ويحمى من أراده بسوء ؟ إن كنتم تعلمون الجواب عن هذا السؤال فأجيبونى ، ثم تولى الله الجواب عنهم ، لأنهم مقرون به ولا معدل لهم عنه فقال سبحانه :

٨٩ـ (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ) :

سيقول هؤلاء المشركون : الملك والملكوت لله ، والإجارة والحماية للمستجير لا تكون إلا لله دون سواه ، وإذا كان هذا ماسيقولونه جوابا عن سؤالك ، فكيف يُصْرفُون عن الرشد والهدى كالذين سُحِروا ففقدوا عقولهم ؟

---

(١) العرش فى اللغة : سرير الملك ، ويكنى به عن العز والسلطان ، وعلى الأول فهو كائن عظيم يحيط بالكون .

ويلاحظ أن السؤال الثانى : « مَن رَّبُّ السَّمَـٰوَاتِ السَّبْعِ . . . » والثالث : من بيده ملكوت كل شىء جوابهما (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) بلام الجر ، وكان الظاهر أن يكون الجواب (سيقولون الله) بغير لام مراعاة للسؤال[١] . فما وجه العدول عنه ؟

والجواب : أن كلا الأمرين جائز لغة ، فلو قيل : مَنْ صاحب هذه الدار فلك أن تجيب بقولك : (خالد) مثلا ، مراعاة للفظ السؤال المجرد عن اللام ، ولك أن تقول : (لخالد) باللام مراعاة للمعنى ، ومنه قول الشاعر :

إذا قيل من رب المزالف[٢] والقُرى ورب الجياد الجُرد[٣] قيل لخالد

٩٠ ـ (بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

فى هذه الآية إضراب إبطالى لإنكارهم البعث والتوحيد .

والمعنى : بل جئنا قريشا بالحق فى وحدانية المعبود والبعث من القبور ، وإنهم لكاذبون فى شركهم وإنكارهم لهما « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ »[٤]

(مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾)

المفردات :

(لَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) أى : لغلب بعضهم بعضا .

(١) فإن السؤال مجرد عن اللام فيهما حيث لم يقل فيه : لمن السموات السبع ، ولا (لمن ملكوت كل شىء) .
(٢) جمع مزلفة ، وهى القرية تكون بين البر والريف .
(٣) الجرد : جمع أجرد ، وهو الجواد الذى يسبق غيره .
(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٢٢٧

(سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) : تنزيها له تعالى عما يلحقونه به من الولد والشريك . (الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) : المراد بهما : ما غاب عن خلقه وما أبصروه . (فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) : فتنزه عن إشراكهم .

التفسير

٩١ - (مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

والمعنى : ما اتخذ الله لنفسه من ولد ، لتنزهه عن الاحتياج إليه ليعينه أو يرثه من بعده كما هو الشأن فى الولد ، فهو القادر الذى يقول للشيء : كن ، فيكون ، وهو الباق الذى لايفنى ولا يبيد « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »[١] .

وكما أنه تعالى لم يتخذ ولدا فإنه لم يكن معه من إله حين أبدع ملكوته ، ولا يصح عقلا أن يكون له فيه شريك كما زعم الزاعمون ، فلو اشترك معه فى الخلق غيره ، لا ستقل كل إله بما خلقه ، إن فرض استقلاله بخلقه ، ولغالب بعضهم بعضا حتى يغلب قويهم ضعيفهم ويستقل بالكون وحده ، إن فرض اشتراكهم فى الكون تعاونيا ، أو كان لكل منهم ناحية خلقها ، وبما أننا نرى الكون وحدة متكاملة محكمة الصنع ، فلا بدأن يكون مبدعه إلها عظيماً واحداً فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فإن التعدد فى الإله يؤدى إلى التنافس والتغالب وينتهى إلى الفساد ، كما قال سبحانه : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا »[٢] ولهذا ختم الله الآية بقوله : « سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » أى : تنزيها كاملا لله عما يزعمونه له من الولد والشريك .

٩٢ - (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

أى : أنه تعالى كما تنزه عن الولد وعن الشريك فى خلق هذا الكون وتدبيره ، فهو عالم بكل ما خفى وغاب عن العيون والعقول ، وعالم بكل ما هو مشاهد ومرئى لأولى الأبصار « وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ »[٣] وإذا كان

(١) سورة الرحمن ، الآيتان . ٢٦ ، ٢٧
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٥٩

أمر الإله عظيمًا هكذا فتعالى الله وتنزه عما يشركون معه من آلهة لا حول لها ولا قوة ، ولا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرا ، ولا تعلم عن نفسها أو غيرها حاضرًا ولا غائبا .

(قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾)

المفردات :

(إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ) : إن كان لابد من أن تريني مايوعدونه من العذاب ، والأصل إن تُريني ، فزيدت ما وأدغمت فى (إن) فصارت : إمَّا ، وأكد الفعل (تُرِيَنِّي) بنون التوكيد بعد إمَّا ، فأصبح الفعل مؤكدًا بلفظ (ما) المدغمة فى (إن) وبنون التوكيد ، وبهذا يعلم أن (ما) فى لفظ (إمَّا) ليست للنفى بل للتوكيد . (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ) أى : ادفع أثر السيئة بالخصلة التى هى أحسن ، وسيأتى شرح ذلك .

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) : نحن أعلم بالذى يصفونك به ، أو بوصفهم إياك بما ليس فيك[1] . (أَعُوذُ بِكَ) : ألوذ وأعتصم بك .

(مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ) : جمع همزة ، والهمز : النخس والدفع بيد أو غيرها ، ومنه المهماز فى رِجْل مَنْ يركب الدابة ، ينخسها به لتسرع ، والمراد بهمزات الشياطين وساوسهم ؛ فإنها تدفع إلى المعاصى .

---

(١) وبهذا التفسير علم أن لفظ (ما) فى قوله تعالى (بما يصفون) إما موصولة أو مصدرية .

التفسير

٩٣ ، ٩٤ - (قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

ظاهر الآيتين يدل على أن الله تعالى كان قد أخبر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بعذاب يصيب قومه إن أصروا على كفرهم ، ولم يخبره بوقت نزوله ، فلهذا طلب نجاته منه إن حصل لهم فى حياته ، وهكذا فَهِمَ الْحَسَنُ ، فقد روى أنه قال : أخبر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- بأن له فى أمته نِقْمَةً ، ولم يطلعه على وقتها ، أهو فى حياته أم بعدها ، فأمره بهذا الدعاء :

والمعنى : وقل -أيها النبى- : يارب إن كان لابد أن ترينى ما أوعدت قومى به من العذاب المستأصل إن بقوا على كفرهم ، يارب فلا تجعلنى بين هؤلاء الظالمين حين ينزل بهم عقابك .

ونداء النبى لله بوصف الربوبية ، للإيذان بأنه تعالى هو المالك الناظر فى مصالح العباد ، الذى يُلْجَأُ إليه فى دفع الملمات ، وتكليفه -صلى الله عليه وسلم- بأن يدعو ربه بذلك ، مع أنه -صلى الله عليه وسلم- بمنجاة من مثل ذلك العذاب العظيم إن نزل ، للإيذان بفظاعة العذاب الموعود ، وكونه بحيث يستعيذ منه من لا يكاد يمكن أن ينزل به ، وهو متضمن تأكيد وقوع العذاب الموعود الذى أنكروه وسخروا منه واستعجلوه . وهذا الوعد مشروط ببقائهم على كفرهم .

وقيل : إنه -صلى الله عليه وسلم- أمر بذلك هضمًا لنفسه وإظهارًا لكمال العبودية ، أو لأن شؤم الكفرة قد يحيق بغيرهم ، كما قال تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً » والتعبير بقوله : « فَلَا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » بدلًا من أن يقول : فلا تجعلنى فيهم ، للإيذان بأن ظلمهم هو السبب فى وعيدهم بالعذاب ، وتكرار لفظ (رب) لمزيد الضراعة والاستنجاد بمن بيده الأمر كله .

٩٥ - (وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ) :

أى : وإنا على تمكينك من رؤية عذابهم الموعود لقادرون ، كما قدرنا على مثله فيمن سبقهم من المعاندين لرسلهم .

وهذه الآية تشير إلى أن التعجيل بالعذاب ليس من الحكمة التى تقترن بها أفعال الله تعالى فلقد علم سبحانه أزلًا أن معظمهم سوف يؤمن ، فلهذا تأنى بهم ولم يتعجل بعقوبتهم .

والظاهر أن هذه الآية واللتين قبلها نزلتا قبل أن يخبر الله تعالى نبيه بقوله : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »[1] .

٩٦ـ (ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) :

أى : قابل السيئة التى تأتيك من قومك وامنع أثرها عن نفسك بالخصلة التى هى أحسن من مقابلة السيئة بمثلها ، والدفع بالتى هى أحسن على ثلاث درجات ، أدناها أن تصفح عن سيئته ، وفوقها أن تحسن إليه إحسانًا ما ، وأعلاها أن تجزل الإحسان إليه .

وأَمْرُ الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك توكيدٌ لما هو ملتزم به من هذا الخلق الكريم مع المؤمنين فقد كان يقابل السيئة بالحسنة ، وكان يقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

والخطاب فى الآية وإن كان موجهًا إلى الرسول حسبما يؤذن به السياق ، فإن الحكم فيه يعم كل مسلم ، فينبغى أن لا يقابل السيئة بمثلها ، حتى لا يتمادى المسئ فى إساءته ، فيعظم البلاء وتحدث الفتن ، فإن معظم النار من أعظم الشرر ، وفى عموم معناها أخرج ابن أبى حاتم وأبو نعيم فى الحلية عن أنس أنه قال : (يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه فيقول : إن كنت كاذبًا فأنا أسأل الله أن يغفر لك ، وإن كنت صادقًا فأنا أسأل الله أن يغفر لى) والدفع المذكور مطلوب ما لم يؤد إلى ثلم الدين أو خدش المروءة .

وفى ختام الآية يقول سبحانه : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ » أى : نحن أكثر علما منك بما يصفونك به فى السر والعلانية ، من الأوصاف التى يُكَذِّبُهَا ما أنت عليه من الكمال الخلقى والصدق فى تبليغهم أحكام ربهم ، وفى هذه الجملة وعيد لهؤلاء المتقولين على الرسول بالعقوبة ، وتسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإرشاد له إلى تفويض الأمر له عز وجل ، والآية من قبيل الموادعة والمهادنة ، حتى يشتد جانب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فيقاتلهم حتى يهتدوا إلى سواء السبيل .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٣

٩٧، ٩٨ - ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ :

بعد أن أمر الله نبيه بدفع السيئة بالحسنة ، أمره أن يعوذ به من وساوس الشياطين ، ليكون ذلك معينًا له على دفع السيئة بالحسنة ، ونحن فى كلا الأمرين مكلفون بالعمل بما أمر الله به رسوله فيهما .

والاستعاذة بالله والاعتصام به من الشياطين أمر ينبغى الحرص عليه عند الشروع فى كل عمل صالح للفرد أو للمجتمع ، فإن الشياطين من الجن والإنس أعداءٌ للخير ، فهم لذلك يحرصون على الصد عنه بوساوسهم وإغراءاتهم المضللة للنفس البشرية ، فهم يزينون لها الباطل ، وينفرونها من الحق بأساليب مزوقة وملفقة قد تخفى على التقى الورع ، ولا عاصم من خداعهم إلّا الله رب العالمين ، فلهذا أمرنا سبحانه بالاستعاذة به من وساوسهم .

والمعنى : وقل - أيها المسلم - عند الشروع فى أمر نافع لك أو لمجتمعك : يارب أعوذ بك وأعتصم بربوبيتك من وساوس الشياطين الصارفة عن البر والخير ، وأعوذ بك وأعتصم بحمايتك من حضورهم حولى فى أى حال من أحوالى الدنيوية أو الأخروية ، لأسلم من شرورهم ومغرياتهم الكاذبة : « فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »(١) .

ومِنْ أجدر الأحوال بالاستعاذة بالله من الشياطين حالُ الصلاة وقراءة القرآن وحلول الأجل ، وعند النوم ، لأنهم ينشطون فيها أكثر من سواها .

وفى الاستعاذة عند النوم : أخرج الإمام أحمد بسنده عن جَدِّ عَمْرو بن شعيب قال : « كان رسول الله - صلى الله عليه سلم - يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم - من الفزع - : بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » ورواه كذلك أبو داود والنسائى والترمذى وحسنه .

وفى الأمر بالتعوذ من حضور الشياطين بعد الأمر بالتعوذ من همزاتهم مبالغة فى التحذير من ملابستهم .

(١) سورة يوسف ، من الآية : ٦٤

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾
لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ
وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

المفردات :

(فِيمَا تَرَكْتُ) : فى دنياى التى تركتها أو فى مالى أو فى إيمانى . (كَلَّا) : كلمة تستعمل للردع والزجر . (وَمِن وَرَآئِهِمْ) أى : أمامهم ، ومثله قوله تعالى : « وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ » أى : أمامهم ، وقد يستعمل بمعنى الخلف ، فهو كما قال صاحب المختار : من الأضداد ، ويبنى على الضم إذا لم تضفه ، كقولك : جئتك من وراءُ ، كقولك : من قبلُ ومن بعدُ[١] (بَرْزَخٌ) : حاجز .

التفسير

٩٩ ، ١٠٠ - (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) :

(حَتَّى) هنا ابتدائية ، وما بعدها غاية لما قبلها ، ولهذا يقول النحاة عنها : إنها لابتداءِ الغاية ، وقد مضى أن المشركين أنكروا البعث وتوحيد الله حتى قالوا فيهما : أساطير الأولين ، ثم احتج الله عليهم وذكرهم قدرته على كل شىء ، وأنه : « لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » وأمر نبيه أن يستعيذ به من عذابهم الموعود على كفرهم ، وطلب إليه أن يدفع سيئتهم بالحسنة ، وجاءت هذه الآية لتبين أن من أَصرَّ منهم على الكفر حتى يحضره الموت ، طلب الرجوع إلى الحياة ليصلح ما أفسده .

(١) انظر المختار .

والمعنى : أن المشركين لا يزدادون بالوعظ والتذكير إلا إصرارًا على الكفر حتى إذا جاء أحدهم الموت تيقن ضلاله حين يرى الملائكة تقبض روحه بعنف وشدة وأدرك حينئذ سوء عاقبته ، فيقول فيما بينه وبين الله تعالى : « رَبِّ ارْجِعُونِ » ثانية إلى الحياة الدنيا لكى أعمل صالحًا فى دنياى التى تركتها وليس لى فيها عمل صالح ينفعنى فى أخراى ، فيقال له : كلا لا سبيل لك إلى الرجوع إليها بعد أن حانت منيتك ، ثم يقول الله مؤكدًا تمنيه الرجوع إلى الدنيا ، واستحالة رجوعه بقوله : « إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى : إن قوله : « رَبِّ ارْجِعُونِ » كلمة هو قائلها لا محالة حين يعاين الموت وسوء المنقلب ، لاستيلاء الحسرة والندم عليه ، وأمامهم حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا حيث يبقون فى قبورهم إلى يوم القيامة ، حين يبعثون منها للحساب والجزاء ، والمقصود من حضور الموت حضور أماراته ، ومنها حضور الملائكة لقبض روحه بشدة كما قال تعالى فى وصف هذه الحالة : « وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ »[1] . وكلامهم مع الله بصيغة الجمع فى قولهم : (رَبِّ ارْجِعُونِ) للتعظيم ، وهو أسلوب المسترحمين كما قال الشاعر :

فقلت ارحمونى يا إله محمد فإن لم أكن أهلا فأنت له أهل

ولفظ (لعل) يستعمل للتعليل وللرجاء ، وكلاهما تصح إرادته فى قول الكافر المحتضر (لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ) أى : لكى أعمل صالحًا ، أو رجاء أن أعمل صالحًا ، والمراد من البرزخ هنا : الحاجز ، وهو إرادة الله أن لا عودة للحياة إلا يوم القيامة ، ثم بين الله أحوال القيامة فقال :

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٥٠

(فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا
يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ
تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾)

المفردات :

(الصُّورِ) : يطلق على البوق فيكون مفردًا ، ويطلق على الصُّوَر - بفتح الواو - فيكون جمعًا لصورة ، مثل بُسْر وبُسْرَة ، وسيأتى مزيد بيان لذلك فى التفسير .

(فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ) : أى فلا تنفعهم الأنساب وهى القرابات .

(وَلَا يَتَسَآءَلُونَ) : ولا يسأل بعضهم بعضًا عن حاله .

(فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ) : أى فمن رجحت موزوناته من الأعمال الصالحة .

(تَلْفَحُ) : تحرق . (كَالِحُونَ) : شفاهُهُم متقلصة عن أسنانهم .

التفسير

١٠١ - (فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ) :

المراد من النفخ فى الصور هنا النفخة الثانية التى يبعث عندها الخلائق للحساب والجزاء ، والصور : إما البوق ، والنافخ فيه إسرافيل عليه السلام ، وإما الأجساد جمع صورة كبُسْر جمع بسرة ، والنفخ فيها كناية عن إطلاق الأرواح لتلحق بأجسادها ، ويؤيد المعنى الثانى قراءة ابن عباس وغيره (فِى الصُّوَر) بواو مفتوحة ، وهى بلا شك جمع صُورَة ، والتوفيق

بين القراءتين بهذا المعنى أولى من حمله على البوق ، قال الآلوسى : ولا تنافى بين النفخ فى الصور بمعنى القرْنِ الذى جاء به الخبر ودلت عليه آيات أُخَر ، وبين النفخ فى الصُّوَر جمع صورة ، فقد جاء أن هذا النفخ عند ذاك : اهـ

ومعنى الآية : فإذا نفخ فى صُوَر الخلائق ، بأن أُلحقت كل روح بجسدها عند قيام الساعة ، فبعث الخلائق وحشروا من قبورهم إلى ساحة القضاء الإلٰهى ، ليقضى لهم أو عليهم تبعًا لعقائدهم وأعمالهم ، فلا تنفعهم قراباتهم حينئذ كما كانت تنفعهم فى دنياهم ، ففى ذلك اليوم : « يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »(١)

وحكى عن الجُبَّائى : أن المراد من الآية أنه لايفتخر يومئذ بالأنساب كما يفتخر بها فى الدنيا ، وإنما يفتخر هناك بالأعمال والنجاة من الأهوال(٢) ، وكما أنهم لاتنفعهم أنسابهم ولايفتخرون بها ، فكذلك هم لايتساءلون عن أحوالهم ، فلا ترى أحدًا منهم يهتم بغيره فيسأله عن حاله ، لأن حال كل منهم واضح لغيره ، ولأن الخطب جسيم يشغل كل امرئ عن سواه ، وقد صور الله هول ذلك اليوم أوضح تصوير بقوله فى صدر سورة الحج : « يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ » .

فإن قيل : إنه جاء فى القرآن أن الكفار يتساءلون يوم القيامة ، كما جاء عنهم فى سورة الصافات فى قوله سبحانه وتعالى : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ »(٣) والجواب : أنهم لايتساءلون فى بعض المواطن ، ويتساءلون فى بعض آخر ولعله عند جهنم ، وقد يقال : إن المنفى هنا هو سؤال التعارف ونحوه ، مما عليه دفع مضرة أو جلب منفعة ، أما المثبت فهو تساؤلهم

(١) سورة عبس ، الآيات : ٢٤ - ٢٧
(٢) نقله الآلوسى عنه ، وأصله لابن عباس : انظر القرطبى .
(٣) الآيات : ٢٢ - ٢٧

مع خصمائهم الذين دفعوهم إلى الكفر ، وقد بينه الله تعالى بقوله : « قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ . قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ . . . » الآيات[1] .

ثم بين الله دستوره فى القضاء بين عباده يوم القيامة فقال :

١٠٢ – (فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ[2] فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

أى : فمن رجحت أعماله القلبية والظاهرة ، وكان لها وزن وقدر عند الله تعالى ، بأن كانت عقيدته صالحة ، وأعماله مستقيمة ، فأُولئك هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مرهوب .

١٠٣ –(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) :

ومن لم يكن لعقائده وأعماله وزن من الكفار ، فهؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم وضيعوها بكفرهم ، فهم بسبب ذلك خالدون فى جهنم لا يبرحونها أبدًا ، وفى مثل معنى الآية يقول سبحانه : « أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا »[3] .

١٠٤ – (تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ) :

تحرق النار وجوههم ، وهم فيها متقلصو الشفاه عن الأسنان ، من أثر احتراق الوجوه ، وتخصيص الوجوه بالذكر مع أن العذاب بالنار عام لأجسادهم ، لأنها أشرف الأعضاء ، فبيان سوء حالها أدل على بيان سوء سواها ، وأزجر عن المعاصى المؤدية إلى النار .

١٠٥ – (أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) :

يقال لهم حينما يعذبون بالنار – يقال لهم – على سبيل التوبيخ والتحسير : ألم تكن آياتى يتلوها عليكم رسولى فى دنياكم ، فكنتم بها تكذبون فور تبليغها إليكم ، من غير تدبر فى عاقبة تكذيبكم ؟.

---

(١) سورة الصافات ، الآيات من : ٢٨ – ٣٠

(٢) موازين : جمع موزون ، والمراد بها أعمال العبد .

(٣) سورة الكهف ، الآية : ١٠٥

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾
رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا
فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾
إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

المفردات :

(شِقْوَتُنَا) : الشقوة والشقاوة ؛ ضد السعادة ، والمراد أسبابها من الأهواء وسوء الاختيار .

(اخْسَئُوا فِيهَا) : أى انزجروا واسكتوا عن هذا المطلب سكوت ذلة وهوان وقنوط

(سِخْرِيًّا) : السِّخْرىّ والسُّخرية ؛ الاستهزاء .

التفسير

١٠٦ ـ (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ) :

فى الآية السابقة يوبخ الله أهل النار على تكذيبهم بآياته ، ويلومهم على تسببهم بذلك فيما هم فيه تحسيرًا لهم ، وفى هذه الآية يحكى الله جوابهم الذى سوف يجيبون به ربهم ، وعُبِّر عنه بصيغة الماضى لتحقق وقوعه .

والمعنى : قال الكفار مجيبين الله تعالى : يا ربنا غلبت علينا أهواؤنا ونزعاتنا وسوء اختيارنا ، وسوءُ الظن برسلنا فكذبنا بآياتك فى دنيانا ، فشقينا بذلك فى أخرانا ، وكنا بما فعلناه قومًا ضالين عن سبيل السعادة التى حصل عليها المؤمنون ، ثم تمنوا العودة إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدوا فقالوا :

١٠٧ - (رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ) :

ربنا أخرجنا من النار وارجعنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى تكذيب آياتك والكفر برسلك وارتكاب المعاصى فإنا متجاوزون الحد فى الظلم .

١٠٨ - (قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) :

قال الله إقناطًا لهم وإذلالًا : انزجروا فى النار مطرودين من رحمتنا طرد الكلاب ، ولا تكلمون بعد فى شأن خروجكم منها ، فأنتم فيها خالدون .

وقد جاء فى الأثر أنهم بعد أن يقول الله لهم ذلك لاينبسون بكلمة ، وما هو إلا الزفير والشهيق فى نار جهنم ، ثم عقب الله زجرهم عن الكلام ببيان سببه بقوله :

١٠٩ - (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) :

هذه الآية مستأنفة لتعليل نهيهم عن التماسهم الرجعة إلى الدنيا .

والمعنى : اسكتوا عن دعائى ملتمسين الرجعة إلى الدنيا ، لأنه كان جماعة من عبادى المؤمنين يقولون : ربنا آمنا بما أنزلته على رسلك ، فاغفر لنا سيئاتنا ، وارحمنا بغفرانك وحسن ثوابك؛ فأنت أرحم الراحمين وخيرهم أجمعين ، فلم يرضكم ذلك منهم .

١١٠ - (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ) :

أى : أنكم لم تكتفوا بكفركم ، فاتخذتم هؤلاء المؤمنين المستغفرين المسترحمين هدفًا لسخريتكم ، تشفيًا منهم واستهزاءً بهم ، وواظبتم على ذلك حتى أنسوكم تذكرى والتخوف من عقابى ؛ فاشتغلتم بإهانتهم عن النظر فى عاقبتها وسوء جزائها عندى ، وكنتم منهم تضحكون مبالغة فى السخرية بهم .

١١١ - (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ) :

فى هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى أجر المؤمنين الصابرين ، وانتقامهم بإيذاء الكافرين لهم .

والمعنى : إنى جزيت المؤمنين اليوم فى الآخرة ، بسبب صبرهم على إيذاء الكافرين وسخريتهم – جزيتُهم – بأَنهم هم الفائزون بنعيم الجنة دون المستهزئين ، الذين أذللتهم فى نار الجحيم ، ولنعم عقبى الصابرين .

وقد بين الله فى سورة المطففين ، أَن المؤمنين يثأَرون لأَنفسهم فى الجنة ، فقال سبحانه : « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »[1] :

أَى : هل جوزى الكفار على استهزائهم بالمؤمنين فى الدنيا ، بِضحِك المؤمنين استهزاءً بهم وهم على الأَرائك فى الجنة ينظرونهم يتقلبون فى نار جهنم .

(قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾)

المفردات :

(إن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا) : ما لبثم فى الأَرض إِلَّا زمنًا قليلًا .

(عَبَثًا) العبث : ما لافائدة فيه أَصلًا ، أَوْ له فائدة لايعتد بها .

التفسير

١١٢ – (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ) :

هذه الآية تحكى أَن الله تعالى يسأَل أَهل النار عما لبثوه فى الدنيا ، بعد أَن طلبوا منه العودة إِليها ليصلحوا ما أَفسدوه ، وأَنه زجرهم عن هذا الطلب ونهاهم عن الكلام فيه ، فقد فات أَوان العمل وحان وقت الجزاء ، والسؤال موجه من الله إِلى أَهل النار ، إِما مباشرة ، وإِمَّا على لسان ملك كلفه الله به .

(١) الآيات : ٣٤ – ٣٦

والمقصود منه : توبيخهم على طول أملهم فى الدنيا ، واغترارهم بنعيمها وهم فيها ، مع أنها إلى زوال ، واللبث فيها قليل ، وتحسيرُهم وتنديمُهمْ على كفرهم بالآخرة ، مع أنها - دار الخلود .

والمعنى : قال الله للكافرين : كم عدد السنين التى لبثتموها فى الأرض ، واغتررتم بنعيمها وتوهمتم البقاء فيها وعدم العودة إلينا لحسابكم وجزائكم على ما كان منكم ؟ ولما كانت مواعيد الرسل لهم بالآخرة وبقائها قد تحققت لهم معاينة بعد البعث ، فقد عرفوا أن لبثهم فى الدنيا كان قليلًا بالنسبة إليه فى الآخرة ، فلهذا أجابوا ربهم قائلين :

١١٣ - (لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَآدِّينَ) :

أى : لبثنا زمنًا قليلًا نَتَخَيَّلُه يومًا واحدًا أو بعض يوم ، فاسأل القادرين على العدّ من الملائكة الحاسبين لأعمال العباد وأعمارهم ، فهم أعلم منا بذلك ، وأقدر منا على الإجابة ، فلقد دهتنا الدواهى التى نراها فى الآخرة ، فأنستنا الزمن الذى مكثناه فى نعيم الدنيا ، وأصبحنا لا نراه أكثر من يوم أو بعض يوم ، بالنسبة لما نحن مقبلون عليه من خلود فى شقاءٍ وعذاب ، ولقد صدقهم الله فيما أجابوا به عن قلة مكثهم فى الدنيا فيما حكاه بقوله :

١١٤ - (قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)[1] :

قال الله ردًّا على أهل النار : ما لبثتم فى الدنيا ونعيمها إلّا زمنًا قليلًا كما قلتم اليوم ، لو أنكم فى دنياكم كنتم من أهل العلم والتَّدَبُّر ، لأدركتم فيها ما أدركتموه اليوم ، من أن زمن الدنيا قصير ونهايته قريبة ، وزمن الآخرة طويل بغير نهاية ، ولعملتم بمقتضى هذا العلم ، ولم يصدر منكم ما أوجب خلودكم فى النار .

أخرج ابن أبى حاتم بسنده إلى رسول الله - صلى‌الله‌عليه‌وسلم - أنه قال : « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال : يا أهل الجنة ، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يومًا أو بعض يوم ، قال : لَنِعْمَ ما أنجزتم فى يوم أو بعض يوم ،

(١) فى مثل معنى هذه الآية فى استقلالهم لمدة لبثهم فى الدنيا ، قوله تعالى فى آخر سورة النازعات : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاعشية أو ضحاها » .

رحمتى ورضوانى وجنتى امكثوا فيها خالدين مخلدين ، ثم يقول : يا أهل النار ، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يومًا أو بعض يوم ، فيقول : بئس ما أنجزتم فى يوم أو بعض يوم ، نارى وسخطى ، امكثوا فيها خالدين مخلدين » .

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾
فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾
وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ
عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾)

المفردات :

(فَتَعَالَى اللهُ) : ترفَّع الله بذاته وتنزه . (الْمَلِكُ الْحَقُّ) : المالك الثابت الملك دون سواه . (الْعَرْشِ) العرش فى اللغة : سرير الملك ، ويكنى به عن العز والسلطان ، وعلى الأول فهو كائن عظيم يحيط بالكون ، وتصدر من جهته أوامر الله تعالى إلى ملائكته ، دون أن يكون الله فيه لاستحالة أن يكون لله مكان ، انظر تفسيرنا لقوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » فى سورة الأعراف . (الْكَرِيمِ) : الشريف .

التفسير

١١٥ - (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية من تمام ردّ الله على أهل النار ، والمعنى : أجهلتم فظننتم أنما خلقناكم عبثا دون حكمة فى خلقكم ، فلم تفكروا فى خالقكم ، ولا فى حكمة خلقكم ، ولا فيما يكون بعد موتكم ، فلهذا أشركتم بنا وكذبتم برسلنا ، واعتقدتم أنكم لا تبعثون بعد الموت لترجعوا إلى حسابنا وجزائنا ، كلا ليس الأمر كما زعمتم ، فإن خلقكم عبثا لا يليق بربوبيتنا .

١١٦ - (فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) .

أى : فتنزه الله بذاته عن خُلُوِّ أفعاله عن الحكم والمصالح الحميدة ، فهو الملك الحق الثابت له الملك عن جدارة واستحقاق ، الواحد الذى لا معبود بحق إلا هو مالك العرش العظيم فى مكانته وشرفه ، ومن كان كذلك فلا يصح عقلا أن يخلقكم عبثا ، ولا أنكم إليه لا ترجعون للحساب والجزاء كما زعمتم .

والمراد من وصف العرش بالكريم أنه عظيم الشرف ، وكل ما شرف وعظم فى بابه يوصف بالكريم ، ومنه قوله تعالى : « كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ »(١) وقوله : « وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا »(٢)

١١٧ - (وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) :

بين الله تعالى فى الآية السابقة أنه سبحانه هو الملك الحق دون سواه فكل الملوك عبيده المسخَّرون منه لخدمة شعوبهم ، ولا مُلْكَ لهم فى الحقيقة فيما مكَّنهم الله منه ، كما بين أنه لا معبود بحق سواه ، وأنه رب العرش العظيم ، ومن هذا شأنه فلا يصح أن يعبد سواه وجاءت هذه الآية لتؤكد ما أفادته التى قبلها ضِمْنًا من فساد عبادة سواه ، ولتبين سوء عاقبة من يعبد غيره تعالى .

والمعنى : من يعبد مخلوقا من مخلوقات الله يزعمه إلَها آخر ، لا يمكن أن يكون له أى دليل على ربوبيته وصحة عبادته - من يعبده مع الله أو يفرده بالعبادة - فما حسابه وعقابه الشديد إلا عند الله ربه وخالقه ومالكه ، إنه لا يفوز ولا ينجو من عقابه الكافرون العابدون لسواه ، أو المشركون له مع الله .

نقل الإمام ابن كثير عن قتادة قال : ذُكِرَ لنا أن نبى الله - صلى الله عليه وسلم - قال لرجل : ما تعبد ؟ قال : أعبد الله وكذا وكذا - حتى عَدَّ أصناما ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) سورة الدخان ، الآيتان : ٢٥ ، ٢٦

(٢) سورة الإسراء ، من الآية : ٢٣

فأيُّهم إذا أصابك ضُرٌّ فدعوته كشفه عنك ، قال : اللهُ عز وجل ، قال : فأيّهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟ قال : الله عز وجل ، قال : فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه؟ قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (تعلمون ولا يعلمون) قال الرجل بعد ما أسلم : (لقيت رجُلا خَصَمَنى)[1] أى : غلبنى فى الخصومة والمقصود من قوله - صلى الله عليه وسلم - (تعلمون ولا يعلمون) أن هذه المعبودات لا عقل لها ولا علم وأنتم أيها العابدون أفضل منها بالعقل والعلم ، فكيف تعبدون مَنْ دونكم .

١١٨ - (وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) :

الأمر هنا موجه إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وإلى أُمته تبعًا له ، فهو إمامهم ، وطَلَبُ النبى - صلى الله عليه وسلم - الغفران من ربه لنفسه ، إنما هو من باب هضم النفس ، واتهامها بالتقصير فى الطاعة مع الله ، وليس المقصود أن يغفر له ذنبًا حدث منه ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - معصوم من الذنوب .

والمعنى : وقل - أيها النبى أنت وأُمتك - : يارب اغفر لنا تقصيرنا فى طاعتك ، واشملنا برحمتك الدنيوية والأُخروية ، وأنت خير الراحمين ، لأَن رحمتك وسعت كل شىء .

وقد علَّم النبى - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - أن يقول نحوه فى صلاته ، فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى بكر - رضى الله عنه - أنه قال : يا رسول الله علمنى دعاءً أدعو به فى صلاتى ؟ قال : « قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا ، وإنه لايغفر الذنوب إلَّا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » .

(١) انظر تفسير ابن كثير آخر سورة (المؤمنون)

سـورة النور

هذه السورة مدنية ، وحكى أبو حيان الإجماع على ذلك ، وآياتها أربع وستون ، وجاءت تالية لسورة (المؤمنون) لتشرح ماينبغى أن يكونوا عليه من الآداب الإسلامية الفاضلة ، ولأنه لما ذكر فى سورة (المؤمنون) أن حفظ الفروج من مميزاتهم وصفاتهم الأساسية ، وأنها من أسباب فلاحهم فى الدارين ، ناسب أن تكون السورة التى تليها متضمنة أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزانى ، وما يتصل بذلك من أحكام القذف للأعراض البريئة ، ووجوب غضّ البصر الذى هو داعية الزنى ، ووجوب الاستئذان صيانة لكرامة البيوت وأعراض أهلها ، والأمر بالنكاح حفظا للفروج ، والنهى عن إكراه الفتيات على الزنى ، إلى غير ذلك من الآداب ، وبما أن سورة النور تضمنتْها ، فكانت لذلك جديرة بأن تكون تالية لها .

ما جاء فى فضلها :

رُوِى عن مجاهد أنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « علموا رجالكم سورة المائدة ، وعلموا نساءكم سورة النور » وعن حارثة بن مَضْرِب قال : (كتب إلينا عمر ابن الخطاب – رضى الله عنه – أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور) .

مقاصـدها :

تضمنت هذه السورة وجوب جلد الزانية والزانى وأن لا تأخذنابهما رأفة ؛ حماية لأعراض المسلمين ، وأن رمى المحصنات بالزنى يقتضى الجلد ثمانين جلدة ، وأن لا تقبل لمن يرميهن شهادة أبدا وأن يظلوا متصفين بالفسق ، ما لم يأتوا على دعواهم بأربعة شهداء عدول على واقعة الزنى التى ادعوها ، كما تضمنت أن الذى يرمى زوجته بالزنى ، ولا يجد شهوداً أربعة ، يتخلص باللعان من حد قذفها ، فإذا لاعن عُوقبت[1] زوجتُهُ على زناها ، ويَدْرَأ عنها العقاب أن تلاعن بعد لعانه .

(١) سيأتى الكلام على عقابها فى موضعه .

وتحدثت عن قصة الإفك التى زعمها المنافقون فى حق أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - وبينت أنها بريئة مما زعمه الآفكون فى حقها ، وأنهم عند الله هم الكاذبون ، وأن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، وأن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، وجاء فيها : (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ للطَّيِّبَاتِ) ونهت عن دخول الإنسان بيتاً غير بيته حتى يستأذن ويسلم على أهله ، فإن لم يجد فيه أحداً يستأذنه فلا يدخله ، وأن عليه أن يرجع إن لم يؤذن له بالدخول .

وأمرت المؤمنين والمؤمنات أن يغضوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، وحثت المؤمنات على إخفاء زينتهن إلّا ما ظهر منها ، وأجازت إظهارها للأزواج ولأصناف تؤمَن مَغبتُهم كالآباء والإخوة وآباء الأزواج ، والأطفال غير المميزين ، ونهت عن ضربهن الأرض بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن كالخلخال ، وحثت على إنكاح الأيامى والصالحين من العبيد والإماء ، حماية لأخلاقهم ، وأمرت من لا يستطيع نفقات الزواج بالاستعفاف حتى يغنيه الله من فضله ، وحثت على مكاتبة الأرقاء ، ومساعدتهم بالمال ليتحرروا من الرق ، كما نهت عن إكراه الفتيات على البغاء ، وبينت أنه تعالى نور السموات والأرض ، فهو الذى خلقهما وخلق النور فيهما ، ومثلت نور آياته وبراهين هدايته فى قلوب المؤمنين بمشكاة وُضعَ فيها مصباح ، أى : سراج منير ، وهذا السراج فى قنديل من الزجاج الصافى الأزهر ، كأنه كوكب مضئ متلألئ ، ثم قال الله سبحانه : « يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ » من عباده ، فيوفقه إلى إصابة الحق : « وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ » تقريباً لأفهامهم : « وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » .

وبينت أن لله تعالى بيوتًا ومعابد : « أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَاةِ » وأنه سيجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، وأن أعمال البر من الكفار لا تنجيهم من النار بسبب كفرهم ، فهى « كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » ، « أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ

سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ » .

وتحدثت عن تسبيح كل من فى السموات والأرض لله ، وأنه تعالى يعلم صلاتهم وتسبيحهم ، وعن قدرته سبحانه وتعالى على أن ينشىء السحاب ويزجيه ثم يجعله ركامًا بعضه فوق بعض ، وأن المطر يخرج من خلاله ، وأن السحاب على هيئة جبال ، قاعدتها إلى أسفل وقمتها إلى أعلى ، وأنه تعالى ينزل منه بَرَدًا – أى ثلْجًا – كما يُنْزِل منه المطرَ وأن ضوء برق السحاب يكاد يخطف الأبصار بسرعته ، وأنه تعالى خلق كل دابة تدب على الأرض – خلقها – من ماءٍ خاص بتلك الدابة ، وجعل هذه الدواب أنواعًا تبعًا لاختلاف مائها وأصلها : « فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٓ أَرْبَعٍ » وأنه تعالى يخلق مايشاءُ وهو على كل شيءٍ قدير ، ثم ذكرت أحوال المنافقين ورياءَهم ، وميلهم إلى تحكيم رؤساء اليهود فى خلافهم مع بعض اليهود ، بغير حق ليجاملوهم بالقضاء لصالحهم ضد مواطنيهم ، لتركهم تحكيم رسولهم ، وإذا كان لهم الحق جاءُوا إلى الرسول مذعنين ، فهم ليسوا طلاب حق ، بل هم ظالمون .

ووصَفتْ صورة أُخرى من ريائهم ، وهى أنهم كانوا يُقْسِمُون أن الرسول لو دعاهم إلى الجهاد معه لخرجوا ، فكذبهم الله وقال : « إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » وأمرهم أن يطيعوا الله ورسوله بإخلاص حتى يهتدوا ، وبين لهم أنه ما على الرسول إلَّا البلاغ ، وقد فعل .

ثم تحدثت عن وعد كريم من الله للمؤمنين الصالحين ، وهو أنه سيستخلفهم فى الأرض ، ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمنًا ، ما داموا قائمين بطاعته .

ثم ذكرت الأوقات التى يتحتم فيها الاستئذان من العبيد والإماء والمميزين الذين لم يبلغوا الحلمَ من الأحرار ، وأول هذه الأوقات : ما قبل الفجر ، وثانيها : نصف النهار حيث القيلولة والراحة بعد صلاة الظهر ، وثالثها : بعد صلاة العشاء ، أمَّا ما عداها من الأوقات فيباح لهم عدم الاستئذان فيها للحاجة إليهم فى قضاء المصالح ، وعدم وجود عورات يخشى منها فى غير هذه الأوقات .

فإذا بلغ الأطفال الأحرار الحُلم فقد أصبحوا رجالًا ، فعليهم الاستئذان فى كل الأوقات كما استأذن الذين ذكروا قبلهم فى قوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا » .

ثم ذكرت أن القواعد من النساء المتقدمات فى السن اللاتى لا يطمعن فى نكاح ، يباح لهنّ وضع الملابس الظاهرة كالملحفة[1] ، غير قاصدات إظهار الزينة التى تحتها ، وبينت أن الاستعفاف بعدم التخلى عن الثياب الظاهرة خير لهن ، وبينت أنه ليس على الأعمى والأعرج والمريض حرج فى ترك الجهاد وما يطلب من الأصحاء ، كما ذكرت البيوت التى يباح الأكل فيها دون استئذان ، وهى بيوت الأقارب والأصدقاء ، وذلك بعد إلقاء السلام عليهم وتحيتهم ، فكأن السلام على هؤلاء الأحباب بمنزلة الاستئذان منهم ، ثم نَهَتْ عن ترك المسلم مجلس رسول الله المعقود لأمر جامع ، كالجهاد والتدبير للحرب والجمعة والعيدين ، إلّا أن يستأذنوه لبعض شأنهم فيأذن لهم ، وحذّرت المتسللين المخالفين عن أمره أن تصيبهم فتنة أو عذاب أليم ، إلى غير ذلك من المقاصد التى سنفصلها فى شرح الآيات بمشيئة الله تعالى .

---

(١) أى : ترك لبسها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ
لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا
مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ
لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(سُورَةٌ) :من معانيها فى اللغة : المنزلة الشريفة[1] .وقد أُطلقت على سور القرآن ؛ لعظيم شرفها . (فَرَضْنَاهَا) : أى أوجبنا العمل بأحكامها ، وأصل الفرض : القطع ، أى جعلناها مقطوعًا بها ، لا سبيل إلى الفكاك من الالتزام بها ، ومنه فرائض الميراث والنفقة . (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) : لكى تعتبروا . (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى) : وصفان من الزنى ، وهو وطء الرجل امرأة فى فرجها من غير عقد أو ملك يجيز له وطأها . (فَاجْلِدُوا) : الجلد ، إصابة الجلد بما يؤلمه ، وسيأتى بيانه فى التفسير . (لَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ) : لا تمنعكم عن إقامة حد الجلد عليهما شفقة فى شرع الله وحكمه . (طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) : جماعة تحف بهم ليعتبروا ؛ ووصفهم بطائفة لا يقصد منه أن يطوفوا ويحلقوا بالمجلود عند جلده ،

---

(١) وفى هذا المعنى يقول النابغة الذبيانى فى قصيدة يمدح بها النعمان ويعتذر إليه :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها يتذبذب

أى : أعطاك منزلة شريفة رفيعة بين الملوك .

بل مجرد اجتماعهم حينئذ كاف ، والوصف بالطائفة لبيان الشأن فيهم .

(الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) أى : شأن الزانى أنه لا يرضى بالإثم معه إلَّا خبيثة مثله من الزوانى والمشركات ، دون العفائف المحصنات ، وكذا الأمر فى الزانية لا يرضى بالإثم معها إلَّا خبيث مثلها من الزناة والمشركين ، دون الأتقياء الصالحين ، وسيأتى للآية معنى آخر فى موضعها .

التفسير

١ - (سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

أى : سورة عظيمة أنزلناها إليكم أيها المسلمون ، وفرضنا ما فيها من الأحكام عليكم لتنفذوها وتعملوا بها ، وأنزلنا فيها آيات واضحات الدلالة على ما فيها من الأحكام والآداب ، فليس فيها مشكلات أو مشتبهات تحتاج إلى التأويل ، لعلكم تتذكرون وتتعظون بما جاء فيها من الأحكام الشرعية والأخلاق الاجتماعية ، لتكونوا جديرين بكونكم خير أمة أخرجت للناس ، وعبر بقوله : « وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » مع كونه غير محتاج إليه فى أصل المعنى لشمول إنزال السورة لكل آياتها - عبر به - لإبراز كمال العناية بشأن إنزال تلك الآيات الدالة على المُثُل العليا من الأحكام والآداب ، فلهذا تكرر لفظ (أنزلنا) .

وللإمام الرازى رأى لطيف فى حكمة هذا التكرار ، فقد قال : إن الله تعالى ذكر فى أول السورة أنواعًا من الأحكام والحدود ، وفى آخرها دلائل التوحيد ، فقوله تعالى : « وَفَرَضْنَاهَا » إشارة إلى الأحكام المبينة أولًا ، وقوله سبحانه : « وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » إشارة إلى ما بين من آيات التوحيد ، ولهذا ختم الآية بقوله : « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » فإن الأحكام لم تكن معلومة حتى يتذكروها : اهـ

يقصد أن التذكر هنا بمعنى : الاعتبار بآيات التوحيد ، لا تذكُّر آيات الأحكام لأنها لم تكن معلومة حين نزول هذه الآية حتى يتذكروها .

٢ - (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) :

كان الزنى معروفًا فى الجاهلية بما عرف به فى الإسلام ، فهو فى لغة العرب وطءُ الرجل امرأة لا يحل له وطؤها ، والذى استحدث فى الإسلام هو بيان فحشه ، وفرض الحد على

من يمارسه من الرجال والنساء وقد ذكرت أحكامه فى سورتى النساء والنور ، وفى السُّنَّة النبوية الصحيحة ، ولشيوع الزنى فى الجاهلية فى الحرائر والإماء ، تدرج الإسلام فى عقوبة الزناة ، فبدأ بالحبس ، وثَنَّى بالإيذاء بغير تحديد ، ثم بجلد غير المحصن مائة جلدة ، ورجم المحصن .

فأما الحبس فكان للنساء خاصة متزوجات أو أبكارا ، وذلك بعد ثبوت الزنى عليهن بشهادة أربعة شهود ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة النساء : « وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا »(١) وكان حبس المرأة فى البيوت قبل أن تستحدث السجون ، فلما استحدثت كُنَّ يُحْبَسْنَ فيها ، روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن جبير أنه قال : (كانت المرأة أول الإسلام إذا شهد عليها أربعة من المسلمين عدول بالزنى حبست فى السجن ، فإن كان لها زوج أخذ المهر منها ، ولكن ينفق عليها من غير طلاق وليس عليها حد ولا يجامعها) : ا هـ

وأما الإيذاء فكان للزناة من الرجال جميعا ، وأشار إلى محصنيهم وغير محصنيهم بالتثنية ، فيكون الإيذاء لهم دون النساء ، ويشهد لذلك قوله فى الآية : « واللذان يأتيانها منكم » أى منكم أيها الرجال وبه قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

وقيل إن الإيذاء كان للزناة من الرجال والنساء محصنين أوغير محصنين ، قال قتادة : كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعًا ، وهذا لأن الرجل يحتاج إلى السعى والاكتساب ليصرف على أهله ولا يوجد نص يدل على أن الحكم بإيذائهما كان معاصرًا للحكم بحبس المرأة ، أو أنه تأخر عنه فكان مرحلة ثانية لعقاب الزناة - وهو الظاهر - ، ولم يُحدَّد الإيذاء فى الآية ، إذ يقول سبحانه : « وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا » ولهذا قال بعض العلماء : إنه كان بالتوبيخ والتعيير(٢) ، ومنهم مَنْ قال : هو النيل باللسان والإيذاءُ بنحو اليد والنعل .

والمرحلة الثالثة : هى الحد ، وهو نوعان (أحدهما) أن يجلد كل من الزانى والزانية

---

(١) ويدل على تخصيص الحبس بالنساء قوله « من نسائكم » وممن قال بتخصيصه بهن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .
(٢) فيقال لهما : فجرتما وفسقتما وخالفتما أمر الله عز وجل .

مائة جلدة ، وهو ما جاء فى سورة النور ، وهو خاص بمن لم يسبق له زواج منهما . (وثانيهما) أن يرجما إن سبق لهما الزواج ، ويطلق على النوع الأول من الزناة (غير محصن) وعلى الثانى (محصن) وسنبين أدلة الرجم حين الكلام عليه إن شاء الله تعالى .

والجلد فى اللغة : ضرب الجِلْدِ ، وفيه إشارة إلى أن من يقوم بعقاب الزانى لا يبالغ فيتجاوز الجلد إلى الإضرار باللحم ، ويقول الآلوسى ما خلاصته : إن الزانية والزانى يجلدان بسوط لا عقدة فيه ولا فرع له كما دلت عليه الأخبار ، والجلد بالسوط كان فى عهد عمر رضى الله عنه ، وبإجماع الصحابة ، وأما قبله فكان تارة باليد ، وتارة بالنعل ، وتارة بالجريدة الرطبة وتارة بالعصا . . هكذا قال الآلوسى ، وسُمِّى نحو الضرب باليد أو النعل جلدًا ، لما فيه من إصابة الجِلْد بما يؤلمه .

ومن العلماء من قال بنزع ثياب المجلود سوى إزاره ، وإليه ذهب الحنفية والمالكية ، ومنهم من قال : يبقى عليه قميص أو اثنان كالشافعى وأحمد ، ومنهم من قال : تبقى عليه ثيابه إلَّا الفرو والمحشو [١] ، وعن ابن مسعود : لا يحل فى هذه الأُمَّة تجريد من الثياب ولا مَدٌّ : هكذا نقل الآلوسى عن أولئك الأئمة [٢] .

ثم قال : وينبغى أن لا يكون الضرب مبرحًا ، لأن الإهلاك غير مطلوب ، ولهذا قالوا : إذا كان من وجب عليه الحد ضعيفًا فخيف عليه الهلاك يجلد جلدًا ضعيفًا يحتمله ، كما قالوا : يُفَرَّقُ الضرب على أعضاء الْمَحْدُودِ ، لأن جمعه فى عضو قد يفسده ، وربما يفضى إلى الهلاك ، وينبغى أن يُتَّقى الوجه والمذاكير والرأس والبطن والصدر : انتهى ملخصًا مما نقله الآلوسى عن الأئمة .

وقد أوجب الله تعالى أن يجلد كل من الزانية والزانى مائة جلدة ، وهذا الحكم خاص بالبالغ العاقل الحر غير المُحْصَن ، وهو الذى لم يتزوج منهما ، أما العبيد والإماء البالغون الذين لم يسبق لهم زواج فحد الزانى أو الزانية منهما خمسون جلدة فقط ، لقوله تعالى فى الإماء : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ » [٣] والعبيد مثلهن ، إذ لا فرق بينهم وبينهن فى الفاحشة ، فليكن العقاب لهم كذلك .

---

(١) لأن المقصود إيصال الألم إلى الجلد وإن لم يكن بطريق مباشر . (٢) ونقل القرطبى عن الجمهور وجوب أن لا يخرج الضارب يده من تحت إبطه . (٣) سورة النساء ، من الآية : ٢٥

وذكر الزانية مع الزانى ليكون أصرح فى توقيع الجلد عليها من أن يقال : (والزانى فاجلدوه) وقدمت على الزانى لأن الزنى فى النساء كان فاشيًا حين نزول الآية ، وكان لإماء العرب وبغاياهم رايات ، وكُنَّ مجاهرات بذلك ، ولأن الزنى فى النساء أكبر مَعَرَّةً منه فى الرجال ، ولما يترتب عليه من الحمل ، ولأن الباعث غالبًا منهن ، وظاهر الآية يقتضى عموم الجلد للزناة ولو كانوا محصنين - ولكن السنة الصحيحة والإجماع خَصَّاه بغير المحصن ، كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

والخطاب فى قوله تعالى : « فَاجْلِدُوا » موجه إلى المسلمين ، ولكن الإمام أو نائبه ينوب عنهم ، لأن اجتماعهم على إقامة الحد متعذر .

المحصن حده الرجم

المراد بالمحصن هنا : البالغ العاقل الحر الذى سبق له الوطءُ فى نكاح صحيح ، فإن زنى فحده الرجم حتى يموت ، وهذا الحكم أجمع عليه الصحابة وعلماءُ الأُمة وأئمتها ، ولم ينكره سوى الخوارج ، وهم بإنكارهم هذا يخالفون إجماع الصحابة ، وجميع علماءِ أئمة المسلمين ، والله تعالى يقول فى وجوب العمل بالإجماع : « وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا »(١) .

ويستند إجماع الصحابة والأئمة بعدهم إلى ما صح من أمره - صلى الله عليه وسلم - برجم المحصن ، فقد تضافرت الطرق على أنه - صلى الله عليه وسلم - جاءَه ماعز معترفًا بزناه ، فأعرض عنه مرارًا ، ثم عَرَّض له بالرجوع عن إقراره ، فلما أصر وكان متزوجًا أمر برجمه ، أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال : « لمَّا أتى ماعزُ بن مالك النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له : لعلك قَبَّلْت أو غمزت أو نظرْت . قال : لا - وصرح بحقيقة زناه - قال : فعند ذلك أمر برجمه ، وقد شرح البخارى قصته فى رواية له بسنده عن أبى هريرة قال : « أتى رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - رجلٌ من الناس وهو فى المسجد ، فناداه : إنى يا رسول الله زنيت - يريد نفسه -

(١) سورة النساء ، الآية : ١١٥

فأعرض عنه النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فتنحى لشِقِّ وجهه[١] الذى أعرض قِبَلَه[٢] ، فقال : يا رسول الله إنى زنيت ،فأعرض عنه ، فجاء لِشقِّ وجه النبي – صلى الله عليه وسلم – الذى أعرض عنه ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات ، دعاه النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : أَبِكَ جُنُونٌ ؟ قال : لا يا رسول الله ، فقال : أَحْصَنْتَ[٣] ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : « اذهبوا فارجموه . . . » الحديث ،وقد رويت قصة ماعز هذا فى جميع كتب السنة وفيها تفصيلات عديدة ، وجاء فى بعضها أنه – صلى الله عليه وسلم – قال فى شأنه : « لقدْ تابَ توْبةً لوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ أمة لوَسعَتْهُمْ » ، كما يَسْتندُ إجماع الصحابة على رجم المحصن إلى قصة الغامدية ، فقد جاء فى صحيح مسلم ، أثناء حديث طويل عن عبد الله ابن بريدة عن أبيه قال : « فجاءت الغامدية[٤] فقالت : يا رسول الله ، إنى قد زنيت فطهرنى ، وإنه ردها ، فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لمَ ترُدُّنى ؟ لعلك أن ترُدنى كما رَدَدْت ماعزًا ، فوالله إنى لحُبْلَى ، قال : « إما لا[٥] ، فاذهبى فأرضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبى الله قد فطَمْتُه وقد أكل الطعام ، فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس برجمها » وقد جاء فى الحديث أن خالد بن الوليد كان ممن رجمها وأنه سبها ، فعلم النبي – صلى الله عليه وسلم – بمقالة خالد فيها فقال : « فوالذى نفسى بيده لقدتابت توبة لو تابها صاحبُ مَكْس[٦] لغُفر له ، ثم أمر بها فصُلِّىَ عليها وَدُفِنتْ » وقد رَوَى هذه القصة جميع كتب السنة أيضًا .

وقد حدث مثل ذلك فى امرأة من جهينة جاءت النبي – صلى اللهعليهوسلم – وهى حُبْلَى واعترفت بزناها ، فتركها حتى وضعت ، فأمر برجمها ثم صلى عليها ، فقال له عمر :

---

(١) أى : ذهب ماعز إلى الجهة التى اتجه الرسول اليها بعد أن أعرض عنه ليواجهه مرة أخرى باعترافه بالزنى .

(٢) أى : الذى أعرض جهته وناحيته .

(٣) أى : هل تزوجت .

(٤) نسبة إلى غامد وهى فصيلة من قبيلة الأزد ، انظره فى ج ٤ ص٢٧٧ رقم ٢١ فى أحاديث حد الزنى فى شرح مسلم للإمام النووى .

(٥) أى : إن كنت لا تريدين الرجوع عن إقرارك ، وقد صرحت بحقيقة أمرك .

(٦) المكس : ما يفرضه أعوان الظلمة على الناس فى البيع والشراء ، والحديث يدل على خطورة جريمة المكس عند الله تعالى

(تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟) فقال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وُجدت توبةٌ أفضل من أن جاءت بنفسها لله تعالى » : ا هـ من حديث أخرجه مسلم بسنده فى كتاب الحدود (باب حد الزنى) ج ٤ شرح النووى ص ٢٨ رقم ٢٢

كما استند الإجماع إلى ما قضى به – صلى الله عليه وسلم – فى قصة العسيف وزوجة الأعرابى ، فقد روى مسلم بسنده عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى أنهما قالا : إن رجلا من الأعراب أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله أنشدُك الله إلَّا قضيت لى بكتاب الله ، فقال الخصم الآخر وهو أفقه منه : نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لى ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « قل » قال : إن ابنى كان عسيفًا على هذا(١) فزنى بامرأته ، وإنى أُخبِرْتُ أن على ابنى الرجم ، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة(٢) فسألت أهل العلم فأخبرونى أن ما على ابنى جَلْدُ مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجمَ ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « والذى نفسى بيده ، لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنَمَ رَدٌّ(٣) ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغدُ يا أُنيسُ إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » قال : فغَدا عليها فاعترفت ، فأمر بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فرجمت.(٤)

والمراد من قضاء الرسول بينهما بكتاب الله أنه يقضى بينهما بحكمه تعالى المكتوب عنده على الزناة المحصنين وعلَّمه رسولَه ، وليس المراد منه القرآن .

وكما استند الإجماع إلى أفعال الرسول استند أيضًا إلى أقواله التى روتها كتب الصحاح .

(١) أى : أجيرا عنده .

(٢) أى : جارية .

(٣) أى : يردان عليك ويعودان إليك .

(٤) شرح النووى ج ٤ ص ٢٨١ رقم ٢٣ .

اعتراض الخوارج على عمر بن عبد العزيز فى الرجم وإفحامه إياهم

كان عمر بن عبد العزيز يقول بالرجم وينفذه كسائر أمراء المؤمنين ، فعاب عليه الخوارج ذلك ، قائلين : إنه ليس فى كتاب الله ، فألزمهم بأَعْدَادِ الركعات ومقادير الزكوات ونحو ذلك مما فصلته السنة ولا يوجد فى كتاب الله ، فقالوا : ذلك من فعله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين ، فقال لهم : وهذا أيضًا كذلك .

وقد تنبأ بذلك عمر بن الخطاب ، فقد روى البخارى بسنده عن ابن عباس قال : قال عمر : (لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل : لا نجد الرجم فى كتاب الله عز وجل ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله عز وجل ، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أَحْصَنَ - أى : تزوج - إذا قامت البينة أو كان الحَمْل أو الاعتراف)[1] .

لماذا لم يذكر الرجم فى القرآن

قد يقول قائل : قد ذكر الله من أحكام الزناة الحبس والإيذاء والجلد فى القرآن ، فلماذا لم يذكر فيه الرجم ، ولعله أولى منها بالذكر لشدته ؟

فالجواب : أنه تعالى قد أنزل فى سورة النساء : « وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » ولم يعين فى الآية السبيل الذى سوف يجعله لهن عوضًا عن الحبس فى البيوت ، أيكون نصًا قرآنيًا ، أم يكون حكمًا ينزل به جبريل على رسول الله ليبين به الرسول السبيل الذى ينسخ الحبس فى البيوت حتى الموت ، ثم أنزل الله السبيل الناسخ لحبس الزانية فى البيوت ، فجعله فى القرآن مائة جلدة لكل من الزانية والزانى ، وجعله فى السُّنة الرجم للمحصن مِنْ كُلٍّ منهما .

---

(١) وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال :

(خطب عمر بن الخطاب فذكر الرجم فقال: لا تخدعن عنه ، فإنه حد من حدود الله ، ألا إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد رجم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون : زاد عمر فى كتاب الله ما ليس فيه لكتبت فى ناحية من المصحف : وشهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وفلان وفلان أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد رجم بعده ، ألا وإنه سيكون من بعدكم قوم يكذبون بالرجم وبالدجال وبالشفاعة وبعذاب القبر ، وبقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا) ابن كثير . والامتحاش : الاحتراق .

وقد اعتبر بعض الفقهاء ما جاء فى السنة مخصصًا لعموم الجلد وقاصرًا له على غير المحصن ، واعتبره بعض آخر منهم عقوبة للمحصن زائدة على جلده ، فيجلد مائة ثم يرجم ، والرأى الأول أرجح ، لأن النبى لم يجمعهما على محصن فى عهده ، ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن الله تعالى أعطى نبيه حق بيان القرآن بقوله : « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » وهذا البيان ملزم للمسلمين أن يعملوا به لقوله تعالى : « وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا » فالنبى حين بيَّن أن حكم الزانى المحصن من الإناث والذكور الرجم يكون قد بين السبيل الثانى الذى جعله الله بدلًا من حبس الزناة وإيذائهم الواردين فى سورة النساء ، تنفيذًا لوعد الله إذ يقول : « أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا » كما بين عمليًّا أن السبيل الأول الوارد بآية الجلد خاص بمن لم يتزوج ، وكلاهما حق منحه الله لنبيه ، ومعظم ما جاء فى القرآن قواعد عامة ، فلم يتعرض القرآن لتفصيل الأحكام إلَّا قليلًا ، والحكمة فى ذلك أن يتيسر حفظه ويتضح إعجازه ، ولهذا أُحيل تفصيل معظم الأحكام ولو كانت خطيرة على الرسول بوحى من الله تعالى ، كتفصيل أحكام الصلاة والزكاة ، فإنهما لم يرد عنهما فى القرآن سوى الأمر بهما دون تفصيل لأركانهما وشروطهما وأوقاتهما ، وَغَيْرُهما كثير على هذا النمط .

ولعل الحكمة فى إسناد بيان حكم الرجم إلى الرسول أن يَعْلَم المؤمنون أن السنة يجب الأخذ بها حتى فى أخطر الأحكام . والله الموفق .

الحكمة فى تشديد الحد على الزناة

قد يقول قائل : لماذا شدد الإسلام فى حد الزناة ، فجعله فى غير المحصن من الذكور والإناث إلى مائة جلدة ، وفى المحصن منهما إلى الرجم ؟

والجواب : أن العقاب ينبغى أن يكون بقدر حجم الجريمة ، ولما كان الزنى تترتب عليه آثار سيئة فى المجتمع الإسلامى ، حيث تفضح به الأعراض ، وتختلط به الأنساب ،

ويُخْتَانُ به الأزواج والأهلون المخدوعون فى شرف ذويهم ، وتقتل بعده الأجنة أو الأطفال الناجمون عنه ، تخلصًا من عارهم ، وتنتشر به الفتن والمفاسد والتحلل الخلقى - لَمَّا كانت تترتب عليه تلك الآثار- جعل الله الحد فيه شديدا دَرْءًا لمفاسده ، ووقاية للمجتمع من شروره وويلاته ، فإذا علمه من تميل نفسه الخسيسة إلى الزنى ، تجنبه خوفًا من عقوبته فى الدنيا والآخرة .

ولا شك أن تنفيذ الحد على الزناة ، بالصورة التى أرادتها الشريعة ، يحدث أثرًا طيبًا فى المجتمع الإسلامى ، حيث يكف الفجرة عن الزنى خوفًا من عقوبته ، فتسلم الأعراض وتصان الحرمات وتصحح الأنساب ، وينتهى وأد الأجِنَّة ، وتمتنع الفتن ، بل يتلاشى تنفيذ هذا الحد ، لعدم وقوع الزنى ، أو يندر تنفيذه لندرة وقوع الزنى أو تعذر إثباته .

شروط اقامة الحد وما ينبغى للقاضى

لايقام حد الزنى على من اقترفه ، إلَّا إذا ثبت الزنى عليه باعترافه - ذكرا كان أو أنثى - وإصراره على هذا الاعتراف - أو بأن يشهد عليه أربعة شهود عدول رأوا الواقعة وحكوها على طبيعتها تمامًا ، أو بِحَمْلِ البِّكر أو الثيب التى لا زوج لها ، فأما اعتراف الزانى بزناه فإنه إذا كان قد حدث فى العصر النبوى ، طلبًا للبراءة من إثمه قبل لقاء الله تعالى ، فإنه يندر حدوثه فى هذا العصر الذى كثرت فيه المآثم ، بل ربما ينعدم ، لأن الشرع لا يلزمه بالاعتراف سترًا لإثمه وفتحًا لمجال التوبة له فيما بينه وبين ربه - كما سنبينه..

وأما اجتماع الشهود الأربعة فى وقت واحد ، ورؤيتهم واقعة الزنى بتفاصيلها ، فما لم يكن عن طريق الصدفة ، فإنه يتعذر حصوله عن طريق الاستدعاء ، وبما أن الصدفة فى ذلك أمر بعيد الاحتمال ، وحضور الشهود بطريق الاستدعاء يتم بعد حصول الجريمة ، فلهذا يكون إثباته عن طريق شهود الرؤية أمراً متعذراً .

وأما إثباته بحمل البكر أو الثيب التى لا زوج لها ، فهو نادر ، بل ربما كان بعيد الاحتمال فى عصر ابتكرت فيه وسائل منع الحمل .

وقد بلغت سماحة الإسلام فى تجنيب الزانى حد الزنى ،وتركه لربه لعله يتوب فيما بينه وبينه ، أنه ينبغى للقاضى أن لا يتعقب اعترافه ، فقد روى البخارى فى صحيحه بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (كنت مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فجاء رجل فقال : إنى أصبت حدا فأقِمْ فىَّ كتاب الله ، قال : « أليس قد صليت معنا؟ قال : نعم ،قال : فإن الله قد غفر لك ذنبك - أو قال - : حدك » .

وإذا أصر الزانى على اعترافه بأنه زنى ، رغبة فى إقامة الحد ، ينبغى للقاضى أن يصرفه عن اعترافه هذا بالتعريض له بتركه ؛ فقد روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس قال : (لما أتى ماعز النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له : « لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت » قال لا يا رسول الله) أى : أنه - صلى الله عليه وسلم - يريد أن يقول له : لعلك اعتبرت واحداً من هذه الثلاثة زنى ، فقلت إنك زنيت ، وليس فى مثل ذلك حد فانصَرِفْ ، ولكنه أصر على أنه زنى حقيقة ، ولقد مضى أن النبى كان يعرض بوجهه عنه لِيَنْصَرِفَ ، فيعود فيواجه النبى باعترافه أربع مرات ، فأمر برجمه .

ويروى البخارى فى هذا حديثا فى صحيحه بسنده عن جابر (أن رجلا من أسلم جاء النبى - صلى الله عليه وسلم - فاعترف بالزنى فأعرض عنه النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى شهد على نفسه أربع مرات ، فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : « أبك جنون؟ » قال : لا ، قال : آحْصنت[1] ؟ قال : نعم ، فرُجِمَ بالمصلى ...) الحديث ،فمن هذا التفصيل نعلم أن إقامة الحد على الزانى محوطة بحصانة وضمانات تجعلها شبه متعذرة لحرص الشارع على الستر على الأعراض ، وترك الباب مفتوحا للمذنب ليتوب إلى ربه فيما بينه وبينه .

لا يشترط فى الرجم أن يكون بالحجارة

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى سعيد (أن رجلا من أسلم يقال له ماعز ابن مالك أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : إنى أصبت فاحشة فأقمه علىَّ ، فردّه

---

(١) أى : هل تزوجت .

النبي - صلى الله عليه وسلم - مراراً ، قال : ثم سأل قومه ، فقالوا : ما نعلم به بأسا ، إلا أنه أصاب شيئاً يرى أنه لا يخرجه منه إلا أن يقام فيه الحد ، قال : فرجع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأمرنا أن نرجمه ، قال : فانطلقنا به إلى بقيع الغَرْقَد - قال - فما أوثقناه ولا حفرنا له ، قال : فرميناه بالعظم والمدر والخزف ، قال : فاشتد واشتددْنا خَلْفَه حتى أتى عُرْض الحرة فانتصب لنا ، فرميناه بجلاميد الحرة . . . » الحديث[1] .

فأنت ترى أن أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - رجموا الزانى المحصن فى عهده - صلى الله عليه وسلم - بالعظم وبالمدر ، وهو قطع الطين اليابس - كما فى القاموس ، جمع مدرة بفتحات - ورجموه بالخزف - وهو قطع الفخار المكسور - كما رموه بجلاميد الحجارة حتى مات ، فهذا يدل على أن المقصود برجمه قتله بشىء جامد يفضى إلى موته ، فهل لنا أن نرجمه فى عصرنا هذا بالرصاص ، قياسا على مافعله أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - فى عهده ، حيث لم يقتصروا فى قتلهم ماعزا على جلاميد الحجارة ، بل استعملوا العظم وسواه من كل جامد يفضى إلى القتل ، والرصاص كذلك ؟

وإذا كان الرجم بالحجارة والعظم والخزف ونحوها أمراً اقتضته الضرورة فى عهده - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يخترع الرصاص ، فهو اليوم ليس ضروريا بعد اختراعه ، وقد يسىء إلينا استعماله فى العصر الذى نعيش فيه ، حيث يحمل أعداء الاسلام على التشهير بنا بسببه ، هذه مسألة جديرة بالنظر ومحتاجة إلى رأى المجتهدين للبت فيها والله الموفق .
فإن قيل : إن الرمى بالحجارة يعطى المرجوم فرصة للهرب ، لأنه يرمى واقفا من غير توثيق كما فعل بماعز ، والهرب من الحد مرغوب فيه ، أما الرمى بالرصاص فإنه يستلزم توثيقه وربطه ليصيبه ، فالجواب أن ماعزا لم يكن بحاجة إلى توثيقه وإمساكه فهو الذى أصر على إقامة الحد عليه[2] ، على أن تركه بلا إمساك ليس بواجب ، فقد جاء فى حديث الغامدية الذى مرت روايته عن مسلم ، أن النبى لما أمر برجمها بعد فطمها صبيها ، حفروا لها حفرة إلى صدرها فرجمت ، مع أنها جاءته معترفة طالبة إقامة الحد عليها ، وأمهلها النبى حتى

(١) انظره فى ج ٤ شرح النووى على مسلم ص ٢٧٣ حديث رقم : ١٨ من باب حد الزنى .
(٢) بل لقد جاء عند مسلم فى إحدى رواياته ، أن ما عزا لما أقر أربع مرات حفر له حفرة ثم أمر به فرجم .

ومعنى الآية على هذا : الزانى لا يليق به أن يتزوج إلَّا زانية أو مشركة لقبحه مثلهما ، والزانية لا يليق أن يتزوج بها إلَّا زان أو مشرك كذلك ، فالخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، فالآية تُزهِّد فى نكاح البغايا والزناة ، وليس الغرض منها إباحة زواجهن أو زواج المشركات للزناة من المؤمنين ، كما أنها تحث المؤمنين والمؤمنات على التصوّن من نكاح هذا النمط من الفساق ، وأن يكون الطيبات منهم للطيبين ، والطيبون للطيبات .

وعلى هذا التأويل يفسر قوله تعالى : « وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » بمعنى : حُرِّم نكاح البغايا والزناة على المؤمنين[١] ، لما فيه من التسبب فى سوء القالة ، والتعرض للإقدام على مثل فعلهم ، فإن مجالسة الفساق والخطائين تحمل على مثل فعلهم ؛ فكيف بمزاوجة الزوانى والزناة ، وبخاصة إذا كان بقصد التكسب بالفاحشة ، وفى الآية آراء مختلفة ، وما ذكرنا أفضلُها ، ولو تزوج المؤمن بزانية فمع حرمة الزواج بها للأسباب المذكورة يصح العقد عليها فقد سُئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن رجل زنى بامرأة وأراد أن يتزوجها فقال : « الحرام لا يحرم الحلال » أخرجه الطبرانى وغيره عن عائشة وبه أخذ أبو بكر وابن عباس وابن عمر وجابر وغيرهم .

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾)

المفردات :

(يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) : يقذفون العفيفات بتهمة الزنى .

(الْفَاسِقُونَ) : الخارجون عن طاعة الله .

---

(١) فاسم الإشارة على هذا راجع إلى نكاح البغايا ، وعلى الوجه السابق راجع إلى الزنى المعبر عنه بالنكاح . انظر ما قاله النسفى وغيره فى مرجع الإشارة .

٣ - (الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) :

بيَّن الله فى الآية السابقة أن مرتكب جريمة الزنى إذا كان حُرًّا يجلد مائة جلدة ، سواءٌ أكان من الرجال أم من النساء ، وأنه لا يحل للمسلمين أن يتساهلوا فى تنفيذ هذا الحد رأفة بالزناة ، وأن يُشَهَّر بهم عند تنفيذه بأن يشهد إقامة الحد عليهم طائفة من المؤمنين .

وجاء بهذه الآية عقبها ، لبيان حقارة الزانى والزانية ، وأن كليهما لا يرضى بالاستجابة إلى فاحشته إلَّا مثله أو أخس منه ، والنكاح فى هذه الآية بمعنى الجماع كما صح عن ابن عباس[١] .

والمعنى على هذا : الزانى لِخِسَّتِهِ وقبحه ، لا يطأُ سفاحًا إلَّا زانية تماثله فى فحشه وخبثه ، أو امرأة مشركة لا ترى فيه ما يشينها ، فكلتاهما تطاوعه لفقد الوازع الدينى والخلقى لديهما ، أما العفيفة المؤمنة فلا سبيل له إلى الفسق بها ، لحصانتها بعفتها ودينها المتين ، والزانية لخستها وفحشها لا يطؤها سفاحًا إلَّا زانٍ يماثلها فى فحشها أو مشرك يحاكيها فى خبثها ، وحرم ذلك على المؤمنين ، لأنه لا يليق بإيمانهم التلوث بمثله ، ولو كان لدى الزناة إيمان لبعدوا عنه ، قال - صلى الله عليه وسلم - : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » وأجاز بعض الأئمة تفسير النكاح هنا بالتزوج ، على ما هو معروف فى نصوص القرآن الكريم ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبى حاتم فى سبب نزول الآية عن مقاتل أنه قال : (لما قدم المهاجرون المدينة قدموها وهم بِجَهْدٍ إلَّا قليلًا منهم ، والمدينة غالية السعر ، شديدة الجَهْد[٢] ، وفى السوق زوانٍ مُتَعَالِنَاتٌ من أهل الكتاب ، وإماءٌ لبعض الأنصار ، قد رفعت كلٌّ امرأة منهن على بابها علامةً لتُعرفَ أنها زانية ، وكنَّ مِنْ أخصب أهل المدينة وأكثرهم خيرًا ، فرغب أناس من مهاجرى المسلمين فيما يكتسبن للذى فيهم مِن الجَهْد ، فأشار بعضهم على بعض : لو تزوجنا بعض هؤلاء الزوانى ، فنصيب من فضول ما يكتسبن ، فإذا وجدنا عنهن غِنًى تركناهن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

---

(١) أخرج أبو داود فى ناسخه ، والبيهقى فى سننه ، والضياء فى المختارة ، وجماعة من طريق ابن جبير عن ابن عباس أن النكاح هنا بمعنى الوطء

(٢) الجهد هنا : بمعنى الطاقة ، أى : أن المدينة شديدة الطاقة عليهم لغلاء أسعارها ، والجهد فيما تقدم : بمعنى الشدة ، يكنى بها عن الفقر بسبب الهجرة .

ناطقًا غير مكره ، عالماً بالحرمة ولو حكمًا ، بأن نشأ فى دار الإسلام ، ويشترط فى الاتهام المقذوف به ، أن يكون بوطءٍ يلزمه فيه الحد ، وهو الزنى أو اللواط أو بنفى ولد عن أبيه ، فلا يكفى أن يقول للمقذوف : يا فاسق أو يا فاجر فإن فى ذلك التعزير لا الحد إذا ثبت بإقرار أو بشهادة رجلين ،ويشترط فى المقذوف :الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والعفة عن الفاحشة التى رمى بها .

قال القرطبى فى المسألة الرابعة : وإنما شرطنا فى المقذوف العقل والبلوغ كما شرطناهما فى القاذف وإن لم يكونا من معانى الإحصان ، لأجل أن الحد إنما وضع للزجر عن الإذاية بالمضرة الداخلة على المقذوف ، ولا مضرة على من عدم العقل والبلوغ ــ كذا قال .

فإذا قذف المسلم رجلًا أو امرأة من أهل الكتاب فلا حد على المسلم القاذف ولكنه يعزر ما لم تكن المقذوفة كتابية متزوجة بمسلم ، فقد قيل بجلد من يقذفها ، كما نقله القرطبى فى المسألة السادسة ، ومن رمى صبية بالزنى قبل البلوغ ، وكان يمكن وطؤها ، فإن ذلك يعتبر قذفًا يستوجب الحد عند الإمام مالك .

وقال الإمام أحمد فى الجارية بنت تسع :يجلد قاذفها ، وكذا الصبى إذا بلغ عشرًا ، وقال الإمام مالك : إذا رمى صبية يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى كان قذفا يُحَدُّ عليه ، وقال أبو حنيفة والشافعى وأبو ثور : ليس بقذفٍ يُحَدُّ عليه ، لأنها لو فعلته هى فلا يعتبر زنى فى حقها ، لأنها لم تبلغ حتى تدخل دائرة التكليف ، ولهذا لا يقام عليها الحد ، ولكن يعزر من سبها ، ويقول ابن العربى تعقيبًا على هذا الخلاف : المسألة محتملة مشكلة ، لكن مالكًا راعى حماية عرض المقذوف[1] وغيره راعى حماية ظهر القاذف ، وحماية عرض المقذوف أولى ، لأن القاذف كشف ستره ، فلزمه الحد[2] .

وقد بينت الآية أن الحد إنما يقام على القاذف إذا لم يأت بأربعة شهداء على واقعة الزنى ، فإن جاء بهم فلا يقام عليه حد ، ومثله ما إذا اعترف المقذوف بالزنى أو اللواط ، فإنه يسقط الحد عن القاذف ، ولابد فى شهادتهم أن تكون رواية مفصلة لواقعة عاينوها بحقائقها ، فإن امتنع أحدهم عن الشهادة ، وشهد غيره ، جلد هؤلاء الثلاثة كما يجلد القاذف تمامًا ،

(١) وكذلك فعل الإمام أحمد .

(٢) انظر القرطبى فى المسألة الحادية عشرة .

التفسير

٤ - (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَاتَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

هذه الآية مبينة حكم من نسب الزنى إلى غيره ، بعد بيان حكم من فعله ، والآية كما فى صحيح البخارى نزلت فى عويمر بن أمية بعد ما قذف زوجته خولة بنت عاصم بشريك ابن سمحاء ، وقيل : نزلت بسبب قصة الإفك .

والرمى فى أصل اللغة : يستعمل فى قذف الشىء باليد ونحوها ، تقول : رمى الحجر أو السَّهم ، أى : قذفه ، ثم استعمل مجازًا فى السب والشتم ، والمراد منه هنا السب بالزنى بقرينة اشتراط شهود أربعة ، وذلك خاص بالزنى ، والمراد بالمحصنات هنا النساءُ العفيفات ، وقد قرئت بفتح الصاد وبكسرها ، فقراءة الفتح على معنى اللاتى أحصنهن أهلهن ، وقراءة الكسر على معنى اللاتى نشأْن فى حصانة وعفة ، يقال : أَحصنت المرأة أى : عفت ، وأحصنها أهلها أى : ربَّوها على العفة ، فالفعل لازم ومتعد ، واقتصار الآية على النساءِ العفيفات لا يمنع من إيجاب حد القذف على من يقذف الرجال الأَعفاء باللواط فيما بينهم أو بالزنى وهذا أمر داخل فى الآية بالمعنى ، وحكم مجمع عليه ، فإنه لا وجه لتخصيص النساء بهذا الحكم دون الرجال ، فالإسلام حريص على كرامة الإنسان بنوعيه ، والحكمة فى التصريح بالنساء فى الآية أن رميهن بالفاحشة أكثر وأشنع[1] ، وأن النفوس تسرع إلى تصديق القذف فيهن أكثر ، فلهذا خصهن بالذكر فى الآية مبالغة فى حماية أعراضهن ، ومثل ذلك أن الله تعالى نص على حرمة لحم الخنزير ، وقد دخل فى حكمه الشحم والغضاريف ، لأَنه لا وجه لتخصيص لحمه بالحرمة دون شحمه وغضاريفه .

ويقول ابن كثير : إذا كان المقذوف رجلًا فكذلك يجلد قاذفه ، وليس فى هذا نزاع بين العلماء .

ويثبت الإحصان ، أى : العفة فى المقذوف ، بإقرار القاذف بها ، أو بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين ، ويشترط فيمن قذفه لكى يقام عليه حد القذف أن يكون بالغًا عاقلًا

(١) ولخصوص الواقعة .

بأنه زَنَى أو فُعِلَ به اللواط ، حماية للمسلمين من سوء القالة ، وكفا لألسنة الناس عن الخوض فى الباطل .

٥ - (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

اختلف العلماء فى هذا الاستثناء ، فقال بعضهم : إنه يعود إلى الجملة الأخيرة : « وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » دون ما قبلها ، فإذا تاب القاذف وأصلح ارتفع عنه وصف الفسق ويبقى مردود الشهادة طول حياته بعد جلده ، فردُّ الشهادة عند هؤلاء العلماء من الحد فلا يسقط بالتوبة ، وممن قال بذلك : القاضى شريح وسعيد بن جبير ومكحول وأبو حنيفة ، ومنهم من قال : يرجع إلى الجملتين الثانية والثالثة : « وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » وهذا يقتضى أن من تاب وأصلح تقبل شهادته ويزول فسقه ، فالحد عندهم قاصر على الجلد ، وممن قال بذلك : سعيد بن المسيب سيد التابعين ، والأئمة مالك والشافعى وأحمد وجماعة من السلف .

وقال الشعبى والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب إلَّا أن يعترف على نفسه بأنه كان مُفْتَريًا ، فحينئذ تقبل شهادته[1] .

ولما بين الله حكم قذف الأجنبيات عقبه بحكم قذف الزوجات فقال سبحانه :

(١) راجع ابن كثير فى الآية .

وقد فعل ذلك عمر بن الخطاب بثلاثة شهدوا بالزنى على المغيرة بن شعبة ، وتوقف الرابع عن الشهادة عليه[١] فإن تمت الشهادة ولم تثبت عدالة الشهود ، فلا حد على الشهود ولا على المشهود عند بعضهم ، وعلى الشهود الحد عند آخرين[٢] .

وحدُّ القذف كما بينته الآية ثمانون جلدة ، على نحو ما تقدم بيانه فى جلد الزانية والزانى فى كيفية الجلد ، فإن كان القاذف عبدًا والقذف للحر ، جلد العبد أربعين ، لأنه فى الحدود على النصف من الحر ، وهذا هو رأى الجمهور ، وروى ابن مسعود وعمر ابن عبد العزيز وغيرهما : أنه يجلد ثمانين جلدة ، واحتج الجمهور بقوله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ » ولا يقتصر عقاب القاذفين على إقامة الحد عليهم ، بل ترد شهادتهم دائمًا فى أى أمر شهدوا عليه ، ويحكم بأنهم فاسقون عند الله وعند الناس ، وإنما شدد الله العقاب على القاذفين لغيرهم بالزنى ، وأوجب عليهم أن يأتوا بأربعة شهود عدول إن أرادوا الإفلات من عقابهم حماية لأعراض العباد ، وسترًا على الخَطَّائين لعلهم يتوبون .

وترد شهادة القاذف عند الشافعية إذا ثبت عليه القذف ـ وإن لم يقم عليه الحد بعد . وأما عند الحنفية فلا ترد شهادته إلا بعد تمام جلده ، أو بعد البدء فيه ولو بسوط واحد ـ كما قال بعض آخر منهم ، أو بعد إقامة أكثره عند فريق ثالث منهم ، أمَّا قبل ذلك فتقبل شهادته .

والمعنى الإجمالى للآية : والذين يقذفون النساء العفائف من المسلمات الحرائر ، ثم لم يأتوا بأربعة من الرجال العدول ، يشهدون تفصيلًا على واقعة الزنى وقد رأوها بأعينهم ، فعاقبوا هؤلاء القاذفين ثلاث عقوبات ، أولاها : أن تجلدوهم ثمانين جلدة ، وثانيتها : أن تردُّوا شهادتهم ماداموا أحياء ، وثالثتها : أن تصفوهم بالفسق والخروج عن طاعة الله ؛ وذلك حماية لأعراض المسلمات والمسلمين من ألسنة الكاذبين ، وسترًا للخاطئين منهم لعلهم يتوبون ويرجعون إلى ربهم فيما بينهم وبينه ، ومثل ذلك فى العقوبة من يقذف مسلمًا حرًّا عفيفًا

(١) انظر المسألة التاسعة عشرة من القرطبى .

(٢) قال بنفى الحد عنهم : الحسن البصرى والشعبى وأحمد، وقال مالك بوجوب الحد على الشهود والقاذف فى هذه الحالة . انظر المسألة الخامسة عشرة من القرطبى .

التفسير

٦، ٧ـ (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) :

كان المسلمون قبل نزول هذه الآية وما بعدها ، يفهمون من عموم الآيات السابقة ، أن مَنْ يرمى المحصنة ـ أى : العفيفة ـ بالزنى وإن كانت زوجته ، ولم يستطع الإتيان بأربعة شهود ، يعاقب بالجلد ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة أبدًا ، ويكون من الفاسقين ، لأن ظاهر أمرها على الإحصان ، أى : العفة ، فنزلت هذه الآية لتخصيص عمومها بغير الأزواج ، إذْ بينت أن للأزواج مخرجًا من الحد عند فقيد الشهود الأربعة .

روى الإمام البخارى فى سبب نزول آيات اللعان بسنده عن سهل بن سعد أخى بنى ساعدة أن رجلًا من الأنصار جاء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال : يا رسول الله أرأيت رجلًا وجد مع امرأته رجلًا أيقتله أم كيف يفعل ؟ فأنزل الله فى شأنه ما ذكر فى القرآن من أمر المتلاعنين ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «قد قضى الله فيك وفى امرأتك » قال : فتلاعنا فى المسجد وأنا شاهد ، فلما فرغا قال : كذبتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها[١] ، فطلقها ثلاثًا قبل أن يأمره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين فرغا من التلاعن ، ففارقها عندالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ذاك تفريق بين كل متلاعنين ، قال ابن جُرَيْج : قال ابن شهاب : فكانت السُّنَّة بعدهما أن يفرق بين المتلاعنين ، وكانت حاملًا ، وكان ابنها يُدْعى لأُمِّه ، قال : ثم جرت السنة فى ميراثها أنها ترثه ويرث منها ما فرض الله له ، قال ابن جُرَيْجٍ عن ابن شهاب عن سهل بن سعد الساعدى فى هذا الحديث : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن جاءت به أحمر قصيرًا كأنه وَحَرَة[٢] فلا أراها إلَّا قد صدقت وكذب عليها ، وإن جاءت به أسود العينين ذا أَلْيَتَيْن فلا أراه إلَّا قد صدق » فجاءت به على المكروه من ذلك .

---

(١) يعنى أنه إن لم يطلقها يعتبره الناس كاذبا عليها ، فلهذا طلقها .

(٢) الوحرة بفتح الحاء المهملة : القصير من الإبل .

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾)

المفردات :

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ) : أى يقذفون زوجاتهم بالزنى . (وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ) : ولم يكن لهم شهود على الزنى سوى أنفسهم . (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ[1] شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ) : أى فشهادة أى واحد منهم على زنى زوجته أربع شهادات بالله .

(إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) : جواب القسم المفهوم من الشهادة ، فهى بمعناه كما قال الراغب .

(الْخَامِسَةُ) : أى والشهادة الخامسة للشهادات الأربع ،أى : الجاعلة لها خمسًا بانضمامها إليهن .

(أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) : اللعنة واللعن ، الطرد من الرحمة والإبعاد من الخير . (وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ) : ويدفع عنها عقاب الزنى ، وسيأتى بيانه فى شرح الآيات .

(وَالْخَامِسَةَ[2] أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا) : الغضب ؛ أشد من اللعن ، ولذا خص بلعان المرأة تغليظًا عليها ، بعد أن لاعنها زوجها وشهد عليها .

(١) قرىء لفظ : أربع هنا بالرفع على أنها خبر لشهادة ، وقرئ بالنصب على أنه مفعول مطلق للشهادة ، وعلى هذه القراءة تكون كلمة (شهادة) خبر مبتدأ محذوف ، أى : فالواجب شهادة أحدهم أربع شهادات .

(٢) الخامسة هنا منصوبة عطفا على أربع الثانية .

وطريقة التقاضى فى هذه المُلِمَّة : أن يتهم الزوج زوجته بالزنى ، فيقول له القاضى بعد أن تبرئ المرأة نفسها : البينة أو حَدٌّ فى ظهرك ، فيقول الزوج : لا بينة عندى وقد رأيتهما بعينى مثلًا ، فيدعوه القاضى إلى اللعان ، وهو كما فهم من الآية أن يقول : أشهد بالله إننى لمن الصادقين فيما رميت به زوجتى فلانة من الزنى ويرفع نسبها بما يميزها إن كانت غائبة ويشير إليها إن كانت حاضرة ، وينفى الولد إن كانت حاملًا به أو ولدته فيقول : وإن هذا الحمل أو الولد من الزنى وليس منى ، ويكرر هذه الشهادة أربع مرات ، وكل ذلك بتلقين القاضى كما هو شأن اليمين[1] فى سائر الخصومات ، ثم يقول فى المرة الخامسة بعد أن يعظه القاضى ويلقنه : وعلىَّ لعنة الله إن كنت من الكاذبين ، وتشترط الموالاة بين الكلمات الخمس ، ويترتب على لعانه عدة أحكام :منها سقوط الحد عنه ، ووجوب الحد عليها ولو كانت ذمية تحت مسلم ، أو تحت ذمى احتكم إلينا ، وزوال الفراش ــ أى النكاح ــ إلى الأبد ، وانتفاء الولد إن نفاه فى لعانه ، لخبر الصحيحين أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « فرق بينهما وألحق الولد بالمرأة » وقوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « المتلاعنان لا يجتمعان أبدًا » أخرجه الدارقطنى والبيهقى وغيرهما من حديث ابن عمر ،كما يترتب عليه سقوط حد القذف بالنسبة للزانى إن سماه الزوج فى قذفه لزوجته ، وتشطير الصداق قبل الدخول كالطلاق قبله ، واستباحة نكاح أختها وأربع سواها وإن لم تنقض عدتها ، كما فى الطلاق البائن ، وعدم نَفَقَتِها وإن كانت حاملًا بمن نفاه ــ وهذه الأحكام منقولة عن الشافعية ومن يرى رأيهم ، وللموضوع صور وتفصيلات ومذاهب للفقهاء، تطلب من مطولات كتب الفقه والتفسير .

وقد شرع الله للمرأة حق الدفاع عن نفسها لتَدْرأ عنها الحد وسوء القالة ، فربما كان الزوج كاذبًا يبغى تشويه سمعتها لخلاف بينهما ، حيث قال سبحانه منصفًا لها :

٨ ، ٩ ــ (وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

(١) فشهادات اللعان أيمان مؤكدة عند الشافعية والمالكية والحنابلة ،أما عند الحنفية فهى شهادات موكدة بالأيمان ؛ ولذا يشترطون فيها العدالة كسائر الشهادات .

والزوج المذكور فى هذا الحديث هو عويمر العجلانى ، فى رواية أُخرى للبخارى عن ابن شهاب أن سهل بن سعد الساعدى ـ الذى روى الحديث السابق ـ أخبره أن عويمر العَجْلَانى جاء إلى عاصم بن عدى الأنصارى فقال له : يا عاصم أرأيت رجلًا وجد على امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه ، أم كيف يفعل ؟ سَلْ لى يا عاصم عن ذلك ، فسأل عاصم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ذلك ، فكره رسول الله المَسَائِلَ وعابها حتى كَبُرَ على عاصم ما سمع من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فقال عاصم لعويمر : لَمْ تأْتنى بخير ، قد كره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسألة التى سأَلْتُهُ عنها ، فأقبل عويمر حتى جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسط الناس فقال : يا رسول الله أرأيت رجلًا وجد مع امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « قد أنزل الله فيك وفى صاحبتك ، فاذهب فائت بها » قال سهل : فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر : كذبْتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتُها ، فطلَّقَها ثلاثًا قبل أن يأمره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ابن شهاب : فكانت سُنَّة المتلاعنين .

وقد حدثت هذه النازلة مع امرأة هلال بن أُمية ـ روى أبو داود وغيره عن ابن عباس ما يفيد أن هلالًا قذفها ولم يكنْ له شهود على زناها . فكان ذلك سببًا فى نزول آيات اللعان ، وجمعا بين الروايات نقول : لعلهما حدثا متقاربين فنزلت الآيات بشأْنهما ، وليس مهما أن يعرف السابق منهما .

ويستوى فى حكم اللعان الزوجات المدخول بهن وغيرهن ، وكذلك المعتدات عن طلاق رجعى ، وقد عرَّفوا اللِّعان شرعًا : بأنه كلمات معلومة ، جعلت حجة للمضطر إلى قذف من لَطَّخت فراشهُ وألحقت به العار ، أو إلى نفى الولد عن نفسه ، وسُمِّى لعانًا لاشتماله على كلمة اللعن ولأن كُلًّا من الزوجين يبعد به عن الآخر بعدًا أبديًا فلا يتناكحان أبدًا .

وقد شرع اللعان لتخليص الزوج من حد القذف إذا قذف زوجته بالزنى ولم يجد له شهودًا أربعة عدولًا على قذفها ، وهى مصرة على تبرئة نفسها مما اتهمها به .

وضعت حملها وفطمت صبيها ، لهذا نرى أن المسألة جديرة بالنظر من رجال الفقه المعاصرين والله - تعالى - يهدى إلى سواء السبيل .

حاشية : الرقيق والأمة اللذان سبق لهما الزواج ، لا يرجمان إذا زنيا ، بل يجلد كلاهما خمسين جلدة ، لأنهما على النصف من الحُرِّ فِي الحدِّ ، والرجمُ لا يقبل التجزئة ، فعدل به إلى الجلد فيهما .

المعنى الاجمالى للآية واحكامها

أما وقد فرغنا من البحوث الهامة فى الآية ، فإلى القارىء فيما يلى معناها الإجمالى : الزانية التى وطئها باختيارها رجل لا يحل له وطؤها ولم يسبق له الزواج ، والزانى الذى وطىء امرأة باختياره يحرم عليه وطؤها ولم يسبق له الزواج ، يجلد كل منهما مائة جلدة إذا كان حرًّا بالغاً عاقلا ، أما من فيه رق فإنه يجلد خمسين جلدة ، لقوله تعالى : « فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ » والعبيد كالإماء فى ذلك ، ولا يقام هذا الحد إلا على من ثبت زناه بإقراره ، أو بشهادة أربعة شهود عدول رأوه بأعينهم ، أو بحَمْل المرأة وهى غير متزوجة ، ولفظاعة الزنى وقبح آثاره أوجب الله أن لا تأخذنا بالزانيين رأفة فى تنفيذ دينه وشريعته ، فلا يحل جلدهما أقل مما أوجبه فيهما ، ولا ضربهما من غير إيلام ، ولا العفو عنهما بشفاعة أو رأفة وشفقة بعد ثبوت الزنى عليهما ، رَدْعًا لهما ولغيرهما ، وحماية لأعراض المسلمين وأنسابهم من مثل جرمهما .

وقد أثار الله ما فينا من إيمان بقوله : « إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » إلهابًا لِحَمِيَّتِنا الدينية فى تنفيذ حكمه عليهما ، أى : إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فلا تأخذكم بالزانيين رأفة فى تنفيذ دينه وشرعه فيهما وقد أمر الله أن يحضر عذابهما حين إقامة الحد عليهما طائفة - أى جماعة - من المؤمنين ، زيادة فى التنكيل والتشهير ، وللعبرة والاتعاظ والأمر بحضورهم للندب وليس للوجوب على ما قاله الفقهاء ، والمراد بهم : جماعة يحصل بهم التشهير والزجر ، وأقلهم ثلاثة ، وقيل : أربعة بعدد شهود الزنى .

أما الزانى المحصن أى الذى سبق له الدخول فى نكاح صحيح فحده الرجم حتى يموت ، كما سبق بيانه فى البحوث التى سبقت هذا المعنى الإجمالى للآية ، فارجع إليها لتكون على علم بهـــا .

فى هاتين الآيتين يبين الله سبحانه ، أن للزوجة أن تدفع عن نفسها العذاب المترتب على لعان الزوج وشهاداته ضدها ، فتكذبه فيما قذفها به .

وطريقة تكذيبها إياه كما يفهم من نص هاتين الآيتين : أن تقول أربع مرات بتلقين القاضى وأمْرِه : أشهد بالله إن فلانًا لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنى ، وتميزه بالاسم والنسب إن كان غائبًا ، وتشير إليه إن كان حاضرًا ، وتقول فى الخامسة بأمر القاضى وتلقينه : وعلىَّ غضب الله إن كان من الصادقين ، فإذا قالت ذلك فلا حَدَّ عليها ، ولكنها لا تعود إلى زوجها أبدًا كما تَبْقَى الآثار الأُخرى التى ترتبت على لعانه ـ كما قال الشافعية[1] .

والغضب أعظم من اللعنة ؛ لأنه يتضمنها وزيادة ، ولذلك خصت به المرأة ، لأن جريمة الزنى منها أقبح من جريمة القذف منه ، ولهذا تفاوت الحدان .

وقبل أن يلاعن الزوج يذكره القاضى بأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا إذا لاعن كاذبًا فإن أصر على اتهامه وملاعنته لزوجته ، قال له القاضى قبل الخامسة : اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه هى الموجبة التى توجب عليك العذاب فإن أبى شهد الشهادة الخامسة ، وكذلك يفعل مع المرأة ، ويقرأ عليهما قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ... » الآية[2] .

١٠ ـ (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) :

فى هذه الآية انتقال إلى أسلوب الخطاب للرامين والمرميات ، بعد الحديث عن أحكامهما بأسلوب الغيبة ، وذلك منه تعالى لتوفية مقام الامتنان عليهم ، وجواب لولا مقدر ، ولم يذكر

---

(١) جاء فى القرطبى فى المسألة السادسة والعشرين فى تفسير هذه الآية : قال مالك وأصحابه : وبتمام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنين فلا يجتمعان أبدا ولا يتوارثان ، ولا يحل له مراجعتها أبداً لا قبل زوج ولا بعده ـ ثم قال القرطبى قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد بن الحسن : لا تقع الفرقة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما ـ ثم قال : وقال الشافعى : إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان فقد زال فراش امرأته ـ التعنت أو لم تلتعن ـ قال الشافعى : وأما التعان المرأة فهو لدرء الحد عنها لا غير ، وليس لا لتعانها فى زوال الفراش معنى ، ثم ذكر فى المسألة التاسعة والعشرين أنهما لا يتوارثان بعد تمام لعان الزوج عند الشافعية ، أما عند الحنفية ومن يرى رأيهم فيتوارثان قبل أن يفرق القاضى بينهما وإن تلاعنا .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧٧

تهويلًا لأمره ، فإنه يشير إلى أن مثله تضيق العبارة عن بيانه ، فكأنه قيل : لولا تفضل الله ورحمته عليكم ، وأنه تعالى من شأنه قبول توبة التائبين ،ولولا الحكمة فى أقواله وأفعاله وأحكامه – لولا ذلك كله – لكان ما يقصر عنه البيان ، ومن ذلك أنه لو لم يشرع اللعان للقاذف والمقذوف من الزوجين ، لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه ، لأنه أعرف بحال زوجته ، وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما فى الافتضاح ولوجب عليها حد الزنى بلعانه لو لم يُشْرع لها اللعان كما يقوله الشافعية ومن يرى رأيهم ، فجعل لعان كل منهما سببًا لدرء العذاب عنه – مع الجزم بأن أحدهما كاذب ، ولأن فى قذف الزوج لزوجته الزانية وشهادته عليها فى مجتمع التقاضى شفاءً لما فى نفسه من جرح عميق بسبب جريمة زوجته وخيانتها ، ولأن لعان الزوجة ضده فيه ستر فى الدنيا ، ولولاه لكان لأهلها وأولادها سمعة شنيعة بين الناس ، فهو يشبه ردَّ الشرف الذى سلبه لعانه منها ، وأمر كليهما مفوض لخالقه ، فهو أعلم بالصادق والكاذب منهما ومُجَازٍ له على صدقه أو كذبه ، ولقد شرع الله ما هو أستر للزوجين وذريتهما وأهليهما ، وهو أن يطلق الزوج زوجته إذا عرف زناها ، دون أن يعلم الناس بما حصل منها ، ففى ذلك درءٌ للشناعة والفضيحة التى تحدث من تلاعنهما فى المسجد على المنبر أمام الناس ، كما يقول به الفقهاء – تغليظًا عليهما – والله تعالى أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

المفردات :

(جَآءُوا بِالْإِفْكِ) : الإفك أشد الكذب ، وقيل : هو البهتان لاتشعر به حتى يفجأك — وقد يستعمل فى الكذب مطلقًا . (عُصْبَةٌ مِّنكُمْ) : جماعة من بينكم ، وتطلق العُصْبة لغة على الجماعة من عشرة إلى أربعين — كما قال صاحب المختار — وقد تطلق على أقل منهم .

(تَوَلَّى كِبْرَهُ) : أى تولى معظمه وقام به ، قرئ بكسر الكاف وضمها ، ومعناهما واحد .

(لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ) : لولا مِثلُ هَلّا للتحضيض على فعل أمر وترك ضده ، وسيأتى شرحه .

(شُهَدَآءَ) : الشهداءُ جمع شهيد ؛ أى : شاهد .

التفسير

١١ — (إِنَّ الَّذِينَ جَآءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَاتَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...) . الآية .

المراد بالإفك هنا : ما افتراه المنافقون على أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — وقد نزلت فى شأنه عشر آيات هذه أولاها ، وقد برأ الله فيها عرضها وعرض أهلها ، وصان كرامة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد قام بمعظم الإفك رأس المنافقين عبدالله بن أبى بن سلول — عليه

لعنة الله - ، فهو الذى اختلقه ونشره ، حتى دخل فى أذهان بعض المسلمين فتكلموا به ، وجوزه آخرون منهم ، وبقى الأمر كذلك قريبا من شهر حتى نزل القرآن مبرئا لها على أكمل وجه ، وروته الأحاديث الصحيحة مبرئة ساحتها ، ونشأت هذه الفرية النكراء عن أمر برىء حدث فى غزوة بنى المصطلق(١) ، فاستغله المنافقون أعداء الإسلام أسوأ استغلال .

وخلاصة القصة مستنبطة من صحاح الأحاديث أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان كلما خرج فى غزوة أقرع بين نسائه ، وحينما خرج فى غزوة بنى المصطلق سنة ستٍّ أقرع بينهن فخرج سهم عائشة - رضى الله عنها - فخرجت معه ، وكان ذلك بعد ما فُرِض الحجاب ، ولهذا كانت تُحْملُ فى هودج وتنزل فيه ، ولما انتهت الغزوة وعاد الرسول ، نزلوا قريباً من المدينة ، وأثناء الليل ، أمر الرسول بالرحيل فنزلت لتقضى حاجتها بعيداً عن مكان نزول الجيش ، ثم عادت إلى رَحْلِها وفوجئت بأن عقدها قد انقطع - وكان من جَزْع ظَفَار(٢) فعادت لتبحث عنه فتأخرت بعض الوقت ، وجاء الذين يحملون هودجها فرفعوه على بعيرها ظانين أنها فيه ، لأن النساء كُنَّ خفاف الجسم لقلة الغذاء فى صدر الإسلام ، كما أنها كانت حديثة السن ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، ولما عادت بعقدها وجدت الجيش قد رحل فبقيت حيث كانت تنزل ونامت ، لعلهم يتفقدونها فلا يجدونها فيرجعون إليها لترحيلها ، وكان صفوان بن المعطل السلمى وراء الجيش ، ليجمع ما نسيه المجاهدون ، فرأى سواد إنسان نائم فلما رآها عرفها لأنه كان يراها قبل الحجاب ، فاسترجع(٣) فغطت وجهها عنه ، وقالت : والله ما سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، فأناخ راحلته ، وداس على يدى الناقة حتى رَكِبَتْهَا ، وانطلق يقود الراحلة حتى أدرك الجيش ، فكان ذلك مثاراً لإفك عنهما افتراه وتولى إذاعته عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين .

---

(١) ويقال لها أيضا غزوة المريسيع : قاله القرطبى .

(٢) ظفار كقطام : بلد باليمن قرب صنعاء ، ينسب إليه الجزع بفتح الجيم وكسرها ، وهو خرز فيه سواد وبياض تشبه به الأعين .

(٣) أى قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد أدرك المرض السيدة عائشة ، فلزمت الفراش شهرا ، وهى لا تدرى بما يتردد بين الناس من أصداء ما افتراه عبد الله بن أُبى بن سلول ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يسأل عن حالها سؤالا مجملا بقوله : (كيف تيكم؟) وينصرف دون أن ترى منه اللطف الذى كانت تعتاده فى مرضها ، وحين خرجت من مرضها إلى طور النقاهة منه ، عادتها أُم مسطح بنت خالة أبى بكر ، ثم قالت : تَعِسَ مِسْطح ، فقالت لها السيدة عائشة : بئس ما قُلتِ ، أتسبين رجلا شهد بدراً ؟ قالت : أو لم تسمعى ما قال : فقالت عائشة : وما قال ؟ فأخبرتها بما أذاعه أهل الإفك عنها ، فازدادت مرضا ، فلما دخل عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - استأذنته فى أن تذهب إلى بيت أبيها - وكانت تريد أن تعرف القصة من والديها - فأذن لها الرسول ، فلما ذهبت إليه سألت أُمها عما حدثتها به أُم مسطح ، فقالت : يا بنَيَّةُ هوِّنى عليك ، فوالله لَقَلَّما كانت امرأة قطُّ وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلاَّ أكثرن عليها ، قالت عائشة : سبحان الله ؛ أوَقَدْ تحدث الناس بهذا ، فبكت ليلتها وفارقها النوم حتى أصبحت وهى لا يَرْقأُ لها دمْعٌ ، وقد استدعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسامة بن زيد وعليا - رضى الله عنهما - ليستشيرهما ، وبريرة جاريتها ليسمع شهادتها بشأنها ، وخرج من حديثهم معه بما أراح نفسه وطمأنه على أهله ، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى المسجد على المنبر وقال : يا معشر المسلمين من يَعْذِرنى[1] من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ؟ فو الله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى فقام سعد بن معاذ الأنصارى سيد الأوس فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من الخزرج أمَرْتنا ففعلنا أمرك ، فثار نقاش بين الخزرج والأوس ، بسبب تدخل سعد بن معاذ فى أمرهم ، وحسمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانت السيدة عائشة قد عادت إلى بيتها بأمر أبيها ، فظلت يومها هذا تبكى وكان معها أبواها ، وكانا يظنان أن البكاء سيغلق كبدها - كما روت عنهما - ثم دخل عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجلس معهم ، ولم يسبق له أن جلس عندها منذ قيل ماقيل ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنها بشىء ، فسألها عما يذيعه المفترون عليها ، ثم أجابت

(١) أى : من يقوم بعذرى إذا أردت مكافأته على سوء فريته .

بعد أن بَحَثَتْ عن آية من القرآن تجيبه بها ، وكانت يومئذ لا تحفظ منه كثيراً - أجابت بقولها : والله ما أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » ثم اضطجعت على فراشها ، وهى تعلم أنها بريئة وأن الله سيظهر براءتها ولكنها - كما قالت - ما كانت تظن أن يُنْزِل فى شأنها وحياً يتلى وأن يصل أمر تبرئتها عند الله إلى مثل ذلك ، وكل ما كانت تأمله أن يُرِىَ اللهُ رسوله فى منامه رؤيا يبرئها الله فيها ، وبينما كانوا جميعا فى مجلسهم هذا إذ أوحى الله إلى نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من الشدة عند نزول الوحى حتى كان ينزل العرق منه مثل الجُمان - أى اللؤلؤ - فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى أُنزل عليه ، فلما سرِّى عن رسول الله وهو يضحك ، قال لعائشة : أبشرى يا عائشة ، أما اللهُ فقد برأك ، فقالت لى أمى : قومى إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله - عز وجل - هو الذى أنزل براءتى ، وأنزل سبحانه « إِنَّ الَّذِينَ جَآءُوا بِالإِفْكِ . . . . . » عشر آيات فى براءتها .

وهذا الافتراءُ الذى حدث فى حق عائشة - رضوان الله عليها - حدث مثله للسيدة مريم ، وكان من أقرب الناس إليها وهم أهلها ، وكما برأ الله مريم على لسان عيسى ، برأ السيدة عائشة بوحى يقرؤه الناس نزل به الروح الأمين على خاتم المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

والعُصبة : الجماعة من الناس من العشرة إلى الأربعين ، وقد تطلق على ما دون ذلك كما تقدم فى المفردات ، وقد ذكرت السيدة عائشة منهم : عبدالله بن أُبى بن سلول ، وحمنة بنت جحش ، ومسطح بن إثاثة ، وحسان بن ثابت ، وكان عبد الله بن أُبىٍّ رأس الحية ومثير الفتنة ومخترعها - عليه لعنة الله - وقد اعتذر حسان عما نسب إليه فى شأنها بقصيدة جاء فيها :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبة ... وتصبح غَرْثَى من لحوم الغوافل[1]
حليلة خير الناس دينًا ومنصبًا ... نبىٌّ الهدى ذى المكرمات الفواضل
عقيلةُ حىٍّ من لؤى بن غالب ... كرامِ المساعى مَجْدُهم غيرُ زائل
مهذبة قد طَيَّب الله خِيْمَها ... وطهرها من كل سوءٍ وباطل

---

(١) الحصان : العفيفة ، والرزان : الوقورة ، ومعنى ما تزن بريبة : أنها لا يصح أن تظن بها ريبة أو توصف بها ، ومعنى الشطر الثانى : أنها تصبح نحيلة الجسم من غيبة من يأكلون لحوم المحصنات الغافلات .

والمعنى الإجمالى : إن الذين اختلقوا البهتان فى حق عائشة أم المؤمنين وأذاعوه هم جماعة وشرذمة ينتسبون إليكم بأُخوَّة الإسلام فكيف رضوا بإذاعته ؟ لا تظنوا هذا الافتراءَ شرًّا لكم بل هو خير عظيم لكم ، لنيلكم الثواب الجزيل بالصبر عليه ، وظهور كرامتكم وكرامة زوجكم المصون على ربكم ، بإنزال ما فيه تعظيم شأنكم ، وتشديد الوعيد لمن تكلم بما أحْزَنكم، كما قال سبحانه :

(لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

أى : لكل امرىءٍ من الذين جاءُوا بالإفك جزاءُ ما اكتسب من الإثم بقدر ما خاض فيه سواءٌ أكان ذلك اختلاقًا ورضًا أم تَرْديدًا وإذاعة ، والذى تحمل معظمه فقام بأكبر حظ من إعلانه ، له عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة .

وكان أول من اختلقه وأذاعه عبد الله بن أُبَىّ بن سلول ، فكان يجمع الناس ويذكر لهم ما يذكر من الإفك ، لإمعانه فى عداوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد كافأه الله فى الدنيا بتكذيبه وإعلان نفاقه وإقامة حد القذف عليه كما أخرجه الطبرانى وابن مردويه عن ابن عمر ، وأخرجه الطبرانى أيضًا عن ابن عباس ، كما أقام حد القذف على مسطح وحسان وحمنة ، أخرجه البزار وابن مردويه بسند حسن عن أبى هريرة .

ولما بلغ صفوانَ اشتراكُ حسان فى الإفك عنه وعن أم المؤمنين ، جاء فضربه بالسيف ضربة على رأسه وقال :

تَلَقَّ ذبابَ السيف عنى فإننى غلامٌ إذا هوجيت ليس بشاعر
ولكننى أحمى حماى وأتَّقى من الباهت الرأى البرىء الظواهر

وقد حال دون قتل صفوان لحسان ثابت بن قيس بن شماس ، فقد وثب على صفوان ومنعه من الإجهاز عليه ، وكان صفوان بن المعطل المذكور ، صاحب ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزواته لشجاعته ، وكان من خيار الصحابة ، وروى عنه أنه قال : والله ما كشفت كَنَفَ أنثى قط ، يريد : ما كشفها بزنى ، وقُتِل شهيدًا ـ رضى الله عنه ـ فى غزوة

أرمينية سنة تسع عشرة فى زمان عمر ، وقيل : ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين فى زمان معاوية[١]

١٢ - (لَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ) :

والمعنى : هلَّا حين سمعتم أيها المؤمنون والمؤمنات هذا الإفك ممن أذاعوه ، ظننتم بأهل ملتكم : عائشة وصفوان خيرًا وطهرا ، وقلتم بلا تردد : هذا افتراءٌ واضح مكشوف لا نرضاه لمن هم كأنفسنا ، ولا نوافق على نسبته إليهم ، وقلتم أيضًا فى شأن المفترين الخائضين على سبيل التوبيخ :

١٣ - (لَوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَـٰٓئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) :

أى : هلَّا جاءَ أصحاب الإفك بأربعة شهداءَ عدول يشهدون على ما زعموه فى شأن عائشة ، فحيث لم يأتوا بالشهداءِ ، فهم عند الله وفى حكمه كاذبون ، فكيف تصدقونهم وهم مخالفون لشريعة الله ومنافقون .

ويجوز أن تكون الآية ابتداءَ كلام من الله تقريرًا لكون ذلك إفكًا ، وليس حكاية لما ينبغى أن يقوله السامعون .

---

(١) انظره فى المسألة الثالثة فى تفسير القرطبى لهذه الآية .

(وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾)

المفـردات :

(فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ) : تفضله بالمصابرة والعفو عن التائبين . (لَمَسَّكُمْ) : لأصابكم . (فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ) : بسبب ما خضتم فيه . (تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ) : أى تطلبون بألسنتكم ممَّن يحكى هذا الإفك أن يلقيه إليكم ويعرفكم ما قيل فيه . (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا) : وتظنونه أمرًا خفيفًا لا عقوبة عليه . (وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيم) : كبير الإثم .

(مَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا) : ما يصح وما يليق بنا ونحن مؤمنون أن نتكلم بهذا . (سُبْحَانَكَ) : هذا تنزيه مشوب بالتعجب ، وسيأتى بيانه . (بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) : افتراءٌ عظيم يُحيِّر سامعه . (يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا) : ينصحكم لئلا ترجعوا إلى مثله مدة الحياة .

التفسير

١٤ ـ (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيم) :

أى : ولولا تفضل الله عليكم أيها الخائضون ، ورحمته بكم ، لأصابكم عذاب عظيم فيما خضتم فيه من الإفك فى شأن عائشة ، أما رحمته فى الدنيا فقد تمثلت فى إمهالكم حتى تثوبوا إلى رشدكم ، وتتوبوا إلى ربكم من ذنبكم ، وتعرفوا حرمة بيت نبيكم ، وأما رحمته فى الآخرة فبالعفو عمن تاب منكم ، وغفران ما اقترفته ألسنتهم ، وكل ذلك من فضل الله عليكم .

ولاينال هذا الفضل والرحمة من الخائضين سوى التائبين من المؤمنين كمسطح بن إثاثة وحمنة بنت جحش ، وحسان بن ثابت ، أما من بَقِيَ مغمورًا فى نفاقه كعبد الله بن أبى ابن سلول وأضرابه ، فلا نصيب لهم منهما ، ولاقيمة لتوبتهم الظاهرية إن تابوا .

١٥ - (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ) :

أى : ولولا فضل الله ورحمته لمسكم عذاب عظيم حين تتلقون هذا الإفك من ناقليه ، بعد طلبكم بألسنتكم سماعه وتروون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وإنما جاءكم عن طريق السماع عن الآفكين ، وتحسبون ترويج الكذب على عرض ابنة الصديق وزوج الرسول أمرًا خفيفًا سهل العاقبة ، والحال أنه عند الله أمر عظيم فى إثمه وسوء عاقبته ، فالقدح فى الأعراض شين عظيم ، وإثم كبير ، فكيف به فى عرض أم المؤمنين ، وزوج خاتم المرسلين .

جاء فى الصحيحين أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ ، يَهْوِى بها فى النار أبعد ما بين السماء والأرض » وفى رواية : « لَايُلْقِى لها بالًا » .

ويصح أن يكون المعنى : إذ يتلقاه بعضكم بألسنة بعض آخر منكم ، وتروون بأفواهكم عنهم ما ليس لكم بصحته علم ، وكلا المعنيين جيد ، وفسره مجاهد وابن جرير - كما نقله ابن كثير - بأن يرويه بعضهم عن بعض ، يقول هذا : سمعت كذا من فلان ، ويقول آخر : قال فلان كذا ، ويقول ثالث : ذكر بعضهم كذا - انتهى بتصرف ، والمعانى متقاربة وإن كان ما قلناه أولًا وثانيًا أقرب إلى النص الكريم مما نقله ابن كثير عن ابن جبير ومجاهد .

١٦ ـ (وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) :

بعد أن أدب الله الخائضين قبل هذه الآية بأن يظنوا خيرًا بمن تجمعهم بهم أُخوة الإيمان حين يسمعون عنهم قالة السوء ، جاءت هذه الآية بلون آخر من التأْديب .

والمعنى : هلَّا حين سمعتم ما لا يليق فى شأْن الخِيرَة قلتم ـ مع الظن بهم خيرًا ـ : لا ينبغى لنا ولا يصح أن نتكلم بهذا عن الأَطهار البررة ، بدلًا من ترديدكم له بالرواية عن مخترعيه ، هلَّا قلتم متعجبين ومستكبرين لما يقولون : « سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » وكذب مُحَيِّرٌ خطيرٌ لا يصح أن يقال فى عرض كرام المؤمنين .

وقد كان على هذا الخلق العالى الذى دعا إليه القرآن ـ كان عليه ـ أَصحاب القلوب الصافية ، والعقول الوضيئة ، والحس المرهف ، فعن سعيد بن جبير أَن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل فى أَمر عائشة ـ رضى الله عنها ـ قال : «سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » وعن سعيد بن المسيب أَنه قال : كان رجلان من أَصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سمعا شيئًا من ذلك قالا ما ذكر ، وهما أُسامة بن زيد بن حارثة ، وأَبو أَيوب الأَنصارى ـ رضى الله عنهما ـ ، وأَخرج ابن مردويه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : إن امرأَة أَبى أَيوب الأَنصارى قالت له : يا أَبا أَيوب أَلا تسمع ما تَحَدَّثَ به الناس ؟ فقال : ما يكون لنا أَن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، ومثل ذلك قال غيرهم وحق لهم أَن يقولوا ذلك ، فإنه لا يجوز عقلًا أَن يختار الله لرسوله امرأَة فاجرة ، فإن ذلك ينفر عن اتباعه ، ويخل بحكمة البعثة ـ هكذا قال الإمام الرازى عليه رحمة الله

١٧ ـ (يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) :

يذكركم الله ويحذركم من أَن تعودوا طول حياتكم لمثل هذا الإفك فى عائشة أَو سائر أَزواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لسوءِ عاقبته ، وعظيم عقوبته ، إن كنتم مؤمنين بالله فامتثلوا تحذيره واعملوا بنصيحته ، لتأْمنوا عذابه وسوءَ حسابه ، ويفهم من الآية الكريمة أَن مَنْ سَبَّ عائشة بعد هذا التحذير لا يكون من المؤمنين ، وهذا ما ذهب إليه الإمام مالك ، فقد نقل القرطبى عنه أَنه يقول بكفره ووجوب قتله ، ويعلل ابن العربى ذلك بأَنَّ الله برأَها فكل من سبها بما بَرَّأَها الله منه فهو مكذب لله ، ومن كذَّبَ اللهَ فهو كافر يُقْتَلُ لِرِدتَه ، تلك هى خلاصة ما ذكره القرطبى فى ذلك .

١٨ - (وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

وينزل الله لكم آياته مُبَيَّنةً واضحة الدلالة على الأحكام الشرعية ، والأخلاق الكريمة والآداب الجديرة بخير أمة أُخرجت للناس ، والله مُحيطٌ علمه بأحوال مخلوقاته وما ينبغى لهم من شرائع ، حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه ، فالتزموا ما بينه لكم من شرائعه وآدابه .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(أن تَشِيعَ[1] الْفَاحِشَةُ) : أن تنتشر المقالة المفرطة فى القبح .

(رَءُوفٌ) الرأفة : شدة الرحمة .

التفسير

١٩ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

فى هذه الآية تأْديب من الله تعالى لمن يحبون القدح فى أعراض الأعفاءِ من المؤمنين والمؤمنات .

ومعنى الآية : إن الذين يريدون ويختارون أن تنتشر تهمة الزنى فى عرض المحصنين والمحصنات[2] من الذين آمنوا ويقومون بنشرها لهم عذاب أَليم على إذاعتها فى الدنيا والآخرة ، لشدة قبح هذه الفرية فى حق من افتريت عليه ، أَما عذابهم فى الدنيا فبحد القذف ، وأَما عذابهم فى الآخرة فبنار جهنم - إن لم يقم الحد عليهم فى الدنيا ، أَو أُقيم عليهم وكانوا

(١) يقال : شاع الشىء شيوعا وشيعا وشيوعة ، أى : ظهر وانتشر .

(٢) المراد بالإحصان هنا : العفة عن الزنى ، فقذف صاحبه هو الذى يوجب الحد سواء كان المقذوف رجلا أو امرأة .

منافقين أو كافرين - فإن الحدود لا تكون جوابر ولا تحمى من النار إلَّا عصاة المؤمنين ، قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ » .

وهذه الآية قاعدة عامة يراد بها صيانة الأعراض عمومًا ، وإن نزلت بشأن قصة عائشة وصفوان التى افتراها رأس المنافقين ابن سلول .

وقد جاء فى حُرْمة ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تؤذوا عباد الله ولا تُعَيِّروهم ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم ، طلب الله عورته حتى يفضحه » أخرجه الإمام أحمد بسنده عن ثوبان ، وجاء فى حديث لأبى الدرداء أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : « أيُّما رجلٍ شدَّ عضد امرىءٍ من الناس فى خصومة لا علم له بها ، فهو فى سخط الله حتى ينزع عنها ، وأيُّما رجلٍ قال بشفَاعَته دُونَ حَدٍّ من حدود الله أن يُقَام ، فقد عاند الله حقًّا وأقدم على سُخْطِه ، وعليه لعنة الله إلى يوم القيامة ، وأيُّما رجلٍ أشاع على مسلم كلمة وهو منها برئ يَرَى أن يَشِينَه فى الدنيا كان حقًّا على الله تعالى أن يرميه بها فى النار ، ثم تلا مصداقًا لذلك : « إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا . . . » الآية

وقد عرفت من تفسيرنا للآية أن المراد من حُبِّ إشاعة الفاحشة ، أن يكون هذا الحب مقرونًا بإذاعتها فعلا ، حتى يكون بذلك قاذفًا فيستوجب حد القذف الذى جعله الله عذابه فى الدنيا ، أما إن أحب إذاعتها ولم يشترك فى نشرها فلا حد عليه ، ولكن الله يعاقبه فى الدنيا بمقتضى وعيده ، كأن يصيبه بنوعٍ من البلاء ، أو يبتليه بما تمناه لغيره - انتقامًا منه لفساد قلبه ورغبته فى الفتنة ، وكما يحرم التشنيع على المؤمنين والمؤمنات ، يحرم قذف غيرهم وإشاعة الفاحشة عنهم فإن لهم ما لنا وعليهم ما علينا(١) .

٢٠ - (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :

أى : ولولا تفضل الله ورحمته عليكم أيها الآفكون وأنه تعالى دائم الرأفة والرحمة لعباده ، لمسكم فيما أذعتموه من الإفك على زوج رسول الله المحصنة البريئة - لمسكم فى ذلك عذاب عظيم لا يقادر قدره ، ولكنه تعالى أمهلكم بموجب رأفته ورحمته ليميز الخبيث من الطيب ، ثم أنزل براءتها مما نسب إليها ، فتاب من استيقظ ضميره ، وعرف حق الله ورسوله ، فتاب الله عليه ، وأقام الحد على من ثبت عليه التشهير بذلك فَطَهر منهم من كان من المؤمنين ، وبَقِىَ فى رجسه وسوءِ عاقبته من كان من المنافقين .

---

(١) ولكن لا حد على قاذفه من المسلمين كما قاله الجمهور بل يعزر ، انظر تفسير الآية الرابعة من هذه السورة فى القرطبى - ص ١٧٤ - المسألة السادسة .

* (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن
يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ
ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ
مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) : أى وساوسه ، وهى فى الأصل جمع خُطْوة – بضم الخاء – وهى ما بين القدمين للماشى ، واستعملت هنا فى وساوس الشيطان على سبيل المجاز ، والخَطْوة – بالفتح – اسم للمرة من الخَطْو ، وجمعها خطَوات – بفتح الخاء والطاء ، تقول : خطا ، يخطو ، خَطْوة وَخَطوات . (يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ) : الفحشاء : ما أفرط قبحه كالفاحشة ، والمنكر : ما ينكره الشرع ، والشيطان يأمر بهما ، أى : يحث عليهما . (مَا زَكَا) : ما طهر . (وَلَا يَأْتَلِ) : أى ولا يحلف ، من الأَلِيَّة ، وهى : اليمين ، ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة : « لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ » : أى يحلفون . (أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ) : أصحاب الزيادة فى الدين والسعة فى المال .

التفسير

٢١ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ . . .) :

يأيها الذين تجملوا بحلية الإيمان ، لا تسلكوا مسالك الشيطان فيما يسعى إليه من الشرّ فيما بينكم ، ولا تعملوا بوساوسه ، فإنه لا يسعى إلى خير ، ولا يوسوس إلا بفتنة ، ومن يتبع خطوات الشيطان ، فيسلك سبيله ويعمل بوسوسته ، ارتكب الفحشاء والمنكر ، فإن الشيطان لا يأمر إلا بهما ، ولا يحض إلا عليهما ، ومن كان كذلك لا يجوز اتباعه وطاعته فى وسوسته ، فكيف اتبعتموه فى نشر الإفك ، وما هو إلا كاذب أثيم ؟

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَازَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

ولولا تفضل الله عليكم ورحمته بكم ، إذْ أمهلكم حتى تثوبوا إلى رشدكم وتتوبوا من ذنبكم بعد ما أنزله إليكم من الآيات البينات الناطقة بطهر ابنة الصديق الكريم زَوْجِ النبى الأمين ، وأم المؤمنين – لولا هذا الفضل والرحمة – ما طهر أحد منكم أبداً من ذنب هذا الإفك المبين ، ولكن الله يزكى ويطهر من يشاء ممن حسنت توبته ، وصفت سريرته ، والله عظيم السمع لما يقال من الذنوب والتوبة منها ، محيط العلم بالمذنبين والتائبين – مخلصين أو غير مخلصين – فيجازى كلا على حسب حاله « فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »[١] .

وهذه الآية وإن نزلت بسبب خاص ، فهى قاعدة عامة تقتضى وجوب الابتعاد عن المنكرات ، فإنها ترضى الشيطان وتغضب الرحمن الذى يعلم السر وأخفى ، وتقتضى العقاب لمن لم يتدارك ذنبه ويستغفر ربه .

---

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨

٢٢ - (وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) :

قال الألوسى فى سبب نزول الآية : صح عن عائشة وغيرها « أن أبا بكر - رضى الله عنه - حلف - لما رأى براءة ابنته - ألا ينفق على مِسْطَحٍ شيئاً أبداً ، وكان من فقراء المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدرا ، وكان ابن خالته - وقيل : ابن أخته - فنزلت الآية .

وقال القرطبى : رُوِىَ فى الصحيح : (أن الله تبارك وتعالى لما أنزل : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ » الآيات العشر ، قال أبو بكر - وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره - : والله لا أنفق عليه شيئاً أبدًا بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ » إلى قوله : « أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » فقال أبو بكر : والله إنى لأُحِبُّ أن يغفر الله لى ، فأرجع إلى مِسْطح النفقةَ التى كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبدًا) .

ويروى عن ابن عباس والضحاك : أن جماعةً من المؤمنين منهم أبو بكر - رضى الله عنه - قطعوا منافعهم عمن قال فى الإفك ، وقالوا : والله ما نَصِل مَنْ تكلم فيه ، فنزلت الآية .

ومعنى الآية : ولا يحلف أصحاب الفضل فى الدين والسعة فى المال ، كراهة أن يعطوا أصحاب القرابة والمساكينَ والمهاجرينَ فى سبيل الله الذين اشتركوا فى نشر الإفك ، وليعفوا وليصفحوا عما فرط منهم ، ألا تحبون أيها الحالفون الكرام أن يغفر الله لكم بسبب عفوكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم[1] ؟ ، والله واسع المغفرة والرحمة ، مع كمال قدرته على المؤاخذة ، وكثرة ذنوب العباد الداعية إليها .

وإذا كان سبب النزول حلف أبى بكر بالنسبة لمسطح فالجمع فى قوله : « أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ » وقوله : « أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ » لقصد تعميم الحكم فى كل من يعفو عمن أساء إليه ويعطيه بعد أن حلف على حرمانه ، أما إن كان سبب النزول عاماً كما سبق عن

(١) ويصح أن يكون قوله تعالى : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم » للتمثيل وإقامة الحجة ، أى : كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم ، فكذلك اغفروا لمن دونكم : ذكره القرطبى .

ابن عباس فالجمع ظاهر ، والآية تدل على فضل الصديق سواءٌ نزلت فيه وحده أو مع غيره ، كما تدل على أن القذف وإن كان من الكبائر ، فإنه لا يحبط العمل ، لأن الله وصف مسطحا بعد أن قال فى عائشة ما قال - وصفه بأنه من المهاجرين - أى : من الذين حصلوا على شرف الهجرة وعظيم ثوابها ، إذ لا يحْبِط العملَ إلا الكفرُ ، كما قال تعالى : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ »

كما يستنبط منها أن من حلف على عدم فعل شىء ، ثم رأى أن فعله أولى فليفعل الذى هو خير ، ولكن عليه أن يكفر عن يمينه ؛ لقوله تعالى فى سورة المائدة : « لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ .. » الآية (٨٩) .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ) : العفيفات الغافلات عما يقال فى شأن أعراضهن زوراً ولا علم لهن به . (دِينَهُمُ الْحَقَّ) : من معانى الدين فى اللغة الجزاء : أى : جزاءهم الثابت الموافق لذنبهم . (هُوَ الْحَقُّ) : هو الثابت الذى لا يعتريه شك : (الْمُبِينُ) :البيِّن الظاهر بآياته - من أبان : بمعنى ظهر واتضح - أو المظهر للناس تمام قدرته على ثوابهم وعقابهم فى هذا اليوم ، من أبان الشىء ، أى : أظهره وأوضحه .

التفسـير

٢٣ - (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) :

تضمنت هذه الآية وعيد القاذفين للمحصنات الغافلات المؤمنات باللعن فى الدنيا والآخرة ، وبالعذاب العظيم .

واختلف فى المراد بهذا الوعيد ، فقيل : هم القاذفون لعائشة - رضى الله عنها - ، مراعاة للسياق وبهذا أخذ ابن عباس وابن جبير ، والجمع فى قوله : « الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ » باعتبار أن رميها رمىٌ لسائر أمهات المؤمنين ، لاشتراكهن فى الطهر والنقاء والقرب من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونظيره جمع المرسلين فى قوله تعالى : « كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ » . مع أنهم كذبوا هودًا وحده .

وقال المحققون : هم الذين يقذفون أمهات المؤمنين ، فلا يختص بهذا الحكم من رمى عائشة وحدها ، بل يعمه ومن رمى غيرها من زوجات النبى - صلى الله عليه وسلم - حفاظًا على كرامة البيت النبوى الشريف . وبهذا الرأى قال ابن عباس فى رواية أخرى ، فقد أخرج ابن جرير والطبرانى بسندهما عنه أنه قرأ سورة النور ففسرها ، فلما أتى على هذه الآية قال : هذه عائشة وأمهات المؤمنين ، وهذا هو الراجح وبه نقول : ولم يَجْعَلْ ابن عباس لمن فعل ذلك توبة ، وجعل لمن رمى غيرهن من المحصنات التوبة ، وقرأ « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا » إلى قوله : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » الآية . والذى يظهر - والله أعلم - أن الله تعالى يقبل توبة من تاب منهم لقوله تعالى : « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » وقوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » ولأنه قد تاب مسطح وحمنة وحسان واعتذروا وقبل الرسول اعتذارهم ولم يعاملهم معاملة المرتدين ، بل أقام عليهم حد القذف ، تطبيقاً لحكم الله فى القاذفين ، ودعا القرآن الصّديق أن يعيد النفقة لمسطح وأطلق عليه لقب المهاجر ، وهو تشريف لا يناله إلا مؤمن قبل الله توبته .

فإن قيل : إن وعيد القاذفين بأنهم ملعونون فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يؤذن بكفر القاذفين ، فإن مثل هذا الوعيد لا يكون إلا للكافرين ، فالجواب عليه من وجوه :

(أحدها) أن هذا الوعيد محمول على من يقذفهن بعد نزول آيات البراءة لأزواجه - صلى الله عليه وسلم - لأنه حينئذ يكون مكذِّباً لله ، ومن كذب الله فهو كافر ملعون وله عذاب عظيم .

(ثانيها) أنه مقصود به من ظل مستبيحا للطعن كابن أُبيٍّ وشركائه من المنافقين الذين تظاهروا بالتوبة ، وقد روى عن ابن عباس تخصيص وعيد الآية بابن أبى رأس النفاق ومبْتدع الإفك .

(ثالثها) أن هذا الوعيد مشروط بعدم التوبة ، ولم يذكر هذا الشرط ، لأنه معلوم بالضرورة أن من تاب ، تاب الله عليه ، وهو الراجح لما تقدم بيانه .

وقيل : إن الآية نزلت فى مشركى مكة ، فقد كانت المرأة المسلمة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها ، وقالوا عنها : خرجَتْ لتفجر - حكاه صاحب البحر عن أبى حمزة اليمانى وأُيِّد بقوله تعالى : «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فإن شهادة الأعضاء تكون على الكفار لقوله تعالى : « وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ اللهِ . . . »(١) الآيات الثلاثة .

وإذا كان القاذفون من المسلمين ، فالمقصود من لعنهم فى الدنيا - كما قال القرطبى - : إبعادهم وضربهم الحد ، واستيحاش المؤمنين منهم ، وهجرهم وإنزالهم عن رتبة العدالة ، والإمساك عن حسن الثناء عليهم .

وأما على قول من قال : إن الآية نزلت فى مشركى مكة ، فالمراد من لعنهم : طردهم عن رحمة الله ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، مالم يُسْلِموا فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، قال تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ » .

والمعنى الإجمالى للآية على الوجه الراجح ، إن الذين يرمون بالفاحشة أزواج النبى المؤمنات العفيفات عما يفترى عليهن ، الغافلات عما ينشره الآفكون حولهن منْ قَالة السوء ، ولا علم لهن بما يفترون - إن هؤلاء القاذفين - يلعنون فى الدنيا حيث يقاطعهم المجتمع ويبعدهم عن حظيرته ، ويقيم القاضى عليهم حد القذف ، وترد شهادتهم ويوصمون بوصمة الفسق ،

(١) سورة فصلت ، الآيات : ١٩ - ٢١

كما يطردون فى الآخرة من رحمة الله ، ولهم فيها عذاب عظيم لا يقادر قدره ، إلا من تاب وعمل صالحًا فإنه يرد إليه اعتباره فتقبل شهادته بعد إقامة الحد عليه ، ويغفر الله له عثرات لسانه ، أما على أن الآية نزلت فى مشركى مكة فمعناها واضح .

٢٤ - (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

المقصود من شهادة هذه الجوارح عليهم : أن الله تعالى ينْطِقُ كل جارحة بما صدر عنها ، لكبح إنكارهم وقطع أعذارهم ، وهذه الآية مرتبطة بالآية التى قبلها .

والمعنى : والذين يرمون المحصنات لهم عذاب عظيم ، فى يوم تشهد عليهم ألسنتهم بما افترته من الأكاذيب ، وردّدْته من الفحش ، وتشهد عليهم أيديهم بماجنته من التشهير بالإشارات وتشهد عليهم أرجلهم بما سعت إليه من نقل المفتريات ، فينطقها الله الذى أنطق كل شىء ، وتغلَق دونهم منافذ الإنكار ، ومفتريات الأعذار فى يوم تشخص فيه الأبصار : « يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ »[١] .

والآية وإن نزلت بخصوص واقعة القذف ، فالحكم فيها عام يتناول جميع مايكتسب بهذه الجوارح من المعاصى .

٢٥ - (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ)[٢] :

أى :يومئذ تشهد عليهم جوارحهم ، يوفيهم الله جزاءهم الحق المناسب لما كسبوه من السيئات ، ويعلمون مما يشاهدونه من عدالة الله وقدرته وعظمته التى تتجلى فى أحوال القيامة وأهوالها - يعلمون أن الله هو الإله الحق الذى لا ريب فيه ، الظاهر الذى لا خفاء فى ألوهيته وعدالته وقدرته ، أو المظهر لأهل الحق حقوقهم ، ولأهل الباطل أباطيلهم ، المجازى لكليهما بما كسبه فى دنياه .

---

(١) سورة غافر الآية : ٥٢

(٢) اسم فاعل من أبان ، ويكون لازما بمعنى ظهر ، ومتعديا بمعنى أظهر ، كما يتضح من تفسيرنا للآية .

(ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(الْخَبِيثَاتُ) : ضد الطيبات . (الْخَبِيثُونَ) : ضد الطيبين . والْخبْثُ : الرداءة .

(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) : وثواب سَخِيٌّ ، وهو الجنة ، كما قاله أكثر المفسرين .

التفسير

٢٦ - (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ . . .) الآية .

هذا كلام مستأنف مبنى على سنة الله الجارية بين الخلق ، من أن شبيه الشيء منجذب إليه ، وفى هذا المعنى يقول القائل : إن الطيور على أشباهها تقع . والآية مرتبطة بما قاله الآفكون فى شأن عائشة - رضى الله عنها - .

والمعنى : ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا لأنها طيبة فإنه أطيب من كل طيب من البشر ، فلا يليق به سوى الطيبات ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدراً ، ولا حسب سنة الله فى خلقه ، فإنه جعل الطيبات للطيبين ، والطيبين للطيبات ، والخبيثات للخبثين والخبيثين للخبيثات .

وقال ابن عباس فى تفسيرها ما معناه : الخبيثات من الأقاويل للخبيثين من الرجال ، فلا توجه إلى غيرهم ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من الأقاويل . فهم جديرون بها ، والطيبات من الأحاديث للطيبين من الرجال ، فهى حق لهم ، والطيبون من الرجال للطيبات

من الأحاديث فلا يعدل بها عنهم - واختاره ابن جرير ، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين منهم ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به ، وهى أولى بالبراءة والنزاهة منهم ، ولهذا قال : « أُولَـٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ »[1] ولهذا ختم الله الآية بما هو نتيجة لهذه المقدمة فقال :

(أُولَـٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) : أى أن أهل هذا البيت الكريم بعَدَاءُ عما يقوله أهل الإفك والعدوان لهم ، بسبب ما قيل فيهم من الإفك مغفرة عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الهفوات أو لما يعد بالنسبة إليهم هفوات ، وإن كان بالنسبة لغيرهم مكرمات ، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولهم بسبب ذلك رزق عظيم فى جنة الرحمن الرحيم .

وبعد ، فإن نزول هذه الآيات العظيمة فى تبرئة أم المؤمنين عائشة ، فيه مزيد اعتناء بشرف الرسول وكرامته على الله ، وجبر لقلب صاحبه أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وكذا قلب زوجته أم رومان ، فقد اعتراها من حديث الإفك هَمٌّ جسيم ، كما أن فيه تكريما لعائشة - رضى الله عنها - لمزيد انقطاعها إلى الله - عز وجل - ولجوئها إليه فى محنتها .

---

(١) انظر ابن كثير .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ
حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ
لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ
مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(تَسْتَأْنِسُوا) : تطلبوا أنس أهل البيت باستئذانكم إياهم فى دخوله ، حتى لا تحدث لهم وحشة ورعب بدخولكم عليهم دون استئذان .

(هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ) : هو أطهر لكم – من الزكاة ، بمعنى : الطهارة – أو أنفع لدينكم ودنياكم – من الزكاة بمعنى النمو – (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) : ليس عليكم حرج .

(فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ) : أى فيها حق استمتاع بها لكم ، وسيأتى شرحه .

(مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) : ما تظهرون وما تخفون .

التفسير

٢٧ – (يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) :

لا يزال الحديث ممتداً فى تأديب الله لعباده نحو حرماتهم ، فقد أنزل هذه الآية وما بعدها ليعلمهم أن للبيوت حرمات لا يحل انتهاكها بدخولها دون استئذان ، وسبب نزولها : ما رواه

الطبرانى وغيره عن عدى بن ثابت : أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله ، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتى الأب فيدخل علىّ وإنه لا يزال يدخل علىّ رجل من أهلى وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزلت الآية ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أفرأيت الخانات والمساكن فى طرق الشام ليس فيها ساكن ؟ فأنزل الله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ . . . »(1) الآية .

وقال مقاتل بن حيّان : كان الرجل فى الجاهلية إذا لقى صاحبه لا يسلم عليه ، ويقول : حيّيت صباحا ، وحييت مساء ، وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول : قد دخلت ، فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله ، فغير الله ذلك كله فى ستْرٍ وعفة ، وجعله نقيا نَزهًا من الدنس والقذر والدرن ، فأنزل الله هذه الآية(2) : اهـ .

فأنت ترى أنه تعالى نهى فيها عباده عن دخول بيوت غيرهم حتى يستأْنسوا ويسلموا على أهلها ، والمراد من الاستئناس هنا : الاستئذان ، وبه قرأ عبد الله بن عباس وسعيد ابن جبير ، وقد فسره به الجمهور ، وأصل الاستئناس : طلب الأُنس الذى هو ضد الوحشة ولما كان المستأْذن يريد باستئذانه أن يأنس به أهل البيت ولا يستوحشوا منه فيأْذنوا له ، عبر عن استئذانه بالاستئناس على سبيل المجاز .

وفسره بعضهم بالاستعلام ، كما فى قوله تعالى : « فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا » أى : فإن علمتم ، والواقع أن التفسيرين متقاربان ، فإن الاستئذان مع ما فيه من طلب الإذن فيه طلب العلم بوجود أهل البيت وبرضاهم عن دخوله .

وقد تضمنت الآية أن يقرن المستأْذن السلام باستئذانه ، وظاهر النص تقديم الاستئذان على السلام ، ولكن الأولى العكس حسبما ورد عن النبى – صلى الله عليه وسلم – والواو لمطلق الجمع ، فلا تقتضى الترتيب ، وصورتهما : أن يقول المستأْذن : السلام عليكم ،

(1) انظره فى تفسير القرطبى لهذه الآية .

(2) انظر ابن كثير ج ٦ ص ٤٢ ط الشعب .

أأدخل؟ فقد أخرج أبو داود عن رِبْعِيّ قال : (حدثنا رجل من بني عامرٍ استأْذَنَ على النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو فى بيت فقال : ألِج ؟ فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – لخادمه : « أخرج فعلمه الاستئذان فقل له : قل : السلام عليكم أأدخل ؟ » فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن له النبي – صلى الله عليه وسلم – فدخل) .

ومن العلماء من قال بتقديم الاستئذان ، فإذا أذن له فدخل سلم ، وهذا الرأى يوافق ظاهر الآية ويخالف ما رواه أبو داود عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وقد تقدم قبل هذا ، وهو أحق بالاتباع .

ويسن الاستئذان إلى ثلاث مرات إن لم يؤذن له بعد الأولى والثانية ، فإن لم يؤذن له بعد الثالثة انصرف ، فقد جاء فى الصحيح أن أبا موسى الأشعرى حين استأْذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأْذن ؟ – يعنى أبا موسى – ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما رَجَعَكَ ؟ قال : إنى استأْذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « إذا استأْذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف . . . » الحديث .

وقد كانت البيوت من غير أبواب ولم يتخذ لها الستور ، فكانت السنة أن يقف المستأْذن بجانب المدخل يمينا أو يساراً ولا يستقبله ، روى أبو داود عن عبد الله بن بشر قال : (كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : « السلام عليكم » وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور)[1] .

فإن قيل : ما الحكم بعد أن استحدث الناس الأبواب ، وسكنوا فى الطوابق ، واستحدثوا أجراساً على أبوابهم ؟ فالجواب : أن الاستئذان يكون فى هذه الحالة إما بدق الباب أو بقرع الأجراس ، فقد صح عن أبي موسى الأشعرى (أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان فى حائط بالمدينة على قفِّ بئر ، فمد رجليه فى البئر فدق البابَ أبو بكر ، فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « ائذن له وبشره بالجنة ») والحائط : البستان ، وقفُّ البئر : الدكة المرتفعة التى تجعل حولها .

(١) القرطبى ج ١٢ ص ٢١٦ – المسألة السابعة .

وينبغى أن يكون الدق خفيفاً غير مزعج ، فقد روى أنس بن مالك –رضى الله عنه– قال : (كانت أبواب النبى –صلى الله عليه وسلم– تقرَع بالأظافر) رواه الخطيب فى جامعه[١] .

وكما يشرع الاستئذان للرجال يشرع للنساء ، فقد يكون أهل البيت على حال لا يحسن أن يطلع هؤلاء النساء عليها ، فالخطاب فى الآية للذكور على وجه التغليب لا التخصيص ، فإن النساء شقائق الرجال فى الأحكام إلا ما خص كلا منهم كأحكام الحيض والنفاس للنساء ، ومضاعفة الميراث للرجال ، ويؤيد العموم ما أخرجه الطبرانى عن أبى أمامة – رضى الله عنه– عن النبى –صلى الله عليه وسلم– قال : « من كان يشهد أنى رسول الله فلا يدخل على أهل بيت حتى يستأذن ويسلم ، فإذا نظر فى قعر البيت فقد دخل »[٢] أى : فإذا نظر فى داخل البيت قبل أن يؤذن له ، فكأنما دخل قبل الاستئذان ، وذلك لا يحل له ، فأنت ترى أن الحديث جاء بصيغة العموم التى تعم الرجال والنساء .

فإذا استأذنت فقيل لك : من الطارق مثلا ؟ فيكره أن تجيبه بقولك : أنا ، فقد روى الصحيحان وغيرهما عن جابر بن عبد الله –رضى الله عنهما– قال : (استأذنت على النبى –صلى الله عليه وسلم– فقال : « من هذا ؟ » فقلت : أنا ، فقال : « أنا ، أنا » كأنه كره ذلك) وربما ترجع كراهة النبى لذلك ، إلى أن فى ذكر الاسم إسقاط كلفة السؤال والجواب ، فإن لفظ (أنا) لا تحصل به المعرفة ، وربما أوهم غرورَ المجيب بنفسه ، فكأنه يرى أنه الشخص الذى لا يجهله أحد ، فيكفى أن يقول عن نفسه : (أنا) ليعرف .

وثبت أن عمر بن الخطاب أتى النبى –صلى الله عليه وسلم– وهو فى مشربة له ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم أيدخل عمر ؟ ، وفى صحيح مسلم ، أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : (السلام عليكم ، هذا أبو موسى ، السلام عليكم هذا الأشعرى . . .) الحديث .

وهذه الأحكام إنما هى فى بيت ليس لك ، فأما بيتك فلا تستأذن فيه على أهلك ، ولكن تسلم عليها إذا دخلت فإن كان معها أمك أو أختك فاستأذن ؛ فقد تكونان على حالة

---

(١) انظر المسألة التاسعة من القرطبى . (٢) الآلوسى ج ١٨ ص ١٢٢ طبعة منير .

لاتحب أن تراهما فيها ، روى عطاء بن يسار أن رجلا قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- : أستأذن على أمي ؟ قال : « نعم » قال : إني أخدمها ، قال : « استأذن عليها » فعاوَدَها ثلاثاً ، فقال : « أتحب أن تراها عريانة ؟ » قال : لا . قال : « فاستأذن عليها » ذكره الطبرى[١] .

والمعنى الإجمالى للآية : يا أيها الذين آمنوا ذكوراً وإناثا - لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ، حتى تستأذنوا مَنْ له حق الإذن من أهلها فى الدخول عليهم وتسلموا عليهم تحية لهم ، ذلكم الاستئذان والسلام خير لكم من الدخول بغتة ، لما فيه من الاطلاع على عوْرات إخوانكم وإزعاجهم ، وخير لكم من تحية الجاهلية إذ كانوا يقولون : حييتم صباحا وحييتم مساء ، وقد أرْشِدْتم إلى ذلك لعلكم تتذكرون وتتعظون فتعملوا بما شرع لكم .

٢٨ - (فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) :

أثبتت الآية السابقة حكم البيوت المسكونة ، فنهت عن دخولها من غير إذن أهلها ، وجاءت هذه الآية لتبيِّنَ حكم دخول البيوت الخالية التى يملكها سواكم .

والمعنى : فإن لم تجدوا فى البيوت التى يملكها سواكم أحداً من أهلها فلا تدخلوها ، سواء أكان الباب مغلقاً أم مفتوحاً ، لأن الله أغلقه بالتحريم[٢] ، حتى يأتى من أهلها من له حق الإذن ، فتستأذنوه فيأذن لكم ، ولا عبرة بإذن خادم ولا صبى كما يقول به بعض الأئمة ، لأن مثلهما لا إذن له[٣] ، وإن قيل لكم من جهة أهل البيت : ارجعوا ولو بعد الإذن لكم بالدخول[٤] ، فارجعوا ولا تدخلوا ولا تلحوا سواء أكان الآمر بالرجوع يملك الإذن بالدخول أم لا[٥] ومثله فى حكم وجوب الرجوع الإمساك عن الإجابة ، أو الاعتذار بعدم

(١) انظره فى القرطبى - المسألة السادسة عشرة : فقد نقله عن الطبرى .
(٢) انظر القرطبى فى المسألة الثانية فى تفسير هذه الآية .
(٣) ذكره الآلوسى ، وذكر القرطبى أن الإذن يصح من الصغير والكبير من أهل البيت ، انظره فى المسألة الثالثة من تفسير الآية السابقة ، ونحن نرجح ما نقله الآلوسى ، وبخاصة فى هذا الزمان الذى كثر فيه الفساد وسوء النية فلا يصلح للإذن فيه سوى الرجال من أهل البيت .
(٤) انظره فى ابن كثير
(٥) انظره فى الآلوسى .

وجود من يلقاه أو يجالسه من الرجال أو نحو ذلك ، والرجوع عن الدخول فى هذه الأحوال وأمثالها واجب ، سواءٌ أكان فى البيت أهله أم لا ، كما أنه أدعى إلى الطهر والنزاهة ولهذا قال سبحانه :(وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ) : أى أطهر لكم لما فيه من السلامة من القيل والقال والتصرف فى ملك غيركم إن دخلتموه دون رضاه ، والدناءة والخسة إن بقيتم بالباب تَلِجُّون وتلحون ، وإنما يتوقف الدخول على الإذن ما لم يكن هناك داع شرعى كإزالة منكر توقفت إزالته على الدخول بغير إذن ، وإطفاء حريق فيجوز رعاية لشريعة الله(١) ، ثم ختم الله الآية بقوله :(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) : لِوعْدِ من امتثل أمره ووعيد من عصاه ، أى : أنه تعالى يعلم ما تفعلون وما تتركون مما كلفكم به ، ويعلم ما انطوت عليه قلوبكم من الأغراض الشريفة أو الخسيسة حين استئذانكم ، فيحاسبكم ويجزيكم على أعمالكم ونياتِكم ، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًا فشر .

٢٩ ـ (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) :

يبيح الله فى هذه الآية دخول بيوتٍ غير مسكونة بغير استئذان ، إذا كانت لها صفة العموم ، وتعتبر هذه الآية مخصصة لعموم ما قبلها .

والمراد من هذه البيوت : مالم يجعل لسكنى طائفة خاصة ، بل جعل ليتمتع بها من كان بحاجة إليه كالخانات والحمامات العامة ، ومنازل المسافرين العامة ، وحوانيت التجار ونحوها ، والمراد بالمتاع : المنفعة. فَعَنْ محمد بن الحنفية وقتادة ومجاهد :هى الفنادق التى فى طرق السابلة ، قال مجاهد : لا يسكنها أحد ، بل هى موقوفة ليأوى إليها كل ابن سبيل وفيها متاع لهم ،أى : استمتاع بمنفعتها ، وقال ابن زيد والشعبى : هى حوانيت القيساريات ، قال الشعبى : لأنهم جاءُوا ببيوعهم فجعلوها فيها وقالوا للناس : هلموا ، وقال جابر بن زيد : ليس يعنى بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة ، أما منزل ينزله قوم من ليل أو نهار ، أو خَرِبَة يدخلها لقضاء الحاجة ، فهذا متاع وكل منافع الدنيا متاع ، واستحسنه أبو جعفر

(١) انظره فى الآلوسى فى شرحه لقوله تعالى : « فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » .

النحاس ، وقال : المتاع فى كلام العرب : المنفعة ، ومنه : أمتع الله بك ، ومنه : « فَمَتِّعُوهُنَّ » (١) .

ويدل على صحة هذه الآراء ما أخرجه ابن أبى حاتم عن مقاتل أنه لما نزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا . . . » الآية .

قال أبو بكر – رضى الله عنه – يارسول الله ، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون من مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ، ولهم بيوت معلومة على الطريق ، فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها سكان ؟ فرخص سبحانه فى ذلك ، فأنزل قوله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ . . . » الآية (٢) .

فالمراد بتلك البيوت غير المسكونة : مافيها انتفاع عام ، ويدخل فيها دور العلم المباحة ، أما إذا كانت لها قيود أو بأجر ، فلابد من الاستئذان عليها والتزام شروطها ، وكذلك الفنادق التى يسكنها المسافرون بأجر فلا يدخلها أحد بغير استئذان والتزام بحدودها ، ومثلها الحمامات الخاصة ونحوها .

وخلاصة معنى الآية : ليس عليكم – أيها المؤمنون – حرج ولا إثم ، فى أن تدخلوا بغير استئذان بيوتاً غير مسكونة فيها متاع – أى : منفعة – لكم بدخولكم فيها ، كالدور الموقوفة على أبناء السبيل ، ومنازل المسافرين العامة المقامة على الطريق ليستريح فيها المسافرون ، ودور العلم العامة التى لم يجعل لها شروط تمنع أحداً من حضورها ، والبيت المعد لنزول أى ضيف ، وحوانيت التجار ، والمراحيض العامة والْخَرِبات لقضاء الحاجة – ليس عليكم جناح – أن تدخلوا هذه وأمثالها دون استئذان ، لأن لكم حق التمتع – أى الانتفاع – بها ، والله يعلم ما تظهرون وما تخفون من أعمال ونيات ، فيحاسب كل من دخل هذه البيوت المأذون بدخولها بلا استئذان – يحاسبه ويجازيه – على عمله ونيته ، فإذا كان دخوله إياها لراحة نفسه أوقضاء مصلحة شرعية له أو لغيره فله ثوابه وإن كان للفساد والإفساد ، فعليه عقابه .

---

(١) انظر القرطبى فى المسألة الثانية فى تفسير الآية . (٢) انظر الحديث فى تفسير الآلوسى للآية .

(قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ
ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ
إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ
أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ
غَيْرِ أُولِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ
عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ
وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) : يخفضوها كفًّا لها عن النظر إلى من يحرم النظر إليهن ، وكل شيء غضضته فقد كففته ، وفعله من باب رد يردُّ . (وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) : يمنعوها عن الزنى واللواط . (أَزْكَىٰ لَهُمْ) : أطهر لهم .

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) : ولايظهر من الزينة إلاماظهر منها عادة كالخاتم ، وللكلام بقية فى التفسير .

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ) :الخُمُرُ : جمع خمار وهو ما تلقيه المرأة على رأسها من الثياب لسترها ، وهو من الخمر ، بمعنى الستر ، والجيوب ، جمع الجيب ، وهوفتحة فى أعلى القميص يبدو منها بعض الجسم ، وأصله :من الجيب أو الجوب ، بمعنى القطع ، وفى الصحاح تقول :

جبت القميص أجيبه وأجوبه إذا قوَّرت جيبه ، وضربهن بالخمر على الجيوب إلقاؤهن إياها على الصدور لسترها مع الأعناق . (بُعُولَتِهِنَّ) : أزواجهن .

(أو نِسَآئِهِنَّ) : أى النساء الحرائر المؤمنات المختصات بهن كصاحبة وخادمة .

(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) : من الإماء دون العبيد . (أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ) : أى الذين يتبعون البيوت ليصيبوا من فضل الطعام ، ممن ليس لهم حاجة إلى النساء من الشيوخ الطاعنين فى السن . (أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَآءِ) : أو الأطفال الذين لم يميزوا بين عورات النساء وغيرها ، ولا يدرون ماهى العورة ، وللكلام بقية فى التفسير .

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ) : ولا يضرب المؤمنات الأرض بأرجلهن لإعلام الرجال ما يخفين من زينتهن حين يسمعون صوت الخلاخيل بسبب ضربهن الأرض .

التفسير

٣٠ ــ (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا[(١)] مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) :

شرع الله فى الآيات السابقة وجوب الاستئذان على البيوت توفيراً لحرمات أهلها ، وستراً لعوراتهم عمن يدخلونها فجأة ، وجاء بهذه الآية والتى بعدها تتميما لما قبلها من الآداب التى تحمى الأعراض ، وتحفظ فى المؤمنين والمؤمنات مكارم الأخلاق ، فقد أمر الله فيهما بغض البصر عن المحرمات ، وعدم إبداء الزينة لغير من يحل إبداؤها له ، إلى غير ذلك من الآداب والأحكام التى سنبينها .

والبصر : هو الباب الموصل إلى القلب ، وأشد الحواس تنبيها له ، وعن طريقه غالباً يكثر السقوط والانغماس فى أوحال الفتنة ، فهو بريد الزنى ورائد الفجور ، قال الشاعر :

كل الحوادث مَبدَاهَا من النظر ومعظَم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها فِعلَ السهام بلا قوس ولا وَتَر

(١) يغضوا : مجزوم فى جواب الأمر : وهو لفظ (قل) لتضمنه معنى الشرط ، كأنه قيل : إن تقل لهم غضوا يغضوا .

فلهذا عُنِىَ الشرع بإيجاب غض البصر وكفِّه عن المحرمات ، والتحذير من الفتنة عن طريقه ، كما جاء فى هاتين الآيتين ، وكما فى قوله -صلى الله عليه وسلم- : « إياكم والجلوس على الطرقات ، فقالوا : ما لنا بدٌّ إنما هى مجالسنا نتحدث فيها ، قال : فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غَضُّ البصر وكفُّ الأذى وردُّ السلام ،وأمرٌ بالمعروف ونهىٌ عن المنكر » أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى سعيد الخدرى ، واللفظ للبخارى (١)

والأمر فيها موجه إلى النبى -صلى الله عليه وسلم - لإيذانه بمتابعته لهم فى هذا الشأن. وهيمنته عليهم فيه حتى يكفوا عما اعتادوه فى الجاهلية من نظر الرجال إلى النساء والنساءِ إلى الرجال .

هذا ، وقد قيل : إن سبب نزول الآية : ما أخرجه ابن مردويه بسنده عن على بن أبى طالب قال : مر رجل على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فى طريق من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأة ، ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به ، فبينما الرجل يمشى إلى جنب حائط وهو ينظر إليها ، إذ استقبله الحائط فشق أنفه ، فقال : والله لا أغسل الدمَ حتى آتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فَأُخْبِرَه أمْرى ، فأتاه فقص عليه قصته ، فقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « هذا عقوبة ذنبك » وأنزل الله تعالى : « قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ » انظر الآلوسى .

وغض البصر :خفضه كَفًّا له عن النظر ، ولفظ (مِنْ) فى قوله تعالى : (مِنْ أَبْصَارِهِمْ) إما لا بتداء الغاية-كما قال ابن عطية - وإما أن تكون للتبعيض ، فالمراد :غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل (٢) كالنظر إلى الزوجة والمحرم ، ويجب أن يتجرد نظره إلى المحرم عن الشهوة ، بل لقد كره الشعبى أن يديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته ،

---

(١) كتاب المظالم ،باب : أفنية الدور والجلوس على الصعدات .

(٢) فجعل الغض عن بعض المبصرات غضا لبعض البصر ،على سبيل الكناية، وهى كناية حسنة كما فى الكشف .

وزمانه خير من زماننا[1] ، فإذا نظر إليها بشهوة فإثمه شديد وعقابه عنيف ، نسأل الله العصمة لعباده المؤمنين .

ونقل كثير عن السلف أنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل النظر إلى الأمرد ، وشدد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك ، وحرمه طائفة من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان .

أما نظرة الفجاءة إلى الأجنبية فلا إثم فيها ، فقد أخرج أبو داود وغيره عن بريدة -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « لا تُتبع النظرةَ النظرةَ ، فإن لك الأُولى وليست لك الآخرة » .

والمراد بحفظ الفروج أمران ، أحدهما : حمايتها من الزنى واللواط ، وثانيهما : سترها عمن لا يحل له النظر إليها من الأجانب والأقارب ، إلا فى حالات جراحتها أو علاجها أو الكشف عن مرضها ، فإنه يجوز كشفها للطبيب الأمين[2] عند الضرورة .

أما الزوجة والأمة فلا يدخلان فى الأمر بحفظ فرج الرجل عنهما ، روى بَهْز بن حكيم ابن معاوية القشيرى عن أبيه عن جده قال : (قلت يا رسول الله : عوراتنا ؛ ما نأتى منها وما نذر ؟ قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك وما ملكت يمينك » ثم سأله عن الرجل يكون خالياً ، فقال -صلى الله عليه وسلم- : « الله أحق أن يستحيا منه من الناس ») نقله القرطبى ثم قال فى المسألة الخامسة ما خلاصته : أن العلماء حرموا دخول الحمام على الرجال بغير مئزر ، أخذًا من نص الآية ، فإن دخلوها بمئزر جاز ، وقد دخل ابن عباس الحمام بإزاره وهو مُحْرِمٌ بالجحفة ، أما دخول النساء فأجازه بعض العلماء لضرورة العلاج ونحوه ، مع الاستتار بنحو مئزر ، أما لغير ذلك فلا ، فقد أخرج ابن منيع بسنده عن سهل بن معاذ عن أبيه عن أم الدرداء أنه سمعها تقول : (لقينى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقد خرجت من الحمام ، فقال : « من أين يا أم الدرداء ؟ » فقالت : من الحمام ، فقال : « والذى نفسى بيده ما من امرأة تضع ثيابها فى غير بيت أحد من أمهاتها ، إلا وهى هاتكة كل

(١) انظر القرطبى .
(٢) ويشترط حضور من يمنع حضوره الخلوة إذا كان المريض امرأة ، كالزوج والأب

ستر بينها وبين الرحمن عز وجل » وأخرج البزار عن طاووس عن ابن عباس -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « احذروا بيتاً يقال له الحمام » قالوا يارسول الله يَنْفِى الوسخَ ، قال : « فاستتروا » وهذا أصح حديث فى الباب ، فإن دخله مستترا فعليه أن يحقق عشرة شروط ، منها : أن يكون بنية التداوى أو النظافة ، وأن يستتر بإزار صَفِيق ، وأن يغير ما يراه من منكر برفق - إلى آخر ماذكره القرطبى فارجع إليه إن شئت .

والمعنى الإجمالى للآية : قل -أيها الرسول- للمؤمنين : يخفضوا من أبصارهم كفا لها عن رؤية ما لا تحل رؤيته من النساء والرجال ، ويحفظوا فروجهم بمنعها عن الزنى ، وسترها عن غير زوجاتهم وإمائهم ، ذلك الغض للبصر وحفظ الفرج أطهر لهم فى الدين ، وأبعد عن دنس الإثم ، إن الله عليم بما يصنعون من امتثال أمره أو عصيانه ، فيجازى كلا على ما كسب ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

٣١ - (وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا . . . . . .) الآية .

أمر الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- فى هذه الآية أن يبلغ النساء المؤمنات ، أنهن مكلفات بغَضِّ أبصارهن وحفظ فروجهن ، مع أنهن داخلات فى حكم الآية السابقة للتأكيد ، فإن قوله : « قل لِّلْمُؤْمِنِينَ » يعم حكمه الذكور والإناث حسب كل خطاب فى القرآن ، فإن النساء شقائق الرجال فى الأحكام إلا ما خص كلا منهم بدليل أو قرينة .

وقد فهم من الآيتين أنه كما يحرم نظر الرجال إلى النساء غير المحارم ، يحرم نظرهن إليهم كذلك ، أخرج أبو داود والترمذى بسندهما عن أم سلمة (أنها كانت عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وميمونة ؛ قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه ، وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « احتجبا منه » فقلت : يا رسول الله ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « أوَ عمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟ » ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح[1] . ومنه عرف

(١) انظره فى ابن كثير .

أن نظر المرأة ولو لرجل أعمى حرام ، وكما يحرم على الرجل أن ينظر من المرأة الأجنبية سوى وجهها وكفيها[١] ، يحرم على المرأة أن ترى منه سوى وجهه وكفيه ، وكما يجب على الولى منع الفتى المراهق من نظر المرأة الأجنبية سوى وجهها وكفيها ، يجب على ولى الفتاة المراهقة أن يمنعها من نظر ما عداهما من الرجل الأجنبي ولو مراهقاً[٢]

وفهم من الآية أيضاً أنه يجب على المرأة حفظ فرجها من الزنى والسحاق ، وستره عن غير زوجها وسيدها إن كانت أمة ، ما لم تكن محرمة عليه لنحو زواج ، فلا يحل لها أن تبديه لسيدها ، وكما يحرم عليها إظهاره للعين مباشرة يحرم إظهاره بالثوب الشفاف أو الضيق ، أو بالحديث عنه ، فكل ذلك حرام ، لما يترتب عليه من إثارة الشهوة والفتنة .

وفهم من الآية أيضاً أنه يحرم على المرأة أن تبدى من زينتها إلا ماظهر منها[٣] ، والمراد منه : الوجه والكفان ، ودليل ذلك ما أخرجه أبو داود عن عائشة -رضى الله عنها- (أن أسماء بنت أبي بكر -رضى الله عنهما- دخلت على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال لها : « يا أسماءُ إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه) وبهذا النص أخذ محققو الشافعية[٤] قال القرطبي : وهذا أقوى فى جانب الاحتياط ، ولمراعاة فساد الناس ، فلاتبدى المرأة من زينتها إلا ما ظهر من وجهها وكفيها ، ونقل عن ابن خوَيْزِ مَنْدَاد من علماء المالكية : أن المرأة إذا كانت جميلة وخيف من رؤية وجهها وكفيها الفتنة ، فعليها سترهما ، وإن كانت عجوزاً أو مقبحة جاز أن تكشف وجهها وكفيها

وقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب ، وقال سعيد بن جبير وعطاء والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب[٥]

---

(١) وهو رأى المحققين من الشافعية ، وسيأتى تفصيل آراء المذاهب فيما يحل إظهاره من المرأة ، والله الموفق

(٢) المراهق : من قارب بلوغ الحلم من الذكور والإناث

(٣) وذلك على الأجانب كما سيأتى بيانه .

(٤) وهو الذى نقل فى الروضة عن الأكثرين ، وصوبه فى المهمات ، ومن الشافعية من قال : يحرم النظر إلى الوجه والكفين أيضا ، ذكره صاحب المنهاج ، ولكن الرأى الأول أحق وأيسر كما أنه متفق مع ما جاء فى حديث عائشة المذكور

(٥) فالزينة قسمان : خلقية ومكتسبة ، فالوجه والكفان ما ظهر من زينتها الخلقية ، والثياب ما ظهر من زينتها المكتسبة .

وروى عن ابن عباس وقتادة والمِسْور بن مخرمة : ظاهر الزينة : هو الكحل والسوار والخضاب إلى نصف الذراع والقِرطَة والفَتَخ[١] فمباح أن تبديه المرأة على الناس . هكذا نقل القرطبي عنهم ، ولكنه على هذا التفصيل - لوصح - يوقع فى الفتنة . ولهذا فنحن نرجح الرأى القائل بقصره على الوجه والكفين ، لحديث عائشة السابق[٢] . مضموما إليهما ما ظهر من الثياب على أن يكون فضفاضا غير شفاف ، فإنه لابد من رؤيته عند إظهار الوجه والكفين بحكم الضرورة .

وقال ابن عطية : ويظهر بحكم ألفاظ الآية ، أن المرأة مأمورة أن لا تبدى ، وأن تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع الاستثناء لما يظهر بحكم الضرورة فى إصلاح شأن ونحوه فمعفو عنه[٣]

واعلم أن ماظهر من الزينة على ماسبق بيانه مباح إظهاره للأجانب والمحارم . وأن مابطن منها لا يحل إبداؤه إلا لمن ذكرهم الله فى هذه الآية ، على ماسيأتى بيانه . واعلم أن السوار من الزينة الباطنة - كما قال مجاهد ، لأنها فى الذراع لافى الكفين . وهو بذلك يخالف مانقل سابقا عن ابن عباس من كونها من ظاهر الزينة ، ومن الزينة الباطنة : الخلخال والدملج والقلادة والقرْط[٤] .

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) :

الخمر : جمع الخمار ، وهو ماتغطى به المرأة رأسها ، والجيوب :جمع الجيب ، وهو كما قال الآلوسى : فتح فى أعلى القميص يبدو منه بعض الجسد[٥]

والمراد من الآية-كما روى عن أبى حاتم عن ابن جبير- : أمرهن بستر نحورهن وصدورهن بخمرهن ، لئلا يرى منها شىء

(١) القرطة - بوزن عنبة - جمع :قرط ؛ وهو حلية الأذن ؛ والفتخة بالسكون وبفتحتين :الخاتم ؛ وجمعها : فتخ بفتحتين

(٢) ولظهورهما فى الصلاة والحج .

(٣) انظر المسألة الثالثة فى تفسير القرطبى للآية .

(٤) انظر الآلوسى .

(٥) وفى الصحاح : تقول : جبت القميص أجوبه وأجيبه إذا قورت جيبه .

وكان النساء يغطين رءوسهن بالخُمر، ويَسْدلْنها[1] كعادة الجاهلية من وراء الظهر فتبدو نحورهن وبعض صدورهن .

وصح أنه لما نزلت هذه الآية ، سارع نساء المهاجرين إلى امتثال ما فيها ، فشققن مروطهن[2] فاختمرن بها تصديقا وإيمانا بما أنزل الله - تعالى - من كتابه .

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ :

بعد أن أجاز الله للمرأة فى صدر الآية أن تبدى للأجانب من زينتها ما يظهر منها عادة ، عقبه بإجازة أكثر منه لأنواع عيَّنَهَا فيها

وأول هذه الأنواع : (البعولة) جمع بعل ، ويطلق على الزوج ، وكذا على السيد ، كما قاله ابن العربى ، ومنه ما جاء فى حديث جبريل عن أشراط الساعة فى إحدى الروايات : « إذا ولدت الأمة بعلها » يعنى سيدها ؛ لأنها إذا استولدها سيدها ، فولدها يكون سببا فى عتقها بعد موت أبيه ، فكأنه سيدها الذى من عليها بالعتق[3] ، فكل من الزوج والسيد يرى زينة المرأة كلها ، وله الحق فى أكثر من رؤية زينتها وهو تمام الاستمتاع بها نظرا أو فراشا فى مكان الحلِّ منها ، قال تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ »[4].

أما النظر إلى الفرج فقد أجازه قوم بالقياس الأولوى على الجماع ، فللرجل أن ينظر إلى فرج زوجته وأمته ، ولهما أن ينظرا إلى فرجه ، ومنعه بعضهم لحديث عائشة : « ما رأيت منه ولا رأى منى » وحمله أصحاب القول الأول على الأدب لا على التحريم ، ومن الفقهاء من أجازه مع الكراهة ، وبه قال أكثر الشافعية[5] ، ومن الفقهاء من قال إنه خلاف الأولى ، وهو مذهب الحنفية كما حكاه الخفاجى .

---

(١) أى يرخين شعورهن ، وفعله : سدل ، من بابى : ضرب ونصر .

(٢) جمع : مرط ، وهو كساء من صوف أو حرير كان يؤتزر به .

(٣) والحديث يشير إلى كثرة السرارى بكثرة الفتوحات ، فيأتى الأولاد من الإماء ، فتعتق كل أم بولدها - انظر القرطبى .

(٤) سورة المؤمنون ، الآيتان : ٥ ، ٦ . (٥) وقليل منهم يقول بالتحريم

ولما بدأ الله بذكر البعولة؛ثنى بذوى المحارم ، وهم آباءُ المرأة وإن علوا وآباءُ الأزواج كذلك ، وأبناءُ المرأة وإن سفلوا ، وأبناءُ الزوج كذلك ، وإخوان المرأة وبنو إخوانها ، وبنو أخواتها والمراد بإخوانها :إخوتها الذكور أشقاء أو لأب أو لأم ،ومثل ذلك بنو إخوانها وبنو أَخَوَاتها وإن سفلوا ، فهؤلاء جميعا يجوز للمرأة أن تبدى من زينتها لهم أكثر مما تبديه للأجانب لكثرة المخالطة الضرورية ، وقلة توقع الفتنة ، فلهم أن ينظروا من المرأة مايظهر منها عند المهنة – أى الخدمة – كما ذكره الآلوسى .

وقال القرطبى فى المسألة الحادية عشرة : سوى الله بينهم فى إبداء الزينة ، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما فى نفوس البشر ، فلا مرية أن كشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها ، وتختلف مراتب مايبدى لهم ، فيُبْدَى للأب مالا يجوز إبداؤه لِوَلَدِ الزوج .

ونحن نرى؛أن الاحتياط والتصون فى هذا الزمان أمر ضرورى ، لفساد المعايير والأخلاق ، فلا تبدى المرأة من جسدها لغير زوجها وسيدها إلا مايظهر عند خدمتها منزلها فى ثياب مرسلة ، وحشمة واتزان ، وبخاصة مع أبناء زوجها ، فينبغى أن يكون تحفظها معهم أكثر [1]

ولم يرد فى الآية العم ،ولا الخال – مع أنهما من المحارم – والجمهور على أنهما كسائر المحارم فى جواز النظر إلى مايبدو من المرأة عند المهنة على نحو ماقلناه ، ولم يُذْكَرَا فى الآية اكتفاءً بذكر الآباء ، فإنهما عند الناس بمنزلتهم ، ولا سيما الأعمام ، وقيل :لم يذكرا لأن الأحوط أن تستتر المرأة عنهما ، حذرا من أن يصفاها لأولادهم ، فيبعثهم ذلك على رؤيتها والاختلاط بها ، وليس فى الآية ذكر الرضاع؛ وهو مثل النسب فيما تقدم [2] .

أما قوله تعالى : « أَوْ نِسَآئِهِنَّ » فالمراد منه :المسلمات المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائرهن ، أما الكوافر فلا يظهرن لهن إلا ما يظهرنه للرجال الأجانب ، وقال عبادة

(١) وعند الشافعية كما ذكره ولى الدين البصير فى كتابه (النّهاية) الذى شرح به متن أبى شجاع :أن لهم أن يروا ماعدا ما بين السرة والركبة قياسا على ما يراه السيد من أمته المزوجة ، فقد روى أبو داود وغيره :(أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال : « إذا زوج أحدكم عبده جاريته ،أو أجيره فلا ينظر إلى ما بين السرة والركبة ») ونحن لا نوافقهم على هذا القياس غير المتكافىء ، فإن الأمة لا تماثل الحرة ، وغير السيد لا يماثل السيد ، فالحق والأحوط ما قلناه وهو نظر ما يبدو عند المهنة – أى :الخدمة – دون سواه .

(٢) انظر القرطبى والآلوسى .

ابن نُمَىٍّ: كتب عمر -رضي الله عنه- إلى أبي عبيدة بن الجراح: أنه بلغني أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المؤمنين، فامنع من ذلك وحُلْ دونه فإنه لايحل أن ترى الذمية عِرْيَةَ[1] المسلمة، فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل وقال: أيُّمَا امرأة تدخل الحمام من غير عذر، لاتريد إلا أن تبيض وجهها، فَسَودَ الله وجهها يوم تبيض الوجوه.

ونقل الآلوسى عن ابن حجر الشافعى: أن الأصح تحريم نظر الذمية إلى غير مايبدو من المسلمة فى المهنة - أى الخدمة - غير سيدتها ومحرمها، ودخول الذميات على أمهات المؤمنين الوارد فى الأحاديث الصحيحة دليل لحل نظرها منها مايبدو عند المهنة.

وأما قوله سبحانه: «أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ» فالمراد منه: الإماء ولو كافرات، وأما العبيد فهم كالأجانب لايرون من زينة سيدتهن إلا ماظهر منها، وهذا مذهب أبي حنيفة، وأحد قولين فى مذهب الشافعى، قال ابن عباس: لابأس أن ينظر المملوك إلى شعر مولاته، وقال سعيد ابن المسيب: لا تَغرنكُمْ هذه الآية: «أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» إنما عنى بها الإماء ولم يعن بها العبيد، وعلل ذلك بأنهم فحول ليسوا أزواجا ولا محارم، والشهوة متحققة فيهم - انظر الآلوسى.

وأما قوله تعالى: «أَوِالتَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ[2] مِنَ الرِّجَالِ» فالمراد بهم: الذين يتبعون البيوت ليصيبوا من طعام أهلها، وليست لهم حاجة إلى النساء، لكونهم شيوخا طاعنين فى السن، وقد فنيت شهواتهم، والممسوحون الذين قطعت ذكورهم وخصاهم، فهؤلاء ينظرون من المرأة ما يبدو منها عند المهنة، أما المجبوب: وهو من قطع ذكره، والخصى وهو من قطعت خصيتاه، ففيهما خلاف، فبعضهم أباح له أن ينظر من المرأة مايبدو عند المهنة كابن الزوج ومن فى حكمه، ومنهم من جعله فى حكم الأجانب، فلا يرى منها غير الوجه والكفين، وظاهر الثياب - وهذا هو الراجح - انظر الآلوسى.

---

(١) أى: ما يتعرى منها وينكشف.

(٢) الإربة، والإرب، والمأربة، والأرب: الحاجة.

وفسره بعضهم : بالأبْلَه ، وفسره آخرون : بالصبى الذى لم يدرك ، قال القرطبى : وهذا الاختلاف كله متقارب ، ويجتمع فيمن لا فهم له ، ولا همة ينتبه بها إلى أمر النساء .

وأما قوله تعالى : «أَوِ الطِّفْلِ[1] الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَآءِ» فالمراد به : الأطفال الذين لم يعرفوا ماهى عورات النساء ، وما شأنها بالنسبة إلى الرجال ، وفسره الآلوسى بقوله : أى : الأطفال الذين لم يعرفوا ماهى العورة ولم يميزوا بينها وبين غيرها .

وهذا القول قريب مما قلناه ، وعلى هذا وذاك يكون قوله : «لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَآءِ» مأخوذا من الظهور ، بمعنى الاطلاع ، وقد جعل كناية عما ذكر .

وفسره ابن كثير بأنهم لصغرهم لايفهمون أحوال النساء وعوراتهن ، من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن فى المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيرا لايفهم ذلك ، فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما إن كان مراهقا أو قريبا منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكّن من الدخول ، وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : («إياكم والدخول على النساء» قالوا : يارسول الله أفرأيت الحَمو[2] ؟ قال : «الحَمو : الموت») .

ومنهم من فسر (الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَآءِ) بالذين لم يبلغوا حد الشهوة والقدرة على الجماع ، وإن كان قادرا على التمييز بين العورات ، من قولهم : ظهر على فلان إذا قوى عليه ، ومنه قوله تعالى : «فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ» فيشمل الطفل المذكور على هذا الرأى المراهقَ ، الذى لم يظهر منه تشوق للنساء ، والأصح عند بعض الشافعية : أنه يلزم الاحتجاب منه كالمراهق الذى ظهر منه ذلك ، وذكروا فى الطفل غير المراهق أنه إن كان قادرا على حكاية العورات وتمييزها فله حكم المحرم فى النظر ، وإلا فهو كالعدم ، فيباح فى حضوره مايباح فى الخلوة[3] .

(١) الطفل : اسم مقترن بأل الجنسية ، وقد يراد به الجمع كما هنا ، فهو بمعنى الأطفال ، ولهذا وصف بالجمع .
(٢) الحمو ، والحم : أقارب الزوج ، وإذا كان رأى النبى – صلى الله عليه وسلم – ما ذكر فى أبى الزوج وهو من المحارم فكيف يسمح بدخول غيره البيت ورؤيته نساءه ؟ .
(٣) انظر الآلوسى فى تفسير هذه الجزئية من الآية .

وأما قوله تعالى : «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَايُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ » فمعناه أنه لايحل للنساء أن يضربن الأرض بأرجلهن لتُسمع غيرها صوت خلخالها وتعلمه ماتخفيه من زينتها ، فإسماع صوت الزينة كإبدائها فى الحرمة بل أشد ، لأنه يغرى الرجال بهن ،لما فيه من إيهام أن لهن ميلا إليهم ، واستدعاء لهم ، أخرج ابن جرير الطبرى بسنده عن حضرمىٍّ (أن امرأة اتخذت خلخالا من فضة ، واتخذت جَزْعاً فى ساقها ، فمرت بقوم فضربت برجلها ، فوقع الخلخال على الجزع فصوَّت ، فأنزل الله «وَلَا يَضْرِبْنَ ...» الآية ، والجزع : خرز فيه بياض وسواد تُشَبَّه به العيون ، ويفهم من سبب النزول أن الجزع كان منظوما فى خيط حول الساق ، وأن الخلخال كان فى أعلاه فلما ضربت الأرض برجلها وقع الخلخال عليه فصوَّت .

قال الآلوسى فى تعليقه على هذا الأثر : والنساءُ اليوم على جَعْل الجزع ونحوه فى جوف الخلخال ، فإذا مشين ولو هونا صوَّت ... الخ .

وكان النساءُ فى عصرنا هذا يتخذن خلاخيل من ذهب أو فضة لها جلاجل مرتبطة بها ، تجلجلُ وتصوت عند مشيهن ، ثم تلاشت هذه الحلية أو كادت .

وكما يحرم على المرأة تنبيه الرجال إليها بضرب الأرض برجلها ، يحرم عليها تنبيههم بنحو التطيب عند خروجها ، قال -صلى الله عليه وسلم- : «كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا يعنى زانية(١) » والحديث حسن صحيح .

(وَتُوبُوٓا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) : أى وقل أيها النبى للمؤمنين فى ضمن ماكلفوا به فى هذه الآية - قل لهم - : توبوا إلى الله تعالى مما عسى أن تكونوا قد ارتكبتموه مما نهيتم عنه فيها ، ولا تتخلوا عن المتاب من آن لآخر ، فإنكم لاتخلون من التقصير فى حقوق الله - تعالى - لعلكم بالتوبة تفلحون ، وتفوزون بما تأملونه من السعادة فى الدارين .

---

(١) انظر ابن كثير ، والحديث فى تحفة الأحوذى - أبواب الاستئذان- باب : ما جاء فى خروج المرأة متعطرة .

والمعنى الإجمالى للآية : وقل أيها الرسول للمؤمنات : اخفضن أبصاركن وامنعنها من النظر إلى الرجال إلا مايبدو منهم عادة ، من غير إمعان ولا اشتهاء ، وقل لهن أيضا : يحفظن فروجهن بمنعها عن الزنى ، وسترها عن العيون بثياب لا تحكيها ، ولا يظهرن زينتهن للرجال الأجانب إلا ماظهر منها ، وهو الوجه والكفان والثياب الخارجية الفضفاضة ، وعليهن أن يسترن أعناقهن وما تظهره فتحات صدورهن من أجسادهن ، بسترها بخُمُرِهِنَّ أى : بأغطية رءوسهن ، ولا يظهرنَ زينتهن الداخلية إلا لأزواجهن أو آباء أزواجهن ، أو أبنائِهن ، أو أبناء أزواجهن ، أو إخوتهن ، أو أبناء إخوتهن ، أو أبناء أخواتهن ، وهؤلاء غير متساوين فى النظر ، فالأزواج ينظرون ماشاءوا من أجسادهن وما عليها ، أما غيرهم ؛ فلا ينظرون منهن إلا مايبدو عند المهنة .

ويباح لهن إبداءُ مثل ذلك للنساء المؤمنات ، أما الكوافر فهن مثل الرجال الأجانب فى نظر الوجه والكفين وظاهر الثياب دون سواها ، وقيل : مثل المحارم فى نظر مايبدو عند المهنة ، كما يباح للنساء المؤمنات إبداءُ مايظهر عند المهنة للرجال الذين يتبعون البيوت ، ليصيبوا من طعام أهلها وبرِّهم ، ولا يشتهون النساء ، كالرجال الواغلين فى الشيخوخة ، الذين فقدوا الحاجة إلى فراش النساء ، وكالممسوح والأبله ، أما التابعون من ذوى الإربة والحاجة إلى النساء ، فلا ينظرون من المرأة أكثر من وجهها وكفيها ، وظاهر ثيابها الفضفاض كسائر الأجانب .

ويباحُ للنساء المؤمنات أيضا إبداءُ زينتهن للأطفال الذين لايفهمون عورات النساء ووظيفتها ولا يدركون الفوارق بين العورات ، ولا يفهمون الغرض مما تبديه المرأة من مظاهر أنوثتها .

ويحرم عليهن أن يضربن الأرض بأرجلهن ، ليسمع الناس جلجلة خلاخيلهن ، ويعرفوا ماتخفينه من زينتهن فإن ذلك يوهم رغبة المرأة فى الصلة بهم ، ويطمعهم فى غشيان بيتها .

وتوبوا إلى الله أيها المؤمنون جميعا ؛ من مختلف الذنوب والمعاصى ، لعلكم بالتوبة تظفرون برضوان رب العالمين .

(وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ
وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ
وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ
ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ
فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ
ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا
لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ
إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ
وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾)

المفـردات :

(وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ) : الأيامى جمع أَيِّم ، وهو من لا زوج له ذكرا كان أو أنثى ، سبق له الزواج أو لم يسبق ، وإنكاحهم تزويجهم .

(وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ) : المراد بهم من يصلحون للقيام بحقوق النكاح من عبيدكم وجواريكم .

(وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) : كثير الرزق والإنعام .

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَايَجِدُونَ نِكَاحًا) : وليجتهد فى العفة من لايجدون أسباب النكاح.

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ) : والمماليك الذين يريدون مكاتبتكم على العتق فى مقابل عوض يؤدونه لكم ، فكاتبوهم وتعاقلوا معهمْ .

(وَلَاتُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَآء) : ولا تكرهوا إماءكم على الزنى .

(إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) : أى إن أردن تعففا .

(فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) : أى فإن الله من بعد إكراهكم لهن غفور لهن رحيم بهن ، حيث يعفو عنهن لأنهن مكرهات على البغاء .

التفسير

٣٢ - (وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَآء يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِه وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) :

لما نهى الله عما يفضى إلى السفاح المخل بالنسب ، عقبه بالحث على النكاح منعا من الانحراف إلى الإثم ، وحفظا لطهارة النسب ، والخطاب فى الآية موجه إلى الأولياء والسادة ، فالأولياء مطالبون بتزويج الحرائر والأحرار بعد استئذانهم أو التماسهم ، ولابد فى إذن الثيب الحرة أن يكون صريحا ، أما البكر فيكفى صمتها مع الرضا ، ويباشر الحر البالغ عقده بنفسه ، ويباشر الولى العقد عن موليته عند الأكثرين ، لقوله - صلى الله عليه وسلم - : «لانكاح إلا بولى » .

والسادة مكلفون بتزويج عبيدهم وإمائهم الصالحين إن طلبوا ذلك ووجد السادة فيهم خيرا ، وأمر السادة بإنكاح أرقائهم الصالحين على التجويز والإباحة عند الأكثرين كما ذكره القرطبى فى المسألة الرابعة .

والنكاح مباح عند الشافعية ، فإنه قضاء لذة كالأكل والشرب ، مالم توجبه الضرورة كخوف العنت ، أى : الزنى ، ومستحب عند الحنفية والمالكية ، لقوله - صلى الله عليه وسلم - فى الحديث الصحيح : «فمن رغب عن سنتى فليس منى » مالم توجبه الضرورة كما تقدم ، وفى المسألة تفصيلات مفيدة عند الفقهاء فليرجع إليها من شاء .

والمراد من صلاح العبيد والإماء معناه اللغوى ، وهو : صلاحهم للقيام بحقوق النكاح ، وقيل : المراد صلاحهم الدينى ، ليكونوا جديرين بعناية مواليهم وإشفاقهم عليهم .

ثم بين سبحانه أن الفقر فى الخاطب أو المخطوبة لا يمنع من المناكحة ، فإن المال غاد ورائح ، ولا حرج على فضل الله فى أن يغنى الفقير ، ولهذا زوج النبى -صلى الله عليه وسلم- امرأة برجل فقير لايملك ولا خاتما من حديد ، على أن يعلمها ما يحفظ من القرآن .

وجنح بعض المفسرين إلى أن الآية وعد من الله بالإغناء ، لكن ذلك مشروط بمشيئة الله تعالى كقوله سبحانه وتعالى : «وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»[(١)] .

ثم ختم الله الآية بقوله :(وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) : للإيذان بأنه لاينبغى عدم اليأس من فضل الله فإنه سبحانه ذو سعة فى الغنى والقدرة فلا حرج على فضل الله – عليم بأحوال عباده ، يمنحهم من رِفْدِهِ ماعلمَ أنه يصلح من أمرهم .

والمعنى الإجمالى للآية : وزوِّجُو أيها الأولياء من تتولون أمرهم من الحرائر والأحرار غير المتزوجين إن طلبوا ذلك ، ولا تمنعوهم حقهم فى سنة الله وفى إعفافهم ، وزوجوا الصالحين للنكاح من عبيدكم وإمائكم ، والفقر ليس بمانع من زواج الأحرار ، إن يكونوا فقراء فالله قادر على أن يغنيهم من فضله إن شاء ، والله واسع الغنى والقدرة ، عليم بأحوال عباده فلا يخفى عليه محتاج ، ولا تضيق موارد رزقه على الفقراء ، فهو كافل الأرزاق لجميع مخلوقاته .

٣٣ـ (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَايَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ . .) الآية .

تتضمن هذه الآية ثلاثة آداب للمؤمنين ، أولها : فيمن لايجد أهبة النكاح ، وثانيها فى حث السادة على مكاتبة أرقائهم ومساعدتهم إن علموا فيهم خيرا ، وثالثها فى منعهم من إكراه إمائهم على البغاء ، وفيما يلى الكلام على الجزء الأول من الآية .

المراد من كونهم لايجدون نكاحا : أنهم لايجدون أسبابه من مهر ونفقة[(٢)] ، وقد

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٢٨

(٢) وهو إما من إطلاق النكاح على ما تنكح به المرأة من مهر ونفقة، كإطلاق اللباس على ما يلبس ، واللحاف على ما يلتحف به ، أو بتقدير مضاف .

طلبت الآية ممن لايجدون أسباب النكاح مع توقانهم إليه ، أن يجتهدوا فى العفة والبعد عن الزنى ، وذلك بالاستعانة بالصيام كما قال – صلى الله عليه وسلم – : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »(١)

أو بالاستعانة بالصبر حتى يغنيهم الله من فضله فيتزوجوا ، وذلك خير لهم من الإقدام على الزواج مع الفقر ، انتظارا لفضل الله حسب وعد الله فى الآية السابقة ، فإنه وعد مشروط بمشيئة الله تعالى ، فإن شاء حققه وإن لم يشأ لم يحققه ، حسبما تقتضيه حكمته تعالى ، وقد أمر الله بالسعى فى قوله تعالى : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ »(٢)

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِيَ آتَاكُمْ) :

هذا هو الجزء الثانى من الآية ، وهو تأديب وإرشاد منه تعالى للسادة فى حق أرقائهم أن يكاتبوهم ذكورا كانوا أو إناثا على العتق فى مقابل جُعْل يؤدونه لسادتهم مُنَجَّماً ، أو مرة واحدة فى آخر مدة الكتابة أو نحو ذلك .

وصورة المكاتبة أن يقول السيد لمملوكه : كاتبتك على أن تؤدى مائة دينار مثلا ، فإذا أديتها عتقت ، فيقبل العبد ، وهذا القول يسمى مكاتبة وإن لم يكتب فى سجل لأنها بمعنى المعاقدة والعهد ، كما فى قوله تعالى : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » أى : عقد على نفسه عهدا بذلك ، وقيل : سمى بذلك لأنه مما يكتب .

والمكاتبة إسلامية الأصل ، فلم تكن فى الجاهلية كما نقله الخفاجى عن الدميرى وكذا قال ابن حجر ، وأول من كاتبه المسلمون؛ عَبْدٌ لعمر يسمى أبا أمية(٣) ، وقيل : نزلت فى غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له : صبيح ، طلب من مولاه أن يكاتبه فأبى ،

(١) من حديث أخرجه البخارى ومسلم عن ابن مسعود .
(٢) سورة الملك من الآية : ١٥
(٣) انظر الآلوسى .

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فكاتبه حويطب على مائة دينار ، ووهب له منها عشرين دينارا فأداها ، وقتل بحنين فى الحرب ، ذكره القشيرى ، وقال مكى : هو صبيح القبطى غلام حاطب بن أبى بلتعة (١)

وسواء أكان للآية سبب نزول أم لم يكن ، فإن الله تعالى أمر فيها المؤمنين أن يكاتبوا أرقاءهم إن طلبوا منهم ذلك ، وعلم سيد كل عبد منه خيرا ، فإن طلبها الرقيق وأباها سيده ، فله ذلك ؛ لأن إجابته ليست بواجبة بل مَنْدوبة عند أكثر العلماء ـ كما حكاه البيضاوى ـ وعَلله ؛ بأن الكتابة معاوضة تتضمن الإرفاق فلا تجب كغيرها من المعاوضات إلا عن تراض (٢) ، وقال جماعة : بوجوبها عملا بظاهر النص ، ومنهم عكرمة وعطاء وعمرو بن دينار ، وروى ذلك عن عمر بن الخطاب وابن عباس ، واختاره الطبرى ، واحتج داود أيضا بأن سيرين والد محمد بن سيرين ، سأل أنس بن مالك المكاتبة وهو مولاه فأبى أنس ، فرفع عمر عليه الدِّرة فكاتبه أنس ، قال داود : وما كان عمر ليرفع عليه الدرة فيما لايباح له أن يفعله .

والمراد بعلم السادة الخير فى أرقائهم : أن يعرفوا فيهم الدين والقدرة على الاكتساب والوفاء بما تعاقدوا عليه مع سادتهم ، وكان ابن عمر يكره أن يكاتب عبده إذا لم تكن له حرفة ، ويقول : أتأمرنى أن آكل أوساخ الناس ـ يعنى صدقاتهم ـ وبعث عمر بن الخطاب إلى عامله عُمَيْر بن سعد أن ينهى المسلمين أن يكاتبوا أرقاءهم على مسألة الناس ، وكرهه الأوزاعى ، وأحمد ، وإسحاق ، ورخص فيه مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وعلىٌّ ـ رضى الله عنه ـ وفى رواية أخرى عن مالك : أنه كره مكاتبة الأمة التى لاحرفة لها لما تؤدى إليه من فسادها .

وقد رد من قال بجواز مكاتبة من لاحرفة له على المانعين بحديث روته الصحاح عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : (دخلَتْ علىَّ بريرة فقالت : إن أهلى كاتبونى على تسع أَوَاقٍ فى

---

(١) انظر القرطبى .

(٢) وقال القرطبى : إن تعليق الأمر بالكتابة على شرط أن يعلم السيد أنّ فى العبد خيرا يصرفه عن الإيجاب لأن الخير أمر باطنى لا سبيل إلى علمه يقينا فللسيد أن يقول : لم أعلم فيك خيرا فيرجع إلى قوله . انظر المسألة الثالثة فى القرطبى .

تسع سنين ، كل سنة أوقية ، فأعينينى ...) الحديث ، ففيه دليل على مكاتبة الأمة وهى لا حرفة لها ، ولم يسأل النبى – صلى الله عليه وسلم – هل لها حرفة أم لا ؟ ولو كان هذا واجبا لسأل عنه ، لأنه بعث مبينا معلما(١) .

وظاهر الآية صحة المكاتبة على تنجيم المال – أى : تقسيطه – وعلى دفعه كله حالاً أو مؤجلا ، وبهذا أخذ الحنفية ، أما الشافعية فقد أوجبوا تنجيمه بنجمين فأكثر ، فلا تجوز عندهم بدون أجل ، أما الكتابة على مال حال فلا تجوز عندهم ، لأن الرقيق لا مال له ، فكيف يكاتب على ما يتعذر عليه دفعه ، فيكون ذلك سببا لعودته إلى الرق .

وقد طلب الله إلى الموالى أن يبذلوا لأرقائهم الذين كاتبوهم شيئا من أموالهم ، وفى معناه حَطُّ شىء من مال الكتابة ، وهو للوجوب عند الأكثرين ، ويكفى فيه أقل متمول ، وعن على – رضى الله عنه – : يحط الربع ، وقيل : يحط الثلث ، وقيل : هذا أمر لكافة المسلمين بإعانة المكاتبين ، وإعطائهم سهمهم من الزكاة ، ويَحلُّ للمولى وإن كان غنيا ، لأنه لا يأخذه صدقة – كالدائن والمشترى(٢) .

(وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

المراد من الفتيات هنا : الإماء ، وسبب نزول هذا النهى ؛ ماأخرجه مسلم وأبو داود عن جابر – رضى الله عنه – أن جارية لعبد الله بن أبى بن سلول يقال لها : مُسَيْكَة ، وأخرى يقال لها : أُمَيْمَة كان يكرههما على الزنى ، فشكتا ذلك إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فنزلت .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى قال : كان لعبد الله بن أُبَىٍّ جاريةٌ تدعى مُعَاذة ، فكان إذا نزل ضيف أرسلها له ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له ، فأقبلت الجارية إلى أبى بكر – رضى الله عنه – فشكت ذلك إليه ، فذكره أبو بكر للنبى – صلى الله عليه وسلم – فأمره بقبضها ، فصاح عبد الله بن أُبَىٍّ من يعذرنى من محمد يغلبنا على مماليكنا ؟ فنزلت ،

---

(١) انظر المسألة الخامسة فى القرطبى .

(٢) انظر البيضاوى .

وروى: كانت له ست جوار: معاذة ، ومسيكة ، وأُميمة ، وعَمْرَة ، وأَرْوَى ، وقُتَيْلَة ، يكرههن على البغاء ، وضرب عليهن ضرائب ، وروى عن على وابن عباس أنهم كانوا فى الجاهلية يُكرهون إماءهم على الزنى ، ويأْخذون أُجورهن فنهوا عن ذلك فى الإسلام ، إلى غير ذلك من الروايات والآية عامة الحكم وإن نزلت بسبب خاص .

وليس قوله تعالى: « إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا » شرطا لتحريم الإكراه فى الحقيقة ، فإن الإكراه على الزنى حرام فى كل حال ، بل المراد منه تهويل جريمة سادتهن ، حيث أكرهوهن على الزنى مع رغبتهن فى العفة - كما جاء فى سبب النزول[1] .

والمعنى الإجمالى للآية : وليجتهد فى العفة وكبح النفس عن شهواتها ، من لا يجدون أسباب النكاح من صداق أو نفقة أو زوجة مناسبة لحالهم ، أو مسكن يؤويهم وذلك بالاشتغال بتقوى الله ، وليصبروا حتى يغنيهم الله من فضله ، وعليهم أن يأْخذوا فى أسباب الغنى ليغنيَهم الله تعالى فيتزوجوا عن غنى ، والأَرقاءُ الذين يرغبون فى أن يكاتبهم سادتهم على العتق فى مقابل جُعْلٍ يبذلونه لسادتهم ، فعلى هؤلاءِ السادة أن يكاتبوهم إن عرفوا فيهم خيرا فى الدين وقدرة على السداد ، ووفاءً بالعقد ، وأن يعطوهم من مال الله الذى آتاهم ، ولو بالنزول عن بعض العوض الذى كاتبوهم عليه ، وليساعدهم المؤمنون ببعض زكاة أموالهم أو بالتصدق عليهم .

ولا تكرهوا - أيها المسلمون- جواريكم على الزنى إن أردن تعففاً - كما فعله بعضكم - يبتغون بذلك متاعا فاسداً من متاع الحياة الدنيا ، ومن يكرههن على الزنى ، فإن الله من بعد إكراههن غفور لهن رحيم بهن ، لأنهن مُكْرَهَاتٌ عليه ، أو غفور رحيم للتائبين من السادة الذين أكرهوهن .

٣٤ - ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ :

هذا كلام مستأْنف جيءَ به لبيان وضوح الآيات السابقة وجلالة قدرها ، وصدر بلام القسم وقد ، لإبراز كمال العناية بشأْنه ، أى: وبالله لقد أنزلنا إليكم فى هذه السورة

(١) ومما قيل فى الجواب عن قوله تعالى: « إن أردن تحصنا »: أنه شرط لا مفهوم له ؛ حيث أبطله الإجماع على تحريم الإكراه على البغاء مطلقا

الكريمة آيات موضحات لما تحتاجون إلى إيضاحه من الحدود وسائر الأحكام والآداب ، وأنزلنا إليكم مثلا من قبيل أمثال الذين مضوا قبلكم ، كقصة عائشة التى تماثل قصة مريم ، وقصة يوسف - عليهما السلام - حيث أسند إليهما ما أسند إلى عائشة - رضى الله عنها - ، وأنزلنا إليكم فيها ما يتعظ به المتقون ، ويبتعدون عن المحرمات والمكروهات ، فهم المنتفعون بأنوارها وعظاتها .

وقيل : المراد بالآيات المبينات ، والمثل ، والموعظة : جميع ما فى القرآن منها ، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب .

* (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) : الله هادى أهل السموات والأرض ، وللكلام بقية فى الشرح . (كَمِشْكَاةٍ) : المشكاة : موضع الفتيلة من القنديل ، وهذا هو المعنى المشهور ، ولهذا قال بعده : (فِيهَا مِصْبَاحٌ) : وهو الفتيلة التى تضىء ، وسيأتى فى الشرح مزيد بيان . (كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ) : كوكب مضىء متلألئ كالزُّهَرة[1] فى صفائه ولمعانه . . .

(١) الزهرة - بضم الزاى المشددة وفتح الهاء - : نجم قوى النور عظيم التألق واللمعان .

(مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ) : من شجرة كثيرة الخير . (لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) : أى أنها مكشوفة للشمس شرقاً وغرباً ، فليست شرقية فحسْبُ ، ولا غربية كذلك فتحرم من ضوء الشمس فى أيهما ـ وسيأتى بسط الحديث فيها .

(وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ) : ويبين الله الأشباه والنظائر لهم .

التفسير

٣٥ ـ (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . . .) الآية .

منذ بدأت هذه السورة ، ونحن نرى فيها نور الهدى والرشاد ، فقد رأينا فيها آيات بينات تحمى الأعراض ، وتصون الأنساب ، وتزجر المعتدين عليها بما فرضته من عقوبات ، كما رأينا آيات كريمة تحث على صيانة الألسنة عن قالة السوء فى المؤمنين والمؤمنات ، وعقوبة القاذفين لهم ، وقرأنا فيها آيات الاستئذان على البيوت ، وتحريم دخولها دون استئذان ، ووجوب غض الأبصار عما يحرم النظر إليه من النساء والرجال ، إلى غير ذلك من الأحكام والآداب ومكارم الأخلاق .

وقد جاءت هذه الآية لتقرر أن هذه الأحكام وأمثالها : هى من نور الله وهدايته لعباده المؤمنين ، فإنها كمشكاة فيها مصباح عظيم الضياء ، فهى تضىء قلوب المتقين ، وتكشف الظلام عنها ، كما يكشف الكوكب الدرى الظلام بنوره .

كما جاءت لتبين أنه ـ تعالى ـ يهدى لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس تقريرا لأحكامه وتنويرًا لهم ، لعلهم يتذكرون .

والنور فى الأصل : كيفية يدركها البصر ، ويدرك بسببها الْمُبْصَرَاتِ ، مثل الكيفية التى تنبعث من الشمس والقمر على الأجرام الكثيفة المقابلة لهما ، أو من المصباح على ماحوله ، والنور بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى ؛ لأن النور مدرك بالأبصار ، والله تعالى يقول : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » وبالجملة فالله تعالى منزه عن الجسمية والكيفية ولوازمهما ، ولعدم صحة إطلاق النور بمعناه اللغوى المذكور على الله تعالى ، اختلف العلماء

فى تفسيره فى الآية ، فمنهم من فسره بالهداية ، مراعاة لسياق الآية مع ما قبلها ، وقد ذهب إلى ذلك ابن عباس – رضى الله عنهما – فقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات : عن ابن عباس أنه قال : « اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى : هادى أهلهما . قال الآلوسى : وهذا وجه حسن : انتهى . ونرى أن هذا الرأى مناسب لما سبق وما لحق من الآيات ، ويكون إطلاق النور على الله – تعالى – فى هذا الرأى على سبيل المجاز .

وقال آخرون : « اللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » معناه : منَوِّرُهُمَا ، فإطلاق النور على الله تعالى بهذا المعنى على سبيل التجوز أيضاً ، كما تقول : زيد عَدْلٌ ، بمعنى : عادل ، على سبيل المجاز ، ويرشح هذا المعنى أنه قرأ بعض القراء : (اللهُ مُنَوِّرُ السمَاءِ وَالأَرْضِ) .

وقد نورهما الله – تعالى – بالكواكب والنجوم ، حيث جعلها تلقى أشعتها على الأجرام المقابلة لها ، كما نوّر الأرض بالمصابيح التى هدى عباده إلى اختراعها على اختلافها قوة وضعفاً ، وكِبَرا وصِغَرا ، وطولا وقِصَرا .

ويتناول النور على الوجه الأول وحيه – تعالى – إلى ملائكته وأنبيائه ، وهداية كل شيء لما خلق له ، كما قال – تعالى – حكاية لما قاله موسى لفرعون : « رَبُّنَا الَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ »[1] وفى هذا الجزء من الآية آراء أخرى ، وحسب القارئ ما تقدم .

(مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ) : المقصود من النور هنا : الهدى القلبى الناشئُ عن النظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، وعن التأثر بمواعظ القرآن العظيم ، وسنة النبى الكريم ، فإن الهدى الناجم عن ذلك يذهب بظلمات الحيرة والشك والوسوسة التى تغشى القلوب ، ويحِلُّ محلها الإيمان الذى لا تهزه العواصف ، ولا تقصفه الرياح القواصف ، ومَثَله فى ذلك مثل النور الحقيقى الذى تنجاب

(١) سورة طه ، الآية : ٥٠

به الظلمات ، وتَبينُ به المرئيات على حقائقها ، والضمير فى « نُورِهِ » عائد إلى الله – تعالى – [1]
فإن الهدى هداه « وَمَن يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ » .

والنور بهذا المعنى هو المشبه بالمشكاة ، وهو الذى جنح إليه ابن عباس – رضى الله عنهما – ؛ فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس أنه قال : « مثل نوره : مَثَل هداه فى قلب المؤمن » وبه قال أنس ، أخرج ابن جرير عنه أنه قال : (إلهى يقول : نُورى هُدَاى) ونقل الآلوسى أن تفسيره بالهدى هو اختيار الأكثرين ، والمشكاة : هى موضع الفتيلة من القنديل ، وقد نقله ابن كثير عن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وغيرهما ، وقال : إنه هو المشهور ، ولهذا قال بعده : (فِيهَا مِصْبَاحٌ) وهو الذُّبَالَةُ[2] التى تضىءُ ، وقيل : هى الكُوة فى الحائط غير نافذة ، وعزاه القرطبى إلى الجمهور ، وقال : إنها بهذا المعنى أجمع للضوء ، ونقل القرطبى عن مجاهد أنها هى القنديل ، وقد اشتهرت بهذا المعنى فى عصرنا ، وتفسير المتقدمين للمصباح بالزبالة ، أى : فتيلة القنديل ، ملاحظ فيه أن المصابيح فى هذا الزمان كانت كذلك ، ولهذا جاء فى النص الكريم أن هذا المصباح « يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ » .

وقد بين الله – تعالى – أن هذا المصباح فى زجاجة ، وهى القنديل ، وقد وصف الله زجاج القنديل بالصفاء والزُّهْرَة الفائقة ، حيث قال : « الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ » ومن هذا القنديل الشفاف ينفذ ضوءُ المصباح إلى ما حوله .

والمراد بالكوكب الدرى : أحد الكواكب التى يطلق عليها العرب الدرارىّ ، مثل : المشترى ، والزهرة ، وهى منسوبة إلى الدُّرّة ، لبياضها وزُهْرَتِها وحسنها .

وتشبيه الزجاجة بالكوكب الدرى يحتمل معنيين : أحدهما : أنها بما فيها من المصباح تشبهه ، وثانيهما : أنها لصفائها وجودة جوهرها تشبهه ، قال القرطبى : وهذا التأويل أبلغ فى التعاون على النور .

---

(١) أجاز بعض العلماء رجوع الضمير إلى المؤمن ، وروى ذلك عن ابن عباس فى إحدى الروايات عنه كما روى عن أبى بن كعب ، وكان يقرأ : (مثل نور المؤمن) وهناك أقوال أخرى فى مرجع الضمير ، فقيل : هو محمد – صلى الله عليه وسلم – وقيل : هو القرآن ، وما ذكرناه من رجوعه إلى الله هو الموافق لظاهر النص القرآنى .

(٢) أى : الفتيلة .

وقد بين الله أن هذا المصباح (يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ) : أى يوقد من زيتها ، والمقصود بها : الجنس من شجرة الزيتون ، وبركتها إما كثرة منافعها ، وإما لأنها تنبت فى الأرض التى بورك فيها للعالمين ، وعلى أى حال فهى كثيرة المنافع ، روى عن ابن عباس أنه قال : فى الزيتونة منافع : يسرج بالزيت ، وهو إدام ودهان ودباغ ، ووقود – يوقد بحطبه وتُفْلِه – وليس فيه شىءٌ إلا وفيه منفعة ، حتى الرماد يُغْسَل به الإبريسم . . . إلخ . والإبريسم : الحرير .

وقد جاء فى زيتها حديث أخرجه عبد بن حميد فى مسنده ، والترمذى وابن ماجه ، عن عمر – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله تعالى عليه وسلم – قال : « ائتدموا بالزيت ، وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة » .

وقد وصف الله تعالى الزيتونة بقوله : (لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) :فأما كونها غير شرقية وغيرغربية ،فالمقصود : أنها مكشوفة للشمس ، لايحجبها عنها جبل ولا شجر ، من حين تطلع حتى تغرب ، وذلك أحسن لزيتها ، فهى ليست خالصة للشرق حتى يقال فيها : شرقية ، ولا خالصة للغرب حتى يقال فيها : غربية ، بل هى شرقية غربية .

وقال ابن زيد : إنها من شجر الشام ، فإن شجر الشام لاشرقى ولا غربى ، وشجر الشام هو أفضل الشجر ، وهو الأرض المباركة . وهذا رأى حسن .

وقد وصف الله زيتها بقوله : « يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ » تأكيدا لصفائه وجودة النور المنبعث عنه ، وبهذا الوصف اكتملت الأنوار للمشكاة ، فكانأمرها كما قال تعالى : (نُورٌ عَلَى نُورٍ) : فقد اجتمع فيها ضوءُ المصباح إلى ضوءِ الزجاجة إلى ضوءِ الزيت ، فكانت كأنْوَر ما يكون ، فكذلك براهين الله – تعالى – واضحة تستضىءُ بها القلوب وتهتدى ، وهى برهان بعد برهان ، وتنبيه بعد تنبيه ، بإرساله الرسل ، وإنزاله الكتب ، والوعظ المتكرر ، وآيات الله فى الأنفس والآفاق .

ولما كان الناس مختلفين فى معرفة الهدى والرشاد ، متباينين فى إدراك الحق والضلال ، عقب ذلك بقوله : (يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ) : أى يوفق الله لإصابة الحق ومعرفته والاستجابة إليه - يوفق - من يشاء من عباده ، ممن حسنت نيته ، وطابت طويته ، وذلك بإلهامه الاقتناع به ، وشرح صدره إليه ، بعد أن وفقه إلى حسن النظر فى آياته التى نور الله بها السموات والأرض ، وفيما أنزل على رسوله من نور القرآن كما قال - تعالى - : «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا » حتى اطمأن بها فؤاده ، واهتدى إلى الحق والرشاد . وفى ربط الهداية بمشيئة الله - تعالى - إيذان بأن مناطها هو مشيئته ، وليست الأسباب وحدها ، فهو أعلم بمن يستحقها ، قال الشاعر :

إذا لم يَكُ التوفيق عونا لطالب طريقَ الهدى أعيت عليه مطالبه

أخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ ، فمن أصابه يومئذ من نوره اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله - عز وجل - » .

وقد ختم الله الآية بما يدل على أن إطلاق لفظ ؛ (النور) على الآيات والبراهين من قبيل ضرب الأمثال ، فقال - سبحانه - : (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) : أى يبين الله الأشباه والنظائر من الحسيات ، تمثيلا للمعانى عند إرادته - تعالى - هداية الناس وإرشادهم إلى الحق - كالذى جاء فى الآية من تشبيه ما تحدثه الآيات من نور الهدى فى القلوب ، بنور المشكاة ؛ لما لها من الأثر العظيم فى إرشاد الخلق إلى الحق .

وختم الآية بقوله - سبحانه - : (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) أى : أنه - تعالى - يعلم الأشياء جميعها حقائقها ومَجازاتها ، وما ينبغى التعبير عنه بأُسلوب المجاز ، وما ينبغى التعبير عنه بأُسلوب الحقيقة ، كما يعلم من يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال .

أخرج الإمام أحمد بسنده ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « القلوب أربعة : قلب أجْرَد ، فيه مثل السراج يزْهر ، وقلب أغْلَف، مربوط على

غلافه ، وقلب مَنْكوس ، وقلب مصْفَح ، فأَما القلب الأَجرد[1] ، فقلب المؤمن ، سراجه فيه نوره ، وأَما القلب الأَغلف ، فقلب الكافر ، وأَما القلب المنكوس ، فقلب المنافق ـ عرف ثم أَنكر ـ وأَما القلب المُصْفَح[2] ، فقلب فيه إِيمان ونفاق ، ومَثَل الإِيمان فيه كمثل البَقْلة يمدها الماءُ الطيب ، ومَثَل النفاق فيه كمثل القَرْحَةَ يمدها القيح والدم ، فأَى المَدَّتَيْنِ غلبت على الأُخرى غلبت عليه » قال ابن كثير : إِسناده جيد .

المعنى الاجمالى للآية :

الله هادى أَهل السموات إِلى معرفته ومعرفة ماتستقيم به مصالحهم ، وما يحققون به ماوُكل إِليهم ، مَثَل هدايته خلقه إِلى ذلك ، كمثل نور مشكاة فيها مصباح مضىءٌ . وهذا المصباح داخلَ زجاجة تشبه فى صفائها وقوة شعاعها الكوكب الدرى ، وهو يوقد من زيت شجرة مباركة كثيرة المنافع ، هى شجرة الزيتون ، تلك الزيتونة تتمتع بضوء الشمس وحرارتها فى مشرقها ومغربها فيجود بذلك زيتها ، وقد بلغ من شدة صفاء هذا الزيت أَنه يكاد يضىءُ ولو لم تمسسه نار وقد أَصبح نور المشكاة بذلك مضاعفاً ؛ فهو نور فوق نور ، يهدى الله للانتفاع بهداه من يشاءُ ممن رق حِسُّه ، وحسن استعداده ، وطابت سريرته ، دون من عداه ممن لم يكترث بهداه ، ويضرب الله الأَمثال الحِسِّية للناس حين يهديهم إِلى الحق والخير ، لعلهم يهتدون إِلى ما أَرشدهم إِليه مما ينفعهم فى أُخراهم ودنياهم ، فتستنير قلوبهم وتصفو أَرواحهم

---

(١) المراد من كونه أجرد : أنه على أصل الفطرة ، فنور الإيمان يزهر فيه .

(٢) المصفح : الذى له وجهان ، يلقى أهل الإيمان بوجه ، وأهل الكفر بوجه ، وصفح كل شىء : وجهه وناحيته .

(فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ) : المراد بها المساجد ، والإذن برفعها : الأمر برفع شأنها وتعظيمها . (بِالْغُدوِّ وَالْآصَالِ) : الغُدوَةُ أول النهار ، والغُدُوُّ : الإقبال فى الغُدْوة ، والآصال : جمع الأصيل ، وهو آخر النهار . (تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) : تضطرب فيه من شدة الهول . (أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا) : أحسن جزاء ما عملوه .

التفسير

٣٦ - (فِى بُيُوتٍ[١] أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) :

لما بين الله تعالى فى الآية السابقة أن هدايته لعباده إلى معرفته تشبه مصباحا فى زجاجة جاء بهذه الآية ليبين أثر هدايته لهم ، وهو تسبيحهم إياه فى بيوت أذن برفعها ، ونقاء سيرتهم وسريرتهم ؛ فهى استئناف مبين لأثر الهداية فيهم .

---

(١) (فى بيوت) متعلق بـ (يسبح) ولفظ : (فيها) تكرير لقوله : (فى بيوت) جىء به للتأكيد والتذكير بما تقدمها ، والإيذان بأن التقديم للاهتمام لا للحصر .

والمراد بالبيوت : المساجد مطلقاً ، وقيل : هى المساجد الأربعة التى لم يَبْنِها إلا نبى[(١)] ، وهى : الكعبة ، ومسجد المدينة ، ومسجد قباء ، وبيت أريحا[(٢)] ، حكاه القرطبى فى آخر المسألة الأولى عن ابن بريدة ، وعقبه بقوله : الأظهر الأول ؛ لما رواه أنس بن مالك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من أحب الله ـ عز وجل ـ فليحبنى ، ومن أحبنى فليحب أصحابى ، ومن أحب أصحابى فليحب القرآن ، ومن أحب القرآن فليحب المساجد ؛ فإنها أَفْنِيَةُ الله ، أبنيته أذن الله فى رفعها ، وبارك الله فيها ، ميمونةٌ ميمونٌ أهلها ، محفوظة محفوظ أهلها ، هم فى صلاتهم ، والله ـ عز وجل ـ فى حوائجهم ، هم فى مساجدهم ، والله من ورائهم » .

والمراد من إذن الله برفعها : أمره بتعظيمها ، وذلك بتطهيرها من الأقذار والنجاسات ، ومنع الجنب والحائض والنفساء من دخولها ، ومنع البيع والشراء ورفع الصوت فيها ، والامتناع عن أكل ذى ريح كريه قبيل دخولها ، وفى المسألة كلام طويل يطلب من الموسوعات من كتب الفقه والتفسير .

وحمل بعض المفسرين رفعها على رفع بنيانها ، كما فى قوله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ » وبه قال مجاهد وعكرمة ، وفى بناء المسجد يقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة » أخرجه البخارى فى صحيحه بسنده عن عثمان بن عفان .

وهل يجوز تزيين المساجد ونقشها ؟ قال القرطبى فى المسألة الثالثة : اختلف فى ذلك ، فكرهه قوم ، وأباحه آخرون ، واستند من كرهه إلى قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تقوم الساعة حتى تتباهى الناس فى المساجد » أخرجه أبوداود بسنده عن أنس . وفى البخارى : وقال أنس : « يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلا » .

واستند من قال بإباحتها إلى أن فيها تعظيم المساجد ، والله أمر بتعظيمها بقوله : « فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ » وروى عن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ (أنه بنى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالساج وحسنه) .

(١) وهذا هو رأى ابن زيد ، أخرجه ابن أبى حاتم عنه ـ انظره فى الآلوسى ولعله تصحيف لابن بريدة لينفق مع ما ذكره القرطبى عنه كما سيجىء .

(٢) المراد به : بيت المقدس ، بناه داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ

والساج : شجر ينبت ببلاد الهند ، وخشبه أسود رزين لا تكاد تبليه الأرض .

وقال أبو حنيفة : لا بأس بنقش المساجد بماء الذهب ، وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه نقش مسجد النبي – صلى الله عليه وسلم – وبالغ فى عمارته وتزيينه ، وذلك فى زمن ولايته المدينة قبل الخلافة ، ولم ينكر عليه أحد .

ومن تعظيم المساجد : الدعاء عند الدخول والخروج ، أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي أسيد قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » .

ومن تعظيمها : صلاة ركعتين لله تعالى قبل الجلوس ، روى مسلم عن أبي قتادة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » .

والمراد بالتسبيح فيها بالغدوّ والآصال : الصلوات فيها بالغُدوَات ، أى : أوائل النهار ، وبالعشيّات : أواخره ، وقيل : المراد به : تنزيه الله ومراقبته والاشتغال بطاعته .

والغدوُّ فى الأصل : مصدر ، أطلق مجازا على وقته ، ولذا حسن اقترانه بالآصال ، جمع : الأصيل ، وهو : العشىُّ ، وسيأتى المعنى الإجمالى لهذه الآية مع الآيتين بعدها ، لشدة اتصالها بهما .

٣٧ – (رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ . . .) الآية .

رجالٌ : فاعل لقوله : (يُسَبِّحُ) فى الآية السابقة ، وخص الرجال بالذكر ؛ لأن النساء لا حَظَّ لهن فى المساجد ؛ إذْ لا جمعة عليهن ولا جماعة ، وصلاتهن فى بيوتهن أفضل ، أخرج الإمام أحمد ، والبيهقى : عن أم سلمة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « خير مساجد النساء قَعْر بيوتهن » فإن صلين فى المساجد ابتعدن عن أسباب الفتنة ، فقد ثبت فى صحيح مسلم عن زينب امرأة ابن مسعود قالت : قال لنا رسول الله – صلى الله

عليه وسلم ـ : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمَسّ طيباً » وفى الصحيحين عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : « كانت نساءُ المؤمنين يشهدْن الفجر مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يرجعن متلفعات بمروطهن » وفى الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : « لو أدرك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما أحدث النساءُ لَمَنَعَهُن المساجدَ ، كما منعت نساء بنى إسرائيل » انظر ابن كثير .

وذِكْر البيع بعد التجارة مع شمولها له ؛ لأنه أقوى نوعيها فى الإلهاء عن الصلاة لحرص التاجر عليه طلباً لربح عاجل ، أو دفعاً لخسارة منتظرة ، أو سدادًا لدين ، أو جلْبا لرزق ناجز ، بخلاف الشراء فإن الأناة فيه أكثر ؛ إذ الربح فيه متوقع وليس بناجز ، وقيل : المراد بالتجارة : الشراءُ ، فإنه أصلها ومبدؤها ، وقيل : الجلب سفرا ، ومنه يقال : تَجَر فى كذا ، إذا جلبه ، ويؤيده ما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال فى هؤلاء الموصوفين بما ذكر : « هم الذين يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » .

والمقصود من أنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله : أنهم يُلَبُّون نداء الصلاة جماعة ويتركون البيع والشراء ، روى عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودى بالصلاة تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة ، فقال عبد الله : هؤلاء من الذين ذكر الله فى كتابه : « رِجَالٌ لَّاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ » رواه ابن جرير الطبرى .

وروى عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه كان فى السوق فأُقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ، ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت : « رِجَالٌ لَّاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ » رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، وقد جاء فى مثل ذلك أخبار كثيرة[١] .

---

(١) انظر ابن كثير وغيره .

والمراد من تقلب القلوب والأبصار فى يوم القيامة : اضطرابها من الهول ، أو تقلب أحوالها فتفقه ما لم تكن تفقه ، فتؤمن بعد الكفر حيث لا ينفعها الإيمان ، وفى هذا المعنى يقول المولى سبحانه : « فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

٣٨ ـ (لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) :

« لِيَجْزِيَهُمْ » : متعلق بفعل يتضمن طاعاتهم السابقة ، أى : يفعلون كل ما تقدم من تسبيحهم لله فى المساجد ، وصلاتهم فيها كلما سمعوا النداء إليها ، وإيتائهم الزكاة لمستحقيها ، وخوفهم من يوم الحساب ، يفعلون كل ذلك ليجزيهم الله أحسن ما عملوا .... إلخ .

المعنى الإجمالى للآيات الثلاث : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ما يلى :

يسبح لله تعالى فى مساجد أمر الله أن تعظم بالصيانة والنظافة ، ويذكر فيها اسمه ـ يسبح له فيها ـ رجال استنارت قلوبهم بمشكاة الهدى ، فأصبحوا لاتلهيهم ولا تشغلهم دنياهم عن ذكر الله ، وإقام الصلاة فى أوقاتها جماعة كلما سمعوا النداء إليها ، كما لا تشغلهم عن إعطاء الزكاة لمستحقيها فى مواقيتها ، يخشون يوماً رهيباً تضطرب فيه القلوب والأبصار كما قال الله تعالى : « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا » وذلك من هول ما رأوا من الشدائد والتغيرات الكونية حيث « تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ » .

يسبح لله هؤلاء الرجال فى المساجد خائفين من يوم الوعيد ؛ لكى يجزيهم الله فى الجنة أحسن جزاء لما عملوه فى دنياهم ، حسبما وعدهم الله تعالى على لسان رسوله ، ويزيدهم من الثواب فوق ما وعدهم مما لم يخطر لهم ببال ، والله يثيب من يشاء من عباده المتقين رزقاً واسعاً ، دون أن يحاسبه أحد على ما أعطى ؛ فهو الرزاق ذو القوة المتين .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾)

المفـردات :

(كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) : السراب ـ كما عرّفه المتقدمون ـ : ما يُرى فى الفلاة من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة ، فيُظَنُّ أنه ماءٌ يسرب ، أى : يجرى . والقيعة : هى القاع وهو الأرض المستوية الخالية من النبات[1] ، وسيأتى لذلك مزيد بيان .

(وَجَدَ اللهَ عِندَهُ) : وجد الظمآن قضاء الله عند السراب .

(فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ) : أى عميق ، كثير الماء ، منسوب إلى اللُّجِّ واللُّجةِ ، وكلاهما معناه : الماءُ الكثير البعيد القاع . (يَغْشَاهُ مَوْجٌ) : يغطى البحر موج ، مأخوذ من الغشاء ، وهو الغطاءُ .

التفسـير

٣٩ ـ (وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا . . . . .) الآية .

(١) انظر تفسير البيضاوى .

لما ضرب الله مثل المؤمنين فيما تقدم ، عقبه بضرب مثل الكافرين هنا وفى الآية التالية وهذه الآية معطوفة على ماقبلها ، من عطف المَثل على المَثَل ، والقصة على القصة ، كأنه قيل : مثل المؤمنين فى حالهم ومآلهم كما وُصفَ ، ومثل الذين كفروا أعمالهم كسراب . . . إلخ .

ويقول مقاتل : إن هذه الآية نزلت فى شيبة بن ربيعة ، كان يترهب متلمسا الدين فلما خرج – صلى الله عليه وسلم – كفر شيبة ، ذكره القرطبي ، وسواءٌ أكان هذا هو السبب أم غيره ، فالعبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

والسراب – كما عرفه المتقدمون – : بخار رقيق يرتفع من قاع القيعان تحت تأثير الشمس ، فإذا اتصل به ضوءُها أشبَهَ عند من يراه من بعيد الماءَ الساربَ ، أى : الجارى ، وقيل : هو ما ترقرق من الهواء فى الهجير بِفَيَافى الأَرض المنبسطة ، ويشبه فى لمعانه الماء ، وليس بماء .

وفى خداع السراب يقول الشاعر فى تشبيه العهود الخادعة :

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم كَلَمْعِ سراب فى الفَلاَ متألِّقِ

ويفسره العلماءُ المعاصرون : بأنه ظاهرة ضوئية ، سببها انعكاس الشعاع المنبعث من الأجسام المضيئة ، وارتداده من سطح أرض فسيحة جرداء ، عندما ترتفع درجة حرارتها إثناء النهار ، فيتجه الشعاع المنعكس على التدريج بحذاء سطح الأرض ، متباعدا عنها قليلا قليلا ، حتى يصل إلى عين الراصد ، وعندها تُرَى صور الأَجسام المضيئة مقلوبةً ، كما لو كانت مرآة كبيرة ممتدة(١) .

والقيعة : هى الأَرض المستوية المنبسطة ، وهى مفرد ، كالقاع ، وقيل : هى جمع قاع ، كجِيرَة : جمع جار .

(١) انظر تعليق الخبراء على كلمة : (سراب) بالتفسير المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر .

والمعنى الإجمالى للآية : والذين كفروا أعمالهم التى يحسبونها صالحة مرضية لله تعالى كصلة الأرحام ، والعطف على الأيتام ، وسقاية الحاج ، وعمارة البيت الحرام ، وقِرَى الأضياف ، وغير ذلك من المبَرات ـ أعمالهم هذه ـ شبيهة فى ضياعها فى الآخرة بسراب لامع تحت ضوء الشمس فى أرض فسيحة جرداء ، يحسبه الظمآن حين يراه من بعيد يترقرق ويلمع ـ يحسبه ـ ماء يروى ظمأه ، ويطفئ لهيب عطشه ، حتى إذا جاءه حيث كان يبدو له ، لم يجده شيئاً مطلقاً ؛ لزوال الصورة التى خدعه بها السراب ، فكذلك جنس الكافر ، يحسب أنه قد عمل فى دنياه عملا نافعًا ، واعتقد اعتقادًا سديدًا ، فإذا بعث يوم القيامة ، ورأى أهوال القيامة ، اشتدت حاجته إلى عمله لينفعه وينجيه ، فلم يجد له أثرا ، وخاب ظنه فيه ، بل وجد حساب الله وافياً فى مواجهته ، ونقاشه إياه مستوعباً لعقائده الزائفة ، وأعماله الفاسدة ، وأنه تعالى لم يتقبل منه ماقدمه من أعمال البر ؛ لأنها قامت على أساس الكفر ، إلى جانب ما داخلها من الرياء والفخر والعُجْب ، فكان أمر الله معه فى تلك المبَرات كما قال ـ سبحانه ـ : « وَقَدِمْنَآ إِلَى مَاعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا »[1] .

وقد ختم الله الآية بقوله : « وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » : للإيذان بأنه لايشغله حساب عن حساب ، فلهذا كان سريع الحساب لجميع عباده .

ويلاحظ أن تشبيه عمل الكافر بالسراب انتهى عند قوله تعالى : « لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » أما قوله تعالى : « وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ » فهو لبيان بقية أحواله بطريق التكملة ، حتى لايتصور أن نهاية أمره هو الخيبة والقنوط فقط ـ كما هو شأن الظمآن بعد أن عرف حال السراب ـ بل يعتريهم من سوء الحال والمآل ، مايفوق خيبة الظمآن حين يئس من الماء[2] .

ومن المفسرين من جعل هذا السراب فى الآخرة ، قال جار الله الزمخشرى : شبه الله سبحانه مايعمله غير المؤمن بسراب سوف يراه بالساهرة ـ يوم القيامة ـ وقد غلبه العطش ، فيحسبه ماء ، فيأتيه فلا يجده ، ويجد زبانية الله عنده ، يأخذونه فيسقونه الحميم

---

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٢٣ (٢) انظر كتاب (إرشاد العقل السليم) .

والفسّاق . قال الآلوسى – تعليقاً على هذا الرأى – : وكأنه مأخوذ مما أخرجه عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، من طريق السدى فى غرائبه عن الصحابة ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن الكفار يبعثون يوم القيامة وِرْدا[1] عطاشا ، فيقولون : أين الماء ؟ فيمثل لهم السراب فيحسبونه ماء ، فينطلقون إليه ، فيجدون الله تعالى عنده فيوفيهم حسابهم ، والله سريع الحساب » واستحسن ذلك الطيبى . . . إلى آخر ما كتبه الآلوسى فى هذا المقام .

وقد نقل ابن كثير فى هذا المعنى عن الصحيحين : « أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعملون فى الدنيا ؟ فيقولون : كنا نعبد عزيرا ابن الله ، فيقال : كذبتم ، ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون : أى ربنا ، عطشنا فاسقنا ، فيقال : أَلَا تَرَوْنَ ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون فيتهافتون فيها »[2]

٤٠ – (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) :

(كَظُلُمَاتٍ) معطوفة بأو على (كَسَرَابٍ) وحرف (أَوْ) هنا : إما للتخيير ، فإن أعمالهم لكونها لاغية لا ثواب عليها ، تشبه السراب ، ولكونها خالية عن نور الحق ، وضوء الإيمان ، تشبه الظلمات المتراكمة من عمق البحر ، والأمواج المتتابعة فوقه ، وظلمة السحاب فأنت مخير فى تشبيهها بأيهما ، قال الزجاج : إن شئت مَثِّلْ بالسراب ، وإن شئت مَثِّلْ بالظلمات[3] .

ويصح أن تكون (أو) للتنويع ، فإن أعمالهم إن كانت حسنة فهى كالسراب فى عدم جدواها ، وإن كانت قبيحة فهى كالظلمات ، وفيها غير ما ذكرنا من الوجوه[4] ، وحسْب القارىء ما تقدم .

---

(١) الورد – بكسر الواو وسكون الراء – : القوم الذين يردون الماء كالواردة ، ومنه : الموردة ، وهى : مأتاة الماء : (قاموس) .

(٢) البخارى : تفسير سورة النساء ، ومسلم : كتاب الإيمان .

(٣) انظر القرطبى . (٤) انظر البيضاوى .

ومعنى الآية موصولة بما قبلها ما يلى :

والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، أو كظلمات فى بحر عميق بعيد القاع ، يغطى هذا البحر موجٌ من فوقه موجٌ ، وهكذا تتتابع أمواجه ، ويتراكم بعضها فوق بعض ، من فوق هذا الموج المتتابع سحاب كثيف يحجب أضواء النجوم ، فهى ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، إذا أخرج من ابتلى بهذه الظلمات يده ، وجعلها قريبة من عينيه لينظر إليها ، لم يقرب من رؤيتها ، فضلا عن أن يراها ، مع أنها أقرب شىء إليه .

وكذلك كل كافر يعيش فى أعماق ظلمات كثيفة داكنة من عقيدته ، وسيئات أعماله ، لا يرى فى أثنائها بصيصا[1] من نور الهدى ، يهديه إلى سواء السبيل ، بسبب تقليده ، وخضوعه لسيطرة أئمة الكفر ، وجنوحه عمن يدعوه إلى الهدى ، قائلا له : إئتنا لتستنير بنورنا .

ويختم الله الآية بقوله : (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) : أى ومن لم يُقَدِّر الله له نورا قلبياً يهديه إلى الحق بسبب إعراضه عنه ، فليس له نور من سواه ، فيبقى فى ظلام دامس من الضلال ، كما قال تعالى : « مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ » .

أما من يقبل الهدى فإن الله تعالى يهديه بنور على نور ، حتى يثبت الحق فى بصيرته ، ويستعصى على من يضله ، كما قال تعالى : « وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ » نسأل الله الرءوف الرحيم أن يملأ قلوبنا نورا ، ويجعل النور عن أيماننا وشمائلنا ، وأن يعظم لنا النور بفضله ورحمته .

(١) البصيص : البريق .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾)

المفردات :

(وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ) : الطير جمع طائر ، كصَحْب : جمع صاحب ، وجمع الجمع : طيور وأطيار ، كفرخ وفروخ وأفراخ ، وقد يقع لفظ الطير على الواحد ، كقوله تعالى : « فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ » . ومعنى : (صَآفَّاتٍ) : باسطات أجنحتهن .

(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) : أى كل من فى السموات والأرض والطير قد علم دعاءه وتنزيهه لله تعالى . (الْمَصِيرُ) : المرجع .

التفسير

٤١ ـ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَآفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . .) الآية .

بيّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الآيات السابقة أنه هدى عباده ومخلوقاته بنور هداه إلى ما خلقوا لأجله ، وأن من لم يجعل الله له نورا يهتدى به فما له من نور .

وجاء بهذه الآية عقبها ليبين أن آثار هداه فى السموات والأرض والطير واضحة لمن يراها ويتأملها .

والهمزة فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ » للتقرير بالرؤية ، والمراد بالرؤية هنا : العلم والمعرفة ، والخطاب إما أن يكون للنبى – صلى الله عليه وسلم – وإما أن يكون لكل عاقل ، فإن كان للنبى – صلى الله عليه وسلم – فهو يشير إلى أنه تعالى قد أفاض عليه من مراتب النور أعلاها وأجلاها ، حتى عرف من أسرار الملك والملكوت أدقها وأخفاها .

وإن كان لكل عاقل : فهو يشير إلى وضوح هدى الله فى السموات والأرض ومن فيهن لكل من يتأمل فيها ، فلولا هداه وقوانينه الكونية الدقيقة فى كل ذرة من هذا الكون لاختل نظامه ، فهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، ولولا إبداعه المحكم لهذا الكون ، وما أودعه فيه من أسباب الهدى إلى ما خلق لأجله ، لما رأينا هذا الكمال الناطق بنزاهته تعالى عن الشريك والنظير ، وسوء التدبير « فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ » .

فالمراد من التسبيح فى الآية : التنزيه عن كل ما لا يليق بالله تعالى من نقص أو خلل تنزيها معنوياً تفهمه العقول السليمة ، فإن كل موجود فى السموات والأرض ، من أجزائهما وما استقر فيهما ، أو كان سابحا وطائرا بينهما ، يدل على صانع مبدع واجب الوجود ، متصف بكل صفات الكمال ، منزه عن كل ما لا يليق بشأنه وعظمته ، وإطلاق لفظ : (مَنْ) على العقلاء وغيرهم ، على سبيل التغليب ، كما هو معهود فى عرف اللغة .

وقد نبه الله – سبحانه – على قوة الدلالة وغاية وضوحها بالتعبير عنها بالتسبيح الذى يختص به العقلاء ، وهو أقوى مراتب التنزيه وأظهرها ، تنزيلا للسان الحال منزلة لسان المقال .

وتخصيص التسبيح – أى : التنزيه – بالذكر مع دلالة ما فى السموات والأرض على اتصافه – تعالى – بنعوت الكمال كلها ، لأن هذه الآية مسوقة لتقبيح حال الكفرة . فى إخلالهم بالتنزيه ، بجعلهم الجمادات شريكة له – تعالى – فى الألوهية ، ونسبتهم الولد إليه – تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا – ولهذا جعل الله أعمالهم « كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » أو « كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا » .

وإنما ذُكِر لفظ : (الطير) مع أنه مندرج فى جملة من فى السموات والأرض ؛ لعلم استقرار الطير فوق الأرض ، ولاستقلالها بآية واضحة على تنزيه الله – تعالى – عن الشريك وكل صفات النقص ، وعلى كمال قدرته ولطف تدبيره ، حيث أعطاها أجنحة وذيولا تصفُّها وتطير بها ، وحماها بذلك من وقوعها على الأرض استجابة لجاذبيتها ، ومكنها بذلك من الحركة فى الجو والرحلة كما تشاء .

وأما قوله – تعالى – : « كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ » فهو جملة مستأنفة ، اشتملت على صورة بلاغية رفيعة ؛ فقد شُبِّه فيها حال كل من فى السموات والأرض والطير فى أداء وظائفها التى خلقت لها ، استجابة لتسخير الله – تعالى – شُبِّهت حالها بحال إنسان عرف خالقه وكيفية عبادته وتسبيحه ، فصلى له وسبحه .

وعلى هذا الوجه فالضمير فى (عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) راجع إلى كل واحد مما ذكر ، وإليه ذهب الزجاج .

وأجاز بعضهم أن يكون ضمير (عَلِمَ) راجعاً إلى الله – تعالى – وضميرا (صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) عائدين إلى كل واحد مما فى السموات والأرض والطير ، والمعنى على هذا : كل واحد مما ذكر قد علم الله صلاته وتسبيحه لربه ، والأول أولى ؛ لما فى الثانى من تشتيت الضمائر .

وقال غير واحد : يجوز ألا يكون فى الكلام استعارة ، والعلم على حقيقته ، ويراد به : مطلق الإدراك ، والمراد من قوله : (كُلٌّ) جميع أنواع الطير وأفرادها ، ويراد بالصلاة والتسبيح : ما ألهمه الله إياه من الدعاء والتسبيح المخصوصين به ، قال الآلوسى : ولا بُعْدَ فى هذا الإلهام ؛ فقد ألهم الله كل نوع من أنواع الحيوانات علوماً دقيقة ، لا يكاد يهتدى إليها جهابذة العقلاء[1] . . . . إلى آخر ما قال.

---

(١) فهذه مملكة النحل تدير أمورها أنّى بحكمة عجيبة ، وقد ألهمها الله – تعالى – بناء بيوت هندسية من الشمع متساوية الأضلاع ، كما ألهمها تغذية الملكات المقبلة بغذاء خاص يختلف عن غذاء الذكور والخناثى ، وهذه الكلاب تنبح قبل حدوث الزلازل منذرة بها ، والقنفذ يحس بريحى الشمال والجنوب قبل هبوبهما فيغير المدخل ، وهذا وأمثاله يدل على أن لها إدراكا عاليا تدير به شئونها ، فلا يبعد أن يكون لها تسبيح وصلاة . والله أعلم .

وقد ختم الله الآية بقوله : (وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) لتقرير ما تقدم فى الآية .

والمعنى الإجمالى للآية : ألم تعلم -أيها العاقل- علماً يشبه الرؤية فى اليقين ، أن الله تعالى ينزهه عن الشريك والنظير ، وعن كل ما لا يليق بجنابه فى ذاته وصفاته وأفعاله - ينزهه - كل شىء فى السموات والأرض ، وبخاصة الطير وهى باسطة أجنحتها وأذيالها فى السماء ؛ لتستطيع أن تتجه بها إلى المشارق والمغارب ، وهى محلقة فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله تعالى فإنها جميعاً بما أنشئت وأبدعت عليه من دقة الصنع ، وأدائها لوظائفها التى خلقت لها ، فى نظام رتيب بلا فتور ولا قصور ، تنطق بلسان الحال ، أن من أبدعها منزه عن الشريك والنظير ، وعن كل نقص فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وكل منها فى مجموعه وفى أجزائه قد استجاب لتسخير الله إياه استجابة تشبه استجابة العقلاء لما كلفهم الله به من الصلاة والتسبيح ، والله عليم بأدائها لوظائفها وفق تدبيره الحكيم لها ، لا يغفل عنها طرفة عين ، فهى لذلك لا يعتريها نقص ولا اختلال ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ .

وأجاز بعض المفسرين حمل التسبيح والصلاة على حقيقته ، كما تقدم بيانه ، قال سفيان : للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود ، وعمم بعضهم التسبيح بمعناه الحقيقى فى جميع الكائنات من جماد ونبات وحيوان ، أخذا من ظاهر قوله تعالى : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا »[1] وليس هذا ببعيد على بديع السموات والأرض ، ولقد سجل بعض علماء الغرب بآلة شديدة الحساسية - سجل - أنين الشجرة إذا قطع منها غصن ، أو نقلت شجرة مجاورة لها ، وهذا يدل على أن فى الكون أسرارا عجيبة لم يصل العقل البشرى إلى كشفها بعد .

٤٢ - (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ) :

أى ولله ملك السموات والأرض خلقاً وملكا وتصرفاً ، فلا يصح أن يعبد سواه ، وإليه وحده المرجع يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ، ولا معقب لحكمه « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »[2]

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٤٤ (٢) سورة النجم ، الآية : ٣١

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ
رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن
يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾)

المفـردات :

(يُزْجِى سَحَابًا) : يسوقه ويدفعه ، يقال : زَجَاه ، وزَجَّاه ، وأَزْجَاه ، أى : دفعه وساقه .

(رُكَامًا) : الركام ؛ السحاب المتراكم بعضه فوق بعض ، ويطلق أيضاً فى غير هذه الآية على كل ما جمع بعضه فوق بعض ، كركام الرمل ، مأْخوذ من : رَكَمَ الأشياء ، أى : جمع بعضها فوق بعض . (الْوَدْقَ) : يطلق على المطر وعلى البرق ، وسيأْتى شرح ذلك .

(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا) : المراد من السماء هنا : السحاب أو الجوّ أو الفضاء ، والجبال فى السماء : هى السحب المتراكمة بعضها فوق بعض على هيئة الجبال (مِن بَرَدٍ) : البَرَد ؛ حب ينزل من السحب ، فيه بياض كبياض الثلج ، وبرودة كبرودته.

(سَنَا بَرْقِهِ) : السَّنا ؛ الضوءُ أما السَّناءُ - بالمد - فهو بمعنى العلوّ والرفعة . والبرق : التلأْلؤ واللمعان ، يقال : برق السيف وغيره ، أى : لمع . (يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) : أى ؛ يصرفهما . وسيأْتى بيانه فى التفسير .

التفسـير

٤٣ – (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ . . .) الآية .

بيّن الله فى الآية السابقة أنه تعالى له ملك السمٰوات والأرض ، وعقبها بهذه الآية ليبين نوعاً من سلطانه وملكه وتصرفه فيهما ، تأكيدا لملكه لهما .

والمقصود من الاستفهام فى قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ) التنبيه إلى آيات الله التالية للاستفهام المذكور ، والحث على رؤيتها ، أو التقرير بها .

والخطاب فيه : إما لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وخطابه خطاب لأمته ؛ لأنه إمامها ، وإما لكل مَنْ هو أهل للخطاب من المكلفين ، والرؤية هنا إما بصرية ؛ لأن تحريك السحب وما يتلوه من آثار أمْرٌ مرئىٌّ لكل ذى عينين ، وإما علمية لذوى البصيرة والتأمل ولو على سبيل الإجمال .

والسحاب : واحده سحابة ، ويتكون من بخار الماء الصاعد إلى طبقات الجو العليا ، وينشأُ هذا البخار من تسلط حرارة الشمس على المياه فى نواحى الأرض المختلفة ، فإن بقى هذا البخار بيننا ولم يرتفع إلى الطبقات العليا ، فهو الضباب ، فكلاهما ناشئٌ من بخار الماء[(١)]

والله – تعالى – يزجى السحاب المتفرق ، أى : يسوقه من مواطنه المختلفة شيئاً فشيئاً ، ثم يؤلف بين جزئياته ويضمها ، ثم يجعله متراكما بعضه فوق بعض .

ولِلْوَدْقِ فى اللغة معنيان : أحدهما المطر ، وبه قال الجمهور فى تفسيرهم إياه فى الآية ، وشاهِدُه قول الشاعر :

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَا ولا أَرْضَ أَبْقَلَ إبقالَهَا

وقال امرؤ القيس : فَدَمْعُهُمَا وَدْقٌ وَسَحٌّ ودِيمَةٌ[(٢)] .

(١) ومن ثم قال العلماء : الضباب : سحاب أنت فيه ، والسحاب : ضباب لست فيه .
(٢) السح : السائل . والديمة : الدائم .

والمعنى الثانى : أنه البرق ، حكى القرطبى عن أبى الأشهب قوله فى هذا المعنى :

أثرْنَ عَجَاجَةً وخرجْن منهـــا خروج الوَدْقِ من خَلَلِ السحاب

(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ[1] فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ) :

السماء فى اللغة : ما عَلَا وارتفع ، ومنه يقال للسحاب : سماء ، وللفضاء والسقف : سماء ، وللرفعة المعنوية : سماء ، ومنه قول الشاعر فى الفخر :

إذا بلغ السماء لنا وليـــدٌ تَخِرُّ له أعادينا ســـجودا

ولفظ السماء يُذَكَّر ويؤنث ، والمراد به فى الآية : إما السحاب ؛ وإمَّا الفضاء فكلاهما يشتمل على جبال الركام التى ينزل منها البَرَد ، كما هو صريح النص الشريف .

وإطلاق لفظ الجبال على الركام من باب التشبيه البليغ ؛ فإن السحب الركامية تشبه الجبال فى ضخامتها وارتفاعها .

قال الإمام الرازى فى تفسير الآية : أراد بقوله : (مِن جِبَالٍ) السحاب العظام ؛ لأنها إذا عظمت أشبهت الجبال ، كما يقال : فلان يملك جبالا من مال . انتهى كلام الفخر الرازى .

ويقول علماء الطبيعة الجوية فى عصرنا : إن السحب الركامية ترتفع أميالا على شكل هرمى ، قاعدتها إلى أسفل وقمتها إلى أعلى ، وهم بذلك يؤكدون ما نقلناه عن الإمام الرازى .

وفى الآية إعجاز علمى فوق إعجازها البلاغى ؛ فقد تحدثت عن تكاثف السحب ، ووصولها فى هذا التكاثف إلى درجة عالية تشبه فى ضخامتها وشكلها الجبال ، كما تحدثت عن إنزال البَرَد من تلك السحب الركامية المعبَّر عنها بالجبال ، وعن البروق الخاطفة المتلألئة

---

(١) لفظ (من) فى قوله : (من السماء) ابتدائية ، وقوله : (من جبال) بدل اشتمال من قوله : (من السماء) فإن السماء هنا بمعنى السحاب أو الجو ، وكلاهما يشتمل على ركام السحب الشبيهة بالجبال ، ولفظ : (من) فى قوله : (من برد) للتبعيض أو البيان ، فى موضع المفعول به لقوله : (ينزل)

القوية الضوء إلى درجة تكاد تخطف الأبصار ، وكل ذلك وغيره تنبئ عنه هذه الآية العظيمة ، ويجرى على لسان أُمِّىّ لا علم له ولا لغيره من أهل الأرض جميعاً فى زمنه بمثل تلك العلوم الكونية ، حيث كانت الجهالة والبدائية تنتشر بين الناس فى المشارق والمغارب ، الوثنيين منهم وأهل الكتاب ، ولا شك أن هذا لا يمكن أن ينطق به إلا رسول آتاه الله العلم بوحى أيده به ، وآذن بصدقه فى نبوته ورسالته ، فتبارك الله رب العالمين (١)

والبَرَدُ الذى ينزل من تلك السحب الركامية : حبات فى بياض الثلج وبرودته ، ويقول الله فى شأن هذا البَرَد : « فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَآءُ » : أى فيصيب الله بهذا البَرَد من يشاء من عباده فيتضرر به فى نفسه ، أو ماله ، أو زراعته ، أو ماشيته ، ويصرفه ويمنعه عمن يشاء ، فيسلم من غائلته ، حسبما جرت به حكمة الله وقدره .

ويعقب الله ذلك بقوله : (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) : أى يقرب ضوء برق السحاب المتراكم المعبَّر عنه بالسماء ، ثم بالجبال ، يقرب ضوءه أن يخطف الأبصار ، من فرط الإضاءة والسرعة ، وفى ذلك دليل عظيم على قدرة الله تعالى ، حيث ولد النور من الظلمة الركامية ، وخلق الشئ من ضده ، بالإضافة إلى ما تضمنته الآية من عجائب إبداعه وقدرته ، ويعقِّب الله ذلك بقوله :

(١) وقد علق الخبراء على هذه الآية فى التفسير المنتخب الذى أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فقالوا مايلى : تسبق هذه الآية الكريمة ركب العلم ؛ فإنها تتناول مراحل تكوين السحب الركامية وخصائصها وما عرف عنها فى العهد الأخير ، من أن السحب الممطرة تبدأ على هيئة وحدات ، يتألف عدد منها فى مجموعات هى السحب الركامية ، أى : السحب التى تنمو فى الاتجاه الرأسى ، وترتفع قممها إلى علو ١٥ أو ٢٠ كيلو مترا فتبدو كالجبال الشامخة .

والمعروف علميا أن السحابة الركامية الممطرة تمر بمراحل ثلاث ، هى :

١ - مرحلة الالتحام والنمو .

٢ - ثم مرحلة الهطول .

٣ - وأخيرا مرحلة الانتهاء .

كما أن هذه السحب هى وحدها التى تجود بالبرد ، وتشحن بالكهرباء ، وقد يتلاحق حدوث البرق فى سلسلة تكاد تكون متصلة (أربعين تفريغا فى الدقيقة الواحدة) فيذهب ببصر الراصد من شدة الضياء ، وهذا هو عين ما يحدث للملاحين والطيارين الذين يخترقون عواصف الرعد - فى المناطق الحارة - وينجم عن فقد البصر هذا أضرار بالغة تشكل خطرا حقيقيا على أعمال الطيران وسط العواصف الرعدية . وتعليقا على هذا نقول : إن ذهاب البصر فى هذه الحالة وقتى ، ولهذا قال - سبحانه - : (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) .

٤٤ ـ (يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) : أى يُصَرِّفهما بالمعاقبة بينهما ، أو بنقص أحدهما ، وزيادة الآخر ، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد ، والظلمة والنور ، أو بما يعم ذلك كله .

ويختم الله الآية بقوله : (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى الْأَبْصَارِ) : والمراد بالأبصار هنا : البصائر والعقول ، فهى التى تعتبر وتتعظ ، أى إن فيما تقدم من إزجاء السحاب ، وإنزال الوَدْقِ والبَرَدِ ، وتقليب الليل والنهار ، لَعِظَةً بليغة لذوى العقول المستنيرة ، وذكرى لمن كان له قلب منيب ، وإدراك وضاء ، حيث يدرك من هذا الإبداع فى الخلق ، والإحكام فى التدبير ، أن ذلك كله من صنع إله قدير ، حكيم خبير .

المعنى الاجمالى للآية :

ألم تشاهد ـ أيها الإنسان ـ من دلائل الألوهية والربوبية ، أن الله تعالى يكوِّن سحابا فى الجو ويسوقه من جهات مختلفة ، ثم يؤلف بين وحداته فيضم بعضها إلى بعض ، ثم يجعله متراكما طبقة فوق أخرى ، فترى المطر أو البرق يخرج من بين هذا السحاب المتألف المتراكم ، وينزل من السماء من سحابها المتراكم الشبيه بالجبال فى عظمتها وارتفاعها ـ ينزل منها حبا يشبه الثلج فى بَرْده ولونه ، يسمى : البَرَد ، فيصيب به من يشاء من عباده من ضرر فى نفسه ، أو ما شيته ، أو زراعته ، أو ماله ، ويصرفه عمن يشاء فينجو من أضراره ، ويخرج منها برقاً مضيئاً سريع التتابع ، يقرب هذا الضوء من أن يخطف أبصار الناظرين إليه من فرط إضاءته وسرعته .

يُصَرِّف الله الليل والنهار بأن يجعلهما يتعاقبان ، أو يزيد فى أحدهما وينقص من الآخر ، أو يغير أحوالهما برودة وحرارة ، أو يجمع ذلك كله ، إن فيما تقدم من عظائم القدرة ، ودقة التدبير وإحكامه لعظةً لأصحاب البصائر النيرة ، لِدِلَالَتِهِ على وجود صانع حكيم قدير عليم ، لا شريك له فى ملكه ، ولا معارض له فى حكمه .

(وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ
بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ
أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ
أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(كُلَّ دَآبَّةٍ) : الدابة اسم لكل ما يدب ويتحرك من الحيوان ، من : دَبَّ ، يَدِبُّ دبًّا ودبيباً – أى تحرك – ، فهو دابٌّ ، والتاءُ للمبالغة ؛ ويقال : أكذب من دب ودرج ، أى : أكذب الأحياء والأموات ، قاله صاحب المختار .

(آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ) : آيات موضحات للحقائق .

(إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) : إلى طريق لا اعوجاج فيه .

التفسير

٤٥ – (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ . . . . .) الآية .

بيّن الله – تعالى – فيما تقدم أنه – سبحانه – نور السمٰوات والأرض ، فلا تخفى ربوبيته على من له عينان ، وأن السمٰوات والأرض والطير تسبح بحمده ، وتشهد بتنزيهه عن جميع النقائص ، وباستحقاقه جميع الكمالات ، وأن السماء والمطر والبَرَد ، والبرق الخاطف وضياءه الباهر من إبداعه ، وتحت إرادته وحكمه ، وأنه يقلب الليل والنهار بحكمة وتدبير رتيب ، وجاء بهذه الآية ليشير بها إلى برهان من براهين ربوبيته ، وهو خلقه كل دابة من ماء .

والمراد بالدابة هنا : ما يدب ويتحرك بنفسه على الأرض ، أو فى جوفها ، أو فى مائها من الحيوانات والحشرات والأسماك ، والله تعالى يقول : إنه خلقها كلها من ماء ، والمراد منه : النطفة ، فالله – تعالى – جعل لكل ذكر من الحيوانات والحشرات والأسماك نطفة تشتمل على خصائص نوعه ، يودعها أحشاء أنثاه فتحمل ثم تضع ذريتها لاستبقاء نوعها ، ولا نعلم شيئاً من الكائنات الحية يخالف هذه القاعدة سوى آدم وعيسى ، فآدم خلق من تراب ، وعيسى خلق بالنفخ ، ولا يمنع هذا عموم خلق الكل من الماء ، فالنادر لا حكم له ، فإن وجدت كائنات حية خلقت بغير النطفة سواهما ، فالتعبير حينئذ بلفظ : (كل) مراعاة للغالب.(١)

وقد يراد من الماء : ما دخل فى تكوين كل دابة من الماء ، وخصَّه بالذكر دون سائر عناصر تكوينها لأهميته العظمى فى بناء أجسامها ، ويفصل الله – تعالى – أنواع الدواب المخلوقة من الماء فيقول :

(فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ) :

أى : فمن الدواب التى خلقت من ماء من يمشى على بطنه كثعابين البَرِّ وزواحفه المختلفة ، وثعابين الماء وسائر أسماكه ، وسميت حركة هذه وتلك مَشْيًا مع أن الأولى زَحْفٌ ، والثانية سباحة ، للمبالغة فى إظهار قدرتها على الحركة كالدواب التى تمشى ، ويزيدها حسناً ما فيها من المشاكلة لِمَشْيِ ما بعدها ، والمشاكلة نوع من أنواع البلاغة .

ومن هذه الدواب من يمشى على رجلين : كالإنسان والطير ، ومنها من يمشى على أربع : كالأنعام والوحوش وبعض حيوانات البحر .

---

(١) يقول الخبراء – تعليقا على هذه الآية – فى منتخب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : الماء فى الآية هو ماء التناسل ، أى : المشتمل على الحيوانات المنوية ، والآية الكريمة لم تسبق ركب العلم فى بيان نشوء الإنسان من نطفة ؟ كما جاء فى قوله – تعالى – : « فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » لم تسبقه فيها فحسب ، بل سبقته كذلك فى بيان أن كل دابة تدب على الأرض خلقت كذلك بطريقة التناسل من الحيوانات المنوية ، وإن اختلفت أشكال هذه الحيوانات المنوية وخصائصها فى كل نوع من أنواع هذه الدواب .

ومما تحتمله الآية من معان علمية : أن الماء قوام تكوين كل كائن حى ، فمثلا يحتوى جسم الإنسان على نحو ٧٠٪ (سبعين فى المائة) من وزنه ماء ، أى أن الشخص الذى يزن ٧٠ كيلو جراما فجسمه يحوى ٥٠ كجم ماء ، ولم يكن تكوين الجسم واحتواؤه هذه الكمية الكبيرة من الماء معروفا مطلقا قبل نزول القرآن . . . إلخ ما ذكره الخبراء .

وترتيب الأصناف حسبما جاء فى الآية ، على سبيل التدرج ، ولأن قدرة الزواحف على الحركة مع فقدانها الأرجل أَدَلُّ على قدرة الله ، وتمكينه إياها من الحركة بغير الأسباب المعهودة فى سعى الحيوان على رزقه ، ولم يذكر من يمشى على أكثر من أربع - كالعناكب ونحوها - إما لأن المراد بكل دابة : ما تقع عليه العين غالباً ، أو أن ما ذكر من باب التمثيل و أنه أشير إلى ما يمشى على أكثر من أربع بقوله تعالى : (يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ) أى : مما ذكر وما لم يذكر .

والتعبير بضمير العقلاء فى قوله : (وَمِنْهُمْ) مع أن من يمشى على بطنه وعلى أربع ليس منهم ، لتغليب جانب العقلاء ، وهم من يمشون على رجلين كالإنسان ، و استعمال : (مَنْ) فى غير العقلاء للمشاكلة ، أو لأنها تستعمل فى غير العقلاء بِقِلَّةٍ[1]

ويختم الله الآية بقوله : (يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) : أى يخلق الله مايريد خلقه مما ذكر وما لم يذكر ، بسيطا كان أو مُرَكَّبًا ، على ما يشاءُ من الصُّوَر والحركات والطبائع والقُوَى ، إن الله على كل شىء أراد خلقه عظيم القدرة ، إذ يقول للشىء : كن ، فيكون .

المعنى الاجمالى للآية :

والله خلق كل حيوان يدب ويسعى فوق سطح الأرض أو فى جوفها أو فى مائها - خلقه - من ماء ، هو سائل النطفة الذى هو أصل الكائنات الحية المتوالدة ، أو هو الماءُ الذى خلق منه معظم جسمه ، فمن هذه الدواب من يمشى على بطنه ، كالزواحف والأسماك ، ومنهم من يمشى على رجلين : كالإنسان والطير ، ومنهم من يمشى على أربع : كالأنعام والوحوش وبعض الحيوانات البحرية ، يخلق الله ما يشاءُ خَلْقَه من هذه الدواب وغيرها ، على ما يشاءُ من صورها وحركاتها وقواها ومنافعها وأضرارها ، والله على كل شىء أراد خلقه قدير ؛ إذ يقول له : كن ، فيكون .

(١) الحق أن استعمال : (من) فى العقلاء أغلبى ، وأن استعمال : (ما) فى غير العقلاء كذلك ، وقد يتقارضان ، فتستعمل كلتاهما فى غالب ما تستعمل فيه الأخرى - كما هنا فى (من) وكما فى قوله تعالى : (والسماء وما بناها) بالنسبة لما ، فإنها هنا مراد منها المولى - سبحانه وتعالى - أى : ومن بناها .

٤٦ - ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ : هذه الآية جاءت مقدمة لما بعدها ، ولهذا لم تُعطف على ما قبلها كما عطفت مثيلتها السابقة : « وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ . . . » الآية .

والمعنى : لقد أنزلنا آيات قرآنية موضحات لكل عاقل ما ينبغى توضيحه من الأحكام الدينية ، والأسرار التكوينية ، والله يهدى من يشاء هدايته إلى طريق مستقيم يوصله إلى الحق والفوز فى دار الثواب ، وذلك بتوفيق من وعاها بسمعه وقلبه إلى التدبر فى معانيها ، والنظر الصحيح فيما ترشده إليه من دلائل الحق .

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾

المفردات :

(يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ) : يعرض جماعة منهم عن طاعة الله ورسوله .

(مُّعْرِضُونَ) : منصرفون . (مُذْعِنِينَ) : منقادين .

(أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) : المراد بالمرض هنا ؛ النفاق . (أَن يَحِيفَ) : أن يجور ويظلم .

التفسير

٤٧ – (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) :

بيَّن الله – سبحانه – فى الآية السابقة أنه تعالى يهدى إلى آياته البينات من يشاء، وهم أولو البصائر النيرة، فيهتدون بهديه إلى الصراط المستقيم، ويبين فى هذه الآية وما بعدها من لم يشأ الله هدايتهم من ذوى البصائر المظلمة، والأفكار الضالة من المنافقين.

ويقول الطبرى وغيره فى سبب نزول هذه الآية وما بعدها: إن رجلا من المنافقين اسمه: (بشر) كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة فى أرض، فدعاه اليهودى إلى التحاكم عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان اليهودى محقًّا والمنافق مبطلا، فأبى المنافق وقال: إن محمدا يحيف علينا، فلنُحَكِّمْ (كعب بن الأشرف) فنزلت فيه[1].

وقال الضحاك: نزلت فى (المغيرة بن وائل) كان بينه وبين على – كرم الله وجهه – خصومة فى أرض، فدعاه علىٌّ أن يتحاكما إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال: أما محمد فلست آتيه؛ فإنه يبغضنى وأنا أخاف أن يحيف على، فنزلت[2].

وهذه الآية وإن نزلت فى قصة واحد من المنافقين[3]، لكنهم لما كانوا جميعاً على مذهب واحد من النفاق، حيث كانوا يظهرون الإيمان والطاعة، ويبطنون الكفر والمخالفة – لما كانوا جميعاً كذلك – حكى الله نفاقهم بصيغة الجمع بقوله: « وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا » وختم الآية بقوله: « وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ».

والمعنى الإجمالى للآية، ويقول المنافقون بألسنتهم: صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا، مظهرين بذلك ولاءهم لله ولرسوله، ثم ينصرف فريق منهم من بعد قولهم هذا معرضين عما يقتضيه الإيمان من الالتزام بشريعة الله والتخلق بأخلاق المؤمنين، وما هؤلاء المنافقون بالمصدقين المخلصين، فقلوبهم مخالفة لألسنتهم، وما قالوه كان رياء ونفاقاً لجر المنافع ودفع المضار.

---

(١) نقله القرطبى عن الطبرى. (٢) مختصر من الآلوسى. (٣) على اختلاف الروايتين.

٤٨ ـ (وَإِذَا دُعُوٓا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ) :

وإذا دعا المنافقين خصومُهم إلى شرع الله ورسوله ، ليحكم به الرسول بينهم ، فاجأ بعضهم بالإعراض عن التحاكم إلى رسول الله إذا كان الباطل فى جانبهم والحق فى جانب غيرهم ، خشية أن يحكم عليهم بشريعة الله التى تنصف المظلوم ولو كان من الكافرين ، وتدين الظالم ولو لبس ثياب المؤمنين .

٤٩ ـ (وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوٓا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ) :

وإن يكن للمنافقين الحق جهة خصومهم يأْتوا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ منقادين له ، مسرعين إليه ؛ لعلمهم بأَنه سيحكم لهم ؛ لأَنه يحكم بالحق حيثما كان .

ثم بين الله ما يدور عليه إعراض المنافقين عن التحاكم إلى رسول الله وهم مبطلون ، فقال ـ سبحانه ـ :

٥٠ ـ (أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوٓا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

تفيد هذه الآية أن امتناع المنافقين عن التحاكم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينما يكون الحق ضدهم ، لا يخرج عن أن يكون ناشئاً عن مرض فى قلوبهم ، يميل بهم إلى الظلم وكراهة الحق ، أو ناشئاً ـ فى زعمهم ـ عن وجود ما يريبهم ويشككهم فى نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو عن خوف من أن يجور الله عليهم ورسوله .

وبما أنه لا سبيل إلى الريب فى نبوته ؛ لأَنه النبى الحق المؤيد من عند الله بالآيات البينات ، ولا مجال للخوف من جوره فى الحكم ؛ لأَنه عرف بالعدل التام بين الناس جميعاً فلا يبقى إلا السبب الأَول ، وهو مرض قلوبهم الشامل لكفرهم ونفاقهم ، فهو الذى صرفهم عن التحاكم إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولهذا ختمت الآية بالحكم بظلمهم لنفوسهم وذلك بنفاقهم الذى أَصبح مرضاً فى قلوبهم .

وقد اتبعت الآية معهم أُسلوب المحاورة لكشف حالهم ، والاستفهام فيه للتوبيخ والذم وتشديد النكير عليهم .

والمعنى الإجمالى للآية : أفى قلوب هؤلاء المنافقين مرض منعهم من التحاكم إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أم ارتابوا فى نبوته لوجود ما يريبهم فيها ، أم يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله إن تحاكموا إليه ؟ والحق أنه لا يوجد سبب من جهته – صلى الله عليه وسلم – يمنعهم من التحاكم إليه ؛ فهو النبى العادل دون ريب ، بل السبب هو ظلمهم لأنفسهم بمرض قلوبهم ونفاقهم ، وظلمهم لخصومهم بمحاولة الاستيلاء على حقوقهم .

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾)

المفردات :

(الْمُفْلِحُونَ) : الفائزون . (وَيَتَّقْهِ) : قرأها حفص بإسكان القاف وكسر الهاء غير مشبَعَةٍ ، حكى ابن الأنبارى أنها لغة لبعض العرب ، إذ يُسكِّنون ما قبل الحرف المعتل بعد حذفهم المعتل للجازم ، ومنه قول الشاعر :

ومن يتّقْ فإن الله معـــــــه ورزق الله مؤْتَابٌ وغــــــادى

وقرأها الباقون بكسر القاف ، اكتفاء بحذف حرف العلة للجازم ، وخفَّفَ كسرة الهاء بعضهم ، وأشبعها بعض آخر ، وهذا عند القراءة ، أما عند الوقف فقد أجمع القراء على تسكين الهاء .

التفسير

٥١ - (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

تحكى هذه الآية الكريمة حال المؤمنين الصادقين إذا دعوا إلى التحاكم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إثر حكاية حال المنافقين ؛ ليتبين الفرق بين الخبيث والطيب .

ومعنى الآية : ما كان قول المؤمنين الصادقين إذا دعاهم أحد إلى شرع الله ورسوله ليحكم به الرسول بينهم - ما كان قولهم حينئذ - إلا أن يقولوا لداعيهم : سمعنا قولك ، وأطعنا أمرك بالنزول على حكم الله ورسوله ، وأولئك المؤمنون الصادقون هم الفائزون برضوان الله وجزيل ثوابه ، دون من عداهم من المنافقين الذين يتحاكمون إلى غيره ؛ فرارا من عدل الله ورسوله .

قال قتادة - تعليقاً على هذه الآية - : ذُكِرَ لنا أن عبادة بن الصامت - وكان عَقَبِيًّا[١] ، بَدْرِيًّا[٢] ، أحد نقباء الأنصار - أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وماذالك ؟ قال : بلى ، قال : فإن عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ، ومَنْشطِك ومَكْرَهِك[٣] ، وأثَرَة عليك[٤] ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وألا تنازع الأمر أهله ، إلا أن يأمروك بمعصية الله بَوَاحًا[٥] ، فما أمرت به من شىء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله .

وقال قتادة أيضاً ، وذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا فى جماعة ، والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة .

---

(١) أى : كان ممن بايع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى العقبة بمنى ، وقد شهد العقبتين - الأولى والثانية - .

(٢) أى : كان من المقاتلين فى غزوة بدر .

(٣) المنشط : ما تنشط إليه نفسك وتشرئب لعمله ، والمكره : ضده .

(٤) الأثرة : حبك الشىء لنفسك ، والإيثار : ضده ، والمراد من السمع والطاعة فى الأثرة عليه ألا يمانع فى تفضيل غيره عليه .

(٥) ظاهرا مكشوفا .

وقال أيضاً : وذكر لنا أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين . رواه ابن أبى حاتم ، انظر ابن كثير .

٥٢ ـ (وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ) :

هذه الآية مستأنفة لتقرير ما قبلها من حسن حال المؤمنين ، وترغيب سواهم فى أن يكونوا منهم .

والمعنى ، ومن يطع الله فيما فرضه على عباده ، ويطع رسوله فيما بينه من الفرائض والسنن ، ويخشى الله على ما مضى من ذنوبه ، ويتقه فيما يستقبل من عمره ، فأولئك هم الفائزون بالنعيم المقيم فى جنة الرحمن الرحيم ، دون من عداهم من المنافقين والكافرين .

* (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾)

المفردات :

(جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ) : أى طاقة أيمانهم[1] ، والمراد : أنهم بلغوا أقصى المراتب فى الإقسام بالله ، و (جَهْدَ) مصدر فى موضع الحال بتأويله بجاهدين (طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ) أى : طاعتكم طاعة معروفة باللسان ، فلا تقسموا ، فالجملة علة للنهى عن القسم الكاذب

(١) وفى إضافة الجهد للإيمان مجاز بالاستعارة ، لأن الجهد للحالف ، وليس لليمين .

(فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَاحُمِّلَ) : أى ماعلى الرسول سوى تبليغ ماحمله الله من الرسالة وقد فعل .
(وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ) : من الطاعة القلبية والظاهرية .

التفسير

٥٣ - (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ . . .) الآية .

بَيَّن الله فى الآيات السابقة أن المنافقين « يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم » عن قبول التحاكم إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ووصفهم بقوله : « وَمَآ أُولَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » إلى آخر ما جاء فيهم من ذم أحوالهم ، وجاءت هذه الآية لتبين أنهم لما علموا بنزول هذه الآيات فيهم جاءوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليبرئوا أنفسهم من النفاق والكذب فى أيمانهم ويعلنوا طاعتهم ، وأقسموا على أنه - صلى الله عليه وسلم - لو أمرهم أن يخرجوا من أموالهم وديارهم لفعلوا[1] .

والمعنى : وأقسم المنافقون مبالغين فى إقسامهم جهد طاقتهم ، ليبرئوا أنفسهم من النفاق وعدم الطاعة والانقياد لحكم الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، قائلين : والله لئن أمرتنا يارسول الله بالخروج من ديارنا وأموالنا لنفذنا أمرك ، وخرجنا منها طاعة لأمرك ، فرد الله عليهم قائلا لرسوله :

(قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) أى : قل لهم أيها الرسول : لا تقسموا على طاعة الله ورسوله ، فطاعتكم طاعة معروفة للناس ، فهى طاعة باللسان ، وليست نابعة من قلوبكم ، إن الله خبير بما يصدر عنكم من أعمال النفاق الضارة بالإسلام وبالمسلمين ، فمجازيكم عليها أشد الجزاء .

٥٤ - (قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ) :

قل لهم أيها الرسول : أطيعوا الله ورسوله مخلصين غير منافقين ، فإن تتولوا وتعرضوا عما كلفتم به من الطاعة فما على الرسول سوى تبليغ الرسالة التى حمله الله تعالى أمر تبليغها ،

(١) وفسر بعضهم الخروج فى الآية بالخروج للجهاد ، ولكنه غير مناسب لسياق الآيات قبلها .

وما عليكم إلا الطاعة الخالصة من النفاق ، فهى التكليف الذى حملكم الله إياه لتنفذوه ، وختم الله الآية بنصيحتهم بقوله :

(وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) : أى وإن تطيعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يأمركم به وينهاكم عنه ويحكم به تهتدوا إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، وليس على الرسول إلا تبليغ أمته تبليغا مبيناً للحق والباطل وقد فعل ، وليس عليه أن يقهركم على الطاعة ، فهى مسئولة منكم وتكليف واجب عليكم .

(وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾)

المفـردات :

(لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ) : ليجعلنهم خلفاء متصرفين فى الأرض .

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ) : أى وليجعلنه مكينا ثابتاً .

(وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ) : ومآلهم ومسكنهم جهنم .

التفسير

٥٥ ـ (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . . . .) الآية .

قال أبو العالية فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : مكث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة عشر سنين[1] بعد ما أوحى الله إليه خائفاً هو وأصحابه يدعون إلى الله سراً وجهرا ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون فى السلاح ، فقال رجل : يارسول الله أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تلبثون إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملإ العظيم مُحْتَبِيًا ليس عليه حديدة » ونزلت الآية ، وأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا . اهـ

وقال الضحاك ماخلاصته : أن هذه الآية تتضمن صحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى فهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقد استخلفهم الله على الأرض التى ولَّاهم الله عليها ، وإلى هذا الرأى ذهب ابن العربى ، وحكى فى أحكامه أن علماء المالكية يرون أن هذه الآية دليل على صحة خلافتهم ، فهم الذين استخلفهم الله ورضى أمانتهم ، ولم يتقدمهم أحد فى الفضيلة إلى يومنا هذا ، فاستقر الأمر لهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، وذبُّوا عن حوزة الدين فنفذ الوعد فيهم .

وحكى القشيرى هذا القول عن ابن عباس ، واحتجوا بما رواه سَفينة مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول :

---

(١) التقييد بعشر سنين راجع إلى مدة إيذائهم للنبى وأصحابه بعد الجهر بالدعوة ، أما مدة الدعوة إلى الإسلام بمكة فقد كانت ثلاث عشرة سنة ، وكانت الدعوة فى السنوات الثلاث الأولى فى طى الخفاء ، فلما جهر بها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعاب آلهتهم التى عبدها آباؤهم ، أخذتهم حمية الجاهلية ، فآذوه وأصحابه عشر سنين تباعا ، وحملوهم على الهجرة :

« الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا » .

وقالت طائفة من العلماء : هذا وعد لجميع المسلمين بأن تكون الأرض كلها تحت لواء الإسلام ، وهم مستخلفون عليها ، كما قال -صلى الله عليه وسلم- : « إن الله زَوَى لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » من حديث رواه الإمام أحمد بسنده عن شداد بن أوس .

واختار ابن عطية هذا القول ، وقال : الصحيح فى الآية أنها فى استخلاف الجمهور ، واستخلافهم هو أن يملكهم البلاد ويجعلهم أهلها كالذى جرى فى الشام والعراق وخراسان والمغرب[1] .

ونحن نقول : سواءٌ أكان المراد من الآية الخلفاء الأربعة ، أو جماعة الأمة الإسلامية فقد حقق الله وعده هذا وذاك ، وقد ارتفع لواءُ الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها ؛ ولا توجد اليوم أمة فى الأرض إلا والإسلام إما غالب فيها ، أوْ له كيان بين أرجائها ، أو مكان ممتاز بين أديانها ، بفضل سلامة مبادئه ، ووضوح آياته ، وجهاد قادته وثقافة دعاته . وما زلنا ننتظر المزيد من فضل الله رب العالمين .

وكما حقق الله بذلك وعده ، حقق به وعد رسوله - صلى الله عليه وسلم - إذ قال : « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه » . أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ، وكلاهما من أعلام نبوته - صلى الله عليه وسلم - لأنه إخبار عما سيكون فكان ، مع أنه فوق مستوى الظنون ، ودون تحقيقه ما هو إلى المستحيل أقرب ، ولكن الله على كل شىء قدير .

وقد وعدهم الله أن يستخلفهم (كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) : .

والمراد من الذين قبلهم : بنو إسرائيل ، فقد استخلفهم على أرض الجبارين فى بلاد الشام ، وهى الأرض المقدسة التى دعاهم موسى - عليه السلام - إلى دخولها بقوله لهم :

---

(١) ارجع إلى القرطبى .

« يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ »(١) فأجابوه بما حكاه الله تعالى عنهم بقوله : « قَالُوا يَا مُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا » .

ولما نصحهم بعض المخلصين منهم بالهجوم عليهم متوكلين على الله فإنهم سيغلبونهم « قَالُوا يَا مُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ »(٢) فشكاهم إلى الله تعالى فحرمها عليهم « أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ »(٣)

ولما فَنِىَ هذا الجيل الفاسد ، وانتهت عقوبة الحرمان ، فتحها بذرياتهم نبى الله يوشعُ ـ عليه السلام ـ فهذه هى الأرض التى استخلفهم الله عليها بعد أن ظلوا عبيدا للمصريين بعد يوسف ـ عليه السلام ـ حتى أنقذهم الله تعالى من العبودية على يد موسى وهرون ـ عليهما السلام ـ.

وقد أشار الله تعالى إلى ماضيهم المستضعف وإلى الأرض التى استخلفوا عليها بقوله : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا »(٤) .

فالأرض التى أورثوا مشارقها ومغاربها ، هى الأرض المباركة وهى أرض فلسطين لقوله تعالى : « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ »(٥) .

وقوله : « سُبْحَانَ الَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ »(٦) .

ولما أفسد بنو إسرائيل فيها عدة مرات أُخرجوا منها ، وحرموا ميراثها ، ثم اغتصبوها عدواناً من المسلمين الذين خلصوا أهلها من ظلمهم ، وكانوا أحق بها منهم ، والعاقبة للمؤمنين الصابرين .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢١
(٢) سورة المائدة ، الآية : ٢٤
(٣) سورة المائدة ، من الآية : ٢٦
(٤) سورة الأعراف ، من الآية : ١٣٧
(٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٧١
(٦) أول سورة الإسراء .

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا) أى : أنه تعالى كما وعد المؤمنين الصالحين باستخلافهم فى الأرض وعدهم أيضاً بأن يمكن ويثبت لهم دينهم الإسلام الذى ارتضاه لهم ، وأن يمنحهم الأمن والطمأنينة ، بدلا من الخوف الذى كان يقض مضاجعهم من أعدائهم[1] .

وعقب الله هذا الوعد ببيان مقتضيه فقال : (يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا) : أى أنه تعالى إنما يستخلفهم ويمكن لهم دينهم ، لأنهم يعبدونه وحده لا يشركون به فى العبادة سواه ، وأتبع هذا بتحذيرهم من الكفر فقال سبحانه :

(وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

والمراد من الكفر هنا إما الردة ، وإما كفران نعمة الاستخلاف والتمكين ، فإن أريد منه الردة فالمراد بالفسق بلوغ الغاية فيه ، حيث ارتدوا بعد إيمان ، وإن أريد منه كفران نعمة ، فالمراد منه مطلق الخروج عن الطاعة مع بقاء الإيمان .

والمعنى الإجمالى للآية : وعد الله الذين آمنوا بالله ورسوله ، وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه – مع قلتهم وكثرة أعدائهم – وعدهم – ، أن يجعلهم خلفاء على أرضه فى مشارقها ومغاربها ، يَلُون أمرها وتدين لطاعتهم ، وينشرون فى أرجائها دينه ، ويبينون للناس آياته وبراهينه .

وهذا الاستخلاف لهم قد سبقه مثله لبنى إسرائيل قبلهم فى أرض فلسطين ، بعد أن استقامت أمورهم ، وعادوا إلى ربهم ، وقبل أن يفسدوا فى الأرض .

كما وعدهم أن يثبت لهم دينهم الإسلام بين سائر الملل والنحل فيحميه من أهلها ، وأن يعوضهم بدلا من الخوف الذى يعيشون فيه أمنًا من الأعداء ، بما يمنحهم من القوة

(١) وفى هذا يقول –صلى الله عليه وسلم– لعدى بن حاتم حين وفد عليه : « أتعرف الحيرة » ؟ قال : لم أعرفها ولكن قد سمعت بها ، قال : « فوالذى نفسى بيده ليثبتن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم . كسرى بن هرمز . . » من حديث أخرجه البخارى فى كتاب المناقب باب علامات النبوة فى الإسلام .

والكثرة والفتوحات ، لأنهم يعبدونه تعالى لا يشركون به سواه ، ومن ارتد بعد هذا الوعد أو تحقيقه أو كفر بنعمته التى أنعم بها عليه فأولئك هم الخارجون عن الإيمان ، أو عن فضيلة الشكران[1] .

٥٦ – (وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) : وأدوا الصلاة بأركانها وشروطها فى مواقيتها ، وأعطوا زكاة أموالكم وأبدانكم إلى من يستحقها ، وأطيعوا الرسول فى كل ما أمركم به أو نهاكم عنه ، لعلكم ترحمون فى الدنيا بتحقيق مواعيد الله لكم ، وتحقيق آمالكم ، وفى الآخرة بالنجاة من النار ، والثواب الجزيل فى جنات النعيم .

٥٧ – (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ) : فى هذه الآية تسلية للنبى – صلى الله عليه وسلم – ووعد له بالنصر ، أى : لاتظن يا محمد أن هؤلاء الذين كذبوك وكفروا بما جئتهم به من الله – لا تظنهم – معجزين الله فى الأرض عن الانتقام منهم ونصرك عليهم ؛ فإن الله قادر على ذلك ، وسوف يعذبهم على كفرهم ، ومآلهم النار يأوون إليها خالدين ولبئس مصير الظالمين .

---

(١) أطال ابن كثير فى التعليق على هذه الآية الكريمة ، فارجع إلى ماكتبه فيها إن شئت ، فإنه كلام نفيس ، تناول فيه التطورات التى مرت بالدولة الإسلامية نحو خلافتها فى الأرض تحقيقا لوعد الله الكريم ، وحسب القارىء ماكتبناه ، ففيه الكفاية والله تعالى هو الموفق .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾)

المفـردات :

(لِيَسْتَأْذِنكُم) : ليطلب الإذن منكم . (الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) : عبيدُكم وإماؤُكم ، والتعبير عنهم بما ملكت الأَيمان لأَنهم يؤسرون فى الحرب بالأَيمان لا بالشمائل غالباً فنسب الملك إليها لذلك .

(الْحُلُمَ) بضم اللام : أَوان البلوغ . (تَضَعُونَ ثِيَابَكُم) : تخلعونها .

(ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ) :العورة : الخلل ، يقال : أعورُ المكانِ ، أى : مختلُّه[1] ، ورجل أعور أى : مختل العين ، أى : هى ثلاث أوقات يختل فيها تستركم . (جُنَاحٌ) أى : حرج (طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ) :أى : هم يطوفون عليكم فى غير هذه الأوقات لقضاء مصالحكم ، فلاداعى لاستئذانهم منكم .

(وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ) : العجائز اللَّاتى قعدن عن الحيض والحمل أو عن التصرف لكبر السن ، ومفرده : قاعد ، بدون هاء ، ليدل حذفها على أنه قعود الكبر وهو من الصفات الخاصة بالنساء كالطالق والحائض . (أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ) : أى : يتخلين عن الثياب الظاهرة .

(غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ) : أى : غير مظهرات زينتهن (وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ) : يطلبن العفة بالستر (خَيْرٌ لَّهُنَّ) : من التجرد من الثياب الخارجية الظاهرة لأنه أبعد عن التهمة .

التفسير

٥٨ - (يَآأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَئْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَآءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ) :

هذه الآية وما بعدها اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، وماتقدم فى أول السورة كان بياناً لاستئذان الأجانب بعضهم على بعض ، وقد أمر الله المؤمنين والمؤمنات[2] فى هذه الآية ، أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم من العبيد والإماء وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم . وكانوا مميزين فى ثلاثة أحوال :

الأولى : من قبل صلاة الصبح ، لأن الناس حينئذٍ إما نيام فى فرشهم ، وإما قيام من مضاجعهم ليطرحوا ثياب النوم ويلبسوا ثياب اليقظة .

والحالة الثانية : حين يخلعون ثيابهم وقت الظهيرة للنوم .

والحالة الثالثة : بعد صلاة العشاء إلى الفجر ، لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة ولبس ثياب النوم ، والتساهل فى كشف بعض أجزاء الجسد ، وقد يكون الرجل مع أهله

---

(١) انظر البيضاوى .

(٢) فالخطاب فى الآية وإن كان للرجال ، إلا أن الحكم فيها عام لهم وللنساء ، لأنهن شقائق الرجال فى الأحكام ، إلا ماعلم خصوصه بأحدهما .

فى أية حالة من هذه الحالات ، فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت فيها ، بل يستأذنوا تأدباً وتصوناً ، وحفاظاً على عورات الناس أن تكشف ، ولقد أطلق الله على هذه الأوقات عورات لذلك روى ابن أبى حاتم بسنده (عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى الثلاث عورات التى أمر الله بها فى القرآن ، فقال ابن عباس :

إن الله ستِّير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حِجَال[1] فى بيوتهم ، فربما فاجأ الرجلَ خادمه أو ولده أو يتيمه فى حجره أى فى كفالته وهو على أهله ، فأمرهم أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى الله ثم جاء الله بعد بالستور ، فبسط عليهم الرزق ، فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال . فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به) قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس .

وحكى المهدوى عن ابن عباس أن الاستئذان كان واجباً إذ كانوا لا غَلَق لهم ولا أبواب . ولو عاد الحال لعاد الوجوب - ذكره القرطبى فى المسألة الثانية وعقبه برأى آخر يفيد أن الآية محكمة واجبة ثابتة على الرجال والنساء ، وذكر أنه قول أكثر أهل العلم . ا هـ .

وبه نقول ، فإن الآية الكريمة أطلقت الأمر بالاستئذان ، سواءٌ وجدت الأبواب والستور أو لم توجد ، فلا يحل اقتحام الأبواب والستور دون استئذان فى تلك الأوقات ، لوجود مقتضى المنع وهو احتمال انكشاف العورات فيها ، روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث غلاما من الأنصار يقال له مُدْلِج إلى عمر بن الخطاب ظهيرةً ليدعوه ، فوجده نائماً قد أغلق عليه الباب ، فدق عليه الغلام الباب فناداه ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيءٌ ، فقال عمر : وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعات إلا بإذن ، ثم انطلق إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فوجد هذه الآية قد أنزلت ، فخر ساجدًا شكرًا لله .

فأنت ترى أن الغلام دق الباب ونادى عمر ودخل قبل أن يستيقظ عمر ويأذن له ، فانكشف منه للغلام ما لا يحب أن ينكشف لأحد ، فلهذا نرى أن الحكم ثابت مع وجود

---

(١) الحجال : جمع حجلة ، وهى بيت كالقبة يستر بالثياب وله أزرار كبار .

الأبواب والستور ، كما أطلقته الآية الكريمة ، ويشير إلى ذلك ختم الآية بقوله سبحانه : « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

وقال السدى فى سبب نزول الآية : كان أناس من الصحابة – رضى الله عنهم – يحبون أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن .

وقال مقاتل بن حيان : بلغنا – والله أعلم – أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مَرْثَد ، صنعا للنبى – صلى الله عليه وسلم – طعاماً ، فجعل الناس يدخلون بغير إذن ، فقالت أسماء : يا رسول الله ، ما أقبح هذا ، إنه ليَدْخل على المرأة وزوجها وهما فى ثوب واحد غلامهما بغير إذن ، فأُنزل فى ذلك : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ . . . » الآية .

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ) : أى ليس عليكم أيها المؤمنون والمؤمنات حرج فى أن يدخل عليكم عبيدكم وإماؤكم وأطفالكم الذين لم يبلغوا الحلم فى غير هذه الأوقات ؛ لأنكم تكونون حينئذ متسترين محتاطِين ، مستعدين لدخولهم عليكم ، لكى يقضوا حاجاتكم ، ولذا علل نفى الجناح بقوله :

(طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) : أى : هم طوافون عليكم بحوائج البيت ، بعضكم طائف على بعض .

ولا يخفى ما فى هذا التعبير القرآنى الجليل من جبر خواطر المماليك ، بجعلهم بعضاً من سادتهم المخاطبين ، وبذلك يقوى أمر العِلِّية ، ثم ختم الله الآية بقوله :

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) : أى مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر آيات الأحكام ، والله عليم بمصالح عباده ، حكيم فى تشريعه .

المعنى الإجمالى للآية : يا أيها المؤمنون والمؤمنات يجب عليكم أن تأمروا عبيدكم وإماءكم وأولادكم المميزين الذين لم يصلوا إلى سِنّ البلوغ بالاحتلام ، أن يستأذنوا فى الدخول

ثلاث مرات[١] : (إحداها) من قبل صلاة الفجر ،لأنه وقت القيام من النوم ، والاستعداد للصلاة بالطهر من الجنابة ، أو خلع ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة .

(وثانيها) حين تخلعون ثيابكم وقت الظهيرة ، وتلبسون ثياب نومكم للقيلولة .

(وثالثها) من بعد صلاة العشاء ؛ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة ، ولبس ثياب النوم ، فهذه ثلاثة أوقات يختلُّ فيها تستركم ، وتبدو بعض عوراتكم ، وقد يكون فيها الرجل مع أهله ، فعلِّموا عبيدكم وإماءكم ومن لم يبلغ الحلم من أطفالكم أدب الاستئذان فيها صيانة لعوراتكم ، وتأديباً لأتباعكم وأطفالكم ، ليس عليكم ولا عليهم حرج بعد هذه الأوقات فى ترك الاستئذان ، فهم طوافون عليكم لقضاء مصالحكم ، وهم بعض منكم طائف على بعض ، فكُلْفَةُ استئذانهم عليكم مرفوعة حينئذ ، لأنكم فى غير خلوة ، ومحتاطون بالتستر فى غير هذه الأوقات ، ومستعدون للقائهم لقضاء حاجاتكم ، مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر آياته التشريعية ، والله عليم بمصالحكم ، حكيم فيما يشرعه لكم .

٥٩ - (وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

لما بَين الله فى الآية السابقة حكم الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم : وهو أنهم لا يُلْزَمون بالاستئذان إلا فى الأوقات الثلاثة المبينة فيها ، عقبها الله بهذه الآية لبيان حكم الأطفال الذين بلغوا ، سواءٌ أكانوا أقارب أم أجانب - كما قاله أبو حيان فى البحر[٢] وقد بين الله - تعالى - فى الآية أنهم يستأذنون كما استأذن الذين من قبلهم فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا . . . » الآية ، وذلك بأن يستأذنوا فى جميع الأوقات قبل الدخول ، ويرجعوا إن قيل لهم : ارجعوا .

---

(١) يرى الجمهور أن قوله تعالى : « ثلاث مرات » بمعنى ثلاثة أوقات ، وإطلاق اسم المرات على تلك الأوقات لمرور المستأذنين فيها ، وعلى هذا يكون لفظ : (ثلاث) منصوبا على الظرفية مجازا ، واختار أبو حيان فى (البحر) أن المعنى : ثلاث استئذانات ، كما هو الظاهر ، فإنك إذا قلت : ضربت ثلاث مرات ، لا يفهم منه إلا ثلاث ضربات ، ويؤيده قوله - صلى الله عليه وسلم - : « الاستئذان ثلاث » وعليه يكون لفظ (ثلاث) مفعولا مطلقا للاستئذان مبينا لعدده . انتهى بتصرف يسير نقلا عن الآلوسى .

(٢) وأخرج ابن أبى حاتم نحو هذا التفسير عن سعيد بن جبير .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب أنه قال : يستأذن الرجل على أمه ، وأخرج البخارى فى الأدب ، وابن أبى حاتم وغيرهما عن عطاء أنه سأل ابن عباس - رضى الله عنهما - أأستأذن على أختى؟ قال : نعم ، قلت : إنها فى حجرى - أى : فى كفالتى - وأنا أنفق عليها ، وإنها معى فى البيت ، أأستأذن عليها ؟ قال : نعم - ثم قال : فالإذن واجب على خلق الله أجمعين[١] .

وروى عنه أنه قال : إنى لآمر جارتى - يعنى زوجته - أن تستأذن علىّ ، وحمل بعضهم الآية على أطفال المؤمنين الأجانب إذا بلغوا ، وقال بعض الأجلّة : المراد بهم : ما يعم البالغين من الأحرار والمماليك ، فهؤلاء وأولئك هم الذين يستأذنون فى جميع الأحوال[٢] .

والمعنى الإجمالى للآية : وإذا بلغ الأطفال الحلُم منكم أيها المؤمنون فليستأذنوا فى جميع الأحوال كما استأذن الذين ذكروا من قبلهم فى قوله - تعالى - : « لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا » وعليكم أن ترجعوا إذا قيل لكم : ارجعوا ، مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم آيات أحكامه ، والله عليم بمصالحكم ، حكيم فيما يشرعه لكم .

٦٠ - (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَآءِ الَّلاتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) :

أى : والنساء العجائز اللاتى قعدن عن الحيض والحمل ، ولا يطمعن فى الزواج لكبرهن فليس عليهن حرج فى أن يخلعن ثيابهن الظاهرة التى لا يفضى خَلْعها إلى كشف العورة ، كالرداء والقناع الذى يكون فوق الخمار[٣] ، وعليهن ألا يظهرن زينة أمر الله بإخفائها فى قوله - تعالى - : « وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ » وأن يستعففن بالستر أفضل لهن ؛ لأنه أبعد عن التهمة ، وأدعى إلى الخير ، والله سميع لمقالتهن للرجال ، عليم بمقاصدهن فيحاسبهن عليها .

---

(١) ولعل استئذان المحارم البالغين إنما يطلب فى غير الأوقات ، التى وردت فى الآية التى قبلها إذا كان الباب مغلقا ، فإن كان مفتوحا فإنه لا حاجة لاستئذانهم على محارمهم ، لأن فتح الباب فيه إذن ضمنى .

(٢) انظر الآلوسى .

(٣) الخمار - بكسر الخاء - : غطاء الرأس ، ويقال له : النصيف .

(لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ
لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم
بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾)

المفـردات :

(حَرَجٌ) : ضيق ومؤاخذة . (إِخْوَانِكُمْ) : أى إخوتكم الذكور .

(مَامَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ) : أى المكان الذى بأيديكم مفاتحه أمانة لإخوانكم ، والمفاتح : جمع مِفتح ، وهو المفتاح . (أَشْتَاتًا) : متفرقين ، جمع شَتٌّ ، أى متفرق .

(مُبَارَكَةً) : مرجوة الخير والثواب . (طَيِّبَةً) : تطيب بها نفس من يستمع إليها .

التفسـير

٦١ - (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَآئِكُمْ . . . .) الآية .

تحدثت الآيات الثلاث السابقة عن أدب الاستئذان من المماليك وصغار الأطفال والبالغين على ذويهم ، وجواز ترك العجائز لبس الثياب الخارجية كالأردية ، مع ستر

ما يجب ستره من المرأة وعدم التزين ، وأن لبس الثياب الخارجية خير لهن وأبعد عن التهمة من خَلْعِها .

وجاءت هذه الآية الكريمة لتحدثنا عن أنواع أخرى من الآداب الإسلامية الرفيعة ، فقد اشتملت على ثلاثة منها (أولها) يرتبط بأصحاب العاهات (وثانيها) يرتبط بالأصحاء (وثالثها) تحية الإسلام عند الدخول ، فأما ما يرتبط بأصحاب العاهات ففى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ .

وفى هذا الجزء من الآية نقل الآلوسى من كتاب (الزهراوين) عن ابن عباس أن هؤلاء الطوائف كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء ، حذرا من استقذارهم إياهم وخوفاً من تأذيهم بأفعالهم ، فنزلت .

ونقل القرطبى عن ابن العربى أنه قال : المختار أن يقال : إن الله رفع الحرج عن الأعمى فيما يتعلق بالتكليف الذى يشترط فيه البصر ، وعن الأعرج فيما يشترط فى التكليف به المشى ، وما يتعذر من الأفعال مع وجود العرج ، وعن المريض فيما يؤثر المرض فى إسقاطه ، كالصوم وشروط الصلاة وأركانها ، والجهاد ونحو ذلك ، ثم قال بعد ذلك مبيناً : وليس عليكم حرج فى أن تأكلوا من بيوتكم ، فهذا معنى صحيح ، وتفسير بيِّنٌ مفيد يعضده الشرع والعقل ، ولا يحتاج فى تفسير الآية إلى نقل . ا هـ .

قال القرطبى – تعقيباً على كلام ابن العربى – : وإلى هذا أشار ابن عطية فقال : فظاهر الآية وأَمْرُ الشريعة يدل على أن الحرج مرفوع فى كل ما يضطرهم إليه العذر ، وتقتضى نيتُهم فيه الإتيان بالأكمل ، ويقتضى العذر أن يقع منهم الأنقص ، فالحرج مرفوع عنهم فى هذا . ا هـ .

ونرى أن كلام ابن عطية شامل لما قاله ابن العربى ، ولما روى عن ابن عباس ، وهو خير ما يقال فى تفسير هذا الجزء من الآية ، وبه نقول .

(والنوع الثانى من الأدب) يشتمل عليه قوله – سبحانه – :

﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) :

وقد بيّن الله – سبحانه – فى هذا الجزء من الآية أنه لا حرج على المؤمنين جميعاً ، ومنهم أصحاب العاهات المذكورة ، أن يأكلوا من بيوتهم ، والمقصود منها : البيوت التى فيها أولادهم وزوجاتهم فهى كبيوتهم ، فلا حرج عليهم فى أن يأكلوا من طعام مملوك لهم ؛ لأن ولد الرجل بعضه ، وحكمه حكم نفسه ، ولذا لم يذكر الله تعالى الأولاد فى الآية ، قال – صلى الله عليه وسلم – : « أنت ومالك لأبيك » ولأن الزوجين صارا كنفس واحدة ، فصار بيت المرأة كبيت الزوج ، فكأنه تعالى يقول : ولا على أنفسكم حرج فى أن تأكلوا من مساكنكم التى فيها أهلوكم وأولادكم .

كما بيّن – سبحانه – أنه لاحرج على المؤمنين فى أن يأكلوا من بيوت آبائهم أو بيوت أمهاتهم ، أو بيوت إخوتهم الذكور ، أو بيوت أخواتهم الإناث ، أو أعمامهم أو عماتهم أو أخوالهم أو خالاتهم ، سواء أذنوا لهم فى الأكل أو لم يأذنوا ؛ لأن فى القرابة التى بينهم إذنا عرفيا لهم بالأكل ، ويقول ابن العربى : أباح الله الأكل من جهة النسب من غير استئذان ، إذا كان الطعام مبذولا ، فإذا كان الطعام مُحْرَزًا لم يكن لهم أخذه ، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الادخار ، ولا إلى ما ليس بمأكول وإن كان غير محرز إلا بإذن .

وقال بعض العلماء : لايباح الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب إلا بإذن منهم ؛ لأنه لا يعلم رضاهم إلا به ، أما القرابة فليست من أسباب الرضا دائما ، فمن الأقارب من لديه سماحة ، ومنهم أشحة ، ولا يعلم ما فى القلوب إلا الله ، فلا يحل الأكل من بيوتهم بغير إذنهم ومعرفة رضاهم ، وهذا الكلام قريب مما قاله ابن العربى ؛ فإن الطعام إذا كان مبذولا لآكليه ، فتلك أمارة على رضا أصحابه .

والمقصود الأول من الآية : هو غرس غريزة الكرم والبر بالأقارب فى نفوس المؤمنين ، ماداموا قادرين على ذلك ، وإعداد النفوس المسلمة إلى هذا اللون من التعاون والتقارب والأخوة فى الإسلام ، عملا بقوله – تعالى – : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى » ، وبقوله

ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » فإن شحت نفوسهم عن الخير مع قدرتهم عليه ، فهذا مخالف للخلق الذى اختاره الله لعباده المؤمنين .

ولقد تأدب المؤمنون بهذا الأدب العالى فى عهده ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يقصروه على الأقارب ، فقد كانوا يؤثرون إخوانهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة واحتياج .

ثم قال الله ـ سبحانه ـ : « أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ » يعنى أنه يباح لمن كانت لديه مفاتيح مكان مستأمن عليه أن يأكل منه ، والمقصود من ملكه لمفاتيحه أن يكون أمانة تحت يده ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ : هو وكيل الرجل وقيّمه فى ضيعته وما شيته . وروى عن عكرمة أنه قال : إذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن ، فلا بأس أن يَطْعَمَ الشىء اليسير[1] .

وروى عن ابن عباس أنه قال : نزلت هذه الآية فى الحارث بن عمرو ، خرج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غازياً ، وخلف مالك بن زيد على أهله[2] ، فلما رجع وجده مجهودا ، فسأله عن حاله ، فقال : تَحرجْت أن آكل من طعامك بغير إذنك ، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية ، وقد أباح الله للصديق أن يأكل من صديقه بقوله : « أَوْ صَدِيقِكُمْ »[3] والصديق : من يصدق فى مودتك ، وتصدق فى مودته .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدخل بستان أبى طلحة المسمى (بَيْرَحَاء) ويشرب من ماء فيها طيب بغير إذنه ، والماءُ مُتَمَلَّك لأهله .

وإذا جاز الشرب من ماء الصديق بغير إذنه جاز الأكل من ثماره وطعامه ، إذا علم أن نفس صاحبه تطيب به لتفاهته ويسير مؤنته ، أو لما بينهما من المودة ، مادام محافظا على المحارم ، أما الآن فقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل إلا بإذن .

ويقول الله ـ تعالى ـ :(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا) : وهذه الجملة مستأنفة لبيان حكم جديد : هو إباحة الاجتماع على الطعام المشترك ، وأن يتفرقوا إن لم

(١) أى : يأكل الشىء القليل . (٢) أي : وكيلا له فى قضاء مصالح أهله .
(٣) لفظ الصديق والعدو يطلق على الواحد والجمع .

يرغبوا فى الاجتماع عليه ، واختلف فيمن نزلت ، فقيل : نزلت فى بنى ليث بن عمرو ، وكانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده ، فربما قعد منتظرا نهاره إلى الليل ، فإن لم يجد من يؤاكله أكل - ضرورة - وحده ، ونَفْىُ الجناح عن أكلهم دون ضيف لبيان أن لا إثم فيه ، ولا يُذَمُّ صاحبه شرعا ، كما ذمَّت به الجاهلية ؛ فإنهم غير مقصرين إذا لم يحضر الضيف .

وقيل : نزلت فى قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام ، لاختلاف فِى الأكل ، وزيادة بعضهم على بعض ، فأُذن لهم فيما تحرجوا منه .

(والأدب الثالث فى الآية) تضمنه قوله تعالى : (فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً) أى : فإذا دخلتم بيوتاً من هذه البيوت التى أذن لكم فى الأكل منها ، فابدأوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم قرابة ودينا ، تحية من عند الله تعالى ، ثابتة بأمره ، مشروعة من عنده ، مباركة طيبة ؛ لأن السلام دعوة مؤمن لمؤمن ، يرجى بها من الله السلامة وزيادة الخير وطيب الرزق ، ثم ختم الله الآية بقوله :

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) : أى مثل ذلك البيان الواضح يبين الله لكم سائر آياته لكى تتعقلوها وتفهموها ، وتحرصوا على العمل بها .

المعنى الإجمالى للآية : ليس على الأعمى إثم ولا ضيق بتركه ما يقدر عليه البصير ، ولا على الأعرج إثم ولا ضيق بتركه ما يقدر عليه الماشى ، ولا على المريض إثم ولا ضيق بتركه ما يقدر عليه الصحيح ، فلا يكلف أصحاب هذه الأعذار بما يكلف به سواهم ممن لا عذر لهم ، فهؤلاء جميعاً لا يكلفون بالجهاد بالسيف ونحوه ، والمرضى منهم لا يكلفون بالصيام ونحوه مما ليس فى وسعهم ، حتى يزول عذرهم ، قال - تعالى - : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[1] » كما أنه ليس على هؤلاء ضيق فى أن يأكلوا مع الأصحاء ، وأن يأكل الأصحاء معهم ، حذرا من استقذارهم إياهم ، وتأذيهم بوجودهم أو بتصرفهم أثناء تناول

(١) سورة البقرة ، من آخر آية فيها .

الطعام بسبب أعذارهم[1] ، ما لم يكن بالمرضى أمراض معدية ، فعليهم أن يتركوا مخالطة الأصحاء فى الطعام ، لقوله – صلى الله عليه وسلم – : « لا يوردَنَّ مُمْرِض على مُصِحٍّ » .

وينبغى لمن يؤاكلهم أن ييسر لهم تناول الطعام دون حرج ولا مشقة ولا شح ، وينبغى لهم أن يلتزموا الحكمة فى تناولهم الطعام مع سواهم .

وليس عليكم – أيها المؤمنون – ضيق ولا إثم فى أن تأكلوا من المساكن التى فيها أولادكم وأهلوكم ؛ فأولادكم منكم ، ونساؤكم سكن لكم ، ومودة ورحمة بينكم ، فلا عليكم أن تأكلوا من طعام مملوك لهؤلاء وأولئكم .

وليس عليكم ضيق ولا إثم فى أن تأكلوا من بيوت آبائكم ، أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوتكم ، أو أخواتكم ، أو أعمامكم ، أو عماتكم ، أو أخوالكم ، أو خالاتكم – ولو بدون إذن – إن كان الطعام مبذولا ، فإن كان داخل حرز ، فلا يحل لكم الأكل منه إلا بإذن منهم ، أو قيام أمارة على رضاهم .

وليس عليكم إثم ولا ضيق فى أن تأكلوا مما وليتم مفاتحه ورعايته وكنتم وكلاء فيه ، كالضياع ومرابض الماشية ، فلكم أن تأكلوا من ثمر الضياع ، وتشربوا من لبن الماشية على ألا تتوسعوا فى ذلك ، وليس لكم حق الادخار منه .

وليس عليكم إثم ولا ضيق فى أن تأكلوا فى بيت صديقكم من طعامه المبذول ، أو المحرز ولو بغير إذن ، إذا علمتم أن نفسه تطيب به لتفاهته ويسر مؤنته ، ما دمتم محافظين على المحارم ، والآن وقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل من بيوتهم بغير إذن منهم .

وقد أباح الله لكم الاجتماع على الأكل فى سفر أو حضر ، فليس عليكم إثم فى أن تجتمعوا على طعام اشتركتم فى ثمنه ، ولكم ألا تشتركوا وتأكلوا أشتاتاً متفرقين .

وإذا دخلتم بيتا من هذه البيوت التى أبيح لكم الأكل منها ، فاستأذنوا على من فيها ، وسلموا عليهم ؛ فهم كأنفسكم لقرابتهم ، ولأخوتهم لكم فى الدين ، وقد شرع الله هذا

(١) روى أن العرب وأهل المدينة كانوا قبل البعث يتجنبون الأكل معهم ، لأن الأعمى تجول يده فى الصحفة ، ولسوء جلسة الأعرج ، وعدم خلو المريض من رائحة تؤذى .

السلام تحية من عنده ، ثابتة بأمره ، مباركة طيبة ؛ لأنها دعوة طيبة من المؤمن لأخيه المؤمن ، مباركة كثيرة الخير ، لما فيها من المودة والألفة وربط القلوب بعضها ببعض .

(إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾)

المفــردات :

(عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ) : على أمر من شأنه أن يجتمع له المسلمون ، كالإعداد للحرب ونحوه ، ووصف الأمر بأنه جامع على سبيل المجاز .

التفسـير

٦٢ – (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ . . . .) الآية .

هذه الآية مستأنفة لبيان نوع من أرق أنواع الأدب فى الإسلام ، وهو ألا ينصرف المؤمن من مجلس الرسول المعقود لأمر جامع ، إلا باستئذانه – صلى الله عليه وسلم – إذا كانت لديه حاجة ملحة إلى الانصراف من هذا الأمر الجامع .

وقد نزلت الآية فى شوال سنة خمس من الهجرة ، حين كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه يحفرون خندقاً حول المدينة لوقايتها من هجوم قريش ، وقائدها أبو سفيان

وغطفان ، وقائدها عيينة بن حصن ، وبنى مرة ، وقائدهم الحارث بن عوف المُرِّى ، وبنى أشجع وبنى سليم ، وبنى أسد ، وعدد هؤلاء جميعاً عشرة آلاف مقاتل ، وكان سلمان الفارسى هو الذى أشار على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بحفره ، ولم تكن العرب تعرفه من قبل .

وقد حفر فى شمال المدينة ؛ لأن هذه الجهة كانت مظنة هجوم الأعداء ، أما باقى الجهات فمشغولة بالبيوت والنخيل فلا يتمكن العدو من الحركة فيها .

وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفره ؛ لأنهم كانوا فى غير سعة من العيش وقد عمل معهم النبى – صلى الله عليه وسلم – فكان يحمل التراب معهم ، وكان المنافقون يتسللون لواذا(١) من العمل ، أو يعتذرون بأعذار كاذبة ، فنزلت هذه الآية تنعى عليهم تسللهم ، وتشير إلى أن الإيمان لم يتمكن من قلوبهم ، لتسللهم عن الجماعة دون استئذان من الرسول – صلى الله عليه وسلم – .

وهذا الحكم ثابت لحكام المسلمين فى الأمور الجماعية الخطيرة ، فإذا كان إمام المسلمين معهم أو مع أهل شوراه أو مع غيرهم لأمر يهم المسلمين ، فلا يحل لأحد أن يتسلل من الاجتماع دون إذن منه .

والمعنى الإجمالى للآية : إنما المؤمنون الصادقون هم الذين اجتمع فيهم أمران ، أحدهما : أن يؤمنوا بالله ورسوله ، وثانيهما : أنهم إذا كانوا معه على أمر يقتضى اجتماعهم ، لم يذهبوا من مكان الاجتماع حتى يطلبوا الإذن من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بذهابهم ، فمن خرج دون إذن منه ، فهو ناقص الإيمان ، إنَّ الذين يستأذنونك لبعض شأنهم صادقين ، أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله حقًّا ، دون المنافقين المتسللين دون استئذان ، أو المستأذنين منهم بعذر كاذب ، كقولهم : « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا(٢) » فإذا استأذنك المؤمنون الذين تعلم صدقهم فى إيمانهم – إذا استأذنوك – لبعض شأنهم فائذن لمن شئت الإذن له منهم ، فإنك أعلم بمن تكون المصلحة فى بقائه معك منهم ، ومن لا ضرر فى التيسير له بالذهاب ، واستغفر لهم الله فى استئذانهم ، فإنه وإن كان لمصلحة ، لا يخلو

(١) أى : يلوذ بعضهم ببعض ويلجأ إليه فى التسلل .
(٢) سورة الأحزاب ، من الآية : ١٣

عن شائبة تقديم أمر الدنيا على الآخرة ، إن الله عظيم الغفران لفرطات عباده ، واسع الرحمة في قبول أعذارهم .

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾

المفـردات :

(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ) : أي لا تجعلوا نداءه . (يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا) التسلل : الخروج على سبيل التدرج والاستخفاء ، واللواذ : التبعية واللجوء ، وقد يطلق على الفرار ، ومنه قول حسان بن ثابت :

وقريش تجول منا لواذا لم تحافظ وخفَّ منها الحلوم

(يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) : أي يعرضون عن أمره . (فِتْنَةٌ) : محنة في الدنيا .

التفسـير

٦٣ - (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا . . .) الآية .

هذه الآية الكريمة مستأنفة لبيان عظيم شأنه - صلى الله عليه وسلم - وكريم قدره ، مقررة لما قبلها من وجوب استئذانه قبل الانصراف من مكان الاجتماع : أي لا تجعلوا نداءه - صلى الله عليه وسلم - كنداء بعضكم بعضاً باسمه ، ورفع الصوت به ، وندائه من

وراء الحجرات ، ولكن نادوه بلقبه العظيم ، مثل : يا نبى الله ، أو يا رسول الله ، مع التوقير والتواضع وخفض الصوت .

أو : لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض ، فلا تبالوا بسخطه ، فإن دعاءه مستجاب .

(قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا) : لفظ (قد) مع الفعل المضارع يفيد التقليل غالباً ، وقد يفيد التحقيق بمعونة المقام – كما هنا – وهو مع الماضى يفيد التحقيق دائما .

والمعنى : قد يعلم الله بالتحقيق من يخرجون منكم – أيها المنافقون – من مكان يجتمع فيه رسول الله بالمؤمنين دون استئذان منه – صلى الله عليه وسلم – يخرجون – متدرجين متلاوذين بأن يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج ، أو يلوذ بمن يؤذَنُ له ، فينطلق معه كأنه تابعه ، أو يهرب فى خفية .

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » : أى فليحذر الذين يخالفون معرضين عما أمر به الله من الاستئذان من الرسول – صلى الله عليه وسلم – حين الخروج من مجلسه – فليحذروا أن تصيبهم محنة فى الدنيا ، أو يصيبهم عذاب شديد الإيلام فى الآخرة .

٦٤ – (أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

ألا : أداة تنبيه إلى الاهتمام بما يجىء بعدها ، والمعنى : ألا إن لله وحده جميع ما فى السموات والأرض من أجزائهما وما استقر فيهما ، خلقاً وملكا وتدبيرا وعلما ، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين وإن اجتهدوا فى إخفائها وسترها ، إنه يعلم ما أنتم عليه – أيها المكلفون جميعاً – من الأحوال التى من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق ، ويوم يرجع هؤلاء المنافقون إليه – سبحانه – للحساب والجزاء فى دار الجزاء ، فينبئهم بما عملوه ، فيرتب عليه ما يستحقه من الجزاء ، والله محيط علمه بكل شىء ، فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

« سـورة الفرقان »

مكية وآياتها سبع وسبعون

مقاصد السـورة :

بدأت هذه السورة بتنزيه الله الذى أنزل القرآن على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - وخَلَق السموات والأرض وكل شىء فيهما ، ثم نَعَتْ على المشركين أنهم أشركوا به من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشورًا ، كما نعت عليهم وصفهم للقرآن بأنه أساطير الأولين ، مع أن الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض هو الذى أنزله ، كما نعَتْ عليهم إنكارهم لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، وليس معه ملك يشاركه الإنذار ، ولأنه فقير وليس له جنة يأكل منها ، مع أن ذلك ليس قادحاً فى نبوته .

كما نعت عليهم تكذيبهم بالساعة ، وحكت أهوال النار التى سوف يصلونها ، وقارنت بينها وبين الجنة التى وعد بها المتقون ، ثم بينت أن المرسلين قبله كانوا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، فلا وجه لاعتراضهم على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بأكله الطعام ومشيه فى الأسواق .

ثم تحدثت عن أهوال يوم القيامة ، وأن الحكم يومئذ لله وحده ، وأن الظالم حينئذ يعض على يديه لعدم اتباعه الرسول ، وإيثاره أهل الضلال عليه .

ثم ذكرت أن المشركين قالوا : لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ، وأجابت بأنه أنزل على فترات لكى يثبته الله فى فؤاده - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان أميًّا لا يقرأ ولايكتب .

ثم تحدثت عن إرسال موسى وهرون إلى فرعون وقومه ، فلما كذبوهما دمرهم الله تدميرًا ، وتحدثت عن تكذيب قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم لأنبيائهم ، وأن الله أهلكهم بسبب تماديهم فى تكذيب رسلهم .

وراء الحجرات ، ولكن نادوه بلقبه العظيم ، مثل : يا نبى الله ، أو يا رسول الله ، مع التوقير والتواضع وخفض الصوت .

أو : لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض ، فلا تبالوا بسخطه ، فإن دعاءه مستجاب .

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا) : لفظ (قد) مع الفعل المضارع يفيد التقليل غالباً ، وقد يفيد التحقيق بمعونة المقام - كما هنا - وهو مع الماضى يفيد التحقيق دائما .

والمعنى : قد يعلم الله بالتحقيق من يخرجون منكم - أيها المنافقون - من مكان يجتمع فيه رسول الله بالمؤمنين دون استئذان منه - صلى الله عليه وسلم - يخرجون - متدرجين متلاوذين بأن يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج ، أو يلوذ بمن يؤذَنُ له ، فينطلق معه كأنه تابعه ، أو يهرب فى خفية .

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) : أى فليحذر الذين يخالفون معرضين عما أمر به الله من الاستئذان من الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين الخروج من مجلسه - فليحذروا أن تصيبهم محنة فى الدنيا ، أو يصيبهم عذاب شديد الإيلام فى الآخرة .

٦٤ - (أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

ألا : أداة تنبيه إلى الاهتمام بما يجىء بعدها ، والمعنى : ألا إن لله وحده جميع ما فى السموات والأرض من أجزائهما وما استقر فيهما ، خلقاً وملكا وتدبيرا وعلما ، فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين وإن اجتهدوا فى إخفائها وسترها ، إنه يعلم ما أنتم عليه - أيها المكلفون جميعاً - من الأحوال التى من جملتها الموافقة والمخالفة والإخلاص والنفاق ، ويوم يرجع هؤلاء المنافقون إليه - سبحانه - للحساب والجزاء فى دار الجزاء ، فينبئهم بما عملوه ، فيرتب عليه ما يستحقه من الجزاء ، والله محيط علمه بكل شىء ، فلا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وبينت أن قريشاً تنكر وصف الله بالرحمن « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا » .

ثم بينت أن عباد الرحمن هم الذين يمشون على الأرض متواضعين ، وأنهم يسالمون من يجهل عليهم ويشاركونه ولا يجارونه فى سفهه ، ووصفتهم بأنهم يتعوذون بالله من جهنم ، وأنهم فى إنفاقهم يتوسطون بين التبذير والتقتير وأنهم لايدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون نفساً بغير حق ولا يزنون ،وأن من تاب منهم من ذنبه توبة نصوحاً فإن الله تعالى يقبل توبته وأنهم إذا ذُكِّروا بآيات ربهم تأثروا بها ولم يخروا عليها صمًّا وعميانا ، وأنهم يطلبون من الله أن يجعل لهم من أزواجهم وذرياتهم قرة أعين ، ويجعلهم للمتقين إماما ، وأنهم يجزون الغرف العالية فى الجنة بصبرهم على طاعة الله ، ويُحَيَّوْن فيها بالسلام والأمان « خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » وأنه تعالى لا يعبأ بعباده لولا عبادتهم ودعاؤهم إياه فإن كذبوا رسله فسوف يكون عذابه ملازما لهم . وسيأتى بيان ما أجملناه فى تفسير آياتها تباعا ، والله تعالى هو الموفق .

ونعت على قريش أنهم أتوا على قرية قوم لوط ، وعلموا بإهلاكهم ، لتكذيبهم رسولهم ورفضهم نصائحه ، حيث أهلكهم الله بحجارة من سجيل أنزلها عليهم من السماء ، وذكرت أن قريشاً استمروا فى تكذيبهم واستهزائهم برسولهم قائلين : « أَهَٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً » وبينت أنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، لأنهم لم يعتبروا بما حصل لمن قبلهم .

وتحدثت عن الآيات الكونية الدالة على قدرة الله واستحقاقه العبادة وحده ، فذكرت أن ظل الأجسام فى النهار لا يبقى على حالة واحدة ، فإنه تعالى يمده ثم يقبضه شيئاً فشيئاً ، بإحلال ضوء الشمس محله ، ولو شاء الله لجعله ساكنا لا ينقبض ، بجعل الشمس ثابتة على وضع مائل دائماً ، وأنه جعل الليل كاللباس فى ستره الأجسام وجعل النوم راحة للأبدان تشبه الموت ، وجعل النهار نشاطاً لها يشبه البعث والنشور بعد الموت ، وأرسل الرياح ناشرات للسحاب بين يدى رحمته سبحانه ، حيث جعلها مبشرات بالمطر الذى هو من آثار رحمة الله ، إذ به يحيا الإنسان والنبات و الحيوان ، وبينت السورة أن الله صرف الحديث عن آياته فى كتبه السماوية « فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا » .

ثم بينت أنه تعالى أرسل البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما حاجزا ، بحيث يؤدى كلاهما وظيفته فى مصالح الإنسان والحيوان و النبات .

وذكرت أنه تعالى خلق من ماء الزوجين بشرًا ، فجعل هذا البشر إما نسبياً وقريباً ، وإما صهرًا ، وكل ذلك دليل على قدرة الله ووحدانيته ، ومع هذه الآيات يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرًا .

ثم بينت أنه تعالى ما أرسل محمدًا – صلى الله عليه وسلم – إلا مبشرًا ونذيرًا ، وليس عليه إلا البلاغ وقد فعل ، وأنه – صلى الله عليه وسلم – ما يسألهم على التبليغ من أجر إلا أن يسلكوا سبيل العبادة لله وحده ، وذلك شاهد على صدقه ونزاهته فى دعوته .

وحثت النبى – صلى الله عليه وسلم – على أن يتوكل على الحى الذى لا يموت ، ويترك حساب الناس لربهم ، فإنه خبير بذنوبهم ، وأنه لا يضيق صدره بكفرهم وعنادهم .

وترتيب وصفه تعالى بقوله (تبارك) على إنزاله القرآن ، لما فيه من الخير الكثير لعباده فى الدنيا والآخرة ، ولأنه ناطق بعلو شأنه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وتسمية القرآن بالفرقان ، لأنه فرق بين الحق الذى جاء به نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، وبين ما عليه الناس قبله من العقائد الزائفة ، والشرائع الفاسدة ، وشرع لهم من الأحكام ما يناسب مصلحة البشر فى دنياهم وأخراهم ، وقد جاء فى وصف عظمة القرآن قوله -صلى الله عليه وسلم- : « إن هذا القرآن مَأْدَبَةُ الله(١) ، فتعلموا من مَأْدَبَته ما استطعتم ، إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يَعْوَجّ فيُقَوَّم ولا يَزيغ فيسْتَعْتَب(٢) ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد(٣) ، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أمَا إنى لا أقول : (ألم) حرف ، ولكن ألف ولام وميم ، ولا ألْفيَنَّ أحدكم واضعاً إحدى رجليه يَدَعُ أن يقرأ سورة البقرة ، فإن الشيطان يفِرُّ من البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة ، وإن أصْفَرَ البيوت(٤) لَجَوْفٌ صَفِرٌ(٥) من كتاب الله » أخرجه الحاكم وصححه بسنده عن ابن مسعود ، وكذا محمد بن نصر وابن الأنبارى والطبرانى وغيرهم .

والمراد بعبده : نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، والتعبير عنه بذلك للإيذان بأن رسالته إلى الناس كافة لا تخرجه عن العبودية لله الذى أرسله ، وأن من يَدعى الولدية لله فى رسول أرسله الله إليه ، فهو كافر ، فإنه سبحانه «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .
والمراد بالعالمين : الإنس والجن ، منذ عصره -صلى الله عليه وسلم- إلى أن تقوم الساعة ، ومن أنكر إرساله -صلى الله عليه وسلم- إلى الجن فقد كفر ، فإنه معلوم من الدين بالضرورة ، لشمول العالمين لهم ، ولما تدل عليه سورة الجن من أنه تعالى أرسله إلى الجن ، فآمن به بعضهم وكفر آخرون ، قال تعالى حكاية عن الجن الذين استمعوه : «وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ، وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ

---

(١) أى : مصدر لأدبه تعالى لعباده .
(٢) أى : ولا يميل عن الحق فيلام على ميله .
(٣) أى : لا يبلى على ترداد قراءته .
(٤) أى : أشدها خلوا من الخير .
(٥) أى : خلا .

بسم الله الرحمن الرحيم

(تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾)

المفـردات :

(تَبَارَكَ) : أى تعالى وتعاظم ، ولا يستعمل مع غير الله تعالى غالباً ولا يُتَصَرَّف فيه

(الْفُرْقَانَ) : المراد به القرآن ، وهو فى الأَصل مصدر فرق بين الشيئين ، إذا فصل بينهما ، سمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل . (نَذِيرًا) : أى منذرا أَو إنذارا كالنكير بمعنى الإنكار .

(فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) : أى فهيأَه لما أَراده له من الخصائص والأَفعال تهيئة دقيقة . (نُشُورًا) : بعثا .

التفسير

١ ـ (تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) :

افتتح الله هذه السورة بكلمة (تَبَارَكَ) وهى مأْخُوذة فى الأَصل من البركة بمعنى كثرة الخير ، وقد فسرها الحسن وغيره بقوله : تزايد خيره وعطاؤه وتكاثر ، وفسرها آخرون بقولهم : تزايد وتعالى شأْنه على كل شىءٍ فى ذاته وصفاته وأَفعاله ، فإن البركة تستلزم الزيادة والعلو ، وفسرها الخليل بمعنى تمجد ، وهو قريب من سابقه .

ومعنى الآية : واتخذ المشركون آلهة غير الله تعالى ، عبدوهم وهم لا يستحقون العبادة ، فهم لا يخلقون شيئاً صغيرا كان أو كبيراً ، ولكنهم مخلوقون لله رب العالمين ، ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ، والذى يضرهم وينفعهم هو الله القدير العليم ، ولا يملكون لأحد موتاً حتى يميتوه ، ولا حياة فى الدنيا حتى يحيوه ، ولا يملكون له نشوراً وبعثاً فى الآخرة حتى يبعثوه وينشروه ، وإنما الذى يملك ذلك كله هو الله تعالى ، فكيف استساغوا عبادتها؛ وهى مجردة من صفات الألوهية واستحقاق الربوبية .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾)

المفردات :

(إِفْكٌ افْتَرَاهُ) : كذب اخترعه . (أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) : أباطيلهم التى سطروها ، وهى جمع أسطورة ــ كأحاديث جمع ، أحدوثة أو جمع أسطار ، كأقاويل جمع أقوال .

(اكْتَتَبَهَا) : طلب كتابتها . (فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ) : تلقى إليه ممن كتبها ليحفظها .

(بُكْرَةً) أى : أول النهار قبل انتشار الناس . (وَأَصِيلاً) : آخر النهار بعد أن يأووا إلى مساكنهم ، والبكرة : أول النهار ، والأصيل : ضدها ، يعنون أنها تملى عليه خفية ، وقد كذبوا فى ذلك كله ــ قاتلهم الله ــ . (السِّرَّ) : الأمر الخفى المكتوم عن الناس .

أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا »[1] إلى غير ذلك مما جاء في سورة الجن وفى السنة الصحيحة .

والمعنى الإجمالى للآية : تعالى الله الذى أنزل على عبده ورسوله محمد القرآن ، فارقاً بين الحق والباطل ، ليكون به منذرا للعالمين من الإنس والجن ، ومخوفا لهم من العقاب إن كفروا بـآياته ، وعبدوا غيره .

(الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) :

المراد بخلقه كل شيء إيجاده ، وبتقديره تهيئته لما خلق له من الخصائص .

ومعنى الآية : هو الله الذى له السلطان القاهر ، والاستيلاء التام على السموات والأرض وما فيهما خلقاً وملكاً وتصرفاً ، إيجادًا وإعداماً ، وإحياء وإماتة ، وأمرا ونهيًا ، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، وليس لغيره فى ذلك شريك أو معين ، وأوجد كل شيء فيهما إما من العدم أو من مواد لا ثقة بخلقه ، فقدره وهيأه وهداه لما أراده منه من الخصائص والأعمال ، كتهيئته الإنسان وهدايته للإدراك والفهم والتدبير ، واستنباط الصنائع المتنوعة ، واختراع الفنون العجيبة ، ومزاولة الأعمال المختلفة ، وتسخير الحيوانات واستزراع المزروعات ، والانتفاع بالجمادات وغير ذلك من عجائب الله فى تقدير الإنسان .

وكتهيئته النحل لاتخاذ مأوى لها فى الجبال والشجر والعرائش ، والتعرف بحواس داخلية على أماكن الزهور والثمار ، فتطير إليها ، وتمتص رحيقها وتأكل من ثمراتها فيتحول غذاؤها إلى عسل شهى مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، فتلقيه فى بيوت هندسية مسدسة الأضلاع ، صنعتها من شمع تفرزه لبنائها « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

٣ - (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) :

تحكى هذه الآية أباطيل المشركين فى عقائدهم وتبين وجه بطلانها ، بعد بيان عقيدة أهل الحق فيما قبلها .

(١) سورة الجن ، الآيات : من ١٣ - ١٥

وقد عرفوه بالصدق والأمانة ، وعدم اشتغاله بالأدب المنثور ، والشعر الموزون ، ولم يعرفوا عنه حب الرياسة والجاه ، ولا عن أهل الكتاب أنهم يعينون غيرهم على هدم دينهم ، ولا عن أولئك العبيد والموالى أنهم يحسنون فهم الكتب السماوية أونقل ما فيها إن صح أنهم يحفظونها «لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ» وقد لبث الرسول فيهم عمرا طويلاً من قبله يعمل بالتجارة ، دون أن يتجه إلى تلك الدعوة التى فوجئ بتكليفه بها ، وهو لا يسألهم عليها أجرا ، ولا يطلب بها جاهاً ، ولا ثراء فما بالهم لا يعقلون .

٥ ـ (وَقَالُوٓا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) :

بعد ما جعلوا القرآن الحق إفكا من محمد بإعانة البشر له ، بينوا كيفية الإعانة التى زعموها ؛ أى وقال الكافرون : هذا القرآن أباطيل الأولين طلب محمد كتابتها من أهل الكتاب ، فكتبوها له ، فهى بعد تحريرها تملى عليه بكرة أول النهار ، وأصيلاً آخر النهار ، حتى لايراه أحد وهى تملى عليه حيث يكون الناس فى بيوتهم ، لكى يحفظها ممن يمليها عليه .

وقيل : المراد من قولهم : « بُكْرَةً وَأَصِيلاً » : أى دائماً ، وقد كذبوا فى كل ذلك ، ولهذا رد الله عليهم بقوله :

٦ ـ (قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا) :

أى قل لهم أيها النبى ردا عليهم : أنزل هذا القرآن اللهُ الذى يعلم الخفى من الأمور فى السموات والأرض مثلما يعلم الظاهر منها ، وقد أودعه من فنون الأسرار والمصالح الخفية مالا علم لأحد به ، فى أسلوب بديع ونظم فريد أعجزكم وأعجز جميع الفصحاء والبلغاء عن الإتيان بمثله ، وأخبركم بمغيبات مستقبلة مكنونة ، لا سبيل لأحد أن يعلمها إلا بوحى من ربه ، إن الله الذى أنزل هذا القرآن ، كان ولا يزال موصوفاً بعظيم الغفران والرحمة ، ولهذا أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة على هذه الفرية النكراء ، لعلكم تتوبون فيغفر لكم ويرحمكم ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ »

التفسير

٤ - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ :

بين الله فى الآية السابقة سوء رأى المشركين باتخاذهم آلهة لاتضر ولا تنفع ، وجاءت هذه الآية لتبين سوء مقالهم فيما جاءهم به نبيهم من الهدى .

والقائلون هم مشركو العرب ، كما أخرجه جماعة عن قتادة ، وقد سمى منهم - فى بعض الروايات - النضر بن الحرث ، وعبد الله بن أمية ، ونوفل بن خويلد ، وإسناد القول إلى جميع المشركين ، لرضاهم بما قاله هؤلاء الغلاة المفترون .

وقد ضموا إلى هذه الفرية فرية أخرى ، إذ قالوا إن محمدا قد أعانه على ما جاء به من القصص القرآنى قوم آخرون ، يعنون بهم اليهود ، حيث زعموا أنهم أخبروه بهذا القصص ، فعبر عنه بعبارة من عنده ، ومنهم من زعم أن الذين أعانوه هم : عداس ، وعائش مولى حُوَيْطِب بن عبد العزى ، ويسار : مولى العلاء بن الحضرمى ، وجبر مولى عامر ، وكانوا كتابيين يقرءون التوراة ، أسلموا وكان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يتعهدهم بالبر والنصح والهدى ، فافترت قريش هذه الفرية النكراء ، وقد كذبهم الله فيما زعموا .

ومعنى الآية : وقال المشركون الكافرون بالهدى : ما هذا القرآن الذى يدعونا محمد إلى الإيمان به ؛ إلا كذب اختلقه محمد من عند نفسه ولم يأته من عند ربه ، وأعانه على افترائه على الله قوم آخرون يعرفون قصص الأنبياء مع أممهم ، حيث سردوا عليه تلك القصص ، فصاغها بعبارة من عنده ، وأسند الإعلام بها إلى ربه ، وقد جاء هؤلاء الكافرون بما قالوه ظلماً للحق وكذباً شنيعاً على محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن هذا القرآن لا يستطيع أن يأتى بمثله الإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ولا يقدر على الإتيان بمثله سوى من أنزله على رسوله ، بما اشتمل عليه من الإعجاز البيانى ، والأحكام التشريعية ، والأخلاق السنية ، والحكم الربانية ، والأخبار الغيبية ، والآيات الكونية ، وامتلاكه نواصى القلوب بأسلوبه ، فأنى لمحمد -صلى الله عليه وسلم- أن يأتى بمثله ، وهو أمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب ،

فبعثوا إليه ؛ أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقالوا : يا محمد إنا بعثنا إليك لنعذر منك ، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب الشرف فنحن نُسوِّدُك ، وإن كنت تريد الملك ملكناك ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « مابى مما تقولون ، ماجئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله تعالى بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله عز وجل بينى وبينكم ، قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل شيئاً مما عرضنا عليك فَسَلْ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جناناً وقصورا من ذهب وفضة تغنيك عما تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ، ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم ، فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما أنا بفاعل ، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله تعالى بعثنى بشيرا ونذيرا ، فأنزل الله تعالى فى قولهم ذلك « وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ . . . . » الآيات[1].

والمعنى : أنهم بعد ما افتروا على القرآن ما افتروه قالوا : أى سبب لهذا الذى يزعم أنه رسول جعله يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشى فى الأسواق ساعياً على رزقه كما نسعى ، فلو كان رسولاً من عند ربه لخالفنا فى أسلوب معاشنا ، فهلاَّ ميزه الله علينا فأنْزَلَ معه ملكاً يكون معه نذيرا لنا ، ليجعلنا مطمئنين إلى إرساله إلينا .

٨ ـ (أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا) :

أى : فإن لم ينزل الله عليه ملكاً يظاهره فى الرسالة ، فهلا يلقى إليه ربه من السماء مالاً يكتنزه ، ليستظهر به ويرتفع احتياجه إلى اكتساب قوته من السعى فى الأسواق مثلنا ، فإن لم يوجد هذا ولا ذاك فلا أقل من أن يكون له بستان يتعيش بريعه كمياسير الناس ،

(١) نقله الآلوسى .

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

(جَنَّةٌ) : أى بستان . (رَجُلاً مَّسْحُورًا) : أى رجلا سُحِر فغلب السحر على عقله .

(ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ) : ذكروا فى حقك تلك الأقاويل الغريبة ؛ التى لا تمت إلى الحق بصلة

(فَضَلُّوا) : فبعدوا عن طريق الحق .

التفسير

٧ - (وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ . . . .) الآية .

أخرج ابن إسْحٰق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى سبب نزول هذه الآية : أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، والنضر بن الحرث ، وأبا البحترى والأسود ابن عبد المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيها ومنبها ابنَى الحجاج ؛ اجتمعوا ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وكلموه وخاصموه[1] حتى تعذروا منه ،

(١) أى : جادلوه .

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾
إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا
أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا
الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾)

المفردات :

(السَّاعَةِ) : المراد بها زمن قيام الناس لرب العالمين ، وسبب التسمية ؛ أنه تعالى يفجأُ بها الناس فى ساعة لا يعلمها إلا هو . (سَعِيرًا) : نارا شديدة الاستعار : أى الاتقاد .

(سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا):أى سمعوا لغليانها صوتاً يشبه صوت المتغيظ والزافر.والتغيظ: هو إظهار الغيظ.والغيظُ : أشد الغضب ، والزفير : إخراج النَّفَس ، وضده : الشهيق ، واستعمال الزفير فى صوت النار مجاز . (أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا) : أى ألقوا من النار فى مكان ضيق لزيادة تعذيبهم .

(دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) : أى نادوا فى ذلك المكان هلاكاً لينقذهم من عذابه .

(لاَتَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا) : لاتنادوا فى هذا اليوم هلاكاًواحدا ليخلصكم مماأنتم فيه .

(وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) : أى ونادوا هلاكاً كثيرا ، ليخلصكم كل منها من نوع من أنواع العذاب ، فإن أنواعه كثيرة ، وسيأْتى بسط الكلام فى معنى الآية عند تفسيرها .

التفسير

١١ ـ (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا) :

فى هذه الآية انتقال إلى حكاية نوع آخر من أباطيلهم يتعلق بأمر المعاد ، بعد حكاية إشراكهم وطعنهم فى النبوة .

ويمتاز به على عامتهم وقال هؤلاء الظالمون للمؤمنين : ما تتبعون إلا رجلا مسحورا مغلوبا على عقله وليس بنبي ، فرد الله عليهم مستعظما لإفكهم ، داعياً للتعجب منه بقوله :

٩ ـ (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً) :

أى : انظر أيها الرسول كيف قالوا فى حقك هذا الكلام المخالف للواقع ، المنافى للصدق ، حيث ضربوا لك الأمثال ، واخترعوا لك تلك الصفات ، فضلوا بها عن الحق والهدى ، متحيرين فيما يصفونك به ، فلا يستقرون فى القدح فى نبوتك على حال ، ولا يستطيعون أن يجدوا طريقا للنيل منها بحال ، فإن الحق يَقْهَرُ ولا يُقْهَرُ ويعلو ولا يُعلى .

١٠ ـ (تَبَارَكَ الَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل[1] لَّكَ قُصُورًا) :

أى : تعالى الله الذى إن شاء التوسعة عليك فى الدنيا ، جعل لك خيراً من ذلك الذى اقترحوه بساتين تجرى من تحتها الأنهار لا بستانا واحدا ، ويجعل لك قصورا عديدة تتمتع بها ، ولكنه ادخر لك الخير كله بجميع صوره فى الآخرة بعد قيام الساعة التى كذبوا بها

وقد حكى الله تكذيبهم وتوعدهم عليه فى الآيات التالية :

---

(١) « يجعل » يجعل : مضارع مجزوم معطوف بالواو على محل « جعل » فإنه فى محل جزم جواب الشرط وإن كان مبنيا على الفتح لكونه فعلا ماضياً ، وقرىء بالرفع ، لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز فى جوابه الجزم والرفع ، كقول الشاعر : وإن أتاه خليل يوم مسغبة . . يقول لا غائب مالى ولا حرم – ويجوز أن يكون استئنافاً .

١٤ ـ (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيرًا) :

ما جاء فى هذه الآية إما مقول لهم بلسان الملائكة ، وإما مقول بلسان الحال .

والمعنى : يقال لهم : لا تنادوا الثبور اليوم نداء واحدا ، لكى ينقذكم من عذابكم ولكن ادعوه ونادوه نداء كثيرا ، فإن ما أنتم فيه لغاية شدته واستمراره ؛ يستوجب منكم تكرار الدعاء فى كل آن ، وعلى هذا الرأى يكون الثبور ، : أى الهلاك المطلوب واحدا ولكن الدعاء به كثير.

وقيل معناه : وادعوا هلاكا كثيرا ، لا هلاكاً واحدا ، لتعدد العذاب بتعدد أنواعه أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ، فهم بحاجة فى كل عذاب إلى هلاك وموت جديد يخلصهم منه ، وأنى لهم الموت ، وهيهات أن ينفعهم هذا الدعاء ، فإنهم خالدون فى النار أبدا ، فالمقصود من الآية : إقناطهم من النجاة ، وأن دعاءهم برفع العذاب لا ينتهى .

(قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾)

المفـردات :

(الـخُلْدِ) : المكث الطويل .

(مَصِيرًا) : مُنتَهًى ومآلا .

(وَعْدًا مَّسْئُولاً) : أى موعودا يسأل الناس ربهم أن يتفضل بإنجازه ـ وللكلام بقية فى تفسير الآية .

والمعنى : ليس أمر قريش قاصرا على شركهم ؛ وتكذيبك يامحمد فيما دعوتهم إليه من التوحيد وسائر أنواع الهدى ، بل كذبوا بالساعة وهى : الموعد الذى ضربه الله لبعث الخلائق وحسابها ، وقالوا (إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)(١) فاهتموا بدنياهم وأعرضوا عن أخراهم ، فلا تعجب من تكذيبهم إياك فيما جئتهم به من الحق وقد أعددنا لكل من كذب بالساعة والحساب والجزاء فيها ــ أعددنا لهم ــ نارا شديدة الاتقاد ، عظيمة الإحراق « لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ » . « فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ »(٢) .

١٢ ــ (إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) :

تحكى هذه الآية وصف السعير الذى توعدهم الله به فى الآية السابقة ، والتأنيث فى « رأتهم » لمراعاة المراد من السعير وهو النار ، وقيل : لأنه علم لها . وإسناد الرؤية والتغيظ والزفير إليها على المجاز ، وقيل : إنه على الحقيقة ، كما يؤذن به ظاهر اللفظ ، لأن الله قادر على أن يجعل لها بصرا وإدراكاً ، بحيث ترى وتتغيظ وتزفر ، على نحو ماقالوه فى نحو قوله تعالى : « وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

ومعنى الآية : إذا كان الكافرون بمكان بعيد مكشوف أمام النار ، سمعوا لاتقادها صوتاً مزعجاً كالذى يحدث من المغتاظ ، وسمعوا لها صوتاً يشبه الزفير الذى يحدث من الموتور الذى يتنفس الصُّعَدَاء(٣) حين يظفر بخصمه .

١٣ ــ (وَإِذَآ أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا) :

أى : وإذا أُلقى الكفار بالساعة فى مكان ضيق من النار وهم مقرنون ، بأن جمعت أيديهم إلى أعناقهم بما يجمعها ــ إذا أُلقوا فيها كذلك ــ دعوا فى هذا المحبس النارىِّ هلاكاً يخلصهم من عذاب النار المحيطة بهم ، كأن يقولوا : يا ثبوراه ــ على معنى . هلم إلينا لتنقذنا مما نحن فيه ، وجعل بعض الأجلة دعاء الثبور ونداءه ، كناية عن تمنيهم الهلاك ، ليسلموا مما هو أشد منه ــ كما قيل : أشد من الموت ما يتمنى معه الموت .

---

(١) سورة المؤمنون، الآية : ٣٧ (٢) سورة فاطر ، من الآية : ٨ (٣) بوزن البرحاء : تنفس طويل .

وعده ، لقوله سبحانه : « كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً » ووعد الله لا يتخلف ، وليس لأحد عنده تعالى حق ذاتى على عمله ، فالله تعالى هو الذى خلقه وأقدره على العمل ، وإنما ذلك بمحض فضل الله ووعده الكريم .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾)

المفـردات :

(ضَلُّوا السَّبِيلَ) : بعدوا عن الطريق الموصل إلى الله تعالى .

(مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا) : ما كان يصح لنا . (أَوْلِيَآءَ) : آلهة يلون أمرنا .

(نَسُوا الذِّكْرَ) : غفلوا عن ذكرك لغفلتهم عن آياتك .

(قَوْماً بُورًا) : قوماً هالكين ، وبورا مصدر وصف به القوم ، ويستوى فيه الواحد والجمع ، وقيل : هو جمع باثر ، كعائذ وعوذ ، والعائذ : الحديثة النتاج من الظباء والإبل والخيل .

(صَرْفاً) : دفعاً للعذاب ، أو : حيلة من قولهم : إنه ليتصرف أى : يحتال .

١٥ - (قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا) :

قل أيها الرسول لمن كذبوك فى رسالتك ، وكفروا بالساعة التى يبعث فيها الناس لرب العالمين - قل لهم - : أذلك الذى تقدم من السعير وأهوالها وخلود الكافرين فيها ، وتمنيهم الهلاك والموت ليستريحوا منها - أذلك خير - أم جنة النعيم الخالد التى وعدها الله المتقين الذين صانوا أنفسهم وجعلوها فى وقاية من عذابها الأليم الدائم ، بإيمانهم وصلاحهم ، كانت لهم هذه الجنة فى علم الله تعالى وفى وعده على ألسنة رسله - كانت لهم - جزاء على إيمانهم ، ومنتهى يصيرون إليه بصلاحهم .

١٦ - (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا) :

هذه الآية مستأنفة لبيان منهج انتفاع المتقين بنعيم الجنة ، وكأنها جواب سائل يقول : ما لهم إذا صاروا إليها وسكنوها ؟

والمعنى : لهؤلاء المتقين فى هذه الجنة التى يصيرون إليها ، ما يشاءون من ألوان النعيم المناسبة لهم ، على قدر أعمالهم ودرجتها ، حتى لا يتساوى المقصرون بالكاملين ، فكل طبقة تقتصر مشيئتها على ما هو حق لها بمقتضى وعد الله الكريم ، فلا تمتد رغباتهم إلى ماهو حق لغيرهم ، يظلون فى جنتهم خالدين لا يَخْرُجون منها ولا يُخْرَجُون ، كان ذلك النعيم المقيم موعودا حقيقًا أن يُسْأَل ويطلب ، لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون .

ويجوز أن يكون الموعود مسئولاً حقيقة على معنى أن الناس يسألونه فى دعائهم بقولهم : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ » وقال سعيد بن هلال : سمعت أبا حازم -رضى الله عنه- يقول : إذا كان يوم القيامة يقول المؤمنون : عملنا لك بما أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله تعالى : « وَعْدًا مَسْئُولًا » وأخرج ابن أبى حاتم عن طريق أبى سعيد هذا ، عن محمد بن كعب القرظى أنه قال فى الآية : إن الملائكة لتسأل ذلك فى قولهم : « رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ . . . » .

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره -صلى الله عليه وسلم- ، لتشريفه والإشارة إلى أنه هو الفائز بهذا الوعد لأمته ، والآية تدل على وجوب تحقق وعده الكريم بمقتضى

أى : يقول هؤلاء المعبودون يوم يحشرهم وعابديهم جواباً لسؤال المولى لهم : «أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ » يقولون : متعجبين مستنكرين : تنزيها لك يا ألله عن الشريك والنظير ؛ ما كان يصح لنا ولا يستقيم أن نتخذ أولياء نعبدهم متجاوزين إياك . فكيف يصح منا أن نحمل غيرنا على أن يتخذ ولياً غيرك ، فضلاً عن أن يتخذنا له أولياء .

ويصح أن يكون المعنى : ما كان يصح لنا أن نتخذ من دونك أتباعاً ، فإن الولى كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع ، ومنه أولياء الشيطان ، أى : أتباعه .

وبعد أن برأوا أنفسهم من تبعة إضلال عابديهم عن الهدى ، استدركوا مبينين مسئوليتهم وحدهم عن ضلال أنفسهم قائلين :

(وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُورًا) :

أى : ما أضللناهم ، ولكن متعتهم وآباءهم بأنواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها ، فاستغرقوا فى الشهوات وانغمسوا فيها ، حتى غفلوا عن ذكرك ، وشكرك ، والإيمان بتفردك بالربوبية ، وعبدوا غيرك ، وكانوا فى علم الله قوماً هالكين ، بسبب سوء اختيارهم ، وانشغالهم عن الحق بالباطل .

١٩ – (فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيرًا) :

فى هذه الآية صرف الله الخطاب عن المعبودات ، ووجهه للعابدين ، فالآية حكاية لاحتجاج الله عليهم يوم القيامة ، مبالغة فى تقريعهم وتوبيخهم .

أى : فقال الله تعالى للعابدين : قد كذبكم المعبودون فيما تقولونه من زعمكم ألوهيتهم ، وأنهم حملوكم على عبادتهم ، فما تملكون صرفاً للعذاب عن أنفسكم ، ولا عوناً يخلصكم منه إذا نزل بكم ، ومن يظلم نفسه منكم أيها المكلفون بعبادة غير الله ، أو بأى لون من ألوان الكفر ، نذقه فى الآخرة بالنار والزمهرير عذاباً كبيرًا لا يقادر قدره .

التفسير

١٧ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَايَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ) :

هذه الآية وما بعدها مسوقة لتذكير المشركين بمسئوليتهم يوم القيامة عن ضلالهم دون من عبدوهم ، وأن معبوداتهم تتبرأ من شركهم ، والمراد مما يعبدون من دون الله :جميع معبوداتهم من الأصنام ، والكواكب ، والملائكة ، وعزير ، والمسيح ، وغيرهم .

واستعمال لفظ (ما) فى العقلاء تغليباً لجانب غيرهم لأنهم أكثر معبوداتهم ، أو لأنها قد تستعمل مع أهل العلم، كقوله تعالى : « وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَاهَا » أى : ومن بناها وهو الله تعالى ، وسؤاله تعالى للمعبودات ليس على حقيقته ، فإنه أعلم بما كان منهم ، بل لتوبيخ عابديهم وإفحامهم .

والمعنى : واذكر أيها الرسول للمشركين يوم يجمعهم الله ومن أشركوهم فى العبادة مع الله ، فيقول سبحانه للمعبودين إفحاماً لعابديهم ، وإلزاماً لهم بمسئوليتهم وحدهم عن ضلال أنفسهم : أأنتم أيها المعبودون أضللتم عبادى هؤلاء عن الحق بدعوتهم إلى عبادتكم معى ؟ أم هم انحرفوا عن السبيل إلى مرضاتى بمحض إرادتهم ؟ حيث كذبوا رسلى ، وأهملوا النظر فى آياتى .

وتوجيه السؤال إلى الجمادات لا مانع منه عقلاً ولا شرعاً ، فالله قادر على أن يخلق فيها إدراكاً تعرف به السؤال ، ويجعل لها صوتاً تجيب به على هذا السؤال ، قال تعالى : « يَاجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ » أى : رجِّعى التسبيح مع داود والطير ، وقال : « حَتَّىٰٓ إِذَا مَاجَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ » .

١٨ - (قَالُوا [١] سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ)[٢] :

(١) عبر بقالوا مع أنهم سيقولون ذلك يوم القيامة ، للإيذان بتحقيق جوابهم هذا يوم الدين ، فكأنه وقع فعلا فعبر عنه بصيغة الماضى .

(٢) لفظ (من) فى قوله (من أولياء) صلة لتأكيد النفى ، وكثيراً ما يؤتى بها بعد النفى لتأكيده ، وأولياء مفعول نتخذ .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

(فِتْنَةً) : امتحانا وابتلاء . (أَتَصْبِرُونَ) : علة لجعلنا – أى : جعلنا بعضكم فِتنةً لبعض لنعلم أيكم يصبر ، ونظيره ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، ويجوز أن يكون حثًّا على الصبر على الفتن .

التفسير

٢٠ – (وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ)(١) :

هذا جواب آخر عن قولهم « مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ » وقد سبق الجواب عنه بقوله سبحانه : « انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً » وبقوله : « بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا » .

ومن فوائد هذا الجواب تسلية النبى – صلى الله عليه وسلم – روى عن ابن عباس أنه قال : لما عير المشركون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالفاقة وقالوا : « مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ . . . » الآية ، حزن النبى – صلى الله عليه وسلم – لذلك . فنزلت هذه الآية تسلية له .

والمعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد أحدا من المرسلين ، إلا وحالهم أنهم مثلك يأكلون الطعام ليغذوا به أجسامهم ، ويمشون فى الأسواق للتجارة وكسب الرزق ، وليس ذلك منافياً

---

(١) جملة « إنهم ليأكلون الطعام » وماعطف عليها فى محل النصب على الحال ، وهى مستثناة من أعم الأحوال ، أى : وما أرسلنا قبلك رسلا من المرسلين فى حال من الأحوال ، إلا وإنهم ليأكلون .. إلخ : نقله الآلوسى عن ابن الأنبارى ، واستحسنه أبو حيان ، وتقدير الواو قيل لأن الفصيح عدم الاكتفاء بالضمير ، ومنهم من قال إن ما فى الآية هو الفصيح بعد إلا فيكتفى بالضمير بدون الواو ، وفى إعرابها كلام كثير وما قلناه أفضله .

وأما أصحاب الصُّفَّة الذين كانوا يقيمون فى مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا يسعون فى الأرض مسترزقين، فقد كانوا ضيفاً على الإسلام عند ضيق الحال، فكان -صلى الله عليه وسلم-، إذا أتته صدقة خصهم بها، وإذا أتته هدية أكلها معهم، وكانوا مع هذا يحتطبون ويسوقون الماء إلى بيوت الرسول -صلى الله عليه وسلم- كما وصفهم البخارى وغيره - ثم لما افتتح الله على المسلمين البلاد، أخذوا بالأسباب، فأصبحوا أمراء، وهناك ناس يميلون إلى البطالة وترك الأسباب، استنادا إلى قوله تعالى: « وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » وهذا من سوء التأويل احتجاجاً لبطالتهم، فالمراد بالرزق هنا المطر[1] وقد تفضل الله سبحانه بضمانه للناس، لأنهم لا قدرة لهم عليه، وقد أجمع أهل التأويل على أن المراد منه ماذكر بدليل قوله تعالى: « وَمَا يُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ رِزْقاً »، ولم يشاهد أحد أن الله تعالى ينزل على الناس من السماء أطباق الخبز، ولا جفان اللحم، بل الأسباب أصل فى كل ذلك، وقد أمر الله بالأخذ بها فى قوله جل وعلا: « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ » وقال -صلى الله عليه وسلم-: « اطلبوا الرزق فى خبايا الأرض » أى: بالحرث والحفر والغرس، وقال أيضاً: « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره، خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه ».

أما حديث « لو أنكم كنتم تَوَكَّلون على الله حق التوكل لرزقتم كما ترزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا » فلا يصح الاستدلال به على البطالة مع التوكل على الله، فإن غدوها ورواحها سبب لحصولها على رزقها، فالتوكل على الله لا ينافى الأخذ بالأسباب.

أخرج البخارى عن ابن عباس قال: « كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: « وَتَزَوَّدُوا » ولم ينقل عن النبى -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه - رضوان الله عليهم - أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد وكانوا المتوكلين على الله حقاً، والتوكل: اعتماد القلب على الرب مع الأخذ بالأسباب فى تحصيل الأرزاق، فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

وفى ختام الحديث عن هذه الآية نقول: سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل، فقال: إنى أريد أن أحج على قدم التوكل، فقال: اخرج وحدك، فقال: لا، إلا مع الناس، فقال له: أنت إذن متكل على أجربتهم، والله تعالى أعلم.

---

(١) ويقول بعض العلماء إن تسميته رزقاً على سبيل المجاز لأنه سببه أو يؤول إليه، فالمطر سبب للرزق من النبات والثمار واللحوم، أو يؤول إليها.

* (وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا) : أى لايتوقعون لقاء حسابنا ولايبالون بالإنذار به .

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ) : أى أضمروا الاستكبار فى قلوبهم عنادا للحق وكفرا به .

(وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) : هى كلمة استعاذة ، وكانت معروفة عند العرب فى الجاهلية ، فكان الرجل إذا لَقِىَ من يخافه قال : حجرا محجورا ، أى : حَرَامًا مُحَرَّمًا ومحجورا ، وصف لحجراً للتأكيد كقولهم : موتٌ مائت ، وهُو من الحَجْر ، بمعنى : المنع ، وسيأتى تفصيل ما قيل فى ذلك .

(وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ) : أى وعمدنا إلى ما عمله الكفار من أعمال البر .

(فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) : أى تافها لا سبيل إلى الانتفاع به ، فهو شبيه بالهباء الذى يُرى فى الكوة مع ضوء الشمس مُفرَّقا هنا وهناك .

(وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) : أى وأحسن منزلًا ، ومأوى؛ للاستروح ، والاستقرار .

التفسير

٢١ - (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَآئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا . . .) الآية .

هذه الآيات تحكى بعضا آخر من أقاويل الكفار الكاذبة ، وتبين ردها وبطلانها - تحكيها - عَقِب حكاية أباطيلهم فى أمرِ التوحيد والنبوة والقرآن التى ذكرتها الآيات السابقة ، وأتبعتها ما ينقضها ، ويظهر فسادها .

ولما كان ما حكى عنهم قد بلغ الغاية فى الشناعة والقبح ، نبّه سبحانه على أن ما قالوه لا يصدر إلّا عمن لا يتوقعون الرجوع إليه سبحانه بالبعث والحشر ، فالمراد من عدم رجائهم لقاء ربهم : أنهم لا يتوقعونه أصلًا لإنكارهم البعث والجزاء بالكلية ، لا أنهم لا يتوقعون حسن اللقاء ، ولا يخافون سوء العذاب ، فإنهم ينكرون البعث والجزاء إنكارًا تامًّا .

أى : وقال الذين ينكرون لقاءنا يوم الجزاء : هلّا أُنزل علينا من السماء الملائكة ، فتخبرنا بصدق محمد - صلى الله عليه وسلم - أو تبلغنا أمر الله ونهيه بدل محمد - عليه الصلاة والسلام - ، أو نرى ربنا أمامنا ، ليخبرنا بما يريده منا ، بغير وسيط بيننا وبينه أو يخبرنا بصدق محمد فى رسالته . وفيما نطقوا به إمعان بالغ فى التكذيب ، والعناد ، يعرب عنه قوله سبحانه :

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا) :

أى : اعتقدوا فى أنفسهم أنها كبيرة القدر ، رفيعة الدرجة زَهْوًا وغرورًا ، وقد دفعهم ذلك إلى أن يسألوا الشطط ، لأن الملائكة لا تُرى إلّا عند الموت ، أو عند نزول العذاب . والله سبحانه : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »[1] .

وتعقيب حكاية باطلهم بالجملة القسمية ، مشعر مع التأكيد بأن ما هم عليه من استكبار وعتوّ ، غاية فى القبح والغرابة ، بحيث يحتاج إلى توكيده .

والمعنى : والله لقد بالغوا فى كبرياء أنفسهم ، وفى الظلم والطغيان مبالغة تجاوزوا فيها الحد تجاوزا كبيرًا بلغ أقصى غاياته ، حتى اجترأوا على التفوّه بمثل هذه العبارة الشنعاء

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٠٣

حيث طلبوا إنزال الملائكة لتشهد بصدق محمد - صلى الله عليه وسلم - أو لتبليغ أمر الله ونهيه بدلًا منه ، أو أن يروا الله عيانًا ليخبرهم بما يريده منهم أو ليشهد بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا كل ذلك وطلبوه ؛ مستكبرين أن ينقادوا لبشر مثلهم أيده الله بما يوجب إيمانهم بما جاءهم به من الحق المبين ، ولو أنزل الله إليهم الملائكة لما آمنوا ، كما قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللهُ[1] ».

٢٢ - (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَآئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) :

استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند موتهم بسبب كفرهم : أى : اذكر حال هؤلاء المجرمين يوم يرون الملائكة عند الموت ، لا بشرى لهم بخير يومئذ منهم ، بل تبشرهم بالنار وغضب الجبار فتقول للكافر عند خروج روحه : أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث اخرجى إلى سموم ،وحميم ،وظلّ من يحموم ؛كما يقول تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَآئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ »[2] .

وهذا بخلاف حال المؤمنين وقت احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرّات كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ »[3] .

وقيل : (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَآئِكَةَ) : يعنى يوم القيامة قاله مجاهد والضحاك وغيرهما وما تقدم أولى ، وهذا لا يمنع من أنهم لا يبشرون بخير يوم المعاد ، فإن الملائكة فى هذين اليومين : يوم الممات ويوم المعاد ،تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ،

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١١

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٩٣

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٠

وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، وكان يمكن أن يقال : لابشرى يومئذ لهم ، بالإضمار ، ولكن إظهارهم بعنوان المجرمين ، لتعليل سلب البشرى عنهم بإجرامهم .

(وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) أى : وتقول الملائكة للمجرمين إقناطا لهم : جعل الله تبشيركم بالغفران ،والرحمة ،أو بالجنة ،حراما محرما ، وقال بعضهم : إن المجرمين يطلبون البشرى من الملائكة فيقولون لهم ذلك .

وقيل : إن الضمير للكفار ،أى : ويقول أولئك الكافرون للملائكة : (حِجْرًا مَّحْجُورًا) وهى : كلمة تقولها العرب عند لقاء عدوّ موتور ، أو هجوم نازلة هائلة ، يضعونها موضع الاستعاذة ، والمقصود من الآية على هذا : بيان أن الملائكة الذين يطلبونهم لتبليغهم لن ينزلوا إلا لتعذيبهم ، حتى إذا رأوهم عند الموت كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا ، وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول أمر فظيع ، وحلول بأس شديد : حجرا محجورا ، ومنعا ممنوعًا ،مما نراه من العذاب .

وقوله : (مَحْجُورًا) صفة لِحجْرًا واردة للتأكيد .

٢٣ ـ (وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) :

أى : وعمدنا إلى ما عمله الكفار من خير كانوا يعملونه فى الدنيا كصلة رحم وإغاثة ملهوف ، وقِرَى ضيف ، وعفو عن أسير ، وغير ذلك من محاسنهم .

(فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) : حيث أبطلنا ثوابها بسبب كفرهم ،فلا ينتفع به فى الآخرة وصار فى عدم الجدوى منه شبيها بالهباء المنثور ،وهو :ما يرى فى شعاع الشمس يخرج من الكوة منثورا ، بحيث لا يمكن الانتفاع به ، وقيل : هو ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر ، قاله قتادة وابن عباس ، وقال ابن عرفة : الهبوة والهباء : التراب الدقيق .

وكل هذه المعانى للهباء المنثور تشير إلى أن الله تعالى أَحْبَطَ أعمالهم الطيّبة إحباطًا تامًّا ، وجعلها لا وزن لها ولا تقدير ،كالهباء المنثور ، كما قال سبحانه : « وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا »[1] .

ولو صدرت عنهم فواضل الأعمال وهم مؤمنون ، لأُثيبوا عليها أجزل الثواب .

(١) سورة النور ، من الآية : ٣٩

٢٤ - (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) :

أى : أن أهل الجنة وهم المؤمنون الصادقون، يكونون يوم الجزاء أفضل من هؤلاء المكذبين مستقرًّا ومقيلًا ، والمستقر : هو المكان الذى يستقرون فيه أكثر الأوقات للتجالس ، والتحادث والمقيل : هو مكان الاسترواح ،والتمتع ينعمون فى هذين المكانين بما أتيح لهم من خير ونعيم وسُمِّى المكان الثانى مقيلًا ،لمَا أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالبًا ، وهو ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار ، قال ابن مسعود : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء فى الجنة ،وهؤلاء فى النار وتفضيل أصحاب الجنة على أصحاب النار فى المستقر والمقيل ، إما بالإضافة إلى ما للكفرة المنعَّمين فى الدنيا ،على معنى :أن نعيم المؤمنين فى الآخرة خير من نعيم الكفرة فى الدنيا ، وإما بالإضافة إلى حالهم فى الآخرة على سبيل التهكم والتقريع ، ويجوز أن يكون أفعل التفضيل على غير بابه ، فيكون المراد :أن أصحاب الجنة سعداء فى كل حال ، على عكس ما عليه أهل النار من الكفار ، فهم فى أسوأ حال .

(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾)

المفـردات :

(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ) : الباء فى قوله : (بِالْغَمَامِ) بمعنى عنْ ، فهما يتعاقبان ، كما تقول : رميت بالسهم ،وعن السهم أى : واذكر يوم تتفتح السماء عن الغمام ، وهو سحاب أبيض رقيق مثل الضباب .

(وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا) : من السماء إلى الأرض بصحائف الثقلين .

(وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) : أى أن يوم القيامة صعب شديد على الكافرين .

وفعله من بابي قَرُب وفَرِح . تقول : عسُر الأمر – بضم السين – عُسْرا وعَسَارة فهو عسير وعسِر – بكسر السين – عَسَرًا فهو عسِرٌ .

التفسير

٢٥ – (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَآئِكَةُ تَنزِيلًا) :

يوجه الله النظر إلى هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، أى : واذكر أيها النبى يوم تتشقق السماء المظلة للخلق ؛ حيث تتفتح عن الغمام ، وهو سحاب أبيض رقيق مثل الضباب ، وهو المذكور فى قوله تعالى : « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَآئِكَةُ »[1] والمراد بالسماء فى الآية : ما يعم السموات كلها ، قال مقاتل : إن المراد بالسماء ما يعم السموات كلها ، وتنشق سماء سماء وروى ذلك عن ابن عباس .

فإذا انشقت السماء وانتقض تركيبها ، وطويت ، ونُزِّلت الملائكة تنزيلًا عجيبًا ، بصحائف الأعمال – نزلت من خلال ذلك الغمام إلى حيث يجتمعون فى صعيد واحد حول الإنس والجن ، وجميع الخلائق ، فيحيطون بهم فى مقام الحشر ، ثم يجىءُ الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

٢٦ – (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) :

أى : أن الملك الحقيقى الثابت دائما صورةً ومعنًى ، ظاهرا وباطنا يكون للرحمن وحده ، يومئذ تتشقق السماء بالغمام وتتنزل الملائكة ؛ لأنه سبحانه له السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلى التام فى الآخرة ، وأما الملْك فى الدنيا للمالكين من الناس فليس ملكا حقًّا ، فإن الله هو الملك الحق فى الدنيا والآخرة ، ولكنه تعالى ملَّكهم ظاهرا ؛ ملك تصرف وإدارة ، يبقى ببقائهم ، ويزول بزوالهم .

ووصْفه تعالى بالرحمة للإيذان بأن اتصافه تعالى بالرحمة الشاملة لعباده جميعا فى دنياهم ؛ لا ينبغى أن يُطيقهم فيها فى أخراهم ، لعدم استحقاقهم لها بما اقترفوه من أسوأ الأعمال ، ولذا عقبها بقوله : (وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) : أى : وكان ذلك اليوم صعبا شديدا على الكافرين لطوله ، ولِما ينالهم فيه من الأهوال ، ويلحقهم من الخزى والهوان ، كما قال تعالى : « فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ »[2] . وفى ذلك

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢١٠ (٢) سورة المدثر ، الآيتان : ٩ ، ١٠

إشارة إلى أنه يكون على المؤمنين سهلا يسيرا ، يقبلون عليه بنفوس مطمئنة ، ووجوه مستبشرة ، كما قال تعالى : « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ »[1] .

كما أنه لتيسيره عليهم يخفف الله عنهم مشقة طوله ، يدل على ذلك ما نقله الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما قيل له : ما أطول هذا اليوم ، فقال : « والذى نفسى بيده ، ليُخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » .

(وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾)

المفـردات :

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ) : عض اليدين والأنامل كناية عن شدة الغيظ ، لأن عض اليدين يحدث غالبا عندها .[2]

(اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) : أي سببا وصلة تصلنى به ، أو طريقا إلى الجنة .

(يَا وَيْلَتَى) : كلمة جزع وتحسُّر ، تستعمل عند وقوع الداهية العظيمة والخطب الجسيم .

(لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) : فلانا وفلانة بغير (ال) كناية عن الإنسان ، والفلان والفلانة بالألف واللام كناية عن الحيوانات كما قال الراغب . وخليلا : صديقاً ، والجمع : أخلاء .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٣

(٢) ولفظ (يعض) من باب فرح يفرح .

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً[١]) : أى أن الشيطان مبالغ فى ترك نصرة الإنسان وإعانته .

التفسير

٢٧ - (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) :

قيل : إن (ال) فى الظالم للعهد ، ويراد به هنا :عقبة بن أبى معيط ، ويراد بفلان المذكور فى الآية التالية :أبى بن خلف .

قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : كان عقبة بن أبى معيط قد هم بالدخول فى الإسلام فمنعه منه أبىّ بن خلف وكانا صديقين ، وقد قتلهما النبى - صلى الله عليه وسلم - قتل عقبة يوم بدر صبرا ، وطعن أبىّ بن خَلَف فى المبارزة يوم أُحد فرجع إلى مكة ومات وقد ذكر ذلك القشيرى والثعلبى سببا فى نزول الآيتين .

والظاهر :أن ال فى الظالم للجنس ، فيعم كل ظالم ، ويدخل فيه عقبة بن أبى معيط دخولا أوليا ، وأن فلانا :كناية عن كل خليل ظالم من شياطين الإنس والجن ، وعموم اللفظ لا ينافيه خصوص السبب[٢] .

والمعنى :أن كل ظالم فارق الصراط المستقيم ، وأعرض عما جاء به الرسول من الحق البيِّن الذى لامرية فيه فإنه يندم يوم القيامة حيث لا ينفعه الندم ، ويعض على يديه ، ويطبق أسنانه على أنامله حزناً وألماً شأن المَغِيظ المُحْنَق .

(يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) : فى الدنيا باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وبذل كل جهد فى نصرة الدين دفاعاً عنه ، وحفاظاً على أهله ،حتى يكون ذلك العمل طريقاً إلى الجنة ، وجملة (يَقُولُ يَالَيْتَنى . .) إلخ فى مَوضع الحال من الظالم ، أو مستأنفة بيانا لما قبلها .

---

(١) وفعله من باب قتل ،يقتل، يقال : خذله وخذل عنه : ترك نصرته ، فهو خاذل وخذلة كهمزة ، وخذول للمبالغة .

(٢) وقال القرطبى : هو أمية بن خلف .

و (ال) فى الرسول للجنس فيعم كل رسول ،أو المعهود :فيكون المراد بهرسول هذه الأمة محمدا – صلوات الله عليه وسلامه – .

٢٨ – (يَاوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) :

ينادى الظالم فى موقفه اليائس الحزين : وَيْلَتَهُ – أى – : هلاكه ، تعبيرا عن حزنه وحسرته ، وهى كلمة تقال عند وقوع الداهية العظيمة ،والخطب الجسيم ، فكأنه يقول : احضرى يا هلكتى فهذا أوانك ،ثم يقول : (لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) : ليُبْرِز بهذا التمنى ندمه ، مع نوع من التعلل والاعتذار بإلصاق جنايته على نفسه بغيره ، الذى عَبَّر عنه بفلان مريداً به الشيطان ، أو كل من أضله فى الدنيا ، أى : ليتنى لم أتَّخذ فى الدنيا كائنا من كان صديقاً أتَّبعه وأثق به ، وأسلك سبيله ، سبيل الكفر والطغيان التى قادتنى إلى مهاوى الهلاك والخسران .

٢٩ – (لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا) : تعليل لتمنيه السابق ، وتوضيح لتعلله ، وتصديره بلام القسم ؛ للمبالغة فى بيان خطئه ، وإظهار حسرته وندمه ،لأنه استمع إليه فى إضلاله عن الحق الذى جاءه به رسوله .

أى :والله لقد أضلنى من اتخذته فى الدنيا خليلا ؛ عن القرآن والإيمان به ، بعد إذ جاءنى به الرسول – صلى الله عليه وسلم – .

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا) : أى أنه مبالغ فى خذلان الإنسان ،حيث يُواليه حتى يؤدى به إلى الهلاك ،بما يزيِّن له من سوء وقبح ، ثم يترك نصرته ومعاونته ودفع الضرر عنه وقت الحاجة إليه .، وقد كان هذا الإنسان يظن فيه الظهير والنصير .

وجملة « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا » مقررة لمضمون ما قبلها ، إما من جهته تعالى ، وتمام الكلام على هذا عند قوله : « بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى » وإما من تمام كلام الظالم ،على أنه

سمى خليله شيطانا بعد وصفه بالإضلال الذى هو أخص أوصاف الشيطانية ، فيشمل كل مضل صد عن سبيل الله وكان مُطاعا فى المعصية أو أراد به إبليس بخاصة ،ووصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يَعِده فى الدنيا ،ويُمنِّيه بأن ينصره فى الآخرة ،ويؤازره ،ثم تبرأ منه ،وتخلى عنه عند نزول العذاب ،وحلول البلاء ،كما قال تعالى : « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا أَنفُسَكُمْ »[1] .

(وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾)

المفـردات :

(اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآن مَهْجُوراً) : أى متروكا فلم يؤمنوا به ، من الْهَجْرِ - بفتح الهاء- أو :مهجورا فيه ، من الهُجر - بضم الهاء - وهو :الهذيان ،وفحش القول ،كقولهم : إنه أساطير الأولين اكتتبها ، أو :بالسخرية واللغو حين يقرأ حتى لا يسمع ، والفعل من باب قتل . (عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ) : أى عدوا واحدا أو متعددا . فهو يقع على الواحد والجمع مذكرا ومؤنثا .

---

(١) سورة إبراهيم ، من الآية : ٢٢

التفسير

٣٠ - ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ :

هذا القول معطوف على قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَآءَنَا » وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه ، وبيان ما يحيق بهم فى الآخرة من أهوال شداد ، ويجوز أن يكون استئنافًا يحكى شكوى النبى لربه من قومه ، أى : وقال الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - : يبث شكواه من قومه لربه - عز وجل - إثر ما شاهده منهم من الترك ، والإهمال ، حيث اتخذوا هذا القرآن متروكا ، ومن جملته الآيات الناطقة بتحذيرهم ، بما يصْلَونه على صنيعهم من فنون العقاب ، والنكال فى الآخرة .

أو اتخذوه مهجورًا فيه ، بمعنى : أنهم قالوا عنه غير الحق ، فوصفوه بأنه سحر ، أو شعر أو أساطير الأولين اكتتبها ، أو مضوا فى الهذيان واللغو فيه إذا قرئ حتى لا يسمع ، كما قال تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ »(١) . وقد تسبب هذا فى أنهم لم يؤمنوا به ، ولم يرفعوا له رأسا ، ولم يتأثروا بوعيده .

وفى الآية تلويح بأن من واجب المؤمن أن يكون كثير الرعاية للقرآن الكريم والاهتمام بتعهده ، والذود عنه ، كما أن فيها من التحذير والوعيد ما لا يخفى ، فإن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إذا شكوا إلى ربهم ظلم قومهم عاقبهم على ظلمهم .

٣١ - ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ : تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - بما وقع للأنبياء والمرسلين قبله حتى يهون عليه ما يلقاه منهم من عداوة وإجرام .

أى : وكما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ، ويفعلون ما يفعلون كأبى جهل وأحزابه ، جعلنا لكل نبى من الأنبياء أصحاب الشرائع الداعين إليها أعداء من مرتكبى الآثام ، ومقترفى الجرائم ، كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٢٦ .

شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا »[1] فاصبر أيها النبى على أباطيلهم ، كما صبر الأنبياء قبلك على ضلال المجرمين من أقوامهم .

(وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) : وعد كريم لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بهدايته إلى بلوغ كافة مطالبه التى تيسِّر له النصر على أعدائه ، أى : وحسبك أن تلقى تأييد ربك الذى هو مالك أمرك ، وأن تظفر بهدايته إياك إلى ما يصلح شأنك ، ويحقق نصرك على أعدائك ، لتبلغ غاية الكمال ، وتصل إلى أسمى الغايات التى من جملتها تبليغ ما أنزل إليك ، وإجراء أحكامه فى ربوع الدنيا ، وبين جنباتها إلى أن يبلغ الكتاب أجله .

وقيل : المعنى وحسبك أن يكون ربك هاديًا لمن آمن بك ، واتبع الكتاب الذى أنزل عليك ، ونصيرًا لك على غير هؤلاء المؤمنين .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) : أى لنجعل له الثبات والاستقرار بسببه .

(وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) : أى فرقناه آية بعد آية ، يقال : رتله القارئ : تمهل فى قراءته ولم يَعْجل به .

(وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) : أى بيانًا ، تقول : فَسَرْتُ الشىء - بفتح السين مُخَفَّفَةً - فَسْرًا من باب ضرب ، بمعنى بينته وأوضحته ، كفسَّرته - بشد السين - .

(١) الأنعام ، من الآية : ١١٢

(أُولَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا) :أى ذوو سُوءٍ وظلم وفساد أكثر من غيرهم ،وأصله :أشَرُّ ،حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وفعله : من باب تَعِب ، وفى لغة من باب قَرُب .

التفسـير

٣٢ـ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ . . .) الآية .

يخبر الله بذلك عن تعنت الكافرين ، وتمسكهم بما لا يعنيهم ،سواءٌ أكان ذلك المعترض كفار قريش ؛كما قال ابن عباس ، أم طائفة من اليهود قالوا حين نزل القرآن مفرقًا : هَلَّا أُنْزِل عليه جملة واحدة ؛كما أُنْزلت التوراة على موسى ،والإنجيل على عيسى ،والزبور على داود ؟ فأجاب الله تعالى أولئك القائلين بقوله تعالى : (كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) ؛ فهو استئناف لردّ مقالتهم الباطلة ،وبيان الحكمة فى تنزيله التدريجى ،أى :مثل ذلك التنزيل المفرّق الذى قَدحوا فيه؛واقترحوا خلافه ؛نزلّناه عليك ، لاتنزيلًا كما أرادوه ، ليقوى بذلك التنزيل المفرق فؤادك ، فتعيه ويتيسر لك حفظ لفظه ، وفهم معانيه ، وضبط أحكامه ، والوقوف على تفاصيل ما روعى فيه ، مما يحتاج إلى توضيح وبيان ،كالتشريعات والمصالح ، أوإلى دحض مطاعن الكافرين وإبطالها بعد حكايتها وعرضها ،فى حين أنك رجل أُمى ، وتفريقه هو المناسب لحالك .

فكلما جَدَّ جديد نزل منه ما يناسبه ،وبُيِّن فيه من الحُكم مايوافقه ، مطابقًا لمقتضى الحال .

لكل هذا ، أنزل الله القرآن منجما على النبى الأمى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رعايةً له وعناية به ،وإشفاقًا عليه حتى لا يلحقه مشقة فى حفظه وتدبره وتبليغه ، وليستمر الإيناس له برسول ربه جبريل ـ عليه السلام ـ (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) : أى فرّقناه آية بعد آية ، قاله النخعى والحسن وقتادة ، وقيل : بيّناه بيانًا تامًّا ؛فيه تَرَسُّلٌ وتَثَبُّت. كما قال ابن عباس : يعنى بيناه شيئًا بعد شىءٍ ، وقيل : قرأناه عليك بلسان جبريل ـ عليه السلام ـ شيئًا فشيئًا على تُؤَدة كما قال تعالى : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا »[١] .

---

(١) سورة الإسراء، الآية : ١٠٦

٣٣ ـ (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) :

المراد بالمَثَل : أقوالهم التى يلتمسون بها معارضة القرآن والقدح فى نبوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن جملة هذه الأقوال ما حكى عنهم من اقتراحات خارجة عن حد المعقول ، جارية لغرابتها مجرى الأمثال كقولهم : « لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ[1] . . . »

والمعنى : ولا يأتونك بكلام عجيب هو مثل فى البطلان (إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ) : أى بالجواب الثابت الذى لا محيد عنه فى مقابلة ما يصدر عنهم ، محوًا لأباطيلهم ، وقضاء على أكاذيبهم التى أرادوا بها الطعن فى رسالتك وحسْما لمادة القيلِ والقال التى دارت على ألسنتهم ، قال النحاس : وكان ذلك من علامات النبوة لأنهم لا يسألون عن شىء إلا أجيبوا عنه . اهـ

(وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) : أى جئناك بالحق ، وبما هو أحسن بيانا ، وتفصيلا لما بعثناك به من الهدى ، حتى لا يكون للباطل الذى جاءوا به حقيقة ولا ظل ، كما قال تعالى : « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »[2] .

٣٤ ـ (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ) :

إخبار من الله تعالى عن حال الكفار فى معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم فى أسوإ حال .

والمعنى : أن هؤلاء المكذبين تسحبهم الملائكة وتجرهم على وجوههم إلى جهنم ، وقيل : الحشر على الوجوه مجاز عن الذلة والمهانة والخزى ، وعقب ذلك بقوله تعالى : (أُولَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا) أولئك الذين يزعمون أنك كاذب فيما دعوتهم إليه ، واقترحوا فى تحديك ما اقترحوا ، أولئك أسوأ مكانا فى الكذب وسوء الحال ، وأضل سبيلا ، من كل ضال وهذا الأسلوب على سبيل مجاراتهم فيما زعموا فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ منزه عن كل شر وضلال .

(١) سورة الإسراء ، الآيات : من ٩٠ : ٩٣ (٢) سورة الإسراء : آية : ٨١

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ
وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ
تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ
لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟
وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ
ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ
أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ
نُشُورًا ﴿٤٠﴾)

المفـردات :

(هَٰرُونَ وَزِيرًا) : أى معاونا ومساعدا له فى حمل أعباء الدعوة .

(فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) : أى أهلكناهم إهلاكا مدمرا .

(لِلنَّاسِ آيَةً) : علامة ظاهرة على قدرتنا يعتبر بها .

(وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ) : أى أعددنا وهيأنا لهم .

(وَأَصْحَابَ الرَّسِّ) : الرسُّ ؛ بئر غير مبنيّة كانت لبقية من ثمود .

(وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ) : القرن؛ الجيل من الناس ، قيل : ثمانون سنة ، وقيل : غير ذلك .

(وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ) : هى سدوم أعظم قرى قوم لوط

(مَطَرَ السَّوْءِ) : فقد أمطرت القرية بالحجارة من السماء فهلكت ، والسَّوء –بالفتح– مصدر (ساءه) وبالضم : اسم منه .

التفسير

٣٥ – (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) :

شروع فى بيان قصص بعض الأنبياء مع أممهم ، وانتقام الله ممن كذبهم ، تهديداً لِمَنْ كذب رسوله – صلى الله عليه وسلم – من مشركى قريش وكل من خالفه وأعرض عن دعوته ؛ وتحذيرًا لهم مما أحله بالأمم السابقة التي كذبت رُسُلها ، وتأكيدًا لما مرَّ من التسلية له – صلى الله عليه وسلم – والوعد بالهداية والنصر ، فى قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا » . وقد بدأ سبحانه بحكاية ما جرى لموسى – عليه السلام– فبين أنه ابتعثه مؤيدًا بالتوراة التى أنزلها عليه ، وجعل معه (أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) :أى بعثه معه يؤيده ويشد أزره ، وهو تابع له ، كما يتبع الوزير سلطانه .

وبدأ الحديث معه باللام وقد؛ لإفادة التأكيد ، أى : ولقد أنزلنا التوراة على موسى – عليه السلام – وأيدناه بأخيه هارون .

٣٦ – (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) :

المراد بالقوم هنا : قوم فرعون ، أى : فقلنا لهما : اذهبا إلى قوم فرعون؛ الذين كذبوا بدلائل التوحيد المودعة فى الأنفس والآفاق ، أو كذبوا بالآيات التى جاءهم بها يوسف عليه السلام ، أما حَمْلُ التكذيب على أنه بالآيات التسع؛ التى ذكرت فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ »[1] فإنه لا يناسب المقام ؛ لأنها لم تظهر إلَّا بعد

(١) سورة الإسراء ، من الآية ١٠١

ذهابهما إليهم ، وفى الكلام طَىٌّ لكلام يقتَضيه المقام ، تقديرُه : فقلنا اذهبا إلى القوم فذهبا إليهم ، ودَعوَاهم إلى الإيمان فكذبوهما .

واستمروا على تكذيبهما بعد أن أيدهما الله بآياته (فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) : عجيبًا هائلًا إثر ذلك التكذيب المستمر - دمرناهم - بعذاب ماحق ، لا يدع ولا يذر شيئًا إلَّا أتى عليه وجعله أثرًا بعد عَيْن .

٣٧ - (وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً . . .) الآية .

أى : أن قوم نوح كذبوا جميع الرسل بتكذيبهم رسولهم إذ لا فرق بين رسول ورسول ؛ لاتفاقهم جميعًا على التوحيد وأصول الشرائع ، إذ لم يرسل إليهم إلَّا نوح - عليه السلام - وقدْ لبث فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا ، يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم عذابه ، فما آمن معه إلَّا قليل ، وقد عاقبهم الله عقوبة لم يسبق لها مثيل ، حكاها الله بقوله : (أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً) أى:أغرقناهم بالطوفان؛ الذى تفجرت مياهه ، وتلاحقت أمواجه عالية شامخة كالجبال العظيمة ، وجعلنا إغراقهم أوقصتهم علامة ناطقة ببالغ قدرتنا؛ لتكون عبرة لكل من شاهدآثارها ، أو سمعها (وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا) : المراد بالظالمين الذين أعدّ الله لهم العذاب هم أولئك القوم الموصوفون بالتكذيب من قومه ، أو جميع الظالمين من الكافرين الذين لم يعتبروا بما نزل بهؤلاء من العذاب فيدخل فيهم قريش دخولًا أوليًّا أى : وأعددنا للظالمين وهيأنا لهم فى الآخرة عذابًا بلغ أقصى غاية فى هوله وتأثيره .

٣٨ - (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا) :

أى : ودمرنا عادًا قوم هود - عليه السلام - وثمود قوم صالح - عليه السلام - وأصحاب الرسّ؛ وهم قوم شعيب - عليه السلام - ويقال لهم أيضًا : أصحاب الأيكة ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فكذبوا شعيبًا وآذوه ، فبينما هم حول الرسّ خُسِف بهم وبديارهم فهلكوا جميعًا ، وكانت بإنطاكية الشام كما نقله القرطبى .

وقال وهْب والكلبى وقتادة : أصحابُ الرسّ ، وأصحاب الأيكة[1] :قومان أرسل إليهما

---

(١) وهى غيضة تنبت الشجر .

شعيب - عليه السلام - وكان أصحاب الرسّ قومًا من عبدة الأصنام ، وأصحاب آبار ومواش ، فدعاهم إلى التوحيد ، فتمادوا فى طغيانهم ، وفى إيذائه ، فبينما هم حول الرسّ - كما روى عن أبي عبيدة - انهارت بهم وبديارهم ، فهلكوا ، وقيل: هم قوم قتلوا نبيهم ورسُّوه فى بئرهم أى : دسّوه فيها ، وقيل غير ذلك .

(وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا) : أى ودمرنا كذلك أهل قرون جاءُوا بين قوم نوح وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرسّ ، وكان عددهم كثيرًا لايعلم مقداره إلّا العليم الخبير ، أُرسل إليهم رُسل فكذبوهم فأُهلكوا .

والقرون : جمع قرن ومقداره سبعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل : مائة ، ويطلق مجازا على القوم المتعاصرين ، وقال الزجاج : الذى عندى - والله أعلم - أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبىّ ، أو طبقة من أهل العلم قلَّت السنون أو كثُرت .

٣٩ - (وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا) :

أى وكلّ قوم من المكذبين ذكَّرنا وحذرنا ، حيث بيَّنَّا لهم القصص العجيبة الزاجرة لما هم عليه من الكفر والمعاصى ، ووضحنا لهم الأدلة الصحيحة الهادية ، ولكنهم كذبوا وأعرضوا فاستحقوا الدمار ، والهلاك ، كما قال تعالى : (وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا) : أى وكل قوم منهم أهلكناه هلاكًا ماحقًا ؛ لتماديه فيما هو عليه من إفك وطغيان .

٤٠ - (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا .. .) الآية .

استئناف مسوق لبيان مشاهدة المشركين من أهل مكة لآثار الأمم المُهْلكة وعدم اتعاظهم بها وصُدِّر بالقسم لتأكيده وتقرير مضمونه ، والمراد بالقرية الجنس الشامل لجميع قرى قوم لوط ، يعنى أن قريشًا مروا بها كثيرًا فى أسفارهم بمتاجرهم إلى الشام ، وكانت هذه القرى قد أمطرها الله بالحجارة من السماء ، فأُهلكت كما قال تعالى : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ »(١) . وكانت قراهم خمسًا ، وروى عن ابن عباس أن واحدة منها نجت لكون أهلها لايعملون العمل الخبيث . والله أعلم بصحة هذا الخبر .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١٧٣

(أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا) : توبيخ لهم على ترك التذكر ، والتأمل عند رؤية مايوجبهما ، ويدعو إليهما .

أى : أعموا عنها فلم يكونوا يرونها فى مرورهم المتكرر عليها ، ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب ، ودلائل النكال ؛ الذى حلَّ بأهلها فأهلكهم ، ودمرها تدميرًا؟ فالمنكر عدم الرؤية الداعية إلى التفكر والعبرة ،مع وقوع النظر الموجب لذلك (بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا) : إضراب انتقالى من التوبيخ على ماهو أعظم وأقبح ، وهو إنكارهم البعث المستتبع للجزاء الأخروى ، إنكارًا مبالغًا فيه بحيث لا يتوقعونه أصلًا ، فمعنى «لا يرجون» على ذلك : لا يتوقعون .

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾)

المفـردات :

(إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا) : أى ، ما يتخذونك إلّا موضع هزء وسخرية ، يقال : هزأ منه ، وبه ، كسمع و منع :هزءًا -بضم الهاء مع سكون الزاى أو ضمها -سَخِر واستهزأ .

(إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا) : أى إنه قرب أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا .

(لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا) : حبسنا أنفسنا على عبادتها .

(مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ) : أى صيَّر ميله المذموم كأنه إلٰهه الذى يتبعه ، والهوى : ميل النفس إلى الشىء ، ثم استعمل فى الميل المذموم ، وهو مصدر هَوِىَ ، كفرِح .

(وَكِيلًا) : أى حفيظًا ، يقال : وكلت الأمر إليه وَكْلًا ، ووُكولًا : فوضته إليه ، وفعله من باب وعد يَعِد .

التفسير

٤١ - (وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) :

روى أن الآية نزلت فى أبى جهل ومن معه من زعماء مشركى قريش ؛ أى أن هؤلاء إذا رأوك ما يتخذونك إلَّا مهزوءًا بك[١] أو موضع سخرية واستهزاء ، بمعنى : أنهم يقصرون فعلهم معه - عليه الصلاة والسلام - على ذلك ، قائلين على سبيل التنقص ، والازدراء : (أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) : أى أهذا الذى بعثه الله مرسلًا إلينا ؟.

والتعبير باسم الإشارة بعد الاستفهام ، يريدون به الاستخفاف بدعواه أنه رسول بعثه الله إليهم ؛ والتعجب منه ، والآية فى معنى قوله تعالى : « وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ »[٢] .

٤٢ - (إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا . . .) الآية .

أى : قال هؤلاء المشركون : إنه - صلى الله عليه وسلم - قارب أن يَثْنيهم عن عبادة أصنامهم ويبعدهم عنها ، لا عن عبادتها فقط ؛ لولا أنهم تجلَّدوا ، وحبسوا أنفسهم على عبادتها ، وهذا اعتراف منهم بأنه - عليه الصلاة والسلام - قد بلغ غاية الاجتهاد فى الدعوة إلى التوحيد ، وإقامة الحجج البينات التى تنير سبيل الهدى والرشاد ، حتى شارفوا أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ؛ لولا فرط إصرارهم ، وغاية عنادهم ، ولهذا لجئوا إلى سلاح الاستهزاء ، حتى يحولوا دون تأثر نفوسهم على رغم منهم بدعوته .

---

(١) تنفرد (إذا) بوقوع جوابها المنفى بإن أو ما أو لا - تنفرد بوقوع جوابها هذا - غير مقترن بالفاء بخلاف غيرها من أدوات الشرط ، نقله أبو حيان وغيره .

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٦

(وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) :جواب من جهته تعالى عن قولهم: « إن كَادَ لَيُضِلُّنَا » وردٌّ لما ينبىء عنه ، ويشير إليه من نسبته – عليه الصلاة والسلام – إلى الضلال فى ضمن إضلاله إياهم .

أى : وسوف يعلمون البتة ؛ حين يرون العذاب يوم القيامة على كفرهم ، وعنادهم ، من هو الضال ، ومن هو المهتدى ، وأنهم قد باعوا أخراهم بدنياهم .

وفى الآية تنبيه ؛ على أنه تعالى إن أمهلهم فإنه لا يهملهم .

٤٣ – (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) :

تعجيب لرسوله – صلى الله عليه وسلم – من شناعة تمسك أولئك المشركين بشركهم ، وإصرارهم عليه ؛ بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال ،التى باءوا بإثمها ، وبيان ماينتظرهم من سوء المصير ، وتنبيه على أن ذلك من الغرابة ؛ بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه[1]

أى : أرأيت منْ جعل هواه إلٰها لنفسه ، بأن أطاعه فيما يأتى ويذر ، وبنى عليه أمر دينه ، مُعرضًا عن البرهان الساطع ، والحجة القاطعة ، فهو لا يرى معبودًا إلّا هواه؟ والمعنى : انظر إليه وتعجب منه .

(أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) : استبعاد لكونه – صلى الله عليه وسلم – حفيظًا على من اتبع هواه ، يحفظه من متابعة هواه ، ويرده عن عبادة ما يهواه ؛ أى : ليست ضلالته وهداه موكولتين إلى مشيئتك لترده إلى الإيمان ، وتحفظه من الفساد ، وإنما الذى وُكل إليك هو الإنذار ، والتبليغ وقد فعلت .

٤٤ – (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ . . .) الآية .

انتقال من إنكار الله عليهم أنهم اتخذوا الهوى إلٰههم ، إلى بيان أنه لا سبيل إلى ظنه – صلى الله عليه وسلم – أنهم يسمعون ؛ أو يعقلون ما يقول .

(١) وقدم المفعول الثانى وهو إلٰهه على الأول وهو هواه للاعتناء به من حيث إنه هو الذى يدور عليه أمر التعجيب .

والمعنى : بل أتظن - أيها الرسول - أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات؟ أو يعقلون ما تشير إليه تلك الآيات من الزجر عن القبائح ، والدعوة إلى المحاسن ، فتهتم بشأنهم ، وتطمع فى إيمانهم ؟

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ) : جملة مستأنفة لتأكيد انصرافهم عن الحق ، وبعدهم عن الاستماع والتعقل فهم فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وزواجرها ، وانصرافهم إلى الأكل والشرب - هم فى ذلك - كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة والضلالة (بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) : أى بل هم أشد ضلالة من الأنعام لما أنها تطيع من يطعمها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يقسو عليها وتطلب ما ينفعها ، وتجتنب ما يضرها ، وتهتدى لمأكلها ومشربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم الذى خلقهم ورزقهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذى هو شر المضار ، ولا يهتدون للحق الذى هو المورد العذب ، فهم لذلك كله معطلون لقواهم العقلية ، مضيعون للفطرة الأصلية التى فطر الله الناس عليها ، بالغون بما صنعوا درجة جعلت الأنعام خيرًا منهم حيث لا تقصير منها فى طلب ما يصلحها ، وإنما ذكر الأكثر لأن منهم من لم يصده عن الإسلام إلا حب الرياسة ، ومنهم من أسلم .

(أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) : أى كيف جعله ممتدًا مبسوطًا .

(لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) : أى لصيره ظلًا ثابتًا دائمًا على حاله .

(ثُمَّ قَبَضْنَاهُ) : أى أزلنا ومحونا ما أنشأناه ممتدًا .
(قَبْضًا يَسِيرًا) : سهلًا .

التفسير

٤٥ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) :

شروع فى بيان الأدلة الناطقة بوجوده تعالى ، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة إثر بيان جهالة المعرضين عنها وقبح ضلالتهم ،والخطاب لكل متأمل فى عجائب الكون ، والهمزة للتقرير ،والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره - صلى الله عليه وسلم - لتشريفه ، وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته تعالى ورحمته .

ويقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية :

ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ؟ ومعنى (مدَّ الظِّلَّ) :جعله يمتد وينبسط ، فينتفع به الناس ، (وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) : أى لاصقًا بأصل كل مُظِل من جبل وبناء وشجر غير منبسط ، فلم ينتفع به أحد ، سمى انبساط الظل وامتداده تحركًا منه ، وعدم ذلك سكونًا . ا هـ .

والمقصود : تنبيه الناس إلى عظيم قدرته ، وبالغ حكمته فيما يشاهدونه من مَدِّ الظل وقبضه ، وقال ابن عباس ، وابن عمر ، والحسن ومجاهد وغيرهم : المراد بالظل : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، قالوا : ويدل على ذلك كون هذا الوقت لا يوجد أطيب منه ، فإن فيه يجد المريض والمسافر وكل ذى حاجة راحته واستقراره ، وأن الظلمة الخالصة تنفر منها الطباع ، وشعاع الشمس يجعل الجو ساخنًا ، والبصر كليلًا ، ولهذا كان ظلّ الجنة ممدودًا ، كما فى قوله تعالى : (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ)[1] .

وجملة (وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) : اعتراضية للدلالة من أول الأمر على أنه لا مدخل للأسباب العادية فيه ، أى : ولو شاء -سبحانه- لجعله ظلًا دائمًا لا يزول ،بألَّا يدع للشمس

(١) سورة الواقعة ، الآية : ٣٠

سبيلًا إليه (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)(١) : أى جعلناها علامة يستدل بها وبأحوالها فى مسيرها على أحوال الظل من كونه يحدث فى مكان ، ويزول من آخر ، ويتسع ويتقلص كذلك ، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك .

وقبضُه إياه : أنه ينسخه بضِحِّ الشمس(٢) انظر الزمخشرى .

وقال قتادة والسُّدى : المعنى ؛ جعلنا الشمس دليلًا عليه ، تتلوه وتتبعه حتى تأتى عليه كله .

٤٦ - (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا) :

أى : ثم أخذنا ذلك الظل الممدود إلى حيث أردنا ، ومحوناه بمحض قدرتنا عند إيقاع شعاع الشمس على موقعه ، لايشاركنا أحد فى إزالته ،كما لم يشاركنا أحد فى إنشائه ، فهو منَّاوإلينا ، وكان قبضه إلينا يسيرًا علينا غير عسير ؛ حيث قبضناه جزءًا جزءًا وفق موضع الأرض من الشمس التى تأتى عليه ، وقال الضحاك : قبضًا سريعًا .

ويحتمل أن يكون قبضه عند قيام الساعة بقرينة إلينا ، وذلك بقبض أسبابه وهى الأجرام التى تُلقِى الظل ، كما أن إنشاءه كان بإنشاء أسبابه ، والتعبير بالماضى لتحققه ، والإتيان بثم فى هذه الآية والتى سبقتها للتراخى الزمنى بين المعطوف والمعطوف عليه .

---

(١) هذه الآية تظهر عناية الخالق وقدرته ؛ فد الظل يدل على دوران الأرض وعلى ميل محور دورانها ، ولو أن الأرض سكنت بحيث إنها ظلت غير متحركة حول الشمس ، وانعدم دورانها حول محورها لسكن الظل ، ولظلت أشعة الشمس مسلطة على نصف الأرض ، بينما يظل النصف الآخر ليلا ؛ مما يحدث اختلاف التوازن الحرارى ، ويؤدى إلى انعدام الحياة على الأرض وكذلك لو أن الله خلق الأشياء كلها شفافة لما وجد الظل ولانعدمت فرص الحياة أمام الكائنات التى تحتاج إليه . اهـ . من هامش المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، الطبعة السابعة للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) الضِّح - بالكسر - : الشمس وضوءها : القاموس .

(وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ
ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا
وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾)

المفـردات :

(الَّيْلَ لِبَاسًا) : اللباس ؛ ما يلبس ، وفعله : من باب فرح .

(وَالنَّوْمَ سُبَاتًا) :السُّبات ؛ الثقيل لتكمل به الراحة ، من السبت : بمعنى القطع ، وقد يطلق السُّبات على الموت ، وفعله : من باب نَصَر ينصُر .

(النَّهَارَ نُشُورًا) : أى حياة تزاولون فيها أعمالكم ، يقال : نَشَرت الأَرْض نشورًا بمعنى حَيَّتْ وأنبتت ، وفعله كقَعَد ، وضرب .

(بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ) : أى مبشرات ، جمع بَشُور كرسول ، وأصله : بُشُر ـ بضم الشين ـ ثم خفف بالإسكان .

(مَاءً طَهُورًا) : صالحًا للتطهربه ، كطاهر مع المبالغة فى طهارته ، ويقول الفقهاء : هو الطاهر فى نفسه المطهِّر لغيره ، وهو الماءُ المطلق والذى لم يختلط بِنَحْوِ خَلٍّ وعِطْر ، فإن خالطه مثل ذلك فليس بطهور وإنما هو طاهر. ولو كان معناهما واحدًا لقيل : ثوب طهور وخشب طهور وهو ممتنع .

(وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا) : جمع أنسى ، ككرسى ، أو جمع إنسان ، فقلبت النون فى الجمع ياءً وأدغمت الياءُ فى الياء .

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ) : أى صرفنا المطر بين الناس فى البلدان والأوقات المختلفة ليعلموا آيات قدرتنا ، أو بينا آيات القرآن ببيان ما فيه من عقائد وحلال وحرام .

التفسير

٤٧ - (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) :

بيان لبعض ما أسبغه الله - عز وجل - على خلقه من آثار قدرته العظيمة ، ورحمته الواسعة التى أفاضها عليهم .

أى : جعل الله لكم - أيها المخاطبون - الليل ساترًا يستركم بظلامه ، كما يستركم اللباس الذى تلبسونه ، وجعل لكم النوم العميق الذى يقع فى الليل غالبًا - جعله - قطعًا لأعمالكم التى تثقلكم وتضنيكم لتستريح من متاعبها أبدانكم وأرواحكم ، (وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) أى : تنتشرون فيه لمعايشكم ومكاسبكم ولأداء سائر أعمال الحياة ، كما قال تعالى : « وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[1] فهو زمان بعث باليقظة من ذلك السُّبات كبعث الموتى بالنشور ، وجُوِّز أن يراد بالسُّبات الموت ؛ لما فيه من قطع الإحساس بالحياة ، وعُبِّر به عن النوم لما بينهما من المشابهة فى انقطاع أحكام الحياة كما فى قوله تعالى : « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا » كما عبر عن اليقظة بالنشور والبعث .

٤٨ - (وَهُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا) :

وهذا أيضًا من آثار قدرته التامة وسلطانه العظيم ، أى : أنه سبحانه يرسل الرياح مبشرات بمجىء السحاب المؤذن بإنزال المطر ، لأنه ريح فسحاب فمطر ، وَوَرد المطر بعنوان الرحمة لحاجة كل مخلوق إلى مائه ، لأن فيه رزقًا للعباد ، وبه تحيا الكائنات الحية ، (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) .

والالتفات إلى نون العظمة فى قوله سبحانه : (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا) ، لإبراز كمال العناية بإنزال الماء بمعنى : أنزلنا بعظمتنا ورحمتنا ماء طاهرًا فى نفسه مطهرًا لغيره ، فالمياه المنزلة من السماء والمودعة فى الأرض طاهرة مطهِّرة ، ووصفه بطهور إعظامٌ للمنّة وأنه أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل هذا الوصف ؛ كالخل والسُّكر والمِسْك .

(١) سورة القصص ، آية : ٧٣ .

٤٩ - (لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا) :

أى لنحيى بالمطر بلدة أماتها الجدب والمَحْلُ حتى أصبحت أرضها هامدة لانبات فيها ولازرع ، وهو روحها يحييها الله به كما قال كعب : المطر روح الأرض يحييها الله به . ا هـ .

وإحياؤها بإنبات النبات فيها ، كما يشير إلى هذا قوله تعالى : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »[١] .

ووصف البلدة - وهى مؤنثة ، بـ(ميتًا) وهو مذكر - على إرادة البلد أو المكان (وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ[٢] أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا) : أى نسقى ذلك الماء الطهور الذى يجرى فى الأنهار وفى العيون والآبار ، نسقيه أنعامًا وأناسىَّ كثيرًا ممن خلقنا .

وقُدّم إحياء الأرض على سقى الأنعام والأناسى لأن حياتها سبب لحياتهم ، وتخصيص الأنعام من بين الحيوان الشارب لأن عامة منافع الأُناس ومعايشهم منوطة بها .

وقال : (كَثِيرًا) : ولم يقل كثيرين ، لأن ما كان على وزن (فعيل) قد يراد به الكثرة نحو قوله تعالى : « وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا »[٣] .

٥٠ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) :

أى ولقد بينا وكررنا هذا القول للناس فى هذا القرآن ، وفى سائر الكتب المنزلة ، وهو إرسال الرياح وإنشاء السحاب ، وإنزال المطر ، وهو مفهوم من السياق ، وذلك ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا كمال قدرته تعالى ، وواسع رحمته ، فيشكروه عز وجل ، ويعلموا أنَّ مَنْ أنعم بهذه المنن والآلاء لايجوز الإشراك به .

وقيل : الضمير للمطر ، وهذا القول مروى عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد ، وعكرمة ، بمعنى : ولقد صرفنا الماءَ المنزل من السماء بين الناس المتقدمين والمتأخرين فى البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة ، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطَلٍّ ورذاذ وغيرها

---

(١) سورة الحج ، آية : ٥

(٢) و(من) فى قوله : « مما خلقنا » إما بيانية - أى : ونسقيه مخلوقا لنا أو : تبعيضية ، أى : نسقيه بعض مخلوقاتنا .

(٣) سورة النساء ، من الآية : ٦٩

ينزله بأرض ، ويمسكه عن أخرى حسبما يريد ويشاء ، وتلك من دلائل القدرة الباهرة التى تدعو إلى الإيمان بالله ، ومجافاة الكفر به ، ولكنهم لم يفقهوا (فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) : أى : أبى أكثرهم ممن سلف وخلف إلا كفر النعمة وجحدها وعدم الاكتراث بها ، بأن يقولوا : مطرنا بنوء كذا ، معرضين عن ذكر صنع الله ، ورحمته ، اعتقادًا منهم أن النجوم لها الفاعلية والتأثير ، وهذا - والعياذ بالله - كفر ، كما صح فى الحديث المخرج فى صحيح مسلم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال لأصحابه يومًا على إثر سماء أصابتهم من الليل : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « أصبح من عبادى مؤمن وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بى مؤمن بالكواكب » .

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾)

المفـردات :

(نَذِيرًا) : أى رسولًا ينذر أهلها .

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ) : فى دعوتهم إياك إلى اتباع آلهتهم .

(جِهَادًا كَبِيرًا) : أى دائمًا مستمرًا لايخالطه فتور .

التفسـير

٥١ - (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا) :

أى رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله - عز وجل - لتخفَّ عليك أعباء الرسالة ، ولكنا لم نفعل ، بل جعلناك نذيرا إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ، كما

قال تعالى : « قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا »[١] تكريما لك ورفعا لمنزلتك لتنال بجهدك المبذول أوفى الجزاء ، وأكرم المثوبة ، فقابل هذه النعمة الجليلة بالشكر والصبر على جهاد المعاندين المتكبرين بكل ما أوتيت من قوة ، مع المبالغة فى إنكار ما يدعونك إليه كما قال تعالى :

٥٢ ـ (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) :

أى فلا تطعهم فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم وهو دَفْعٌ له ـ صلى الله غليه وسلم ـ وللمؤمنين على التشدد معهم والمبالغة فى الإنكار عليهم (وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) : أى وجاهدهم بعون الله وتوفيقه ، أو بالقرآن ، كما قال ابن عباس ، وذلك بتلاوة ما فيه من الحجج والبراهين ، والقوارع والزواجر ، والمواعظ اللافتة إلى عاقبة الأمم التى كذبت رُسُلَها لإظهار عجزهم ، وتبصيرهم بسوء مصيرهم ، وكأنه نُهى بهذه الآية عن الملاينة ، وقد كان المشركون يدعون الرسول إلى مهادنتهم وملاينتهم والكف عن تسفيه أحلامهم وآلهتهم ، فجاءت هذه الآية لقطع أطماعهم ، وحثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مجاهدتهم وملاحقتهم بالإنذار والوعيد دون فتور ، كما قال تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ »[٢] .

وكان جهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ كبيرا ، كما أمره الله ـ عز وجل ـ فلم تلن له معهم قناة ، مع مابذلوه معه من الأمانى الفسيحة إن أطاعهم ، ولامع قسوتهم الشديدة عليه وعلى أصحابه حينما رفض عروضهم السخية .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٥٨

(٢) سورة التوبة ، من الآية : ٧٣

* (وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾)

المفـردات :

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) : أجراهما وخلَّاهما ، من ؛ مرجت الدابة ، إذا خلَّيتها ترعى .

(الْبَحْرَيْنِ) : الماءين : العذب والمِلْح ، من غير تخصيص ببحرين معينين .

(مِلْحٌ أُجَاجٌ) : شديد الملوحة والحرافة ، من أجيج النار ، كما قال الراغب .

(بَرْزَخًا) : حاجزا يمنع أن يغلب أحدهما على الآخر كما فى قوله تعالى : « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ » .

(حِجْرًا مَّحْجُورًا) : أى تنافرا مفرطا ، كأن كل واحد منهما ينفر من الآخر ، ويتعوذ منه بتلك المقالة على عادة العربى الذى كان إذا رأى شيئا يكرهه يقول : (حِجْرًا مَّحْجُورًا) والمراد : لزوم كل منهما لصفته من العذوبة والملوحة .

(جَعَلَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرًا) : المراد بالماء ؛ نطفة الرجل ونطفة المرأة .

(فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا) : أى فقسم الماء قسمين ذوى نسب ـ أى : ذكورا ـ وذوات صهر أى : إناثا ، فبالذكور يكون النسب ، وبالإناث تكون المصاهرة .

التفسير

٥٣ ، ٥٤ ـ (وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا . وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) :

هاتان الآيتان من جملة الآيات التى بدأت بقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى

ربِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » والتي تتحدث عن بعض آيات الله الكونية التي تتعاظم فيها آلاؤه، وتتراءى آثار نعمه على خلقه ، ودلائل قدرته فى تسخير هذه المخلوقات لتذليل السبل فى حياة الإنسان ، وتيسير حاجاته مصداقا لقوله تعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً »(١) وقوله جل شأنه : « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ »(٢). ومعنى « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » : أجرى الماءين العذب والملح ، مع استقلال كل واحد منهما بخصائصه وأوصافه ، هذا عذب فرات مستساغ الطعم وقامع للعطش ، ومنبت للزرع ، وهذا ملح أجاج شديد الملوحة كريه الطعم تجرى فيه السفن ويأكل منه الناس لحما طريا ويستخرجون حلية يلبسونها وجعل بين الماءين « بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً » أى : وجعل الله تعالى بقدرته بين الملح والعذب حاجزا ومانعا لا سبيل إلى رفعه ودفعه ، حتى لا يطغى أحدهما على الآخر أو يغلب عليه ، فلا يعذب الملح بالعذب لقلة ما يتسرب منه إلى الماء الملح ، ولا يملح الماء العذب بمجاورته للماء الملح فى مصبه ، لأن الله تعالى بقدرته العظيمة ، جعل البحار الملحة فى أغوار منخفضة عن سطح الأرض وعن مجارى المياه العذبة ، بحيث لا يمتد فى مجارى الأنهار إلا جزء قليل مجاور لها فى مستواها ، وهو مصبها ، فبانخفاض البحار وعلو مستوى الأنهار ، حفظ الله طبيعة كليهما ، حتى ينتفع بالملح والعذب فيما خلقهما الله لأجله .

ويجوز أن يراد من الحجر المحجور : اليابس الذى جعله الله بين الماءين ، وحال به بينهما ، لينتفع بكليهما فى موضعه من الأرض .

(وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا) :

أى : ومن جملة قدرته ـ تعالى ـ أن خلق من نطفة الرجل والمرأة إنسانا بعد أن طوره فى مراحله المختلفة ، وأداره فى أدوار التكوين فجعله قسمين: ذكرا يُنْتَسَبُ إليه فيقال : فلان بن فلان ، وفلانة بنت فلان ، وأنثى يُصَاهَرُ أهلها بزواجها فيتحقق بذلك الترابط ، وتتم الصلات الطاهرة بين بنى الإنسان حتى يصيروا شعوبا وقبائل .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٩

(٢) سورة الجاثية ، من الآية : ١٣

وشأن من يقدر على هذه الآيات ، ويبدع هذه المخلوقات المتعددة الأنواع والصفات أن يكون عظيم القدرة لا يعجزه إبداع شىء من حيوان أو نبات أو جماد ، فهو الذى يقول للشىء : « كُن فَيَكُونُ » .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾)

المفـردات :

(ظَهِيرًا) : مظاهرا ومعاونا للشيطان على عصيان الله، والكفر به ، مثل قوله تعالى : « وَالْمَلَآئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ » ، والمراد بالكافر ؛ الجنس : ، أى كل كافر .

التفسـير

٥٥ ـ (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا) :

لما عددت الآيات السابقة آلاء الله ونعمه ، وأبرزت آثارها على الإنسان فى تيسير حياته ، جاءت هذه الآية تنعى على الكفار بعامة ، وعلى مشركى مكة بخاصة خفة أحلامهم وسفه عقولهم فى إعراضهم عن توحيد الله ، وإنكار ألوهيته مع عظيم آياته ، وروائع آثاره ، وتندد باتخاذهم آلهة من دون الله يصنعونها بأيديهم ، ويشترونها من أسواقهم كما تشترى البهائم والسلع ، ويشاهدون حدوثها واختلاف أحوالها ، ثم يعظمونها بعد ذلك ، ويقدمون لها القرابين من نعم الله وما أفاءه عليهم ، وهى من الضعف والهوان بحيث لاتستطيع أن تجلب لهم نفعاً ، ولا أن تدفع عنهم ضرا ، بل هى من المهانة بحيث لا تستطيع أن تجلب لنفسها نفعا ولا تدفع عنها شرًّا ، وكان الكافر بعبادته لهذه الآلهة الواهنة ظهيرا للشيطان ومعينا له على ربه ، ولن يغلب اللهَ غالبٌ .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

المفـردات :

(مُبَشِّرًا) : تبشر الذين اتبعوك بالخير فى الدنيا والآخرة .

(نَذِيرًا): تنذر المكذبين المعارضين لدعوتك وتخوفهم بعذاب بالغ فى الشدة .

(سَبِيلًا) : طريقاً يسلكه إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة .

التفسير

٥٦ـ (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا) :

هذه الآية جاءت بعد الآية السابقة عليها ، ليتسلى بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلا تذهب نفسه حسرات على عناد قومه وإشراكهم .

والمعنى : ما عهدنا إليك بهذه الرسالة التى بعثناك بها إلى قومك ومَنْ وراءهم لتحملهم عليها قسرا ، وإنما أرسلناك مبشرًا بالسعادة والنعيم المقيم فى الجنة لمن أطاعوك ، وصدقوك واتبعوا سبيلك ، ونذيرًا بعذاب شديد متناهى الإيلام لمن خالفوك وعارضوك ، وكذَّبوا دعوتك ، فلا يحزنك هؤلاء الذين يسارعون فى الكفر بغير روية ، ويستمرون عليه بعد ما قمت به من أمر التبليغ على خير وجه ، وأوضح بيان .

٥٧ـ (قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلى رَبِّه سَبِيلًا) :

أى : قل أيها الرسول واعظاً لهؤلاء المشركين ، ودافعاً عن نفسك مظنة الانتفاع : ماأسألكم على ما أدعوكم إليه من توحيده وعبادته أجرًا ، ولا أطلب منكم فى سبيل القيام بتبليغه جزاءً ، إلا اهتداء من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، فهذا أعظم أجر يناله الداعية إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

(وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(تَوَكَّلْ) : اعتمد بقلبك على ربك فى الأُمور .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) : نزه ربك عن صفات النقصان حامدا له على نعمائه ، مثنيا على كمالاته .

(خَبِيرًا) : عالما بدقائق الأُمور وخوافيها فضلا عن ظواهرها .

(الْعَرْشِ) : عرش الله تعالى وهو لا يحدُّ ، ويطلق لغة على سرير الملك ، وعلى العز وقوام الأَمر .

(اسْتَوَىٰ) : الاستواء ؛ الاستيلاء

التفسير

٥٨ - (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَىِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا) :

أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - فى الآية السابقة أن يقول للمشركين : إنه لا يطلب بدعوته إياهم أجرا ولا يطمع منهم فى نفع ، وعقبها بهذه الآية ليدعوه بها أن يجعل اعتماده على الله وحده لا يبالى بأَحد غيره ولا يأْبه بعناد المشركين ، ولا يطمع منهم فى عون .

والمعنى : اعتمد - يا رسول الله - على ربك بقلبك فى اتقاء شرورهم ، والاستغناء عن أُجورهم

فإنه ـ سبحانه ـ جدير بالتوكل عليه ، والاستغناء به ، فهو الحىّ الباقى الذى لايدركه فناء ، ولا ينقطع منه رجاء .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا) :

أى : نزهه عن صفات النقصان ، مثنياً عليه بصفات الكمال التى تليق بذاته طلباً لرحمته ، وطمعاً فى استزادة نعمه بمزيد الاعتراف بها والشكر عليها ، وكفى بالله ، وبعلمه التام خبيرا بذنوب عباده مطَّلِعًا على ماخفى منها وما ظهر لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ليجازى عليها جزاءً وفاقا .

٥٩ ـ (الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا .....) الآية .

تضمنت هذه الآية وصفه ـ تعالى ـ بصفته الفعلية ، بعد وصفه بصفاته الذاتية ، إبرازًا لكمال قدرته على استجابة من توكل عليه ولجأ إليه ، فإن من يقدر على إنشاء هذه الأجرام العظام على هذا النمط الرائق ، والنسق الفائق فى تدبير متين ، وترتيب رصين أحق أنْ يتوكل عليه ، ويفوض الأمر إليه .

والمراد بالعرش فى قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » : الملك والسلطان ، وبالاستواء عليه : تدبيره لما خلقه دون شريك .

والمعنى : ثم أحكم سلطانه وتدبيره لما خلقه من السموات والأرض وما بينهما ، دون شريك ولا معين وبهذا أول الخَلَفُ الآية الكريمة ، لأنه تعالى لا يحل بمكان ولأنه موجود قبل أن يخلق العرش ، وعن الصادق والحسن وأبى حنيفة ومالك ـ رضى الله عنهم ـ : أن الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود له كفر ، والسؤال عنه بدعة[(١)] .

والمراد بالأيام فى قوله تعالى : « فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » غير الأيام المعروفة لنا ، فإن الليل والنهار لم يكونا قبل خلق السموات والأرض ، فهى من أيام الله ، يعلم الله قدرها ، ولا مجال للحديث عنها ، فقد يكون اليوم أكثر من خمسين ألف سنة مما يعدون .

(١) تقدم الكلام مستوفى على معنى قوله تعالى : « ثم استوى على العرش » فى سورة الأعراف .

ومهما يكن فإن قدرة الله لا يعجزها خلق السموات والأرض فى أى زمان كان طويلا أو قصيرا ، وهو الذى يقول للشىء :كن فيكون ، وإنما جاء هذا التحديد لحكم جليلة ، وغايات جميلة ، ولتكون الرَّوية والأناة منهج القادرين، وأسلوب العاملين ، وسبحان من لا تحيط العقول بحكمته ، ولا تدرك أسرار صنعته .

وقوله تعالى : « الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا » جملة مستأنفة ، تقديرها : هو الرحمن ، سيقَت مساق المدح لتقرير رحمته التى وسعت كل شىء بعد ما ثبت له من الصفات السابقة تأكيدا لوجوب التوكل عليه .

« فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا » الأمر موجه إلى كل مكلف أى : فاسأل بالرحمن خبيرا – والمراد بالسؤال به تعالى : السؤال عن تفصيل رحمته وشئونه فى خلقه ، والخبير : هو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

والمعنى الإجمالى للآية : الذى خلق السموات والأرض بأجزائهما وما استقر فيهما ، وخلق الكواكب التى زيَّن بها سماواته ، وخلق ما بين السماء والأرض من الهواء والأشعة الكونية وما يعلمه الناس ومالا يعلمونه فاسأل عن الرحمن الذى أبدع هذا الكون العظيم ، وشمل من فيه برحمته – اسأل عنه أيها المكلف رسوله محمدا – صلى الله عليه وسلم – فهو وحده الخبير الذى يعلم شئون ربه فى خلقه ، وهو وحده الذى يجيبك بحق ،وصدق ، فإنه « لَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ » فما يقوله عنه فهو حق ، وما يخالفه فهو مردود على قائله .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(نُفُورًا) : تباعدا عن الإيمان ، وإصرارا على الكفر .

التفسير

٦٠ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) :

ذكرت الآية السابقة إطلاق وصف الرحمن على الله تعالى ، وجاءت هذه الآية بعدها تنعى على المشركين جحودهم لهذا الاسم ، وإصرارهم على الكفر به ، ونفورهم من أمرهم بالسجود له .

والمعنى : وإذا قال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - : اسجدوا للرحمن تبليغا عن ربه قالوا على سبيل التعجب، أو السخرية والتجاهل أو الإنكار : وما الرحمن؟ قالوا ذلك لما أنهم كانوا لا يطلقون هذا الاسم على الله تعالى . ومعنى قولهم وما الرحمن ؟ : وما هذا الاسم الذى تسمى به الله ولا نعرفه ؟ .

(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا) : أى لا نسجد للذى تأمرنا بالسجود له وتسميه الرحمن فنحن لا نعرفه ، ولا نُقِرُّ به ، ولا نطيع لك فيه أمرا ، وزادهم الأمر بالسجود نفورا عن الإيمان وإصرارا على الكفر .

وكان سفيان الثورى يقول فى هذه الآية : « إلهى : زادنى لك خضوعًا ، مازاد أعداءَك نفورا » .

(تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾)

المفـردات :

(بُرُوجًا): منازل للشمس والقمر ، وهى المنازل الاثنا عشر [١] ، مفردها برج ، والبرج : كل مرتفع ، سميت بذلك تشبيهًا لها بالقصور العالية .

(سِرَاجًا): المراد به الشمس لقوله تعالى : « وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » وقرئ سُرُجًا بصيغة الجمع ، فيكون المراد بالشمس : الجنس الشامل لكل ما ماثل شمسنا فى المجرة التى تتبعها .

(مُنِيرًا) : مضيئا ليلا ، ووصفه بمنيرا . دون مضىء يشعر بأن نوره مستمد من الشمس (خِلْفَةً) : أى يخلف كل منهما الآخر (يَذَّكَّرَ) : يتعظ ، وأصله : يتذكر ، أدغمت تاءُ الافتعال فى الذال بعد قلبها ذالا .

(شُكُورًا) : شكرا كثيرا لله تعالى على نعمه .

التفسير

٦١ - (تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا) :

هذه الآية والتى بعدها تُؤَكِّدان تنزيه الله ، وتعظيمه ، وَتُعَدِّدَانِ آيات قدرته وبدائع صنعه واستحقاقه السجود له .

---

(١) وهى منازل الكواكب السبعة السيارة : الحمل ،والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة،والميزان، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

والمعنى : تنزه الله وتعالى واستحق كل تعظيم وتمجيد ، وكل إذعان وطاعة لما أحكم من صنعه إذ جعل فى السماء منازل اثنى عشر لنزول الشمس والكواكب ، وجعلها على أربعة أقسام : ثلاثة ربيعية ، وثلاثة صيفية ، وثلاثة خريفية ، وثلاثة شتوية ، وبهذا يختلف الزمان حرارة وبرودة ، ويختلف الليل والنهار طولا وقصرا ولا يخفى أثر ذلك فى إنبات النبات ، وإنضاج الثمار والزروع وملاءمة أحوال الناس فى أعمالهم ومهنهم ، كما جعل فى السماء شمسًا تضىء الأرض كما يضىء السراج المكان الذى يسرج فيه ، وجعل فيها قمرًا ينسخ ظلام الليل ، ويخفف من عتمته ، فيهتدى بذلك السارى ، وتقل به الوحشة ؛ قال تعالى : « وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » .

والضمير فى قوله تعالى : « وَجَعَلَ القَمَرَ فيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » يعود على البروج لقربها ، ويجوز أن يكون عائدا على السماء ؛ لأنها الأصل .

٦٢ - (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) :

أى : وهو الله الذى توافرت نعمه ، وتعاظم فضله ، فجعل تعاقب الليل والنهار وفاء بمتطلبات الحياة واحتياجات خلقه فى إنبات النبات ، وإنضاج الثمار والزروع وتقلبهم فى أعمالهم وأسفارهم وإخلادهم إلى الراحة ، وفى هذا غاية العبرة لمن أراد أن يعتبر بتأمله فى محكم آياته ، وجلائل تدبيره ، فيعلم أن لابد لهذا الكون من إله قادر وصانع حكيم ، كما أن فيه أوسع مجال لمن أراد أن يتعاظم حمده لربه ، ويتزايد شكره لخالقه على توافر نعمه ، وتزايد آلائه ، وقال ابن كثير : جعلهما يتعاقبان توقيتا لعبادته ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىءُ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىءُ الليل » .

(وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾)

المفـردات :

(يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) : أى مشيًا لينا بسكينة ووقار وتواضع .

(الْجَاهِلُونَ) : المراد بهم السفهاء .

(قَالُوا سَلَامًا) : أى قالوا للسفهاء تسليمًا منكم ، ومتاركة لكم وبُعْدًا عنكم .

(غَرَامًا) : هلاكا لازما ، وشرًّا دائمًا ، من قولهم : هو مُغْرم بكذا ، أى : يلازمه ملازمة الغريم .

(مُسْتَقَرًّا) : مكان استقرار وسكن .

(مُقَامًا) : دار إقامة ، من أقام بالمكان ؛ إذا سكنه ولزمه .

التفسير

٦٣ - (وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) :

هذا كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف المؤمنين الصادقين بعد بيان أحوال المشركين الجاحدين لوحدانية الله ، النافرين من عبادته والسجود له ، وبضدها تتميز الأشياء .

وعباد الرحمن : من العبودية التى هى إظهار التذلل والخضوع ، مع القيام بمقتضياتها من حسن الطاعة وجميل الانقياد والامتثال ، والتعبير عن المؤمنين الصادقين بلفظ :

(عباد) وإضافتهم إلى الرحمن فيه تقدير لإيمانهم ، وحسن أعمالهم وتشريف لهم ، وتبكيت للمشركين الذين أنكروا اسم الرحمن ، وأعرضوا عن السجود له ، وقوله تعالى : « يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » : معناه يسيرون فى تقلبهم لتحصيل معايشهم ، والسعى فى حاجاتهم سيرا هيِّنا لينا لا بَغْى فيه ولا استعلاء ، فكلمة : (هونا) مصدر وقع وصفا لموصوف محذوف ، وقيل: المشى الهون يقابل السريع وهو مذموم؛ لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أخرجه أبو نعيم ، وابن النجار عن ابن عباس: « سرعة المشى تذهب بهاء الرجل ».

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ) : معناه إذا تكلم معهم السفهاء بالسوء أو بكلام يؤذيهم ويكرهون سماعه أعرضوا عنهم تحلما وسماحة ، وقالوا ردًّا عليهم : تسلُّما منكم ومتاركة لكم ، فليس معنى : (سَلَامًا) السلام المعروف لأن الآية فى مشركى مكة فلا سلام عليهم ، والذى يظهر من الأسلوب أن المفهوم من قولهم سلاما هو سداد الردِّ مع البعد عن التفحش ومجاراة السفهاء .

وقيل معناه : إذا سفه عليهم الجاهلون بالسوء ، لم يقابلوهم بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرا ، كما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، وقوله تعالى :

٦٤ ـ (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) :

معطوف على قوله تعالى : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا . . . . » الآية داخل معه فى حيز الخبر لقوله تعالى : « وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ » وفيه بيان لحالتهم مع ربهم ، بعد بيان سلوكهم مع السفهاء خفاف الأحلام من مداراتهم وعدم مجاراتهم ، وكان الحسن يقول : إذا قرأ الآية الأولى : هذا وصف نهارهم ، و إذا قرأ هذه الآية قال : « هذا وصف ليلهم » ويبيتون من البيتوتة ـ وهى الدخول فى الليل وإدراكه بنوم أو بدون نوم .

والمعنى : وعباد الرحمن الذين يحيون ليلهم بالصلاة قائمين ساجدين لربهم ، وتقديم السجود على القيام مع تأخره عنه فى الأداء إيماء إلى شرف السجود لما فيه من غاية الخضوع وفضل التذلل ، وقد ورد : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » وقد حرم منه إبليس ، وأباه المشركون ، ونفروا من أدائه . هذا فضلا عن مراعاة رءوس الآى .

٦٥ - (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ) :

معناه : والذين يتجهون إلى الله فى أعقاب صلاتهم ، وفى أوقات تهجدهم وفى جميع أحوالهم - يتجهون إلى الله بالدعاء - قائلين : يا ربنا وإلهنا الذى نلجأُ إليه فى سرائنا وضرائنا أبعد عنَّا عذاب جهنم وقنا إياه .

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) : هذه الجملة مقولة على لسان الداعين فيما يظهر، لتعليل دعائهم السابق بأَن يقيهم الله عذاب جهنم ، أَى : اصرف عنا عذابها ؛ لأَنه هلاك لازم وشر دائم .

٦٦ - (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) :

تعليل ثان لدعائهم بأَن يقيهم الله عذاب جهنم ، أَى : إن جهنم قَبُحتْ وبئست دار استقرار وإقامة لمن هو فيها ، يكتوى بلظاها ، ويحترق بسعيرها ، قال الحسن : كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم .

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾)

المفـردات :

(يُسْرِفُوا) : يُفْرِطوا فى الإنفاق حتى يضروا باحتياجات معيشتهم ، ومصدره : الإسراف ، وهو التبذير فى النفقة ، والاسم منه : السَّرفُ - بفتحتين - وهو ضد القَصْد .

(يَقْتُرُوا): يُضَيِّقُوا فى النفقة على أنفسهم وعيالهم تضييق الشحيح ، وماضيه : قَتَر ، من باب : ضرب ودخل ، ويقال : قَتَّر وأَقْتَر .

(قَوَامًا) : وسطًا وعدلًا .

التفسير

٦٧ - (وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا ....) الآية .

تناولت الآيات السابقة فى وصف عباد الرحمن أنهم مع السفهاء والجاهلين يُتاركونهم ولا يجاهلونهم ، ومع الله تعالى يتواضعون ويشتغلون بعبادته ويشفقون من عذاب جهنم ويتعوذون منها ، ثم جاءت هذه الآية تمدحهم بالاعتدال والقصد فى شئون معاملاتهم وإنفاقهم واختلف المفسرون فى تحديد معنى الإسراف والتقتير ، فذهب جماعة إلى أن الإسراف هو الإفراط ومجاوزة الحد فى الإنفاق دُنْيا ودِيناً ، فصفة عباد الرحمن: القصد والتوسط فإذا أنفقوا من أموالهم على أنفسهم وعيالهم ، أو تصدقوا منها على الفقراء والمساكين ، أو بذلوا فى وجوه الخير ،والمصالح العامة التى تعود بالنفع على المسلمين، التزموا الاعتدال والوسط ، فلم يجاوزوا الحد ، ولم يُفْرِطوا فى الإنفاق إلى حد الإسراف لكيلا يفتقروا ويضيعوا أنفسهم وعيالهم ، ولم يبالغوا فى التقتير والتضييق ، ولم يبلغوا درجة البخل والشح

بين تبذير وبخل رتبة وكلا الحالين إن عام قتل

وذلك هو القوام ، وهو ما يفهم من قوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً » والرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول فيما رواه حذيفة : « ما أحسن القصد فى الغنى ، وما أحسن القصد فى الفقر ، وما أحسن القصد فى العبادة » وقد قيل : « إن الْمنْبَتَّ لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى » .

وذهب جماعة إلى أن الإنفاق فى طاعة الله ليس سرفاً مهما بلغ ، ولهذا ترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سيدنا أبا بكر يتصدق بماله كله ، وأقره عليه ، وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : « من أنفق مائة ألف دينار فى حقٍّ فليس بسرف ،ومن أنفق درهماً فى غير حقه فهو سرف » ومن منع فى حق عليه فقد قتَر ، قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى معناه : « أن من أنفق فى غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله - عز وجل - فهو الإقتار ، ومن أنفق فى طاعة الله تعالى فهو القوام » وسمع رجل رجلا يقول : لا خير فى الإسراف فرد عليه بقوله : « ولا إسراف فى الخير » .

والرأى الفقهى فى هذا أن يترك المؤمن لذويه ما يقيهم العوز ، لقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » وهو الظاهر من معنى الآية .

(وَقَوامًا) : - بالفتح - وسطاً وعدلًا ، وسمى قواماً ، لاستقامة الطرفين وتعادلهما ، وقرىء : قِواما - بكسر القاف - فقيل :هما لغتان بمعنى واحد ، وقيل : القِوام - بالكسر - : ما يقام به الشيء ، ومعناه هنا ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص .

(وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ
ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ
مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ
يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن
تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾)

المفردات :

(أَثَامًا) : عقابا شديدا لا يقادر قدره على إثمه ، والكلام على حذف مضاف ، أى : يلق جزاء أثام .

(يَخْلُدْ) : يقيم فيه أبدا ، وأصل الخلود فى اللغة : المكث الطويل .

(مُهَاناً) : حقيرا ذليل النفس .

(مَتَاباً) : رجوعا عظيم الشأن مرضيا عنه .

التفسير

٦٨ - (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ . . .) الآية .

هذه الآية تتمة لمدح عباد الرحمن ، وقد امتدحهم الله فى الآيات السابقة بما تحلوا به من أصول الطاعات ، والاجتهاد فى تحصيل الفضائل وامتدحهم فى هذه الآية بالبعد عن فعل الكبائر ، ومجافاتها ، والتنصيص على تركهم هذه الكبائر بخصوصها لتهويل أمرها ، وتفظيع جرمها ، وللتعريض بمشركى مكة الذين دأبوا على ارتكابها وأمعنوا فى اقترافها .

والمعنى : أن هؤلاء المؤمنين الذين شرفهم القرآن فأضافهم إلى الرحمن بالعبودية مخلصون فى عبادته ، فلا يشركون معه إلٰها آخر على عادة المشركين الذين كانوا يشركون آلهتهم فى العبادة مع الله ، كما أنهم لا يقدمون على قتل النفس الإنسانية؛ التى حرم الله قتلها لأى سبب من الأسباب إلَّا بحق يقتضيه كحد أو قصاص يقيمه السلطان عليها ، وكذلك من فضائل صفاتهم أنهم لا يقربون الزنى فإنه يهتك الأعراض ،ويخلط الأنساب ، ويشيع الفاحشة والفساد ، وقد صح عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » ، فأنزل الله تصديق ذلك : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ . . . » الآية .

وقوله تعالى : « وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ » أى : ومن يفعل ذلك المذكور من الإشراك ، وقتل النفس ، والزنى - كما هو دأب الكفرة - يلق فى الآخرة عذابا شديدا لا يقادر قدره على إثمه ، فالكلام على تقدير مضاف محذوف ، أى : يلق جزاء أثامه .

٦٩ - (يُضَاعَفْ[1] لَهُ الْعَذَابُ . . .) الآية .

أى : أنه تعالى يعذبه على ارتكاب أى ذنب من هذه الذنوب عذابا مضاعفا إذا كان معه الكفر ، أمَّا إذا فعله غير الكافر فلا يضاعف عذابه ، لقوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا » ، ومعنى : (وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا) : يقيم فى هذا العذاب مهينا ذليلًا، يجمع إلى

---

(١) يضاعف : بدل من (يلق) .

عذاب البدن عذاب الروح ، وتدوم إقامته فى هذا العذاب أبدا إن ضم إلى فعل هذه المعاصى الكفر كما يشعر به قوله تعالى : « إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ . . . » الآية .

٧٠ ـ (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً . . .) الآية .

أى : أن من رجع عن كفره وأقلع عن إشراكه وآمن إيمانا صادقا لا غش فيه ولا نفاق ـ من تاب وآمن ـ من هؤلاء وأولئك وأتبع إيمانه بالعمل الصالح ، وداوم على فعل المأمورات ، وترك المنهيات ، والاستزادة من عمل الخيرات ، واستباق المحامد والفضائل ، فأولئك يتجلى الله عليهم بفيض رحمته ، فيبدل سيئاتهم حسنات ، بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ، ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم ، أو يبدّل سبحانه ملكة السيئات ودواعيها فى النفس بملكة الحسنات .

(فَأُولَئِكَ [١] يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً) :

أى : فأولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله عظيم المغفرة كريم العفو ، واسع الرحمة بعباده يتفضل بإثابة الطائعين وقبول توبة التائبين .

٧١ ـ (وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً) :

ترتبط هذه الآية بالآية التى قبلها ارتباط العموم والخصوص ، فالآية الأولى فى خصوص التوبة عن الكفر والكبائر والمعاصى المذكورة فيها ، وهذه الآية فى عموم التوبة الشاملة لتوبة عصاة المؤمنين .

والمعنى : كل من تاب إلى الله ، وأخلص فى الرجوع إليه وأقلع عن فعل المعاصى كلها وندم على ما فرط فى جنب الله ، وعلى تقصيره فى تحصيل طاعة الله ، ثم شمر عن ساعد الجد فى إخلاص العبادة والإخلاص فى الطاعة ، فإنه بذلك يكون قد رجع إلى الله تعالى رجوعًا عظيم الشأن مرضيًا عند الله [٢] ، ماحيًا للعقاب محصلًا للثواب .

---

(١) قوله تعالى : « فأولئك يبدل الله » إشارة إلى الموصول المتقدم فى قوله : « إلا من تاب ... » إلخ باعتبار معناه ، كما أن الإفراد فى الأفعال الثلاثة : تاب وآمن وعمل باعتبار لفظه ؛ لأن الموصولات المشتركة لفظها دائما مفرد ، ومعناها يكون مفردا ومثنى وجمعا ومذكرا ومؤنثا بحسب ماتقع عليه .

(٢) وبتقييد المتاب بالمتاب المرضى عنه عند الله يندفع ما يظهر من اتحاد الشرط والجواب فى قوله تعالى : « ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا »

(وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾)

المفـردات :

(لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) :أى ، لا يؤدون الشهادة الكاذبة الباطلة ، و (الزُّورَ) : الباطل .

التفسـير

٧٢ – (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وإِذَا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِرامًا) :

أى : ومن صفات عباد الرحمن التى امتدحوا بها أنهم لا يؤدون شهادة الزور ، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ،ليحصلوا على ما ليس لهم ،أو يضيعوه على من يستحقه ، وقيل : لا يشهدون مجالس الزور ، ولا يقفون عليها ، وإذا اتفق لهم أن مروا على مجالس الأقوال الماجنة التى لا تليق بكرام الناس مروا مرورًا عابرًا مكرمين أنفسهم عن سماعها ، والوقوف عندها والخوض فيها – عن ابن عساكر عن إبراهيم بن ميسرة قال : « بلغنى أن ابن مسعود – رضى الله عنه – مرّ بلهو معرضًا ، ولم يقف ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » ثم تلا إبراهيم : (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) .

(وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾)

المفـردات :

(يَخِرُّوا) : من الخرور ، وهو السقوط على غير نظام .

التفسـير

٧٣ - (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) :

أى : والذين إذا ذكرهم أحد بآيات ربهم المنطوية على المواعظ ، الموجهة إلى الاهتداء ، لما فيه سعادة الدنيا والآخرة أكبوا عليها سامعين لها بآذان واعية مجتلين لها بعيون راعية ولم يسقطوا عليها صُمًّا لا يسمعون ، وعميانًا لا يبصرون .

والتعبير عن إقبالهم على آيات الله والانتفاع بها بقوله : (لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) تعريض بما يفعله الكفار إزاء سماعهم إياها ، من الإعراض عن الاستفادة بها ، كأنهم صم وعميان .

وقيل : الضمير فى (عليها) للمعاصى ، المنوه عنها باللغو ، على معنى : أنهم إذا وعظوا بآيات ربهم المتضمنة للنهى عن المعاصى ، والتخويف من ممارستها ، لم يستجيبوا لتلك المعاصى ، وكانوا كالصم الذين لا يسمعون لها داعيا ، والعمى الذين لا يبصرون لها مرتكبا .

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾)

المفـردات :

(قُرَّةَ أَعْيُنٍ) : من القرّ - بالضم - وهو : البرد ، كناية عن السرور ، لأنهم يقولون : دمعة السرور باردة ، ودمعة الحزن ساخنة ، وقيل : من القرار ، لأن السرور تقر به العين وتسكن ، والحزن يضطرب له النظر ويزيغ ، ولفظ : (الأعين) استعمل فى القرآن كله فى العين الباصرة ، ولفظ : (عيون) استعمل فى العين الجارية . (إِمَامًا) : قدوة يقتدون بنا فى إقامة مراسم الدين ، ولفظ : (إمام) يستعمل فى المفرد والجمع ، وهو فى هذا المقام يراد به الجمع ، وروى عن مجاهد أن : (إِمَامًا) : جمع آم ، بمعنى قاصد ، كصيام جمع صائم ، وكذلك ذكر القاموس .

التفسير

٧٤ – (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ . . .) الآية .

هذه الآية انتقال من أوصاف عباد الرحمن فى أنفسهم إلى أمانيهم فيمن يحبونهم ، ويرتبطون بهم .

والمعنى : أن من صفات عباد الرحمن ألَّا ينسوا وهم فى شغلهم من عبادة الله ، والانهماك فى طاعته ، لا ينسون أهلهم ، وأولادهم ، يتوجهون إلى الله بالدعاء لهم ، وطلب هدايتهم – وهذا شأن الصالحين من الآباء ، بل إن من الآباء من يقدم ولده على نفسه ، ويؤثره بالخير له ، وخير الآخرة عند الصالحين أفضل ما يرجى للأهل ، والأولاد ؛ لأنه الأبقى ، وإن المؤمن إذا ساعده أهله وولده فى طاعة الله ؛ اشتد سرور قلبه ، وقرت عينه ، لما يشاهده منهم من مشاركتهم فى مناهج الدين ، وتوقع لحوقهم به فى نعيم الآخرة ، طمعا فى عِدَةِ الله تعالى بقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » وقد ذكروا أنه كان فى أول الإسلام يهتدى الأب والابن كافر ، ويهتدى الزوج والزوجة كافرة ، فلا يطيب عيش ذلك المهتدى ، فكانوا يدعون هذا الدعاء .

ولهذا كان من الصفات التى امتدح الله بها عباده أنهم يتجهون إليه بالدعاء لصلاح أزواجهم وذرياتهم ، يقولون : ربنا ارزقنا وهب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما يسرنا وتقر به أعيننا من توفيقهم للطاعات ، واحتيازهم للفضائل التى هى غاية ما نرجوه لصلاح ديننا ودنيانا ، أما زهرة الدنيا وزينتها فلا تغلبنا على أخرانا .

ثم يعودون إلى أنفسهم بالدعاء لها بقولهم : (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) : أى اجعلنا بحيث يقتدى بنا المتقون ؛ فى إقامة مراسم الدين بتعلم العلم ، والتوفيق فى العمل .

وعن مجاهد : اجعلنا قاصدين للمتقين ، مقتدين بهم ، وهذا المعنى : مبنى على أن (إِمَامًا) : جمع آمٍّ ، بمعنى : قاصد ، والمعنى الأول أوفق ، وفيه – على المعنى الأول – أن الرياسة فى الدين ؛ ينبغى أن تطلب لمن يأنس فى نفسه حسن القيام بها ، وتحقيق مقتضاها بعدل وأمانة .

﴿ أُولَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ
وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾ ﴾

المفـردات :

(أُولَٰئِكَ) : إشارة إلى الموصوفين بجميع الصفات السابقة ، وهو مبتدأ خبره الجملة التى بعده وما عطف عليها ، وجملة أولئك يجزون . . . إلخ خبر عن (عبادالرحمن) .

(الْغُرْفَةَ) : الدرجة العالية من المنازل ، وكل بناءٍ مرتفع ، وقيل : أعلى منازل الجنة ، و « ال » فيها للجنس ، والمراد بالغرفة الجمع ، فأَلْ فيه للاستغراق ليوافق قوله تعالى : « وَهُمْ فِى الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ » .

(تَحِيَّةً) : دعاء بإطالة الحياة .

(وَسَلَامًا) : دعاء بالسلامة من كل ما ينغص عليهم طيب إقامتهم .

التفسـير

٧٥ ـ (أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . . .) الآية .

أى : أولئك الموصوفون بما سبق من الصفات الجميلة يجزون الغرف العالية فى الجنة ينعمون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ـ أولئك يجزونها ـ بسبب صبرهم على مداومة الطاعات ، واجتهادهم فى أعمال الصالحات ، ومجاهدتهم فى مقاومة الشهوات ، وتتلقاهم الملائكة ، أو يتلقى بعضهم بعضا بالتحية المتضمنة دوام إقامتهم ، والسلام المتضمن معافاتهم؛ من كل ما يكدر صفو نعيمهم أو ينغص نعيم إقامتهم تكريماً لهم وابتهاجا بحلولهم ، وزيادة فى أنسهم ، وإدخال السرور عليهم .

٧٦ ـ (خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) :

هذه الآية تأكيد لما تقرر فى الآية السابقة ، وزيادة فى طمأنينتهم ، ومعنى : « خَالِدِينَ فِيهَا » مقيمين فى الجنة أو فى الغرفة إقامة دائمة لاتنقطع فلا يموتون ولايخرجون ، وقوله تعالى فى شأن الجنة مقر المؤمنين : « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً » فى مقابلة قوله تعالى فى شأن جهنم مقر المشركين : « سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً » ، ومعنى « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا » : طابت دار سكن واستقرار ، ومقام راحة ونعيم ؛ لمن اكتملت لهم الصفات الكريمة ؛ التى اشتملت عليها الآيات السابقة ، وهى كما يلى :

١ ـ معاملتهم الخلق بالتواضع ولين الجانب فى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » .

٢ ـ التسامح ، والصفح ؛ فى معاملة السفهاء ، والجاهلين ، فى قوله تعالى : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » .

٣ ـ التهجد ليلًا والاجتهاد فى العبادة فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا » .

٤ ـ الخوف من الله ، والإشفاق من عذاب جهنم فى قوله تعالى : « رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ . . . » الآية .

٥ ـ الاعتدال ، والقصد فى الإنفاق ؛ فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا . . . » الآية .

٦ ـ الإيمان الجازم بوحدانية الله ، واحترام حرمة النفس البشرية والعفة فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ . . . » الآية .

٧ ـ اتباع الحق ، وتجنب شهادة الزور ، ومجامع اللهو فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ . . . » الآية .

٨ - الاتعاظ بآيات الله تعالى وحسن تلقيها ، والانتفاع بها فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . . . » الآية .

٩ - التماس صلاح الأهل والذرية بالدعاء لهم فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا . . . » الآية .

(قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى) : ما استفهامية ، والمعنى : أىُّ عبء يعبأُ بكم ربى ، وأى اعتداد يعتد بكم ؟ تقول : ما عبأت به ، أى : ما اكترثت .

(لِزَامًا) : لازمًا ثابتًا لاينفك .

التفسير

٧٧ - (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ . . .) الآية .

فى هذه الآية أمر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التى يتنافس فيها إنما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلًا .

والمعنى : قل يا رسول الله لعامة الخلق - مشركين ومؤمنين - مشافهًا لهم : (مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى) أى عَبْء ، ولا يكترث بكم أى اكتراث ، وأنتم العبيد الضعفاء ، والمخلوقون الفقراء ، لولا دعاؤكم وعبادتكم ربكم ، فإنكم ما خلقتم إلَّا لعبادته مصداقًا لقوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُون . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » .

وقوله : «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ» معناه : فقد كذب الكافرون منكم ،وإذا كان التكذيب حالهم مع قيام الحجة عليهم فسوف يكون العذاب لازمًا ثابتًا لهم .

واختار غير واحد أن الآية كلها خطاب لكفار قريش ، والمعنى على هذا قل لهؤلاء المشركين : ما يعبأُ بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى التوحيد تقويمًا لوجودكم ، وتنظيمًا لسلوككم ، وارتفاعًا بأعمالكم عن العبث ،حتى لا تكونوا هملًا كالبهائم تسيرون لغير غاية ، وتعملون لغير هدف ، وتنتهون إلى النار ،فقد كذبتم مع قيام الحجة عليكم فكان العذاب لزامًا لكم مابقيتم على كفركم .

وهكذا : تنتهى سورة الفرقان ، وقد تضمنت آياتها تصنيف الخلق إلى صنفين : صنف كذب وأغرق فى الكفر ، والعناد ، ومعارضة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وقال : القرآن أساطير الأولين ، وعاب أن يكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - بشرا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، واقترح نزول الملائكة أو رؤية الله تعالى وعارض نزول القرآن مُنجّما ،وعَمِىَ بصره وطمست بصيرته عن تدبر آيات الله فى كونه ؛ فاستحق عذاب جهنم خالدا فيها ساءت مستقرًّا ومقاما .

وختمت بصنف آخر استجاب للدعوة ، وصدق الرسالة والرسول - صلى الله عليه وسلم - وأخلص فى العبادة والتوحيد ، وجد فى الطاعة فروضها ونوافلها ، وجانب المحرمات ، وخالف الشهوات ، وتحلّى بكريم الصفات ، فاستحق الجزاء الكريم ، فى نعيم الجنة خالدا فيها حسنت مستقرًّا ومقاما .

بسم الله الرحمن الرحيم

« سورة الشعراء »

هذه السورة مكية ، وآياتها سبع وعشرون ومائتان ، وسميت بهذا الاسم لأن الله ذكر فيها طرفًا من أحوال الشعراء فى قوله تعالى : « وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَايَفْعَلُونَ . . . . » إلخ .

وهذه السورة لها اتصال وثيق بالسورة التى قبلها : (سورة الفرقان) فكلتاهما بدأهما الله بالإشادة بالقرآن العظيم ، وفيهما أيضًا تسلية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – عما يبدر من قومه من ألوان الإيذاء والإعراض ، فضلًا عن أن فى هذه السورة بسطًا وتفصيلًا لبعض ما مر فى سورة الفرقان من أخبار الرسل – عليهم السلام – مع من أرسلوا إليهم .

محتويات هذه السورة

١ – أنها نوهت بفضل القرآن ووصفته بالكتاب المبين ، وأشارت إلى إعراض قريش عن الإيمان به ، وتألمه – صلى الله عليه وسلم – لذلك : (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) .

٢ – أنها عُنِيَتْ بأخبار وقصص بعض رسل الله – عليهم السلام – مع أقوامهم ، وبسطت بعضها كقصة سيدنا موسى مع فرعون وقومه ، وقصة سيدنا إبراهيم مع أبيه وقومه ، وما جرى بينه وبينهم من مجادلات ومحاورات أيد الله فيها خليله بالبراهين الساطعة فبهت الذى كفر ، ثم جاء فيها ذكر لقصص بعض الأنبياء : كنوح ، وهود ، وصالح ، وغيرهم وأن الله أيدهم وكتب لهم الغلبة والفوز على أقوامهم الذين تمادوا فى غيهم وكيدهم ، وكيف كانت الدائرة عليهم ، حيث أيد الله رسله – عليهم السلام – ونصرهم على أعدائهم ومكَّن لهم .

٣ – أنها أشادت فى آخرها بالقرآن الكريم .

قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ » وأفحمت المشركين وأبطلت زعمهم من أن القرآن من وحى الشياطين ، وكانت نهاية السورة متلاقية مع بدئها بيانًا لمنزلة القرآن العالية ومكانته السامية ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

(الْكِتَابِ الْمُبِينِ) : القرآن الواضح الدلالة .

(بَاخِعٌ نَّفْسَكَ) : مهلكها .

(آيَةً) : معجزة .

(ذِكْرٍ) : موعظة تذكرهم .

(مُحْدَثٍ) : مجدّد لم يسبق نزوله .

(زَوْجٍ كَرِيمٍ) : صنف طيب لذيذ .

التفسير

١ - (طسٓمٓ) : يقول سلف هذه الأُمة الإسلامية فى هذه الكلمة وفى أمثالها : إنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ، وقيل : إنها للإيقاظ والتنبيه إلى سماع القرآن ؛ فإنها لفظ لاتـألف الآذان ابتداء الكلام به فيلفتها إلى الإصغاء ، وقال قوم : إن المقصود : هو التحدى للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، فهو يشير إلى أن القرآن مكون من هذه الحروف التى تتركب منها كلماتهم ومع ذلك لم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله ، وقد سبق الكلام مستوفًى على مثله فى أول سورة البقرة ، وآل عمران وغيرهما ، فارجع إليه إن شئت .

٢ - (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) :

(تِلْكَ) : إشارة إلى أن آيات القرآن الكريم قد سمت منزلتها ، وعلا قدرها ، وعظم شأنها ، وجلت عن أن يدانيها كلام البشر ، فهى آيات الكتاب المنزل من عند الله الذى أبان فيه الحق وأظهر الأحكام وتحدث عن أخبار الأمم السابقة ، وعن آيات الله الكونية بأسلوب أعجز الجن والإنس : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »(١) .

٣ - (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) :

كلمة (لَعَلَّ) تستعمل لغة فى إشفاق المتكلم ، ولما استحال فى حقه سبحانه ، وجهوه إلى المخاطب ، ولما كان غير واقع من النبى - صلى الله عليه وسلم - أيضًا ، قالوا : المراد الأمْرُ به ، لدلالة الإنكار المستفاد من سوق الكلام عليه ، فكأنه قيل له : أشفق على نفسك أن تقتلها وتهلكها حسرة وكمدًا لاستمرار قومك على الكفر(٢) ، وتمسكهم بما ورثوه عن آبائهم من الضلال والزيغ والبعد عن الحق ، فأمر هدايتهم ليس لك وإنما مرده إلى الله

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٨

(٢) وقال العسكرى : هى فى مثل ذلك موضوعة موضع النهى ، والمعنى : لاتبخع نفسك ، وقيل : وضعت موضع الاستفهام ، والتقدير : هل أنت باخع نفسك . . إلخ - انظر الآلوسى .

« إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ »(١) ، « إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ »(٢) .

٤ - (إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) :

يبين الله تعالى فى هذه الآية الكريمة السر فى أمره لرسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يترفق بنفسه ويشفق عليها فلا يقتلها فيقول له : إن أردنا أن نأتى بآية ننزلها عليهم من لدنا تقهرهم وتلجئهم إلى الإيمان وتكرههم عليه فتذل له رقابهم وتخضع له نواصيهم وينقادون إليه دون إرادة منهم فلا يستطيعون فكاكًا ولا هربًا ، وتَقْسِرُهُمْ على الطاعة فلا يلتفتون إلى معصية أبدًا ، لو أردنا ذلك لفعلنا ، ولكن حكمتنا اقتضت أن نبين طريق الخير ونهدى إليه ، ونوضح سبيل الشر ونحذر منه ، ونختبر العباد بذلك لنعلم الذين صدقوا ونعلم الكاذبين ونحاسب كُلًّا بما يتفق مع عمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، فكل نفس بما كسبت رهينة ، وحسبهم ما أنزله الله تعالى على رسوله من معجزة القرآن الكريم ، فهى أقوى المعجزات فى عصر العلم .

٥ - (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) :

هذا بيان لشدة عنادهم وتماديهم فى باطلهم وإصرارهم على ما كانوا عليه من الكفر والتكذيب ، فقد لجوا فى الطغيان وتجاوزوا الحد فى الضلال ، وعموا وصموا عمَّا يأتيهم من الآيات والمواعظ التى يجدد الرحمن إنزالها لهم من مكنون غيبه وقديم كلامه(٣) حسبما تقتضيه حكمته البالغة ورحمته الواسعة ، وذلك ليردهم إلى الحق ويهديهم سواء السبيل ، ولكنهم لا يقابلون ذلك إلَّا بالتَّولِّى والإعراض ، وفى ذلك ما فيه من الحماقة ورداءة التفكير وسوء التقدير ، فرحمة الله ينبغى أن تقابل بالشكر والطاعة لا بالعصيان والإعراض .

---

(١) سوررة القصص ، من الآية : ٥٦

(٢) سورة الغاشية ، من الآية : ٢١ ، والآية : ٢٢

(٣) يقول الإمام البوصيرى - رضى الله عنه - :

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة قدم الموصوف بالقدم

٦ - (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَآءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) :

أى : لم يقتصر أمر هؤلاء الذين لم يؤمنوا بك من قومك على الإعراض والانصراف عما يأتيهم من الذكر والموعظة ، بل تجاوزوا ذلك إلى التكذيب الصريح فجعلوا القرآن الكريم تارة سحرًا ، وأخرى أساطير الأولين ، ومرة شعرًا ، وقد هددهم وأنذرهم عذابًا منكرًا ينزل بهم ، وقارعة تحل بساحتهم ينتشر خبرها ، ويذاع أمرها ، فيجمع الله عليهم بين العذاب الأليم ، وكشف أمرهم بين الناس حتى يتحدثوا بما نزل بهم من نكال وخزى جزاءً وفاقًا لاستهزائهم وسخريتهم ، وقد رتب الله - سبحانه - نزول العذاب على استهزائهم فى قوله : « فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَآءُ . . . » الآية ، مما يُؤْذِنُ ويدل على أن العذاب واقع لا محالة ، فقد أصابتهم فى بدر هزيمة منكرة قتل فيها وأسر صناديدهم ، ويجوز أن يراد من الأنباء : أخبار انتشار الإسلام وعلو شأن القرآن الذى كانوا به يستهزئون .

ومن أغراض هذا الوعيد أن يترفق النبى - صلى الله عليه وسلم - بنفسه فلا يشق عليها ويعرضها للهلاك أسفًا وحزنًا على قوم قد أوغلوا فى الكفر ، وختم الله على قلوبهم فلا تنفذ إليها الهداية ولا يرجى منهم خير .

٧ - (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) :

ينكر الله - تعالى - عليهم ماهم فيه من إعراض وتكذيب واستهزاء بآيات الله الكونية بعد أن أعرضوا وسخروا من آيات الله التنزيلية ، أى : أفعلوا ما فعلوا ، وأصروا على الكفر والتكذيب ولم ينظروا إلى الأرض وما فيها من عجائب تدعوهم إلى الإقبال على الله إيمانًا وتصديقًا ، وتمنعهم وتزجرهم عما اقترفوه من السخرية والإعراض عن آيات القرآن الكريم - أفلم ينظروا إليها - وهى تنبت ما يفيد الناس وينفعهم من نبات يختلف صورة ومنافع

فلو أن الأمر لطبيعة الأرض ، لما أنبتت نباتًا ، فإنها لا عقل لها ولا تدبير ولا قدرة ولا إرادة

وقوله : (كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) : استئناف لبيان مافى الأرض من أمور تثير العجب وتدعو إلى الإيمان بالواحد الديان ، أى : أنبتنا فى الأرض من كل صنف جليل النفع عظيم الفائدة ، يدرك ذلك كله من أنعم الله عليه بِنِعْمَةِ الفهم الدقيق والإدراك السليم ، وأمده ببصيرة نافذة نيرة ، ويغفل عنه الغافلون فلا يعقلون .

وفى الأرض أصناف وأنواع لم يعرف نفعها البشر ، وتتجلى لهم منافعها على الأيام عندما يحتاجون إليها فى أمور معاشهم وصلاح حالهم، كما أن هناك أشياء يظنها الناس ضارة لا نفع فيها ولكن الحاجة قد تلح فى طلبها ، وتدفع إليها ، ولا يغنى عنها سواها فى إصلاح أمر أو علاج علة أو إبراء مريض « ومن السموم الناقعات دواء » .

٨ - (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى : إن فيما سبق من إنبات الأرض لكل الأصناف والأنواع التى تعين الإنسان وتقيم حياته ، وتكون متاعًا له ولأنعامه مع عجزه عن تدبير ذلك ، إن فى ذلك لدلالة واضحة وبرهانًا ساطعًا ، على قدرة الله ، وأنه - سبحانه - هو الجدير وحده بأن يؤمن به الناس كافة : « فى كل شىء له آية : تدل على أنه الواحد » ولكن أكثر هؤلاء استمر على الكفر والتكذيب مع عظم الآية وسطوع البرهان ، وانبلاج الحجة التى توجب أن يكونوا مؤمنين منقادين مذعنين .

٩ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : وإن الله الذى يرعاك ويكلؤك هو صاحب العز الغالب والسلطان القاهر ، وصاحب الرحمة الشاملة والنعمة السابغة ، ومن رحمته أنه قد أمهلهم فلم يأخذهم بسبب كفرهم وإعراضهم واستهزائهم بما جئت به مع قدرته الكاملة وعزه الذى لا يقهر ولا يغالب ، وإنما أكرمهم الله برحمته ، وفاء بوعده لرسوله - صلى الله عليه وسلم - « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ »[1] .

والآيتان : « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » ، « وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » كررهما سبحانه فى هذه السورة ثمانى مرات ، أولاها هذه ، والسبع الباقيات عقب قصص موسى ، وإبراهيم ، وقوم نوح ، وعاد مع هود ، وثمود مع صالح ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة مع شعيب .

والحكمة فى تكرارها : تنبيه كفار مكة وغيرهم إلى أن فى كل قصة من هذه القصص عبرة وعظة توجب الإيمان ، وتزجر عن التكذيب والعصيان .

---

(١) سورة الأنفال ؛ من الآية : ٣٣

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ
فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢
وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ
عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ
إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾

التفسير

١٠ - ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ :

فى هذه الآية وما يليها من الآيات يحكى الله قصة موسى - عليه السلام- مع فرعون وقومه ، تسلية لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ليشفق على نفسه فلا يهلكها غمًّا وحزنًا لعدم إيمان قومه، فهو يأمره أن يذكر لقومه وقت نداء المولى - تبارك وتعالى - موسى - عليه السلام - ليبلغ فرعون وقومه رسالة ربه ، وما ناله بعد ذلك من مكروه ، وما حقق له ربه من انتصارٍ لحقِّهِ على باطل أعدائه ، وفى ذلك ما فيه من تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ببيان أن تكذيب قريش له ليس بأول تكذيب لرسول ، فلست يا محمد أنت وقومك بدعًا من الرسل والأمم قبلك .

والمعنى : واذكر - يا محمد - لقومك أن الله أمر نبيه موسى أن يأتى القوم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى ، وظلموا بنى إسرائيل بالإذلال والاستعباد وقتل الأبناء ، واستحياء النساء .

١١ - (قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ) :

بين الله - سبحانه - القوم الظالمين الذين أمر نبيه موسى أن يأتيهم - بينهم - فى هذه الآية أنهم فرعون وقومه ؛ لأنهم تناهوا فى الظلم وأوغلوا فى الطغيان حتى صاروا علمًا عليه وعنوانًا له ، وقد دعا الله إلى العجب من ظلمهم وعدم تقواهم فقال : « أَلَا يَتَّقُونَ » الله - عز وجل - فلا يصدر منهم معصية ولا استعلاء ، وهذا يتحقق بهجرهم كل المعاصى والمظالم ، وكأن سائلًا سأل : هذا ما نادى الله به موسى ، فماذا قال موسى جوابًا لهذا النداء ؟ فكان الجواب هو قوله تعالى حكاية عنه :

١٢ ، ١٣ ، ١٤ - (قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) :

أى : قال موسى - عليه السلام - وهو فى مقام الضراعة إلى بارئه رب العالمين : يارب إنى أخاف أن يكذبنى هؤلاء حين آتيهم ، ولا يؤمنوا برسالتى ، ولا يصدقوا بِنُبُوَّتِى ، إنى يارب يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى لما ينالنى من العى والحَصَر وحبس اللسان بسبب ما يلحقنى من الحزن .

وهذا الذى صنعه موسى - عليه السلام - ليس تشبثًا بالعلل ، ولا للاستعفاء من امتثال أمر ربه - عز وجل - وتلقيه بالسمع والطاعة ، بل هو موقف ضراعة وابتهال ، وتمهيد عذر بين يدى رجاوته أن يعينه على الامتثال وإقامة الدعوة على أتم وجه ، ولهذا التمس من ربه أن يبعث جبريل أمين الوحى إلى هارون ويجعله نبيًّا ووزيرًا له من أهله يشركه فى أمره ليشد أزره ويقوى عضده .

ويجأر موسى إلى ربه فيبدى له أن هناك أمرًا آخر يخشاه ويخافه إذ يقول : إن هؤلاء القوم - فرعون وملأه - يرون أن لهم علىَّ تبعة ذنب ، وجريرة جرم ، ذاك أننى قتلت واحدًا منهم ، حين وكزته غير قاصد قتله لما استغاث بى أحد شيعتى ، فهم يُحَمِّلُونَنِى وزر ذنب لم أقصده ، فأخاف إذا ذهبت إليهم وحدى ليس معى عضد ولا سند أن يفتكوا بى بسبب تحميلى دم القبطى ، وأريد أن أؤدى الرسالة ، فادفع عنى يارب أذاهم المرتقب وكيدهم المتوقع ، باختيار أخى هارون نبيًّا لك ووزيرًا مساعدًا لى ، وأعنا على تبليغ دعوتك .

وقد استجاب الله لموسى فحقق رغبته ، وأناله طَلِبَتَهُ بما حكاه القرآن بقوله :

١٥ - (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ) :

قال الله لموسى : كلَّا ، لا تخف ، لن يقتلوك ولن يصيبك مكروه ، فالعناية معك والله يعصمك من الناس فلا يترددْ فى صدرك هذا الخاطر ولا يَجُلْ فى نفسك هذا الظن ، فاذهب أنت وأخوك بآياتى الباهرة ومعجزاتى الخارقة فإن فيها أمنًا لك من خوفك وتثبيتًا لقلبك وتأييدًا لدعوتك وأنا معكم جميعًا بسمعى وعلمى أحيطكما بالرعاية والتأييد والنصر ، وأمدكما بالعون وأما فرعون فسأكون ضده بالتخذيل والتخويف فلا يصل إليكما ولا ينال منكما .

١٦ - (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

فاذهبا ياموسى أنت وأخوك هارون إلى فرعون ذلك الذى يدعى الألوهية ويقول : « أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى »[1] فقولَا له قولاً لينًا لا غلظة فيه ولا قسوة ، لعله يتذكر ما قد أنساه سلطانه وجبروته من أنه مربوب لله رب العالمين ، ليقل كل منكما له : إنه رسول رب العالمين[2] ، وفى ذلك رد لدعوى فرعون أنه إله ، وإشعار له بأن للعالمين ربا واحدا هو الذى بعثهما إليه ، وفى هذا الأسلوب حمل لطيف لفرعون على أن يمتثل أمر ربه رب العالمين .

١٧ - (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) :

أى : أطلق سراح بنى إسرائيل وفك إسارهم ودعهم يذهبوا معنا حيث نذهب ، وهو يقصد بذلك توجههم إلى فلسطين .

---

(١) سورة النازعات ، من الآية : ٢٤

(٢) ويجوز أنه أفرد مع أنهما رسولان ؛ لأنه مصدر وصف به ؛ ولهذا أفرد تارة وثنى أخرى ؛ ومن استعماله مصدرا قول الشاعر :

لقد كذب الواشون؛ ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

أى : برسالة .

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا
إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ
لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

(تَمُنُّهَا عَلَيَّ) : تعدها نعمة وفضلا .

(عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ) : اتخذتهم عبيدا .

التفسير

١٨ - (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) :

قال فرعون موجها كلا مه إلى موسى بعد أن نفَّذ موسى وأخوه هارون أمر الله وأبلغا فرعون الرسالة ، وطلبا إليه أن يرسل معهما بنى إسرائيل - قال فرعون ردا عليه - :

ألم نقم على رعايتك والعناية بك فى منزلنا طفلا مولودا ،وذلك بعد أن تم التقاطك على يد أهلنا وخدمنا ، وبقيت يا موسى تقيم بيننا كواحد منا السنين من عمرك ، وكان الأولى بك والأجدر - تقديرا لنعمتنا عليك - أن تكون معنا وأن تؤمن بنا ،لا أن تكون داعياً لنا وموجها ، وكلام فرعون هذا يوحى بالتقريع والتوبيخ لموسى -عليه السلام- ،ولذا عقبه بقوله :

١٩ - (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) :

وصنعت ياموسى تلك الفعلة التى أنكرناها عليك ، حيث قتلت القبطى انتصارا لشيعتك ، واستهانة بنا ، وأنت بذلك كافر بنعمتنا عليك متنكر لما أسديناه لك جاحد

لما أسلفناه من تربية ورعاية ، أو : وأنت من الذين كفروا بديني ، أو بألوهيتي بعد عودتك من الجهة التي فررت إليها ، فعظم بذلك ذنبك عندنا .

والواقع أنه - عليه السلام - لم يكن على دينهم قبل فراره ، ولكن سكوته عنهم من باب التقية ، فكفره بدين فرعون قديم قبل الهجرة ، والمستحدث إنما هو الإعلان عنه بعد العودة ، والرأى الأول هو الظاهر ، وهو ما قاله ابن زيد .

٢٠ - (قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ الضَّآلِّينَ) :

قال موسى - عليه السلام - فى مقام الرد على ما أثاره فرعون - : فعلت تلك الفعلة ووكزت القبطى تلك الوكزة التى قضت عليه ، والحال أنى من الجاهلين بما تفضى إليه تلك الضربة إذ ماكنت أعتقد أنها تقضى على القبطى وتقتله ، وكان هدفى هو الانتصار لمظلوم وتأديب باغ ومعتد ، ولو كان الأمر كما تظن وأنى قاتل مفسد - كما تدعى - لاستجبت لمن استصرخ بى وكررت تلك الفعلة وانتصرت له ، ولكنى بعدت ونأيت عنه وقلت له : « إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ » .

٢١ - (فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ) :

ومع أن فعلتى - التى عددتها عظيمة وأثيمة - لا تقتضى المؤاخذة ولا تستدعى التقريع والتوبيخ والرمى بالكفر والجحود ، فإنكم تآمرتم على قتلى ودبرتم اغتيالى وإزهاق روحى ، ففررت منكم بعد أن أخبرنى ناصح أمين بما انتويتم وما دبرتموه بليل ، هربت منكم إلى ربى .

خرج موسى وهرب فراراً بنفسه وخوفا من حيف يلم به ، أو ظلم ينتظره ، أو قتل يُعَدُّ له ، وأسلم نفسه لربه فملأ قلبه حكمة وعقله رشدا ، وجعله من خاصة خلقه فاصطفاه الله له كليما ، ولعباده رسولا ، وكان - عليه السلام - من أولى العزم من الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - .

٢٢ - (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ) :

تلك : إشارة إلى تربية موسى فى منزل فرعون المستفادة من قوله لموسى : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا

وَلِيدًا » أى : أن تلك الرعاية التى ظفرتُ بها فى كنفك هى نعمة ظاهرة لديك وواضحة عندك ولكنها فى الحقيقة ليست نعمة ، فالسبيل إليها تعبيدك بنى إسرائيل ، وقصدك إياهم بذبح أبنائهم ، فإنه السبب فى وقوعى عندك ووجودى فى تربيتك .

وقيل : إنه مقدر بهمزة الإنكار ، أى : أَو تلك نعمة تمنها علىَّ ، وهى أن عبدت بنى إسرائيل ، وعلى كلا الوجهين فالمقصود : أن عناية الله – سبحانه – ألقت به إليه وأنه المتسبب فى وصوله إلى منزله ، وأنه – تبارك وتعالى – سخره للعناية به والقيام على شأنه ومنعه من قتله حتى قالت امرأته : « قُرَّةُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ».[1] فالمنة والفضل لله وحده .

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾)

التفسير

٢٣ – (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا[2] رَبُّ الْعَالَمِينَ) :

بعد أن دعا موسى – عليه السلام – فرعون إلى الإيمان برب العالمين تحقيقاً لأمره تعالى بدعوته : « فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » بعد أن دعاه موسى

---

(١) سورة القصص ، من الآية : ٩

(٢) ما : استفهامية وغالبا ما تستعمل فى غير أولى العلم ، وهى هنا فى الاستفهام عن رب العالمين ، على تأويل : ما شأن رب العالمين ، أو أنها بمعنى من ، كما فى قوله تعالى : « والسماء وما بناها » : أى ومن بناها .

قال فرعون مستنكرا ما قاله موسى ومستهزئا به : ما هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟ وقد كان فرعون يدعى أنه ليس هناك إله غيره .

« مَاعَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى »[1] ولكن نبى الله موسى رد عليه بما حكاه الله بقوله :

٢٤-(قَالَ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) :

قال موسى لفرعون ردًّا على استفهامه : رب العالمين هو رب السموات وما فيهن من الكواكب الثوابت ، والسيارات النيرات ، ومن الأرض وما فيها من بحار وقفار وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ،وما بينهما من الهواء والطير وما سوى ذلك مما لا نشاهده ولا ندركه ،كل ذلك مربوب لله خاضع لسلطانه- سبحانه - « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ »[2]

(إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) : أى إن كانت لكم قلوب صالحة لليقين ، وبصائر نيرة تهدى إلى الصراط المستقيم ، أو إن كنتم موقنين بشىء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره ووضوح دليله ؛ لأن الله - سبحانه - له فى كل شىء آية تدل عليه وترشد إليه :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

فما يدعيه فرعون من الألوهية محض كذب وافتراء؛ فليس فى قدرته أن يخلق شيئًا .

٢٥-(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ) :

قال فرعون لمن حوله من وجوه القوم وأشرافهم وأعيانهم وعليتهم الذين حضروا وشهدوا هذا الحِجَاجَ : (أَلَا تَسْتَمِعُونَ) إلى قول موسى الذى يدعو إلى العجب ويبعث على السخرية والاستهزاء؛ وذلك بادعائه أن هناك إلٰها غيرى وربا سواى؟ .

وإيراد فرعون كلامه على هذا النحو ليهوِّن من شأن موسى ، ويىنال منه ، وذلك منعا لقومه أن يميلوا إلى موسى وينعطفوا نحوه ويعاضدوه .

---

(١) سورة القصص ، من الآية : ٣٨

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١٨

٢٦ـ (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ) .

قال موسى على سبيل التوضيح والتصريح لما اشتملت عليه إجابته السابقة ، وليضع فرعون بكل جبروته وصلفه فى موضعه الصحيح ، وينزله من مرتبة الألوهية التى ادعاها لنفسه إلى مرتبته الحقيقية ، مرتبة العبودية التى يتساوى فيها مع الناس جميعاً : الله ربكم يا فرعون ومن معك ، ورب آبائكم الأقدمين ، فلا سبيل لك إلى ادعاء الربوبية لأحد من خلق الله : فما أنتم إلا عباد له سبحانه كسائر عباده .

٢٧ـ (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) :

اتسم هذا الأسلوب بالسخرية والاستهزاء إمعاناً فى صد القوم عن موسى ـ عليه السلام ـ فقد أضاف رسالة موسى إلى المخاطبين فقال : « إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ » . وترفَّع أن يكون رسولا إليه ، كما ترفع وتكبر أن يذكر موسى ـ عليه السلام ـ باسمه فقال : (الَّذِى) ثم كان منه أن رماه بالجنون ، ليكون أبلغ فى صد الناس وصرفهم عن اتباعه ، فكأنه يقول لهم : كيف يليق بكم ـ وأنتم العقلاء ـ أن تصدقوا معتوها ، وتتبعوا مجنونا؛ إن فرعون يريد من وراء هذا إثارة غضبهم على موسى واحتقارهم له .

٢٨ـ (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) :

لم يكترث موسى بما وجهه له فرعون من نقائص ، بل جابهه بالحق إذ قال : رب العالمين هو رب المشرق والمغرب وما بينهما ، فهو رب السماء بما حوت من الثوابت والسيارات الذى دبرها تدبيرا محكما ، وقدرها تقديرا متقنا فى نظام مستمر دائم على وجه عجيب دقيق ، وهذا لا يكون إلا من مدبر حكيم قدير عليم ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغربا والمغرب مشرقا .

(إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) : أى إن كنتم تعقلون شيئًا ، أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلت وبينت لكم وأرشدتكم ، فآمنتم بى رسولا لله رب العالمين .

وفى الكلام تلميح إلى أنهم لا عقل لهم فكأنَّ موسى قال لهم : أنتم أولى بما وصفتمونى به من جنون ، وما رميتمونى به من عَتَه .

(قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ
ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(بِشَىْءٍ مُّبِينٍ) : معجزة واضحة .

(ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) : أى ثعبان لا شك .

(الْمَلَإِ) : أشراف القوم وساداتهم .

التفسير

٢٩ــ(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) :

أحس فرعون صلابة موسى وقرأ فى عينيه أنه لا يحيد عن دعوته ولا يتخلى عن رسالته ، وأفحمه موسى وأعجزه ، فلم يستطع جوابا ، فلجأ إلى التهديد بالتعذيب ، وهذه

آية العجز وأمارة الضعف عند مقابلة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، فالمتسلط الجبار عندما يعوزه الدليل وتتأبى عليه الحجة يجنح إلى البطش والتنكيل حفاظاً على هيبته وإبقاء على مكانته، فقال له: لئن جعلت لك إلهاً سواى، وتماديت فى دعواك أنك رسول رب العالمين، لأجعلنك من المسجونين الذين تعرفهم، وتعرف ألوان العذاب التى أنزلها بهم.

ولكن موسى – عليه السلام – لم ينقطع أمله فى إيمان فرعون فتلطف به وقال ماحكاه الله بقوله:

٣٠– (قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ) :

أى: أتجعلنى من المسجونين الذين تعذبهم وتعاملنى معاملتهم ولو جئتك بشىء هائل عظيم موضح لصدق دعوتى، مؤيد لرسالتى؟ فتحداه فرعون بما حكاه الله بقوله:

٣١– (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

قال فرعون: فأت بهذا الشىء إن كنت صادقا فى دعواك أنك رسول رب العالمين، وما أظنك إلا كاذباً فيما تدعيه.

طابت نفس موسى واطمأن إلى نصر الله الذى أعلمه أن عصاه ستصير ثعبانا عظيما.

٣٢– (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) :

فألقى موسى عصاه ورمى بها إلى الأرض، فإذا هى بقدرة الله ثعبان واضح الحيوانية الثعبانية، لا تمويه فيه ولا تخييل، فليس مما يفعله السحرة.

٣٣– (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) :

أخرج موسى يده من جيبه فإذا هى بيضاء لها شعاع قوى يبهر الناظرين، فماذا قال فرعون وقد بهرته آية موسى؟ ماذا قال وقد فقد الأمل فى الانتصار عليه بحجاجه ومناقشته؟.

٣٤- (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) :

قال فرعون لزعماء قومه وكبرائهم حين وجودهم حوله مهونا من أمر موسى ومن الآيات البينات المصدقة له فى دعواه الرسالة من رب العالمين - قال - : إن هذا المدعى لساحر بارع فى علم السحر ، فائق فيه ، حاذق له ، متقن لقواعده وأصوله ، فما جاء به اليوم أمامكم ليس معجزة إلهية كما يدعى ، وإنما هو أمر يأتى به الساحر العليم فليس هذا دليلا على صحة ما يدعيه من رسالته ، ومن وجود إله غيرى ، ثم هيجهم وحرضهم على الخروج عليه ومخالفته والوقوف فى وجهه والكفر به ، فقال :

٣٥ - (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) :

(يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ) :

أى : يريد موسى أن يستولى على قلوب الناس ويميلها معه بسحره هذا حتى يكثر أعوانه وأنصاره ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم ، ويستعبدكم فتذهب عزتكم ويزول سلطانكم وتكونوا أتباعاً وخدما بعد أن كنتم سادة أعزة .

(فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)[1] :

بَهَرَ سلطان المعجزة فرعون وحيره حتى نزل به عن ذروة ادعاء الربوبية بقوله : «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى»[2] فاستأمر الملأ من قومه وأظهر حاجته إلى رأيهم بعد أن كان مستقلا بالرأى مستبدا بالتدبير ، وذلك لأنه استشعر الخوف من استيلاء موسى على ملكه ، قال لهم : أشيروا على فى أمره : ماذا أصنع به حتى أجنبكم شر إخراجكم من دياركم ، وتفريق جمعكم ، والقضاء على عزكم وجاهكم ؟ فإن من أصعب الأشياء على النفوس أن يذل المرءُ بعد العز ، فكان أن أشار عليه أصحاب الرأى فى قومه بما يحكيه قوله تعالى :

٣٦ ، ٣٧ - (قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) :

أى : أجّل أمر موسى وأخيه ، وأخّر البت فى شأنهما فليس الأمر هينا سهلا ، إنه فى حاجة إلى أن تجمع من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك ، كل ضالع فى السحر عليم بضروبه

(١) (تأمرون) إما من الأمر ، فيكون قد طلب ممن زعمهم عبيده أن يأمروه ، وإما من المؤامرة والمشاورة وسيأتى مزيد إيضاح لذلك .

(٢) سورة النازعات ، من الآية : ٢٤

وأنواعه ، بصير بفنونه ، كى يقابلوا موسى ويأتوا بنظير ماجاء به ، أو بأشد منه تأثيرًا فتغلب أنت ، وتكون لك النصرة والتأييد .

وكان هذا من تسخير الله – تعالى – لهم أن نطقوا بما نطقوا ، وأتوا بمشورتهم هذه ليجتمع السحرة مع الناس فى صعيد واحد ، وتظهر آيات الله ومعجزاته قاهرة لجميع السحرة أمام الناس فى وضح النهار .

٣٨ – (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) :

جَمع رجالُ فرعون وأعوانه السحرةَ من جميع مدائن مملكته لوقت معين هو الضحى ، من يوم معلوم هو يوم الزينة ، وهو الوقت الذى حدده موسى – عليه السلام – « قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى »[١] ولعله كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ، ويجتمعون له ، وقد اقترحه موسى – عليه السلام – لإظهار كمال قوته ، وكونه على ثقة من أمره ، وعدم مبالاته بهم ، ليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود .

تكامل عقد السحرة ، واجتمع شملهم ، فيما حدد من زمان ومكان .

٣٩ – (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ) :

قيل للناس استبطاء لهم ، وحثا ودفعا على المبادرة والإسراع إلى الاجتماع الذى جمع له السحرة البارعون الممتازون – قيل لهم – : (هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ) فهذا الاستفهام مجاز عن الحث والدفع ، فكأنه قيل لهم : أسرعوا بمشاهدة هذا اللقاء بين سحرتنا وموسى[٢] وهذا الحث يشعر بأن فرعون مطمئن إلى نجاح سحرته الذين جلبهم وجمعهم من مدائنه .

٤٠ – (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) :

لعلنا بعد أن نشهد هذا التحدِّى الكبير نتبع السحرة إن غلبوا موسى ، وكان قد قوى أملهم واشتد رجاؤُهم أن لا يتحولوا عن دينهم خوفاً مما زعمه فرعون من قضاء موسى على سلطانهم بإخراجهم من ديارهم ، فليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة ؛ فهم متبعوه ، وإنما مرادهم أن لا يتبعوا موسى – عليه السلام – لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية ، حملا لهم على الاهتمام والجد فى مغالبة موسى والانتصار عليه .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٥٩

(٢) ويشبهه ماجاء فى قول الشاعر تأبط شرا :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا ... أو عبد رب أخا عون بن مخراق

فإنه يريد : ابعث لنا أحدهما سريعاً ولا تبطىء ، ودينار : اسم رجل .

(فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا
نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ
وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ
فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾)

التفسير

٤١ ، ٤٢ - (فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً[١] لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) :

لما عرض موسى معجزَتَي العصا واليد أمام فرعون ارتاع فرعون ونسى ربوبيته ، وقال لأتباعه على الفور مستغيثاً بهم ، وهابطا عن كبريائه : « مَاذَا تَأْمُرُونَ » يعنى أىّ أمر تأمرونني فأُنفذه ، حتى لا يضيع ملكى .[٢]

فأشاروا عليه أن يجمع السحرة من أطراف ملكه - هذا ما حكته الآيات السابقة - وجاءت هاتان الآيتان لتحدثنا عن حضور السحرة وما تلاه .

---

(١) (إذًا) هنا حرف اقترن به الجواب والجزاء وليس ظرفاً ، قيل : هو ظرف للزمان الماضى ، وتنوينه عوض عن جملة ، أى : إذا غلبتم . راجع الآلوسى .

(٢) ويصح أن يكون الأمر هنا من المؤامرة بمعنى المشاورة ، فكأنه قال : ماذا تشيرون به على ، والوجه السابق أنسب بمقام الانبهار الذى جعله ينحط إلى أن يطلب الأمر ممن كان يأمره فيطيع .

ولعل رسله إلى السحرة وعدوهم بحصولهم على أجر جزيل من فرعون إن هم غلبوا موسى ـ عليه السلام ـ فأرادوا أن يستوثقوا من ذلك بما حكاه الله عنهم بقوله : « أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » .

والمعنى الإجمالى لهاتين الآيتين : فلما جاء السحرة من أطراف المملكة ، تلبية لدعوة فرعون لينصروه على موسى وأخيه بسحرهم ـ لما جاءوا لذلك ـ قالوا لفرعون سائلين مستيقنين : أحق مؤكد أنك جعلت لنا مكافأة وأجرا ، إن كنا نحن الغالبين لموسى لظهور سحرتنا وغلبتهم لعصاه فى يوم الزينة على رءوس الأشهاد ؟ فأجابهم قائلا : نعم لكم أجر جزيل على ذلك ، وإنكم مع حصولكم على الأجر لمن المقربين عندى ، لأنكم نصرتمونى على عدوى الذى أخشاه على ملكى .

٤٣ ـ (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ) :

جاء فى سورة الأعراف أن السحرة قالوا لموسى : « يَامُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۞ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ »(١) ومن هذا النص نفهم أن موسى ـ عليه السّلام ـ لم يقل لهم : « أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ » إلا بعد أن خيره السحرة بين أن يبدأ بإلقاء عصاه ، وبين أن يبدأوا بإلقاء سحرهم ، وقد خلت سورة الشعراء من هذا التخيير ، كما أن صورة الإذن بالإلقاء فى سورة الأعراف « أَلْقُوا » وفى سورة الشعراء « أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ » وقد عرفنا من سورة الأعراف أن السحرة لما ألقوا ما معهم « سَحَرُوٓا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » فى يوم الزينة الذى احتشد له الناس ليشاهدوا المعركة بين الحق والباطل وآثارها ، ولم يأت ذلك هنا ، وبالجملة فقد اشتملت سورة الأعراف على مفارقات عديدة فى قصة موسى مع فرعون ، وكلما وجدت قصة موسى وفرعون فى سورة ، وجدت فيها مفارقات بالنسبة لسورة أخرى ، ومثل ذلك يحدث فى قصص غيره من المرسلين مع أممهم .

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١١٥ والآية : ١١٦ .

وبالجملة فإن القصص القرآنى جاء فى بعض السور مختصرا ، وفى بعضها مبسوطا ، وأن العبارات فى الموقف الواحد قد تختلف فى سورة عنها فى سورة أخرى .

ويرجع ذلك إلى أن لغة الرسل وأقوامهم لم تكن عربية ، وأن ما جاء فى القرآن عن قصصهم إنما هو ترجمة عربية لما جرى بين الأنبياء وأممهم بلغتهم ، وأن هذه الترجمة تعود إلى أصل المعنى الذى دار عليه الحوار ، أما الحوار نفسه فقد يكون واسع الأطراف كثير الجدل ، متعدد اللقاءات ، متطاول السنين ، فلا غرابة فى أن تجد القرآن الكريم فى سورة يقتصر فى حكاية الحوار وما حوله على المبدأ الأساسى الذى دار عليه الحوار ، وترتبط به العظة المقصودة من سَوْقِ القصة ، وأن نراه فى سورة أخرى يحكى الحوار بصورة أخرى فيها بعض البسط ، ليجد القارئ فى إعادة القصة جديداً لم يره فى سورة أخرى ، فيضيفه إلى معلوماته السابقة فى القصة .

وبالجملة فالقرآن الكريم يكمل بعضه بعضا ، وهذا أسلوب بديع تفرد به القرآن بين الكتب السماوية ، لما فيه من إعادة التذكير والوعظ ، مع التشويق إلى تتبع القصة فى مظانها من القرآن ، للاستزادة من المعرفة ، حتى لا يمل من إعادة القصة إذا كانت بأسلوب واحد

وليعلم القارئ أن القصص القرآنى ليس الغرض منه بيان تاريخ الأمم ، بل العظة بما حدث لهم عندما أعرضوا عن رسله ، ولذا احتاج الأمر إلى تكرار قصصه مع التلوين فى حكايتها وسردها .

ومعنى الآية : قال موسى للسحرة لما اجتمعوا فى يوم الزينة : ألقوا ما أنتم ملقونه من أنواع سحركم فلست أبالى بكمه ولا بكيفه .

٤٤ - (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) :

أى : فألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، وسلطوا عليها سحرهم ورُقاهم ، فانقلبت أفاعى مخيفة ، وثعابين مزعجة وجاءوا بسحر عظيم سحروا به أعين الناس واسترهبوهم وما هو إلا حبال وعصى فى الحقيقة ، فلو لم تسحر عيون الناس لرأوها كذلك ، وقال

السحرة حين رأوا ضخامة سحرهم وأثره فى عيون ووجوه مشاهديهم ـ قالوا حينئذ ـ : نقسم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون لموسى ، ولا سبيل لغلبته إيانا .

قال ابن عطية ـ بعد أن ذكر أن ما قاله السحرة قَسَمٌ بفرعون ـ قال ابن عطية : والأحرى أن يكون على جهة التعظيم والتبرك باسمه إذ كانوا يعبدونه . . الخ .

ومما يؤسف له أن هذه العدوى تسربت إلى المسلمين ، فتركوا الحلف بالله إلى الحلف بآبائهم وأوليائهم وبغير ذلك مما لا يجوز الحلف به، فلا حلف إلا بالله أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته .

٤٥ ـ (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) :

فألقى موسى عصاه الخشبية الوحيدة ، عقب ثقتهم بسحرهم ، وقسمهم بعزة فرعون إنهم لَهُمُ الغالبون ، ففوجئوا بالأمر الخطير الذى لم يتوقعوه ، وهو أنها انقلبت ثعباناً كبيرا سريع الحركة كأنها جان ، وجعلت تبتلع حبالهم وعصيهم التى أفكوها ، وزعموا أنها أفاعى وثعابين حقيقية ، وما هى إلا حبال وعصى سحروا بها العيون ، فتخيلتها كما يزعمون .

٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ـ (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَـٰرُونَ) :

أى : فَخَرَّ السحرة ساجدين لعظمة الله ، كأنهم من فرط تأثرهم بالحق واستجابتهم له ، لم يتمالكوا أنفسهم ، فكأن حالهم كحال من أخذوا فطرحوا على وجوههم ، أو أنه تعالى ألقاهم بما وفقهم إليه من التأثر ببرهان الحق ، فقد عرفوا أن مثله لا يأتى بطريق السحر ، وعلى هذا فالإلقاء مجاز عن التوفيق لسبب السجود وهو معرفة الحق .

قال الآلوسى : وذكر بعض الأجلة أنهم إنما عرفوا حقيقة ذلك ، بعد أن أخذ موسى ـ عليه السلام ـ العصا فعادت كما كانت ولم يروا لحبالهم وعصيهم أثرا ، وقالوا : لو كان سحرا لبقيت حبالنا وعصينا ، ولعلها على هذا صارت أجزاء هبائية ، وتفرقت أوعدمت لانقطاع تعلق الإرادة بوجودها . انتهى .

والمعنى الإجمالي : فخر السحرة على وجوههم ساجدين لرب العالمين ، إذ عرفوا أن العصا آية لموسى من ديان يوم الدين ، وليست من قبيل سحر الساحرين ، قالوا حين سجودهم : آمنا برب العالمين رب موسى وهرون ، وبذلك الإيمان سقطت ربوبية فرعون من نفوسهم ، واهتزت بين المشاهدين لهم .

(قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ) : وذلك بقطعه اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو العكس . (لَاضَيْرَ) :لا ضرر . (مُنقَلِبُونَ) : راجعون .

(أن كُنَّآ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) : لكوننا أول من آمن من أتباع فرعون .

التفسير

٤٩ - (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ[1] تَعْلَمُونَ . . .) الآية .

أى : قال الجبار فرعون للسحرة بعد هزيمتهم ، وقد رآهم يستجيبون لموسى ويخرون لله سجدًا - قال لهم حينئذ - : صدقتم بدين موسى لأجله ، دون أن يصدرلكم بذلك إذن

(١) اللام فى قوله : « فلسوف تعلمون » لام الابتداء دخلت على الخبر ، وأصل الكلام من جهة المعنى : فلأنتم سوف تعلمون ، وليست لام القسم : لأنها لاتدخل على المضارع المثبت إلا مع نون التوكيد ، وقيل : إنها للقسم ، ولم يؤكد الفعل بالنون للفصل بينها وبينه بلفظ (سوف) و قيل غير ذلك : انظر الآلوسى .

منى ، إن موسى لكبيركم الذى علمكم السحر ، فتواطأتم معه على أن تُغلبوا أمامه ، فهو مكر مكرتموه معا فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ، فلسوف تعلمون ما يحل بكم من النكال والوبال .

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) :

فى هذه الجملة بيان للعقاب الذى توعدهم به فرعون إجمالا فى قوله : « فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى : لأُقطعن اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو العكس ، ولا أقتصر على ذلك ، لأُصلبنكم على جذوع النخل وأربطكم بالحبال عليها ، كما قال تعالى فى سورة (طه) حكاية عنه : (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى »[١]

٥٠ - (قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ) :

قال السحرة بعد سماع وعيد فرعون الخطير غير مبالين بهِ : لا ضرر علينا فى قطع أيدينا وأرجلنا وتصليبنا ، فالموت فى سبيل الله أسمى أمانينا ، لأننا إلى ربنا الذى آمنا به راجعون حين تقتلنا ، فنرى لديه من الكرامة والعز ، لصبرنا على تعذيبك إيانا ، واستشهادنا فى سبيله ، فلا يزعجنا وعيدك وتهديدك فما أحلى الموت فى سبيل الحق .

ويرحم الله خبيب بن عدى حين قال لآسريه الذين أرادوا قتله وصلبه ؛ لثأر لهم عند المسلمين :

ولست أبالى حين أُقتَلُ مُسْلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأْ يبارك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ

وإنما أصر فرعون على صلب السحرة بعد تقطيع أطرافهم ، زيادة فى التنكيل بهم . وأن يكونوا عبرة لغيرهم .

٥١ - (إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) :

هذا تعليل آخر لانتفاء الضرر على السحرة بقتل فرعون وصلبه إياهم ، أى : لا ضرر علينا حين تنفذ وعيدك فينا ، فإننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا التى حدثت منا أيام الكفر ، لكوننا أول المؤمنين من أتباع فرعون .

وهكذا تهون الأرواح ويُسْتَلَذُّ العذاب فى سبيل مرضاة الله رب العالمين .

---

(١) من الآية : ٧١

* (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾)

المفـردات :

(لَشِرْذِمَةٌ) الشرذمة : الجماعة القليلة من الناس ، والجمع : شراذم .

(لَغَآئِظُونَ) : لفاعلون ما يغيظنا ويغضبنا . (حَـٰذِرُونَ) : متأهبون متيقظون .

التفسـير

٥٢ ـ (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ) :

لما ظهر أمر موسى وانتصر على السحرة وأسرعوا إلى الإيمان به نكل بهم فرعون وأعد العدة للقضاء على موسى ومن معه قبل أن يستفحل أمرهم ويتفاقم خطرهم ، ولكن موسى ظل يكافح طغيانه ، ويمده الله من آن لآخر بآياته ، كالطوفان والجراد والقُمَّل وغيرها ، فلا يزداد فرعون إلا كفرًا وإمعاناً فى البغى والأذى ، فلهذا أمر الله نبيه موسى أن يخرج بعباده بنى إسرائيل من مصر إنقاذًا لهم من الاستعباد والأذى ، وأرشده إلى الخروج بهم ليلا حتى يسلموا من بطش جنوده ومتابعتهم إياهم .

والمعنى : وأمرنا موسى بوحى منا إليه أن يخرج بعبادى بنى إسرائيل ليلا لأنهُمْ مُّتَّبَعُونَ من فرعون وجنوده ، فليسبقوهم إلى النجاة قبل أن يدركوهم ، وليجعلوا الليل ساترا لهم حتى لا ينكشف أمرهم .

٥٣ ـ (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ) :

أى : فأسرى موسى بالمؤمنين ، أى : خرج بهم ليلا امتثالًا لأمر ربه ، ولما أصبحوا وليس فى الديار أحد منهم ، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل فأرسل سريعاً فى

مدائن مملكته وقراها من يحشر الجند ويجمعهم كالنقباء والحجاب ليتبعوهم ، وبذلك يحول بين موسى وقومه وبين ما يقصدون من الهجرة والخروج من البلاد .

٥٤ - (إِنَّ هَٰؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) :

لفظ (هؤلاء) إشارة تحقير لبنى إسرائيل ، أى :قال فرعون لمن حضر مجلسه : إن بنى إسرائيل الذين فروا مع موسى لطائفة قليلة من الناس تشتمل على أسباطهم ،وهم بالنسبة لأعداد قومنا وجنودنا قليلون ، وليس هناك ما يمنعنا من اقتفاء أثرهم والانقضاض عليهم والحيلولة دون هجرتهم ، وعقابهم على فرارهم .

٥٥ - (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ) :

وإن موسى ومن معه - مع قلتهم وذلتهم - لصانعون بنا ما يغيظنا ويثير الحقد والغضب فى نفوسنا ، لأنهم خالفوا أمرنا وخرجوا دون إذننا ، وحملوا معهم فى مكر وحيلة ودهاء حُلينا وأموالَنا وحُلَلَنا .

٥٦ - (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ) :

وإنا لجمع طبيعته أن يحذر ويحترس ويتيقظ لكل ما يتوقع من جانب العدو ، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى تأديبه وإلزامه الطاعة لأمرنا ، فلنا القوة ، وفينا الكثرة .

(فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾)

المفـردات :

(وَكُنُوزٍ) : وأموال حفظوها . (وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) : ومساكن حسان يقيمون بها .

(كَذَٰلِكَ)[1] : الإشارة إلى مصدر الفعل ، أى : أخرجناهم إخراجاً مثل هذا الإخراج العجيب ، أو إلى مقام كريم مثل ذلك المقام الكريم .

(مُشْرِقِينَ) : داخلين فى وقت شروق الشمس .

(تَرَآءَ الْجَمْعَانِ) : تقاربا بحيث يرى كل واحد منهما الآخر .

(لَمُدْرَكُونَ): لملحقون . (كَلَّا): كلمة ردع لهم .

التفسير

٥٧ ـ (فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) :

أى :فأخرجنا فرعون ومن معه من بساتين غناء ورياض فيحاء فيها عيون الماء الجارية .

٥٨ ـ (وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) :

أى : وأخرجناهم أيضا من كنوز خزنوها وادخروها ، ومن مساكن طيبة وأماكن شريفة كانوا يقيمون بها منعمين بجمالها وحسن رونقها وبهائها وجميل مرافقها ـ أخرجناهم من هذه النعم ـ لأنهم لم يشكروها بالإيمان واتباع الرسول بل كفروا وحاربوا الحق ، وناصبوا الرسل ومن معهم من المؤمنين العداء ، وحاولوا إهلاكهم والقضاء على دعوتهم فحرمهم الله من نعمه وسلبها منهم ؛ لأن المعاصى تزيل النعم .

٥٩ ـ (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) :

(كَذَٰلِكَ) : أى أخرجناهم مثل هذا الإخراج العجيب الذى وصفناه (وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) قال صاحب المنار عند تفسيره لقوله سبحانه وتعالى : «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ »[2] :

تعدد فى القرآن التعبير عن استخلاف الله قوما فى أرض قوم بالإيراث على سبيل المجاز .

---

(١) (كذلك) قال الزمخشرى :يحتمل ثلاثة : (أ) النصب على : أخرجناهم إخراجا مثل ذلك الإخراج الذى وصفناه .

(ب) الجر على أنه وصف لمقام ـ أى : مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم .

(ج) الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى :الأمر كذلك .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٣٧

أى : وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون فى مصر -أعطيناهم - مشارق ومغارب الأرض التى باركنا فيها بالخصب والخير الكثير ،وهى : فلسطين تحقيقًا لوعدنا « وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ[(١)] » روى عن الحسن البصرى وقتادة أنهما قالا فى تفسير مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها هى :أرض الشام ، وعن زيد بن أسلم قال :هى قرى الشام ،وعن عبد الله بن شوذب :فلسطين ، ويؤيد هذه الروايات قوله تعالى فى إبراهيم -عليه السلام- : « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ[(٢)] » وقوله سبحانه : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ[(٣)] » وربما يتراءى أن إرادة أرض مصر هى الظاهر المتبادر من قوله تعالى فى سورة الشعراء : « فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ[(٤)] ».

وقوله فى سورة الدخان : « كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ[(٥)] » ولكن الأمر ليس كذلك ، بل المراد أنهم أورثوا بعض أملاك فرعون ، فلقد كانت بلاد فلسطين والشام تابعة لمصر وفراعنة مصر ، ولقد أعطى الله بنى إسرائيل بدلا عن مصر التى أمرهم بتركها فلسطين التى فى الشام . ا هـ عن تفسير المنار ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ الجزء التاسع ، بتصرف .

ويؤيده :أنه لم يثبت تاريخيا وأثريا أن بنى إسرائيل ملكوا مصر واستولوا على أرضها ، بل الثابت الذى يحدثنا به التاريخ أنهم بعد أن كانوا مستضعفين فى مصر وخرجوا منها مع موسى لم يرجعوا إليها ولن يرجعوا - بإذن الله - ومكثوا يتيهون فى الأرض أربعين سنة لمخالفتهم لله ورسوله وتقاعسهم عن قتال الجبارين كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم

(١) سورة القصص ، الآيتان : ٥ ، ٦
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٧١
(٣) سورة الإسراء ، من الآية : ١
(٤) سورة الشعراء ، الآيات : ٥٧ - ٥٩
(٥) سورة الدخان ، الآيات : ٢٥ - ٢٨

٦٠ - (فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ): تبع وأتبع بمعنى واحد .

أى :فتبع فرعون وقومه بنى إسرائيل قاصدين إهلاكهم حين أشرقت الشمس .

٦١ - (فَلَمَّا تَرَآءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) :

(فَلَمَّا تَرَآءَ الْجَمْعَانِ) : أى فلما تقابل الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه (قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) : أى لملحقون فهالكون على أيدى هؤلاء الذين جدُّوا فى السير وراءنا يريدون إعادتنا للاستعباد أو إهلاكنا ، وقد أكدوا مخاوفهم هذه بالجملة الإسمية المؤكدة بإنَّ واللام .

٦٢ - (قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ) :

أى : لن يدركوكم (إِنَّ مَعِىَ رَبِّى) بالنصرة على العدو والحفظ والعون .

(سَيَهْدِينِ) قريبًا إلى مافيه نجاتكم منهم ونصركم عليهم؛لأن الله دبر الأمر وسيحقق النصر فهو الذى أوحى إلىَّ بالإسراء ووجهكم للخروج وسيقضى عليهم ،وعَبَّر بقوله : «إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ » دون أن يقول : « إِنَّ مَعَنَا رَبَّنَا سَيَهْدِينَا » للإيذان بأن بنى إسرائيل مكرمون بالهداية إلى النجاة من الغرق تبعا لرسولهم موسى وكرامته على ربه ، أما هم فليسوا جديرين بالحفظ من الغرق والنصر على العدو ، فإنهم عقب نجاتهم طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً كآلهة الشعوب حولهم ، وعبدوا العجل الذى قدمه السامرىُّ لهم ، وقالوا لموسى : « اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » وهم الذين أفسدوا فى الأرض وعلوا علوًّا كبيرا ، ولأجل هذا المقصد حكى الله عن نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- أنه قال لأبى بكر وهما فى الغار ،والمشركون على بابه ،والخطر محدق بهما والحزن يملأ قلب أبى بكر خوفاً على الرسول :« لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا »فإنه تعالى كان مع رسوله وصديقه لوفائه لربه ونبيه .

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ
فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾
وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

المفـردات :

(فَانفَلَقَ) :فانشق . (فِرْقٍ) : فى المختار الفرْقُ ؛ الفَلْق من الشىء إذا انفلق ،ومنه قوله تعالى : « فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ » وفى القاموس (الفِرق) :القسم من كل شىء. (الطَّوْدِ) :الجبل العظيم . (أَزْلَفْنَا) : قربنا. (ثَمَّ) :ـ بفتح الثاء ـ هناك ، ويشار به إلى المكان البعيد . (الْآخَرِينَ) : المراد بهم فرعون ؛ وجنوده .

التفسـير

٦٣ ـ (فَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَىٰٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) : لما عظُم البلاءُ على بنى إسرائيل ورأوا من الجيوش ما لاطاقة لهم بها أمر الله ـسبحانه وتعالى ـموسى أن يضرب البحر بعصاه ،وذلك أنه ـعز وجل ـأراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله تثبيتًا لإيمان من آمن من قومه ، وقضاءً على الشك عند من شك منهم ، وإلا فضرب العصا ليس بفالق للبحر ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله ـعز وجل ـ ولما انفلق عقب الضرب مباشرة صارفيه اثنا عشر طريقا على عدد أسباط بنى إسرائيل ، ووقف الماء بينهما كالجبل العظيم ، فلما خرج أصحاب موسى ،

وتكامل آخر أصحاب فرعون داخله انصب عليهم الماء وغرق فرعون ، فقال بعض أصحاب موسى :ما غرق فرعون ، فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه ، والمراد بالبحر :القلزم على الصحيح ، والظاهر أن هذا الإيماء بضرب البحر بعصاه كان بعد القول المذكور ولم يكن مأمورا بالضرب يوم الأمر بالإسراء بقومه ،وجاء إنجازا لتدبير الله وتحقيقاً لوعده بنصر المؤمنين وإغراق الطغاة .

٦٤ ـ (وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ) :

أى : وقربنا فرعون وجنوده من قوم موسى-عليه السلام-حتى دخلوا البحر على أثرهم ويجوز أن يراد : قربنا بعض قوم فرعون من بعض ، وجمعناهم لئلا ينجو منهم أحد ، وفى التعبير عنهم بالآخرين ترفع عن ذكر اسم فرعون الذى ظن نفسه شيئاً ،وليس بشىء أمام قدرة الله .

٦٥ ـ (وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ) :

أى :وأنجيناهم من الهلاك والوقوع فى أيدى أعدائهم ،ومن الغرق بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا إلى البر .

وقوله : سبحانه (وَمَن مَّعَهُ) إشارة إلى أن إنجاءهم كان ببركة هذه المعية ومصاحبة موسى-عليه السلام-لهم ،وقيل: ليشمل من آمن به -عليه السلام-من القبط، إذ لو قيل : وقومه لتبادر إلى الذهن بنو إسرائيل دون سواهم .

٦٦ ـ (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ) :

أى :ثم أغرقنا فرعون وجنوده المحقرين بإطباق البحر عليهم بعد خروج موسى-عليه السلام -ومن معه ، وثم للتراخى الزمنى فى أصل وضعها ، ولكن الظاهر أنهم أغرقوا فور خروج بنى إسرائيل ، فلهذا تحمل هنا على التراخى المعنوى لما بين المعطوفين من المباعدة المعنوية ، فما أبعد الفرق بين الإنجاء والإغراق.

٦٧ ـ (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً) :

أى :إن فيما ذكر من معجزة البحر وما كان قبله من معجزات العصا واليد وغيرهما

وسجود السحرة لرب العالمين-إن فى ذلك كله -لآية عظيمة على قدرة الله ونصره لرسله ، وخذلانه لأعدائهم ، وتحذيرا من عاقبة الكفر بالله ورسوله .

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى : وما كان أكثر قوم فرعون الذين أمر موسى - عليه السلام - أن يأتيهم وهم القبط على ما استظهره أبو حيان حيث لم يؤمن منهم إلا القليل ، ومنهم آسية امرأة فرعون ، فلهذا استحق جنودهم الإغراق مع فرعون .

وقيل : ضمير (أكثرهم) للموجودين بعد الإغراق والإنجاء من قوم فرعون الذين لم يخرجوا ومن بنى إسرائيل ، والمراد بالإيمان المنفى عنهم : التصديق اليقينى الجازم الذى لا يقبل الزوال أصلا ، أى : وما كان أكثر الموجودين بعد تحقق هذه الآية العظيمة وظهورها مُصَدِّقاً ، فإن الباقين بمصر من القبط لم يؤمن أحد منهم ، وأكثر بنى إسرائيل كانوا غير متيقنين ولهذا عبدوا العجل وسألوا موسى بقرة يعبدونها وطلبوا رؤية الله جهرة ..... الخ

وقيل : المراد بالضمير فى قوله تعالى : (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) قوم نبينا - صلى الله عليه وسلم - أى : وما كان أكثر من دعاهم النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى الإيمان - ما كان أكثرهم مؤمنين برسالته ، بعد أن ساق لهم تلك القصص العجيبة التى لا سبيل له إلى العلم بها إلا عن طريق الوحى ، وكان عليهم أن يعتبروا بها ويؤمنوا برسولهم الذى أخبرهم بها ، وقد عرفوه بالصدق والأمانة ، وأنه أمى لا يقرأ ولا يكتب ، واختار هذا الرأى الآلوسى لأن أول السورة وآخرها فى الحديث عنه وتسليته - صلى الله عليه وسلم - عما قالوه فى القرآن العظيم ، ونهيه صريحاً وإشارة عن أن يذهب بنفسه الشريفة عليهم حسرات ، كل ذلك يقتضى رجوع الضمير إلى قومه - عليه السلام - دون الرجوع إلى الأقرب لفظاً ، ليكون الارتباط على هذا بين الآيات أقوى .

٦٨ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : وإن خالقك ومربيك وحده دون غيره هو الغالب على كل ما يريده من الأمور التى من جملتها الانتقام من الكفرة : (الرَّحِيمُ) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل

بعقوبتهم مع عدم إيمانهم ، أو العزيز فى انتقامه ممن كفر ، الرحيم لمن تاب وآمن ، والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره - صلى الله عليه وسلم - لتشريفه - عليه السلام - وتقديم العزيز ؛ لأنه أظهر فى بيان القدرة ، وهكذا شاءت إرادة الله ولاراد لمشيئته أن ينصر الحق وأهله وأن يذل الباطل وحزبه ، وأن يخلص بنى إسرائيل من براثن فرعون .

(وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ
هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾
قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم
مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ
لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) : النبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة الذى يحصل به علم أو غلبة ظن كما قال الراغب .

(عَاكِفِينَ) : مقبلين عليه مع المواظبة .

(الأَقْدَمُونَ) : السابقون الواغلون فى القدم .

التفسير

٦٩ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) :

أمر الله تعالى نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يتلو على أمته نبأ إبراهيم الذى يدينون له بالولاء والنبوة ، ليقتدوا به فى الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لاشريك له والتبرؤ

من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل ،أى :من صغره إلى كبره فإنه منذ شب أنكر على قومه عبادة الأصنام ، وقد حكى الله قصص الأنبياء فى هذه السورة بطريقة الإخبار ، أما قصة إبراهيم فقد تغير الأسلوب فيها من الإخبار إلى أمر الرسول بتلاوتها على قومه ، لزعمهم أنهم على شريعة إبراهيم الذى ينتسبون إليه ويفتخرون به ، مع أنهم بعيدون عن منهجه فى العقيدة كل البعد ، فهو إمام الموحدين ، وهم أئمة الوثنيين.

٧٠ـ (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ) :

تضمنت هذه الآية أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، سأل قومه عما يعبدون ، لا لجهله بمعبوداتهم ، بل ليبنى على جوابهم أنها بمعزل عن استحقاق العبادة .

والمعنى : واتل ـ يا محمد ـ على قومك من قريش خبر إبراهيم العظيم ـ خبره ـ حين قال لقومه سائلا عن معبوداتهم : أى شىء تعبدونه ؟

٧١ـ (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) :

قالوا بطريق المباهاة : نعبد أصنامًا فنقيم على عبادتها تعظيمًا لها وتمجيدًا ، ولم يقتصروا فى جوابهم على بيان أنهم يعبدون أصناما فحسب ، بل أطنبوا فى وصفها حيث بينوا تمسكهم بها ، ودوام عكوفهم على عبادتها مع أنه لم يسألهم عن هذه التفصيلات ، فعلوا ذلك قصدا إلى إظهار ما فى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك .

والمراد بالظلول : الدوام ، كما فى قولهم : لو ظل الظلم هلك الناس ، وقيل : فعل الشىء نهارا ؛ فقد كانوا يعبدونها بالنهار والكواكب بالليل ، واختار بعضهم الأول لتبادره وكونه أكثر مناسبة للمقام ، واختار الزمخشرى الثانى ؛ لأنه أصل المعنى وهو مناسب للمقام أيضا ؛ لأنه يدل على إعلانهم عبادتها ، وجاء النظم الحكيم على هذا النسق فقال : « فَنَظَلُّ لهَاَ » دون (فنظل عليها) لإفادة معنى زائد ، كأنهم قالوا : فنظل لأجلها مقبلين على عبادتها .

٧٢ـ (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ) :

أى : قال إبراهيم معقبا على إيمانهم مبكتا لهم : هل تسمعكم هذه الآلهة المزعومة حين تدعونهم فى قضاء حاجاتكم ، أو حين تعبدونهم ؟

وهذا الأُسلوب أبلغ فى التبكيت، والقصد منه : التنبيه على فساد عقلهم وسوء حالهم وأمرهم ، وأن عبادتهم الأَصنام وافتخارهم بذلك سفه وسوءُ رأى .

٧٣ - (أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) :

أى: هل ينفعونكم بسبب عبادتكم لهم أو يضرونكم بترككم لعبادتهم ؟ إذ لابد للعبادة من مقصد من هذه المقاصد ، حيث كانت على ما وصفتم من المبالغة فيها والحفاوة بها والإقامة عليها ، فهل لأَصنامكم التى آثرتموها بالعبادة صفةالنفع أو الضر ؟ .

وتقرع كلمات إبراهيم آذانهم ملجمة لهم ، وتظهر حجته على فسادمسلكهم ، مفحمة إياهم حيث لا تجيب الأَصنام دعاءً ولا تسمع نداءً ولا تأْتى بخير ولا تدفع بلاءً ، فيجيبون بما حكاه الله بقوله :

٧٤ - (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعلُونَ) :

أى :ليس لآلهتنا شىء من ذلك ، وإنما وجدنا آباءَنا يفعلون مثل فعلنا ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقتدينا بهم وقلدناهم فيما يفعلون .

٧٥ ، ٧٦ - (قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ) :

قال إبراهيم مبكتا لهم : أى : أتأَملتم فعلمتم حق العلم أى شئ كنتم تقيمون على عبادته أنتم ومن سبقكم من آبائكم القدامى ، فهل تقليد الآباءِ يصلح الاحتجاج به على صحة العبادة وأُلوهية المعبود ؟ .

٧٧ - (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىَ إِلاَّ رَبَّ[1] الْعَالَمِينَ) :

فى هذه الآية بيان لحال ما يعبدونه من دون الله ، من الضرر العائد من جهتهم على عابديهم بعد بيان غفلة العابدين عن ذلك ، فهو يريد بعداوتها له عداوتها لعابديها ، فإنهم يتضررون بعبادتها ، أى : فاعلموا أيُّها العابدون أنهم أعداءٌ لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى ، لتضررهم من جهتهم فوق ما يتضرر المرءُ من جهة عدوه ، وصور إبراهيم-عليه

(١) قال الزجاج فى إعراب : « إلا رب العالمين » استثناء من الضمير العائد على (ما تعبدون) باعتباره شاملا لله عز وجل .

السلام -الأمر فى نفسه تعريضا بهم ، كما فى قوله تعالى : « وَ مَالِيَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »[١] ليكون أبلغ فى النصح وأدعى للقبول ، وأبعث على الاستماع لينظروا فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلَّا بما نصح به نفسه ، ولو قال : فإنهم عدو لكم لم يكن بهذه المثابة ،وقد يبلغ التعريض للمنصوح مالا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فيه ، فربما قاده التأمل إلى التقبل .

وكلمة (عدو) تستعمل فى الواحد والجمع ، ولذا أخبر بها عن ضمير الجمع .

(إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) : استثناءٌ منقطع من ضمير (فَإِنَّهُمْ) واختاره الزمخشرى ،أى :لكن رب العالمين ليس عَدوًّا لى فإنه - سبحانه - ولى من عبده فى الدنيا والآخرة .

والمعنى : فإن الذين تعبدونهم من دون الله عدو لى ولكم ، فلا أعبدهم لكن أعبد خالق العالمين ومُرَبِّيهم .

(ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(أَطْمَعُ) : أرغب .

(يَوْمَ الدِّينِ) : يوم الجزاء ، مأخوذ من دانه :بمعنى جازاه .

التفسير

٧٨ - (الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ) :

(الَّذِى خَلَقَنِى) : صفة لرب العالمين ، ووصفه تعالى بذلك وبما عطف عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته -تعالى - زيادة فى الإيضاح فى مقام الإرشاد ، وتصريحًا بالنعم ،

(١) سورة يس ، الآية : ٢٢

وتفصيلا لها لكونها أدخل فى اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى ، وقصر الالتجاء فى جلب المنافع ، ودفع المضار العاجلة والآجلة على الله سبحانه .

(فَهُوَ يَهْدِينِ) : عطف على الصلة ، أى :فهو يهدينى وحده -جل شأنه -إلى كل ما يهمنى ويصلحنى من أمور الحياة الدنيا وشئون المعاد هداية متجددة مع الاستمرار من مبدأ الحياة كما ينبئ عنه الفاء وصيغة المضارع ؛فإنه تعالى يهدى كل ما خلقه لما خلق له هداية يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره ، إما طبعا وإما اختيارًا ، مبدؤها بالنسبة للإنسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث ، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم.

٧٩ - (وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ) :

الموصول عطف على الموصول الأول ، وإنما كرر الموصول فى المواضع الثلاثة مع كفاية عطف ما فى حيز الصلة من الجُمَل على صلة الموصول الأول ، للإيذان بأن كل واحدة من هذه الصلات نعت جليل له تعالى مستقل فى استيجاب الحكم ، حقيق بأن يتصف بها- سبحانه- ويشكر عليها ، ويعبد من أجلها .

أى :فهو خالقى ورازقى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن وأنزل الماء عذبا زلالا وأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد .

وجيء بلفظ (هو)فى صدر الصلة دون ذكره مع الخلق لشيوع إسناد الإطعام والسقى إلى غيره-عز وجل-فلهذا أعاد الحق فى الإطعام والسقى إلى مصدره والمنعم به سبحانه ، بخلاف الخلق فإنه لا يستعمل فى غيره ، فلهذا لم يحتج إلى ضمير ، فالله سبحانه هو الذى ينبت لعباده طعامهم وغذاءهم وينزل لهم من السماء ماء ليسقيهم ، ولا دخل لهذه الآلهة فى شيء من ذلك ، فكيف أعبد سواه؟ .

٨٠ - (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) :

عطف على (يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ) نظم معهما فى سلك الصلة لموصول واحد ، لأن الصحة والمرض ينجمان عن الأكل والشرب غالبا ، ونسب المرض الذى هو نقمة إلى نفس العبد ، والشفاء الذى هو نعمة إلى الله -عز وجل - لمراعاة حسن الأدب ، كما حكاه

القرآن الكريم عن الخضر -عليه السلام- بقوله : «فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا»[1] وقال : «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا»[2] ولا يرد إسناد الإماتة - وهى أشد من المرض إليه - عز وجل - فى قوله تعالى : (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) لإمكان الفرق بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من الله -عز وجل- على سائر البشر ، وحكم عام فالتأسى بعموم الموت يسقط أثر كونه نقمة ، فيسوغ الأدب نسبته إليه تعالى ، وليس المرض كذلك فقد يتفق وقد لا يتفق .

والمعنى : وإذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره بما يقدر عليه من الأسباب الموصلة إليه .

٨١- (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) :

المعنى : والذى يميتنى إذا جاء أجلى ، والذى يحيينى مرة أخرى للحساب والجزاء ، وقيل : إن الموت لأهل الكمال وسيلة إلى نيل ما أعده الله لهم من نعيم دائم تحتقر معه الحياة الدنيوية وفيه تخليص للعاصى من اكتساب السيئات ، فلهذا يعتبر نعمة فلذا أسند إليه سبحانه .

٨٢- (وَالَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ) :

لم يكن لإبراهيم -عليه السلام- خطايا ، لأنه أبو الأنبياء وخليل الرحمن ، وإنما أضاف الخطيئة إلى نفسه بالنسبة إلى ربه أمام قومه ، هضما لنفسه وتنبيها لأبيه وقومه أن يتأملوا فى أمرهم ليعلموا أنهم من سوء الحال فى درجة شديدة ، وهم مع ذلك بعيدون عن الرجوع إلى الله بالتوبة من الشرك والمعاصى ، وليعلم المسلم أن الأنبياء دائما يطلبون المثل الأعلى فى عبادة الله وطاعته ، وكلما ارتقوا إلى درجة أعلى استصغروا ما كانوا فيه وعدوه قليلا واعتبروه من الخطايا مع أنهم لم تحدث منهم معصية على الإطلاق .

ومغفرة الخطايا سابقة فى علم الله ، وإنما علق إبراهيم -عليه السلام- المغفرة بيوم الدين ؛ لأن أثرها يظهر ويحدث يومئذ ، ولأن فى ذلك تهويلا وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تغفر .

(١) الكهف ، من الآية : ٧٩

(٢) الكهف ، من الآية : ٨٢

(رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(حُكْمًا) : حكمة وكمالا فى العلم والعمل . (وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ) : المراد بالصالحين ؛ الأنبياء ، والمراد من إلحاقه بهم : أن يجمع بينه وبينهم فى الجنة .

(لِسَانَ صِدْقٍ) : ذكرا حسنًا وثناءً جميلا .

(الآخِرِينَ) : القرون التى تأتى بعدى .

(وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ) : لا تهنى على رءوس الأشهاد يوم القيامة ، من الخزى بمعنى الهوان .

(بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) : خالص من الشرك والشك .

التفسير

٨٣ - (رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ) :

لما ذكر لهم من صفاته - عز وجل - ما يدل على كمال لطفه تعالى به ، حمله ذلك على مناجاته سبحانه ودعائه .

ومعنى الحكم : الحكمة التى هى كمال القوة العلمية بأن يكون عالما بالخير لأجل العمل به ، وقيل: يجوز أن يكون المراد بها كمال العلم المتعلق بذات الله وصفاته وسائر شئونه وأحكامه التى يتعبد بها ، والمراد بإلحاقه بالصالحين : أن يوفقه لأعمال تجعله ينتظم

فى سلك الكاملين الراسخين فى الصلاح ، المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها ، حتى يكون أهلا لخلافة الحق ورياسة الخلق .

وقدم الدعاء الأول على الدعاء الثانى لأن القوة العلمية مقدمة على القوة العملية ، ولأن العلم صفة للروح ، والعمل صفة البدن ، ولقد دعا إبراهيم - عليه السلام - بدعائه هذا وهو نبى هضمًا لنفسه ، وطلبا للمزيد من الكمالات ، وكان من دعاء رسولنا - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين » .

٨٤ - (وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ) :

أى : اجعل لى ذِكرا صادقًا فى جميع الأمم إلى يوم القيامة .

أى : خلّد ذكرى الجميل فى الدنيا وذلك بتوفيقه للأعمال الصالحة وهدايته إلى السنن المرضية التى يقتدى بها الآخرون ويذكرونه بالخير بسببها وهم صادقون - قال عكرمة : كل أمّة تحبه وتتولاه ، ولا بأس بأن يطلب تخليد ذكره ومدحه لأن الثناء الحسن مما يدل على محبة الله تعالى للعبد ورضاه عنه ، قال تعالى : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى »[1] وقال : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا[2] » أى : حبًّا فى قلوب عباده وثناء حسنا .

ويجوز أن يراد بالآخرين : أمة يبعث فيها نبى ، وأنه - عليه السلام - طلب الصيت الحسن والذكر الجميل فيهم بأن يبعث منهم نبى يجدد أصل دينه ، ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه من التوحيد ، معلنا أن ذلك ملة إبراهيم - عليه السلام - فكأنه طلب بعثة نبى فى آخر الزمان لا تنسخ شريعته إلى يوم القيامة ، وليس ذلك إلا بعثة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد طلب بعثته - عليه السلام - بما هو أصرح من ذلك وهو قوله تعالى : « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ[3] » ولذا قال - صلى الله عليه وسلم - : « أنا دعوة إبراهيم عليه السلام » .

ويكون المعنى حينئذ : واجعل لى صاحب لسان صادق فى الآخرين ، أو اجعل لى داعيًا إلى الحق صادقًا فى الآخرين ، واستدل الإمام مالك بهذه الآية على أنه لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه ، والأمور بمقاصدها .

(١) سورة طه ، من الآية : ٣٩ (٢) سورة مريم ، الآية : ٩٦ (٣) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٩

٨٥ - (وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ[١]) :

قال ابن كثير : بعد أن طلب أن ينعم الله عليه فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعده طلب أن ينعم عليه فى الآخرة بأن يجعله من ورثة جنة النعيم ، وذلك لأن المؤمنين يرثون منازل الكفار فى الجنة ، لأنهم قاموا بما وجب عليهم لله من عبادته وحسن طاعته وعدم الإشراك به دونهم ، فأحرزوا نصيبهم فى الجنة ، عن أبى هريرة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : « ما منكم أحد إلا وله منزلان : منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قول الله - عز وجل - : « أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » ويجوز أن يسمى الحصول على الجنة وراثة لحصولهم عليها دون غيرهم ، ولأنهم يتصرفون فيها كما يتصرف الوارث فى ميراثه .

واستدل بدعائه -عليه السلام- بهذا مع ما تقدم من الأدعية على أن العمل الصالح لا يوجب دخول الجنة ، وكذلك كون العبد ذا منزلة عند الله - عز وجل - وإلا لا ستغنى -عليه السلام- عن طلب الكمال فى العلم والعمل والإلحاق بالصالحين ذوى الزلفى ، وأنت تعلم أنه يحسن الإطالة فى مقام الابتهال .

والمعنى : واجعلنى من عبادك الذين منحتهم نعيم الجنة ثوابا على إيمانهم بك وعبادتهم لك.

٨٦ - (وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) :

والمعنى : وفقه للإيمان ؛ كما يلوح به تعليله بقوله : (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) : أى المشركين أى : اجعل أبى أهلا للمغفرة ، بتوفيقه للإسلام ، قال ابن عباس فى تفسيرها : امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك ، وكان أبوه آزر قد وعده بالإيمان ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وكف عن الدعاء .

---

(١) قال الراغب : الوراثة والإرث : انتقال قنية إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجرى مجرى العقد ، وسمى بذلك المنتقل عن الميت فيقال للقنية الموروثة : ميراث وإرث ويقال : أورثنى الميت كذا وأورثنى الله كذا قال تعالى : «وأورثنا القوم» ويقال لكل من حصل له شىء من غير تعب : قد ورث كذا ، وقال صاحب القاموس : أورثه أبوه وورثه جعله من ورثته ، والوارث : الباقى بعد فناء الخلق ، وفى الدعاء : أمتعنى بسمعى وبصرى واجعله الوارث منى ، أى : أبقه معى .

٨٧ - (وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ) :

أى : أجرنى من الخزى والهوان يوم القيامة ، حين يبعث الخلائق أولهم وآخرهم فلاتؤاخذنى على ما فرط منى من التقصير عن رتبة الكمال ، ويجوز أن يكون ذلك تعليما لغيره .

٨٨ - (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ) :

بدل من يوم يبعثون ، جىء به تأكيدا للتهويل وتمهيدا لما يعقبه من الاستثناء ،أى : لا تخزنى يوم لا ينفع مال يفتدى به المرءُ نفسه من عذاب الله ولو كان ملءُ الأرض ذهبا ، ولا ينفعه بنون مهما كان عددهم ، فكل امرىء بما كسب رهين .

٨٩ - (إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) :

أى :أنه لا ينفع أحدا يوم القيامة ماله ولا بنوه إلا من جاء ربه حينئذ بقلب برىء من مرض الكفر والنفاق وغيرهما من سائر أمراض القلب ، وفيه تأكيد لكون استغفار إبراهيم لأبيه ، كان المراد منه أن يغفر له بعد توبته من كفره ، لامتناع طلب المغفرة له وهو كافر مصر على كفره، والقلب السليم كما قال سعيد بن المسيب : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن لأن الكافر والمنافق مريض،قال الله تعالى: «فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ »[1] وخص القلب بالذكر ، لأنه إذا سلم سلمت الجوارح ، وإذا فسد فسدت ، وهذه أولى صفات يوم القيامة يوم لاينفع فيه مال ولا بنون ، فالناس فيه جردوا من مالهم وحولهم وطولهم،ونَجَاتُهُمْ هناك وعزهم بقلب خلى من الزيغ وفساد الاعتقاد ، نقى من الشرك والران .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٠

(وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ
إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا
لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ
إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾)

المفردات :

(أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ) : قُرِّبت وأُدنيت . (بُرِّزَتِ) : أُظهرت . (الْجَحِيمُ) : جهنم .

(لِلْغَاوِينَ) : للكافرين الذين ضلوا ، والغواية – بفتح الغين – : الضلال .

(فَكُبْكِبُوا فِيهَا) : فرمى بعضهم على بعض فى الجحيم منكبين على وجوههم .

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : زيغ عن الحق واضح . (كَرَّةً) : عودة ورجعة إلى الدنيا .

(صَدِيقٍ حَمِيمٍ) : حبيب قريب يهتم بهم ، من الاحتمام بمعنى : الاهتمام .

التفسير

٩٠ – (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) :

أى : قُرِّبتَ الجنة من المتقين الذين اتقوا الكفر وسائر المعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم الذاهبون إليها ، وأما المؤمنون العصاة

الذين غلبت معاصيهم على طاعاتهم ، فإنها لا تقرب منهم إلا بعد عقابهم على معاصيهم ، ما لم يعف الله عنهم .

٩١ـ (وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ) :

أى : أظهرت وكشف عنها للذين ضلوا عن طريق الحق والإيمان بحيث يرونها ويبصرون أهوالها ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها ، المحشورون فيها ، ويوقنون بأنهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفا .

والتعبير فى جانب الجنة بالإزلاف الذى هو غاية التقريب للإيذان بقرب دخول المتقين إليها ، أما فى جانب النار فقد عبر بالإبراز للإيذان بأنها تبدو للغاوين ولو من بعيد ، تعجيلا بمساءتهم .

٩٢ ، ٩٣ـ (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ) :

أى : يقال لهم على سبيل التوبيخ : أين آلهتكم التى كنتم تعبدونها من دون الله وتزعمون أنهم شفعاؤكم فى هذا الوقت ؟ .

(هَلْ يَنصُرُونَكُمْ) : بدفع ما تشاهدون من الجحيم وما فيها من العذاب الشديد وعظيم الأهوال (أَوْ يَنتَصِرُونَ) : بدفع ذلك عن أنفسهم .

أى : ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئا ولا تدفع عن أنفسها فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون .

٩٤ـ (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ) :

أى : ألقى الأصنام فى الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى (فالكبكبة) تكرير لكب جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقى فى جهنم يكب مرة بعد أخرى حتى يستقر فى قعرها ، وضمير الجمع فى قوله : « كبكبوا » لما يعبدون من دون الله وهم الأصنام ، وأكد بالضمير المنفصل أعنى (هم) ، وكلا الضميرين للعقلاء ، واستعملا فى الأصنام تهكما ، والغاوون هم الذين عبدوها ، والتعبير عنهم بهذا العنوان دون (العابدون) تسجيل لوصف الغواية عليهم ، وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم يؤخرون

فى الكبكبة عنها ليشاهدوا سوء حالها وضعفها وهوانها وضعتها ، فيقطع رجاؤهم فى النجاة قبل دخول الجحيم ، وقيل : ضمير (فكبكبوا) للمشركين مطلقا ، والغاوون هم القادة المتَّبعون .

٩٥ـ (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) :

المراد من جنود إبليس : من يساعدونه على إغواء البشر من شياطين الجن والإنس أى : ألقى فيها الأصنام والغاوون الذين عبدوها ، وجنود إبليس ألقى فيها هؤلاء أجمعون ليعذب كل منهم على جريرته ، أما الأصنام ، فإنها تشاركهم النار لاعقابا لها ، بل لبيان أنهم لا قدرة لهم على نفعهم ، كما لا قدرة لهم على إنقاذ أنفسهم .

٩٦ـ (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ) :

استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عما قبله ، كأنه قيل : كبكب الآلهة والغاوون ـ عبدتها ـ والشياطين الداعون لها فما الذى حدث بعد ذلك ؟

أى : قال الغاوون من العبدة يخاصمون آلهتهم ، ويلومون أنفسهم على عبادتها ، ويتحسرون على تقديسها حيث يجعلها الله أهلا للخطاب يومئذ ، وقال الزمخشرى : ويجوز أن يجرى ذلك التخاصم بين العصاة والشياطين .

٩٧ ، ٩٨ـ (تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(إنْ) فى قوله : « إن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن :

والمعنى : والله إن شأننا أننا كنا فى دنيانا فى ضلال عن الحق واضح ، حين سويناكم أيها الأصنام برب العالمين فى استحقاق العبادة ، مع أنكم أدنى مخلوقاته وأذلها ، يقولون ذلك تحسرا على مافاتهم من أسباب النجاة ، وبيانا لخطئهم فى رأيهم مع وضوح الحق ، وقد أكدوا ذلك بالقسم ، واستعملوا فيه حرف التاء المفيدة للتعجب كما قاله بعض النحاة .

٩٩ـ (وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ) :

بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم .

أى : وما أضلنا عن الحق إلا المجرمون من شياطين الجن والإنس الذين زينوا لنا عبادة الأصنام ، فأنت تراهم فى هذا الاعتراف ينفون عن الأصنام إضلالهم ، ويحيلونه على المجرمين من الشياطين ، وذلك بعد أن اتضح لهم الحال فإن الأصنام لاتباشر إضلال عابديها .

١٠٠ ، ١٠١ - (فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) :

أى : فما لنا شفعاء يشفعون لنا كما نرى المؤمنين لهم شفعاءُ من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، ولا صديق قريب مشفق يهتم لأمرنا كما نرى لهم أصدقاء لأنه لايتصادق فى الآخرة إلَّا المؤمنون ، وأمَّا أهل النار فبينهم التعادى والتباغض والمراد : تأسُّفهم على فقد شفيع يشفع لهم مما هم فيه أو صديق شفيق يهمه ذلك ، وقد تدرجوا فى التأسف لمزيد انحطاط حالهم حيث نفوا أولا أن يكون لهم من ينفعهم فى تخليصهم من العذاب بشفاعته ، ونفوا ثانيًا أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشفق عليهم ويتوجع لهم وإن لم يخلِّصهم .

قال صاحب الكشاف : جمع (الشافع) لكثرة الشفعاء ، ووحد (الصديق) لقلته . اهـ

ويجوز أن يراد بالصديق الجمع فإنه يطلق عليه لأنه على زنة المصدر أو لأنه نكرة فى سياق النفى فتعم .

١٠٢ - (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

لو مستعملة فى التمنى بدليل نصب قوله تعالى : (فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فى جوابها .

والمعنى : فليت لنا رجعة إلى الدنيا فنكون من المؤمنين فلا ينالنا إذا متنا فبعثنا مثل ما نحن فيه من العذاب الذى لا ينفع فيه أحد - ليت لنا عودة إلى الدنيا مرة أخرى فنصحح خطأنا ونحطم أصنامنا ونعبد ربنا ونكون من المؤمنين به وحده ، فإذا كان البعث قربت لنا الجنة وشفع لنا الملائكة والأنبياء وكان إلى جوارنا الأصدقاء والأخلاء .

قال الزمخشرى : وما أحسن مارتب إبراهيم - عليه السلام - كلامه مع المشركين حيث سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها

بأنها لاتضر ولاتبصر ولا تسمع ، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأبطله وأخرجه من أن يكون شبهةً ، فضلا عن أن يكون حجة ، ثم صور المسألة فى نفسه دونهم ، حتى تخلص منها إلى ذكر الله – عز وجل – فعظّم شأنه وعدّد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع مايرجى فى الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين – ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه ، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتمنى الكرّة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

١٠٣ – (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ)أى : فيما ذكر من نبأ إبراهيم – عليه السلام – ومحاجته لقومه وإقامة الحجج عليهم فى التوحيد (لآية) عظيمة ودلالة واضحة على خطأ عبادة الأصنام ، وبخاصة أهل مكة الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم – عليه السلام – فعليهم أن يجتنبوا كل الاجتناب ما هم عليه من عبادتها خوف أن يحيق بهم هذا العذاب بحكم الاشتراك فيما يوجبه .

ويجوز أن يكون المعنى : إن فيما ذكر من نبأ إبراهيم – عليه السلام – على حقيقته من غير أن تسمعه يا محمد من أحد لآية عظيمة دالة على أن ما تتلوه عليهم – وهو صادق – نازل من عند الله تعالى موجب للإيمان .

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى : وما كان أكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم نبأ إبراهيم مؤمنين ، بل هم مصرون على ماهم عليه من الكفر والضلال ، وقيل : ضمير (أكثرهم) لقوم إبراهيم ، وليس بشىء .

١٠٤ – (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : لهو القادر على تعجيل العقوبة لقومك ولكن يمهلهم رحمة بهم ليؤمن منهم أو من ذرياتهم من شاء الله إيمانه .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾)

قص الله – سبحانه وتعالى – فيما تقدم قصة موسى ،وقصة إبراهيم–عليهما السلام–وفى هذه الآيات إخبار من الله–عز وجل–عن قصة عبده ورسوله نوح–عليه السلام–إلى أهل الأرض بعد أن عبدوا الأصنام ، وتكذيبهم لرسالته وعقابهم بالطوفان على هذا التكذيب .

والحكمة فى ذكر هذه القصص :

(١) تسلية النبى – صلى الله عليه وسلم – الذى كانت شفقته على قومه سببا فى جهده وألمه بسبب كفرهم .

(٢) تخويف قومه بما وقع على الأمم السابقة من عذاب بسبب كفرهم وعصيانهم لأنبيائهم .

التفسير

١٠٥ – (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) :

قال صاحب المختار : القوم :الرجال دون النساء .

وقال زهير :

وما أدرى ولست إخال أدرى أقَوْمٌ آل حصن أم نساء

وقال تعالى : « لاَيَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ »[1] ثم قال : «وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ» وربما دخل فيه النساء على سبيل التَّبَع كما هنا ، لأن قوم كل نبى رجال ونساء ، والقوم يذكر ويؤنث لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث مثل الرهط والنفر والقوم ، قال تعالى : «وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ»[2] وقال هنا : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ) اهـ : من مختار الصحاح .

(١) سورة الحجرات ، من الآية : ١١

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٦٥

وتكذيب قوم نوح المرسلين باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التى لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار ، فمن كذب رسولاً فقد كذب الرسل ، ويجوز أن يراد بالمرسلين :نوح-عليه السلام-بجعل اللام للجنس، كما يقال : فلان يركب الدواب ويلبس البرود ، وماله إلا دابة وبردة .

١٠٦ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ) :

(إِذْ قَالَ لَهُمْ) : ظرف للتكذيب ،والمراد بأخوته لقومه أنه ابن أبيهم ،فهوشريكهم فى أخوة النسب ، وقيل :من قول العرب :يا أخا تميم يريدون واحدا منهم .

(أَلَا تَتَّقُونَ) : أى ألا تخافون الله - عز وجل - حيث تعبدون غيره .

١٠٧ - (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) :

أى : إنى رسول من الله إليكم ،صادق فيما أبلغكم عن الله من شريعة ، لا أزيد فيها ولا أنقص منها ، وقيل :أمين فيما بينكم لأنهم عرفوا أمانته كما عرفت قريش أمانة محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل البعثة وكانت تلقبه بالصادق الأمين .

١٠٨ - (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ) :

أى : اجعلوا أنفسكم فى وقاية من عذاب الله بطاعته ، وأطيعونى فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله ، وقدم الأمر بتقوى الله على الطاعة لأن التقوى سبب الطاعة .

١٠٩ - (وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

وما أسألكم على ما أنا مُتصَدٍّ له من الدعاء والنصح أجرا من مال أو سواه ، وما أجرى فى دعوتى لكم إلى الحق (إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) فهو سبحانه الذى يؤجرنى على ذلك تفضلا منه ، لاغيره .

١١٠ - (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ) :

أى : وإذا كنت لا أسألكم على دعوتكم أجرا ، فذلك برهان على صدق ،فاتقوا الله وخافوه وامتثلوا أوامره ، وأطيعونى فيما بلغتكم عنه .

* (قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾)

المفـردات :

(الْأَرْذَلُونَ):جمع الأرذل : وهو الدون الخسيس ، وقد يطلق على الردئ من كل شيء .

(لَوْ تَشْعُرُونَ) : لو تحسون . (نَذِيرٌ مُّبِينٌ) : منذر مبين للحق .

التفسير

١١١ ــ (قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) :

قال قوم نوح يردون دعوته : لا نؤمن لأجلك ولا نصدق بك وقد اتبعك هؤلاء السفلة الأخساء من الناس ، يقصدون أن الذين اتبعوه أدنى منهم جاهًا ونسبًا ومالا ، كأهل الحرف الدنيئة والصناعات الوضيعة ومن لا شأن له من الناس ، فلا يكونون أهلا لاجتماعهم بهم فى شأن سبقوهم إليه ، ولا أسوة يقتدون بهم .

وهذا العذر الذى انتحلوه لكفرهم ، برهان على جهلهم وقلة عقلهم ، فإنه ليس بعار على الحق ضآلة من اتبعه ، فإن الحق فى نفسه صحيح ، سواء اتبعه الأشراف أم الأراذل ، على أن سبق الأسافل إليه برهان على أنهم هم الشرفاء العاقلون ، والذين يأبونه هم الأراذل الجاهلون . فمن بَطَّأ به عمله لم يسرع به نسبُه .

وواقع الحياة والتاريخ شاهد على أن الضعفاء يسبقون إلى الحق لفقدان ما يشغلهم عنه ، وأن يتقاعس عنه الأغنياء وذوو الجاه لكبريائهم . وفى ذلك يقول الله تعالى :

«وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ»[1] والحق أن الفقر ليس من الرذالة فى شيء ؛ قال الشاعر :

قد يدرك المجدَ الفتى ورداؤه خَلَقٌ وجَيْبُ قميصه مرقوعُ

وخسة الصناعة مع تقوى الله ، لا تلحق بصاحبها نقصًا ، قال أبو العتاهية :

وليس على عبد تَقيٍّ نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم[2]

ومثلها ضَعَةُ النسب فقد قيل :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

ولمَّا سأل هرقل أبا سفيان بن حرب قائلا : أأشراف الناس اتبعوا محمدًا أم ضعفاؤهم ؟ قال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل : هؤلاء هم أتباع الرسل ، ولما كان وصفهم لمن اتبعوا نوحًا بأنهم أرذلون ، فيه تعريض بأنهم لم يَتَّبعوه إخلاصًا له أو لدينه ، بل ليرفعوا خسَّتهم ، أو ليصيبوا بإيمانهم بعض المنافع ، فلهذا رد عليهم نوح بما حكاه الله بقوله :

١١٢ - (قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : ليس لى علم بما كانوا يعملون بإيمانهم ، وهل عملوه إخلاصًا أو طمعًا فى غرض دنيوى ، وأى شيء يُلزمنى بالبحث عن نية هؤلاء بإيمانهم ، فليست وظيفتى إلَّا اعتبار الظواهر ، وبناء الأحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم ، والشق عن قلوبهم ، أما معرفة القلوب والحساب على ما انطوت عليه فهى لله تعالى ، كما قال سبحانه :

١١٣ - (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ) :

ما محاسبتهم على إيمانهم وأعمالهم ، وجزاؤهم عليها إلَّا على ربى ، فهو سبحانه المطلع على البواطن ، العليم بما تخفى الصدور ، المحاسب والمؤاخذ عليها ، لو كنتم من أهل الشعور والإدراك لعلمتم ذلك ، لكنكم لستم كذلك فقلتم ما قلتم .

---

(١) سورة الزخرف : ٢٣

(٢) حاك : معناه نسج ، ومصدره الحياكة ، وحجم أى : امتص الدم من العضو بعد حجمه بالمحجم لدفع الألم عنه ، والحجامة : حرفة الحجام .

١١٤ - ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ :

ولست بطارد المؤمنين عنّى لضعفهم تطييبًا لنفوسكم ، وطمعًا فى إيمانكم ، وهو جواب عما أشعر به كلامهم من رغبتهم فى طردهم ، كشرط لإيمانهم به . وقيل : إنهم طلبوا منه طردهم فأجابهم بذلك ، ويشير إلى هذا ما جاء فى سورة هود على لسان نوح : « وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوٓا إِنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » (٢٩ - ٣٠) . وقد فعل مثل ذلك رؤساءُ قريش مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله له : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ »[١] .

فهذا وذاك يدلان على أن شريعة السماء تحرص على المؤمنين ، ولو ضعف شأنهم بين قومهم .

١١٥ - ﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ :

فى هذه الآية الكريمة تحديد لوظيفة الرسول ، وهى كالتعليل لما قبلها ، أى : وما أنا إلّا رسول مبعوث لإنذار المكلفين وزجرهم عن الكفر والمعاصى ، سواءٌ أكانوا من الأعزاء أم من الأذلاء ، فكيف يتسنى لى طرد الفقراء لإرضاء الأغنياء ؟

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٥٢

(قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ
رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن
مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾)

المفردات :

(مِنَ الْمَرْجُومِينَ) : من المقتولين رجما بالحجارة . (فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا) : أى فاحكم بينى وبينهم حكما . (الْفُلْكِ) : بوزن القُفل ، ويطلق على السفينة الواحدة ، وعلى السفن المتعددة بلفظ واحد ، ويعرف المقصود بالقرائن ، قال تعالى فى الجمع : « وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ » أما هنا فهو للواحد ، ولذا وُصفَ بالمشحون ، أى : المملوء ، من شَحَن السفينة – كمنع – : ملأها ، كأشحنها . (الْعَزِيزُ) : الغالب الذى يَقهر ولَا يُقهر .

التفسير

١١٦ – (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) :

طال مقام نوح – عليه السلام – بين قومه ، يدعوهم إلى الله – تعالى – ليلا ونهارا وسرًّا وجهارًا ، وكلما كرر الدعوة لم يزدادوا إلَّا عنادًا وإصرارًا ، ثم لجئوا إلى التهديد ، وذلك ما حكاه الله فى هذه الآية .

ومعناها : قال قوم نوح : لئن لم ترجع يا نوح عن دعوتك إيانا إلى دينك لنرجمنك ، يقصدون تهديده بالقتل رجمًا بالحجارة ، ولما استحكم اليأس عند نوح من إيمانهم ، بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا يدعوهم ، دعا عليهم دعوة استجاب الله لها ، وذلك ما حكاه الله بقوله :

١١٧ ، ١١٨ - (قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

لم يقصد نوح - عليه السلام - إخبار ربه - تعالى - بتكذيب قومه له ، لأنه يعلم أن ربه بهم عليم ، ولكنه يقصد الاعتذار عن دعائه على قومه ببيان سببه .

والمعنى : قال نوح بعد أن صبر على قومه دُهُورًا وهم يجادلون ولا يؤمنون - قال - : يارب إن قومى استمروا على تكذيبى فى دعوتى إياهم إلى الحق وأصروا على ذلك دهورًا ، فاحكم بينى وبينهم حكمًا يهلك به من جحد توحيدك وكذب رسولك ، ونجنى ومن آمن معى من العذاب الذى تنزله بهم ، وهذه حكاية إجمالية لدعائه المفصل فى سورة نوح.

١١٩ ، ١٢٠ - (فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ) :

أى : فَأنجينا نوحًا ومن آمن معه فى السفينة المملوءة بهم ، وبما لا بد منه من الطعام والشراب والحيوان ، وقد حمل فيها من كل زوجين اثنين ، ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين على الكفر ، أو الباقين خارج السفينة لكفرهم .

١٢١ - (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

إن فيما ذكره القرآن من نبأ نوح وقومه لبرهانًا وحجة على قدرة الله وغضبه لمحارمه ، وعلى صدق الرسول فى نبوته ، حيث حكى عن نوح ما لا سبيل له إلى علمه سوى الوحى ، وما كان أكثر أمة نوح مؤمنين ، فلذلك أهلكهم وأنجى المؤمنين ، فلماذا لا يعتبر مشركو مكة بقصتهم ، ويرجعوا عن غيهم ، حذرًا من أن يبطش الرب الجبار بهم ، كما بطش بهؤلاء المشركين قبلهم .

١٢٢ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك - أيها الرسول - لهو الغالب على ما يريده ، القادر على استئصال أعداء دينه ، فكل شىء دونه مقهور مغلوب لقدرته ، وهو الرحيم المنعم بدقائق النعم ، الكثير الرحمة ، فلذا أخر العقوبة عنهم أحقابًا ودهورًا ، ولم يقطع الرزق عنهم مع قبح فعلهم .

(كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾
أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم
بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ
ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾)

المفردات :

(رِيعٍ):الريع- بالفتح والكسر - : مسيل الوادى ، وكلُّ مرتفع من الأَرض ، والجبلُ.
(تَعْبَثُونَ):العبث ؛ ما لا فائدة له (مَصَانِعَ) : مآخذ المياه ونحوها ، وخشب يحبس الماءَ ويمسكه حينًا ، أَو المبانى العظيمة من القصور والحصون ، أَو القُرى ، قال الأَصمعى : العرب تسمى القُرى مصانع ، (تَخْلُدُونَ) : تبقون وتدومون ، وكل ما يتباطأُ عنه التغيير والفساد فهو خالد . (بَطَشْتُمْ) :البطش ؛ الأَخذ بشدة وعنف ، وفعله : بطش يبطش كضرب ونصر ، (جَبَّارِينَ) : عتاة قاهرين قساة القلوب . (أَنْعَامٍ) : جمع نَعَم -

- بفتح العين ، وقد تسكن - : الإبل والبقر والغنم ، ويكثر استعمالها فى الإبل خاصة ، (أَوَعَظْتَ): الوعظ : التذكير بما يلين القلوب . (خُلُقُ الْأَوَّلِينَ) أى : سجيتهم وطبيعتهم .

التفسير

١٢٣ - (كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ) :

لما قصّ الله - سبحانه - على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - خبر نوح - عليه السلام - تسلية له عما يلقاه من قومه ، قصّ عليه أيضًا نبأ هود - عليه السلام - مع قومه ، وزمانُهم بعد قوم نوح - عليه السلام - كما جاء فى سورة الأعراف : (وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَسْطَةً »[1] . وقد كانوا أقوياء الأجساد شديدى البطش ، فى سعة من الأولاد والأموال والبساتين والأنهار والزروع والثمار والخيرات التى لا تحصى ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله - تعالى - وكان أمرهم مع هود - عليه السلام - ما قص الله فى هذه الآية وما بعدها .

والمعنى : كذبت قبيلة عاد جميع المرسلين ، فإن تكذيبهم لرسولهم هود - عليه السلام - يعتبر تكذيبًا لجميع الرسل ، لاتحاد دعوتهم فى أصولها وغاياتها ، وتأنيث الفعل هنا باعتبار أن المراد بعاد (القبيلة) وهو فى الأصل اسم لأبيهم الأقصى ، فأُطلق عليهم .

١٢٤-١٢٧ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

يرى القارئ فى قصص نوح ،وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح ،وقوم لوط ،وقوم شعيب - يرى القارئ - فى هذه القصص الخمس أنها قد بدئت جميعًا بالأمر بالتقوى والطاعة ، وقول الرسول لقومه : إنه لا يسألهم أجرًا على تبليغه الرسالة إليهم ، وتصديرُها بذلك للتنبيه على أن الرسالات السماوية قائمة على الدعاء إلى تقوى الله ومعرفة الحق ، وطاعة الرسل فيما أمروا به أو نهوا عنه جلبًا للثواب ودفعًا للعقاب ، والتنبيه إلى أن الرسل لا يبتغون من وراء تبليغ رسالاتهم أجرًا وجاهًا ، ولْيعلم القارئ أن الرسل وإن اتفقوا على العقائد وأصول الشرائع ،

---

(١) من الآية ٦٩

فهذا لا يمنع من حدوث الاختلاف فى بعض فروعها كمًّا أو كيفًا تبعًا لاختلاف العصور وأهلها .

١٢٨ ـ (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ) :

أتشيدون بكل مكان عال من أرضكم بناء شامخًا تتفاخرون به وتعبثون بإقامته دون أن تكونوا فى حاجة إليه ، أفلا فكرتم فى أخراكم فآمنتم بربكم وعملتم لمرضاته ، لأنكم إليه صائرون ، وعلى عقائدكم محاسبون .

١٢٩ ـ (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) :

المصانع : جمع مصنعة ـ بفتح النون وضمها ـ وهى كالحوض يجتمع فيها ماء المطر ، وهذا يؤذن بأنها فوق الأرض ، ولعلهم كانوا يتخذون السدود لحبس مياه المطر ، كما فعلت سبأ بإنشائها سد مأرب ، وتطلق المصانع أيضًا على مآجل الماء تحت الأرض[1] ، ولعله يشير إلى المعنى الأول للمصانع قول لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بَعْدَنا والمصانع

وفسرها بعض اللغويين بالقصور الشاهقة والحصون المنيعة ، ومنه قول الشاعر :

تركنا دورهم منهمْ قفاراً وهدمنا المصانع والبروجا

والمعنى على الوجهين : وتتخذون سدودًا لحبس المياه أوحصونًا منيعة وقصورًا مشيدة مؤملين الخلود فى الدنيا ، كأنكم لا تعرفون الموت ولا تحسُّون بسكان القبور ، والمقصود من ذمهم وتوبيخهم على الوجهين : اهتمامهم بدنياهم ، دون العمل لأخراهم ، فلو عملوا لهما جميعًا لما عيب عليهم ما صنعوه لدنياهم فى غير سرف ولا مَخيلة .

١٣٠ ـ (وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) :

وإذا عاقبتم سواكم : أسرفتم فى البغى عليهم جبارين غاشمين ، تقتلون وتخربون بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر فى العواقب ، وعن الحسن : تبادرون تعجيل العذاب لا تتثبَّتون متفكرين فى العواقب ، وقال ابن كثير : يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت .

---

(١) وبه قال قتادة .

١٣١ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) :

فخافوا الله واتركوا هذه الأفعال ، وأطيعونى فيما أدعوكم إليه ؛ فإنه أنفع لكم .

١٣٢-١٣٤ - (وَاتَّقُوا الَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) .

أى : واحذروا غضب الله الذى بسط لكم يد إنعامه ، بالذى تعلمونه من أنواع النعماء وأصناف الآلاء ، أمدكم بالإبل والبقر والغنم ، وأمدكم بالبنين لتكثروابهم ، و ليعاونوكم فى حفظ أنعامكم وتنميتها ، وليحملوا عنكم بعض أعبائكم ،وأمدكم ببساتين مثمرات ، وعيون بالماء جاريات .

قال الزمخشرى : بالغ فى تنبيههم على نعم الله ،حيث أجملها ثم فصلها مستشهدا بعلمهم ، وبذلك أيقظهم من سِنَة غفلتهم‌عنها ، ونبههم إلى أنه تعالى كما قدر أن يتفضل عليهم بهذه النعم ، فهو قادر على الثواب والعقاب ، فعليهم أن يتقوه . انتهى بتصرف .

١٣٥ - (إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

إنى أخاف عليكم إن لم تقوموا بشكر هذه النعم عذاب يوم عظيم فى الدنيا والآخرة ، فإن كفران النعم موجب للعقاب بإزالتها أو تقليلها ، كما أن شكرها سبب فى زيادتها ، قال تعالى : « لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ »[١] .

وهكذا دعاهم نبيهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، وبين لهم أنه كما قدر على أن يعطيهم هذه النعم متفضلا ، فهوقادر على سلبها عادلا ، وأنه بذلك تعرف قدرته على ثوابهم إن أحسنوا وعقابهم إن أساءوا ، ولم ينفعهم وعظه وتذكيره كما حكاه بقوله :

١٣٦ - (سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ) :

قالوا استخفافًا وعدم مبالاة بما يقول : سواءٌ لدينا أبالغت فى وعظنا وتذكيرنا أم لم تكن من الواعظين ، فإنا لن نرعوى عما نحن عليه .

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : ٧

ولم يقولوا : أوعظت أم لم تعظ — مع أنه أخْصَرُ — للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه ؛ لأن المراد : سواءٌ علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ أم لم تكن من أهله ومباشريه أصلا .

١٣٧ ، ١٣٨ — (إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) :

أى : ما هذا الذى جئتنا به إلَّا خلق الأولين وعادتهم ، إذ كانوا يلفقون مثله ويسطرونه كما قال مشركو مكة للنبى — صلى الله عليه وسلم — : « وَقَالُوٓا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » .

أو ما هذا الذى نحن عليه إلَّا خلق الأولين — أى : دينهم وعادتهم — ونحن بهم مقتدون ، كما قال مثله غيرهم : « إِنَّا وَجَدْنَآ آبَاءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ »[1] فنحن تابعون لهم سالكون سبيلهم ، نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ، وما نحن بمعذبين فلا بعث ولا جزاء .

١٣٩ — (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى : فاستمروا على تكذيبهم وعنادهم ، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية شديدة البرد ، فكان سَببُ إهلاكهم من جنس جبروتهم ، إن فى ذلك الذى أنزله الله بعاد جزاء تكذيبهم لبرهانًا على قدرة الله ، وما كان أكثر الذين تتلو عليهم ، يامحمد — نبأ عاد مؤمنين برسالتك مع قيام الحجة عليهم .

١٤٠ — (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك — أيها الرسول — لهو القاهر للجبارين ، الرحيم بالمؤمنين .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٢٣

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾
أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ
وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ
يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ
ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ۖ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾
فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾)

المفردات :

(ثَمُودُ) : اسم عربى عند الأكثرين ، وعدم صرفه لأنه اسم قبيلة ، وهو فعول من الثَّمْد وهو الماء القليل . (طَلْعُهَا هَضِيمٌ) :الطلع ؛ أول ما يبدو من ثمرة النخل ، كنَصْل السيفْ ، فى جوفه شماريخ القنو ، والهَضِيم : اللطيف اللين ، أو المنضم بعضه إلى بعض ،

سأل نافع بن الأزرق ابن عباس -رضى الله عنهما- عن معنى (هضيم) فقال: هو المنضم بعضه إلى بعض، فقال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول امرئ القيس:

دارٌ لبيضاء العوارض طَفْلَةٌ مهضومةُ الكَشْحيْن ريًّا المعْصَم

وقيل: المراد من الطلع الهضيم: الطَّيِّب اللين النضيج من الرطب. (تَنْحِتُونَ) : النحت: البَرْىُ، : أى يبرون الأحجار، والنُّحاتَةُ: البُراية. (فَارِهِينَ) : ماهرين حاذقين وفعله: فَرُهَ ككرُم، فراهَة وفراهية، أما فَرِهَ بوزن فرح، فمعناه: أشر وبطر. (الْمُسَحَّرِينَ): السَّحْر - بسكون الحاء ويحرك -: الرئة، والسِّحر - بكسر السين -: كل ما لطف مأخذه ودقَّ، وفعله كمنع. (شِرْبٌ): الشرب - بالكسر -: الماء، والنصيب منه، والمورد، ووقت الشرب. (فَعَقَرُوهَا) : فذبحوها، والعقر: الذبح والجرح، وعَقَر النخلة: قَطَع رأسها.

التفسير

١٤١-١٤٥ - (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

هذا إخبار من الله عن ثمود قوم صالح - عليه السلام - بأنهم كذبوا المرسلين بتكذيب نبيهم وأخيهم صالح حين دعاهم إلى تقوى الله فإن المرسلين جميعًا جاءوا برسالة موحدة، هى الدعوة إلى التوحيد والإيمان بيوم النشر، وتقوى الله، فمن كذب أحدهم فقد كذب سواه ضمنًا.

ومساكن ثمود بالحِجْر، بين وادى القرى وبلاد الشام، وقد مر النبى - صلى الله عليه وسلم - بها فى طريقه إلى غزوة تبوك.

والمعنى: كذبت قبيلة ثمود المرسلين بتكذيبهم نبيهم صالحًا، مع أنه أخوهم، ومن بينهم فهم يعرفون صدقه - كذبوه - حين قال لهم: ألا تتقون عقاب الله فتؤمنوا به إلهًا واحدًا لا رب سواه، إنى لكم رسول من الله أمين على رسالته، وأمين فى أمره كله،

فاتقوا الله وأطيعونى فى دعوتكم إلى الحق ، وما أطلب منكم على ذلك أجرًا وثوابًا ، فما أجرى إلّا على رب العالمين ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

١٤٦-١٤٩ - (أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَاهُنَآ آمِنِينَ . فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ) :

إنكار ونفى لأن يتركوا مخلدين فى نعيمهم لا يزالون عنه ، أو تذكير بالنقمة إذا تخلى الله عنهم ، فقضى على ما يتنعمون به من الجنات وما هم فيه من الأمن والدعة .

والمعنى : أتظنون أن تتركوا فى دياركم هذه آمنين فى حدائق مثمرات ، وعيون جاريات بالماء الفرات ، وزروع يانعات ، ونخل ثمرها لين نضيج ، وتتخذون من الجبال بيوتًا حاذقين فى نحتها منها ، متفاخرين بها ، أتتركون فى ذلك آمنين من نقم الله ، وأنتم مقيمون على الكفر والمعاصى ؟ !

١٥٠ - (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ) :

أى : فأقبلوا على تقوى الله وطاعتى فيما آمركم به عن الله ؛ فإن ذلك هو الذى يعود نفعه عليكم فى دنياكم وأخراكم ، فبه تبقى النعم ، وتبعد النقم ، وتحسن العاقبة يوم يقوم الناس لرب العالمين .

١٥١ ، ١٥٢ - (وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ . الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) :

ولا تطيعوا أمرزعمائكم الذين أسرفوا على أنفسهم بالترف واتباع الشهوات والإغراق فى الكفر والضلال ، الذين يعيثون فى الأرض فسادًا ، ولا يصلحون فى شئون البلاد والعباد .

١٥٣ - (قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) :

قال قوم صالح ردًا على وعظه ونصائحه : ما أنت إلّا من الذين سُحروا كثيرًا حتى غلب السحر على عقولهم- وبه قال مجاهد وقتادة . أو من المخلوقين الذين لهم سَحْر ، أى : رئة ، يعْنُون أنه من بنى آدم مثلهم ولا فضل له عليهم ، وبه قال ابن عباس ، واستشهد بعضهم على هذا بقول الشاعر :

فإن تسألينا ممَّ نحن ؟ فإننا عصافير من هذا الأنام المُسَحَّر

١٥٤ ـ (مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

ما أنت إلَّا إنسان تماثلنا فى البشرية ، فكيف أوحى إليك دوننا ، فَأْتِ بحجة على صدقك فيما تدعيه من الرسالة عن الله ، إن كنت فيما تدعيه من جملة الصادقين فيما يقولون .

١٥٥ ـ (قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) :

قال صالح لقومه حينما أعطاه الله الناقة معجزة له : هذه ناقة الله أخرجها لكم آية ، لها ماءُ يوم معلوم ، ولكم ماءُ يوم معلوم ، فإذا كان يوم مائها فلا تشركوها فيه ، وإذا كان يوم مائكم فلا تشرككم فيه .

وقد كانت تشرب الماء كله فى يومها أول النهار ، وتسقيهم من لبنها آخر النهار ، أما فى يومهم فكانت تترك الماء كله لأنفسهم ومواشيهم .

١٥٦ ـ (وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

ولا تلحقوا بها أذى ، فيهلككم عذاب يوم عظيم ، ووصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه وهو أبلغ من وصف العذاب به .

وبعد هذا التحذير مكثت الناقة حينًا ترد الماء وتأكل من أوراق الشجر والعشب فى يومها ، وتمنحهم من لبنها ما يكفيهم شربًا وريًّا ، دون أن تَعْدُوَ عليهم ، ومكثوا هم مقتصرين على شربهم فى يومهم ، فلما طال عليهم الأمد ، ضاقوا بمنعهم عن الماء فى يومها ، فتمالئوا على عقرها .

١٥٧ ـ (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ) :

فذبحوا الناقة مخالفين بذلك ما اتفقوا عليه مع صالح ـ عليه السلام ـ فأصبحوا على ما فعلوا نادمين خوفًا من حلول العذاب بهم ، لا توبة من ذنبهم ، أو توبة منه عند معاينتهم لمبادئ العذاب ، حيث لا ينفع المتاب .

١٥٨ ـ (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

فأهلكهم العذاب الذى كان نبيهم صالح قد توعدهم به إذا مسوها بسوء ، إن فى قصتهم لدلالة على قدرة الله على إهلاك الكافرين المعاندين لرسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان أكثر ثمود مؤمنين .

قال البيضاوى : وفى ذلك إيماء إلى أنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب : اهـ.

١٥٩ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك - أيها الرسول - لهو الغالب فلا يستطيع الفكاك من عقابه الجبارون ، الرحيم فلا ييئس من رحمته التائبون .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾
أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾)

المفردات :

(عَادُونَ) : جمع عادٍ ، وهو المتعدى فى ظلمه بتجاوز الحد فيه .

(الْقَالِينَ) : جمع قَالٍ ، من قلاه ، كَرَمَاهُ ، أو من قَلِيَه ، كَرَضِيَهُ ، قِلًى وقَلاءً :

أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه ، أو قلاه فى الهجر ، وقَلِيَهُ فى البغض .

(الْغَابِرِينَ) : الباقين ، من غبر بالمكان ، غبورًا : أقام به ، وقد يستعمل الغبور بمعنى المضى والذهاب ، فهى فى الشىء وضده . (دَمَّرْنَا) : الدمور والدمار والتدمير : الإهلاك .

التفسير

١٦٠-١٦٤- (كَذَّبَ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

لما قص الله تعالى على نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – خبر موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح – عليهم السلام – تسلية له عما يلقاه من عنت قومه ، قص عليه نبأ لوط مع قومه وتكذيبهم له وإيذاءهم إياه ، ولقد كان قوم لوط من الشر بمكان خطير ، كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، ولا يستحون أن يأتوا فى ناديهم هذا المنكر القبيح ، وقد نصحهم لوط فأمرهم بتقوى الله وطاعته ، وبين لهم قولا وعملا أنه لا يسألهم على تلك النصائح أجرًا ، وإنما يبتغى الأجر من رب العالمين ، وقد سبق الكلام على مثل هذه الآيات فى القصص السابقة .

١٦٥ ـ (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ) :

قال لوط لقومه على سبيل التوبيخ والإنكار : أتأتون الفاحشة مع الذكران من بنى آدم ، فلا حياء عندكم يمنعكم عن قريب أو غريب ، كأن النساء أعوزتكم ؟ !

١٦٦ ـ (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ) :

وتتركون ما خلق الله لاستمتاعكم من أزواجكم الحلائل ، قال الزمخشرى :

(مِنْ أَزْوَاجِكُمْ) :تبيين لما خلق الله ، أو للتبعيض ، ويراد بما خلق : العضو المباح منهن ، فكأنهم كانوا يفعلون مِثْل ذلك بنسائهم .

(بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) : بل أنتم قوم معتدون مجاوزون الحد فى جميع المعاصى ، وهذا من أفحشها ، أو متجاوزون حد الشهوة ، فزدتم فيها على سائر الناس وعلى الحيوان .

١٦٧ - (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) :

قالوا : لئن لم تنته يا لوط عن توبيخنا وتقبيح أمرنا ، أو عما أنت عليه من دعوى الرسالة ودعوتنا إلى الإيمان بها ، وتترك ما أنكرته من أمرنا ، لتكونن من جملة من أخرجناهم من بين أظهرنا وطردناهم من بلدنا ونفيناهم ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال ، من تعنيف واحتباس مال ، وغير ذلك مما يفعله الظالمون إذا نفوا بعض من يغضبون عليهم ، كما كان أهل مكة يفعلون بمن يريد الهجرة إلى المدينة .

١٦٨ - (قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ) :

قال لوط - عليه السلام - مخاطبًا قومه : إنى لعملكم هذا من المبغضين غاية البغض ، ولم يقل : إنى لعملكم قالٍ بالإفراد ، للإيذان بأنه كان يوجد من كرام الناس من يبغض حالهم ، ثم أعرض عنهم بعد أن بالغ فى نهيهم ولجأ إلى الله تعالى قائلا :

١٦٩ - (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ) :

دعا لوط ربه أن ينقذه وأهله مما يعمل هؤلاء الجاهلون - : أى من عقوبة أعمالهم - وشؤمها .

١٧٠ ، ١٧١ - (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ) :

فاستجاب الله دعاءه ونجاه وأهله الذين اتبعوا دعوته بإخراجهم من بيوتهم ليلا قبل حلول العذاب بالمكذبين ، إلا عجوزًا هى امرأة لوط كانت فى الغابرين ، أى : مقدرًا كونها فى الباقين فى العذاب ، لأنها كانت كافرة بربها ، منافقة لزوجها ، والتعبير عنها بالعجوز ، للإشارة إلى أنها بقيت فى الكفر إلى أن صارت عجوزًا .

١٧٢ - (ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ) : أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه .

١٧٣ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ) :

أى وأنزل الله على شرار قوم لوط مطرًا من الحجارة فأهلكتهم ، وفى ذلك يقول الله

فى سورة هود : « فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ . . . »(١) .

« فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ » مَطَرُهُمْ ، إذ نزل بأشد أنواع الهلاك والدمار ، ولا شك أنهم جديرون بذلك ، فقد ابتدعوا عادة مستهجنة تهبط بالرجولة إلى الحضيض وتصيب ذويها بأمراض جسمية ونفسية وخلقية ، من تخنث وميوعة ، وتخالف ناموس الحياة الذى شرعه الله للتوالد والتكاثر .

وعقاب اللياط فى الشريعة الإسلامية القتل ، والخلاف إنما هو فى طريقته ، ومن عجب أن بعض الأمم التى تدعى الحضارة فى البلاد الأوربية اعترفت بالشذوذ الجنسى (اللياط) رسميا ، ولا يستحون من إتيانه سرا وعلانية .

١٧٤ ـ (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

إن فى ذلك العقاب الذى نزل بقوم لوط لدليلا على تمام قدرة الله ، وماكان أكثر هذه الأمة مؤمنين ، فلذلك لحق بهم مالحق .

١٧٥ ـ (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

وإن ربك ـ أيها الرسول ـ لهو الغالب على كل شىء المتصف بالرحمة ، فيعاقب المجرمين المصرين ، ويثيب التائبين المصلحين .

(كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾)

---

(١) الآيتان : ٨٢ ، ٨٣

التفسير

١٧٦ - (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) :

الأيكة : الغيضة التى تنبت ناعم الشجر ، وهى غيضة بقرب مَدْيَنَ ، يسكنها طائفة من المشركين ، بعث الله لهم شعيبًا - عليه السلام - وكان أجنبيًّا منهم ، ولذا قيل : « إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ » ولم يقل : أخوهم . وقد أهلكوا بعذاب يوم الظلة ، وأهلك أهل مدين بالصيحة والرجفة .

وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين ، وكان نبى الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هنا : (أخوهم شعيب) ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة - وكانت شجرًا ملتفًّا -[1]

وقيل : شجرة معينة منها - فقطع نسب الأخوة بينهم وبينه للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسبًا . وهذا هو الصحيح ، فقد وصفوا بتطفيف الكيل والميزان الذى وصف به أهل مدين ، ونهوا عن ذلك ، مما يدل على أنهم جميعًا أمة واحدة . وذلك كقوله تعالى فى سورة هود : « يَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » الآية ٨٥

١٧٧ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ) : ألا تخافون عاقبة ما تفعلون من كفر . وتطفيف ، وعلَّل أمرهم بالتقوى بقوله :

١٧٨ - (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) :

إنى مرسل لهدايتكم وإرشادكم ، أمين على رسالة ربى إليكم .

١٧٩ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) : فاحذروا عقوبة الله وأطيعونى باتباع أوامر الله والبعد عما يغضبه .

١٨٠ - (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

وما أطلب على تبليغ الرسالة لكم أجرًا ، فما أجرى إلَّا على رب العالمين .

---

(١) من السدر والأراك ونحوهما .

* (أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾)

المفردات :

(وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) : أى من الذين ينقصون الكيل والوزن . يقال : أخسر الميزان إخسارًا : نقص الوزن ، وخَسَره خسْرًا من باب ضرب لغة فيه .

(بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : أى الميزان السوى ، والقُسطاس - بضم القاف وكسرها - : الميزان . قيل : هو عربى مأخوذ من القِسْط وهو العدل ، وقيل : هو رومى معرب .

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ) : أى ولا تنقصوها ، أو : ولا تعيبوها . يقال : بخسه بخسًا من باب نفع : نقصه أو عابه .

(وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى وَلَا تفسدوا فيها مبالغين فى الإفساد ، والعُثُوّ : الإفساد أو أشده ، ويقال : عثا يعثو - من باب قال يقول - وَعَثِىَ يعثَى - من باب تَعِبَ يَتْعَبُ - أى : أفسد ، فهو عاثٍ .

(خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ) : أى أوجدكم وأوجد الخليفة من الناس السابقين لهم .

التفسير

١٨١ ، ١٨٢ - (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) :

نزلت هذه الآية وما بعدها حكاية لما وجهه نبى الله شعيب إلى قومه أصحاب الأيكة وهم أهل مدين على الصحيح - من الأمر بإيفاء المكيال والميزان والنهى عن التطفيف فيهما - كما مر بيانه كان قد شاع فيهم وانتشر بينهم سوء المعاملة فى الأخذ والإعطاء ، فكانوا إذا اكتالوا من الناس للشراء ونحوه يأخذون مكيلهم وافيًا وافرًا، وإذا اكتالوا لهم للبيع ونحوه ينقصون مكيلهم ، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة : « أَوْفُوا الْكَيْلَ . . . » : أى إذا دفعتم إلى الناس الكيل فأتموا الكيل لهم ولا تعطوه ناقصًا لأنكم ملزمون أن تعطوه كما تأخذون كاملًا وافيًا بلا تفرقة بين الأخذ والإعطاء إحقاقا لشريعة العدل التى شرعها الله فى المعاملة بين عباده .

والكيل للناس إما واف وهو مأمور به ، وطفيف وهو منهى عنه ، وزائد وهو مسكوت عنه ، وتركه دليل على أنه إن فعله فقد أحسن . . .

(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ) : أى يجب عليكم التزام العدل فى الموزونات أخذا وإعطاء ، وذلك بأن تزنوا بالميزان السوى حيث لا حيف فيه ولا ظلم .

والأمر بوفاء الوزن وإتمامه يشير ضمنًا إلى النهى عن النقص فيه دون النهى عن الزيادة ، ولم يذكر النهى هنا اكتفاء بذكره صريحًا فى الآية السابقة ، لاتحاد الغرض فى المأمور به هنا والمنهى عنه فى الآية السابقة ، وهو الأمانة فى الكيل والميزان ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : أن معنى « وَزِنُوا . . . » الآية وعدّلوا أموركم كلها بميزان العدل الذى جعله الله تعالى لعباده ، ويدخل فيه طلب العدل فى الميزان المعروف دخولًا أوليا حتى يستقيم أمرهم .

١٨٣ - (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) :

أى ولا تنقصوا الناس شيئا من حقوقهم ، أى حق كان ، كبر أو صغر ، هان أو عظم ،

وهذا تعميم بعد تخصيص لبعض المراد بالذكر فى الآيتين السابقتين لغاية انهماكهم فيه واقترافهم لمساوئه بيعا وشراء ليكمل لهم بهذا التعميم فى النهى البعد عن شريعة الله التى شرعها لهم فى كل شأن من شئونهم .

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى ولا تبالغوا فى الإفساد فيها بقطع الطريق والقتل والسلب ، وإهلاك الزرع ، وكانوا يفعلون ذلك ، فنهوا عنه بالتنصيص رَدْعا لهم ، وتقبيحًا لصنيعهم السيء الذى ينفر منه كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

١٨٤ – (وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ) :

يخوفهم شعيب – عليه السلام – بأس الله – تعالى – الذى أوجدهم ، أوجد الجبلة : أى الخليقة الأولين ، ويراد بها العدد الكثير من الأمم الماضية فى الأزمان المتعاقبة كما يشير إلى ذلك قوله – سبحانه وتعالى – : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا »[1] .

والمعنى : اتقوا الله – سبحانه – فهو بعظيم قدرته وواسع سلطانه أوجدكم من عدم ، وأوجد أممًا تقدمت عليكم كثيرة العدد ، ومع ما هم عليه من كثرة وعُتُوّ لم يعجزوه جل شأنه بل أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وفى ذلك الدليل الساطع على تفرده بالألوهية والدافع القوى على عبادته وتقواه ، وهو سبحانه عزيز ذو انتقام ممن استحب العمى على الهدى ، واستمرأ الضلال ، واستهواه الإعراض والتكذيب لدعوة الأنبياء والمرسلين .

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة يس .

(قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾)

المفردات :

(قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) : الذين سحروا كثيرًا حتى غلب السحر عليهم ، أو من البشر الذين لهم سَحْرٌ ، والسَّحْرُ : الخرطوم والرئة ، وسحر بهذا المعنى على وزن فَلْسٍ وسببٍ ، وقُفْلٍ .

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ) : أى قطعا من السحاب ، وقرئ : « كِسْفا » - بسكون السين - ومع فتح السين وسكونها فهى جمع كِسْفة ، كقِطْعة ، وقال الأخفش : من قرأ كِسْفا - بسكون السين - جعله واحدا ، ومن قرأ كِسَفا - بفتحها - جعله جمعا .

(عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) : الظلة سحابة بَدَت لهم أرادوا أن يستظلوا بها ، فكانت عذابا لهم ، وسيجيء شرح ذلك .

التفسير

١٨٥ ، ١٨٦ - (قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) :

أجابوا بذلك شعيبًا - عليه السلام - مبالغين فى تكذيبه ، حيث جمعوا له بين غلبة

السحر على عقله حتى اضطرب ، وهو مناف للرسالة ، وبين البشرية التى يرونها منافية لها كذلك ، للإيذان بأن اجتماعهما ينافى الرسالة أشد المنافاة . (وإن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) أى : وإن شأنك يجعلنا نظنك من الكاذبين فيما تدعيه ، ومرادهم أنه - عليه السلام ، وحاشاه - من الراسخين فى الكذب المعتادين له ، فلا يصدقونه فى دعوى الرسالة ، أو فيها وفى دعوى نزول العذاب بهم الذى يشعر به الأمر بالتقوى فى قوله - سبحانه - فيما سبق : « وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ . . . » الآية . فإنه يأمرهم بأن يقوا أنفسهم من عذابه .

وظاهر حالهم أنهم أرادوا من ظنهم كذبه فى قولهم : « وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » الجزم بوقوعه منه ؛ لأنه أصبح له عادة وطبيعة فى زعمهم ، ولهذا أكدوا الظن بلام التأكيد فى قولهم : « لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » . واستعمال الظن بمعنى اليقين والعلم لُغوىٌّ وقد جاء به القرآن فى مواطن ، كقوله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »[1] .

١٨٧ - (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

حكى الله فى الآية السابقة اتهامهم لشعيب - عليه السلام - بالكذب حسبما تخيلته نفوسهم المريضة ، وجاءت هذه الآية تحكى ما بنوه على هذا الاتهام الكاذب .

والمعنى : إن كنت صادقًا فى أنك نبى ، فادع الله أن ينزل علينا قطعًا من السحاب وأجزاء منه عقابًا لنا على تكذيبك . قال السدى : « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَآءِ » أى : عذابًا واقعًا عليهم من جهة السماء ، وهذا شبيه بما قالته قريش للنبى - صلى الله عليه وسلم - : « وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا » إلى أن قالوا : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا »[2] ، وقولهم : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[3] .

ومن هذا يتضح أن جواب المكذبين لرسلهم متقارب فى المعنى .

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٤٩

(٢) ٩٠ ، ٩١ من سورة الإسراء .

(٣) الآية : ٣٢ من سورة الأنفال .

١٨٨ - (قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

تهديد لهم بتفويضه أمرهم إلى الله ، أى قال لهم : ربى أعلم بكم ، وبما تقترفون من الكفر والمعاصى ، وبما تسرون وتعلنون من قول وعمل ، وبما تستحقون من العذاب فسينزله عليكم فى وقته المقدر له لامحالة ، أما أنا فرسول ، وليس لى أمر العذاب الذى طلبتم أن ينزل بكم .

١٨٩ - (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) :

أى فلما أقاموا على تكذيب نبيهم شعيب - عليه السلام - وأصروا على هذا التكذيب مرة بعد مرة جعل الله عقابهم من جنس ما اقترحوه بإسقاط الكسف من السماء عليهم .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما عن ابن عباس أن الله - تعالى - بعث عليهم حرا شديدا فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم فخرجوا منها هربا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس - وهى الظلة - فوجدوا لها بردًا ولذة ، فنادى بعضهم بعضًا ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم نارًا فأكلتهم جميعًا .

وكان هذا اليوم من أشد أيام الدنيا عذابا لما وقع فيه من الهول المذهل ، والداهية التامة التى لا يقادَرُ قدرها ، وفى إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفس الظلة إيذان بأن لهم عذابًا آخر غير عذاب الظلة ، ترك بيانه تهويلًا لشأنه .

١٩٠ - (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى إن فى هذه القصة وما سبقها من قصص الأنبياء السابقين لعظة وعبرة لمن له قلب واع ، وفكر مستنير ، وما كان أكثر قريش مؤمنين .

وقصة شعيب - عليه السلام - مع قومه هى آخر القصص السبع التى أوحيت للرسول - صلى الله عليه وسلم - لصرفه عن الحرص البالغ على إسلام قريش ، وقطع رجائه بشأنه لإعراضهم عن الحق واستمساكهم بالباطل ، وإلى ذلك يشير مضمون ما مر فى مطلع السورة الكريمة : « وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ » . فإن كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهم من جهته - تعالى - بموجب رحمته الواسعة يدعوهم إلى ترك العناد

بعدما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة ، وفيها من الدواعى إلى الإيمان ، والزواجر عن الكفر والطغيان ما يصرفهم عما هم عليه ، ولكنهم أعرضوا عن التأمل فيها واستمروا على تكذيبهم : « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » كأنهم لم يسمعوا شيئًا منها يردعهم عن ذلك أصلًا ويحبب إليهم الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ويزينه فى قلوبهم ، ومن كان أمرهم على ذلك فلا تبالغ فى الحرص على إيمانهم .

وقيل : المراد بالضمير فى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » قوم شعيب - عليه السلام - نُقل أنه لم يؤمن به سوى تسعمائة نفر ، ذكر ذلك القرطبى فى تفسيره ، والله أعلم بصحة ذلك .

١٩١ - ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ :

فهو - سبحانه - العزيز فى انتقامه من الكفار ، الرحيم فى ثوابه بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

المفردات :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ : هو جبريل - عليه السلام - فإنه أمين وحيه - تعالى - إلى أنبيائه . ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ : لتحفظه . ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ : أى بلغة عربية واضحة المعنى ظاهرة المدلول . ﴿ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾ : والزُّبُر، جمع زَبُور ، كرسول ، وهو الكتاب ، والمعنى : أن ذكره ثابت فى جميع الكتب السماوية .

التفسير

١٩٢ - ١٩٥ - ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ :

فى هذه الآيات تنويه بالقرآن العظيم الذى تقدم ذكره أول السورة ، وَرَدٌّ لما قاله المشركون فيه .

أى : وإن هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه منزل من رب العالمين ، نزل به الروح الأمين جبريل – عليه السلام – .

نزل به (عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) : أى يتلوه الروح الأمين على سمعك فيعيه قلبك حفظًا ، وفهمًا ، وثباتًا ، لتكون به من جملة الرسل الذين ينذرون قومهم ، فهو حجتك وآيتك ، وقد نزل به بلسان عربى واضح ، ليقطع أعذار قومك ويلزمهم الحجة ، ويحملهم على المحجة[1] .

ولو نزل بلسان أعجمى لتجافوا عنه ، ولقالوا : ما نصنع بما لم نفهمه ، ولم ندرك كنهه ، ولتعذر عليك الإنذار ، حيث يكون بذلك نازلًا على سمعك لا على قلبك ، فتسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ، ولا تعى مراميها .

وفى حكاية القرآن الكريم لهذه القصص التى لا سبيل لنبى أمى لم يقرأ ولم يكتب أن يعلمها ، دليل واضح على صدق نبوته – صلى الله عليه وسلم – فلا سبيل له إلى علمها إلا الوحى الذى نزل به الروح الأمين .

وقد سجل الله هذا المعنى فى قوله – تعالى – : « وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ »[2] .

١٩٦ – (وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) :

أى : وإن القرآن الكريم لمذكورٌ فى كتب الأنبياء السابقين ، وقيل معناه : إنه لفى الكتب المتقدمة باعتبار العقائد والأحكام ؛ فإن التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات ، وكثيرًا من المواعظ والقصص والأحكام والأخلاق مسطور فى الكتب السابقة .

---

(١) أى : الطريق .

(٢) الآية ٤٨ من سورة العنكبوت .

أو : وإنَّ محمدا - صلى الله عليه وسلم - لم تخل من ذكره كتب الأولين كما قال - تعالى - : « الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ »(١) ، وفى قوله - تعالى - : « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ »(٢) .

(أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾)

المفردات :

(أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً) : الآية، العلامة الواضحة .

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ) : جمع أعجم أى : على رجل لا يفصح ولا يبين ، وإن كان عربيًّا ، وقرأ الحسن (على بعض الأعجميين) : جمع أعجميٍّ بياء النسب ، والأعجم والأعجمى : غير الفصيح وإن كان عربيًّا ، والعجمى ما كان من جنس العجم وإن كان فصيحًا ، وأجاز الفراء أن يقال : رجل عجميٌّ بمعنى أعجميٌّ(٣) .

(كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) : أدخلنا القرآن فى قلوب مشركى مكة

---

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٦ من سورة الصف .

(٣) انظر القرطبى .

إدخالًا مثل ذلك فى التكذيب عنادا ومكابرة ،والفعل من باب نصر ، والسَّلْكُ : إدخال الشىء فى الشىء .

(هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ) : أى مؤخرون وممهلون ؟ يطلبون الرجعة هناك فلا يجابون .

التفسير

١٩٧ ـ (أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَآءُ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) :

الهمزة للإنكار والنفى ،كأنه قيل : أغفلوا ولم يكن لهم علامة على صدق القرآن أن يعرفه علماء بنى إسرائيل بنعوته فى كتبهم المذكورة فذلك آية واضحة على أنه تنزيل رب العالمين ، وإلى علم علماء بنى إسرائيل به يشير قوله ـ تعالى ـ : « وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ »(١) والمراد من علماء بنى إسرائيل : العدول منهم ، وهم من أسلموا ، قال مجاهد : يعنى عبد الله بن سلام وسلمان وغيرهما ممن ، ذكره القرطبى ، وذلك أن جماعة منهم أسلموا ، ونصوا على مواضع من التوراة والإنجيل فيها ذكر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وهذا يقتضى أن الآية مدنية ، وعن قتادة أن الضمير فى (أن يَعْلَمَهُ) للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكر الثعالبى عن ابن عباس أن أحبار يثرب ، بعث إليهم أهل مكة يسألونهم عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : هذا زمانه ، وذكروا المواضع التى ذكر فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التوراة ، وهذا ما يقتضيه كون السورة كلها مكية .

١٩٨ ، ١٩٩ ـ (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ) :

أخبر الله عن شدة كفر قريش ، وقوة شكيمتهم فى المكابرة ، وعنادهم للقرآن العظيم . فقال تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ . . . » الآية .

أى : نحن نزلنا القرآن على رجل عربى مبين ، ففهموه وعرفوا فصاحته ، وأنه معجز ، وانضم إلى هذا شهادة علماء بنى إسرائيل على أن كتبهم ذكرت صفته وقصصه ، وصح

(١) القصص ، الآية : ٥٣

بذلك أن قصص الأنبياء فى القرآن من عند الله ، وليست بأساطير كما زعموا ، ومع هذا لم يؤمنوا به ، وقالوا : إنه سحر أو شعر ومن افتراء محمد - صلى الله عليه وسلم - .

ولو نزلناه عربيا على أعجمى لا يعرف العربية ، ونطق به نصيحًا ، ما آمنوا بأن هذا القرآن من عند الله مع أن هذا الأعجمى لا يتوهم أحد أنه يستطيع الإتيان بمثله ، ولا قراءته بفصاحته ؛ لأنهم قوم معاندون يتمسكون بدين آبائهم ، ويقتفون أثرهم كما قال تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ »[1] .

وقد وصف الله عنادهم بقوله : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا : إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ »[2] .

٢٠٠-٢٠٣ - (كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ) :

المراد من المجرمين : مشركو مكة ، وقد يراد من المجرمين : جنس المجرمين . فيدخل فيه مشركو مكة دخولًا أوليا .

والمعنى : مثل هذه الحال من الإصرار على التكذيب والكفر بالقرآن سلكنا القرآن وأدخلناه فى قلوب المجرمين ، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من جحود ومكابرة كما قال تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ »[3] ، وقوله سبحانه وتعالى : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » أى : لا يزالون على الكفر حتى يبصروا العذاب الشديد الملجىء إلى الإيمان به .

أو المراد : أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين ، ففهموا معانيه ، وعرفوا فصاحته ، وأنه خارج عن قدرة البشر من حيث النظم المعجز ، والإخبار عن الغيب ، واتفاق علماء بنى إسرائيل على أن كتبهم المنزلة قبله تضمنت البشارة بإنزاله ، ورسالة من أنزل عليه بذكر أوصافه.

---

(١) من الآية ٢٣ سورة الزخرف . (٢) سورة الحجر : ١٤-١٥

(٣) الآية ٧ سورة الأنعام .

أدخلنا القرآن مثل ذلك الإدخال ، لكنهم لم يؤمنوا به، فقوله تعالى : « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » على هذا الرأى استئناف مسوق لبيان حالهم من أنهم لا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان به ، بل يستمرون على ما هم عليه حتى يعاينوا العذاب المكره لهم على الإيمان فجأة من غير توقع وانتظار وهم لا يشعرون بإتيانه .

وقرئ : فتأتيهم بالتاء، والمراد : فتأتيهم الساعة ، وأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها عليهم ، ولكثرة ما فى القرآن من ذكرها .

وقال رجل للحسن وقد قرأ (فتأتيهم) : يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب فانتهره وقال : إنما الساعة تأتيهم بغتة . ا هـ من تفسير القرطبي وغيره .

(فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ) : أى فيتمنون حين يرون العذاب ، التأخير والإمهال ليعملوا بطاعة الله تداركًا لما فاتهم تفريطًا وإهمالًا فلا يجابون إلى ما أملوه مما يملأ نفوسهم حسرة وحزنًا ، كما قال الله تعالى : « وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ »[1] .

وهذه الآيات تصوير وتمثيل لحال مشركى مكة الذين ماتوا على الكفر قبل فتح مكة سنة ثمان من الهجرة .

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾
ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا
يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ
وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾)

(١) آية ٤٤ من سورة إبراهيم .

المفردات :

(إن مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ) : أى إن أخرناهم سنين وجعلناهم ينتفعون بالمتاع ، ويطلق على كل ما ينتفع به من مأكل ومشرب وأثاث ونحوها . (مَا كَانُوا يُوعَدُونَ) : من العذاب ، والوعد: مع المفعول يستعمل فى الخير وفى الشر ، فإذا أسقطوا المفعول وهو الخير والشر قالوا فى الخير: الوعد والعدة ، وفى الشر: الإيعاد والوعيد ، فإذا جاءوا بالباء فى الشر جاءوا بالهمز فقالوا : أوعده بالسجن . ا هـ : مختار الصحاح بتصرف .

(إلَّا لَهَا مُنذِرُونَ) : أى مخوفون من العقاب .

(وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) : أى واضعين الشىء فى غير موضعه حينما أنزلنا بهم العذاب .

التفسير

٢٠٤-٢٠٧ـ (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَآ أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) :

الآيات توبيخ للمشركين وإنكار عليهم فى قولهم للرسول تكذيبًا واستبعادًا : « فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[1] ، وقولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا »[2] .

قال مقاتل : قال المشركون للنبى – صلى الله عليه وسلم – : يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب فنزلت هذه الآيات .

ومعناها : كيف يستعجلون عذابنا تكذيبًا به ، واستبعادًا لوقوعه ، وهو لاحق بهم لا محالة لكفرهم مهما طال عليهم الأمد ، أخبرنى – أيها العاقل – عن هؤلاء المكذبين إن متعناهم سنين متطاولة بمختلف أنواع المتع الدنيوية التى أملوها ، فطالت أعمارهم ، وصحت أبدانهم ، وكثرت أموالهم وأولادهم ، وتحققت كل رغباتهم ، ثم أتاهم الذى كانوا يوعدونه من العذاب ، فأى شىء أغنى عنهم ما كانوا فيه من متاع الدنيا؟ إنه لا يغنى عنهم شيئًا فى دفع العذاب أو تخفيفه ، وإنما هم فى العذاب خالدون . وفى هذه الآية : « مَآ أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

(٢) من الآية ٩٢ من سورة الإسراء .

روى عن ميمون بن مهران أنه لقى الحسن - رضى الله عنه - فى الطواف، وكان يتمنى لقاءه، فقال له: عظنى، فلم يزد على تلاوة هذه الآيات، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت.

٢٠٨، ٢٠٩ - (وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ . ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) :

أى: وما أنزلنا الهلاك بقرية من القرى إلا بعد أن بعثنا إليها رسلًا منذرين أنذروا أهلها بالعقاب إن خالفوا أوامر الله ونواهيه، حتى لا تكون لهم على الله حجة (وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ): ولسنا مجاوزين الحق فى الجزاء، فنهلك غير الظالمين؛ لأنه ليس من شأننا أن يصدر عنا بمقتضى الحكمة ما هو ظلم بأن نعاقب من لم يظلم أو بأن نعذب أحدًا قبل إنذاره، كما قال تعالى: « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا »(١).

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾)

المفردات:

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ): أى لم تتنزل الشياطين بالقرآن الكريم، والشياطين: جمع شيطان، من: شاط بمعنى احترق أو من: شَطَنَ بمعنى بَعُدَ.

(وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ): أى أن التنزل بالقرآن لا يصح أن يكون من شأنهم.

(لَمَعْزُولُونَ): أى لممنوعون عن السمع.

التفسير

٢١٠ - ٢١٣ - (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ . فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) :

---

(١) من الآية ١٥ من سورة الإسراء.

ردٌّ لما زعمه كفار قريش أن لمحمد – عليه الصلاة والسلام – تابعًا من الجن يخبره كما تخبر الكهنة ، وأن القرآن مما ألقاه إليه التابع ، أى : لم يحدث ما زعمتموه من نزول الشياطين بالقرآن ، لما أشار إليه قوله سبحانه : (وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) : أى ما يصح ولا يليق أن يحملوه وينزلوا به ؛ لأن من سجاياهم الإفساد ، وإضلال العباد ، والقرآن فيه الإصلاح وهداية العباد بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو نور وهدى للعالمين ، فبينه وبين الشياطين منافاة بينة ، ولهذا حيل بينهم وبين السماء حال نزول القرآن على الرسول ، فقد ملئت حرسا شديدا وشهبا ، فكيف يستطيع أحد أن يخلص إلى استماع حرف منه ؟ إنهم منعوا من ذلك ؛ رحمة بعباده ، وحفظًا لشرعه ، وصيانة لقرآنه من تخليط الشياطين وإضلالهم ، ويشير إلى هذا قوله سبحانه : (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) فى هذه الآية تعليل لنفى تنزلهم بالقرآن ، أى : أن الشياطين عن السمع لما يتكلم به الملائكة فى السماء لممنوعون بالشهب بعد أن كانوا مُمَكَّنِينَ منه ، كما قال تعالى مخبرًا عن الجن: « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا »[1] .

أو : إنهم عن السمع لمعزولون لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة ، حيث إن ذوات الملائكة نورانية ، وصفاتهم خيِّرة ، ونفوس الشياطين خبيثة ظلمانية ، وصفاتهم شريرة ، غير مستعدة إلا لقبول مالا خير فيه ، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن المنطوى على الخير والهدى والرشاد ؟ فلهذا صان الله كتابه ، فأنزله بالروح الأمين على قلب رسوله الأمين ، ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين ، وحرسه من الشياطين .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) : خوطب النبى – صلى الله عليه وسلم – ليعلم الناس أن الله تعالى لا يقبل الإشراك من أحد، فهو فى الحقيقة خطاب لجميع المكلفين ببيان أن للإشراك من القبح والسوء ما يجعله حقيقا بأن يُنْهى عنه من لايمكن صدوره منه ؛ فكيف بمن عداه ؟ أو خوطب به والمراد أمته ، فهو فى الحقيقة خطاب للأمة فى شخص إمامها ونبيها .

---

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الجن .

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾)

المفردات :

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) : العشيرة ؛ القبيلة ، والجمع : عشيرات وعشائر ، والمراد بها قريش ، وقيل : عبد مناف . (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ) : الجناح ؛ اليد والعضد والإبط والجانب وهو المراد هنا ، : أى ألن جانبك ، وجمع الجناح : أجنحة وأجنُح .

(الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) : إلى الصلاة ، أو حيثما كنت .

(وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ) : المراد بالساجدين ؛ المصلون ، : أى ويرى تصرفك وتغيرك من حال كالجلوس إلى حال كالقيام بين المصلين إذا أممتهم .

التفسير

٢١٤ - ٢١٦ - (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) :

أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن ينذر عشيرته الأقربين ويخوفهم من العذاب الذى يستتبعه الشرك والمعاصى ؛ فإن الاهتمام بشأنهم أهم ، وليكونوا اللبنة الأولى للأمة الإسلامية ، أو ليعلموا أنك لاتغنى عنهم من الله شيئًا وأن النجاة فى اتباع شرعه دون قرابته .

روى مسلم من حديث أبى هريرة : لما نزلت هذه الآية :(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريشًا فاجتمعوا ، فعمَّ ، وخصَّ ، فقال :« يا بنى كعب ابن لؤى : أنقذوا أنفسكم من النار . يابنى مرة بن كعب : أنقذوا أنفسكم من النار .

يا بنى عبد شمس : أنقذوا أنفسكم من النار . يا بنى عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة : أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئًا ، غير أن لكم رَحِما سأبُلُّها بِبَلالها »[١] .

ويؤخذ من الحديث أن القرب فى الأنساب لا ينفع مع البعد فى الأسباب ، وأنه لا مانع من أن يصل المؤمن الكافر وأن يقدم له النصيحة والإرشاد ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »[٢] .

ثم أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالتواضع ولين الجانب ، وإحسان المعاملة مع من اتَّبعه وصدَّق به وذلك فى قوله تعالى : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى : وألن جانبك للذين آمنوا بك إيمانًا حقيقيا من عشيرتك الأقربين ومن غيرهم ، ومِنْ للبيان .

٢١٦ – (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) :

أى : فإن أعرضت عنك عشيرتك الأقربون ولم يتبعوك بعد إنذارهم ، فقل لهم : إنِّى برىء من عملكم الشامل لاتخاذكم مع الله إلهًا آخر ، والمراد بهم : من تمسك بالشرك من عشيرته الأقربين مع إنذارهم ، والمراد من براءته – صلى الله عليه وسلم – من عملهم : أنه ليس مسئولًا عنه ، وإنما يسأل عنه صاحبه ، وذلك قبل أن يؤمر النبى – صلى الله عليه وسلم – بجهاد المشركين كافة .

٢١٧ – (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) :

أى : وفوض أمرك إليه – سبحانه وتعالى – فإنه القادر بعزه وسلطانه على قهر أعدائه ، ونصر أوليائه .

قال الجنيد رحمه الله : التوكل ؛ أن تقبل بالكلية على ربك ، وتعرض بالكلية عما دونه فإن حاجتك إليه عزَّ وتعَال فى الدارين .

(١) البلال : الندى ، والمراد به هنا الخير ، والمعنى : سأصلكم بالخير الملائم لها .
(٢) الآية ٨ من سورة الممتحنة .

وتقديم وصف العزة المنبىء بقهر أعدائه - صلى الله عليه وسلم - وإهلاكهم أوفق بمقام التسلى والصبر على المشاق اللاحقة به من هؤلاء المشركين .

٢١٨ ، ٢١٩ - (الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ) :

المراد من الساجدين هنا : المصلون ، أى : الذى يراك حين تقوم للصلاة ، وتتصرف فيما بين المصلين بقيامك وركوعك وسجودك وقعودك إذا أَمَمْتَهُم . هكذا قال ابن عباس .

وقيل : يراك حين تقوم للتهجد ، ويرى تقلبك بين المتهجدين بذهابك ومجيئك فيما بينهم ؛ لتصلح أحوالهم ، ولتطلع عليهم من حيث لا يشعرون ؛ لتعلم كيف يعملون لآخرتهم[1] .

وقال مجاهد : يراك حيثما كنت .

٢٢٠ - (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) : أى السميع لأقوال عباده ، ولكل ما يتعلق به السمع ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، وبكل ما يتعلق به العلم ، ويندرج فيه ما تنويه وتعمله ، كما قال تعالى : « وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ . . . » الآية[2] .

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾)

المفردات :

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ) : أى هل أخبركم ، وفعله نبّأ . يقال : نبأه الخبر ، وبه .

(عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) : أى على كل من اتصف بكثرة الإفك وهو الكذب ،

---

(١) روى أنه - عليه السلام - لما نسخ فرض قيام الليل طاف - عليه السلام - تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعتهم ، فوجدها كبيوت الزنابير ، لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن .

(٢) سورة يونس ، من الآية : ٦١

وبكثرة الإثم وهو أن يعمل ما لا يحل ، ويطلق عليه : الذنب ، وفعله أَفِكَ كضرب وعلم ، إفكا - بكسر الهمزة وفتحها ، وَأَفَكًا بالتحريك - وأُفوكا كأَفَّكَ ، أى : كذب ، وأثيم : فعيل من أَثِم كعلم إثمًا ومأثمًا فهو آثم وأثيم وأثّام .

التفسير

٢٢١-٢٢٣ - (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) :

الآيات استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد بيان امتناع نزولهم بالقرآن فيما سبق ، وللرد على قول المشركين الذين قالوا : إن ما جاء به محمد ليس حقًّا ، وإنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أتاه به رَئِيٌّ ، أى : تابع من الجن . تنزيهًا من الله سبحانه وتعالى لجناب رسوله عما قالوه كذبًا وافتراءً ، وتنبيهًا على أن الذى جاء به هو من عند الله نزل به ملك كريم ولم تأت به الشياطين ، فإنهم لا رغبة لهم فى مثله ، ولا ينزلون إلَّا على من يشابههم ويشاكلهم ، كما قال تعالى : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ » : أى هل أُخبركم على مَنْ تتنزل الشياطين ، تتنزل على كل من اتصف بالكذب الكثير والذنب العظيم من الكهنة والمتنبئة وما جرى مجراهم من الفسقة والفجرة أمثال : سطيح ، وطليحة ، ومسيلمة ، فلا تتنزل الشياطين إلَّا على مثلهم فلا يتجاوزهم ، ولا ينفك عنهم إلى غيرهم من الصالحين وبخاصة الأنبياء ، وحيث تنزهت ساحته - صلى الله عليه وسلم - عن نزولهم اتضح أن الذى نزل بالقرآن عليه ملائكة الله المقربون .

(يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) : أى يلقى الأفاكون سمعهم إلى الشياطين ، ويتلقون وحيهم إليهم ، وإلقاء السمع مجاز عن شدة الاهتمام والمبالغة فى الإصغاء إلى ما يلقى إليهم ... إلخ .

أو المراد : يلقى الأفاكون ما سمعوه من الشياطين إلى أتباعهم وأوليائهم .

وأكثر الأفاكين مفترون كاذبون ، يفترون على الشياطين ما لم يخبروهم به ، على معنى أنهم قلَّما يصدقون فيما يحكونه عن الجنىّ ، وإنما هم فى أكثره كاذبون ، فقد جاء فى الحديث

أن الكلمة يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه ، فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة ، ولا كذلك محمد – صلى الله عليه وسلم – فقد أخبر عن مغيبات كثيرة وصدق فى جميعها ، والمراد من أكثرهم فى قوله تعالى : (وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) :جميعهم ، أو غالبهم ، وهذا كاف فى عدم الاطمئنان إلى أقاويلهم .

وقيل : المراد من قوله تعالى : (يُلْقُونَ السَّمْعَ) :هم الشياطين ، وكانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يتسمعون إلى الملإ الأعلى ، فيخطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلع عليه الملائكة من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم من الإنس ويزيدون على ما يسمعون أكثر من مائة كذبة فيصدقهم الناس فى كل ما يقولون .

روى البخارى من حديث الزهرى قال : أخبرنى يحيى بن عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة – رضى الله عنها – : سأل الناس النبى – صلى الله عليه وسلم –عن الكُهَّان ؟ فقال : « إنهم ليسوا بشىء » فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثون بالشىء يكون حقًّا ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيُقَرْقِرُها (أى : يرددها) كقرقرة الدَّجاجة ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة. وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم ؛ لأنهم يُسْمِعُونهم مالم يسمعوا من الملائكة لشرارتهم ، أو لقصور فهمهم ، أو لأنهم لا يسمعون حقًّا وإنما هو كذب واختلاق » .

(وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾)

المفردات :

(وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) : أى شعراء الكفار ومن ماثلهم من أهل الضلال .

(فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) : أى هم متحيرون ، فلا يهتدون إلى الجادة ، يقال : رجل هائم وهيوم بمعنى متحير . (انتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) : أى عالجوا أسباب النصر بوسائل الحق حتى تحقق لهم . (أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) : أى أىّ تحوُّل وتغير يصيبهم بين يدى الله . فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر الثواب ، والفعل : قَلَبَه من باب : ضرب ونصر : حوَّله ظَهْرًا لبطن ، والمنقَلَب : اسم زمان أو مكان ما يحيق بهم .

التفسير

٢٢٤–٢٢٧ – (وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) :

الآيات استئناف مسوق لإبطال ما قاله المشركون فى حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر ، وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله – عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام – تنزيهًا عن الاتصاف بما وصفوه به حيث قال سبحانه : (وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) : أى أن من يحق وصفهم بالشعر هم شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله ويقولون فيه كل كذب وباطل ، والذين يشيعون بشعرهم الفحش والخنا

فيمزقون الأعراض ، وينشرون المثالب ، ويقدحون فى الأنساب ، ويفرطون فى الثناء والهجاء ابتغاء عرض زائل ، ومنزلة حائلة ،ومع كل واحد غواة قومه – وهم السفهاء – يجارونهم ويسلكون مسلكهم ، وعن ابن أبى طلحة : هم ضلال الجن والإنس ، وشعر هؤلاء – كما يقول القرطبى فى تفسيره – : ضلال وباطل لايبيحه خلق ولا دين فلايحل سماعه ولا إنشاده فى مسجد وغيره كمنثور الكلام القبيح ونحوه .

أما شعر غيرهم من أهل الرشاد والنُّهى المهتدين إلى طريق الحق المنافحين عن دين الله فلا بأس به قولًا أو سماعًا ، فمثل شعرهم كان يقبل على سماعه الرسول والتابعون ، ولا ينكر الشعر الحسن فى مبناه ومعناه أحد من أهل العلم ، وكثير منهم قاله وتمثل به ، أو سمعه فأنصت إليه وأثنى عليه ، حيث كان حكمة وعظة ، ولم يكن هجرًا ولا أذى لمسلم . روى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على المنبر يقول : « أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد : ألا كل شىء ما خلا الله باطل » أخرجه مسلم ، وزاد : « وكاد أمية بن أبى الصلت أن يُسْلم »[1] ذكر ذلك القرطبى . وقال – صلى الله عليه وسلم – فى الشعر الذى يرد به حسان على المشركين : « إنه لأسرع فيهم من رشق النبل » أخرجه مسلم .

وما أحسن قول الماوردى : الشعر كلام العرب ، مستحب ، ومباح ، ومحظور ، فالمستحب : ما حذر من الدنيا ورغب فى الآخرة ، وحث على مكارم الأخلاق ، والمباح : ما سلم من فحش وكذب ، والمحظور : ما كان كذبًا وفحشًا ، وجعل الرويانى منه ما فيه الهجو لمسلم سواءٌ كان بصدق أو كذب .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) :الاستفهام للتقرير ، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية للإيذان بأن حالهم من الظهور والوضوح بحيث لا يختص برؤيته راءٍ ، أى : ألم تر أن الشعراء يهيمون على وجوههم فى كل واد من أودية الغى والضلال ، وفى كل مسلك من مسالك الزور والبهتان وفى كل شعْب من شعاب الوهم والخيال ، لا يهتدون إلى الحق الذى

---

(١) كان أمية كثير العجائب يذكر فى شعره خلق السموات والأرض ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء ، وكان قريباً من أهل الكتاب وهو من شعراء الطائف .ا ه : من فحول الشعراء لابن سلام الجمحى .

يدعو من اتبعه إلى التثبت والتروى والصدق ويحول بينه وبين شهوة الشهرة التى تطمس على قلبه وبصيرته ، فلا يكترث بما فعل ، ولايبالى بما قال ، ولا يستبين طريق الحق التى تدعوه إلى الإقلاع عما تعوده من كل خلق قبيح ، وأسلوب ذميم ، وإفراط وتفريط (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) من الأفاعيل التى ذكروها فى شعرهم ، ورددوها فى قصيدهم غير مكترثين بما يستتبعه صنيعهم من لوم وتقريع كما كانوا يحثون فى قولهم على الكرم والجود والمواساة وإغاثة الملهوف مع أنهم من كل ذلك بَراء ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

فكيف يتوهم أن ينتظم الرسول فى سلكهم وقد تنزهت ساحته عن أن تحوم حوله شائبة الاتصاف بشىء من الأمور المذكورة ، فقد كان معروفًا بمحاسن الصفات ، وكريم الخلال ، وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجميع الملكات الإنسية ، ولم يكن أتباعه كأتباعهم سفهاء ضالين ، وإنما هم هداة مرشدون ، لهم فى رسول الله أسوة حسنة .

روى ابن عباس أن الآيات نزلت فى شعراء المشركين : عبد الله بن الزِّبَعْرى ، وهبيرة ابن أبى وهب المخزومى ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبى عَزَّةَ الجمحى ، وأمية بن أبى الصلت . قالوا : نحن نقول مثل قول محمد ، وكانوا يهجونه ، ويجتمع لهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم ، وهم الغاوون .

والظاهر من السياق أنها نزلت عامة شاملة لجميع شعراء الكفار ، ويدخل فيهم هؤلاء الشعراء دخولًا أوليًّا .

ثم استثنى – سبحانه – بقوله : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا . . . الآية) شعراء المؤمنين الذين كانوا يدعون إلى التوحيد ويثنون على الله – تعالى – ويحثون على امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وقد ابتغوا فيما آتاهم الدار الآخرة ، ولم يُغْفلوا نصيبهم من الدنيا ، وذكروا الله كثيرًا ، ولو وقع منهم فى بعض الأوقات هجو ، وقع منهم بطريق الانتصار إلى الحق ، وبما حده الله عز وجل من غير ظلم أو زيادة على ما قيل فيهم افتراءً وعدوانًا .

وقيل : المراد بالذين استثناهم الله – سبحانه وتعالى – شعراء المؤمنين الذين كانوا ينافحون عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وَيُقَبِّحُون بهجائهم هُجَاةَ قريش ، واستدل لذلك

بما أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة : أن هذه الآية نزلت فى رهط من الأنصار هَاجَوْا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – منهم : كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، كما استدل عليه بما أخرجه جماعة عن أبي سالم حسن بن البراء أنه قال : لما نزلت « وَالشُّعَرَآءُ . . . » الآية ، جاء عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وهم يبكون ، فقالوا : يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية ، وهو يعلم أنّا شعراء فأنزل الله (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا . . .) الآية . فدعاهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فتلاها عليهم .

وقد سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الشعر ، وأجاز عليه ، وكان يقول لحسان ابن ثابت : « اهجهم – يعنى المشركين – وإن روح القدس سيعينك » ، وفى رواية : « اهجهم وجبريل معك » ، وعن كعب بن مالك – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « اهجهم فوالذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من النبل » ذكر ذلك أبو السعود ، والآلوسى فى تفسيرهما .

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) : تهديد شديد لكل من انتصر بظلم يشير إليه الإبهام والتهويل فى قوله تعالى : (أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) . وقرأ ابن عباس : أى منفلت ينفلتون ؛ من الانفلات وهو النجاة .

والمعنى على القراءتين لا يختلف فى غايته ، فهو على القراءة الأولى : وسيعلم الذين ظلموا من الشعراء وغيرهم أى مصير يصيرون ، وأى مرجع يرجعون ؛ لأن مصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع ، ويومئذ لا تنفعهم معذرتهم عما فرطوا فى جنب الله . كما قال تعالى : « يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ »[1] .

---

(١) الآية : ٥٢ من سورة غافر .

وعلى القراءة الثانية : أن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى ، وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات ينفلتون إليه من عذاب الله طمعًا فى النجاة حيث توصد فى وجوههم كل الطرق والمسالك ، ويساقون إلى النار فهى مصيرهم وإلى العذاب مرجعهم .

وكون الآية عامة فى كل ظالم هو الصحيح كما قال ابن أبى حاتم ، وقيل : المراد بالظالمين أهل مكة فهو عام أريد به خاص .

« سـورة النمـل »

مكية وآياتها ثلاث وتسعون

مقاصدها :

بينت هذه السورة أن القرآن هدى وبشرى للمؤمنين ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة معذبون أسوأ العذاب وهم الأخسرون يوم الدين .

وتحدثت عن قصة موسى وأهله عند رجوعه من مدين إلى مصر بعد هجرته إليها ، فذكرت أنه رأى نارًا وأنه ذهب إليها ليأتيهم بقبس منها يستدفئون به ، فلما وصل إلى مكان النار سمع نداءً يقول : « بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . يَا مُوسَىٰٓ إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » .

ثم تحدثت عما جرى بينه وبين فرعون وقومه على سبيل الإجمال ، حيث ذكرت أنهم جحدوا بآياته وزعموها سحرًا ، فساءت عاقبتهم بسبب كفرهم .

وتحدثت عن داود وسليمان بأن الله آتاهما علمًا فضلهما به على كثير من عباده المؤمنين ، وأن سليمان خلف أباه داود فى النبوة والملك ، وأن الله ـ تعالى ـ علمه وأباه منطق الطير وأعطاهما طرفًا من كل شىء .

وذكرت أنه ـ تعالى ـ جمع لسليمان جنودًا من الجن والإنس والطير ، فلما أتوا على وادى النمل قالت نملة لجماعتها آمرة ومحذرة : « ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » فضحك سليمان لقولها هذا ، ودعا ربه أن يعينه على شكر نعمته التى أنعمها عليه وعلى والديه ، ويوفقه لصالح العمل الذى يرضيه وأن يدخله برحمته فى عباده الصالحين .

وذكرت أنه تفقد الطير التى جعلها الله من جنوده ، فلم يجد الهدهد ، فعجب لتخلفه عن موقعه ، وتوعده بالتأديب الشديد، ما لم يأته بسبب مقبول يقتضى تخلفه ، فلم يطل غيابه ، بل حضر إليه وأخبره بخبر عجيب ، إذ قال : « أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . . . » الآيات .

فلما فرغ من حديثه العجيب قال له سليمان : « سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » وبعث معه رسالة إلى ملكة سبأ ، وأمره بمراقبتها بعد وصول خطابه إليها ، ليعلم منه كيف تتصرف عندما يحدق بها الخطر ، فحمل كتابه وألقاه إليها ، فجمعت أشراف قومها قائلة : « يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ » وطلبت منهم الإفتاء وبذل المشورة فى هذا الأمر الخطير ، إذ قالت : « أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ » ، فردوا قائلين : « نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ » فلما أحست منهم الميل إلى القتال دفاعًا عن البلاد قالت : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً . . . » ورأت المصالحة بإرسال هدية إلى سليمان — عليه السلام — لترى أثرها عنده ، فلما وصل الرسول بهديتها ردها سليمان إليها ، وأخبرها بأن الله أعطاه خيرًا مما أعطاها ، ولم يقبل منها سوى الاستسلام ، حتى لا يأتيهم بجنود لا قبل لهم بها ، فيخرجوا من بلادهم أذلة صاغرين .

ثم طلب من جلسائه أن يحضروا لها عرشها قبل أن تأتيه مسلمة ، فكان أسرعهم مَنْ عنده علم من الكتاب ، حيث جاء به قبل أن يرتد إليه طرفه فشكر الله — تعالى — على تلك النعمة ، وطلب من أتباعه أن يُنكِّروه لها لتغيير هيئته ليعرف مقدار فطنتها « فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ » ، ثم قيل لها : ادخلى القصر ، فلما دخلته رأت صَحْنه كأنه ماء ، فكشفت عن ساقيها ، فقال : إن ما تظنينه ماء هو صرح أملس من

زجاج ، وحينئذ قالت معترفة بخطئها فى عبادة الشمس : « إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

ثم حكت السورة قصة هود مع نبيهم صالح وكفرهم . . . وتآمرهم على قتله وأن الله عاقبهم على مكرهم بإهلاكهم أجمعين وأنجى صالحًا ومن معه من المؤمنين .

وذكرت قصة قوم لوط ، وقد جاء فيها لومه إياهم على إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء : « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » : أى يتنزهون عن أفعالنا ولا يرضونها لأنفسهم ، فأنجاه الله وأهله المؤمنين ، وأهلك سواهم من الكافرين وفيهم امرأته .

ثم ناقشت المشركين وقارنت بين معبوداتهم الضعيفة وبين الله الواحد القهار ، وبدأت المناقشة بقوله تعالى : « آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ » وبينت آثار قدرة الله ونعمه : فذكرت أنه خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة ، وأنه جعل الأرض قرارًا وجعل خلالها أنهارًا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزًا دون أن يكون مع الله إله فى خلق هذه الكائنات والنعم العظيمة .

ثم عقبت ذلك ببيان كثير من النعم الجليلة التى لم ينعم بها سوى الله ، وساءلتهم فى كل ذلك منكرة عليهم شركهم : « أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ » .

ثم عابت عليهم شكهم فى الآخرة وقولهم : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ » وزعمهم أن أمر الآخرة من أساطير الأولين ، وردت عليهم بقوله تعالى : « قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » ودعت نبيه – صلى الله عليه وسلم – إلى عدم الاهتمام بإعراضهم ، فذكرت قول الله – تعالى – : « وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ » وتوعدتهم بقوله تعالى : « قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ » وبقوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ » .

ثم بينت أن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه مختلفون ، وأمرت النبي بالتوكل على الله بقوله – تعالى – : « فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ » وبينت

أن خصومه يشبهون الصم العمى ، فما هو بمسمعهم ولا هاديهم : « إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ » .

وذكرت أنه إذا قرب وقوع القول عليهم — وهو ما وعدوه من البعث والعذاب — أخرج الله دابة من الأرض تكلمهم ، وتكون حجة عليهم ، لأن الناس صاروا بآيات الله لا يوقنون ، وسيأتى بسط الحديث فى شأنها فى موضعها من السورة .

ثم بينت أنه يوم ينفخ فى الصور يفزع أهل السموات والأرض إلَّا من شاء الله كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، ممن يثبتهم الله يومئذ ، وأن الجبال فى هذا اليوم تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، وأن أصحاب الحسنات يجازون يومئذ بخير منها ، وأصحاب السيئات من الكفار يكبون على وجوههم فى النار .

ثم ختمت السورة ببيان أن الله — تعالى — أمر نبيه أن يعبد رب هذه البلدة التى حرمها وهى مكة ، وله كل شىء ، وأمره أن يكون من المسلمين وأن يتلو القرآن ، وأن يقول لقومه : « الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ
لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ
أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ
وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(تِلْكَ) : إشارة إلى السورة . (آيَاتُ الْقُرْآنِ) : أى آيات من القرآن ، فالإضافة على معنى مِنْ . (مُبِينٍ) : موضح للأحكام والأخلاق والعظات ، من : أبان غيره ، : أى أوضحه ، أو الواضح بإعجازه ومعانيه ، من : أبان اللازم بمعنى اتضح . (يَعْمَهُونَ) : يتحيرون ويترددون .

التفسير

١ - (طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ) :

« طس » اسمان لحرفين من حروف المعجم ، هما الطاء والسين ، وقد مضى الكلام بشأن مثلهما فى أوائل سور : البقرة وآل عمران ويونس وهود وغيرها ، فارجع إليها إن شئت ، ونزيد على ذلك أن بعض المعنيين بإعجاز القرآن الكريم أثبتوا بالآلات الحاسبة : (الكمبيوتر) أن كل سورة بدئت بمثل هذه الفواتح ، تغلب فيها الحروف التى بدئت بها على سائر الحروف التى تكونت منها كلمات السورة ، وبما أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب فذلك شاهد على أن القرآن ليس من تأليفه - كما زعم أعداء الحق - بل هو من عند الله العزيز الحكيم .

والمراد بقوله : « وَكِتَابٍ مُّبِينٍ » القرآن نفسه ، وتنكيره للتعظيم والتفخيم ، وقد وصف به على سبيل العطف للإيذان بأنه جامع بين صفتين : إحداهما ، أنه معجزة مقروءة على الدوام ، وثانيتهما : أنه كتاب مبين لما اشتمل عليه من الحِكم والأحكام ، وأحوال القرون الأولى والمعجزات الكونية ، وأحوال الآخرة ، والعقائد النظيفة التى لا تناقض فيها ولا استحالة ، وكما أنه موضح لما ذكر فهو واضح لكل قارئ ولكل سامع ؛ فلا يصعب فهمه على أحد ، أميا كان أو قارئا .

وقد فاقت معجزة القرآن سائر المعجزات السابقة ، لأنها لا وجود لها الآن ، فأين عصا موسى ، وناقة صالح ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى من عيسى بإذن الله ؟ لقد ذهبت كلها وأصبحت خبرًا بعد عين ، ولولا أن القرآن أيدها لكانت موضعًا للشك والريبة. أما معجزة القرآن فهى باقية ما بقى الزمان ، واضحة الإعجاز والبيان ، لأن شريعته التى جاء بها هى الشريعة العامة للبشرية ، الخاتمة لجميع الشرائع ، فلذلك جعله الله آية باقية مقروءة مكتوبة ، بينة مبينة محفوظة من التغيير والتبديل ، بكفالة العزيز الحكيم : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[(1)] .

ومعنى الآية : طس : تلك السورة آيات وعلامات من القرآن وكتاب مبين للعقائد الصحيحة ، والأحكام السديدة ، والأخلاق الرشيدة ، والغيبيات على ما هى عليه ، والكونيات وما ترشد إليه .

٢ ، ٣ - (هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) :

أى هذا القرآن عظيم الهداية والبشارة للمصدقين ، الذين يضمون إلى تصديقهم به إقامتهم الصلاة فى مواقيتها ، وإيتاءهم الزكاة لمن يستحقها ، وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب مصدقون ، لا يشكون ولا يمارون ولا يجادلون بل يعملون لها مخلصين ، فإن إيمانهم بها يحملهم على صدق النية وإخلاص العمل ، خوفًا من العقاب ، ورغبة فى جميل الثواب .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩

والمراد من الزكاة هنا : مطلق الصدقة ؛ فإن الزكاة بمعناها المعروف فرضت بعد الهجرة في حين أن هذه السورة مكية .

٤ ـ (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) :

فى هذه الآية والتى بعدها بيان لحال الكفرة ومآلهم بعد بيان أحوال المؤمنين وعاقبتهم .

ومعلوم أن الشيطان هو الذى يزين القبائح والمعاصى لأصحابها فيقبلون عليها كما قال ـ تعالى ـ فى سورة النحل : « تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » الآية ٦٣

وإسناد التزيين هنا إلى الله تعالى مجاز عن تخليه عن معونتهم وتركهم لشياطينهم وغرائزهم الشريرة ، التى تزين الكفر والمعاصى إلى نفوسهم ، بسبب إصرارهم على الكفر بالآخرة .

والمعنى : إن الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء ، وظنوا أن الحياة هى الحياة الدنيا فانصرفوا إليها ، ولم ينفعهم نصح أنبيائهم ، فهؤلاء تخلينا عن معونتهم على الهدى ، وتركناهم لشهواتهم وشياطينهم ، لتزين لهم ما هم فيه ، فهم فى غيهم يتحيرون ويترددون ، والعمى صفة البصر ، والعمه صفة البصيرة ، فبصيرتهم فى ظلام الضلال ؛ لاتدرك ما ينفعها ولا ما يضرها .

٥ ـ (أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) :

أى ؛ أولئك الذين كفروا بالآخرة وتركناهم فى ضلالهم ، قضينا عليهم بالعذاب السىء فى الدنيا بالقتل والأسر وغير ذلك من محن الحياة الدنيا ، وهم فى الآخرة هم الأشد خسراناً منهم فى الدنيا ، حيث يخلدون فى النار وبئس القرار ، ولا توجد خسارة أفدح من هذه الخسارة .

ويصح أن تكون كلها فى عذاب الآخرة ، على معنى أن لهم العذاب السىء فيها ، وهم أشد الناس خسارة حينئذ ، لحرمانهم من الثواب ، واستمرارهم فى العقاب ، بخلاف عصاة المؤمنين .

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ ﴾

المفردات :

(مِن لَّدُنْ) : من عند . (حَكِيمٍ) : غظيم الحكمة ، والحكمة : إتقان الأمور . (آنَسْتُ) : أبصرت . (بِشِهَابٍ قَبَسٍ) : بشعلة نار مقبوسة ومأخوذة من النار التى أبصرها . (تَصْطَلُونَ) : تستدفئون . (بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) : جعلت البركة لمن فى البقعة التى فيها النار ، ولمن فى الأماكن التى حولها .

(الْعَزِيزُ) : القوى الذى يَقْهرُ وَلَا يُقْهَر .

التفسير

٦ـ (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) :

بينت الآيات السابقة بعض شئون القرآن ، وجاءت هذه الآية تمهيدًا لما يليها من القصص التى اشتملت عليها ، وهى مستأنفة لهذا الغرض ، وليست معطوفة على ما قبلها ، والذى يُلْقِى القرآن على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عند الحكيم العليم هو الروح الأمين جبريل ـ عليه السلام ـ قال تعالى: « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ »(١) .

(١) سورة الشعراء ، الآيات : ١٩٣ ـ ١٩٥

وقد تضمنت الآية تحقيقًا لنزوله من عند الله وتأكيدًا لذلك وتفخيمًا لشأنه ، فالآية واضحة الإشارة إلى أن هذا القرآن مشتمل على حِكَمٍ عظيمة ، وعلم غزير ، لا يمكن أن يصدرا عن البشر ، وإنما يصدران عن إله حكيم عليم ، ولذلك صُدِّرَتْ بإنَّ واللام فى قوله : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ » وهما للتأكيد ، وجمع بين الحكمة والعلم ، لأن فيه ما هو من قبيل الحكمة كالعقائد الصحيحة والأحكام الشرعية الصالحة لكل زمان ومكان ، وما هو من قبيل العلم المطلق مثل القصص والأخبار الغيبية .

والواقع أن العلم يعم الحكمة وسواها ، ولكنه جمع بينهما للإيذان باشتمال القرآن عليهما جميعًا على أكمل وجه .

ومعنى الآية : وإنك – أيها الرسول – ليلقى إليك القرآن من عند حكيم عظيم الحكمة وإصابة الحق ، عليم واسع الإحاطة بالأمور ما وجد منها وما سوف يوجد ، لأنه فوق مستوى قدرة البشر : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[١] .

٧ – (إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) :

كان موسى – عليه السلام – قد خرج من مصر حين علم أن الملأ من قومها يأتمرون به ليقتلوه قصاصًا منه لقتله القبطى الذى اعتدى على رجل من بنى إسرائيل ، فخرج إلى سيناء وانتهى فى رحلته إلى مدين ، حيث عمل أجيرًا عند شعيب فى مقابل تزويجه إحدى ابنتيه ، فلما قضى المدة المتفق عليها ، حنَّ للرجوع إلى مصر ومعه أهله ، فسار بأهله فأدركها المخاض عند الطور ، فوضعت فى ليلة شاتية باردة ، وكان قد حاد عن الطريق لأمر شاءه الله – تعالى – وقد أصبح بحاجة إلى أمرين : أحدهما : أن يوقد نارًا ليستدفئ بها أهله ، وثانيهما : أن يهتدى إلى الطريق الموصل إلى مصر بعد أن حاد عنه ، وقد أدركته عناية الله وهو فى حيرته هذه ، حيث أظهر له نارًا على بعد قليل من الطور كما قال – تعالى – فى سورة القصص : « فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا »[٢] .

---

(١) سورة النساء ، من الآية : ٨٢

(٢) سورة القصص من الآية : ٢٩

وحينئذ قال لأهله : إنى أبصرت نارًا سآتيكم منها بخبر عن الطريق الذى نصل منه إلى مصر بسؤال من أوقدوا هذه النار ، أو آتيكم بشعلة مقتبسة ومأخوذة من هذه النار التى أراها ، لعلكم[١] بهذه الشعلة المقبوسة تستدفئون إذا جعلتها داخل حطب وأوقدته بها .

وإدخال السين على الفعل فى قوله : « سَآتِيكُم » لتأكيد الوعد وتحقيقه – كما قال الزمخشرى – ولإفادة مجيئه عن قرب حتى لا يستوحش أهله لتركه إياهم فى هذا المكان .

٨ – (فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) : فى الكلام مضاف مقدر ، أى : فلما جاءها بورك مَنْ فى مكان النار ومَنْ حول مكانها ، والمراد من مكان النار : البقعة المباركة المذكورة فى قوله تعالى : « نُودِىَ مِن شَاطِىءِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ »[٢] والمراد ممن فى بقعة النار ومن حولها : كل من فى هذا الوادى وحواليه من أرض الشام التى باركها الله بمبعث الأنبياء ودفنهم بها ، ولا سيما تلك البقعة التى كلم الله فيها موسى – عليه السلام – وقيل : من فى بقعة النار : موسى – عليه السلام – ومن حولها : الملائكة ، وقيل : العكس .

وقد نبه الله على جلال المقام ، وتنزهه – تعالى – عن الحلول وعن صفات البشر ، بأن ختم الآية بقوله – سبحانه وتعالى – : « وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

والنار التى رآها موسى – عليه السلام – لم تكن نارًا حقيقية ، فقد كانت نورًا كما روى عن ابن عباس : (لم تكن نارًا ، إنما كانت نورًا يتوهج) ، وهذا النور من نور الله تعالى – كما روى عنه .

ونقل القرطبى عن ابن عباس والحسن أن المعنى : قدس من فى النار وهو الله – سبحانه وتعالى – عنى به نفسه[٣] تقدس وتعالى ، ثم عقبه بقوله : قال ابن عباس ومحمد بن كعب :

---

(١) تستعمل « لعل » للرجاء ، وللتعليل ، وهى هنا صالحة لكليهما .

(٢) سورة القصص ، من الآية : ٣٠

(٣) أنكر الإمام هذه الرواية وقال إنها موضوعة ، وقال أبو حيان : إذا ثبتت هذه الرواية عن ابن عباس وغيره ، كان معناها بورك من قدرته وسلطانه فى النار ومن حولها . وقد شرحها القرطبى على هذا النحو حذراً من فكرة الحلول التى يأباها الإسلام ، وينزه عنها ابن عباس وأعلام الصحابة والتابعين ، وقد نقلنا ما قاله القرطبى فى ذلك ، وستراه بعد قليل .

النار : نور الله - عز وجل - نادى الله موسى ، وهو فى النور - قال القرطبي - وتأويل ذلك : أن موسى - عليه السلام - رأى نورًا عظيمًا فظنه نارًا ، وهذا لأن الله - تعالى - ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار ، لا أنه يتحيز فى جهة ، ومثله كمثل قوله - تعالى - : « وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ » (١) فإنه - سبحانه وتعالى - لا يتحيز فيهما ، ولكن يظهر فى كل فعل فيعلم به الفاعل ، وعلى هذا يكون « بُورِكَ مَن فِي النَّارِ » بمعنى قُدِّس مَنْ فِي النار سلطانه وقدرته وكلامه : انتهى بتصرف يسير .

ثم نقل القرطبي عن سعيد بن جبير كلامًا يشبه كلام ابن عباس وابن كعب ، إذ قال : كانت النار بعينها فأسمعه الله كلامه من ناحيتها ، وأظهر له ربوبيته من جهتها ، قال القرطبي : وهو كما روى أنه مكتوب فى التوراة : (جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبال فاران) (٢) فمجيئه من سيناء بَعْثُه موسى ، وإشرافه من ساعير بَعْثُه المسيح منها ، واستعلاؤه من فاران بَعْثُهُ محمدًا - صلى الله عليه وسلم - وفاران (مكة) وسيأتى فى القصص زيادة بيان لإسماع الله كلامه موسى : انتهى بتصرف يسير .

وإليكم تفسير الآية على أن منْ فى النار ومَنْ حولها هو موسى والملائكة فيما يلى :

فلما وصل موسى إلى النار التى رآها وهو بجانب الطور ، نودى نداءً إلٰهيًّا منبعثًا من الشجرة بأنه بورك موسى الذى فى بقعة النار ، وبورك مَنْ حولها من الملائكة ، وقيل لموسى : سبحان الله رب العالمين ، تنزيهًا له - تعالى - عن أنْ يشبهه شئٌ من مخلوقاته ، أو يحيط به شيء من مصنوعاته فلا تكتنفه أرض ولا سماء ، ولما وقف موسى مبهورًا متعجبًا من صدور الكلام عن النار ، أعلمه الله أنه - سبحانه - هو المتكلم فقال :

٩ - (يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

الضمير فى « إِنَّهُ » للشأن ، والعزيز الحكيم وصفان للفظ الجلالة ، ممهدان لما أُريد إظهاره على يد موسى - عليه السلام - من المعجزة .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ٣

(٢) جاء فى كتاب (محمد نبى الإسلام فى التوراة والإنجيل والقرآن) للمستشار محمد عزت الطهطاوى منقولا عن الإصحاح ٣٣ عدد ٢ من سفر التثنية على لسان موسى - عليه السلام - بلفظ : (جاء الرب من سيناء ، وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار ، فى يمينه سنة من نار ، أحب الشعوب ، جميع الأطهار بيده) انظره وشرحه فى ص ٩ من هذا الكتاب ، والمقصود من عبارة (بيده سنة من نار) شريعة الجهاد . التى جاء بها رسوله المبعوث من جبال فاران ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : ياموسى إن الأمر والشأن أنا الله القوى القادر على ما لا يقدر عليه غيرى من الأمور العظام التى من جملتها ما سوف أؤيدك به من المعجزات ، الحكيم الذى تصدر أحكامه وأفعاله بغاية الإحكام والسداد .

(وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(تَهْتَزُّ) : تتحرك باضطراب . (كَأَنَّهَا جَآنٌّ) : الحية الخفيفة السريعة .

(وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ) : انصرف راجعًا إلى الخلف ولم يَعُدْ ، من : عَقَّبَ المقاتل ، إذا كَرَّ بعد الفرار . (جَيْبِكَ):الجيب ، فتحة القميص من أعلاه إلى الصدر ، ليدخل منه الرأس ، واستعماله فى الفتحة التى يوضع فيها كيس الدراهم ونحوه مُوَلَّدٌ .

(فِى تِسْعِ آيَاتٍ) :أى ، آية معدودة من جملة تسع آيات . (مُبْصِرَةً) : بينة واضحة ، من أبصر ، بمعنى وضح مجازًا ، أو مُعينَة على البصر ، أى : على التبَصُّر ، من أبصر غيره ، أى : جعله يبصر بقلبه ويهتدى .

التفسير

١٠ - (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ . . .) الآية .

هذه الآية من جملة ما كلم الله به موسى من الشجرة ، وقد تضمنت أنه - تعالى - أمره أن يلقى عصاه من يده ، ليريه آية على أن الذى يكلمه هو الفاعل المختار القادر على كل شىء ، وقد شبهت العصا بعد تحولها بالجان ، وهى ضرب من الحيَّات أكثرها حركة وأسرعها اضطرابًا ، مع صغر فى الحجم ، وقد جاء تشبيهها بثعبان مبين فى قوله تعالى : « فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ »[١] والثعبان أكبر حجمًا من الجان ، فهى فى حجم الثعبان جسمًا ، وفى صورة الجان حركة واضطرابًا سريعًا ، فلذا عبر عنها بالكلمتين فى موضعين مختلفين من السوَر .

والمعنى : ونادى الله موسى : ألق عصاك الخشبية من يدك ، فألقاها فانقلبت حية ، فلما رآها تتحرك بشدة واضطراب كأنها جان فى سرعتها وخفتها ، انصرف عنها مدبرًا خوفًا منها ، ولم يرجع إلى المكان الذى كان فيه حين ألقى عصاه فناداه ربه مطمئنًا بقوله :

(يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) : يا موسى لا تخف من هذه الحية التى آلت إليها العصا ، ولا من غيرها فإنه لا يخاف فى حضرتى المرسلون ؛ لأننى أحميهم وأحفظهم من كل شىء .

وفى هذه الآية بشارة له بأنه سيكون من رسل الله - سبحانه وتعالى - وتعليم له بأنه لا ينبغى لمن يرسلهم الله إلى خلقه لهدايتهم ، أن يخافوا أو يخطر الخوف ببالهم عند الوحى إليهم وإن وُجِدَ ما يخاف منه ، لاستغراقهم فى تلقى أوامر الله ، وانجذاب أرواحهم إلى عالم الملكوت ، والتقييد بكلمة « لَدَيَّ » لأن المرسلين يغلب الخوف عليهم فى غير هذه الحالة ، فهم فى سائر أحيانهم أخوف الناس من الله - عز وجل - فقد قال تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »[٢] ولا أعلم منهم بالله - تعالى - .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٠٧

(٢) سورة فاطر ، من الآية : ٢٨

هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة وهم فى حضرته ـ تعالى ـ فإنهم لا يخافونه خوف عقاب وإن خافوه خوف إجلال ، لأنهم صفوة عباده وأحرصهم على تقواه .

وبعد أن بين الله أن المرسلين لا يخافون فى حضرته ـ تعالى ـ عقب ببشارة عامة لكل من أحسن بعد الإساءة من عباد الله ـ تعالى ـ فقال ـ سبحانه ـ :

١١ ـ (إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

ولفظ : « إلَّا » هنا بمعنى (لكن) وهو ما يسمى فى عرف النحاة بالاستثناء المنقطع ، والمعنى : لكن من ظلم نفسه بارتكاب عمل سىء ، ثم بدل فأتى بعمل حسن بعد عمله السىء تائبًا إلى ربه ، فلا يخاف ، فإنى عظيم الغفران واسع الرحمة .

وهذه الرحمة بالتائبين مقررة فى آيات كثيرة من القرآن كقوله تعالى : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى »(١) ، وقوله : « وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا »(٢) ، وقوله : « وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا »(٣) .

١٢ ـ (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) :

بينت الآية السابقة أن الله ـ تعالى ـ أرى موسى كيف يحول العصا الخشبية إلى حية تسعى ، وجاءت هذه الآية لتبين معجزة أخرى ودليلًا باهرًا على قدرة الله ـ تعالى ـ وأنها مع سابقتها يؤيده الله بهما فى رسالته إلى فرعون وقومه فى ضمن تسع آيات تشهد برسالته ، وتقوم بها حجة الله عليهم إن لم يستجيبوا له ، إذ يعاقبهم على كفرهم أشد العقاب .

والآيات التسع التى أشارت إليها الآية هى : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجدب .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٨٢

(٢) سورة النساء ، الآية : ١١٠

(٣) سورة طه ، الآية : ١١٢

والطمسة : جعل أبواب رزقهم حجارة ، والجيب : فتحة القميص من جهة الصدر وهى مدخل الرأس فيه ، كما تقدم فى بيان المفردات .

ومعنى الآية : وأدخل يدك فى فتحة قميصك من جهة الصدر ، وأخرجها تخرج بيضاء ساطعة تتلألأ كأنها قطعة من القمر من غير سوء حل بها ، وهاتان الآيتان فى جملة تسع آيات واضحات أؤيدك بهن وأجعلهن براهين على صدقك فى دعواك الرسالة عنا إلى فرعون وقومه ، فإنهم كانوا قومًا فاسقين خارجين عن طاعتنا والإيمان بنا ، مع أن يوسف قد دعاهم إلى الحق من قبلك ، ولهم عقول لو فكروا بها فى آياتنا لهدتهم سواء السبيل .

١٣ - (فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

أى : فلما جاءهم موسى مؤيدًا بآياتنا المعينة على التبصر والهدى ، قالوا - معرضين عن التأمل والانتفاع بها - : هذا الذى جئتنا به سحر واضح .

ولما كان الذى قالوه مخالفًا لما وقر فى نفوسهم ، عقب الله مقالتهم هذه بقوله :

١٤ - (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) :

أى وكذب قوم موسى بالآيات التى أيده الله بها مع تمام وضوحها ، وقد استيقنتها أنفسهم وآمنت بها قلوبهم ، وكان إنكارها بألسنتهم ظلمًا منهم للحق ولأنفسهم ، وتعاليًا عليه وعلى من جاءهم به من عند ربه ، فانظر - أيها المتأمل - كيف انتهت إليه عاقبة المفسدين حيث أغراهم الله بالدخول فى الطرق التى شقها لبنى إسرائيل فى البحر ، وأغرقهم جميعًا فيه بعد انتهاء عبور بنى إسرائيل ، فبئس مصير المتجبرين .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾)

المفردات :

(عِلْمًا) : إدراكًا لعلوم الدين وأصول الحكم وغيرها .

(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ) : ورثه فى النبوة والملك .

(عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ) :منطق الطير : ما تعبر به عن حاجاتها وشئونها من أصوات أو حركات .

(وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ) : مما يحتاج إليه الملك .

التفسير

١٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ للهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) :

شروع فى بيان قصة داود وسليمان - عليهما السلام - بعد إجمال الحديث بشأن موسى مع فرعون وقومه ، لتقرير ما تقدم ذكره، من أن محمدًا - صلى الله عليه وسلم - تلقى القرآن من لدن حكيم عليم .

والمراد بالعلم الذى أعطاهما الله إياه : هو علم شريعة الله وسياسة الملك وما يختص به كل منهما من العلوم .

وكان الظاهر أن يقال : (فقالا الحمد لله) بالفاء دون الواو ، كما تقول : أعطيته فشكر ، ولكن التعبير بالواو هنا أبلغ ، لما فيه من الإشعار بأن ما قاله داود وسليمان بعض آثار إيتائهما العلم ، فأضمرت تلك الآثار وعطف عليها الحمد ، فكأنه قيل : ولقد آتيناهما

علمًا فعملا به وعرفا حق النعمة فيه ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين[١] .

وفى الآية دليل على أن العلم من أجلِّ النعم ، حيث شكرا الله على إيتائهما إياه، ولم يذكرا معه سواه من سائر النعم التى أنعم الله بها عليهما من الملك وغيره ، فإن العلم هو أساس جميع النعم، وفيها حث للعالم على شكر الله ، وأن لا يتكبر بما أُوتيه من العلم وآثاره على الناس ، فيقول ما قاله قارون : « إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى »[٢] ، كما فيها حث له على أن يعلم أنه وإن أعطى من العلم ما يفضل به كثيرًا من الناس ، فقد فضل الله به غيره عليه ، فإن العلم لا غاية له .

ومعنى الآية : ولقد أعطينا داود وابنه سليمان علمًا بشئون الدين والدنيا يناسب ما أعطينا كليهما من النبوة والملك ، وقال كل منهما : الحمد لله الذى فضلنا بهذا العلم على كثير من عباده المؤمنين الذين لم يعطوا منه مثل ما أعطينا .

١٦ - (وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) :

المراد من ميراث سليمان داود : أنه صار نبيًّا وملكًا بعده ، فوراثته إياه مجاز عن ذلك ، ولم يرث عنه المال ، قال - صلى الله عليه وسلم - : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » . رواه أبو بكر وعمر أمام جمع من الصحابة ولم ينكر عليهما أحد ، وهم الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، وأخرج أبو داود والترمذى عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -يقول : « إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا ولكن وَرَّثُوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

والمراد من الناس : أهل مملكته ، ومن منطق الطير : لغته التى يتخاطب بها بصوت أو بإشارة ، وكان يعرف لغة الحيوانات والحشرات ، ومن ذلك ما روته هذه السورة من قصة الهدهد والنملة .

---

(١) هذه خلاصة ما قاله الزمخشرى فى التعبير بالواو دون الفاء .

(٢) سورة القصص : من الآية : ٧٨

وقد عرض بعض المفسرين لذكر قصص عن طيور مختلفة فهم لغتها وأصواتها ، ولا تعدو هذه القصص أن تكون مجرد حكايات لم ترد عن الصادق المصدوق ، فلهذا لم نذكرها هنا ، التزامًا بما التزمنا به من الاقتصار فى التفسير على المعنى اللغوى أو المأثور عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أو ما قاله السلف مما يتفق مع القواعد الشرعية والمعنى اللغوى ، وحسبنا أن الله – تعالى – أطلق تعليم سليمان منطق الطير ، وهذا يتناول فهمه للغته ومراداته منها على أوسع نطاق ، هذا أمر خص الله به نبيه سليمان ، وليس من باب الفراسة ولا مجرد الذكاء ، وإنما هو بتعليم الله إياه ذلك ، كما هو صريح الآية الكريمة ليكون ذلك من المعجزات التى أيد الله بها رسالته .

ومعنى الآية : وقام سليمان بعد أبيه مقامه فى النبوة بوحى من الله ، وفى الملك برضا أمته ، وقال تَحَدُّثًا بنعمة الله ، وإعظاما لقدرها ، ودعوة للناس أن يصدقوه فى نبوته بذكر المعجزة التى أيده الله بها – قال – : يا أيها الناس علمنا الله – تعالى – لغة الطير التى يتخاطب بها ، وأوتينا من كل شىء يحتاج إليه الملك وتؤيد به النبوة ، كتسخير الشياطين والريح ، وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة ، إن إيتاء العلم والإعطاء من كل شىء لهو الإحسان الواضح من الله رب العالمين ، المقتضى لجزيل الشكر ممن أُنْعِمَ به عليه .

واعلم أن قوله – تعالى – : « إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » إما أن يكون من كلام الله – تعالى – تعظيمًا للفضل الذى أنعم به على داود وسليمان – عليهما السلام – وإما أن يكون حكاية لكلامهما على سبيل الشكر والاعتراف منهما بعظيم فضل الله عليهما ، لا على سبيل الفخر والمباهاة ، ومثل ذلك كمثل قوله – صلى الله عليه وسلم – : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا
تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(وَحُشِرَ): الحشر ، الجمع . (يُوزَعُونَ) أى : يحبسون ويمنعون من المضى حتى يتلاحقوا ويجتمعوا ، والإيزاع : الحث على الوزع ، وهو الكف والمنع[1] .

(لَا يَحْطِمَنَّكُمْ) : لا يهلكنكم ، وأصل الحطم : التكسير . (أَوْزِعْنِى) : ألهمنى ، وأصله : من الإيزاع ، وهو الحث على الكف والمنع كما تقدم ، فكأنه قال : حُثَّنِى وَأَعِنِّى على كف نفسى عن التقصير فى شكر نعمتك .

التفسير

١٧ - (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) :

بين الله فى هذه الآية أن سليمان - عليه السلام - كان له جنود من أصناف ثلاثة : الجن ، والإنس ، والطير ، وهذا شىء خصه الله - سبحانه - به ، استجابة لدعائه الذى حكاه الله بقوله فى سورة (ص) : « قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِى إِنَّكَ

---

(١) ومنه قول عثمان - رضى الله عنه - : (ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن)، وقول الشاعر :

وَمَنْ لَمْ يَزَعْهُ لُبُّهُ وَحَيَاؤُهُ ... فَلَيْسَ لَهُ مِنْ شَيْبِ فَوْدَيْهِ وَازِعُ

أَنتَ الْوَهَّابُ . فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ »(١) .

وقد أضافت هذه الآيات من سورة (ص) الريح إلى جنوده المسخرين له فى هذه السورة ، وبهذا اكتمل له عِزٌّ وجاه ليس لأحد من العالمين ، لِحِكَمٍ سنعرض لها – إن شاء الله – عند الكلام على تفسيرها فى سورة (ص) .

وقد بينت الآية هنا أنه حشر له جنود من الأصناف الثلاثة ، ولم تبين الغرض الذى جمعت له ، ولهذا اختلف العلماء فى بيانه ، فقال قائل : إنهم جمعوا ليقاتل بهم من لم يدخلوا فى طاعته ، وقال آخر : بل جمعوا ليذهب بهم إلى مكة ، ليشكر الله – تعالى – على ما وفقه له من بناء بيت المقدس ، والأول هو الظاهر من المقام ، أما الثانى فلا دليل عليه .

وجمع هذه الأصناف مع كفاية الإنس أو الجن ، لإظهار نعمة الله وأبهة الملك وبث الرعب فى قلوب الأعداء .

والظاهر أن المراد من جمعها جمع طائفة من كل نوع ، لا جمعها كلها ، لأن الذين يخرجون للقتال عادة وسياسة هم بعض الجنود لا كلهم ، ويترك الباقون لحفظ البلاد من الأعداء المتربصين .

والظاهر أن الحاشر لكل نوع من الثلاثة أفراد منهم معدون لمثل ذلك ، ولا غرابة فى أن يكون للطير لغة تتخاطب بها ، وإدراك يعى هذا الخطاب ، فالآية صريحة فى أن للطير منطقًا علمه الله سليمان – عليه السلام – .

بل لقد أثبت القرآن ذلك بما لا يدع مجالًا للشك فى جميع الحيوانات ، وذلك فى قوله تعالى : « وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ »(٢) فقد أثبتت الآية أن كل الدواب على الأرض والطيور فى جو السماء ، أمم لها خصائص تماثلنا ، وإن اختلفت فى كيفية هذه الخصائص ومستواها ، والقرآن الكريم لم يقتصر على بيان

(١) الآيات : ٣٥ – ٣٨

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٣٨

كونها أممًا أمثالنا ، بل بين أن فيها قادة ينذرونها ويرشدونها ، فقد قال تعالى : « وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ »(١) وقد ضرب الله مثلًا لهذا النذير ووظيفته بقوله : « قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ »(٢) .

وقد سبق القرآن الكريم بذلك جميع الكشوف العلمية ، وأيدته المشاهدة ، فالنحل له ملكة تدبر أمره ، وتسوسه ، وبلغ من دقة إدراكه أنه يصنع بيوتًا مسدسة الأضلاع لتجميع عسله فيها ، بمقاييس فى غاية الدقة ، واختيار المسدس دون غيره ، لأنه هو الشكل الوحيد الذى لاتوجد فرج بين وحداته داخل الإطار .

وبالجملة فدراسة مملكة النحل وأمته تحير الأفكار ، ومثلها النمل وجميع الكائنات الحية .

ومن أغرب ما نشاهده فى موسم الشتاء بمصر ، تلك الطيور التى تفد علينا من المناطق الشديدة البرودة ، طلبًا للدفء والرزق فى بلادنا ، وفى مقدمة كل طائفة نذيرها ومرشدها وهى تطير على هدى إدراك داخلى أقوى من (الرادار) فى حين أنها لم يسبق لها الحضور إلى بلادنا .

وكثير من الحيوانات يدرك مجىء الزلازل قبل حضورها ، وتكون له حركات تشنجية منذرة بها ، فى حين أن الإنسان لايستطيع أن يدركها بحسه قبل أن تفاجئه .

وقد أيدت الكشوف والدراسات العلمية ما صرح به القرآن العظيم منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا ، فما أعظم القرآن ، وصدق الله إذ يقول فيه : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »(٣) .

ومن أغرب الكشوف العلمية ، أن للنبات إحساسًا وإدراكًا لما يحدث فيه أو حوله ، فقد صنعت آلة تسجيل على أعلى مستوى من الدقة ، وسجلت أنين الشجرة إذا قطع منها غصن ، أو نقلت شجرة مجاورة لها إلى جهة أخرى .

---

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٢٤

(٢) سورة النمل ، من الآية : ١٨

(٣) سورة فصلت ، من الآية : ٤١ ، والآية : ٤٢

ولا نذهب بعيدًا فى هذا الشأن ، فإن النبات المعروف فى مصر باسم (عباد الشمس) تدور زهرته مع الشمس أينما دارت ، وهناك من النبات ما لو لمست ورقة منه أو نفخت فيها انكمشت ، حتى أطلق البستانيون عليها اسم : المُسْتَحِيَة ، كأنها تستحى عند لمسها أو نفخها فتجمع أوراقها وتضم بعضها إلى بعض : « فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ »[1] .

ومعنى الآية : وجُمِع لسليمان جيشُه وعساكره من أماكنها المختلفة ، وكان جيشه مؤلفًا من الجن والإنس والطير ، تعظيمًا لمقامه وإرهابًا لعدوه ، فهم يؤمرون بالكف عن السير حتى يجتمعوا ، فتنتظم صفوفهم وألويتهم طبقًا للنظم العسكرية ثم يؤمرون بالسير .

١٨ - (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[2] :

(حَتَّى):ابتدائية ، وفيها معنى الغاية لما يفهم من الكلام قبلها ، كأنه قيل : فلما اجتمعوا ونُظِّمُوا وأُمروا بالمسير ، فساروا حتى أتوا على وادى النمل . . . إلخ .

ووادى النمل : واد بأرض الشام تكثر فيه النمل - كما روى عن قتادة ومقاتل - وقيل : واد باليمن معروف عندالعرب ومذكور فى أشعارهم. ولفظ (أتى) فى قوله تعالى : « أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ » يتعدى بنفسه ، فيقال : أتى وادىَ النملِ ، أو بإلى ، كقولك : أتى إلى وادى النمل - وإنما عُبِّر (بعلى) فى الآية الكريمة ، إما لأن إتيانهم إليه كان من مكان عال ، أو لأن المراد من إتيانهم عليه قطعه كله وبلوغ آخره ، والإتيان بهذا المعنى مجاز عن القرب ، من : قطعه ، ولَمَّا يقطعوه بَعْدُ ، ولهذا حذرت النملة أمتها قبل مجىء سليمان إلى مكانها من الوادى ونهتهم بقولها : « لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُ » ، فقولها هذا : نهى مؤكد بالنون لجماعتها من النمل عن التعرض لتحطيمها من سليمان وجنوده إن لم تدخل مساكنها فى وادى النمل قبل مجيئهم ، وقد أدركت بإلهام الله لها أنهم لو حطموها وهى فى طريقهم فإنما يفعلون ذلك لا عن شعور بها ، كأنها أدركت عصمة الأنبياء عن الظلم بإبادتها ، وذلك منها أدب

---

(١) سورة المؤمنون ، من الآية : ١٤

(٢) يرى القارىء الكريم أن الآية استعملت مع النمل ضمائر العقلاء ، تنزيلا لها منزلتهم لفطنتها .

كريم فى حق سليمان وجنوده ، فلعل الناس يتعلمون حسن الظن بأهل التقوى والأدب معهم كما فعلت هذه النملة .

ومعنى الآية : فسار سليمان وجنوده حتى إذا أتوا على وادٍ يكثر فيه النمل ويعرف به ، قالت رائدته لفصيلتها : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم فى جحوركم ، لا تتعرضُنَّ بالبقاء فوق ظهر الأرض لأن يهلككم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بإهلاكهم إياكم .

هذا وننقل فيما يلى (المسألة السادسة) من تعليق القرطبى على هذه الآية الكريمة ؛ لأهميته فيما ذهبنا إليه من أن للحيوانات إدراكات عالية .

قال القرطبى : السادسة ـ لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول ، وقد قال الشافعى : الحمائم أعقل الطير ، وقال ابن عطية : والنمل حيوان فَطِنٌ شمام جدًّا يدَّخر ويتخذ القُرى ، ويشقُّ الحبَّ قطعتين حتى لا تنبت ، ويشق الكزبرة أربع قطع ، لأنها تنبت إذا قسمت شقين ، ويأكل فى عامه نصف ما جمع ، ويستبقى سائره[1] عُدَّةً ، وقال ابن العربى : وهذه خواص العلوم عندنا ، وقد أدركتها النمل بخلق الله لها ، قال الأستاذ أبو المظفر شاه نور الإسفراييني : ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات ووحدانية الإله ، ولكننا لا نفهم عنها ولا تفهم عنا . . . إلخ .

ولعل الأستاذ الإسفراييني ذهب إلى ذلك استنباطًا من قوله تعالى : « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »[2] . ونحو ذلك مما جاء فى القرآن فى هذا المعنى .

١٩ ـ (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) :

نقل الآلوسى فى تفسيره لهذه الآية عن ابن حجر أنه قال : التبسم : مبدأ الضحك من غير صوت ، والضحك : انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفى ، فإن كان فيه صوت يسمع من بعيد فهو القهقهة .

---

(١) أى : باقيه . (٢) سورة الإسراء ، من الآية : ٤٤

وعلى هذا يكون المعنى : فتبسم بادئًا فى الضحك ، ومن اللغويين من قال : التبسم : ابتداءُ الضحك ، والضحك يشمل الابتداء والانتهاء ، ومنهم من قال : هما سواء ، وعلى الرأيين الأخيرين يكون لفظ (ضاحكًا) حالًا مؤكدة ، والراجح الفرق بين التبسم ، والضحك : والمَبْسِمُ : الثغر ، وهو مقدم الأسنان[1] والتبسم : ضحك الأنبياء فى غالب أمرهم ، وفى الصحيح عن جابر بن سمرة – وقيل له – : أكنت تجالس النبى – صلى الله عليه وسلم – ؟ قال : نعم كثيرًا ، كان لا يقوم من مُصَلَّاهُ الذى يصلى فيه الصبح – أو قال : الغداة – حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون ويأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم .

وقد وردت أحاديث تفيد أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان يضحك أحيانًا ، والذى يؤخذ من مجموع الأحاديث أن تبسمه كان أكثر من ضحكه ، وأنه ربما ضحك حتى تبدو نواجذه ، لكن من غير قهقهة ، وفى كون التبسم غالب أحواله عند السرور يقول البوصيرى مادحًا :

سَيِّدٌ ضِحْكُهُ التَّبَسُّمُ وَالْمَشْ ىُ الْهُوَيْنَىٰ ونومُه الإِغْفَاءُ

ومعنى الآية : فتبسم سليمان – عليه السلام – من أجل قولها ، سرورًا بما ألهمها الله إياه من حسن حاله وحال جنوده ، وابتهاجًا بما خصه الله به من سماع قولها وإدراك مقصدها منه ، وتعجبًا من حذرها وتحذيرها جماعتها وإدراكها مصالحها ، وقال : يارب ألهمنى أن أشكر ما أنعمت به عَلَيَّ وعلى والدىَّ من جلائل النعم الدينية والدنيوية ، واكفُفْنى عن التقصير فى شكرها ، ووفقنى إلى أن أعمل صالحًا ترضاه من مثلى ، وأدخلنى برحمتك فى جملة عبادك الصالحين الذين هم أهل لرضوانك والفوز بجناتك ، يقول ذلك هضمًا لنفسه ووالديه واعتبارهم مقصرين عن درجة الصالحين مع أنه وأباه داود – عليهما السلام – من خيرة المرسلين ، وأمه زوجة نبى وأم نبى ، فكيف لا يكونون فى قمة الصالحين ، ولكنه تواضع الكاملين – عليهم السلام – .

---

(١) وفعله بسم يبسم كجلس يجلس ، وأطلق التبسم على أول الضحك ؛ لأنه يبدو فيه ما تقدم من الأسنان .

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
الْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي
بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ
وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ) : تعرف موجوده من مفقوده .

(الْهُدْهُدَ) : طائر معروف ، ويكنى بأبى الأخبار .

(بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) : بحجة واضحة تبين عذره .

(فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ) : فلبث زمانًا غير مديد .

(بِنَبَإٍ يَقِينٍ) : بخبر حقيقى .

التفسير

٢٠ - (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ) :

أصل التفقد : التعرف على المفقود ، والمراد منه هنا : استعراضه الطير والنظر إليها ليعرف موجودها من مفقودها ، والطير : اسم جمع يطلق على الواحد والمتعدد ، والمراد هنا : جنس الطير وأنواعه ، وكانت تصحبه فى سفره وتظله بأجنحتها ، ولذا استعرضها ونظر إليها ، ليتعرف أحوالها .

ونقل ابن كثير عن ابن إسحاق : أن سليمان - عليه السلام - كان إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه تفقد الطير ، وكان - فيما يزعمون - يأتيه من كل صنف من الطير طائر كل يوم ، فنظر فرأى من أصناف الطير ما حضر ، إلّا الهدهد ، فقال : « مَالِيَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ » أخطأه بصرى بين الطير ، أم غاب فلم يحضر ؟ :اهـ

ونقل الآلوسى عن عبد الله بن سلام أن سليمان – عليه السلام – نزل بمفازة لا ماء فيها ، وكان الهدهد يرى الماء فى باطن الأرض فيخبر سليمان بذلك ، فيأمر الجن فتكشف الأرض عن الماء ، فاحتاجوا إلى الماء فتفقد الطير لذلك فلم ير الهدهد فسأل عنه .

ونقل القرطبي عن أبي مجلز أن ابن عباس قال لعبد الله بن سلام : أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل ، قال : أتسألني وأنت تقرأ القرآن ؟ قال : نعم – ثلاث مرات – فقال : لم تفقد سليمان الهدهد دون سائر الطير ؟ قال : احتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه ، وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير . وقد أخذ ابن عباس بما قال ابن سلام . قال مجاهد : قيل لابن عباس : كيف تفقد الهدهد من الطير ؟ فقال : نزل منزلًا ولم يدر ما بُعْدُ الماء ، وكان الهدهد مهتديًا إليه ، فأراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت : كيف يهتدى والصبي يضع له الحبالة فيصيده ؟ فقال : إذا جاء القدر عمي البصر . قال ابن العربي : ولا يقدر على هذا الجواب إلَّا عالمُ القرآن .

ونحن نقول : إن صَحَّت هذه الفراسة عن الهدهد ، فذاك شأن آخر يختلف عن وقوعه حبيسًا فى الفخ ، فإن فراسته بحسب تكوين الله لا تمتد لإدراك الغيب الذى كتبه الله عليه ، فإنه مستقبل ، أما الماء فهو موجود تحت الأرض وإن كان خفيًّا ، والموجود يدرك بالإحساس الداخلى لبعض الحيوانات ، كالكلاب تدرك الزلازل بأسباب تحسها داخليًّا ، ولكنها لا تدرى أن الطعام الذى قدمه الصياد لها مسموم ليقتلها به ، وبالجملة فمناهج التكوين الإلٰهى لخليقته عجيبة ، فسبحان الذى أعطى كل شىءٍ خلقه ثم هدى .

ومعنى الآية : ونظر سليمان – عليه السلام – إلى جنوده من الطير ، ليتعرف ما حضر منها وما غاب دون استئذان منه ، فلم ير الهدهد فى جملة الطير التى تظله وتعلوه ، فقال : ما الذى جعلنى لا أراه ؟ أهو موجود بين أنواع الطير ولكنى لا أراه ؟ ثم لاح له أنه غائب فقال متسائلا : بل أكان من الغائبين ، ولما تحقق له غيابه توعده قائلا :

٢١ – (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) :

أى : لأعذبنه على غيابه دون استئذان منى عذابًا شديدًا ، بنحو نتف ريشه وتجويعه ، أو لأذبحنه أو ليأتينى بحجة قوية مبينة لعذره فى تغيبه عن مكانه بين سائر أنواع الطير .

وإتيانه بسلطان مبين ليس من جملة المحلوف عليه ، فقد حلف على عقابه بالتعذيب أو الذبح ، أما قوله : أو ليأتينى بسلطان مبين ، فهو فى قوة الاستثناء ، فكأنه قال : إلا أن يأتينى بسلطان مبين فلا أعذبه ولا أذبحه ، لأن سليمان لا يقسم على فعل الهدهد ، قال الآلوسى : إن هذا الشق ليس مقسمًا عليه فى الحقيقة ، وإنما المقسم عليه الأولان ، وأدخل هذا فى سلكهما للتقابل ، وهذا - كما فى الكشف - نوع من التغليب لطيف المسلك ، ومآل كلامه - عليه السلام - : ليكونن أحد الأمور الثلاثة ، على معنى : إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح ، وإن لم يكن كان أحدهما ، فأوْ فى الموضعين للترديد : انتهى كلام الآلوسى .

٢٢ - (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ) :

(سَبَإٍ) قرأه الجمهور مصروفًا - أى : منونًا - على أنه اسم لِحَىٍّ من الناس سموا باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (مِن سَبَأَ) - بفتح الهمزة غير مصروف - على أنه اسم للقبيلة ، ثم أطلق على الإقليم أو البقعة التى يعيشون فيها بأرض اليمن .

ومعنى الآية : فمكث الهدهد زمانًا غير بعيد خوفًا من سليمان - عليه السلام - ثم عاد وقال لسليمان - عليه السلام - مبينًا سبب تخلفه عن مكانه بين الطير : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ، وجئتك من سبأ بخبر حقيقى لا ريب فيه .

واختار الهدهد هذا الأسلوب فى ابتداء كلامه ، لترغيبه فى الإصغاء إلى اعتذاره ، واستمالة قلبه نحو قبوله ، فإن النفس يشتد إقبالها على تلقى ما لم تعلم ، وتميل إلى قبول عذر من أتاها به بعد غياب دون إذن .

وقال الإمام البيضاوى : وفى مخاطبته إياه بذلك تنبيه على أن فى خلق الله - تعالى - من أحاط علمًا بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر لديه علمه .

ويقول البيضاوى فى سبب غياب الهدهد : روى أنه - عليه السلام - لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج ، فوافى الحرم ، وأقام به ما شاء ، ثم توجه إلى اليمن ، فخرج من

مكة صباحًا فوافى صنعاء ظهيرة ، فأعجبته نزاهة أرضها ،فنزل بها فلم يجد الماء ، وكان الهدهد رائده ؛ لأنه يحسن طلب الماء ، فتفقده لذلك فلم يجده ، إذ حلّق حين نزل سليمان ، فرأى هدهدًا واقعًا فانحط إليه ، فتواصفا وطار معه لينظر ما وصَفَ له ، ثم رجع بعد العصر ، وحكى ما حكى . ا هـ .

ونحن نقول : الله أعلم بحال تلك الرواية ، ألها أصل أم هى من الحكايات التى ليس لها دليل ؟

(إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(عَرْشٌ عَظِيمٌ) : العرش ، سرير الملك . (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ) : أى فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله . (يُخْرِجُ الْخَبْءَ) : الخبء ، ما خفى فى غيره ، وإخراجه : إظهاره .

التفسير

٢٣ - (إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) :

بعد أن شوق الهدهد سليمانَ إلى معرفة السر الذى غاب عن مجلسه من أجله بقوله : « أَحَطتُّ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ » بعد أن شوقه إلى ذلك عقبه ببيان هذا السر الذى حكته هذه الآية .

والمرأة التى كانت تملك سبأ اسمها (بلقيس بنت شراحيل) كما يقول المؤرخون والمفسرون ، فقد كانت ملكة عليهم وحاكمة لهم فى إقليم مأرب ، وقد كانت المسافة بين معسكر سليمان فى صنعاء ، وبين مأرب مسيرة ثلاث ليال – كما ذكره القرطبى – فكيف خفى أمرها على سليمان وجنوده من الإنس والجن ؟ والجواب : أن الله أخفى أمرها لمصلحة ستُعرف من قصتها ، كما أخفى أمر يوسف على يعقوب ليجده فى النهاية حاكم مصر وسيدها المطاع .

والمراد من إيتائها من كل شىء : أن الله – تعالى – أعطاها من أسباب قوة الملك ما جعل لها سلطانًا قويًّا على قومها وبين جيرانها .

وقد ذكر المفسرون فى وصف طول عرشها وعرضه وارتفاعه وجواهره أمورًا عجيبة لم نجد لها أصلًا فتركنا ما قالوه اكتفاء بوصفه فى الآية بأنه عظيم ، والله أعلم بعظمته كيف كانت .

ومعنى الآية : إنِّى وجدت امرأة عظيمة العقل والجاه تملك قومها سبأ وقد أعطاها الله من كل شىء يحقق لها السيطرة على قومها ، والعزة والجاه فيما حولها ، ولها سرير عظيم تجلس عليه فى أبهة الملك ، حينما يلقاها عظماء قومها أو سواهم .

وقد أثار المفسرون لهذه الآية مسألة حكم المرأة وقضائها فى كتب التفسير الموسعة ، وبخاصة التى تعنى بالأحكام الفقهية ، وانتهوا إلى أنها لا تلى شيئًا من ذلك ، مستندين إلى ما رواه البخارى من حديث ابن عباس أن النبى – صلى الله عليه وسلم – لمَّا بلغه أن أهل فارس قد ملَّكوا بنت كسرى قال : « لن يفلح قوم ولَّوْا أمرهم امرأة » .

٢٤ ، ٢٥ – (وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) :

تحكى الآية السابقة بأسلوب الاستئناف ، وهاتان الآيتان بعدها بقية ما رواه الهدهد لسليمان – عليه السلام – عن مملكة سبأ .

والمعنى : وجدت هذه الملكة وقومها يسجدون للشمس عابدين لها ، متجاوزين عبادة الله معرضين عنه ، وقد زين لهم الشيطان أعمالهم المجافية للحق فى العقائد والسلوك ، فصرفهم عن السبيل الموصلة إليه ، فهم لأجل ذلك لا يهتدون إلى الصواب ـ صرفهم ـ لئلاً يسجدوا لله الذى يظهر الخفى فى السموات ، فيجعل الكواكب التى أخفاها النهار تبدو فى الليل ، والشمس التى أخفاها الليل تبدو بالنهار ، والأمطار المحبوسة فى الفضاء تبدو بهطولها ، وغير ذلك مما يكشفه الله من أسرارها ، ويظهر ما اختبأ فى الأرض من الكنوز التى لا تحصى أنواعها ، والنبات الذى لا تعد أجناسه وخصائصه وغير ذلك مما يكشفه لنا من خباياها ، ويعلم ما يخفيه هؤلاء الذين يعبدون الشمس وما يظهرونه ، وليس للشمس شىء من ذلك ، فهى مسخرة لله تعالى ، فكيف ينصرفون عن عبادته إلى عبادتها ؟

٢٦ ـ (اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) :

هذه الآية تحكى آخر ما ذكره الهدهد لسليمان بشأن غيابه عنه دون إذن ، وهى ـ كالتعليل لوصفه الله ـ عز وجل ـ بالقدرة على إخراجه الخبء فى السموات والأرض ، وعلمه بأحوال من يعبدون الشمس من دونه .

والمعنى : الله لا معبود بحق إلا هو ، رب العرش العظيم الذى لا حد لعظمته ، فكيف تركوا عبادته لعبادة الشمس التى هى من مقدوراته ومخلوقاته ؟

والعظيم ـ بالجر ـ وصف للعرش ، ويكفى فى الدلالة على عظمته ، أن الكرسى الذى وسع السموات والأرض بالنسبة للعرش كحلقة فى فلاة ، كما ورد فى السنة ـ فأين عظمة عرش ملكة سبأ من عظمة عرش الرحمن ـ سبحانه وتعالى ـ ؟

وبعد ، فإن الإنسان ليقف مبهوراً أمام قصة هذا الهدهد ، كيف استطاع أن يتعرف على أحوال مملكة سبأ وعقائدها بهذه الدقة ، وأن يلومهم على تركهم عبادة الله إلى عبادة الشمس ، مع أنها وعابديها تحت سلطانه وعلمه ـ جل وعلا ـ .

وإن المرء ليعجب من وصول الطير فى العلم بالله إلى هذه الدرجة ، فى حين أن بعض البشر لم يصلوا إلى مثلها ، ولا نجد شيئاً نقوله أمام هذه العجائب خيرا من قوله تعالى : « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا »[1] .

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ٤٤

* (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾)

المفـردات :

(سَنَنظُرُ) : من النظر ؛ بمعنى التأمل ، أى : سنتحرّى ونتحقق .

(أَلْقِهْ إِلَيْهِمْ) : ادفعه إليهم وأوصله لهم . (تَوَلَّ عَنْهُمْ) : تَوَارَ وتَنَحَّ إلى مكان تغيب فيه عن أبصارهم . (فَانظُرْ) : فانتظر أو تعرّف .

(مَاذَا يَرْجِعُونَ) : أى ؛ بماذا يجيبون ، ويرد بعضهم على بعض فى شأن الكتاب .

التفسـير

٢٧- (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ . . .) الآية .

كلام مستأنف وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية كلام الهدهد .

كأنه قيل : فماذا فعل سليمان – عليه السلام – بعد اعتذار الهدهد ؟

فقيل : قال : سننظر .

والمعنى : قال سليمان – عليه السلام – ردًّا على الهدهد فيا اعتذر بهعن غيابه عن مكانه بين الطير بغير إذنه – قال – : سَنَتَحرى ونعرف أصدقت فيا قلت ؟ أمأنك كنت من جملة أهل الكذب المعنين فيه ؟ والعدول عن التعبير بقوله : أصدقت أم كذبت إلى قوله : (أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) للإيذان بأن كذبه بهذا الأسلوب المنسق ، ومع نبى الله سليمان يقتضى إيغاله فى الكذب ، وانتظامهفى سلك المتعمقين فيه إن لم يكن له ما يصدقه .

وفى هذا الأسلوب دليل على أن الإمام يجب عليه أن يتحرى عند الاعتذار قبل أن ينزل العقوبة بمن ظاهره الخطأ ، فربّما كان صادقًا فى اعتذاره ، وفى الصحيح : « لا أحد أحب إليه العذرُ من الله ، من أجل ذلك أنزل الكتاب ، وأرسل الرسل » .

٢٨ - (اذْهَب بِّكِتَابِى هَٰذَا . . .) الآية .

الأمر بالذهاب للهدهد ، واختصه به لأنه صاحب العذر . وقوله : « كِتَابِى هَٰذَا » يدل على أن سليمان - عليه السلام - أعدّ الكتاب بعد أن أخبره الهدهد بقصة أهل سبأ .

والمعنى : توجه بكتابى هذا الحاضر بين يدىّ إلى الملكة بلقيس ومن هم على دينها من قومها فألقه إليهم ، وادفعه لهم ، ثم تَنَحَّ عنهم إلى مكان تختفى فيه عن أبصارهم وتسمع كلامهم ، ثم انظر وتعرف ما يجيبون ، ومايرد بعضهم به على بعض ، وما يجرى بينهم من مراجعة وحوار حول مضمون هذا الكتاب .

وقد جرى الأسلوب بضمير الجمع لأن مضمون الكتاب دعوتهم جميعاً إلى الإسلام وفى قوله : « ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ » توجيه إلى الأدب الذى ينبغى أن يكون عليه الرسل فى معاملة الملوك ، مع تنبيههم إلى اليقظة ، وحدة الانتباه .

(قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾)

المفردات :

(الْمَلَأُ) : أشراف القوم وأصحاب الرأى فيهم .

(كَرِيمٌ) : لكرم مضمونه ، أو لشرف مرسله . (تَعْلُوا عَلَىَّ) : تتكبروا وتتجبروا .

(مُسْلِمِينَ) : مؤمنين ، أو منقادين طائعين .

التفسير

٢٩ - (قَالَتْ يَٰأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ) :

روى أن سليمان - عليه السلام - كتب كتابًا ، وختمه بخاتمه ، ودفعه إلى الهدهد ليحمله إلى بلقيس ، فطار به إليها ، وألقاه من كوة فى بيتها ، فقرأته ولم تذكر

هذه التفاصيل ، جريًا على عادة القرآن من الاقتصار على الضرورى للعبرة ، وترك ما هو بدهى ، وللإيذان بكمال مسارعة الهدهد إلى تحقيق ما أمر به .

والمعنى الإجمالى : قالت الملكة لأشراف قومها ، بعد أن أخذت الكتاب وقرأته ، ورأت ما رأت من أمر الهدهد فى دخوله وإلقائه الكتاب إليها وتنحيه ، وغير ذلك مما يعرب عن عظمة مرسله ، قالت : يا أيها الأشراف من قومى إنى ألقى إلىّ كتاب كريم فى شرفه وشرف مرسله وعلو مكانه .

وفسّر ابن عباس وغيره الكريم هنا بالمختوم ،وهومعنى لغوى ، فكرمُ الكتاب ختمه .

وفى شرح أدب الكاتب لابن المقفع يقال : أكرمت الكتاب فهو كريم ، إذا ختمه وقال ابن المقفع : « من كتب إلى أخيه كتابًا ، ولم يختمه فقد استخف به » .

٣٠ ، ٣١ -(إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . أَن لَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَائْتُونِى مُسْلِمِينَ) :

أى : إن هذا الكتاب من سليمان نبى الله ، وإن مفتتحه « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ » ولم يسبق بها كتاب قبله ، وإن مضمونه ألّا تعلوا على وائتونى خاضعين ولا تتكبروا وتتجبروا وتأخذكم العزة بالإثم فتجنحُوا إلى العصيان والتمرد ، أو ائتونى مسلمين ، مؤمنين بدعوتى طائعين منقادين لرسالتى ، ففى هذا أمنكم، وأمانكم، وسلامة دنياكم وسعادة آخرتكم .

وجاء الكلام فى هذه الآية مؤكدًا (بإنَّ) كما جاء مؤكدًا قبل ذلك بها فى قوله : « إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ » - اعتناء بشأن الكتاب ، واهتمامًا بسموّ مضمونه .

(قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾)

المفردات :

(أَفْتُونِى) : أشيروا على بما عندكم من الرأى . (قَاطِعَةً) : قاضية وفاصلة .

(تَشْهَدُونِ) : تحضروننى وتدلون بآرائكم . (أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ) : وفرة فى العدد .

(وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ) : نجدة مفرطة ، وبلاء فى الحرب .

(وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ) : والرأى فى بتّ الأمور إليك موكول .

التفسير

٣٢ - (قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ) :

قالت بلقيس للملأ من قومها وأشرافهم وهم شهود فى مجلسها : يا أيها الملأ أفتونى وأشيروا علىّ بما عندكم من الرأى فى هذا الأمر الخطير الذى جاء برسالة سليمان ، وقد اعتدت أن أسمع رأيكم، وأنتفع بمشورتكم فى كل ما يحدث لى ، ويجدّ فى ملكى ، ما كنت أقطع فى أمر ولا أقضى فيه حتى تحضروا وتشيروا فيه برأيكم، وتكرر نداؤها للملإ من قومها مع وحدة الموضوع ، اهتمامًا بالأمر ، وجذبًا لانتباههم وإثارة لأفكارهم .

٣٣ - (قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ) :

أى : قال الملأُ من قومها ، وقد فهموا أنها تهدف من كلامها إلى الاستيثاق من تأييدهم والاطمئنان على مدى استعدادهم لنصرتها ، والوقوف إلى جانبها إذا رأت عصيان الدعوة ومقاومتها .

قالوا : نحن أصحاب قوة فائقة ، فى العَدَدِ والعُدَد ، وأصحاب شدة وبلاء فى الحروب لا ترهبنا قوة ، ولا ينهنهنا وعيد ، وهذا دورنا وهذه مهمتنا ، وأما البت

فى الأمور فهو موكول إليك تقضين فيه بما تشائين سلمًا وحربًا ، ولك علينا الطاعة فى كل ما تريدين ، وما تأمرين ، فانظرى أى شىء ترينه وتأمرين به نكن فى طاعتك .

(قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً) : أى دخلوها محاربين . (أَفْسَدُوهَا) : خربوها وقلبوا أوضاعها وأتلفوا عمرانها . (أَذِلَّةً) : مُهانينَ بالقتل ، والأسر ، والإجلاء عنها ، جمع ذليل .

(هَدِيَّة) : عطية عظيمة ، والهدية : اسم لما يهدى ، كالعطية : اسم لما يعطى .

التفسير

٣٤ـ (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا . . .) الآية .

قالت بلقيس ـ تعليقًا على ما قاله الملأُ من قومها وقد أحست من لحن قولهم وفحواه الميل إلى الحرب ، والعدول عن سَنَن الصواب ، فأرادت ردهم إلى الرشاد ـ قالت : إن شأن الملوك وسلوكهم إذا فتحوا قرية ـ أية قرية ـ وغلبوا أهلها خربوها ، وأتلفوا ما فيها من أموال ، ونكسوا أحوالها ، وجعلوا أعزة أهلها وسادتها أذلة مُهانين بالقتل ، والأسر والإجلاء وغير ذلك من صنوف الإهانة والإذلال .

وقوله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ) يحتمل أن يكون من كلام بلقيس تدعيمًا لرأيها ، وتأكيدًا لما وصفته من حال الملوك الفاتحين ، وتقريرا بأن ذلك من سياستهم المستمرة وسلوكهم الدائم . ويحتمل أن يكون من جهته ـ عزَّ وجلَّ ـ تصديقًا لقولها على ما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ .

٣٥- (وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ . . .) الآية .

هذه الآية تتميم لكلامها مع الملأ من قومها الذى أرادت به أن تنبئهم بما استقر فى ذهنها من أمر سليمان - عليه السلام - الذى سخر الله له الجن ، والطير يرسلها إلى مايشاء ، وأنه من القوة بحيث يغلبهم على أمرهم إذا قاتلوه ، فيفسد القرى ، ويذل الأعزة وختمت رأيها بقولها : « وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ » عظيمة حافلة تليق بالملوك ، تشبع نهمهم وتطوء نار حقدهم ، وتطمعهم فى الصداقة ، وتغريهم بالمودة ، روى أنها قالت لقوْمهَا : إن كان ملكًا دنيويًّا أرضاه المال ، وعملنا له بحسب ذلك ، وإن كان نبيًّا لم يرضه المال وينبغى أن نتبعه على دينه . ا هـ وجاء فى ابن كثير عن ابن عباس وغير واحد أنها قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

وقوله تعالى حكاية عنها : (فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) معناه : فمنتظرة بعد وصول الهدية إليهم ، واطلاعهم عليها - بأى شىء يرجع إلىّ المرسلون بالهدية فأعمل بما يقتضيه الأمر ، نقل ابن كثير عن قتادة أنه قال : ما كان أعقلها فى إسلامها وشركها .

(فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ۚ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾)

المفـردات :

(أَتُمِدُّونَنِ) : تساعدوننى . (لَا قِبَلَ لَهُمْ) : لا طاقة لهم بلقائها ، وأصل الْقِبَل : المقابلة ، ثم جعل فى الطاقة . (صَاغِرُونَ) : مهانون أذلة .

التفسير

٣٦ ـ (فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ[1] بِمَالٍ فَمَآ آتَانِىَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) :

أى : فلما جاء الرسولُ سليمانَ ـ عليه السلام ـ بالهدية قال ـ موجهًا الكلام إليه وإلى من معه وإلى المُرْسِل إنكارًا عليهم ، وتوبيخا لهم ـ : أتعطونني مالًا وعندى منه ومن غيره كثير ، فما أعطانى الله من الملك والمال والنبوة خير مما أعطاكم ، فلا أطمع فى مال ولا أفرح به ، بل أنتم الذين تفرحون بالمال الذى يهدى إليكم وتحرصون عليه ، وتطيب نفوسكم به لقصر همتكم على الدنيا ، وحبكم الزيادةَ فيها ، والمكاثرة والمفاخرة بها .

٣٧ ـ (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ) :

من جملة كلام سليمان ـ عليه السلام ـ لرسول بلقيس ، وأفرده بالذكر لاختصاصه بالرجوع دون من كان معه من المرسلين .

والمعنى : ارجع ـ أيها الرسول ـ إلى بلقيس ، وقومها بالهدية ، وبلغهم مقالتى بشأنها ، ووجوب استسلامهم إلينا ، فإن لم يأتوا مسلمين فوالله لنأتينهم ، ولندفعن إليهم بجنود لا طاقة لهم بلقائها ولا قوة لهم على قتالها ، وليكونن لنا الغلب عليهم ، ولنخرجنهم من مملكتهم سبأ أذلة مهزومين وهم صاغرون أسارى مستعبدون .

---

(١) قرأ هكذا حفص بحذف ياء المتكلم تخفيفاً .

(قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(عِفْرِيتٌ) : مارد خبيث ، ويقال له : عِفْرية وَعِفْر . (لَقَوِىٌّ) : لقادر لا يثقلني حمله .

(أَمِينٌ) : لا أختلس ولا أغيِّر فيه . (مِن مَّقَامِكَ) : من مجلسك الذى تجلس فيه للقضاء ، أو من جلستك . (لِيَبْلُوَنِى) : ليختبرنى .

التفسير

٣٨ - (قَالَ يَٰٓأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ) :

هذا القول يقتضى قولًا آخر يرشد إليه سياق القصة ؛ أى : فرجع الرسول بالهدية إلى بلقيس ، وأخبرها بما أقسم عليه سليمان فعرفت أنه نبى لا طاقة لها بقتاله ، وتجهزت للمسير إليه ، وعلم سليمان بخروجها إليه فقال : « يَٰٓأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا » أى : يحضره عندى على حاله التى هو عليها قبل أن تأتينى هى وقومها منقادين طائعين ؟

وإنما طلب سليمان – عليه السلام – إحضار العرش قبل أن يأتوه مسلمين ليريها القدرة التى مكن الله – تعالى – له فيها ، والآيات التى أيده بها ، فأراد أن يُغْرب عليها ، ويريها بذلك بعض ما خصه الله به من إجراء العجائب على يده .

وقيل : أراد – عليه السلام – من إحضار العرش أن يختبر عقلها ، ودقة إدراكها للأمور فيعرضه عليها بعد أن يغير من معالمه ، وَيُبَدِّل فى أوضاعه ، فيرى أتعرفه أم تنكره ؟ وما قيل من أنه – عليه السلام – أراد أن يتملكه قبل أن يعصم الإسلام أنفسهم ، وأموالهم ، لايناسب مقام النبوة ، ولايتواءم مع موقفه من الهدية ، والتحدث بنعمة الله – تعالى – عليه .

٣٩ – (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ) :

أى : قال خبيث مارد من الجن مجيبًا سليمان – عليه السلام – : أنا أحضره لك قبل أن ينفض مجلسك الذى تجلس فيه للقضاء من أول النهار إلى الظهر ، كما قيل ، أو قَبْل أن تنهض من جلستك هذه التى تجلسها ، وإنى على إحضاره لك لقوى متمكن لايثقلنى حمله ، أمين لاأختلس منه ولاأغير فيه .

٤٠ – (قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..) الآية .

أى : قال الذى عنده علم من الكتاب ، بعد أن سمع مقالة العفريت ، وكأنه رأى أن التوقيت الذى وقّته بعيد بالنسبة لما يُحسُّه فى نفس سليمان – عليه السلام – قال : أنا آتيك به قبل أن يرجع إليك بصرك الذى تمدّه فى الفضاء لتنظر شيئًا بعيدًا أمامك .

والذى عنده علم من الكتاب قيل : هو آصف بن برخيا وزير سليمان ، وقيل : الخضر – عليه السلام – وقيل : جبريل – عليه السلام – أو ملك أيده الله به .

وقال الجبائى : الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه ، وكان التعبير بهذا الأسلوب للدلالة على شرف العلم ، وأن هذه الكرامة كانت بسببه ، ويكون الخطاب فى قوله : « أَنَا آتِيكَ بِهِ » للعفريت لأنه تصدى لدعوى القدرة على الإتيان به من بين الحاضرين ، وإنما لم يأت سليمان بالعرش ابتداء ، بل استفهم ، ثم قال ما قال وأتى به ليريهم أنه يتأتى له ما لايتهيأ لعفاريت الجن ، فضلًا عن غيرهم ، وقد استظهر هذا القول لوجوه :

أولًا : أن الموصول موضوع فى اللغة لشخص معين بمضمون الصلة المعلومة عند المخاطب ، وهذا هو سليمان – عليه السلام – .

ثانيًا : إحضار العرش فى تلك اللحظة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لأحد من أمته دونه لاقتضى تفضيله على سليمان ، وهذا غير جائز .

ثالثا : لو افتقر سليمان فى إحضاره إلى أحد من أمته لاقتضى قصورَ حَاله فى أعين الناس .

رابعًا : وأخيرا أن قوله – عليه السلام – : « هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى » يقتضى أن ذلك الخارق قد أظهره الله بدعائه – عليه السلام – .

وسواءٌ أكان الذى عنده علم من الكتاب سليمان أم غيره ، فإحضار العرش على هذه الصورة مثل عال لقدرة الله – تعالى – أظهره إمَّا معجزة لنَبى ، أو كرامة لولى وهذا فضل الله يؤتيه من يشاءُ .

وقوله تعالى : (فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى) :معناه ؛ فلما رأى سليمان – عليه السلام – العرش حاضرًا أمامه ، قارًّا فى موضعه حيث أراد ، قال : هذا النصر والتمكين مما تفضل به علىَّ ربى ليتعبدنى ويختبرنى أأشكر نعمته علىَّ أم أكفرها ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ؛ لأن نفع ذلك يعود عليه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها ؛ لقوله تعالى : « لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » والشكر قيد النعمة الموجودة ، وصيد للنعمة المفقودة ، ومن كفر فلم يشكر النعمة ، وأبطرته ، فإن الله غنى عن شكره ، كريم فى تفضله على خلقه ، يرزق البار والفاجر والشاكر والكافر ، وحسابهم يوم تبلى السرائر .

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ
لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ
هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت
تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾)

المفـردات :

(نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا) : غيروا هيئته ، وبدِّلوا أوضاعه . (صَدَّهَا) : منعها وردها .
(نَنظُرْ أَتَهْتَدِى) : نعرف من أمرها وحالها أتهتدى إليه ؟

التفسير

٤١ - (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ) :

قال سليمان - عليه السلام - بعد أن رأى العرش مستقرا ثابتًا أمامه - قال - لمن حوله من الجنود والأتباع : غيروا لبلقيس معالم عرشها ، وبدلوا أوضاعه بحيث تختلف فيه الرؤية ، ويختلط النظر لنعرف ونعلم من حالها ، أتهتدى إلى أنه عرشها ، ولم يضللها التنكير والتبديل ؟ « أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ » : أى أم تكون من ضعف الملاحظة ، ودقة الإدراك بحيث لا تعرفه ، فتكون من جملة الذين لا يهتدون إلى الجواب الصواب ، وإدراك دقائق الأمور ، روى عن ابن عباس وغيره أن تنكيره كان بالزيادة والنقص فيه ، وقيل : بغير ذلك .

٤٢ - (فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) :

أى : فلما جاءت بلقيس سليمان - عليه السلام - ومثلت عنده ، والعرش مستقربين يديه قد جرى فيه من التنكير والتغيير ماأمر به ، قيل لها على سبيل الاختبار : « أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ » ؟ أى : انتبهى ودققى النظر ، أمثل هذا عرشك الذى تركته ببلادك ، وتحفظت عليه بكل أساليب التحفظ ؟

ولم يكن السؤال : أهذا عرشك بغير كاف التشبيه ، زيادة فى إبهام أمره عليها ، ولم يصرح بالقائل لها لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، ولأن السؤال سؤال تعمية وتلبيس لا يجمل معه ذكر السائل ، وكان جوابها : « كَأَنَّهُ هُوَ » غاية فى دقة الفكر ، وكمال رجاحة العقل ، حيث لم تقطع بأنه هو ، أو ليس هو ، فضلًا عمَّا فيه من مواءمة مافى السؤال من الإبهام والإعجام .

وقوله تعالى : (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) : يحتمل أن يكون من كلام بلقيس على ما اختاره جمع من المفسرين ، كأنها استشعرت من سؤالها اختبارهم لها فأجابت بما يفيد أنها أوتيت قبل هذه المعجزة أو هذه الحالة العلم بكمال قدرة الله تعالى ، وصدق نبوة سليمان بما شاهدت من أمر الهدهد ، وما سمعت من أخبار رسلها ، وكانت مؤمنة بهذه الرسالة منذ ذلك الوقت ، وقيل : إن الكلام من قوله : « وَأُوتِينَا الْعِلْمَ » إلى قوله : « مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ » مقول على لسان سليمان وقومه ، كأنهم لمَّا سمعوا جوابها : « كَأَنَّهُ هُوَ » استحسنوه ، وقالوا : أصابت ، وعلمت قدرة الله ، وصحة نبوة سليمان وقد أوتينا العلم بذلك من قبلها وكُنَّا به مسلمين ، كما قالوا ما تضمنته الآية التالية ، والأول هو الظاهر .

٤٣ ـ (وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ) :

أى : وصد بلقيس عن تعجيل إظهار إسلامها وتصديقها برسالة سليمان ما كانت تدين به من عبادة فى الكفر ، متأصلة فى الوثنية ، فلما حضرت إلى سليمان ، وأمنت بطش قومها أعلنت إسلامها ، وأظهرت ما كانت تضمره منذ ظهرت لها المعجزات .

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

(الصَّرْحَ) : القصر ، وكل بناء عال ، ومنه : ابْنِ لِى صَرْحًا ، وقيل : صحن الدار .
(لُجَّةً) : ماء كثيرًا غامرًا . (مُمَرَّدٌ) : مُمَلَّسٌ . (قَوَارِيرَ) : زجاج ، جمع قارورة .

التفسير

٤٤ ـ (قِيلَ لَهَا ادْخُلِى الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا) :

كلام مستأنف بعد الفراغ من امتحانها السابق . كأنه قيل : فماذا كان بعد امتحانها ؟ وطوى ذكر القائل على حد طيه فى قوله : « قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ » .

والمعنى : قيل لبلقيس بعد أن أدت الامتحان الذى أريد لها ، وظهرت رجاحة عقلها ودقة إدراكها للأمور ـ قيل لها ـ : ادخلى القصر .

وقد قيل : إن سليمان ـ عليه السلام ـ كان قد أمر الجن قبل قدومها فبنوا لها قصرًا على طريقها من زجاج أبيض أملس ، وأجرى من تحته الماء ، وألقى فى الماء ما يكون فيه عادة من حيتان وأصداف ، ووضع سريره فى صدره ، فجلس عليه ، ليزيدها استعظامًا لأمره ، وتحققًا من نبوته ، وثباتًا على الدين ، وماقيل من أنه ذكرت عنده بأنها شَعْرَاءُ[1] فأراد بذلك تعرف حالها ، يجافى مقام النبوة وقداسة الأنبياء ، وقوله تعالى : « فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً » معناه : فلما رأت القصر ، وعاينت هيئته وأحواله ظنته ماء غَمْرًا فكشفت عن ساقيها ، فعل من يريد خوض

(١) أى : فى ساقيها شعر .

الماء حذرًا من أن يبتل طرف ثوبها ، ورأى سليمان منها ذلك ، وأحس دهشتها وحذرها وقال لها : إنه صرح مملس من زجاج أبيض صاف ، فلا تحذرى ولا تخافى بللًا . قالت بلقيس وقد رأت هذه القدرة الفائقة ، والنعمة السابغة على سليمان ـ قالت ـ : « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى » : بقيامى على عبادة الشمس ، وتأخير إسلامى ، وأسلمت لله رب العالمين مع سليمان تابعة له .

وفى التعبير بقوله : « لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » دون : (وأسلمت مع سليمان لك) حسب ما يقتضيه سياق الأسلوب ، التفاتٌ إلى الاسم الجليل ، ووصفه بربوبيته العالمين لإظهار ما تم لها من كمال معرفتها الألوهية ، واعتزازها بربوبيته ، وتأكيدًا لاستحقاقه التوحيد والعبادة .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾)

المفردات :

(السَّيِّئَة) : المراد بها : التكذيب ، أو العقوبة التى تسئ .

(الْحَسَنَة) : التصديق ، أو التوبة .

(اطَّيَّرْنَا) : تشاءمنا ، وأصله : تَطيَّرنا ، قلبت التاء طاء وأدغمت فى الطاء ، ثم اجتلبت همزة الوصل للتوصل بها للنطق بالساكن .

(طَآئِرُكُمْ) : سبب شؤمكم . (تُفْتَنُونَ) : تختبرون .

التفسير

٤٥ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) :

شروع فى قصة صالح - عليه السلام - بَعْد الفراغ من قصة سليمان، وقوله : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَى ثَمُودَ » معطوف على قوله : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا » فى صدر قصة سليمان ، وكلتا القصتين وغيرهما برهان على صحة ما جاء فى أول السورة من قوله تعالى : « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ » لأن الحديث عن أحوال الأولين وأخبار الأنبياء السابقين ليس مما يعرفه سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ولاعهد له به .

ومعنى الآية : والله لقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا يدعوهم إلى توحيد الله، وعبادته ونبذ عبادة ما عداه .

وبدأت بالْقَسمِ اعتناءً بشأن ما اشتملت عليه من أخبار ، وما احتوته من أحوال .

وقوله تعالى : (فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) معناه : فتعجلوا العصيان وجنحوا إلى الخلاف والفرقة وفاجئوا بالانقسام إلى فريقين يختصمون : فريق مؤمن مصدق وفريق كافر عاص مما جاء تفصيله فى آيات كثيرة فى سور أخرى ، منها ماجاء فى سورة الأعراف من قوله تعالى :

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِىٓ آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) » إلى آخر ما جاء من الآيات .

والضمير فى « يَخْتَصِمُونَ » للفريقين : المؤمن والكافر ؛ لأنهما شريكان فى الاختصام ، والاختصام وقع بعد الدعوة ، وظهور الآيات وإيمان فريق منهم .

والفاءُ للترتيب والتعقيب ، وهو فى كل شىءٍ بحسبه حتى تتأتى المفاجأة بالتفرق والاختصام .

٤٦ - (قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) :

قالَ صالح - عليه السلام - متلطفا مع قومه ، مستميلا لقلوبهم : يا قوم لِم تباكرون وتستعجلون بالمعصية والتكذيب ، أو طلب العقوبة المسيئة لكم قبل التصديق والطاعة ،

أو قبل التوبة التى تعصمكم من العذاب والعقوبة ؟ هلا تبادرون بالاستغفار رجاء أن تنالكم رحمة الله بقبوله توبتكم ، فإن سنته – تعالى – عدم قبول التوبة عند نزول العذاب : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوٓءَ بِجَهَالَةٍ ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ » ثم قال : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ » وكانوا لجهلهم ، وفرط غوايتهم يقولون : إن وقع وعيده تُبْنا ، وإلا فنحن على ما كنا عليه .

٤٧ – (قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالُوا طَآئِرُكُمْ عِندَ اللهِ) :

قال الفريق الكافر ردًّا على دعوة صالح لهم : تشاءمْنَا بك وبالذين اتبعوك ، وكانوا معك ، فمذ قمتَ بدعوتك أصابنا القحط ، وشاعت فينا الفرقة ، واستشرى الخلاف ، قال صالح لهم : سبب شؤمكم ومصائبكم عند الله وبقَدَره ، أو كفركم وعنادكم وسوء أعمالكم المكتوبة عنده .

وأصل التطير : أنه كان من عادتهم إذا خرجوا مسافرين فمروا بطائر زجروه . فإن طار إلى اليمين تيمنوا ومضوا ، وإن مَرَّ بارِحا إلى اليسار تشاءموا ورجعوا .

وقوله تعالى :(بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ) : تعقيب بالحكم عليهم بالعذاب الذى ابتلاهم الله به ، بسبب كفرهم ومعاصيهم ، أى : بل أنتم محكوم عليكم بالفتنة ، أى : العذاب .

(وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾)

المفـردات :

(رَهْطٍ) : أى ؛ رجال ، ولهذا وقع تمييزًا لتسعة فإنها تميز بالجمع المجرور ، وأصل

الرهط من الثلاثة إلى العشرة ، أما النفر : فمن الثلاثة إلى التسعة[١] .

(تَقَاسَمُوا) : فعل أمر بمعنى احلفوا ، أو فعل ماض بمعنى : تحالفوا .

(لَنُبَيِّتَنَّهُ) : لنهلكنه ليلا . (مَهْلِكَ أَهْلِهِ) : أى ، هلاك أهله ، أوموضع هلاكهم .

التفسير

٤٨ - : (وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) :

استمرار فى عرض القصة ، والمعنى : وكان فى مدينة ثمود وهى فى الحجر - كان فيها - تسعة رجال من أشراف قومها وسادتها ، وقيل : كانوا رؤساء وراء كل واحد منهم جنوده وأتباعه ، منهم قدار بن سالف عاقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح ، وقادة الشر فيهم ، يفسدون فى الأرض ، ويأمرون بالإفساد فيها ، ويتتبعون عوْرات الناس ومعايبهم ، يظلمون الناس ، ولا يمنعون الظالم عن ظلمه ، ولا يعملون صالحا ، ولا يدعون إليه ، ولا يعرفون طريقه - فعادتهم الدائمة المستمرة الإفساد البحت الذى لا يخالطه شىء من الصلاح فى عمل أو قول .

٤٩ - (قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) :

استئناف مبين بعض ما فعلوا من الفساد ، والمعنى : ومن جملة شرهم : أنهم قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة فى أمر صالح -عليه السلام- : احلفوا وأقسموا وأكدوا قسمكم لنبيتن صالحا وأهله ، أى : لنهلكنه وأهله بياتا وليلا حتى نتخلص من متاعبه ، أو قالوا - حالفين متقاسمين - هذا القول ، ثم لنقولن لوليه الذى يتولى طلب دمه إذا سألنا - نقول له - : ما شهدنا هلاكه وأهله فضلا عن عدم مباشرتنا إهلاكهم ، ونحلف وإنا لصادقون فى حلفنا حيث لم نباشر إهلاكهم بأنفسنا ولم نشاهده ، أو أنهم باشروه وشاهدوه ، ولكنهم حلفوا أنهم صادقون فى تبرئة أنفسهم ، غير مكترثين بحلفهم وهم فى الحقيقة كاذبون ، والشىء من معدنه لا يستغرب .

---

(١) انظر تفسير أبى السعود .

(وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(مَكَرُوا مَكْرًا) : دبروا أمرا فى احتيال وخديعة خفاء ، وهو إهلاك صالح وقومه .

(وَمَكَرْنَا مَكْرًا) : جازيناهم بمكرهم من حيث لا يتوقعون .

(دَمَّرْنَاهُمْ) : أهلكناهم . (خَاوِيَةً) : خالية من السكان والأهل ، أو متداعية مهدمة .

التفسير

٥٠ - (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

مكرهم : ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله ، ومكر الله : مجازاتهم وإهلاكهم ، وسميت المجازاة مكرا للمشاكلة ، كما فى قوله تعالى : « يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » وكما فى قوله : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ » وكان صالح - عليه السلام - قد توعدهم بالهلاك خلال ثلاث ليال أهلكهم الله فيها بالصيحة فأصبحوا جاثمين ، ونجى الله صالحا ومن آمن معه .

والمعنى : ومكر قوم صالح فدبروا فى خفاء إهلاكه وأهله ليلا ، وعلم الله مكرهم فقدر إهلاكهم من حيث لا يشعرون أن الله عالم بتدبيرهم ، ومجازيهم ، ولا يحتسبون وقوع الهلاك بهم .

٥١ - (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) :

أى : فتعرَّفْ وتأمل أحوالهم ، وكيف كانت عاقبة ظلمهم وفسادهم وإفسادهم ، لقد

كانت عاقبة ذلك أنا أهلكناهم جميعا تابعين ومتبوعين ، لم يشذ عن إهلاكهم أحد ، ولم ينج فيهم تابع ولا متبوع .

والأمر فى قوله تعالى : « فَانظُرْ » لرسول الله ، أو لكل من يتأتى منه النظر ليعتبر بالحال العجيب التى انتهت إليها عاقبة مكرهم وفسادهم وإفسادهم .

٥٢ ـ (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) :

والمعنى : إذا أردت مزيدا من التصديق والاستيقان فتلك بيوتهم ومساكنهم أمامك خالية من الأهل والسكان ، متداعية متهالكة بسبب ظلمهم وإفسادهم ، وسوء تدبيرهم « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ » الذى حل بهم ، وجرى عليهم من سخط وعذاب لعظة وعبرة لقوم أهل علم وفهم ، أو يعلمون عاقبة الظلم والعصيان .

روى عن ابن عباس أنه قال : أجد فى كتاب الله ـ تعالى ـ أن الظلم يخرب البيوت . وتلا هذه الآية ، وفى التوراة : « ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك » وهذا مشاهد كثيرا فى كل عصر ، وحجة الله على الظالمين فى كل جيل .

٥٣ ـ (وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) : أى وأنجينا صالحا والذين صدقوه وكانوا يتقون المعاصى ويقيمون على الطاعات . ـ أنجيناهم ـ من العذاب الذى حل بالكافرين منهم .

روى أن الذين آمنوا بصالح كانوا أربعة آلاف ، خرج بهم إلى « حضر موت » وحين دخلها مات فسميت بهذا الاسم ، وبنى المؤمنون بها مدينة يقال لها : (حاضورا) والله أعلم بصحة ذلك .

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(الْفَاحِشَةَ) : الفعلة الشنيعة المتناهية فى القبح .

(تُبْصِرُونَ) : تعلمون عاقبة فعلها ، أو يبصر بعضكم بعضا علانية أثناء الفاحشة .

التفسير

٥٤ - (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ) :

انتقال من قصة قوم صالح إلى أخبار قوم لوط - عليه السلام - (ولوطا) منصوب بمضمر معطوف على (أرسلنا) فى صدر قصة صالح - عليه السلام - داخل معه فى حيز القسم أى : وأرسلنا لوطا ، وقيل : إن (لوطا) منصوب بـ (اذكر) محذوفا .

وقوله : « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ » ظرف للإرسال ، على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين قومه من الأحوال والأقوال .

والمعنى : وأرسلنا لوطا إلى قومه لائما موبخا حين قال لهم : أتأتون هذه الفعلة النكراء المتناهية فى القبح والشناعة ، وأنتم تعلمون مبلغ قبحها وشناعة جرمها وارتكابها ؟ أو وأنتم تعلمون عاقبة العصاة ، ونهاية أمرهم ؟ وقيل : تبصرون ، من الإبصار ، بمعنى النظر بالعيون ، والمعنى : تفعلونها جهارا علانية وأنتم ينظر بعضكم إلى بعض ، والمراد بالاستفهام فى قوله : « أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ » استبعاد فعلها ، واستنكار ارتكابها .

٥٥ - (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) : تكرار للكلام عن فاحشتهم لمزيد الإنكار ، وبيان حقيقتها بطريق التصريح بعد الإبهام ، وتصدير الجملة بحرفى التأكيد للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد ؛ لكمال شناعته وفظاعة مجانته ، فلهذا احتاج إلى تأكيد وقوعه ، وإعادة همزة الاستفهام الإنكارى معه .

والتعبير بالرجال دون الذكور لمزيد التقبيح ، والإشعار بقلب الحقيقة ، وتنكيس الطبيعة ، وتعليل الإتيان بالشهوة تقبيح على تقبيح ، وتقريع على تحكم الشهوة وبهيمية الطبع ، وقوله تعالى : « مِن دُونِ النِّسَاءِ » تنبيه إلى مجاوزة الجنس المخصص للشهوة ، المخلوق للاستمتاع ، انقيادًا للنزعات الفاسدة ، وقوله تعالى : (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) : معناه ؛ بل أنتم قوم تفعلون فعل الجهلاء الذين لا يقدرون العاقبة ، والسفهاء المعنين فى الفحش والمجانة ، وفيه مزيد من التوبيخ بالإضراب الذى يدل على أنهم أهل جهل يعيشون فيه أيامهم ويتجدد معهم خياتهم .

* (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ
مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا
ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ
مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾)

المفردات :

(أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ) : المراد بهم لوط وأهله ؛ كما يراد من بنى آدم ؛ آدم وبنوه .

(مِن قَرْيَتِكُمْ) : هى سدوم وما حولها ، ويطلق عليها القرى المؤتفكات .

(أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) : أى جماعة يتنزهون من صنيعهم .

(قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَٰبِرِينَ) : أى قدر الله بقاءها فى العذاب مع الباقين فيه ، والغابر : الباقى . يقال : غَبَر الشىء ، يَغْبُرُ ، غُبورًا : بقى .

التفسير

لما أنذر لوط - عليه السلام - قومه نقمة ربهم وعذابه على أفعالهم الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين سخروا وَهَزِئوا به ، وأجمعوا أمرهم على إيذائه ، وإيذاء من معه بإخراجهم من وطنهم كما قال - تعالى - حكاية لما وقع من هؤلاء السفهاء :

٥٦ - (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا . . .) الآية .

أى : فما كان لهم جواب عن تحذيرهم مما هم فيه من القبائح إلا قولهم : أخرجوا لوطًا ومن انتسبوا إليه ولاذوا به من المؤمنين - أَخْرِجوهم (مِن قَرْيَتِكُمْ) وهى سدوم وما حولها من القرى[1] وهى قرية من أرض العرب ، فكانوا يمرون عليها ، ويرون آثار العذاب الذى نزل بها .

---

(١) هاجر لوط وعمه إبراهيم - عليهما السلام - من أرض بابل فنزل إبراهيم فلسطين ، ونزل لوط الأردن . ا هـ . البحر المحيط لأبى حيان ، و ذكر صاحب القاموس أن الصواب سذوم - بالذال المعجمة - وذكر شارحه أنه مضبوط بالوجهين وأن المشهور فيه إهمال الدال ، وصوبه شيخه فى شرح الدر .

ولم يَجِدْ هؤلاء المجرمون ما يتذرعون به لإخراج آل لوط من ديارهم إلَّا قولهم : (إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) فهو تعليل لجريمة إخراجهم على وجه يتضمن الاستهزاء بهم كما قال ابن عباس ، أى : إنهم قوم يتنزهون ويتبرأون ممَّا نأْتيه ، ويعدونه سفهًا وقذرًا لا ينبغى اقترافه ، قال قتادة : عابوهم - واللهِ - بغيرِ عَيْبٍ ، بأَنهم يتطهرون ،وقيل : يتطهرون بمعنى يتكلَّفون الطهر من أفعالنا رياءً وتظاهرًا فحسب .

ولتهوين أمر إخراجهم من القرية وما حولها أضافوها إليهم على طريق الخطاب للإشعار بأَن لهم السلطان فيها والتصرف فى شأْنها ، والتحكم فى أهلها من غير معارض يحول بينهم وبين ما يبتغون .

والظاهر أن هذا الجواب صدر عن قوم لوط بعد المرة الأَخيرة من مرات مواعظ لوط - عليه السلام - التى أمرهم فيها بالطاعة ونهاهم بها عن المعصية ، لا أنه لم يصدر عنه وعنهم كلام آخر غيره .

٥٧ - (فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ) :

أى : فأَنجينا لوطًا وأهله ، وهم ابنتاه ومن تبعه من المؤمنين ، وقيل : لم يكن معه إلَّا ابنتاه ، كما قال تعالى : « فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ »(١) . أما امرأته فكانت من الهالكين كما قال -تعالى- : (إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَاهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ) أى : الباقين فى العذاب لكفرها وموالاتها لمن ضل وغوى ، كما قال -تعالى- : «فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ »(٢) .

٥٨ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ) :

أى : وأمطر الله - سبحانه - على هؤلاء الفاسقين مطر عذاب ونقمة فكان سيئًا لم يعهدوا له مثيلًا ، فهو من حجارة قوية صلبة متتابعة النزول معلَّمة بسيما تتميز بها عن حجارة الأَرض ، كما قال -تعالى- : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ »(٣) .

(١) الآية ٣٦ من سورة الذاريات.

(٢) الآيتان : ١٧٠ ، ١٧١ من سورة الشعراء .

(٣) من الآيتين : ٨٢ ، ٨٣ من سورة هود .

(قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ
أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن
تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ
ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ
بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(الَّذِينَ اصْطَفَىٰ) : أى اختار لرسالته وهم الأَنبياءُ - عليهم السلام -

(حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) : أى بساتين ذات حُسْن ، كل بستان عليه حائط ، مِنْ : أحدق بالشيء ، إذا أحاط به ، ثم توسع فيها فاستعملت فى كل بستان وإن لم يكن محوطًا بحائط .

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) : عن التوحيد إلى الشرك ، أو يساوون بالله غيره من آلهتهم ، من : العِدْل بمعنى المثل والنظير . (وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ) : جبالًا ثوابت .

(وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا) : أى مانعًا بين العذب والملح حتى لا يبغى أحدهما على الآخر.

التفسير

٥٩ - (قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰٓ ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) :

بعد ما قص - سبحانه - على نبيه ﷺ القصص الدالة على كمال قدرته ، وعظيم شأنه ، وما خص به رسله من الآيات الكبرى ، والمعجزات الباهرة ، أمره ﷺ بحمده - تعالى - على ما أفاض عليه من نعم عظيمة لا مطمح وراءها لطامح ؛ حيث علمه ما لم يعلم من أخبار أنبيائه السابقين مع أممهم واجتهادهم فى الدين ، وقد بين على ألسنتهم صحة التوحيد

وبطلان الكفر والإشراك ، كما أمره أن يسلم على المختارين من عباده ، ويراد بهم كافة الأنبياء والمرسلين لدلالة المقام ولقوله ـ تعالى ـ فى آية أخرى : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ »[١] ومن جملتهم الذين قص القرآن أخبارهم ، عرفانًا بفضلهم وأداءً لحق تقدمهم ، وقيل : هذا أمر له ﷺ بحمده ـ تعالى ـ على هلاك من هلك من كفرة الأمم ، والسلام على الأنبياء وأتباعهم الذين اتقوا ربهم اقتداءً برسلهم فكانوا من الناجين . .

ويرى ابن عباس أن المراد من عباده المصطفين أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم لنبيه ـ رضى الله عنهم ـ أخرجه عَبْدُ بن حُميد والبزار وابن جرير وغيرهم .

والسلام على غير الأنبياء مما لا خلاف فى جوازه إن كان تابعًا للأنبياء ، وقال الحنابلة وغيرهم بجوازه استقلالًا ، وهذا ظاهر قول ابن عباس .

وقال الزمخشرى : أُمِرَ رسول الله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين الدالة على وحدانيته ـ تعالى ـ وكمال قدرته ، وأن يستفتح بحمده والتسليم على أنبيائه والمصطفين من عباده ، وفيه تعليم حسن لكل متكلم فى أمر ذى بال أن يتبرك بهما وأن يستظهر بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، وتوقيف على أدب جميل يحمل على التواضع والإخلاص ، ولقد توارث العلماء والخطباء كابرًا عن كابر ، هذه السنة الحميدة اقتداءً برسول الله ﷺ انتهى باختصار .

(ءَآللهُ خَيْرٌ[٢] أَمَّا يُشْرِكُونَ) : إنكار على المشركين وتوبيخ لهم أن يعبدوا غير الله .

أى : أيهما خير ؟ آلله الذى ذكرت شئونه العظيمة أم الذى يشركونه به من الأصنام ؟ ومرجع ترديد السؤال بينهما فى الخيرية إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته تعالى ، وتسفيه آرائهم والتهكم بهم ، وذلك لأنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله ، ولا يؤثر عاقل شيئًا على شىء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة .

---

(١) الآية ١٨١ من سورة الصافات .

(٢) قال أبو حيان : «كثيرًا ما يجىء هذا النوع من أفعل التفضيل (خير) حيث يعلم ويتحقق أنه لا شريك هناك وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبيه على الخطأ ، ويقصد بالاستفهام فى مثل ذلك إلزامه الإقرار بحصر التفضيل فى جانب واحد وانتفائه عن الآخر » انتهى : من تفسير الآلوسى .

ومن البين أنه ليس فيما أشركوه به - تعالى - شائبة خير حتى يوازن بينه وبين من لا خير إلَّا خيره، ومع علمهم بذلك فقد دفعهم الجهل المفرط إلى إيثاره هوى وعبثًا وإمعانًا فى الخطأ والضلال .

٦٠ - (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً . . .) الآية .

عدد الله - سبحانه - بهذه الآية والآيات الأربع التالية الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله ، وأشار بها إلى أدلة انفراده - سبحانه - بالخلق والرزق والتصرف والتدبير وبكل خواص الألوهية إبرازًا لكمال قدرته ، حيث قال - سبحانه - : (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ) إضراب انتقالىٌّ عن سؤالهم سؤال تقرير عمن هو خير ، أهو الله القادر أم آلهتهم المزعومة ، إلى إثبات الخيرية لله وحده ، أى : بل من قدر على خلق السموات والأرض خير من جماد لا يقدر على شىء ، ولا خير فيه أصلًا يرجع إلى إرادته .

(وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) : خطاب للكفرة لتشديد التبكيت لهم والإلزام ، أى : أنزل - سبحانه - لأجلكم من السماء نوعًا من الماء وهو المطر ، جعل فيه حياتكم وحياة أرضكم وزروعكم ودوابكم ، كما جعل مما ينبت به ما يكون متاعًا لأنفسكم ، وراحة لقلوبكم ، وزينة لأبصاركم فأنبت به - بعظيم قدرته وعجيب صنعه - بساتين ذات حسن ورونق جميل يبتهج بها الناظر إليها ، ويسر بمختلف ألوانها وأشكالها وروائحها ، وطعومها ، مع أنها تسقى بماء واحد ، مما لا يقدر عليه إلَّا من تفرد بالخلق والإبداع جل وعلا ، ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - : (مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا) أى : ما أمكنكم ، وما استطعتم - مهما بذلتم من جهد وأوتيتم من فكر - إنبات شجرها ، فضلًا عن ثمرها ، وسائر صفاتها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بالملك المتفرد به دون سواه ، والالتفات من الغيبة إلى التكلم فى قوله : (فَأَنبَتْنَا) لتأكيد اختصاص الفضل بذاته - تعالى - وعجز قوى البشر عن مثله .

(أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ) : أى أإله آخر مع الله فى خواص الألوهية التى لا يقدر غيره عليها حتى يتوهم جعله شريكًا له فى العبادة ، وهذا تبكيت لهم على اتخاذهم آلهة عاجزة مع الله صاحب القوى والقُدَر التى لا تتناهى .

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) : انتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى تبكيتهم بطريق الغيبة لبيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم ؛ ليعرف أنهم قوم عادتهم الانحراف عن الحق ، والعدول عن الاستقامة فى كل أمر من الأمور ، حتى كان من شأنهم ترك التوحيد وهو الحق الواضح ، والعكوف على الباطل الظاهر وهو الإشراك بالله سبحانه .

٦١ـ (أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ . . .) الآية .

انتقال من تبكيت المشركين بآية من آيات قدرته إلى تبكيتهم بآية أخرى من آياتها العظيمة حيث بسط الأرض وسواها ؛ ليتسنى للإنسان والحيوان الاستقرار عليها ، وارتياد أماكنها ، وجعل خلالها وفى أوساطها أنهارًا جارية ينتفع بها كل قاطنيها فى شئون حياتهم ، وأقام عليها جبالًا ثوابت تمنعها من أن تضطرب بأهلها ، فيختل توازنها ويكون سببًا فى فناء من عليها ، كما أن لتلك الجبال فوائدها العديدة ومنافعها الكثيرة .

وجعل ـ سبحانه ـ بقدرته مانعًا بين الماء العذب والملح حتى لا يبغى أحدهما على الآخر . قال ابن عباس : جعل بينهما سلطانًا من قدرته ، فلا هذا يغيِّر ذاك ، ولا ذاك يغيِّر هذا[1] .

(ءَإِلَٰهٌ مَّعَ اللهِ) : أى ليس هناك إله مع الله فهو المختص وحده بالإيجاد والإتقان لهذه البدائع التى أوجدها وهى من لوازم الألوهية التى لا يقدر عليها سواه .

وإذ ثبت أن ذلك ليس فى مقدور آلهتهم ، فلماذا يشركونها به فى العبادة ؟ وهى عاجزة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا ؟ إنَّ صنيعهم هذا عناد وحماقة ؛ لأن أكثرهم يجهلون الحق مع وضوح آياته ، ولو علموه لتبين لهم بما لا يدع مجالًا للشك بطلان ما هم عليه من الشرك ، أو أن أكثرهم لا يعلمون شيئًا من الأشياء معتدًّا به فهم لذلك لا يعلمون ما يتحتم عليهم معرفته من العلم الحق الذى يوجب عليهم إخلاص عبوديتهم له ـ سبحانه ـ وحده .

---

(١) راجع ما كتبناه تفصيلا على ذلك فى قوله -تعالى- فى سورة الفرقان : « وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » ٥٣

(أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ
خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن
يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ
يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ) : المضطر ؛ هو ذو الحاجة المجهود .

(وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ) : أى يرفع عنه الظلم والضر . (خُلَفَآءَ الْأَرْضِ) : هم الذين يرثون سكناها والتصرف فيها . (أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) : أى يرشدكم بالنجوم ونحوها من العلامات . (بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ) : أى مبشرات قدام المطر بنزوله .

(تَعَٰلَى اللَّهُ) : أى تنزه عن شركائهم .

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) : أى حجتكم على أن له شريكًا .

التفسير

٦٢ - (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الْأَرْضِ . . .) الآية .

يقرر الله المشركين بذلك على أنه هو المدعو منهم عند الشدائد المرجو عند النوازل ، وأنه يجيب دعوة المضطر ؛ لما عرفوه من أنه - سبحانه - يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف عنه السوء ، ويوبخهم به على أنهم فى حالة رخائهم وزوال الضرورة عنهم يعودون إلى شركهم .

وكما يجيب - سبحانه وتعالى - دعاءَ المضطر إذا دعاه ، فإنه وحده يدفع عنهم ما يعتريهم من مكاره وما يتنزل بهم من خطوب ، ويجعلهم خلفاءَ الأرض لمن سبقهم يتوارثون سكناها

وينعمون بخيراتها ، والتصرف فيها قومًا بعد قوم ، وجيلًا بعد جيل ،ولو أبقى الله الناس جميعًا ولم يجعل بعضهم خلفاء بعض فإن الأرض تضيق بالخلائق ويحصل لهم فيها من المشقة والعنت مالا قبل لهم باحتماله .

ثم وبخهم على شركهم بقوله ـ سبحانه ـ : (أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) فإذا لم يكن معه إله فى تلك النعم فلماذا أعرضتم عنه ـ تعالى ـ بعد كل ذلك وعبدتم غيره وأنتم تعلمون أنه ليس هناك إله غير الله الخالق المنعم ، قلما تتعظون لقلة تذكركم هذه النعم المذكورة فى الرخاء ، قلة تصل إلى العدم وتجرى مجراه فى عدم الجدوى ، فلو ذكرتموها فى الرخاء لاهتديتم لأنها من الوضوح والظهور بحيث لا يتوقف تذكرها إلا على التوجه إليها ليعلم أنها من خصائص الألوهية التى لا يقدر على الاتصاف بها سواه .

٦٣ ـ (أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) :

أى : إن الله وحده هو الذى يرشدكم إلى الطريق فى ظلمات البر والبحر إذا سافرتم ليلًا حيث جعل لكم النجوم وعلامات الأرض لتهتدوا بها ليلًا ، وهداكم إلى علامات بالأرض إذا اشتبه عليكم الطريق ، كما قال تعالى : « وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »(1) .

ويجوز أن يراد من ظلمات البر والبحر ما يحدث فيها من التباس السبيل على المسافرين ليلا أو نهارًا ، بأن تجعل مفاوز الأرض التى لا أعلام لها ، ولجج البحار كأنها ظلمات الليل ؛ لأنها تشبهها فى إيجاد الحيرة والتردد لعدم وجود ما يهتدى به فى أرجائها .

(وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :
أى :أنه ـ سبحانه ـ هو الذى يبعث لكم الرياح أمام السحب الممطرة مبشرات بنزول المطر رحمة منه بعباده ليغيثهم به من الجفاف والجدب ، وذلك بإروائهم ،وإحياء الأرض بعد موتها بمائها لتنبت من كل زوج بهيج ، كما قال ـ سبحانه ـ : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »(2) .

(١) الآية ١٦ من سورة النحل . (٢) من الآية ٥ من سورة الحج .

وليس مع الله إلٰه يصنع ذلك ، فقد تنزه عن الشريك والنظير بذاته المتفردة بكل خواص الأُلوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال والجلال ، المقتضية لكون المخلوقات جميعها مقهورة تحت سلطانه ، وفى ذلك ما فيه من التحقيق والتقرير وقوة الاستدلال على نفى أن يكون معه ــ سبحانه ــ إلٰه آخر .

٦٤ ــ (أَمَّن يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ . . .) الآية .

كان هؤلاء المشركون يقرون أنه ــ سبحانه ــ يبدأُ الخلق ويتكفل بالرزق ، وينكرون مع ذلك البعث بعد الموت ، فألزمهم ــ تعالت أسماؤه ــ الإقرار بالبعث الذى ينكرونه ؛ لأنه من قدر على الفعل بدءًا كانت الإعادة عليه أهون ، أى : لا أحد سواه يقدر على أن يبدأ الخلق من عدم ثم يعيده بالبعث ، وخوطب به المشركون مع إنكارهم للبعث ؛ لأنه لما وضحت براهينه وتمكنوا من إدراكها جُعِلوا كأنهم معترفون بوقوعه فلم يبق لهم عذر فى الإنكار .

(وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أَإِلٰهٌ مَّعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ) :

وهو ــ سبحانه ــ القادر وحده على أن يرزقكم من السماء والأرض بأسباب سماوية وأرضية رتبها وفق ما اقتضته حكمته مما يدل على أنه ليس هناك ــ كما يزعمون ــ إلٰه آخر موجود مع الله يقدر على فعل شىء يذكر .

فإن تمسك أولئك المشركون بعد هذا بدعواهم فقل لهم ــ أيها النبى موبخًا لهم ومنكرًا عليهم ــ : أقيموا لنا برهانًا عقليًا أو نقليًا على صحة ماتدّعون إن كنتم صادقين ، ولن يتأتى لهم الإتيان به مهما حاولوا ، كما قال تعالى : « وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ »[1] .

(١) من الآية ١١٧ من سورة المؤمنون .

(قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ(١) وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾)

المفـردات :

(الْغَيْبَ) : كل ما غاب عنك ، وجمعه : غيوب .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) : أى لا يعلمون الوقت الذى فيه يبعثون ، يقال : شعر بالشىء من بابى : نَصَرَ وَكَرُمَ ، شعرًا مثله ، وشعورًا : علم به وفطن له .

(ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ) : أى تتابع علمهم بها عن طريق الأدلة ، وقيل : معناه اضمحل علمهم بالآخرة ، من التدارك وهو التتابع فى الفناء . (بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا) : أى فى تردد من تحقق الآخرة نفسها . (بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ) : أى لا يدركون دلائلها مع وضوحها ، كأنهم فقدوا أبصارهم ، ومفرده : عَمٍ .

التفسـير

٦٥ - (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) :

بعد أن أثبت الله تفرده - سبحانه - بالألوهية ، وبين الأدلة الواضحة التى تفيد اختصاصه بالقدرة الكاملة ، والحكمة التامة فى الخلق والتكوين ، وإسداء النعم الجزيلة منة منه وتفضلًا على عباده عقبه بذكر ما لا ينفك عن أن يكون من شأنه وحده ، وهو اختصاصه بعلم الغيب تكميلا لما قبله مما انفرد به ، وتمهيدا لما بعده من أمر البعث .

وقيل : إن هذه الآية نزلت لما سأل الكفار الرسول ﷺ عن وقت الساعة التى وعدوها وألحوا عليه - كما فى البحر - .

---

(١) لفظ : (إلا) فى قوله : (إلا الله) بمعنى (لكن) أى : لكن الله يعلم الغيب دون من فى السموات والأرض .

والمعنى : قل لهم – أيها النبي –: لا يعلم أحد ممن فى السموات والأرض الغيب إلَّا الله فهو وحده الذى ثبت له علم الغيب على جهة اللزوم والاختصاص ، وانتفى عمن سواه حتى الأنبياء .

ويؤيد ذلك ما أخرجه الشيخان والترمذى والنسائى وأحمد وجماعة من المحدثين من حديث مسروق عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت : من زعم أن محمدًا ﷺ يخبر الناس بما يكون فى غد ، وفى بعض الروايات : يعلم ما فى غدٍ فقد أعظم على الله الفِريَة ، والله تعالى يقول : (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ . . .) الآية .

وعلم الغيب المنفى عن غيره – جل وعلا – هو ما كان للشخص لذاته فى ثبوته له ، وهذا مما لا يعقل كونه لأحد من أهل السموات والأرض ، وما وقع لبعض الخواص من الإخبار ببعض الغيب فلا يقال : إنهم علموه بقدراتهم الذاتية ، ومنْ قال ذلك كفر قطعًا ، وإنما يقال : أُظهِرُوا على الغيب وَأُطلِعُوا عليه ، ويؤيده أن نسبة علم الغيب إلى غيره – تعالى – لم تجىء فى القرآن الكريم ، وإنما جاء الإظهار على الغيب لمن ارتضى – سبحانه – من رسول كما قال تعالى : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ »[1] .

أمَّا ظن الغيب بأمارات فهو ممكن لعباده فلا يُكَفَّر وَلَا يُفَسَّقُ مدعيه ، كما يحصل من علماء الفلك من الراصدين لحركات الرياح والشمس والقمر والكواكب ، حين يخبرون بهبوب الرياح شديدة أو معتدلة ، وبكسوف الشمس ، وخسوف القمر ، وبنزول المطر وارتفاع درجة الحرارة أو اعتدالها أو نحو ذلك ، فيقع الأمر كما قالوا ، فليس ذلك من علم الغيب المنفى ؛ لكونه بأسباب وأمارات ، فهو فى واقعه ليس علمًا حقيقيًا بما سيحدث وإنما هو ظن وتخمين بأمارات اقتضته ، وقد تتخلف .

أما العراف الذى يتحدث عن المستقبل ادعاءً بأنه على علم بالغيب كقوله لمن يستخبره عن مستقبله : ستكسب مبلغ كذا ،أو ستتزوج فلانة ، أو تفقِد كذا فى سفرك ، أو نحو ذلك فهو كافر – كما قال القرطبى – .

---

(١) الآية : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .

والمؤمنون منهيون عن إتيان العرافين ، فقد جاء فى صحيح مسلم : « من أتى عرَّافًا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » .

(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) : أىوما يعلم كل من فى السموات والأرض أى وقت يبعثون فيه بعد موتهم ؛ لأن وقت البعث والنشور من جملة الغيب الذى اختص الله - سبحانه - بعلمه ، فلا يحق لهؤلاء المشركين أن يطالبوا نبيهم ﷺ من آن لآخر ببيان وقته بمثل قولهم : « مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ » [1] كما لا يحق لهم أن يستنكروه بمثل قولهم : « أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا » [2] .

٦٦ - (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ) :

بين الله فى الآية السابقة أن الغيب مما استأثر الله - تعالى - بعلمه ، وفى جملته وقت البعث بعد الموت ، فإنه من الغيوب التى اختص بعلمها العليم الخبير .

وجاءت هذه الآية لتبين أن المشركين وإن لم يؤمنوا بالبعث للحساب والجزاء ، فقد تدارك علمهم بأن لهم آخرة ينتهون إليها ، وتتابع وعيهم بأنهم يبعثون على لسان الصادق المصدوق المؤيد بالمعجزات ﷺ ودلت الأمارات على إمكانه ، فإنه من قدر على البدء فهو قادر على الإعادة من باب أولى ، كما شهد العقل بمجيئه ولابد ، فإنه لا يعقل أن تزول الحياة الدنيا ولا تعقبها آخرة يجزى فيها المحسن على إحسانه ، والمسىء على إساءته ، فإن عدالة الله تأبى ذلك .

فهؤلاء المشركون تدارك علمهم وتتابع على هذا النحو ، وكان عليهم أن يؤمنوا بها ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل هم فى شك من مجيئها ، مترددون فى أمرها ، بل هم من ناحيتها عُمْىٌ عن أدلتها ، وكان عليهم أن يطمئنوا إلى مجيئها بقيام الأدلة عليها ، وأن يعملوا لها .

ومن المفسرين من فسر تَدَارُكَ علمهم بالآخرة بفناء علمهم بها ، كما يقال : تدارك بنو فلان : إذا تتابعوا فى الهلاك ، وعلى هذا يكون معنى الآية : بل فنى علمهم بشئون الآخرة ، مع توافر أسبابه ودواعيه بقيام الأدلة الواضحة على مجيئها ، قال صاحب القاموس : بل ادارك علمهم فى الآخرة : جهلوا علمها ولا علم لهم بشىء من أمرها . ا هـ

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة يونس . (٢) سورة الإسراء ، من الآية ٩٨

ولهذا ختم الله الآية بقوله : « بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ » حيث قصروا تقصيرًا فاحشًا بتركهم النظر فى أماراتها وتعاميهم عن أدلتها ، مع أنها لا تخفى على ذوى البصائر وأولى الألباب .

وحاصل معنى الآية : أن علمهم بشئون الآخرة ومنها البعث انقطع وانتهى فى الدنيا ، حتى لم يبق لهم علم بشىء من شئونها ، مع توافر الأسباب الواضحة الدلالة عليها .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ) : إنكار لإخراجهم مِن قبورهم أحياء .

(أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : أى أباطيل الذين سبقوهم ، وهى جمع إسطار - بكسر الهمزة - وأسطورة - بضمها .

(وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) : أى لا يكن صدرك ضيقًا بمكرهم .

التفسير

٦٧ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ) :

بيان لجهل الكافرين بالآخرة وعَمَاهم عنها بحكاية إنكارهم للبعث ، والمراد بهم : مشركو قريش فقد أنكروا إخراجهم من قبورهم أحياء إنكارًا شديدًا متكررًا مبالغًا فيه .

وتقييد الإخراج بوقت كونهم ترابًا ليس لتخصيص الإنكار الواقع منهم بالإخراج فى هذا الوقت فقط ، فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت مطلقًا ، وإن كان الجسد على حاله ،

وإنما ذكر لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج فى حالة منافية له فى زعمهم ، وهى كونهم ترابًا ، وكما أنكروا إخراجهم فقد أنكروا كذلك إخراج آبائهم .

٦٨ - (لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) :

استئناف مسوق لتقرير الإنكار ، وصُدِّر بالقسم لزيادة التأكيد ، أى : والله لقد وعدنا هذا الإخراج نحن وآباؤنا من قبل أن يعدنا به محمد ولم نر له حقيقة ولم نعلم له وقوعًا فيما مضى ، ذلك لأن هذا الوعد ما هو إلّا أباطيل الأولين حكاها محمد عنهم ،وليس له حقيقة ، وقد رد الله عليهم بقوله :

٦٩ - (قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) :

أى : قل - يا محمد - لهؤلاء المكذبين : سيروا فى الأرض فانظُرُوا بإمْعَانٍ وتفكروا كيف كان عاقبة المكذبين للرسل - عليهم السلام - فيما جاءُوا به من الإيمان بالله وحده ، وبالمعاد الذى تنكرونه ، فإن مشاهدة عاقبتهم ، وآثار ما حل بهم من العذاب والنكال اللذين لم يَنْج منهما سوى الرسل - عليهم السلام - ومن اتبعهم من المؤمنين يكفى أن يكون عظة وعبرة لذوى البصائر وأُولى الألباب ، ودلالة واضحة على صدق ما جاءت به الرسل وصحته ، وفيه تهديد لهم على التكذيب ، وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم .

٧٠ - (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ) :

تسلية للرسول ﷺ أى : ولا تأسف على المكذبين لإصرارهم على الكفر ، وتذهب نفسك عليهم حسرات ، ويكون صدرك حرجًا من كيدهم وإنكارهم ما جئت به فإن الله مؤيدك وناصرك عليهم ، ومظهر دينك فى المشارق والمغارب على من خالفه وعانده : « وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَٰكِرِينَ »[1] .

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

(وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ
فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(رَدِفَ لَكُمْ) : أى لحق بكم ، ويتعدى بنفسه وباللام .

(مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ) : أى ماتخفيه من الأسرار ، تقول : أكننت الشىء إذا أخفيته فى نفسك .

(وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ) : الغائبة ؛ جميع ما أخفاه الله وغيبه عن خلقه . وتاؤه للمبالغة فى الغيبوبة ، كراوية .

(إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ) :المراد به ؛ اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ، وهو بَيِّنٌ واضح ، أو مُبَيِّنٌ ما فيه لمن يشاء من ملائكته :

التفسير

٧١ - (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) :

يسأل الكفار عن وقت العذاب العاجل الموعود به ، سخرية به ، وإنكارًا له قائلين : متى يحين وقت العذاب الذى وعدتم بأن ينزل بنا إن كنتم صادقين فى إخباركم بأنه آت إلينا ، وواقع علينا ؟ فهموا الوعد بالعذاب من أمرهم بالسير والنظر فى عاقبة أمثالهم المكذبين والجمع فى قوله تعالى : (إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) باعتبار شركة المؤمنين للرسول فى الإخبار بذلك .

٧٢ - (قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ) :

أى : قل لهم - أيها النبي - : عسى أن يكون قد اقترب منكم بعض الذى تستعجلون حلوله ، وتطلبون وقوعه من العذاب ، وكان ذلك عذاب بدر ، أو عذاب القبر ، وهذا المعنى قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك .

وعسى هنا لتحقق الوقوع لما وعدوا به .

قال الزمخشرى : إن عسى ولعل وسوف فى وعد الملوك ووعيدهم تدل على صدق الأمر وجده وأنه لا مجال للشك فيه ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم بأن عدوهم لا يفوتهم ، فعلى ذلك جرى وعد الله تعالى ووعيده .

وقيل : إن عسى على معناها ، والترجى المفهوم منها قيل : راجع للعباد .

٧٣ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) :

أى : وإن ربك - جل شأنه - لذو إنعام كثير فاضل على كافة الناس مع ظلمهم لأنفسهم ، ومن جملة ذلك ترك المعاجلة بالعذاب لهؤلاء المكذبين مع ما يقترفونه من ذنوب وآثام ، وكان على المنعم عليهم أن يقوموا جميعًا بشكر ربهم على تفضله عليهم ، ولكن أكثرهم أعرضوا عمَّا يطلب منهم من شكر وعرفان جحدًا لفضل خالقهم الذى أسداه إليهم ، ومنهم أولئك المستعجلون للعذاب .

٧٤ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) :

أى : وإن ربك - جل شأنه - ليعلم ما تخفى صدورهم من الأسرار ومنها عداوتك ، ويعلم ما يظهرون من القول بلا تفرقة بينهما فى إحاطة علمه بهما كما قال تعالى : « سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ »(١) .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الرعد .

فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم عليه تعالى ، وإنما لأن له وقتًا محددًا لايتعداه بتقديره - جل شأنه - وعلم الله بما تخفيه صدورهم ، وبما تظهره أقوالهم ، فيه إيذان بأن لهم قبائح غير ما حكى عنهم .

٧٥ - ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ :

أى : وما من خصلة شديدة الغيبوبة فى السماء والأرض إلَّا علمها الله ، وأحاط بها ، وأثبتها عنده فى أم الكتاب ، ذلك الكتاب الواضح البين فى نفسه المبين ما فيه لكل من يطالعه وينظر فيه من الملائكة - عليهم السلام - وهو اللوح المحفوظ ، وقيل : المراد به علم الله -تعالى- ، فهو المبين لكل معلوم ، وقيل : المراد به القرآن الكريم ، فقد أشار إلى كل غائبة فى السموات والأرض ، وبين دلالتها على خالقها - سبحانه وتعالى - .

﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

المفردات :

(عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) : المراد بهم : اليهود والنصارى ، وإسرائيل : يعقوب -عليه السلام- .

(عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) : الواضح البين ، أو الفاصل بين الحق والباطل .

(وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ) : أى ولا تسمع من بطل سمعه وذهب لسبب من الأسباب ، وفعله من

باب علم . فالمذكر أصم ، والأنثى صماء ، والجمع صُمٌّ ، مثل أحمر وحمراء وحُمْر ، ويتعدى بالهمزة فيقال : أصمه الله .

(بِهَٰدِي الْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ) : أى عن كفرهم ، يقال : ضل يَضِل ضلالًا وضلالة : مال عن الطريق فلم يهتد .

التفسير

٧٦ - (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

لما ذكر - سبحانه - ما يتعلق ببدء الخلق ، وإعادة المخلوقات بعد الموت بالبعث ، ذكر ما يتعلق بالنبوة ، ولكون القرآن الكريم أعظم ما تثبت به نبوة نبينا محمد ﷺ . أنزل فيه - سبحانه - ما يقص به على بنى إسرائيل - اليهود والنصارى - أكثر ما اختلفوا فيه ، بإظهار حقيقة أمره فى وضوح وجلاء ، مما يدعوهم إلى الإسلام لو تأملوا وأنصفوا ، وأخذوا به ، ولكنهم أعرضوا وكابروا مثلكم أيها المشركون . وتحزبوا أحزابًا كثيرة ، ولعن بعضهم بعضًا ، ووقع بينهم الجدال والتناكر .

ومن جملة ما اختلفوا فيه اختلافًا كثيرًا أمر عيسى - عليه السلام - فاليهود افتروا ونسبوا إلى مريم ما هى منزهة عنه ، وكذبوا عيسى - عليه السلام - والنصارى تغالوا ، فمن قائل : بأنه إله ، ومن قائل : بأنه ابن الله ، ومن قائل : بأنه ثالث ثلاثة إلى غير ذلك .

كما اختلفوا فى أمر النبى المبشر به ، فمن قائل : هو يوشع ، ومن قائل : هو عيسى ، ومن قائل : إنه لم يأت إلى الآن ، وسيأتى آخر الزمان ، كما اختلفوا فى شأن الخنزير ، فقال اليهود بحرمة أكله ، وقالت النصارى بحله ، إلى غير ذلك من أمور .

فجاء القرآن بالقول الوسط ، قول الحق والعدل ، حيث بين أن عيسى عبد من عباد الله وأنبيائه ، ورسله الكرام كما قال تعالى حكاية عنه : « قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا »[1] . وبين أن النبى المبشر به هو محمد ﷺ وأن أكل لحم الخنزير حرام .

وبين كذلك أكثر الأمور التى وقع بينهم الخلاف فيها بيانًا شافيًا يقطع كل ريبة وخلاف ، فكان هدى ورحمة لمن أقبل عليه كما قال تعالى :

---

(١) الآية ٣٠ من سورة مريم .

٧٧ـ ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ :

أى : وإن هذا القرآن لهدى ورحمة لمن أنصف من اليهود والنصارى ، فآمن به ، واهتدى بهديه ، واتبع سبيله ، أو هو هدى ورحمة لكل من آمن به على الإطلاق ، ويدخل فيهم من آمن من اليهود والنصارى دخولًا أوليًا .

وخص ـ سبحانه ـ المؤمنين بالذكر ، مع أنه هدى ورحمة للعالمين ؛ لأنهم المنتفعون به ، أو المراد بهم المستعدون للإيمان بفطرهم النظيفة .

٧٨ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ :

أى : إن ربك ـ سبحانه ـ يقضى فى الآخرة بين اليهود والنصارى ، فيجازى بحكمه المحق الذى آمن بالقرآن ، والمبطل الذى كفر به ، ويراد بالحكم ما يحكم به ، وهو الحق والعدل ، ولا يقضى ـ سبحانه ـ إلا به فسمى المحكوم به حكمًا .

أو يحكم بينهم بحكمته بوضع الأمور فى نصابها ، وإعطائها ما تستحق من جزاء ، ويدل على هذا الوجه قراءة من قرأ « بِحِكَمِهِ » جمع حِكْمَة ، كنِعَم جمع نعمة .

وقيل : يقضى بينهم فى الدنيا بإظهار ما حرفوه ، وبيان الحق فيما اختلفوا فيه وهو سبحانه « الْعَزِيزُ » أى : الغالب الذى لا يُرَد أمْرُه ، ولا يُعارَضُ قضاؤُهُ « الْعَلِيمُ » بكل شىء من الأشياء لا تخفى عليه خافية ، أو هو العزيز فى انتقامه من المُبْطلين ، العليم بما بينهم وبين المحقين .

٧٩ـ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ :

أَمْرٌ لِلرَّسولِ ﷺ بالتوكل عليه ـ جل شأنه ـ مرَتَّبٌ على ما ذكر من شئونه ـ تعالى ـ فإنها موجِبة للتوكل عليه وداعية إلى الإنابة إليه ، أى : فتوكَّل على الله الذى عصمك من كيد الكائدين ، وأمدك بتأييده ونصرته على أعدائك ، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليهم الشقاوة ، وحقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ؛ لأنك على الحق البيِّن ، وهو الدين القيِّم الذى تنزه عن كل شك أو شبهة ، وفى ذلك بيان بأن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته لا محالة .

٨٠ - ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ :

أى : إنك - أيها النبى - لا تستطيع هداية هؤلاء الكافرين إلى شىء ينفعهم لأنهم كالموتى، حيث إنهم فقدوا الحس والعقل والإدراك فلا يعُون شيئًا مما يسمعون، ولا ينتفعون بما يتلى عليهم من القوارع والزواجر، شأنهم فى ذلك وهم أحياء شأن الموتى فى القبور الذين يستحيل عليك إسماعهم[١] أى شىء ينفعهم، وذلك موجب لقطع الطمع فى هدايتهم، وداع إلى تفويض الأمر إلى الله والتوكل عليه.

وهم كالصم الذين فقدوا أداة السمع يصيح بهم الداعى إلى الحق فلا يسمعون النداء مع أنهم صحاح الحواس، ذلك لأن شأن الأصم عدم السماع ولو كان الداعى أمامه وبمقابلة صماخه فكيف يكون حال هؤلاء الصم إذا ابتعدوا عن الداعى وتولوا عنه مدبرين؟ لا شك أن عدم سماعهم للدعاء يكون أشد وأقوى، فإنهم مع صممهم معرضون عن الداعى، وفى ذلك من التأكيد والمبالغة فى عدم السماع لدعوة الحق ما فيه مما لا يخفى، وإطلاق الإسماع بعدم ذكر المسموع لبيان عدم سماعهم لشىء من المسموعات.

٨١ - ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ :

أى : ليس فى وسعك خلق الإيمان فى قلوبهم، وصرفهم عما هم فيه، وهدايتهم هداية موصلة إلى المطلوب؛ لأنهم كالعمى يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ويجعلهم مهديين بُصَراءَ إلا الله تعالى.

﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى : ما يجدى إسماعك إلا مَنْ علم الله أنهم يؤمنون بآياته ويصدقون بها، وهم الذين ليسوا موتى ولا صمًّا ولا عميًا.

---

(١) قد احتجت عائشة - رضى الله عنها - بهذه الآية فى إنكارها أن النبى ﷺ أسمع موتى بدر، فنظرت إلى الأمر بقياس عقلى ووقفت مع هذه الآية.

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : ما أنتم بأسمع منهم. قال ابن عطية : فيشبه أن قصة بدر خرقة عادة لمحمد ﷺ فى أن الله رد إليهم إدراكا سمعوا به مقاله، ولولا إخبار الرسول ﷺ بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقى من الكفرة وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين. اهـ من تفسير القرطبى. ومن أراد الاستزادة فليرجع إليه وإلى غيره فى تفسير هذه الآية، والآية ٥٢ من سورة الروم.

وجوز أن يراد بالآيات المعجزات التي أظهرها الله - تعالى - على يديه ﷺ الشاملة للآيات التنزيلية والتكوينية، وأن يراد بها الآيات التكوينية فقط، والإيمان بها: التصديق بكونها آيات الله - تعالى - وليست من السحر وغيره.

(فَهُم مُّسْلِمُونَ): تعليل لإيمانهم بالآيات، أي: فإنهم مطيعون منقادون إلى الحق بسلوك طريقه السَّويّ وفق إرشاد آياته.

وقيل: فهم مخلصون لله - تعالى - من: الإسلام بمعنى الإخلاص، كقوله تعالى: « بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ »[1] أي: أخلص.

* (وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾)

المفردات:

(وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ): قرب وقوع ما وعدوا به من العذاب بعد البعث.

(دَآبَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ): هي دابة كبيرة يخرجها الله قرب قيام الساعة تكلم الناس

(١) من الآية ١١٢ من سورة البقرة.

– من الكلام – وقرأ الكوفيون : « تَكْلِمُهُمْ » – بفتح التاء وسكون الكاف وكسر اللام – من : الكلْم وهو الجرح ، وسيأتى بيان ذلك فى الشرح . (فَوْجًا) أى : جماعة .

(مِمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا) المراد بالآيات : إما القرآن ، أو ما يعمه وسائر الآيات ، مما أقامه الله فى الأنفس والآفاق .

(فَهُمْ يُوزَعُونَ) أى : فهم يحبس أولهم على آخرهم ويكفون ، ليتلاحقوا ، يقال : وزعَه ، أى : كفه ، وهو من باب وَضع يَضع ، وفسره ابن عباس بقوله : فهم يدفعون ، وفسره ابن زيد بقوله : فهم يساقون ، وهى معان متقاربة .

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا) أى : حل بهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم .

التفسير

٨٢– (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة إنكار قريش للبعث بقولهم : « مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »[1] وذكر أنه – تعالى – سوف يقضى بينهم بحكمه ، وسلى نبيه عن تكذيبهم إياه ، بأنه ﷺ لا يُسْمع الموتى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وأنه لا يهدى هؤلاء العمى عن ضلالتهم ، وجاءت هذه الآية والآيات التى بعدها لتأكيد مجىء الساعة وقضاء الله عليهم بما يستحقون من العذاب الهون .

والمراد بوقوع القول عليهم : قرب نزول العذاب الموعود بهم فى نحو قوله تعالى : «وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[2] وذلك عندما يصير الناس إلى حد لا تقبل توبتهم ، ولا يولد لهم ولد مؤمن ، فحينئذ تقوم الساعة – كما ذكره الإمام القشيرى – وفى معناه ما روى عن حفصة بنت سيرين أنها قالت : سألت أبا العالية عن قول الله تعالى : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ . . . » الآية ، فقال : أوحى الله إلى نوح أنه : « لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ » قالت حفصة : وكأنما كان على وجهى غطاء فكشف ،

---

(١) من الآية ٧١

(٢) سورة السجدة : ١٣

قال النحاس : وهذا من حسن الجواب ، لأن الناس ممتحنون ومؤخرون ، لأن فيهم مؤمنين وصالحين ومَنْ قد عَلِم الله أنه سيؤمن ويتوب ، فلهذا أُمهلوا . ثم قال : فإذا زال هذا وجب القول عليهم فصاروا كقوم نوح ، حين قال الله تعالى : « وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ »[1] انتهى كلامه .

والدليل على أن ذلك يكون قرب قيام الساعة : أن الآية ختمت بقوله تعالى : « أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ » وتلاها قوله تعالى : « وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ » كما يدل عليه ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثٌ إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت فى إيمانها خيرًا : طلوعُ الشمس من مغربها ، والدجالُ ، ودابةُ الأَرض »[2] .

والدابة : اسم للحيوان الذى يدب ويتحرك .. والكلام : ما يحصل به التخاطب والتفاهم ، فماذا عسى أن تكون هذه الدابة التى تكلم الناس بما يفهمونه منها ، ويكون ظهورها من علامات الساعة الكبرى ؟ لابد أن تكون دابة عظيمة فى جسمها وفى تكوينها وفيما يصدر عنها ؛ لتكون آية مقارنة لطلوع الشمس من مغربها ، كما جاء فى صحيح مسلم[3] بسنده عن عبد الله بن عمر أنه قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أولَ الآياتِ خروجًا طلوعُ الشمسِ من مغربها ، وخروجُ الدابةِ على الناسِ ضُحى ، وأيتهما كانتْ قبلَ صاحبتِها فالأُخرى على إثرها قريبًا » .

ويقول السدى فى كلام الدابة : إنها تكلمهم ببطلان الأَديان سوى دين الإسلام ، وقيل : تكلمهم بما يسوءُهم .

وقال عطاءٌ الخراسانى : تكلمهم فتقول : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

قال القرطبى – شارحًا لهذا القول – : تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه مَنْ قرُب ومن بَعُد : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، أى : بخروجى ، لأن خروجها من الآيات .

---

(١) سورة هود : ٣٦

(٢) ذكره القرطبى فى تفسير الآية .

(٣) كتاب الفتن فيه .

أما على قراءة تَكْلِمهم فهى من : الكَلْم بمعنى الجَرْح ، ولا منافاة بينها وبين قراءة جمهور القراء ، فإنها تُكلِّمهم بما يسوءهم ويجرحهم ؛ لانغماس معظم الناس فى الضلال فى آخر الزمان .

وقد جاء فى وصف هذه الدابة آثار متباينة ، فلهذا أمسكنا عن ذكرها ، وحسب القارئ أن يعلم أنها من علامات الساعة ، فلابد أنها شئ هائل يفوق الوصف ، وأنها تخرج لإقامة الحجة على الكافرين ، وتثبيت المؤمنين ، وإغلاق باب التوبة أمام الملحدين .

ومعنى الآية :

وإذا قرب وقوع ما قلناه على الكافرين من قيام الساعة وعقابهم على كفرهم ، أخرجنا لهم من الأرض دابة عظيمة هائلة ، تكلمهم بما يفهمونه عنها ، فتوبخهم على كفرهم وتنعى عليهم أنهم قبل خروجها كانوا بآيات الله وبراهينه لا يصدقون ولا يستيقنون ، وأنه قد حان ميقات فنائهم وقيامهم لرب العالمين ، لحسابهم وعقابهم على ما كانوا يعملون .

٨٣ ، ٨٤ – (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن[١] يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

هاتان الآيتان للتذكير بما يحدث للكافرين بعد حشرهم من التوبيخ على كفرهم بآيات الله ، قبل الحكم عليهم بالعذاب المقيم ، والمراد من الحشر هنا : هو الحشر يوم القيامة .

والمعنى : واذكروا يوم نجمع من كل أمةِ نبيٍّ جماعةً كثيرة هم الذين يكذبون بآياتنا ، فهم يدفعون ويساقون إلى المحشر الذى يجتمع فيه الخلائق ، ويحبس أول الكافرين على آخرهم ، حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمساءلة من المحشر ، حتى إذا جاءوه قال الله تعالى – موبخًا لهم – : أكذبتم بآياتى التشريعية ، والتكوينية بادئ الرأى ، غير ناظرين فيها نظرًا يجعلكم تحيطون بها علمًا ويدفعكم إلى الإيمان بربوبيتى ووحدانيتى ، أم ماذا كنتم تعملون بعقولكم فى هذه الآيات البينات ، حتى وصل بكم التفكير فيها إلى هذا التكذيب الذى أبعدكم عن الحق المبين ؟

---

(١) مِنْ فى قوله : « ممن » بيانية ، أى : هم من يكذب بآياتنا .

ولما كان كلا الأمرين لا يستوجب تكذيبهم لوضوح تقصيرهم فيهما ، فلهذا لم يستطيعوا أن يجيبوا ربهم بما يخفف عنهم مسئوليتهم فيها فقال الله -تعالى- عقب هذه المساءلة :

٨٥- (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ) :

أى : ووجب عليهم العذاب الذى قلناه لهم على ألسنة رسلنا إن استمروا على تكذيبهم بآياتنا فهم لا يستطيعون النطق بما يدفع حجتنا عليهم .

واعلم أن الحشر يوم القيامة لجميع الخلائق مؤمنهم وكافرهم ، ولكن هذه الآيات اختصت ببيان حشر المكذبين بآيات الله ومساءلتهم ومصيرهم ، لأن السياق واللحاق يقتضى ذلك الاختصاص .

ويرى الشيعة الإمامية أن لفظ (مِنْ) فى قوله تعالى : « مِّمَّن يكذب بِآيَاتِنَا » للتبعيض وليس للبيان ، وأن الآية أفادت أن بعض المكذبين بآيات الله يحشرون ، وليس ذلك صفة الحشر يوم القيامة ؛ إذ يقول الله فى شأنه : « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا » وهذا يدل على أن هذا الحشر الجزئى يكون فى الدنيا لبعض أعداء الله من الكافرين ، لينتقم منهم على أيدى أوليائه وشيعته عند ظهور المهدى آخر الزمان إذ يرْجع معه جماعة من أئمة أهل البيت ، ليعاقبوهم بالإذلال والتوبيخ والقتل ، ليفوزوا بثواب نصرة الله ، ويفرحوا بظهور دولته ، وبالجملة فهذه الآية من أشهر ما استدل به الشيعة الإمامية على رجعة أئمتهم ، كما استدلوا بأحاديث رووها بهذا الصدد .

والحق أن ما ذهب إليه الشيعة من رجعة أئمتهم أمر خيالى محض ، والاستدلال عليه بالآية رأى فاسد ؛ فإن الآية ليس فيها عنهم قليل ولا كثير لا فى الرجعة ولا فى غيرها ، والحشر فى لسان الشرع ، هو حشر يوم القيامة ، وهو فى الآية للكافرين جميعًا ، ولفظ (مِنْ) فى قوله تعالى : « مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا » كما يحتمل أن يكون للتبعيض ، يحتمل أيضًا أن يكون لبيان الفوج الذين يناقشهم الله ويوبخهم ويعاقبهم بعد الحشر ، والحق أن هذه الآيات الثلاث[1] مسوقة لبيان حال المكذبين لرسل الله يوم القيامة ، كما يقتضيه السياق ،

(١) وهى قوله تعالى : « ويوم نحشر ... » إلى قوله تعالى : « ووقع القول عليهم » وأرقامها : ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥

ولا أدل على ذلك من أن الذى يوبخهم ويعاقبهم هو الله -تعالى- وليسوا أئمة الشيعة كما يزعمون، إذ يقول -سبحانه-: « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ » والرجعة التى قال بها الشيعة الإمامية لا يقول بها الشيعة الزيدية بل ينكرونها إنكارًا شديدًا، وقد ردّوها فى كتبهم على وجه مستوفى بروايات عن أئمة أهل البيت أيضًا تعارض روايات الإمامية[1]، فليرجع إلى كتبهم من أراد المزيد من العلم بفساد رأى هؤلاء الإمامية، والله ولى التوفيق.

٨٦-(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

هذه الآية جاءت لتوجيه نظر المشركين وعقولهم إلى بعض آيات الله الكونية الشاهدة بوحدانيته، وقدرته على البعث والحشر والحساب التى أنكروها، والمراد من الرؤية هنا: الرؤية القلبية فإنها هى التى توصلهم إلى الإيمان.

والمعنى: ألم يعلم هؤلاء المشركون أنا جعلنا الليل مظلمًا ليسكنوا فيه بالقرار والنوم بعد الحركة التى أجهدوا فيها أجسادهم وأرواحهم وعقولهم نهارا، وجعلنا النهار مضيئًا ليبصروا فى ضوئه طرق التقلب فى أمور معاشهم، إن فى ذلك التدبير المحكم لأمارات لقوم يريدون الإيمان، فإنه يشهد بأن الذى دبر هذا التدبير العجيب هو إله واحد قادر على بعث العباد وحشرهم وحسابهم، فإن من قدر على إبدال الظلمة بالنور، فإنه يقدر على إبدال الموت بالحياة. وَوَصْفُ النهار بالإبصار بدل الإضاءة، للمبالغة فى إضاءته وبلوغها من القوة إلى درجة جَعْل الإبصار من صفاته، وذلك على سبيل المجاز.

---

(١) راجع ما كتبه الآلوسى فى شأن هذه الرجعة إن شئت، فقد أسهب فيها وأفاض.

(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(الصُّورِ) : البوق ، أو جمع صُورة . (فَفَزِعَ) أى : خاف ، وعبر عنه بالماضى لتحققه .

(أَتَوْهُ) أى : جاءوه ، وعبر عنه بالماضى لتحققه . (تَحْسَبُهَا جَامِدَةً) : تظنها ثابتة فى أماكنها .

(دَاخِرِينَ) : صاغرين .

(وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) : تسرع سرعته .

التفسير

٨٧ـ (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) :

هذه الآية والتى بعدها مسوقتان لإنذار المكذبين بالبعث وتخويفهم من لقاء رب العالمين ، وللعلماء فى تفسير الصور والنفخ فيه ثلاثة أقوال :

(أحدها) : أنه قَرْنٌ يشبه البوق ، والنفخ فيه على الحقيقة ، وسندهم فى ذلك ما أخرجه الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : ما الصُّور ؟ قال : « قرنٌ ينفخ فيه » والمشهور عند أصحاب هذا القول أن صاحب الصور الذى ينفخ فيه هو إسرافيل ـ عليه السلام ـ .

(وثانيها) : أن الصُّور ـ بإسكان الواو ـ : جمع صورة كالصُّوَر ـ بفتحها ـ والمراد بها : صور الخلائق ، والنفخ فى هذا القول كالذى قبله على حقيقته .

(وثالثها) : أن النفخ فى الصور ليس على حقيقته ، وإنما هو صورة بلاغية بطريق الاستعارة التمثيلية ، شبه فيها حال انبعاث الموتى وقيامهم من قبورهم وسيرهم إلى المحشر تلبية لنداء الله لهم - شبه حالهم ذلك - بحال قيام جيش نفخ لهم فى البوق المعهود ، وسيرهم إلى موضع عُيِّنَ لهم ، وتعقيبا على هـذا الخلاف يقول الآلوسى ماخلاصته : أن الأول هو قول الأكثرين وعليه المعول ؛ لأن قوله-تعالى-فى آية أخرى : « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ » ظاهر فى أن الصور مفرد مذكر وليس جمع صورة وإلا لقال-سبحانه- : ثم نفخ فيها أخرى بتأنيث الضمير الراجع إليها ، وجَعْلُ الكلام من باب الاستعارة التمثيلية ، فيه إنكار لوجود صور حقيقى ينفخ فيه ، وذلك مخالف لما نطقت به الأحاديث الصحاح . . هذه هى خلاصة تعقيب الآلوسى على الخلاف فى حقيقة النفخ فى الصور .

والذى نراه : أن الذى يجب اعتقاده هو أن النفخ فى الصور سوف يكون قطعا ، أما شكل الصور وحقيقته وكيفية النفخ فيه فذلك من الغيبيات التى يوكل علمها إلى علام الغيوب -سبحانه- .

والراجح أن النفخ فى الصور سوف يكون مرتين ، إحداهما يموت عندها الخلائق ، والثانية نفخة البعث التى يقوم الناس عندها لرب العالمين للحساب والجزاء ، كما فى قوله -تعالى- : «وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ[1] » .

واختلف فيما جاء بهذه الآية ، أهى النفخة الثانية ، أم هى النفخة الأولى ؟ وممن ذهب إلى ترجيح أنها النفخة الثانية الإمام أبو السعود ، وقال فى ترجيحه : إنه هو الذى يستدعيه سباق النظم الكريم وسياقه ، وأن المراد بالفزع فى قوله -سبحانه- : «فَفَزِعَ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ » مايعترى الكل عند البعث والنشور من الرعب والتهيب الضروريين الجِبِلِّيَّيْن بمشاهدة الأمور الهائلة الخارقة للعادات فى الأنفس والآفاق . ثم قال : وقيل : المراد بالنفخ هنا : هو النفخة الأولى ، وبالفزع : الخوف الذى ينتهى إلى الموت لغاية شدة الهول كما فى قوله تعـالى : « وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِى

(١) الآية ٥١ من سورة يس .

الْأَرْضِ » فيختص أثرها بمن كان حيا عند وقوعها ، دون من مات قبل ذلك من الأُمم . إلى آخر ماقال .

ورجح العلامة الطيبي أنها النفخة الأُولى ، وقوله تعالى الآتى : «وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ» إشارة إلى النفخة الثانية .

ونحن نختار مارجحه العلامة أبو السعود من أن المراد بنفخة الفزع هنا نفخة البعث مراعاة للمقام . وفيما يلى تفسيرها على هذا الوجه :

المعنى الإجمالى للآية السابقة :

واذكروا - أيها المنكرون للبعث - يوم ينفخ فى الصور ، ليقوم الناس من قبورهم مُتَّجهين إلى المحشر ، ليحاسبهم الديان على ماكانوا يعملون - اذكروا مايحدث من الهول والكرب يومئذ فيفزع له أهل السموات وأهل الأَرض ، ويشتد خوفهم واضطرابهم إلا من شاءَ الله أن يطمئن ، وهم الشهداءُ كما جاءَ فى حديث صحيح ، ولأَنهم عند ربهم يرزقون ، وضم بعض المفسرين إليهم حملة العرش ورؤساءَ الملائكة : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والحور العين وخزنة الجنة [1] وكل هؤُلاءِ المبعوثين الفزعين عند هذه النفخة - كل هؤُلاءِ - يحضرون الموقف بين يدى رب العالمين صاغرين .

٨٨ - ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ :

نقل القرطبي عن الإمام القشيرى أنه قال : وهذا يوم القيامة ، ثم قال : أى : تمر مرّ السحاب ، حتى لايبقى منها شىءٌ . «وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً [2]» إ هـ .

ونحن نوافقه على ذلك مراعاة للسياق .

وإلى هذا الرأى مال صاحب إرشاد العقل السليم فقد قال : إنه مما يقع بعد النفخة الثانية كالفزع المذكور عند حشر الخلق ، يبدل الله - تعالى شأْنه - الأَرض غير الأَرض

---

(١) ولكننا لم نجد فى هؤلاء خبرا صحيحا .

(٢) سورة النبأ ، الآية : ٢٠

ويغير هيئتها ، ويسير الجبال عن مقارها على ماذكر من الهيئة الهائلة يشاهدها أهل المحشر . وهى وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى ، لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكون بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى : «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لَّاتَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَآ أَمْتاً يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لَاعِوَجَ لَهُ»[1]

وقوله سبحانه : «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»[2] فإن اتباع الداعى الذى هو إسرافيل ، وبروز الخلق لله – تعالى – لايكون إلا عند النفخة الثانية .

ونقل الآلوسى عن بعض المفسرين أن ذلك مما يقع عند النفخة الأولى ، وعقب عليه بما يرجح كونه بعد النفخة الثانية ، والله – تعالى – أعلم .

ويُعَقِّبُ الله ذلك التغيير الكونى الخطير بقوله – سبحانه – : «صُنْعَ[3] اللَّهِ الَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» أى : ماتقدم من النفخ فى الصور وماترتب عليه من فزع أهل السموات والأرض إلا من شاء ، ومجىء الخلائق جميعا تلبية لنداء البعث والحشر ، وتحويل الجبال إلى مايشبه العهن المنفوش[4] ، ومرورها مر السحاب فى طريقها إلى الزوال ، كل ذلك صنعه الله الذى أتقن كل شىء ، وبناه على الحكم المستتبعة للغايات الجليلة ، وليس ذلك من باب الإخلال والإفساد دون حكمة .

وقد ختمت الآية بقوله – تعالى – : «إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» وهو تعليل لما تقدم من النفخ فى الصور وفزع أهل السموات والأرض ومجيئهم إليه صاغرين للحساب ، وقد اعترض بينهما بذكر تحويل الجبال إلى عهن منفوش يسير سير السحاب فى طريقه إلى الزوال بعد أن كانت جامدة ، توفية لمقام الحديث عن الأهوال التى تحيط بيوم الحساب والجزاء .

---

(١) سورة طه ١٠٥ – ١٠٨ (٢) سورة إبراهيم : ٤٨

(٣) قال الآلوسى : (صنع الله) مصدر مؤكد لما قبله ، وعقبه بكلام جيد خلاصته ماكتبناه فى تفسير هذه الجملة والله الموفق . (٤) أى : الصوف المنشور .

وقال العلامة الطيبى [(١)] : قوله : «إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ . . » إلخ .

استئناف وقع جوابا لقول من يسأل فماذا يكون بعد هذه القوارع ؟ فقيل : إن الله خبير بعمل العاملين ، فيجازيهم على أعمالهم ، وفصَّل ذلك بقوله -سبحانه- : «مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا . . » إلخ .

وهذا الذى قاله الطيبى قريب مما اخترناه فى موقع الجملة مما قبلها ، وربما كان الذى قلناه أقرب وأولى ، والله أعلم .

المعنى الإجمالى للآية : وترى الجبال - أيها الإنسان وأنت فى الموقف بعيد عنها - تظنها جامدة ثابتة فى مكانها ، ولكنها قد سُحِقتْ وأصبحت كالعهن المنفوش ، وقد سيَّرها الله - سبحانه - فوق سطح الأرض وجعلها تمر فوقها فى طريقها إلى الزوال ، لتبرز الأرض التى كانت تواريها ، وهى فى سرعتها تمرُّ كما يمر السحاب فى طريقها إلى الزوال ، لتبرز السماء التى كانت تحجبها ، صَنعَ ذلك الصُّنْعَ العجيبَ اللهُ الذى أتقن كل شىء بناء وإزالة لحكم يعلمها ، ومنها : أن يرى الظالمون عظيم جبروته الذى لم يكترثوا به فى دنياهم ، وأن يحاسبهم على أرض جديدة تحقيقا لوعيده : «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ، لِيَجْزِىَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» [(٢)] ولن يصعب عليه حساب عباده ، فإنه خبير بما كانوا يفعلونه فى دنياهم .

(١) نقله الآلوسى فى تفسيره لقوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها) .
(٢) سورة إبراهيم : ٤٨ - ٥١ .

(مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ) : بالفعلة المستحسنة شرعا . (مِن فَزَعٍ) الفزع : الخوف .

(وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ » المراد بها هنا : الشرك ، كما سيأتى بيانه .

(فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ) : الوجوه معروفة ، أو هى كناية عن الأنفس ، وكبُّها : إلقاوُها ، وسيأتى مزيد بيان لذلك .

التفسير

٨٩ـ (مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) :

لما ذكر الله ـ سبحانه ـ فى الآية السابقة أنه عليم بما يفعله عباده جاء بهذه الآية والتى تليها لبيان مايترتب على علمه بها من جزائهم عليها . . وفسر ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من السلف ـ فسروا ـ الحسنة بشهادة التوحيد ، بناء على ماروى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تفسيره إياها بذلك ، والظاهر أنه ﷺ فسرها بأكملها ، وهذا لاينافى أن كل حسنة من الأفعال لها جزاء فى الآخرة خير منها ، والمراد من الفزع الذى يأمنه أصحاب الحسنات : الخوف من العقاب بالنار ، وهو ماجاء فى قوله تعالى : «لَايَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » وحكى عن الحسن أن ذاك حين يؤمر بالعبد إلى النار ، وهذا لاينافى مايحدث لجميع المكلفين عند البعث بعد النفخة الثانية ، فإنه عام لجميع من فى السموات والأرض كما جاء فى قوله تعالى : «وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ » فلا فرق بين أهل الحسنات وأهل السيئات فى الشعور بالفزع والتهيب والرعب عندما يرون أهوال يوم القيامة عقب البعث ، فإن ذلك أمر جِبِلِّىٌّ لايكاد يخلو منه أحد .

ومعنى الآية : من جاء بالفعلة الحسنة من توحيد وصلاة وصيام وزكاة وغيرها ، فله جزاء أعظم منها ، حيث يجزى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ماشاء الله ، جزاء دائما في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وهؤلاء المتقون المحسنون آمنون من خوف العذاب يومئذ مطمئنون ، وثوقا بوعد الله الذى لاسبيل إلى الخلف فيه «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا » .

٩٠ـ (وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

المراد بالسيئة هنا : الشرك ، وغلبة السيئات على الحسنات ، ويبقى كل منهما فى النار على حسب حاله ، فالكافر خالد فيها أبدا كما جاء فى وعيده فى القرآن والسنة ، والمؤمن الفاسق يخرج منها بعد أن ينال نصيبه من العقاب فيها ، فإنه لايبقى فى النار من فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان ، كما جاء فى صحاح السنة ، ولهذا ختمت الآية بقوله ـ سبحانه ـ : (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنتُمْ تَعْمَلُونَ) أى : لايجزون إلا على حسب أعمالهم .

ومعنى الآية : ومن جاء بسيئة الشرك أو طغت سيئاته على حسناته ، فألقوا فى النار على وجوههم [1] قيل لهم : هل تجزون إلا بعقاب مماثل لما كنتم تعملونه من السيئات ؟ «وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا » . «وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَايُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ».

(إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾)

(١) ويجوز أن يكون المعنى : فألقيت نفوسهم فى النار بإطلاق الوجه على النفس مجازا ، كما أطلقت الأيدى عليها مجازا فى قوله ـتعالى ـ: « . . . فبما كسبت أيديكم » وقوله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

المفردات :

(هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ) المراد بها : مكة . (مِنَ الْمُسْلِمِينَ) : من المنقادين لملة التوحيد .
(سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) : سيجعلكم تشاهدون أمارات سلطانه فى الدنيا والآخرة .

التفسير

٩١ـ (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) :

بينت الآيات السابقة أحداث الساعة وأحوالها وفزع أهل السموات والأرض عندما يفاجأون بها إلا من شاء الله ، ومجيئهم جميعا لحساب ربهم صاغرين ، وأن من جاء بالحسنة فله ثواب خير منها ، ومن جاء بالسيئة عوقب بها جزاء ماكانوا يعملون فى الدنيا ..

وجاءت هذه الآية وما بعدها فى ختام السورة لتقرر أمر التوحيد والبعث اللذين دار عليهما الحوار بين النبيين وأممهم فى ثناياها .

ومعنى هذه الآية : إن الله ـ تعالى ـ ما أمر نبيه محمدا ﷺ فيما جاء به من عنده ، إلا بأن يعبد الله رب هذه البلدة ـ مكة ـ التى جعلها الله حرما آمنا منذ عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وله وحده كل شىء ، فلا يصح أن يعبد معه سواه ، وما أَمَرَهُ الله ـ سبحانه ـ إلا بأن يكون من المسلمين المنقادين لشريعة الإسلام ، فلا سبيل له ولا لغيره أن يحيدوا عن توحيد الله ، ولا أن ينصرفوا عن دين الإسلام .

٩٢ـ (وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ) :

وكما أمر الله نبيه بذلك أمره بتلاوة القرآن وتكرار الإرشاد به ، لتنكشف للناس الحقائق المخزونة فى آياته ، فإن المواظبة على قراءته والوعظ به ، من أسباب انكشاف الفيوضات الإلهية والأسرار القدسية ، فمن اهتدى بما يسمعه من عظات القرآن ونصائحه ، وبتلاوته من آن لآخر ـ كما يفعله الرسول ـ فمن اهتدى بذلك فما تعود منفعة اهتدائه

إلا على نفسه ، ومن ضل عن الحق بمخالفته فى هذه النصيحة ، فوبال ضلاله مختص به ، ثم أمره أن يقول لهم : ما أُمرت فى شأْنكم وفى شأْن غيركم إلا بالإنذار والتخويف من عقوبة الخلاف ، أما استجابتكم لدعوتى فليست من شأْنى بل هى من شأْنكم وشأْن الله معكم ، فما علىَّ إلا البلاغ وقد فعلت .

٩٣ـ (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَارَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) :

وقل ـ أيها الرسول ـ لقومك : الحمد لله على نعمائه ، حيث أعاننى على تبليغ رسالته إليكم ، وتلاوة القرآن دائما عليكم ، ومتابعة الإنذار لكم ، وإقامة الحجة عليكم ، مع شدة معارضتكم ومخاصمتكم ، سيريكم الله آياته فى دنياكم وأُخراكم ، فتعرفون أنها برهان الحق ودليل الصدق ، وما ربك ـ يامحمد ـ بغافل عما تعملون ـ أيها المشركون ـ فسوف تكون آيات عذابه جزاءً وفاقا لأعمالكم .

وقد حقق الله وعيده لمشركى قريش فى دنياهم ، بما حدث لهم فى غزوة بدر الكبرى ، وسائر انتصارات رسوله عليهم ، وحصول القحط لهم بدعائه ﷺ حيث قال : اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ، فأصابهم جوع عنيف اضطرهم إلى أكل الكلاب والجيف والعلهز [1] وسوف يرى أشد منه فى أُخراه من مات منهم على كفره « وَمَارَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » .

---

(١) يطلق العلهز على القراد الضخم ، وعلى طعام من الدم والوبر يؤكل فى المجاعة ، وعلى نبات ينبت ببلاد بنى سليم . اهـ : من القاموس .

« سورة القصص »

من السور المكية ، وآياتها ثمان وثمانون ، ووجه مناسبتها لما قبلها أنها تشتمل على شرح بعض ما أجمل فى قصة موسى فى سورتى الشعراء والنمل ، وقد روى عن ابن عباس وجابر بن زيد أن الشعراء نزلت ثم النمل ثم القصص .

وقد ذكر الله فى السورة السابقة سؤال الكفار يوم القيامة على جهة التوبيخ ، وفى هذه السورة سؤالهم وتوبيخهم بما هو أوسع مما جاء فى سورة النمل ، كما ذكر هنا فى أمر الليل والنهار أكثر مما ذكر هناك ، إلى غير ذلك من المناسبات .

مقاصدها :

اشتملت هذه السورة المباركة على التنويه بآيات القرآن المبين ، وحكاية ما حدث لقوم موسى من جبروت فرعون ، حيث كان يذبح أبناءهم ويستبقى بناتهم ، وأنه - تعالى - شاء إنقاذهم من هذه المحنة فنجى موسى من القتل ، حيث ألهم أمه أن تصنع له تابوتًا وتلقيه فى النيل ففعلت ، فدفعته المياه إلى قصر فرعون ، فالتقطه آله ليكون لهم عدوًّا وحزنًا ، وليخلص بنى إسرائيل من ظلم فرعون وأعوانه ويجعل هلاكه وجنوده على يد من رباه فى كنفه ؛ وقد ربط الله على قلب أمه فصبرت ، وفرحت به امرأة فرعون وأوصت بعدم قتله قائلة : « لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا » وأوصت أمه أختًا له أن تتبع أثره ففعلت ، وحرم الله عليه المراضع فقالت أخته لأهل فرعون : « هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ » فقبلوا نصيحتها ، فرده الله بذلك إلى أمه : « كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ » .

ولما بلغ أشده آتاه الله حكمًا وعلمًا ، وجعل من همه إنصاف بنى إسرائيل : « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ » واستغفر ربه من ذلك فغفر له : « فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُۥ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ » .

ثم أراد أن يبطش بعدوه فقال له : « أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ . وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ » فخرج منها متجهًا إلى مدين : « وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا » وانتهى أمره مع أبيها إلى الزواج من إحدى ابنتيه على أن يكون أجيرًا عنده ثمانى سنين فإن أتم عشرًا فمن عنده ، فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله رأى نارًا بجانب الطور وكانت امرأته بحاجة إلى الاستدفاء بالنار لشدة البرد ، وحينئذ : « قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا إِنِّىٓ آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِىَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » وهنا شرفه الله بالرسالة إلى فرعون وملئه فرد قائلًا : « إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ » وطلب من الله أن يشرك معه أخاه فى رسالته ليكون عونًا له فإنه أفصح منه لسانًا ، فاستجاب له ربه قائلًا : « سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ » .

فلما جاءهم موسى بآياته وصفوه بالسحر ، وقالوا : « مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ آبَآئِنَا الْأَوَّلِينَ » وطلب فرعون من وزيره هامان أن يبنى له صرحًا ليبلغ به إلى حيث يطلع إلى إله موسى ، وقال : إنه يظنه من الكاذبين . وظل أمرهما فى صراع فترة طويلة ، فلما لم تغنه النذر انتقم الله منه ومن جنوده بما حكاه في قوله ـ سبحانه ـ : « فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » ، ثم بين الله ـ تعالى ـ ما لهذه القصة من الدلالة على نبوة محمد ﷺ فقال : « وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ » ثم قال : « وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .

ثم عابَتْ هذه السورة عليهم أنهم لما جاءهم القرآن الحقُّ من عند الله معجزة لنبيهم محمد، سألوه أن يأتيهم بكتاب من السماء جملة واحدة، كما جاء موسى قومه بالتوراة جملة واحدة، فأفحمهم الله بأنهم كفروا بما أوتى موسى من قبل قائلين: « سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ » فلا همَّ لهم إلَّا المكابرة والعناد، ثم بينت أن بعض أهل الكتاب لما تُلِيَ عليهم آمنوا به قائلين: « إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا » وأنهم إذا سمعوا لغوهم فيه أعرضوا عنه، ثم نعت عليهم شركهم، وذكرت أن الله تعالى أمر نبيه أن يستخبرهم عمن يأتيهم بضياء يبصرون فيه إن جعل الله عليهم الليل مستمرًّا وسرمدًا إلى يوم القيامة، أو يأتيهم بليل يسكنون فيه إن جعل عليهم النهار كذلك؟ وأنه ـ تعالى ـ هو الذى تفضل عليهم برحمته فجعل لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليبتغوا فيه من فضله ولعلهم يشكرون وأنه سوف يناديهم يوم القيامة فيسألهم: « أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » وأن الحق سوف يظهر لله عليهم، بشهادتهم على أنفسهم.

ثم حكت قصة قارون، فبينت أنه من قوم موسى، فلما أغناه الله بغي عليهم وطغى وأعرض عن الآخرة، وزعم أن ما أوتيه على علم عنده، فلم يسندالفضل فيه لرب العالمين، فخسف الله به وبداره الأرض، وما نفعه ماله ولا كبرياؤه ولا أتباعه، ثم ذكرتأن الدار الآخرة يجعلها الله للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين.

ثم تحدثت عن فضل الله وعدله فى قضائه يوم القيامة، فذكرت أن: « مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ».
ثم خُتمت السورة بدعاء كل مكلف إلى توحيد الله: « وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا
فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ
أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾)

المفردات :

(الْكِتَابِ الْمُبِينِ) : القرآن الواضح ، من : أبان بمعنى اتضح ، والمبين للأحكام ، من : أبان غيره أى : أوضحه ، وأطلق الكتاب على القرآن لأنه مكتوب فى اللوح المحفوظ ، أو لأنه يكتب فى الصحف . (مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ) : بعض خبرهما .

(لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : يصدقون حالًا واستقبالًا . (عَلَا فِي الْأَرْضِ) : استكبر فى أرض مصر .

(وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) أى : جعلهم أصنافًا يَسْتخدم كل صنف منهم فيما يريد ، أو أحزابًا يعادى بعضهم بعضًا ، وللكلام بقية فى التفسير .

(يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ) : هم بنو إسرائيل .

(وَيَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ) : يبقى إناثهم دون قتل .

التفسير

١ ، ٢ - (طسٓمٓ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) :

تقدم الكلام على أسماء الحروف التى بدئت بها بعض السور فارجع إلى مثله فى أوائل سورتى البقرة وآل عمران وغيرهما ، كما تقدم الكلام على (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) فى سورتى يوسف والشعراء فارجع إليها إن شئت .

والمعنى الإجمالى : طسم : هذه الآيات التى جاءت بسورة القصص آيات القرآن المكتوب فى اللوح المحفوظ الواضح الدلالة على الحق ، المبين للحلال والحرام وقصص الأنبياء ، ونبوة محمد ﷺ وأحوال البعث والحشر والنشور والحساب والجزاء .

٣ ـ (نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

نقص عليك ـ أيها الرسول ـ بعض أخبار موسى وفرعون وقوميهما قصصًا متصفًا بالحق لقوم يصدقون به حالًا واستقبالًا ، لينتفعوا بما جاء فيها ويتعظوا بمواعظها .

ففى قصة موسى مع قومه يعلمون أن قرابة موسى مع قارون لم تنفعه مع كفره ، وفى قصته مع فرعون يعرفون أن كبرياء فرعون وعلوه وبطشه لم تعصمه من نقمة الله القوى الجبار المتكبر .

٤ ـ (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) :

فرعون : لقب قديم لكل ملك كان يحكم مصر من أهلها . علوه فى الأرض : تجبره على أهلها ، كما قاله ابن عباس ، وقال قتادة : علا فى نفسه عن عبادة ربه بكفره ، وادعى الربوبية والمراد من الأرض : أرض مصر ، والشِّيَعُ : جمع شِيعَة ، وتطلق على كل قوم أمرهم واحد ، يتبع بعضهم رأى بعض ، وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، والمراد من جعل فرعون أهل مصر شيعا : أنه جعلهم أصنافًا يتبعونه فى تحقيق غاياته ومآربه من الشر والفساد ، أو من مختلف الأغراض والغايات من بناء وحرث وحفر وغير ذلك ، أو أنه فرق بينهم وجعل بعضهم عدوًّا لبعض حتى يشتغلوا بأنفسهم ، ويتم له بذلك السيادة عليهم ، وفقًا للقول المعروف عن الجبارين : فَـرِّق تَسُد .

والمراد بالطائفة المستضعفة : بنو إسرائيل ، فهم الذين كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، والمراد من نسائهم : إناثهم ـ صغارًا كُنَّ أم كبارًا ـ وسبب ذلك على ما قيل ، أنه كان يعتمد فى أمور المستقبل على رأى الكهنة والمنجمين ، فقال له قائل منهم : إن هلاكه سيكون على يد ذكر من بنى إسرائيل ، أو أنه رأى رؤيا فعُبِرَتْ له بذلك . قال الزجاج : العجب من حمقه : لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع ، وإن كذب فلا موجب للقتل

والمعنى الإجمالى للآية : إن فرعون علا بجبروته فى أرض مصر وجعل أهلها فرقًا ، فأما مَن كان مِن أهل مصر ، فقد استظهر بهم واستعان على ظلمه وجبروته ، ولم يمس ذكورهم ولا إناثهم بسوءٍ ، وأما بنو إسرائيل فإنه كان يذبح صغار الذكور من مواليدهم خوفًا منهم ، ويستبقى إناثهم لخدمة أهل مصر ، ولأنه كان لايتوقع الشرمن جهتهن ، إنه كان من المفسدين الراسخين فى الإفساد ، لاجترائه على قتل من لا جريرة له بناءً على رأى فاسد ، فإن قتلهم لا يغير من قضاءِ الله إن جعل هلاكه على يد أحدهم ، فإنه لاينفعه حذره من قدره .

(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾)

المفردات :

(نَمُنَّ) : نُنْعِمَ . « أَئِمَّةً » : مقدمين فى أمر الدين .

(وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) : لبعض ما كان يملكه فرعون .

(مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) : ما كانوا يخافون .

التفسير

٥ - (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ ونُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) :

بين الله فى الآية السابقة أن فرعون تجبر فى الأرض ، ولم يكن عادلًا فى حكم مملكته ، إذ أنه جعل بعض أهلها سادة وهم أهل مصر الأصليون ، وجعل بعضًا آخر من ساكنيها عبيدًا مسخرين هم بنو إسرائيل ،وكان يذبح المواليد من أبنائهم الذكور خوفًا على نفسه منهم ، ويستبقى إناثهم أحياءً لخدمتهم وجاء بهاتين الآيتين لبيان الحكمة فى إرسال موسى - عليه السلام -

لفرعون وبنى إسرائيل ، وقد ثبت تاريخيًّا أنه لم يكن لبنى إسرائيل ميراث لأرض مصر الأَصلية ولا حكم فيها ، بل الذى ثبت هو خروجهم منها إلى أرض فلسطين ، فلذلك يكون المراد من ميراثهم الأَرض إسكانهم أرض فلسطين ، وجعلهم أَصحاب ملك فيها كأَنها ميراث لهم ، أو أنها كانت تابعة لحكم فرعون فأَورثهم الله إياها منه بتسليطهم عليها وقتئذ ، وقد عاقبهم الله بنزع سلطانهم عليها حين أفسدوا فى الأَرض ، كما أشارت إليه سورة الإسراء وكما ثبت عندهم فى سفر الخروج .

ومعنى الآيتين : ونريد بإرسال موسى – عليه السلام – أن ننعم على بنى إسرائيل الذين استضعفهم فرعون وقومه فى أرض مصر ، وأن ننقلهم من الشرك إلى عبادة الله – تعالى – ونجعلهم بذلك أئمة فى الدين يقتدى بهم المشركون من حولهم ، ونجعلهم مستقرين فى أرض فلسطين استقرارًا يشبه الميراث ، وأن نمكن لهم فى الأَرض التى أسكناهم فيها ونسلطهم عليها فتكون تحت سلطانهم وحكمهم ما داموا عاملين بشرعنا ، وأن نرى فرعون ووزيره هامان وجنودهما ما كانوا يخافونه من الهلاك على يد رجل من بنى إسرائيل ، حيث أغرقناهم فى اليم أجمعين ، وسيأْتى تفصيل ذلك قرآنًا وتفسيرًا إن شاء الله تعالى .

(وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(وَأَوْحَيْنَا) : وألهمنا . (فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ) اليم : البحر . والمقصود به هنا : النيل ، وكل نهر عظيم يطلق عليه بحر لاستبحاره . (آلُ فِرْعَوْنَ) المراد بآله : من ينسبون إليه ولو بالخدمة . (لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا) أى : فتكون عاقبة أمره أن يكون لهم معاديًا ، ومصدر حزن لهم . (خَاطِئِينَ) : اسم فاعل من خطىء بمعنى تعمد الذنب ، وللكلام بقية فى التفسير . (قُرَّةُ عَيْنٍ) أى : سكون وطمأنينة ، يقال : قرَّت عينه ، تقر – بفتح القاف وضمها – قرة وقُرَّة : إذا سكنت بعد حيرة ، أو بردت وانقطع بكاؤها .

التفسير

٧– (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) :

بين الله فى الآية السابقة أنه – تعالى – يريد أن ينعم على بنى إسرائيل بالحرية بعد استعبادهم ويمكن لهم فى الأرض ، ويهلك فرعون وهامان وجنودهما على أيديهم دون أن ينفعهم حذرهم ، وجاءت هذه الآية وما بعدها تحكى قصة الإنعام على الأولين وإهلاك الآخرين .

واختلف العلماء فى تفسير المراد من الوحى إلى أم موسى ، فقال قتادة : إنه بمعنى الإلهام ، وقال جماعة : إنه كان خطابًا مناميًّا كسائر الرؤى الصادقة ، وقال آخرون : إنه كان بملك ، ولا يثبت لها بهذا نبوة ؛ فإن النبوة لا تكون فى النساء بالإجماع ، وقد جاء تكليم الملائكة لغير الأنبياء فى قصة الأبرص والأقرع والأعمى من بنى إسرائيل حيث أنزل إليهم ملكًا يسألهم أمنياتهم ، فسألوه أن يكشف الله ما بهم ويحسن إليهم ، فأجابهم الله إلى ما سألوه ، فبخل الأولان ، وكان الأخير سخيا فيما أعطاه الله فرضى الله عنه ، وقد روى حديثهم البخارى ومسلم وغيرهما[١] .

---

(١) ارجع إليه فى الجزء الثامن من القرطبى ص ١٨٨ طبع دار الكتب فى تفسير قوله تعالى : « إنما الصدقات » . المسألة الرابعة والعشرون .

وأخرج البخارى فى صحيحه[١] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لقد كان فيما كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يُكَلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر » . وقد سلمت الملائكة على عمران بن حصين ولم يكن نبيًّا ـ نقله القرطبى.

ويقول مجاهد : كان الإيحاءُ بالرضاعة والإلقاءِ فى اليم عند الخوف عليه ـ كان ذلك ـ قبل الولادة ، وقال السدى : لما ولدت أم موسى أُمِرَتْ أن ترضعه وتصنع به ما فى الآية ، وهذا وذاك من باب الاجتهاد .

ويروى أنها صنعت له تابوتًا من نبات البَرْدِىِّ ، وَقَيَّرَتْهُ بالقار ، فلما خافت عليه ألقته فى النيل ، وكان فرعون قد استشار جلساءه فيما يصنعه ببنى إسرائيل ، فأشاروا عليه بقتل مواليدهم من الذكور ففعل ، روى عن ابن عباس أنه لما استحرَّ القتل فيهم قالوا : إن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون ، فتحرمون من خدمتهم ، وتقومون بما كانوا يقومون به ، فاقتلوا عامًا كل مولود ذكر ، ودعوهم عامًا فلا تقتلوا منهم أحدًا ، فيشب الصغار مكان من ماتوا من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون فتخافوا مكاثرتهم إياكم ، وكانوا قد كثروا بمصر واستطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ، فسلط الله القبط عليهم ، فأجمعوا أمرهم على قتل ذراريِّهم الذكور عامًا وتركهم عامًا ، فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة ، فلما كان من قابل حملت بموسى ـ عليه السلام ـ فكان من أمره ما قصَّ الله ـ تعالى ـ .

وقد اشتملت هذه الآية على أعلى صور البلاغة ، يروى أن امرأة أنشدت شعرًا فمدح الأصمعى فصاحتها وبلاغتها ، فقالت : أبعد قوله ـ تعالى ـ : (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ...) وقد جمعت بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

وتفصيل ذلك : أن (أَوْحَيْنَا) و (خِفْتِ) خبران ، و (أَرْضِعِيهِ) و (أَلْقِيهِ) أمران ، (وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى) نهيان ، و (إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) بشارتان ، فما أعظم وأبلغ القرآن ، إذ يجمع كل ذلك فى هذه الآية القصيرة .

---

(١) فى كتاب الأنبياء ، باب : مناقب عمر .

والمعنى الإجمالى للآية : وأعلمنا أم موسى أن ترضعه وقتما تكون آمنة عليه ، فإذا خافت عليه من الجواسيس أَلْقَتْه فى تابوت فى النيل ، كما أعلمناها أنّه موضع رعايتنا ، فلا تخاف عليه ضَيْعَةً، ولا خطرا من عدم رضاعه ، ولا تحزن على مفارقته إيَّاها إنا سنرده إليها عن قرب ونجعله من المرسلين حينما يبلغ سن الرسالة .

وهذا ما نراه فى معنى الآية الكريمة حسب نصها ، وللمفسرين كلام كثير حول قصة وضعه وإخفائه وخوفها عليه من جواسيس فرعون ، وننقل فيما يلى ما قاله ابن كثير فى ذلك فإنه احتاط فيه أكثر من غيره – وإن لم نجد له سندًا – ونراه تصويرًا للحال حسب الخيال أقرب من أن يكون حكاية للمقال .

قال الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية : ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل ، خافت القبط أن يفنى بنو إسرائيل ، فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة ، فقالوا لفرعون : إنه يوشك – إذا استمر هذا الحال – أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم لا يعيشون ، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما يقوم به رجالهم من الأعمال ، فيخلص إلينا ذلك ، فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا ، فولد هرون فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى – عليه السلام – فى السنة التى يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك ، وقوابل يدرن على النساء ، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها ، لا يقْبَلُهَا[١] إلَّا نساء القبط فإن ولدت جارية تركنها وذهبْن ، وإن ولدت غلامًا دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة ، فقتلوه ومضوا – قبحهم الله – فلما حملت أم موسى – عليه السلام – لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكرًا ضاقت به ذرعًا ، وخافت عليه خوفًا شديدًا ، وأحبته حبًّا زائدًا ، وكان موسى – عليه السلام – لا يراه أحدٌ إلَّا أحبَّه ، قال تعالى : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى » ، فلما ضاقت ذرعًا به أُلهمت فى سرِّها ، ونُفِث فى رُوعها كما قال تعالى : (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ . . .) الآية . وذلك أن دارها كانت على حافة النيل ، فاتخذت تابوتًا

(١) يقال : قبلت القابلة المرأة : إذا تلقت ولدها حين ولادته .

ومهدت له فيه مهدًا، وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه جعلته فى ذلك التابوت وسيرته فى البحر وربطته بحبل عندها، فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وأرسلته فى البحر، وذهلت عن ربطه، فذهب مع الماء حتى مرَّ به على دار فرعون[١]، فكان من أمره ما قصَّ الله - تعالى - بقوله:

٨ - (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ):

الفاءُ فى قوله: (فَالْتَقَطَهُ) أفصحت عن جمل مقدرة تعرف من السياق، أى: فنفذت ما أُمرت به من إرضاعه ثم إلقائه فى اليم عندما خافت عليه. والمراد من آل فرعون: أتباعه وجواريه، ومن التقاطه: أخذه، والتعبير عنه بالالتقاط للإيذان بأنهم أخذوه بإعزاز واهتمام كما يهتم باللقطة، قال ابن كثير فى تصوير ذلك: فالتقطه الجوارى فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدرين ما فيه، وخشين أن يفتحنه قبل أن تفتحه هى، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأبهاه، فأوقع الله محبته فى قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وما أراده الله من كرامتها، وشقاوة زوجها[٢].

واللام فى قوله: (لِيَكُونَ) لام العاقبة، وليست لام التعليل؛ فإنهم التقطوه ليكون لهم قرة عين، لا ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، أى: فكانت عاقبة التقاطه أنه كان عدوًّا لهم ومصدر حزن، لا قرة عين ومصدر فرح وغبطة، حيث كان من أمره معهم ما قص الله.

ومن المفسرين من جعل اللام هنا للتعليل، على معنى أن الله قيَّضهم لالتقاطه، ليجعله لهم عدوًّا وحزنًا، فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم وخوفهم ولهذا قال عقبه: (إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ).

ولفظ: (خَاطِئِينَ) إما من الخطيئة، وهى الإثم[٣]، وإمَّا من الخطأ ضد الصواب[٤]، ويكون عن غير عمد.

---

(١) انتهى كلام ابن كثير مع تصرف يسير. (٢) ابن كثير مع تصرف قليل.

(٣) ويطلق عليه الخِطْء أيضا - بكسر الخاء وسكون الطاء - وفعله: خَطِىء - بفتح فكسر - إذا تعمد الذنب.

(٤) وفعله: خطىء أيضا فى بعض لغات العرب، أو: هو اسم فاعل من أخطأ على غير قياس.

والمعنى الإجمالى للآية : ففعلت ما أوحاه الله إليها من إرضاعه ثم إلقائه فى اليم عندما خافت عليه ، فجرى به الماءُ إلى قصر فرعون ، فأخذه أتباعه بعناية وحرص وفرح كما تؤخذ اللقطة ـ أخذوه ـ لتكون عاقبته أن يصير لهم عدوًّا مخاصمًا فى الحق ، ومصدرَ حزن دائم لهم ، حيث كان سببًا فى غرقهم فى اليم وحزن أهليهم عليهم ، عقابًا لهم على كفرهم بربهم وعصيانهم لرسولهم ، إن فرعون وهامان وزيره وأعوانه كانوا آثمين باستعباد بنى إسرائيل وظلمهم وقتلهم ذكرانهم ، وكفرهم بآيات ربهم ، كما كانوا مخطئين فى تقديرهم نجاتهم بقتل ذكور بنى إسرائيل فقد جحدوا أن الله شديد العقاب .

٩ ـ ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ [١] لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [٢] ﴾ :

لم يأت فى القرآن ولا السنة اسم امرأة فرعون ، وجاء اسمها (آسية بنت مزاحم) عند عدد من المفسرين ، ويبدو أنه اسم عربى ، فهل هى من ذرية العماليق الذين حكموا مصر وكانوا عربًا ، أم كانت من قبيلة من قبائل العرب ؟ ويبدو لى أنه لا سند له ؛ فلذا لا نجزم بصحة هذه التسمية وندعها لعلام الغيوب .

قال القرطبى : يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم فى البحر فأمرت بسوقه إليها وفتحه ، فرأت صبيًّا صغيرًا فرحمته وأحبته فقالت لفرعون : « قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ » أى : هو قرة عين لى ولك .

وقال ابن كثير : يعنى أن فرعون لما رآه هَمَّ بقتله ؛ خوفًا من أن يكون من بنى إسرائيل ، فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحاج عنه وتُحَبِّبه إلى فرعون ، فقالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾ فقال : أمَّا لك فنعم ، وأمَّا لى فلا ، فكان كذلك ، وهداها به ، وأهلكه الله على يديه . ا هـ.

وقد نقل ابن كثير عن النَّسائى أن رسول الله ﷺ قال : « والذى يحلف به لو أَقَرَّ فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها » .

---

(١) وقدمت نفسها عليه لما تعلمه من حبه إياها ، و إيثار مصلحتها على مصلحته.

(٢) جملة (وهم لا يشعرون) حال من آل فرعون ، والتقدير : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأته كيت وكيت وهم لا يشعرون وجوز كونه حالا من القائلة والمقول له ، والمراد بالجمع اثنان ، وقيل غير ذلك .

٤

والخطاب فى (لَا تَقْتُلُوهُ) إمَّا موجه منها إلى فرعون على طريقة التعظيم ، حيث خوطب خطاب الجمع ، كما قال الشاعر : فقلت ارحمونى يا إله محمد .

وإمَّا موجه إلى المأمورين بقتل الصبيان ، كأنها بعد أن خاطبت فرعون وأخبرته بما يستعطفه على موسى ، آنست منه بادرة أمن جديد ، فالتفتت إلى خطاب المأمورين بقتل الصبيان فنهتهم عن قتله ، معلِّلَةً ذلك بقوله - تعالى - حكاية عنها : « عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا » أمَّا نفعه لهم فلما رأته فيه من مخايل النجابة ، وأما اتخاذه ولدًا فلما رأته فيه من مخايل الشرف اللائق بتبنى الملوك ، ولم يكن لها منه ولد .

والمعنى الإجمالى للآية : وقالت امرأة فرعون حين بهرها حسن موسى - قالت لفرعون أو لأعوانه - : لا تقتلوه وذروه حيًّا لعله ينفعنا نفعًا جزيلًا نتوقعه منه ، أو نتخذه ولدًا ونتبناه حيث لا ولد لنا ، وهم لا يدرون ما يُخبئه لهم القدر ، من هلاك فرعون وجنوده وإنقاذ بنى إسرائيل من عبوديتهم على يديه .

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾)

المفردات :

(فَارِغًا) أى : خاليًا من كل شىء إلَّا من شأن موسى ، أو خاليًا من التعقل وحسن التصرف . (إن كَادَتْ لَتُبْدِى[1] بِهِ) : إنها كادت لتعلن أمره للناس .

(لَوْلَآ أن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا) الربط على القلب : مجاز عن التثبيت بالصبر .

(لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) : لتكون راسخة الإيمان بصدق وعدنا برده .

---

(١) (إنْ) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، واللام فارقة بينها وبين (إن) النافية ، أى : أنها قربت أن تصرح بموسى وحاله معها .

(قُصِّيهِ) : تَتَبَّعِى أَثَرَه وتعرَّفى خبره .

(فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ) : أبصرته عن بعد .

التفسير

١٠ ـ (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

اختلف العلماءُ فى تفسير فراغ قلب أم موسى ، فمنهم من فسره بخلوه من كل شىء إلَّا من أمر موسى ، وصح ذلك عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كما روى ذلك التفسير عن ابن مسعود والحسن ومجاهد وعكرمة .

ومنهم من فسَّره بالخلو من الصبر ، ومنهم من فسره بنسيانها وعد الله برده إليها من اليم ، وقال أبو عبيدة : فارغًا من الهم حيث عرفت أنه لم يغرق ، وأن فرعون عطف عليه وتبناه ـ كما يقال : فلان فارغ البال ، وقال آخرون : فارغًا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد عدوه فرعون كما فى قوله ـ تعالى ـ : « وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ » أى : لاعقول فيها .

فعلى رأى ابن عباس يكون معنى الآية : وصار قلب أم موسى فارغا من كل شىء إلا من أمر موسى حيث ألقته فى البحر ، ولاتدرى أين ذهب الماءُ به ، إنها كادت لشدة وجدها وحزنها على فراقه ، لَتُظْهِرُ أنها ذهب ولدها فى البحر ، وتخبر بحالها معه ، لولا أن ثبتها الله وصبرها لتكون من الملتزمين بتصديق الله فى وعده ، وعلى رأى أبى عبيدة : وصار فؤاد أم موسى فارغا من الهم حيث عرفت أنه لم يغرق ، وأن فرعون وامرأته تبنَّياه . إنها أوشكت أن تبوح بأمره وتكشف سره إلى آخر المعنى السابق .

١١ ـ (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ) :

كان لموسى ـ عليه السلام ـ أخت كبرى تحسن تنفيذ ماتكلف به ، وكان اسمها مريم ـ كما قيل ـ فلما ألقته أمه فى البحر قالت لأُخته هذه : تتبعى أثره واعرف خبره لتعرف مصيره ، فأبصرته عن بعد وأهل فرعون لايشعرون أنها أخته ، وأنها تتعرف حاله ومصيره .

* ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

(حَرَّمْنَا) : منعنا ، فالتحريم مجاز عن المنع ؛ لأن من حُرِّم عليه شيء فقد مُنِعَه .

(الْمَرَاضِعَ) : جمع مُرْضِع ؛ وهى المرأة لها ولد ترضعه فإن وصفتها بإرضاع الولد قلت : مرضعة .

(يَكْفُلُونَهُ) : يَتَوَلَّوْنَه ويقومون على تربيته ورضاعته .

(أَشُدَّهُ) : قُوَّتَه ، وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة كما ذكره صاحب القاموس، وقال البيضاوى : هو من ثلاثين إلى أربعين سنة ، وهو واحد جاء على بناء الجمعُ ، كآنُك[1] ، ولا نظير لهما ، أو جمع لا واحد له .

(وَاسْتَوَى) : واعتدل وتمَّ وبلغ المبلغ الذى لا يُزَاد عليه ، واستوى الرجل : بلغ أَشُدَّه أو أربعين سنة .

(حُكْمًا) أى : حكمة .

(وَعِلْمًا) : ومعرفة وفهما ، وعَلِمه - بكسر اللام - علما : عَرَفه .

التفسير

١٢ - (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) :

(١) الآنك : الرصاص .

لما أصبح موسى بدار فرعون وأحبته زوجته وطلبت منه الإبقاء على حياته قائلة : «قُرَّةُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَاتَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» عرضوا عليه المراضع التى كانت لديهم ، فلم يقبل منهن ثديا ، فذلك قوله ـ تعالى ـ : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ . .) إلخ .

والمعنى : منع الله موسى أن يُرْضَع ثدى امرأة قط ـ قال ابن عباس : لايُؤْتى له بمرضع فيقبلها ، وهذا تحريم منع لاتحريم شرع ، قال امرؤُ القيس :

جالت لتصرعنى فقلت لها اقصرى   إنى امرؤ صَرْعِى عليك حرام

أى : ممتنع .

وقد منعه الله ـ سبحانه ـ أن يرتضع ثدى امرأة غريبة ، حتى يحدث ما أراده ـ سبحانه ـ من قبل حضور أخته التى كانت تتبعه .

قال ابن كثير : وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضِع غير أمه . ولأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل ذلك سببا لرجوعه إليها .

فاغتمّ آل فرعون لامتناعه عن الرضاعة وأهمّهم ذلك وخافوا عليه التلف والهلاك . وتلمّسوا له المراضع ؛ فلما رأتهم أخته حائرين فيمن يرضعه قالت : ألا أُرشدكم إلى أسرة كريمة تكفله وتتعهده بالرضاع والتربية وتقوم برعايته ، ولاتقصر فى خدمته ، وهم له حافظون ومخلصون فى رعايتهم له ، فلما قالت لهم ذلك طلبوا هذه المرضع ، فلما حضرت دخلوا بها عليه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، واستدعت زوجة الملك أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلا ـ وهى لاتعرف أنها أُمُّهُ الحقيقيّة ـ وحين طلبت أم موسى أن تأخذ معها موسى لترضعه فى بيتها أجابتها امرأة فرعون إلى ذلك . وأجرت عليها النفقة والإحسان الجزيل ، وهكذا رجعت أم موسى بولدها إلى بيتها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا فى عز وجاه ورزق واسع ، ولهذا جاء فى الحديث : «مثل الذى يعمل ويحتسب فى صُنعه الخير كمثل أم موسى تُرْضع ولدَها وتأْخذُ أجْرَها» .

ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل ، فسبحان من بيده الأمر ، ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، فهو الذى جعل لمن اتقاه عند كل هم فرجا ، ومع كل ضيق مخرجا ، ولله در القائل :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

١٣ - (فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :

أرجع الله موسى إلى أمه كى تطيب نفسها وتسرّ بعودته إليها ، ولاتحزن بفراقه ، ولتزداد علما بأن جميع ماوعد الله حق لاخُلف فيه من ردِّه إليها وجعله من المرسلين ، بمشاهدة بعضه ، وقياس بعضه عليه ، ولكن أكثر الناس لايعلمون أنه حق فيرتابون ، ويشبه أن تكون جملة «وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَايَعْلَمُونَ» تعريضا بما فرط من أمه حين سمعت بخبر موسى ووقوعه فى يد عدو الله فرعون ، فنسيت وعد الله فجزعت وأصبح فؤادها فارغا بعد أن أضحى وليدها الرضيع كالحمل الوديع فى عرين الأسد .

(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ) : حكمَ الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة ، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محمودة ، كما قال تعالى : «وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ» .

وقال القرطبى : (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ) يعنى أكثر آل فرعون لايعلمون ، أى : كانوا فى غفلة عن التقدير وسر القضاء .

١٤ - (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ) :

لما ذكر الله - تعالى - مبدأ أمر موسى - عليه السلام - ذكر أنه لما بلغ أشُدّه وكمل وتم نضجُه أعطاه الله الحكمة والعلم والمعرفة والحلم ، ومثل ذلك الجزاء الذى جزينا به موسى وأمه نكافىء المحسنين على إحسانهم .

واختلف فى زمان بلوغ الأشُد والاستواء ، أخرج ابن أبى الدنيا من طريق الكلبى عن ابن عباس أنه قال : الأشُدُّ مابين الثمانى عشرة إلى الثلاثين ، والاستواء مابين الثلاثين

إلى الأربعين ، وأخرج ابن حميد عن مجاهد أنه قال : الأَشُدُّ ثلاث وثلاثون سنة ، والاستواءُ أربعون سنة ، وهى رواية عن ابن عباس .

ونقل عن الزجاج : أن الأشُد مابين الثلاثين إلى الأربعين ، واختاره بعضهم لموافقته لقوله تعالى : «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً » لأنه يشعر بأنه مُنْتَهٍ إلى الأربعين ، والحق أن بلوغ الأَشُد فى الأَصل هو الانتهاءُ إلى حد القوة وذلك وقت تمام النمو وغايته ، والاستواءُ : تمام العقل وكماله ونضجه ، وذلك يختلف باختلاف الأقاليم والأعصار والأحوال ولذا وقع له تفاسير كثيرة فى كتب اللغة والتفسير .

كما اختلف فى المراد من الحُكْمِ والعِلم ، قال الزمخشرى : العلم : التوراة ، والحُكم : السنة ، وحكمة الأنبياء - عليهم السلام - : سنتهم ، قال تعالى فى سورة الأحزاب : «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ » الآية : ٣٤

وقيل : آتيناه سيرة الحكماء والعلماءِ وأخلاقهم وسَمْتَهم قبل البعثة ، لأن استنباءه - عليه السلام - كان بعد وَكْزِ القبطى ، والهجرة إلى مدين ورجوعه منها .

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا
رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ
ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ
عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا
لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى
ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ
ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات :

(فَٱسْتَغَٰثَهُ) : فطلب غوثه ونصره ومساعدته . (شِيعَتِهِ) شِيعةُ الرجل ـ بكسر الشين ـ : أتْباعُه وأنصارُه ، ويقع على الواحد وغيره مذكرا ومؤنثا ، وقد غلب على كل من يتولى عليا وآل بيته حتى صار اسما خاصا بهم .

(فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ) : فضربه بِجُمْع كفه[1] ، وقد يطلق الوكز على معنى الطعن والدفع . (فَقَضَىٰ عَلَيْهِ) قال الآلوسى : أنهى حياته ، أى : جعلها مُنْتهية مُتقضِّية .

(ظَهِيراً) : مُعِيناً ومساعدا . (يَتَرَقَّبُ) : ينتظر ويترصّد المكروه .

(اسْتَنصَرَهُ) : طلب نصره ومعاونته . (يَسْتَصْرِخُهُ) : يستغيث به .

(يَبْطِشَ) : يأْخذه بالعنف والشدة والبأْس . (جَبَّاراً) الجبار : اسم من أسمائه تعالى ، والجبار : العظيم القوى ، وكل عات ، ومن يقاتل فى غير حق .

التفسير

١٥ - (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ) :

ذكر - سبحانه وتعالى - قصة قتل موسى ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، ثم ماقدِّر له بعد ذلك من الإكرام والنبوة والتكليم فقال :

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا . . .) إلخ.

قال ابن عباس : دخل موسى مدينة - منف - من أرض مصر فى وقت لايعتاد دخولها أو لايتوقَّعونه فيه ، وكان - كما رُوِى عن الْحَبْر - وقت القائلة ، وفى رواية عنه : بين العشاء والعتمة .

وإزاء هذا الخلاف فى الرواية عن ابن عباس ، نرى أن التعيين لامبرر له ، فيكفى أنه وقت غفلة ، والله يعلم أكان ليلا أم نهارا ؟

وقال ابن إسحاق : هى مصر ، وكان موسى - عليه السلام - قد بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فاختفى وغاب ثم دخلها متنكرا ، فوجد فيها رجلين يتنازعان ويتحاربان أحدهما ممن شايَعَهُ وتابَعَهُ ، وهم بنو إسرائيل ، والآخر من مخالفيه وهم القبط ،

---

(١) فى القاموس : جُمع الكف - بالضم - وهو حين تقبضها .

فاستعان الإسرائيليُّ بموسى وطلب منه نصره ومساعدته على خصمه القبطى ، واستجاب له موسى وأعانه وضرب القبطى فقتله من غير قصد ، ثم أسف موسى وقال : إن إقدامى على هذا من تزيين الشيطان وإغوائه ، إن الشيطان للإنسان لعدو ظاهر العداوة واضح الضلال والإضلال .

واختلف فى سبب تقاتل هذين الرجلين ، فقيل : كان أمرًا دينيًا ، وقيل : كان أمرًا دُنْيويًا ، رُوى أن القبطىَّ كلف الإسرائيلى حمل الحطب إلى مطبخ فرعون فأبى ، فاقتتلا لذلك ، وكان القبطى - كما روى عن سعيد بن جبير - خبازًا لفرعون ، والله أعلم بصحة ذلك .

١٦ - (قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) :

قال موسى - مُتَضَرِّعا داعيا ربه - : يارب إنى أسأت إلى نفسى ، بما فعلت من ضربٍ ترتب عليه القتل ، وكان فيه ذهابُ النفس ، فاغفر لى ذنبى ، وهكذا ندم على عمله فَحَمَلَهُ ندمُه على الرجوع لربه والاستغفار من ذنبه فغفر الله له .

ولايشكل ذلك على القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر قبل الرسالة وبعدها ، لأن الوكز من الصغائر ، وما وقع من القتل كان خطأً كما قاله كعبٌ وغيره - بل قيل : لايشكل أيضا على القول بعصمتهم عن الصغائر والكبائر مطلقا لجواز أن يكون - عليه السلام - قد رأى أن فى الوكْز دَفْعَ ظالم عن مظلوم وتخليص ضعيف من قوىّ ، ومنْعَ معتدٍ من اعتدائه ، ففعله غير قاصد به القتل ، وكأنه - عليه السلام - بعد أن وقع منه ماوقع تأمل ، فظهر له إمكان الدفع بغير الوكز ، وأنه لم يتثبت فى أمره لما اعتراه من الغضب ، فعلم أنه فعل خلاف الأَوْلى بالنسبة إلى أمثاله ، فقال ماقال من أنه من عمل الشيطان على عادة المقربين فى استعظام خلاف الأَوْلى :

١٧ - (قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ) :

قال موسى - خاضعا سائلا ربه متوجها إليه - : يارب بحق إنعامك علىّ بالمعرفة والحكمة والتوحيد ، وحفظى من شر فرعون وقومه وفقنى للخير والصواب ، فإن وفقتنى إلى ذلك

فلن أكون عونا ومساعدا للكافرين والمخالفين لأوامرك ، وعن ابن عباس : لم يستثن ، فابتلى به مرة أخرى ، يعنى : لم يقل : فلن أكون إن شاء الله .

وقيل معناه : بسبب ما أنعمت على من قوة الجسم ومتانة التركيب وغير ذلك من النعم أشكرك ، فلن أستعمل نعمك فى مظاهرة من تؤدى معاونته إلى الوقوع فى جرم وإثم .

النهى عن معاونة الظلمة :

احتج أهل العلم بهذه الآية على منع معاونة الظلمة وخدمتهم ، أخرج عبد الله بن الوليد الرصافى : قلت لعطاء بن رباح : إن أخى ليس له من أمور السلطان شئ إلا أنه يكتب له بقلم مايدخل ومايخرج ، وله عيال ، ولو ترك ذلك لاحتاج واستدان ، فقال : مَن الرأس ؟ قال : خالد بن عبد الله القسرى . قال : أما تقرأ ماقاله العبد الصالح : «رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ » فلا يُعينهم أخوك ، فإن الله يعينه . ذكره القرطبى والآلوسى والزمخشرى .

قال عطاء : فلا يحل لأحد أن يعين ظالما ، ولا يكتب له ، ولايصحبه ، وإن فعل شيئا من ذلك كان معينا للظالمين ، قال تعالى : « وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ » فإذا كان الرُّكُونُ إلى الظلمة أو العمل معهم موجبا لغضب الله وسخطه ، مُعَرِّضا لعقابه وناره ، فماذا يكون حال من انغمسوا منهم فى شرورهم وآثامهم ، وشاركوهم فى ظلمهم وأعانوهم على القتل والتشريد للأحرار الصالحين ؟ بل من كانوا أداة تعذيب وقهر وظلم للأبرياء ؟ لاشك أن عقابهم أشد وعذابهم أعظم .

١٨ ـ (فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ) :

فأصبح موسى فى مصر بعد قتله القبطى فزعًا يتوقع أن يصيبه الأذى من القوم بسبب قتله المصرى ، وقيل : خائفًا وقوع المكروه من فرعون ، يترقب نصرة الله عليه ، فإذا صاحبه الإسرائيلى الذى نصره بالأمس وساعده وقَتَل القبطى بسببه يستغيث به مرة ثانية على

مصرى آخر ، فنهره موسى وزجره قائلًا له : إنك لظاهر الغواية كثير الشر ؛ لأنك تسببت فى قتل رجل ، وتقاتل آخر ، ودعوتنى مرة ثانية لنصرتك ومساعدتك .

١٩ - (فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) :

أى : فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطى الذى هو عدوٌّ لهما توهم الإسرائيلى المستصرخ لضعفه وذلته أن موسى يريد البطش به ، فقال له - يريد أن يدفع عن نفسه - : (أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ . . .) الآية - ولم يكن أحد يعلم بقتل موسى للقبطى أمس سوى هذا الإسرائيلى ، لأن ذلك كان والناس فى غفلة ، فلما سمع القبطى ذلك تلقفه من فمه ، ثم ذهب به إلى بيت فرعون ، فألقاها عنده ، فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى . . هكذا قال ابن كثير ، وكون الخطاب من الإسرائيلى لموسى هو رأى ابن عباس ، وهو الذى قال به ابن كثير كما تقدم .

وقال الحسن : قاله القبطى الذى هو عدوٌّ لهما ، كأنه عرف من قول موسى للإسرائيلى : (إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ) أنه الذى قتل القبطى بالأمس من أجله ، ولما انتشر الحديث ووصل - بأية صورة - إلى فرعون ومَلَئِه هموا بقتل موسى - عليه السلام - فخرج مؤمن من آل فرعون - قيل : هو ابن عم فرعون - ليخبره بذلك وينصحه ، كما قال عز وجل :

(وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ
ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن
يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(الْمَلَأَ) كجبل : الأشراف ، والقوم ذوو الشارة والتجمع .

(يَأْتَمِرُونَ بِكَ) : يتشاورون بسببك ، وسمى التشاور ائتمارًا لأن كلاًّ من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر بأمره ، والائتمار والمؤامرة : المشاورة والهم بالشر .

(سَوَآءَ السَّبِيلِ) : الطريق السوى .

التفسير

٢٠ - (وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) :

المعنى : وجاء رجل مؤمن من آل فرعون من أقصى المدينة يسرع فى مشيه لمزيد اهتمامه بإخبار موسى ونصحه قال : ياموسى إن وجوه قوم فرعون والأشراف منهم يتشاورون فى أمرك ويشير بعضهم على بعض بقتلك قصاصًا للقبطى الذى قتلته بالأمس ، فاخرج من مصر قبل أن يظفروا بك ، إنى لك من الناصحين المخلصين ، ولما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون وكبار دولته فى أمره كان ما قص الله بقوله :

٢١ - (فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

فخرج موسى - عليه السلام - من مصر ممتثلًا نصح ذلك المؤمن خائفًا يتوقع أن يتعرض له أعداؤه بالأذى فى الطريق ، يتلفت خشية أن يُدْرَكَ ، يقول ضارعًا إلى الله ربه أن يحفظه وينجيه من اعتداءِ المعتدين ، من فرعون وقومه .

٢٢ - (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ السَّبِيلِ) :

ولما خرج موسى - عليه السلام - فارًّا بنفسه منفردًا خائفًا ، وصرف وجهه ناحية مدين - قرية شعيب - ورأى حاله من خلوه من زاد وغيره ، وعدم معرفته بالطريق فوَّض أمره إلى الله - تعالى - راجيًا أن يهديه الطريق الأقوم السوى - طريق الخير والنجاة - قال ابن عباس : خرج وليس له علم بالطريق إلَّا حسن ظنه بربه ، وقال ابن كثير : حقق الله له ما طلبه ، وهداه إلى الصراط المستقيم فى الدنيا والآخرة فجعله هاديًا مهديًّا .

(وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا
لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ
تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾
فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ
قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا
يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ
إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ
حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ
أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾)

المفردات :

(وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ): وصل إليه ، والوِرْد – بالكسر –: الإشراف على الماء وغيره دخله أو لم يدخله ، والنصيب من الماء ، والقوم يردون الماء . (تَذُودَانِ): تدفعان وتمنعان غنمهما عن الماء ، ومنه قول الرسول ﷺ : « فَلَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضى » أى : لَيُطْرَدَنَّ

ويمنعن . (مَا خَطْبُكُمَا) : ما شأنكما ؟ وفى القاموس : الخطب : الشأن والأمر صغر أو عظم ، والجمع : خُطوب . (يُصْدِرَ) : قرأ ابن عامر وأبو عمرو : (يَصْدُرَ) - بفتح الياء - من صدر ، ضد ورد ، أى : يرجع الرعاة بأغنامهم ، وقرأ الباقون : (يُصْدِرَ) من أصدر بمعنى أرجع ، أى : حتى يُرْجعوا مواشيهم . (الرِّعَآءُ) : جمع الراعى ، وهو كل من ولى أمر الحيوان وغيره ولاحظه محسنًا إليه ، وقام على حفظه ومراقبته . (تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ) قال أبو البقاء : تأجرنى من أجرته إذا كنت له أجيرًا ، كقولك : أبَوْتُهُ إذا كنت له أبًا ، أو من تأجرنى بمعنى تثيبنى ، ومنه تعزية الرسول ﷺ : « أجَرَكُم الله ورحمكم » ، وفى القاموس : أجَرَه ، يأجِرُه ، ويأجُرُه : جزاه كآجره ، والأجر : الجزاء على العمل .

(حِجَجٍ) : جمع حِجَّة - بالكسر - وهى السَّنة . (أَشُقَّ عَلَيْكَ) : أوقعك فى المشقة والصعاب . (فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ) أى : لا يُعْتدَى علىَّ فى طلب الزيادة .

التفسير

٢٣ - (وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) :

ولما بلغ موسى ماء مدين ووصل إلى بئرها وأشرف عليه وجد فوق شفيرها وعلى جوانبها جماعة كثيرة من الناس مختلفى الأصناف يسقون مواشى مختلفة ، منهم من كان يسقى إبلًا ومنهم من كان يسقى غنمًا وهكذا ، ووجد فى مكان أسفل من مكانهم أو مما يلى جهته إذا قدم عليهم امرأتين تمنعان غنمهما عن الماء خوفًا من السقاة الأقوياء كما قال ابن عباس ، أو : لئلا تختلط بغيرها كما قاله الزجاج ، فلما رآهما موسى - عليه السلام- رق قلبه لهما وعطف عليهما وقال : ما شأنكما وما خبركما ؟ لماذا لا تردان الماء مع هؤلاء ؟ قالتا : عادتنا ألَّا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء بعد ريِّها ؛ لأننا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدرُ على مدافعة الرجال ومزاحمتهم ، وما لنا رجل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر ، فلابد لنا من تأخير السقى إلى أن يقضى الناس أوطارهم من الماء ، يقصدان إبداء العذر عن توليهما السقى بأنفسهما .

وفى سؤاله - عليه السلام - إياهما دليل على جواز مكالمة الأجنبية مع التصون والعفاف .

قال الزمخشرى : فإن قيل : كيف ساغ لنبى الله أن يرضى لبنتيه بسقى الغنم ؟

فالجواب : أن الأمر فى نفسه ليس بمحذور فالدين لا يأباه ، وأما المروءة فالناس مختلفون فى ذلك ، والعادات مُتباينةٌ فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحَضر ، خصوصًا إذا كانت الحال حال ضرورة .

قال ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٤ : وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل من هو على أقوال :

أحدها : أنه شعيب – عليه السلام – الذى أُرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد ، ورواه ابن أبى حاتم ، قال : حدثنا أبىّ ، حدثنا عبد العزيز الأزدى ، حدثنا مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيبًا هو الذى قصَّ عليه موسى القصص .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب ، وكان شعيب قبل زمن موسى بمدة طويلة ، لأنه قال لقومه : « وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ » ولقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل – عليه السلام – كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم ، وكان بين الخليل وموسى مدة طويلة ، وما قيل : إن شعيبًا عاش مدة طويلة إنما هو – والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ، ومما يقوى كونه ليس بشعيب النبى أنه لو كان إياه لكان جديرًا أن ينص على اسمه فى القرآن ههنا ، وما جاء من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده ، ثم الموجود فى كتب بنى إسرائيل أن هذا الرجل اسمه شيرون – والله أعلم –

ويقول الآلوسى – بعد أن ساق مثل ما تقدم – : والأخبار التى وقفنا عليها فى هذا المطلب مختلفة ولم يتميز عندنا ما هو الأرجح فيها .

٢٤ – (فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) :

اهتز وجدان موسى ، وتحركت عوامل الرحمة فى قلبه ، فتطوع لمساعدتهما وسقى غنمهما لأجلهما ، ثم ركن إلى مكان ظليل ليستريح من الجهد الذى بذله ، وهو يقول فى تضرع وتذلل لربه : يارب إنى فقيرٌ إلى ما تسوقه إلىّ من خير، محتاجٌ إلى شىء تنزله من خزائن كرمك ، ويبدو من عبارته شدة الحاجة إلى نجدة من رحمة الله بعد ما قاسى من سفر طويل وحرمان شديد ، فعرَّض بالدعاء ولم يصرح بالسؤال .

قال الزمخشرى : وإنما فعل ذلك رغبة فى المعروف ، وإغاثة للملهوف ، لأنه بعد أن وصل إلى ماء مدين وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد ، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيماتهما مترقبتين لفراغهم فما أبطأت همته فى انتهاز تلك الفرصة احتسابًا على ما كان به من النصَب والجوع، فرحمهما وأغاثهما وكفاهما أمر السقى فى تلك الزحمة بقوة قلبه وشدة ساعده وما آتاه الله من الفضل فى متانة الخلقة، وفيه انتهاز فرصة الاحتساب وترغيب فى الخير ، وبعث على الاقتداء فى ذلك بالصالحين ، والأخذ بسيرهم ومذاهبهم .

ولما رجعت الفتاتان بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما مسرعتين ، فسألهما عن خبرهما ، فقصَّتا عليه ما فعل موسى – عليه السلام – فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها .

٢٥ – (فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) :

فجاءت إحدى الفتاتين مُوفدة من قِبَل أبيها تسير نحو موسى سير الحرائر ، فى حياء وخفَر ، قالت : إن أبى يدعوك ليثيبك ويكافئك على سقيك غنمنا ، فلما ذهب موسى إلى والد الفتاتين وحدثه حديثه ، وقصَّ عليه قصصه ، وما جرى له ، وسبب خروجه من مصر ، وتتبعَ القوم له واقتفاءهم أثره ، وشدة حرصهم على ملاقاته والفتك به ، قال له : طِبْ نفسًا وقَرَّ عينًا ؛ فقد خرجت من مملكتهم ، ولا سلطان لهم فى بلادنا وسلمت من القوم المعتدين : يُرِيدُ فِرعونَ وقومَه .

وفى قول الفتاة السابق ما فيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ، وقد لبى موسى دعوة شعيب لا على سبيل أخذ الأجر على معروف بذله لبنتيه ، ولكن على سبيل التقبل لمعروف قُدِّم له ، وقد قص على شعيب قصصه وعرَّفه أنه من بيت النبوة ، ومثله حقيق بأن يُضَيَّف ويُكَرَّم ، على أنه ليس بمنكر أن يقبل الأجر على خير فعله لاضطرار الفقر والفاقة .

رُوِى أنها لما قالت له : « لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا » كره ذلك ، ولما قُدِّم إليه الطعام امتنع مع شدة حاجته إليه وقال : إنا أهلبيت لا نبيع ديننا بطِلَاع[١] الأَرض ذهبًا ولا نأْخذ على المعروف ثمنًا ؛ فقال شعيب : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا[٢] .

هذا وإن كل من فعل معروفًا فأُهدى بشىء لم يحرم أخذه .

٢٦ - (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَـٰٓأَبَتِ اسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَـْٔجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ) :

قالت إحدى ابنتى هذا الرجل (ولعلها هى التى استدعت موسى إلى أبيها والتى زوّجها من موسى عليه السلام) : يا أبت اتخذه أجيرًا لرعى الغنم والقيام على شئونها وحفظها ، ورعايتها ، إنه خير من تستأْجره للقيام بهذه المهمة ، وأداء هذا العمل لقوته وأمانته ، وكلامها هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه ؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان - أعنى القوة والأمانة - فى القائم بالعمل فقد فرغ بال صاحبه وتم مراده ، وقد ساقته مساق المثل حيث قالت : (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَـْٔجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ) بدلًا من أن تقول استأْجره لقوته وأمانته .

وعن ابن عباس : أن شعيبًا أحفظته الغيرة : أغضبته ، فقال : وما علمك بقوته وأمانته ؟ فذكرت له حمله حجرالبئر ونزعه الدلو ، وأنه صوَّب رأسه[٣] حين بلغته رسالته ، وأمرها بالمشى خلفه . إ هـ : بتصرف .

روى ابن كثير والزمخشرى عن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب حين قالت : « إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَـْٔجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ » ، وصاحب يوسف فى قوله : « أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَا » ، وأبو بكر فى عمر ، أى : فى اختياره عمر وترشيحه ليكون خليفة بعده .

وقدمت وصفه بالقوة مع أن أمانة الأجير لحفظ المال أهم فى نظر المستأْجر ، لِتَقَدُّم علمها بقوته على علمها بأمانته ، أو ليكون وصفه بالأمانة بعده من باب الترقى من المهم إلى الأهم ،

(١) طِلاع الشىء - ككتاب - : ملؤه . إ هـ : قاموس .
(٢) الكشاف بتصرف .
(٣) صوَّب رأسه : خفضها . إ هـ : قاموس ص ٩٤ ج ١

واستُدِلّ بقولها : (اسْتَأْجِرْهُ) على مشروعية الإجارة عندهم ، وكذلك كانت فى كل ملة وهى من ضروريات الحياة وفيها قضاء لمصالح الناس .

٢٧ - (قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) :

استئناف بيانى وقع جوابًا لسؤال مقدر ، كأنه قيل : فما قال أبوها بعد أن سمع كلامها ؟

أى : قال شعيب - عليه السلام - لموسى : إنى أُريد أن أزوجك واحدة من ابنتىّ هاتين على أن يكون مهرها أن تعمل عندى أجيرًا لرعى الغنم ثمانى سنوات فإن أتممت عشرًا فى الخدمة والعمل فالإتمام من عندك لا أُلزمك به ، ولكن إذا فعلته فهو منك تفضل وتبرُّع ، وما أُريد أن أُصَعِّبَ الأمر عليك وأُوقعك فى مشقة بإلزام أطول الأجلين ، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين المحسنين للمعاملة الموفين بالعهد .

وعلى النحو المتقدم وعد شعيب موسى المساهلة والمسامحة من نفسه ، وأنه لا يشق عليه فيما استأْجره له من رعى غنمه ولا يفعل نحوه ما يفعله المُعَاسِرُون مع من يعمل لهم من المناقشة فى مراعاة الأوقات ، والمضايقة فى استيفاء الأعمال ، وتكليف الرعاة أشغالًا خارجة عن حد الشرط ، وهكذا كان الأنبياء - عليهم السلام - آخذين بالأسمح فى معاملات الناس ، وفى الآية الكريمة السابقة جواز عَرْضِ الولى ابنته على الرجل الصالح ، وهذه سنة حسنة ، عرض صالح بنى مدين على صالح بنى إسرائيل بنته ، وعرض عمر بن الخطاب بنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، فلا بأْس بعرض الرجل وليّته ، والمرأة نفسها على الرجل الصالح اقتداء بالسلف الصالح .

كما تدل على أن للأب أن يزوج ابنته البكر البالغ من غير استئمار ، وبه قال الشافعى ومالك واحتجا بهذه الآية ، وقال أبو حنيفة : إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجها إلّا برضاها ، أما الصغيرة البكر فيزوجها وليها بغير رضاها بلا خلاف ، واستدل الشافعى بقوله : « إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ » على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح ، وخالفه غيره .

قال القرطبي فى المسألة العاشرة : قوله تعالى : (إِحْدَى ابْنَتَيَّ) يدل على أنه عرض لا عقد لأنه لو كان عقدًا لَعَيَّنَ المعقود عليها له ، لأن العلماء اتفقوا على أنه لا يجوز الإبهام فى النكاح ، فلابد من تعيين المعقود عليها .

ثم قال فى المسألة الحادية عشرة : أما تعيين الفتاة فقد حدث عند العقد .

ثم قال : وأما ذكرُ أول المدة فى الإجارة فليس فى الآية ما يقتضى إسقاطه بل هو مسكوت عنه ، فإمَّا عيَّناهُ وإلَّا فهو من أول العقد .

وقد دلت الآية الكريمة على أنه قد أصدقها منفعة هى الإجارة ، وهو أمر قد قرره شرعنا ، وجرى فى حديث الرجل الذى لم يكن عنده إلَّا شىءٌ من القرآن . وقد قال الرسول ﷺ للرجل سائلًا : « ما تحفظ من القرآن ؟ » فقال : سورة البقرة والتى تليها . قال : « فَعلِّمْها عِشرينَ آيةً وهى امرأتُك » إ هـ : ملخصًا من القرطبى .

وتسمية المهر أجرًا اصطلاح قرآنى وقد قال : « فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ » .

فإن قيل : إن إجارته كانت منفعة لأبيها كما هو ظاهر النص ، فالجواب : أن الغنم إما أن تكون لها فمنفعة إجارته عائدة عليها ، وإن كانت الغنم لأبيها فربما كان ذلك شرع من قبلنا يجعل المهر من حق الأب .

٢٨ ـ (قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) :

قال موسى لصهره : ذلك الذى قُلْتَه وعاهدتنى فيه ، وشارطتنى عليه قائم بيننا ، لا يخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت على ، ولا أنت عما شرطت على نفسك ، أى أجل من الأجلين ـ أطولُهما الذى هو العَشْرُ أو أقصرهما الذى هو الثمانى ـ وفيتك بأداء الخدمة فيه فلا يُعْتدى علىَّ بطلب الزيادة عليه .

قال الزمخشرى : أراد بذلك تقرير أمر الخيار وأنه ثابت مستقر ، وأن الأجلين على السواء ، إمَّا هذا وإمَّا هذا من غير تفاوت بينهما فى القضاء ، وأما التتمة فموكولة إلى رأى

إن شئتُ أتيتُ بها وإلَّا لم أُجبر عليها ، وقيل معناه : فلا أكون معتديًا ، وهو نفى للعدوان عن نفسه ، كقولك : لا إثم علىَّ ولا تبعة علىَّ ، والله على ما نقول من الشروط الجارية بيننا وكيل وشاهد وحفيظ ، والمراد : توثيق العقد وأنه لا سبيل لأَحد منهما إلى الخروج عنه أصلًا ، وبما سبق فى الآيتين استدل العلماءُ على أن اليسار لا يعتبر فى الكفاءة ؛ فإن موسى لم يكن حينئذ موسرًا ، وأن فى قوله تعالى : (وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) اكتفاءً بشهادة الله – عز وجل – إذ لم يُشْهِد أحدًا من الخلق ، فيدل ذلك على عدم اشتراط الإشهاد فى النكاح عندهم ، وقد اخْتُلف فى ذلك على قولين : أحدهما : أنه لا ينعقد إلَّا بشاهدين ، وبه قال أبو حنيفة ، والشافعى ، الثانى : أنه ينعقد دون شهود ، وبه قال مالك ؛ لأَنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد ، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح ، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدُّف[1] .

قال ابن كثير ج ٣ ص ٣٨٥ : وقد دل الدليل على أن موسى – عليه السلام – إنما فعل أكملَ الأَجلين وأَتَمَّهما .

قال البخارى : حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا مروان بن شجاع ، عن سالم الأَفطس ، عن سعيد بن جبير قال : سأَلنى يهودى من أهل الحيرة : أى الأَجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدرى حتى أُقدم على حبر العرب فأَسأَله ، فقدمت على ابن عباس – رضى الله عنه – فسأَلته ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ؛ إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل ، والله – تعالى – أعلم[1] .

---

(١) انظر القرطبى : المسألة الثالثة والعشرين .

* (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ) : أتم المدة المضروبة بينه وبين شعيب .

(ءانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ) : أبصر من الجهة التى تلى الطور ، وأصل الإيناس : إبصار ما يؤنس.

(بِخَبَرٍ) : بنبإٍ يعلم منه الطريق ، وكانوا قد أخطأوا الطريق وضلوا عنه .

(جَذْوَةٍ) ــ مثلثة الجيم ــ : عود غليظ مشتعل . (تَصْطَلُونَ) : تستدفئون .

التفسير

٢٩ ــ (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ . . .) الآية .

هذه الآية تتضمن كلامًا قبلها يقتضيه سياق القصة ، وتتابع أحداثها ، فإن قوله ــ تعالى ــ على لسان شعيب : « إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ . . . » الآية[١] لم يزد على أنه مجرد عرض ، وإبداء رغبة لم يبرم فيه عقد ، ولم تتكامل معه أركان الزواج ، ومن عادة القرآن أن يستغنى عن ذكر ما يستدعيه المقام ويفهم من التتابع ؛ فإن الإيجاز من مقاصد البلاغة ، وتمام النسج على هذا أن يقال : فلما توافقا ، وتم عقد النكاح أخذ فى إمضاء ما التزمه (فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ) أى : فلما أتم موسى المدة التى تركها شعيب لخيار موسى ــ عليه السلام ــ والمراد به : الأجل الآخر كما أخرجه ابن مردويه عن مقسم ، عن الحسن ابن على بن أبى طالب ــ رضى الله عنهما ــ وأخرج البخارى ، وجماعة عن ابن عباس : أنه سئل : أى الأجلين قضى موسى ــ عليه السلام ــ ؟ فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ؛ إن رسول الله إذا قال فعل .

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة القصص .

وقوله تعالى : (وَسَارَ بِأَهْلِهِ) أى : مضى إلى مصر بأهله ، وما كان معه من الزاد بإذن من شعيب - عليه السلام - قالوا : كان موسى - عليه السلام - قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم خفية من فرعون وقومه ، قال ابن عطاء : لما أتم موسى أجل المحنة ، ودنت أيام الزلفة ، وظهرت أنوار النبوة سار بأهله ليشتركوا معه فى لطائف صنع ربه .

ومعنى (ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا) : أبصر من الجهة التى تلى الطور ، لا من بعضه كما هو المتبادر ، وأصل الإيناس - على ما قيل - : الإحساس من الأُنس فيكون أعم من الإبصار .

وقال الزمخشرى : هو الإبصار البين الذى لا شبهة فيه ، واستظهر بعضهم أن المبصر كان نورًا حقيقة إلَّا أنه عبر عنه بالنار اعتبارًا لاعتقاد موسى ، ولأن النار هى طلبته .

وقوله تعالى : (قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا) معناه : قال موسى لأهله حين آنس النار : أقيموا مكانكم ، واثبتوا ، وفى البحر : أنه خرج بأهله وماله فى فصل الشتاء ، وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام ، وامرأته حامل لا يدرى أليلًا تضع أم نهارًا ، فسار فى البرية لا يعرف طريقها ، فألجأه السير إلى جانب الطور الغربى فى ليلة مظلمة مثلجة شديدة البرد ، فأضل الطريق يومًا حتى أدركه الليل ، فأخذ امرأته الطلق ، فقدح زنده فأصلد[1] ، فنظر فإذا نار تلوح من بعد ، فقال لأهله : امكثوا وأقيموا مكانكم إنى أبصرت نارًا سأقصدها (لَعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) أى : رجاء أن أجد عندها من يرشدنى إلى الطريق فآتيكم بخبر عنه ، أو آتيكم بعود غليظ ملتهب بالنار تلتمسون به الدفء من شدة ما تعانون من البرد .

---

(١) أى : لم يخرج نارا .

(فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾
وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ
يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ
يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ
جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾)

المفردات :

(شَاطِىءِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ) : الجانب الأيمن بالنسبة لموسى ، وقيل : الأيمن من اليُمْن .

(الْبُقْعَةِ) - بضم الباء - : القطعة من الأرض على غير هيئة التى بجانبها ، وتفتح باؤها أيضًا كما فى القاموس . (جَآنٌّ) : حية كحلاء العين بيضاء وتكثر فى الدور ولا تؤذى .

(مُدْبِرًا) : منهزمًا خلفه من الخوف . (يُعَقِّبْ) : يرجع . (اسْلُكْ) : أدخل .

(جَيْبِكَ) الجيب : فتحة القميص من حيث يدخل الرأس . (جَنَاحَكَ) الجناح : العضد والذراع ؛ لأن الذراع للإنسان كالجناح للطائر . (سُوٓءٍ) : عيب ومرض .

(الرَّهَبِ) - بفتح الراء والهاء - : الخوف ، وفيه - إسكان الهاء مع فتح الراء وضمها - وبه قرئ .

(بُرْهَانَانِ) : حجتان واضحتان ، تثنية برهان ، وهو الحجة النيرة القاطعة يقال : أبره الرجل ، إذا جاء بالبرهان .

التفسير

٣٠ - (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ . . .) الآية .

أى : فلما أتى النار التى آنسها موسى - عليه السلام - جاءه النداء من الجانب الأيمن

بالنسبة إلى موسى فى مسيره ، فالمقصود بالجانب الأيمن : الجهة اليمنى ، وجوزوا أن يكون الأيمن بمعنى المتصف باليُمن والبركة ، وعلى هذا يجوز أن يكون وصفًا للشاطىء أو الوادى ، وقوله : (فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَٰرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ) معناه : نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى هذه القطعة التى باركها الله بما خصها به من آياته وأنواره المشتملة على الشجرة النابتة فيها .

وقوله : (أَن يَٰمُوسَىٰ) تفسير للنداء ، أو بيان لشأنه وحقيقته حسمًا لكل شك وقطعًا لكل تأويل ، قال جعفر : أبصر نارًا دلته على الأنوار ؛ لأنه رأى النور فى هيئة النار ، فلما دنا منها شملته أنوار القدس ، وأحاطت به أجواءُ الأُنس فخوطب بألطف خطاب ، واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلَّمًا شريفًا أعطى ما سأل ، وأَمِنَ مما خاف . ومعنى : (إِنِّىٓ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ) : إنى أنا الله ربك الذى يخاطبك ويكلمك ، ورب العالمين الفعال لما يشاءُ ، لَا إلٰه سواه ، ولارب غيره - تنزه وتعالى - عن المماثلة فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله فاسمع منى ، ولا تك فى شك مما يلقى إليك ، وقد سمع موسى - عليه السلام - على ما تدل عليه الآثار كلامًا لفظيًا خلقه الله فى الشجرة - وقيل : خلقه فى الهواء كذلك ، وسمعه موسى من جهة الجانب الأيمن أو من جميع الجهات ، وذهب الشيخ الأشعرى والإمام الغزالى إلى أن موسى - عليه السلام - سمع كلامه النفسى القديم بلا صوت ولا حرف ، كما ترى ذاته - عز وجل - يوم القيامة بلا كيف ولا كم .

وقال الحسن : إنه - سبحانه - نادىموسى - عليه السلام - نداءَ الوحى لا نداءَ الكلام ، ولم يرتض ذلك العلماءُ لما فيه من مخالفة الظاهر ، وأنه لا يظهر عليه وجه اختصاصه باسم الكليم من بين الأنبياء .

ولفظ : (أَنَا) وإن كان كل واحد يشير به إلى نفسه فليس المعنى به محل لفظه .

هذا : وجاء فى سورة طه فى التعبير عن هذه القصة (نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ) ، وفى سورة النمل : (نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ) وما هنا غير ذلك ، بل ما فى كلٍّ غير ما فى الآخر ، فاستشكل ذلك ، وأجيب بأن المغايرة إنما هى فى اللفظ ، وأما فى المعنى المراد فلا مغايرة والواقع أن ما فى القرآن ترجمة عربية لما سمعه موسى ، فتؤدى بأى عبارة تُفْهِمُ أصل المعنى ، وذهب الإمام إلى أنه - تعالى - حكى فى كل من هذه السور بعض ما اشتمل عليه النداءُ لما أن المطابقة بين ما فى المواضع الثلاثة تحتاج إلى تكلف مًّا .

ومثل هذا يقال فيما تكرر ذكره من القصص فى القرآن الكريم مع اختلاف التعبير فيه ؛ لأن كل سورة تعنى عند ذكر القصة بالجانب الذى تسوقها من أجله ، والتعبير الذى يناسبه .

٣١ـ (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ . . .) الآية .

هذه الآية معطوفة على قوله : (أَن يَا مُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا اللهُ) فهى من جملة ما نودى به ؛ فقد ناداه أولًا بما يؤكد ألوهية الله وربوبيته ـ سبحانه ـ لموسى وللعالمين جميعًا ليستيقظ انتباهه وتنقشع غفلته ، وناداه ثانيًا بما يؤدى الغرض ويحقق المقصود من اصطفائه للرسالة بقوله : وألق العصا التى تحملها فى يديك على الأرض تنقلب حية فى سرعة حركتها ، ثعبانًا عظيمًا فى ضخامة جثتها وضخامة فمها ، آية لك .

وعن الحسن : ما كانت إلَّا عصا من الشجرة التى اعترضها اعتراضًا ، وعن الكلبى : كانت عصا من شجرة العوسج التى نودى منها موسى .

وقوله تعالى : (فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ) يفصح عن كلام محذوف تقديره : فألقى موسى العصا طاعة لأمر ربه فانقلبت حية فى خفتها وسرعة حركتها ، وثعبانًا فى ضخامة جثتها ، وعظم حجمها ، فلما أبصرها تهتز وتتحرك بهذه الخفة تملكه الخوف واستبد به الرعب ففر منهزمًا ، ولم يعقب على شىء ولم يرجع وراءه أو يلتفت خلفه من شدة خوفه ، وعند ذلك نودى من قبل الله تعالى : (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) من المخاوف لأنك رسول الله ، وإنه لا يخاف لدى المرسلون .

٣٢ـ (اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ . . .) الآية .

هذه الآية من جملة ما نودى به موسى ، والمعنى : أدخل يدك فى فتحة ثوبك حيث يخرج الرأس ، فإن فعلت تخرج بيضاء من غير مرض ولا عيب .

(وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ) فى الكشاف : فيه معنيان :

(أحدهما) : أن موسى ـ عليه السلام ـ لما قلب الله ـ تعالى ـ العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده ، كما يفعل الخائف من الشىء ، فقيل له : إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء ، فإذا ألقيت العصا فانقلبت حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ماهو غضاضة عليك ، وإظهار معجزة أخرى ، والمراد

بالجناح : اليد لأن يد الإنسان بمنزلة جناحى الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه .

(الثانى) : يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه لنفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب ، استعارة من فعل الطائر ، لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما ومعنى : (مِنَ الرَّهْبِ) من أجل الرهب ، أى : إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك . انتهى بتصرف يسير .

وقوله تعالى :(فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ . . .) معناه : فهذان الأمران العجيبان - وهما قلب العصا ، وخروج اليد بيضاء - برهانان واضحان ، وحجتان نيرتان ، مُرْسلان من ربك ، واصلان إلى فرعون وقومه ليرتدعوا عمَّا هم فيه ، إنهم كانوا قومًا خارجين عن طاعة الله ، أحقاء بأن نرسل إليهم هاتين المعجزتين لزجرهم وردهم عن فسقهم وكفرهم ، والبرهان معناه : الحجة النيرة من قولهم : أبره الرجل ، إذا جاء بالبرهان مأخوذ من : بره، إذا ابيضَّ وتسمى الحجة سلطانًا أيضًا من السليط ، وهو الزيت الذى يتلألأ عند الاتقاد .

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾)

المفـردات :

(رِدْءًا) : معينًا يشتد به أمرى .

(يُصَدِّقُنِى) : بإيضاح الحق بلسانه ، وبسط القول فيه ، ونفى الشبهة عنه .

التفسيـر

٣٣ـ (قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) :

أى : قال موسى - عليه السلام - تعقيبًا على تكليفه بالرسالة ، وطلبًا لما يعينه عليها ، ويقويه على أدائها كما يفهم من قوله -تعالى- : (فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِى) ولم يقله استعفاء

من الرسالة ورفضًا – كما زعم اليهود – قال : يارب إنى قتلت من هؤلاء القوم نفسًا حين استنصرنى الرجل الذى من شيعتى ، فإذا تعرضت لهم ورأونى فإنى أخاف أن يقتلونى بقتيلهم ، ولا معين لى يمنعنى منهم ، أو يدفع عنى شرهم .

٣٤ – ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ :

أى : وأخى هارون هو أقدر منى على توضيح الحجة ورد الشبهة ، وقوة المعارضة – وإنما قال ذلك لأنه – عليه السلام – كانت به عقدة فى لسانه تضعف تعبيره وتعوق بيانه – فأحتاج إلى من يعيننى ويبلغ حجتى ، فأرسل معى أخى هارون ردءًا وعونًا يساعدنى على توضيح الدعوة وإبراز الحجة ، ويصدقنى ، ويخلص بلسانه الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل الكفار ويظهر صدق بتقرير الحجج وتزييف الشبه : ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ فلا يسعفنى لسانى على محاجتهم ولا يطاوعنى على مقاومتهم ، ومعارضة باطلهم .

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

المفردات :

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ : سنقويك ونعينك .

﴿سُلْطَانًا﴾ : تسلطًا وغلبة بالحجة والبرهان .

التفسير

٣٥ – ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا . . .﴾ الآية .

استئناف وقع جوابًا من الله لسؤال موسى – عليه السلام – بقوله : ﴿أَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أى : قال الله – سبحانه – لموسى : سنعينك ونقويك بإجابة مطلوبك ، حيث نشد عضدك بإرسال أخيك هٰرون معك .

وشدة عضده كناية عن تقويته لأن الجسد يشتد بشدة العضد - وهو ما بين المرفق إلى الكتف وقوله تعالى : (وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً) معناه : ونجعل لك ولأخيك تسلطًا وغلبة عليهم فلايقوون على تكذيبكم ، وتمتنعون عليهم فلايصلون إليكما باستيلاء أو محاجة .

وقوله تعالى : (بِآيَاتِنَا) يجوز أن يكون متعلقًا بـ (نجعل) ، أو بـ (لا يصلون) ، والمعنى : أنت يا موسى وأخوك هرون ومن اتبعكما - أنتم - الغالبون بآياتنا ، الممتنعون بقوتنا فلاسبيل لفرعون وقومه إلى الوصول إليكما بأذى .

وبهذه العِدَةِ من الله اشتد عضد موسى - عليه السلام - وقوى عزمه ، وتسامت همته إلى مواجهة طغيان فرعون ومَلَئه ، وتحطيم إلاهيته ، كما تمت نعمة الله على هرون بإرساله ، بفضل طلب موسى لذلك من ربه ، ولهذا قال بعض السلف: ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هرون - عليهما السلام - فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبيًّا ورسولًا معه إلى فرعون ومَلَئه .

(فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(بَيِّنَاتٍ) : واضحات الدلالة على رسالة موسى . (مُفْتَرًى) : مختلقًا لم يحدث قبل هذا مثله ، أو سحر تفعله أنت ثم تكذب به على الله . (الْأَوَّلِينَ) : السابقين .

التفسير

٣٦- (فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ . . .) الآية .

أى : فلما جاء موسى بآيات الله ومعجزاته الواضحات أنكرها فرعون ومَلَؤه ، وكذبوها ، وقالوا : ما هذا الذى جئت به إلا سحر مختلق لم يفعل مثله قبله ، أو سحر تفعله أنت من عند نفسك ثم تفتريه على الله وتكذب ، وزادوا فى العناد والكفر والإنكار فقالوا : وما سمعنا بهذه النبوة التى تدعيها فى آبائنا السابقين علينا ، ولاوقع فيهم مثل هذا القول .

(وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾)

المفردات :

(عَاقِبَةُ الدَّارِ) : هى العاقبة والنهاية المحمودة لقوله تعالى : « لَهُمْ عُقْبَىٰ الدَّارِ » و (الدَّارِ) هى : الدنيا .

التفسير

٣٧ - (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ . . .) الآية .

تتعلق بهذه الآية مباحث :

أولًا : أن موسى - عليه السلام - يعنى نفسه بقوله : (مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ) .

ثانيًا : أن السياق يقتضى عدم العطف بالواو لأن الموقع موقع سؤال وجواب ، ولكنه جاء عطفًا بالواو على قولهم : ما هذا إلّا سحر مفترى ليوازن الناظر بين القولين ، ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر .

ثالثًا : أن الآية جرت على أسلوب التشكيك والتعمية استجهالًا لهم على حد قوله : « وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

والمعنى : قال موسى - عليه السلام- ردًّا على قولهم : «مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى» ربى أعلم منكم بحال من أَهَّله للدعوة إلى الهدى والفلاح الأَعظم حيث جعله نبيًّا وبعثه بالهدى ، ووعده العاقبة المحمودة فى الدنيا ، وعاقبتها أن يختم للإنسان فيها بما يفضى به إلى الجنة بفضل الله وكرمه .

ووجه اختصاص العاقبة بالعاقبة المحمودة دون مطلق العاقبة : أنها هى التى دعا الله إليها عباده ، وحضهم عليها ، وهيأ فيهم العقول التى ترشدهم إليها ، وقال عنها : « وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

وقوله تعالى : (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) : تنزيه لله – تعالى – أن يرسل الكاذبين ، أو يُنبىء الساحرين ، أو يفلح عنده الظالمون فيفوزون بمطلوب ، أو ينجون من محذور .

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾)

المفردات :

(الْمَلَأُ) : الأشراف وذوو الرأى . (أَوْقِدْ) : أشعل النار .

(صَرْحًا) : قصرًا عاليًا وبناءً شامخًا .

التفسير

٣٨ – (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى . . .) الآية .

بعد أن جمع فرعون السحرة وتصدى للمعارضة ، وكذب موسى وسمع إجماع قومه على التكذيب قال فى تيه وشموخ مخاطبًا أشراف قومه : يٰأَيها الملأُ ما علمت لكم من إلٰه غيرى مِمَّا يدعيه موسى ويدعو إليه ، نفى علمه بإِلٰه غيره دون أن ينفى وجود الإله ، حيث لم يقل : ليس لكم إلٰه غيرى ، يريد بذلك :أنه لو كان لهم إلٰه غيره لعلمه ، وهو بذلك يحاول أن يخلع على نفسه خلق الإنصاف فى الحكم ، ولهذا رتب عليه قوله : « فَأَوْقِدْ لِى يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ » والواقع أنه كاذب ؛ فإن ألوهية الله – تعالى – لعباده لا يمكن أن تخفى على مثله ، وهذا ما يشهد به قوله تعالى حكاية عن موسى – عليه السلام – : « لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَآئِرَ » .

ومعنى : « فَأَوْقِدْ لِى يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ » : أشعل النار على الطين شديدة قوية ليتحول إلى آجُر ، فيكون أقوى فى البناء ، فإذا استحال الطين آجُرا فابْنِ قصرا عاليًا ، وبناءً شامخًا

لأصعد عليه فأطلع إلى إلٰه موسى الذى يدعيه ، ويدعو له ، وكأنه يوهم قومه أنه لو كان كما يقول موسى لكان جسمًا فى السماء يمكن الصعود إليه ، والاطلاع عليه ، وإنى لأظنه من الكاذبين فيما يذكر من أمر الإلٰه وما يدعى من شأن النبوة ، ولكن أحب أن أحقق الأمر من طرقه المختلفة حتى لا يكون لدىَّ ولا لديكم شك فى أنه ليس لكم إلٰه غيرى ، وهذا منه مبالغة فى التمويه ، وإغراق فى التلبيس واللعب بعقولهم : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » .

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

المفردات :

(بِغَيْرِ الْحَقِّ) : بالباطل ؛ لأن الاستكبار بالحق لله وحده . (لَا يُرْجَعُونَ) : - بضم الياء - من الرجع المتعدى إلى المفعول بنفسه ، و - بفتحها - من الرجوع الذى لا يتعدى إلى المفعول بنفسه . (فَنَبَذْنَاهُمْ) : طرحناهم ورميناهم . (الْيَمِّ) : البحر .

(أَئِمَّةً) : قادة ودعاة . (لَعْنَةً) : طردًا وإبعادًا عن الرحمة .

(الْمَقْبُوحِينَ) : المشوهين الموسومين بعلامات منكرة قبيحة .

التفسير

٣٩ - (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ . . .) الآية .

المعنى : واستكبر فرعون اللعين وجنوده فى أرض مصر ، واستعلوا وتعاظموا على الإيمان بالله ، والتصديق برسالة موسى استكبارًا باطلًا بغير أهلية ولا استحقاق ، لأن رؤية العظمة

للنفس على الخصوص دون غيرها لا تكون حقًّا إلَّا من الله - عز وجل - قال الزمخشرى : الاستكبار بالحق إنما هو لله وحده، وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير حق ، وفى الحديث القدسى : « الكبرياءُ ردائى والْعَظَمةُ إزارِى فمنْ نازعنى فى واحدٍ مِنْهما أَلقيْتُهُ فى النارِ » .

وأكثر المفسرين على أن الأَرض هى مصر ، وقيل : مطلق الجرم المقابل للسماء ، وفى التقييد بها زيادة تشنيع عليهم ، وتسفيه لعملهم ، حيث استكبروا فى أسفل الأَجرام بغير استحقاق ولا تأْهيل ،ومعنى قوله تعالى : (وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ) :توهموا أن لا معاد ولا بعث ، وأنهم لا يعودون إلينا ، ولا يرجعون لنا لملاقاة الجزاء ، ومواجهة العذاب .

والتعبير عن اعتقادهم بالظن إمَّا على ظاهره ، وإمَّا تحقير لهم ، وسخرية باعتقادهم ؛ حيث بنوه على الأَوهام .

٤٠ - (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) :

أى :فباغتنا فرعون وجنوده فأخذناهم فنبذناهم وطرحناهم فى البحر ، ورميناهم فيه رمى البقايا التالفة والمخلفات التافهة ، وفيه فخامة وتعظيم لشأْن الآخذ ، واستحقار شديد للمأْخوذين وكأنه أخذهم مع كثرتهم وطرحهم فى اليم كما يأْخذ الإنسان شيئًا عديم القيمة فيرميه . (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) أى : فتأَمل يا رسول الله وانظر كيف انتهت عاقبة هؤلاء الطغاة وكيف استحال تجبرهم وكفرهم ، وبَيِّنْ هذا لقومك وللناس ليعتبروا ويتدبروا .

٤١ ، ٤٢ - (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ . وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ) :

المعنى : خلقناهم وصيرناهم فى عهدهم قدوة للضلال يدعون إلى موجبات النار فى الدنيا من الكفر والمعاصى ، ويوم القيامة لا ينصرون من أحد بدفع العذاب أو تخفيف ويلاته عنهم بوجه من الوجوه .

وأتبعناهم فى هذه الدنيا التى فتنتهم وصرفتهم عن اتباع الهدى - أتبعناهم - لعنة وطردًا وإبعادًا عن الرحمة ، أو أتبعناهم لعنًا من اللاعنين الذين يجرى ذكرهم على ألسنتهم ، حيث لا تزال الملائكة تلعنهم والمؤمنون خلفا عن سلف .

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ) أى : وهم فوق لعنتهم فى الدنيا ، يوم القيامة من المطرودين المبعدين ، أو من المهلكين المشوَّهين ، فيجمع لهم بذلك خزى الدنيا وذل الآخرة ، روى ابن عدى والطبرانى عن ابن مسعود أنه ﷺ قال : « خَلَقَ اللهُ يحيى بن زكريا فى بطنِ أمِّه مؤمنًا وخلَق فرعونَ فى بطنِ أمه كافرًا » .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(الْكِتَابَ) : التوراة . (الْقُرُونَ الْأُولَى) : هم أقوام نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط – عليهم السلام – (بَصَائِرَ لِلنَّاسِ) : أنوارًا لقلوبهم .

التفسير

٤٣ – (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ . . .) الآية .

هذه الآية والآيات بعدها تشعر – بتصدرها بالقسم والتوكيد – بأنها بداية حديث عن موسى – عليه السلام – مع أن السورة من أولها تحكى قصته ، والذى يفهم من هذا الأسلوب – والله أعلم – أنه إثارة للانتباه بعد أن طال الكلام عن القصة ، وتجديد للتشويق ، ومدخل إلى التصديق برسالة سيدنا محمد – عليه الصلاة والسلام – بما يخبر به من غيبيات فى قصة موسى لم يكن شاهدها ولا علم له بها من قبل .

والمعنى : ولقد آتينا موسى التوراة ، وأنزلناه مفصل الأحكام ، من بعد ما أهلكنا القرون السابقة عليه من أقوام نوح وهود وصالح ولوط – عليهم السلام .

والتعرض لبيان كون إيتاء التوراة بعد إهلاك الأمم السابقة للإشعار بأنها نزلت بعد مساس الحاجة إليها ، وضرورة نزولها لهداية الناس ، وردهم إلى الجادة ، وذلك تمهيد لما يعقبه من بيان الحاجة الملحة إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله ﷺ فإن إهلاك

القرون الأُولى من موجبات اندراس معالم الشرائع المؤدى إلى اختلال نظام العالم وفساد أحواله ، وذلك يستدعى تشريعًا جديدًا يرد الناس إلى جادة الصواب ، ويرشدهم إلى السلوك القيم ، ولهذا قال : (بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ) أى : أنوارًا لقلوبهم ، تبصر بها الحقائق ، وتميز بين الحق والباطل ، حيث كانت من طول ما تغشَّاها من الجهل عمياء عن الفهم والإدراك ؛ فإن البصيرة نور القلب ، كما أن البصر نور العين .

والمراد بالناس أُمة موسى – عليه السلام – ومن أنزل إليهم التوراة لترشدهم إلى الاستقامة وحسن السلوك ، وما تتضمنه من تأْييد بعثة محمد ﷺ وحقية رسالته .

وقوله تعالى : (وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

معناه : هدى إلى شريعة الله التى هى الطريق الموصلة إلى الله – عز وجل – ورحمة ينال من عمل بها ثوابه وحسن جزائه ليكونوا على حال يرجى منه التذكر والاعتبار ، فمعنى : لعل هنا ، التعليل ، حكى الواقدى عن البغوى أنه قال : جميع ما فى القرآن من لعل للتعليل إلَّا « لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » فإنها للتشبيه ، والمشهور أنها للترجى .

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾)

المفردات :

(الْغَرْبِىِّ) : الجبل الغربى ، أو المكان الغربى الذى وقع فيه الميقات .

(إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ) : إذ عهدنا إليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحى .

(الشَّاهِدِينَ) : الحاضرين للوحى من جملة السبعين المختارين للميقات .

(أَنشَأْنَا قُرُونًا) : خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا كثيرة .

(فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) : تمادى وتباعد عليهم الزمن .

(ثَاوِيًا) : مقيمًا . (الطُّورِ) : الجبل . (لِتُنذِرَ) : تخوف وتحذر .

التفسير

٤٤ ـ (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) :

هذه الآية وما بعدها شروع فى التنبيه إلى نبوة محمد ﷺ وفى بيان أن إنزال القرآن واقع فى زمان مساس الحاجة إليه ، واقتضاء الحكمة له البتة . وقد صدر بتحقيق كونه وحيًا صادقًا من الله ـ عز وجل ـ ببيان أن الوقوف على ما تناول من أخبار ، وما فصَّل من أحوال لا يتسنى إلَّا بالمشاهدة أو بالتعلم ممن شاهدها على أسلوب قوله تعالى : «وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » .

والمعنى : وما كنت بجانب الجبل الغربى ، أو المكان الغربى الذى وقع فيه الميقات « إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ » وعهدنا إليه ، وأحكمنا أمر نبوته بالوحى وإنزال التوراة ، وما كنت من جملة الشاهدين الحاضرين الوحى ، وهم السبعون المختارون للميقات ، المنوه عنهم بقوله تعالى : «وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا» ما كنت من الشاهدين ذلك حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى ونزول ألواح التوراة عليه فتخبر بذلك .

ويصح أن يكون المعنى : وما كنت من الشاهدين بجميع ما أعلمناك من شأن موسى ، وأخبرت به فهو نفى لشهادته ـ عليه الصلاة والسلام ـ جميع ما جرى لموسى فكان عمومًا بعد خصوص .

٤٥ ـ(وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) :

هذه الآية استدراك لتأكيد المعنى السابق فى الآية قبلها .

٧

والمعنى : ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا وأممًا كثيرة تمادى وتباعد عليها الزمن ، فتغيرت الشرائع ، وتبدلت الأحكام ، وعميت عليهم الأنباء ، لا سيما ما كان منهم فى آخر هذه الأزمان من الذين أنت فيهم ، فاقتضت حكمته - تعالى - التشريع الجديد وَقصَّ الأنباء على ما كانت عليه ، فأوحينا إليك ، وقصصنا عليك ما لم تكن شاهده ولا قريبًا من زمانه ، تصديقًا لنبوتك وتحقيقًا لرسالتك .

(وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ) أى : ما كنت مقيمًا فى أهل مدين وقوم شعيب حتى يكون علمك بما تقصه وما تتلوه من آياتنا الناطقة بما كان لموسى - عليه السلام - معهم ، وبما كان لهم معه عن طريق إقامتك فيهم تتسمع منهم ، وتتعلم هذه الأخبار عنهم ، ثم تتلوها عليهم (وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) : ولكن ذلك بإرسالنا لك ووحينا إليك .

٤٦ - (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

المعنى : كما لم تكن بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، ولم تكن ثاويًا فى أهل مدين ، لم تكن كذلك ولم تحضر بجانب الطور وقت ندائنا موسى : إنى أنا الله رب العالمين ، واستنبائنا إياه ، وإرسالنا إياه إلى فرعون . (وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ) أى : ولكن أرسلناك بالقرآن الكريم الناطق بما ذكر وغيره رحمة من ربك لقومك ، وهداية لهم بما تدعوهم إليه من نبذ عبادة الأصنام إلى عبادة الله وحده ، وتهذيب سلوكهم ، وتقويم عوجهم حتى تطهر الأرض من فسادهم ، وتنجلى عن بصائرهم غشاوات الجهل ، وأدران الكدر والضلال ، كما أرسلناك لتنذر قومًا عربًا وغير عرب طال عليهم أمد الجهل ، وامتد بهم زمان الضلال ، ما أتاهم من نذير من قبلك ينذرهم ، ويخوفهم عواقب أمورهم .

قال العلامة ابن حجر فى المنح المكية : من المقرر أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل - عليه السلام - وأن إسماعيل انتهت رسالته بموته .

ونزيد على ذلك : أن إسماعيل أرسل إلى العرب العاربة ، أما العرب المستعربة التى نشأت بعد إسماعيل من ذريته ، فلم يرسل إليهم سوى محمد ﷺ ولذا قال الله -تعالى- فى سورة يس : « لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ » .

وقوله ـ تعالى ـ : (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

معناه : فعلنا هذه الأمور كلها ليكون لهم منها تذكر وعظة واعتبار فيرجعوا عن كفرهم ، ويقلعوا عن إصرارهم وعنادهم .

(وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾)

المفـردات :

(مُصِيبَةٌ) : عقوبة ونقمة . (لَوْلَآ أَرْسَلْتَ) : هلا أرسلت .

التفسـير

٤٧ ـ (وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ . . .) الآية .

الكلام عن الرسالات السماوية وعن إرسال الرسل خليق أن يثير فى نفس السامع تساؤلا عن الدوافع والأسباب المقتضية لذلك ، وجاءت هذه الآية إجابة عن هذا التساؤل ، توضح أن الحكمة السامية فى إرسال الرسل قطع أعذار المشركين والعصاة ، وإلزامهم الحجة حتى لا يكون لهم اعتذار إذا واجهوا مصيرهم ولاقوا جزاءهم ، والآية وإن كانت تشير إلى الحكمة فى إرسال محمد ﷺ إليهم ، لكنها تشير إلى مثلها فى جميع الرسالات .

والمعنى : ولولا أن تصيب المشركين من قريش وغيرهم من الكفار عقوبة ، أو تحل بهم نقمة بسبب ما يقترفون من الكفر ، وما يرتكبون من المعاصى ، فيقولوا معتذرين عن إتيانها : فعلنا ذلك جهلا ، يا ربنا هلَّا أرسلت إلينا رسولا يرشدنا إلى خير ما نفعل ، ويوجهنا إلى السلوك السوى فنتبع آياتك الظاهرة على يديه ، ونسير فى أفعالنا على هديه ، ونكون من المؤمنين بما جاء به فلا نفعل ما فعلناه .

لولا أن هذا يمكن أن يقولوه عند عقوبتهم على جناياتهم التى قدموها ما أرسلناك ، لكن لما كان قولهم ذلك محققًا لا محيد عنه أرسلناك قطعًا لأعذارهم .

(فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾)

المفـردات :

(الْحَقُّ) : القرآن المنزل على سيدنا محمد ﷺ أو الرسول المصدق بالقرآن .

(تَظَاهَرَا) : تعاونا بتصديق كل منهما الآخر .

التفسير

٤٨ ـ (فَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوٓا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ) :

أى : فلما جاء هؤلاء القوم من أهل مكة الموجودين عند بعثة سيدنا محمد ﷺ لما جاءهم القرآن الحق وهو المنزل على محمد ﷺ قالوا تعنتًا واقتراحًا : هلا أوتى محمد مثل ما أوتى موسى من التوراة المنزلة جملة ، ومن المعجزات الأخرى كقلب العصا حية وفلق البحر ، وغير ذلك ، قالوا هذا كما قالوا : « لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْجَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ »[1] .

وقوله ـ تعالى ـ : (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ) رد عليهم وإظهار لتعنتهم ، وبعدهم عما يرشدهم إلى الحق .

---

(١) سورة هود ، من الآية : ١٢ .

والمعنى : أولم يكفر أمثالهم ، ومن مذهبهم كمذهبهم فى الكفر والعناد بما أوتى موسى ؟

وعن الحسن - رحمه الله - كان للعرب أصل فى أيام موسى ، فيكون المعنى على هذا : أولم يكفر آباؤهم المعاصرون لموسى ، وقوله : (مِن قَبْلُ) متعلق بـ (يكفروا) أى : أولم يكفروا من قبل هذا القول ؟ أو من قبل هؤلاء الكفار ؟ قالوا : سحران تظاهرا وتعاونا : سحر موسى وسحر هرون .

ونحن نرجح أن الذين كفروا بما أوتى موسى من قبل وقالوا : سحران تظاهرا ، هم أهل مكة ، روى أن أهل مكة بعثوا رهطًا منهم إلى رؤساء اليهود فى عيد لهم فسألوهم عن شأن محمد - عليه الصلاة والسلام - فقالوا : إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك ، وقالوا : إنا بكل من الكتابين - القرآن والتوراة - كافرون ، قالوا ذلك تأكيدًا لكفرهم لغاية عتوهم وتماديهم فى العناد والطغيان ، وقرئ : (سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا) يعنون موسى ومحمدًا ﷺ .

(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(أَهْدَىٰ) : أقوى فى الهداية .

(مِنْهُمَا) : من القرآن والتوراة .

التفسير

٤٩ـ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ :

أى : قل يا رسول الله لهؤلاء المشركين : إذا كان القرآن والتوراة سحرين متظاهرين فأْتوا بكتابٍ من عند الله أقوى منهما فى الهداية ، فإن تأْتوا به أتبعه وأُصدقه ، وأمضى على هديه ، وهذا الشرط مِمَّا يأْتى به من يشير إلى وضوح حجته وسنوح محجته ، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بيّن الاستحالة ، فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإفحام .

وقوله تعالى :(إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) معناه : إن كنتم صادقين فى أنهما سحران مختلقان تظاهرا ، وإيراد الجملة بأُسلوب التشكيك مع استحالة صدقهم مزيد تهكم بهم .

٥٠ـ ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ . . .﴾ الآية .

أى : فإن لم يستطيعوا أن يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من القرآن والتوراة ـ ولن يستطيعوا ذلك ولن يقابلوه ـ فاعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم الزائغة ، ويصرون على موقفهم عنادًا وكفرًا من غير أن يكون لهم مُتَمَسَّكٌ مَّا أَصْلًا ، إذ لو كان لهم لأتوا به .

وإنما عبر عن عجزهم عن الإتيان بعدم الاستجابة إيذانًا منه ﷺ بأنه على كمال أَمْنٍ من أمره ـ كأن أمره ﷺ لهم بالإتيان بما ذكر دعاءٌ لهم إلى أمر يريد وقوعه .

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ :

أى : لا أحد أَضَلُّ ممن اتبع هواه ، واستبد برأيه بغير هدى من الله ، فهو أضل من كل ضال .

وتقييد اتباع الهوى بغير الهدى من الله ـ تعالى ـ لزيادة التقريع ، والإشباع فى التشنيع والضلال .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ : الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى ، والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٥

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٢٥,٠٠٠-٤-٨٦/٨٥ س ٢ ٤٢

* ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟
وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا
سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ
سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

المفردات :

(وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ) : من التوصيل ؛ وهو تكثير الوصل وتكريره ، أى : والينا وأتبعنا تبليغهم القرآن ، وقرأ الحسن « وصَلنَا » قال الرَّاغب[1] : أى : أكثرنا لهم القول موصولًا بعضه ببعض .

(يَتَذَكَّرُونَ) : يتعظون ويتدبَّرون .

(وَيَدْرَأُونَ) : أى يردّون ويدفعون ، وفى الحديث : « ادرَأُوا الحُدُود بِالشُّبهات » أى : ادفعوها .

(بِالْحَسَنَةِ) : بالطاعة . (السَّيِّئَةَ) : المعصية .

(اللَّغْوَ) : كل ما ليس بحق ، وقال مجاهد : الأذى والسبّ ، وفى اللغة : اللَّغو واللَّغا

(١) قال الآلوسى : وأصل التوصيل : ضم قطع الحبل ووصل بعضها ببعض .

بوزن الفتى : السَّقط وما لا يعتدُّ به من كلام وغيره[١] .

(أَعْرَضُوا عَنهُ) : انصرفوا عنه ولم يشتغلوا به .

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : قال القرطبي: أَمْنٌ مِنَّا لكم ، وعند الزمخشرى: كلمة توديع ومتاركة لا تحيَّة .

(لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ) : لا نطلب صحبة الجاهلين ولا نريد مخالطتهم ولا جدالهم .

التفسير

٥١ - (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) :

قال القرطبي : الآية الكريمة ردٌّ على من قال : هلاَّ أُوتى محمد القرآن جملة واحدة مثل ما أُوتى موسى التوراة كذلك ؟

والمعنى : ولقد نزلنا القرآن - وعدًا ووعيدًا وقصصًا وعبرًا ونصائح - أنزلناه كذلك متواصلًا متتابعًا وفق ما تقتضيه الحكمة لعلهم يتذكرون ما يجب على كل عاقل من الخضوع للحق متى تبين ،والقرآن حق واضح يعرفه كل من نظر فيه وفتح قلبه وعقله ، فلو فعلوا لتذكروا وآمنوا .

ولقد ظل القرآن ينزل على الرسول ثلاثة عشر عامًا بمكة يشرح العقيدة ويُعَمِّق الإيمان فى نفس المؤمنين ، ويردّ على شبهات المشركين ، وعشر سنوات بالمدينة بعد أن انتقل الرسول إليها وكوّن هناك الدّولة الإسلامية الفاضلة التى لم يسمع الزمان بمثلها ، وفى المدينة نزلت آيات الأحكام مبينة الدستور الإسلامىّ للدولة الإسلامية الأُولى شارحًا أحوال الأُمّة فى السلم والحرب موضّحًا الآداب الاجتماعية والسلوك السوىّ الذى يجب أن ينهجه المسلمون ،ولقد كان القرآن ينزل أحيانًا ردًّا على سؤال أو على شُبَه أهل الكتاب ،أو تشريعًا فى حادثة فكان ينزل مناسبًا لمقتضى الحال ، كما أن النبى ﷺ أرسله الله أميًّا ، لا يقرأ ولا يكتب ، فلكى ييسر الله له حفظه أنزله عليه مفرّقًا ولم ينزله جملة واحدة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا. وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا »[٢] .

---

(١) القاموس ج ٤ ص ٣٨٦

(٢) سورة الفرقان ، الآيتان : ٣٢ ، ٣٣

وفى فضل القرآن وبيان قيمته ومنزلته يقول تعالى :

٥٢ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ) :

أخبر الله - سبحانه وتعالى - أن بعض الذين أوتوا الكتاب من بنى إسرائيل قبل نزول القرآن ومجىء الرسول يؤمنون به وبما نزل عليه من قرآن كعبد الله بن سلام وغيره[١] .

قال القرطبى : ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى وهم أربعون رجلا ، قدموا المدينة ، منهم اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب ، وثمانية من الشام وكانوا أئمة النَّصارى ، وأنزل الله فيهم هذه الآية وما بعدها .

٥٣ - (وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) :

هذه الآية استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم .

والمعنى : وإذا يُقْرَأُ القرآن على أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى قالوا : صدَّقنا بما فيه إنه الحق من ربنا لأن مثله لا يقوله بشر ، إنا كنا قبل نزوله أو قبل بعث محمد - عليه الصلاة والسلام - مؤمنين بأنه سيُبْعَثُ وينزل عليه القرآن ، فإيمانهم به متقادم العهد لما شاهدوا ذكره فى الكتب المتقدمة ، فالمراد بالإسلام : الانقياد الظاهرى ، أى : إنا كنا - قبل نزول القرآن - مُنقادين لأحكام الله - تعالى - الناطق بها كتابه المنزل إلينا ، ومنها وجوب الإيمان به ، فنحن مؤمنون به قبل نزوله على الرسول ، ونحن عرفنا محمداً وكتابه قبل نزوله ، فإسلامنا سابق على تلاوته .

٥٤ - (أُولَـٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) :

أولئك الموصوفون بما سبق من النُّعُوت يُمْنحون جزاءهم مرتين: مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرَّة على إيمانهم بالقرآن ، وذلك بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان بكتابهم ، ثم بالقرآن بعد نزوله ، أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده ، أو على أذى من هجرهم وعاداهم من أهل دينهم ومن المشركين[٢] .

---

(١) الآلوسى .

(٢) الآلوسي .

قال القرطبي : ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : « ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَدْرَكَ النبي ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَعَبْدٌ مملُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ - عزَّ وجلَّ - وحقَّ سَيِّده فَلَهُ أَجْرَان ، وَرَجُل كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فغذَّاها فأحسن غذاءها ، ثم أدَّبها فأحسن أدبها ، ثم أعتقها وَتَزَوَّجها فله أجران » أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، والبخارى بلفظ مختلف .

قال العلماء : وكما أنهم يؤجرون على صبرهم ، فإنهم يؤجرون على دفعهم المعصية بالطاعة قال ﷺ لمعاذ : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » أو يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى ، فهو وصف لهم بمكارم الأخلاق ، أى: من قال لهم سُوءًا لا يَنُوه وقابلوه من الخلق الحسن بما يدفعه ، كالإعراض ولين الحديث .

وأثنى عليهم ربهم بأنهم ينفقون من أموالهم التى كسبوها من الحلال فى الطاعات وفى سبيل الخير ، ويبذلون ممَّا رزقهم الله من كسب طيب فى سبيل الله، ولتخفيف آلام المرضى والمحتاجين .

٥٥ - (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ) :

أى : يؤتيهم الله أجرهم مرتين على ما تقدم بيانه من الصفات الكريمة ، وعلى إعراضهم عن اللغو ، وإذا سمعوا ما قاله المشركون من سَقَطِ القول وبذيئه أعرضوا عنه ولم يشتغلوا به ، كما قال - تعالى - : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرامًا »[1] . (وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) : أى قالوا متاركين لهم على سبيل التوديع لا على سبيل التحية : سلام عليكم وَأَمْنٌ منا لكم ، فإنَّا لا نحاوركم ولا نُسابُّكم (لَا نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ) : أى لا نطلب الجاهلين والسفهاء للجدال والمراجعة والمشاتمة ولا نريد صحبتهم ومخالطتهم ، وهذا تعليل لمتاركتهم .

قال ابن إسحاق فى السيرة : قدم على رسول الله - وهو بمكة - عشرون[2] رجلًا أو قريب

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٧٢

(٢) هذه الرواية تخالف ما حكاه القرطبى من أنهم كانوا أربعين من أئمة النصارى ، وتقدمت هذه الرواية .

من ذلك من النصارى حينما بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه بالمسجد، فجلسوا إليه وكلَّموه وسألوه - ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة - فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عمَّا أرادوا دعاهم إلى الله - تعالى - وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به، وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم: خيَّبكم الله مِنْ رَكْبٍ، بعثكم مَنْ وَرَاءَكم مِنْ أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدَّقْتُمُوه فيما قال، ما نعلم ركبًا أحمق منكم، أو كما قالوا- فقالوا لهم: سلامٌ عليكم، لا نُجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نَأْلُ أنفسنا خيرًا - ويقال: إنهم النَّفر النصارى من أهل نجران، فالله أعلم أيُّ ذلك كان، قال: وسألت الزهرى عن هذه الآيات فيمن نزلت؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنها نزلت فى النجاشى وأصحابه، وكذلك الآيات التى فى سورة المائدة: «ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا» إلى قوله: «فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» اهـ: ابن كثير ج ٣ ص ٣٩٤

٥٦ - (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) :

المعنى: إنك - أيها الرسول - لا تقدر على هداية قلوب من أحببتهم إلى الحق، بأن تدخلهم فى الإسلام وإن بذلت فى ذلك غاية المجهود، وجاوزت فى السعى إليه كل حد معهود، ولكن الله يهدى من يشاء هدايته فيدخله فى الإسلام، وهو - سبحانه - أعلم بالمستعدين لذلك وهم الذين يشاء - سبحانه - هدايتهم، ومنهم من ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب[1].

وقال الزمخشرى: المعنى: إنك لا تقدر أن تُدْخِلَ فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم؛ لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره، ولكن الله - تعالى - يقدر على أن يُدْخِلَ من يشاء إدخاله، وهو الذى علم - سبحانه - أنه غير مطبوع على قلبه.

وقال الآلوسى: هذه الآية سيقت لتسليته ﷺ حيث لم ينجع فى قومه الذين يحبهم إنذاره - عليه الصلاة والسلام - إيَّاهم وما جاء به من الحق، بل أصروا على ما هم

(١) الآلوسى.

عليه وقالوا : « لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ » ثم كفروا به وبموسى ، فكانوا على عكس قوم أجانب من أهل الكتاب ، حيث آمنوا بما جاءه من الحق ، وقالوا : إنه الحق من ربنا ، ثم صرحوا بتقادم إيمانهم به ، وأشاروا بذلك إلى إيمانهم بنبيهم وبما جاء به أيضًا ، وذلك فيما حكاه الله بقوله : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ » إلى قوله : « إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ »[1] .

وقال ابن كثير : قد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عم النبى ﷺ .

قال الزهرى : حدثنى سعيد بن المسيب عن أبيه – رضى الله عنه – قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمَيَّة ابن المغيرة ، فقال رسول الله ﷺ : « ياعم ، قل : لَا إِلٰه إِلَّا الله ، كلمة أُحَاجُّ لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمَيَّة : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، وَيَعُودان له بتلك المقالة ، حتى كان آخر ما قال هو على ملّة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لَا إِلٰهَ إِلَّا الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عن ذلك » ، فأنزل الله – تعالى – : « مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُوْلِى قُرْبَى »[2] . وأنزل فى أبى طالب : « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ » وخالف فى ذلك الشيعة ، وقالوا بإيمانه ، وادعوا إجماع أئمة أهل البيت على ذلك .

---

(١) سورة القصص ، الآيتان : ٥٢ ، ٥٣

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٣

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَ
لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا
مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ
بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا
قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ
يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى
ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ
مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

المفردات :

(نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا) : أى نُخرج من أرضنا ومقرِّنا ، أويبطش بنا أعداؤنا . قال الآلوسى : وأصل الخطف ؛ الاختلاس بسرعة ، فاستعير لما ذكر .

(أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا) : أى أو لم نهىِّء لهم فى الأرض حرماً مكيناً ونمنعهم فيه من العدوان. (يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ) : يحمل إليه ويجمع فيه من كل جانب وجهة ؛ عن ابن عباس وغيره .

(بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا) : اغتر أصحابها ولم يقوموا بحق النعمة ، من البطَرِ ، وهو : جحود النعمة وكفران الفضل . وفى القاموس : البطَرُ : الأَشَرُ وقلَّة احتمال النعمةِ ، أو الطغيان بها ، وفعله : كَفَرِح[1] . ا هـ .

(أُمِّهَا) : فى القاموس ؛ أُمُّ كل شيء : أصله وعماده وأُمُّ القرى : مكَّةُ ؛ لأَنها توسّطت الأَرض ، أو لأَنَّها قبلة الناس يؤُمُّونها .

(لَاقِيهِ) : مدركٌ له ، ظافر به .

(الْمُحْضَرِينَ) : الذين يُحْضَرُون مرغَمين للعذاب ، وفى القاموس : حضر - كنصروعلِم - حضوراً ، ضد غاب (كاحتضر وتحضر) .

التفسير

٥٧ - (وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ...) الآية .

هذا قول بعض مشركي مكة[2] ، قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش : الحارث ابن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشيّ ، قال للنبي ﷺ : إنا لنعلم أن قولك حق ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافةَ أن يتخطَّفنا العرب من أرضنا - يعنى مكة - لاجتماعهم على خلافنا ولاطاقة لنا بهم ، وهذا من تَعِلاَّتِهم الكاذبة ، وأعذارهم الباطلة ، وحججهم الواهيةِ . وفيه ما فيه من اعترافهم بأَن ما مع محمد - عليه السلام - هو الهدى ، وتسجيلهم على أنفسهم أنه ما صدّهم عن الإيمان به إلا خوفهم على مصالحهم وفزعهم من ثورة العرب عليهم إذا أسلموا ، وقد أجاب الله عن تعللهم هذا بقوله :

(أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا) : أى أو لم نعصمهم ونثبت أقدامهم ونجعل مقرهم حرما أمينا لحُرْمةِ البيت الحرام الذى تتناحر العرب حوله ، ولا تجترئ على القتال فيه ، وكانت العرب فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض لأَوهى الأَسباب ، وأهل مكة آمنون فى حرمهم لايخافون ، ومع أنهم قارُّون بواد غير ذى زرع فإن الثمرات والأَرزاق تجمع لهم من كل صوْب ويحملها الناس إليهم من كل حدب ،

(١) قاموس ج ٤ ص ٣٧٤

(٢) انظر القرطبي والكشاف .

وكان هذا كله رزقاً من عند الله لا فضل فيه إلا لله وحده ، فإذا ما خوّلهم الله الأمن والأمان والاستقرار والاطمئنان والرزق الواسع بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام ، فكيف يستقيم أن يُعرِّضهم للتخوف والتخطف ، ويسلبهم الأمن إذا ضمُّوا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام ؟ .

قال يحيي بن سلام : يقول : كنتم آمنين فى حرمى تأكلون رزقى ، وتعبدون غيرى أفتخافون إذا عبد تمونى ، وآمنتم بى ؟

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :جهلة لا يتفطنون ولا يتفكرون فهم غافلون عن الاستدلال بِأَنَّ مَنْ رزقهم وأمَّنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ويمنع الكفار عنهم .

٥٨ - (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) :

بيَّن الله فى الآية السابقة فساد دعواهم الخوف من الناس إن آمنوا ، وبيَّن فى هذه الآية أنهم أحِقَّاءُ بالخوف من بأس الله الذى يشاهدونه بأعينهم كلما ساروا بقوافلهم على آثار من هلك قبلهم ، وبقايا وخرائب المدن والقرى التى جحدت آلاء ربها وكفرت بأنبيائها كما يكفرون بنبيهم ، فعذبهم الله بكفرهم وذكَّرهم فيها بأن ما حدث فى الماضى لغيرهم يمكن أن يقع لهم فى الحاضر والمستقبل وحينئذ يتبين أن الخوف فى الكفر لافى الإيمان .

أى : وكثير من أهل القرى كانت حالهم كحال هؤلاء فى الأمن وخفض العيش والدَّعةِ والاطمئنان حتى بطروا واغترُّوا ولم يقوموا بحق النعمة من الشكر عليها بالإيمان ، فدمَّرنا عليهم وخربنا ديارهم ، وتلك مساكنهم التى تمرُّون عليها فى أسفاركم كحجر ثمود خاوية بما ظلموا ، لم تسكن من بعد تدميرهم إلَّا زماناً قليلا ؛ إذ لا يسكنها إلا المارة أثناء سفرهم يوماً أو بعض يوم .

٥٩ - (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا) :

قال الآلوسى : هذه الآية الكريمة فيها بيان للعنايةِ الربانية إثر بيان إهلاك القرى المذكورة .

والمعنى : ما صحّ وما استقام ، أو ما كان فى حكمه الماضى وقضائه السابق أن يُهْلِكَ القرى قبل الإنذار ، بل كانت سنته - عزّ وجلّ - التى لا تتخلف ودستوره الذى لا يتغير ألّا يهلكها حتى يبعث فى أصلها وحاضرتها التى ترجع تلك القرى إليها رسولا يتلو عليهم آياتنا الناطقة بالحق ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ويوضح لهم المنهج ، وإنما أهلكهم بعد إلزامهم الحجّة بإرسال الرسول كيلا يقولوا : « لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ »(١) وتحقيقاً لوعده الذى لا يتخلف : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »(٢) .

(وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) : أى وما كنا مهلكى أهل القرى بعد ما بعثنا فى أمّها رسولا يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إليه فى حال من الأحوال إلا فى حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا ، فاعتبروا - يا كفار مكة - بما حدث لمن كان قبلكم ، وما يمكن أن ينزل بكم .

وإنما كان البعث فى أم القرى لأن فى أهل البلدة الكبيرة فطنة وكَيْسا ، فهم أقبلُ للدعوة وأشرف ، وفى إيمانهم عون على إيمان غيرهم .

٦٠ - (وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

بيَّن الله فى الآيات السابقة فساد رأى المشركين فى رفضهم الإسلام خوفاً على أنفسهم بقولهم : (إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا) وجاءت هذه الآية لتبين حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين فى الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم .

---

(١) سورة القصص من الآية : ٤٧

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٥

والمعنى : أى شىء أصبتموه من أمور الدُّنيا وزينتها فشأْنه أن يتمتَّع به أيَّاماً قلائل ثم يزول عنكم أو تزولون عنه ، وما عند الله فى الجنة من الثواب خير فى نفسه من ذلك ؛ لأنَّه لذَّة خالصة عن شوائب الألم ، وبهجة كاملة عارية عن سمات الهمّ ، وأبقى ؛ لأنه أبَدِىّ ، أغفلتم فلا تعقلون هذا الأمر الواضح وتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وتخافون على ذهاب ما أحببتموه من متاع الحياة الدنيا ، وتمتنعون من اتباع الهدى المفضى إلى ما عند الله من سعادة أبدية ؟

٦١ـ (أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) :

هذه الآية الكريمة تقرير وتوضيح لما قبلها ، ومعناها ـ كما قال ابن كثير ـ : أفمن هو مؤمن مصدّق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذى هو صائر إليه لامحالة ؛ لأن وعده ـ تعالى ـ لا يتخلف ، كمن هو كافر مُكذِّب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو مُمتَّع فى الحياة الدنيا أيَّامًا قلائل ثم هو يوم القيامة من المُحضرين ، أى : من المعذبين ـ كما قال مجاهد وَقتادة .

وفى سبب نزولها قال ابن عباس : نزلت فى حمزة بن عبدالمطلب وأبى جهل بن هشام .

وقال مجاهد : نزلت فى النبى ﷺ وأبى جهل ، وعمَّم الثعلبى فقال : نزلت فى كل كافر مُتِّعَ فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار ، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة .

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ
أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ
وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) : تحقق مؤدى القول على الشياطين والدعاة إلى الكفر ، والمراد بالقول : آيات الوعيد ، كقوله تعالى : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »(١) .

(أَغْوَيْنَا) : أضللنا بأن دعوناهم إلى الغي وهو الضلال ، وغوى يغوى غيًّا : ضلَّ .

---

(١) سورة السجدة ، من الآية : ١٣

(تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ) : تبرأ بعضنا من البعض ، فالشياطين يتبرءون ممن أطاعهم ، والرؤساء يتبرءون ممن تبعهم .

(فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ) : خفيت عليهم الحجج خفاء المرئى على الأعمى

(لَا يَتَسَآءَلُونَ) : لايسأل بعضهم بعضاً عن الحجج .

(ما كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) : قال الآلوسى : الخيرة ، التخيرُ ، كالطيرة بمعنى التَّطيُّر ، والخِيَرَةُ والتَّخَيُّرُ : الاختيار .

(مَاتُكِنُّ صُدُورُهُمْ) : ما يخفون فى صدورهم من الاعتقادات الباطلة وعداوتهم للرسول .

(وَمَا يُعْلِنُونَ) : ما يظهرونه من الأفعال الخبيثة والطعن فى الإسلام .

(لَهُ الْحُكْمُ) : لله وحده القضاء النافذ فى كل شىء من غير مشاركة فيه لغيره .

التفسير

٦٢ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) :

لا يزال الحديث متَّصلا عن أحداث يوم القيامة ، فنى هذه الآية إشارة إلى ما يوبخ الله به الكفار المشركين فى هذا اليوم حيث يناديهم ويسألهم فيقول : (أَيْنَ شُرَكَآئِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) : أى أين الآلِهَةُ التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا من الأصنام أو غيرها ليدافعوا عنكم وليشفعوا فيكم ؟ والتعبير بشركائى ، تقريع لهم على زعمهم ، وفيه تهكم بهم . والتعبير بلفظ : (تَزْعُمُونَ) للإشارة إلى كذبهم ، فقد قيل : « زعموا » مطية الكذب .

٦٣ - (قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ) :

الآية الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا صدر عنهم من قول حينئذ ؟ فقيل : قال الذين حق عليهم القول وهم شركاؤهم من الشياطين ، أو رؤساؤهم الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله ، بأن أطاعوهم فى كل ما أمروهم به ونهوهم عنه :

(رَبَّنَا هَٰؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا) :

أى : ما أكرهناهم على الغىّ ، وإنما أغويناهم بطريق الوسوسة والتسويل لا بالقسر والإلجاء ، فغووا باختيارهم غيًا مثل غيّنا باختيارنا ، تبرأنا إليك منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصى هوى منهم للباطل ومقتاً للحق ، ما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم ، ومسارعة الذين حق عليهم القول إلى الجواب مع كون السؤال للعَبَدةِ ، إمّا لتفطنهم أن السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالإضلال وجزمهم بأن العبدةَ سيقولون : هؤلاء أضلّونا ، وإمّا لأن العبدةَ قد قالوا : إنهم أضلّونا ، فاعتذر هؤلاء المعبودون بما قالوه ردًّا لقولهم ، إلا أنَّ القرآن لم يَحْكِ قول العبدة إيجازا لظهوره .

ومرادهم بالإشارة فى قوله « رَبَّنَا هَٰؤُلَآءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا » : بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم ، وأنّهم غير قادرين على إنكاره ورده .

٦٤ - (وَقِيلَ ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ) :

وقيل للكفار تقريعاً لهم ، وتهكماً وتشهيرًا بهم على رءوس الأشهاد بدعاء من لا نفع فيه لنفسه - قيل للكفار - : استعينوا بآلهتكم التى عبدتموها فى الدنيا لتنصركم ، وتدفع عنكم كما كنتم ترجون منهم ذلك فى الدار الدنيا ، فاستغاثوا بهم ، فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم ، ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ولأنهم فى شغل شاغل عنهم ، وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة ، ولو أنهم كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب لدفعوا به العذاب ، أو : لو أنهم كانوا مهتدين مؤمنين لما رأوه .

قال الزمخشرى : حكى - سبحانه وتعالى- أولا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ، ثم ما يقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم؛ لأنهم إذا وُبِّخُوا بعبادة الآلهة اعتذروا أن الشياطين هم الذين استغزوهم وزينوا لهم عبادتها ،ثم ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم ، وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وقطع الحجة ، وإبطال المعاذير فى قوله تعالى :

٦٥ - (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) :

أى : واذكر - أيها الرسول - كذلك يوم يُنَادَى المشركون من جانب الله - تعالى - نداء توبيخ ، فيُقال لهم : بأى شيء أجبتم رسلى الذين بعثتهم لإرشادكم ودعوتكم للإيمان والتوحيد فبلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وكيف كان حالكم معهم ؟

٦٦ - (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ) :

أى : فخفيت عليهم الحجج وغابت ، قال مجاهد : لأن الله قد أدحض حججهم ، وقال الزمخشرى : لايسأل بعضهم بعضاً كما يتساءل الناس فى المشكلات لأنهم يتساوون جميعاً فى عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب ، وإذا كان الأنبياء - لهول ذلك اليوم - يترددون فى الجواب عن مثل هذا السؤال لعجزهم ويفوضون الأمر إلى علم الله ، وذلك قوله تعالى : « يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ »(١) فما ظنك بالضُّلَّالِ من أممهم ؟ .

٦٧ - (فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ) :

لما ذكر الله - سبحانه وتعالى - من حق عليهم القول من التابع والمتبوع قال - سبحانه وتعالى ، حثا لهم على التوبة والإقلاع عن الشرك - : فأما من تاب من المشركين عن الشرك وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فعسى أن يكون من الفائزين بالمطلوب عنده - عز وجل - الناجين من الهلاك ،فلا جدوى لتوبة بغير إيمان ولا حجة لإيمان بغير عمل صالح ، وقد جاء هذا المعنى فى القرآن الكريم ، قال تعالى : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ »(٢) .

و (عسى) للتحقيق على عادة الكرام ، فهى من الله واقعة بفضله وكرمه ومنّه ووعده الذى لا يتخلف ، والتعبير بعسى ليعلم أن الإنسان مهما عمل صالحاً فليس له إلا الرجاء والأمل فى رحمة الله ، وفى الحديث الصحيح : « لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة ، قالوا : ولا أنت

(١) المائدة الآية : ١٠٩ .

(٢) سورة طه الآية : ٨٢

يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة[1] » وقيل : (عسى) للترجى من قِبل التائب المذكور ، بمعنى : فيتوقع أن يفلح ويفوز .

٦٨ - (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

بين الله فى الآيات السابقة أن الشركاء لا ينفعون المشركين فى أُخراهم ، وجاءت هذه الآية لتبين أن الأمر كله لله ، ولهذا اختار لعباده من يرشدهم إلى سواء السبيل ، فليس لهم الخيرة فى عقائدهم ولا فى اختيار رسلهم ، كما نزلت لكى ترد على أولئك الذين يقترحون على الله الرسل ، كالوليد بن المغيرة حيث قال : « لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » يعنى بذلك نفسه من مكة ، وعُرْوَةَ بن مسعود الثقفى من الطائف .

والمعنى : وربك يخلق ما يشاءُ من خلقه بقدرته ويختار منهم من يشاءُ بحكمته لطاعته وحمل رسالته ، على مقتضى علمه باستعدادهم لذلك ، فليس فى مقدور الخلق ولا من حقهم أنْ يختاروا على الله ما يشاءُون من أديان باطلة وآلهة زائفة ، تنزَّه الله تعالى بذاته تنزُّهًا خاصًّا به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره ، وتقدس وتمجد عن إشراكهم .

قال الزمخشرى : إن الاختيار إلى الله - تعالى - فى أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ، ولا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم .

وجعل بعضهم (سبحان الله) تَعْجِيبًا من إشراكهم من يضرهم ولا ينفعهم بمن يريد لهم الخير ويسوق لهم النِّعم .

٦٩ - (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) :

وربك - أيها الرسول - يعلم ما يخفُون فى صدورهم من الاعتقادات الباطلة ومن عداوتهم لك ، ويعلم ما يظهرونه من الأفعال الخبيثة والطعن فيك ، وقولهم : هلَّا اختير غيرك للنُّبوة ، فهو - سبحانه - يعلم ما تُكِن الضمائر وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تُبْديه الظواهر من جميع الخلائق : « سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ».[2] والآية الكريمة تهديد وتحذير شديد لأعداء الله ، لأنه - سبحانه - يعلم كل

(١) صحيح البخارى (كتاب الطب) باب تمنى المريض الموت .
(٢) سورة الرعد الآية : ١٠ .

ماتجيش به صدورهم من الشر ، وما يجول بعقولهم من الإثم ، ويعلم بكل ما يعلنونه على ملأ من الناس من ضلال .

٧٠ - (وَهُوَ اللهُ لآ إِلَٰه إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

وهو - سبحانه - المستأثر بالألوهية المتفرد بها ، لا ربّ غيرُه ولا معبود سواه ، له وحده كل الحمد ، وجميع الثناء والشكر لا إلى غيره ، لأنه المُولى للنعم كُلِّها - عاجلها وآجلها - على الخلق كافة ، يحمده المؤمنون فى الدنيا على إنعامه وهدايته ، وفى الآخرة على عدله ومثوبته ، وله القضاءُ النافذ فى كل شىء من غير مشاركة فيه لغيره . عن ابن عباس : له الحكم بين عباده فيحكم لأهل طاعته بالمغفرة والفضل ، ولأهل معصيته بالشقاء والويل ، لا مُعقب له ، لقهره وغلبته وحكمته ، وإليه ترجعون لا إلى غيره فيجزى كلّ عامل بعمله من خير وشر ولا يخفى عليه منكم خافية .

(قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟
فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ
أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ ۖ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾)

المفردات :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ) : أخبرونى .

(سَرْمَدًا) : دائمًا متصلًا مؤبدًا ، وهو عند البعض من السَّرد : وهو المتابعة ، ومنه قولهم : الأشهر الحرم ثلاثة سَرْدٌ ، وواحد فرد ، والميم زائدة لدلالة الاشتقاق عليه .

(تَسْكُنُونَ فِيهِ) : تستقرُّون فيه ، مأْخوذ من (السُّكن) وهو الهدوء والطمأْنينة .

(وَنَزَعْنَا) : أخرجنا بشدة وأبرزنا بسرعة ، وجاء فى اللُّغة : نَزَعَه من مكانه ينزعه : قلَعَه ، كانتزعه .

(شَهِيدًا) : أى شاهدًا . (بُرْهَانَكُمْ) : حجتكم .

(وَضَلَّ عَنْهُمْ) : ذهب وغاب عنهم غيبة الشىء الضال ، أى : الضائع ،

(مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : أى ما كانوا يختلقونه فى الدنيا من الباطل والكذب علَى الله ـ تعالى ـ من أنَّ معه آلهة تُعْبَد .

التفسير

٧١ ـ (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ) :

انتهت الآيات السابقة بإثبات الوحدانية لله ـ تعالى ـ وانفراده بالخلق والاختيار، وعلمه السرائر والظواهر، واستحقاقه وحده الحمد من عباده ، فى الدنيا على إنعامه وهدايته وفى الآخرة على عدله ومثوبته ، وتفرده بالحكم والفصل بين العباد ، وإليه المرجع والمصير.

وتواصل هذه الآية وما بعدها توكيد هذه المعانى وتوضيحها بأمثلة مُحَسَّة تشهد له ـ سبحانه ـ بكل ما سبق وبأنه صاحب النعم وواهب المنن ، فالآيات القرآنية الثلاث الآتية تنبه الناس إلى حقيقة يجب أن يفهموها ، وهى أنه ـ تعالى ـ لو خلق الأرض بحيث يكون ليلها دائمًا ، أو بحيث يكون نهارها كذلك فليس هناك إلٰه غيره ينعم عليهم باللَّيل والنَّهار

المتعاقبين ، وبفضل الله ورحمته كان النظام الكونىّ يكفل تعاقب الليل والنهار فيكون السكون والهدوءَ فى اللّيل ، والسعى والكدح فى النّهار وبهذا يتهيأُ التوقيت الصالح لحياة الإنسان والحيوان والنبات ، وهذا فضل من الله على عباده ، يستدعى الإقرار بقدرته ودوام شكره .

ومعنى الآية : أخبرونى من يقدر على هذا ؟ إن جعل الله عليكم اللّيل دائمًا متصلًا متتابعًا إلى يوم القيامة فأصبح الكون ملفوفًا فى ليل دامس لا يعقبه نهار ، وظلام طامس لا يأْتى بعده نور ، أخبرونى من إلهٌ غير الله يأْتيكم بنور تبصرون فيه معايشكم وتنطلقون فى أرجاء الأَرض وأنحائها تعمرونها ، فتزرعون وتتاجرون وتنتقلون من مكان إلى مكان ، أفلا تسمعون هذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار وقبول للدلائل الباهرة ، لتعرفوا أن غير الله – تعالى – لا يقدر على ذلك فتقوموا بشكره ، وتعترفوا بفضله ، وتُقِرُّوا بوحدانيته .

٧٢ – (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) :

ثم أخبر – سبحانه وتعالى – أنه لو جعل النهار دائمًا مستمرًا إلى يوم القيامة بحيث تعملون دائمًا دون انقطاع من إله غير الله يأْتيكم بليل تستريحون فيه من التعب ومشاق الحياة وتفرغون فيه من النصب ؟ أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطإ فى عبادة غيره ؟

وقال الآلوسى : أفلا تبصرون الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة ، لتقفوا على أن غير الله لا قدرة له على ذلك ؟ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على الإتيان باللّيل والنّهار غيره فلم تشركون ؟

وقال البيضاوى : لعله لم يصف الضياء بما يقابله لأن الضوءَ نعمة فى ذاته مقصود بنفسه ولا كذلك اللّيل ، ولأن منافع الضوء أكثر ممّا يقابله ، ولذا قرن به أفلا تسمعون ، وباللّيل أفلا تبصرون لأن استفادة العقل من السمع أكثر من استفادته من البصر . اهـ : بيضاوى .

ولذا ما اجتمع السمع والبصر فى موضع من كتاب الله إلّا وقُدِّم السمع على البصر .

قال – تعالى – : « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا »[١] ، « وَهُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ »[٢] .

ولقد ذكر العلماء والمحدثون فى تعليل ذلك أن السمع أول الحواس يؤدى وظيفته فى الدنيا ، وهو أداة الاستدعاء فى الآخرة ، ولأن الأذن لا تنام فالسمع أسبق وأنفع وأدوم ، وللعلامة الآلوسى تعليق مطول على الآيتين فى الجزء السابع ص ١٠٧ ومابعدها فليرجع إليه من أراد التوسع .

٧٣ – (وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) :

أى : وبسبب رحمته بكم خلق لكم الليل والنهار لتسكنوا فى الليل وتستريحوا من عناء الأعمال وأعباء الحياة وأثقال المعيشة ، ولتطلبوا الرزق الحلال بالنهار بالأسفار والترحال والضرب فى الأرض ، ولتدركوا فضل الله عليكم فتشكروه بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شىءٌ بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل كما قال – تعالى – : « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا »[٣] .

٧٤ –(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) :

المعنى : واذكر كذلك – أيها الرسول – يوم يُنادَى المشركون من جانب الله فيقال لهم : أين الشركاء الذين زعمتموهم آلهة ينصرونكم أو شفعاء يشفعون لكم ؟

وهو تقريع إثر تقريع ، للإشعار بأنه لا شىء أجلب لغضب الله – تعالى – من الإشراك ، كما لا شىء أدخل فى مرضاته من توحيده – عز وجل .

يقول القرطبى : ينادى الله المشركين مرة فيقول لهم : « أَيْنَ شُرَكَآئِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ » فيدعون الأصنام فلا تستجيب فتظهر حيرتهم وخزيهم، ثم ينادَون مرة أخرى على رءوس الأشهاد فيسكتون ، وهو توبيخ وزيادة خزى .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٣٦

(٢) المؤمنون ، الآية : ٧٨

(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٦٢

٧٥ - (وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

الآية الكريمة إنذار بما ينتظر هؤلاء المشركين يوم القيامة لجدالهم فى وحدانية الله ، وتعاميهم عن نعمه عليهم ورحمته بهم .

والمعنى : وأخرجنا يوم القيامة من كل أمة شاهدًا يشهد عليهم بما كانوا عليه ، وهو نبى تلك الأمة كما روى عن مجاهد وقتادة ، ويؤيده قوله - تعالى - : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا »[1] - فقلنا لكل أمة من الأمم : هاتوا حجتكم وأحضروا دليلكم على صحة ما تدينون به ، وعلى صدق ما ادعيتموه من أن لله شركاء ، فعلموا يومئذ أن الحق لله فى الألوهيَّة لا يشاركه - سبحانه - فيها أحد وَلَا إلٰهَ غيره ولم يجدوا جوابًا ، وغاب عنهم غيبة الشىء الضائع ما كانوا يختلقونه من الكذب على الله - تعالى - من أن معه آلهة تعبد .

ويقول ابن كثير : (وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أى : ذهبت معبوداتهم فلم ينفعوهم .

ويقول الآلوسى : وصيغة الماضى فى « وَنَزَعْنَا » للدلالة على التحقق والثبوت ، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بشأن النزع وتهويله ، لصدوره من المولى - عز وجل - فهو نزع يليق بعزيز قوى . والله أعلم .

* (إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾)

(١) سورة النساء الآية : ٤١

المفردات :

(فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ) : أى ظلمهم ، أو تكبر عليهم .

(الْكُنُوزِ) : الأموال المدخرة المحبوسة ، من : كنزه ، بمعنى : ادَّخره وحبسه عن الناس ، ومنه قوله تعالى : « الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللهِ » .

(مَفَاتِحَهُ) : جمع مِفتح – بكسر الميم – وهو المفتاح الذى تفتح به الأغلاق ، أو جمع : مَفْتح – بفتح الميم والتاء – وهو الوعاء الذى يكنز فيه كالصندوق .

(لَتَنُوٓءُ بِالْعُصْبَةِ) : العصْبة ، الجماعة يتعصب بعضها لبعض ويشد أزره ، ومعنى « تَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ » : تثقلها ، يقال : ناء به ، وأناءه ، أى : أثقله ، كما يقال : ذهب به وأذهبه ، فالباء للتعدية ، وبه قال الخليل وسيبويه والفراء ، واختاره النحاس ، وسيأتى بسط الكلام فى تفسيره .

(لَاتَفْرَحْ) : أى لاتفرح بدنياك فرحًا يذهلك عن أُخراك .

(الْفَرِحِينَ) : قال الزجاج : الفرحين والفارحين سواء ، ونزيد على ما قاله : أن الفرِح صيغة مبالغة تفيد زيادة الفرح .

(وَابْتَغِ) : واطلب . (وَلَاتَبْغِ الْفَسَادَ) : ولا تطلبه .

التفسير

٧٦ – (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ . . .) الآية .

اختلف فى قارون من جهة قرابته لموسى – عليه السلام – فمنْ قائل : إنه ابن عمه ، وهو ماروى عن ابن عباس وابن جريج وغيرهما – ومن قائل : إنه عمه ، وحكاه محمد ابن إسحٰق ، ومنهم من قال : إنه ابن خالته ، ولم نجد لهذه الروايات سندًا ، وحسبنا ما قاله الله – تعالى – فى نسبه من أنه من قوم موسى ، أى : من بنى إسرائيل ، ويصفه الله بأنه بغى عليهم ، والبغى – فى اللُّغة – : التطاول ومجاوزة الحد ، وقد فسره المفسرون هنا بتفسيرات

مختلفة ، فمنهم من فسره بالتكبر ، فإنه كان جميل الصورة واسع الثراء ، وكان أحفظ بنى إسرائيل للتوراة ، فتكبر عليهم لذلك ، ومنهم من فسره بالظلم ؛ لأن فرعون ملكه عليهم فظلمهم وبغى عليهم ، والذى نراه أن لكنوزه دخلا فى ظلمه ، لأن منْ نصحوه من قومه قالوا له : « وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ » فهذا واضح فى أن ماله أغراه بالإفساد والظلم ، ولذا عقبه الله بقوله : « وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ . . . الآية » .

(وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوٓءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ) :

أى : وأعطيناه من كنوز الأموال ما دفعه إلى التكبر والتعالى على قومه وظلمهم ، فالمراد من الكنوز ؛ الأموال المدخرة ، ويصف الله عظمة هذه الكنوز بأن مفاتحها تنوء بالعصبة أولى القوة ، والمراد من المفاتح الخزائن . قال الضحاك : مفاتحه : ظروفه وأوعيته ، وروى نحو ذلك عن ابن عباس والحسن ، وعلى هذا الرأى تكون مفاتح جمع مَفْتَح - بفتح الميم وسكون الفاء - أى : مكان الفتح ، وهو الوعاء .

ومنهم من قال : إنه جمع مِفتح - بكسر الميم وسكون الفاء - وهو المفتاح الذى تفتح به الخزانة ، والأول أقرب إلى التعقل ؛ فإن العُصبة أُولى القوة تقْدر على حمل المفاتيح ، ولا تنوء بها ، وإنما تنوء بحمل الخزائن ، والله أعلم .

والعصبة : الجماعة الكثيرة من غير تعيين بعدد خاص كما قاله الراغب ، ومنهم من عين لمعناها عددا خاصًا من عشرة إلى خمسة عشر وهو مروى عن مجاهد ، ومنهم من زاد إلى سبعين .

وقال الخفاجى : إن أصل معناها : الجماعة مطلقًا - كما هو مقتضى الاشتقاق[1] ، والعرف هو الذى يخص العدد ، ومعنى (تنوء به العصبة أولو القوة) : تنهض به متثاقلة كما قال ابن عباس وأبو صالح والسُّدى وبه قال الخليل والفراء والنحاس .

---

(١) فإن أصلها الجماعة يتعصب بعضهم لبعض.

وبعض المفسرين جعل هذه العصبة من الرجال ، وحددوها بأربعين رجلا أقوياء ،ونسبوا هذا إلى ابن عباس ،حيث رووا عنه أن المفاتح هى الخزائن، وكانت خزائنه يحملها أربعون رجلا أقوياء .

وبعضهم جعلها من الحيوانات كالبغال والخيل، وإطلاق العصبة عليها لغوى ؛ قال صاحب القاموس : العصبة – بالضم –من الرجال والخيل والطير : ما بين العشرة إلى الأربعين ، كالعصابة – بالكسر – ونقول : إنهم أخذوا هذا المعنى من العَصْب ، بمعنى الشد ، فإنها يشد بعضها أزر بعض ، وبعضهم جعل المفاتح كناية عن العلم والحفظ ،كما فسروها فى قوله تعالى : « وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ » فالمراد من الآية : وآتيناه من الكنوز ما إن حفظها والإحاطة بها ليثقل على الجماعة القوية من الرجال ، لاختلاف أصنافها وكثرتها التى تتعب القائمين على حفظها وحسابها والإحاطة بها ، وهذا هو تفسير أبى مسلم للآية ، وهو – وإن استبعدوه – له سنده من قوله تعالى : « وَعِندهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ » كما أنه تجنَّب فيه المبالغات التى ذكرها كثير من المفسرين فى تفسيرها : « إذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تفْرَحْ إنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » .

قال ابن عطية : (إذْ قَالَ) متعلق ببغى عليهم ، أى : بغى على قومه إذ قالوا له : لا تفرح ورجح بعض المفسرين تعلقه بمحذوف يقتضيه المقام ، أى : فأظهر قارون الفرح بكنوزه إذ قال له الأتقياء من قومه : لا تفرح بها إن الله لا يحب الفرحين ،وقد نهوه عن فرحه الذى أورثه البغى ، ومنعه حق الله تعالى ، فهذا هو الذى يُنْهى عنه، أما الفرح سرورا بنعمة الله ورضا عنها مع أداء حقها المشروع فلا ينهى عنه، لأنه نوع من الشكر على النعم الذى حضَّن عليه الشرع ، كما قال – تعالى – : « وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ».(1) والمراد من عدم محبة الله للفرحين البطرين : بغضه لهم ، وإبعادهم عن حضرته وعن كرمه .

والمعنى العام للآية : إن قارون كان من بنى إسرائيل قوم موسى ، فظلمهم وتكبر عليهم بما أوتيه من علم وجاه ومال ، وأعطيناه من الأموال التى كنزها وحبسها عن مبرَّات الآخرة – أعطيناه – ما إن خزائنه لتثقل الجماعة القوية من الدواب التى تحملها ، أو من الرجال القائمين على حفظها وحسابها وتدبير أمرها ، فأظهر قارون الفرح والتفاخر بكنوزه ، إذ قال له أتقياء قومه : لا تفرح بها فرح البطر والكفران ، إن الله لا يحب الفرحين البطرين الذين يكفرون ولا يشكرون ، بل يبغضهم وينتقم منهم .

(1) سورة إبراهيم ، من الآية : ٣٧

٧٧ - (وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) :

واطلب فيما أعطاك الله من الكنوز والأموال ثوابا فى الدار الآخرة بِصَرْفِها فى مصارف البر والتقوى ، ولا تترك حظك من الدنيا ترك المنسى ، فخذ من زينتها وطيباتها ورزقها ما تتجمل به ويعينك على تقوى الله - تعالى - ويقيك شر الحاجة ، وأحسن إلى عباد الله - تعالى - كما أحسن الله إليك تأسيا بصنيعه معك ، أو : أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله إليك بالنعم[١] ، ولا تطلب بهذه الكنوز الفساد فى الأرض والبغى على العباد إن الله لا يحب المفسدين ، بل يبغضهم وينتقم منهم .

(قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(أُوتِيتُهُ) : أُعطيته .

(الْقُرُونِ) : جمع قرن ، واختلف فى زمنه ، وأصح ما قيل فيه : إنه مائة سنة ؛ لقوله ﷺ لغلامه : « عِشْ قرنًا » فعاش مائة سنة ، ويطلق على كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد ، قاله صاحب القاموس وهو المراد هنا ، ويطلق أيضًا على أهل زمان واحد ، ومنه قول الشاعر :

إذا ذهب القرن الذى أنت فيهمُ ... وخُلِّفْتَ فى قرن فأنت غريب

---

(١) ويجوز أن تكون الكاف فى كلا المعنيين للتعليل ، أى : أحسن لأجل إحسان الله إليك .

ذكره صاحب المختار .

(الْمُجْرِمُونَ) : المذنبون ، والجرْم والجريمة : الذنب .

التفسير

٧٨ - (قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى . . .) الآية .

لما نصح أتقياء بنى إسرائيل قارونَ بأن يحسن الإنفاق من ماله كما أحسن الله به إليه ، ظن أنهم يصفونه بأنه أوتيه إحسانًا عليه بغير سبب يقتضيه ، فرد عليهم بقوله : « إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى » واختلف فى تفسير هذا العلم ، فقيل : إنه علم التوراة فإنه كان أعلم بنى إسرائيل بها ، وقال أبو سليمان الدارانى : علم التجارة ووجوه المكاسب ، وقيل : علم استخراج الكنوز والدفائن ، وقيل : علم الكيمياء ، فكان يحول الرصاص والنحاس ذهبًا ، ورده العلماء بأن فيه دعوى قلب الحقائق ، وذلك لا يكون إلا لله - تعالى - ولم يثبت حدوثه منه بطريق صحيح ، وما يشاع بين العامة من إمكان ذلك ، إنما هو من باب الأراجيف التى لم تثبت فى الواقع ، بل هى من باب الصبغ والتزييف[1] .

وقال الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسيرها : إنما أوتيتُه على علم من الله باستحقاقى إياه ، فلولا رضاه عنى وعلمه بفضلى ما أعطانيه ، وكلمة (عِندِى) على هذا الرأى معناها : فى ظنى واعتقادى[2] وقد رد الله عليه بقوله : (أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) :

أى : أجهل قارون فبغى على قومه وأفسد فى الأرض ، ولم يعلم أن الله - تعالى - قد أهلك من قبله من الأمم الخوالى من هو أشد منه قوة فى الآلات ، وجمعًا للأعوان والأنصار والأموال ، ولا يسأل عن ذنوبهم المذنبون سؤال استعلام أو معاتبة واسترضاء ، وإنما يُسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، لقوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فكيف جهل قارون ذلك فأفسد وبغى وزعم أنه أوتى كنوز المال استحقاقًا ؟

---

(١) راجع ابن كثير .

(٢) و(عندى) - على هذا - خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هذا عندى و فى اعتقادى ، أما على ما تقدم فهو صفة لعلم.

(فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾)

المفردات :

(فِى زِينَتِهِ) : فيما تزين به من متاع الحياة الدنيا .

(وَيْلَكُمْ) : هو فى الأصل دعاء بالويل ، وهو الهلاك ، ثم شاع استعماله فى الزجر عمَّا لاينبغى ، وهو المراد هنا .

(وَلَا يُلَقَّاهَا) : أى ولا يلقى هذه النصيحة ، أى : لايتقبلها ويعمل بها .

(إِلَّا الصَّابِرُونَ) : على الطاعات ، وعن المعاصى .

التفسير

٧٩ - (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) :

اختلف فى المراد من الذين يريدون الحياة الدنيا ، فقيل : هم جماعة من مؤمنى بنى إسرائيل تَمنَّوْا أن تكون لهم دنيا كدنيا قارون جريًا على سنة البشر من حب التوسع فيها ، وكان ذلك على سبيل الغبطة ، لاعلى سبيل الحسد ، وقيل : هم جماعة من الكفار أو المنافقين الذين لا هَمَّ لهم إلَّا دنياهم ، والظاهر مع الرأى الأول ، وتمنى مثل ما للغير لا يقدح فى الإيمان ، ولكن طلب الآخرة أفضل ، كما يشير إليه رد أهل العلم عليهم فى الآية التالية .

ومعنى الآية : فخرج قارون ذات يوم على قومه بنى إسرائيل فى زينة عظيمة وتجمل باهر : من ملابس ناضرة ، ومراكب فارهة فاخرة ، وخدم وحشم ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخرفها وزينتها ، تمنوا مثل الذى أعطيه قارون ليتمتعوا به مثل متاعه ، قائلين : ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ وافر من دنياه ، فلما سمع مقالتهم أهل العلم ردوا عليهم بما حكاه الله بقوله :

٨٠ - (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) :

أى : وقال الذين أوتوا العلم ينصحون طلاب الدنيا وزخرفها ، ويزجرونهم عن طلب التوسع فيها حتى لا تفسدهم كما أفسدت قارون - قالوا لهم - : ويلكم لا تطلبوا مثل ما أوتى قارون ولا تتمنوا مثل زينته ومتاعه الدنيوى ،ثوابُ الله فى الآخرة خيرٌ من زينته ومتاعه وأعظم ممَّا أوتيه - من ماله ورجاله - لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل عملًا صالحًا يرضاه ، ولا يتلقى هذه النصيحة بحسن قبولها والعمل بمقتضاها إلَّا الصابرون على الطاعات ، وعن السيئات .

(فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾)

المفـردات :

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ) : أى أدخله الله وداره فى جوف الأرض ، يقال : خسف المكانُ يخسِف خسوفًا : ذهب فى الأرض ، وخسف الله به الأرض : ذهب به فيها وأدخله فى جوفها ، وخسف هو فى الأرض وخُسِفَ به[1] (فِئَةٍ) أى : جماعة (وَيْكَأَنَّ) هى كلمتان (وى) و (كَأَنَّ) . قال الخليل وسيبويه : (وَىْ) : اسم فعل بمعنى أعجب ، وتكون للتحسُّر والتندم أيضًا ، قال الجوهرى : وقد تدخل (وىْ) على (كأن) المخففة والمشددة ، تقول : (وَيْكَأَنَّ اللهَ) قال الخليل : هى مفصولة ، تقول : وىْ - ثم تبتدئ فتقول : (كأن) يعنى : أن الوقف على (وَىْ) كما فى البحر ، و (كأن) فيه عارية عن معنى التشبيه جىء بها للتحقيق ، كما فى قول الشاعر :

وأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الأرض ليس بها هشام

ويروى الثعلبى عن الفراء أن (ويكأن) كلمة تقرير ، كقولك : أما ترى صنع الله وإحسانه ؟ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها : أين ابنك ويلك ؟ فقال : ويكأنه وراء البيت أى : أما ترينَّه ؟ وبهذا قال ابن زيد وجماعة ، وهو بمعنى ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - (ويكأن) : حرف واحد بجُمْلته ، وهو بمعنى ألم تر[2] .

التفسـير

٨١- (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ) :

لما ذكر الله - تعالى - خروج قارون فى زينته ، وفخره على الناس وخيلاءه بدنياه ، وبغيه على عباد الله ، عقب ذلك ببيان ما حل به من الجزاء على البغى والخيلاء ، ويضم إليهما الكفر ، كما سيصرح به فى الآية التالية : « وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » .

ويرى ابن كثير أنه هو المعنى بحديث البخارى فى صحيحه ، من حديث الزهرى عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو

(١) انظر القرطبى .

(٢) هذه خلاصة بحوث طويلة ، فارجع إلى القرطبى والآلوسى وغيرهما من الموسوعات إن شئت المزيد .

يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » وللتجلجل معان ، منها : الذهاب فى الأرض ، والتضعضع ، وشدة الصوت ، والوعيد ، والأخير هو أنسبها ؛ فهُو فى وعيده وعقابه إلى يوم القيامة ، وهناك يعذب عذاب الكافرين حيث يخلد فى النار .

ولم نجد أحدًا من المفسرين تحدث عن الأرض التى خسف به وبداره فيها ، ويوجد فى محافظة الفيوم بحيرة صغيرة تسمى (بركة قارون) فلعله وقومه كانوا يسكنون بهذه المنطقة ، وأنه خرج على قومه فى زينته بأرضها فغيبه الله وداره فى جوفها ، ونشأت بركة قارون بسبب هبوط الأرض هبوطا شديدًا تحت مستوى المياه الجوفية ، فسارعت المياه الجوفية فملأت مكان الخسف ، ونشأت بذلك بركة نسبت إليه ، لتكون آية على مكانه وشاهدا على عاقبة بغيه وكفره ، ومعلوم أن بنى إسرائيل قد كثروا بمصر حتى أصبحوا بها أمة ، وقد أذلهم المصريون ، واستخدموهم فى بيوتهم وحقولهم ، فلما جاء موسى برسالة إلى فرعون ، وأظهره الله عليه استطاع أن يخفف عنهم ذل الأسر والاستعباد فطلب إليهم أن ينفردوا ببيوت لهم يسكنونها مستقلين عن سادتهم من المصريين ، وأن يكونوا مُتجاورين ، وفى ذلك يقول الله – تعالى – : « وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

ولو صح استنباطنا من أنهم يسكنون بمنطقة الفيوم حيث بركة قارون ، فإن ذلك لا يمنع من أن بيوتهم فى مصر ، فإن الفيوم إقليم مصرى ، ولعله كان له شأن فى ذلك الزمان.

السبب المباشر للخسف بقارون وداره

يروى أنه كان كثير الإيذاء لموسى فصبر عليه ؛ لأنه كان ابن عمه حتى اتهمه بالزنى فى محضر من قومه فبرأه الله وحكّمه فيه ، وفى ذلك روى ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس « أن قارون كان ابن عم موسى – عليه السلام – وكان يتتبع العلم حتى جمع علمًا ، فلم يزل فى ذلك حتى بغى على موسى – عليه السلام – وحسده ، فقال موسى : إن الله – تعالى – أمرنى أن آخذ الزكاة ، فأبى ؛ فقال : إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، أفتحتملون أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا نحتمل فما ترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى

بغيٍّ من بغايا بنى إسرائيل ، فنرسلها إليه فتتهمه بأنه أرادها على نفسها ، فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك حُكْمك[١] على أن تشهدى على موسى أنه فجَر بكِ ، فقالت : نعم ، فجاء قارون إلى موسى – عليه السلام – قال : اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك ، قال : نعم ، فجمعهم فقالوا : بِم أمرك ربك ؟ قال : أمرنى أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا ، وأن تصلوا الرحم ، وكذا وكذا ، وقد أمرنى فى الزانى إذا زنى وقد أُحصن أن يرجم ، قالوا : وإن كنت أنت ، قال : نعم ، قالوا : فإنك زنيت ، قال : أنا ؟ فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى – عليه السلام – : أنشدك بالله إلَّا ما صدقتِ فقالت : أما إذْ نشدتنى[٢] بالله – تعالى – فإنهم دعونى وجعلوا لى جُعْلًا[٣] على أن أقذفك بنفسى ، وأنا أشهد أنك برئ وأنك رسول الله . فخر موسى ساجدًا يبكى ، فأوحى الله إليه : ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض فمُرها تطعك ، فرفع رأسه فقال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم . . . الحديث » .

وفى تبرئة الله لموسى مما اتهموه به يقول الله – تعالى – فى سورة الأحزاب : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا »[٤]. وهناك روايات أخرى فى سبب خسفه ، وحسب القارئ ما تقدم .

المعنى الاجمالى للآية

فخرقنا بقارون وبداره الأرض وغيبناهما فى جوفها ، فما كان له من جماعة غير الله يدفعون عنه نقمة الله ونكاله ، وما أغنى عنه ماله وخزائنه ولا حماه خدمه وحشمه وأنصاره ، وما صح ولا استقام أن يكون من الممتنعين من بطش الله بأى سبب من أسباب الامتناع ، فإنه لا بد واقع ، ليس له من دافع .

٨٢ – (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) :

---

(١) أى : ما تحكمين به من المال أجراً على اتهامه بالزنى .
(٢) أى : سألتنى .
(٣) أى : أجراً .
(٤) الآية : ٦٩

(وأَصبَح) هنا بمعنى : وصار ، و (بِالأَمْسِ) بمعنى : منذ زمان قريب ، واستعماله بهذا المعنى مجاز مشهور ، ومن المفسرين من حملهما على معناهما الحقيقى ، ونحن نؤثر المعنى الأَول فى تأْويل الآية ؛ لما فيه من الاحتياط فى تأْويلها ، ولشموله للمعنى الثانى أَيضا .

ومعنى الآية : وصار الذى تمنوا منذ زمان قريب مثل ما أُوتى قارون من السعة والغنى يقولون : نَعجب ممّا حدث لقارون ، ونندم على تمنينا مثل ما أُوتى حقًّا إن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده لا لِكرَامَة تقتضى البسط ، ويضيقه على من يشاء ، لا لهوان يقتضى التضييق ، فهو الحكيم فى قضائه وقدره ،لولا أن منّ الله علينا فلم يعطنا ما تمنينا لخسف بنا كقارون ؛ لأَن المال يغوينا كما أَغواه ، ويدمرنا كما دمره ، نعجب مرة أُخرى من هذا العقاب ، ونندم على تمنينا مثل يساره الذى فتنه ، إنه لا يفلح الكافرون بنعم الله ، المؤثرون لدنياهم على دينهم ، المكذبون برسلهم ووعْدِهِمْ ووعيدهم ، فهم الخاسرون النادمون .

(تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾)

المفردات :

(عُلُوًّا) : استكبارًا . (وَالْعَاقِبَةُ) : الخاتمة الطيبة .

التفسير

٨٣ - (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) :

هذه الجنة العظيمة الموجودة فى الآخرة بنعيمها الدائم ، وجمالها الباسم نجعلها ثوابا للمؤمنين الصالحين الذين لايريدون بنعم الله عليهم تعالياً على الناس ، وسلطاناً فوقهم ،

ولايريدون بها عدواناً وظلما يفسد عليهم حياتهم ، والعاقبة المحمودة فى شرع الله وحكمه للذين يتقون غضبه فيطيعون أمره ، ويجتنبون نهيه ، ويسالمون عباده .

جاء فى حديث صحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « يـأيها الناس إنى أُوحى إلىّ أن تواضعوا ، ألا فتواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد ، وكونوا عباد الله إخواناً » أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه ، ومن أحب أن يتجمل بين الناس بنعم الله عليه فلا يعد هذا تعالياً ولا كبرًا ، فقد صح أن رجلا قال : يارسول الله ، إنى أُحب أن يكون ردائى حسناً ونعلى حسنة أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » أخرجه الإمام مسلم والإمام أحمد .

٨٤ ـ (مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

من جاء يوم الحساب والجزاء بالخصلة الحسنة عقيدة أوعملا . فله جزاء خير منها ، حيث يضاعف الله ثوابها بحسب ما فيها من حسن النية والأداء ، ومن جاء بالخصلة السيئة عقيدة أو عملا فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا بمثل ما كانوا يعملونه من السيئات دون زيادة عليها ، كما قال تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ »(١)

وإنما قال : من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة ، ولم يقل : من عمل الحسنة ومن عمل السيئة للدلالة على أن استحقاق الثواب أو العقاب مستفاد من الخاتمة التى يجئ بها الإنسان لربه ، لا من أول العمل ، فمن أمضى عمره فى الكفر ثم أسلم وحسن عمله فقد جاء ربَّهُ بالحسنة وله ثوابه ، ومن أمضى عمره فى الإيمان والعمل الصالح ثم كفر ، فقد جاء ربه بالسيئة وله عقابه . نعوذ بالله من سوء الخاتمة .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧

(إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾)

المفردات :

(فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) : أوجب عليك تبليغه ، والعمل به .

(لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) أى : لراجعك إلى مكان عظيم تعودته - وهو مكة - : من العادة ، أو إلى مكان تعود إليه بعد الخروج منه : من العوْدِ ، وهو مكة أيضاً ، وذلك فى يوم فتحها سنة ثمان من الهجرة ، وفيه معان أخرى ، وما ذكرناه أولاها .

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : بعد عن الحق واضح ، من (أَبَانَ) : اللازم ، بمعنى اتضح .

(وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ) : وما كنت تتوقع أن ينزل عليك القرآن .

(فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ) : أى معيناً لهم بإجابتهم إلى طلبهم .

(وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ) : ولا يمنعك الكافرون عن العمل بآيات الله بعد وقت إنزالها إليك .

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) : أى كل شىء فانٍ إلا ذاته - تعالى - فالوجه مجاز عن الذات ، وللكلام بقية فى التفسير .

التفسـير

٨٥ - (إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ) :

ذكر الله - تعالى - فى الآيات السابقة قصة موسى وقومه مع قارون وبغيه واستطالته عليهم ، وهلاكه ،ونصره أهل الحق عليه ، وجاء بهذه الآية مشيرة إلى قصة سيدنا محمد وأصحابه مع قومهم ، واستطالتهم عليهم ، وإخراجهم إياهم من بلدهم ، ومبشرة بإعزازه ﷺ ورده والمؤمنين المهاجرين إلى مكة وفتحهم إياها غالبين منصورين ، ووسط بين القصتين ما هو مرتبط بهما من شئون الآخرة ، للانتقال من قصة إلى أخرى ، قال مُقاتل : خرج النبى ﷺ من الغار ليلا مهاجرًا إلى المدينة فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها ، فقال له جبريل : إن الله يقول : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ » : أى مكة ظاهرًا عليها ، قال ابن عباس : نزلت بالجحفة فليست مكية ولا مدنية .

وتفسير المعاد بمكة قول الأكثرين ، وهو قول جابر بن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم ، وقال الضَّبِّى : معاد الرجل بلده ؛ لأنه ينصرف منه ثم يعودُ إليه .

وفى المعاد أقوال أخرى ، وما ذكرناه أولى منها بالقبول ، لما ذكرناه من الربط بين القصتين .

ومعنى الآية : إن الله الذى فرض عليك - أيها الرسول - تبليغ القرآن والعمل به ، لراجعك ظافرًا إلى مكة بلدتك التى تعودتها وقد أخرجوك منها فلن يكون خروجك منها أبدياً ، قل لقومك : ربى أعلم بمحمد الذى جاء بالهدى من عنده فينصره ويرده إلى بلده وينشر هداه ، وأعلم بمن هو فى ضلال واضح من قومه فيخذله ، ويذله .

٨٦ - (وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ) :

هذه الآية مقررة لما جاء فى الآية السابقة ، من الوعد بإعادته إلى مكة التى أخرجوه منها ومؤيدة لموقفه السلبي من دعوتهم إياه إلى العودة إلى ملة الشرك التى نشأوا عليها ، وتثبيت له عليه ، قال مقاتل : دعا كفار مكة رسول الله ﷺ إلى دين آبائه فذكّره الله - تعالى - نعمه ، ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه .

والواقع أن الرسول الأمين لا يتصور منه أن يكون ظهيرا للكافرين فى دينهم ، فهو بعيد عنه منذ صباه ، وكان يعبد الله على ما بقى من دين إبراهيم ، فالغرض من نهى الرسول عن أن يكون ظهيرًا لهم ، إنما هو إقناطهم من استجابته إليهم مهما اشتدت قسوتهم ، ببيان أن الأمر صدر له بمخالفتهم ممن أنزل عليه الكتاب رحمة به وبهم ، فلا تطمعوا فى مخالفته ماكلفه به ربه .

ومعنى الآية : وماكنت تتوقع أن يختارك الله رسولًا ، وأن يُنزِل عليك كتابًا تبلغه قومك ومَنْ وراءهم ، ولكن رحمة من ربك بعباده وبك ، اختارك وأنزل عليك الكتاب فلا تكونن فى يوم من الأيام معيناً للكافرين - وأنت من الله بهذه المكانة والمنزلة المقتضية لنصرك عليهم - بل دم على ما أنت عليه من مخالفتهم والاستمرار فى دعوتهم إلى الحق مهما لقيت فى سبيله فلسوف يعيدك ربك إلى بلدك مظفرًا منصورا .

٨٧ - (وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

ولا يمنعنك قومك بإعراضهم وعدائهم عن تبليغ آيات الله بعد إذ أنزلها الله إليك ، فلا تتأثر لمخالفتهم وصدهم الناس عنك ، وإيذائهم لك ولأتباعك ، فإن الله سيعلى كلمتك ، ويؤيد دينك ، ويظهر ما أُرسلت به على سائر الأديان ، ودم على ما أنت عليه من الدعوة إلى إلى ربك وحده لاشريك له ، ولا تكونن من زمرة المشركين بعد أن دعوك إليهم ، فهم أهل الضلال ، وأنت رسول الهدى ، وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور .

والغرض من الآية : إقناط الكافرين من استجابة الرسول إليهم ، كما تقدم فى الآية السابقة ، فإنه لا يتصور منه أن يكون من المشركين ، وقد اختاره رب العالمين ، وكيف يتصور منه ذلك وهو الذى كان يقول : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الدين ما تركته أو أهلك دونه » .

٨٨ -(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَـٰهاً آخَرَ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية كالآيتين قبلها لمزيد تثبيت النبى ﷺ فيما هو مقيم عليه من الدعوة إلى توحيد الله ، وقطع أطماع المشركين فى استجابته إلى ما أرادوه منذ فجر الدعوة من تركه دعوة التوحيد وعودته إلى الوثنية دين الآباء والأجداد مهما بالغوا فى إيذائه فاقرأ ما كتبناه عليهما قبلها ، لتدرك مبلغ ترابطها .

ومعنى هذه الآية : والزم توحيد ربك الذى أنت مقيم على عبادته ولا تعبد مع الله إلٰهاً آخر . فإنه لا معبود بحق سواه ، كل شىء مصيره إلى الهلاك إلا ذاته - سبحانه - له القضاء النافذ فى خلقه عابدين ومعبودين وسواهم ، وإليه ترجعون للحساب والجزاء ، فكيف يُعبد سواه وقضاؤه نافذ فى خلقه بالهلاك والفناء ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شىء ما خلا الله باطل » .

واعلم أن المراد من الشىء : الموجود ، ولهذا استدل بالآية على إطلاق لفظ شىء على الله - تعالى - وكأنه قيل : كل موجود فى أى وقت هالك إلا ذاته فلا يلحقه هلاك - سبحانه وتعالى -. وقال مجاهد والثورى فى قوله تعالى : « كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » أى : إلا ما أريد به وجهه ، وحكاه البخارى فى صحيحه ، والمقصود من هذا الرأى أن الأعمال الصالحة التى يراد بها وجه الله - تعالى - تبقى ببقاء ثوابها ، حيث يجدها صاحبها نعيما مقيماً فى جنة الرحمن الرحيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة العنكبوت

سورة العنكبوت مكية – قيل : هى آخر ما نزل بمكة – فيكون ذكر شىء عن المنافقين فيها من باب الإخبار بالمغيبات عن مجتمع المدينة ، وذكر الجلال فى وجه اتصالها بما قبلها : أن الله – تعالى – أخبر فى سورة القصص التى قبلها بما كان من فرعون واستعلائه على قومه ، وجعلهم شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب فافتتحت سورة العنكبوت بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار ، وعذبوهم بعذاب دون ما عذب به فرعون بنى إسرائيل تسلية لهم بذكر ما وقع بمن قبلهم ، وحثاً لهم على الصبر وتحمل الأذى ، كما يشير إلى ذلك قوله – تعالى – : « وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ » .

كما أن من المناسبة أيضاً ما أشارت إليه الآيات فى خاتمة سورة القصص ، من هجرة النبى ﷺ فى قوله – تعالى – : « إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ » على بعض الأقوال ، وما أشارت إليه سورة العنكبوت من هجرة المؤمنين فى قوله – تعالى – : « يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوٓا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ » هذا ، وقد ختمت سورة القصص بما يفيد هلاك جميع المخلوقات ، ورجوعهم إلى الله ، فكان من جميل النسق أن تبدأ سورة العنكبوت بعدها بتوجيه المؤمنين إلى الصبر على ما يتعرضون له من الأذى ، وما يُفتنون به من بلاء المشركين ؛ ليكون لهم جزاءُ الصابرين ، وعقبى المتقين .

خلاصة هذه السورة

بدأت السورة بذكر ما يتعرض له المؤمنون من الفتن ، وما يواجههم من عنت وإرهاق وتعرض لفتن كثيرة جرت عليها سنة من قبلهم من المؤمنين حيث أُوذوا من الكافرين برسلهم ليتبين الذين صدقوا ، ويُعلَم الكاذبون ، ثم حثت الآيات على التمسك بالعقيدة ، والعمل الصالح استعداداً للقاء الله ، ونبهت إلى جميل الجزاء ، وحسن الثواب لمن أقام على عمل الصالحات التى من جملتها الإحسان إلى الوالدين ، واصطناع المعروف معهما مهما كان شأنُهما ، وحذرت من ضعف الإيمان ضعفاً تهزه الحوادث ، ويذهب به التعرض للأذى والفتن .

ثم انتقلت الآيات إلى طرف من قصص نوح وإبراهيم ولوط مع قومهم فى بيان يطول ويقصر ، حتى انتهت إلى قصة شعيب – عليه السلام – مع أهل مدين .

ثم انتقلت من هذا إلى تهوين أمر المشركين والكافرين مهما بلغت قواهم ، وظهر أمرهم ، فإن هذا كله لا يلبث أن يزول ، وينتهى بهم إلى أشد العقاب ، ولا تنفعهم معبوداتهم ؛ فهم كمثل العنكبوت اتخذت بيتا « وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

ثم دعت الآيات إلى حسن المجادلة مع أهل الكتاب بالحكمة والموعظة الحسنة حسبما يرشد إلى ذلك الكتاب الكريم الذى أنزل على النبي الأمى الذى لم تسبق له قراءة ولم يجلس إلى معلم : « وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ » : وتأكدت هذه المعانى كلها بآيات بعد ذلك ترد شبههم ، وتنعى عليهم استعجالهم العذاب الذى لن يفوتهم إن كان مقدراً عليهم ، وسيغشاهم من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم إذا حان حينه ، وجاء أوانه .

ثم اتجهت الآيات فى ختام السورة إلى دعوة المؤمنين إلى التماس عزتهم وقوتهم فى أرض الله الواسعة . فستكون لهم العاقبة الحسنى فى الدار الآخرة التى هى الحيوان لو كانوا يعقلون .

وبمقدار ما عابت الآيات أحوال الكافرين ، وأنكرت عليهم تكذيبهم للحق حين جاءهم ، بشرت المجاهدين فى الله بالهداية إلى سبل الرشاد فى الدارين : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

وسميت السورة سورة العنكبوت لذكره فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الم ⟨١⟩)

بدئت هذه السورة بسرد حروف من حروف المعجم كغيرها من كثير من السور ، والكلام فى ذلك مثل الكلام فى نظائره من هذه الفواتح الكريمة السابقة ، فارجع إلى مثله فى أوائل القرآن إن شئت .

ومما تجدر الإشارة إليه أن السور التى بدئت بسرد حروف من المعجم أتبعت هذا الابتداء بالحديث عن القرآن الكريم بصور مختلفة ، وأساليب متعددة ، إلا ثلاث سور هذه إحداها

وسورة الروم ، وسورة مريم ، وهذا يدلنا على أن فى هذا الكتاب العزيز أسرارا لا يزال العقل البشرى فى عجز عن إدراكها ، ومعرفة الحكمة فيها ومنها ، مهما تكلف فى توجيه ذلك المتكلفون .

على أن ذكر هذه الحروف فى مفتتح هذه السور وغيرها أسلوب من أساليب إثارة الانتباه والتيقظ لما يذكر بعدها من أغراض وأهداف .

(أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾)

المفردات :

(أَحَسِبَ) : أَظَنَّ ، والحسبان كالظن : ترجيح أحد النقيضين على الآخر .

(لَا يُفْتَنُونَ) : لا يختبرون ولا يمتحنون ، من قولهم : فَتن الذهب ، إذا أدخله النار ليختبر جودته .

(صَدَقُوا) : آمنوا عن عقيدة وإخلاص .

(الْكَاذِبِينَ) : المنافقين فى إيمانهم .

(أَن يَسْبِقُونَا) : أن يفوتونا ويعجزونا فلا يلاقوا جزاء أعمالهم .

التفسير

٢ - (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) :

(الحُسْبَانُ) : ترجيح أحد النقيضين على الآخر كالظن ، بخلاف الشك ، فهو : التردد بينهما ، وبخلاف العلم ، فهو : القطع بأحدهما ، ولا يتعلق الحسبان بمعانى المفردات ، ولكن بمضامين الجُمل ، ولذلك يقتضى مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر ، أو ما يسد مسدَّهما كما هنا .

والمعنى : أظَنَّ الناس تركهم غير مفتونين لمجرد إيمانهم أو نطقهم بالشهادتين دون أن يتعرضوا للفتن فى دينهم ، والامتحان بمشاق التكاليف من المهاجرة والمجاهدة ، والصبر على فعل الطاعات ، واحتمال أنواع المصائب فى الأموال والأنفس والثمرات ؛ ليتميز المخلص فى إيمانه من المنافق ، والراسخ فى الدين من المتزلزل فيه . فيلاقى كل واحد جزاءه بما يقتضيه عمله كما فى قوله — تعالى — : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ »(١)

رُوى أنها نزلت فى أُناس من المسلمين الأوائل كان المشركون من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، كسلمة بن هشام ، وعياش بن ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وعمار ابن ياسر ، وأبيه ياسر ، وأمه سمية ، وغيرهم . فكانت صدورهم تضيق لذلك ، فنزلت هذه الآيات تسلية لهم وإعلاماً بأن هذه هى سنة الله فى خلقه اختبارا لهم وتمحيصاً .

وهذه الآيات وإن نزلت فى هؤلاء فهى باقية فى أمة محمد ﷺ أبد الدهر .

وقيل : نزلت فى « مهجع » مولى عمر بن الخطاب أول من قُتِل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمى بسهم فقتله فجزع عليه أبواه ، وامرأته ، فقال النبى ﷺ : « سيد الشهداء مهجع ، وأول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأُمة » .

٣ — (وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) :

هذه الآية تتصل بالآية قبلها ؛ توضح أن ابتلاء الأُمم سنة قديمة مبنية على الحِكم البالغة ، جارية بين الأُمم كلها فلا ينبغى أن يتوقع خلافها .

والمعنى : ولقد اختبرنا الأُمم قبلكم ، وابتليناهم بأنواع من البلاء ، وضروب من الفتن والمحن أشد مما أصابكم ، فمنهم من صبروا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ومنهم من ارتدَّ عن دينه ، وهؤلاء وأولئك معلومون لله مجزيون على أعمالهم ، كما قال سبحانه : « فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا ... » أى : فوالله ليعلمن الله الصادقين الذين

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران .

صبروا لهذا الامتحان يعلمهم علماً تنجيزياً ، بعد أن علمهم قبل أن يكونوا . وليعلمن الكاذبين فى إيمانهم كذلك ، فيجزى كلاًّ جزاءه الذى يناسب حاله [1] .

٤ - (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) :

هذه الآية انتقال من إنكار حسبانالناس أن يتركوا لمجرد الإيمان دون أن يفتنوا . إلى إنكار حسبان الذين يعملون السيئات أن لا نجازيهم على سيئاتهم وهو أبطل من الحسبان الأول ، وقد عمم بعضهم فحمل السيئات على الكفر والمعاصى . وتكون الآية على هذا فى المشركين وعصاة المؤمنين ، وهم وإن لم يحسبوا أن يفوتوه - تعالى - ولم تطمع نفوسهم فى ذلك لكن نُزِّل جريهم على غير موجب العلم بالجزاء من الغفلة وإصرارهم على المعاصى منزلة من لم يتيقن الجزاء .

والمفهوم من السياق ، ومن سبب النزول : أن الحسبان الأول كان من المؤمنين ، وهذا الحسبان من الكافرين ، وبهذا أخذ ابن عباس - رضى الله عنهما - . فقدروى أنه قال : يريد - سبحانه - بالذين يعملون السيئات الوليد بن المغيرة ، وأبا جهل ، والأسود ، والعاص ابن هشام ، وشيبة وعتبة ابنى ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وعقبة بن أبى معيط . وحنظلة ابن وائل ، وأنظارهم من صناديد قريش .

وهذا لا يمنع أن الآية تعم جميع من يعمل السيئات ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

والمعنى الإجمالى للآية : أظنَّ الذين يرتكبون السيئات من الكفر والمعاصى أن يفوتونا ، ويهربوا من حسابنا فلا نقدر على مجازاتهم بمساوىء أعمالهم ، لقد ظنوا كذبا ، وحسبوا باطلا ، وحكموا فاسدًا (سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) : أى بئس الحكم الذى يحكمونه هذا الحكم .

---

(١) روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « قد كان من كان قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظم من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه . »

(مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾)

المفردات :

(يَرْجُواْ لِقَآءَ اللهِ) : يتوقع ملاقاة جزائه ، أو يخاف.

(أَجَلَ اللهِ) : الوقت الذى حدده وعينه . (جَاهَدَ) : غالب نفسه وقهرها على الطاعة .

التفسير

٥ - (مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) :

المعنى : من كان يتوقع ملاقاة جزائه ثواباً أو عقاباً ، فليبادر إلى ما يحقق رجاءه ، ويؤمن خوفه ، وليختر من الأعمال ما يؤدى إلى حسن الثواب ، وجميل العاقبة ، وليحذر ما يسوقه إلى سوء العاقبة كقوله - تعالى - : « فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »[١] .

وقوله - تعالى - : (فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ) معناه : فإن الوقت الذى حدده وعينه لذلك لآت وواقع لا محالة من غير صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، فليستعد لذلك ويقدم له . وقيل : المقصود برجائه لقاء الله : أمله بلقائه فى الجنة .

ومعنى : (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) : هو السميع لأقوال عباده فى جهرهم وسرهم ، وخلواتهم وجلواتهم ، العليم بجميع أحوالهم وشئونهم لا يغيب عنه من ذلك شىء ، ولا يخفى عليه أمر .

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

ويجازى كلا بعمله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر تصديقاً لقوله – تعالى – : « وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »(١)

٦ – (وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) :

ذكرت الآيات السابقة ابتلاء الله عباده واختبارهم ليمحص الذين آمنوا فيجزل لهم الثواب ، ويعظم الأجر ، ثم جاءت هذه الآية تحفز هممهم إلى الاستزادة من عمل الصالحات ، وكثرة الطاعات ، فقال – تعالى – ما معناه : ومن جاهد نفسه بالصبر على طاعة الله ، أو دفع وساوس الشيطان فإنما يجاهد لنفسه لعود منفعته إليها ، إن الله لغنى عن العالمين فلا حاجة له إلى طاعتهم ، وإنما أمرهم – سبحانه – بها ليثابوا عليها بموجب رحمته وحكمته .

(وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾)

المفردات :

(لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) : لنسقطنّ عنهم عقاب سيئاتهم .

(أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى أحسن جزاء أعمالهم ، بأن تجازى الحسنة الواحدة بعشر أمثالها فأكثر ،أما الجزاءُ الحسن فإنه يكون بمجازاة الحسنة بحسنة مثلها فقط .

التفسير

٧ – (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

قررت الآية السابقة أن من جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، وهذه الآية تؤكد هذا المعنى وتزيد

(١) الآية ٣١ من سورة النجم .

عليه أن فضل الله - تعالى - لا يقف عند الجزاء بالمثل ، بل فضله أعظم ، ورحمته أوسع وأشمل ، فهى تشير إلى أن الله - تعالى - يسقط عذاب الكافرين بإسلامهم ، ويتجاوز عن عقاب العصاة لفعل الطاعات ، ثم تتجلى رحمة الله وواسع فضله بقوله - تعالى :

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : لنثيبنهم أحسن ثواب أعمالهم ، فنجازى على الحسنة بعشر أمثالها وأكثر . ولا نقف على الجزاء الحسن فنثيب على الحسنة حسنة فقط .

(وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾)

المفردات :

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ) : أمرناه ، و (وصَّى) يجرى مجرى الأمر معنًى ، فكأنه قيل : وأمرنا الإنسان ، ويستعمل فيما كان فى المأمور به نفع عائد على المأمور وغيره .

(جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى) : بالَغا فى حملك على الشرك .

(مَرْجِعُكُمْ) : عودتكم بالموت .

(أُنَبِّئُكُمْ) : أخبركم .

التفسير

٨ - (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) :

جاءت هذه الآية فى معرض الحديث عن الإيمان وعمل الصالحات تُوجِّه إلى منهل من

أثرى مناهل الرحمة وهو بر الوالدين والإحسان إليهما ، وقد نزلت هذه الآية فى سعد ابن أبى وقاص – رضى الله عنه – بعد إسلامه حيث حلفت أمه « حمنة[١] » بنت أبى سفيان ألّا تنتقل من الضِّح[٢] إلى الظل ، ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد ، فلبثت ثلاثة أيام ، فجاء سعد إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه فنزلت هذه الآية ، فأمره رسول الله ﷺ أن يداريها بالإحسان .

وقيل : نزلت فى عباس بن أبى ربيعة وقد فعلت أمه مثل هذا الفعل ، وسواء أكان نزولها فى هذا أم ذاك ، فهى لجميع الأُمة ؛ لأن الإحسان إلى الوالدين مطلوب من كل مسلم .

ومعنى الآية : أمرنا الإنسان بإيتاء والديه ، وإيلائهما كل فعل ذى حسْن يرضيهما ويوفر راحتهما ، ويحقق البر بهما ما دام فى كل هذا طاعة الله ، فإن ذلك يحقق له الثواب وعظيم الأجر ، ويعود على الوالدين بالخير والراحة والإحسان ، فإن ابتغى الوالدان أو أحدهما من الولد شيئًا فيه معصية ، أو جاهداه وحملاه حملًا على أن يشرك بالله ما ليس له علم بألوهيته وإنما يعلم بطلانه ، فلا يطعهما ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولكن مع التلطف فى معاملتهما ، والصبر على ابتلائه بهما ؛ فإنه لا يصبر على بلاء الله إلّا صديق .

وقوله – تعالى – : (إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) : معناه ؛ إلىَّ وحدى نهايتكم جميعًا منْ آمن منكم ومن أشرك ، ومن برَّ والديه ومن عقهما ، فأكشف لكم عن هذا كله ، وأجازى كلاًّ بعمله ، الخير بالخير ، والشر بالشر .

(وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾)

---

(١) جاء فى الإصابة ج ٤ ص ١٦٠ رقم ٣١٨٧ فى ترجمة سعد بن أبى وقاص أن اسم أمه : حمنة بنت سفيان بن أمية بنت عم أبى سفيان بن حرب .

(٢) الضح : نور الشمس

المفردات :

(فِى الصَّالِحِينَ) : الصلاح ؛ ضد الفساد ، وهو أبلغ صفات المؤمنين .

التفسير

٩ ـ (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ) :

الدخول فى الصالحين مطلب من أجلّ المطالب التى تستشرف إليها نفوس خاصة المؤمنين بلْه الأنبياء والمرسلين ، وهذا سليمان ـ عليه السلام ـ مع ما أعطاه الله من الرسالة والملك ، وتسخير كثير من الأكوان يقول : « وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ »(١) .

والمعنى : والذين آمنوا بالله ، وصدقوا بوحدانيته ، وأخلصوا فى عبادته بعمل الصالحات ، والإكثار من الطاعات ، لندخلنهم ونحشرنهم يوم القيامة فى زمرة الراسخين فى الصلاح الذى هو منتهى درجات المؤمنين ، وغاية ما امتدح الله به الأنبياء والمرسلين ، قال ـ تعالى ـ فى شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ : « وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ »(٢) وقيل : المراد لندخلنهم مدخل الصالحين وهو الجنة ، والمؤدّى واحد فى كلا المعنيين .

(وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۚ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾)

(١) جزء الآية ١٩ من سورة النمل .

(٢) جزء الآية ١٢٢ من سورة النحل .

المفردات :

(أُوذِيَ فِي اللهِ) : عُذِّب من الكافرين بسبب إسلامه .

(فِتْنَةَ النَّاسِ) : مايلحقه من أذاهم .

(كَعَذَابِ اللهِ) : مثل عذاب الله الذى ينتظر العصاة فى الآخرة .

(نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ) : فتح وغنيمة

(إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ) : كنَّا مشايعين ومناصرين لكم فى الدين .

(الْمُنَافِقِينَ) : الذين يظهرون الإسلام ويخفون الشرك .

التفسير

١٠ ـ (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ . . .) الآية .

نزلت هذه الآية فى ناس من ضعفة المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم ، وكانوا يكتمون ذلك على المسلمين ، وقيل : إنها نزلت فى المنافقين .

والمعنى : ومن بين المسلمين ناس ضعاف الإيمان يقولون : آمنا بألسنتهم ، ولم يتغلغل الإيمان فى قلوبهم ، ولم يتعمق فى ضمائرهم ، فإذا مسهم أذى من الكفار والمشركين بسبب إيمانهم خافوا هذا الأذى ولم يصبروا عليه ، ووافقوهم على شركهم وأظهروا لهم ولاءهم معادلين هذا العذاب لعذاب الله ـ تعالى ـ فى الآخرة ، ومُنزليه منزلته فى الشدة والهول .

(وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ) : وحصل للمؤمنين فتح أو غنيمة رجعوا إلى المؤمنين ، وأكدوا لهم إيمانهم بقولهم : إنا كنا مشايعين لكم فى الدين ، مناصرين لكم فى بلائكم ، فأشركونا معكم فى الغنيمة ، ويردّ القرآن عليهم هذا الادعاء الكاذب بقوله :

(أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) : أى أن الله ـ تعالى ـ أعلم بما فى صدور العالمين من أنفسهم به ، فلا يخفى ذلك على الله ، بل لا يخفى على المتفرسين الذين ينظرون بنور الله ـ تعالى ـ أحوالهم من رقة الإيمان أو من النفاق .

١١ ـ (وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) :

تؤكد هذه الآية ختام الآية السابقة ، فتقرر على سبيل التأكيد أن الله ـ تعالى ـ يعلم

الذين آمنوا عن صدق وإخلاص ويعلم المنافقين أو الضعفاء الإيمان الذين يعبدون الله على حرف فيهز إيمانهم الأذى ، وتزلزله فتن الكفار ، وليختبرنّ إيمانهم بالأمن والخوف والسراء والضراء فيجازى كل واحد بعمله .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

المفردات :

(اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا) : اسلكوا طريقنا التى نسلكها فى الدين .

(خَطَايَاكُمْ) : أوزاركم وسيئاتكم .

(أَثْقَالَهُمْ) : خطاياهم وذنوبهم الفادحة .

(يَفْتَرُونَ) : يختلقون فى الدنيا من الأكاذيب والأباطيل .

التفسـير

١٢ ـ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

نزلت هذه الآية فى كفار قريش على ما أخرجه جماعة عن مجاهد ، قالوا لمن آمن منهم : لا نبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا ، فإن كان عليكم شىء التزمنا حمله ، وهو بيان لأسلوب آخر من أساليب الكفار فى استمالة المسلمين ، وإغرائهم بالكفر ، وحملهم بهذا الأسلوب على الإشراك بعد حملهم عليه بالإيذاء والوعيد والتهديد .

والمعنى : وقال الكفار من مشركى مكة للمسلمين الذين اتبعوا دعوة الرسول ﷺ : اتبعوا سبيلنا ، واسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى ديننا ، ولْنحمل عنكم ذنوبكم وآثامكم إن صح أن هناك بعثًا وجزاءً ، أو إن كان فى اتباعكم لنا خطيئة يؤاخذ عليها عند البعث – كما تقولون – وقد ردَّ الله عليهم بقوله – تعالى – : (وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَىْءٍ) : أى : وما أولئك المشركون بحاملين من شىء من خطاياهم التى التزموا أن يحملوها لهم إن وافقوهم ، وإن هؤلاء المشركين لكاذبون فى دعواهم القدرة على حمل خطايا المسلمين ؛ لأنهم يقولون مالا يقدرون عليه ، ولا يملكون أداءه .

١٣ – (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ . وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

هذه الآية استمرار فى تسفيه المشركين ، ودرء أباطيلهم ببيان مايستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لأنفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم أصلا .

والمعنى : وليحملنَّ هؤلاء المشركون فى الآخرة آثامهم الفادحة ، وأوزارهم الثقيلة (وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ) أى : وأوزارا وآثاماً أُخَر مع أثقال أنفسهم وهى أثقال من تسببوا فى إضلالهم وحملهم على الكفر والمعاصى من غير أن ينقص ذلك من أثقال من أضلوهم شيئا أصلا .

والتعبير بالأثقال عن الخطايا والذنوب للإيذان بخطورتها كأنها عبءٌ ثقيل تنوءُ به الكواهل ، وهذا كما فى قوله – تعالى – : «لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ»[1] – وكما أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن أن النبى ﷺ قال : « أيُّما داع دعا إلى هدى فاتُّبع عليه وعُمِل به فله مثل أُجور الذين اتبعوه ، ولاينقص ذلك من أجورهم شيئا ، وأيما داع دعا إلى ضلالة فاتُّبع عليها وعُمِل بها ، فعليه مثل أوزار الذين اتبعوه ، ولا ينقُصُ ذلك من أوزارهم شيئا » .

(١) من الآية ٢٥ من سورة النحل .

(وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : المقصود من سؤالهم : تبكيتهم وتوبيخهم ، لا الاستعلام عن افترائهم ، فالله به عليم.

والمعنى : وليسألن الله - تعالى- هؤلاء المشركين يوم القيامة سؤال تقريع وتبكيت عما كانوا يفترونه ، ويختلقونه فى الدنيا من الأكاذيب والأباطيل التى من جملتها أكاذيبهم هذه .

وقد اتضح مما تقدم أن هذه السورة الكريمة قد صنفت الناس إلى مؤمنين خُلَّص صدقوا فى إيمانهم ، وأخلصوا فى أعمالهم ، وإلى مؤمنين ضعاف الإيمان يعبدون الله على حرف فيهتز إيمانهم أمام الفتن ، ويتزلزل لما يلحقهم من إيذاء ، وإلى مشركين ممعنين فى الكفر والضلال والإضلال .

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾)

المفردات :

(فَلَبِثَ فِيهِمْ) : مكث فى دعوتهم إلى التوحيد .

(الطُّوفَانُ) : الماء الكثير الغالب الذى يغشى كل شىء ، وقد يطلق على كل مايحيط ويطوف بالشىء على كثرة وشدة من السيل والمطر والظلام .

(وَجَعَلْنَاهَا) : أى السفينة ، أو الحادثة والقصة .

(آيَةً) : عظة وعبرة .

التفسير

١٤ - (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) :

هذا شروع فى عرض شىء من قصص الأنبياء تسلية للرسول - عليه الصلاة والسلام - وأصحابه ببيان ماعاناه الأنبياء - عليهم السلام - قبله مع أممهم ، إثر بيان افتتان بعض المؤمنين بأذية الكفار والمشركين ، وتأكيدا للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا لمجرد أن يقولوا : آمنا . وتثبيتا للرسول ﷺ على ماكان عليه من الصبر على أذى الكفار والمشركين .

ومعنى الآية : ولقد أرسلنا رسولنا نوحا -عليه السلام- إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله ،وعبادته والتزام طاعته ، فلبث فيهم ومكث يدعوهم إلى التوحيد ألف سنة إلا خمسين عاما ، فلم يجد منهم إلا إصرارا على الكفر ، وإمعانا فى العناد ، ومعارضة لدعوته حتى استحقوا العقاب ، وعرضوا أنفسهم لانتقام الله منهم ، فأخذهم الطوفان ، وغمرهم الماء من كل ناحية وجانب عقب تمام المدة التى مكث يدعوهم فيها (وَهُمْ ظَالِمُونَ) أى : مستمرون على الظلم ، لم يتأثروا بما سمعوا من نوح - عليه السلام - والتعبير بقوله : (إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً) بدلاً من أن يقال : إلا خمسين سنة للبعد عن التكرار .

١٥ - (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ) :

أى : فأنجينا نوحا من الغرق ، وأنجينا معه جماعة المؤمنين الذين صحبوه فى السفينة التى صنعها بوحى من الله وتحت حفظه ورعايته ، وكان الذين معه من أولاده وأتباعه ثمانين ، وقيل : ثمان وسبعون ، نصفهم ذكور ، ونصفهم إناث ، منهم أولاد نوح سام ، وحام ، ويافث ،ونساؤهم ، وقيل فى عددهم غير ذلك ، والله أعلم بحقيقة عددهم ، ويكفى فى قلتهم أنهم ركاب سفينة واحدة مع ماحمله فيها من كل حيوان زوجين اثنين .

أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم – وصححه – عن ابن عباس قال : بعث الله – تعالى – نوحا – عليه السلام – وهو ابن أربعين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله – تعالى – وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا . وذكروا أن مدة الطوفان ستة أشهر آخرها يوم عاشوراء ، وجاء فى بعض الآثار أنه – عليه السلام – أطول الأنبياء عمرا ، أخرج ابن أبى الدنيا عن أنس بن مالك قال : جاء ملك الموت إلى نوح – عليهما السلام – فقال : يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتا له بابان ، فقَال وسطَ الباب هنيهة ثم خرج من الباب الآخر (١) .

ومعنى قوله – تعالى – : ﴿ وَجَعَلْنَاهَآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ : جعلنا السفينة عظة وعبرة حيث بقيت على الجودى زمانا طويلا ، قيل : إلى بعثة الرسول ﷺ وقيل : جعلنا الحادثة والقصة المفهومة من السياق عظة وعبرة للعالمين ، لاشتهارها فيما بينهم .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

(اتَّقُوهُ) : اتقوا أن تشركوا به شيئا .

---

(١) قال : بمعنى نام نصف النهار ، ومصدره : القيل والقائلة والقيلولة .

(أَوْثَانًا) : أصناما مصنوعة ، جمع وثن ، قال أبو عبيدة : الصنم : مايتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس ، والوثن : مايتخذ من جص أو حجارة .

(إِفْكًا) : كذبا . (فَابْتَغُوا) : فاطلبوا .

التفسير

١٦ - (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

أى : واذكر إبراهيم حين قال لقومه : اعبدوا الله وحده واتقوه فلا تشركوا به أحدًا ذلكم الذى آمركم به وأدعوكم إليه من العبادة والتوحيد ، ومايتبع ذلك من عمل الطاعات خير لكم من كل خير ، ومما أنتم عليه من الوثنية التى لاخير فيها (إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) : الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر ، أو كنتم من أهل العلم بوجه من الوجوه تبين لكم أن الخير كله فى عبادة الله وحده لاشريك له .

١٧ - (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) :

هذه الآية استمرار فى تسفيههم وبيان بطلان دينهم ، وكونه شرا فى نفسه بعد بيان أنه شر بالنسبة للدين الحق .

والمعنى : إنكم بعبادتكم هذه ماتعبدون من دون الله إلا أصناما هى فى نفسها تماثيل مصنوعة ليس لها وصف غير ذلك ، وماتخلقونَ إلَّا كذبا حين تسمونها آلهة ، وتدَّعون أنها شفعاؤكم عند الله ، أو معنى : (تَخْلُقُونَ إِفْكًا) : أى تعملون هذه الأصنام ، وتنحتونها بأيديكم لتكون العاقبة من خلقها الإفك والكذب . إن هذه الأصنام التى تتخذونها وتعبدونها من دون الله لاتقدر على نفعكم ، ولا تملك لكم رزقا أىَّ رزقٍ: قليلا أو كثيرا ، فابتغوا عند الله واطلبوا الرزق الكامل كله فإن الله وحده هو الرزاق ذو القوة المتين ، واعبدوه وحده واشكروا له على نعمائه متوسلين إلى مطالبكم بعبادته وشكره تستكثروا من خيره وفضله .

وقوله - تعالى - : (إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) . معناه : إلى الله - وحده لا إلى غيره - تعودون وترجعون بالموت والبعث ، فافعلوا ماتؤمرون به واستعدوا للقائه .

(وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾)

المفـردات :

(الْمُبِينُ) : الواضح البيِّن فى نفسه ، أو المبين لغيره الموضح له .

التفسـير

١٨ - (وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

هذه الآية والآيات التى بعدها إلى قوله - تعالى - : (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ) يحتمل أن تكون من كلام سيدنا إبراهيم لقومه منتظمة فى سياق القصة ، وأن تكون وقعت معترضة فى شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش ، بين أول قصة إبراهيم وآخرها قصد بها التنفيس عنه ﷺ ومسلاة له بأن أباه إبراهيم - عليه السلام - كان مبتلًى من قومه بمثل ما ابتلى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان ، وسواءٌ أكان هذا أم ذاك فإن المعنى : وإن تكذبونى فى دعوتى فلن تضرونى بتكذيبكم ؛ فما على الرسول إلا البلاغ والتبعة فى التكذيب على المكذبين لاعلى رسلهم ، وقد كذبت الأُمم قبلكم أنبياءهم مثل : شيث وإدريس وإبراهيم ونوح وغيرهم فما ضروهم ، وإنما ضروا أنفسهم حيث حل بهم العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم ، وأما الرسل فقد تم أمرهم ، واستكملوا واجبهم فى التبليغ الواضح الذى لايبقى معه شك .

(أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(أَوَ لَمْ يَرَوْا) : المراد من الرؤية هنا : العلم ، أى : أو لم يعلموا علماً يشبه المشاهدة بالبصر .

(يُبْدِئُ الْخَلْقَ) : يوجده ابتداء من مادة ومن غير مادة على غير مثال .

(يُعِيدُهُ) : يحييه بعد موته وتحلل أجزائه ، بل وتلاشيها .

التفسير

١٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) :

كلام مستأنف مسوق للإنكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دلائله . والمعنى : أغفلوا وجهلوا ، ولم يعلموا - علما تؤكده الرؤية وتؤيده المشاهدة - كيفية خلق الله - تعالى - الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة على غير مثال سابق . وكل ما فى هذا الكون يوحى بذلك ، ويفرض العلم به . ولا ينكره إلا مكابر معاند . ثم الله - سبحانه وتعالى - يعيد خلقه بالبعث بعد فنائه ؛ لأن القادر على خلقه ابتداء لا يعجزه إعادة خلقه كما تقرر هذا فى قوله : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ »[١] .

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الروم

(إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) : أى ؛ إن أمر إعادة الخلق بعد الفناء يسير على الله سهل لا يفتقر إلى شىء أصلا ، وإنما يقول الله – تعالى – له : (كُن فَيَكُونُ) .

ويجوز أن يكون المشار إليه ما ذكر من البدء والإعادة.

٢٠ –(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :

أنكرت الآيات السابقة على الخلق غفلتهم وتعطيلهم العقل بعدم تدبرهم فى قدرة الله – تعالى – الواضحة فى بدء الخلق تدبرا يصل بهم إلى اليقين بقدرته على البعث وإعادة الخلق ، وهذه الآية تأمرهم بالسير فى الأرض لينظروا فيها كيفية بدء الخلق الدالة على قدرته – تعالى – على النشأة الآخرة .

والأمر فى قوله – تعالى – : (قُلْ سِيرُوا) يحتمل أن يكون لسيدنا محمد إذا كانت هذه الآيات معترضة فى قصة إبراهيم – عليه السلام – لتسلية الرسول ، وأن يكون لسيدنا إبراهيم – عليه السلام – إذا كانت هذه الآية والتى قبلها وبعدها متصلة بقصته .

والمعنى : قل – يا أيها الرسول – لقومك سيروا فى الأرض ، وتقلبوا فى جوانبها ومناكبها ، فانظروا كيف بدأ الله الخلق على أطوار مختلفة ، وطبائع متغيرة .

(ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) : أى ؛ ثم الله الذى أنشأ النشأة الأولى قادر أن يعيد خلقهم فى الآخرة مثل النشأة الأولى التى شاهدوها ، وعاينوا آثارها وأطوارها .

والتعبير عن الإعادة بالنشأة الآخرة يشعر بأن النشأتين شأن واحد من شئون الله – تعالى – من حيث إن كلا منهما إخراج من العدم إلى الوجود ، لافرق بينهما إلا بالأولية والآخرية .

وإظهار اسم الله فى قوله – تعالى – : (ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ) مع إضماره فى قوله – سبحانه – : (كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) لإبراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الإعادة ، كما أن ترتيب النظر على السير فى الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق فى أقطارها

ومما ينبغي الالتفات إليه في هذه القضية مايتعاقب من النبات والثمار فيكون في كل سنة على مثل ماكان عليه في السنة السابقة ، فهذا مما يستدل به على صحة البعث كما أشار إليه العلامة أبو السعود ، ونزيد عليه : أن الأمر كذلك في مختلف أنواع الحيوانات والطيور والأسماك .

وقوله – تعالى – : (إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) :تذييل لتحقيق ماقبله ، لأن من علم قدرة الله – تعالى – على جميع الأشياء لايتصور أن يعجز عن إعادة الخلائق بعد فنائهم .

(يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(تُقْلَبُونَ) : تردُّون وترجعون .

(بِمُعْجِزِين) : بفائتين ولا هاربين من عذاب الله .

(وَلِيٌّ) : معين وناصر يمنعكم من العذاب .

التفسير

٢١ – (يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) .

جملة مستأنفة لبيان مابعد النشأة الآخرة .

والمعنى : يعذب بعد النشأة الأخرى من يشاء بعدله ، وهم المنكرون المصرون على الكفر . (وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ) بفضله ، وهم المؤمنون المصدقون ، وتقديم التعذيب على الرحمة لأن المقام مقام ترهيب وتخويف .

وقوله – تعالى – : (وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) : معناه ؛ إلى الله وحده تردون وترجعون ، فتلاقون جزاءكم من التعذيب والرحمة .

٢٢ – (وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ) :

هذه الآية من تمام الوعيد فى الآية السابقة .

والمعنى : وما أنتم – أيها الخلق – على كثرتكم ، واختلاف أحوالكم بفائتين من حساب ربكم ، ولا هاربين من جزائه بالتوارى فى الأرض الفسيحة ، أو الهبوط فى مهاويها . أو التخفى فى مناكبها ، ولا بالتحصن بالسماء التى هى أمنع من الأرض إذا استطعتم الصعود إليها .

وقيل : وما أنتم بمعجزين من فى الأرض ولامن فى السماء .

(وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ) : أى ؛ ليس لكم من الله من أحد يحرسكم مما يصيبكم من بلاء أرضى أو سماوى ، ولانصير ينصركم ويدفع عنكم عذابه وبلاءه إذا شاء .

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِى وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾)

المفردات :

(يَئِسُوا) : انقطع رجاؤهم وقنطوا . (رَحْمَتِى) : جنتى

التفسير

٢٣ـ (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَآئِهِ أُوْلَـٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى والذين كفروا بآيات الله التكوينية والتنزيلية وكفروا بلقاء الله الذى تنطق به آياته ، أولئك يائسون من رحمته ، قانطون من دخول جنته يوم القيامة ، وأولئك لهم عذاب موجع مؤلم فى الآخرة .

وفى تكرار الإشارة والإسناد وتنكير العذاب ، ووصفه بالإيلام ، وفى وصفهم باليأس من رحمته – تعالى – مع شدة حاجتهم إليها يومئذ – فى ذلك كله – ما يؤذن بسوء حالهم وفظاعته يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾)

التفسير

٢٤ـ (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

يتشوف السامع إلى السؤال عن حال قوم إبراهيم – عليه السلام– بعد أن دعاهم إلى توحيد الله وعبادته وأمرهم بالسير فى الأرض والتدبر فى أحوالها وتقلباتها ليعلموا كيفية قدرة الله – تعالى –على بدء خلقه فيعلموا من هذه المشاهدات والأحوال كيفية قدرته على إعادة الخلق بالبعث بعد الفناء ، فتكون هذه الآية هى الإجابة على هذا السؤال ، ويتسق بذلك السياق فى أحكم نظام وأدقه .

والمعنى : فما كان جواب قوم إبراهيم على دعوته إياهم إلّا أن قالوا : اقتلوه بأداة قتل أو حرقوه بنار لتستريحوا منه ، وتستأصلوا شره ، ثم انتهوا من هذا الترديد إلى إحراقه ، فجمعوا أحطابا كثيرة ، ثم أضرَمُوا فيها النار حتى ارتفع لهيبها ، وحَمِيَتْ جذوتها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم - عليه السلام - فأوثقوه وقذفوا به فيها ، فأمرها الله أن تكون بردا وسلاماً على إبراهيم ففقدت خاصيتها ، ثم خرج منها سالماً مُعافىً بفضل الله بعدما مكث فيها

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : إن فى ذلك الإنجاء من النار بعد أن بذلوا فيها جهودهم وماتبع ذلك من بردها على إبراهيم ، وخيبة أملهم فيها - إن فى ذلك - لمعجزات عجيبة ، وآيات واضحة الدلالة لقوم مستعدين لتقبل الهداية ، واستجابة الدعوة ، فأما غيرهم فهم غافلون عن اجتلائها ، محرومون من الفوز بمغانمها ، وقد جاء فى مواضع أُخرى من القرآن أمر الإحراق فقط دون القتل كما فى هذه الآية ، ولعل الآيات الأُخرى اكتفت بما انتهوا إليه ، وقد جاءت قصته - عليه السلام - فى أكثر من سورة من القرآن مع تفاصيل أُخرى

(وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾)

المفردات :

(أَوْثَاناً) : أصناماً تعبدونها من دون الله .

(مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ) : سبباً فى تواصلكم واجتماعكم على عبادتها

(مَأْوَاكُمْ) : منزلكم الذى تأوون إليه خالدين فيه أبداً .

التفسير

٢٥ - (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ) :

لم يخرج إبراهيم من النار خائر العزم ، واهن القوة وإنما خرج فى مثل حاله الأولى من القوة والتصميم ماضياً فى تسفيه قومه ، وتسخيف عقولهم حيث قال لهم : إنما اتخذتم من دون الله آلهة زائفة ، وأصناماً من صنعكم لانفع لها ، ولا غناء فيها جمعتكم على عبادتها ، وأوجدت بينكم المودة والتآلف لنصرتها ولن يكون لكم ذلك إلا فى الدنيا ، ثم يوم القيامة تنقلب الأمور ، ويتبدل التواد تباغضا ، والتلاطف تلاعنا حيث يكفر بكم أتباعكم ، ويلعن كل فريق منكم الفريق الآخر .

كما فى قوله - تعالى - : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ[1] »

ومأواكم ومسكنكم الذى تأوون إليه ولا ترجعون منه النار ، وما لكم من دون الله من ناصرين يخلصونكم من عذابها كما خلص الله إبراهيم من ناركم ، وعصمه ونصره من سوء صنيعكم

* (فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾)

(١) الآية ١٦٦ من سورة البقرة .

المفردات :

(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ) : أى آمن بإبراهيم وأسلم له قياده .

(وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى) : أى وقال ذلك إبراهيم - عليه السلام - والهجرة : مفارقة بلد إلى بلد آخر ، فإن كانت قربة إلى الله فهى الهجرة الشرعية ، وهى اسم من : هاجر مُهَاجرةً كما فى القاموس .

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ) : أى منَّ الله - سبحانه - على إبراهيم بالذرية ، فوهب له إسحٰق ابنًا ويعقوب ابن ابن .

(وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) : فلم يبعث الله نبيًّا بعده إلّا من صلبه ، ولم تنزل الكتب السماوية إلّا عليهم .

التفسير

٢٦ - (فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : إن لوطًا صدق إبراهيم - عليه السلام - فى جميع مقالاته ، أو صدق بنبوته حين ادّعاها . لا أنه صدقه فيما دعا إليه من التوحيد ؛ فإن لوطًا - عليه السلام - كان مؤمنًا بالله .

ولوط : ابن أخى إبراهيم - عليه السلام - وهو المشهور عند جمهور المفسرين ، وذكر بعضهم أنه ابن أخته ، نقل ذلك الآلوسى فى تفسيره .

وهو أول من آمن بإبراهيم ، وأجاب دعوته إلى الحق ، وكان إبراهيم يسكن كُوثى -بالضم - قرية بالعراق(١) وهى من سواد الكوفة ، هاجر منها إلى حرَّان ثم إلى الشام ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن تارح ، وامرأته سارة ،ثم أرسل لوط فى حياة إبراهيم- عليه السلام - إلى أهل سدوم وإقليمها ، وكان من أمرهم ما تقدم فى الأعراف وهود والنمل .

(١) انظر القاموس .

وإبراهيم – عليه السلام – أول من هاجر من أرض الكفر كما قال الكلبي ، وقال مقاتل : هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة ، وقال حين ترك قومه مهاجرًا : (إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) أي : إلى الجهة التي أمرني ربي بالهجرة إليها ، أو من أجل ربي ، حيث لا أُمنَعُ عبادته وإظهار دينه ، وقيل المعنى : إنى مهاجر منْ خالفنى من قومى متقربًا إلى ربى (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) : أي : الغالب على أمره الذى يمنعنى من أعدائى ، ولا يأْمر – لعظيم حكمته – إلَّا بما فيه الخير والمصلحة .

٢٧ – (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) :

أي : لما فارق قومه أقر الله عينه بولد صالح نبي وهو إسحٰق ، وبولَد ولَدٍ وهو يعقوب ولد إسحق ، وذلك فى حياة جده ، وكانت هذه الهبة العظيمة التى لا يُقَادرُ قدرها حين أيس من الذرية من امرأته سارة وهى عجوز عقيم .

ولم يذكر هنا إسماعيل – عليه السلام – لأنه ولد له قبل ذلك من أم شابة ولم تكن عجوزًا عقيمًا ، وهى هاجر ، أما إسحاق فولد بعده من سارة العجوز العقيم ، ومن ورائه يعقوب ابن إسحاق .

وقال الزمخشرى : إن إسماعيل ذكر ضمنًا وتلويحًا بقوله : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) ولم يصرح به لشهرة أمره ، وعلو قدره ، هذا مع أن المخاطب به نبينا ﷺ وهو من أولاده وأعلم به : اهـ .

وقد خص الله – سبحانه – إبراهيم – عليه السلام – بقوله : (وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) تكريماً له ، حيث إنه لم يبعث بعده نبي قط إلَّا من صلبه وقد أوتوا الكتب المنزلة ، وهى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن ، وَآتاه – سبحانه – أجره فى الدنيا بانتماء أهل الملل إليه ، والثناء عليه ، وإعطاء الولد والذرية الطيبة ، واستمرار النبوة فيهم ، والصلاة عليه إلى آخر الدهر ، وسعة الرزق (وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) : أي جمع الله له

بين سعادة الدنيا الموصولة ، وسعادة الآخرة ، فوفقه إلى القيام بجميع ما أمر به من عمل دائب لمحاربة الشرك ، وإعلاء التوحيد ، والطاعة له وحده ، كما قال - تعالى - : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ »(١) .

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾)

المفردات :

(لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ) : أى ؛ الفعلة الشنيعة ، وهى إتيان الرجال .

(وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ) : أى الطريق ، وكلتاهما تذكر وتؤنث .

(وَتَأْتُونَ فى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ) : أى تقترفون فى ناديكم الأمر القبيح الذى ينكره الدين والخلق .

التفسير

٢٨ - (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ)

أى ؛ واذكر - أيها الرسول - لوطًا إذ قال لقومه أهل سدوم موبخًا ومحذرًا لهم من الأعمال القبيحة التى أقبلوا عليها وتمسكوا بها ، قال لهم : إنكم لتأتون الفعلة البالغة الغاية

---

(١) سورة النجم ، الآية : ٣٧

فى الفحش ، وهى إتيانُ الرجال شهوة من دون النساء . وقرأ الجمهور : أَئنكم على الاستفهام الإنكارى .

وقوله - تعالى - : (مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ) حكاية لقول لوط - عليه السلام - مسوق لتقرير كمال قبحها ، ببيان إجماع جميع العالمين قبلهم على التحاشى عنها لكونها مما تشمئز منه النفوس ، وتنفر من شناعته الطباع، وأنها جريمة نكراء ، ابتدعوها ولم يُسبقوا إليها من أحد من بنى الإنسان .

٢٩ - (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ . .) الآية .

أى : إنكم لتنكحون الرجال انتهاكا لحرمات الله ، وتقطعون الطريق بسبب حمل الغرباء والمارة على تلك الفعلة الشنعاء ، وإتيانهم كرهًا ، أو : وتقطعون طريق النسل بالإعراض عن الحرث وإتيان ما ليس بحرث ، أو : وتقفون فى طريق الناس تقتلونهم ، وتأخذون أموالهم وقد بلغ بهم التمادى فى اقتراف كل قبيح أنهم كانوا يأتون فى مجتمعهم كل أنواع المنكر ، من اللواط وغيره .

أخرج أحمد والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه ، والطبرانى والبيهقى فى الشعب وغيرهم عن أم هانئ بنت أبى طالب قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله - تعالى - : (وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ) فقال : « كانوا يجلسون فى الطريق فيقذفون أبناء السبيل . ويسخرون منهم » وعن مجاهد ومنصور والقاسم بن محمد وقتادة وابن زيد : هو إتيان الرجال فى مجالسهم يرى بعضهم بعضًا .

ولما وقفهم لوط - عليه السلام - على قبائحهم أجابوه بما حكاه الله عنهم بقوله : (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) : أى فيما تعدُنَا به من نزول العذاب ، تكذيبًا له وسخرية به فيما نهاهم عنه وأوعدهم بنزوله .

وهذا الجواب صدر عنهم فى المرة الأولى من مراتب تبليغ لوط - عليه السلام - وما فى سورة الأعراف المذكور فى قوله - تعالى - : « وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ »[1] ، وما فى سورة النمل المذكور فى قوله - تعالى - : « فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓا أَخْرِجُوٓا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ . . . »[2] ، فقد صدر بعد هذه المرة ، وذلك لأن

(١) من الآية : ٨٢ (٢) من الآية : ٥٦

قولهم : (ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) من باب التكذيب والسخرية ، وهو أوفق بأوائل المواعظ والتوبيخات ، أما قولهم : (أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ) ، وقولهم : (أَخْرِجُوٓا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ) فمن باب العقاب والانتقام ، وهو أنسب بأن يكون بعد تكرر الوعظ والتوبيخ الموجب لضجرهم ومَزيد تألُّمهم مع قدرتهم على التشفى منهم بما يؤذيهم ، ويُبعدهم عن ديارِهم . اهـ : بتصرف من الآلوسى .

وقيل : إن ما هنا جواب قومه – عليه السلام – له إذ نصحهم ، وما هناك جواب بعضهم لبعض إذ تشاوروا فى أمره .

٣٠ –(قَالَ رَبِّ انصُرْنِى عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ) :

لجأ نبى الله لوط إلى ربه متضرعًا ، ملتمسًا أن ينزل العذاب الموعود على هؤلاء المفسدين الذين فعلوا الفاحشة وتمسكوا بها وأصروا عليها ، واستعجلوا العذاب الذى أوعدهم به سخرية منه حينما دعاهم إلى ما فيه صلاح حالهم ، واستقامة أمرِهم .

ووصفهم بالمفسدين مبالغة فى استحقاقهم استنزال العذاب بهم لأنهم فسَدوا وأفسَدوا .

(وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾)

المفردات :

(بِالْبُشْرَى) : بالبشارة بالولد ونصرة لوط .

(هَذِهِ الْقَرْيَةِ) : هى سدوم كما سبق .

(كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) : الباقين فى العذاب .

(سِيٓءَ بِهِمْ) : اعترته المساءة خوفًا عليهم من قومه .

(رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ) : أى عذابًا من السماء يزعجهم ، من : ارتجز ، أى : ارتجس ، واضطرب .

(آيَةً بَيِّنَةً) : هى آثار القرية الخربة التى تدل على قصتها العجيبة .

(لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) : يستعملون عقولهم فى الاعتبار والاستبصار .

التفسير

٣١ـ (وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ) :

لما استنصر لوط ـ عليه السلام ـ ربه على قومه بعث الله لنصرته ملائكة فمروا بإبراهيم ـ عليه السلام ـ فى هيئة أضياف كما تقدم فى سورة هود ، والحجر ، ولما أوجس منهم خيفة شرعوا يؤنسونه ، ويبشرونه بأنهم أرسلوا له بالبشارة بالولد والنافلة[1] من امرأته سارة ، وأخبروه بأنهم أرسلوا كذلك لإهلاك قوم لوط كما حكاه قوله ـ سبحانه ـ : (إِنَّا مُهْلِكُوٓ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ) وهم أهل قرية سدوم لإصرارهم على الفاحشة ، وتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى .

٣٢ـ (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) :

---

(١) أى : ولد الولد ، والمراد بهما إسحاق وابنه يعقوب - عليهما السلام .

أى : قال لهم – على سبيل التفجع والتحزن – : أتهلكونها وفيها من هو برئ من الظلم ؟! فكان ردهم عليه بأنهم غير غافلين عن مكان لوط فيها وأتباعه من المؤمنين .

وقيل : يجوز أن يكون إبراهيم – عليه السلام – اعتقد عدم تناول إهلاك أهل القرية للوط – عليه السلام – لكنه أراد التنصيص على حاله ليطمئن قلبه لكمال شفقته عليه ، وحبه له .

وقوله – سبحانه – حكاية عنهم : (لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ) يشعر بأنهم معنيون بلوط وأهله أتم عناية ؛ لتأكيد وعدهم بالتنجية بالقسم ، أما امرأته فلأنها كانت تمالئ قومها على كفرهم وبغيهم ، فكانت من الباقين فى العذاب وقد مر الكلام عن ذلك فى سورة النمل .

٣٣ – (وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ . . .) الآية .

بعد مفارقة الرسل لإبراهيم – عليه السلام – ساروا إلى لوط – عليه السلام – فى صورة شبان حسان ، فلما رآهم كذلك اعترته المساءة والحيرة ، وعجزت طاقته عن تدبير أمرهم . وعن الحيلة لإنجائهم ، وكان لايعلم أمرهم فى الساعة الراهنة التى رآهم فيها .

ولما شاهدوا فيه مخايل الضجر من جهتهم ، وعاينوا مايشير إلى أنه عاجز عن مدافعة قومه ، طمأنوه .

(وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) . أى لا تخف من قومك علينا وعليك ولا تحزن بما نفعله بقومك ، ولن يصيبك وأهلك أذى إلّا امرأتك فهى من الهالكين الباقين فى العذاب .

٣٤ – (إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) :

بيان لما أشار إليه قوله – سبحانه – : (لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ) من نزول العذاب على أهل قرية سدوم ، أكبر قرى قوم لوط ، وفيها بدأت الفاحشة كما قيل ، ولذا خصت بالذكر وقد استأصل العذاب أهلها وقطع دابرهم .

قال ابن كثير : إن جبريل – عليه السلام – اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابًا إلى يوم المعاد . ا هـ

(بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) : أى بسبب فسقهم المعهود المستمر حل بهم عذاب الإبادة والاستئصال .

٣٥ - (وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

أى : ولقد أهلك الله هذه القرية وترك منها آية واضحة تدل على ما فعله الله بهم لتكون عبرة وعظة لقوم يحكمون عقولهم ، ويستعملونها فى الاستبصار والانتفاع بما شاهدوه من كمال قدرة الله ، وقوة سلطانه .

وفى الآيات من الدلالة على ذم اللياطة وقبحها مالا يخفى ؛ فهى كبيرة بالإجماع ، وأشد حرمة من الزنى .

(وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

المفردات :

(وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) : أى لا تحدثوا فيها الفساد بكفركم ، فإنه أصل كل فساد ، والعثُوُّ ، والعِثِىُّ : أشد الفساد .

(الرَّجْفَةُ) : الزلزلة الشديدة ، أو صيحة جبريل - عليه السلام - .

(فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) : أى باركين على الركب ميتين .

التفسير

٣٦ - (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ...) :

يخبر – سبحانه – عن عبده ونبيه شعيب أنه خاطب أهل مدين ، فأمرهم بعبادة الله وحده لاشريك له ، وأن يخافوا يوم القيامة ، حيث قال لهم : (يَـٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ) : أى خافوا ما ينزل بكم فيه من فنون الأهوال والشدائد ، واعملوا اليوم الأعمال التى تؤمنكم غائلته وقسوته ، قال يونس النحوى وأبو عبيدة : الرجاء هنا بمعنى الخوف والخشية ، أى : اخشوا الآخرة التى فيها الجزاء على الأعمال .

ثم نهاهم – سبحانه – عن الْعُثُوِّ فى الأرض قاصدين الفساد ظلما وبغياً على أهلها ، وكانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، مع كفرهم بالله ورسوله ، وذلك أشد الفساد وأبشعه ، فقال لهم : (وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) ولما لم يعد لتهديده أثر حيث استمروا مندفعين فى اقتراف آثامهم ، نزل بهم من العذاب ما حكاه الله بقوله :

٣٧ – (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) :

أى : أصابتهم زلزلة شديدة دمرت عليهم ديارهم وأرضهم ، وقيل : صاح بهم جبريل – عليه السلام – صيحة أحدثت الرجفة بسبب تحريكها للهواء ، فأصبحوا بسبب ذلك باركين على ركبهم ميتين (١) .

(وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ
فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَـٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا
بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ۖ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ
ٱلصَّيْحَةُ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾)

(١) وقد مضت قصتهم مبسوطة فى سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء .

المفردات :

(مِن مَّسَاكِنِهِمْ) : بالأحقاف .

(فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ) : أى الطريق الحق .

(وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) : أى عقلاء ذوى بصائر ولكنها لم تنفعهم .

(وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) : أى فائتين ، بل أدركهم أمر الله ، أو : وما كانوا سابقين فى الكفر ، بل سبقتهم أمم كثيرة .

(حَاصِباً) : سحاباً أو ريحاً يحصبهم بالحجارة .

(الصَّيْحَةُ) : تَمَوُّجٌ شديد فى الهواء يحدث هزة عنيفة مهلكة .

(خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ) : أى غيبناه فى جوفها ، يقال : خسف المكان خسْفاً ، من باب ضرب ، وخسوفًا : ذهب فى الأرض ، وخَسَفَ الله به الأرضَ ، أى : أدخله فيها وخرقها به .

التفسير

٣٨ ـ (وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ..)الآية :

أى : واذكر عادا إذ أرسلنا إليهم هودا فكذبوه فأهلكناهم ، وثمود إذ أرسلنا إليهم صالحاً فكذبوه فأهلكناهم ، وقد ظهر لكم يا أهل مكة أتم ظهور ما نَزل بهم فيما حدث بمساكنهم عند مروركم عليها فى أسفاركم ، وكانت العرب وبخاصة أهل مكة تعرف مساكنهم جيدًا ، وتمر عليها كثيرًا فى أسفارهم فيبصرونها ، ويشاهدون فى غدوهم ورواحهم آثار ماحل بها من دمار وهلاك ، وكانت عاد تسكن الأحقاف وهى قريبة من حضرموت باليمن ، وثمود تسكن الحجر قريباً من وادى القرى .

وقد زين الشيطان لعاد وثمود الكفر والعصيان بوسوسته وإغوائه ، فصرفهم بذلك عن الطريق السوى الموصل إلى الحق . (وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) بواسطة الرسل ، فقد أوضحوا لهم السبيل ، فلا عذر لهم فى ضلالهم عنه ، ولاحجة لهم فى اختيار الغى والضلال ،

أو : كانوا عقلاء ذوى بصائر يمكنهم التمييز بين الحق والباطل بالنظر والاستدلال لوضوح الأدلة وظهور البراهين ولكنهم أعرضوا ولم يعتبروا ، قال الفراء : كانوا عقلاء ذوى بصائر يعرفون الحق ، ولكنهم أهملوه كفرًا وعنادًا وجحودًا ، وقال مجاهد : وكانوا مستبصرين فى الضلال .

٣٩ - (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وهَامَانَ ..) الآية :

أى : واذكر - أيها الرسول - لهؤلاء المغترين بأموالهم وسلطانهم مصرع قارون ، وفرعون ، وهامان .

وقارون[1] كان من قوم موسى - عليه السلام - وقُدِّم ذكره على فرعون وهامان ؛ لأن المقصود تسلية النبى ﷺ عما لقى من قومه لحسدهم له ، فقارون مع أنه كان من قوم موسى قد لقى منه موسى مالقى ، روى أنه كان يؤذيه فى كل وقت ويحسده وهو يداريه لقرابته .

أو قدِّم لأنه أشرف من فرعون وهامان لإيمانه فى الظاهر وعلمه بالتوراة ، وكونه ذا قرابة من موسى - عليه السلام - أو : قدم لأن هلاكه قبل هلاكهما ، فتقديمه يكون على وفق الواقع ، وفرعون ملك مصر ، وهامان وزيره ، وكانا رأس الكفر بالله ورسوله تزعما قومهما فى الكفر بموسى ، وأنزلا ببنى إسرائيل أشد العذاب وأقساه .

(وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) :

أى : لما جاءهم موسى بالحجج الواضحة على نبوته ، ودعاهم إلى الإذعان واتباع الحق استكبروا فى الأرض عن الإيمان بالله والطاعة له ، وهذا يشعر بقلة عقولهم وضعف إدراكهم لأن مَنْ فى الأرض محياهم ومماتهم لاينبغى لهم أن يستكبروا على القوى القاهر الذى يملك السمٰوات والأرض وما فيهما كما أنهم لا يفوتون أمر الله - تعالى - بل يدركهم وينزل بهم الدمار والهلاك ، فلا يفلت منهم أحد .

---

(١) تقدم الحديث عنه فى سورة القصص .

وقال أبو حيان : المعنى : وما كانوا سابقين الأمم إلى الكفر بل قد سبقهم إلى الكفر قرون كثيرة ، فأهلكناهم ، أى : تلك عادة الأمم مع رسلهم – عليهم السلام – .

٤٠ـ (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ . وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) :

أى : فكل واحد من المذكورين الذين كذبوا رسلهم ، عاقبناه بما اقترف من ظلم وفساد ، وكان أخذ كل منهم وفق ما أراده الله ، فمنهم من أهلكناه بالريح العاصفة التى تحمل الحصباء – وهى صغار الحصى – وهم قوم لوط .

وقال ابن عطية : يشبه أن يدخل عاد فى ذلك ؛ لأن ما أهلكوا به من الريح كانت شديدة وهى لا تخلو من الحصب بأمور مؤذية .

ومنهم من أخذته الصيحة المدوية المهلكة ، كمدين وثمود ومنهم من خسفنا به الأرض فغارت به ، وغيبته فى جوفها كقارون .

ومنهم من أغرقناه فى اليم كفرعون ، وهامان وجنوده أجمعين (وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ) : بأن يعاقبهم من غير جرم ؛ فإن ذلك محال من جهته – تعالى – وليس من سنته – عز وجل – (وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : أى إنما فعل بهم ذلك جزاءً وفاقًا بما كسبت أيديهم حيث استمروا على ما يوجب عقابهم من الكفر والمعاصى باختيارهم .

(مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾)

المفردات :

(الْعَنكَبُوتِ) : دويبة تنسج نسجاً رقيقاً واهياً ، والمراد : النوع الذى يبنى بيته فى الهواء ، وتطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، ، والغالب فى استعمالها التأنيث ، وجمعها : عناكب وعناكيب .

(أَوْهَنَ الْبُيُوتِ) : أشدها ضعفاً وعجزًا عن دفع أى أذى .

التفسير

٤١ – (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً ..)الآية :

هذا مثل ضربه الله – سبحانه – للمشركين الذين اتخذوا آلهة من دون الله يرجون نصرها ورزقها ويتمسكون فى الشدائد بها مع ما هى عليه من عجز وعدم غناء ، ضربه – جل وعلا – ليبين به أن شأنهم فى الضعف والوهن ، والاعتماد على غير معتمد كشأن العنكبوت اتخذت مما نسجته بيتا تحتمى به من البرد والحر وغيرهما ، وبيتها من أوهى البيوت وأبعدها عن الصلاحية للاحتماء .

فهم وهى مشتركان فى اتخاذ ماهو فى غاية الضعف فى بابه ، بل إن آلهتهم أوهن من بيت العنكبوت إذ له حقيقة وانتفاع فى الجملة ، أماهى فلا .

وقيل : المعنى ؛ مثل المشرك الذى عبد الوثن بالقياس إلى الموحِّد الذى عبد الله – تعالى – كمثل عنكبوت اتخذت بيتاً بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً من آجر وحجر أو نحته من صخر ، وكما أن أضعف البيوت إذا استوعبناها بيتاً بيتاً بيت الْعَنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقرأناها ديناً ديناً عبادة الأوثان ، وهو وجه حسن ذكره الزمخشرى فى الآية ونقله الآلوسى . وقوله – تعالى – : (وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ) وقع تذييلا لتقرير الغرض من التشبيه وهو أن أمر دينهم بلغ الغاية التى لاغاية بعدها فى الضعف والوهن ، حيث لايرى شىءٌ يدانى بيت العنكبوت فى ذلك . ثم أكد ذلك بتجهيلهم بقوله – سبحانه – : (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) أى : لو كانوا يعلمون شيئًا من العلم لما اتخذوا هذه الآلهةَ أولياءَ من دون الله ، ولعلموا أن هذا مثلهم ، وأن أمر دينهم لاوزن له ، ولابقاء ،

وقيل : لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت لما عبدوها ، وقد جهَّلهم – سبحانه – فى الاتخاذ ، ثم زادهم – جل وعلا – تجهيلا بأنهم لا يعلمون هذا الجهل الذى لايخفى على من له أدنى مسكة من عقل .

٤٢ – (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى : قل لهم – أيها الرسول – : إن الله لاتخفى عليه خافية ، فهو يعلم أى شىء يدعونه إلها من دونه فقد بلغ من الحقارة حدًا لاغاية له ، وإنهم لفى جهل بيّن حيث تركوا عبادة الله – تعالى – وعبدوا غيره مع أنه شىء لا يعبأ به .

ويجوز أن يكون المعنى أن الله يعلم أنكم لستم[1] تدعون من دون الله شيئاً ، لأن ما تدعونه لمزيد حقارته لا يصلح أن يسمى شيئاً .

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) : أى الغالب الذى لا شريك له (الْحَكِيمُ) فى ترك المعاجلة بالعقوبة ، وهو تجهيل لهم وتقريع حيث عبدوا – من فرط الغباوة – جمادا لاعلم له ولاقدرة وهو بالإضافة إلى العزيز القاهر القادر على كل شىء الحكيم البالغ فى العلم ، وإتقان العمل مالا غاية وراءه – فهو بالنسبة إلى العزيز الحكيم – كالمعدوم البحت ، وإن من هذا شأنه – جل وعلا – من الغلبة والحكمة قادر على مجازاتهم .

٤٣ – (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا الْعَالِمُونَ) :

هذا المثل والأمثال الكثيرة التى ذكرها القرآن فى سوره يضربها – سبحانه – للناس تقريباً لِفَهم ما ضُربت له ، وإدراك معناه ، وإظهارًا للمعانى المستورة وتوضيحاً ، وكان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون : إن ربَّ محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، ويضحكون من ذلك ، فلهذا قال – سبحانه – : (وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا الْعَالِمُونَ) : أى لا يعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها إلا الراسخون فى العلم المتدبرون للأشياء على ماينبغى ، روى محيي السنة فى مسنده عن جابر أن النبى ﷺ تلا هذه الآية (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ) ... الآية ، فقال : « العالم : من عقل عن الله – تعالى – فعمل بطاعته واجتنب سخطه »

---

(١) على أن (ما) نافية ؛ أى : ما يدعون من دونه شيئا ؛ لأن الآلهة لحقارتها ليست شيئا موجودا .

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ
إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

المفردات :

(بِالْحَقِّ) : أى بالعدل والقسط ، أو بحكمته وقدرته المنزهة عن العبث .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً) : أى علامة ودلالة .

(اتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ) : أمر للرسول بتلاوة القرآن وبرواية قراءته وإبلاغه للناس .

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ) : أدِّها فى أوقاتها وبأركانها وشروطها .

(تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ) : أى تنهى عن القبيح السيء الذى ينكره الشرع والعقل .

التفسير

٤٤ - (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) :

أى : خلقها محقًّا بخلقها مراعياً للحكم والمنافع المنزهة عن العبث حيث تتعلق بهما شئون عباده ، ويستدل بما فيهما من آيات بينات ، ودلائل واضحات على كمال قدرته - تعالى - وبديع صنعته ، ويشير إلى ذلك قوله - سبحانه - : (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ) أى : لآية دالة على أنه - تعالى - المنفرد بالخلق والتدبير والألوهية ، وتخصيص المؤمنين بالذكر مع أن الهداية والإرشاد لجميع المخلوقين ، لأنهم المنتفعون بذلك .

ويصح أن يكون المراد من المؤمنين : الذين يريدون الإيمان .

٤٥ - (ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ) :

أمرٌ للرسول ﷺ بقراءة القرآن والمداومة عليها تقرباً إلى الله - تعالى - بتلاوته وتذكُّرًا لما فى تضاعيفه من المعانى ، وتذكيرًا للناس وحملا لهم على قراءته والعمل بما فيه من الأحكام ومحاسن الآداب ، ومكارم الأخلاق . (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ) الخطاب للنبى ﷺ وأمته ، وإقامة الصلاة : أداؤها فى وقتها بأركانها وجميع شروطها ، ويراد بها الصلاة المكتوبة المؤداة بالجماعة ، وهى الصلوات الخمس التى تكفر ما بينها من الذنوب كما قال - عليه الصلاة والسلام - : (أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا) خرَّجه الترمذى من حديث أبى هريرة ، وقال فيه : حديث حسن صحيح .

ولما كان أمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالصلاة منتظماً لأمر الأُمة بها علَّل بقوله : (إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ) :كأنه قيل : وصلِّ بهم لأن الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، أى : أنها سبب للانتهاء عنهما ، وذلك لتضمنها صنوف العبادة . والوقوف بين يدى الله فى غاية الخضوع والتعظيم . كأنها تقول لمن يأْتى بها : لا تفعل الفحشاء والمنكر ولا تعص ربًّا هو أهل لما أتيت به من مناجاة له ، وإقبال عليه . وكيف يليق بك أن تفعل ذلك وتعصيه - عز وجل - بما تكون به كالمتناقض فى أفعاله . ا هـ : بتصرف من الآلوسى .

ولا شك أن المصلى الصادق فى مناجاته ينتهى بصلاته عن المعاصى صغيرها وكبيرها ، وينعم برعاية الله ويفوز برضاه حيث خشع لها قلبه ، ورغبت فيها نفسه ، وظهرت على جوارحه هيبتها ، حتى إذا قاربه الفتور أظلته صلاة أُخرى يترجع فيها إلى أفضل حاله .

وإذا كنا نرى كثيرًا من المرتكبين للفحشاء والمنكر يصلون ولا ينتهون عن ذلك فهذا ليس ناشئًا عن الصلاة ، بل عن غفلة المصلى عن حقوق الصلاة ، فمن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء لا خشوع فيها ولا تفكُّر ولا فضائل ، فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان . فإن كان فى طريقه معاص تبعده من الله - تعالى - تركته يتمادى فى بعده ، بمعنى أنها لا تقربه

إلى الله ، حيث لم تنهه عنها ، وعلى هذا يخرج الحديث المروى عن ابن مسعود وابن عباس وهو : « فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله – تعالى – فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ، ولم تنهه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلَّا بعدًا » .

وقيل لابن مسعود : إن فلانًا كثير الصلاة ، فقال : (إنها لا تنفع إلَّا من أطاعها ، وطاعة الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وكأنَّه أراد بالصلاة التى تطاع وتنهى عن ذلك الصلاةَ الخاشعة المقبولة ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن عن عمران بن حصين قال : سئل النبى ﷺ عن قول الله – تعالى – : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ) قال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » بمعنى : أنها لم تؤت ثمرتها ، كما فى الصلاة التى تُؤدى مع الغفلة التامة ، والإخلال بما يليق بها ، وهذه الصلاة تُلفُّ كما يُلفُّ الثوب الخَلَق ويُرمى بها وجه صاحبها فتقول له : ضَيعك الله كما ضيعتنى ، كما جاء فى السنة .

وبالجملة ، فإن الصلاة تنهى من واظب عليها ، وأقبل بقلبه فيها على ربه ، فإنها تنتهى بصاحبها إلى صلاح الحال وحسن المآل ، ويشير إلى هذا ما أخرج أحمد وابن حبان والبيهقى عن أبى هريرة – رضى الله تعالى عنه – قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن فلانًا يصلى بالليل ، فإذا أصبح سرق ، قال : « سينهاه ما تقول » .

(وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) : أى والصلاة أكبر من سائر الطاعات فى أثرها وثمرتها ؛ لأن ما فيها من ذكر الله هو العمدة فى الأمر بالحسنات والنهى عن السيئات ، ويشير إلى ذلك قوله – تعالى – : « فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ » بمعنى : امشوا إلى الخطبة والصلاة .

وقيل : ولذكر الْعبْدِ الله – تعالى – أكبر من سائر أعماله ، فهو تعميم بعد تخصيص .

أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن أبى الدرداء قال : ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها

إلى مليككم، وأسماها فى درجاتكم، وخير من أن تغزوا عدوكم فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم، وخير من إعطاء الدنانير والدراهم؟ قالوا: وما هو يا أبا الدرداء؟ قال: ذكره -تعالى- وروى عن جماعة من السلف مايقتضيه، أخرجه أحمد فى الزهد، وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال: ماعمل ابن آدم عملًا أنجى له من عذاب الله -تعالى- من ذكره -تعالى- قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: ولا أن يضرب بسيفه حتى يتقطع؛ لأن الله -تعالى- يقول: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)، وقال أبو حيان: (يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) من الخير والشر، فيجازيكم بحسبه، ففيه وعد ووعيد، وحث على مراقبة الله -جل وعلا-.